سبيل الرشاد

في

هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي

رحمه الله تعالى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الدار الأثرية

سبيل الرشاد في هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي

رحمه الله تعالى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

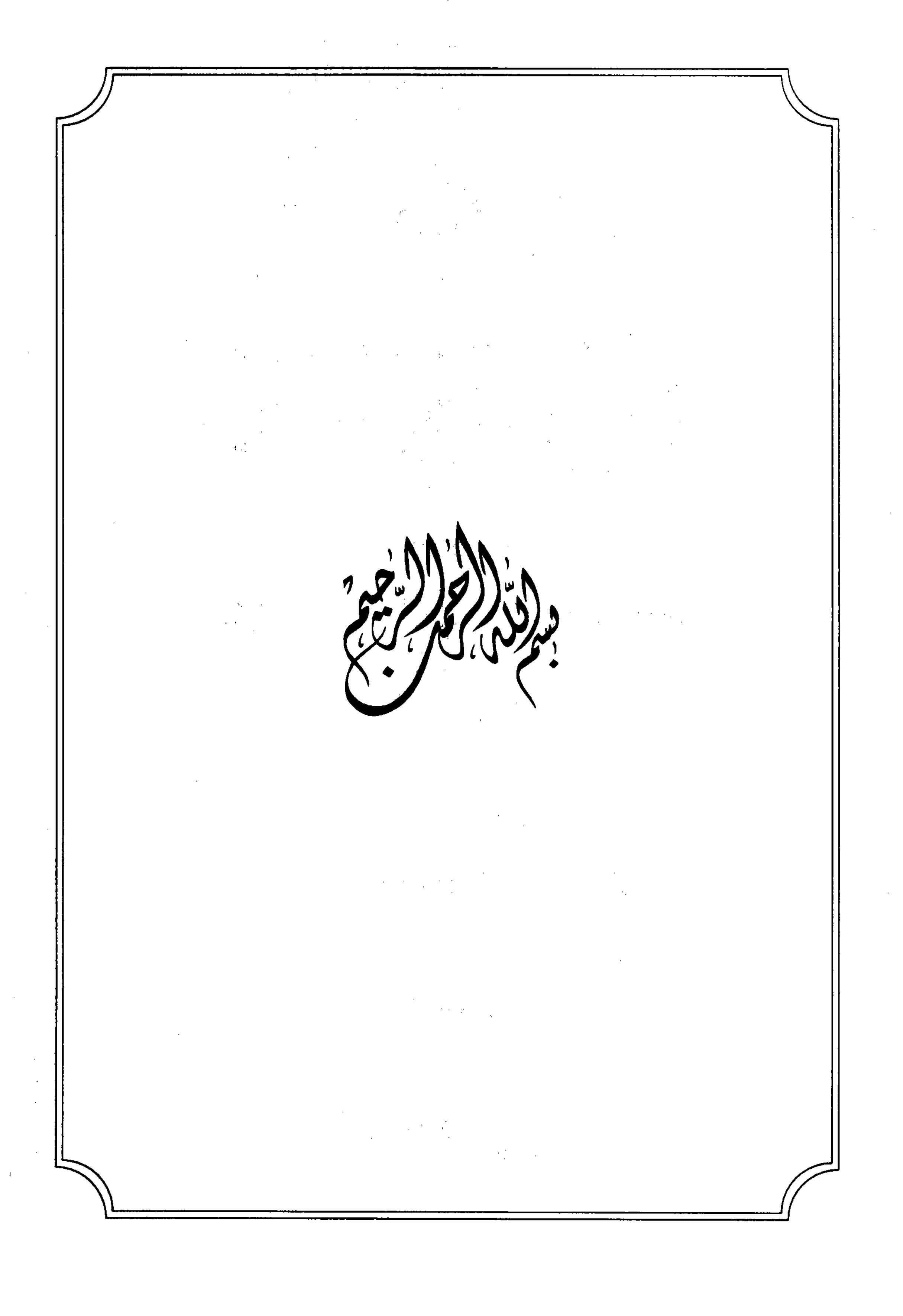
(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

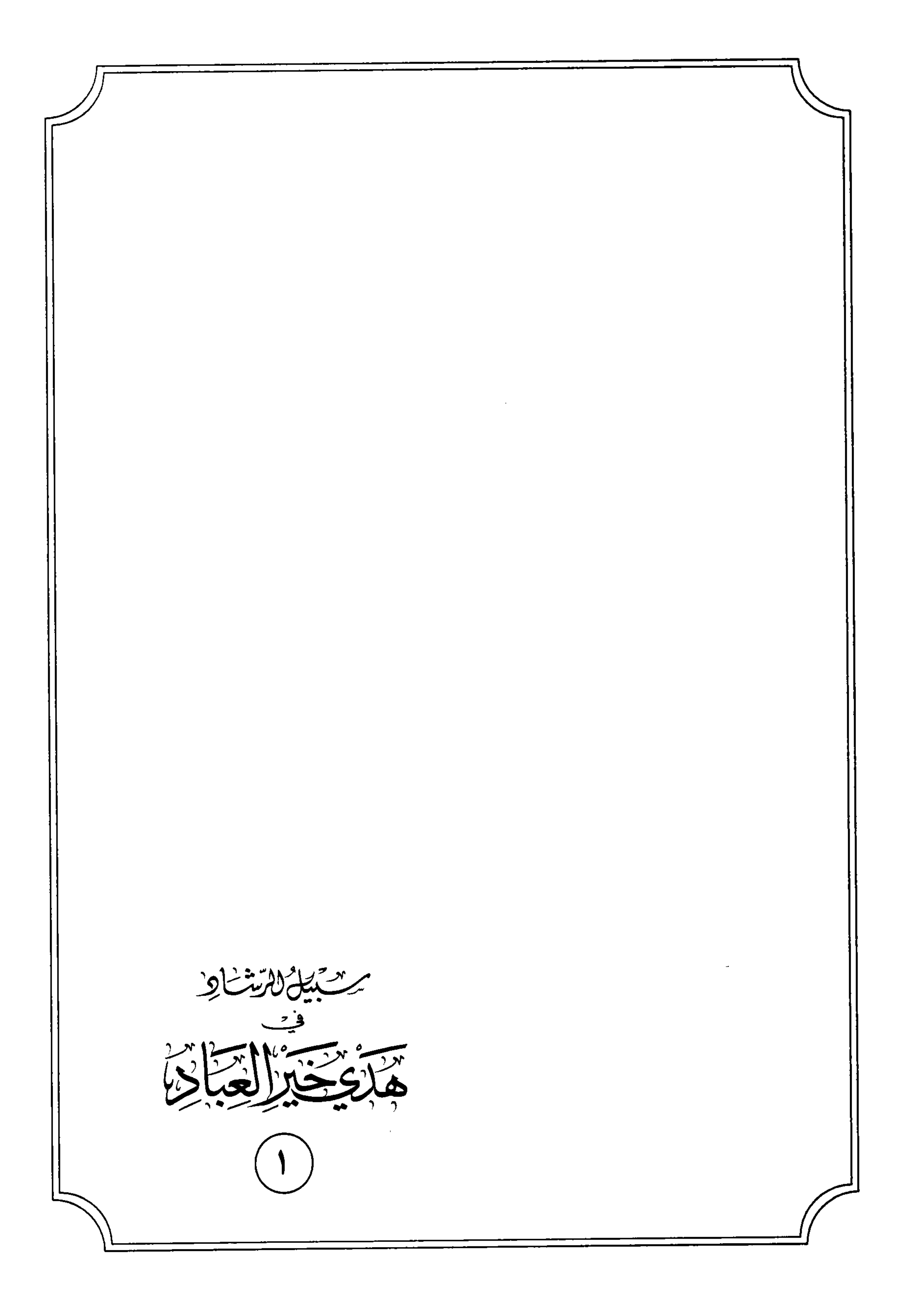
قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الأول

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم



سبيل الرشاد
في
هدي خير العباد
١

الطبعة الأولى

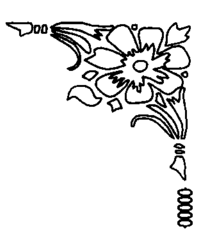
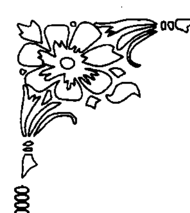
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



عمان - الأردن - تلفاكس: ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢

خلوي: ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ / ٠٠٩٦٢ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠

الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com

قالوا عن الكتاب

* هذه نعمة عظيمة كنت أتمناها على الله تعالى منذ عشرات السنين.

المؤلف الهلالي في «سبيل الرشاد» (٣٠٦/٦)

* الغرض من تأليف هذا الكتاب إقامة البراهين على وجوب اتباع الكتاب والسنّة وترك التفرُّق والتحزُّب بشكل مذاهب أو طرائق أو أحزاب.

المؤلف الهلالي في «سبيل الرشاد» (١٤٤/٣)

* أنا الآن أؤلّف كتاباً، سمّيته «سبيل الرشاد»؛ إن يسّر الله إتمامه وطبعه، فسيغني كل مؤمن حنيف عن غيره من كتب الوعظ، فأدعو الله أن يعينني على إتمامه ونشره.

الهلالي في «العيون الزلالية» (ق٣٣١)

* أهم أمور الدين: توحيد الله تعالى في ربوبيته، فلا رب غيره، وفي عبادته فلا يعبد غيره، وفي أسمائه وصفاته فلا يشاركه فيها غيره، وفي الاتباع فلا يتبع إلا وحيه، وهو القرآن والحديث الثابت، وعلى هذه الأربعة نويت أن أؤلف هذا الكتاب، وقد بدأته وتمامه على الله، فاتباع توحيد الله بأنواعه الأربعة فرض على كل مسلم، والإعراض عن المشركين بمخالفتهم والبراءة منهم واجب حتم.

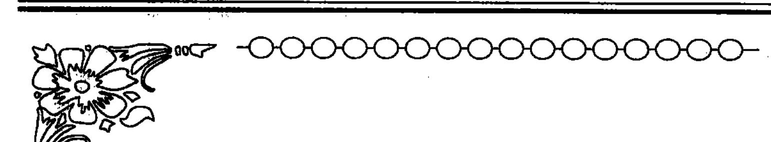
المؤلف الهلالي في «سبيل الرشاد» (٣٦١/١)

* كان الهلالي سلفي العقيدة، لو قرأت كتابه في التوحيد ـ يعني: «سبيل الرشاد» ـ لعلمتَ منه أنه لا يعرف في التوحيد الذي في القرآن مثله.

العلّامة حماد الأنصاري في «المجموع» (٦١٧/٢)

* إذا قرأت سبيلاً للرشاد فعن ... ذلك السبيل من الأغواء تبتعدُ

تلميذه محمد بنعبود من قصيدة نشرها في جريدة «الإصلاح» المغربية، العدد السابع




قالوا عن المؤلف

* كان العلّامة الألباني يعد الهلالي ضمن خمسة لم يرَ مثلهم البتة في العلم والتحقيق، وهم: ابن باز، تقي الدين الهلالي، وعبد الرحمٰن المباركفوري، بديع الدين السندي، الشنقيطي - رحمهم الله تعالى أجمعين -.

العلّامة الإمام محدث الديار الشامية الألباني

* في الحقيقة لم ألتقِ مع رجل يحوي علماً جمّاً في فنون عديدة مثل الدكتور الهلالي، وقد مضت عليّ الآن خمس وأربعون سنة لم أرَ مثله.

المحدث العلّامة حماد الأنصاري

* إن محمد تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا منه.

العلّامة محمد رشيد رضا للملك عبد العزيز آل سعود

* الهلالي من أفاضلنا الذين أجمع على الاعتراف بفضلهم الشرق والغرب، والعرب والعجم، والمسلمون وغير المسلمين، فهو في الحجاز نار على عَلَم شهرةً وفضلاً، وفي الهند تبوّأ منصة التدريس في أرقى جامعاتها، وفي العراق معروف بدؤابه على خدمة هذه الأمة، وحرصه على خيرها، وهو الآن في ألمانيا موضع الحرمة من أركان جامعة (بُن) التي يتولى التدريس فيها. فالأستاذ الهلالي رجل عالمي، واسع النظر، واقف على أحوال الشرق والغرب.

العلّامة محب الدين الخطيب

* للغرب الإفريقي ابن عالم بار، نسله بنو هلال، وأنجبه المغرب الأقصى، هو العلّامة الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي المدرّس بالهند، لهذا الأستاذ شهرة علمية إصلاحية عظيمة بالشرق، ومقالات رنّانة في صحفه.

العلّامة عبد الحميد بن باديس

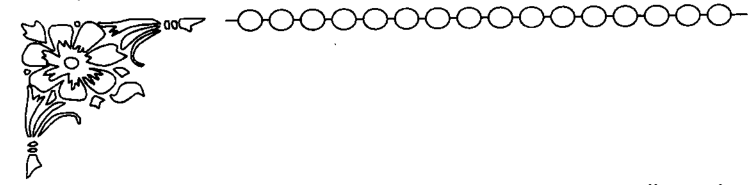
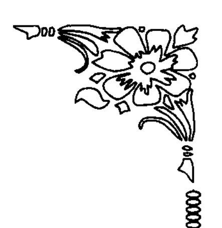
بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فهذا كتاب يكاد يكون دُرّةً فريدة في المكتبة الإسلامية، إذ فيه عرض للمعتقد مرتّباً على أنواعه حسب وروده في القرآن الكريم، وأقامه الشارح على القرآن أصالة، وذكر تحت الآيات الأحاديث التي تناسبها، والآثار التي تلائمها، ونصر فيه عقيدة السلف بلغة سهلة، وحجة قوية، ولم يتعرض إلا للشبه السيّارة الموجودة في هذا العصر، وأكثر من النقل عن كتب أئمة السلف قديماً وحديثاً[1].

(١) انظرها تحت (طريقة تأليف الكتاب ومصادره فيه).

نسبة كتاب «سبيل الرشاد»
ومدحه وثناء العلماء عليه

كتاب «سبيل الرشاد» ثابت النسبة للهلالي، فقد طبع جلّه في حياته[1]، وأملاه من حفظه، مع مراجعات ونقولات من كتب عديدة، يأتي ذكرها.

نعم، لم يذكره الهلالي ضمن قائمة مؤلفاته فيما كتب به للمجذوب[2]، ذلك أن تأليفه لهذا الكتاب كان متأخّراً، فهو من أواخر ما كتب، وأحبّ كتبه إليه، وأكثرها فائدة، وأوسعها علماً، وأكبرها حجماً، ووجدته يذكره في فتاواه المسماة «العيون الزلالية» (ق٣٣١)، وسيأتي كلامه بحروفه قريباً.

وممن ذكره له العلّامة الإمام فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله قال: «ومن مؤلفاته الأخيرة «سبيل الرشاد»»[3].

وتلميذ المصنف الأستاذ عمر محسن في مقدمته للكتاب[4]، وعنه الترجمة

---

(١) وجدت في مقالة نشرت في صحيفة «الميثاق» المغربية، العدد (١٣٨) السنة (٢٤) بتاريخ فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ تحت عنوان (وفاة الدكتور تقي الدين الهلالي): «ومن آخر ما ألف كتاب «سبيل الرشاد» في عدة مجلدات، أخرج منها اثنين».

(٢) ونشره المجذوب في كتابه القيم «علماء ومفكرون عرفتهم»، وسرد (٣٧) مؤلفاً، وفاته الشيء الكثير، ذلك أن الذي كتبه الهلالي قديم، واعتمد كثير من المترجمين ولا سيّما في مسرد المؤلفات على ما عند المجذوب فحسب، ففاتهم هذا الكتاب، مثل: نزار أباظة ومحمد رياض المالح في كتابهما «إتمام الأعلام» (٣٤٦)، والمستشار عبد الله العقيل في كتابه «من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة» (٤٩٤ ـ ٤٩٥)، وأصل ترجمته مقالة نشرها في مجلة «المجتمع» الكويتية، العدد (١٢٩٨)، محرم ١٤١٩هـ ـ ٥/ ٥/١٩٩٨م (ص٤٦ ـ ٤٨).

(٣) «تحفة الإخوان بتراجم بعض الأعيان»، أرسل لي الأخ الباحث النابه محمد زياد التكلة ما يخص الهلالي من هذا الكتاب، وهو يقوم بتحقيقه، ولم يطبع بعد.

(٤) أبقيناها في مقدمة طبعتنا هذه أيضاً.

التي نشرت للهلالي في مجلة «الفرقان»[١]، العدد العاشر، سنة ١٩٨٧م (ص٤ ـ ٨) بعنوان (العالم الجليل الدكتور الهلالي في ذمة الله)، وذُكر له أيضاً في مقالة مجلة «المنهل» العدد (٤٩٩)، المجلد (٥٤)، الربيعان ١٤١٣هـ، سبتمبر، أكتوبر ١٩٩٢م، ضمن مقالة بعنوان (أعلام عابرون) (ص٢١٤) وفي التعريف به في أول مقالته المنشورة في مجلة «البحوث الإسلامية» العدد الثامن، ذو القعدة، ذو الحجة، عام ١٤٠٣هـ، محرم ـ صفر عام ١٤٠٤هـ، أغطس، سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر عام ١٩٨٣م (ص٢٠٦).

وذكره له مخلص السبتي في كتابه «السلفية الوهابية بالمغرب، تقي الدين الهلالي رائداً» (ص٤٧)، وصديقنا البحّاثة أحمد العلاونة في «ذيل الأعلام» (ص١٧٠).

وفات ذكر هذا الكتاب ضمن مؤلفات الهلالي عدد[٢] ممن ترجم له! مع أنه أحب كتب المؤلف إليه، بل هو أُمنيَّة حقّقها الله له قبل وفاته. قال ـ رحمه الله تعالى ـ عن تأليف الكتاب: «وهذه نعمة عظيمة كنت أتمنّاها على الله تعالى منذ عشرات السنين»[٣].

وذكر ـ قبل ـ أمنيّته في الإتمام بقوله: «وهو ـ سبحانه ـ قادر على أن يبلغنا أمنيتنا في تمام «سبيل الرشاد» وانتفاعنا به قبل الموت، وهو الغني الكريم»[٤].

وقال في فتاواه «العيون الزلالية» (ق٣٣١): «أنا الآن أؤَلِّف كتاباً سمَّيتُه «سبيل الرشاد»؛ إنْ يسر الله إتمامه وطبعه، فسيغني كل مؤمن حنيف عن غيره من كتب الوعظ، فأدعو الله أن يعينني على إتمامه ونشره».

وأعجب العلماء والباحثون والمطلعون على هذا الكتاب أيما إعجاب، وتطلبه العلماء قبل الطلبة النبهاء، وأذكر أن الشيخ بكر أبو زيد ـ حفظه الله ـ كان يتطلبه ويسأل عنه، وقال العلّامة الشيخ حماد الأنصاري ـ رحمه الله تعالى ـ فيما

---

(١) وظفرت بالترجمة نفسها منشورة في مجلة «الاستجابة» السودانية، السنة الثالثة، العدد التاسع، رمضان ١٤٠٨هـ (ص٤٢ ـ ٤٣).
(٢) ممن فاته ذكر هذا الكتاب الأستاذ إدريس خليفة في كتابه «الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال» (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٧)، وعبد الله بن العباس الجراري في كتابه «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» (ص١٢٣ ـ ١٢٤).
(٣) «سبيل الرشاد» (٦/ ٣٠٦).
(٤) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٥٦).

نقل عنه ابنه وصديقنا عبد الأول: «سمعته يقول: إن كتاب «سبيل الرشاد» للشيخ تقي الدين الهلالي أهداه لي لما التقيتُ به في دولة المغرب، ثم أرسل إليّ نسخة أخرى، وأنا بالمدينة النبوية، وهذه النسخة أهديتها للشيخ بكر أبو زيد»[١].

ومدح العلّامة الأنصاري هذا الكتاب بقوله عن مؤلفه: «كان سلفيَّ العقيدة، لو قرأت كتابه في التوحيد[٢]، لعلمتَ أنه لا يعرف [في] التوحيد الذي في القرآن مثله»[٣].

وقال تلميذ الهلالي الشيخ محمد بن عبود ـ حفظه الله ورعاه ـ، مادحاً المؤلف وذاكراً هذا الكتاب:

(دكتورنا) الرجل الصنديد مفخرة ... عزيزة كلما يستذكر العددُ
لسانه الصارم المقوال عدته ... يراعه المنتجُ السيال والمددُ
إذا قرأتَ سبيلاً للرشاد فعن ... ذاك «السبيل» من الأغواء تبتعدُ
هذا الرثاء ولكن لا مبالغة ... ولا غلو بما في القول ينتقدُ
هي الحقيقة لا أعدو الحقيقة في ... قولي، فلا قَلَقٌ فيها ولا فَنَدُ
رحماك ربي لروح أنت قابضها ... أنت الرحيم لها الغفار يا أحدُ[٤]

والحاجة إلى مثل هذا الكتاب ماسّة، فهو يكاد يكون في طريقة عرضه، وسهولة أسلوبه، وغزارة مادته، وربطه بالمخالفات العقدية والأمور الكلية التي شاعت وذاعت في كثير من الصقاع والبقاع دُرَّة فريدة، وجوهرة عزيزة أو عديمة!.

* تأريخ تأليف الكتاب ومدة تأليفه:

تأليف هذا الكتاب كان ـ كما قلنا ـ أمنيّة عزيزة عند المصنف، وحقّق الله ﷻ ـ بمنّه وفضله ـ له هذه الأمنيّة على وجه التمام والكمال في أحسن صورة، وأبهج حلّة.

(١) «المجموع في ترجمة العلّامة المحدث الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله وسيرته وأقواله ورحلاته» (٢/ ٦٣٣) رقم (٢٢٧).
(٢) يريد «سبيل الرشاد» (هذا الكتاب).
(٣) «المجموع في ترجمة العلّامة المحدث الشيخ حماد الأنصاري وسيرته وأقواله ورحلاته» (٢/ ٦١٧) رقم(١٥٢).
(٤) جريدة «الإصلاح» جريدة نصف شهرية مغربية، العدد السابع.

أما عن تأريخ فكرته فهو قديم قديم، فأصغ إلى الهلالي وهو يقول: «لم أزل منذ عهد الشباب أتمنّى أن يوفّقني الله تعالى إلى جمع آيات التوحيد بأنواعه وتفسيرها بأحاديث النبيّ الكريم، وبأقوال الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين»[١].

وأما ترجمة هذه الفكرة إلى واقع، وإبرازها على هيئة كتاب، فكانت - بتوفيق الله وكرمه - قبل موت صاحبها بقليل، ففي أول الطبعة الأولى منه (ص٥ - ١١) في كلمة الملحق التعليمي السعودي بالمغرب بقلم الأستاذ محمد بن إبراهيم بن عبد السلام، وأرّخت في ٧/ ١/ ١٤٠٧هـ - ١١/ ٩/ ١٩٨٦م، أي: قبل وفاة المصنف بقليل، إذ تأريخها في ٢٥/ ١٠/ ١٤٠٧هـ - ٢٢/ ٧/ ١٩٨٧م فكان إعداد هذه الكلمة قبل وفاته بنحو تسعة أشهر، وجاء فيها الدعاء للمؤلف بالشفاء ونص العبارة: «فللمؤلف الجليل - شفاه الله - ولسماحة والدنا العلّامة الشيخ. . . »[٢].

وأما البدء الفعلي للكتاب، فاستغرق مدة من الزمن، فمؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعله في أقسام ثلاثة[٣]:

- فرغ من (القسم الأول) منه - وينتهي بالجزء الثاني من المطبوع -: يوم الجمعة، سابع عشر، صفر، سنة ١٣٩٥هـ[٤]، بمدينة فاس، بحي النزهة.
- فرغ من (القسم الثاني) - وينتهي بالجزء الرابع من المطبوع -: بعد ظهر يوم السبت الخامس عشر من رمضان سنة ١٣٩٥هـ.
- فرغ من (القسم الثالث) والأخير - وينتهي بالجزء السادس من المطبوع -: يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلون من شهر محرم الحرام سنة ست وتسعين وثلاث مئة وألف.

ومنه يعلم أن مدة تصنيف الكتاب ناهزت السنة أو قاربتها، وأن نشره كان بعد فراغ المصنف منه بإحدى عشرة سنة، ولعلّ سبب هذا التأخير كبر مادة

---

(١) «سبيل الرشاد» (٥/ ٥).
(٢) مقدمة «سبيل الرشاد» (٨٧).
(٣) انظر ما سيأتي قريباً تحت عنوان (التعريف بموضوع الكتاب ومادته).
(٤) صرّح فيه (٢/ ١٠٨) - وهو ضمن القسم الأول - أنه «في هذه السنة» وحددها بـ(١٣٩٤هـ) وذكر قصة جرت له.

الكتاب، إذ هو أوسع كتاب له، فجُلّ مصنفاته رسائل صغيرة، نشرها على حلقات في مجلات، ثم جمعها ونقّح بعضها وزاد عليها، ونشرها على هيئة كتيبات.

* هل تم تأليف الكتاب؟:

كان في بال مؤلفه طريقة نوى تأليف الكتاب على وفقها، أفصح عنها بقوله: «أهم أمور الدين توحيد الله تعالى في ربوبيّته، فلا ربّ غيره، وفي عبادته، فلا يعبد غيره، وفي أسمائه وصفاته، فلا يشاركه فيها غيره، وفي الاتباع، فلا يتّبع إلا وحيه، وهو القرآن والحديث الثابت» قال:

«وعلى هذه الأربعة نويت أن أؤلّف هذا الكتاب، وقد بدأته وتمامه على الله، فاتباع توحيد الله تعالى بأنواعه الأربعة فرض على كل مسلم، والإعراض عن المشركين بمخالفتهم، والبراءة منهم واجب حتم»[(١)].

وكان الهلالي ـ رحمة الله عليه ـ يخشى من عدم إتمام الكتاب، ويتضرع إلى الله أن يمنّ عليه بإكماله، فها هو يسأل ويقول:

«وقد أعانني الله سبحانه على إتمام هذا (الجزء الأول)، فللّه الحمد والمنّة، وإياه أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل، أن يعينني على إتمام الجزئين الباقيين»[(٢)].

وقال في أول (الجزء الثالث) (ص٥): «لقد منّ الله عليّ وأعانني على إنجاز (القسم الأول) من كتاب «سبيل الرشاد» وهو في (توحيد الربوبية والعبادة)، فجاء في جزئين، يشتمل على ثمان مئة وخمسين صفحة[(٣)] تقريباً، وها أنذا أقف خاضعاً ذليلاً بباب الغني الكريم، وأسأله من فضله أن يعينني على تأليف القسم الثاني ثم القسم الثالث، والقسم الثاني في توحيد الاتباع كما هو معلوم. والمراد اتباع الكتاب والسنّة في جميع أمور الدين، من عقيدة وأعمال وأخلاق ومعاملات». وكرر فيه هذا المعنى، فقال: «وهو قادر على أن يبلغنا أمنيتنا في إتمام «سبيل الرشاد» وانتفاعنا به قبل الموت، وهو الغني الكريم»[(٤)].

وقال في آخر (الجزء الرابع) ـ وهو تمام (القسم الثاني) من الكتاب ـ: «لقد

(١) «سبيل الرشاد» (١/ ٣٦١).
(٢) «سبيل الرشاد» (١/ ١٣٠).
(٣) وبنحوه أيضاً في هذه الطبعة، مع زيادة التخريج والتوثيق.
(٤) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٥٦).

منّ الله عليّ وأعانني على ختم هذا (القسم)، وأسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وبمحبتنا واتباعنا لحبيبه وخليله محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يعينني على (القسم الثالث)...»[١].

وكأني بالمصنف رحمه الله يخشى أن يداهمه صارف، أو أن يعوقه عائق، أو أن تفجأه مصيبة الموت، فيحول دون إتمامه للكتاب، ولذا لما أتم (القسم الثالث) ـ وهو الأخير ـ منه، قال ما نصه: «تمّ بحمد الله وحسن عونه» وقال:

«وكان الفراغ منه يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلون من شهر محرم الحرام سنة ست وتسعين وثلثمائة وألف من هجرة النبيّ الأكرم، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم وبمحبتي واتباعي لنبيك الكريم وإن كنت مقصراً أن تعينني على ما بقي وهو وضع (فهرست) وافٍ للقسم الثاني وأن تنفعني به في الدنيا والآخرة وتنفع به خلقاً كثيراً»[٢].

فالمؤلّف ـ رحمه الله تعالى ـ فرغ من كتابه، وجعله (ثلاثة أقسام)، مع أنه سبق عنه في أول هذا المبحث أنه نوى أن يؤلف كتابه على (أربعة أنواع) من التوحيد! فلماذا هذا التغيير، وما هو سببه، وهذا ما يجيبنا عنه المؤلف فيما سيأتي قريباً ـ إن شاء الله تعالى ـ عند الكلام على (الغرض من تأليف الكتاب ومنهجه فيه).

بقي التركيز وإلقاء بعض الضوء على قوله: «أن تعينني على ما بقي وهو وضع (فهرست) وافٍ للقسم الثاني...».

الناظر في الكتاب يجد أن (فهرست)[٣] للموضوعات، موجود في آخر كل جزء من (الأقسام الثلاثة)، وليست هناك فهرسة لكل قسم على حدة، ويوجد (فهرست) في آخر الجزء الثالث والرابع[٤]، فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن المعتني بنشر الكتاب أو مصححه هو الذي كمّل هذا الفراغ وأتمّه، ولعلّه كان في بال

---

(١) «سبيل الرشاد» (٥/٥). (٢) «سبيل الرشاد» (٦/٣٠٧).

(٣) الأصوب في نظري أن يقال: الموضوعات والمحتويات، أو قائمة الموضوعات، إذ لا علاقة بين محتويات الكتاب وطرق الفهرسة المعروفة سواء على الحروف الأبجدية أو الهجائية!

(٤) هذان الجزءان هما القسم الثاني من الكتاب.

المصنف شيء خاص من هذا القسم، ولم يتيسّر له صنعته، والله أعلم.

* طريقة تأليف الكتاب ومصادره فيه:

كان المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ قد أصيب بمرضٍ في عينيه، وعمل على الاستشفاء والمعالجة منه قديماً[١]، وضعف بصره في أواخر سني حياته، فكان مضطراً في تأليف هذا الكتاب ـ وهو من كتبه المتأخرة[٢] ـ إلى مساعدة غيره من تلاميذه وأحبائه، وصرح المصنف فيه[٣] أنه فرغ من (القسم الأول) منه بدار السلفي الصالح الحاج[٤] محمد العلالي بمدينة فاس.

وقال في آخر (القسم الثالث) منه (٦/ ٣٠٧):

«وكان الكاتب لختام هذا الجزء رضا الله بن محمد إدريس المباركفوري رزقه الله العلم النافع والعمل الصالح وجعله من الأئمة الداعين إلى الله على بصيرة، وهداه وهدى على يديه خلقاً كثيراً». وقال: «وقرأ عليَّ هذا الكتاب وتولى تصحيحه حسب ما أمرته ابني البرُّ ختني عبد الغني بوزكري وفقه الله لخدمة الإسلام والمسلمين وأطال بقاءه وختم له بالسعادة والغفران. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين».

واعتمد المصنف على مجموعة من الكتب، وذكر أهمَّها وأشهرها في (ديباجة الكتاب)، فقال (١/ ١٣٢):

«واعتمدت على «تفسير الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي» المتوفى سنة (٧٧٤هـ) ـ رحمة الله عليه ـ؛ لأني ما رأيت أحداً من المفسرين يعتني بالتوحيد مثله[٥] وقد أشير بـ(الكاف) إلى «تفسير ابن كثير»،

---

(١) ذكر في «سبيل الرشاد» (٢/ ٢٤٩) أنه كان في (مستشفى العيون) عند وجوده في مدينة (بون) بجرمانية، وكان هذا قبل أكثر من ثلاثين سنة من مرضه ووفاته.

(٢) انظر ما قدمناه (ص٩). (٣) (٢/ ٣٧٦).

(٤) يكثر المصنف في غير مقالة وكتيّب من إطلاق هذه اللفظة، وتجنّبها أولى، فالحاج كالمصلي والمزكي، فلا داعي لها، ولا سيّما أن بعض الجهلة ممن يحجون إن لم تُقَل لهم؛ يغضبوا!

(٥) للمصنف عناية شديدة بهذا التفسير، ونقد طبعاته، فها هو يقول في «سبيل الرشاد» (١/ ٣٣٥) عن طبعة منه كتب على طرتها: «قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية، وصححها نخبة من العلماء». وهي مطبوعة في طبعة الاستقامة بالقاهرة =



وبـ(الجيم) إلى «تفسير ابن جرير»، وبـ(القاف) إلى ما اتفق عليه البخاري ومسلم من الحديث، وبـ(الخاء) إلى ما انفرد به البخاري، وبـ(الميم) إلى ما انفرد به مسلم، وبـ(الدال) إلى «سنن أبي داود»، وبـ(التاء) إلى «جامع الترمذي»، وبـ(النون) إلى «سنن النسائي»، وبـ(الحاء والميم أو الألف المهموزة) إلى «مسند الإمام أحمد». انتهى.

قال أبو عبيدة: رمز الهلالي أيضاً بحرف (خك)[1] لاختصار شيخنا محمد نسيب الرفاعي ـ رحمة الله عليه ـ لتفسير ابن كثير، المسمى بـ«تيسير العلي القدير»[2]، وأكثر من النقل عنه، وتارة ينقل عباراته ويعزو لـ(ك)!

= سنة ١٣٧٢هـ، الطبعة الثانية: «سبحانك هذا بهتان عظيم. كيف تتفق عدة نسخ خطية على إسقاط ثلاث وعشرين كلمة من الحديث؟ وكيف جاز على نخبة من العلماء أن لا يتفطنوا إلى هذا الخلل؟ والحقيقة أن الكتب التي يطبعها التجار مضيعة، فلا مقابلة فيها ولا تصحيح، وبذلك يقع التغيير والتبديل والحذف. . .».

وقال فيه (١/ ٣٣٥) عن الطبعة نفسها: «فيها أخطاء كثيرة وبتر ونقص، وفي هذا الموضع ترك تفسير آية بأكملها، وقد فزعت إلى طبعة بيروت لعلّي أجدها سالمة من ذلك الداء، فإذا بها مسروقة من الطبعة المذكورة: إنا لله وإنّا إليه راجعون!، على فساد الكنوز التي خلفها لنا السلف، فصارت بأيدي التجار الفجار يطبعونها لأجل الربح الدنيوي ولا يبالون بما يرتكبونه من الجرائم في حق طلبة العلم، وعلوم الإسلام يتيمة كعلوم اللغة العربية، ليس لها جماعة تشرف على طبعها ونشرها وتأذن في ذلك لمن يكون له أهلاً، وتضرب على هؤلاء التجار الفجار وليس للتجار ضمائر ولا مروءة تحملهم على المحافظة على هذا التراث وعلى أن لا يصدر من مطابعهم ما يشين سمعتهم، وهذا جزء من الشقاء الذي يعانيه المسلمون في هذا الزمان. . .».

وقال في (٣/ ٩٥) بعد كلام: «هذا تحريف وبتر من الناشرين المجرمين، وما أكثره في الطبعات المتعددة لـ«تفسير ابن كثير»».

ومن شدة عناية المصنف بهذا «التفسير» أنه كاد أن يختصره، فها هو يقول في تقريظ «تيسير العلي القدير» لشيخنا محمد نسيب الرفاعي بعد مدحه له: «وكم عزمت على القيام بهذا العمل (الاختصار)، وبدأتُ فيه فعلاً، ولكن لم يقدّر لي الاستمرار فيه. . .»!

ويقول في (٢/ ١٢٥): «إن كثيراً من أهل هذا الزمان الذين لم يقتلوا «تفسير ابن كثير» درساً وبحثاً، يخيّل لهم أن فيه خرافات إسرائيلية، تكدّر صفوه، فيجب حذفها، فأقول لهم: على رسلكم! ومن ذا الذي حرّم علينا ذكر الإسرائيليات وروايتها إذا كانت فيها فائدة. . .» إلخ ما قال.

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ (٣/ ١٢٠، ١٣٧، . . .).

(٢) للهلالي تقريظ لهذا الكتاب منشور في أوله، ومما قال فيه عن مؤلِّفه شيخنا الرفاعي =

* مصادره في التفسير:

ومما تجدر الإشارة إليه أنه نقل من كتب أخرى في التفسير غير «تفسيري ابن جرير وابن كثير»، مثل:

«فتح البيان في مقاصد القرآن» لصديق حسن خان، و«محاسن التأويل» للقاسمي، و«تفسير البيضاوي» و«جامع البيان في تفسير القرآن» لصفي الدين بن معين الدين، «فتح القدير» للشوكاني، و«الدر المنثور» للسيوطي، و«درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج، و«تفسير السمرقندي»، و«تفسير الرازي»، و«تفسير ابن أبي حاتم» ـ ولعل النقل عنه بواسطة «الدر» أو «تفسير ابن كثير» ـ و«الكشاف».

ومن التفاسير التي صرح بالنقل منها أيضاً[1]:

«معالم التنزيل» للبغوي، و«المحرر الوجيز» لابن عطية، و«تفسير القرطبي»، و«تفسير أبي السعود»، و«تفسير النسفي»، و«زاد المسير»، و«تفسير الجلالين»، و«حاشية الصاوي» عليه، «حاشية الجمل» المسماة «الفتوحات الإلهية»، و«روح البيان» للبروسوي.

ونقل أيضاً من كتاب في الوقف والابتداء، وهو «المكتفى» لأبي عمرو الداني.

أكثر المصنف من النقل عن بعض هذه التفاسير، واقتصر في كثير من المواطن على النظر في تفسير واحد منها، ولكنه في مواطن قليلة ينظر في جميعها، فأصغ إليه وهو يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]:

«طالعت كل ما عندي من التفاسير؛ لأجد تفسيراً تطمئن نفسي إليه، فلم أحصل على طائل»[2].

ونقل المصنف في كتابه هذا من كتب له في التفسير، مثل: «فتح الرحمٰن

= ـ رحمه الله تعالى ـ: «أخونا العالم السلفي المحقق الأستاذ الشيخ محمد نسيب الرفاعي، رفع الله في الدارين درجته، وأجزل فيها مثوبته». وقال عن (اختصاره): «جاء (اختصاره) طبق ما يؤمله كل طالب علم، موزوناً بقسطاس مستقيم».

(١) لعله نقل من بعضها بالواسطة، فقد صرح في (٢/ ٣٩٢) أنه راجع كل التفاسير التي عنده، قال: «وهي خمسة»!!

(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٤٩).

في تفسير أمّ القرآن» وكذا من تفسيره في سورة الأنعام، المسمى «الإلهام والإنعام».

ونقل في (الجمع بين الوصل والوقف) و(القراءة بصوت واحد) من كتاب محمد التهامي بن الطيب السجلماسي، المسمى «نصرة الكتاب» وقال في المبحث نفسه (٣/ ١٧٣):

«شرع أخونا حسن وجاج في تأليف كتاب يقيم فيه البراهين القاطعة على بدعة ما يسمى عند المغاربة بالحزب، ويحدد تاريخ وصولها إلى المغرب، وما فيها من المفاسد، وهو عمل مشكور، نرجو أن ينفع الله به من شاء من عباده، حتى يُقضى على هذه البدعة التي أُصيب بها المغاربة وحدهم دون جميع المسلمين، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل».

والظاهر أن الهلالي يريد تقديمه لمنظومة أبي عمرو الداني «المنبّهة» فإنه قد فصل فيها هذه المسألة، وهي أطروحته للدكتوراه[١].

* مصادره في الحديث والتراجم والتاريخ:

ذكر الهلالي اعتماده على ما في «الصحيحين» أو ما انفرد به أحدهما، وعلى «جامع الترمذي» و«سنن أبي داود» و«سنن النسائي» و«مسند أحمد»، وذكر[٢] رمزاً لكل كتاب من هذه الكتب، ولم يذكر «سنن ابن ماجه»، وقد عزى له الكثير من الأحاديث، وكذلك نقل من «السنن الكبرى» للبيهقي.

ونقل من مصادر أخرى صرح بها، ولكن لعله وقعت له بالواسطة، فصرّح - مثلاً - بأسماء: البزار وأبي يعلى - ولكل منهما «مسند» مطبوع - ومن «شرح معاني الآثار» للطحاوي، و«صحيح ابن حبان» و«موطأ مالك».

وصرّح بالنقل من كثير من كتب الحديث وشروحه ورجاله، فهو ينقل - مثلاً - ويكثر من «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، ونقل أيضاً من عدة شروح مثل: «نيل الأوطار»، و«سبل السلام»، و«مرقاة المفاتيح» لعلي القاري، و«شرح الطيبي على المشكاة»[٣]، و«شرح الزرقاني على الموطأ»، و«فتح الباري»، و«القبس شرح

---

(١) انظر تعليقنا على كلام الهلالي السابق في (٣/ ١٧٣).

(٢) فيما مضى قريباً من كلامه.

(٣) لعل النقل منه بواسطة، إذ طبع لأول مرة بعد وفاة الهلالي.

الموطأ»[١] لابن العربي المالكي، و«فيض القدير» للمناوي، و«معالم السنن»، و«أعلام الحديث»[٢] كلاهما للخطابي، و«حاشية الشيخ أحمد على بلوغ المرام»، ومن «حاشية حسن المدابغي على شرح الهيتمي على أربعي النووي» نقل منه، ووقع العزو لـ«شرح الهيتمي»: انظر (٤/ ٢١٩)!

وينقل من كتب الغريب، ويعتمد كثيراً على «النهاية»[٣] لابن الأثير، وورد عنده ذكر لـ«غريب الحديث»[٢] للحربي.

وينقل كثيراً من الآثار والأشعار من «جامع بيان العلم» لابن عبد البر، وهنالك ذكر لعدة من كتب التراجم، مثل: «تاريخ دمشق»[٢] لابن عساكر، وفيه أيضاً إحالة على «العقد الثمين» للفاسي ، ونقل من «الطبقات الكبرى» لابن سعد، و«معجم المؤلفين في القطر الشنقيطي».

وأظهر في الكتاب مجموعة من الكتب التي ترجمت للأصحاب ـ رضوان الله عليهم ـ، مثل: «الاستيعاب» لابن عبد البر، و«الإصابة» لابن حجر، و«أسد الغابة» لابن الأثير.

واعتنى ببعض كتب السيرة والتأريخ، فنقل من بعضها مثل: «السيرة النبوية» لابن كثير، و«الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام» للسهيلي، ونقل أيضاً من بعض كتب البلدان، وسبق ذكر الدمشقيين والشناقطة وأنه نقل من مصنفات خاصة بهم، ونقل في تراجم المكيين زيادة على ما ذكرناه[٤] من «مثير الغرام» لابن الجوزي، ونقل في تاريخ المدينة من «الدرة الثمينة» لابن النجار، ومن الكتب التي نقل منها «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى».

* مصادره في الفقه وأصوله:

نقل الهلالي من عدة كتب في الفقه وأصوله، فورد ذكر لكتاب «المدونة»، و«التاج والإكليل»، و«مختصر خليل»، وكلها من كتب المالكية.

---

(١) لعل النقل منه بواسطة.
(٢) لعل النقل منه بواسطة.
(٣) قال عنه في (٦/ ٢٦٩): «كنت أظن أن ابن الأثير سلفي العقيدة بريء من التعطيل والتّجهّم لأني رأيت المتأخرين من المشتغلين ينقلون من كتابه شرح غريب الحديث، ولما رأيت شرحه لأسماء الله الحسنى وجدته من شرار الجهمية المعطلة، . . .».
(٤) أعني: «العقد الثمين» للفاسي، فهو خاص في المكيين.

ونقل من جملة كتب فقه المذاهب، فنقل ـ مثلاً ـ من مجموعة كتب للشافعية؛ كـ«المنهاج» و«شرح المهذب»، كلاهما للنووي، ومن «الأم» للشافعي، ومن «شرح الكنز» للزيلعي، و«فتاوى قاضي خان» وهما من كتب الحنفية، أما كتب الحنابلة، فقد نقل من «المغني» و«الكافي» كلاهما لابن قدامة، ونقل أيضاً من كتاب «المحلّى» لابن حزم.

ونقل من «كشف الغمة عن جميع الأمة» للشعراني، ولم يكن النقل منه في مسائل فقهية[١]، وإنما نقل عنه طويلاً (فصل في ذكر أزواج النبي ﷺ بالتفصيل، وذكر بعض فضلهن ـ رضي الله عنهن ـ) قال:

«وسأنقل ذلك من كتاب «كشف الغمة عن جميع الأمة»، لأني وجدته أحسن ترتيباً وأسهل على القرّاء من «سيرة ابن هشام» وغيرها ممن جمع تراجم الأزواج الطاهرات، ولا ينقصه إلا عدم عزو الأحاديث، وذلك لا يضر؛ لأن أكثر ما ذكر هنا مرويّ في كتب الحديث المعتبرة»[٢].

وأشار المصنف ـ كثيراً ـ إلى مسألة قبض اليدين في الصلاة[٣]، وذكر كتاب «إبرام النقض في تقرير السدل وإبطال القبض» لمحمد الخضر بن مايابا الشنقيطي، وذكر أن الله هيأ له عالماً شنقيطياً من أهل بلده فألف كتاباً في الرد عليه، سمّاه «الصوارم والأسنّة في الذب عن السنّة»[٤]، قال:

«وتبرع بطبعه المجاهد الأكبر في المغارب كلها، الذي أنقذ الله به أهل المغرب الأكبر من حدود السنغال إلى حدود مصر من ربقة الاستعمار وظلمته إلى حرية الاستقلال ونوره، ألا وهو الملك محمد الخامس ـ رحمة الله عليه ـ» قال:

«ومن أجل المكارم أن شريكه في الجهاد الملك الحسن الثاني ـ أطال الله بقاءه، وأدام ارتقاءه ـ لما نفذت نسخ هذا الكتاب أمر بطبعه ثانية، أجزل الله ثوابه، وجزاه أحسن الجزاء، ومؤلف هذا الكتاب هو العلّامة السلفي المحدّث الأصولي المفسّر الأديب الشاعر المتفنن محمد بن أبي مدين الأستاذ في معهد بوتيلمت من بلاد شنقيط، وهذا الرجل نادرة زمانه، يحتاج إليه أساتذة الأزهر

---

(١) مع أن الكتاب في فقه الخلاف. (٢) «سبيل الرشاد» (٦/ ٢٣٧).
(٣) انظر ما كتبناه عنها في التعليق على (٣/ ١٦، ١٨).
(٤) نقل بواسطته من «إيقاظ الوسنان».

وأساتذة الجامعة الإسلامية بالمدينة، وكل جامعة عربية، لا أقول: الطلبة بل الأساتذة، ومن سوء حظ العرب في هذا الزمان عموم الجهل والتقليد فيهم، وسيرهم على صراط معوج؛ لأنهم لا يعتبرون العلم، وإنما يعتبرون الشهادات المزيفة، التي يحصل عليها كثير من الدواب، فيتسلَّمون أعلى المراتب في الجامعات، وهم صمٌّ بكمٌ عميٌ، فوالله الذي لا إله إلا هو، لو ظفر بهذا الرجل أساتذة الجامعات في أوروبة، لاستفادوا من علمه، وبذلوا النفس والنفيس في خدمته، ولكن كما قلنا من ضلالات العرب أنهم يتركون العين ويطلبون الأثر باعتمادهم على الشهادات»[١] قال:

«فمن أراد أن يعرف تحريف المقلّدين المتعصبين إلى أي حدٍّ بلغ في الإسفاف، فليقرأ هذين الكتابين، فيرى الأول ظلمة، ويرى الثاني نوراً»[٢].

ومن الكتب التي أكثر من النقل عنها: «إعلام الموقعين»[٣]، وهنالك بعض النقول مأخوذة منه وهي طويلة جداً، ونقل الهلالي أيضاً من «الإحكام»[٤] لابن حزم، و«إرشاد الفحول» للشوكاني، و«الاعتصام»[٥] للشاطبي، و«الباعث على إنكار البدع والحوادث»[٦] لأبي شامة المقدسي، و«البدع» لابن وضاح، و«الحوادث والبدع» للطرطوشي، و«الموافقات»[٧] للشاطبي، ومن «حاشية محمد الخضر حسين عليه»، و«قواعد الأحكام»[٨] للعز بن عبد السلام، و«الرد على من

---

(١) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٨ ـ ١٩). (٢) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٩).

(٣) حققته ـ ولله الحمد ـ معتمداً على عدة نسخ خطية، وهو من منشورات دار ابن الجوزي، الدمام، في سبعة مجلدات.

(٤) فرغت من مقابلته على نسختين خطيتين، وتخريج أحاديثه وآثاره، وسيرى ـ إن شاء الله تعالى ـ النور قريباً.

(٥) نشرته على نسختين خطيتين في أربع مجلدات في طبعة مجوّدة مخرّجة مفهرسة، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

(٦) نشرته على نسخة شستربتي، وطبع ولم أراجعه، وسأعمل على طبعه من جديد، مزيداً منقّحاً، اللهم يسّر ذلك بمنّك وكرمك.

(٧) طبع بتحقيقي ـ ولله الحمد ـ في ستة مجلدات، وحاز قبول ورضى النبهاء من طلبة العلم، والمنصفين من العلماء.

(٨) حصلت ثماني نسخ خطية تمهيداً لتحقيقه، وفرغت من تنكيتات عليه للسراج البلقيني، سماها «الفوائد الجسام» أملاها على تلميذه الكرماني، وهي بخطه في نسخة فريدة، خطّها صعب غاية.

أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» للسيوطي.

والملاحظ أن مباحث التقليد والاجتهاد لها نصيب كبير من هذه النقول، بل بعض الكتب السابقة مفردة في هذا الموضوع، وأكثر الهلالي من التركيز على ذم التعصب والتمذهب والتقليد وعدم الاتباع، وهذا الذي اضطره للنقل من بعض الكتب السابقة، ووقع له كثيراً في هذا الباب النقل بالواسطة، مثل نقله من كتاب المواق «سنن المهتدين»، والعمدة ـ عنده ـ على «الصوارم والأسنة».

* كتب اللغة:

أكثر الهلالي من النقل من مجموعة من المعاجم العربية، وبرز في كتابه النقل من «لسان العرب» لابن منظور، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي، وورد ذكر لكتاب «الكتاب» لسيبويه، و«الصحاح» للجوهري، و«تهذيب اللغة» للأزهري، و«معجم مقاييس اللغة» لابن فارس، وكان النقل من آخر كتابين بالواسطة.

* كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم:

من النقولات الظاهرة، والمؤلفات الباهرة، التي أكثر المصنف من النقل عنها: كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، مثل[1]: «اقتضاء الصراط المستقيم»، و«مجموع الفتاوى»، و«الإيمان»، و«الرسالة المدنية»، «شرح حديث النزول»، و«الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان».

ونقل أيضاً ـ وأكثر ـ من كتب الإمام ابن القيم[1]، فنقل من «الكافية الشافية» وشرحها «توضيح المقاصد» لأحمد بن عيسى، ومن «الجواب الكافي»، و«بدائع الفوائد»، و«مختصر الصواعق المرسلة»، و«زاد المعاد»، و«حادي الأرواح»، و«إغاثة اللهفان»، و«روضة المحبين»، و«مدارج السالكين»، وأكثر جداً من النقل عن «اجتماع الجيوش الإسلامية» ولا سيّما في (الجزء الخامس) من الكتاب.

* كتب التوحيد:

التوحيد هو لبّ القصيد في كتابنا هذا، فمباحثه وأنواعه وتقريراته هي قطب الرحى، وكتبه التي نقل منها المصنّف ليست بتلك الكثرة، إلا أن الهلالي اختار

---

(١) وقع النقل من بعضها بالواسطة!

منها فأجاد وأفاد، وساقها في سياق قوي، وعلّق عليها بما يوضح المراد منها، وجُلّ النقول جاءت في معرض التقرير، وأما الردّ فجاء بما يناسب الغرض من درء الشُّبه، والرد على كلام يردده المبطلون والمشغّبون، وله أثر في عقول الناس وقناعات بعضهم، فهو ينقل زيادة على ما ذكرناه من كتب الإمامين ابن تيمية وابن القيم من كتاب الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب «التوحيد»، وأورد منه ومن شروحه ـ مثل: «فتح المجيد» و«تيسير العلي القدير» ـ نقولات طويلة، ونقل أشعاراً في مدح دعوة الإمام، ولا سيّما من «دالية الصنعاني»، ولعله كان يحفظها.

وهنالك نقولات من كتب أخرى، فأكثر من النقل من «الدين الخالص» لصديق حسن خان، ونقل من «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، ومن «الإبانة في أصول الديانة» كلاهما لأبي الحسن الأشعري[1]، و«عقيدة السلف أصحاب الحديث»، و«عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي»، و«العقيدة السفارينية»، و«العلو للعلي العظيم»، وأكثر جداً من النقل من «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي، و«الكواشف الجلية شرح العقيدة الواسطية» لعبد العزيز السلمان، ومن «المجموعة المفيدة» نقل منها في آخر (الجزء السادس) وقال عن صاحبها: «جمع العالم السلفي الشاعر الأديب علي بن سليمان القصيمي المتوفى بالدورة في جنوب العراق في نحو سنة ١٣٤١هـ».

ونقل من بعض كتب أهل البدع، وساقها للرد عليها، مثل كتاب «الرماح» لعمر بن سعيد الفوتي، قال عنه (٣/ ٣٤):

«قال صاحب «الرماح» ـ وهو عمر بن سعيد الفوتي ـ أخبرني محمد الغالي أن الشيخ التجاني قال: صاحبي لا تمسه النار، ولو قتل سبعين روحاً إذا تاب بعد ذلك...» وذكر هذه القولة لهدم كلام آخر نقل عنه يعارضه، حتى جعل الهلالي يقول: «وهذه معضلة يجب على التيجانيين أن يحلّوها، ولن يستطيعوا لحلها سبيلاً»!

وأكثر الهلالي في كتبه بعامة من ذكر التيجانيين، وكشف بواطيلهم

---

(١) وصرح في (٦/ ٢٩٢) أنه نقل أيضاً من كتاب «الموجز» له، لكن بواسطة «الجيوش الإسلامية» لابن القيم، وقال عن «الموجز»: «ولم أطلع عليه».

وألاعيبهم، ولذا نقل في كتابه هذا بعض ما يخصهم من كتابه الخاص في الردّ عليهم، وهو «الهدية الهادية».

وتعرض أيضاً لشبه المجوّزين للاستغاثة والتوسل البدعي، مما اضطره للنقل من «الصارم المنكي» لمحمد بن عبد الهادي، وأحال على «صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان» للشيخ بشير السهسواني الهندي.

وذكر ألاعيب الشياطين ببعض المتكسبين بدينهم، مما اضطره للنقل من «تلبيس إبليس» لابن الجوزي.

وذكر أحوال الأديان المحرفة، والفِرَق الباطلة، مما اضطره للإحالة على كتابه «البراهين الإنجيلية على أن عيسى عليه السلام داخل[1] في العبودية ولا حظّ له في الألوهية»، ونقل أيضاً من كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي، ومن كتاب «أديان الهند الكبرى» للشلبي.

هذه جُلّ مراجع الهلالي في كتابه هذا[2]، عدا ما في ذاكرته من نقول وحِكَم وأمثال وأشعار، وقصص وحكايات.

* الغرض من تأليف الكتاب ومنهجه فيه:

ذكر العلامة الهلالي (الغرض) من تأليف كتابه هذا، فقال:

«لما كان الغرض من تأليف هذا الكتاب إقامة البراهين على وجوب اتباع الكتاب والسنّة وترك التفرُّق والتحزُّب بشكل مذاهب أو طرائق أو أحزاب لم أرد أن أتوسع فيما يرد أثناء البحث من المسائل الأُخرى»[3].

وهذا الغرض الذي تكلم فيه إنما هو محصور في (قسم) من (أقسامه الثلاثة) وهو (توحيد الاتباع)، وقد صرّح بذلك في قوله فيه (٤/ ٢٤ ـ ٢٥) موضحاً معاني بعض الآيات:

---

(١) اقترح الهلالي على زهير الشاويش في رسالة وجّهها إليه بتأريخ ٢٧/ ٣/ ١٣٩١هـ أن يطبع هذا الكتاب، قال: «ولكم أن تجعلوا عنوان ـ مثلاً ـ: «البراهين الإنجيلية على أن عيسى بشر...».

(٢) عدا ما صرّح به من كتب ألفت باللغة الإنجليزية، فقد صرّح في (٢/ ٣٦٨) بالنقل من «مختصر تاريخ أوروبة» وهو مقرر للمدارس الثانوية ببريطانيا، ومن كتاب «عصر العقل» لتوماس بين، ومن (ougesol) وقال أيضاً: «له مقالات بالإنجليزية مشهورة».

(٣) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٤٤ ـ ١٤٥).



«قال محمد تقي الدين: أخبر الله ﷻ مؤكداً بالقسم وغيره من المؤكدات أن محمداً ﷺ من المرسلين وأنه على صراط مستقيم، كل من اتبعه سعد، وكل من خرج عنه شقي. وأخبر سبحانه أنه أنزل هذا القرآن على رسوله لينذر به أهل الأرض، كلهم عامة والعرب خاصة، إذ لم يرسل إليهم نذير من قبله، ولا كان عندهم كتاب يرجعون إليه، ولا سنّة نبي يتمسّكون بها، فهم لذلك في غاية الغفلة والجهالة والظلمة، ولما كذبوا الرسول وكفروا بما أنزل إليهم من ربهم وجحدوه ظلماً وعلواً، حقت عليهم كلمة الله وسدّت عليهم أبواب الهداية، وتحتم عذابهم وشقاؤهم، وحيل بينهم وبين الإيمان بسبب إعراضهم وطغيانهم، ثم أخبر ﷻ أن الذين ينتفعون بالإنذار هم الذين يستمعون القرآن ويتبعونه ويمنعهم خوف الله تعالى من مخالفة القرآن والرسول ﷺ، فأولئك بشّرهم الله بمغفرة ذنوبهم وبالأجر العظيم والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، وصدق الله وعده فانتصروا على أعدائهم واستولوا على مشارق الأرض ومغاربها، وأذعنت لهم أمم الأرض وشعوبها ومضوا على ذلك قروناً طوالاً حتى نبذوا القرآن والسنّة، فسلبهم الله ما وهبهم وجعلهم عبرة لأولي الأبصار. ولا يزال باب التوبة مفتوحاً أمامهم لو رجعوا إلى رشدهم وأنابوا إلى ربهم، ولما كان التقليد والتعصب والتفرّق والتمذهب، واتباع الطرائق القدد، والأحزاب البدد، والقوميات والوطنيات والأهواء والعادات من أعظم أسباب شقائهم التي سدّت عنهم أبواب الخير، وفتحت لهم أبواب الشقاء، عزمت في هذا القسم من «سبيل الرشاد» أن أبذل كل جهد في التحذير من هذه الطرق المعوجّة وأنقل كلام الأئمة مصحوباً بالحُجَّة».

وسبق آنفاً[١] إيراد كلام للهلالي أنه نوى أن يجعل كتابه على أربعة أقسام، كل قسم في أنواع التوحيد الثلاثة، ثم توحيد الاتباع، إلا أنه صرح في تقديمه للكتاب أنه دمج توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية في نوع واحد، فلنسمع إليه وهو يقول:

«يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الكبير المتعالي محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي ـ عفا الله عنه ووفّقه للعمل الصالح المتوالي ـ: خطر ببالي منذ مدة أن أؤلف كتاباً لنفسي ولمن شاء الله بعدي، أشرح فيه أنواع التوحيد

---

(١) انظر كلامه (ص١٣).

الأربعة[1] التي **أولها**: توحيد الربوبية، **وثانيها**: توحيد العبادة، **وثالثها**: توحيد الاتباع، **ورابعها**: توحيد الأسماء والصفات، ثم رأيت أن آيات توحيد الربوبية في كتاب الله كثيرة لو استوعبتها مع ما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وكلام علماء السلف، لعظم حجم الكتاب جداً لكثرتها، فجعلت الأقسام ثلاثة:

الأول: في توحيد العبادة ممزوجاً بما يحتاج إليه من آيات توحيد الربوبية.

والقسم الثاني: يشتمل على آيات توحيد الاتباع ـ أعني الكتاب والسنّة ـ.

والقسم الثالث: يشتمل على آيات توحيد الأسماء والصفات وهي الآيات التي وصف الله بها نفسه سبحانه وما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وأقوال أئمة السلف، وقد أعانني الله سبحانه على إتمام هذا (الجزء الأول) فللّه الحمد والمنّة، وإياه أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل، أن يعينني على إتمام الجزءين الباقيين، وسميت هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة «**سبيل الرشاد**». أسأل الله تعالى أن يجعل النفع به كثيراً، وأن يجعله من الأعمال الباقية، وأن ينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»[2].

فاستقر الكتاب على ثلاثة (أقسام) أو (أنواع) كلية، وكان كل نوع في جزئين من المطبوع.

وأُراني هنا مضطراً للتركيز على بيان وإبراز حرص العلّامة الهلالي ـ رحمة الله عليه ـ على التوحيد الصحيح، والاتباع السليم، فأقول وبالله سبحانه أصول وأجول:

* حرص الهلالي على التوحيد[3]:

كان الهلالي ـ رحمه الله تعالى ـ داعياً إلى التوحيد، وله في نصرته جولات وصولات، وجاهد في صيانة جنابه في جميع البلاد التي حل بها، وترك آثاراً

---

(١) أنواع التوحيد في الحقيقة ثلاثة؛ لأن الثالث وهو الاتباع داخل في الثاني ولكنني جعلته قسماً لكثرة خلاف المقلدين لما جاء به الرسول ﷺ (منه).

(٢) «سبيل الرشاد» (١/ ١٣١). وللهلالي في «العيون الزلالية» (ق٤٠٢ ـ ٤٠٤) كلمة موجزة عن الأنواع الأربعة المذكورة من أنواع التوحيد.

(٣) للأخ عبد الرحمن العميسان أطروحة ماجستير سجلت في (الجامعة الإسلامية)، وهي بعنوان: «جهود العلامة محمد تقي الدين الهلالي في تقرير عقيدة السلف والرد على المخالفين» ما زالت قيد الإعداد.

جليلة في إظهار عقيدة أهل السنّة والجماعة، عقيدة السلف الصالح.

ولم تخل هذه المهمة العظيمة التي حملها الهلالي على كاهليه أحسن حمل من مفارقات وابتلاءات ومفاجآت، وجرّت عليه في بعض البلاد بعض المشكلات.

ومدحه غير واحد من عارفيه وملازميه بالمعرفة والحرص على العقيدة السلفية، حتى إن إمام الدنيا فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز كان يقول عن هلالنا: «شيخي في التوحيد»[1]، وقال عنه العلامة حماد الأنصاري ـ وسبق ذلك عنه ـ:

«كان سلفي العقيدة، لو قرأت كتابه في التوحيد ـ يعني «سبيل الرشاد» ـ لعلمت أنه لا يعرف التوحيد الذي في القرآن مثله».

ولا غرو في ذلك، فها هو الهلالي يخبرنا عن نفسه في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص١٥) فيقول: «فإني نذرت لله أن أدعو إلى توحيده وسنّة نبيّه ﷺ حيثما كنت وهذا **أهم غرض لي في الحياة**».

ووظّف الهلالي مواهبه ومعارفه في سائر ضروب العلوم نصرةً لعقيدة السلف والذبّ عنها، فنظم الشعر في هجاء مخالفيها، ودعا فيه الناس إلى التمسك بما عليه أسلافهم، وأن عزهم ومجدهم لا يتحقق إلا بذلك، ونشر أيضاً كثيراً من «المقالات»[2] في الأديان والفرق والمذاهب الضالة، وعرّى أصحاب الدَّجل، والخرافة، وسمّاهم، وجرّد عليهم سيف الحق والدليل والبرهان الناصع، وجهد في نصح العامة والدهماء ودعوتهم، ولاقى ألاقي وتحمّل المصاعب والمشاق في سبيل ذلك.

وأما الكتب التي أفردها في التوحيد، فبلغت ثمانية عشر كتاباً، وحشّى على ثلاثة كتب: اثنان للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، وواحد لشيخ الإسلام

(١) قال تلميذ العلّامة ابن باز الشيخ محمد شطو ـ وفّقه الله وأكرمه ـ عن هذه المقولة: «مشهورة عندنا؛ نقلها أخونا خالد الزهراني في أطروحة الماجستير: «تقي الدين الهلالي وجهوده في الدعوة إلى الله» (ص٥٧ ـ مرقومة على الآلة الكاتبة)، ثم سمعتها من الشيخ شطو بنفسي في سحر الليلة الأخيرة من رمضان سنة ١٤٢٥هـ،فالعهدة فيها عليه!

(٢) جمعت كثيراً من مقالاته في سائر ضروب وألوان العلوم، وبوّبتُها وعملت على تنضيدها، وستصدر قريباً في مجموعة، يسر الله ذلك بمنّه وكرمه.

ابن تيمية، وسيأتي ذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ مفصلاً عند الحديث عن (مؤلفاته) في (مبحث ترجمته).

وأكثر ما تظهر شدة الهلالي عند دفاعه على العقيدة السلفية، فها هو تلميذه الشيخ محمد زحل يقول عنه:

«كان في طبعه حدة وكان متشدداً في كل ما يتعلق بالعقيدة، قال له شخص يوماً وقد جاءه بولد يدعو له: إنه ليس لي إلا ربي وهذا الولد، فادع له، فلم يكن من تقي الدين إلا أن يجيبه أطلب الله أن (يطيّره) لكي يبقى لك الله وحده»(١).

وهذه الشدّة التي فيه كانت من حرصه وغيرته على التوحيد، وإلا فهو ـ كما قال عنه تلميذ آخر ـ: «التزم المنهج السلفي، وصار من دعاته النشيطين، ولكنه كان متفتحاً غير متزمت، ومجتهداً غير مقلِّد»(٢). وقال عنه أيضاً: «وكان منهجه في التعليم والتربية الحرص على غرس التوحيد، والالتزام بالأركان، والعمل بالأصول»(٣).

وهاك مثالاً عمليّاً، وقصة واقعية حكاها الهلالي عن نفسه في كتابنا هذا «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٤ ـ ٣٥) فيها دعوة الهلالي بالرفق والحكمة، ومراعاة حال المخاطب، والفحص عن استعداده وتهيئته لقبول الحق، وتحويله من المخالفة الشركية إلى العبادة الشرعية، قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

«ولما حججت أول حجة سنة ١٣٤١هـ في زمان الشريف حسين، لقيت رجلاً من بلادنا، فيلالياً من الغرفة، فدعاني للعشاء، وكان بواباً للملك حسين، فجاءني بطعام ملكي رفيع، وقال لي: يا ولد احفظ دينك وعقيدتك، فإن بلاد المشرق فيها عقائد كثيرة، وأكثرها ضلال، أما بلادنا المغرب فعقيدتنا واحدة على مذهب أهل السنّة والجماعة، ومن أغرب هذه الفرق وأعجبها فرقة تسمى الوهابية، وهم: في شرق مملكة الحجاز، مجاورون لهذه المملكة، فهؤلاء يكرهون النبي، ولا يحبون أن يسمعوا اسمه، وإذا سمعوه غضبوا وقتلوا من ذكره لهم، وهم لا يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله كما نقول نحن، بل يقولون

---

(١) «السلفية الوهابية في المغرب» (ص١٣٤).

(٢) «من أعلام الحركة الإسلامية» (ص٤٩١).

(٣) المرجع نفسه (ص٤٩١).

بدل محمد رسول الله، لا إله إلا الله مالك يوم الدين، فأظهرت له التعجب ولم يدر أنني من هذه الفرقة، وبعد ذلك بقليل استولى الملك عبد العزيز بن سعود على الحجاز، ولما حججت الحجة الثانية سنة ١٣٤٥هـ، أنزلني الملك عبد العزيز - رحمة الله عليه - في دار الضيافة، فبحثت عن ذلك الرجل الفلالي، فوجدته ودعوته إلى دار الضيافة الخاصة بي، فتغدى معي، فعرف حينئذ أنه لما كان ينصحني كان مخطئاً مغفلاً، فسكت وكتم ما في نفسه، فلما تغدينا ذهبنا إلى المسجد الحرام، فوجدنا الشيخ عبد الظاهر أبا السمح جالساً على الحصباء، وهو إمام المسجد الحرام وخطيبه، وسلمت عليه وجلست معه، فلما جلس رفيقي قال: يا رسول الله، فقال الشيخ عبد الظاهر: قل: يا الله، فقال: ما أقول إلا يا رسول الله، يا رسول الله، يا رسول الله، اقطع رأسي إن قدرت، أنا قلت: يا رسول الله أمام الأمير محمد أخي الملك عبد العزيز، ثم التفت إلي وقال: هذا الشر كله ما أصابني إلا بسببك، لا أرافقك أبداً، فتبعته وصرت أتلطف معه لعلّ الله أن يهديه، فهرب ولم أره بعد ذلك، وحدثني الشريف محمد من أهل مكة في تلك السنة نفسها سنة ١٣٤١هـ، قال لي: كنت مسافراً من المدينة إلى مكة، وكان صاحب البعير الذي أركبه نجدياً وهابياً، فركب خلفي ليستريح فتنهدت وقلت: يا رسول الله، فلطمني لطمة أفقدتني صوابي وكدت أسقط من ظهر البعير، وقال لي: يا حمار ما تقول: يا الله، قال: فسكت على مضض.

ولما وصلت إلى مكة ودخلت بيتي تركته على الباب ينتظر الكراء، فجاءني أولادي يسلِّمون عليَّ، فقلت لهم: يا أولادي، إن هذا النجدي الذي عند الباب لطمني لطمة ما أصبت بمثلها في عمري كله، لا معلم المكتب، ولا والدي، ولا أحد لطمني مثل تلك اللطمة، فأحضروا عصياً، وقالوا له: ادخل، فلما دخل ضربوه حتى طاب خاطري وكففتهم عنه، فقلت له: أيها الشرقي هذا جزاء اللطمة التي لطمتني، وينبغي أن أنبّه هنا على أن ذلك الأخ النجدي مع حسن نيته ارتكب خطأً فهو يعلم أن الملك حسيناً كان يعادي أهل نجد، وقد منعهم من الحج اثنتي عشرة سنة، فكان ينبغي له أن يتلطف مع ذلك الرجل ويقول له: يا أخي صلِّ على النبي واسأل حاجتك من الله واستغث به وحده، وتوسل إلى الله بمحبة النبي واتباع النبي والصلاة على النبي، فإن الله لا يرضى أن يدعى معه غيره، والنبي ﷺ لا يرضى بذلك، قال تعالى في آخر سورة النحل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ والله يغفر لنا وله».

ودعوة الهلالي للتوحيد قديمة، منذ أن عرّفه الله الحق، وأرشده إلى العقيدة السَّنيَّة السُّنيَّة، فامتنّ الله عليه بالهداية من ضلالات التجانيّة التي مكث معتقداً إياها ملازماً أورادها، متشبثاً بتعاليمها تسع سنوات[١]، ووصل فيها إلى أعلا الدرجات (درجة الخليفة)[٢]، وذكر قصة خروجه منها في مقالات نشرت في بعض المجلات[٣]، وأجمل ذلك في كتابه «سبيل الرشاد»[٤]، فقال بعد كلامه على التقليد:

«وهذا ما وقع لنا معشر الحنفاء الموحدين فأنا مثلاً وجدت والدي مقلداً للمذهب المالكي ومنتسباً إلى الفرقة الأشعرية ومتمسكاً بالطريقة الدرقاوية الشاذلية، فلم يكن لي بدّ من اتباعه، ثم انتقلت من الدرقاوية إلى التيجانية وبقيت فيها مدة تسع سنين حتى لقيت شيخنا العلّامة الداعي إلى الله على بصيرة محمد بن العربي العلوي في مدينة فاس سنة ١٣٣٨هـ في ربيع الأول في اليوم (١٢)، منه وهو الذي يحتفل به المبتدعون وعبّاد القبور أجمعون، وكان عمري حينئذ (٢٨) سنة، وقد قرأت القرآن وحفظته وجوّدته، وقرأت عبادات خليل، ومن علم النحو درست: «الآجرّومية»، و«ملحة الإعراب»، و«ألفية بن مالك» ومع ذلك كله بقيت على عقيدة أبي وأمي، ففتح أستاذي بإذن الله عين بصيرتي وعلمت أني كنت في ظلمات بعضها فوق بعض، وتبت إلى الله من عقيدة الأشعرية المتأخرين ومن التقليد ومن الطريقة.

إذا اصطفاك لأمر هيأتك له   يد العناية حتى تبلغ الأملا

وهذا يبيّن لك شؤم التفرق في الدين وأنه سبيل الهالكين».

وأُراني في هذا المقام مضطراً لذكر ما جرى له بالتفصيل في قصة رجوعه من الضلالة إلى الهداية، ومن ظلمات البدع إلى نور السنّة، وقد فصّل ذلك في كتابه «الهداية الهادية»[٥] وسأنقل منه باختصار وتصرف يسير، قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

---

(١) «الهدية الهادية» (ص٩).

(٢) سمعت ذلك من الشيخ زهير الشاويش ـ حفظه الله ـ.

(٣) أفاد في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٧٣ ـ ٧٤) أنه نشر في صحيفة «الحرية» المغربية ثلاث مقالات بعنوان: (كيف خرجت من الطريقة التيجانية) قال: «ذكرتُ فيها قصة خروجي وتوبتي من هذه الطريقة، وأقمت البراهين على بطلانها».

(٤) (١٢٦/٤ ـ ١٢٧).   (٥) (ص١٢ ـ ٢٢).

«لقد كنت في غمرة عظيمة وضلال مبين، وكنت أرى خروجي من الطريقة التيجانية(١) كالخروج من الإسلام، ولم يكن يخطر لي ببال أن أتزحزح عنها قيد شعرة. وكان الشيخ عبد الحي الكتاني عدواً للطريقة التيجانية... ففي ربيع الأول من سنة أربعين من هذا القرن الهجري سافرت إلى فاس ودعيت في اليوم السابع منه لحضور حفل على الطريقة الكتانية، فامتنعت من مشاركتهم؛ لأن من شروط التيجاني المخلص(٢) أن لا يذكر مع أهل طريقة أخرى ذكرهم وأن لا يرقص معهم، ولكن الجماعة ألحّوا عليّ وجرّوني جرّاً حتى أوقفوني في حلقتهم، فرأيتُ أفواهاً مفغورة من وجوه بعضها في لحية سوداء، وبعضها فيه لحية خطها الشيب، وبعضها أمرد ليس له لحية من الغلمان الذين لم يلتحوا بعد، وسمعت أصواتاً تنبعث من تلك الأفواه، ليس لها معنىً في أي لغة كانت بعضها آ آ آ، وبعضها آه آه آه، وبعضها أح أح أح.. فاستنكرت تلك الهيئة وقلت في نفسي: إن الله لا يرضى بهذه الحالة أن تكون عبادةً له لبشاعتها، ثم ندمت على ذلك ندامة الكسعي(٣)...

وقلت في نفسي: كيف يسوغ لي أن أنكر شيئاً حضر مثله خاتم الأولياء

---

(١) الطريقة التيجانية طريقة صوفية أسسها أحمد بن محمد بن المختار، وقد عاش ما بين (١١٥٠ ـ ١٢٣٠هـ) وولد في قرية عين ماضي بالجزائر وأنشأ طريقته التيجانية عام ١١٩٦هـ في قرية أبي سمعون بفاس وأصبحت فاس هي المركز الأول لنشر هذه الطريقة في العالم، ومن بعض معتقداتها يزعمون أن مشايخهم يُكشف عن بصائرهم وأن أحمد التيجاني قد التقى بالنبي ﷺ لقاءً حسياً مادياً، وأنه قد كلّمه مشافهة، وأنه قد علّمه صلاة الفاتح لما أغلق، وأن النبي ﷺ أخبره أن المرة الواحدة منها تعدل قراءة القرآن ست مرات، ومن معتقداتهم أنهم يجيزون التوسل بالنبي ﷺ وهذا من الشرك الصريح. انظر: «الموسوعة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٤).

(٢) وصف الهلالي نفسه في غير كتاب من كتبه بهذا الوصف، فها هو يقول عن نفسه في «سبيل الرشاد» (٣/ ٩٢) عند مناقشة رجل له في وقت الظهر ومخاصمته له وشتمه إياه، قال: «فأخذت سبحتي وأنا يومئذ تيجاني مخلص في الطريقة أشد الإخلاص من فرط جهلي وشقائي، فوجهت سبحتي كالبندقية إلى خيمته طلباً للانتقام منه، فخاف خوفاً شديداً، وانصرف، وفي ذلك اليوم ضلت له أحسن ناقة من إبله، فجاءني في الغد خاشعاً ذليلاً، وقال لي: يا سيدي محمد! إنك قطعت في خويدمك؛ أي انتقمت منه بلا رحمة...» إلخ ما قال...

(٣) هذا مثل مشهور، انظر قصته في: «مجمع الأمثال» (٣/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩).

القطب سيدي أحمد التيجاني فتبتُ من ذلك الخاطر، ولكن جاءني امتحان آخر أن الشيخ عبد الحي الكتاني قال لي منتقداً: إن الطريقة التيجانية مبنية على شفا جرف[1] وأنه لا ينبغي لعاقل أن يتمسك بها.

فقلت له: والطريقة الكتانية التي أنت شيخها؟ فقال لي: كل الطرائق باطلة وإنما هي صناعة للاحتيال على أكل أموال الناس بالباطل وتسخيرهم واستعبادهم.

قال الهلالي: إذن أنت تستحلّ أموال الناس بالباطل وتسخرهم وتستعبدهم؟ قال: أنا لم أؤسس الطريقة، وإنما أسسها غيري وهذه الأموال التي آخذها منهم أنفقها في مصالح لا ينفقونها هم فيها.

ثم قال الهلالي له: وما حملك على الطعن في الطرائق وما دليلك على بطلانها!؟ فقال لي: ادعاء كل من الشيخين أن النبي ﷺ يحضر بذاته وظيفة أصحابه حين يذكرونها، وهذه قلة حياء منهما[2] وعدم تعظيم للنبي ﷺ، كيف تكلِّفونه أن يخرج من قبره، ويقطع هذه المسافات من البر والبحر، ليجلس أمامكم، فأنتم تبسطون له ثوباً أبيض، ليجلس عليه، وأصحابنا يقومون ويذهبون إلى الباب ليتلقَّوه.

فقال الهلالي: إذن أنت لا تعتقد صحة طريقتك؟ فقال الكتاني: لا أعتقدها أبداً، وقد أخبرتُك أنها صناعة لأكل أموال الناس بالباطل، وأزيدك على ذلك: إن اعتماد طريقتكم على كتاب «جواهر المعاني» الذي تزعمون أن شيخكم أحمد التيجاني أملاه على علي حرازم مسروق، فأحد المجلدين ـ وهو الأول ـ مسروق بالحرف، وهو تأليف لمحمد عبد الله المدفون بكذا وكذا بفاس، وسمى ناحية نسيها الهلالي. قال الكتاني: وأنا قابلت الكتابين من أولهما إلى آخرهما، فوجدت المجلد الأول من «جواهر المعاني» مسروقاً كله من كلام الشيخ المذكور...

(١) هذا حق أكيد، ومحاولة محمد بن محمد الصغير الشنقيطي التشيتي في كتابه «الجيش الكفيل بأخذ الثأر ممن سلّ على الشيخ التيجاني سيف الإنكار» فاشلة، لا وزن لها في التحقيق العلمي، والمنهج السلفي، وهي كالماء لا تشدّ اليد بها البتة!

(٢) انظر هذه (الأكذوبة) وتفصيل ردّها في كتابي «قصص لا تثبت» (الجزء الثالث) (ص١٩٨) وما بعد.

وهكذا بدأ التفكير المُلِحّ لدى الهلالي للخروج من الطريقة التيجانية، وشاء الله أن يجالس الهلالي الشيخ عمر بن الخياط بائع كتب بقرب القرويين وناقشه في الموضوع نفسه، فما كان من البائع إلا أن أرشده إلى العالم الكبير الشيخ محمد بن العربي العلوي ـ رحمه الله تعالى ـ فذهب إليه وقابله واستضافه الشيخ في بيته[1]، فلما رأى الشيخ محمد بن العربي إحجام الهلالي قال له: ما سبب انقباضك؟ قال: سببه أنكم تطعنون في الطريقة التيجانية وأنا تيجاني ولا يجوز لي أن أجلس في مجلس أسمع فيه الطعن في شيخي وطريقته.

فقال لي: لا بأس عليك أنا أيضاً كنت تيجانياً فخرجت من الطريقة التيجانية لما ظهر لي بطلانها، فإن كنت تريد أن تتمسك بهذه الطريقة على جهل وتقليد، فلك علي أن لا تسمع بعد الآن في مجلسي انتقاداً لها، أو طعناً فيها، وإن كنت تريد أن تسلك مسالك أهل العلم فهلمّ إلى المناظرة، فإنْ ظهرتَ عليَّ رجعتُ إلى الطريقة، وإنْ ظهرتُ عليك، خرجت منها كما فعلتُ أنا.

قال الهلالي: فأخذتني النخوة، ولم أرضَ أن أعترف أني أتمسّك بها على جهل، فقلت: قبلتُ المناظرة.

ثم قال ابن العربي: أنا أريد أن أناظرك في مسألة واحدة إن ثبتت، ثبتت الطريقة كلها، وإن بطلت، بطلت الطريقة كلها.

قال الهلالي: ما هي؟ قال ابن العربي: ادعاء التيجاني أنه رأى النبي ﷺ يقظة لا مناماً وأعطاه هذه الطريقة بما فيها من الفضائل، فإن ثبتت رؤيته للنبي ﷺ يقظة وأخذه منه الطريقة فأنت على حق وأنا على باطل، والرجوع إلى الحق حق، وإن بطل ادعائه ذلك فأنا على حق، وأنت على باطل، فيجب عليك أن تترك الباطل، وتتمسك بالحق، ثم قال: تبدأ أنت أو أبدأ أنا؟ قال الهلالي: ابدأ أنت.

قال ابن العربي: عندي أدلة كل واحد منها كافٍ في إبطال دعوى التيجاني.

قال الهلالي: هات ما عندك وعلي الجواب، فقال:

الأول: إن أول خلاف وقع بين الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ كان بسبب

---

(١) ذكر الهلالي في «الهدية الهادية» (ص١٦ ـ ١٧) تفصيلاً واستطراداً حذفناه طلباً للاختصار.

الخلافة، قالت الأنصار للمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير، وقالت المهاجرون: إن العرب لا تذعن إلا لهذا الحي من قريش، ووقع نزاع شديد بين الفريقين حتى شغلهم عن دفن النبي ﷺ فبقي ثلاثة أيام بلا دفن ـ صلاة الله وسلامه عليه ـ، فكيف لم يظهر لأصحابه ويفصل النزاع بينهم، ويقول: الخليفة بعدي فلان، فينتهي النزاع؟!! كيف يترك هذا الأمر العظيم لو كان يكلم أحداً يقظة بعد موته لكلّم أصحابه وأصلح بينهم، وذلك أهم من ظهوره للتيجاني بعد مضي ألف ومائتي سنة ولماذا ظهر؟ ظهر ليقول له: أنت من الآمنين ومن أحبك من الآمنين ومن أخذ وردك يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب هو ووالده وأولاده وأزواجه إلى الحفدة. فكيف يترك النبي ﷺ الظهور يقظة والكلام لأفضل الناس بعده في أهم الأمور، ويظهر لرجل لا يساويهم في الفضل ولا يقاربهم لأمر غير مهم.

فقال الهلالي: قد أجاب الشيخ عن هذا الاعتراض في حياته فقال: إن النبي ﷺ كان يلقى الخاص للخاص والعام للعام في حياته، أما بعد موته انقطع لقاء العام للعام وبقي لقاء الخاص للخاص...

فقال ابن العربي: أنا لا أسلِّم أن في الشريعة خاصّاً وعامّاً؛ لأن أحكام الشرع خمسة وهذا الورد وفضائله إن كان من الدين، فلا بدّ أن يدخل في الأحكام الخمسة لأنه عمل أعدّ الله لعامله ثواباً، فهو إما واجب أو مستحب، ولم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى بيَّن لأمته جميع الواجبات والمستحبات، فلم يستطع الهلالي أن يجيب بجواب مقنع، ثم قال الهلالي: الشيخ التيجاني عالم بالكتاب والسنّة.

قال ابن العربي: احفظ هذا، ثم قال:

الأمر الثاني: اختلاف أبي بكر الصديق مع فاطمة الزهراء رضي الله عنها على الميراث، فلا يخفى أن فاطمة طلبت من أبي بكر ميراث أبيها... فقال لها أبو بكر: إن النبي ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**»[1]. وقد حضر ذلك جماعة من الصحابة، فبقيت فاطمة الزهراء مغاضبة لأبي بكر حتى ماتت بعد ستة أشهر بعد وفاة أبيها ﷺ.

(١) أصل الحديث عند البخاري (٢٩٢٦)، ومسلم (١٧٥٧)، وانظر تحريف بعض أهل البدع له في «شرحي على الورقات» للجويني (ص٢٤٦ ـ ٢٤٧)، وهو ـ لله الحمد ـ مطبوع عن دار الإمام مالك في الإمارات العربية.

فهذان حبيبان لرسول الله ﷺ. . . وهذه المغاضبة التي وقعت بين أبي بكر وفاطمة تسوء النبي ﷺ، فلو كان يظهر لأحد بعد وفاته لغرض من الأغراض لظهر لأبي بكر الصديق، وقال له: إني رجعت عما قلته في حياتي، فأعطها حقها من الميراث، أو لظهر لفاطمة، وقال لها: يا ابنتي لا تغضبي على أبي بكر، فإنه لم يفعل إلا ما أمرتُه به.

فقال الهلالي: ليس ما عندي من الجواب إلا ما سمعت.

قال ابن العربي: احفظ هذا، وقال:

الأمر الثالث: الذي وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة، وعلي بن أبي طالب من جهة أخرى واشتدّ النزاع بينهم حتى وقعت حرب الجمل، في البصرة فقتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين وعقر جمل عائشة، فكيف يهون على النبي ﷺ سفك هذه الدماء ووقوع هذا الشر بين المسلمين بل بين أخص الناس به، وهو يستطيع أن يحقن هذه الدماء بكلمة واحدة وقد أخبر الله ﷻ في آخر سورة التوبة برأفته ورحمته بالمؤمنين وأنه يشق عليه كل ما يصيبهم من العنت وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

فقال الهلالي: ليس عندي من الجواب إلا ما سمعت وظهوره وكلامه للشيخ التيجاني فضل من الله، والله يؤتي فضله من يشاء. قال: احفظ هذا وفكر فيه.

الأمر الرابع: خلاف علي مع الخوارج، وقد سفكت فيه دماء كثيرة، ولو ظهر النبي ﷺ لرئيس الخوارج وأمره بطاعة إمامه لحقنت تلك الدماء.

فقال الهلالي: الجواب: هو ما سمعت، فقال لي ابن العربي: احفظ هذا وفكّر فيه، فإني أرجو أنك بعد التفكير ترجع إلى الحق. . .

والأمر الخامس: النزاع الذي وقع بين علي ومعاوية، وقد قتل في الحرب التي وقعت بينهما خلق كثير، منهم عمار بن ياسر، فكيف يترك النبي ﷺ الظهور لأفضل الناس بعده وفي ظهوره هذه المصالح المهمة من جمع كلمة المسلمين وإصلاح ذات بينهم وحقن دمائهم، وهو خير المصلحين العاملين بقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟

بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] ثم يظهر للشيخ التيجاني في آخر الزمان لغرض غير مهم وهو في نفسه غير معقول؛ لأنه مضاد لنصوص الكتاب والسنّة فلم يجد عند الهلالي جواباً غير ما تقدم، ولكنه لم يسلِّم له.

فقال ابن العربي له: فكّر في هذه الأدلة وسنتباحث في المجلس الآخر، فعقد الهلالي وابن العربي بعد هذا المجلس سبعة مجالس كل منها كان يستمر من بعد صلاة المغرب إلى ما بعد العشاء بكثير. وحينئذ أيقن الهلالي أنه كان على ضلال، ولكن أراد أن يزداد يقيناً فقال له: من معك من العلماء هنا في المغرب على هذه العقيدة؟ وهي أن كل مسألة في العقائد أو في الفروع يجب أن نعرضها مع قصر باعنا وقلة اطلاعنا على كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، فما ظهر لنا أنه موافق لهما قبلناه، وما ظهر لنا أنه مخالف رددناه.

فقال ابن العربي: يوافقني على هذا أكبر مقدم للطريقة التيجانية في المغرب كله وهو الشيخ الفاطمي الشرادي، فكاد الهلالي أن يكذبه، قال: لأن المشهور في جميع أنحاء المغرب أن هذا الرجل من كبار العلماء، وهو أكبر مقدم للطريقة التيجانية. . .

فتوجه صاحبنا الهلالي إلى الشيخ الفاطمي رَحِمَهُ اللهُ وكان الوقت ضحى، وقد أوصاه محمد بن العربي أن لا يسأله إلا في خلوة فوجده الهلالي عنده جماعة فانصرف بعضهم، وجاء آخرون وبقي ينتظر أن يخلو به حتى صليا الظهر، وجاء الغداء فلم يستطع الهلالي أن يخلو به، وكان ثلاثة ممن كانوا في مجلسه حاضرين، فقال الهلالي له: إن الشيخ محمد بن العربي العلوي يقول: يجب علينا أن نعرض جميع المسائل أصولاً وفروعاً على كتاب الله وسنّة رسوله، فما وافق في نظرنا القاصر قبلناه وما خالف رددناه؛ ولو قال به الإمام مالك أو الشيخ أحمد التيجاني، فأشار الفاطمي إلى الهلالي بيده يستمهله، وكان جلوس الهلالي عنده قد طال فانصرف العلّامة الفاطمي إلى مدرسة الشراطين حيث كان نازلاً قبل لقاء الهلالي بالشيخ العلوي.

وفي ذلك اليوم بعد صلاة العشاء جاء الهلالي بوابُ المدرسة وقال له: إن الشيخ الفاطمي الشرادي أرسل إليك عبده وبغلته يطلب أن تزوره، فتعجب الهلالي كثيراً لأمرين: أحدهما: أن الوقت ليس وقت زيارة، وثانيهما: أنه لم تجر العادة أن كبار العلماء الطاعنين في السن، يبعثون الدابة للركوب إلا لمن هو

مثله في السن والعلم، وهو شاب، فركب البغلة وسار العبد أمامه حتى وصل إليه وسلَّم عليه فردّ أحسن ردّ ورحّب بالهلالي وقال له: يا ولدي أنا رجل كبير طاعن في السن، ليس لي قدرة على القتال، أما سيدي محمد بن العربي العلوي فهو شاب مستعد للقتال وأنت سألتني أمام الناس عن مسألة مهمّة لا يسعني أن أكتم جوابها ولا أستطيع أن أصرح به أمام الناس. فاعلم أن ما قال لك سيدي محمد بن العربي العلوي هو الحق الذي لا شكّ فيه وقد أخذت الطريقة القادرية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة الوزانية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة التيجانية والتزمتها حتى صرت مقدماً فيها فلم أجد في هذه الطرائق فائدة وتركتها كلها ولم يبق عندي من التصوف إلا طلب الشيخ المربي على الكتاب والسنّة علماً وعملاً، ولو وجدته لصاحبته وصرت تلميذاً له وأنت تريد أن تسافر إلى الشرق، فإن ظفرت بشيخ مربّ متخلق بأخلاق الكتاب والسنّة علماً وعملاً فاكتب إليّ وأخبرني به حتى أشد الرّحال إليه.

قال الهلالي: فازددت يقيناً بالنتيجة التي وصلت إليها في مناظرتي مع الشيخ العلوي.

وقال أيضاً: ولو كان عندي من العلم مثل ما عندي الآن لقلت له: إن ضالّتك المنشودة هي أقرب إليك من كل قريب، فإن هذا الشيخ الذي تطلبه وتريد أن تشدّ الرّحال إليه ولو بعدت الدار وشط المزار هو أنت نفسك، بشرط أن يكون عندك العزم التام على العمل بالكتاب والسنّة وطرح التقليد جانباً كيفما كان الأمر، فجزاهم الله خيراً وتغمّدهما برحمته.

قال الهلالي: وبعد ذلك بعشرين سنة اجتمعت مع الشيخ عبد العزيز بن إدريس من علماء تطوان وهو أحد تلامذة الشيخ الفاطمي ذكرت له الحكاية السالفة، فقال لي: وأنا أيضاً وقع لي ما يشبه هذا، فإني بعد إتمام دراستي في جامع القرويين ذهبت إليه وهو أفضل شيوخي فقال له: أيها الشيخ أريد أن أرجع إلى وطني تطوان فأريد أن تزوّدني بدعاءك الصالح وأن تلقنني ورد الطريقة التيجانية، فقال لي: يا أسفاً عليك أن تحفظ كتاب الله وقد درست العلوم الإلهية التي تمكّنك من فهم كتابه وسنّة رسوله ﷺ ولم يكفك ذلك كلّه حتى تطلب الهدى في غيره والطريقة لا شيء، فعليك بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

قال الهلالي بعد ذكره هذه المناظرة: «كشف الله عني بفضله ظلام الشرك

والبدعة وفتح لي باب التوحيد والاتباع فله الحمد والمنة، نسأله أن يثبّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه الهادي إلى الصراط المستقيم».

وقال أيضاً مبيّناً تحوّله من ظلمات البدع إلى أنوار التوحيد والاتباع، وهي منعطف خطير في حياته تجاه الاستقامة والدين الحق:

«هذا سبب خروجي من الطريقة التجانية الذي لم يكن يخطر ببالي، وإنما اضطرني إليه البرهان اليقيني الذي لا يترك شكاً ولا ريباً في أن هذه الطريقة كما هي في كتب أهلها وفي اعتقادهم لا يمكن الجمع بينها وبين اتباع كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ البتة»[١].

وهكذا أصبح الهلالي إماماً في التوحيد والسنّة، وله فيها مؤلفات ومقالات، وجهود ومواقف[٢]. أسأل الله أن يتقبّلها منه، ويجعلها في ميزان حسناته.

وحصل له بسبب هذا التحوُّل ابتلاءات وإيذاءات، فها هو تلميذه الأستاذ محمد بن عودة[٣] يقول عن شيخه الهلالي بعد استطراد:

«ولنعد إلى تقي الدين، إن تشبُّثه بدعوة الناس إلى العقيدة الصافية، وتشدُّده في ذلك قد كاد يدخله السجن، حتى بعد الاستقلال، ذلك أنه كان له أشياع كثيرون، وكان في مكناس حيث تكثر الطرق، فدأب هو على الطعن في أربابها مما أثار الطرقيين فبدأوا يثيرون الفتنة، وكان من نتائج ذلك أن كاد بنهيمة يلقي عليه القبض لولا أن تريث في الأمر وكتب إلى وزارة الخارجية، فأخبر أنه من كبار العلماء الوطنيين، فأكبر شأنه ولم يؤذه»[٤].

ومن أوائل من عارضه عند رجوعه بعض شيوخه، بل خالفه أيضاً مريدوه وأحباؤه وتلاميذه، ممن اشتروا الضلالة بالهدى، وآثروا الطريقة الخلفية البدعية على المنهج السني القويم، وأقتصر على ذكر مثالين:

أحدهما: لشيخه أحمد سكيرج، قال الهلالي في «سبيل الرشاد» (٢/ ١١٩):
«ولما خرجت من الطريقة التيجانية على يد شيخنا محمد بن العربي العلوي

---

(١) «الهدية الهادية» (ص٢٢).
(٢) سنذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ لاحقاً قصصاً ونماذج من حياته في الدعوة إلى التوحيد.
(٣) الموظف في وزارة الخارجية، القسم القانوني، الرباط.
(٤) «السلفية الوهابية في المغرب» (ص١٣٢).



ـ رحمة الله عليه ـ في فاس في ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ ورجعت إلى وجدة، حيث كنت معلماً عند الشيخ أحمد سكيرج، لابنه عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام، وكان يجلّني ويكرمني، وكنا في الهوى سواء، هو مقدم كبير في الطريقة التيجانية، وأنا مريد، فلما علم أني نبذت الطريقة التيجانية نبذ النوى، أظهر الحزن، وجمع عليَّ علماء وجدة، فناظروني فظهرت عليهم بالحجج القاطعة، فخوّفوني من انتقام الشيخ، وذكّروني بما نسب إلى الشيخ أحمد التيجاني، أنه قال: من ترك طريقته وأخذ طريقتنا فلا خوف عليه لا من الله ولا من رسوله ولا من شيخه أيّاً كان، من الأحياء أم من الأموات، أما من أخذ طريقتنا هذه الأحمدية المحمدية الإبراهيمية الحنيفية التيجانية وتركها، فإنه يحل به البلاء دنيا وأخرى، ولا يموت إلا كافراً قطعاً، وبذلك أخبرني سيد الوجود ﷺ يقظة لا مناماً، فقلت لهم: دعوني من هذا الوعيد الذي لم يرد في كتاب الله ولا في سنّة رسول الله ولا قام عليه دليل بل هو مضاد للدليل كما أخبرتكم بالأدلة القاطعة، فغضبوا وقالوا للشيخ أحمد سكيرج: (هذا مفلّس) لا تنفع فيه النصيحة، والمفلس ـ بفتح اللام وتشديده وضم الميم وتسكن تخفيفاً في اللغة المغربية ـ هو الذي بلغ غاية الضلال»[(١)].

والآخر: تلميذه محمد بناني، فاسمع إليه وهو يقول عن شيخه الهلالي بعد توبته من التيجانية:

«كان لتقي الدين لساناً حادّاً، يهجو كل العلماء الذين يخالفونه في الرأي، ويكتب فيهم «المعلقات»، كتب في الفقيه المرير، والفقيه الفرطاخ، والفقيه

---

(١) واستطرد قائلاً: «ووقع لي مثل ذلك في تطوان لما أصابني مرض الربو، زعم المشركون أن الشيخ السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض، لأني قلت لهم: لا تذبحوا له وتطلبوا منه حاجة، فإنه لا يضر ولا ينفع وكنت أعلم أن سبب المرض هو التعرض للبرد بعد الخروج من الحمام، وعلمت بعد ذلك بالتجربة أن هذا النوع من الربو دواؤه: الانتقال من قرب البحر إلى الأماكن التي هواؤها جاف خال من الرطوبة، لأني إذا كنت في البلاد البعيدة من البحر، كسجلماسة، ومدينة مراكش، ومدينة النبي ﷺ ومكة، وشمال العراق، لا يصيبني أبداً، فأين غضب السيد السعيدي وانتقامه مني حين أكون في البلاد البعيدة من البحر، وهل سيدي السعيدي يرضى أن يعبده الناس، لو كان كذلك لما كان صالحاً، إذ لا يرضى بعبادة الناس له إلا شيطان أو طاغوت، فما أسفه عقول المشركين!!».

الرهوني، والفقيه الحداد، وكان الصدر الأعظم عند العلماء في تطوان، فقلت له يوماً: هل كان الناس في نظرك لا يصلحون؟

إن الدكتور قد سلب فأحرم من الفيوضات الربانية ـ التي يتمتع بها كل صوفي ـ لما خرج من الطريقة التيجانية، أتيت له يوماً على ذكر مولاي عبد السلام، فقال لي: أنت المثقف تقول مولاك عبد السلام؟!!!

إن سبّ العلماء شيء فظيع... تقي الدين أخذ الدكتوراه في العلم، فأين الدكتوراه في التقوى؟ كان له علم الأوراق دون العلم اللدني، فعنده إذا قلت للشخص «مولاي» فذلك كفر صراح(!!) وكان يكره شيوخ الطرق ولا يعترف بهم، وأكثر من ذلك فلقد كان يقول: لا واسطة بين الإنسان وربه في حين الواسطة كانت أول الزمان، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٧ ـ ٩٨]».

ولم يكتفِ التلميذ بهذا، بل دفعه بغضه له للافتراء والكذب عليه، لما قال: «كان تقي الدين يقول بزواج المتعة»[١]!!

وهذا شأن المصلحين والموفّقين، فمن سنّة الله التي لا تتخلف فيهم، وجود المادحين والقادحين، ومن هؤلاء: الهلالي، ولا سيّما أنه عاش في عصر غربة العقيدة، إذ اتخذ الناس ـ آنذاك ـ الأضرحة وقدّسوها، وكانوا يشدون الرّحال إليها، ويصنعون الطعام الخالي من الملح ويقدمونه لها، فعمّت آنذاك الجهالة، وظهرت الخرافات والانحرافات ووصل الأمر إلى أن بعض الناس أن طافوا بالأشجار والأحجار في المناطق النائية.

قال العلّامة عبد الله كنون عن صديقه الشيخ الهلالي: إنه لم يكن ليتوانى لحظة عما أنذر نفسه له، وأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان حرباً على (الكفار) لم يكن يكني أو يستعير، بل يصرّح بالكفر الصراح على كل من عبد (قبراً)[٢].

وقد صرّح الهلالي بعداوة الطرقيين وأصحاب الخرافة، وقلبهم ظهر المجن له حين نبذهم ومال إلى قفو الكتاب والسنّة، فأَصغِ إليه وهو يقول ضمن قصيدة طويلة:

---

(١) «السلفية الوهابية» (ص١٣٣).
(٢) انظر: «السلفية الوهابية بالمغرب» (ص١٢٩).

ولـمـا أبـان الله لـي نـور ديـنـه ... وأنقذني من طرق أصحاب خرقةِ
أولئك قوم بدَّلوا الدين بالردى ... وقد مرقوا من هديه شر مرقةِ
وأبغضني الأقوامُ حين نبذتُهم ... وملتُ إلى قفْو الكتاب وسنَّةِ
وقد قلَّبوا ظهر المجنِّ وخشنت ... صدورهم لي واستعدوا لمحنتي
وقد زعموا هجري وشتمي قربة ... وكل جليس لي سيردى بسرعةِ
وقد جزموا أني أموت على الردى ... وأخلد في النيران من أجل رجعتي
أماني حمق تضحك الثاكل التي ... بواحدها سارت ركاب المنيةِ
نبذتهم نبذ النوى وتركتهم ... وهاجرت كي أحظى بسؤلي ومنيتي
وما لي ولي أو رفيق مصاحب ... ولا ناصر إلا إلٰه البريةِ
عليه اعتمادي لا على أحد سوا ... ه فهو قدير أن يجود ببغيتي
وما طلب المال الذي هو زائل ... سوى بلغة لا بدّ منها لخلتي[(١)]

وهذه الحقيقة مسلّمة لا شية فيها عند الهلالي، فها هو يقرر ويذكر أن أول داع إلى الإسلام تلبّد عليه أعداء الإسلام وتألبوا عليه، قال: «وهكذا كل داع يدعو إلى اتباعه في زمان غربة الإسلام»[(٢)].

ونعمة الدعوة إلى التوحيد والتزامه كانت عند الهلالي من أعظم النِّعم، فها هو يشكر الله عليها بقوله: «اللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا، وأخرجتنا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان»[(٣)].

ومن تمام شكر الهلالي نعمة الله عليه عند توبته من هذه الطريقة، أنه جهد في فضح أصحابها، وكشف سوءاتهم، وخصهم بتأليف مفرد[(٤)]، وكتب عنهم مقالات[(٥)]، وجرى ذكرهم في جلّ كتبه في معرض التحذير والتنفير، بل لم يقتصر

---

(١) الدعوة إلى الله (ص١٣٩).

(٢) «سبيل الرشاد» (٢/٣٥٨)، ويقول أيضاً فيه (٢/٧٧): «فالتوحيد الصحيح لا يقوم إلا على الحب في الله، والبغض في الله، والولاية لله، والعداوة لله». قلت: وتحقق الولاية والعداوة على التوحيد هو من أقوى آثار الإيمان الصحيح الذي تحلّى به صاحبنا الهلالي، والله حسيبه، ولا نزكّي على الله أحداً.

(٣) «سبيل الرشاد» (٣/٩٢).

(٤) هو «الهدية الهادية». وسيأتي ذكره في ترجمته.

(٥) نشرها في جريدة «الحرية»، كذا قال في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٧٣ ـ ٧٤)!

على النثر في معركته معهم، فتعدّاه إلى الشعر[1]، ولم يخلص منه أصحابه الذين عرفهم وهو في هذه الطريقة، فوصلهم خيرُه ونهيه وأمره، ذكر ذلك في مقالة له نشرت في صحيفة «الصراط المستقيم» الجزائرية، السنة الأولى، العدد (١٦) بتاريخ ١٥ رمضان، سنة ١٣٥٢هـ (ص٣ ـ ٤)، قال تحت عنوان (هنيئاً هنيئاً) ما نصّه:

«تلقيت بسرور عظيم خبر تعيين المكرم السيد محمد بن زيان الصمغوني أميراً لبلد أبي صمغون، وتكلل مساعي أصدقائنا الصمغونيين بالنجاح للصداقة القديمة التي بيني وبين أهل هذا البيت الكريم، وقد اشتمل هذا النبأ على شيء آخر كان فرحي به أعظم وجذلي به أتم، ألا وهو كون الصديق الكريم الحميم السيد الطاهر بن زيان ركناً من أركان الإصلاح في ذلك البلد، فقد كان هذا الأخ الكريم من خالص أحبائي في زمان الانحراف عن المحجة البيضاء، وأظن أنني بعدما اهتديت إلى توحيد ربّ العالمين واتباع حجة الله على العالمين محمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه، كتبت إلى جميع أصدقائي في تلك النواحي ومنهم السيد الطاهر، ونصحت لهم بالرجوع إلى الجادة، وبلغني أن كثيراً منهم سبّوني وشتموني ولم آسف لذلك وإنما أسفت لبقائهم محرومين من بركة ونعمة اتباع الرسول والسلف الصالح، لما جاءني البشير بأن السيد المذكور تخلص مما كان فيه، حمدت الله على ذلك فعسى أن يكون صحيحاً وعسى أن كثيراً من أصدقائي هناك أتحفوا بهذه النعمة الكبرى:

على نفسه فليبك من ضاع عمره   وليس له منها نصيب ولا سهم

نسأل الله أن يجمع كلمة إخواننا أهل المغرب على الهدى ويؤيد بهم الإسلام كما صنع بأسلافهم إنه على ذلك قدير تحية ودعوة من الشمال الشرقي الهند إلى الغرب فيه، وربنا أكرم من أن يردها».

ويذكر الهلالي أثره على الناس في مدينته مكناس، وأنها تغيّرت وتحوّلت بما أعانه الله عليه، ووفّقه إليه، فقال:

«ومدينة مكناس هذه كانت قبل خمس عشرة سنة، هي مركز الشرك والبدع،

---

(١) جمعت شعره من جميع كتبه ومقالاته، وألحقته بالترجمة المفردة التي كتبتُها له، يسر الله إتمامها ونشرها.

ولكن الله الكريم بارك في دعوتي التي بدأتُها وحدي، فاستجاب إليها كثير من الناس، فأينما ذهبت في أنحاء المدينة تجد أنصار التوحيد، إخوان من وحّد الله، ولا تزال دعوة التوحيد تنتشر وتنتصر يوماً بعد يوم، اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنّا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، فلك الحمد، ولك الشكر»[(١)].

ويرى الهلالي أن التوحيد ومعرفة معاني الشهادتين والعمل بمقتضاها هو السبيل الوحيد لعلاج واقع الأمة الأليم، قال ـ رحمه الله تعالى ـ عن أثر التوحيد في العرب قديماً: «فدانت العرب لقريش، وملكوا بها العجم، وسرها لا يزال فيها كما كان، فكل من أخذها بصدق في كل زمان ومكان ملك العالم». ثم عرج على حال العرب وتخبّطهم اليوم، فقال:

«وهؤلاء العرب الذين يتخبطون في محنتهم الحاضرة، ويبحثون عن حلّ لمشكلتهم وغسل العار عنهم، ﻫواؤهم حاضر في غاية السهولة، وهو في أيديهم، ولا يحتاجون أن يسافروا إلى (موسكو)، ولا (بكين)، ولا (واشنطن)، ولا (باريس)، ولا (لندن)، وإنما يقولون: لا إلـه إلا الله، محمد رسول الله، ويعتقدون معناهما، ويعملون بمقتضاهما، فيملكون العالم مرة أخرى، وبدون هذا الحل الذي هو الشفاء الوحيد، سيبقون يئنون من مرضهم العضال إلى الأبد، وما أحسن ما قال الشاعر، وهو منطبق عليهم أتمّ انطباق:

ومن العجائب والعجائب جمة ... قرب الحبيب وما إليه سبيلُ
كالعيس في البيدا يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمولُ»[(٢)]

وأكّد في كثير من المواطن على هذا المعنى، وأن قيام هذه الأمة ونصرها مناط بالتوحيد، وهذه نقولات عنه تؤكد ذلك[(٣)]:

---

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ٢١٦)، وقال فيه (٢/ ٣٦١) عن أهل (ريمون) من مديرية أسيوط بمصر: «وقد مضى عليهم أربع وخمسون سنة، لم تستطع فتنة الاشتراكية أن تنال من عقيدتهم مثقال ذرة...، وإذا رسخت عقيدة التوحيد في القلوب لا يستطيع أحد أن يزلزلها».

(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٢١٧)، وبنحوه فيه (٤/ ١١٥).

(٣) اقتصرنا على اليسير منها، وانظرها في «سبيل الرشاد» (٣/ ١٢١ ـ ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٤، ٢٦٨ ـ ٢٦٩، ٣٠٢، ٣٣٧، ٣٤٥ و٤/ ٧٦، ٩٩، ١٩٦).

قال في «سبيل الرشاد» (٢/ ٦٩):

«إن نصر الله للموحدين وإهلاكه للمشركين سنّة الله التي قد خلت من قبل[1]، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، فإذا لم ينتصر الموحّدون، فطال عليهم زمان غلبة أعدائهم فاعلم أن توحيدهم ضعيف، وإيمانهم ناقص، فإن الله وعد كل من نصر دينه الحق بالنصر، فقال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾. وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾. اللهم اجعلنا ممن نصر دينك ونصرته».

وقال (٢/ ٨٣):

«﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾. وقد فعل ﷻ من نزول هذه الآية إلى يومنا هذا، وسيفعل ذلك إلى يوم القيامة، فكل هزيمة أصابت المؤمنين، فهي من ضعف إيمانهم، وعدم قيامهم بالواجبات».

وقال (٢/ ٨٤):

«قال ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أي: نتائجها، فمن أحسن حسنت عاقبته، ومن أساء ساءت عاقبته، فعاقبة التوحيد فوز، وعاقبة الشرك خسران».

وهذه سنن شرعية كونية ثابتة مستمرة مستقرة حاكمة لا تتبدل ولا تتخلف.

* شكواه من مظاهر الكفر والشرك:

مثّل على ذلك كثيراً بأهل المغرب. ومما قال: «لما حصر الفرنسيون مدينة فاس في عهد السلطان عبد الحفيظ، استنصر الجهّال بالإمام إدريس بن عبد الله رحمه الله، فعاقب الله جميع المغاربة بالخذلان والهزيمة، وانتصر عليهم

---

(١) قال في «سبيل الرشاد» (٣/ ١١١): «وقد رأينا تاريخ الإسلام وتتبعناه من أوله، فرأينا المسلمين حين كانوا يخافون الله نصرهم الله في كل معركة وفي كل مكان، فلما قلَّ خوفُهم من الله، قلّ انتصارهم، وفي هذا الزمان انعدم انتصارهم، وصاروا عبرةً لأولي الأبصار، وأُصيبوا بذلٍّ لم يرَ التاريخ مثله» ونحوه في (٤/ ٧٣).

الفرنسيون، وحكموا بلادهم ثلاثاً وأربعين سنة، وهذا جزاء من يستنصر بغير الله»[١].

وقال أيضاً:

«تقدم في مواضع أخرى أن معنى إلٰه: معبود، ولذلك كان مفتاح الإسلام «لا إلٰه إلا الله» فقائلها بالصدق يشهد على نفسه ويعاهد ربه أنه لا يعبد إلا الله، ولكن أكثر من يقولها في هذا الزمان لا يعرفون معناها ولا يفكرون فيه، ولا يبحثون عنه، فتكون أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم مضادة لـ «لا إلٰه إلا الله»، ويكونون أعداءها وهم لا يشعرون، فالمغربي حين يقول: «يا فكاك الوحائل، يا منّاع الرحايل، يا غياث أصحابه في الضيقات، يا مولاي عبد القادر الجيلاني» معناه: يا من ينقذ من استغاث به في الشدائد ويغيث من التجأ إليه عند الضيق يا مولاي يا عبد القادر الجيلاني، فهذا يهدم «لا إلٰه إلا الله» ويقضي عليها قضاءً تاماً؛ لأن تلك الصفات التي جعلها أولئك الجهّال لعبد من عباد الله هي خاصة بالله تعالى، فمن جعلها لغيره فقد كفر به»[٢].

وذكر أيضاً أنه إذا قيل: ادعوا الله وحده، وتوجهوا إليه، واتركوا أولياءكم، يقولون: (الله ورجاله)، ثم مثّل على عبارة أهل المغرب، فقال: «وبعبارتهم الخاصة: (رب برجالو) يعنون: إن الله لا يكفيهم ولا تُقضى حاجاتهم إلا إذا أشركوا به رجالاً مخلوقين، فأفٍّ لهم»[٣].

وذكر ساحراً خسيساً في تطوان، ونوّه ببعض ألاعيبه، فقال:

«ومن مصائب هذا الزمان أن الناس مفتونون بالخوارق فصاروا بذلك فريسة للدجالين والمحتالين يوقعونهم في حبائلهم بأدنى الأسباب، وقد كان في تطوان شيخ ضال يدّعي التصوف وكان يمخرق على الناس بسحر خسيس، وذلك أنه يدعو شخصاً من المغفلين فيملأ كأساً من الماء ويأخذه المغفل في يده فيتكلم الشيخ الضال بكلام من السحر مما يسمونه (استحضار الأرواح)، فلا يزال كذلك حتى تهتز الكأس في يد المغفل، وذلك علامة على أن شيطانه قد حضر فيسأل حاجته منه، وقد دعا أحد المفتونين صاحبنا الشيخ الزبير التفروتي لمشاهدة هذه

---

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ٢٠٢).
(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).
(٣) «سبيل الرشاد» (٢/ ٨٣).

الكرامة بزعمه وناوله الشيخ الضال الكأس مملوءة بالماء، وأخذ يتكلم بالسحر حتى اهتزت الكأس في يد الشيخ الزبير فألقاها في الأرض فانكسرت وأريق ماؤها، فقال الشيخ الزبير للسحار: هل تستطيع أن ترد الكأس صحيحة وترد لها ماءها ولو أنك استطعت ذلك ما آمنت بسحرك فبطل كيد الساحر وافتضح.

والجهال المحرومون يستدلّون بمثل هذه المخارق على استقامة فاعلها وصلاحه وولايته لله وإن طريقته مقبولة عند الله»[1].

وقال أيضاً:

«من عجائب ما يقع في المغرب وينسب إلى الإسلام - والإسلام بريء منه - شيء يسمونه (الفدية)، وهو شائع عند الجهلة يدعو أولياء الميت جماعة من البطّالين المحتالين ليعملوا لهم «فدية» للميت تنقذه من العذاب وتجعله من أهل الجنة، فإذا كان قبره حفرة من حفر النار ينقلب في الحين روضة من رياض الجنة، وذلك أن أولئك البطّالين يذكرون «لا إله إلا الله» سبعين ألف مرة يتقاسمون العدد فيما بينهم كل واحد بضعة آلاف فيطعمهم ذلك المسكين ويعطي كل واحد منهم شيئاً من الدراهم يأكلها سحتاً، قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤]»[2].

وقال أيضاً شاكياً من مظاهر الشرك، ذاكراً السبيل للقضاء عليها، فقال: «من سوء حظنا في هذا الزمان أننا نرى أوثاناً لها بيوت وأفنية يذبح لها ويطاف بها، وتقبل ويتمسح بها بقصد التبرك أكثر مما كان عند العرب، ونحن عاجزون عن هدمها؛ لأن عبادها لا يزال عددهم كثيراً، ولكننا نستطيع القضاء عليها إذا وفقنا الله تعالى بدعوة الناس إلى هجرها والكفر بها، فيطول عليها الزمان فتتهدم من تلقاء نفسها، ويستريح الناس من شرها»[3].

واستطاع الهلالي من خلال رحلاته، وإلمامه بكثير من اللغات أن يعرف مظاهر الكفر في سائر أرجاء المعمورة، فاسمع إليه واصفاً مَنْ يعبد الشمس من دون الله مسفّهاً أحلامهم:

---

(١) «سبيل الرشاد» (٣/ ٢٣٦). (٢) «سبيل الرشاد» (٦/ ١٩٥).
(٣) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣١١).

«لما كانت الشمس أعظم المخلوقات التي نشاهدها افتتن بها قوم من الذين يغترون بالظواهر، ولا ينظرون ما وراءها فاتخذوها إلٰهاً يعبدونها من دون الله، ومن بقاياهم الشعب الياباني، فإنهم يعتقدون أن ملكهم المسمى عندهم (مكدو) هو ابن الشمس، فهم يعبدونه من دون الله، ويوجد في شمال بلاد (نرويج) قوم من أهل البادية يسكنون الخيام في تلك الأراضي القطبية الشديدة البرد، فإنها في وقت شتائها تغيب عنها الشمس ثلاثة أشهر، ولكن القمر يبقى ظاهراً فهم يعبدونه، وأما أهل المدن فإنهم نصارى كسائر الأوروبيين، ولو كانت الشمس هي التي أوجدت نفسها، وهي التي تدير نفسها، ولها علم وإرادة تسير باختيارها، لكان هنالك العذر لمن يعبدها، ولكنها مخلوقة لها أجل محدود لم تكن من قبل ثم كانت، وإذا انقضى أجلها تفنى، وقد قدر علماء الفلك في هذا العصر حسب حدسهم وتخمينهم عمر الشمس بعشرين ألف مليون سنة، وزعموا أن نصف هذه المدة قد مضى، ونصفها باق، وهو عشرة آلاف مليون سنة، ولا يوجد أحد منهم في هذا الزمان يدّعي أن الشمس أزلية، ولا أنها تطلع باختيارها وتغرب باختيارها، وتعطي الضوء والحر من تريد، وتمنعهما ممن تريد، وعبّاد البقر في الهند أقل حماقة من عبّاد القبور، فلا ينبغي أن يعبد إلا ربّ العرش العظيم، وهو على كل شيء قدير»(١)

وقال واصفاً بعض المخالفات العقدية التي فيها شرك في الألوهية ويفعلها بعض جهلة المصريين والمغاربة، واستطرد في بيان صنيع أهل نجد في هذا الباب قبل دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، فقال:

«إن الذبح بقصد التعظيم عبادة، فمن ذبح على قبة، أو قبر، أو شجرة، أو حجر، أو عين ماء، أو ذبح للجنية عائشة قنديشة، أو لزميلتها مسعودة، أو للشيخ جمعة ـ وهو اسم جنيّ يعبده جهّال المصريين ـ، أو لميمون بن شمهروش ـ وهو من معبودات المغاربة ـ، أو ذبح للجن بدون تعيين بعد نهاية بناء دار لئلا يؤذوه، أو ذبح على أهل بيت ليزوّجوه ابنتهم، كل ذلك شرك وكفر، وأكل تلك الذبيحة حرام؛ لأن كل ذلك مما أهلّ به لغير الله وإن ذكر اسم الله عليها؛ لأن الأعمال إنما هي بالنيات وهم قد قصدوا تعظيم تلك البقعة بالذبح».

---

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

ثم استطرد في بيان مظهر شركي يُعْرف بـ(قرعة الأنبياء)، وآخر بـ(الخط بالرمل)، وفصل في فضح أصحابه وبيّن دجلهم، فقال:

«الاستقسام بالأزلام موجود عند الشعوب الجاهلة بما جاء به الأنبياء والمرسلون من توحيد الله تعالى، واعتقاد أنه لا يعلم الغيب غيره والمجرمون المحتالون يستغلون جهل الشعوب فيستقسمون لهم بالأزلام بطرق مختلفة، منها ما ذكر في تفسير هذه الآية، ومنها في هذا الزمان شيء يسمى (قرعة الأنبياء) وهو جدول كل بيت من بيوته فيه اسم نبي، فيجيء الجاهل أو الجاهلة إلى الكاهن فيضع له الجدول ويقول: غمّض عينيك وضع أصبعك، فيضع أصبعه، فإن أصابت سهم آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى يقرأ عليه ما كتب من القصة، فيخبره بأنه سيجري عليه من المصائب أو النعم تقريباً مثل ما جرى على ذلك النبي، ويزد في ذلك ويزخرف القول ويجعل النتيجة حسنة والعاقبة حميدة، فيأخذ منه شيئاً من الدراهم على هذا التكهُّن، وبعضهم يستعمل خط الرمل وبعض الكهّان يبيتون».

وفصل في ذلك لما عرج على بلاد شرقي الحجاز، فقال:

«ولما زرت بلاد شرقي الحجاز وأوائل نجد وجدت عندهم كاهنات إذا أراد شخص أن يتزوج أو يسافر أو يتجر في شيء يأتي إلى الكاهنة ويقدم لها الحلوان ولا يكون أقل من بعير فتبيت له، وفي الصبح تخبره وتأمره بالإقدام أو الإحجام، وهؤلاء القوم من أهل البادية لم تبلغهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فدعوتهم إلى توحيد الله وسنّة رسول الله وكان معي أحد أمراء تلك النواحي ماجد بن موكّد أمير النخيل».

وفصَّل في أسماء (المقامات) التي تشد إليها الرّحال، ويعظمها الدهماء، ويقصدونها بأعمال شركية في كثير من بلاد الدول العربية، وأكثر من ذكر مدن العراق لإقامته بها نحو ثلاثين سنة، فقال في مقالة نشرت في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، المجلد (السادس عشر)، العدد (الثاني)، ربيع الآخر، ١٤٠٤هـ (ص٣ ـ ٤) فقال:

«إن الأصنام أحجاراً، أو رخاماً، أو ذهباً، أو شمساً، أو قمراً، أو ناراً، أو ماءً، أو قبوراً، أو قباباً، أو أشجاراً، أو أكواماً من الحجارة، أو أشخاصاً أحياءً، أو أمواتاً، أو دواب، وإنما لبَّسَتْ عليهم الشياطين فأوهمتهم، ثم أقنعتهم

أن تلك الأشياء قد حلّ فيها سر الألوهية، وهو ما يسميه المغاربة (بركة) فهذا السر عندهم يجوز أن يحلّ في كل شيء، ومتى حلّ في شيء وجب تقديسه وعبادته وأصبح يضر وينفع، فلو أن سادناً أخذ أحجاراً من جبل وبنى بها قبة وضريحاً على قبر، سواء أكانت فيه جثة أم لا، وسواء أكانت تلك الجثة جثة صالح أو طالح أو حيوان. فإذا وضع على ذلك الضريح تابوتاً وستاراً من حرير، وعلّق المصابيح الثمينة والثريات، وفرش أرض القبة بالزرابي، وملأ جوّها طيباً بالبخور وغيره، وتزيّا بزيّ المشايخ بتفخيم العمامة وتكويرها، وإطالة اللحية وشعر الرأس، ولبس الثياب الفضفاضة، وأخذ يحكي حكايات تثبّت أن ذلك المدفون له كرامات وأنه يقضي الحاجات، يتهافت عليه عبّاد الأوثان، ويأتونه من كل مكان بما شاء من هدايا ونذور وشمع وبخور وثيران تخور، ومواسم يختلط فيها الرجال بالنساء والحابل بالنابل. وهذا أصل عبادة الأصنام والأوثان قديماً وحديثاً، وبعض المضلين من الذين يسمون أنفسهم أو تسميهم العامة علماء يزيدونهم ضلالاً، فيسمون ذلك الشرك كرامات الأولياء، ويسمون كل وثن ولياً، وينسبون ذلك الوثن إلى اسم نبي، كمقام النبي جرجيس في الموصل، والنبي بولس بقرب الموصل في خرائب نينوى، والنبي شيث في كركوك. والتحقيق أنه لا يوجد قبر نبي معلوم إلا قبر نبينا محمد ﷺ. وأما قبر الخليل إبراهيم فليس بمعلوم بالتعيين، إلا أنه دفن بقرب المكان المنسوب إليه في الأردن. ومن هذا القبيل ضريح النبي زكريا في قلب جامع بني أمية بدمشق، فإنك ترى المصلين يصلون وإلى جانبهم العابدين والعابدات والطائفين والطائفات بذلك الوثن المنسوب كذباً إلى ذلك النبي. ولو فرضنا أنه مدفون هناك ما جاز أن يتخذ قبره وثناً، ولا يُبنى عليه، ولا يطاف به، ولا ينذر له، ولا يعبد بأي نوع من أنواع العبادة».

ولم تقتصر معرفته ودعوته لعابدي القبور والأنصاب، بل فصل في عبادة (الأشجار) و(الأحجار) و(المياه) و(الحمير)! وذكر بعض القصص التي وقعت له، ولنرخي عنان القلم للهلالي ليحدثنا في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٢٠ ـ ٢٢) عن ذلك، قال وهو بصدد حديثه عن عبادة الأشجار:

«فقد حدثت من عهد بعيد، فقد ذكر ابن أبي شامة في كتاب «البدع»[١] له

(١) المسمى «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص١٠١ ـ بتحقيقي).

أن شجرة كانت تعبد في دمشق في زمانه، وأما في هذا الزمان فحدّث عن البحر ولا حرج، فقد شاهدت شجرة عظيمة وافرة الأغصان تعبد في مصر وأخبرني الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة أنه همّ بقطعها وأخذ فأساً واشتغل طول الليل إلى أن كاد الفجر يطلع، فلم يستطيع أن يقطع إلا جزءاً يسيراً من أغصانها، فجاء عبّادها في الصباح بالنذور فوجدوا بعضها مقطوعاً، فغضبوا غضب العابد لمعبوده واتهموا الشيخ المذكور، ورفعوا شكوى إلى العمدة، فطالبهم بالبينة فقالوا: لا يوجد أحد في هذه الناحية يشنع على المتبركين بها إلا هذا الرجل، فقال العمدة: إنني لا أستطيع أن أعاقبه بهذه الحجة التي لا تتجاوز الظنون، وأخبرني الحاج محمد أجانا ـ وهو رجل قضى عمره في البدع حتى بلغ السبعين، ثم هداه الله إلى التوحيد بدعوتنا ـ أن له شجرتين يعبدهما الفلاحون، إحداهما اسمها أبو بكر، والأخرى نسيت اسمها، وإن الفلاحين يضعون أدوات الحرث وغيرها مما يثقل عليهم حمله إلى جانب إحدى الشجرتين فلا يتجرأ أحد أن يسرق شيئاً من ذلك مع أنهم سرقوا حصر المسجد، ولو ذهبنا نعدّد وقائع عبادة الأشجار لطال بنا الكلام».

وقال: «وأما عبادة الأحجار فهي كثيرة أورد بعض وقائعها، فمن ذلك: حجر كبير ناشز في جبل بالصعيد في مديرية أسيوط، أخبرني أصحابنا أنه كان يسمى الشيخ دغارا، وأن جماعة منهم ذهبوا ذات ليلة بمعاولهم واشتغلوا طول الليل فتركوا الشيخ دغارا أثراً بعد عين، ومنها أن صخرة في مرسىٰ مدينة طنجة داخل البحر تسمى سيدي ميمونا يعبدها أهل تلك الناحية، وسبب اطلاعي على عبادتها أني كنت راكباً في سيارة حافلة من طنجة إلى تطوان سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى وأتباعهم، وكان إلى جانبي رجل معه امرأة فسلّم علي وقال لي: أنا ممن يحضر دروسك في الجامع الكبير، وقد هداني الله إلى التوحيد بسبب ذلك ولكن زوجتي هذه لا تزال متمسكة بالشرك، فأرجو من فضلك أن تعظها لعلّ الله يهديها بوعظك كما هداني أنا، وذكر لي قضية اشتدّ نزاعهما فيها تتعلق بعبادة الصخرة البحرية المسماة بسيدي ميمون.

وحاصلها: أنهما لا يعيش لهما أولاد إذا بلغ الصبي سنة يموت، فنذرت زوجته أن تذبح عن ولدها في كل سنة شاة لسيدي ميمون، وقد حانت نهاية السنة الأولى من عمر الصبي قال: فامتنعت أنا من الوفاء بهذا النذر وقلت: إن عمر

الصبي بيد الله وميمون صخرة لا تضر ولا تنفع، فلم تقبل، فوعظتها من طنجة إلى تطوان مدة ساعة، ولا أدري هل انتفعت بوعظي وتابت من الشرك أم بقيت على شركها. وأكتفي بهذا القدر من الشواهد على عبادة الأحجار.

ومن عبادة المياه: أن بئراً بالقصر الكبير يعبدها السفهاء ويسمونها سيدي ميمونا، ويزعمون أن ابن أمير الجن شمهروش كثيراً ما يحضرها، خبّرني بذلك غير واحد في البلد المذكور وشاهدت حوادث أخرى من عبادة المياه فلا أطيل بذكرها.

وأما عبادة الحمير: فأذكر فيها قصتين: **إحداهما** وقعت في طرابلس الغرب على ما حدثني به ثقة، وذلك أنه كان في تلك الديار شيخ متصوف اسمه عبد السلام الأسمر، كان يرقص مع أصحابه ويضربون بالدفوف حتى يخروا صرعى على الأرض، ويعتقدون أن الدف الذي كان يضرب به الشيخ عبد السلام نزل من الجنة وكان يضرب به علي بن أبي طالب للنبي، والشيخ عبد السلام والمريديون المنقطعون للعبادة معه لم يكونوا يكتسبون معيشتهم؛ لأنهم كانوا بزعمهم متوكلين، وكان للشيخ المذكور حماراً يطوف على بيوت البلد وحده كل صباح ومساء وعليه خرج، فكلما وقف بباب بيت يضع أهله شيئاً من الطعام في ذلك الخرج فيرجع إلى الشيخ والمريدين بطعام كثير غدوة وعشية، فلما مات الشيخ وتفرّق المريدون بقي الحمار بلا عمل فصار الناس يقدمون له العلف ويتبركون به إلى أن مات فدفنوه وعكفوا على قبره يعبدونه.

والقصة الثانية في المغرب الأقصى: قرأت في سنة ستين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى في (صحيفة العلم) مقالاً لمعلمة اسمها خديجة النعيمي من الدار البيضاء، قالت خديجة: خرجت مع نسوة جاهلات نتجول خارج المدينة فمررنا بكوم من حجارة، فأخذت النسوةُ يقَبِّلْن تلك الحجارة ويتمسَّحن بها قائلات: (أنتاع الله يا للا حمارة) معناه: نسألك متاع الله؛ أي ما أعطاك الله من الكرامة يا سيدتنا الأتان، قالت: فأنكرتُ صنيعَهن، وقلت لهن: ويحكن تتخذن أولياء حتى من الحمير؟ فقلن لي: اسكتي إنك لا تعرفين قدر هذه الولية، فكم قضت من حاجات ونخاف عليك أن تضربك ضربة يكون فيها حتفك، فسلمي للفارغ لكي تنجي من العامر. قلت: وهذا مثل يضربه المغاربة لمن اعترض على عبادة شخص وقال: إنه لا ينفع ولا يضر يقول له عباده: (سلم للخاوي تنجي من العامر) معناه: هب أنه فارغ من الولاية فخير لك أن لا تعترض عليه وأن لا تنكر

ولايته؛ لأنك إن استمررت في الإنكار يخشى عليك أن تصادف ولياً حقيقياً فيصيبك بشرٍّ، ثم وجّهت الكاتبة المذكورة دعوة إلى العلماء، وقالت: يا علماء الدين اتقوا الله، وعلّموا الناس توحيد الله وشعائر دينهم، فإنكم ضيعتم الأمانة التي حملكم الله إياها حتى وصل الناس إلى عبادة الحمير دون الله. فكتبت ثلاث مقالات تلبية لدعوتها ونشرت في صحيفة «العلم»[(١)]، ولم يُلَبِّ دعوتها أحد غيري من قرّاء صحيفة «العلم» وهم يعدون بالآلاف، وأظن أن هذا القدر يكفيك إن كنت منصفاً ويقنعك إن كنت متعسفاً».

وأفلح الهلالي في دعوته، ونجح في جميع الميادين التي وصل إليها، واستطاع بإذن الله أن يجعل كثيراً من الناس يرجعون إلى التوحيد، ويفرون إلى الله تعالى الفرار الشرعي السليم دون وسائط ولا شرك، وكان عَلَماً في بلاده على التوحيد الصحيح، وسبق بيان بعض آثاره في بلاده[(٢)]، وتعداه ذلك من خلال مقالاته وكتبه ورسائله الخاصة. فها هم جماعة من اليمنيين يتبرؤون من شيخ طريقة لهم يسمى (الحلول)، ويذكرون أن الهلالي أرسل لهم كتاباً خاصاً بهم، ونعتوه في أوله بقولهم: «هو عبارة عن قلادة من اللآلئ والجواهر، وكلما تأمله الإنسان، وأعاد قراءته وجد من معانيه شيئاً جديداً، فهو كما قيل:

تزيّن معانيه ألفاظه   وألفاظه زائنات المعاني»

ويقولون له في آخره:

«ولا يعزبن عن ذهنكم أو كتابتكم ونصائحكم ستكون نافعة نفعاً عاماً شاملاً ليس في اجتناب الطريقة الحلولية فحسب، بل في الابتعاد عن كل عقيدة تخالف ما كان معلوماً في عهد السلف الصالح وتجعل الناس يفرون من الدجاجلة فرارهم من الأسد، وأملنا أنكم ستكاتبوننا ولو ببعض كلمات مختصرة ليصير لنا الشرف وليزداد الناس إيماناً واطمئناناً في اجتناب البدع والأضاليل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[(٣)].

---

(١) على ثلاث حلقات، بعنوان (صور من حياتنا الاجتماعية)، وهي منشورة في السنة (١٥)، منها أعداد رقم (٤١١٣، ٤١١٩، ٤١٣١) بتأريخ ربيع الثاني، جمادى الأولى والثانية من سنة ١٣٨٠هـ ـ الموافق: ١٩٦٠م.

(٢) انظر ما سبق قريباً عند كلامه على دعوته في مكناس.

(٣) انظر: مجلة «الصراط السوي» الجزائرية.

وجعل الهلالي محاربة البدع والأضاليل والدعوة إلى الاتباع ونبذ التقليد والتمذهب والتعصُّب والتفرُّق والتحزُّب من صلب دعوته، وجعلها في قائمة الأولويات وأهم المهمات. ولذا زاد ـ كما قلنا ـ نوعاً رابعاً على أنواع التوحيد المعروفة الثلاثة، ألا وهو (توحيد الاتّباع)، ولا بدّ لنا من كلمة سريعة حول:

* حرص الهلالي على الاتباع ونبذه الفرقة والتحزُّب والتعصب والتمذهب:

للهلالي جهود مبرورة في الدعوة والتأليف في الاتباع والسنّة، والتنبيه على خطورة التقليد وآثاره السيئة، وانتقل بفضل الله ورحمته مباشرة من ظلمات وخرافات وانحرافات الطرقيين إلى أنوار الاتباع والسنّة.

وكانت دعوة الهلالي للاتباع تسير جنباً إلى جنب مع دعوته إلى التوحيد، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أول ما دعوتُ في صعيد مصر إلى توحيد الله، واتباع سنّة رسوله ﷺ، ونبذ البدع والمحدثات»[١].

وقال: «كل مسجد بُني أو يبنى إلى يوم القيامة وعمارته التوحيد واتباع السنّة، وإن كان من قصب، وخرابه الشرك والبدعة وإن كان من ذهب»[٢].

ولذا يذكر الهلالي إن أحبّ الأعمال إليه: حب الدعوة إلى اتباع الكتاب والسنّة، وإن أبغضها إليه التقليد كيف ما كان نوعه[٣].

ويترتّب على هذا بغضه للبدع والمبتدعة، وما أحدثوه من الطرائق القدد[٤]. فها هو الهلالي يقول رادّاً على أهل الطرق وأصحاب الأحزاب: «فهل أحدث الصحابة طرائق في الدين، فكانت هناك طريقة بكرية، وطريقة عمريّة، وطريقة عثمانية، وطريق علوية، وطريقة جابرية، وطريقة مسعودية، . . . إلخ، معاذ الله أن يتفرّق أصحاب رسول الله ﷺ في دينهم»[٥].

وقال مبيّناً حقيقة الأحزاب: «ومن طبع الأحزاب والفرق أن يفرح كل حزب بما عنده، ويدَّعي أنه الحق، ولكن عند الصباح يحمد القوم السرى،

---

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٦١). (٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٥٨).
(٣) انظر: «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٩٢).
(٤) «سبيل الرشاد» (٢/ ١٦٠ ـ ١٦١).
(٥) للهلالي في (ذم الطرق) عدة مقالات، تنظر تحت (في سبيل الإصلاح) من مقالاتنا التي جمعناها له، يسّر الله نشرها بخير وعافية.

والصباح الموت وما بعده، فحينئذ يفرح أهل الحق الذين وحدوا الله، واتبعوا رسله، ويندم أهل الباطل الذين أشركوا بالله وابتدعوا في دين الله»[١].

وذكر أن من الضلال إحداث المذاهب والتعصب لها، وقال: «يجب على المسلمين في كل زمان ومكان أن يكونوا في دين الله كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، لم يكن عندهم مذاهب ولا طرق ولا فرق ولا نحل، فلو كان التفرُّق حقاً لكان أصحاب رسول الله ﷺ على مذاهب: بكرية، وعمرية، وعثمانية، وعلوية ـ حاشاهم من ذلك ـ وهم خير القرون. نسأل الله أن يجعلنا ممن اتبعهم بإحسان»[٢].

ونردد مع صاحبنا العلّامة الهلالي أن ما نراه اليوم من أحوال العرب وسائر المسلمين من تخبط في الظلمات إنما سببه الإعراض عن القرآن واتخاذهم إياه مهجوراً، وأنهم لن يخرجوا من ظلماتهم إلا بالرجوع إليه، والاستضاءة به، واتخاذه إماماً وحكماً، والتمسك بسنّة رسول الله ﷺ التي تبيّنه وتشرحه[٣].

وركز الهلالي على هذا المفهوم، وأعاده وكرره، فها هو يقول:

«لا يرتاب أحد ـ لا مسلم ولا كافر ـ أن القرآن أخرج العرب من الظلمات إلى النور، وأخرج جميع الدول الإسلامية السابقة من ظلمات الجهل والفقر والذلة والتشتت والضعف إلى أضدادها، وفي قتال المسلمين لجميع دول أوروبا بملوكها وجيوشها مدة مائة وتسعين سنة على أرض فلسطين وما حولها، وانتصار المسلمين عليهم شاهد من أعظم الشواهد للمقارنة مع استيلاء ثلاثة ملايين من غرباء الآفاق من اليهود على المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة المقدسة عند المسلمين، ويقابل هذه الملايين الثلاثة مائة مليون من العرب وستمائة مليون من المسلمين غير العرب[٤]، وقد حارب العرب اليهود مراراً وتكراراً فلم يحصلوا على طائل[٥]، فكل من اتبع القرآن والسنّة من الشعوب والدول والأفراد يخرجه الله من الظلمات إلى النور، وكل من خالفهما بعد المعرفة يخرجه الله من النور إلى

(١) «سبيل الرشاد» (٢/ ٩٤).
(٢) «سبيل الرشاد» (٢/ ١٦٧).
(٣) انظر: «سبيل الرشاد» (٢/ ٢٧٤).
(٤) هكذا كان عددهم آنذاك!
(٥) بل جعله في «سبيل الرشاد» (٤/ ١٩٣) من العذاب الأكبر، قال: «إن عجز ثمان مئة مليون عن مقاومة ثلاثة ملايين من العذاب الأكبر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

الظلمات، ومن المخالفين لهما المقلدون وأصحاب الطرائق الذين فرّقوا دينهم وصاروا شيعاً»[(١)].

ويقول أيضاً:

«أُعيد وأُكرر أن كل شعب أو أمة أو فرد بلغه أمر ربه بواسطة رسل الله تعالى، فعصى أمره وكذب رسله يعذبه الله في هذه الدنيا عذاباً أليماً ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ولا يفلح أبداً، فإن قلت: هذه الأمم الأوروبية نراها تعيش في سعادة دنيوية عزيزة منصورة موسعاً عليها في الرزق مع أنها عتت عن أمر ربها فالجواب: من بلَّغها الإسلام على وجهه؟! ونحن نعلم أن ارتقاءها بدأ عند انحطاط المسلمين ورجوعهم إلى الوراء»[(٢)].

ويقول أيضاً:

«القرآن كنز عظيم جاءنا به النبيّ الكريم، فاستغله سلف هذه الأمة أحسن استغلال وبلغوا به أوج العلا في سعادة الروح الجسد، وحكموا به مشارق الأرض ومغاربها وملأوا الدنيا علماً وعدلاً ثم خلف من بعدهم خلوف نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ فردوا إلى أسفل سافلين وهم في ظلماتهم يعمهون، وقد تعلقوا بالسراب يظنون أنه شراب! ولن يجدوا لدائهم دواء ولا لمشاكلهم حلّاً إلا بالرجوع إلى القرآن درساً وتعليماً وتحكيماً، ويتخذونه سراجاً لهم يضيء ظلمات الحياة الدنيا ويسعدهم في الأخرى»[(٣)].

والكلام في التقليد والاتباع كثير كثير، وله عند الهلالي عدة اتجاهات، وخاض غماره بتفصيل وتأصيل وتدليل في كثير من كتبه، ولا سيّما في القسم الذي خصصه لذلك في كتابنا «سبيل الرشاد» وللهلالي مناظرات ومناقشات واختيارات نصر فيها التوحيد والسنّة، عملنا على ذكر بعضها في كتابنا المفرد في ترجمته، يسّر الله لنا إتمامه بخير وعافية، وبسطنا فيه كلامه على التحزُّب ومحاربته لأهل البدع، وذكرنا نماذج من كلامه وفتاويه، واعتنينا فيه بجوانب الإصلاح عنده، وفصّلنا أعماله ومهامه في كل بلدة نزل فيها واستقر، أو رحل إليها وزارها، مع بيان المجريات التي وقعت له، وهو شامل حافل، أخذناه

---

(١) «سبيل الرشاد» (٤/ ١٧٠).
(٢) «سبيل الرشاد» (٤/ ١٩٥).
(٣) «سبيل الرشاد» (٤/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

باستقراء وتتبع لما في كتبه ومقالاته وهذا الذي سطّرناه وزبرناه هنا فيه غنية وكفاية ـ إن شاء الله ـ لمن رام أن يعرف منزلة صاحبنا من العلم والدعوة، وأثره في الإصلاح والتغيير، ودوره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه إطلالة جيدة على مدى عناية الهلالي بالتوحيد وحرصه على الدعوة إليه. وبذا نكون قد أزحنا الستار، وكشفنا اللثام، وحقّقنا المقام لعَلَم من الأعلام، ورحالة حاز قصب السبق في توصيل دعوة الحق إلى الأنام، في عصر استحكمت فيه غربتا الزمان والمكان للإسلام، ولذا فَقَدَه الناسُ لما رحل عنهم ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى دار السلام.

* أسلوب المؤلف في الكتاب ومادته وموضوعه وردّه على الأخطاء والبواطيل والخرافات والشرك:

كتابنا «سبيل الرشاد» مفيد جداً، صاغه صاحبه بأسلوب جذّاب، ولغة سلسة، بعيدة عن الغريب والحشو، وزيّنه بحِكَم وقصص وأشعار، وعمل فيه على الاختصار، إلا أنه لم يستطع أن يكبح جماح اليراع، فاسترسل المصنف في ذكر أشياء ليست من مادته ولا صلبه، ولكنها خرجت عفو الخاطر دون تكلف، وهي لا تخلو من فائدة مهمة، فذكر ـ مثلاً ـ (١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢) مناظرته في حجته الأولى سنة ١٣٤١هـ في زمان ملك الحجاز الحسين بن علي، واجتماعه بمحمد حبيب الله بن مايابا الشنقيطي، وأنه قال له: أنت وهابي! ونقل الهلالي على لسانه أنه قال له:

«وأنتم عندي معشر الوهابية ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: أهل نجد، وهم عندنا كفار! كاليهود والنصارى ونحن المسلمون.

والصنف الثاني: وهابية الشام، وأنت منهم، وهذا الصنف عندنا ضلال.

والصنف الثالث: وهم وهابية الهند، وهم عندنا مخطئون».

قال الهلالي: «وبعد هذه المناظرة سمعت أن جماعة من الحجاج الأندونيسيين من أصحاب الشيخ أحمد السركتي[1] ـ رحمة الله عليه ـ جاهروا

---

(١) مؤسس جمعية «الإرشاد» في سورابايا، أندونيسية، ولها الآن فروع كثيرة، ودرَّستُ ـ ولله الحمد ـ محاضرات عديدة في هذه الجمعية، وعقدت فيها مع بعض إخواني من طلبة العلم دورات للعلوم الشرعية أكثر من مرة، وحصل بها نفع عظيم، ووجدنا بشاشة =

بالتوحيد، فأنكر عليهم الناس وساقوهم إلى مجلس العلماء، فسألهم أولئك المسمَّون بالعلماء!! فاعترفوا فاستتابوهم وهددوهم، فتابوا».

قال الهلالي: «فلما سمعت هذا الخبر اختفيت ثمانية أيام في (المعايدة) عند المغاربة خوفاً من أن يخبر الشيخ المذكور مجلس العلماء فيستتيبوني...».

وذكر كثيراً من القصص التي وقعت له[1]، واستطرد في ذلك، ولكنه كان ـ غالباً ـ يمثّل بها على تأصيل وتقعيد يخدم قواعد ومسائل التوحيد، وهذا يسهل وييسّر فهم مادة الكتاب ولا سيّما من قبل المبتدئين من الطلبة، وعامة المثقفين والمطّلعين.

ولم يَفُتِ المصنِّفَ التنبيه ـ ولو بالإيماء ـ على أخطاء لغوية اشتهرت بين الناس، فقال ـ مثلاً ـ في (١/ ٥٠٢ ـ ٥٠٥):

«والجهال من أهل هذا الزمان يعبرون بالأبسط على الأسهل، وبالبسيط عن السهل أو القليل، ويزيدون على ذلك جهلاً فيقولون: بسّط الشيء ـ بتشديد الشين ـ، بمعنى: سهّله! ويقولون: قواعد النحو المبّسطة، وكل ذلك ضلال، فإن (بسّط) ـ بالتشديد ـ معناه: كثرة التوسيع، كقَتَل وقتّل ـ بالتشديد ـ»[2].

ولم يخل كتابه من تقويم للكتب فهو يمدح بعضاً منها، وسبق كلامه قريباً على «الصوارم والأسنة» وقال عن كتاب «إيقاظ همم أولي الأبصار» للفلاني:

«فعليك بقراءة هذا الكتاب، فإن فيه من الفوائد العلمية ما تشتدّ حاجة كل طالب علم إلى معرفته»[3]. وقال عن مؤلفه: «الإمام المجدد محيي السنّة ومميت البدعة وعدو التقليد»[4].

= واستجابة وترحيباً وتقديراً من إخواننا هناك ـ فجزاهم الله خيراً ـ.
وحصلت ـ ولله الحمد ـ على كثير من الجهود العلمية التي قام بها الشيخ السركتي، وهي جيدة ونافعة، ولعلي أجمعها في (مقالات) مفردة، اللهم يسِّر لي خدمة ما ينفع دينك، ويكون سبباً لنشر التوحيد وصحيح السنة.

(١) انظر ـ على سبيل المثال ـ: (١/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩)، و(٢/ ١٢٤) (ذكر فيه رحلته للنرويج)، و(٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، (٣/ ٩١ ـ ٩٢، ٢٦٥).

(٢) للهلالي في كتابه «تقويم اللسانين» (ص٣٢ ـ ٣٤) بسط لهذا الخطأ، وأصل كتابه مقالات نشرها في مجلة «دعوة الحق» المغربية، وهي ضمن «مقالات الهلالي» التي جمعناها له، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٣٤).

(٤) «سبيل الرشاد» (٣/ ٢٨٠).

وقال أيضاً عند كلامه على الجمع بين (الوصل والوقف) في قراءة القرآن، وتعرض لبدعية القراءة بصوت واحد، وقال عنها: «جاءت من الأندلس إلى المغرب في زمان الموحدين». وقال: «فهي بدعة، لم يعرفها مالك، ولا وقعت في زمانه؛ لأنها مأخوذة من الكنيسة النصرانية، فإن النصارى يرتلون صلواتهم من الأناجيل بصوت واحد، فهذه بدعة جديدة وفيها مفاسد متعددة». ثم قال ـ وهذا موطن شاهد ـ مادحاً لكتاب في المسألة، قال:

«وقد شرع أخونا حسن وجاج في تأليف كتاب يقيم فيه البراهين القاطعة على بدعة ما يسمى عند المغاربة بالحزب ويحدد تاريخ وصولها إلى المغرب، وما فيها من المفاسد، وهو عمل مشكور، نرجو أن ينفع الله به من شاء من عباده»[1].

ومدح كتب الإمامين المجددين شيخي الإسلام: ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، فقال في (٦/ ٢٧٩) عن مسألة: «وقد فند هذه المسألة بحثاً وتحقيقاً شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية في كتابه المسمى «التوسل والوسيلة...».

ويحذِّر من كتب أخرى، فها هو يقول ـ مثلاً ـ عن كتاب «الإبريز» لأحمد بن المبارك اللمطي المغربي ـ ونقل بعض الترهات والخزعبلات التي فيه ـ: «وهذا الكتاب مقدّس عند أكثر علماء الأزهر وعلماء المغرب، ومن ذلك تعلم أن علم الكتاب والسنّة قد مات وصار أهله غرباء»[2]!.

وكذا قوّم فيه شعراً، فمدح بعضاً وقدح في بعض آخر، ولعله تعداه إلى صاحب الشعر، فقال ـ مثلاً ـ في (٣/ ٢٣٩) عن الشاعر صالح بن عبد القدوس: «كان زنديقاً»!.

وقال في (١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢): «قال أحد المشركين من أهل المغرب يطلب النصر على الفرنسيين من الإمام إدريس بن عبد الله المدفون في زرهون من بلاد المغرب، لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس...». وأورد بيتين من الشعر[3]، وذكر

---

(١) «سبيل الرشاد» (٣/ ١٧٢)، وانظر تعليقنا عليه.

(٢) انظر: «الهدية الهادية» (١٢٩) وكتابنا هذا (١/ ٢٦٢).

(٣) وأعادهما في (١/ ٤٧٠) وقال عقبهما: «أراد هذا المشرك المجنون أن يقوم إدريس من قبره، أو تأتي روحه، فتقاتل الجيش الفرنسي، وتصده عن مدينة فاس، أما هو فيجلس =

في الموطن نفسه أشعاراً فيها شرك يقولها التيجانيون في عادتهم بلسان واحد. وذكر فيه أيضاً ثلاثة أبيات أخرى يقولها الدرقاويون! وتعرض في (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤ و٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢) لأبيات من قصيدة «البردة» للبوصيري، ونقدها، إذ فيها غلو في رسول الله ﷺ، وكذلك رد في (١/ ٤٨٩) على من أنشد شعراً في النبي ﷺ، فقال:

حبا اللّهُ النبيَّ مزيدَ فضلٍ … على فَضلٍ وكَان به رؤوفا
فأحيا أمَّه وكذا أباهُ … لإيمانٍ به فضلاً مُنِيفا
فَسَلِّم فالقديرُ به جديرٌ … وإنْ كانَ الحديثُ به ضَعِيفا

ونعت صاحب هذا الشعر بالجاهل، إذ قال عقب الأبيات: «وقال آخر، وهو أشد جهلاً من الأول:

أيقنت أن أبا النبي وأمه … أحياهما الرب الكريم الباري
حتى له شهدا بصدق رسالة … سلِّمْ، فتلك كرامةُ المختارِ
هذا الحديث ومن يقول بضعفه … فهو الضعيف عن الحقيقة عاري

وقائل هذا الشعر من أجهل الجاهلين، فإنما أراد أن يعظم النبي ﷺ بتكذيبه وتكذيب جميع المحدّثين[1]، وكفى بذلك جهلاً وضلالاً».

ولم ينسَ الهلالي نقد من يتجهون للنبي ﷺ بالدعاء، وطلب الغفران الذنوب منه، فقال (١/ ٥١٢):

«والجهال المنتسبون إلى الإسلام يعبدون بعض الأنبياء، فيستغيثون بالنبي ﷺ، فيقولون: يا رسول الله! يا محمد! أعطنا وأغثنا! كما قال قائلهم:

يا رسول اللّه يا بحر الوفا … يا غياث المعتدي والمهتدي
إنني عبدٌ ضعيفٌ وَجِلٌ … وذنوبي ما لها من عددِ»

= رابضاً كالثور المريض في يده سبحة يعدّ حباتها ويأكل ويشرب، فلم يغنه إدريسه بل دخل الفرنسيون مدينة فاس، ثم فتحوا بلاد المغرب بلداً بلداً إلى أن استولوا عليها كلها، ومكثوا يحكمونها بالحديد والنار ثلاثة وأربعين سنة...».

(١) بيّنتُ بتطويل وتحقيق ـ ولله الحمد ـ ضعف ووهاء جميع ما ورد في هذا الباب في تقديمي لكتاب عليّ القاري «أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ»، وأوردت في الطبعة الثانية منه كلام العلاّمة الهلالي هذا، والحمد لله وحده، لا ربَّ سواه، ولا معبود بحقٍّ إلا إياه.

قال في نقد البيتين:

«فانظر إلى هذا الجاهل المشرك الذي يعتقد أن النبي ﷺ لا يغيث المهتدين فقط، بل يغيث المعتدين أيضاً، ثم توجه إلى النبي ﷺ في البيت الثاني يريد منه مغفرة ذنوبه، وهذا جهل عظيم، فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله، والنبي ﷺ لا يغيث أحداً لا معتدياً ولا مهتدياً، وإذا كان يغيث المعتدي فهو إعانة له على الاعتداء ـ حاشاه من ذلك ـ».

وردّ على جملة من الأشعار فيها عبادة الأولياء[1]، والتوجه إلى المقبورين بالتضرع في طلب المطر، ويقولون وهم حفاة، حاسرو الرؤوس، والثور يمشي أمامهم ليذبحوه على القبر:

جئناكم قاصدين لا تردونا خائبين
يا أولياء اللّه الصالحين[2]

ولم يقتصر في ردّ الشعر على النثر، بل عارضه بشعر آخر، فقال عند حديثه عن (علم الكلام) ممثلاً به على العلم الذي لا ينفع وإن كان صاحبه يعتقد أنه حق، قال:

«وقول بعض المتكلمين شعراً:

أيها المغتدي ليطلب علماً كل علم عبد لعلم الكلامِ
تطلب العلم كي تصحح حكماً ثم أغفلت مُنزِّل الأحكامِ

وجوابه أن يقال: كذبت علم الكلام ليس سيداً للعلوم، وإنما هو عبد لهو من المتفلسفين، وسخافاتهم وهو بدعة ملعونة، إلا في حق من اضطر إليه ليدافع به عن الحق، ويلجم أهله، ويرميهم بأحجارهم، ويأخذهم بإقرارهم، ثم يقال له: نحن ما أغفلنا مُنزِّل الأحكام ولكنّا وصفناه بما وصف به نفسه سبحانه وبما وصفه به رسوله الكريم متّبعين في ذلك لنبيّه ﷺ وللصحابة والتابعين.

وأقول في ذلك شعراً معارضاً له[3]:

---

(١) انظر: «سبيل الرشاد» (١/ ٥١٢ و٢/ ٢٦٢).

(٢) «سبيل الرشاد» (١/ ٥١٤)، ورد في (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) على شعر فيه استسلام المريد للشيخ، وعدم استفساره عن شيء ولو كان ظاهر الحرمة!

(٣) لم أجد هذين البيتين في أي كتاب من كتب الهلالي المطبوعة، وفاته رحمه الله أن يذكرهما في «ديوانه» الذي عنّ له جمعه بعد ضياع قسم من شعره، ولا زال على الآلة الراقمة!

أيها المغتدي لتطلب علماً اجتنب جاهداً ظلامَ الكلامِ
إنَّ علمَ الكلام ليس بعلمٍ إنما العلمُ شرعةُ العلَّامِ

وكذلك علم الفروع إذا لم يكن معه علم الكتاب والسنّة، كعلم الغزالي والبيضاوي والزمخشري، فهؤلاء كلهم جاهلون بالحديث، ومن جهل الحديث لم يستطع أن يفهم القرآن، فيكون محروماً من علم الكتاب والسنّة كهؤلاء الثلاثة الذين حشوا كتبهم بالموضوعات والمتروكات والغرائب التي لا تخفى على المبتدئين في علم السلف، مع أن الغزالي كان عالماً بالفلسفة وبدع المتصوفة، وعلم الفروع وأصول الفقه المبنية على شفا جرف»[(١)].

ولم يقتصر في نقد الشعر على المعنى والفحوى، وإنما نقد الألفاظ والمبنى، فقال في (٢/ ٣١٨) وأورد أبياتاً من قصيدة نظّمها العلّامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي في أسماء الله الحسنى، ثم ذكر في الباب نفسه القصيدة الدمياطية، وقارن بينهما بقوله:

«القصيدة الهلالية أقل دعاء، وأفصح لفظاً، وكل بيت منها يشتمل على أربعة أسماء أو أكثر، وأما الدمياطية فألفاظها ركيكة، ونظمها غير جيد، إلا أن كل بيت منها لا يزيد على اسمين، والباقي كله دعاء»[(٢)].

وأورد المصنف قصيدة السجلماسي بتمامها في آخر الكتاب (٦/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، وقال في (٦/ ٢٨٠ ـ ٢٨١) عن قصيدة الدمياطي ـ وتلكأ في تحديده وتعيينه ـ: «ليس فيها انسجام ولا بلاغة، فلذلك تركت نقلها». وعلّل نقل القصيدة الأخرى بقوله: «فقد عزمت على نقلها تسهيلاً لحفظ أسماء الله الحسنى». وأكثر الهلالي في آخر الكتاب (٦/ ٢٨٣ ـ ٣٠٦) من نقل الشعر الذي ينصر عقيدة أهل السنّة، وعنون عليه بـ(**جيوش الشعر**)، وقال:

«بدأتُ هذا القسم بالجيوش الإسلامية للإمام الحافظ ابن القيّم هي نثر، وأختمه بجيوش الشعر لأئمة مختلفين في أوطانهم وأزمانهم، متّفقين على العقيدة الحنيفية».

---

(١) «سبيل الرشاد» (١/ ٥٩٥).

(٢) بنحوه في أول كتابه «قصيدة أسماء الله الحسنى»، وقال في مقدمته عن قصيدته في هذا الباب: «نظمتها في العاشر من ذي القعدة سنة ١٣٩٧هـ».

وابتدأها بنونية الإمام عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي[١]، وقال: «أثبتُها مختصرة؛ لأني رأيتُ أن أحذف منها ما يتعلّق بفروع المالكية»[٢].

ونقل بعد ذلك قصيدة للشيخ علي بن سليمان القصيمي المتوفى بالدورة في جنوب العراق في (نحو سنة ١٣٤١هـ) من كتابه «المجموعة المفيدة»[٣].

ثم نقل قصيدة «الشهب المرمية على المعطلة والجهميّة» للشيخ الفاضل أحمد بن مشرف، وهي لامية طويلة فيها جميع معتقد أهل السنّة في الأسماء والصفات والإيمان بالقضاء والقدر وما يتعلّق بذلك، ثم أنهى النقل بالقصيدة البائية في الحثّ على مكارم الأخلاق للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني، وتوّج ذلك كله بقصيدة ختم بها الكتاب، قال عنها (٦/ ٣٠٢):

«ونختم هذه الجيوش الشعرية بقصيدتي التي سميتها «الكتيبة المظفرة في رجم شياطين البغي والشرك والبدع المستنكرة»» وذكر فيها خدمته للسنّة، فقال:

ومـا نـحـن إلا خـادمـون لـسـنّـة   أَتَتْ عن نبي اللّهِ ذي الفتح والنصرِ

وقال في محبته لأهل السنّة:

سـلام عـلـى أنـصـار سـنّـة أحـمـد   فـهـم أولـيـاء الـلّـه فـي كـل مـا دهـرِ
إلـيـهـم أجوب الـبـر والـبـحـر قـاصـداً   فـرؤيـتـهـم تـشـفـي الـسـقـيـم من الـضـرِّ

وعمل الهلالي في كتابه هذا على محاربة الخرافة، وبيّن أن هذا من ميزة الموحِّد التوحيد الصحيح، حتى قال (٢/ ٦٧): «كل موحّد وإن قلّ علمه، يجد حجة على توحيد الله تعالى يغلب بها أكبر علماء الشرك والتقليد» وبيَّن ذلك بقصة عملية، قال:

«فمن ذلك أن رجلاً من المشركين في صعيد مصر بالريرمون، قال لموحّد: أنتم وهابية، تنكرون معجزات النبي ﷺ مع أنه حي يصلي في قبره، والأغوات - وهم خدّام المسجد النبوي - يضعون له الماء للوضوء قبل كل صلاة، فقال له

---

(١) لم أظفر له بترجمة على شدة تتبُّعي لذلك، ولكني وجدت القرطبي نقل من قصيدته هذه في «التذكرة» و«التفسير» ولأبي العلاء المعري ذكر فيها، فهي قديمة، وصاحبها أندلسي، ومعرفتهم عند المشارقة وفي كتب تراجمهم غير مستوفاة، ولا قوة إلا بالله!

(٢) «سبيل الرشاد» (٦/ ٢٨٣).

(٣) أفاد الهلالي في «سبيل الرشاد» (٦/ ٢٨٣): أن الذي طبعها وبعث بها إليه صديقه الصادق الشيخ عبد الله الغنيمان بارك الله له في حياته.

الموحّد: أنت كفرتَ بإجماع المسلمين، وتنقّصت رسول الله ﷺ شر تنقّص؛ لأن الوضوء لا يكون إلا عن حدث، والنبي ﷺ منزّه عن الحدث بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فاعترف المشرك، وقال: أستغفر الله». قال الهلالي:

«والحكايات في هذا الباب كثيرة».

وذكر خرافات يعتقدها أهل المغرب العربي، فقال ـ مثلاً ـ في (٢/٣١٨ ـ ٣١٩) عن القصيدة الضمياطية:

«ومن العجيب عند المغاربة ـ وما كثر عجائبهم! ـ أنهم يعتقدون أن من قرأها، وأكثر قراءتها يصاب بالجنون؛ لأن لكل بيت منها خاصيته، وخداماً من الجن يقضون حاجة من دعا به، ولكن قلّ من يتغلّب عليهم فيستجيبون له ويخدمونه، وأكثر من يحاول التغلب عليهم يهزم ويُصاب بالجنون» قال:

«حتى إن سكان الجزائر إذا رأوا شخصاً من حفّاظ القرآن لم تعجبهم حاله يقولون: هذا (مضميط)، يعنون: أنه فَقَدَ عقله بكثرة قراءة الضمياطية» وعلّق على ذلك بقوله:

«والمغاربة ليسوا كذّابين فيما زعموا، فإن من قرأها للسحر واستخدم الجن يصاب بالجنون والوسوسة وتجيئه خيالات تفتنه، وتفسد عقلَه»!

وذكر في كتابنا هذا أيضاً (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥) خرافة علقت في أذهان كثير من الناس أنه عند بناء البيت الجديد لا بدّ من طبخ ذبيحة في ماء بلا ملح، ويرش ذلك الماء في جوانب البيت، وذكر قصة حصلت معه في بغداد عند بنائه بيتاً جديداً مع رئيس البنّائين، هدم فيها هذه الخرافة، بالقول والعمل، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

وفصّل في (١/ ١٧٨ ـ ١٧٩) في خرافة الخط بالرمل، وعمل الدجالين (الرمّالين) في ادعاءهم معرفة الغيب من خلال ذلك[1]، وذكر في (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) خرافات ذكرها صاحب[2] «الإبريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ» ونسفها نسفاً، واستطرد في ذكر ما يشابهها، ونعت حكاية فيه (١/ ٢٤٢) بأنها

(١) لابن رشد الجد رسالة مفردة في الرد على مدَّعي الغيب من علم الخط، منشورة بتحقيقي، والحمد لله وحده.

(٢) هو أحمد بن مبارك اللمطي المغربي.

«ملعونة» وقال عنها: «يبرأ منها الله ورسوله، وجميع المسلمين الذي يعرفون ما هو الإسلام، سواء كانوا صوفية أو فقهاء، أو أهل حديث».

وذكر في (١/ ٣١٤ ـ ٣١٧) جملة من قصص فيها عبادة غير الله ﷻ، وشيوع الخرافة في المغرب ومصر عند الأضرحة، وذكر ذلك عن شيخه الورع التقي الزاهد محمد سيدي بن حبيب الله، وعن صديقه الشيخ العلّامة عبد الرحمٰن بن حسن آل الشيخ، وأنهما ـ وغيرهما ـ حدثوه بقصص يندب بسببها على الإسلام، وتسكب الدمعات على التوحيد، واستطراده في ذكر هذه القصص من باب التحذير من الشر والشرك وشركهما، وقد قعّد أصلاً قبل ذكرها بأن كل من أشرك بالله وعبد معه غيره يختل دينه وعقله، حتى يهبط إلى عبادة الحيوان الأعجم، قال: «وعبادة الحيوان الأعجم شائعة عند المشركين في كل زمان ومكان» وأخذ بالسرد والنقل، ذاكراً من أخبره، وما شاهده.

ونزيد على ما أصّله فنقول محذِّرين: من لم يعظّم الله حق التعظيم، لا بدّ أن يعظّم غيره، ولو كان حيواناً أو حجراً أو شجراً، لا يضر ولا ينفع.

وذكر في (١/ ٣٩١) أن اعتراض المبطلين والطرقيين والخرافيين غير قائم على نقل أو عقل، وإنما على عبارات زيّنها لهم شياطين الإنس والجن، فهم يقولون لداعيهم إلى التوحيد:

«أنت تريد أن تأتينا بالمذهب الخامس، ونحن راضون بمذهبنا لا نبغي به بديلاً» ونقض هذا الكلام بقوله:

«فيقال لهم: إن كان الصحابة والتابعون أهل القرون المفضلة من مبعث النبي ﷺ إلى مئة وعشرين سنة[1] كلهم على المذهب الخامس، فما أحسن

---

(١) بيّن الهلالي في غير موطن من كتابنا هذا حال بعض أهل الحجاز ونجد قبل تمكُّن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، وهاك ـ مثلاً ـ لتعلم ـ أخي القارئ ـ بركة وثمرة ظهور هذه الدعوة المباركة، قال في (٣/ ١١١) ما نصه: «ولما زرت بلاد شرقي الحجاز وأوائل نجد وجدت عندهم كاهنات إذا أراد شخص أن يتزوج أو يسافر أو يتّجر في شيء، يأتي إلى الكاهنة ويقدم لها الحلوان ولا يكون أقل من بعير، فتبيِّت له وفي الصبح تخبره وتأمره بالإقدام أو الإحجام، وهؤلاء القوم من أهل البادية لم تبلغهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فدَعوتُهم إلى توحيد الله وسنة رسول الله وكان معي أحد أمراء تلك النواحي ماجد بن موكّد أمير النخيل».

المذهب الخامس[1]! والحق أنكم كاذبون، فإنه لا يوجد في الإسلام إلا مذهب واحد، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما حدث بعدهم من المذاهب فهو ذاهب».

ومما ينبغي أن يذكر بهذا الصدد أن اعتبار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (مذهباً) جديداً **ونبزها بـ(الوهابية)!** إنما **ظهر من أعدائها**، وإنما **هي دعوة سلفية خالصة**، أُلصِقت بها تهم وبواطيل، وافتراءات وأكاذيب، وأصبح الخصوم والأعداء من القبوريين والطرقيين ينعتون الدعاة إلى التوحيد والكتاب والسنّة بـ(الوهابيين)؛ حنقاً وحقداً على التوحيد وأهله وأئمته! ولا قوة إلا بالله.

وكلمة (وهّابي) ـ على حدّ عبارات النابزين ـ تسمية غريبة، لم تنقل عن أحد من أئمة الدعوة الأول، وإنما نقلت عن خصومهم، وإلا؛ فنعم الانتساب إلى (الوهاب) ـ جلّ جلاله ـ:

إن كان توحيد الإله توهباً يا رَبِّ! فاشهد أنني وَهّابي

وهاك نصّين من كلام الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في بيان معتقده ومنهجه:

الأول: في «مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» ـ القسم الخامس (الرسائل الشخصية) (ص٢٥٢) ـ ما نصه:

«لست ـ ولله الحمد ـ أدعو إلى مذهب صوفي، أو فقيه، أو متكلم، أو إمام من الأئمة الذين أعظمهم؛ مثل: ابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وغيرهم، بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنّة رسول الله ﷺ التي أوصى بها أول أمته وآخرهم، وأرجو أني لا أردّ الحق إذا أتاني، بل أُشهد الله وملائكته وجميع خلقه: إن أتانا منكم كلمة من الحق، لأقبلنها على الرأس والعين، ولأضربن الجدار بكل ما خالفها من أقوال أئمتي، حاشا رسول الله ﷺ؛ فإنه لا يقول إلا الحق...».

والآخر: جاء في رسالته لعبد الرحمٰن بن عبد الله السويدي أحد علماء العراق يذكر الإمام رحمه الله حقيقة دعوته، ومن ذلك قوله ـ كما في «مؤلفات الشيخ الإمام» (الرسائل الشخصية) (٥/ ٣٦):

---

(١) هي الفترة التي لم يظهر فيها مذهب من المذاهب الأربعة المتبوعة.

«أخبرك أني ـ ولله الحمد ـ مُتَّبِعٌ، ولست بمبتدع، عقيدتي وديني الذي أدين الله به مذهب أهل السنّة والجماعة، الذي عليه أئمة المسلمين؛ مثل: الأئمة الأربعة، وأتباعهم إلى يوم القيامة، لكني بيّنت للناس إخلاص الدين لله، ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يُعبَد الله به، من الذبح والنذر والتوكل والسجود، وغير ذلك مما هو حق لله الذي لا يشركه فيه ملك مقرب، ولا نبيّ مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهو الذي عليه أهل السنّة والجماعة».

وهناك نقولات عديدة عن الإمام المجدد، وغيره من أئمة الدعوة المباركة في الاتباع، والاقتصار على الدليل، ونبذ ما يخالفه. تراها في رسالة «الإقناع بما جاء عن أئمة الدعوة من الأقوال في الاتباع».

وأما عن الشبه التي تثار في وجه هذه الدعوة، فقدْ تصدى لها بالدراسة والرد على وجه حسن غايةً: الأخ الباحث الشيخ عبد العزيز العبد اللطيف في كتابه «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عرض ونقد».

وأما عن المؤلفات التي طبعت وفيها سموم وبواطيل حول هذه الدعوة، فقد كدتُ استيعابها والتحذير منها في كتابي «كتب حذّر من العلماء» (المجموعة الأولى) (١/ ٢٥٠ ـ ٢٨٧)، فانظره، فإنه مفيد ـ إن شاء الله تعالى ـ.

ولشاعرنا الهلالي قصيدة مهمة في هذا الباب، مطلعها:

نسبوا إلى الوهاب خير عباده ... يا حبذا نسبي إلى الوهاب
اللّه أنطقهم بحق واضح ... وهم أهالي فرية وكذابِ
أكْرِم بها من فرقة سلفية ... سلكت محجّة سنّة وكِتابِ
وهي التي قصد النبي بقوله ... (هي ما عليه أنا وكل صحابِي)
قد غاظ عبادَ القبور ورهَطَهم ... توحيدُنا للّه دون تحابِ
عجزوا عن البرهان أن يجدوه إذ ... فزعوا لسرد شتائم وسِبابِ

وركّز المصنف كثيراً على بدعة التعصب المذهبي، فأصغ إليه وهو يقول في (٣/ ١١٢): «اعلم أيها القارئ الموفّق والمستمع المهتدي أن التمذهب كله شر وبدعة من أقبح البدع وحسب أهله ضلالاً: أنهم تفرقوا في دينهم وليسوا من الله في شيء ورسوله ليس منهم في شيء. والواجب على كل مسلم أن يكون في أمور الدين كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إمام واحد، ودين واحد، وأمة واحدة،

وإله واحد لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون لا مذاهب، لا طرائق متصوفة، لا أحزاب سياسية، وحسبنا حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون. قال الشاطبي في «الاعتصام»[(١)]: «قال مالك رَحِمَهُ اللهُ: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأني سمعت الله يقول[(٢)]: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وما لم يكن يومئذ ديناً) لا[(٣)] يكون اليوم ديناً»[(٤)]، ومن المعلوم أن التمذهب واتباع طرائق الصوفية ولبس الخرقة واتخاذ الأوراد والاجتماع للذكر بلسان واحد كما يفعل اليهود والنصارى في كنائسهم، والتفرُّق إلى أحزاب متناطحة، والاجتماع على الرقص والغناء وآلات اللهو والمكاء والتصدية، كأصوات الحيوان ونسبة ذلك إلى دين الله إفك مبين وبناء القباب على القبور والذبح عليها والنذر لها واتخاذها مواسم وأعياداً، كل ذلك لم يكن في زمن النبي ﷺ ديناً فلن يكون ديناً أبداً».

ويجعل الهلالي سرّ سؤدد وعزة المسلمين: التوحيد والاتباع، وذكر في كتابنا (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣) قصة وقعت لعمر بن عبد العزيز، وأنه قضى فيها على حال، وبلّغه عروة بن الزبير أن النبي ﷺ قضى فيها بشيء آخر، فرجع إلى قضاء رسول الله ﷺ، قال:

«في هذه القصة فائدة جليلة وهي أن ملوك المسلمين في ذلك الزمان كانوا يذعنون للحق ويفرحون به وينفذونه، ولم يكن العلماء يهابونهم إذا أخطؤوا في الحكم أن يعلِّموهم بخطئهم». وقال على إثر ذلك (٣/ ١٣٤):

«وهذا يفسر لنا ما أدركه المسلمون في ذلك الزمان من العزة والسؤدد، فأين هذا من الديمقراطية التي يتبجّح بها أهل هذا الزمان؟! لا جرم لو أن قاضياً من قضاة العصور المتأخرة حكم بحكم، فجاءه عالم، وأخبره بخطئه، لكان نصيب ذلك العالم أن يسمع منه ما يكره، هذا إذا لم يأمر بحبسه، وهذا إذا اعترض على قاضٍ فقط، فكيف بمن هو فوقه من الرؤساء، كوزير العدل؟! فضلاً عن رئيس الدولة»؟!

---

(١) (١/ ٦٢ ـ بتحقيقي).
(٢) كذا في الأصل، وفي «الاعتصام»: «لأن الله يقول».
(٣) كذا في الأصل، وفي «الاعتصام»: «فما لم... فلا».
(٤) ذكره أيضاً صاحب «تهذيب الفروق» (٤/ ٢٢٥).

وهذا الداء (التقليد والتعصب) عالجه المصنف من جميع جوانبه، فلم يكتفِ بذم التعصب المذهبي والحزبي والطرقي، بل ذكر أيضاً نوعاً أسوأ وأخطر من هذين النوعين، وهو التعصب للجنس، وردّ على دعاة العروبة، والمذاهب الوضعية، والأفكار القومية والأرضية، فاسمع إليه وهو يقول (٣/ ٢٨٨):

«لم يبق لي ما أزيده في الردّ على المقلّدين المتعصّبين للمذاهب أو الطرائق أو الأحزاب، ولكن بقي لي كلام مع السياسيين ودعاة العروبة والاشتراكية والمحاربين بزعمهم للرجعية فأقول لهم ـ وبالله أستعين ـ: قد علمتم أن الله وعد الذين آمنوا بمحمد والقرآن وعملوا الصالحات؛ أي: صدقوا في إيمانهم وشفعوا القول بالعمل أن يجعلهم خلفاء الأرض يتصرفون فيها كيف يشاؤون، فهم الحكّام وهم العلماء، وهم الأمناء على كنوز الأرض وثمرات الأعمال، لا يد فوق يدهم، واستمر ذلك من عهد النبوة إلى نهاية الحروب الصليبية، وامتد بعضه إلى الحكم العثماني، لكن ماذا حدث بعد ذلك زال الإيمان والعمل، فذهب العز والنصر، ويا أيها المسلمون، ويا أيها العرب المسلمون، ارجعوا إلى الإيمان والأعمال الصالحة والاتحاد على اتباع كتاب الله وسنّة رسول الله، ونزّهوا أنفسكم من التعصب للأوطان وللأجناس وللفِرق والمذاهب، واجعلوا إلٰهكم واحداً وارضوا بالله صاحباً، استضيئوا بنور الكتاب وسنّة النبي الكريم والأصحاب، إذا شئتم أن يرد الله لكم ما كان لأسلافكم من العزّ والتمكين والنصر المبين ويكبت أعداءكم، ألا تستحيون من الله ثم من الناس أن يجمع اليهود شملهم بعد أن تشتتوا آلاف السنين، ثم يعمدوا إلى الأرض المقدسة التي أخرجهم الله منها بسبب ذنوبهم وتركِهم رسولهم وكتابهم واختلافهم فيما بينهم، فيغتصبوا منكم تلك الأرض اغتصاباً ـ وعددهم بالنسبة إلى عددكم ـ نحو ربع واحد في المائة.

أما أنتم أيها النصارى العرب! فدعوا الكيد والدس والخداع لإضلال المسلمين وتشتيت شملهم، ولا تكونوا كالذي قال: اقتلوني ومالكاً، فإن ذلك لا يشفي ما في صدوركم ولا يغني عنكم إلا قليلاً، فإنكم دعوتم للتعصُّب للعروبة وأنتم أبعد الناس عنها، فما لكم منها إلا الاسم فإنكم عاديتم الدين الذي به شرّفتم وواليتم أعداء العرب وتسمّيتم بأسماء عجمية، فما هذه العروبة التي تدعون إليها؛ أهي عروبة محمد رسول الله؟ كلّا، فإنكم تبغضونها وتحاربونها. أم هي

عروبة أبي جهل وأبي لهب؟ فهذه العروبة ليس فيها إلا الجهل والذل والخزي والشتات وعبادة الأصنام، ووأد البنات وأكل الميتة وعدم توريث الإناث، والأنصاب والأزلام والميسر والقتل والنهب واستعباد الأخ لأخيه. أهذا هو البعث العربي؟ كلّا، والله بل هو الموت، فإن قلتم: إننا ما قمنا بهذه المكيدة إلا دفاعاً عن النفس لأن هؤلاء العرب الذين يدعون الإسلام بله العجم، لم يبق لهم من الإسلام إلا اسمه وقد تعصبوا علينا وأهانونا، قلنا: كل واحد من الفريقين يرجع عن غيّه واجتمعوا على الإنصاف».

ومن دقّة فهم صاحبنا الهلالي وعلمه، وشدة حرصه، وسعة اطلاعه، ربطه المخالفات العقدية والإصلاحية بما عليه أهل الفِرَق الضالّة، وبيان كيفية انتقالها إلى المسلمين، فذكر ـ مثلاً ـ أن السياحة من أعظم أركان الدين الهندي البرهمي، وأفاض في نقل ذلك عن كتاب الدكتور أحمد شلبي «مقارنة الأديان»، ثم ربطها بما عليه أهل البدع من المسلمين، فقال في (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١) نقلاً عن الدكتور المذكور أنه يجب على البرهمي أن يقسّم حياته ثلاثة أقسام:

«**القسم الأول**: من طفولته إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، يسيح في الأرض لطلب العلم ولا يشتغل بالكسب، بل يعيش على ما يجده من الثمر الساقط من الأشجار والنبات، وإذا اضطر إلى السؤال سأل الناس.

القسم الثاني: بعد نهاية خمسة وعشرين سنة يشتغل بالكسب ويتزوج، ويكون له أولاد إلى أن يبلغ خمسين سنة.

القسم الثالث: بعد نهاية خمسين سنة يسيح في الأرض على الصفة التي تقدم ذكرها من التقشّف والبعد عن الملاذ والاعتزال عن الناس، إلا إذا كانوا زهّاداً مثله، ويستمر على ذلك إلى أن يموت».

وجاء في سيرة بوذا: أنه كان ابن أحد كبار الأغنياء، ولما بلغ خمساً وعشرين سنة تزوج فولد له ولد ثم هجر معيشة الترف وساح هائماً على وجهه، فلقي خمسة من الزهّاد فصحبهم مدة ثم تركهم، واستمر في السياحة والتقشف وتعذيب النفس إلى أن جائته الحكمة وهو جالس تحت شجرة في الغابة، ثم توجه إلى بنارس وأخذ يعلم الناس دينه، وهذه السياحة الهندية الوثنية هي التي ذكرت عند رسول الله ﷺ فنهى عنها وقال: «قد أبدلنا الله بذلك الجهاد في

سبيل الله والتكبير على كل شرف»[١]. وقد اقتبس بعض الجهال من المتصوفة تعذيب النفس من الدين الهندي الوثني، وقد ذكر الحافظ ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» حكايات كثيرة في تعذيب المتصوفة أنفسهم بالجوع، زادوا فيها على نسّاك الهند الوثنيين أضعافاً كثيرة أذكر منها شيئاً يسيراً، فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن الجوزي في الكتاب المذكور (ص٢٠٠): «حكى أبو حامد الطوسي عن سهل ـ يعني ابن عبد الله التستري ـ قال: كان سهل يقتات ورق النبق مدة وأكل دقاق التبن مدة ثلاث سنين واقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين».

ثم قال الهلالي:

«ولم يزل جهّال المتصوفة يأخذون هذه الضلالات عن عبدة الأصنام في الهند وعن رهبان النصارى إلى يومنا هذا، ومن ذلك السياحة التي يدعو إليها **طائفة التبليغ** المتبعين للشيخ محمد الياس الهندي وهم منتشرون في جميع أنحاء الدنيا، والركن الأعظم من طريقتهم هو ما يسمونه **الخروج في سبيل الله**، فإنهم يبذلون جهوداً عظيمة في الدعوة إلى هذا الركن وهم في ذلك مخلصون لطريقتهم وناجحون في عملهم، وكل داع مخلص ناجح على قدر إخلاصه يكون نجاحه سواء دعا إلى حق أو إلى باطل، وهذا الركن الذي يسمونه الخروج في سبيل الله وما يلزمه من التقشف في المعيشة هو بعينه السياحة التي تقدم ذكرها، ونهى عنها النبي ﷺ وهي بدعة محضة لم يفعلها النبي ﷺ، فإنه خرج إلى الطائف لدعوة أميرها ولم يكن معه إلا خادمه مولاه؛ أي عبده المعتق زيد بن حارثة، فلما دعا أمير الطائف ردّ عليه ردّاً قبيحاً وقعد له سفهاء الطائف في طريقه سماطين؛ أي صفين، ورموه بالحجارة حتى سال الدم من رجليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم رجع إلى مكة، والقصة معروفة في السيرة[٢] ولم يخرج معه أحد من المسلمين من أهل مكة، وكذلك توجه إلى دعوة أحد رؤساء العرب وهو ابن عبد ياليل بن عبد كلال وحده، فرد عليه ردّاً قبيحاً فأصابه من الغم ما أذهله حتى أنه مشى في البرية مغموماً محزوناً، فلم يشعر إلا وهو في قرن الثعالب فرفع بصره إلى السماء، فرأى سحابة وفيها جبريل ومعه ملك الجبال فسلم ملك الجبال على النبي ﷺ وأخبره أن الله تعالى أمره أن يفعل ما يأمره به النبي ﷺ، وقال له: إن

---

(١) انظر تخريجه في تعليقنا على (٣/ ٢٢٩).

(٢) انظر التخريج في التعليق على الكتاب (٣/ ٢٣٢).

شئت أطبقت عليهم الأخشبين؛ أي الجبلين، فقال النبي ﷺ: «**إني أرجو أن يخرج الله من ظهورهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً**»[١]. وهذا أشد يوم على النبي ﷺ، فإن عائشة ﵂ سألته: هل مرّ عليك يوم أشدّ من يوم أُحد؟ فقال لها: «**نعم**»، وأخبرها بالحكاية المتقدمة.

وفي غزوة أُحد كان المشركون قد حفروا حفراً في الجبل فسقط النبي ﷺ في إحدى الحفر فأغمي عليه، ودخلت حلقة من حلقات المغفر في خدّ النبي ﷺ فأخرجها أحد الصحابة عاضّاً عليها بأسنانه حتى انكسرت له سنّ وكسرت رباعية النبي ﷺ؛ أي سنّه، في ذلك السقوط وجرحت شفته وسال الدم من وجهه، ولما استفاق ورجع إلى المعسكر خرج له أُبيّ بن خلف راكباً على فرس له مدججاً بالسلاح فقال: أين محمد؟ فانتدب عشرة من الصحابة لقتاله فمنعهم النبي ﷺ وخرج له وهو على تلك الحال وأخذ حربة وكان عدو الله قد غطّى جسمه بالحديد ورأسه كذلك، ولا يظهر منه إلا ثغرة في نحره فطعنه النبي ﷺ بالحربة في تلك الثغرة فسقط على الأرض ومات[٢] بعد ذلك ورجع النبي ﷺ مظفراً منصوراً.

فهذه هي الشدائد التي أصابته في يوم أُحد، ومع ذلك كانت هذه الشدائد أهون عليه مما أصابه من الغمّ حين دعا ذلك الكافر ولم يجبه؛ لأنه كان في يوم أُحد معه جيش، وفي يوم قرن الثعالب لم يكن معه أحد، **وادعاؤهم أن تلك البدعة سنّة** النبي ﷺ وأصحابه، ولولا ذلك لم ينتشر الإسلام في الشرق والغرب **باطل**؛ لأن الصحابة حين نشروا الإسلام خرجوا للجهاد في سبيل الله وكانوا لا يتركون بلداً حتى يسلم أهله، أو يصالحوا المسلمين، أو يكونوا تحت ذمتهم، وترتفع فيه راية الإسلام ويحكم بشريعته ثم يتقدمون إلى بلد آخر لا على طريقة السياحة الصوفية المقتبسة من الديانة الوثنية التي ليس فيها جهاد ولا تغيير منكر!!

بل فيها إقرار المناكر والسكوت عليها والصلاة عند الأضرحة المعبودة وفاعلها ملعون على لسان النبي ﷺ. فقياس هذه السياحة على الجهاد في سبيل الله من أفسد القياس، وفي هذه السياحة مفاسد كثيرة منها تضييع العيال، وقد قال

(١) انظر التخريج في التعليق على الكتاب (٣/ ٢٣٢).

(٢) انظر تخريجها في التعليق على (٣/ ٢٣٣).

النبي ﷺ: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول**»[١]. وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وعرض عليه نفسه ليجاهد في سبيل الله معه فقال له: «**ألك والدان؟**» قال: نعم. قال: «**ارجع ففيهما فجاهد**»[٢]؛ أي ارجع إلى برّهما وخدمتهما فهي أفضل من الجهاد، وهؤلاء الإلياسيون يكرهون الناس بسيف الحياء على السياحة، فإذا اعتذروا لهم بالوالدين الضعيفين أو بالأولاد والزوجة أو بالتجارة أو بالعمل الذي التزمه الإنسان، فوجب عليه أداؤه وحرم عليه تركه كالأجير والمعلم، يقولون: اترك ذلك وتوكل على الله، وكيف يترك ما أوجبه الله عليه وينقض عهد الله من بعد ميثاقه ويخون الأمانة ويكون مع ذلك متوكلاً على الله وخارجاً في سبيل الله، وقد أخبرني أحمد الزوين الذي يسوق سيارة النقل للأخ السلفي الحاج مصطفى بن هاشم الودغيري أنه كان قد حمل في سيارته ما يساوي خمسة عشر ألف درهم من فواكه، فجاءه جماعة الإلياسيين وقالوا له: تخرج معنا في سبيل الله؟ فقال لهم: انظروا هذه السلعة المحمولة على السيارة، أنا متوجه بها إلى الجزائر، فقالوا له: اتركها وتوكّل على الله. وذهبوا إلى السيد أحمد بن إدريس الإدريسي وهو صاحب معامل النسيج في مدينة مراكش وصاحب تجارة واسعة يؤدي زكاته وله زوجة شابة، فأخرجوه من بيته وأخذوه إلى الهند فبقي سبعة أشهر غائباً، وهذا حرام بلا شك من وجوه منها ما تقدم، ومنها أن عمر رضي الله عنه سأل أم المؤمنين حفصة ابنته: كم تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها إذا خرج للجهاد في سبيل الله، فقالت: أربعة أشهر. فأمر أن لا يتغيب جندي عن أهله أكثر من أربعة أشهر.

كم من عامل وموظف ومعلم وطالب كانوا لهم سبباً في طردهم من أعمالهم، ولا ننكر أنه تاب على أيديهم كثير من الفسّاق والفجّار واهتدوا وتمسّكوا بالدين ولكن المحافظة على رأس المال وهو سنّة النبي ﷺ قبل التشوُّف إلى الربح، وكذلك نعترف لهم بحسن الخلق وحسن المعاشرة والسمت الحسن، فعسى الله أن يوفّقهم لترك بدعة السياحة وتغيير المنكر والحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعاداة لله، ويوفق أهل الهند وباكستان منهم أن يتركوا بدعة الجمود على المذهب الحنفي ويعملوا بكل حديث صحّ عن النبي ﷺ،

---

(١) انظر التخريج في التعليق على (٣/ ٢٣٣).

(٢) انظر التخريج في التعليق على (٣/ ٢٣٣).

ويتركوا كذلك العقيدة الأشعرية والماتريدية ويعتقدوا ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون، ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله فإن عقيدته كانت مطابقة لعقيدة الصحابة والتابعين جعلنا الله من أتباعهم».

وللهلالي عناية خاصة قوية دقيقة في بيان اعوجاج ما عليه التبليغيون، وصنف فيهم كتاباً مفرداً ـ وهو مطبوع[1] متداول ـ اسمه «السراج المنير في تنبيه جماعة التبليغ على أخطائهم» فرغ منه في الثالث من شوال سنة ١٣٩٨هـ بمدينة مكناس، تعرض فيه لتاريخ جماعة التبليغ وكيفية نشوئها وأهم أشخاصها وزعمائها البارزين، ثم المدارس الكلامية والفقهية التي تأثرت بها الجماعة، وهو عبارة عن تلخيص موجز لكتاب محمد أسلم الباكستاني والمعنون بـ«جماعة التبليغ عقائدها وأفكارها ومشايخها». قال الهلالي عنه: «ذكر ما لهم وما عليهم، ونقل أخبارهم من كتبهم، وقد رأيت أن أُلخّص كلامه رجاء أن ينفع الله به...».

وانطلق الهلالي في الحكم عليهم ـ كما رأينا ـ من الدلائل الشرعية، ولذا أكثر من ذكر آثارهم السيئة، وتعرض أيضاً للأسس التي اعتمد عليها مؤسس الجماعة محمد إلياس الحنفي الديوبندي، وهي عندهم بمثابة منهج يسيرون عليه، ويسمونها (المبادئ الستة).

وعرف الهلالي بمؤسس الجماعة وبيّن مقرها الرئيسي، والمدارس التي تأثرت بها، وأهمها مدرسة بديوبند ـ وكان ينتمي إليها الشيخ ـ وكان أصحاب المدرسة يقولون: إن مؤسسها هو النبي ﷺ، وكان يأتي إليها أحياناً مع أصحابه، ثم يسترسل الهلالي في ذكر مبادئ مدرسة ديوبند التي ينتمي إليها مؤسس التبليغيين، ويظهر من الكتاب معرفة الهلالي الجيدة المحيطة والعميقة بهذه الجماعة، ولا سيّما أنه عاش في الهند[2]، وأكثر التجوال في البلاد، واتسعت دائرة لقائه بالعلماء والمطلعين؛ ولذا أحال على كتابه هذا جمع من خصوا جماعة (التبليغ) بالدراسة والتمحيص، مثل: علي الغماري في «مناقشة خروج التبليغيين وبيان بطلانه» (ص٤٦)، وعصام مرعي في «القول البليغ في نصح جماعة التبليغ» (ص١٨، ٢٦) ونقل منه، وسيد طالب الرحمٰن في «تلخيص جماعة التبليغ في

---

(١) عن مطبعة النجاح، الدار البيضاء، سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، في (٩٣) صفحة.

(٢) انظر كلام الهلالي في: «السراج المنير» (ص٨٨ ـ ٨٩) عن أخطاء هذه الجماعة في الهند، وما سيأتي في كتابنا (٣/ ٢٣٣ وما بعد).

شبه القارة الهندية» (ص٢٧٣)، ونقل منه في كتابه الأصل (ص٤٥٠ ـ ٤٥٢) تحت (الرد على جماعة التبليغ: شهادة الشيخ تقي الدين الهلالي)، ومحمد محمد شرقاوي في أول بحثه «الصفات الستة عند جماعة التبليغ» ص(٩).

وكان لهذا الكتاب أثره الإيجابي القوي في تعريف طلبة العلم بهذه الجماعة من جهة، وأثره السلبي على رجالات هذه الدعوة، حتى وجدت صهيباً الزمزمي يقول في كتابه «جماعة التبليغ ـ أو أصحاب الدعوة الباكستانية ـ خطر على المسلمين» (ص٣٧):

«وقديماً بلغنا عنهم (أي: التبليغيين) أنهم يقولون عن الدكتور الهلالي أنه مسيحي! والسبب هو هو، فالدكتور الهلالي قد عاش مدة بالباكستان وعرف عنهم الكثير، فهو لذلك لا يسمّيهم إلا (الإلياسيين) نسبة إلى شيخهم، ويقول: إنهم أصحاب طريقة عصرية».

قال أبو عبيدة: وهذه كلمة الفصل فيهم، وهي تتطابق مع مقولة شيخنا العلّامة المحدث الألباني[١] ـ رحمة الله عليه ـ عنهم: (صوفية متنقلة: خرجوا من الصوامع إلى الشوارع).

أما أعداء الإسلام العاملون جهاراً نهاراً لمحاربته، فقد جعلهم الهلالي أصنافاً وأقساماً، قال في كتابنا «سبيل الرشاد» (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢):

«الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم في هذا الزمان، أصناف:

أولهم: المرتدون الذين كفروا بالله تقليداً لدعاية كاذبة خاطئة وهذه الدعاية شائعة في البلدان التي كان أهلها متمسكين بالإسلام في الأزمنة الغابرة في آسية وأفريقية، وحاصلها أن الإسلام إن كان صالحاً في الزمن الماضي لترقية الشعوب وأخذ نصيبها من القوة المادية وتحصيل المعيشة السعيدة، والسيادة الكاملة، فإنه في هذا الزمان لا يتفق مع الأخذ بأسباب الحضارة والرقي، فكل أمة تمسّكت به تبقى متأخرة تسير إلى الوراء[٢]، ولا تكاد تدرك شيئاً من الحضارة العصرية، فإذا

---

(١) أشاع بعض التبليغيين عنه رَحِمَهُ اللَّهُ توبته من تخطئتهم قُبَيْلَ وفاته، وهذا ـ والله ـ كذب، فقد سجل أخونا أبو أشرف محمد الجيزاوي رَحِمَهُ اللَّهُ مع ضيف جاءه من فلسطين متأثراً بهم شريطاً بصوت شيخنا الألباني فيه تفصيل أخطائهم، وكان ذلك قبيل وفاة الشيخ الألباني بأيام معدودات.

(٢) ردّ الهلالي في كتابنا «السبيل» (٢/ ٢٨٦) على هذه الفرية، ومثّل عليها بالدولة السعودية =

قيل لهم: وما دليلكم على هذا؟ يزعمون أن الأوروبيين تركوا دينهم وتقدموا، فلا يمكن أن نتقدم إلا إذا سلكنا سبيلهم، فنقول لهم: **أولاً**: نحن لا نسلم أبداً أن الأوروبيين تركوا دينهم، فإنهم لا يزالون متمسكين به، ولا نكلفكم أن تذهبوا إلى بلادهم لتعلموا أنكم كاذبون، بل نرشدكم إلى أدلة في بلادكم، فعدوا الإرساليات والكنائس التي في بلادكم للطوائف المختلفة من النصارى تجدوها كثيرة، فيها رجال ونساء قد تغربوا عن أوطانهم وتحملوا الشدائد والأخطار في سبيل نشر دينهم، وقد سمعتم عدد من قتل منهم في كونكو، ولا حاجة بكم إلى أن تبحثوا عن جهودهم في البلاد الأخرى، فحسبكم ما يصنعون في بلادكم، وما أسسوا من الوسائل الطبية والتعليمية، ولكنكم تكذبون وتغالطون وتقلدون، ثم انظروا إلى الحرب القائمة في إيرلندا بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين منذ سنين ولا سبب لها إلا الاختلاف في الدين.

على أن دينهم وإن كان لا يصلح للحضارة فإن ديننا ليس كدينهم، والعالم كله يشهد بعظمة الحضارة التي أسسها المسلمون في العصور التي كان الإسلام فيها قوياً عزيزاً، وحسبكم أن الإسلام في أواخر زمانه تصارع مع الصليب في الحروب الصليبية مدة مائة وتسعين سنة، فانهزم الصليبيون أمامه مع كثرة عَددهم وعُددهم، وسيقول المقلدون لأعداء الإسلام: هذا بكاء على الأطلال، أرونا ما

= وأنها من أغنى الدول مع عدم تعاملها ـ في زمانه ـ بالربا، فاسمع إليه وهو يقول: «من اتبع هواه في عبادة غير الله، أو تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، أو رد شيئاً مما جاء به رسول الله كالذين يقولون في هذا الزمان بتطور أصول الدين، والاجتهاد مع وجود النص والإجماع، كرفض الصيام في رمضان، بدعوى أنه لا يوافق العصر الحاضر، وتحليل الربا بدعوى أنه ضروري في هذا العصر إذا تركته دولة، قلّت أموالها، وضعف اقتصادها، وضاع حقها في المعاملات الدولية، فإنها لا بدّ أن تعطي وتأخذ، فإذا أخذت فلا مناص من دفع الربا، وإذا أعطت بلا ربا تكون هي الخاسرة، فنقول: إن هناك طريقاً آخر وهي أن تكون مستقلة غنية قوية لا تأخذ الربا ولا تعطيه، وحينئذ لا بد أن تخضع لها الدول الأجنبية وتقبل شرطها، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾، ولنضرب مثلاً بالدولة السعودية فإنها لا تتعامل بالربا وهي أغنى الدول، والحاصل من اتبع هواه في الشرك بالله أو تغيير حكم شرعي أو رد ما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر فرداً كان أو جماعة، أما من اتبع هواه في ارتكاب المحرمات، وهو يعترف أنه مذنب ويؤمل التوبة فهذا فاسق لا يخرج من الإسلام، ولا يخلد في النار بسبب التوحيد والإيمان والمحافظة على الصلاة في أوقاتها التي معه». اهـ.

صنع الإسلام في هذا الزمان، أقول لهم كما قلت من قبل: **أوجدوا لي إسلاماً، أعطكم كل ما تريدون من قوة وعظمة وتقدم في جميع الميادين**، فهل تريدون من المسلمين أن يقوموا من قبورهم ليدافعوا عنكم ويبنوا لكم حضارة جديدة؟، وقد جربتم الكفر التقليدي مئات السنين، فجربوا الإسلام سنة واحدة إن كنتم صادقين.

وثانيهم: المدَّعون للإسلام بألسنتهم مع عدم تطبيقه لا عقيدة ولا عبادة ولا حكماً فهؤلاء يدعون الإسلام بأقوال مجردة.

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

وثالثهم: الأعداء الخارجيون وهم المتعصبون من النصارى في أوروبا وأمريكا، والمتعصبون من الوثنيين في الهند وغيرها من الأمم الوثنية، ونحن نسمع المذابح التي تجري على المسلمين في أنحاء الهند وفي الفلبين وفي أريتريا(١).

رابعهم: علماء السوء، الذين باعوا دينهم بدين غيرهم، وكتموا الحق وغشوا شعوبهم جرياً وراء الحطام، فضيعوا الدين ولم يدركوا الدنيا، وهذه الأصناف تبذل جهودها لإطفاء ما بقي من نور الإسلام، وليس الإسلام بملوم؛ لأنه قد أسعد من تمسك به وخلف كنوزاً عظيمة من الآثار والعلم والمعرفة التي لا يجحدها إلا من يجحد الشمس المشرقة في يوم الصحو ومضى حميداً.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار»

ومن عميق تأصيل وفهم الهلالي لسنن الله في شرعه وكونه، ربطه بين العدل والمساواة في الحقوق والواجبات وبين ترقي الأمم وغلبتها، فأصغ إليه وهو يقول في كتابنا هذا (٢/ ٣٥٠):

«كل أمة عمّ فيها العدل والرحمة فنصرت المظلوم وأكرمت اليتيم وأطعمت المسكين وأمنت الضعيف؛ وسع الله رزقها ونصرها على أعدائها، كما قال النبي ﷺ: **«وإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»**(٢)، وهذه قاعدة لا تتخلّف، وسنّة

---

(١) كان ذلك في زمانه، وأما في زماننا فالمذابح البدنية حصرت في أماكن ودول، وأما الدين وأهله فهم في غربة، والناس ـ إلا من رحم الله ـ صرعى أو قتلى لمعركة الإعلام والتلبيس والتدجيل!

(٢) انظر التخريج في تعليقنا عليه.

لا تتبدل في كل زمان ومكان، فانظروا إلى أمم زمننا تروا كل أمة يعم فيها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات تروها مرزوقة منصورة عزيزة الجانب، سواء كانت في الشرق أم في الغرب، مع اختلاف عقائدها، فإن الله تعالى إنما يعذب الأمم في الحياة الدنيا وفي الآخرة على قدر ما بلغها من العلم، وأقيم عليها من الحجج، أما السعادة الكبرى التي تكون في العاجل والآجل فهي خاصة بمن آمن بالله ورسله واتبع من أناب».

وأخيراً، لا بدّ من الإشارة ونحن نتكلم عن مادة الكتاب إلى أنه أورد فيه بعض الأمور المستغربة المستملحة، فلما قرر في (٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣) أن في كتاب الله من الأخبار والقصص والأمثال ما يفتح القلوب المقفلة الغلف، والعيون العُمي، والأذان الصم ولكن لا يحصل ذلك إلا لمن طلب الحق بإخلاص وتجرد من هوى نفسه الأمّارة بالسوء، فهذا هو الذي ينفع بالنذر والمقلد المتعصب الذي اتخذ إلٰهه هواه لا ينتفع بذلك، وقد يسّر النطق به فترى التركي والهندي كلاهما يقرآنه بغاية التجويد مع بُعد لغاتهما عن اللغة العربية، ويسر حفظه حتى إنه يوجد في البلدان التي تحبه وتعتني به كثير من الصبيان يحفظونه في سن مبكرة، فمنهم من يحفظه وهو ابن سبع سنين». ثم ذكر قصة غريبة، قال: «يوماً من الأيام كنت أسير ومعي رفيق في شارع من شوارع «لكنو» مدينة مشهورة بالهند، فمررت على باب قرأت في أعلاه ما نصه:

في هذا البيت طفلة لا يتجاوز عمرها خمس سنين تحفظ القرآن كله فمن أراد أن يشاهدها فليدخل، فدخلنا وصعدنا درجاً انتهى بنا إلى غرفة كبيرة وجدنا فيها رجلاً ذا لحية سوداء جالساً على حصير، ورأينا طفلة تلعب بلُعَب مختلفة في ناحية من الغرفة فسلمنا عليه فرد علينا السلام ودعانا إلى الجلوس فجلسنا، فقال لنا: أي من القرآن تريدان أن تقرأ لكما منه هذه الطفلة؟ فقلت: أنا، من قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ فلم ينادها ولم يأمرها بالقراءة، بل بدأ هو يقرأ بعد الاستعاذة مبتدأ بالآية التي طلبت أنا، فتركت الطفلة اللعب وأقبلت عليه وجلست أمامه وبدأت تقرأ في الموضع نفسه، فسكت هو وتركها وحدها فاستمرت كالسهم بدون تلكؤ ولا تعتعة حتى قلنا لها: حسبك، وكانت قراءتها فصيحة ومنظرها يدل على أنها إن لم تكن بنت خمس كما هو في الإعلان لا تزيد على سبع، وهذا برهان يفسّر لنا هذه الآية، وأنا



أعتقد أن هذه الطفلة لو وجدت من يعلمها معنى القرآن ولغة القرآن والسنّة التي تبيّن معناه لتعلَّمت ذلك في أقرب وقت. فيا أسفاً على هؤلاء الذين وهبهم الله القرآن يقرأ عندهم صباح مساء وهم في ظلماتهم يتخبطون لا يتدبرونه، ولا يتعظون به، ولا يتأدبون بأدبه، ولا يستضيؤون بنوره، أولئك هم الخاسرون، وأعطينا ذلك الرجل شيئاً من الدراهم، وقد سررنا غاية السرور ولم ينقض عجبنا مما رأينا وسمعنا».

وأخيراً، عسى أن أكون قد أوقفت القارئ على معالم مهمة، وأمور عملية عالجها المصنف في كتابه هذا، ولا بدّ في الختام من التنبيه على أن المصنف عرض (توحيد الأسماء والصفات) في آخر جزئين من الكتاب على وجه دقيق، وبأسلوب سهل، وأكثر من النقولات من الكتب التي قررت عقيدة السلف[١]، وغلب على نقله التقرير لا الرد والاعتراض، إلا الشُّبه الحاضرة، التي يرددها أهل البدع، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ نقضها من أسسسها، ودحرها بالمنقول والمعقول، وبيَّن أصولها الفاسدة، وأسلوبه في معالجتها قوي، وحجته محررة ظاهرة، لا لبس فيها، ولا خفاء، وختم الكتاب بقصائد سبق الإلماع إليها[٢]، فلا داعي للإعادة والتكرار، والله هو الهادي إلى سواء السبيل، لا ربّ سواه، ولا إله غيره.

(١) مثل كتب الأئمة الأعلام: ابن تيمية، وابن القيم، وابن أبي العز الحنفي، ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم. وقد سبق أن ذكرنا ـ على عجلة ـ أهم المصادر التي اعتمدها المصنف.

(٢) انظر ما قدمناه (ص٦١).



الأصل المعتمد في التحقيق وعملي فيه

لم يطبع كتاب «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» ـ فيما أعلم ـ إلا طبعة واحدة في حياة المؤلف ـ رحمة الله عليه ـ.

وتقع في ثلاثة مجلدات، في كل مجلد جزءان، وطبع على نفقة الأميرة الجليلة الجوهرة بنت سعود بن عبد العزيز آل سعود الكبير، وأشرف على الطبع المكتب التعليمي السعودي بالمغرب، وتولى الطبع مكتبة المعارف الرباط، في المملكة المغربية.

جاء في أوله (ص٥ ـ ١١) عنوان (تنويه ـ تقريظ) كتبه الأستاذ محمد بن إبراهيم بن عبد السلام عن الملحق التعليمي السعودي بالمغرب، وأرّخه بـ٧/ ١/ ١٤٠٧هـ الموافق ١١/ ٩/ ١٩٨٦م، بيَّن فيه أهمية التوحيد، وذكر أن الهلالي عالج فيه بمهارة كل القضايا والجزئيات المتعلقة بأنواع التوحيد الثلاثة المعروفة، والتي ارتكز في معالجتها على أمرين:

١ ـ الرجوع إلى المصادر الأولى: القرآن الكريم، وما ثبت عن رسول الله ﷺ من تبيان لبعض الآيات التي ينطلق منها بحثه، ثم آراء كبار المفسرين من أئمة السلف والخلف.

٢ ـ ما عايشه هذا المؤلف الجليل (الهلالي) في حياته المبكرة من ألوان المذاهب والعقائد، وما خبر بحكم تقلّبه في آفاق شتى من الأرض ما لهذه وتلك من حجج ومقومات، قال: «لعلِّي لا أبالغ إذا قلت: إن شطراً هاماً من هذا الكتاب قد تمّ إملاؤه بتأثر واضح مما عايشه من انحرافات وأباطيل، ومن دعاوى ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان».

وفي آخره شكر لمؤلفه، وبيان جهاده، مع الشكر لمن أوصى بطباعته فضيلة الشيخ العلّامة عبد العزيز بن باز، وكذا لمن تحمّلت على نفقتها الخاصة طباعة هذا المؤلف ألا وهي الأميرة الجليلة الجوهرة بنت سعود بن عبد العزيز آل سعود

الكبير ـ رحمهم الله جميعاً ـ وختم المقدم للكتاب تقدمته بقوله: «فللمؤلف الجليل ـ شفاه الله ـ ولسماحة والدنا العلّامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ولسمو الأميرة الوقورة ـ التي أتجاوز إرادتها ـ بذكر اسمها الكريم علانية، لهم مني خالص الدعاء بأن يجزيهم الله أفضل ما يجازي به عباده المؤمنين، وأن يبارك لهم فيما قدموه، ويهدينا جميعاً سواء السبيل».

وبعدها فيه (ص١٣ ـ ١٨): (نبذة من ترجمة المؤلف) بقلم عمر بن محمد محسن، إمام وخطيب جامع الملك عبد العزيز آنفاً ـ الدار البيضاء.

وسأعمل على إثبات هاتين الكلمتين بتمامهما عقب مقدمتي هذه، وسأضع عقبهما تعريفاً عاماً بالكتاب بقلم شيخنا بالإجازة العلّامة محمد بوخبزة، أخذته من كتابه «معجم التفاسير» (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٤) والله الموفق للصالحات، والهادي للخيرات.

وأما **عملي في الكتاب**، فيتلخص في الآتي:

أولاً: قمت بضبط النص، وتصويب الأخطاء المطبعية، وإثبات الآيات برسم المصحف، وجعلت تخريجها بين معقوفتين بعدها.

ثانياً: خرّجت الأحاديث النبوية والآثار السلفية بعزوها لمصادرها من دواوين السنّة، والحكم عليها صحةً وحسناً وضعفاً(١)، وفقاً للمقرر عند أهل الصنعة الحديثية.

ثالثاً: وثّقت النقولات التي عزى إليها المصنّف، وقابلتُ ما فيها على المصادر، وأثبت الفروق بينها في الهوامش، وأفادني ذلك كثيراً في تقويم النص، وتصحيح الخطأ، وإثبات النقص.

---

(١) لعلّي أنازع المصنف في تحسين أو تجويد بعض الأسانيد، انظر ـ على سبيل المثال ـ: (ص١٧٧)، أو أتعقبه في العزو، فقد يعزو أثراً للبخاري في «صحيحه» وهو ليس فيه، انظر (٢/ ١٤٨)، أو يذكر تفرداً، والأمر ليس كذلك، انظر (٣/ ١٤٣)، وقد يعزو حديثاً لـ«الصحيحين» وهو في أحدهما فقط، وقد يعزو لغيرهما وهو فيهما أو في أحدهما، وهكذا. ومما ينبغي ذكره: إني أظهرت أحكام شيخنا الألباني على الأحاديث، لعلمي بأن المصنف يفرح بذلك، فقد وجدت في رسالة له وجهها للأستاذ أبي بكر زهير الشاويش مؤرخة بـ ٩/ ٣/ ١٣٩١هـ جاء فيها: «فأرجو من فضلكم أن تسلموا على أخينا الأستاذ ناصر الدين ـ يريد الألباني ـ وتلتمسوا منه تخريج ما عسى أن أكون تركت تخريجه من الحديث، هذا إذا عزمتم على طبع الكتاب».

ووجدت من خلال ذلك أن خطأ وقع في الرموز التي استخدمها المصنف، فهو ـ مثلاً ـ في (٦/ ١٥١) ينقل كلاماً ويرمز له بـ(ج) إشارة إلى «تفسير ابن جرير»، والنقل بحروفه من «فتح القدير» للشوكاني.

ووجدت في (١/ ١٤٣) يرمز بـ(ك) إشارة إلى «تفسير ابن كثير»، والنقل ليس فيه، وإنما عند الشوكاني في «فتح القدير» أيضاً.

ولا عجب من وقوع الأخطاء المطبعية، أو السقط، أو التحريف، فإن المصنف أملى هذا الكتاب وهو هرم، تجاوز التسعين من عمره، وقد احتوشته الأمراض، وأصيب ببصره، وكان يملي من حفظه، ويشير على تلاميذه بالنقل من بطون الكتب، ولم يراجع المطبوع بنفسه، والذي يعاني صنعة التأليف يقدر التعب والصعوبة التي تلحق بالمصنف في هذه الحالة من جهة، ورجحان احتمال وقوع الخطأ والسقط من جهة أخرى.

رابعاً: جهدت في توثيق الأشعار، وعزوها لقائليها، مع ذكر مصادرها من دواوين وكتب الأدب.

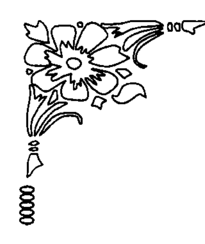
خامساً: جهدتُ في الإحالة على كتب الهلالي الأخرى، ولا سيّما أشعاره ومقالاته.

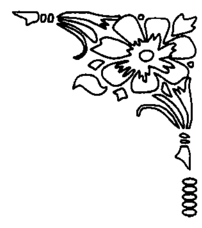
سادساً: وثّقت المسائل الفقهية، وبيّنتُ المذاهب التي أهملها، عازياً لها إلى كتب المذاهب المعتبرة.

سابعاً: وأخيراً صنعت فهارس علمية وكشافات تحليلية للكتاب، تفيد الباحث والقارئ، ويستطيع أخذ بغيته من الكتاب بسرعة، ويقف من خلالها على كنوزه وجواهره، وفوائده ومباحثه، والله الموفق، لا ربّ سواه.

والله تعالى أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل أن يبارك في هذا الكتاب، وأن ينفع به قارئه وناشره ومحققه ومؤلفه، وهذا الذي دعانا اليوم للقيام بنشره، رغبة في حصول النفع به بعد ممات صاحبه ـ عليه الرحمة والرضوان ـ وتسهيلاً على من أراد الحصول عليه ممن يريد الدعوة إلى الله به على بصيرة. والله من وراء القصد.

وأخيراً، جزى الله خيراً كل من كان سبباً في نشر هذا الكتاب، والإعانة على ذلك، ولو بالكلمة الطيبة، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه ـ وتقريظ[(١)]

إن الحمد لله نحمده ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا، ونشهد أنه الله وحده لا شريك له ولا شبيه ولا نظير، متفرد بالسموّ والكمال، ومستحق للعبادة والتعظيم والإجلال، ونصلي ونسلّم على سيد الأولين والآخرين، والمبعوث رحمة وهداية للعالمين، محمد بن عبد الله والنبي الأمي الذي أزال الله به ظلمات الجاهلية عن العيون السادرة في الغواية، وأبطل بدعوته إلى الوحدانية المطلقة ضلال الأصنام والأوثان، وأقام من رسالته محجَّة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك.

أمَّا بعد:

فلم يكن في هذه الدنيا أمر شغل الخليقة وأثار فيها الجدل، بل مزَّق ـ أحياناً ـ أمرها كل ممزق، وفرق بين القريب والحميم، وبين الأب وبنيه، والأخ وأخيه، مثل قضايا العبادة وفهم الأمم لها سلباً أو إيجاباً. فالشرائع السماوية ودعوات رسل الله من نوح عليه السلام حتى خاتمهم محمد بن عبد الله تنطلق من منبع واحد لا يتبدل ولا يتغير، دعوة مطلقة لعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، ومع ذلك تقوم في وجه هذه الدعوة الصريحة المنجية دعاوى وضلالات، وأباطيل وخرافات تلبس ألف ملبس وتقعد للناس كل مقعد، حتى تنحرف بالمنخدعين وراءها إلى دروب مهلكة وإلى بُعد سحيق عن كنف الله الذي لا يرضى لعباده الكفر، ومن هنا فإن أشرف ما ترقى له الهمم وتعلو به المراتب، ويتقرب به العبد إلى خالقه هو تبصير الناس بأسس التوحيد وركائزه، وبما قد يشوب هذه الركائز والأسس من انحراف قلَّ أو كثر؛ لأن إفراد الله بالعبادة

(١) بهذا ابتدأ المجلد الأول من الطبعة السابقة.

خالصة مطلقة، ووضع كل الحدود أمام أي زيغ أو زلل عن هذا الطريق هو بمثابة الأرض الصلبة التي يقف عليها المرء مسلماً آمناً لا عوج فيه ولا اضطراب. والقرآن الكريم من أوله إلى آخره يذكِّر التالي له - بين آونة وأخرى - بهذا النهج الأبدي السرمدي المرتكز على: أن الله ﷻ متفرد في ملكه ومستحق وحده العبادة دون وسيط مهما كانت درجة قربه، ومهما كانت مكانته عند ربه. فالله واحد في تدبيره للكون أرضاً وسماء، واحد في استحقاقه لعبادة الخلق، واحد في أسمائه وصفاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فإذا تحققنا - وهو ما يقرره كتاب الله ﷻ - من أن البشرية لم تخلق أصلاً إلا من أجل هدف كبير، وغاية سامية، وهي أن تعبد الله وتخلص له القصد في القول والعمل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] ولن تستقيم أحوالها ويستتب صوابها إلا على هذه الركيزة الأساسية: الوحدانية المطلقة لله، واتباع سنن رسله عليهم السلام، إذا تحققنا ذلك أدركنا - في بساطة ويسر - مدى العناية التي أعطاها القرآن الكريم من البداية إلى النهاية لقضية التوحيد في شمولها وعمومها، وما ضرب الله من أمثال تقربها من الأفهام وتدنيها من الوعي، وما أحاط بها في نفس الوقت من شبهات وزيغ، وما نشأ بسبب الفهم المضطرب لها - بين الحق وسواه - من فرق ونحل، ومن طرائق ومسميات، **وأدركنا في نفس الوقت الجهد الكبير الذي بذله العلامة السلفي الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الحسيني وهو يكتب مؤلفه «سبيل الرشاد» في سفر يضم ستة أجزاء «في ثلاثة مجلدات» عالج فيها بمهارة العالم المتمكن كل القضايا والجزئيات المتعلقة بأنواع التوحيد الثلاثة المعروفة**، والتي ارتكز في معالجتها على أمرين:

أ - الرجوع إلى المصادر الأولى: القرآن الكريم، وما ثبت عن رسول الله ﷺ من تبيان لبعض الآيات التي ينطلق منها بحثه، ثم آراء كبار المفسرين من أئمة السلف والخلف ومن نحا نحوهم وسار على خطاهم وخاصة في التوقف عن الخوض في أسماء الله وصفاته بغير علم ولا هدي، حيث يثبتونها كما أثبتها الله لنفسه من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تعطيل، فهي كمال مطلق لا ندرك كنهها ولا حدود قدرتها - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١].

ب - ما عايشه هذا المؤلف الجليل في حياته المبكرة من ألوان المذاهب

والعقائد، وما خبر بحكم تقلبه في آفاق شتى من الأرض ما لهذه وتلك من حجج ومقومات، ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إن شطراً هاماً من هذا الكتاب الذي يُعنى بتتبع آيات التوحيد المبثوثة في القرآن الكريم التي تعالج هذه القضية الأساسية في التشريع، وفي تصنيف الإنسان كافراً أو مؤمناً أو زائغاً، وبالصراع الطويل القائم بين الرسل ومخالفيهم ـ على كثرتهم واختلاف بيئاتهم ـ لعلي لا أبالغ إذا قلت: **إن شطراً هاماً من هذا الكتاب قد تم إملاؤه بتأثر واضح مما عايشه من انحرافات وأباطيل، ومن دعاوى ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان، وبتأثر كبير من إقامته في المدينة النبوية معقل الرسول ومهاجره، والمثوى الكريم لجسده الطاهر ﷺ.**

إن الفكر المسلم يتجه أول ما يتجه في تلك الأرض الطيبة المفعمة بوحي الله إلى جهاد الرسول العظيم في سبيل دعوة الحق، وإلى ما ناله من أذى قومه وهو يعلنها صريحة قوية واضحة: أن اعبدوا الله وحده ولا تتخذوا من دونه من ولي ولا نصير، لقد نادى عليه السلام أقرب الناس إليه، نادى فلذة كبده فاطمة وهو يحدد موقفه من ربه ومنها، ويزيل كل لبس قد يعْلَق بأذهان أمته وعبر مسيرتها في الأرض: «**يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت وأنقذي نفسك من النار لا أغني عنك من الله شيئاً**»[1]. أيُّ تحديد أَدقُّ من هذا القول النبوي الفصل، وأي كلام أنفذ منه إلى المعنى الذي قصده، فإذا كان هذا حال محمد عليه الصلاة والسلام وهو أعظم الخلق عند الله منزلة، وأرفعهم قدراً، وقائدهم يوم الحشر العظيم، وشفيع من مات من أمته موحّداً لله خاضعاً لربوبيته المطلقة، فكيف يسمح العقل لأي إنسان يدّعي الإيمان والإسلام أن يجعل بين الله وبينه شفيعاً، أو يتخذ من دونه واسطة، أو يلحد في أسمائه وصفاته، أو يصرفها عن ظاهرها ٱدِّعاء لتنزيه الله وتقديسه.

إن الخالق العظيم وقد أوجد هذا الكون على غير مثال سبق، وأودع فيه الإنسان نفحة من نفحاته ليعمره بالعمل الصالح، وبالعبادة الخالصة، وأنزل له الشرائع، وبعث له الرسل تلو الرسل، يحملون آيات بينات، ووحياً يتلقونه من السماء لإسعاد أممهم وتقويم عوجهم.

إن هذا الخالق الكبير وهو يدعو هذا الإنسان إلى الاحتماء بكنفه والالتجاء

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣، ٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤) من حديث أبي هريرة.

إليه في سرَّائه وضرَّائه، وفي يسره وعسره، إنما يريد أن يكرمه في هذه الأرض، ويحرره من الخوف، ومن سيطرة وهيمنة أي مخلوق مهما علا شأنه وعظم قدره، فالناس في شرعة الحق سواسية لا يتفاضلون إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إنني أيها القارئ العزيز **لا أقدم كتاب: «سبيل الرشاد» بهذه السطور المتواضعة فالكتاب يقدم نفسه، والمؤلف معروف في ساحة الجهاد العلمي وفي ميدان الدعوة إلى الله كأقوى وأصلب ما يكون الدعاة، لكنها تحية فقط لهذا النوع من الجهاد الدؤوب الذي يأبى بعد سن الخامسة والتسعين إلا أن يكد ويجد، ويكافح وينافح.**

من أجل إعلاء كلمة الله والدفاع عن عقيدة التوحيد الذي لا تشوبه شائبة، وهي تحية في نفس الوقت لسماحة العلامة الكبير الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية الذي شرَّف مكتبنا بالسهر على هذا المؤلف ـ طباعة وتوزيعاً، وهي سنة حميدة من سماحته نشهد أثرها على رقعة ممتدة من الأرض الإسلامية الفسيحة وبينها هذا البلد العزيز علينا ـ المغرب الأقصى ـ الذي حمل راية الإسلام والجهاد، وأثرى علماؤه المكتبة الإسلامية بنفائس مؤلفاتهم وكنوز معارفهم، وهي تحية تقدير للأميرة الجليلة الجوهرة بنت سعود بن عبد العزيز آل سعود الكبير التي تحملت على نفقتها الخاصة طباعة هذا المؤلف وتوزيعه مجاناً ابتغاء لوجه الله، وتطلعاً إلى مثوبته.

إن نشر العلم النافع، وتيسير تداوله بين الناس من أعظم ما تتوجه إليه الهمم العالية، ويسعى إليه ذوو النفوس الخيِّرة لأن في ذلك إتاحة للنور أن يشرق في القلوب وإنذاراً للجهل أن يرحل، ولصديء ظلمته أن يتحول إلى طريق لاحب، وإلى نهج مضيء. فإذا كان الأمر بهذه الغاية من السمو فكيف بهذا العلم إذا استهدف في الأساس تصحيح عقيدة المسلم مع ربه، وتنقية توجُّهه إليه من أي شبهة أو ابتداع، ومن أي زيغ أو إلحاد أو تحريف، إنه سمُوٌّ ما بعده سمو، وغاية تتدانى دونها كل غاية، إنَّه الانسجام التام مع الأسس التي حث عليها ديننا الحنيف، ورغَّب في فضلها، وأشاد بها في أكثر من موضع، وجعلها من الباقيات الصالحات التي تظل للإنسان بعد رحيله من هذه الحياة.

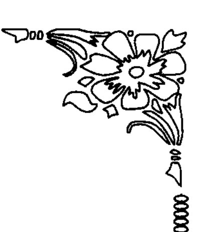
ومن هنا يمكن لنا أن نقيِّم العمل البار الذي بادرت به الأميرة الجليلة (الجوهرة بنت سعود بنت عبد العزيز آل سعود الكبير) ابتغاءاً لوجه الله وطمعاً فيما عنده.

فللمؤلف الجليل ـ شفاه الله، ولسماحة والدنا العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ولسمو الأميرة الوقورة ـ التي أتجاوز إرادتها بذكر اسمها الكريم علانية، لهم مني خالص الدعاء بأن يجزيهم الله أفضل ما يجازي به عباده المؤمنين وأن يبارك لهم فيما قدموه، ويهدينا جميعاً سواء السبيل.

محمد بن إبراهيم بن عبد السلام
الملحق التعليمي السعودي بالمغرب
الرباط في ١٤٠٧/١/٧هـ
الموافق ١٩٨٦/٩/١١م

قال أبو عبيدة: انتهى ما في الطبعة السابقة، وبعده فيها ترجمة موجزة بقلم تلميذ الهلالي الأستاذ الشيخ عمر بن محمد محسن إمام وخطيب جامع الملك عبد العزيز آنذاك بالدار البيضاء، هذا نص ما فيها، والهوامش والتعليقات بقلمي. والله المستعان لا ربَّ سواه:





نبذة من ترجمة المؤلف(١)

. . . .

(١) قال أبو عبيدة: لصاحب هذه السطور ترجمة حافلة مبسوطة، فيها تتبع دقيق لمجريات حياته ورحلاته ومؤلفاته ومقالاته، ومن أغنى وأجمع مصادر ترجمته كتب الهلالي ومقالاته ومراسلاته وفتاواه، فهو كثير الاستطراد فيها، وكثير الحديث عن نوادره وأعلام عصره، وظهر ذلك في المقالات على وجه أظهر وأكثر، وقد جمعت منها ـ ولله الحمد ـ لغاية تدوين هذه السطور نحو تسع مئة مقالة من مجلات وصحف وجرائد عديدة، سيأتي تسمية بعضها.

ومصادر ترجمة الهلالي كثيرة متناثرة، وما زالت منها بقية في ذكريات كبار تلاميذه وأبنائه وذويه ومن كان قريباً منه، وحصلت على شيء من ذلك من خلال مراسلات ولقاءات وظفرت بترجمة له بخطه، كان قد كتبها بطلب من الشيخ سليمان بن عبد الرحمٰن الصنيع، محفوظة في جامعة الملك سعود، أرسلها إليَّ الأخ عبد الإله الشايع حفظه الله في ٢٤/٨/١٤٢٦هـ ترى مصورتها عقب هذه الترجمة، وأجريت معه ـ أي: الهلالي ـ مقابلات عديدة نشرت في غير صحيفة تفيد كثيراً في ترجمته، وهي ـ ولله الحمد ـ مجموعة في كتابي «مقالات الهلالي».

وذكر تلميذه محمد بن عودة في مقالة نشرها في جريدة «العلم» المغربية بتأريخ ١٤/ محرم/١٤٠٨هـ ـ ٩/٩/١٩٨٧، السنة (٤١) العدد (١٣٥٥٣) (ص٨) ما نصه: «وفي بعض صحواته أثناء ذلك المرض، قلت له: أرجو منك يا دكتور أن تملي عليَّ بعد شفائك ـ إن شاء الله ـ من مرضك ترجمة لحياتك حتى أكتبها، فقال: لا، بل أُمليها عليك الآن؛ لأني لست أدري: هل هناك متّسع من العمر لذلك؟ وقد كتبتُ نحو الستين ورقة، وذلك في ثلاثة أيام، وشفي بعدها، واشتغلنا بكتابة الرسائل والرد على ما وصل إليه منها في مختلف الأقطار والأمصار. ولم أعد لكتابة شيء بعد ذلك من المذكرات، وأذكر أننا وصلنا إلى تجوله عبر العالم في مدينة تونس، وعمره ١٣ سنة. وقد حفظ القرآن الكريم، وقد ضاعت مني الكراستان للأسف الشديد».

ومن الدراسات الجذرية عنه: دراسة مخلص السبتي المنشورة عن المجلة المغربيّة لعلم الاجتماع السياسي سنة ١٩٩٣م في (١٦٣) صفحة بعنوان «السلفية الوهابية بالمغرب تقي الدين الهلالي رائداً» وسجل اثنان من الباحثين في الجامعة الإسلامية رسائل ماجستير عن دراسات تخص جانباً من حياته:

=

= **الأول**: أخونا الأستاذ خالد الزهراني وعنوان دراسته: «محمد تقي الدين الهلالي وجهوده في الدعوة إلى الله».

والثاني: أخونا الأستاذ عبد الرحمٰن العميسان، وعنوان دراسته «جهود محمد تقي الدين الهلالي في تقرير عقيدة السلف والرد على المخالفين».

وما زالتا قيد الإعداد.

وأخبرتني الأستاذة الدكتورة خولة ابنة الشيخ الهلالي أن بنتاً لأخت لها تعد رسالة ماجستير أيضاً، وهاتفتُ أمَّها في الجزائر، وأخبرتني أن ابنتها زينب عبد الكبير البكري تعد رسالة عن الشيخ الهلالي وترجمته لسورة يوسف مقارنة مع ترجمة أخرى، وظفرت لأبيها الأستاذ عبد الكبير البكري مقالة جيدة عن الهلالي بعنوان «نجم أفل» نشرت في جريدة «الميثاق» المغربية فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ، والعدد (٥٣٨) لسنة (٢٤) (ص٥). وهناك أطروحة دكتوراه تعد عن حياة الهلالي وفكره في جامعة جورج تاون بأمريكا، وهي بعنوان «تطور السلفية من خلال حياة وفكر محمد تقي الدين الهلالي» للوزري هنري.

وأما الكتب التي ترجمت له، فهي «تحفة الإخوان بتراجم بعض الأعيان» للعلامة ابن باز ـ قيد الإعداد بتحقيق الأخ الباحث النابه محمد زياد التكلة ـ «التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين» (ص١٢٣، ١٢٤)، «إمارة الزبير بين هجرتين بين سنتي ٩٧٩ ـ ١٣٤٢هـ» لعبد الرزاق عبد المحسن الصانع وعبد العزيز عمر العلي. وفيه (٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨) وفي مواطن متفرقة منه ومضات تخصُّ الهلالي، انظرها في (٣/ ١٤٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٢٦)، «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٨٣ ـ ٢١٧)، «من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة» (ص٤٨٥ ـ ٤٩٦)، وكان قد نشر ما يخص الهلالي في مجلة «المجتمع» عدد (١٢٩٨) ـ، «ذيل الأعلام» (١/ ١٧٠، ١٧١)، «إتمام الأعلام» (ص٣٤٦)، «الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال» (٢/ ٦٦٢ ـ ٦٦٧)، «من أعلامنا» فيه ترجمة في (٤٢) صفحة، «أعلام وعلماء عايشتهم» لإسماعيل بن سعد العتيق، «لمحات من الماضي» (ص٣٣٢ ـ ٣٣٤) لعبد الله الخياط، وفي كتاب «المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ وسيرته وأقواله ورحلاته» (٢/ ٥٩٢، ٥٩٨، ٦٠٤، ٦٠٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦٢٨، ٦٣٣، ٦٥٥) إضاءات مهمة عن حياته، وهنالك ومضات وإفاضات وإضافات في ترجمته في كتب أخرى، مثل: «ذكريات الطنطاوي» (٤/ ٤٦) «جولات في الفكر الإسلامي»، «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث» (ص٨٥، ٨٦، ٩٥، ٩٦) كلاهما لصديقه العلامة عبد الله كنون رَحِمَهُ اللَّهُ، «حياة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وآثاره» (ص٧٢)، «فتح الجليل في ترجمة وثبت شيخ الحنابلة عبد العزيز بن عبد العزيز العقيل» (ص٥٩، ١٧٤، ٣٦٤، ٣٦٦)، «معجم المعاجم والمشيخات» (١/ ٨٧، ٩٨ و٣/ ١٥٧)، «في مسيرة الحياة» (٩١، ٩٧ ـ ١٠٠، ١١٦، ١١٨، ٣٧٦)، «مذكرات سائح في الشرق العربي» (٧٣، ٧٤، ١٦٥، ٢٣٣، =

....

= ٢٤٤)، «رحلات العلامة أبي الحسن الندوي» (ص٤٠٣، ٤١٠، ٤١٦) و«أسبوعان في المغرب الأقصى» (٦٣، ٧٣، ٧٧، ٨٢)، «شخصيات وكتب أثَّرت في حياتي» (ص٤٦، ١٥٠) كلها لأبي الحسن الندوي، «جهود مخلصة في خدمة السنة المطهرة» (١٨٠) «معجم الشعراء» (٤/ ٣٥٣)، «القول الوجيز» (٨٠)، «أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب» (ص٦٩، ٧٠) «الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر من كتاباته» (ص٦٧٣، ٦٧٤)، «السيد رشيد رضا وإخاء أربعين سنة» (١١٩، ٣٤٥، ٣٩٣، ٣٩٥، ٥٤٨، ٥٤٩)، «عبد العزيز الثعالبي من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب» (٣٧، ٤٣)، «جماعة أنصار السنة المحمدية» (ص٢٩٤، ٣٢٠).

وللهلالي مدح وثناء وذكر لأهم الأحداث التي وقعت في حياته في عدد من «المجلات»، وأكثرها احتفاءً وعناية به: «الفتح» المصرية، و«دعوة الحق» المغربية، وله ذكر في «الصراط السوي» الجزائرية، و«الهدي النبوي» المصرية، و«البصائر» الجزائرية، و«الجامعة السلفية» و«الرائد» الهنديتان، و«التمدن الإسلامي» الدمشقية، ومجلَّتَيْه: «الضياء» الهندية، و«لسان الدين» التطوانية، وله أيضاً ذكر في «الإخوة الإسلامية» و«الثقافة الإسلامية»، و«السجل» العراقيات.

وترجم له في مجلة «التربية الإسلامية» العراقية العدد الثاني، صفر ١٤٠٩هـ (ص٥٧، ٥٨)، ومجلة «المنهل» (٤٩٩) و«الفرقان» المغربية العدد (١٠) سنة ١٩٨٧م، و«الاستجابة» السودانية العدد (٩) السنة (٣) رمضان ١٤٠٨هـ (ص٤٢ ـ ٤٣) وجريدة «الجزيرة» السعودية عدد (١٠١٢٣)، و«البحوث الإسلامية» السعودية، العدد (٨) ذو العقدة، ذو الحجة ١٤٠٣هـ (ص٢٠٦) (مختصرة) وفي مجلة «البيان» البريطانية، العدد (١٧٤) صفر سنة ١٤٢٣هـ (ص٣٨) وفي أول «ترجمة لتفسير معاني القرآن» الطبعة (١٢) سنة ١٩٩٥م (ص١٦) ترجمة موجزة له باللغة الإنجليزية. وأخبرني تلميذ الهلالي فضيلة الشيخ عبد الحميد الرحماني الهندي أنه نشر مقالة بالأردية في ترجمته في مجلة «التوعية الإسلامية» الهندية، ثم وجدت ترجمة جيدة للهلالي بقلمه نشرها في مجلة «صوت الجامعة» السنة الثالثة، العدد الأول شعبان ١٣٩٢هـ، أكتوبر ١٩٧١م (ص١٣ ـ ١٨)، ونشر سعيد الأعظمي الندوي مقالين في مجلة «البعث الإسلامي» المجلد (٣٢) العدد (٥، ٦) ١٤٠٨هـ بعنوان (عالم فقدناه العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي المراكشي)، ووجدت أيضاً في مجلة «صوت الجامعة» الهندية، المجلد الأول، العدد الثاني، شعبان ١٤٠٨هـ، (ص٤٥ ـ ٥٤)، مقالة دون توقيع بعنوان (خاتمة شاهد قرن، كيف ودعت المغرب العالم المجاهد محمد تقي الدين الهلالي؟) ونشرت في مجلة «المجتمع» الكويتية العدد (١٢٩٨) سنة ١٤١٩هـ مقالة بعنوان «الشيخ العلامة محمد تقي الدين الهلالي» بقلم المستشار عبد الله العقيل، ونشر في مجلة «الفرقان»، المغربية، العدد العاشر سنة ١٩٨٧ (ص٤ ـ ٧) ترجمة بعنوان «العالم الجليل الدكتور الهلالي في ذمة الله»، واعتمدت المجلة على ترجمة محسن المثبتة هنا، ونشرت جريدة «العلم» =

نسبه:

هو محمد تقي الدين(١) بن عبد القادر الهلالي، نسبة إلى هلال الجد الحادي عشر، ابن محمد المعروف بـ: بابا ابن عبد القادر بن الطيب بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن عبد النور بن عبد القادر بن هلال بن محمد بن هلال بن إدريس بن غالب بن محمد المكي بن إسماعيل بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن علي بن عبد القوي بن عبد الرحمٰن بن إدريس بن إسماعيل(٢) بن سليمان بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو كما ترى ينتهي نسبه رضي الله عنه إلى الحسين بن علي ذكر ذلك غير واحد من المؤرخين، وأقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم سجلماسة سنة ١٣١١هـ(٣).

نشأته:

ولد أطال الله بقاءه سنة ١٣١١هـ بالفيضة القديمة وتسمى «الفرخ» على بضعة أميال من الريصاني، والأصل قرية أولاد عبد القادر في «الغرفة» من أرض سجلماسة المعروفة بتافيلالت من المملكة المغربية.

= المغربية، بتأريخ ١٤ محرم ١٤٠٨ ـ ٩/٩/١٩٨٧ (ص٨) السنة (٤١) العدد (١٣٥٥٣) مقالة بعنوان (في رفقة الدكتور تقي الدين الهلالي) لتلميذه محمد بن عودة، ونشرت مجلة «السبيل» المغربية، العدد الثالث، بتأريخ ٢٩ شعبان ١٤٢٦هـ ـ الموافق ٤ أكتوبر ٢٠٠٥م (ص٢٣) مقالة موجزة في ترجمته، وهنالك أخبار عنه في صدور وعقول تلاميذه وعارفيه، وسمعت من غير واحد أشياء كثيرة ومهمة ومفيدة.

(١) قال الهلالي: إن والدي رأى في المنام قائلاً يقول له: سيولد لك غلام، فسمّه (محمد التقي) فكان ذلك، ولكن أهل الهند سموني (تقي الدين) فاشتهر اسمي بـ(محمد تقي الدين) من «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/١٩٣)، وفي «السلفية الوهابية» (٢٧): «ومرة سأله بعض شيوخه عن اسمه؟ فقال له: محمد التقي، فقال الشيخ: لا تقوى بدون دين، فأنت محمد تقي الدين» (أبو عبيدة).

(٢) الصحيح أن يقال: إدريس بن موسى بن إسماعيل (أبو عبيدة).

(٣) وليس له لقب، وكنيته أبو شكيب على اسم صديقه الأمير شكيب أرسلان رحمه الله.

دراسته:

قرأ القرآن على جده ووالده فحفظه وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان والده ينوي أن يبعثه إلى مقرئ ذلك العصر، الشيخ أحمد بن صالح ليقرأ عليه ختمة التجويد، كما كان عازماً على السفر به إلى القرويين بفاس لطلب العلم هناك، فعاجلته المنية وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره فقامت بذلك أمه، فقرأ على الشيخ المذكور القرآن من أوله إلى آخره بالتجويد، ثم بقي فترة بدون تعليم. ولما بلغ سن الرشد سافر إلى زاوية آيت إسحاق بقبيلة آيت أخلف، وبقي هناك سنتين، ثم عاد إلى تافيلالت، ثم سافر إلى الجزائر وأقام بقبيلة أحميان، ولم يكن يخطر له التعلم ببال إلى أن رأى النبي ﷺ[(١)] في المنام، وقال له: اقرأ العلم، فصار عنده عزم شديد على طلب العلم، فتوجه إلى الرجل الصالح الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي، فقص عليه رؤياه، فأعطاه نسخة من «مختصر الشيخ خليل» وقال له ابدأ في حفظ هذا الكتاب، وكلما اجتمعنا شرحت لك بعضه، فاستمر يحفظ، وبعد مدة ذهب إليه وأقام عنده يتعلم الفقه والنحو حتى فتح الله عليه في علم النحو وصار الشيخ ينيبه عنه في غيابه، وإلى أن مات الشيخ الشنقيطي سنة ١٣٣٨هـ، ثم توجه إلى مدينة وجدة فبقي مدة عند العالم الأديب السيد أحمد السكيرج يعلم ابنه الأستاذ عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام ثم توجه إلى فاس وحضر في القرويين دروس بعض الأستاذة، وعلى رأسهم العالم المحقق المصلح السيد الفاطمي الشرادي ـ رحمة الله عليه ـ ومن أجل من لقي من علماء فاس وأكثرهم تأثيراً في أحواله واتجاهه في طلب علم الكتاب والسنة، العالم المحقق الشيخ محمد بن العربي العلوي ـ رحمة الله عليه ـ وجرت بينه وبينه مناظرة[(٢)]، فحصل على إجازة من جامع القرويين عادلتها جامعة «بون» الألمانية بالشهادة الثانوية «الباكلورية».

---

(١) انظر: كتاب «الدعوة إلى الله» للمؤلف. (منه).

(٢) انظر: كتاب «الهدية الهادية» للمؤلف (منه). قال أبو عبيدة: وذكر الهلالي في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٧٣، ٧٤) أنه نشر في صحيفة «الحرية» ثلاث مقالات تحت هذه الترجمة (كيف خرجت من الطريقة التيجانية) قال: «وذكرت فيها قصة خروجي وتوبتي من هذه الطريقة وأقمت البراهين على بطلانها». قال أبو عبيدة: وذكرتُ فيما مضى (ص٣٠ وما بعدها) خلاصة قصة رجوعه إلى التوحيد والسنة، ومناقشته مع شيخه محمد بن العربي العلوي، التي على إثرها ترك الطريقة التيجانية واتبع الكتاب والسنة بفهم سلف الأُمة (أبو عبيدة).



وفي آخر سنة ١٣٤٠هـ سافر إلى القاهرة وحضر دروس القسم العالي بالأزهر، وخلال ذلك اجتمع بعدد كبير من العلماء الأجلاء، وعلى رأسهم الإمام المصلح، السلفي الطائر الصيت الأستاذ رشيد رضا صاحب «المنار»[١].

وكانت له رغبة في طلب الحديث، فعزم على السفر إلى الهند[٢] لعلمه أنه لا تزال بقية من علماء الحديث في الهند، فسافر لأداء فريضة الحج ومنها إلى الهند، فمكث هناك يدرس الحديث ويدرس الأدب العربي إلى أن أخذ العلم والإجازة عن شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب كتاب: «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي» وله في هذا الكتاب قصيدة أثبتها المؤلف في آخر «المجلد الرابع»[٣].

وأجازه كذلك الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني نزيل «بهوبال» ثم رحل من الهند سنة ١٣٤٣هـ إلى العراق وأثناء إقامته بمدينة البصرة التقى بالعالم السلفي الأديب، المحدث المحقق الشيخ محمد بن أمين الشنقيطي[٤] فزوجه ابنته وانتفع كثيراً بمجالسته ومذاكرته، وبعد ثلاث سنوات توجه إلى المملكة العربية السعودية فأقام بها في ضيافة الملك عبد العزيز ثم عين مراقباً للمدرسين [في المسجد النبوي] مدة سنتين، ثم مدرساً في المسجد الحرام والمعهد السعودي لمدة سنة، وبعدها سافر مرة أخرى إلى الهند، فعين رئيساً لأساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء «بلكنو» مدة ثلاث سنوات تعلم

---

(١) نشر الهلالي في «المنار» مجموعة مقالات منها «مناظرة في مسألة القبور والمشاهد» نشر على (٧) حلقات و«مأساة أميرة شرقية» على حلقتين (ولم يتم)، ونقل السيد رشيد بعض مقالات نشرها الهلالي في «الفتح» وكان رضا في نزاعه مع شكيب أرسلان يحكّمان الهلالي في المسائل اللغوية. (أبو عبيدة).

(٢) لما رأى «عون المعبود» علم أن بقية من المحدثين في الهند، فرحل إليهم، والتقى بالعلامة المباركفوري وأجازه واستفاد منه.

(٣) وله أيضاً قصيدة في أوله، ولكنه لم يسمه واكتفى بقوله: «بعض الأعلام»، وانظر: عنها مقالة أخينا البحاثة الأستاذ صلاح مقبول في «العلامة أبو العلى عبد الرحمٰن المحدث المباركفوري» المنشورة في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد (٩) العدد (١) صفر ١٣٩٧هـ (ص٦٠ ـ ٦٤). (أبو عبيدة).

(٤) ليس هو بصاحب «أضواء البيان»! كما قال بعض مترجمي الهلالي، وللهلالي ترجمة مطولة عنه نشرت في «الفتح» وعنها «المنار»، أودعتُها في كتابي «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره. (أبو عبيدة).

خلالها اللغة الإنجليزية[١]، ثم رجع إلى البصرة وبعد ثلاث سنوات سافر إلى «جنيف» ونزل عند الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وكانت عنده رغبة لإتمام الدراسة الجامعية فكتب الأمير شكيب أرسلان رَحِمَهُ اللهُ إلى أحد أصدقائه بألمانيا يقول: عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثله في العلم، يريد أن يدرس في إحدى الجامعات، فعسى أن تجدوا له مكاناً لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة، فجاء الجواب بالقبول وعيِّن محاضراً في جامعة «بون» وفي ظرف سنة تعلم اللغة الألمانية[٢] وحصل على ديبلوم فيها، ثم صار طالباً في الجامعة.

وفي أثناء إقامته بألمانيا ترجم مع الأستاذ «باول كالي» مدير معهد العلوم الشرقية في جامعة «بون» كتابين عربيين: أحدهما كتاب «البلدان» في الجغرافية العالمية للعلامة محمد بن الفقيه البغدادي المتوفى في آخر القرن الثالث الهجري، والثاني كتاب: «طيف الخيال»[٣] للعلامة محمد بن دنيال الكحال الموصلي نزيل مصر.

---

(١) في قصة طريفة جداً ذكرها في كتابه «البراهين الإنجيلية» فانظرها هناك، تولى الله هداك. (أبو عبيدة).

(٢) كان الهلالي يتقن العربية، بل كان فحلاً وإماماً لا يبارى فيها، قال عنه العلامة حماد الأنصاري: كان كالأصمعي، وكان الهلالي يجيد الإنكليزية والألمانية والإسبانية والعبرية والبربرية، وأخبرتني ابنته خولة أنه كان ملماً بالفرنسية، ووجدته يذكر في بعض مقالاته أنه يفهم الأفغانية والسريانية، وكان عارفاً بالإمغازية وبلغة بريل، تعلمها لما أضر، وكان عنده بها «شرح العقيدة الطحاوية». (أبو عبيدة).

(٣) أشار الأستاذ كركيس عواد في «الذخائر الشرقية» (١/ ٥٢٠) أنه طبع في بغداد سنة ١٩٤٨م بعنوان «ثلاث مسرحيات عربية مثلت في القرون الوسطى»، وزاد صاحب «فهرست المطبوعات العربية» (٢/ ٣٣٠) أنها تقع في (٤٨) صفحة، ونشرت عن مطبعة الاعتماد، ومن الأعمال التي ترجمها الهلالي: «مدنية العرب في الأندلس» لجوزيف ماك كين، ترجمه عن الإنجليزية وطبع لأول مرة في بغداد عن مطبعة العاني سنة ١٥٩٠هـ بعنوان «الهلال والصليب». ثم طبع بالعنوان المذكور في الدار البيضاء، مكتبة المعارف، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م في (١١١) صفحة وترجم جملة من المقالات، منها: «الطبقات عند العرب» ذكرها في كتابه «الخلع» (ص٥٣)، وله ترجمة «كيف يربي يهود الولايات المتحدة أولادهم» نشر في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد (١٠) العدد (٢) صفر ١٣٩٨هـ (ص١٠، ١١)، ونشر في المغرب على هيئة كتيب، ومن أهم أعماله في الترجمة: ترجمة معاني القرآن الكريم، مع صديقه محمد محسن خان سيأتي ذكرها ضمن المؤلفات برقم =

وأثناء إقامته في ألمانيا عين مشرفاً ومرجعاً لغوياً بالقسم العربي من الإذاعة الألمانية، فوجدها فرصة سانحة لفضح جرائم المستعمرين لبلده المغرب من الفرنسيين والإنجليز، فألقى من على منبر تلك الإذاعة خطباً كانت على المستعمرين خطوباً، وكان بسببها أن نفته فرنسا من المغرب نفياً رسمياً مع أنه كان غائباً عنه كما عملت بريطانيا على نزع جنسيته العراقية التي كان تجنس بها سنة ١٩٣٤م.

وفي سنة ١٩٤٠ قدم رسالة دكتوراه، وهي ترجمة مقدمة كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني مع التعليق عليها(١) وهكذا حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٤١م ثم بعد الحرب العالمية الثانية عين أستاذاً بجامعة بغداد وفي سنة ١٩٤٢م سافر إلى تطوان بمساعدة الأستاذ المجاهد عبد الخالق الطُّرَيْس(٢) رئيس حزب الإصلاح الوطني إذ ذاك فبقي إلى أن كاد له الإسبان ونزعوا منه

= (٣٢) ولنا كلمة عنها تنظر في التعليق هناك، وللهلالي أيضاً ترجمة «مختصر صحيح البخاري» بالاشترك مع خان أيضاً، وتكلمتُ عليها بإسهاب في ترجمتي المفردة له. (أبو عبيدة).

(١) ذكر الأستاذ الجراري في كتابه «التأليف ونهضته بالمغرب» (ص١٢٤) أنها طبعت في (لايبزك) في ألمانيا، قلت: نعم، رأيتها بالألماني في (٤١) صفحة، نشرت ضمن (مجموعة البحوث الشرقية) (جزء ٧) عن دار أوتو هاغاسوفيتسي، ليبزج وذكر الهلالي فيما كتب إلى المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١٩٠، ١٩١): «رغب الناشرون في نشر رسالتي على نفقتهم، ولا يقع ذلك إلا للرسائل المفضلة». وللهلالي في كتابه «الطريق إلى الله» (ص٦٤ ـ ٦٦) كلمة جامعة مهمة عن أطروحته هذه.

ثم ظفرت بكلمة جيدة للألماني (كاله) نشرت في مقدمة كتاب ابن المعمار البغدادي الحنبلي (ص١١٢) فيها مدح لعمل الهلالي في رسالته ومما قال: «وكان عملنا المشترك (يريد نص الفتوة والمروءة) من كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني، ونشر في مجلة «دير إسلام» الألمانية، الجزء (٢٤)، سنة ١٩٣٧ (ص٥٤ ـ ٦٩) يهم الهلالي، لأنه حفّزه للبحث في مقدمة كتاب البيروني في «الجواهر» فاشتغل بتحقيقها على النحو الذي ابتدأنا به، وبهذا العمل نال شهادة الدكتوراه في الفلسفة على يد (ريجارد هرثمن) في برلين سنة ١٩٤١، واسم رسالته «ترجمة مقدمة كتاب «الجماهير في الجواهر» للبيروني مع تعليقات عليها»، وهو عمل علمي جليل من الطراز الأول». انتهى. ونشر الهلالي في جريدة «الحرية» المغربية مقالة عن أستاذه (ريكارد) في السنة السادسة، العدد (٧٩٧) ٢٤ جمادى الثانية. (أبو عبيدة).

(٢) انظر ترجمته في: «الأعلام» (٣/ ٢٩١) (أبو عبيدة).

جوازه بدعوى أنه مزور، وفي سنة ١٩٥٩م عين أستاذاً بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بفرعها بفاس إلى سنة ١٣٦٨هـ، حيث سافر مرة أخرى إلى ألمانيا ومنها إلى الأراضي القطبية[١].

وفي سنة ١٣٨٨هـ توجه إلى الحج وفي منى اجتمع بالعالم الورع الذي يقل نظيره في هذا العصر ألا وهو الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فقال له: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك، فقال: وأنا مستعدٌّ لخدمتها، فكتب الشيخ عبد العزيز وطلبه من وزارة التعليم المغربية، فالتحق أستاذاً بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وبقي بها إلى سنة ١٣٩٤هـ، حيث طلب منه إخوانه في المغرب أن يستقر في المغرب للدعوة إلى الله تعالى والمحافظة على العقيدة السلفية، فعرض الأمر على رئيس الجامعة الإسلامية آنذاك الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز فوافق عليه، ورجع إلى المغرب، وسكن مكناس فصار يعطي الدروس بمساجدها وينتقل بين مساجد مدن وقرى المملكة المغربية فثقل ذلك على المبتدعة وأغصهم بريقهم فوشوا به وطلبوا منعه وتوقيفه، ولو آمنوا بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣] لكان خيراً لهم، وللدكتور محمد تقي الدين مواقف جليلة في الدعوة إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك[٢].

فلتراجع أخي القارئ إن أردت الوقوف عليها إلى كتابه القيم «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة».

مؤلفاته:

أما مؤلفاته فهي أكثر من أن تحصى فنذكر منها على سبيل الاختصار:

١ ـ سبيل الرشاد، الذي بين يديك (الجزء الأول) منه[٣].

---

(١) وصل إلى (النرويج)، وله مقالة منشورة في ذلك بعنوان «الشمس في نصف الليل» وهي في كتابنا «مقالات الهلالي». (أبو عبيدة).

(٢) ذكرت ذلك مطولاً في تقديمي لهذا الكتاب، وانظر منه (ص٢٦ وما بعد). والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. (أبو عبيدة).

(٣) وقد أتمه وطبع في حياته، وهذه خدمتي له، وذلك بفضل الله ومنّته. (أبو عبيدة).

٢ ـ الإلهام، في تفسير سورة الأنعام[١].

٣ ـ الحسام الماحق، لكل مشرك ومنافق[٢].

٤ ـ ديوان شعر[٣].

٥ ـ الإسلام والمذاهب الاشتراكية[٤].

٦ ـ دواء الشاكين وقامع المشككين[٥].

٧ ـ من يرافقني من الرباط إلى برلين[٦].

٨ ـ رسالة الدكتوراه[٧].

٩ ـ مدنية العرب في الأندلس (ترجمة)[٨].

١٠ ـ كتاب الدعوة إلى الله[٩].

---

(١) نشر على حلقات في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، وقد طبع حديثاً في بنارس، وهو مودع في «مقالاتنا» الجامعة الحافلة، والحمد لله. (أبو عبيدة).

(٢) طبع أكثر من مرة في المغرب ومصر والسعودية. (أبو عبيدة).

(٣) اسمه «منحة الكبير المتعالي في ديوان محمد تقي الدين الهلالي» حصلته مرقوماً على الآلة الكاتبة، وفرغت من تنضيده مع جمع سائر أشعاره وتوثيقها من كتبه ومقالاته. (أبو عبيدة).

(٤) له بهذا العنوان مقالة نشرت في مجلة «الجامعة الإسلامية» العدد (١٠) شوال ١٣٩٠هـ (ص٣ ـ ١٨) وأيضاً في مجلة «دعوة الحق» المغربية، السنة الثانية عشر، العددان (٧ و٨) شعبان ـ رمضان ١٣٩٧هـ (ص١٥ ـ ٢٢)، وله في مجلة «الفتح» (٥٨١) شوال ١٣٥٦هـ مقال بعنوان «الشيوعية أعظم لعنات العصر»، وله في مجلة «الهدي النبوي» المجلد (١٥) العدد (٧) رجب ١٣٧٠هـ (١٥٤ ـ ١٥٧) مقال بعنوان: «داء الشيوعية ودواؤه». (أبو عبيدة).

(٥) نشر على حلقات عديدة في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع على حدة. (أبو عبيدة).

(٦) نشر على حلقات في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، سنة ١٣٩٩هـ، من العدد (٢ ـ ٥، ٨). (أبو عبيدة).

(٧) سبق التعريف بها وأنها طبعت بالألمانية في لايبزك. (أبو عبيدة).

(٨) ترجمه الهلالي من الإنكليزية، وطبع مرتين: في العراق ثم في المغرب عن مكتبة المعارف ـ الدار البيضاء، وفي كل من الطبعتين زيادة على الأخرى. (أبو عبيدة).

(٩) طبع في المغرب قديماً، وعن دار الفتح في الإمارات العربية المتحدة، ويذكر تلميذ الهلالي العلامة محمد بوخبزة أنه وقع له فيه أخطاء، وصوَّر لي نقداته عليه، جزاه الله خيراً. (أبو عبيدة).

١١ ـ أحكام الخُلع في الإسلام[١].

١٢ ـ حكم تارك الصلاة[٢].

١٣ ـ الصراط المستقيم ودليله[٣].

١٤ ـ الفجر الصادق[٤].

١٥ ـ قبسة من أنوار الوحي[٥].

١٦ ـ الصبح السافر في حكم صلاة المسافر[٦].

١٧ ـ تفسير سورة الفتح[٧].

١٨ ـ فتح الرحمٰن في تفسير أم القرآن[٨].

---

(١) نشر عن المكتب الإسلامي، بيروت أكثر من مرة، وعن غيره. (أبو عبيدة).

(٢) طبع في مجموع فيه «الصراط المستقيم في صفة صلاة النبي الكريم»، و«ذيل الصراط المستقيم» بعنوان: مجموعة ثلاثة كتب للهلالي، يقع في (٣٢) صفحة، ونشر طبعة وقفية، وذكر في أوله (ص٣) أنه ألفه لما سأله جماعة من إخوانه الموحدين وانتصر فيه لتكفير تارك الصلاة تكاسلاً. (أبو عبيدة).

(٣) ألفه في مدة إقامته بتطوان، واستمرت من ربيع ١٩٤٢ إلى صيف ١٩٤٧، وقرظه أحمد الغماري في جريدة «الأخبار» المغربية، وطبع مع الكتاب السابق. (أبو عبيدة).

(٤) نشر بعنوان «بيان الفجر الصادق وامتيازه عن الفجر الكاذب»، طبع في المغرب في (١٧) صفحة. (أبو عبيدة).

(٥) طبع عن مكتبة المعارف، الرباط، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م في (١٤٦) صفحة، وهو عبارة عن أربعة أقسام: واحد في علوم القرآن، والثاني في تفسير سورة الفتح، والثالث نبذة في علوم الحديث، والأخير: نبذة عن الأحاديث مع شرحها شرحاً يعالج مشكلات العصر الحديث. (أبو عبيدة).

(٦) نشر على أربع حلقات في مجلة «الهدي النبوي» المصرية، المجلد (٢٨، ٢٩) سنة ١٣٨٣ و١٣٨٤هـ، وطبع على حدة أكثر من مرة، في المغرب ومصر، وللشيخ حماد الأنصاري كلمة في نقده، أفاده ابنه صديقنا عبد الأول في «المجموع» الخاص بحياة أبيه (٦١٧/٢ ـ ٦١٨). (أبو عبيدة).

(٧) انظر: التعليق على رقم (١٥) السابق. (أبو عبيدة).

(٨) سماه هكذا في «ذيل الصراط المستقيم» (ص٧) وفي «سبيل الرشاد» (١٤٩/٦) ـ وأورد قطعة منه ـ وأورد كذلك في كتابه «الحسام الماحق» أكثر من (٤) صفحات من تفسير له بالفاتحة سماه «المنح السانحة في تفسير سورة الفاتحة» ويحتمل أن يكون العنوانان لكتاب واحد، ثم وجدت له مقالاً منشوراً في مجلة «الثقافة الإسلامية» البغدادية السنة الثانية، العدد الرابع، السبت ١٨ جمادى الثاني ١٣٧٦هـ ـ ١٩ كانون الثاني ١٩٥٧م (ص٣، ٤) =

١٩ ـ الزند الواري شرح واختصار صحيح البخاري[١] (ج١ فقط).

٢٠ ـ من مآثر الرسول ﷺ[٢].

٢١ ـ تقويم اللسانين[٣].

٢٢ ـ الفوائد السامية، في تاريخ اللغات السامية[٤].

٢٣ ـ الفتاوى الهلالية[٥] (ج١ و٢).

٢٤ ـ الهدية الهادية[٦].

= بعنوان «تفسير سورة الفاتحة» ولا أظنه هذا الكتاب. (أبو عبيدة).

(١) ذكره جل من ترجم للهلالي، لم أظفر له بذكر في كتب ومقالات الهلالي التي وقفت عليها، والعبارة المذكورة تنبئ أن الكتاب تام بخلاف عبارات المترجمين. ثم وقفت على فتاوى الهلالي المسماة بـ«العيون الزلالية» (ق٢١٣) ووجدته يذكره فيه، وسماه «الزند الواري والبدر الساري في اختصار وشرح صحيح البخاري» ونقل عشرة أسطر منه، ووجدته يذكره أيضاً في رسالة وجهها للأستاذ السلفي المربي محمود مهدي الإستانبولي رحمه الله، وهي مؤرخة بـ٢٦/ ١/ ١٣٨٨هـ، ومما قال فيها: «وقد بدأت في «شرح البخاري» شرحاً يستفيد منه الواعظ والطالب، وأنا بنفسي أستفيد منه؛ لأن الشروح الموجودة لا يمكن تدريسها في المساجد؛ لأنها محشوّة بأشياء تعطّل درس الوعظ، وتشوّش على السامعين». (أبو عبيدة).

(٢) نشر على حلقات في مجلة «الإرشاد» المغربية، السنة الأولى، الأعداد (١ ـ ٨) سنة ١٣٨٧هـ والسنة الثانية، الأعداد (١ ـ ٦) سنة ١٣٨٨هـ، والسنة الثالثة، الأعداد (٣ ـ ٤) سنة ١٣٨٩هـ و١٣٩٠هـ والسنة الخامسة، العدد الأول، سنة ١٣٩٢هـ. (أبو عبيدة).

(٣) نشر على حلقات عديدة في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع في المغرب مرتين على حدة، وله في المجلة المذكورة تتمات نشرت فيما بعد، لم تلحق بالكتاب! وهي جميعاً في كتابنا «مقالات الهلالي». (أبو عبيدة).

(٤) طبع للهلالي كتيب بعنوان «اللغة العربية»، وذكره له بهذا الاسم جمع من مترجميه.. (أبو عبيدة).

(٥) لم تنشر، وهي في مجلدين، بعضها بخط بعض الكتبة عنده، والآخر مرقوم على الآلة الكاتبة، واسمها «العيون الزلالية في الفتاوى الهلالية»، ونشر قسماً قليلاً منها في بعض المجلات والصحف المغربية. (أبو عبيدة).

(٦) تتمة اسمه «إلى الطائفة التجانية»، طبع أكثر من مرة، أولها سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، وذكر في مقدمته (ص٥ ـ ٦) أنه ألفه بطلب من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، وذكر في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٧) أن العلامة ابن باز أمر بطبع عشرة آلاف نسخة منه، وانظر: «سبيل الرشاد» (٦/ ٢١٩) ولأهميته ذكر في رسالة وجهها الهلالي لأخيه الأستاذ زهير الشاويش حفظه الله، مؤرخة في ٤/ ٨/ ١٣٩٢هـ. ثم ظفرتُ برسالة للعلامة =

٢٥ ـ مختصر هدي الخليل[١].

٢٦ ـ البراهين الإنجيلية[٢].

٢٧ ـ مسرحيات طيف الخيال[٣] (ترجمة).

٢٨ ـ دليل الحاج[٤].

٢٩ ـ حاشية على كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب[٥].

٣٠ ـ حاشية على كشف الشبهات[٦].

٣١ ـ ترجمة القرآن باللغة الإنجليزية بمشاركة الدكتور محمد محسن[٧].

= عبد الله كنون وجهها للهلالي فيها بيان أخطاء وقعت للهلالي في هذا الكتاب، وأقر بها الهلالي في جوابه له. (أبو عبيدة).

(١) تتمة اسمه «في العقائد وعبادة الجليل» طبع أكثر من مرة، الأولى في تطوان، والثانية في بغداد، ثم في الدار البيضاء، ثم لتأليفه قصة، تجدها في كتابه «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» (ص٨٢). (أبو عبيدة).

(٢) تتمة اسمه «على أن عيسى عليه السلام داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية» نشر على حلقتين في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، المجلد (١٧)، العدد (٢، ٣) سنة ١٤٠٥هـ، وقبل ذلك في مجلة «الإحياء» المغربية المجلد (٢)، الجزء الأول، رجب ـ ذو الحجة ١٤٠١هـ (ص٩ ـ ٢٥)، وطبع قبل ذلك عن مطابع دار الثقافة بمكة في الزاهر، عام ١٣٩٣هـ في (٤٥) صفحة. وذكر في رسالة له إلى الشاويش مؤرخة بـ٢٧/ ٣/ ١٣٩١هـ أن الشيخ ابن باز قرأه واستحسن أن يطبع منه على الآلة الكاتبة (١٥٠) نسخة، وذكر في ديباجته (ص٣، ٤) سبب تأليفه.. (أبو عبيدة).

(٣) نشر في بعض المجلات، ثم على حدة. (أبو عبيدة).

(٤) تتمة اسمه «في مناسك الحج» هكذا ذكره مترجموه، وطبع بعنوان «دليل الحاج الحنيف» عن دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٣٦٩هـ، ونشره قبل ذلك في سنة ١٣٤٥هـ، وألفه بطلب من الماجد النبيل والسري الجليل مصطفى بك آل إبراهيم لما عزم على الحج، وأعاد طبعه لما سأله ذلك الأستاذ راشد آل صقير.. (أبو عبيدة).

(٥)(٦) نشرهما في المغرب، ونسبهما للإمام محمد بن سليمان الدّرعي، وشكك بعض المعاصرين في خبر طبع الكتاب، بل في أصل وجوده! وهذا خطأ، فقد صرح المصنف في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٤٧، ٤٨، ٦٢) بطبعه: ونشر دعاية وإعلاناً له في مجلته «لسان الدين» السنة الثالثة، الجزء الرابع جمادى الأولى ١٣٦٨هـ (ص٢٧)، ووقفت على الثاني منهما، ولا زلت في طلب الأول، اللهم يسِّر وأعن. (أبو عبيدة).

(٧) نشرت مرات، وذكر الهلالي في مقالة له نشرت في مجلة «التوحيد» المصرية، غرة المحرم، سنة ١٣٩٥هـ (ص٤٧)، أنها في ذلك الوقت ـ أعني سنة ١٣٩٥هـ ـ كانت تحت الطبع، وأفاد الأستاذ عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب في بحثه «ترجمة المصطلحات =

٣٢ ـ الهاديات (قصائد أربع)[١].

إلى غير ذلك من الكتب القيمة النافعة[٢] وله أكثر من مائة مقال[٣] نشرتها

= الدينية والشرعية في القرآن الكريم» (ص٢٥) أنها نشرت عام ١٩٧٧م في شيكاغو، وذكر الأخوان زيدان وجاسم ابنا علي جاسم في بحثهما «ترجمة سورة الفاتحة دراسة مقارنة في أشهر ترجمات القرآن الكريم» (ص٧) أن أول مرة ظهرت ترجمة الهلالي وخان في السبعينات (١٩٧٤) باستانبول وقالا عنها (ص١١): «نعتقد على العموم بوضوح الترجمة وأداء المعنى» وقالا: «من أهم الترجمات» ومدحها جمع من الباحثين، وصوبا ما فيها مع المقارنة لغيرها. وانظر كلام الدكتور وجيه محمد عبد الرحمٰن في رسالته «وقفة مع بعض الترجمات الإنكليزية لمعاني القرآن الكريم» (ص١٧): «ونستطيع الحكم عليها بأنها من أفضل الترجمات إن لم يكن أفضلها، ولا سيما من الناحية العقدية...» وتكاد تتفق كلمة الباحثين على هذا ونظراً لسلامة هذه الترجمة من الأخطاء العلمية، ودقة إصابة الحق فيها لمعاني القرآن الكريم، تبناها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة، وانظر كلمة عن الجهود التي بذلت في هذه الترجمة ونشرها في: «تطور كتابة المصحف الشريف وطباعته وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه» (ص٩٠ ـ ٩٢).. (أبو عبيدة).

(١) طبع في الهند، وعرف به في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص١٣٧)، والقصائد موجودة في «ديوانه» إحداها (الميمية) التي مطلعها:

من فاته المصطفى المختار من مضر

وأدرج فيه أيضاً تخميس قصيدة حميد القرطبي التي أنشدها القسطلاني في «مقدمة شرح البخاري» (١/ ٥ ـ ٦)، ومطلعها:

نور الحديث مبين فاذْنُ واقتبس واحْدُ الركاب له نحو الرضى الندس

وأودعها شيخه المباركفوري في «مقدمة تحفة الأحوذي» (ص١٠ ـ ١٢ ط الحجرية الهندية)، وهذه القصائد من أوائل شعر الهلالي، قاله المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٠٩).. (أبو عبيدة).

(٢) وقفت له لغاية تدوين هذه السطور على ما يربو على الستين مؤلّفاً، زيادة على ستة مؤلفات عزم عليها، وعيّنها ووضع لها عناوين، ولم أظفر لها بأثر، ولم أفز عنها بخبر، ولا قوة إلا بالله، ومما انفرد ـ فيما رأيت ـ بذكره صاحبا كتاب «إمارة الزبير بين هجرتين بين سنتي ٩٧٩ ـ ١٣٤٢هـ» (٣/ ١٨٨) قولهما ما نصه: «وله مؤلَّف ضخم يردّ به على الدعوة الخمينيّة الحديثة، وهو بحث تاريخي ربطه بتاريخ الدعوات المشبوهة التي ظهرت في الإسلام». (أبو عبيدة).

(٣) وقفت ـ ولله الحمد ـ على تسعة أضعاف هذا العدد من مقالات للهلالي، ومقدمات وتقريظات ومراسلات ومقابلات ورحلات ولقاءات ومحاورات وترجمات، وهي الآن قيد التنضيد، وانظر ـ ضرورة ـ عن أهميتها: «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٠٨).. (أبو عبيدة).



مجلات عديدة في أمريكة[(١)] وأوربة[(٢)] والهند[(٣)] وبلاد الإسلام[(٤)].

فجزى الله شيخنا عن الإسلام والمسلمين خيراً... والسلام.

عمر بن محمد محسن
إمام وخطيب جامع الملك عبد العزيز ـ آنفاً
الدار البيضاء

---

(١) انفرد الأستاذ عمر محسن بهذه الكلمة التي أتعبتني، ولم أستطع للآن الوقوف على تفصيل أو خبر مفيد عنها، نعم ظفرت له بمجموعة مهمة غاية من (المقالات) باللغة الإنكليزية نشرت مع ترجمته المختصرة للقرآن الكريم، وهنالك إشارات إلى وجود ترجمة مطولة للقرآن، نشر في (المجلد الرابع) منها ترجمته لـ«البراهين الإنجيلية» بالإنجليزية وجزمت لي الباحثة الأمريكية لوزري هنري التي تعد أطروحة دكتوراه عن الهلالي بعدم وقوفها على شيء للهلالي في المجلات الأمريكية، والله أعلم. (أبو عبيدة).

(٢) لا أعلم أنه نشر مقالات إلا في ألمانيا ولا سيما في مجلة «دير إسلام» هكذا سماها في كتابه «الخلع» (ص٥٣) وطلبت من الباحثة الألمانية (أنابيل باتشير) تصوير هذه المقالة، وبحَثَتْ في فهارس المجلة المذكورة، ولم تظفر بشيء، وتابعت البحث، وأرسلت لي في ٢٠/ شعبان/ ١٤٢٦هـ ـ الموافق ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٥م، وظفرت بالمقالة التي أحال عليها الهلالي في كتابه الآنف الذكر، وهي بعنوان (الطبقات عند العرب)، وهي منشورة في مجلة (دلي والت ديس إسلام) ـ بمعنى مجلة (العالم الإسلامي) ـ مجلد (٢٢) سنة١٩٤٠م (ص١٠٢ ـ ١١٠)، وأرسلتها لي مشكورة، وهي قيد الترجمة الآن. ولعل للهلالي مقالات في «بريد الشرق» التي صدرت في فاتحة عام ١٣٦٩هـ عن جامع برلين بألمانيا، انظر: مجلة «لسان الدين» السنة (٤) الجزء (١)، ربيع الأول سنة ١٣٦٩هـ (ص٦)، وأنا الآن في تطلبها، اللهم يسر. . (أبو عبيدة).

(٣) أسس فيها مجلة «الضياء» وله فيها ست وعشرون مقالة، ونشر كثيراً في مجلة «الجامعة السلفية» و«البعث» و«الجامعة» و«صوت الأمة» وكلها هنديات. (أبو عبيدة).

(٤) نشر في مجلة «إصلاح» الأفغانية، و«الاعتصام» الباكستانية، و«الوعي الإسلامي» الكويتية، و«المنار» و«الفتح» و«الهدي النبوي» و«التوحيد» و«الشباب» وجريدة «الإخوان المسلمين» المصريات، و«السجل» و«الثغر» و«صدى الشبان المسلمين» و«الهداية» و«الناس» و«الثقافة الإسلامية» و«الإخوة الإيمانية» ومجلة «كلية الآداب والعلوم» العراقيات، و«الإيمان» و«العلم» ومجلة «دار الحديث الحسنية» و«الميثاق» و«الحرية» و«دعوة الحق» و«لسان الدين» و«الإرشاد» و«السفير» و«المغرب الجديد» و«الوحدة المغربية» و«الريف» و«الإحياء» و«المجلة الإسلامية» المغربيات، و«التمدن الإسلامي» و«حضارة الإسلام» وجريدة «العَلَم» الدمشقيات ومجلة «الجامعة الإسلامية» لمحمد أمين الحسيني كانت تصدر في فلسطين، و«الجامعة العربية»، و«الصراط السوي» و«البصائر» و«الشهاب» و«صحيفة السنة النبوية» الجزائريات و«صوت الحجاز» و«الجامعة الإسلامية» و«البحوث الإسلامية» السعوديات، وجمعتُ جميع ما وقفت عليه من (المقالات) في هذه (المجلات) وبطون الكتب والمراسلات والتقريظات في تصنيف مفرد، هو تحت التنضيد الآن، والله المستعان، لا رب سواه. (أبو عبيدة).

قال أبو عبيدة: لي كتاب أطلت فيه النفس في ترجمة العلامة الهلالي وذكرت فيه نماذج من كلامه وفتاويه، واعتنيتُ بجوانب الإصلاح عنده، وفصَّلت أعماله ومهامه في كل بلدة نزل فيها، واستقر، أو رحل إليها وزارها، مع بيان المجريات التي وقعت له وبينتُ فيه أثره في الإصلاح والتغيير، ودوره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكرت فيه شذرات في رحلاته وجهوده وجهاده، وفيه إطلالة قوية على منزلته عند علماء وأعلام ومصلحي ودعاة عصره. وهو شامل حافل، أخذناه باستقراء وتتبع لما في كتبه ومقالاته، وهذا المزبور بقلم تلميذ العلامة الهلالي الأستاذ عمر بن محمد محسن فيه ـ إن شاء الله ـ غنية وكفاية لمن رام أن يعرف منزلة صاحبنا في العلم والدعوة فقد أزاح الأستاذ عمر ـ شكر الله سعيه، وأحسن إليه ـ الستار، وكشف اللثام، وحقق المقام لعَلَم من الأعلام، ورحالة حاز قصب السبق في توصيل دعوة الحق إلى الأنام، في عصر استحكمت فيه غربتا الزمان والمكان للإسلام، ولذا فَقَدَهُ الناسُ لما رحل عنهم ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى دار السلام، وأخيراً هذه كلمة عن:

* وفاة الهلالي ورثاء العلماء له:

بعد رحلة في رحاب العلم والدعوة والجهاد، وتنقُّلٍ في كثير من البلاد، وحياة مليئة بالمتاعب والشداد، توفي عالمنا الهلالي في منزله بالدار البيضاء مغرب يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر شوال سنة سبع وأربع مئة وألف من الهجرة الموافق ٢٢/يونيه/سنة ١٩٨٧م، عن عمر يقارب السابعة والتسعين عاماً، وصلى عليه في اليوم الموالي عدد كبير، وجم غفير من الموالفين والمخالفين بعد صلاة الظهر في مسجد عين الشق، ثم دفن رحمه الله بمقبرة قرية الجماعة وسط جموع كبيرة من المسلمين في موكب مؤثر وفي جو من الخشوع والابتهال والدعاء إلى الله أن يتغمده برحمته، ويدخله فسيح جناته مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً[١].

---

(١) مجلة «الفرقان» المغربية، العدد العاشر سنة ١٩٨٧م (ص٤)، وعنها مجلة «الاستجابة» السودانية العدد (٩) السنة (٣) رمضان ١٤٠٨هـ (ص٤٢ ـ ٤٣).

وأقيمت عليه صلاة الغائب في كثير من البلدان، مثل: السعودية، والكويت، والهند، والمغرب[١].

وكتبت كثير من الصحف في التعريف به، ورثاه أصحابه وأحبابه، وهذه نماذج من كلامهم:

* نشرت جريدة «أخبار العالم الإسلامي» في عددها (١٠٥٠) (ص١١) تحت عنوان:

«كيف ودعت المغرب العالم المجاهد محمد تقي الدين الهلالي» ما نصه:

«ويصل الخبر في تلك الليلة إلى مدن المغرب وقراه، فيتوافد على منزله بالدار البيضاء من عرفه وتتلمذ عليه وقرأ له وأحبه وقدره.

وبعيون دامعة، وقلوب خاشعة، وألسنة داعية بالرحمة والمغفرة، تقدم الجنازة صباح يوم الدفن جميع تلامذته، ممن علمهم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

وتعود الجموع الغفيرة المتشيعة بعد الانتهاء من الدفن بقلوب حزينة، يعزي بعضهم بعضاً، فقد كان المصاب عظيماً، وكان الرزء فادحاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

* ونشرت جريدة «الثورة» وتصدرها جمعية البعث الإسلامي بتطوان في عددها (٢٢٤) ما صورته:

«ما هو نصيب اهتمام إعلامنا برجالاتنا الأعلام؟

... لقد انتقل أخيراً إلى الرفيق الأعلى داعية السلفية ورائد الصحافة الإسلامية في المغرب، وأحد رواد الوطنية ـ والوطنية بمعناها الإسلامي الحق ـ العلامة المجتهد الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، فما تحرك الإعلام للحديث عنه، وعن دعوته الخيرة وعن جهاده الإسلامي الذي دام ما يزيد على نصف قرن من الزمن، إن الهلالي رحمه الله حي في كل قلب مسلم ولن يغير حجم جهاده الكبير إذاعة خبر عن موته أو كتابة كلمات هزيلة عن دعوته».

* ونشرت جريدة «الميثاق» المغربية السنة (٢٤) العدد (٥٣٨) بتأريخ فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ تحت عنوان (وفاة الدكتور تقي الدين الهلالي) ما نصه:

---

(١) مجلة «الفرقان» المغربية العدد العاشر، سنة ١٩٨٧م (ص٥).

«فجع المغرب والأوساط العلمية والحركات الإسلامية في كل البلاد بوفاة الأستاذ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي؛ الذي وافاه الأجل المحتوم يوم الاثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧ بالدار البيضاء، عن سن تزيد بضعة أشهر على ستة وتسعين عاماً، قضاها جميعاً في نشر العلم والدعوة إلى الإسلام الصحيح، والعمل بالسنة في الداخل والخارج، لا سيما في السعودية والهند ومصر، ويمتاز الدكتور الهلالي بقوة الحجة وسرعة الإقناع لتضلعه في علم الكتاب، وتوسعه في علم الحديث، مع طلاوة حديثه وفصاحة لسانه، مما استفاده من كبار الشخصيات التي لقيها في رحلته الواسعة في الشرق والغرب، وله عدة كتب في الدعوة والثقافة والأدب تأليفاً وترجمة ونشراً، ومن آخر ما ألفه كتاب «سبيل الرشاد» في عدة مجدات أخرج منها اثنين، وأما لقاءاته الأدبية ومحاضراته العلمية فشيء يطول الحديث عنه والإلمام به:

رحمه الله رحمة واسعة وبوأه مكان صدق عنده جزاء بما قدم لأمته من الأعمال والنصائح الغالية الخالدة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* ونشرت مجلة «صوت الأمة» الهندية، المجلد الأول، العدد الثاني، شعبان ١٤٠٨هـ (ص٤٥ ـ ٥٤) تحت عنوان: (من أعلام السلفيين: خاتمة شاهد قرن: كيف ودّعت المغرب العالم المجاهد د. محمد تقي الدين الهلالي، أخذ من المذاهب المختلفة ما يوافق السنة المطهرة غير متعصب لمذهب معين) ما نصه:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.

توضأ الشيخ الوقور، المؤمن بربه حقّاً لصلاة عصر يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر شوال عام ألف وأربع مائة وسبعة من الهجرة، الموافق للثاني والعشرين من شهر يونيو سنة ألف وتسع مائة وسبعة وثمانين للميلاد. توضأ رغم كبر سنه وعجزه الذي ألزمه الفراش حيث عمر قرناً من الزمن، فصلى العصر كعادته متكئاً بمساعدة زوجه وربيبته اللتين اهتمتا بشأنه غاية الاهتمام طيلة عجزه عن القيام، وحدثته نفسه قبل أربعة أيام فقط وهو في عجزه هذا بالغزو والجهاد في سبيل الله، فقال لزوجه وربيبته: إن لم استطع الوقوف فاحملاني واخرجا بي لمواصلة الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله.

قال ذلك وأيام العمر، بل ساعاته تقترب من النهاية، ولم يكن يعلم بها إلا

الباري ﷻ، وكأنه بذلك أراد أن يربط حلقات العمر الطويل الأخيرة بحلقاته الأولى، التي كانت كلها جهاداً ودعوة إلى الله، وقبيل غروب الشمس بنصف ساعة تقريباً شعر بارتياح لم يعهده خلال فترة عجزه عن القيام، فطلب من أحد الإخوان الحاضرين بجانبه ـ وهو من أقرباء زوجه ـ أن يتلو ما تيسر من القرآن، وهو الذي ما انفك منذ أن صار طريح الفراش يستمع إلى تلاوة الشيخ محمود خليل الحصري بالغدو والآصال، لا يتوقف عن سماع القرآن إلا إذا كان في وضوء أو صلاة أو زيارة الإخوان له، ويوم طلب من هذا الأخ الحاضر بجانبه أن يتلو عليه ما تيسر، تلا عليه، وهو يستمع وينصت، وسبابته اليمنى إلى السماء، سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ ثم طلب منه بعد أن أتمها أن يعيد قراءتها فأعادها عليه، وما أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ حتى أسلم نفسه لله، ورجعت إلى ربها راضية مرضية.

هكذا كانت خاتمة هذا الشيخ الجليل؛ بل هكذا كانت خاتمة ووفاة والدي وشيخي الدكتور تقي الدين الهلالي، تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

ويصل الخبر في تلك الليلة إلى مدن المغرب وقراه، فيتوافد على منزله بالدار البيضاء من عرفه، وتتلمذ عليه وقرأ له وأحبه وقدره.

وبعيون دامعة، وقلوب خاشعة، وألسنة داعية بالرحمة والمغفرة، تقدم الجنازة صباح يوم الدفن جميع تلامذته ممن علمهم العقيدة الإسلامية الصحيحة.

وتعود الجموع الغفيرة المشيعة بعد الانتهاء من الدفن بقلوب حزينة، يعزى بعضهم بعضاً، فقد كان المصاب عظيماً، وكان الرزء فادحاً، فإن لله وإنا إليه راجعون.

عالم مجتهد ومحدث حافظ:

لقد كان هذا الشيخ الجليل، عالماً مجتهداً، عالماً محدثاً محققاً حافظاً، وفقيهاً حكيماً غير متعصب إلى مذهب من المذاهب الفقهية، بل يأخذ منها جميعها ما وافق السنة، فمذهبه هي السنة؛ سواء رواها أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد بن حنبل، لا يلتفت إلى ما سواها من الآراء المخالفة لها، يدافع عنها بكل جهده، بلسانه وقلبه، وكان ناقداً بصيراً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكان بحق إماماً سلفيّاً جامعاً بين العلوم

النقلية والعقلية بأنواعها، وإماماً علامة في اللغة والنحو والأدب والقراءات والتجويد، يتقن سبع لغات أو أزيد، العربية، والبربرية، والعبرية، والسريانية، والهندية، والإنجليزية، وخاصة الألمانية التي حصل بها على شهادة الدكتواره في الفلسفة والأدب من جامعة «بون» الألمانية سنة ١٩٤٠م؛ حيث ترجم مقدمة كتاب «الجماهر في الجواهر» للبيروني، مع التعليق عليها وتفنيد آراء الفلاسفة المستشرقين. وكثيراً ما كان ينشدنا هذين البيتين:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه ... وتلك له عند الشدائد أعوان

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً ... فكل لسان في الحقيقة إنسان

وكان شاعراً عبقريّاً صرف جل شعره في الذود عن عقيدة التوحيد والسنة المطهرة، وهاجم بقوافيه البليغة أهل الشرك وأصحاب البدع، وأرسلها عليهم شهباً محرقة تدمغ باطلهم، وتقصف إفكهم. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في مطلع قصيدة له:

سِلام بكسر السين في قصفة الرعد ... إلى عابد الأوثان في السهل والنجد

تعمهم طراً وتختص مارقاً ... تصدى بلا علم لهجو أولي المجد

وكان مثالاً فذّاً في الصدق والصراحة، وفريداً من نوعه في تطبيق ما يقوله ويدعو إليه.

جهاده في سبيل الدعوة:

كان هدفه طول حياته تصحيح عقيدة الناس، وإبعادهم عن عبادة غير الله، ودعوتهم إلى التوحيد الخالص: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الاتباع، وحذر من الشرك، والتعلق بالأوثان، وطلب المدد والعون والاستغاثة بالقبب المبنية على القبور، ودليله في ذلك الأحاديث المروية عن النبي ﷺ، ومنها ما رواه الإمام مالك في الموطأ عن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1]، وروى مالك أيضاً عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «**لعن الله اليهود والنصارى واتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[1]، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج[1].

---

(١) ترى تخريجها في التعليق على هذا الكتاب (١/١٠٨، ٣٩٥، ٤١٨).

رواه أهل السنن. قال أبو عمر ابن عبد البر النمري صاحب كتاب «التمهيد»: «هذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء والصالحين مساجد». أي: يحرم على المسلمين أن يبنوا على القبور، ويتخذوها مكاناً للصلاة، ففي «الصحيح» عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»(١).

فما أبعد الناس اليوم عن تعاليم دينهم وسنة نبيهم، فقد اتخذوا عند قبور الصالحين، أو قبور لا يعرف أصحابها، مواسم وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان، فوقعوا ـ والعياذ بالله ـ فيما حذر منه النبي ﷺ ونهى عنه، وشدد في النهي بقوله ﷺ فيما رواه إمام دار الهجرة مالك بن أنس: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١) وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ كما قال الإمام ابن القيم رحمهم الله:

فأجاب ربُّ العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدرانِ
حتى غدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيانِ

كان الشيخ الفاضل رحمه الله يدعو أيضاً إلى اتباع السنة وينفر من البدعة، وكثيراً ما يذكر في دروسه الأثر المروي عن مالك في كتاب «الاعتصام» للشاطبي: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأني قرأت قول الله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ قال مالك: فما لم يكن يومئذٍ ديناً لا يكون اليوم ديناً». وكان رحمه الله تعالى يردد علينا ما كان يردده أيضاً الإمام مالك:

وخير أمور الدين ما كان سنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع

هكذا كانت حياة شيخنا ومربينا، فلقد طاف بالبلاد ـ بلاد الله ـ من مشرقها إلى مغربها، داعياً إلى الله صابراً ومحتسباً الأجر والثواب من الله ﷻ. يقول عن نفسه في قصيدة رائعة:

وطفت بلاد الله شرقاً ومغرباً ... على قدمي طوراً وطوراً على مهر
وأنضيت بعراناً وحلقت في السما ... على جائبات الجو كالنجم إذ يسري

(١) انظر تخريجها في (١/ ٣٩٥، ٤١٢، ٤٢٥).

وطوراً على فلك عظيم كأنه — ثبير يروع الحوت في لجة البحر
حليف اغتراب في ثواء ورحلة — وإن كنت في أهل كثير ذوي وفر
وما غربة الإنسان من شقة النوى — ولكنها في الدين والخلق والبر
إلى الله أشكو غربة الدين والهدى — وطغيان أهل الكفر والفسق والغدر

زياراته ورحلاته العلمية:

نعم طاف بالبلاد داعياً إلى الله بصدق وإخلاص، منافحاً ومجاهداً، مدرساً وأستاذاً مبرزاً، واعظاً ومرشداً، مربياً ورائداً، إماماً وخطيباً، مؤلفاً وناشراً ناقداً ومترجماً، مذيعاً ومصححاً.

عرفته مصر، وعرف فيها رجالاتها المصلحين، ومنهم إمام الدعوة في زمانه الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمة الله عليه ـ، والمفتي الكبير الشيخ محمد أمين الحسيني، والشيخ محمد الرمالي، والشيخ حسن عبد الرحمٰن، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ حامد الفقي، والشيخ الألمعي عبد العزيز الخولي.

وعرفته الهند أستاذاً يدرس الأدب العربي، ويأخذ فيها الإجازة في رواية الحديث عن شيخه العلامة عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب كتاب: «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي»، ويجيزه كذلك العلامة الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني، نزيل بهوبال، ونبغ على يديه هناك علماء أجلاء منهم الأستاذ الشيخ أبو الحسن علي الندوي، والأستاذ مسعود الندوي وغيرهما من العلماء والأدباء، فلا غرو أن يذاع صيته بين علماء الهند وأدبائها.

ثم يستوطن العراق، ويتعرف فيها على كثير من علمائها الأجلاء، وخاصة العالم السلفي الأديب والمحدث المحقق الشيخ محمد أمين الشنقيطي[(١)]، فزوجه ابنته وكان له منها شكيب وخولة، وانتفع كثيراً بمجالسته ومذاكرته.

وتستضيفه المملكة العربية السعودية سنة ١٣٤٣هـ في عهد قائدها الإمام الهمام ناصر عقيدة التوحيد وناشر لواء الحق والعدل الملك الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود تغمده الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته. فيكرم

---

(١) ليس هو صاحب التفسير، وانظر ما قدمناه (ص٩٤).

وفادته ويقربه من مجلسه، خاصة وقد حمل معه تزكية عظيمة من الإمام محمد رشيد رضا إلى الملك عبد العزيز ينوه فيها بعلمه الغزير. فينشد قصيدة وهو جالس إلى جنبه بعد أن أهداه كتابه القيم «القاضي العدل» ويقول:

يا أيها الملك الذي سعدت به ... أرجاء مكة والحطيم وزمزم
وكسى الإله به بلاد العرب ثو ... ب أمانه فغدت به تتنعم
وأشاع نور العلم والإيمان في ... أرجائها والجهل فيها مظلم
هذا هو القطب الكبير ديانة ... وشجاعة وعدالة إذ يحكم
قطب السياسة والمكارم والعلا ... حامي الحقيقة في الوغى لا يحجم
يلقى الوفود ووجهه متهلِّل ... رائيه مغتبط به متنعم

عين مدرساً في مسجد الحرام، والمعهد السعودي، ومراقباً للمدرسين. وكانت له صحبة طويلة ومتينة مع خيرة علماء نجد والحجاز، ومنهم العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مفتي المملكة آنذاك، وقد أخذ عنه هذا الأخير علم العروض، وأخذ عنه عمر بن حسن آل الشيخ إجازة في جميع مروياته، وأخذ عنه كذلك الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ رحمه الله تعالى، وتتلمذ على يديه مجموعة من خيرة العلماء والأدباء ومنهم الأستاذ الأديب الشيخ محمد بن ناصر العبودي، والشيخ عبد الله الخياط إمام الحرم المكي سابقاً. وكان له كذلك صداقة متينة مع جد الدكتور عبد الله نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، وعرفه شيوخ أجلاء وكانوا يقدرونه أيما تقدير، منهم الشيخ محمد بن عبد الله السبيل إمام الحرم المكي ونائب رئيس إدارة الحرمين الشريفين، والشيخ محمد صالح التويجري والشيخ سليمان المنيعي بالحرم المكي، والشيخ حماد الأنصارى أستاذ علم الحديث بالجامعة الإسلامية، والشيخ عمر فلاتة، والشيخ أبو بكر جابر الجزائري، والشيخ محمد بن عبد الوهاب البنا، والشيخ سويلم وكيل مطاوعة جلالة الملك عبد العزيز.

ويعود مرة أخرى إلى المملكة العربية السعودية بعد غيبة طويلة سنة ١٣٨٨هـ، فيلتقي بالعالم الورع الذي يقل نظيره في هذا العصر ألا وهو سماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ أطال الله بقاءه وأدام في سماء المعالي ارتقاءه[1] ـ الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة

(١) رحمه الله تعالى، فقد توفي في ١٤٢٠هـ.

والإرشاد، ورئيس الجامعة الإسلامية سابقاً، فيدعوه سماحته إلى التدريس بالجامعة الإسلامية قائلاً: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك. فيلبي الطلب، وكان يكن لسماحته أعظم التقدير والمحبة، ويثني عليه دائماً وأبداً الثناء الجميل، ويشاء الله أن أكون في أول شهر رمضان من هذه السنة من يحمل سلامه الزكي وتحياته الطيبة شفاهياً إلى سماحة الشيخ عبد العزيز فيسألني عن حاله. وبعد أن أخبرته أنه طريح الفراش في المستشفى دعا له بهذا الدعاء الذي حفظته منه وبلغته إياه قبل وفاته: «اللهم أحسن له الخاتمة، اللهم أحسن له الخاتمة، اللهم أحسن له الخاتمة» قالها ثلاثاً. وكأن الله استجاب دعاء سماحته. ونسأل الله جلت قدرته أن يشمله بعفوه ويتغمده بواسع رحمته، ويكرم ضيافته ويجعله من الذين سبقت لهم منه الحسنى.

وعرفته أيضاً في تطوافه بلاد أوربا. وفي جنيف يلتقي بصديقه العزيز الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، فيكون واسطة له في الدخول إلى ألمانيا ليكون أستاذاً للأدب العربي يدرسه باللغة الإنجليزية التي تعلمها سابقاً في الهند، ومرجعاً لغويّاً بإذاعة ألمانيا العربية، وطالباً بجامعة «بون» ليحصل فيها بعد أربع سنين من الكد والجد والاجتهاد والعزيمة القوية ليحصل على شهادة الدكتوراه باللغة الألمانية، ووجدها فرصة سانحة أثناء تعيينه مشرفاً ومرجعاً لغويّاً بالقسم العربي من الإذاعة الألمانية لفضح جرائم المستعمرين لبلده المغرب الحبيب من الفرنسيين والإسبانيين، فألقى من على منبر تلك الإذاعة خطباً كانت على المستعمرين خطوباً، فنفته فرنسا بسببها نفياً رسميّاً مع أنه كان غائباً عن بلده.

ومن قبل عرفته أفغانستان، وعرف فيها شيوخاً كثيرين، ومنهم العالم الأمير المجاهد الشيخ عمر أوزبك.

ثم عرفته أرض المغرب ـ موطنه الأول ـ عرفته وهو يدافع عنها المستعمر الغاشم بلسانه وقلمه دفاعاً مستميتاً، فكاد له المستعمر كيداً عظيماً، فحفظه الله من كيدهم ومكائدهم، ورغم ذلك لم يثنه كيدهم عن عزمه ومواصلة كفاحه وجهاده، فيعلن للمستعمر في تصريح لم يسبقه أحد إليه ولا نطق به قلبه، ولا يحفظه له إلا المجاهدون الحقيقيون والوطنيون الغيورون والمصلحون المخلصون أمثال: شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، والأستاذ علال الفاسي، والأستاذ عبد الخالق الطريس، والمجاهد عبد الكريم الخطابي، والأستاذ أحمد بلا فريج،

والعالم الأديب الأستاذ عبد الله كنون، والأستاذ محمد الطنجي، وغيرهم من زعماء الإصلاح، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

يصرح في لهجة شديدة، وقلب غير وجل: «إن المغرب للمغاربة، لا حق في الاستيلاء عليه لفرنسا ولا لألمانيا ولا لإسبانيا». والمستعمر لا زال آنذاك يسيطر على المغرب وغيره من البلاد العربية والإفريقية، وكان لتصريحه يومئذٍ أشد الوقع وأنكأه على المستعمرين، وأثلج قلوب المغاربة الأوفياء المخلصين. ويرى من هناك من وراء البحار سنا الحرية يقترب من بلاده ليزيل عنها الظلام، فيبعث إلى صديقه عبد الخالق الطريس بهذه الأبيات من أرض الغربة:

سَنَا الحرية الغَرَّاء لاحَا ... فصَيَّر حَنْدَسَ الظَّلْمَا صَباحا
سِلَاحُ الْحَقِّ لا يخشى فُلُولا ... ويلقى من يَصُولَ به النجاحا
فيا حزباً غَدَا للخير يسعى ... لِيُبْدِلَ خُسْرَ أُمَّتِهِ رَبَاحا
سَلامُ الله يهديه إليكم ... دواماً ما غدا غادٍ وراح
أخٌ لكُمُ بِنَارِ البَيْنِ يُصْلَى ... غريباً مَا أَقَام ولا استراح
ولم يَنْسَ البلاد وساكنيها ... ويذكرها العشية والصباحا

ويستقل المغرب، فيعود الدكتور محمد تقي الدين الهلالي إلى بلده بعد غيبة طويلة، تنقل فيها في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وغيره، داعياً إلى الله ومدافعاً عن الإسلام، يعود وقلبه ممتلئ حبّاً وخيراً لأبناء وطنه ولكل مسلم أينما كان، فيفرح فرحاً عظيماً باستقلال المغرب وعودة ملكه إليه مظفراً منصوراً، فيصور ذلك في قصيدة رائعة مطلعها:

ألا إن الاستعمار هاوٍ وبَائِر ... ومن مَطْلَع الأَقْمار لَاحَتْ بشائر
أبى الضَّيْمَ في أرض المغارب ضَيْغَم ... فأقبل من عَرِينِه وهو زائر
وقال للاستعمار زُلْ عن بلادنا ... فإنني عليك اليوم قاضٍ وقَابِر
سَأُسْقِيك سمّاً لا بَقَاءَ لك بعده ... وشَعْبِي مِنْ خَلْفِي أُسُود حَوَاصِر

ولم يفته آنذاك أن يحث على استكمال وحدة المغرب، بل لم يفته أن يستنهض الهمم لاستقلال المغرب العربي كله:

ألستم ترون الجيش عند عدوَّكم ... يُرابِطُ في أوطاننا وهو كَاثِر
وصَحْرَاؤُنا ما أن تزال أسيرة ... فيا نعم مأسور ويا بئس آسر
وجيشُ لُيوثٍ في الجزائر رَابِض ... يدافع عن أوطاننا وهو صابر

ويقول أيضاً في نفس القصيدة:

وإن كنت لا تدري حدود بلادنا فدونك فاحفظ ما أنا لك ذاكر
فمن سنكال في الجنوب حدودها إلى أرض مصر قد حَوَتْها القَمَاطر
نُناضِلُ عنها الدَّهرَ مَنْ جاءَ غازيا وتَحْصُده مِنَّا السيوفُ البَوَاتِر

ولم يفته أيضاً أن يبين السر في نجاح الأمة، وبأي شيء تنال العز والنصر فيقول:

ومَنْ ظَنَّ أن العِزَّ يُدْرَك والمُنَى بكُفرٍ وإلْحَادٍ فذلك هاذر
أوائلنا بالدين والسِّلْم أفلحوا وبالدين والإسلام تعلو الأواخر

المجلة: ومما يذكر في سبيل الرحلات العلمية التي قام بها الفقيد ـ رحمه الله تعالى ـ مشاركته في مؤتمر الدعوة والتعليم الذي عقدته الجامعة السلفية بنارس عام ١٤٠٠هـ، وبهذه المناسبة العلمية وجهت الدعوة إلى الفقيد رَحِمَهُ اللهُ؛ فتكرم بالحضور وساهم بكلماته القيمة النافعة في المؤتمر. وقد تم نشر كلماته ومقترحاته بخصوص الدعوة في أحد أعداد مجلة «الجامعة السلفية» الذي صدر خاصّاً بهذا المؤتمر ربيع الآخر عام ١٤٠٠هـ. انتهى.

* ونشرت صحيفة «المثياق» أيضاً في العدد (٥٣٨) السنة (٢٤) فاتح ذي القعدة ١٤٠٧هـ ـ في السنة التي مات فيها ـ بقلم تلميذه وصهره الشيخ الأستاذ عبد الكبير البكري مقالة مهمة في ترجمته، وهي بعنوان: (نجم أفل)، جاء فيها ما نصه:

عشية يوم الاثنين ٢٥ شوال ١٤٠٧، الموافق ٢٢ يونيو ١٩٨٧ انتقل إلى جوار ربه عالم من أكابر علماء العصر، وهو العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الفلالي المغربي، الذي كرس حياته لخدمة العلم والدين والدعوة إلى الله. لقد كان هذا الرجل العصامي مطبوعاً على العظمة بلا تكلف ولا تصنع، يكتسب المعالي سائراً سائحاً غير هياب؛ لأنه وُهِب من الحزم والعزم ما يقتحم به العقبات ويذلل به الصعاب.

ولد هذا الرجل الذي فقده الإسلام في تفلالت، وبالضبط في الريسافي قصر أولاد عبد القادر بن هلال في شهر المحرم عام ١٣١١ هجرية، الموافق ١٨٩٣ ميلادية. مات أبوه بعدما أحفظه القرآن وعلمه التجويد، فخرج من تفلالت

وجعل ينتقل من قبيلة إلى قبيلة في البوادي يعلم الصبيان كتاب الله. ولما أراد الله أن يفتح له أبواب العلم هيأ له أسبابه، فبينما هو يعلم الصبيان عند قبيلة من قبائل الحدود المغربية الجزائرية إذ مر بهم عالم شنقيطي ومعه تلاميذه، ففتح لهم درساً في النحو، ولم يسبق للهلالي أن سمع بهذا العلم ولا حضر دروساً من دروسه، ولما أتم الشيخ الدرس توجه إلى أحد التلاميذ واسمه محمد المختار ليسأله عن هذا الكلام الذي لم يعرفه فقال له: إن هذا شيء بعيد عنك، اذهب إلى صبيانك لتعلمهم، وضحك مستهزءاً به، فكان هذا التهكم والاستهزاء هو الزند الوري الذي أوقد في قلبه نار الغيرة والحماس والشجاعة والإقدام، وحرك كل ما كان كامناً في نفسه من الصفات التي يرتقي بها العظماء إلى أعلى الدرجات. وهنا توجه إلى الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله وسأله، فقال له: هذا العلم يسمى علم النحو، فقال: وهل يمكنني أن أقرأه، وأين؟ فأجاب الشيخ: نعم، وعندي فعاهده على أن لا يفارقه، وذهب معه إلى البلدة التي كان الشيخ مقيماً بها وتسمى المشربة، قرية بالجزائر تبعد عن وجدة بنحوه ١٦٠ كلم، وما بقي معه إلا مدة قليلة حتى انفجر يَنَابِعُ نبوغه وذكائه الوقاد، فبزَّ أقرانه واستطاع بما أتاه الله من المواهب أن يغوص في بحور العلم من نحو وفقه ولغة وتفسير وأدب.

وفي يوم من الأيام فاجأ الناس بقصيدة رائعة مدح بها الشيخ سِكْرَج قاضي وجدة، فكشفت الغطاء عن شخصيته، وهنا قال الشيخ لأحد أصدقائه أن هذا الشاب سوف لا يكتفي بما عندي ولا بما في القرويين وسيشرق ويشتد خبره. وتحققت فراسة الشيخ، ففي سنة ١٣١٢هـ - ١٩٢٢م أخذ الهلالي عصا التسيار، وعزم على التجول في الأقطار، فركب البحر متوجهاً إلى مصر، ثم منها إلى الهند وباكستان ثم العراق، ولما أراد الخروج من الهند بعد ما قرأ فيها الحديث على الشيخ أبي خليل محمد بن حسين بن محسن اليمني، وبعد ما فتح مدرسة كون فيها أساتذة وكتاباً وأدباء، أقول لما أراد الخروج وجاء إلى الحدود وخاطبه رجال الشرطة الذين هم إنكليز بلغتهم، ورأى أنه لم يستطع فهم كلامهم ولا الرد عليهم عدل عن الخروج ورجع عازماً على ألّا يخرج حتى يخاطبهم بلغتهم، فتتلمذ على أحد الرهبان المسيحيين! فدرس اللغة الإنكليزية؛ اعتنى بحفظ مفرداتها ولم يبح لنفسه الخروج حتى ترجم كتاب «مدنية العرب في الأندلس» من الإنكليزية إلى العربية، وبهذه اللغة استعان على الدراسة في ألمانيا التي حصل فيها على الدكتوراه في الفلسفة والأدب.

وقبل الذهاب إلى ألمانيا أقام مدة بالحجاز كان فيها واعظاً مرشداً رسميّاً، ثم بالعراق الذي كان فيه واعظاً ومدرساً في كلية الملكة عالية، وقد جردته فرنسا من الجنسية المغربية ـ في زعمها ـ ولذلك لم يستطع الدخول إلى المغرب الذي كان تحت النفوذ الفرنسي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لإنقاذه من الحلفاء الذين حكموا عليه بالإعدام؛ هيأ له الوطني الغيور المرحوم الأستاذ عبد الخالق الطريس جواز سفر على أنه شمالي، وبه دخل إلى شمال المغرب عام ٤٦، وأصدر مجلة سماها «لسان الدين»، كانت حقيقة لسان الدين، وكان يكتب فيها جماعة من العلماء البارزين والوطنيين المخلصين، ومنهم العلامة الكبير شيخنا الأستاذ سيدي عبد الله كنون، ثم رجع إلى العراق وبقي مدرساً به في كلية الملكة عالية إلى أن جاء الاستقلال، فدخل إلى المغرب المتحرر وتفرغ للتدريس والتأليف والكتابة ونشر الدعوة، ليتجرد إلى الدعوة والتبليغ والكتابة، إلى أن وافته المنية عن سن يناهز المائة، فلم تزلزله الزلازل، ولم تزعزعه الفتن؛ وإنما كان يثبت ثبوت الجبال الراسخات الشامخات.

وجملة القول: إن هذا الرجل الذي جعل من أيام حياته حبراً، ومن أعماله قلماً، ومن الأرض صحيفة يخط فيها تاريخ حياته ويترك بصماته كلما مر ببلدة من البلاد أو قطر من الأقطار أو قارة من القارات، لا يكفي لترجمته بعض الصفحات. ونكتفي بهذا القدر حتى يهيئ الله وقتاً لتحرير رسالة تصور حقيقة هذا الرجل الفذ الذي استحق بمواقفه وأعماله أن ينخرط في صف الخالدين، فسلام عليه في الأولين وسلام عليه في الآخرين وسلام عليه إلى يوم الدين، وغفر الله لنا وله ولجميع المسلمين.

* ورثاه جمع من تلاميذه، منهم شيخنا العلامة محمد بوخبزة، ومما جاء في مرثيته التي هي بعنوان «أنقذنا بفضل الله» ـ ومن خطه أنقل ـ:

هي الدنيا تسير إلى زوال ... وبهجتُها خيالٌ في خيالِ
نعيش بها سُويعاتٍ نياماً ... فتوقظنا المنية بالنِّبالِ
ألا يا ناعيَ العِرفانِ أبصر ... أتدري من نعيت من الرجال؟
تقي الدين فخر بني هلال ... تُوفّي فانتشى حزبُ الضلال
قضى شيخ الدعاة فكل حُرٍّ ... بآلامِ الفجيعةِ ذو اعتلال
فقد أمضى يجاهد في دروب ... بياض العُمْرِ ممتاز الخِلالِ

يحبِّر للهدى كتباً ويُملي ... دروسَ العلمِ يدعو للنزال
فأنقذنا بفضل الله مما ... سرى فينا مِن الدَّاء العُضَالِ

ورثاه أيضاً تلميذه محمد بنعبود، فقال:

ماذا يفيد البكا في النائبات إذا ... تصدعت بيننا الأركان والعمدُ
لقد هوى الركن من بنياننا فلنا ... من هوله نكبة لم ينسها الأبدُ
«دكتورنا» الرجل الصنديد مفخرة ... عزيزة كلما يستذكر العددُ
لسانه الصارم المقوال عدته ... يراعه المنتج السيال والمددُ
إذا قرأت سبيلاً للرشاد فعن ... ذاك السبيل من الأغواء تبتعدُ
هذا الرثاء ولكن لا مبالغة ... ولا غلو بما في القول ينتقدُ
هي الحقيقة لا أعدو الحقيقة في ... قولي، فلا ملق فيها ولا فندُ
رحماك ربي لروح أنت قابضها ... أنت الرحيم لها الغفار يا أحدُ[1]

رحم الله الهلالي وغفر له، وألحقنا به في الصالحين، وبوّأه درجة الصدّيقين، آمين، آمين، آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) جريدة «الإصلاح» جريدة نصف شهرية مغربية، العدد السابع.



ترجمة العلامة محمد تقي الدين الهلالي بخط يده

يقول تقي الدين محمد بن عبد القادر الهلالي الحسيني المغربي

ولدت سنة ١٣١١ تقريباً في قرية تسمى الفيضة القديمة
في وادٍ يقال له سجلماسة وقرأت القرآن برواية [illegible] وحفظته
وعمري اثنتا عشرة سنة ثم رحلت إلى الجزائر [illegible] طلب العلم
في القرى والبادية ثم رحلت إلى مدينة فاس [illegible]
علوم العربية والشرعية [illegible] القرويين [illegible]
ثم رحلت [illegible] سنة ١٣٤٠ ثم رحلت إلى مصر وأقمت بها [illegible]
لقيت الأستاذ رشيد رضا وجماعة من أصحابنا السلفيين و
استفدت منهم كثيراً ثم [illegible] وحججت [illegible] في سنة ١٣٤٢
سافرت إلى الهند ولقيت الأستاذ عبد الرحمن المباركفوري
وقرأت عليه ما تيسر من كتب الحديث من الكتب الستة وشرحها
وكان يأبى أن يفضلني في [illegible] وكان [illegible]
[illegible] القرآن [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] وكان [illegible]
[illegible] ثم من [illegible]
[illegible]

[illegible] علمه [illegible] ثم رجعت من الهند
إلى العراق في سنة [illegible]
[illegible] سنة ١٣٤٥ حججت المرة الثانية ثم عينت [illegible]
[illegible] مدرساً [illegible]
[illegible] ثم انتقلت إلى مكة
[illegible] في المسجد الحرام و[illegible]
[illegible] ثم انتقلت إلى [illegible]
[illegible] أستاذاً [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] طالباً [illegible]
[illegible] المعارف [illegible]
[illegible] سنة ١٩٤٠
[illegible]
[illegible]
[illegible] سنة ١٩٤٠ [illegible]
الدكتوراه باللغة الألمانية [illegible]

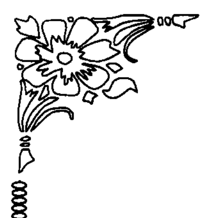
في الجواهر مع تحقيقات رددت فيها على أكابر المستشرقين
الجرمانيين كـ Pr. Sachau و Pr. Brockelmann. الأستاذ سخاو

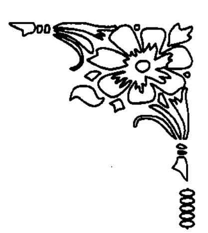
والأستاذ بروكلمان في زعمهما أن البيروني كان يكره و
ينتقد أعظم ... أن ينتقد الإسلام ويفتري افتراءات أخرى
وكانت الرسالة مبتكرة من أجل الجامعيين فقبلوا
ذلك بالإجماع وقد نلت الامتحان الشفهي في الوقت
نفسه فحظيت بدرجة عالية وفي سنة ١٩٤٢ انتقلت
إلى تطوان شمال المغرب بطريق فرنسا وإسبانية وأقمت
بها خمس سنين وعلمت أن الفرنسيين لو ... رجعت
وأمروا بالقبض علي إن جاءت ... المنطقة
التي كانت تحت إسبانية والمنطقة التي كانت تحت فرنسية
وفي سنة ١٩٤٧ بعد جهود كبيرة شارك فيها عبد الرحمن عزام
والحبيب أبو رقيبة ومحمد علي الطاهر رجعت

(٤)

إلى العراق وعينت مدرساً في كلية الملكة عالية وفي ... أستاذاً في
كلية الآداب ثم أعطيت لقب أستاذ معاون ثم أعطيت لقب
أستاذ وفي سنة ١٩٥٩ جاء طلب من وزارة المعارف
المغربية إلى وزارة المعارف العراقية بإعارتي إلى المغرب
... للتدريس فيها سنة فتوجهت إلى ... بين و
ودرست في الجامعة سنة وفي أوائل سنة ١٩٦٤ رجعت
إلى بغداد وفي سنة ١٩٦٨ نقلت إلى ... الجامعة الإسلامية و...
عن كبر ... كليات ... عند طلبتها ... ولا أزال ... إلى
الآن وأسأل الله أن يختم لي بالحسنى وصلى الله على
محمد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين







تعريف عام بكتاب «سبيل الرشاد»(١)

بقلم
شيخنا بالإجازة العلامة محمد بو خبزة
(تلميذ الهلالي)

سبيل الرشاد في هدي خير العباد

[٦ أجزاء في ٣ مجلدات، طبع بالمغرب بإشراف المكتب التعليمي السعودي على نفقة الأميرة الجوهرة بنت سعود آل سعود، له ترجمة في الصفحة ٣٤٧ من هذا الجزء]

أفتتح الكتاب بكلمة تنويه وتقريظ للملحق التعليمي السعودي بالمغرب، نوَّه فيها بالمؤلف وجهوده في الدعوة إلى الله التي يتجلّى بعضها في هذا الكتاب النافع الذي شرح فيه أنواع التوحيد شرحاً صافياً مع التنبيه على أنواع التحريف والابتداع التي أصابت العقيدة من جراء الإعراض عن الاهتداء بالقرآن، وتبني أسلوب الكلام والفلسفة في معرفة العقيدة، وأشار إلى عناية الشيخ عبد العزيز بن باز بالمؤلف وكتابه وسهره على طباعة الكتاب وتوزيعه، وحيَّى في الوقت نفسه، الأميرة الجوهرة التي أنفقت بسخاء على طبعه ابتغاء وجه الله، ثم تليها ترجمة جيدة مفيدة للمؤلف يحسن الاطلاع عليها، لتضمنها معلومات عنه لا توجد في غيرها، منها قائمة بمؤلفاته ما طبع منها وما لم يطبع، وقد بلغت ٣٣ مؤلفاً، ثم مقدمة المؤلف لكتابه التي بيَّن فيها منهجه في جمعه، وأنه كان يخطر بباله منذ مدة أن يجمع كتاباً لنفسه ولمن شاء الله بعده، يشرح فيه أنواع التوحيد الأربعة:

(١) نشره العلامة بوخبزة في كتابه «معجم تفاسير القرآن الكريم» (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٤)، وآثرنا إثباته دون تصرف.

توحيد الربوبية الذي رأى أن الآيات المتعلقة به في القرآن كثيرة جداً لو استوعبها مع ما يتعلق بها من الحديث والآثار لعظم حجم الكتاب جداً، ولذلك ـ إضافة إلى أنه معروف ومعتقد جميع الملل والنحل باستثناء الملاحدة المنكرين لوجود الله تعالى ـ لم يتناول آياته كلها بالكلام، وجعل بدله توحيد الاتّباع وهو داخل في توحيد العبادة والألوهية، ثم توحيد الأسماء والصفات، وقد درج الناس على جعل أقسام التوحيد ثلاثة، إلا أنه أفرد من قسم توحيد العبادة، توحيد الاتّباع وجعله قسماً رابعاً لكثرة خلاف المقلدين لما جاء به رسول الله ﷺ، وهو في هذا كله مستمد من القرآن الكريم يتتبع آياته المتعلقة بالأقسام المذكورة في المصحف الشريف كله ابتداء من الفاتحة إلى النهاية، ضامّاً النظير إلى نظيره دون مراعاة ترتيب السور، معتمداً في التفسير على ابن كثير مشيراً إليه بالكاف، وعلى «جامع البيان» لابن جرير مشيراً إليه بالجيم، منتقياً من الحديث ما صح، مشيراً إلى ما اتفق عليه البخاري ومسلم بحرف القاف، وما انفرد به البخاري بحرف الخاء، وما انفرد به مسلم بحرف الميم، وما رواه أبو داود في السنن بحرف الدال، وما رواه الترمذي في جامعه بحرف التاء، وما رواه النسائي في «سننه» بحرف النون، وما رواه الإمام أحمد في «مسنده» بالحاء والميم أو الألف المهموزة، وبعد هذه المقدمة شرع المؤلف في بيان الأقسام، مبتدئاً بتوحيد العبادة وتوحيد الربوبية، ولم يشر المؤلف في مقدمته المقتضبة هذه إلى جانب مهم من منهجه المعروف في مؤلفاته وأبحاثه، وخصوصاً في هذا الكتاب الذي هو أكبر مؤلفاته حجماً ونفعاً، وهو أنه بعد نقله بأمانة عمن ينقل عنهم، يتعقب كلامهم غالباً بفصول مفيدة ناقدة تارة، أو مضيفة إليها ما يزيدها تقوية وبياناً، وفي أثناء ذلك يتحدث عن نفسه وما جرى له من مناظرات ووقائع تتعلق بالموضوع، منبهاً على بدع ومخالفات خصوصاً ما ظهر منها على يد الصوفية ومريديهم.

نموذج هذا التفسير:

والمؤلف كثيراً ما يطيل القول فيصعب نقل كلامه كله، ولذلك ننقل من كلامه على قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾، المراد بالرسول هنا نبينا محمد ﷺ، جاء اليهود بالحق ـ وهو

الإسلام والقرآن ـ مصدقاً لما معهم من التوراة، فنبذت طائفة من اليهود ـ وهم أكثرهم، كتاب الله ـ وهو القرآن الذي جاء به رسول الله ﷺ، وقيل: المراد به التوراة.

قال محمد تقي الدين: ولا تنافي بينهما، فإن من كذب محمداً ﷺ، فقد نبذ التوراة والقرآن جميعاً؛ لأن التوراة بشرت به، وأخذ الله الميثاق على أهلها أن يؤمنوا به، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ... قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وقال تعالى في آل عمران أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ... فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ والنبذ هو الطرح وجعل الشيء وراء الظهر لإهماله والإعراض عنه، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لمّا لم ينههم علمهم صاروا كمن لا يعلم؛ أي كالجاهلين، بل العالم الذي لا ينفعه علمه شر من الجاهل، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾، الخطاب هنا لليهود، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، يعني أن اليهود نبذوا ما جاء في التوراة والقرآن من وجوب الإيمان بجميع رسل الله تعالى، واتباع ما جاؤوا به من توحيد الله وطاعته، واتبعوا ما علمتهم الشياطين من السحر الذي نسبته إلى سليمان كذباً وزوراً، وسليمان رسول أمين بريء من السحر وما زعمته الشياطين لأتباعهم أن سليمان عليه السلام ما بلغ ذلك الملك العظيم، والحكم على الجن والإنس إلا بالسحر، فجاء محمد رسول الله خاتم النبيين وإمامهم، فبرأ أخاهم سليمان مما نسبت له الشياطين واليهود من السحر الذي هو كفر، فإن اليهود بنسبتهم السحر إلى نبي الله سليمان لزمهم نسبة الكفر إليه، وحاشا سليمان من الكفر، بل الشياطين وأتباعهم هم الذين كفروا بسليمان وبمحمد رسول الله ﷺ، وكفروا بتعليمهم الناس السحر وحثهم على العمل به، والسحر هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي يحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير، وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال محمد تقي الدين: لا أعلم آية في كتاب الله تعالى تحيرت في تفسيرها

كما تحيرت في تفسير هذه الآية؛ لأن الناس من زمان الصحابة إلى يومنا هذا اختلفوا في تفسيرها، وأنا أستعين بالله وأختار القول بالذي أراه صحيحاً مطابقاً للأصول، وما أبرئ نفسي من الخطأ، فأقول وبالله التوفيق: أكثر المفسرين على أن (ما) موصولة، فمعناها: أن الشياطين كانوا يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين اللذين أنزلهما الله في بابل بأرض العراق، يعلمان الناس السحر فتنة لهم، للتمييز بين من يؤمن بالله ويطيع الله ويلتزم حدوده، وبين من اتبع هواه، وكفر بالله وعصى أمره، وكانا لا يعلِّمان أحداً حتى ينصحاه ويخبراه بالعاقبة الوخيمة لمن يتعلم السحر المشتمل على الكفر، فإذا أبى إلا التعلم والعمل به، علَّماه، قالوا: ولا مانع أن يبتلي الله عباده بمثل هذا.

ثم حكى الدكتور محمد تقي الدين قول ابن جرير في الآية وأن (ما) نافية، واختار هذا القول، وتعرض لحديث الملكين هاروت وماروت وافتتانهما بالمرأة التي مُسخت كوكباً هو الزُّهَرة، وبين أنه من الإسرائيليات، وأنه غير مقبول لمخالفته القرآن. ثم نقل من كتاب «التوحيد» وشرحه «تيسير العزيز الحميد» (باب ما جاء في السحر) برمته، وفيه بيان شيء من أنواع السحر، وعقب على ذلك بقوله: «قال محمد تقي الدين مؤلف هذا الكتاب: ومنه ما يسمى في هذا الزمان بعلم الرمل، وذلك أن الكاهن يضع رملاً أمامه وينكت في ذلك الرمل بأصبعه نكتاً كل نكتة فيها كحفرة صغيرة، ويجعلها أربعة أعمدة مبتدأة من الأسفل إلى الأعلى، ثم يسقط تلك العلامات اثنتين اثنتين مبتدئاً من الأسفل إلى الأعلى في الأعمدة الأربعة، ويترك الحفرة الأخيرة والحفرتين الأخيرتين فيتألف له شكل، وكل شكل له اسم، فلنفرض أنه أسقط الأعمدة الأربعة اثنتين اثنتين فبقي من كل عمود نقطة واحدة فيظهر شكل يتألف من عمود فيه أربع فقط، ويسمى هذا: الطريق، ثم يعيد العمل فيبقى مثلاً من كل عمود نقطتان أو حفرتان فيتألف منهما عمود فيه ثماني نقط أو حفر، ويسمى هذا الشكل الجماعة، ويستمر هكذا إلى أن يخرج ستة عشر عموداً على طريقة الزوج والفرد ولكل شكل اسم يدل على معنى من المعاني، فهناك الطريق والجماعة كما تقدم، وهناك النصرة الداخلة والنصرة الخارجة، والأحيان الإنكيس والأحيان البارح.

وقد ذكر هذه الأشكال كلها صاحب «القاموس» وكتب صورها فَرَاجِعْه، فإذا فرضنا أن رجلاً أو امرأة جاء أحدهما إلى الكاهن الذي سمي الرَّمَّال وقال

له: عندي مسافر غائب منذ زمان فأخبرني بخبره؛ أو يقول: عندي حاجة أخبرني بها، فينكت في الرمل، فيخرج له في أول مرة الطريق مثلاً فيقول: أنت تسأل عن شخص مسافر غائب عنك لأن الطريق يدل على ذلك، أصحيح ذلك؟ فيقول السائل: نعم فيأخذ الكاهن من السائل علماً تفصيلياً بعد أن أعطاه علماً إجمالياً، ثم يخط فتخرج له الجماعة، فيقول: أنت حريص على الاجتماع به؟ فيقول: إي والله يا سيدي هو ابني غاب عني منذ أربع سنين ولم أسمع له خبراً، فيقول: أبشر ستجتمع به، ثم يخط فيخرج له الأحيان الإنكيس فيقول: إن صاحبك وقع في شدة عظيمة، ولكن هذا شكل النصرة الخارجة إلى جانبه يدل على أنه سيخرج منها بسلام وانتصار، وهكذا لا يزال الكاهن يعطي السائل الغبي أموراً إجمالية لا يخلو منها زمان ولا مكان، والسائل المغفل يعطيه التفاصيل حتى يأخذ جميع التفاصيل منه ثم يعيدها عليه يسردها سرداً، فيعتقد هذا المغفل أنه علم من خط الرمل كل أخبار المسؤول عنه وأخبره، والحقيقة أن السائل هو الذي أخبر الكاهن بكل شيء وهو لا يشعر، فإن صدق ما أخبره به ازداد اعتقاداً في صحة كهانته، وإن أخطأ غفل عن خطأه، فهذه باختصار إشارة تعرفك أيها القارئ بحقيقة ما سمي بخط الرمل».

ثم ذكر المؤلف حكايتين وقعتا له مع بعض من يدعي علم خط الرمل وأنه كشف أمرهم وفضحهم.

سبيل الرشاد
في
هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي

رحمه الله تعالى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

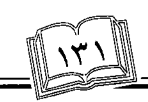
(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الأول





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، أشهد أنه الله الذي لا إلٰه إلا هو رب العرش الكريم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ذو الخلق العظيم، اللّٰهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الكبير المتعالي محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي عفا الله عنه ووفقه للعمل الصالح المتوالي: خطر ببالي منذ مدة أن أؤلِّف كتاباً لنفسي ولمن شاء الله بعدي، أشرح فيه أنواع التوحيد الأربعة[1] التي أولها: **توحيد الربوبية**، وثانيها: **توحيد العبادة**، وثالثها: **توحيد الاتباع**، ورابعها: **توحيد الأسماء والصفات**، ثم رأيت أن آيات توحيد الربوبية في كتاب الله كثيرة لو استوعبتها مع ما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وكلام علماء السلف، لعظم حجم الكتاب جداً لكثرتها، فجعلتُ[2] الأقسام ثلاثة: **الأول:** في توحيد العبادة ممزوجاً بما يحتاج إليه من آيات توحيد الربوبية. **والقسم الثاني:** يشتمل: على آيات توحيد الاتباع ـ أعني اتباع الكتاب والسنة ـ، **والقسم الثالث:** يشتمل على آيات توحيد الأسماء والصفات وهي الآيات التي وصف الله بها نفسه سبحانه وما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وأقوال أئمة السلف، وقد أعانني الله سبحانه على إتمام هذا (الجزء الأول)؛ فللّٰه الحمد والمنة، وإياه أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل، أن يعينني على إتمام الجزئين الباقيين، وسميت هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة «**سبيل الرشاد**»؛ أسأل الله تعالى أن يجعل النفع به كثيراً، وأن يجعله من الأعمال الباقية، وأن ينفعنا به ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

---

(١) أنواع التوحيد في الحقيقة ثلاثة؛ لأن الثالث وهو الاتباع داخل في الثاني، ولكنني جعلته قسماً لكثرة خلاف المقلدين لما جاء به الرسول ﷺ. (منه).

(٢) في الأصل: «فجلعت»!!

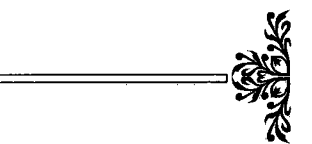
واعتمدت على تفسير الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة «٧٧٤هـ» ـ رحمة الله عليه ـ؛ لأني ما رأيت أحداً من المفسرين يعتني بالتوحيد مثله، وقد أشير «بالكاف» إلى تفسير ابن كثير[١] و«بالجيم» إلى «تفسير ابن جرير»[٢] و«بالقاف» إلى ما اتفق عليه البخاري ومسلم من الحديث و«بالخاء» إلى ما انفرد به البخاري و«بالميم» إلى ما انفرد به مسلم و«بالدال» إلى «سنن أبي داود» و«بالتاء» إلى «جامع الترمذي» «وبالنون» إلى «سنن النسائي» «وبالحاء والميم» أو «الألف المهموزة» إلى «مسند الإمام أحمد».

---

(١) لا بد من تنبيهات:
الأول: نقدات العلامة الهلالي على مطبوع «تفسير ابن كثير» ـ وكان ينقل من طبعة الاستقامة ـ، ونقده في هذا الجزء (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥) وقال (ص) عنها: «فيها أخطاء كثيرة وبتر ونقص».
الثاني: إنه نقل أيضاً من «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» لشيخنا الداعي إلى الله على بصيرة محمد نسيب الرفاعي ـ رحمه الله تعالى ـ ورمز له (خك) كما تراه ـ مثلاً ـ في (٣/ ١٢٠، ١٣٧).
وللعلامة الهلالي رَحِمَهُ اللهُ كلمة في تقريظ هذا «التيسير» مودعة في أوله (أول صفحة) قال عن مؤلفه: «أخونا العالم السلفي المحقق الأستاذ الشيخ» وقال عن مختصره هذا: «جاء اختصاره طبق ما يؤمّله كل طالب علم، موزوناً بقسطاس مستقيم».
الثالث: اعتمدتُ في التوثيق ومقابلة النص على طبعة أولاد الشيخ، مصر، وهي من أوثق النسخ، ومقابلة على النسخة الأزهرية الخطية، ونسخة في دار الكتب المصرية، وتقع في (١٥) مجلداً.

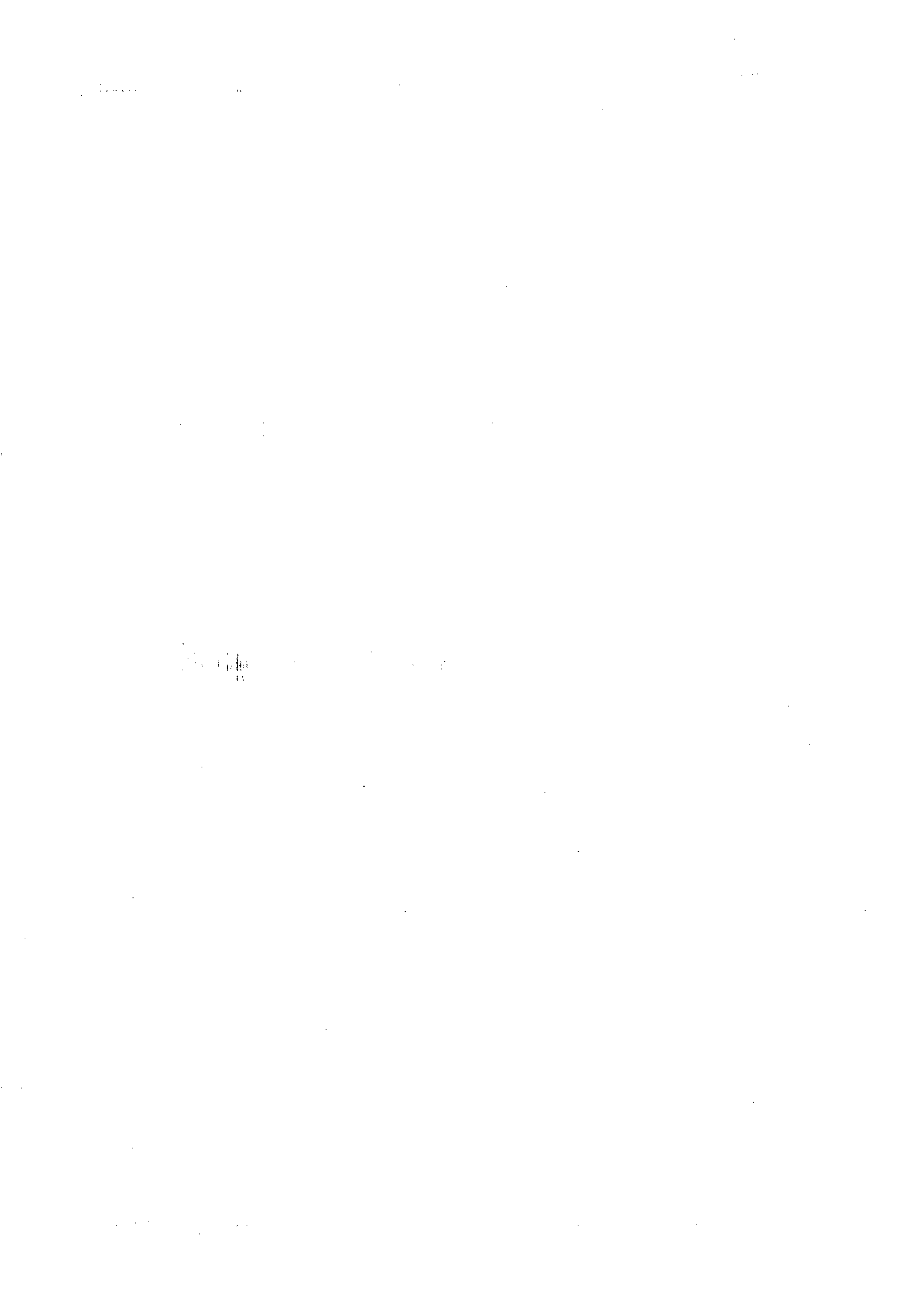
(٢) اعتمدتُ في التوثيق والتخريج على طبعة دار هجر، إلا ما صرحتُ بخلافه.

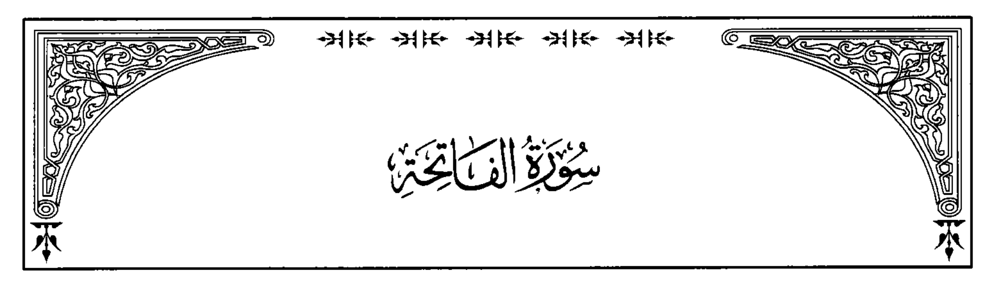




القسم الأول

توحيد العبادة وتوحيد الربوبية





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

قال (ج): في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] ما نصه: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لك اللهم نخشع ونذل ونستعين[١] إقراراً لك يا رب بالربوبية لا لغيرك»[٢]. ثم روى بسنده إلى عبد الله بن عباس: قال جبريل لمحمد ﷺ: قل يا محمد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ «إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك»[٣]، «وذلك من قول ابن عباس بمعنى ما قلنا، وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نخشع ونذل ونستعين، دون البيان عنه بأنه بمعنى: نرجو ونخاف، وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة؛ لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وإنها تسمي الطريق المذلل الذي وطئته الأقدام وذللته السابلة معبداً، من ذلك قول طَرَفَة بن العبد[٤]:

تُبَارِي عِتَاقاً نَاجِيَاتٍ وأَتْبَعت ... وَظِيفاً[٥] وظِيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

يعني بالمور الطريق، وبالمعبَّد المذلل الموطوء، ومن ذلك قيل للبعير المذلَّل بالركوب في الحوائج: معبَّدٌ، ومنه سمي العبد عبداً، لذلته لمولاه»[٦].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «ونستكين».

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٥٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩)، **وإسناده منقطع**، الضحاك لم يسمع ابن عباس. انظر: «المراسيل» (٩٥، ٩٦) لابن أبي حاتم، «تهذيب الكمال» (١٣/ ٢٩٦) ومقدمة «تفسير الضحاك» (ص٥٨ ـ ٦١).

(٤) البيت في «ديوانه» (ص٣٥).

(٥) الوظيف: من رسغي البعير إلى ركبتيه في يديه، وأما في رجليه فمن رسغيه إلى عرقوبيه.

(٦) انظر: «تفسر ابن جرير» (١/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

قال محمد تقي الدين: وقوله: «**وذللته السابلة**»، المراد بالسابلة: «أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حاجاتهم»، قاله[١] صاحب «اللسان»[٢]. وقوله: «إياك نستعين» قال أبو جعفر «معنى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإياك ربنا[٣] نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك[٤] في أمورنا كلها لا أحداً سواك، إذا كان[٥] من يكفر بك يستعين في أموره بمعبوده[٦] الذي يعبده من الأوثان دونك فنحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة»[٧]، ثم روى بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس قال: «إياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها»[٨].

وقال (ك) في تفسير الآية ما نصه: «والعبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد وبعير معبد، أي: مذلل، وفي الشرع عبارةٌ تجمع[٩] كمال المحبة والخضوع والخوف، وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أي: لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع[١٠] إلى هذين المعنيين، وهو كما قال بعض السلف:

الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ فالأول تبرّؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة وتفويض[١١] إلى الله ﷻ.

وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٩].

---

(١) في المطبوع: «قال»: وصوابه المثبت.

(٢) هو ابن منظور، راجع «لسان العرب» (١١/ ٣٢٠ ـ سبل).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «يا ربنا».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «وطاعتنا في».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «إذ كان». (٦) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «معبودَه».

(٧) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٦٠).

(٨) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩)، **وإسناده منقطع**.

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفي الشرع عبارة عما يجمع».

(١٠) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والدين يرجع كله».

(١١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والتفويض».

وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب فيه مناسبة[(١)]؛ لأنه لما أثنى على الله[(٢)] فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى، فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وفي هذا دليل على أن السورة[(٣)] خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه، كما جاء في «الصحيحين» عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[(٤)]، وفي «صحيح مسلم» من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، **قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، **قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، **قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**»[(٥)].

وقال[(٦)] قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم». «وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على «إياك نستعين»؛ لأن العبادة له هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم ما هو الأهم[(٧)] فالأهم»[(٨)]. ثم قال: «والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد عند الله

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو مناسبة».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعالى».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أول السورة».
(٤) أخرجه البخاري رقم (٧٥٦)، ومسلم رقم (٣٩٤).
(٥) أخرجه مسلم رقم (٣٩٥).
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال الضحاك عن ابن عباس ﵄: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يعني إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على طاعتك وعلى أمورنا كلها وقال قتادة...».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والاهتمام والحزم هو تقديم ما هو الأهم فالأهم».
(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١٤ ـ ٢١٦).

تعالى[(١)]: وقد سمى الله رسوله[(٢)] ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: ١] ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فسماه عبداً عند إنزاله عليه، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق فيها صدره[(٣)] من تكذيب المخالفين، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]»[(٤)].

قال الشوكاني: «والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل»[(٥)].

في هذا الكلام فوائد

الأولى: معنى العبادة لغة وشرعاً، **والثانية**: معنى الاستعانة لغة وشرعاً، **والثالثة**: تقديم المعمول يفيد الحصر في الموضوعين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، **الرابعة**: الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، **الخامسة**: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، **السادسة**: لا تصح صلاة من لم يقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وما قبلها وما بعدها من الفاتحة، **السابعة**: السر في تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **الثامنة**: العبادة أشرف المقامات خلافاً لمن ظن العكس من الجاهلين من النصارى وأشباههم، **التاسعة**: من ضاق صدره فليبادر إلى العبادة.

قال محمد تقي الدين: قول الشوكاني: «والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل»، إن كان يريد المعنى اللغوي فهو صحيح، قال تعالى في سورة المؤمنين حكاية عن موسى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

وقد سمى الله...».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسول الله».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يضيق صدره».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١٦).

(٥) انظر: «فتح القدير» (١/ ٨٩).

[المؤمنون: ٤٧] أي: خاضعون متذللون خادمون، وأما إن أراد المعنى الشرعي فهو ناقص، إذ لا تتم العبادة بالخضوع والتذلل فقط حتى يصحبهما الحب والتعظيم والإجلال وتوحيد الله بذلك، وعليه يقال: العبادة غاية التذلل في غاية الحب، مع التوحيد واتباع سنة النبي ﷺ، وأداء جميع الواجبات وترك المحرمات.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] إلخ

قال (ج): «ومعنى قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] في هذا الموضع عندنا: وفقنا للثبات عليه»(١)، قال أبو جعفر: «أجمعت الأمة(٢) من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه»(٣)، «ومن(٤) ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفي:

أميرُ المؤمنين على صراطٍ إذا اعوَجَّ المواردُ مستقيمِ»(٥)

«ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وُصِفَ باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته والمعوجَّ باعوجاجه، ومعناه عندي(٦): وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل(٧)؛

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٦٥).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «الحجة».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «وكذلك ذلك في لغة جميع العرب».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «فمن».
(٥) البيت في «ديوانه» (١/ ٢١٨)، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «يريد: على طريق الحق، ومنه قول الهذلي أبي ذُؤَيب:
صبَحنا أرضَهم بالخيل حتى تركناها أدقَّ من الصراط
ومنه قول الراجز:
فصدَّ عن نهج الصراطِ القاصدِ ....
والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرنا غنىً عما تركنا».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ أن يكون مَعْنِيّاً به».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «وذلك الصراط المستقيم».

لأن من وُفِّق لما وفق له من أنعم الله عليه[(١)] فقد وفق لاتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وكل عبد صالح»[(٢)].

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] بطاعتك وعبادتك من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وذلك نظير ما قال ربنا في تنزيله في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩] ثم روى بسنده مثل ذلك الذي قاله عن ابن عباس وغيره من السلف، ثم قال: «وفي هذه الآية دليل[(٣)] على أن طاعة الله لا ينالها المطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم لها»[(٤)].

والمراد بـ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] من ذكرهم الله ﷻ في سورة المائدة بقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾، ثم روى بسنده إلى عدي بن حاتم قال: قال لي النبي ﷺ: «﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: **اليهود**»[(٥)]، ثم روى مثل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين موقوفاً عليهم[(٦)].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم أجمعين، وكل عبد لله صالح».

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «دليل واضح».

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٧٨).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩)، والطيالسي (١٠٤٠)، والترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وابن جرير (١/ ١٨٥ ـ ١٩٣) رقم (١٩٤ ـ ٢٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» رقم (٤٠، ٤١)، وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦، ٧٣٦٥)، وتمام في «الفوائد» (١٣٢٥ ـ «الروض البسام»)، والطبراني في «الكبير» (١٧/رقم ٢٣٦، ٢٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٧٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠) من طرق عن عدي، **يصح بها إن شاء الله تعالى**، وبعضها مرسلة كما عند سعيد بن منصور (١٧٩ ـ التفسير). وانظر تعليقي على «الاعتصام» (١/ ٢٣٩) ففيه تفصيل الطرق، وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٨/ ١٥٩) وصححه شيخنا الألباني في «التعليقات الحسان» (٦٢١٣).

(٦) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٨٨ ـ ١٨٩)، و«تفسير ابن وهب» (١/ ٥٤)، و«تفسير =

وقوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال (ج): «فإن قال لنا قائل: ومن هؤلاء الضالون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يسلك بنا سبيلهم ونضل ضلالهم؟ قيل: هم الذين وصفهم الله في تنزيله، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧]»[١]، ثم روى بسنده إلى عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قال: **النصارى**»[٢].

قال محمد تقي الدين: ذكرت الآيتين الأخيرتين وجعلتهما من أدلة توحيد العبادة؛ لأنهما دعاء والدعاء عبادة كما في الحديث الصحيح: «**الدعاء هو العبادة**»[٣]. رواه أحمد والأربعة والبخاري في «الأدب المفرد» عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ، وفي حديث آخر: «**الدعاء مخ العبادة**»[٤]. رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً عن النبي ﷺ، فهداية القلوب لا يقدر عليها إلا الله تعالى، فمن زعم من المتصوفة أن شيخه يتصرف في قلبه هداية وإضلالاً وتنويراً وإظلاماً وليناً وقسوة وإقبالاً وإعراضاً فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر، قال النبي ﷺ: «**يا مقلب**

= ابن أبي حاتم» (١/ ٣١)، و«الدر المنثور» (١/ ١٦).

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٩٤). (٢) مضى تخريجه قريباً، وهو **صحيح**.

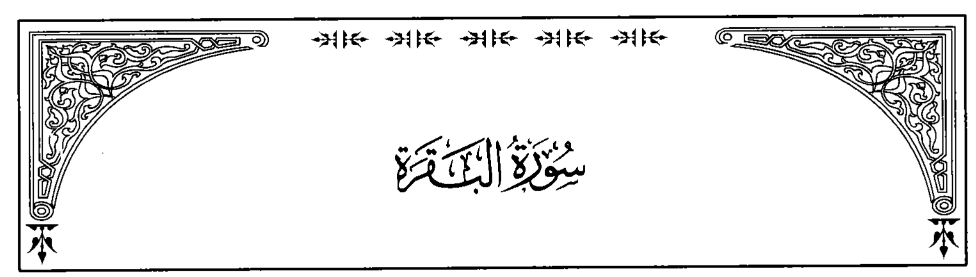
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧ و٢٧١ و٢٧٦)، والطيالسي (٨٠١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠٠)، وابن المبارك في «الزهد» (١٢٩٨ ـ ١٢٩٩) وفي «المسند» رقم (٧٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٦٤)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧، ٣٣٧٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والطبراني في «الصغير» (١٠٤١) وفي «الدعاء» (١ ـ ٧)، وابن منده في «التوحيد» رقم (٣٢٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩ ـ ٣٠)، وابن حبان (٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩٠)، وأبو نعيم (٨/ ١٢٠)، والبيهقي في «الشعب» (١١٠٥) وفي «الدعوات الكبير» (٤)، والبغوي (١٣٨٤) وفي «التفسير» (٤/ ١٠٣)، **وصححه** الحاكم ووافقه الذهبي، **وهو كما قالا**. وانظر: «الإعلام» (٤/ ١٠١ ـ ١٠٢)، «الموافقات» (٤/ ٣٩٨)، وتعليقي عليهما.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلّا من حديث ابن لهيعة» والطبراني في «الأوسط» (٣٢٢٠) من حديث أنس والحديث **ضعيف**، وضعفه شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في «ضعيف الترغيب» (١٠١٦). وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٢١).

القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك»(١)، فقلوب العباد بيد الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن وفق لطلب الهداية فإن الله يهديه، وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠٩ و١١/ ٣٦)، وأحمد (٣/ ١١٢، ٢٥٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٨٣)، والترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وأبو يعلى (٢٣١٧، ٣٦٨٧، ٣٦٨٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٢٥)، وابن جرير (٣/ ١٨٨)، والطبراني (٧٥٩) وفي «الدعاء» (١٢٦١)، والحاكم (١/ ٥٢٦ و٢/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩)، والبغوي (٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٦)، والضياء في «المختارة» (٢٢٢٢ ـ ٢٢٢٥) من حديث أنس **وإسناده جيد**، وهو **صحيح** وله شواهد عديدة من حديث عبد الله بن عمرو والنواس بن سمعان وعائشة وأم سلمة وجابر وسبرة بن مالك رضي الله عنهم أجمعين.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]

قال (ك)(١): «لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين، أقبل عليهم بالخطاب التفاتاً للنكتة السابقة في الفاتحة(٢)، وإنما خص نعمة الخلق وامتن عليهم(٣)؛ لأن جميع النعم مترتبة عليها وهي أصلها الذي لا يوجد شيء بدونه(٤) وأيضاً فالكفار مقرّون بأن الله هو الخالق ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فامتن الله عليهم بما يعترفون به ولا ينكرونه(٥).

---

(١) هذا النقل غير موجود عند ابن كثير بل هو موجود عند الشوكاني في «فتح القدير» (١/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «و«يا» حرف نداء، والمنادى «أيّ» وهو اسم مفرد مبني على الضم؛ و«ها» حرف تنبيه مقحم بين المنادى وصفته، قال سيبويه: كأنك كررت «يا» مرتين، وصار الاسم بينهما، كما قالوا: ها هو ذا. وقد تقدم الكلام في تفسير الناس والعبادة، وإنما خص...».

(٣) في مطبوع «فتح القدير»: «وامتن بها عليهم».

(٤) في مطبوع «فتح القدير»: «لا يوجد شيء منها بدونها».

(٥) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «وفي أصل معنى الخلق وجهان: **أحدهما**: التقدير يقال: خلقت الأديم للسقاء: إذا قدرته قبل القطع. قال زهير:

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

الثاني: الإنشاء والاختراع والإبداع».

ولعل أصلها للترجي[١] وهو محال[٢] على الله تعالى».

فمعناها هنا أن الله يقول لعباده: وحدوا ربكم بعبادته ولا تشركوا به شيئاً وبذلك تصلون إلى التقوى وهي سبب سعادتكم، وتنجون من الشرك الذي هو سبب شقاء وهلاك. وقيل: إن العرب استعملت «لعل» مجردة من الشك بمعنى لام كي، والمعنى هنا لتتقوا.

قال الشاعر[٣]:

وَقُلتمْ لَنَا كُفُّوا الحروبَ لَعلَّنا ... نَكُفّ وَوَثَّقْتُم لَنَا كُلَّ مَوْثِقِ

فلمَّا كَفَفنا الحَرْبَ كانت عُهُودُكمْ ... كَشَبه سَرَابٍ في الفلا[٤] مُتألِّقِ

﴿فِرَٰشٗا﴾: أي وطاء يستقرون عليها، لما قدم نعمة خلقهم، أتبعه بنعمة خلقه الأرض[٥]»[٦]، «ثم أتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم والسقف للبيت الذي يسكنون[٧] كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾[٨] [الأنبياء: ٣٢]»، ثم امتن عليهم بإنزال الماء من السماء»[٩]، ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جمع ثمرة، والمعنى: أخرجنا لكم ألواناً من الثمرات وأنواعاً من النبات ليكون ذلك متاعاً لكم إلى حين، والأنداد: جمع ند، وهو المثيل والنظير»[١٠]، «﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ خطاب للكفار والمنافقين»[١١] وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد.

---

(١) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «والطمع، والتوقع، والإشفاق».

(٢) في مطبوع «فتح القدير»: «وذلك مستحيل».

(٣) ذكر الشوكاني هذين البيتين في «فتح القدير» ولم يعزهما لأحد وهما غير منسوبين في «أمالي الشجري» (١/ ٥١)، و«تفسير ابن جرير» (١/ ٣٨٧)، و«روح المعاني» (١/ ١٨٦)، و«زاد المسير» (١/ ٤٨)، و«تفسير الثعالبي» (١/ ٣٨).

(٤) في مطبوع «فتح القدير»: «الملأ».

(٥) في مطبوع «فتح القدير»: «خلق الأرض».

(٦) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «فراشاً لهم، لما كانت الأرض التي هي مسكنهم ومحل استقرارهم من أعظم ما تدعو إليه حاجتهم».

(٧) في مطبوع «فتح القدير»: «يسكنونه».

(٨) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «وأصل البناء: وضع لبنة على أخرى».

(٩) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «وأصل ماء: موه، قلبت الواو لتحركها، وانفتاح ما قبلها ألفاً، فصار موه، فاجتمع حرفان خفيفان، فقلبت الهاء همزة».

(١٠) بعدها في مطبوع «فتح القدير»: «وقوله».

(١١) في مطبوع «فتح القدير»: «جملة حالية، والخطاب للكفار والمنافقين».

وأخرج (ج)[1] وغيره عن ابن عباس قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ «أي لا تشركوا به[2] غيره من الأنداد التي لا تضر ولا تنفع[3] وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره».

وأخرج (حم) و(خ) في «الأدب المفرد» وغيرهما عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**»[4]. وأخرج ابن سعد عن قُتَيلَة بنت صَيْفِي قالت: «جاء حبر من الأحبار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون! قال: كيف؟ قال: يقول أحدكم: لا والكعبة، فقال النبي ﷺ: «**من حلف فليحلف برب الكعبة**»، فقال: يا محمد، نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله نداً! قال: «**وكيف ذلك**»؟ قال: يقول أحدكم: ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «**فمن قال منكم: ما شاء الله، فليقل: ثم شئت**»[5]. وأخرج (حم) و(د) وغيرهما عن حذيفة ابن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم فلان**»[6].

وأخرج (حم) وغيره عن الطفيل بن سخبرة أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٣٩٣)، وابن أبي حاتم (١/ ٦٢) من طريق ابن إسحاق ـ وهو في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٣٣) ـ عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، **وإسناده ضعيف**، شيخ ابن إسحاق مجهول.

(٢) في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»: «بالله».

(٣) في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»: «لا تنفع ولا تضر».

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وابن ماجه (٢١١٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٤٥)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٥)، والطبراني (١٣٠٠٦)، والبيهقي (٣/ ٢١٧)، وهو **صحيح**، وله شواهد، سيأتي بعضها.

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٢)، والنسائي في «المجتبى» (٧/ ٦) وفي «عمل اليوم والليلة» (٩٨٦، ٩٨٧)، وابن سعد في «الطبقات» (١٠/ ٢٩٢)، والطبراني (٢٥/رقم ٥، ٦، ٧)، والحاكم (٤/ ٢٩٧)، **وصححه** ابن حجر في «الإصابة» (٨/ ٧٩) وشيخنا الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٦).

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٤)، والطيالسي (٤٣٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٥)، وأبو داود (٤٩٨٠)، والبيهقي (٣/ ٢١٦) وفي «الاعتقاد» (١٥٦ ـ ١٥٧) وفي «الأسماء والصفات» (١٤٤) وهو **صحيح** وخرجته مفصلاً في تعليقي على «المجالسة» (١٩٨٨).

برهط من اليهود، فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيراً ابن الله! فقالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مر برهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله! قالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبح أخبر النبي ﷺ، فخطب فقال: «**إن طفيلاً رأى رؤيا وإنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم، فلا تقولوها ولكن قولوا: ما شاء الله وحده لا شريك له**»(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «الأنداد، الشركاء(٢) أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان(٣) وحياتي، وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل:(٤) ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان(٥)، هذا كله شرك»(٦). وأخرج (خ) و(م) عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»(٧). وروى (ج) بسنده إلى ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ قال: وحِّدوه(٨).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢)، وابن أبي شيبة (٦٥٢) كلاهما في «المسند»، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤)، والدارمي (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٨٠)، وابن ماجه (٢١١٨)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٨/رقم ٨٥٤ ـ ٨٥٦)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٧٤٣)، وأبو القاسم البغوي في «معجم الصحابة» (٣/رقم ١٣٦٧، ١٣٦٨)، والطبراني في «الكبير» (٨٢١٤، ٨٢١٥)، والحاكم (٣/ ٤٦٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦)، والحازمي في «الاعتبار» (٢٤٢ ـ ٢٤٣)، والخطيب في «الموضح» (١/ ٣٠٣) وهو **صحيح**، وخرجته مفصلاً في كتابي «المقدمات الممهدات السلفيات في تفسير الرؤى والمنامات» (ص٢٦ ـ ٢٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «هو الشرك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «يا فلانة».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «الرجل لصاحبه».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «لا تجعل فيها فلان فإن هذا كله به شرك».

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٢) **وإسناده حسن**.

(٧) أخرجه البخاري رقم (٦٠٠١)، ومسلم رقم (٨٦).

(٨) ذكره ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٣٨٥) معلقاً بصيغة التمريض. ثم وصله (١/ ٣٨٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٥٩ ـ ٦٠) رقم (٢١٥، ٢١٦) عنه بلفظ: «وحدوا ربكم» **وفي إسناده ضعف**، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٣٣).

قال محمد تقي الدين: . قوله: «وحدوه»؛ لأن الذين تقدم ذكرهم من أنواع الكفار كلهم يعبدون الله ولكنهم لا يوحدونه ومن صرف من عبادته لغير الله مثقال ذرة، فلم يعبده؛ لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له من الشرك الأكبر والأصغر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافرون: ١ ـ ٣]، فنفى عنهم عبادة الله تعالى مع أنهم كانوا يعبدون الله بالحج والدعاء والصدقة والذبح إلا أنهم كانوا يشركون معه غيره، فكان قائلهم يقول إذا أهل بالحج: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»[1]. فمن أهل هذا الزمان من يصلي صلاة كثيرة ويصوم ويتصدق ويذكر الله، ولكنه مع ذلك يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويذبح لغير الله ويحلف بغير الله ويخاف غير الله ويرجو غير الله ويتذلل لغير الله ظاهراً وباطناً، وبعض هذه الأمور بل كلها يحبط عمله فلا يقبل الله منه شيئاً؟ قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥ ـ ٦٦].

قال محمد تقي الدين: في هاتين الآيتين نوعان من التوحيد: **أولهما**: توحيد العبادة في قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وقول ابن عباس: أي: وحدوه، **والثاني**: توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية إذا لم يكن معه توحيد العبادة لا ينفع صاحبه شيئاً؛ فإن أكثر الكفار يعتقدون أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم والمنعم عليهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً؛ لأنهم لم يخصوه بالعبادة والتوجه والقصد والطلب، ونعم الله على عباده كثيرة لا يحصيها إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقد ذكر ﷻ في هاتين الآيتين نعماً متعددة: **أولاها** أنه خالق كل شيء، **ثانيها** أنه جعل للناس هذه الأرض صالحة لسكناهم وفيها أسباب الراحة، **ثالثها** أنه جعل السماء سقفاً حافظاً لهم من الآفات التي تأتي من السمٰوات، **رابعها** أنه أنزل من السماء ماء مباركاً لا يستطيع إنزاله إلا هو، ولا حياة لهم بدونه، **خامسها** أنه أخرج لنا به من أنواع النبات

---

(١) هذه التلبية كان يقولها أهل الشرك في الجاهلية، أخرج ذلك مسلم في «صحيحه» (١١٨٥) عن ابن عباس.

والأشجار من الزروع والحبوب والفواكه والثمار ما لا يكاد يحصى.

وقال بعد ذلك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: شركاء في العبادة تخافونهم وترجون نفعهم وتتملقون لهم، وأنتم تعلمون علماً لا شك فيه أن خالقكم ورازقكم ومحييكم ومميتكم واحد هو الله، هذا للذين يقرون بوجود الله، أما الذين ينكرون فهم فئة فقيرة حقيرة مكابرة مغالطة، وللكلام معهم موضع آخر.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠]

قال (ك) في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: «إسرائيل هو[١] يعقوب»[٢] وقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ «قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم[٣] الله بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجّر لهم البحر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجاهم من عبودية آل فرعون[٤]، وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب[٥]، قلت: وهذا كقول[٦] موسى عليه السلام لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]؛ يعني في زمانهم»[٧]، «﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي[٨] ﷺ إذا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو نبي الله».

(٢) راجع «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٣).

(فائدة): أنت إذا تأملت القرآن الكريم، ورأيته يخاطب المشركين واليهود والنصارى، وكل من اتخذ معبوداً غير الله تعالى، ويخاطب المؤمنين بوجه خاص، تجلّى لك البرهان بعموم رسالة من أنزل عليه، فكن لهذا السّر حافظاً، وأمعن النظر فيه تزدد إيماناً وهدى. قاله العلامة ابن بدران في «جواهر الأفكار» (١٨٧).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنعم بها».

(٤) أخرجه ابن جرير (١/ ٥٩٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٩٥) رقم (٤٣٦)، **وهو صحيح عنه**.

(٥) أخرجه ابن جرير (١/ ٥٩٥)، وابن أبي حاتم (١/ ٩٥) رقم (٤٣٥).

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول»!

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٤).

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «للنبي محمد».

جاءكم[1] أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه[2] واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار[3] والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم.

وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [المائدة: ١٢].. وقال آخرون: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل[4] نبياً عظيماً»[5].

فصل في ذكر البشارة بنبينا ﷺ من التوراة

قال الرازي: في (الجزء الثالث) من «تفسيره» (ص٢٦)[6]: «وسنذكر[7] الآن بعض ما جاء في كتب الأنبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد ﷺ:

فالأول: جاء في (الفصل التاسع) من (السفر الأول) من «التوراة» «أن هاجر لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك من قبل الله، فقال لها: يا هاجر، أين تريدين ومن أين أقبلت؟ فقالت: أهرب من سيدتي سارة! فقال لها: ارجعي إلى سيدتك واخفضي لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلدين ابناً وتسمّينه إسماعيل، من أجل أن الله سمع تبتُّلك وخشوعك، وهو يكون عين[8] الناس، وتكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، وهو يشكر على

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أوف بعهدكم، أي:».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بتصديقه».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإصر».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بني إسرائيل».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).
(٦) المسمى بـ«التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب» (٣/ ٣٤ ـ ٣٦)، ط. دار الكتب العلمية.
(٧) في المطبوع من «التفسير الكبير»: «ولنذكر».
(٨) كذا في «تفسير الرازي»، وفي الترجمة الحالية للتوراة: سفر التكوين: الإصحاح السادس عشر (١١ ـ ١٢): «وإنه يكون إنساناً وحشياً». ونقلها ابن تيمية في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٢٣): «وحشي الناس».

رغم جميع إخوته»[1]، واعلم أن الاستدلال بهذا الكلام أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة وليس يجوز أن يبشر الملك من قبل الله بالظلم والجور وبأمر لا يتم إلا بالكذب على الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وولده لم يكونوا متصرفين في الكل، أعني في معظم الدنيا ومعظم الأمم، ولا كانوا مخالطين للكل على سبيل الاستيلاء إلا بالإسلام؛ لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في أوائل العراق وأوائل الشام إلا على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الشرق والغرب بالإسلام، ومازجوا الأمم ووطئوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة، فلو لم يكن النبي ﷺ صادقاً لكانت هذه المخالطة منهم للأمم ومن الأمم لهم معصية لله تعالى وخروجاً عن طاعته إلى طاعة الشيطان، والله يتعالى عن أن يبشر بما هذا سبيله.

والثاني: جاء في (الفصل الحادي عشر) من (السفر الخامس): «إن الرب إلهكم يقيم لكم نبياً مثلي من بينكم ومن إخوانكم» وفي هذا الفصل: «إن الرب تعالى قال لموسى: «إني مقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم وأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي أنا أنتقم منه». وهذا الكلام يدل على أن النبي الذي يقيمه الله تعالى ليس من بني إسرائيل، كما أن من قال لبني هاشم إنه سيكون من إخوانكم إمام أعقل منه أنه[2] لا يكون من بني هاشم، ثم إن يعقوب عليه السلام هو إسرائيل، ولم يكن له أخ إلا عيص[3] ولم يكن للعيص ولد من الأنبياء سوى أيوب وإنه كان قبل موسى عليه السلام، فلا يجوز أن يكون موسى عليه السلام مبشراً به. وأما إسماعيل فإنه كان أخاً لإسحاق والد يعقوب، ثم إن كل نبي بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل. فالنبي ﷺ ما كان منهم لكنه من إخوانهم لأنه من ولد إسماعيل الذي هو أخ[4] إسحاق عليه السلام.

فإن قيل: قوله: «من بينكم» يمنع من أن يكون المراد محمداً[5] ﷺ؛ لأنه

---

(١) انظر: «العهد القديم» (ص٢٣).

(٢) في مطبوع «التفسير الكبير»: «عقل أنه».

(٣) في مطبوع «التفسير الكبير»: «العيص».

(٤) في مطبوع «التفسير الكبير»: «أخو».

(٥) كذا في مطبوع «التفسير الكبير»، وفي الأصل: «محمد»!

لم يقم من بين بني إسرائيل، قلنا: بل قد قام من بينهم؛ لأنه ﷺ ظهر بالحجاز فبعث بمكة وهاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره، وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كخيبر، وبني قينقاع، والنضير وغيرهم، وأيضاً فإن الحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك بالشام، فإذا قام محمد بالحجاز فقد قام بينهم[١]، وأيضاً فإنه إذا كان من إخوانهم فقد قام من بينهم، فإنه ليس ببعيد منهم.

الثالث: قال في (الفصل العشرين) من هذا «السفر»: «إن الرب تعالى جاء من[٢] طور سيناء وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصفّ عن يمينه القديسون[٣]، فمنحهم العز وحببهم إلى الشعوب ودعا لجميع قديسيه بالبركة». وجه الاستدلال أن جبال فاران هي بالحجاز[٤]؛ لأن في التوراة أن إسماعيل تعلم الرمي في برية فاران، ومعلوم أنه إنما سكن بمكة، إذا ثبت هذا فنقول: إن قوله: «فمنحهم العز» لا يجوز أن يكون المراد إسماعيل عليه السلام؛ لأنه لم يحصل عقب[٥] سكنى إسماعيل عليه السلام هناك عز ولا اجتمع هناك القديسون[٦]، فوجب حمله على محمد ﷺ[٧]، قالت اليهود: المراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نار أيضاً، ومن جبل فاران أيضاً فانتشرت في هذه المواضع.

قلنا: هذا لا يصح؛ لأن الله تعالى لو خلق ناراً في موضع فإنه لا يقال: جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا تبع تلك[٨] الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة وما أشبه ذلك، وعندكم إن لم يتبع ظهور النار وحي ولا كلام إلا من طور سيناء، فما كان ينبغي إلا أن يقال: «جاء الله من طور سيناء

---

(١) في مطبوع «التفسير الكبير»: «من بينهم».
(٢) في مطبوع «التفسير الكبير»: «في».
(٣) في مطبوع «التفسير الكبير»: «عنوان القديسين».
(٤) في مطبوع «التفسير الكبير»: «إن جبل فاران هو بالحجاز».
قال أبو عبيدة: نقل ابن تيمية في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٠٠) عن ابن قتيبة قوله: «وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن (فاران) هي مكة، فإن ادّعوا أنها غير مكة، فليس ينكر؛ ذلك من تحريفهم وإفكهم».
(٥) في مطبوع «التفسير الكبير»: «عقيب».
(٦) في مطبوع «التفسير الكبير»: «ربوات القديسين».
(٧) في مطبوع «التفسير الكبير»: «عليه السلام».
(٨) في مطبوع «التفسير الكبير»: «من ذلك إذا تابع ذلك».

فأما أن يقال»[١]: ظهر من ساعير ومن جبل فاران فلا يجوز وروده، كما لا يقال: جاء الله من الغمام إذا ظهر في الغمام احتراق ونيران كما يتفق ذلك في أيام الربيع[٢].

وأيضاً ففي كتاب «حبقوق»[٣] بيان ما قلنا، وهو تجلي[٤] الله من طور سيناء القدس[٥] من جبل فاران لو انكشفت[٦] السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، يكون شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعزه، تسير المنايا أمامه، ويصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الأرض وتأمل الأمم وبحث عنها فتضعضعت الجبال القويمة[٧]، واتضعت الروابي الدهرية، وتزعزعت ستور أهل مدين، ركبت الخيول وعلوت مراكب الانقياد والغوث، وستنزع في قسيك إغراقاً

---

(١) سقط من مطبوع «التفسير الكبير».

(٢) لا يمكن أحداً أن يدّعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي. فعلم أنه ليس بالمراد باستعلانه من جبال فاران إلَّا إرسال محمد ﷺ وهو ـ سبحانه ـ ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني، فذكر إنزال التوراة، ثم الإنجيل، ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه.
وقال في الأول: «جاء أو ظهر»، وفي الثاني: «أشرق»، وفي الثالث: «استعلن». وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، أو ما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس، زاد به النور والهدى، وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، ولهذا قال: «واستعلن من جبال فاران»؛ فإن النبي ﷺ، ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين، كما يظهر نور الشمس إذا استعلت في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا سماه الله سراجاً منيراً، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً.
والخلق يحتاجون إلى السراج المنير، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج؛ فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت، وكما قيل: قد يَنْضَرّون به بعض الأوقات. وأما السراج المنير. فيحتاجون إليه كل وقت، وفي كل مكان، ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية. قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).
وذكر هذه النبوءة للسموأل بن يهوذا في كتابه «بذل المجهود في إقناع اليهود»، ونقلها عنه ابن بدران في «جواهر الأفكار» (١٨٩ ـ ١٩٢).

(٣) انظر (سفر حبقوق) من (الإصحاح الثالث) (٣ ـ ٧)، العدد القديم (١٠٤٦).

(٤) في مطبوع «التفسير الكبير»: «جاء».

(٥) في مطبوع «التفسير الكبير»: «والقدس».

(٦) في مطبوع «التفسير الكبير»: «وانكشفت».

(٧) في مطبوع «التفسير الكبير»: «القديمة».

ونزعاً وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء، وتخور الأرض بالأنهار، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب[1] السيل، ونفرت المهاري نفيراً ورعباً، ورفعت أيديها وجلاً وفرقاً، وتوقفت[2] الشمس والقمر عن مجراهما، وسارت العساكر في برق سهامك ولمعات بيانك[3] تدوِّخ الأرض غضباً وتدوس الأمم زجراً؛ لأنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ تراب آبائك» هكذا نقل عن ابن رَبَّن[4] الطبري.

أما النصارى، فقال أبو الحسين رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «الغرر»: قد رأيت في نقولهم: «وظهر من جبال فاران لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود وترتوي السهام بأمرك المحمود؛ لأنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ مسيحك»، فظهر بما ذكرنا أن قوله تعالى في التوراة: «ظهر الرب من جبال فاران». ليس معناه ظهور النار منه بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات، وما ذاك إلا رسولنا محمد ﷺ، فإن قالوا: المراد مجيء الله؛ ولهذا قال في آخر الكلام: (وإنقاذ مسيحك)، قلنا: لا يجوز وصف الله تعالى بأنه يركب الخيول وبأن شعاع منظره مثل النور، وبأنه جاز المشاعر القديمة، وأما قوله: (وإنقاذ مسيحك)، فإن محمداً ﷺ أنقذ المسيح من كذب اليهود والنصارى»[5].

---

(١) الشؤبوب: الدّفعة من المطر.

(٢) في مطبوع «التفسير الكبير»: «وفوقفت».

(٣) في مطبوع «التفسير الكبير»: «ولمعان بيانك»، وفي «الجواب الصحيح»، و«الدين والدولة»: «ولمعان نيازكك».

(٤) في الأصل تبعاً لـ«تفسير الرازي»: «ابن رزين»!! وهو خطأ، صوابه المثبت، وهو علي بن رَبَّن الطبري، كان نصرانياً كاتباً في حدود الثلاثين والمئتين، قال ابن ناصر الدين في «التوضيح» (٤/ ١٣٢): «بفتح أوله والموحدة معاً» وخفف ابن ماكولا في «الإكمال» (٤/ ٢١) والفيروزآبادي في «القاموس» (مادة ربن) الباء الموحدة، قال ابن ناصر الدين: «والموحدة من اسم أبيه شددها المصنّف ـ أي: الذهبي ـ فيما وجدته بخطه، وهي كذلك، وقد خفّفها غيرُه». قال أبو عبيدة: طبع له «الدين والدولة في إثبات نبوة النبي محمد ﷺ»، وله ترجمة في «طبقات الأطباء» (ص٤١٤)، و«الفهرست» للنديم (٣٥٤). وذكر ابن حجر في «التبصير» (٢/ ٥٨٩) أن (الربن) المتقدّم في شريعة اليهود.

(٥) انتهى كلام الرازي، وهو مأخوذ من ابن رَبَّن في كتابه «الدين والدولة» (الباب التاسع والعاشر) (ص١٣٠ ـ ١٤٣)، وأورد (نبوءة حبقوق) (الباب العاشر) (ص١٦٨ ـ ١٧٠)، وقال على إثرها: =

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]

إنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

قال محمد تقي الدين الهلالي: والتقوى: اجتناب النواهي وامتثال الأوامر، فمن اتخذ شخصاً غير معصوم يجتنب كل ما نهاه عنه ويمتثل كل ما أمره به، فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر، فإن كل واحد غير معصوم، وإن بلغ في العلم والصلاح ما بلغ لا يقبل قوله في الدين حتى يعرض على كتاب الله وسنة رسوله فما وافق يؤخذ وما خالف يترك، وغلاة المتصوفة يأمرون المريدين أن يطيعوا شيوخهم في كل ما يأمرون به بدون سؤال ولا مراجعة، ويقولون: (من قال لشيخه: «لم»؟ لا يفلح أبداً) وقال شاعرهم(١):

وكُنْ عنده كالميْتِ عند مُغَسِّلٍ ... يُقَلِّبُهُ ما شاءَ وهو مطاوعُ

ويقولون: إذا رأيت امرأة حسناء دخلت على شيخك فقم سخِّن الماء،

= «فهذه النبوة الباهرة الجليلة التي لا شك فيها ولا مرْيةَ، فقد نطقتْ بالحق وباحت بالمكتوم وكشفت الأغطية وأزالت الشبهات، وسمَّى الله النبي ﷺ تسميةً مرَّتين، وأخبر أن المنايا تسير أمامهُ وتصحب سباع الطيّر راياته، وأنهُ يركب الخيل ويظهر الخلاص وترتوي السهام بأمره من الرِّماءِ، وهو الذي وقفت الشمس والقمر عن مجاريهما له، وسار العساكر في بريق سهامه ولمعان نيازكه. فإن لم يكن هو الذي وصفنا فمن إذاً؟ لعلهم بنو إسرائيل المأسورون المسبيون، أو النصارى الخاضعون المستسلمون. وكيف يكون ذلك وقد سمَّى فيها النبيَّ مرتَين ووصَفَ عساكره وحروبه، وأنهُ يَدوسُ الأمَمَ دوْساً ويُدوّخُهم غضَباً ورجْزاً؟ فدَعُوا يا بني عمّي اللجاجَ والمَحكَ، وتجرَّعُوا مَراراتِ الحقّ وأفِيقوا من سكركم، وافهموا عن اللهِ تعالى وعن أنبياءه البررة الطيبين عليهم السلام والصلاة أجمعين».

وقال شيخ الإسلام في «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٦٩) على إثره:

«وهذا تصريح بمحمد، ومن رام صرف نبوة حبقوق هذه عن محمد ﷺ فقد رام ستر النار، وحبس الأنهار، وأنَّى يقدر على ذلك؟! وقد سماه باسمه مرتين، وأخبر بقوة أمته، وسير المنايا أمامهم، واتباع جوارح الطير آثارهم. وهذه النبوة لا تليق إلَّا بمحمد، ولا تصلح إلَّا له، ولا تدل إلَّا عليه. فمن حاول صرفها عنه، فقد حاول ممتنعاً».

(١) هو القطب الجيلي، سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت٨٣٢هـ)، وقال على إثره:

ولا تعترِض فيما جَهلتَ من امرِهِ ... عليه فإنّ الاعتراضَ تنازُعُ

وأقوالهم في ذلك كثيرة، فهؤلاء اتخذوا شيوخهم أرباباً من دون الله، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨]

لمّا ذكّرهم تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول عقابه لهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يغني أحد عن أحد كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣] لهذا أبلغ التحذير، أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ يعني: من الكافرين كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] وكما قال في أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يقبل منها فداء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠] وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الآية [الحديد: ١٥]، فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: «بدل، والبدل: الفدية»[1]، وقال أبو العالية: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/٦٣٨) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» له ولابن المنذر.

عَدۡلٌ﴾ «أي: فداء»[(١)]، وروى ابن جرير في ذلك حديثاً مرفوعاً[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء. ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾ [الطارق: ١٠] أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد، ولا يجير منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٦﴾ [الفجر: ٢٥ ـ ٢٦] وقال: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ۝٢٦﴾ [الصافات: ٢٥ ـ ٢٦] وقال: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٨]، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات: ٢٥]: «ما لكم اليوم لا تمانعون منا، هيهات ليس ذلك لكم اليوم»[(٣)]، قال ابن جرير: «وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية»[(٤)].

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ۝٨٣ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم (١/ ١٠٥) في «تفسيريهما».

(٢) يشير إلى ما أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩) بسنده إلى عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء قال: قيل: يا رسول الله ما العدل؟ قال: «العدل الفدية». **والحديث ضعيف**، عمرو بن قيس من أتباع التابعين وشيخه مجهول.

(٣) أخرجه ابن جرير (١/ ٦٤٠)، **وإسناده منقطع**.

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ٦٣٩).

وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٣ ـ ٨٦]

قال (ك): «يذكِّر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصداً وعمداً وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبدوه[1] وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى[2] بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى أن قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[3]. ولهذا جاء في الحديث الصحيح: (أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أباك ثم أدناك ثم أدناك**»)[4].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أن يعبد».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كثيراً».

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٢٧)، ومسلم رقم (٨٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣)، وأحمد (٥/ ٣)، وعبد الرزاق (٢٠/ ٢١)، وهناد (٩٦٥)، والطحاوي في «المشكل» =

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب وهو آكد[١]، وقيل: كان أصله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كما قرأها من قرأها من السلف، فحذفت «أن» فارتفع، وحكى عن أُبي وابن مسعود[٢] أنهما قرآها: ﴿لَا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ونقل هذا التوجيه القرطبي في «تفسيره» عن سيبويه، قال: واختاره الكسائي والفراء[٣].

قال: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ الآية [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] أي: كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فالحُسْن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحكم[٤] ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

وقال الإمام أحمد[٥] بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تحتقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد؛ فالق أخاك بوجه منطلق»**[٦] وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين

= (١٦٦٧، ١٦٦٨)، وابن حبان في «الثقات» (٨/ ٣٤٤)، والطبراني في «الكبير» (١٩/رقم ٩٥٧ ـ ٩٦٤)، والحاكم (٣/ ٦٤٢) و(٤/ ١٥٠)، والبيهقي (٤/ ١٧٩ و٨/ ٢) وفي «الشعب» (٧٨٣٩) كلهم من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده **وإسناده حسن**؛ والحديث **صحيح لغيره**.

(١) انظر: «تفسير الكشاف» (١/ ١٥٩).

(٢) انظر: «معاني الفراء» (١/ ٥٣)، و«البحر المحيط» (١/ ٢٨٢)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٣٧٢)، و«مختصر ابن خالويه» (٧)، وقال الزجاج في «معانيه» (١/ ١٦٢): «لا يقرأ؛ لأنه مخالف للمصحف».

(٣) زاد معهما القرطبي في «تفسيره» (٢/ ١٣) المبرد.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويعلم».

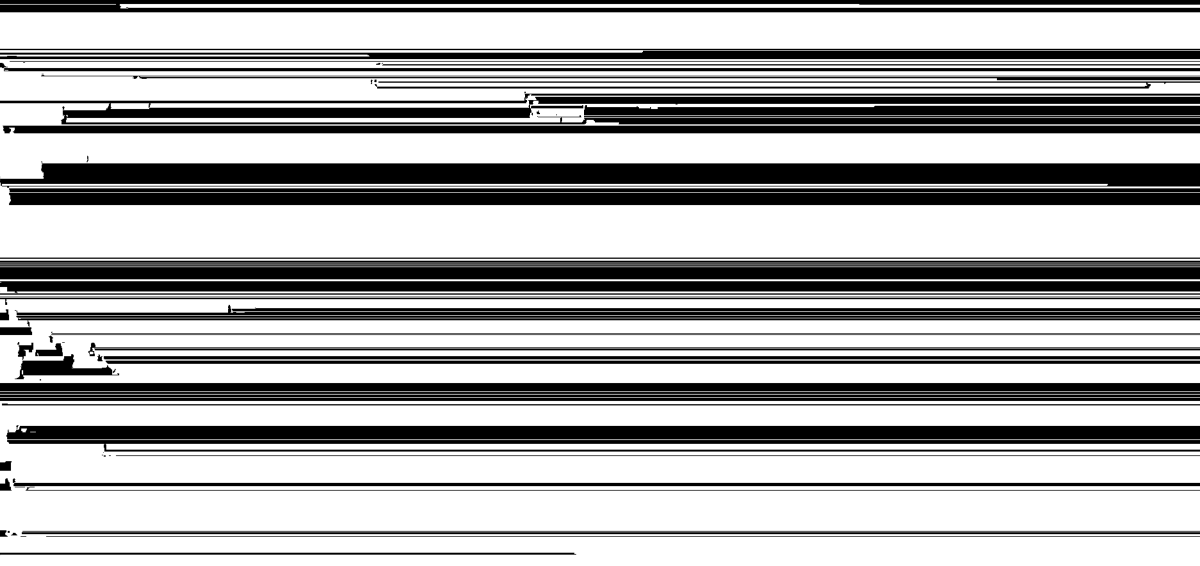
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت» وقد وضع الشيخ تقي الدين «بسنده» اختصاراً، هكذا في جميع الكتاب.

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، ومسلم (٢٦٢٦)، والترمذي (١٨٣٣) وغيرهم.

طرفي الإحسان الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين[1] من ذلك، وهو الصلاة والزكاة فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣] وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه ـ على عهد بعد العلم به ـ إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]»[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٦].

«يقول الله تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ



من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه كما قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤] أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٨٥]، قال: محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة[٢] عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية، قال: «أنبأهم[٣] الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها افتداء[٤] أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وهم حلفاء الأوس. فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانهم، حتى تسافكوا[٥] دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا ناراً ولا بعثاً ولا قيامة ولا كتاباً ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة وأخذاً به[٦] يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون[٧] ما أصابوا من

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير.

(٢) في الأصل: «وعكرمة» والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنّهم». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فداء».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتسافكوا».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بعضهم من بعض».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويطلون».

دمائهم وقتلوا[١] من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم.

يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم ذلك[٢] ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] أي: تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه إلا من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دون الله[٣] ابتغاء عرض الدنيا، ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة»[٤].

وقال أسباط عن السدي عن عبد خير قال: «غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلنجر[٥] فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة فلما مر بعراس الجالوت نزل به فقال له عبد الله: يا رأس الجالوت هل[٦] في عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها مني؟ قال: نعم، قال: أخذتها بسبعمائة درهم، قال: فإني أربحك سبعمائة أخرى، قال: فإني حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف، قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله لتشترينها أو لتكفرن بدينك الذي أنت عليه، قال: ادن مني فدنا منه فقرأ في أذنه مما[٧] في التوراة: (إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته) ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم، قال: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين...» وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالحجة[٨]، فلهذا لا يؤمنون[٩]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقتلى». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بذلك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من دونه».

(٤) أخرجه ابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٨٧) ـ ومن طريقه ابن أبي حاتم مفرقاً (١/ ٢٦٣ رقم ٨٥٦، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٧، ٨٧٠)، وابن جرير (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) **وإسناده ضعيف**، محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت مجهول، قال الذهبي في «الميزان» (٤/ ٢٦): «لا يعرف»، وانظر: «العجاب» (١/ ٢٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٧٦ ـ ٤٧٨).

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وتحرفت في الأصل إلى «خيبر»!

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لك».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التي».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالصحة».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يؤتمنون».

على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه[١] من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام[٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥] أي: لسبب[٣] مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥] جزاء على مخالفتهم الكتاب[٤] الذي بأيديهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ واختاروها[٥] ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦] أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥ ـ ٨٦] أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه»[٦].

قال محمد تقي الدين: كل من ترك أمراً أمره الله به وهو قادر على فعله يعتبر كافراً بذلك الأمر، فإن الله ﷻ أمر اليهود بأمور، **أولها:** أن لا يقتل بعضهم بعضاً، **وثانيها:** أن لا يخرج أحد أحداً منهم من داره، **وثالثها:** أن يفديه إذا وجده أسيراً، فارتكب اليهود اثنين من الممنوعات: **أحدها:** القتل، **والثاني:** الإخراج، وعملوا بواحد وهو الفداء فسماهم الله كافرين ببعض الكتاب أي بما لم يعملوا به، هذا صريح لا مفر منه للمتخاذلين[٧]، والله المستعان.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يكتمونه».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بسبب».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جزاء على ما كتموه من كتاب الله».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: استحبوها على الآخرة واختاروها».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/٤٧٦ ـ ٤٧٩).
(٧) وأنت خبير بأن الله تعالى إنما ذمهم؛ لأنهم لا همّ لهم إلا مقاومة دين الله وشرعه، والتلاعب به على مقتضى أهوائهم، حفظاً لرياستهم واستبداداً منهم على ضعفائهم، فانتقض بذلك أمرهم عليهم، وحل بهم ما حل من البلاء، وكذلك كل أمة سلكت هذا المسلك فإنه يصيبها ما أصابهم، ويتلاشى أمرها حتى ترجع إلى دينها. قاله ابن بدران في «جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار» (٢٥٣).

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠١ - ١٠٣]

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية [البقرة: ١٠١].

المراد بالرسول هنا: نبينا محمد ﷺ، جاء اليهودَ بالحق وهو الإسلام والقرآن مصدقاً لما معهم من التوراة، فنبذت طائفة من اليهود وهم أكثرهم كتاب الله وهو القرآن الذي جاء به رسول الله ﷺ، وقيل: المراد به التوراة.

قال محمد تقي الدين: ولا تنافي بينهما فإن من كذب محمداً ﷺ فقد نبذ التوراة والقرآن جميعاً؛ لأن التوراة بشرت به وأخذ الله الميثاق على أهلها أن يؤمنوا به، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، وقال تعالى في آل عمران أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧] والنبذ هو الطرح وجعل الشيء وراء الظهر لإهماله والإعراض عنه.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١] لمّا لم ينفعهم علمهم

صاروا كمن لا يعلم، أي كالجاهلين، بل العالم الذي لا ينفعه علمه شر من الجاهل كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢] الخطاب هنا أيضاً لليهود.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ يعني أن اليهود نبذوا ما جاء في التوراة والقرآن من وجوب الإيمان بجميع رسل الله تعالى، واتباع ما جاؤوا به من توحيد الله وطاعته، واتبعوا ما علمتهم الشياطين من السحر الذي تنسبته إلى سليمان كذباً وزوراً! وسليمان رسول أمين بريء من السحر(١)، وما زعمته الشياطين لأتباعهم أن سليمان ﷺ ما بلغ ذلك الملك العظيم والحكم على الجن والإنس إلا بالسحر، فجاء محمد رسول الله خاتم النبيين وإمامهم فبرّأ أخاه سليمان مما نسبت له الشياطين واليهود من السحر الذي هو كفر، فإن اليهود بنسبتهم السحر إلى نبي الله سليمان لزمهم نسبة الكفر إليه، وحاشا سليمان من الكفر، بل الشياطين وأتباعهم هم الذين كفروا بسليمان وبمحمد رسول الله صلى الله عليهما وسلم، وكفروا بتعليمهم الناس السحر وحثهم على العمل به، والسحر هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير، وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة(٢)، قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال محمد تقي الدين: لا أعلم آية في كتاب الله تعالى تحيرت في تفسيرها كما تحيرت في تفسير هذه الآية؛ لأن الناس من زمان الصحابة إلى يومنا هذا اختلفوا في تفسيرها، وأنا أستعين بالله وأختار القول الذي أراه صحيحاً مطابقاً للأصول، وما أبرئ نفسي من الخطأ، فأقول وبالله التوفيق: أكثر المفسرين على أن (ما)، موصولة، فمعناها أن الشياطين كانوا يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين اللذين أنزلهما الله في بابل بأرض العراق يعلمان الناس

---

(١) لا تلتفت إلى ما يسمى بـ«العهود السليمانية» وما ينسجه القصاص عن (خاتمه) من أساطير، وكذا عن (بساطه).

(٢) هذا هو الصحيح، فليس كل السحر تخييلات وطلسمات، انظر تفصيل ذلك في: «عالم السحر والشعوذة» (ص١٤٩ ـ ١٦٣).

السحر فتنة لهم، للتمييز بين من يؤمن بالله ويطيع الله ويلتزم حدوده، وبين من اتبع هواه وكفر بالله وعصى أمره، وكانا لا يعلّمان أحداً حتى ينصحاه ويخبراه بالعاقبة الوخيمة لمن يتعلم السحر المشتمل على الكفر، فإذا أبى إلا التعلم والعمل به علّماه، قالوا: ولا مانع أن يبتلي الله عباده بمثل هذا.

وقال آخرون ـ منهم ابن جرير الطبري سيد المفسرين في زمانه ـ: «أن، (ما)، نافية؛ أي: لم ينزل الله السحر على الملكين، وهما جبريل وميكائيل، أو هما[1] ملكان آخران؛ لأن الله حرم السحر وجعله كفراً وشراً وفساداً، فكيف ينزله على الملكين ليعلماه الناس، وقد أخبر أن الشياطين هم الذين كفروا، وهم الذين يعلمون الناس السحر، فكيف يفعل الملكان ما تفعله الشياطين، والله لطيف بعباده؟»[2].

وهذا القول **هو الذي انشرحت له نفسي، واطمأن إليه قلبي**، أما هاروت وماروت، فعلى القول الأول، هما اسمان للملكين، وعلى القول الذي اخترته وتبعت فيه ابن جرير، هما اسمان لرجلين من أهل بابل[3] كانا يفعلان ذلك وكانا

---

(١) وقرئ (على الملِكين) بكسر اللام، وهي قراءة شاذة ولكنها صحيحة السند، ولا إشكال في القول بالنفي على هذه القراءة، أما على قراءة الفتح فقد قيل: إنهما كانا رجلين يشبهان الملائكة في صلاحهما. (انظر حاشية الجمل على الجلالين) (منه).
قال أبو عبيدة: المَلِكان ـ على هذه القراءة ـ يعني به: رجلين من بني آدم، وهي قراءة رويت عن ابن عباس والحسن بن علي وأبي الأسود الدؤلي والضحاك وابن أبزى وسعيد بن جبير والزهري وقتيبة عن الكسائي، وردّ هذه القراءة الطبري وخطأها.
انظر: «البحر المحيط» (١/ ٣٢٩)، «المحرر الوجيز» (١/ ٤١٧)، «المحتسب» (١/ ١٠٠)، «الكشاف» (١/ ٢٣١)، «معاني القرآن» (١/ ٦٤) للفراء، «الدر المصون» (١/ ٣٢١).

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢) وقد تصرف فيه المؤلف.

(٣) وعليه فإن هاروت وماروت بدل من الشياطين، وهذا ـ كما قال القرطبي ـ أولى ما حملت عليه الآية وأصح، قال: «ولا يلتفت إلى ما سواه» وتبنّاه ابن كثير، وجوّده شيخنا محمد نسيب الرفاعي رحمه الله في «تيسير العزيز الحميد» (١/ ٨٤) فقال: «قلت: إننا مع ابن كثير في تبنيه تأويل القرطبي... إلا في ما ذهب إليه القرطبي من أن هاروت وماروت بدل من الشياطين لأن الشياطين ليس من فطرتهم النصح لبني آدم حتى يقولوا لهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ بل إن من أولى مهماتهم وفطرهم التي جبلوا عليها أن يفتنوا بني آدم ويغووهم. لذا فإنني أرجح أن يكون هاروت وماروت بدلاً من الناس وعلى هذا... يكون تأويل الآية: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين السحر، ولكن الشياطين كفروا بتعليمهم السحر للناس؛ أي يعلمون هاروت وماروت اللذين هما رجلان من الناس =

مع ذلك ينصحان الناس بعدم التعلم، فمن أبى علماه وأدليا حبله على غاربه وحمّلاه إثم ذلك، ومن هذا السحر ما يفرقون به بين الرجل وامرأته بإيقاع البغض بينهما، وهو فساد وشر لا يستطيع شياطين الإنس والجن أن يفرقوا أحداً بسحر إلا أن يشاء الله ذلك، وأخبرنا ﷺ أن تعلم السحر يضر ولا ينفع، واختلف العلماء في حكم تعلمه، فقال الجمهور: إنه حرام أو كفر(١)، وقال طائفة منهم الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من تعلمه بقصد تحذير الناس منه ومعرفة حقيقته نصحاً لله ولعباده، فلا إثم عليه(٢)، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: علم المتعلمون له، لمن اشتراه؛ أي استبدله بالتورع عنه واختاره معصية لله تعالى، ما له في الآخرة من خلاق؛ أي ما له نصيب في رحمة الله تعالى.

ثم اعلم أن هناك حكاية حكاها أكثر المفسرين تقشعر منها الجلود وقد رواها كثير منهم عن النبي ﷺ، وصحح الحافظ ابن كثير أنها ليست مرفوعة إلى النبي ﷺ، وإنما رواها عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار، وهو أخذها من الإسرائيليات، وملخصها أن الملائكة قالوا: «يا رب تصبر على بني آدم في انهماكهم في المعاصي وتمردهم وتؤخر عقابهم وتمهلهم، فقال الله تعالى: إنهم يؤمنون بي غيباً وأنتم تؤمنون بي مشاهدة، قد ركّبت فيهم الشهوة وسلطت عليهم

= ثم يعلم هذان الناس... وما يعلمان أحداً منهم حتى يقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. فيكون هاروت وماروت بدلاً من الناس الذين من فطرتهم النصح، وفي هذا ينزّه الله عن تنزيل السحر على الملكين ثم ننزهما من تعليم السحر للناس، والسحر هو في أساسه كفر فلن يستطيع أحد أن يعلم السحر إلّا أن يكفر، ولا يستطيع المتعلم أن يتعلّم إلا أن يكفر والملائكة منزّهون عن الكفر وتعلّمه وتعليمه. وإن الله لا يرضى لعباده الكفر». وانظر لتفسير هذه الآيات: «جواهر الأفكار ومعادن الأسرار» للعلامة عبد القادر بن بدران (٢٨١ ـ ٢٩٠)، فقد أجاد وأفاد في ذلك.

(١) كالنووي، انظر: «المجموع» (١٩/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، ونوّع القرافي في «الفروق» (٤/ ١٤٨) وفصّل متى يكون كفراً، ومتى يكون حراماً، فانظره إن أردت التفصيل، وانظر: «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٤)، و«الكبائر» (الكبيرة الثالثة) (ص١٠١ وما بعد) للذهبي، وتعليقي عليه.

(٢) في صحة نسبة هذا القول للشافعي نظر! قال ابن قدامة: «تعلّم السحر وتعليمه حرام، لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم». انظر تفصيل المسألة في: «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٥)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٣٩) وكتاب «موقف الإسلام من السحر» أ. حياة سعيد عمر باأخضر (٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٧)، و«عالم السحر والشعوذة» (ص٢١٥ ـ ٢٢٦).

الشياطين، فلو أنكم ابتليتم بما ابتلوا به لوقعتم في المعصية، فأنكروا ذلك، فقال الله تعالى: اختاروا ملكين منكم من أفضلكم لأركّب فيهما الشهوة وأسلط عليهما الشيطان، فاختاروا هاروت وماروت، فأوصاهما الله تعالى إذا نزلا إلى الأرض أن يحكما بين الناس بالعدل، وأن يتجنبا الشرك به سبحانه والمعاصي، فنزلا إلى الأرض وأخذا يحكمان بين الناس بالعدل حتى جاءتهما امرأة جميلة جداً تختصم مع زوجها، قيل: إنها فارسية، اسمها بالفارسية: أناهيد، وبالنبطية: بيدخت، ففتنتهما بجمالها، فحكما على زوجها جوراً وراوداها عن نفسها فامتنعت منهما إلا بشرط أن يقتلا ابن جارها، ويشربا خمراً، ويسجدا لصنمها، فلما رضيا بذلك مكّنتهما من نفسها فزنيا بها، وشرطت عليهما شرطاً آخر وهو أن يعلماها الاسم الأعظم الذي به يصعدان إلى السماء فعلماها إياه فصعدت إلى السماء بعد ما تلته، فمسخت كوكباً وهو الزهرة أحد الكواكب السيارة»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢)، وعبدُ بنُ حُميد في «المنتخب» (٧٨٧)، وابن حبان (٦١٨٦)، والبزار (٢٩٣٨ ـ زوائده)، وابن السنِّي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥١)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (ورقة ٧٥/ب)، والبيهقي (١٠/ ٥٤) من طريق زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن ابن عمر رفعه، وذكره ابن كثير في «التفسير» (١/ ١٣٨) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال «الصحيحين»؛ إلا موسى بن جبير هذا، وهو الأنصاري السَّلَميّ مولاهم المديني الحذَّاء» ثم ذكر أشياخه، ومَن رووا عنه، ثم قال: «وذكره ابن أبي حاتم في كتاب «الجرح والتعديل»، ولم يحكِ فيه شيئاً مِن هذا ولا هذا، فهو مستور الحال، وقد تفرَّد به عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ».

وقال البزار: «رواه بعضهم عن نافع عن ابن عمر موقوفاً، وإنما أُتي رفع هذا عندي من زهير؛ لأنه لم يكن بالحافظ». نعم ذكر ابن كثير متابعاً له من وجه آخر عن نافع؛ من رواية ابن مردويه، حدثنا دعلج بن أحمد، حدثنا هشام بن علي بن هشام، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر، سمع النبي ﷺ يقول... فذكره بطوله.

ثم ذكر نحواً من هذه القصة من رواية الطبري في «جامع البيان ـ وهي فيه برقم (١٦٨٨) وعند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٤٢، ٤٣) ـ من طريق سنيد بن داود ـ صاحب «التفسير» ـ، حدثنا الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ.... به، ثم قال ابن كثير: «وهذان أيضاً غريبان جداً، وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لا عن النبي ﷺ؛ كما قال عبد الرزاق في «تفسيره»: عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن =

. . . .

= كعب الأحبار» وقال أيضاً: «رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به».
قلت في «جامع البيان» برقم (١٦٨٤): حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى؛ قالا: حدثنا مؤمل بن إسماعيل. (ح) وحدثنا الحسن بن يحيى؛ قال: أخبرنا عبد الرزاق؛ جميعاً عن الثوري به.
ثم قال: «ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثوري به.
ورواه ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى؛ قال: حدثنا معلى بن أسد؛ قال: حدثنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة؛ قال: حدثني سالم؛ أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأحبار. . . فذكره».
وهو في «جامع البيان» برقم (١٦٨٥)، ثم قال: «فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل، والله أعلم». انتهى.
وموسى بن جبير راوي هذا الحديث عن نافع: هو الأنصاري المدني الحذَّاء، مولى بني سَلَمَة، ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: «كان يخطئ ويخالف»، وقال ابن القطان: «لا يُعرف حاله» واغترَّ به الهيثمي، فقال في «المجمع» (٦/ ٢١٤) بعدما عزا الحديث لأحمد: «ورجاله رجال الصحيح؛ غير موسى بن جبير، وهو ثقة!!».
ولولا أن ابن حبان أورده في كتابه ساكتاً عليه ـ كما هو غالب عادته ـ لما جاز الاعتماد عليه؛ لما عُرف عنه من التساهل في التوثيق، فكيف وهو قد وصفه بقوله: «يخطئ ويخالف»؟! وليت شعري؛ مَن كان هذا وصفه؛ فكيف يكون ثقة؟!، أفاده شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٠).
ثم إن الراوي عنه زهير بن محمد، وإنْ كان من رجال «الصحيحين»، ففي حفظه كلام كثير، ضعَّفه من أجله جماعة، وقال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (١/ ٢/ ٥٩٠): «محلُّه الصِّدق، وفي حفظه سوء، وكان حديثه بالشَّام، أنكر من حديثه بالعراق لسوء حفظه، فما حدَّث من كتبه؛ فهو صالح، وما حدَّث من حفظه؛ ففيه أغاليط».
ومن أين لنا أن نعلم إذا كان حدَّث بهذا الحديث من كتابه أو من حفظه؟!
ففي هذه الحالة يُتَوَقَّف عن قبول حديثه، إن سلم من شيخه المستور على حدّ تعبير الحافظ ابن حجر.
أما رواية ابن مردويه؛ ففيها عبد الله بن رجاء الغُداني، وهو وإن كان صدوقاً ومن شيوخ البخاري؛ إلا أنه كان كثير الغلط والتصحيف؛ كما قال ابن معين، وعمرو بن علي الفلاس.
وسعيد بن سلمة بن أبي الحسام؛ ترجمه البخاري (٣/ ١٦٠٠)، وضعفه النسائي، وقال أبو حاتم: «سألت ابن معين عنه، فلم يعرفه حق معرفته».
وموسى بن سَرْجِس؛ ترجمه البخاري (٧/ ١٢١٣)، وهو لا يُعرف حاله.
وقد ذكر هذا الحديث أيضاً الهيثميُّ في «المجمع» (٥/ ٦٨)، وقال: «رواه أحمد والبزار، =

= ورجاله رجال الصحيح؛ خلا موسى بن جبير، وهو ثقة».
وكذلك ذكره في (٦/ ٣١٣ و٣١٤) من «المجمع».
وذكره الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٢٥)، وقال: «وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر في «مسند أحمد»، وأطنب الطبري في إيراد طرقها، بحيث يقضي بمجموعها على أن للقصة أصلاً؛ خلافاً لمن زعم بطلانها؛ كعياض ومَن تبعه».
وذكره في «القول المسدد» (٤٠ ـ ٤١)، ثم قال: «أورده ابن الجوزي من طريق الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع، وقال: لا يصح، والفرج بن فضالة ضعفه يحيى، وقال ابن حبان: يقلب الأسانيد، ويلزق المتون الواهية بالأسانيد الصحيحة».
ثم قال ابن حجر: «وله طرق كثيرة، جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليه أن يقطع بوقوع هذه القصة؛ لكثرة الطرق الواردة فيها، وقوة مخارج أكثرها». قال أبو عبيدة: قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على «المسند» (٩/ ٣٢) متعقباً ابن حجر: «أما هذا الذي جزم به الحافظ بصحة وقوع هذه القصة، صحة قريبة من القطع؛ لكثرة طرقها وقوة مخارج أكثرها؛ فلا، فإنها كلها طرق معلولة أو واهية، إلى مخالفتها الواضحة للعقل، لا من جهة عصمة الملائكة القطعية فقط، بل من ناحية أن الكوكب الذي نراه صغيراً في عين الناظر قد يكون حجمُه أضعافَ حجم الكُرة الأرضية بالآلافِ المؤلَّفَةِ من الأضعافِ، فأنى يكون جسمُ المرأةِ الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة».
ومما يجدر التنبيه عليه أنه لم يرد في هذا الخبر عند من خرجه أن المرأة التي تسمى الزهرة قد مسخت نجماً، قال ابن حبان بعد أن أورد الحديث: «الزهَرةُ هذه: امرأة كانت في ذلك الزمان، لا أنها الزهرة التي هي في السماء التي هي من الخُنَّس». انتهى.
وقد رواه الحاكم بسياق آخر في «المستدرك» (٤/ ٦٠٧ و٦٠٨) من طريق يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عمر، وصححه وأنكر عليه الذهبي، وقال عن يحيى هذا: «قال النسائي: متروك. وقال أبو حاتم: منكر الحديث».
وأخرجه ابن السنِّي في «عمل اليوم والليلة» (٦٤٨)، وابن منده في «تفسيره»، وابن راهويه؛ كما في «الجامع الصغير» (٤٦٨٥ ـ ضعيفه)، و«الدر المنثور» (١/ ٩٧)؛ من حديث علي بن أبي طالب مختصراً بلفظ: **«لَعَنَ اللهُ الزّهْرَةَ؛ فإنَّها هِيَ التي فَتَنَتِ المَلَكَيْنِ هَاروتَ ومَاروتَ»**.
وهو حديث موضوع، آفته جابر بن زيد الجعفي، وهو متهم بالكذب، وكان يؤمن برجعة علي، ويقول: إنه دابة الأرض المذكورة في القرآن!! قاله شيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٩١٣).
والخلاصة: أن هذه القصة من الإسرائيليات التي لا يصح رفعها إلى النبي ﷺ، وقد استنكرها جماعة من الحفاظ المتقدمين، والعلماء المتأخرين:
فقال أبو حاتم الرازي ـ كما في «علل الحديث» (٢/ ٦٩ ـ ٧٠) لابنه ـ: «هذا حديث منكر».
وروى حنبل الحديث من طريق أحمد، ثم قال: «قال أبو عبد الله (يعني: الإمام أحمد): =

وأعظم دليل على بطلان هذه الحكاية ما جاء في كتاب الله العزيز من عصمة الملائكة قال تعالى في سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦] وقال تعالى في سورة الأنبياء (رقم ١٩) وما بعده: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠]، وقال تعالى في السورة نفسها (رقم ٢٦ ـ ٢٩): ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ الآية [الأنبياء: ٢٩] لا يطعن في عصمتهم لأنه مبني على مستحيل، كقوله تعالى في سورة الزمر (رقم ٦٥) وما بعده: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

= هذا منكر، وإنما يُروى عن كعب»، وكذا قال الحافظ ابن كثير، وعلق على كلامه الشيخ رشيد رضا رحمه الله بقوله: «من المحقَّق أن هذه القصة لم تُذكر في كتبهم المقدسة، فإنْ لم تكن وُضعت في زمن روايتها؛ فهي من كتبهم الخرافية، ورحم الله ابن كثير الذي بيَّن لنا أن الحكاية خرافة إسرائيلية، وأن الحديث المرفوع لا يثبت».

وقال شيخُنا محدث الديار الشاميّة محمد ناصر الدين الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (١٧٠): «باطل مرفوعاً».

وأسهب في بيان ذلك، ثم قال ـ رحمه الله تعالى ـ: «قلت: وممَّا يؤيِّد بطلان رفع الحديث من طريق ابن عمر أنَّ سعيد بن جبير ومجاهداً روياه عن ابن عمر موقوفاً عليه؛ كما في «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٩٧ ـ ٩٨).

وقال ابن كثير في طريق مجاهد: «وهذا إسناد جيّد إلى عبد الله بن عمر، ثم هو ـ والله أعلم ـ من رواية ابن عمر عن كعب؛ كما تقدَّم بيانُه من رواية سالم عن أبيه».

ومن ذلك أنَّ فيه وصف الملكين بأنهما عَصَيا اللهَ تبارك وتعالى بأنواع من المعاصي؛ على خِلاف ما وصف الله تعالى لعموم ملائكته في قوله ﷻ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

و(الزُّهَرَة): بضم الزاي وفتح الهاء؛ كتُؤَدَة: كوكب مضيء من السيارات المعروفة، ومَن قاله بإسكان الهاء؛ فقد غلط.

قال الشاعر:

قَدْ وَكَّلَتْنِي طَلَّتِي بالسَّمْسَرَهْ وأَيْقَظَتْنِي لِطُلوعِ الزُّهَرَهْ

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥ ـ ٦٦] فإن النبي ﷺ معصوم من الشرك والكبائر والصغائر، كما قال تعالى في سورة النجم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] وقال تعالى في سورة الحاقة (رقم ٤٤) وما بعده: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] ومحمد رسول الله ﷺ لا يتقول على الله أبداً، وهذه الأمور مبنية على فرض المستحيل، ومن العجب أني طالعت أربعة من كبار التفاسير وهي: ابن كثير، وابن جرير، و«الدر المنثور»، والرازي، ولم أر أحداً منهم احتج بالقرآن على عصمة الملائكة، ولم أحبب أن أسوق الحكاية بطولها وذيولها الكثيرة، بل حكى بعضهم عن الملكين أنهما علّما بعض الناس السحر حتى بعد توبتهما وتعذيب الله لهما بتعليقهما منكوسين بين السماء والأرض، وهذه في نظري غفلة من المفسرين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

خاتمة هذا البحث

أحببت أن أورد هنا نبذة من شرح (باب ما جاء في السحر) من كتاب **«التوحيد»** لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، والشرح من «تيسير العزيز الحميد» للشيخ الإمام سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب؛ لأنهما أجادا وأفادا فجزاهما الله عن الإسلام خيراً كثيراً وسأجعل المتن ممزوجاً بالشرح، وأختصر ما أرى اختصاره مفيداً، وهذا نصه:

«(باب ما جاء في السحر) السحر في اللغة: هو ما خفي ولطف سببه ولهذا جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»[1] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] أي: أخفوا عنهم علمهم[2]، ولما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يأتي السحر بدونه، ولهذا جاء في الحديث «**ومن سحر فقد أشرك**»[3]، أدخله المصنف في كتاب التوحيد ليبين ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر، ومسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر.

(٢) لعل الصواب: عملهم: مصححه (منه).

(٣) أخرجه النسائي (٤٠٧٩)، وابن عدي في «الكامل» (١٦٤٨/٤)، والطبراني في «الأوسط» (١٤٩٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٦٩/١٤) من طريق عباد بن ميسرة المنقري عن =

من أنواع الشرك، قال أبو محمد المقدسي في «الكافي»[(١)]: «السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر[(٢)] في القلوب والأبدان[(٣)] فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه، قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١] إلى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ٤]؛ يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه»، وقد زعم قوم من المعتزلة وغيرهم أن السحر تخييل لا حقيقة له، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل منه ما هو تخييل ومنه ما له حقيقة مما تقدم.

قال: وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسل والإيمان بالله ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ومتابعة رسله ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

قال ابن عباس: «من نصيب»[(٤)]، قال قتادة: «وقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم، أن الساحر لا خلاق له في الآخرة»[(٥)]، وقال الحسن: «ليس له دين»[(٦)]، فدلت

= الحسن البصري عن أبي هريرة، **وإسناده ضعيف ومنقطع**، قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٧٨): «هذا حديث لا يصح للين عباد وانقطاعه» قلت: يريد أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وضعفه شيخنا الألباني. وتحسين ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٧٨) له بشواهده التي تدل على قبح تعلم السحر شرعاً، وأما الآية فلا تصلح شاهداً لتصحيح الحديث أو تحسينه؛ لأن المبحث ليس لكون ما في الحديث حقاً أم باطلاً، وإنما: هل قاله النبي ﷺ أم لا، فتأمل! ويؤكد ضعفه رواية أبان ـ وهو أوثق من عباد ـ إذ رواه عن الحسن مرسلاً، أخرج ذلك عبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٧) رقم (١٩٧٧٢).

(١) (٥/ ٣٣١).
(٢) في مطبوع الكافي: «تؤثّر».
(٣) في مطبوع الكافي: «في الأبدان والقلوب».
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٥) رقم (١٠٢٦) ولم يعزه في «الدر» (١/ ٥٣٧) إلا له، وهو من ضمن «مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس»، أخرجها الطستيّ في «مسائله»، أفاده السيوطي أيضاً.
(٥) أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٣).
(٦) أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٦)، وعبد الرزاق (١/ ٥٤)، وابن أبي حاتم (١/ ١٩٥) في «تفاسيرهم»، وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٣٧)، وانظر: «الدر» (١/ ٥٣٧).

الآية على تحريم السحر، وهو كذلك، بل هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه، وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً، كان آخر عهده من الله»**(١). وهذا مرسل، وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر وإن سمّي سحراً فعلى سبيل المجاز، كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً، ولكنه يكون حراماً لمضرته يعزر من يفعله تعزيراً بليغاً، قال عمر بن الخطاب: «الجبت: السحر، والطاغوت الشيطان»(٢)، هذا الأثر، رواه ابن أبي حاتم(٣) وغيره، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**: قالوا: يا رسول الله ما هن؟ قال: **«الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»**(٤)، رواه البخاري ومسلم، فالموبقات المهلكات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات وفي الآخرة من العذاب.

بيان شيء من أنواع السحر

لما ذكر المصنف ما جاء في السحر أراد هنا أن يبين شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس، حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه

---

(١) رواه عبد الرزاق (١٠/ ١٨٤)، وابن حزم في «المحلى» (١١/ ٣٩٦) عن صفوان بن سليم وفيه إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي كذبوه، فهو **واهٍ بمرة**.

(٢) ذكره البخاري تعليقاً عن عمر كتاب التفسير، باب (١٠) **«وإن كنتم مرضى أو على سفر...»** بصيغة الجزم وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٣١٨، ط. دار السلام): «وصله عبد بن حميد في «تفسيره» ومسدد في «مسنده» وعبد الرحمٰن بن رستة في كتاب «الإيمان» كلهم من طريق أبي إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر مثله **وإسناده قوي**، وقد وقع التصريح بسماع أبي إسحاق له من حسان وسماع حسان من عمر في رواية رستة».
وأخرج ابن أبي حاتم الجزء الأول منه في «تفسيره» (٣/ ٩٧٤ ـ ٥٤٤٣) بإسناد، والجزء الثاني في «تفسيره (٣/ ٩٧٥ ـ ٥٤٤٩) بإسناد آخر، من طريق أبي إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر، فهو **صحيح** إن شاء الله تعالى، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٢٣٠) للفريابي وسعيد بن منصور، وعزاه ابن كثير لأبي القاسم البغوي.

(٣) في الأصل: «هاشم»!

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

الأمور فهو من الأولياء، وعدّوها من كرامات الأولياء، وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها ورجى منهم النفع والضر والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتاً، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك، ولا بد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولي الله وبين عدو الله من ساحر وكاهن وعائف وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجري على يده شيء من الخوارق، فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون ولياً لله تعالى؛ لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب، مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع، وفعل الشياطين بأناس ينتسبون إلى دين وصلاح ورياضة مخالفة للشريعة كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم فيطيرون بهم في الهواء ويمشون بهم على الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم، وقد يكون ذلك بعزائم ورقى شيطانية وأدوية كالذين يدخلون النار بحجر الطلق ودهن..[1] وقد يكون ذلك برؤيا صادقة فيها ما يستدل به على وقوع ما يقع، وهذه مشتركة بين ولي الله وعدوه، وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان في نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر، وقد يكون لعلم الرمل والضرب بالحصى، وقد يكون ذلك أشد وطءاً، والأحوال الشيطانية كثيرة، وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه، فاعتصم به وحده لا إله إلا هو فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣] فذكر تعالى أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون، ولم يشترط أن يجري على أيديهم شيء من خوارق العادة. تدل على أن الشخص قد يكون ولياً لله وإن لم يجر على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمناً متقياً، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] فأولياء الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ

---

(١) كذا بياض في الأصل! وأفاد شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٥٩) وغيره ـ عند كلامه عن البطائحية ـ، أنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع، وباطن قشر النارنج، وحجر الطلق، وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، ... في كلام بديع ينظر فيه، ليعلم دجل هؤلاء الأدعياء، وصدق شيخ الإسلام إذ تحداهم أن يدخل النار، فأبَوْا.

باطناً وظاهراً، ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون ولياً لله تعالى، وإنما أحبهم الله تعالى لأنهم والوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا على ما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهى، وأعطوا من يحب أن يعطي ومنعوا من يحب أن يمنع، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد، وبالجملة أولياؤه أحباؤه المتقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم، الموحدون له الذين لا يشركون بالله شيئاً. ولشيخ الإسلام كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين[١].

---

(١) **(تذييل مهم في أنواع السحر)** دلت الآية على أن السحر نوعان: منه ما يؤثر عن الشياطين، ومنه ما يتوصل إليه بسبب علوم لم تكن موضوعة له خاصة، كالذي أنزل على الملكين ببابل. وقد قسم العلماء السحر إلى أقسام:

أولها: سحر «الكلدانيين» وهم: أهل بابل، و«الكسدانيين» وهم: النبط الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور، والسعادة والنحوسة، وهم الذين بعث الله إبراهيم ﷺ مبطلاً لمقالتهم راداً عليهم في مذاهبهم، وكان لهم في هذا النوع تآليف وآثار قد وصل إلى علماء هذه الملة منها النزر اليسير، فأخذوا منه أحكام النجوم، وصور الدرج، والكواكب والسيمياء والكيمياء.

وأكثر من اعتنى بتخليص ذلك وضبط قواعده «مسلمة بن أحمد المجريطي الأندلسي» في كتابه الذي سماه «غاية الحكيم».

ثانيها: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، وعلله الرئيس ابن سينا في «الشفاء»، بأن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية، وذلك أن الوهم إذا تسلط على شيء أثر فيه تأثيراً ظاهراً.

وعندي لذلك تعليل أسمِّيه بالكهربائية النفسانية، وذلك أن الهمة إذا سلطت على شيء اهتماماً تاماً، انفصل من صاحب تلك الهمة مغناطيس جذاب، فاتصل بالشيء التي وجهت الهمة نحوه فحصل له الجذب والانفعال، وتصرف الجاذب بالمجذوب تصرفاً قهرياً له، وهذا يشبه اتصال العاشق بالمعشوق، فإن المعشوق لما كانت كهربائيته أقوى، جذب العاشق جذب ملك وقهر، وتلك الكهربائية لا ينكر وجودها في الأجسام إلا من ليس له اطلاع على هذا الفن، وعسانا أن نوضح هذا ونثبته في مكان آخر، ومن هذا النوع ما يسمى في زمننا بالتنويم المغناطيسي الذي اشتهر عند كثير من الناس.

ثالثها: من السحر التخيلات والأخذ بالعيون، كما هو شأن المشعبذ الحاذق، فإنه يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه، عمل عملاً آخر بسرعة شديدة، فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت =

فصل في أنواع أخرى من هذا القبيل

روى أحمد بسند جيد عن [قَطَن بن][(١)] قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال:

«إن العيافة والطَّرْق والطيرة من الجبت»[(٢)] قال عوف: «العيافة،

= الشيئين، أحدهما اشتغالهم بالأمر الأول، والثاني سرعة الإتيان بهذا العمل الثاني، وحينئذٍ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جداً، ولو أنه مكث ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعلمه، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

رابعها: الاستعانة بالأرواح الأرضية بأعمال مخصوصة يذكرها أصحاب هذه الصناعة في كتبهم، وهذا النوع هو المسمى: بالعزائم وتسخير الجن.

خامسها: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة، على النسب الهندسية تارة، وعلى ضروب الخيلا أخرى، ومن هذا النوع ما يسمى في زمننا «بالسيموتوغرافيا»، حيث يظهر للناظر بتسلط الأشعة الكهربائية على الستار صورة البحر والجبال، والجيوش والبساتين والأنهار، والناس والدواب تغدو وتروح، ومن هذا النوع كان سحر سحرة فرعون، ويندرج فيه فن جر الأثقال، وهذا النوع لا يعد من السحر إلا من كونه مما لطف ورق، ويمكن أن يكون هذا مما أنزل على الملكين ببابل.

سادسها: الاستعانة بخواص الأدوية المبلدة المزيلة للعقل.

سابعها: تعليق القلب، وهو أن يدَّعي الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم، وأن الجنَّ يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة، وإذا حصل الخوف ضعُفت القوى الحساسة، فحينئذٍ يتمكن الساحر من أن يفعل حينئذٍ ما يشاء. ومن هذا النوع ما يفعله المدعون للتصوف، ويرغبون في إقبال الناس عليهم جراً للمنافع الدنيوية، وكم رأينا مثل هؤلاء من تصرف في أموال مريده وغيرهم بتعليق قلوبهم بالوصول إلى فن الكيمياء والجفر والزايرجة، وسر الوفق والحروف، وبالوصول إلى المقامات العالية، التي حرم الخواص الوصول إليها بزعمهم. قاله العلامة ابن بدران في «جواهر البحار» (٢٩٤ ـ ٢٩٦).

(١) سقط من المطبوع، وأثبته من مصادر التخريج.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٠٨)، وأبو داود (٣٩٠٧)، وعبد الرزاق (١٩٥٠٢)، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢ ـ ٤٣)، وابن سعد (٧/ ٣٥)، والحربي في «غريب الحديث» (٣/ ١١٧٧)، والطحاوي (٤/ ٣١٢ ـ ٣١٣)، وابن حبان (٦١٣١)، والطبراني (١٨/ رقم ٩٤١ ـ ٩٤٥)، والبغوي (٣٢٥٦)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٨٦)، والبيهقي (٨/ ١٣٩)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٥٨)، والخطيب (١٠/ ٤٢٥) =

زجر الطير، والطرق: الخط.. خط[1] في الأرض»[2] والجبت، قال الحسن: «رنة الشيطان»[3]، ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» المسند منه، قال أبو السعادات[4]: «العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرِّها، وهو من عادة العرب كثيراً وهو كثير في أشعارهم»، والطرق: «الخط يخط في الأرض»، هكذا فسره عوف وهو تفسير صحيح، قال أبو السعادات[5]: «هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء»، وقلت: أياً ما كان فهو الجبت»[6].

قال محمد تقي الدين مؤلف هذا الكتاب: ومنه ما يسمى في هذا الزمان بعلم الرمل[7]، وذلك أن الكاهن يضع رملاً أمامه وينكت في ذلك الرمل بإصبعه نكتاً كل نكتة فيها كحفرة صغيرة، ويجعلها أربعة أعمدة مبتدأة من الأسفل إلى الأعلى، ثم يسقط تلك العلامات اثنتين اثنتين مبتدئاً من الأسفل إلى الأعلى في الأعمدة الأربعة، ويترك الحفرة الأخيرة والحفرتين الأخيرتين فيتألف له شكل، وكل شكل له اسم، فلنفرض أنه أسقط الأعمدة الأربعة اثنتين اثنتين فبقي من كل عمود نقطة واحدة فيظهر شكل يتألف من عمود فيه أربع نقط، ويسمى هذا: الطريق، ثم يعيد العمل فيبقى مثلاً من كل عمود نقطتان أو حفرتان فيتألف منهما عمود فيه ثمان نقط أو حفر، ويسمى هذا الشكل: الجماعة ويستمر هكذا، إلى أن يخرج ستة عشر عموداً على طريقة الزوج والفرد، ولكل شكل اسم يدل على معنى من المعاني، فهناك الطريق والجماعة كما تقدم، وهناك النصرة الداخلة

= من طرق عن عوف بن أبي جميلة: حدثني حيان: حدثني قطن به. **وإسناده ضعيف**، آفته حيان وهو ابن العلاء، ولم يروه عنه غير عوف، ولم يوثقه غير ابن حبان! فتجويد المصنف له ليس بجيد! وضعفه شيخنا الألباني، انظر: «غاية المرام» (٣٠١) (ص١٤٨ ـ ١٤٩).

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «بخط» بباء موحدة أوله!

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٨) وقال شيخنا الألباني: «صحيح مقطوع».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١١٦) دون ذكر «رنة».

(٤) في كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٣٣٠).

(٥) في «النهاية» (٣/ ١٢١).

(٦) «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٨٢ ـ ٣٩٩) بتصرف.

(٧) لابن رشد الفقيه (محمد بن أحمد) (ت٥٢٠هـ ـ ١١٢٦م) رسالة بعنوان «الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط؛ لما روي في ذلك من أحاديث، ووجه تأويلها» وهي مطبوعة بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

والنصرة الخارجة، والأحيان الأنكيس والأحيان الفارح وقد ذكر هذه الأشكال كلها صاحب «القاموس»(١) وكتب صورها فراجعه.

فإذا فرضنا أن رجلاً أو امرأة جاء أحدهما إلى الكاهن الذي يسمى الرَّمَّال، وقال له: عندي مسافر غائب منذ زمان فأخبرني بخبره. أو يقول: عندي حاجة أخبرني بها. فينكت في الرمل فيخرج له في أول مرة: الطريق مثلاً فيقول: أنت تسأل عن شخص مسافر غائب عنك؛ لأن الطريق يدل على ذلك، أصحيح ذلك؟. فيقول السائل: نعم، فيأخذ الكاهن من السائل علماً تفصيلياً بعد أن أعطاه علماً إجماليّاً، ثم يخط فتخرج له الجماعة، فيقول: أنت حريص على الاجتماع به؟ فيقول: إي والله يا سيدي هو ابني غاب عني منذ أربع سنين، ولم أسمع له خبراً، فيقول: أبشر ستجتمع به. ثم يخط فيخرج له الأحيان الأنكيس، فيقول: إن صاحبك وقع في شدة عظيمة، ولكن هذا شكل النصرة الخارجة إلى جانبه يدل على أنه سيخرج منها بسلام وانتصار، وهكذا لا يزال الكاهن يعطي السائل الغبي أموراً إجمالية لا يخلو منها زمان ولا مكان، والسائل المغفل يعطيه التفاصيل حتى يأخذ جميع التفاصيل منه، ثم يعيدها عليه يسردها سرداً، فيعتقد هذا المغفل أنه علم من خط الرمل كل أخبار المسؤول عنه وأخبره، والحقيقة أن السائل هو الذي أخبر الكاهن بكل شيء وهو لا يشعر، فإن صدق ما أخبره به ازداد اعتقاداً في صحة كهانته، وإن أخطأ غفل عن خطئه، فهذه باختصار إشارة تعرفك أيها القارئ بحقيقة ما يسمى بخط الرمل، وأزيدك بياناً فأقول: أن رمّالاً كبيراً كان يستخرج السرقات بزعمهم لقيته فقلت له: كم تأخذ من كل سائل؟ فقال: آخذ ربع ريال. فقلت له: إن أجبتني عما سألتك عنه أعطيك بدل ربع ريال ريالاً كاملاً؟ فقال: قل، فخبأت له أربعة رؤوس أقلام من نحاس أحمر فأخذ يخط فقال لي أولاً: إن هذا الشيء الذي تسأل عنه أحمر لأنه ظهر لي شكل الحمرة، أهو كذلك؟ فقلت له: أنا لا أخبرك بشيء فينقلب المستخبر ـ بالكسر ـ مستخبَراً ـ بفتح الباء ـ اجمع أشكالاً كلها واستخرج منها الخبر وأخبرني به وخذ ريالاً، فقال لي: أنت ليس لك قصد حسن ولا نية طيبة، وهذا الأمر يتوقف على حسن النية، فقلت له: حسن النية هنا لا يؤثر شيئاً وكذلك سوء النية إن كنت

(١) لم أظفر بهذا في «القاموس» مواد (طرق، خط، رمل)، وانظره في شرحه: «التاج» (٢٦/ ٦٤).

صادقاً فيما تدعيه من استخراج المغيبات؛ فأخبرني بما سألتك عنه. ثم خط في الرمل وقال لي: هذا شيء دخل النار وخرج منها، هل هذا صحيح؟ فقلت: أنا سائل لا مخبر، واستمر معي على هذا الشكل من الحوار كلما أراد أن يستخرج مني علماً تفصيلياً امتنعت من ذلك؛ لأنني أعرف سر حرفته، فافتضح وعجز.

وأذكر حكاية أخرى تزيد الأمر وضوحاً: كنت أنا ورفيقي وأخي الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في ضيافة العالم السلفي النبيل الشيخ عبد الرحمن بركات عمدة مدينة ميت غمر، في مصر، وكنا قد تعشينا وجلسنا نمص قصب السكر ونتحدث، فطرق الباب رجل ففتح له البواب وقال: من أنت؟ فقال: أنا حكيم مغربي عالم بالروحانيات أريد زيارة سعادة العمدة، فأذن له في الدخول، فلما جاء سلم على العمدة وجلس، فأمر له بالعشاء وتعشى، ثم قال له الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة رحمة الله عليه: هاهنا مغربي يشير إلي فأخبره ببلدك في المغرب، فقال: عفواً أنا لست مغربياً في الحقيقة وإنما أستاذي الذي علمني الحكمة والعلم الروحاني كان مغربياً؛ فانتسبت إلى المغرب من هذا الوجه، فقال له: تعرف خط الرمل؟ فقال: طبعاً أعرفه، فقال: أريد أن أخبأ لك خبأً فإن اطلعت عليه وأخبرتني به أعطيتك حلواناً كبيراً، فقال: إن السماء متغيمة وخط الرمل ينبغي أن يكون في الصحو، فقال: أنت عالم روحاني وشيخك مغربي فلا يضرك عدم صحو السماء، فقال: طيب اسأل عما بدا لك، فقال: سأكتب سؤالي واختر أنت واحداً من الحاضرين تثق به وأنا أضعه عنده، ثم اشتغل أنت بخط الرمل حتى تعرف ما خبأت لك وأخبرنا به، ثم نخرج السؤال المكتوب، فإن كان جوابك مطابقاً له ظهر صدقك وثبت لك الحلوان، وإن ظهر خلاف ذلك لم يثبت لك شيء مما تدعيه.

فأخذ يخط في ورقة بيضاء يضع فيها نقطاً على شكل أعمدة كما تقدم، واشتغل فيها طويلاً ثم قال في النتيجة: إنك تسأل عن شخص أسمر طويل غاب عنك منذ مدة وستجتمع به في زمان قريب، فقال له: هذا السؤال المكتوب واقرأه، وكان قد اختار فضيلة الشيخ عبد الرحمن، فأخذه منه فقرأه فوجد فيه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، فضحك الحاضرون وغضب الزائر وسب الشيخ محمد حمزة ـ رحمة الله عليه ـ وحلف أن لا يبقى في مجلس يوجد فيه، فانصرف يجر أذيال الخيبة، وليس

مقصودي بهاتين الحكايتين وما ذكرت معهما أن الكاهن الحقيقي لا يطلع على شيء أبداً من المغيبات، فقد ثبت في «الصحيح» أن النبي ﷺ خبأ لابن صياد في نفسه عليه الصلاة والسلام سورة الدخان، ثم سأل النبي ﷺ ابن صياد بقوله: **«قد خبأت لك خبأً فما هو؟»** فقال: هو الدخ: يعني الدخان، فقال له النبي ﷺ: **«اخسأ فلن تعدو قدرك»**[(١)]؛ يعني إنما أنت كاهن، وقال ابن صياد للنبي ﷺ: «يأتيني صادق وكاذب»[(٢)] وهذا شأن الكهنة، فإن **«الشياطين تخبرهم بالخبر الصحيح وتزيد معه مائة كذبة»**[(٣)]، أما أمثال الكاهنين بل الرمّالين المتقدم ذكرهما فإنهما كانا محتالين على أكل أموال المغفلين بالباطل، وما أكثر أمثالهما في هذا الزمان في البلاد الإسلامية التي نكبت بأنواع الدجاجلة لما أعرض أهلها عن كتاب الله وسنة رسوله، وقال الطيبي في شرح الحديث المذكور آنفاً: «من»[(٤)]، إما ابتدائية أو تبعيضية فعلى الأول يكون المعنى[(٥)]: الطيرة ناشئة من السحر[(٦)]، وعلى الثاني المعنى: الطيرة[(٧)] من جملة السحر والكهانة أو من جملة عبادة غير الله أي الشرك، يؤيده قوله في الحديث الآتي: **«الطيرة شرك»**[(٨)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢٤) من حديث ابن عمر.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر.
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة.
(٤) بعدها في مطبوع «شرح الطيبي»: «فيه».
(٥) في مطبوع «شرح الطيبي»: «فعلى الأول المعنى».
(٦) في مطبوع «شرح الطيبي»: «من الساحر».
(٧) في مطبوع «شرح الطيبي»: «وعلى الثاني: الطيرة...».
(٨) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩ و٤٣٨ و٤٤٠)، والطيالسي (٣٥٦)، وأبو يعلى (٥٠٩٢، ٥٢٢٩)، والشاشي (٦٥٥) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٩)، وأبو داود في الطب، باب الطيرة (٣٩١٠)، والترمذي في السير، باب ما جاء في الطيرة (١٦١٤) وفي «علله الكبير» (٢/ ٦٩٠)، وابن ماجه في الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٣٥٣٨)، وابن أبي الدنيا في «التوكل على الله» رقم (٤١، ٤٢)، وابن خزيمة في «التوكل» ـ كما في «إتحاف المهرة» (١٠/ ١٩٢) رقم (١٢٥٥٧) ـ، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣١٢) وفي «المشكل» (٨٢٧ و٨٢٩ و١٧٤٧ و١٧٤٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٢٢ ـ «الإحسان»)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧ ـ ١٨ و١٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨) رقم (٣٢٥٧) من =

قال: وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»**[(١)]. رواه أبو داود **بإسناد صحيح**.

= طرق عن سلمة بن كهيل، عن عيسى بن عاصم الأسدي، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود به. **وإسناده صحيح**.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي في «التلخيص»، وقال في «المهذب» (٦/ ٣٢٣٤): «قلت: صححه الترمذي»، وصححه العراقي في «أماليه على المستدرك»، نقله المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٢٩٤)، وصححه ـ أيضاً ـ ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٥/ ٥٧٨ ـ بتحقيقي).

وانظر: «شرح الطيبي» (٩/ ٢٩٨٣).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في النجوم (٤/ ١٥ ـ ١٦) رقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه في كتاب الآداب، باب تعلّم النجوم رقم (٣٧٢٦) في «سننهما»، وأحمد (١/ ٢٢٧، ٣١١)، وعبد بن حميد (٧١٤ ـ «المنتخب») في «مسنديهما»، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٦٠٢)، والحربي في «غريب الحديث» (٣/ ١١١٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ١٣٥) رقم (١١٢٧٨)، وابن خزيمة في «التوكل» ـ كما في «إتحاف المهرة» (٨/ ١٤٣) رقم (٩٠٩٠) ـ، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٢٥) رقم (٧٠٢)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» رقم (٧٧٩)، والخطيب في «القول في علم النجوم» (ص١٧٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥١٩٧)، و«السنن الكبرى» (٨/ ١٣٨)، و«الآداب» (٤٦٦)، والجصاص في «أحكام القرآن» (١/ ٥١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٣٩) من طريق الوليد بن عبد الله، عن يوسف بن ماهِك، عن ابن عباس مرفوعاً.

وإسناده صحيح؛ وصححه الذهبي في «الكبائر» (٣٣٧/ ٢٧٠ ـ بتحقيقي)، ونقل المناوي في «الفيض» (٦/ ٨٠) تصحيحه له أيضاً.

وصححه النووي في «رياض الصالحين» رقم (١٦٧٩)، و«الفتاوى» جمع تلميذه ابن العطار (ص١٦٥)، وشيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٣)، والعراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٤/ ١١٧)، والمناوي في «التيسير» (٢/ ٤٠٣)، وجوَّد إسناده ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٣٤)، وشيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩٣)، وغيرهم.

(تنبيهات وفوائد):

الأولى: لفظ أبي داود وأحد لفظي أحمد: «من اقتبس علماً من النجوم»، وزاد في آخره: «زاد ما زاد».

ولفظ أحمد الآخر: «**ما اقتبس رجل علماً من...**».

واللفظ المذكور لابن خزيمة في «التوكل»، والمعنى واحد.

الثانية: قال الحربي: قوله: «من اقتبس علماً من النجوم»؛ قَبَسْتُ العلم واقْتَبَسْتُه: إذا تعلمته. =

قال شيخ الإسلام: «فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]»[(١)] «فعلم أن تأثير[(٢)] النجوم باطل محرم وكذا العمل[(٣)] بمقتضاه كالتقرب إليها[(٤)] بتقريب[(٥)] القرابين لها كفر»[(٦)]، قاله ابن رجب. وقال: «وللنسائي من حديث أبي هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه**»[(٧)].

هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي ولم يبين هل هو موقوف أو مرفوع، وقد رواه النسائي مرفوعاً، وذكر المصنف عن الذهبي أنه

= **الثالثة**: المنهي عنه من علم النجوم هو علم التأثير، الذي يقول أصحابه: إنّ جميعَ أجزاء العالم السُّفْلي صادرٌ عن تأثير الكواكب والروحانيات، فهذا محرَّم لا شك فيه؛ لأنه ضرب من الأوهام، وما سوى ذلك من علم الفلك فتعلّمُه مباح لا حرج فيه، بل هو فرض كفاية لا بُدَّ أنْ يقوم به نفرٌ من المسلمين ليَرفعَ الإثمَ عن عامتهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

قال ابن رجب في «بيان فضل علم السلف على علم الخلف» (ص٢٦): «فعلم تأثير النجوم باطل محرم، والعمل بمقتضاه كالتقرب إلى النجوم وتقريب القرابين لها كفر، وأما علم التيسير؛ فإذا تعلم ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق؛ كان جائزاً عند الجمهور، وما زاد عليه؛ فلا حاجة إليه، وهو يشغل عما هو أهم منه».

وللخطيب البغدادي كتاب مطبوع بعنوان «القول في علم النجوم»، ذكر فيه (ص١٢٦ وما بعد) المشروع منه، وذكر (ص١٦٨ وما بعد) المحظور منه. وانظر: «البيان والتحصيل» لابن رشد (١٧/٤٠٧)، و«الفروق» (٤/٢٥٩)، و«مفتاح دار السعادة» (٢/١٦٦)، و«الفصل» لابن حزم (٥/١٤٨)، و«مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣٥/١٩٢)، و«إتحاف السادة المتقين» (١/٢٢١)، و«أبجد العلوم» (٢/٥٥١)، و«الفروق» للقرافي (٤/١٤٠٣، ط. السلام) (الفرق الحادي والسبعين والمئتين: بين قاعدة ما يجب تعلمه من النجوم وبين قاعدة ما لا يجب).

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/١٩٣).
(٢) في مطبوع «فضل علم السلف»: «فَعِلْم تأثير النجوم...».
(٣) في مطبوع «فضل علم السلف»: «والعمل بمقتضاه».
(٤) في مطبوع «فضل علم السلف»: «إلى النجوم».
(٥) في مطبوع «فضل علم السلف»: «وتقريب».
(٦) «فضل علم السلف على الخلف» (ص٢١).
(٧) أخرجه النسائي (٤٠٧٩) **بإسناد ضعيف**، وتقدم بيان ذلك مع التخريج المفصّل عند تخريج حديث: «ومن سحر فقد أشرك» في (ص١٧١).

قال: لا يصح»[١]، قوله: «**ومن تعلق شيئاً وكل إليه**»، أي من تعلق قلبه شيئاً بحيث يتوكل عليه ويرجوه وكَّله الله إلى ذلك الشيء، فإن تعلق العبد على ربه وإلهه وسيده ومولاه ورب كل شيء ومليكه وكله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه، ونعم المولى ونعم النصير، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ومن تعلق على السحر والشياطين وكَّله الله إليهم فأهلكوه في الدنيا والآخرة، وبالجملة من[٢] توكل على غير الله كائناً من كان وكل إليه، وأتاه الشر في الدنيا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده، وهذه سنة الله في عباده التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق يدبره أجرى الله تعالى بسببه[٣] أو من جهته خلاف ما علَّق به آماله وهذا أمر معلوم بالنص والعيان، ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة، رأى ذلك عياناً وفائدة هذه الجملة بعدما قبلها الإشارة إلى أن الساحر متعلق على غير الله فإنه متعلق على الشياطين»[٤].

شرح قول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً»[٥]

«البيان: البلاغة والفصاحة، قال صعصعة بن صوحان: «صدق نبي الله، أما قوله: «**إن من البيان لسحراً**» فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق»[٦]، وقال ابن عبد البر[٧]: «تأولته طائفة على الذم لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان، قال: وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله فقال: هذا والله السحر الحلال»[٨].

قال صاحب «التيسير»: «قلت: الأول أصح، وهو أنه خرج مخرج الذم

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٠١). (٢) في مطبوع «التيسير»: «فمن».
(٣) في مطبوع «التيسير»: «أجرى الله تعالى له بسببه».
(٤) «التيسير» (ص٤٠٢ ـ ٤٠٣).
(٥) أخرجه البخاري (٥١٤٦) من حديث ابن عمر، ومسلم (٨٦٩) من حديث عمار.
(٦) أخرجه أبو داود: الأدب: ما جاء في الشعر (٤/ ٣٠٣) رقم (٥٠١٢)، ومن طريقه ابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٣٤٥)، **وإسناده ضعيف**، فيه أبو جعفر النحوي وصخر بن عبد الله بن بريدة مجهولان، وأما صعصعة فتابعي كبير ثقة.
(٧) في «التمهيد» (١٦/ ٣٤٠، ط. الفاروق) بنحوه.
(٨) «التيسير» (ص٤٠٤) ونحوه عند ابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٣٤٢)، والزرقاني في «شرح الموطأ» (٤/ ٤٠٤)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢/ ٣٦٥) وفيها أثر عمر بن عبد العزيز.

لبعض البيان لا كله وهو الذي فيه تصويب الباطل وتحسينه حتى يتوهم السامع أنه حق، ويكون[١] فيه بلاغة زائدة عن الحد، أو قوة في الخصومة حتى يسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق، ونحو ذلك، فسماه سحراً لأنه يستميل القلوب كالسحر، ولهذا قال ﷺ لما جاءه رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما؛ فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**»[٢][٣].

قال محمد تقي الدين: الجمع بين القولين ممكن فيقال: إذا كان تأثير البيان يكشف حقاً خفياً أو يبين ظلماً قد لبسه الظالم بالحق أو يسكن غضب سلطان جائر أو يثير في الناس الرغبة لفعل الخير، أو الذم على فعل الشر فهو من السحر الحلال، وهو محمود يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في شعر أحد أصحابه وهو عبد الله بن رواحة يوم فتح مكة:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال بعض الصحابة للشاعر: أفي حرم الله وبين يدي رسوله تقول هذا؟ فقال النبي ﷺ: «**دعه فإنها أسرع فيهم من النبل**»[٤]. ويدل على ذلك أيضاً قول عمر بن عبد العزيز المتقدم ذكره: «هذا والله السحر الحلال»، وإن كان البيان يثير عكس ذلك في السامعين فهو مذموم[٥]. وبالله التوفيق.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ

(١) في مطبوع «التيسير»: «أو يكون». (٢) سبق تخريجه.
(٣) «التيسير» (ص٤٠٤ ـ ٤٠٥).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) وفي «الشمائل» (٢٤٦)، والنسائي (٥/ ٢٠٢، ٢١١)، وعبد بن حميد (١٢٥٧)، وأبو يعلى (٣٣٩٤، ٣٤٤٠)، وابن خزيمة (٢٦٨٠)، وابن حبان (٥٧٨٨)، والطبراني في «الأوسط» (٨١٥٧)، وأبو نعيم (٦/ ٢٩٢)، والبغوي (٣٤٠٤)، والبيهقي (١٠/ ٢٢٨) من حديث أنس، وهو **صحيح**.
(٥) بيّنتُ ـ لله الحمد ـ متى يمدح البيان ومتى يذم في كتابي «المحاماة تاريخها في النظم وموقف الشريعة الإسلامية منها» (ص٩٩ ـ ١٠٢) وقد طبع قديماً، وستظهر منه طبعة جديدة منقّحة ومزيّدة، يسر الله ذلك بخير وعافية.

مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢]

قال (ك): «يبين الله تعالى(١) اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وقال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع بن أنس: حجتكم، وقال قتادة: بيّنتكم على ذلك. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فيما تدعونه(٢)، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يبين تعالى».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثم».

قال أبو عبيدة: مما فات المصنف التنبيه عليه أمور:

الأول: جمع الأماني في قوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، مع أن قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أمنية واحدة، إشارة إلى الأماني المذكورة، وهي أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم، أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم.

الثاني ـ وهو على شرط المصنف وفاته التنبيه عليها في (القسم الثالث) من هذا الكتاب أيضاً ـ: لما كان كل مدع لغيب مفتقراً في تصحيح دعواه إلى دليل، وكان مثل هذا لا يقنع فيه إلا بقاطع؛ أَمَرَ أعلم الخلق؛ لأنه لا ينهض بإخراسهم في علمهم ولَدَدهم غيرُه بمطالبتهم بذلك، ناقضاً لدعواهم، فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: هلموا حجتكم، على اختصاصكم بدخول الجنة، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين، وإن كل قول لا دليل فهو باطل غير ثابت، و«هات» صوت بمنزلة هاء بمعنى: أحضر، و«البرهان» هو البيان والحجة والبينة ـ ويقال له: الشاهد ـ قال:

من ادعى شيئاً بلا شاهد ... لا بد أن تبطل دعواه

الثالث: لما نادى عليهم بالكذب في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أثبت لغيرهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ ما ادعوا الاختصاص به، فـ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة، =

﴿مُحۡسِنٞ﴾ [البقرة: ١١٢] أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال أبو العالية والربيع: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يقول: من أخلص لله، وقال سعيد بن جبير: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ﴾ أخلص ﴿وَجۡهَهُۥ﴾ قال: فيه دينه[1]: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ أي: اتبع[2] فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: **أحدهما** أن يكون خالصاً لله وحده، **والآخر** أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» رواه مسلم[3] من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام، فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخصلون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكونوا في ذلك متبعين[4] للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩] وقال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾ [الغاشية: ٢ - ٥] وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه تأولها في الرهبان[5] كما سيأتي، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال

= وأفادت أيضاً أنه تعالى لما نفى أن يكون لهم برهان، أثبت لمن أسلم وجهه لله برهاناً، وأفادت أيضاً ترغيبهم في الإسلام، وبياناً لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة لكي يقلعوا عما هم عليه، ويعدلوا إلى هذه الطريقة، فكأنه قيل لهم: أنتم على ما أنتم لا تفوزون بالجنة، بلى؛ إن غيرتم طريقتكم وأسلمتم وجهكم لله، وأحسنتم فلكم الجنة. انظر: «جواهر الأفكار» (٣١٤ - ٣١٥).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيه»!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متبع». (٣) برقم (١٧١٨).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حتى يكون ذلك متابعاً».

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٩٩) رقم (٣٥٨٨)، والحاكم (٢/ ٥٢١ - ٥٢٢)، وأبو بكر البرقاني - كما في «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٣٣٠)، و«مسند الفاروق» (٢/ ٦٢٠ - ٦٢١) - **وإسناده ضعيف**، لانقطاعه، فإن أبا عمران الجوني لم يدرك زمان عمر، قاله الحاكم. فقول ابن كثير في «مسند الفاروق»: «إسناده جيد» ليس بجيد. وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٢) لابن المنذر.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]. وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون: ٤ ـ ٦] ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحذور فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا يحزنون للموت»[1].

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١٢]؛ يعني سبحانه أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وقد اتبعهم بعض هذه الأمة كما أخبر النبي ﷺ بذلك في «الصحيح»[2] بقوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»، قيل: من يا رسول الله؟ اليهود والنصارى وفارس؟ قال: «**ومن القوم إلا أولئك**». وقد ادعى قوم من هذه الأمة في آخر الأزمنة أن شيخهم ضمن لهم الجنة بلا حساب ولا عقاب، وضمن لمن لا يصدقهم فيما نسبوا إلى شيخهم أن يموتوا على الكفر، وأن يدخلوا النار خالدين فيها أبداً، فهؤلاء أشبهوا اليهود والنصارى واتبعوا سننهم، بل قول اليهود أقل ضلالاً من قولهم؛ لأن اليهود قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] وهؤلاء يقولون: لن تمسنا النار البتة، انظر كتاب «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية»[3] لمصنف هذا الكتاب.

وقال تعالى في الرد على اليهود والنصارى ومن سلك سبيلهم، وحجر رحمة الله بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير في سورة النساء: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢١ ـ ٢٢).
(٢) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد نحوه.
(٣) انظر منه (ص٨٢).

﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٥] فهاتان الآيتان مشابهتان في المعنى لآيتي البقرة. والإسلام الموجه لله، معناه: أن لا يتوجه الإنسان برهبة ولا رغبة إلا لله وحده لا شريك له، ولا يطلب المدد الحسي كالمعيشة، أو المعنوي كتنوير القلب وانشراح الصدر بالإسلام إلا من الله تعالى، ومن طلب شيئاً من ذلك من غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر؛ لأن الأرزاق الحسية والمعنوية كلها بيد الله.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦ ـ ١١٧]

«اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى(١)، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم(٢) ومسيِّرهم ومصرِّفهم كما يشاء، والجميع عبيد له(٣)، فكيف يكون له ولد منهم؟ والولد إنما يكون متولِّداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومقدرهم ومسخرهم».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وملك له».

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء عنده[1] مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟ ولهذا قال البخاري[2] في تفسير هذه الآية بسنده إلى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي؛ فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان. وأما شتمه إياي: فقوله أن لي ولداً فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**»، تفرد به البخاري[3] من هذا الوجه.

وفي «الصحيحين»[4] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم**». وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] قال ابن أبي حاتم[5] بسنده عن ابن عباس: «﴿قَٰنِتُونَ﴾: مصلُّون» وقال عكرمة وأبو مالك: «﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾» مقرّون له[6] بالعبودية»[7]. وقال مجاهد: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون. قال مجاهد: «طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره»[8]، وهذا القول عن مجاهد، وهو اختيار ابن جرير يجمع[9] الأقوال كلها[10] كما قال

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «غيره».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من البقرة».
(٣) في «صحيحه» برقم (٤٤٨٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٤) رقم (١١٣١)، وابن جرير (٢/ ٤٦٢) في «تفسيريهما»، ونسبه في «الدر المنثور» (١/ ١١٠) لابن المنذر أيضاً.
(٦) في مطبوع «ابن أبي حاتم»: «كل له مقرون».
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٤) رقم (١١٣٢)، وابن جرير (٢/ ٤٦٣) في «تفسيريهما».
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٣) رقم (١١٢٩)، وابن جرير (٢/ ٤٦٢) في «تفسيريهما»، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٢١٢).
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الجميع»!
(١٠) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو أن القنوت هو الطاعة والاستكانة إلى الله هو شرعي وقدري»، وانظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤).

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥][١]، وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي؛ خالقهما على غير مثال سبق. قال مجاهد والسدي: «وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة»[٢].

وقال (ج): «﴿بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وإنما هو مفعل فصرف إلى فعيل كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى السميع، ومعنى المبدع: المنشئ والمحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد»، قال: «ولذلك سمى المبتدع في الدين مبتدعاً لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره»[٣]. وقال (ج): «فمعنى الكلام: سبحان الله أنى يكون[٤] له ولد؟ وهو مالك ما في السموات والأرض يشهد[٥] له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله لعباده[٦]؛ أن من[٧] يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسى[٨] من غير والد بقدرته»[٩]. «وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] يبين بذلك كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدّر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له: كن؛ أي مرة واحد، فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]»[١٠] «ونبه بذلك أيضاً

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٥ ـ ٣٦).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٨)، و«تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢١٤).
(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٦٤).
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن جرير»، وفي الأصل: «أن يكن»!
(٥) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «تشهد». (٦) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «عباده».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «أن مما».
(٨) في مطبوع «التفسير الكبير»: «ابتدع المسيح من غير والد».
(٩) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٤٦٥).
(١٠) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال الشاعر:
إذا ما أراد الله أمراً فإنما ... يقول له كن قوله فيكون»

على أنه خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]».

قال محمد تقي الدين: لم يبق لي ما أقوله بعدما حقق الإمامان (ك) و(ج) تفسير هاتين الآيتين، إلا أنه كان ينبغي أن تدرج في (القسم الثاني) من هذا الكتاب، وهو (توحيد الربوبية)، لأنهما عليه أدل، وإليه أدنى ولكن هذين النوعين من التوحيد متلازمان لتحقيق الإيمان بالله، فإن توحيد العبادة يستلزم توحيد الربوبية؛ لأن من وحَّد الله في عبادته، قد علم وأيقن وآمن أنه لا رب له ولا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت ولا حافظ لوجوده ولا متصرف فيه إلا واحد، وهو الله تعالى، أما توحيد الربوبية فإنه لا ينفع إلا إذا كان معه توحيد العبادة، ولكن لما كان النصارى قد اتخذوا ادعاء بنوة عيسى لله تعالى ذريعة لعبادته وإشراكه مع الله تعالى، كانت هناك مناسبة لإدخال الآيتين في قسم توحيد العبادة، وهكذا جميع المشركين حين يعبدون غير الله تعالى يزعمون أنهم ما عبدوا ذلك المعبود إلا لقربه من الله تعالى وعلو مكانته عنده، كما قال تعالى في أول سورة الزمر: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣] فجعلهم الله تعالى كاذبين وكافرين أشد الكفر بقولهم ذلك.

الباب التاسع

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]

قال (ك): «يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم، وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم، فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم؛ أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧] أي: وفّى

جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال محمد تقي الدين: والكلمات العشر التي امتحن الله بها إبراهيم، فرائض فرضها عليه فوفى بها وعمل بها وأتمها، وقد اختلف المفسرون في تعيينها اختلافاً كثيراً، ولم يثبت عن النبي ﷺ في تعيينها شيء كما قاله (ج)[1]، فنفوض أمرها إلى الله تعالى، إذ لا سبيل إلى معرفة أعيانها إلا بالرواية عن النبي ﷺ كأمره ببناء البيت مع ابنه إسماعيل وأمره بتطهيره، وأمره بذبح ابنه، وقد فعل كلَّ ما أمره ربه به على أحسن وجه، ولذلك جعله الله إماماً لأهل الحنيفية يقتدى به من بعده والله أعلم. قال (ك): «وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونوا أئمة يقتدى بهم، والدليل أنه أجيب إلى طلبه، قوله تعالى في سورة العنكبوت: الآية ٢٧: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه». ثم قال (ك) ـ بعد كلام طويل للمفسرين في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ـ ما نصه: «فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية[2]، وإن كانت ظاهرة الخبر[3] أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام،

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧) ووردت آثار في تعيين ذلك، تنظر في: «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٥٧)، «تفسير ابن وهب» (١/ ١٣١) رقم (٣٠١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٢١)، و«تاريخ ابن جرير» (١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١١/ ٥٢١)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦/ ١٩٣ ـ ١٩٥).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على ما نقله ابن جرير، وابن أبي حاتم ـ رحمهما الله تعالى ـ واختار ابن جرير أن هذه الآية».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ظاهرة في الخبر».

أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد[(١)] وغيره، والله أعلم. وقال ابن خويز منداد المالكي: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً»[(٢)].

الباب العاشر

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨]

قال (ج): «يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: إن إبراهيم وإسماعيل كانا مسلمين نبيين رسولين ولكنهما كما قال (ج) سألا الله أن يجعل قلوبهما ونفوسهما على الدوام مطيعة مخلصة موحدة له في عبادته وفي طاعته، ودعاء الأنبياء في هذا تعبد وخضوع؛ لأنهم معصومون، ثم عطف عليه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾. نقل (ك) عن السدي أن المراد بهذه الأمة العرب، وخالفه (ج) فقال: «إن هذا الدعاء يعم العرب وبني إسرائيل، لقوله تعالى في سورة الأعراف ١٥٩: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩]»[(٤)]، وأجاب (ك) بأن «هذا لا يتنافى مع تفسير السدي ولا سيما والكلام الآن في العرب، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩]، وهذا الرسول بلا شك هو محمد ﷺ، وهو من العرب، وكلا الوجهين صحيح، فكل من اتبع ملة إبراهيم من العرب والإسرائيليين داخل في هذا الدعاء»[(٥)].

---

(١) أسنده عنه: ابن وهب في «تفسير القرآن» (١/ ٢٢)، وسعيد بن منصور (٢١٣)، وابن جرير (٢/ ٥١٢) وبنحوه عند سفيان الثوري في «تفسيره» (ص٤٨)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٢٣) وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ١١٨) لعبد بن حميد ووكيع.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٥ ـ ٥٧).

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٥٦٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢/ ٥٦٦).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٩٤).

الباب الحادي عشر

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٤]

قال (ك): «يقول تبارك وتعالى راداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢] ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ[1] إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طرق الضلالة والغي، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: عن طريقته ومنهجه، فيخالفها ويرغب عنها».

أكبر من هذا؟[١] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملة إبرهيم فيما أحدثوه[٢]، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨] وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١] أي: أمره الله تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً، وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي: وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨]»[٣] وقوله: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] «أي: أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا؛ ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته، بأن من قصد الخير وفق له ويُسِّر[٤] عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه، وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[٥]. لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «**فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس**»[٦]. وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من هذا كله كما».

(٢) أخرجه ابن جرير (٢/٥٧٨)، وابن أبي حاتم (١/٢٣٨) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/١٣٩) إلى عبد بن حميد أيضاً، **وهو مرسل**، وانظر: «العجاب» (١/٣٧٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/٩٨ ـ ٩٩).

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وييسير»!

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود.

(٦) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) من حديث سهل بن سعد.

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠] قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٣ ـ ١٣٤].

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ـ بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وهذا من باب التغليب؛ لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أباً، نقله القرطبي[(١)]، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أباً، وحجب به الأخوة، كما هو قول الصديق، حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير[(٢)]، ثم قال البخاري ولم يختلف عليه[(٣)]، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين[(٤)]، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء[(٥)]، وهو مذهب أبي حنيفة[(٦)] وغير واحد من السلف والخلف[(٧)]،

---

(١) في «تفسيره» (٢/ ١٣٨)، وهذا الموضع لا وجود له في مطبوع «معاني القرآن» للنحاس، إذ أصله الخطي فيه نقص.

(٢) بل حكاه البخاري في «صحيحه»: كتاب الفرائض: باب ميراث الجد مع الأب والإخوة عنهم جميعاً، وهذا نص كلامه: «وقال أبو بكر وابن عباس وابن الزبير: الجد أب» وسيأتي توضيح ذلك، وبيانه في (ص٥٣٩).

(٣) عبارة البخاري في الموطن السابق: «ولم يذكر أنّ أحداً خالف أبا بكر في زمانه، وأصحاب النبي ﷺ متوافرون».

(٤) وهو قول معاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وأبي هريرة وأبي الدرداء وأبي الطفيل وأبي موسى وعمران بن حصين وجابر بن عبد الله وعبادة بن الصامت.
انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١٠/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، «مصنف ابن أبي شيبة» (٦/ ٢٥٨ أو ١١/ ٢٨٨، ط. الهندية)، «سنن الدارمي» (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣ أو ١٠/ ٦٤ وما بعدها ـ مع «فتح المنان»)، «سنن البيهقي» (٦/ ٢٤٦)، «المحلى» (٩/ ٢٨٨)، «فتح الباري» (١٢/ ١٨ ـ ٢٠).

(٥) وجابر بن زيد وقتادة وابن سيرين، وعثمان البتّي والمزني وداود، انظر: «المحلى» (٩/ ٢٨٨)، «العذب الفائض» (١/ ١٠٥)، «مختصر اختلاف العلماء» (٤/ ٤٦١)، «حاشية البقري على الرحبية» (٩٧).

(٦) انظر: «مختصر الطحاوي» (١٤٧)، «المبسوط» (٢٩/ ١٨٠)، «الاختيار» (٥/ ١٠١)، «الأشباه والنظائر» (٢٩٨) لابن نجيم، «حاشية ابن عابدين» (٦/ ٧٨١)، «شرح السراجية» (٧٨).

(٧) قال عنه العلامة السعدي في «فتاواه» (٤٨٠): «الموافق لظاهر الكتاب والسنة، والموافق =

وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: إنه يقاسم الأخوة[(١)]، وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت[(٢)] وجماعة من السلف والخلف[(٣)]، واختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبو يوسف، ومحمد بن الحسن[(٤)]، وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: نوحّده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] والآيات في هذا كثير، والأحاديث: فمنها قوله ﷺ: «**نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد**»[(٥)]»[(٦)]. قال ابن منظور في «لسان العرب»: «معنى أولاد العلات أنهم لأمهات مختلفة ودينهم واحد، كذا في «التهذيب»[(٧)]،

= لمواقع الإجماع في غير هذه المسألة، والموافق للمعاني الصحيحة، وهو قول منضبط، لا تناقض فيه، ولا غموض، ولا إشكال».
قلت: «وهذا المذهب مروي عن بضعة عشر من الصحابة، أفاده ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣١/ ٣٤٢) ونصره بقوة. وانظر تعليقي على: «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (٥/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم (١٩٦٠).

(١) وهو قول الشعبي والنخعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح والزهري والأوزاعي والثوري، وأبي عبيد، انظر: «المجموع» (١٧/ ١٨١)، «الحاوي الكبير» (٨/ ١٢٥)، «الموطأ» (٢/ ٥٠٦)، «الذخيرة» (١٣/ ٤٩)، «حاشية الدسوقي» (٤/ ٤١١)، «المغني» (٩/ ٦٦ ـ ٦٩)، «الإنصاف» (٧/ ٣٠٥)، «التهذيب في الفرائض» (٩٧ ـ ٩٩)، «نهاية الهداية» (١/ ٣٥١)، «الفوائد الشنشورية» (ص١٣٠)، «التحقيقات المرضية» (١٣٣).

(٢) انظر مذاهبهم مسندة في: «الفرائض» (ص٣١ ـ ٣٢) لسفيان الثوري، «مصنف عبد الرزاق» (١٠/ ٢٦٨)، «مصنف ابن أبي شيبة» (٦/ ٢٦٠)، «سنن الدارمي» (٢/ ٣٥٤)، «اختلاف العلماء» للطحاوي (٤/ ٤٦٢ ـ مختصر الجصاص)، «السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ٢٤٩)، و«الخلافيات» له (٣/ق١٢)، «تغليق التعليق» (٥/ ٢١٩، ٢٢١)، وانظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٥٠، ٣٧٥ ـ ٣٧٦ و٣/ ٥٤٤ ـ بتحقيقي).

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولتقريرها موضع آخر».

(٤) انظر: «مختصر اختلاف العلماء» (٤/ ١٦١)، «شرح السراجية» (٧٨)، «تبيين الحقائق» (٦/ ٢٣٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٩٨ ـ ١٠١).

(٧) (١/ ١٠٥) للأزهري.

وفي «النهاية»[١] لابن الأثير: أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة»[٢].

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٢٩١ ـ علل).

(٢) انظر: «اللسان» (١١/ ٤٧٠ ـ علل).

(إفاضة وإضافة): أهمل المصنف ـ عفى الله عنا وعنه ـ تفسير قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤]، وفي آخر آية ضمن الآيات التي فسرها، وظننتُ أنه أرجأ الكلام عليها في (القسم الثالث) من الكتاب، الخاص بـ(توحيد الاتباع)، وأكثر فيه من الكلام على (التقليد) وانتزع ذمه من كثير من الآيات، ونذكر هنا ما استنبطه ابن بدران في «جواهر الأفكار» (ص٣٥٥)، قال رحمه الله تعالى:

«وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم، وما عطف عليه، وبنوهم الموحدون. والمعنى: إن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلَّا ما اكتسبتم، وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم، وقد شايعهم في هذه الأمة أناس اتكلوا على الأنساب، وعملوا بأكثر ما حرمه الكتاب، وأبناء العلماء تركوا العلم وادعوا أن ولد العالم لا يكون إلا عالماً، كأنهم يقولون بالتناسخ، ويزعم بعضهم أن أرواح آبائهم تمدهم وتلهمهم العلم إلهاماً بدون تعلم، وما أقبح هذه الدعوى وما أفظعها.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ يدل على أن كسب كل واحد مختص به، ولا ينتفع به غيره، وهذا يدل على بطلان التقليد، كما قاله الرازي، إذ لو كان التقليد جائزاً لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع، فكأنه قال: إني ما ذكرت حكاية أحوالهم طالباً منكم أن تقلدوهم، ولكن لتنبهوا على ما يلزمكم، فتستدلوا وتعلموا أن ما كان عليه إبراهيم، وما عطف عليه من الملة هو الحق، وفي الآية رد على اليهود لأنهم يقولون: بأن صلاح آبائهم ينفعهم، ويقولون: إنهم يعذبون في النار لكفر آبائهم باتخاذ العجل».

وقال في تفسير الآية نفسها (ص٣٦٥ ـ ٣٦٦) في الموطن لمكرر رقم (١٤١) من السورة نفسها:

«ولما حاج تعالى اليهود والنصارى في هؤلاء الأنبياء عقب ذلك الحجاج بقوله:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

لتكون هذه الآية وعظاً لهم وزجراً، حتى لا يتكلوا على فضل الآباء، فكل واحد يؤخذ بعمله، وإعلاماً لهم، بأنه متى لا يستنكر أن يكون فرضكم عين فرضهم، لاختلاف المصالح، لم يستنكر أن تختلف المصالح، فينقلكم محمد ﷺ، من ملة إلى ملة.

وتدل الآية على أن كل إنسان مسؤول عن عمله، ولا عذر له في ترك الحق، إن توهم أنه متمسك بطريقة من تقدم؛ لأنهم أصابوا أو أخطؤوا، لا يضر هؤلاء ولا ينفعهم، لئلا يتوهم أن طريقة الدين التقليد.

وفي الآية زجر عظيم لمن جعل التقليد مذهبه، وسار مع قوله مقلده كيفما كان، ثم إن إتاه الحق وظهر له الدليل أعرض عنه جانباً، وراغ عنه، وأخذ يؤوله حسبما يريد، ويختار له هواه، ويسلك مسالك أولئك المعاندين، الذين قلدوا أحبارهم ورهبانهم فيما =

قال محمد تقي الدين الهلالي: شبه النبي ﷺ الشرائع بالأمهات والدين بالأب، فالدين هو توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، والإيمان به وبجميع رسله وأنبيائه من آدم إلى محمد ﷺ، وإقامة العدل والإحسان، فهذه أصول الدين لا يختلف فيها الأنبياء والرسل، أما الشرائع والأحكام، فإن الشرائع مختلفة؛ لأن أزمنتهم مختلفة، وأحوال أهلها مختلفة، وقد شرع الله لكل واحد منهم شريعة تناسب زمانه وقومه، ثم ختم الرسل والأنبياء والشرائع ببعثة محمد ﷺ، فنسخت شريعته كل الشرائع المتقدمة؛ لأنها صالحة(١) لكل زمان ومكان ولكل قوم، وهي خالدة باقية إلى يوم القيامة.

قال المؤلف: قد نقلت في تفسير هذه الآيات ما جعلها واضحة للقراء وأزيد شيئاً من البيان تنبيهاً للمعاصرين فأقول: إن المسلمين قد أهملوا توحيد الله في أكثر أوطانهم، وانغمسوا في الشرك الأكبر، واستوى في ذلك عالمهم وجاهلهم إلا قليلاً ممن أخذ الله بيده، فلو أن عالماً من علماء المسلمين نشأ في بلد إسلامي، وله أولاد علمهم القرآن، وعلمهم كتب العلوم الإسلامية على ما عليه العامة ممن يسمون بالعلماء، وعاش معهم زمناً طويلاً يؤدون العبادات المفروضة ثم حضرته الوفاة، فجمع أولاده، وقال لهم: ما تعبدون من بعد موتي؟ لقال الناس: إنه أصيب بجنون، وأنه يهذي هذيان المحموم؛ لأنهم يزعمون أن من صلى وصام وحج وقرأ القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام وإن عبد غير الله تعالى بالدعاء والاستغاثة والاستعاذة والتوكل والخوف والرجاء والحلف والذبح

= ابتدعوه لهم من الدين، ورتبوه لهم من المفتريات، ولما جاءهم الحق الذي لا مرية فيه وهو القرآن الكريم، أعرضوا عنه اتباعاً لقول أحبارهم ورهبانهم، كما أضل هؤلاء من سار سيرهم واتبع طريقتهم، فأعرض عن كتاب الله وسنة نبيه، وحرفه وبدله وساقه نحو هواه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] وتكرير هذه الآية يدل، والله أعلم، على أنه متى اختلفت الأوقات والأحوال والمواطن، لم يكن التكرار عبثاً فكأنه تعالى قال: ما هذا إلا شر، فوصف هؤلاء الأنبياء فيما أنتم عليه من الدين، لا يسوغ التقليد في هذا الجنس، فعليكم بترك الكلام على إبراهيم وما عطف عليه من تلك الأمة، فلها ما كسبت، وانظروا فيما دعاكم إليه محمد ﷺ، فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم بكل خير، ولا تسألون إلا عن عملكم، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

(١) ومصلحة أيضاً، وعبارة (الإسلام مصلح لكل زمان ومكان) أوفى وأتم من (صالح)! فتأمل.

والنذر، وجعل الحكم لغير الله وما أشبه ذلك مما تقدم ذكره، لا يضره ذلك شيئاً وهو مسلم مؤمن كامل الإيمان، ولا يخافون عليه ضلالاً ولا زيغاً، وهذا إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، يوصي بنيه بتوحيد الله تعالى، وهذا يعقوب حفيده نبي الله تعالى لم يكفه إجمال الوصية بالإسلام، بل يؤكد ذلك بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ وذلك عندما حضره الموت، فلم يقولوا له: نحن أبناؤك ولم نزل نعبد الله معك وحده لا شريك له، فكيف تسألنا هذا السؤال؟ بل أجابوه جواباً واضحاً بقولهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ لا نشرك به شيئاً ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ بقلوبنا وألسنتنا لا نتوجه لغيره أبداً، وبهذا اطمأنت نفس يعقوب عليه السلام على أولاده، وكذلك قول إبراهيم الخليل عليه السلام في سورة إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] والجاهلون في هذا الزمان يقولون: نحن نقول: لا إله إلا الله، ونصلي ونصوم، فكيف تخاف الشرك علينا وعلى أولادنا؟ وهذا هو الجهل المركب من جهلين: **أحدهما**: إنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام، **والثاني**: إنهم يجهلون أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة، فهم كما قال شاعر على لسان حمار الطبيب توما الذي يضرب به المثل في الجهل بالطب:

قَالَ حِمَارُ الحَكِيمِ تُومَا ... لَوْ أَنْصَفُونِي مَا كُنْتُ أُرْكَبُ
لأَنَّ جَهْلِي غَدا بَسِيطاً ... وراكبي جهلُه مركَّبُ(١)

الباب الثاني عشر

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٩]

---

(١) البيتان في «المثل السائر» (٢/ ٣٣٨) منسوبان لبعض العراقيين.

قال محمد بن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عباس قال: قال عبد بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهُدى إلا ما نحن عليه فاتَّبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾(١). «وقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] أي: لا نريد ما

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٠٢) ـ ومن طريقه ابن جرير (٣/ ١٠١ ـ ١٠٢) رقم (٢٠٩٠)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٩٦) رقم (١٣٠٠) في «تفسيريهما» **وإسناده ضعيف**، فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، مجهول، تفرد عنه ابن إسحاق. قاله الحافظ في «التقريب»، وقال عنه الذهبي في «الميزان» (٤/ ٢٦): «لا يعرف»، وضعّفه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٠٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٣٣٧) لابن المنذر.

(ومضة): هذه الدعوى التي ادعاها أولئك لم تزل دعواهم إلى يومنا هذا، وإلى ما بعده، ولكن اليهود لما لم يكن لهم شوكة، وكانت عادتهم البخل والشح لم يظهروها، وأما النصارى فإنهم يجاهرون بها، ويرسلون المبشرين لأجلها إلى الأقطار ويصحبونهم بالأموال الطائلة، ويفتحون المدارس في بلاد المسلمين لاتساع تلك الدعوى وبثها، ويؤلفون الكتب في الرد على القرآن وتزييفه على زعمهم، وفي الرد على الدين الإسلامي، ويأخذون الخرافات التي حشاها جهلة المؤلفين في كتبهم، وينسبونها إلى الدين الإسلامي طعناً فيه، ويأتون من حشو أدمغتهم بالخرافات التي ليست من دين الإسلام في شيء، فيقولون لهم: إن النصارى لم ترتق إلا بدينها، فلذلك عظمت دولهم، واهتدوا إلى الاختراعات العجيبة، وأما أنتم معاشر المسلمين، فإن دينكم هو الذي أخركم وجعلكم أحط الأمم قدراً، وأعظمها فقراً، فيروج ذلك على عباد الأوهام.

وأما من يدخل مدارسهم فيكون على ثلاثة أقسام:

قسم منهم وهو القليل يتمسك بدينه الإسلامي، لكنه يكون متهاوناً بالعبادات وبالتكاليف.

وقسم منهم ينسلخ من الأديان كلها ويأخذ بالزندقة والإلحاد، ويعتقد أن الطبيعة هي الفعال المطلق، وأن لا إله في الوجود.

وقسم يميل إلى النصرانية ميلاً لا اتباعاً، فيكون مذبذباً بين النطق بكلمة التوحيد، وبين الزندقة والنصرانية.

والذي نشهد الله عليه: أنه ما أضل مَنْ ضل إلا جهلةُ المؤلفين والمدرسين، وبعض أهل العلم الذين يلقون إلى العامة الخرافات التي لم يأت بها قرآن، ولا صح منها شيء عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه، ولا عن التابعين لهم بإحسان، وإنما هي دسائس من الوثنيين والنصارى واليهود، والزنادقة، وأهل التناسخ من القرامطة، ومن كان على شاكلتهم وخصوصاً القرامطة، فإنهم كانت لهم دولة، وكان لهم دعاة يلبسون دعوتهم لباس الفلسفة، ويبرزونها في صورة التصوف، ومن دعاتهم من كان واسع التخيل إما بطبعه، وإما باستعمال ما يعين على ذلك، كالحشيشة وأمثالها، فتجرؤوا على تفسير =

دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: مستقيماً، قاله محمد بن كعب القرظي، وعيسى بن جارية، وقاله خصيف[1] عن مجاهد ملخصاً»[2].

قال محمد تقي الدين: الحنيف هو الذي يؤمن بجميع الأنبياء والرسل، ويوحِّد الله تعالى ويتبرأ من الشرك والمشركين ويعاديهم في الله ويحاربهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، يدل على ذلك ما وصف الله به إبراهيم والذين معه في سورة الممتحنة، وفي خصامه مع أبيه في سورة مريم، وفي سورة الأنعام: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾ [الأنعام: ٧٤] أرشد الله عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرق بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ الآية [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]. وقال البخاري بسنده إلى أبي هريرة قال: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم** ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية»[3]. «قال أبو العالية والربيع

= كتاب الله تعالى حتى أخرجوه عن موضوعه، وظهروا بمظهر الفقر والإرشاد، فراج مظهرهم على العوام، وعلى المغفلين من أهل العلم، فقلدوهم في ذلك وشرحوا أقوالهم، وزينوا بها مؤلفاتهم على زعمهم، وراموا اللحاق بمقامات زينها لهم الداعون، فماتوا ولم يصلوا إليها؛ لأنها خيال في خيال، لا حقيقة لها، حتى جرهم ذلك إلى القول بالاتحاد وطرح التكاليف الشرعية، وقالوا: إن العارف إذا وصل إلى مقام المعرفة سقط عنه التكليف، وما التكليف إلا حجاب بين العبد وبين ربه، وأن الله سبحانه حالٌّ في الأشخاص كلها وفي جميع الموجدات، فأنت هو، وهو أنت، فمن المكلف؟ هل تكلف ذاتُه ذاتَه؟ وهذا هو مقام المعرفة عندهم. لهذا المذهب في زمننا رواج عظيم، حتى عند المغفلين من أعاظم العلماء، فإذا كان النصارى كفروا بالتثليث، فهؤلاء جعلوا آلهة لا يحصيها إلا الله تعالى، هؤلاء أولى بأن يقال لهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. قاله ابن بدران في «جواهر الأفكار» (٣٥٦ ـ ٣٥٧).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال خصيف».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٣٦٢).

وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط»[(١)].

قال محمد تقي الدين: السبط، يلفظ به في اللغة العبرانية ـ شفيط ـ وهو غصن الشجرة، وسمي أبناء يعقوب الاثنا عشر أسباطاً؛ لأنهم أبناء أب واحد كأغصان الشجرة.

«قال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل»[(٢)]، ثم قال (ﷺ) بعد نقول متعددة بمعنى ما تقدم: «وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ الآية [المائدة: ٢٠]»[(٣)]. وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] ثم قال (ﷺ): «عن عكرمة عن ابن عباس قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة، إدريس[(٤)]، ونوح، وهود، وصالح، وشعيب وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمد ﷺ»[(٣)]. وقال ابن أبي حاتم بسنده عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: **«آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن»**[(٥)].

قال محمد تقي الدين: مقتضاه أن المسلمين لا يأخذون دينهم من الكتب السابقة، وإنما يأخذونه من القرآن والسنة؛ لأن القرآن ناسخ لما تقدم قبله من الكتب، ولأن الله تعالى جعل لهم الأسوة والقدوة في أفضل النبيين وإمام المرسلين محمد ﷺ، فلا حاجة بهم إلى غيره[(٦)]. اهـ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٠٣)، و«تفسير ابن جرير» (٢/٥٩٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٤٣).

(٢) انظر: «العين» للخليل (٧/٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢/١٠٤).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٠٤).

(٤) لا يوجد في مطبوع «تفسير ابن كثير» ذكر لإدريس ﷺ.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/٤٠٠) رقم (١٣١٢) **وإسناده ضعيف**، فيه عبيد الله بن أبي حميد متفق على ضعفه ويروي عن أبي المليح عجائب. انظر: «الميزان» (٣/٥)، و«التهذيب» (٧/٩).

(٦) وأنت إذا تأملت هذه الآية والتي قبلها، وجدتهما يشيران إشارة من ألطف الإشارات، ويلفتان إلى معنىً من أدق المعاني، ويلوحان إلى أن النصارى واليهود وأمثالهما يدعون =

= إلى دينهما، فلا تطعهما في دعواهما، واتبع دين الفطرة والاستدلال الذي هو دين إبراهيم ﷺ، حيث استدل بالمصنوعات على الصانع، وذلك مما فطر كل كامل العقل عليه، فأفرد الحق تعالى بالوحدانية، وذلك دين لا يتغير بتغير الأزمان، ولا يختلف بتبدل الأمم واختلاف ألسنتها، ومجيء أمة بعد أمة، وهو الإيمان بالله تعالى إيماناً خالياً مما دسه المبتدعون، وتقوله المتقولون، والإيمان لما أنزله من الكتب إجمالاً، وبسائر أنبيائه ورسله الذين أوحى إليهم وأرسلهم إلى الأمم كلهم فإن الإيمان ببعضهم دون البعض، يوقع العالم في الشقاق المؤدي إلى انفراط المدنية الحقة، ويجر من آمن بالبعض إلى التعصب لمن آمن به، حتى يزعم أنه ليس على وجه البسيطة ناس غيره يستحق من الله الوحي إليه.

ولما كانت هذه الأمة أكمل الأمم ديناً بشهادة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وأن الدين الذي هذا شأنه ينهض بصاحبه إلى الارتقاء في الفكر والعمل، لا جرم أمر الله المؤمنين بقوله: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية، يدعوهم بها إلى أن يكونوا في مقدمة الأمم في إصلاح النوع الإنساني كله، الذي لم تبعث به أمة من الأمم قبلهم، بدليل قوله ﷺ: **«وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»**[1]. فكل نبي من الأنبياء كان يبعث إلى إصلاح أمته، ونبينا بعث لإصلاح جميع الأمم، ولا يمكن ذلك الإصلاح إلا بالدين الفطري الأصلي، والتسليم لنبوة سائر أنبياء الله تعالى، من أي أمة كانوا، وفي أي زمان وجدوا.

وهذا المعنى كان نصب أعين الصحابة رضوان الله عليهم، فلذلك جدوا بما كانوا يجدون فيه، ولأجله كان انتهاء سائر الأديان إلى هذا الدين، كما ورد في الحديث: **«لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي»**[2]، وهذا سر ما ورد من أنه ﷺ صلى بالأنبياء إماماً ليلة المعراج، ولذلك كان هذا الدين هو النقطة الجامعة لكل الأمم على السواء؛ لأن مبناه الإيمان بالله، وهو بلا شك إله السماوات والأرض وما بينهما، والإيمان بسائر رسله الذين أرسلهم إلى الأمم، وعدم التعصب لنبي دون نبي، فأي عذر بعد هذا لهندي أو لصيني أو لإفريقي أو لأوروبي، وغيرهم في عدم اتباعهم هذا الحق المبين، والبرهان الظاهر، وأي حجة لهم في تعصب كل منهم لتصديق نبي دون نبي.

واعلم: أن من يلاحظ حالة الحياة الاجتماعية العمومية اليوم، ويحصل له إلمام باشتباك المصالح التجارية ببعضها، ويعلم مقدار تأثير الروابط الاقتصادية بين الأمم في وجود الاتفاق، والاتحاد بينها، يعلم تبعاً لذلك: أن ذلك التقرب سيكسر من شَرَه التعصبات الدينية الذميمة، ويمحو من بينهم تلك الأحقاد الاعتقادية الموروثة، ولا يمكن للإنسان أن يتخيل نقطة جامعة يرضى بها الكل على السواء، إلا بتصديق كل أمة بأنبياء جاراتها وبكتابها المنزل عليها، فما أبدع الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية. =

(١) انظره في (ص٢٣٨).

(٢) الحديث حسن. وقد خرجته مطولاً في تعليقي على «الأقوال القويمة» للبقاعي، وسلمته من سنوات للطباعة، يسر الله نشره بخير وعافية.

«يقول تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾(١)؛ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. قال ابن عباس وغيره من السلف: «﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: دين الله»(٢)، «وانتصاب صبغة الله، إما على الإغراء كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الزموا](٣) ذلك عليكموه، وقال بعضهم: بدلاً من قوله: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾»(٤) قال (ش): «وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك، أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء وهو الذي يسمونه المعمودية، ويجعلون ذلك تطهيراً لهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً، فرد الله عليهم بقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام وسماه صبغة، استعارة، ومنه قول بعض شعراء همدان:

وكلُّ أناس لهم صبغةٌ ... وصبغةُ هَمْدان خير الصِّبغْ
صَبَغنا على ذاك أولادنا ... فأكْرِم بصبْغَتنا في الصِّبَغْ»(٥)

قال (ك) في قوله تعالى: «﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: تناظروننا في

= ولو أن العقلاء رجعوا إلى كتب الله المنزلة قبل القرآن، وجردوا وحيها الإلٰهي مما افتراه عليه أكثر الأمم من الخرافات وخلطوه به من أفكارهم مما لا ينطبق عليه، لوصلوا إلى الدين الفطري، النقي من الشوائب. ولمّا كان الدين الإسلامي الخالي من الخرافات، ومن تقولات الملحدين والمخدوعين بهذه المثابة؛ صَحَّ أن يكون هو الناسخ لجميع الأديان قبله، وأنه لا ناسخ له على ممر الزمان، وأنه لا يأتي زمان إلا ويغرس الله تعالى فيه غرساً ينفون عنه تقول الضالين، وإلحاد الملحدين، ولن تزال طائفة من أهله قائمة على الحق لا يضرها من خذلها، ولا من افترى عليها، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. قاله العلامة ابن بدران في «جواهر الأفكار» (٣٥٩ ـ ٣٦١).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بمثل ما آمنتم به».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٤٥) رقم (١٣١٣)، وابن جرير (٢/ ٦٠٥) وحكياه عن جمع من السلف، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٥)، و«المجالسة» (١٤٦٤، ١٤٦٥ ـ بتحقيقي). ولعلي القاري رسالة مفردة في هذه الآية، سماها «صنعة الله في صبغة الله»، ولي عليها حواشٍ وتخريجات من رأس القلم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي الزموا».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٥).

(٥) انظر: «فتح القدير» (١/ ٢٨١).

توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص [الألوهية][(١)] له وحده لا شريك له ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم ومما تعبدون»[(٢)].

الباب الثالث عشر

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢]

قال (ك): «يذكّر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثه الرسول محمداً ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم؛ أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء [سفهاء لا يعقلون][(٣)]، فانتقلوا ببركة رسالته ويُمن سفارته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ[(٤)] يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]، وذم[(٥)] من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال[(٦)] تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨] قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره، فقال[(٦)]: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢] قال مجاهد في قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، قال عبد الله بن وهب عن هشام بن سعد[(٧)] عن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإلهية». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٠٦).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يسفهون بالقول الفرى».
(٤) في الأصل: «رسولاً منهم»!
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وفي»!
(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال».
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الصواب كما في مصادر التخريج، وهو من رجال =

زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: «يا رب كيف أشكرك»؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني»(١). قال ابن أبي حاتم بسنده إلى مكحول الأزدي «قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني [يذكرون](٢) الله؟ وقد قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت»(٣)، وفي الحديث الصحيح(٤) يقول الله تعالى: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه**». وقال الإمام أحمد(٥) بسنده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملإ ذكرتك في ملإ من الملائكة** ـ أو قال: **في ملإ خير منه** ـ **وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة**»، صحيح الإسناد، أخرجه البخاري، وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أمر الله بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]»(٦).

قال محمد تقي الدين: محل الشاهد في إيراد الآيتين، أن من عبد غير الله تعالى من قبور الصالحين وغيرها لم يشكر الله؛ لأنه بدل نعمة الله ـ وهي القرآن والرسول ـ كفراً، وأحل نفسه وقومه دار البوار. اهـ.

= «الكمال». وفي الأصل: «سعيد»!

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٦١) رقم (١٤٠٢، ١٤٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧١١)، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٣٨) لابن أبي الدنيا أيضاً، وفي «الشكر» له بمعناه بالأرقام (٦، ١٢، ٣٩، ١٥١، ١٦٤).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يذكر».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٦٠) رقم (١٣٩٧) **بإسناد ضعيف**، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٣٩) لعبد بن حميد أيضاً.
وورد نحوه عن ابن عباس فيما أوحى الله إلى داود عليه السلام، أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٨ و١٣/ ٢٠١ و٥١٢)، وأحمد في «الزهد» (ص٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٨٣)، وهو أشبه.

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٢)، والبخاري (٧٥٣٦).

(٦) من «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٢٤ ـ ١٢٦) بتصرف.

الباب الرابع عشر

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٧]

قال (ك): «يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد(١) الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو الرحمن(٢) الرحيم، وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾ و﴿الٓمٓ (١) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢]»(٣) ثم ذكر الدليل على تفرده(٤) بالإلهية

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأحد».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنه الرحمٰن».

(٣) أخرجه أحمد (٦/٤٦١)، والترمذي (٣٤٧٨)، وأبو داود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، والدارمي (٣٣٨٩)، والطحاوي في «المشكل» (١٧٨، ١٧٩)، والفريابي (٤٦)، وابن الضريس (١٨٢)، كلاهما في «فضائل القرآن»، والطبراني (٢٤/رقم ٤٤٠، ٤٤١)، وفي «الدعاء» (١١٣)، والبيهقي في «الشعب» (٢٣٨٣)، وفي «الأسماء والصفات» (١٨٤)، والبغوي (١٢٦١)، من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن، **وإسناده ضعيف**، فيه عبيد الله بن أبي زياد وشهر بن حوشب.

وفي الباب عن أبي أمامة عند ابن ماجه (٣٨٥٦)، والطحاوي في «المشكل» (١٧٦، ١٧٧).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بتفرده».

بخلق السموات والأرض وما [فيها][1]، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته [بقوله تعالى][2]: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، [وهذه][3] في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠] تارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتعارضان كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧] أي [يزيد في هذا من هذا][4]، ومن هذا في هذا ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: في تسخير البحر [بحمل][5] السفن من جانب إلى جانب، [لمعايش][6] الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى [أولئك][7]، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾. إلى قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦]. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها[8]، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦] ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبأ، وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة، وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيهما». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذه الأرض».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يزيد من هذا في هذا».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لحمل». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «للمعاش».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هؤلاء».
(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وصغيرها وكبيرها».

كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا والله أعلم، ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما [يصرفه تعالى][1] ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، [كما قال تعالى][2]:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]»[3].

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ حجة في توحيد العبادة على كل من يؤمن بالله رباً، فلا يعبد غيره ولا يتوجه إلى غيره بأي وجه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دليل على ذلك؛ لأن الذي خلق السمٰوات والأرض وما ذكر بعدها، وهو الذي يصرفه كيف يشاء، وهو الذي يستحق العبادة وحده، فتوحيد الربوبية دليل على توحيد الإلهية عند كل عاقل رشيد ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

ثم قال (ك) في تفسير الآية الثانية: «يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً، أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه، وفي «الصحيحين»[4] عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**». وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجؤون في جميع أمورهم إليه، ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وإن جميع الأشياء تحت [غلبته

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يصرفه الله تعالى».
(٢) سقط من الأصل، وأثبتّه من «تفسير ابن كثير».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٣٨ ـ ١٤٠) بتصرف.
(٤) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث ابن مسعود.

وقهره][1] وسلطانه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥ ـ ٢٦]، يقول: لو [يعلمون][2] ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبريء المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين[3] يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١] والجن أيضاً تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢] وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣٢ ـ ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي: عاينوا عذاب الله

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قهره وغلبته».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «علموا».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كانوا».

وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً، وقال عطاء عن ابن عباس: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، قال: المودة[(١)]، وكذا قال مجاهد[(٢)] في رواية ابن أبي نجيح، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ أي: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحد الله وحده بالعبادة وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تذهب وتضمحل، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾»[(٣)].

يقول مؤلفه محمد تقي الدين عفا الله عنه: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن كل معبود عبد من دون الله أو متبوع اتبع في الباطل، يتبرأ من كل من عبده أو تبعه في الباطل يوم القيامة، فلا تسأل عما يحل بالمشركين في ذلك اليوم من الندامة والحسرات.

الثانية: إن كل من عبد مخلوقاً اتبعه في الباطل، يعذبه الله تعالى عذاباً شديداً، ولا ينفعه متبوعه شيئاً.

الثالثة: إن هذه الأسباب الواقعة في الدنيا بين المشركين وبين معبوديهم من دون الله: كالذبائح والنذور والاستغاثة والاستعاذة والدعاء والتوكل والتوالي على

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢٧٨) رقم (١٤٩٢)، وابن جرير (٣/ ٢٧)، والحاكم (٢/ ٢٧٢) وصححه، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ١٦٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) انظر: «تفسيره» (ص٢١٨)، و«تفسير سفيان» (ص٥٤)، وهو عند سعيد بن منصور (٢٤٠، ٢٤١)، وابن جرير (٣/ ٢٦)، وابن أبي حاتم (١/ رقم ١٤٩٣)، وأبي نعيم (٣/ ٢٨٥)، وعزاه في «الدر» (١/ ١٦٦) إلى وكيع وعبد بن حميد.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٤).

ذلك والتحاب فيه والاجتماع عليه، كل ذلك يزول يوم القيامة حين تطلع شمس الحقيقة، ويزول ظلام الكذب.

الرابعة: إن أولئك المشركين المتَّبعين في الباطل لا يستطيعون أن يكتموا ما يصيبهم من الندم والجزع، بل يصرخون أمام الأشهاد، ويقولون: يا ليتنا نعود إلى الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء المعبودين كما تبرؤوا منا وخذلونا.

الخامسة: إن كل من مات وهو يعبد مخلوقاً ـ وإن جلّت مرتبته، وعلا قدرهُ ـ يخلد في النار ولا يخرج منها أبداً، ولا تنفعه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا جهاد ولا غير ذلك من الأعمال التي كان يعملها في الدنيا.

الباب الخامس عشر

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]

قال (ك): «عن جماعة من المفسرين الأولين بأسانيدهم إلى [الصُّلْب[1] بن حكيم بن] معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده «أن أعرابياً قال: يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾»[2]. أخرج أحمد والجماعة بأسانيدهم إلى أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا، فقال: **«يا أيها الناس، أربَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»**[3]. وقال الإمام

(١) سقط من الأصل، وأثبتُّه من «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٦).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (ص٧٧) (١٩٠)، وابن مردويه ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١٤) رقم (١٦٦٧)، وابن جرير (٣/ ٢٢٣)، والدارقطني في «المؤتلف» (٣/ ١٤٣٥) من طريق جرير عن عبدة بن أبي برزة عن الصُّلب به. وزاد الدارقطني بين الصلب وأبيه: «عن رجل من الأنصار». **وإسناده ضعيف**.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٢)، والبخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

أحمد بسنده عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني**»[1]، وقال الإمام أحمد بسنده إلى أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[2]. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله لموسى وهارون عليهما السلام ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داعٍ ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، وروى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بأسانيدهم عن سلمان الفارسي، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين**»[3].

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو الله ﷻ بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، قالوا: إذاً نكثر، قال: «**الله أكثر**»[4]. أخرج مالك

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٠)، والبخاري (٧٥٣٦) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠)، وابن ماجه (٣٧٩٢)، والحاكم (١/ ٤٩٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٤٢) من حديث أبي هريرة وإسناده **حسن**، والحديث **صحيح**. انظر: «تغليق التغليق» (٥/ ٣٦٣)، و«تهذيب الكمال» (٣٥/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٨)، وفي «الزهد» (١٥١)، وأبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، ووكيع (٥٠٤)، وهناد (١٣٦١) كلاهما في «الزهد»، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٠ و١٣/ ٣٣٩)، وابن حبان (٨٨٠)، والطبراني (٦١٣٠)، وفي «الدعاء» (٢٠٢)، والحاكم (١/ ٤٩٧، ٥٣٥)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٨١)، وفي «الأسماء والصفات» (٩٠ ـ ٩١) عن سلمان مرفوعاً وموقوفاً، وهو **صحيح**، وروى حماد بن سلمة عن «سلمان أنه قال: أجد في التوراة» وساق نحوه كذا عند البيهقي في «الأسماء والصفات» وتفرد حماد بقوله: «أجد في التوراة»! وفيها نظر!

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٨)، وعبد بن حميد (٩٣٧ ـ المنتخب)، والبزار (٣١٤٣ ـ زوائد)، وأبو يعلى (١٠١٩) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، وأبو نعيم (٦/ ٣١١، ٣١٢)، والبيهقي في «الشعب»، (١١٢٩، ١١٣٠)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٣٤٤)، وابن عبد البر في =

والبخاري ومسلم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**»(١). وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**»(٢).

قال البزار بسنده عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا ابن آدم، واحدة لك، وواحدة لي، وواحدة فيما بيني وبينك، فأما التي لي: فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك: فما عملت من شيء أو من عمل وفيتكه، وأما الذي بيني وبينك: فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة**»(٣). «وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة**». فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا»(٤).

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه بسنده عن عبد الله بن عمرو قال:

= «التمهيد» (٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢١/ ٧٥) من حديث أبي سعيد الخدري، **وإسناده جيد** وله شواهد يصح بها.

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٢١٣)، والبخاري (٦٨٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٨) وقال: «رواه أحمد وإسناده حسن»! وحسنه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٢)! **قلت**: فيه عبد الله بن لهيعة، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند الترمذي (٣٤٧٩)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، وابن عدي (٤/ ٣٨٠)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٧٢) وفيه صالح المري متروك.

(٣) أخرجه البزار في «البحر الزخار» (١٣/ ٢١٦) رقم (٦٦٩٣) ـ وهو في «كشف الأستار» (١٩)، وأبو يعلى (٢٧٥٧)، وابن عدي (٤/ ٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (١١١٨٦) من طرق عن صالح المرّي عن الحسن عن أنس **وإسناده ضعيف جداً**، قال البزار: «لا نعلم رواه عن الحسن عن أنس إلا صالح المري، تفرد به»، وبنحوه قال ابن عدي. قلت: صالح المري ضعيف، والحسن مدلس وقد عنعن، وانظر: «مجمع الزوائد» (١/ ٥١).

(٤) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (٢٢٦٢) ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٣٩٠٧) وفي إسناده أبو محمد المليكي، قال شيخنا الألباني في «الإرواء» (٤/ ٤٤): «لم أعرفه» قلت: يحتمل أنه عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبيد الله بن أبي مليكة؛ فهو من هذه الطبقة، وهو **ضعيف جداً**.

قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد». قال عبد الله بن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي»[١]. وفي «مسند الإمام أحمد» و«سنن الترمذي» والنسائي، وابن ماجه[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»[٣].

قال محمد تقي الدين: قد تبين لك أيها القارئ والسامع معنى هذه الآية بغاية الوضوح، واستفدنا منها فوائد عظيمة نفعنا الله بها، وأزيد على ذلك فأقول: أيها المشرك الداعي غير الله، الكافر لنعمة الله، ألا تستحيي من الله، ما عذرك في دعائك غير الله، وطلب الحاجات من غير الله، وخضوعك وتملقك وشكواك لأهل القبور، وابتهالك إليهم ليجلبوا لك خيراً، ويدفعوا عنك شراً، وهذا رب العالمين الغني الحميد الرؤوف الرحيم السميع المجيب، يرغّبك في دعائه ويعدك ـ ومن أصدق من الله ـ وعداً بإجابة دعوتك وقضاء حاجتك، بشرط أن تستجيب له بالإيمان به وبرسله وما جاؤوا به، وتفعل ما أمرك به وتجتنب ما نهاك عنه، فانظر إلى هذه السفاهة التي وقعت فيها، والخسران المبين، فوحّد ربك وتوجّه إليه وحده؛ تر العجب العجاب من لطفه وبركاته، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣)، والطبراني في «الدعاء» (٩١٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨١)، والحاكم (١/ ٤٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٠٤ ـ ٣٠٩٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٨/ ٢٥٦) **وإسناده ضعيف**، فيه إسحاق بن عبيد الله بن المهاجر مجهول، قاله شيخنا الألباني في «الإرواء» (٩٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٥)، والطيالسي (٢٥٨٣، ٢٥٨٤)، والترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، وابن خزيمة (١٩٠١)، وابن حبان (٢٤٠٧ ـ موارد)، والطبراني في «الدعاء» (١٣١٥، ١٣١٦)، والبيهقي (٨/ ١٦٢)، وأبو نعيم في «فضيلة العادلين» (رقم ٢٣ ـ بتحقيقي)، وعزاه ابن حجر في «النكت الظراف» (١١/ ٩٠) لعبد بن حميد، **والحديث صحيح بطرقه وشواهده**. انظر بعضها في: «فضيلة العادلين» رقم (٢٣، ٢٤) للحافظ أبي نعيم وتعليقي عليه، فقد أطلت النفس في تخريجه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وانظر: «نصب الراية» (٤/ ٦٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٦ ـ ١٩٣) بتصرف.

الباب السادس عشر

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١]

«هذا تحريم من الله ﷻ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً وإنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة: ٥] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب[(١)]، وهكذا قال جماعة المفسرين من السلف، وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان. ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول»[(٢)].

قال (ج) بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات: «وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني»[(٣)]، ثم روى (ج) بسنده عن شقيق قال: «تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلِّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام، فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكنني أخاف أن تعاطوا[(٤)] المؤمنات منهن»[(٥)]. وهذا **إسناد صحيح**. ثم روى بسنده إلى عمر،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٩٧) رقم (٢٠٩٥)، وابن جرير (٣/ ٧١٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص٩٤)، والبيهقي (٧/ ١٧١)، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٢٥٦) إلى ابن المنذر، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٩٤).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٦) بتصرف يسير.

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٣/ ٧١٥ ـ ٧١٦).

(٤) كذا بالأصل، ولعل الصواب: (أن تعافوا اهـ). مصححه. (منه).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٥٨)، وعبد الرزاق (١٢٦٧٠) في «مصنفيهما»، وابن جرير في «تفسيره» (٤/ ٣٦٦ رقم ٤٢٢٣ ـ ط شاكر)، وسعيد بن منصور (٧١٦)، والبيهقي (٧/ ١٧٢) في «سننهما» من طريق الصَّلت بن بهرام عن شقيق به، **وإسناده صحيح**، وصححه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٩٧).

قال: «المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة»[(١)]. قال: وهذا أصح إسناداً من الأول، ثم روى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**نتزوج نساء أهل الكتاب، ولا يتزوَّجون نساءنا**»[(٢)]. ثم قال: وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه، فالقول به لإجماع الجميع من الأمة [عليه][(٣)]، كذا قال (ج)[(٤)]. وقال أبو بكر الخلال بسنده إلى صالح بن أحمد: أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام[(٥)]. ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ قال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمة سوداء، فغضب عليها فلطمها، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها، فقال له: «**ما هي؟**» قال: تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال: «**يا عبد الله هذه مؤمنة**»، فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا: نكح أمته، وكانوا يريدون أن ينكحوا بنات المشركين[(٦)] وينكحوهم [بناتهم][(٧)] رغبة في أحسابهم، فأنزل الله[(٨)]: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾. قال عبد[(٩)] بن حميد بسنده عن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٧١٥ ـ ٧١٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٠٥٨)، والبيهقي (٧/ ١٧٢)، وقال ابن كثير (٢/ ٢٩٧): «وهذا أصح إسناداً من الأول».

(٢) لم يعزه السيوطي في «الدر المنثور» إلا لابن جرير، وهو في «تفسيره» (٤/ ٣٦٧ رقم ٤٢٢٤ ـ ط شاكر) **وإسناده ضعيف**، وأشار إلى ذلك ابن كثير (٢/ ٢٩٧) بقوله: «وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه» قلت: هو من رواية الحسن عن جابر، وفي سماعه منه اختلاف بسطه أخونا البحَّاثة النابه الشريف حاتم العوني في كتابه الجيد «المرسل الخفي» (٢/ ٨٥٣ ـ ٨٨٦)، وفي إسناد الحديث أيضاً أشعث بن سوار ضعيف.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «على صحة القول به».

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (٣/ ٧١٦).

(٥) انظر: «أهل الملل والردة» من كتاب «الجامع» للخلال (١/ ٢٤٦) رقم (٤٧٦).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى المشركين».

(٧) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) أخرجه بنحوه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٤٥) من طريق أسباط بن نصر عن السدي عن غزوان أبي مالك عن ابن عباس، **وإسناده ضعيف**، فيه أسباط.

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عبد الله»!!

عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: **«لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن، وأنكحوهن على الدين، فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل»**(١)(٢). وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»**(٣).

ولمسلم عن جابر مثله(٤)، وله عن ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: **«الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»**(٥). وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ﴾ أي: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ [الممتحنة: ١٠]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ﴾ أي: [لرجل](٦) مؤمن ولو كان عبداً حبشياً خير من مشرك وإن كان رئيساً سرياً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة. ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ﴾ أي: بشرعه وما أمر به [ونهى عنه](٧) ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾»(٨).

قال محمد تقي الدين: قد تبين معنى هذه الآية من كلام الأئمة والأحاديث النبوية، وأزيد شيئاً فأقول: **رب فرخ لا يزال أعمى في عشه يعترض ويقول:** لماذا أباح شرعكم أن يتزوج المسلم اليهودية والنصرانية ومنعتم اليهودي والنصراني من تزوج المسلمة؟ فقد قسمتم وفضَّلتم أنفسكم، ولم تنصفوا، وهذا من التعصب!

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (٣٢٨)، وابن ماجه (١٨٥٩)، والبيهقي (٧/ ٨٠) **وإسناده ضعيف**، فيه عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي، وهو ضعيف، وعزاه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (ق١٢٠) للعدني في «مسنده»، وسعيد بن منصور، وذكر له شواهد، وهي قاصرة، ليس فيها سوى جملة التزوج على الدين، وانظر: «الضعيفة» (١٠٦٠) لشيخنا الألباني رحمه الله تعالى.

(٢) في سنده عبد الرحمن الإفريقي، وهو ضعيف (منه).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) في «صحيحيهما».

(٤) أخرجه مسلم (٧١٥)، وأحمد (٣/ ٣٠٢)، والترمذي (١٠٨٦) وغيرهم.

(٥) أخرجه مسلم (١٤٦٧) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولرجل».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وما نهى عنه».

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

فنقول: على رسلك أيها الفريخ! إن المسلم إذا تزوج يهودية أو نصرانية يؤمن برسلها، ويقدس كتبها، ويحترم دينها؛ لأنه لو طعن في رسلها وكتبها لكفر بالإسلام، أما اليهودي والنصراني، فإنه كافر بمحمد ﷺ وبالقرآن فهو إنما يعيش معها على المداهنة والخداع لو تزوجها، ومن سيئات الاستعمار الفرنسي، بل من سيئات المغاربة وضعف دينهم، أنهم كانوا في زمان الاستعمار يزوِّجون اليهود والنصارى بناتهم، وهو واقع، وإن كان نادراً إلى زماننا هذا، حتى بعد الاستقلال، وهذا خزي ينفردون به من دون الشعوب الإسلامية(١)، فنعوذ بالله من الكفر والضلال. أما الحديث الذي في سنده عبد الرحمن الإفريقي وهو ضعيف، فلا يضره ذلك لأن معناه صحيح تشهد له الأدلة والأصول، وأما قول عمر رضي الله عنه في حكايته مع حذيفة: «أخاف أن تعاطوا المؤمنات منهن»(٢)، فالمراد به أخاف إن أكثرتم من تزوج اليهوديات والنصرانيات أن تبقى المؤمنات ضائعات بلا زواج، ويدل على هذا رواية «أخاف أن تزهدوا في المسلمات»(٣).

الباب السابع عشر

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ

(١) رأيته ـ يا للأسف ـ كثيراً بين مسلمي أندونيسيا هذه الأيام، ولا قوة إلا بالله!

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هذا من كلام ابن جرير في «التفسير» (٣/ ٧١٦ ـ ط هجر) قال بعد إسناده منع عمر لطلحة وحذيفة نكاح اليهودية والنصرانية، قال: «حَذَراً من أن يقتدي بهما الناسُ في ذلك، فيزهدوا في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني، فأمر بتخليتهما».

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤ ـ ٢٥٨]

قال (ك): «يأمر تعالى بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ أي: لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادى بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته، بل ولا [نسبه][(١)]، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ أي: لا تنفعهم شفاعة الشافعين[(٢)] ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مبتدأ محصور في خبره[(٣)]، أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون»[(٤)]، قال (ك): «هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله، قال الإمام أحمد بسنده إلى أُبيّ بن كعب أن النبي ﷺ سأله: **«أي آية في كتاب الله أعظم؟»** قال: «الله ورسوله أعلم»، فرددها مراراً ثم قال أبي: «آية الكرسي»، قال: **«ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده، إن لها لساناً وشفتين، تقدس الملك عند ساق العرش»**[(٥)]، وأخرجه

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نسابته».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خبر»!
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٨٥) رقم (٢٥٦٧).
(٥) أخرجه أحمد وابنه عبد الله (٥/ ١٤١)، وعبد الرزاق (٦٠٠١)، وعبد بن حميد (١٧٨)، والطيالسي (٥٥٠)، وأبو داود (١٤٦٠)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٨٤٧)، والحاكم (٣/ ٣٠٤)، والطبراني (٥٢٦) **وإسناده صحيح**، وأصله في «الصحيحين» كما سيأتي.

مسلم به[1]، وليس عنده زيادة «**نفسي بيده**»[2] إلخ، وقال البخاري «في فضائل القرآن» وفي كتاب «الوكالة»، وفي «صفة إبليس» من «صحيحه»[3] عن أبي هريرة قال:

«وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني، فإني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟**» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: «**أما أنه كذبك وسيعود**»: فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله ﷺ: «**إنه سيعود**» فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلّمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: «**ما هي؟**» قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وقال لي:

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨١٠). (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٠).

(٣) ذكره البخاري معلقاً الأرقام (٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠) ووصله في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٥٨، ٩٥٩)، وفي «فضائل القرآن» (٥٢)، وابن خزيمة ـ كما «التغليق» (٣/ ٢٩٦)، و«الترغيب والترهيب» (١/ ٤٢٠) ـ والبغوي (١١٩٦)، وفي «التفسير» (١/ ٣٥٨)، والبيهقي (٧/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، وأبو نعيم (ص٣١٣، ٥٢٦) كلاهما في «الدلائل»، وعزاه ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٤٨٨)، و«هدي الساري» (ص٤٢) لأبي بكر الإسماعيلي وأبي نعيم، وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٣٢٠)، وفي «الخصائص الكبرى» (٢/ ٩٥) لابن مردويه، وهو **صحيح**.

لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: «**أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟**» قلت: لا، قال: «**ذاك شيطان**». كذا رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم»(١).

قال محمد تقي الدين: وصيغة الجزم: أن يقول البخاري قال فلان عن فلان، أو ذكر فلان، وتقابلها صيغة التمريض، وهي: يُذكر ويُروى، وحتى هذه ليست دائماً صيغة تمريض عند البخاري، فقد حقق الحافظ صحة الحديث المعبَّر عنه بها في بعض المواضع. اهـ.

ثم ذكر (**ك**) أحاديث كثيرة في فضل آية الكرسي، وأن أُبيّ بن كعب وقع له مع صبي مثل ما وقع لأبي هريرة(٢)، ثم روى حديثاً للترمذي وأبي داود أن هذه الآية تشتمل على اسم الله الأعظم(٣)، ثم قال (**ك**): «روى ابن حبان في «صحيحه» وغيره عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**»(٤). قال (**ك**): «وإسناده

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤).

(٢) يشير إلى ما أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٧، ٢٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢)، وابن حبان (٧٨١ ـ ط الحوت)، والحارث بن أبي أسامة (٢/ ق ١٢٧ ـ بغية الباحث)، والطبراني (٥٤١)، والحاكم (١/ ٥٦١ ـ ٥٦٢)، والبغوي (١١٩٧)، والبيهقي (٧/ ١٠٨ ـ ١٠٩)، وأبو نعيم (ص٥٢٥) كلاهما في «الدلائل» **وإسناده صحيح**، وصححه المنذري في «الترغيب» (١/ ٣٢٢) وهو في «صحيحه» (٦٥٨) لشيخنا الألباني، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦).

(٣) مضى تخريجه.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩٩٢٨)، وابن شاهين في «الأفراد» رقم (٣٤)، والروياني في «مسنده» رقم (١٢٦٨)، وابن حبان في «الصلاة» المفرد ـ كما في «نتائج الأفكار» (٢/ ٢٨٠) ـ، والطبراني (٧٥٣٢)، وفي «الأوسط» (٨٠٦٨) وفي «مسند الشاميين» (٨٢٤)، وفي «الدعاء» (٦٧٥)، والشجري في «أماليه» (١/ ١١١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (١٢١)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٣٥٤) من طرق عن محمد بن حمير عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة رفعه، وهو **صحيح**، وأعل بتفرد ابن حمير به! وصححه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٨٠)، وفي «النكت على ابن الصلاح» (٢/ ٨٤٩)، وأنكر الضياء المقدسي على ابن الجوزي إيراده له في «الموضوعات»، وقال محمد بن عبد الهادي: «لم يصب أبو الفرج، والحديث صحيح»، وانظر: «اللالئ المصنوعة» (١/ ٣٠٧)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٧٢).

صحيح على شرط البخاري وقد زعم أبو الفرج ابن الجوزي[١] أنه حديث موضوع والله أعلم»[٢]. «وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة: فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً القيم لغيره، وكان عمر يقرأ (**القيام**)[٣] فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها[٤] ولا قوام لها بدون أمره كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى[٥] عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنَة ولا نوم، فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أي: لا تغلبه سنة، وهو الوسن، والنعاس، ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأنه أقوى من السِّنَةِ، وفي «الصحيح»[٦] عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات: فقال: **«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**».

«وقوله[٧]: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ كقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦] وكقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه[٨] له في الشفاعة، كما في حديث[٩]: «**آتي تحت العرش، فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء أن**

---

(١) انظر: «الموضوعات» (١/ ٢٤٤) وما سبق في التخريج.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٧).

(٣) وهكذا قرأها ابنه عبد الله وابن مسعود وعلقمة والنخعي والأعمش والمطوعي، انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٢٧٧)، و«الدر المصون» (١/ ٦١٣)، وقال القرطبي (٢/ ٢٧٢): «ولا خلاف بين أهل اللغة في أن ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ أعرف عند العرب، وأصحُّ بناءً، وأثبت عِلَّةً».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عنهما»!

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخفى». (٦) هو في «صحيح مسلم» (١٧٩).

(٧) قبلها في الأصل: «وقال عبد الرزاق» ولا معنى لها!

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أن يأذن».

(٩) أخرجه أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (٣٢٣) في «صحيحيهما».

يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع، قال: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة»، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤] وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله ﷻ وأطلعه عليه[(١)]، لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم[(٢)].

قال محمد تقي الدين: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال بعض المفسرين من السلف: كرسيه: علمه[(٣)]، وقال أكثر المفسرين: إن لله كرسياً هو أصغر من العرش[(٤)]، وجاءت الأخبار التي رواها المفسرون وأهل الحديث، أن الكرسي في عظمته لو جمعت السمٰوات السبع وقوبلت بالكرسي لكانت كحلقة ملقاة في فلاة، ونحن نؤمن بهذا، ونترك تفسيره إلى الله تعالى، وهذه الأمور لا يطلب من مؤمن معرفة تفاصيلها إلا ما ورد عن النبي ﷺ، وإنما يطلب منه الإيمان بها.

قال (ك): «﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظ السمٰوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم،

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويحتمل أن يكون المراد».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله عليه كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾».

(٣) روي عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير. انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٤١)، و«تفسير ابن جرير» (٤/ ٥٣٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٩٠)، و«الأسماء والصفات» (ص٢٣٣)، و«الدر المنثور» (١/ ٣٢٧).

(٤) كالسدي والضحاك ومسلم البطين وأبي موسى. انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٤١)، و«تفسير ابن جرير» (٤/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩)، و«المجالسة» (رقم ٢١ ـ بتحقيقي)، و«العظمة» (٢٤٧)، و«رد الدارمي على بشر المريسي» (ص٦٧ ـ ٧٤)، و«العرش» (٦٠). والأدلة على هذا لائحة، وأشار المصنف إليها، وسيأتي تخريج ذلك لاحقاً، والله الموفق، لا ربَّ سواه.

لا إله غيره ولا رب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كقوله: هو ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح، الأجود فيها طريقة السلف الصالح، أمرّوها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه».

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي، دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره[1] على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار[2]، وإن كان حكمها عاماً، وقال ابن جرير، عن ابن عباس قال: «كانت المرأة تكون مقلاتاً[3] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده»، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾. وقد رواه أبو داود والنسائي جميعاً عن بُنْدار به[4]، وقال محمد بن إسحاق: عن ابن عباس قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين[5] كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك[6]، رواه ابن

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أحد».

(٢) انظر ذلك مفصلاً عند: ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٣)، وابن جرير (٤/ ٥٥٠)، و«الجزء فيه تفسير القرآن ليحيى بن يمان...» رقم (١٣٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (٥٩)، و«النواسخ» (ص٢١٨) لابن الجوزي.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مقلاة».

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٨٢)، والنسائي في «تفسيره» رقم (٦٨، ٦٩)، وابن حبان (١٤٠)، والطحاوي في «المشكل» (٧/ ٢٧٦٤ و١١/ ٤٢٧٩، ٤٢٨٠ و١٥/ ٦١١٤)، والنحاس في «معاني القرآن» (١/ ١٦٦، ١٦٧)، وابن أبي حاتم (٢/رقم ٢٦٠٩)، وابن جرير (٣/ ١٠) في «تفسيرهما»، والخطابي في «غريب الحديث» (٣/ ٨٠، ٨١)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (٤٢٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٥٢)، والبيهقي (٩/ ١٨٦)، والضياء في «المختارة» (١٠/رقم ٦٤، ٦٥) من حديث ابن عباس، **وإسناده صحيح**.

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: ومصادر التخريج، وفي الأصل: «الحصيني»!

(٦) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٣/ ١٠) بسندٍ **مسلسل بالعلل**، فيه محمد بن أبي محمد شيخ ابن إسحاق مجهول، وابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وفيه سلمة بن الفضل =

جرير، وروى السدي نحو ذلك، وزاد «وكانا قد تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زيتاً[١] فلما عزما على الذهاب معهم، أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية»، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك عن أبي هلال عن أُسَقّ[٢] قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض عليَّ الإسلامَ، فأبى، فيقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾. ويقول: يا أُسَقّ[٢] لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين[٣].

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل، إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول[٤]، ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى [﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾][٥]، قال الله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ﴾ [الفتح: ١٦] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التحريم: ٩] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣]. وفي «الصحيح»[٦]: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل**[٧]**، وتصلح أعمالهم وسرائرهم، فيكونون من أهل**

= الأبرش، صدوق كثير الخطأ، وشيخ ابن جرير محمد بن حميد متهم.
وأخرج نحوه سعيد بن منصور في «سننه» (٤٢٩) عن مجاهد مرسلاً، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٢٠) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «زبيباً»!!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، و«تفسير ابن أبي حاتم» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «أسبق»!!

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٤٩٣) رقم (٢٦١٠) ولوين في «جزئه» رقم (٤٦) **وفي إسناده لين**، وانظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٥٥).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بعدها: «فيه».

(٥) بدل ما بين المعقوفتين في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإكراه».

(٦) أخرجه البخاري (٣٠١٠) من حديث أبي هريرة.

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعني: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في =

الجنة». فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[١]، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «**أسلم**» قال: «إني أجدني كارهاً»، قال: «**وإن كنت كارهاً**» فإنه **ثلاثي صحيح**، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: «**أسلم وإن كنت كارهاً**»، فإن الله [يرزقك][٢] حسن النية والإخلاص، وقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبدون من دون الله ووحد الله وحده، وشهد أن لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريقة المثلى، والصراط المستقيم»[٣].

قال محمد تقي الدين: قال علماء التوحيد: الطاغوت: مأخوذ من الطغيان، والطغيان مجاوزة الحد في الكفر والضلال والإضلال، ومنه الطاغوت، جاء في «لسان العرب»[٤]: «قال الشعبي وعطاء ومجاهد: «الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، والكاهن، وكل رأس في الضلال، قد يكون واحداً»؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]، وقد يكون جَمْعاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾».

قال محمد تقي الدين: قال علماء التوحيد: الطواغيت كثيرة، أولهم إبليس لعنه الله، ومن دعا الناس إلى عبادته أو عبادة غيره، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والكاهن، والساحر، ويجب على كل مؤمن أن يكفر بجميع الطواغيت، فإن القلب مثل الإناء، فلا بدّ من تطهيره قبل حلول الإيمان فيه، فإن الإيمان بالطاغوت نجاسة تجب إزالتها من القلب، ليمتلئ بالإيمان بالله تعالى، وسيأتي إن شاء الله في سورة النساء زيادة على هذا.

= الوثاق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون».

(١) أخرجه أحمد (٣/١٠٩، ١٨١) ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١٩٩٠، ١٩٩١): حدثنا يحيى عن حميد عن أنس، **وإسناده صحيح على شرط الشيخين**.
وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٣٧٦٥، ٣٨٧٩)، والضياء (١٩٨٩، ١٩٩٢) وغيرهما.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سيرزقك».

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/٤٤٤ ـ ٤٤٦) بتصرف يسير.

(٤) (١٥/٩ ـ طغي).

ثم قال (ﷺ): «وقوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، هي[١] في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قويٌّ شديد، ولهذا قال: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ الآية».

قال مجاهد: العروة الوثقى: يعني الإيمان[٢]، وقال السدي: هو الإسلام[٣]، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني لا إله إلا الله[٤]، وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى: القرآن[٥]، وعن سالم بن أبي الجعد، قال: هو الحب في الله، والبغض في الله[٦]، وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها، وقال معاذ بن جبل في قوله: «﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾[٧] دون دخول الجنة»[٨].

«وقال الإمام أحمد بسنده إلى محمد بن قيس بن عبادة قال: «كنت في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل[٩] فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت[١٠] المسجد قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك[١١]، إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه، رأيت كأني[١٢] في روضة

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فهي».
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦)، وابن جرير (٤/ ٥٦٠)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١/ ٣٣٠)، وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٤٣).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦)، وابن جرير (٤/ ٥٦٠).
(٤) علقه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦) عن جبير، ووصله عنه وعن الضحاك: ابن جرير (٤/ ٥٦٠ ـ ٥٦١)، ووصله عن سعيد أيضاً: الطبراني في «الدعاء» رقم (١٥٦٦، ١٥٦٧). وانظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٢٨٢).
(٥) علقه عنه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦) رقم (٢٦٢٦).
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا انقطاع لها».
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧) رقم (٢٦٢٨)، **وإسناده ضعيف**.
(٩) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.
(١٠) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مثل».
(١١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لِمَ».
(١٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كأنني».

خضراء، قال ابن عون[١]: فذكر من خضرتها وسعتها، وفي وسطها عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع. فجاءني منصف ـ قال ابن عون[١]: هو الوصيف ـ فرفع ثيابي من خلفي فقال: اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، واستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، فقال: «**أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت**»[٢]، قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه في «الصحيحين»».

ثم قال (ﷺ): «يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي البين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان[٣]، يزين[٤] لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم، ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[٥] قال (ﷺ): «هذا الذي حاج إبراهيم في ربه ـ وهو ملك بابل ـ نمرود بن كنعان، قال مجاهد: «ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان، وكافران، المؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود، وبخت نصر»[٦]، ومعنى قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي:

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عوف»!
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٢)، والبخاري (٣٨١٣)، ومسلم (٦٤٨٤).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أولياؤهم الشيطان».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تزين». (٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٥٠).
(٦) أخرجه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٦/ ١٩٠) عن مجاهد قوله باللفظ نفسه، وعزاه ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٨٥)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٥٧) إلى الزبير بن بكار في «النسب» ـ وأوردا إسناده ـ من قول سفيان، وعزاه ابن حجر إلى وكيع في «تفسيره» من قول مجاهد، وهو عند ابن أبي شيبة في «مصنفه» في كتاب (الفضائل) (٧/ ٤٦٩)، وأنهاه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٨٩)، وابن بشران في «أماليه» ـ ومن طريقه ابن عساكر (١٧/ ٣٣٦) ـ **بسند ضعيف** عن معاوية، قال: «ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود النّبي، وذو القرنين، ورجل من أهل حُلوان، ورجل آخر، فقيل له: الخضر؟ قالا: لا». =

بقلبك يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ أي: وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون[١] إلٰه غيره، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِى﴾ [القصص: ٣٨] وما حمله على[٢] الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته في الملك[٣]، وكان[٤] طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه. فقال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بدّ لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته[٥] لا شريك له، فعند ذلك قال الحاج وهو نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة، والظاهر ـ والله أعلم ـ، أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه؛ لأنه مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه فاعل لذلك، وإنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِى﴾ [القصص: ٣٨] ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ

= وأسنده وباللفظ المذكور: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٦، ٣٣٧) ـ بإسنادين متفرقين ـ عن سفيان الثوري، وسعيد بن بشير قولهما، وهو الأشبه.

وأخرج أبو سعيد النقاش في «فنون العجائب» (رقم ٨٧ ـ بتحقيقي) **بسند فيه كذاب** ـ وهو محمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام، قال عنه الدارقطني وغيره: متروك. انظر لهما ـ على الترتيب ـ: «الميزان» (٣/ ٥٥٦ و٤/ ٣٠٤) ـ عن ابن عباس قال: «لم يملك الدنيا كلها إلا أربعة رهط: مؤمنان وكافران، وكان المؤمنان: ذو القرنين، وسليمان بن داود ﷺ، والكافران: نمرود بن كنعان، الذي بنى المجدل بأرض بابل، والضحاك بن عدنان، وتقول الأزد منهم».

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثمَّ».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وذلك أنه يقال: إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه؛ ولهذا قال: ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكأنه».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحده».

﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما تدعي، [تحيي وتميت][(١)]، فَأْتِ بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت أي أخرس، فلا يتكلم وقامت عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦][(٢)].

فوائد هذا الباب:

الفائدة الأولى: قال محمد تقي الدين: كل من أشرك بالله وعبد غيره بدعاء، أو ذبح، أو نذر، أو استغاثة، أو استعانة، أو استعاذة، فيما لا يقدر عليه إلا الله، يأتي يوم القيامة مفلساً يائساً لا ينفعه أحد من الذين كان يتعلق بهم في الدنيا كشيوخ الطريقة، ولا يشفع له أحد؛ لأن المشرك بالله لا تنفعه شفاعة الشافعين، وإن كان هذا المشرك ابناً لنبي كابن نوح، أو أباً لنبي كآزر أبي إبراهيم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

الفائدة الثانية: قول عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ولم يقل: «الظالمون هم الكافرون»[(٣)]، قال **محمد تقي الدين: الظلم نوعان: الظلم الأكبر والظلم الأصغر، فالظلم الأكبر:** أن تصرف حق الله وهو العبادة إلى غير الله، وذلك هو الشرك الأكبر، فكل من ارتكب الظلم الأكبر، فهو من الكافرين، **وأما الظلم الأصغر** فهو أكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء عليهم في أنفسهم وأعراضهم، فإن صاحب هذا لا يكون من الكافرين، إلا إذا استحل ذلك، ولو قال الله تعالى: والظالمون هم الكافرون، لكان كل ظالم كافراً، ولو كان ظلمه صغيراً.

الفائدة الثالثة: قد رأيت من فضائلها ما فيه من الكفاية، وعلمت أنها أعظم آية في القرآن وهي كما قال ابن كثير: «تشتمل على عشر جمل»[(٤)].

---

(١) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥١). (٣) سبق تخريجه.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٨ ـ ٤٤٤) والجمل المذكورة الآتية منه بتصرف من المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ.

الجملة الأولى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود في الأرض ولا في السماء سواه، ومن عبد غيره صار من أعدائه، استوجب العذاب الدائم في الدنيا والآخرة، إن لم يتب من شركه.

الجملة الثانية: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وحياته سبحانه هي الحياة الكاملة التي لم توهب ولم تعط ولم تؤخذ من غيره، وليس لها بداية ولا نهاية، وليس لها حدود، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، وفي قراءة عمر رضي الله عنه: **(القيام)**[1]، هو الذي يقوم به كل ما سواه من المخلوقين، وبدونه لا يقوم ولا يوجد، ولا يحفظ عليه وجوده إلا بالحي القيوم.

الجملة الثالثة: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وقد بين (ك) معنى السِّنة ومعنى النوم، وهما من لوازم البشر، ومن الدلائل على نقصهم، ولذلك لا يستطيع أحد منهم أن يدبر شؤون العالم، وقد علم الله سبحانه أن بعض البشر سيزعمون أنه يوجد رجل في كل زمان يسمى (القطب الفرد) ينوب عن الله تعالى في جميع مملكته ويدبر شؤونها، فلا تتحرك ذرة في العالم إلا بإذنه، انظر تفاصيل خبره في كتابي «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية»[2] فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فكيف يستطيع هذا (القطب) المزعوم أن يدبر شؤون العالم عند النوم، ونفي السنة والنوم، من نفي النقائص عن الحي القيوم.

الجملة الرابعة: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ملكاً وخلقاً وعبيداً متصرفاً فيهم، والمملوك المخلوق العبد، لا يكون إلهاً معبوداً أبداً، ففيه ردّ على المشركين.

الجملة الخامسة: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، نفي للشفاعة الشركية التي يشفع الشافع فيها لدى المشفوع عنده؛ لأنه قريب، وله حق عليه كالوالد عند ولده، أو بالعكس، أو لأنه صديقه، أو قائد جيشه، أو وزيره الأعظم الذي يعينه على تدبير ملكه، والمشركون الجاهلون يظنون، بل يعتقدون أن شفاعة الشفعاء عند الله من هذا القبيل، وتعالى الله أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه[3].

---

(١) انظر ما قدمناه عنها (ص٢٢٤). (٢) انظر منه (ص٤٧ ـ ٥٢، ط. الأولى).

(٣) فصل ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» (١/ ٣٤١ ـ ٣٤٣) في موضوع الشفاعة، وتكلم عن حال (الضالين) الذين أكثر المصنف من ذكرهم وردّ عليهم، وأسوق لك ـ أخي القارئ ـ كلام ابن القيم عنهم، لتعلم أن المصنف مسبوق بأحكامه ومواقفه الآتية، =

....

= وحتى لا تتهم المصنف كَلَلهُ بالشدّة وعدم اللين، أو الغلو والتعصب وعدم الإنصاف، قال مبيّناً جهل أبناء زمانه في (الشفاعة): «ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه وليّاً أو شفيعاً: أنه يشفع له، وينفعه عند الله. كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم. ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله. كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ؟﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقي فصل ثالث؛ وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟».
فهذه ثلاثة أصول؛ تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه. ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله. ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فالله تعالى: لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة، كما في الآية الأخرى ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]، وكما في آية البقرة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].
ترى المشرك يكذب حالُه وعملُه قولَه، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسوّيهم بالله، ثم يغضب لهم ولحرماتهم ـ إذا انتهكت ـ أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به، سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهمُ البابُ بين الله وبين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح ويُسَرُّ وَيَحِنُّ قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وَجَرَّدْت توحيدَه لحقتْه وَحْشَة، وضيق، وحرج ورماك بنقص الإلٰهية التي له، وربما عاداك.
رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله. وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ، لما قال لهم: «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقصت المسيح وَعِبْته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها.
فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].
وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلَّقَ بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله وليّاً، أو شفيعاً. فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ =

الجملة السادسة: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: هو محيط علماً بجميع أمور العباد من الأزل إلى الأبد، ولا يتصف أحد بهذه الصفة سواه.

الجملة السابعة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، أي: كل من سوى الله تعالى من المخلوقين لا يعلم من علم الله تعالى إلا ما علمه الله، وما سوى ذلك يخفى عليه، ويدعي كثير من المشركين في هذا الزمان أن النبي ﷺ يعلم كل ما يعلمه الله، وهذا كفر بإجماع المسلمين، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ في (سورة الأنعام) بيانه، ويزعمون أن آلهتهم التي يسمونها بالأولياء تعلم الغيب، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

الجملة الثامنة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قد تقدم بيان معناها بما لا يحتاج إلى مزيد.

الجملة التاسعة: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، كل من وكل إليه حفظ شيء من

= وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربعة: إما مَالِكٌ لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظَهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفَى الْمِلْكَ، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك وموَادِّهِ لمن عَقَلَهَا. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها. ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يُعْقِبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناولُ القرآن لهم كتناوله لأولئك».

قال أبو عبيدة: فصل الهلالي ـ رحمه الله تعالى ـ في تناول القرآن لمن يفعل الشرك تحت الآيات التي تخصهم على وجه ظاهر قويّ، وصرح فيه بضرورة إقامة الحجة، وقرر أنه لا يلزم كل من وقع في الشرك أن يكون مشركاً، فليكن ذلك على بالك في جميع تقريراته الآتية، والله الهادي.

المخلوقين يثقل عليه، ويحتاج فيه إلى اهتمام وتعب، والله تعالى يحفظ السمٰوات والأرض، يحفظ عليهما وجودهما، ويمدهما بكل ما تحتاجان إليه، ويحتاج إليه من فيهما دون أن يلحقه في ذلك أي مشقة أو تعب.

الجملة العاشرة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وتقدم معنى العلو الثابت له تعالى، والعظيم الذي لا يماثله أحد في عظمته.

الفائدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾. اعلم أن من يدين بالإكراه لا ينتفع بذلك الدين؛ لأنه لم يؤمن به، ولا ينتفع أهل ذلك الدين به، بل يعيش بينهم جاسوساً يتربص بهم الدوائر، أما حديث: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**»[(١)]. فهم لم يقودوهم ليدخلوهم في دين الإسلام كرهاً، وإنما قادوهم أسارى بأمر الله تعالى، وتطبيقاً لقواعد الحرب، فلما دخل أولئك الأسارى إلى بلاد الإسلام، رأوا نور الإسلام وأخلاقه وفضله، فانشرحت صدورهم، ودخلوا فيه باختيارهم، وكذلك حديث ثمامة بن أثال[(٢)]: حين قبضت عليه خيل النبي ﷺ، وربط إلى سارية من سواري المسجد ثلاثة أيام، فأطلق النبي ﷺ سراحه، ولم يكرهه على الإسلام، ولكن ما شاهده في المسجد من نور الإسلام وأخلاق الإسلام، أخذ بمجامع قلبه، فخرج إلى حائط من حوائط المدينة، فاغتسل، ورجع إلى النبي ﷺ، وقال له: والله لقد جئت هذا البلد وما على وجه الأرض بلد أبغض إليَّ منه، والآن ما على وجه الأرض بلد أحب إليَّ منه، وقد جئتك وما على وجه الأرض أبغض إليَّ منك، والآن ما على وجه الأرض أحد أحب إليّ منك، فمرني بأمرك؟» الحديث. **والمسلمون في هذا الزمان هم أكبر مانع لغيرهم من الدخول في الإسلام، لعدم تمسكهم بالإسلام، وانحرافهم عن جادته، وبعدهم عن أخلاقه**، حكى لي العالم السلفي عبد الكريم الصاعقة[(٣)] البغدادي رحمه الله: أنه كان جالساً في سطح المسجد، وهو يرى صاحب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) هو الشيخ العالم العلامة، بقية السلف، ومحدث بغداد، والمسند الممجد، صاعقة أوانه في حفظه واتباعه وإتقانه، الثقة الشيخ السيد: عبد الكريم بن السيد عباس بن ياس آل الوزير الحسني نسباً، اليماني أصلاً، البغدادي الأزجي الشيخلي مولداً، السلفي الأثري الرباني معتقداً ومنهجاً ومسلكاً، ولد سنة ١٢٨٥هـ. للشيخ سليمان بن سحمان رسالة أرسلها له تراها في «الدرر السنية» (٨/ ٢٦٦)، ومنها يظهر معتقد شيخنا الصاعقة. =

دكان من تجار الصابئة يسمع القرآن من الإذاعة، فجاءه شخص من المحسوبين على الإسلام، فقال له: لماذا تسمع القرآن وأنت صابئ؟ فقال له: لأني أحبه. فقال: إذا كنت تحب القرآن فما يمنعك من الإسلام؟ فقال: منعني من الإسلام أنت وأمثالك؛ يعني: أنه يكره أن يدخل في دين الإسلام وينضم إلى أدعياء الإسلام، لفساد أخلاقهم، وعدم تطبيقهم لأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

الفائدة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، اعلم أن الجهال وأصحاب الأغراض الفاسدة من زنادقة المتصوفة وجهلتهم حرّفوا معنى ولي الله، فزعموا أن ولي الله هو الذي ينظر بعين بصيرته إلى الحقيقة، والحقيقة عندهم هي أصل الدين، والشريعة إنما هي ظواهر شرعت للعامة، أما الولي فلا يتقيد بها، فيتبع الحقيقة، قالوا: وكثيراً ما تكون الحقيقة مخالفة للشريعة، كالخلوة بالأجنبية مثلاً، فإنهم يحلّونها للولي، وإن حرمها الشرع، ويضربون لذلك مثلاً بقصة موسى والخضر، ويزعمون أن الخضر كان مطلعاً على الحقيقة؛ لأنه كان من الأولياء، وموسى لم يكن مطلعاً على الحقيقة لأنه كان رسولاً نبياً يتبع ما يوحى إليه، فخرق السفينة وقتل الغلام كان محرماً في شريعة موسى من الذنوب الكبائر، ولكن الخضر كان يعرف الحقيقة، وأن ذلك ليس محرماً، بل فيه خير وصلاح، فلما أخبر الخضر موسى بحقيقة ذلك، سلم له أمره، ولم يعترض عليه[1]، فكذلك ينبغي للمسلمين إذا رأوا ولياً معروفاً عند العامة بالولاية، أو

= توفي رحمه الله سنة ١٣٧٩هـ ـ الموافق ١٩٥٩/١٢/٧م، على إثر ورم في رأسه، أدى فيما بعد إلى وفاته. له كتب كثيرة، منها: «أصول الحديث»، و«رسالة في مختلف الحديث» و«رسالة في أصول الفقه»، و«معارضة الحنفية لأقوال خير البرية»، و«نظرات في التفسير»، كشف فيه عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات، والتفاسير الباطنية والصوفية. حدثني تلميذه الشيخ صبحي السامرائي أنه كان يستظهر «الكتب الستة»، وكان الهلالي يخطب في جامع الدهان قرب محلة الأعظمية برصافة بغداد، وكان الصاعقة يحضر عنده الجمع والعيدين، وهو من أعز أقرانه وإخوانه، وصار هذا المسجد فيما بعد منطلقاً لشرارة السنة، ونصرة دين الحق.

(١) وقع لبعض الجهلة: إن من الأولياء مَن يسوغُ له الخروج عن الشريعة النبويَّة؛ كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، وإنه قد يكون للولي من المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها!!

وهذا من أعظم الجهالات والضلالات، بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر؛ فإنه قد عُلِم بالاضطرار من دين الإسلام أن رسالة محمد بن عبد الله ﷺ لجميع الناس؛ =

= عربهم وعجمهم، وملوكهم وزهادهم، وعلمائهم وعامَّتهم، بل لعامة الثقلين؛ الجن والإنس، وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين وما سنَّه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات، بل لو كان الأنبياء المتقدِّمون قبله أحياء؛ لوجب عليهم متابعته ومطاوعته؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال ابن عباس: «ما بَعَثَ الله نبيّاً إلا أخذ عليه الميثاق؛ لئن بُعِث محمدٌ وهُو حيٌّ؛ ليؤمنَنَّ به ولينصرَنَّه، وأمره بأخذ الميثاق على أمَّته لئن بُعِثَ محمدٌ وهو حيٌّ؛ ليؤمنُنَّ به ولينصرُنَّهُ».

بل قد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن المسيح عيسى ابن مريم إذا نزل من السماء؛ فإنه يكون متَّبعاً لشريعة محمد ﷺ، فإذا كان ﷺ يجب اتباعه ونصره على من يدركه من الأنبياء؛ فكيف بمن دونهم؟

بل مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته دعوته أن يتَّبع شريعة رسولٍ غيرِه؛ كموسى وعيسى، فإذا لم يَجُزِ الخروجُ عن شريعته إلى شريعة رسولٍ؛ فكيف بالخروج عنه وعن الرسل؟!

قال الله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧].

ومما يبيِّن الغلطَ الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته، بل قد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أن الخضر قال له: **«يا موسى! إني على علم من علم الله علَّمنيهِ الله لا تعلمُه، وأنت على علم من علم الله علَّمَكَهُ الله لا أعلَمُه»**.

وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة، وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال فيما فضَّلَهُ الله به على الأنبياء؛ قال: **«كانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس عامة»**.

فدعوة محمد ﷺ شاملة لجميع العباد، ليس لأحدٍ الخروجُ عن متابعته وطاعته، ولا استغناء عن رسالته؛ كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته مستغنياً عنه بما علَّمه الله، وليس لأحدٍ ممَّن أدركه الإسلامُ أن يقول لمحمد ﷺ: إني على علم من علم الله علَّمَنيهِ الله لا تعلَمُهُ!! ومَن سوَّغَ هذا، أو اعتقد أنَّ أحداً من الخلق - الزُّهَّاد، والعبَّاد، أو غيرهم - له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعته؛ فهو كافر باتِّفاق المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا. =

. . . .

= وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة، ولهذا لما بيَّن الخضرُ لموسى الأسباب، التي فعل لأجلها ما فعل؛ وافقه موسى، ولم يختَلِفا حينئذٍ، ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى؛ لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقعُ للمؤمنين بأن يختصَّ أحدُ الشخصين بالعلم بسببٍ يبيحُ له الفعلَ في الشريعة، والآخر لا يعلم ذلك السبب ـ وإنْ كان قد يكون أفضلَ من الأوَّل ـ؛ مثل شخصين دخلا إلى بيت شخصٍ، وكان أحدُهما يعلم طيبَ نفسه بالتصرُّف في منزله، إما بإذن لفظيٍّ أو غيره، فيتصرَّفُ، وذلك مباحٌ في الشريعةِ، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرَّف.

وخَرْق السفينة كان من هذا الباب، فإن الخضر كان يعلم أنَّ أمامهم ملِك يأخذ كل سفينة غصباً، وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة ـ إذا علموا ذلك ـ أن يخرقوها؛ لئلا يأخذها الملك؛ لأن بقاءها مع الخرق فيها خير من انتزاعها منهم.

وكذلك قتل الغلام كان من باب دفع الصَّائل على أبويه؛ لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما، وقتلُ الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين، بل يجوز قتلُهم لدفع الصَّول على الأموال، ولهذا ثبت في «صحيح البخاري» أنَّ نجدةَ الحروريَّ لما سأل ابنَ عباس عن قتل الغلمان؛ قال: «إنْ كنتَ تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام؛ فاقتلهم، وإلا؛ فلا تقتلهم».

وكذلك في «الصحيحين» أن عمر لما استأذن النبيَّ ﷺ في قتل ابن صياد ـ وكان مراهقاً ـ لما ظنَّه الدَّجالَ، فقال: «**إنْ يَكُنْه؛ فلن تسلَّط عليه، وإن لم يكنْهُ؛ فلا خير لك في قتله**».

فلم يقل: **إن يكنه**؛ فلا خير لك في قتله، بل قال: «**فلن تسلَّط عليه**»، وذلك يدلُّ على أنه لو أمكن إعدامُه قبل بلوغه لِقَطْع فسادِه؛ لم يكن ذلك محذوراً، وإلا كان التعليل بالصغر كافياً، فإنَّ الأعمَّ إذا كان مستَقِلّاً بالحكم؛ كان الأخص عديم التأثير.

وأما بناء الجدار؛ فإنما فيه ترك أخذ الجُعْل مع جوعهم، وقد بيَّن الخضر أنَّ أهله فيهم من الشيم وصلاح الوالد ما يستحقُّون به التَّبرع، وإنْ كان جائعاً.

والمقصود من هذا كله: أنه ليس في قصة الخضر ما يسوِّغُ مخالفة رسول الله ﷺ لأحد من الخلق، أفاده ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٢٠ وما بعدها).

ولله درُّ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ فقد قال فيما نقلَهُ عنه تلميذُهُ الإمام القرطبيُّ المفسِّرُ في تفسيره: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٤٠ ـ ٤١) ما نصُّه: «ذهب قومٌ من زنادقة الباطنيَّة إلى سلوك طريقٍ تلزم منه هدم الأحكام الشرعية، فقالوا: **هذه الأحكام الشرعية العامةُ إنما يُحْكَمُ بها على الأغبياء والعامَّة!!** وأما الأولياء وأهل الخصوص؛ فلا يحتاجون إلى تلك النُّصوص!! بل إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم!! ويُحْكَمُ عليهم بما يغلب على خواطرهم!!

وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلَّى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، =

= فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات؛ كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلّى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم!!
وقد جاء فيما ينقلون: استفتِ قلبَكَ وإنْ أفتاكَ المُفتون!».
قال الإمام القرطبيُّ: «قال شيخنا ﷺ: وهذا القول زندقةٌ وكفرٌ، يُقتَلُ قائله، ولا يستتاب؛ لأنَّه إنكار ما عُلم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنَّته وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسالة السُّفراء بينَه وبينَ خلقه، وهم المبلِّغون عنه رسالته وكلامه، المبيِّنون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصَّهم بما هنالك؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥﴾ [الحج: ٧٥].
وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].
وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]... إلى غير ذلك من الآيات.
وعلى الجملة؛ فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، وإجماع السَّلَف والخلف على أن لا طريقة لمعرفة أحكام الله تعالى، التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرف شيءٌ منها؛ إلا من جهة الرسل، فمَن قال: إنَّ هناك طريقاً آخر يُعرف بها أمرُه ونهيه غير الرسل، بحيث يستغني عن الرسل؛ فهو كافر، يُقتل ولا يُستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب.
ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبيِّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبيَّ بعده ولا رسول.
وبيان ذلك أن مَن قال: يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه هو حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة؛ فقد أثبت لنفسه خاصَّة النبوَّة». اهـ.
وانظر من: «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٩).
وقال الشيخُ عليُّ القاري ـ رحمه الله تعالى ـ في «المقدمة السالمة في خوف الخاتمة» (ص١٩ ـ بتحقيقي).
«لا اعتبار لمكاشفات الأولياء، ومحاضرات الأصفياء، بحيث يُعتمد عليها بالكليَّة في الأمور الشرعيَّة، أو في الأطوار الحقيقية، فإنَّ الإنسان ما دام في هذه الدَّار المشوبة بالأكدار، لا تصفى له الأسرار، ولا تتجلى له الأنوار؛ بخلاف الأنبياء الأبرار، والرسل الكبار، ولذا قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢﴾ [ق: ٢٢]. وانظر في هدم الكشف: «القائد لتصحيح المعقائد» (ص٣٧ وما بعدها)، «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٥/ ٤٩١)، «الجواب الصحيح» (٢/ ٩٢).
ومما لا ينبغي أن ينسى في هذا المقام أنه وقع لبعض الجهلة مغلطة عظيمة، فقال: إن الخضر أفضل من موسى؛ تمسُّكاً بهذه القصَّة وبما اشتملت عليه.
وهذا إنما يصدر ممَّن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر فيما خصَّ الله به موسى عليه السلام =

مدَّعياً لها، يرتكب شيئاً من المحرمات كالزنا وشرب الخمر، لا ينبغي لهم أن يعترضوا عليه، وأشاعوا ذلك بين جهال المسلمين، حتى استقر في أذهانهم وألفوه، وينشدون من أشعارهم قول بعضهم(١):

وكُنْ عنده كالميت عند مُغَسِّل ... يقلِّبه ما شاء وهو مطاوعُ

ويقولون: من قال لشيخه: لم؟ لا يفلح أبداً، ويقولون: إذا رأيت امرأة جميلة دخلت على شيخك، فقم سخن الماء ليغتسل، وإياك أن تظن به إلا خيراً، وفي كتاب «الإبريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ»(٢) لمؤلفه أحمد بن مبارك اللمطي المغربي هذه الحكاية: زعم أن شيخه رواها له، قال: قال ﷺ: كان لأحد الشيوخ مريد مخلص، وطالت خدمته بإخلاص وتعظيم، فأراد أن يمتحنه ليعطيه الولاية إذا نجح في الامتحان، فقال له: يا فلان: أتحبني؟ قال: نعم أحبك بدون حد، فقال: أرأيت لو أمرتك بأمر أتطيعني؟ فقال: يا سيدي لا يمكن أن أعصي أمرك أبداً، فقال: لو قلت لك: اذهب الآن إلى والدك واضرب عنقه وأتني برأسه أتفعل ذلك؟ فقال له: سوف ترى، وذهب في الحال إلى بيت أبيه فوجده يجامع أمه، فقطع رأسه وجاءه به في مخلاة، ووضعه أمامه، فقال له

= من الرسالة، وسماع كلام الله، وإعطائه التوراة، فيها علم كل شيء، وأنَّ أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوَّته، حتى عيسى عليه السلام، وأدلّة ذلك في القرآن كثيرة، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ومن ثَمَّ؛ فإن الخضر، وإن كان نبيّاً؛ فليس برسولٍ اتفاقاً، والرسولُ أفضلُ مِن نبيٍّ ليسَ برسول، ولو تنزَّلنا على أنه رسول؛ فرسالة موسى أعظم، وأمته أكثر، فهو أفضل، وغاية الخضر أن يكون واحداً من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم.

وإن قلنا: إنَّ الخضر ليس بنبيٍّ بل وليّ، فالنبيُّ أفضل من الوليّ، وهو أمر مقطوعٌ به عقلاً ونقلاً، والصائر إلى خلافه كافر؛ لأنه أمر معلومٌ من الشرع بالضرورة، وإنما كانت قصة الخضر مع موسى عليه السلام امتحاناً لموسى ليعتبر، انظر: «فتح الباري» (١/ ٢٢١)، وقال ابن حجر في «الزهر النضر في نبأ الخضر» (٢/ ٢٣٤ ـ مطبوع مع «الرسائل المنيرية»): «والذي تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية، خلاف ما يعتقده العوام من استمرار حياته» ثم قال: «والذي لا يتوقف فيه الجزم بنبوّته».

(١) قائله عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني (٧٦٧ ـ ٨٣٢هـ) أو (١٣٦٥ ـ ١٤٢٨م).

(٢) الكتاب مطبوع، رأيته في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة النبويّة، والمصنف أكثر من انتقاده وبيان طاماته، ومخالفته العقيدة الصحيحة.

الشيخ: ما هذا؟ فقال المريد: هذا الذي أمرت به، فقال: ما أمرتك بشيء؟ وإنما سألتك سؤالاً؟ فقال له: إن كلامك عندي كله حق، ليس فيه تأويل ولا مجاز، وهذا رأس أبي أمامك، فغضب عليه وقال له: كيف ترتكب هذا الجرم العظيم لمجرد سؤال ألقيته عليك؟ فأعاد عليه قوله من أن كلامه عنده لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما كنت أظنك غبياً إلى هذا الحد، هات القنديل، فلما جاء المريد بالقنديل، وأخرج الرأس من المخلاة، وجده رأس نصراني كان يزني بأمه، فعلم بذلك الشيخ من طريقة علم الغيب، وأراد أن يصيد عصفورين بحجر واحد، **الأول**: امتحان مريده هل بلغ من طاعته إلى الحد الذي يستحق أن يمنح الولاية، **والثاني**: أن يقتل ذلك النصراني الذي هتك حرمة والدته عقاباً له، ويحكون من أمثال هذه الحكاية كثيراً ليضلوا الناس، ويعطلوا العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، انظر كتابي «الهدية الهادية، إلى الطائفة التيجانية»(١).

وهذه الحكاية الملعونة يبرأ منها الله ورسوله، وجميع المسلمين الذين يعرفون ما هو الإسلام، سواء كانوا صوفية أو فقهاء، أو أهل حديث، فقد قال الجنيد رحمه الله وهو سيد الطائفة: «أمرنا هذا ـ يعني التصوف ـ مبني على أربعة أمور، **أولها**: اتباع السنة، والوقوف عند حدود الشريعة، **وثانيها**: أكل الحلال، **وثالثها**: كف الأذى، **ورابعها**: حمل الأذى». وقال: «إذا رأيتم الرجل يطير في السماء، أو يمشي على الماء، فلا تعتبروه شيئاً، حتى تنظروا إلى تمسكه بالكتاب والسنة»(٢)، وقد ألف الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية كتاباً سماه «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان»(٣).

وحكى لي الثقة الصادق السيد محمد المؤذن، وكان من أعيان تطوان

---

(١) انظره (ص١٢٩ وما بعد) وقال الهلالي فيه عن صاحب «الإبريز»: «حشاه بالأكاذيب»، وأورد نصوصاً في الاقتصار على الطاعة بالمعروف. ثم قال: «وماذا عسى أن يكون هذا الشيخ؟ الواصل إلى الدرك الأسفل من ولاية الشيطان وعداوة الرحمٰن حتى يطاع طاعة مطلقة».

(٢) ستأتي العبارتان في (٣/ ٢٣٦)، وبيّنتُ هناك أن قائلهما غير الجنيد، والظاهر أن المصنف ينقل من حفظه، والحفظ يخون، والله أعلم.

(٣) طبع أكثر من مرة، أحسنها طبعة دار الفضيلة، بتحقيق الشيخ الدكتور عبد الرحمٰن اليحيى، وهي مقابلة على ست نسخ خطية.

المتمسكين بالسنة بعدما دعوت الناس إليها من سنة إحدى وستين وثلاثمائة وألف إلى سنة ست وستين وثلاثمائة وألف، حكى: إن مجذوباً ـ «المجذوب» عندهم: هو الذي فَقَدَ عقلَه، وصار يمشي عرياناً، ولا يتقيد بشيء من العبادة ولا من المروءة، وهذا عندهم معظَّم من كبار الأولياء الذين جذبهم الحق إلى حضرة محبته لهم بدون عبادة، ويقسّمون الأولياء إلى مجذوب، وسالك. فالسالك: هو الذي يسلك الطريقة والشريعة، ويؤدي الواجبات والنوافل حتى يصل إلى الولاية على يد شيخ من شيوخ المتصوفة ـ أخبرني أن مجذوباً ومجذوبة كانا في مدينة تطوان يمشيان في الأسواق عريانين، ويتكلّمان بكلام لا يفهم، وفي يوم من الأيام وثب المجذوب على المجذوبة في وسط السوق، فأضجعها وزنا بها، والناس ينظرون، ولم يستطع أحد أن ينبس ببنت شفة، بل أخذهم رعب وخوف عظيم، وتأولوا ذلك على أن أمراً عظيماً سيحدث، وبعد ذلك بأيام، انهزم الجيش المغربي أمام الإسبانيين حتى دخل الإسبانيون تطوان واستولوا عليها، ففسر الناس ذلك الزنا الذي وقع بين المجذوب والمجذوبة باستيلاء الإسبانيين على تطوان، **فهل مثل هؤلاء مسلمون حقاً يرضى الله دينهم وعقيدتهم وينصرهم على أعداء الإسلام؟ ألا لا، ثم لا**، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣] **ومن بلغ في الجهل بالإسلام إلى ذلك الحد فحاشا لله أن يكون من المؤمنين، وأن يستحق النصر على الكافرين**، والله سبحانه وتعالى يبين لنا معنى من هم أولياؤه بياناً شافياً وافياً، وقال تعالى في سورة يونس: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤] فأخبر سبحانه أن الإيمان والتقوى شرط في ولايته، وأن أولياءه لهم علامات، منها البشرى في الحياة الدنيا، بالنصر والتأييد والاستقامة، والاجتماع على كلمة الحق والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك، ولذلك قال هنا سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يتولاهم دائماً ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ في حياتهم الدنيا وفي الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي: الشياطين

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الفائدة السادسة: محاجة إبراهيم لنمرود، ملك بابل: هي من الآيات الدالة على توحيد الربوبية، وآية الكرسي نفسها، مشتملة على توحيد العبادة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وعلى توحيد الربوبية فيما بعد ذلك.

الباب الثامن عشر

قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧٢]

قال (ك): «قال أبو عبد الرحمن النسائي بسنده: عن ابن عباس، قال: «كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم»»[(١)].

قال محمد تقي الدين: الرضخ: هو العطاء القليل، وفي هذا الزمان قلب معناه جهال الكتاب، فصاروا يقولون: رضخ له، يعني أذعن وخضع له، **وهذا زمان محنة اللغة العربية وشقائها بالمتكلمين بها**، وفي هذا الحديث دليل على جواز الإحسان إلى الكافر إذا كان قريباً، وكذلك إذا كان بعيداً، قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]. فعلى هذا يجوز الإحسان إليه.

ثم قال (ك): بسنده[(٢)] إلى ابن عباس عن النبي ﷺ: «**إنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾** إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين»[(٣)].

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٠٥٢)، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٣٩) بنحوه، وتمام تخريجه فيما يأتي قريباً.

(٢) عند ابن كثير (٢/ ٤٧٦) بسند ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الفريابي ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٨٦) ومن طريقه النسائي في «الكبرى» (٦/ رقم ١١٠٥٢) ـ، وابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨) رقم (٢٨٥٣)، وابن جرير (٣/ ٦٣)، وابن المنذر (١/ ٤٠) في «تفاسيرهم»، والطبراني (١٢/رقم ١٢٤٥٣) ـ ومن طريقه الضياء =

قال محمد تقي الدين: وهذا كله في صدقة التطوع، أما الزكاة المفروضة فقد بيّن الله تعالى من تصرف لهم في سورة التوبة، فلا يعطاها الفقير الكافر إلا إذا كان من المؤلفة قلوبهم، لقول النبي ﷺ في حديث معاذ حينما بعثه إلى اليمن: «**ثم أخبرهم أن الله قد افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنياءهم فترد على فقراءهم**»(١)، أي على فقراء المسلمين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. قال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله، وهذا معنى حسن، وحاصله: إن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب، ألِبَرٍّ أو لفاجرٍ، أو مستحقٍ(٢) أو غيره، وهو مثاب على قصده ومستند(٣) هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] والحديث المخرج في «الصحيحين»(٤) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها بيد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فوضعها في يد غنيّ! فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غنيٍّ، فقال: اللهم لك الحمد على غنيٍّ، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقُبِلت، أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته**».

قال محمد تقي الدين: قد علمنا سبب نزول هذه الآية وما فيها من الأحكام

= المقدسي في «المختارة» (١٠/ ٧٦ ـ ٧٧) رقم (٦٨، ٦٩) ـ، والبزار (٢١٩٣ ـ زوائده)، والحاكم (٢/ ٢٨٥ و٤/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، والبيهقي (٤/ ١٩١)، **وإسناده صحيح**، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٨٦) لابن مردويه.

(١) أخرجه مسلم (١٩) من حديث ابن عباس.

(٢) في الأصل: «مستحقاً».

(٣) في الأصل: «ومستنده».

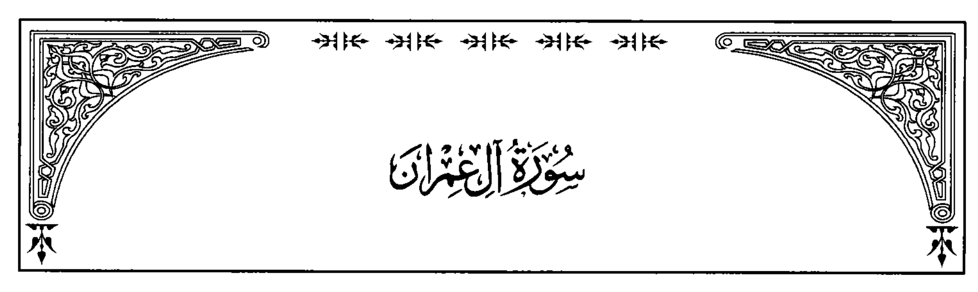
(٤) أخرجه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢).

والحكم، وهناك أمر آخر لم يذكر من قبل، وهو أن هداية القلوب ليست واجبة على النبي ﷺ ولا هي مقدورة له، قال تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]. فهداية النبي ﷺ للبشر، إنما هي تبليغه إياهم ما أمر بتبليغه قولاً وعملاً على أحسن وجه، وقد فعل ذلك، وبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين، صلوات الله وسلامه عليه، ولكن الضُّلّال المتصوفة يزعمون: أن الشيخ الكامل يتصرف في قلب مريده وينقله من الضلال إلى الهدى، وبنظرة واحدة ينظرها إليه يصير ولياً، وفي «جواهر المعاني» و«كتاب الرماح» زعموا: أن الشيخ التيجاني قال لهم: «قال لي سيد الوجود ﷺ: بعون ربي أكون معك يوم الاثنين ويوم الجمعة، فكل من رآك في هذين اليومين، وقال: أشهد بأني رأيتك، يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب»[(١)]. فلم يقتصر على رؤية الشيخ للمريد، وهدايته له بالنظر، حتى جعلوا كل من رأى الشيخ يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، ألم يعلموا أن أبا طالب عم النبي ﷺ كان يرى النبي ﷺ ويراه كل يوم لمدة طويلة، وكان النبي ﷺ حريصاً على هدايته وإنقاذه من النار ودعاه إلى الإسلام جهده فلم يستجب، ومات كافراً، فحزن عليه النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، فقال النبي ﷺ: **«لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»**[(٢)]، فأنزل الله تعالى في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

---

(١) علق المصنف على هذا القول في كتابه «الهدية الهادية» (ص٧٤) بقوله: «لا يستطيع أحد أن يعتقد هذا الخبر إلا إذا تجرد من العقل والدين والمروءة...».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).



الباب الأول

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: ١ ـ ٦]

قال (ك): «قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ١، ٢]، عند تفسير آية الكرسي وقد تقدم الكلام على قوله: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وتقدم[1] الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] في تفسير آية الكرسي. وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣] يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله[2]، ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣] أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدق[3] بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أيضاً».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عز وجل».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تصدقه».

محمد صلى الله عليه[1] وسلم[2]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ﴾ [آل عمران: ٣] أي: على موسى بن عمران ﴿وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] أي على عيسى ابن مريم عليه السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ [آل عمران: ٤] أي: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٤][3] في زمانهما ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤] وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل والغي والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيّنات[4] والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعة[5]، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشده إليه [ينبهه][6] عليه من ذلك، وقال قتادة والربيع بن أنس: «الفرقان هٰهنا: القرآن»[7] واختار ابن جرير[8] أنه مصدر هٰهنا لتقدم ذكر القرآن في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣] وهو القرآن[9] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥] أي: جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: ٥] أي: يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ [آل عمران: ٥] أي: منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٥] أي: ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام».

ثم قال (ك): «يخبر تعالى أنه يعلم غيب السمٰوات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] أي: يخلقكم [في الأرحام كما يشاء][10]، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] أي: هو الذي خلق، وهو

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وآله».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وإنزال القرآن العظيم عليه».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والبيان»!
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القاطعات».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ينبّه».
(٧) أخرجه ابن جرير (٥/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٥٨٨) رقم (٣١٤٥ - ٣١٤٦)، وابن المنذر (١/ ١١٥) رقم (٢١١ - ٢١٢) في «تفاسيرهم»، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٤٣) إلى عبد بن حميد.
(٨) انظر: «تفسيره» (٥/ ١٨٢).
(٩) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي صالح، أن المراد هاهنا بالفرقان: التوراة، فضعيف أيضاً لتقدم ذكرها والله أعلم».
(١٠) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما يشاء في الأرحام».

المستحق [للألوهية][(١)] وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام والحكمة والأحكام، وهذه الآية فيها[(٢)] تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوّره في الرحم، وخلقه كيف يشاء، فكيف يكون إلٰهاً كما زعمته النصارى[(٣)]، وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]»[(٤)].

قال محمد تقي الدين: ابتدأ الله هذا الكلام بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران: ٢] فنزه نفسه عن الشرك لينزه عباده عنه، وختمه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] وذكر فيما بينهما إنزال الكتب من السماء «هدى» ورحمة للمؤمنين، وأخبر أن الذين كفروا بهذه الكتب وبمن جاء بها لهم عذاب شديد، يعني في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٤] أخبر سبحانه أنه العزيز الذي لا يغالب، ومن تمسك بطاعته وتوحيده ضمن له العزة الأبدية، وأخبر سبحانه أنه ذو انتقام من المرتدين والجاحدين، وأخبر ﷻ ومن دلائل ربوبيته أنه ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وأنه يخلق عباده ويصورهم في الأرحام كيف يشاء، فكيف تصرف الوجوه إلى غيره؟! وكيف يتوجه الداعي بدعائه إلى سواه؟! ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

الباب الثاني

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإلهية».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعريض بل».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥ ـ ٧).

حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨ ـ ٢٠]

قال (ك): «شهد تعالى ـ وكفى به شهيداً ـ، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه وهو الغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ﴾ [النساء: ١٦٦] الآية. ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ منصوب على الحال، وهو في جميع الأحوال، كذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يرام [جناب عظمته وكبريائه](١)، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وقال الإمام أحمد(٢) بسنده عن الزبير بن العوام: قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨] **«وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب»**»(٣).

«وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩] إخبار منه تعالى(٤) بأنه لا دين عنده يُقْبَلُ(٥) من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ؛ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة النبي ﷺ بدين(٦) على غير شريعته

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جنابه عظمة وكبرياء».
(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢٤٦ ـ آل عمران)، والطبراني (٢٥٠)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٣٥) **وإسناده ضعيف**، فيه مجاهيل، هم: أبو سعد الأنصاري، وأبو يحيى مولى آل الزبير، وجبير بن عمرو القرشي، وأشار إليهم الهيثمي بقوله في «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٢٨) ـ وعزاه إلى أحمد وبنحوه للطبراني ـ: «وفي أسانيدهما مجاهيل»، وكذا قال العلامة أحمد شاكر في تحقيقه لـ«المسند» (١٤٢١).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٤ ـ ٣٥).
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من الله تعالى».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقبله».
(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يدين» بياء آخر الحروف أوله!

فليس بمُتقبَّل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] الآية، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ «أنَّ» ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾(١)، أي: شهد هو والملائكة وأولو العلم من البشر، بأن الدين عند الله الإسلام(٢)، ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب(٣) إنما اختلفوا بعد ما قامت(٤) الحجة بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ أي: بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: فإن الله سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ أي: جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له، ولا ند له، ولا ولد له، ولا صاحبة له ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أي: على ديني، يقول: كمقالتي، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] ثم قال تعالى: آمراً [عبده](٥) ورسوله

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف» (ص٥٩)، وذكره ابن جرير في «التفسير» (٥/ ٢٧٦)، وينظر: «البحر المحيط» (٢/ ٤٠٣)، و«المحتسب» (١/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، و«الكشاف» (١/ ٣١٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٣١٦)، و«الدر المصون» (٢/ ٤١)، و«روح المعاني» (٣/ ١٠٤)، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بكسر (إن) وفتح (أن الدين عند الله الإسلام)».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والجمهور قرؤوها بالكسر على الخبر وكلا المعنيين صحيح، ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم»، وانظر: «النشر» (٢/ ٢٣٨)، «الحجة» لابن خالويه (١٠٧)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٣٨)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢٨٤)، والهامش السابق.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأول».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لعبده».

محمداً ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به إلى الكتابيين من الصليبيين[1] والأميين من المشركين، فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، أي: والله عليه حسابهم، وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وله الحكمة [البالغة][2] والحجة الدامغة[3]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾»[4].

قال محمد تقي الدين: في هذه الباب فوائد، **الأولى**: إن الله وملائكته وأهل العلم بالله من جميع الأديان التي شرعها الله، وهي في الحقيقة دين واحد وهو الإسلام، يشهدون أن لا معبود بحق إلا الله، وكل من عبد من دونه ـ ولو كان نبياً، ولو كان ملكاً، ولو كان شهيداً، ولو كان صديقاً ـ فعبادته باطلة، ومن عبده فهو من أهل النار خالداً فيها أبداً، إن لم يتب قبل موته.

الفائدة الثانية: إن الله ﷻ كرر قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، مرتين في موضع واحد للتوكيد.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ المراد بالإسلام هنا توحيد الله تعالى بالقلب والجوارح، وتوجيه الوجه له لا شريك له، والإسلام هنا يشمل الإيمان بالقلب واللسان والعمل.

الفائدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ يعني بالذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى، وبالأميين: المشركين، ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾؟ أي: وحّدتم الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، واتباع من بعث إليكم من رسله، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾، أي: وحّدوا الله تعالى على هذه الصفة، ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ إلى الحق، وإن أعرضوا عن هذا الإسلام، فحسابهم وعقابهم على الله، وليس عليك يا محمد إلا البلاغ، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: عليم بأحوالهم، وسيجزيهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الملتين».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في ذلك».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «البالغة».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦ ـ ٣٧).

الباب الثالث

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٤]

قال (ك): «يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ حيث خلقه[1] من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرىٰ، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فيجوز[2] في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه[3] في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى[4]، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقال هنا[5]: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإن الله تعالى خلقه...».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فجواز ذلك».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فدعواها».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هاهنا».

﴿ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] أي نحضرهم[١] في حال المباهلة: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي منا ومنكم. وكان[٢] سبب نزول المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران: إن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلٰهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره. قال ابن إسحاق في «سيرته» المشهورة وغيره[٣]: وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، يؤول أمرهم إليهم، وفيهم[٤] العاقب، واسمه: عبد المسيح، والسيد، وهو: الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل». اهـ.

وذكر ابن كثير بقية أسمائهم بالتفصيل، تركت ذكرها اختصاراً، ثم قال (ك): «وكان أميرهم[٥] وذا رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، [و] السيد وكان صاحب رحلتهم[٦] ومجتمعهم، [و] أبو حارثة ابن علقمة وكان أسقفهم[٧] وصاحب مدارستهم، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل، ولكنه تنصّر فعظَّمته الروم وملوكها وشرَّفوه، وبنوا له الكنائس[٨]، وأخدموه لما [يعلمونه][٩] من صلابته في دينهم، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه بما[١٠] علمه من الكتب المتقدمة[١١]، ولكن حمله ذلك[١٢] على الاستمرار

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نحضرهم»، وفي الأصل: «نحصرهم» بصاد مهملة!
(٢) سقطت «كان» من الأصل، وأثبتها من «تفسير ابن كثير».
(٣) انظر: «السيرة» لابن هشام (٢/ ٤١٢)، وأخرجه الطبري رقم (٦٥٤٣)، وابن أبي حاتم (٢/ ٢١ ـ ٢٢) رقم (١٩)، وابن المنذر (١/ ٢٢٧) رقم (٥٤٥) في «تفاسيرهم»، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٨٣)، وخرجته في جزء مفرد لي عن (المباهلة) وأحكامها الشرعية، وأخبارها التاريخية، يسر الله إتمامه بخير وعافية.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومنهم».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العاقب وكان أمير القوم. . .».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم. . .».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحبرهم وإمامهم».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وموّلوه». (٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعلمون».
(١٠) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مما».
(١١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جيداً».
(١٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «احتمله جهله».

في النصرانية، لما يرى من تعظيمه فيها، وجاهه[١] عند أهلها.

ذكر محاجتهم للنبي ﷺ

وقد[٢] قدموا على النبي[٣] ﷺ، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات: [جباب][٤] وأردية، [من رجال][٥] بني الحارث بن كعب، قال: يقول[٦] من رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ[٧]، فقال رسول الله ﷺ: **«دعوهم»** صلوا إلى المشرق، قال: فكلم رسول الله ﷺ منهم أبا حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والسيد الأيهم وهم من النصرانية [على دين التثليث][٨]، يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[٩] فهم يحتجون في قولهم: هو الله، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير[١٠] ينفخ فيه فيكون [طائراً][١١] وذلك كله بأمر الله، وليجعله الله آية للناس، ويحتجّون في قولهم بأنه ابن الله، يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله، ويحتجّون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة، بقول الله تعالى: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا: فعلت، وأمرت، وقضيت، وخلقت، ولكنه هو عيسى ومريم، تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن، فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ووجاهته».
(٢) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسول الله».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جُبَب».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في جمال رجال».
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بعض».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يصلون».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على دين الملك مع اختلاف أمرهم».
(٩) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذلك قول النصرانية».
(١٠) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثم».
(١١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طيراً».

«**أسلما**»، قالا: «قد أسلمنا»، قال: «**إنكما لم تسلما، فأسلما**»، قالا: «بلى قد أسلمنا قبلك»، قال: «**كذبتما، يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير**»، قالا: «فمن أبوه يا محمد»؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها[١]، ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال: «فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه [دعاءهم][٢] إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم! دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد[٣] أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟! فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً [نبي][٤] مرسل، ولقد جاءكم بالفصل[٥] من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك[٦] ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أحوالنا[٧]، فإنكم عندنا رضا، قال محمد بن جعفر، فقال رسول الله ﷺ: «**ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين**»، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذٍ رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجراً فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل[٨] ببصره،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٤ ـ ٧٥)، و«السيرة» لابن هشام (٢/ ٤١٣ ـ ٤١٤)، و«تفسير ابن جرير» (٦/ ١٥٢، ١٥٣) رقم (٦٥٤٣).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دعاهم».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تريد» بتاء مثناة فوقية!

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «النبي».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بالفعل»!

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على دينك».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من أموالنا».

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يلتمس».

حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال: «**اخرج معهم؛ فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه**»، قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه»[(١)]. هذه القصة رواها البخاري ومسلم وغيرهما باختصار وشيء من الزيادة[(٢)].

وأخرج البخاري بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**»[(٣)]. ثم قال (ك) بعد كلام طويل تركته اختصاراً: «ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى، هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾[(٤)] عن هذا إلى غيره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من عدل عن الحق إلى الباطل، فهو المفسد، والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده، ونعوذ به من حلول نقمته»[(٥)].

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية. «هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾[(٦)] [إلى][(٧)] عدل ونَصَف، ونستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ﴾ لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٥ ـ ٧٦)، و«تفسير ابن المنذر» (١/ ٢٣٣)، و«السيرة» لابن هشام (٢/ ٤٢٢).

(٢) أخرجها البخاري (٣٧٤٥)، ومسلم (٢٤٢٠) من حديث حذيفة، وتكلمت على أسانيدها وألفاظها في جزء مفرد لي عن المباهلة وأحكامها الشرعية وأخبارها التاريخية؛ يسر الله إتمامه بمنه وكرمه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩) من حديث أنس. وهذا هو المقدار المرفوع الصحيح من الحديث، وله تتمة الراجح أنها من مرسل قتادة، بيّنت ذلك في جزء مفرد مطبوع بعنوان «طرق حديث أرحم أمتي بأمتي أبو بكر» والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨٢).

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: ...».

(٧) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة: فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم»[1]. ذكر (ك) حديث البخاري عن ابن عباس[2] عن أبي سفيان بن حرب حين دخل على قيصر ملك الروم وما جرى بينه وبينه من الأسئلة والأجوبة، وذكر كتاب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، وأما بعد، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت [فإن][3] عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾»[1]. انتهى كلام ابن كثير.

قال محمد تقي الدين: ينبغي أن أثبت هنا بقية حديث ابن عباس الذي رواه البخاري في (كتاب بدء الوحي) من «صحيحه»؛ لأن الأسئلة التي سألها هرقل أبا سفيان والأجوبة التي أجاب بها، ثم الاستدلال الذي استنبط هرقل من أجوبة أبي سفيان، في ذلك كله حُجج عقلية قاطعة يسلِّمها كل منصف في كل زمان ومكان، على أن نبينا محمداً ﷺ صادق مصدق، قامت به الحجج على جميع أهل الأرض، قال البخاري في «صحيحه»[4] بسنده إلى ابن عباس: «أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨٣).
(٢) أخرجه البخاري (٧).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنما».
(٤) سبق تخريجه.

لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا [عن هذا][(١)] الرجل، فإنْ كذَبني فكذِّبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول فيكم[(٢)] أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكنني[(٣)] كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله[(٤)] ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة[(٥)] والعفاف والصلة.

فقال للترجمان، قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك [لقلت][(٦)]: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتدَّ أحد منهم[(٧)] سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حينما[(٨)] تخالط

---

(١) سقط من الأصل، وأثبته من مطبوع «صحيح البخاري».

(٢) في مطبوع «صحيح البخاري»: «منكم». (٣) في مطبوع «صحيح البخاري»: «تُمكنّي».

(٤) بعدها في مطبوع «صحيح البخاري»: «وحده».

(٥) في مطبوع «صحيح البخاري»: «والصدق». (٦) في مطبوع «صحيح البخاري»: «قلت».

(٧) غير موجودة في مطبوع «صحيح البخاري».

(٨) في مطبوع البخاري: «حين».

بشاشته القلوب، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألت: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدقة(١) والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه(٢)، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأ فإذا فيه...»، فذكر كتاب النبي ﷺ إلى هرقل المتقدم ذكره مع اختلاف قليل في اللفظ.

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فوائد:

الأولى: المباهلة، لما أقام النبي ﷺ الحجج القاطعة على أن الله واحد لا شريك له في إلهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه ولا في صفاته في محاجته لوفد نجران، وظهرت عليهم حجج الله على أن عيسى عبد الله وليس ابن الله وليس هو الله وليس ثالث ثلاثة كما يزعمون؛ ركبوا رؤوسهم وعاندوا؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يباهلهم، ومعنى المباهلة(٣): أي يخرج كل فريق من الفريقين المتخاصمين أعز الناس إليه في الفضاء خارج البلد، فيدعو كل فريق منهما الله تعالى أن يلعن المبطل ويهلكه، ولم يستطع وفد نجران مباهلة النبي ﷺ؛ لعلمهم أنه رسول الله حقاً إلى جميع أهل الأرض، فاختاروا أن يعطوا الجزية ويدخلوا تحت حكم حاكم مسلم، مع أنهم كانت عندهم قوة عظيمة للقتال، وقد تقدم أن عدد المقاتلين منهم كان مائة وعشرين ألف مقاتل، ولم يكن عند النبي ﷺ في ذلك الوقت مثل هذا العدد ولا عُشره، فإن النبي ﷺ حين توجه إلى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة كان جيشه مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل، هذه معجزة عظيمة للنبي ﷺ يقر بها كل منصف.

الفائدة الثانية: اختلف الأئمة المتقدمون في جواز دخول الكافر المسجد(٤)، وفي هذا الخبر دليل على أن الراجح جواز دخوله إن أذن له أولو

---

(١) في مطبوع البخاري: «والصدق». (٢) في مطبوع البخاري: «قدمه».

(٣) لصاحب هذه السطور جزء حافل في «المباهلة» وفقهها، وذكر أشهر ما وقع في التأريخ من (المباهلات)، يسر الله له إتمامه ونشره.

(٤) الجواز قول أبي حنيفة، وبه قال الشافعي عدا المسجد الحرام، وانظر المسألة في: =

الأمر من المسلمين، وكذلك في حديث ثمامة بن أثال الذي أسرته خيل النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ أمر بإدخاله المسجد وربطه في إحدى سواريه، وقد تقدم ذلك[1].

الفائدة الثالثة: من سماحة الإسلام التي جاء بها النبي ﷺ أنه سمح لهم أن يؤدوا صلاتهم في مسجده عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الرابعة: هجرهم وعدم رد النبي ﷺ، والتحدث معهم حين تكبروا ولبسوا ثياب الحرير وخواتم الذهب، فأظهر لهم بذلك أن عملهم ذلك محرم في شريعة المسيح، وفي شريعة الإسلام، وإن فاعله يجب هجره إن وجد إليه سبيل.

الفائدة الخامسة: احتجاج وفد نجران على التثليث، بأن الله تعالى يقول: فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، دليل على جهلهم بلغتهم العربية أو تجاهلهم، فإن الضمير في: فعلنا ونفعل لا ينحصر في المتكلم ومعه غيره، بل يستعمل كذلك في كلام المعظم نفسه، والله تعالى عظيم يعظم نفسه ويعظّمه الصالحون من خلقه، إلا أنهم لا يعظمونه بخطاب الجمع مراعاة لجانب التوحيد، وهذا واضح.

الفائدة السادسة: حب عمر رضي الله عنه أن يُرْسَلَ أميراً مع وفد نجران لم يكن لغرض دنيوي، ولكن لما سمع النبي ﷺ يخبرهم أنه سيرسل معهم القوي الأمين، أحب أن يكون هو الموصوف بذلك، وإن فاتته هذه فله مناقب وفضائل أعظم منها، فهو أفضل الناس بعد أبي بكر الصديق باتفاق أهل السنة والجماعة.

الفائدة السابعة: معنى الرب، هو المربِّي بنِعَمه، فكل من اعتقد فيه المشركون أنه يعطيهم الأولاد، أو يجعل الأم التي لا يعيش لها ولد يعيش أولادها، وتطول أعمارهم، أو يأتي بالنصر على الأعداء، وهو غائب أو ميت، أو يقتل بهيمته من لا يخضع بعبادته، أو يمرضهم أو يعطي المطر، أو يحفظ المزروعات، أو يقضي الدين، أو يشفي المريض، أو ينور القلوب، ويخرجها من الضلال إلى الهدى إلى غير ذلك، فهو أحد أربابهم، فإن قال المشركون من أهل هذا الزمان: إنهم لا يسألون ذلك من المخلوقين! فإنَّ الموحِّدين كلهم وغير الموحدين من اليهود والنصارى والمشركين يكذبونهم، ودونك بعض الأدلة: قال أحد المشركين من أهل المغرب يطلب النصر على الفرنسيين من الإمام إدريس بن

= «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (١/٣٤٨ ـ ٣٤٩) رقم (٢٦٥)، وتعليقي عليه.

(١) (ص٢٣٦)، وهناك تخريجه.

عبد الله المدفون في زرهون من بلاد المغرب، لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس:

أمولاي يا إدريس يا ابن نبينا ... وملجأ هذا القطر في العسر واليسرِ

تكنفنا الأسد الضراة وإننا ... على خطر إنْ لم تُغِثْنا على الفورِ

والله تعالى يقول: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

الثاني: من عادة التيجانيين إذا فرغوا من قراءة «الوظيفة» أن ينشدوا هذه الأبيات بلسان واحد:

يا أحمد التيجاني يا نورَ القلوب ... أما ترى ما نحن فيه من كروب

أما ترى الضيم الذي أصابا ... وأنت غوث لم تزل مجابا

العَجَلَ العَجَلَ بالإغاثه ... يا مَنْ له كلُّ العُلَا وِراثهْ

ومن عادة الدرقاويين إذا فرغوا من قراءة (الحفيظة) أن ينشدوا بلسان واحد:

تَشَفَّعْ يا رسولَ الله فينا ... فما نرجو الشفاعة من سواكا

أغِثْ يا خيرَ خلقِ الله قوماً ... ضعافاً ظلهم أبداً لواكا

وأسرع في إغاثتنا فإنا ... نرى المولى يسارع في رضاكا

انظر آخر كتاب: «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية»[1] وكذلك كتاب: «الإبريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ» وكتاب: «الطبقات الكبرى»[2] للشعراني وسائر كتب المتصوفة المتأخرين، فإنها مشحونة بالأدلة على أن مشركي هذا الزمان اتخذوا المخلوقين أرباباً من دون الله، وهذا خلاف الإسلام الذي جاء به جميع الرسل، وخاتمهم وأفضلهم محمد رسول الله ﷺ وعليهم السلام، وهذه الآية حُجّة على كل مشرك من الأولين والآخرين، وقوله تعالى: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ يعم جميع الأشياء من أهل السمٰوات والأرض، لو كان المشركون يعقلون؛ لكفَتْهم هذه الآية.

الفائدة الثامنة: قوله: «في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش»، معنى مادهم فيها: أي تصالح معهم على المهادنة وترك المحاربة عشر سنين في غزوة الحديبية، فنقضت قريش هذه المعاهدة بعد مدة قليلة، فتوجه

---

(١) (ص١٤٠).

(٢) انظر عنه وعن الذي قبله أيضاً كتابي: «كتب حذر منها العلماء»، ولأخينا عزمي الجوابرة دراسة مفصلة عن «طبقات الشعراني» بيّن ما فيه من فضائح ومخازٍ وبلايا ورزايا! نسأل الله العافية، وسيأتيك بعضها في التعليق على (ص٥٤٢).

النبي ﷺ إلى فتح مكة بعشرة آلاف مقاتل، وفتحها سنة ثمان للهجرة.

الفائدة التاسعة: قال أبو سفيان: «ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها»، يعني: لقد وقعت بيننا وبينه معاهدة صلح وهدنة، لا ندري أيحافظ على المعاهدة أم يغدر، قال أبو سفيان: كنت حريصاً على أن أتنقَّص محمداً ﷺ، ولكنني خفت أن يكذبني أصحابي فلم أجد فرصة أدخل فيها شيئاً من التنقص والتشكيك إلا هذه الكلمة، يؤيده قوله فيما سبق: «فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عني كذباً لكذبت عنه».

الفائدة العاشرة: أول شيء بدأ به أبو سفيان في الجواب عما يأمر به النبي ﷺ قوله: يقول: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم»، فبدأ بالتوحيد الذي هو أول ما دعا إليه النبي ﷺ وأعظمه، وهو الأصل العظيم الذي يبنى عليه الإسلام، فمن جاء به وبمتمِّمه وهو شهادة أن محمداً رسول الله، ومات على ذلك، يرجى له الخير وإن قصر في بعض الأعمال، ومن لم يجئ به لا ينفعه عمل.

الفائدة الحادية عشرة: قول هرقل لأبي سفيان: «إن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين»، يعني: إنْ كنتَ صادقاً فيما وصفت به هذا النبي، فإنه سينتصر هو ومن اتبعه من أمته علينا نحن معشر الروم، وعلى جميع أعدائه، وسيخرجوننا من بلاد الشام.

قال محمد تقي الدين: وكذلك وقع، فإن عمر رضي الله عنه أخرجهم من بلاد الشام، وسكنها المسلمون.

الباب الرابع

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨]

قال (ك): «ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى[١] محاجتهم في إبراهيم الخليل ﵇، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم كما قال محمد بن إسحاق بن يسار حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن [عكرمة أو سعيد بن جبير عن][٢] ابن عباس ﵄ قال: اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود، عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾»[٣] الآية أي: كيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن تنزل التوارة على موسى، وكيف تدّعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[٤] ثم قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ الآية، هذا الكلام على من حاج[٥] فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها[٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ أي: متحنّفاً عن الشرك، قاصداً إلى الإيمان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة: ١٣٥] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ يقول

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وأثبته من مصادر التخريج.
(٣) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» - كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٣) -، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٢٤٤) رقم (٥٧٢) مقطوعاً على ابن إسحاق، وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/ ٤٩٠) رقم (٧٢٠٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٨٤) من طريق ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس موقوفاً عليه، **وإسناده ضعيف**، فيه شيخ ابن إسحاق محمد بن أبي محمد مجهول.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنكار». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يحاج».
(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وجليتها».

تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل، الذين اتبعوه[(١)] وهذا النبي، يعني محمداً ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بعدهم، وروى الترمذي وسعيد بن منصور والبزار وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبي ولاية من النبيين، فإن وليي منهم أبي وخليل ربي ﷻ إبراهيم عليه السلام**»[(٢)]. ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولي جميع المؤمنين برسله»[(٣)].

الباب الخامس

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]

قال (ك): «قال محمد بن إسحاق، بسنده عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني ـ يقال له: الرئيس ـ: أوَ: ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني**»[(٤)].

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على دينه».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٩٨)، وأحمد (١/ ٤٠١، ٤٢٩ ـ ٤٣٠)، وسعيد بن منصور (٥٠١ ـ «التفسير»)، والبزار في «مسنده» (١٩٧٣)، وابن جرير (٥/ ٤٨٩)، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٢٦، ط. حكمت بشير ياسين) في «تفسيريهما»، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٠٠٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص١٠٣ ـ ١٠٤)، والحاكم (٢/ ٢٩٢، ٥٥٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٢١) **وإسناده صحيح**، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٢٣٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وأعلّه أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان ـ كما في «العلل» (٢/ ٦٣) رقم (١٦٧٧) ـ بالإرسال، ورده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على «تفسير ابن جرير» (٦/ ٤٩٩)، وجزم بصحته.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٨٥ ـ ٨٦).

(٤) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٣٩٥) ـ ومن طريقه =

أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من [قوله][1]: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته، قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً، يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون[2] أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وفي «المسند» والترمذي كما سيأتي أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله ما عبدوهم! قال: «**بلى: إنهم أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»[3]، فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم

= ابن جرير (٦/ ٥٣٩) رقم (٧٢٩٦، ٧٢٩٧)، وابن أبي حاتم (٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠) رقم (٨٧٥)، وابن المنذر (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧) رقم (٦٤٢) في «تفاسيرهم»، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٨٤) **وإسناده ضعيف**، فيه محمد بن أبي محمد شيخ ابن إسحاق مجهول.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قولهما». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتعبدون»!

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٣٠٩٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٨١)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢/ رقم ٢١٨، ٢١٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٨٤) رقم (١٠٠٥٧)، والواحدي في «الوسيط» (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٦)، و«المدخل» رقم (٢٦١)، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٣٠) ـ، وابن حزم في «الأحكام» (٦/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، والمزي في «تهذيب الكمال» (ق١٠٩٠) من حديث عدي بن حاتم.
قال الترمذي عقبه: «وهذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروفٍ في الحديث»، وقال المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٣٦٥) في تخريجه: «أخرجه الترمذي وحَسَّنه»! ولم يحسنه الترمذي.
وانظر: «تحفة الأشراف» (٧/ ٢٨٤)، و«العارضة» (١١/ ٢٤٦).
قلت: غطيف ـ ويقال: غضيف ـ ضعيف، ضعفه الدارقطني. انظر: «الضعفاء والمتروكين» رقم (٤٣٠)، و«اللسان» (٤/ ٢٤٠). وله شاهد من حديث أبي العالية عند ابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٨١) وشاهد آخر عن حذيفة موقوفاً، وله حكم الرفع، كما هو مقرر في علم المصطلح.
أخرجه بنحو اللفظ المذكور ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٨٦١)، وبنحوه رواه سفيان الثوري في «تفسيره» (ص١٢٤) رقم (٣٣٣)، وعنه عبد الرزاق (٢/ ٢٧٢)، والطبري =

والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلَّغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهون عما نهاهم الله عنه وبلَّغتهم إياه رسلُه الكرام، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة، وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلَّغوهم الحق، وقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد: أي: حكماء، علماء حلماء[1]،

= (١٠/ ٨١٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٤) رقم (١٠٠٥٨) في «تفاسيرهم»، وابن عبد البر رقم (١٨٦٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٦٧)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦)، وفي «المدخل» (٢٥٨ و٢٥٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٤) من طريق الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري عن حذيفة.

وتابع الأعمش: العَوَّامُ بن حوشب، أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٥/ ٢٤٥) رقم (١٠١٢)، وابن جرير (١٤/ ٢١١ رقم ١٦٦٣٦، ط. شاكر) وعطاءُ بن السائب، أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢١٣) رقم (١٦٦٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٥ رقم ٩٣٩٤، ط. دار الكتب العلمية) من طريق سفيان عن عطاء به.

ورجاله ثقات لكنه منقطع، أبو البَخْتَري سعيد بن فيروز الطائي لم يسمع من حذيفة، قال ابن سعد في «طبقاته» (٦/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣): «وكان أبو البختري، كثير الحديث، يرسل حديثه، ويروي عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يسمع من كبير أحد، فما كان من حديثه سماعاً فهو حسن، وما كان عن فهو ضعيف» قلت: وأرسل عن حذيفة كما في «تهذيب الكمال» (١١/ ٣٢ ـ ٣٥)، وعزاه في «الدر» (٣/ ٢٣١) أيضاً للفريابي، وابن المنذر وأبي الشيخ.

ورواه جماعة عن عطاء عن أبي البختري قوله: أخرجه ابن عبد البر (٢/ ٩٧٦) رقم (١٨٦٣)، وابن جرير (١٤/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم (١٦٦٣٧)، وابن حزم في «الأحكام» (٦/ ١٧٩ ـ ١٨٠) **بإسناد حسن**، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٢٧٦) عن آدم بن أبي إياس عن ورقاء قوله.

فالحديث حسن بطرقه المتعددة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: «الإيمان» (٦٤)، وعزاه ابن القيم في «الإعلام» (٣/ ٤٥١ ـ بتحقيقي)، وابن كثير في «التفسير» (٢/ ٣٤٨) للإمام أحمد في «المسند» من حديث عدي!! وأقر ذلك المصنف، ولم أظفر به في «مسنده» (٤/ ٢٥٦ ـ ٣٧٧) (مسند عدي)، ولا في «أطراف المسند (٤/ ٣٢٦ ـ ٣٣٢) ثم وجدتُ الشيخ أحمد شاكر يقول في تعليقه على «الإحكام»: «وهذا الحديث لم يروه أحمد في «مسنده» على سعته».

(١) ذكره البخاري تعليقاً بصيغة الجزم. «ووصله ابن أبي عاصم أيضاً **بإسناد حسن**، والخطيب =

وقال الحسن وغير واحد: فقهاء»[١]. وبمثل هذا قال أكثر السلف.

قال محمد تقي الدين: يروى عن ابن عباس أنه قال: «الرباني: هو الذي يربيّ الناس بصغار العلم قبل كباره»[٢]، ومعنى ذلك أنه يعلمهم المسائل السهلة قبل الصعبة، وقال الضحاك في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: «حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً»، ﴿تَعْلَمُونَ﴾[٣]، أي: تفقهون معناه، وقرئ: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد[٤] من التعليم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تحفظون ألفاظه، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله: لا نبي مرسل، ولا ملك مقرَّب، ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى

= **بإسناد آخر حسن** ووافقه ابن مسعود فيما رواه إبراهيم الحربي في «غريبه» عنه **بإسناد صحيح**» أفاده ابن حجر. انظر: «الفتح» (١/ ٢١٣)، و«تغليق التعليق» (٢/ ٨٠ ـ ٨١).
وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ٥٢٨) موقوفاً عن ابن عباس، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٢٦٨) موقوفاً عن ابن مسعود.
وأخرجه ابن جرير (٥/ ٥٢٨)، وسعيد بن منصور (٥٠٤)، وعبد الرزاق (١/ ١٢٥)، وسفيان الثوري (ص٧٨) رقم (١٥١) في «تفاسيرهم» **بسندٍ صحيح** عن أبي رَزِين، وهو مسعود بن مالك الأسدي الكوفي.
وأخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٥) رقم (١٧٨) مقطوعاً عن سعيد بن جبير.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٨ ـ ٩٩).

(٢) عزاه المصنف لابن عباس والصواب أنه من كلام البخاري. انظر لذلك: «فتح الباري» (١/ ٢١٣)، و«إرشاد الساري» (١/ ١٦٨)، و«شرح الكرماني» (٢/ ٣١ ـ ٣٢).

(٣) هذه قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبان عن عاصم وأبي جعفر ويعقوب، وهي التي اعتمدها المصنف، لأنها قراءة ورش، انظر الهامش الآتي.

(٤) هذه قراءة عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف والأعمش، واختارها أبو عبيد، ورجحها الطبري. انظر: «السبعة» (٢١٣)، «النشر» (٢/ ٢٤٠)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٣٥١)، «الحجة» للفارسي (٣/ ٥٩)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢٩٠)، «الدر المصون» (٢/ ١٤٨).

إخباراً عن الملائكة: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٩][1].

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن سبب نزول الآيتين أن أحبار اليهود والنصارى من أهل نجران اجتمعوا عند النبي ﷺ فقال اليهود: أتريد يا محمد أن نعبدك كما عبدت النصارى عيسى ابن مريم؟ فأنكر النبي ﷺ ذلك أشد الإنكار، وقال لهم: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني**»[2]، وهذا الذي قال النبي ﷺ، هو قول جميع النبيين والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، من لدن آدم إلى يوم القيامة.

الثانية: إن النصارى الذين ينسبون إلى عيسى أنه أمرهم أن يتخذوه رباً، كاذبون على عيسى بشهادة نصوص القرآن والأناجيل الأربعة التي ينسبون إليها ذلك، وعلى ما فيها من التحريف والتبديل والتغيير لا تزال فيها نصوص صريحة تشهد عليهم بأن عيسى قال لهم: إنما أنا بشر، ولا يعبد إلا الله، انظر كتاب «البراهين الإنجيلية» على أن عيسى داخل في العبودية، وبريء من الألوهية[3]، **لمؤلف هذا الكتاب، وقد أمر بطبعه رئيسنا الجليل الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز[4] أجزل الله ثوابه**. وترجم بالإنجليزية، ونشر ضمن (المجلد الرابع) من

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٩). (٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر التعليق على (٢/ ٢٧ و٣/ ١٦٨) فقد نقلت منه ما يفصّل الإجمال المذكور هنا، وينظر ما سيأتي قريباً (ص٣١٠) والله الموفق الهادي.

(٤) كان الهلالي يكثر من ذكر العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، فها هو يقول في «فتاواه» المسماة «العيون الزلالية في الفتاوى الهلالية» (ق٣١٥) في جواب سؤال مؤرخ بفاتح صفر سنة ١٣٩٣: «أشركت معي عالماً كبيراً مشهوراً بالورع، وهو رئيس جامعتنا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز...».

وظفرت بخط الهلالي على طرة كتابه «الطريق إلى الله» مؤرخاً بـ ٨/ ١١/ ١٣٩١هـ ما نصه: «هدية من المؤلف إلى الإمام المصلح الداعي إلى الله على بصيرة سماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مع أطيب التحيات».

وللهلالي قصيدة رنانة في مدح الشيخ عبد العزيز بن باز، لم أرها في «ديوانه»، ولعله أسقطها منه بسبب اعتراض الشيخ ابن باز على ما فيها، وقد نشرت في مجلة «الجامعة السلفية» بالهند في شعبان سنة ١٣٩٧هـ، وها هو نصُّها:

خليلي عُوْجَا بي لنغتنمَ الأجرا   على آل باز إنهم بالعلى أحرى =

= فما منهمو إلا كريم وماجدٌ ... تراه إذا ما زرته في الندى بحرا
فعالمهم جَلَّى بعلم وحكمةٍ ... وفارسهم أولى عداة الهدى قهرا
فسل عنهمُ القاموسَ والكُتبَ التي ... بعلم حديث المصطفى قد سمت قدرا
أعُمُّهمو مدحاً وإني مقصرٌ ... وأختص من حاز المعالي والفخرا
أمامَ الهدى عبدَ العزيز الذي بدا ... بعلم وأخلاق أمام الورى بدرا
تراه إذا ما جئته متهللاً ... ينيلك ترحيباً ويمنحك البشرى
وأما قِرى الأضيافِ فهو إمامُه ... فحاتم لم يتْرك له في الورى ذكرا
حليمٌ عن الجاني إذا فاه بالخنا ... ولو شاء أرداه وجلله خُسرا
يقابل بالعفو المسيء تكرماً ... ويبدل بالحسنى مساءته غُفرا
وزهده في الدنيا لو أن ابن أدهم ... رآه ارتأى فيه المشقة والعسرا
وكم رامت الدنيا تحلُّ فؤاده ... فأبدلها نُكْراً وأوسعها هَجْرا
فقالت له: دعني بكفِّك إنني ... بقلبك لم أطمع فحسبي به وَكْرا
خطيب بليغ دون أدنى تلعثم ... ومن دون لحن حين يكتب أو يقرا
بعَصْرٍ يرى قُراؤه اللحنَ واجباً ... عليهم ومحتوماً ولو قرأوا سطرا
بتفسير قرآنٍ وسنة أحمد ... يُعمِّر أوقاتاً وينشرها دُرّا
وينصر مظلوماً ويسعف طالباً ... بحاجاته ما إن يخيِّب مضطرا
قضى في القضا دهراً فكان شُريحَه ... بخرج[1] أزال الظُّلمَ والحيفَ والقسرا
وكليةَ التشريع قد كان قُطْبَها ... فأفعمها علماً فنال به شكرا
وجامعة الإسلامَ أطلع شمسَها ... فَعَمَّت به أنوارُها السَّهْلَ والوعرا
تيمّمَها الطلابُ من كل وُجْهَةٍ ... ونالوا بها علماً وكان لهم ذخرا
فمن كان منهم ذا خداع فخاسر ... ومن كان منهم مخلصاً فله البشرى
ولم أر في هذا الزمان نظيره ... وآتاك شيخاً صالحاً عالماً بَرًّا
وأصبح في الإفتا إماماً مُحَقِّقاً ... بعلم وأخلاق بدا عَرْفُها نَشْرا
وأما بحوث العلم فهو طبيبُها ... مشاكله العسرى به أُبدلت يسرا
ويعرف معروفاً وينكر منكراً ... ولم يخش في الإنكار زيداً ولا عمرا
وما زال في الدعوى سراجاً منوِّراً ... دُجَى الجهل والإشراك يدحره دحرا
بدعوته أضحت جموعٌ كثيرةٌ ... تحقق دين الحق تنصره نصرا
ألم نره في موسم الحج قائماً ... كيعسوب نحلٍ والحشودُ له تترا
وما زال في التوحيد بدر كماله ... يحققه للسامعين وللقُرا
ويثبت للرحمٰن كل صفاته ... على رغم جهمي يعطلها جهرا
ويعلن حرباً ليس فيه هوادة ... على أهل إلحاد ومن عبد القبرا =

---

(١) الخرج: منطقة تبعد عن الرياض ثلاثين كيلاً.

«ترجمة صحيح البخاري» للدكتور محمد محسن، فكل من نسب إلى نبي أو عبد صالح أنه يرضى بعبادة غير الله تعالى، فقد أساء إليه وكذب عليه.

الثالثة: إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون قبور الصالحين وأرواحهم ويزعمون أنهم بهذه العبادة ينالون رضا الله وقضاء حاجاتهم العاجلة والآجلة، ليس لهم علم ولا عقل، أما **العلم**؛ فلأن نصوص القرآن والسنة في غاية الوضوح دالة على أن من أشرك بالله في عبادته أو ربوبيته كافر يائس من رحمة الله في الدار الآخرة، خالد في جهنم أبداً، وقد ذكر الحافظ ابن كثير فيما نقلت عنه هنا بعض الآيات المصرحة بذلك، ولو لم يكن في القرآن من ذلك إلا هاتان الآيتان، لكانتا كافيتين في بيان ذلك لكل من يقرأ القرآن، ويعرف اللغة العربية، ولكن من طبع الله على قلبه وأعمى بصره، لا حيلة فيه. وأما **العقل**؛ فإنَّ كلَّ عاقل يعلم أن المتصرف في هذا العالم بالعطاء والمنع هو خالقه ﷻ، وأن المخلوق كيفما كانت منزلته عالية لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف بغيره؟! إلا أن العقل وحده لا يستطيع أن يحقق التوحيد بدون الاستضاءة بأنوار الوحي، ولذلك لم

= وما قلت هذا رغبة أو تملقاً ... ولكن قلبي بالذي قلته أدرى
فيا رب مَتِّعْنَا بطول حياته ... وحفظاً له من كل ما ساء أو ضرَّا
فلو كان في الدنيا أناس كمثله ... بأقطار إسلام بهم تكشف الضرَّا
فيا أيها المَلْكُ المعظم خالدٌ ... بإرشاده اعمل تحرز الفتح والنصرا
فقد خصَّه الرحمٰن باليمن والمنى ... وآتاك شخصاً صالحاً عالماً بَرًّا
فأنت لأهل الكفر والشرك ضيغم ... تذيقهموا صاباً وتسقيهمو المُرا
فلا زلت للإسلام تنصر أهله ... وتردي بأهل الكفر ترديهمو كسرا
وحبَّبك الرحمٰنُ للناس كلِّهم ... سوى حاسد أو مشرك أضمر الكفرا
وقد أبغض الكفارُ أكرَمَ مُرسلٍ ... وإن كان خير الخلق والنعمة الكبرى
عليه صلاة اللّه ثم سلامه ... يدومان في الدنيا وفي النشأة الأخرى
كذا الآل والصحب الأجلاء ما بكت ... مطوقةٌ ورقاءُ في دوحة خضرا
وما طاف بالبيت العتيق تقرباً ... حجيج يُرَجُّون المثوبة والأجرا
وما قال مشتاق وقد بان إلفه ... خليلي عوجا بي لنغتنم الأجرا
فيا أيها الأستاذ خذها ظعينةً ... مقنَّعةً شعثاء تلتمس العذرا
فقابل جفاها بالقبول وأَوْلِها ... من العفو جلباباً يكون لها سترا

وذكرتُها في جمعي لشعره ضمن ترجمة حافلة له، وانظر: «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز» (ص١٤٢ ـ ١٤٦).

يجعله الله وحده حجة على الناس[١]، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

الباب السادس

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٣ ـ ٨٥]

«يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: استسلم له من فيها ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٢] الآية، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُۥ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَآئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٨ ـ ٥٠]. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع»[٣]. «ثم قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني القرآن: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: من الصحف والوحي ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ الاثني عشر ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذا يعمُّ جميعَ الأنبياء جملة

---

(١) فقد ولاه الشرع ثم عزله، وهو شاهد والشرع قاضٍ، ويجوز للقاضي أن يطرد الشاهد متى شاء، ورحم الله إلْكيا الهرّاسي لما قال: «إذا صالت النصوص في مهادين الكفاح، طارت العقول على أسنّة الرّماح».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ الآية».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٢).

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾. يعني: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية، أي: من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم بسنده عن أبي هريرة إذ ذاك ونحن بالمدينة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام، فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم يجئ الأعمال، كل ذلك يقول الله: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي، قال الله في كتابه:** ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾»[٢]. تفرد به أحمد»[٣].

فائدة

قال محمد تقي الدين: دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه بعد بعثة محمد ﷺ هو الإسلام. والإسلام الصحيح الذي يسعد صاحبه في الدنيا والآخرة هو الإسلام النقي لله تعالى إيماناً وعبادة وإخلاصاً، فلا يتوجه العبد إلى غيره لطلب نفع أو لدفع ضر، ولا يتحاكم إلا إلى شرعه، ولا يرضى إلا به، أما

---

(١) سبق تخريجه، وهو **صحيح**.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢)، وأبو يعلى (٦٢٣١)، والطبراني في «الأوسط» (٦٧٠٧)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٤٨) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في «الأوسط»... وفيه عباد بن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة وبقية رجال أحمد رجال الصحيح».

قلت: **إسناده ضعيف**، الراوي له عن أبي هريرة الحسن البصري ولم يسمع منه، فهو منقطع.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

الإسلام الظاهر وهو الإنقياد للإسلام ظاهراً مع إضمار الانحراف والتكذيب، فهو دين المنافقين، وهم في الدرك الأسفل من النار، وكذلك الإسلام الذي يشرك صاحبه بالله تعالى في عبادته بالدعاء، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والتوكل، والخوف، والرجاء إلى غير ذلك من أنواع العبادات، فإنه لا ينفع صاحبه ولا ينجِّيه من الخلود في نار جهنم، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨]، ومعنى حديث أبي هريرة: إن الأعمال كلها من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد لا يتقبل شيء منها إلا مع الإسلام الصحيح، لقوله تعالى في الحديث: «**بك اليوم آخذ، وبك أعطي**»(١).

الباب السابع

قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران: ٩٥]

قال (ك) في تفسيرها: «قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ﴾ أي: قل يا محمد: صدق الله فيما أخبر به، وفيما شرعه في القرآن ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتَّبعوا ملَّةَ إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]»(٢). اهـ.

قال محمد تقي الدين: وكل من عبد شيوخ الصوفية بالاستمداد منهم، أو عبد قبور الصالحين أو الطالحين بالذبح والنذر والطواف والتمسح وإقامة الأعياد حولها، فلم يتَّبع ملة إبراهيم، ولم يكن حنيفاً.

---

(١) قطعة من الحديث المتقدم، وهو منقطع، كما سبق بيانه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١١٣ ـ ١١٤).

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران: ١٠٢]

قال (ك): «قال ابن أبي حاتم: وذكر سنده إلى عبد الله بن مسعود ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: «أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر»[(١)]. ثم قال: «وهذا إسناد صحيح موقوف، ورواه الحاكم في «مستدركه» مرفوعاً، وقال: صحيح على شرط الشيخين».

قال (ك): «والأظهر، أنه موقوف، وقال جماعة من السلف إنها منسوخة[(٢)] بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] في سورة التغابن، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾. قال: «لم تنسخ، ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أي: يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم»[(٣)]، وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم؛ لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه، أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك»، ثم قال: «قال الإمام أحمد[(٤)]، وذكر سنده إلى عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلْتُدْرِكْه منيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي[(٥)] إلى الناس ما يحبُّ أن يؤتى إليه**»»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٤٦) رقم (١٠٧٩)، وعبد الرزاق (١/ ١٢٩)، والطبري (٧/ ٦٥) رقم (٧٥٣٦، ٧٥٣٧، ط. شاكر)، وابن المنذر (١/ ٣١٧) رقم (٧٦٨) في «تفاسيرهم»، والطبراني (٩/ ٩٣) رقم (٨٥٠١)، والحاكم (٢/ ٢٩٤) من طريق زبيد اليامي عن مرة عن ابن مسعود، ومنهم من رفعه ومنهم من وقفه. **وإسناده صحيح**. وممن رواه مرفوعاً ابن مردويه، أفاده ابن كثير (٣/ ١٣١) وصحَّح الموقوف.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: «الموافقات» (٣/ ٣٥٧) للشاطبي، مع تعليقي عليه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢) رقم (٣٩١٠)، وابن جرير (٥/ ٦٤١)، وابن المنذر (١/ ٣١٨) رقم (٧٧٠) في «تفاسيرهم».

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٢)، ومسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «ويؤتى».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٣٠ ـ ١٣٢) بتصرف.

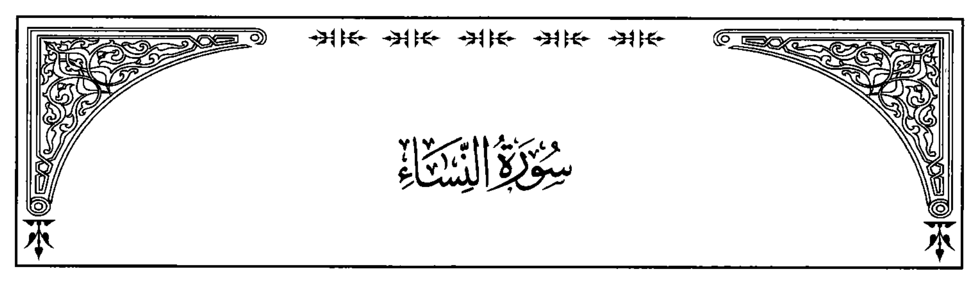
فائدتان:

قال محمد تقي الدين: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ليس المراد به الإسلام الظاهر فقط؛ لأنه لا ينجي صاحبه من عذاب الله ولا يوصله إلى رضوان الله، فإن المنافقين كانوا مسلمين فيما يظهر للناس، وهم كافرون، بل المراد: الإسلام بالقلب واللسان والجوارح، مع تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك وأهله. فإذا عاش الإنسان على هذا الإسلام يرجى من فضل الله ورحمته أن يموت على ذلك، كما ذكره ابن كثير.

الثانية: من المعلوم أن قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ من سورة التغابن وهي مكية، وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ من آل عمران، وهي مدنية، والآية المكية متقدمة على الآية المدنية، فكيف تنسخها؟! فالقول بالنسخ سهو[1]، والصواب أنها محكمة كما قال ابن عباس. اهـ.

---

(١) حقق الشاطبي في «الموافقات» (٣/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨) أن الآيتين مدنيتان، قال: «ولم تنزّلا إلا بعد تقرير أنّ الدين لا حرج فيه، وأن التكليف بما لا يستطاع مرفوع، فصار معنى قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]: فيما استطعتم، وهو معنى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فإنما أرادوا (أي من قال بالنسخ من السلف، وهم جماعة) بالنسخ أن إطلاق سورة آل عمران مُقيَّد بسورة التغابن».
وانظر في ذلك: «الإيضاح» (ص٢٠٣) لمكي بن أبي طالب، «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ١٢٦) لابن العربي، «زاد المسير» (١/ ٤٣٢)، «نواسخ القرآن» (١٠٨)، «تفسير القرطبي» (٤/ ١٥٧).



الباب الأول

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]

قال (ك): «يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرزاق المنعم المتفضل على خلقه في جميع[١] الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحِّدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «**أتدري ما حق الله على العباد؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**»، ثم قال: «**أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم**»[٢]. ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة**»[٣]. ثم قال تعالى: ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآنات و....».

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٧، ١٨)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٩٢)، والدارمي (١/ ٣٩٧)، والترمذي (٦٥٨)، والنسائي في «المجتبى» (٥/ ٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٣٦)، والطبراني في «الكبير» (٦٢١٢)، والفسوي (٣/ ٤٠٥)، =

وذلك لأنهم[(١)] فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم، والحنوّ عليهم، ثم قال: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات، الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم، وتزول به ضرورتهم، وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة. وقوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، يعني الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة»[(٢)]، وكذا روي عن جماعة من مفسري السلف، وقال جابر الجعفي، عن الشعبي، عن علي وابن مسعود: «﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: المرأة»، وقال مجاهد أيضاً في قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ يعني: «الرفيق في السفر»، وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان:

الحديث الأول: قال البخاري ومسلم[(٣)] عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه**».

الحديث الثاني: روى الترمذي[(٤)] عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «**خير الأصحاب عند الله، خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**». قال الترمذي: حديث حسن غريب.

= وابن خزيمة (٢٣٨٥)، وابن حبان (٣٣٤٤)، والطبراني (٦٢١١)، والحاكم (١/ ٤٠٧)، والبيهقي (٤/ ١٧٤) من حديث سلمان بن عامر الضَّبِّي، والحديث **صحيح بشواهده**.

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قد».

(٢) أخرجه ابن جرير (٧/ ٦)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٨) رقم (٥٢٩٦)، وابن المنذر (٢/ ٧٠٠ ـ ٧٠١) رقم (١٧٥١ ـ ١٧٥٣) في «تفاسيرهم»، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٢٤) بنحوه، وانظر: «صحيفة علي بن أبي طلحة» (٢٢٣ ـ ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٤٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٥)، وأحمد (٢/ ١٦٧، ١٦٨)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٤٢)، وسعيد بن منصور (٢٣٨٨)، والدارمي (٢/ ٢١٥)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٣٢٩)، وابن خزيمة (٢٥٣٩)، وابن حبان (٥١٨، ٥١٩)، والحاكم (١/ ٤٤٣ و٢/ ١٠١ و١٦٤)، والطحاوي في «المشكل» (٤/ ١٤٠)، وابن بشران في «الأمالي» (٧١٠)، والفاكهاني في «حديثه» (٢٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٧٧) و«الآداب» (٩٥٦)، **وإسناده حسن**، وانظر تخريجه مطولاً في «الأجوبة العلية عن الأسئلة الدمياطية» رقم (١٢٧) للسخاوي، وتعليقي عليه.

الحديث الرابع: قال الإمام أحمد[١] بسنده عن المقداد بن الأسود يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**ما تقولون في الزنا؟**» قالوا: حرام، حرمه الله ورسوله، وهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة، أيسر عليه من أن يزني بحليلة جاره**»، قال: «**ما تقولون في السرقة؟**» قالوا: حرمها الله ورسوله، فهي حرام إلى يوم القيامة، قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من جاره**». تفرد به أحمد، وله شاهد في «الصحيح»[٢] من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله! أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[٣].

الحديث الخامس: قال أبو بكر البزار[٤] بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، وهو أفضل الجيران حقاً، فأما الجار الذي له حق واحد، فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الجار الذي له حقان، فجار مسلم، له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق، فجار مسلم ذو رحم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم**».

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣)، و«التاريخ الكبير» (٨/ ٥٤)، والبزار في «مسنده» (٦/ ٢١١٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ رقم ٦٠٥)، و«الأوسط» (٦/ ٦٣٣٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٩٥٥٢) **وإسناده قوي**، وقال المنذري في «الترغيب» (٣/ ٢٧٩، ٣٥٢)، والهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٦٨): «رجاله ثقات».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيحين».

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٤) هو في «كشف الأستار» (٢/ رقم ١٨٩٦) وفي «مختصر الزوائد» لابن حجر (٢/ ١٨٠٤)، وهو عند الأصفهاني في «الترغيب» (٨٧٠)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٦٧) وقال: «رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي وهو **وضاع**». وبه أعله ابن حجر فقال: «الحارثي متهم»، **فإسناده واهٍ بمرّة**. لكنه عند أبي نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٠٧) من غير طريق الحارثي، ولكن فيه عطاء الخراساني ضعيف. والحسن لم يسمع من جابر، **فإسناده ضعيف**. وله شواهد لا يفرح بها، انظرها عند ابن عدي (٦/ ٢٩٢)، وهناد في «الزهد» (١٠٣٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١/ ٢٣٧)، والبيهقي في «الشعب» (٩٥٦٠).

الحديث السادس: روى أحمد والبخاري[(١)] عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، فقالت: إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «**إلى أقربهما منك باباً**».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة[(٢)]، أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»[(٣)]، فجعل يرددها حتى ما يفيص بها لسانه. وقال الإمام أحمد بسنده عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة**»[(٤)]، ورواه النسائي من حديث بقية، **وإسناده صحيح**، ولله الحمد. وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «**كفى المرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم**». رواه مسلم[(٥)]. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق**»، رواه مسلم[(٦)]. وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**هم إخوانكم**[(٧)]،

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٧٥)، والبخاري (٢٢٥٩)، وأبو داود (٥١٥٥) وغيرهم.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجنبة».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٦٩٧)، والنسائي في «الكبرى» (٧٠٩٤ ـ ٧٠٩٧)، وأحمد (٣/ ١١٧)، وعبد بن حميد (٢١١٤)، وابن سعد (٢/ ٣٥٢)، والطحاوي في «المشكل» (٣٢٠٠ ـ ٣٢٠٢)، وأبو يعلى (٢٩٣٣، ٢٩٩٠)، وصححه ابن حبان (١٤/ ٦٦٠٥)، والحاكم (٣/ ٥٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٠٥)، وفي «الشعب» (٨٥٥٢) من حديث أنس، وحسن إسناده البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٣٦١)؛ **والحديث صحيح**. و«يفيص» بالصاد غير معجمة، خلافاً لما في الأصل، ومعناه ما يبين كلامه، أفاده البغوي في «شرح السنة» (٩/ ٣٥٠).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣١)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٨٥، ٩٢٠٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٢، ١٩٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٦٣٤)، وفي «مسند الشاميين» (١١٢٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٧٩)، وأبو نعيم (٩/ ٣٠٩) وفي «ذكر تاريخ أصبهان» (٢/ ٧٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ٥١٧). **والحديث حسن**، وانظر: «مجمع الزوائد» (٣/ ١١٩).

(٥) أخرجه مسلم (٩٩٦).

(٦) أخرجه مسلم (١٦٦٢).

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خولكم».



جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[(١)]، أخرجاه»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: اشتمل هذا الباب أولاً، على توحيد الله في عبادته، والنهي عن الشرك به، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ جاءت ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي[(٣)]، تعمُّ كل شيء من الملائكة، والأنبياء الصالحين، وغيرهم، ويشتمل على الحقوق الواجبة على الإنسان للأقارب والأباعد، ممن لهم به علاقة، وذلك من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيم، فمن وفَّى بذلك كان من خير خلق الله، وإذا وجدت أمة تحافظ على توحيد الله وهذه الأخلاق، تكون أسعد الأمم في دينها ودنياها وبالله التوفيق. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]

قال (ك): «قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]».

قال محمد تقي الدين: قرئ عليَّ تفسير ابن كثير لهذه الآية، فوجدت في النسخة التي بأيدينا حديثاً ذهب أوله، وأنا أحفظ هذا الحديث، ولكن لم أعتمد على حفظي، فنظرتُ في «الجامع الصغير»، فوجدت الأمر كما ظننت، فقد حذف في هذه النسخة، وهي مطبوعة في مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٢هـ. الطبعة الثانية، وقد كتب في أول صفحة ما نصه: «قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية، وصححها نخبة من العلماء»، فأقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، كيف تتفق عدة نسخ خطية على إسقاط ثلاث وعشرين كلمة من الحديث؟ وكيف جاز على نخبة من العلماء أن لا يتفطنوا إلى هذا الخلل؟ والحقيقة: أن الكتب التي يطبعها التجار مضيعة، فلا مقابلة فيها ولا تصحيح،

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٧)، ومسلم (١٦٦٣).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/٣٢ ـ ٤٤) بتصرف.
(٣) في الأصل: «العموم»! وهو سبق قلم!

وبذلك يقع التغيير والتبديل والحذف، **فلا تكاد تجد في أكثر بلاد المسلمين مطبعة واحدة يوثق بها! على حين المطابع في البلاد الأوروبية يبذل أهلها أقصى العناية بكل ما يطبعونه**، فكثير من المطابع في البلاد الأوروبية وبجرمانية يعلن أصحابها في كل كتاب يطبعونه، أن كل من وجد لهم خطأ في مطبوعاتهم، يعطونه خمسمائة مارك! فشتان ما بين الفريقين ـ والساقط من هذا الحديث في هذه النسخة، هو من أوله إلى قوله: «**وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به**» وسأثبته كاملاً فأقول:

قال صاحب «الجامع الصغير» في حرف الدال(١): «**الدواوين ثلاثة، فديوان لا يغفر الله منه شيئاً، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك منه شيئاً، فأما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئاً، فالإشراك بالله، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك إن شاء ويتجاوز، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فمظالم العباد، بينهم القصاص لا محالة**». «حم ك» يعني: أخرجه الإمام أحمد والحاكم(٢). اهـ.

ثم قال (ﷺ): «**الحديث الثاني**: قال البزار(٣) وذكر سنده عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يترك الله منه شيئاً، فأما الظلم الذي لا يغفره الله، فالشرك**، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ

---

(١) انظر: «الجامع الصغير» (ص٤٤٣) رقم (٣٠٢٢ ـ «ضعيفه»).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٥، ٥٧٦)، وأبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (٢/ ٢)، والبيهقي في «الشعب» (٧٤٧٣، ٧٤٧٤) **وإسناده ضعيف**، انفرد به صدقة بن موسى، وانظر ـ لزاماً ـ تعليقي على: «المجالسة» (١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤) فقد أسهبتُ في الكلام على شواهده، **وهو حسن بها**، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٧).

(ملاحظة): الحديث موجود بتمامه في الطبعة التي اعتمدناها من «تفسير ابن كثير»، وهي طبعة مكتبة أولاد الشيخ المصرية، وهي مقابلة على النسخة الأزهرية، وعلى نسخة كاملة بدار الكتب المصرية، وهو موجود في غير طبعة جيدة من هذا «التفسير»، ظهرت بعد وفاة الهلالي رحمه الله تعالى، وسبقت الإشارة إلى بعضها، والله الموفِّق.

(٣) كما في «كشف الأستار» (٤/رقم ٣٤٣٩)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٥١) وقال: «رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيري، ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا على ضعفهم»، وانظر: «الصحيحة» (٤/ ١٩٢٧).

عَظِيمٌ﴾ وأما الظلم الذي يغفره الله، فظلم العباد لأنفسهم، فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه، فظلم العباد بعضهم بعضاً، حتى يدين لبعضهم من بعض».

الحديث الثالث(١): قال الإمام أحمد في «مسنده»: إن أبا ذر حدثه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقول: يا عبدي ما عبدتني وما رجوتني فإني غافر لك على ما كان منك، يا عبدي إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لقيتك بقرابها مغفرة**»(٢)، تفرد به أحمد من هذا الوجه.

الحديث [الرابع](٣): أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم(٤) عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة**». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق ثلاثاً**»، ثم قال في الرابعة: «**على رغم أنف أبي ذر**». قال: فخرج أبو ذر وهو يجرّ إزاره، وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر. وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد، ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر»(٥)، «وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»(٦). اهـ.

قال محمد تقي الدين: قول النبي ﷺ: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة**» يجب أن يقيد بما دلت عليه الأدلة الأخرى،

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان بن عيسى: حدثنا ثور بن يزيد عن أبي عون عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلّا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً**» ورواه النسائي عن محمد بن مثنى عن صفوان بن عيسى به. **الحديث الرابع**: ....».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٤) وبنحوه عند البخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٠)، ومسلم في «الصحيح» (٢٥٧٧)، **وإسناد أحمد ضعيف**، فيه ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب، **والحديث صحيح**، ولم ينفرد أحمد به، وتقييد ابن كثير انفراده بقوله: «من هذا الوجه» كلام دقيق، كعادته في دقته التي استفادها من حماه المزي، ـ رحمهما الله تعالى ـ.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الخامس».

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٦)، والبخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (١٥٤).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩٩ ـ ١٠٢).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١١٠).

ويفهم منها شروط ثلاثة: **أولها**: أن يقولها بلسانه، إن كان قادراً. **وثانيها**: أن يعرف معناها ويعتقده بقلبه. **ثالثها**: أن يعمل بمقتضاها. أما قولها بدون مراعاة هذه الشروط، فلا تنفع صاحبها شيئاً؛ لأن المنافقين كانوا يقولونها بألسنتهم، وهم في الدرك الأسفل من النار، وهم شر من الكفار والمسيئين لكفرهم، ونرى في هذا الزمان كثيراً من الناس يقولون: لا إله إلا الله، وهم يشركون بالله، بالدعاء، والذبح، والنذر، والحلف، والخوف بالغيب، والتوكل، والرجاء، والصدقة لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والاستعاذة بغيره، والتحاكم إلى غير شرعه، وتحليل ما حرم الله، إلى غير ذلك من أعمال الكفر، وبعض هؤلاء يجهل معناها، فيظن أن الإله المنفي فيها، هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت! وهذا جهل عظيم، فإن هذا توحيد الربوبية، وقد كان المشركون في زمان النبي ﷺ يوحدون الله تعالى في ربوبيته، ويشركون به في عبادته، فلم ينفعهم ذلك التوحيد شيئاً، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

الباب الثالث

قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء: ٨٧ ـ ٨٨]

قال (ك): «﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسماً لقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقسم، أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه»[1]، ثم «يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٧).

في المنافقين على قولين[١]، واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد[٢] بسنده عن زيد بن ثابت: إن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث [الحديد]**»[٣] أخرجاه في «الصحيحين»[٤]، وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أُبيّ بن سلول رجع يومئذٍ بثلث الجيش، رجع بثلاثمائة، وبقي النبي ﷺ في سبعمائة»[٥].

«وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ أي: ردهم [ودفعهم][٦] في الخطأ[٧]. وقال قتادة: أهلكهم[٨] وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ أي: بسبب عصيانهم، ومخالفتهم الرسول، واتباعهم الباطل، قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: لا طريق إلى الهدى ولا مخلص له إليه»[٩].

قال محمد تقي الدين: أخبر الله تعالى وهو أصدق القائلين، أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا يعبد سواه، ولا يتخذ إلٰه غيره، ومن دعا غير الله أو استغاث به أو طلب المدد منه كهداية القلوب وانشراح الصدور، أو نذر لغيره، أو ذبح له، وتمسح به، فقد اتخذه إلٰهاً من دون الله، ونقض معنى لا إلٰه إلا الله جهلاً أو عناداً فلا ينفعه قولها، وعداوة المنافقين واجبة، فمن اتخذهم أولياء فقد تعرض لسخط الله تعالى وغضبه، قال تعالى في سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قولهم»!

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٤، ١٨٧)، والبخاري (١٨٨٤)، ومسلم (٤٩٠).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الفضة».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من حديث شعبة».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأوقعهم».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال ابن عباس: ﴿أَرْكَسَهُم﴾ أي: أوقعهم».

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال السدي: أضلهم».

(٩) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٩).

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]

قال (ك): «قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله[1]. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله، فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [ثم أفلح][2] حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان[3]، وكذا روى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: تخاصم أهل الأديان، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام، وكتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا، فقضى الله بينهم فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] الآية، وخير بين الأديان، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[4].

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منكم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فأفلح الله».

(٣) مرسل قتادة، عند ابن جرير (٥/ ١٨٥) وإسناده صحيح، وعزاه في «الدر» (٦/ ٦٩٤) لابن المنذر وعبد بن حميد، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذا روي عن السدي والضحاك وأبي صالح وغيرهم».
قال أبو عبيدة: معضل السدي، عند ابن جرير (٥/ ١٨٥) وفيه أسباط بن نصر ضعيف، ومعضل الضحاك، عنده وفيه انقطاع بين ابن جرير والحسين بن فرج، وله طريق آخر عنده وعند ابن المنذر كما في «الدر» (٢/ ٦٩٤) وفيه جويبر متروك، ومرسل أبي صالح السمان، عند ابن جرير (٥/ ١٨٥ ـ ١٨٩)، وابن أبي حاتم (٤/رقم ٦٠٠١) بسند صحيح، وعزاه في «الدر» (٢/ ٦٩٥) لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه الطبري (٥/ ١٨٥) من طريق العوفي به، **بإسناد ضعيف جداً**، مسلسل بالضعفاء =

ثم قال (ك): «ومعنى[(١)] هذه الآية: إن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو على الحق[(٢)] سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال[(٣)] بعده: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وقد روي أن هذه الآية لما نزلت، شق ذلك على كثير من الصحابة، قال الإمام أحمد[(٤)] وذكر سنده عن أبي بكر، قال: «يا رسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]؟! فكل سوء عملناه جزينا به، فقال النبي ﷺ: **«غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟! ألست تنصب؟! ألست تحزن؟! ألست تصيبك الأدواء[(٥)]؟»** قال: بلى، قال: **«فهو مما[(٦)] تجزون به»**». اهـ.

قال محمد تقي الدين: الدين إسلام الوجه لله تعالى، واتباع ملة إبراهيم الحنيفية، لا يجتمع أبداً مع دعاء غير الله وعبادة القبور والاستمداد من أرواح الشيوخ، بل هذا ضد الحنيفية.

= والمجاهيل من العوفيين.
وبنحوه عند ابن أبي حاتم (٤/رقم ٥٩٩١) **بسندٍ ضعيف**، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٦٩٥) لعبد بن حميد، ولم أقف على إسناده، وما سبق من «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والمعنى في».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو المحق».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعالى ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة رسله الكرام ولهذا قال».

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١١)، والمروزي في «مسند أبي بكر الصديق» (١١١، ١١٢)، وأبو يعلى (٩٨ ـ ١٠١)، وابن حبان (٢٩١٠، ٢٩٢٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٩٢)، والحاكم (٣/ ٧٤، ٧٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٧٣)، وفي «الشعب» (٧/ ٩٨٠٥)، **والحديث صحيح**، وانظر: «صحيح مسلم» (٢٥٧٤).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «اللأواء».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧١ ـ ١٧٥]

قال (ك): «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلوّ والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى[(١)]، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلٰهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه ـ وأتباعه[(٢)] ممن زعم أنه على دينه ـ فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، الآية. وقال الإمام أحمد[(٣)] وذكر سنده عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»، قال علي بن المديني: هذا حديث صحيح سنده[(٤)]،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حد التصديق بعيسى».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأشياعه».

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٣)، والبخاري (٣٤٤٥)، وسيأتي لفظه.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مسند»!

ورواه البخاري، ولفظه: «**فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

وقال الإمام أحمد[١]: بسنده عن أنس بن مالك، أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ**». وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، أي: لا تفتروا عليه، وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله ﷻ عن ذلك علواً كبيراً، وتنزَّه وتقدَّس وتوحَّد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلق الله[٢] قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه ﷻ[٣]، وكانت تلك التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله ﷻ، ولهذا [قيل][٤] لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه؛ وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له: بها ﴿كُن﴾، فكان، والروح التي أرسل بها جبريل، قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: ١٢] إلى آخره. وقد بين ابن أبي

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣) ـ ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١٦٢٧) ـ، وعبد بن حميد (١٣٣٧)، والبخاري في «التاريخ الأوسط» (١/ ١١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٨، ٢٤٩)، وابن حبان (٦٢٤٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٩٨)، والضياء في «المختارة» (١٦٢٦) **وإسناده صحيح**، وانظر: «الصحيحة» (١٠٩٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خلقه».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فكان عيسى بإذن الله ﷻ وصارت تلك النفخة في. . . .».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال»!

حاتم بسنده عن شاذان بن يحيى يقول في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ «ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى»[1]، وهذا أحسن مما ادعى ابن جرير في قوله: ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي أعلمها بها[2]، كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي: يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى عليه السلام.

وقال البخاري[3]، بسنده عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، و[أنّ]**[4] **النار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أي من خلقه، ومن عنده، وليست ﴿مِّن﴾ للتبعيض كما تقوله النصارى[5]، بل هي لابتداء الغاية، كما في الآية الأخرى، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] وفي قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦] وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: فصدّقوا بأن الله واحد أحد، [لا ولد له، ولا صاحبة][6]، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾ [المائدة: ١١٦] الآية.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/١١٢٣) رقم (٦٣١٠) وغيره.
(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (٥/٤٠٦).
(٣) في «صحيحه» رقم (٣٤٣٥)، وأخرجه مسلم (٢٨) أيضاً.
(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله المتتابعة»، وفي الأصل: «تقول النصارى»!
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا صاحبة له ولا ولد».

وقال في أولها: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] الآية، **فالنصارى من جهلهم ليس لهم ضابط ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم باطلة، وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً، وهم طوائف كثيرة، لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً**، ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم، وهو سعيد بن بطريق، في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير، الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفي أسقف فكانوا أحزاباً كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص، فلما رأى [منهم عصابة][1] قد زادوا على الثلاثمائة [بثمانية][2] عشر نفراً، قد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها وكان فيلسوفاً داهية، وترك ما عداها من الأقوال، وانتظم دستور أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من [الصغار يعتقدوها][3]، ويعمِّدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم (**الملكية**)[4]، ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم (**اليعقوبية**)[5]، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم (**النسطورية**)[6]، وكل هذه الفرق

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عصابة منهم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وثمانية».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصغر ليعتقدونها».

(٤) هم جلُّ النصارى اليوم، وانقسموا إلى طوائف، منهم: المارونية، والكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، وكان قسطنطين قد عقد هذا المجمع سنة ٣٢٥م في نيقية ـ وهي مدينة في تركيا تسمى الآن (أرنك) ـ، ويرى المؤرخ فيشر في كتابه «تاريخ أوروبا في العصور الوسطى» (ص٦ ـ ٧)، والمؤرخ النصراني ول ديورانت في «قصة الحضارة» (٣/ ١١/ ٣٨٧، ط. الثالثة) أن أهداف قسطنطين فيما قام به كانت سياسية. وانظر عنه: «محاضرات في النصرانية» (١٢٠ ـ ١٢١) لمحمد أبو زهرة، «أضواء على المسيحية» (٩٤ ـ ٩٥)، «تاريخ الفكر المسيحي» (١/ ٦١٩)، «التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة» (ص٤٩ ـ ٥٣).

(٥) أو (اليعاقبة) نسبة إلى يعقوب البراذعي، الذي انتحل مذهب القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة، وهي التقاء اللاهوت والناسوت في المسيح!

(٦) نسبة إلى نسطور الذي كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨هـ، خلافاً لما ذهب إليه =

تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفّر الفرقة الأخرى(١)، **ونحن نكفِّر الثلاثة**، ولهذا

= الشهرستاني في «الملل والنحل» (١/ ٢٢٤) أنه ظهر في أيام المأمون! وذكر الشيخ محمد أبو زهرة في «محاضرات في النصرانية» (ص١٣٥) أن مذهب نسطور بأن عيسى لم يكن إلهاً في حدّ ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله، وأنه فوق الناس. وانظر لتأكيده: «تاريخ الأقباط» (١/ ١٧٧)، «مختصر تاريخ الكنيسة» (١/ ٣٣٨)، «النصرانية من التوحيد» (٢٠٢)، «نشأة الطوائف المسيحية» (٤٧ ـ ٤٨).

(١) ينبغي لكل حريص على توحيده أن يتنبه لخطورة ما يسمى الآن بـ(التقريب بين الأديان) و(التآخي) و(الوحدة) بينها، وهذه دعوة خطيرة جداً، وهي من حصاد (النظام العالمي الجديد) أو (العولمة)! وللعلامة الشيخ بكر أبو زيد «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان» وهو مهم في بابه.

وللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (فتوى) برقم (١٩٤٠٢) بتأريخ ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ بشأن (الدعوة إلى وحدة الأديان)، ومما جاء فيها بعد تقرير **أصول عقدية جاءت في نصوص متواترة**: أن القرآن آخر كتب الله نزولاً، وأن التوراة والإنجيل نسخا به، وأن نبينا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، واعتقاد كفرِ كلِّ مَنْ لَمْ يدخل الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم: «وأمام هذه الأصول الاعتقادية، والحقائق الشرعية، فإنّ الدعوة إلى (وحدة الأديان) والتقارب بينها وصهرها في قالب واحد، دعوة خبيثة ماكرة، والغرض منها: خلط الحق بالباطل، وهدم الإسلام وتقويض دعائمه، وجرُّ أهله إلى ردة شاملة، ومصداق ذلك في قول الله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، وقوله جل وعلا: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾» وفيها أيضاً:

«وإن من آثار هذه الدعوة الآثمة: إلغاء الفوارق بين الإسلام والكفر، والحق والباطل، والمعروف والمنكر، وكسر حاجز النفرة بين المسلمين والكافرين، فلا ولاء ولا براء، ولا جهاد ولا قتال لإعلاء كلمة الله في أرض الله، والله جل وتقدس يقول: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾، ويقول جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾» وفيها أيضاً:

«إن الدعوة إلى (وحدة الأديان) إن صدرت من مسلم فهي تعتبر ردة صريحة عن دين الإسلام؛ لأنها تصطدم مع أصول الاعتقاد، فترضى بالكفر بالله ﷻ، وتبطل صدق القرآن ونسخه لجميع ما قبله من الكتب، وتبطل نسخ الإسلام لجميع ما قبله من الشرائع والأديان، وبناءً على ذلك فهي فكرة مرفوضة شرعاً، محرمة قطعاً بجميع أدلة التشريع في الإسلام من قرآن وسنة وإجماع».

قال تعالى: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾[(١)]، ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ كما قال في الآية الأخرى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فوائد:

الأولى: غلو النصارى في عيسى ابن مريم ﷺ، وهذا الغلو لا يقبله أي عقل سليم، ولا يتفق أبداً مع الفطرة التي فطر الله عليها عباده، فإن عيسى بشر ولدته امرأة، فتعالى الذي خلق السمٰوات والأرض أن يكون في رحم امرأة، ثم يربَّى بالرضاعة والرعاية، ويجوع ويأكل، ويعطش ويشرب، ويتعب ويركب، ويمرض ويشفى، ولكن الدعاية الفاسدة تفسد فطرة بني آدم، وتمسخ عقولهم حتى يعتقدوا مثل هذه العقيدة، انظر كتابي «البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية»[(٣)].

الثانية: تأمّل قول النبي محمد ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»**[(٤)]. والحديث الذي بعده، ومع ذلك غلب الجهل على قوم فأطروه وعصوه، وقال قائلهم[(٥)]:

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: يكن خيراً لكم».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٨٥ ـ ٣٩٠) بتصرف.

(٣) طبع عن دار الثقافة، مكة، عام ١٣٩٣هـ، ثم نشر على حلقتين في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد السابع عشر، العددان: الثاني والثالث، الهندية سنة ١٤٠٥هـ، ووجدته ـ فيما بعد ـ قد نشر قبل ذلك في مجلة «الإحياء» المغربية، المجلد الثاني، الجزء الأول، ذو الحجة، ١٤٠١هـ، وسأنقل منه في التعليق على (٢/ ٢٧ و٣/ ١٦٨) بعض البراهين والأدلة من «الإنجيل» على عبودية عيسى ﷺ لله ﷻ، وأنه ليس بإله، فانظره فإنه مفيد، وينظر ما سيأتي قريباً (ص٣١٠).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) الأبيات من قصيدة «البردة» للبوصيري، وهي منتقدة انتقده بسببها غير واحد، وبيّنت ذلك =

لولاه لم تخرج الدُّنيا مِنَ العَدَمِ[1]

وقال:

يا أكرمَ الخَلْقِ ما لي مَنْ أَلوذُ به   سواكَ عند حُلولِ الحَادِثِ العمم
فإنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنيا وضَرَّتَها   ومنْ عُلومك عِلمُ اللوح والقَلَمِ

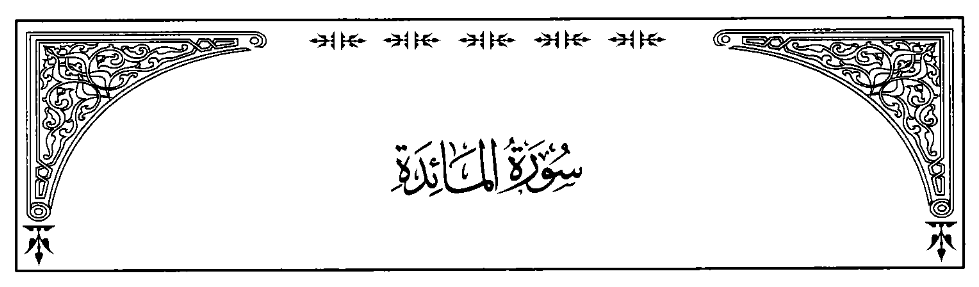
وقال فيما تخيله في شركه وجهله:

ومنذ ألزمتُ أفكاري مدائحَه   وجدتُه لخلاصي خيرَ مُلْتَزِمِ

ومن يستطِيعُ تخليص بني آدم من شدائدهم وكُربهم وأمراضهم ومصائبهم إلا الله سبحانه لا شريك له، ومن الغريب أن هؤلاء الجهال من جهة يغلون في النبي ﷺ حتى يصفوه بصفات الله تعالى من علم الغيب، وكونه موجوداً في السمٰوات والأرض، يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث من استغاث به، ويتصرف في ملكوت الله، بل وصفوا غيره من الصالحين وغير الصالحين بمثل ذلك، ومن جهة يخالفون سنته، ويعصون أمره، ولا يحكّمون شريعته، ويعادون من اتبع سنته.

الثالثة: لماذا سُمِّي عيسى كلمة الله وروح الله؟ بينه الحافظ ابن كثير غاية البيان، فأما كونه كلمة الله، فلأنه خلقه بكلمة ﴿كُن﴾ فهو من تسمية المسبب باسم السبب، وأما كونه، روح الله، فالإضافة هنا، إضافة تشريف وتكريم،

أن يحل في خلقه، أو يحل فيه شيء من خلقه، فهو مستوٍ على عرش، مباين لخلقه.



سُورَةُ المَائِدَةِ

الباب الأول

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٧، ١٨]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً وحاكياً لكفر[١] النصارى في اعتقادهم[٢] في المسيح ابن مريم ـ وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه ـ أنه هو الله، تعالى [الله] عن قولهم علواً كبيراً، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾؟ أي لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه منه؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟ ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: جميع الموجودات ملكه وخلقه، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل لقدرته وسلطانه وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى[٣]، ثم قال تعالى ردّاً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ أي: نحن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحاكماً بكفر».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ادعائهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله المتتابعة».

منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم، أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكري» فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى من كتابهم أن عيسى قال لهم: «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم»، يعني: ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدّعوا لأنفسهم من البنوة، ما ادعوه في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؟ أي: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه، فلِمَ أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا عليه الصوفي هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في «مسند الإمام أحمد»[1]، وذكر سنده عن أنس قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: «أي ابني». وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله! ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار، قال: فخفَّضهم النبي ﷺ فقال: «**لا والله ما يلقي [الحبيب]**[2] **حبيبه في النار**».

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام اختلال، وهو هكذا في النسخة التي بين أيدينا[3]، والمعنى: ـ إن الله يحب عباده الصالحين، فلا يلقيهم في النار.

«﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: فعال لما يريد، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٤، ٢٣٥)، وأبو يعلى (٦/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) رقم (٣٧٤٧ ـ ٣٧٤٩)، والبزار في «البحر الزخار» (١٣/ ١٦١) رقم (٦٥٧٩) أو رقم (٣٤٧٦ ـ كشف الأستار)، والحاكم (١/ ٥٨)، وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٢٢)، والضياء في «المختارة» (٦/ ٣٦) **وإسناده صحيح**، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٨٦) وقال: «رواه أحمد والبزار بنحوه وأبو يعلى، ورجالهم رجال الصحيح» وللحديث شاهد من حديث عمر، رواه البخاري (٥٩٩٩)، وسيأتي لفظه.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) وهو هكذا في النسخ المحققة!

﴿بَيْنَهُمَا﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه. و﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور»[1].

قال محمد تقي الدين: لله در الحافظ ابن كثير! ما أوسع اطلاعه! فمع تبحره في علوم الكتاب والسنة والتاريخ، درس عقيدة النصارى واليهود فصار يرميهم بأحجارهم، ويأخذهم بإقرارهم. ونص ترجمة ما جاء في الإنجيل:

«... إن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».اهـ. فقوله: «وإلهي وإلهكم». يثبت أن الله ربه وربهم، وكلهم عبيده فلا فرق بين المسيح وبين أتباعه في العبودية.

الثانية: وجه استنباط هذا الصوفي ما استنبطه من الآية، أن اليهود والنصارى زعموا أنهم أحباء الله، فكذبهم الله تعالى وأقام البرهان على كذبهم بتعذيبه إياهم في الدنيا بالمصائب، وفي الآخرة بعذاب النار كما يعذب غيرهم، فعلم من ذلك أن الحبيب لا يعذب حبيبه.

الثالثة: حديث الإمام أحمد في قصة المرأة التي خافت على ولدها أن يطأه الجيش، أذكر أني رأيت هذا الحديث في بعض كتب الحديث بغير هذا اللفظ ومعنى ما رأيته أن النبي ﷺ لما رأى المرأة تسعى لتأخذ ولدها قال لأصحابه: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار»**؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: **«فإن الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها»**[2] قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣، ٤٤].

الباب الثاني

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

(١) من «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر، ولفظهما: **«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**.



نَدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٧]

قال (ك): «ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام[(١)]، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم[(٢)] بسنده عن عياض، أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر! وقال له[(٣)]: هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا، بل نصراني! قال: فانتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ثم روى ابن أبي حاتم[(٤)] بسنده

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأهله قاتلهم الله».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٥٦) رقم (٦٥١٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٢٧، ٣٢٧) وفي «الشعب» (٩٣٨٤) **وإسناده حسن**، فيه كثير بن شهاب هو المذحجي، قال عنه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٧/ الترجمة ٨٥٣): «كتبت عنه بقزوين وهو صدوق» وعمرو بن أبي قيس قال ابن حجر في «التقريب»: صدوق له أوهام.
والأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٥١٦) أو (٥/ ٣٥٠، ط. هجر) وزاد نسبته للبيهقي في «شعب الإيمان»، وانظر: «مسند الفاروق» (٢/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥) لابن كثير.

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إن هذا لحفيظ،».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٥٦) رقم (٦٥١١)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٠) لعبد بن حميد عن حذيفة.

عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر! قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: شك وريب ونفاق ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ أي: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم، أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك، عند ذلك قال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾. قال السدي: يعني: فتح مكة، وقال غيره: يعني: القضاء والفصل ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿فَيُصۡبِحُواْ﴾ يعني: الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ من الموالاة ﴿نَٰدِمِينَ﴾ أي: على ما كان منهم مما لم يُجْدِ عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فُضِحُوا، وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين. فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾. قال ابن جريج عن مجاهد: «فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده» تقديره: حينئذٍ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾»[(١)]، وروى ابن جرير[(٢)] في سبب

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١١٥٨) رقم (٦٥٢٢)، وابن جرير (٨/٥١٥)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٣١٠).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/٤٢٨، ٤٢٩) ـ ومن طريقه ابن جرير (٨/٥٠٥)، وابن أبي حاتم (٤/١١٥٥) رقم (٦٥٠٦) في «تفسيريهما»، والبيهقي في «الدلائل» (٣/١٧٤، ١٧٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/١٩١ ـ ١٩٢)، حدثني والدي إسحاق بن يسار عن عباد بن الوليد به، وهو مرسل. وعزاه في «الدر المنثور» (٢/٥١٥) لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وروي من طريق آخر أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/١٣٧)، وابن جرير (٨/٥٠٤) بسندٍ رجاله ثقات إلّا عطية بن سعيد العوفي، وهو ضعيف، وقد أرسله، **فالقصة ضعيفة** من هذين الطريقين.

نزول هذه الآية، أنه لما وقعت الحرب بين النبي ﷺ وبين بني قينقاع من يهود المدينة؛ جاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه - وكان حليف بني قينقاع في الجاهلية - إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني أبرأ من بني قينقاع، وأتولى الله ورسوله، وجاء عبد الله بن أبيّ - رأس المنافقين - فأخبر النبي ﷺ أنه ثابت على موالاة حلفائه في الجاهلية، بني قينقاع، ففيهما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾، إلى ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾»[1].

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة، أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير له[2] منه، وأشد منعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٦، ١٧] أي: بممتنع ولا صعب، وقال تعالى ههنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل، قال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه، رواه ابن أبي حاتم[3]، وقال [أبو بكر بن عياش][4] في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾: هم أهل القادسية، وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩][5]، وقوله عز وجل: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي: لا يردهم عما هم فيه من

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٥٣ - ٢٥٦).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لهما»!

(٣) في «تفسيره» (٤/ ١١٦٠) رقم (٦٥٣٧)، وابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٥١٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٦٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ٣٠٩، ٣١٠) **بإسناد صحيح إلى الحسن، وهو مرسل عنه**، والأثر ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٥١٧) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وخيثمة الأطرابلسي في «فضائل الصحابة».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الصواب، وتحرف في الأصل إلى «ابن عباس»! ثم وجدته مسنداً على الجادة عند ابن أبي حاتم (٤/ ١١٦١) رقم (٦٥٣٩).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»، «وفي صفة رسول الله ﷺ: أنه الضحوك القتال، فهو الضحوك لأوليائه قتال لأعدائه».

طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل، قال الإمام أحمد[١] وذكر سنده عن أبي ذر قال: «أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُراً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش». وقال الإمام أحمد[٢] بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرِّب من أجل ولا يباعد من رزق، أن يقول بحق، أو أن يذكر بعظيم»**، تفرد به أحمد.

وروى أحمد وابن ماجه[٣] بسندهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: **«إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليسأله يقول له: أي عبدي أرأيت منكراً فلم تنكره؟ فإذا لقَّن الله عبداً حُجَّته، قال: أي رب! وثقتُ بك، وخفت الناس»**. وثبت في «الصحيح»: **«ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»** قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: **«يتحمَّل من البلاء ما لا يطيق»**[٤]. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٥٤) ـ وهو في «الكبرى» رقم (١٠١٨٦) ـ، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٣٢)، وابن حبان (٤٤٩)، والبزار (٣٩٦٦)، والطبراني في «الكبير» (١٦٤٩)، وفي «الأوسط» (٧٧٣٩)، وفي «الصغير» (٨/ ٧٥)، وفي «الدعاء» (١٦٤٨ ـ ١٦٥٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٩١)، و«الشعب» (٦/ ٩٣، ٩٤) رقم (٧٥٨٣)، وأبو نعيم (١/ ١٥٩ ـ ١٦٠) من حديث أبي ذر، وهو **صحيح**.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠)، والترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٧)، وأبو يعلى (١٤١١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨٢٥، ٤٩٠٦)، و«الصغير» (١/ ٢٥٨)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٩٠)، وابن حبان (٢٧٥، ٢٧٨) **والحديث صحيح**، وانظر: «الصحيحة» (١٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٧، ٢٩، ٧٧)، والحميدي (٧٣٩)، وعبد بن حميد (٩٧٤)، وأبو يعلى (١٠٨٩) في «مسانيدهم»، وابن ماجه (٤٠١٧)، وابن حبان (٧٣٦٨)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٩٠)، و«الشعب» (٧٥٧٤، ٧٥٧٥)، والخطابي في «العزلة» (ص١١٠) **وإسناده حسن**، وجوده العراقي في «تخريجه أحاديث الإحياء» (٢/ ٢٢٩).

(٤) الحديث غير موجود في أي من «الصحيحين»! وإنما هو عند الترمذي (٢٢٥٤)، =

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن[1] يحرمه إياه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: المؤمنون المتصفون بهذه الصفات مِنْ إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين، ومساعدة للمحتاجين، من الضعفاء والمساكين، وأما قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع، أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب، أن هذه الآية نزلت فيه، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه، فأعطاه خاتمه»[2]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: وذكر (ك) آثاراً تدل على أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب حين أعطى المسكين خاتمه وهو راكع، وقال: إنه لا يصح شيء منها[3]. «وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه، حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله[4] ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ

= وابن ماجه (٤٠١٦)، وأحمد (٥/ ٤٠٥)، والبزار (٢٧٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٦٦، ٨٦٧)، وابن عدي (٦/ ٢٣٠٧)، وأبي الشيخ في «الأمثال» (١٥١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٨٢٤)، والبغوي (٣٦٠١) من حديث حذيفة، وفي الباب عن ابن عمر وعلي، **وجوّده** العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٥٢)، وذكره شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٦١٣).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ومن»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٥٨ ـ ٢٦٥) بتصرف.

(٣) نعم، جميع ما ورد في هذا الباب لم يثبت، وقد فصلت ذلك في كتابي «قصص لا تثبت»، وتكلم على طرق هذه القصة مفصلاً الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠)، وابن حجر في «الكافي الشاف» (٥٦)، والمناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٥٧٢)، وانظر: «علوم الحديث» (١٠٢) لابن الصلاح.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ورضي بالله».

ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢١، ٢٢]، فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾»(١).

«وقوله تعالى: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ الآية وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، ويتخذونها هزواً، يستهزؤون بها، ﴿وَلَعِبًا﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل(٢):

وَكَمْ مِنْ عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفته من الفَهْم السَّقِيم

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ ﴿مِّنَ﴾ هٰهنا لبيان الجنس كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] وقرأ بعضهم(٣): ﴿وَالْكُفَّارِ﴾، بالخفض عطفاً، وقرأ آخرون: بالنصب على أنه معمول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾(٤) وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء، إن كنتم مؤمنين(٥) بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٢) هو أبو الطيب المتنبي، والبيت في «ديوانه» (١/ ٢٣٩ ـ مع شرحه «العرف الطيب»).

(٣) هذه قراءة أبي عمرو والكسائي وسهل ويعقوب واليزيدي، انظر: «النشر» (٢/ ٢٥٥)، «السبعة» (٢٤٥)، «التبصرة» (٤٨٧)، «المكرر» (٣٥).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تقديره: وَلَا الْكُفَّار أَوْلِيَاءَ أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨]»[١].

قال محمد تقي الدين: قول النبي ﷺ: **«فإذا لقن الله عبده حجته، قال: أي رب، وثقت بك، وخفت الناس..»**[٢] وثبت في «الصحيح» إلى آخره.. في هذا دليل على لطف الله ورحمته بعباده، فمن عجز عن تغيير المنكر بيده أو بلسانه، ورأى أن ذلك يوصله إلى الهلاك، ترك التغيير باليد واللسان، واكتفى بتغيير المنكر بقلبه[٣]، والله ﷻ يعذره بعجزه وضعفه.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لتغيير المنكر أربع درجات: أن يزول ويخلفه ضده، أن يقِلَّ وإن لم يَزُل بجملته، أن يخلفه ما هو مثله، أن يخلفه ما هو شر منه. فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة. قاله ابن القيم في «الإعلام» (٤/ ٣٣٩ ـ بتحقيقي).
والحال التي ذكرها المصنف، يزاد عليها: إن فعل صابراً محتسباً قيامه في ذلك عند الله ﷻ صح وكان مأجوراً، وبسط ذلك ابن المناصف في كتابه البديع «الإنجاد» (١/ ١٤ ـ بتحقيقي). ومما يلزم معرفته بهذا الصدد أمران:
الأول وهو مهم، كثير الوقوع، والحاجة إليه ماسة: إن أيس الآمرُ من كفّ فاعل المنكر، أو إزالته، فهل يبقى الأمر واجباً عليه أم لا؟ الذي رجحه ابن المناصف في «الإنجاد» (١/ ١٥ ـ بتحقيقي) الوجوب، قال:
«**والأظهر عندي في هذا الوجه:** أنه يجب عليه القول، وإن كان يائساً من كفّ ذلك المنكر؛ لأن الإنكار أخصُّ فريضةً، لا يسقطه عدم تأثر المنكر عليه، ألا ترى أن إنكار القلب حيث لا يستطاع الإنكار بالقول واجبٌ باتفاق، وهو لا أثَرَ له في دفع ذلك المنكر؟! فكذلك يجب القول إذا أمكنه، وإن لم يؤثر. وأيضاً ففي إعلان الإنكار تقريرُ معالم الشرع، فلو وقع التَّمالؤ في مثل هذا على التَّرْكِ حيث لا يغني الكفّ والإقلاع، لأوشك دروسها؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فالقول إذا قدر عليه واجب أثّر أو لم يؤثر».
قال أبو عبيدة: هذا الذي استظهره هو الراجح في نظري، لما يلي:
أولاً: إذا جرى الحديث عن تأثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو عدم تأثيره، أريد به ظهور المعروف حينما أمر به، وانتفاء المنكر حينما نهى عنه، وبالعكس، ولكن لننظر في الأمر من وجهة نظر أخرى: وهي أن المسلم ـ ولو لم يؤثر فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأثيراً عاجلاً ـ لا بدَّ أن يتأثر في شعوره إلى حدٍّ ما، ومن الممكن أن يصير هذا التأثير، سبباً لفعله المعروف، وتركه المنكر فيما بعد، ومن هذه الناحية درس الإمام محمد بن الحسن الشيباني في «شرح السير الكبير» (٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)، نفسيَّة الأمة =

. . . .

= المسلمة مراعاة كاملة، فقال: «وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسعه الإقدام، وإن كان يعلم أن القوم يقتلونه، وأنه لا يتفرق جمعهم بسببه؛ لأنَّ القوم هناك مسلمون، معتقدون لما يأمرهم به، فلا بد من أنَّ فعله ينكئ في قلوبهم، وإن كانوا لا يظهرون ذلك».

ثانياً: إذا أهمل السعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة عدم جدواه، تقطعت أسباب الرجاء عن الإصلاح، وهلك المجتمع كله.

ثالثاً: لا يصح بناء الحكم الفقهي على (التأثير) و(عدمه) فنقول: يجب الأمر بالمعروف عند حصول التأثير والإفادة، والعكس بالعكس؛ لأن التأثير وعدمه أمر غير ظاهر وغير منضبط، فكم من مأمور بالمعروف يُرجى فيه الخير ومنهيٍّ عن المنكر لا يرجى فيه ذلك، ولا يستجيب الأول ويستجيب الثاني.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ٢٣): «قال العلماء: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله؛ فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول، وكما قال الله ﷻ: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]».

رابعاً: إن صح القول الأول؛ فيحمل على أنَّ العامة عليهم أن يحافظوا على دينهم وإيمانهم، ولا يصح أن يلقى عليهم أعباء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن الخاصة منهم ـ أيضاً ـ إن لم يتقدموا إلى ذلك ظلموا أنفسهم وقدراتهم وإمكاناتهم.

والقول بالوجوب رواية عن أحمد، وصححه أبو يعلى، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وعزاه ابن رجب إلى أكثر العلماء، كما في «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٤٣٥).

وانظر بسطاً للمسألة في: «أحكام القرآن» (٢/ ٧٩٧)، و«مختصر الفتاوى المصرية» (٥٨)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٤٨، ١٤٩)، و«طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٨٠)، و«الآداب الشرعية» (١/ ١٧٨)، و«الإحياء» (٢/ ٢٨٠)، و«مبارق الأزهار» (١/ ٥٠) لابن ملك، و«نصاب الاحتساب» (٣١٣)، و«أضواء البيان» (١/ ١٧٥)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص١٥٧ وما بعدها) لجلال العمري، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وواقع المسلمين اليوم» (ص١٠٣ وما بعدها) لصالح الدرويش، و«الأمر بالمعروف» (ص٥٠)، لعبد الرحمن المقيط، و«الأمر بالمعروف» (ص٣٨٦) لخالد السبت، و«الجواب الأبهر لمن سأل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص٥٧ ـ ٦١)، و«أصول الدعوة» (١٩٠، ٣١٢) لعبد الكريم زيدان.

الثاني: ينبغي استعمال الحكمة في الأمر والنهي، والحكمة: أن تضع الشيء في مكانه: شدة وغلظة أو ليناً ورفقاً، قال ابن المناصف في «تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام» (ص٣٢٠):

«فأمّا إن خيف مع الرّفق فوات عين المنكر، أو اتّصال الاستطالة على مثله لاستخفاف المقوّم عليه وقلّة التفاته ومبالاته، وعلم أن الرّفق لا ينفع في مثل ذلك، وأمن أن يثير =

الباب الثالث

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٧]

= الإغلاظ منكراً أشدّ من الحاضر، فينبغي المعالجة بما يقاومه ويصلح به ذلك الأمر من الشدّة والعنف، وبحسب عظم المنكر وما يليق في مثله، ويؤدّي إلى إزالة فعله، قال الله ـ تعالى ـ في صفة القوم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ و﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾».

ثم نقل رَحِمَهُ اللَّهُ عن شيخه المشتهر بابن أبي درقة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنت مرّةً في غرّة الشباب، ومبادي الطلب، فتشاغلت عن إحدى صلاتي العشاء إلى أن شارفت الفوات، فأتيت عَجِلاً إلى بعض المساجد، واعتمدت بعض زواياه، فصلّيتها مبادراً متجوّزاً في بعض أركانها، وإذا بعض الشّيوخ يسارقني النّظر، بحيث لم أشعر به، فلمّا أتممت صلاتي، وهممت بالانصراف استدعاني، فأتيته، فسألني قليلاً، ثم قال: يا بنيّ، رجلٌ تسلّف دراهم إلى وقتٍ، فلمّا حلّ الأجل، والغريم موسر قادرٌ على الأداء، تهاون بذلك واستخفّ، ولم يزل يتراخى به إلى أن استحق ذمّ التأخير، ثم أتاه بها بعد ذلك ناقصةً، زيُوفاً، فَجَمَعَ بين جنسي الإساءة في القضاء، فهل يكون لهذا حظٌّ في القبول؟ فما أتم كلامه حتى فهمت مقصده وتعريضه بما فعلت في صلاتي، فخجلت، ثم قلت له: فهمت يا عمّ، فما زاد على أن قال: قم يا بنيّ بارك الله فيك، فعدت لإتمام صلاتي، وأثّر ذلك عندي خير تأثير».

ثم قال: «فهذا النوع من الرّفق والتلطّف في التّعليم بحسب فهم صاحب النّازلة وما يليق به، أوقع في النفوس وأقرب إلى الإجابة من كثير من العنف والشّدّة».

«يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية ممن[١] قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً، هذا وقد تقدم [أن المسيح][٢] عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد، أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: إني أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٦] وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ١١٦] وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠] وفي «الصحيحين»[٣] أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس: **«إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة»**، وفي لفظ: **«مؤمنة»**[٤] وتقدم في أول سورة النساء عند قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٦] حديث يزيد بن أبي موسى عن عائشة: **«الدواوين ثلاثة...»**، فذكر منهم: **«ديواناً لا يغفره الله هو الشرك بالله»**. قال الله تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ والحديث في «مسند أحمد»[٥]، ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: وما لهم[٦] عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هم[٧] فيه»[٨].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فمن»!
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم المسيح بأنه».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٣٧٧) من حديث ابن مسعود.
(٥) سبق تخريجه، وانظر له: «المجالسة» رقم (٦) وتعليقي عليه، فقد أطلت النفس في تخريجه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «له». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».
(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٢٩٦ ـ ٢٩٧).

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾.

قال (ك): «اختلفوا - أي المفسرون -، فقيل: المراد بذلك كفرهم[1] في قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهي[2]: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير[3] وغيره: والطوائف الثلاثة من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية[4]، تقول بهذه الأقانيم، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً[5]، فكل[6] فرقة منهم تكفّر الأخرى، والحق أن الثلاث كافرة، وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلٰهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وهذا القول هو الأظهر والله أعلم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: ليس متعدداً، بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى متوعّداً لهم ومتهدّداً: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هذا الافتراء والكذب: ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة[7]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾. وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه، وقوله[8] تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له سوية[9] أمثاله

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كفارهم»!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو». (٣) في «تفسيره» (٨/ ٥٨٠).

(٤) هم لا يقولون بالأقانيم الثلاثة، وقدمنا ذلك عنهم قريباً، فالاتحاد عندهم ليس حقيقياً بل مجازياً؛ لأن الإله منح عيسى المحبة فصار بمنزلة الابن، ومعنى ذلك أن المسيح لم يكن فيه عنصر إلهي قط، فليس إلهاً ولا ابن إله، وهذا ما تقرره صاحبة «تاريخ الأمة القبطية»، ويرى الدكتور أحمد شلبي في كتابه «المسيحية» (ص١٨٩) أن مذهب نسطور كان محاولة للعودة إلى التوحيد. وانظر: «تحريف رسالة المسيح ﷺ عبر التاريخ» (ص٣٠٨ - ٣١٠).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليس هذا موضوع بسطه».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكل».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من الأغلال والنكال».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثم قال».

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أسوة»!

من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: مؤمنة به، مصدِّقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية، كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ الإجماع على ذلك[(١)]، وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بإلٰهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة[(٢)]، ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونظهرها: ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟ وبأي قول يتمسّكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟»[(٣)].

«وقال[(٤)] تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبيّناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلٰهية [فقال تعالى][(٥)]: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر على [دفع ضر عنكم، ولا إيصال نفع إليكم][(٦)]. ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع

---

(١) انظر مبحث (نبوة النساء) وبيان أن الراجح حصرها في الرجال: «فتح الباري» (٦/٤٤٧ ـ ٤٤٨ و٦/٤٧٣)، «لوامع الأنوار البهية» (٢/٢٦٦)، و«الرسل والرسالات» (ص٨٦ ـ ٨٩)، وكتابي «الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير» (ص١٢٦).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٢٩٦ ـ ٢٩٨).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول». (٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إيصال خير إليكم ولا إيجاد نفع».

ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه، ثم قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا تجاوزوا الحدَّ في اتّباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلٰهاً من دون الله، وما ذلك إلا لاقتدائكم [بشيوخكم][(١)]، بشيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً: ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال»[(٢)]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: رأيت من المفيد لمن يقرأ هذا الكتاب، أن أنقل بعض الأدلة من الأناجيل الأربعة التي يؤمن بها النصارى في هذا الزمان، وهي واضحة الدلالة على أن عيسى عبد الله ورسوله، وليس إلٰهاً ولا ابن الله[(٣)]:

الأول: في (الباب التاسع عشر) من «إنجيل متى» (رقم١٦ و١٧): «وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله». اهـ. ففي قوله: «لا صالح إلا واحد وهو الله». اعتراف بعبودية المسيح لله تعالى؛ لأنه أراد بالصالح الكامل الذي لا يعتريه النقص بحال، وليس ذلك إلا لله تعالى.

وفي (الفصل ٢١) من «إنجيل متى» (رقم ٤٦): «وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خلفوا من الجموع؛ لأنه كان عندهم مثل نبي». وهذا من أقوى الحجج على القائلين بألوهيته لو كانوا يعقلون!!

وفي «إنجيل متى» (الفصل ٢٣ رقم ٨): «وأما أنتم فلا تدعوا أحداً سيدكم، فإن سيدكم ـ حتى المسيح ـ واحد» يعني: وهو الله؛ لأن المسيح نهى الرجل أن يسميه سيداً، وأخبر أن السيد هو الله تعالى، وكل من سواه حتى المسيح عبيد، وقد حرفت هذه الآية في الترجمة العربية، أما الترجمة الإنجليزية

---

(١) غير موجود في «مطبوع «تفسير ابن كثير»».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٢٩٩).

(٣) للهلالي جزء مفرد مطبوع بعنوان «البراهين الإنجيلية على أن عيسى ﷺ داخل في العبودية ولا حظ له في الألوهية»، وترجم للإنجليزية، وتقدم ذكره، ومكان نشره، وانظر التعليق على (ص٢٩٣)، ففيه نقل مهم.

فليس فيها تحريف[١].

وفي (رقم ٩) من «إنجيل متى»: «ولا تدعوا لكم أباً على الأرض؛ لأن أباكم واحد، وهو الذي في السماء».اهـ.

ومن ذلك تعرف أن الأبوّة والبنوّة بمعنى العلاقة بين الرب والعبد ثابتة في الإنجيل لجميع الناس، لا خصوصية للمسيح في ذلك.

وفي (الفصل ٢٤ رقم ٣٦): «أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها أحد من الناس، ولا ملائكة السماء، ولكن أبي وحده هو يعلمها». فهذا دليل قاطع على أن تلك الساعة لا يعلمها أحد إلا الله، ففيه دليل على أن علم المسيح قاصر كسائر البشر، والله وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً.

---

(١) من عجيب أمر العلامة الهلالي أنه تعلَّم الإنكليزية على يد إرسالية تبشيرية في الهند، صاحبها كندي، والتقى هناك بقسيس أميركي، قال للهلالي بعد محاورة: «يمنعكم التعصب عن قراءة التوراة والإنجيل، وأما أنا، فإن القرآن عندي بثلاث لغات». قال الهلالي: «فقلت له: أما الإنجيل بالعربية فلغته ركيكة لا تفهم، وأما بالإنكليزية، فأنا أدرسها لأقرأه بها». قال: «فقال لي ـ أي القسيس ـ: عدني أن تقرأه وأنا أطلب لك نسخة من لندن، تصلك بعد شهر، فوعدته، فلما وصلته النسخة، كتب إليّ معها كتاباً بالإنجليزية، جاء فيه: أسأل الله أن يعطيك في هذا الكتاب بركات كثيرة! فأخذت في قراءته، واستخرجت الكلمات التي لم أفهمها من المعاجم، ثم قرأته المرة الثالثة، وذكرت تلك المسائل في جزء سمّيته «حواشٍ شتى على إنجيل متى»، ونشرت هذا الجزء في مجلة «الشبان المسلمين» التي تصدر في البصرة، كان يصدرها صديقنا الحاج طه الفياض رحمة الله عليه، ولما أخبرت بهذه الحواشي الأمير شكيب أرسلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سألني عنها، فقلت: ضاعت في المطبعة، فتأسفت كثيراً على ضياعها، وأنا الآن مستعد أن أؤلف حواشي مثلها، أو أحسن منها، ولكن الكثير من إخواننا المسلمين لا يهتمون بالدفاع عن دينهم، ولا يعينون من أراد أن يدافع عنه بل يخذلونه»! في قصة طويلة ذكرها في «البراهين الإنجيلية» (ص٢٠ ـ ٢٧).
قال أبو عبيدة: أتعبت هاتفي، وأكللت طلبة العلم في العراق باتصالاتي، وأنا أتطلّب مقالات الهلالي المنشورة هناك، وحصلت على قسم لا بأس به منها، ضمّنتها كتابي «مقالات الهلالي»، ولم أظفر لغاية كتابة هذه السطور بِ«حواشٍ شتى»، والأيام حبالى، والله الرزاق، وهو الوهاب، وما كنت أحلم أن أحصل شيئاً ذا بال من هناك، فمنَّ الرب عَجَّلَ عليّ بمقالات من بلاد شتّى، مكثت قرابة خمس سنوات أتطلّبها، لترى ـ إن شاء الله ـ قريباً النور، أسأل الله أن ينفعَ بها، ويشرح لها القلوب والصدور، وأن ييسِّر لي الأمور.

وفي (الفصل ٢٠ رقم ١٦) من «يوحنا»: «قال لها يسوع: يا مريم، فالتفتت تلك، وقالت له: ربُّوني، ومعناه: يا معلم، قال يسوع: لا تلمسيني؛ لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلٰهي وإلٰهكم، فجاءت مريم المجدلية، وأخبرت التلاميذ أنها رأت السيد، وأنه قال لها ذلك». اهـ.

أقول: فقد شهد المسيح أن الله إلٰهه وإلٰههم، ولا فرق بينه وبينهم في العبودية، **فمن زعم أن المسيح إلٰه فقد كذَّب المسيح، وكذَّب جميعَ الأنبياء والمرسلين.**

قال محمد تقي الدين: ولم أنقل هنا كل (البراهين) التي في «الأناجيل»، وهي تدل دلالة قطعية على عبودية المسيح، وأن الألوهية خاصة بالله سبحانه، ولا حظ فيها للمسيح، **ولكن القسيسين والرهبان يخدعون أتباعهم، ويضلونهم وهم يعلمون أنهم كاذبون خادعون.**

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: ١٠٣]

قال (ك): «قال البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «**البحيرة**: التي يمنح درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيّبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء»[1] اهـ. قال صاحب «اللسان»: «ومنه ـ أي البحر، بمعنى الشق ـ قيل للناقة التي كانوا يشقون في أذنها شقاً بَحِيرة، وبَحَرْتُ أُذُنَ الناقة بحراً: شققتُها وخرقتُها، ابن سيده: بَحَرَ الناقة والشاة يَبْحَرُها بَحْراً: شق أذنها بنصفين، وقيل: بنصفين طولاً، وهي البَحِيرة، وكانت العرب تفعل بهما ذلك إذا نُتِجتا عشرةَ أبطن، فلا يُنتفع منهما بلبن ولا ظَهْر، وتُتْرك البَحِيرة ترعى [وتشرب][2] الماء، ويُحرّم لحمها على النساء، ويحلّل للرجال، فنهى الله تعالى

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦) من طريق ابن شهاب عن ابن المسيب به. وانظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٣٨٨).

(٢) في مطبوع «اللسان»: «وترد».

عن ذلك فقال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ ثم قال: قال أبو إسحاق النحوي: أثْبَتُ ما [رويناه][1] عن أهل اللغة في البَحِيرة، أنها الناقة كانت إذا نُتِجَتْ خمسةَ أبطن فكان آخرها ذكراً، بَحَروا أُذنها، أي: شقوها وأَعْفَوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تذاد[2] عن ماء ترده، ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المُعيى المنقطع[3] به لم يركبها، وجاء في الحديث[4]: «**إن أوّل من بحر البحائر، وحمى الحامي، وغيَّر دينَ إسماعيل، عمرو بن لحي**»[5]. اهـ. كلام «لسان العرب».

قال محمد تقي الدين: وفيما نقله ابن منظور صاحب «اللسان» عن اللغويين هنا تناقض، فقد نقل عن بعضهم أن لحم البحيرة يحرم على النساء دون الرجال عند أهل الجاهلية، ونقل عن أبي إسحاق النحوي، أنهم لم يكونوا يذبحونها، يعني: لم يكونوا ينحرونها، فإن الإبل لا تذبح وإنما تنحر، وفيه تناقض آخر، وهو أن بعضهم قال: إذا نتجت عشرة أبطن، وأبو إسحاق قال: إذا نتجت خمسة أبطن، ثم قال (ك): «قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب**»[6].

و(**الوصيلة**): الناقة تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثنِّي بعد بأنثى، وكانوا يسيّبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر.

و(**الحام**): فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي. كذا رواه

---

(١) في مطبوع «اللسان»: «روينا».

(٢) في مطبوع «اللسان»: «تُحلأ».

(٣) كذا في مطبوع «اللسان»، وفي الأصل: «المتقطع»!!

(٤) أخرجه أحمد وابن أبي عروبة وابن منده ـ كما في «الإصابة» (١/ ٦١ ـ ترجمة أكثم بن أبي الجَوْن)، وابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٧٨، ٧٩) ـ، وابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٢٧)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (٨٣)، والحاكم (٤/ ٦٠٥) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، **وإسناده حسن**، وله شاهد في «الصحيح» يأتي قريباً.

(٥) «لسان العرب» (٤/ ٤٣ ـ بحر).

(٦) أخرجه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة، وأخرجه البخاري (٤٦٢٤) من حديث عائشة بنحوه.

مسلم والنسائي»[١]. ثم قال (ﷺ): «فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جُرهم، وكان أول من غيّر دين إبراهيم الخليل فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر الآيات.

وأما **(السائبة)**، فقال محمد بن إسحاق: هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سُيِّبتْ فلم تركب، ولم يُجزّ وبرها، ولم يحلب لبنها إلا لضيف».اهـ[٢]. وهناك أقوال في تفسير السائبة ذكرها (ﷺ)، تركتُها اختصاراً. ثم قال (ﷺ): «وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قُربة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم، وقُربة يتقرّبون بها، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم»[٣].

قال محمد تقي الدين: كل من أشرك بالله، وعبد معه غيره من المخلوقين، سواء كان ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلاً، أو صالحاً تقياً، يختل دينه وعقله حتى يهبط إلى عبادة الحيوان الأعجم، كأهل الهند الوثنيين الذين يعبدون البقرة الأنثى ولا يعبدون الثور، ويعبدون الفروج، وعبادة الحيوان الأعجم شائعة عند المشركين في كل زمان ومكان، فقد حدثني شيخنا الورع التقي الزاهد محمد سيدي بن حبيب الله[٤] ـ رحمة الله عليه ـ أن أحد العلماء في بلاد شنقيط كان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٥٦)، وأحمد (٢/٣٦٦) وغيرهم.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٣٩٠ ـ ٣٩١).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٣٩٣ ـ ٣٩٤).
(٤) هو شنقيطي، وأول شيخ تعلم منه الهلالي مبادئ العلوم الشرعية وعلم النحو، ولازمه نحو سبع سنوات، وظفرتُ برسالة للهلالي كتبها وهو يدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ومؤرخة بـ٢٥/١٢/١٣٩٠هـ، وأرسلها للهند للشيخ عبد الرحيم أشرف، ومما جاء فيها ترجمة موجزة لشيخه هذا، وهذا ما يخصنا منها:
«وأشهد الله أنني كنت أتعلم مبادئ العلوم من شيخنا محمد سيدي بن حبيب الله التندغي ـ نسبة إلى قبيلة تندغ ـ الشنقيطي المغربي، وكان في بادية حيان ـ قبيلة من بلاد الجزائر ـ، أسس مدرسة وكان عدد تلامذته عشرة، المدرسة خيمة نصبها لهم بقرب خيمته التي يسكن فيها مع أهل بيته، فكان رحمه الله يأتينا بقصعة الطعام ونحن شباب وهو كهل فيضعها =

له بقر كثير وله رعاة، وكان يتفقّد هذا البقر الفينة بعد الفينة، فذهب ذات يوم ليتفقد بقره، فرأى الرعاة يمتاحون الماء من البئر ليملؤوا الحوض الذي يرده البقر، ويمنعون البقر من الورود حتى يمتلئ الحوض، إلا بقرة واحدة فإنها تقدمت لتشرب فلم يمنعها أحد، فقال للراعي: امنع تلك البقرة حتى ترد مع سائر البقر، فقال: يا سيدي هذه البقرة فيها بركة، فقد جربنا أننا كلما زجرناها أو ضربناها تموت بقرة أخرى! فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويلكم، بلغ بكم الجهل إلى عبادة البقر، اضربها، فضربها، فماتت بقرة أخرى فأخبروه بذلك، فقال: اضربوها كل يوم ولو فنى البقر كله، فضربوها للمرة الثانية فماتت بقرة أخرى، ثم صاروا يضربونها فلا يموت شيء من البقر. ورأيت في مصر ثيراناً وعجولاً مسيَّبة معظَّمة، تفعل كل يوم جرائم في المزارع، وفي داخل البيوت، فلا يتعرض لها أحد بسوء، يسمى كل واحد منها (عجل السيد) ـ الجيم ينطق بها «كافاً» معقودة في الوجه البحري، أي الشمال، وجيماً عربية في الوجه القبلي، أي الجنوب، وهذا عيب في عامة القراء والخطباء والمذيعين من المصريين، قلَّ من يهتم به منهم، يُغيِّرون نُطق هذا الحرف بحرف عجمي، لا وجود له في اللغة العربية الفصحى، حاشا قراء القرآن، فإنهم ينطقون بها نطقاً صحيحاً ـ ثم نعود إلى الكلام على (عجل السيد)، فقلت لهم: وما معنى عجل السيد؟ قالوا: ينذر الواحد من الناس إن ولدت له بقرته عجلاً أن يهبه للسيد أحمد البدوي المدفون في طنطا، وله موسم سنوي تشارك فيه الحكومة باحتفال عظيم، يحضره عشرات الألوف حتى يموت بعض الناس من الزحام، وتكتب رقاع الشكايات والرغبات وتلقى في مكان معلوم في التابوت الذي على قبره[1]، ولا يكاد يغير هذا المنكر إلا القليل من علماء مصر، وتجيء البغايا

= أمامنا فنأكل أطايبها ونترك الفضلة بعد أن نشبع، فيأكل من تلك الفضلة أمامنا، ولا يزيد على ذلك شيئاً، ولزمته سبع سنين، فالتمس منه أحد الأمراء أن يعطيه أحد تلامذته ليؤسس له مدرسة، ويتعلم فيها الأمير وأبناؤه وغيرهم، فأمرني أن أذهب معه، وقال لي: **«كل من جاءك ليطلب العلم فاعتقد أن له فضلاً عليك، وإياك أن تعتقد العكس؛ لأنه هذَّب نفسه وجاهدها حتى ارتضاك معلِّماً، وجلس بين يديك، فابذل كل جهد في استبقاء مودته ونشاطه واجتهاده». وأشهد بالله أني عاجز كل العجز عن اقتفاء سيرته وأخلاقه، ولكني أرجو الله تعالى أن لا يحرمني من الأخلاق الحسنة التي تحسن بالعالم والمتعلم».**

(١) وما زال الجهلة والضلال يفعلون هذا عند قبور الصحابة، وقد أخبرني بعض القائمين =

لحضور هذا الموسم فيتصدقن بفروجهن! كما أخبرني بذلك الشيخ عبد الرحمٰن حسن رحمة الله عليه، أخبرني أن (. . . .) زنى بامراة عند ضريح البدوي، ثم اجتمعنا بـ (. . . .) وهو أشيب، فسأله عن ذلك؟ فأقر به، وقد شاع عندهم أنَّ كل من زنى في هذا الموسم عند قبر البدوي من الرجال والنساء فذنبه مغفور؛ لأن السيد أحمد البدوي بحر، والبحر لا تؤثر فيه النجاسة، وهذا الأمر قديم.

فقد ذكر الشعراني في «الطبقات الكبرى» أن فقيهاً كان ينكر على الفساق ما يرتكبونه من الفواحش عند ضريح البدوي، فأنكر عليهم ذات يوم ثم رجع إلى بيته، فقدَّموا له سمكاً، فأخذ يأكل، فغُصَّ بعظم صغير من عظام السمك، ووقف في حلقه لا يصعد ولا يهبط، ثم تعفَّن الجرح فصار الصديد يخرج من فمه ولا يستطيع أن يأكل شيئاً، وإنما يتغذى بقليل من لبن الحليب وبقي على ذلك سنتين، فخطر في باله أن سبب هذه المصيبة إنكاره على الفساق فجورهم عند قبر السيد أحمد البدوي، فتاب إليه وندم، ففي الحال سقط صبي من الدرج إلى أسفل، فصاح الرجل صيحة عظيمة، فخرج العظيم وبرئ الجرح[(١)]، وهذا شر من عبادة أهل الهند للبقرة. أما (عجل السيد) فلا يزال يعيث فساداً في البساتين والبيوت، ينطح الصغار، ويأكل كلَّ ما وجد إليه سبيلاً، وهو مقدَّس، لا يضرب ولا يمس بسوء. الناس كلهم يقدمون له العلف فيسمن سمناً فاحشاً، حتى أنهم يضربون به المثل، فيقال: «فلان سمين زي عكل السيد» يعني: مثل عجل السيد، فإذا تم نموه ساقوه باحتفال عظيم إلى ضريح السيد أحمد البدوي وذبحوه قرباناً له، وهذا من أعظم الجهل والكفر. ولما هدى الله أهل الريرمون من صعيد مصر في مديرية أسيوط، بدعوتي[(٢)] سنة ١٣٤١هـ كانت عندهم عجول وثيران منذورة للسيد أحمد البدوي، فسألوني: ماذا يصنعون بها، أيذبحونها لله ويوزعون لحمها على الفقراء؟ فقلت لهم: لا تذبحوها لئلا

= على الاحتساب عند قبور شهداء أُحد، أنهم يجدون بين الفينة والفينة رقاعاً وشكايات وطلبات من الأموات! ولا قوة إلا بالله.

(١) سيعيد المصنف هذه القصة في (ص٥٤٣)، انظر تعليقنا هناك، ومنه تعلم الخرافات والأوابد، والطامات والبلايا الموجودة في «الطبقات الكبرى» للشعراني، ولا قوة إلا بالله!

(٢) فصل المصنف في كتابه «الدعوة إلى الله تعالى» (ص١٦ ـ ٢٥) ما قام به من جهد في دعوة أهل (الريرمون) وما حصل له هناك، وتبيَّن لي أنه بقي مراسلاً بعضهم إلى وفاته، متواصياً وإياه بالحق والصبر.

يوسوس لكم الشيطان فتقصدوا بها المخلوق، بل بيعوها وتصدَّقوا بثمنها على الفقراء.

ومن عبادة البهائم: ما حكى لي ثقة من أهل طرابلس الغرب، أنه كان هناك شيخ صوفي منقطع هو وأصحابه للعبادة، وكان له حمار يبعثه كل يوم يدور في القرية وعليه خرج، فيمر على البيوت فيضع أهل كل بيت في الخرج ما تيسر من الطعام، ثم يرجع الحمار بذلك الطعام إلى الشيخ فيأكله هو والمريدون، فلما مات الشيخ وتفرق تلاميذه بقي الحمار بلا عمل، فأخذ أهل القرية يقدمون له العلف ويتبركون به، فلما مات دفنوه وبنوا عليه قُبّةً، وصاروا يعبدون قبره.

ومن ذلك أن رجلاً فرنسياً كان في المغرب يملك أراضي واسعة في زمان الاستعمار، وكان له كلب عزيز عنده، فمات ذلك الكلب فدفنه، وجصص قبره وبنى عليه قبة، فلما ثار المغاربة على الفرنسيين، وأخذوا يقتلونهم حيثما وجدوهم، وهرب ذلك الفرنسي إلى فرنسة، فلما استقل المغرب واستقرت أحواله وعم فيه الأمن، رجع ذلك الفرنسي إلى أرضه فوجد الجهال يعبدون ضريح الكلب بالذبح والنذر والاحتفال، ويشغلون قطعة من أرضه التي حول القبة، فكلمهم برفق وطلب منهم أن يخرجوا من أرضه، فغضبوا وأرادوا أن يبطشوا به، فذهب إلى رئيس الشرطة وأخبره، وقال له: إن هؤلاء القوم استولوا على قطعة من أرضي وزعموا أن هناك قبر ولي من الأولياء، فأرجو أن تبعث معي بعض رجالك لنبش قبره، فإن وجدنا فيه آدمياً رجلاً أو امرأة، فالأرض كلها لهم، وإن وجدنا كلباً يتركون أرضي ويعلمون أنهم كانوا يعبدون قبر كلب، فبعث معه بعض رجاله، ونبشوا القبر، فوجدوا المدفون فيه كلباً.

ومن ذلك أن معلمة اسمها خديجة النعيمي ـ المعلمة في مدينة الدار البيضاء من المملكة المغربية ـ كانت تسير مع نسوة جاهلات، فمررن بكوم من حجارة، فأخذت النسوة يقبِّلن الأحجار، ويقُلن: (انتاع الله يا للا حمارة) معناه: أعطينا شيئاً لوجه الله يا سيدتنا الحمارة، يعنين الأتان أنثى الحمير، قالت: فقلتُ لهن: أتتخذن الأولياء حتى من الحمير؟ قالت: فغضبن وقلن لي: احذري نقمتها، إنها ولية كبيرة، تقضي الحاجات، فكتبت خديجة النعيمي مقالاً يتضمن هذه القصة، وقالت فيه: أيها العلماء! اتقوا الله وعلّموا الناس أمور دينهم، فقد أهملتموهم حتى صاروا يعبدون الحمير، فكتبتُ أنا مقالاً طويلاً

نشرته صحيفة «العَلَمَ»[١] موزَّعاً على ثلاثة أجزاء، بيَّنتُ فيه توحيد الله تعالى، ولم يستجب لدعوتها أحد غيري.

ومن ذلك أن صخرة فاتنة[٢] خارجة عن الماء بقرب شاطئ طنجة، يسميها الجهال: (سيدي ميمون) ويعبدونها بالذبح والنذر، وسبب معرفتي لهذا: أني ركبت سيارة حافلة من طنجة إلى تطوان، وكان بقربي شاب وبجانبه زوجته، سلّم علي فلم أعرفه، فقال لي: أنا واحد من الذين يحضرون دروس وعظك في الجامع الأعظم بتطوان، وهذه زوجتي، وإذ كنا لا يعيش لنا ولد، نذرت زوجتي إن ولد لنا ولد أن تذبح لسيدي ميمون في كل سنة شاة ما دام حياً، فولد لنا ولد وقد كاد يتم السنة الأولى من عمره، وهي تطالبني بالذبيحة، فقلتُ لها ـ حسب ما سمعت منك ـ إن هذا شرك، وإنه لا يتصرف في الخلق بالإحياء والإماتة إلا الله، فلم تقتنع، فأرجو أن تكلمها لعل الله يهديها، فكلمتها مدة ساعة إلى أن وصلنا تطوان، ولا أدري هل نفعها الله بما قلت لها أم لا؟

ومن ذلك أن بئراً في القصر الكبير في شمال المغرب يقصدها كل من يحس بوجع رأسه، ويطلب من ساكنها ـ ميمون بن شمهروش أمير الجن ـ الشفاء، إلى غير ذلك، فهؤلاء بلغوا في الجهل والشرك بالله أكثر مما بلغه المشركون الأولون.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ

---

(١) حصلته ـ ولله الحمد ـ، وهو منشور فيها في السنة (١٥) الأعداد (٤١١٣، ٤١١٩، ٤١٣١) سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م. ووضعته في «المقالات» التي جمعتها للمصنف، ويسر الله لي ـ بمنه وكرمه ـ كثيراً من المقالات النادرة النافعة الماتعة، زاد عددها لغاية كتابة هذه السطور على الثمان مئة، وهي الآن قيد التنضيد، يسر الله نشرها والانتفاع بها، بمنّه وكرمه، فهي تفرح دعاة التوحيد والسنة.

(٢) كذا في الأصل: ولعل صوابها: «ناتئة».

﴿ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨]

قال (ك): «هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلٰهين من دون الله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ وهذا تهديد للنصارى، وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله[1] قتادة وغيره.

واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا، قال ابن جرير: هذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا، واحتج ابن جرير[2] على ذلك بمعنيين:

أحدهما: إن الكلام بلفظ المضي.

والثاني: قوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾. وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت، ومعنى قوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ الآية التبري منهم، ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر ـ والله أعلم ـ أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة»[3].

قال محمد تقي الدين: تقدم[4] أن النسخة التي بأيدينا من «تفسير ابن كثير» فيها اختلال في مواضع متعددة، وقد نظرت في نسخة أخرى مطبوعة في بيروت فوجدتها مختلة أيضاً، ولذلك سأتكلم في تفسير ما بقي من هذه الآيات بما يفتح الله به، فأقول: يسأل الله تعالى عيسى ابن مريم يوم القيامة وهو عليم بما وقع، توبيخاً للنصارى وتكذيباً لهم ليفضحهم على رؤوس الأشهاد، وليتبرأ عيسى مما نسبوه إليه كذباً وزوراً، وقد تقدم نقل ما في «أناجيلهم» مما بقي من الحق، ولم يشمله التحريف والحذف والتبديل ما يشهد عليهم بالكذب، وهو موافق لما

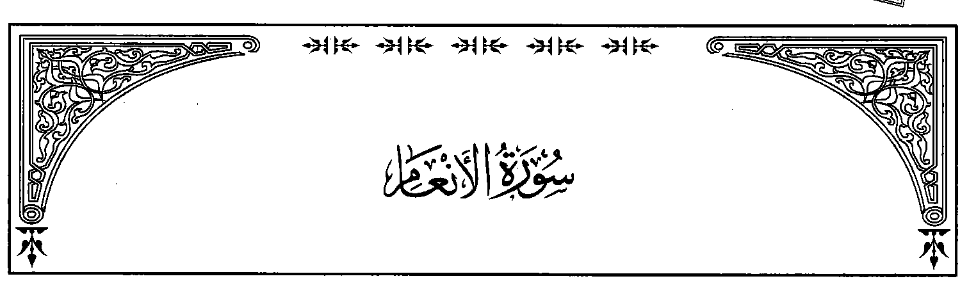
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال». (٢) انظر: «تفسيره» (٩/ ١٤٢).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).
(٤) (ص٢٨١).

جاء به القرآن، **فياحسرتهم وندامتهم حين يسمعون جواب عيسى** وهو يقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: أنزهك عن الشريك ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي: لا يجوز لي ولا ينبغي لي: ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ وهو اتخاذهم لي ولأمي إلٰهين من دون الله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾ فأنت تعلم، أني لم أقل ذلك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ لأنك بكل شيء عليم ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ وإنما أعلم ما علمتني ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ولا يعلم الغيب أحد سواك ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾ وقد تقدم ما نقلناه من الإنجيل مما يطابق ما هو في القرآن من توحيد الله في ربوبيته وفي عبادته، ثم قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ أي: كنت شاهداً على بني إسرائيل مدة بقائي معهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: المكث والمدة التي قضيت لي أن أكون معهم ورفعتني إليك ﴿كُنتَ أَنتَ﴾ وحدك ﴿ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ تعلم ما يفعلون ولم يبق لي أنا علم بأعمالهم، فإن قيل: قوله: ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ دليل على موت عيسى كما تدَّعي النصارى واليهود، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥] فالجواب: إن التوفي في لغة العرب لا يدل دائماً على الموت، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ﴾ [الأنعام: ٦٠] فالتوفي هنا بمعنى النوم.

وكذلك قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ [الزمر: ٤٢] أخبر الله سبحانه أنه يقبض أرواح الناس بالموت وبالنوم، فالأرواح التي قبضها بالموت يمسكها إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة، ثم يردها إلى أجسادها لتجزى على أعمالها، وأما التي يقبضها بالنوم، فإنه يرسلها بالاستيقاظ من النوم، فتبين أنه لا حجة لهم في الآيتين. فالتوفي في الحقيقة هو استيفاء المدة، أي: إتمامها وإكمالها، ثم قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾ ولا حق لي أنا فيهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، القاهر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذين لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ظاهرة للناس أو خفية عنهم، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾ [المائدة: ١١٩] والصادقون هم الذين صدقوا الله ووحَّدوه واتبعوا رسله، فهؤلاء هم الذي يستحقون المغفرة والرحمة، أما المشركون فإنهم لا يستحقون إلا العذاب، لقوله تعالى في سورة

المائدة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].



الباب الأول

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّىٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّى عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلۡ أَىُّ شَىۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِى وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٣ ـ ١٩]

قال (ك): «ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي[1]: كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم، وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كقوله: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّىٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٤] والمعنى لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السمٰوات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق، ﴿وَهُوَ

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إنّ»!

﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: هو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ الآية [الذاريات: ٥٦] وقرأ بعضهم ههنا: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ أي: لا يأكل، وفي حديث ابن أبي صالح، عن أبي هريرة[(١)] رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام، فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه، قال: «**الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومنَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب، وكسانا من العري وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافئ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العري، وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين**»[(٢)].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من هذه الأمة، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾؛ يعني: فقد رحمه الله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] والفوز[(٣)] حصول الربح ونفي الخسارة»[(٤)].

«ويقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ

---

(١) كذا في الأصل: وصوابه «سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة».
(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ١٠١٣٣) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٣٠١) ـ وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (٦٨٠)، وأبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» (٥٨٦، ٩٩٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨٦)، وابن حبان (٥٢١٩)، والطبراني في «الدعاء» (٥/ ٨٩٦)، والحاكم (١/ ٥٤٦)، وأبو نعيم (٦/ ٢٤٢)، والبغوي في «الشمائل المحمدية» (١٠٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٣٧٧)، وفي «الدعوات الكبير» (٤٧٧)، والشجري في «الأمالي» (١/ ٢٥٣)، وعبد الغني المقدسي في «الترغيب في الدعاء» (١١٠)، وابن المفضل المقدسي في «الأربعين في فضل الدعاء والداعين» (ص١٥٠)، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، **والحديث حسن غريب**، قاله ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ق ٢٦٩).
(٣) بعده في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٤ ـ ١٦).

لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] وفي «الصحيح»[(١)] أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**». ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته[(٢)] الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع [أفعاله][(٣)] ﴿الْخَبِيرُ﴾ [بمواضيع][(٤)] الأشياء ومحالّها فلا يعطي إلا [من يستحق][(٥)] ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: من أعظم الأشياء شهادة؟ ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جئتكم به، وما أنتم قائلون لي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي: وهو نذير لكل من بلغه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] قال ابن [أبي][(٦)] حاتم وذكر سنده إلى محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَن بَلَغَ﴾: «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ، زاد أبو خالد: وكلمه»[(٧)]، وقال عبد الرزاق: عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أن رسول الله ﷺ قال: «**بلغوا عن الله، فمن بلغه آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله**»[(٨)]. وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر بالذي أنذر[(٩)]، وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (١٣٧)، وأبو داود (١٥٠٥)، وغيرهم من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢) بعدها في الأصل: «على» وهي غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما يفعله».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بمواضع».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لمن يستحق، ولا يمنع إلّا من يستحق».

(٦) سقطت من الأصل!

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧١٦٥)، وابن جرير (١١/ ١٣١٢٠) في «تفسيريهما».

(٨) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٠٥) ومن طريقه ابن جرير (١١/ ١٣١١٩)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧١٦٦) جميعهم في «التفسير»، من مرسل قتادة، فهو ضعيف، وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٣/ ١٣) إلى عبد بن حميد.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٧١٦٧).

أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾ كقوله: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾ [الأنعام: ١٥٠] ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾»(١).

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فوائد:

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ هو من السكنى، أي: له ما حل في الليل والنهار.

الثانية: معنى: ﴿أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ أي: أتولاه بالعبادة والطاعة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة والتوكل والدعاء والاستعانة والاستغاثة والمحبة والذبح والنذر والصلاة وسائر أنواع العبادة، لا أجعل لغيره شيئاً منها، فالمسلم المحقق للتوحيد ليس له ولي إلا الله، والمشرك المتهوك يتخذ أولياء من دون الله، يستغيث بهم في الشدائد، ويرجوهم ويخافهم، وقد نهى الله عن اتخاذ الأولياء من دونه في مواضع كثيرة من القرآن، سيأتي ذكرها في مواضعها إن شاء الله.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾﴾ كل من تيقن أنه لا ينفع إلا الله، ولا يضر إلا الله، ولا يعطي إلا الله، ولا يمنع إلا الله، وأن غير الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يملكه لغيره؟ كل من تيقن ذلك، فلا بدّ أن يخلص التوحيد لله، ولا يصرف شيئاً من أنواع العبادة لغيره أبداً، ومن زعم أنه متيقن ذلك، وتعلق بالأضرحة زاعماً أنه لا يطلب منهم جلب نفع ولا دفع ضر، وإنما يتبرك بزيارة تلك الأضرحة، ويدعو الله عندها فإنه يخادع نفسه ويخادع الموحدين، ويتملق لعبّاد القبور؛ لأن الدعاء الذي يرجى قبوله، يكون في جوف الثلث الأخير من الليل، وهو ساجد في صلاته، ويكون في سجود الصلوات المفروضة في المساجد، ولا يكون عند الأضرحة والأوثان المزخرفة المشيدة التي يرتكب عندها الشرك من ذبح ونذر وطواف وتقبيل واستغاثة واختلاط الرجال بالنساء، فهذه الأماكن لا ينال زائرها إلا سخط الله وغضبه، فمن قدر أن يغير المنكر بهدمها أو تنفير الناس منها، فليذهب إليها بهذا القصد، ومن عجز عن ذلك، فليغيِّر هذا المنكر بلسانه أو بقلبه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ﴾ الخطاب

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/١٦ ـ ١٨).

للنبي ﷺ، والمراد بالإسلام هنا إسلام القلب والجوارح بالقصد والتوجه لله وحده لا شريك له في العبادة والدعاء، وكل مقومات التوحيد المضادة للشرك، وقد تقدم مثل ذلك في مواضع من كتاب الله، وسيأتي إن شاء الله، وليس المراد الإسلام الظاهر فقط، الذي يشترك فيه المؤمن والمنافق.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ حجة للحنفاء الذين يدعون إلى اتباع كتاب الله وبيانه من سنة رسوله ﷺ، وينبذون التقليد والتفرق في الدين، فكل من بلغه القرآن وجب عليه اتباعه إلى يوم القيامة، ومثل هذا قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤] والمراد بالوحي: القرآن والسنة الصحيحة التي هي بيانه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٢٢ ـ ٢٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها[1] قائلاً لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقال ابن جرير: «والصواب لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذاراً عما[2] سلف من الشرك بالله ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾»[3]. وقال ابن أبي حاتم وذكر

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من دونه».
(٢) في «تفسير ابن جرير»: «مما».
(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ١٩١ ـ ١٩٢).

سنده إلى ابن عباس: «إنه أتاه رجل فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم إذا[1] رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ [لأنه][2] ليس من القرآن شيء إلا ونزل[3] فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه»[4]. وقوله سبحانه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ كقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤]»[5].

الباب الثالث

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]

قال (ﷺ): «يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا معقب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع[6] ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في اتخاذكم آلهة معه، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: في وقت الضرورة لا

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنه».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقد نزل».

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٦٠ ـ ١٦١)، وابن أبي حاتم (٤/ ٧١٨٠)، وابن جرير (٨/ ٩٥٢٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٠٥٩٤)، والحاكم (٢/ ٣٠٦، ٣٠٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٠٩)، وفي «البعث والنشور» (٧٨)، والذهبي في «السير» (١٠/ ٤٨٦) **وإسناده صحيح**، والأثر علقه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة حم السجدة (٨/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦ ـ «فتح الباري») بصيغة الجزم.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٨ ـ ٢٠) بتصرف.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دفع».

تدعون أحداً سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]»(١).

فائدة:

قال محمد تقي الدين: دلت هذه الآية وآيات أخرى في معناها على أن المشركين الذين كانوا في زمان النبي ﷺ كانوا يشركون مع الله غيره في العبادة في وقت الرخاء، أما في وقت الشدة فكانوا لا يدعون إلا الله لكشف ما نزل بهم من الضر؛ لأنهم يعلمون مما بقي عندهم من دين إبراهيم وإسماعيل، أن الشرك بدعة وكفر لا يرضاه الله تعالى، ويعلمون أن معبوديهم ولو كانوا ملائكة أو أنبياء أو صالحين لا يستطيعون كشف ذلك الضر فيخلصون الدعاء لله، فإذا ذهب الضر عنهم وأمنوا واطمأنوا رجعوا إلى الشرك.

أما المشركون في هذا الزمان، فإنهم يشركون بالله غيره من أوثانهم وأوليائهم الذين اتخذوهم آلهة في الرخاء وفي الشدة، بل منهم من يخلص الدعاء كله في الشدائد لغير الله تعالى، ولا يذكر الله أصلاً، وأنا بنفسي وقع لي مثل هذا لما كنت مشركاً، وأنا قد ناهزت الاحتلام، كنت مع رفيق في السفر، وأحسست ـ بل تيقنت ـ أنه يأتمر مع جماعة بقتلي وسلب مالي، انتبذت مكاناً بعيداً، وجلست أستغيث بالأولياء، وكلما استغثت بواحد منهم خططت في الأرض خطاً، فلما فرغت من الاستغاثة عددت الخطوط، فوجدتها أربعة وثمانين خطاً، ولم أستغث بالله، ولكن الله علم أني جاهل فرحمني وأغاثني، وظننت أنا في ذلك الوقت أن أولئك الأولياء هم الذين أغاثوني، وهم في الدار الآخرة لا علم لهم بما وقع لي ولا باستغاثتي بهم، ولو علموا ما قدروا أن يعملوا شيئاً، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

ومرة كنت أطالع كتاباً في مدينة وجدة وقد انتصف الليل وانقضت الشمعة التي كنت أطالع على ضوئها، فخرجت مسرعاً لعلّي أجد دكاناً مفتوحاً لأشتري منه شمعة، وبعد لأي وجدت دكاناً مفتوحاً فاشتريت الشمعة ورجعت بها مسرعاً

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٦).

متلهفاً لإكمال مطالعة الكتاب، وكنت في طريقي أسمع الطوافين يسألون الصدقات متوسلين بأسماء الأولياء، هذا يقول: من يعطيني صدقة لوجه الشيخ عبد القادر الجيلاني، والآخر يقول: لوجه فلان، والثالث يقول: لوجه فلان، وبعضهم يقول: لوجه الله، فلم أعبأ بهم، ولما وصلت البيت وأردت أن أفتحه سمعت طوَّافاً من بعيد يقول: من يعطيني صدقة لوجه سيدي أحمد التيجاني، فرجعت وأعطيته صدقة، ففي ذلك الوقت كانت رغبتي ورهبتي للشيخ التيجاني أكثر من رغبتي ورهبتي لله، والمشركون في هذا الزمان إذا حلفت لهم ألف يمين بالله لا يصدقونك، وإذا حلفت لهم بشيخك يصدقون، وفي هذا دليل على أنهم يخافون ويرجون شيوخهم أكثر من خوفهم ورجائهم لله، ويحكى أن قوماً كانوا في سفينة فاختل سير السفينة، وبدأت تغرق فأخذ ركاب السفينة يصرخون ويستغيثون بأوليائهم من دون الله، وكان معهم عالم سلفي ساكت فقالوا له: أيها الشيخ! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا تستغيث؟ فقال: أسأل الله أن يغرقكم وأنا معكم، فقالوا له: أما تخاف الله؟ أتدعو علينا بهذا الدعاء؟ فقال: إنكم تستحقون الإغراق؛ لأنكم أعرضتم عن الله الذي بيده ملكوت السمٰوات والأرض، وأخذتم تستغيثون بالمخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً.

الباب الرابع

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٤٦، ٤٧]

«يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ﴾ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها، [كما قال تعالى](١): ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الملك: ٢٣](٢) وقال:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنه».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ولهذا قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ كما قال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾».

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقوله: ﴿مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾ أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: نبيّنها ونوضّحها ونفسّرها، دالة على أنه لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ أي: ثم هم مع هذا البيان يصدفون، أي: يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه»(١).

فائدة

قال محمد تقي الدين: إيجاد المخلوقين كلهم، واستمرار وجودهم، وإمدادهم بالقوى التي يحتاجون إليها من سمع وبصر وعقل وحركة وفهم وعلم، كل ذلك بيد الله، فمن علم وتيقن أن ذلك بيد الله، لم يخف مخلوقاً، ولم يرغب مخلوقاً، ولم يتوجه إلى مخلوق بطلب، ومن أشرك مع الله غيره، يتشتت همه، ويتوجه قلبه إلى غير الله تعالى من المعبودين، فيخسر في دنياه وفي أخراه، فمن خاف الله وحده خوّف الله منه كل شيء، ومن خاف غير الله ورجا غير الله ولم يخف الله خوفه الله من كل شيء، وقد ذكر الحافظ ابن كثير في أخذ السمع والأبصار وجهين: **أحدهما** أن تذهب أسماعهم والأبصار فيصيرون عمياً وصماً، **والثاني** أن يحرموا الانتفاع الشرعي بالسمع والبصر، فينتفعون بأسماعهم وأبصارهم في أمور دنياهم، ولا ينتفعون بها في أمور دينهم.

أقول: لا مانع أن يراد المعنيان جميعاً؛ لأن الله تعالى يملكهما جميعاً كما يملك القلوب من كل وجه.

فائدة أخرى

ذكر الله تعالى في الآية الثانية نوعين من العذاب، **أحدهما** يأتي بغتة، **والآخر** يأتي جهرة، والعذاب الذي أصاب المسلمين في هذا الزمان وجلّلهم خزياً وعاراً في قضية فلسطين والاستعمار، وتسلط أعداء الإسلام عليهم من الداخل والخارج يسومونهم سوء العذاب من النوع الذي جاء جهرة، ومع ذلك لا يزالون معرضين عن الله، عن شرعه وتوحيده وطاعته واتباع رسوله ﷺ، فنسأل الله العافية.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩ ـ ٤٠).

الباب الخامس

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥٠، ٥١]

قال (ك): «يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: لست أملكها، ولا أتصرف فيها ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله ﷻ، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: ولا أدعي أني ملك، إنما أنا بشر من البشر يوحى إلي من الله ﷻ، شرفني بذلك، وأنعم علي به، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قيد شبر، ولا أدنى منه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه، ومن ضل عنه فلم[١] ينقد له؟ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩] وقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، والذين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة: ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ أي: يومئذٍ ﴿مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: [أنذرهم][٢] هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله ﷻ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه»[٣].

فائدة

قال محمد تقي الدين: أمر الله نبيه وخير خلقه محمداً ﷺ أن يقول لجميع الناس الذين يدعوهم إلى الله: اعلموا أنني لا أملك من خزائن فضل الله شيئاً،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولم». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنذر».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤١ ـ ٤٢).

ولا أستطيع أن أعطي أحداً رزقاً حسياً أو معنوياً، ولا أعلم من الغيب إلا ما علمني ربي، ولست ملكاً له قوة خارقة للعادة، مستغنٍ عن الطعام والشراب، لا تعتريه الأعراض البشرية، إنما أنا بشر مثلكم يجري عليّ ما يجري عليكم، ولا أختلف عنكم إلا بشيء واحد، وهو الوحي والرسالة التي أكرمني الله بها، وأوجب عليكم اتباعي وطاعتي، وسيأتي مثل هذا إن شاء الله في (سورة الأعراف)، وفي (سورة يونس)، وفي (سورة هود)، والعجب ممن يدعي العلم بالكتاب والسنة والشرع، ومع ذلك يعمى عن هذا البيان ويستغيث بالنبي ﷺ إذا قام يقول: «يا رسول الله». وإذا قعد يقول: «يا رسول الله». وإذا فزع يقول: «يا رسول الله». فهذا مكذب لهذه الآية، فكأنه يقول: بل عندك خزائن الله، وأنت تعلم الغيب، وقد ألف رجل شاعر يقول الشعر، ولكنه غير شاعر بتوحيد الله، ألف كتاباً سماه: «شواهد الحق، في الاستغاثة بسيد الخلق»[1]. وزعم أن أهل السنة هم المشركون الذين يستغيثون بالنبي ﷺ وغيره من المخلوقين، وأن من وحّد الله تعالى وامتنع من الاستغاثة بغيره وهابي خارج عن مذهب أهل السنة، والحقيقة أن مذهب هذا الجاهل الذي يهرف بما لا يعرف هو مذهب أهل السِّنَةِ، (بكسر السين وتخفيف النون) والغفلة والجهالة والضلالة، ولو كان عنده ذرة من عقل وإيمان، لكانت هذه الآية كافية له، وإلا فلماذا يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن للناس أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن غيره، وأنه لا يعلم الغيب؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فكم قصائد نظمت في الاستغاثة بالنبي[2] ﷺ، وأنا بنفسي نظمت أبياتاً أستغيث فيها

(١) مؤلفه يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت١٣٥٠)، وكتابه المذكور مطبوع بمصر قديماً في مطبعة البابي الحلبي، ثم صور مرات في بيروت، قال عنه العلامة محمد رشيد رضا في مجلة «المنار» (م١٣) الجزء العاشر (ص٧٩٧): «كتبه مملوءة بالروايات الموضوعة والمنكرة، وكان يروّج كتبه لكي يمهّد بذلك السبيل ادّعاء المهديّة لنفسه». وذكر الشيخ إسماعيل بن سعد العتيق في كتابه «القول الفصل النفيس» (ص٤) بعض كتبه، وقال: «فيها شطحات لا تغتفر».

قال أبو عبيدة: وله فيها افتراء كثير وكبير على الدعوة السلفية، وأعلامها الأجلاء، مثل: ابن تيمية، وكتبه ـ يا للأسف ـ طافحة في الطعن على الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، وانظر عنه كتابي: «كتب حذر منها العلماء» (١/ ٢٦٩).

(٢) أتيت على طرف منها في كتابي «شعر خالف الشرع»، يسر الله إتمامه ونشره بخير وعافية.

بالنبي ﷺ، وأطلب منه أن يعطيني العلم، ولا أحب أن أذكر هذه الأبيات، فالحمد لله الذي هدانا وبصّرنا من العمى، ومنَّ علينا بتوحيده لا إله إلا هو.

فائدة أخرى

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم المنتفعون بالإنذار ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لا ينصرهم أحد ولا يشفع لهم أحد الشفاعة الشركية، اعلم ـ علمت خيراً ووقيت ضيراً ـ أن الشفاعة وردت في كتاب الله تعالى نوعين: **أحدهما**: الشفاعة الشركية، وهي أن يشفع الشافع بدون استئذان من المشفَّع، ويرى أن له من المنزلة والمكانة عند المشفِّع ـ بالكسر ـ ما لا يحتاج معه إلى إذن، بل ربما اعتقد أن قبول شفاعته واجب على من يشفع عنده، كشفاعة الأب عند ابنه، وشفاعة الابن عند أبيه، والزوجة عند زوجها، والصديق عند صديقه، والوزير المخلص عند مليكه، ونحو ذلك، فهذا النوع هو المنفي في القرآن كما في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] وكذلك من مات كافراً بشرك أو جحود، فنفي الشفاعة في حقه مطلق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والنوع الثاني: الشفاعة التي يتفضل الله بها على الشفعاء، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بعد أن يستأذنوه فيأذن لهم، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]وقال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال تعالى في سورة طه: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] وقد تواترت الأحاديث التي هي كالشمس في رابعة النهار عن النبي ﷺ أنه يشفع لأهل الكبائر(١)، فيخرجون من النار بشفاعته، وقد أنكر هذه الشفاعة الخوارج

(١) أفردها جمع بالتصنيف: منهم الذهبي، له «إثبات الشفاعة» وفيه (ص٢٠): «فمن رد شفاعتَه ورد أحاديثها جهلاً منه، فهو ضال جاهل قد ظنَّ أنها أخبار آحاد، وليس الأمر كذلك، بل هي في المتواتر القطعي مع ما في القرآن من ذلك». ولأبي الوفاء محمد =

والمعتزلة لقلة علمهم بالكتاب وجهلهم بالسنة، وما ذكر من الآيات وما أشرت إليه من الأحاديث حجة عليهم، وفي هذه الآية نفسها من الحجة عليهم ما لا يخفى، لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ﴿أَنذِرْ﴾ يا محمد بالقرآن المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ غير واجدين، من دونه ولياً ينصرهم ولا شفيعاً يشفع لهم، فإن خوفهم من الله دليل على إيمانهم. والخوارج والمعتزلة يقولون: إن الشفاعة خاصة بالمؤمنين في رفع الدرجات، أما من مات كافراً أو مصراً على الكبائر فلا شفاعة له. وهذه الآية تدل على نفي الشفاعة عن المؤمنين الذين يخافون الله، فهذا النفي مطلق وعام يخصصه قوله تعالى فيما سبق ذكره: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طـه: ١٠٩] ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣، النور: ٤٦].

الباب السادس

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٩]

قال محمد تقي الدين: ذكرت فيما مضى أن النسخة التي كانت عندي من

= درويش «قل لله الشفاعة جميعاً» وللشيخ مقبل بن هادي «الشفاعة»، وللدكتور ناصر الجديع «الشفاعة عند أهل السنة والرد على المخالفين فيها». وممن نص على تواتر أحاديث الشفاعة شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وانظر: «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (٢٠٨/٢، ٢٠٩).

«تفسير ابن كثير» التي نشرتها المطبعة التي تسمي نفسها: «مطبعة الاستقامة»، فيها أخطاء كثيرة وبتر ونقص، وفي هذا الموضع ترك تفسير آية بأكملها، وقد فزعت إلى طبعة بيروت لعلي أجدها سالمة من ذلك الداء، فإذا بها مسروقة من الطبعة المذكورة[1]، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] على فساد الكنوز التي خلفها لنا السلف، فصارت بأيدي التجار الفجار يطبعونها لأجل الربح الدنيوي ولا يبالون بما يرتكبونه من الجرائم في حق طلبة العلم، وعلوم الإسلام يتيمة كعلوم اللغة العربية، ليس لها جماعة تشرف على طبعها ونشرها وتأذن في ذلك لمن يكون له أهلاً، وتضرب على هؤلاء التجار الفجار **وليس للتجار ضمائر ولا مروءة تحملهم على المحافظة على هذا التراث وعلى أن لا يصدر من مطابعهم ما يشين سمعتهم، وهذا جزء من الشقاء الذي يعانيه المسلمون في هذا الزمان**، فهم كما قال الله تعالى في بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨١].

فإن قيل: كيف سوغت لنفسك أن تذكر هذه الآيات التي نزلت في كفار بني إسرائيل وتريد أن تطبقها على المسلمين؟ أليس هذا من الغلو؟ **أقول**: جاء في الحديث الصحيح في تفسير هذه الآيات من كلام النبي ﷺ: «**لتضربُن على يد الظالم، ولتقصرنه على الحق قصراً، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليلعننكم الله كما**

(١) قال أبو عبيدة: رجعت إلى أكثر من طبعة من «تفسير ابن كثير»، واعتمدت بعضها على نسخ خطية موثوقة، فلم أظفر بتفسير هذه الآية، وقد طبع هذا التفسير طبعات كثيرة بعد المصنف، بلغت في مكتبتي أربع عشرة طبعة، وأحسنها ـ في تقديري ـ طبعة أولاد الشيخ، وهي في (١٥) مجلدة، وطبعة دار طيبة وهي في (٨) مجلدات، وطبعة دار القبلة، وهي في (٨) مجلدات أيضاً، وهذه الطبعات قوبلت على نسخ متعددة. وقال محقق ط دار القبلة (د. محمد إبراهيم البنا) في هذا الموضع (٣/ ١٣٠٣): «لم يذكر ابن كثير ـ حسب ما انتهى إلينا من النسخ ـ تفسير الآية (٥٦). . .»، وفحصت جميع الطبعات السابقة في هذا الموطن، فوجدت التفسير عليها غير مذكور.

لعنهم»[1]. اهـ ما أردته من الحديث. انظر: «رياض الصالحين»[2] في (باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، لتطلع على الحديث بطوله، والآن أفسر هذه الآية بما يفتح الله به، إذ ليس عندي تفسير على طريقة (ك)، فأقول وبالله التوفيق: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي: نهاني الله تعالى أن أعبد الذين تدعون من دون الله ـ يا أيها المشركون ـ بأي نوع من أنواع العبادة التي تقدم ذكرها مراراً، وأهمها: الدعاء والاستغاثة، سواء أكان المدعوون ملائكة أو أنبياء أو صالحين أو غيرهم، والنهي هنا للأمة لأن النبي ﷺ معصوم من الشرك ومن جميع الذنوب ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي: لا أوافقكم على ما تشتهون من عبادة غير الله ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ لو وافقتكم على ذلك، لكنت من الضالين البعيدين عن الهدى، وأنا الهادي بنص القرآن، ولا يكون الهادي هادياً إلا إذا كان مهتدياً. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

هذا ما يسره الله في معنى الآية، ثم قال (ك): «وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إلي: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من الله: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: من العذاب ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، ولهذا قال: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم[3] بين عباده، وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧، ٣٠٤٨)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وعبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٩٤)، وأحمد (١/ ٣٩١)، وأبو يعلى (٥٠٣٥، ٥٠٩٤)، وابن جرير (١٢٣٠٧٦ ـ ١٢٣١١)، والطبراني (١٠٢٦٤ ـ ١٠٢٦٨)، وابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف» رقم (٤، ١٩)، والخطيب في «تاريخه» (٨/ ٢٩٩)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، والبيهقي (١٠/ ٩٣)، وأبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢٩٨) من حديث ابن مسعود، وجعله بعضهم من مرسل ابنه أبي عبيدة، وهذا الذي رجحه الدارقطني في «العلل» (٤/ ٢٥٣) وأبو حاتم الرازي في «العلل» (٢/ ٤٣٠) أيضاً، ووهم بعض الرواة فجعله من (مسند أبي موسى الأشعري)!! واضطرب فيه بعض الرواة على وجهين آخرين، ومداره على طريق منقطعة، فهو **ضعيف** بخلاف حكم المصنف، وضعفه شيخنا الألباني في «الضعيفة» (١١٠٥).

(٢) انظره (ص١٢٧ ـ ١٢٨/رقم ٢٠١، ط. شيخنا الألباني).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الحاكمين».

﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لو كان مرجع [ذلك][(١)] إلي، لأوقعت [بكم][(٢)] ما تستحقونه من ذلك ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في «الصحيحين»[(٣)] من طريق ابن وهب عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل** ﷺ، **فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلّم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله** ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً**». وهذا لفظ مسلم، فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨﴾؟ **فالجواب** ـ والله أعلم ـ: إن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم، وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً، فلهذا استأنى بهم، وسأل الرفق لهم، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ قال البخاري[(٤)] بسنده عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس ـ لا [يعلمهن]**[(٥)] **إلا الله ـ**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما تستعجلونه به».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لكم»!
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).
(٤) أخرجه البخاري (٤٦٢٧)، وأحمد (٢/ ١٢٢) وغيرهما.
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعلمها».

وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]». وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي: يعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنِّهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]»(١).

فائدة

قال محمد تقي الدين: أجمع المسلمون على ما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله، أن مفاتح الغيب الخمسة المفصلة في آخر سورة لقمان بنص النبي ﷺ، لا يعلمها إلا الله، ومن ادعى أن أحداً من مخلوقات الله يعلمها فهو كافر، نقله القسطلاني(٢) عن الزجاجي في شرح الحديث المذكور أعلاه، وأكثر الذين يدعون الإسلام في هذا الزمان يعتقدون أن غير الله يعلم هذه الخمسة. ففي كتاب «الإبريز» لمؤلفه أحمد ابن المبارك اللمطي المغربي ما معناه: أنه قال لشيخه عبد العزيز: إن علماء الظاهر يقولون: إن هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله، فقال له: ماذا تقولون؟ لو كنت ميتاً، لعلمت هذه الخمسة، فكيف وأنا حي؟ وهذا الكتاب: مقدس عند أكثر علماء الأزهر وعلماء المغرب!! من ذلك تعلم أن علم الكتاب والسنة قد مات، **وصار أهله غرباء!!**

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥١ ـ ٥٣) بتصرف.

(٢) قال في «إرشاد الساري» (٧/ ١١٨) بعد ذكره ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: «فمن ادّعى علم شيء منها، فقد كفر بالقرآن العظيم». وفي النفس حب لمعرفة الغيب لبّاه الشرع ووظفه فيما يعود على الإنسان بالخير من خلال إخبار رسول الله ﷺ بأشراط الساعة، وما عداه من التكهنات فهو من الكفر، وظفرت بكتاب عنوانه: «قصة التنبؤ بالغيب عبر التاريخ» ذكر فيه صاحبه (التنبؤ) في الحضارات السابقة، وكذا في الجاهلية والدولة الأموية والعباسية، وينبغي أن يعلم أن «ما أخرجه العلم من مجهول الغيبيات فسقط من الحظر، فالإسلام يبارك أن تتحقق آية الله فيما سخر لنا». قالته عائشة عبد الرحمن في كتابها «الشخصية الإسلامية» (ص١٥٧). والغيب أقسام باعتبارات علمية، ويختلف حكمها ويتشعّب، انظره في «الإيمان بالغيب» (ص٣٢ وما بعد) لبسام سلامة. وألف أبو هارون عيسى بن يحيى رسالة جيدة مطبوعة بعنوان: «كفر من ادعى علم الغيب».

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧١ ـ ٧٣]

روى (ج) عن[١] السدي أنه[٢] قال: قال المشركون للمسلمين[٣]: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من تبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام[٤]، وقال قتادة: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أضلته في الأرض، يعني: استهوته، سيرته كقوله: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: أمرنا بإقامة الصلاة، وبتقواه في جميع الأحوال ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ يعني: يوم القيامة الذي

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «للمؤمنين» والمثبت في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٧٩).
(٤) رواه ابن جرير (٩/ ٣٢٩)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٢٠ ـ ١٣٢٢) في «تفسيريهما»، وهو **معضل**، وعزاه السيوطي في «الدر» (٣/ ٢٢) إلى أبي الشيخ.

يقول الله: كن، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب، ويوم: منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر يوم يقول: كن، فيكون، وقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ صفتان لرب العالمين، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وكقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦] قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ المراد به هنا القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل: قال (ج): تظاهرت الأخبار عندنا أن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ، رواه مسلم(١) في «صحيحه»(٢).

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ تنبيه لعبّاد القبور وغيرها من المخلوقات على فرط جهلهم وعمى بصائرهم، فإنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ولذلك لا يعبد إلا الله، وهذه الآية تصدق على كل من خالف جماعته، سواء أكانوا أقرباء أو أصدقاء وعبد غير الله، وهم يدعونه إلى الهدى، وهو توحيد الله واتباع نبيه الكريم، وهو يأبى أن يرجع إلى الحق ويمعن في الشرك، وفيها أيضاً تنبيه على أن المؤمن لا ينبغي له أن يأمن مكر الله، وينبغي له أن يدعو الله تعالى بالدعاء الذي علمنا إياه في سورة آل عمران، وهو دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨] وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١] هو كما قال (ك) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن نخلص العبادة له وحده لا نشرك به شيئاً، مؤمنين برسوله ﷺ، مجردين الاتباع له، وهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبعد ذلك تجيء إقامة الصلاة، فإن

(١) علقه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٣٤٠)، ووصل نحوه أحمد (٣/ ٧، ٧٣)، والترمذي (٢٤٣١)، وابن ماجه (٤٢٧٣)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ١٧٥)، وابن المبارك في «الزهد» (١٥٩٧)، والدولابي (٢/ ٥٠)، والطحاوي في «المشكل» (٥٣٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٠٢١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٨، ٣٩٩)، والبغوي (٤٢٩٨، ٤٢٩٩)، وفي «التفسير» (٢/ ١٤٧)، وأبو نعيم (٥/ ١٠٥ و٧/ ١٣٠ ـ ١٣١) ولم أظفر به في «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخدري، **والحديث صحيح**. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٦٦) رقم (١٠٧٩) وحكى الحليمي الإجماع على أن صاحب الصور إسرافيل، نقله ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٣٦٨).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٧٩ ـ ٨٢) بتصرف.

الصلاة عماد الدين، فمن تركها فهو كافر لا حظ له في الإسلام كما قال عمر رضي الله عنه عند موته[١]، انظر: كتاب «الصلاة»[٢] لابن القيم، وأيضاً كتاب «القول الفصل في حكم تارك الصلاة»[٣] للمؤلف.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي: امتثلوا ما أمركم به ظاهراً وباطناً، واجتنبوا ما نهاكم عنه ظاهراً وباطناً، لأنكم تحشرون إليه يوم القيامة، فيجزيكم بأعمالكم: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هو خالق كل شيء، وحافظ الوجود على كل موجود، وهو الذي يحيي ويميت، فما أجهل من يدعو غيره وما أشقاه، وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي: فلا يعبد غيره، فنسأل الله أن يجعلنا ممن حقق التوحيد بأنواعه، ويختم لنا بالإيمان، ويجعل أسعد أيامنا يوم لقائه.

الباب الثامن

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥٧٩، ٥٨١، ٥٠١)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٠٣)، ومالك (٤٥/رقم ٨٤)، وابن سعد (٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥١)، وعبد الله بن أحمد في «مسائل أبيه» رقم (١٩٣)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٩٢٣ ـ ٩٣١)، والخلال في «جامعه» رقم (١٣٩٤) و«السنة» رقم (١٣٧١، ١٣٨١، ١٣٨٨)، والدارقطني في «السنن» (٢/ ٣٥)، وابن بطة في «الإبانة» (٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣)، والآجري في «الشريعة» (٢٩٤)، واللالكائي في «السنة» (١٥٢٨، ١٥٢٩) من طرق عن عمر قال: «لا حظ لأحد في الإسلام أضاع الصلاة». وفي لفظ: «لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة»، وهو **صحيح**.

(٢) انظره (ص٤٠، ط. دار ابن رجب).

(٣) انظره (ص١٦ وما بعد)، ومسألة (تكفير تارك الصلاة) تكاسلاً مما اتّسع فيه الخلاف، وهي مسألة فقهية وليست بعقدية، ولا يجوز أن يقع التباغض والتهاجر بسببها، ولا أن ينبز غير المكفر بأنه مرجئ، ولا المكفِّر بأنه خارجي، وإلى الله وحده المشتكى من تناكد أهل السنة في هذه المسألة في هذه الأيام! ولا قوة إلا بالله!

هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩]

قال محمد تقي الدين: اختلف المفسرون في آزر، فقال بعضهم: هو اسم صنم؛ لأن أبا إبراهيم اسمه تارح كما في التوراة، وقال محققون ومنهم (ج): «هو اسم لأبي إبراهيم»(١)، ولا غرابة أن يكون له اسمان: **أحدهما**، تارح، **والآخر** آزر، أو يكون آزر لقباً له، ولا يمكن أن يسميه الله تعالى ولا يكون في الحقيقة كذلك، والقرآن أصح كتاب نزل من الله تعالى، وقد رأينا في التوراة في جميع أقسامها أشياء كثيرة لا يستطيع مؤمن أن ينسبها لله ولا للرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال (ك) في قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ «أي: أتأله صنماً(٢) تعبده من دون الله؟ ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك، ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: تائهين، لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمركم في الجهالة والضلال بيِّن واضح لكل ذي عقل سليم(٣)، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٨] فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه، [كما](٤) قال

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ٣٤٥).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أتتأله لصنم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صحيح».
(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير»!.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]. وثبت في «الصحيح»[1]: «**إن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة، فيقول له آزر: يا بني، لا أعصيك اليوم، فيقول إبراهيم: أي رب! ألم تعدني أنك لا تخزني يوم الدين؟ وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك فإذا هو بذيخ[2] متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: نبين له وجه الدلالة - في نظره إلى [خلقهما][3] - على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: ٩].

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ قيل: الواو زائدة[4] تقديره: «وكذلكَ نُرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرضِ ليَكُونَ من الموقِنِينَ».

كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥] وقيل: هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: تغشاه وستره: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ أي: نجماً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب، قال محمد بن إسحاق بن يسار: الأفول: الذهاب، وقال (ج): «يقال: أفل النجم يأفُل ويأفِل، أي بكسر الفاء وضمها، أفولاً[5]، ويقال: أين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «بذبح»!

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خالقهما»!!

(٤) انظر ضعف هذا القول في «تفسير الرازي» (١٣/ ٤٥) و«البحر المحيط» (٤/ ١٦٥) و«الدر المصون» (٥/ ٧)، وفصلت الدكتورة هيفاء فدا في كتابها الجيد «زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم» (ص٤٨٣ - ٤٨٧) وجه المنع، وبيّنت سر هذه (الواو) وفائدتها على وجه حسن مليح، فلينظر، فإنه مفيد.

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير» (٩/ ٣٦١): «وأفلاً: إذا غاب ومنه قول ذي الرمة:
مصابيحُ ليست باللواتي تقودُها ... نجومٌ ولا بالآفلات الدَّوالِكِ»
قلت: والبيت في «ديوان ذي الرمة» (٣/ ١٧٣٤).

أفلت عنا؟ بمعنى أين غبت عنا، قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ أي: طالعاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ أي: هذا المنير الطالع ربي ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ أي: جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ أي: غابت ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ أي: في حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير [عن][١] علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾.

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم[٢] عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المنيرة[٣] وهي القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزُهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من طريق».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتحيرة».

للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً، ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٢] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣] وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾؟ [الأنعام: ١٦١] وقد ثبت في «الصحيحين»[(١)] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة**»»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: قد رأينا أن اختيار (**ك**) أن إبراهيم ﵇ كان مناظراً لا ناظراً، قد أقام عليه براهين قاطعة، ومعنى مناظراً لا ناظراً؛ أنه لم يكن في أول أمره يعتقد أن النجم ربه ثم انتقل إلى اعتقاد أن القمر ربه، ثم انتقل إلى اعتقاد أن الشمس ربه، ثم انتقل من ذلك إلى توحيد الله تعالى والبراءة من معبودات قومه؛ لأن الله حفظ أولياءه ورسله من الشرك والمعاصي قبل النبوة، وهيأهم لها فقوله لما رأى النجم قال: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ أي: بزعمكم أيها المشركون؛ فإن كان ما تدعون حقاً فإنه سيثبت ولا يزول، فلما غاب انتقل إلى طالع آخر أقوى منه ليستدرجهم إلى توحيد الله تعالى، فقال لما رأى القمر: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾،

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٤ ـ ٩٩) بتصرف يسير.

أي: بزعمكم، فلما غاب القمر، ظهر لهم أنه لا يستحق أن يكون رباً، وقال مثل ذلك في الشمس، فلما غابت واحتجبت ظهرت حجته عليهم، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: مما تعبدون من المخلوقين والمخلوقات: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وقلبي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي: نابذاً لجميع الأديان والمعتقدات إلا دين التوحيد.

الباب التاسع

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ ٨٣]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أي: تجادلوني[1] في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو وقد بصرني وهداني إلى الحق، وأنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟ وقوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ استثناء منقطع، أي: لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا تخفى[2] عليه خافية، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: فيما بينته لكم أفلا تعتبرون[3] أن هذه

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تجادلونني».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يخفى».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فتعتبرون».

الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها؟ وهذه الحجة نظير ما احتج به[1] نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص الله عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٦] وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله؟ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾[2] وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: فأي الطائفتين أصوب، الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال [الله] تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

قال البخاري بسنده عن علقمة عن عبد الله قال: «لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس للذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك[3]. وروى أحمد [وابن مردويه][4] بإسناديهما عن ثابت عن زاذان عن جرير بن عبد الله قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ: **«كأن هذا الراكب إياكم يريد»**، فانتهى إلينا الرجل، فسلم فرددنا عليه فقال له النبي ﷺ: **«من أين أقبلت؟»** قال: من أهلي وولدي وعشيرتي، قال: **«فأين تريد؟»** قال: أريد رسول الله ﷺ، قال: **«فقد أصبته»**، قال: يا رسول الله، علمني ما الإيمان؟ قال: **«أن تشهد**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بها».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال ابن عباس وغير واحد من السلف؛ أي: حجة وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾».

(٣) أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٩)، وأحمد (١/٣٧٨).

(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، قال: قد أقررت، قال: «ثم إن بعيره دخلت يده في بيت جرذان، فهوى بعيره» وهوى الرجل، فوقع على هامته فمات! فقال رسول الله ﷺ: «عليَّ بالرجل!» فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه، فقالا: يا رسول الله قبض الرجل فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: «أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يدسان في فمه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً»، ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾» ثم قال: «دونكم أخاكم»، فاحتملناه إلى الماء، فغسلناه، وحنطناه، وكفناه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر، فقال: «ألحدوا ولا تشقوا، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا»[1]. وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن سخبرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعطى فشكر، ومنع فصبر، وظلم فاستغفر، وظلم فغفر»[2]. وسكت، فقالوا: يا رسول الله، ما له؟ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾. وقوله: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ أي: وجهنا حجته [عليهم][3]

---

(1) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٩) ـ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠٣) ـ وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٤٦، ٤٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وفي إسناده أبو جناب وهو مدلس وقد عنعن» كذا عزاه للطبراني في «الكبير» من هذه الطريق، وإنما أخرجه (٢/ رقم ٢٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٣١٨) من طريق أبي حمزة الثمالي عن أبي اليقظان عن زاذان به، وأبو اليقظان وأبو حمزة الثمالي ضعيفان، والحديث زاد نسبته السيوطي في «الدر» (٣/ ٥٠) إلى أبي الشيخ وابن مردويه، **وأرجو أن يكون حسناً بمجموع طرقه وشواهده.**

(2) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٠) له، وأخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ٧٥٤٨)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ١٤٤٠، ١٤٤١) رقم (٣٦٥٤، ٣٦٥٥) من طريق محمد بن المعلى به هكذا مرسلاً. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٦٦١٣، ٦٦١٤)، وابن قانع (٦/ رقم ٦٩٩)، وأبو القاسم البغوي (٣/ ٢٦٩) رقم (١٢٠٨) كلاهما في «معجم الصحابة»، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ١٤٤٠) رقم (٣٦٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٤٤٣١)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢/ ٦٨٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٠/ ٢١٠) من طريق محمد بن المعلى به موصولاً من حديث سخبرة والد عبد الله (غير أنه تحرف سخبرة إلى سمرة في مطبوع «الشعب») وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٨٧): «رواه الطبراني وفيه أبو داود الأعمى وهو متروك». قلت: وكذبه ابن معين، وشيخه عبد الله بن سخبرة مجهول، **فالحديث واهٍ جداً.**

(3) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على قومه».

قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ وقد صدقه[1] الله، وحكم له بالأمن والهداية، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قرئ بالإضافة وبلا إضافة، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، عليم [أي:] بمن يهديه ومن يضله، وأن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧] ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾»[2].

فائدة

قال محمد تقي الدين: المشركون في كل زمان ومكان طبيعتهم واحدة لا تختلف إذا نهاهم ناهٍ عن الشرك بالله، حاولوا أن يلتمسوا عذراً لأنفسهم، فيقولون مثلاً: إن هذا الضريح، أو هذا التمثال، أو هذه الشجرة، أو هذا الحجر، أو هذا المكان، كل ذلك، منسوب إلى ملك مقرب أو نبي كريم، أو صالح من أولياء الله، فتعظيمنا له تعظيم للمنسوب إليه، ومنزلته عند الله عالية، ونحن مذنبون خاطئون، إذا دعونا الله لا يستجيب لنا، وإذا تشفعنا إليه بهذه الآثار المنسوبة إلى أوليائه يقضي حاجتنا، قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٠] فأنت ترى أن الله لم يقبل عذرهم، وسمى عبادتهم لتلك الآثار وللمنسوبة إليهم شركاً.

فائدة ثانية: إذا رأى المشركون أن الذي ينهاهم عن الشرك لا يقبل عذرهم، انتقلوا إلى حجة أخرى وهي تخويفه من شركائهم، كما حكى الله عن قوم إبراهيم وقوم هود، فقال لهم إبراهيم: أنا لا أخاف ما تشركون به من

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «صدق»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٠ ـ ١٠٦) بتصرف.

الآثار، ولا الذين تنسبونها إليهم؛ لأني أعلم أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ولما كنت في تطوان أدعو إلى توحيد الله، أصابني مرض الربو، فقال المشركون: إن السيد السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض؛ لأني أنكرت عليهم عبادته بالذبح والنذر والاستغاثة وطلب قضاء الحاجات، حتى المطر يطلبونه منه، فقلت لهم على كرسي الوعظ في المسجد الجامع: إن قوماً زعموا أن السيد السعيدي هو الذي أصابني بهذا المرض، وهؤلاء ليس لهم عقل ولا دين، أما الدليل على أنهم ليس لهم عقل، فهو أن رجالاً ونساء كثيراً من أهل تطوان مصابون بهذا المرض، وهم يعبدون السيد السعيدي، فمن أصابهم به؟ وأما الدليل على أن ليس لهم دين، فإن السعيدي إن كان صالحاً كما تقولون، فإنه لا يعلم ما أدعو إليه؛ لأنه مشغول بما أعد الله له من نعيم الجنة، ولا يعلم الغيب، ولو علم أني أدعو إلى توحيد الله واتباع رسوله لفرح بذلك، وإن كان السعيدي لا يحب توحيد الله تعالى ولا اتباع رسوله ﷺ فليس بصالح، ولا مؤمن بالله، فأنا لا أبالي به مع أنه عاجز عن النفع والضر.

فائدة ثالثة: قال إبراهيم عليه السلام في الحجة التي آتاه الله على قومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: كيف أخاف أصنامكم ومن وراءهم من المعبودين، وأنا موحد لله، لا أشرك به شيئاً، ولا تخافون أنتم من عذاب الله، وقد أشركتم به بعض خلقه، فأينا أحق بالأمن؟ وأينا أحق بالخوف؟ قال الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وعدهم الله بالأمن من الخوف، وشهد لهم بالاهتداء، ومقتضى هذا: أن الذين أشركوا بالله هم أحق بالخوف، وهم ضالون، **فمع توحيد الله الأمن والهدى، ومع الشرك بالله الخوف والضلال.**

الباب العاشر

قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ

وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٨]

(ك) «يذكر(١) تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٢ ـ ٧٣] فبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢] وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: ويولد لهذا المولود في حياتكما، فتقر أعينكما به، كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩] وقال ههنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته(٢)، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ(٣) النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وقال

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخبر».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذرية نوح». (٣) في الأصل: «ذريتهما»!

تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم: ٥٨] وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾، وعود الضمير إلى نوح - لأنه أقرب المذكورين - ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار (ج)(١).

وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل عليه(٢) لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه ماران(٣) بن آزر، اللهم إلا أن يقال: أنه دخل في الذرية تغليباً، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾ [البقرة: ١٣٣] فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليباً، وكما قال في قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة؛ لأنه كان في تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليباً، وإلا فهو كان من الجن، وطبيعته من النار، والملائكة من النور، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام، فإنه لا أب له، قال ابن أبي حاتم(٤) وذكر سنده إلى [أبي](٥) حرب بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال: «بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِن

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ٣٨١).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على ذلك».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هارون»!

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٧٥٥٤)، وعبد الله بن عطاء ترجم له ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٥/ ١٣٢) وكذا البخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٦٥) ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال الذهبي: صدوق إن شاء الله. انظر: «الميزان» (٣/ ٤٤٥١) وعلي بن عابس ضعيف كما في «التقريب».

(٥) سقط من الأصل، وأثبته من «تفسيري ابن أبي حاتم وابن كثير».

﴿ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ حتى بلغ: ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت» فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته، أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم[1]، فأما إذا أعطى الرجل بنيه، أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه، وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي[2]:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعدِ[3]

وقال آخرون: ويدخل بنو النبات فيهم أيضاً؛ لما ثبت في «صحيح البخاري»[4]، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: **«إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**. فسماه ابناً، فدل على دخوله في الأبناء، وقال آخرون: هذا تجوز، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم، وإن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك[5] بتوفيق الله وهدايته إياهم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١] وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٧] وكقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]»[6].

---

(١) انظر: «التهذيب في الفرائض» للكلوذاني (٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٠)، «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص٣٨٦ ـ ٣٨٧ ـ بتحقيقي)، ولبعضهم رسائل مفردة في ذلك، انظر: «معجم المصنفات المطروقة» (٢/ ١٣٥٤).

(٢) هو الفرزدق، والبيت في «ديوانه» (٢١٧).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأجانب».

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) من حديث أبي بكرة.

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٦ ـ ١٠٩).

فائدة

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «وهذا مجازاة حين اعتزل قومه... إلخ»، قال تعالى في سورة مريم: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤٩ ـ ٥٠] يؤخذ من هذا أن كل من اعتزل المشركين المصرِّين على عبادة غير الله وهجرهم، وتوجَّه إلى الله طالباً وجود قوم يتعاونون معهم على عبادة الله وحده لا شريك له واتباع الرسول ﷺ، لا بد أن يقر الله عينه ويعطيه من خير الدنيا والآخرة فوق ما كان يؤمل، ويجعل له لسان صدق في الآخرين، ومن شك في هذا فليجرّب، فهذه سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

الفائدة الثانية: قول (ك) في إبليس: «إنه كان في تشبه بهم»، أي: بالملائكة، فيه ركاكة، ولعله محرف، والمراد بالتشبه بهم، أنه كان يعبد الله مثل عبادتهم.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ المذكورون من قبلُ بعضهم أنبياء، ويستحيل عليهم أن يشركوا، وقد بين (ك) غاية البيان، أن الشرط يتعلق بما لا يجوِّز وقوعه، وبعضهم يجوز عليهم الشرك بل وقع فيهم كأبي إبراهيم آزر، وابن نوح الذي غرق، والمقصود أن الشرك يحبط جميع الأعمال، ومن مات عليه لا يدخل الجنة أبداً وهذا هو الأصل في هذا الباب.

الباب الحادي عشر

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]

قال (ك): «أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨] أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث، وقوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ

﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم، وثبت في «الصحيح»[1] أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس**». وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة، فيقول الله ﷻ [له]: أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول له: يا ابن آدم! أين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدَّم شيئاً. وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم[2]، وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢ و٧٤] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢ ـ ٩٣] ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم، ثم قال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرئ بالرفع[3] أي: شملكم، وبالنصب[4]، أي: لقد تقطع[5] ما بينكم من الأسباب والصلات[6] والوسائل، ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي: ذهب عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من نفع[7]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٩) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٧٦٤١) معلقاً، وزاد نسبته السيوطي في «الدر» (٣/ ٦٠) إلى عبد بن حميد.

(٣) قراءة الرفع هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩٠)، «البحر المحيط» (٦/ ١٦٣)، «الكشاف» (٢/ ٢٧١)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٣٢٩).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقرئ بالنصب» قلت: وقراءة النصب هي قراءة الكافة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٦٠)، «السبعة» (٢٦٣)، «روح المعاني» (٧/ ٢٢٥).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «انقطع».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والوصلات».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رجاء».

الأصنام والأنداد، كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤] وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠]»[١].

قال محمد تقي الدين: قوله[٢]: «إن كان ثم معاد»: يعني بالنسبة إلى المشركين، فإن كثيراً منهم كانوا ينكرون المعاد أو يشكّون فيه.

فائدة

قال محمد تقي الدين: آيات هذا الباب تدل دلالة في غاية الوضوح على أن عبّاد القبور وأصحاب الطرائق يخسرون يوم القيامة خسراناً مبيناً؛ لأنهم يظنون بل يعتقدون أن شيوخهم يشفعون لهم عند الله ويدخلونهم الجنة، فإذا بهم يتبرؤون منهم ويقولون لهم بلسان فصيح: ما كنتم إيانا تعبدون، يعنون: إنما كنتم تعبدون شياطين الإنس والجن الذين أضلوكم وزينوا لكم الشرك ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٩] وذلك أن المقبور إما أن يكون نبياً أو صالحاً فهو غافل عن عبادة المشركين بما أعد الله له من النعيم، وإما أن يكون طالحاً راضياً بالشرك فهو غافل عن عبادتهم بما أعده الله له من عذاب أليم.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١١٣ ـ ١١٥).

(٢) المراد ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ.

الباب الثاني عشر

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠٥]

قال (ك): «هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادته، بأن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم، فإن قيل: فكيف عبدت الجن [مع أنهم][1] إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها[2] إلا عن طاعة الجن، وأمرهم إياهم بذلك كقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢٠] وكقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠] الآية، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٤] وكقوله: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١] وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١] ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي: وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عبدوا الأصنام».

غيره؟ كقول إبراهيم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦] ومعنى الآية أنه ﷻ هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له، وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ينبه به تعالى عن ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً، كما يزعم[1] من قاله من اليهود في عزير ومن النصارى في عيسى[2]، ومن قال [من مشركي العرب][3] في الملائكة أنها بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ومعنى خرقوا[4] أي: اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا كما قاله علماء السلف.

قال (ج): وتأويله[5] إذاً: جعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه[6]، وهو المتفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[7] بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغي لمن كان إلـٰهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء. ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي، ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي: والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يزعمه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المسيح».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكما قال المشركون من العرب».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله: ﴿وَخَرَقُوا۟﴾».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن جرير» (٩/ ٤٥٦): «فتأويل الكلام».
(٦) كذا في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»، وفي الأصل: «إياهم»!
(٧) بعدها في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»: «يقول: وتخرصوا لله كذباً فافتعلوا له بنين وبنات ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾».

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥] ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبين تعالى أنه خلق كل شيء وهو[1] بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له[2] ولا نظير ولا عديل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار»[3].

فائدة

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «فإن قيل: كيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟» وجوابه عن ذلك، بأن الجن يوسوسون لعبّاد الأصنام يزينون لهم عبادتها فنسبت إليهم العبادة لذلك. فيه نظر؛ لأن القرآن قد صرح بأن بعض المشركين كانوا يعبدون الجن حقيقة، كما في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١] وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] قال (ك) في تفسير هذه الآية: «أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، وكما كانت عادة العرب في جاهليتها، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أنّ يصيبهم بشيء يسوءهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى صاروا[4] أشد منهم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنه».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا والد ولا صاحبه له».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٢٠ ـ ١٢٢).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تبقوا».

مخافة وأكثر تعوذاً بهم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثماً وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة، وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها، فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر وأنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي، قال قتادة: فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك»[١]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: فقد تبين أن مشركي العرب كانوا يعبدون الجن بالعياذ والخوف، وتقدم أن الجهال في هذا الزمان يعبدون الجن إذا بنوا بيتاً جديداً يذبحون ذبيحة للجن قرباناً لهم لئلا يؤذوهم، والسحرة في هذا الزمان إذا دعوا لعلاج شخص مصروع يأمرون أهله بذبح ذبيحة لذلك الجن الذي صرعه بزعمهم.

الباب الثالث عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦ ـ ١٠٧]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به، فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه، لأنه لا إله إلا هو: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً، [﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]][٢]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: حافظاً تحفظ أقوالهم وأعمالهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم، إن عليك إلا البلاغ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/١٤٨).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

[الغاشية: ٢١ ـ ٢٢] وقال: ﴿فَإِنَّمَا[١] عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ وفي ضمنه خطاب لأمته: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يشمل الوحي كله، سواء أكان قرآناً أم حديثاً، فإن الحديث يوحى إلى النبي ﷺ أيضاً، ولكن لا يسمى قرآناً؛ لقوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤] وفي «الصحيح»[٣]: إن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة وجد أهلها يلقِّحون النخل، فقال لهم: «**ما هذا؟**» فقالوا: شيء نأخذه من الذكر ونضعه في الأنثى، يصلح عليه التمر، فقال: «**ما أراه ينفع**»، فتركوا التلقيح، ففسد التمر وصار شيصاً فأخبروا النبي ﷺ بذلك، فقال: «**إذا حدثتكم عن الله فخذوا به، فإني لا أكذب على الله، وأنتم أعلم بأمور دينكم**».

أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فكل ما تكلم به النبي ﷺ في أمور الدين، فهو من الله تعالى وأهم أمور الدين توحيد الله تعالى في **ربوبيته**، فلا رب غيره، وفي **عبادته** فلا يعبد غيره، وفي **أسمائه وصفاته** فلا يشاركه فيها غيره، وفي **الاتباع** فلا يتبع إلا وحيه وهو القرآن والحديث الثابت، **وعلى هذه الأربعة نويت أن أؤلف هذا الكتاب وقد بدأته وتمامه على الله**، فاتباع توحيد الله تعالى بأنواعه الأربعة فرض على كل مسلم، والإعراض عن المشركين بمخالفتهم والبراءة منهم واجب حتم.

الباب الرابع عشر

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ

---

(١) في الأصل: «إنما»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٣١ ـ ١٣٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) وغيره من حديث أنس.

﴿فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢١ ـ ١٢٢]

قال (ك): «استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها [وإن][1] كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً، وهو مرويٌّ عن ابن عمر ونافع مولاه وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين، وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثور وداود الظاهري، واختار ذلك أبو الفتوح[2] محمد بن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية في كتابه «الأربعين»[3] واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصيد: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤] ثم أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثي عدي ابن حاتم[4] وأبي ثعلبة[5]: «**إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه، فكل ما أمسك عليك**»، [وهو][6] في «الصحيحين» أيضاً، وحديث ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال للجن: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه**». رواه مسلم[7]،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولو».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب إذ هكذا ذكرت الكتب التي ترجمت له. انظر: «السير» (٢٠/ ٣٦٠)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٦/ ١٨٨)، وفي الأصل: «أبو الفتح»!

(٣) تمام اسم كتابه «في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين» وهو مشهور بـ«الأربعين الطائية»، وكلامه على المسألة فيه على (الحديث الأربعين) (ص٢٠٨ ـ ٢٠٩، ط. المعارف)، وقال عن عدم الحل سواء ترك التسمية عمداً أو ناسياً: «وهو الأشبه بظاهر الكتاب والسنة»، وقد فصلت في المسألة في تعليقي على «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (٤/ ٣٤٦) مسألة رقم (١٦٩٣)، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٩)، والبخاري (١٧٥) واللفظ لمسلم.

(٥) أخرجه البخاري (٥٤٧٨)، ومسلم (١٩٣٠).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهما».

(٧) في «صحيحه» برقم (٤٥٠).

وحديث جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله**». أخرجاه[(١)(٢)]، وعن عائشة رضي الله عنها: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «**سموا عليه أنتم وكلوا**»، قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر». رواه البخاري[(٣)]، ووجه الدلالة، أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح، إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد.

والمذهب الثاني في المسألة: إنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة؛ فإن تركها عمداً أو نسياناً لا يضر، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب[(٤)] وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وقال ابن جريج عن عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس، وهذا المسلك الذي [طرده][(٥)] الإمام الشافعي قوي، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ حالية أي: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقاً ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله، ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة؛ لأنه يلزم فيه[(٦)] عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية، وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت الواو التي ادعى أنها حالية[(٧)] بطل ما قال من أصله والله أعلم.

---

(١) يعني البخاري ومسلم (منه).
(٢) أخرجه البخاري (٩٨٥)، ومسلم (١٩٦٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٥٧)، وأبو داود (٢٨٢٩) وغيرهما.
(٤) انظر في المسألة: «المغني» (٨/ ٥٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٧٥).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طرقه». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منه».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها فإن عطفت على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن الواو حالية».

وقال ابن أبي حاتم[(١)] بسنده عن ابن عباس في الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: هي الميتة، وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في «المراسيل»[(٢)]، وذكر سنده إلى الصَّلت السَّدُوسي قال: قال رسول الله ﷺ: **«ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله»**. وهذا مرسل، يعضد بما رواه الدراقطني[(٣)] عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله».

المذهب الثالث في المسألة: إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر وإن تركها عمد لا[(٤)] تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه وهو يحكى[(٥)] عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: من حرم ذبيحة الناسي، فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ، يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي[(٦)] بسنده عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: **«المسلم يكفيه اسمه إن نسي**

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ١٣٧٨ رقم ٨٧٣٣)، وابن جرير (٩/ ٥٢٨)، وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ٤٢) لابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه أبو داود في «المراسيل» رقم (٣٧٨) ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٤٠)، وابن الجوزي في «التحقيق» (٢/رقم ١٩٣٨).
وقال عبد الحق في «الأحكام الوسطى» (٧/ ١٠٤): **«هذا مرسل وضعيف»** وقال ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٣/رقم ١٣٦٩): «وعلته مع الإرسال هي: أن الصلت السدوسي لا تعرف له حال، ولا يعرف بغير هذا، ولا روى عنه إلا ثور بن يزيد»، وانظر: «نصب الراية» (٤/ ١٨٣) و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٥١)، و«الإرواء» (٨/ ١٧٠).

(٣) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦) رقم (٩٦) وكذا أخرجه سعيد بن منصور (٥/ ٨١ رقم ٩١٤ ـ «التفسير») ـ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٣٩) ـ وعبد الرزاق (٨٥٣٨، ٨٥٤٨)، والبيهقي في «المعرفة» (١٣/ ٤٤٧) رقم (١٨٧٩١) والحميدي ـ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٣٩، ٢٤٠) ـ **وإسناده صحيح**، وصححه ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ٩٢٤).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «محكي».

(٦) رواه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٧/رقم ٥٥٩٧)، وأخرجه في «الكبرى» =

أن يسمي حين يذبح، وليذكر اسم الله وليأكل»، وهذا الحديث رفعه خطأ أخطأ فيه معقل بن عبيد الله [الجزري][(١)]، ورواه سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس موقوفاً، قال (ك): «وهذا أصح، نص عليه البيهقي»[(٢)].

قال (ج): «ولا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه»[(٣)]. قال (ك): «وهذا الذي قاله صحيح»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ روى ابن أبي حاتم[(٥)] بسنده إلى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، أنهما قالا في المختار بن أبي عبيد لما ادعى أن الوحي ينزل عليه: صدق، وقرأ هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ يعنيان أن المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب كان من أولياء الشياطين.

قال محمد تقي الدين: مرادهما: أن الوحي الذي ادعاه المختار ابن أبي عبيد هو من وحي الشياطين، ثم قال (ك): «روى أبو داود[(٦)] وذكر سنده عن

= (٩/ ٢٣٩) ومن قبله الدارقطني في «السنن» (٤/ ٢٩٦) رقم (٩٨) ـ ومن طريقه ابن الجوزي في «التحقيق» (٢/ ٣٦٠) رقم (١٩٣٧) ـ **وإسناده ضعيف مرفوعاً، وهو صحيح موقوفاً.**

قال البيهقي: «المحفوظ رواية سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً.

فقال ابن حجر في «الدراية» (٢/ ٢٠٦): «صوّب الحفاظ وقفه».

وقال في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٥١) عن المرفوع: «**في إسناده ضعف** وأعله ابن الجوزي بمعقل بن عبيد الله فزعم أنه مجهول فأخطأ بل هو ثقة من رجال مسلم...»، وأعله ابن القطان بمحمد بن يزيد وهو ابن سنان الرُّهاوي. انظر: « الوهم والإيهام» (٣/ ١٣٧٠) و«نصب الراية» (٤/ ١٨٢).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجزيري».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥١).

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ٥٢٩) بمعناه.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٥).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ٧٨٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٤) عن ابن عمر، وأخرجه عن ابن عباس: ابن جرير (١٢/ ١٣٨٣٢)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٧٩) ونحوه عند القرطبي في «التفسير» (٧/ ٧٧) عن ابن الزبير، وانظر آخر: «المستجاد» للتنوخي رقم (٢٠٦) وتعليقي عليه.

(٦) أخرجه أبو داود (٢٨١٩) ـ ومن طريقه البيهقي (٩/ ٢٤١)، وفي «المعرفة» (٧/رقم ٥٥٩٩) ـ، والترمذي (٣٠٦٩)، والبزار ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٦) ـ، =

عبد الله بن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلناه ولا نأكل مما قتل الله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال (ك) بعد كلام: «وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة: **أحدها**: إن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا. **الثاني**: إن الآية من الأنعام[١] مكية. **الثالث**: إن هذا الحديث رواه الترمذي[٢] وذكر سنده عن ابن عباس أن ناساً أتوا النبي ﷺ. . . إلى آخره،

= وابن جرير (٨/ ١٥)، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٦)، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١٠/رقم ٢٧٠، ٢٧١) ـ، والطبراني في «الكبير» (١١/رقم ١٢٢٩٥) ـ ومن طريقه الضياء (٢٦٩) ـ، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٤٠) من طريقين عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه **وإسناده ضعيف**، عطاء مختلط، والراويان عنه (عمران بن عيينة وزياد بن عبد الله البكائي) لم يحملا عنه قبل اختلاطه. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن عباس أيضاً، ورواه بعضهم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن النبي ﷺ مرسلاً».

قال أبو عبيدة: أخرج الطريق المرسلة: ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/رقم ٧٨٣٢) **بسندٍ جيد**، وعزاه في «الدر» (٣/ ٣٤٦) لابن المنذر وأبي الشيخ.

وذكر اليهود في الموصول والمرسل منكر، قال ابن كثير (٦/ ١٥٦ ـ ١٥٧) عن الرواية التي فيها ذكر لهم: «وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة:

أحدها: إن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا.

الثاني: إن الآية من الأنعام وهي مكية ثم أورد في (**الثالث**) بعض الطرق التي فيها ذكر للمشركين لا لليهود.

قلت: أخرج أبو داود (٢٨١٨)، وابن ماجه (٣١٧٣)، والبيهقي (٩/ ٢٤١) في «سننهم»، وابن أبي حاتم (٤/رقم ٧٨٤٥)، وابن جرير (٨/ ١٣) في «تفسيريهما»، والحاكم (٤/ ١١٣، ٢٣١) من طريق سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: «يقولون: ما ذبح الله فلاناً كلوه. . .» بنحوه مع إبهام القائلين: قال ابن كثير (٦/ ١٥٨): «**هذا إسناد صحيح**» قال: «وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ، والله أعلم».

قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة، وهذا أمر معروف بين العلماء، وقد وقع التصريح عن ابن عباس قال: «جادل المشركون المسلمين. . .» بنحوه.

أخرجه النسائي (٧/ ٢٣٧)، وفي «الكبرى» (٣/رقم ٤٥٢٦ و٦/رقم ١١١٧١) ـ ومن طريقه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص٤٤١) ـ، وابن جرير (٨/ ١٣)، والحاكم (٤/ ٢٣٣)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٤٢٤) **وإسناده حسن**، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وزاد في «الدر المنثور» (٣/ ٧٨) نسبته للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهي». (٢) أخرجه الترمذي (٣٠٦٩).

وقال الترمذي: حسن غريب»، ثم ذكر (ك) أخباراً ونقولاً تدل على أن الذي قال ذلك هم المشركون، وهو الصحيح؛ لأنهم يأكلون الميتة.

«وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] وقد روى الترمذي(١) في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «**بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»(٢).اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي نختاره من هذه الأقوال الثلاثة هو أن الذبيحة إذا ترك ذابحها التسمية سهواً يجوز أكلها وإن تركها عمداً لا يجوز أكلها، والمراد بالشرك هنا كما قال (ك) رَحِمَهُ اللَّهُ: جعل التشريع لغير الله، فمن اتخذ إماماً أو شيخاً وبالغ في تعظيمه حتى جعل له الحكم إذا حلل شيئاً أو حرمه أو أوجبه لم يطالبه بدليل، بل لو كان قوله مخالفاً لكلام الله وكلام رسوله رجحه عليهما، وقال: (إمامي أو شيخي أعلم بالحديث وبالقرآن) فقد أشرك بالله واتخذ شيخه وإمامه رباً من دون الله، وسيأتي إن شاء الله مزيد على هذا في (القسم الثاني) من هذا الكتاب عند تفسير آية التوبة المشار إليها أعلاه.

الباب الخامس

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]

قال محمد تقي الدين: وجدت تفسير هذه الآية في (ك) محرفاً فاسداً(٣)

---

(١) أخرجه برقم (٣٠٩٥) **والحديث حسن** بمجموع طرقه، وتقدم تخريجه مفصَّلاً.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/١٤٦ ـ ١٥٩) بتصرف.

(٣) لا تنس ما قدمه المصنف مراراً عن سوء طبعات «تفسير ابن كثير» التي وقف عليها، =

فاضطررت أن أفسرها بكلامي مما فهمته من التفاسير، قال تعالى عائباً على المشركين: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: خلق ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أي: غلة الزرع ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هي الإبل والبقر والغنم، ﴿نَصِيبًا﴾ أي: قسماً، وجعلوا لأوثانهم نصيباً آخر، فقالوا: هذا لله، وأطعموه الضيوف والمساكين، وأما النصيب الذي جعلوه لأوثانهم فإنهم يعطونه سدنتها، فإذا وقع من النصيب الذي جعلوه لله شيء في النصيب الذي جعلوه لأوثانهم، تركوه مع نصيب الأوثان، وقالوا: إن الله غني، والأوثان فقيرة، أما إذا وقع في النصيب الذي جعلوه لله شيء من النصيب الذي جعلوه لأوثانهم أخذوه وردوه إلى نصيب الأوثان، وهذا يدل على أن خوفهم ورجاءهم للأوثان أكثر من خوفهم ورجائهم لله تعالى، فلذلك يتساهلون في حق الله ولا يتساهلون في حق الأوثان.

وهكذا يعمل مشركو هذا الزمان، وقد تقدم بيان ذلك، هذا معنى ما رأيته في عدة من التفاسير، ويظهر لي أن معنى الآية أن المشركين، يتصدقون بنصيب من أموالهم لوجه الله، ويتصدقون بنصيب آخر تقرباً إلى أوثانهم، فما جعلوه لله لا يقبله منهم فلا يصل إلى الله، أي: لا يكون مقبولاً عنده، وما جعلوه من الصدقة لشركائهم فهو للشركاء وكذلك ما جعلوه لله أيضاً يرجع للشركاء؛ لأن الله تعالى غني عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان كله خالصاً له، فمن جعل من عبادته تسعمائة وتسعة وتسعين جزءاً لله تعالى وجزءاً واحداً لغير الله تعالى، أحبط الله عمله ولم يقبل من عبادته شيئاً، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**[1]. وفي حديث آخر يقول الله تعالى: **«أنا خير الشريكين»**[2] وهذا المعنى ظاهر في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ١ ـ ٣] فنفى الله عنهم عبادته مع أنهم كانوا يعبدونه بالحج والصدقة لأنهم كانوا يعبدون معه غيره.

= فالتحريف والفساد من الطبعة، لا في «التفسير»، فتنبه ولا تكن من الغافلين.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠١)، ومسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٩٣٨) (٢/ ٦٧، ٦٨) من حديث أبي هريرة فيما رواه النبي ﷺ عن الله ﷻ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، والطيالسي (١١٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٧١٣٩)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، وأبو نعيم (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٨٤٤) **وإسناده ضعيف**، فيه شهر بن حوشب.

وفي هذا الزمان ينفق المشركون الأموال الكثيرة بسخاء وطيب نفس تقرباً إلى آلهتهم التي يسمونها أولياء، ويمنعون الزكاة والصدقة لأنهم يخافون أولياءهم وشركاءهم الذين اتخذوهم مع الله، ويرجون منهم ما لا يخافون ولا يرجون من الله تعالى، ولو ساووهم بالله تعالى لكانوا من أكفر الكافرين وأظلم الظالمين، كما قال تعالى حكاية عن المشركين السابقين في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٢ ـ ١٠٢].

قلت: وقد كانوا مؤمنين بتوحيد الربوبية، فلم ينفعهم ذلك شيئاً؛ لأنهم أشركوا مع الله في عبادته. اهـ.

الباب السادس عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١]

قال (ك): «عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»[1]، وأخرج الحاكم في «مستدركه»[2] عن ابن عباس قال: «في الأنعام آيات محكمات من أم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/٨٠٥٦)، والطبراني في «الكبير» (١٠/١٠٠٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦/٧٩١٨) **وإسناده ضعيف**، فيه داود بن يزيد الأودي فيه كلام وزاد نسبته السيوطي في «الدر» (٣/١٠٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٣١٧ ـ ٣١٨) وصحح إسناده ووافقه الذهبي! وفي إسناده عبد الله بن خليفة لم يوثقه غير ابن حبان في «الثقات» (٥/٢٨) وقال الذهبي نفسه في «الميزان» عنه: =

الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وأما تفسيرها، فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذي عبدوا غير الله وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا﴾ أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتقول العرب: «أمرتك أن لا تقوم». وفي «الصحيحين»[1] من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر»**. وفي بعض الروايات، أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة: **«وإن رغم أنف أبي ذر»** فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: **«وإن رغم أنف أبي ذر»**.

وفي بعض «المسانيد» و«السنن»[2] عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ:

= «لا يعرف» ولكنه توبع، تابعه عبد الله بن قيس عند ابن أبي حاتم (٢/ ٣١٦٨ و٥/ ٨٠٥٧)، والحاكم (٢/ ٢٨٨) وله طريق أخرى عن ابن عباس عند ابن أبي حاتم (٢/ ٣١٦٩) وابن جرير (٦/ رقم ٦٥٧٣) بسندٍ فيه جهالة، وعزاه في «الدر المنثور» (٢/ ٦) لسعيد بن منصور وابن مردويه، **والأثر بمجموع طرقه حسن ـ إن شاء الله تعالى ـ.**

(١) أخرجه البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٢)، والدارمي في «السنن» (٢٧٩١)، وأبو عوانة ـ كما في «إتحاف المهرة» (١٤/ ١٩٥ ـ ١٩٦) وفي إسناده شهر بن حوشب وهو ضعيف من قبل حفظه.
وله شاهد من حديث أنس عند أحمد (٣/ ٢٣٨)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٦٥)، وأبي يعلى (٤٢٢٦)، والضياء في «المختارة» (١٥٤٤، ١٥٤٥)، وفي إسناده جهالة.
وله طريق آخر عند الترمذي (٣٥٣٤) ـ وحسنه ـ، وأبي نعيم (٢/ ٢٣١) وفي إسناده كثير بن فائد لم يوثقه غير ابن حبان في «الثقات» (٩/ ٢٥). =

يقول الله تعالى: «**يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطايا أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك**».

ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] وفي «صحيح مسلم»[(١)] عن ابن مسعود: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**» والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً، وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبي الدرداء[(٢)]: «**لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتم**».

= وله شاهد آخر من حديث ابن عباس عند الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٣٤٦)، و«الأوسط» (٥/ ٥٤٨٣)، و«الصغير» (٢/ ٢٠)، وفي «الدعاء» (٢/رقم ١٩)، وأبي نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠١).

قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢١٩): «وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وقيس بن الربيع وكلاهما مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح».

وجزءه الأوسط أصله عند مسلم (٢٦٨٧) وكذا جزءه الأخير له شاهد من حديث أبي أيوب وأبي هريرة عند مسلم (٢٧٤٨) **فالحديث صحيح بمجموع شواهده**، وانظر: «التلخيص الحبير» (٢/ ١٥٥)، «الصحيحة» (١/رقم ١٢٧).

(١) برقم (٩٢) وأخرجه أيضاً البخاري (١٢٣٨).

(٢) حديث أبي الدرداء أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٨) ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩١١)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٤/ ١٥٢٤) مطولاً، وأخرجه ابن ماجه (٣٣٧١، ٤٠٣٤)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٥٥٨٩)، وقد ضعف هذا الإسناد ابن حجر في «التلخيص» (٢/ ١٥٥) لكن للحديث شواهد يتقوى بها منها حديث معاذ بن جبل عند أحمد (٥/ ٢٣٨) وفي سنده انقطاع، عبد الرحمٰن بن جبير بن نفير لم يدرك معاذاً. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/رقم ١٥٦) وفي «الأوسط» (٨/ ٥٦، ٨٩)، وفي «مسند الشاميين» (٢٢٠٤)، والمروزي (٩٢١) وفي إسناده عمرو بن واقد متروك، وقد **صحح شيخنا الألباني حديث معاذ بالشواهد**، فانظر: «الإرواء» (٧/رقم ٢٠٢٦).

وأما حديث عبادة فقد أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢/ ٧٥)، والشاشي في «مسنده» (٣/ ٢٠٩ ـ ٢١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٨٠٥٨)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٢٠)، واللالكائي في «السنة» (٤/رقم ١٥٢٢) وإسناده ضعيف، قال البخاري: «لا يعرف إسناده» قلت: فيه سلمة بن شريح، قال الذهبي في «الميزان»: «لا يعرف» وأقره ابن حجر في «اللسان»، وعزاه في «المجمع» (٤/ ٢١٩) للطبراني، وأعله بسلمة.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أي أن تحسنوا إليهما[١] كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقرأ بعضهم[٢]: ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً، أي: أن تحسنوا إليهما[٣] والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]، فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] الآية، والآيات كثيرة، وفي «الصحيحين»[٤] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني». وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، بسنده عن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول: أوصاني خليلي رسول الله ﷺ: «**أطع والديك وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل**»[٥]. ولكن في إسناديهما ضعف»[٦].

قال محمد تقي الدين: إن صحت هذه العبارة عن النبي ﷺ فالمراد بها لو ملكت ما ملكت من متاع الدنيا، وأراد منك الوالدن أن تعطيهما إياه، فافعل، وإن كان الحديث غير صحيح ولا حسن فلا يثبت به حكم.اهـ.

قال (ك): «﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد[٧] عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور **بإسنادٍ جيد** عن ابن عباس، قاله ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٢٨٣، ٢٩٥). وانظر ـ لزاماً ـ: «البحر المحيط» (٦/ ٢٥)، «معجم القراءات» (٥/ ٣٧ ـ ٣٨).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: أحسنوا إليهم».

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٥) هو قطعة من وصية للنبي ﷺ سبق منها قريباً عدم الإشراك بالله، وإن قطع المسلم أو صلب أو حرق، وهناك تخريج حديثي أبي الدرداء وعبادة رضي الله عنهما، **وهو صحيح بشواهده**.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٠٦ ـ ٢١٠).

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ببر الآباء والأجداد».

والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، ولهذا ورد في «الصحيحين»[1] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**، قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»**، قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني حليلة جارك»** ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية وقوله تعالى: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ قال ابن عباس: هو الفقر، أي: لا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أي: لا تقتلوهم خوفاً من الفقر[2] في الآجل، ولهذا قال هناك: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي لا تخافوا من ظفركم بسبب رزقهم فهو[3] على الله، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلاً قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم هٰهنا، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] وفي «الصحيحين»[4] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»**.

وقال عبد الملك بن عُمير عن ورّاد عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: **«أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»**[5]. وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خشية حصول فقر».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقركم بسببهم فرزقهم».

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٥) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤١٩).

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى عن النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في «الصحيحين»[١] عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**». وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري[٢] عن عبد الله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ مرفوعاً: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً**». وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً**». رواه ابن ماجه والترمذي[٣]، وقال: حسن صحيح، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: هذا [مما] وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه»[٤]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: اشتملت هذه الآية على خمس وصايا:

الأولى: توحيد الله تعالى والنهي عن الشرك به.

والثانية: بر الوالدين.

والثالثة: النهي عن قتل الأولاد الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، وفي هذا الزّمان يقتلون النطف في الأرحام منعاً من الحمل خوفاً من قلة الرزق، وهذا يؤول بهم إلى إنكار القرآن، وقد قال الله تعالى في مواضع كثيرة، أنه متكفل برزق كل مخلوق، كقوله تعالى في أول سورة هود: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦] وكقوله في هذه الآية: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ إلى غير ذلك ولم يقتصروا على قتل النطف بمنعها من الوصول إلى الرحم مع أن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٤)، وأحمد (٢/ ١٨٦)، والنسائي (٨/ ٢٥)، وابن ماجه (٢٦٨٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٦٨٧)، والترمذي (١٤٠٣)، وأبو يعلى (٦٤٥٢)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٣، ٨٠١١) من حديث أبي هريرة، **وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده**. انظر: «الصحيحة» (٥/ ٢٣٥٦)، و«غاية المرام» (٤٥٠).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢١٠ ـ ٢١٥) بتصرف.

قال في العزل: «**إنه الموؤدة الصغرى**»[(١)]، أي: قتل الأولاد الأصغر حتى أضافوا إلى ذلك قتل الجنين في رحم أمه؛ مخافة أن يأكل معهم.

وليس العجب من الأوربيين إذا فعلوا ذلك فإنهم جاهلون بالله وبصفاته، ولكن العجب ممن يدعي الإسلام، ويؤمن بهذا الضلال ويقتبسه منهم كأنه فضيلة، وقد كانت حكومة «هتلر» تقرض كل رجل وامرأة يريدان الزواج خمسة آلاف مارك ألماني بشرط أن يفحصهما طبيب ويجدهما صالحين للتناسل، أما الغرباء الذين ليسوا جرمانيين ولا أوربيين فكانوا يمنعونهم من التناسل ويجبرونهم على الاختصاء تعصباً منهم لجنسهم، وهؤلاء الجاهلون يقطعون نسل أبناء جنسهم، وقد ألّفت مقالة طويلة في حكم منع النسل، وأقمت البراهين على بطلانه من الوجهة الشرعية ومن الوجهة الاقتصادية، إلا إذا كان فيه ضرر محقق على الوالدين أو الأولاد، فيكون بقدره ونشر هذا المقال في صحيفة «دعوة الحق»[(٢)] المغربية.

الرابعة: النهي عن إتيان الفواحش وهي الكبائر ما ظهر منها وما بطن.

الخامسة: تحريم قتل النفس التي حرم الله إلا من أوجب الشرع قتله لإقامة العدل بين الناس.

وهناك خمس وصايا أخرى لم نثبت آياتها وتفسيرها اختصاراً، وهي: أكل مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان، والتزام العدل في القول والعمل، والوفاء بالعهد، واتباع الصراط المستقيم، وهو ما كان عليه النبي ﷺ من أمور الدين فهذه عشر وصايا جمعت الخير كله، ما من أمة تحافظ عليها إلا سعدت في دنياها وآخرتها، وما من أمة تضيعها إلا شقيت في عاجلها وآجلها، وبالله التوفيق.

---

(١) ثبت في «صحيح مسلم» (١٤٤٢) من حديث جذامة بنت وهب وصف النبي ﷺ للعزل، بقوله: «**ذلك الوأد الخفي**».

(٢) على ثلاث حلقات، السنة السادسة، الأعداد السادس والسابع بتأريخ شوال، وذي القعدة ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م (ص١ ـ ٩ و٤ ـ ١٠) والسنة السابعة، العدد الثاني سنة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ (ص١ ـ ٦)، وهو فيها بعنوان (رأي في تحديد النسل والعدوى). ثم رأيته نفسه منشوراً على خمس حلقات في مجلة «الجامعة السلفية» المجلد العاشر، الأعداد (٧ ـ ١١) سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨ بعنوان (حكم الإسلام في العزل والعدوى)، وهي مودعة في كتابي «مقالات الهلالي».

الباب السابع عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين، أن يخبر بما أنعم[١] به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي قائماً ثابتاً: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣].

وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى[٢] الخليل عليه السلام، وروى ابن مردويه[٣] بسنده عن ابن أبزى عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال:

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إبراهيم».

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٢٣)، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦)، وابنه عبد الله في «زوائده على المسند» (٣/ ٤٠٧)، والدارمي (٢/ ٢٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٣١، ١٠١٧٥ ـ ١٠١٧٧) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٤٣، ٣٤٤) ـ **وإسناده صحيح**، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١١٩) وقال: «رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح» ومسند (عبد الرحمن بن أبزى) ساقط من مطبوع «المعجم الكبير».

«أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين». وقال الإمام أحمد[١] بسنده إلى ابن عباس أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: **«الحنيفية السمحة»**، وقال أحمد بسنده[٢] عن عائشة ﵂ قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة، حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه، قال عبد الرحمن عن أبيه قال: قال لي عروة أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذٍ: **«لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة»**. أصل الحديث مخرج في «الصحيحين»[٣]، والزيادة لها شواهد من طرق عدة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته[٤] ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢] أي: أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال ابن أبي حاتم[٥] بسنده عن جابر بن عبد الله قال: ضحى رسول الله ﷺ في

---

(١) علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب الإيمان، باب الدين يسر (١/ ٩٣) بصيغة الجزم ووصله أحمد (١/ ٢٣٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٥٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٧)، والبزار (١/رقم ٧٨ ـ كشف)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١١٥٧١، ١١٥٧٢)، وفي «الأوسط» (١/رقم ١٠٠٦) ومع كون هذا الإسناد ضعيفاً إلّا أن **الحديث له شواهد كثيرة يصح** بها، منها الحديث الذي بعده، **وحسنه** ابن حجر في «الفتح» وخرجته مفصلاً في تعليقي على جزء «الجواب الذي انضبط» للسخاوي، وهو مطبوع.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٦) ونقله الحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٢/ ٤٣) وقال عقبه: «**هذا الإسناد حسن** وفي الباب عن أبي بن كعب وجابر وابن عمر وأبي أمامة وأبي هريرة، وأسعد بن عبد الله الخزاعي وغيرهم». وذكر الحافظ له هناك عدة شواهد أخرى مرسلة مصححاً بعضها، وذكره شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٤٤٣) من طريق أحمد هذه مجوِّداً لإسناده **وصحح** اللفظ المقصود هنا من قبل في «الصحيحة» أيضاً (٢/رقم ٨٨١)، وخرجتُ جميع ما ورد في الباب بتفصيل وزدتُ حديثاً فات ابن حجر في تعليقي على جزء السخاوي «الجواب الذي انضبط»، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢). (٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لله».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٨١٨٣)، وأخرجه أيضاً: الدارمي (١٩٤٦)، =

يوم عيد النحر بكبشين، وقال حين ذبحهما: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أي من[1] هذه الأمة، وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢] وقال يوسف عليه السلام: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١] وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَفَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤] [وقال][2] تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى

= وأبو داود (٢٧٩٥)، وابن ماجه (٣١٢١)، وأحمد (٣/ ٣٧٥)، والطحاوي (٤/ ١٧٧)، وابن خزيمة (٤/ ٢٨٩٩)، والحاكم (١/ ٤٦٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٨٧)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣٤/ ١٦٣ ـ ١٦٤ ـ ترجمة أبي عياش) من طريق خالد بن أبي عمران عن أبي عياش عن جابر به. وفيه أبو عياش وهو ابن النعمان المعافري المصري، روى عنه ثلاثة من الثقات، وقال الذهبي عنه: شيخ، فإسناده محتمل للتحسين، وصححه ابن خزيمة والحاكم والذهبي.

ولهذا اللفظ شاهد من حديث عمران بن حصين عند الحاكم (٤/ ٢٢٢) **وصحح إسناده!** وردّه الذهبي لأن فيه أبا حمزة وهو الثمالي ضعيف جداً وابن إسماعيل وهو النضر بن إسماعيل البجلي ليس بذاك، ولهذا أورده شيخنا العلامة الألباني في «الضعيفة» (٢/ رقم ٥٢٨) **وللحديث طرق أخرى بألفاظ أخر صحيحة،** انظرها في: «الإرواء» (٤/ رقم ١١٣٨).

(١) المثبت من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها منشورة[١] إلى قيام الساعة، ولهذا قال ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد**»[٢] وأولاد[٣] العلات هم: الإخوة من أب واحد، وأمهات شتى، فالدين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، وقال الإمام أحمد بسنده[٤] عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: «﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾، ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾**﴾، **اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي أنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك**». ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد. وقد رواه مسلم في «صحيحه»».

ثم قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ أي: أطلب رباً سواه ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر[٥] بإخلاص التوكل، كما تضمنت[٦] التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مشهورة». (٢) سبق تخريجه.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإن أولاد».

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٩٤)، ومسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٤٤، ٧٦٠)، والترمذي (٢٦٦، ٣٤١٨).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالعبادة وإخلاص».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآية».

شريك له، وهذا المعنى[1] يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [المائدة: ٢٩] وقوله: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٩] وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة[2] أحد على أحد، وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] قال علماء التفسير أي: فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩﴾ [المدثر: ٣٨ - ٣٩] معناه كل نفس مرتهنة بعملها السوء[3]، ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩﴾، فإنه قد تعود بركة[4] أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقراباتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أي: ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال بل في أصل الإيمان.

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ أي: أنقصنا[5] أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً، حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة[6] الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنّه[7]، ثم قال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] أي من شره[8] كقوله[9]: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «معنى». (٢) في الأصل: «خطيئته».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «السيء».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعود بركات».
(٥) في الأصل: «﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾: «نقصنا...».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منازل».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومنته».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شر».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

[الأنعام: ١٦٤] أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ [سبأ: ٢٥ ـ ٢٦]»[1].

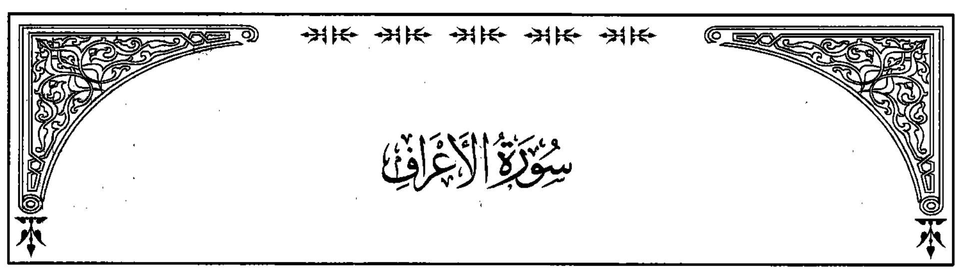
فائدة

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «إن أصل الإسلام عبادة الله وحده لا شريك له». يريد بذلك الإسلام الصحيح الذي يكون فيه القلب مطابقاً للسان والجوارح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] أما إسلام المنافقين وأدعياء الإسلام من المشركين، فإنه لا ينفعهم ولا يرفعهم بل هم في الدرك الأسفل من النار، فمن يلتجئ إلى غير الله في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو يحلل ما حرم الله، أو يستحسن الحكم بغير ما أنزل الله، فلا حظ له في الإسلام الصحيح ولا نجاة له من الخلود في العذاب الأليم، إن لم يتب ويخلص الدين لله تعالى قبل موته.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٤٦ ـ ٢٥٣) بتصرف.





الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)﴾ [الأعراف: ٢٩ ـ ٣٠]

قال (ك): «قوله[1] تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المويدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال (ج): «عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً، وأيده بما رواه عن ابن عباس[2] قال: «قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «**يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً**»، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين»»[3].

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول»!

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٣٨٥، ٣٨٦)، وأحمد (١/ ٢٣٥)، والبخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).

كل من هداه الله تعالى فبفضله، وكل من أضله فبعدله، ولكن من طلب الهدى هداه الله، لقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: **«يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»**[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] وقال في أهل الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال فيهم: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦ ـ ٢٧] وقال هنا: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فقد زينت لهم الشياطين عبادة القبور والمقبورين فيها، وعبادة شيوخ التصوف والاستمداد منهم، وهو شرك.

واعتقاد أنهم يؤثرون في قلب المريد إذا رضوا عنه، إما فتحاً وتنويراً وجذباً إلى الله تعالى، وإما طرداً وإبعاداً وطمساً للقلب وسداً له، وهذا شرك في الربوبية، فإن الذي يعطي ويمنع وينور القلوب ويزيل ظلمتها وقسوتها ويصلحها ويملؤها نوراً وخشوعاً وتوكلاً على الله وإيماناً به، ليس الشيخ المتصوف ولا غيره من الخلق، وإنما يفعل ذلك الله وحده لا شريك له، وصحبة التلميذ لمعلمه إذا كان المعلم من أهل العلم والعمل، والأخلاق الكريمة، يستفيد منها التلميذ، كما يدل على ذلك قصة طلب موسى لصحبة الخضر، أما التأثير، فلله وحده لا شريك له، بيده الهداية والإضلال والنفع والضر، سبحانه عما يشركون.

الباب الثاني

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]

معنى تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن تقدم في (الباب السادس عشر) من (سورة الأنعام)، والإثم: قال (ك): «حاصل ما فسر به الإثم: إنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي: هو التعدي على[2] الناس، فحرم الله هذا وهذا،

(١) قطعة من حديث إلهي طويل، أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى»!

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب، من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]»[١]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: فسر العلماء القول على الله بلا علم، بالقضاء والإفتاء بالتقليد؛ لأن التقليد جهل محض، فلا يجوز للمقلد أن يفتي، ولا أن يقضي في قليل ولا كثير؛ لأنه بمنزلة الأعمى، والأعمى يقاد ولا يقود، قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»[٢] نظماً أنشده لنفسه ومنه قوله:

لا فرق بين مقلِّد وبهيمةٍ ... تنقاد بين جنادل ودعاثرِ
تباً لقاضٍ أو لمفتٍ لا يرى ... عللاً ومعنى للمقال السائرِ
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنـ ... ـة المبعوث بالدين الحنيف الطاهرِ
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد ... ومع الدليل فمِلْ بفهم حاضرِ[٣]
وقس الفروع على الأصول[٤] ولا تقس ... فرعاً بفرع كالجَهول الحائرِ

وهي طويلة فانظرها فيه، وقوله: وقس الفروع على الأصول... البيت، يعني: إذا لم تجد في المسألة نصاً من الكتاب ولا من السنة فقس الفروع على الأصول، والمراد بالفروع ما لم يرد فيه نص قسه على ما يماثله مما ورد فيه نص، مثال ذلك صدقة الفطر، فقد جاء في الحديث أنها كانت تؤدى في زمان النبي ﷺ من الشعير والبر والتمر والأقط[٥]، وهذا كان غالب قوتهم فالبلاد التي غالب قوت أهلها من الأرز، يؤدون صدقة الفطر من الأرز قياساً على ما تقدم من قوت أهل المدينة في ذلك الزمان؛ لأن العلة واحدة وهي التغذية فهذا بيان قياس الفروع على الأصول، أما قياس الفروع على الفروع الذي نهى عنه الإمام أبو

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٩٢).
(٢) (٢/ ٩٩٠) رقم (١٨٨٨).
(٣) في مطبوع «جامع بيان العلم وفضله»: «نهم وافر».
(٤) في مطبوع «جامع بيان العلم وفضله»: «وعلى الأصول فقس فروعك».
(٥) ورد ذلك في حديث أبي سعيد الخدري، قال: «كنا نخرج زكاة الفطر: صاعاً من طعام أو صاعاً من شعير، أو صاعاً من تمر، أو صاعاً من أقِط، أو صاعاً من زبيب» أخرجه البخاري (١٥٠٦) ـ والمذكور لفظه ـ ومسلم (١٥٠٥).

عمر ابن عبد البر، فهو ما يفعله المقلدون للمذاهب، فإذا رأوا أن إمامهم لم يجد نصاً في مسألة فاجتهد وأفتى فيها برأيه، يتخذون رأيه أصلاً كأنه قرآن أو حديث، ويقيسون على تلك المسألة التي أفتى فيها إمامهم بالرأي ما يماثلها من المسائل ولا يبحثون عن النصوص، وقد أطال الحافظ ابن القيم الكلام في هذا المعنى في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين»[(١)] .اهـ.

الباب الثالث

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٢]

قال (ك): «لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوّروا[(٢)] أولئك فيها؛ ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا[(٣)] أجساداً على تلك

---

(١) قدمت له ـ ولله الحمد ـ بمجلدة مفردة، وفيها (ص١٥ ـ ١٨) تحت عنوان (فصول نافعة وأصول جامعة في القياس) دقة ابن القيم المتناهية، وتحريره الدقيق لموضوع (القياس)، وأنه توسط فيه، ورد على مانعيه وعلى المتوسّعين فيه، وصدق صديق حسن خان لما قال في كتابه «ظفر اللاظي بما يجب في القضاء على القاضي» في آخر (مقدمته) (ص٢٨): «وفي «إعلام الموقعين عن رب العالمين» فصول نافعة، وأصول جامعة في تقرير القياس، والاحتجاج به، ولعلك لا تظفر بها في غير ذلك الكتاب، ولا بقريب منه». ونحوه في كتابه «الجُنَّة بالأسوة الحسنة بالسنة». وكذلك فعل ابنه محمد أبو الخير في «الطريقة المثلى في الإرشاد إلى ترك التقليد واتباع ما هو الأولى» (ص٤٩ ـ ٦١) (الفصلان: السابع والثامن) بتمامهما، والله الموفّق.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صور».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تلك الصور».

الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين: وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله ﷻ - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً فأمرهم[(١)] بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة، إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به، ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا آباءنا عليها.

وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ [المطففين: ٣٢] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ [الأحقاف: ١١] إلى غير ذلك من الآيات: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾ أي: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب العالمين، رب كل شيء ومليكه: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلِّغاً[(٢)] فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه[(٣)] أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في «صحيح مسلم»[(٤)] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة - وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً -: «**أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم، ويقول: «**اللهم اشهد، اللهم اشهد**»[(٥)].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فائدتان:

الأولى: أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تعبد من دون الله كما وقع لقوم نوح، ومن أعظم أسباب الشرك بالله الغلو في الأنبياء والصالحين والمبالغة في تعظيمهم، إلى أن يجعل لهم حق الله، وهو العبادة كما فعلت

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يأمرهم». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بليغاً».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يدركهم». (٤) برقم (١٢١٨) من حديث جابر.
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٢٦) بتصرف يسير.

النصارى مع عيسى وكما يفعل المشركون الأولون والآخرون مع قبور الصالحين، وقد قال النبي ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١). وقد تقدم في الآية السابقة التنبيه على مفاسد الغلو.

الثانية: إن المحاربين لدعوة الرسل وأتباعهم في كل زمان ومكان هم الرؤساء والكبراء ومن يقتدي بهم من العوام، ولكن العاقبة لأهل التوحيد، والخسران لأهل الشرك، جعلنا الله ممن نصر توحيده واتبع سنة نبيه ﷺ.

الباب الرابع

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢]

قال (ك): «يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم، قلت: هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد

(١) سبق تخريجه.

في البر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝﴾ [فصلت: ١٥].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل، وقد كان هود من أشرف قومه نسباً؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ والملأ: هم الجمهور والسادة والقادة منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: في ضلالة حيث [تدعونا][1] إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجّب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝﴾ [ص: ٥ ـ ٧]، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ أي[2]: إني لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ[3]، والنصح، والأمانة: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذلكم[4]: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واذكروا نعمة الله عليكم في[5] جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي: زاد طولكم على الناس ﴿بَسْطَةً﴾ أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دعوتنا».
(٢) سقطت من الأصل، وأثبتها من «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «البلاغة». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذاكم».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إذ».

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمته ومنته عليكم: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والآلاء جمع ألى».

ثم قال (ك): «يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ الآية، كقول[1] الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢] وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صداً[2] وآخر يقال له: صموداً[3]، وآخر يقال له: إلهنا[4]، ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: وقد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم ﴿رِجْسٌ﴾ قيل: هو مقلوب من رجز، وعن ابن عباس: معناه: سخط وغضب.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: أتحاجوني في هذه الأصنام التي ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه[5] بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤٢]»[6]. اهـ.

إيضاح

قال محمد تقي الدين: كل أمة استولى عليها الجهل بالله تعالى وفشت فيها عبادة الأوثان واتباع الهوى وعمها ظلام الكفر تبغض دعاة الحق في كل زمان وتقابلهم بالتمرد والعناد والتعجب، فالمشركون في هذا الزمان كالمشركين في الأزمنة الأولى، وجوابهم لدعاة الحق كجواب أولئك لرسلهم، والعلماء ورثة

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما قال».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صُداء». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صمود».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الهباء». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عقب».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٢٩ ـ ٣٣١) بتصرف.

الأنبياء، والوارث يلاقي من أهل الشرك مثل ما لاقاه الموروث، ففي هذا الزمان إذا قلنا لعبّاد القبور: دعوا عبادة القبور واتخاذها أوثاناً واعبدوا الله وحده، قالوا: يا عجباً منذ خلقنا الله لم نزل نرى العلماء الكبار الذين لا تساوي تراب نعالهم وهم كانوا يروننا نذبح للأولياء وننذر لهم ونتمسح بقبورهم ونستغيث بهم فما نهونا عن ذلك، ولا قالوا: إنه شرك ولا كفر، وآباؤنا وجدوا آباءهم كذلك وعلماء زمانهم كذلك، فمن أين أتيت بهذا الدين الجديد، فإذا تلوت عليهم كتاب الله، وذكرت لهم حديث رسول الله ﷺ، قالوا: إن أولئك العلماء يعرفون القرآن والحديث أحسن منك، وعلماء زماننا كذلك، فهل انحصر العلم فيك وحدك؟ فهل تريد أن تدخلنا في المذهب الوهابي، وتنقلنا من مذهب أهل السنة؟ لا نسمع ولا نطيع، فأنت ترى أن المشركين تشابهت قلوبهم وتماثلت أجوبتهم للمصلحين، ورحم الله الشيخ عمران اللَّنجي[1] إذ يقول:

إنْ كان تابعُ أحمدٍ متوهِّباً ... فأنا المقِرُّ بأنني وهَّابي
أنفي الشريك عن الإله فليس لي ... ربٌّ سوى المتفرِّدِ الوهَّابِ
لاقُبّة تُرْجَى ولا وَثَن ولا ... قبر له سببٌ مِن الأسبابِ[2]
أيضاً ولستُ معلِّقاً لتميمةٍ ... أو حَلْقَةٍ أو وَدْعَةٍ أو نَابِ
لرجاءِ نفعٍ أو لدفعِ مضرة[3] ... اللهُ ينفَعُني ويدفَعُ ما بي
والإبتداعُ وكلُّ أمرٍ مُحْدَثٍ ... في الدينِ يُنْكِرُه ذوو[4] الألبابِ
أرجو بأنّي لا أقارِبُه ولا ... أرضاهُ دِيناً وهو غيرُ صوابِ[5]

---

(١) هو عمران بن علي بن رضوان بن مالك الحارثي الشافعي. نسبته «النجة» وهي مدينة ساحلية، وميناء ثانوي على الشط الشرقي للخليج العربي من الجانب الفارسي، وهي الآن تابعة لإيران، قالت كاملة القاسمي في «تاريخ لنجة» (١/ ١٩٢) عنه: «كان عالماً فاضلاً وشاعراً أديباً» وقال عنه الشيخ ابن مانع في «تعليقاته على الطحاوية» (ص٢٦): «العلامة»، توفي سنة ١٢٨٠هـ.

(٢) بعده:
كلا ولا شجرٌ ولا حجرٌ ولا ... عينٌ ولا نُصُبٌ من الأنصابِ

(٣) في بعض النسخ: «بليَّة».
(٤) في بعض النسخ: «أولوا».

(٥) بعدها في قصيدته:
وأمِرُ آياتِ الصِّفاتِ كما أتَتْ ... بخلافِ كلِّ مؤوِّلٍ مُرتابِ
والإستواءُ فإنّ حَسْبي قُدْوَةً ... فيه مقالُ السَّادةِ الأقطابِ

كالشافعيّ ومالكٍ وأبي حنيـ ـفة ثم أحمد[1] التقي الأوابِ[2]

وإذا قلت لهم: لماذا تخالفون حديث النبي ﷺ وهو صحيح صريح؟ قالوا: هذا مذهبنا، وإمامنا أعلم بالحديث منك، فما ترك العمل به إلا لأمر حمله على ذلك. فإن قلت لهم: متى أمركم الله أو أذن لكم أن تتخذوا هذا المذهب الذي يمنعكم من اتباع الرسول ﷺ؟ فهل كانت للصحابة مذاهب أو للتابعين أو للأئمة المجتهدين أو لأحد من القرون المفضلة الثلاثة بنص النبي ﷺ: **«خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته، يخونون ولا يؤتمنون، ويعدون ولا يوفون»**[3]. أو كما قال عليه الصلاة والسلام؟ يجيبونك عن هذا، أنت تريد أن تأتينا بالمذهب الخامس، ونحن راضون بمذهبنا لا نبغي به بديلاً، فيقال لهم: إن كان الصحابة والتابعون أهل القرون المفضلة من مبعث النبي ﷺ إلى مائة وعشرين سنة كلهم على المذهب الخامس، فما أحسن المذهب الخامس! والحق أنكم كاذبون، فإنه لا يوجد في الإسلام إلا مذهب واحد، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما حدث بعدهم من المذاهب فهو ذاهب.اهـ.

الباب الخامس

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ

(١) في بعض النسخ: «وأبي حنيفة وابن حنبل».

(٢) طبعت القصيدة ضمن «مجموع عيسى بن رُميح» في الهند، ثم ضمن مجموع «الهديّة السنية والتحفة الوهابية النجدية» (ص١١٠ ـ ١١٢) ثم في كتاب مستقل بعنوان «قصيدة أنا المقر بأنني وهابي»، بعناية الدكتور عبد السلام الشويعر مع تضمين الهلالي لها، وتضمينه في «ديوانه» (ق٧ ـ ٩) وفي آخر «الحسام الماحق» (ص١١٨ ـ ١٢٠، ط. دار الصحوة).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين، والبخاري (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود.

وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩].

قال (ك): «قال علماء[1] النسب: ثمود بن عاثر، أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، إلى وادي القرى وما حولها». ثم قال: «﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء ـ عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها: الكاتبة ـ فطلبوا منه أن تخرج[2] لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم[3] ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «علماء التفسير و».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخرج».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طلبتهم».

الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة[(١)] وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها[(٢)] فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة [تشرب من بئرها وتدعه لهم يوماً][(٣)] وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٨] وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥][(٤)].

فلما طال[(٥)] واشتد تكذيبهم لصالح النبي ﷺ، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها[(٦)] طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن[(٧)]، قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس: ١٤] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ فأسند[(٨)] ذلك إلى[(٩)] مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، فلما عقروا الناقة وقتلوها قال لهم نبيهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] أي: وبعدها يأتيكم العذاب، وعد الله الذي وعد به رسوله صالحاً، وكان الذين تولوا عقر الناقة تسعة رهط كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨] وتقاسموا فيما بينهم وتعاهدوا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عجلنا به قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته، قال الله تعالى في سورة النمل: ﴿قَالُوا۟

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جوفاء».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تشرب ماء بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم ذلك».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قتل الناقة».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعلى الصبيان».
(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وتحرف في المطبوع إلى «فامتد»!
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي المطبوع: «على»!

تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٤٩ ـ ٥١] فأهلك الله أولئك الرهط وعجل لهم الهلاك قبل قومهم. وبعد ثلاثة أيام جاءت الصيحة فأهلكتهم جميعاً في ساعة واحدة: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: صرعى».

ثم قال (ﷺ): «هذا تقريع من صالح ﷺ لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك كما ثبت في «الصحيحين»[(١)]:

إن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث[(٢)] من آخر الليل، فركبها ثم سار حتى وقف على القليب ـ قليب بدر ـ فجعل يقول: «**يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً**»، فقال له عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع مما أقول منهم ولكن لا يجيبون**»»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: العرب العاربة هم سكان الجزيرة العربية الذين ليسوا من ذرية إسماعيل ﷺ؛ لأن إبراهيم أبا إسماعيل وإسحاق ليس عربياً فابنه إسماعيل استعرب فهو وذريته مستعربون، وهذا يدل على أن كل من تعلم العربية وصارت لغته من القبائل يسمون عرباً وإن كانوا في الأصل عجماً.

والمقصود بسرد هذه القصة: بيان أن كل رسول أرسله الله إلى قومه يقول لهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ **لأن التوحيد هو الأصل الذي تبنى عليه أمور الدين كلها، فإذا حقق وثبت ثبت ما بعده، وإذا لم يحقق ولم يثبت تهدم كل شيء من أمور الدين**؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨] **وهذا هو**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥)، وأحمد (٤/ ٢٩) وغيرهم من حديث أبي طلحة، وأخرجه مسلم (٢٨٧٤) من حديث أنس.

(٢) هكذا في الأصل ومعناه غير ظاهر (منه).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٣٦ ـ ٣٤٤) بتصرف.

الغرض من تأليف هذا الكتاب؛ لأن المسلمين في هذا الزمان بعدوا عن أصول دينهم، وفشت فيهم الضلالات، وشرها الشرك بالله، فبنوا القباب على القبور وزخرفوها وأنفقوا عليها الأموال الطائلة التي لا ينفقون عشرها في سبيل الله في بناء المساجد والمدارس الدينية والجهاد في سبيل الله وبناء دور اليتامى، وقد قال النبي ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» ـ يحذر ما صنعوا ـ قالت راوية الحديث عائشة ﵂: ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً». رواه البخاري ومسلم(١).

واتخاذ القبور مساجد يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، يدل على ذلك قول النبي ﷺ فيما رواه مالك في «الموطأ»(٢) أن النبي ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». وإنما اشتد غضب الله عليهم؛ لأن اتخاذ المساجد على القبور يؤدي إلى عبادتها كما هو مشاهد.

الباب السادس

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٣١) واللفظ للبخاري من حديث عائشة.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦)، والحميدي (١٠٢٥)، وابن سعد (٢/ ٢٤١، ٢٤٢)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٤٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٤٣، ٤٤) من حديث أبي هريرة، **وإسناده قويّ**. وبعضهم جعله عن عطاء مرسلاً، ووصله بعض الضعفاء فجعله عن عطاء عن أبي سعيد مرفوعاً، أخرجه مالك (١/ ١٧٢) رقم (٨٥)، وابن سعد (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، والبزار (٤٤٠ ـ زوائده)، وابن عبد البر (٥/ ٤٢ ـ ٤٣).

بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣]

قال (ك): «مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ ـ ٦] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له: خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته»، قال (ك): «ينهاهم[1] عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون الناس

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شعيب».

بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهو الطريق[1]، وهذا الثاني وهو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: قد اختلفتم عليَّ، ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم أي: يفصل: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين والدمار على الكافرين».

ثم قال (ﷺ): «هذا خبر[2] من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن[3] القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يقول: أوأنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا[4] إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه[5] أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تنفير منه عن اتباعهم[6].

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا رد إلى الله المسبب[7]، فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً[8] ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أمورنا، ما نأتي منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الطرق». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إخبار».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تدعونا».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقد».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «اتباعه». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المشيئة».
(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل!

احكم[(١)] بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين فإنك العادل الذي لا يجور أبداً».

ثم قال (ك): «يخبر تعالى عن شدة كفرهم[(٢)] وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فلهذا عقبه تعالى[(٣)] بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أخبر تعالى[(٤)] أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه، وتوعدوهم[(٥)] بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ والمناسبة هناك[(٦)] ـ والله أعلم ـ، أنهم لما تهكموا به[(٧)] في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى[(٨)] في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة.

وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ﴾ وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجة[(٩)] من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ﴾ أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها، ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾» ثم قال (ك): «أي: فتولى عنهم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «افصل».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كفر قوم شعيب».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عقب ذلك».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هاهنا».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وتوعدهم».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في ذلك».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بنبيّ الله شعيب».
(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إخباراً عنهم».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ورجفة».

شعيب عليه السلام بعد [ما أصابهم][١] من العذاب والنقمة والنكال. وقال مقرِّعاً لهم وموبِّخاً: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قد أديت إليكم ما أرسلت به، فلا آسف[٢] عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا[٣] قال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: مَنْ حقق توحيد الله تعالى بأن أفرده بالعبادة، ولم يدع مع الله أحداً، وحقق اتباع رسوله ﷺ، واتخذه إماماً وقدوة لا يبغي به بديلاً ويرضاه في طريقه دليلاً، لا بد أن يعمل بمقتضى الشهادتين، فيطيع الله ورسوله ويحافظ على الأوامر ويجتنب المنهيات، فلا يغش مسلماً ولا معاهداً، وفي «الصحيح»[٥]: «أن النبي ﷺ ذهب إلى السوق فوجد صبرة من طعام، فأدخل يده فيها، فوجد أسفل الحب مبتلاً وأعلاه يابساً، فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام؟**» فقال: يا رسول الله، أصابته السماء من الليل، فقال النبي ﷺ: «**فهلا أظهرته؟ من غشنا فليس منا**»»، هذا معنى الحديث.

وبيان هذا الحديث، أن رجلاً من أهل المدينة كان يبيع الحبوب، فنزل المطر فابتل الحب، فجاء بحب ناشف لم يصبه المطر، فغطى الحب المبتل به، وهذا غش لأنه أخفى العيب الذي في حبه ولم يظهره للناس، فالذي يغش المسلمين أو المعاهدين لم يعمل بمقتضى الشهادتين، فمثل هؤلاء هم الذين يخونون الأمانات ويأكلون أموال الناس بلا حق، ولا يوفون الكيل ولا الميزان، ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها، ويقعدون بكل سبيل يتوعدون الناس بالأذى ليأكلوا أموالهم بالمكس ونحوه، وهم أهل لكل شر لما عندهم من النفاق، ولأن قلوبهم خالية من نور الإيمان، وهو نور لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وقوله: «كانوا عشارين» العشار: هو المكاس الذي يأخذ العشر من البضائع

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير» مكررة مرتين. (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أسفة».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولهذا».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٣٤٨ ـ ٣٥١).
(٥) أخرجه مسلم (١٠٢) من حديث أبي هريرة، ولفظه: «أفلا جعلته فوق الطعام، كي يراه الناس، من غش فليس مني».

التي تمر عليه في الطريق، وأخذ المكوس والأعشار حرام بالإجماع، وهو من أعظم الذنوب، يدلك على ذلك أن النبي ﷺ لما صلى على المرأة الغامدية التي اعترفت بالزنى وطلبت منه إقامة الحد ﷺ، قيل له: كيف تصلي عليها وقد زنت؟ فقال: «**إنها تابت توبة لو قسمت على سبعين منكم لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن تجود بنفسها؟**»[(١)]. اهـ. وصدق رسول الله ﷺ، فإن الجود بالنفس أقصى غاية الجود، وفي رواية: «**إنها تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له**»[(٢)].

وقد استباح الناس في هذا الزمان المكوس في مشارق الأرض ومغاربها، وصارت عندهم من الأمر بالمعروف الذي لا ينكره الخاصة والعامة، فلذلك سلط الله عليهم عدوهم وأذلهم وأهانهم، ولا يزالون كذلك حتى يرجعوا إلى اتباع الرسول ﷺ في كل ما جاء به.

فصل

قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقال: ما أشبه الليلة بالبارحة، فما زال المشركون يأكلون خير الله ويعبدون غير الله، ما زالوا في كل زمان ومكان يصدون الناس عن سبيل الله، أي: توحيد الله واتباع رسله، وفي هذا الزمان كل من وحّد الله واتبع سنة رسوله ﷺ يقفون له بالمرصاد، ويقولون: احذروا فلاناً فإنه وهابي وقد صدقوا وهم كاذبون، فإن من وحّد الله واتبع رسوله ﷺ تصح نسبته إلى الوهاب سبحانه كما قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤٩ ـ ٥٠] لما اعتزل إبراهيم المشركين في العراق وهو وطنه، وذهب في أرض الله متوكلاً على الله، وهب الله له ذرية طيبة إسماعيل وإسحاق، وبشره كذلك بيعقوب بن إسحاق ليرى أبناءه وأحفاده

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٤٠)، والترمذي (١٤٣٥)، والنسائي (٤/ ٦٣، ٦٤)، وعبد الرزاق (١٣٣٤٨)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٨٧ ـ ٨٨)، وأحمد (٤/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠، ٤٣٥ ـ ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٠)، والدارمي (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١)، والطيالسي (٨٤٨)، وابن الجارود (٨١٥)، وابن حبان (٦/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ـ «التعليقات الحسان») رقم (٤٤٢٤)، والطبراني (١٨/ رقم ٤٧٥، ٤٧٦)، والدارقطني (٣/ ١٠١، ١٠٢)، والبيهقي (٨/ ٢٢٥) من حديث عمران بن حصين، **وإسناده صحيح**.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٥) من حديث بريدة.

صالحين، وأعطاه أموالاً كثيرة كما هو معروف في التاريخ، وقد أشار إلى ذلك القرآن، فإن الملائكة لما زاروه ضيوفاً بالغ في إكرامهم وجاءهم بعجل حنيذٍ، أي: مشوي، يفهم من ذلك أن أمواله كانت كثيرة، فيا أيها الشخص الذي أكرمه الله بالتوحيد واتباع السنة، ظفرت بحبل الله فاعتصم: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

فصل

قوله: «في توعدهم إياه بالنفي ومن معه، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم».

قال محمد تقي الدين: هكذا كان المشركون الأولون يعاملون الرسل ومن معهم، ومشركو هذا الزمان يتبعونهم في ذلك، حذو النعل بالنعل، فإنهم متى دعاهم داع إلى توحيد الله واتباع سنة رسول الله ﷺ والحكم بشريعة الله يسعون في نفيه من البلاد أو يجبرونه على العودة في ملتهم الشركية، ولو بالسكوت والمشاركة، و(الساكت عن قول الحق شيطان أخرس)[1]، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢] وقال تعالى فيها أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

وفي سنة ١٣٤١هـ حججت الحجة الأولى في زمان ملك الحجاز الحسين بن علي واجتمعت بمحمد حبيب الله بن مايابا الشنقيطي ووقعت بيننا مناظرة، قال لي في أثنائها: أنت وهابي، وأنتم عندي معشر الوهابية ثلاثة أصناف: **الصنف الأول**: أهل نجد وهم عندنا كفار كاليهود والنصارى، ونحن المسلمون، **والصنف الثاني**: وهابية الشام، وأنت منهم وهذا الصنف عندنا ضلال، **والصنف الثالث**: وهم وهابية الهند، وهم عندنا مخطئون.

وبعد هذه المناظرة سمعت أن جماعة من الحجاج الأندونيسيين من أصحاب الشيخ أحمد السُّركتي[2] رحمة الله عليه، جاهروا بالتوحيد فأنكر عليهم

---

(١) اشتهر هذا على أنه حديث، وليس كذلك.

(٢) هو العلامة السلفي المصلح الشيخ أحمد بن محمد بن محمد بن محمد =

الناس وساقوهم إلى مجلس العلماء، فسألهم أولئك المسمون بالعلماء؟ فاعترفوا، فاستتابوهم وهددوهم فتابوا، فلما سمعت هذا الخبر اختفيت ثمانية أيام في المعابدة عند بعض المغاربة؛ خوفاً من أن يخبر الشيخ المذكور مجلس العلماء المعين من قبل الملك حسين، فيستتيبوني، وكان صاحب البيت الذي أنا فيه يذهب إلى المسجد الحرام ويتحسس: هل يُبحث عني؟ فلم يسمع شيئاً، وكانت هذه حسنة من ذلك الشيخ إذ لم يخبر عني، مع أنه من رجال المجلس ومن المقربين عند الملك حسين، انظر هذه القصة بتمامها وغيرها في كتابي «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة»[1] فإن فيه من هذا القبيل الشيء الكثير، فنسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

= السوركتي، ولد سنة ١٨٧٦م في جزيرة أرْمَو من أعمال دنقلا في السودان من أبوين ينتسبان إلى أحد نقباء الخزرج وهو الصحابي جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري، سافر إلى الحجاز، وانقطع مجاوراً في المدينة النبوية، ومكث فيها أربع سنوات ونصفاً لطلب العلم، ثم تحول إلى مكة، وتدرج في الطلب إلى أن حصل الشهادة العالمية من مجلس علمائها، وعيّن سنة ١٣٢٦هـ مدرساً في الحرم المكي، ثم سافر إلى أندونيسيا، ودرّس هناك، وتخرج على يده مئات التلاميذ، له كثير من الكتب، حصّلت ـ ولله الحمد ـ جلها في سفرتي لأندونيسيا، منها: «صورة الجواب»، «الوصية العامرية»، «توجيه الإخوان إلى آداب القرآن» ـ لم يطبع ـ، «المسائل الثلاث»، «أمهات الأخلاق»، «منظومة الخواطر الحسان»، و«حقوق الزوجين» ـ مترجم للماليزية ـ «الأخلاق القرآنية» ـ مترجم للهولاندية ـ وله عشرات (المقالات)، وظفرتُ له في مجلة «الإرشاد» باباً للفتاوى، وسلسلة في التنبيه على الأحاديث الضعيفة المشتهرة، وقد احتجبت هذه المجلة عن الصدور سنة ١٩٢١م، مابت الشيخ أحمد السوركتي ـ رحمه الله تعالى ـ بعد جهاد في الدعوة إلى الله على بصيرة سنة ١٩٤٣م ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأدخله فسيح جنانه ـ. انظر: «تاريخ حركة الإصلاح وشيخ الإرشاديين أحمد محمد السوركتي في أندونيسيا» تقديم وتحقيق أحمد أبو شوك، وهي مخطوطة مجهولة المؤلف بحوزة صديقنا الأستاذ عبد القادر التميمي، وأهداني إياها في ٦/ محرم/ ١٤٢٣هـ، جزاه الله خيراً.

(١) رأيتُ من المفيد إثبات المناظرة بتمامها، قال المصنف في كتابه «الدعوة إلى الله تعالى» (ص١٢٤ ـ ١٢٧): «كان الشيخ حبيب الله بن مايابا الجكني من العلماء المقربين عند الملك حسين، وكانت له مدرسة تشرف على المسجد الحرام، وكان المسجد الحرام في ذلك الزمان محاطاً بالمدارس وهذه المدارس كان يستغلها المقربون من العلماء والجهال، إذا جاء والي المسجد الحرام يجلسون فيها ويتوضؤون وينامون ويصلون فيها أيضاً؛ لأن كل واحدة منها كانت لها طاقة واسعة مواجهة للكعبة، فقصدت زيارة الشيخ المذكور في مدرسته، وأخذت أتحدث معه حديثاً يشبه المناظرة في التوحيد والاتباع، =

. . . .

= وكان عنده رجل أشيب فلما سمع كلامي ظهرت عليه أمارات الحزن، وقال لي: هذا الذي تقوله تعلمته في الشرق أم في الغرب؟ فقلت له: بل في المغرب. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وصل هذا البلاء إلى المغرب ـ يعني بالبلاء: توحيد الله تعالى واتباع سنة رسوله ﷺ ـ، وأخبرني الشيخ حبيب الله أن ذلك الشيخ كان شنقيطياً كنتياً نسبة إلى (كنته) وهي قبيلة معروفة في شنقيط، فقال الشيخ حبيب الله: وأنت وهابي وأنتم معشر الوهابية عندي ثلاثة أصناف، وهابية نجد ووهابية مصر والشام، وأنت منهم ووهابية الهند، فأما وهابية نجد فإنهم كفار بيننا وبينهم ما بين اليهود والنصارى والمسلمين، هم اليهود والنصارى ونحن المسلمون، وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال، وأما وهابية الهند فهم مخطئون، فقلت له: اشرح لي ما ذكرته وبيِّن لي سبب هذه التفرقة؟ فقال لي: أما وهابية نجد فهم عندي كفار؛ لأنهم يقولون: إن ربهم في السماء، وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال؛ لأنهم يدعون الاجتهاد، وادعاء الاجتهاد ضلال ولا يبلغ إلى حد الكفر، وأنا بنفسي لا أقول بالتقليد المحض، بل أقول بمنزلة بين منزلتين، ثم سرد علي أبياتاً من أرجوزة له لا أحفظ منها إلا شطراً واحداً، وهو قوله: (وإنما أقول بالتبصر).

فقلت له: هذا التفصيل فيه نظر؛ لأن جميع السلفيين في نجد وفي مصر والشام وفي المغرب وفي الهند يقولون ويعتقدون أن الله في السماء مستوٍ على عرشه بدون تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل، وأدلة هذا لا تخفى عليك، وأما ما سميته بالاجتهاد فنحن نسميه الاتباع، والأصناف الثلاثة أيضاً متفقون عليه، إلا أن أهل نجد ينتسبون إلى المذهب الحنبلي في الفروع ونحن لا ننتسب إليه إلا في الأصول، ثم قلت له: ولماذا خففت الحكم على أهل الهند؟ فلم تجعلهم كفاراً ولا ضلالاً بل جعلتهم مخطئين فقط، فقال لي: لأنهم يزورون قبر النبي ﷺ فليس عندهم مما ينتقد إلا مسألة الاجتهاد، فقلت له: فعلام ضللتنا نحن بالاجتهاد وغفرته لهم، فقال: قلت لك: إنهم يزورون قبر النبي ﷺ فقلت له: ماذا تعني بزيارة القبر أتقصد السلام على النبي ﷺ في مسجده أم أمام حجرته أم تقصد شد الرحال؟ فقال: أقصد ذلك كله، فقلت له: إن السلفيين في الهند لا يقولون بجواز شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة، فظهر تناقضه، ولم أكن أعلم سبب ذلك التناقض حينئذٍ غير أني عرفته فيما بعد، وذلك أن الشيخ عبد الوهاب الدهلوي التاجر العالم كان بمكة وكان تلميذاً له يدرس عليه بعض فروع العلم وكان يحسن إليه، فلذلك خفف الحكم على السلفيين من أهل الهند وكان يتبع هواه والهوى يعمي ويصم». قال:

«ولما استتيب الأندونوسيون وكان هذا الرجل من الذين استتابوهم اختفيت أنا ثمانية أيام في مكة عند بعض المغاربة وكنت أبعثه كل يوم إلى المسجد الحرام، ليتحسس هل هناك أحد يبحث فلم يجد لذلك أثراً فخرجت من مختبئي، وهذه حسنة أعدها له، إذ لم يسع في استتابتي، وسوف يرتكب سيئة تمحو هذه الحسنة». ثم قال تحت عنوان (مداهنته لمن يسميهم بالوهابية) ما نصه:

«لما استولى الملك عبد العزيز على الحجاز بعد هذا التاريخ بقليل، أخذ يداهن الملك =

. . . .

= عبد العزيز وأهل نجد الذين كان بالأمس يكفرهم، وفي يوم من الأيام جاء الملك عبد العزيز رحمة الله عليه إلى المسجد الحرام فوجد الشيخ حبيب الله والسيد أحمد السنوسي يملآن الأثر المسمى بموضع قدم إبراهيم بماء زمزم ويكرعان فيه بأفواههما كالبهائم، فوبخهما وقال لهما: إذا كنتما تفعلان هذا وأنتما بزعمكما من العلماء فماذا تركتما للجهال، وحدث أنه كان ذات ليلة في مجلس الملك عبد العزيز آل سعود وكان الملك يتكلم في التوحيد، فعارضه فغضب عليه الملك عبد العزيز غضباً شديداً، فظن أن حتفه قد دنا، فتقدم إلى الملك وألقى نفسه بين يديه وأظهر التوبة والرجوع عما قاله، وإنما فعل ذلك خوفاً أن يبطش به، ولم يكن الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ سريعاً إلى البطش، بل كان إذا غضب يقتصر على الكلام ولا يتجاوزه، وعلى إثر ذلك أخذ زوجته إلى المدينة وتركها في بيت أخيه الشيخ محمد الخضر وهرب إلى مصر، وكانت العلاقات بين مصر والمملكة السعودية في ذلك الزمان سيئة جداً، بسبب المحمل الذي كانت تبعثه الحكومة المصرية إلى مكة في كل سنة، وهو شيء كالهودج يطاف به في القاهرة ثلاثة أيام يتمسح الناس به ويتبركون به، ثم يبعث مع الوفد المصري إلى مكة، فيتمسح به الجهال أيضاً في جدة، وفي الطريق إلى مكة، فأمر الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمنع من التمسح به والإتيان به إلى مكة، وأمر أن يترك في جدة، وبعد الحج يرجع به الوفد إلى مصر، فرأى الوفد المصري أن ذلك إهانة له، وكانت كسوة الكعبة المشرفة يؤتى بها من مصر يحملها الوفد المصري كل سنة إلى مكة. فلما ساءت العلاقة بين المملكتين استغنى الملك عبد العزيز عن كسوة الكعبة التي كان يؤتى بها من مصر، وطلب الصناع من الهند وأسس داراً بمكة لصنع الكسوة، فاغتنم الشيخ حبيب الله هذا الخلاف والتجأ إلى حكام مصر، وشكى لهم ما أصابه من السعوديين، والحقيقة أنه لم يصبه شيء، فرحبوا به وجعلوه مدرساً في الأزهر، وفي سنة ١٣٤٥ توجهت من العراق إلى الحج بصحبة الشيخ مصطفى آل إبراهيم ومررنا بالقاهرة، وكان الشيخ حبيب الله مستقراً بها، فعلمت أن شخصاً قال له: هل تعرف الهلالي، فقال: نعم أعرفه، فقال له: أهو من أهل العلم فقال له: لا يصلح أن يكون جليساً لأهل العلم، فكيف يكون من أهل العلم؟ فكتبت كتاباً إليه قلت له فيه: بلغني أنك قلت: كيت وكيت وقد ناظرتك في مدرستك سنة ١٣٤١هـ من الظهر إلى العصر كنت تناضل عن عقيدة أسلافك الأرذلين كالجهم بن صفوان والجعد بن درهم، وكنت أناضل عن عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، فما وجدت فيّ بحمد الله ضعفاً ولا ونى، وأنشدته في ذلك الكتاب أبياتاً أذكر منها قول الشاعر:

لقد زادني حباً لنفسي أنني ... بغيض إلى كل امرئ غير طائلِ
وإني شقي باللئام ولا ترى ... شقياً بهم إلا كريمُ الشمائلِ

وقول المتنبي أيضاً:

ويظهر الجهل بي وأعرافه ... والدُّرُّ دُرٌّ برغم مَنْ جهله =

الباب السابع

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٨]

قال محمد تقي الدين عفا الله عنه: نظرت في تفاسير عدة لأنقل تفسير هاتين الآيتين كعادتي، فوجدتها مشحونة بالقال والقيل، اختلفت فيها الآراء، ولا دليل على شيء منها، والأصل فيما وقع قبل الإسلام أن يأتينا من طريق النبي ﷺ، فإذا لم نجد خبراً مرفوعاً إليه وتضاربت الآراء، توكلنا على الله وفسرنا القرآن بما يظهر لنا من اللفظ، فأقول:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ تقدم أنهم الأشراف والرؤساء متعجبين من فرعون لصبره على موسى وقومه، كيف تترك موسى وقومه يفسدون عقائد رعيتك بصرفهم عن طاعتك وعبادة آلهتك إلى طاعة الله وحده لا شريك له؟ ولا غرابة في ذلك، **فإن المفسدين في كل زمان ومكان يرون الصلاح فساداً، والفساد صلاحاً**، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١] فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢] وكانت لفراعنة المصريين ولرعاياهم آلهة يعبدونها كما سيأتي عن قريب في هذه السورة.

وقول فرعون لموسى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] لا يتنافى مع وجود تلك الآلهة التي هي أصنامهم، وتاريخ قدماء المصريين وآثارهم الباقية، لا تبقي شكاً فيما ذكرته، والمشركون في كل زمان ومكان لا يحبون من يعرض عن آلهتهم ولو لم يمنعهم من عبادتها، ولم يدعهم إلى عبادة الواحد الأحد، فكيف إذا عاب عليهم

= وأبياتاً أخرى نسيتها، وكتبت عليه عنوانه، وهممت أن ألقيه في صندوق البريد ليصل إليه ويشويه، ولكن أخانا السلفي الشيخ إبراهيم الوادنوني تلطف وتحيل، وقال لي: ناولني هذا الكتاب وأنا أبلغه إليه فناولته إياه، وكان مقصوده أن يمنع وصوله إليه حتى لا يسوءه؛ لأنه كانت بينه وبينه صداقة مع اختلافهما في العقيدة».

عبادتها، وصرح لهم بأنها لا تنفع ولا تشفع؟ فحينئذٍ تثور ثائرتهم ويحاربون الداعي حرباً لا تسامح فيها.

وكان فرعون أيضاً يعلم أن رب العالمين وخالقهم الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل هو الله وحده لا شريك له، وإنما كان يجحد كما قال تعالى في سورة الإسراء حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال تعالى مخبراً عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

والظاهر أن الذي كان يهم فرعون أن يكون سيداً مطاعاً منفرداً بالتشريع، فما أوجبه فهو واجب على قومه، وما حرمه فهو محرم على قومه، ولا يحب أن ينازعه أحد ولو كان رسولاً من الله تعالى إليه، فلما عاتبه رؤساء دولته واتهموه بالتسامح مع موسى عليه السلام، قال لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: أبناء بني إسرائيل ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: تبقى نساؤهم فلا نقتلهن، لنعبِّدهن ونسخرهن في خدمتنا ﴿وَإِنَّا﴾ معشر المصريين ﴿فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ غالبون لا نخشى بأسهم، إنما هم عبيدنا فلا تخافوا موسى ولا قومه.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ﴾ فبالاستعانة بالله وحده على أعدائكم، وبالصبر على ما يصيبكم من أذاهم حتى يجيء نصر الله، بهذين الأمرين تبلغون ما وعدكم الله من نصركم وإهلاك عدوكم، واعلموا ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ لا لفرعون ولا لقومه، ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوحِّدون الله ويتبعون رسله وكتبه، ﴿وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

الباب الثامن

قال الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾[1] أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾، قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، وقيل: كانوا من لخم، قال ابن جريج[2]: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل، ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[3].

قال العلامة المحقق سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله في «شرحه لكتاب التوحيد» الذي ألفه الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب، واسم هذا الشرح، «تيسير العزيز الحميد» في صفحة ٤٣، ما نصه:

«(باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوها) كبقعة وغار وعين وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة، فيقصدونه رجاء البركة، ويعني بقوله: «تبرك» أي: طلب البركة ورجاها واعتقدها، ما حكمه هل هو شرك أم لا؟» ثم قال: «وعن أبي واقد الليثي قال: قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، لتركبن سنن من كان قبلكم»** رواه الترمذي وصححه[4].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قالوا»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الصواب، وفي الأصل: «ج»! إشارة إلى ابن جرير.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٧٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، والشافعي (٢٣ ـ بدائع المنن)، وعبد الرزاق (٢٠٧٦٣)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، وابن أبي عاصم (٧٦)، ومحمد بن نصر المروزي (٣٧ ـ ٤٠) كلاهما في «السنة»، وأبو يعلى (١٤٤١)، وابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٤/ ٨٤ ـ ٨٥)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٧٢)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٩٢، ٣٢٩٣، ٣٢٩٤)، والبيهقي في «دلائل التوحيد» (٥/ ١٢٤ ـ ١٢٥)، والواحدي =

قال الشارح: «رواه الترمذي كما قال المصنف، ثم ذكر الشارح إسناد الترمذي إلى أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «**سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى:** ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ **والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم**». هذا حديث حسن صحيح، وأبو واقد الليثي اسمه الحارث بن عوف، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة، هذا لفظ الترمذي بحروفه، وفيه مخالفة لما في الكتاب لفظاً ومعنى، وقد اتفق اللفظان على المقصود هنا، وقد رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى وابن أبي شيبة والنسائي، و(ج) وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه.

قوله: «**عن أبي واقد الليثي**» اسمه الحارث بن عوف، كما قال الترمذي وقيل: الحارث بن مالك(١) صحابي مشهور مات سنة ٦٨هـ وله خمس وثمانون سنة. قوله: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، في حديث عمرو بن عوف قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ونحن ألف ونيف، حتى إذا كنا بين حنين والطائف»(٢). لا مخالفة بينهما في المعنى، فإن غزوتي(٣) الفتح وحنين(٤) كانتا في سفر واحد، وقوله: «**نحن حدثاء عهد بكفر**». أي: قريبو عهد بكفر، ففيه دليل أن غيرهم لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة، ذكره المصنف.

قوله: «**يعكفون عندها**» الاعتكاف: هو الإقامة على الشيء بالمكان ولزومه(٥)،

= في «الوسيط» (٢/٤٠٣ ـ ٤٠٤) **وإسناده صحيح**.

(١) كذا سمي عند ابن إسحاق، وفي مطبوع «سيرة ابن هشام»: «عن أبي واقد الليثي أن الحارث بن مالك»! وهو خطأ. وصوابه «وهو الحارث...».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/رقم ٢٧) وابن أبي حاتم وابن مردويه في «تفسيريهما»، كما في «الدر المنثور» (٣/٥٣٤) من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه كثير بن عبد الله وهو متروك.

(٣) في مطبوع «التيسير»: «غزوة».

(٤) تحرفت (حنين) في مطبوع «جامع الترمذي» و«مسند أبي يعلى» و«معجم ابن قانع» في حديث أبي واقد السابق إلى (خيبر)!! فلتصوب.

(٥) في مطبوع «التيسير»: «ولزومها».

ومنه قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وكانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركاً بها، وفي حديث عمرو بن عوف قال: «كان يناط بها السلاح، فسميت ذات أنواط، وكانت تعبد من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ انصرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها. . .» الحديث، فيجمع بينهما بأن عبادتها هي العكوف عندها رجاء لبركتها.

وقوله: «**وينوطون بها أسلحتهم**» أي: يعلقونها عليها للبركة، وقوله: «**يقال لها: ذات أنواط**»، قال أبو السعادات[(١)]: «سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك، وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سُمِّي به المنوط»[(٢)]، وقوله: «**فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط**»، أي: شجرة مثلها نعلق عليها [أسلحتنا][(٣)]. ونعكف حواليها، ظنوا أن هذا الأمر[(٤)] محبوب عند الله فقصدوا التقرب إلى الله بذلك، وإلا فهم أجلّ قدراً ـ وإن كانوا حديثي عهد بكفر ـ عن قصد مخالفة النبي ﷺ، وقوله: «**فقال النبي ﷺ: الله أكبر**» هكذا في بعض الروايات، وفي رواية الترمذي: «**سبحان الله**»، والمقصود باللفظين واحد؛ لأن المراد تعظيم الله وتنزيهه عن الشرك، والتقرب به إليه، وفيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب أو ذكر الشرك خلافاً لمن كرهه.

قوله: «**إنها السُّنن**» بضم السين، أي: الطرق، فقوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً... إلخ**» أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه، وهو اتخاذ الشجرة[(٥)] للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة بها تبركاً، كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام حيث قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عبّاد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها، وتقبيل أعتابها، وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها؟ وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركاً؟

---

(١) في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/١٢٨).
(٢) كذا في «النهاية» و«التيسير»، وفي الأصل: «النوط»!!
(٣) غير موجود في مطبوع «التيسير». (٤) في مطبوع «التيسير»: «أمر».
(٥) في مطبوع «التيسير»: «شجرة».

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي(١) من أئمة المالكية: «فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس [ويعظمونها](٢) ويرجون البرء والشفاء من قبلها، [وينوطون بها](٣) المسامير والخرق، فهي ذات أنواط فاقطعوها».

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمٰن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب «البدع والحوادث»: ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشياطين للعامة، تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم [يتجاوز](٤) هذا إلى أن يعظّم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها [فيرجون](٥) الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لهم(٦) وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر، وفي مدينة ـ دمشق صانها الله من ذلك ـ مواضع متعددة كعوينة(٧) الحمى خارج باب توما، والعمود المخلّق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهّل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث».

ثم ذكر الحديث المتقدم، وكلام الطرطوشي الذي ذكرنا، ثم قال: «ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجِبْنِياني(٨) ـ رحمه الله تعالى ـ أحد

---

(١) في كتابه «الحوادث والبدع» (ص٣٨ ـ ٣٩).
(٢) في مطبوع «الحوادث»: «ويعظمون من شأنها».
(٣) كذا في مطبوع «الحوادث» وفي الأصل: «ويضربون»!.
(٤) في مطبوع «الباعث»: «يتجاوزون».
(٥) في مطبوع «الباعث»: «ويرجون».
(٦) في مطبوع «الباعث»: «لها».
(٧) في مطبوع «الباعث»: «تعوينة»، وفي الأصل: «كمدينة»! ولا وجه لها، وراجعت لها مخطوطة «الباعث على إنكار البدع والحوادث» لأبي شامة، فوجدت المثبت في نسخة خطية (ق١٥٧/أ ـ ضمن مجموع تأريخ نسخه ٧٩٧هـ) محفوظ في شستربتي، دبلن، إيرلنده.
(٨) في مطبوع «الباعث»: «الجبيناني»! وفي الأصل: «الجنياني»! والصواب المثبت، نسبة إلى (جِبْنِيانة) ـ بكسر الجيم، ثم موحدة ساكنة، ثم نون مكسورة، تليها مثناة تحت ثم ألف ثم نون مفتوحة، ثم هاء ـ من بلاد المغرب، هكذا ضبطها ابن ناصر الدين في «التوضيح» (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، وذكر تحتها صاحبنا أبا إسحاق، ونعته بقوله: «الشيخ العارف». وقال =

الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة، حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي العباس المؤدب «أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، وكانت[١] العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بي إلى العافية فتعرف بها الفتنة. قال أبو عبد الله: فأتاني[٢] في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها وأذن الصبح عليها ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً، قال: فما رفع لها رأس إلى الآن»[٣].

قلت: أبو إسحاق الذي هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم[٤]، وكان الإمام أبو محمد بن أبي زيد يعظم شأنه ويقول: طريق أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت، وكان القابسي[٥] يقول: الجبنياني[٦] إمام يقتدى به، مات سنة ٣٦٩هـ. وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: «فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر؛ أي تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له»[٧].

وقال العلامة المذكور في الكتاب نفسه في (صفحة ٢٩٢، المتن موجود بالشرح) ما نصه (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله) أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة أموراً: **الأول**: التحذير من الغلو في

= عنه: «الزاهد أحد العباد المشهورين». ونقل عن ابن أبي زيد قوله عنه: «لو فاخرتنا بنو إسرائيل بعبَّادها؛ لفاخرناهم بالجبنياني». وقال: «جمع له أبو القاسم عبد الرحمٰن بن محمد اللَّبيدي ترجمةً ومناقب في مصنَّف» وتنظر ترجمته في «الدِّيباج المُذْهَب» (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥)، و«شجرة النور الزكية» (١/ ٩٥).

(١) كذا في مطبوع «الباعث»، وفي الأصل: «كان».

(٢) في مطبوع «الباعث»: «فإنا».

(٣) انظر: «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص١٠١ ـ ١٠٤ ـ بتحقيقي).

(٤) في مصادر ترجمته: «سالم».

(٥) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «القاسمي»!

(٦) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «الجنياني»!

(٧) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص١٧٤، ١٨٠ ـ ١٨٤).

قبور الصالحين، **الثاني**: إن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها، **الثالث**: إنها إذا عبدت سميت أوثاناً ولو كانت قبور الصالحين، **الرابع**: التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد، والأوثان هي[(١)]: المعبودات التي لا صورة لها كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها، وقد تقدم بيان ذلك، وقيل: الوثن هو الصنم، والصنم هو الوثن، وهذا غير صحيح إلا مع التجريد، فأحدهما قد يعنى به الآخر، وأما مع الاقتران فيفسَّر[(٢)] كل واحد بمعناه[(٣)].

قال: روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[(٤)]. هذا الحديث رواه مالك في باب «جامع الصلاة» مرسلاً عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قاله[(٥)]، ورواه البزار عن عمر بن محمد عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً وعمر بن محمد[(٦)] من ذرية[(٧)] عمر بن الخطاب ثقة من أشراف[(٨)] المدينة[(٩)] وله شاهد عند الإمام أحمد والعقيلي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[(١٠)]. قوله: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»**، قد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ، فمنع الناس من الوصول إلى قبره؛ لئلا يعبد

---

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «من».

(٢) من مطبوع «التيسير»، وسقط من الأصل.

(٣) كذا في «فرائد اللغة في الفروق» (ص١٦٦، رقم ٦٢٣)، وقال: ابن عشيرة في «بهجة الناظر» (ص١٥٤): «إن الوثن من الخشب خاصة، ومثله: الصليب للنصارى، والصنم أعم من أن يكون ذهباً أو فضة أو حديداً أو غير ذلك»!!

(٤) سبق تخريجه.

(٥) بعدها في مطبوع «التيسير»، ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» عن أبي خالد الأحمر عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به ولم يذكر عطاء».

(٦) بعدها في مطبوع «التيسير»: «ابن زيد بن عبد الله ابن».

(٧) غير موجود في مطبوع «التيسير».

(٨) بعدها في مطبوع «التيسير»: «أهل».

(٩) بعدها في مطبوع «التيسير»: «روى عنه مالك والثوري وسليمان بن بلال، **فالحديث صحيح** عند من يحتج بمراسيل الثقات وعند من قال بالمسند لإسناد عمر بن محمد له بلفظ «الموطأ» سواء، وهو ممن تقبل زيادته»، وانظر تخريجنا المتقدم (ص٣٩٥)، فقد فصَّلنا الكلام على الطرق المذكورة هنا.

(١٠) مضى تخريجه من الطرق المتقدمة جميعاً.

استجابة لدعاء رسوله ﷺ، كما قال ابن القيم[(١)]:

[ودعا بأن لا يُجْعَلَ القبرُ الذي قد ضَمَّهُ وَثَناً من الأوثانِ][(٢)]
فأجاب ربُّ العَالَمين دُعَاءه وأحاطه بثلاثةِ الجُدرانِ
[حتى اغْتَدَتْ[(٣)] أرجَاؤُهُ بدُعائهِ في عزّةٍ وحِمَايةٍ وصِيَانِ][(٢)]

ودلَّ الحديث على أن قبر الرسول ﷺ لو عبد لكان وثناً، فما ظنك بقبر غيره من القبور التي عبدت هي وأربابها من دون الله، وإذا أريد تغيير شيء من ذلك أنف عبّادها واشمأزت قلوبهم، واستكبرت نفوسهم، وقالوا: تنقص أهل الرتب العالية، ورموهم بالعظائم، فماذا يقولون لو قيل لهم: إنها أوثان تعبد من دون الله؟ فالله المستعان على غربة الإسلام، وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد الله بن مسعود: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس، يتخذونها سنة إذا غُيِّرت قيل: غُيِّرت السنة»[(٤)].

---

(١) في «الكافية الشافية» (ص٢٤٨). (٢) غير موجود في مطبوع «التيسير».
(٣) كذا في مطبوع «الكافية» وفي الأصل: «غدت».
(٤) أخرجه ابن وضاح في «البدع» رقم (٨٠) من طريق زُبَيْد الأيامي عن ابن مسعود به.
قلت: وسنده ضعيف؛ منقطع بين زبيد وابن مسعود.
وأخرجه ابن وضاح رقم (٢٨٥)، ومن طريقه ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١١٣٥)، وابن حزم في «الإحكام» (٧/ ٨٨١) من طريق سفيان الثوري، والدارمي في «سننه» رقم (١٩٢) من طريق خالد بن عبد الله، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود بنحوه مطولاً.
قلت: وإسناده ضعيف؛ يزيد هذا ـ هو الشامي ـ ضعيف كما في «التقريب» رقم (٧٧١٧).
وقد خولف سفيان وخالد مخالفةً غير مؤثرة:
فرواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٦) من طريق محمد بن نبهان عن يزيد به مرفوعاً.
وقال عقبه: «كذا رواه محمد بن نبهان مرفوعاً، والمشهور من قول عبد الله بن مسعود موقوف».
قلت: وهو الصواب؛ ابن نبهان ضُعِّف كما في «لسان الميزان» (٥/ ٤٣٦)، فلا قيمة لمخالفته.
ورواه الدارمي في «سننه» رقم (١٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥١٤) من طريق يعلى بن عبيد عن الأعمش عن شقيق بن سلمة عن ابن مسعود به **وسنده صحيح**.
وله طريق أخرى عند عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٢٠٧٤٢)، ومن طريقه: الخطابي في «العزلة» (ص١١١)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٥٤٩)، عن معمر عن قتادة عنه به.
قلت: وسنده ضعيف؛ قتادة لم يسمع من أحد من الصحابة غير أنس.

ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين، كقبورهم ومجالسهم ومواضع صلاتهم للصلاة والدعاء عندها، فإن ذلك من البدع أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم، ولا نعلم أحداً أجازه أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عبّاد القبور، وهو إرادة التشبه برسول الله ﷺ في الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك، ومع ذلك فلا نعلم أحداً وافقه عليه من الصحابة، بل خالفه أبوه وغيره، لئلا يفضي ذلك إلى اتخاذها أوثاناً كما وقع، قال ابن عبد الباقي في «شرح الموطأ»: «روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك[(١)] أن يدفن في المسجد»، قال: «وإذا منع من[(٢)] ذلك[(٣)] فسائر آثاره أحرى بذلك، وقد كره مالك[(٤)] طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى»[(٥)]. اهـ.

وقال ابن وضاح: «سمعت عيسى بن يونس[(٦)] يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة. قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر رضي الله عنه»[(٧)]، وقال المعرور بن سويد: «صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝﴾ و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝﴾، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين،

---

(١) في مطبوع «شرح الزرقاني»: «لذلك كره».
(٢) غير موجود في مطبوع «شرح الزرقاني».
(٣) بعدها في مطبوع «شرح الزرقاني»: «في قبره».
(٤) بعدها في مطبوع «شرح الزرقاني»: «وغيره».
(٥) انظر: «شرح الزرقاني على الموطأ» (١/ ٣٥١). ويعجبني ما نقله ابن وضاح في «البدع» (ص٩١ ـ ٩٢) رقم (١٠٦ ـ ١٠٨)، وابن تيمية في «الاقتضاء» (٢/ ٧٤٥)، والشاطبي في «الاعتصام» (٢/ ٢٣٧ ـ بتحقيقي): «وكان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قباء وحده».
(٦) بعدها في مطبوع «البدع»: «مفتي أهل طرسوس».
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٥)، وابن سعد (٢/ ١٠٠)، وابن وضاح في «البدع» رقم (١٠٥) من طريق ابن عون به.
وإسناده صحيح إلى نافع، رجاله ثقات، وفيه انقطاع بين نافع وعمر. انظر: «فتح الباري» (٧/ ٤٤٨)، و«الاعتصام» للشاطبي (٢/ ٢٣٧) وتعليقي عليه، والأثر الآتي.

مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه، فقال: إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون[١] آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض لا يتعمدها»[٢].

وفي «مغازي بن إسحاق» من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار: حدثنا أبو العالية قال: «لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب قرأته مثل ما أقرأ القرآن، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال[٣]، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا، إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض»[٤].

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «يتتبعون».

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١١٨ ـ ١١٩) رقم (٢٧٣٤)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧) في «مصنفيهما»، وسعيد بن منصور ـ كما في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٤٤) ـ وابن وضاح في «البدع» رقم (١٠٣، ١٠٤)، والطحاوي في «المشكل» (١٤/ ٣٩٧) من طرق عن الأعمش عن معرور بن سويد به.

وسنده صحيح، ولفظ ابن أبي شيبة بنحو المذكور هنا، وأشار ابن حجر في «الفتح» (١/ ٥٦٩) إلى ثبوت هذه القصة، وعزاها ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ١٤٢) لإسماعيل بن محمد الصفار في «مسنده»، وقال عقبه: «هذا **إسناد صحيح**».

(٣) دانيال: من سبط يهوذا، ويمتد نسبه إلى عائلة داود بن يسي، ومعنى اسمه في العبرية (الله دياني أو قاضي) عاش عصر المحنة الكبرى التي تعرض لها شعب يهوذا، وقد أسر في غزو بابل وله ذكر في بعض أسفار التوراة. انظر: «العهد القديم» (١٢٦٠)، «التراث الإسرائيلي» (٢١١)، «البداية والنهاية» (٢/ ٤٠).

(٤) ذكرها ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٤٠ ـ ٤٢)، وقال: «**إسنادها صحيح** إلى أبي العالية» وذكر لها طرقاً يظهر منها صحتها! ولابن أبي الدنيا جزء مفرد في أخباره، لا أعلم عنه شيئاً ولعله مفقود، ولكن الأيام حبالى، ولا ندري ماذا تلد؟! وصحة إسناد أبي العالية لا تنهض للجزم بنبوَّته، فالسكوت أسلم، والله أعلم.

قال ابن القيم[١] ـ رحمه الله تعالى ـ: «في هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره؛ لئلا يفتتن به ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله» قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهو إنكار منهم لذلك»[٢]. فمن قصد بقعة يرجو الخير [لقصدها][٣]، ولم يستحب الشارع قصدها فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها أو لينسك[٤] عندها (أي يذبح) بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعاً ولا عيناً؛ لأن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا بقصد[٥] الدعاء فيها، كمن يدعو الله في طريقه ويتفق أن يمر في طريقه بالقبور أو كمن يزورها ويسلّم عليها ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السنة، فإن ذلك ونحوه لا بأس به، وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره، فهذا هو المنهي عنه والفرق بين النوعين ظاهر، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة أو دخل إليها ليبيت فيها مبيتاً جائزاً ودعا الله في الليل وأتى بعض أصدقائه ودعا الله في بيته لم يكن بهذا بأس، ولو تحرى الدعاء عند هذه المواضع لكان من العظائم بل قد يكون كفراً.

قوله: **«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[٦]. هذه الجملة بعد الأولى تنبيه على سبب لحوق اللعن بهم، وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً تعبد، ففيه إشارة إلى ما ترجم له المصنف، وفيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وقد روى أصحاب مالك عنه أنه كره أن يقول القائل: زرت قبر النبي ﷺ[٧] وعلل وجه الكراهة بقوله: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[٦] فكره إضافة

---

(١) في «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، ط. الفقي).
(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).
(٣) في مطبوع «التيسير»: «بقصدها».
(٤) في مطبوع «التيسير»: «ليسكن».
(٥) في مطبوع «التيسير»: «لقصد».
(٦) مضى تخريجه.
(٧) انظر في كراهية هذه اللفظة: «الصارم المنكي» (٤٦، ٧٤، ٢٣٢، ٢٥٣)، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٤٦، ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٩، ٣٥٥، و٢٧/ ١١٨ ـ ١٣٢، ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٤٢).

هذا اللفظ إلى القبر؛ لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سداً للذريعة وحسماً للباب، ذكره الطبري وفيه أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. ذكره المصنف، قال: ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ [النجم: ١٩] قال: كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره، [فعبدوه][(١)]، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يَلُتُّ سَوِيقَ الحاج[(٢)].

قوله: «**ولابن جرير**»: هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب «التفسير» و«التاريخ» وغيرهما، قال ابن خزيمة: لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، وكان من الأئمة المجتهدين لا يقلد أحداً، وله أصحاب يتفقهون على مذهبه، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين[(٣)]، ومات ليومين بقيا من شوال[(٤)] سنة عشر وثلاثمائة.

قوله: «**كان يَلُتُّ لهم السَّويق فمات فعكفوا على قبره**»، **لتُّ السِويق**: هو خلطه بسمن ونحوه، وقد قيل: إن اسم الرجل: صرمة بن غنم، وعن ابن عباس: «كان يَلُتَّ السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه». رواه ابن أبي حاتم[(٥)]، وعن مجاهد: «كان اللات رجلاً في الجاهلية وكان له غنم فكان

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/٤٨)، والفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٩٧ ـ ٩٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر. وما بين المعقوفين من «تفسير ابن جرير».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٩) وهكذا فيه (سُويق الحاج) وكذا في مطبوع «التيسير» وفي الأصل: «السويق للحجاج».

(٣) في آخرها، أو في مطلع سنة ٢٢٥هـ ـ ٨٣٩م، وقد سأله القاضي ابن كامل أحد تلاميذه الذين أرخوا له: كيف وقع لك الشك في سنة مولدك؟ فقال أبو جعفر: كان أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين، فأرخ مولدي بحادث كان في البلد، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون، قال بعضهم: كان ذلك في آخر سنة أربع وعشرين ومائتين. وقال آخرون: بل كان في أول سنة خمس وعشرين ومائتين. انظر: «معجم البلدان» (١/ ١٨)، و«طبقات الشافعية» (٢/ ١٣٥)، و«لسان الميزان» (٥/ ١٠٢)، وكتاب «الطبري» للحوفي (ص٣١).

(٤) لكن اختلفوا في اليوم والوقت على ثلاثة أقوال، انظر: «الإمام أبو جعفر الطبري» (٩١) لعلي الشيل.

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٥٩)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٤٨) بنحوه، وعزاه في «الدر» (٦/ ١٢٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه، وهو غير موجود في القسم المطبوع من «تفسير ابن أبي حاتم».

يحلب من رِسْلها، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر من الناس، فلما مات عبدوه وقالوا: هو اللات»[١]. وكان يقرأ: اللاتَّ، مشددة[٢]، رواه سعيد بن منصور والفاكهي.

قوله: «**وكذا قال أبو الجوزاء**» وأثر أبي الجوزاء رواه البخاري[٣]، والسبب في عبادة الصالحين: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وغيرهم اليوم فإنهم غلوا فيهم وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذاً لقضاء المآرب، وبالجملة فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة، وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم فلا نرفعهم فوق منزلتهم ولا نحطهم منها؛ لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم فإن الشرك بهم غلو فيهم، وأنزلوهم منازل الإلهية وعصوا أمرهم وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين على قبورهم معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، عائبين لها مشتغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه.

وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما [هي][٤] باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم، دون عبادتهم وعبادة قبورهم والعكوف عليها، كالذين يعكفون على الأصنام واتخاذها[٥] مجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفى آثارهم كان متسبباً في تكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر، فأي تعظيم[٦] واحترام في هذا؟

قال: وعن ابن عباس قال: «**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها**

---

(١) أخرجه الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٩٧، ٩٨)، وابن جرير (٢٢/ ٤٧ ـ ٤٨)، وعزاه في «الدر» (٦/ ١٢٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) قرأها مجاهد وجماعة بتشديد التاء مع المدّ للسَّاكنين، انظر: «معاني القرآن» (٥/ ٧٢ ـ ٧٣) للزجاج و(٣/ ٩٧ ـ ٩٨) للفراء و«إيضاح الوقف والابتداء» (٢٩٥ ـ ٢٩٦)، و«معجم القراءات» (٩/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، وقسم (التفسير) من «سنن سعيد بن منصور» ناقص، وليس فيه هذا الأثر، وكذا «أخبار مكة» للفاكهي.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في مطبوع «التيسير»: «هم».

(٥) بعدها في مطبوع «التيسير»: أعياداً».

(٦) بعدها في مطبوع «التيسير»: «لهم».

المساجد والسرج»[١]، رواه أهل [السنة][٢].

قوله: **«لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور»**، أي: من النساء وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن كما هو مذهب أحمد وطائفة[٣]، وقيل في تعليل ذلك: إنه يخرجها إلى الجزع والندب والنياحة والافتتان بها وبصورتها وتؤذي الميت ببكائها، كما في حديث آخر: **«فإنكن تفتن الحي وتؤذين الميت»**[٤]. وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة في حقهن وحق الرجال، وتقدير ذلك غير مضبوط؛ لأنه لا يمكن حد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها، فتحرم سداً للذريعة كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة لما في ذلك من الفتنة، وكما حرمت الخلوة بالأجنبية، وليس في زيارتها من المصلحة ما يعارض

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٤/ ٩٥، ٩٦)، وابن ماجه (١٥٧٥)، وأحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٧)، والطيالسي (٢٧٣٣)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٦ و٣/ ٣٤٤)، وابن حبان (٣١٧٩، ٣١٨٠)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٢٥)، والحاكم (١/ ٣٧٤)، والبغوي (٥١٠)، والبيهقي (٤/ ٧٨)، والخطيب في «تأريخ بغداد» (٨/ ٧٠، ٧١)، وإسناده ضعيف، **والحديث حسن لغيره دون ذكر السرج**.

(٢) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التيسير»: «السنن»، وهو أصوب.

(٣) انتصر للقول بالحرمة، وترجيح مذهب أحمد: فضيلة الشيخ العلامة بكر أبو زيد في «جزء في زيارة النساء للقبور»، وإليه مال المصنف بقوّة، وجزم به في فتاواه «العيون الزلالية»، خلافاً لقول آخرين، كما تراه بتطويل وتدليل في «أحكام الجنائز» (ص٢٢٩ ـ ٢٣٧)، لشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ ولينظر تحقيقنا في المسألة في التعليق على «التذكرة» للقرطبي، يسر الله نشره بمنّه وكرمه.

(٤) أخرجه الخطيب في «التاريخ» (٦/ ٢٠١) ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٠٦) من طريق أبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس بلفظ: **«مفتنات الأحياء، مؤذيات الأموات»**، وأبو هدبة كذاب دجال ادعى السماع من أنس بعد المائتين، قال ابن الجوزي: **«هذا حديث لا يصح**، وفيه أبو هدبة وقد أجمعوا على أنه كذاب».

وأخرجه عبد الرزاق (٣/ ٤٥٧) عن معمر عن عمر موقوفاً وسنده ضعيف، للانقطاع بين معمر وعمر، ورواه أيضاً (٣/ ٤٥٨) عن ابن عمر موقوفاً، وفيه عبد الكريم بن أبي أمية، ضعيف تركه بعضهم.

والمحفوظ في هذا الباب ما أخرجه البخاري (١٢٧٨)، ومسلم (٩٣٨) بسنديهما إلى أم عطية قالت: «نُهينا عن اتباع الجنائز ولم يُعْزَم علينا»، وله حكم الرفع، كما هو المقرر في علم المصطلح.

هذه المفسدة؛ لأنه ليس في زيارتها إلا دعاؤها[(١)] للميت أو اعتبارها به، وذلك ممكن في بيتها.

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن حسان بن ثابت مرفوعاً: **«لعن الله زوّارات القبور»**[(٢)]. وعن أبي هريرة: **إن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور**[(٣)]. رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه، وضعفه عبد الحق، وحسنه ابن القطان، ولا يعارض هذا حديث: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»**[(٤)]. رواه مسلم وغيره؛ [لأنه][(٥)] إن سلم دخول النساء فيه فهو عام، والأول خاص والخاص مقدم عليه، وأيضاً ففي دخول النساء في خطاب الذكور خلاف عند الأصوليين[(٦)].

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «دعواها».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٢، ٤٤٣)، وابن ماجه (١٥٧٤)، والحاكم (١/ ٣٧٤)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٧١)، والطبراني في «الكبير» (٣٥٩١، ٣٥٩٢)، والبيهقي (٤/ ٧٨)، وفيه عبد الرحمن بن بهمان قال ابن المديني: «لا نعرفه» كما في «التهذيب» (٦/ ١٤٩) وقال الذهبي في «ديوان الضعفاء» (٢٤٢٥): «تابعي مجهول»، **والحديث حسن لغيره بشواهده**.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، والترمذي (١٠٥٦)، والطيالسي (٢٣٥٨)، وأبو يعلى (٥٩٠٨٠)، وابن حبان (٣١٧٨)، والبيهقي (٤/ ٧٨) وفيه عمر بن أبي سلمة **وهو حسن الحديث في الشواهد والمتابعات**، ورواه عبد الرزاق (٣/ ٥٦٩) عن عكرمة مولى ابن عباس مرسلاً.

(٤) أخرجه مسلم (٩٧٧)، وأحمد (٢/ ٤٤١)، وابن ماجه (١٥٧٢)، والبيهقي (٤/ ٧٦) وغيرهم.

(٥) في مطبوع «التيسير»: «لأن هذا».

(٦) الراجح أن النساء يدخلن في خطاب الرجال لثلاثة أدلة:
أولاً: قول النَّبِيِّ ﷺ: **«النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»**.
أخرجه الترمذي (١١٣)، وأبو داود (٢٣٦)، وابن ماجه (٦١٢)، وأحمد (٦/ ٢٥٦)، وابن راهوية (١٧٠٦)، وأبو يعلى (٤٦٩٤) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة (١/ ٧٨)، وابن الجارود في «المنتقى» (٨٩، ٩٠)، والبيهقي (١/ ١٦٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٨/ ٣٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، **وإسناده صحيح**.
ثانياً: إجماع أهل اللُّغة على تغليب الذكور على الإناث في الجمع؛ فَإِنِ اجتمع الذكورُ مع الإناثِ فإنَّ الرجالَ يغلبون، على حدِّ قول الشاعر:
كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ علينا   وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ
ثالثاً: العرف الشرعي يدلُّ على ذلك، فقال عن مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]؛ فـ﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ جمعُ مُذكرٍ سالمٌ، وقال عن امرأةِ =

قوله: **«والمتخذين عليها المساجد»** تقدم في الباب قبله شرحه وتعليله، قوله: **«والسرج»** هذا دليل على تحريم اتخاذ السرج على القبور، قال أبو محمد المقدسي: «لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله؛ لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور، أشبه تعظيم الأصنام»(١)، وقال ابن القيم: «اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر»(٢).

ووجه إيراد المصنف هذا الحديث في هذا الباب دون الذي قبله هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج، وقرن بينهما، فهما قرينان في اللعنة، فدلَّ ذلك على أنه ليس المنع من اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة، بل لأجل نجاسة الشرك، ولذلك قرن بينه وبين من أسرج عليها وليس النهي عن الإسراج لأجل النجاسة فكذلك البناء، قوله: رواه أهل [السنة](٣)، يعني هنا: أبا داود وابن ماجه والترمذي فقط، ولم يروه النسائي»(٤).

الباب التاسع

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

= العزيز: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، ولم يقل (الخاطئات)؛ فهي داخلة في جمع الذكور، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، ومن بين هؤلاء حواء.

(١) انظر: «الباعث» (ص١٣٤ ـ بتحقيقي).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٧، ط. الفقي).

(٣) في مطبوع «التيسير»: «السنن».

(٤) انظر: «التيسير» (ص٣٣٨ ـ ٣٤٧) بتصرف، وسبق التخريج قريباً.

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨ ـ ١٥٣]

قال (ك): «يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه قبضة[1] من التراب أخذها من أثر فرس جبرائيل[2] عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، **والخوار**: صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٥] وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوِّت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم، ويقال إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا له[3] وافتتنوا به، وقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**حبك الشيء يعمي ويصم**»[4].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القبضة». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جبريل».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حوله».
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٠٧ و٣/ ١٧١ ـ ١٧٢)، وأبو داود (٥١٣٠)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٤٥٤، ١٤٦٨)، وفي «الأوسط» (٤٣٥٦)، والدولابي في «الكنى» (١/ ١٠١)، وعبد بن حميد (٢٠٥)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤٧٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢١٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤١١)، وفيه أبو بكر بن أبي مريم وهو **ضعيف**، **وصح موقوفاً** على أبي الدرداء، أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٠٧) وعلقه (٣/ ١٧٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٢)، **وإسناده صحيح**.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما فعلوا: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم[1]: ﴿لئن لم ترحمنا﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿رَبَّنَا﴾ منادى ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ».

ثم قال (ك): «يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف، قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب[2]. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ يقول: بئس ما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[3] ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٣]، ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسقني سياقهم[4]

---

(١) قرأها هكذا بالتاء المثناة من فوق: حمزة والكسائي والشعبي وابن وثاب وعاصم الجحدري وطلحة بن مصرف والأعمش وأيوب وخلف والمفضل، ونسبت إلى ابن مسعود. انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٧٧)، «النشر» (٢/ ٢٧٢)، «حجة القراءات» (٢٩٦)، «شرح الشاطبية» (٢٠٧)، «تفسير ابن جرير» (١٠/ ٤٤٨)، «معجم القراءات» (٣/ ١٦٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٤٥٠) وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٨٩٩٨)، والبزار (١/ رقم ٢٠٠ ـ كشف الأستار)، وابن حبان (٦٢١٣، ٦٢١٤)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥)، وفي «الكبير» (١٢/ ١٢٤٥١)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٩٦)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٤٧، ١١٨٢ ـ ١١٨٤)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص٥٠٥)، والحاكم (٢/ ٣٢١، ٣٨٠، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٥٦ و٨/ ١٢)، والضياء في «المختارة» (١٠/ رقم ٧٣، ٧٦) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ وله تتمة سيأتي ذكرها عند المصنف فيما سينقله عن السخاوي في «المقاصد الحسنة» ـ، وهو **صحيح**.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مساقهم».

وتجعلني[1] معهم وإنما قال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ ليكون أرق[2] وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد[3] متصلة من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصري: «إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين»، وهكذا روى أيوب السختياني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل[4]، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة[5]، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[6].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من عبد غير الله تعالى فهو من الذين لا يعقلون، وهو من شر الدواب الذين لا يسمعون، وهؤلاء المشركون بعضهم أضل من بعض، فالذين عبدوا الأنبياء والصالحين في ضلال مبين، والذين عبدوا قبورهم أضل منهم، وأهل الهند الذين يعبدون البقرة الأنثى، وقوم موسى الذين عبدوا عجلاً من ذهب له خوار أقل ضلالاً من الذين يعبدون القبور والأشجار

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا تخلطني».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أرأف».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الرسالة».
(٤) أخرج مقولة ابن عيينة: ابن جرير (٦/ ٩٦) وأخرجها ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٧١) رقم (٩٠٠٤، ٩٠٠٥) عن أبي قلابة وابن عيينة، وانظر: «الاعتصام» (١/ ٩٧ ـ بتحقيقي).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الرحمة نبي النور».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩٥ ـ ٣٩٨).

والأحجار؛ لأن القبور إنما هي تراب ليس فيها روح ولا حياة، فالذين يعبدونها أضعف عقلاً من الذين يعبدون البقرة التي فيها منافع، وعجل السامري له خوار.

والغلو في الأنبياء والصالحين يفضي إلى الكفر كما وقع للنصارى حين غلوا في عيسى ﷺ، وكما وقع لقوم نوح حين غلوا في الصالحين حتى عبدوهم وعبدوا قبورهم، ثم تماثيلهم كما قال النبي ﷺ: «**أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»[1]. وقد تقدم ذلك مبسوطاً.

فصل

استدل بهذا السلف على ضلال من ينكر كلام الله تعالى من المعتزلة الذين يقولون إن كلام الله مخلوق، ومتأخري الأشعرية الذين يزعمون أن كلام الله معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا بالعربية ولا بالعجمية، وليس فيه تقديم ولا تأخير، ويزعمون أن القرآن ليس كلام الله، وإنما هو دال على مدلول كلام الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وإنما يسمعه هذا المشرك من لسان النبي ﷺ بحرف وصوت، والعجز عن التكلم نقص، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩] فالذي لا يستطيع الكلام ولا يملك الضر والنفع لا يعبد ولا يكون إلهاً.

فصل

قول (ك): «وهذا دلالة على ما جاء في الحديث: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[2]». نص الحديث على ما ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» عن أبي هريرة وأنس مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**» ونسب حديث أنس إلى الطبراني في «الأوسط»، وحديث أبي هريرة إلى الخطيب، ثم ذكر حديثاً آخر عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**» أن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤) من حديث عائشة.

(٢) سبق تخريجه.

صنعوا ألقى الألواح فانكسرت، أخرجه أحمد والطبراني في «الأوسط» والحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس وعلّم عليه السيوطي بعلامة الحسن.

قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: «**ليس الخبر كالمعاينة**» أخرجه أحمد وابن منيع والطبراني والعسكري من حديث أبي بشر جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، بزيادة: «إن الله قال لموسى: إن قومك فعلوا كذا وكذا فلما عاين ألقى الألواح». وفي لفظ: «إن موسى أخبر أن قومه قد ضلوا من بعده، فلم يلق الألواح، فلما رأى ما أحدثوا ألقى الألواح». وقد صحح هذا الحديث ابن حبان والحاكم وغيرهما، وأورده الدارقطني في «الأفراد» من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن جابر، وقال: إنه باطل لا يصح عن عمرو ولا عن ابن عيينة»[(١)]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: تضمن هذا الحديث أمرين:

أحدهما: عام، وهو أن العلم الحاصل بالأخبار لا يبلغ درجة العلم الحاصل بالمعاينة، وفي هذا تفصيل، فإن كان المخبر ممن يجوز عليه الوهم أو الخطأ أو الكذب فالأمر واضح، وإن كان ممن لا يجوز عليه ذلك كالأنبياء ثم العدول الثقات فهما متساويان.

الأمر الثاني: ادعاء أن موسى حين أخبره الله بأن قومه قد اتخذوا العجل أنها من بعد غيبته عنهم لم يحصل له من العلم مثل ما حصل له برؤيتهم؛ فيه نظر، وقد أشار (ك) إلى ذلك بقوله: «ظاهر السياق أنه ألقى الألواح غضباً على قومه»، يعني لا أنه كان في شك ثم تيقن لما رآهم كذلك، ولا يمكن أن يشك موسى، بل ولا الصالحون من المؤمنين فيما أخبر الله به أبداً، هذا ما ظهر لي، والله أعلم.

---

(١) انظر: «المقاصد الحسنة» (ص٣٥١ ـ ٣٥٢) بتصرف، وحديث ابن عباس **صحيح**، تقدم تخريجه. وحديث أنس عند ابن عدي (١/ ٢٠٣ و٦/ ٢٢٩٣)، والديلمي (٥٢١٦، ٥٢١٨)، والخطيب (٣/ ٢٠٠، ٣٥٩ ـ ٣٦٠)، والضياء في «المختارة» (١٨٢٧، ١٨٢٨) وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٥٣): وعزاه لـ «أوسط الطبراني»: «ورجاله ثقات»، وعن أبي هريرة عند الخطيب (٨/ ٢٨)، وعن ابن عمر عند ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٤٩٣)، وعن جابر عند الدارقطني في «الأفراد» (٢/ ٣٥٨ رقم ١٩٥٣ ـ «أطراف الغرائب»)، ومنه تعلم ما في قول ابن عبد البر في «التمهيد» (٤/ ٣٣٤) عن الحديث: «رواه ابن عباس عن النبي ﷺ، ولم يروه غيره، والله أعلم»!

الباب العاشر

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وفي «الصحيحين»(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل مولود يولد على الفطرة»** وفي رواية: **«على هذه الملة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تولد البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»**.

وفي «صحيح مسلم»(٢) عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم»**. وروى أحمد والنسائي و(ج)(٣) عن الأسود بن سريع قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية، فقال رجل: يا رسول الله بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: **«ما بال أقوام يتناولون الذرية»**. فقال رجل: يا رسول الله أليسوا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) ضمن حديث طويل.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥ و٤/ ٢٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٤٤٥)، والنسائي في «الكبرى» (٨٦١٦)، والدارمي (٢/ ١٢٣)، وعبد الرزاق (٢٠٠٩٠)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٨٦)، والطحاوي في «المشكل» (١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٦٠، ١١٦٢)، وأبو يعلى (٩٤٢)، وابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ١٥٣٥٣)، والطبراني (٨٢٦ ـ ٨٣٥)، وفي «الأوسط» (٢٠٠٥)، وابن حبان (١/ رقم ١٣٢)، والحاكم (٢/ ١٢٣)، والبيهقي (٩/ ١٣٠)، والحازمي في «الاعتبار» (ص٢١٣)، وإسناده منقطع، **والحديث صحيح بشواهده**، وبعضها تقدم، وانظر: «نصب الراية» (١/ ٩٠) و«الإنجاد في أبواب الجهاد» لابن المناصف (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ و٢٧٣ ـ ٢٧٤) وتعليقي عليه.

أبناء المشركين؟ فقال: «**إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها**». قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾».

ثم قال (ك): «وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال[1] بأن الله ربهم، وأخرج (وه) و(حم)[2] عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي**». وروى (حم، ن، ج)[3]، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كلَّ ذرِّية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبُلاً قال:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾».

قال (ك): «وأخرجه الحاكم في «المستدرك»[4] وقال: صحيح[5] على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ثم ذكر اختلاف الرواة في وقفه ورفعه ثم رجح وقفه، وبعد أن ساق (ك) أحاديث كثيرة بعضها مرفوع وبعضها موقوف بمعنى حديث ابن عباس المتقدم الذكر، قال ما نصه: «والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي: حالهم شاهد عليهم

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفي بعضها الاستشهاد عليهم».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٧)، والبخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، والنسائي في «التفسير» من «الكبرى» (٦/ ١١١٩١)، وابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ١٥٣٣٨)، والحاكم (١/ ٢٧، ٢٨ و٢/ ٥٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٢٠٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٢٦، ٣٢٧)، **ورجح ابن كثير وقفه على ابن عباس**، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٦٢٣).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مستدركه».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإسناد».

بذلك لا أنهم قائلون[١] ذلك، وكذا[٢] قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات: ٧].

كما أن السؤال تارة يكون بالمقال[٣] وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال؛ لكان كل[٤] أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أن الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية»[٥].

الباب الحادي عشر

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ [الأعراف: ١٨٨ ـ ١٩٢]

قال (ك): «أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قائلوا».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذلك».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالقال».
(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٣٣ ـ ٤٣٦، ٤٤٧ ـ ٤٤٨) بتصرف.

يعلم الغيب المستقبل[١] ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] الآية، وقوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: من المال، وفي رواية: لعلمت إذ اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه[٢] ولا يصيبني الفقر[٣]، وقال (ج): وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت[٤] الغلاء من الرخص فاستعددتُ له من الرخص. وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته»[٥].اهـ.

قال محمد تقي الدين عفا الله عنه: هؤلاء الأئمة الفحول قد فسروا هذه الآية بكلام عام ولم يضربوا لذلك مثلاً بالجزئيات، مع كثرتها في سيرة النبي ﷺ وأنا أذكر هنا ما يحضرني منها:

الأول: قصة القراء السبعين[٦] الذين بعثهم رسول الله ﷺ مع قبائل المشركين الذين ادعوا الإسلام وطلبوا من النبي ﷺ أن يبعث إليهم معلمين يعلمونهم الإسلام، فاختار النبي ﷺ سبعين من خيرة أصحابه، كلهم يحفظ القرآن فأخذوهم إلى أهلهم وقتلوهم كلهم إلا واحداً تركوه ليبلغ الخبر، وهذه مكيدة عظيمة وحبالة خبيثة، نصبها أعداء الإسلام للنبي ﷺ فحزن النبي ﷺ على قتلهم حزناً عظيماً، والقصة في كتب الحديث مشهورة، فلو كان النبي ﷺ يعلم الغيب ما بعثهم معهم.

الثاني: قصة الحديبية[٧] فإن النبي ﷺ بعد ما رأى في المنام ـ «ورؤيا

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وما مسني السوء، قال:».
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٢٩)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٩) لأبي الشيخ، **وإسناده منقطع**.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولعرفت».
(٥) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦١٦)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٦) لأبي الشيخ، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩) بتصرف.
(٦) أخرجه البخاري (١٠٠٢)، ومسلم (٦٧٧) من حديث أنس.
(٧) أخرجه البخاري (١٦٩٤، ١٨١١، ٢٧١١، ٢٧١٢، ١٧٣١، ١٧٣٢، ٤١٥٨، ٤١٧٨، =

الأنبياء حق»[١] ـ أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ـ أي بعضهم حلق، وبعضهم قصر ـ، عرض على أصحابه التوجه إلى مكة للعمرة، فلما وصل إلى الحديبية ـ وهي مكان قريب من وادي فاطمة ـ خرج له أهل مكة متأهبين للقتال ومنعوه من دخول مكة، فرجع هو وأصحابه دون أن يدخلوا مكة، فلو كان النبي ﷺ يعلم أنهم سيمنعونه ما توجه إلى مكة، ولكن العاقبة كانت خيراً، فإن صلح الحديبية حصل به من انتشار الإسلام ما لم يحصل بالحرب.

الثالث: قصة الإفك[٢]، لو أن النبي ﷺ كان يعلم أن عائشة لم تكن في الهودج حين حمله الرجال الأربعة ووضعوه على بعيرها، لأمرهم بالانتظار إلى أن تجيء، وقد حصل بسبب قصة الإفك غم وحزن للنبي ﷺ، وعقاب لأهل الشرك وشر كبير، وأشد ذلك ما وقع لعائشة نفسها من الحزن والمرض ولأبويها، وهي الطاهرة المطهرة التي نزلت براءتها من السماء وهلك فيها من هلك.

الرابع: إن النبي ﷺ لما كان راجعاً من غزوة خيبر منتصراً وقد أردف صفية رضي الله عنها خلفه عثر بعيره فسقط وسقطت صفية على الأرض[٣]، فلو كان يعلم الغيب لأناخ البعير ونزل قبل أن يعثر.

الخامس: مما يدل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، قوله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع حين أمر من لم يسق الهدي من أصحابه أن يفسخ حجه

= ٤١٧٩، ٤١٨٠، ٤١٨١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، وسيأتيك في التعليق على (٣/ ٧٨ ـ ٨٠) تحليل قوي لهذه الحادثة، قارنه بكلام المصنف هنا.

(١) أخرجه البخاري (١٣٨) من حديث ابن عباس بنحوه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٥٠) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٠٨٦) بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه: أنه أقبل هو وأبو طلحة مع النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ صفية مردفها على راحلته، فلما كانوا ببعض الطريق عثرت الناقة، فصرع النبي ﷺ والمرأة، وإن أبا طلحة ـ قال: أحسب قال: ـ اقتحم عن بعيره فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله جعلني الله فداءك، هل أصابك من شيء؟ قال: «**لا ولكن عليك بالمرأة**». فألقى أبو طلحة ثوبه على وجهه فقصد قصدها، فألقى ثوبه عليها، فقامت المرأة، فشد لهما على راحلتهما فركبا، فساروا حتى إذا كانوا بظهر المدينة، أو قال: أشرفوا على المدينة، قال النبي ﷺ: «**آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون**». فلم يزل يقولها، حتى دخل المدينة.

ويجعله عمرة[1]، فلما شق عليهم ذلك قال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما سقت الهدي**».

السادس: إن النبي ﷺ لما توجه إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، ما كان يعلم أن أمير الطائف سيقابله بالتكذيب ويرد عليه بأقبح رد، وإن سفهاء أهل الطائف سيقعدون له سماطين، ويرمونه بالحجارة حتى يسيل الدم من رجليه الشريفتين، وأنه سيحتاج في الرجوع إلى مكة إلى من يجيره من أهلها؛ لأنهم سيغضبون عليه حين يذهب لدعوة أعدائهم، فاضطر إلى أن يبعث مولاه زيد بن حارثة إلى المُطعِم بن عدي أحد سادات مكة ليدخل في جواره، أي حمايته، وحصل له غم عظيم عند رجوعه من الطائف، فدعا بالدعاء المشهور: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليّ غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[2].

ومن تتبع سيرة النبي ﷺ وجد الشيء الكثير من ذلك، فالعجب من المشركين في هذا الزمن الذين يزعمون أن النبي ﷺ يعلم الغيب ويتصرف في السمٰوات والأرض وهو موجود في كل مكان[3]، ثم هم مع ذلك يخالفون سنته،

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٨٨)، ومسلم (١٢١١) من حديث عائشة ﵂، والبخاري (١٦٩١)، ومسلم (١٢٢٧) من حديث ابن عمر ﵄.

(٢) أخرج هذه القصة ابن إسحاق (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢) بسند رجاله ثقات عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، وقوله: «**اللهم إليك أشكو...**» إلخ الدعاء ذكره بدون سند. وكذلك رواه ابن جرير (١/ ٨٠ ـ ٨١) من طريق ابن إسحاق وروى هذه القصة الطبراني في «الكبير» من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء المذكور بنحوه، قال الهيثمي (٦/ ٣٥): «وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات» **فالحديث ضعيف**، أفاده شيخنا الألباني. انظر: «فقه السيرة» (ص١٣٢).
وانظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ٣٤٥، ط. دار المعارف)، و«كنز العمال» (٢/ ١٧٥، ط. الرسالة).

(٣) لبعض المبتدعة رسالة مطبوعة في مكتبتي بعنوان «أبدع ما كان في إثبات أن محمداً ﷺ لا يخلو من زمان ولا مكان»! اللهم احفظ علينا عقولنا وديننا.

ويحكمون بخلاف شريعته، ويزعمون أن هذه المحبة الشركية الكاذبة تغنيهم عن الاتباع، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وإذا كان النبي ﷺ لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه نفعاً لا ضراً، فكيف يستطيع قضاء حاجات هؤلاء الغربان الناعبين في كل حين إذا قاموا قالوا: يا رسول الله، وإذا قصدوا قالوا: يا رسول الله، وإذا فزعوا قالوا: يا رسول الله، والله تعالى يقول في سورة المائدة: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير؛ أي نذير للكافرين من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

ثم قال (ﷺ): «ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته[١] حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليألفها كقوله[٢] تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] فلا ألفة بين اثنين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجته[٣].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك[٤] الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة، وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله[٥] فشكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ أي: بشراً

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «زوجه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويسكن بها؛ كما قال».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وزوجه».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أول».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به».

سـويـاً، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾»[1].

ذكر (ك) في تفسير هذه الآية حديثاً رواه أحمد والترمذي وابن جرير وغيرهم من طريق الحسن عن سمرة مرفوعاً عن النبي ﷺ، قال: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمِّيه عبد الحارث، فإنه يعيش فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**»[2]. حسنه

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠) بتصرف.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٧)، وأحمد (٥/ ١١)، والروياني (٢/ ٨١٦)، والبزار في (الكتانية/ ٢٥٤) في «مسانيدهم»، وابن جرير في «التاريخ» (١/ ١٤٨)، وفي «تفسيره» (١٣/ ١٥٥١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ٨٦٣٧، ٨٦٤١)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٦٨٩٥)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٠٠)، والحاكم (٢/ ٥٤٥) من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة رفعه.

قال الترمذي: «حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه».

وأخرجه ابن عدي (٣/ ١٢٩٨) من طريق سليمان الشاذكوني: ثنا غندر عن شعبة عن قتادة به. والشاذكوني متهم، فهذا الطريق عدم، ولذا قال ابن عدي عنه: «هذا من حديث شعبة عن قتادة منكر، لا أعرفه إلا من حديث الشاذكوني عن غندر عنه، وإنما يروي هذا الحديث عن قتادة عمر بن إبراهيم».

وقال عقب الموطن الأول: «وهذا لا أعلم يرويه عن قتادة غير عمر بن إبراهيم».

ورواية عمر عن قتادة فيها ضعف واضطراب، وهاء التفصيل: عمر بن إبراهيم العبدي وثقه أحمد وغيره، ولكنه قال: «يروي عن قتادة أحاديث مناكير، يخالف». انظر: «الضعفاء الكبير» للعقيلي (٣/ ١٤٦) رقم (١١٣٠)، و«تهذيب الكمال» (٢١/ ٢٧٠). وقال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٦/ ٩٨): «يكتب حديثه ولا يحتج به». وقال ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٠٠ ـ ١٧٠١): «يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه خاصة عن قتادة مضطرب». وذكره ابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٤٦) وقال: «يخطئ، ويخالف». ثم ذكره في «الضعفاء» (٢/ ٨٩) فقال: «كان ممن ينفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه؛ فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد، فأما فيما وافق الثقات؛ فإن اعتبر به معتبر لم أر بذلك بأساً». وقال الدارقطني: «لين، يترك»، كما في «سؤالات البرقاني» رقم (٣٤٩).

قال ابن كثير في «قصص الأنبياء» (ص٧١، ط. دار بغداد) بعد أن أورد كلام الترمذي عليه: «فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي وهذا أشبه. والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روي موقوفاً على ابن عباس. والظاهر أن هذا متلقى =

. . . .

= عن كعب الأحبار وذويه، والله أعلم.
وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره، والله أعلم.
وأيضاً؛ فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء فيكونا أصل البشر، وليبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً؟!
والمظنون بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ، والصواب وقفه، والله أعلم، وقد حررنا هذا في كتابنا «التفسير»، ولله الحمد.
ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا، فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته».
وقد أعلّ في «التفسير» (٣/ ٥٢٩، ط. الشعب) هذه القصة من ثلاثة وجوه:
الأول: أن عمر بن إبراهيم لا يحتج به.
الثاني: أنها قد رويت من قول سمرة نفسه غير مرفوعة.
أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٣/رقم ١٥٥١٤، ١٥٥١٥)، وعبد بن حميد، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٣) ـ.
الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية، بغير هذه القصة، وساق ما أخرجه ابن جرير (١٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥) رقم (١٥٥٢٦، ١٥٥٢٧، ١٥٥٢٨) عنه: «كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم»، وقوله: «عنى بهذا ذرية آدم، من أشرك منهم بعده»، وقوله: «هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوَّدوا ونصَّروا».
وأخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ أيضاً بنحوه ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٧) ـ.
وقال ابن كثير: «وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رحمه الله أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، لا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه ـ إن شاء الله ـ، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم».
وساق جملة من الآثار عن ابن عباس وأُبيّ بن كعب، وأفاد أن جماعة من التابعين ـ كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدي ـ تلقوه عن ابن عباس، قال: «وكأنه ـ والله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب»، ثم ساق بعض الآثار، وقال: «وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب».
ثم قال: «أما نحن؛ فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته». وعلق عليه شيخنا محمد نسيب الرفاعي ـ رحمه الله تعالى ـ في اختصاره لـ«تفسير ابن كثير» المسمى «تيسير العلي القدير» (٢/ ٢٦٢) ـ وهو من أحسن المختصرات ـ بقوله: «ونحن نؤيد هذا القول لأن آدم =

. . . .

= نبيٌّ معصوم، ويستحيل أن يشرك بالله».
قلت: ونحن نقول بما قالوا ـ رحمهم الله ـ، ولا سيما أن المرفوع في ذلك لا يثبت كما قدمناه، والله الموفق.
وارتضى كلام ابن كثير جماعة من العلماء، فنقلوه ونصروه، قال الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢/ ٣٤١): «وقد جاء بنحو هذا حديث مرفوع، وهو معلول، كما أوضحه ابن كثير في «تفسيره»» وقال رشيد رضا في «المنار» (٩/ ٥٢١) بعد كلام:
«وأما الإشكال الذي أشرنا إليه فهو ما روي عن بعض الصحابة والتابعين، وفي حديث مرفوع أيضاً من أن الآية في آدم وحواء»، ثم ذكر الحديث السابق وفيه القصة المذكورة وقال: «وهو على كثرة مخرجيه غريب وضعيف كما سيأتي، وقد جاءت الآثار في هذا المعنى مفصلة ومطولة وفيها زيادات خرافية، تشهد عليها بأنها من الدسائس الإسرائيلية، وهذه الآثار يعدها بعض العلماء من قبيل الأحاديث المرفوعة لأنها لا تقال بالرأي، والذي نعتقده وجرينا عليه في التفسير أن كل ما هو منها مظنة للإسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه فهي لا يوثق بها، فإن كانت مع ذلك مشتملة على ما ينكره الدين أو العلم الصحيح قطعنا ببطلانها وكونها دسيسة إسرائيلية، ومنها ما نحن فيه لأن فيه طعناً صريحاً في آدم وحواء عليهما السلام ورمياً لهما بالشرك، ولذلك رفضها بعض المفسرين وتكلف آخرون في تأويلها بما تنكره اللغة، وقد اعتمد بعض المتأخرين؛ كصاحب «فتح البيان» وصاحب «روح المعاني» الأخذ بحديث سمرة دون آثار الصحابة والتابعين التي فيها ما ليس فيه من رمي آدم بالشرك الصريح، وظنا أنه حجة ووصفاه تبعاً للترمذي والحاكم بالحسن وبالصحيح، وما هو بحسن ولا صحيح، على أنه لم يرد تفسيراً للآية كتلك الآثار.
وذهب بعض المفسرين ـ كالبيضاوي في «أنوار التنزيل» (١/ ٣٧١) ـ إلى أن الخطاب في الآية لقريش وأن المراد فيها بالنفس الواحدة قصي جدهم، وأن المراد جعل زوجها منها أنها قرشية أو عربية؛ لما روي أنها من خزاعة لا من قريش، وأن المراد بشركهما: تسمية أبنائهما الأربعة عبد مناف، وعبد شمس، وعبد العزى، وعبد الدار ـ يعني دار الندوة ـ وفيه نظر من وجوه ذكرها بعض المفسرين لا نضيع الوقت بذكرها، وإنما الذي يصح أن يذكر ويبين بطلانه؛ فهو الروايات التي انخدع بها ولا يزال ينخدع بها الكثيرون، وعمدتنا في تمحيصها وبيان عللها الحافظ ابن كثير، فقد قال في تفسيره ما نصه...» ونقل كلامه.
وقد أحسن أبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٤٤٠) لما قال: «من جعل الآية في آدم وحواء جعل الضمائر والأخبار لهما، وذكروا في ذلك محاورات جرت بين إبليس وآدم وحواء لم تثبت في قرآن ولا حديث صحيح، فأطرحتُ ذكرها».
ذكر بعض المحققين المحررين من المفسرين وجوهاً في فساد التأويل المذكور في القصة للآيات، وهي قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ =

. . . .

= [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]، ونستطيع أن نجمل هذه الوجوه بالأمور الآتية[1]:

أحدها: قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة.

وثانيها: قال بعده: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا يدل على أن المقصود من الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، ولم يجر لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر.

وثالثها: لو كان المراد إبليس لقال: أيشركون من لا يخلق؛ لأن العاقل إنما يُذْكَر بصيغة (من).

ورابعها: إن آدم عليه السلام كان من أشد الناس معرفة بإبليس، وكان عالماً بجميع الأسماء كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]؛ فلا بد وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحارث، فمع العداوة الشديدة التي بينهما ومع علمه بأن اسم إبليس الحارث كيف يسمي ولده بعبد الحارث؟! وكيف ضاقت عليه الأسماء بحيث لم يجد سوى هذا الاسم؟!

وخامسها: أن أحدنا لو حصل له ولد فجاءه إنسان ودعاه إلى أن يسمي ولده بهذا الاسم لزجره وأنكر عليه أشد الإنكار، فآدم عليه السلام مع نبوته وعلمه الكثير الذي حصل من قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وتجاربه الكثيرة التي حصلت له بسبب الزلة لأجل وسوسة إبليس، كيف لم يتنبه لهذا القدر المنكر؟!

وسادسها: إن بتقدير أن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ سماه بعبد الحارث؛ فلا يخلو إما أن يقال: إنه جعل هذا اللفظ اسم علم له أو جعله صفة له، بمعنى أنه أخبر بهذا اللفظ أنه عبد الحارث، فإن كان الأول لم يكن هذا شركاً لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تفيد في المسميات فائدة، فلا يلزم من هذه التسمية حصول الإشراك، وإن كان الثاني كان هذا قولاً بأن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ اعتقد أن لله شريكاً في الخلق والإيجاد، وذلك يوجب الجزم بكفر آدم، وذلك لا يقوله عاقل؛ فثبت فساد هذا القول.

*** بين ابن تيمية وصلاح الدين الصفدي فيما يخص هذه القصة:**

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتاب «الغيث المسجم» (٢/ ٢٤ ـ ٢٥): «سألت الشيخ الإمام العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله سنة سبع مئة وثمانية عشر أو سنة =

---

(١) انظرها في: «تفسير الرازي» (١٥/ ٧٠ ـ ٧١)، و«اللباب في علم الكتاب» (٩/ ٤١٩).

وحاول الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ١٠٩) ـ وتبعه البقاعي في «نظم الدرر» (٨/ ١٩١) والشهاب في «حاشيته على تفسير البيضاوي» (٤/ ٤١٨) ـ رد هذه القصة، فأخرج الآيات عن سياقها بتقدير مضاف، فقال: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: «آتى أولادهما». وتعقبه أبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٤٤٠) بقوله: «وفي كلامه تفكيك للكلام عن سياقه»، وتعقبه أيضاً ابن المنير بنحو هذا؛ فانظر كلامه.

. . . .

= سبع مئة وسبعة عشر بدمشق المحروسة عن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٠]؛ فأجاب بما قاله المفسرون في الجواب، وهو آدم وحواء، وأن حواء لما أثقلت بالحمل أتاها إبليس في صورة رجل، وقال: أخاف من هذا الذي في بطنك أن يخرج من دبرك أو يشق بطنك، وما يدريك لعله يكون بهيمة أو كلباً. فلم تزل في همٍّ حتى أتاها ثانياً وقال: سألت الله أن يجعله بشراً سوياً، وإن كان كذلك؛ فسميه «عبد الحارث»، وكان اسم إبليس في الملائكة «الحارث». فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، وهذا مروي عن ابن عباس ﵄؛ فقلت له: هذا فاسد من وجوه:

الأول: إنه تعالى قال في الآية الثانية: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فهذا دليل على أن القصة في حق جماعة.

الثاني: إنه ليس لإبليس في الكلام ذكر.

الثالث: إن الله ـ تعالى ـ علم آدم الأسماء كلها، فلا بد وأنه كان يعلم أن الحارث اسمٌ لإبليس.

الرابع: إنه تعالى قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]، وهذا يدل على أن المراد به الأصنام؛ لأن «ما» لما لا يعقل، ولو كان إبليس لقال: «من» هي التي لمن يعقل.

فقال الشيخ تقي الدين: «قد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بهذا قصي لأنه سمى أولاده الأربعة: عبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد الدار، والضمير في يشركون له ولأعقابه الذين يسمون أولادهم بهذه الأسماء وأمثالها. قلت: وهذا أيضاً فاسد لأنه ـ تعالى ـ قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وليس كذلك إلا آدم؛ لأن الله ـ تعالى ـ خلق حواء من ضلعه.

فقال [أي ابن تيمية]: المراد بهذا أن زوجته من جنسه قرشية عربية؛ فما رأيت التطويل معه»اهـ.

وأشار الصفدي إلى هذه المناظرة في كتابه «أعيان العصر» (١/ ٢٣٨) في ترجمة ابن تيمية بقوله: «وأول ما اجتمعتُ أنا به كان في سنة ثماني عشرة أو سبع عشرة، وهو بمدرسته في القصَّاعين بدمشق المحروسة، وسألته مسألةً مشكلة في التفسير (يريد ما قدمه آنفاً)، ومسألة مشكلة في الإعراب، ومسألة مشكلة في الممكن والواجب، وقد ذكرتُ ذلك في ترجمته في «تاريخي الكبير» (٧/ ٢٠ وما بعد)، ثم اجتمعتُ به بعد ذلك مرات، وحضرتُ دروسه في الحنبلية، فكنتُ أرى منه عجباً من عجائب البر والبحر، ونوعاً فرداً وشكلاً غريباً».

والممعن فيما دار بين ابن تيمية والصفدي يجد أن كلام الصفدي وجيه، ولا يخرج عن الوجوه التي قدَّمناها، والله الموفق، لا ربَّ سواه.

ومال ابن جرير إلى إثبات هذه القصة، فقال بعد كلام طويل (١٣/ ٣١٥، ط. شاكر): «وأولى =

= القولين بالصواب قول من قال: ـ عنى بقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ ـ في الاسم لا في العبادة، وأن المعنى بذلك آدم وحواء لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك».

ولم يوافقه على هذا محققا «تفسيره» الشيخان الإمامان الجليلان محمود وأحمد شاكر، فقالا ـ رحمهما الله ـ: «سترى أن أبا جعفر قد رجح أن المعنيَّ بذلك آدم وحواء، قال: «لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك»، وإجماع أهل التأويل في مثل هذا مما لا يقوم: **الأول**: لأن الآية مشكلة، ففيها نسبة الشرك إلى آدم الذي اصطفاه ربه، بنص كتاب الله، وقد أراد أبو جعفر أن يخرج من ذلك؛ فزعم أن القول عن آدم وحواء انقضى عند قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ ثم استأنف قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني عما يشرك به مشركو العرب من عبدة الأوثان، وهذا مخرج ضعيف جداً[1].

الثاني: إن مثل هذا المشكل في أمر آدم وحواء ونسبة الشرك إليهما مما لا يقضى به إلا بحجة يجب التسليم لها من نص كتاب، أو خبر عن رسول الله ﷺ، ولا خبر بذلك، إلا هذا الخبر الضعيف الذي بينا ضعفه، وأنه من رواية عمر بن إبراهيم، عن قتادة، وروايته عن قتادة مضطربة، خالف فيها ما روى عن الحسن أنه عنى بالآية بعض أهل الملل والمشركون.

هذا وقد رد هذا القول جماعة من المفسرين؛ كابن كثير في «تفسيره» ـ وسبق كلامه بحروفه، وأومأ إليه المصنف ـ، والفخر الرازي (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥)، وحاول الزمخشري في «تفسيره» (٢/ ١٠٩) أن يرده فلم يحسن، وتعقبه أحمد بن محمد بن المنير في «الانتصاف» ـ وسيأتي كلامه قريباً ـ وغير هؤلاء كثير.

ولكن بعد هذا كله نجد أن تفسير ألفاظ الآية ومطابقته للمعنى الصحيح الذي ذهب العلماء إليه في نفي الشرك عن أبينا آدم ﷺ وفي أن الآية لا تعني أبانا آدم وأمنا حواء بقي مبهماً، لم يتناوله أحد ببيان صحيح، وكنت أحب أن يتيسر لي بيانه في هذا الموضع، ولكني وجدت الأمر أعسر من أن أتكلم فيه في مثل هذا التعليق» انتهى كلامهما.

قلت: بيَّنه أبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٤٤٠)، وابن المنيّر في «الانتصاف» (٢/ ١٠٩) ـ والكلام له[2] ـ بأن «المراد جنسي الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين، وكأن المعنى ـ والله أعلم ـ خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن، فلما تغشَّى الجنس ـ الذي هو الذكر ـ الجنس الآخر ـ الذي هو الأنثى ـ جرى من هذين الجنسين كيت وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس، وإن كان فيهم الموحِّدون؛ =

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٨٧): «وهذا تحكم لا يساعده اللفظ».

(٢) اقتصر السيد رشيد رضا في تفسيره «المنار» (٩/ ٥٢٠) عليه، وارتضاه الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢/ ٣٤١) وقال: «واختار هذا الوجه غير واحد لدلالة القرآن عليه».
وانظر لنصرته: «التفسير المنير» (٩/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣، ٢٠٧)، ويذكر الرافضة مناظرة بين الرضا والمأمون تؤيده.
انظر: «عيون أخبار الرضا» (١/ ١٧٥)، و«البرهان في تفسير القرآن» (٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦)، و«تفسير الصافي» (٢/ ٢٥٩)، واستبعده الشهاب في «عناية القاضي» (٤/ ٤٢٠)!!

....

= لأن المشركين منهم كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ٢]».

وأخيراً... لا بد من بيان أن من معاني قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ـ على هذا التفسير ـ الشرك الجلي والشرك الخفي الذي نراه اليوم بكثرة من جنسي بني آدم (الذكر والأنثى) عند الحمل والولادة، ولا قوة إلا بالله.

فمثال الشرك الخفي في إنعام الله عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الأسباب في سلامة الحامل من الأمراض في أثناء الحمل أو في حالة الوضع، وفي سلامة الطفل عند الوضع وعقبه وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الأمراض؛ كقولهم: لولا أن فعلنا كذا لكان كذا، ولولا فلان أو فلانة من طبيب أو مرشد أو قابلة لهلك الولد أو لأجهضت أمه إجهاضاً، أو جاءت بسقط لم يستهل، أو لمات عقب إسقاطه لعدم استعداده للحياة، وينسون في هذه الأحوال فضل الله ـ تعالى ـ عليهم بما منَّ به من العافية والتوفيق، وتسخير الأسباب من البشر وغيرهم، وإن كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكِّروا بها، ذلك شأن كثير من الناس في كل نعمة تمسهم، أو نقمة يدفعها الله ـ تعالى ـ عنهم، وهذا الشرك ليس خروجاً من الملة، ولكنه نقص في شكر المنعم، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الأولاد على حب الله ـ تعالى ـ وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره، وإيثارهم لهم على طاعته والتزام ما شرعه من أحكام الحلال والحرام، وهو كسابقه نقص في التوحيد لا نقض له، وغفلة عنه لا جحد به.

ومثال الشرك الجلي إسناد هذه النعم إلى غيره ـ تعالى ـ ممن يدعونهم من دونه أو معه من الأولياء والقديسين، أو الأنبياء والمرسلين، أو ما يذكر بهم أو بمثلهم من القبور أو الأصنام والتماثيل، يقولون: لولا سيدي فلان ولولا مولانا علان لما كان كذا مما نحب، أو لكان كذا وكذا مما نكره، يعتقدون أن لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به هو فوق تأثير الأسباب. انظر: «تفسير المنار» (٩/٥١٩ ـ ٥٢٠).

*** الخلاصة: إن القصة المذكورة يأباها سياق الآيات، وتنكرها العقول، فإن البراهين الساطعة التي لا يصح فيها الاحتمال، ولا يتطرق إليها المجاز والاتساع، قد دلت على عصمة الأنبياء ﷺ؛ فلا يجوز عليهم الشرك[1] والمعاصي وطاعة الشيطان، فلو لم نعلم تأويل الآية لعلمنا على الجملة أن هذه القصة منكرة؛ فكيف وقد طعن فيها أهل الصنعة الحديثية؟!**

---

(١) حتى بالتسمية الذي اختاره ابن جرير والماوردي في «النكت والعيون» (٢/٢٨٦) وأقره العز بن عبد السلام في «اختصاره» له (١/٥١٧).

وذكر بعضهم أن شرك آدم وحواء كان «شرك طاعة وليس شرك عبادة»، وعزي إلى ابن عباس، ولم يصح عنه! انظر: «الدر المنثور» (٣/٦٢٦)، و«فتح المجيد» (٤٤١، ط. الصميعي)، و«تفسير القمي» (١/٢٧٩)، و«تفسير الصافي» (٢/٢٥٩).

الترمذي، واستغربه وأعله (ﷺ) بثلاث علل وضعفه بها وهو الحق، وهناك علة رابعة وهي أن يقال: كيف تقع حواء، وهي زوجة نبي في الشرك الأكبر ولا يعلم ذلك زوجها؟ أو يعلمه ولا يمنعها؟ ومن العلل الثلاث، أن الحسن الذي هو راوي الحديث فسر الحديث بخلاف ما دل عليه الحديث، وهو أن الشرك وقع من ذرية آدم وحواء لأمتهما، وهو الصحيح.

ثم ذكر (ﷺ) آثاراً عن ابن عباس[1] حاصلها أن آدم وحواء كانا يلدان أولاداً يُعبّدانهم لله تعالى، أي: يسميانهم عبد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز، فكانوا يموتون، فجاءهما إبليس وزيّن لهما أن يسميا من يولد لهما عبد الحارث، أي: عبد إبليس، فسمياه بذلك فعاش، وهذا من أعظم الكذب الذي اختلقه أهل الكتاب، فرواه عنهم بعض الرواة لغفلتهم، وإلا كيف يعقل أن عالماً من العلماء المحققين يسمي ابنه عبد الحارث، أي: عبد إبليس؟ فكيف بصحابي؟ وكيف بنبيٍّ؟ أما أهل الكتاب فيجيزون على الأنبياء الكبائر والكفر، فلا عبرة برواياتهم وأنبياء الله منزَّهون ومعصومون من الكفر والذنوب.

ثم قال (ﷺ) في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾: «هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام[2] وهي مخلوقة مربوبة، مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك، ولا تسمع، ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾[3] ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣ ـ ٧٤].

أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير الطعام[4] وطارت لما استطاعوا إنقاذه[5] منها، فمن

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٤٨٣ ـ ٤٨٤).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأوثان».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المطاعم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «استنقاذ ذلك».

هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى[1]: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لعابديهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يعني ولا أنفسهم[2] ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣] وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومها بذلك، ويرتأوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيداً في قومه ـ صنم يعبده ويطيّبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو بن الجَمُوح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيّبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر ثم يعودان لمثله[3] ويعود إلى صنيعته أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه بكلب[4] ميت، ودلّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ثم أسلم، فحسن إسلامه[5]، وقتل يوم أحد شهيداً، رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه»[6].

فصل

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «وهي جماد لا تسمع ولا تبصر»، ولا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ثم قال تعالى».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لأنفسهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لمثل ذلك».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقرنّا معه جرو كلب».

(٥) أخرج هذه القصة ابن إسحاق في «المغازي» ـ كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٧٤، ٤٧٥)، و«الإصابة» لابن حجر (٧/ ٩٤، ٩٥) ـ ومن طريقه الزجاجي في «أخباره» (ص٢٣٤)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ٢٠٧، ٢٠٨) **وإسنادها معضل.**

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٨٥ ـ ٤٨٧).

شك أن المشركين في كل زمان ومكان يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار والأبنية والقباب والمياه والنيران، ويزعمون أن وراءها أرواحاً للملائكة والأولياء والصالحين والجن والشياطين تتلبس بها وتقضي حاجة من طاف بها وعكف عندها، وكل أولئك عاجزون، من يعقل منهم ومن لا يعقل، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] إلخ، أما التعبيد للمخلوقين، فإنه واقع عند المشركين من أهل هذا الزمان، فإن الشيعة يسمون عبد علي، وعبد الزهراء، وكلب علي، وعبد الحسن، وعبد الحسين، وعبد الأمير، وعبد السادة، ومن يزعمون أنه من أهل السنة وهم أهل شرك وبدعة، ويسمون عبد الرسول، وعبد النبي، طاعة لإبليس وإرضاء له ومعصية لله تعالى وإسخاطاً له، فنعوذ بالله من الخذلان.

الباب الثاني عشر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤ ـ ١٩٨]

قال (ك): «ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم، بل الناس[(١)] أكمل [منها][(٢)]؛ لأنها تسمع، وتبصر، وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك، وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الآية، أي: استنصروا بها عليَّ، فلا تؤخِّروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: الله حسبي، [وكافيّ][(٣)]، وهو نصيري، وعليه متَّكلي، وإليه ألجأ،

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأناسي».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «منهم».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وكافيني».

وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥] وكقول الخليل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٨] الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]»[1].

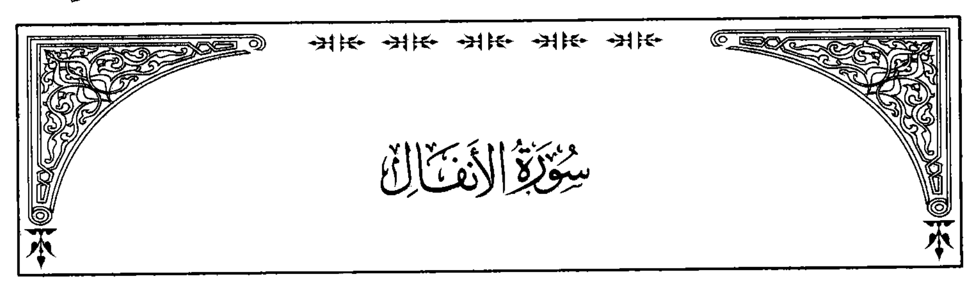
فصل

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «أنها عبيد مثل عابديها» اعلم أنهم لا يعبدون التماثيل والقباب والأشجار والأحجار لذاتها، وإنما يعبدونها لما يزعمون فيها من [البركات][2] التي تجعلها أفضل منهم، والتي بسببها تقضى الحاجات، وتنفرج الكربات بزعمهم، ولذلك تراهم إذا جاء السيل وجرف قبة يعودون إلى بنائها من جديد ويعبدونها، ولا يقولون في أنفسهم: لو كانت هذه القبة تملك نفعاً أو ضراً، أو كان صاحبها الذي تنسب إليه يملك نفعاً أو ضراً لحفظ قبته، فإذا عجز عن حفظها من السيل فهو عن حفظ العابدين أعجز، ولكن المشركين لا يعقلون.

وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾ تشنيع على عبّاد الأصنام والأوثان؛ لأن الأصنام وإن كانت لها أرجل وأيد وأعين وآذان إلا أنها لا تمشي، ولا تبطش، ولا تبصر، ولا تسمع، أما الأوثان كالقباب والأحجار فليس لها أرجل ولا أيد ولا أعين ولا آذان، ولكن عبّادها يزعمون أن الأرواح المتلبسة بها تسمع وتبصر وتعلم الغيب وتضر وتنفع، ويسألونها قضاء الحاجات، فإن قضيت نسبوا قضاءها إليها، وإن لم تقض، نسبوا التقصير إلى أنفسهم لا إلى أوثانهم، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٨٧).
(٢) سقطت من الأصل، والسياق يقتضيها.



سورة الأنفال

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

[الأنفال: ٩ ـ ١٠]

روى (**حم، م، د، ت، ج**) «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً**».
قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾**﴾.

فلما كان يومئذٍ التقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**»، قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم

وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر، وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ قال النبي ﷺ: «**للذي**[(١)] **عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة**»، لشجرة قريبة من النبي ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩] فأحل لهم الغنائم فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون رجلاً، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥]»[(٢)].

وقال البخاري[(٣)] في كتاب المغازي: باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره». يعني: قوله»[(٤)].

قال محمد تقي الدين: المراد بذكر هذه الآية أن الاستغاثة في الشدائد لا تكون إلا بالله، ومن استغاث بغير الله فقد كفر؛ لأن الله تعالى أخبرنا أن النبي ﷺ وأصحابه في غزوة بدر حين اشتد بهم الكرب وتكاثرت عليهم الأعداء، استغاثوا كلهم بالله، استغاث النبي ﷺ واستغاث الصحابة بالله، ولم يستغث الصحابة بالنبي

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الذي».
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠)، ومسلم (١٧٦٣)، وأبو داود (٢٦٩٠)، والترمذي (٣٠٨١)، وابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ١٥٧٣٤) وغيرهم.
(٣) في «صحيحه» (٣٩٥٢).
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٤ ـ ٢٦) بتصرف.

ويستغيث النبي ﷺ بالله، كما يفعل المشركون في هذا الزمان، وهذا من أعظم البراهين على ضلال هؤلاء المشركين، لو كانوا يعقلون، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] فهذا كتاب الله وهذه سنة رسول الله الصحيحة الصريحة، فأين تذهبون، توبوا إلى الله، ووحّدوا ربكم، وارجعوا إلى الحق إن كنتم مؤمنين.

لعمري لقد نَبَّهتُ مَنْ كان نائماً وأسمعتُ مَنْ كانتْ له أُذُنانِ(١)

ثم قال (ﷺ): «وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، الآية، أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم [﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي:](٢) بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾»(٣). اهـ.

قال محمد تقي الدين: وهذا محل الشاهد أن النصر لا يأتي إلا من الله، ولا ينبغي للمؤمن أن يطلبه إلا من الله، فإن طلبه من غيره خاب وخسر، ولم يظفر به أبداً، ولهذا ترى المشركين في هذا الزمان يتعلقون بالأوربيين ويطلبون منهم السلاح، ويتعلمون استعماله منهم، ويظنون أن ذلك كل شيء، ولم ينفعهم ذلك شيئاً، ولن ينصروا أبداً، إلا إذا رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وحكّموا شريعة الله، وقد مضت عليهم مئات السنين وهم يجربون طريقهم العقيم، فما حصدوا إلا الخيبة والخسران، ولو جربوا طريق الحق سنة واحدة لطلع عليهم فجر السعادة، وذهب نحسهم وظهر سعدهم ﴿وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الباب الثاني

قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٩ ـ ٤٠]

---

(١) البيت في «العين» للخليل بن أحمد (٤/ ٦٠) غير منسوب. وظفرتُ به في «الأغاني» (١٥/ ٧٩، ط. دار إحياء التراث العربي) ضمن أبيات قالها صخر بن عمرو يخاطب بها امرأته سَلْمى، وفيه «نبَّهتِ» و«أسمعتِ».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٨).

قال (ﷺ): «عن نافع عن ابن عمر أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: «إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم علي دم أخي المسلم، قالوا: أولم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾؟ قال: «قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله»[١]، ثم روى عن أسامة بن زيد أنه قال: «لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله، أبداً. فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله، أبداً، فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله»[٢]، رواه ابن مردويه، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾؛ يعني: لا يكون شرك[٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وقتادة والحسن والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾: «حتى لا يفتن مسلم في دينه». وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: يخلص التوحيد لله[٤].

وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله ليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الأنداد، ويشهد لهذا ما ثبت في «الصحيحين»[٥] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ**». وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٣، ٤٦٥١) بنحوه، وله طرق وألفاظ. انظر: «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، «الإنجاد» (٢/ ٦٦١) لابن المناصف وتعليقنا عليه.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٦٤)، وابن حبان في «الثقات» (٢/ ٢٧١) بنحوه، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١/ ق ٦٤٢ ـ مختصراً).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠١) من طريق الضحاك عن ابن عباس، **وهو منقطع**، ولكنه عند ابن جرير (١١/ ١٧٩) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٨٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهو في «صحيفته» (رقم ٥٤٢).

(٤) انظر: «الإنجاد» لابن المناصف (٢/ ٦٦١ ـ ٦٦٢ ـ بتحقيقي).

(٥) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا(١) وإن لم تعلموا بواطنهم. وفي «الصحيح»(٢) أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال: لا إله إلا الله، فضربه فقتله فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: **«أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟»** فقال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً، قال: **«شققت عن قلبه؟»** وجعل يقول ويكرر عليه: **«من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة»**. فقال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ»(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: اعلم ـ وفقني الله وإياك لمعرفة الحق والتمسك به ـ أن لا إله إلا الله لا تنفع أحداً إلا إذا قالها وهو عالم بمعناها وعامل بمقتضاها، ولعلك لم تنس حديث أبي واقد الليثي الذي قال فيه النبي ﷺ: **«قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾** [الأعراف: ١٣٨]»(٤). وقد تقدم الكلام على ذلك مستوفى في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وأطلت الكلام فيه، فمن يقول: لا إله إلا الله، وينادي بأعلى صوته: يا رسول الله أغثني، يا علي، يا فلان يا فلان، فإذا قلت له: وحِّد الله بدعائك، صاح عليك: أنت وهابي، تبغض النبي وتبغض الأولياء، فهل هذا وأمثالهم تنفعهم لا إله إلا الله، كلا والله.

فصل

اعلم أيضاً أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كعبد الله بن عمر رضي الله عنهما لم يروا القتال مع علي ولا مع عثمان اجتهاداً منهم، والصواب الذي لا شك فيه ما ذهب جمهور الصحابة من قتال البغاة الخارجين على أئمة الحق، لقول الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] الآية، فقتال

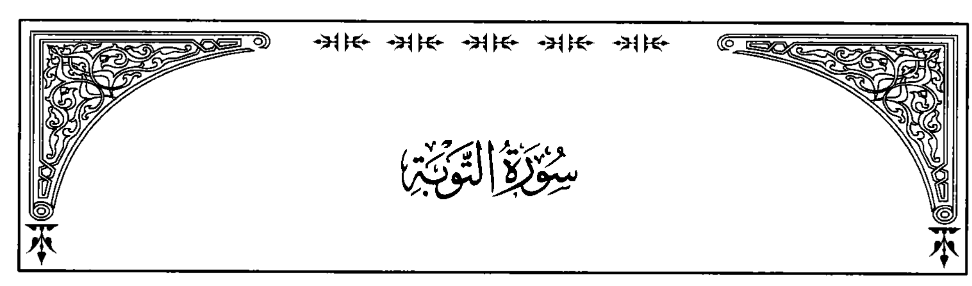
(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنهم».
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/٧٦ ـ ٧٨) بتصرف.
(٤) سبق تخريجه.

الخارجين على عثمان والخارجين على علي هو الحق بلا شك، لهذه الآية ولقول رسول الله ﷺ: «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية**»(١)، وكان عمار يقاتل مع علي فقتله جيش معاوية، وقال النبي ﷺ: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»(٢) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري.



سورة التوبة

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ١ ـ ٥]

قال (ك) بعد أن ذكر أن عثمان رضي الله عنه لم يكتب في أول التوبة بسم الله الرحمن الرحيم، لظنه أنها والأنفال سورة واحدة[(١)]: «وأول هذه السورة الكريمة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ١٢٠)، وأحمد (١/ ٥٧، ٦٩)، وأبو داود (٧٨٦، ٧٨٧)، والترمذي (٣٠٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٠٧)، وابن أبي داود في «المصاحف» (٣٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٤٧٧، ٤٧٨)، وابن حبان (٤٣)، والحاكم (٢/ ٢٢١، ٣٣٠)، والبيهقي (٢/ ٤٢ و٧/ ١٥٢)، **وإسناده ضعيف**، مداره على يزيد الفارسي، وهو ضعيف. وانظر «ضعيف سنن أبي داود» (٩/ ٣٠٦ ـ ٣٠٩، ط. دار غراس).

وعزاه في «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٢) لابن الأنباري في «المصاحف» وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

نزل[١] على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وهمَّ بالحج ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك[٢] السنة؛ ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس [﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾][٣] فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه، فقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: هذه[٤] براءة، أي: تبرّؤ[٥] من الله ورسوله:

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كبيراً[٦] فقال قائلون: هذه الآية لذي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ الآية. ولما سيأتي في الحديث، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته، وهذا أحسن الأقوال وأقواها وقد اختاره (ج)[٧] قال ابن عباس: «حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاؤوا وأجّل[٨] من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ[٩] المحرم، فذلك خمسون ليلة»[١٠] [قال الضحاك][١١]: «فأمر الله نبيه إذا انسلخ

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «منزّل».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «هذا».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «برئوا».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذه».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «برئوا».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كثيراً».

(٧) انظر: «تفسير ابن جرير» (١١/ ٣١١).

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أجَلَ»: وعند ابن جرير: «وحَدَّ أجل».

(٩) في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»: «انسلاخ».

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٤٦، ١٧٥١، ١٧٥٢) الأرقام (٩٢١٨، ٩٢٥٠، ٩٢٥٥)، وابن جرير (١١/ ٣٠٦)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٠). وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٥٥٦)، وأورده مختصراً النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص١٦١).

(١١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً، حتى يدخلوا في الإسلام»[١].

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وتقدم، وإنذار إلى الناس: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك [وأظهرها وأكبرها][٢]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: بريء منهم أيضاً، ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ بل هو قادر عليكم، وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

قال البخاري[٣] رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذن بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن[٤] بالبيت عريان» قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذّن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

ثم ذكر (ك) هذا الحديث من رواية أبي هريرة، أيضاً في «صحيح البخاري»[٥] في (كتاب الجهاد)[٦] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾، «هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق، ليس

---

(١) أخرجه ابن جرير (١١/ ٣٠٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٥٢)، وعلقه على إثر رقم (٩٢٠)، وانظر: «تفسير الضحاك» (١/ ٣٩٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أطهرها وأكثرها جمعاً».

(٣) في «صحيحه» (٤٦٥٥).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يطوف».

(٥) برقم (٤٣٦٣).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٣٦ ـ ١٣٩).

بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى المدة المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ، فعهده إلى مدته، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده، فلا[١] يظاهر على المسلمين أحداً؛ أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفي له بذمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، اختلف المفسرون في الأشهر[٢] الحرام[٣] فذهب (ج) إلى أنها [الأربعة][٤] المذكورة، في قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [إلا أن المحرم هو آخرها في حقهم][٥]. قال (ك): «وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق: ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وآخرون[٦]: أن المراد بها أشهر [السيح][٧] الأربعة المنصوص عليها بقوله[٨]: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر. ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة، سيأتي بيان

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في المراد بالأشهر».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الحرم هاهنا ما هي».

(٤) غير موجود في المطبوع من «تفسير ابن كثير».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم»، وانظر: «تفسير ابن جرير» (١١/٣١٨).

(٦) خرجت ذلك في تعليقي على «الإنجاد» (١/٣٨)، وانظر: «تفسير مجاهد» (١/٢٧٢) وأثره عند ابن جرير (٦/٧٩)، وابن أبي حاتم (٦/رقم ٩٢٢٠)، وعزاه في «الدر» (٤/ ١٢٢، ١٣١) لأبي الشيخ وابن أبي شيبة، وابن المنذر. وممن قال بهذا قتادة وابن زيد والضحاك والسدي. انظر ـ عدا «تفسيري ابن جرير وابن أبي حاتم» ـ «تفسير السدي الكبير» (ص٢٨٧، ٢٩٢)، و«تفسير الضحاك» (١/٣٩٧).

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التسيير».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في قوله».

حكمها في آية أخرى بعد، في هذه السورة الكريمة، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم، بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي: الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي: أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة.

وقد جاء في «الصحيحين»[(١)] عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»**، الحديث، وقال أبو إسحاق: عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال[(٢)]: «أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له»[(٣)]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «أبى الله أن يقبل الصلاة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سقطت من الأصل، وأثبتها من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/١٧٢) (رقم ٩٩١٤، ط. الرشد)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٢٧) رقم (١٠٠٩٥) من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: . . . فذكره، **وإسناده ضعيف** فيه إسماعيل بن عمرو البجلي.
قال شيخنا الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (ص٣٥):
«قلت: وهذا إسناد ضعيف من أجل البجلي هذا أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال: «ضعفه غير واحد».
قلت: لكنه لم يتفرد به، فقد قال عبد الله بن أحمد في «كتاب السنة» (ص٩٨): حدثني =

إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه»». ثم قال (ﷺ): «وهذه الآية الكريمة هي آية السيف، التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: «أنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عقد[1] وكل مدة»[2]. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية [الكريمة][3]: «لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة»[4]، وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من

= أبي حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق به بلفظ:
«من أقام الصلاة، ولم يؤد الزكاة فلا صلاة له».
وهذا رجاله ثقات رجال مسلم غير أن أبا إسحاق وهو عمرو بن عبد الله السبيعي كان اختلط، ثم هو مدلس وقد عنعنه. ولم يتنبه المنذري لذلك فقال في «الترغيب» (١/ ٢٦٩): «رواه الطبراني في «الكبير» موقوفاً هكذا بأسانيد أحدها صحيح»! وتبعه الهيثمي فقال (٣/ ٦٢):
«رواه الطبراني في «الكبير»، وله إسناد صحيح».
فإذا كانا يعنيان هذا الإسناد الذي فيه أبو إسحاق كما أرجح، فلا وجه لتصحيحه، وإن كانا يريدان غيره، فما هو، وأنا لم أر له في «المعجم» إسناداً آخر، ولكن النسخة مخرومة والله أعلم».
وصح عنه: **«من لم يصل فلا دين له» و«من ترك الصلاة فلا دين له»** أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٧) وفي «الإيمان» رقم (٤٧)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٧٧٢)، وفي «مسائله لأبيه» (٣٩٣)، والخلال في «السنة» (رقم ١٣٨٧)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢١٥) رقم (٨٩٤١، ٨٩٤٢)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٩٣٥ ـ ٩٣٨) بأسانيد بعضها **حسن**.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عهد».

(٢) المشهور عنه أن قوله تعالى: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤] ناسخة لعموم قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وبيّنتُ ذلك مفصلاً في تعليقي على «الإنجاد» لابن المناصف (٢/ ٢٦٠)، فانظره غير مأمور، وانظر: «مصنف عبد الرزاق» (٩٤٠٥)، و«تفسير ابن جرير» (٢٦/ ٤١)، و«الإيضاح» (ص٣٠٩) لمكي، و«الناسخ والمنسوخ» (ص٣٥) لابن البارزي، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٩٠١ ـ ٩٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٦/ ٤١٢)، و«الكشاف» (٢/ ١٧٥)، و«تفسير الضحاك» (٢/ ٧٦١).

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٦/ ٤١)، وابن الجوزي في «الناسخ والمنسوخ» (ص٢٨) عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ...﴾ إلى آخر الآية. قال: الفداء منسوخ، نسختها ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ...﴾ إلى ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. قال: فلم يبق لأحدٍ من المشركين عهد ولا حرمة بعد براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم. =

المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر، من يوم أذَّن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: تبرأ الله ﷻ ورسوله ﷺ من المشركين بقوله: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨] وقال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] فوجب على كل مؤمن أن يتبرأ من المشركين في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

= **وإسناده مظلم، فهو مسلسل بالمجاهيل.**

وعزاه السيوطي في «الدر» (٧/ ٤٥٧) إلى ابن مردويه في «تفسيره».

وأخرج أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (ص٢٠٩) رقم (٣٩٢)، وفي كتاب «الأموال» (ص١٧٠) رقم (٣٤٢)، والطبري في «التفسير» (١٤/ ٥٩) رقم (١٦٢٨٦، ط. شاكر)، وأبو جعفر النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص١٩٠، ٢٥٩)، وابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾. قال: ذلك يوم بدر، والمسلمون يومئذٍ قليل، فلما كثروا واشتد سلطناهم، أنزل الله ﷻ بعد هذا في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فجعل الله ﷻ النبي ﷺ والمؤمنين في الأسارى بالخيار: إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا فادوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم. شكَّ أبو عبيد في «استعبدوهم».

قلت: علي بن أبي طلحة. قال العلائي في «جامع التحصيل» (ص٢٤٠) رقم (٥٤٢): «قال دُحيم: لم يسمع التفسير من ابن عباس، وقال أبو حاتم: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل». وقال أبو زرعة العراقي في «تحفة التحصيل» (ص٢٣٤): «قلت: قال الفسوي: روى عن ابن عباس الناسخ والمنسوخ، ولم يره».

قلت: لعليٍّ بن أبي طلحة صحيفة رواها عن ابن عباس، فلعله أخذ هذا عن ابن عباس من الصحيفة؛ فيصح الأثر، والله الموفق، وانظر: «الإيضاح» (ص٣٠١) لمكي.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٤٧ ـ ١٥٠) بتصرف.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: ٦ ـ ١١]

قال (ك): «يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [أي][١]: الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي: (القرآن) تقرؤه عليه، وتذكر له شيئاً من [أمر][٢] الدين، تقيم به عليه[٣] حجة الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان، حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء، ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده، وقال ابن أبي نجيح: عن مجاهد في تفسير هذه الآية، قال: «إنسان يأتيك يسمع ما تقول، وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه[٤] كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء».

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه[٥] يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد،

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليه به». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيسمع».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «جاء»!

يترددون في القضية[١] بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك[٢]، كان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: **«أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟** قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ **«لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك»**[٣]. وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر[٤] فضربت عنقه[٥]، لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، في أداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح، أو مهادنة، أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً، ما دام متردّداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك، فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة، قولان عن الإمام الشافعي[٦] وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ﴾ الآية، يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قضية».

(٢) انظر القصة مفصلة في: «صحيح البخاري» (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٧)، وأبو داود (٢٧٦١)، والطحاوي في «المشكل» (٢٨٦٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٠٩)، والحاكم (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣ و٣/ ٥٢)، والبيهقي (٩/ ٢١١)، وفي «الدلائل» (٥/ ٢٣٢) من حديث نُعيم بن مسعود الأشجعي، **وهو صحيح بطرقه وشواهده.**

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «به».

(٥) بنحوه في «مسند الطيالسي» (٢٥١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٣٢)، «البداية والنهاية» (٧/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠/ ط هجر).

(٦) انظر: «الأم» (٤/ ٢٠١)، و«الأوسط» لابن المنذر (١١/ ٣٣٣)، و«الإنجاد في أبواب الجهاد» (٢/ ٣٣١ ـ بتحقيقي).

أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: أمان، ويتركون فيما هم فيه، وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥] الآية، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد، ومالؤوا حلفاءهم وهم[1] بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان، سنة ثمان، ففتح الله البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق[2] منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وَفَرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، ومنهم (صفوان بن أمية)، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ الآية، يقول الله تعالى تحريضاً[3] للمؤمنين على معاداتهم والتبرؤ منهم، ومبيناً أنهم لا يستأهلون[4] أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلّاً ولا ذمة، وقال ابن عباس وغيره: «الإل: (القرابة) والذمة: (العهد)»، قال تميم بن مقبل:

أفسدَ الناسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا ... قَطَعوا الإلَّ وأعرَاقَ الرَّحِم[5]

وقال حسان بن ثابت[6] رضي الله عنه:

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من أسلم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «محرضاً».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يستحقون». (٥) البيت في «تفسير الطبري» (١١/٣٥٨).

(٦) هكذا نسبه ابن كثير إلى حسان بن ثابت ولم نجده في «ديوانه» المطبوع والبيت في «تفسير =

وَجَدْناهُمُ كاذِباً إِلُّهُمْ ... وذو الإلِّ والعهدِ لا يَكذِبُ[(١)]

وقيل: الإل هو الله، ومنه جبرائيل، وميكائيل، وما أشبه ذلك، والتفسير الأول أحسن. ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ الآية، يقول تعالى ذماً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ يعني: إنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَلَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التي بعدها ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخرها تقدمت، وروى البزار بسنده عن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راضٍ**» وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هَرْج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾[(٢)] فإن خلعوا الأوثان وعبادتها: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[(٣)].

= الطبري» غير منسوب (١١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٦) و(الإل) ذكر في شعر حسان. في بيت آخر هو في «ديوانه» (ص٣٣٦) وفي «لسان العرب» مادة (ألل).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٥١ ـ ١٥٣).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٠) ـ مختصراً إلى قوله: «**والله عنه راض**» ـ وكذلك أخرجه ابن جرير (١٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦) رقم (١٦٤٧٥ ـ بتحقيق شاكر).

وأخرجه بتمامه: البزار في «البحر الزخار» (١٣/ ١٣٢) رقم (٦٥٢٤)، والحاكم (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢) ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (١، ٢١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٥٦).

وقال الحاكم: «صحيح» وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: صدر الحديث مرفوع وسائره مدرج فيما أرى» وكذا عند ابن الملقن في «مختصر استدراك الذهبي» (٢/ ٨٠٦) رقم (٣١١) **وإسناده ضعيف**، فيه أبو جعفر الرازي، صدوق سيئ الحفظ وفي روايته عن الربيع بن أنس اضطراب ووقع التصريح في الرواية الثانية عند ابن نصر أنه من كلام أنس! وهكذا قال الحافظ ابن كثير فيما مضى.

وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ٢١٣) للبزار وأبي يعلى ـ وليس هو في رواية ابن حمدان المطبوعة، وإنما في رواية ابن المقرئ المطولة التي يكثر الضياء في إيراد طرقها المقبولة ـ وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

ثم قال البزار[(١)]: «آخر الحديث عندي والله أعلم: «**فارقها وهو عنه راضٍ**»، وباقيه عندي من كلام الربيع بن أنس»»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: من زعم من المعتزلة والخوارج أن القرآن ليس كلام الله، وإنما هو خلق من خلقه فقد كفر بهذه الآية؛ لأن السامع إنما يسمعه من قراءة النبي ﷺ، والكلام ينسب لقائله الأصلي، وهو الله تعالى، والعجز عن الكلام نقص في حق المخلوق، فكيف بالخالق؟ وكذلك الأشعرية المتأخرون الذين يزعمون أن كلام الله ليس بحرف ولا صوت، ولا بعربية ولا عجمية، وأنه صفة نفسية، وينكرون أن القرآن كلام الله، فهذه الآية حجة عليهم، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] والمسلمون إذا كانوا مسلمين حقاً ومتخلقين بالقرآن وبسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام محكمين شريعة الله، محافظين على حدود الله، متى دخل بلادهم مشرك اعترته هيبة منهم، وامتلأ قلبه تعظيماً للإسلام وأهله، وانجذب إليهم، فإما أن يدخل في دين الله ويسعد به، وإما أن تقوم عليه حجة الله، أما إذا دخل بلادهم ووجدهم متخلقين بمساوئ الأخلاق، منهمكين في الموبقات، لا يتبعون القرآن ولا الرسول، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فإنه يزداد عداوة للإسلام وبعداً عنه وعن أهله.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٧ ـ ١٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ[(٣)]: «**مسجد الله**» فأراد به

(١) في «البحر الزخار» (١٣/ ١٣٢). (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٥٤).
(٣) هذه قراءة أبي عمرو ويعقوب والجحدري وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وابن محيصن واليزيدي وعبد الوارث وخارجة وحسين وحماد بن أبي سلمة عن ابن كثير، =

المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسَّسه خليل الرحمٰن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئ؟ لقال: صابئ، والمشرك؟ لقال: مشرك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بشركهم؛ ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فشهد الله بالإيمان لعمّار المساجد كما قال الإمام أحمد[1] بسنده عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان**»، ورواه الترمذي والحاكم في «المستدرك» به[2].

وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله [تعالى]، ولم يخش سواه، ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا

= وعزيت لابن عباس، انظر: «حجة القراءات» (٣١٦)، «السبعة» (٣١٣)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٠٠)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٣٥٦)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (١/ ٢٣٦)، «روح المعاني» (١٠/ ٦٤)، «البحر المحيط» (٥/ ١٨).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٦٨)، والترمذي (٢٦١٧، ٣٠٩٣)، والدارمي (١/ ٢٧٨)، وابن خزيمة (١٥٠٢)، وابن حبان (١٧٢١)، وابن عدي (٣/ ٩٨١)، والحاكم (١/ ٢١٢ ـ ٢١٣ و٢/ ٣٣٢)، وأبو نعيم (٨/ ٣٢٧)، والبيهقي (٣/ ٦٦) وفيه دراج عن أبي الهيثم، **وهو ضعيف في روايته عنه خاصة**، وانظر: «الضعيفة» رقم (١٦٨٢).

(٢) لا معنى لها هكذا، وسببه حذف المصنف للأسانيد، فأورد ابن كثير في «تفسيره» سند أحمد من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد.... وسرده، وقال عقبه:

«ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في «مستدركه» من حديث عبد الله بن وهب به» فكان المذكور نتيجة للحذف، ومثله يقع كثيراً لشيخنا محمد نسيب الرفاعي رَحِمَهُ اللهُ في اختصاره لـ «تفسير ابن كثير» المسمى «تيسير العلي القدير»، على وجه فيه مؤاخذات ظاهرة، تنبئ عن عدم اشتغالهم التطبيقي في تخريج الحديث، والله هو العاصم والواقي.

﴿يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يقول: من وحَّد الله وآمن باليوم الآخر، يقول من آمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[1] [الإسراء: ٧٩] وهي الشفاعة وكل عسى في القرآن فهي واجبة»[2]، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: وعسى من الله حق»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ الآية دليل على أن كل مسجد بني لله تعالى لا يجوز لمشرك أن يدخله ولا أن يتعبد فيه بعبادته الشركية التي يقول فيها: يا رسول الله أعطني، ويستغيث بالمخلوقين، وكذلك المبتدع الذي يعمرها بالمكاء والتصدية، وهو الخوار الذي يفعله أصحاب الطرائق كخوار البقر[4]، أصوات قبيحة لا معنى لها في أي لغة، ويسمون ذلك زوراً وبهتاناً ذكر الله، ومعاذ الله أن يكون ذلك ذكر الله؛ لأن ذكر الله معلوم في كتب السنة، مطابق لفعل الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، وصدق من سمى ذلك مكاء وتصدية وتشبهاً بأهل الجاهلية، فهل فعله رسول الله ﷺ أو الصحابة أو التابعون أو الأئمة المجتهدون؟ حشاهم من ذلك، وما أحسن قول شاعر مصلح:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكاؤك إذ غنّى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ... ولا ارتعاش كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحقَّ والقرآنَ والدِّينا
وأن تُرى خاشعاً لله مكتئباً ... على ذُنوبك طول الدَّهر محزونا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً».
(٢) أخرجه ابن جرير (١١/٣٧٦ ـ ٣٧٧)، وابن أبي حاتم (٦/١٧٦٦) وعزاه في «الدر» (٣/٢١٦) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٥٦٠).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٥٨، ١٦٠).
(٤) يعجبني كلام للإمام القرطبي، ذكر في «تفسيره» (٧/٣٦٦) في أوائل سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، قال: «فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام، والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير».

وقال آخر[١]:

يا عصبة ما ضرَّ أمة أحمد وسعى على إفسادها إلّا هيْ
طارٌ ومزمارٌ ونغمةُ شادنٍ أرأيتَ قطُّ عبادةً بملاهِ

وكذلك المبتدعة الذين يجلسون حلقة في المسجد، ويذكرون الله بذكر مشروع، ولكنهم يذكرونه بلسان واحد أو بمقدَّم يؤمُّهم في ذلك الذكر، وهم يقتدون به، فقد روى ابن وضاح في كتاب «البدع» ـ ونقله الشاطبي في «الاعتصام»[٢] ـ عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه بلغه أن ناساً يجتمعون في مسجد الكوفة حلقة وبين أيديهم الحصى، فيقول أحدهم: سبحوا مائة فيسبحون، ثم يقول: هللوا مائة فيهللون، ثم يقول: كبروا مائة فيكبرون، فلبس البرنس وانطلق حتى جلس إليهم ورأى بعينه صنيعهم، فقال: «والله لقد فُقتم أصحاب محمد ﷺ علماً، أو جئتم ببدعة ظلماً» فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، ما فُقنا أصحاب محمد ﷺ علماً، ولا جئنا ببدعة ظلماً، ولكننا نذكر ربَّنا، فقال عبد الله بن مسعود: بلى والذي نفس ابن مسعود بيده، لقد فُقتم أصحاب محمد ﷺ علماً أو جئتم ببدعة ظلماً». ثم طردهم من المسجد فذهبوا وبنوا مسجداً بظاهر الكوفة، أي خارجاً عن مدينة الكوفة، وأخذوا يصنعون فيه ذلك الصنيع، فبلغ ابن مسعود خبرهم فأمر بهدمه فهدم، وتفرقوا»[٣]. اهـ.

---

(١) البيتان في «تاريخ الإسلام» (١٤/ ٥٢٥، ط. دار الغرب) من غير نسبة هكذا:
دفٌّ ومزمار ونغْمةُ شادنٍ فمتى رأيتَ عبادةً بملاهي
يا فرقة ما ضرَّ دين محمدٍ وسطا عليه وملَّه إلا هي

(٢) (٢/ ٣٢٤ ـ بتحقيقي).

(٣) أخرجه ابن وضاح في «البدع» رقم (١٧) من طريق عبيد الله بن عمر عن سيَّار أبي الحكم عن ابن مسعود أنه حُدِّث أن أناساً... (فذكره).
قلت: وسنده ضعيف؛ منقطع بين سيار وابن مسعود. وله طرق أخرى عن ابن مسعود:
الأولى: الربيع بن صُبَيح عن عبد الواحد بن صبرة عنه.
أخرجها ابن وضاح في «البدع» رقم (٩).
وسندها ضعيف من أجل الربيع وشيخه؛ فالأول صدوق سيئ الحفظ كما في «التقريب» (١٨٩٥)، أما الثاني فأورده البخاري في «تاريخه» وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٦/ ٢٢)، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً.
الثانية: عطاء بن السائب عن أبي البختري عنه به.
أخرجها عبد الرزاق في «المصنف» (٥٤٠٩)، وعبد الله بن أحمد في «زوائده على الزهد» =

فهؤلاء ذكروا الله بذكر مفهومِ المعنى مشروعٍ، ولكن زادوا عليه هيئةَ الاجتماع في وقت معلوم والمقدَّم الذي يرشدهم، فصار ذلك **بدعة إضافية**، وأصحابها داخلون في الوعيد، وهي شر من المعاصي؛ لأن المعاصي يعرف فاعلها أنها معاص، ولا يعتقد أنها قربة إلى الله، فيرجى أن يتوب منها، بخلاف

= (ص٣٥٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» رقم (٨٦٣٠ ـ ٨٦٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٠ ـ ٣٨١).

وعطاء صدوق اختلط، ولكن الراوي عنه عند الطبراني حماد بن سلمة، وسماعه منه قبل اختلاطه، كما في «الكواكب النيرات» (ص٦٣)، وشيخه لم يسمع من ابن مسعود. وانظر: «تهذيب الكمال» (١١/ ٣٢)، و«مجمع الزوائد» (١/ ١٨١)، فالإسناد ضعيف، إلا أن أبا البختري توبع، تابعه أبو عبد الرحمن السلمي عند الطبراني رقم (٨٦٣٣)، فصح الإسناد.

الثالثة: عمرو بن يحيى بن عمرو بن سلمة قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه عنه به.
أخرجها الدارمي في «السنن» رقم (٢١٠)، وبحشل في «تاريخ واسط» (ص١٩٨ ـ ١٩٩) بمعناه.

وسندها ضعيف؛ يحيى بن عمرو بن سلمة ذكره البخاري في «التاريخ (٨/ ٢٩٢)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٩/ ١٧٦)، ولم يذكرا فيه شيئاً، وروى عنه جماعة من الثقات، وظن شيخنا الألباني ـ رحمه الله ـ أن عمرو بن يحيى هو ابن عمارة بن أبي الحسن!! ولذا قال في «الرد على التعقب الحثيث» (ص٤٥، ٤٧) ما نصه: «وإسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال البخاري في «صحيحه» غير عمارة، وهو ثقة»!! والصواب ما ذكرناه، وقد وقع مصرحاً به عند بحشل، وكذا الراوي عنه عند الدارمي وهو شيخه الحكم بن المبارك، كما في «تهذيب الكمال» (٧/ ١٣٢).

الرابعة: حماد بن زيد عن مجالد بن سعيد عن عمرو بن سلمة به.
أخرجها الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٣٦) رقم (٨٦٣٦)، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨١): «فيه مجالد بن سعيد، وثقه النسائي، وضعفه البخاري وأحمد بن حنبل ويحيى».

الخامسة: سفيان بن عيينة عن بيان عن قيس بن أبي حازم عنه.
أخرجها عبد الرزاق في «المصنف» (٥٤٠٨)، ومن طريقه الطبراني في «الكبير» رقم (٨٦٢٩)، برجالٍ ثقات، وصححها الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨١).

السادسة: سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء عبد الله بن هانئ به.
أخرجها الطبراني في «الكبير» رقم (٨٦٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨١)، وسندها حسن.

وله طرق أخرى، عند الطبراني رقم (٨٦٣٧ ـ ٨٦٣٩) **وبالجملة، فالأثر ثابت صحيح، بمجموع هذه الطرق.**

البدعة فإن صاحبها لاعتقاده أنها قربة لا يتوب منها، وكذلك النفر الذين جاؤوا إلى أزواج رسول الله ﷺ فسألوهن عن عبادته، فأخبرنهم بها فكأنهم تقالوها، فقال أحدهم: «لسنا مثل رسول الله ﷺ، فإن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما أنا فأصوم أبداً ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل أبداً ولا أنام، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء، فلما سمع بذلك النبي ﷺ قال لهم: **«أنتم الذين قلتم ما قلتم؟»** قالوا: نعم، فقال رسول الله ﷺ: **«أما أنا فأصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[(١)].

وكذلك المغاربة الذين يقرؤون القرآن جماعة بلسان واحد بعد صلاة الصبح، وبعد صلاة المغرب يقرؤون القرآن جماعة بصوت واحد نصف جزء من القرآن ويسمونه حزباً، يفتح القراءة لهم الإمام ثم بعد ذلك يختمون ذلك بأدعية ينطقون بها بلسان واحد[(٢)]، كما يفعل اليهود والنصارى في كنائسهم، ومنهم أخذ المغاربة هذه العادة السيئة لم يسبق إليها سابق، ولا لحقهم فيها لاحق، ومن العجب أنهم كلهم يتركون سنة المغرب البعدية والقبلية، أما البعدية فيفعلون بدلها تلك البدعة[(٣)] وأما القبلية فيزعمون أنها مكروهة.

وحقيقة المكروه هو ما نهى الله أو نهى رسوله ﷺ عنه نهياً مخففاً، بحيث إذا ترك يكون في تركه أجر وإذا فعل لا يكون في فعله عقاب، فنقول لهم: يا لله العجب! متى نهى الله أو رسوله ﷺ عن صلاة ركعتين قبل المغرب[(٤)] أي بعد أذان المغرب وقبل صلاتها؟ هل تستطيعون أن تجدوا في ذلك آية أو حديثاً ولو ضعيفاً؟ لن تجدوا ذلك أبداً، بل الموجود الصحيح ما رواه البخاري في «صحيحه»[(٥)] عن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس.

(٢) وهكذا يفعل أتباع الشيخ حسن البنا لما يقرأون كتابه «المأثورات»، ولا سيما في المسجد في رمضان قبيل الإفطار.

(٣) يريد صلاة ست ركعات التي يسميها العوام (صلاة الأوابين)! وصلاة الأوابين على التحقيق هي صلاة الضحى، وانظر للتفصيل كتابي: «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص٤٥٤ ـ ٥٥٥، ط. الأولى).

(٤) نشر المصنف في مجلته «لسان الدين» السنة الرابعة، الجزء الثالث، جمادى الأولى عام ١٣٦٩هـ ـ مارس سنة ١٩٥٠ (ص٩ ـ ١٠) مقالة لتلميذه العلامة محمد بو خبزة ـ وهو شيخنا بالإجازة ـ بعنوان «صلوا قبل المغرب ركعتين».

(٥) برقم (١١٨٣).

عبد الله المزني أن رسول الله ﷺ قال: «**صلوا قبل المغرب صلوا قبل المغرب صلوا قبل المغرب**» وقال في الثالثة: «**لمن شاء**» وجميع أهل الحديث منهم الشافعي وأحمد يقولون إن هذه الصلاة سنة وهذه السنة معمول بها في الحرمين الشريفين، وفي جميع المساجد التي يعمل فيها بالسنة، ويضرب بالرأي عرض الحائط.

والذين يسمون فقهاء عند المغاربة ـ أعني: غلاتهم ـ إذا ذكرت لهم حديث رسول الله ﷺ يغضبون ويصرون على باطلهم، ويقولون: هذا العمل فعله فلان وفلان، وهما أفضل منك وأعلم بالسنة، وأمثال هذا من أقوالهم الباطلة، وإذا شئت أن تلزمهم وتلقمهم حجراً في مسألة القراءة جماعة بصوت واحد، فاقرأ عليهم ما كتبه المواق في «شرحه لمختصر خليل»، عند قوله: «وجهر بها في مسجد [وقراءة بتلحين](١) كجماعة، [وجلوس لها لا لتعليم](١)، وأقيم القارئُ في المسجد يوم خميس أو غيره»(٢) فمثل هذا النقل يخرسهم، أما الكتاب والسنة فلا يرفعون بهما رأساً، وكذلك قول مالك رحمه الله(٣) إذا خالف عادتهم لا يقبلونه بل يروغون روغان الثعلب، فنسأل الله العافية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ يعني: إن الذين هم أولياء الله ويحق لهم أن يعمروا مساجد الله هم الذين يوحّدون الله في عبادته ولا يخافون إلا الله، واعلم أن الخوف قسمان، بل نوعان: نوع طبيعي فطر عليه الإنسان، كالخوف من العدو والخوف من الأسد، والخوف من الهزيمة في الحرب، والخوف من السراق واللصوص، فهذا الخوف ليس شركاً، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٨] الآية، والخوف الذي هو شرك يتنافى مع التوحيد، هو الخوف بالغيب، كالذي يريد أن يدخل بلداً، فيخاف ما يسمى بالأولياء الأموات أو الأحياء إذا لم يخضع لهم أن يصيبوه بمصيبة، فيستأذنهم ويخضع لهم، ويسألهم الضيافة وهم أموات أو غائبون.

---

(١) سقط من الأصل، وأثبته من «مختصر خليل» (ص٣٦).

(٢) انظر: «مختصر خليل» (ص٣٦)، وكلام المواق ـ وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري (ت٨٩٧هـ) ـ في كتابه «التاج والإكليل» (٢/ ٦٣)، وسيورده المصنف بطوله في (٣/ ١٦٣ ـ ١٦٤)، فراجعه هناك، تولى الله هداك.

(٣) بدل «رحمه الله» في الأصل: رمز (ج) ولعل صوابه (ح).

ويحسن أن أحكي هنا حكاية لتوضيح المقام: كان العالم السلفي المشهور عبد الله السنوسي نزيل مدينة طنجة له خادم يرافقه، فسافر من طنجة إلى العرائش، وهي مدينة في المغرب على شاطئ البحر المحيط، فلما أراد دخول هذه المدينة، قال خادمه: أسأل الضيافة من الله ومن سيدتنا منانة ـ ومنانة هذه: امرأة ميتة بنيت على قبرها قبة يعبدها الجهال ـ فسكت الشيخ ولم ينكر عليه قوله، وكانت عادة الشيخ أن ينزل عند بعض المحبين، فيجتمع عليه الناس للاستفادة من علمه، وينطلق خادمه إلى مشرب من مشارب القهوة والشاي، وهو ما يسمى «بالقهوة» فيمكث هناك إلى أن يمضي أول الليل، ثم يرجع إلى البيت الذي نزل فيه الشيخ فيجد عشاءه محفوظاً له فيأكله وينام، ولما رجع تلك الليلة جلس ينتظر أن يقدم له عشاؤه كالعادة فلم يقدم له شيء، وكان الشيخ قد أخبر أهل ذلك البيت أن خادمه استضاف شخصاً آخر، وأمرهم أن لا يتركوا له طعاماً، فلما طال انتظاره، قال له الشيخ: كيف كان عشاؤك عند منانة؟ فقال له: يا سيدي ما تعشيت، فقال الشيخ: سبحان الله! كيف تركتْكَ منانة بلا عشاء وأنت ضيفها؟! فاذهب إلى فراشك فليس لك هنا عشاء، وكان ذلك عقاباً له وعبرة لغيره، وعادة عامة المغاربة أن يطلبوا الضيافة كما تقدم من رجال البلد، ويقصدون بذلك الأموات الذين بنيت على قبورهم قباب.

ولما بدأتُ الدعوة إلى الله في المغرب سنة ١٣٨٠هـ علَّمتُ مَنِ استجاب لدعوتي طلب الضيافة من الله بالدعاء الذي كان يدعو به النبي ﷺ إذا أقبل على بلد، وهو: «**اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن، ورب البحار وما جرين، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، اللهم حببنا إلى أهلها، وحبب صالحي أهلها إلينا**»[1].

---

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٤٣، ٥٤٤)، وابن خزيمة (٢٥٦٥)، وابن حبان (٢٧٠٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٢٥)، والطبراني (٧٢٩٩)، والحاكم (١/ ٤٤٦ و٢/ ١٠٠)، والبيهقي (٥/ ٢٥٢) من حديث صهيب، **وإسناده حسن**.
وقال شيخنا الألباني في «الكلم الطيب» (ص١٤٨) بعدما ذكر أن ابن حبان والحاكم أخرجاه وصححاه، قال: «ووافقهما الذهبي، وفيه نظر لأن مداره عندهم جميعاً على أبي مروان والد عطاء، أورده الذهبي في «الميزان» وقال: «قال النسائي: ليس بالمعروف» ومن ادعى أن له صحبة فليس له حجة إلّا أخبار كلها من رواية الواقدي وهو متروك. . . =

وهذا مفترق الطرق بين الموحدين والمشركين، فالموحدون يطلبون حاجاتهم كلها من الله تعالى ولا يطلبون من مخلوق شيئاً، والمشركون لا يكفيهم الله تعالى فيتوجهون إلى المخلوقين العاجزين فيسألون حاجاتهم، فبئس ما يفعلون، قال الله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤] وقال الله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١] أخبر الله تعالى في هذه الآية أن المشركين الأولين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون ويعتقدون أن الله هو الذي يرزق، وهو الذي يملك كل شيء، وهو وحده الذي يتصرف في العالم بالإعطاء والإحياء والإماتة وغير ذلك من أنواع التصرف، والمشركون في هذا الزمان يعتقدون أن أولياءهم يتصرفون في العالم، فلذلك يستغيثون بهم في الشدائد ويطلبون منهم حاجاتهم بدون حياء من الله تعالى ولا خوف، قال بعض المغاربة لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس سنة ١٩١٢ بتاريخ النصارى، قال بعض من يسمون بالعلماء عندهم ـ وهم أجهل بالله من الدواب ـ يستغيث بإدريس بن عبد الله الأكبر المدفون بزرهون رَحِمَهُ اللَّهُ، شعراً:

أمولاي يا إدريس يا ابن نبينا ... وملجأ هذا القطر في العُسر واليُسرِ
تكنَّفنا الأُسدُ الضّراةُ وإنَّنا ... على خَطَرٍ إنْ لم تُغِثْنا على الفورِ

أراد هذا المشرك المجنون، أن يقوم إدريس من قبره، أو تأتي روحه فتقاتل الجيش الفرنسي، وتصده عن مدينة فاس، أما هو فيجلس رابضاً كالثور المريض في يده سبحة يعدُّ حباتها ويأكل ويشرب، فلم يغثه إدريس بل دخل الفرنسيون مدينة فاس، ثم فتحوا بلاد المغرب بلداً بلداً إلى أن استولوا عليها كلَّها، ومكثوا يحكمونها بالحديد والنار ثلاثاً وأربعين سنة، إلى أن تصدى لهم الملك محمد بن يوسف بن الحسن وابنه الملك الحسن بن محمد، رحم الله الوالد وأطال عمر الحسن ابنه ووفقه للخير وأعانه عليه ونصره على أعداء الإسلام، هذان رجلان

= ثم قال: ثم وجدت للحديث طريقاً أخرى عن صهيب بسند صحيح، وشاهداً من حديث أبي لبابة بن عبد المنذر، وآخر من أمره ﷺ بهذا الدعاء وقد خرجت ذلك في «الصحيحة» (٢٧٥٩)». وانظر: «التعليقات الحسان» (٤/ ٣٣٨) رقم (٢٦٩٨)، «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٥).



قاما في وجه الفرنسيين مع كثرة جيوشهم وجيوش مستعمراتهم قالا لهم: نحن لا نرضى بالاستعباد، فإما حياة عزٍّ وإما موت شريف، كما قال المتنبي[(١)]:

عِشْ عَزيزاً أو مُتْ وأنتَ شريف[(٢)] ... بين طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البُنودِ[(٣)]

لَا كما قد حييتَ غيرَ حميدٍ ... وإذا مُتَّ مُتَّ غير فقيدِ[(٤)]

فبارك الله في ثورتهما وكانت سبباً في استيقاظ أهل المغرب من سباتهم، وشرعوا في الجهاد والنضال حتى طهروا بلادهم من استعباد الأجانب بعدما حكم الفرنسيون بلادهم ثلاثاً وأربعين سنة، والفضل لله، ثم لثورة الملكين المذكورين، لا لاستعانة المشركين بأهل القبور، والعجب من ذلك الشاعر البارع الذي يقول إن إدريس رَحِمَهُ اللَّهُ ملجأ القطر المغربي في العسر واليسر، والمسلمون لا ملجأ لهم إلا الله، قال تعالى في سورة التوبة في وصف الثلاثة الذين خلفوا، أي: أُخّر قبول توبتهم: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] وقال النبي ﷺ في الدعاء الذي يقال قبل النوم وهو في «الصحيح»[(٥)]: **«اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت»**.

فقد اتخذ ذلك الجهول إدريس شريكاً مع الله وحاشا لأهل المغرب أن يوافقوه على شركه وجهله، فإن منهم من يوحِّد الله تعالى ولا يشرك به شيئاً وإن كانوا اليوم قليلاً، فنرجو الله أن يكثرهم، وكيف يلجؤون إلى غير الله وهم

---

(١) في «ديوانه» (١/ ١٣٣، ١٣٤ ـ شرح الواحدي)، وهما ضمن قصيدة قالها في صباه وبينهما فيه بيت آخر.

(٢) في «الديوان»: «كريم».

(٣) جمع (بند)، وهو العَلَم الكبير، يقول: إما أن تعيش عزيزاً ممتنعاً من الأعداء، أو تموت في الحرب موت الكرام؛ لأن القتل في إكرام يدل على شجاعة الرجل، وكرم خلقه، وهو خير من العيش في الذل، قاله الواحدي.

(٤) يخاطب نفسه، فيقول: عش عزيزاً، أو مت في الحرب حميداً، ولا تكن كما عشت إلى هذا الوقت غير محمود فيما بين الناس، وإذا مت على فراشك في هذا الوقت مت غير مفقود؛ لأن الناس يجدون مثلك، فيستغنون عنك، ولا يبالون بموتك، فلا يذكرونك بعد موتك، قاله الواحدي.

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب.

يقرؤون قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]؟ وما أحسن قول مَن قال[1]:

يا مَنْ يرى ما في الضَّمِير ويسمعُ ... أنتَ المُعَدُّ لكلِّ ما يتوقَّعُ
يا مَنْ يُرجى للشّدائد كلِّها ... يا مَنْ إليه المُشْتَكى والمَفزَعُ
يا مَنْ خزائنُ رزقِه في قولِ كُنْ ... أُمْنُنْ فإنَّ الخيرَ عندكَ أجمعُ

هكذا ينبغي للمؤمن الموحِّد أن يقول وبالله يصول ويجول، ومن دواعي الأسف أن معنى الآية قد انعكس في هذا الزمان فصار الجهال والمشركون والمبتدعون يقولون بلسان حالهم وقالهم: إنما يعمر مساجد الله من أشرك بالله وخالف سنة رسول الله وابتدع في دين الله، فالدعوة إلى توحيد الله واتباع سنة رسول الله ﷺ ممنوعة في المساجد في المغرب والجزائر، إلا بإذن من حاكم البلد، وكم من شاب وكهل من الصالحين الدعاة إلى الله منع منها!!

وفي هذه الأيام كتب إلي أحد تلامذتي وهو عبد الواحد بادو، يقول: إنه فضل أن يكون معلماً في قرية ليبعد عما في المدن من الفجور، فصار معلماً في قرية بقرب مدينة الحاجب، وأخذ يلقي دروساً في مسجد القرية يعلم الناس فيها توحيد الله، فمنعه أمير القرية الذي يسمونه القائد، فجاءه العزل عقاباً من الله له لمنعه مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعيه في خرابها يترك الناس في البدع والشرك، قال: فلما عزل عدت إلى الوعظ في المسجد فمنعني نائب الأمير الذي يسمى عندهم الخليفة، فكتب إليه: اختر دكان واحد من الذين استجابوا لك واجعله مكاناً للدعوة، واقصد الأسواق مع بعض إخوانك ودور القهوة واتخذها مكاناً للدعوة، ولو أن أولئك الحكام يراقبون الداعي فإذا رأوه يدعو إلى فتنة أو ثورة منعوه، وإذا رأوه يدعو إلى توحيد الله واتباع سنة رسول الله ﷺ أعانوه ونصروه أو على الأقل كفوه شرهم فلا يناله منهم خير ولا شر، لعذرناهم **ولكنهم يتركون الدجاجلة يسرحون ويمرحون وينشرون الشرك والبدع، ولا يتعرضون لهم**

---

(١) هما لأبي القاسم السُّهيلي (ت٥٨١هـ)، أوردهما ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ٤٢٠، ط. دار أبي حيان) وأربعة أبيات أُخرى، وقال: «وله قصيدة كان يدعو الله بها، ويرتجي الإجابة فيها». ونعتها صلاح الدين الصفدي في «الوافي بالوفيات» (١٨/ ١٠٢) بـ«الأبيات المشهورة».

بسوء، وإنما يمنعون دعاة التوحيد والسنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨]

قال (ك): «أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام أن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنه عامئذ وأمره أن ينادي في المشركين: **«أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»**[(١)]. فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً، وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي، كتب عمر بن عبد العزيز: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[(٢)] الآية»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: هذا قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله وهو من رأيه واجتهاده وكذلك يقول المالكية: لا يجوز أن يدخل الكافر المسجد ولو أذن له المسلمون، وفي ذلك نظر، قال البخاري[(٤)] بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَل نَجْدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له: ثُمَامَة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي ﷺ فقال: **«أطْلِقوا ثمامة»**. فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/٥١٢)، والبيهقي (١٠/١٠٣) من طريقين عن عمر بن عبد العزيز بمعناه، وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١/٣٩٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، وعزاه إلى أبي الشيخ.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٧٣ ـ ١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٢، ٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤) بوب عليه البخاري برقم (٤٦٢): (باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضاً في المسجد) ـ واللفظ المذكور لفظه ـ وأعاده مختصراً شديداً برقم (٤٦٩)، وبوب عليه: (باب دخول المشرك المسجد)، وأعاده مختصراً برقم (٢٤٢٢) في كتاب الخصومات، وبوب عليه. (باب التوثق ممن تخشى معرَّتُه وبرقم (٢٤٢٣)، وبوب عليه، (باب الربط والحبس في الحرم).

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، هكذا ذكره البخاري في أحكام المساجد مختصراً[١]، وأخرجه في كتاب المغازي مطولاً، تحت ترجمة (باب وفد بني حنيفة وحديث ثُمامَة بن أثال)، قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة، يُقال له: ثُمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما[٢] **عندك يا ثمامة؟**»، فقال: عندي خير يا محمد، إنْ تَقْتُلْني تقْتُلْ ذا دم، وإنْ تُنْعِم تُنْعِم على شاكر، وإنْ كُنتَ تريد المال فَسَلْ منه ما شئت، فترك حتى كان الغَد ثم قال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**»، فقال: ما قلتُ لك: إنْ تُنعِم تُنْعِمْ على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغَد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي ما قلتُ لك. فقال: «**أَطْلِقُوا ثمامة**» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ، والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبح دينُك أحبَّ الدِّين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدِك، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ، وإنَّ خَيلكَ أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ وأمرَه أن يعتمر، فلما قدم مكة، قال له قائل: صبأت، قال: لا والله ولكنْ أسلمتُ مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبةُ حنطةٍ حتى يأذن فيها النبيُّ ﷺ».

قال الصنعاني في «سبل السلام على بلوغ المرام» ما نصه: «وفيه دليل على جواز ربط الأسير بالمسجد وإن كان كافراً، وإن هذا [تخصيص][٣] لقوله ﷺ: «**إن المسجد لذكر الله والطاعة**»[٤]، وقد أنزل وفد ثقيف في المسجد[٥]، قال

---

(١) برقم (٤٣٧٢) وهو عند مسلم (١٧٦٤).

(٢) كذا في «صحيح البخاري»، وفي الأصل: «ماذا»!

(٣) في مطبوع «السبل»: «مخصص».

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٥) من حديث أنس بنحوه.

(٥) أخرجه أحمد (٤/٢١٨)، وأبو داود (٣٠٢٦)، والطيالسي (٩٣٩)، وابن أبي شيبة (٣/١٩٧)، وابن خزيمة (١٣٢٨) من حديث عثمان بن أبي العاص، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو من رواية الحسن عن عثمان، وفي سماعه منه نظر، وانظر: «طبقات ابن سعد» (١/٣١٢ ـ ٣١٣)، «الضعيفة» رقم (٤٣١٩)، «زاد المعاد» (٣/٦٠٠ ـ ٦٠٢).

الخطابي(١): فيه جواز دخول المشرك إذا كان له فيه حاجة مثل أن يكون له غريم في المسجد لا يخرج إليه، ومثل أن يحاكم إلى قاض هو في المسجد، وقد كان الكفار يدخلون مسجده ﷺ ويطيلون فيه الجلوس، وقد أخرج أبو داود(٢) من حديث أبي هريرة أن اليهود أتوا النبي ﷺ وهو في المسجد.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فالمراد به لا يمكّنون من حج ولا عمرة كما ورد في القصة التي بعث لأجلها ﷺ بآيات براءة إلى مكة، وقوله: «**فلا يحججن بعد هذا العام مشرك**»(٣). وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة: ١١٤] لا يتم بها دليل على [تحريم المساجد على](٤) المشركين؛ لأنها نزلت في حق من استولى عليها وكانت له [القوة](٥) والمنعة كما وقع في سبب نزول الآية الكريمة، فإنها نزلت في شأن النصارى واستيلائهم على بيت المقدس، وإلقاء الأذى فيه والأزبال(٦)، أو أنها نزلت في شأن قريش ومنعهم له ﷺ عام الحديبية عن العمرة(٧) وأما دخوله من غير استيلاء ومنع وتخريب فلم تفده الآية الكريمة، وكأن المصنف ساقه لبيان جواز دخول المشرك المسجد، وهو مذهب إمامه فيما عدا المسجد الحرام»(٨).

فصل

قال محمد تقي الدين: نجاسة المشركين معنوية، فقد روى الشيخان(٩) عن

---

(١) في «معالم السنن» (١/ ٢٤٤ ـ مع «المختصر»).

(٢) أخرجه في «سننه» (٤٨٨) ومن طريقه البيهقي (٢/ ٤٤٤) **وإسناده ضعيف**، فيه رجل من مزينة، وهو مجهول، وضعفه شيخنا الألباني، وانظر: «ضعيف سنن أبي داود» (١/ ١٦٩ ـ ١٧٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) من «السبل» وسقط من الأصل.

(٥) في مطبوع «السبل»: «الحكمة».

(٦) ورد نحوه من مرسل ابن شهاب عند ابن المنذر، أفاده السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٦٧).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ رقم ١٠٠٢٢) **بسند صحيح من مرسل قتادة**، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ١٦٤) لابن المنذر.

(٨) انظر: «سبل السلام» (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦، ط. ابن الجوزي).

(٩) أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢) من حديث عمران بن حصين.

عمران بن حصين، أن النبي ﷺ وأصحابه توضؤوا من مزادة امرأة مشركة، وكذلك الخمر نجسة، اختلف العلماء في نجاستها، أهي حسية إذا أصابت ثوب رجل أو بدنه وجب عليه أن يغسلها أم نجاستها معنوية، وهي ما فيها من السكر الذي يذهب بالعقل وتنشأ عنه جرائم كثيرة؟ وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

فقد سمى الله تعالى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجساً، الثلاثة المذكورة مع الخمر نجاستها معنوية بالاتفاق، فكذلك الخمر لأنه سبحانه علل تحريم هذه الأشياء الأربعة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١] فالخمر والميسر تعاطيهما تنشأ عنه العداوة والبغضاء والتشاجر والتقاتل، والأنصاب شرك، والأزلام طلب لمعرفة الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فسبب نجاسة المشركين هو الشرك، فلا يجوز لهم دخول مكة ولا ينبغي أن يعمروا المساجد مع شركهم كما تقدم في الباب الذي قبل هذا.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣٣]

قال (ك): «هذه مقالة شنيعة وفرية عظيمة على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزير: إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما ضلال النصارى في

المسيح، فظاهر، ولهذا كذّب الله الطائفتين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادعوه، سوى افترائهم واختلاقهم[١] ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يشابهون ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل.

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير[٢] من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: «أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ، وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم! فقال: «**بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»، وقال رسول الله ﷺ: «**يا عدي ما تقول؟ أيفرُّك[٣] أن يقال، الله أكبر، فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يُفِرُّكَ[٤] [أيفرُّك][١] أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟**»، ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «**وإن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون**»[٥].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «واختلافهم» بالفاء!

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وابن جرير في «تفسيره» (١١/٤١٧) **والحديث حسن بطرقه المتعددة**، وقد سبق تخريجه مفصلاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «أيضرك»!

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «يضرك».

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٥٣)، وأحمد (٤/٣٧٨)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (١/١٠٤، ط. الخلفاء)، وابن أبي حاتم (٤٠، ٤١)، وابن جرير (١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩)، وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦، ٧٣٦٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧/رقم ٢٣٦، ٢٣٧)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٤/١١١) **والحديث حسن بمجموع طرقه وشواهده**، وحسنه شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ، وتقدم تخريجه =

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا»(١)، وقال السدي: «استنصحوا الرجال [ونبذوا](٢) كتاب الله وراء ظهورهم»، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد، والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآية، يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما بعث به

= والكلام على طرقه، والحمد لله وحده.

(١) بهذا اللفظ ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (رقم ١٨٦١)، وبنحوه رواه سفيان الثوري في «تفسيره» (١٢٤ رقم ٣٣٣)، وعن عبد الرزاق (٢/ ٢٧٢)، والطبري (١٠ ٨١٥١٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٨٤ رقم ١٠٠٥٨) في «تفاسيرهم»، وابن عبد البر (رقم ١٨٦٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٦٧)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ١١٦)، وفي «المدخل» (٢٥٨ و٢٥٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٤) من طريق الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري عن حذيفة.
وتابع الأعمش: العَوَّامُ بن حوشب، أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٥/ ٢٤٥ رقم ١٠١٢)، وابن جرير (١٤/ ٢١١ رقم ١٦٦٣٦، ط. شاكر) وعطاءُ بن السائب، أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢١٣ رقم ١٦٦٤٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٥ رقم ٩٣٩٤، ط. دار الكتب العلمية) من طريق سفيان عن عطاء به.
ورجاله ثقات لكنه منقطع، أبو البَخْتَري سعيد بن فيروز الطائي لم يسمع من حذيفة؛ قال ابن سعد في «طبقاته» (٦/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣): «وكان أبو البختري، كثير الحديث، يرسل حديثه، ويروي عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يسمع من كبير أحد، فما كان من حديثه سماعاً فهو حسن، وما كان عن فهو ضعيف». قلت: وأرسل عن حذيفة كما في «تهذيب الكمال» (١١/ ٣٢ ـ ٣٥)، وعزاه في «الدر» (٣/ ٢٣١) أيضاً للفريابي، وابن المنذر وأبي الشيخ.
ورواه جماعة عن عطاء عن أبي البختري قوله، أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٣)، وابن جرير (١٤/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم (١٦٦٣٧)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ١٧٩ ـ ١٨٠) **وإسناده حسن**. وهو في «تفسير مجاهد» (ص٢٧٦) عن آدم بن أبي إياس عن ورقاء قوله.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتركوا».

رسول الله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك، كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخة، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى: مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمّي الليل كافراً؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً؛ لأنه يغطي الحب في الأرض، كما قال: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ فالهدى[1]: ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصالح[2] والعلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾: هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على سائر الأديان كما ثبت في «الصحيح»[3] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: انظر إلى كرم النبي ﷺ ورحمته، وإنزال الناس منازلهم، لم يكتف عليه الصلاة والسلام بإطلاق سراح هذه الأميرة، بل أكرمها وأعطاها؛ لأنها ابنة رجل مشهور بالكرم، وهو: «حاتم الطائي»، يضرب به المثل في الجود، وكذلك أطلق رسول الله ﷺ من معها من الأسارى بدون فدية، فانطلقت إلى أخيها عدي، وأخبرته بما رأت من الأخلاق الكريمة، والشمائل العظيمة، فكان ذلك سبباً في إتيانه إلى النبي ﷺ وإسلامه، وفوزه بصحبة النبي ﷺ.

تلك السعادة إن تُلِمَّ بساحها ... فحط رحلك قد عوفيت من تعس

وفي رواية: إن النبي ﷺ لما رأى الصليب في عنق عدي قال له: «**ألق**

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٧٨ ـ ١٨٠).

عنك هذا الوثن»[1]، فعلم بذلك أن كل شيء عبد من دون الله أو حمل للتبرك به فهو وثن، فالقباب التي يعبدها المشركون، والقبور التي تعبد والأشجار والمياه والأحجار كلها أوثان، وقد قال النبي ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[2]. رواه مالك في «الموطأ»، وإنما نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ المساجد عند القبور، لعلمه أنّ تحرّي العبادة عندها يفضي إلى اتخاذها أوثاناً تعبد من دون الله، كما هو مشاهد في هذا الزمان، ثم انظر إلى قول النبي ﷺ: «**فذلك عبادتهم**»، يعني: إن من جعل الحكم لشخص يحلل ويحرم برأيه، ولا يطالب بدليل من الكتاب والسنة، فقد عبده، قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ـ وهو شرحه لخمسين حديثاً من جوامع الكلم ـ: «قال ابن هبيرة: «من مكايد الشيطان أن يقيم أوثاناً في المعنى تعبد من دون الله مثل أن يتبين لأحدهم الحق، فيقول ليس عليه مذهبنا، تعظيماً لمقلَّد ـ بفتح اللام عنده ـ قد قدمه على الحق»[3]. انتهى.

فالتحليل والتحريم والإيجاب والاستحباب والكراهة إذا قيَّدها المتعصِّب بالمذهب، ولم يبال بمخالفة الدليل عن النبي ﷺ، فقد اتخذ ذلك المذهب وثناً معنوياً يعبده من دون الله؛ لأن المذهب مجموع آراء رجال المذهب، وليس بقبة ولا شجر ولا حجر، ولكن لما جعل معياراً للحكم صار وثناً معنوياً، يدرك بالعقل، وهكذا يقال فيمن أطاع حزبه في معصية الله تعالى، أو ترك الفرائض التي شرعها الله تعالى، فذلك الحزب وثن يعبده، والحاصل: أن الحكم لا يكون إلا لله، ومن جعله لغير الله فقد أشرك.

ومن أمثال ذلك أن أهل المغرب الذين ينتسبون إلى المذهب المالكي يذبحون الذئاب ويأكلونها؛ لأنهم يزعمون أن أكل كل ذي ناب من السباع ـ كالكلب والذئب والثعلب والنمر والأسد ـ وكل ذي مخلب من الطير ـ كالغراب

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢) رقم (٢١٨، ٢١٩)، وابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٨١) وقد ذكرت طرقه وخرجته فيما مضى، والحمد لله وحده.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لم أظفر به في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، ومررت به جميعاً، ونظرتُ في أكثر من طبعة! وظفرت بمقولة ابن هبيرة في كثير من كتب الأصول. انظر ـ على سبيل المثال ـ: «شرح الكوكب المنير» (٤/ ٥٧٦)، وانظر ـ لزاماً ـ حول هذه المقولة ما سيأتي (٣/ ١٦٧).

والصقر والنسر والحدأة من سباع الطير ـ فيه ثلاثة أقوال في المذهب، ينسبونها إلى مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الإباحة، والكراهة التنزيهية، والحرمة، ويرجِّحون القولَ الثاني، وهو: «الكراهة» التنزيهية، ويزعمون أنه المشهور في المذهب المالكي[١]، فمن ترك أكل السباع المذكورة أثيب على تركه، ومن أكل لحومها فلا شيء عليه ولا يأثم، وقد روى مالك في «الموطأ» عن النبي ﷺ أنه قال: **«كل ذي ناب من السباع حرام»**[٢]، وكيف يروي مالك هذا عن النبي ﷺ ثم يقول بالإباحة أو الكراهة التنزيهية؟ وهذا طعن في تمسك مالك بالسنة، والصحيح كما قاله ابن عبد البر: «إن مالكاً وسائر الأئمة يقولون بتحريم أكل لحوم السباع»[٣]، قال ابن تيمية الجد في «منتقى الأخبار»[٤] ما نصه:

١ ـ عن أبي ثعلبة الخشني: إن رسول الله ﷺ قال: **«كل ذي ناب من السباع فأكله حرام»**[٥]، رواه الجماعة إلا البخاري وأبا داود.

٢ ـ وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مِخْلَب من الطير»[٦]، رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي.

٣ ـ وعن جابر قال: «حرم رسول الله ﷺ ـ يعني: يوم خيبر ـ لحوم حمر الأنسية، ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مِخْلَب من الطير»[٧]، رواه أحمد والترمذي.

---

(١) انظر تفصيل المسألة في: «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (٤/ ٣٧٨) وتعليقي عليه.

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٩٦) باب، تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، والبخاري (٥٥٣٠)، ومسلم (١٩٣٢) كلهم من حديث أبي ثعلبة الخُشني.

(٣) انظر: «الاستذكار» (٥/ ٥١٢ ـ ٥١٣، ٥١٥، ط. النداء).

(٤) (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢، ط. ابن الجوزي، ٨/ ١١٦ ـ مع شرحه «النيل»).

(٥) أخرجه مالك (٢/ ٤٩٦)، ومسلم (١٩٣٣)، والنسائي (٧/ ٢٠٠) وابن ماجه (٣٢٣٣)، وأحمد (٢/ ٢٣٦) من حديث أبي هريرة بهذا اللفظ، وتقدم قريباً لفظ أبي ثعلبة.

(٦) أخرجه مسلم (١٩٣٤)، وأبو داود (٣٨٠٥)، والنسائي (٧/ ٢٠٦)، وابن ماجه (٣٢٣٤)، وأحمد (١/ ٢٤٤، ٢٨٩، ٣٠٢).

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٣)، والترمذي (١٤٧٨)، والطحاوي في «المشكل» (٣٠٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٣٧٠٤) من طريق عكرمة عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن عن جابر.

وظاهر إسناده أنه حسن، إلا أن عكرمة يخطئ في أحاديث كثيرة عن يحيى، ولعل هذا منها. =

٤ ـ وعن العِرباض بن سارية: «إن رسول الله ﷺ، حرَّم يوم خيبر كل ذي مِخْلب من الطير، ولحومَ الحُمُرِ الأهليَّة، والخَلِيسَة والمجَثَّمة»[١]، رواه أحمد والترمذي وزاد في رواية: قال أبو عاصم: المجثمة: أن ينصب الطير فيُرمى، والخَلِيْسَة: الذئب أو السبع يدركه الرجل فيأخذ منه، يعني: الفريسة، فتموت في يده قبل أن يذكيها.

قال الشوكاني في «نيل الأوطار»[٢] بعد ذكر الأحاديث المتقدمة: «وذو الناب من السباع، كالأسد، والذئب، والنمر، والفيل، والقرد، وكل ما له ناب يتقوى به ويصطاد، قال في «النهاية»[٣]، وهو: «ما يفترس الحيوان [ويأكل][٤] قسراً كالأسد والنمر والذئب ونحوها»، وقال في «القاموس»[٥]: «والسبع بضم الباء وفتحها، المفترس من الحيوان»». انتهى.

وقول (ك): «والكافر الذي يستر الشيء ويغطيه»، ولذلك سمى الكافر بالله تعالى الجاحد بما جاءت به رسل الله: كافراً؛ لأنه ستر الحق وغطاه بجحوده، قال لبيد في «معلقته»[٦]:

حتى إذا ألقتْ يَداً في كافرٍ وأَجَنَّ عوراتِ البيوت ظَلامُها

يريد بقوله: «ألقت يداً في كافر»: غروب الشمس فشبهها بإنسان وأثبت لها يداً، على طريق الاستعارة وجعل غروبها إلقاء يدها في الكافر وهو الليل، وقال لبيد[٧] أيضاً:

= ثم وجدتُ الترمذي يقول في «العلل الكبير» (ص٢٤١) بعد ذكره لهذا الحديث: «قال محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. فسألتُ محمداً ـ يعني إمام الدنيا البخاري ـ عن هذا الحديث؟ فقال: حديث أبي سلمة عن أبي هريرة أشبه، وعكرمة بن عمار يغلط الكثير في أحاديث يحيى بن أبي كثير».

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧)، والترمذي (١٤٧٤، ١٥٦٤) مقطّعاً والطبراني في «الكبير» (١٨/ رقم ٦٤٨، ٦٥٠، ٦٥١)، وفي «الأوسط» (٢٤٤٣) بسندٍ رجاله ثقات، وفيه أم حبيبة بنت العرباض، لم يرو عنها غير وهب بن خالد الحمصي، ولذا قال الترمذي عنه: «حديث عرباض حديث غريب».

(٢) (٨/ ١١٧، ط. إحياء التراث). (٣) (٢/ ٣٣٧ ـ سبع).

(٤) في مطبوع النهاية «ويأكله قهراً و». (٥) (ص٩٣٨ ـ سبع).

(٦) (ص٥٨١ ـ «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات») لأبي بكر بن الأنباري، وفيه: «الثغور» بدل «البيوت».

(٧) (ص٥٦٠ ـ «شرح القصائد السبع الطوال») وصدره: (يعلُو طريقةَ مَتْنها مُتواترٌ) =

في ليلةٍ كَفَر النُّجومَ ظلامُها

وقال الشاعر(١):

لي فيك أجرُ مجاهدٍ   إنْ صحَّ أنَّ الليلَ كافِرْ»

الباب السادس

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١]

قال (ك): «يعلم الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من حسنة ـ أي: فتح ونصر ـ وظفر على الأعداء مما يسرّه ويسرّ أصحابه ساءهم ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: قد احترزنا(٢) من قبل هذا ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُل﴾ أي: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئته(٣) وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: سيدنا وملجأنا، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، [وهو](٤) حسبنا ونعم الوكيل»(٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: جاء في الحديث: «**إن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر**»(٦). انتهى، فالعلماء يرثون الأنبياء في علمهم وعملهم وصبرهم، وتوكلهم

= وفيه «غمامُها» بدل «ظلامها».

(١) هو البهاء الزهير بن محمد المهلبي، والبيت في «ديوانه» (٦٤) وضمنه إبراهيم الجعبري في قصيدة بديعة طويلة له تراها في «نفحة الريحانة» (٤/ ٣٦٩).

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من متابعته».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مشيئة الله».

(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير».   (٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢١٤).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، والدارمي (١/ ٩٨)، والطحاوي في «المشكل» (١/ ٤٢٩)، وابن حبان (٨٨)، والبزار (١٣٦ ـ زوائده)، والبغوي (١٢٩)، والبيهقي في «الآداب» (١١٨٨)، =

واستعانتهم بالله على الأعداء، فكما أن المشركين والمنافقين كانوا يفرحون إذا أصابت النبي ﷺ وأصحابه ضراء، ويحزنون إذا أصابت النبي ﷺ وأصحابه سراء، فكذلك المشركون والمنافقون بعد زمانه عليه الصلاة والسلام، يعاملون ورثته المتبعين له، وينصبون لهم الحبائل، ويكيدون لهم المكايد، فإن أصاب الدعاة إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ شر فرحوا، وإن أصابهم فلاح ونجاح ساءهم ذلك وحزنوا، وهؤلاء الدعاة الحنفاء، نضر الله وجوههم، يقتدون بنبيهم، فيقولون لأعداء السنة وأعداء التوحيد: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ﴾ وناصرنا عليكم، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فنحن لا نتوكل إلا عليه ولا نستغيث إلا به وهو لا يضيع أحداً توكل عليه، وهذا واقع في كل زمان، نسأل الله أن يجعلنا من المخلصين في اتباع نبينا في العلم والعمل، ويرزقنا الصبر على ما يصيبنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الباب السابع

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمَۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٦]

قال (ك): «أخرج (أ) و(ه)[1] عن ابن المسيب عن أبيه قال: «لما

= والخطيب في «الرحلة» (٧٧ ـ ٧٨)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢) من حديث أبي الدرداء، وفي بعض أسانيده **ضعف**، وبعضها **حسن** في الشواهد، وللحديث شواهد **يتقوى بها**، قال الحافظ عنه في «الفتح» (١/ ٢١١): «**له شواهد يتقوى بها**»، وانظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ١١ ـ بتحقيقي)، و«إتحاف الخيرة» (١/ ٦٥).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**أي عمي، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله** ﷻ»، فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقال (أ) بسنده[(١)] عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أَوَلَمْ يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية».

قال (ك): «وقال (أ) وذكر سنده[(٢)] إلى ابن بريدة عن أبيه قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب، وفداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله ما لك؟ قال: «**إني سألت ربي** ﷻ **في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث، نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شئتم، ولا تشربوا مسكراً**».

وروى (ج) وذكر سنده[(٣)] إلى سليمان بن بريدة عن أبيه: «إن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه، فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً، فقلنا: يا رسول الله، إنا رأينا ما صنعت، قال: «**إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٩٩، ١٣١)، والطيالسي (١٣١)، والترمذي (٣١٠١)، والنسائي (٤/ ٩١)، وأبو يعلى (٣٣٥، ٦١٩)، والبزار (٨٩٣، ٨٩٤)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٧، ٩٣٧٨) **وإسناده حسن**.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٥)، ومسلم (٩٧٧) وخرجته بتفصيل في تعليقي على «أدلة معتقد أبي حنيفة» الطبعة الثانية، وهي مزيّدة ومنقحة، و«الحنائيات» رقم (٢٥٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٢٣)، وأحمد (٥/ ٣٥٩)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٣)، والترمذي (١٠٥٤)، والحاكم (١/ ٣٧٥، ٢/ ٦٠٥)، والنسفي في «القند» (١٢٤ ـ ١٢٥)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٨٩) من طريق سليمان بن بريدة، **وهو صحيح**.

فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي»، فما رئي باكياً أكثر من يومئذ». وروى ابن أبي حاتم[(١)] وذكر سنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه، ثم دعانا، فقال: **«ما أبكاكم؟»** فقلنا: بكينا لبكائك، فقال: **«إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة، إني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي»**، ثم أورده من وجه آخر ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: **«وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل علي ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، فأخذني ما كان يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»** ثم قال (ك) ما معناه: «ومن أغرب الأحاديث وأشدها نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب «السابق واللاحق» بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة **«إن الله أحيا أمه فآمنت ثم عادت»**[(٢)]،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٦) وعنه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٨٩)، والواحدي في «أسباب النزول» **وهو صحيح بمجموع طرقه**، وفصّلتُ ذلك في تعليقي على: «أدلة معتقد أبي حنيفة» (ص٧١ ـ ٧٢، ٨٠ ـ ٨١) لعلي القاري.

(٢) أخرج ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» رقم (٦٥٦)، ومن طريقه الخطيب في «السابق واللاحق» (٣٧٧ ـ ٣٧٨)، وعنه الجورقاني في «الأباطيل والمناكير» (١/ ٢٢٢)، والدارقطني وابن عساكر؛ كلاهما في «غرائب مالك» ـ كما في «لسان الميزان» (٤/ ٣٠٥) ـ، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «حجَّ بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلَّم حجة الوداع، فمرَّ بي على عقبة الحجون وهو باكٍ حزينٌ مغتمٌّ، فنزل، فمكث عنّي طويلاً، ثم عاد إليَّ وهو فرحٌ، فتبسَّم، فقلتُ له؟ فقال: **«ذهبتُ لقبر أمي، فسألتُ الله أن يُحيِيَها، فآمنتْ بي، وردَّها اللهُ ﷻ»**.

قال ابن الجوزي: «**موضوع بلا شك**: النقاش ليس بثقة، وأحمد بن يحيى ومحمد بن يحيى مجهولان، وقد كان أقوام يضعون أحاديث، ويدسُّونها في كتب المغفلين، فيرويها أولئك. وقال شيخنا أبو الفضل بن ناصر: هذا حديث موضوع، وأم رسول الله ﷺ ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة، ودُفنت هناك، وليست بالحَجُون».

وقال الجورقاني: «**هذا حديث باطل**».

ثم ذكر أقوال أهل العلم في تضعيف عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، ثم قال:

«عبد الوهاب بن موسى هذا متروك، وأحمد بن يحيى ومحمد بن يحيى مجهولان، ومحمد بن الحسن بن زياد هذا هو أبو بكر النقاش المقرئ؛ في حديثه مناكير بأسانيد مشهورة». =

وكذلك ما رواه السهيلي في «الروض»[(١)] بسند فيه جماعة مجهولون: «**إن الله**

= وقال الذهبي في «المغني في الضعفاء» (٢/ ٤١٣) في ترجمة عبد الوهاب بن موسى:
«عن عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، نكرة، والخبر: «أحيا الله لي أمي، فآمنت بي»، والسند ظلمة».
وقال في ترجمته في «الميزان» (٢/ ٦٨٤) ـ وأورد الحديث ـ:
«لا يُدرى مَن ذا الحيوان الكذاب؛ فإن هذا الحديث كذب مخالف لما صحَّ أنه عليه السلام استأذن ربه في الاستغفار فلم يأذن له».
وتعقَّبه الحافظ في «اللسان» (٤/ ٩١) فقال:
«تكلَّم الذهبي في هذا الموضوع بالظَّنِّ، فسكت عن المتَّهم بهذا الحديث، وجزم بجرح القوي».
وقال: «عبد الوهاب بن موسى ليس به بأس».
وذكر أن محمد بن يحيى معروف، له ترجمة جيِّدة في «تاريخ مصر» لابن يونس، والذي رماه الدارقطني هو أبو غزيَّة محمد بن يحيى الزهري، وأما أحمد بن يحيى؛ فلم يظهر من سند النقاش ما يتميَّز به.
ونقل في «اللسان» (٤/ ٣٠٥) عن ابن عساكر أنه قال فيه:
«هذا **حديث منكر** من حديث عبد الوهاب بن موسى الزهري المدني عن مالك، والكعبي مجهول، والحلبي صاحب غرائب، ولا يعرف لأبي الزناد رواية عن هشام، وهشام لم يدرك عائشة، فلعله سقط من كتابي: عن أبيه».
وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال: «ولم ينبِّه على عمر بن الربيع ولا على محمد بن يحيى ـ وهو أبو غزية ـ وهما أولى أن يُلْصَق بهما هذا الحديث من الكعبي وغيره».
وقال الذهبي في «أحاديث مختارة من موضوعات الجورقاني وابن الجوزي» رقم (٦٨):
«وبسندٍ وضع على هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة. . . (وساقه)».
وانظر: «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٢٦٦)، و«تنزيه الشريعة» (١/ ٣٣٢)، و«المقاصد الحسنة» (٢٥)، و«مختصر المقاصد» (٥١)، و«التمييز» (١١)، و«كشف الخفاء» (١/ ٦١)، و«تذكرة الموضوعات» (٨٧)، و«الغماز على اللماز» (٢٨).
وضعفه علي القاري في «أدلة معتقد أبي حنيفة» (ص٨٥ ـ بتحقيقي) وقال (ص٨٧):
«وهذا الحديث ضعيف باتِّفاق المحدِّثين؛ كما اعترف به السيوطي» وقال: فقول الشيخ ابن حجر المكي في «شرح الهمزية» [ص١٠١]: «هو حديث صحيح، صحَّحه غير واحد من الحفَّاظ»؛ مردود عليه، بل كذبٌ صريحٌ، وعيبٌ قبيحٌ، مسقطٌ للعدالة، وموهنٌ للرواية؛ لأن السيوطي ـ مع جلالته، وكمال إحاطته ومبالغته ـ في رسائل متعددة من تصنيفاته ذكر الاتفاق على ضعف هذا الحديث، فلو كان له طريق واحد صحيح؛ لذكره في معرض الترجيح»!!

(١) «الروض الأنف» (١/ ١١٣)، وانظر الهامش السابق، وتعليقي على كتاب «معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ» (ص٨٨ ـ ٩١) وتقديمي له (ص١٤ ـ =

أحيا له أباه وأمه فآمنا به»»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: بعث الله نبيه ورسوله ـ سيد ولد آدم محمداً ﷺ ـ رحمةً للعالمين، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، فضله على خلقه نعمة منه ورحمة وكرامة لمن آمن به واتبعه، ولم يجعله ملكاً يرث الملك من أبيه أو يورثه ذريته أو أقاربه، وقد أخطأ كثير من الناس خطأً فاحشاً في فهم هذا المعنى فقاسوا النبي ﷺ على الملوك والأمراء، فتعجبوا واستغربوا أن لا تشمل هذه الرحمة أقرب الناس إليه أباه وأمه وعمه أبا طالب، مع أنه كان للنبي ﷺ كالوالد الرحيم عندما مات جده عبد المطلب، وكان عمر النبي إذ ذاك عشر سنين، لم يزل يكرمه ويرعاه ويتحمل الشدائد من أجله، لما قاطعه أهل مكة لم يخذله أبو طالب ومن معه من بني هاشم، فإن قريشاً تعاهدوا وتقاسموا على مقاطعة بني هاشم وحصارهم، ومنعوا الطعام أن يصل إليهم، فبقي أبو طالب محاصراً في الشعب مدة طويلة هو ومن معه يقاسون الجوع والضيق وعداوة أهل بلدهم إلى أن فرّج الله عنهم، فسعى بعض أشراف مكة في تمزيق الصحيفة التي كتبتها قريش حين تعاهدوا على ذلك الجرم الفظيع[2]، ومع ذلك لم تشمله هذه الرحمة التي شملت

= ١٧) فتكلمت على جميع الأحاديث الواردة في هذا الباب، والله ـ وحده ـ الموِّفق للصَّواب.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٩٤ ـ ٢٩٧) بتصرف.

(٢) انظر الخبر مفصلاً في: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥١ ـ ٣٧٧)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٨)، وفي صحته عندي نظر، وثبت منه ما أخرجه مسلم (١٣١٤) (٣٤٤) من طريق الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى: «**نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر**»، وذلك إن قريشاً وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطَّلب، أن لا يُناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يُسلموا إليهم رسول الله ﷺ، يعني بذلك المحَصَّب.
ورجح ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٤٥٣) أن آخره مدرج من كلام الزهري، وهذا الذي حققه الخطيب البغدادي في كتابه النافع الماتع «الفصل للوصل» (٢/ ٦٥٧ ـ ٦٦٣).
وفي الباب من مرسل عكرمة، عند ابن سعد (١/ ٢٠٩) بإسناد رجاله ثقات، ومن مرسل عروة عند أبي نعيم في «الدلائل» (٢٢٦، ٢٤٩)، وفيه ابن لهيعة.
وفي الباب عند الطبراني (١٠/ ٢٧٥، ٢٨٩) وغيره بأسانيد لا تسلم من مقال، انظر: «المجمع» (٩/ ٢٧٥، ٢٧٦)، «اللسان» (١/ ١٧٢).

أهل الأرض ممن آمن بالنبي ﷺ؛ لأنه أبى أن يؤمن برسالة محمد ﷺ، ولم يكن شاكاً في صدقه فإنه قال في شعر له[(١)]:

واللهِ لَنْ يَصِلُوا إليكَ بِزَعْمِهِم ... حتى أُوَسَّدَ في التُّرابِ دَفِينَا
فاصدع بأمرِكَ ما عليك غَضاضةٌ ... فلقد صدقْتَ وكنتَ ثم أمينا
لولا الملامةُ أو حِذَارُ مسبَّةٍ ... لوجدتَني سَمحاً بذاكَ مُبينا

وقد جاءت قصة وفاة أبي طالب في «صحيح البخاري»[(٢)] وحرص النبي ﷺ على إيمانه وحزنه لما مات كافراً، وروى البخاري عن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليّي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلالها**»[(٣)]، انتهى، فولاية النبي ﷺ لأقاربه إنما جاءت من حيث إنهم من صالحي المؤمنين، لا للقرابة المجردة، فإنها وحدها لا تجعلهم أولياء النبي ﷺ، وإن وصل رحمهم بالإحسان إليهم؛ لأن صلة الرحم واجبة مع الأقارب، وإن لم يكونوا مسلمين، وأما ما روي من الحديث في إحياء الأبوين وإيمانهما بالنبي ﷺ، فهو باطل، إذ لا يصح في ذلك شيء[(٤)]، ولو فرضنا أنه ثبت في ذلك حديث وتجاوز درجة الوضع والنكارة إلى الضعف، ما ثبت به حكم ولا استطاع أن يقاوم حديث مسلم ولا أن يعارضه، وحديث النبي ﷺ لا ينقض بعضه بعضاً، بل ينصر بعضه بعضاً، وقد نظم بعضهم في هذا المعنى شعراً فقال:

حَبَا اللهُ النَّبيَّ مزيدَ فضلٍ ... على فَضلٍ وكان به رؤوفا
فأحيا أمَّه وكذا أباه ... لإيمانٍ به فَضلاً مُنيفا
فَسَلِّمْ فالقديرُ بذا جديرٌ ... وإنْ كان الحديثُ بهِ ضَعيفا

---

(١) انظر هذه الأبيات مع غيرها في «سيرة ابن إسحاق» (ص١٣٠ ـ ١٣١)، «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٦٩)، «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٨)، «البداية والنهاية» (٤/ ١٠٨ ـ ١٠٩، ط. هجر).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧٥) وتكلمتُ في تقديمي لكتاب علي القاري «أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ» (ص١٧ ـ ٣٤) بإسهاب على الأحاديث الواردة في إسلام أبي طالب ونجاته، وبيان وهائها والرد على القائلين بأنه أسلم!

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥).

(٤) سبق بيان ذلك قريباً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وقال آخر وهو أشد جهلاً من الأول:

أيقنتُ أنَّ أبا النَّبي وأمَّه ... أحياهما الربُّ الكريمُ الباري
حتَّى له شهدا بصدقِ رسالةٍ ... سَلِّمْ فتلكَ كرامةُ المُخْتَارِ
هذا الحديثُ ومَنْ يقولُ بضعفِه ... فهو الضَّعيفُ عن الحقيقةِ عاري

وقائل هذا الشعر من أجهل الجاهلين، فإنه أراد أن يعظم النبي ﷺ بتكذيبه وتكذيب جميع المحدِّثين، وكفى بذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال (ك): «وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآية: إن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله ﷻ عن ذلك، فقال: إن إبراهيم خليل الله ﷺ قد استغفر لأبيه فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ الآية، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية[1] فأمسكوا[2] عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينهوا عن أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية[3]، وقال قتادة في الآية: ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟، قال: فقال النبي ﷺ: «**بلى والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه**» فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾[4] حتى بلغ قوله: ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم ﵇، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «**قد أوحى الله إليّ[5] كلمات فدخلن في أذني ووقرن في قلبي: أمرت أن لا**

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فلما نزلت».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمسكوا».
(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٣٣)، والطحاوي في «المشكل» (٢٤٨٣) وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٨٩٣) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، **وإسناده حسن**، وعزاه في «الدر المنثور» لابن المنذر وابن مردويه أيضاً، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٦٠١).
(٤) أخرجه ابن جرير (١١/ ٤٣، ط. القديمة)، وهو مرسل لا يعرف لقتادة سماع من النبي ﷺ، بل قال الإمام أحمد: ما أعلم قتادة سمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا من أنس بن مالك، كذا في «جامع التحصيل» (٣١٢).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أوحي إليّ».

أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كفاف».

وروى ابن جرير[(١)] عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن زامل[(٢)] عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه، قلت: ولأبيه، قال: لا، قال: إن أبي مات مشركاً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقال ابن عباس وكثير من السلف ـ مثل قتادة والضحاك ـ: «ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه»، وفي رواية: «لما مات تبين له أنه عدو لله»[(٣)]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال سفيان الثوري عن ابن مسعود[(٤)] «الأواه: الدَّعّاء». وقال آخرون: الأواه هو الرحيم»[(٥)].

قال محمد تقي الدين: وصف الله إبراهيم بالحلم بأنه حلم عن أبيه لما آذاه بقوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٧] واستمر يستغفر له إلى أن مات على الشرك، فترك الاستغفار له، ﴿وَمَا كَانَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ٢٨). **وإسناده ضعيف**، وفيه عصمة بن زامل مجهول الحال، انظر: «التاريخ الكبير» (٧/ ٦٤)، و«الجرح والتعديل» (٧/ ٢٠).

(٢) كذا في مصادر التخريج، وفي الأصل: «أوائل»!

(٣) أخرجه سفيان الثوري في «تفسيره» (ص١٢٧) وابن جرير (١٢/ ٣٠، ٣٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٤، ١٨٩٥)، والفريابي وابن المنذر وأبي الشيخ والضياء في «المختارة»، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٥) من طرق عن ابن عباس، وبألفاظ متقاربة، وهو **صحيح** عنه.

وهو عند ابن جرير (١٢/ ٣١) عن قتادة والضَّحاك. وعلقه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٥) عن مجاهد، ووصله بسنده عنه ابن جرير (١٢/ ٣٠). وأسنده ابن جرير (١٢/ ٣١) عن الحاكم بن عتيبة وعمرو بن دينار.

(٤) كذا في الأصل! والذي عند ابن كثير: «قال سفيان الثوري وغير واحد: عن عاصم بن بهدلة: عن زر بن حبيش: عن ابن مسعود به».

قال أبو عبيدة: أخرجه من هذا الطريق: ابن وهب في «الجامع» (تفسير القرآن) (٢/ ٨٢، ١٠٠) (رقم١٥٥، ١٩٤)، وابن جرير (١٢/ ٣٤)، والطبراني (٩٠٠٤)، وابن المنذر وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٥). **وهذا إسناد حسن**.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٩٨ ـ ٣٠١) بتصرف.

ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ الآية، قال (ج): «يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا[١]، فأما قبل أن يبين لكم كراهة[٢] ذلك بالنهي عنه، ثم تتعدوا[٣] نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال؛ لأن[٤] الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، فأما من لم يؤمر ولم ينه، فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه»[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾ قال (ج): «هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا[٦] بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا[٧] يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه»[٨].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ من آيات توحيد الربوبية، فهو سبحانه مالك متصرف في عباده وليس لهم ولي يتولونه فتنفعهم ولايته، ولا نصير يستنصرونه فينصرهم، فمن استنصر غير الله ضل وأصابه الخزي في الدنيا والآخرة، ومن استنصر الله وحده وأطاعه واتبع رسوله ﷺ وحكّم شرعه انتصر وعز، ولذلك نرى المسلمين في هذا الزمان ضعفاء أذلاء؛ لأنهم لم يستنصروا الله وحده، بل طلبوا النصر من غيره، فأذلهم قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «الانتهاء عنه».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «كراهية».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن جرير»، وفي الأصل: «فلم تضيعوا»!.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن جرير»، وفي الأصل: «فإن»!.

(٥) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٢/ ٤٦ ـ ٤٧).

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وأنهم يثقون»!.

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ولم»!.

(٨) انظر: «تفسير ابن جرير» (٧/ ٣٠٤).

﴿ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٦٠﴾ [آل عمران: ١٦٠].

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١١٨﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]

قال (ك): «قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء[١]. قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد، فأصابهم[٢] فيها جهد شديد حتى ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم[٣]. وقال (ج) بسنده عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطش فظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله ﷻ قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال: **«تحب ذلك؟»** قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت، ثم سكنت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[٤]. وقال

(١) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٥١).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أصابهم».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٩)، وابن جرير (١٢/ ٥١)، وابن المنذر وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٨٦).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٢)، وابن خزيمة (١٠١)، والفريابي في «الدلائل» =

ابن جرير(١) في قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: «من النفقة والظهر والزاد والماء».

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: عن الحق ويشك في دين الرسول(٢) ﷺ ويرتاب للذي(٣) نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم(٤) ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقوا الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»(٥).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية، قال (ك): «قال الإمام أحمد بسنده(٦) إلى عبيد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ـ قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزوة(٧) تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم(٨) على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا(٩) على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها وأشهر.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت

= (٤٧)، وابن حبان (١٣٨٣)، والحاكم (١/ ١٥٩)، والبزار في «مسنده» (٢١٤ أو ١٨٤١ ـ زوائده)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٢)، والبيهقي (٩/ ٣٥٧) وفي «الدلائل» (٥/ ٢٣١)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٥٢) وقال ابن كثير في «السيرة» (٤/ ١٦): «**إسناده جيد ولم يُخرجوه من هذا الوجه**»، وانظر: «العلل» للدارقطني (٢/ ٨٣ ـ ٨٤).

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٩).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسول الله».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالذي».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سفره وغزوه».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٦ ـ ٤٥٩)، والبخاري (٢٧٥٧)، ومسلم (٢٧٦٩).
(٧) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «غزاة».
(٨) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عدوه».
(٩) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «توافقنا».

قبلها راحلتين قط حين[1] جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفاوز وعدداً[2] كثيراً، جلى[3] للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه[4] ما لم ينزل فيه وحي من الله ﷻ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال[5]، وأنا إليها أصعر، فتجهز رسول الله ﷺ والمؤمنون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر[6] بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز[7] بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعدما فصلوا[8] لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممتْ أن أرتحل فألحقهم ـ وليتني[9] فعلت ـ، ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد [خروج][10] رسول الله ﷺ.

[فطفت فيهم][10] يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله جل وعلا، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: **(ما فعل كعب بن مالك)**؟ فقال رجل من بني

---

(١) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «حتى».
(٢) كذا في الأصل! وفي مطبوع «التفسير»: «واستقبل مفاوز وعدواً...».
(٣) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «فجلى».
(٤) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «له».
(٥) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «الظل».
(٦) كذا في الأصل! وفي مطبوع «التفسير»: «شمر» وهو أصوب.
(٧) كذا في الأصل، وفي مطبوع «التفسير»: «الجهاز».
(٨) كذا في مطبوع «التفسير» وهو الصواب، وفي الأصل: «وصلوا»!
(٩) كذا في الأصل! وفي مطبوع «التفسير»: «أرتحل فأدركهم وليت أني...».
(١٠) سقطت من الأصل، وأثبتها من المصادر.

سلمة: حبسه يا رسول الله برده والنظر إلى عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حصرني بني[(١)]، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه.

فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «**تعالَ**» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهراً**[(٢)]؟» فقلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت [جدلاً][(٣)]، ولكني والله لقد علمت، لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه: إني لأرجو عقبى ذلك من الله ﷻ، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك**».

فقمت وقام[(٤)] إلي رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة.

---

(١) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «حضر بني»!! وعند البخاري: «حضرني همِّي».
(٢) كذا في الأصل، وفي مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ظهرك»!
(٣) سقطت من الأصل، وأثبتها من المصادر.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وبادرني».

قال: فمضيت حين ذكروهما لي، فقال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي: أَحَرَّكَ شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسوَّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحبُّ الناس إلي، فسلَّمتُ عليه، فو الله ما ردّ علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم، قال:

ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوَّرت الجدار، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نواسك، قال: قلت حين قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيمّمتُ به التنور فسجرته به.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول: يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلّقها أم ماذا أفعل؟ فقال: [بل][1] اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربك[2]، قالت: وإنه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله ما زال يبكي منذ

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يقربنك»!

كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته، وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشرك[1] يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله ﷻ بالتوبة علينا.

فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلي رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم، وأولى[2] على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته لي، والله ما أملك يومئذٍ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم[3] رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤونني بتوبة الله، يقولون: ليهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ، قال وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**». قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لا، بل من عند الله**». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». قال: فقلت: فإني

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أبشر». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأوفى».
(٣) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أروم»!

أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت.

قال: والله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله ﷻ فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩] إلى آخر الآيات.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذٍ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦] قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخلّفنا[1] عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه».

وهذا حديث صحيح ثابت، متفق على صحته رواه صاحبا «الصحيح»، البخاري ومسلم[2] من حديث الزهري بنحوه.

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب، وفي الأصل: «ذكره لما خلفنا تخليفنا»! ولا معنى له!

(٢) سبق تخريجه.

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وقوله في الحديث: **«فسموا رجلين شهدا بدراً»** [قيل: خطأ من الزهري، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً](١). والله أعلم، ولمّا ذكر تعالى ما فرَّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي: مع سعتها فسدت(٢) عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون إلى(٣) ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا، حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم، وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.

وقد أخرج (أ) (ق) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»**(٤). وقال شعبة: عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه أنه قال: «الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾»(٥) قال: مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل، ولا يستقيم السياق إلا به.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسددت».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٤)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٦)، وعبد الرزاق (٢٠٠٧٦)، وأحمد (١/ ٤١٠)، وأبو يعلى (٥٣٦٣). ووكيع في «الزهد» (٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠١)، وابن المبارك في «الزهد» (١٤٠٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٩١)، وهناد (١٣٦٩)، وسعيد بن منصور (١٠٤٨)، وابن جرير (١٢/ ٦٩، ٦٩ ـ ٧٠) وفي «تهذيب الآثار» (٢٥٠ ـ ٢٥٥ ـ مسند علي)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠٦)، وابن عدي (١/ ٤١)، والطبراني (٨٥١٨، ٨٥٢٥)، والبغوي (٣٥٧٥)، =

وأصحابهما، وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله: «**أقفلهم من غزوتهم**» أي: ردهم سالمين، يقال: قفلت من سفري، أي: رجعت، وقوله: «**الظهر**»، المراد به ما يركب، وكانت مراكبهم الإبل التي يركبونها، وهذا من تسمية الشيء بجزئه، ويسمى مجازاً مرسلاً، وقوله: «**ما أحب أن لي بها مشهد بدر**» معناه: لو خيرت بين أن أشهد العقبة وأحرم من بدر أو أن أشهد بدراً وأحرم العقبة، لفضلت بيعة العقبة على غزوة بدر، وقوله: «**ورّى بغيرها**»، معناه كان النبي ﷺ إذا أراد أن يغزو ناحية، كمكة مثلاً، يسأل أصحابه عن طريق نجد، حتى يظن الناس أنه يريد التوجه إلى المشرق، وهو يريد التوجه إلى المغرب خوفاً من أن يطلع المنافقون وضعاف الإيمان على الجهة التي يريد غزو أهلها فيبعثوا إليهم من يخبرهم، فهذا معنى التورية. وهي في علم البلاغة: ذكر لفظ يحتمل معنيين فيذكره الشاعر أو الناثر ويريد أحد المعنيين، مثال ذلك قول الشاعر:

خَاطَ لي عَمرو قَباءً ... لَيتَ عَينَيه سواءا

وكان عمرو المذكور في هذا الشعر أعور فقوله: «ليت عينيه سواء» يحتمل أنه أن يكون مبصراً بالعينين كلتيهما، ويحتمل أن يتمنى له أن تكون العينان عمياوين كلتيهما[(٢)].

= والبيهقي في «الشعب» (٤٧٨٩، ٤٧٩٠)، **وإسناده صحيح.**

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٠٦ ـ ٣١٤).

(٢) ذكره ابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ) في كتابه «تحرير التحبير» (٥٩٦ ـ ٥٩٧) ضمن (الإبهام) وعرفه بقوله: «أن يقول المتكلم كلاماً يحتمل معنيين متضادين، لا يتميّز أحدهما على الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهام الأمر فيهما قصداً». بينما ذكر (٢٦٨) (التورية) وعرفه بقوله: «أن تكون الكلمة تحتمل معنيين، فيستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر، ومراده ما أهمله لا ما استعمله». وذكر البيت هكذا:

جاء من زيدٍ قَباءُ ... ليت عينيه سواءُ

وأورد قصة طريفة. هي:

ومثاله ما حُكِي أنَّ بَعض الشعراء هنّأ الحَسَن بن سهل بصهْر المأْمون مع من هنّأه، فأثاب الناس كلَّهم وحَرَمه، فكتب إليه: إن أنت تماديت على حرماني عملت فيك بيتاً لا يعلم =

وقوله[1]: **«فأنا إليها أصعر»**، معناه: أميل من الميل وهو الحب، أي: غلب علي حب الظلال والثمار وكرهت نفسي أن تتركهما وتخرج إلى القتال والعطش والحر والجوع. وقوله: **«بأحسن الوجوه وأبسطها»**؛ أبسطها: أوسعها كما قال تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] والجهال من أهل هذا الزمان يعبرون بالأبسط عن الأسهل، وبالبسيط عن السهل أو القليل، ويزيدون على ذلك جهلاً فيقولون: بسَّط الشيء بتشديد السين، بمعنى سهله، ويقولون: قواعد النحو المبسطة، وكل ذلك ضلال[2]، فإن بسّط بالتشديد، معناه: كثرة التوسيع، كقتل وقتّل بالتشديد.

= أحدٌ مدحتك فيه أم هجوتك؟ فاستحضره وسأله عن قوله، فاعترف، فقال: لا أعطيك أو تفعل، فقال (مجزوء الخفيف):

بَــارَكَ الــلّــه لِــلْــحَــسَــن ولــبُــورَانَ فــي الــخَــتَــنْ
يَــا إمَــام الــهُــدى ظَــفِــر تَ ولَــكِــن بِــبِــنْــتِ مَــنْ؟

فلم يعلم أراد بقوله: «ببنْتِ من» في الرّفعة أو في الضّعة، فاستحسن الحسن منه ذلك، وناشده، أسمعت هذا المعنى أم ابتكرته؟ فقال: لا والله، إلا نقلته منْ شعر شاعر مطبوع كان بعث به، ففصّل قباء عند خيّاط أعوَر اسمه زيد، فقال له الخياط على طريق العبث به: سآتيك به لا يدرى أقباء هو أم دُوّاج. فقال الشاعر: لئن فعلت لأعملنّ فيك بيتاً لا يعلم أحد ممن سمعه أدعوت لك فيه أم دعوت عليك؟ ففعل الخيّاط، فقال الشاعر (مجزوءُ الرمل):

جَــاءَ مِــن زَيــدٍ قَــبَــاءُ لَــيْــتَ عَــيْــنَــيْــهِ سَــواءُ

فما علم أحد هل أراد أن الصّحيحة تساوي السّقيمة أو العكس، قال: فاستحسن الحسن صدقه، أضعاف استحسانه حذْقه، وأضعف جائزته.

قال أبو عبيدة: الشاعر هو محمد بن حازم الباهلي، كما تراه مع قصتنا في «خزانة الأدب» (٧٩) لابن حجة، و«نهاية الأرب» (٧/ ١٧٤)، «معاهد التنصيص» (٢/ ١٢٩)، «أنوار الربيع» (١٣١).

(١) في الأصل: «ويقول»!

(٢) استخدام (البساطة) و(التبسيط) بمعنى (التسهيل) من الأخطاء الشنيعة، وقولهم: مسألة بسيطة، هذا شيء بسيط، تكلم ببساطة، وهذا لا يعتقده إلا البسطاء، خطأ، قال صاحب «اللسان»: «ورجل بسيط: منبسط بلسانه، وقد بسطه بساطة. الليث: البسيط: المنبسط اللسان، والمرأة بسيط، ورجل بسيط اليدين: منبسط بالمعروف، وبسيط الوجه: متهلل، وجمعها: بسط».

قلت: فقد رأيت أن (البساطة) لا تدل على ما يريد المؤلفان بها، وذلك بعيد عن استعمال العرب، بل هو ضده؛ لأنّ البسيط في اللغة، هو الواسع، ومن أجل ذلك =

قال محمد تقي الدين: يجب علينا أن نفكر كثيراً في هذا النوع من العقاب الذي عاقب به رسول الله ﷺ هؤلاء الثلاثة فإنه عقاب صارم شديد[1]، ولكن

= سميت الأرض (البسيطة)؛ لسعتها.
وأصل هذا الخطأ آتٍ من اصطلاح الأطباء في تسميتهم الدواء الذي هو من مادة واحدة (بسيطاً)، ويقابله (المركب) الذي يتألف من أجزاء، كل جزء من مادة، وقد استعمله الفلاسفة ـ أيضاً ـ، فقسموا الجهل إلى قسمين: (جهل بسيط)، و(جهل مركب)، والأول: أن يكون الشخص جاهلاً، ويعلم أنه جاهل. وقولهم: (بسيط)، و(بساطة) ترجمة للكلمة الأجنبية (Simple)؛ يراد به: شيء سهل غير مركب، غير معقد، وأخذ منه كثير من الناس (بسّطه) ـ بتشديد السين ـ: جعله بسيطاً؛ أي: سهلاً غير معقد، أو قليلاً، أو حقيراً، وكل ذلك خطأ شهير، وضلال مبين، أفاده المصنف في كتابه القيم. «تقويم اللسانين» (ص٣٢ ـ ٣٤، ١٢٥ ـ ١٢٦).

(١) هو هجر إيجابي زاجر، ويدخل فيه في نظري وتقديري (المقاطعة الاقتصادية) للبلاد التي تسيء للإسلام والمسلمين، فإن (الترك فعل) على الراجح عند الأصوليين، شريطة التأثير الذي يقدره أهل الخبرة، فالمقاطعة معقولة المعنى واستخدامها مشروع ـ بل مطلوب ـ فيما ينفع المسلمين، أو يرفع الأذى عنهم، أو إن ترتب عليها زوال المنكر أو تنقيصه، ولعله تصل للوجوب، لا سيما إن كان أولياء الأمور يأذنون بذلك، وصرح بمشروعيه هذه الصورة: فضيلة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز واللجنة الدائمة للإفتاء ترى ذلك في «فتاواها» (فتوى رقم ٢١٧٧٦).
ووجدت كلمة جيدة للعلامة السلفي محب الدين الخطيب، كتبها في افتتاحية العدد (١٧٥) من مجلته القيمة «الفتح» بتأريخ ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ ـ الموافق ٢٨ نوفمبر ١٩٢٩، وهي بعنوان (المقاطعة أمضى سلاح بأيدي عرب فلسطين) ومما قال فيها:
«المقاطعة عنوان الرجولة والحزم، والأمة التي تثبت على مقاطعة من يسيء إليها تشعر الأمم كلها بالحرمة لها، وفي مقدمة من يحترمها أعداؤها.
وبالمقاطعة تعرف الأمة مواطن ضعفها، وتنتبه إلى ما ينقصها في صناعاتها وتجاراتها.
فالصنف من أصناف الحاجيات إذا كان لا يستحضره من مصادره غير اليهود؛ فإن العرب سيشعرون بحاجتهم إلى من يتقدّم منهم لاستحضاره من مصادره، فيعظم إقبال الوطنيين على بضاعة أخيهم الوطني؛ الذي يأتيهم بما لا يوجد منه إلا عند أعدائهم، وبذلك يسد حاجتهم ويستفيد من إقبالهم على سلعته.
والمقاطعة ستنبه الأمة إلى ما هو أعظم من ذلك، فبعد أن يكون المتجرون بالكبريت ـ مثلاً ـ من اليهود دون غيرهم؛ يبادر إلى الاتجار بهذا الصنف تجار من العرب، ثم تخطو الأمة خطوة أخرى فتؤسس مصنعاً وطنياً للكبريت. ومتى تقدمت الأمة خطوات متعددة في سبيل الاستقلال الاقتصادي؛ كان لها من ذلك شهود عدول على كفاءتها للاستقلال القومي والسياسي.
وقبل أن تكون المقاطعة طريقاً إلى الاستقلال الاقتصادي والسياسي، فهي طريق إلى =

. . . .

= النضوج الأخلاقي؛ لأن الأمة التي تشعر بحاجتها في صناعاتها وتجاراتها إلى الاستعانة بأعدائها يتأصل في نفوس أبنائها اعتقاد بضعفها وفاقتها، وهذا الشعور مدرجة انحطاط في الأخلاق، ونقص في عزة النفس، ويأس من بلوغ الأمل.

وفضلاً عن هذا وذاك فإن الأمة التي قطعت على نفسها عهد المقاطعة؛ تتعفف بطبيعة الحال عن كثير من الكماليات التي لا تجدها إلا في أيدي أعدائها، وأسمي هذا النوع بالكماليات من باب التساهل، وإلا فإن الغرب إنما غزا الشرق ثم فتحه منذ تمكن من تعويد الشرقيين والشرقيات استعمال هذه الكماليات، فقام على أموال الشرق القليلة، بناءُ ثروة الغرب العظيمة».

ومن أجمع الكلمات وأقواها وأجلها التي وقفت عليها في (المقاطعة) كلمة للعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي، وهذا نصها:

«اعلموا أن الجهاد يتطور بتطور الأحوال، وكل سعي وكل عمل فيه صلاح المسلمين، وفيه نفعهم وفيه عزهم فهو من الجهاد، وكل سعي وعمل فيه دفع لضرر على المسلمين وإيقاع الضرر بالأعداء الكافرين فهو من الجهاد، وكل مساعدة للمجاهدين مالياً فإنها من الجهاد. . فمن جهز غازياً فقد غزى، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزى، وإن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب فيه الأجر، والذي يساعد به المجاهدين، والذي يباشر به الجهاد.

ومن أعظم الجهاد وأنفعه السعي في تسهيل اقتصاديات المسلمين والتوسعة عليهم في غذائياتهم الضرورية والكمالية، وتوسيع مكاسبهم وتجاراتهم وأعمالهم وعمالهم، **كما أن من أنفع الجهاد وأعظمه مقاطعة الأعداء في الصادرات والواردات: فلا يسمح لوارداتهم وتجاراتهم، ولا تفتح لها أسواق المسلمين ولا يمكنون من جلبها على بلاد المسلمين.. بل يستغني المسلمون بما عندهم من منتوج بلادهم، ويوردون ما يحتاجونه من البلاد المسالمة**. وكذلك لا تصدر لهم منتوجات بلاد المسلمين ولا بضائعهم، وخصوصاً ما فيه تقوية للأعداء: كالبترول، فإنه يتعين منع تصديره إليهم. . وكيف يصدر لهم من بلاد المسلمين ما به يستعينون على قتالهم؟؟! فإن تصديره إلى المعتدين ضرر كبير، ومنعه من أكبر الجهاد ونفعه عظيم.

فجهاد الأعداء بالمقاطعة العامة لهم من أعظم الجهاد في هذه الأوقات، ولملوك المسلمين ورؤسائهم ـ ولله الحمد ـ من هذا الحظ الأوفر والنصيب الأكمل، وقد نفع الله بهذه المقاطعة لهم نفعاً كبيراً. . وأضرت الأعداء وأجحفت باقتصادياتهم، وصاروا من هذه الجهة محصورين مضطرين إلى إعطاء المسلمين كثيراً من الحقوق التي لولا هذه المقاطعة لمنعوها، وحفظ الله بذلك ما حفظ من عزّ المسلمين وكرامتهم.

ومن أعظم الخيانات وأبلغ المعاداة للمسلمين تقريب أولي الجشع والطمع الذين لا يهمهم الدين ولا عز المسلمين ولا تقوية الأعداء نقود البلاد أو بضائعها أو منتوجاتها إلى بلاد الأعداء. . ! وهذا من أكبر الجنايات وأفظع الخيانات، وصاحب هذا العمل ليس له =

إيمانهم كان قوياً، فصبروا حتى فرّج الله عنهم ومنّ عليهم بهذا الشرف العظيم، الذي يُذكَرون به إلى يوم القيامة، وهناك أمر آخر وهو أهم مما تقدم، وهو: إحجام كعب بن مالك عن الكذب على النبي ﷺ، لما ظهر له من الجلال والهيبة التي أعطيها النبي ﷺ تأييداً من الله تعالى له ومعجزة لا يطمع فيها ملك وإن أعطي سلطاناً عظيماً وهيبة، وكان مرهوب الجانب ولا غرابة في ذلك، فإن نور النبوة له شأن عظيم.

قال محمد تقي الدين: والشاهد هنا في قوله تعالى: **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾** أي: توجهوا إلى الله تعالى بالدعاء فالتجؤوا إليه؛ لعلمهم أنه لا ينقذهم ولا يغيثهم ولا يكشف عنهم الكرب إلا الله، وفي «الصحيح»[1] أن النبي ﷺ رغّب في الدعاء التالي عند النوم وهو: «**اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت**».

فمن علم وتيقّن أنه ليس له ملجأ ولا مفر ولا مهرب من المصائب التي تصيبه والأعداء التي تحيط به إلا الله، والتجأ إليه بصدق وإخلاص آواه ونصره ونجّاه من كل ما يخاف، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتصفوا بهذا الوصف.

= عند الله نصيب ولا خلاق.

فواجب الولاة الضرب على أيدي هؤلاء الخونة، والتنكيل بهم، فإنهم ساعدوا أعداء الإسلام مساعدة ظاهرة، وسعوا في إضرار المسلمين ونفع أعدائهم الكافرين.. فهؤلاء مفسدون في الأرض يستحقون أن ينزل بهم أعظم العقوبات.

والمقصود أن مقاطعة الأعداء بالاقتصاديات والتجارات والأعمال وغيرها ركن عظيم من أركان الجهاد، وله النفع الأكبر، وهو جهاد سلمي وجهاد حربي، وفق الله المسلمين لكل خير، وجمع كلمتهم وألف بين قلوبهم وجعلهم إخواناً متحابين ومتناصرين، وأيدهم بعونه وتوفيقه، وساعدهم بمدده وتشديده إنه جواد كريم رؤوف رحيم..» انتهى كلامه.

ولشيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ كلمة قوية في (المقاطعة) في شريطه رقم (١٩٠) من (سلسلة الهدى والنور).

(١) سبق تخريجه.

الباب التاسع

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]

قال (ك): «يقول تعالى: ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم من أنفسهم أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ـ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبِلُغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: «إن الله بعث فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته» وذكر الحديث(١). وقال: سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال ﷺ: «**خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح**»(٢) وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي» بسنده عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي**(٣) **وأمي، ولم يمسني**(٤) **من سفاح الجاهلية شيء**»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١)، وابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥٧ ـ ٣٦٢) ـ وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٥ ـ ١١٦)، و«الدلائل» (١٩٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٤)، **وإسناده حسن**، وانظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ١٤ ـ ٢٣).

(٢) ورد في الباب عن علي وابن عباس وعائشة وأبي هريرة، **وكلها فيها ضعف، أرجاها طريق عن علي، وأخرى عن ابن عباس، هو ـ إن شاء الله تعالى ـ بهما حسن**. انظر: «البدر المنير» لابن الملقن (٧/ ٦٣٤ ـ ٦٣٧)، «الإرواء» (٦/ ٣٢٩ ـ ٣٣٤) رقم (١٩١٤)، وسيأتي تخريج واحد منها بعد هامشين، والله الموفق.

(٣) في مطبوع «المحدث الفاصل»: «ولدني أبي ثم ولدني أبي».

(٤) في مطبوع «المحدث الفاصل»: «يُصبني».

(٥) أخرجه محمد بن أبي عمر العدني ـ كما في «المطالب العالية» (٤/ ٣٦٠) رقم (٤٢٠٦)، =

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(١) وفي «الصحيح»: «**إن الدين ليسر**»(٢). وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وقال الطبراني وذكر سنده إلى أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً، قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يقرِّب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بيّن لكم**»(٣).

= و«إتحاف الخيرة» (٧/ ٧) رقم (٦٣٠٨) ـ، ومن طريقه الطبراني في «الأوسط» (٥/ رقم ٤٧٢٨)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٤٧٠/ رقم ٥٦٢)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (١٤)، وابن عساكر (٣/ ٤٠٢)، وخولف ابن أبي عمر، فرواه من هو أوثق منه وأكثر عدداً من مرسل أبي جعفر الباقر، كما تراه عند عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢)، والبيهقي (٧/ ١٩٠).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٥٧) رقم (٧٨٦٨)، وسبق تخريجه مطولاً، **والحديث صحيح له شواهد كثيرة**، جمعتُها وخرجتها في تعليقي على «الجواب الذي انضبط» للسخاوي.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة.

(٣) أما القسم المرفوع: فقد أخرجه الشافعي في «المسند» (٧ ـ بدائع المنن)، وابن خزيمة في «حديث علي بن حجر» (٣/ رقم ١٠٠) ـ كما في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٨٠٣) ـ، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٢ ـ ٩٣)، وعلقه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٣٤٥) عن المطلب بن حنطب مرفوعاً بلفظ: «**ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، وما تركت شيئاً مما نهاكم عنه إلا نهيتكم عنه**»، **وهو مرسل حسن**.

وله شاهد، أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٣، ١٦٢)، والطبراني في «الكبير» (١٦٤٧)، والبزار في «المسند» (رقم ١٤٧ ـ زوائده) من حديث أبي ذر ﷺ مرفوعاً: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة وباعد من النار إلا وقد بيَّن لكم**».

وإسناد أحمد صحيح.

وأخرجه البزار (١٤٧)، والطبراني في «الكبير» (١٦٤٧) من طريق سفيان بن عيينة عن فطر عن أبي الطفيل عن أبي ذر به وفيه قولة أبي ذر الموقوفة، وعند الطبراني الزيادة المرفوعة.

وتابع ابن عيينة كذلك سفيان الثوري، رواه الدارقطني في «علله» (٦/ ٢٩٠)، وقال: «ليس بصحيح عنه».

قال البزار: «رواه بعضهم عن فطر عن منذر قال أبو ذر...، ومنذر لم يدرك أبا ذر». =

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥ ـ ٢١٧] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله كافيَّ لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩] ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هاتين الآيتين أخبرنا الله تعالى بأن هذا الرسول الكريم محمداً ﷺ من صميم العرب، فهم أولى الناس باتباعه والسعادة بما جاء به، وقد كانوا كذلك، ثم ولوا عنه مدبرين، فأصابهم من العذاب في هذه الحياة الدنيا ما لم يصب أمة من الأمم، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

ولم نزل ندعوهم وندعو غيرهم من المسلمين إلى الرجوع وإلى التمسك بهذا الدين الحنيف الذي سعد به أسلافهم وصاروا هم به أشقياء، ولا يزالون إلى الآن مدبرين، والنكبات تحل بهم يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، وإلى الآن لا يزال أكثرهم مصرّاً على استبدال الشريعة الإسلامية بحكم الطاغوت، وقد أمرنا الله أن

= أقول: وقد رجح الدارقطني في «علله» هذه الرواية المرسلة، ومما يؤيد كلام الدارقطني أن شعبة والثوري وابن نمير رووه عن الأعمش عن منذر الثوري عن أشياخ لهم عن أبي ذر.

وأما رواية شعبة فهي في «مسند الطيالسي» (٤٧٩)، وأحمد (٥/ ١٦٢)، وأما رواية ابن نمير فهي في «مسند أحمد» (٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤)، ورواية الثوري تقدّمت.

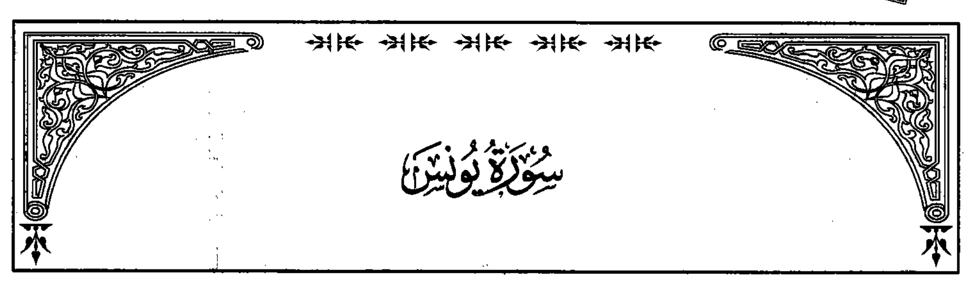
أما الهيثمي فقال (٨/ ٢٦٤): «ورواه الطبراني ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة». وللفظه شاهد من حديث أبي الدرداء، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، كما في «المجمع» (٨/ ٢٦٤).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧).

نكفر بالطاغوت، ونؤمن بالله، قال تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠، ٦١] وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

اللهم أرنا الحق حقاً، وأعنَّا على اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وأعنّا على اجتنابه.

الشاهد هنا في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ أمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾، أي: الله يكفيني، فلا أحتاج إلى غيره، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، لا أصرف شيئاً من عبادتي لغيره كائناً من كان، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، لا أعتمد في جلب الخير ودفع الشر، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات إلا عليه، وهذا توحيد العبادة، نسأل الله تعالى أن يديم علينا نعمة التوحيد، وأن يوفقنا للتمسك به، والكون مع أهله والبراءة من الشرك وأهله، إنه سميع مجيب.



سورة يونس

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ودفعها(١) عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان(٢) من ذلك [من](٣) شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه [يستثنى](٤) من ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] وكقول رسول الله ﷺ(٥): «**عجباً لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن**

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وزوالها».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «به».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مستثنى».

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١١٧)، وهناد في «الزهد» (٣٩٩)، وأبو يعلى (٧/ ٤٢١٧، ٤٢١٨)، وابن حبان (٤/ ٤٤٧) (رقم ٢٨٨٥ ـ «التعليقات الحسان»)، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٥١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٩٦)، والضياء في «المختارة» (١٨١٥ ـ ١٨١٨)، والذهبي في «السير» (١٥/ ٣٤٢) من حديث أنس، **وهو صحيح**.

أصابته سراء فشكر، كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي يظهر لي أن المراد بالإنسان هنا الكافر كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨] ومثل هذا في القرآن كثير، وسيأتي إن شاء الله، إلا أن المشركين الأولين كانوا إذا مسهم الضر وحّدوا الله تعالى فلم يدعوا غيره، وإذا كانوا في وقت الرخاء أشركوا به، وعبدوا غيره، أما مشركو هذا الزمان، فإنهم أجهل وأضل؛ لأنهم مشركون بالله في الشدة وفي الرخاء، ولا يكادون يوحدون الله تعالى في أي حال، فالحمد لله الذي أنقذنا وأخرجنا من الظلمات إلى النور، نسأله سبحانه أن يديم علينا نعمه، حتى نلقاه غير مبدلين ولا مغيرين ولا فاتنين ولا مفتونين.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]

قال (ك): «ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال: (ج) «معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض»[(٢)] ثم نزه نفسه الكريمة[(٣)] عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»[(٤)].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠) ومنه كلمة «للمؤمن» وكذا في مصادر التخريج، وفي الأصل: «للمؤمنين»!

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٢/ ١٤٢). (٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٤٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الزمان يعبد المشركون الأنبياء، فالنصارى يعبدون عيسى، وهو نبي ويغلون فيه فيجعلونه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، والجهال المنتسبون إلى الإسلام يعبدون بعض الأنبياء، فيستغيثون بالنبي ﷺ فيقولون: يا رسول الله، يا محمد، أعطنا وأغثنا، كما قال قائلهم:

يا رسول الله يا بحر الوفا يا غياث المعتدي والمهتدي
إنني عبد ضعيفٌ وَجِلٌ وذنوبي ما لها من عددِ

فانظر إلى هذا الجاهل المشرك الذي يعتقد أن النبي ﷺ لا يغيث المهتدين فقط، بل يغيث المعتدين أيضاً، ثم توجه إلى النبي ﷺ في البيت الثاني يريد منه مغفرة ذنوبه، وهذا جهل عظيم، فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله، والنبي ﷺ لا يغيث أحداً لا معتدياً ولا مهتدياً، وإذا كان يغيث المعتدي فهو إعانة له على الاعتداء، حاشاه من ذلك! ويعبدون النبي شيثاً، وقد بنوا عليه قبة في الموصل، ويعبدون النبي يحيى وقد نصبوا له تابوتاً في وسط مسجد بني أمية في دمشق، ويعبدون ما لا يحصى من الأضرحة والقباب التي بنوها على قوم سموهم أولياء وكثير منها في وسط المساجد أو بقربها، وقد زين لهم الشيطان هذا العمل الذي هو معصية للرسول ﷺ فقد تواتر نهيه عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من فعل ذلك(١)، وقد تقدم الكلام في هذا، وقال قائلهم في عبادة الأولياء:

أوليـاء الإلـه إنّـي مـريـضٌ والـدواءُ لـديـكـم والـشِّـفـاءُ
انظروا لي بفضلكم في علاجي وامنحوني بجُودكم ما أشاءُ

قال الله تعالى في سورة الشورى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾ [الشورى: ٩].

---

(١) وردت أحاديث كثيرة في ذلك، سيأتي بعضها، وممن قال بتواتر أحاديث اتخاذ القبور مساجد: ابن حزم في «المحلى» (٤/ ٣٥)، وابن حجر في «الفتح» (١/ ٢٠٣)، والسخاوي في «فتح المغيث» (٣/ ٤٠٩، ط. المنهاج)، والكتاني في «نظم المتناثر» (١٦٤).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: ٢١]

«يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمةً من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ الآية [يونس: ١٢]، وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل، أي مطر، ثم قال: **«هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم. **«قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»**(١).

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: إن مشركي هذا الزمان ضربوا بسهم وافر في هذا النوع من الكفر، فإنهم يطلبون إعطاء الأولاد من الأموات والأحياء ممن يسمونهم أولياء، فإذا رزقهم الله ولداً اعتقدوا أن ذلك الولي الذي طلبوه منه، هو الذي أعطاهم ذلك الولد، وازدادوا له خضوعاً وخوفاً ومحبة وإجلالاً وتعظيماً وشكراً، فإن كان ميتاً ذبحوا الذبائح على قبره، وحمدوه ولهجوا بذكره، والتزموا كل سنة أن يذبحوا ذبيحة على قبره ليحفظ لهم ذلك الولد، وإن كان حياً جعلوا ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١)، وأبو داود (٣٩٠٦) وغيرهم من حديث زيد بن خالد الجهني.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٤٩).

الولد عبداً له، سواء أكان ذكراً أم أنثى، يؤدون له مالاً في كل سنة ليحفظه لهم، وإذا بلغت الأنثى وأراد التزوج بها أخذها، وإن لم يرد أن يتزوج بها هو ولا أحد أبنائه، أخذ نصف صداقها، وإذا انقطع عنهم المطر، يذهبون إلى قبور أوليائهم ويذبحون الثيران على الأولياء الكبار، والأكباش على الأولياء الصغار، ويتضرعون لهم في طلب المطر، ويقولون وهم حفاة حاسرو الرؤوس، والثور يمشي أمامهم ليذبحوه على القبر:

جئناكم قاصدين لا تردونا خائبين
يا أولياء الله الصالحين

وحدثت مرة في مدينة البيض، في جنوب الجزائر أن شابين اقتتلا بالأيدي في مبنى القهوة، وكلاهما يدّعي أن أباه ولي، وكان ذلك بعد نزول المطر، فقال أحدهما: إن الذي أنزل هذا المطر هو والدي، فقال له الآخر: كذبت، بل الذي أنزله هو والدي أنا، وكان لفظهما «جاء والدي بالمطر» وأنا عبرت عنه بالإنزال، والمعنى واحد، والحكايات في هذا المعنى كثيرة، فالله يوفقنا وينجح سعينا في دعوة هؤلاء إلى صراط الله المستقيم، ونسأله أن لا يضيع عملنا، ويختم لنا بالحسنى.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس[1] وبر وفاجر، كقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ الآية، أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩] وقوله: ﴿وَيَوْمَ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنس وجن».

تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤] وفي الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣][(١)] يتفرقون، وهذا[(٢)] يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء[(٣)] يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا[(٤)].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم كقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم: ٨٢]، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦] وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ الآية [الأحقاف: ٥، ٦].

وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما[(٥)] كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنَّا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً ولم يأمرهم بذلك، ولا رضي به، ولا أراده، بل تبرأ منهم[(٦)] أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير القادر[(٧)] العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله، وأنزل كتبه آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: يصيرون صدعين».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وهنا»!.
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولهذا قيل ذلك».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفي الحديث الآخر: (**نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس**)»[(١)].
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنتم».
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في وقت».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على كل شيء».

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبيَّن أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة، تختبر كل نفس وتعلم ما سلف(١) من عملها من خير وشر كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩] وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] وقوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾(٢) ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه»(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه الآيات أوضح الأدلة على أن من عبد غير الله تعالى من الأنبياء والصالحين وغيرهم لا يشعر المعبودون بعبادة العابدين ولا يعلمونها، إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وحين يعرف هؤلاء المعبودون يوم القيامة أن أولئك المشركين كانوا يعبدونهم حين يجمعهم الله تعالى ويحشرهم جميعاً ـ العابدين والمعبودين ـ يتبرأ المعبودون من عبادة العابدين ويقولون لهم تصريحاً: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩].

وبيان ذلك أن المعبود إما أن يكون من العقلاء، فهو مشغول بما هو فيه من نعيم الجنة وكرامة الله تعالى إن كان من الصالحين، أو بعذاب الله تعالى إن كان

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أسلفت».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/٣٥٨ ـ ٣٦٠) بتصرف.

من الطالحين، فلا يعلم شيئاً من عبادة العابدين له، ولو علم ذلك لأنكره وتبرأ إلى الله منه، فما أخسر صفقة المشركين! الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فنعوذ بالله من الخسران.

فيا أيها القوم الذين أضلتهم الشياطين، وزينت لهم عبادة غير الله! توبوا إلى بارئكم وارجعوا إلى ربكم، ووحّدوه توحيداً تاماً ما دامت الفرصة سانحة لكم، فإنها لن تدوم، فإنكم لا تعلمون في أي وقت يأتيكم الموت ويحول بينكم وبين التوبة، اللهم أدم علينا نعمة التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد اتباع كتابك، وهدي نبيك محمد ﷺ إلى أن نموت، وأنت عنا راضٍ، والحمد لله رب العالمين.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٥]

قال (ك): «يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الألوهية[1] فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزِّل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض[2] بقدرته ومشيئته فيخرج منها ﴿حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١]، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١] وقوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلا له». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شقاً».

بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية [الملك: ٢٣] وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٦] وقوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة ومنته العميمة[١] وأن الآية عامة لذلك كله، وقوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩] فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له وخاضعون له[٢] ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم، وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الآية، أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل. لا إله إلا هو واحد لا شريك له: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ الآية، أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار؛ كقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ﴾ الآية، وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، ومن[٣] عبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض، ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خاضعون لديه».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «و».

وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو، ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي: أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويُبَصِّر بعد العمى أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يُهدى لعماه وبكمه كما قال تعالى، إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: فما بالكم أين يذهب بعقولكم؟ كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم يبين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه: سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الله ﷻ في توحيد ربوبيته أموراً:

الأول: إنه هو الذي يرزق الناس والبهائم والطير وكل حي.

والثاني: إنه هو الذي يملك السمع والبصر وسائر القوى التي وهبها خلقه.

الثالث: إنه هو الذي يخرج الحي من الميت والميت من الحي، قال (ك): «أي: [يخرج الزرع من الحب، والحب][٢] من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء»[٣].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تخرج الزرع من الحبة والحبة».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣).

الرابع: إنه سبحانه هو الذي يُدَبِّرُ جميع الأمور.

الخامس: إن الله سبحانه وتعالى نفى أن يكون أحد من الشركاء: لا عيسى ولا الملائكة ولا غيرهم، يستطيع أن يبدأ الخلق ثم يعيده، وصدّقه في ذلك جميع المؤمنين وجميع المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ، اعترفوا بأن شركاءهم عاجزون عن الخلق في البدء والإعادة.

والأمر السادس: إن الله ﷻ أخبر أنه هو الهادي وحده إلى الحق، وغيره، لا يهدي إلى شيء، بل غيره محتاج إلى هداية الله تعالى وإن علا منصبه وارتفعت درجته، كالملائكة والأنبياء، فهم مهديون بهداية الله ولا يملكون لغيرهم من الهداية شيئاً، وصدّقه في ذلك المؤمنون والمشركون، إلا أن المشركين في هذا الزمان ينازعون في توحيد الربوبية أيضاً، فيزعمون أن شركاءهم من الشيوخ أحياءً وأمواتاً، يتصرفون في العالم بالرزق وهداية القلوب وقد كفروا بالله تعالى، وبهذه الآية وغيرها، وكذبوا جميع الرسل، والمؤمنون من جميع الأمم، بل كل عاقل وإن لم يكن مؤمناً يكذبهم ويعلم أن الذي أوجد الخلق من العدم، وحفظ عليهم وجودهم بالإمداد، وهو الذي يميتهم عند انقضاء آجالهم، وهو الذي يبعثهم للجزاء، هو وحده المتصرف في جميع خلقه، وليس لغيره تصرف، سبحانه وتعالى عما يشركون.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٤٩﴾ [يونس: ٤٩]

قال محمد تقي الدين: في هذه الآية الكريمة أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يخبر جميع الناس أنه لا يملك لنفسه ـ فكيف لغيره؟ ـ ضراً ولا نفعاً، ولكن ما شاء الله كان من الضر والنفع وما لم يشأ لم يكن، فهو مالك الملك، المتصرف في عباده، وإذا كان أفضل خلق الله وأكرمهم على الله لا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، بطل كل ما بناه المشركون على شفا جرف هار، من تصرف الأولياء في الدنيا والآخرة.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٦]

قال (ك): «يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقياً كان لله ولياً[1] ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار بسنده إلى ابن عباس قال: قال رجل: «يا رسول الله من أولياء الله؟» قال: «**الذين إذا رؤوا ذكر الله**»[2].

ثم ذكر (ك) حديثاً عن النبي ﷺ ورواه أئمة الحديث عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت وغيرهما: «أن النبي ﷺ فسر قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بأن البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن أو ترى له، وفي الآخرة هي الجنة[3]، وبذلك فسرها جماعة من

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فـ».

(٢) أخرجه البزار في «البحر الزخار» (١١/رقم ٥٠٣٤)، والمروزي في «زوائد الزهد» (٢١٨)، والدولابي في «الكنى» (١/١٠٦)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٢٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/٢٣١)، والضياء في «المختارة» وقد أعله شيخنا الألباني بالإرسال في «الصحيحة» (٤/١٧٣٣) وقد كان حسنه عند رقم (١٦٤٦) لكنه ظن كَلَلهُ أن طريق البزار ليس فيها جعفر ابن أبي المغيرة، وقد تبين أن إسناد البزار الموصول فيه جعفر وهو سبب إعلال الحديث **والصحيح في الحديث الإرسال** وهذا الذي رجحه البزار، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١٥، ٢٧) من مرسل سعيد بن جبير، فالحديث مرفوعاً، **ضعيف**، **والله أعلم**، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/٧٨).

(٣) في الباب عن جمع، وأقتصر على حديثين، هما: **حديث أبي الدرداء**: أخرجه الترمذي: =

السلف، وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ الآية، يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض. وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم، وتخرصهم وكذبهم وإفكهم»[1].

= الرُّؤيا (٤/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥) رقم (٢٢٧٨، ٢٢٨٠)، والتفسير (٥/ ٢٨٦) رقم (٣١١٥) أو (٤/ ١١٩) رقم (٢٢٧٣)، و(٥/ ١٨٤) (رقم ٣١٠٦، ط. بشار)، وأحمد (٦/ ٤٥٢، ٤٤٥، ٤٤٧)، والطيالسي (١٣١) رقم (٩٧٦)، والحميدي (١/ ١٩٣)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٢ ـ ٤٣) رقم (٢٦) في «مسانيدهم»، وابن أبي خيثمة في «أخبار المكيين» (٤٢١ ـ ٤٢٢) رقم (٤٤٧، ٤٤٨)، والطبريّ في «تفسيره» (١٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥) رقم (١٧٧٢٢، ١٧٧١٧ ـ ١٧٧٢٤، ١٧٧٣٤، ١٧٧٣٧، ١٧٧٣٨، ١٧٧٤١، ١٧٧٤٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥/ ٤٢٠) رقم (٢١٨٠)، والحاكم: تعبير الرُّؤيا (٤/ ٤٣٣) رقم (٨١٨٠)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٥٨ ـ ٥٩)، والبيهقيّ في «الشعب» (٤/ ١٨٥) رقم (٤٧٥٣)، وابن البخاري في «مشيخته» (٤٧٣)، وإسحاق في «مسنده» ـ كما في «تخريج الكشّاف» (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣) للزيلعي ـ قال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ»، وقال ابن عبد البر: **«هذا حديثٌ حسنٌ في التفسير المرفوع صحيحٌ من نقل أهل المدينة»**.

وحديث عبادة بن الصامت: أخرجه الترمذي: الرُّؤيا (٤/ ٥٣٤) رقم (٢٢٨٠) أو (٤/ ١٢٠) (رقم ٢٢٧٥، ط. بشار)، وابن ماجه: «تعبير الرُّؤيا» (٤/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) رقم (٣٨٩٨)، وأحمد (٥/ ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٥)، والطيالسي (٧٩) رقم (٥٨٣)، والدارمي في «سننه» (٢/ ١٢٣، ط. دهمان) (١/ ٥٥٩) (رقم ٢٠٦٠، ط. البغا)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٥) رقم (١٧٧١٨ إلى ١٧٧٢١، ١٧٧٢٥، ١٧٧٣٠، ١٧٧٣١، ١٧٧٣٩، ١٧٧٤٠، ١٧٧٥٦)، والشاشي في «مسنده» (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٤) رقم (١٢١٦، ١٢١٧)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ١٩١)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢١٦)، والحاكم في «المستدرك» التفسير (٢/ ٣٧٠) رقم (٣٣٠٢)، وتعبير الرُّؤيا (٤/ ٤٣٣) رقم (٨١٧٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٨٥) رقم (٤٧٥١، ٤٧٥٢)، ورواه إسحاق في «مسنده»، وابن مردويه في «تفسيره»، وأبو يعلى في «مسنده» ـ كما في «تخريج أحاديث الكشّاف» (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣) للزيلعي ـ وهو حديثٌ صحيحٌ كالذي قبله، صحّحه الحاكم، ووافقه الذهبيُّ، وكذا شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٣٩١) رقم (١٧٨٦).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: المشركون يعبدون أشياء كثيرة ولا تقتصر عبادتهم على الأصنام فقط، والأصنام إنما يعبدونها لاعتقادهم أن أرواحاً متعلقة بها، هي التي تقضي حاجاتهم، وتحفظهم وتدفع عنهم الشر، وفي بعض الأوثان مقادير من الذهب غالية الثمن، كما في الوثن الذي في كربلاء بالعراق، وفي الوثن الذي في النجف، وفي غيرهما في بلدان مختلفة، مع أن المشركين هم الذين بنوا بأيديهم تلك القباب المذهبة على قبور الصالحين وغير الصالحين، فلو أنهم يعتقدون أن تلك القباب ليس فيها إلا اللبن والجص وتابوت الخشب على القبر والتحف المعلقة، ما عبدوها، ولكنهم يعتقدون أن روح المقبور لها قوة عظيمة، وأنها فرحت بتلك القبة والتابوت، والزائرين لها والطائفين بالتابوت والمتمسحين والمقبلين والمستغيثين والذابحين والناذرين والواضعين الدراهم في التابوت ليأخذها السدنة، فهي لذلك متلبسة بالقبة، وقد يأتي سيل عظيم فيجرف القبة والقبر والتابوت، ويترك المكان قاعاً صفصفاً، فلا يعتبرون بذلك ولا يفكرون في أنفسهم أن ذلك الولي ـ كما يسمونه ـ لو كان يقدر على جلب خير أو دفع ضر لحمى قبته، ودفع عنها السيل الذي هدمها، وإذا كان عاجزاً عن حماية قبته فهو عن قضاء حاجة عباده أشد عجزاً، ولكن المشركين لا يعقلون.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٣]

قال (ك): «يقول تعالى لنبيه صلوات الله عليه وسلامه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقصص ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك، ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق

أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ أي: عَظُم عليكم ﴿مَّقَامِى﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أم[1] لا، ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي فإن كنتم تزعمون أنكم محقون ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تتأخروا[2] ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ الآية [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم[3] كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] قال ابن عباس: «سبيلاً وسنة»، فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى في إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢] وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١] وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أو».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تأخروني».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «مناهلهم».

[المائدة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّنَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أي: من هذه الأمة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد**»(١) أي: هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علات» وهم الأخوة من أمهات شتى، والرب واحد، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾ أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي: في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه الآيات فوائد:

الأولى: إن الرسل قاسوا الشدائد في دعوة أممهم إلى توحيد الله والتمسك بالشريعة، فقد قابل هذة الدعوة أقوامهم بالتكذيب والاستهزاء وضروب الأذى، فصبر الرسل على ذلك، ولم يزحزحهم ما لقوا من أممهم قيد شعرة عن الدعوة إلى الله، ولم يخافوا وعيد قومهم؛ لأنهم وهبوا أنفسهم لله وأعظمهم صبراً وجهاداً: سيد البشر محمد ﷺ ومن درس سيرته الطيبة الكريمة، رأى العجب العجاب من ذلك وقد امتثل أمر ربه سبحانه إذ قال له في سورة الأحقاف: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥] وكذلك فعل أصحابه والتابعون لهم بإحسان، وكذلك فعل أيضاً اتباع الرسل من قبل، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ﴾ وفي رواية نافع(٣)

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٨٣ ـ ٣٨٦).

(٣) وقرأها هكذا أيضاً: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدي وقتيبة والمفضل، وعزيت لابن عباس، ورجحها ابن جرير، واختارها أبو حاتم.
انظر: «النشر» (٢/ ٢٤٢)، «حجة القراءات» (١٧٥)، «التذكرة في القراءات الثمان» =

«قُتِلَ» بضم القاف وكسر التاء ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وقد فسر علماء السلف الربيين بالمجموع، وقد فسروه بالعلماء الأتقياء.

قلت: والرِّبيُّ في اللغة العبرانية: هو الفقيه العالم التقي، و(الوهن): الضعف والاستكانة التذلل، فهكذا ينبغي لمن يتبع الرسول ويدعو إلى اتباعه أن يكون كما قال نوح: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ أي: كرهتم إقامتي بينكم ودعوتي لكم إلى سبيل الله، فأنا لا أخضع لكم ولا أتذلل ولا أضعف ولا أتبع أهواءكم، بل أصبر وأستمر على إعلان الحق، أحببتم أم كرهتم، وأنا متوكل على الله الذي بيده حياتي وموتى ونفعي وضري فافعلوا ما بدا لكم من الأذى، ولا تبقوني ساعة واحدة إن قدرتم على ذلك.

الفائدة الثانية: إن الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم لا يسألون على الدعوة على تعليم الناس وإرشادهم، فإن ذلك يتنافى مع الإخلاص في الدعوة فإنهم إذا أخذوا أجراً من المدعوين لا بدّ أن يخضعوا لهم وأن يخافوهم، والمدعوون أنفسهم إذا كانوا يعطون الداعي أجراً يرون لأنفسهم فضلاً عليه وينقص قدره عندهم أو يزول، فإنْ قلتَ: نحن نرى شيوخ الطرائق كلّاً على أتباعهم، فأتباعهم يخدمونهم ويبذلون أنفسهم وأموالهم، ومع ذلك يعظمونه غاية التعظيم، وهذا يبطل ما ادعيته!! أقول: على رسلك، فرق كبير بين دعوة أتباع الرسل ودعوة شيوخ الطرائق، فشيوخ الطرائق يوهمون أتباعهم أنهم ينفعونهم ويضرونهم إن شاؤوا، وإن كل ما عند أتباعهم من الأرزاق والنِّعَم هم الذين منحوهم إياه، زد على ذلك أن شيوخ الطرائق يتبعون أهواء المدعوين فيقولون لهم: ما دمتم مخلصين في خدمتنا فافعلوا ما شئتم من المعاصي، تغفر لكم ذنوبكم، وتكونون من أولياء الله الصالحين، ولا تذوقون سكرات الموت، ولا تسألون في قبوركم وتحملكم الملائكة على كواهلها فتمر بكم على الصراط أسرع من لمح البصر، وتدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب في الزمرة الأولى، وتكونون في الفردوس مع النبي ﷺ وأصحابه، انظر كتابي «الهدية الهادية إلى

= (٢٩٦)، «البحر المحيط» (٣/ ٧٢)، «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٧٦): «فتح القدير» (١/ ٣٨٦)، و«تفسير الآلوسي» (٤/ ٨٣).

الطائفة التجانية»(١) فلا غرابة إذا عبدوهم وبذلوا أموالهم وأنفسهم.

الفائدة الثالثة: إن الله تعالى أخبر بأنه أنجى رسله والذين آمنوا معهم حين حقت كلمة العذاب على الكافرين من أتباعهم، قال تعالى في سورة يونس في أواخرها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣] وكذلك ينجي سبحانه وتعالى من دعا إلى كتابه القرآن، وسنة رسوله محمد ﷺ من مكر المشركين، ويجعل لهم فرجاً ومخرجاً من كل شدة وكربة، ويخذل أعداءهم، وهذا مجرب لا شك فيه.

الباب التاسع

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٦]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كافٍ من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩] وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥] وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما(٢) سلطوا لأنهم على الحق، ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحى، وقال ابن أبي(٢) نجيح وغيره عن مجاهد: «لا تعذبنا بأيدي

---

(١) رد المصنف فيه (ص٥٤، ٥٨، ...) وفي غير موطن هذا الكلام، ومما قال: «إن أمور الآخرة لا يجوز لأحد أن يخبر عنها إلا بدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، ومن أخبر بشيء منها بدون دليل، فخبره مردود بإجماع المسلمين، ولا يساوي عند أهل العلم قلامة ظفر، بل يعدُّونه من الكذب على الله».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

آل[1] فرعون، [ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون][2]: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سُلّطنا عليهم فيفتنوا بنا»[3] ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[4] قوله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحقَّ وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا الذي خافه قوم موسى وسأل الله أن يحفظهم منه وقع فيه المدعون للإسلام في هذا الزمان، فقد صاروا فتنة للقوم الظالمين، ولم ينجوا من شر القوم الكافرين؛ لأنهم انهمكوا في المعاصي، وتركوا طاعة الله تعالى، ولم يتبعوا كتابه ولا سنة رسوله، ولم يوالوا أولياءه ولا عادوا أعداءه، فنعوذ بالله من الخذلان، فقد صار أعداء الإسلام يقولون فيهم: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا الذل، ولا وقع بينهم الشقاق والنزاع، ولا صار بأسهم بينهم؛ فتراهم على كثرتهم غثاء كغثاء السيل، لا يسرون صديقاً ولا يغيظون عدواً.

الباب العاشر

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قوم».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد»، انظر: «تفسير مجاهد» (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٦١، ط. المعرفة)، و«تفسير سعيد بن منصور» (١٠٧٠)، و«تفسير ابن جرير» (١٥/رقم ١٧٧٨٦ ـ ١٧٧٩١، ط. شاكر)، و«الفتن» لنعيم (١/ ١٤٤) رقم (٣٦٠).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا تسلطهم علينا فيفتنونا».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩١).

يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٤ ـ ١٠٩]

قال (ك): «يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن [دِينِى]﴾[١] صحة ما جئتكم به من[٢] الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي فأنا ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ وحده لا شريك له، وهو ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده النفع والضر[٣] هو الله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ الآية أي: أخلص العبادة لله وحده ﴿حَنِيفًا﴾ أي: منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، فيه بيان؛ لأنَّ الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، روى الحافظ ابن عساكر بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»**[٤] ثم

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الضر والنفع».

(٤) أخرجه القضاعي (١/ ٤٠٨) رقم (٧٠١)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٧٢٠) وفي «الدعاء» (٢٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) رقم (٣٠٦) وفي «الشعب» (٢/ ٤٢) رقم (١١٢١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣٧٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٣٣٩)، وأبو الفضل الكوكبي في «مجلس من الأمالي» ـ كما في «الضعيفة» (٦/ ٣١٣) ـ وأبو نعيم (٣/ ١٦٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ١٢٣)، والرافعي في «تاريخ قزوين» (٣/ ١٩٢) من طرق عن يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى بن إياس بن =

رواه من طريق الليث[١] عن أبي هريرة مرفوعاً بمثله سواء، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الآية، يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه، ولا شك فيه، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به[٢]، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى، وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: يجب على كل داع أن يتأمل هذه الآيات ويفكر فيها طويلاً ويعمل بها، فإنه لا بدّ أن يلقي من المدعوين شيئاً مما لقيه الداعي الأول ﷺ، ويقول كما قال القدوة العظمى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ يا أيها المدعوون من صحة توحيد الله تعالى في عبادته فلا تطمعوا أبداً أن أوافقكم على شرككم بالله، سواء أعبدتم الملائكة أم الشياطين، وسواء أعبدتم الأنبياء والصالحين، أو قبورهم أو تماثيلهم أو المواضع التي كانوا فيها، فإنني لا أوافقكم على شيء من ذلك، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له؛ لأنه وحده هو

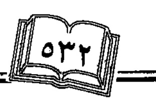
= بكير عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك مرفوعاً، وقال البغوي: «حديث **غريب**»، وقال الطبراني: «لا يروى إلّا بهذا الإسناد، تفرد به يحيى بن أيوب» قلت: وهو صدوق ربما أخطأ كما في «التقريب».
وانظر: «الصحيحة» (١٨٩٠) و«الضعيفة» (٢٧٩٨).

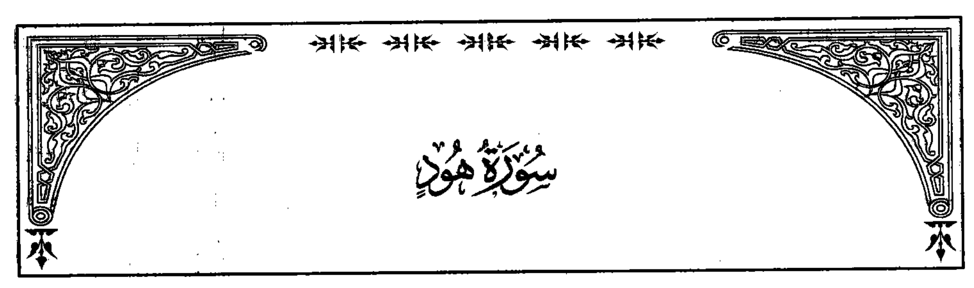
(١) رواه الليث بن سعد عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سليم عن رجل من أشجع عن أبي هريرة، أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢٧) والبيهقي في «الشعب» (١١٢٣) **وإسناده ضعيف**، لجهالة الرجل الأشجعي، وأعل البيهقي الطريق السابق بهذا، فقال: «هذا هو المحفوظ دون الأول»، **فالحديث لم يثبت**، والله أعلم، وانظر: «الضعيفة» (٢٧٩٨).

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨).

الذي يستحق العبادة، فهو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور، وأولئكم الذين تعبدونهم عاجزون عن كل شيء، مخلوقون محتاجون إلى الله، وقد أمرنا الله تعالى كما أمر رسوله محمداً ﷺ أن نكون من المؤمنين بكل ما جاء به هذا الرسول الكريم، وأوله توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، واتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ وأمرنا أن نقيم وجوهنا لهذا الدين حنفاء لا نشرك بالله شيئاً، وأمرنا أن ندعو الله وحده لجلب الخير ودفع الشر، ولا ندعو من دونه أحداً، لأنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ومن يدع غير الله لحاجة فهو من الظالمين المشركين إذا أصابنا ضر علمنا أنه لا يكشفه إلا الله، فدعوناه وتضرعنا له وإن أصابنا خير علمنا أنه من الله وحده، ولا يستطيع أحد أن يمنعنا منه فرجاؤنا كله من الله، وخوفنا كله من الله، لا نخاف غيره أن يصيبنا بضر، كالمرض والموت وتضييق الرزق وتعسر قضاء الحاجات وغير ذلك، ونعلم أن ما جاء به رسولنا خاتم النبيين هو الحق، لا نزيد عليه شيئاً ولا ننقص منه شيئاً، وإن حاربتمونا سألنا النصر عليكم من الله، وصبرنا حتى يحكم الله بيننا وبينكم، وهو خير الحاكمين.





سورة هود

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود: ١، ٢]

قال (ك): «قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا[(١)] وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير[(٢)]، ومعنى قوله[(٣)]: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه الخبير[(٤)] بعواقب الأمور، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: نزّل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث «الصحيح»[(٥)] أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هاهنا».

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٢/ ٣٠٨) وكلام قتادة عند عبد الرزاق (١/ ٣٠١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٥)، وابن جرير (١٢/ ٣١٠)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٣/ ٣٢٠) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ أيضاً. وتفسير مجاهد: أسنده ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٩٥)، وابن جرير (١٢/ ٣١١) عنه.

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خبير»!.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس.

الأقرب، فاجتمعوا فقال: «**يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبّحكم ألستم مصدِّقي**»؟ فقالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: اختلف العلماء في الحروف التي بدئت بها بعض السور نحو: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓر﴾، فاختار بعضهم تفويض معناها إلى الله تعالى، إذ لم يرد في تفسيرها شيء عن النبي ﷺ ولا تتعلق بها أحكام وبعضهم اعتبرها تحدياً للمشركين المكذبين، فكأنه يقول لهم: إن زعمتم أن محمداً جاء بهذا القرآن من عنده فكلماته من حروف المعجم كالألف واللام والميم والراء والصاد والحاء والقاف، فركبوا أنتم كلمات وجملاً وسوراً تشبه القرآن في لفظه ومعناه، فأنتم عرب فصحاء، فكيف عجزتم أن تأتوا بأقصر سورة مثله؟، واستدلوا لهذا الرأي بأن القرآن يذكر بعد تلك الحروف في أكثر الفواتح، كالبقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، إلى آخرها وهو رأي معقول والله أعلم، ودلالة الآية الثانية على إفراد الله تعالى بالعبادة وأن النبي ﷺ نذير لكل من أشرك به، بالعذاب المهين في الدنيا والآخرة، وبشير لكل من وحّده التوحيد الكامل بالسعادة في الدنيا والآخرة.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣١ ـ ٣٤]

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٠ ـ ٤١١).

قال (ك): «يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له[1] فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له[2] على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن[3] هؤلاء الذين تحقرونهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر (هكذا)[4] بعد ما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به، ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ الآية، «يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق، ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣)﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجّلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[5] أيُّ شيء يجدي عليكم إبلاغي[6] وإنذاري إياكم ونصحي، ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إغواءكم ودماركم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق، وله الأمر وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة»[7].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في سورة الأنعام أن الله أمر سيد الخلق

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يقدر».
(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «في»!
(٤) هذه من زيادة الهلالي.
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لكم».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

محمداً ﷺ أن يقول مثل هذا الكلام، وهو ثلاثة أمور:

﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ يعني: إنني فقير إلى الله كسائر الناس، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥] ولذلك لا يجوز لأحد أن يسأل النبي ﷺ شيئاً من خير الدنيا والآخرة، ولا دفع ضر أو عذاب، ولكنه يتوسل إلى الله تعالى بمحبة النبي واتباعه، فإنهما من أعظم الوسائل.

الأمر الثاني: إن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وإنما يعلم منه ما علمه الله تعالى.

الأمر الثالث: حاجته إلى ما يحتاج إليه البشر من أكل وشرب واستراحة ونوم، وليس كالملائكة الذين يستغنون عن ذلك، فالقدرة الكاملة، والعلم الكامل، والغنى المطلق كل هذه خاصة بالله تعالى، فأنت ترى أن الاثنين من أولي العزم وهما محمد ونوح أي: أولهم وآخرهم تبرأ بأمر من الله تعالى من الصفات الثلاث المذكورة، فما أجهل المشركين الذين يتعلقون بالمخلوق ويتركون الخالق.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧]

قال (ك): «هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، و﴿وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت [بإنجائهم][1] لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنجائهم».

أهلك، ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧] فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق؛ لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وبقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فممن قاله الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين، وبعضهم يقول ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد [ما أراد](١) الحسن، أو أراد أنه نسب إليه مجازاً؛ لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم، وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: «ما زنت امرأة نبي قط»(٢) قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله تعالى أغير من أن يمكن من امرأة نبي هذه الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١١، ١٥]»(٣).

قال الجمل في «حاشيته على الجلالين» عند قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ما نصه: «يعني قال تعالى ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ﴾ يعني: هذا الابن الذي سألتني نجاته ليس من أهلك، اختلف علماء التفسير هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا؟ فقال الحسن ومجاهد: كان ولد حنث من غير نوح،

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ١١٢) بلفظ: «ما بغت امرأة نبي قط».

وإسناده ضعيف، وعزاه في «الدر المنثور» (١٤/ ٥٩٦) لابن المنذر، وروي مرفوعاً عند ابن عساكر (٥/ ٣١٨) عن أشرس الخراساني رفعه إلى النبي ﷺ، **وإسناده مظلم، وهو معضل**.

وانظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٥/ ٣٦٥)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ٢٠٤٠ و١٠/ رقم ١٨٩٢٧)، و«المستدرك» (٢/ ٤٩٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤).

ولدته زوجته على فراشه، ولم يعلم به[١]، فلذلك قال الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ وقال محمد بن جعفر الباقر: كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح، ولذلك قال: ﴿مِنۡ أَهۡلِي﴾، ولم يقل: مني، وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين: إنه ابن نوح من صلبه[٢]، وهذا القول هو الصحيح، والقولان الأولان: ضعيفان، بل باطلان، يدل على صحة قول الجمهور ما صح عن ابن عباس أنه قال[٣]: «ما بغت امرأة نبي قط»[٤]، ولأن الله تعالى نص عليه بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ [هود: ٤٢] ونوح أيضاً نص عليه بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] وهذا نص في الدلالة، وصرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة لا يجوز، وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبي كافراً، وهذا خطأ ممن قاله؛ لأن الله تعالى خلق خلقه فريق في الجنة، وهم المؤمنون وفريق في السعير، وهم الكفار، والله تعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم، فإن الله أخرج قابيل[٥] من صلب آدم، وهو نبي، وكان قابيل كافراً، وأخرج إبراهيم عليه السلام وهو نبي من صلب آزر وكان كافراً، وكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبي، فهو المتصرف في خلقه كيف شاء»[٦].

---

(١) أسنده ابن أبي حاتم (٦/رقم ١٠٩٢٦، ١٠٩٢٩) عن الحسن و(٦/ ١٠٩٣٠) عن مجاهد.

(٢) أخرجه عن ابن عباس بلفظ: «كان ابنه، ولكنه خالفه في النية والعمل»: سعيد بن منصور (١٠٩٤)، وابن جرير (١٥/ ١٨٢٢٥، ١٨٢٤٨)، وعبد الرزاق (١/ ٣٠٧)، وابن أبي حاتم (٦/رقم ١٠٩٢٢، ١٠٩٢٤، ١٠٩٢٧)، **وسنده لا بأس به**.
وقول عكرمة على إثر قول ابن عباس في بعض الطرق، وقول ابن جبير عند ابن أبي حاتم (٦/رقم ١٠٩٢٨)، وعنده قول الضحاك أيضاً (٦/رقم ١٠٩٢٥).

(٣) من مطبوع «حاشية الجمل»، وسقطت من الأصل.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) تسمية ولدي آدم بـ(قابيل) و(هابيل) إنما هو من نقل العلماء عن أهل الكتاب، لم يرد به القرآن، ولا جاء في سنة ثابتة فيما نعلم، فلا علينا أن لا نجزم به، ولا نرجحه، وإنما هو قول قيل. قاله العلامة أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (١/ ٦٦٢، ط. الوفاء).

(٦) «الفتوحات الإلهية» (٣/ ٤٤٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد، أذكر بعضها:

الأولى: يظهر لي أن نوحاً سأل الله نجاة ابنه كنعان قبل أن يغرق، كما قاله الجمل، وكما قال الحافظ ابن كثير، أن السؤال سؤال استعلام، وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق، وأنت أحكم الحاكمين؟

الثانية: تأمل كلام الجمل، فإنه نفيس جداً، يبطل اعتماد الجاهلين على النسب، وقد ضل في هذا الباب خلق كثير، فاعتقدوا أن كل من كانت له علاقة بنبي أو صالح لا يعذب في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنه متعلق بحبيب من أحباء الله تعالى، والله لا يعذب بزعمهم من تعلق بأحد المحبوبين عنده، أو تعلق به أحد المحبوبين، كنوح وفي ذلك يقول مخاطباً النبي ﷺ:

أَلم يرضِكَ الرَّحمنُ في سُورة الضُّحى ... وحاشاكَ أَنْ تَرْضى وفينا معذَّبُ

وهذا من أجهل الجاهلين، فإن لازمه أن لا يدخل النار أحد من أمة الإجابة، وقد تواترت الأخبار بأن بعض هذه الأمة المحمدية من الذين ماتوا مصرين على الكبائر يدخلون النار، ثم يخرجون منها بشفاعة النبي ﷺ، ومن أجل ذلك اخترع بعضهم حديث إحياء الأبوين، وإيمانهما بالنبي ﷺ ثم إماتتهما[١]، وردوا بذلك الحديث «الصحيح» الذي رواه مسلم[٢]، وهو قول النبي ﷺ للرجل الذي سأله: أين أبي؟: «**إن أبي وأباك في النار**» وردوا بذلك الحديث «الصحيح» الذي رواه (أ) و(ج) وابن أبي حاتم، أن النبي ﷺ مرّ بقبر أمه فاستأذن الله أن يزوره فأذن له ثم استأذن أن يستغفر لها، فلم يأذن له، فبكى وأبكى من حوله[٣].

وإنما قاس هؤلاء النبوة والصديقية والصلاح على الملك القيصري أو الكسروي، فقالوا بجهلهم: كيف يعذب ابن الملك أو أبو الملك أو صديق الملك؟

---

(١) سبق بيان وهائه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس، وسبقت الإشارة إلى أحاديث الإحياء، وأنها لا أصل لها. انظر التعليق على (ص٤٨٦).

(٣) سبق تخريجه.

وما علموا أن بين النُّبوة والمُلك بُعد ما بين السماء والأرض، فالنبوة اختيار الله تعالى لبعض خلقه، وإنزال الوحي عليهم لتبليغ رسالته، فلا يلزم من ذلك أن يكون كل من تعلق بهم بنسب أو سبب مختاراً، والأدلة على هذا كثيرة منها: قول النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «**سليني من مالي ما شئتِ، وأنقذي نفسك من النار، لا أغني عنك من الله شيئاً**»(١) ومنها قوله عليه السلام في آخر حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «**ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»(٢) وليت شعري إذا عظم على هؤلاء الجهال أن يعذب الأبوان، فلماذا لم يخترعوا حديثاً لنجاة عبد المطلب وهو جد النبي ﷺ و«الجد أب»، كما قال أبو بكر الصديق(٣) رضي الله عنه، وهو في النار، بدليل قول أبي طالب عند موته: «هو على دين عبد المطلب»، فمات كافراً(٤)، ولكن كل من نبذ الكتاب والسنة واتبع هواه يقع في أودية الضلال، ومن أعجب العجب أن بعض شرار الدواب زعم أن بول أهل البيت طاهر؛ لقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: ٥٩].

الثالثة: قد أحسن من(٥) نزه أنبياء الله أن تقع أي فاحشة من نسائهم مع كفر بعضهن.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب الفرائض، باب ميراث الجد مع الآب والإخوة (قبل رقم ٦٧٣٧) قال: «وقال أبو بكر وابن عباس وابن الزبير: الجد أب» قال: «ولم يذكر أن أحداً خالف أبا بكر في زمانه وأصحاب النبي ﷺ متوافرون».
ووصله عبد الرزاق (١٩٠٤٩)، وأحمد (٤/٤، ٥)، والبيهقي (٦/٢٤٦)، ثم وجدته موصولاً عند البخاري نفسه: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً**» رقم (٣٦٥٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) كأنه يريد صديقه شيخنا الداعي إلى الله على بصيرة العلامة الأديب المفسر محمد نسيب الرفاعي، وله في هذه المسألة مصنَّف مفرد بعنوان «نوال المنى في إثبات عصمة نساء النبي ﷺ من الزنى» ناولني إياه، وشرط عليّ أن لا ينشر، وأخذت مصورة ما زالت عندي بخطه، وذكر لي أن بعض مبتدعة بلادنا زاره راجياً له نشره، فأبى، وقال له: العلامة المحدث الألباني شيخي، وأنا معه ضدك، أو نحو هذا، فنشره بعد مماته مما لا يرضيه!!

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٠ ـ ٥٨].

قال (ك) «يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ وفي الحديث: **«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»**(١) ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ...﴾ الآية،

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٤٨)، وأبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» من «الكبرى» (٦/ ١٠٢٩٠) وهو في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٦)، وابن ماجه (٣٨١٩)، والطبراني (١٧٧٤) وفي «الدعاء» (١٧٧٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٦٤)، والحاكم (٤/ ٢٦٢)، والبيهقي (٣/ ٣٥١)، وغيرهم من حديث ابن عباس، وصححه =

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك اتركوهم نتركهم، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: طرفة عين وقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه فإنه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ الآية، يقول لهم هود[١]: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له ﴿فَقَدْ﴾ قامت عليكم[٢] الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالي بكم، فإنكم لا تضرونه بكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي شاهد[٣] وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم، ويجزيهم عليها: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وهو الريح العقيم، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه»[٤].

= الحاكم، وفي إسناده الحكم بن مصعب وهو مجهول كما في «التقريب»، وبه تعقبه الذهبي فقال: «الحكم بن مصعب فيه جهالة» **فإسناده ضعيف.**

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هو»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عليه»!

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مشاهد»!

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/٤٤٧ ـ ٤٤٩) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: أفكار المشركين وأقوالهم متشابهة في كل زمان ومكان، فهكذا يقول عبَّاد الأوثان في هذا الزمان، كيف نترك الاحتفال بقبة الشيخ فلان التي وجدنا عليها آبائنا وأسلافنا، ولم يزل العلماء يوافقوننا على عبادتها، بالذبح والنذر والتمسح والطواف والتقبيل، وهم كانوا أعلم منك ولا تعرف أنت عشر معشار علمهم، فهذا علم جديد، ودين جديد جئتنا به، وسيضربك المدفونون في تلك القباب ضربة تردك إلى صوابك، ويحسن هنا أن أذكر حكاية عجيبة ذكرها الشعراني في «الطبقات الكبرى»[1] وهي أن الاحتفال

---

(١) يظهر أن المصنف قد دمج بين قصتين ذكرهما الشعراني في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٨٧) وهذا نص ما فيه:
«وأخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي ﷺ أن شخصاً أنكر حضور مولده، فسُلب الإيمان! فلم يكن فيه شعرة تحنُّ إلى دين الإسلام، فاستغاث!! بسيدي أحمد ﷺ فقال: بشرط أن لا تعود. فقال: نعم، فردَّ عليه ثوب إيمانه، ثم قال له: وماذا تنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال والنساء، فقال له سيدي أحمد ﷺ: ذلك واقع في الطواف ولم يمنع أحد منه، ثم قال: وعزة ربي ما عصى أحد في مولدي إلا وتاب وحسنت توبته وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك في البحار وأحميهم من بعضهم بعضاً، أفيعجزني الله ﷻ عن حماية من يحضر مولدي؟! وحكى لي شيخنا أيضاً: إن سيدي الشيخ أبا الغيث بن كتيلة ـ أحد العلماء بالمحلة الكبرى، وأحد الصالحين بها ـ كان بمصر فجاء إلى بولاق، فوجد الناس مهتمين بأمر المولد والنزول في المراكب، فأنكر ذلك. وقال: هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء بزيارة نبيهم ﷺ مثل اهتمامهم بأحمد البدوي!! فقال له شخص: سيدي أحمد ولي عظيم، فقال: ثم في هذا المجلس من أهو أعلى منه مقاماً، فعزم عليه شخص، فأطعمه سمكاً، فدخلتْ حلقه شوكة تصلبت فلم يقدروا على نزولها بدهن عطاس ولا بحيلة من الحيل، وورمت رقبته حتى صارت كخلاية النحل تسعة شهور، وهو لا يلتذ بطعام ولا شراب ولا منام، وأنساه الله تعالى السبب فبعد التسعة شهور، ذكّره الله بالسبب فقال: احملوني إلى قبة سيدي أحمد ﷺ، فأدخلوه فشرع يقرأ سورة يس، فعطس عطسة شديدة، فخرجت الشوكة مغمسة دماً!! فقال: تبتُ إلى الله تعالى يا سيدي أحمد، وذهب الوجع والورم من ساعته».
قال أبو عبيدة: في كتاب «**الطبقات الكبرى**» **للشعراني طامات وأوابد**، وإليك نماذج من ذلك: فيه (١/ ٦٤) في (كرامات عبد الله بن عون): «كان يخلو في بيته صائماً متفكراً، وما دخل حماماً قط»، وفيه (٢/ ١٢٨) ضمن (كرامات نور الدين المرصفي) قال على لسانه: «ذكر لي سيدي أبو العباس قرأ بين المغرب والعشاء خمس ختمات، فقال الشيخ الفقير: وقع له أنه قرأ في يوم وليلة ثلاث مئة وستين ألف ختمة»!! وذكر (٢/ ١٤٠) من =

بموسم أحمد البدوي المدفون في طنطا يختلط فيه الرجال والنساء، ويقع الزنا بينهم، فتصدى أحد العلماء للإنكار عليهم، فلما رجع إلى بيته قدم له الطعام، وكان فيه سمك، فوقف له عظم صغير في حلقه لا يصعد ولا يهبط، وبقي كذلك سنتين، وكان القيح والصديد يخرج من فمه، ولا يتغذى إلا باللبن (الحليب)، وبعد مضي سنتين في ذلك العذاب تذكر أنه أنكر على المشتغلين في موسم أحمد البدوي، وخطر بباله أن أحمد البدوي انتقم منه لإنكاره على المحتفلين بموسمه ما يأتونه من الفاحشة، فندم وتاب في باطنه فرضي عنه البدوي وقبل توبته فسقط صبي له من مكان عالٍ إلى أسفل، ففزع وصاح صيحة شديدة فخرج العظم من فمه، وشفي في الحال.

يريد الشعراني بهذه الحكاية أن يخوف العلماء من سطوة أرواح المقبورين، حتى لا ينكروا على الفساق ما يفعلونه عند قبورهم، وهذا عين ما قاله قوم هود لهود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ ونحن نقول لهم اقتداء برسل الله عليهم الصلاة والسلام: إننا نشهد الله، واشهدوا أننا بريئون مما تشركون به يا عبّاد القبور، فكيدونا جميعاً أنتم وآلهتكم وأولياؤكم، وأهلكونا ولا تبقونا لحظة واحدة إن كنتم قادرين، ولا تظن أيها القارئ أن وقوع الزنا عند قبر البدوي خبر مبالغ فيه أو كذب، فقد أخبرني أخو الشيخ حسن عبد الرحمن من كبار العلماء المعاصرين للشيخ محمد عبده، ومن خيار السلفيين، أخبرني أن

= (كرامات إبراهيم بن عصيفير): «كان يتشوش من قول المؤذن: (الله أكبر) فيرجمه، ويقول: عليك يا كلب! نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبروا علينا»، وفيه عنه: «وكان يقول: أنا ما عندي من يصوم حقيقة إلا من يأكل اللحم الضاني أيام الصوم كالنصارى، وأما المسلمون الذين يأكلون اللحم الضاني والدجاج أيام الصوم، فصومهم عندي باطل»، وذكر فيه (٢/ ١٤١) عن شهاب الدين الطويل النشيلي أنه كان ينادي خادمه وهو في الصلاة، فإن لم يجئه مشى إليه وقال: «كم أقول لك: لا تعد تصلي هذه الصلاة المشؤومة فلا يستطيع أحد يخلصه منه»، وذكر فيه (٢/ ١٤٣) من (مكاشفات أبي الخير الكليباتي): «كان أغلب وقته واضعاً وجهه في حلق الخلاء في ميضاة جامع الحاكم، ويدخل الجامع بالكلاب»، وذكر فيه (٢/ ١٤٢) أن من (كرامات إبراهيم العريان): «كان يطلع المنبر ويخطب عُرياناً»، وأما إبراهيم المجذوب فكراماته: «كان كل فلوس حصلها يعطيها للمطبلين ويقول: طبلوا لي وزمروا لي» **في سلسلة من هذه الترهات والخرافات التي يصان العقلاء عنها، والإسلام منها بريء، والله حسبنا ونعم الوكيل.**

(. . . .) زنى بامرأة عند قبر البدوي، وكان الشيخ حسن قد أخبرني بذلك قبل أن نزور (. . .)، فلما زرناه قال له: اذكر ما فعلته عند قبر البدوي لمحمد تقي الدين ليزداد يقيناً، فذكر لي ذلك، ثم إن الشعراني حكى في ذلك حكاية. فانظر إلى أين يبلغ الجهل بالدين عند من يزعمون أنهم علماء[1]، بل أولياء وأقطاب، فماذا يقول العوام الجاهلون.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٨]

قال (ﷺ): «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم: الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم أخاهم صالحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ابتدأ

---

(١) انظر في هذا الباب ما عقده محمود عبد الرؤوف القاسم في كتابه: «الكشف عن حقيقة الصوفية» (ص٤٢٣ ـ ٥٩٣) فصلاً بعنوان (نماذج من حكايات الصوفية ومكاشفاتهم وكراماتهم وعلومهم اللدنية) أورد فيه عشرات القصص على وزان هذه القصة، فكن على حذر من الترهات والبواطيل والخرافات!

خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم، ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عماراً تعمرونها وتشغلونها ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [من سالف][1] ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيما تستقبلونه، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية، يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ أي شك كثير، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ أي: خسارة، ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ الآية، تقدم الكلام عليها في (سورة الأعراف) بما أغنى عن إعادته، فللّه الحمد والمنة»[2].

انظر (الباب الخامس) من (سورة الأعراف).

فصل

قال محمد تقي الدين: وهذا بعينه موجود في مشركي هذا الزمان؛ فإنهم يعتبرون العالم الذي يدعوهم إلى توحيد الله واتباع سنة رسوله ناقص العقل أحمق، ويعتبرون العالم الذي يسالمهم ولا ينكر عليهم ما هم فيه من الشرك عاقلاً حسن الخلق، يقدر الناس حق قدرهم، ويعاشرهم بالإحسان، فهذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولكن من شرح صدره للإسلام، وكان على نور من ربه، لا يبالي بعداوة المشركين، بل يجدُّ في الدعوة إلى الله ويستنصر على أعداء التوحيد، فقد وعده بالنصر، والله لا يخلف الميعاد، قال تعالى في سورة المؤمن ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «السالف».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان بلاداً تعرف[(١)] بهم يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ الآية، ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو[(٢)] في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق، وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال (ج): ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس، وقال: وقد روى هذا عن ابن عباس[(٣)]، قال (ك):

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بلاد معان في بلد يعرف».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العيث».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قلت»: ونحو المذكور عند ابن جرير (١٢/ ٥٤١ ـ =

ويشبه قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ الآية [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله ﷻ لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله ﷻ، ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الآية، يقولون له: على سبيل التهكم ـ قبحهم الله ـ: ﴿أَصَلَاتُكَ﴾ قال الأعمش: أي: قرآنك ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد، قال الحسن في قوله: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، إي: والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ يعنون: الزكاة[(١)]، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف يقولون[(٢)] ذلك ـ أعداء الله ـ على سبيل الاستهزاء»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أول ما أمر نبي الله شعيب قومه به أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، ثم نهاهم عن نقص الكيل والوزن؛ لأن مَن وحّد الله حقاً في عبادته لا ينقص كيلاً ولا وزناً لمسلم، ولا لذمي، ولا لمعاهد، ولا لمصالح، فإن فعل ذلك دل على ضعف إيمانه بالله، وقوله: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ دليل على أن من نقص الكيل والوزن، فقد تعرض لعذاب الله الذي يحيط به ولا يدع له مخرجاً في الدنيا والآخرة، ثم أمرهم أن يوفوا الكيل والوزن إذا أعطوا غيرهم شيئاً مما يكال أو يوزن، وإيفاء الكيل والوزن، يلزم منه عدم نقصهما والعكس بالعكس، سواء أكان الشخص معطياً أو آخذاً وفي «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «**من غشنا فليس منا**»[(٤)]، وهذا دليل على أن العمل

= ٥٤٢)، وفيه: «وهذا قول روي عن ابن عباس **بإسنادٍ غير مرتضى عند أهل النقل**» ولم يسقه لوهائه وضعفه. وبنحوه عن سفيان الثوري عند سعيد بن منصور في «تفسيره» رقم (١٠٩٩).

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقولهم».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٦٠ ـ ٤٦١) بتصرف.
(٤) سبق تخريجه.

داخل في الإيمان، كما هو مذهب جمهور أهل السنة، والقول الآخر ضعيف[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ دليل على أن الصلوات الصحيحة المقبولة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتأمر بالمعروف، وقال النبي ﷺ: «**من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بُعداً**»، وقال النبي ﷺ: «**من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له**» رواهما الطبراني[(٢)] من حديث ابن عباس. وقوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ يعني: أصلواتك تأمرك أن لا نتصرف في أموالنا كما نشاء، فنترك الصدقة إن شئنا، وإن كانت واجبة، ونوفي الكيل والوزن ولا ننقصهما إذا أخذنا وإذا أعطينا ننقصهما مع أنها أموالنا نتصرف فيها كيف نشاء؟ وهذا كلام الجاهلين الضالين، فإن المالك الحقيقي للأموال هو الله تعالى، والناس مستخلفون في تلك الأموال يجب عليهم أن يتصرفوا فيها كما أمرهم سيدهم وخالقهم ورازقهم ومالكهم ومالك أموالهم، ولا يجوز أن يتصرفوا فيها حسب أهوائهم، والحليم الرشيد، هو الذي يستحق أن يكون إماماً

---

(١) هو قول المرجئة المبتدعة، أعاذنا الله من شرهم، وفساد عقيدتهم.

(٢) أما الرواية الأولى: فقد أخرجها الطبراني في «الكبير» (١١/ ٥٤)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٠٥) (رقم ٣٩٨، ط. طبرية): «رواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في «تفسيره» من حديث ابن عباس **بإسناد لين**».
وأما الثانية فلم أجدها عند الطبراني وإنما هي عند ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٥) رقم (١٧٣٣٩) من حديث عمران بن حصين مرفوعاً.
وأخرجه الطبراني (٩/ ١٠٧) رقم (٨٥٤٣)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص١٥٩)، وابن جرير في «تفسيره» (١٨/ ٤٠٩) عن ابن مسعود موقوفاً قال: «من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلّا بعداً».
قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٥١٤): «**والموقوف أصح**».
وقال أيضاً (١٠/ ١٥) «والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم، والله أعلم».
وقال عنه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ١٠٥): «**وإسناده صحيح**».
وقال شيخنا الألباني في «الضعيفة» (١/ ٥٦): «وجملة القول: إن الحديث لا يصح إسناده إلى النبي ﷺ، وإنما صح من قول ابن مسعود والحسن البصري وروي عن ابن عباس».

لقومه؛ لأنه يعفو عن مسيئهم وهو رشيد لا يأمر إلا بالخير فأنكروا عليه هذه الإمامة لجهلهم وسفاهتهم. ثم قال (ك): «يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يا قوم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على بصيرة فيما ادعو إليه ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، وقال الثوري: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن شيء[1] أخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ يقول: لم أكن أنهاكم[2] عن أمر وأرتكبه، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾أي: فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد[3] إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: أول شرط في الداعي إلى الله أن يكون على بصيرة، أي: على علم بما يدعو إليه بأدلته من الكتاب والسنة، ولا يجوز أن يكون مقلداً لغيره؛ لأن المقلد قد أجمع أهل العلم على أنه جاهل، أعمى لا بصيرة له، فإذا استفتى عالماً واجتهد في الاستفتاء كما يجب عليه باختيار المفتي الأعلم الأورع، الأتبع للسنة، وأفتاه بشيء جاز له العمل به في خاصة نفسه، ولا يجوز له أن يفتي بذلك لجهله بدليله. قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه». وهكذا قال الأئمة كلهم[5]، متبعين في ذلك لنصوص الكتاب والسنة. وقال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النّمري في كتابه: «جامع بين العلم وفضله»، من قصيدة له مفيدة:

لا فَرقَ بين مقلِّدٍ وبهيمةٍ تنقادُ بين جنادِلَ ودعاثرِ[6]

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «الشيء».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لأنهاكم».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مرادي».
(٤) انظر: «تفسير ابن كيير» (٧/ ٤٦٢).
(٥) ذكره الإمام ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٨٨ ـ بتحقيقي) وأخرجه البيهقي في «المدخل» رقم (٢٦٢) عن أبي يوسف.
(٦) سبق ذكره.

الشرط الثاني: في الداعي إلى الله أن يكون مخلصاً في دعوته: فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نهى عنه، وهذا هو الإصلاح الحقيقي، ويسأل التوفيق دائماً من الله سبحانه، ويتوكل عليه وحده، ويرجع إليه في جميع أموره، فيكون جديراً بالنجاح.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود: ١٠٩]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ المشركون أنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، [فيعذبهم](١) عذاباً لا يعذبه أحداً(٢)، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس(٣): ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر»(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: أمرنا الله تعالى في هذه الآية اتباعاً لنبيّنا محمد ﷺ أن لا نشك في ضلال المشركين وعذاب الله لهم في الدنيا والآخرة، وهناك طائفة في هذا الزمان ممن يدعون العلم ـ أو يُدَّعى لهم ـ يداهنون المشركين، ويحاولون التستر عليهم، فإذا رأوهم يدعون غير الله لجلب الخير أو دفع الشر ويذبحون على القبور ويستغيثون بأهلها، وينذرون لهم ويهتفون بأسمائهم في

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيعذب كافرهم».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من العالمين».

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣١٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١١٢٤٨)، وابن جرير (١٢/ ١٢٢) في «تفاسيرهم»، وابن المنذر وأبو الشيخ ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٣٧) ـ وجابر الجعفي ضعيف.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٥).

قيامهم وقعودهم عند فزعهم سكتوا عنهم، ولم ينبهوهم، حتى إذا جاء داعٍ من أهل الحق، ودعاهم وأخبرهم أن ما هم عليه من الشرك الأكبر الذي يخرجَ من الملة، أحب ذلك المتعالم أن يدافع عن المشركين ويظهر العطف عليهم ويقول للداعي: إن التكفير أمر عظيم، وهؤلاء جاهلون، ولا يقصدون بأعمالهم عبادة غير الله تعالى، فإذا قال له الداعي: أنا ما كفرتهم وإنما أخبرتهم أن هذا الذي يعملونه شرك وكفر، يجب عليهم أن يتوبوا منه فقال المتعالم: وهذا أيضاً لا ينبغي، قل لهم: هذا حرام، وتلطف معهم في القول، وهذا المتعالم إنما يقول ذلك لجهل أو نفاق، فإما أن يكون جاهلاً لا يعرف التوحيد بأدلته من الكتاب والسنة، أو يكون عالماً به ولكنه يتبع أهواء المشركين، وما أكثر هذا الصنف في هذا الزمان! لا كثرهم الله، والواجب على من أكرمه الله بالعلم أن يصدع به كما قال تعالى في آخر سورة الحجر: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٩]. فلما كفى الله رسوله الأمين المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، فسيكفي كل من اتبعه شر المستهزئين، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر عباده الموحدين عليهم.

الباب الثامن

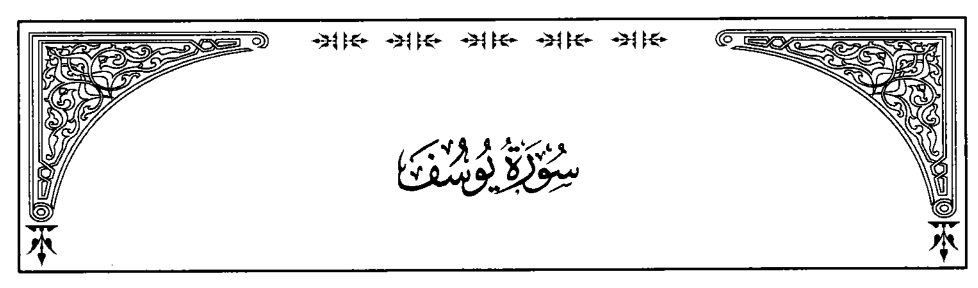
قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب[١]، فله الخلق[٢] والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كافٍ من توكل عليه وأناب إليه، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذِّبوك يا محمد؛ بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين»[٣].

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وسيوفي كل عامل عمله يوم الحساب».
(٢) كذا في «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الحق»!
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآية جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وما أكثر الآيات التي تجمع بينهما، فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ دليل على توحيد الربوبية؛ لأن المعنى: إن كل غيب في السموات والأرض يعلمه الله وحده، ولا يحيط عباده بشيء من علمه إلا بما شاء، والأمور كلها راجعة إليه في مبدئها وفي مصيرها؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ دليل على توحيد العبادة لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ١ ـ ٣] مع أنهم كانوا يعبدون الله بالصدقة والحج وغير ذلك، ولكنهم كانوا يشركون بالله فأحبط الله أعمالهم، فإن من جعل عبادته تسعمائة وتسعة وتسعين جزءاً، لله سبحانه وجعل جزء واحد من الألف لغير الله لم يقبل الله منه شيئاً، قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦] وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي: لا تصرف من عبادتك شيئاً لغير الله؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠]

قال (ك): «هذا إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين[1] فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به، في الخير وداعياً إلى سبيل الرشاد، ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا وأمرنا به، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم[2] إلى ذلك

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الظالمين».
(٢) بعدها في الأصل: «دعاة» ولا معنى لها! ولا وجود لها في مطبوع «تفسير ابن كثير».

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].
وقال ابن أبي حاتم[١] بسنده عن ابن عباس: أنه كان يجعل الجد أباً، ويقول: «والله من شاء لاعنتُه عند الحجر ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى إخباراً عن يوسف: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾» ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾» الآية.

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء[٢] لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: الذي ذل[٣] كل شيء بعز[٤] جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هي جهل[٥] منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم من سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجة ولا برهان، ثم أخبرهم إن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦] فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ

---

(١) في «تفسيره» (٧/ ١١٦١٢) وفيه حجاج بن أرطأة وهو صدوق كثير الخطأ والتدليس ولم يصرح بالتحديث، **والأثر صحيح** علقه البخاري بصيغة الجزم، وتقدم ذلك (ص٥٣٩).
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: وفي الأصل: «والدعوة».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولي».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لعز»!
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «جعل»!
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٨/ ٤٢، ٤٣).

﴿بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ هو قول جميع الأنبياء، وقول كل من اتبعهم وأسلم وجهه لله، وأخلص دينه له، وحقق اتباع الرسل، وهذا هو الأصل العظيم، والأساس المتين الذي لا يختلف فيه الرسل وأتباعهم، ومن لم يحققه كان سالكاً غير سبيلهم لا يستحق نصر الله، ولا ينجو من عذاب الله، وقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ إلى آخره، حجة قائمة وحكمة بالغة، فإن من جعل في قلبه مكاناً لغير الله تعالى، يتشتت قلبه ويتفرق شمله، ويختل دينه وعقله؛ لأنه يخاف الله ويخاف غير الله، ويتمادى به الضلال إلى أن يخاف غير الله أكثر من خوفه لله، ويحب غير الله أكثر من حبه لله، ويعمل لغير الله أكثر من عمله لله.

ودونك مثالاً: لمّا كنت في الطريقة التجانية كنت ذات ليلة أطالع كتاباً شغفت به ومنعني النوم، فنظرت إلى الشمعة التي كنت أقرأ في ضوئها، وإذا بها تكاد تنتهي وليس لي غيرها، ولو فنيت لتوقفت عن القراءة وضاق صدري فلا أستطيع نوماً ولا أستطيع صبراً إلى الصباح، فخرجت من البيت في منتصف الليل أبحث عن دكان أشتري منه شمعة، فمضيت أطوف الشوارع فوجدت الدكاكين كلها مغلقة، ولم أزل أتنقل من شارع إلى شارع وكان ذلك في مدينة (وجدة) حوالي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف للهجرة، وبعد طواف طويل، ظفرت بدكان، واشتريت منه شمعة، ولم تكن الكهرباء في ذلك الزمان موجودة في مدن المغرب، وفي ذهابي وإيابي كنت أمر بالسائلين، يسألون الناس، يقول أحدهم: «أعطوني شيئاً لوجه الشيخ عبد القادر الجيلاني» ويقول آخر: «أعطوني صدقة لأجل أهل وزان»، ويقول آخر: «أعطوني صدقة لوجه مولاي إدريس» ويقول غيره: «أعطوني صدقة لوجه الله» فلم أبال بأحد منهم، فلما وصلت البيت وأنا شديد الشوق لقراءة الكتاب سمعت سائلاً يقول: «أعطوني صدقة لوجه السيد أحمد التجاني» سمعته من بعيد فلم أستطع أن أحرمه، ورجعت إليه مسافة بعيدة، وأعطيته شيئاً من الدراهم فحينئذٍ طابت نفسي، فأنت ترى أنني في ذلك الزمان، كنت أحب مخلوقاً اتخذته إلهاً، وأخافه وأرجوه أكثر من حبي وخوفي ورجائي لله الخالق سبحانه، ولو أني سويت بين الخالق والمخلوق في الحب والخوف والرجاء لكنت من شرار الكفار.

كما قال تعالى في سورة الشعراء حكاية عن المشركين: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا

كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ٩٢ ـ ١٠١] فكيف وقد كنت أحب وأخاف وأرجو ذلك الشيخ العاجز الفقير، الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، أكثر من الله، ولم يكن يسمعني ولا يعرفني ولا يعلم بحالي، فأي كفر أعظم من هذا، فالحمد لله الذي هدانا صراطه المستقيم.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف: ٦٧، ٦٨]

قال (ك): «يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، أن لا يدخلوا كلهم[(١)] من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه[(٢)] كما قال ابن عباس وجماعة من السلف: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم[(٣)]، فـ«**إن العين حق**»[(٤)]، تستنزل

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «وإنه».

(٣) ثبت هذا في حديث صحيح أخرجه البخاري (٥٩٤٤)، ومسلم (٢١٨٧)، وأبو داود (٣٨٧٩) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٨) (رقم ١١٧٦٧) عن ابن عباس، **وإسناده ضعيف**.

وأخرجه بنحوه عن قتادة: ابن جرير (١٣/ ٢٣٧) وفي «التاريخ» (١/ ٣٥١)، وعبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢١٦٨ ـ ٢١٦٩) (رقم ١١٧٧٠، ١١٧٧١) **وإسناده صحيح**، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٢٦) إلى ابن المنذر =

الفارس عن فرسه[(١)]، وقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: أن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه[(٢)] فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين لهم، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه[(٣)]، وقال (ع) لذو علم[(٤)] لتعليمنا إياه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾»[(٥)].

فصل

قال محمد تقي الدين: ثبت في الحديث أن بعض الناس إذا نظر إلى شيء واستحسنه ووقع في نفسه يصيب ذلك الشيء المستحسن ضرر، كأن ينظر إلى صبي جميل المنظر، أو إلى رجل، أو امرأة، فيصابون بمرض، أو غيره من المصائب، وثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ على الحسن والحسين المعوذتين ويقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة**»[(٦)] قال في النهاية[(٧)]:

= وأبي الشيخ. وبنحوه عن الضحاك عند ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٨) رقم (١١٧٦٧)، وابن جرير (١٣/ ٢٣٧، ٢٣٨). وانظر: «الدر المنثور» (٤/ ٢٦).

(١) ورد هذا في **حديث حسن** ولفظه: «**العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر**»، أخرجه ابن عدي (٥/ ١٨٣١) وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٩٠) وأبو بكر الشيرازي في «سبعة مجالس من الأمالي» (٨/ ٢) ـ كما في «الصحيحة» (٣/ ٢٥٠) ـ والخطيب في «تاريخه» (٩/ ٢٤٤، ط. الكتب العلمية) من حديث جابر.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير» «قضاء الله وقدره».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهكذا أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢٤٠)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٠)، (رقم ١١٧٧٧). وتؤكده الزيادة التي عند ابن جرير (١٣/ ٢٤١)، والثعالبي في «تفسيره» (٢/ ٢٤٨): «من لا يعمل لا يكون عالماً». وفي الأصل: «لذو علم بعلمه»!.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عمل»، والمثبت في «تفسير ابن جرير» (١٣/ ٢٤٠) والأصل.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٦ ـ ٥٧).

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس بلفظ: «كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله...**»».

(٧) «النهاية» (٥/ ٢٧٥).

«الهامة: كل ذات سم يقتل» فنحن نقتدي بالنبي ﷺ، فنعوذ أنفسنا وكل عزيز لدينا بما تقدم، ولكن لا ينبغي للإنسان أن يبالغ في الخوف من العين، حتى يصير موسوساً فينسب كل ما أصابه للعين، ويخاف على أولاده حتى يمنعهم من الخروج من البيت أو يلبسهم ثياباً بالية وسخة، ويمنعهم من غسل وجوههم، وما أشبه ذلك من الوسوسة. وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ يعني: جميع الأحكام الشرعية والقدرية كلها لله، لا يشاركه فيها أحد، لذلك لا ينبغي للعباد أن يتوكلوا على أحد سواه.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٦ ـ ١٠٨]

قال (ك): «يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات وحيوان[(١)] ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء، والصمدية ذي الأسماء[(٢)] والصفات، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به[(٣)]، وكذا قال غيره من

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحيوانات».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «للأسماء».

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٣٧٣) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٠٧) رقم (١٢٠٣٤) وعزاه السيوطي في «الدر» (٤/ ٤٠) إلى أبي الشيخ.

السلف[١] وفي «الصحيحين»: إن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك»[٢] وفي «صحيح مسلم» أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك، لبيك، لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: **«قد قد»**[٣] أي: حسب، حسب، لا تزيدوا على هذا.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود: «قلت: يا رسول الله، أي: الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[٤]، وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[٥] وفي الحديث: **«من حلف بغير الله فقد أشرك»**[٦] رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر.

---

(١) مثل عطاء، أخرجه بسند صحيح عنه: سعيد بن منصور (١١٤٦)، وابن جرير (١٣/ ٣٧٣)، وابن المنذر وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٤/ ٥٩٣).

(٢) لم أجده في «صحيح البخاري» وإنما هو عند مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ١٢٠٤٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ١٤) رقم (٢٣٨٠٩) نحوه.

(٦) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) وحسنه، وأحمد (٢/ ١٢٥)، وابن حبان (٤٣٥٨)، والحاكم (١/ ١٨ و١٤/ ٢٩٧)، ـ وصححه على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي!! ويأتي ما فيه ـ، والبيهقي (١٠/ ٢٩) عن الحسن بن عبيد الله عن سعد بن عَبيدة عن ابن عمر.

والحسن ثقة، روى له الجماعة؛ خلا البخاري، **فإسناده صحيح** على شرط مسلم، كما قال الذهبي في «الكبائر» رقم (٧٤ ـ التحقيق الثاني).

وتابعه سعيد بن مسروق، عند الطحاوي في «المشكل» (٨٢٦).

وأخرجه عبد الرزاق (١٥٩٢٦) ـ ومن طريقه أحمد (٢/ ٣٤) ـ، والطيالسي (١٨٩٦)، والخطيب في «تالي التلخيص» (١/ ٢٧٠) رقم (١٥٤ ـ بتحقيقي) من طرق عن سعد به.

وأخرجه أحمد (٢/ ٨٦، ٨٧، ١٢٥)، والطحاوي في «المشكل» (٨٣٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٩) من طريق شعبة، عن منصور، عن سعد بن عبيدة، قال: كنت عند ابن عمر، فقمت وتركت رجلاً عنده من كندة، فأتيت سعيد بن المسيب، قال: فجاء الكندي فزعاً، فقال: جاء ابن عمرَ رجلٌ، فقال: أحلفُ بالكعبة؟ قال: لا، ولكن أحلف برب الكعبة، فإن =

. . . .

= عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تحلف بأبيك؛ فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك**».

وهذا يقتضي انقطاعه، قال البيهقي عقب روايته الأولى: «وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر»، ثم ساق الرواية الثانية التي تبين ذلك، ويأتي جوابه.

وأخرجه أحمد (٢/ ٦٩) من طريق شيبان، عن منصور نحوه، وسمّى الرجل الكندي محمداً.

ومحمد الكندي، قال عنه أبو حاتم: «مجهول»؛ كما في «الجرح والتعديل» (٨/ ١٣٢).

وأخرجه أحمد (٢/ ٥٨، ٦٠)، وابن أبي شيبة (٤/ ١٧٩) عن وكيع، والطحاوي في «المشكل» (٨٢٥) من طريق أبي عوانة؛ كلاهما عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، قال: كنت مع ابن عمر في حلقة، فسمع رجلاً في حلقة أخرى وهو يقول: لا وأبي؛ فرماه ابن عمر بالحصى، وقال: إنها كانت يمين عمر؛ فنهاه النبي ﷺ عنها، وقال: «**إنها شرك**»؛ لفظ وكيع.

ولفظ أبي عوانة: «كنت جالساً مع ابن عمر. . .» نحوه.

فهذا إسناد صحيح، صريح في أن سعد بن عبيدة سمع ذلك من ابن عمر وحضره.

ويدل على ذلك أيضاً رواية ابن حبان المتقدمة، وفيها قول سعد بن عبيدة: «كنت عند ابن عمر، فحلف رجل. . .».

وأخرجه أبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (٢/ ١٤١)، من طريق محمد بن فضيل، عن الأعمش، عن سعد، عن أبي عبد الرحمٰن، كذا سمع ابن عمر رجلاً يحلف. . . بنحوه.

والحاصل أن الحديث قد رواه عن سعد بن عبيدة أربعة من الثقات: منصور، والأعمش، والحسن بن عبيد الله، وسعيد بن مسروق والد سفيان، ورواياتهم متفقة، وظاهرها أن سعد بن عبيدة سمع ذلك من ابن عمر وحضره، خاصة وأنه لم يُذكر بتدليس.

ورواه منصور عن سعد بن عبيدة فاختلف عليه فيه: فرواه عنه سفيان الثوري وشعبة ويزيد بن عطاء مثل رواية من سبقه.

بينما رواه شعبة ـ أيضاً ـ وشيبان وجرير بن عبد الحميد فذكروا فيه الكندي، وفي رواية شيبان التصريح بأن اسمه محمد، وانظر: «مشكل الآثار» (٢/ ٣٠٠).

وهذه أسانيد صحيحة عن منصور، وعن سعد بن عبيدة، إلا أن رواية من رواه عن سعد، دون ذكر محمد الكندي أكثر، والجمع أحفظ من الواحد، سيما وقد اختلف عليه فيه، ولعل كلاهما صحيح، بأن يكون سعد بن عبيدة بلغه ذلك من الكندي بُعَيدَ أن قام من حلقة ابن عمر، فجاء من يسأله، ثم في مرَّة أخرى سمع ابنُ عمر رجلاً يقول ذلك فنهاه، وهاتان حادثتان منفصلتان، كما تقدم من الروايات، وتكون الرواية الثانية التي فيها ذكر الكندي لمنصور، لم يروها سواه، والله أعلم. والحديث صححه شيخنا الألباني في «إرواء الغليل» (٢٥٦١) وغيره.

(**تنبيه**): لم يذكر الحسيني في «الإكمال» ولا الحافظ في «تعجيل المنفعة» محمداً الكندي، مع أن روايته عند أحمد!! =

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»(١)، وفي لفظ لهما «**الطيرة شرك وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**»(٢) ورواه الإمام أحمد بسنده بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وأنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة، فأدخلتها تحت السرير قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رقى لي فيه، فأخذه فقطّعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» قالت: قلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها؟ فكان إذا رقاها سكنت، فقال: إنما ذلك من الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ: «**أذهب البأس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»(٣).

= **والمراد بالشرك هنا**: الشرك العملي الذي لا ينتقل المتلبس به عن الملة، وليس الشرك الاعتقادي. قال المناوي في «فيض القدير» (٦/ ١٢٠): «أي: فَعَلَ فِعْلَ أهل الشرك أو تشبه بهم، إذ كانت أيمانهم بآبائهم وما يعبدون من دون الله، أو فقد أشرك في تعظيم ما لم يكن له أن يعظمه؛ لأن الأيمان لا تصلح إلا بالله، فالحالف بغيره معظم غيره مما ليس فيه، فهو يشرك غير الله في تعظيمه، ورجحه ابن جرير». وانظر: «فتح الباري» (١١/ ٥٣١، ٥٣٨، ٥٣٩)، و«معطية الأمان من حنث الأيمان» (ص٨٣ ـ ٨٥) لابن العماد الحنبلي.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤، ١٥٦)، وأبو يعلى (٣/ ١٧٥٩)، وابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص٢٨٩)، والدولابي في «الكنى» (٢/ ١١٥)، وابن حبان (٦٠٨٦)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٤٦٠)، والروياني في «مسنده» رقم (٢١٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧) رقم (٨٢٠، ٨٨٥)، والحاكم (٤/ ٢١٦، ٢١٩، ٤٨٧)، من حديث عقبة بن عامر وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، **والحديث حسن**، وأما حديث ابن مسعود، فسيأتي قريباً وفيه قصة.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩، ٤٣٨) والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٩)، وأبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، والطيالسي (٣٥٦)، وابن حبان (٦١٢٢)، والشاشي (٦٥١، ٦٥٧)، والبيهقي (٨/ ١٣٩)، والبغوي (٣٢٥٧)، من حديث ابن مسعود، **وإسناده صحيح**، وانظر: «الصحيحة» (١/ ٤٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٨٨٣) ـ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» =

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد بسنده عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلت على عبد الله بن عُكَيم وهو مريض نعوده، فقيل له: لو تعلّقتَ شيئاً، فقال: أتعلق شيئاً؟! وقد قال رسول الله ﷺ: **«من تعلق شيئاً وكِّل إليه»**[(١)]، رواه النسائي عن أبي هريرة[(٢)]، وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: **«من علق تميمة فقد أشرك»**[(٣)] وفي رواية: **«من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»**[(٤)].

وعن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

= (٩/ ٣٥٠) ـ وابن ماجه (٣٥٣٠) ـ وأبو يعلى (٥٢٠٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٢٤٠) والحاكم (٤/ ٤١٧، ٤١٨) وقال: «صحيح الإسناد على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي! وليس كذلك، ففيه يحيى بن الجزار لم يخرج له البخاري، وأحمد بن أبي شعيب لم يخرج له مسلم، وفيه محمد بن مسلمة أخشى أن يكون مقحماً في الإسناد ولم يتبيّن لي من هو، وصححه الحاكم أيضاً (٤/ ٢١٧) من طريق آخر عن ابن مسعود ووافقه الذهبي وهو به ـ إن شاء الله تعالى ـ حسن **والحديث صحيح بشواهده**، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١/ ٣٣١).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣) رقم (٢٣٨٠٤)، والترمذي (٢٠٧٢)، والحاكم (٢٠٧٢)، وابن قانع (٢/ ١١٧)، والطبراني، في «الكبير» (٢٢) رقم (٩٦٠). والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٣٥١)، **وإسناده ضعيف**، عبد الله بن عُكيم هو أبو معبد الجهني، صرح بذلك الترمذي، وظنه الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٣) غيره، وكذا أورد الحديث في كتابه، وهو ـ على التحقيق ـ ليس على شرطه.

وابنُ عكيم هذا في صحبته نظر، وفيه ابن أبي ليلى سيئ الحفظ، وذكر له ابن قانع علة ثالثة، إلا أن **الحديث حسن** لغيره بشواهده، سيأتي منها حديثا أبي هريرة وعقبة.

ومن شواهده أيضاً: حديث عمران بن حصين، أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه (٣٥٣١)، وابن حبان (٦٠٨٥)، والطبراني (١٨) رقم (٣٩١) من طريق الحسن البصري عنه، وفي سماعه منه كلام، وانظر: «غاية المرام» رقم (٢٩٧).

(٢) أخرجه النسائي (٧/ ١١٢) (كتاب: تحريم الدم، باب: الحكم في السحرة) من طريق الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً، والحسن لم يسمع من أبي هريرة عند الجمهور، قاله المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٥٨٥ ـ بعنايتي)، فإسناده منقطع، وفيه عباد بن ميسرة، **والحديث حسن بشواهده**.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦)، والحارث بن أبي أسامة (٥٣٨ ـ زوائده)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٨٨٥)، والحاكم (٤/ ٢١٩)، **وإسناده قوي**، وانظر: «الصحيحة» (١/ ٤٩٢).

(٤) سبق تخريجه.

«يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[(١)] رواه مسلم.

وعن أبي سعيد بن أبي فَضَالَة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»**[(٢)] رواه الإمام أحمد.

وقال أحمد بسنده عن محمود بن لَبيد أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»** قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **«الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»**[(٣)] وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»**، قالوا: يا رسول الله ما كفارة ذلك؟ قال: **«أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»**[(٤)]. وقد روى الإمام أحمد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٦ و٤/ ٢١٥)، والترمذي (٣١٥٢)، وابن ماجه (٤٢٠٣)، والبخاري في (الكنى) من «التاريخ الكبير» (٨/ ٣٦)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٣٥)، وابن حبان (٤٠٤، ٧٣٤٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٢) رقم (٧٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٦٨١٧) وإسناده حسن، **والحديث صحيح لغيره.**

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٨١)، وابن خزيمة (٩٣٧)، والبغوي (٤١٣٥)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٠٧) وقال عن إسناد أحمد: «رجاله رجال الصحيح» قلت: نعم ولكنه عنده منقطع: عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب لم يسمعه من ابن لبيد، بينهما عاصم بن عمر بن قتادة، وهو ثقة، ولذا قال شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٩٥١): «**إسناده جيد**، رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير محمود بن لبيد، فإنه من رجال مسلم وحده، قال الحافظ: وهو صحابي صغير، وجل روايته عن الصحابة».

وهو عند الطبراني (٤٣٠١) من طريق محمود بن لبيد عن رافع بن خديج، وجوّده المنذري في «الترغيب» وقال: «قيل: إن حديث محمود بن لبيد هو الصواب، دون ذكر رافع بن خديج فيه، والله أعلم»، وفي رواية عند البيهقي (٢/ ٢٩٠، ٢٩١) عن محمود بن لبيد عن جابر بن عبد الله، ورجاله ثقات.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٨) وقال: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات» =

وأبو داود والترمذي وصححه النسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن عاصم سمعت[1] أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال: «**قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه**»[2].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية، أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧] ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ الآية، يقول تعالى لرسوله[3] ﷺ إلى الثقلين، الجن والإنس، آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة، ويقين وبرهان [عقلي، وشرعي][4] وقوله: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأنزّه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدّس وتنزّه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ

= ورواه ابن وهب في «الجامع» (ص١١٠)، ومن طريقه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٨٧) عن ابن لهيعة به، وحديث ابن لهيعة **يصحح** إذا كان من رواية أحد العبادلة عنه، وانظر: «الصحيحة» (٣/ ١٠٦٥).

(١) في الأصل: «وسمعت»! والصواب حذف الواو.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٧٦٩٩، ٦/ ١٠٤٠٢)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (١٣٨، ١٣٩، ٥٨٣)، و«الأدب المفرد» (١٢٠٣)، وأحمد (٢/ ٢٩٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨)، والطيالسي (٩، ٢٥٨٢)، والدارمي (٢٦٨٩)، وابن حبان (٩٦٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٥)، والحاكم (١/ ٥١٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢٠، ٢٦)، والخطيب (١١/ ١٦٧) **وإسناده صحيح**.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لعبده ورسوله».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شرعي وعقلي».

كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: (الرُّقى) ـ جمع رُقية، بضم الراء في المفرد والجمع ـ وهي ما يقرأ على الإنسان من الأدعية والقرآن وغير ذلك للحفظ من العين أو المرض أو شفاء المرض، فإذا كانت الرقية كلاماً مفهوماً ليس فيه شرك فهي جائزة.

و**(التمائم)** ـ جمع تميمة ـ وهي كل ما يفعله الإنسان في عنقه أو عضده للأغراض المتقدمة الذكر، ولا يجوز شيء منها، فكلها شركٌ، وإن كانت من القرآن. **(والتولة)** قال ابن الأثير[2]: «(التِّولة) ـ بكسر التاء وفتح الواو ـ: ما يحبِّب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، جعله من الشرك؛ لاعتقادهم أن ذلك يؤثر ويفعل خلاف ما قدره الله تعالى».

قوله: «**وما منا إلا**»... إلخ. هذا من كلام ابن مسعود أدرجه في الحديث، ومعناه: كل واحد منا يعرض له شيء من الطيرة فيدفعه الله عنه بالتوكل، فإذا خرج إنسان من بيته وسمع كلاماً قبيحاً، نحو خاسر أو ضائع أو لا يفلح يقع في نفسه شيء من الكراهية لما سمع، ولكنه يتوكل على الله، ويمضي إلى حاجته، ولا يرجع ويقول: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**»[3]، فهذا لا يضره، أما إذا رجع خوفاً مما سمع، فذلك هو الشرك.

و**(الحمرة)**: قال صاحب «اللسان»[4]: «والحُمْرَة داء يعتري الناس فيحمر

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٣ ـ ٩٢) بتصرف.

(٢) في «النهاية» (١/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٥): «رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات».
وقد روى هذا الحديث عن ابن لهيعة: عبد الله بن وهب في «جامعه» رقم (٦٥٥) ومن طريقه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٢٩٢) **فصح الحديث بذلك والحمد لله**.
وله طرق عن عبد الله بن عمرو قوله، أخرجه ابن وهب في «الجامع» (٦٥٩، ٦٦٠)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٣٨)، وأبو نعيم (٦/ ٢١) ولعله أشبه وفي الباب عن رويفع بن ثابت وفضالة بنت عبيد وبريدة بن الحصيب.
وانظر: «الإعلام» (٦/ ٥٦١ ـ ٥٦٢ بتحقيقي).

(٤) «اللسان» (٤/ ٢١١): (حمر).

موضعها وتغالب بالرقية، قال الأزهري: الحمرة من جنس الطواعين، نعوذ بالله منها».

وقوله عليه الصلاة والسلام : «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**» دعاء على من يتعلق التمائم أن لا يتم الله له مراده، وقوله: «**من تعلق ودعة فلا ودع الله له**». قال في «القاموس»[1]: «الودعة، ويُحرَّك، جمع ودعات: خرز بيض تُخرَج من البحر بيضاء، شقُّها كشَقّ النَّواة تُعلّق لدفع العين» اهـ.

ومعنى: «**فلا ودع الله له**» أي: فلا ترك له شيئاً يحبه، ودعاء من النبي ﷺ على من يتعلَّق ودعة، وودع فعل ماضٍ بمعنى ترك، استعمال الفعل الماضي قليل، والأكثر استعمال الفعل المضارع والأمر.

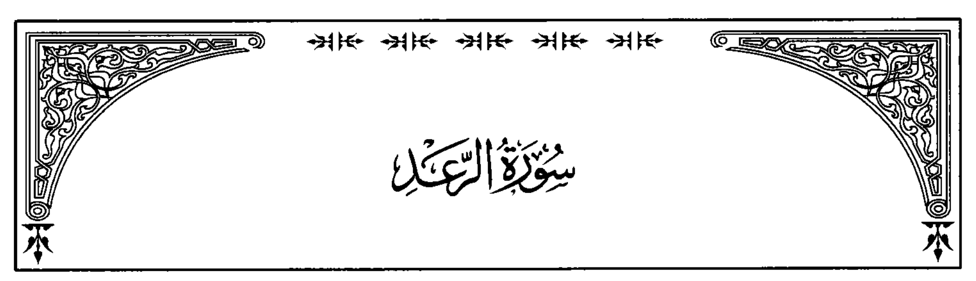
فصل

قال محمد تقي الدين: في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية برهان قاطع على إبطال التقليد بالنسبة إلى المفتي والقاضي والداعي؛ لأن هؤلاء إذا كانوا مقلدين، فهم على غير بصيرة[2] في قضائهم وإفتائهم ودعوتهم الناس إلى شيء ليس لهم عليه دليل، وهم غير متبعين للرسول ﷺ؛ لأن الله أمره أن يقول: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أمر من الله تعالى لرسوله ومن اتبعه أن ينزهوه عن القول عليه بلا علم؛ لأن ذلك يفضي إلى الشرك؛ لأن من جعل الحكم لغير الله ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى فقد أشرك كما تقدم في آية التوبة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

---

(١) «القاموس المحيط» (ص٩٩٤): (ودع).

(٢) هذا صحيح، «سواء كان المعنى: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ يدعو إلى الله على بصيرة، أو كان الوقف عند قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم يبتدئ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، فالقولان متلازمان، فإنه أمره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله، فمن دعا إلى الله تعالى؛ فهو على سبيل رسوله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك؛ فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة، ولا هو من أتباعه». قاله ابن القيم في «جلاء الأفهام» (٥٨١ ـ بتحقيقي). ونحوه في «المدارج» (٢/ ٤٨٢)، و«الصواعق» (١/ ١٥٥)، و«مفتاح دار السعادة» (٨٥، ١٦٧ ـ ١٦٨).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

قال (ك): «قال ابن أبي حاتم بسنده عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول[١] الله عنهم ما[٢] يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصديق[٣] ذلك في كتاب الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾»[٤] وفي «تفسير الجلالين» ما نصه: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ لا يسلبهم نعمته ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحالة الجميلة بالمعصية ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ عذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[٥]، ﴿وَمَا لَهُم﴾ لمن أراد الله بهم سوءاً ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: غير الله ﴿مِن﴾ زائدة[٦] ﴿وَالٍ﴾ يمنعه عنهم»[٧].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تحول». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لهم مما».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مصداق».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ١٢٢٠١) وابن أبي الدنيا في «العقوبات» رقم (٥٧)، وإبراهيم هذا هو ابن يزيد النخعي، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١١٨، ١١٩).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير الجلالين»: «من المعقبات ولا غيرها».

(٦) ليس كذلك، فلا يوجد شيء زائد في القرآن الكريم، فالنكرة في سياق النفي تفيد العموم، وإن سبقت بـ(من) كانت نصاً في العموم، فالنكرة تدلل على أي فرد من الأفراد، فإن سبقها نفي لزم عقلاً العموم، وذلك أن العقل يحكم أن انتفاء الفرد المبهم لا يتحقق إلا بانتفاء جميع الأفراد، انظر: «شرحي على الورقات» المسمى «التحقيقات والتنقيحات السلفيات» (ص١٨٧).
فـ﴿مِن وَالٍ﴾ مفيدة شيوع وعموم نفي جنس شيء من الولاية، وهو نفي مستغرق لأي جنس من أجناس الولاية وأنواعها، ولو لم تأت (من) لم يكن ليوجد هذا المعنى المستغرق.

(٧) انظر: «تفسير الجلالين» (ص٣٢٢، ط. المكتب الإسلامي).

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه آية عظيمة، والمسلمون في هذا الزمان في أشد الحاجة إلى تدبرها، فإن التتار هجموا على بلاد الإسلام[(١)] ولم يكن هجومهم في زمن دول الإسلام العظيمة الثلاث، وهي دولة الخلفاء الراشدين، ودولة بني أمية، وصدر دولة بني العباس، وكان هجومهم في زمان لا يخلو فيه المسلمون من ضعف وتفرق، ولكن كانت عندهم بقية من الإيمان وتحكيم شريعة الرحمن، فنصرهم الله على ذلك العدو القوي وبعد ذلك هجم عليهم عدو أقوى من الأول، وهم الصليبيون نصارى أوروبا كلهم بملوكهم وجيوشهم،

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» أوردتها بتمامها في كتابي «العراق في أحاديث وآثار الفتن» (٢/ ٧٣٧ ـ ٧٤٦)؛ المتأمل فيها، يتبرهن له صدق شيخ الإسلام، وصفاء سريرته، وحسن ربطه لما يقع في المسلمين من البلايا والمحن (سنة الله الكونية) بما ينبغي أن يكون عليه المسلمون (سننه الشرعية). فاسمع إليه، وانظر حولك، وتفقَّد تجد، قال رحمه الله تعالى عن البلاء الذي وقع بالمسلمين آنذاك: «وقد أظهر الله في هذه الفتنة[(١)] من رحمته بهذه الأمة وجُنْدِها ما فيه عبرةٌ، حيث ابتلاهم بما يُكفِّر به من خطاياهم، ويُقبِل بقلوبهم على ربهم، ويجمع كلمتهم على وليّ أمرِهم، ويَنزِعُ الفُرقةَ والاختلافَ من بينهم، ويُحرِّكُ عَزَماتِهم للجهاد في سبيل الله وقتال الخارجين عن شريعة الله.

فإنّ هذه الفتنة التي جَرتْ ـ وإن كانت مُؤلمةً للقلوب ـ فما هي ـ إن شاء الله ـ إلّا كالدواء الذي يُسقَاه المريضُ ليحصل له الشِّفاءُ والقوة، وقد كان في النفوس من الكِبْر والجهل والظلم ما لو حَصَل معه ما تشتهيه من العزّ لأعقبها ذلك بلاءً عظيماً.

فرحم الله عبادَه برحمتِه التي هو أرحم بها من الوالدة بولدها، وانكشف لعامة المسلمين شَرْقاً وغَرْباً حقيقةُ حال هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام، وإن تكلّموا بالشهادتين، وعَلِمَ مَن لم يكن يعلم ما هم عليه من الجهل والظلم والنفاق والتلبيس والبُعد عن شرائع الإسلام ومناهجه، وحَنَّتْ إلى العساكر الإسلامية نفوسٌ كانت مُعرِضةً عنهم، ولَانَتْ لهم قلوبٌ كانت قاسيةً عليهم، وأنزل الله عليهم من ملائكته وسكينته ما لم يكن في تلك الفتنة معهم، وطابت نفوس أهل الإيمان ببذل النفوس والأموال للجهاد في سبيل الله، وأعدُّوا العدَّة لجهاد عدوِّ الله وعدوِّهم، وانتبهوا من سِنَتِهم، واستيقظوا من رقدتهم. . .» في كلام بديع، يستفيد منه أهل البصائر العاملون لتحقيق الولاية لله ورسوله والمؤمنين.

(١) يشير بها إلى وقعة قازان سنة (٦٩٩هـ)، التي انكسر فيها جيش السلطان الملك الناصر أمام التتار بوادي الخزندار، وقُتل فيها جماعة من الأمراء وخلقٌ كثير من العوام، وأبلوا بلاءً حسناً. انظر: «نهاية الأرب» (٣١/ ٣٨٤)، و«البداية والنهاية» (١٧/ ٧١٨).

واستمرت الحرب بين هذا العدو القوي وبين المسلمين مائة وتسعين سنة، وكانت العاقبة للمؤمنين، فهزم النصارى شر هزيمة على يد الملك الصالح صلاح الدين الأيوبي، وكان يعظم حرمات الله، ويحكم بشرع الله فنصره الله، وفي هذا الزمان هجمت عليهم شرذمة قليلة من اليهود وعددهم يزيد على سبعمائة مليون[1] فلم يستطيعوا الانتصار عليها؛ لأنهم لا يريدون أن يغيروا ما بأنفسهم، وهو الحكم بغير ما أنزل الله، ونبذ كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، ولا يزالون على هذه الحال، ومع ذلك يطمعون في النصر فكأنهم لا يؤمنون بهذه الآية، ونحن منذ عشرات السنين نؤكد لهم أعظم تأكيد أنهم لن ينتصروا إلا إذا رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله، وحكّموا شرع الله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٤ ـ ١٦]

قال (ك): «قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ قال: التوحيد،

---

(١) أما الآن، فيزيد على المليار ومئتي مليون، اللهم احفظهم، وبارك في عددهم، وخلّصهم مما هم فيه من الهوان، وحسّن حالهم وجمّله، بأن تتوب عليهم، وترضى عنهم، وتحبهم، ليحبوك ويرضوا عنك، ويتوبوا إليك، قال أبو زيد: «غَلِطتُ في أربعة أشياء: في الابتداء مع الله تعالى: ظننت أني أحبّه فإذا هو أحبّني؛ قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. وظننت أني أرضى عنه فإذا هو قد رضِي عني؛ قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾. وظننت أني أذكره فإذا هو يذكرني؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾. وظننت أني أتوب فإذا هو قد تاب عليّ؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾». نقله القرطبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٨).

رواه (ج)[١] وقال ابن عباس وبعض من السلف: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ لا إله إلا الله[٢] ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآية، ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ قال علي بن أبي طالب: «كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً، فكيف يبلغ فاه؟!»[٣] وقيل: المراد كقابض يده على الماء فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر[٤]:

فإنِّي وإيّاكُم وشَوقاً إليكُمُ ... كقابضِ ماءٍ لم تَسِقْه أنامِلُهْ

وقال الآخر[٥]:

فأصبحتُ مما كان بيني وبينَها ... من الودِّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ

ومعنى الكلام: إن[٦] الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون به أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ الآية.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ﴾ أي: البكرات[٧] ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار كقوله تعالى:

---

(١) في «تفسيره» (١٣/٤٨٦)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٤/٥٣)، لأبي الشيخ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/٣٣٤)، وابن جرير (١٣/٤٨٥، ٤٨٦)، والطبراني في «الدعاء» (٣) رقم (١٥٨٠، ١٥٨١، ١٥٨٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٤) من طرق عن ابن عباس، **وهو صحيح بمجموعها إن شاء الله تعالى.**
وزاد في «الدر المنثور» (٤/٥٣) عزوه للفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وأسنده ابن جرير عن قتادة وابن زيد.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/٤٨٨) وفي إسناده عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف، قال عنه الحافظ في «التقريب»: «متروك احترقت كتبه فحدث من حفظه فاشتد غلطه».

(٤) هو ضابئ بن الحارث البُرجمي، عزاه له في «خزانة الأدب» (٩/٣٢٣) ـ وفيه: «تُطِعْه» بدل «تسقه» ـ، و«مجاز القرآن» (١/٣٢٧).

(٥) هو أبو دَهبل الجُمحي، والبيت في «ديوانه» (١١٥).

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «البكر».

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ الآية [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم﴾ الآية.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربُّها ومدبِّرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة[1] لا تملك لأنفسها[2] ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا [تحمل لهم][3] منفعة، ولا تدفع[4] عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو[5] على نور من ربه، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربَّ وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون مخلوقه[6] من مخلوق غيره، أي: ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»[7]، وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فأنكر تعالى عليهم ذلك، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده[8] إلا بإذنه ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ الآية [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣، ٩٥] فإذا كان الجميع عبيداً له فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل لمجرد[9] الرأي والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هم الآلهة».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لنفسها». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تحصل».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ترفع» بالراء!

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنها مخلوقة».

(٧) سبق تخريجه.

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنده أحد».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بمجرد».

تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: ما أبلغ هذه الآية في إبطال الشرك والترغيب عنه، وبيان خسران المشركين لو كانوا يعقلون، وهذا المثل العظيم الذي ضربه الله لهم في غاية الوضوح قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٤٣] ومن دعا غير الله عابداً أو سائلاً لا يستجيب له أبداً، كما أن من أراد أن يتناول الماء من البئر بيده لا يحصل على طائل، ويبقى ظمآن إلى الأبد، وقلت في قصيدة في هجو سفيه يسمي نفسه فقيهاً:

حُرِمْتَ وُصولاً للحقيقةِ عند ما ... أضَعْتَ أصُولاً مَنْ يُضِعْها يلْددِ
فكلمةُ توحيدٍ فَقُلْهَا محققاً ... فإنْ تدر معناها إلى الحقِّ تهتدِ
فوحِّد إلهَ الحقِّ لا تدعُ غيرَه ... لنفعك أو رفع المصائب ترشدِ
فمَنْ يدع غيرَ الله يوماً لحاجةٍ ... يدنس بإشراك ويرْدَى مع الرَّدِي
وذلك توحيد العبادة فادْرِهْ ... فمن يجهلنّه في الجحيم يخلدِ
سواء أصلّى قابضاً في صلاته ... أم اختار سدلاً نقْلُه لم يؤيَّدِ
ومن ردَّ قولَ المصطفى بعد صحَّة ... فذلك كفَّارٌ أثيمٌ ومعتدِ
سيُحرمُ في يوم القيام شفاعةً ... وإن يأت للحوض المبارك يطردِ
ويسوّد في يوم القيامة وجهه ... ويثوى ثواءً في الجحيم ويخلدِ
ويبرأ منه ذلك اليوم مالكٌ ... وكلُّ تقيٍّ للإله موحَدِ
وذلك في أصلِ الشَّهادةِ واضحٌ ... لكلِّ صحيحِ الفهمِ لم يتبلَّدِ(٢)

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/١٢٨ ـ ١٣٠).

(٢) ذكرها مع (٢٦) بيتاً قبلها و(١٠) أبيات بعدها في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٦٣ ـ ٦٦) وفي «ديوانه» (ص٤٧، ٤٨ على الآلة الكاتبة) وأرخها فيه بـ١٦/ شوال/ ١٣٦٥هـ وقال في آخرها: «انتهت بمدينة مجريط، وقد نظمتها بتطوان إلا الأبيات الستة الأخيرة» وقال في كتابه «الدعوة إلى الله» على إثرها: «انتشرت هذه القصيدة عند أهل تطوان وأعجبوا بها أيما إعجاب؛ لأنهم كانوا حاقدين على ذلك الرجل، وكانت هذه القصيدة مقرونة بسوط عذاب من الله تعالى، صب على ذلك المشرك، فحدثت له حوادث من الخزي...» وذكر بعضها، وقال فيه قبلها: «حدث يوماً أني كنت جالساً في دكان عند أحد إخواننا =

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الآية من الآيات الجامعة بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وهي كثيرة، وتوحيد الربوبية دليل توحيد العبادة، فمن اعترف بأن الله وحده هو الخالق الرازق المحيي المميت والضار النافع، كيف يعبد غيره؟ أو يسأل حاجته من غيره؟

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد: ٣٠]

قال (ك): «يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم

= الذين تابوا من البدع، وأخوه الأكبر كان حافظاً للقرآن وحافظاً لـ«مختصر خليل»، وكان تجانياً فتاب من التجانية وعمره سبعون سنة، واغتبط بالعقيدة السلفية فجاء سائل عربي وقال لصاحب الدكان: أعطني صدقة لوجه غياث البر والبحر سلطان الأولياء مولاي عبد القادر الجيلاني، فقلت له: إنا نحن عبيد الله ولسنا عبيداً لعبد القادر الجيلاني، فاذهب إلى عبيده فنحن ليس لنا غياث إلا الله في البر والبحر ولا نتخذ من دون الله أولياء. فقال لي: أنت لا تساوي تراب نعل سيدي عبد القادر الجيلاني، فقلت له: أنا لا أساويه ولكني لا أعبده. فقال صاحب الدكان للسائل: اذهب من هنا وأرنا قفاك فإن هذا الرجل عندنا أفضل من عبد القادر الجيلاني، فقلت: إنك أخطأت، فقال: أمهلني حتى أشرح لك مرادي ثم احكم عن ـ كذا! ـ. فقلت: قل. فقال: أنت مقيم بين ظهرانينا تعلمنا مما علمك الله ونسألك فتجيبنا وعبد القادر ليس كذلك فقلت له أنا: إن كان هذا مرادك فهو حق، ولما رجعت إلى تطوان علمت أن ذلك الفقيه البياع ذكرني بسوء في درس وعظه. فقال لمستمعيه وهو يحثهم على الصلاة بسدل اليدين وترك سنة وضع اليمنى على اليسرى: ماذا تقولون في سيدي محمد السلاوي أكان عالماً بالحديث والفقه أم جاهلاً بهما؟ فقالوا: كان من كبار العلماء، فقال: وماذا تقولون في سيدي أحمد الرهوني وسيدي فلان وفلان. فقالوا: علماء فقهاء، قال: فهل كان أحد منهم يضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة؟ قالوا: لا. قال: فكيف تخالفونهم لقول شخص مجهول لا نعرف من أين خرج؟ فأنشأتُ فيه قصيدة دالية أنقل نخبة منها هنا» ومن الأبيات المحذوفة هنا يظهر أن المهجو كان حداداً». وانظر (٤/ ٨٢).

الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّب الرسل من قبلك فلك بهم[1] أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية [النحل: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤] أي: كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة والحديث في «صحيح البخاري»[2] وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي «صحيح مسلم»[3] عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله، وعبد الرحمن**»، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به معترف مقر له بالربوبية والألوهية[4]، هو ربي لا إله إلَّا هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه»[5].

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيهم».
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٢٣، ٣٢٨)، وأبو داود (٢٧٦٥، ٤٦٥٥)، والنسائي (٥/ ١٦٩، ١٧٠) من حديث المسور بن مخرمة.
(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٢)، وأحمد (٢/ ٢٤)، وأبو داود (٤٩٤٩)، والترمذي (٢٨٣٥).
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والإلهية».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

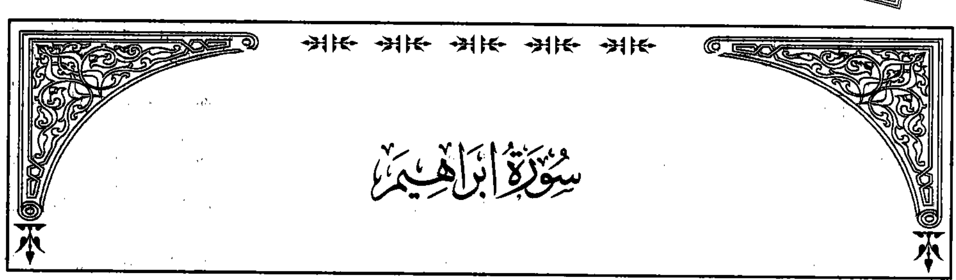
﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ الآية [البقرة: ١٢١] وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة كائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩] وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي[1]: اليهود والنصارى من ينكر [بعضه أي][2]: بعض ما جاءك من الحق[3]، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[4] وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ أي: إلى سبيله أدعو الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مرجعي ومصيري»[5].اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول لجميع الناس: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ لم يأمرني الله تعالى إلا بعبادته وحده لا شريك له ونهاني عن الشرك به، فمن لم يحقق التوحيد ويتجنب الشرك فالنبي ﷺ بريء منه، لا يمكن أن يكون من المتبعين له، وقوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: لا أدعو إلا إلى سبيله وهي اتباع كتابه ورسوله ﷺ، فمن دعا إلى اتباع غير ذلك، فقد خاب وخسر.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) انظر: «تفسير مجاهد» (١/ ٣٢٩)، وأسنده عنه ابن جرير (١٣/ ٥٥٦).
(٤) أسنده عنهما: ابن جرير (١٣/ ٥٥٦، ٥٥٧)، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٦٥) عن قتادة إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وهو عن عبد الرحمٰن بن زيد عند أبي الشيخ، كما في «الدر» أيضاً.
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٠ ـ ١٦١).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٣٠]

قال (ك): «قال البخاري[(١)]: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ألم تعلم، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفيل: ١] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿الْبَوَارِ﴾ الهلاك، بار يبور بوراً، و﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨] هالكين».

وقال بسنده عن عطاء: سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة[(٢)] وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: هو جَبَلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم[(٣)]، والمشهور الصحيح عن ابن عباس[(٤)] الأول، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى: [مهدداً][(٥)] لهم ومتوعِّداً على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي:

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، باب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قبل رقم (٤٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧٧، ٤٧٠٠)، وعبد الرزاق (١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣)، وابن جرير (١٣/ ٦٧٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٦٧٧)، وابن أبي حاتم (٧/ رقم ١٢٢٧٩) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٦٢)، و«تفسير مبهمات القرآن» (٢/ ٧٩)، و«الدر المنثور» (٤/ ٨٥).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو القول».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متهدداً».

مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤] وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٧٠]»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: جبلة بن الأيهم كان أميراً لنصارى بني غسان في الشام، فلما جاء الإسلام أسلم وذهب يطوف بالبيت، فوطئ أعرابي على طرف إزاره فلطمه جبلة، فتخاصما إلى عمر بن الخطاب فحكم للأعرابي بالقصاص، فقال جبلة: يا أمير المؤمنين أنا ملك وهو من سوقة، فقال: الإسلام سوَّى بينكما، فقال: أمهلني يوماً واحداً، فقال: ليس الأمر لي، وإنما هو من خصمك، فاسأله ذلك، فسأل جبلة خصمه الإمهال، فقبل وهرب جبلة إلى قسطنطينية، وقصد ملك الروم وأعطاه قصراً وخدماً وأكرمه غاية الإكرام، فتوجه أحد شعراء المدينة نسيت اسمه إلى قسطنطينية، وزار جبلة فرأى ما هو فيه من الأبهة والنعمة والترف، فلما رآه جبلة سأله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعن حال المسلمين، فأخبر أنهم بخير وأخذ يتحدث معه فذكر ما كان فيه من الهدى والنور، وما رجع إليه من الضلال وظلمة الكفر، فندم وبكى وأنشد:

تنصَّرت الأشرافُ من أجل[٢] لطمةٍ ... وما كان فيها لو صَبرتُ لها ضَررْ
تكنَّفني منها[٣] لجاجٌ ونخوةٌ ... فبعت[٤] بها العينَ الصحيحةَ بالعوَرْ
فيا ليتَ أُمِّي لم تَلِدْني ولَيتني ... رجعتُ إلى الأمر[٥] الذي قاله[٦] عُمرْ
ويا ليتني أرْعى المخاضَ بقَفرةٍ ... وكنت أسيراً في ربيعةَ أو مُضَرْ
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشةٍ ... أجالس قومي فاقد[٧] السَّمعِ والبَصَرْ[٨]

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢) بتصرف.
(٢) في مطبوع «الأغاني»: «عار».
(٣) في مطبوع «الأغاني»: «فيها».
(٤) في مطبوع «الأغاني»: «وبعتُ».
(٥) في مطبوع «الأغاني»: «القول».
(٦) في مطبوع «الأغاني»: «قال لي».
(٧) في مطبوع «الأغاني»: «ذاهب».
(٨) انظر: كتاب «الأغاني» (١٥/ ١٦٥ ـ ١٦٧)، و«الوافي بالوفيات» (١١/ ٤٣، ط. إحياء التراث).

فصل

قال محمد تقي الدين: وكذلك رؤساء المشركين في هذا الزمان، جعلوا لله أنداداً ونصبوا قباباً على القبور التي يعتقدون أن المدفونين فيها صالحون، وأمروا أتباعهم إذا ماتوا أن يبنوا على قبورهم قباباً ويعبدونها، فهم داخلون في معنى هذه الآية، فكم منكرات ترتكب عند هذه الأوثان من اختلاط الرجال والنساء كما تقدم؟! وكتابة كتب الاستجداء وإلقائها في توابيت الأضرحة، يسألون المقبورين حاجاتهم فيجيبهم السدنة إن كانوا أغنياء، وإن كانوا فقراء أهملوا جوابهم، وكم بقر وغنم يُهَلّ بها لغير الله عند تلك الأوثان؟! وقلت في (القصيدة التائية) من قصيدة أدرجتها برمتها في كتاب «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»[1]:

سفرتُ إلى مصرَ لأخبرَ خبرَها — وأنظرُ هل فيها شِفاءٌ لغَلَّتي
ومن قبلُ قد أُخبِرتُ أنَّ في ربوعِها — رجالاً لنصر الدِّينِ أصحاب شدَّةِ
وصلتُ فلم ألفَ سوى أهلِ بدعةٍ — وشركٍ وإلحادٍ وشكٍّ وردةِ
سمعتُ بها الإلحادَ يُدرَس جهرةً — بجامعةٍ للشَّرِّ مع كلِّ فتنةِ
رأيتُ بها الأوثانَ تُعبدُ جَهْرةً — قُبوراً عظاماً ناخراتٍ أَجنَّتِ
ويدْعُون دونَ اللهِ مَنْ لا يُجيبهم — وهم عن دعاءِ القومِ في عظم غفلةِ
حشا ثلَّةٍ مستضعفين رأيتُهم — تسومُهم الأعداءُ سوءَ الأذيَّةِ
لها جَعَلوا قسماً بمالٍ وإلّةٍ — فلا عاشَ مَنْ قد ظنَّهم أهلَ ملَّةِ
وهُم صُبرٌ مُستمسكونَ بدينِهم — ويدْعُون مَا اسْطاعوا لِبَيْضَا نقيةِ
وما صدَّهم إيذاؤهم عن جهادِهم — لأنَّهم أهلُ النّفوسِ الأبيَّةِ

ولو آمنوا بالله حقَّ الإيمان وأيقنوا أنه المعطي المانع القابض الباسط ما قصدوا تلك الأوثان، ولا عبدوها بل يكفيهم الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧] بلى يا

---

(١) (ص٩٠ ـ ٩٣) والأبيات المذكورة هنا مع بيتين عقبهما في كتابه «الدعوة إلى الله تعالى» (ص٢٨) وقال فيه: «نظمتها بالهند، وذكرت فيها توبتي من الشرك والبدعة، ورحلتي في طلب العلم...» وذكرها برمتها في «ديوانه» (ق٢٦ ـ ٢٧) وقال قبلها: «وقلت بمسجد عليجان بدهلي سنة ١٣٤٢هـ، ضمنتها رجوعي من الابتداع إلى السنة، ورحلتي من بلادي إلى الهند وغير ذلك».

رب إنك عزيز ذو انتقام، تنتقم من الظالمين بأيدي الموحدين المقسطين، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

الباب الثاني

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]

قال (ﷺ): «يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة، إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه[1] تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فعرفه لأنه دعا[2] بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] كما[3] ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولاً وقوله[4]: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ[5] ممن عبدها وردَّ أمرَهم إلى الله: إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] وليس فيه[6] أكثر من

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بسببه آهلة عامرة».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كأنه دعا به».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «لما».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بريء».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في هذا».

الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز[١] وقوع ذلك»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «إن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة» قرأت هذا في «التوراة» باللغة العبرانية، فللّه در هذا الإمام ما أعظم تحقيقه، وأوسع إطلاعه، وقوله: «ينبغي لكل داعٍ أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته»؛ يعني: بما دعا إبراهيم لنفسه ولبنيه، ولو قلت لرجل اليوم من عامة المسلمين، وأكثر خاصتهم من الذين يزعمون أنهم علماء: أسأل الله أن يحفظك ووالديك وذريتك من عبادة الأصنام، لغضب غضباً شديداً وظن أنك تسبه فإذا حلم ولم يشتمك ولم يضربك يقول: هل أنت شاك في إسلامي وإسلام والدي وذريتي؟ ونحن نقرأ القرآن ونصلي ونحج ونؤدي الزكاة ونصوم رمضان ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؟ فاتق الله ولا تكفّر المسلمين، واترك عقيدة الوهابية، فيقال له: هل كان إبراهيم وهابياً حين دعا بهذا الدعاء؟ وهل كان إبراهيم ويعقوب وهابيين إذ حكى الله عنهما وصيتهما لأبنائهما؟ قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢] وهل كان يعقوب وهابياً حين سأل بنيه عند موته، وقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]؟ وهل أنت أيها المتعالم وأولادك أفضل من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه؟ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾ [الروم: ٥٩] فيا أيها الموحّد المتَّبع المهتدي المقتدي اصبر إن وعد الله حق، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] اللهم احفظنا وذريتنا وإخواننا من عبادة الأصنام والأوثان وكل ما سواك، وقول إبراهيم ﷺ: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وكذلك قول عيسى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ليس فيهما دليل على أن الله يغفر للمشركين الذين ماتوا على الشرك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] ولغير ذلك من أدلة السنة والإجماع.

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «ولا يجوز»!!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

الباب الثالث

قـولـه تـعـالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ [إبراهيم: ٥٢]

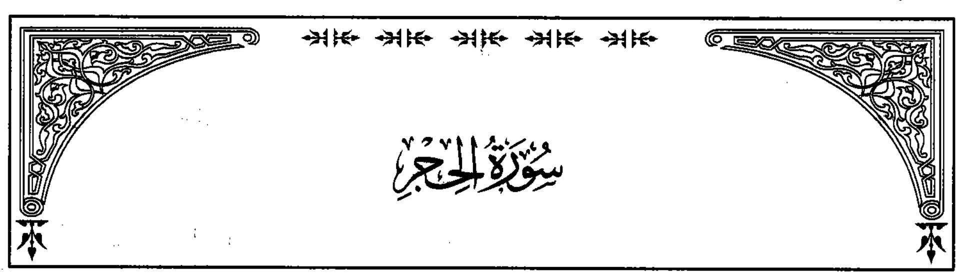
قال (ك): «يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من أنس وجن[١] كما قال في أول السورة ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية [إبراهيم: ١] ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: ليتعظوا[٢] له ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ذوو[٣] العقول»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: والذين يفتون أو يقضون بالتقليد والتمذهب لا يعملون بمقتضى هذه الآية، فهم يقولون بلسان حالهم ومقالهم أيضاً هذا القرآن ليس بلاغاً لنا، وإنما هو بلاغ للإمام، وكذلك حديث النبي ﷺ، وإنما هو موجه للإمام، أما نحن فلا نتعدى قول الإمام أبداً، ولا نستدل على حكم بالقرآن ولا بالحديث إلا إذا وافق رأي إمامنا، هذه حال القضاة والمفتين بالتقليد، هذه الآية حجة عليهم، وما ذكره (ك) معها، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٥] وستأتي هذه الآيات في سورة الزخرف، في (قسم آيات العبادة)، وفي (قسم آيات الاتباع)، إن يسر الله إتمام هذا الكتاب، وفي هذه الآية دليل واضح على أن من أشرك بالله ليس من أولي الألباب، وكذلك المفتي والقاضي بالتقليد ليسا من أولي الألباب، وقد تقدم الكلام على ذلك في آيات التوبة وغيرها.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وجان».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتعظوا».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ذوي».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٠).



سورة الحجر

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٩]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه[1] والصدع به، وهو مواجهة المشركين[2]، كما قال ابن عباس [في قوله][3]: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أمضه[4]، وفي رواية: افعل ما تؤمر[5]، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة[6]. وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: (ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه)[7] وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربِّك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله، ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وبإنفاذه».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «به».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) أخرجه ابن جرير (١٤/ ١٤٢)، وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٠٦).

(٥) أخرجه ابن جرير (١٤/ ١٤٢)، وابن المنذر، كما في «الدر».

(٦) أخرجه الثوري في «تفسيره» (ص١٦٢)، وعبد الرزاق (١/ ٣٥١)، وابن جرير (١٤/ ١٤٣)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٠٦) ـ، وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٣٤٤).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٦١) رقم (٩٧٣٤)، **وإسناده منقطع** وورد نحوه مطولاً عن ابن عباس، أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (ص٢٢٤ ـ ٢٢٦)، **بسندٍ واهٍ** بمرة.

﴿٩﴾ [القلم: ٩] ولا تخفهم فإن[١] الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال الحافظ البزار بسنده عن يزيد بن درهم قال: سمعت أنساً ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ﴾ قال: «مر رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل قال: أحسبه. قال: فغمزهم فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا»[٢].

وقال ابن إسحاق: كان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر[٣] وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم: **الأول**[٤]: الأسود بن [المطلب أبو][٥] زمعة الأسدي، كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه، واستهزائه فقال: «اللهم اعمِ بصره وأثكله ولده» **[والثاني]**:[٦]

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

(٢) في «مسنده» (١٣/ ٥١٩ ـ ٥٢٠) (رقم ٧٣٦٨) أو (٢/ ١٤٧٥ ـ مختصر الزوائد)، وقال البزار: «ولا نعلم أسند يزيد بن درهم عن أنس إلا هذا الحديث، ولا نعلم رواه عن أنس غيره».

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٧١٢٧) من طريق محمد بن عثمان القرشي: ثنا يزيد بن درهم به نحوه وقال: «لم يرو هذا الحديث عن أنس إلّا يزيد بن درهم، تفرد به محمد بن عثمان القرشي».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٩) عن ابن عباس! وليس عن أنس وقال: «رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بنحوه وفيه يزيد بن درهم ضعفه ابن معين ووثقه الفلاس» وذكره ابن حبان في «الثقات» (٥/ ٥٣٨) وقال: «يخطئ كثيراً».

قال أبو عبيدة: أما حديث ابن عباس، فهو بمعناه، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥) رقم (٤٩٨٦)، وابن أبي حاتم ـ كما في «الجواب الصحيح»، (٤/ ٢١٥) ـ والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣١٦ ـ ٣١٧) والضياء في «المختارة» (١٠) رقم (٩٤) **وإسناده جيد.**

وأما قول الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٧): «فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» **فهو صحيح**، إلا أن النيسابوري توبع في رواية البيهقي والضياء، ولذا حسنه السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٠١)، وزاد في عزوه إلى ابن مردويه وأبي نعيم في «الدلائل»، **وصححه** الضياء المقدسي.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من قومه» وكذا في مصادر.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من بني أسد بن عبد العزى بن قصي».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: وسقطت من الأصل!

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن بني زهرة».

الأسود بن عبد يغوث الزهري[١] **الثالث**[٢]: أبو الوليد بن المغيرة [المخزومي][٣] **ورابعهم**[٤]: العاص بن وائل السهمي[٥] **وخامسهم**[٦]: الحارث بن الطلاطلة الخزاعي[٧] فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥﴾، إلى قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[٨].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر وقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم ضيق صدر وانقباض[٩]، فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه، وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد بسنده عن نعيم بن هَمَّار[١٠] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره**»[١١] ورواه أبو داود والنسائي من طريق

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بن وهب بن عبد مناف بن زهرة».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن بني مخزوم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بن عبد الله بن عمر بن مخزوم».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن بني سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بن هشام بن سعيد بن سعد بن سهم».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن خزاعة».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن ملكان».
(٨) أخرجه ابن جرير (١٤/٤٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» (ص٢٢٢ ـ ٢٢٣). وهو **مرسل**، وفيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس. ووردت تسميتهم في **مرسل** عكرمة، عند عبد الرزاق في «التفسير» (١/٢/٣٥٢) ومن طريقه ابن جرير (١٤/٤٩)، **وإسناده صحيح**.
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لك انقباض صدر وضيق».
(١٠) تحرف في الأصل إلى «عمار»!
(١١) أخرجه أحمد (٥/٢٨٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨/٩٣، ٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (١/٤٦٦ ـ ٤٦٨)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٣/١٥١ ـ ١٥٢) والطبراني في «مسند الشاميين» (١١٦٩)، وابن حبان (٢٥٣٤)، ووقع خلاف في تعيين اسم صاحبيه، وهذا لا يقدح في أصل صحة الحديث، **فهو صحيح**، وانظر: «تهذيب =

آخر بنحوه[(١)]، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[(٢)]، وقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾. قال البخاري[(٣)]: «قال سالم: الموت». وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر ويستدل بهذه[(٤)] الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله كما ثبت في «صحيح البخاري»[(٥)] عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب**» ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد[(٦)] وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات، إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هٰهنا الموت كما قدمناه»[(٧)].

فصل

قال محمد تقي الدين: ينبغي للداعي إلى التوحيد إذا جاء قوماً مشركين في هذا الزمان، أن يتلطف في الدعوة فيقيم لهم الدليل تلو الدليل، على أن ما هم

= الكمال» (٢٩/ ٤٩٧ ـ ترجمة نعيم).

(١) أخرجه أبو داود (١٢٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (١/ ٤٦٧)، والدارمي (١٤٥٩) وابن حبان (٦/ ٢٥٣٣)، وأبو يعلى (٣/ ١٧٥٧)، **والحديث صحيح**.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، والطبري (١/ ٢٦٠)، وأبو عوانة (٦٨٤٢)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ١٨٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٧٤)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٢١٢) من حديث حذيفة وفي إسناده محمد بن عبد الله الدؤلي لم يرو عنه غير عكرمة وله شاهد من حديث صهيب، ولذا **حسنه** شيخنا الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (كتاب التفسير، باب: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من هذه».

(٥) أخرجه البخاري (١١١٧)، وأبو داود (٩٥١) والترمذي (٣٧١)، وأحمد (٤/ ٤٢٦) وغيرهم.

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الناس».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٨/ ٢٨٣ ـ ٢٨٧) بتصرف.

عليه شرك، فإن قالوا له: قد جعلتنا كفاراً يقول لهم: أنا أدعوكم إلى ترك هذا العمل الذي عرفتكم حقيقته، ولا أريد أنْ أسبّكم، ولا أن أتنقّصكم، فإن تركتم هذه الأعمال أطعتم الله ورسوله وحققتم التوحيد، وغفر الله لكم ما تقدم منها، فمن أصرَّ على الشرك بعد بيان الدليل فلا حرج عليه أن يسميه مشركاً إذا رأى المصلحة تقتضي ذلك، وقد جربت هذه الطريقة في بلدان مختلفة فنجحت، انظر كتابي: «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة»[1].

كما كفى الله رسوله ﷺ المستهزئين[2] فإن الله يكفي كل من اتبعه بصدق،

(١) طبع أكثر من مرة، وهو مليء بالقصص والحكايات التي تدل على كلام المصنف هذا، بل تكاد تقول: إن هذا الكتاب خاص بمذكرات الهلالي الدعوية، وأخبرني تلميذ المصنف الشيخ العلامة محمد بو خبرة ـ حفظه الله ـ في شعبان سنة ١٤٢٦هـ أن له على ما ذكر العلامة الهلالي في هذا الكتاب ملحوظات تخص أسماء الأشخاص وتاريخ بعض المعلومات، قال عن سبب وقوع هذا: «لطول العهد، وتقدمه في السن، فكان الهلالي ينسى بعض الأسماء أو يذكرها محرفة»، ثم طلبتُها، وأُرسِلَتْ لي.

(٢) كفاية الله نبيّه المستهزئين، تشمل في حياته وبعد وفاته، وهذه سنة شرعية وكونية لله ﷻ، فإن الله ﷻ عاقب جمعاً ممن استهزأ بسنته بعد وفاته، وقد وقفت على قصص كثيرة من بطون الكتب، وأفردتها في مقالة منشورة في مجلتنا «الأصالة» عدد (١٥ ـ ١٦) بتأريخ ١٥ ذي القعدة ١٤١٥هـ (ص٧ ـ ١٠)، ومما يعجبني غايةً ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٣٣) على إثر ما أخرجه البخاري (٣٦١٧)، ومسلم (٢٧٨١) من حديث أنس أن رجلاً كان يكتب للنبي ﷺ، فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب، قال: فعرفوه، قالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد! فأُعجبوا به، فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم، فحفروا له فوارَوْه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذاً. قال شيخ الإسلام على إثره:

«فهذا الملعون الذي افترى على النبي ﷺ أنه ما كان يدري إلا ما كتب له، قصمه الله وفضحه بأن أخرجه من القبر بعد أن دُفِنَ مراراً، وهذا أمر خارج عن العادة، يدل كل أحد على أن هذا عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذباً؛ إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم هذا، وأن هذا الجرم أعظم من مجرد الارتداد؛ إذ كان عامة المرتدين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا، وأن الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه وسبه، ومظهر لدينه ولكذب الكاذب؛ إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد.

ونظير هذا ما حدثناه أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة عما جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية، لما حصر المسلمون فيها =

المستهزئين بالتوحيد في زمانه، وقد رأينا من ذلك العجب العجاب، نسأل الله أن يزيدنا من فضله، ويحفظنا من شرور أنفسنا.

وقوله: **(فغمزه بعضهم)** يعني ﷺ، قال ابن الأثير في النهاية: «الغمز: العصر والكَبْس باليد... وبعضهم فسر الغمز في بعض الأحاديث بالإشارة كالرمز بالعين أو الحاجب أو اليد»[1]. اهـ.

وفي «تفسير الجلالين» عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ «أي: المؤمنون ﴿بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠] أي: يشير المجرمون إلى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء»[2].

قال محمد تقي الدين: ذكرني الخبر أن بعضهم غمز النبي ﷺ وهذا الغمز يحتمل أن يكون باليد بمعنى الكبس والدفع ويحتمل أن يكون بالحاجب والعين استهزاء والأول أظهر؛ لأن غمز جبريل لأولئك النفر كان فيما يظهر باليد، ولذلك أصابهم الوجع ثم الموت، والجزاء من جنس العمل، والله أعلم.

وقوله: **(وكانوا ذوي أسنان وشرف)** أي: كانوا شيوخاً متقدِّمين في السِّنِّ، وذوي منازل عالية في قومهم، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: معبوداً آخر، فكل من استغاث بمخلوق لجلب خير أو دفع شر بطريق الهمة والحال لا بطريق الأسباب، أو طلب منه قضاء حاجة، كذلك فقد جعله إلٰهاً، انظر: ما تقدم في (سورة الأعراف) عند قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فقد بسطت القول هناك في هذا المعنى وبالله التوفيق.

= **بني الأصفر في زماننا، قالوا: كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس منه حتى إذا تعرض أهله لسب رسول الله ﷺ والوقيعة في عِرْضِه، تعجلنا فتحه وتيسر ولم يكد يتأخر إلا يوماً أو يومين أو نحو ذلك، ثم يُفتح المكان عَنْوَة، ويكون فيهم ملحمة عظيمة، قالوا: حتى إن كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه مع امتلاء القلوب غيظاً عليهم بما قالوه فيه.**

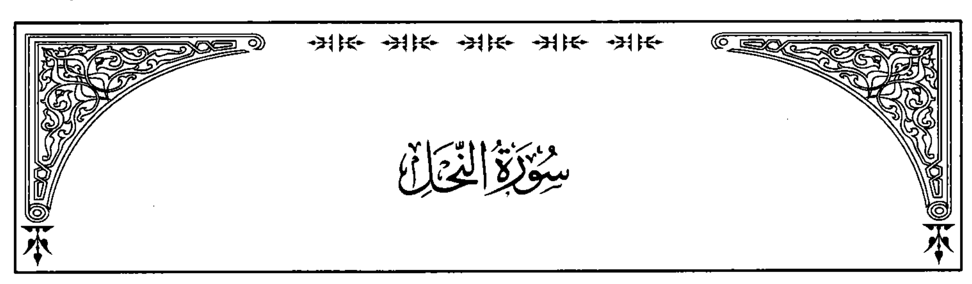
وهكذا حدثني بعض أصحابنا الثقات أن المسلمين من أهل المغرب حالهم مع النصارى كذلك، ومن سنة الله أن يعذب أعداءه تارة بعذاب من عنده، وتارة بأيدي عباده المؤمنين».

قال أبو عبيدة: اللهم عذّب من وقع في نبيّك محمد ﷺ، واشف صدورنا منه، فإنه لا يعجزك، واجعله عبرة لكل أحد.

(١) «النهاية» (٣/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦).

(٢) «تفسير الجلالين» (ص٧٩٨).

قال محمد تقي الدين: كل عالم بمعاني آيات التوحيد يرى المشركين في هذا الزمان يعبدون القبور، وشيوخ التصوف والمجانين الذين يسمونهم مجاذيب، ولم يضق صدره بما يفعلون ويقولون، فهو مداهن خائن للأمانة، كاتم للعلم، يلعنه الله ويلعنه اللاعنون، نعوذ بالله من ذلك، كيف وقد أمرنا الله تعالى بالتبرئ من المشركين في سورة الممتحنة، بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟! [الممتحنة: ٤].



سورة النحل

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل: ١ ـ ٣]

قال (ك) في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوِّها معبِّراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قرب ما تباعد: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب وكلاهما متلازم كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤] ثم أنه تعالى نزَّه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: الوحي كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥] وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ

﴿ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٦] وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أي لينذروا: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري[١]. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وإن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث[٢] بل ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ثم نزَّه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له»[٣]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: جميع الملائكة الذين أنزلهم الله على الرسل نزلوا قبل كل شيء بالتوحيد، والرسل كلهم بدؤوا الدعوة إلى الله بالتوحيد وأخبروا قومهم أنه لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق سواه، وكل مَنْ عبد غيره من المخلوقين فعبادته باطلة وسيعذبه الله عليها في الدنيا والآخرة عذاباً سرمداً، فالغرض الأعظم من بعثة الرسل هو توحيد الله تعالى، وهو الأساس لكل عمل يحبه الله ويثيب عليه، والآيات التي بعد هذه دالة على توحيد الربوبية.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل: ١٩ ـ ٢٢]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ثم أخبر

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعبد غيري».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب، وفي الأصل: «مخلوق بالبعث لا للبعث».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٨٩ ـ ٢٩١) بتصرف.

أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها ولا[1] تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء. إنما يرجى[2] ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء، ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبرنا عنهم متعجبين من ذلك، ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥] وقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبر الله ﷻ أنه يعلم كل شيء سراً كان أو جهراً، وهذه صفة خاصة به، فمن لمن تكن فيه هذه الصفة لا يستحق العبادة، وأخبر أن المشركين يعبدون من لا يستحق العبادة من المخلوقين، فيعبدون تماثيل الأنبياء والصالحين وقبابهم وقبورهم والأماكن التي جلسوا فيها، وهذه من الجماد الذي لا يحس، فكيف يسمع أو يبصر؟! فكيف يعلم السر والجهر؟! ويعبدون أرواح الصالحين، وهي لا تسمعهم ولا تبصرهم، ولو سمعتهم ما قدرت أن تنفعهم بشيء، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤] وقوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ معناه: معبودكم الذي يستحق العبادة وينفع ويضر ويحيي ويميت، هو الله وحده.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فلا». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يرتجى».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/٣٠٢ ـ ٣٠٣).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٢٦ ـ ٢٩]

قال (ك): «قالت جماعة هو من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢٢] أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ [سبأ: ٣٣] الآية وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله وأبطل عملهم[1]. كقوله تعالى: «﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤] وقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وقال الله هٰهنا: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت [تجنيه][2] ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر وتشتهر كما في «الصحيحين» عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان**»[3] وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرّونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأصلها».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تجنه».

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٧).

مقرِّعاً لهم وموبِّخاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم هٰهنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ١٠] فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة وأُسكتوا[١] عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق [في الدنيا][٢] والآخرة فيقولون حينئذٍ ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد، قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [المجادلة: ٦] فيحلفون له كما يحلفون لكم، قال الله مكذِّباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتّباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال[٣] أجسادهم في قبورها من حرِّها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: فيه فوائد:

الأولى: إن المشركين يمكرون ليوقعوا الموحدين في المهالك فيعود عليهم مكرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾؟ وقال تعالى في

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «وسكتوا».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل! والسياق يقتضيه.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: و«يأتي».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

سورة النمل: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٣].

قال محمد تقي الدين: ولما علم الله ضعف الموحدين وغربتهم وتألب المشركين عليهم نصرهم وأبطل كيد المشركين ومكرهم، فكل داع إلى توحيد الله واتباع سنة رسوله الكريم مخلص في دعوته يرى العجب العجاب من نصر الله، وإبطال كيد المشركين له، هذا في الدنيا، فكيف بالآخرة؟!

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ جاء مثله في مواضع من القرآن كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ [القصص: ٦٢] وقد تكررت وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٤٨﴾ [فصلت: ٤٧ ـ ٤٨].

الثالثة: إن الذين أوتوا العلم في لغة القرآن والسنة وهم علماء الكتاب والسنة، المؤمنون بالله الموحدون له المتبعون لسنة نبيه، ومن لم يكن كذلك لا يعدّ من الذين أوتوا العلم، إلا مقيلاً كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، وكقوله تعالى في سورة غافر: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٥] فعلمهم ذلك ليس فيه إيمان بالله فلذلك لم ينفعهم بل ضرهم، ولذلك قال النبي ﷺ: «**وأعوذ بك من علم لا ينفع**»[(١)].

ومثال العلم الذي لا ينفع: علم الكلام إذا كان صاحبه يعتقد أنه حق، وقول بعض المتكلمين شعراً:

أيها المغتدي ليطلُبَ عِلْماً　　كلُّ علمٍ عبدٌ لعِلْمِ الكلامِ

---

(١) سيأتي تخريجه.

تطلب العلمَ كي تصححَ حُكماً ثم أغفلتَ منزِّلَ الأَحكَامِ

وجوابه: أن يقال كذبتَ: علم الكلام ليس سيداً للعلوم، وإنما هو عبد لهو من المتفلسفين، وسخافاتهم وهو بدعة ملعونة، إلا في حق من اضطر إليه ليدافع به عن الحق، ويلجم أهله، ويرميهم بأحجارهم، ويأخذهم بإقرارهم، ثم يقال له: نحن ما أغفلنا منزل الأحكام ولكنا وصفناه بما وصف به نفسه سبحانه وبما وصفه به رسوله الكريم متبعين في ذلك لنبيه ﷺ وللصحابة والتابعين.

وأقول في ذلك شعراً معارضاً له[١]:

أيها المغتدي لتطلبَ عِلماً اجْتَنِبْ جَاهداً ظلام الكلامِ
إنَّ علمَ الكلامِ ليس بعلمٍ إنَّما العِلمُ شرعةُ العلَّامِ

وكذلك علم الفروع إذا لم يكن معه علم الكتاب والسنة، كعلم الغزالي والبيضاوي والزمخشري، فهؤلاء كلهم جاهلون بالحديث، ومن جهل الحديث لم يستطع أن يفهم القرآن، فيكون محروماً من علم الكتاب والسنة، كهؤلاء الثلاثة الذين حشوا كتبهم بالموضوعات والمتروكات والغرائب التي لا تخفى على المبتدئين في علم السلف، مع أن الغزالي كان عالماً بالفلسفة وبدع المتصوفة، وعلم الفروع وأصول الفقه المبنية على شفا جرف.

الرابعة: إن المشركين جاهلون جهلاً مركباً من جهلين:

الأول: إنهم يجهلون توحيد الله واتباع رسوله الكريم.

الثاني: إنهم يجهلون جهلهم كحمار الطبيب توما النصراني، الذي قال فيه بعضُ الشَّعراء:

قال حمارُ الحكيمِ توما لو أَنصفوني ما كنتُ أُرْكَبُ
لأنَّ جهلي غدا بَسِيطاً وراكبي جَهْلُهُ مركَّبُ

ومن جهل هذا الطبيب أنه قرأ في كتاب «الحبة السوداء شفاء من كل داء»[٢] فرأى تحت الباء نقطتين خطأ فقرأها «الحية السوداء» فاصطاد حية سوداء وأحرقها وأخذ يعالج بها الناس، فكل عين عولجت بها عميت، وكل بطن عولج

---

(١) لم أجد البيتين في أي كتاب من كتب المصنف المطبوعة، وفاته رحمه الله أن يذكرهما في «ديوانه» الذي عنَّ له جمعه بعد ضياع قسم من شعره، كما صرح به في أوله.

(٢) هذا **حديث صحيح**، أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥) من حديث أبي هريرة.

بها ازداد صاحبه مرضاً، فضرب به المثل في الجهل، ولجهل المشركين المركب يظنون أن ما هم عليه من الشرك هو الحق، ولذلك إذا جاءتهم الملائكة لتتوفاهم ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ فالاستمداد من أرواح الشيوخ والاستغاثة بهم والهتاف بأسمائهم عند القيام والقعود وعند حدوث حادث مروع: يا سيدي فلان، يا سيدي فلان، يا أولياء الله، والذبح لهم والنذر لهم والخوف منهم بالغيب ورجاؤهم والتوكل عليهم سواء عندهم حتى في وقت الغرغرة، فيكذبهم الله تعالى وتقول لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰٓ﴾، كنتم تعملون السوء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. اهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]

قال (ك): «أخبر الله تعالى أنه بعث ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[١] أي: في كل[٢] طائفة من الناس رسلاً[٣] وكلهم [يدعون][٤] إلى عبادة الله [وينهون][٥] عن عبادة ما سواه، ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّٰغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوحاً، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد رسول الله ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قرن و». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسولاً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يدعو». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وينهى».

كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] [فمشيئة الله][١] تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه[٢] نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً؛ فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، له في ذلك حجة قاطعة، وحكمة بالغة[٣] ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر[٤] عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق، كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١٨]»[٥].

فصل

قال محمد تقي الدين: فيه فوائد:

الأولى: إن كل أمة من أمم الأرض بعث الله إليها رسولاً يدعوها إلى توحيد الله واتباع شرعه، فبعض هذه الأمم استجابت لداعي الله بالسمع والطاعة، ولم تمنعهم أغراض الدنيا الفانية كالجاه والمال أن يستجيبوا لرسل الله، فأدركوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة. وبعضهم منعتهم أهواؤهم وأغراضهم الفاسدة، فأبوا أن يستجيبوا لداعيهم، فأضلهم الله، والله حكم عدل، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فإن قلت: فلماذا عذب الله عمرو بن لحي الذي أخبر النبي ﷺ أنه رآه يجر قصبه في النار[٦] كما في «الصحيح»؟ ولماذا عذب الله عبد المطلب جد النبي ﷺ؟ بدليل أن أبا طالب لما كان آخر كلامه: «هو على

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فمشيئته».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: وفي الأصل: «لأنهم»!
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حجة بالغة وحكمة قاطعة».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عيّر».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).
(٦) سبق تخريجه.

دين عبد المطلب»، مات كافراً[1] كما في «الصحيح» أيضاً، فالجواب: إن هذين الرجلين اللذين كانا في زمانين مختلفين يعلمان يقيناً أن ملة إبراهيم تتنافى مع عبادة الأصنام، بدليل قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧] وقد تكرر هذا في القرآن في مواضع كثيرة أن المشركين من العرب كانوا يوحِّدون الله تعالى في الشدة ويشركون في الرخاء، ولا سبيل لهم إلى معرفة التوحيد إلا ما بلغهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل وهو حجة عليهم.

الثانية: قول (ك): «فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منتفية» المشيئة الشرعية، معناها: كل ما شرعه الله تعالى لعباده بواسطة رسله فقد أراده وأحبه ورضيه، وأما الإرادة الكونية القدرية: فإنها تشمل الكفر والإيمان والمعصية والطاعة[2]، فإن الله شاء للكفار والعصاة ما اختاروه لأنفسهم، ولم يشأ أن يجبرهم على الإيمان والطاعة، بل استدرجهم بإبقاء نعمه من الجاه والمال والصحة والعافية وسائر ما أعطاهم الله من النعم، فلم يشكروها، بل زادتهم طغياناً ولم يرض الكفر والمعصية، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقد اقتضت حكمته البالغة أن يجزي المؤمنين المطيعين جزاء حسناً في الدنيا والآخرة، وأن يجزي الكافرين والعصاة عذاباً في الدنيا والآخرة.

الثالثة: قول (ك): «نكر[3] عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل»، معناه أن الله تعالى أنكر عليهم الكفر والمعاصي، بطريقين:

الطريق الأول: بواسطة رسله وما جاؤوا به من الشرائع.

والثاني: إنه جعل عاقبتهم الهلاك في الدنيا بعد الإمهال، كما فعل بعاد، وثمود، وقوم موسى، وقوم نوح، وأصحاب مدين، وأهل مكة في غزوة بدر، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك: ١٨]. فكيف كان إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ستأتيك في (١٨/٦) فروق مهمة ودقيقة بين الإرادتين، فانظره هناك، تولى الله هداك.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عيّر».



الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ۝٥٦﴾ [النحل: ٥١ ـ ٥٦]

قال (ك): «يخبر[١] تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ قال ابن عباس وغيره أي: دائماً[٢]، وعن ابن عباس أيضاً أي: واجباً[٣]، وقال مجاهد أي: خالصاً[٤]، أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض كقوله: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣] هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر[٥]. وأما على قول مجاهد: فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة[٦] كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣] ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم وإحسانه إليهم: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقرر».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩) عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد، وهو هكذا في «تفسير مجاهد» (١/ ٤٢٢)، وهو عند ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٨٥) عن ابن عباس ومجاهد، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٠) لابن المنذر عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد، وزاد ابن أبي شيبة عن مجاهد.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٢٤٩) وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٠) للفريابي أيضاً.

(٤) أخرجه ابن جرير (٣/ ٢٩٩) وعبد بن حميد ـ كما في «الدر» (١/ ٢٠٥) ـ وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٢٢٣).

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: وهو الصواب، وفي الأصل: «الخير».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «له الطلب».

وتسألونه وتلحّون في الرغبة مستغيثين به، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال هٰهنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قيل: اللام هٰهنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل، بمعنى[1] قضينا لهم ذلك ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وإنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أي: اعملوا ما شئتم، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة ذلك ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد [بغير علم][2]، وجعلوا لأوثان[3] نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها[4] على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة، ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: أنا أختار تفسير مجاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: خالصاً فلا يجوز أن يعبد غيره بأي نوع من أنواع العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ علّة لما تقدمه، أي: وحدوا الله لأنه هو الذي يمنُّ عليكم بالنِّعم، وغيره لا ينفع ولا يضر فلم تعبدونه؟ وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ هذه عادة المشركين يجعلون أموالهم لآلهتهم التي يسمونها بالأولياء، وقد زين لهم الشيطان أن يتخذوا أولياء

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «معنى».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لها».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: وفضلوهم أيضاً».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٨ ـ ٣١٩)،

من دون الله، ولو اتخذوا الله ولياً لكفاهم، ولكنهم قوم لا يعقلون.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٣ ـ ٧٦]

قال (ك): «يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾، أي: لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع، ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ إلخ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: وهو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا، ولما كان الفرق[1] بينهما ظاهراً واضحاً بيِّناً لا يجهله إلا كلُّ غبيٍّ، قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ الآية، قال: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني: إن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشر[2] ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بشيء».

ينجح[١] مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين:

فائدة: من عادة الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يفسر القرآن بالقرآن، ويجمع النظائر ولم يفعل ذلك في هذه الآية والكمال لله، فإن تفسيرها ظاهر في آية الروم، يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

ففي الآيتين كلتيهما بيان من الله تعالى أنَّ مَنْ عبد مخلوقاً، وجعله لله نداً بأن استغاث به بغير طريق الأسباب، واستعان به كذلك، أو خافه بالغيب، أو توكل عليه في قضاء حاجة إلى غير ذلك من أنواع العبادة، فإنه لم ينتفع بعقله فلا عقل ولا علم؛ لأنه لا يرضى أبداً أن يكون عبده شريكاً له في ما له يتصرف كتصرفه، فإذا قال المشرك لوثنه أو لروح شيخه: إن ولد لي ولد ذبحت لك شاة، فقد جعل شيخه شريكاً مع الله، يعطي ويمنع ويقبل النذر ويعبد من دون الله؛ لأن شيخه عبد مملوك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف يشارك الله تعالى ويتصرف في ملكه.

فائدة ثانية: في معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ قال مجاهد: أي عيال عليه؛ ومعنى: العيال المحتاجون إلى نفقة من يعولهم، فشيخ الطريقة وكل الصالحين محتاجون إلى الله تعالى، في إيجادهم وإمدادهم وفقراء إليه تعالى، فمن نسب لهم التصرف يكون في الجهل والحماقة كالذي ينسب الملك والتصرف إلى العبد المملوك الذي لو تركه سيده بلا عشاء لبات يتضور ويتألم من الجوع، فأحمق الناس وأجهلهم هو الذي يأتي إلى مثل هذا العبد ويلتمس منه عشاء، والآن حضرتني نادرة مضحكة، وهي مناسبة للمقام، يحكى أن راعي غنم من أهل البادية في الجزائر، جاءه رجل وهو راجع بغنمه إلى الخيمة قبل غروب

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «نجيح».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤) بتصرف.

الشمس فقال له: باللغة الجزائرية «أضياف ربي» ومعنى ذلك، أنا ضيف الله عندك، فلم يجد بداً من قبوله وكانت أمه من أبخل الناس، فلما أقبل بالغنم على الخيمة رأت أمه معه رجلاً آخر، فقالت له: من هذا الرجل الذي معك؟ فقال: ضيف، فغضبت غضباً شديداً، وقالت له: «يا خاليها يا طويها» ومعنى ذلك يا أيها المبذر المتلاف الذي سيخلي هذه الخيمة حتى تطوى ولا تنصب، أخوك جاءني بضيف في السنة الماضية، ورأيت ما صنعت به من التنكيل، وإذا بك تأتيني أنت في هذه السنة بضيف آخر، والله لا تأكله لا أنت ولا هو، فتحير الراعي في أمره كيف يطرد هذا الضيف بعدما وصل إلى الخيمة، فقال الراعي للضيف: كيف تطأ على برنسي بنعليك فقال: ما وطئت عليه، قال: أتكذبني؟ والله لا أكلت طعامي، فهذا الضيف عاجز لا يملك شيئاً، والراعي مثله، ضعف الطالب والمطلوب، فهذا مثل يضرب لمن ينزل حاجته بالمخلوق العاجز الفقير.

قال شيخنا محمد بن العربي العلوي[1] رحمه الله: يا عجباً لهؤلاء الجهال يطعمون شيخهم من جوع، ويسقونه من ظمأ، ويكسونه من عري، ويركبونه على دوابهم أو سياراتهم، ويقونه الحر والقر، ويؤوونه في بيوتهم فهو عيال عليهم ومع ذلك يسألونه أن يرزقهم، ويقضي حاجاتهم فهم يرزقونه رزقاً حقيقياً، ويسألونه رزقاً خيالياً لا وجود له، ولا يكفهم ذلك حتى يسألوه تنوير قلوبهم وهدايتها، وهذا كفر بالله إذ لا يهدي القلوب إلا الله.

والمثل الأوربي يقول: (فاقد الشيء لا يعطيه).

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل: ٨٦، ٨٧]

قال (ك): «أخبر تعالى عن تبرؤ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا

---

(١) هو شيخه الذي ناظره في الطريقة التجانية، وخرج منها الهلالي بسببه، وانظر ما زبرناه في مقدمة هذا الكتاب (ص٣٣)، والله الموفق للصواب.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٦٤]، والآيات في هذا كثيرة، وقوله: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذٍ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وقوله: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أجاد الحافظ (ﷺ) في تفسير هذه الآيات، وصدق رحمه الله، ففي القرآن آيات كثيرة تدل على أن المعبودين من الملائكة والأنبياء والصالحين يتبرؤون من عابديهم، كما قال تعالى: وقد تقدم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) بتصرف.

قال (ك): «يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال سفيان الثوري بسنده: عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن الأمة القانت، فقال: «الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله»[(١)] ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧] أي: قام بجميع ما أمره[(٢)] الله تعالى به، وقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه كقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١] ثم قال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضيٍّ، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خيراً من جميع ما يحتاج المرسل[(٣)] إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال مجاهد في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لسان صدق وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده[(٤)]، أنَّا ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله في الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]»[(٥)].

قال محمد تقي الدين: إبراهيم الخليل، صلاة الله عليه إمام الموحدين

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٦٠، ٣٦١)، وابن جرير (١٤/ ٣٩٤) كلاهما في «التفسير»، والطبراني (٩٩٤٣، ٩٩٤٤، ٩٩٤٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٨ و٣/ ٢٧١، ٢٧٢) من طرق عن ابن مسعود.

وزاد في «الدر المنثور» (٩/ ١٣٠) عزوه للفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وقال البيهقي في «المجمع» (٧/ ٤٩): «رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح».

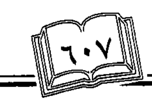
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «أمر».

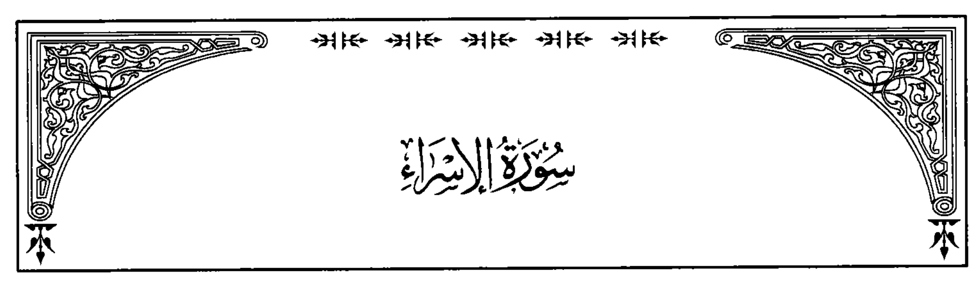
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المؤمن».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وطريقه».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦).

الحنفاء وحسبه شرفاً أن الله أمر خير خلقه محمداً، أن يتبعه وأن يكون على ملته ولذلك يجب على كل مسلم أن يكون حنيفاً موحداً لله، وسيأتي قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] إن شاء الله.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٢، ٢٣]

وهنا ذكر الله تعالى ثماني عشرة وصية جمعت الخير كله، وسماها الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قدم قبلها النهي عن جعل إله مع الله، وأخبر أن من فعل ذلك يكون ﴿مَذْمُومًا﴾ عند الله والناس والمؤمنين، و﴿مَّخْذُولًا﴾ ليس له ولي ولا نصير، وقال آخرها: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] والملوم، الذي يلومه الله تعالى، ويلومه عباده الصالحون، والمدحور: المطرود من رحمة الله، وهذا يدلنا على عظمة التوحيد عند الله، وأن من لم يأت به فهو شقي خاسر لا يقبل الله منه عملاً ولا يرحمه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] والوصايا التي سماها الله الحكمة:

أولها: توحيد الله تعالى.

وثانيها: بر الوالدين.

وثالثها: الإحسان إلى الأقارب.

ورابعها: الإحسان إلى المساكين.

وخامسها: الإحسان إلى ابن السبيل، وهو المسافر المنقطع عن أهله.

وسادسها: ترك التبذير.

وسابعها: القول الميسور للسائلين إذا لم يجد الإنسان ما يعطيهم.

وثامنها: التوسط في الإنفاق.

وتاسعها: ترك قتل الأولاد خوف الفقر، ويقرب من ذلك ما سماه النبي ﷺ

بالوأد الخفي[1]، وهو عزل المني عن رحم المرأة حتى لا تحمل، ومثله كل ما يمنع الحمل إلا إذا كان لمصلحة كحفظ الحياة وحفظ الصحة.

وعاشرها: ترك الزنى.

والحادي عشر: ترك قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والقتل بالحق يكون مشروعاً، كالقصاص ورجم الزاني، وقتل من ارتد عن الإسلام، وقتل قطاع الطريق وما أشبه ذلك.

والثاني عشر: أن لا يقرب مال اليتيم إلا بقصد الإصلاح.

الثالث عشر: الإيفاء بالعهد.

الرابع عشر: إيفاء الكيل.

الخامس عشر: إيفاء الوزن.

السادس عشر: أن لا يتكلم الإنسان في الدين إلا بعلم، ومن ذلك يظهر تحريم الإفتاء بالتقليد والتمذهب.

السابع عشر: ترك الخيلاء والكبر.

والثامن عشر: ترك الشرك بالله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]

قال محمد تقي الدين: اختلف السلف في المراد بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]:

فقال ابن مسعود وجماعة: كان المشركون يعبدون جماعة من الجن، فأسلمت الجن ووحدوا الله، وصاروا يبتغون إليه الوسيلة بالعمل الصالح، ولم يشعر بإسلامهم الذين كانوا يعبدونهم من الإنس، واستمروا على عبادتهم،

---

(١) سبق الحديث وتخريجه.

فعاب الله عليهم ذلك[(١)]، وقال ابن عباس[(٢)] وجماعة: المراد الملائكة وعيسى، فإن الملائكة وعيسى يعبدون الله ويوحّدونه ويتقربون إليه، والجهال من بني آدم يعبدونهم، حاصله أن المعبودين من دون الله إما أن يكونوا أبراراً أو فجاراً، فالأبرار كالملائكة والأنبياء والصالحين، والفجار: كل من عبد ورضي بذلك من الجن والإنس، ومن عبد غير الله فهو خاسر سواء كان المعبود من الأبرار أم من الفجار.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

[الإسراء: ٦٦، ٦٧]

قال (ك): «يخبر تعالى عن [لطفه بخلقه في][(٣)] تسخيره لعباده الفُلك في البحر، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم[(٤)] ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ أي:

---

(١) أخرجه بنحوه: البخاري (٤٧١٤، ٤٧١٥)، ومسلم (٣٠٣٠)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٣١ ـ ٣٢)، و«تفسير ابن جرير» (١٤/ ٦٢٧ ـ ٦٣٠).

(٢) لم أجد عن ابن عباس أنه قال المراد بذلك: الملائكة وعيسى معاً وإنما وجدت عن ابن عباس أنه قال: «المراد بذلك: «عيسى وأمه وعزير» أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٦٣١) وابن وهب في «تفسيره» (٢/ ٢٣، ٢٤) رقم (٣٥، ٣٦) والجمع بينهما معاً ورد عن مجاهد أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٦٣١) والطحاوي في «المشكل» (٦/ ١١٧) وغيرهما، وهو في «تفسير مجاهد» (١/ ٣٦٤).

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنه إذا مس الناس».

ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حيث فتح مكة، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد[1] فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فحسن[2] إسلامه رضي الله عنه[3] وأرضاه، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي: سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن ذلك تعلم أن جاهلية زماننا أعظم بكثير من الجاهلية الأولى، الذين دعاهم رسول الله ﷺ وقاتلهم، والدليل على ذلك أن المشركين في ذلك الزمان يوحِّدون الله في الشدة، ويشركون في الرخاء، أما مشركو هذا الزمان، فإنهم يشركون في الشدة أكثر مما يشركون في الرخاء.اهـ.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يديه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فأسلم وحسن».
(٣) أخرجه الدارقطني (٣/ ٥٩ و٤/ ١٦٧ ـ ١٦٨)، والحاكم (٢/ ٥٤ و٣/ ٤٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٥٩ ـ ٦٠)، من طريق أحمد بن المفضل عن أسباط بن نصر الهمداني قال: زعم السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه وذكره، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وانظر: «إتحاف المهرة» (٥/ رقم ٥٠٨٢) وعزاه ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) لابن مردويه أيضاً.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٤٢ ـ ٤٣).

الموضوعات والمحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة النساء

الموضوع | الصفحة

سورة المائدة

الموضوع | الصفحة

سورة الأنعام

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الأعراف

الموضوع | الصفحة

سورة الأنفال

سورة التوبة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة يونس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة هود

سورة يوسف

الموضوع | الصفحة

سورة الرعد

الموضوع	الصفحة

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

الموضوع | الصفحة

سورة الإسراء

سبيل الرشاد
في
هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي

رحمه الله تعالى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

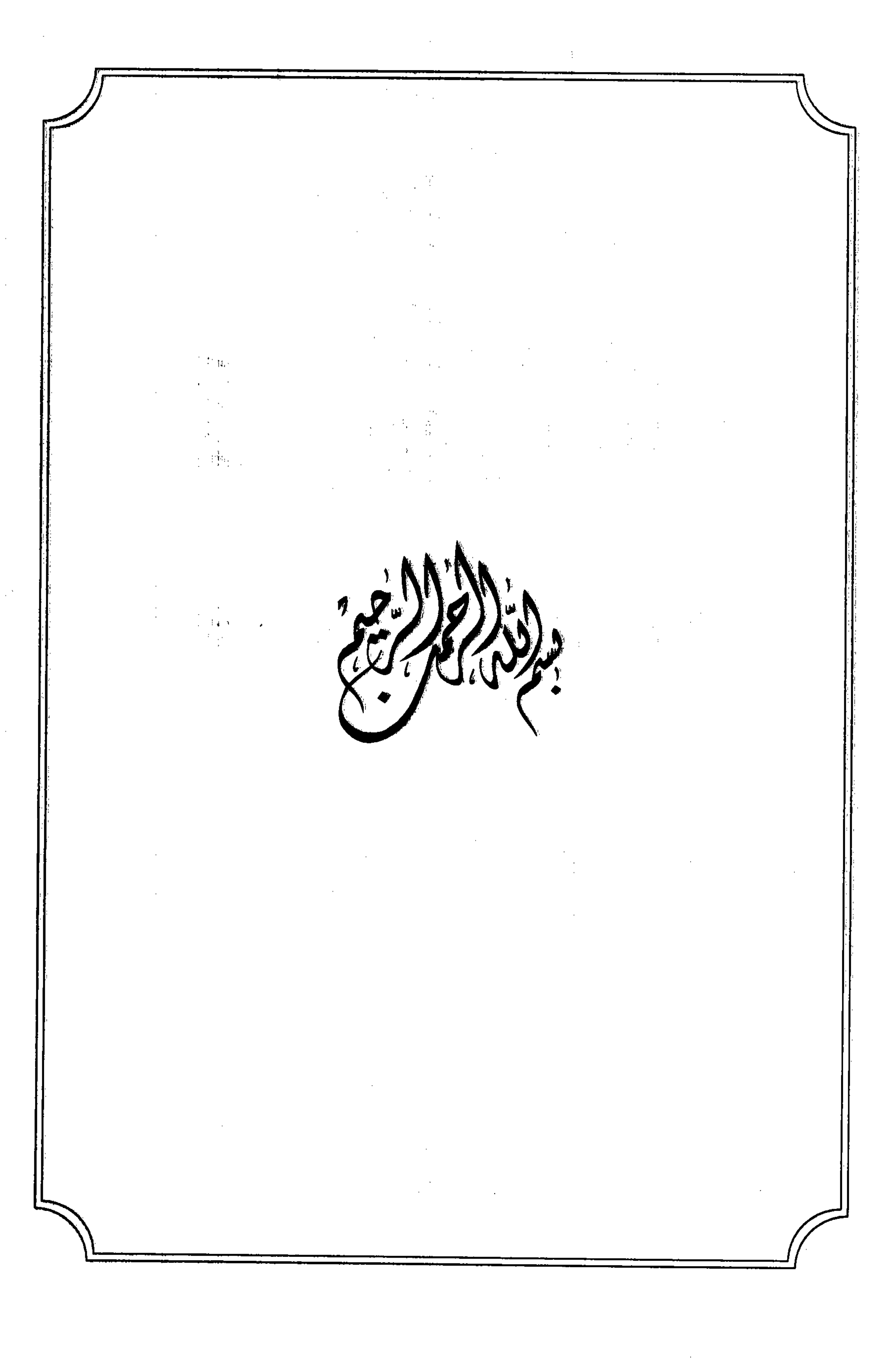
(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

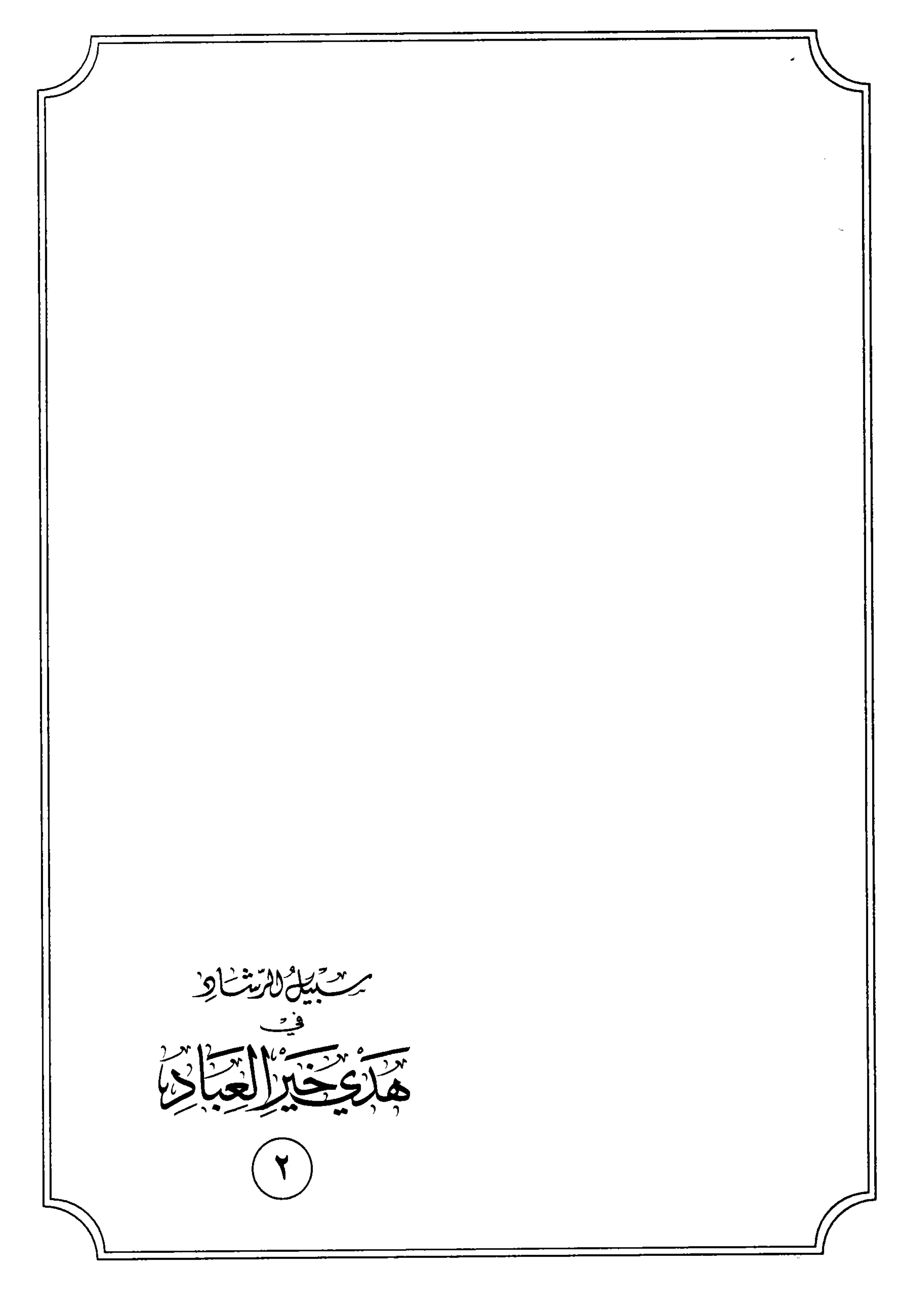
قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الثاني

الدار الأثرية

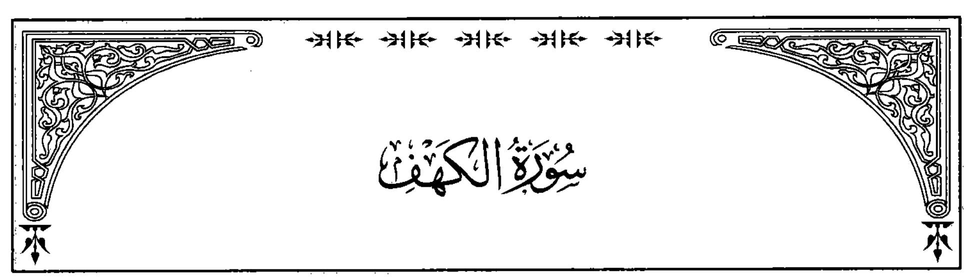

بسم الله الرحمن الرحيم


سبيل الرشاد
في
هدي خير العباد
٢

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الدار الأثرية

عمان - الأردن - تلفاكس: ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢
خلوي: ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ / ٠٠٩٦٢ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠
الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٦]

قال (ك): «من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا [وانغمسوا][١] في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف، أنهم كانوا فتية شباباً[٢]، ألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إلٰه إلا هو ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة، كالبخاري[٣] وغيره ممن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعَسَوا».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة ـ يعني: الحلق ـ ف».
(٣) في «صحيح البخاري» «كتاب الإيمان»، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (١٥) (٢٢).

ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، وقد ذكر[(١)] أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء وعن خبر ذي القرنين وعن الروح[(٢)] فدل هذا على أن هذا أمر

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أنكر»!

(٢) قوله «قد تقدم»: عنده في «التفسير»، ولم يسبق ذكره في كتابنا هذا، وساقه بطوله ابن إسحاق في «السيرة» (ص١٨٢ ـ ١٨٣)، وفيه أنّ المبعث لليهود هو النضر بن الحارث، ونعت بأنه قدم الحيرة، وتعلّم بها أحاديث (رستم) و(أسفنديار)، وأنه وعُتبة بن أبي معيط ذهبا إلى أحبار يهود بالمدينة، وجاءا بالأسئلة المذكورة!

وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ١٩١ ـ ١٩٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧١)، وابن أبي حاتم ـ وهو ليس في القسم المطبوع من «تفسيره» ـ، وابن المنذر، وأبو نعيم في «الدلائل» ـ كذا في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٧) ـ وعزاه المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٩٤) رقم (٦٨١) لابن المنذر ـ أيضاً ـ، **وإسناده ضعيف**؛ للمبهم الذي فيه. والخبر في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢١ ـ ٣٢٣)، وسند ابن جرير: عن ابن إسحاق، عن رجل من أهل مصر، عن سعيد بن جبير، به. **وصحَّ من حديث ابن عباس بعض أجزاء منه**، وهذا البيان:

أخرج أحمد (١/ ٢٥٥) ـ واللفظ له ـ وأبو يعلى (٢٥٠١) كلاهما في «المسند»، والترمذي في «الجامع» رقم (٣١٤٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٣١٤)، وابن حبان في «الصحيح» (رقم ٩٩ ـ «الإحسان»)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٩) من طرق عن يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال:

«قالت قُريش لليهود: أعطُونا شَيئاً نسألُ عنه هذا الرجلَ، فقالوا: سَلُوهُ عن الرُّوح، فَسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، قالوا: أوتينا عِلماً كَثيراً؛ أوتينا التَّوراةَ، ومَن أوتي التوراة، فقد أوتي خَيراً كَثيراً، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ =

= [الكهف: ١٠٩]، **وإسناده صحيح.**
وقد ورد أن اليهود هم الذين سألوه. انظر: ما سنعلّقه قَريباً، والله المستعان لا رب سواه.
(تنبيهات مهمات):
أولاً: ساق بعض المفسرين؛ كالزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٠٠)، والبيضاوي في «أنوار التنزيل» (٣٨٢) [الإسراء: ٨٥] ـ مثلاً ـ القصة بسياق عجيب، قال عنه ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٠٢ رقم ٣٠٩): «لم أجده هكذا»، وذكر سياق ابن إسحاق لها، وكذلك فعل المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٨٤) رقم (٦٦٨).
ثانياً: سيأتي قريباً في حديث ابن مسعود ما يدل على أن سؤال اليهود عن الروح كان بالمدينة، وهذا يخالف ما في هذا الخبر، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (ص٢١٣ ـ السيرة النبوية): «ولعله ﷺ سئل مرتين»!!.
ثالثاً: الاحتمال الذي ذكره الذهبي يُلجأ إليه في حال صحة هذه القصة، أما وهي غير ثابتة فلا داعي له، ومن العجب أن محمد عزة دروزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذهب في تفسيره «التفسير الحديث» (٦/ ٤٢) إلى تصحيح وقوع السؤال بمكة، وشكك في ورودها بالمدينة!
رابعاً: مما يضعف القصة؛ أن اليهود ليس في «توراتهم» ما يدل على معرفة ـ أيَّ معرفة ـ بـ(ذي القرنين).
خامساً: ومما يضعِّف القصة ـ أيضاً ـ: أنه وقع فيه على لسان أحبار يهود: أنهم أمروا قريشاً بأن تؤمن بنبيها إن ثبت بعد الامتحان أنه نبي!! فهذا لا يدخل قطّ في السلوك اليهودي الذي يُصرُّ على نفي النبوة عن كل غير يهودي من أي جنس كان، وعداوتهم للإسلام ولرسوله بعد الهجرة وقبلها معروفة لا تدع مجالاً لتقديم فكرة كهذه الفكرة إلى قريش لتؤمن، ولقد أجاب النّبي عن الأسئلة الإجابة التي لا تدع مجالاً لتردد قريش في الإيمان به، لو صح أنهم أعطوا الرأي بهذا، فلم يؤمنوا!
سادساً: ذهب بعض المعاصرين من الباحثين، وهو نجيب محمد البهبيتي في (القسم الأول) من كتابه «المعلقة العربية الأولى» أو «عند جذور التاريخ» (ص٥٨ ـ ٥٩) إلى رد هذه القصة، وطول في تقرير سعة علم وثقافة (النَّضر بن الحارث)، وأنه كان يعتمد في ذلك على (قصيدة جيلجاميش) ـ وهي المرادة هنا بـ(أحاديث رستم) و(أسفنديار)! ـ، وبناءً عليه؛ استنكر أن يلجأ لليهود في مثل هذه المسائل التي تخلو منها «توراتهم»! وهذا نص كلامه (ص٥٩):
«إن النضر بن الحارث كان بحكم ثقافته، وسعة علمه، واعتمادها في جانب كبير على البيئة التي أخرجت «قصيدة جيلجاميش»، وكان أكثر أصالة في انتحال هذا السؤال، وأولى بالالتفات إليه من اليهود الذين تَخْلو «توراتهم» منه خُلوّاً تامّاً، ومرتميات الجدال المحتَدم بين النّبي ﷺ والنضر هي الأَوْلَى بأن تقذف به إلى مثل هذه الأسئلة. =

= أمّا ابتعاث النَّضر وعُتبة بن أبي معيط إلى اليهود فلعله كان، ولكن لسبب آخر لم تصرح الظروف عنه حتى اليوم، فهؤلاء المؤرُخون ـ على ما قُلتُ ـ لا يخترعون، والغالب أنه كان لتبادل الرأي مع طائفة يهددها الدين الجديد بقدر ما يهدد قريشاً، فهو سعي إلى التحالف!! بين دينين يهددهما «الإسلام»!

وأعود مرة ثانية إلى القصيدة فأقول: إنني كنت دائماً مطمئنّاً تمام الاطمئنان إلى أنها كانت المحور الذي أدار حوله النَّضرُ مناقشاتِهِ مع الرسول في المسجد حول طواف «ذي القرنين»، ولا بد أنها كانت حامية، ولكن هل كان استشهاد النضر بما كان يستشهد به منها في لغتها الأصلية، وبصيغتها الشِّعرية؟ أعتقد هذا، وأعتقد أنه هو السبب الذي أيقظ في نفوس المشركين نسبة النبي إلى «الشعر» ووصفه «بالشاعر». انتهى.

قال أبو عبيدة: أصلُ هذه الواقعة لم يثبت، ونحن في غنىً عن نسبة شيء في هذا الباب إلى رسول الله ﷺ، وأما (النَّضر) وحاله، وثقافته، فهذا ليس من شأننا في هذا الصدد، والله الموفق، لا رب سواه.

وانظره ـ إن أردت الاستزادة ـ في كتاب: «التلقّي والسياقات الثقافية» (ص١٠٨ ـ ١١٠) لعبد الله إبراهيم، نشر عن دار الكتاب الجديد، ليبيا، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٠م.

سابعاً: ثبت سؤال اليهود للنّبي ﷺ عن الروح.

أخرج البخاري (١٢٥، ٤٧٢١، ٧٢٩٧، ٧٤٥٦، ٧٤٦٢)، ومسلم (٢٧٩٤)، وابن حبان (٩٨ ـ «الإحسان»)، في «صحاحهم»، وأحمد (١/ ٣٨٩، ٤٤٥)، وأبو يعلى (٥٣٩٠)، والشاشي (٣٦٩) في «مسانيدهم»، والترمذي في «جامعه» رقم (٣١٤١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (رقم ١١٢٩٩) في كتاب التفسير، حديث رقم (٣١٩) منه، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٥٥)، والطبراني في «الصغير» رقم (١٠٠٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص١٩٧)، والبغوي في «الأنوار في شمائل النّبي المختار» (٢/ ٥٨٠) رقم (٨٧٢)؛ جميعهم من طريق الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود، قال:

«بينا أنا أمشي مع النّبي ﷺ في خِرَب المَدينة وهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلى عَسِيب مَعهُ، فَمَرَّ بنَفَرٍ مِن اليَهود، فقال بَعضُهُم لِبَعض: سَلُوه عَن الروح؟ وَقال بَعضُهُم: لا تَسأَلوهُ، لا يَجيءُ بشَيءٍ تَكرَهونَهُ، فَقال بَعضُهم: لَنسألَنَّهُ، فقامَ رَجُلٌ منهُم، فقَالَ: يا أبا القاسِم! مَا الرُّوحُ؟ فَسكَت، فَقُلتُ: إنّه يُوحى إليهِ، فَقُمت، فَلمّا انجلى عنه، قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، قال الأعمش: هكذا في قراءَتنا.

وانظر: «العلل» للدارقطني (٥/ ٢٥١ ـ ٢٥٢).

وورد السؤال عن ذي القرنين في حديث ابن عباس عند البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٠٠)، **وسنده ضعيف**، وفي حديث عقبة بن عامر، عند ابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٨، ط. الحلبي)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٩٦)، **وسنده ضعيف** ـ أيضاً ـ، وانظر =

محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم[(١)] على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومِهم ومدينَتِهِم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم، وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد، يقال له: «دقيانوس» وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السمٰوات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحده[(٢)] أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليهما[(٣)] وجاء الآخر فجلس إليهم[(٤)] وجاء الآخر وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**[(٥)].

= ـ للاستزادة ـ تعليقي على «ذو القرنين وسد الصين» لشيخ مشايخنا محمد راغب الطباخ (ص٢٣ ـ ٢٨).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مقدم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنده».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إليه»!

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إليه»!

(٥) ذكره البخاري في «صحيحه» كتاب الأنبياء (٦٠)، باب الأرواح جنود مجندة (٣٣٢٦). وقال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٣٧٠): «وقد وصله الإسماعيلي من طريق سعيد بن أبي مريم عن يحيى بن أيوب، ورويناه موصولاً في «مسند أبي يعلى» وفيه قصة في أوله...». قلت: أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٣٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٠٠)، وأخرجه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

والغرض أنه جعل كل واحد منهم يكتم ما هو عليه[(١)] عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كل واحد منكم بأمره[(٢)] فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به شيء هو[(٣)] الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال[(٤)] الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله ﷻ، ولهذا أخبر تعالى بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ ولن لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال فيهم[(٥)]: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً، ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون[(٦)]، وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه كما جاء في الحديث، «**يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن**»[(٧)] ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها[(٨)]، لما يفوت، بها من ترك

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما بأمره».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو الله».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنهم».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يراجعون دينهم الذي كانوا عليه».
(٧) أخرجه البخاري (٣٣٠٠) من حديث أبي سعيد، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «العزلة والانفراد» (١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٨٠)، لابن أبي الدنيا، فانظره غير مأمور.
(٨) تشرع العزلة بشروط، أهمها: العلم، والزهد، ولذا قالوا ـ كما في «مرقاة المفاتيح» =

. . . .

= (٤/ ٧٤٣) ـ: «(العزلة) بغير عين (العلم) (زلة)، وبغير زاي (الزهد) (علة)». وضوابطها الشرعية ثلاثة أمور: الأول: أن لا تدع الجمعة والجماعة. والثاني: عدم التوسع في المباحات. والثالث: اختيار الأصحاب، وهي بهذه الضوابط تشرع في حق بعض الناس، بل قال الخطابي في كتابه «العزلة» (ص٢٢٥): «فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضرّ شيء على الجهال».

والعزلة لا تكون إلا في حق «من لم يتعيَّن عليه فرضٌ؛ من جهاد، أو تغيير منكر، وتعلُّم أو تعليم، أو مانع شرعي ممن يجب طاعته شرعاً؛ من أحد الوالدَين، أو إمام، أو قاضٍ، أو خصمٍ له حقٌّ واجب، أو حق مسلم لازم أو راجحٍ، لم تعارضه خوف فتنةٍ في الدِّين؛ فينبغيَ من حدِّ صاحب (الخلوة) أن لا يصل إلى حدِّ العقوق والجفاء، والله المستعان ما لم تُخَف فتنة»، أفاده ابن الوزير في «الأمر بالعزلة في آخر الزمان» (ص٤٩، ٥٣).

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه «الغنية» (١/ ١٧٤ ـ ط العراقية): «ولو اعتزل الإنسان الناس مهما اعتزل؛ لم يكن له متّسعاً في الشرع اعتزال الجمعة والجماعات».

ولذا أوصى الشافعي صاحبه يونس بقوله: «يا يونس! الانقباض عن الناس مكسبةٌ للعداوة، والانبساط إليهم مجلبةٌ لقرناء السُّوء؛ فكن بين المنقبض والمنبسط»، كذا في «شرح نهج البلاغة» (١٠/ ٥٢).

قال علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (٤/ ٧٤٣): «والمختار هو التَّوسُّط بين العزلة عن أكثر الناس وعوامِّهم، والخلطة بالصالحين، والاجتماع مع عامتهم في نحو جمعهم وجماعاتهم».

والحاصل أن العزلة تكون كلية تارة وجزئية أخرى، خادمة لمطلوب أو مقصود، كما بيّنه الشاطبي في «الموافقات» (٣/ ٥٣٠ ـ بتحقيقي).

وقد ذكر العلماء جملة من (الآداب) لمن أراد (العزلة)؛ منها: أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس أولاً، ثم طلب السلامة من الأشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفات الاختلاط ثالثاً، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعاً، ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر؛ ليجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش عليه وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم والإصغاء إلى أراجيف البلد؛ فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب.

وبالجملة، يقطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا؛ اضطره التوسع إلى الناس، وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه عن كد المواظبة في اليوم ساعة؛ ففيه عون على بقية الساعات، ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وعما في أيدي أهلها، وطريق ذلك أن لا يقدر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي على أنه لا يصبح؛ فيسهل عليه صبر يوم واحد، وإلا؛ فلا يسهل عليه الصبر عشرين سنة أو قدر تراخي الأجل.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به؛ فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، =

الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك، في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ أي[1] الذي أنتم فيه ﴿مِّرْفَقًا﴾ أي: أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هُرّاباً إلى الكهف، فأووا إليه، ففقدهم قومهم، من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك، فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعمى الله خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجآ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه، مع أنهم يمرون عليه وعندها، قال النبي ﷺ، حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[2]. وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم[3]، وأعجب من قصة أصحاب الكهف»[4].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

= وانظر: «الإحياء» (٢/٢٤٣)، و«مفتاح السعادة» (٣/٢٤٣ ـ ٢٤٤)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص١١٧، ١١٨).

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أنس.

(٣) لم تسلم من تهاويل القصاص، وأراجيف الكذابين، وبيّنت قصة من ذلك بما لا مزيد عليه في كتابي «قصص لا تثبت» (٨/١٩ ـ ٤٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/١١٢).

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٧ ـ ٢٩]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: لا[١] مغير لها ولا محرف ولا مؤوّل[٢]، وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ عن مجاهد: ملتحداً، قال: ملجأ، وعن قتادة: وليّاً ولا مولى، قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتلُ ما أوحي إليك من كتاب ربك[٣] فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه، ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيّاً، من عباد الله سواء كانوا فقراء، أو أغنياء، أو أقوياء، أو ضعفاء، يقال[٤]: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ، أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال، وعمار، وصهيب، وخباب، وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ الآية، وقال مسلم بسنده عن سعد بن أبي وقاص، قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون[٥]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «غير».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مزيل».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:»، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن جرير» (١٥/ ٢٣٤): «فتتبعه وتأتمَّ به، فنالك وعيدُ الله الذي أوعد فيه المخالفين حدوده».

(٤) بل ثبت ذلك عند مسلم في «صحيحه»، كما سيأتي قريباً.

(٥) قائله: الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، ذكره الخطيب في «الأسماء المبهمة» رقم (٢٢٢)، وعنه سبط بن العجمي في «تنبيه المعلم بمبهمات صحيح مسلم» (ص٤١١/رقم ١٠٠٥ ـ بتحقيقي).

للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل، وبلال ورجلان نسيت اسميهما[(١)]، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾»[(٢)] [الأنعام: ٥٢] انفرد به مسلم دون البخاري، وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: «لا تجاوزهم إلى غيرهم»[(٣)]، يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف، والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط، وضياع، ولا تكن مطيعاً له، ولا محبّاً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ [طه: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ الآية.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ، ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد للناس، هذا الذي جئتكم به من ربكم هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا من باب الوعيد والتهديد[(٤)] الشديد، ولهذا قال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي[(٥)]: أرصدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها، وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: «المهل الماء الغليظ[(٦)] مثل دُرْدِيّ الزيت»[(٧)]، وقوله:

---

(١) سمى الخطيب منهم: صهيب بن سنان وبلال بن رباح وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وزاد ابن عبد السلام: سلمان وسالماً وهلالاً ومهجعاً، انظر: «الأسماء المبهمة» رقم (٢٢٢)، «فتح القدير» (٢/ ١٢٠)، و«تنبيه المعلم» (ص٤١١ ـ بتحقيقي).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤١٣)، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «رجحان الكِفَّة في بيان نبذة عن أهل الصفة» للسخاوي، فانظره غير مأمور.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١٢٩٨) رقم (٧٣٣٣)، وعزاه له السيوطي في «الإتقان» (٢/ ٢٥)، و«الدر المنثور» (٩/٥٢٨)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٦٨).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التهديد».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ماء غليظ».

(٧) أخرجه بهذا اللفظ: أسد بن موسى (٢٨)، وهناد (٢٨٣) كلاهما في «الزهد»، وابن جرير (٢٥/٧٨)، وابن أبي حاتم (٧/٢٣٥٨) كلاهما في «التفسير»، وعزاه في «الفتح» (٨/ ٥٧٠)، و«الدر المنثور» (٤/ ٢٢١) لابن أبي شيبة وابن المنذر، **وإسناده ضعيف**، فيه =

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا شراباً[١]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية: ٥] أي: حارة كما قال تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٤٤]، ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: ساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان: ٧٦]»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: تضمنت هذه الآيات أموراً:

الأول: أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، بتلاوة ما أنزل عليه وهو القرآن وأمته تابعة له في هذا الأمر، فما دامت تتلو القرآن وتعمل به وتتخذه إماماً وحكماً تكون سعيدة في دينها ودنياها، ولا كلمة فوق كلمتها، وإن لم تفعل ذلك شقيت في دينها ودنياها، **كما هو واقع في هذا الزمان**، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: لا مهرب ولا ملجأ ولا ولي ولا نصير ولا منقذ ولا مخلص.

الثاني: أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يصبر نفسه ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وإن كانوا فقراء محتقرين عند الأغنياء، محرومين من لذة العيش، ففي الكون معهم رضوان الله ومغفرته ورحمته.

الأمر الثالث: نهى الله رسول الله ﷺ ـ وأمته تبع له ـ عن طاعة الغافلين عن ذكر الله المضيعين لأمر الله المتبعين أهواءهم، المفرطين في جنب الله، لأن طاعتهم فيها الخسران المبين.

الأمر الرابع: أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول الحق ويعلنه عند من أحبه وعند من كرهه، فمن آمن واتبع فاز بالسعادة الأبدية، ومن كفر فإن الله له بالمرصاد، لا يضر إلا نفسه، فإن الله أعد للكافرين عذاباً محيطاً بهم، ولا نجاة لهم منها أبداً. اهـ.

= عطية العوفي. وعلقه البخاري (٨/ ٥٧٠ ـ مع «الفتح») عنه بلفظ: «أسود كمهل الزيت»، ووصله البيهقي في «البعث والنشور» رقم (٥٥٢) **بسندٍ منقطع**، وانظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣١٠)، و«التخويف من النار» لابن رجب (رقم ٥٦٥، ٥٦٦ ـ بتحقيقي).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الشراب».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٣٠ ـ ١٣٤) بتصرف.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٣]

قال (ﷺ): يقول تعالى بعد ذكره[1] المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أي: بساتين من أعناب محفوفتين بالنخيل[2] المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكلٌّ من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي: ثمار كثيرة، ﴿فَقَالَ﴾ أي: صاحب هاتين الجنتين ﴿لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذكر».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بالنخل».

قتادة: «تلك والله أمنية [الكافر] كثرة الأموال، وعزة النفر»[١]، وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره[٢] وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها[٣] من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها[٤] ظن أنها لا تفنى[٥] ولا تهلك ولا تتلف[٦]، لقلة عقله وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم: ٧٧] أي: في الدار الآخرة تألى على الله ﷻ، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل[٧] كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾... إلخ.

قال (ﷺ): «يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين، وهو آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٨]، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الآية، أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية؟! كل أحد يعلمها من نفسه ولا يستند إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن[٨]: ﴿لَّٰكِنَّا

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٦٢)، وما بين المعقوفتين منه، وسقط من الأصل.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتجبره».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيهما»!

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأرجائها».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا تفرغ».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وذلك».

(٧) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، وأحمد (١١١٥) من حديث خباب.

(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩﴾ أي: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت[١] الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، ﴿قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾. وقلت: «**ما شاء الله لا قوة إلا بالله**»، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله[٢]، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة، وقد ثبت في «الصحيحين» عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**»[٣].

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾ أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهري: أي: عذاباً من السماء[٤]، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زروعها وأشجارها،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فحمد».

(٢) وقفتُ عليه مسنداً في بعض كتب النسب، وهو في (بطاقات) استخرجتُها من المصادر البعيدة التي يندر وقوف الحديثي عليها، ويعسر عليّ الآن استعراضها جميعاً، ورجعت إلى مظنة ما ظننته فلم أفز بخبر، ولم أظفر بأثر!

ولا أعرف لقوله: (ما شاء الله) عند رؤية ما يعجب حديث صحيح، وقد ورد ذلك في حديث عند أبي يعلى في «مسنده الكبير» ـ كما في «المطالب العالية» (٣٦٧٣)، ومن طريقه الذهبي في «معجم الشيوخ» (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) ـ والمحاملي في «أماليه» (٦٥ ـ رواية ابن مهدي ـ بتحقيقي)، ومن طريقه قوام السنة في «الترغيب» (٣٣٩)، والخطيب (٣/ ١٩٨ ـ ١٩٩)، وعبد الغني في «الترغيب في الدعاء» (٦٩) ـ، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١)، والطبراني في «الصغير» (٢/ ٢١٢)، وفي «الأوسط» (٤٢٦١، ٥٩٩٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٥٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٣٩)، و«الشعب» (٤٣٦٩، ٤٥٢٥)، و«الدعوات الكبير» (٤٩٨) **ولكن إسناده ضعيف**، فيه عبد الملك بن زرارة، وعيسى بن عون، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٠١٢)، والثابت في هذا الباب (التبريك) فحسب، والله أعلم.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «أمالي المحاملي» رواية ابن مهدي، وسلمته للنشر منذ مدة، يسر الله إظهاره، إنه المانُّ بذلك وحده.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٦٦) عن ابن عباس، **بإسنادٍ ضعيف جداً**، وأخرجه عبد الرزاق =

ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: بلقعاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم، وقال ابن عباس: «كالجُرز الذي لا ينبت شيئاً»[1]. وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ[2] إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠] أي: جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه. كما قال الشاعر[3]:

تَظَلُّ جِيادُه نَوْحاً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً[4] أعِنَّتُها صُفُونا[5]

بمعنى نائحات عليه، وقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ الآية، يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها، وألهته عن الله ﷻ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾»[6].

فصل

قال محمد تقي الدين: أهم شيء عندنا في نقل هذه الآيات هو التحذير من

= (١/ ٤٠٤)، وابن جرير (١٥/ ٢٦٦) في «تفسيريهما» عن قتادة، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٢٢٤) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وأما أثر الضحاك، فأخرجه ابن جرير أيضاً، وعزاه في «الدر» إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

(١) أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٦٧)، وابن المنذر ـ كما في «الدر» (٤/ ٢٢٢)، وإسناد ابن جرير ضعيف ـ.

(٢) في الأصل: «أفرأيتم»!

(٣) هو عمرو بن كلثوم، والبيت في «شرح القصائد التسع» (٢/ ٦٣١) للنحاس، و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» للأنباري (ص٣٨٩).

(٤) في الأصل: «تقلده»! والتصويب من المصادر المذكورة، و«مجاز القرآن» (١/ ٤٠٤)، و«تفسير ابن جرير» (١٥/ ٢٦٧).

(٥) في الأصل: «صفوفاً»! والتصويب من المصادر المذكورة آنفاً.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٣٦ ـ ١٤٠) بتصرف.

الشرك بالله تعالى الذي يدل عليه قول المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٣٨﴾، وقول الكافر بعد نزول العذاب به وذهاب أمواله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾، ومن ذلك نعلم أن المشرك وإن كان له جاه ومال فمآله إلى الخسران والندامة، وأن الموحد وإن كان فقيراً فمآله إلى الانتصار والغبطة.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ۝١٠٢ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ۝١٠٥﴾ [الكهف: ١٠٢ ـ ١٠٥]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك وينتفعون به[1] ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨٢]، ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة نزلاً ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣﴾ الآية، قال البخاري بسنده: عن مصعب قال: سألت أبي ـ يعني: سعد بن أبي وقاص ـ عن قول الله: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣﴾ الآية، أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين[2]، وقال علي بن أبي طالب[3]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بذلك».

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٨) وخرجته بتفصيل في تعليقي على «الاعتصام» (١/ ٨٩ ـ ٩٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٤١٣، ط. الرشد)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٥١٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٩٣) رقم (١٣٠٠١)، والشاشي في «المسند» (٢/ ٩٦) رقم (٦٢٠)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥) رقم =

والضحاك وغير واحد[(١)]: هم الحرورية، ومعنى هذا عن علي ﷺ أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص، ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا فإن هذه الآية هي قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ ثم فسرها[(٢)] فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية

= (٧٢٦)، وابن جرير في «التفسير» (١٥/ ٤٢٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ق ١١٠) من طريق أبي الطفيل عنه به. **وإسناده صحيح**. وبعضهم ـ كالشاشي ـ ذكره مطولاً جداً، وفيه الشاهد، وفيه قسم آخر، خرجته في تعليقي على «الموافقات» (١/ ٥٢)، وعزاه الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٩٤، ٩٥ ـ بتحقيقي) لـ«جامع ابن وهب» ولعبد بن حميد، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٤٦٥) لابن مردويه وابن المنذر والفريابي وسعيد بن منصور، وانظر: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٠/ ٤٤٧ ـ ٤٤٩). وصحّ عن علي أنه فسّر الآية بالرهبان. أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٣/ ١٧٢) رقم (٥٤٨)، وابن جرير في «التفسير» (١٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٣٩٣/ رقم ١٣٠٠٠)، وابن وهب في «الجامع» (١/ ١٠١ ـ ١٠٢) (رقم ٢٣١ ـ التفسير)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٦٤١)، والخطيب في «الموضح» (١/ ٢٠٥)؛ عن عبد الله بن قيس أبي حميضة؛ قال: سمعتُ علي بن أبي طالب يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٣]، قال: «إنهم الرهبان الذي حبسوا أنفسهم في السَّواري» **وإسناده صحيح**.

وقال الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٩٥ ـ بتحقيقي): «فقد يجتمع التفسيران في الآية، تفسير سعد بأنهم اليهود والنصارى، وتفسير علي بأنهم أهل البدعة، لأنهم قد اتفقوا على الابتداع، ولذلك فسَّر كفر النصارى بأنهم تأوّلوا في الجنة غير ما هي عليه، وهو التأويل بالرأي».

(١) انظر: «تفسير سفيان الثوري» (ص١٧٩)، «معالم التنزيل» (٤/ ١٩١ ـ مع «تفسير الخازن»)، «الدر المنثور» (٤/ ٢٥٣)، «فتح القدير» (٣/ ٣٠٦).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسرهم».

مقبولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي: لا نثقل موازينهم، لأنها خالية عن[1] الخير، قال البخاري[2] بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ليأتين الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، وقال: «**اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾**»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: علمنا مما نقله الحافظ ابن كثير عن السلف أن هذه الآية وما بعدها تشمل كل من عبد الله على طريقة غير مرضية، فيدخل فيها اليهود والنصارى والوثنيون والخوارج، وكل مبتدع، لأن المبتدع على طريقة مضادة لسنة النبي ﷺ لم تكن في زمانه ديناً فلن تكون ديناً، كما قال مالك رحمه الله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأني سمعت الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وما لم يكن يومئذٍ ديناً لا يكون اليوم ديناً»[4]. ومما يدخل في هذه الآية بلا شك أصحاب الطرائق القدد، الذين ينتسبون إلى التصوف في هذا الزمان، فإنهم يخالفون ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من وجوه:

الوجه الأول: إحداث التفريق بين المسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى في سورة الروم: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وهذا ينطبق على أصحاب الطرائق غاية الانطباق، وقال النبي ﷺ: «**إن بني إسرائيل تفرقوا على**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٩٩ ـ ٢٠١) بتصرف.

(٤) ذكره صاحب «تهذيب الفروق» (٤/ ٢٢٥)، والشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٦٢ و٢/ ٣٦٨ ـ بتحقيقي). وانظر: «الإمام مالك مفسراً» (ص١٦٨).

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: **«ما أنا عليه وأصحابي»**[(١)].

فهل أحدث الصحابة طرائق في الدين، فكانت هناك طريقة بكرية وطريقة عمرية، وطريقة عثمانية، وطريقة علوية، وطريقة جابرية، وطريقة مسعودية... إلخ؟! معاذ الله أن يتفرق أصحاب رسول الله ﷺ في دينهم.

الثاني: إنهم مبتدعون، وكل بدعة ضلالة، فكل مبتدع ضال.

الثالث: إن المتأخرين منهم مع جهلهم وضلالهم لا يريدون وجه الله بعملهم، بل يريدون الدنيا، فينطبق عليهم قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٦] فإن الرجل منهم يدخل بلداً من البلدان لا يملك شيئاً، فيحتال على الناس ويعدهم ويمنِّيهم وما يعدهم إلا غروراً فيقول لهم: من دخل في طريقتي أضمن له سعادة الدنيا والآخرة، وإن لم يدخل الجنة فليحاسبني بين يدي الله من أخذ طريقتي فذنوبه مغفورة بالغة ما بلغت، وقد زعم التجانيون في ما نسبوه[(٢)] إلى شيخهم أبي العباس أحمد بن محمد التجاني المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ عن ثمانين سنة، أنه قال: واعلموا أنه لا يستطيع أحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بلا حساب ولا عقاب ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩)، وابن وضاح القرطبي في «البدع» رقم (٢٧٠)، والآجري في «الشريعة» (ص١٥ ـ ١٦)، و«الأربعين» رقم (١٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٦٢)، وابن نصر المروزي في «السنة» رقم (٦٢)، والتميمي في «الحجة» رقم (١٦، ١٧)، واللالكائي في «السنة» رقم (١٤٧)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ٢٦٥)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٦) من حديث عبد الله بن عمرو، **وهو حسن بمجموع شواهده**، فله شواهد عديدة من حديث أبي هريرة ومعاوية وأنس وغيرهم، وقد صححه جمع من الحفاظ وخرجت ما ورد في الباب في تعليقي على «الاعتصام» (٣/ ١٥٦، ١٦١)، وانظر: «الصحيحة» رقم (٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) في كلامه هذا، وكذا في «الهدية الهادية» (٣٨) ميل من الهلالي إلى تبرئة التيجاني نفسه، ومما ظفرتُ به في هامش «الهدية» بخط شيخنا العلامة محمد بو خبزة ما نصه: «كان أولى أن يلتمس له العذر قبل هذا الكلام محيي الدين بن العربي، فقد قال هذا وأكثر منه في وصيته بآخر «الفتوحات»! ولكن المحققين حكموا بكفره، وردّته، لموجباتها المتكاثرة، وممن حكموا عليه بذلك المؤلف الهلالي، فما باله لم يسلك هذا المسلك مع التيجاني، بل نراه يميل إلى تبرئته بدون مبرر»!

المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي، ووراء ذلك ما ضمنه لي فيهم سيد الوجود ﷺ أمر لا يحل ذكره، ولا يرى ولا يعرف إلا في الدار الآخرة، بشرى للمعتقد على رغم أنف المنتقد، انظر كتابي: «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»[(١)].

قلنا: إن الرجل منهم يدخل البلد لا يملك شيئاً، وفي وقت قصير يتزوج أربع نسوة ويشيد القصور ويكون له الخدم والحشم، ويعيش عيشة الأمراء المترفين، مع أنه يزعم أنه يدعو إلى طريقة الزهد في الدنيا والانقطاع إلى العبادة.

الرابع: إن الشرك الذي ينصبه ليصيد به أولئك الجهال، هو الورد وهو أذكار يعطيهم إياها يذكرونها صباحاً ومساءً بشروط يشترطها عليهم من طهارة واستقبال قبلة وتغميض العيون وعدم الكلام، ويزعم لهم أنهم إذا ذكروا تلك الأوراد بالإذن الخاص يدركون أسراراً عظيمة، ويرتقون في مراتب الإحسان إلى أعلى الدرجات، وتكون لهم كرامات ويدركون الولاية قبل موتهم، وإذا ذكروها بالإذن العام لا يكون لهم شيء من ذلك، فيقال له: هذه الأذكار التي تريد أن تعطينا بأسرارها وأنوارها هل هي شيء نزل عليك بطريق الوحي، أم هي مما جاء به النبي ﷺ وأذن الله ورسوله فيها لجميع المسلمين؟ فلا يسعه إلا أن يقول: هي مما جاء به النبي ﷺ فيقال: إذاً أنت كاذب ومحتال! فما أعطانا الله ورسوله منذ قرابة ١٤٠٠ سنة لا يمكن إعطاؤه ولا الإذن فيه؛ لأن ذلك من تحصيل الحاصل وهو محال، وقد نصبت هذا الشرك الشيطاني؛ لتستعبد الناس وتبتز أموالهم وتفسد عليهم دينهم.

الخامس: وهو الطامة الكبرى: أنه يقول لهم: تخيلوا صورتي عند ذكر الورد، وتخيلوا عموداً من النور يخرج من قلبي ويدخل قلوبكم، وهذا كفر، لأن تنوير القلوب لا يقدر عليه إلا الله، وليس مقصودي أن أحصي شرور شيوخ الطرائق فإنها لا تحصى[(٢)]، ولكني أشرت إلى شيء منها.

---

(١) انظر (ص٨٢) وما بعد.

(٢) للهلالي مقالة نشرت في مجلة «الشهاب» الجزائرية، المجلد الرابع، عدد (١٧١) بتأريخ ٢٦ جمادى الأولى ١٣٤٧هـ ـ ٨ نوفمبر ١٩٢٨ (ص٣ ـ ٤) بعنوان (معنى الطرقي في العرف)، وله في المجلد نفسه، الأعداد (١٥٠ ـ ١٥٢) مقالة نشرت على ثلاث حلقات بعنوان (الطرائق في الحجاز، داء علاج الطرائق) وله أيضاً في (المجلد الرابع) العدد =

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

[الكهف: ١١٠]

قال القاسمي في «تفسيره»[(١)]: «﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين والكافرين من أهل الكتاب ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: خصصت بالوحي وتميزت عنكم به ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يخاف المصير إليه أو يأمل لقاءه ورؤيته أو جزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي: في نفسه لائقاً بذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي: من خلقه إشراكاً جليّاً، كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكاً خفيّاً كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه».

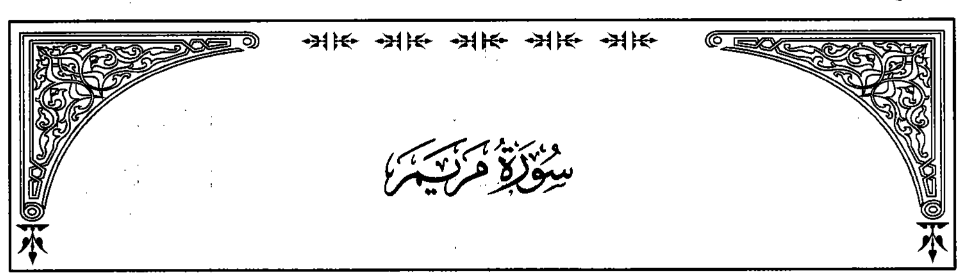
قال (ﷺ): «﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي[(٢)]: كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، ويروى أن رجلاً جاء إلى عبادة بن الصامت، فقال: أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلاً يصلّي ويبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إنَّ الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كله، لا حاجة لي فيه»[(٣)].

= (١٧٠) (ص٣ ـ ٥)، مقالة (سبيل الله وسبل الشيطان، لا طرق في الإسلام).

(١) (١١/١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو».

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٥/٤٤١) وفيه شهر بن حوشب وهو **ضعيف**، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٩/٢٠٤ ـ ٢٠٥).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٧]

قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: «أنطقه الله بذلك أولاً تحقيقاً للحق في شأنه، وتنزيهاً لله تعالى عن الولد ردّاً على من يزعم ربوبيته وبنوته ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الإنجيل، ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: كثير الخير، حيثما وجدت أبلِّغ وحي ربي لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بها هو مناط السعادة[1] والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق في القضاء[2] المحتوم أو جعل الآتي لا محالة كأنه وجد ﴿وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي: مستكبراً عن طاعته وأمره. ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي فصلت نعوته الجليلة، وخصائصه الباهرة ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: لا ما يصفه به النصارى وهو

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «السعادات».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «كالقضاء».

تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه، ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ومن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠]، ثم أشار إلى تتمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي: قويم، من اتبعه رشد وهدي، ومن خالفه ضل وغوي»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: الشاهد هنا في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فلا يعبد إلا الله، فمن عبد الملائكة أو الأنبياء كعيسى بن مريم، أو الصالحين كأمه كمن عبد الشياطين، فهو مشرك وفي الأناجيل الأربعة أدلة صريحة صرح فيها عيسى بأنه عبد الله وأن الله ربه وإلٰهه، انظر كتابي: «البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية وبريء من الألوهية»[2].

---

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (١١/ ١٢٠ ـ ١٢١).

(٢) ذكر فيه من (ص٥) إلى (ص١٥) نصوصاً صريحة من الأناجيل في إثبات عبودية المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، ابتدأه بقوله: «اقرأ من أول (الفصل الرابع) من «إنجيل متى» إلى الرقم (السادس والسابع)، ففيهما التصريح بأن عيسى عبد، والله سيد ورب، لقوله في (الآية السابعة)، قد كتب أيضاً: «لا تمتحن الرب إلٰهك» وفي هذا (الفصل نفسه) أن الشيطان حمل المسيح وأخذ يطوف به من مكان إلى مكان، فكيف يستطيع الشيطان أن يحمل الرحمٰن؟! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثم أمره الشيطان أن يسجد له ويعبده وأطمعه بمال الدنيا، فكيف يتجرأ الشيطان على الله بمثل هذه الجرأة؟! ولما أراد منه الشيطان ذلك أجابه المسيح بقوله، قد جاء في الكتب السابقة: (لا تسجد إلا للرب إلهك وهو وحده تعبده). انظر (الآية العاشرة) لم يسمّ المسيح نفسه ابن الله، فيما أعلم، وإنما كان يسمي نفسه ابن الإنسان، إلا أنه سمع تسميته بذلك فلم ينكرها ـ بزعم الأناجيل ـ ولا خصوصية له في ذلك.

ففي لغة[1] التوراة والأناجيل، كل تقي بر يسمى ابن الله وفي (الآية التاسعة) من (الفصل =

---

(١) كان للهلالي عناية قوية بترجمات التوراة والإنجيل، ووجدته يذكر واحدةً منها بمدح ودقة في رسالة وجهها للعلامة الأستاذ ربحي توفيق كمال، وهي محفوظة في دار العلوم بلكنو، ووقعت بينهما مباحثات في كلمات =

= الخامس) من «إنجيل متى»: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون». وجاء في (الفصل نفسه) رقم (٤٥): «لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء» وفي رقم (٤٨): «فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السماء كامل». وفي (الفصل السادس) رقم (١): «وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماء»، وفي (الفصل السابع) رقم (٢١) ترجمة كلمة (لورد) LORD هنا، بلفظة: رب إيهاماً للناس أن المسيح هو الله!! ولكن من تأمل بقية الآية يجدها تشهد على المسيح بالعبودية، فالترجمة الصحيحة[1] هكذا: (ليس كل أحد يقول لي: يا سيدي يدخل ملكوت السماء، ولكن الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماء) انتهت ترجمة الآية.

وقد تقدم أن إطلاق الأب على الله جاء في مواضع لا تحصى في الإنجيل، وليس خاصّاً بالمسيح، وجاء في (الفصل ١١) رقم (٣٥): «أحمدك أيها الرب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء والفهماء وألهمتها الأطفال»، وفي (الفصل الرابع عشر) رقم (٢٣): «وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي». أقول: إذا كان هو الله أو جزءاً من الله، فكيف يصلي فالصلاة لا تكون إلا من العبد الفقير المحتاج إلى رحمة. وهكذا أخذ في سرد الأدلة واحداً تلو الآخر، معتمداً على الأناجيل بغير العربية، وبيان تقصد التحريف فيها مُنوِّهاً بذكر محمد ﷺ في الأناجيل مثبتاً (ص١٤ - ١٥) من «الأناجيل» **أن القائل بألوهيته عدو الله**، مقرراً أنه «**تستحيل ألوهيته، وتضمحل خرافة الأقانيم**».

= في «التوراة»، تدلل على سعة اطلاع الأستاذ ربحي، ومدى وثوق العلامة الهلالي بدقته وسعة اطلاعه في هذا الميدان، ووجدت مقالة للعلامة اللغوي النصراني أنستاس ماري الكرملي في مجلته «لسان العرب» المجلد الثامن، أيلول ١٩٣٠م الجزء التاسع (ص٦٦٥ - ٦٧٥) بعنوان (ترجمات التوراة)، ومما جاء فيها بعد ذكره لجملة من الأخطاء في الترجمة: «وتتبع كل ما هناك من الهفوات والزلات، والهفوات أمر يطول، ويستلزم وضع كتاب ضخم قائم بنفسه، يبيّن فيه سبب تصحيح تلك المعلولات، أو تلك المفاسد» وقال في آخرها:

«وسوء نقل الألفاظ الاصطلاحية في كل ما جاء في هذه الترجمة يطول طولاً يخرجنا عن موضوع المجلة ويدفعنا إلى معالجة ما ليس من مباحثها فاجتزأنا بهذه الإشارة. فيعلم من هذا البسط المجمل أننا فينا حاجة ماسة إلى نسخة توراة عربية صحيحة العبارة. وإن هذه الأمنية لم تتحقق إلي اليوم. أما نسخة الموصل فهي في نظرنا أحسن من نسخة بيروت وإن كانت دون هذه حسناً في الطبع والضبط والورق. وأما النسخة العربية التي عني بطبعها البروتستان فلا يمكن أن تمسك بالأيدي للغتها الأعجمية وفساد تركيب عبارتها المكتوبة بحروف عربية وهي عن العربية بعيدة بعد الصينية عنها».

(١) ذكرنا في (١/٣١١) أن الهلالي تعلم الإنكليزية على يدي بعثة تبشيرية في الهند، وطلب منها نسخة من «الإنجيل» بالإنكليزية، وقرأها وأثبت منها أن المسيح ﷺ ليس بإله، وله في ذلك كتيب «البراهين الإنجيلية». وقد نشره - قبل - في عدة مجلات، سبق ذكرها، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الباب الثاني

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤١ ـ ٥٠]

قال (ك): «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ واتلُه[1] على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمٰن، الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته وقد ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[2]، وإن كنت من صلبك، وتراني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب والنجاة من المرهوب ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «واتل»!

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول».

﴿١١٧﴾ [النساء: ١١٧] وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أي: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده فلا تتبعه تصر مثله ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: عذاب[1] شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا نصيراً ولا[2] مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ الآية، يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده[3] فيما دعاه إليه أنه[4]: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ يعني أما[5] تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبِّها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك، اقتصصتُ منك وشتمتُك وسببتُك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قاله ابن عباس والسدي وغيره[6]. وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال ابن عباس وغير واحد: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال: سويّاً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة[7] فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥] ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾[8]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ناصراً و».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لولده إبراهيم».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير: «قال».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إن كنت لا».

(٦) كذا في الأصل: وعند ابن كثير: «قاله ابن عباس والسدي وابن جريج والضحاك وغيرهم»، وصواب المذكور: «وغيرهما».
وأسنده ابن جرير (١٥/ ٥٥٢) عن السدي وابن جريج والضحاك، وأسنده ابن أبي حاتم (٧/ ٢٤١٠) عن ابن عباس.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٧/ ٢٤١٠) رقم (١٣١٤٠)، وابن جرير (١٥/ ٥٥٤)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٤/ ٢٧٢)، ولم أظفر إلا بإسناد ابن جرير، **وهو ضعيف**.

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً(١)، أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له»(٢).

وقال صاحب «اللسان»: «وحفا بالرجل حَفَاوة وحِفَاوة وحِفاية وتَحفّى به واحتَفَى بالغ في إكرامه»، ثم قال: «وحَفِي الله بك، في معنى أكرمك الله»(٣).

«وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١] وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم(٤) من المشركين في ابتداء الإسلام»(٥).

قال محمد تقي الدين: أنزل الله تعالى من سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤] وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال (ك): «يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه(٦) بدَّله الله من هو خير منهم، وهب(٧) له إسحاق ويعقوب، يعني: ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وقال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦١٤) و(١٥/ ٥٥٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٨) و(٧/ ٢٤١٠) رقم (١٣١٤١) وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ١٥١) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٨٩).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢).

(٣) «لسان العرب» (١٤/ ١٨٧ ـ حَفِيَ).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأهلهم».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٢٥٣).

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في الله».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ووهب».

ﭐﻟۡﻤَﻮۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فلو لم يكن يعقوب قد نبئ في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف فإنه نبي أيضاً، كما قال رسول الله ﷺ، في الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس؟ فقال: «**يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله**»[(١)]، وفي اللفظ الآخر[(٢)]: «**أنا الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**». وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[(٣)]: يعني: الثناء الحسن، وكذا قال السدي ومالك بن أنس وقال ابن جرير[(٤)]: «إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم، ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[(٥)].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن العرب الشماليين كانوا ينتسبون إلى إسماعيل وإبراهيم، ويعظمونهما، فأمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ، أن يحتج عليهم بما صنع إبراهيم مع أبيه حين دعاه إلى التوحيد فأبى، فكانت العاقبة لإبراهيم وذريته، وكانت عاقبة أبيه آزر لما أصر على الشرك، الخسران المبين.

الثانية: كل من عبد غير الله تعالى من الأصنام، والأوثان، والقباب، والغائبين، والأموات، وغير ذلك من المعبودات، فإنه يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً، لأن الذي يسمع جميع الأصوات ويبصر جميع المبصرات في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم (٢٣٧٨) بنحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١١٦) وهو حسن، وانظر: «الصحيحة» (١٦١٧، ١٨٦٧).

(٣) أخرجه الطبري (١٥/ ٥٥٧)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٤/ ٢٧٢) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في «تفسيره» المطبوع (٧/ ٢٤١٠) رقم (١٣١٤٣) دون سند، ومذكور أيضاً في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٧٩٠).

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٥/ ٥٥٧).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

كل مكان، وفي كل وقت، هو الله وحده لا شريك له، والذي يغني أي: ينفع ويضر هو الله وحده لا شريك له، فمن عبد غيره فهو خاسر في الدنيا والآخرة.

الثالثة: المراد بالعلم هنا هو الوحي، فإن الله أوحى إلى خليله إبراهيم وعلّمه التوحيد وأمره بالدعوة إليه، فمن جاءه الوحي وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو حجة عليه، سواء أكان الذي جاء به صغيراً في السن أو كبيراً، متقدماً في الزمان أو متأخراً، والمشركون الأولون والآخرون يخالفون هذا، فالأولون قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥] وقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ﴾ [ص: ٧، ٨] وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وأمر الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤]، والمشركون والمبتدعون المتأخرون يقولون مثل ذلك: لم نزل نرى العلماء ونسمع حديثهم، وما أحد منهم قال لنا: لا تبنوا القباب على قبور الصالحين، ولا تذبحوا لهم، ولا تنذروا لهم، ولا تستغيثوا بهم، ولا تقيموا لهم مواسم وأعياداً، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] فأشبه المشركون المتأخرون المشركين المتقدمين في أقوالهم وأفعالهم وعداوتهم للتوحيد واتباع السنة، كما قال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١١٨].

الرابعة: إن كل من عبد غير الله تعالى فهو عابد للشيطان، ولو عبد الملائكة والأنبياء.

الخامسة: إن كل من أصر على الشرك يمسه عذاب من الرحمٰن في كل زمان ومكان، ولا يجد لنفسه وليّاً ولا نصيراً.

السادسة: إن المشركين في كل زمان ومكان إذا رأوا إماماً مصلحاً يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة آلهتهم وقال لهم: إن آلهتكم لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع دعاءكم ولا تستجيب لكم، ولو سألتموها شربة ماء ما قدرت أن تعطيكم قطرة واحدة، قالوا: هذا يسب آلهتنا وينتقصها، كما قال أبو إبراهيم لإبراهيم، وكما قالت قريش لمحمد رسول الله ﷺ، وكما يقول المشركون اليوم إذا قيل لهم: هذه القباب التي بنيتموها على القبور وصرتم تعبدونها بالذبح والنذر

والاستغاثة والدعاء، كل ذلك يوجب غضب الله عليكم، كما قال النبي ﷺ، فيما رواه مالك في «الموطأ»: «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١). يقولون: هذا يسب الأولياء ويتنقصهم.

والأولياء قسمان: أولياء الرحمٰن، وأولياء الشيطان، فأولياء الرحمٰن: يكرهون بناء القباب على القبور، ويكرهون عبادتها، فإذا نهينا الناس عن البناء على القبور وعبادتها فإن عملنا هذا يحبه الله ورسوله ويحبه أولياء الرحمٰن ـ وهم: المؤمنون ـ وإنما يكرهه أولياء الشيطان، ونحن لا نخافهم ولا نبالي ببغضهم، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

السابعة: من سفاهة عقول المشركين في كل زمان ومكان، أنهم يزعمون أن آلهتهم تتصرف في السمٰوات والأرض، وتحيي وتميت، وتغني وتفقر، فإذا جاءهم نبي، أو أتباع نبي، وقالوا لهم: إن آلهتكم لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، يغضبون، ولا يتركون الانتقام لتلك الآلهة، بل يعينونها بأيديهم وألسنتهم، ولم يشعروا أن هذا اعتراف منهم بعجزها، فآزر أبو إبراهيم أراد أن ينتقم لآلهته من إبراهيم، ولم يكتف بانتقامها هي؛ لسفاهة رأيه وتناقضه.

ولما حججت أول حجة سنة ١٣٤١هـ في زمان الشريف حسين، لقيت رجلاً من بلادنا، فيلاليّاً من الغرفة، فدعاني للعشاء، وكان بواباً للملك حسين، فجاءني بطعام ملكي رفيع، وقال لي: يا ولد احفظ دينك وعقيدتك، فإن بلاد المشرق فيها عقائد كثيرة، وأكثرها ضلال، أما بلادنا المغرب فعقيدتهم واحدة على مذهب أهل السنة والجماعة، ومن أغرب هذه الفرق وأعجبها فرقة تسمى (الوهابية)(٢)! وهم في شرق مملكة الحجاز، مجاورون لهذه المملكة، فهؤلاء يكرهون النبي، ولا يحبون أن يسمعوا اسمه، وإذا سمعوه غضبوا وقتلوا من ذكره لهم، وهم لا يقولون: لا إلٰه إلّا الله محمد رسول الله كما نقول نحن، بل يقولون بدل محمد رسول الله: لا إلٰه إلا الله مالك يوم الدين، فأظهرت له التعجب، ولم يدر أنني من هذه الفرقة!!

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر ـ لزاماً ـ ما قدمناه في (١/ ٦٥) حول هذه التسمية.

وبعد ذلك بقليل استولى الملك عبد العزيز بن سعود على الحجاز، ولما حججت الحجة الثانية، سنة ١٣٤٥هـ، أنزلني الملك عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ في دار الضيافة، فبحثت عن ذلك الرجل الفلالي، فوجدته ودعوته إلى دار الضيافة الخاصة بي، فتغدى معي، فعرف حينئذٍ أنه لما كان ينصحني كان مخطئاً مغفلاً، فسكت وكتم ما في نفسه.

فلما تغدينا ذهبنا إلى المسجد الحرام، فوجدنا الشيخ عبد الظاهر أبا السمح[1] جالساً على الحصباء، وهو إمام المسجد الحرام وخطيبه، وسلمت عليه وجلست معه، فلما جلس رفيقي قال: يا رسول الله!! فقال الشيخ عبد الظاهر: قل: يا الله، فقال: ما أقول: إلا يا رسول الله، يا رسول الله، يا رسول الله، اقطع رأسي إن قدرت، أنا قلت: يا رسول الله أمام الأمير محمد أخي الملك عبد العزيز، ثم التفت إليَّ، وقال: هذا الشر كله ما أصابني إلا بسببك! لا أرافقك أبداً! فتبعته وصرت أتلطف معه لعل الله أن يهديه فهرب ولم أره بعد ذلك.

وحدثني الشريف محمد من أهل مكة في تلك السنة نفسها سنة ١٣٤١، قال لي: كنت مسافراً من المدينة إلى مكة، وكان صاحب البعير الذي أركبه نجديّاً وهابيّاً، فركب خلفي ليستريح فتنهدت وقلت: يا رسول الله، فلطمني لطمة أفقدتني صوابي وكدت أسقط من ظهر البعير، وقال لي: يا حمار ما تقول: ياالله؟! قال: فسكتُّ على مضض.

ولما وصلت إلى مكة ودخلت بيتي تركته على الباب ينتظر الكراء، فجاءني أولادي يسلمون علي، فقلت لهم: يا أولادي! إنَّ هذا النجدي الذي عند الباب لطمني لطمة ما أصبت بمثلها في عمري كله، لا معلم المكتب، ولا والدي، ولا أحد لطمني مثل تلك اللطمة، فأحضروا عصيّاً، وقالوا له: ادخل، فلما دخل ضربوه حتى طاب خاطري وكففتهم عنه، فقلت له: أيها الشرقي، هذا جزاء اللطمة التي لطمتني.

وينبغي أن أنبه هنا على أن ذلك الأخ النجدي مع حسن نيته ارتكب خطأً، فهو يعلم أن الملك حسيناً كان يعادي أهل نجد، وقد منعهم من الحج اثنتي عشرة سنة، فكان ينبغي له أن يتلطف مع ذلك الرجل، ويقول له: يا أخي صلِّ

---

(١) نشر العلامة الهلالي في مجلته «لسان الدين» السنة الأولى، الجزء السادس، محرم ١٣٦٥هـ ـ دسمبر ١٩٤٦م (ص١٥ ـ ١٩) مقالة عن صديقه عبد الظاهر، وهي بعنوان (لمحة من ترجمة الأستاذ أبي السمح إمام الحرم المكي)، وهي مودعة في كتابي «مقالات الهلالي» يسر الله نشره بخير وعافية.

على النبي واسأل حاجتك من الله واستغث به وحده، وتوسل إلى الله بمحبة النبي واتباع النبي والصلاة على النبي، فإن الله لا يرضى أن يدعى معه غيره، والنبي ﷺ لا يرضى بذلك، قال تعالى في آخر سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ والله يغفر لنا وله.

الثامنة: لما دعا إبراهيم الخليل أباه إلى الإسلام وامتنع من قبوله وغضب على إبراهيم وتوعده بالعقاب اعتزله، أي: تبرأ منه ومن دينه، وهذا هو الواجب على الموحد إذا دعا أقاربه إلى توحيد الله تعالى وامتنعوا من قبوله أن يعلن براءته من شركهم، فإن الله تعالى يعوضه خيراً منهم، كما عوض إبراهيم بإسحاق ويعقوب، وبالمال الكثير، وستأتي زيادة على هذا في (سورة الممتحنة) إن شاء الله.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دون الله[١] آلهة لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها[٢]، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، قال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]»[٣].

فصل

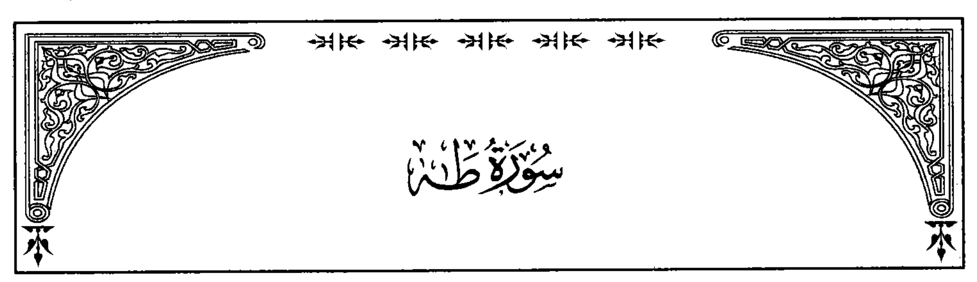
قال محمد تقي الدين: تقرر وتكرر في كتاب الله تعالى أن الآلهة أي: كل من عبد من دون الله يتبرأ من عابديه يوم القيامة، ويكون عدواً لهم كعيسى بن مريم والملائكة، وسيأتي مزيد على هذا إن شاء الله في (سورة سبأ)، وفي (سورة فاطر)، وفي (سورة الأحقاف).

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «دونه».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بهم ويستنصرونهم».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٢٩٤).



سُورَةُ طه

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ١ ـ ٨]

قال (ك): «قد[١] تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وقال جويبر عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله الله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾[٢].

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في «الصحيحين» عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: **«من**

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «تفسيره» ـ ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٠٥) ـ **وإسناده ضعيف جداً**، جويبر متروك. وورد نحوه عن ابن عباس عند ابن جرير (١٦/ ١٠٢)، وعزاه في «الدر» (٥/ ٥٤٩) لابن مردويه، **وإسناده ضعيف جداً**.

وورد عن علي بخلافه عند البزار في «البحر الزخار» (٩٢٦)، **وإسناده ضعيف**، ونحوه في «الشعب» (١٤١٦، ط. الهندية) عن ابن عباس، ومن مرسل الربيع بن أنس، أسنده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ٤١ ـ ٤٢)، وعزاه في «الدر» لعبد بن حميد وابن المنذر، وروي على وجوه وألوان وضروب أخرى، لم أر في أسانيدها ما يركن إليه، ويعتمد عليه، والله أعلم.

يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[١]. ما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم في ذلك، حيث قال بسنده عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي**»[٢]. إسناده جيد، (وثعلبة بن الحكم) هذا، هو: (الليثي) ذكره أبو عمر في «استيعابه»[٣] وقال: «نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب».

وقال قتادة: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ لا والله ما جعله شقاء ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة، ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله[٤] رحمة رحم بها عباده، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه، وقوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو[٥] تنزيل من ربك[٦] رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السمٰوات العلى في ارتفاعها ولطافتها.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وإن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٨٤) رقم (١٣٨١) وعنه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٤٨٧) رقم (١٣٨٦) من حديث ثعلبة بن الحكم، وذكره الهيثمي في «المجمع» وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون»! وتابعه السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٢٢١)! وفي إسناده العلاء بن مسلمة الرواسي، قال ابن حبان: «يروي الموضوعات عن الثقات»، وقال ابن طاهر: «كان يضع الحديث»، وقال الأزدي: «لا تحل الرواية عنه». نعم؛ للحديث شواهد، ولكنها شديدة الضعف. وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٨٦٧).

(٣) انظر: «الاستيعاب» (ص١٠٦، ط. دار الأعلام).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسله».

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

﴿بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝﴾ أي: الجميع في ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه[١] ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه لا إله سواه ولا رب غيره، وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ المراد بالثرى: الأرض»[٢].

وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝﴾ قال البيضاوي[٣]: «أي: وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس وفيه تنبيه على أن شرع الذكر والدعاء والجهر فيهما ليس لإعلام الله، بل لتصوير الذكر في النفس[٤] ورسوخه فيها، ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع».

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝﴾ «أي: الذي أنزل عليك القرآن هو[٥] الذي لا إله إلا هو، ذو الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة (الأعراف) ولله الحمد والمنة»[٦].

قال محمد تقي الدين: وها أنا ذا أذكر شيئاً مما ذكره الحافظ (ﰂ) مما يتعلق بالأسماء الحسنى في سورة الأعراف:

«عن أبي هريرة ﭬ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر**»، أخرجاه في «الصحيحين»[٧].

ثم ذكر أن الترمذي رواه في «جامعه»[٨]، وزاد ذكر الأسماء التسعة

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تصريفه».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١١٠ ـ ١١٢) بتصرف.
(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٤٣).
(٤) في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «النفس بالذكر».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٣١٥).
(٧) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) وفصّلت في تخريجه في تعليقي على «الحنائيات» (١٢٨).
(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» ـ كما في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٩٠) ـ وابن منده في التوحيد (٢٣٢، ٢٤٥، ٢٦٠، ٣٢٢، ٣٦٦) والزجاج في «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص٢)، وأبو بكر الإسماعيلي في «معجمه» (٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩)، =

= وابن حبان (٨٠٨)، والطبراني في «الدعاء»، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص١٤٧)، وفي «المستدرك» (١/ ١٦)، والبغوي (١٢٥٧)، والبيهقي (١٠/ ٢٧) وفي «الأسماء والصفات» (٥) وفي «الاعتقاد» (١٨ ـ ١٩) و«الدعوات الكبير» (٢٦٢)، و«الشعب» (١٠٢)، وأبو نعيم في «جزء طرق حديث: إن لله تسعة وتسعين اسماً» رقم (١٣ ـ بتحقيقي)، وأبو إسماعيل الهروي في «الأربعين في دلائل التوحيد» (٦)، وعبد الغني المقدسي في «التوحيد» رقم (٢٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، وابن حجر في «جزئه في أسماء الله الحسنى» رقم (٢٩ ـ ٣٤ ـ بتحقيقي) من طريقين عن الوليد بن مسلم: ثنا شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه.

قال الترمذي: «هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح».

قلت: لم ينفرد به صفوان عن الوليد بن مسلم، فقد تابعه موسى بن أيوب النصيبي، وثقه العجلي في «تاريخ الثقات»: رقم (١٦٥٥ ـ بترتيب الهيثمي)، وقال عنه أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ١/ ١٣٤ ـ ١٣٥) رقم (٦٠٩): «صدوق».

أخرجه من طريقه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٦)، و«معرفة علوم الحديث» (١٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٥)، و«الدعوات الكبيرة» رقم (٢٦٢)، وابن منده (٢/ ٨٩) رقم (٢٣٢)، ومن طريقه: ابن حجر في «جزئه» رقم (٣٤).

قال الحاكم عقبه: «هذا حديث قد خرجاه في «الصحيحين» بأسانيد صحيحة، دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما: أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله وذكر الأسامي فيه ولم يذكرها غيره، وليس هذا بعلة!! فإني لا أعلم اختلافاً بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب»!!

كأنه يريد أن هؤلاء رووه عن شعيب بدون سياق الأسماء ـ وفصلت بيان ذلك في تعليقي على «جزء أبي نعيم» رقم (١٢) ـ بخلاف الوليد، ولا شك أن الزيادة من الثقة مقبولة ولا سيما إذا كان حافظاً فليست العلة عندهما مطلق التفرد بل احتمال كون السياق مدرجاً من بعض الرواة، ويؤيده مخالفة روايات في سياق الأسماء، وبيّنا هذه المخالفة في تعليقنا على «جزء أبي نعيم» الأرقام (١٨، ٢٠ ـ مهم ـ ٥٢).

بل وقع فيه اختلاف بين الرواة أنفسهم عن صفوان، ففي رواية جعفر الفريابي «المانع»: بدل «الرافع»، وفي رواية الطبراني: «القائم الدائم» بدل «القابض الباسط» و«الشديد» بدل =

. . . .

= «الرشيد» وقدم وأخر كثيراً ووقع عنده: «الأعلى المحيط مالك يوم الدين»، ولم يقع عنده: «الودود المجيد» ولا «الحكيم» وفي روايته: «المغيث»، بدل «المقيت» ولم يقع عنده: «الحليم» وأثبت في مطبوع رواية الطبراني «المجيد»، والصواب أنها «المجيب».

قال البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨): «ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة، وكذا في حديث الوليد بن مسلم ولهذا الاحتمال ترك البخاري ومسلم إخراج حديث الوليد في «الصحيح»».

ونقله عبد العزيز النخشبي[1] عن كثير من العلماء، كما في «فتح الباري»: (١١/ ٢١٥) وفيه أيضاً: «وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه، والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج».

ونقل عبد الغني المقدسي في «التوحيد» (ص٥٠) عن النخشبي قوله: «ويقال: إن هذه الأسماء إنما جمعها وأخرجها الوليد بن مسلم من كتاب الله ﷻ، ورواها في الحديث، ولم تكن في الحديث، وإنما الحديث هو الذي رواه أبو اليمان، والله أعلم».

قلت: أخرج عثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على المريسي» (١٢ ـ ١٣) من طريق هشام بن عمار قال: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا سعيد بن عبد العزيز: «لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها كلها دخل الجنة» وقال: «وكلها في القرآن: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾ . . . وسرد الأسماء.

وهذا يؤكد أن سرد الأسماء في الحديث من قول سعيد، أدرجه الوليد في متن الحديث عن شيخ له شامي هو التنوخي الدمشقي، ثقة من أتباع التابعين، اختلط في آخر عمره.

وقد سبق إلى هذا الاحتمال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٧٩) قال رحمه الله تعالى: «وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي ﷺ، وإنما كل منهما من كلام بعض السلف؛ فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه؛ ولهذا اختلفت أعيانهما عنه، فروى عنه إحدى الروايات من الأسماء بدل ما يذكر في الرواية الأخرى؛ لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة وهذا تارة واعتقدوا ـ هم وغيرهم ـ أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة ليست شيئاً معيناً، بل من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة أو: إنها وإن كانت معينةً؛ فالاسمان اللذان يتفق معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه، كالأحد والواحد؛ فإن في رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه، رواها عثمان بن سعيد «الأحد» بدل «الواحد» و«المعطي» بدل «المغني» وهما متقاربان، وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن خليد بن دعلج عن قتادة عن ابن سيرين عن أبي هريرة. =

---

(١) عبارته في تخريجه لـ«الحنّائيات» رقم ٤٨): «ويقال: إنّ هذه الأسماء إنما جمعها وأخرجها الوليد بن مسلم من كتاب الله ﷻ، ورواها في الحديث، ولم تكن في الحديث».

. . . .

= ثم قال هشام: وحدثنا الوليد: حدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك، وقال: «كلها في القرآن ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . .﴾ . . .» مثل ما ساقها الترمذي، لكن الترمذي رواها من طريق صفوان بن صالح، عن الوليد عن شعيب، وقد رواها ابن أبي عاصم، وبين ما ذكره هو والترمذي خلاف في بعض المواضع؛ وهذا كله مما يبيِّن لك أنها من الموصول المدرج في الحديث عن النبي ﷺ في بعض الطرق، وليست من كلامه».
وقال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٦ ـ ٩٧) أيضاً: «والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يذكر فيه: المنتقم» فذكر في سياقه: «. . . البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف. . .» ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز ـ أو عن بعض شيوخه ـ ولهذا لم يروه أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي، رواه من طريق الوليد بن مسلم بسياق، ورواه غيره باختلاف الأسماء وفي ترتيبها يبين أنه ليس من كلام النبي ﷺ، وسائر من روى هذا الحديث، عن أبي هريرة، ثم عن الأعرج، ثم عن أبي الزناد، لم يذكروا أعيان الأسماء، بل ذكروا قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة**» وهكذا أخرجه أهل «الصحيح»، كالبخاري ومسلم وغيرهما، ولكن روي عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث ابن سيرين عن أبي هريرة، ورواه ابن ماجه، وإسناده ضعيف، يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي ﷺ وليس في عدد الأسماء الحسنى عن النبي ﷺ، إلا هذان الحديثان!!
وكلاهما مروي من طريق أبي هريرة، وهذا مبسوط في موضعه».
وقال أيضاً في «مجموع الفتاوى»: (٢٢/ ٤٨٢): «إن التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديثٌ صحيحٌ عن النبي ﷺ، وأشهر ما عند الناس فيها حديث الترمذي الذي رواه الوليد بن مسلم عن شعيب بن أبي حمزة، وحفاظ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث ثانٍ أضعف من هذا، رواه ابن ماجه، وقد روي في عددها من جمع بعض السلف».
وقال ابن كثير في «تفسيره»: (١/ ٢٠): «وجاء تعدادها في رواية الترمذي وابن ماجه، وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان»، وقال أيضاً فيه (٦/ ٤٦١ ـ ٤٦٣): «والذي عول عليه جماعة من الحفاظ: أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: إنهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم».
ونقله عنه الشوكاني في «تحفة الذاكرين» (٥٤) وذكر قبل ذلك أن حديث الترمذي قال فيه النووي في «الأذكار»: «حديث حسن»!! قلت: نعم كذا قال في «الأذكار» (٩٤)!! وقال الشوكاني أيضاً: «وإن الحاكم وابن حبان صححاه»!!
قلت: صححه الحاكم لشواهده!! ثم قال الشوكاني: «ولا يخفاك أن هذا العدد قد =

= صححه إمامان وحسنه إمام، فالقول بأن بعض أهل العلم جمعها من القرآن غير سديد! ومجرد بلوغ واحد أنه رفع ذلك لا ينتهض لمعارضة الرواية ولا تدفع الأحاديث بمثله».
قلت: وفي كلامه مناقشات:
الأولى: نعم، كلامه صحيح!! لو سلم مما ذكر آنفاً من النظر في سائر طرق الحديث والانتباه إلى الاختلاف والاضطراب والتدليس من قبل الرواة.
الثانية: ليس التصحيح والتحسين قائماً على القلة والكثرة، وإنما هو وفق القواعد المقررة عند أهل العلم المختصين بذلك.
الثالثة: إن ابن حبان والحاكم متساهلان في التصحيح، أما النووي فصنعته تحقيق الأقوال الواردة في الفقه الشافعي، وليس له قدم راسخة في علم الحديث، وصدق السيوطي عندما قال فيه في «المنهج السوي»: «كانت تصنيفه تحصيلاً، وتحصيله تصنيفاً» أو ما معناه، ولذا أمر هو تلميذه ابن العطار بغسل ألف كراس من كتبه، كما صرح به في «تحفة الطالبين»: (٩٥ ـ بتحقيقنا)، رحمه الله رحمة واسعة.
وانظر تتمة مناقشة كلام الحاكم في تعلقينا على «جزء أبي نعيم» رقم (٥٢) مفصلاً.
الرابعة: لم ينفصل البحث مع الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ بالقول بتصحيح الحديث، وإنما رد حجة واحدة لمضعفيه، بدليل قوله في آخر كلامه عليه: «وفي إسناده ضعف، وفي الباب غير ما ذكر وقد أطال الكلام أهل العلم على الأسماء الحسنى، قال ابن حزم: جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً».
قلت: كلامه في «المحلى» (٨/ ٣١) فانظره فيه كاملاً.
والعجب من الأستاذ رجائي بن محمد المصري المكي، إذ نقل في رسالته «الترشيد في اعتبار حديث الأسماء برواية الوليد»: (٤٦ وما بعدها) تحت عنوان «ذكر من رجح قبول حديث أبي هريرة الذي ذكر فيه تفصيل الأسماء التسعة والتسعين برواية الوليد بن مسلم» تصحيحه أو قبوله عن علي بن المديني، وصدقة بن الفضل أبي الفضل المروزي، وأبي عيسى الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنووي والبوصيري وابن حجر والشوكاني والقرطبي والرازي!!
ولم يورد كلاماً لأول اثنين عن الحديث، وإنما اكتفى بنقل توثيق الوليد عنهما!! ولا يستلزم ذلك أنهما يصححان أحاديثه كلها! وإلا فيلزمه القول: بأن كل من وثقه ـ كأحمد وأبي حاتم وأبي زرعة الرازيين وأبي مُسْهِر وغيرهم ـ يقولون بصحة هذا الحديث!! وأنى له نقل ذلك عنهم!! لا سيما وأن الوليد مدلس تدليس التسوية، وهذا النوع من التدليس يسمى عند المتقدمين (تجويداً) فيقولون: جوّده فلان، يريدون ذكر فيه من الأجواد وحذف الأدنياء، وسماه المتأخرون (تدليس التسوية) وذلك أن المدلس الذي سمع الحديث من شيخه الثقة عن ضعيف عن ثقة، يسقط الضعيف من السند، ويجعل الحديث عن شيخه الثقة عن الثقة الثاني بلفظ محتمل، فيستوي الإسناد كله ثقات، وهو شر أنواع التدليس وأفحشها؛ لأن شيخه ـ وهو الثقة الأول ـ ربما لا يكون معروفاً بالتدليس، فلا يحترز =



. . . .

= الواقف على السند عن عنعنة وأمثالها من الألفاظ المحتملة التي لا يقبل مثلها من المدلسين، ويكون هذا المدلس الذي يحترز من تدليسه قد أتى بلفظ السماع الصريح عن شيخه، فأمن بذلك من تدليسه وفي ذلك غرر شديد! ولا يقال في مثل هذا النوع: وقد صرح بالتحديث!! لا بد من التصريح بالتحديث من قبل كل من فوق المدلس.

والنصوص في تدليس الوليد تدليس التسوية كثيرة لا تخفى على طالب الحديث.

والمتأمل في كلام ابن حجر على الحديث في «الفتح» ـ ولم ينقل الأستاذ رجائي إلا منه ـ و«التلخيص» يجد أنه يقول: بأن سرد الأسامي من إدراج الوليد! وقد أملى عدة مجالس يثبت ذلك بالتفصيل، نشرناه على حدة، ولله الحمد والمنّة.

وكذا البوصيري: فإن كلامه صريح بتضعيف هذه الرواية في «مصباح الزجاجة»: (٣/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) وتعلق المذكور بقوله: «وطريق الترمذي أصح شيء في هذا الباب»!! ولا يفهم من ذلك أنه يصححه! والأعجب من ذلك كله: عد الترمذي في سلك مصححي الحديث أو قابليه وقد قرأت قوله في «جامعه» (٥/ ٥٣١) آنفاً فيه: «ليس له إسناد صحيح»!!

أما الرازي، فقال في كتابه «لوامع البينات شرح أسماء الله والصفات» (٨٤ ـ ٨٥):

«وإن كثيراً من العلماء سلموا أن هذه الرواية المشتملة على ذكر الأسماء ليست في غاية القوة، إلا أن هذه الأسماء والصفات لما كان أكثرها مما نطق به القرآن، والأحاديث الصحيحة، ودل العقل على ثبوت مدلولاتها بأسرها في حق الله تعالى كان الأولى قبول هذا الخبر».

قلت: أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، فما دل النص عليها منها آمنا به، واعتقدناه، والمبحث في الأسماء الواردة في الحديث: هل هي من إدراج الرواة، واستنبطوها من القرآن أم نطق بها المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فجواب الرازي المذكور لا يفيد شيئاً من ناحية الصنعة الحديثية مع الإشارة إلى دندنته حول ضعف الحديث، وعدم ثبوته وإن لم يقطع بذلك.

أما القرطبي فقد صحح الحديث في كتابه «الأسنى» كما ذكر في «تفسيره» (٧/ ٣٢٥)، وسبقه ابن العربي المالكي في «أحكامه» (٤/ ٨٠٤) بناءً على وجوده في «صحيح الترمذي»!! وقد صرح بذلك ابن العربي، فقال (٤/ ٨١٦): «ولا يَدعُوَنَّ أحدٌ منكم إلا بما في الكتب الخمسة، وهي كتاب «البخاري»، و«مسلم»، و«الترمذي»، و«أبي داود»، و«النسائي»، فهذه الكتب هي بدء الإسلام، وقد دخل فيها ما في «الموطأ» الذي هو أصل التصانيف، وذروا سواها، ولا يقولَنَّ أحدٌ: أختار كذا، فإن الله قد اختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله...».

وفي إطلاق هذا الكلام نظر! إذ ما في عدا «الصحيحين» الحسن والضعيف أيضاً، ورحم الله العراقي حين قال في «ألفيته» فيمن سمى «جامع الترمذي»: «صحيحاً»:

ومن عليها أطلق الصحيحا فقد أتى تساهلاً صريحا

ووجدت ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٢١٧) ينقل عنه قوله: «يحتمل أن تكون الأسماء =

والتسعين وقال: «حديث غريب»، ثم رجَّح أن ذكر الأسماء مدرج من كلام بعض الرواة ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، ثم قال: «إن أسماء الله [غير][1] منحصرة في [تسعة وتسعين]»[2]، واستدل على ذلك بالحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»[3]، عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**ما أصاب أحداً**

= تكملة الحديث المرفوع، ويحتمل أن تكون من جمع بعض الرواة وهو الأظهر عندي».
ولعله حسن سند حديث الترمذي مع قوله بالإدراج، فيزول حينئذٍ الإشكال، فتأمل!
ثم وجدت نقل ابن حجر عن ابن العربي في كتابه: «عارضة الأحوذي» (١٣/ ٣٤)، وعرّف فيه بالأسماء على وجه تفصيلي حسن، فراجعه فإنه مفيد.
وأخيراً. . . فقد نص على أن سرد الأسماء من الإدراج الواقع في المتن: الغماري في «تسهيل المدرج إلى المدرج» رقم (٦٨)، و«الجامع المصنف مما في الميزان من حديث الراوي المضعف» (١/ ٤١)، و«ضوء الشموع» (١٦).
ونقل ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٢١٧) ضعف الحديث عن الداودي وأبي الحسن القابسي.
والخلاصة: الحديث ضعيف، يكفي للحكم بضعفه علة واحدة من علله، وهي الاضطراب في متنه، ولا أدري لم يتردد بعضهم في تضعيفه، مع أنهم يضعفون الحديث بأقل من هذا!!
ولمزيد من الاطلاع. ينظر: «الفتح» (١١/ ٢١٤ ـ ٢١٨)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ١٧٢ ـ ١٧٥)، و«طرح التثريب» (٧/ ١٤٧ ـ ١٥٦)، و«سبل السلام» (٤/ ١٠٨ ـ ١١٠)، و«نيل الأوطار» (٨/ ١٩٣)، و«تحفة الأحوذي» (٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦٣)، و«ضعيف الجامع الصغير» رقم (١٩٤٣ ـ ١٩٤٦)، و«مشكاة المصابيح» رقم (٢٢٨٨).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليست».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التسعة والتسعين».
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٢٥٣) و«المسند» (١/ ٢٢٣) رقم (٣٢٩)، والحارث بن أبي أسامة (١٠٦٣ ـ «زوائد الهيثمي»)، والبزار (١٩٩٤) أو (٣١٢٢ ـ «زوائده»)، والشاشي (١/ رقم ٢٨٢)، وأبو يعلى (٩/ ٥٢٩٧)، وابن منيع ـ كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٦/ ٤٧٨) ـ في «مسانيدهم»، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٢)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدّة» (٤٩)، وابن حبان (٩٧٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢) وفي «الدعاء» (١٠٣٥)، والحاكم (١/ ٥٠٩ ـ ٥١٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨) و«الدعوات الكبير» (١٦٤) و«القدر» (٤٦١)، والشجري في «الأمالي» (١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣) وقوام السنة الأصبهاني في «الترغيب» (١٣٠٤)، والدينوري في «المجالسة» (٥/ ١٨٠٣ ـ بتحقيقي)، وصححه شيخنا الألباني، وانظر: «الصحيحة» (١/ رقم ١٩٩)، و«العلل» للدارقطني (٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) وتعليقي على «المجالسة» (١٨٠٣).

قط همٌّ ولا حزن فقال: **اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همِّي، إلا أذهب الله حزنه وهمَّه وأبدله مكانه فرحاً»** فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «**بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها**»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: أسماء الله توقيفية، لا يجوز لنا أن نسمي الله تعالى إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، وفي هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن الجهال في كل زمان ومكان يظنون أن عبادة الله تعالى شقاء، لما فيها من تعب الأجسام بزعمهم، والصبر على الآلام في الحر والقر والجهاد في سبيل الله وما يترتب عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى في الله، هذا من بلادتهم وغلظ طبعهم، فإن كل من أحب شيئاً يتلذذ بتحمل الأذى في سبيله، كما قال المتنبي(٢):

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ　　وليتك تَرْضى والأنامُ غِضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ　　وبيني وبين العالمين خرابُ

على أن الله ﷻ جعل العاقبة للمتقين والفوز والنصر لهم، وجعل للمجاهدين إحدى الحسنيين، كما قال تعالى في سورة التوبة ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة: ٥٢] وروى مسلم في «صحيحه»

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٦٠ ـ ٤٦٤) بتصرف.

(٢) البيتان للمتنبي يخاطب بهما أبا فراس الحمداني، وهما في «ديوانه» (٢٤) و«يتيمة الدهر» (١/ ٦٩) و«شرح ديوان أبي الطيب» للمعري (٢/ ١٩٦)، وذكرت في كتابي «شعر خالف الشرع» أن فيها غلوّاً، واستحسن ابن تيمية وابن القيم قولهما في حق الرب ﷻ، وعبارة ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠١، ط. الفقي): «ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى، إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله، إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعاً ولا ضرّاً» وذكرهما، وزاد ثالثاً:

إذا صَحَّ مِنكَ الوُدُّ فالكلُّ هيِّنٌ　　وكلُّ الذي فوقَ التُّرابِ تُرابُ

من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«عجباً للمؤمن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر الله عليها فكان له خير، وإن أصابته ضراء صبر عليها فكان له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن»**(١). أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فلذلك قال المشركون من أهل مكة لما رأوا النبي ﷺ وأصحابه يقومون بالليل يصلون ويتهجدون بالقرآن، قالوا من جهلهم: أنزل هذا القرآن لشقاء محمد وأصحابه، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾(٢).

الثانية: إن كل من رزقه الله القرآن وحفظ ألفاظه ولم يتدبره ولم يعمل به بل تأكل به أو سحر به أو قرأه رياء وسمعة وافتخر به، فإنه يكون شقاءً عليه ووبالاً.

الثالثة: المراد بالفقه في الدين: فهم معاني الكتاب والسنة، إذ هو الذي كان يسمى فقهاً، في خير القرون قرن النبي ﷺ، والذي يليه، والذي يليه، أما الفروع المولدة أو المستنبطة بلا دليل فليس ذلك بفقه.

قال أبو عمر بن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدته التي ذمَّ بها المقلِّدين، وذكرها في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»(٣):

لا فَرقَ بين مقلِّدٍ وبهيمةٍ ... تنقادُ بين جنادلَ ودعاثرِ
فإذا اقتديتَ فبالكتابِ وسنّةِ الـ ... ـمبعوثِ بالدِّينِ الحنيفِ الطَّاهرِ
وإذا الخلافُ أتى فدونَك فاجْتَهدِ ... ومعَ الدَّليلِ فَمِلْ بفهمٍ حَاضرِ
وقِسِ الفروعَ على الأصول ولا تَقِسْ ... فَرعاً بفرعٍ كالجهولِ الحائرِ

والفرق بين قياس الفروع على الأصول وقياس الفروع على الفروع، هو: إن الأول قياس شيء غير مذكور في الكتاب والسنة على شيء مذكور فيهما، لوجود الشبه التام بينهما، كقياس الأرز في إخراج صدقة الفطر على البُرِّ والشعير، فإن القوت والادخار(٤) يحصلان في الأصل الذي هو البُرِّ والشعير،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «تفسيره» ـ ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٠٥) ـ من معضل الضحاك، وفيه جويبر وهو ضعيف جدّاً؛ نعم، وصله ابن جرير (١٦/ ١٠٢)، بنحوه عن ابن عباس ولكن **إسناده ضعيف جدّاً** أيضاً، فهو مسلسل بالعوفيين، ونسبه في «الدر المنثور» (٥/ ٥٤٩) إلى ابن مردويه، وسبق ذكره، والكلام عليه.

(٣) (٢/ ٩٩٠) وسيأتي ذكرها، وتعليق المصنف عليها في (٣/ ١٧٤) و(٤/ ٦٢).

(٤) علِّيَّةُ المطعومات من الخلاف المتشعب بين الفقهاء، وله وزن، والذي اختاره المصنف =

وفي الفرع الذي هو الأرز، فلا نشك في أن الشارع لما ذكر الأنواع التي تخرج منها وهي البر، والشعير، والزبيب، والأقط ـ وهو اللبن المخيض بعد تجفيفه ـ ما أراد هذه الأشياء لذاتها، وإنما ذكرها لما فيها من التغذية، فكل ما أشبهها في ذلك فهو مثلها، فهذا قياس الفرع على الأصل. أما قياس الفرع على الفرع، فهو أن يفتي شخص غير معصوم باجتهاده في مسألة لتحليل أو تحريم، فيجيء المقلد ويجد شيئاً مشابهاً لما أفتى به ذلك المجتهد فيقيسه عليه بلا دليل من الكتاب والسنة[1].

= هو مذهب المالكية، ولي عنه كلمة محررة؛ انظرها في «شرحي على الورقات» (٥٤٨ ـ ٥٥٣).

(١) إن الاستنباط من كلام المجتهد على جانب من الضعف، فإن جاز الاستناد إليه فعلى قدر الضرورة مع وجوب الاحتياط، ويشتدُّ الأمرُ إذا علمنا أن أكثر المسائل المدوَّنة في كتب الفروع ليست من نص الإمام، ولا مستنبطة من نصه، بل كل متأخر يستنبط من كلام من قبله، ففي مذهب الشافعي ـ مثلاً ـ تجد دحلان يستنبط من كلام الباجوري، والباجوري يستنبط من كلام البجيرمي، والبجيرمي يستنبط من كلام الشبراملسي، والشبراملسي من كلام ابن حجر، وابن حجر من كلام الزركشي، والزركشي من كلام النووي، وهكذا..

ولعلك لا تصل إلى الإمام إلا بعشر درجات وأكثر! هذا مع أن كثيراً من العلماء يبنون الأحكام على استحسانهم، ومنهم من غلب عليه الميل إلى بعض المبتدعة، وكثير منهم من كان يعتقد الولاية لكل من حُكي عنه ضرب من الغرائب التي يسمونها كرامات، ويتعصب له، ويؤلف في فضائله، ويكاد يجعل أقواله براهين قطعية، ومنهم من كان يعرض له الميل إلى أهل الدنيا والتعصب لهم، ومنهم من كان بينه وبين علماء عصره منافسة تحمله على مخالفتهم، كما وقع في قضية الصلاة المبتدعة في ليلة أول جمعة من رجب، كما حكاه أبو شامة في «الباعث» (ص٢٠٩ ـ بتحقيقي).

وبالجملة فالعوارض المشككة في صحة أقوالهم كثيرة.

وما مَثَل الشريعة إلا مَثَلُ ينبوع يخرج من جبل ويجري إلى مراحل كثيرة، وقد تكفَّل الملك بحفظ مجراه وتنظيفه ومنع اختلاط الأوساخ والأقذار والمياه المتغيرة به، وهناك سَوَاقٍ قد استقت منه، ويجري فيها من مائه إلى مراحل كثيرة أيضاً، ولكن الملك لم يتكفل بحفظها ولا حراستها؛ فهي مُعرَّضة لاختلاط الأقذار والأوساخ والمياه الرديئة والمتغيرة بمائها، وكثير من تلك السواقي قد عَظم وغزُر ماؤه، فمن الناس من يستقبل من تلك السواقي ساقية أو ساقيتين أو أكثر؛ فيملأ من مائها بحيرة، ومنهم من يتجشم السفر إلى المجرى الذي تكفَّل الملك بحفظه فيملأ جَرَّة أو جرتين أو ما قُسِمَ له.

والمقصود أن الاستنباط من المذاهب جائز بقدر الضرورة، فمن كان أهلاً للاستنباط واضطُرَّ إليه في مسألة، ولم يقدر على تحصيل ما هو أوثق منه، واحتاط بقدر إمكانه؛ فلا حرج عليه إن شاء الله وإن أخطأ، وكذلك من تبعه ولم يقدر على تحصيل ما هو أوثق من قوله، ومع ذلك احتاط بقدر الإمكان. =

الرابعة: قوله[(١)]: «**وقعد على كرسيه**»، مذهب السلف الإيمان بمثل هذا مع تنزيه الله تعالى من مشابهة المخلوقين، وسيأتي كلام (ك) في هذا المعنى.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٣ ـ ١٥]

قال محمد تقي الدين: طالعت كل ما عندي من «التفاسير» لأجد تفسيراً تطمئن نفسي إليه في قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ فلم أجد شيئاً، ثم طالعت كتب اللغة فلم أحصل على طائل[(٢)]، والأمر المهم في إيراد هاتين الآيتين هو الاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ على توحيد الله تعالى في عبادته، فكل من صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى، فقد اتخذ ذلك الشيء إلهاً مع الله، كأن يستغيث بغير الله أو يذبح لغير الله ولو مرة في عمره، وإن لم يفعل ذلك ورضي به ولم ينكره ولم يتبرأ منه، فهو كفاعله، أما قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ فأحسن ما قيل في تفسيره: أريد أن أخفيها، و(كاد) بمعنى (أراد) موجود في لغة العرب، قال الشاعر[(٣)]:

= ومن حكمة الله البالغة ورحمته السابغة أن غالب البدع لا يدَّعي أصحابها ومن شُبِّهت عليهم أنها من أركان الإيمان ولا فرائض الإسلام ولا الواجبات المحتمة، وإنما غايتهم دعوى أنها مستحبة، وذلك تيسير من الله ﷻ لطريق الاحتياط لمن أراده، فما عليك إلا أن تتحرى فيما قيل: إنه مستحب، وقيل: إنه بدعة.
فإن كنت ممن يستطيع الوصول إلى المجرى المحفوظ؛ فانظر فإنْ وجدتَ ما يُثلج صدرك من الدلالة على أنه من الدين، أو على أنه ليس منه فالزم ذلك. وإن اشتبه عليك، فدَعْهُ عالماً أنَّ اجتناب البدعة أحقُّ من فعل المستحبِّ، وأنَّ ارتكاب البدعة من الخطر بحيث لا يوازنه ترك المستحب، على أنك بتركك لذلك الشيء حذراً من أن يكون بدعة لك أجر عظيم أعظم من أجر من فعل مستحبّاً، وإنْ فعلتَه مع خشية أن يكون بدعة فعليك إثم البدعة، وإن كان في نفس الأمر غير بدعة. قاله العلامة المعلّمي اليماني في رسالته المهمة النافعة «رسالة في تحقيق البدعة» (٥٤ ـ ٥٧).

(١) في حديث ثعلبة بن الحكم، المتقدّم قريباً، وهو مما لم يثبت، فتنبَّه!

(٢) انظر لها ـ لزاماً ـ: «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للعلامة الشنقيطي (ص١٧٠ ـ ١٧٤).

(٣) البيتان في «ديوان الأخوة الأودي» (١٠) وقبلهما البيت الشهير:

والبيتُ لا يبتنى إلا بأعمدةٍ ولا عَمودَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ
فإنْ تجمَّع أوتادٌ وأعمدَةٌ وساكنٌ بلَغوا الأمرَ الذي كادُوا

(فكادوا) هنا أرادوا، قاله صاحب «اللسان»[1]. والقول الثاني: «إنها صلة لا تدل على شيء، وهذا مرجوح[2]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: بما تعمل كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ الخطاب لموسى ﷺ يعني: اخترتك لكلامي ورسالتي، فهو كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ

= لا يصلح الناسُ فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جُهَّالُهم سادوا
والأبيات في «أمالي القالي» (٢/٢٢٨) و«الحماسة البصرية» (٢/٦٩) و«مجموعة المعاني» (١٥) و«نهاية الأرب» (٣/٦٤).

(١) انظر: «لسان العرب» (٣/٣٨٥ ـ كيد).

(٢) رجح الشنقيطي في «دفع إيهام الاضطراب» (١٧٠ ـ ١٧١) أن معنى الآية: أكاد أخفيها من نفسي، أي: لو كان ذلك يمكن. وهذا على عادة العرب، لأن القرآن نزل بلغتهم، والواحد منهم إذا أراد المبالغة في كتمان أمر قال: كتمتُه من نفسي؛ أي: لا أبوح لأحد. ومنه قول الشاعر:
أيامَ تصحبُني هندٌ وأخبرُها ما كدتُ أكتمُه عَنْهَا من الخبرِ
ونظير هذا من المبالغة قوله ﷺ في حديث السبعة الذين يُظلُّهم الله: «**رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه**». وهذا القول مروي عن أكثر المفسرين. وممن قال به: ابن عباس، ومجاهد وقتادة، وأبو صالح، كما نقله عنهم ابن جرير، وجعفر الصادق، كما نقله عنه الآلوسي في «تفسيره». ويؤيِّد هذا القول أن في «مصحف أُبي»: (أكاد أخفيها من نفسي)؛ كما نقله الآلوسي وغيره.
وروى ابن خالويه أنَّها في «مصحف أُبيّ» كذلك بزيادة: (فكيف أظهركُم عليها). وفي بعض القراءات بزيادة: (فكيف أُظهرها لكم). وفي «مصحف عبد الله بن مسعود» بزيادة: (فكيف يعلمها مخلوق). كما نقله الآلوسي وغيره.

رَبُّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٨٨ ـ ٩٨]

قال محمد تقي الدين: المهم في ذكر هذه الآيات، ذكر إنكار موسى على السامري ومن اتبعه من قوم موسى في اتخاذهم العجل الذهبي إلٰهاً من دون الله، مع أنه لا يتكلم ولا يسمع ولا يجيب سائلاً، وخواره ليس بكلام كالخوار الذي يفعله المتأخرون من أدعياء التصوف وأصحاب الطرائق القدد، ويكذبون على الله والناس، فيسمون ذلك الخوار ذكر الله(١)، وقد أجمع أهل الأديان، وسائر العقلاء على أن ذكر الله لا بد أن يكون بلغة من اللغات، وأن يكون له معنى يفهمه الذاكر والسامع، وعبّاد القبور والأضرحة والقباب المزخرفة، شر من عُبّاد العجل، لأن العجل له خوار، وتلك الأضرحة ليس لها خوار، والفريقان كلاهما مشرك بالله، وعبَّاد القبور وعبَّاد عجل السامري شر من الوثنيين من أهل الهند الذين يعبدون البقرة الأنثى، لأن البقرة فيها حياة حقيقية وينتفع الناس بلبنها

(١) قال القرطبي في «تفسيره» في أوائل سورة الأنفال (٣٦٦/٧) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]: «فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام، والمبتدعة الطَّغام، **من الزعيق والزئير، ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير**. فيقال لمن تعاطى ذلك، وزعم أن ذلك وجْدٌ وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرسول، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله، والبكاءَ خوفاً من الله». وانظر بقلمي: «القرطبي والتصوف» (ص٩ ـ ٢٠).

وأولادها، وكل من عبد غير الله محروم من نعمة العقل، وقد ذكر المفسرون في هذه القصة أشياء كثيرة من الخوارق، ونقل الرازي في «تفسيره» عن أبي مسلم إنكار ذلك، وإنكاره ينحصر في أمور(١):

الأول: إن عجل السامري لم تكن فيه حياة، والخوار كان يسمع بسبب دخول الريح من منافذه وخروجها.

والثاني: إن قول السامري: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾، ليس معناها أنه أخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل ﷺ، وإنما هي قبضة معنوية من شريعة الرسول موسى ﷺ، ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ تركتها وكفرت بها، وعلل ذلك بعلل تركت ذكرها اختصاراً.

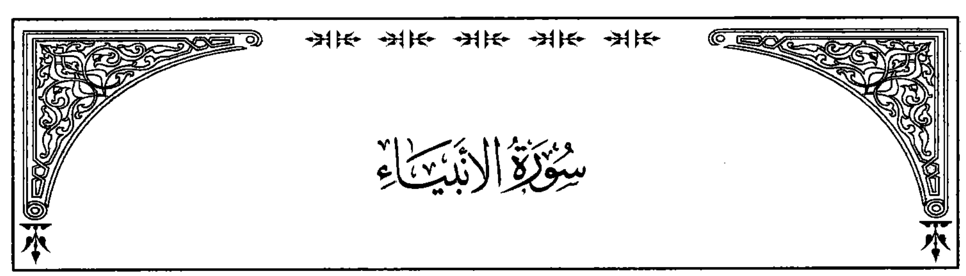
الثالث: إن قوله: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ يعني: أن موسى السامري حرمه الله من مخالطة الناس عقاباً له في الدنيا وعذاب الآخرة أكبر، وختمت الآيات بقول هارون: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ فلا خير في إله لا يتكلم ولا يعلم، والمعتزلة والمتأخرون من الأشعرية، ينفون الكلام عن الله تعالى وخطؤهم في ذلك واضح، وقد اتفقت الفرقتان على أن القرآن ليس كلام الله، ثم تفرقتا في تأويل ذلك، فقالت المعتزلة: القرآن حروف وأصوات خلقها الله في الهواء، وقالت الأشعرية: القرآن حروف وأصوات تصدر من الناس، وتدل على معنى الكلام النفسي الذي ليس فيه حرف ولا صوت، وهذا الكلام النفسي شيء اخترعوه لا وجود له في الحقيقة، وقد شبَّهوا كلام الله بحديث النفس الذي يخطر في بال الإنسان، ويدور في خلده قبل أن يتكلم به، وهذا لا يسمى كلاماً إلا بقرينة، كأن يقول الرجل: قلت في نفسي.

والقرآن والحديث صريحان في نفي هذا الباطل، وأما القرآن: فقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فكلام الله هنا هو القرآن، وإنما يسمعه ذلك المستأمن من لسان الرسول ﷺ وأما الحديث، فقول النبي ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان**»(٢). فبطل ما زعموه ولله الحمد.

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٢٢/٩٦ ـ ٩٨) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم.



الباب الأول

فقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢١ ـ ٢٩]

قال (ك): «ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿أَمِ[١] ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟! ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ أي: في السموات[٢] والأرض، ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ وقال ههنا: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بل».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «السماء».

يَصِفُونَ﴾ أي عما يقولون، أن له ولداً أو شريكاً ﷻ[١] وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوّاً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ أي: هو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وهذا[٢] كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]». وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ إلى قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ قل: يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمونه[٣]، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا هو[٤] ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ الآية، قال (ك): «يقول تعالى ردّاً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة كمن قال ذلك من العرب، أن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم[٥] به، بل يبادرون إلى فعله، وهو

---

(١) في الأصل: «ولداً وشريكاً وسبحانه» والمثبت من «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذه».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تقولون وتزعمون».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمر».

تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من ادعى منهم أنه إلٰه من دون الله أي مع الله ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١] وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: نفهم من هذا الكلام أموراً:

الأول: إن الله أنكر على المشركين اتخاذهم من دون الله آلهة مع أن تلك الآلهة مخلوقة لا خالقة ومتصرف فيها لا متصرفة، فلا تستطيع أن تخلق ذباباً ولو اجتمعت له، ولا تستطيع أن تميت حيّاً ولا أن تحيي ميتاً، فعيسى والملائكة ومن عُبد من الأنبياء والصالحين مخلوقون مربوبون لا ينفعون ولا يضرون، فمن عبدهم خاسر في الدنيا والآخرة، وسيقول المشرك الجهول: نحن لا نتخذ الصالحين آلهة ولا نعبدهم!

وقد تقدم الرد على هذا الادعاء في مواضع كثيرة، ونزيد هنا فنقول: لو علمتم معنى لا إلٰه إلَّا الله لعلمتم معنى العبادة، ولأقررتم بأنكم اتخذتم آلهة من دون الله وعبدتموهم، فإن كل من عبدته فقد اتخذته إلٰهاً، والعبادة ما يتقرب به إلى الله تعالى كالدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير طريق الأسباب، والخوف بالغيب والرجاء والتوكل والذبح والنذر وجعل التحليل والتحريم لهم إلى غير ذلك.

الثاني: في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ واضح، فتوحيد النظام يدل على وحدة المنظم، ووحدة الخط وتناسقه يدلان على وحدة

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/٣٩٧ ـ ٣٩٩).

الكاتب، وهكذا يقال في جميع الصنائع، ولله المثل الأعلى.

الثالث: في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ كل من عبد غير الله تعالى فهو فاسد العقل، مختل المزاج، لا يستطيع أن يقيم دليلاً على ما ارتكبه من الشرك فيلتجئ إلى قوله: إنا وجدنا آباءنا على هذا وقد كانوا أحسن منا، وهذه حجة داحضة، وهي حجة المشركين في كل زمان ومكان.

الرابع: في قوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ وسيأتي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال تعالى في سورة الزخرف ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤] والمشركون والمقلِّدون في هذا الزمان يقولون: إن القرآن لا يستطيع أحد أن يفهمه، (لأن صوابه خطأ، وخطأه كفر)[1]، قالوا: وحسبنا كتب

---

(١) هذه المقولة كانت شائعة في المغرب، ووجدتُ في المجلة التي أسسها المصنف، واسمها «لسان الدين» السنة الثانية، الجزء السابع، بتأريخ ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ - يناير ١٩٤٨م (ص١١ - ١٣)، مقالة بعنوان (صوابه خطأ وخطؤه كفر) وهذا نصها:

(صوابه خطأ وخطؤه كفر)

بقلم الأستاذ السلفي السيد محمد الفلاح[1]

هذا العنوان كثيراً ما شغل بال الطلبة، فصرف كثيراً منهم عن الهداية إلى الغواية، وعن الحق إلى الضلال، وعن النجاة إلى الهلاك، كلمة عمرت الكتب بمرادفاتها، **وإن كانت فظاعتها أكبر من كل تركيب يؤدي معناها**، ومن المؤسف أنها خفيت حتى على أمثال الشاطبي، فقد ذكر قريباً من معناها في أواخر (الجزء الثالث) من كتابه «الموافقات»!

لا أقول: هذه الكلمة وحدها هي التي ظفرت بصرف الناس عن العلم الصحيح علم القرآن، ولكني أعتقد أنها إحدى الأسباب التي حجبتنا وحالت بيننا وبين روح الشريعة الخالص، فابن مسعود يقول لنا: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آياتٍ لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن». بينما أشياخ ما بعد القرون الثلاثة يحجرون على الناس ويذهبون إلى أن القرآن له - لا أدري - كم من ألف ظهر وألف بطن يعدُّون!! وكيفما كان العالم لا شك أنه تبقى عليه أشياء من الظاهر والباطن فلا يسوغون له النظر في القرآن، ويجعلون القياس والنظر في القرآن متساويين، إذ التكلم في القرآن في نظرهم تقصيد لله، كأن الإنسان يقول: هذا المعنى هو الذي قصده الله من القرآن، وهذا أمر عسير وجرأة خطيرة. وقد ورد في كتب «السنن» عن النبي ﷺ: **«من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»**[2]، وورد عن الصديق: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله =

---

(١) نشر في مجلة «لسان الدين» السنة الثانية الجزء السابع بتأريخ ربيع الأول ١٣٦٧هـ، يناير ١٩٤٨م (ص١١ - ١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٢)، وأبو داود (٣٦٥٢)، والنسائي في «فضائل القرآن» (١١١)، وأبو يعلى (١٥٢٠) =

. . . .

= برأيي»[١]، وهذا الاستدلال لا يصح لهم أما **أولاً**: لأن الله تعالى أنزل هذا القرآن للناس ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب، وأما **ثانياً**: فإن النبي ﷺ قد بيّن للناس حاجتهم منه، وهذه كانت وظيفته التي أمره الله بها في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ومن تتبع السنن المحمدية وجدها قد أزالت عن وجه الكتاب القناع، وأما **ثالثها**: فإنا لو طردنا هذه الأدلة التي معهم لهلكنا بتركنا كلام الله ـ وقد فعلنا فتردينا في هوة لا ندري متى نتخلص منها ـ؛ لأن النبي ﷺ قال: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي**»[٢].

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يذوقون معنى القرآن فيعملون به، ولا يتجاوزون آياته حتى يفهموها ويعملوا بمقتضاها، كما يقول لنا ابن مسعود وغيره. ومنهم من كان يخطئ في الفهم ولكن لا يؤاخذ بخطئه ما دام يعمل بما فهم، ويصحح فهمه على الرسول كما في قصة سيدنا عدي بن حاتم: جواد العرب، فإنه كان يضع فوق رأسه خيطين أبيض وأسود في ليالي رمضان، فما يزال يأكل حتى يتبينهما؛ لأنه قرأ ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، ولكن الرسول[٣] زاد له ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ في القراءة فلم يبق إلا أن يكونا كنايتين عن الليل والنهار، وكل ما ورد في الأدلة الشرعية في ذم الرأي في القرآن لا نحفل به في الحقيقة، فهل يعتقد عاقل أنه يباح له الكلام في الحلال والحرام؟ فيقول: هذا يؤكل، وهذا يحظر، وهذا ينزع من يد هذا المالك، وهذا يستحق، وهذا نكاح فاسد، وهذا صحيح، والحالة هذه وهو لا يعرف عشر آيات من كلام الله، ثم تراه يقول إذا عرضت له آية في صلاة أو كتاب: هذا كلام الله لا نستطيع أن نتكلم فيه، فإن قلت له: إنك تؤلف المجلدات الضخمة في علم الفقه، يجيبك بأن النوازل كلها مأخوذة من الكتاب والسنة نقَّحها من قبلنا وكفانا المؤونة، وهذه عبارة كادت تكون محل إجماع القاصرين المتفيهقين، ونفرض إذا صححنا هذه الجملة السطحية أليس في القرآن غير مسائل الفقه؟ فأين الأخلاق؟ وأين التوجيه؟ وأين الحكم العجيبة والقصص الصادقة؟ وأين آيات الجنة والنار؟ و. . . ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾، ولكنهم لم يفعلوا فكتبوا كتباً من عندهم.

وقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم﴾، والله يقص علينا أصدق =

= وفي «المفاريد» (٣٢)، وابن بطة (٧٩٨) عن جندب بن عبد الله البجلي، **وإسناده ضعيف**، وفيه سهيل بن أبي حزم ليس بالقويّ.

(١) له طرق كثيرة متعددة عن أبي بكر، وهي لا تخلو من كلام أو انقطاع، ولكنه بمجموعها يصل إلى درجة **الحسن** ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد بيّناها في التعليق على «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٤٠)، والحمد لله.

(٢) **الحديث صحيح**، انظر تخريجه في التعليق على (٣/ ٢٧، ٢٨)، وانظر: «الصحيحة» (١٧٦١).

(٣) انظر الحديث بتمامه في: «صحيح البخاري» (٤٥٠٩، ٤٥١١)، و«صحيح مسلم» (١٠٩٠، ١٠٩١).

= القصص؛ لنعتبر بمن مضى ونحذر ما وقعوا فيه، ولأنه يعلم أنا لا نألو جهداً في تقصي آثارهم: «**إنكم لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»[١]، ثم في خلال هذه العواصف ما خلا وقت من ناس خدموا القرآن فجمعوا ما وصلهم من معانيه، ولكنهم تأثروا بأفكار قائلة: إن القرآن دون الوصول إلى حقيقته عقبات لا يقطعها إلا من نبغ في كذا وكذا من العلوم، فاستفرغوا الجهد، وطلبوا تلك العلوم فلما قصدوا إلى أداء ما عندهم من العلم، حشروا كل ما في أدمغتهم في القرآن، وبعملهم هذا أصبح الطالب يقرأ في التفسير مجموعة من العلوم مبعثرة، وأتى قوم آخرون حسبوا القرآن إنما يُعْنىٰ بما تعلموه فحسب، فكان كلامهم تصنيفاً في العلم الذي تخرجوا فيه لا إيضاحاً للقرآن، ومن هذه الكتب «تفسير الزمخشري» فالقرآن عنده تقريباً كتاب اعتنى بالبلاغة والنحو وتناول مسائل في الكلام، ولكن في الخزانة العربية تفاسير يفهمها كل من أراد أن يعرف كتاب الله بعد أن يتناول مسائل النحو، من أجلِّها: «تفسير ابن كثير» و«تفسير الجلال السيوطي» المسمى بـ«الدر المنثور»، وقد عد كثير من المؤلفين وسائل القرآن.

فمنهم من جاوز الحد فجعل الفلسفة سبباً في معرفة القرآن! قال أبو إسحاق الشاطبي[٢]: «ولو عكس الإنسان لما بعد» وعدَّ منها بعضهم علم الهيئة وعد منها علم الكلام، وهذا كله افتراء ولكن يبقى النظر في شيئين: علم اللسان العربي، وعلم الآثار، هل هما ضروريان لطالب التفسير؟ لأنه خطاب للعرب فلا يفهمه بعد فساد لغتهم إلا من حصلت له الملكة والدربة الدقيقة فيها، ولأن القرآن بلغه الرسول وبلغ معه تفسيره كما آية: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ . . .﴾ إلخ، وكما في حديث: «**أوتيت القرآن ومثله معه**»[٣] فتكون الوسيلة إليه هذا الطريق الوحيد، وهذا هو الذي ينبغي أن يعتد به، وإن كان في إمكان الجمهور أن يتعلم القرآن من إقراء العلماء لهم، وتبقى تبعة البحث عن تفسير الرسول للآية ملقاة على كاهلهم.

لكن الطالب الذي يرى نفسه متصدراً إلى تعليم الناس، يجب عليه أن يأتي البيت من بابه، ويبحث عن الدُّر في مكانه، وما كان طلب مالك والبخاري وأحمد وغيرهم من الهداة إلا بحثاً عن الكتاب والسنة، لم يكن من شأنهم البحث عن مسائل علم الكلام، والنظر في الحال وما ذهب إليه الأشعري فيها، وما الجواب عنه في ذلك؟ فإن من تتبع مثل هذه الأبحاث خصوصاً رجلاً يقصد أن يكون غداً قدوة في الدين لا يظفر إلا بالخيبة، ولا يصبح بعد الجهد الجهيد إلا كما قال خرِّيت ذلك الطريق الشهرستاني:

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلِّها   وصيَّرتُ طَرفي بين تلك المعالمِ =

---

(١) **الحديث صحيح**، انظر تخريجه في التعليق على (١/ ١٨٧).

(٢) انظر: «الموافقات» (٤/ ١٩٨ ـ بتحقيقي).

(٣) **الحديث صحيح**، انظر تخريجه في تعليقي على «إعلام الموقعين» (٤/ ٨٣).

الفقه، فإنها مخضت القرآن والحديث وأخذت زبدتهما، ويعنون بكتب الفقه كتب الفروع المشتملة على الأخطاء الكثيرة، ومخالفة الكتاب والسنة، والآيات المذكورة وما في معناها حجة عليهم لو كانوا يعقلون، وما أحسن قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ ينفي الشفاعة الشركية ويثبت الشفاعة التوحيدية، وهي التي تكون بعد رضى الله تعالى عن عقيدة المشفوع له وإذنه للشافع.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا

= فلم أر إلا واضِعاً كفَّ حائرٍ على ذَقْنٍ أو قارِعاً سِنَّ نادمِ

ويا ليتنا طلبنا هذه العلوم على الوجه المجدي، ولكنا نطلبها على وجه لا يؤدي إلى فائدة ما، فكيف ترى قارئ «شرح البناني على السلم»؟ وما يجني وراء تلك الإشكالات؟ وليقل المحبُّ لها في أي مكان تنفعه وأي زمان يجد ذلك.

ثم ليقل طالب العلم القارئ للعقائد على طريقة السنوسي كيف يركِّب تلك الأقيسة؟ ومن يجادله في الوجود والقدرة وما معهما من الصفات.

والحق أننا نقلد ولا نسأل، غير أن لقراءة «السنوسية» ـ لكن أقصد «الصغرى» فإن له «الكبرى» و«صغرى الصغرى» ـ فائدة أخروية ينقلها لنا الأشياخ وأرباب الحواشي الذين جنوا على زمننا، تلك الفائدة هي ما تنبئك عنه هذه القصة:

رئي فلان في المنام، فسئل: ما فعل الله بك؟ فقال: لما وضعت في قبري أتاني ملك وسألني: هل قرأت التوحيد؟ فقلت: نعم! قرأت مصنف فلان، فقال: لِمَ لَمْ تقرأ «السنوسية»؟ وضربني.

هذه القصة وحدها كافية لطلبة بُلْه، وشيوخ جهال في الإكباب على ما لا فائدة فيه إلا تضييع الزمان، وقد بدأت علامات الرشد تظهر على المسلمين، فإنهم استيقظوا من نومتهم، ورأوا العزَّ والهداية في قرآنهم، فأصبحوا يتعلمونه في أوائل دراستهم، ولا ينقصنا الآن إلا عدم الإرشادات لمن يدرسونه للتلاميذ، إذ من يظن به النفع بالإرشاد لا يزال متأثراً بـ«صوابه خطأ، وخطؤه كفر»، ولكن ليذهب الطلاب إلى تفهم كتابهم المقدس، فسوف يعدمون أصحاب هذا المبدأ الخبيث، **وإني لباحث عن كل ما خلفه السلف من الإرشاد فمطلعكم عليه.**

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٣]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بدل الرحمٰن، يعني: غيره، كما قال الشاعر[١]:

جاريةٌ لم تلْبَس المُرَقَّقا ولم تَذق مِنَ البُقول الفُسْتُقا

أي: لم تذق بدل البقول الفستق، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما[٢] زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال قتادة: لا يصحبون من الله بخير»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: حدثني الثقة ـ وهو: عمار بن محمد الصائغ ـ أنه يوجد في نواحي سجلماسة (تافيلالت) قوم من المشركين يجعلون للدجاجلة خراجاً سنويّاً فيتكفَّلون لهم بحفظ أجزاء أجسادهم، أحدهم يضمن له حفظ رأسه من الآفات، فيعطيه عليه أجراً سنويّاً، والآخر يحفظ له يديه، والثالث يحفظ له ما بين يديه ورجليه من ظهر وبطن، والرابع يحفظ له ماله، وهؤلاء الآلهة كل واحد منهم ينتمي إلى صاحب قبة من الأموات المشهورين بالصلاح، وإنما يعتمد في ذلك على جده.

---

(١) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن السعدي، والبيت في «شرح ابن عقيل» (١٨/٢) وفيه «تأكل» وهو الصواب، إذ (المرقق): الرغيف الرقيق الواسع. والمعنى: يريد أن هذه الجارية بدوية لا عهد لها بالنعيم، ولم تستمرئ طعم الرفه، فهي تأكل يابس العيش، لا الرغفان الرقيقة الواسعة المستديرة، وتذوق من البقول ما يأكله البدو عادة، لا الفستق ونحوه مما هو طعام أهل الحضارة والرفاهية.

والبيت في «لسان العرب» (٥٨/٦) مادة (سكف) وأوله: «بَرِيّة لم تأكل...». وكتب مصححه: «قوله: (برية): المشهور (جارية)، وهي هي».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قد».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٠٦/٩) بتصرف.

وتوجد قرية اسمها (أولاد يوسف) عندهم خطارة، والخطارة عندهم جدول من الماء ينشأ من مياه آبار متعددة، أولها في مكان عال، وثانيها أسفل منه، والثالث أسفل من الثاني، وهكذا إلى آخر الآبار، ثم يوصل بعضها ببعض ويحفر لها مجرى يجري منه الماء إلى المزارع والبساتين، ولما حفر أجدادهم هذه الخطارة نذروا لصاحب قبة يسمونه سيدي أحمد الحبيب أن يعطوه في كل سنة مقداراً من المال، ليحفظ لهم هذه الخطارة فلا ينضب ماؤها، وبعد وفاته أخذوا يعطون ذريته ذلك المال المنذور.

وفي هذا الزمان سافر بعض أهل هذه القرية إلى البلدان التي ألقي فيها دروس التوحيد، وعلموا من سماع تلك الدروس أن الماء بيد الله هو الذي يعطيه أو يمنعه، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يعطي قطرة أو يمنعها، فقالوا لقومهم: توبوا إلى الله، فإن هذا شرك في الربوبية والعبادة جميعاً، فدعوني لألقي عليهم درساً في التوحيد لعل الله يهدي إخوانهم ويجمع كلمتهم على توحيده ويستريحون من ذلك الخراج.

فسافرت إلى قريتهم وهي تبعد عن مكناس ٤٥٦ ميلاً، وأعطيتهم درساً من المغرب إلى العشاء، وأرجو الله أن ينفعهم به[١].

وتوجد قرية أخرى في ناحية السيفة لهم خطارة، وقع لهم مثل ما وقع لقرية أولاد يوسف، وكان رجل منهم يأتي إلى مدينة أرفود ويحضر دروسي في التوحيد، فوحد الله تعالى، ودعا قومه إلى ترك دفع الخراج لذرية صاحب القبة الذي يعبدونه، فأبوا وقالوا له: أنت تريد أن تعرِّض نفسك للهلاك، أما نحن فلا نريد ذلك، فقال لهم: أما أنا فلا أدفع فلساً واحداً ولا حبة حنطة، ولي نوبة ماء هذه الخطارة ـ والنوبة عندهم يوم وليلة في كل خمسة عشر يوماً ـ، فإذا جاءت نوبتي قولوا لمعبودكم يوقف ماء الخطارة عن الجري، أو يجعل ماءها غوراً.

وعندنا في المغرب قبائل لا تعد ولا تحصى من العرب والبربر، يأتيهم أبناء الشيخ الذي يعبدونه في كل سنة، ويأخذون منهم الخراج، سمناً وصوفاً ودراهم

---

(١) وقد علمت بعد ذلك أنهم تركوا الخراج، وتابوا إلى الله تعالى، وبقيت خطارتهم على حالها. (منه).

وحبوباً، وهم يشاهدون أبناء معبودهم يزنون ويشربون الخمر، ولا تنقص درجة تقديسهم عندهم مثقال ذرة؛ لاعتقادهم أن جدهم يدخلهم الجنة على أي حال كانوا، فنسأل الله تعالى ونتوسل إليه بأسمائه الحسنى، وبتوحيدنا له الذي هدانا إليه بفضله، وباتّباعنا لسنة نبيه الكريم، أن يزيدنا هدى ويختم لنا بالحسنى، ويقوّينا على الدعوة إلى توحيده، وينقذ بدعوتنا خلقاً كثيراً، كما فعل سبحانه فيما مضى، بل نريد أكثر من ذلك، والله ذو الفضل العظيم.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٧٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه ﴿رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ

ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[١] أي: كنا عالمين أنه أهل لذلك، ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: معتكفون على عبادتها.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلّال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفّه أحلامهم وضلّل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر منك[٢] تقوله لاعباً أو محقّاً فيه؟ فإنا لم نسمع به قبلك.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره هو الذي خلق السماوات والأرض وما حوت من المخلوقات التي[٣] ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أن لا إله غيره ولا رب سواه». وقوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾:

قال (ك): «ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه، ليكيدن أصنامهم أي: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين[٤]، وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد، قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق، ألقى نفسه إلى الأرض وقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع، فيقولون: مه، فيقول: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ فسمعه أولئك.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكان أصلاً».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الذي».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي إلى عيدهم».

وقوله: ﴿جُذَٰذًا﴾ أي: حطاماً كسَّرها كلَّها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعني: إلا[(١)] الصنم الكبير عندهم، كما قال ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٩٣].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار بنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلٰهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: قال مَنْ سمعه يحلف أنه ليكيدنهم، ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ قال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبيّاً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب[(٢)]، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن يبين[(٣)] في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم، وقلّة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرّاً ولا [تملك][(٤)] لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ يعني: الذي تركه ولم يكسره ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون [وأن][(٥)] هذا لا يَصْدُرُ عن هذا الصنم، لأنه جماد، وفي «الصحيحين»[(٦)] من حديث

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»: وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٥٥) رقم (١٣٦٧١) من طريق سعيد بن منصور عن جرير بن عبد الحميد عن قابوس عن ابن عباس، وقابوس هذا هو ابن أبي ظبيان، قال البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/ ١٩٣) رقم (٨٦١): قال أحمد بن عبد الله عن جرير بن عبد الحميد: أتيناه - أي: قابوساً - بعد فساده»، فهو ضعيف، ولكن لا يترك، كما في «سؤالات البرقاني للدارقطني» (٤١٨)، ولم يدرك ابن عباس، **فإسناده ضعيف**.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتبين».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تستطيع».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإن».

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١)، وخرجتُه مفصلاً في كتابي «من قصص الماضين من حديث سيد المرسلين» (ص٨٩ - ٩٣)، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

هشام[١] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث، اثنتين[٢] في ذات الله: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال: وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة [ومعه سارة][٣] إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل فقال: قد نزل ههنا رجل بأرضك معه[٤] امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه، فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: [هي][٣] أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إليَّ، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم، ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها، فأُخِذَ أخذاً شديداً فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له: فأرسل، ثم دعا أدنى حُجَّابه، فقال إنك لم تأتني[٥] بإنسان، لكنك[٦] أتيتني بشيطان، أخرجها، وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، وقالت: مهيم؟ قال: كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر**».[٧].

وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا إلى[٨] الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) هو ابن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة بالحديث المذكور، ولا أدري ما وجه حذف ابن سيرين، والاقتصار على (هشام) هكذا دون نسبة!
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «اثنين».
(٣) من «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٤) في «تفسير ابن كثير»: «إنه نزل بأرضك رجل معه».
(٥) كذا في «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «تأت».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وإنما».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير»: «٩/ ٤١١ ـ ٤١٤».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».

﴿يَنطِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة[(١)] السوء، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[(٢)] فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[(٣)] أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] الآية».

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ قال (ﷺ): «لما دحضت حجتهم وبان عجزهم، فظهر[(٤)] الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جدّاً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة لتمرض وتنذر[(٥)] إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في حومة[(٦)] من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد.

قال البخاري عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[(٧)]. وقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك»[(٨)].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «حسرة».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال السدي: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: في الفتنة وقال ابن زيد: في الرأي، وقول قتادة أظهر في المعنى، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير» أي: إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «وظهر».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تمرض فتنذر».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جوبة». (٧) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٤١١ ـ ٤١٨) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: في قصة إبراهيم عليه السلام فوائد:

الأولى: كل موحد وإنْ قَلَّ علمُه، يجد حجةً على توحيد الله تعالى يغلب بها أكبر علماء الشرك والتقليد، فمن ذلك أن رجلاً من المشركين في صعيد مصر بالريرمون قال لموحد: أنتم وهابية تنكرون معجزات النبي ﷺ مع أنه حي يصلي في قبره، والأغوات[1] ـ وهم خدام المسجد النبوي ـ يضعون له الماء للوضوء قبل كل صلاة، فقال له الموحد: أنت كفرت بإجماع المسلمين، وتنقَّصت رسول الله ﷺ شر تنقص، لأن الوضوء لا يكون إلا عن حدث والنبي ﷺ منزه عن الحدث بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فاعترف المشرك، وقال: أستغفر الله، والحكايات في هذا الباب كثيرة.

الثانية: حجة قوم إبراهيم: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ هي حجة المشركين في كل زمان ومكان، وما أحسن جواب إبراهيم عليه السلام لقومه، إذ قال لهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

الثالثة: إن قوم إبراهيم كانوا يوحِّدون الله تعالى في ربوبيته، ولذلك لم ينكروا عليه قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وكذلك المشركون في زمان النبي ﷺ كانوا يعترفون ويؤمنون أن الله رب كل شيء، ومليكه، والمتصرف فيه، بخلاف المشركين في هذا الزمان الذين اتخذوا من دون الله أولياء، واعتقدوا أنهم يتصرفون في العالم بالإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع والنصر والهزيمة وإنزال المطر، والخصب أو القحط والجدب، فهؤلاء أغلظ كفراً وشركاً من أولئك[2].

---

(١) هما قسمان: قسم كان يقال له: (سندبيس)، وقسم كان يقال له: (مكاره)، ولكل قسم جهة من الحرم المدني وقت التسريج ووقت التعمير، ولا يمكن أحد من القسمين أن يعلق أو ينزل في غير مدركه المعلوم، انظر: «رسائل في تاريخ المدينة» (ص٧٧ ـ تحقيق حمد الجاسر).

(٢) ظفرتُ بكلمة في كتاب «تاريخ حركة الإصلاح والإرشاد وشيخ الإرشاديين أحمد محمد السوركتي في أندونيسيا» (ص١١ ـ ١٢) نقلها عن الأديب الكبير المعروف مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٢ ـ ١٩٢٤) جاء فيها:

«المسلمون اليوم أكثر إشراكاً من المشركين، وأوسع منهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات، فأي قلب لا ينفطر عند ما يرى المسلمين وهم ركع سجد على أعتاب قبر =

الرابعة: يجب على كل من قدر على تحطيم ما يعبد من دون الله من القباب والأحجار والأشجار أن يقتدي بخليل الله إبراهيم، وبخليله محمد ﷺ فكل منهما كسر الأصنام، وقد فعل ذلك الإخوان الموحدون رحمهم الله في الحجاز، فهدموا قبة حمزة رضي الله عنه والقباب التي كانت في البقيع، فجزاهم الله خيراً وأجزل ثوابهم.

الخامسة: تذكرنا قصة إبراهيم الخليل بمشركي هذا الزمان، فإنهم يبنون قبة على قبر بجانب الوادي، ويعبدون تلك القبة بالذبح والنذر، ويأتي السيل فيجرفها فيعيدون بناءها وعبادتها، ولا يفكرون بعقولهم في أن هذه القبة أو الروح المتلبسة

= ربما كان بينهم من هو خير من صاحب القبر في حياته... لماذا ينقم المسلمون على النصارى التثليث، وهم لم يبلغوا من الشرك مبلغهم؟ فالمسلمون يدينون بآلاف من الآلهة؛ أكثرها جذوع أشجار وجثث أموات وقطع أحجار من حيث لا يشعرون. فإذا ألمّت بهم ملمّة ذكروا الأموات قبل أن يذكروا الله، ونادوهم قبل أنْ ينادوه... جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في نفوسهم الشرف والعزة، ليعتق رقابهُم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم. وقد ترك الإسلام بسر عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حدّه في سلطانه: لا تغل في تقدير نفسك، ولا تخرج عن دائرتك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد. أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر تارة أخرى: فقد ذلّت رقابهم ونفوسهم وخفقت رؤوسهم فأصبحوا من الخاسرين.

هذا؛ ومتى فسد على الأمة دينها فسد عليها كل شيء، لأن الدين هو حجرة الزاوية التي قامت عليها جميع الحضارات القديمة والحديثة. وختام الحضارات ومسكها هي حضارة الإسلام المجيدة. وما المدنية الغربية اليوم إلا قبس منها وشعلة ضئيلة من نورها الباهر.

قد يلحق الدين تبديل وتحريف في التأويل، وبدع تسلب منه رونقه وبهاءه حتى يخرج من كونه ديناً إلى كونه مجموعة خرافات ولهو ولعب، كما قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] فيقيض الله لدينه رجالاً يجددون للأمة دينها. أجل؛ كل من يحاول تغيير ما ألفه الناس يكون معرضاً لسخط الجمهور ونقمته، وكل من يريد إحياء ما أماته الجهل من سنن الأنبياء يجد من الشدائد والمكايد ما وجدوه. ولكن إذا ثبت متكلاً على الله واثقاً بنصره، وقانعاً بما وهبه من علم وتقوى، ولم تستهوه الدنيا وزخارفها، ولم تفتتن نفسه بزينتها وشهواتا، فليبشر بالنصر المبين، والذكر الحسن في الأعقاب».

بها، لو كانت تستطيع أن تدفع أو تجلب لهم خيراً لدافعت عن نفسها، وصرفت السيل عن القبة وحفظتها منه، ولكن كذلك يطبع الله على قلوب المشركين وما أحسن قول الخليل لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

السادسة: الكذبتان الأوليان كانتا جهاداً في سبيل الله، والكذب في الجهاد واجب على أعداء الله، سعياً في هلاكهم، وأما الكذبة الثالثة فإنها دفاع عن النفس، واشتغاله بالصلاة التجاء إلى الله تعالى ليحفظ زوجته، فاستجاب الله دعاءه، وأنقذ سارة ورجعت سالمة غانمة، وهاجر هذه هي أم إسماعيل جد النبي ﷺ الأعلى.

السابعة: إن نصر الله للموحدين وإهلاكه للمشركين سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فإذا لم ينتصر الموحدون، وطال عليهم زمان غلبة أعدائهم فاعلم أن توحيدهم ضعيف، وإيمانهم ناقص، فإن الله وعد كل من نصر دينه الحق بالنصر، فقال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨﴾ وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١] اللهم اجعلنا ممن نصر دينك ونصرته.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٨٣ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤]

قال: (ك): «يذكر الله تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثير[١] ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره ثم ابتلي في جسده ـ يقال: بالجذام ـ في سائر بدنه ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد ولم يبق أحد من

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كثيرة».

الناس[١] يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره[٢]، ويقال: إنها احتاجت فصارت[٣] تخدم من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»[٤]، وفي الحديث الآخر: «**يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»[٥]، وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك»[٦].

فصل

قال محمد تقي الدين: إنما ذكرت قصة أيوب هنا للاستدلال بها على أن الله تعالى لما ذكر لنا قصص الأنبياء وما أصابهم من المحن أخبرنا أنهم توجهوا إليه وسألوه تفريج كربهم وشفاء مرضهم، وإنما حكى لنا ذلك لنقتدي بهم فيما يصيبنا من المصائب، ولا ندعو مخلوقاً ولا نستعين به، فمن دعا المخلوق لتفريج كربه وشفاء دائه، فقد أشرك بالله.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من الناس أحد».

(٢) ثبت ذلك في حديث أخرجه ابن حبان (٢٨٩٨)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، والبزار (٢٣٥٧)، والحاكم (٢/ ٥٨١ ـ ٥٨٢)، وأبو نعيم (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥) عن أنس، **بإسناد صحيح**، وانظره مع تخريجه وفوائده في كتابي: «من قصص الماضين» (١٧٧ ـ ١٨٨).

(٣) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فسارت»!

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدورقي في «مسند سعد» (٤١)، وعبد بن حميد (١٤٦ ـ «المنتخب»)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والطيالسي (٢١٥)، والبزار (١١٥٠ ـ ١١٥٥)، والدارمي (٢٧٨٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٣)، والطحاوي (٣/ ٦١)، وابن حبان (٢٩٠٠، ٢٩٢١)، وبحشل في «تاريخ واسط» (ص٢٥٣)، والحاكم (١/ ٤٠، ٤١)، والبيهقي (٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣)، وفي «الشعب»، من طريق مصعب بن سعد عن أبيه مرفوعاً، **وإسناده حسن**. وفي الباب عن جمع، انظر كتابي: «من قصص الماضين» (٢١٨)، «السلسلة الصحيحة» (١٤٣ ـ ١٤٥).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٤٢٦).

﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٩٠]

قال محمد تقي الدين: رأيت «تفسير (ك)» لهذه الآيات فيه أقوال كثيرة لا غرض لنا بذكرها فأردت أن أفسرها حسب ما فهمته:

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ . . . إلخ: ﴿ٱلنُّونِ﴾ هو الحوت، أي: واذكر صاحب الحوت، وهو يونس ﷺ، لما ذهب مغاضباً لقومه، أي: أغضبه قومه، وهم أهل نينوى مدينة قديمة في العراق لا تزال آثارها موجودة بقرب الموصل في شمال العراق، وعندها قرية تسمى بهذا الاسم، وذلك أنه دعاهم إلى توحيد الله وطاعته وطاعة رسوله، فتباطؤوا فغضب عليهم وأوعدهم بعذاب الله، وذهب وتركهم فخافوا وخرجوا من مدينتهم بنسائهم وأطفالهم ومواشيهم، وأخذوا يجأرون إلى الله بالدعاء وتابوا إلى الله تعالى وآمنوا بما جاءهم به يونس فدفع الله عنهم العذاب، قال تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: ٩٨].

هذا ما كان من أمر قوم يونس، أما يونس، فإنه وجد قوماً راكبين في سفينة فركب معهم فلما توسطت السفينة في البحر تلاطمت عليها الأمواج ورأى أهلها أنها مثقلة لا بدّ من إلقاء بعض الركاب في البحر، فاقترعوا (باللغة المغربية: ضربوا العود) فخرج سهم يونس على أنه هو الذي يلقى في البحر، ثم أعادوا الاقتراع فخرج سهمه أيضاً، ثم أعادوه مرة ثالثة، فخرج سهمه للمرة الثالثة فقام وألقى نفسه في البحر، فأمر الله حوتاً كبيراً أن يبتلعه ولا يضره، كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨].

يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ إلى أهل نينوى المدينة التي تقدم ذكرها ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: هرب من قومه لما عصوه وسماه الله آبقاً كما يسمى العبد الذي هرب من سيده؛ لأنه بارح قومه بغير إذن من الله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ السفينة الممتلئة بالركاب ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: اشترك مع أهلها في القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾، أي: المغلوبين ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: فعل ما يلام عليه، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ﴾ أي: لبقي في بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وكان بطن الحوت قبره، فلا يرجع إلى الحياة إلى يوم القيامة.

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ أمر الله الحوت أن يلقيه على الأرض بشاطئ البحر ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض بسبب ابتلاع الحوت له ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ وهو القرع، ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ أي: بل يزيدون على مائة ألف، فآمنوا بالله ورسوله يونس، ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: دفع الله عنهم العذاب بعد ما شاهدوه، وقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو من قدر بمعنى قدَّر المشدد الدال، يقال: قدَر الله عليه كذا وكذا يقدره على وزن ضرب، وهذا الأمر مقدور، ويجمع على مقادير، قال الشاعر:

دَعِ المقاديرَ تَجْري في أعنَّتِها ... ولا تَبيتَنَّ إلا خالي البالِ
ما بَين غمضةِ عين وانتباهتِها ... يغيِّرُ الأمرُ من حالٍ إلى حالِ

والمعنى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ عقاباً لما بارح قومه بلا إذن، فلما ابتلعه الحوت نادى في الظلمات وهي ثلاث ظلمات، قال ابن مسعود: «ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل»[1]، نادى قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ توسل إلى الله بتوحيده واعترف بخطئه، وروى الترمذي وغيره عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «**دعوة ذي النون، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له**»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (ص١٣)، والحاكم (٢/ ٣٨٢) وصححه، وابن أبي حاتم ـ وهو ليس في القسم المطبوع من «تفسيره» ـ، وأحمد في «الزهد» ـ وهو ليس في مطبوعه، كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٦٠) ـ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٦، ٦٦٠، ٦٦١)، =

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: كما أنجينا يونس لما دعا بهذا الدعاء كذلك ننجي كل مؤمن مخلص إذا دعا به، ثم أخبر تعالى أن زكرياء عليه السلام لما نادى ربه ولم يكن له ولد يرث علمه وعلم آبائه، فاستجاب الله له وأصلح امرأته وكانت عاقراً؛ فحملت بيحيى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ...﴾ إلى آخره، أي: إن أولئك الأنبياء المذكورين كانوا يسارعون في الخيرات، أي: يبادرون إلى طاعة الله تعالى ويدعونه ﴿رَغَبًا﴾ فيما عنده من الخير، ﴿وَرَهَبًا ۖ﴾، أي: خوفاً منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾(١) [فاطر: ٢٨].

فصل

قال محمد تقي الدين: وفي ذكر دعوة أيوب، ويونس، وزكرياء، تعليم من الله لنا كيف ندعوه، فإن أحداً منهم لم يقل: بحق إبراهيم ونوح، بل دعوا الله تعالى متوسِّلين إليه بتوحيده والتذلل له، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: خائفين، خاضعين متذللين، والخشوع روح الدعاء، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢]

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ

= وأحمد (١/ ١٧٠)، وأبو يعلى (٧٠٧، ٧٧٢)، والبزار (٣١٤٩، ٣١٥٠ ـ «زوائده») في «مسانيدهم»، والطبراني في «الدعاء» (١٢٤)، والدورقي في «مسند سعد» (٦٣)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٤٦٥) رقم (١٣٧١٢)، وابن عدي (٦/ ٢٠٨٨)، والحاكم (١/ ٥٠٥ و٢/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٢٠) من طريقين عن سعد، وأحدهما حسنة.

(١) انظر: «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص٣٤٧ ـ ٣٥٦، ط. النبلاء).

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٣]

قال محمد تقي الدين: الخطاب هنا لمشركي مكة ومن سلك سبيلهم في الشرك بالله، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ يشمل الأوثان والأصنام من قباب أو أحجار وأشجار، ويشمل الطواغيت الذين يدعون الناس إلى عبادتهم أو عبادة غيرهم من المخلوقين، والحصب: ما يلقى في النار لتتقد، وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: فيها داخلون، ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ﴾ الأصنام والأوثان ﴿آلِهَةً﴾ حقاً، ما دخلوا جهنم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ العابدون والمعبودون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: أنين، وتنفس شديد، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من شدة العذاب.

ولما نزلت هذه الآية جاء عبد الله بن الزِّبعري إلى النبي ﷺ وجادله فقال: إن بعض العرب يعبدون الملائكة، واليهود يعبدون عزيراً، والنصارى يعبدون عيسى ابن مريم وأمه، فهل هؤلاء أيضاً يدخلون جهنم؟ فأنزل الله تعالى جوابه[1]،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٥٣) رقم (١٢٧٣٩)، وابن حبان في «الصحيح» رقم (١٧٥٨ ـ «موارد»)، ومن طريقه ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٧٣، ١٧٤) بسنده إلى ابن عباس؛ قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، قال عبد الله بن الزبعري: أنا أخصم لكم محمداً؛ فقال: يا محمد! أليس فيما أنزل الله عليك ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾؟ قال: «**نعم**». قال: فهٰذه النصارى تعبد عيسى، وهٰذه اليهود تعبد عزيراً، وهٰذه بنو تميم تعبد الملائكة؛ فهٰؤلاء في النار؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وفي إسناده عاصم بن بهدلة، **ضعّفه** جماعة.

وأخرجه البزار من طريق آخر عن ابن عباس، وفيه: «ثم نسختها ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ...﴾»، وفيه شرحبيل بن سعد مولى الأنصار، وثقه ابن حبان، وضعَّفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، قاله الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٨).

وأخرجه من طرق أخرى: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٨٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٩٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٠٦)، والهروي في «ذم الكلام» (ص١٦٥)، وابن أبي حاتم والحارث بن أبي أسامة وابن مردويه في «تفاسيرهم»، ومن طريق ابن مردويه والواحدي والحارث ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٧٢)، والضياء في «المختارة»، والخبر عند ابن هشام في «السيرة» (١/ ٢٥٩)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٨٨ ـ ٨٩)، وقال عنه في «تحفة الطالب» رقم (٢٣٥): «مشهور من كتب التفسير والسير والمغازي»، وقال ابن حجر: «هٰذا حديث **حسن**». =

وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: كل من عبد من دون الله، ولم يرض بعبادة العابدين، بل دعا إلى توحيد الله مبعد عن النار ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: صوتها ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من النعيم ﴿خَالِدُونَ﴾ باقون إلى الأبد ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وهو الخوف الذي يحصل للمجرمين عند النفخة الأخيرة في الصور، كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧] ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم بالبشرى قائلين لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وكان عبد الله بن الزبعري شاعراً شديد العداوة للإسلام، ثم أسلم ومدح النبي ﷺ، فمن ذلك قوله[1]:

يـا رسـولَ الـمـلـيـكِ إنَّ لِـسـانـي راتِـقٌ مـا فـتـقْـتُ إذْ أنـا بُـورُ

= وقال في «الكافي الشاف» (ص١١١ ـ ١١٢): «اشتهر في ألسنة كثير من علماء العجم وفي كتبهم أن النبي ﷺ قال في هٰذه القصة لابن الزبعري: «**ما أجهلك بلغة قومك؛ فإني قلت: وما تعبدون، وهي لما لا يعقل، ولم أقل: ومن تعبدون**»، وهو **شيء لا أصل له**، ولا يوجد لا مسنداً ولا غير مسند».

وقال في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ١٧٥): «وهٰذا لا أصل له من طريق ثابتةٍ ولا واهية»، ثم ذكر منشأ وهم من ذكر هٰذا الحديث.

وفي «تفسير الآلوسي» (١٧/ ٨٦) نقلاً عنه زيادة على المذكور: «الوضع عليه ظاهر، والعجب ممن نقله من المحدِّثين».

وحكم قبله ابن العربي في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٣٠٣) مثل هٰذا الحكم؛ فقال: «هٰذا خبر موضوع لا أصل له في السقيم؛ فكيف في الصحيح؟ ولا في الضعيف فضلاً عن القوي، ويدفعه القرآن؛ فإنه لو كان كما وضع هٰذا الملحد لما افتقرنا إلى الجواب بالآيات الثلاث، ولكان فيما وبَّخهم به كفاية، وأيضاً؛ فإنه كان يجب أن يقال: (إن من سبقت لهم منا الحسنى)، فتكون الآية مطابقة للحديث، ولٰكنه جاء بكلمة (الذين) التي هي معنى كلمة «ما»؛ فيكون معنى الآية الأولى: إنكم والذين تعبدون من دون الله، وتكون الآية الثانية تخصيصاً صحيحاً باللفظ للفظ، وبالمعنى للمعنى، ونحن لا نحتاج إلى هٰذا كله، ونعوذ بالله من التكلُّف للحق؛ فكيف بالتكلُّف للباطل؟!» وانظر: «المعتبر» (ص١٨٧) للزركشي، «الإيضاح» لمكي بن أبي طالب (٩٣، ٣٥١ ـ ٣٥٢)، «فهم القرآن» للمحاسبي (ص٣٥٧، ٤٧٣)، «الموافقات» (٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٤ و٤/ ٣٠ ـ ٣٣ ـ بتحقيقي).

(١) البيتان في «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٤٢) لابن سلام، و«جمهرة نسب قريش» (٢٨٨٩)، والأول منها في «إصلاح المنطق» لابن السكيت (١٢٥) وقال: «البُور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه».

إذْ أُجاري الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ ومَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبورُ

معناه: يا رسول مالك يوم الدين، إن لساني اليوم يمدحك ويصلح ما أفسده حين كنت بوراً، أي: هالكاً بالكفر وحين كنت أجاري الشيطان، أجري معه مطيعاً له في طريق الضلال، ومن يمل مع الشيطان ويطعه فهو هالك.

وفي (كتاب التوحيد) من «صحيح البخاري» في حديث رؤية المؤمنين ربهم، ما نصه: «**يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت**»[(١)] الحديث.

وهذا يزيد معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ يزيده وضوحاً.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٨ ـ ١١٠]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: متَّبعون على ذلك، مستسلمون منقادون له ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم أني حرب عليكم[(٢)] كما أنكم حرب عليّ[(٣)]، بريء منكم كما أنتم[(٤)] براء مني، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١] وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ههنا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لكم». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لي».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنكم».

أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وبراءتكم مني لعلمي بذلك، وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في جهرهم[1] وإسرارهم وسيجزيهم على ذلك على[2] القليل والجليل»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا الإسلام الذي طلب منهم هو الإسلام ظاهراً وباطناً بالقلب والجوارح واللسان، وهذه السورة مكية ومع ذلك أمر الله رسوله أن يتبرأ من المشركين، فالتوحيد الصحيح لا يقوم إلا على الحب في الله والبغض في الله والولاية لله والعداوة لله[4].

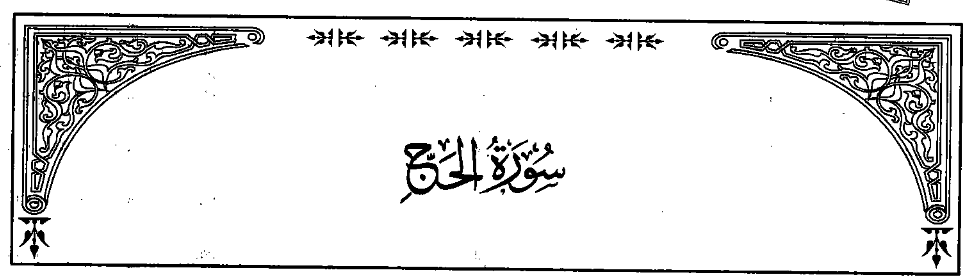
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إجهاركم».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٤٦١).

(٤) ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «صيانة العرض» (ص٣١) أن من كتبه «نصيحتي لصديقي العزيز: لا إيمان إلا بالحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله»، وقال: «يسر الله إتمامه ونشره»، ولا أدري هل أتمه أم لا؟!



سورة الحج

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]

قال (ك): «هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن[١] عبد غير الله فأشرك[٢] به، من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوّأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه[٣]، وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وإنه لم يبن قبله، كما ثبت في «الصحيح» عن أبي ذر، قلت: «يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: **المسجد الحرام**، قلت: ثم أي؟ قال: **بيت المقدس**، قلت: كم بينهما؟ قال: **أربعون سنة**»[٤]، **قال الله تعالى**: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] [الآيتين][٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقال تعالى ههنا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك[٦] ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ممن».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأشرك».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وسلّمه له».

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠). (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآية».

(٦) أما أثر قتادة فقد أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٥٣٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٥٨). وأما أثر مجاهد فأخرجه ابن جرير أيضاً في «تفسيره» (٢/ ٥٣٣) وهو في «تفسير سفيان» (ص٢١٠).

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطواف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين به، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب وفي النافلة في السفر، والله أعلم»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن المسجد الحرام وسائر المساجد الإسلامية إنما تؤسس على توحيد الله تعالى واتباع رسوله، ولا يجوز أن يحدث فيها شرك أو بدعة، فإن ذلك سعي في خرابها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤]، فكل من أدخل شيئاً من الشرك أو البدعة في بيوت الله يناله هذا الوعيد.

الثانية: كلام الحافظ (ﷺ) ودليله ظاهر في أن أول من بنى المسجد الحرام إبراهيم، وكأن الروايات التي تقول: بأن أول من بناه الملائكة ثم آدم.. إلى آخرها لم تصح عنده.

الثالثة: قوله: «إلا عند اشتباه القبلة»، معناه أن من لم يعرف القبلة لغيم أو ظلمة أو لكونه غريباً في البلاد، فإنه يختار جهة ويصلي إليها، وإذا تبين أنه أخطأ فلا إعادة عليه، وكذلك المقاتلون في سبيل الله إذا لم يتمكنوا من استقبال القبلة لشغلهم بقتال العدو، يصلون إلى أي جهة تناسب غرضهم الحربي، وكذلك المسافر يجوز له أن يتنفل على دابته أينما توجهت به.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤١ ـ ٤٢).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣٥]

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر المذكور من قبل ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كل ما حرمه أو أمر بتعظيمه، ﴿فَهُوَ﴾ أي: التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ لما فيه من الثواب ورفع الدرجات، فإن من عظّم حرمات الله عظّمه الله، ومن لم يعظمها أهانه الله، ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في سورة المائدة وغيرها كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣] أي: الرجس الذي هو الأوثان، فإن عبادتها شر النجاسات المعنوية، كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والأوثان كل جماد عبد من دون الله كالقباب والقبور والأشجار والأحجار، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ أي: شهادة الزور، ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ الحنفاء هم الموحدون المتبعون لملة إبراهيم، ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ تفسير له وتوكيد، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطع جسمه، ويأخذ كل منها نصيبه ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تسقطه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد، وهما نوعان من الهلاك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر المذكور ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: الإبل والبقر التي أهداها أصحابها لله، وجعلوا لها علامات تعرف بها وساقوها لينحروها ويذبحوها

في الحرم المكي، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: طاعتها لله، فلا يجوز التعدي عليها بنهب أو سرقة أو غير ذلك.

قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كالركوب والحلب ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ولا يحل نحرها أو ذبحها إلا في البيت العتيق: ما حوله من الأراضي، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: ذبحاً تعظيماً لله تعالى ورحمة للمساكين، ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: عند ذبحها أو نحرها ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: اعبدوه وحده لا شريك له ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ المتذللين لله تعالى؛ المتواضعين الخاشعين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من البلايا والمصائب ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المحافظين عليها، الذين يحرصون على أركانها وشروطها، ويصلون صلاة رسول الله ﷺ لا يخالفونها أبداً ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يؤدون زكاة أموالهم ويتصدقون على قدر جهدهم.اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فتنبَّهوا أيها الإخوان الذين شرح الله صدورهم للتمسك بكتابه واتباع سنة نبيه لعظم شأن التوحيد عند الله تعالى، فإنه ذكره في هذه الآيات مرتين:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

والثانية: في قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ وكل من خاف غير الله بالغيب، ودعاه لجلب خير أو دفع شر بطريق الهمة والحال، لا بطريق الأسباب، فقد اتخذه إلهاً مع الله، وكفر بمعنى لا إله إلا الله، فلا ينفعه قولها باللسان أبداً، وكل من خالف رسول الله ﷺ في أمر من أمور الدين على عمد فقد كفر بمعنى محمد رسول الله، وقد تقدم هذا في مواضع.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا

ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤١]

قال محمد تقي الدين: يتلخص تفسير هذه الآيات فيما يلي: لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة بعدما بايعه أهلها ليلة العقبة بمنى وقوي المسلمون أذن الله له تعالى في قتال أعدائه[1]، لأنهم ظلموا النبي ﷺ والمؤمنين به وآذوهم وطردوهم من بلدهم، وهموا بقتل النبي ﷺ وأخرجوه من بلده وليس لهؤلاء المُخْرجين ذنب إلا أنهم قالوا: ربنا الله، والمراد بقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، لا نعبد إلا الله، ونكفر بعبادة ما سواه.

والمشركون لا ينكرون عليهم توحيد الربوبية، فإنهم مقرون به، وإنما ينكرون عليهم توحيد الألوهية والعبادة، لأنهم قالوا كما في سورة ص: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ [ص: ٥] وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]. فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣٧﴾ [الصافات: ٣٧] وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر: ٤٥] وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ [غافر: ١٢].

---

(١) أخرج أحمد (١/ ٢١٦)، والترمذي (٣١٧١)، والنسائي في «المجتبى» (٣٠٨٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ١٧٢)، ، والطبراني (١٢٣٣٦)، والبزار في «البحر الزخار» (١/ ٦٩) رقم (١٦) وابن حبان (٤٧١٠)، والحاكم (٢/ ٦٦، ٢٤٩ و٣/ ٧ ـ ٨) من طرق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أُخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيَّهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، لَيَهْلِكُنَّ، فنزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [الحج: ٣٩] قال: فعرف أنه سيكون قتال، قال ابن عباس: هي أول آية نزلت في القتال.
قال الحاكم: «**صحيح على شرط الشيخين**» وأقره الذهبي، **وهو كما قالا**، وانظر لذلك: «الإنجاد في أبواب الجهاد» (١/ ٢١ ـ ٢٢ ـ بتحقيقي)، و«زاد المعاد» (٣/ ٦٣ ـ ٦٤)، و«السيرة» لابن كثير (٢/ ١٩٢ ـ ٢٠٧).

فصل

قال محمد تقي الدين: وكذلك المشركون في هذا الزمان إذا قيل لهم: ادعوا الله وحده، وتوجهوا إليه، واتركوا أولياءكم، يقولون: (الله ورجاله)! وبعبارتهم الخاصة: (رب برجالو) يعنون أن الله لا يكفيهم ولا تقضى حاجتهم إلا إذا أشركوا به رجالاً مخلوقين، فأفٍّ لهم!

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وقد وعدهم بالنصر فقال تعالى في سورة محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾ [محمد: ٧، ٨] وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١] وقد فعل ﷻ من نزول هذه الآية إلى يومنا هذا وسيفعل ذلك إلى يوم القيامة، **فكل هزيمة أصابت المؤمنين، فهي من ضعف إيمانهم وعدم قيامهم بالواجبات**[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ...﴾ إلى آخره يعني: إن الله تعالى شرع الجهاد والدفاع بحكمته البالغة، ابتلاء منه لعباده، وأمر المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم ودينهم، ولو تركوا الجو خالياً للمجرمين لتغلب أهل الباطل على أهل الحق، وعم الكفر والظلام وحينئذٍ تهدم معابد النصارى الخاصة بالرهبان وهي الصوامع، ومعابدهم العامة وهي البيع، ومعابد اليهود وهي الصلوات، ومعابد المسلمين وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولو شاء الله لأهلك المجرمين بعذاب من عنده، ولكن أراد سبحانه أن يبلو الناس بعضهم ببعض؛ لما في ذلك من الفوائد والنعم.

ثم أكد سبحانه وتعالى وعده بقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فلا يهزم جنده ولا يذل أولياؤه، والعجب من المفسرين الأولين فإنهم اختلفوا في معنى البيع والصلوات، وكل من يعرف شيئاً من السريانية والعبرانية[٢] يعلم يقيناً أن (البيع) معابد النصارى العامة، وأصل البيعة، بيضة

---

(١) يؤكده: ما علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب الجهاد والسير: باب عمل صالح قبل القتال عن أبي الدرداء قال: «إنما تقاتلون بأعمالكم».

(٢) للمصنف معرفة قوية بلغات متعددة، مثل: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأردو، =

بالسريانية؛ لأن السريانيين كثيراً ما يقلبون الضاد عيناً، فيقولون للأرض: أرعى، وللبيضة: بيعى، وإنما سميت كنيسة النصارى بيعة عندهم، لأنهم كانوا يجعلون لها قبة على شكل بيضة، ثم عم استعمالها في كل كنيسة لهم، والصلاة معبد اليهود، فإنهم يسمون الصلاة (تفِلَّه) بسكون التاء وكسر الفاء ولام مشددة مفتوحة بعدها هاء لا ينطق بها، إلا أنهم يسمون كنيستهم بيت تفله أي: بيت الصلاة، ولله در الإمام ابن جرير[1] فإنه فسر البيع بكنائس النصارى، والصلوات بكنائس اليهود، ولم يشك.

ثم وصف الله ﷻ المؤمنين الذين يستحقون النصر بقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أي: نتائجها، فمن أحسن حسنت عاقبته، ومن أساء ساءت عاقبته، فعاقبة التوحيد فوز، وعاقبة الشرك خسران.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]

قال (ك): «قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه ذليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه[2] لا يملك ضرّاً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤] وقال: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] فكل شيء تحت قهره

= والسريانية، والعبرانية، وكان يدرسها في بعض الجامعات المغربية. وله عناية في تتبع مشكلاتها وتأريخها، ظهر ذلك من مراسلاته مع أشهر من يتقنها في عصره، وهو الأستاذ الدكتور ربحي توفيق كمال ـ رحمه الله تعالى ـ.

(١) انظر: «تفسيره» (٦/ ٥٨٦)، وفيه أيضاً عن (الصلوات) عن بعضهم: «هي كنائس اليهود، تُدعى بالعبرانية: صَلُوتا».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه ﷻ عما يقول الظالمون [المعتدون][(١)] علوّاً كبيراً»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن ذلك تعلم أن كل من دعا غير الله دعاء عبادة أو دعاء مسألة، فإنه مبطل ضال مشرك، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً يوم القيامة.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧١ ـ ٧٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ ولهذا قال ههنا ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سوّل لهم الشيطان، وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٩٢).

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء.

﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: النار وعذابها ونكالها أشقّ وأطم[1] وأعظم مما تُخوِّفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم، وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس النار [مقيلاً ومنزلاً][2] ومرجعاً وموئلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾».

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. قال (ك): «يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام، وسخافة عقول عابديها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك، كما قال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «**ومن أظلم ممن [ذهب يخلق]**[3] **كخلقي؟ فليخلقوا مثل خلقي: ذرة أو ذبابة أو حبة**»[4]. وأخرجه صاحب «الصحيح» من طريق عُمارة عن أبي زُرْعة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **قال الله ﷻ**: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة**»[5].

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبهم شيئاً من الذي عليهم من الطيب، ثم [أرادوا أن يستنقذوه منه لما

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أشدّ وأهم».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منزلاً ومقيلاً».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» «خلق خلقاً».
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩١)، والبخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) وغيرهم.
(٥) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

قدروا][1] على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قال السدي وغيره: ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ العابد ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٢، ١٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨] وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عزّ كل شيء فقهره وغلبه، فلا يُمانَع ولا يُغالَب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن المشركين في كل زمان ومكان يعبدون من دون الله مخلوقين مثلهم، وليس لهم دليل على عبادتهم، لا من القرآن ولا من كتب الأنبياء السابقين، ولا يعلمون حقيقة ما يعبدون، فكلما وجدوا قبة مبنية ورأوا الناس يقصدونها لقضاء الحاجات عبدوها معهم، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن عبدوا قبة مبنية على حمار، وأخرى مبنية على كلب، والمشرك عديم العقل والتمييز، فلو سألته عن صاحب القبة والقبر الذي يعبده: متى وجد؟ وكيف كانت حاله؟ تجده جاهلاً كل الجهل، وهب أنه عرفه، وأنه كان عالماً صالحاً مستجاب الدعوة، أو نبيّاً رسولاً، أو ملكاً، فإن عبادته شرك بالله وكفر ولا تنفع العابد بل تضره وتهلكه.

الثانية: التمثيل دائماً بالأصنام غير جيد؛ لأن المشركين يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين وتماثيلهم، وهي الأصنام وقبورهم، والأماكن التي جلسوا فيها أو مروا بها، والشمس والقمر والكواكب وكل ذلك شرك وكفر.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أردت أن تستنقذه منه لما قدرت».

(٢) انظر: «تفسر ابن كثير» (١٠/ ٩٧ ـ ٩٨).

الثالثة: إن المشركين في كل زمان ومكان إذا دعاهم داعٍ إلى توحيد الله تذمروا وتنمروا وظهر في وجوههم المنكر، ويكادون يبطشون بالداعي، وكثيراً ما يبطشون به فعلاً.

الرابعة: هذا مثل عظيم ضربه الله للمشركين وتحداهم به، فإن جميع المعبودين من الأبرار والفجار والأصنام والأوثان لا يستطيعون ـ ولو اجتمعوا ـ أن يخلقوا ذباباً، ونرى كثيراً من المشركين يذهبون إلى قبور الصالحين ويطلبون منهم الأولاد، وذلك من سفاهة عقولهم، فالذي لا يستطيع أن يوجد ذباباً، كيف يستطيع أن يخلق جنيناً في بطن أمه، ويحفظ عليه حياته في زمان الحمل وبعده، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم: ٥٩].

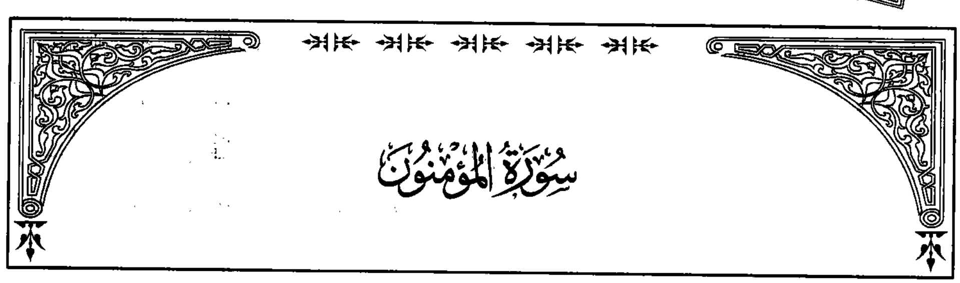
الخامسة: إن الله تعالى أخبر أن الذين يعبدهم المشركون كما أنهم عاجزون أن يخلقوا ذباباً، فهم عاجزون إذا سلبهم الذباب شيئاً أن يستردوه منه[1]، فإذا

---

(١) ذكر غير واحد من المعاصرين ممن لهم عناية بالإعجاز العلمي أن الذبابة تمد فمها من أسفل رأسها إلى السطح المقابل له، مكونة بذلك أنبوباً لامتصاص الطعام، وإذا نظرت بدقة إلى الأنبوب الماص، لوجدت الطرف الملامس لسطح الطعام متسعاً، وكأنه مكنسة كهربائية، بعد ذلك تبدأ الذبابة بفرز (إنزيم)، ليمكنها من تحليل الطعام وتحويله إلى مادة سائلة لمساعدتها على امتصاصه خلال الأنبوب لتلك الذبابة ، فالذبابة تبدأ بهضم الطعام قبل أن يدخل إلى جسمها، فإن الإنزيم (البروتينات المركبة) يعمل على تفكيك الطعام إلى مركبات بسيطة، فالطالب لا يمكنه استنقاذ ما سلبته الذبابة، لا بسبب العجز ـ مثلاً ـ عن استخدام أجهزة دقيقة تمكنه من تشريح الذبابة، واسترجاع ما استطعمته؛ بل لو فعل فلن يكون هو نفسه الطعام الذي سلبته الذبابة، وإنما يحتاج إلى تجميع مركباته التي قد تفتّتتْ، ولاحظ لو أنه أراد أخذ الطعام من فم الذبابة ـ ولو من بداية دخوله الماصّة ـ فإن ذلك لن يجدي شيئاً، وذلك لأن الطعام قد تحول إلى مركبات مختلفة حتى قبل امتصاصه، لذلك ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أبداً.

وهذه حقيقة علمية مسلمة، لا شية فيها، ولكن ما أثبته العلم التجريبي يصح إضافته إلى أقوال المفسرين استنباطاً بما استجد، وهو استنباط قد يكون مراداً من الله سبحانه ـ والله أعلم بمراده ـ، وقد يكون استنباطاً وافق شمول معنى الآية مصادفة، فيكون صحيحاً في ذاته، مطابقاً للآية الكريمة في ذاتها، وإن كان غير مراد من منزّل القرآن سبحانه، وما دام ذلك الكشف العلمي من معاني الآية الكريمة، فمعنى ذلك أنه ليس جميع معناها؛ بل ليس هو المراد رجحاناً؛ لأن كونه مقصوداً احتمال لا مرجِّح له، ولا مانع منه. والمعنى السابق المذكور في كتب التفسير لا يدفعه أي احتمال معتبر، فهو صحيح في ذاته، انظر مقالة (ضعف الطالب والمطلوب) للعلامة الشيخ أبي عبد الرحمن الظاهري، المنشور في «المجلة العربية»، العدد (٣٤٨) السنة (٣١) بتأريخ محرم ١٤٢٧هـ ـ فبراير ٢٠٠٦م.

كان شيخ الطريقة الذي يعبده أتباعه يأكل عسلاً مثلاً، وجاء ذباب فأخذ شيئاً من ذلك العسل، لا يستطيع الشيخ أن يقاومه ويسترده منه، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ولو قدروه حق قدره ما عبدوا معه غيره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، لا يغلب من استنصره.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣ ـ ٢٥]

قال (ك): «يخبر تعالى عن نوح ﷺ حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا[1] تخافون من الله في إشراككم به؟ فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، يعنون: يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحي إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبيّاً، لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً، ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: ببعث البشر ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه»[2].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لا»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ١٢٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم الكلام في قصة نوح مع قومه، وسيأتي إن شاء الله، والمهم في هذا الموضع أن حجة قوم نوح وهي قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هي حجة المشركين في هذا الزمان يقولون: لم نزل نرى العلماء ونسمع كلامهم، فما رأينا أحداً منهم ينكر بناء القباب على القبور والذبح لها، والنذور وإقامة المواسم حتى جاء هذا الرجل!!

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣١ ـ ٣٤]

قال محمد تقي الدين: يقول الله تعالى: وبعد قوم نوح أنشأنا قوماً آخرين، وأرسلنا إليهم رسولاً منهم، وأول ما دعاهم إليه كسائر رسل الله أن اعبدوا الله وحده لا شريك له، ولا تعبدوا معه أحداً، فكذبوه وأنكروا البعث والمعاد، فدعا الله تعالى أن ينصره عليهم، فاستجاب الله دعاءه وأهلكهم، وتلك سنته سبحانه مع رسله، وكل من اتبعهم بصدق إلى يوم القيامة، اللهم اجعلنا ممن اتبع رسلك وخاصة أفضلهم محمداً ﷺ بصدق وإخلاص، فنصرتهم على أعدائهم، وأيدتهم بروح منك.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ

﴿وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٢ ـ ٦١]

قال (ك): «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا﴾ أي: الأمم الذين بعثت الأنبياء إليهم[(١)]، ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال [تعالى مهدداً][(٢)] لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق: ١٧].

وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾، يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾، وقال الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه**، قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: **غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم الأنبياء».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متهدداً».

يمحو الخبيث»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿سَٰبِقُونَ﴾، قال (ك): «يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر[2] جمع إساءة وأمناً.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢] أي: أيقنت ما كان إنما[3] هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خبراً فهو حقٌّ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا هو[4] واحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله[5]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون[6] أن لا يتقبل منهم؛ لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد والترمذي بسنده عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنه يصلي ويصوم ويتصدق**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) ـ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٦٦) ـ، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٣١٣)، والشاشي (٨٧٧)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١١٥٨)، والبزار (٣٥٦٢ ـ «زوائده»)، والحاكم (٢/ ٤٤٧)، والبغوي (٢٠٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (٥٥٢٤) مرفوعاً، **وصوّب الدارقطني** في «العلل» (٥/ ٢٧١) **وقفه**.
وأخرج الموقوف: ابن المبارك في «الزهد» (١١٣٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٣١٣)، والطبراني في «الكبير» (٨٩٩٠) وفصّلت في نصرته في شرحي لجزء أبي عمرو الداني في علوم الحديث، وسميته «بهجة المنتفع» وفرغت منه، والحمد لله وحده.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المنافق». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنما».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كقوله»!

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

ويخاف الله ﷻ»(١).

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾، قال صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن»: «﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، أي: أولئك يسارعون في نيل خيرات الدارين بمزاولة الأعمال الصالحة، فيعطيهم خير الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: يسبقون غيرهم».

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن دين الأنبياء واحد، وإن اختلفت شرائعهم، فكلهم جاؤوا بعبادة الله وحده لا شريك له، وبإقامة العدل والإحسان بين الناس، كما قال تعالى في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فليس في دين أي نبي شرك بالله ولا ظلم لعباد الله، فتفرقت الأمم في الدين وتنازعت، وتفرقت كل أمة منها إلى فرق، والناجون منهم هم المتبعون للرسل، **ومن طبع الأحزاب والفرق أن يفرح كل حزب بما عنده، ويدّعي أنه الحق،** ولكن (عند الصَّباح يحمدُ القومُ السُّرَى)(٢) ـ والصباح: الموت وما بعده ـ فحينئذٍ يفرح أهل الحق الذين وحَّدوا الله واتَّبعوا رسله، ويندم أهل الباطل الذين أشركوا بالله وابتدعوا في دين الله، والمثل الألماني يقول ما معناه: (الذي يضحك آخراً هو خير الضاحكين)، يعنون بهذا المثل: إن الذي يضحك أولاً ثم يبكي آخراً فضحكه شر عليه.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والحميدي (٢٧٥)، وأبو يعلى (٤٩١٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣٩٧٧)، والحاكم (٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، ـ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ـ والبيهقي في «الشعب» (٧٦٢)، و«معرفة السنن والآثار» (٢٠٨٥٤)، وانظر: «الصحيحة» (١/ ١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦) رقم (١٦٢)، و«العلل» للدارقطني (١١/ ١٩٣)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٠/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

(٢) مَثَلٌ: أوّلُ من قاله خالد. وهو بيت شعر، وعجزه (وتَنْجلي عنهم غَيَاباتُ الكَرَى)، يُضرب للرجل يحتمل المشقّة رجاء الراحة. انظر: «مجمع الأمثال» (٢/ ٣١٨): وجعله العسكري في «جمهرة الأمثال» (٢/ ٤٢) عجز بيت صدره: (قُلتُ: أُعَزِّي صاحبي أَلَّا بَلَى)، ونسبه للجُميح. وانظر: «المستقصى» (٢/ ١٦٨)، «فصل المقال» (٢٠٩، ٢٦٦)، «الفاخر» (١٩٣)، «الحيوان» (٦/ ٥٠٨)، «معجم الأمثال العربية» (٢/ ١٥٨٢ ـ ١٥٨٤).

الثانية: قول النبي ﷺ: «**إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ**»(١)؛ مثال ذلك: من اغتصب أرضاً وزرعها واكتسب من زراعته مالاً كثيراً فحج به وتصدق وأنفق على الأرامل واليتامى، وبنى به المساجد لا يقبل الله منه شيئاً، لأن ذلك الاغتصاب سيئة، وتلك الأعمال التي عملها وظنها من الصالحات هي أيضاً سيئة، والسيئ لا يمحو السيئ، كمن غسل الدم بالدم.

الثالثة: قرأ الجمهور ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ من آتى الرباعي، بمعنى: أعطى، وقرئ «**يأتون ما أتوا**»(٢) من أتى الثلاثي، أي: يفعلون ما فعلوا، وهي قراءة عائشة روتها عن النبي ﷺ(٣) ولذلك التبس عليها الأمر فسألت عن الأفعال التي يفعلونها أهي المعاصي؟ فأخبرها النبي ﷺ(٤) أنها الأعمال الصالحة وهم مع ذلك خائفون أن لا تقبل منهم؛ لأن محبطات الأعمال كثيرة، والحازم يغلب الخوف على الرجاء إلا في الاحتضار حين تنقطع الأعمال أو تكاد، ولو قرأت عائشة بقراءة الجمهور ما وقع لها التباس.

الرابعة: قول النبي ﷺ لعائشة: «**لا يا بنت الصديق**»(٥). فيه تكريم لها

---

(١) قطعة من حديث ابن مسعود المتقدم قريباً بتمامه، وهناك تخريجه.

(٢) هذه قراءة ابن عباس وقتادة والأعمش والحسن والنخعي وعاصم الجحدري، قال الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ١٦) عن القراءتين: «وكلاهما جيد بالغ».
وانظر: «المحتسب» (٢/ ٩٥)، «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٨)، «البحر المحيط» (٦/ ٤١٠)، «تفسير الرازي» (٢٣/ ١٠٨)، «الكشاف» (٢/ ٣٦٤)، «تفسير ابن عطية» (١٠/ ٣٧١)، «زاد المسير» (٥/ ٤٨٠)، «الدر المصون» (٥/ ١٩٢).

(٣) ورد ذلك في حديث فيه قول عائشة عن هذه القراءة:
«أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أُنزلت، أو قالت: أشهد لكذلك أنزلت وكذلك كان رسول الله ﷺ يقرؤها، ولكن الهجاء حُرِّف».
أخرجه أحمد (٦/ ٩٥)، وإسحاق بن راهويه (١٦٤٤ مسند عائشة)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٩/ ٢٨)، وابن جرير (١٨/ ٣٣)، وأبو عمر الدوري في «جزء فيه قراءات النبي ﷺ» رقم (٨٥، ٨٦)، وأبو أحمد الحاكم في «الكنى» ـ كما في «تعجيل المنفعة» (٤٨١) ـ **بسندٍ ضعيف**، فيه أبو خلف مولى بني جمح مجهول.
نعم، له طرق أخرى عند الحاكم (٢/ ٢٣٥، ٢٤٦)، والفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٣٨)، ولكن مدارها على مجاهيل وضعفاء أو متروكين، ولذا لما صححه الحاكم، تعقبه الذهبي بقوله: «يحيى ضعيف» يريد ابن راشد.

(٤) في حديث، تقدم لفظُه وتخريجُه.

(٥) قطعة من حديث تقدم قريباً.

ولأبيها ﷺ، فويل للرافضة الذين يبغضونهما بغضاً شديداً، ومن العجب أني لما كنت في العراق تخرجت على يدي في جامعة بغداد طالبة اسمها عائشة من الموصل، وكانت بيني وبين أخويها صداقة، فبقيت في بيتنا تنتظر التعيين، فعيَّنتها وزارة المعارف معلمة في مدرسة ثانوية بمدينة كربلاء، وكربلاء مدينة شيعية فيها ضريح ينسب للحسين بن علي ﵄ وعليه قبة مذهبة، وهذا الضريح مكذوب؛ لأن قبر الحسين مجهول، لأنه قتل في فتنة، وكذلك القبة التي في القاهرة، يزعمون أن رأسه مدفون تحتها، هو كذب أيضاً، فإن رأسه حمل إلى يزيد بن معاوية، ولا يعرف ما جرى عليه بعد ذلك، والمقصود أن الطالبة المذكورة لم تقبل العمل في كربلاء؛ لأنه من المشهور عند الناس أن الشيعة الرافضة إذا وجدوا شخصاً اسمه أبو بكر أو عمر أو امرأة اسمها عائشة يؤذون من يسمى بهذه الأسماء وربما قتلوه.

وقد أخبرني الشيخ عمر خطاب أبو تلميذي (قيس خطاب) أنه يلاقي مشقة عظيمة وصعوبات في المعاملة بسبب اسمه[1]، فقال لي: إن والديَّ جلبا عليَّ شقاءً بسبب تسميتهما لي بهذا الاسم، فكلما دخلت مكتباً من مكاتب الدولة، وسألني رئيسه: ما اسمك؟ فقلت: عمر، يظهر العبوس في وجهه، ولا يقضي حاجتي إلا بعد اللتيا والتي، فهؤلاء القوم الضالون يهينون ويبغضون مَنْ كرَّمهم الرسولُ وأحبَّهم، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلوا به.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]

«ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك [والتصرف والعبادة][2] فقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق[3]،

---

(١) كذا في زمنه! أما اليوم فيقتل أهل السنة بسبب أسمائهم، ولا سيما في الحوادث الأخيرة، والفتن المدلهمة في العراق، وقى الله المسلمين شرورها، ونجَّى أهل السنة والجماعة منها، وحفظ الله بيضتهم، وكثّرهم، وبارك فيهم، وعصم دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخلق».

فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم، متَّسق كلٌّ مِن العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض.

والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد[1] سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوّاً كبيراً، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَٰلَىٰ ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعالى وعزَّ وَجَلَّ عما يقول الظالمون والجاحدون»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: وتقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وتقدم في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣] فالنظام الواحد يدل على إله واحد، والألوهية لا توهب، لأنها خاصة بالواحد الأحد، ومن سخافة جهال المغاربة أنهم يقولون في الإنسان والحيوان والجماد: هذا الشيء فيه بركة، وكل ما فيه بركة بزعمهم يعبدونه حتى وصلوا إلى عبادة الحمير، ففي الدار البيضاء حجر يسمى للاحمارة تعبده النساء[3].

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأراد الآخر».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ١٤٣ ـ ١٤٤).
(٣) للمصنف ثلاث مقالات في الرد على عابديه، كتبها استجابة لدعوة امرأة غيورة على التوحيد، ونشرها في جريدة «العلم» المغربية الأعداد (٤١١٣، ٤١١٩، ٤١٣١) بتأريخ ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٨٠، وهي بعنوان (صور من حياتنا الاجتماعية)، وهي في كتابنا «مقالات الهلالي» يسر الله نشره بمنه وكرمه.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧، ١١٨]

قال (ك): «يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ﴾ أي: لا دليل على قوله فقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: الله[1] يحاسبه على ذلك، ثم أخبر ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أي: لديه يوم القيامة فلا فلاح لهم ولا نجاة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه: محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناه: أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: هاتان الآيتان معناهما واضح، وقد أجاد الحافظ ابن كثير في تفسيرهما، وتقدم البرهان على أن من دعا غير الله لقضاء حاجته أو تفريج كربه، فقد اتخذ ذلك المدعو إلهاً، وكفر بالله، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، ومن تبرك بشجرة أو حجر فقد اتخذه إلهاً، وقد تقدم بسط ذلك في سورة الأعراف، وقول الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾: «إنها جملة معترضة» عندي فيه نظر، والظاهر أنها صفة لـ ﴿إِلَـٰهًا﴾ وهي صفة لازمة كقول النحاة: خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها، فأطول حال لازمة، والحال أصلها صفة، ويجوز أن تكون هذه الجملة حالاً من ﴿إِلَـٰهًا﴾؛ لأن النكرة إذا وصفت تجيء الحال بعدها، قال الشاعر:

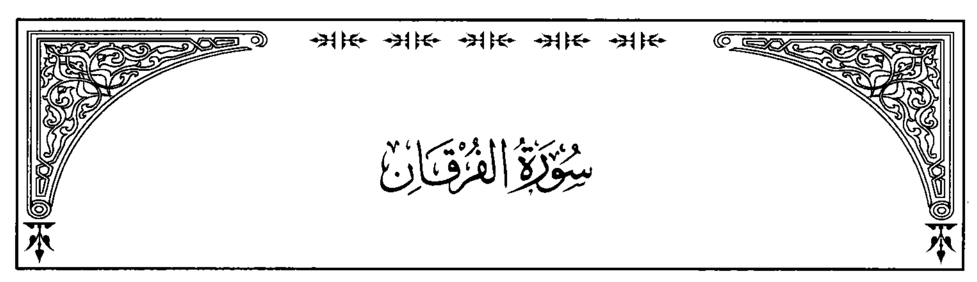
نجَّيتَ يا ربُّ نُوحاً واسْتَجبتَ له ... في فُلكٍ ماخرٍ في اليَمِّ مَشْحُونا

فمشحوناً: حال من الفلك؛ لأنها وصفت بماخر، وهي أيضاً حال لازمة.

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ١٥٧ ـ ١٥٨) بتصرف.



سُورَةُ الفُرْقَانِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ١ ـ ٣]

قال (ك): «معنى ﴿تَبَارَكَ﴾: كثرت بركته وخيره، و﴿الْفُرْقَانَ﴾ هو القرآن؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ هذه صفة مدح وثناء، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين[١] المحكم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢] الذي جعله فرقاناً عظيماً[٢] ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»[٣]. وقال: «**إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**». فذكر منهن: «**إنه كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة**»[٤]، كما قال[٥] تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العظيم المبين المفصل».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنما خصه به».

(٣) أخرجه مسلم (٥٢٣)، وأبو عوانة (١/ ٣٩٥)، والترمذي (١٥٥٣)، وأحمد (٢/ ٤١٢)، وغيرهم من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر.
وأخرجه مسلم (٥٢٢)، وأحمد (٥/ ٣٨٣)، والبيهقي (١/ ٢١٣) من حديث حذيفة.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال الله».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] الآية، أي: الذي أرسلني[١] هو مالك السمٰوات والأرض[٢]، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ونزه[٣] نفسه عن الولد وعن الشريك، ثم أخبر أنه ﴿خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء، وربه ومليكه وإلٰهه، وكل شيء تحت [قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره][٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إلى قوله: ﴿نُشُورًا﴾. قال (ك): «يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء المالك لأزمّة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لم[٥] يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعابديهم؟

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: ليس لهم[٦] من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله[٧] ﷻ الذي يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة، أولهم وآخرهم: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] فهو الله الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي لا ولد له، ولا والد ولا عديل ولا نديد[٨] ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد»[٩]. اهـ (ك).

فصل

قال محمد تقي الدين: قول (ك): «لمن يستظل بالخضراء ويستقل على

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الذي يقول للشيء: كن، فيكون وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال هٰهنا: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فنزه».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قدره وتقديره وتسخيره وتدبيره».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليهم».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مرجعه كله إلى الله».

(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بديل»!

(٩) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤) بتصرف.

الغبراء»، الخضراء: هي السماء، والغبراء: هي الأرض، كما قال النبي ﷺ: «**ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر**»(١). المراد بذلك أن محمداً ﷺ أرسل إلى جميع من هم على الأرض وتحت السماء من العقلاء ـ الإنس والجن ـ ليكون لهم نذيراً يحذرهم من عذاب الله إذا أقاموا على الشرك والمعاصي، ولم يمتثلوا ما أمرهم الله به.

الثانية: إن المشركين سفهاء؛ لأنهم اتخذوا آلهة من أهل الأرض، وآلهة أخرى من أهل السماء، مع علمهم بأنهم مخلوقون عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة، فكيف يستطيعون أن ينفعوا غيرهم؟

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان: ١٧ ـ ١٩]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٠٢)، وابن حبان (١٠/ ٢١٣) رقم (٧٠٨٨ ـ «التعليقات الحسان»)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ٢٢٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢/ ٢٣١)، والحاكم (٣/ ٣٤٢) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٥/ ٤٥٤): «وهو كما قالا على ضعف يسير في عكرمة بن عمار».

قال أبو عبيدة: وفي الباب ما يقوّيه، وهو حديث عبد الله بن عمرو، أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٢٤)، وأحمد (٢/ ١٦٣، ١٧٥، ٢٢٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٩/ ٢٣)، والترمذي (٣٨٠١)، وابن ماجه (١٥٦)، وابن سعد (٤/ ٢٢٨)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١/ ١٤٦)، والحاكم (٣/ ٣٤٢). وفي الباب عن أبي هريرة وأبي الدرداء، ومن مراسيل مالك بن دينار وابن سيرين، والحديث **حسن بمجموع طرقه**.

﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: هو عيسى [والعزير] والملائكة(١) ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآية، فيقول(٢) تبارك وتعالى [للمعبودين](٣): أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟(٤) ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧](٥) الآية.

ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك(٦) فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برءاء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ الآية [سبأ: ٤٠، ٤١] ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلهم من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ قال ابن عباس: أي: هلكى(٧).

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٤١٥) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٧٢)، وهو في «تفسير مجاهد» (٢/ ٤٤٨). وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٦٥) للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، وما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وهو في «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: فيقول الرب».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٤) في الأصل: «يعبدوا».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى آخر».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا نحن ولا هم».

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٧٣) وابن جرير (١٧/ ٤١٧)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٩٤٤)، ومثله في «تفسير مجاهد» (٢/ ٤٤٨)، وأسنده عنه ابن جرير (١٧/ ٤١٧) والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٦٥).

[من دون الله][1] فيما زعمتم أنهم لكم أولياء [أنهم][2] يقربونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ﴾ أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي: يشرك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد عظيمة النفع لمن فكر فيها وفهمها:

الأولى: إن الله تعالى يجمع العابدين والمعبودين يوم القيامة؛ ليخزي العابدين ويوقعهم في الحسرة والندامة، فيقول للمعبودين كعيسى بن مريم، وعزير والملائكة، والجن والصالحين: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ فقلتم: اعبدونا بالذبح والدعاء والنذر والاستغاثة والتوكل والرجاء والخضوع والتذلل، ونحن نتكفل لكم بقضاء حاجاتكم عند الله في الدنيا وندخلكم الجنة يوم القيامة؟ أم من تلقاء أنفسهم ضلوا السبيل فعبدوكم من دون الله، واعتمدوا عليكم في قضاء الحاجات وتفريج الكربات؟ فيجيب أولئك المعبودون عن سؤال الله تعالى لهم بقولهم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ ننزهك أن يعبد معك غيرك، ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ أن نقول لهؤلاء المشركين ولا أن نرضى بعملهم، ولكن أنت يا رب متعتهم ومتعت آباءهم من قبلهم بطول العمر وسعة الجاه والأموال والأولاد حتى نسوا ذكرك ونبذوا كتابك وما جاءت به رسلك، وكانوا قوماً هالكين.

ثم يقول الله تعالى للعابدين: اسمعوا، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ وتزعمون من أنهم كانوا راضين عنكم بعبادتكم لهم، فأنتم وهم في هذا اليوم عاجزون، لا يستطيعون صرف العذاب عنكم، ولا تستطيعون أن تنصروا أنفسكم ولا غيركم، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ ظلماً كبيراً ـ وهو الشرك بالله ـ أو ظلماً صغيراً ـ وهو المعاصي ـ، ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾. اهـ.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنكم اتخذتموهم قربانا».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٢٩١ ـ ٢٩٣) بتصرف.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤١ ـ ٤٤]

قال (ك): «يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية [الأنبياء: ٣٦] يصفونه[١] بالعيب والنقص وقال ههنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ أي: على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله، كما قال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ يعنون: أنه كاد يفتنهم[٢] عن عبادة الأصنام[٣] لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها[٤] قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الآية.

ثم قال تعالى لنبيه منبهاً له[٥] أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً[٦] كان دينه ومذهبه كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ الآية [فاطر: ٨] ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس: «كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول»[٧].

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية، أي:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعنون». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يثنيهم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أصنامهم».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على عبادتها».
(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في هوى نفسه».
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٩٩) وعزاه في «الدر المنثور» (١١/ ١٨١) لابن مردويه أيضاً.



هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلم يفعلوا[(١)] وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: كلُّ المشركين من عُبَّاد الشمس والقمر والملائكة والتماثيل وأرواح الأنبياء والصالحين وقبورهم والقباب المبنية عليها والأشجار التي جلسوا تحتها كلهم سواء، ولا يعقل أن يعبد أحد حجراً لأنه حجر، وإنما يعبده لأنه يعتقد أن روح معبوده متلبِّسة به، وهي التي يرجو أن تقضي حاجته، وهذا من جهلهم بالله العظيم، الذي يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] والجهل أصل لما في النفس من داء، وقانا الله تعالى شر جهلنا، ورزقنا العلم النافع.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٥٥ ـ ٦٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضرّاً ولا نفعاً[(٣)] بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء،، فهم يوالونهم[(٤)] ويقاتلون في

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٣٠٩).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نفعاً ولا ضرّاً».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يوالون لهم».

سبيلهم، ويعادون الله ورسوله [والمؤمنين][(١)] فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون، يقاتلون عنهم ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصر[(٢)] لله ولرسوله [وللمؤمنين][(٣)] في الدنيا والآخرة، قال مجاهد: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ قال: «يظاهر الشيطان على[(٤)] معصية الله ويعينه»[(٥)].

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله، ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ[(٦)] وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨] ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣] الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧] وروى ابن أبي حاتم بسنده عن شهر بن حوشب قال: لقي سلمانُ النبيَّ ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له فقال: **«لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي**

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والنصرة».
(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «في».
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧١١) وابن جرير (١٧/ ٤٧٧)، وبنحوه في «تفسير مجاهد» (٢/ ٤٥٥)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٧٤) إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم».

لا يموت»[١]، وهذا مرسل حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: اقرن بين حمده وتسبيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك**»[٢] أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: لعلمه[٣] التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية، أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السمٰوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: يدبر الأمر ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين، وقوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ فما قاله [هو الحق][٤] وما أخبر به فهو الصدق[٥] وهو الإمام المحكم، الذي إذا تنازع الناس في شيء، وجب ردّ نزاعهم إليه، فما وافق[٦] أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها[٧] فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية [النساء: ٥٩] ولهذا قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٨١٣) رقم (١٥٢٩١)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ١٠٣)، والطبري في «تاريخه» (١/ ٢٣٤، ط. الكتب العلمية)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥/ ٣٨٧) (رقم ٨٥١٠، ط. الكتب العلمية) وهو مرسل، **ولكن له شواهد هو بها حسن إن شاء الله تعالى**، منها: حديث أنس، وابن أبي أوفى، وأبي هريرة: وخرجتها في تعليقي على «إعلام الموقعين» (٦/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، وانظر: «الإرواء» (٧/ ٥٤ ـ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩٤) من حديث عائشة.

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعلمه»!

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فهو حق». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صدق».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يوافق». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يخالفها».

بِهِۦ خَبِيرًا﴾، قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال: «ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك»[١].

ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: لا نعرف الرحمن وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمٰن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم[٢]، ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: هو الله وهو الرحمن وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: لا نعرفه ولا نقر به، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد قولك: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمٰن الرحيم ويفردونه بالإلٰهية ويسجدون له، وقد اتفق العلماء[٣] رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر في موضعه، والله تعالى أعلم»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: لقد أجاد الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيات، ولم يترك مقالاً لقائل، والمشركون في هذا الزمان وفي كل زمان لا يريدون أن يصدّقوا أن آلهتهم لا تنفع عبادتها، ولا يضر ترك عبادتها.

وفي هذه السنة سنة ١٣٩٤هـ انقطع المطر في المغْرب وطال انقطاعه فأبى المشركون أن يصلوا صلاة الاستسقاء وتشاءموا منها، وعمد بعضهم إلى ثور

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧١٥) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ١٩٧ ـ ط. هجر) إلى الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير. وهو عند ابن جرير (١٧/ ٤٨١) عن ابن جريج قوله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ومن حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٣) حكى الإجماع على السجدات المتفق عليها الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) وعدّ هذا الموطن منها. وانظر: «مراتب الإجماع» (ص٣١ ـ ٣٢) و«الإقناع» (٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٩ رقم ١٠٦٧) لابن القطان، وهو أكبر موسوعة تراثية في الإجماع.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣١٥ ـ ٣١٨) بتصرف.

فاشتروه بثمانمائة درهم، وساروا به إلى الوثن المنصوب على قبر إدريس بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ، وذبحوه له متوسلين بذلك لنزول المطر فخيّب الله سعيهم(١).

وأخبرني تلميذي الشاب النجيب المحقق علي بن أحمد الريسوني(٢) أن السفهاء من أهل شفشاون ذبحوا بقرة سوداء في موضع يسمى رأس الماء بقرب الكهف المنسوب إلى الجنية مسعودة، ومشوا حفاة حاسري الرؤوس إلى قبر الشيخ الوافي، كل ذلك فعلوه لطلب الغيث فردهم الله خائبين(٣)، ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧١]

أخرج البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم عن عبد الله بن مسعود: سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، قال: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»، قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية(٤).

(١) فصّل المصنف في هذه الحادثة في «ديوانه» وفي غير ما مقالة له. ولا داعي للتطويل، والله المستعان.

(٢) ظفرتُ بمجموعة مراسلات بينه وبين المصنف، تدل على سعة اطلاع هذا التلميذ، وأنه حقيق بالوصف المذكور.

(٣) انظر: ما قدمناه في تقديمنا لهذا الكتاب عن معرفة المصنف لما عليه الناس من مخالفات في توحيد الألوهية، وممارستهم لذلك في شتى البقاع والصقاع التي زارها ودعي إليها، وأكثر ما ذكر ذلك في كتابه «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة».

(٤) سبق تخريجه.

وروى الإمام أحمد بسنده عن المقداد بن الأسود ﷺ، يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**ما تقولون في الزنا؟**» قالوا: حرمه الله ورسله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**»، قال: «**فما تقولون في السرقة؟**» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره**»[1].

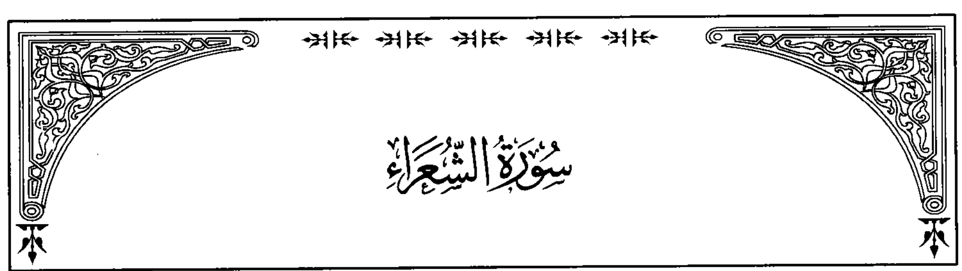
وقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: جزاءً [وعقاباً][2]. وفسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي: حقيراً ذليلاً ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي: في الدنيا إلى الله ﷻ من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣)، وفي «التاريخ الكبير» (٨/ ٥٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/رقم ٦٠٥) وفي «الأوسط» (٦٣٢٩)، **وإسناده جيد**. وقال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٩٢٠ ـ بعنايتي) والهيثمي في «المجمع» (٨/١٦٨): «رجاله ثقات» قلت: وله شواهد، يصح بها إن شاء الله تعالى، وانظر «السلسلة الصحيحة» (٦٥).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا أشبه بظاهر الآية ولهذا فسّره....».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦) بتصرف.



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ١٠٤]

قال (ك): «هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام

إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل[١]، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ، فـ ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون[٢]، أي: مقيمون[٣] على عبادتها ودعائها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾؛ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٧٠].

فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلْتَخلُص إليّ بالمساءة فإنّي عدوٌّ لها لا أبالي بها[٤] ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الآية [يونس: ٧١]، وقال هود ﷺ: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال[٥]: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨١] وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]؛ يعني: لا إله إلا الله[٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: هو

---

(١) دليله: قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١].

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مقيمين». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أباليها».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال».

(٦) ورد هذا التفسير عن غير واحد من السلف، وانظر: «تفسير ابن وهب» (٢/١٤٦) و«تفسير مجاهد» (٢/١٨٥)، «والدعاء» للطبراني (١٥٤١، ١٥٤٢).

الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه فكل يجري على [ما قدر له][1] وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أي: هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء وأحيى به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً ﴿نُسْقِيَهُ[2] مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾» [الفرقان: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخَلْقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، والغضب حذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠] وكذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ أي: هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذي يبدئ ويعيد، ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ أي[3]: لا يقدر على غفران[4] الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وهو الفعال لما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، هذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً، قال ابن عباس: «وهو العلم»[5]، وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «**اللهم في الرفيق الأعلى**»[6] قالها ثلاثاً، و[في][7] الحديث في الدعاء: «**اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين،**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قَدَر».
(٢) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «يسقيه»!
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو الذي».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «غَفْر».
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٨١) (رقم ٥٧٠٧).
(٦) أخرجه البخاري (٦٥٠٩)، ومسلم (٢١٩١) من حديث عائشة.
(٧) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدلين»[(١)] وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به، ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أي: أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ الآية، كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١] وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، وقد قطع الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: أجرني من الخزي يوم القيامة، يوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم، قال البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين**»[(٢)]، وفي (أحاديث الأنبياء) بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة على وجه آزر قَتَرة وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول لإبراهيم: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي [الأبعد]**[(٣)]**؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩) والنسائي في «الكبرى» (٦/١٠٤٤٥) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٦٠٩) ـ والبزار (١٨٠٠ ـ «زوائده») وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٨١) والطبراني (٤٥٤٩) وفي «الدعاء» (١٠٧٥) والحاكم (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٣/ ٢٣ ـ ٢٤) وأبو نعيم (١٠/ ١٢٧) والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٧٣) من حديث عبيد بن رفاعة، ووهم بعض الرواة في اسمه، كما في «المسند»، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: «الحديث مع نظافة إسناده منكر، أخاف أن يكون موضوعاً»! وقال في «السيرة النبوية» (١/ ٤١٩ ـ ٤٢٠ ـ ط. الرسالة): «هذا حديث غريب منكر»! **وصححه** شيخنا الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (ص٢٥٩ ـ ٢٦٠/رقم ٥٣٨) وفي «تخريج فقه السيرة» (٢٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٧٦٩).

(٣) سقطت من الأصل، وهي عند البخاري، وكذا عند ابن كثير.

الجنة على الكافرين، ثم يقال[١]: يا إبراهيم انظر تحت رِجلَيك[٢]؛ فَيَنْظُرُ، فإذا هو[٣] بذيخ متلطِّخ، فيؤخَذُ بقوائمه فيُلقى في النار»[٤].

قال صاحب «اللسان»: «وفي حديث القيامة: «**وينظر الخليل ﷺ، إلى أبيه، فإذا هو بذيخ متلطخ**». الذيخ: ذَكَرُ الضِّباع، فأراد[٥] بالتلطُّخ التطلخ برجيعه أو بالطين»[٦].

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لو افتدى بمن في[٧] الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذٍ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له، والتبرؤ من الشرك [وأهله][٨]، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: سالم من الدنس والشرك». وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾... إلخ.

قال (ك): «﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة[٩] مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها [في الدنيا][١٠] ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: أظهرت وكشف عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ قال مجاهد: «يعني: [قد هووا]

---

(١) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقول»!
(٢) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «انظر تحت رجلك».
(٣) سقط من الأصل، وهو من «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير».
(٤) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣٣٥٠).
(٥) في مطبوع «اللسان»: «وأراد».
(٦) انظر: «لسان العرب» (٣/ ١٦ ـ ذيخ).
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «على»!
(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بزخرفة».
(١٠) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

فيها»[١]، وقال غيره: كبكبوا[٢] فيها والكاف مكررة كما يقال: صرصر، والمراد أنه ألقي بعضهم على بعضهم من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ألقوا فيها عن آخرهم ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: في العبادة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: ليس لنا شافع يشفع لنا عند الله فينجينا من عذابه، ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: يهتم بأمرنا ويتألم لنا، لأن المشرك لا يستطيع أحد أن يشفع فيه.

وقد تقدم أن الله لم يقبل شفاعة إبراهيم في أبيه آزر، ولا استغفار محمد ﷺ لعمه أبي طالب[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة (ص) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٦٤] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: في محاجة إبراهيم لقومه، وإقامة الحجة عليهم في التوحيد لآية ـ أي: لدلالة واضحة جلية ـ على أنه لا إله إلا الله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ القادر على تعجيل الانتقام، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحد من ذريتهم»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فدهوروا»!، والمثبت من «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧٨٥) رقم (١٥٧٤٦). ثم وجدته بلفظ «دُهْوِروا» عند ابن جرير (١٧/ ٥٩٧)، وعزاه له ولابن أبي حاتم بهذا اللفظ السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٢٧٤ ـ ط. هجر)

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كبوا»!

(٣) سيأتي تخريج ذلك مفصَّلاً، والله الموفق.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣٥٠ ـ ٣٥٦) بتصرف.

الأولى: لماذا قص الله علينا قصة إبراهيم مع قومه وأمر نبيه محمداً ﷺ أن يتلوها علينا؟ قال (ك): «لنقتدي به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله». فهذه أربعة أمور:

الأول: الإخلاص هو تصحيح القصد وإرادة وجه الله تعالى في كل ما نقوله ونعتقده ونفعله وندعو الناس إليه.

الثاني: الثقة بالله تعالى، والاعتماد عليه وعدم الخوف من المشركين والمنافقين.

الثالث: إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

الرابع: وهو شرط في صحة ما تقدم، وقليل من يتفطن له في هذا الزمان، وهو التبرؤ من الشرك وأهله، قال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨] وقال في هذه السورة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ إلى آخر ما تقدم.

فنحن نقول لعباد القبور والأضرحة والقباب: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا يتم توحيدنا إلا بذلك، هذا بعد أن نتلطف معهم، ونقيم لهم الحجج على أن ما يفعلونه هو الشرك الأكبر، ثم يصرون على عملهم، ولا نستثني من ذلك أحداً لا أباً ولا أمّاً ولا أخاً ولا عمّاً ولا صديقاً، وقد عسر هذا على بعض الموحدين، وعدّوه من التشدد والخروج من الحكمة، وهم محجوجون بما تقدم وبغيره.

الثانية: إن تماثيل الصالحين، وهي الأصنام والأوثان وهي قبورهم وقبابهم والأحجار التي جلسوا عندها والأماكن التي مروا بها، وسائر آثارهم، إذا دعاها الداعي لا تسمع دعاءه ولا تراه، وكذلك أرواحهم؛ لأن السعيد من المعبودين تكون روحه في الجنة، فهي مشغولة بالنعيم عن سماع دعاء من دعاها ولنفرض أنها سمعته فإنها تكرهه وتمقت ذلك الداعي، لأنه أشرك بالله، ولا تجيبه أبداً إلى

يوم القيامة، قال تعالى في سورة فاطر: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤] وإن كانت أرواح المعبودين شقيّة، فإنها لا تسمع دعاء العابدين، لأنها مشغولة بالعذاب.

الثالثة: جواب المشركين لإبراهيم الخليل، وجواب المشركين لخير أبنائه محمد ﷺ حين سئلوا، من خلق السماوات والأرض، و﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ [النحل: ٦٥]، كان اعترافاً بعجز آلهتهم، وأنها لا تسمع ولا تنفع، إلا أنهم اقتدوا بآبائهم.

قال محمد تقي الدين: أما المشركون في هذا الزمان، فإنهم أشد جهلاً وأغلظ كفراً[١]، فإنهم يزعمون أن آلهتهم تسمعهم إذا استغاثوا بها، وتتصرف في العالم وتنفع وتضر، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

الرابعة: ذكر الله لنا سبحانه أربعة من الرسل كلهم خوّفهم المشركون من قومهم، وحذروهم أن تصيبهم آلهتهم بسوء، فقالوا لهم كلهم في المعنى: أجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم وكيدونا ولا تمهلونا طرفة عين، وكذلك المشركون في هذا الزمان، يخوّفون الموحِّدين من غضب آلهتهم ويقولون لهم: احذروا الأولياء أن يصيبوكم بالمصائب التي لا طاقة لكم بها، ولما خرجت من الطريقة التجانية[٢] على يد شيخنا محمد بن العربي العلوي[٣] رحمة الله عليه في فاس في ربيع الأول سنة ١٣٣٨هـ ورجعت إلى وجدة، حيث كنت معلماً عند الشيخ أحمد سكيرج[٤]، لابنه عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام، وكان يجلّني ويكرمني، وكنا

---

(١) سبقت كلمة مهمة في هذا الباب للأديب الشهير المنفلوطي ـ رحمه الله تعالى ـ، انظرها في التعليق على (ص٦٧).

(٢) انظر قصة رجوعه مفصلة في تقديمنا للكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) ذكره الهلالي في أكثر من موطن من كتابنا هذا، وقال عنه فيما سيأتي (٣/ ١٧٥): «يوجد في زماننا هذا بصيص من نور الكتاب والسنة أوقده شيخنا محمد بن العربي العلوي، واقتبسه من كتب الشيخين الربانيين ابن تيمية وابن القيم ـ رحمهما الله ـ وزادنا الله من هذا النور». ولهذا الشيخ ترجمة في «إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع» (٢/ ٥٨٣) ومجلة «البصائر» العدد (٣٠)، السنة الأولى، ٥ أفريل ١٩٤٨م، وانظر «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٢/ ١٩٣)، وما سيأتي (٤/ ١٢٧).

(٤) درس الهلالي عليه مدة، وظهرت إرهاصات نبوغ الهلالي وهو في طور الدرس عند هذا =

في الهوى سواء، هو مقدم كبير في الطريقة التجانية وأنا مريد.

فلما علم أني نبذت الطريقة التجانية نبذ النوى، أظهر الحزن، وجمع عليَّ علماء وجدة، فناظروني فظهرت عليهم بالحجج القاطعة، فخوفوني من انتقام الشيخ، وذكروني بما نُسب(١) إلى الشيخ أحمد التجاني، أنه قال: من ترك طريقته وأخذ طريقتنا فلا خوف عليه لا من الله ولا من رسوله ولا من شيخه أيّاً كان، من الأحياء أم من الأموات، أما من أخذ طريقتنا هذه الأحمدية المحمديّة الإبراهيمية الحنيفية التجانية وتركها، فإنه يحل به البلاء دنيا وأخرى، ولا يموت إلا كافراً قطعاً، وبذلك أخبرني سيد الوجود ﷺ يقظة لا مناماً(٢)، فقلت لهم: دعوني من هذا الوعيد الذي لم يرد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولا قام عليه دليل بل هو مضاد للدليل كما أخبرتكم بالأدلة القاطعة، فغضبوا وقالوا للشيخ أحمد سكيرج: (هذا مُفلَّس) لا تنفع فيه النصيحة، والمفلس ـ بفتح اللام وتشديده، وضم الميم وتسكن تخفيفاً ـ في اللغة المغربية هو الذي بلغ غاية الضلال.

ووقع لي مثل ذلك في تطوان لما أصابني مرض الربو، زعم المشركون أن السيد السعيدي هو الذي أصابني بذلك المرض، لأني قلت لهم: لا تذبحوا له ولا تطلبوا منه حاجة، فإنه لا يضر ولا ينفع، وكنت أعلم أن سبب المرض هو التعرض للبرد بعد الخروج من الحمام، وعلمت بعد ذلك بالتجربة أن هذا النوع من الربو دواؤه الانتقال من قرب البحر إلى الأماكن التي هواؤها جاف خال من الرطوبة، لأني إذا كنت في البلاد البعيدة من البحر، كسجلماسة، ومدينة مراكش، ومدينة النبي ﷺ، ومكة، وشمال العراق، لا يصيبني أبداً، فأين غضب السيد السعيدي وانتقامه مني حين أكون في البلاد البعيدة من البحر، وهل سيدي السعيدي يرضى أن يعبده الناس؟ لو كان كذلك لما كان صالحاً، إذ لا يرضى

= الشيخ. انظر «السلفية الوهابية في المغرب» (ص١٥)، وقال الهلالي عن شيخه هذا في مقال «الإسلام يكافح الاستعمار»: «وله فضل عليَّ كبير». وانظر «الهدية الهادية» (١٢ ـ ١٣) و«الديوان» (ق٩٣، ١٩٦) كلاهما للهلالي.

(١) هذا التشكيك في غير محله، أفاده أستاذنا فضيلة الشيخ العلامة محمد بوخبزة فيما قدمناه عنه (ص٢٣).

(٢) هذه خرافة، كشفتُ عن أصحابها وأضرارها ومن زيّفها من المعتبرين في كتابي «قصص لا تثبت» (٣/ ١٧١ ـ ٢٤٧)، فانظره إن أردت الاستزادة.

بعبادة الناس له إلا شيطان أو طاغوت، فما أسفه عقول المشركين!

الخامسة: يوجد كثير من الدجاجلة يضمنون الجنة لغيرهم بدراهم معدودة، ويقولون لهم: نحن آل النبي لا تمسنا النار، وقد ضمناكم فلا تمسكم النار حتى تَمَسَّنا، وهؤلاء مجرمون كاذبون على الله، فمحمد رسول الله ﷺ لم يستطع أن يدخل عمه أبا طالب الجنة، ولما استغفر له نهاه الله تعالى بقوله في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ الآيـــة [التوبة: ١١٣]، وفي «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ قال: **«يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت وأنقذي نفسك من النار، لا أغني عنك من الله شيئاً»**، وقال مثل ذلك لعمته صفية، ولعمه العباس، ولأقرب الناس إليه، بني هاشم(١)، وقد رأينا هنا أن إبراهيم إمام الحنفاء ﷺ يشفع لأبيه آزر فلا يقبل الله شفاعته فيه، بل يَمْسَخُ أباه آزر ذيخاً متلطّخاً بما يخرج منه، ثم يأمر به فيلقى في جهنم(٢).

الباب الثاني

قـولـه تـعـالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

[الشعراء: ٢١٣ ـ ٢٢٠]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه، ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، أي الأدنين إليه، وأنه لا يخلّص أحداً منهم إلا إيمانه بربه ﷻ وأمَرَه أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى:

---

(١) سيأتي لفظه وتخريجه قريباً.

(٢) مضى لفظ الحديث الوارد في ذلك مع تخريجه قريباً.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ٦] وفي «صحيح مسلم»[١]: **«والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»**. وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها:

الحديث الأول: رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ أتى النبي ﷺ الصَّفَا، فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه! فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: **«يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني»**؟، قالوا: نعم، قال: **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**، فقال أبو لهب: تبّاً لك، سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١]»[٢].

الحديث الثاني: روى الإمام مسلم وأحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: **«يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»**[٣].

الحديث الثالث: روى الإمام البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعم وخص فقال: **«يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»**[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾ أي: في جميع أمورك فإنه

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨)، وأحمد (١/ ٣٠٧)، والترمذي (٣٣٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٥)، وأحمد (٦/ ١٣٦، ١٨٧)، والترمذي (٢٣١٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٠)، ومسلم (٢٠٤)، والترمذي (٣١٨٥)، وأخرجه البخاري (٤٧٧١) بنحوه.

مؤيدك وحافظك وناصرك[١] ومظفرك[٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ قال في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ أي: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحركاتهم وسكناتهم»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: نستفيد من هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن كل من دعا مع الله غيره لجلب خير أو دفع شر، فإن الله يعذبه في الدنيا وفي الآخرة، وقد وجه الله تعالى الخطاب لنبيه وخير خلقه محمد ﷺ مع علمه سبحانه أنه معصوم من الشرك ومن المعاصي كلها، ليبين لنا أن كل من أشرك به، ولو بلغ في العبادة وعلو المنزلة كل مبلغ، فإن الله يحبط عمله ويعذبه، ولا يستطيع أحد أن يشفع فيه، حتى لو فرض المحال، وهو أن نبيّاً من الأنبياء أشرك بالله، فإن الله يعذبه، وتعليق الحكم على المستحيل موجود في القرآن، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقد تقدم تفسيره.

الثانية وهي من أهم المسائل: أمر الله تعالى لنبيه أن يحذّر أقرب الناس إليه من عذاب الله لئلا يتكلوا على قرابتهم منه، ويتكاسلوا عن العمل أو يتجرؤوا على ارتكاب المعاصي، اعتماداً على أنهم أقرب الناس إلى سيد الشفعاء، وأنه يشفع لهم، ويخلّصهم من العذاب، وقد قام النبي ﷺ بما أمره الله تعالى به خير قيام، فأنذر الأقربين كلهم حتى أنذر أقرب الناس إليه إليه ابنته فاطمة، وخوفها من عذاب الله، وأخبرها أنه لا يخلصها من العذاب إلا توحيد الله تعالى وطاعة رسوله، وأن القرابة وحدها لا تغني عنها شيئاً.

الثالثة: إن من آمن بالله واتقاه يكون معه بنصره وتأييده، وأنه لا يتوكل إلا على الله في جلب الخير ودفع الشر.

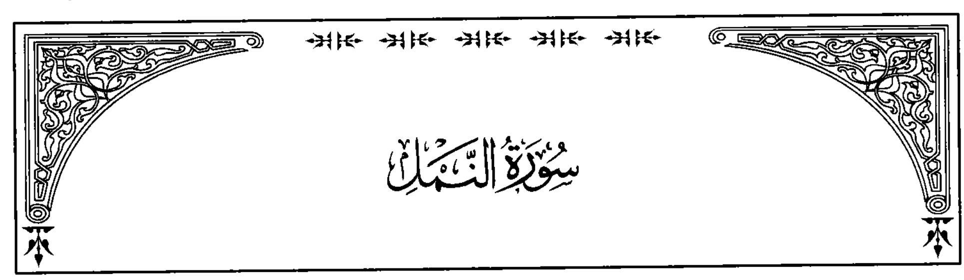
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ناصرك وحافظك».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مُعْلٍ كلمتك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجميع».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٠/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦، ٣٨٢).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦]

قال معين الدين ابن الشيخ صفي الدين في «جامع البيان في تفسير القرآن»: «﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ أي: بلقيس تملكهم، الضمير لسبأ باعتبار أهلها، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بالنسبة إلى عروش أمثالها، من ذهب مكلل بأنواع الجواهر ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فلا يهتدون إلى قبائح أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ منعهم ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ أي: صدهم أو زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، من قرأ[1]: ﴿أَلَآ﴾ بالتخفيف فمعناه: ألا يا قوم اسجدوا، وهو استئناف أمر من الله بالسجود أو من الهدهد أو من سليمان ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾، يظهر ما خفي في غيره وهو عام لإنزال المطر وإنبات النبات، وإنشاء البنين والبنات وغيرها في السموات والأرض ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا

---

(١) هذه قراءة أبي جعفر والكسائي ورويس عن يعقوب والزهري والسلمي وطلحة وحميد الأعرج والحسن والشنبوذي والمطوّعي وقتادة وأبي العالية والأعمش وابن أبي عبلة. ونسبت لابن عباس. انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٥٦)، «النشر» (٢/ ٣٣٧)، «الحجة» (٢٧٠) لابن خالويه، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/ ٢٧٤)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (٢/ ١٤٨)، «معجم القراءات» (٦/ ٥٠٤).

﴿تُعْلِنُونَ﴾ فله استحقاق السجود، لا لكرة تدور على الفلك بأمر مديرها ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ المحيط بجملة المكونات».

فصل

قال محمد تقي الدين: النظر هنا في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الشمس أعظم آية من آيات الله التي نشاهدها بالبصر في هذه المجموعة الشمسية من الكواكب السيارة، والنجوم البعيدة والقمر، وقد جعلها الله تعالى سبباً لحياة الحيوان والنبات، وجعل الأرض التي تسكنها تبعد من الشمس بمقدار معين دقيق لو زاد شيئاً قليلاً في البعد من الشمس لجمد كل ما على ظهر الأرض من حيوان ونبات، ولو دنا قليلاً من الشمس لاحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فكيف يتجاسر الملحدون والقردة الذين يقلدونهم على القول: بأن هذا العالم أوجد نفسه وهو يدبر نفسه، هؤلاء مغالطون مخادعون لأنفسهم قبل غيرهم.

ولما كانت الشمس أعظم المخلوقات التي نشاهدها افتتن بها قوم من الذين يغترون بالظواهر، ولا ينظرون ما وراءها فاتخذوها إلهاً يعبدونها من دون الله، ومن بقاياهم الشعب الياباني، فإنهم يعتقدون أن ملكهم المسمى عندهم (مكدو) هو ابن الشمس، فهم يعبدونه من دون الله، ويوجد في شمال بلاد (نرويج) قوم من أهل البادية يسكنون الخيام في تلك الأراضي القطبية الشديدة البرد، فإنها في وقت شتائها تغيب عنها الشمس ثلاثة أشهر[1]، ولكن القمر يبقى ظاهراً فهم يعبدونه، وأما أهل المدن فإنهم نصارى كسائر الأوربيين.

ولو كانت الشمس هي التي أوجدت نفسها، وهي التي تدير نفسها، ولها علم وإرادة تسير باختيارها، لكان هناك العذر لمن يعبدها، ولكنها مخلوقة لها أجل محدود لم تكن من قبل ثم كانت، وإذا انقضى أجلها تفنى.

وقد قدر علماء الفلك في هذا العصر حسب حدسهم وتخمينهم عمر

---

(١) للمصنف رحلة قام بها إلى بلاد النرويج، ذكرها في مقالة له بعنوان «الشمس في نصف الليل» نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، العدد الخامس، السنة الحادية عشرة، سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨م (ص٦١ - ٦٤) وفي مجلة «الجامعة الإسلامية» العدد السابع، بتأريخ محرم ١٣٩٠هـ (ص٣٥ - ٤٤)، وفي ضمن كتابنا «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره.

الشمس بعشرين ألف مليون سنة، وزعموا أن نصف هذه المدة قد مضى ونصفها باقٍ، وهو عشرة آلاف مليون سنة، ولا يوجد أحد منهم في هذا الزمان يدعي أن الشمس أزلية، ولا أنها تطلع باختيارها وتغرب باختيارها، وتعطي الضوء والحر من تريد وتمنعهما ممن تريد، وعباد البقر في الهند أقل حماقة من عباد القبور، فلا ينبغي أن يعبد إلا رب العرش العظيم، وهو على كل شيء قدير[1].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: ٤٤ ـ ٤٧]

قال محمد تقي الدين: إن كثيراً من أهل هذا الزمان الذي لم يقتلوا «تفسير (ك)» درساً وبحثاً يخيل لهم أن فيه خرافات إسرائيلية تكدر صفوه، فيجب حذفها، فأقول لهم: على رسلكم، ومن ذا الذي حرم علينا ذكر الإسرائيليات وروايتها إذا كانت فيها فائدة؟ كيف وقد قال النبي ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[2]؟ فكأنّ هؤلاء يعارضون النبي ﷺ ويقولون: لا تحدثوا عن بني إسرائيل، ففي الحديث عنهم حرج، فإذا روى المفسرون السابقون، كابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والحسن البصري، وكبار أئمة الحديث، كأبي بكر بن أبي شيبة شيخ البخاري ومسلم حكايات كثيرة عن

---

(١) للمصنف أربع وعشرون مقالة نشرت في مجلة «دعوة الحق» بعنوان «دواء الشاكين وقامع المشككين»، وعمل هو على نشر بعضها في كتاب طبع عن دار الفتح، بيروت، سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م في (١٩١ صفحة) بعنوان «الطريق إلى الله»، فيه كثير من آيات الله الكونية، التي تدل على أن الله حق، ومنها كلام مفصل على الفلك والشمس وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو، وأطلتُ النفس في تخريجه في تعليقي على «أوهام الحاكم» (ص١٣٥ ـ ١٣٦) للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي وعلى «جزء الجويباري» (رقم ٢٣) للبيهقي.

بني إسرائيل، منها ما يصح ومنها ما لا يصح، فلا يسع الحافظ (ﷺ) إلا أن يذكر ذلك في «تفسيره».

ولكن هل كان يصدّق كل ما روي في ذلك أو يعتمد عليه في إثبات حكم؟ الجواب: لا، ثم لا، وقد آتاه الله من العلم والحكمة ما يمنعه من ذلك، فقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصة سليمان وبلقيس أخباراً عجيبة غريبة وختمها بقصة طويلة عزاها إلى الإمام أبي بكر بن أبي شيبة، ثم قال بعد حكايتها عند قول ابن أبي شيبة: «ما أحسنه من حديث»، ما نصه: «قلت: بل هو حديث منكر غريب جدّاً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم، والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما يوجد[1] في صحفهم، كروايات كعب، ووهب، سامحهما الله تعالى فيما نقلا[2] إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان ومما لم يكن، ومما حرف وبدِّل ونسخ، وقد أغنانا[3] الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: أفبعد هذا يُتَّهم (ﷺ) بالغفلة وحشو كتابه بالإسرائيليات والحكايات الخيالية؟ اللهم لا، إنه بريء من ذلك[5]، ثم قال في

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وجد».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «نقلاه»!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أغنى». (٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤١٣).

(٥) انظر: تفصيل ذلك في كتاب «ابن كثير ومنهجه في التفسير» (ص٣١٤ ـ ٣٢٧)، وفيه (ص٣١٥): «وفي ظني أن الحافظ ابن كثير هو أحد المفسرين القلائل الذين هاجموا بشدّة هذه الخرافات الإسرائيلية، ولطالما حذر منها أثناء تفسيره»، وانظر منه (٣٢٥ ـ ٣٢٦) حول (الإسرائيليات في قصة سليمان وبُلقيس).

هذا وقد تتابعت الكلمات على شكر صنيع ابن كثير في نقد الإسرائيليات، فها هو الشيخ محمد حسين الذهبي يقول في كتابه «الإسرائيليات في التفسير والحديث» (ص١٨٠ ـ ١٨١): «وكذلك حين يفسر يتوخى في «تفسيره» الصحيح، وما يذكره من العليل: ينقده ويكشف عن مواطن الضعف فيه، وما يرويه من إسرائيليات: يكشف عن زيفه وفساده، ويحذر منها أبلغ التحذير. وعلى الجملة فلم نر من المفسرين رجلاً كان له من قوة النقد للمأثورات، وتمييز جيادها من زيوفها مثل ما كان لابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ». =

بقية تفسير الآيات: أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع، قال الله ﷻ إخباراً عن فرعون لعنه الله، أنه قال لوزيره هامان: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ الآيات، والصرح قصر في اليمن عالي البناء، والمراد المبني بناء محكماً أملس.

﴿مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ومارد: حصن بدومة الجندل، والغرض أن سليمان ﷺ اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما أتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله ﷻ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ أي: فيما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل

= وقال أيضاً (ص١٩١ ـ ١٩٢): «ولكن مهما يكن من شيء؛ فابن كثير خير مَن رأينا من المفسرين موقفاً من الإسرائيليات، فهو يتعقبها إلا ما ندر، ويبين ما فيها من زيف وفساد، وليت لنا من ينقد ما في كتب التفسير من روايات إسرائيلية وغير إسرائيلية على طريقة ابن كثير ومنهجه... إذن لكان قد أسدى إلى المشتغلين بالتفسير فضلاً لا ينسى، وجميلاً لا يجحد».

ويقول العلامة الشيخ أحمد شاكر في اختصاره لـ«تفسير ابن كثير» المسمى «عمدة التفاسير» (١/ ٥ ـ ٦): «إنه ـ أي «تفسيره» ـ معلم ومرشد لطالب الحديث؛ يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون، وكيف يميز الصحيح من غيره، فهو كتاب في هذا المعنى تعليمي عظيم، ونفعه جليل كثير».

فكيف يدعي مع هذا بعض ناشريه ـ وهم الأساتذة الذين أشرفوا على طبعة الشعب[1] من هذا «التفسير» ـ أنه حفل بالكثير من الإسرائيليات التي لا تستند إلى نقل ولا إلى عقل؟! والتي هي أشبه بالخيالات والأساطير منها بالآثار، كيف يتجرؤون على هذا، وهم الذين عايشوا «تفسيره» تحقيقاً وتخريجاً؟!

هكذا انقلب الإمام الناقد البصير الواعي إلى حاطب ليل! يحفل «تفسيره» بالكثير من الإسرائيليات؟ فموقف ابن كثير على التحقيق، كما قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، وهو موقف الناقد المهاجم المحذر منها.

(١) انظر مقدمته (١/ ٦).

شيء، فقدره تقديراً»، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

قال (ك): «يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ﷺ، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، قال مجاهد: «مؤمن وكافر»(١) كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

قال: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال: هذا من قِبَل صالح وأصحابه، قال مجاهد: تشاءموا بهم(٢)، وهذا كما قال تعالى: إخباراً عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: ٧٨] أي: بقضائه وقدره(٣)، وقال تعالى مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ﴾ [يس: ١٨ ـ ١٩] الآية، وقال هؤلاء: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: الله يجازيكم على ذلك، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية، والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال»(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٩٨) رقم (١٦٤٥٢) وابن جرير (١٨/ ٨٦) والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١١/ ٣٨٦ ـ ط. هجر)، وهو في «تفسير مجاهد» (٥٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٩) رقم (١٦٤٥٩). وانظر: «الدر المنثور» (١١/ ٣٨٦ ـ ط هجر).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بقدر الله وقضائه».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا[1] بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٥]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبياؤه الكرام عليهم من الله [أفضل][2] الصلاة والسلام، وهكذا قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفاهم[3] الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

---

(١) في الأصل: (نُشُراً) وسيثبتها المصنف في الشرح بالرسم الذي ذكرناه، و«نشراً» قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب وابن كثير، بالنون مضمومة وضم الشين بعدها، وقرأ ابن عامر والحسن (نُشْرا) بضم النون وسكون الشين. انظر: «السبعة» (٢٨٣)، «الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٤٦٥)، «الحجة» لابن خالويه (١٥٧)، «إتحاف فضلاء البشر» (٢/ ٣٣٣).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «اصطفى: هم».

﴿١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ـ ورضي عنهم أجمعين ـ وروي نحوه عن ابن عباس [أيضاً](١) ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من [عباد الله](٢) الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد [ذكره](٣) لهم، ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكاري(٤) على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة آخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه [المنفرد](٥) بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي [خلق](٦) تلك السموات [في ارتفاعها](٧) وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيِّرة والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، و[خلق](٦) الأرض في استفالها(٨) وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال [والأطواد والسهول والأوعار](٩) والفيافي والقفار، [والزروع والأشجار](١٠) والثمار والبحار(١١) والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: جعله رزقاً للعباد،

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». والأثر أخرجه ابن أبي حاتم (٩/٢٩٠٦) رقم (١٦٤٩٥) وابن جرير (١٨/٩٨) والبزار (٢٢٤٣ ـ «زوائده») **وإسناده ضعيف جداً**، مداره على الحكم بن ظهير، متروك رمي بالرفض، واتهمه ابن معين، كذا في «التقريب» (١٤٤٥)، وعزاه في «الدر المنثور» (١١/٣٨٨) لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عباده».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما ذكر».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إنكار».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتفرد».

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بارتفاعها».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «باستفالها».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأوعار والسهول».

(١٠) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأشجار والزروع».

(١١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والبحور».

﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي بساتين ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾» أي: منظر حسن وشكل بهي ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها[(١)] وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المنفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو [المنفرد][(٢)] بالخلق والرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أإله مع الله يعبد؟ وقد تبين لكم ولكل ذي لب ممن يعترفون[(٣)] به أيضاً أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾[(٤)] فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به، فيقال: كيف تعبدون معه غيره، وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: ١٧] الآية.

وقوله تعالى هٰهنا: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ﴿أَمَّنۡ﴾[(٥)] في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق، وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ثم قال في الآية الأخرى[(٦)]: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً، وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: ٩] أي: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]. ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شجرها». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتفرد».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعرفون».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي: أإله مع الله».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمّن».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «آخر الآية».

تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا[1] ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً، ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [غافر: ٦٤].

[وقوله][2]: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة [شقها][3] في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض ويسير إليهم[4] أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو، هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً، يسقي[5] الحيوان والنبات[6] منها، والبحار المالحة[7] المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب[8]، كما قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تشقها».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سيّر إليهم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تسقي».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والثمار».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هي».

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً؛ لئلا يفسد الهواء بريحها».

فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: فعل هذا، [أو يعبد][١] على القول الأول[٢] وكلاهما متلازم صحيح، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: في عبادتهم غيره».

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

قال (ك): «ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وهكذا قال هٰهنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي [لا][٣] يلجأ المضطر [إلا][٣] إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين[٤] سواه.

وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن سُلَيم الهُجَيْمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتبٍ بشملة وقد وقع هُدَبُها على قدميه، فقلت: أيكم محمد رسول الله؟ فأومى بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البادية وفيَّ جفاؤهم فأوصني، قال: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تسبن أحداً**»[٥]. قال: فما سببت أحداً ولا شاة ولا بعيراً.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وبعد». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الآخر».

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «المضطرين»!

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣، ٦٤، ٩٤)، والبخاري في «التاريخ الصغير» (١/ ١١٨)، وفي «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٠٦)، وفي «الأدب المفرد» (١١٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩٦٩١ ـ ٩٦٩٤)، وأبو داود (٤٠٧٥)، والترمذي (٢٧٢١)، والطيالسي (٢٠٨)، وعبد الرزاق (١٩٩٨٢)، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٩١ ـ ٣٩٣)، وأبو عبيد في «الخطب والمواعظ» (رقم ١٥ ـ بتحقيقي)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٨٥)، وابن سعد (٧/ ٤٤)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١/ ١٤٢)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٦٦)، وابن حبان (٥٢١)، والطبراني (٦٣٨٥ ـ ٦٣٨٨)، والحاكم (٤/ ١٨٩)، والبيهقي (١٠/ ٢٣٦) **والحديث صحيح**، وانظر: «الكبائر» (٣٩١ ـ ٣٩٢ رقم ٣٤٦ النشرة الثانية ـ بتحقيقي).

وقال أبو حاتم بسنده عن عبيد الله بن أبي صالح قال: «دخل علي طاوس يعودني، فقلت: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن، فقال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه»[(١)]. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي، قال هذا الرجل: كنت أكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل، فمررنا [في][(٢)] بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر وواد عميق، وفيه قتلى كثير[(٣)]، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه، وقصدني ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله، وقلت: خذ البغل بما عليه. فقال: هو لي وإنما أريد قتلك، فخوَّفته الله والعقوبة، فلم يقبل فاستسلمت بين يديه، وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين، فقال: وعجِّلْ فقمتُ أصلي فأرتج عليَّ القرآن، فلم يحضرني منه حرف واحد فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه افرغ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم [الواد][(٤)] وبيده حربة، فرمى بها الرجل، فما أخطأتْ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩١٠) رقم (١٦٥١٩)، والخطيب في «تالي تلخيص المتشابه» (رقم ١١٥ ـ بتحقيقي)، وعبيد الله بن أبي صالح مقبول، كما في «التقريب».

وكره السلف طلب الدعاء من الغير إن دخل فيه أمر زائد، صار الدعاء بتلك الزيادة مخالفاً للسنة، كأن يعتقد فيه أنه مثل النبي، أو أنه وسيلة إلى أن يُعتقد ذلك، أو يُعتقد أنه سنة تلزم، أو تجري في الناس مجرى السنن الملتزمة. قال شيخ الإسلام في «قاعدة جليلة» (ص٧١، ط. ربيع): «هذا ليس من المقتدين بالرسول، المؤتمين به في ذلك، بل هذا من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله وسؤاله ـ وتحرف في جميع الطبعات إلى «ورسوله»: وهو تحريف قبيح يفضي إلى الشرك والعياذ بالله ـ أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله، وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع»، وانظر فيما ورد عن السلف في ذلك مع توجيهه: «المجالسة» (٤/ ٧٠ ـ ٧١)، و«الاعتصام» (٢/ ٣١٤ ـ ٣١٩) وتعليقي عليهما.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كثيرة»!

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الوادي».

فؤاده، فخرَّ صريعاً، فتعلقت بالفارس، وقلت [له](١): بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قرن قرناً(٣) قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣] ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، كما قدمنا تقريره(٤) ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: يقدر

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) القصة في «تاريخ دمشق» (٦٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢، ط. دار الفكر)، ورويت على ضروب وألوان، فوردت عن (أبي معلق) وفي القصة: «رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار» عند ابن أبي الدنيا في «مجابي الدعوة» رقم (٢٣)، و«الهواتف» رقم (١٤) ـ ومن طريقه اللالكائي في «كرامات الأولياء» رقم (١١١)، وعبد الغني في «الترغيب في الدعاء» رقم (٦١) ـ وأبي موسى المديني في «الوظائف»، وابن بشكوال في «المستغيثين بالله» رقم (٣)، والضياء في «العدة للكرب والشدة» رقم (٣٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٥/ ٣٠٢)، وابن حجر في «الإصابة» (٧/ ٣٨٠)، **وإسنادها مظلم**، وقال الذهبي في «التجريد» (٢/ ٢٠٤): «أبو معلق الأنصاري له حديث عجيب، لكن في سنده الكلبي، وليس بثقة»، وهي مسندة عند أبي سعيد النقاش في «فنون العجائب» (رقم ٨٣ ـ بتحقيقي) مما قصه عبد الله بن سلام على النبي ﷺ، وفي إسنادها عبد المنعم بن إدريس اليماني قصاص مشهور، ليس يعتمد عليه، تركه غير واحد، واتّهم.
وأسندها المعافى النهرواني في «الجليس الصالح» عن بعض بني إسرائيل، وكذا ذكرها التنوخي في «الفرج بعد الشدة» (ص٤٩ ـ ٥٠).
وشاعت وذاعت قديماً وحديثاً، وفي «الحلية» (٧/ ٢٩٢ ـ ٤٩٤) أن ابن عيينة كان يطلب من رجل وقعت له أن يقوم ويحدث بها، وهكذا ذكرها عنه الدميري في «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩) ثم وجدتها مسندة عند ابن شاهين في «جزء من حديثه عن شيوخه» رقم (٢٧)، وزادت عليها الألسنة، وغيَّرت فيها الأسنة، كما تراه ـ مثلاً ـ في «آداب الدعاء» (٧٣ ـ ٧٤) للأقفهسي نقلاً عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتناقلها وطار بها أي مطار الشيخ عبد الحميد كشك ـ رحمه الله تعالى ـ وجماعة التبليغ، وهما في هذا العصر من أكبر مصادر الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قرناً لقرن».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير» بعد كلام: «ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾».

على ذلك، أو: أإله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد[(١)] بفعل ذلك [وحده لا شريك له][(٢)] وقال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل: ٦٣] يقول تعالى: أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر[(٣)] بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٧] الآية [وقال تعالى][(٤)]: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث [الله][(٥)] به عباده المجدبين[(٦)] القنطين، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق: ١١، ١٢] فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه[(٧)] ينابيع في الأرض ثم يخرج به [منها][(٨)] أنواع الزروع والثمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى، ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: ٥٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: فعل هذا، وعلى القول الآخر يعبد[(٩)]، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المنفرد». (٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».
(٤) سقط من الأصل، وأثبته من مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأزلين».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيسكنه».
(٨) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بعد هذا».

صحّة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم [في ذلك][(١)] ولا برهان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: إنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب [إلا الله][(١)] وقوله تعالى: [﴿إِلَّا﴾][(٢)]، استثناء منقطع أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ، فإنه المتفرد[(٣)] بذلك وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ..﴾ [القمان: ٣٤] إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة، وقوله تعالى: [﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾][(٤)] أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: ٨٧] أي: ثقل علمها على أهل السموات الأرض، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة ﵂ قالت: «من زعم أنه يعلم ـ تعني: النبي ﷺ ـ ما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾»[(٥)].

وقال قتادة[(٦)]: «إنما جعل [الله][(٧)] هذه النجوم لثلاث [خصال][(٨)]: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناساً[(٩)] جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلّا الله».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المنفرد».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾».
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/٢٩١٣) رقم (١٦٥٣٥)، ومسلم (١١٧) مطولاً، والترمذي (٣٠٦٨) وغيرهم.
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إن الله».
(٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خصلات» وفي مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»: «خصال».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ناساً».

كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم[(١)]، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه[(٢)] ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون»[(٣)]. رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه، وهو كلام جليل متين»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام فوائد:

الأولى: إن كل من يقرأ الآيات ويفهم معناها ويبقى معتقداً بجواز عبادة غير الله تعالى بالدعاء وبالاستغاثة والذبح والنذر والخوف والرجاء والتوكل والخضوع والتذلل، فلا شك أن الله تعالى ختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهدي من أضل الله؟

الثانية: ذكر الله تعالى في هذه الآيات خمسة عشر دليلاً، كل واحد منها كاف شاف في أنه لا يعبد إلا الله، ومن عرف ذلك الدليل، وعبد غير الله، فهو أضل من الأنعام:

الأول: خلق السمٰوات والأرض.

الثاني: إنزال الماء من السماء.

الثالث: إنبات النبات من حدائق وغيرها.

الرابع: جعل الأرض قراراً.

الخامس: خلق الجبال في الأرض لتثبيتها.

السادس: جعل الأنهار تجري خلالها.

السابع: خلق حاجز بين الماء العذب والماء المالح.

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدال مهملة، وفي الأصل بذال معجمة.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أن»!

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩١٣) رقم (١٦٥٣٦)، والخطيب في «القول في علم النجوم» (ص١٨٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤١٨ ـ ٤٢٦) بتصرف.

الثامن: إجابة المضطر وغوث الملهوف كصاحب البغل.

التاسع: كشف السوء كله من فقر ومرض وسجن وغير ذلك من أنواع الضيق والكرب.

العاشر: جعل الله الناس خلفاء في الأرض يخلف بعضهم بعضاً، يعمر الأرض قوم ثم يذهبون، ويأتي قوم آخرون، وهكذا إلى يوم القيامة.

الحادي عشر: هداية الله الناس في أسفارهم في ظلمات البر والبحر بنجوم السماء، وعلامات الأرض.

الثاني عشر: إرسال الله الرياح مبشرات بين يدي المطر.

الثالث عشر: إن الله يبدأ الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم.

الرابع عشر: إن الله يرزق عباده أنواعاً من الرزق، بعضها من السماء وبعضها من الأرض.

الخامس عشر: استئثار الله تعالى بعلم الغيب.

الثالثة: تكرار قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خمس مرات، وقد فسرها بعض المفسرين بقولهم أإله يعبد مع الله؟ وفسرها آخرون بقولهم: أإله آخر هناك فعل ذلك؟ والجواب: لا، لأن المشركين في ذلك الزمان يعتقدون جازمين أنه لا يفعل ذلك إلا الله، فيقال لهم: لماذا تعبدون غيره إذاً؟!

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٣]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن رسوله[(١)] وآمراً له أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤] وإضافة[(٢)] الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لرسوله».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أضاف».

والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣، ٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها...**»(١) الحديث بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، [لا إله إلا هو](٢).

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ٥٨]، وكقوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣] الآية أي: أنا مبلغ ومنذر: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لي [أسوة بالرسل](٣) الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: لله الحمد الذي لا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، [والإنذار](٤) إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة**

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، وأبو داود (٢٠١٨)، والترمذي (١٥٩٠).

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سوية الرسل».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والإعذار».

والخردلة والذرة»[(١)]، وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين، إما له وإما لغيره[(٢)]:

إذا ما خلوت الدهرَ يوماً فلا تقل خَلَوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفَل ساعة ولا أن ما يَخفىٰ عليه يغيبُ

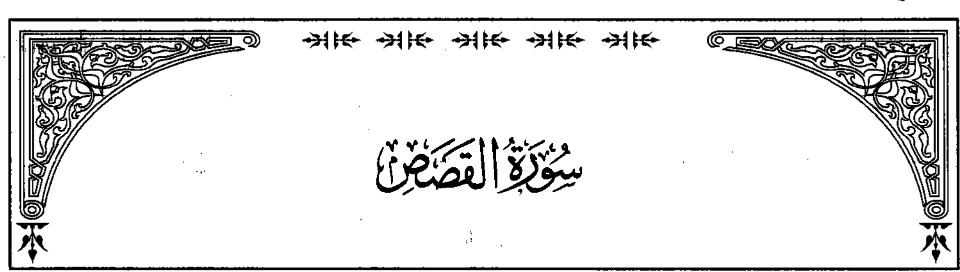
فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله رسوله ﷺ وأمر أمته تبعاً له بعبادة الله وحده لا شريك له، رب كل شيء، وأمره أن يكون من المسلمين، أي: الذين أسلموا نفوسهم وقلوبهم لله رب العالمين، ووحدوه وأطاعوه، وأمره بقراءة القرآن لوجه الله لا لغرض آخر، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧] فمن قرأ القرآن لغرض آخر من أغراض الدنيا كتحصيل المال أو الفخر، فإنه يكون عليه وبالاً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩٣٧) رقم (١٦٦٥٩)، وانظر تخريجه مفصلاً في (٣/ ٣٢٠).

(٢) وقع اضطراب شديد في نسبة هذين البيتين لا سيما الأول؛ فنسب للحسن بن عمرو الإباضي في «ديوان الخوارج» (٢٥٩ ـ ٢٦١)، و«شعر الخوارج» (ص٩١).
ونسب لصالح بن عبد القدوس في «شعره» (ص١٣٣)، وهو في «ديوان أبي نواس» (ص٦١٥)، وله في «شرح الصولي» (٩٧٨)، و«زهدياته» (٧١)، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦) و«روح المعاني» (٢٤/ ١١٧) للآلوسي، و«شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الأول» (مقطع ٢٩).
وكان يتمثل به الشافعي في «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٠٨)، و«مناقب الرازي» (١٩٦) لابن أبي حاتم، و«تاريخ دمشق» (٥١/ ٤١٥) لابن عساكر، و«طبقات الشافعية» (١/ ١٤) للإسنوي.
وتمثل به الإمام أحمد في «الحلية» (٩/ ٢٢٠)، و«تاريخ بغداد» (٥/ ٢٠٥)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٨٣)، و«مناقب الإمام أحمد» (ص٢٦٥)، و«عين الأدب والسياسة» (ص١٨٦)، و«المنهج الأحمد» (١/ ٢٥).
وهو في «أخلاق الوزيرين» (ص٣٧٤) لنصيح بن منظور الفقعسي، وفي «ربيع الأبرار» (٢/ ٤٢٣)، و«روضة العقلاء» (ص١٣)، و«الأمالي» (٢/ ٩١)، و«الإحياء» (٤/ ٣٩٨)، و«إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٩٨)، و«المخلاة» (٧٢) دون نسبة.
ونسبت للحجاج بن يوسف التيمي في «عيون الأخبار» (٢/ ٣٤٧، ط. دار الكتب العلمية، و٢/ ٣٢٢، ط. المصرية)، و«البيان والتبيين» (٣/ ١٧٤)، و«حماسة البحتري» (٣٣٠)، و«الأغاني» (١٨/ ١١٩) ونسبت لأبي العتاهية وهي في «ديوانه» (١٤، ١٥)، وانظر: «المجالسة» لأحمد بن مروان الدينوري (٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ بتحقيقي) والتعليق على «ديوان الخوارج»، وتخريج د. معيبد على «حماسة الظرفاء».



سُورَةُ القَصَصِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٦٢ ـ ٧٥]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة

حيث يناديهم، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد؟! ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني: من[1] الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرؤوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] الآية، وقال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧] ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ ليخلّصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودُّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ النداء الأولى عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

[و][1] كيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: من ربك؟ ومن نبيك، وما دينك؟ فأما المؤمن؛ فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه، هاه، لا أدري[2]، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾، وقال مجاهد: فعمِّيت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: في الدنيا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته[3] لا محالة».

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ إلى قوله: ﴿يُرْجَعُونَ﴾: قال (ك): «يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع، ولا معقب قال[4] تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفي على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقد اختار ابن جرير[5]، أن ما هٰهنا بمعنى: الذي، تقديره: ويختار الذي لهم خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح[6]، والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس[7] وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق، والتقدير، والاختيار، وأنه

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) سيأتي الحديث بطوله في (٥/ ١٢٧)، (٦/ ١٠، ١٢١، ١٦٨) وهناك تخريجه.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومنِّه». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال».

(٥) انظر: «تفسيره» (١٨/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

(٦) انظر مذهبهم في: «شرح الأصول الخمسة» (٥٢٣ ـ ٧٧٩)، «المغني في أبواب التوحيد والعدل» (١٤/ ٤٧)، وانظر مناقشتهم في: «المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف» (١/ ١٩١ ـ ٢٩٢، ٢١٢، ٢١٤، ٤١٢، ٤١٣).

(٧) يشير إلى قصة، أخرجها عبد الرزاق (٣٩٧٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ١٧٦٨٨)، والبيهقي (٢/ ٤٥٣) يستفاد منها أن رأي ابن عباس في (ما) أنها نافية، وعزاها السيوطي في «الدر المنثور» (١٢/ ٥١) لابن مردويه أيضاً.

لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: يعلم [ما تكنُّ](١) الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق، ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [أي: هو](٢) المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ويختار سواه. ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ أي: في جميع ما يفعله، هو المحمود عليه لعدله(٣) وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة فيجزي(٤) كل عامل بعمله من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:
قال (ك): «يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخَّر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما، وبيّن أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم ولسئمته(٥) النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً [أي](٦): دائماً مستمرّاً إلى يوم القيامة؛ لأضر ذلك بهم ولتعبت الأبدان، وكلّت من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي بكم: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالأسفار

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مكتمة».
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل!
(٣) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعدله».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيجازي».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «سئمته».
(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

والترحال والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢] والآيات في هذا كثيرة، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

وهذا أيضاً نداء [ثان][1] على سبيل التوبيخ والتقريع[2] لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب على رؤوس الأشهاد، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في دار الدنيا، ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني: رسولاً[3]، ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره فلم ينطقوا»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: المعبودون من دون الله قسمان: **أبرار** وغيرهم، **فالأبرار:** الملائكة والأنبياء، كعيسى بن مريم، والصالحون كأصل أصنام قوم نوح.

وغير الأبرار قسمان: قسم دعوا الناس إلى عبادتهم أو رضوا بها، كفرعون والسدنة الأولين للأصنام، وسدنة القباب المعبودة، والقسم الثاني: الأصنام والأوثان[5]، فالأصنام تماثيل الصالحين أو الأنبياء، ولو في نظر من يعبدونهم، والأوثان: كل جماد عبد من دون الله كالشمس والقمر والنجوم والقباب والقبور والأشجار والأحجار والمياه والنار.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التقريع والتوبيخ».

(٣) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٣٠٧)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٠٤)، والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ـ كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٣٦) ـ، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٥٣١).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولم يحيروا جواباً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم»، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤٧٧ ـ ٤٨١).

(٥) انظر: ما قدمناه من التفريق بين (الصنم) و(الوثن).

وهؤلاء الشركاء المذكورون في هذه الآية من الصنف الأول من (القسم الثاني)، وهم الذين يدعون الناس إلى عبادتهم أو يرضون بها، وذلك لقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أما قولهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ فهو تبرؤ لا ينفعهم لأنهم في دار الجزاء.

وأما قولهم: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فإنه يحتمل وجهين: **أحدهما**: نتبرأ إليك اليوم من عبادتهم لنا في دار الدنيا. **والثاني**: إنهم كانوا يعبدون الشيطان الذي زين لهم عبادتنا، فإن كل عابد لغير الله هو عابد للشيطان كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١١٨] وقال تعالى في سورة يس: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

فائدة ثانية: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: هل قلتم لهم: سمعنا وأطعنا، أو قلتم: سمعنا وعصينا، فمن قال: سمعنا وأطعنا، فهم المسلمون، فإن قالوها ظاهراً وباطناً فهم المخلصون إذْ نجوا من الرياء والسمعة، وهم السعداء الذين ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، وإن قالوها بألسنتهم دون قلوبهم وأعمالهم، فهم المنافقون والمتمذهبون المقلدون، إذا وجدوا حجة من كتاب الله أو سنة رسوله تخالف مذهبهم، أو تخالف ما وجدوا عليه آباءهم، رفضوا قبولها وأصروا على اتباع آبائهم وعادات بلادهم، فهم من المنافقين، وسيأتي الكلام على ذلك في (قسم توحيد الاتباع) إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: لا يجدون جواباً، فيكبتون حين يصرح الأئمة ببراءتهم منهم ويقولون: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا﴾ أمرناهم بتقليدنا ولا باتخاذ المذاهب والتعصب لها، وإنا كنا نأمر الناس باتباع كتابك وسنة نبيك يا رب، فيسقط في أيديهم ويندمون حين لا يفيد الندم.

فائدة ثالثة: قوله: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله موجبة يعني: إن الله وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن يكونوا من المفلحين يوم القيامة، الذين فازوا بما أمَّلوا، ونجوا مما خافوا، فإن قيل: فما فائدة التعبير بعسى؟ ولماذا لم يقل: فأولئك من المفلحين؟ فالجواب: والله أعلم، أن فائدتها أن يكون العبد بين الخوف والرجاء، وأن لا يتكل على عمله، ولذلك كان كبار الصحابة يخافون على

أنفسهم النفاق، وفي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب سأل حذيفة بن اليمان بقوله: أنشدك الله هل ذكر لك النبي ﷺ اسمي في أسماء المنافقين؟ قال: لا، ولا أزكّي بعدك أحداً[١].

فائدة رابعة: أكثر البلدان جعل الله لهم نهاراً وليلاً في كل أربع وعشرين ساعة، وسكان الأراضي القطبية، كما في شمال نرويج جعل الله لهم السنة أربعة أقسام، القسم الأول زمان الربيع، فيه نهار وليل لكن كل يوم ينقص الليل ويزيد النهار، وفصل الصيف: كله نهار لا تغيب الشمس فيه مدة ثلاثة أشهر بالحساب الشمسي، وفصل الخريف: فيه ليل ونهار، ولكن كل يوم ينقص النهار ويزيد الليل بعكس الربيع مدة ثلاثة أشهر، وعند ذلك يجيء الشتاء: وهو كله ليل لا تظهر فيه الشمس مدة ثلاثة أشهر، وقد شاهدت ذلك بنفسي، وشاهده من معي [لما][٢] وصلنا تلك البلاد في فصل الصيف الذي لا تغيب فيه الشمس[٣]، وهذا هو الزمان المناسب لزيارة تلك البلاد لشدة البرد في الفصول الأخرى، فسبحان الخلاق العليم.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ

---

(١) عزوه للبخاري وهم! والذي فيه (٣٧٤٣) قولة أبي الدرداء لعلقمة: «أليس فيكم أو منكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ يعني: حذيفة. قال علقمة: قلت: بلى»، وخبره في معرفة أسماء المنافقين معروف، تراه عند ابن أبي شية (١٢/ ١٩، ٥٨)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٠٤، ٨٥٠٥، ٨٥٠٦)، والترمذي (٣٧٢٢)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٤٠)، والقطيعي في «زوائد الفضائل» (١٠٩٩)، والحاكم (٣/ ٣٨١)، وأبو نعيم (١/ ٦٨)، **وهو صحيح**.
وقصة عمر مع حذيفة على الرغم من شيوعها إلا أني لم أظفر بسندٍ معتبر لها، والذي وقفتُ عليه قريباً من اللفظ الذي أورده المصنف: ما أخرجه الطبراني (٢٣/رقم ٧١٩) عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أصحابي من لا يراني بعد أن أموت أبداً**». فجاء عمر ودخل عليها، فقال: أنشدك الله أنا منهم؟ قالت: لا، ولا أزكي أحداً بعدك أبداً، فبكى عمر رضي الله عنه.
وانظر: «مسند أحمد» (٦/ ٢٩٨، ٣١٢).

(٢) سقط من الأصل، والسياق يقتضيه.

(٣) للمؤلف مقالة منشورة في رحلته للنرويج، أشرنا إليها في تعليقنا على (ص١٢٤)، وهي ضمن كتابي «مقالات الهلالي»، يسر الله إخراجه بخير وعافية.

رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

[القصص: ٨٧، ٨٨]

قال (ك): «﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك، وصدهم الناس عن طريقك ولا تبال[1] فإن الله مُعلٍ كلمتك، ومؤيدّ دينَك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧]. فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله هٰهنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا إياه، وقد ثبت في «الصحيحين»[2] من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا اللهُ باطلُ»[3]

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في «صحيحه» كالمقرر له[4].

قال ابن جرير[5]: «ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر[6]:

أستغفر اللهَ ذنباً لستُ مُحصِيهُ ... رَب العباد إليه الوَجْهُ والعمَلُ»

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال أنها

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا تلوي على ذلك ولا تباله».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).
(٤) سيأتي تخريجه.
(٥) في «التفسير» (١٨/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).
(٦) البيت في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٤) وهو في «خزانة الأدب» (٣/ ١١١)، وقال: «وهذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها»، قلت: وهو في «الكتاب» (١/ ٣٧) لسيبويه.

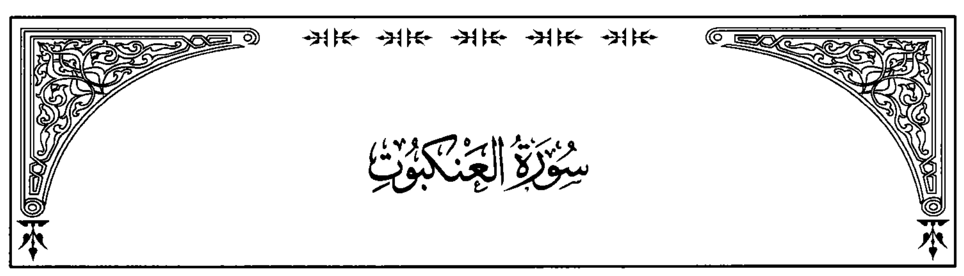
باطلة إلا ما أريد به[1] وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة الإسلامية، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية[2] وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس[3]، فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الملك والتصرف ولا معقب لحكمه، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: معنى التفسير الأول أن كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الحي الباقي، سبحانه لا إلٰه إلا هو، ومعنى التفسير الثاني: إن كل ما أنفقه الإنسان أو عمله، ولم يقصد به التقرب إلى الله تعالى، فهو ضائع لا ينفعه في الدار الآخرة، فيكون الوجه بمعنى التوجه، كما في قول الشاعر[5]: «إليه الوجه والعمل»، أي: نتوجَّه ونعمل له.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بها».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهالكة».
(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤٩١ ـ ٤٩٢) بتصرف.
(٥) في البيت المتقدم قريباً.



سُورَةُ العَنكَبُوتِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما إليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤] ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على[1] دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إليَّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين، لا في زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي حباً دينياً»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: بر الوالدين أعظم الواجبات بعد توحيد الله ﷻ، وعقوقهما شر المعاصي بعد الإشراك بالله، ومع أن الله أوصى بالإحسان إليهما،

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤٩٥).

فإذا أمرا بمعصية الله أو بالشرك بالله وجبت معصيتهما في ذلك، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1]، وفي الحديث أن أم سعد بن أبي وقاص قالت له: لا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد، فأخبر النبي ﷺ فقال له: «دعها» فبقيت ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب، فلما اشتد جوعُها وعطشُها أكلت وشربت[2].

وفي الحديث أيضاً أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق كان في غزوة بدر كافراً يقاتل مع المشركين ثم أسلم بعد ذلك، فقال لأبيه: لقد هدفتَ لي يوم بدر فلم أقتلك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: «أما إنك لو هدفت لي لقتلتك»[3] ومن هذا نعلم أن استعمال كتّاب هذا العصر، (هدف واستهدف)، بمعنى: قصد، جهل عظيم باللغة العربية[4] فإن معناهما نصب نفسه هدفاً لمن يرميه، ومن ذلك قولهم:

(١) ورد بهذا اللفظ من حديث عمران بن حصين، أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٧٣)، وعلقه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٤٥) من طريق محمد بن جعفر الوركاني حدثنا يحيى الأبح عن محمد بن سيرين عنه.
وإسناده جيد؛ لكن في سماع محمد بن سيرين من عمران نظر، وفي بعض طرق الحديث سماعه منه، وهذا بحاجة إلى بحث.
ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٣٨١) من طريق يحيى بن سليم، عن هشام بن حسان، عن الحسن عن عمران، ويحيى بن سليم ـ هو الطائفي ـ فيه كلام، والحسن مدلس، وقد عنعن، وفي سماعه من عمران نظر أيضاً.
ورواه ابن أبي شيبة (١٢/ ٥٤٦) من طريق مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.
واعلم أن حديث عمران بن حصين هذا ثابت من طرق عنه بلفظ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»، رواه أحمد (٤/ ٤٢٦ و٤٣٢ و٤٣٦ و٥/ ٦٦ و٦٧)، والطيالسي (٨٥٦)، وعبد الرزاق (٢٠٧٠٠)، والبزار (١٦١٣ و١٦١٤ و١٦١٥ و١٦١٦)، والطبراني في «الكبير» (٣١٥٩ و٣١٦٠ و١٨/ ٣٢٤ و٣٦٧ و٣٨١ و٣٨٥ و٤٠٧ و٤٣٢ ـ ٤٣٨)، وصححه ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٨٩ ـ بتحقيقي) باللفظ المزبور، الله الموفّق، لا رب سواه.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٤٨)، والترمذي (٣١٨٩)، وأحمد (١/ ١٨٥) في قصة مطولة بنحوه، وهذا لفظ الطبراني في «العشرة» أفاده ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٥٤).

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٠٧٦ ـ بتحقيقي) ـ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ١٢٧ ـ ١٢٨) ـ والخبر في «غريب الحديث» (١/ ٥٧٨) لابن قتيبة، و«النهاية» (٥/ ٢٥١)، و«الفائق» (٤/ ٩٧).

(٤) انظر: «تقويم اللسانين» (ص٩١ ـ ٩٢) رقم (٣٩) للمصنف. فقد أسهب في بيان ذلك، =

«مَنْ أَلَّف فقد استُهدِف»، أي: نصب نفسه هدفاً للطاعنين في كتابه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٧]

قال (ك): «يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم لا مُسْدٍ لها غيره، فقال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: أخلصوا له في[1] العبادة والخوف.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك[2] حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة، ثم أخبر[3] تعالى أن الأصنام التي يعبدونها[4] والأوثان لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم[5] لها أسماء فسميتموها[6] آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم، وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾، وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] ولهذا قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ أي: فاطلبوا[7] ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لا عند[8]

= وقال: «ومن ذلك تعلم أن استعمال العرب للإهداف والاستهداف في وادٍ واستعمال المعاصرين لهما في وادٍ آخر».

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أخبرهم».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تعبدونها» بالخطاب!
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنتم».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سميتموها».
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «واطلبوا».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعبدوا».

غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: كلوا من رزقه، واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة فيجازي كلَّ عامل بعمله»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: ملة إبراهيم هي الحنيفية التي أمر الله نبيه محمداً ﷺ باتباعها وأمته تبع له، فأهل هذه الملة لا يتوجهون بقلوبهم ولا بألسنتهم ولا بذبائحهم ونذورهم إلا إلى الله وحده، جازمين بأن غيره لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، فكيف يملك ذلك لغيره؟

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]

قال (ك): «﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم بعضاً[٢] في الحياة الدنيا، وهذا على قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع[٣]، فمعناه: إنما اتخاذكم هذا لتحصل[٤] المودة

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥٠٠) بتصرف.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لبعض».

(٣) قرأها بالرفع وخفض نون (بينكم) على الإضافة: ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس وابن محيصن واليزيدي ويعقوب ومجاهد والحسن وأبو زيد عن المفضل وعلي بن نصر.
وقرأ الأعشى عن أبي بكر عن عاصم والشموني والبرجمي (مودةُ بينَكم) بالرفع ونصب الظرف.
ومنهم من قرأها بالرفع والتنوين، ونصب الظرف بعده، وانظر: «البحر المحيط» (٧/ ١٤٨)، «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٦٧)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/ ٤٩٠)، «تفسير ابن عطية» (١١/ ٣٧٨)، «الكشاف» (٢/ ٤٩٤)، «روح المعاني» (٢٠/ ١٥١).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يحصّل لكم».

في الدنيا فقط ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ينعكس هذا الحال فتنقلب(١) هذه الصداقة والمودة بغضاً(٢) وشنآناً، ثم ﴿يَكْفُرُ(٣) بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاحدون ما كان بينكم، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ الآية، أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك، قال ابن أبي حاتم بسنده عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب، قالت: قال لي النبي ﷺ: «**أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد، فمن يدري أين(٤) الطرفين؟**» قالت: الله ورسوله أعلم، [قال]: «**ثم ينادي مناد من تحت العرش: يا أهل التوحيد، إن الله قد عفا عنكم، قال: فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلامات الدنيا** ـ يعني المظالم ـ ثم ينادي: «**يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب**»»(٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: وهذه الآية تنطبق على أصحاب المواسم الذين يجتمعون كل سنة عند الأوثان، فيذبحون لها ويختلطون رجالاً ونساء ويستوجبون

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فتبقى». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بغضة».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيكفر»

(٤) هكذا في الأصل، والظاهر أنه: «من أي الطرفين»؟ (منه).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠٤٩) رقم (١٧٢٤٢)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسي، ثنا أبو عاصم الثقفي الربيع بن إسماعيل عن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومي عن أبيه عن جده عن أم هانئ به، **وإسناده ضعيف جداً**. قال الطبراني: «لا يروى عن أم هانئ إلّا بهذا الإسناد، تفرد به أبو عاصم»، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٥٥): «وفيه أبو عاصم ـ الربيع بن إسماعيل ـ منكر الحديث، قاله أبو حاتم».
وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤).

بذلك غضب الله تعالى، روى مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١). اهـ.

فإذا كان غضب الله يشتد على من بنى المساجد على قبور الأنبياء وجعل صلاته ودعاءه عند قبورهم، وإن كان يدعو الله وحده ولا يشرك به شيئاً، فما بالك بأصحاب المواسم الذين يشدون الرحال من بلدان بعيدة بنسائهم وأولادهم إلى الوثن، ويذبحون له ويطوفون بضريحه، ويتمسَّحون به ويستغيثون به، لا شك أن غضب الله يكون عليهم أشد، وستصير تلك المودة التي جمعتهم على الأوثان عداوة يوم القيامة حين ينكشف الغطاء، ويتبين لهم أنهم كانوا خاسرين ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤١ ـ ٤٣]

قال (ك): «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به(٢): إنه تعالى يعلم ما هم عليه

(١) سبق تخريجه.
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.

من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد و﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم والمتضلعون[1] منه، وروى ابن أبي حاتم بسنده[2] عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: قال الله تعالى في سورة السجدة: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٦ ـ ٧]، فكل ما خلقه الله فهو حسن كامل واف بالغرض الذي خلق لأجله، فبيوت النمل في غاية الإحكام وحسن الهندسة، تتحير فيها الألباب، وبيوت النحل كذلك، وأعشاش الطيور، فكذلك بيت العنكبوت هو في غاية الكمال، واف بالغرض الذي خلق لأجله، وليس فيه نقص ولا عيب، ولكن لو أن الإنسان اتخذ بيتاً من نسج العنكبوت لا يصلح أن يكون له مسكناً لا يقيه حرّاً ولا برداً ولا مطراً ولا يحفظه من السراق واللصوص، فهو كالعدم، فكذلك الذين اتخذوا أولياء يعبدونهم مع الله لا ينفعونهم بشيء، ولا يدفعون عنهم شيئاً من الضر، فهذا وجه الشبه بين المشركين وبين من اتخذه من نسيج العنكبوت.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

[العنكبوت: ٥٦]

قال (ك): «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين بأن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المتضلعون» من غير واو في أوله.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٤) رقم (١٧٣٢٧).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥١٢ ـ ٥١٣) بتصرف.

يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾، قال الإمام أحمد بسنده عن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله ﷺ: «**البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم**»[1].

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين [هناك][2] أصحمة النجاشي ملك الحبشة ـ رحمه الله تعالى ـ فآواهم[3] وأيدهم بنصره وجعلهم[4] ببلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه[5] الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة»[6].

فصل

قال محمد تقي الدين: حاصل هذا الكلام أن المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد لا يستطيع أن يعلن فيه توحيد الله والبراءة من الشرك وأهله، وقد ضمن الله سبحانه لكل موحد صادق أن يهيئ له مكاناً في هذه الأرض الواسعة يستطيع أن يحقق فيه توحيد الله تعالى، فعليه أن يسعى بجد[7]، والله لا يخلف الميعاد.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٥٠)، وفيه مجاهيل، ولذا **ضعّفه** السخاوي في «المقاصد» (ص١٤٧) وقبله العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٢٢٤). وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٧٢): «فيه جماعة لم أعرفهم» نعم، **لأوله شاهد** عند أبي داود (٣٠٧٦) من حديث عروة، يكون ـ إن شاء الله تعالى ـ **حسناً به**.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

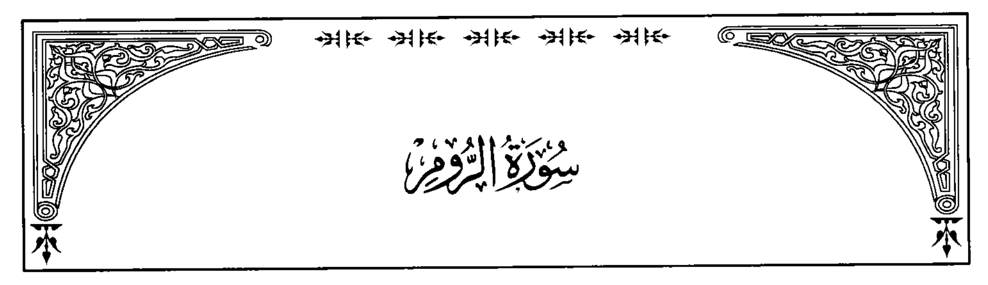
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «آواهم».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سُيُوماً».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والصحابة».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥٢٥).

(٧) قال النووي في «روضة الطالبين» (١٠/ ٢٨٢): «المسلم إذا كان ضعيفاً في دار الكفر، لا يقدر على إظهار الدين، حرِّم عليه الإقامة هناك، وتجب عليه الهجرة إلى دار الإسلام». وقيد ذلك بالقدرة على الهجرة، فقال: «فإن لم يقدر على الهجرة فهو معذور إلى أن يقدر».
وقد تكلمت على هذه المسألة بتفصيل وتقعيد وتدليل في كتابي «السلفيون وقضية فلسطين» (ص١٤ ـ ٣٧)، وفي تعليقي على «الإنجاد في أبواب الجهاد» لابن المناصف (١/ ٦٧ ـ ٧٥)، وذكرت أسماء الرسائل التراثية في موضوع الهجرة، وجلَّيتُ حقيقة فتوى شيخنا الألباني في هجرة أهل فلسطين ـ أعادها الله إلى حظيرة الإسلام والمسلمين ـ، وانظر له =



سورة الروم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣﴾ [الروم: ١٢ ـ ١٣]

قال (ك): «﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون(١)، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: المراد بالمجرمين هنا المشركون، أخبر الله تعالى أنهم ييأسون من رحمة الله يوم القيامة، ومن عبدوهم من الملائكة والأنبياء والصالحين وتماثيلهم وقبابهم وآثارهم، لا ينفعونهم بشيء يوم القيامة، بل يكفرون بعبادتهم، ويكونون لهم أعداء، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٦].

= في الموضوع: «السلسلة الصحيحة» التعليق على حديث رقم (٢٨٥٧)، وينظر كتاب أخينا الشيخ حسين العوايشة ـ حفظه الله ـ: «الفصل المبين في مسألة الهجرة ومفارقة المشركين»، وكتاب الشيخ العلامة المحدث حماد الأنصاري رحمه الله «إعلام الزُّمرة بأحكام الهجرة»، وهما مطبوعان.

(١) لم يعزه في «الدر المنثور» (١١/ ٥٨٧) إلا لابن أبي حاتم، وهو في «تفسيره» (٩/ ١٧٤٧١) ضمن الفوت غير المسند، المتمم من «الدر».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٧).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم: ٢٨ ـ ٣٥]

قال (ك): «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا[١] يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك[٢]، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: [يرضى أحدكم][٣] أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء، ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال، قال أبو مِجْلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك، وليس له ذلك[٤]، كذلك الله لا شريك له، والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذاك[٥]، فكيف تجعلون

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في تلبيتهم».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يرتضي أحد منكم».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذاك». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

[﴿مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾][(١)] من خلقه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]»[(٢)]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: ومعنى ذلك مفسر بقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧] وقال تعالى في سورة النجم: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢] وهذا شأن المشركين يصفون الله تعالى بما يكرهونه لأنفسهم، ولو وصفوا الله بصفاتهم لكانوا كافرين جاهلين ظالمين، فكيف إذا وصفوه بما لا يرضونه لأنفسهم؟ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، ما أوضح بيان الله تعالى وما أشد عمى بصائر المشركين.

رجوع إلى بقية تفسير (ك): «ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك[(٣)] بطريق الأولى والأحرى، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: المشركون، ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ أي: في عبادتهم الأنداد ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم عن قدرة الله[(٤)] منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن».

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إلى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ﴾. قال (ك): «يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ـ ملة إبراهيم التي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال ـ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه: لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب،

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لله الأنداد».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٤ ـ ٢٥)، ولابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ ـ بتحقيقي)، و«المدارج» (١/ ٢٤٠)، و«الجواب الكافي» (ص٢٠٧) كلام قيم على المثل المذكور في الآيات، فلينظر.

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وهو[١] معنى حسن صحيح.

وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: إنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلَّة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال ابن عباس وغيره في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لدين الله، وقال البخاري: «قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدين الله، خُلُقُ الأولين: [دين الأولين][٢] والفطرة: الإسلام»[٣]، قال البخاري[٤] بسنده أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء؟**» ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين[٥] المستقيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: فلهذا[٦] لا يعرفه أكثر الناس، فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد وابن جريج[٧]: أي: راجعين إليه ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الطاعة العظيمة، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه، قال ابن جرير بسنده عن يزيد بن أبي مريم قال: «مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر: ما قوام هذه الأُمة[٨]؟ فقال معاذ: ثلاث وهن

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»: و«صحيح البخاري»، وفي الأصل: «والآخرين على الدين».

(٣) كذا في «صحيح البخاري» كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (قبل رقم ٤٧٧٥)، وهكذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والإسلام».

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القويم».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولهذا».

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وابن جرير»!!

(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الآية»!!

المنجيات: الإخلاص، وهي الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والصلاة: وهي الملة، والطاعة، وهي: العصمة، فقال عمر: صدقت»(١).

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: لا تكونوا من المشركين الذين(٢) فرقوا دينهم أي: بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرأ بعضهم(٣): **(فارقوا دينهم)** أي: تركوه وراء ظهورهم(٤)، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما روى(٥) الحاكم في «مستدركه» أنه

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٨/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤)، ولم يعزه في «الدر المنثور» (١١/ ٩٠٠) إلا له! **وإسناده ضعيف**، وفيه انقطاع.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قد».

(٣) هذه قراءة حمزة والكسائي وتروى عن علي بن أبي طالب، وابن عامر في رواية، وكان يقرأ بها الأعمش. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٥)، «الحجة» (٣/ ٤٣٨) للفارسي، «الإتحاف» (٢/ ٣٩)، «التيسير» (١٠٨)، «النشر» (٢/ ٢٦٦)، «تفسير ابن عطية» (٢١/ ٤١)، «الاعتصام» (١/ ٨٥)، وفي تعليقي عليه تخريج قراءة **(فارقوا)** عن علي، وبيان ضعف إسنادها إليه.

(٤) قال أبو علي الفارسي في «الحجة» (٣/ ٤٣٨): «ومن قرأ **(فارقوا)**، فالمعنى: باينوه، وخرجوا عنه، وإلى معنى ﴿فَرَّقُوا۟﴾ يؤول، ألا ترى أنهم لما آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه فارقوه كلَّه، فخرجوا عنه، ولم يتّبعوه؟».

وقال صديقنا الشيخ محمد بازمول ـ حفظه الله ـ في كتاب «القراءات وأثرها في التفسير والأحكام» (٢/ ٥٥٣):

«بيّنت الآية بالقراءتين أن حال من فارق دينه وحال من فرّق في دينه، فآمن ببعض وكفر ببعض أنه حال واحد، ومآل واحد، وفي الآية بالقراءتين إشعار بأن مآل من فرق في دينه إلى المفارقة لدينه، نسأل الله العفو والعافية». قال: «وفيها بالقراءتين أيضاً تحذير من الحزبية التي تفرِّق المسلمين، وأنها ليست من الإسلام في شيء»، وانظر في ذم الحزبية ما علقناه على (٤/ ٨٨ ـ ٩٥)، فإنه مهم، والله الموفق.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رواه».

سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «**من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾. قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفتُ منه، فكيف والمتوعد ههنا الذي يقول للشيء: كن، فيكون.

ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة غيره[2] بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن شيء من ذلك»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: هذا المثل لا يبقي شكّاً لكل امرئ تدبره ولم يختم الله على قلبه، أن عبادة غير الله باطلة، وذلك لأن كل شيء خلقه الله ملك لله تعالى، سواء أكان عاقلاً كالملائكة والأنبياء والصالحين، أم غير عاقل كالأصنام والأوثان، ولا يوجد شخص عاقل يرضي أن يشاركه عبده في ماله، لأنه من جملة ماله، فكيف يتخذون من عبيد الله شركاء يعبدونهم معه بالذبح والنذر، والاستغاثة وغيرها من أنواع العبادة.

تجادلت امرأتان منذ مدة قريبة وهما مغربيتان، إحداهما موحدة والأخرى مشركة، وكانتا جالستين في المسجد النبوي، فقالت الموحِّدة للمشركة: لا ينبغي لك أن تستغيثي بنبي ولا بصالح، بل يجب عليك أن تستغيثي بالله وحده، فلم

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٢٨، ١٢٩) وقد سبق تخريجه، مفصَّلاً، والحمد لله وحده.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأوثان».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٥ ـ ٣١) بتصرف.

تقبل المشركة، ورأت أن عدم الاستغاثة بالأنبياء والصالحين يحطُّ من قدرهم، لأن مقامهم عند الله عال. فقالت الموحّدة للمشركة: أترضين أن يتزوج عليك زوجك امرأة أخرى؟ فقالت: لا ثم لا. فقالت لها: أليس ذلك حلالاً في دين الإسلام؟! فقالت: بلى، ولكنني لا أرضى بذلك، لأن ذلك يدل على أنني لا أملأ عينه ولا أكفي رغبته، فقالت الموحدة: فكيف ترضين لله رب العالمين ما لا ترضينه لنفسك؟! فإن من دعا غير الله لم يكفه الله، فتأملت المرأة المشركة كلام الموحدة ففقهت واعترفت بخطئها، ولله المثل الأعلى.

ومن العجائب التي شاهدناها في بلدان مختلفة أن العامي الأمي من الرجال والنساء إذا وحَّد الله ينفتح له باب العلم والفهم، حتى إنه يناظر علماء المشركين فيفحمهم ويهزمهم، كان معنا في بغداد رجل من الفلاحين لا يعرف إلا قراءة المصحف بلحن وصعوبة، فلما وحَّد الله وتمسك بسنَّة الرسول ﷺ صار علماء المذهب الحنفي يخافونه، وإذا رأوه في طريق سلكوا غيره، صلى مرة في المسجد المنسوب إلى أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، ويسمونه جامع الإمام الأعظم، وهذا لقب منحه جهال الحكام من الأتراك لأبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، فصار المرء لا يسمع إلا مذهب الإمام الأعظم، وقول الإمام الأعظم، فقلت لهم: إن الإمام الأعظم على الإطلاق هو رسول الله ﷺ، ويطلق هذا اللفظ على خليفة المسلمين، فقالوا: إنك تبغض أبا حنيفة، فقلت: لا أبغضه، لأنه من أئمة السلف المثبتين لصفات الله تعالى كلها، ومنها علوه تعالى، واستواؤه على عرشه، وهو بريء ممن يفتي بالتقليد أو يقضي به أو يبيح التفرق في الدين، أو يعتقد اعتقاد الجهمية بأن الله ليس فوق العرش، بل هو في كل مكان، ولكنكم تعبدون خيالاً، وتسمونه الإمام الأعظم.

ومن الحكايات الطريفة التي وقعت لذلك الشيخ الفلاح وهو أبو عبد الله أنه ذهب قصداً ليغيظ غلاة المقلدين فصلى معهم في مسجد أبي حنيفة فلما قال الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال أبو عبد الله: آمين، ورفع صوته ومده بها، وكان الإمام رقيق الدين خرج من المذهب الشافعي ودخل في المذهب الحنفي ليكون إماماً لذلك المسجد، فلما فرغ من الصلاة غضب على أبي عبد الله وقال رافعاً صوته: من ذا الذي يصرخ بآمين (ليش الله أصمخ)؟! يعني: هل الله أصم؟ فقال له أبو عبد الله على البديهة: وأنت لماذا تصرخ بقولك: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، ليش الله أصمخ؟! فقال له: أنت (وكح) أي: وقح، فقال أبو

عبد الله: (أنا ما وكح) ولكن متمسك بسنة النبي، فقال الحاضرون: كيف تجادل العالم وأنت جاهل؟! فقال أبو عبد الله: بل هو الجاهل أو المخالف للسنة على عمد، لأن الجهر بالتأمين سنة[١]، ولا يستطيع هو أن يزعم أنه ليس بسنة.اهـ.

فائدة ثانية: قول البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «خلق الأولين»، إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن قول قوم هود لنبيهم حين دعاهم إلى عبادة الله وحده واتباع رسوله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، أجابوه بقولهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨]، قرئ[٢] **(خَلْق الأولين)** بفتح فسكون، بمعنى: كذب الأولين لأن الخلق والاختلاق في اللغة هو الكذب، قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أي: يكذبون كذباً، وقرئ[٣] بضم الخاء واللام، بمعنى: العادة والطبيعة، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى: هذا الذي تدعونا إليه يا هود إنما هو كذب الأمم السابقة وأساطيرهم وليس من الله كما تدعي، وعلى القراءة الثانية يكون المعنى على أحد وجهين:

الأول: هذا الذي تقوله يا هود ليس من الله، وإنما هو من عادة الأولين.

الثاني: معناه: نحن على عادة الأولين ودينهم، لا ننتقل عن ذلك إلى ما تدعونا إليه، وهذا أضعف الأقوال وأقواها أولها.اهـ.

فائدة ثالثة: قول (ك): «خبر بمعنى الإنشاء» أي: لا تبدلوا خلق الله، فعلى هذا يكون المعنى لا تبدلوا أيها الناس دين الله الذي بعث به رسله، وهو: توحيده وإقامة العدل والإحسان بين الناس، ومحاسن الأخلاق، وتحكيم شرع الله، فإن الله خلق عباده على الفطرة، فمتى عرض عليهم دين الحق مالت إليه قلوبهم وانشرحت له صدورهم ما لم تغير فطرتهم بتعليم كُفريّ، كالمجوسية،

---

(١) انظر في ذلك كتابي: «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص٢٤٥ ـ ٢٤٧).

(٢) هذه قراءة ابن مسعود وعلقمة والحسن وأبي عمرو وابن كثير والكسائي ويعقوب وسهل. انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٣٣ ـ ٣٤)، «الإتحاف» (٣٣٣)، «الكشف» (٢/ ١٥١)، «السبعة» (٤٧٢)، «النشر» (٢/ ٣٣٥)، «الحجة» لابن خالويه (٢٦٨)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (٢/ ١٣٦)، «زاد المسير» (٦/ ١٣٧)، «تفسير ابن عطية» (١١/ ١٣٧)، «الدر المصون» (٥/ ٢٨٢).

(٣) هذه قراءة نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبي عمرو وخلف والأعمش وشيبة، ورجحها الطبري. انظر المراجع السابقة.

واليهودية، والنصرانية، وعبادة الأوثان، والابتداع في دين الله كطرق المتصوفة التي فرقت الناس وأفسدت عليهم دينهم ودنياهم.

وحتى بعد ما تغير الفطرة ويقع صاحبها في الضلال إذا جاءه داع يدعوه إلى دين الحق، ولم يكن عنده مانع من اتباع الهوى[1]، يتلقى الدعوة بفرح، ويتوب إلى الله ويتمسك بدين الحق، ويتعجب من نفسه كيف كان يقرأ القرآن ولا يتدبره ولا يفهم معناه مع وضوحه، لأن ذلك التعليم الخبيث الذي سبق له أعماه عن فهم القرآن، ولا سيما وقد حرفه المضلون وسدوا باب فهمه، وفتحوا أبواباً أخرى من الجهالات والضلالات، فالحمد لله الذي هدانا لدين الحق وأخرجنا من الظلمات إلى النور، فلّله الحمد في الأولى والآخرة.

فائدة رابعة: قول الإمام (ﷺ): «وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة... إلى آخره».

قال محمد تقي الدين: ومن الضلال إحداث المذاهب والتعصب لها، كما بيَّنه (ﷺ) رَحِمَهُ اللَّهُ فيجب على المسلمين في كل زمان ومكان أن يكونوا في دين الله كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، لم تكن عندهم مذاهب ولا طرق ولا فرق ولا نحل، فلو كان التفرق حقّاً لكان أصحاب رسول الله ﷺ على مذاهب بكرية، وعمرية، وعثمانيّة، وعلوية، حاشاهم من ذلك، وهم خير القرون، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتبعهم بإحسان.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤٠ ـ ٤٢]

---

(١) ذكر ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص١٨) الأسباب المانعة من قبول الحق، فهي جديرة بأن تحفظ وتنشر، ولأخينا فضيلة الشيخ حمد العثمان كتاب مطبوع بعنوان «الصوارف عن الحق»، وهو مهم.

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عُرياناً[١]، لا علم له، ولا سمع ولا بصر ولا قوة[٢]، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب، كما قال الإمام أحمد بسنده عن حَبَّة وسَوَاء ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً، فأعنَّاه، فقال: «**لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت[٣] رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله ﷻ**»[٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله ﷻ هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: [تقدس وتعالى][٥] وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك، أو نظير أو مساو أو ولد أو والد؛ بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحداً»[٦].

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

قال القاسمي: «﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: كثرت المضار والمعاصي على وجه الأرض وعلى ظهر السفن في لجج البحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: من الآثام والموبقات، ففشا الفساد وانتشرت عدواه، وتوارثه جيل

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عريان»!
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قوي»!
(٣) في الأصل: «تهزهزت»! والصواب المثبت.
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٥٣)، وفي «التاريخ الكبير» (٣/ ٩٢)، وابن ماجه (٤١٦٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤٦٦)، وابن سعد (٦/ ٣٣)، وابن حبان (١٠٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٣٤٧٩، ٣٤٨٠، ٦٦١٠، ٦٦١١)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٤٩)، وفي «الآداب» (٩٥١)، **وإسناده ضعيف**، فيه سلام بن شرحبيل، لم يوثقه غير ابن حبان. وانظر: «الضعيفة» (٤٧٩٨).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعالى وتقدس».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٣).

عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ اللام للعاقبة، أي ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم[(١)]. وقيل: اللام للعلة على معنى أن ظهور الجدب والقحط والغرق بسبب شؤم معاصيهم، ليذيقهم وبال بعض أعمال في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: أذاقهم[(٢)] سبحانه سوء العاقبة، لشركهم المستتبع لكل إثم وعصيان»[(٣)].

فصل

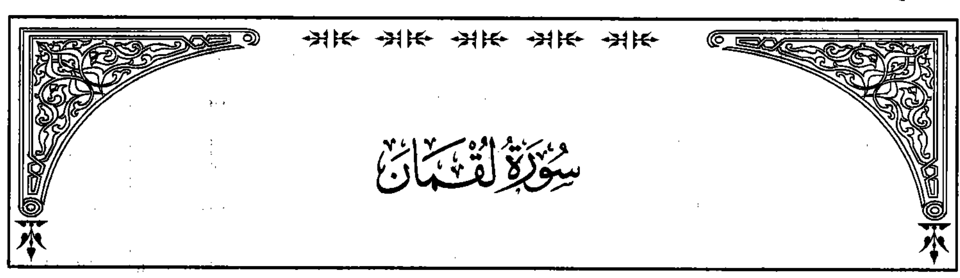
قال محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآيات بين توحيد الربوبية في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ «وما بعده» وتوحيد الإلهية في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فائدة ثانية: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ مقروناً بالشرك والمعاصي وخصوصاً في البلدان التي أسعد الله أهلها بالإسلام بعد أن كانوا لا شيء، فأعطاهم العزة والسيادة والعلم، واستخلفهم في أرضه، وكانت لهم البلاد، ثم رجعوا على أعقابهم وتنكروا للإسلام ونبذوا شريعته، فجعلهم الله أسفل سافلين، وسلبهم ما منحهم، فصاروا أذل الناس وأحقرهم، وأفقرهم وأجهلهم وصاروا أذناباً بعد أن كانوا رؤوساً، اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «إرادة الرجوع».
(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «فأذاقهم».
(٣) انظر: «تفسير القاسمي» (١٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٥]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكر[١] الله تعالى [لقمان][٢] بأحسن الذكر، وأنه[٣] آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أظلم الظلم، وتقدم في (سورة الأنعام) الكلام على قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ في (الباب التاسع) عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وفيها حديث مرفوع إلى النبي ﷺ[٤].

ثم قرن وصيته إياه بعبادة الله وحده البر[٥] بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذكره».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنه».

(٤) انظره في (١/ ٣٤٧) وهناك تخريجه.

(٥) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بالبر».

[ذات وهن أو تهن ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: تضعف][(١)] ضعفاً [فوق][(٢)] ضعف، [فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها][(٣)].

وقوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين[(٤)]، ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره[(٥)]، من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليُذكّر بإحسانها

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال عطاء الخراساني».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على». (٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]».

(٥) يشير المصنِّفُ إلى ما أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٢٥ ـ رواية يحيى)، ومن طريقه إسماعيل بن إسحاق القاضي في «أحكام القرآن» كما في «المعتبر» رقم (٢٠٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣) أنه بلغه أن عثمان بن عفان أتي بامرأةٍ قد ولدت في ستَّة أشهر، فأمر بها أن ترجم، فقال له علي بن أبي طالب: ليس ذلك عليها، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ وقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾؛ قال: فالرضاعة أربعة وعشرون شهراً، والحمل ستة أشهر.

ووصله ابن أبي ذئب في «موطئه» ـ كما في «الاستذكار» (٢٤/ ٧٣)، ومن طريقه ابن جرير في «التفسير» (٥/ ١٠٢) ـ، وابن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ـ ومن طريقه ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ٢١٤) ـ من طريق يزيد بن عبد الله بن قسيط عن بعجة بن عبد الله الجهني به مطوّلاً، قال ابن حجر: «وهذا موقوف صحيح» وقال: وأظن مالكاً سمعه من ابن قسيط؛ فإنه من شيوخه».

ثم قال: «وقد أخرج إسماعيل القاضي في كتاب «أحكام القرآن» بسندٍ له فيه رجل مبهم عن ابن عباس أنه جرى له مع عثمان في نحو هذه القصَّة الذي جرى لعلي، فاحتمل أنه كان محفوظاً أن يكون توافق معه، وأما احتمال التعدد؛ فبعيد جدّاً».

قلت: وأخرج ما جرى بين ابن عباس مع عثمان ـ كما قال المصنف ـ: ابن شبَّة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٧، ٩٨٧)، وابن جرير في «التفسير» (٥/ ٣٤، ط. شاكر)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٣/ ٢/ ٦٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٣٥١، ٣٥٢)، وهذه رواية ثقات أهل مكة، والرواية الأولى رواية أهل المدينة، وأهل البصرة يرونها لعمر مع علي؛ كما عند ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٤٢).

وانظر: «الاستذكار» (٢٤/ ٧٤ ـ ٧٥)، و«المعتبر» (ص١٩٤) للزركشي، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٤، ١٥٧).

المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

قال ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن وهب، قال: قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي ﷺ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا آلوكم خيراً، وإن المصير إلى الله وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت**»[1].

وقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾؛ يعني: المؤمنين.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال الطبراني في «كتاب العشرة»[2] بسنده عن داود بن أبي هند: أن سعد بن مالك قال: أنزلت فيَّ هذه الآية، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، قال: «كنت رجلاً باراً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أماه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحتْ قد جهدت، فمكثتْ يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحتْ قد جهدت، فمكثتْ يوماً وليلة أخرى لا تأكل فأصبحتْ قد اشتد جهدُها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أماه والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» ـ كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٥٤) ـ، والحاكم (١/ ٨٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ق٦٢١) من ثلاثة طرق عنه، **هو بها حسن** ـ إن شاء الله تعالى ـ. وبعث النبي ﷺ معاذاً لليمن ثابت في «الصحيحين»، وانظر: «إتحاف المهرة» (١٣/ ٢٧٤).

(٢) عزاه له: ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٥٤) وأورد إسناده بتمامه، ووقع تصريحه بأن نزول الآية كانت فيه عند مسلم في «صحيحه». انظر الهامش الآتي.
وكتاب «العشرة» للطبراني في ثلاثين جزءاً حديثياً، لم نظفر له بأثر، ولم نفز عنه بخبر، وانظر كتاب: «الحافظ الطبراني وجهوده في خدمة السنة النبوية» (ص١٣٦) للشيخ محمد أحمد صالح.

تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لقد عظم الله شأن بر الوالدين إذ قرن الإحسان إليهما بتوحيده الذي هو أشرف العبادات وأعظمها، فيفهم من ذلك أن بر الوالدين أعظم العبادات بعد توحيد الله تعالى، ومع ذلك لم يبح لعباده أن يرضوا والديهم إذا أرادوا منهم أن يشركوا بالله تعالى، وتأمل قصة سعد بن مالك مع أمِّه تزدد علماً وتحقيقاً للتوحيد، جعلنا الله وإياك من أهله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٢ ـ ٢٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل وانقاد لأمره واتّبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله باتباع ما به أمر وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾[٢] لا تحزن [عليهم يا محمد][٣] في كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، إلى الله مرجعهم فينبئهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾، أي: فيجزيهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية.

ثم قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب شاق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٤٨)، والترمذي (٣١٨٩)، وأحمد (١/ ١٨١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠/ ٣٣١) وغيرهم.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يا محمد عليهم».

﴿نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩ ـ ٧٠]»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: إسلام الوجه هنا، معناه: توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، واتباع الوحي الذي أنزله على نبيه، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣١ ـ ١٣٢] انظر ما تقدم في (الباب الحادي عشر) من (سورة البقرة).

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ دليل على شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ والعمل بمقتضاها، وهو محبة النبي ﷺ واتباعه في كل ما جاء به من أمور الدين، كما أن إسلام الوجه لله تعالى يتضمن معنى لا إله إلا الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] فـ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ تضمنت معنى، (لا إله إلا الله)، و﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، تضمنت معنى (محمد رسول الله) ومثل ذلك حديث سفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك؟ قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»[٢]، رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾؛ يعني: أن من أشرك بالله ولم يسلم وجهه إليه، أو أعرض عن اتباع رسول الله فهو كافر فلا يحزنك كفره، فسوف يمتع قليلاً ثم يضطر إلى عذاب غليظ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨) وأطلت النفس في تخريجه في تعليقي على «المجالسة» رقم (١٧٢١).

لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٢٩ ـ ٣٢]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بمعنى: يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ثم يشرع في النقص، فيطول الليل ويقصر النهار. وهذا يكون في الشتاء.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة، وقيل: إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح، وقال ابن أبي حاتم بسنده(١) عن ابن عباس أنه قال: «الشمس بمنزلة الساقية، تجري في السماء بالنهار في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر». إسناده صحيح.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠] ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية [الطلاق: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، لأن كل ما في السموات والأرض، الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ الذي لا أعلى منه، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٢) إلى ابن إسحاق، وابن جرير وابن أبي حاتم، وهو ليس في مطبوع «تفسير ابن جرير» عند هذه الآيات، وهو ساقط من مطبوع «تفسير ابن أبي حاتم»، وأورد ابن كثير (١١/ ٧٩) إسناده، وقد **صححه!**
ووجدته في «الهيئة السنية» رقم (١٩١) للسيوطي، ولم يعزه إلا إلى ابن أبي حاتم، ثم وقفت على إسناد ابن أبي حاتم، فأخرجه من طريقه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١١٥٠ ـ ١١٥١) رقم (٦٣٠) وإسناده رجاله ثقات، إلا أن أبا صالح كاتب الليث كثير الغلط، وكانت فيه غفلة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، قال (ك): «يخبر تعالى أنه الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من قدرته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء شكور في الرخاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال والغمام ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي: كافر[١]، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ فالختار هو الغدار، قاله مجاهد[٢] والحسن[٣] وقتادة[٤] ومالك عن زيد بن أسلم[٥]، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخَتْر أتم الغدر وأبلغه، قال عمرو بن معديكرب[٦]:

وإنَّكَ لو رأيتَ أبا عُميرٍ ... ملأتَ يديك من غدرٍ وخَتْرِ

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنعم لا يشكرها، بل يتناساها ولا يذكرها»[٧].

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٥٨٠)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣١٠١) رقم (١٧٥٦٣) وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٦٨) إلى ابن أبي شيبة والفريابي وابن المنذر، وهو عند البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٩٤) وغيره.

(٢) انظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٥٠٦)، و«تفسير ابن جرير» (١٨/ ٥٨٠، ٥٨١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣١٠١).

(٣) انظر: «تفسير الحسن البصري» (٤/ ٢٨١) رقم (٨١٨ ـ جمع شير علي شاه)، و«تفسير ابن جرير» (١٨/ ٥٨١)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٢٨).

(٤) انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٠٦)، «تفسير ابن جرير» (١٨/ ٥٨١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٣١٠١)، و«الدر المنثور» (٥/ ١٦٨).

(٥) انظر: «الإمام مالك مفسراً» (٣١٧/ رقم ٣٧٥).

(٦) البيت في «ديوانه» (١٠٥).

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٧٩ ـ ٨١).

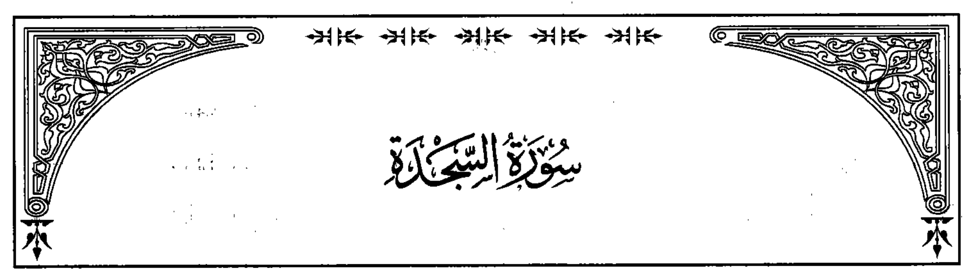
فصل

يقول محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآيات بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة فمن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، إلى ﴿خَبِيرٌ﴾ آية دالة على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية دالة على توحيد العبادة.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الآية دالة على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ الآية دالة على توحيد العبادة، وتفسير ابن عباس[١] لجريان الشمس يعلم منه أن الشمس حين تغيب عن قوم تطلع على آخرين، فهي تجري دائماً ليلاً ونهاراً حتى ينتهي عمرها، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

---

(١) المتقدم لفظه قريباً، وهناك تخريجه.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمّة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القاهر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ يعني أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك [أو وزير أو ند](١) أو عديل، لا إله إلا هو، ولا رب سواه»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «تقدم الكلام على ذلك» يعني: في (سورة الأعراف)، وجميع الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وأئمة الحديث يعتقدون أن الله فوق عرشه الذي هو أعظم المخلوقات، وعرشه فوق سمواته ويحاربون عقيدة من يقول: إن الله في كل مكان، وسأتعرض لذلك بإقامة البراهين والبحث والتحقيق في (قسم توحيد الأسماء والصفات) في (الجزء الثالث) من (هذا الكتاب)(٣) إن شاء الله تعالى.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أو نديد أو وزير».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٩٠).

(٣) انظر منه (٥/ ٨٩ وما بعد) من نشرتنا هذه، والله الموفّق للخيرات، والهادي للصالحات.

قوله: «فلا ولي لخلقه سواه» العقيدة الشائعة عند أكثر من ينتسب إلى الإسلام أنهم يقولون بوجود أولياء ينفعون ويضرون، وقد منحهم الله التصرف[1] في العالم، يفعلون ما يشاؤون، يحيون الأموات، ويميتون الأحياء، ويعطون كل من سألهم حاجته، وهذه عقيدة أهل الكفر والشرك، وقد نفى الله الأولياء في مواضع لا تحصى من كتابه العزيز:

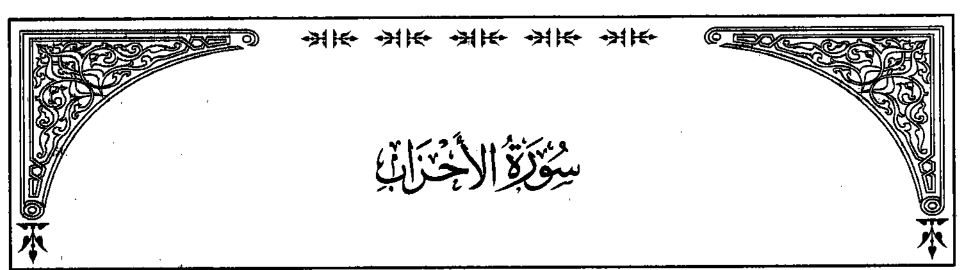
فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ [الشورى: ٦] وقال تعالى في هذه السورة أيضاً منكراً على المشركين اتخاذ الأولياء: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

فالمسلم الحقيقي الموحد ليس له إلا ولي واحد، وهو الله سبحانه، قال تعالى في سورة الأعراف آمراً رسوله محمداً ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥ ـ ١٩٦] وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ[2] ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. اهـ.

---

(١) تحرف في الأصل إلى «التصوف»!

(٢) في الأصل: «أفغير»!



سُورَةُ الأَحْزَابِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ [الأحزاب: ٣]

قال (ك): «﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: التوكل[2]: هو الاعتماد بالقلب على الله وحده في جلب كل محبوب ودفع كل مكروه، فطالب العلم يبذل جهده في التعلم، ولا يتوكل على جهده بل يتوكل على الله في بلوغ النجاح، والزارع يبذل كل جهده في الحرث وإصلاح التربة، واستعمال المخصبات، ولا يتكل على ذلك، بل على الله وحده، فإن من اعتمد على حوله وقوته وكله الله إلى نفسه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩]

قال (ك): «يمدح تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام ـ بل وفي كل مقام ـ محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١١٢).

(٢) سقط من الأصل!

جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي [قبله إنما][1] يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثم ورَّث مقام البلاغ عنه أمته من بعده[2]، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم بلغوا عنه كما أمرهم في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم ثم ورثه[3] كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم، روى الإمام أحمد وابن ماجه بسندهما[4] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ولا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه»**، فقال: **«ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقوله؟ فيقول: رب خشيت الناس؟ فيقول: فأنا أحق أن يخشى»**[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: أثنى الله تعالى على ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وأخبر أنه ينصرهم ويعينهم، وقد بين الحافظ (رحمه الله) من هم هؤلاء المعنيون بهذا وأنهم الأنبياء وورثتهم، فلا يكون منهم حقاً وصدقاً إلا من اتصف بخشية الله وحده، ولم يخش أحداً غيره، وتكفل الله سبحانه لمن كانت هذه صفته بالنصر والعون، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم. اهـ.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعد».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ورث».

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وعبد بن حميد (٩٧١)، وابن ماجه (٤٠٠٨)، والبيهقي (١٠/ ٩٠ ـ ٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٤)، **وإسناده ضعيف لانقطاعه**، أبو البَخْتري لم يسمع من أبي سعيد، وبينهما راوٍ مبهم، وضعفه شيخنا الألباني أيضاً.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢ ـ ٧٣]

قال محمد تقي الدين: ذكر الحافظ (ﷺ) في تفسير هذه الآية روايات كثيرة، حاصلها أن الأمانة هي الفرائض، والإنسان هو آدم، ثم ذكر أحاديث الأمانة أنقل شيئاً منها، روى أحمد والشيخان بسندهم[(١)] عن حذيفة ﷺ قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: «**إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال[(٢)]، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة»[(٣)]**، ثم حدّثنا عن رفع الأمانة فقال: «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٣)، والبخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣)، والترمذي (٢١٧٩)، وابن ماجه (٤٠٥٣) وغيرهم.

(٢) الجذر: الأصل، فجذر الشجرة: أصلها، وجذر الأربعة اثنان، وخص الرجال بالذكر لأنهم المخاطبون، فالنساء مثلهم، وذلك على حد قول الشاعر:

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ

(٣) من المعلوم أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتُنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبُها بسقْيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتّذكر على التفكّر، والتفكّر على التّذكّر إلا أوشكت أن تيبس، فالفطرة التي جعلها الله في أعماق الإنسان كالنبتة، تحتاج إلى سقي ونماء، وسقيها بالعلم، ونماؤها بالعمل، وهكذا كان الصحابة، علموا الكتاب والسنة، وحافظوا على الفطرة.

وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشَكَ أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظَّفَها عليهم، وجعلها مادةً لسَقْيِ غراس التوحيد الذي غَرَسَه في قلوبهم.

ومنها: إن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بُدَّ أن يُخالطه دَغَل ونَبْتٌ غريب ليس من جنسه، فإنْ تَعاهده رَبُّه ونَقَّاه وقَلَعه كمل الغرس والزرع، واستوى، وتَمَّ نباتُه، وكانَ أَوْفَرَ لثمرته، وأطيَبَ وأزكى، وإنْ تركه أوشَكَ أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلّته، ومَنْ لم يكن له فِقْهُ نفسٍ في هذا ومعرفة به، فاته ربْحٌ كبير وهو لا يشعر؛ =

قلبه، فيظلّ أثرها مثل أثر المَجْل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبراً، وليس فيه شيء». قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال: «**فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً! حتى يقال للرجل: ما أجلده وأظرفه وأعقله، وما في قلبه حبة خردل من إيمان**»، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه علي دينه، وإن كان نصرانيّاً أو يهوديّاً ليردنه عليَّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً»[(١)].

١ ـ قال صاحب «اللسان»: «مَجِلَتْ يده بالكسر ومَجَلَت تَمْجَل وتَمْجُل مَجَلاً ومَجْلاً ومُجُولاً لغتان، نَفِطَتْ مِن العمل، أي: [تقرحت][(٢)] من [الشغل بها][(٣)] فمرنت وصلبت وثخن جلدها، [وتحجر][(٤)] وظهر فيها ما يشبه البَثَر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة. وفي حديث فاطمة[(٥)] أنها شكت إلى علي ﷺ، مَجْل يديها من الطحن، وفي حديث حذيفة: «فيظلُّ أثرها مثل أثر المَجَل»، وأمجَلَها العملُ»[(٦)].

٢ ـ قال صاحب «اللسان»[(٧)]: «النَّبرَة: الورم في الجسد، وقد انتبر، ومنه

= فالمؤمن دائماً سعيُه في شيئين: سَقْي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التُّكْلَان. [ولا حول ولا قوة إلا به]. أفاده ابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ـ بتحقيقي).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١، ٢٥٥) بتصرف.

(٢) في مطبوع «اللسان»: «نفِطَت». (٣) في مطبوع «اللسان»: «العمل».

(٤) في مطبوع «اللسان»: «وتعجّر».

(٥) الحديث طويل، انظره عند أحمد (١/ ١٠٦)، والحميدي (٤٤)، وابن سعد (٨/ ٢٥)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٢٥٩)، وأبي نعيم (٢/ ٤١) وفي «الأربعين» (١٦)، **وهو صحيح**. وفيه طلب علي وفاطمة من رسول الله ﷺ الخادم، وإرشاده لهما بالتسبيح والتحميد والتكبير قبل النوم، وهذا القسم منه عند البخاري (٣١١٣، ٣٧٠٥، ٥٣٦١، ٥٣٦٢، ٦٣١٨)، ومسلم (٢٧٢٧) وغيرهما، وبيّنت ذلك في تعليقي على «رجحان الكفّة» للسخاوي (١٠٩ ـ ١١٢)، ونقل عن ابن تيمية أنه استخلص من القصة المشار إليها أنّ من واظب على هذا الذكر عند النوم لم يُصبْه إعياء، لأنّ فاطمة ﵂ شكت التعب من العمل، وأحالها ﷺ على ذلك، وينظر لهذا: «فتح الباري» (١١/ ١٢٥).

(٦) انظر: «لسان العرب» (١١/ ٦١٦ ـ مجل).

(٧) انظر: «لسان العرب» (٥/ ١٨٩ ـ نبر).

حديث عمر رضي الله عنه: «إياكم والتخلُّل بالقصب، فإن الفم يَنْتَبِر منه»، أي يَتَنَفَّط».

٣ ـ ساعيه: المكلف بأخذ الجزية منه، قال الإمام أحمد بسنده[1] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«أربعٌ إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة[2]، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفّة [في][3] طعمة»[4]**، وروى أبو داود عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حلف بالأمانة فليس منا»[5]**.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ منهم ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسوله[6]، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: ويرحم[7] المؤمنين من الخلق [الذين آمنوا][8] بالله وملائكته وكتبه ورسله[9]، العاملين

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، وابن وهب في «الجامع» (١/ ٨٤)، والحاكم (٤/ ٣١٤)، وعنه البيهقي في «الشعب» (٥٢٥٧) **بإسناد منقطع**، الحارث بن يزيد الحضرمي لم يسمع عبد الله بن عمرو؛ نعم، له طريق أخرى موصولة، أخرجها الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٦، ٢٧، ٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٥٨) وقال: «هذا الإسناد أتم وأصح»! قال أبو عبيدة: نعم، ولكن فيه ابن لهيعة والأصح منهما ما أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٠٤) عن عبد الله بن عمرو موقوفاً، **وإسناده صحيح**.

(٢) في الأصل: «أمانتك»! والمثبت من «المسند».

(٣) سقطت من الأصل، وأثبتها من «المسند».

(٤) أي: يتعفف عن الحرام والمشتبه فيه. (منه).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وأحمد (٥/ ٣٥٢)، وأبو يعلى في «مسنده الكبير» ـ كما في «إتحاف الخيرة» (٦٥٩٨، ٦٥٩٩، ٦٦٠٠) ـ والحارث بن أبي أسامة ـ كما في «المطالب العالية» (٣٢١٩) ـ والبزار (١٥٠٠ ـ «كشف الأستار») في «مسانيدهم»، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ٣٧)، وابن حبان (٤٣٩٣ ـ «الإحسان») والطحاوي في «المشكل» (١٣٤٢)، والحاكم (٤/ ٢٩٨)، والبيهقي (١٠/ ٣٠)، وفي «الشعب» (١١١١٦)، والخطيب (١٤/ ٣٥) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه، ووهم فيه بعض الرواة فقال: «سليمان»! بدل «عبد الله»! **وإسناده صحيح**. وصححه شيخنا الألباني في «صحيح موارد الظمآن» (١/ ٥٢٧) رقم (١١٠٠).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسله». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وليرحم».

(٨) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!

(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ورسوله».

بطاعته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عرض الله الأمانة، وهي التكاليف الشرعية على الأشياء المذكورة بكيفية يعلمها هو سبحانه، فخافت هذه الأشياء أن لا تقوم بعملها خير قيام، مع قوتها وعظم حجمها، وحملها الإنسان الضعيف، والمراد بالإنسان جنسه، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ٢] وقد فسر الإنسان في «التفاسير» التي عندي بأنه آدم، وفيه إشكال، لأن آدم لا يتصف بكثرة الظلم والجهل. بخلاف الجنس، فإن أكثرهم متصفون بذلك[٢]، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فائدة ثانية: ذكر حذيفة في الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ حديثين، أحدهما قد رآه والآخر لم يره، ولكنه ينتظره، الحديث الأول، رفع الأمانة من قلوب الرجال، وقد عاش حذيفة إلى أن رأى ذلك، فقبل رفع الأمانة كان يعامل جميع الناس من المسلمين وأهل الذمة، ولا يخشى غدراً ولا خيانة، أما بعد رفع الأمانة صار لا يعامل إلا من يعرفه ويثق به.

فائدة ثالثة: وصف النبي ﷺ ارتفاع الأمانة من قلوب الرجال، وشبهه بموضع من جسم الإنسان وقعت عليه جمرة فانتفخ، فإذا رآه الإنسان منتفخاً

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).

(٢) إلا من اعتنى بنفسه، وحصل نصيباً من (التزكية) التي ترفع (الظلم)، و(العلم) الذي يرفع (الجهل)، ولذا بعث النبي ﷺ مزكّياً معلّماً، كما جاء في غير ما آية، والتزكية لا تتحصل إلا بالتربية، والعمل الصحيح لا يتحصل إلا بالتصفية، ولذا كان الشعار السلفي في الإصلاح: (التصفية والتربية)، وهما بمثابة الوسائل لتحصيل (التزكية والعلم)، وقد بسطتُ هذا المعنى في مقالة نشرتُها في مجلة «الاستقامة» البحرينية، العددان السابع عشر والثامن عشر، جمادى الأولى والآخرة ١٤٢٦ (ص٣٢ ـ ٣٤) وهي بعنوان (نظرة تأصيلية في التصفية والتربية الإيمانية من الشعار السلفي في عملية التغيير).

ناتئاً، يظن أنه يشتمل على شيء، وهو في الحقيقة فارغ. فكذلك الذي يدعي الإسلام إذا سمع الإنسان دعواه يظن أنه ثقة، فإذا امتحنه بالمعاملة، وجده فارغاً من الإيمان الذي ثمرته الصدق في المعاملة.اهـ.

فائدة رابعة: تأملوا قول النبي ﷺ: «**أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا**»(١)، فقد جمعت هذه الأربع الخلال الخير كله، فمن كانت فيه فهو سعيد في الدنيا والآخرة، ومن نقصه شيء منها نقصت سعادته، ومن لم يكن فيه شيء منها فهو شقي، نسأل الله أن يرزقنا إياها كلها.اهـ.

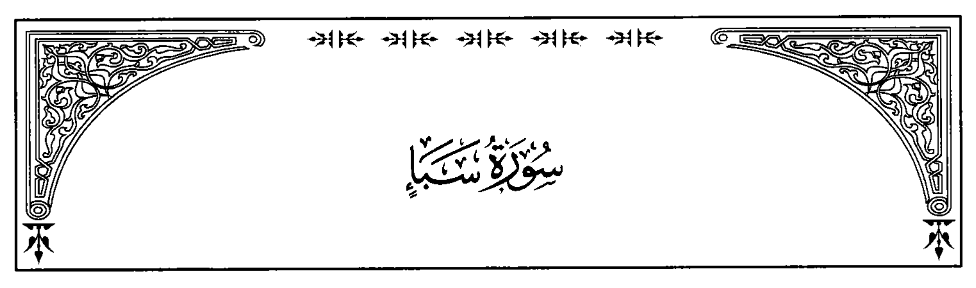
فائدة خامسة(٢): المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات أعد الله لهم عذاباً أليماً، إلا أن المنافق شر من المشرك وأكثر ضرراً للمسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

---

(١) قطعة من حديث تقدم بتمامه وتخريجه هناك.

(٢) **وسادسة**: ذكر الله في الآيات مَنْ حمل الأمانة ظاهراً وباطناً، وهم المؤمنون والمؤمنات، ومن حملها ظاهراً دون الباطن وهم المنافقون والمنافقات، ومن ردها ظاهراً وباطناً وهم المشركون والمشركات، والله أعلم.

وسابعة: إن امتزاج (الظلم) مع (الجهل) يتولّد منه (الضلال المبين)، وسبق أن بيّنت أن (الظلم) يرفع بـ(التزكية)، و(الجهل) يرفع بـ(العلم)، ولما ذكر الله تعالى منّته الكبرى على البشرية بأن بعث في الأميين رسولاً منهم، ونعته بقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ثم نعتهم عند فقدان هاتين الخصلتين فيهما ـ ولازمه تحقق الظلم والجهل فيهم ـ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فالإنسان ما لم يقبل على العلم والتزكية فهو غير مبرأ من النفاق والضلال، ومصداق ذلك قوله ﷺ الصحيح: «**خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت، وفقه في الدين**».



سُورَةُ سَبَإٍ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]

قال (ك): «بيّن[١] تبارك وتعالى أنه [لا إله إلا هو][٢] الأحد الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقلُّ بالأمر وحده من غير مشارك، ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيدٌ لديه، قال قتادة في قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: «من عون يعينه بشيء»[٣]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذن له في الشفاعة كما قال ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يبين».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الإله الواحد».
(٣) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٢٧٣)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٠٥).

قال البيضاوي: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ غاية لمفهوم الكلام من أن ثم توقفاً وانتظاراً للإذن، أي: يتربصون فزعين، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين، والمشفوع لهم بالإذن، وقيل: الضمير للملائكة، وقد تقدم ذكرهم ضمناً، ﴿قَالُوا۟﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ قالوا: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، وهم المؤمنون، وقرئ بالرفع[1] أي: مقولُهُ الحق، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا لنبي من الأنبياء أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هاتين الآيتين إرشاد عظيم لمن نوّر الله قلبه ولم يمنعه اتباع الهوى عن قبول الحق، وحجة دامغة لأهل الباطل، فقد نفى الله فيها أربعة أمور:

الأول: إن الآلهة الذين يعبدهم المشركون سواء أكانوا ملائكة أم أنبياء أم صالحين أم تماثيل أم أوثاناً لا يملكون من الخير ما يزن نملة صغيرة، لا في السموات ولا في الأرض استقلالاً.

الأمر الثاني: إنهم لا يملكون مثقال ذرة على وجه الشركة مع الله تعالى.

الأمر الثالث: إن الله تعالى ليس له معين من خلقه.

الأمر الرابع: وهو آخر ما يؤمله المؤمل الشفاعة، فإن الله لا يشفع عنده أحد لأحد إلا إذا أذن للشافع ورضي عقيدة المشفوع له.اهـ.

والشفاعة عند الله تعالى ليست كشفاعة المخلوقين بعضهم عند بعض، فالملك والأمير وإن كبر شأنه لا بد أن يكون عنده من يخافه ويستحيي منه، كالوالدين والزوجة والأولاد وكبار رجال الدولة، فهؤلاء إذا أرادوا أن يشفعوا عنده لا يحتاجون إلى استئذان لما لهم عنده من المنزلة. فهذه هي الشفاعة التي نفاها الله، وينبغي أن نعيد هنا الحديث الذي في «الصحيح»، وهو قول النبي ﷺ: **«ليرفعنَّ أقوام منكم إليَّ، وأنا على الحوض، ثم ليختلجن دوني، فأقول: إلى أين؟**

---

(١) هذا قراءة ابن أبي عبلة، انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٢٧٩)، «معاني القرآن» (٢/ ٣٦٢) للفراء، «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٢٠٩)، «معاني القرآن» (٤/ ٢٥٣) للزّجاج.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) بتصرف.

فيقال: إلى النار، فأقول: أي ربي أصحابي أصحابي ـ وفي رواية خارجة عن الصحيح: إنهم من أمتي(١) **ـ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم بدَّلوا وغيَّروا فأقول: سحقاً سحقاً»**(٢). أي: بُعداً بُعداً لهم، بمعنى: أبعدهم الله. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣]

قال (ك): «يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن، [وبما](٣) أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الله ﷻ متهدِّداً لهم ومتوعِّداً ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجِّهم: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ منهم(٤) وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ منهم(٥) وهم قادتهم وسادتهم [﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي:](٦) لولا أنتم تصدونا(٧) لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به، فقال لهم

---

(١) عند مسلم (٢٢٩٤) من حديث عائشة: «فلأقولنّ: أي ربّ! مني ومن أمتي».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث ابن مسعود.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وما».

(٤) سقطت من الأصل، وهي في «تفسير ابن كثير».

(٥) سقطت من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «تصدوننا»!

القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم[١] أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل[٢] لشهوتكم، واختياركم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ۝وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً [وتغروننا وتمنوننا وتخبروننا][٣] أنا على هدى، وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين، قال قتادة وابن زيد: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يقول: «بل مكركم بالليل والنهار»[٤]، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم: «مكركم» بـ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[٥]، ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبهاً وأشياء من المحال تضلونا بها، ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما يجازيكم بأعمالكم كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]»[٦].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في (الباب الأول) من (سورة البقرة) معنى الند، وجمعه الأنداد عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وذكرت هناك أحاديث في هذا المعنى، منها: قول النبي ﷺ لمن قال له: ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**»[٧] وفي الحديث الآخر: «**لا**

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ذلك».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنبياء».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتغرونا وتمنونا وتخبرونا».

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٣٢)، وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢١٩) ـ عن قتادة، وابن جرير (١٩/ ٢٩٢) وابن أبي حاتم عن ابن زيد.

(٥) انظر: «الإمام مالك مفسراً» (ص٣٢٩/ رقم ٣٩٧).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

(٧) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨)، وابن ماجه (٢١١٧)، وأحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٦)، وابن أبي =

تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»(١)، وهذه إذا كان القائل يعتقد أن المخاطب بذلك له إرادة مع الله، فهو من الشرك الأكبر، وأما إذا قال ذلك غفلة وهو يعتقد أن المشيئة لله وحده، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فحينئذ يكون من الشرك الأصغر، فكيف بمن يتخذ أنداداً يهتف بأسمائهم عند القيام والقعود والفزع، ويستغيث بهم في الشدائد، ويخافهم ويرجوهم، ويتوكّل عليهم، فالحمد لله على العافية، اللهم أتمم علينا نعمتك، ولا تردنا على أعقابنا. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤٥]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس

= الدنيا في «الصمت» (٤٣٥)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٥)، والطبراني (١٣٠٠٦)، والبيهقي (٣/ ٢١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٩) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، **وحسّنه** شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١/ ٢٦٦) رقم (١٣٩).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٠، ١٠٨٢١)، وابن ماجه (٢١١٨)، والطيالسي (٤٣٠)، وابن أبي شيبة (٩/ ١١٧، و١٠/ ٣٤٦)، وأحمد (٢٣٣١٣، ٢٣٤٢٩)، والطحاوي في «المشكل» (٢٣٦)، والبيهقي (٣/ ٢١٦) من حديث حذيفة، ووقع اضطراب في سنده لا يعل به أصل الحديث، انظره عند النسائي والطحاوي، وفي «الفتح» (١١/ ٥٤٠) و«النكت الظراف» (٣/ ٢٩)، **وصححه** شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١/ ٢٦٣) رقم (١٣٧).

الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على [صورهم][(١)] ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] وكما يقول لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦] وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، يعنون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأضلوهم[(٢)] ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١١٨] قال الله ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأصنام[(٣)] التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم المشركون ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

قال (ك): «ويخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان [رسول الله][(٤)] ﷺ ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يعنون: دين آبائهم هو الحق وأن ما جاء به الرسول عندهم باطل[(٥)] ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صور الملائكة».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويضلونهم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأوثان».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسوله».

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم وعلى آبائهم لعائن الله».

إليهم نبيّاً قبل محمد ﷺ وقد كانوا يودون ذلك، ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا، فلما منّ الله عليهم بذلك، كذبوا وجحدوه وعاندوه[(١)]، ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: «أي من القوة في الدنيا»[(٢)] وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم كما كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: نستفيد من هذه الآيات أن عبادة غير الله تعالى كلها سواء، وإن اختلف المعبودون، فمن عبد الملائكة والأنبياء، كمن عبد الشياطين والأوثان، وإن المشركين في كل زمان ومكان إذا جاءهم الحق من الله تعالى بواسطة رسله أو بواسطة أتباعهم أجابوه بقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ قال تعالى في سورة (ص): ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٦ ـ ٧] وهذا لا يضر دعاة التوحيد[(٤)] أهل الاتباع إن أخلصوا لله وصبروا على ما يلاقون، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. اهـ.

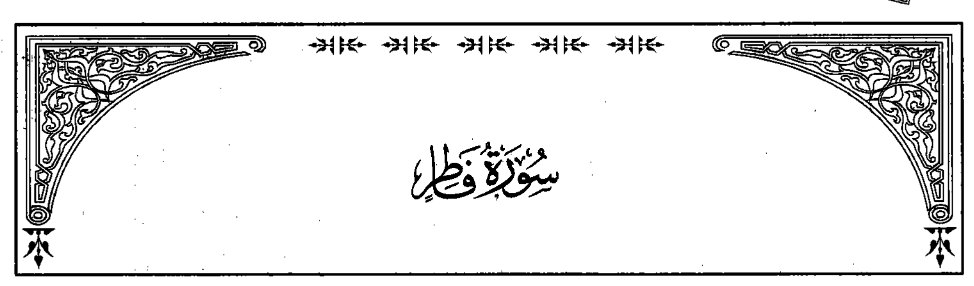
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعاندوه وجحدوه».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٣٠٢)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٦٨) رقم (١٧٩٠٢)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٢٨، ط. هجر).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) بتصرف.

(٤) فالحقائق لا تغلب بالتخييلات والخرافات، وسنة الله معلومة في أهل الخرافة، فإنه لا وزن لهم، وها هو التاريخ قد أعدمهم، ولم يبق لهم ذكر حسن في الناس، وهكذا البدع والشرك وأهلها، فإن مآلها إلى تباب وضياع، وإن انتفشت وظهرت فسرعان ما تزول، فالحق ثقيل ومريء، والباطل خفيف ووبيء.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤]

قال (ك): «وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيد في قصر هذا، فيعتدلان ثم يأخذ من هذا فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً، وشتاء، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر تقديراً من عزيز عليم، ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره، له [الملك وحده][1]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأصنام والأنداد[2] ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف[3]: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين».

(٣) سمّاهم ابن كثير، فهم: مجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي، والحسن وقتادة، قال: «وغيرهم»، وانظر: «تفسير ابن جرير» (١٩/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠)، «تفسير ابن وهب» (١/ ٢٠، ٩١ ـ ٩٢ رقم ٤١، ٢٠٩)، «فتح الباري» (٨/ ٥٤٠)، «الدر المنثور» (١٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

التمر، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القطمير، ثم قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾؛ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع[1] دعاءكم[2] ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون على [شيء مما][3] تطلبونه منهم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ذكر الله سبحانه قبل هاتين الآيتين أدلة متعددة على توحيد الربوبية، بدأها بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١]، وختمها بأولى هاتين الآيتين، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ثم أخبر ﷻ أن جميع المدعوين من الملائكة والأنبياء والصالحين وتماثيلهم وآثارهم، لا يملكون لمن دعاهم شيئاً ولو قطميراً، فإذا كانوا لا يملكون القطمير وهو غلاف رقيق يكون على ظهر نواة التمر أبيض فكيف يملكون نواة؟ فكيف بالتمرة؟ وإذا كانوا لا يملكون شيئاً، فدعاؤهم في غاية الجهل والضلال والسفاهة، ولو أمن الداعي من عذاب الله، كيف وهو مع خسارته في سعيه ينتظر عذاب الله، ثم أخبر ﷻ أن أولئك المدعوين لا يسمعون دعاء الداعي أبداً؛ لأن الذي يسمع كل نداء هو الله وحده، ولأن أولئك المدعوين غافلون عن دعاء الداعي، فالملائكة غافلون لاشتغالهم بعبادة الله تعالى، والصالحون غافلون عنهم لاشتغالهم بالنعيم، هذا لو كانت لهم القدرة

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يسمعون».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لأنها جماد لا أرواح فيها».
(٣) بدلها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣١٥) بتصرف، وأثر قتادة أخرجه ابن جرير (١٩/ ٣٥٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٢٤٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

على سماعهم، وقد تقدم أن الذي يسمع كل نداء هو الله وحده، ثم قال تعالى: وهبوا أنهم سمعوا دعاءكم، فإنهم لا يستجيبون لكم، ويوم القيامة ينكشف لهم، أنكم كنتم تعبدونهم وتتخذونهم شركاء مع الله، وحينئذ يكفرون بشرككم، فتعظم حسرتكم وندامتكم حين لا ينفعكم الندم، والذي نبأكم بهذا هو العليم الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية.

وهنا نكتة يجب التنبيه عليها وهي أن كل من دعاه الإنسان لجلب خير أو دفع شر، فقد عبده واتخذه شريكاً مع الله، نبه الله على ذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ولم يقل: بدعائكم، ليبين لعباده أن دعاء غير الله شرك.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: ٤٠]

قال (ﷺ): يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام[1] ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير، وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ليس الأمر كذلك، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيَّهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور باطل وزور»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه الآية الكريمة احتجاج على المشركين في غاية البيان، لو أنهم يعقلون، وذلك أن أولئك المعبودين الذين اتخذوهم شركاء مع الله لم يخلقوا شيئاً، ولا ذباباً أو نملة أو بعوضة، ولا يملكون من السموات

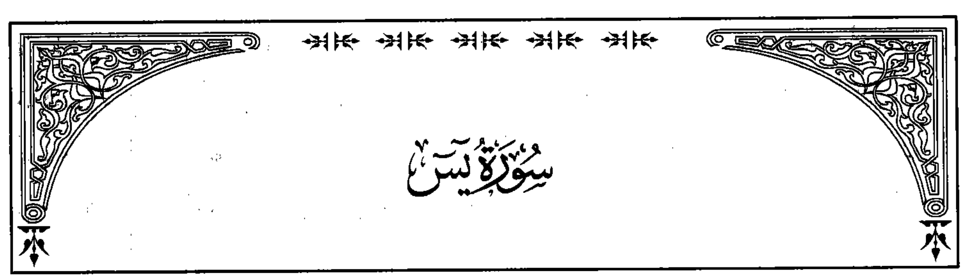
---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٣٧).

والأرض شيئاً بل هم مخلوقون ومملوكون لله تعالى، فأي سفاهة، أعظم من اتخاذهم شركاء[1]، وأخبر الله تعالى أن جميع الكتب السماوية التي أنزلها على الأنبياء تدعو إلى توحيد الله، وليس فيها دليل، ولا شبهة للمشركين يستدلون بها على عبادة غير الله، ومن يضلل الله فما له من هاد.اهـ.

(١) إذ الخالق هو المالك، والمالك هو المتصرف بالذي يملكه على أي وجه شاء، ولذا: السعيد مَنْ كان عبداً لله تعالى بالاختيار، كما هو عبدٌ له بالاضطرار، ولا يستقيم حاله، ويجتمع أمره إلا بهذا، ومن أعظم نِعَم الله علينا أنه سبحانه المتكفّل بتشريع ما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة، فمن ظن أن له مصلحة في العاجل قبل الآجل في الخروج عن أمور المولى، والاستجابة إلى داعي الهوى فهو واهم، والمصلحة ـ حينئذٍ ـ ليست بحقيقية، نعم قد تبدو لغير صاحب البصيرة، كالمرابي في تعامله مع البنوك! ولكن سرعان ما تظهر له الحقيقة، فالبنك يعطيه القرض الربوي، وحاله كالذي يحمل مظلة ويرفعها بيده فوق رأسه، ولم ينزل المطر بعد، فإذا نَزَل المطر، سحب البنك منه المظلة، وهكذا فالبنت المتبرجة يأتيها الزوج عند رؤية مفاتنها، وسرعان ما يظهر خلقه السيئ عند مرضها أو كبرها أو اعتياد الحياة معها، وعليه فقِس.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢٧]

ذكر (ك) مما نقل عن أهل الكتاب أن اسمه حبيب النجار[1]، وذكر كثيراً من أخباره، ولم أر في نقل ذلك فائدة، والذي يهمنا من شأنه أنه كان موحداً متَّبعاً لما جاءت به الرسل، وكان قومه مشركين، اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله، وعصوا المرسلين، فدعاهم إلى توحيد الله واتباع المرسلين، وأقام لهم البرهان على ذلك، وكان بيته في طرف البلد، فجاءهم ماشياً، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم، وإن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

---

(١) انظر ما ورد في ذلك في: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣١٩٢)، «زاد المسير» (٧/ ١٢)، «الدر المنثور» (١٢/ ٣٣٧، ط. هجر)، «صلة الجمع وعائد التذييل» (٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥)، وقصته في «تاريخ ابن جرير» (٢/ ٢١)، «مروج الذهب» (١/ ٦٦)، «الكامل في التاريخ» (١/ ٢١١).

ءَالِهَةً﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وهذه الآلهة[١] لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله، وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾، قال ابن عباس يقول لقومه: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي كفرتم به ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي: فاسمعوا قولي، ويروى أنهم قتلوه فأدخله الله الجنة، فاغتبط بذلك، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[٢]»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: قال بعض السلف: «المؤمن ينصح دائماً لقومه حيّاً وميتاً» فهذا الرجل تمنى لقومه أن يعرفوا فضل التوحيد واتباع الرسل، وما أعد الله لصاحبه من الكرامة، فيعمل بذلك فينال من السعادة مثل ما نال. اهـ.

قال محمد تقي الدين: كل مسلم مخلص يجب عليه أن يقتدي بهذا الرجل [الذي][٤] ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، وأثنى عليه بهذا الثناء العظيم، خصوصاً في زمان غربة الإسلام. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

[يس: ٦٠ ـ ٦١]

قال (ك): «هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام».

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٢٩) بنحوه عن ابن مسعود، وعزاه في «الدر» (١٢/ ٣٣٩) لعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر عن كعب أنَّ ابن عباس سأله، . . . وذكر نحوه.

(٣) من «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥) بتصرف يسير.

(٤) سقطت من الأصل.

الشيطان، وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمٰن، وهو الذي خلقهم ورزقهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي: قد أمرتكم في [دار][1] الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ يقال: ﴿جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم وتشديد اللام[2]، ويقال: (جُبُلاً) بضم الجيم والباء وتخفيف اللام[3]، ومنهم من يسكن الباء[4]، والمراد بذلك الخلق الكثير، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [أي: أن] في ذلك هلاككم فتجتنبوه][5]»[6].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم أن كل من عبد غير الله سواء زعم أنه عبد الملائكة، أم الأنبياء أم الصالحين وآثارهم، فإنما عبد الشيطان الذي أضله عن الصراط المستقيم، وزين له الشرك، فالصراط المستقيم، وهو توحيد الله، واتباع رسوله ﷺ. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٦]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الدار».

(٢) قال عنها النحاس: «أبين القراءات»، وهي قراءة الكافة. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٩٣)، «معاني القرآن» (٤/ ٢٩٢) للزجاج، «شرح الشاطبية» (٢٧٤)، «التيسير» (١٨٤)، «حجة القراءات» (٦٠١).

(٣) هذه قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وابن محيصن والحسن والأعمش وزيد ورويس عن يعقوب وخلف، انظر: «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢١٩)، «النشر» (٢/ ٣٥٥).

(٤) هذا قراءة أبي عمرو وابن عامر والهذيل بن شرحبيل والأشهب العقيلي وأبي حيوة، انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٣٤٤)، «النشر» (٢/ ٣٥٥)، «فتح الباري» (٨/ ٣٨٢)، «إرشاد المبتدي» (٥١٧)، «روح المعاني» (٢٣/ ٤١).

(٥) هذه العبارة غير موجودة في «تفسير ابن كثير» وقد وجدت نحوها عند الآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٤١).

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

قال (ك): «يقول تعالى منكراً على المشركين[١] اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة، وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال مجاهد: «يعني: عند الحساب»[٢]، يريد: أن هذه الآلهة[٣] محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في خزيهم[٤] وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم، وقال قتادة: «﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾؛ يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم سوءاً»[٥] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك، وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم فيه وسيجزيهم وصفهم ويعاملهم[٦] على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: المشركون في كل زمان ومكان يستنصرون بآلهتهم، ويظنون أنها تنصرهم وتأتيهم بالعز، فما أسخف عقولهم! وما أضلهم! فإنَّ كل من عبد غير الله تعالى، يذلّه الله في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ[٨] الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ

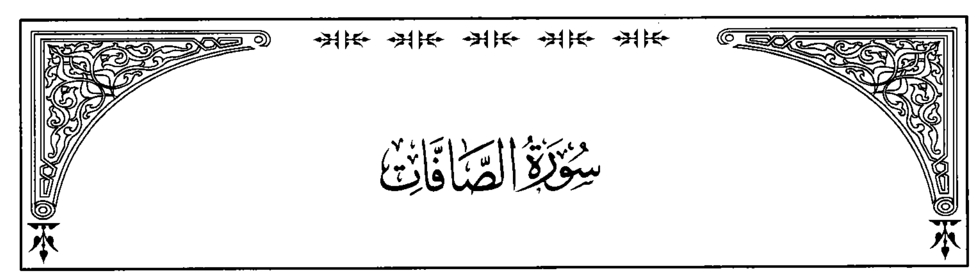
(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».
(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٤٨٤)، والفريابي ـ كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٩١) ـ وهو في «تفسير مجاهد» (٥٦١).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «حزنهم»!
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٢٠١) رقم (١٨١١٧)، و«تفسيرابن جرير» (١٩/ ٤٨٥)، وفي الأصل: «شرّاً»! وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٢٦٩) لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما هم عليه وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣) بتصرف.
(٨) في الأصل: «ويوم»!

ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧] وقد تقدم الكلام عليها في سورة النحل، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١ ـ ١٩٢] ولما حصر الفرنسيون مدينة فاس في عهد السلطان عبد الحفيظ، استنصر الجهال بالإمام إدريس بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ، فقال قائلهم:

أمولاي يا إدريس يا ابن نبينا. . . . .

البيتين، وقد تقدم ذكر ذلك في (سورة آل عمران) في (الباب الثالث)، فعاقب الله جميع المغاربة ـ لأن أكثرهم مشركون ـ بالخذلان والهزيمة، وانتصر عليهم الفرنسيون، وحكموا بلادهم ثلاثاً وأربعين سنة، وهذا جزاء من يستنصر بغير الله.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالصَّٰفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

[الصافات: ١ ـ ٥]

(الصافات) هم الملائكة الجماعات الصافات المصطفة صفوفاً. وروى مسلم وغيره عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟**»، قلنا: كيف تصفّ الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «**يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصفوف**»[١].

قال محمد تقي الدين: فسر السلف (الصافات) بجموع الملائكة، تصطف عند ربها و(الزاجرات) بالآيات القرآنية التي تزجر الناس عن معصية الله، و(التاليات ذكراً) بالملائكة تتلو كلام الله على الأنبياء والأنبياء يتلونه على أممهم، أقسم الله سبحانه بهذه الأقسام على أنه إله واحد، وأن كل إله اتخذ من دونه، فعبادته ضلال يفضي إلى الهلاك.

قال (ك): «وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾[٢] ﴿رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات، تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليهما، وقد صرح بذلك في قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج: ٤٠] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: ١٧]؛ يعني

(١) أخرجه مسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١)، وابن ماجه (٩٩٢)، وغيرهم.
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا هو المقسم عليه: أنه تعالى لا إله إلّا هو».

في الشتاء والصيف للشمس والقمر»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: يا عجباً للمشركين! يقسم الله بأنه إله واحد، ثم هم يتخذون معه آلهة أخرى، يدعونها لرغبتهم ورهبتهم، ويخافونها ويرجونها ويتوكلون عليها، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٣٠]

«قوله[٢] تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه: «يعني بأزواجهم: أشباههم وأمثالهم»[٣] ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام[٤]، ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٦ ـ ٧).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/١٤٨)، وأخرجه جمع عنه عن عمر بن الخطاب قوله، كما عند أحمد بن منيع ـ كما في «المطالب العالية» (١٥/١٤٧) ـ، وابن جرير (١٩/٥١٩)، والحاكم (٢/٤٣٠) وصححه، وعزاه في «الدر المنثور» (١٢/٣٩٤) للفريابي، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وقال ابن حجر في «المطالب» (١٥/١٤٧) رقم (٣٦٩٣، ط. العاصمة) عن إسناد ابن منيع: «صحيح»! والأدق منه قول البوصيري في «الإتحاف» (٢/ق ١٦٦/ب): «رواته ثقات»، **والأثر حسن إن شاء الله تعالى.**

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: منقادون لأمر الله تعالى، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قال (ك): «يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ قال ابن زيد: «معناه: تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير، الذي أمرنا به»[2] ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي[3]: حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا، وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله، إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: الجميع في النار كل بحسبه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ﴾ أي: في[4] الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون، ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون: رسول الله ﷺ، قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ يعني: رسول الله ﷺ، جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١ ـ ١٢) بتصرف.
(٢) أخرجه ابن جرير (١٩/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦).
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الدار».

من الإخبار والطلب ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره، كما أخبروا، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣]»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: من أعظم المصائب التي حلَّتْ بمشركي هذا الزمان، ويأسف لها كلُّ مشفق عليهم: إنهم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله، وقد أضلهم رؤساء جهال ينسبون إلى العلم زوراً وبهتاناً، ففسروا لهم لا إله إلا الله تفسيراً ضلالاً، قال بعضهم: معنى لا إله إلا الله: لا مُسْتَغْنٍ عن كل ما سواه ومفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله[٢]، فظن هذا الجاهل أن لا إله إلا الله يقصد بها توحيد الربوبية وهو إثبات الغنى لله تعالى، وإثبات الفقر لكل من سواه فقط، ولو فكر في معنى أله يأله إلاهَةً، أي: عبد يعبد عبادة، لعلم أن كلمة (إله) فعال بمعنى مفعول أي: معبود، فقائل لا إله إلا الله، العالم بمعناها، يشهد على نفسه أنه لا يعبد إلا الله، وأنه بريء مما يعبد من دونه، كما قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧] وقال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال تعالى في سورة مريم حكاية عن إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨] وقال تعالى في سورة هود حكاية عنه قال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥] وتقدمت قصة أبي طالب لما قال له النبي ﷺ: **«يا عم قل لا إله إلا الله»**، فهم أبو طالب وأبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أن معنى لا إله إلا الله، أن يترك ملة عبد المطلب وهي

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٢ ـ ١٤) بتصرف.

(٢) ومثله قول التبليغيين[١] في بياناتهم في المجالس العامة والخاصة في معنى (لا إله إلا الله): عدم اليقين على الأشياء، واليقين على الله تعالى فقط، ولا ينكر عليهم أحداً إلى الله المشتكى من غربة الإسلام والسنة!

---

(١) يسميهم الهلالي (الإلياسيين)، انظر كلامه عنهم في (٣/ ٢٣٣) وما ذكرناه في المقدمة (ص٧٢ وما بعد).

الشرك[١]، فهؤلاء الكفار الثلاثة فهموا معنى لا إله إلا الله، وكثير ممن ينسب إلى الإمامة في العلم والدين يجهل معناها، وقال في هذه الآية حكاية عن الكفار، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ فهموا أنهم إن قبلوا لا إله إلا الله تحتم عليهم ترك عبادة آلهتهم، ووجب عليهم الكفر بها، والمشركون في هذا الزمان يقولون: لا إله إلا الله في كل حين، وهم يعبدون آلهتهم، ويستغيثون بها، فلا نسمع إلا يا شيخنا يا سيدي فلان، فسبحان من طبع على قلوبهم وأعمى بصائرهم. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

[الصافات: ٨٣ ـ ٩٨]

قال محمد تقي الدين: أريد أن أفسر هذه الآيات بلفظي لأن التفاسير التي بيدي لم تتفق مع رغبتي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من أهل دين نوح السائرين على منهاجه في عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ هو الخليل الذي ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك معاد لأهله متبرئ منهم، حين قال: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام وما وراءها من الأنداد، أتقصدون بعبادتكم آلهة اتخذتموها من دون الله كذباً وزوراً؟ فإن الله لا يرضى أن يعبد معه غيره، ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ماذا تظنون أن يفعل بكم من العذاب، لأنكم ما

(١) مضت القصة مع تخريجها.

قدرتموه حق قدره حين أشركتم به؟ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: نظر إلى السماء مفكراً في حيلة يحتال بها على عدم الخروج معهم إلى العيد؛ ليخلو بأصنامهم ويكسرها في غيبتهم، فرأى أن يقول لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض، ليفهموا أنه لا يستطيع الخروج معهم ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: تركوه وانطلقوا إلى عيدهم، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي: مال إلى الأصنام يضربها ضرباً بيده اليمنى، حتى كسرها كلها إلا الصنم الكبير وقد تقدم في (سورة الأنبياء) أنهم لما رجعوا ووجدوا أصنامهم مكسَّرة، سألوا عن من كسَّرها، فأخبرهم إبراهيم أن كبير الأصنام هو الذي كسَّر رفقاءه، وقال لهم: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فقالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ...﴾ [الأنبياء: ٦٥] إلى آخر ما تقدم، وفي هذه السورة، أخبرنا الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام قال للأصنام لما رأى الطعام موضوعاً عندها وضعه عُبّادها لتجعل لهم فيه البركة ثم يأكلوه بعد ذلك: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؟ قال ذلك استهزاء بهم، وبمن يعبدونهم، فإن من أعظم الجهل أن يعبد الإنسان جماداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، وبعدما كسرهم أقبل عبادهم ﴿يَزِفُّونَ﴾، يهرعون، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: منكراً ومشنِّعاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الأصنام المنحوتة، فكيف تتخذونها آلهة، أين ذهبت عقولكم؟

قال (ك): «فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فـ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته، ونصرها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في (الباب الثالث) من (سورة الأنبياء) حديث أن إبراهيم، لم يكذب إلا ثلاثاً[2]...، فراجعه هناك. والمشركون في كل زمان ومكان متشابهون؛ فإن مشركي هذا الزمان يبنون بأيديهم قباباً ينسبونها إلى الصالحين، ويعبدونها بالذبح والنذر والتمسح، فيجيء السيل العظيم، فيجرف

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٦).

(٢) مضى الحديث بطوله مع تخريجه في (ص٦٤ ـ ٦٥).

القبة ولا تستطيع هي ولا من نسبت إليه أن يحولا بين السيل وبينها، فيعيد المشركون بناءها ويعبدونها، وإذا قيل للمشركين: كيف تعبدون شيئاً بنيتموه بأيديكم؟ فيزعمون أن روح ذلك الصالح ملازمة لتلك القبة، وهي التي تقضي حاجات عابديها، يقال لهم: إن كان الأمر كما زعمتم، فلماذا لم تدفع السيل عن قبتها؟ فلا يجدون جواباً، ومع ذلك يستمرون في شركهم، ولو أن شخصاً من الموحدين جاء يهدمها، لتصدوا لقتاله، ولو كانوا صادقين في زعمهم أن معها قوة تقضي الحاجات، وتفرج الكربات، لتركوا بينها وبين هادمها تنتقم منه، ولكنهم لا يعقلون. اهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨)﴾

[الصافات: ١٢٣ ـ ١٢٨]

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾ هو أحد الرسل من بني إسرائيل ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قومه ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله وتخافون عقابه، كيف تعبدون ﴿بَعْلًا﴾ وهو صنم مشهور عندهم، وتتركون عبادة الله الذي هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما دعاهم إليه من التوحيد ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للعذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ فإنهم لم يكذبوه بل آمنوا به، ووحدوا الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي: تشركون به فإنهم لم يتركوا عبادة الله، ولكنهم لما عبدوا معه غيره حبط عملهم وبطلت عبادتهم لله، فوصفوا بأنهم تركوا عبادة الله، كما قال تعالى في المشركين من العرب: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)﴾ فكل من صرف لغير الله مثقال ذرة من عبادته، فهو تارك لعبادة الله تعالى، وفي الحديث القدسي: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[1]. اهـ.

---

(١) سبق تخريجه.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

[الصافات: ١٥٨ ـ ١٦٣]

قال (ك): «﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: «قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال[١] أبو بكر ﷺ: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن»[٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم، وقوله جلت عظمته: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به[٣] الظالمون الملحدون علوّاً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت»[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ «يقول تعالى مخاطباً للمشركين، ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: إنما[٥] ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة، والعبادة الباطلة[٦] من هو أضل منكم ممن ذُرِئَ للنار»[٧].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسأل».

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٩/ ٦٤٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٣١) رقم (٨٣٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٦٦)، رقم (١٤١)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٥٧١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٢/ ٤٨٤) لآدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن المنذر.

(فائدة): سروات الجن: أشرافهم.

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٦٢) بتصرف.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

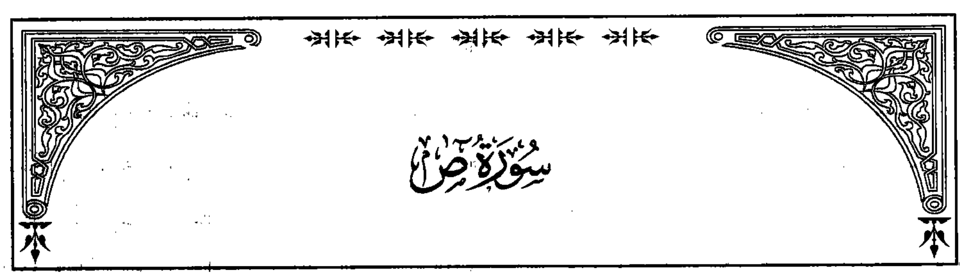
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلا».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٦٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: قول الحافظ (ﷺ): «استثناء منقطع من مثبت» قد يشكل فهمه على بعض الناس. من المعلوم أن الاستثناء يكون من مثبت ومنفي، مثال المثبت: حضر الطلبة إلا سعيداً، فالاستثناء متصل، والمستثنى من مثبت، فإذا قلنا: حضر الطلبة إلا جملاً، فالمستثنى منه مثبت والاستثناء منقطع، لأن الجمل غير داخل في الطلبة. ومثال الاستثناء من منفي: ما جاء أحد إلا عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ . . .﴾ إلى آخره، منطبق على سدنة القبور والقباب وعلى الدعاة إلى أخذ الطرائق التي انتشرت في هذه الأزمنة، لأنهم يزيّنون للناس الدخول في طرائقهم، فيضمنون لهم الجنة افتراء على الله، ويضمنون لهم الحماية من شرور الدنيا والآخرة، والدخول في طرائقهم أعظم الشرور التي تصيب الناس في دنياهم وأخراهم، ولكن لا يفتن بوساوسهم إلا من ذرئوا لجهنم، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].



سورة ص

الباب الأول

قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: ١ ـ ٨]

قال (ك): «أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته هٰهنا، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم في المعاش والمعاد، قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: تذكيركم[(١)]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ أي: إن في هذا القرآن لذكراً[(٢)] لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٖ﴾ أي: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٖ﴾ أي: مخالفة[(٣)] له ومعاندة ومفارقة، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/٩)، وانظر: «تفسير البغوي» (٧/٢٦٩)، و«زاد المسير» (٧/٩٨)، و«تفسير الضحاك» (٢/٧١٥) جمع د. محمد شكري الزاويتي.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الذكرى»!

(٣) في الأصل: «ومخالفة»، بزيادة واو في أوله!

﴿قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة مكذِّبة ﴿فَنَادَواْ﴾ أي: حين جاءهم العذاب، استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله[٢] ﷺ بشراً[٣] كما قال ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢] وقال جل وعلا ههنا: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بشر مثلهم: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ أَجَعَلَ كَذَّابٌ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: أزعم أن المعبود واحد لا إلٰه إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى، وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإلٰه[٤] بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾؟!! ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ٱمْشُواْ﴾ أي: استمروا على دينكم ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: «إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم اتباع ولسنا مجيبيه[٥] إليه»[٦].

ذكر سبب نزول هذه الآيات

قال السدي: إن ناساً من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلّمه فيه، فلينصفنا منه، فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلٰهه الذي يعبده، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٧١ ـ ٧٢).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الرسول».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل بدل منه: «بشيراً ونذيراً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الله».
(٥) كذا في مطبوع «تفسيري ابن جرير وابن كثير»، وفي الأصل: «نجيبه».
(٦) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٠/ ٢١) بنحوه.

فيكون منا إليه شيء فتعيّرنا به العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه، فبعثوا رجلاً منهم يقال له: المطلب، فاستأذن لهم على أبي طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال: أدخلهم، فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلٰهه، قال: فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتنا[1] وَيَدَعوك وإلٰهك، قال ﷺ: «**يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟**» قال: وإلام تدعوهم؟ قال ﷺ: «**ادعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم**» فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم: ما هي وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها، قال ﷺ: «**تقولون: لا إلٰه إلا الله**» فنفروا وقالوا: سلنا غيرها[2] قال ﷺ: «**لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها**» فقاموا من عنده غِضَاباً وقالوا: والله لنشتمنك وإلٰهك الذي أمرك بهذا، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾»[3].

وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: في دين قريش، ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾ أي: كذب، وقولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ يعني: إنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «آلهتهم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فنفر وقال: سلنا غير هذا».

(٣) أخرج هذه القصة: أحمد (١/ ٢٢٧)، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٣٦)، وابن حبان (٩/ ٣٧٣) رقم (٦٦٥١ ـ «التعليقات الحسان»)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢١١ ـ ٢١٢) رقم (٣٧٥٦١)، وأبو يعلى (٢٥٨٣)، وابن جرير في «التفسير» (٢٠/ ٢٠)، وفي «التاريخ» (١/ ٥٤٤، ط. الكتب العلمية)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٣٥) رقم (١٨٣٢٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٤٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٣٢٢) **وإسنادها ضعيف**، فيه يحيى بن عمارة، ويقال: يحيى بن عباد، تفرد به عن الأعمش، فهو في عداد المجاهيل، وفصلت في تخريجه في تعليقي على «أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ» (ص١٧ ـ ٢٠) لعلي القاري، وضعفه شيخنا الألباني.

يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: ٣٢]. ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم، وقلّة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلمون غِب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا»[1]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، أقسم الله تعالى بالقرآن وهو كلامه ووصفه بقوله سبحانه: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: التذكير لأنه يذكر كل غافل، ويعلم كل جاهل، ويهدي كل ضال إلا من أبى واستكبر وكان من الكافرين وأعرض عن القرآن واستبدل به الشرائع الأرضية فإنه يخسر دنيا وأخرى. قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]، فيجتمع له شقاء الدنيا وشقاء الآخرة.

فائدة ثانية: قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ هو قول المشركين في كل زمان ومكان، ومنهم المشركون في هذا الزمان، فإنهم إذا قيل لهم: لا تستغيثوا إلا بالله، ولا تدعوا لجلب الخير ودفع الشر إلا الله، غضبوا وقالوا: إن لله أولياء، لا يحصل لأحد خير إلا بواسطتهم، وهذا افتراء على الله، فالمؤمنون الصادقون ليس لهم إلا الولي الحميد، الذي يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، الذي يطعم ولا يطعم، ويعين ولا يعان، ويجير ولا يجار عليه.

فائدة ثالثة: قولهم: إنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون إليه شيء...، إلى آخره. يقصدون بذلك أنهم يخافون أن يموت أبو طالب فيفضي بهم بغضهم للإسلام إلى أن يقتلوا النبي ﷺ أو يحبسوه، أو ينفوه، فتعيّرهم قبائلُ العرب بأنهم تركوا شيخهم ورئيسهم أبا طالب إلى أن مات واعتدوا على ابن أخيه، ولم يحفظوا حرمته. وقد فعلوا ما كانوا يتخوَّفون منه حين عزموا على قتل النبي ﷺ، قبيل الهجرة»[2]، وبذلوا كل جهد في ذلك، فأنقذه الله منهم.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٧١ ـ ٧٦) بتصرف.

(٢) يشير إلى حادثة مبيت علي بن أبي طالب في فراش رسول الله ﷺ، إذ عزم الكفار على =

فائدة رابعة: قولهم «فمره أن يكف عن شتم آلهتنا»: ما هو شتم النبي ﷺ لآلهتهم؟ هو قوله: **اتركوا هذه الإلهٰة، فإنها لا تنفع ولا تضر، واعبدوا الله وحده الذي بيده الخير**، فعدّوا هذا شتماً، وهكذا المشركون في هذا الزمان، إذا قلت لهم: إن أولياءكم الذين اتخذتموهم من دون الله، لا ينفعون ولا يضرون، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا حياة، ولا موتاً، ولا بعثاً، فكيف يقدرون أن ينفعوكم، غضبوا وثاروا، وقالوا: هذا يسب أولياءنا، ويتنقصهم وينكر كرامتهم، وتصرفهم في الكون، ويحاربون ذلك الداعي إلى الله بكل ما يقدرون عليه. وقبل أيام قليلة كان أحد الإخوان الموحدين، واقفاً أمام دكان فقال صاحب الدكان: يا مولاي إدريس، فقال له الموحد: قل يا الله، فإن المخلوق لا ينفع ولا يضر، فاستمع صاحب الدكان لقول الحق واعترف به.

وكان هناك سادن يعيش على النذور التي تقدم للأوثان، فغضب على الموحد غضباً شديداً، وقال: كيف تسب مولاي إدريس؟ فقال: أنا ما سببته، ولكن أنكرت الاستغاثة به، وأخذ يصيح لتجتمع الناس، ظانّاً أنهم إذا اجتمعوا سينصرونه، فاجتمعوا ولكنهم لم ينصروه بل نصروا الموحد على السادن. ومدينة مكناس هذه كانت قبل خمس عشرة سنة، هي مركز الشرك والبدع، ولكن الله الكريم بارك في دعوتي التي بدأتها وحدي، فاستجاب إليها كثير من الناس، فأينما ذهبت في أنحاء المدينة تجد أنصار التوحيد، إخوان من وحد الله، ولا تزال دعوة التوحيد تنتشر وتنتصر يوماً بعد يوم، اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، فلك الحمد ولك الشكر. اهـ.

فائدة خامسة: قول النبي ﷺ لمشيخة قريش[1]: «**أفلا أدعوهم إلى ما هو**

= قتله، وهي حادثة مشهورة، أخرجها أحمد في «مسنده» (١/ ٣٤٨ و٢/ ٢٧٩ ـ «الفتح الرباني»)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤)، وابن جرير في «التاريخ» (٢/ ٣٧٢، ٣٧٣)، وأبو نعيم في «الدلائل» (ص٦٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٨٩)، والطبراني كما في «المجمع» (٦/ ٥٢ ـ ٥٣)، والبزار في «المسند» (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠/ رقم ١٧٤١ ـ «زوائده»)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه؛ كما في «فتح القدير» (٢/ ٣٠٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٧٣) بأسانيد وألفاظ مختلفة، فيها القصة المذكورة.

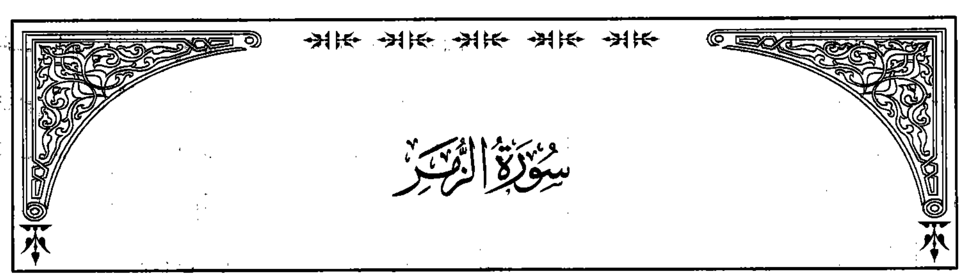
وحسن بعضَ طرقها ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٣٦)، وابن كثير في «السيرة» (٢/ ٢٣٩).

(١) في القصة المتقدمة قريباً، وهناك تخريجها.

خير لهم؟ أدعوهم إلى كلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم، قال: **وهي: أن تقولوا لا إله إلا الله»**، ولم يقصد النبي ﷺ مجرد التلفظ بها، انظر: (الباب الثاني) من (سورة الصافات)، بل أراد منهم، أن يقولوا بألسنتهم، ويعتقدوا معناها بقلوبهم، ويعملوا بها بكل جوارحهم، وهذه الكلمة المباركة: لا إله إلا الله تحقق بها ما قاله رسول الله ﷺ، فدانت العرب لقريش، وملكوا بها العجم. وسرها لا يزال فيها كما كان، فكل من أخذها بصدق في كل زمان ومكان ملك العالم، وهؤلاء العرب الذين يتخبطون في محنتهم الحاضرة، ويبحثون عن حل لمشكلتهم وغسل العار عنهم، دواؤهم حاضر في غاية السهولة، وهو في أيديهم، ولا يحتاجون أن يسافروا إلى (موسكو) ولا (بكين) ولا (واشنطن) ولا (باريس) ولا (لندن) وإنما يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ ويعتقدون معناهما، ويعملون بمقتضاهما، فيملكون العالم مرة أخرى، وبدون هذا الحل الذي هو بلسم الشفاء الوحيد، سيبقون يئنّون من مرضهم العضال إلى الأبد. وما أحسن ما قال الشاعر، وهو منطبق عليهم أتم انطباق:

ومن العجائب والعجائبُ جَمَّة ... قُربُ الحبيبِ ومَا إليه سبيلُ
كالعيسِ في البيداءِ يقْتُلها الظَّمَا ... والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ[1]

(١) انظر تخميساً جيداً له في: «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (١٣٠٨/٣).



الباب الأول

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾ [الزمر: ١ ـ ٣]

قال (ك): «يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب، وهو: القرآن العظيم، من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢] وقال: جل وعلا هٰهنا: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجناب، ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ أي: فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده][1]، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له، ثم أخبر ﷻ عن عبّاد الأصنام من المشركين، أنهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم؛ أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور[(١)] الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له، كافرين به، قال زيد بن أسلم وغيره: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة[(٢)]، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»[(٣)]، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها، والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا الشيء[(٤)] اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وأخبر أن الملائكة الذين[(٥)] في السموات من الملائكة المقربين، وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تعالى الله عن ذلك [علوّاً كبيراً][(٦)]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[(٧)] يوم القيامة ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كافر[(٨)] بآياته وحججه[(٩)] وبراهينه»[(١٠)].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمر».

(٢) أخرج مقولة زيد: ابن جرير (٢٠/١٥٨)، وانظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤١٥)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٦٣٢ ـ ٦٣٣، ط. هجر).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شيء».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التي».

(٦) سقطت من مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كفّار».

(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يجحد بآياته».

(١٠) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١١ ـ ١١٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لم يكن عند المشركين من العرب شك في أن الله هو الخالق والرازق المحيي المميت، المعطي المانع الخافض الرافع المتصرف في السموات والأرض، وهذا توحيد الربوبية، وإنما كانوا يشركون بالله في توحيد الألوهية؛ باتخاذهم وسائط شفعاء تقربهم إلى الله، وتقضي حاجاتهم عند الله، فأخبرهم الله تعالى أن ذلك العمل الذي يعملونه لأولئك الشفعاء، من ذبح ونذر ودعاء واستغاثة وخوف ورجاء، وهو كذب وكفر شديد، يستوجب ضلالهم وخسرانهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾، وإنما ينال ما عند الله من خيري الدنيا والآخرة، بعبادته وحده لا شريك له، والكفر بكل معبود سواه، والتبرؤ من عبادته، والتوفيق بيد الله.اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء، وبأنه[١] مالك الملك، المتصرف فيه، يقلِّب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا يقرّان[٢]، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، وقوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم تنقضي يوم[٣] القيامة ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه وقوله [جلت عظمته][٤]: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنه».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يفترقان»!

(٣) في بعض نسخ «تفسير ابن كثير»: «بيوم» ولعلها أصوب، فتأمل.

(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم، وألوانكم من نفس واحدة هو آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليها[١] السلام، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: وخلق لكم من ظهور[٢] الأنعام ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، وهي المذكورة في سورة الأنعام ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ . . . وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾، وقوله ﷻ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: قدَّركم في بطون أمهاتكم، ﴿خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾[٣] يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً، وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ يعني: [في][٤] ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن، كذا قال ابن عباس[٥] وغيره. وقوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ[٦]﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده [لا شريك له][٧] ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره، أين يُذهَب بعقولكم»[٨].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: جمعت هذه الآية بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قد يقول متفلسف معتوه: كيف

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهما».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وبدلها بياض في الأصل!

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».

(٥) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ١٦٦)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٤٨) بسندٍ ضعيف، وبنحوه ثابت عن عكرمة، كما في «تفسير الثوري» (ص٢٦٢)، وابن جرير (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦)، ومجاهد في «تفسيره» (٥٧٧)، والسدي الكبير، كما في «تفسيره» (٤١٦ ـ جمع عطا محمد يوسف) وقتادة، كما عند عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٧١)، وانظر: «الدر المنثور» (٥/ ٣٢٢).

(٦) في الأصل: «إلا الله»، والمثبت ما في القرآن الكريم.

(٧) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١٣ ـ ١١٤).

يكون أجناس بني آدم مع اختلاف ألوانهم وملامحهم وصور خلقهم المتباينة؟ فكلهم من رجل واحد، وامرأة واحدة، هذا أمر يستبعده العقل، فنقول له: على رسلك! إنك لم تؤت من العلم إلا قليلاً، أو لم تؤت شيئاً، فأنت مثل الفرخ الذي فقست عنه البيضة، ففتح عينيه فلم ير إلا العُشَّ الذي هو فيه، وهو مصنوع من ليف، فاعتقد أنه لا يوجد في الدنيا إلا هو وأمه والعش، ثم فتح عينيه أكثر فرأى أوراق الشجرة التي فيها العش، فاطلع على شيء آخر لم يكن يعرفه، وهو أوراق الشجرة، ولما صار له جناحان، وطار في السماء ورأى الشمس والقمر والنجوم والبحر والبر والحيوان والإنسان والجبال، وغير ذلك تبين له أنه كان على جهل عظيم عندما فتح عينيه لأول مرة. وليعلم أن الله سبحانه وتعالى أظهر في هذا الزمان آية عظيمة تدل على وحدة الإنسان، وأن أجناسه ترجع إلى أصل واحد، وذلك أن العلماء وجدوا أن دماء البشر تنقسم إلى فصائل فإذا احتاج إنكليزي مثلاً بسبب نزيف دموي وكان معه جماعة من أبناء جنسه وجماعة من الزنوج السود، وجماعة من الصينيين الصفر، وجماعة من سكان أمريكا الأصليين الحمر، وجماعة من أهل الهند السمر، فإن الدم الذي يناسب فصيلة دمه، ويمكن تعويض جسمه لما خسره منه، قد يكون في جسم زنجي أو صيني، أو غيرهما، ولا يوجد في أبناء جنسه الإنكليز، فهذه الفصائل الدموية لا تعرف لوناً ولا جنساً، وهي متفرقة في جميع بني آدم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقُلْ لِمَنْ يدَّعي بالعلمِ معرفةً ... علمتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ[1]

الباب الثالث

قوله تعالى ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر: ٨]

قال (ك): «﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: عند الحاجة [يتضرع][2] ويستغيث بالله وحده لا شريك له، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا

(١) البيت لأبي نواس، وهو في «ديوانه»، وفيه: «في العلم فلسفة»، و«حفظت» بدل «علمتَ».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يضرع».

كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾: أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال جل جلاله، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: في حالة العافية يشرك بالله ويجعل أنداداً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حالته[(١)] وطريقته ومسلكه، ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، وهو[(٢)] تهديد ووعيد أكيد، كقول تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]»[(٣)].

فصل: فائدة

قال محمد تقي الدين: تقدم في مواضع أن شرك المشركين في هذا الزمان، أغلظ بكثير من شرك المشركين في زمان النبي[(٤)] ﷺ، مع أن أولئك لم يكن عندهم كتاب منزل محفوظ، ولا سنة نبي مدونة، وإنما كان عندهم بقية قليلة من دين إبراهيم وإسماعيل، وهؤلاء عندهم كتاب الله مصون في المصاحف محفوظ في الصدور، مبين بالتفاسير، وعندهم سنة النبي سيد المرسلين مدونة مبينة، ومع ذلك بلغوا إلى هذا الدرك الأسفل من الشرك، ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم، واستعاضوا عنها أساطير المتأخرين، فنحمد الله على العافية.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حالُهُ». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١١٥).
(٤) سبق نقلنا ذلك عن المنفلوطي، انظر التعليق على (٦٧).

يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٨]

قال (ك): «وقوله: ﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ﴾ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ قال السدي: يعني من أمته ﷺ».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد، وأنت رسول الله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا شرط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبرؤ منهم، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة، وقد ذهبوا[1] إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: هذا هو ﴿ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[2] الظاهر الواضح، ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وقوله: جل جلاله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، ليزجروا عن المحارم والمآثم، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي».

قال (ك): «﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ فهؤلاء هم الذين ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، ثم قال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تبارك وتعالى لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين آتاه التوراة ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الخسار البين».

هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ذوو العقول الصحيحة والفطر السليمة[(١)]»[(٢)].

فصل: فائدة:

قال محمد تقي الدين: الموحِّدون الله تعالى المتبعون لرسل الله في كل زمان ومكان ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم الذين هداهم الله، وهم أصحاب العقول الصحيحة، ومن خالف طريقهم، فلا بشرى له ولا هدى ولا عقل، نسأل الله أن يجعلنا من الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا إلى الله.اهـ.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٤ ـ ٢٩]

قال صاحب «جامع البيان»[(٣)]: «﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، شدته يوم القيامة، ظرف ليتقي، وخبره محذوف، أي: كمن يأتي آمناً يوم القيامة، والإنسان إذا لقي مخوفاً استقبله بيده، يقي بها وجهه، الذي هو أعز أعضائه، والكافر المغلول لا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه».

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المستقيمة».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١١٨ ـ ١١٩).

(٣) صاحبه معين الدين الصفدي محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله الحسيني (٨٣٢ ـ ٩٠٥هـ)، طبع في الهند مطبعة فاروقي سنة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، عن دار نشر الكتب الإسلامية، بتحقيق منير أحمد، انظر: «معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية» (ص٤٨ ـ ٤٩)، ثم نشر عن دار الكتب العلمية، والمزبور فيه (٣/ ٥٠١).

قال (ك): «ويقرَّع فيقال له ولأمثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وقوله جلت عظمته: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾؛ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من العذاب والنكال، وتشفّي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾».

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فإن المثل يقرّب المعنى إلى الأذهان[1] ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، ولا لبس؛ بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك[2] وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون[3] بما فيه من الوعد، ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، أي: سالماً[4] لرجل، [أي: خالصاً][5] لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس وغيره: «هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص»[6]. ولما كان هذا المثل ظاهراً بيّناً جليّاً قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلماذا يشركون بالله؟»[7].

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ويعلمون».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خالصاً».
(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٦) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢٠/١٩٨)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٩٢ ـ ٢٢٩٣)، وينظر: «الدر المنثور» (٥/١٤٩).
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٢٦). ولابن القيم في «المدارج» (١/ ٢٤٠)، وفي «مفتاح =

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ معناه: يلقى سوء العذاب بوجهه لا يستطيع أن يتقيه بيديه، لأن يديه مغلولتان إلى عنقه، وهو في هذه الحال؛ يوبَّخ فيقال له ولأمثاله من المشركين: ﴿ذُوقُوا﴾جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشرك بالله، والاعتداء على خلق الله، كيف يستوي من هذه حاله مع من يجيء آمناً قد بشر برضوان الله تعالى وكرامته؟ وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ إلى آخره، كل أمة قامت عليها حجة الله بإرسال رسول ونزول كتاب فنبذت كتاب الله وراء ظهورها، وعصت رسوله، يذيقها الله الخزي في الحياة الدنيا، وما أعد الله لها من العذاب في الآخرة أعظم مما يصيبها في الدنيا.

فائدة ثانية: ما أبلغ هذا المثل الذي ضرب الله للمشركين والموحدين، فالمشركون في هذا الزمان يعبدون كل من يسمى وليّاً في اصطلاحهم، وعلامته أن تبنى عليه قبة ويقصده المشركون لقضاء حاجاتهم، ويتزلّفون له بالذبح والنذر والتمسح بتابوت قبره، والخضوع له والاستغاثة به، والشكوى إليه، وهؤلاء الأولياء مبثوثون في كل مكان، والمشرك يخافهم ويرجوهم، ويكون قلبه موزعاً بينهم يحاول أن يرضيهم جميعاً ويخاف غضبهم، وذلك عذاب مُعجَّل. أما الموحد فإنه لا يعبأ بوجودهم، فهو آمن مطمئن أنهم لا ينفعون ولا يضرون، ولا يملكون مثقال ذرة، فيكون خوفه ورجاؤه كله لله، قائلاً: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ

= دار السعادة» (ص٤١٠)، وفي «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ و٣١٩ ـ ٣٢٠) كلام واسع مهم على المثل المذكور، فلينظر.

﴿بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقرأ بعضهم[1]: (عباده)، يعني أنه تعالى يكفي من عَبَده وتوكل عليه، وقال الترمذي بسنده وصححه عن فَضَالة بن عبيد الأنصاري، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «أفلح من هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به»[2]. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾؛ يعني: المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بآلهتهم[3] التي يدعونها[4] من دون الله جهلاً منهم، وضلالاً، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: منيع الجناب لا يضام من استند إلى جنابه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به، وأشرك وعاند رسوله ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ يعني: المشركين، كانوا يعترفون بأن الله ﷻ هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره مما[5] لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

---

(١) هذه قراءة أبي جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة وخلف والأعمش وحمزة والكسائي والسلمي وشيبة. انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤٢٩)، «حجة القراءات» (٦٢٢)، «السبعة» (٥٦٢)، «تفسير الكشاف» (٣/ ٣٣)، «تفسير ابن عطية» (١٢/ ٥٣٩)، «الدر المصون» (٦/ ١٦)، «تفسير الآلوسي» (٢٤/ ٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٩)، وابن حبان (٢٥٤١)، وابن المبارك في الزهد (٥٥٣)، والحاكم (٤/ ١٢٢) وصححه، وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٠٦) عن تصحيح الحاكم وموافقة الذهبي له: «وهو كما قالا».
وأخرج مسلم (١٠٥٣)، والترمذي (٢٣٤٨)، وأحمد (٢/ ١٦٨)، والفسوي (٢/ ٥٢٣)، والبيهقي (٤/ ١٩٦)، وأبو نعيم (٦/ ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو رفعه: «**قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً [فصبر عليه]، وقنّعه الله بما آتاه**». وورد في الكفاف ومعناه أحاديث كثيرة، ذكرتُ طرفاً منها في تعليقي على «السر المكتوم في الفرق بين المالين المحمود والمذموم» للسخاوي (ص١١٩ ـ ١٢١).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بأصنامهم وآلهتهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعبدونها».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ممن».

مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر»[(١)].

وقال صاحب «جامع البيان»: «وهذا بيان أنها لا تنفع ولا تضر، فلا خوف منها.

﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾:

قال (ك): «أي: الله كافيَّ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، كما قال هود عليه الصلاة والسلام حين قال له[(٢)] قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦] وقال ابن أبي حاتم بسنده[(٣)] عن ابن عباس رضي الله عنهما رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: قال: «**من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم على الله فليتق الله عز وجل**»»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كل من آمن بأن الله كافٍ عباده وأنه لا شريك له ولا معين له، لا بدّ أن يكتفي به، ولا يسأل غيره شيئاً مما لا يقدر عليه إلا الله، كإنزال المطر، وهداية القلوب، وإعطاء المرأة العقيم أولاداً، وتوسيع الرزق، وشفاء المرضى، إلى غير ذلك، ومن عادة المشركين في كل زمان ومكان، إذا رأوا موحداً لا يؤمن بآلهتهم التي يسمونها أولياء، أن يخوّفوه من انتقام تلك الآلهة فإذا رأوا آلهتهم عجزت أن تصيبه بضر عمدوا إلى إعانتها فآذوه، ولكن الله ينصره عليهم، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾. اهـ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٣١).

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل!

(٣) هو قطعة من حديث، أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٥٢)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٦٧٥)، **وإسناده ضعيف جدّاً**، فيه هشام بن زياد أبو المقدام متروك.
وأخرجه مختصراً (طرفاً منه) دون موطن الشاهد: أبو داود (٦٩٤) وطرفاً آخر برقم (١٤٨٥)، وبعضه عند ابن ماجه (٩٥٩، ١١٨١، ٣٨٦٦)، وأعله أبو داود، وضعفه الخطابي، وانظر: «عون المعبود» (٢/ ٣٨٧)، و«النكت الظراف» لابن حجر.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٣٢).

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٦]

قال (ك): «يقول تعالى: ذامّاً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم: الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حَدَاهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير» قال: «﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه، ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلّاً بعمله، ثم قال تعالى: ذامّاً للمشركين أيضاً، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل: لا إله إلا الله، ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، قال مجاهد: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت[(١)]، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأنداد والأصنام[(٢)] قاله مجاهد[(٣)] ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويسرون، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾ يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/٢١٩)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٢/٦٦٨، ط. هجر) وهو في «تفسير مجاهد» (٥٧٩).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٣) وغيره، انظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٧٤)، و«تفسير ابن جرير» (٢٠/ ٢١٨)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٦٧٠، ط. هجر).

الشرك، ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السر والعلانية، ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم ستفصل بينهم ويوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم، قال مسلم في «صحيحه»: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة ﵂: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يَفتَحُ صلاته إذا قام من الليل؟ قالت ﵂: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

وقال الإمام أحمد بسنده، عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرِّ، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. إلا قال الله ﷻ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة**»(٢).

وقال الإمام أحمد بسنده(٣): إن عبد الله بن عمرو أخرج قرطاساً، وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا نقول: «**اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشِرْكه(٤)، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثماً، أو أجرَّه إلى مسلم**».

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤١٢) بسندٍ رجاله ثقات، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٧٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٧١)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٣٨)، والترمذي (٣٥٢٩)، **والحديث صحيح لغيره بشواهده**، ففي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة.

(٤) روي على وجهين: أظهرهما وأشهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء من (الإشراك)، =

قال أبو عبد الرحمن[١] رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن يقول ذلك حين يريد أن ينام»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قول الحافظ (ك) في الأصنام: «بل وليس لها عقل تعقل به؛ ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير».

إذا سئل عباد الأصنام والأوثان: لماذا تعبدون الأصنام وهي تماثيل صنعتموها بأيديكم؟ وإذا سئل عباد الأوثان: لماذا تعبدون هذه القبور وهذه التوابيت والقباب وقد بنيتموها بأيديكم فأنتم صنّاعها فكيف يعبد الصانع صنعته؟ يقولون كلهم: نحن نعلم أنها جماد لا تضر ولا تنفع بذاتها، ولكنَّ من نسبت إليهم وسميت بأسمائهم ينفعون ويضرون، هكذا يقول المتأخرون من المشركين، فيعترفون على أنفسهم بالشرك في الربوبية والعبادة معاً، أما المشركون الأولون فإنهم يقولون: نحن نعترف بأن الأصنام والأوثان لا تضر ولا تنفع، ومن نسبت إليهم لا يضرون ولا ينفعون، سواء أكانوا من الملائكة أم الأنبياء؛ أم من الصالحين، أم من الشياطين، ولكن إذا عبدناها تكون تكريماً وتشريفاً لمن نسبت إليهم، وسميت بأسمائهم، وهم يشفعون لنا عند الله، وقد نفى الله تعالى هذه الشفاعة وأخبر أنه هو وحده يملك الشفاعة ويهبها من شاء من عباده، ولكنه لا يهبها من عبد غير الله، أو رضي بعبادة غير الله.

فائدة ثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ...﴾ إلى آخره، ينطبق كل الانطباق على المشركين في هذا الزمان، لأنك إذا قلت لأحدهم: لا تستمد من شيخك، فإن الممد هو الله وحده، بالأرزاق الحسية والمعنوية، ولا تستغث بشيخك ولا غيره، بل ادع الله

= أي: ما يدعو إليه. ويوسوس به من الإشراك بالله تعالى. والثاني: شَرَكه، بفتح الشين والراء، أي: حبائله ومصايده، واحدها: شركة، بفتح الشين والراء، وآخرها هاء، قاله النووي في «الأذكار» (٢٢١).

(١) أبو عبد الرحمن هذا ليس بصحابي، وإنما هو الحُبُلّي تابعي الحديث.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٣٤ ـ ١٣٦).

مخلصاً له الدين، تشمئز نفسه، وأكثرهم يغضب غضباً شديداً، فيؤذي من قال له ذلك بالقول، وربما آذاه بالفعل.

فائدة ثالثة: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ إلى آخره، فسره النبي ﷺ أحسن تفسير، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى حفظ تلك الأدعية المحمدية، والابتهال إلى الله تعالى بها.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٢ ـ ٦٦]

قال (ك): «يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته. وقوله ﷻ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ قال بعضهم هي: المفاتيح، وقال بعضهم: خزائن السموات والأرض، و[المعنى][1] على كلا القولين: إن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى. ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: حججه وبراهينه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ذكروا في سبب نزولها: ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس ﷺ أن المشركين من جهلهم[2] دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه؛ فنزلت: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[3]. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقوله ﷻ:

(١) غير موجود في الأصل! وأثبته من «تفسير ابن كثير».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بجهلهم».
(٣) عزاه السيوطي بنحوه إلى ابن مردويه.
وأخرجه بنحوه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ١٤) من مرسل الحسن، **وإسناده ضعيف**، =

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ أي: أخلص العبادة لله وحده لا شريك له، أنت ومن اتبعك[١] وصدقك». اهـ[٢].

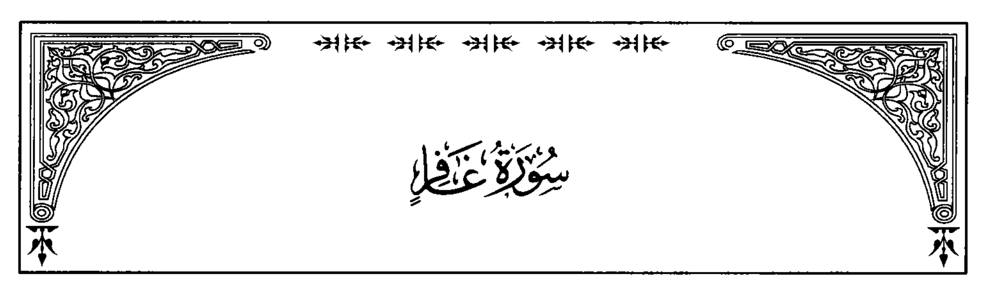
فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: هذه الآيات جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، دلت على توحيد الربوبية، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ ...﴾ إلى آخره، دلت على توحيد العبادة، وقد وجه الخطاب للنبي ﷺ مع أنه معصوم من كل ذنب تعظيماً للأمر وتحذيراً للأمة من الشرك بالله الذي هو الذنب الأكبر، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ فيه تقديم المعمول الذي يفيد الحصر، فهو كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ۝٢٠﴾ [الجن: ٢٠] إلى غير ذلك من الآيات. اهـ.

= فيه عنعنة المبارك بن فضالة، وأحمد بن عبد الجبار ضعيف.

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنت ومن معك».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٤٦ ـ ١٤٧) بتصرف.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٠ ـ ١٤]

قال محمد تقي الدين: لم أجد تفسيراً يطابق ما أريده من السهولة على القراء والمستمعين، فسأفسر هذه الآيات الخمس بنفسي.

يقول تعالى مخبراً عن أحوال الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة، ويقال لهم: إن بغض الله لكم حين دعيتم إلى الإيمان بالله وحده واتباع رسله أكبر من بغضكم لأنفسكم الآن وأنتم تذوقون العذاب، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: إماتتين ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إحياءتين، فالإماتة الأولى حين كانوا نطفاً قبل أن ينفخ فيهم الروح، والإماتة الثانية عند انقضاء آجالهم، والإحياءة الأولى عندما ينفخ الملك الروح في أجسادهم، وهم أجنة في بطون أمهاتهم، والإحياءة الثانية عند البعث من القبور، وقد كانوا ينكرون الإحياءة الثانية، فاعترفوا بها بعدما دخلوا جهنم، وقالوا: قد اعترفنا اليوم بما أنكرناه من قبل، فهل إلى الخروج من النار سبيل؟ فيكون الجواب: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب أنكم كنتم في الدنيا ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ منفرداً بالربوبية والعبادة ونفي عنه الشريك ﴿كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ غيره ﴿تُؤْمِنُواْ﴾، ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ وقد حكم عليكم بالخلود في النار.

قال (ﷺ): «وقوله جل وعلا ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزرع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو: ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، أي: من هو يصير منيباً[1] إلى الله تبارك وتعالى، وقوله ﷻ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، وروى مسلم وغيره عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ، يقول في دبر كل صلاة: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»**[2]. وقال ابن أبي حاتم بسنده[3] عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ»**»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ما أحسن ما قال الإمام (ﷺ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ فإن المطر الذي ينزل من السماء سبب والأرض الطيبة شرط، والزرع وتنظيف الأرض مما يضر المزروعات شرط أيضاً، وزوال الموانع التي تمنع بلوغ الثمرة إلى الينع والزرع إلى إدراك الحب شرط آخر، ومع ذلك لا يتم شيء من ذلك إلا بإذن الله تعالى الذي هو خالق كل شيء.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بصير منيب».

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٤)، وأحمد (٤/٤)، وأبو داود (١٥٠٧).

(٣) رواه الترمذي (٣٤٧٩)، وابن حبان في «المجروحين» (١/٣٦٨)، والحاكم (١/٤٩٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/٣٥٦) (١٤/٢٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥/ ق١٢٢)، وحسنه شيخنا الألباني.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٧٧ ـ ١٧٨) بتصرف.

وفـــي كُـــلِّ شـــيءٍ لَـــهُ آيـــةٌ　　تـــدلُّ عَـــلَـــى أنَّـــهُ الـــواحـــدُ[1]

ولو كان النبات والخضر والفواكه كل ذلك ينمو بطبعه لما وجدت هذه الفروق الكثيرة بين الثمرات والخضر والمقاثي من اختلاف في الحجم والشكل واللون، فسبحان المنعم العظيم، وقد خاب وخسر من كفر به.اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ١٨ ـ ٢٠]

﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾ قال قتادة وغيره: وقَفَتِ القلوب في الحناجر من الخوف فلا[2] تخرج ولا تعود إلى أماكنها[3]، ومعنى ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨] وقوله ﷻ: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ يخبر ﷻ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه ﷻ يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، قال ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في «ديوانه» (ص٧٠)، ونسب له في «الأغاني» (٤/ ٣٥، ط. دار إحياء التراث العربي).

(٢) في الأصل: «لا»، والمثبت من «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٨٠)، وابن جرير (٢٠/ ٣٠١) عن معمر عن قتادة، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٩) إلى عبد بن حميد، وانظر: «المجالسة» (١٥١٤ ـ بتحقيقي).

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾: «هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم[1] المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، وإذا[2] فطنوا غض، وقد اطلع الله على[3] قلبه أنه ودّ أن[4] لو اطلع على فرجها»[5].

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾: «قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة»[6]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنه هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. وقوله جل وعلا : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾، أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، أي: سميع لأقوال خلقه؛ بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك». اهـ[7].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كل من وحد الله تعالى وطهر قلبه من الشرك وصار مسلماً حنيفاً يعتقد جازماً أن الحكم كله لله، والملك كله لله هو الذي يحكم بين عباده، وهو الذي يجزيهم على أعمالهم في الدنيا والآخرة، من عمل خيراً جزاه الله خيراً ومن عمل شرّاً جزاه الله شرّاً، ولا يجوز أن يكون الحكم لغيره، فالحلال ما أحله الله سبحانه والحرام ما حرمه، والواجب

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإذا». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من».

(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٦٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٢٥٥) رقم (١٧٣٩٦)، وهناد في «الزهد» (٢/ ١٤٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ١٢٨٣) وأعله الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٥) بما لا يقدح في صحته، إذ الضعيف متابع، **والأثر صحيح إن شاء الله تعالى**، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/ ٣١) لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٦) جزء من الأثر السابق، وهذا لفظ الطبراني.

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٨١ ـ ١٨٢) بتصرف.

ما أوجبه؛ والمستحب ما أحبه، والمباح ما أباحه؛ ومن جعل الحكم لغيره في الجزاء أو التشريع فقد اتخذه إلهاً من دون الله، هذا حاصل معنى هذه الآيات. اهـ.

الباب الثالث

وقوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٤١ - ٥٢]

قال (ك): «يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي: عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ، الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: على جهل بلا دليل، ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يقول حقاً، وقال

السدي: «لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة»[١]، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله ﷻ، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون، حيث لا ينفعكم الندم. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم. تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام ، وأما في الآخرة: فبالجنة، ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة، اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألماً وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وروى البخاري بسنده عن عائشة أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله[٢] من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «**نعم عذاب القبر حق**»، قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[٣].

وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة**

---

(١) انظر: «تفسير السدي الكبير» (ص٤٢٤) جمع د. محمد عطا يوسف.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أعاذك الله».

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٢، ٦٣٩٦)، ومسلم (٥٨٦، ١٢٥٥)، وأحمد (٦/٤٤، ١٧٤)، وغيرهم.

فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله ﷻ إليه يوم القيامة»»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾، قال (ك): «يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم فيقول: ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم القادة والسادة والكبراء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾، أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه، في الدنيا من الكفر والضلال، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: قسطاً تتحملونه عنا، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي: يقسم[٢] بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ لما علموا أن الله ﷻ لا يستجيب لهم[٣] ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة وهم كالسجّانين[٤] لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ أي: أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا[٥]: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾»[٦].

قال القاسمي: «﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ أي: لننصرهم في الدارين، أما في الدنيا: فبإهلاك عدوهم

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦)، وأحمد (٢/ ١١٣)، والترمذي (١٠٧٢)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٩٢ ـ ١٩٨).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقسم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كالبوّابين».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال».

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩).

واستئصاله عاجلاً، أو بإظفارهم بعدوهم وإظهارهم عليه، وجعل الدولة لهم والعاقبة[١] لأتباعهم، وأما في الآخرة: فبالنعيم الأبدي والحبور السرمدي، و﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهد وهم: من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظلماً، أو جمع شهيد، كأشراف وشريف.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾، قال ابن جرير: «ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارُهم، لأنهم لا يعتذرون، إن اعتذروا إلا بالباطل[٢]، وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا، وتابع عليهم الحجج فيها، فلا حجة لهم في الآخرة إلا في[٣] الاعتصام بالكذب، بأن[٤] يقولوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٥]» ولذا كانت لهم اللعنة، وهي: البُعد من رحمة الله وشر ما[٦] في الدار الآخرة من العذاب الأليم»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: من المعلوم أن دين التوحيد هو دين جميع الأنبياء ومن اتبعهم بإحسان، وقد تقدم أن بني إسرائيل مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقال جهّالهم لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] أي: دين الشرك الذي هم عليه يهلكه الله ويهلك من اتبعه، وتقدم أيضاً في سورة الأعراف: أن أبا واقد الليثي وأصحاباً له كانوا حدثاء عهد بشرك، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال: «**الله أكبر إنها السنن قلتم، والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»[٨]، وههنا مؤمن آل فرعون ينادي في قومه ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والعافية»! (٢) في «تفسير ابن جرير»: «بباطل».
(٣) غير موجودة في «تفسير ابن جرير». (٤) في «تفسير ابن جرير»: «أن».
(٥) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٠/٣٤٧).
(٦) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «وشرها».
(٧) انظر: «تفسير القاسمي» (١٤/٢٤٠ ـ ٢٤١).
(٨) سبق تخريجه.

ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ فهذه دعوة جميع الرسل ودعوة كل متبع لهم، فأهل الحق ينادون إخوانهم: يا قومنا! اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا الأوثان، لا تذبحوا لها ولا تنذروا لها ولا تقيموا حولها مواسم وأعياداً، أو تتخذوها آلهة من دون الله، إننا لكم من الناصحين، ونبرأ إلى الله مما أنتم عليه.

فائدة ثانية: معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً؛ يعني: إن الحق هو أن ما تدعونني إليه ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤]، فكل من دعا غير الله لجلب خير أو دفع شر فهو من الكافرين ـ بنص القرآن ـ ودعاؤه في ضلال.

فائدة ثالثة: قول الحافظ (ﷺ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: «أتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم» فمن وحد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته واتبع رسوله ﷺ لكنه لا يتبرأ من المشركين ولا يقاطعهم ولا يباعدهم[1] بل يتولاهم ويرغب في صحبتهم ولا ينكر عليهم شركهم يكون غير عامل بقوله تعالى حكاية عن إمام الموحّدين إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠]. فيجب على كل موحد مخلص دينه لله أن يعتزل المشركين، وحينئذٍ يهب الله له خيراً كثيراً ويرى ما يسرّه في أبنائه وأحفاده، فإن يعقوب، ابنُ إسحاق وإسحاق، ابن إبراهيم[2]، ويهب الله له شيئاً كثيراً من رحمته ويجعل له لسان صدق عند المؤمنين من أهل زمانه ومن بعدهم[3]، وسيأتي إن شاء الله زيادة على هذا في (سورة المجادلة) وفي (سورة الممتحنة).

---

(١) فكيف بمن يعيش في ديارهم، ويتطبع بطباعهم، ويدور في مجتمعهم كما يدور السن في الدولاب؟ فهذا الذي يخشى عليه من تهديد ووعيد الرسول ﷺ الثابت عنه: «**من أقام بين ظهراني المشركين، فقد برئت منه الذمة**».

(٢) أي أكرم الله إبراهيم بإسحاق وأكرم إسحاق بيعقوب وأكرم يعقوب بيوسف. (منه).

(٣) تذكر أخي القارئ أن المصنف قد عاش مدة في ديار الكفر، وزار غير ما بلدة منها، مثل: ألمانيا، بريطانيا، إسبانيا، بلجيكا، هولاندا، النرويج، سويسرا، فهو يقرر المزبور آنفاً عن بصيرة ومشاهدة وخبرة وتجربة.

فائدة رابعة: كل من دعا إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له لا بدّ أن يكونَ يتعرض لمكر أعداء التوحيد، ولكن الله وعده بالوقاية من مكرهم وبالنصر عليهم، ووعد أعداء التوحيد بسوء العذاب.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٤ ـ ٦٦]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: جعلها لكم مستقرّاً بساطاً مهاداً، تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب في الدنيا، فيذكر[١] أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرازق، وقال تعالى [هاهنا][٢] بعد خلق هذه الأشياء ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، قال ابن جرير بسنده[٣] عن ابن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فذكر».

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٣) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٠/٣٥٧ ـ ٣٥٨)، والحاكم (٢/٤٣٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩٤)، وإسناده صحيح، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» =

عباس قال: «من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾»، [وقال أبو أسامة وغيره عن إسماعيل بن أبي خالد عن سعيد بن جبير قال: إذا قرأت ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾][(1)] فقل: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، ثم قرأ هذه الآية ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[(2)].

وقوله: ﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٦﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ﷻ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيَّن تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه»[(3)].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو كقوله تعالى في سورة البقرة لإمام الحنفاء إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البقرة: ١٣١] فمعناها: أمرني ربي أن أوحِّده، وأن أسلم نفسي إليه، فلا أوجه وجهي إلا له، ولا أدعوا بلساني ولا بقلبي غيره. اهـ.

فائدة

قال محمد تقي الدين: هذه الآيات التي ذكرتها هنا اشتملت على توحيد الربوبية من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ ثم جاءت الدلالة على توحيد العبادة في قوله تعالى: ﴿لَآ

= (١٣/ ٧٣) لابن المنذر وابن مردويه.

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٠/ ٣٥٨)، وعزاه السيوطي في «الدر» (١٣/ ٧٣) لعبد بن حميد.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) بتصرف.

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ إلى آخره، وبعد ذلك تجيء آيات توحيد الربوبية مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآيات.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

[غافر: ٧٣ ـ ٧٦]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله، هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾، أي: ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾، أي: جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٢٣] ولهذا قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾، أي: فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه [والله أعلم]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «أين الأصنام...؟» يحتاج إلى بيان، فإن المشركين ما كانوا يعبدون الأصنام وحدها، بل كانوا يعبدون ثلاثة أنواع من الشركاء:

النوع الأول: جماد منسوب إلى الملائكة أو الأنبياء والصالحين، ولهذا عبدوه.

النوع الثاني: عاقل لا يعقل وهو كل معبود رضي بعبادته أو بعبادة غيره من المخلوقين.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢١٠).

الصنف الثالث: وهو الملائكة والأنبياء والصالحون يعقلون ولا يرضون أن يعبد مع الله أحد ويتبرؤون من المشركين ويكفرون يوم القيامة بشركهم.

فالصنف الأول والثاني مع عابديهم إلى جهنم، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

أما **الصنف الثالث**: فإنهم متبرئون من كل من عبدهم ويكونون عليهم ضداً ويكفرون بعبادتهم، فحينئذٍ تصيب المشركين الحسرة والندامة حين لا ينفع الندم، وهؤلاء الأصناف الثلاثة لا ينفعون عابديهم مثقال ذرة، لا في الدنيا ولا في الآخرة. اهـ.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما [أثاروا][1] في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا ردّ عنهم ذرة من بأس الله، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدامغات[2]، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أثروه».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الدامغة».

زعمهم عما جاءتهم به الرسل، قال مجاهد: «قالوا: نحن أعلم منه[١] لن نبعث ولن نعذَّب»[٢]، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا الله ﷻ وكفروا بالطاغوت. ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعذرة، وهي[٣] كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١] أي: فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه حين قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. [وهكذا قال تعالى ههنا][٤]: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه [لا تقبل توبته][٥]، ولهذا جاء في الحديث: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[٦] أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: يولد الإنسان جاهلاً عاجزاً فقيراً، ثم يعطيه الله سبحانه العلم والمال والأولاد والجاه.

والعلم قسمان: وكذلك المال والأولاد والجاه؛ فالعلم الذي يوصل صاحبه إلى الإيمان بالله ورسله وطاعة الله وطاعة رسله والعمل الصالح والأخلاق

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «منهم»!

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٣٧٢)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨)، وهو في «تفسير مجاهد» (٥٨٤).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهاهنا قال». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يقبل».

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» (٣٥٢٩)، وابن حبان (٦٢٨)، وابن عدي (٤/ ١٥٩٢)، والحاكم (٤/ ٢٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٤)، والبغوي (٣٠٦)، وأبو نعيم (٥/ ١٩٠) من حديث ابن عمر، **وإسناده حسن**.

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

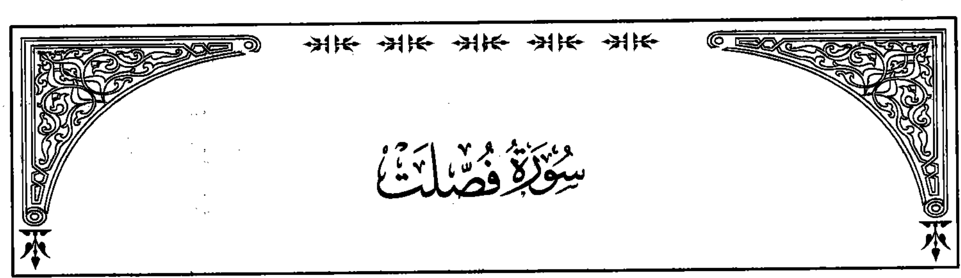
الحسنة، هو علم نافع يوصل إلى السعادة في العاجل والآجل، والعلم الذي يدعو صاحبه إلى الكفر بالله وبما جاءت به الرسل ويدعوه إلى الأعمال السيئة ومساوئ الأخلاق كالكبر والاستعلاء على الناس وسوء المعاملة والإعجاب بالنفس؛ والطغيان والظلم وكفر النعم؛ فهذا العلم شر على صاحبه مِن سُقم على بدن والجهل خير منه، فكثير من الناس يفتح له في علوم الدنيا المادية فيغتر بها، ويتطاول ويعرض عن ميراث الأنبياء، وهو العلم النافع فيكون علمه وبالاً عليه، ويكون زاده إلى النار، فقبَّح الله العلم الذي يحول بين صاحبه وبين الإيمان بالله تعالى وما جاءت به الرسل.

كنت في مدينة بن «بجرمانية» ـ ويسمّيها العرب في هذا الزمان جهلاً منهم ألمانية ـ وكنت مدعوّاً للعشاء ومعي شخص آخر عند ممرضة في مستشفى العيون اسمها إلزبث، وزوجها هو الأستاذ أندري، كان أستاذاً بعلم النبات والحيوان في جامعة بن، حتى أحيل على التقاعد وكان عمره في ذلك الوقت يزيد على التسعين، فوقفنا نصلي المغرب والعشاء، فوقف إجلالاً واحتراماً لصلاتنا، بل إجلالاً لله الذي نصلي له مدة الآذان والإقامة وصلاة المغرب والعشاء والوتر ثماني ركعات، وهو ضعيف جدّاً، فلما فرغنا من صلاتنا قال لي باللغة الجرمانية ما معناه: أصابتني هيبة وإجلال لصلاتكما. ثم جلسنا وأخبرني أنه يؤمن بالله وبجميع رسل الله ولم يحضر قط درساً في الدين، وإنما عرف الله تعالى بما رأى من عجيب صنعه في الحيوان، وأيقن أن ذلك الصنع المحكم يدل على صانع عليم قدير كامل لا حد لعلمه، ولا لقدرته، وله الحكمة البالغة في كل ما خلقه وسيره وقدره، ونرى المقلّدين الجهال من أبناء الشعوب المتخلفة يزعمون أن العلم يمنع صاحبه من الإيمان بالله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. انظر كتابي: «الطريق إلى الله»[(١)] المطبوع في بيروت منذ بضع سنين، أرجو من الله تعالى أن ييسر طبع أصله وهو الكتاب الكبير المسمى «دواء الشاكين وقامع المشككين»[(٢)]. اهـ.

---

(١) وهذا الكتاب جزء من كتابي «دواء الشاكين»، وقد طبع كله في الدار البيضاء وهو موجود يباع. طبعه الشهم النبيل الحاج مصطفى بن هاشم الودغيري. (منه).
قال أبو عبيدة: طبع في بيروت عن دار الفتح، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، في (١٩١) صفحة.

(٢) طبع في المغرب، وأصله حلقات عديدة نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، وأودعناها برمتها كتابنا «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره بخير وعافية.



سورة فصلت

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت: ٦ ـ ٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾»[1].

قال القاسمي: «أي: لا يزكون أنفسهم بطاعة الله، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها، وهذا ما رجحه (ج) ذهاباً إلى أن ذلك هو الأشهر، لا سيما مع ضميمة الإيتاء، وفيه إشارة إلى أن من أخص صفات الكفار هو[2] منع الزكاة، ليحذر المؤمنين من ارتكابه، وعن قتادة: «إن الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا، ومن تخلف عنها هلك»[3]. قال (ج)[4]: «وقد كان أهل الردة، بعد نبي الله،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٢١٨ ـ ٢١٩).

(٢) من مطبوع «تفسير القاسمي» وسقط في الأصل.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٨٤)، وابن جرير (٢٠/ ٣٨٠) **بسندٍ صحيح** عنه بلفظ: «لا يقرُّون بها، ولا يؤمنون بها، وكان يقال...» وذكره، وعزاه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٦٠) إلى عبد بن حميد.

(٤) في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٠) وهذا القول عنده من تتمة قول قتادة السابق.

قالوا: أما الصلاة فنصلي وأما الزكاة فوالله لا تُغْصَبُ أموالنا. قال: فقال أبو بكر: والله؛ لا أفرق بين شيئين[١] جمع الله بينهما، والله لو منعوني عقالاً مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه»[٢]. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ أي[٣]: غير منقطع»[٤].اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي يظهر لي أن المراد بالزكاة هنا الصدقة المطلقة، وهي مشروعة من أول الإسلام، قال تعالى في سورة المعارج وهي مكية: ﴿[وَٱلَّذِينَ فِىٓ][٥] أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ[٦] وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩] فقد أثبت الله ﷻ حقّاً للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء في هاتين السورتين المكيتين قبل أن يفرض الزكاة، وقال تعالى في سورة الليل وهي مكية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠] وقال تعالى في سورة الضحى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى: ٩، ١٠] وقال تعالى في سورة الماعون: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧] أي: يمنعون إعارة ما يستعان به من الأواني والأدوات، وقال تعالى في سورة القيامة: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] الآيات.

---

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «شيء».

(٢) قولة أبي بكر: بنحوها عند البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥)، وانظر: «الموافقات» (١/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠ و٥/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨) وتعليقي عليهما.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «عليهم أو غير منقوص».

(٤) انظر: «تفسير القاسمي» (١٤/ ٢٥٦).

(٥) هكذا في (سورة المعارج)، وفي الأصل: «وفي أموالهم..»!

(٦) كذا في (سورة الذاريات)، وفي الأصل: «... حق معلوم للسائل».

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت: ٩]

قال (ك): «هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء المقتدر على[1] كل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: الخالق للأشياء، هو رب العالمين كلهم»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من صرف من عبادته لمخلوق شيئاً، فقد اتخذه نداً، وارتكب الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بالتوبة والتوحيد.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٣ ـ ١٨]

قال (ك): «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المقدّر لكل».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٢٠).

نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضية من المكذبين بالمرسلين، ﴿صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ أي[(١)]: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف: ٢١] أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرونهم[(٢)] بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ أي: لو شاء[(٣)] أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: اغتروا[(٤)] بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ أي: أفلا[(٥)] يتفكرون، فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧] فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته، وعصوا رسله، فلهذا قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي: متتابعات ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾ [الحاقة: ٧] كقوله: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩] أي: ابتداؤها[(٦)] بهذا العذاب في يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام [حسوماً][(٧)]، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة. ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ أي:

(١) غير موجود في الأصل، وأثبته من «تفسير ابن كثير».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يأمرون».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مَنّوا». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أفما».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ابتُدِئوا». (٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

أشد خزياً لهم ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: في الأخرى كما لم ينصروا في الدنيا، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال، وقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾، قال ابن عباس وغيره: بيَّنَّا لهم(١). ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي(٢): بصرناهم وبيّنا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلًّا وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: من التكذيب والجحود ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: من بين أظهرهم لم يمسسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله ﷻ»(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مَن وحَّد الله واتبع الرسول الذي أرسل إليه من الأولين والآخرين لا بدّ أن تكون عاقبته حميدة، ومن أشرك بالله ولم يتبع الرسول الذي أرسل إليه فلا بدّ أن تكون عاقبته سيئة، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣]. اهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٣]

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٤٠٢)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٧٠)، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٦٢).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبدلها في الأصل: «و»!

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ﴾ أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم، وقال ابن أبي حاتم بسنده، عن سعيد بن نمران(١) قال: قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ﴾ [فقال]: «وهم الذين لم يشركوا بالله شيئاً»(٢)، وروى مسلم بسنده عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «**هذا**»(٣). وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قال زيد بن أسلم: «يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث»(٤). قال (ك): «وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدّاً، وهو الواقع.

قوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا نسددكم(٥) ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس

---

(١) هكذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«الدر المنثور» ومصادر التخريج، وتحرف في الأصل إلى «عمران»!

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (١٣/ ١٠٣) ـ، وابن جرير (٢٠/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)، وعبد الرزاق (٢/ ١٨٧)، وابن وهب (١/ ١٢٠ رقم (٢٧٦) جميعهم في «التفاسير» ومسدد كما ـ في «المطالب» (٤٠٨٦) ـ، وابن سعد في «الطبقات» (٦/ ٨٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢١/ ٣١٣)، وفي «تفسير سفيان» (ص٢٦٦)، وابن المبارك (٣٢٦)، وعزاه السيوطي في «الدر» (١٣/ ١٠٣) للفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر.

وإسناده ضعيف، سعيد بن نمران مجهول، وتابعه الأسود بن هلال عند ابن جرير والحاكم (٢/ ٤٤٠)، وأبي نعيم (١/ ٣٠)، **فصح الأثر**. وعزاه في «الدر» إلى إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد وابن مردويه.

(٣) أخرجه مسلم (٣٢)، وأحمد (٣/ ٤١٣)، والترمذي (٢٤١٠) وغيرهم، وأطلت النَّفسَ في تخريجه في تعليقي على «المجالسة» (رقم ١٢٨٨، ١٧٢١).

(٤) عزاه في «الدر المنثور» (١٣/ ١٠٧) إلى ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم، وهو ليس في «تفسيره» المطبوع!

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونوفقكم».

منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوزكم[١] الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ضيافة وعطاءً وإنعاماً من ﴿غَفُورٍ﴾ لذنوبكم ﴿رَّحِيمٍ﴾ بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف، وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**» قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت! قال ﷺ: «**ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه**»، قال: «**وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر، جاءه بما هو صائر إليه من الشر، أو ما يلقى من الشر فكره لقاءه**»[٢]، وهذا حديث صحيح، وقد ورد في «الصحيح» من غير هذا الوجه».

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الآية.

قال (ك): «يقول ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتدٍ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك كما قال السدي وغيره»[٣].

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من المنقادين إلى توحيد الله وطاعته.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونجاوز بكم».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٧)، والبزار (٧٨٠ ـ «زوائده»)، والمروزي في «زوائده على زهد ابن المبارك» (٩٧١)، **وإسناده صحيح**.
وأصله عند البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) كما قال المصنف.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٣٤ ـ ٢٤٠) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هم الذين حققوا معنى لا إله إلا الله، وعبدوا الله وحده ولم يتخذوا ربّاً سواه، معنى ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ أي: حققوا معنى محمد رسول الله، فاتبعوا الرسول ﷺ ولم يحيدوا عن سنته مثقال ذرة ولم يبتدعوا في دين الله، ولا حكموا بغير شرع الله، وأحبوا في الله وأبغضوا في دين الله، ووالوا في الله وعادوا في الله، تتنزل الملائكة عند موتهم، ملائكة الرحمة كأنّ عَلَى وجوههم الشمس فتبشرهم وتتولى قبض أرواحهم من ملك الموت فتصعد بها إلى الله تعالى حتى تسمع أن الله قد رضي عنها، كما جاء في الحديث[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: دعا إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله وعمل صالحاً، أي: عمل بما يدعو إليه ولم يكن من الذين يقولون ما لا يفعلون، فأنت ترى أن تحقيق الشهادتين ذكر في هذه الآيات مرتين، لأنه هو الأساس العظيم والصراط المستقيم، مَنْ ظفر به سعد في الدنيا والآخرة، ومن حرمه شقي في الدنيا والآخرة. اهـ.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]

قال (ك): «يقول تعالى منبِّهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قدير[(٢)]: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، أي: أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران[(٣)] والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه، وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير[(٤)] الليل والنهار والجمع

(١) سيأتي بتمامه مع تخريجه.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قادر».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقرّان».
(٤) في الأصل: «ومقادير» والصواب حذف الواو.

والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كانت الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: لقد أجاد الحافظ (ك) في تفسيره هذه الآية، وحاصل معناها: إن لله آيات تدل على عظمته وعلى أنه إله العالمين، لا يعبد غيره ولا يحكم بشرع غيره، فالموفَّق العاقل يستدل بتلك الآيات التي من أظهرها الليل والنهار والشمس والقمر، ولا يشغله الإعجاب بها عن تعظيم خالقها وتنزيهه وحمده وشكره، والجاهل المغفل هو الذي يشغله الإعجاب بالصنعة وينسى الصانع، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. ولو فكر الذين يعبدون الشمس والقمر والأنبياء والصالحين وتماثيلهم وقبورهم ـ وهي الأصنام والأوثان ـ لو فكروا في خالقهم وصانعهم وقدروه حق قدره، لما عبدوا معه غيره. اهـ.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ [فصلت: ٤٧، ٤٨]

قال (ك): «وقوله جل وعلا: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال محمد ﷺ ـ وهو سيد البشر ـ لجبريل عليه الصلاة والسلام ـ وهو من سادة[2] الملائكة ـ حين سأله عن الساعة فقال: **«ما المسؤول عنها**

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٤٤).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سادات».

بأعلم من السائل»[1]، وكما قال ﷻ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٤] وقال جلّ جلاله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: الجميع يعلمه، لا يعزب عن علمه من[2] مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الذين عبدتموهم معي ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وَظَنَّ المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم من عذاب الله»[3].

فصل

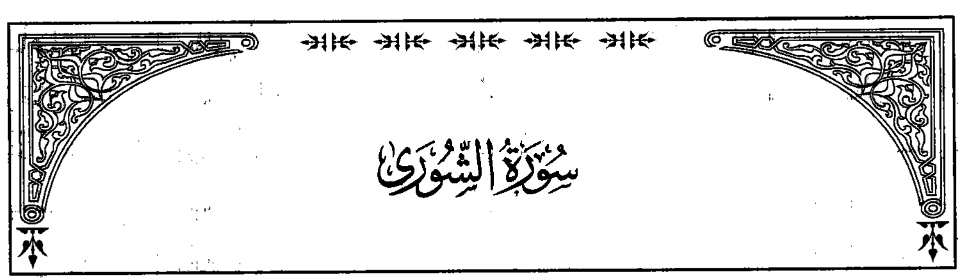
قال محمد تقي الدين: فائدة: أجمع أهل السنة والجماعة على أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ومن اعتقد أن أحداً من المخلوقين يعلم الغيب فقد كفر بالقرآن العظيم، وكذب القرآن والرسول ﷺ وقد تقدم ذلك في مواضع كثيرة، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ . . .﴾ إلى آخر الآية تقدم مثله كذلك. ولو كان المشركون في هذا الزمان يؤمنون بالله ورسوله ويعقلون عن الله ورسوله ما اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله، بل أكثر، ويعظمونهم كتعظيم الله بل أكثر، ويهتفون بأسمائهم عند القيام والقعود، وعندما يصيبهم أدنى فزع، فهؤلاء هم الذين يوبّخهم الله تعالى بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فينظرون يميناً وشمالاً فلا يجدون شيئاً، بل يكون أولياؤهم عليهم ضدّاً، ويكفرون بعبادتهم ويتبرؤون منهم، فحينئذٍ يقولون: سبحانك ما منا من شهيد، ولكن ذلك لا ينفعهم ولا مناص لهم من عذاب الله، فالحمد لله الذي هدانا لتوحيده واتباع رسوله محمد ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في أول «صحيحه» ـ وهو الحديث الأول ـ ضمن حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٢٤٨).



سورة الشورى

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ [الشورى: ٦ ـ ٩]

قال (ك): «وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ يعني: المشركين، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عداً، وسيجزيهم[(١)] بها أوفر الجزاء، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل». وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الآية قال (ك): «يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحاً جليّاً بيّناً ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله: ما قال الإمام أحمد وغيره بسنده عن عبد الله بن عَدِي الزُّهري سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف في سوق مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجتُ منك ما خرجت**»[(٢)]. وقوله ﷻ: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة

---

(١) في الأصل: «وسيجزهم».

(٢) أخرجه أحمد (٤/٣٠٥)، وعبد بن حميد (٤٩١)، والدارمي (٢٥١٠)، والترمذي (٣٩٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (٤٢٥٢ ـ ٤٢٥٣)، وابن ماجه (٣٠١٨)، وابن أبي =

يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة، وقوله جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩] أي: يغبن أهل الجنة أهل النار، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلال[١]، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من شاء[٢] إلى الحق؛ وأضل من شاء[٢] عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾».

وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

قال (ك): «يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه هو[٣] الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو[٣] القادر على إحياء الموتى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: تكرر هذا المعنى في الآيات المكية كقوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢] وكقوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ الآية. لأن النبي ﷺ لم يؤمر بقتال المشركين في مكة، وإنما أمر بالتبليغ والصبر على الأذى.

= عاصم في «الآحاد والمثاني» (٦٢١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٢٤٤)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والحاكم (٣/ ٧، ٢٨٠، ٤٣١)، وابن خزيمة ـ كما في «إتحاف المهرة» (٨/ ٢٥٥) ـ، والطبراني في «الأوسط» (٤٥٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٢٨٨، ٢٨٩ و٦/ ٣٢ ـ ٣٣)، و«الاستذكار» (٢٦/ ١٥ ـ ١٦)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٥١٤)، **وإسناده صحيح**، وصححه شيخنا الألباني. وانظر: «العلل» (١/ ٢٨٠، ٢٨٢) لابن أبي حاتم، و«دلائل النبوة» (٢/ ٥١٨) للبيهقي.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الضلالة».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يشاء».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٥٦ ـ ٢٦٠) بتصرف.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: قوله: «فاوت بينهم، فأضل من شاء بعدله وهدى من شاء بفضله» تقدم أن الله لا يضل إلا من سلك سبيل الضلال، ونبذ طريق الهدى، واتبع هواه، أما من طلب الهدى فإن الله يهديه؛ في الحديث القدسي - وهو حديث أبي ذر الطويل -: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم...**»[1] الحديث، وقد تقدم هذا المعنى بأبسط من هذا.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثالثة: ذكر الله تعالى الأولياء في القرآن في مواضع كثيرة، وذم من اتخذهم ونهى عنهم، والمشركون في هذا الزمان يذكرونهم في كل حين ويعطون لأجلهم ويمنعون لأجلهم، ويحبون لأجلهم ويبغضون لأجلهم، ويسألونهم حاجاتهم استقلالاً، قال شاعرهم:

أولياءَ الإلهِ إنِّي مريضٌ ... والدَّواءُ لديكم والشِّفاءُ
انْظُروا لي بفضْلِكم في عِلاجِي ... وامْنَحُوني بجُودكم ما أشاءُ

وهذه غاية الضلال، فلو قال: يا الله ويا أولياء الله امنحوني ما أشاء، لكان مشركاً كافراً، فكيف وقد أفردهم بالدعاء، وهذه الآية الكريمة تغبر في وجوه المشركين وتنكر عليهم أشد الإنكار، لو كانوا يعقلون.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ نرجو أن يوفقنا الله تعالى ونذكرها في (توحيد الاتباع) من كتاب «سبيل الرشاد»، وكذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[2].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٩]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) ولشيخ الإسلام ابن تيمية «جزء مفرد» في (شرحه) وهو مطبوع أكثر من مرة.

(٢) لم يذكر - للأسف - المصنف ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ...﴾؛ بينما ذكر ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ...﴾، انظر: ما سيأتي (٤/٧٨).

قال (ك): «يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: وثواب الله خير من الدنيا وهو باقٍ سرمديٌّ، فلا تقدموا الفاني على الباقي. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذِّ في الحياة[1] الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات، وترك المحرمات»[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ قال صاحب «اللسان»[3]: «الفواحش: القبائح، من القول والفعل»، والمراد هنا كبائر الذنوب والإثم. «﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: سجيَّتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس، وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله[4]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أعظم العبادات. قال ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية. ولهذا كان النبي ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب ﷺ الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ[5] فاجتمع رأي الصحابة كلهم ﷺ على تقديم عثمان عليهم[6]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين[7]، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٨٥).
(٣) نقله المصنف ﷺ من «لسان العرب» (٦/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ـ فحش) بتصرف.
(٤) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٣٥٦٠) من حديث عائشة.
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أجمعين».
(٦) انظر: «المجالسة» رقم (٢٤٠) وتعليقي عليه.
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أذلة».

عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله[١] ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم منّ عليهم[٢]، مع قدرته على الانتقام[٣]، وكذلك عفوه عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ عليه السلام وهو في يده صلتاً، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره، وأمر هذا الرجل، وعفا عنه[٤]، وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه السلام[٥]، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه، وكذلك عفوه عن المرأة اليهودية، وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري؛ التي سمت الذراع يوم خيبر فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت، فقال: «**ما حملك على ذلك؟**» قالت: أردت: إن كنت نبيّاً لم يضرك، وإن لم تكن نبيّاً استرحنا منك، فأطلقها[٦]، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به[٧]»[٨].اهـ.

---

(١) سقطت في الأصل!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عفا عنهم».

(٣) ورد ذلك في قصة طويلة، تراها في «صحيح مسلم» (١٨٠٧)، و«مسند أحمد» (٤/ ٤٨، ٨٦، ٨٧)، و«المستدرك» (٢/ ٤٦٠)، وانظر: «مرويات غزوة الحديبية» (ص١٠٢ ـ ١٠٤ و١١٥ ـ ١١٩).

(٤) أخرج قصته: البخاري (٢٩١٣، ٤١٢٥، ٤١٢٧، ٤١٣٠، ٤١٣٥، ٤١٣٩) مختصرة، ومسلم (٨٤٣) من حديث جابر بن عبد الله. وسُمِّي بـ (غورث) في «صحيح البخاري» (٧/ ٤٢٦)، و«مسند أحمد» (٣/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥)، و«سنن سعيد بن منصور» (٢/ ٢٣٨، ط. الأعظمي) وقيل غير ذلك. انظر: «إيضاح الإشكال» رقم (١٣٨)، و«الأسماء المبهمة» رقم (١٢٣) للخطيب، و«الغوامض» لابن بشكوال رقم (١٢١)، و«تنبيه المعلم» (٣٣٧ ـ بتحقيقي).

(٥) أخرج قصته البخاري (٣١٦٩، ٤٢٤٩، ٥٧٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرجه البخاري (٥٧٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٧) أخرجه أبو داود (٤٥١١، ٤٥١٢)، ـ ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢٦٢) ـ، والدارمي (٦٧)، وابن سعد (١/ ١١٣ ـ ١١٤)، **وهو حسن**.

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٨٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: محل الشاهد هنا في هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يعتمدون بقلوبهم في جلب الخير ودفع الشر إلا على الله تعالى، مع اتصافهم بالصفات المذكورة، ولو توكلوا على غير الله تعالى لبطل ما كانوا يعملون.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الشورى: ٤٦]

قال (ك): «﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاص»(١). اهـ.

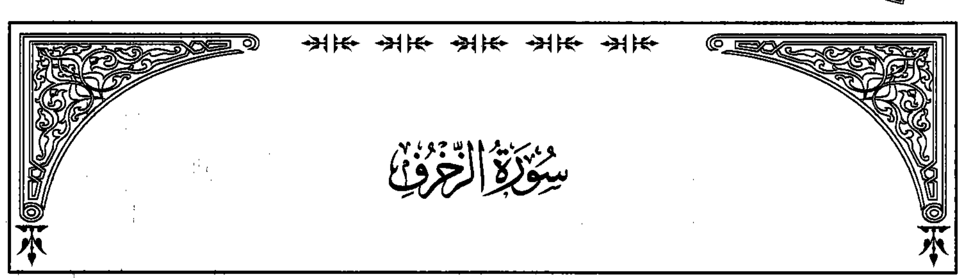
فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧] والظالمون ما لهم من أولياء ينقذونهم من عذاب الله، وإن كانوا يزعمون في أساطيرهم وحكاياتهم الباطلة أن هناك أهل النوبة من أوليائهم، وهم: الحرس المكلَّفون بإنقاذ من استغاث بهم، وهم في ذلك كاذبون، فإنه لا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الله كما تقدم(٢) في (سورة النمل). اهـ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٩٢).
(٢) انظر (١٣٣).





سورة الزخرف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ١٩ ـ ٢٨]

قال (ك): وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أي: بذلك ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي: لو أراد الله لحال بينهم وبين عبادة هذه الأصنام ـ التي هي على صورة الملائكة ـ التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا[1] عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يقرنا»!

أحدها: جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن ذلك علوّاً كبيراً.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ﷻ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝٣٦﴾ [النحل: ٣٦] وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون ويتقولون»[١].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١﴾ الآيات، قال (ك): «يقول تعالى منكراً على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل شركهم ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢﴾ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين ههنا، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢] وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ أي: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل، ثم بيَّن جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة[٢] المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.

طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣] وهكذا قال ههنا: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ثم قال ﷻ: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ولو علموا وتيقَّنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك بسوء[1] قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله، قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذِّبة بأنواع من العذاب، كما فصَّله تبارَكَ [وتعالى] في قصصهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين»[2].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ «يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله» أي: جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها»[3].

قال محمد تقي الدين: فائدة: شرح الحافظ (ﷺ) بأن عبادة أولئك المشركين للملائكة كانت بواسطة تماثيل جعلوها لهم وسموها بأسمائهم، كما يفعل عباد القبور حين يشيدون القباب، ويصنعون التوابيت على القبور، ويجعلون للتابوت كسوة كالكعبة، ويعلّقون المصابيح والثريات، ويزخرفون الوثن بأنواع الزخرفة، ويحكون للناس حكايات يختلقونها، مضمنها أن ذلك الوثن جاءه ناس قد عميت أبصارهم فرجعوا يبصرون، وجاءه ناس قد استولى شلل على أجسادهم فرجعوا يمشون، وجاءه ناس مجانين فرجعت إليهم عقولهم، وبهذه الحكايات ينشرون الشرك في الناس، قاتلهم الله.

فائدة ثانية: احتج المشركون بالقدر في قديم الزمان وحديثه، وقد ذكر الله

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «السوء»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٠٩).

تعالى احتجاجهم وأنكر ذلك عليهم، وسماه تكذيباً في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨] قال (ك): «هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره، بأن يلهمنا الإيمان أو يحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ الآية وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه[1] سواء قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من كان[2] قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم ونصر[3] عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ أي: فتظهروه هنا لنا[4]، وتبيِّنوه وتبرزوه؟ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن ههنا الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي[4]: تكذبون على الله فيما ادّعيتموه، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾ فإنهم قالوا عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله[5]: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾ يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين»[6]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أي: له الحكمة

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هذا».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ضل». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأدال».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقوله».
(٦) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٩/ ٦٥٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ٨٠٥١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢٥٥)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (٤٣٦).

التامة والحجة البالغة في هداية من هدي وإضلال من ضل[1] ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أجاد الحافظ (ك) رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على المحتجِّين بالقدر. ومما يزيد كلامه وضوحاً أن يقال: قال الله تعالى في سورة الدهر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]. وقال تعالى في سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٨ ـ ١٠] وقال تعالى في سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠] أي: طريق الخير وطريق الشر وسبب الاحتجاج بالقدر الجهل بإرادة الله تعالى، وعدم التمييز بين الإرادة القدرية والإرادة الشرعية[3]، فإن الله تعالى قدر كل شيء بمعنى أنه عالم بما سيختاره عباده، وأن بعضهم سيختار طريق الخير، وهو الإيمان بالله وطاعته واتباع رسله، وبعضهم سيختار طريق الشر، وهو: الكفر بالله ومعصيته ورد ما جاءت به رسله، فمن اختار منهم طريق الخير والهدى هداه الله ووفَّقه، قال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧] وقال تعالى في سورة التغابن: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] وقال النبي ﷺ في حديث أبي ذر الطويل فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**»[4]. فكل من استهدى الله هداه بيقين، وهو الذي لا يخلف الميعاد، وقال تعالى فيمن اختار طريق الشر في سورة البقرة: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٦] أي: بالمثل أو بالقرآن ﴿كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أضل».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٣) انظر: ما سيأتي في (٦/ ١٨) من التفريق بينهما، ففيه تفصيل جيد.
(٤) مضى تخريجه.

وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] فإذا عرض الحق على الإنسان لأول مرة وكان سليم القلب من اتباع الهوى، فإنه يستعمل فكره فيرى الحق حقّاً فيؤمن به ويهتدي فيزيده الله هدى، وإذا عرض عليه الحق فمنعه الهوى من النظر فيه والتفكير بقلب سليم، فكذب به اتباعاً لهواه أضله الله وختم على قلبه فلا يستطيع أحد أن يهديه، وقال تعالى في سورة الصف: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فلو لم يزيغوا لهداهم الله، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧ ـ ١٨].

والإرادة الثانية: إرادة شرعية، وهي: في معنى الرضى، فلا يريد الله تعالى بهذه الإرادة الشرعية إلا ما شرعه لعباده، قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى في سورة الأعراف إخباراً عن الكفار: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٨ ـ ٢٩] وقال تعالى فيها أيضاً: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٣٠].اهـ.

قال محمد تقي الدين: فلو لم يتخذوا الشياطين أولياء من دون الله لما حقت عليهم الضلالة، والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، فمن احتج بالقدر على استمراره في الكفر أو في المعاصي، فهو: جاهل بحقيقة إرادة الله تعالى، أو مغالط مكذب، كما تقدم في آيات الأنعام، ولنضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى: جماعة من الناس قصدوا رجلاً غنيّاً وقالوا له: نحن نحسن التجارة ونربح فيها، ونخرج من هذا الفقر المؤلم، ولنا عليك حق، فلو أقرضت كل واحد منا شيئاً يتخذه رأس مال لكنت سبباً في إنقاذنا من ألم الفقر دون أن تخسر شيئاً، فإننا نأخذ الربح ونرد لك رأس المال، وهذا الرجل الغني يعلم أن بعضهم صادق فيما ادعاه، وبعضهم كاذب يدعي ما لا يقدر عليه، فأعطى كل واحد منهم مقداراً معلوماً من المال، وضرب لهم أجل خمس سنين مثلاً، وبعد مضي الأجل استرد منهم رأس المال. فأما الذين كانوا صادقين، فإنهم ردوا

للمقرض قرضه، وبقي لهم خير كثير، يكفيهم أن يعيشوا عيشاً رغداً، وأما الكاذبون فلم يجد عندهم شيئاً لا رأس مال ولا ربحاً، وهذا المثل نفسه يصلح ردّاً على الاشتراكية الشيوعية، وللرد على الشيوعيين مقام آخر، والله أعلم.

وبعد ذلك أقول: لو أن الله تعالى أجبر الناس على الهدى ومنعهم من الكفر والمعاصي بحيث أن من كفر أو هَمَّ بالكفر أو المعاصي يصيب لسانه وجوارحه شلل، فلا يتكلم ولا يتحرك حتى يتوب ويعزم على ترك الكفر، والمعصية لبطل الثواب والعقاب، ولما كانت دار عذاب ولا كرامة، وصار الناس أمة واحدة سواسية، لا فضل لأحد على أحد وأصبحوا كالآلات، أو كالشمس والقمر، بدون إرادة ولا اختيار، يحركهم غيرهم فيتحركون، فلا يستحقون ثواباً ولا عقاباً، ولا يوصفون بإحسان ولا إساءة، وهذا ما لم يرده الله تعالى فله الحكمة البالغة. اهـ.

فائدة ثالثة: قول الحافظ (ك): «أي: من قبل شركهم» تفسير لما يعود عليه الضمير، في قوله تعالى من قبله، وعندي فيه نظر، والذي يظهر أن يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١] وقد تقدم ذكر القرآن، إلا أنه بعيد، والدليل على ذلك قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤] ثم نظرت في «البيضاوي»[١] فوجدت كلامه مطابقاً لما رأيته، والكمال لله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٥]

قال (ك): «يقول ﷻ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو[٢] الحق، وما يهدي إليه هو

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٧١).

(٢) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم، ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس وغيره(١) وأورد البغوي(٢) والبخاري بسندهما عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا كبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين**»(٣)، معناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين ومَنْ شابههم وتابعهم، وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾، وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن، وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له، وقوله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود(٤): **(وسل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا)** وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم»(٥).

---

(١) حكاه ابن كثير عن مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد، وقال: «واختاره ابن جرير ولم يحك سواه».
وأخرجه ابن جرير (٢٠/ ٦٠٣)، وابن أبي حاتم ـ كما في «الإتقان» (٢/ ٤٢) ـ والطبراني (١٣٠٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٩٤) من طريقين عن ابن عباس، وعزاه في «الدر المنثور» إلى ابن مردويه، وانظر: «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (١١٤٥).

(٢) كذا في «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «الترمذي»!

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٠٠)، وأحمد (٤/ ٩٤)، والبغوي في «التفسير» (٥/ ١٠٢)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٤) هكذا عند ابن جرير (٢٠/ ٦٠٤) وهي شاذة، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٩٥) على أنها قراءة مفسرة، كما قال ابن كثير، وورد عن ابن مسعود قراءات مختلفة، انظر: «المحرر» (١٣/ ٢٣١)، «روح المعاني» (٢٥/ ٨٦).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الآيتان الأوليان من أدلة توحيد الاتباع، فإن الله أمر محمداً ﷺ أن يتمسك بالقرآن، وأن يتخذه سراجاً ومناراً يهتدي به هو وأمته، كما قال تعالى في سروة الأعراف: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥] وقال تعالى في سورة التغابن: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التغابن: ٨] **ونرى اليوم العرب وسائر المسلمين يتخبطون في الظلمات لإعراضهم عن هذا النور واتخاذهم القرآن مهجوراً، ولن يخرجوا من ظلماتهم إلا بالرجوع إليه، والاستضاءة به، واتخاذه إماماً وحكماً، والتمسك بسنة الرسول، التي تبينه وتشرحه،** والتفسير الثاني هو الراجح، وهو أن القرآن تذكير للنبي ولقومه ولجميع العالمين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] من سورة الذاريات وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠] وسيأتي تحقيق (توحيد الاتباع) في (القسم الذي بعد هذا) إن شاء الله.

فائدة أخرى: قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ الآية، معناه: إن كل رسول أرسله الله جاء بتوحيد الله تعالى وإنكار عبادة غيره، كائناً من كان، وهذا مبيَّن في التوراة والأناجيل أتم تبيين، انظر «البراهين الإنجيلية»[1] لمؤلف هذا الكتاب.اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤]

---

(١) انظر ما تقدم: (ص٢٧).

قال (ك): ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: «يعني: من الأمور الدينية لا الدنيوية»[١]. وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن ﴿بَعْضَ﴾ هٰهنا بمعنى «كل» واستشهد بقول لبيد[٢] الشاعر حيث قال:

تـرَّاكَ أمـكِـنَـةً إذا لَـمْ أرضَـهَـا   أو يعتَلق بعضَ النفوسِ حِمَامُها

وأوَّلوه على أنه أراد جميع النفوس، قال (ج): «إنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها»، وهذا الذي قاله محتمل، وقوله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُونِ﴾[٣] فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ أي: أنا وأنتم عبيد له فقراء إليه مشتركون في عبادته وحده لا شريك له: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب [جل وعلا] وحده»[٤]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة، قوله تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ليس ﴿بَعْضَ﴾ هٰهنا بمعنى كل لأن عيسى ابن مريم عليه السلام لم يجئ بنسخ شريعة موسى كلها كما جاء محمد ﷺ بنسخ جميع الشرائع التي قبله، وإنما جاء بنسخ بعضها كالعمل يوم السبت، إذا كان فيه خير وفي تركه شر، كإنقاذ الغريق، وعلاج المريض، وإعانة المحتاج، ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

فائدة ثانية: قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية، انظر أيضاً «البراهين الإنجيلية» فقد جاء فيها أن سائلاً سأل عيسى عليه السلام عن الوصية الأولى من الوصايا العشر، التي في التوراة فأجاب قائلاً: «اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا واحد وتحب الرب إلٰهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك». اهـ من (الصفحة١٤).

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٠/ ٦٣٧).
(٢) انظر: «ديوانه» (٢٢٨، ط. دار القاموس)، والمذكور من (معلقة) له.
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وهو الصواب، وفي الأصل: «وأطعوني»!!
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير (١٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨١ ـ ٨٧]

في «تفسير الجلالين» ما نصه: «﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ فَرضاً[١]. ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ للولد لكن ثبت أن لا ولد له تعالى فانتفت عبادته»[٢].

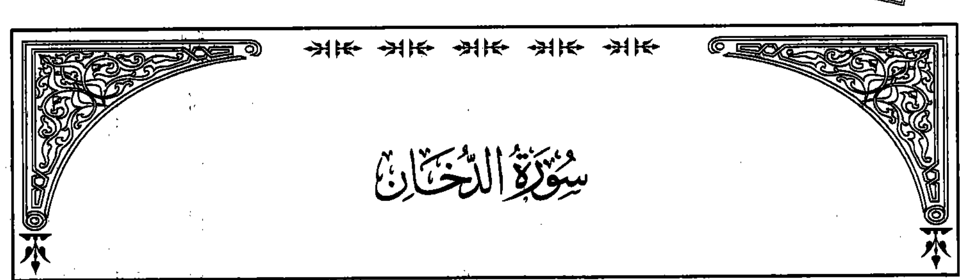
فصل

قال محمد تقي الدين: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: تنزه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما عما يصفه به الجاهلون المشركون، من كونه له ولد، وتنزه وتقدس عن كل نقص، فذرهم، أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في غيهم حتى يجيئهم اليوم الذي كانوا يوعدونه، وهو يوم القيامة الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت، ويعاقب من نسب لله ولداً أو اتخذ معه شريكاً، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو معبود أهل السماء وأهل الأرض بحق وهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وفي شرعه وقدره، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿وَتَبَارَكَ﴾ أي: تعالى وتقدس ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وكل من سواه مملوك، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: ساعة القيامة لا يعلمها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٤٠، ٤١]، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير الجلالين»: «كما يزعمون».
(٢) انظر: «تفسير الجلالين» (ص٦٥٥).

يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ ولو كانوا ملائكة أو أنبياء أو صالحين، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي: وحَّد الله تعالى ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعتقدون تنزيه الله تعالى عن الشرك وسائر النقائص، فإن الله يهب من شاء منهم الشفاعة في من شاء من المستحقين للعذاب والمعذبين، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمد، أي: المشركين من أهل مكة وغيرهم ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ أنفسهم، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ خلقنا اللهُ ولم يشاركه في خلقنا أحد ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن توحيده في عبادته؟!. اهـ.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

[الدخان: ٧، ٨]

قال (ك): «أي: الذي أنزل هذا[1] القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم متحققين، ثم قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] الآية»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ذكر الله التوحيد في مواضع من كتابه العزيز، وأنكر على المشركين عبادتهم لغيره، واحتج عليهم بأنه هو وحده الذي يحيي ويميت، وكل ما سواه فإنه سبقه العدم، فأوجده الله تعالى ووهبه الحياة، وهو الذي يميت كل نفس ويذيقها الموت، فكيف يعبد من يحتاج إلى موجد يوجده، وحياته بيد ذلك الموجد يأخذها متى شاء، لا جرم أنه لا يعبد ذلك الفاني الذي يحيى ويمات، إلا من مات قلبه فنسألك اللهم أن تحيي قلوبنا، وأن تزيدنا إيماناً بك وبنبيك محمد ﷺ وبما جاء به، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٣٥).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: ٤٠ ـ ٤٢]

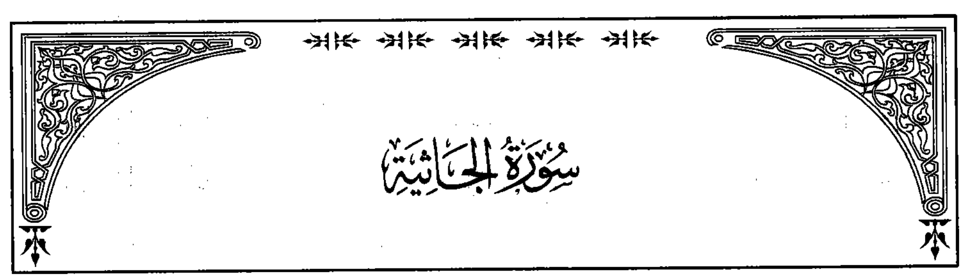
قال (ك): «﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين، وقوله ﷻ: ﴿مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يجمعهم كلهم أوَّلهم وآخرهم [﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾][1] أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ وكقوله جلت عظمته: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً، وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من الخارج[2] ثم قال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا ينفع يومئذٍ إلا من [رحمه الله][3] ﷻ لخلقه[4]: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة»[5].اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ناطقان مصرحان بأن القرابة وحدها ـ ولو كانت للأنبياء والمرسلين ـ لا تنفع ولا تشفع بل أقارب الأنبياء إذا عصوهم وخالفوا طريقهم هم أشد الناس عذاباً وخزياً، انظر: (الفائدة الخامسة) من (الباب الأول) من (سورة الشعراء).

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «خارج».
(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بخلقه»!
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٥٠).



سُورَةُ الجَاثِيَةِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٢ ـ ٢٣]

قال (ك): «﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: إنما يأتمر بهواه فمهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير[١] «لا يهوى شيئاً إلا عَبَدَه»[٢]، وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: **أحدهما**: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك.

والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه[٣] وقيام الحجة عليه، والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]»[٤].

---

(١) أورد جله ابن العربي في «القبس»، وجمعه حميد لحمر في كتاب مفرد بعنوان «الإمام مالك مفسراً» فيه جمع جيد على فوت فيه.

(٢) ذكره ابن العربي في «القبس» (٣/ ١٠٨١) وعلق عليه بقوله: «يريد: لا يرى شيئاً إلا شغله عن الله ﷻ». وانظر: «الإمام مالك مفسراً» (٣٥٢/ ٧٨٩).

(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٦٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: التحسين والتقبيح فيما ينسب إلى الله من الصفات، وما ينفى عنه لا يكون إلا من طريق الشرع، أي: الكتاب والسنة، فما استحسنه الله تعالى ورسوله ﷺ، فهو الحسن، وإن لم تستحسنه عقول بعض الناس، وما استقبحه الله تعالى ورسوله، فهو القبيح وإن استحسنته عقول بعض الناس[(١)]،

---

(١) هذه المسألة لها جوانب اتفاق وافتراق بين العلماء.

أما **محل الاتفاق**؛ فالعقل يدرك الحسن والقبح فيما هو ملائم للطبع أو مضاد له، فإذا لاءم الغرض الطبع؛ فحسن؛ كاللذة والحلاوة، وإذا نافره؛ فهو قبيح؛ كالألم والمرارة، وهذا القدر معلوم بالحس والعقل والشرع، مجمع عليه بين الأولين والآخرين، بل هو معلوم عند البهائم.

أما **محل الافتراق والتنازع**؛ فهو في الحسن والقبح المتعلق بالشرع، بمعنى كون الفعل سبباً للذم والعقاب أو المدح والثواب، وهل يعلم ذلك بالعقل أو لا يعلم إلا بالشرع، أم يعلم بهما معاً؟ وحاصل أقوال الناس في هذه المسألة على سبيل الإجمال ثلاثة أقوال أساسية، هي:

القول الأول: وهو قول جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة وأصحاب مالك والشافعي وأحمد؛ كالقاضي أبي يعلى، وأبي الوليد الباجي، وأبي المعالي الجويني وغيرهم، وهو قول عموم الأشاعرة، وحاصل هذا القول: «إن الأفعال لا تتصف بصفات تكون بها حسنة ولا سيئة ألبتة، وكون الفعل حسناً أو سيئاً إنما معناه أنه منهي عنه أو غير منهي عنه، وهذه الصفة إضافية لا تثبت إلا بالشرع»، أي: إنهم ينفون الحسن والقبح العقليين ويقولون: إن ذلك لا يعرف إلا بالشرع فقط، مع أنه «من المحال أن يكون الدم والبول والرجيع مساوياً للخبز والماء والفاكهة ونحوها، وإنما الشارع فرَّق بينهما؛ فأباح هذا وحرم هذا مع استواء الكل في الأمر، وكذلك أخذ المال بالبيع والهبة والوصية والميراث، لا يكون مساوياً لأخذه بالقهر والغلبة والغصب والسرقة والجناية؛ حتى يكون إباحة هذا أو تحريم هذا راجعاً إلى محض الأمر والنهي المفرق بين المتماثلين...».

إلا أن هذا هو مذهب الأشاعرة الذي يصرحون به في كتبهم الاعتقادية والأصولية؛ ففي «المواقف» يقول الأيجي: «القبيح ما نهي عنه شرعاً والحسن بخلافه، ولا حكم للعقل في حسن الأشياء وقبحها، وليس ذلك عائد إلى أمر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع، بل الشرع هو المثبت له والمبيِّن، ولو عكس القضية، فحسَّن ما قبَّحه وقبَّح ما حسَّنه؛ لم يكن ممتنعاً وانقلب الأمر».

وفي الإرشاد» (٢٢٨) للجويني: «العقل لا يدل على حسن شيء ولا قبحه في حكم التكليف، وإنما يتلقى التحسين والتقبيح من موارد الشرع وموجب السمع».

وهذا ما ردده المصنف وبه قال الشاطبي في «الموافقات» (٣/ ٢٨ ـ بتحقيقي) ونص =

. . . .

= كلامه: «الأفعال والتروك ـ من حيث هي أفعال وتروك ـ متماثلة عقلاً بالنسبة إلى ما يقصد بها؛ إذ لا تحسين للعقل ولا تقبيح»، وعلى الرغم من مرور الشاطبي على المسألة مروراً سريعاً على خلاف ما يفعله المتكلمون والأصوليون؛ فإن التأثير الأشعري بادٍ على كلامه، قارن كلامه السابق بقول الجويني في «الإرشاد» (ص٢٥٩): «فليس الحسن صفة زائدة على الشرع مدركة به، وإنما هو عبارة عن نفس ورود الشرع بالثناء على فاعله، وكذلك القول في القبح، فإذا وصفنا فعلاً من الأفعال بالوجوب أو الحظر؛ فلسنا نعني بما نثبته تقدير صفة للفعل الواجب يتميز بها عما ليس بواجب، وإنما المراد بالواجب الفعل الذي ورد الشرع بالأمر به إيجاباً، والمراد بالمحظور: الفعل الذي ورد الشرع بالنهي عنه حظراً وتحريماً».

واقرأ له قوله في «الموافقات» أيضاً (٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ـ بتحقيقي): «. . . كون المصلحة مصلحة تقصد بالحكم والمفسدة مفسدة كذلك مما يختص بالشارع، لا مجال للعقل فيه، بناءً على قاعدة نفي التحسين والتقبيح، فإذا كان الشارع قد شرع الحكم لمصلحةٍ ما؛ فهو الواضع لها مصلحة، وإلا؛ فكان يمكن عقلاً أن لا تكون كذلك؛ إذ الأشياء كلها بالنسبة إلى وضعها الأول متساوية لا قضاء للعقل فيها بحسن ولا قبح، فإذاً؛ كون المصلحة مصلحة هو من قبل الشارع بحيث يصدقه العقل وتطمئن إليه النفس».

وهذا بالضبط هو كلام الجويني وغيره من أئمة الأشاعرة، ولهذا القول لوازم فاسدة قد التزموها وقالوا بها ـ خلافاً لمصنفنا السلفي الهلالي رحمه الله ـ منها كما يقول ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٤٢ ـ ٥٢): إنه يجوز ظهور المعجزة على يد الكاذب، وأنه ليس بقبيح، وأنه يجوز نسبة الكذب إلى أصدق الصادقين، وأنه لا يقبح منه، وأنه يستوي التثليث والتوحيد قبل ورود الشرع، وأنه لا يقبح الشرك ولا عبادة الأصنام، ولا مسبة المعبود سبحانه، وأنه لا يقبح الزواج بالأم والبنت، وغير ذلك من اللوازم التي انبنت على أن هذه الأشياء لم تقبح بالعقل، وإنما جهة قبحها السمع فقط.

وهذه كلها لوازم فاسدة تدل على فساد الملزوم، بل ويلزم على قولهم هذا أنه يصح أن يأمر الله بالشرك؛ فلا يكون قبيحاً، وبالزنا والسرقة والظلم وسائر المنكرات؛ فلا يكون ذلك قبيحاً، ويجوز عندهم أن ينهى سبحانه عن التوحيد والعفة والصدق والعدل؛ فتكون هذه كلها قبيحة، كما قال الإيجي في «المواقف» (٣٣٣): «ولو عكس القضية، فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه؛ لم يكن ممتنعاً وانقلب الأمر».

والقول الثاني: وهو مذهب المعتزلة على اختلاف بينهم في التفصيلات، وكثير من أصحاب أبي حنيفة، وهذا القول يقع في مقابل القول الأول؛ إذ الحسن والقبح عند هؤلاء عقليان، لا يتوقف في معرفتهما وأخذهما عن الدليل السمعي، ويجعلون الحسن والقبح صفات ذاتية للفعل لازمة له، ويجعلون الشرع كاشفاً عن تلك الصفات لا سبباً لشيء من الصفات، ترى تفصيل ذلك في: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٣١ و١١/ ٦٧٧)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٩٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٣٨)، و«مفتاح دار =

= السعادة» (٢/ ٨، ٣٩، ١٠٥)، و«شرح الأصول الخمسة» (٤١، ٤٦)، و«سلم الوصول شرح نهاية السؤل» (١/ ٨٣)، و«إرشاد الفحول» (٧).

ورتب المعتزلة على هذا الأصل أموراً عديدة، منها: إن القبح في العقل يترتب عليه الذم والعقاب في الشرع، والحسن في العقل يترتب عليه المدح والثواب في الشرع، وأن الله ﷻ يجب عليه أن يفعل ما استحسنه العقل ويحرم عليه أن يفعل ما استقبحه العقل، وأن المصلحة تنشأ من الفعل المأمور به فقط؛ كالصدق، والعفة، والإحسان، والعدل؛ فإن مصالحها ناشئة منها، وغير ذلك من الأمور المترتبة على هذا الأصل الفاسد واللوازم الملازمة له، كما بينه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٩ ـ ٦٠ و١٠٥).

والقول الثالث: هو القول الوسط بين هاتين الطائفتين، والطريق القاصد بين الطريقين الجائرين إذ قال أصحابه ـ كما في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥٧) ـ: «ما منكم أيها الفريقان إلا من معه حق وباطل، ونحن نساعد كل فريق على حقه ونصير إليه، ونبطل ما معه من الباطل ونرده عليه؛ فنجعل حق الطائفتين مذهباً ثالثاً يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين».

وحاصل هذا القول أن الحسن والقبح، يدركان بالعقل، ولكن ذلك لا يستلزم حكماً في فعل العبد، بل يكون الفعل صالحاً لاستحقاق الأمر والنهي، والثواب والعقاب من الحكيم الذي لا يأمر بنقيض ما أدرك العقل حسنه، أو ينهى عن نقيض ما أدرك العقل قبحه؛ لأن ما أدرك العقل حسنه أو قبحه راجح ونقيضه مرجوح، بمعنى أن صفة الحسن في الفعل ترجح جانب الأمر به على جانب الأمر بنقيضه القبيح، وصفة القبح في الفعل ترجح جانب النهي عنه على جانب النهي عن نقيضه الحسن، عملاً في ذلك بمقتضى الحكمة التي هي صفة من صفات الله سبحانه؛ فلا حكم إلا من الخطاب الشرعي، ولا أمر ولا نهي إلا من قبل الشارع الحكيم.

وهذا هو قول عامة السلف وأكثر المسلمين؛ كما في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/ ٦٧٧)، وأهل هذا القول يوافقون الأشاعرة في أنه لا حكم بالثواب والعقاب والأمر والنهي في الفعل إلا جهة الوحي، وأن الحجة إنما تقوم على العباد بالرسالة، وأن الله لا يعذبهم قبل بعثة الرسل، ولا يطالبهم إلا بما بلغهم من أمر، ولا يعاقبهم إلا على ارتكاب ما نهاهم عنه.

ويوافقون المعتزلة في أن العقل يحكم بحسن الشيء أو قبحه، وأن الحسن والقبح صفات ثبوتية للأفعال معلومة بالعقل والشرع، وأن الشرع جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين الحسن والأمر به وتقبيح القبيح والنهي عنه، وأنه لم يجئ بما يخالف العقل والفطرة، ويوافقونهم في إثبات الحكمة لله تعالى، وأنه سبحانه لا يفعل فعلاً خالياً عن الحكمة، بل كل أفعاله مقصودة لعواقبها الحميدة وغاياتها المحبوبة.

ومن الجدير بالذكر أن القول بإدراك العقل للمصالح والمفاسد لا يعني أن إدراكه تام =

مثال ذلك: شفاعة النبي ﷺ في خروج الموحِّدين من النار[(١)]، أخبر بها الرسول ﷺ، واستحسنها، وهي في نفسها حسنة، واستقبحتها عقول المعتزلة فهم مخطئون في ذلك، وملومون عليه، ومثل ذلك إيجابهم على الله أن يعذب

= مطلق، بل إنه يدرك ويعجز، ويصيب ويخطئ... وقد بيّن ابن القيم هذه النقطة؛ فقال في «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١١٧): «... بل غاية العقل أن يدرك بالإجمال حسن ما أتى الشرع بتفضيله أو قبحه؛ فيدركه العقل جملة، ويأتي الشرع بتفصيله، وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً أو ظلماً؛ فهذا ما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد، وكذلك يعجز عن إدراك حسن كل فعل وقبحه.
فتأتي الشرائع بتفصيل ذلك وتبيينه، وما أدركه العقل الصريح من ذلك تأتي الشرائع بتقريره، وما كان حسناً في وقت قبيحاً في وقت، ولم يهتد العقل لوقت حسنه من وقت قبحه أتت الشرائع بالأمر به في وقت حسنه، وبالنهي عنه في وقت قبحه، وكذلك الفعل يكون مشتملاً على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته؟ فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع ببيان ذلك، وتأمر براجح المصلحة، وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك؛ فتأتي الشرائع ببيانه؛ فتأمر به من هو مصلحة له، وتنهى عنه من هو مفسدة في حقه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة، لا يهتدي إليها العقل؛ فلا تعلم إلا بالشرع؛ كالجهاد والقتل في الله، ويكون في الظاهر مصلحة، وفي ضمنه مفسدة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة والمفسدة الراجحة، هذا مع أن ما يعجز العقل عن إدراكه من حسن الأفعال وقبحها ليس بدون ما تدركه من ذلك؛ فالحاجة إلى الرسل ضرورية، بل هي فوق كل حاجة؛ فليس العالم إلى شيء أحوج منهم إلى المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين...».
وقد تعرض الشاطبي مراراً لبيان هذا القصور في إدراك العقل للمصالح والمفاسد، ترى ذلك في «الاعتصام» في مواطن منها: (١/ ٢٤٥، ٢٨٧، ٣٠٧، و٢/ ٢٩٥، ٣٥٧، ٣٧٩، ٤٦٢، و٣/ ٣٢٤، ٣٤٢)، وفي «الموافقات» (١/ ٥٣٧ و٢/ ٧٧ و٣/ ٢١٠) كلاهما بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
وانظر: بسط المسألة في: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢ ـ ١١٨)، و«مدارج السالكين» (١/ ٩١، ٢٣٠ ـ ٢٥٧، و٣/ ٤٠٧، ٤٨٨، ٤٩٢)، و«شفاء العليل» (٤٣٥)، و«مجموع فتاوى ابن تيمية» (٨/ ٩٠ ـ ٩١ و٤٢٨ ـ ٤٣٢ و٣/ ١١٤ ـ ١١٥ و١١/ ٦٧٥ ـ ٦٨٧ و١٥/ ٨ و١٦/ ٢٣٥ ـ ٣٦٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣)، و«شرح الكوكب المنير» (١/ ٣٠٠ ـ ٣٢٢)، و«لوامع الأنوار» (١/ ٢٨٤ ـ ٢٩١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٩٤ و١٥/ ٣٧ ـ ٤٢)، و«تيسير التحرير» (١/ ٢٨٣ ـ ٣٨٧)، و«إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة» للصنعاني (ص٢٠٣ ـ ٢٤٨)، و«حقيقة البدعة وأحكامها» (٢/ ١٢٧ ـ ١٣٣).

(١) الأحاديث الواردة في ذلك متواترة، انظر (١/ ٣٣٣) وتعليقنا عليه.

المذنبين، واستقباحهم عفو الله عنهم، وهم في ذلك مخطئون، والكريم إذا وعد أنجز وإذا أوعد عفا، فتلك صفة كما قال الشاعر(١):

وإنِّـي إذا أوعَـدْتُـه أو وَعَـدتُـه لمخلفُ إيعادي ومُنْجِزٌ موعدي

وقاله الشاعر يفتخر بأنه كريم حليم؛ إذا وعد لا يخلف وعده، وأما إذا أوعد بالعقاب فإنه يعفو ويصفح.

قال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، وإذا عفا عنهم وأخَّر عقابهم فهو سبحانه جدير أن يعفو عنهم يوم القيامة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ١٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وكذلك الاستحسان في الشريعة قال به بعض الفقهاء، وهو أن يحكم بوجوب شيء أو تحريمه أو كراهيته أو استحبابه أو إباحته بالاستحسان العقلي، قالوا في تعريفه: هو حجة تنقدح في ذهن المجتهد ولا يستطيع التعبير عنها، وجمهور علماء الأصول ينكرون هذا الاستحسان(٢)، ويحصرون الحجة في الكتاب والسنة والإجماع والقياس على خلاف بينهم فيه. اهـ.

فائدة ثانية: قال محمد تقي الدين: من اتبع هواه في عبادة غير الله أو تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، أو رد شيئاً مما جاء به رسول الله، كالذين يقولون في هذا الزمان بتطور أصول الدين، والاجتهاد مع وجود النص والإجماع، كرفض الصيام في رمضان، بدعوى أنه لا يوافق العصر الحاضر،

---

(١) أنشده أبو عمرو بن العلاء رادّاً على عمرو بن عبيد المعتزلي في مناظرة جرت بينهما، كما تراه في: «مجالس الزجاجي» (ص٦٢ ـ ٦٣)، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦/ ١٠٨١)، و«الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٧٢ ـ ٧٣)، «الإبانة» (رقم ١٩٦٦)، «أخبار عمرو بن عبيد» رقم (١٦) للدارقطني، «تاريخ بغداد»، (٥/ ٩٩)، «المنتظم» (٨/ ٦١)، «عيون الأخبار» (٢/ ١٤٢، ط. المصرية)، «البصائر والذخائر» (١/ ١٧٧)، «المنية والأمل» (ص١٧٢ ـ ١٧٣)، «مدارج السالكين» (١/ ٣٩٦)، «تهذيب الكمال» (٢٢/ ١٣٠)، «تهذيب التهذيب» (٨/ ٧١)، «الميزان» (٣/ ٣٧٨).

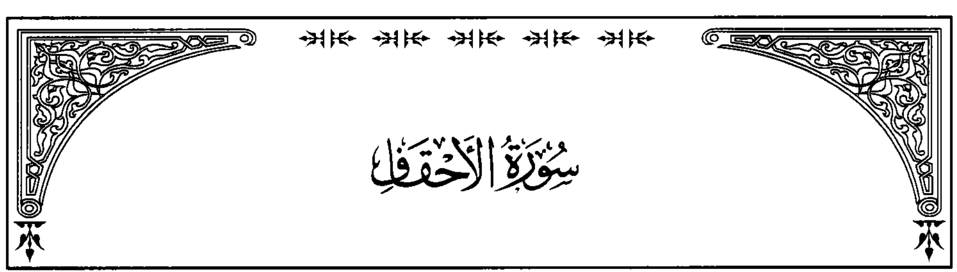
(٢) لشيخ الإسلام «قاعدة في الاستحسان» مطبوعة، فصل في مدى حجيته، وانظر: «الموافقات» (٥/ ١٩٣ ـ ١٩٩، ٢٢٨، ٢٣٣) وتعليقي عليه، وشرحي على «الورقات» المسمى «التحقيقات والتنقيحات السلفيات» (ص٥٩٦ ـ ٦٠٧).

وتحليل الربا بدعوى أنه ضروري في هذا العصر إذا تركته دولة قَلَّتْ أموالها، وضعُف اقتصادها، وضاع حقها في المعاملات الدولية، فإنها لا بد أن تعطي وتأخذ، فإذا أخذت فلا مناص من دفع الربا، وإذا أعطت بلا ربا تكون هي الخاسرة، فنقول: إن هناك طريقاً آخر وهي أن تكون مستقلة غنية قوية لا تأخذ الربا ولا تعطيه، وحينئذٍ لا بد أن تخضع لها الدول الأجنبية وتقبل شرطها، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾، ولنضرب مثلاً بالدولة السعودية فإنها لا تتعامل بالربا وهي أغنى الدول، والحاصل: من اتبع هواه في الشرك بالله أو تغيير حكم شرعي أو رد ما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر فرداً كان أو جماعة، أما من اتبع هواه في ارتكاب المحرمات، وهو يعترف أنه مذنب ويؤمل التوبة فهذا فاسق لا يخرج من الإسلام، ولا يخلد في النار بسبب التوحيد والإيمان والمحافظة على الصلاة في أوقاتها الذي معه[1].اهـ.

---

(١) يشير في هذه العبارة إلى أن تارك الصلاة تكاسلاً كافر، وله رسالة مفردة مطبوعة في تقرير هذا!.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤ ـ ٦]

قال (ك): «قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلُّوا بخلقه من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾؛ إن المُلْكَ والتصرف كله لله ﷻ، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به من أرشدكم إلى هذا من دعاكم إليه أهو أمركم به أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام»[1]، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: علم مأثور عن الأنبياء السابقين يشهد لكم بصحة ما أنتم عليه من الشرك في عبادة الله.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: لا أضل ممن يدعو [أنداداً و][2] أصناماً

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥ ـ ٦).
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

ويطلب منهم[1] ما لا يستطيعونه[2] ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾»[3].

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ فلا يسمعون ولا يبصرون ولا يبطشون، لأنهم فقراء عاجزون مربوبون، تحت تصرف الله تعالى وقهره، وتماثيلهم وآثارهم أشد عجزاً.

«وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ كقوله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: وتقدم تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

فائدة: قال محمد تقي الدين: الكفار في هذا الزمان أنواع:

النوع الأول: يقرون بأن الله رب كل شيء وخالق كل شيء؛ وبالكتب المنزلة على رسل الله أو بعضها كاليهود والنصارى، إلا أنهم يعبدون غير الله، بدعوى أن الله وهب بعض عباده شيئاً من صفاته، كالتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والنصر والهزيمة والخصب والجذب، وإطالة الأعمار وتقصيرها، والإفقار والإغناء، وهذه عقيدة المشركين المتأخرين.

النوع الثاني: المشركون على عهد النبي ﷺ من العرب، وهؤلاء كانوا لا يشركون بالله في الربوبية والملك والتصرف، وأما العبادة فكانوا في وقت الشدائد يوحدون الله تعالى، ولا يدعون معه أحداً، وفي وقت الرخاء يتخذون معه آلهة زاعمين أنهم يشفعون لهم عند الله في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ومشركو هذا الزمان يوافقونهم على ذلك، غير أنهم لا يوحدون الله أصلاً، لا في الشدة ولا في الرخاء، فشركهم أغلظ، وجهلهم أكثر. اهـ.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منها».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تستطيعه».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٣).
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/١٣).

النوع الثالث: يعتقدون أن الله خالق كل شيء ولكنهم لا يؤمنون بالرسالة، ويزعمون أن العقل يغني عن إرسال الأنبياء في معرفة الخالق ومن هؤلاء توماس بين مؤلف كتاب «عصر العقل» (The age of reason).

النوع الرابع: الواقفون (Iguostic) وهؤلاء يقولون: إنهم لا يثبتون لهذا العالم ربّاً وهو الله تعالى، ولا ينفونه، لأنهم يزعمون أنه لم يقم عندهم دليل على الإثبات ولا على النفي، ومن هؤلاء Ougesol الأمريكي، وله مقالات بالإنكليزية مشهورة.

ويلزم أهل النوع الثالث أن الله سبحانه مع اعترافهم بكمال قدرته وكمال علمه خلق الخلق وأهملهم ووكلهم إلى عقولهم، التي لا تكاد تتفق على شيء، وهذا يتنافى مع كمال القدرة والحكمة والرحمة، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، من سورة القيامة، وقال تعالى في آخر سورة المؤمنين: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. ومتى رأيتم ملكاً قويّاً حكيماً رحيماً من المخلوقين يهمل رعيته ولا يعلمهم ما يأتون وما يذرون، فما فائدة ملكه لهم؟ فكيف بملك الملوك خالق السموات والأرض يترك عباده بلا رسل ولا كتب، ولا شرع، ولا يثيب محسناً على إحسانه، ولا يعاقب مسيئاً على إساءته؟ هذا يتنافى مع صفات الكمال. اهـ.

أما أهل القسم الرابع: فهم أضل وأجهل، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ[1] يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١] والقرآن مشحون بمثل هذه الإرشادات وما يعقلها إلا العالمون، اهـ.

والنوع الخامس: يصرحون بأنه لا رب لهذا العالم ولا خالق له ولا متصرف فيه ولا مدبر لشؤونه، فيلزمهم أن السفينة تصنع نفسها وتسير في البحر بلا ربان ولا ملاحين، ويلزمهم أن القطار يصنع نفسه ويصنع السكة التي يسير عليها أو تصنع نفسها، ويحمل الناس والبضائع، وإذا رأى أناساً أو حيواناً صفر

---

(١) في الأصل: «أفلم»، وهو خطأ.

له وبطأ سيره، وإذا رأى ما يستوجب الوقوف وقف، وإذا وصل إلى محطة وصل بعد أن يختار موقفه، ويتوجه إليه بنفسه، حتى لا يتصادم مع القطر الأخرى، وينتظر النازلين حتى ينزلوا والراكبين حتى يركبوا، وإذا جاء وقت التحرك عرفه، واستأنف سيره، ويلزمهم أن الأطعمة في المعدة تتحول إلى دمٍ من تلقاء نفسها، ثم إلى تعويض ما فقد من اللحم والعظام والأعصاب والغضاريف والأمعاء وما يحتوي عليه البطن والدماغ، كل ذلك بلا خالق ولا مدبر، ويلزمهم أن الشمس خلقت نفسها وهي تسير بإرادتها، وأن الأرض خلقت نفسها والتزمت أن لا تبعد عن الشمس بعداً يهلك ما عليها من حيوان ونبات بالبرد، ولا تقرب من الشمس قرباً يهلك ما عليها بالاحتراق، بل تبقى بينها وبين الشمس مسافة معلومة تمكن ما عليها من حيوان ونبات من الحياة، لا جرم أن هذه الفروض لا يستطيع العقل البشري أن يعتقدها، لأنها في غاية الاستحالة، انظر: كتابي «دواء الشاكين»[(١)]. وقد طبع باسم «الطريق إلى الله»[(٢)] وقد طبع برمته وهو يباع، طبعه المحسن الكبير الحاج مصطفى الودغيري.

الباب الثاني

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢١ ـ ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام، بعثه الله ﷻ إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حقْف وهو الجبل من الرمل، وعن علي بن أبي

---

(١) أصله عدة مقالات نشرت في مجلة «دعوة الحق» المغربية، ثم طبع على حدة.
(٢) هو قسم من الكتاب السابق، وقد طبع عن دار الفتح، بيروت.

طالب: الأحقاف وادٍ بحضرموت[١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾، يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين»[٢]. وقال البيضاوي: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾: «قبل هود وبعده»[٣].

قال محمد تقي الدين: ويظهر أن قول البيضاوي هو الصواب، ثم قال (ك): «﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: الله أعلم بكم: إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب [فسيفعل][٤] ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر[٥] ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو العذاب الذي قلتم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ من بلادهم مما من[٦] شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، أي: بإذن الله لها في ذلك كقوله ﷻ: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذرايات: ٤٢] أي: كالشيء البالي، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم يبق[٧] لهم باقية ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا»[٨]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عاد الأولى ليس لها اسم سوى عاد، وعاد الثانية لها اسم آخر وهو ثمود.

والأحقاف اسمها في هذا الزمان حَضْرَمَوْت، واسمها أيضاً جنوب اليمن،

---

(١) أخرجه مع تتمة له: أبو بكر النجاد في «جزئه المشهور»، قاله السيوطي في «شرح الصدور» (ص٢٣٢). وهذا يروى عن علي من وجوه، انظر لزاماً: تعليقي على «تعبير الرؤيا» (ص٨٦) لابن قتيبة، فقد ذكرت مصادره.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٢ ـ ٢٣).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٩٦).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيفعل».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مطر»!

(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل!

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تبق».

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٤).

ومقر الحكم فيها عدن، نسأل الله أن يطهرها من الشيوعية[١].

وقول الحافظ (ك): ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾: «معناه: من حوله من البلاد» ظهر لي لأول وهلة أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ ما قبله من الزمان، والمراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ ما بعده من الزمان، ثم راجعت كل «التفاسير» التي عندي ـ وهي خمسة ـ فوجدتها موافقة لما ذكرته، ومخالفة لتفسير (ك) والكمال لله.

وقول (ك): «﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب كل شيء من بلادهم مما شأنه الخراب»، يريد أن كل شيء عام أريد به الخصوص[٢]، أي: كل شيء من بلاد عاد لا من بلاد غيرهم. قوله: «مما شأنه الخراب» كبني آدم والأشجار، أما الجبال فلم تخربها لأنها لم ترسل إليها؛ هذا كقوله تعالى في ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٢٣] أي: يكون عند الملوك.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧ ـ ٢٨].

قال (ك): «﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ، وهم أهل اليمن، ومدين، وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله ﷻ: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: بيَّنَّاها وأوضحناها ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم؟ ﴿بَلۡ ضَلُّواْ

---

(١) الحمد لله قد فعل، وسقطت الشيوعية، وهذه سنة الله تعالى في الباطل مهما تنوّع وتغيَّر، فإن الباطل زهوق، ولا أصل له ولا جذور، بخلاف الحق، فإن جذوره ممتدة في التاريخ، ومهما حورب وأوذي أصحابه فهو بمثابة الشجرة؛ إن قطعت، فسرعان ما تنبت أقوى مما كانت، لقوة جذورها وأصولها، فتأمل ولا تكن من الجاهلين!

(٢) انظر: تهويل الأصوليين في ذلك: «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٦/ ٤٤١ ـ ٤٤٢) و«شرحي على الورقات» المسمى «التحقيقات والتنقيحات السلفيات» (ص١٩٦ ـ ٢٠٠).

﴿عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم واعتمادهم عليها، والله أعلم»(١).اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: عبّاد الأوثان في هذا الزمان كلما رأوا قبة عظموها وتعلقت قلوبهم بصاحبها المنسوبة إليه، فيشدون إليه الرحال ويتقربون لها، فإذا قيل لهم: لماذا ذهبتم إلى صاحب القبة، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؟ يقولون: نحن نعلم أن الذي يعطي هو الله، وصاحب القبة لا يملك شيئاً ولكننا قصدناه لنقرأ عليه شيئاً من القرآن، وندعو له بالرحمة، فقلنا لهم: أما الدعاء فإن الله يسمعه وأنتم في بيوتكم، ولماذا خصصتموه بالدعاء من دون سائر الأموات، ومنهم والدوكم؟ فذهابكم إلى قبره وتخصيصكم له بالدعاء يدل على أنكم قصدتموه، وخضعتم له لتتملقوا وتقدموا له رشوة ليتوسط لكم في قضاء حاجاتكم عند الله، أو ليقضيها بنفسه، وهذا هو الشرك بالله الذي لا يغفره الله، وأما قراءة القرآن، فلو كانت تنفع غير قارئه لكان والدوكم أولى بها، على أنها لا تنفع إلا قارئها إذا قرأها لوجه الله، وعمل بها وتقبلها الله منه، وبرهان ذلك أن قراءة النبي ﷺ متقبّلة قطعاً، وكل حرف منها يساوي قراءة العالم بأسره، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وكان يعتني كثيراً بزيارة القبور والدعاء لأصحاب القبور، ويعلم أصحابه الدعاء الذي يدعون به إذا زاروا القبور(٢) كما يعلمهم السورة من القرآن ولم يقرأ شيئاً من القرآن على ميت ولا أمر أصحابه بذلك، أأنتم أعلم أم رسول الله ﷺ؟ وفي «الصحيحين» عن ابن عباس أن النبي ﷺ، مر بقبرين يعذبان؛ أي: يعذب صاحباهما، فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة**»، ثم أمر بجريدة خضراء فأتي بها فشقها نصفين، فغرز أحدهما على أحد القبرين، وغرز الثاني على القبر الثاني(٣)، فقال: «**لعله أن يخفف عنهما ما لم**

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٨). (٢) انظره: في «صحيح مسلم» رقم (٩٧٤).
(٣) هذا الغرز من التبرك بأثر النبي ﷺ ودعائه بالتخفيف عنهما، وكأنه جعله مدة بقاء النداوة فيهما حدّاً لما وقعت به المسألة من تخفيف العذاب عنهما، وليس ذلك من أجل أن في =

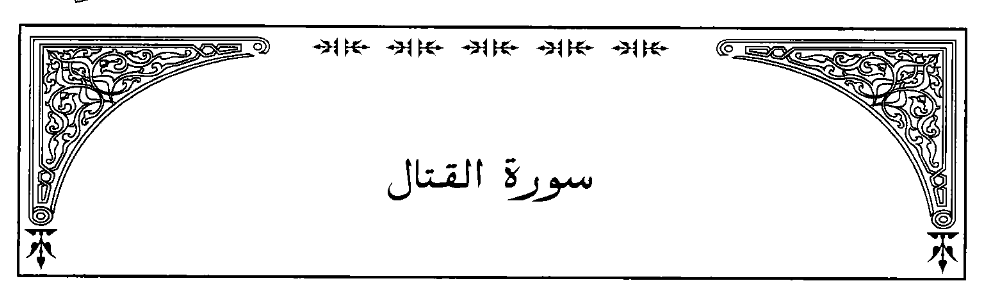
ييبسا»(١) ولم يقرأ عليهما حرفاً من القرآن، ولا أمر أصحابه بالقراءة عليهما، وهذا دليل قاطع على أن قراءة القرآن وإهداء ثوابها للأموات لم يشرعها الله ولا رسوله، بل هي بدعة وضلالة(٢)، ولا يجني صاحبها منها إلا الوبال، وقول النبي ﷺ: «**وما يعذبان في كبير**»، ليس معناه أن ذينك الذنبين ليسا من الكبائر(٣)، بل معنى (كبير) هنا ثقيل، كما قال تعالى في الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] أي: ثقيلة وشاقة، فكذلك الاستتار من البول والنميمة، لا يشق على المسلم أن يتركهما، فإذا كان معه أدنى شيء من الإيمان فإن إيمانه يمنعه من ارتكابهما، والله أعلم.

= الجريد الرَّطب معنى ليس في اليابس. قاله الخطابي في «المعالم» (١/٢٧)، وزاد: «والعامة في كثير من البلدان تغرس الخُوص في قبور موتاهم، وأراهم ذهبوا إلى هذا، وليس لما تعاطوه من ذلك وجه». وأيّد كلامه العلامة المحدث أحمد شاكر وفرع عليه بدعة وضع الزهور على القبور، وقال عنها وعن غرس الأشجار على القبور في تعليقه على «جامع الترمذي» (١/١٠٣): «وكل هذه بدع ومنكرات لا أصل لها في الدين، ولا سَنَد لها من الكتاب والسنة، ويجب على أهل العلم أن ينكروها، وأن يبطلوا هذه العادات ما استطاعوا».

(١) أخرجه البخاري (٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ١٣٧٨، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس.

(٢) انظر: «قاموس البدع» (بتجميعي) لشيخنا الألباني، فقد تكلم على هذه المسألة بتفصيل، والله المستعان، لا رب سواه.

(٣) انظر: «الكبائر» (ص٢٧٢، ٣٥٦، ٤٧٠ بتحقيقي) للذهبي.



سورة القتال

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك ولهذا عطف عليه بقوله ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي**»[١]. وفي «الصحيح» أنه كان يقول في آخر الصلاة: «**اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت**»[٢]. وفي «الصحيح» أنه قال: «**يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[٣].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]»[٤]. اهـ.

فصل

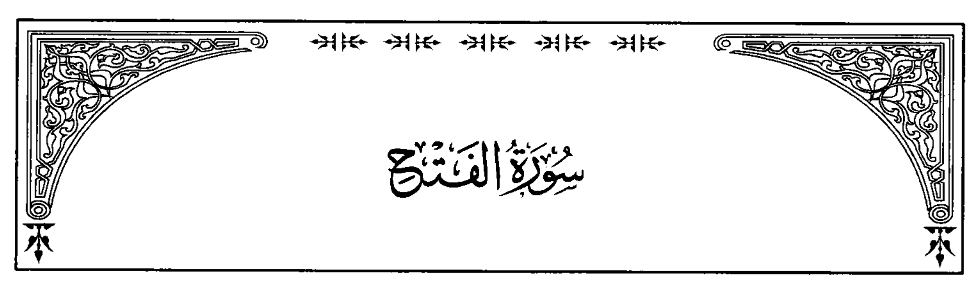
قال محمد تقي الدين: فائدة: يجب على كلِّ مسلمٍ أن يعلم معنى

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري.
(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب.
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٧٢ ـ ٧٣) بتصرف.

لا إله إلا الله، ويعتقده بقلبه، ويقولها بلسانه، ويعمل بمقتضاها، وإلا فليس من أهلها ولو قالها في كل يوم ألف مرة، فإن أهل الردة الذين قاتلهم أبو بكر الصديق ومعه جميع الصحابة، وسبى ذريتهم، وغنم أموالهم[1]، كانوا يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويصلون ويقرؤون القرآن ويحجون ويصومون، فلم تنفعهم، لأنهم لم يعملوا بمقتضاها، لما امتنعوا من دفع الزكاة إلى أبي بكر الصديق. ومعناها أن يشهد قائلها على نفسه قولاً واعتقاداً وعملاً أنه لا يعبد إلا الله ويتبرأ من عبادة غيره، ويحب في ذلك ويبغض فيه، ويوالي ويعادي عليه، فمن فعل ذلك فهو من أهل لا إله إلا الله. اهـ.

---

(١) ورد ذلك عند مسلم (٣٠)، وقال شرَّاحه ـ منهم: القاضي عياض في «إكمال المعلم» (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) والعبارة له ـ وأقره النووي في «المنهاج» (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١) ـ: «واختلف العلماء في قتل تارك غير الشهادتين، فأكثرهم على أن ذلك حدٌّ لا كفرٌ، وهو الصحيح، وقيل: كفر، والقول بهذا في تارك الصلاة أكثر، وعليه تأولوا سبي أبي بكر لنساء مانعي الزكاة وأموالهم لاعتقاده كفرهم، ولقوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ الآية، وحَكَم فيهم حكم الناقض للعهد، فلما توفي وولي عمر ردَّ عليهم ذريَّتهم وحكم فيهم حكم المرتدين.
وكان أهل الردة ثلاثة أصناف: صنف كفر بعد إسلامه ولم يلتزم شيئاً وعاد لجاهليته أو اتبع مسيلمة أو العنسيَّ وصدَّق بهما وصنف أقرَّ بالإسلام إلا الزكاة فجحدها وأقرّ بالإيمان والصلاة، وتأول بعضهم أن ذلك كان خاصّاً بالنبي ﷺ لقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً...﴾ الآية، وصنف اعترف بوجوبها ولكن امتنع من دفعها إلى أبي بكر وقال: إنما كان قبضُها للنبي ﷺ خاصةً لا لغيره ممن يقوم مقامه بعده، وفرقوا صدقاتهم بأيديهم، فرأى أبو بكر والصحابة ﷺ قتال جميعهم، الصنفين الأوَّلين لكفرهم والثالث لامتناعه بزكاته، شمل جميعهم اسم الردة؛ إذ كانوا الأكثر، حتى لم يكن صُلِّي لله إلا في المدينة ومكة وجُوَاثا.
وفيمن كفر منهم اختلف في سبي ذراريه لا في مانعي الزكاة، قاله الخطابي. ثم لم ينقرض العصرُ حتى أجمعوا على أنه لا يسبى المرتد، وإنما اختلف العلماء في سبي أولاد المرتدين. وإلى مذهب أبي بكر فيهم وتأويله ذهب أصبغُ بنُ الفرج من أصحابنا.
وبرأي عمر قال جمهور العلماء، ولا يصح أن يكون خلاف بين الصحابة في قتال الصنف الأول إذ هم كفار بغير خلاف، وإنما وقع النزاع ـ أولاً ـ في هذين الصنفين الآخرين إذ هم متأولون، ولعذرهم بجهلهم بحقيقة أركان الشريعة لقرب عهد كثير منهم بالإسلام، وقِصَر مُدتهم فيه، وأما الآن فقد وقع الإجماع أنه من جحد فريضةً من الفرائض فهو كافر». انتهى.



سُورَةُ الفَتْح

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦]

قال (ك): «وقوله ﷻ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأبوا أن يكتبوا: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله) ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [وهي قول][(١)]: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر»[(٢)]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمٰن الرحيم» وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، بيان ذلك أن النبي ﷺ، توجه إلى مكة ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه قاصدين العمرة بعدما رأى الرسول في المنام أنه دخل مكة ومعه أصحابه آمنين، لم يلقوا حرباً، فلما وصل إلى الحديبية، هي موضع قريب من مكة غضب أهل مكة وخرجوا إليه بالسلاح، فأخبرهم النبي ﷺ، أنه لم يجئ لقتالهم، وإنما جاء معتمراً، فمنعوه من دخول مكة، وبعد مفاوضات طويلة، اتفق معهم على الصلح،

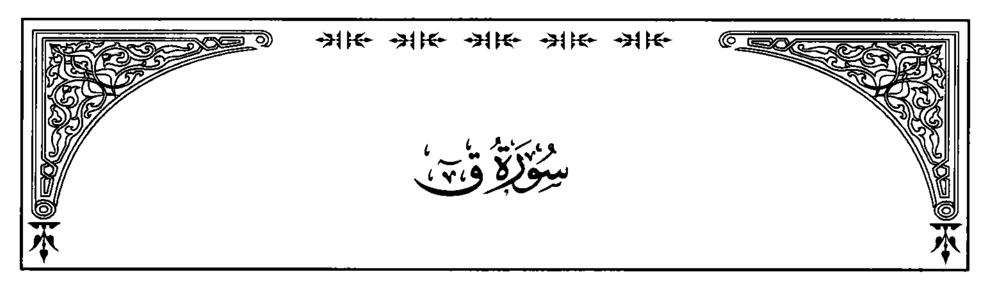
(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال»!
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١١٢ ـ ١١٤) بتصرف.

وهذا الصلح هو الفتح المبين[(١)] الذي ذكره الله تعالى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح: ١] فلما أرادوا أن يكتبوا معاهدة الصلح، قال النبي ﷺ لكاتبه: **«اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»**، فقال سهيل: لا نعرف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ولا نعترف أنك رسول الله، ولو اعترفنا لك بذلك ما صددناك عن بيته، اكتب باسمك اللهم، واكتب اسمك واسم أبيك، هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، فحلم عليه النبي ﷺ، وكتب كما يريد سهيل بن عمرو[(٢)]، لأن الإسلام يربح بالسلم ما لا يربح بالحرب، لأنه دين العقل والفطرة، إذا لم يبدَّل ولم يغيَّر، فكل مَنْ فكَّر فيه بعقله قبله، ودخل فيه إلا من منعه اتباع الهوى واستكبر وكان من الكافرين.

---

(١) انظر وجه ذلك بتحليل جيد في تعليقي على (٣/ ٧٨ ـ ٨٠)، وانظر (١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٤)، وأحمد (٤/ ٨٦، ٣٢٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣٣٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٣٤٢) رقم (٣٧٨٥٢)، والبيهقي (٩/ ٢٢٦) وغيرهم من حديث أنس.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦]

هذا خطاب من الله تعالى للملَكين، السائق وهو الذي يسوق المشرك إلى العرض، والشاهد وهو الذي يشهد عليه بما كان يقترفه في الدنيا.

قال (ك): ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤)﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، [عنيد، معاند للحق][(١)] معارض له بالباطل مع علمه بذلك ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد، وقال قتادة: مُعتدٍ في منطقه وسيره وأمره[(٢)]، ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: شاكٌّ في أمره، مريب لمن نظر في أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: **«يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وُكِّلت اليوم بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتنطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم»**[(٣)].

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٦٣٧ ـ ط. هجر).

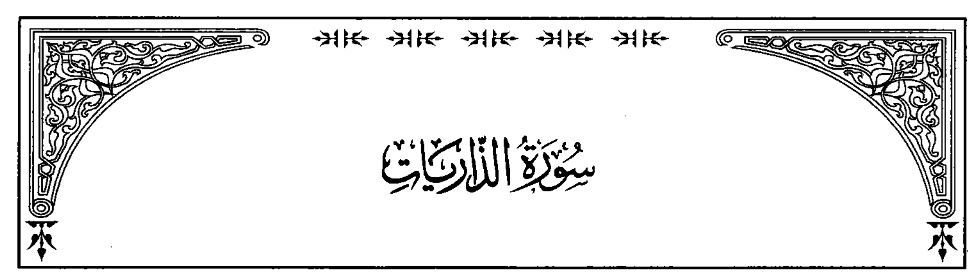
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠)، وعبد بن حميد (٨٩٦)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٦٠)، وأبو يعلى (١١٣٨، ١١٤٦)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٠، ٣٩٩٣)، والبزار (٣٥٠٠، ٣٥٠١ ـ «زوائده»)، وأبو الشيخ في «جزء من حديثه»، (رقم ٨٣ ـ انتخاب ابن مردويه)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٧٧)، والخطيب في «تالي التلخيص» (رقم ٢٨٠ ـ بتحقيقي)، وجوّده الذهبي في «الكبائر» (رقم ٢٨٨ ـ بتحقيقي)، وقال عنه شيخنا الألباني في التعليق =



فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ توكيد لما تقدم، وكل من عبد غير الله من أهل العالم العلوي والعالم السفلي وإن زعم أنه يتبرك به، فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر، انظر (الباب الثامن) من (سورة الأعراف).

= على «الترغيب والترهيب» (٢/ ٩٣٠ ـ بعنايتي): «**حسن لغيره**».
وأخرجه الترمذي (٢٥٧٤)، وأحمد (٢/ ٣٣٦)، والبيهقي في «البعث» (رقم ٥٢٤)، وفي «الشعب» (٦٣١٧) من حديث أبي هريرة بنحوه **وهو صحيح**، وفي الباب عن جمع، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٢)، و«التخويف من النار» (رقم ٨١٧ ـ ٨٢٣) لابن رجب، و«الكبائر» للذهبي (ص٣٥٠ ـ ٣٥٢) وتعليقي عليهما.



سورة الذاريات

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٥١]

قال (ك): «يقول تعالى منبِّهاً على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً[١] رفيعاً ﴿بِأَيْيدٍ﴾ أي: بقوة، قاله ابن عباس[٢] وغيره، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: قد[٣] وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات، ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهاداً لأهلها، ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج، سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار[٤]، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجؤوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه،

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه ابن جرير (٢١/٥٤٥) وابن أبي حاتم (١٠/٣٣١٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٥٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (١٣/٦٨٦) إلى ابن المنذر أيضاً، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ١٢٠٠)، وبمثله قال مجاهد في «تفسيره» (ص٦٢١)، وأسنده عن البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٥٣)، وآدم بن أبي إياس، كما في «الدر المنثور».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقد».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وليل ونهار وشمس وقمر».

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: ولا تشركوا به شيئاً ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾»[(١)] .اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: من لم يفر إلى الله فقد فر من الله، ومن فر من الله يدركه لا محالة، فإنه لا يفوته هاربه، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢﴾ [العنكبوت: ٢٢] اللهم اجعلنا ممن فر إليك يا رب العالمين، فآويته ونصرته وأسعدته في دنياه وأخراه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾

[الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]

قال (ك): «يقول جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم، روى (ع، د، ت، ن،) عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ **(إني أنا الرزاق ذو القوة المتين)**[(٢)] ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم»[(٣)] .

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

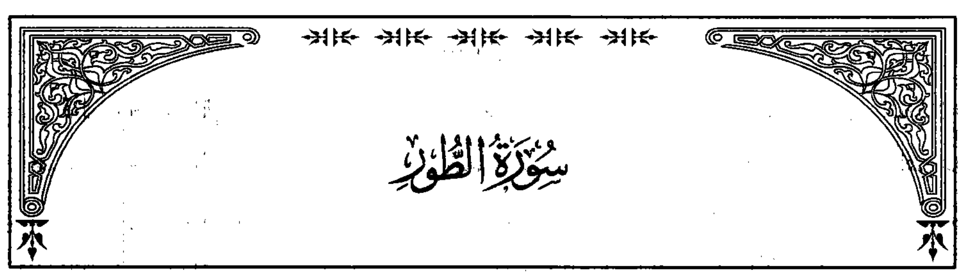
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٤)، وأبو داود (٣٩٩٣)، والترمذي (٢٩٤١)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٠٧، ١١٥٢٧) ـ وهو في «التفسير» (٥٢٧) ـ والطيالسي (٣١٧)، والدوري في «قراءات النبي ﷺ» (١٠٨)، والشاشي في «مسنده» (٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٨)، وابن حبان (٦٣٢٩)، والحاكم (٢/ ٢٣٤، ٢٤٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٣، ٦٦، ١٢٩)، **وإسناده صحيح**، وصححه شيخنا الألباني وهذه قراءة شاذة، والقراءة المتواترة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: جعل الله سعادة البشر وسائر المخلوقين من العقلاء في عبادته وحده لا شريك له، وجعل شقاء من شقي منهم في الشرك به والكفر به وبرسله، وارتكاب معصيته، وجعلهم فريقين فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير، نسأل الله أن يجعلنا ممن وحده واتبع رسوله، والعبادة لا تقبل إلا بالتوحيد، وقد تقدم بيان ذلك، وسيأتي إن شاء الله.اهـ.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦]

قال (ك): «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الإلهية[١]، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: أوجدوا من غير موجد، أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، قال البخاري بسنده[٢] عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كاد قلبي أن يطير».

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أهم خلقوا السمٰوات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك»[٣]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: إن الذين يقولون: إن العالم مخلوق من غير خالق، وموجود بغير موجد، وصنعة متقنة بلا صانع، فئة قليلة من البشر، وهم أضل من

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الألوهية».
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٤)، ومسلم (٤٦٣).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٣٨ ـ ٢٣٩).

البقر، ولا يحاولون إقناع الناس بالحجة والبرهان العقلي، بل يشهرون السيف في وجوه العوام، ويقهرونهم بالنار والحديد، ويحرمون عليهم التفكير بعقولهم، حتى يجعلوهم بباغاوات، يمدحون ما لا يعلمون، ويذمون ما لا يعلمون، وكل عاقل لا يريد أن يخادع نفسه، ولا أن يخادع الناس لا يستطيع أن يتصور فضلاً عن أن يصدق أن هذا العالم موجود بلا صانع، وأن صانعه الطبيعة الصماء البكماء العمياء؛ التي ليس لها علم ولا إرادة ولا اختيار. ولما رجعت إلى المغرب بقصد الاستقرار فيه بعد الثورة الأولى في العراق، وما ارتكبه الشيوعيون هناك من الغشم وإراقة الدماء بدون تمييز، دعتني إدارة مجلة «دعوة الحق» إلى نشر مقالات فيها لإنقاذ الشباب، وبعض الكهول مما وقعوا فيه من الخبط في العقائد فعمدت إلى كتاب «الإنسان لا يقوم بنفسه» MAN does not - stand alone تأليف رئيس المجمع العلمي في الولاية المتحدة سابقاً، الأستاذ الدكتور كريسي موريسن، وترجمته بالعربية، وشرحته وعلقت عليه، ونشرته في أربع وعشرين مقالة في «دعوة الحق»[(١)] وسأذكر هنا منه دليلاً واحداً بدأ به المصنف مقدمة كتابه، وأحيل القارئ على مطالعة هذا الكتاب، أصله الإنكليزي، أو ترجمتي له، وقد طبع في بيروت باسم «الطريق إلى الله»[(٢)] ودونك المثال:

قال المؤلف: المذكور في أول الكتاب، افترض أنك أخذت عشرة أفلس، وكتبت على كل واحد رقماً مبتدأً من واحد إلى عشرة، ثم وضعت الأفلس العشرة في كيس، ثم هززت الكيس هزّاً عنيفاً حتى اختلطت الأفلس بعضها ببعض، ثم أردت أن تخرج تلك الأفلس على أن تصادف يدك عند إدخالها الكيس في المرة الأولى؛ الفلس المرقوم بواحد، وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين، وفي الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة.. وهكذا إلى آخرها على الترتيب، فكم يكون حظك من النجاح في المرة الأولى أن تصادف الفلس المرقم برقم واحد؟ يكون

---

(١) السنة الثالثة، الأعداد (٣ ـ ١٠) سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م، والسنة الرابعة، الأعداد (١ ـ ٤ و٦ ـ ٩) سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠ ـ ١٩٦١م، والسنة الخامسة، الأعداد (٢، ٤ ـ ٨، ١٠) سنة ١٣٨١ ـ ١٣٨٢هـ/ ١٩٦١م ـ ١٩٦٢م، والسنة السادسة، الأعداد (٢، ٣) ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م، وهي جميعاً في كتابي «مقالات الهلالي»، وطبعت هذه المقالات في كتاب مستقل بعنوان «دواء الشاكين» في المغرب، الدار البيضاء.

(٢) «الطريق إلى الله» هو جزء منه، وقد طبع برمته في الدار البيضاء ونسخه موجودة تباع. (منه).

عشرة في المائة، وفي المرة الثانية الفلس المرقم برقم اثنين. على التوالي يكون واحداً في المائة، فإن أردت أن تدخل يدك في الكيس ثلاث مرات متوالية، وتصادف المرة الأولى الفلس المرقوم برقم واحد، وفي المرة الثانية الفلس المرقوم برقم اثنين وفي المرة الثالثة الفلس المرقوم برقم ثلاثة، فإن حظك من النجاح يكون واحداً في ألف، وإن أردت أن تصادف الأول والثاني والثالث والرابع على التوالي، فإن حظك من النجاح يكون واحداً من عشرة آلاف، وقس على ذلك إلى العاشر، فإن حظك من النجاح أن تصادف يدك الفلس المرقوم برقم واحد، إلى الفلس المرقوم برقم عشرة، على التوالي يبلغ رقماً لا يتصوره العقل، وهو واحد من عشر ملايين.

والغرض من ضرب هذا المثل السهل الإدراك أن نبين مقدار استحالة قول من يزعم أن هذا العالم تم خلقه وتدبيره بالمصادفة، فإن هناك شروطاً لازمة لوجود الحياة على أرضنا هذه، وهذه الشروط لا يمكن أبداً من الوجهة الحسابية أن توجد كلها بالنسب المطلوبة بالمصادفة المجردة على أي أرض، في أي أرض، في أي زمان، لذلك يتحتم أن يكون وراء الطبيعة كائن عالم مدبر، إذا علمت ذلك، وهو حق، تعلم يقيناً أن خلق هذا العالم مقصود ومقرر قبل وجوده تقديراً دقيقاً.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾ [الطور: ٤٣].

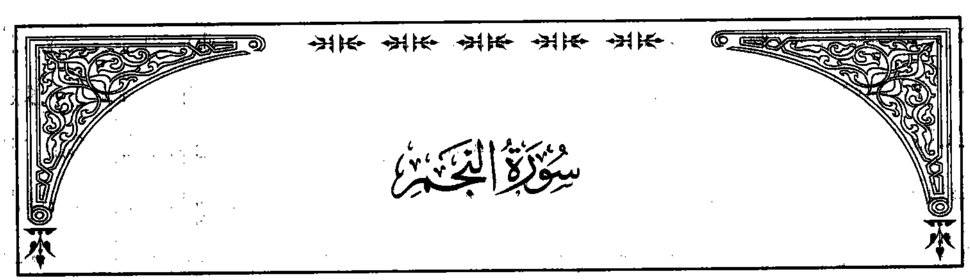
قال (ك): «﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأوثان والأصنام[1] مع الله، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في مواضع أخرى أن معنى إله معبود، ولذلك كان مفتاح الإسلام «لا إله إلا الله» فقائلها بالصدق يشهد على نفسه ويعاهد ربه

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٣٩).

أنه لا يعبد إلا الله، ولكن أكثر من يقولها في هذا الزمان لا يعرفون معناها ولا يفكرون فيه، ولا يبحثون عنه، فتكون أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم مضادة لِ (لا إله إلا الله) ويكونون أعداءها وهم لا يشعرون، فالمغربي حين يقول: «يا فكاك الوحائل، يا مناع الرحايل، يا غياث أصحابه في الضيقات، يا مولاي عبد القادر الجيلاني» معناه: يا من ينقذ من استغاث به في الشدائد، ويغيث من التجأ إليه عند الضيق، يا مولاي يا عبد القادر الجيلاني، فهذا يهدم لا إله إلا الله ويقضي عليها قضاءً تامّاً، لأن تلك الصفات التي جعلها أولئك الجهال لعبد من عباد الله هي خاصة بالله تعالى، فمن جعلها لغيره فقد كفر به. انظر (الباب الثالث) من (سورة النمل).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى مقرِّعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمٰن عليه السلام: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾ وكانت (اللات) صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظَّم عند أهل الطائف، وهم: ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب؛ بعد قريش، وقال البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ (كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج)[١] قال (ج): وكذا العُزَّى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة[٢] والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أُحد: «لنا العزى ولا عزى لكم» فقال رسول الله ﷺ: **«قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»**[٣]. وروى (خ) بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه:**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) بعدها في الأصل: «والمدينة» ولا معنى لها، وهي غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٤٣) من حديث البراء.

تعال أقامرك فليتصدق»[١] فهذا[٢] محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من[٣] زمن الجاهلية، وروى (ن) بسنده عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى فقال أصحابي: بئس ما قلت، قلت هجراً! فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: **«قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وانفث عن شمالك ثلاثاً، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»**[٤]. وأما (مناة) فكانت بالمُشلَّل عند قُدَيد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظِّمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة، روى البخاري عن عائشة نحوه[٥]، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها، قال ابن إسحاق في «السيرة»: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت[٦] تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويهدى[٧] لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام، ومسجده؛ فكانت لقريش ولبني كنانة العزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم، حلفاء بني هاشم. (قلت): «بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها، وجعل يقول:

يـا عُـزَّى كُـفْـرانَـكِ لا سُـبْـحَـانَـكِ   إنِّـي رأيـتُ الـلَّـهَ قَـد أهـانَـكِ»[٨]

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٦٠).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في».
(٤) أخرجه النسائي في (كتاب، الأيمان والنذور، باب الحلف باللات والعزى) (٧/٨)، وفي «الكبرى» في (كتاب: عمل اليوم والليلة، باب ما يقول من حلف باللات والعزى) رقم (١٠٨٢٦)، وابن أبي شيبة في «المسند» (ق٦٢/أ) ـ وهو ساقط من مطبوعه ـ، والدورقي في «مسند سعد بن أبي وقاص» (٥٨)، **والحديث صحيح**.
(٥) أخرجه البخاري (٤٨٦١).
(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتهدي».
(٨) ذكر هذه القصة ابن عبد البر في «الاستيعاب» (ص١٩٨)، وابن حجر في «الإصابة» (٢/٢٥٣) وعزاها لابن أبي الدنيا، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/٩٩)، وأخرج الطبراني في «الكبير» (٤/١٠٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/٤٠٣ ـ ٤٠٤) عن =

ثم قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي: أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور؟ فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت قسمة ضيزى، أي: جوراً باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، ثم قال تعالى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ أي: من تلقاء أنفسكم، ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتدٍ يكون كما قال، ولا كل من ود شيئاً يحصل له، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنما الأمر كله لله، ملك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن»[(١)]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الحلف بغير الله من الشرك، قال النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[(٢)]، رواه (أ) (ت) عن ابن عمر وإسناده حسن. وقال النبي ﷺ: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[(٣)]. ومتى فشا ظلام الشرك في قوم وغاب عنهم نور التوحيد كثر فيهم الحلف بغير الله، فإذا تاب الواحد منهم من الشرك تبقى فيه عادة الحلف بغير الله، ويجري على لسانه دون أن يقصده[(٤)]، فمن وقع له مثل ذلك فكفارته أن يقول:

= خالد بن الوليد أنه مرّ على اللات فقال: فذكره... دون ذكر بعث النبي ﷺ له.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٢٦٦ ـ ٢٧٠) بتصرف.

(٢) سبق تخريجه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/٦١٢): «قال الخطابي: اليمين إنما تكون بالمعبود المعظم، فإذا حلف باللات ونحوها فقد ضاهى الكفار، فأمر أن يتدارك بكلمة التوحيد. =

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ويجتهد أن لا يعود إلى ذلك، فإن كان صادقاً لا تمر عليه إلا مدة قليلة حتى تزول عنه تلك العادة، ويتعود الحلف بالله وحده، كما وقع لأصحاب رسول الله ﷺ[١]، وكذلك الذي اعتاد أن يهتف باسم شيخ عند قيامه وقعوده، وعند ما يصيبه فزع إذا تاب من الشرك، يعوّد نفسه ترك ذلك، وإذا جرى لسانه بذلك بدون قصد يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وكذلك الذي اعتاد أن يقول: لولا الله وفلان لوقع كذا وكذا، إذا تاب من الشرك يعوّد نفسه أن يقول: لولا الله ثم فلان. اهـ.

وقول النبي ﷺ: «**من قال لصاحبه: تعال أقامرك**»[٢] دون أن يقصد القمار يتصدق بما يسر الله له فتكون تلك الصدقة كفارة لذلك القول وزجراً عن العود لمثله». وقولهم: قلت هجراً، الهجر: الكلام القبيح.

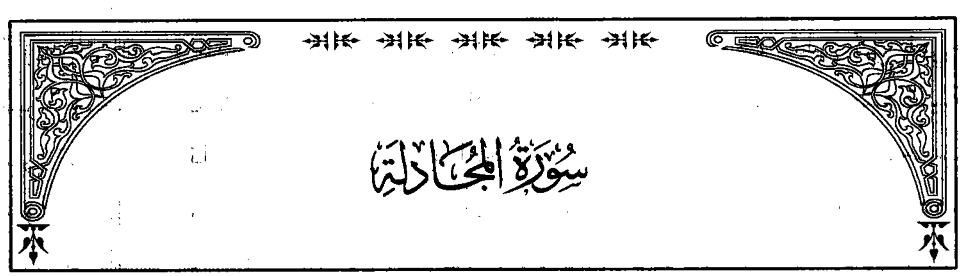
قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: من سوء حظنا في هذا الزمان أننا نرى أوثاناً لها بيوت وأفنية يذبح لها ويطاف بها، وتُقبَّل ويتمسح بها بقصد التبرك أكثر مما كان عند العرب، ونحن عاجزون عن هدمها، لأن عبادها لا يزال عددهم كثيراً، ولكننا نستطيع القضاء عليها إذا وفقنا الله تعالى بدعوة الناس إلى هجرها والكفر بها، فيطول عليها الزمان فتتهدم من تلقاء نفسها، ويستريح الناس من شرها[٣].

= وقال ابن العربي: من حلف بها جادّاً فهو كافر، ومن قالها جاهلاً أو ذاهلاً، يقول: لا إله إلّا الله، يكفر الله عنه وبرد قلبه عن السهو إلى الذكر، ولسانه إلى الحق، وينفي عنه ما جرى من اللغو». اهـ.

(١) سبق بيان ذلك عن بعضهم قريباً.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٧)، ومسلم (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) نشطت هذه الأيام ـ ولله الحمد والمنة ـ الدعوة إلى التوحيد، وظهرت أنوار السنة، وذلك بفضل الله تعالى أولاً، ثم بنشاط علمائنا الأعلام، وتلاميذهم الكرام، وانتشار كتبهم المفيدة النافعة المانعة، وترجمتها إلى أكثر من لغة، وقيام كثير من السراة الأماجد، والأثرياء الأفاضل بطبعها وتوزيعها على عوام المسلمين، فجزى الله الجميع خير الجزاء، وبارك في طاعاتهم وأموالهم.



سورة المجادلة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ الآية، وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر[1]، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة: «لو كان

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٠١) و«معرفة الصحابة» (٢/ ٢١، ٢٢) (رقم ٥٧٦) ـ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ق٢٦٦) ـ، والحاكم (٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥)، وعنه البيهقي (٩/ ٢٧) وقال البيهقي عقبه: «هذا منقطع». وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢٤٤): «أخرجه الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن شوذب»، وقال في «الفتح» (٧/ ٩٣): «مرسل»، وقال في «التلخيص» (٤/ ١١٣): «هذا معضل».

وزاد السيوطي في «لباب النقول» (ص٢٠٨) وفي «الدر المنثور» (٨/ ٨٦) نسبته لابن أبي حاتم.

أبو عبيدة حيّاً، لاستخلفته[١]». وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾: نزلت في أبي عبيدة حين قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ في الصديق همّ يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمٰن[٢] ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير[٣]، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريباً له يومئذٍ أيضاً، وفي حمزة وعلي، وعبيد بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذٍ[٤]، والله أعلم، قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وقال عمر: لا أرى ما رأى، يا رسول، هل تمكنني من فلان قريب لعمر فأقتله، وتمكن عليّاً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله[٥] أنه ليس في قلوبنا هوادة[٦] بكمالها[٧]. للمشركين . . .»[٨] القصة بكمالها. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته قال السدي: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، أي[٩]: جعل في قلوبهم الإيمان[١٠]، وقال ابن عباس: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، أي: قواهم. وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[١١]، وفي قوله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨) وفي «فضائل الصحابة» (١٢٨٥ ـ ١٢٨٧)، وابن سعد (٣/ ٤١٣) وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/ ٤١٨)، وابن جرير في «تاريخه» (٥/ ٣٣)، والحاكم (٣/ ٢٦٨)، وهو **حسن**.

(٢) انظر ما قدمناه من خبر إرادة قتل أبي بكر ولده في (ص١٥٢) وهناك تخريجه.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يومئذ».

(٤) وقيل غير ذلك، انظر: «لباب النقول» (ص٢٠٨)، «الدر المنثور» (٦/ ٨٦)، «الكشف والبيان» (٩/ ٢٦٥).

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «موادة»!.

(٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) سبق تخريجها.

(٩) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

(١٠) انظر: «تفسير السدي الكبير» (٤٥١).

(١١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كل هذا تقدم تفسيره غير مرة».

تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ سر بديع، وهو: أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هؤلاء حزب الله أي: عباد الله وأهل كرامته، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم(١) في الدنيا والآخرة؛ في مقابلة ما ذكر(٢) عن أولئك بأنهم حزب الشيطان، ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩] وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة فإني وجدت فيما أوحيته**: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾»(٣)؛ قال سفيان: إنها أنزلت في من يخالط السلطان»(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: إن تحقيق التوحيد الذي دلت عليه لا إله إلا الله عزيز الوجود كالكبريت الأحمر، وله شروط:

أولها: أن يوحد العبد ربه في ربوبيته وألوهيته، وهي: العبادة، فلا يجعل من عبادته لغير الله مثقال ذرة أو أقل من ذلك.

ثانيهما: أن يكفر بعبادة غير الله ولو كانت للأنبياء والملائكة.

الثالث: أن يتبرأ من المشركين بصريح العبارة، فإن لم يقدر فبقلبه مع اجتهاده في الهجرة إلى بلد يمكنه فيه التصريح بذلك.

الرابع: أن يعادي المشركين في الدين.

الخامس: أن يحب الموحدين ويواليهم، ويتعاون معهم في إعلاء كلمة

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ونصرهم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أخبر»، وبعدها فيه: «إليّ».

(٣) أخرجه ابن مردويه والديلمي (٢٠١١) **بإسناد ضعيف**. قاله الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٢١١) رقم (١٨).
وفي إسناده انقطاع ظاهر وهو مرسل، قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٤٥٦) رقم (١٧٤١): «**وأسانيده كلها ضعيفة**»، وعزاه ابن كثير لأبي أحمد العسكري، وانظر: «الأسرار المرفوعة» (٩١)، و«إتحاف السادة المتقين» (٦/ ١٤٨).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٦٨ ـ ٤٧٠) بتصرف.

الحق، وهذه الشروط الخمسة لا تقبل منه إلا إذا ضم إليها شهادة أن محمداً رسول الله ولها شروط:

أولها: أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثانيها: أن يعرف معنى الشهادتين.

ثالثها: أن يعرف الضروري مما جاء به الرسول ﷺ، وهو كل ما فرض الله عليه في الإسلام.

خامسها[1]: أن لا يرد شيئاً مما جاء به النبي ﷺ.

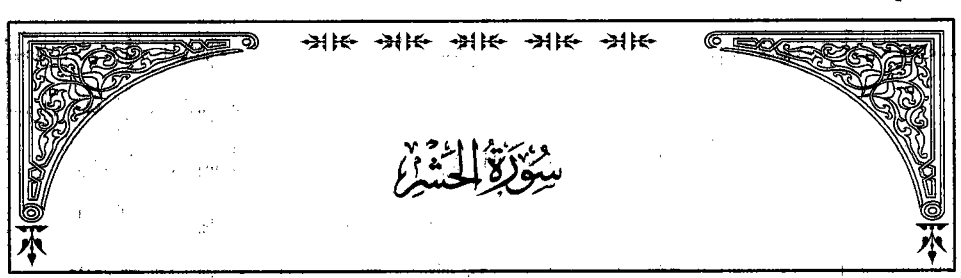
سادسها: أن يرد كل نزاع مع غيره إلى كتاب الله وسنة رسوله.

سابعها: أن يرضى بحكم الكتاب والسنة، ولو كان فيه قتله وقتل أعز الناس عنده.

ثامنها: أن لا يجد في ذلك حرجاً أو كراهية في نفسه، والله الموفق.

---

(١) كذا في الأصل: دون «رابعها»!



سورة الحشر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]

قال (ك): «يقول[1] تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من جليل وحقير، وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمان الدنيا والآخرة ورحِيمُها، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾، معناه: الطاهر»[2].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: الذي آمن مَنْ شاء مِنْ عباده من الخوف، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٤] وقوله

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: أي من جميع العيوب والنقائص؛ بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله»، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٠٢).

تعالى: ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾:أي: الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء، فلا ينال جنابه لعزته؛ وعظمته، وجبروته، وكبريائه، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ أي: الذي لا يليق الجبروت[1] إلا له، ولا التكبّر[2] إلا لعظمته، كما تقدم، وفي «الصحيح»: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبته**»[3]. ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ الخلق: التقدير، والبراء[4] هو: الفري وهو التنفيذ، وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ﷻ.

قال الشاعر يمدح آخر[5]:

ولأنت تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ـضُ القوم يَخلُقُ ثم لا يَفرِي[6]

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: قدرت بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع [أن ينفذ][7] ما يريد. وقوله تعالى: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ أي: إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، على الصفة التي يريد والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾ ولهذا قال: ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها، وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، في «الصحيحين» عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»[8]، وذكر الترمذي[9] الأسماء التسعة والتسعين.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الجَبْريّة».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «التكبير»!
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٨٣، ٣٥٨٥) من حديثي ابن عمر وجابر.
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والبرء»!
(٥) القائل زهير، وهو بيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان في «ديوانه» (٦٠ ـ ٦٤).
(٦) المراد بالخلق في الشعر التقدير لا الاختراع والابتداع كما في الآية.
(٧) غير موجود في مطبوع ابن كثير.
(٨) سبق تخريجه، ولأبي نعيم جزء مفرد في طرقه، مطبوع بتحقيقي أكثر من مرة، ولله الحمد والمنة، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤) بتصرف.
(٩) سبق تخريجه مطولاً.

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد نظمها العلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي[1] في قصيدة يقول في أولها:

إذا نابني خَطْبٌ وَضَاقَ به صَدْري ... تلافاه لطفُ الله من حيثُ لا أدري
ولا سيَّما إنْ جئتَه مُتوسِّلاً ... بأسمائه الحُسنى المعظّمة القدرِ
فيا اللهُ يا رحمانُ إنِّي لذو فقرٍ ... وأنتَ رحيمٌ مالكُ الخلقِ والأمرِ
بقدسك قدوس سلام ومؤمن ... مهيمن قدسني لدى السِّرِّ والجَهْرِ
عزيزٌ وجبَّارٌ ويا متكبِّرٌ ... ويا خالقَ الخلقِ اكْفِني أزمةَ الدَّهرِ
ويا بارئ ما لي سِواكَ مصوِّرٌ ... وغفَّارُ يا قهارُ جبراً لذي كَسرِ

وهي مشهورة موجودة في المغرب، وقد ذكرتها بتمامها في آخر (القسم الثالث) من هذا الكتاب[2]، وكذلك (القصيدة الضمياطية)[3] تشتمل على أسماء الله الحسنى والتوسل بها إلى الله تعالى، ولكل صفة خاصة بها، فالقصيدة الهلالية أقل دعاء وأفصح لفظاً وكل بيت منها يشتمل على أربعة أسماء أو أكثر[4]، وأما (الضمياطية) فألفاظها ركيكة ونظمها غير جيد، إلا أن كل بيت منها لا يزيد على اسمين[5] والباقي كله دعاء، أولها بعد المقدمة:

مِنَ اللهِ أرجُو أمْنَ قلبٍ تَوَجَّلا ... فبالأمن يا رحمان لا تبق موجلا
وكُنْ يا رحيمُ راحماً ضَعْفَ قوَّتِي ... ويا مالكُ كُنْ لي مَلاذاً ومَوئِلا

ومن العجيب عند المغاربة ـ وما أكثر عجائبهم ـ أنهم يعتقدون أن من قرأها وأكثر قراءتها يصاب بالجنون؛ لأن لكل بيت منها خاصية، وخداماً من الجن يقضون حاجة من دعا به، ولكنْ قَلَّ مَنْ يتغلَّب عليهم فيستجيبون له ويخدمونه، وأكثر من يحاول التغلب عليهم يهزم ويصاب بالجنون، حتى إن سكان الجزائر إذا رأوا شخصاً من حفاظ القرآن لم تعجبهم حاله يقولون: (هذا مُضَمْيط)، يعنون أنه فقد عقله بكثرة قراءة الضمياطية، والمغاربة ليسوا كاذبين فيما زعموا، فإن من قرأها للسحر

---

(١) ستأتي ترجمته في (٦/ ٢٨٠).
(٢) انظرها في (٦/ ٢٨١) مع تعليقنا هناك.
(٣) انظر (٦/ ٢٨٠) وتعليقنا هناك.
(٤) قال المصنف في (ديباجة)، «قصيدة أسماء الله الحسنى» (ص٣) عن قصيدة الهلالي: «لم يلتزم فيها عدداً خاصّاً في كل بيت، فيشتمل البيت الواحد على ثلاثة أسماء أو أربعة».
(٥) قال المصنف: «التزم فيها أن يجعل كل بيت مشتملاً على اسمين» المرجع السابق.

واستخدام الجن يصاب بالجنون والوسوسة وتجيئه خيالات تفتنه وتفسد عقله.

أما من قرأها لله وتوسل إليه سبحانه بالأسماء الحسنى التي تضمنتها فإنه يرى خيراً كثيراً، والتوسل الصحيح المطابق لأدعية الكتاب والسنة الصحيحة إنما يكون بأسماء الله وصفاته، كما تقدم وكقول النبي ﷺ، **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك»** إلى آخره، وهو دعاء مشهور دعا به النبي ﷺ، عند رجوعه من الطائف، وأوله: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي»**(١).

وبالأعمال الصالحة كما في حديث أصحاب الغار الذين توسل كل واحد منهم إلى الله تعالى بأفضل أعماله، وهو في «البخاري»(٢).

وأما التوسل بالأشخاص والإقسام بهم على الله تعالى فهو بدعة، انظر كتاب «التوسل والوسيلة»(٣) لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، وأما حديث الأعمى(٤) الذي يتشبث به المخالف فلا حجة فيه؛ لأن النبي ﷺ دعا له وشفع له عند الله، يضاف إلى ذلك أن الحديث ضعيف، انظر كتاب «صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان»(٥) للشيخ بشير السهسواني الهندي رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يرام جنابه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

---

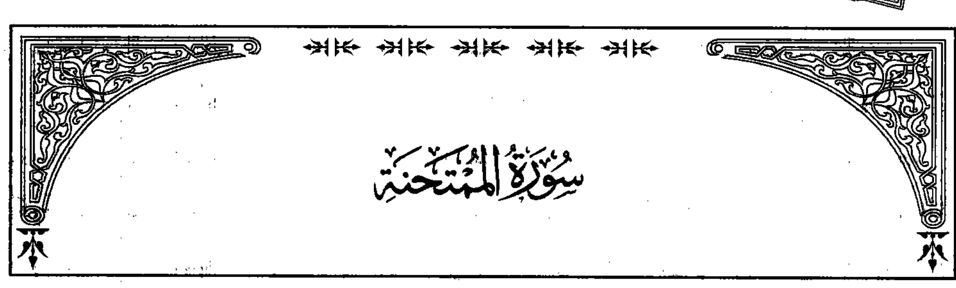
(١) انظر: تخريجه في (١/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر، وذكرتُ طرقه ومخارجه بما لا مزيد عليه ـ إن شاء الله ـ في تعليقي على «فنون العجائب» (رقم ٣٥ ـ ٤٨) للنقاش.

(٣) انظر منه: (ص٢٢٩ وما بعد ـ ط. الشيخ ربيع).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٨)، والترمذي (٣٥٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٩٥) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٩) ـ، وابن ماجه (١٣٨٥)، وعبد بن حميد (٣٧٩)، وابن خزيمة (١٢١٩)، والحاكم (١/ ٣١٣، ٥١٩)، وصححه شيخنا الألباني وتكلمت على طرقه بإسهاب وتطويل في تعليقي على «الحنائيات» (٩٣) وفرغت منه، وهو قيد النشر، يسر الله ذلك بمنّه وكرمه.

(٥) انظر منه (ص١٧٧) وما بعد ـ ط. الشيخ إسماعيل الأنصاري.



سورة الممتحنة

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣) قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٥) لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٦)﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٦].

قال (ك): «سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة، قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة مال وأولاد[1]، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أولاد ومال».

النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم[(١)]، وقال: «**اللهم عَمِّ عليهم خبرنا**»[(٢)].

فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ [من غزوهم][(٣)] ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله[(٤)] ﷺ استجابة لدعائه، فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها.

وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته، رواه الجماعة إلا ابن ماجه بسندهم عن علي قال: «بعثني رسول الله ﷺ، أنا والزبير والمقداد فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها**»، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب. قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب! ما هذا؟**» قال: لا تعجل عليّ إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه صدقكم**»، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ له: «**قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطَّلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[(٥)]. فقوله[(٦)] تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾؛ يعني:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لعدوهم».

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢/ ٧٣ ـ ٧٥)، و«الكبير» (٢٣/ رقم ١٠٥٢) من حديث ميمونة، وفيه يحيى بن سليمان بن نضلة، وهو **ضعيف**، قاله الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٦٤).

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رسوله على ذلك».

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٠٧، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٨٥)، وأحمد (١/ ٨٠)، والحميدي (٤٩)، وأبو يعلى (٣٩٤، ٣٩٨)، وابن حبان (٦٤٩٩)، والبيهقي (٩/ ١٤٦) وفي «الدلائل» (٥/ ١٧) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

(٦) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقال»!

المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين(١) الذين شرع الله عداوتهم، ومصارمتهم، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب لما(٢) ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقال الإمام أحمد بسنده(٣) عن حذيفة قال: ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً قال: «**إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة، قاتلهم أهلُ تجبُّرٍ وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا**(٤) **إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه**».

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده [لا شريك له](٥)، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم [من] ذنب، إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والمؤمنين».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «مما»!

(٣) أخرجه أحمد (٥/٤٠٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥/٣٩) وفي «مسنده» ـ كما في «إتحاف الخيرة» (٥٧٨) للبوصيري ـ **وإسناده ضعيف**، فيه قيس بن أبي مسلم مجهول، والأجلح هو ابن عبد الله الكندي ضعيف.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/٢٣٥): «رواه أحمد وفيه الأجلح الكندي وهو ثقة وقد ضعف، وبقية رجاله ثقات».

(٤) بعدها في الأصل: «لهم»!

(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

﴿ٱلْحَمِيدِ ⑧﴾ [البروج: ٨] وكقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله[1] تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم، وسخطاً لدينكم.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم[2] بالمقال والفعال، ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ويحرصون[3] أن لا تنالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة ظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا[4] تهييج على عداوتهم أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾[5] عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر عمله وضل[6]، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً من نبي من الأنبياء، قال الإمام أحمد بسنده عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «**في النار**» فلما قفى دعاه فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[7]».

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ...﴾ إلى آخره، قال (ﷺ): «يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكفار[8]

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وكقوله»!
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ينالوكم»!
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «على».
(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل!
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: ﴿أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: قراباتكم لا تنفعكم.
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وضل عمله».
(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٨)، ومسلم (٢٠٣)، وأبو داود (٤٧١٨)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٥١١ ـ ٥١٣) بتصرف.
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الكافرين».

وعداوتهم ومجانبتهم والتبرؤ منهم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾: تبرأنا منكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينكم وطريقتكم(١)، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾؛ يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم، فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي: إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله(٣) ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: ليس لكم في ذلك أسوة، أي: في(٤) الاستغفار للمشركين.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طريقتكم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأنداد والأوثان».

(٣) أخرجه الطيالسي (١٣١)، وأحمد (١/ ٩٩، ١٣٠، ١٣١)، وأبو يعلى (٣٣٥، ٦١٩)، والبزار (٨٩٣، ٨٩٤)، وإسحاق بن راهويه وابن أبي شيبة ـ كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٠٦) ـ في «مسانيدهم»، والترمذي (٣١٠١)، والنسائي (٤/ ٩١)، وفي «الكبرى» (٢١٦٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٣)، وابن جرير (١١/ ٣٢) كلاهما في «التفسير»، والطحاوي في «المشكل» (٢٤٨٠، ٢٤٨١، ٢٤٨٢)، والحاكم (٢/ ٣٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٧٧، ٩٣٧٨) من حديث علي بإسناد حسن، وحسنه شيخنا الألباني في «أحكام الجنائز» (ص٩٦).

(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، فلجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه، فقالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلمنا أمورنا إليك، وفوضناها إليك، ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المعاد في الدار الآخرة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1] معناه: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يضام من لاذ بجانبك، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك، ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم، ومستثنى منه ما تقدم أيضاً، لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا هي الأولى بعينها.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عما أمر الله به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2] والغني هو الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان[3] الله الواحد القهار، والحميد المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره ولا رب سواه»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قصة حاطب بن أبي بلتعة تدل على بُعد نظر النبي ﷺ وسعة حلمه وكرمه، فإنه غفر لهذا الرجل هذه الخطيئة مع شدة خطرها، لأنها سيئة واحدة تقابلها حسنات كثيرة، وأعظمها كونه من أهل بدر، قال الشاعر وأجاد:

وإذا الحَبيبُ أتى بذَنْبٍ واحدٍ   جاءت محاسنُه بألفِ شَفيعِ[5]

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس».

(٣) كذا في مطبوع ابن كثير. وفي الأصل: «سبحانه».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥١٣ _ ٥١٥).

(٥) البيت في «نفح الطيب» (٧/ ١٥٢ _ ط. دار الفكر) من غير نسبة.

على أن الله سبحانه كفى نبيه والمؤمنين شر هذه الخطيئة، فإنه أطلع نبيه عليها فأرسل الفرسان الثلاثة، وجاؤوا بالكتاب، فبقي أهل مكة في غفلة حتى أخذوا على غرة، والنبي ﷺ أحلم الناس وأحزمهم، والجمع بين الحلم والحزم هو الكمال.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: من والى العدو فهو عدو، قال الشاعر[1]:

تُـحِـبُّ عَـدوي ثُـمَّ تَـزعـم أنـنِّـي صـديقُـك إنَّ الـحـبَّ عـنـكَ لـعَـازِبُ

ولا يتم توحيد أحد ولا يكون مخلصاً دينه لله حتى يحب في الله ويبغض في الله، ويوالي لله ويعادي لله، ولا يداهن أحداً من المشركين، بل يعلن لهم عداوته لدينهم وتبرؤه منه، وقد وضح الله ذلك بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ أي: اقتداء في إبراهيم والذين معه ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فمن أقرَّ أهل الشرك على شركهم فهو مشرك، وإن كان يعتقد بطلان الشرك وصحة التوحيد.

ألا ترى أن الله سبحانه سمى علماء اليهود مؤمنين بالطاغوت، لما استحسنوا ما عليه المشركون حين ذهبوا إلى مكة ليحرضوا أهلها على قتال النبي ﷺ، فسألهم أهل مكة: أينا أهدى سبيلاً نحن أم محمد؟ فقال علماء اليهود: أنتم أهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى فيهم من سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢][2] ولم يكن اليهود يؤمنون بطاغوت أهل مكة، ولكن لما أقروهم على ذلك سماهم الله مؤمنين به، هذا في الموالاة في الدين.

وأما المعاملة في أمور الدنيا كالبيع والشراء ونحوه فجائزة، ومعاملة المعاهدين بالعدل والبر جائزة، لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ

---

(١) البيت في «المختار من شعر بشار» (٢٣)، ونسب لصالح بن عبد القدوس في «حماسة البحتري» (١٧٦ ـ ١٧٧)، وللعتابي في «عيون الأخبار» (٣/٦)، و«العقد الفريد» (٢/٣٠٧)، ولعبد الله بن مخارق في «الحماسة البصرية» (٢/٤٣) وهو بغير عزو في «الصداقة والصديق» (٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ وقال تعالى في المائدة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة: ٥١].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: ١٢، ١٣]

قال (ك): «قال البخاري[(١)] بسنده عن عائشة: إن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: **«قد بايعتك»** كلاماً ولا [مصافحة][(٢)] والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقوله: **«قد بايعتك على ذلك»**.

وروى (ت) و(ح) و(ن)[(٣)] عن أميمة بنت رُقيقة[(٤)] قالت: أتيت النبي ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً... الآية، وقال: **«فيما استطعتن وأطقتن»**، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: **«إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩١).
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٧)، والحميدي (٣٤١)، والطيالسي (١٦٢١)، والترمذي (١٥٩٧)، وفي «العلل الكبير» (٢/ ٦٨٢)، والنسائي (٧/ ١٤٩) كتاب البيعة، باب بيعة النساء، وابن ماجه (٢٨٧٤)، والنسائي في «الكبرى» في كتاب السير، باب: بيعة النساء (٧٨١٣، ٨٧٢٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٣٤٠، ٣٣٤١)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ رقم ٤٧٢ ـ ٤٧٦)، والدارقطني (٤/ ١٤٧)، الحاكم (٤/ ٧١)، **وهو صحيح.**
(٤) في الأصل: «رقية»! وهو خطأ، صوابه «رقيقة».

كقولي لمائة امرأة»[١].

قال محمد تقي الدين: وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ أخذ العهد على النساء زيادة على ما في القرآن «**أن لا يخن ولا يغششن أزواجهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى**»[٢]، وفسر النبي ﷺ غش المرأة زوجها أن تأخذ من مال زوجها وتحابي به غيرها.

وعن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان أنها قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بَنِيَّ، فهل عليَّ جُناحٌ إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك**»[٣] (م).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما يفعله بعض الجاهلات من النساء تمنع نفسها بدواء أو غيره، لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، ويشهد لهذا الحديثُ الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «**أيما امرأة أدخلت على قوم مَنْ ليس منهم فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين**»[٤].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، وابن إسحاق في «المغازي» ـ كما في «الإصابة» ـ وابن سعد (٨/ ٩)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٤٠٤)، وأبو يعلى (٧٠٧٠)، والطبراني (٢٤/ رقم ٧٥١، ٧٥٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٧/ ١٤٩ ـ ١٥٠) من حديث سلمى بنت قيس، **وإسناده ضعيف**، فيه سليط بن أيوب، انفرد ابن حبان بتوثيقه، وللحديث شواهد عديدة. وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٤١): «رجاله ثقات»!

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٦٣)، ومسلم (١٧١٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٢٦٣) والنسائي (٢/ ١٠٧) والدارمي (٢/ ١٥٣) وابن حبان (١٣٣٥) والحاكم (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) والبيهقي (٧/ ٤٠٣)، وفيه عبد الله بن يونس، مجهول، ما روى عن سوى يزيد بن الهاد، انظر «الفتح» (١٢/ ٥٤)، و«الإرواء» (٢٣٦٤)، و«السلسلة =

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾. قال (ﷺ): «ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار؛ ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء؟ وقد يئسوا من الآخرة، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي: كما يئس الكفار الأحياء من قرابتهم[1] الذين في القبور، أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه[2]». اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: جعل الحافظ (ﷺ) قتل الولد بعد الولادة كقتله وهو جنين في بطن أمه، وبقي لنا أن نعرف ما حكم قتله وهو نطفة، والجواب ـ والله أعلم ـ إن إفساد النطفة إن كان للمحافظة على صحة الوالدة أو حفظ حياتها أو على صحة الأولاد كأن تكون مغايلة تلد في كل سنة ولداً وليس لها من يعينها على تربيتهم فيجوز لها أن تشرب دواء منع الحمل[3] حتى ترضع ولدها سنتين، وبعد ذلك يحرم عليها أن تشربه.

أما من يفعل ذلك لضيق المعيشة فهو فاسق آثم، لا يؤمن بأن الله لا يخلق مخلوقاً إلا وقد أعدَّ له رزقه، وقد ألَّفت في ذلك جزءاً سميته: «الكواكب الدرية في حكم تحديد الذرية والسلامة من الأمراض المعدية»[4] وأبطلت كل حجة

= الضعيفة» (١٤٢٧)، و«ضعيف سنن أبي داود» (١٠/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، رقم ٣٨٩) وفيه: «والشطر الثاني منه صحيح، له شاهد قوي من حديث ابن عمر في «الصحيحة» (٣٤٨٠)».

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قراباتهم».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧).

(٣) رجعت عن هذا وأنا أعتقد أنه لا يجوز لها شرب الدواء لهذا الغرض. (منه).

قال أبو عبيدة: إعمالاً لقاعدة (المتوقع كالواقع) لا يجوز قتل الجنين وهو نطفة، إلا إن هدد بقاؤه حياة الأم، فحينئذٍ الضرورة لها أحكام!

(٤) نشره بعنوان «رأي في تحديد النسل والعدوى» على ثلاث حلقات في مجلة «دعوة الحق» =

يحتج بها المخالفون، وحسبهم دليلاً على بطلان مذهبهم ما رواه مسلم والخمسة عن جذامة بنت أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: **«لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرتُ في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً»** ثم سألوه عن العزل؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ذلك الوأد الخفي، وهو المؤودة الصغرى»**[1]. اهـ.

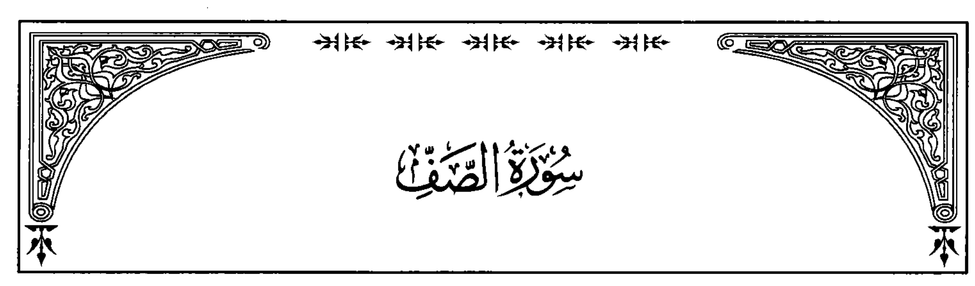
قال محمد تقي الدين: والوأد الجلي هو دفن البنت وهي حية، وكانت العرب تفعل ذلك خشية أن تكبر وتزني، فيلحقهم عارها.

وتأمل تقديم عدم الشرك بالله على السرقة والزنا وقتل النفس والبهتان تزدد يقيناً أن التوحيد هو كل شيء، وبدونه لا يقبل شيء، وإن الشرك هو الذنب الأكبر الذي لا يغفر.

فائدة ثانية: تأمل نهي الله تعالى عن موالاة الكفار في الآيات الأولى من هذه السورة، ثم ختمه السورة بذلك، تعلم أن من لم يتبرأ من الشرك وأهله لا يكون موحِّداً.

= المغربية، السنة السادسة، الأعداد (٦، ٧) والسنة السابعة (العدد الثاني) سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤م. ونشر أيضاً في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية على خمس حلقات، المجلد العاشر (الأعداد ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢) سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، وهو فيها بعنوان (حكم الإسلام في العزل والعدوى) وهذا أدق وأحسن.

(١) أخرجه مسلم (١٤٤٢)، والترمذي (٢٠٧٧)، وأبو داود (٣٨٨٢)، والنسائي (٣٣٢٦).



سُورَةُ الصَّفِّ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٧ ـ ٩]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، أي: يحاولون أن يَرُدوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك[1] ذلك مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾. اهـ. وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الذين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم في هذا الزمان أصناف:

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كذاك»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٥٤٨ ـ ٥٤٩).

أولهم: المرتدون الذين كفروا بالله تقليداً لدعاية كاذبة خاطئة، وهذه الدعاية شائعة في البلدان التي كان أهلها متمسكين بالإسلام في الأزمنة الغابرة في آسية وإفريقية، وحاصلها: إن الإسلام إن كان صالحاً في الزمن الماضي لترقية الشعوب، وأخذ نصيبها من القوة المادية، وتحصيل المعيشة السعيدة والسيادة الكاملة، فإنه في هذا الزمان لا يتفق مع الأخذ بأسباب الحضارة والرُّقيّ، فكل أمة تمسكت به تبقى متأخرة تسير إلى الوراء، ولا تكاد تدرك شيئاً من الحضارة العصرية، فإذا قيل لهم: وما دليلكم على هذا؟ يزعمون أن الأوروبيين تركوا دينهم وتقدموا، فلا يمكن أن نتقدم إلا إذا سلكنا سبيلهم.

فنقول لهم: أولاً نحن لا نسلّم أبداً أن الأوروبيين تركوا دينهم، فإنهم لا يزالون متمسكين به، ولا نكلفكم أن تذهبوا إلى بلادهم لتعلموا أنكم كاذبون، بل نرشدكم إلى أدلة في بلادكم، فعدوا الإرساليات والكنائس التي في بلادكم للطوائف المختلفة من النصارى تجدوها كثيرة، فيها رجال ونساء قد تغربوا عن أوطانهم وتحمَّلوا الشدائد والأخطار في سبيل نشر دينهم، وقد سمعتم عدد من قتل منهم في كونكو، ولا حاجة بكم إلى أن تبحثوا عن جهودهم في البلاد الأخرى، فحسبكم ما يصنعون في بلادكم، وما أسَّسوه من الوسائل الطبية والتعليمية، ولكنكم تكذبون وتغالطون وتقلدون، ثم انظروا إلى الحرب القائمة في إيرلندا بين الكاثولكيين والبروتستانتيين منذ سنين ولا سبب لها إلا الاختلاف في الدين.

على أن دينهم وإن كان لا يصلح للحضارة، فإن ديننا ليس كدينهم، والعالم كله يشهد بعظمة الحضارة التي أسسها المسلمون في العصور التي كان الإسلام فيها قويّاً عزيزاً، وحسبكم أن الإسلام في أواخر زمانه تصارع مع الصليب في الحروب الصليبية مدة مائة وتسعين سنة، فانهزم الصليبيون أمامه مع كثرة عَدَدهم وعُدَدهم.

وسيقول المقلّدون لأعداء الإسلام: هذا بكاء على الأطلال، أرونا ما صنع الإسلام في هذا الزمان، أقول لهم كما قلت من قبل: **أوجدوا لي إسلاماً، أعطكم كل ما تريدون من قوة وعظمة وتقدم في جميع الميادين**، فهل تريدون من المسلمين أن يقوموا من قبورهم ليدافعوا عنكم ويبنوا لكم حضارة جديدة؟ وقد جربتم الكفر التقليدي مئات السنين، فجربوا الإسلام سنة واحدة إن كنتم صادقين.

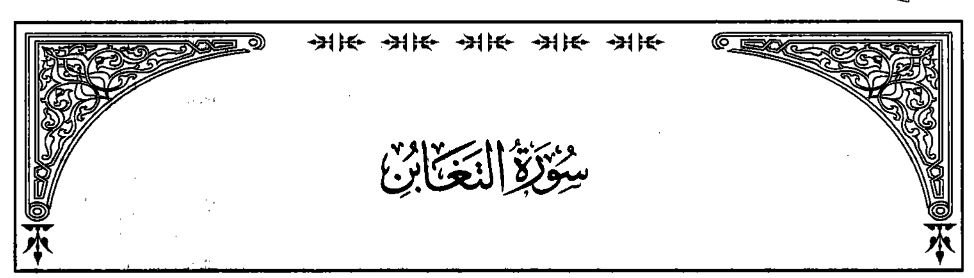
وثانيهم: المدَّعون للإسلام بألسنتهم مع عدم تطبيقه لا عقيدة ولا عبادة ولا حكماً، فهؤلاء يدعون الإسلام بأقوال مجردة.

والدَّعاوى ما لم يقيموا عليها بيِّناتٌ أبناؤها أدعياءُ

وثالثهم: الأعداء الخارجيون، وهم المتعصبون من النصارى في أوربة وأمريكة، والمتعصبون من الوثنيين في الهند وغيرها من الأمم الوثنية، ونحن نسمع المذابح التي تجري على المسلمين في أنحاء الهند وفي فليبين وفي أريتريا.

رابعهم: علماء السوء، الذين باعوا دينهم بدين غيرهم، وكتموا الحقَّ وغشوا شعوبهم جرياً وراء الحطام، فضيَّعوا الدين ولم يدركوا الدنيا، وهذه الأصناف تبذل جهودها لإطفاء ما بقي من نور الإسلام، وليس الإسلام بملوم، لأنه قد أسعد من تمسك به وخلّف كنوزاً عظيمة من الآثار والعلم والمعرفة التي لا يجحدها إلا من يجحد الشمس المشرقة في يوم الصحو ومضى حميداً.

تلك آثارُنا تدلُّ عَلينا فانْظُروا بعَدْنا إلى الآثارِ



سورة التغابن

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾

[التغابن: ١٣]

قال (ك): «يخبر تعالى[١] أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره، وقال[٢] تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ فالأول خبر عن التوحيد ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له وأخلصوها له[٣] وتوكلوا عليه كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمل: ٩]»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تدل على التوحيد بأنواعه، ومن أعظم ثمرة التوحيد: التوكل على الله في جلب الخير ودفع الشر، ومن توكل على مخلوق وكله الله إليه، فتأمل قول النبي ﷺ: **«من تعلَّق شيئاً وكِّل إليه»**[٥]، أتفهم هذا المعنى؟ فإن من تعلق تميمة أو حلقة من صفر يريد بذلك الشفاء من مرض واقع والتحصن به دفعاً لوقوعه، فقد أشرك.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب «التوحيد» ما نصه: («باب ما جاء في الرقى والتمائم): في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري [رضي الله عنه] أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يَبْقَيَنَّ في رقبة بعير قلادة من وَتَر أو قلادة إلا قطِعَت[٦]. وعن ابن مسعود [رضي الله عنه] قال: سمعت

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال تعالى مخبراً».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الديه».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٢١). (٥) سبق تخريجه.
(٦) أخرجه البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»[1]، رواه (أ) و(**د**) وعن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في تعليق التمائم (٤/٦) رقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه في كتاب الطب، باب تعليق التمائم (٢/١٦٦٦ ـ ١٦٦٧) رقم (٣٥٣٠)، وأحمد (١/٣٨١)، وأبو يعلى (٥٢٠٨) في «مسنديهما»، وابن حبان رقم (١٤١٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» رقم (١٠٥٠٣)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢/١٥٦ ـ ١٥٧) رقم (٣٢٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤/٤١٧ ـ ٤١٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
قال أبو عبيدة: ليس كذلك، ففيه أحمد بن أبي شعيب لم يخرج له مسلم، ويحيى بن الجزار لم يخرج له البخاري. وانظر لزاماً: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٧٢)، وقارنه بما فيها رقم (٣٣١) أيضاً.
وأخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٤/٥٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٨٦٢ و٨٨٦٣) موقوفاً على ابن مسعود وله حكم الرفع، كما هو مقرر في علم المصطلح.
والحديث بمجموع طرقه حسن ـ إن شاء الله تعالى ـ.
والمراد بـ(الرُّقى): ما كان بأسماء الأصنام والشياطين، لا ما كان بأسماء الله وصفاته، ويؤيده:
ما أخرجه أحمد (١/٣٨٠)، والطيالسي (٣٩٦)، وأبو يعلى (٥٠٧٤، ٥١٥١) في «مسانيدهم»، وأبو داود (٤٢٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (٩٣٦٣)، و«المجتبى» (٧/١٤١)، والبيهقي (٧/٢٣٢ و٩/٣٥٠) في «سننهم»، وابن حبان في «صحيحه» (٥٦٨٢) عن ابن مسعود، قال: كان رسول الله ﷺ يكره عشر خلال، وذكر من بينها: «والرُّقى إلا بالمعوِّذات».
قال القاسمي في «قاموس الصناعات الشامية» (ص٢٣١ وما بعدها) عند (الراقي):
«والمحترفون بهذه الحرفة في غاية من الكثرة، وبعضهم أكثر رواجاً من بعض، يأتي إليهم النساء ـ وهو أكثر زبائنهم ـ هم البسطاء من الرجال، ويشكون إليهم مرضاً عَسُرَ بُرؤُه، أو وسواساً، أو أحلاماً مخيفة، أو سرقة دراهم، أو حليّ، أو دابة، أو نكاية عدو، أو ضرة، ويطلبون منهم حجباً، فعند ذلك يقرأ الراقي على المرقي، وينفث عليه، ويعده بتميمة يعلقها أو ورقة كذلك، ولكن بعد أن يشترط عليه من الدراهم مقداراً، ومن البخورات، ومن أدوات الحجاب ما شاء هواه، وقلة دينه وتقواه، وأكله أموال الناس بالباطل الذي ما أنزل الله به من سلطان.
كثر في هذه الحرفة الدجالون والمتكهنون والجهلة كثرة عجيبة، نساءً ورجالاً، ولم يزل الاعتقاد فيهم قويّاً، رغماً عن أخذ الكون بالتنبه وترقي الأفكار، ولكن لا عجب، فهل يخلو الكون من الحمقى والأغرار والمغفلين؟ هيهات! فما دام هؤلاء في هذا الوجود كانت معيشة أولئك عليهم، ماذا يعدّ المرء من مخازي كثير من الأشقياء المحترفين بهذه الحرفة الأبالسة، وكم كانوا سبباً في هتك أعراض وفراق أزواج، وكم ارتكبوا الفواحش في مخدَّرات يأتين إليهم ويلقين إليهم القياد تخلصاً مما ألمّ بهن، ويعتقدون الشفاء أو =

= النجاح في الأمل عندهم!» قال:
«وقد حكى الثقات عن دجّال سكن ظاهر البلدة، أنه كان يكتب للمرأة على بطنها ويقول لها: لا يؤثر إلا هنا، وكان كلما كتب يلحس، كأنه غلط، ليستأنف الكتابة، قبحه الله!
وقال آخر ـ مرة ـ لامرأة: هذه التميمة لا تكتب إلا بماءين ماء رجل وماء امرأة، حتى اضطرها بخداعه إلى أن سلّمته نفسها، وأوهمها أنه يأخذ ماءها وماءه عليه لعنة الله، فنمي إلى وجيه في قرب من محله، فذهب إليه وجلده ما لا يعدّ، وطرده من محله.
دع عنك تكشّفهن أمامهم، والعشرة اللعينة، والتكسر، والتخنث مما هو منكر بإجماع الملل والنحل، نعم، يوجد منهم من ظاهره الكمال، ولكن من حام حول الحمى. . .
وحدثني أحد صالحيهم (!!) أنه بالرغم عنه يأتي ليرقي، وأنه ما كلمته امرأة إلا وأمذى؛ فتأمّل، وهذا صالحهم؛ فكيف بغيره؟!
ولهم عجائب في اقتراح الخيوط، والحرير، والأوعية، والحبر، والإتيان بعصفور أو صرصور، ووضعه حيّاً في «قُزَيِّزة» على حجمه، ولحمها وسدها عليه، وكذلك الكتابة على أسفل القدم أو بالدم وغير ذلك. . .!
وأقل أحوال هذه الحرفة الدنيئة أن يدخلها الكذب والخداع رغماً عن كل احتياط وتورّع، أليس يقول للمرقي: ائتني بوعاء لأكتب عليه، وهاته في الوقت الفلاني، وإياك أن تتأخر. . . تدليساً وتلبيساً؟ ولو أن هؤلاء الراقين درسوا علم النجوم ومطالعها؛ لكان يقال: هؤلاء يريدون أن ينهجوا منهج الفلاسفة المنجمين، فينتقل الكلام معهم إلى بحث التنجيم واعتماد المطالع، فحينئذٍ يقال: رجعوا إلى علم، ومشوا مع قواعد الفن، وأما هؤلاء فلا علم ولا عمل، ولا دين ولا تقوى.
يقول بعضهم مستدلًّا بجواز الرقية بأنه ﷺ أقرّ أبا سعيد الخدري على رقية من لُدغَ بعقرب وأقره وجماعته على أخذ الشياه في مقابلتها.
فأولاً: يقال له: ذهب كثير من العلماء إلى أن ذلك خصوصية لأبي سعيد وجماعته؛ لحالة اضطروا إليها، والعصر عصر النبوّة، وهي قضية عين لم يسمع بنظيرها في عهد ﷺ من غير أبي سعيد، وكان الشفاء بالرقية بها معجزةً له ﷺ، وكرامةً لأصحابه.
وثانياً: لو تنزلنا وقلنا: إنها ليست بخصوصية[1]، فإذا كان الراقي يقتصر على الفاتحة لا يتعدّاها ويأخذ أجرة في مقابلتها فلا بأس، وإن كان يزيد عليها من عندياته ليطيل ذيل القضية بالبهللة والخزعبلات فأنى يحل أكل أموال الناس بالباطل والخداع والتلبيس؟
أرأيت كيف أصبح بعضهم يشترط في الرقية ما يشترطه المحامون ووكلاء الدعاوى؟ فقد يذهب بعض المغفلين إلى بعض المشتهرين ويرجوه أن يذهب لرقية مريضه، فيقول: لا أذهب إلا بأربع ليرات أو أكثر سلفاً، ثم إذا شفي فلي مثلها، فيذهل، ويخلط في =

---

(١) هذا هو الأصل، وهو الصواب، وقضايا الأعيان ـ على الراجح ـ لها عموم.

عبد الله بن عكيم[1] مرفوعاً: «**من تعلق شيئاً وكل إليه**»[2]، رواه (أ) و(ت)»[3].

عن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة»[4].

رواه وكيع، وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»[5].

وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر

= الشروط والاقتراحات، ووضع الأوراق وتبخيره بها، وإذا لم يجد أهل المريض نجاحاً وسألوه، يقول لهم: أخطأتم شرطي، أما قلت لكم: ايتوني بالصحن في وقت كذا، واسقوه وقت كذا، ولا تفعلوا إلا كذا؟ أكاذيب، وأضاليل، وتمويهات، واختلاس أموال الغير بالباطل، فإنا لله، ولا قوة إلا بالله.

ولو أراد المتفرغ أن يكتب في شأنهم، وأحوالهم، وخداعهم، وتلاعبهم مع النساء، وحكايتهم معهن، وما نقل من المنكرات عنهم؛ لاحتاج إلى مجلدات، وفيما ذكرنا كفاية، نسأله ـ تعالى ـ أن يعافينا وذرّياتنا من بلائه، ويجنّبنا وإياهم ما لا يرضاه؛ فإنه لا يرضى عن القوم الفاسقين».

* **فوائد فقيهة:**

الأولى: جاء في «الصحيح» عن النبي ﷺ في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**إنهم لا يسترقون ولا يكتوون...**».

أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٤١٠، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، ومسلم في «صحيحه» رقم (٢٢٠)، وعنده: «**لا يرقون**»، وهي شاذّة.

فمدحهم على أنهم لا يطلبون الرقية.

الثانية: قال الخطابي: «جاء المنع فيما كان بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك».

الثالثة: وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به، فضلاً عن أن يدعو به ولو عرف معناه؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام.

وقال السيوطي: «قد أجمع العلماء على جواز الرُّقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وما يعرف معناه، وأن يعتقد أنّ الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله ـ تعالى ـ».

الرابعة: ما يعلق على الصبيان في أعناقهم ـ من خرزات وعظام ـ لدفع العين، نهي عنه أشد النهي، بل عُدَّ من الشرك، كما في حديث أبي بشير الأنصاري السابق.

(١) في الأصل: «حكيم»! وهو خطأ، صوابه المثبت.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٥٢٤).

(٥) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٢٢).

فقال: «**ما هذه؟**». قال: من الواهنة، فقال: «**انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**»[١]. رواه (أ). و(الواهنة)؛ قال أبو السعادات[٢]: «الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها فيُرْقى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العَضُد[٣]، وهي تأخذ الرجال دون النساء، وإنما[٤] نهى عنها، لأنه إنما اتخذها على أنها تعصِمُه من الألم». وفيه اعتبار للمقاصد»[٥].

---

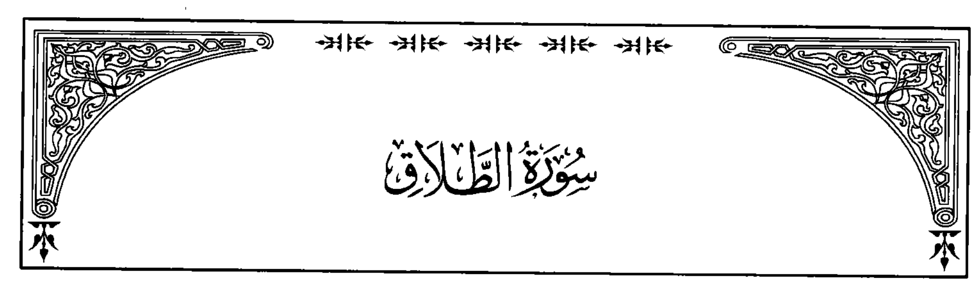
(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه (٣٥٣١)، وابن حبان (٦٠٨٥، ٦٠٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ رقم ٣٤٨، ٣٩١)، والحاكم (٤/ ٢١٦)، والبيهقي (٩/ ٣٥٠ ـ ٣٥١)، **وإسناده ضعيف**، الحسن البصري لم يسمع من عمران، والراوي عن الحسن في جل طرقه مبارك بن فضالة مدلس وقد عنعن، ولم يصرح بالتحديث. ورواه جمع عن الحسن عن عمران موقوفاً عليه، أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٤٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ١٤)، والطبراني (١٨/ رقم ٣٥٥، ٤١٤)، وانظر: «الضعيفة» (١٠٢٩)، وانظر: «كتاب التوحيد» (ص١٩).

(٢) انظر: «النهاية» (٥/ ٢٣٤).

(٣) بعدها في مطبوع «النهاية»: «وربما عُلِّق عليها جنس من الخَرز، يقال لها: (خرز الواهنة)، وهي...».

(٤) من مطبوع «النهاية» و«فتح المجيد» وسقطت من الأصل.

(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).



سورة الطلاق

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢]

قال (ك): «ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله، وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو عليَّ الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال: **«يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم»**، قال: فجعل يتلوها ويرددها عليَّ حتى نعست، ثم قال: **«يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من مكة؟»** قال: قلت: إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة، قال: **«وكيف تصنع إذا أخرجت من الشام؟»** قلت: إذاً والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، قال: **«أو خير من ذلك؟»** قلت: أو خير من ذلك، قال: **«تسمع وتطيع وإن كان عبداً حبشيّاً»**[١].

وفي المسند[٢] عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كلِّ همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»**.

---

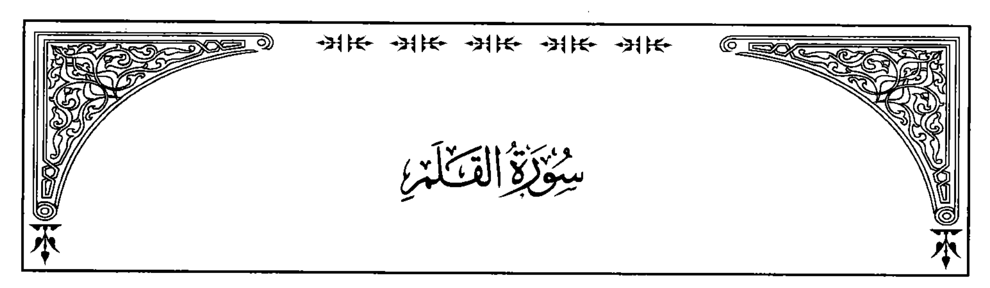
(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩)، والدارمي (٢٧٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٠٣)، وابن ماجه (٤٢٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٩٥)، والحاكم (٢/ ٤٩٢) ـ وبعضهم اختصره ـ **وإسناده منقطع**. قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٢٦): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلّا أن أبا السَّليل: ضُرَيب بن نُفَير لم يدرك أبا ذر».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٤٨)، وأبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٦)، والطبراني في «الكبير» (١٧٧٤) وفي «الدعاء» (١٧٧٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة (٣٦٤)، والحاكم (٤/ ٢٦٢)، والبيهقي (٣/ ٣٥١)، **وإسناده ضعيف**، فيه الحكم بن مصعب مجهول. وضعفه شيخنا الألباني، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٣٢).



فصل

قال محمد تقي الدين: التقوى: امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وأعظم ما أمر الله به توحيده، وأعظم ما نهى الله عنه الشرك به، فلو امتثل الإنسان جميع الأوامر إلا التوحيد، واجتنب جميع النواهي إلا الشرك، لكان من الخاسرين، وقد تقدمت الأدلة على ذلك.



سُورَةُ القَلَمِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤١ ـ ٤٣]

قال (ك): «﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾. ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾.

«لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم(١) جنات النعيم، بيَّن متى ذلك كائن وواقع، فقال(٢) تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يعني: يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء(٣) والامتحان والأمور العظام، وقد روى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً**»(٤).

وقوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه لما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب ﷻ فيسجد(٥) له المؤمنون، ولا يستطيع أحد من الكفار(٦)

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عنده».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وقال».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والبلابل».
(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٩)، ومسلم (١٨٣).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فسجد».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الكافرين».

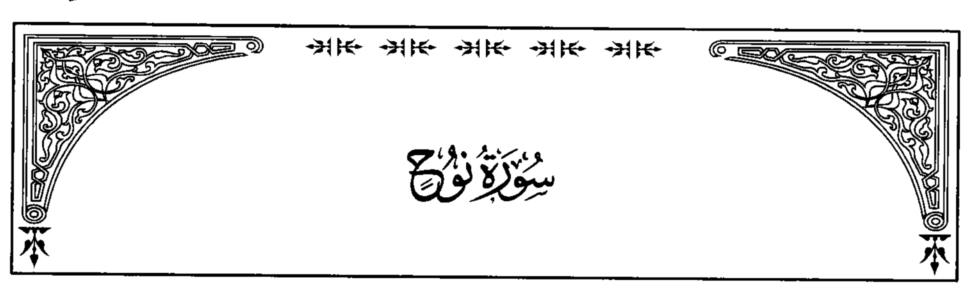
والمنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرَّ على قفاه[١] عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: يلبِّس إبليس على المشركين في الدنيا ويلعب بهم، فيزعمون أن شركاءهم وأولياءهم يقضون حاجاتهم حين يستغيثون بهم، ولكن الله تعالى يفضحهم يوم القيامة؛ ويظهر كذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فلا يجدون شيئاً، ويجللهم الخزي والعار، ويتبرأ منهم إبليس، فيندمون، ولات ساعة مندم. وحديث: «**يكشف الله عن ساقه**»[٣]. تلقاه الصحابة والتابعون بالقبول والتسليم مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ورده الجهمية المعطلون، فيخشى عليهم أن يدعوا إلى السجود فلا يستطيعون.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لقفاه».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/٩٨ ـ ١٠٠).
(٣) هو في «الصحيحين» كما تقدم.



سُورَةُ نُوحٍ

الباب الأول

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: ١ ـ ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن

ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ أي: بيّن النذارة ظاهر الأمر واضحه، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن[١] ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما آمركم[٢] به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم».

قال (ك): «﴿مِّن﴾ هٰهنا بمعنى: عن، تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما[٣] نهاكم عنه أوقعه بكم، وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث: «**صلة الرحم تزيد في العمر**»[٤].

---

(١) غير موجودة في الأصل! (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمرتكم».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تنزجروا عما».

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٣٨٦) والديلمي في «مسند الفردوس» وابن عساكر في «تاريخ دمشق» - كما في «كنز العمال» (٣/ ٣٥٧) - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ١٥٩)، والبيهقي في «الشعب» - كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص١٣٩) - من حديث عائشة رضي الله عنها ضمن حديث طويل، وأخرجه مختصراً دون الشاهد: عبد بن حميد (١٥٢٣)، وأبو يعلى (٤٥٣٠)، وابن عدي (٤/ ١٦٠٥)، والقضاعي (٤٤٤، ٤٤٦)، والبغوي (٣٤٩١)، وأبو نعيم (٩/ ١٥٩).

وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٢٤) وتبعه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥٣): «رواه أحمد ورواته ثقات إلّا أن عبد الرحمٰن بن القاسم لم يسمع من عائشة»!!

قلت: في مطبوع «المسند» بين عبد الرحمٰن وعائشة القاسم وسماعه من عائشة ثابت صحيح.

وأصل الحديث في «البخاري» (٥٩٨٦)، و«مسلم» (٢٥٥٧) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه**».

وللحديث طرق أخرى عند الأصبهاني في «الترغيب» عن أبي سعيد، كما قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٩).

وللشوكاني رسالة بيّن فيها صحة هذا الاستدلال وهي «تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل»، وكذا فعل الشيخ مرعي الكرمي أيضاً في «إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» وكلاهما مطبوع بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى يكون[1] ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات»[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى قوله تعالى ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾:

قال (ك): «يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح[3] عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لاقى[4] من قومه وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً وما بيّن لقومه ووضَّح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل[5] الأقوم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ونهار[6] امتثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ أي: كلما دعوتهم ليتقربوا[7] من الحق فروا منه، وحادوا عنه، ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه كما أخبر تعالى عن كفار قريش: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع، ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: واستنكفوا[8] عن اتباع الحق والانقياد له.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾﴾ أي: جهرت بين الناس ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عالٍ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: فيما بيني وبينهم، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع[9] فيهم ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ أي:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بكون».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١٣٨ ـ ١٣٩) بتصرف.
(٣) في الأصل: «عن نوح»!
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لقي».
(٥) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «إلى السبيل».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا نهار».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليقتربوا».
(٨) في الأصل: «استنكفوا». وبإثبات الواو في أوله في «تفسير ابن كثير».
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «أنجح»!

ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه ولو كانت ذنوبه مهما كانت[١] في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ أي: متواصلة الأمطار، وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي؛ فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ ثم قال: «لقد[٢] طلبت الغيث بمجاديح[٣] السماء الذي يستنزل بها المطر»[٤]. وقوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار خللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب.

ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ أي: لا تعظِّمون الله حقَّ عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ معناه من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ أي: واحدة فوق واحدة وهذا يتلقى من جهة السمع فقط[٥]، وإنما المقصود أن الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فقد».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«مصادر التخريج»، وفي الأصل: «بمخارج»!
و(المجاديح): واحدها (مجدح)، وهو النجم من النجوم، كانت العرب تزعم أنها تمطر به، أراد عمر إبطال الأنواء والتكذيب بها، بأنه جعل الاستغفار هو الذي يستسقى به لا المجاديح والأنواء.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٩٧) رقم (٢٩٩٧٧)، وعبد الرزاق (٣/ ٨٧)، والطبراني في «الدعاء» (٢/ ١٢٥٢) وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد» رقم (٨٤)، والبيهقي (٢/ ١١٧ و٣/ ٣٥٩)، وابن حزم في «المحلى» (٥/ ٩٤) **بسندٍ رجاله ثقات، إلا أنه منقطع**، الشعبي لم يدرك عمر.
ولم يعزه ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ٢٢٢) إلا لابن أبي الدنيا. وقال شيخنا الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٤١): «ضعيف».

(٥) غير موجود في الأصل، والمثبت من «تفسير ابن كثير».

﴿فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلاًّ منهما نموذجاً[1] على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر للقمر[2] منازل وبروجاً[3].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ هذا اسم مصدر والإتيان به هٰهنا أحسن ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ أي: إذا متم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ أي: بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها.

وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السمٰوات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق[4]، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عديل له ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير»[5].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه[6]، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتِّع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنموذجاً».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القمر».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال: «﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]... الآية».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جعل السماء بناء والأرض مهاداً وأوسع على خلقه من رزقه».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٣٩ ـ ١٤١) بتصرف.
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذبوه وخالفوه».

وإنظار لا إكرام، ولهذا قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: عظيماً باتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق، والحق[1] كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣] ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

قال البخاري بسنده عن ابن عباس: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد: أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لهمدان، وأما نسر: فكانت لحمْيَر لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ﷺ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذ هلك أولئك وتنسّخ[2] العلم عبدت»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زمننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل ﷺ في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به»[4].

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والهدى».
(٢) كذا في «صحيح البخاري» و«تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «نسخ».
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٤٢ ـ ١٤٤) بتصرف.

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ وقرئ[1] ﴿خَطَايَاهُمْ﴾ ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مغيث، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: (وقد يستدل بها على زيادة العمر، كما جاء في الحديث: «**صلة الرحم تزيد في العمر**»[3]. الذي عليه المحققون وبه نطق كتاب الله أن العمر الذي قدره الله تعالى لكل إنسان لا يزيد ولا ينقص، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١] وفي الحديث الصحيح: «**إن الله تعالى يأمر الملك أن يكتب رزق الإنسان وأجله وعمله وشقي أو سعيد**»[4]، وفق ما علمه الله تعالى في الأزل.

والبداء مستحيل على الله تعالى، وكل ما جاء بخلاف هذا وجب تأويله ورده إلى هذا الأصل، فمعنى الزيادة في العمر أن الله يبارك في عمر الإنسان الذي يعمل الصالحات حتى يعمل في المدة القصيرة ما لا يعمله غيره في المدة الطويلة[5]،

---

(١) هذه قراءة أبي عمرو واليزيدي، ونسبت للحسن والأعرج وقتادة، وفي هذه الكلمة قراءات متعددة، انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٣)، «التذكرة في القراءات الثمان» (٢/ ٥٩٩)، «النشر» (١/ ٤٣٣، ٤٨٠)، «مختصر ابن خالويه» (١٦٢)، «تفسير الرازي» (٣٠/ ١٤٥)، «روح المعاني» (٢٩/ ٩٨)، «الدر المصون» (٦/ ٣٨٦).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٤٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود.

(٥) يساعد عليه لفظ حديث أبي الدرداء: «**إنه ليس زيادة في عمره، قال الله تعالى:** ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ..﴾، **ولكن الرجل تكون له الذرية الطيبة يدعون له من بعده**». أخرجه الطبراني (١/ ٥١)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨)، والعقيلي (٢/ ١٣٤)، والشجري في «الأمالي» (٢/ ١٢٨)، ومداره على سليمان بن عطاء بن قيس القرشي، ضعيف.

وذهب عدد من المحققين إلى أن الزيادة حقيقية، وانتصر له الحليمي في «المنهاج في شعب الإيمان» (٣/ ٢٥٣)، وشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٩٠ ـ ٤٩١)، =

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال محمد تقي الدين: فائدة ثانية: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ كل أمة عم فيها العدل والرحمة فنصرت المظلوم وأكرمت اليتيم وأطعمت المسكين وآمنت الضعيف، وسَّع الله رزقها ونصرها على أعدائها، كما قال النبي ﷺ: **«وإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»**(١)، وهذه قاعدة لا تختلف، وسنة لا تتبدل في كل زمان ومكان، فانظروا إلى أمم زمننا تروا كل أمة يعم فيها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات تروها مرزوقة منصورة عزيزة الجانب ـ سواء أكانت في الشرق أم في الغرب ـ مع اختلاف عقائدها، فإن الله تعالى إنما يعذب الأمم في الحياة الدنيا وفي الآخرة على قدر ما بلغها من العلم، وأقيم عليها من الحجج، أما السعادة الكبرى التي تكون في العاجل والآجل فهي خاصة بمن آمن بالله ورسله واتبع من أناب.

فائدة ثالثة: الغلو في قبور الصالحين ومجالسهم وآثارهم يصيّرها أوثاناً تعبد من دون الله، وهذا الغلو هو أصل عبادة الأوثان والأصنام؛ روى مالك في «الموطأ» عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**(٢).

قال محمد تقي الدين: يجب علينا أن ننظر في العلاقة التي بين أول الحديث وآخره ما هي؟! فإن مقتضى ظاهر اللفظ أن يقال: اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم عبدوا قبور أنبيائهم واتخذوها أوثاناً، فلما قال النبي ﷺ بدلاً من ذلك: **«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم**

= وابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٤١٦).

ومن لطائف كلام ابن تيمية (١٤/ ٤٩٠) أنه زيّف الرأي الذي اختاره المصنف بقوله: «فيقال لهؤلاء: تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع، هي أيضاً مقدَّرة مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء». وبمثله قال الشيخ مرعي الكرمي في إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» (ص٥٨ ـ ٥٩ ـ بتحقيقي)، ورد الشوكاني ـ بقوة ـ حمل الزيادة على البركة، وذلك في رسالته «تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل»، وهي مطبوعة بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) سبق تخريجه.

مساجد»، علمنا أن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، أي: تحري الصلاة عندها والدعاء وبناء المساجد حولها أو إلى جانبها يفضي إلى اتخاذها أوثاناً، كما فعل قوم نوح، والآن ينبغي أن ننظر هل استجاب الله دعاء رسوله وحفظ قبره من عبادة المشركين له واتخاذه وثناً أو لا؟ والجواب: إن الله استجاب دعاءه وصانه بثلاثة جدران:

الأول: جدار بيت عائشة.

والثاني: الجوْجؤ المثلث الذي بناه التابعون حتى لا يستطيع الجهال أن يستقبلوا قبر النبي ﷺ في صلاتهم، بعدما أدخل الوليد بن عبد الملك الحجرة النبوية في المسجد ظلماً منه وعدواناً واتباعاً لهواه.

والجدار الثالث: هو البناء المربع الذي بناه بعض الملوك بعد ذلك، وإلى ذلك أشار ابن القيم في «نونيته»[1] بقوله:

«ولَقَد نهانا أن نُصيِّر قبرَه وثناً[2] حذارَ الشِّركِ بالدَّيَّانِ[3]
ودعا بأن لا يُجعَل القبرُ الذي قد ضمَّهُ وثَناً منَ الأوثانِ
فأجاب ربُّ العالمينَ دُعاءَه وأحاطَهُ بثلاثةِ الجُدرانِ
حَتَّى غَدَتْ[4] أرجاؤُه بدعائِهِ في عِزَّةٍ وحِمايةٍ وصِيَانِ»

قال النبي ﷺ ـ من حديث أبي هريرة ـ: **«لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»**[5] (د).

وقال سعيد بن منصور في «سننه» عن الحسن بن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليَّ فإن**

---

(١) انظر: «الكافية الشافية» (ص٢٩٢).
(٢) في مطبوع النونية: «عيداً».
(٣) في مطبوع النونية: «بالرحمن».
(٤) في مطبوع النونية: «اغْتدت».
(٥) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢) ـ ومن طريقه البيهقي في «حياة الأنبياء» (١٥) ـ، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وابن فيل في «جزئه» ـ كما في «جلاء الأفهام» (ص١٠٧ ـ بتحقيقي) ـ وحسن إسناده ابن تيمية في «الاقتضاء» (٣٢١ ـ ط الإفتاء) بقوله: «وهذا إسناد حسن، فإن رواته كلهم ثقات مشاهير». وصححه النووي في «المجموع» (٨/ ٢٧٥) وفي «الأذكار» (٩٣). وحسنه ابن حجر ـ كما في «الفتوحات الربانية» (٣/ ١١٣) ـ وشيخنا الألباني في «تحذير الساجد» (ص١٤٢). قال أبو عبيدة: **الحديث صحيح ـ إن شاء الله تعالى ـ بشواهده،** وقد خرّجت قسماً منها في تعليقي على «جلاء الأفهام» (ص١٠٧، ١٦٤ ـ ١٦٥)، والحمد لله على آلائه ونعمائه.

صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم»[1]. ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء[2]. انظر: «شرح النونية»[3] و«فتح المجيد»[4].

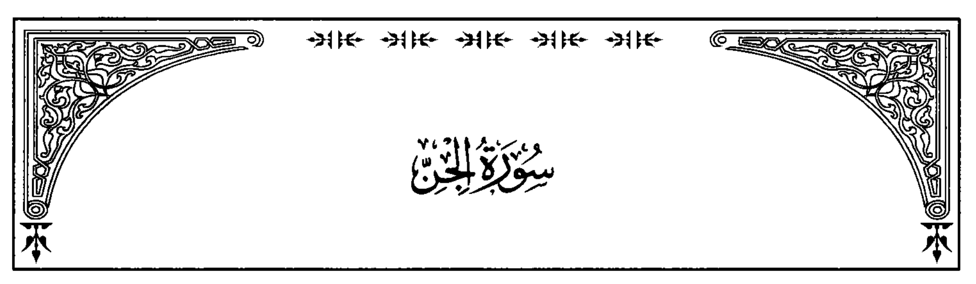
---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦) رقم (٧٦١٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٨٦)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (رقم ٢٠، ط. المكتب الإسلامي)، وأبو يعلى (٦٧٦١)، والطبراني في «الكبير» (٢٧٢٩)، وفي «الأوسط» (٣٦٧)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٢٦، ٢٧)، والدولابي في «الذرية الطاهرة» رقم (١١٩) من طريقين عن الحسن بن علي في أحدهما مجهول، وفي الآخر ضعيف، وهو مُعل بعلّة خفية ذكرها ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص١٦٣ ـ ١٦٤ ـ بتحقيقي)، **إلا أن الحديث صحيح بشواهده**، وحسنه السخاوي في «القول البديع» (ص٣١٤، ط. الريان).

(٢) الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن هذا من كلام الحسن أو ممن دونه وليس من كلام رسول الله ﷺ. ثم وجدتُ المصنف يقول في فتاواه المسماة: «العيون الزلالية من الفتاوى الهلالية» (٢/ ق٥١٥): «قال راوي هذا الحديث، وهو الحسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة ﵄: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء، يعني: الذين يدخلون مسجد النبي ﷺ، ويشاهدون حجرته إذا صلّوا وسلّموا على النبي ﷺ».

(٣) انظر: «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم» لأحمد بن عيسى (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٦٧).

(٤) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٨ ـ ٤٣٦، ط. الصميعي).



سُورَةُ الجِنِّ

الباب الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٦]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يخبر قومه: إن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدَّقوه وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي: يـهـدي[1] إلـى الـسـداد والنجاح، ﴿فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: عظمته[2] وأمره وقدرته ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي: قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ سفيهنا يعنون إبليس، ﴿شَطَطًا﴾، أي: جوراً، [ولهذا قالوا][3]: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[4] ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال قتادة: تعالى جلاله وعظمته..».

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل بدل ما بين المعقوفين: «وقوله تعالى».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي:».

نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي[1]: إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، كما كانت[2] عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه[3] وخفارته.

فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم، وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه، أو مالي أو ولدي، أو ماشيتي قال[1]: فإذا عاذَ بِهِم من دون الله رَهَقتهم الجن الأذى عند ذلك»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: المراد بالجور الذي قاله إبليس أن الله ظلمه حين أمره بالسجود لآدم، مع أن إبليس مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين، والنار بزعمه أفضل من الطين.

قال محمد تقي الدين: العوذ: طلب الحماية، ولم يزل الجهال في كل زمان ومكان يخافون الجن ويتملّقون لهم دفعاً لشرهم، وفي هذا الزمان يعتقد الجهال من المنتمين إلى الإسلام في الشرق والغرب أن الشخص إذا بنى بيتاً جديداً يجب عليه أن يذبح ذبيحة للجن الذين يسكنون في ذلك المكان، ليكفّوا عن أذاه، ويأخذ شيئاً من تلك الذبيحة ويطبخه في ماء بلا ملح ويرش ذلك الماء في جوانب البيت.

ولما بنيتُ بيتاً في بغداد وانتهى رئيس البنّائين من بنائه، قال لي: ينبغي أن تسيل عليه الدم قبل أن تسكنه، قلتُ: ولماذا؟ قال لي: ليكفّ سكان هذه الأرض

---

(١) غير موجود في الأصل. (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وذمّته».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/١٤٧ ـ ١٤٨)، و«تفسير السدي الكبير» (٤٦٣).

عن أذاك، فقلت: وهل يسكن هذا البيت غيري مع أهل بيتي؟ فقال لي: نحن نعتقد أن الجن يسكنون تحت الأرض. فقلت: لا تظن أني أبخل عليك وعلى البنائين والعملة بذبيحة وطعام، ولكني أريد أن أثبت لك أنه لا سلطان للجن على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانهم على الذين يتولونهم بالذبح والخوف والتعوذ بهم من دون الله، ولذلك سأسكن هذا البيت، وأتحدى الجن أن يجهدوا جهدهم في إلحاق الضرر بي وبأهل بيتي إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وبعد أن أسكن شهراً كاملاً ويظهر له ولأمثاله أن الجن لا يستطيعون أن يؤذوا من يوحد الله حينئذٍ أذبح ذبيحة وأدعوه مع أصحابه للغداء.

وكذلك فعلت، فلما مضى الشهر الأول، وتبين له فساد اعتقاده دعوته للغداء. وكذلك وقع لي في مكناس حين أردت أن أشتري هذا البيت الذي أسكن فيه الآن، قالت لي المرأة التي كانت هناك: إنَّ سكان هذا البيت طيبون، لا يضرون أحداً، فقلت لها: وهل يسكن فيه غيركم؟ فقالت: أقصد الذين تحت الأرض، فضربت الأرض بقدمي، فقلت لها: إن سمحتم لهم بالسكنى معكم فأنا لا أسمح لهم أن يدخلوا بيتي لا فوق الأرض ولا تحت الأرض، فهل يدفعون معي شيئاً من الثمن أو يستأجرون جزءاً من البيت؟! فضحكت المرأة وتعجبت من كلامي.

وكان في بلد مغربي لا أسميه ستراً على من سأحكي عنه، فقيه قاضٍ من كبار القضاة كانت ابنته مريضة، فدعا لها ساحراً ليخرج منها الجن ويكتب لها تعويذاً (حجاباً) ليكف عنها أذى الجن فكان يخلو بها في غرفة واحدة ليلاً ونهاراً، وهذا العمل لا يرضى به إلا ديوث جاهل[1]، وكان هذا الفقيه السفيه إذا أراد أن يدخل الحمام يستأجره ساعتين ليلاً ويستخدم شابّاً أعمى يناوله الماء ويغسل جسمه ولا يرى عورته.

ومن شدة خوفه من الجن كان يتملق لهم عند دخول الحمام، ويقول: يا سادتي نسألكم الضيافة لوجه الله، ونسألكم أن لا تؤذونا جزاكم الله خيراً، وحاشاكم أن تؤذوا من يستجير بكم، فكان الأعمى يسمع ذلك ويفهمه فإذا جلس الشيخ وشعر بحرارة الحمام واستراح ينصب له الأسطال سطلاً فوق سطل حتى

---

(١) انظر ما قدمناه قريباً من حال الراقين، وتجاوزاتهم الشرعية.

تصير كالبرج، ثم يأخذ السطل الأسفل فتسقط الأسطال وتحدث دوياً عظيماً فيصرخ الشيخ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ١٤ ـ ٢٢]

قال (ك): «﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحقّ والناكب[1] عنه، بخلاف المقسط، فإنه العادل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة، ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ أي: وقوداً تسعر بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين؛ (أرجحهما): وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم، كما قال مالك عن زيد بن أسلم: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم، لنعلم[2] من يستمر على هذه[2] الهداية ممن يرتد إلى الغواية[3].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الناكب»، دون واو في أوله.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) انظر: «الإمام مالك مفسراً»: (٣٩٨).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذاباً شديداً شاقّاً[(١)] موجعاً مؤلماً»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾: قال (ﷺ): «يقول تعالى آمراً عباده أن يوحدوه في محال عبادته ولا يدعى معه أحد، ولا يشرك به، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ قال قتادة[(٣)]: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ أي: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، وعبد من عباد الله ليس لي[(٥)] من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله ﷻ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد، أي: لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، [أي: ملجأ][(٦)]. اهـ[(٧)]».

«فصل»

قال محمد تقي الدين: في هذا الكلام خمسة أمور:

الأول: إنَّ كل أمة وحدت الله واتَّبعت رسوله بالاعتقاد والقول والعمل يوسع الله رزقها ويجعل يدها هي العليا، فإذا ارتدت وأشركت بالله وخالفت

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شاقاً شديداً».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٥٢ ـ ١٥٣).
(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٤) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣٢٣) وابن جرير (٢٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥)، وعبد بن حميد وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٥).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليّ».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال مجاهد وقتادة والسدي: لا ملجأ».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

رسوله يضيق الله عليها الرزق ويعذبها عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

الثاني: إن المسجد الحرام الذي كان موجوداً في زمان نزول هذه الآية كان مجتمعاً لعبادة الأوثان، وإنما بني ليعبد الله فيه وحده لا شريك له، وبذلك يكون عامراً، وهكذا كل مسجد بني أو يبنى إلى يوم القيامة عمارته التوحيد واتباع السنة، وإن كان من قصب، وخرابه الشرك والبدعة وإن كان من ذهب، فقد جاء في الحديث النهي عن زخرفة المساجد، وجاء فيه أن المسلمين المنحرفين سيزخرفونها كما زخرفتها اليهود والنصارى وفي ذلك خرابها(١).

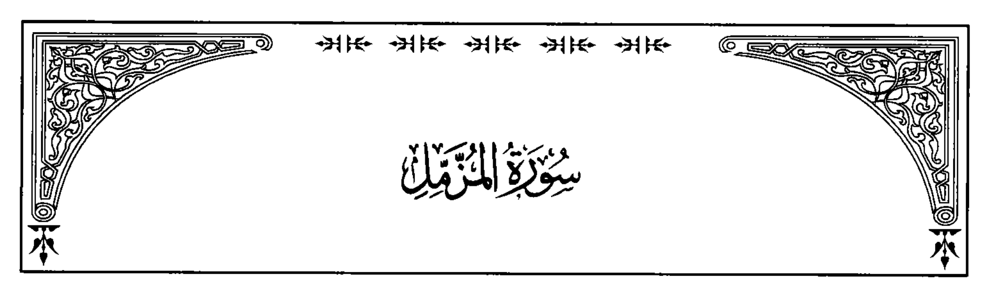
الثالث: إن أول داعٍ إلى الإسلام تلبد عليه أعداء الإسلام وتألبوا عليه، وهكذا كل داعٍ يدعو إلى اتباعه في زمان غربة الإسلام.

الرابع: إن النبي ﷺ أمره الله تعالى أن لا يدعو إلا الله ولا يشرك به أحداً، وهو أمر لكل من اتبعه إلى قيام الساعة.

الخامس: إن الله تعالى أمره أن يعلن أنه ـ وإنْ كان أفضل خلق الله ـ لا يملك للناس ضرّاً ولا نفعاً. اهـ.

---

(١) الأحاديث التي تنهى عن زخرفة المساجد كثيرة. منها: ما علقه البخاري: كتاب الصلاة، باب بنيان المسجد (قبل رقم ٤٤٦)، ووصله أبو داود (٤٤٨)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٥٩) وغيرهما عن ابن عباس قال: «لتُزَخرفنها كما زخرفتها اليهود والنصارى» **وإسناده صحيح**. وانظر: «فتح الباري» (١/ ٥٣٩)، «المجموع» (٢/ ١٨٣)، «الفروع» (٤/ ٦٣)، «إعلام الساجد» (٣٣٥ ـ ٣٣٧) للزركشي، «أحكام المساجد» للخضيري (١/ ٣٣٢)، «المسجد في الإسلام» لأخينا خير الدين وانلي رحمه الله (ص١٥ ـ ١٩)، وللسيد عبد المقصود عبد الرحيم «تحذير الراكع والساجد من بدعة زخرفة المساجد»، وهو مطبوع.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل٩ ـ ١١]

قال (ك): «﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ أي: هو المالك المتصرِّف في المشارق والمغارب الذي[1] لا إله إلا هو، وكما[2] أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥] وآيات[2] كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة، والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ يقول آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه أن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه.

ثم قال له متهدداً[3] لكفار قومه ومتوعداً[4] وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر[5] من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل دون واو في أوله.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «متوعداً».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومتهدداً».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أقدر على الطاعة».

ليس عند غيرهم، ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويداً كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث جامعة مانعة، جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

فقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يدل على توحيد الربوبية، فرب المشرق والمغرب هو رب الشمس التي تطلع من المشرق وتغرب في المغرب بالنسبة إلى جميع أهل الأرض، حتى الأراضي القطبية التي يستمر فيها النهار ثلاثة أشهر عجمية والليل مثل ذلك، لها مشرق[٢] ومغرب، هذا في الإجمال، وفي التفصيل لها مشارق ومغارب، كما قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] في سورة المعارج، فإن الشمس تطلع في كل يوم من مكان ولكنها لا تخرج عن المشرق وتغرب كل يوم في مكان، ولكنها لا تخرج عن المغرب، فباعتبار التزامها لجهة واحدة في طلوعها وغروبها نقول: لها مشرق ومغرب.

ولما كانت الشمس هي أعظم الكواكب في عالمنا هذا القريب المنظور، وهي سبب حياة الحيوان والنبات، نبه الله سبحانه أهل العقول والبصائر أن يستدلوا بمشارقها ومغاربها على أنه رب كل شيء ومالك كل شيء، وإليه يرجع الأمر كله، ولذلك يجب على جميع العقلاء أن يعبدوه وحده ويتوكلوا عليه وحده.

فائدة ثانية: النَّعمة ـ بفتح النون ـ: سعة العيش ورغدُه، والتمتع بزهرة الحياة الدنيا، والنِّعمة ـ بكسر النون ـ أعم من ذلك، فكل واحد من الناس قد أنعم الله عليه بنِعم ـ بكسر النون ـ منها نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، فهاتان النعمتان لا يخلو منهما أحد من الناس.

وأما النَّعمة ـ بالفتح ـ فهي خاصة بأهل الجاه والمال، وهؤلاء الرؤساء المتبوعون عليهم من الواجبات ما ليس على غيرهم، فإن استقاموا استقام أتباعهم، وإن انحرفوا انحرف أتباعهم.

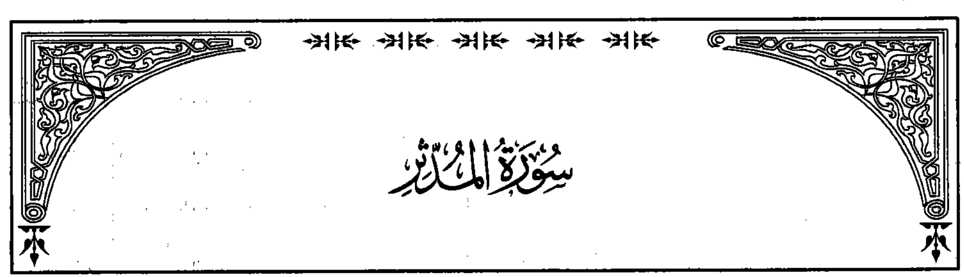
---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩).
(٢) في الأصل: «شرق»!

أول ما دعوت في صعيد مصر إلى توحيد الله تعالى واتباع سنة رسوله ﷺ، ونبذ البدع والمحدثات، ألقيت ستة دروس في آخر الدرس السادس منها استجاب لي شيخ البلد، وهو الشيخ يوسف عبد العال رحمه الله رحمة واسعة وبارك في ابنه الشيخ محمد، أعني بلد الريرمون في مديرية أسيوط، فتبعه أهل البلد كلهم ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا[١]، وقد مضى عليهم أربع وخمسون سنة، لم تستطع فتنة الاشتراكية أن تنال من عقيدتهم مثقال ذرة، فلما زرتهم قبل ثلاث سنين، وجدت شيخ البلد منهم كما كان الأمر قبل أربع وخمسين سنة، ووجدت وكيل الحزب منهم، وإذا رسخت عقيدة التوحيد في القلوب لا يستطيع أحد أن يزلزلها.

---

(١) انظر تفصيل دعوة الشيخ الهلالي لهم في كتابه: «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» (ص١٨، ٢٢).



سورة المدثر

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]

المدثر، معناه المتلفِّف بالثياب.

قال (ك): «روى (ق) بسندهما عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «**فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فخشيت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت: زمِّلوني زمِّلوني فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى: ﴿فَاهْجُرْ﴾**»[١].

وقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي: شمِّر عن ساق العزم وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بأول النبوة، [﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾][٢] أي: عظِّم، وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قال: لا تلبسها على معصية ولا على غدْرة، ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة[٣] الثقفي:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١).

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وهو الذي يقتضيه السياق. ووقع في الأصل بدلاً منه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾!

(٣) في الأصل: «مسلمة»! وهو خطأ، صوابه المثبت ـ كما في «تفسير ابن كثير» ـ ومصادر التخريج.

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجر لبستُ ولا من غَدرة أتَقَنَّعُ[١]

وقال الشاعر[٢]:

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللُّؤم عِرْضُه فكُلّ رداء يَرتَديه جَميلُ

والمراد: طهِّر نفسك وقلبك ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ عن ابن عباس[٣]: «الرجز»: الأصنام»[٤].

قال محمد تقي الدين: ويؤيده قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١] وقد كان النبي ﷺ طاهر النفس والعرض والخلق، هاجراً للأصنام، فالأمر هنا للزيادة والاستمرار، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] أي: زد في تقوى الله واستمر عليها، وكما تقول للضيف: كل، وهو يأكل، هكذا قال علماء النحو وهو صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ عن ابن عباس معناه: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها[٥]، وقال الحسن: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره[٦].

واختاره (ج)[٧].

---

(١) عزاه لغيلان: ابن جرير (٢٣/ ٤٠٥)، وابن العربي في «أحكام القرآن» (١٨٧٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٩/ ٦٣).
وأسند تمثل ابن عباس مع الأثر: ابن جرير (٢٣/ ٤٠٥)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ١٣٥)، والبيهقي في «الخلافيات» (١/ ١٣٠ ـ بتحقيقي)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٢/ ٢٣٦) وابن حجر في «الإصابة» (٣/ ١٩٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨١) لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن الأنباري في «الوقف والابتداء».

(٢) وهو السموأل بن عادياء ضمن قصيدة أوردها أبو علي القالي في «الأمالي» (١/ ٢٦٩).

(٣) خرجته مفصلاً في تعليقي على كل من «المجالسة» (١٥٢٩، ٢٨٧٢، ٣٠٤٣)، و«الخلافيات» (٢/ ١/ ١٣٠، ١٣١ ـ ١٣٢)، فانظره غير مأمور.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ١٧٧ ـ ١٧٨) بتصرف.

(٥) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٤١٢)، والطبراني (١٢٦٧٢)، والبيهقي (٧/ ٥١) **بسندٍ ضعيف**. انظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣١).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٥٢)، وابن جرير (٢٣/ ٤١٥) وعزاه في «الدر» (١٥/ ٦٨) لعبد بن حميد.

(٧) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٣/ ٤١٦).

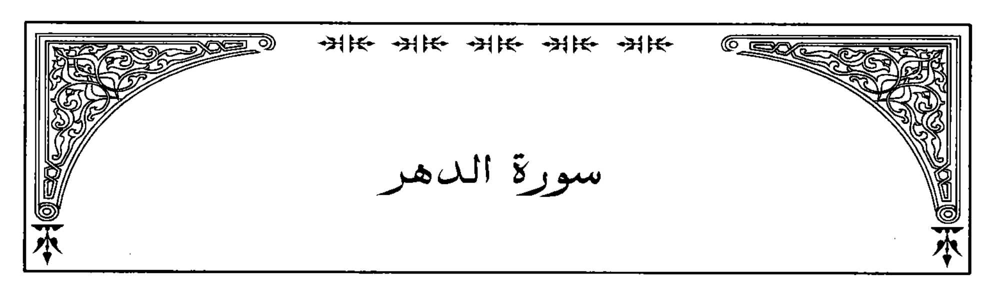
وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك ﷻ»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: بعدما أنزل على النبي ﷺ أول سورة العلق في غار حراء حيث كان يتعبد[٢] صار نبيّاً ولم يكن رسولاً، إذ لم يأمره الله تعالى بالتبليغ ولا بالإنذار ولا بالصدع بما يؤمر وفتر الوحي، أي: توقف، وبعد فترة الوحي نزل أول سورة المدثر، كما في حديث جابر: **«ثم حمي الوحي وتتابع»**[٣]. اهـ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/١٧٨) بتصرف.
(٢) ذكرت ذلك عائشة كما في «صحيح البخاري» (٣)، ومسلم (١٦١).
(٣) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).



سورة الدهر

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٧ ـ ٩]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝﴾ أي: يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل[١] الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر.

روى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[٢]. ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير، أي: منتشر عام على الناس إلا من رحم الله، قال الأعشى[٣]:

فبانَتْ وقد أثرت[٤] في الفؤا ... د صَدْعاً على نأيِها مُسْتطيرا

يعني: ممتدّاً فاشياً.

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ الضمير عائد على الطعام أي: ويطعمون الطعام، في حال محبتهم وشهوتهم له، كقوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، ومالك في «الموطأ» (١/٣٧٩).
(٣) في «ديوانه» (ص١٥٨، ط. دار الكتاب العربي).
(٤) كذا في الأصل، في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أسأرت»، وفي «الديوان»: «وبانت وقد أورثت».

وروى البيهقي بسنده عن نافع قال: «مرض ابن عمر فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب، فأرسلت صفية ـ يعني: امرأته ـ فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول سائل، فلما دخل به سأل السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه فأرسلت بدرهم آخر، فاشترت عنقوداً فاتبع الرسول السائل فلما دخل سأل السائل فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه، فأرسلت صفية إلى السائل فقالت: والله إن عدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به»(١).

وفي «الصحيح»: «**أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر**»(٢). في حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

أما: المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما، وأما الأسير، فهو الكافر الذي يأسره المسلمون في الحرب ويشهد لذلك أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى(٣) فكانوا يقدِّمونهم على أنفسهم عند الغداء، أي: يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أن تشكرونا عند الناس»(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: النذر هو التزام شيء من عبادة الله لم يكن لازماً من قبل، إذا حصل المشروط كأن يقول الناذر: لله عليَّ أن أذبح لله شاة وأطعم الفقراء إن شفي مريضي أو رجع غائبي بسلامة أو نجحت في الامتحان أو

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٩١)، والطبراني في «مكارم الأخلاق» (١٧٧، ١٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٩٧)، وجزم به السخاوي في «الجواهر المجموعة» رقم (٧٧٤، ٧٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) ورد ذلك في أخبار، منها: ما أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/١٤٦)، و«الكبير» (٢٢/ رقم ٩٧١) من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب، **وإسناده حسن**، وانظر: «مجمع الزوائد» (٦/٨٩).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/٢٠٩ ـ ٢١٠) بتصرف.

وضعت الحبلى حملها بسلامة إلى غير ذلك من الأغراض، أو ينذر صوماً أو حجّاً أو عمرة أو صدقة، فإن ذلك عبادة لله يجب الوفاء به.

فإن نذر شيئاً مما يعبد الله تعالى به كالذبح والصدقة لغير الله تعالى من الملائكة والأنبياء والصالحين وغير الصالحين فلا يجوز الوفاء به، ويجب على الناذر أن يتوب إلى الله ويعود إلى الإسلام، ولهذا ذكرت هذه الآية.

فائدة ثانية: ثناء الله تعالى وترغيب رسوله ﷺ في إكرام الأسير الكافر الذي كان بالأمس يقاتل المسلمين يسفك دماءهم، ولا يزال حريصاً على قتلهم إلا أنه عاجز مغلوب على أمره، من أعظم الأدلة على فضل الإسلام على جميع الشرائع والقوانين الوضعية، فإننا لم نر قانوناً لدولة يحث على إكرام الأسير، بل بالعكس رأينا الحلفاء لما انتصروا في الحرب العالمية الأخيرة يهينون الأسرى ويحاكمونهم محاكمة كاذبة خاطئة ظالمة وحشية، كمحاكمة الهر للفأر، فيزعمون أنهم ارتكبوا جرائم في الحرب، ولا يرون فظاعة هذه الجريمة التي يرتكبونها بقتل الأسرى الذين لا يملكون أي وسيلة يدافعون بها عن أنفسهم، فهم كما قال «الإنجيل»: «يرى أحدكم القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع المعترض في عين نفسه».

فهذه القوانين التي تستندون إليها بقتل أساراكم من وضعها؟ فهل اتفقتم على وضعها مع أعدائكم قبل أن تقدموا على الحرب؟ أرأيتم لو انتصر عليكم أعداؤكم أكنتم ترضون بمثل هذه المحاكمة؟ أنتم واضعو القانون، وأنتم الخصوم، وأنتم الحكام، كما قال الشاعر[١]:

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقال البوصيري[٢]:

ولا تطعْ منهما خَصْماً ولا حَكَماً فأنتَ تعرف كيدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

فهؤلاء الحلفاء المتعسفون فداء لصلاح الدين الأيوبي الذي لما سمع أن عدوه (رشارد) الملقب بقلب الأسد قد جرح بعث إليه طبيبه الخاص فعالجه حتى برأ، و(رشارد) هذا هو ملك بريطانية، وقائد جيشها في الحروب الصليبية،

---

(١) هو المتنبي، والمذكور عجز بيت ضمن قصيدة في «ديوانه» (٣٢٣ ـ ٣٢٥) وصدره: يا أعدل الناسِ! إلا في معاملتي.

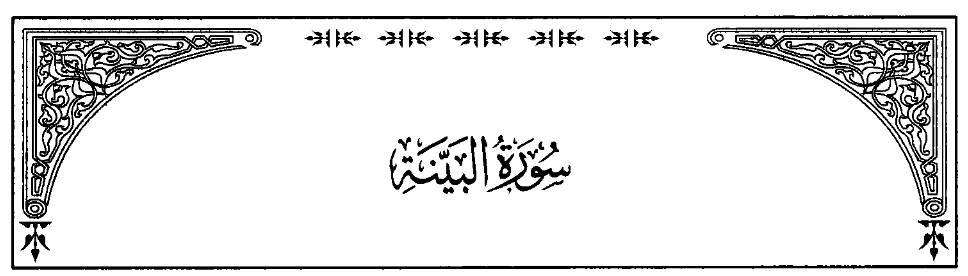
(٢) في «بردته»: (ص١٧ ـ مع «حاشية الباجوري»).

فكانت هذه المعاملة التي تجاوزت الحد في الكرم والحكمة والمروءة والشهامة سبباً لكراهية الملك الإنجليزي الاستمرار في محاربة ولي نعمته، فلَّله در صلاح الدين الأيوبي، تجاوز إكرام الأسرى إلى إكرام المحاربين عند عجزهم وحاجتهم، وهذه الحكاية قرأتها في «مختصر تاريخ أوروبة»، وهو مقرر لتلَامِذِ المدارس الثانوية الإنجليزية، والكتاب طبع بالإنجليزية.

أولئك آبائي فجِئْني بمثْلِهِم ... إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المَجَامِعُ[1]

---

(١) البيت من شهير شعر الفرزدق.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٥ ـ ٨]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولهذا قال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: متحنفين عن الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: أنّ الملةَ القائمة العادلةَ، أو الأمةَ المستقيمةَ المعتدلةَ، وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن **الأعمال داخلة في الإيمان**، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ . . .﴾ إلخ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٤٢٤).

قال (ك): «يخبر تعالى عن[(١)] مآل الفجار من كفار أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة، وأنبياء الله المرسلة أنهم يوم القيامة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها[(٢)] لا يحولون عنها[(٣)] ولا يزولون، ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: من شر الخليقة، التي برأها الله وذرأها، ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين[(٤)] آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة[(٥)] لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

[ثم][(٦)] قال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه[(٧)] من النعيم المقيم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم[(٨)].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء حاصل لمن اتقى الله[(٩)] حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فهو يراه، وقال الإمام أحمد

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «في».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيها»!
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «والذين».
(٥) قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠) بعد كلام: «وأقل ما في هذه الآثار أن السلف كانوا يتناقلون بينهم أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء، وتفرُّق الآراء، فقد كان ذلك المستقرّ عندهم». وقال (٤/ ٣٧١): «وقد كان السلف يحدِّثون الأحاديث المتضمنة فضل صَالِحِ البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس، ولو كان هذا منكراً؛ لأنكروه، فدل على اعتقادهم ذلك». وانظر في المسألة: «بدائع الفوائد» (٣/ ١٦٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٢٧٨ ـ ٢٧٩)، و«طبقات الحنابلة» (٤/ ٢٠٧)، و«مباحث المفاضلة في العقيدة» (ص٣٥٤ ـ ٣٦٠).
(٦) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقطت من الأصل.
(٧) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أوتوا».
(٨) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «العظيم».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خشي الله واتقاه».

بسنده[١] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بخير البرية؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«رجل في ثلة من غنم يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية؟»** قالوا: بلى، قال: **«الذي يسأل بالله ولا يعطي به»»**[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: قوله: «وقد استدل كثير من الأئمة...» إلخ. اعلم أن أهل السنة كلهم متفقون على: أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، تزيد الأعمال بزيادته وتنقص بنقصانه، إلا أبا حنيفة ومن تبعه فإنهم يقولون: إن الإيمان نطق باللسان واعتقاد بالقلب، والعمل لازم له، لكنه غير داخل فيه[٣]، والماتريدية منهم يقولون: إن الإيمان هو الاعتقاد وحده، ولا يزيد ولا ينقص[٤]، وعامتهم يقولون أن إيمانهم كإيمان أبي بكر الصديق بل كإيمان الأنبياء والملائكة، وقد رجع أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ عن القول بعدم دخول العمل في الإيمان، انظر قصته مع حماد بن زيد في «شرح الطحاوية»[٥] لكن مقلِّديه في

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٦) وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٨٢): «رواه أحمد؛ وأبو معشر - نجيح - ضعيف».
قلت: وفيه أيضاً أبو وهب مولى أبي هريرة مجهول، **وللحديث أصل صحيح بنحوه عند البخاري** (١٩، ٣٣٠٠، ٣٦٠٠، ٦٤٩٥، ٧٠٨٨) من حديث أبي سعيد، وهو عن أبي هريرة دون ذكر (خير البرية) و(شر البرية)، عند مسلم (١٨٨٩) وغيره، وخرجته بتفصيل في تعليقي على «العزلة والانفراد» رقم (١٦، ١٧، ١٨، ١٨٠، ١٩٥) لابن أبي الدنيا.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٢٥).

(٣) انظر: «الفقه الأكبر» المنسوب لأبي حنيفة (٣٠٤) و«الوصية» (ص٢، ٦ مع «شرحها»)، و«رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي» (ص٣٥).

(٤) انظر مذهبهم في: «شرح المقاصد» (٥/ ٢١١)، «شرح المواقف» (٨/ ٣٩٧)، «التمهيد» للنسفي (١٠٢)، «بحر الكلام» (٤١)، «المسامرة بشرح المسايرة»: (ص٣١٧)، «شرح العقيدة الطحاوية» للميداني (ص٩٩).

(٥) قال ابن أبي العز الحنفي في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣٩٥) بعد ذكره لمعارضات الحنفية في دخول العمل في مسمى الإيمان:
«والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبي حنيفة رضي الله عنه، وإنما هي من الأصحاب، فإن غالبها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة! وقد حكى الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن =

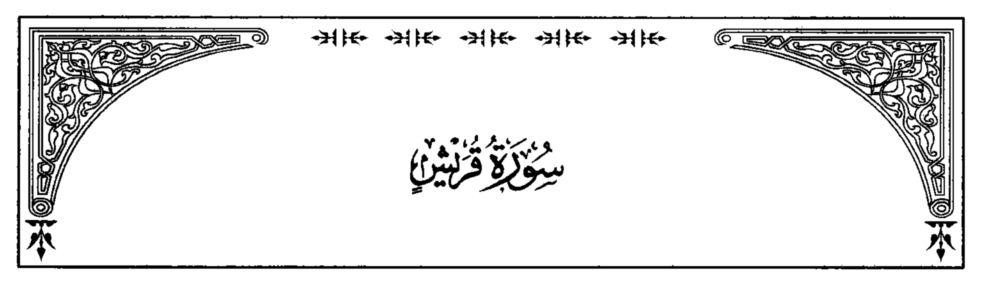
الفروع المتعصبين لمذهبه أبوا أن يرجعوا[١]. اهـ.

فائدة ثانية: فهم من حديث أبي هريرة أن أفضل الناس من جاهد في سبيل الله، والهيعة: الفزع الذي يحصل بغزو العدو بلاد الإسلام، فإن لم يكن هناك سبيل إلى الجهاد ووقعت الفتنة بين المسلمين وصار بأسهم بينهم يقتل بعضهم بعضاً، فأفضل المسلمين هو الذي يهرب من الفتن، ولو لم يجد إلا أن يسكن وحده ومعه غنيمة يعيش بلبنها ويفر بدينه من الفتن، وأصل هذا الحديث في «الصحيحين»، ولفظه: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنيمة يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»[٢]. اهـ.

= زيد، وأن حماد بن زيد لما روي له حديث: «أي الإسلام أفضل؟» إلى آخره، قال له: ألا تراه يقول: أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان؟ فسكت أبو حنيفة، فقال بعض أصحابه: ألا تجيبه يا أبا حنيفة؟ قال: بم أجيبه؟ وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ».

(١) انظر لهم ـ على سبيل المثال ـ: «شرح العقائد النَّسفيَّة» (ص١١٩ ـ ١٢٣)، «التوحيد» (٣٧٣ ـ ٣٧٧) للماتريدي.

(٢) مضى تخريجه.



سُورَةُ قُرَيْشٍ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣ ـ ٤]

قال (ك): «أي: فليوحِّدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل: ٩١].

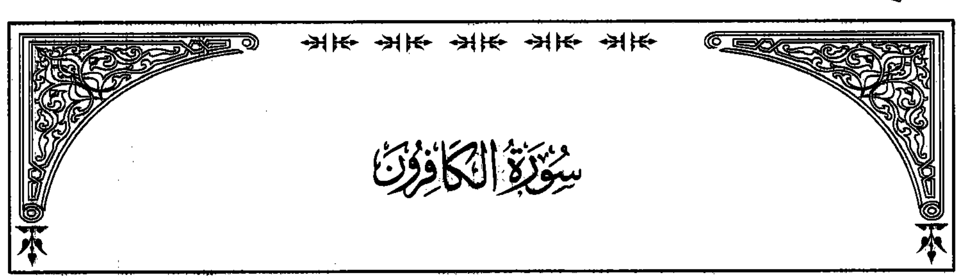
وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ أي: تفضَّل عليهم بالأمن والرخص؛ فلْيفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٢ ـ ١١٣]»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: فائدة: معنى ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾، فليفردوه بالعبادة ولا يعبدوا معه أحداً لا ملكاً ولا نبيّاً ولا صالحاً ولا تمثالاً ولا قبة تنسب لأحد منهم، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له خالياً من الشرك، وسيزداد ذلك وضوحاً في سورة (الكافرون) إن شاء الله.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦).



الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]

ما جاء في فضلها:

١ ـ في «صحيح مسلم» عن جابر: «إن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في ركعتي الطواف»(١).

٢ ـ وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «إن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر»(٢).

٣ ـ قال (أ) بسنده عن عبد الله بن عمر قال: «رمقت النبي ﷺ أربعاً وعشرين أو خمساً وعشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»(٣). وقد تقدم في الحديث: «**إنها تعدل ربع القرآن**»(٤).

٤ ـ وقال الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن جَبَلَة قال: «قلت: يا رسول الله علِّمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: **إذا أخذت مضجعك من الليل فأقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، فإنها براءة من الشرك**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) أخرجه مسلم (٧٢٦).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٩٩) **وإسناده صحيح غاية.**
(٤) مضى تخريجه، **والحديث صحيح.**
(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» ـ وهو ساقط من الطبعة الميمنية، وموجود في «أطراف المسند» لابن حجر (٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) ـ ثم وجدته في طبعة مؤسسة الرسالة (٣٩/ ٤٤٠، رقم =

قال (ك): «هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ شمل[1] كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين[2] بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة[3] وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾؛ يعني: من الأنداد والأصنام[4] ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ وهو الله وحده لا شريك له، فـ﴿مَآ﴾ هٰهنا بمعنى «من».

ثم[5] قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي: لا تقتدون

= ٥/٢٤٠٠٩) قال: ثنا حجاج: ثنا شريك عن أبي إسحاق عن فروة بن نوفل عن الحارث بن جَبَلة به.
وذكر أحمد على إثره أن الأسود رواه عن شريك هكذا، قال: «قال جبلة: ولم يشك»، وقال: «وقال علي ـ يعني: ابن المديني ـ جبلة بن الحارث الكلبي».
ورواه جمع من الثقات عن أبي إسحاق به، وجعلوا صحابيه (فروة بن نوفل الأشجعي) وهو الصواب، هكذا أخرجه أحمد (٥/٤٥٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ١٠٨)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٠١، ٨٠٢)، وابن أبي شيبة (٩/ ٧٤ و١٠/ ٢٤٠)، والدارامي (٣٤٢٧)، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» (٢٦٥٤)، وابن قانع (٣/ ١٥٦)، وابن حبان (٧٩٠، ٥٥٢٦)، والطبراني في «الدعاء» (٢٧٧، ٢٧٨)، والحاكم (١/ ٥٦٥ و٢/ ٥٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢٥١٩ ـ ٢٥٢١) وفي «الدعوات الكبير» (٣٥٨)، **والحديث حسن**. وانظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٤٠٨) لابن حجر، وعزاه للبزار في «مسنده».

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يشمل».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «المواجهون»!

(٣) ورد ذلك موصولاً عن ابن عباس عند ابن جرير (٣٠/ ٢١٤) **بسند ضعيف**، ونسبه في «الدر» (٨/ ٦٥٤) لابن أبي حاتم والطبراني، وعزاه بنحوه (٨/ ٦٥٥) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه، وفي الباب عن وهب رفعه، عند عبد الرزاق (٢/ ٤٠٣)، وابن المنذر، ـ كما في «الدر» ـ، وعن سعيد بن ميناء مولى البحتري عند ابن جرير (٣٠/ ٢١٤)، وعزاه في «الدر» (٨/ ٦٥٥) لابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» وإسناد ابن جرير لا بأس به، ولعله **يتقوى** بمجموع طرقه، والله أعلم.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأصنام والأنداد».

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كانت[1] كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما[2] جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها[3]، ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١] وقال: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]»[4].

فصل

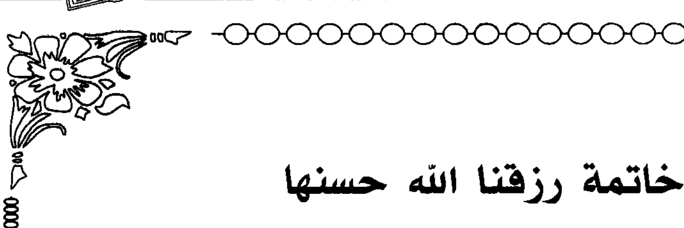
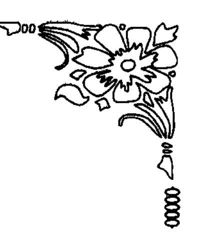
قال محمد تقي الدين: فائدة: التكرار الواقع في هذه السورة بليغ، والغرض منه التوكيد، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦] وكقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٦ ـ ٧] وكقول النبي ﷺ حين استأذنه عكرمة بن أبي جهل في إنكاح علي بن أبي طالب أخته: **«لا آذن ثم لا آذن»**[5].

وهذه طريقة معروفة في اللغة العربية وفي سائر اللغات السامية، وهذه السورة يجب على كل مسلم أن يعتقد ما دلت عليه ويعمل به، فيتبرأ من جميع المشركين، ولا يتحقق توحيد إلا بذلك، وقد تقدم هذا المعنى في مواضع من هذا الكتاب، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهله.اهـ.

وكان الفراغ منه يوم الجمعة سابع عشر صفر سنة ١٣٩٥ بدار السَّلفي الصالح الحاج محمد الفلالي بمدينة فاس، أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وبمحبتنا واتباعنا لحبيبه وخليله محمد ﷺ أن يعيننا، ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، ويختم لنا بالحسنى.اهـ.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ما»!
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بها الله».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٨٤، ٤٨٦ ـ ٤٨٩).
(٥) أخرجه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة.

خاتمة رزقنا الله حسنها

في تحذير النبي ﷺ أمته الغلو في قبور الأنبياء والصالحين

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب «التوحيد» ما نصه: «في «الصحيح» عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣] قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت[(١)].

وقال ابن القيم[(٢)]: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم». وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[(٣)]. أخرجاه.

قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»[(٤)]. ولمسلم[(٥)] عن ابن مسعود: إن رسول الله ﷺ قال: «**هلك المتنطعون**»»[(٦)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٥)، ومسلم (١٦٩١).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، والنسائي (٥/ ٢٦٨)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن سعد (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١)، وأبو يعلى (٢٤٢٧)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، وابن حبان (٣٨٧١)، والطبراني (١٢٧٤٧، ١٢٧٤٨)، والحاكم (١/ ٤٦٦) وغيرهم، **وهو صحيح**، وتكلمت على تخريجه بالتفصيل في تحقيقي الثاني لجزء السخاوي «الجواب الذي انضبط».

(٥) في «صحيحه» برقم (٢٦٧٠).

(٦) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٤٩ ـ ٥١).

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

في «الصحيح» عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»(١)، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين(٢): فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها: لما نُزلَ برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبْرِزَ قبرُه، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً(٣). أخرجاه.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»(٤).

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصد(٥) الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلَّى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»(٦).

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعاً: «**إن من شرار الناس من**

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٣) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١).
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٢).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قصدت».
(٦) سبق تخريجه.

تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»(١)، ورواه أبو حاتم في «صحيحه»»(٢).

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثاناً تعبد من دون الله

«روى مالك في «الموطأ»، أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**(٣).

وعن ابن عباس [رضي الله عنه] قال: «لعن رسول الله ﷺ؟ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»(٤)»(٥).

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

«وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨ ـ ١٢٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»**(٦)، رواه أبو داود(٧) بإسناد حسن ورواته ثقات.

وعن علي بن الحسين [رضي الله عنه] أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ؟ قال: **«لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً،**

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، وأبو يعلى (٥٣١٦)، وابن خزيمة (٧٨٩)، وابن حبان (٦٨٤٧)، والشاشي (٥٢٨)، والطبراني (١٠٤١٣) **وإسناده حسن** وعلق الجملة الأولى منه بصيغة الجزم البخاري (٧٠٦٧).

(٢) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٥٣ ـ ٥٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٥٧ ـ ٥٨) بتصرف.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) في «سننه» (٢٠٤٢).

وصلوا عليَّ فإنَّ تسليمكم يبلغني أين كنتم»[(١)]، رواه في «المختارة»»[(٢)].

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

«وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[(٣)]، أخرجاه.

ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسَنَةٍ بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»[(٤)]، رواه البرقاني في «صحيحه»[(٥)] وزاد:

«وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع

---

(١) سبق تخريجه. (٢) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٦٠ ـ ٦١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٠، ٢٨٨٩).

(٥) وأخرجه هكذا: أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦، ٢٢٠٢، ٢٢١٩، ٢٢٢٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/٢٧٨)، وأبو عوانة (٧٥٠٩)، والطيالسي (٩٩١)، وابن أبي شيبة (١١/٤٥٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٨٧)، وفي «الآحاد والمثاني» (٤٥٦، ٤٥٧)، والقضاعي (٩١٤، ١١٦٦)، وابن حبان (٧٢٣٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٦٤)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (٤، ٥٥، ٣٦٠، ٣٦١)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/٥٢٦ ـ ٥٢٧)، والبغوي (٤٠١٥) ومنهم من اختصره، وإسناده صحيح. وصححه شيخنا الألباني.

إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».[(١)].

تفسير ما تقدم نقله من كتاب «التوحيد»

سأنقل هنا شرح ما تقدم نقله من كتاب «التوحيد» أنقل ذلك من «فتح المجيد» للعلامة الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن:

«قوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»**: الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه، قاله أبو السعادات[(٢)]، وقال غيره: أي: لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

قوله: **«إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»**، أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادَّعوا فيه الألوهية وإنما أنا عبد الله ورسوله[(٣)]، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، فقولوا: عبد الله ورسوله، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره وارتكاب نهيه، وعظموه[(٤)] بما نهاهم عنه وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة وضاهوا[(٥)] النصارى في غلوهم وشركهم ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده، وصنفوا فيه مصنفات[(٦)].

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله، وصنف في ذلك مصنفاً رده شيخ الإسلام ورده موجود بحمد الله ويقول: إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وذكر عنهم أشياء من هذا النمط نعوذ بالله من عمى البصيرة، وقد اشتهر في نظم البوصيري[(٧)] قوله:

(١) انظر: «كتاب التوحيد» (ص٦٤ ـ ٦٨). (٢) في كتابه «النهاية» (٣/ ١٢٣).
(٣) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد». (٤) في مطبوع فتح المجيد: «فعظموه».
(٥) في الأصل: «ضاهوا» من غير واو في أوله.
(٦) في مطبوع «فتح المجيد»: «المصنفات».
(٧) انظر: «البردة» (٧٤ ـ مع «حاشية الباجوري»).

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذُ به ... سواك عند [حُدُوثِ](١) الحَادِثِ العَمِمِ

وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات وأعظم الاضطرار لغير الله، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب(٢) ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه(٣)، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه(٤).

وهؤلاء المشركون هم(٥) المتنقِّصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته فلم يعبؤوا بأقواله وأفعاله ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له، وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه والاهتداء بهديه واتباع سنته والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونصرته وموالاة من عمل به ومعاداة من خالفه، فعكس أولئك المشركون ما أراده(٦) الله ورسوله علماً وعملاً، وارتكبوا ما نهى الله ورسوله عنه(٧)، فالله المستعان»(٨).

الثاني: قوله: وقال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»: «هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه(٩)، وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس، وهذا لفظ رواية(٩) أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة جَمْع: «**هلمَّ الْقُط لي**». فلقطت له حصيات هن(١٠) حصى الخذف، فلما وضعهنَّ في يده، قال: «**نعم بأمثال هؤلاء [فارموا]**(١١)، **وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**»(١٢).

---

(١) في مطبوع «فتح المجيد»: «حلول».

(٢) في مطبوع «فتح المجيد»: «في ارتكاب».

(٣) من مطبوع «فتح المجيد» وسقطت من الأصل.

(٤) في مطبوع «الفتح»: «تنقصه».

(٥) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٦) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «أراد»!

(٧) في مطبوع «الفتح»: «عنه ورسوله».

(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢).

(٩) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «رواية»!

(١٠) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».

(١٢) سبق تخريجه.

قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبرى[١] ـ بناءً ـ على أنه أبلغ من الصغرى[٢]، ثم علله بما يقتضي مجانبة هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، فإن[٣] المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك»[٤].»[٥].

الثالث: قوله: «ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثاً. قال الخطابي[٦]: المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا[٧] تبلغه عقولهم». ومن التنطع: الامتناع من[٨] المباح مطلقاً، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب، قال الشيخ تقي الدين: «فهذا جاهل ضال»[٩].اهـ.

قوله: «قالها ثلاثاً» أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين»[١٠].

قوله: (باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟) أي: الرجل الصالح، فإن عبادته من الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر، هو أعظم الذنوب.

الرابع: قوله: «في «الصحيح»: إن أم سلمة»، هي: هند بنت أبي أمية[١١]

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «الكبار».
(٢) في مطبوع «الفتح»: «الصغار».
(٣) في مطبوع «الفتح»: «وأن».
(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).
(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).
(٦) انظر: «معالم السنن» (٧/ ١٣، ط. المختصر).
(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم».
(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «عن»!
(٩) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥١١).
(١٠) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤) بتصرف.
(١١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية».

المخزومية، تزوجها رسول الله[١] ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ماتت سنة اثنتين وستين[٢].

قوله: «ذكرت لرسول الله ﷺ. . .» وفي «الصحيحين»: أنَّ أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ، (والكنيسة) بفتح الكاف وكسر النون، معبد النصارى، قوله: «**أولئك**» بكسر الكاف خطاباً للمراة، قوله: «**إذا مات فيهم الرجل [أو العبد]**[٣] **الصالح**» هذا ـ والله أعلم ـ شك من بعض رواة الحديث، هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا؟ ففيه التحري في الرواية[٤].

قوله: «**صوروا فيه تلك الصورة**» الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة. قوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**» وهذا[٥] يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لَعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتي.

قوله: «فهؤلاء جمعوا بين فتنتين، فتنة القبور، وفتنة التماثيل»، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذكره المصنف رحمه الله تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم: إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك.

فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا نجد[٦] أهل الشرك يتضرعون عندها[٧] ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه[٨] في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «النبي».
(٢) انظر: ما سيأتي في (٦/ ٢٤٣) فهناك عرف المصنف بها رضي الله عنها وسائر أزواجه ﷺ.
(٣) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.
(٤) في مطبوع «الفتح»: «وجواز الرواية بالمعنى».
(٥) في الأصل: «هذا» من غير واو في أوله. (٦) في مطبوع «الفتح»: «تجد».
(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ويخشعون». (٨) في مطبوع «الفتح»: «يرجون».

المقبرة مطلقاً[١] وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد.

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها[٢]، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون[٣] الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصدوا ما قصده المشركون سدّاً للذريعة، وأما إذا قصد الرجال الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله والمخالفة لدينه، وابتداع[٤] دين لم يأذن به الله.

فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد[٥]، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه[٦] وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن تحمل عليه كراهة التحريم، إحساناً للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعنُ فاعله والنهي عنه[٧]»[٨]. اهـ.

---

(١) ورد النهي في أحاديث عديدة شهيرة، سيورد المصنف قريباً قسماً منها، وقد ذكرتُ بعضها في كتابي «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص٧٢ ـ ٧٧)، وجمعها وتكلم عليها بما يدهش إمام الوقت شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «تحذير الساجد»، وهو مطبوع متداول.

(٢) هذا النهي ثابت في أحاديث كثيرة، بعضها في «صحيح البخاري» (٥٨١ ـ ٥٨٤)، و«صحيح مسلم» (٨٢٥ ـ ٨٣١).

(٣) في مطبوع «الفتح»: «المشركون فيها».

(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واتباع»!

(٥) كما في الأحاديث المتقدمة قريباً.

(٦) انظر: تواتر الأحاديث الواردة في ذلك (١/ ١٢٥).

(٧) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٤).

(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨). **(فائدة مهمة)**: في معنى ما تقدم من صور الحظر: أداء الصلاة والجنازة موضوعة وهي في قبلة المصلين، قال الشيخ القاري في «مرقاة المفاتيح» (٢/ ٣٧٢): «وهو مما ابتلي به أهل مكة، حيث يضعون الجنازة عند =

الخامس: «قوله: (ولهما)» أي: البخاري ومسلم وهو يغني عن قوله في آخره: «أخرجاه».

قوله: «لما نُزل» بضم النون وكسر الزاي، أي: نزل به ملك الموت والملائكة الكرام ﷺ.

قوله: «طفق» بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح، وبه جاء القرآن، ومعناه: جعل، قوله (خميصة) بالمعجمة والصاد المهملة: كساء له أعلام، قوله: «فإذا أغتم بها كشفها» أي: عن وجهه.

قوله: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[1]، يبيِّن أن من فعل مثل ذلك حل عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى، قوله: «يحذِّر ما صنعوا» الظاهر أن هذا من كلام عائشة رضي الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود النصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء ومن أعظم الوسائل إلى الشرك.

ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قُربةً من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبي[2] في معنى هذا الحديث: «وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام».اهـ. إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم. وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ﴾ [يوسف: ٣٦] نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

قوله: «ولولا ذلك» أي: ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجداً

= الكعبة، ثم يستقبلون إليها». قلت: وهذا بلاء عام، انظر: «تحذير الساجد» (ص٣٥)، وكتابي «القول المبين» (٧٦ ـ ٧٧).

(١) مضى تخريجه.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم (ت٦٥٦هـ). شيخ صاحب «التفسير»، وهو المراد عند إطلاقه في «فتح الباري» وغيره من كتب الشروح الحديثية، خلافاً لكتب التفسير، ونحو المذكور في كتابه «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (١٢٨/٢).

لأبرز قبره وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع، قوله: «غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً» روي بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه، وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، [فلم يبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة][(١)]، غلوّاً وتعظيماً بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه ولعن فاعله.

قال القرطبي: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا[(٢)] حيطان تربته وسدوا المداخل[(٣)] إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يُتَّخذَ موضع قبره قبلة [إذا كان][(٤)] مستقبل المصلين، فتتصور[(٥)] الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال؛ حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره». انتهى[(٦)].

---

(١) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد».

(٢) كذا في مطبوع «الفتح» و«المفهم»، وفي الأصل: «فأغلقوا»!

(٣) كذا في «المفهم»، وفي الأصل و«الفتح»: «المدخل».

(٤) من مطبوع «الفتح» و«المفهم»، وسقط من الأصل.

(٥) كذا في مطبوع «فتح المجيد» و«المفهم»، وفي الأصل: «فتصور».

(٦) انظر: «المفهم» (٢/ ١٢٨)، «فتح المجيد» (١/ ٣٨٩ ـ ٣٩١). **(فائدة)** هذا الوصف يتوافق مع وضع القبر الشريف قديماً، ثم في القرنين السابع والثامن الهجريين طرأ عليه تعديل، وكذلك في العصر المملوكي، ثم العثماني، بحيث أصبح القبر ضمن حجرة مربعة تعلوه (القبّة الخضراء). وظفرتُ في «عمدة الأخبار في مدينة المختار» (ص١٢٤) و«تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» (ص٨١) أن هذه القبة بُنيت في أيام الملك المنصور قلاوون الصالحي، والذي بناها الكمال أحمد بن البرهان عبد القوي الربعي. وقال بعضهم: أساء الأدب بعلو النجارين ودقّ الحطب!

وذكر ابن تيمية في «الاقتضاء» هذه القبة، وعبارته بعد كلام: «ثم بعد ذلك بسنين متعددة، بنيت القبة على السقف، وأنكرها من أنكرها».

قلت: وأنكرها من المتأخرين جمع، منهم: الشيخ حسين بن مهدي النعمي في كتابه «معارج الألباب» (١٥٨ ـ ١٥٩)، والصنعاني في «تطهير الاعتقاد» (ص٨٤ ـ تعليق شيخنا العلامة عبد المحسن العباد)، وهذا نص كلام الصنعاني:

فإن قلتَ: هذا قبرُ رسول الله ﷺ قد عُمرت عليه قُبَّة عظيمةٌ أُنفقت فيها الأموال.

قلتُ: هذا جهلٌ عظيم بحقيقة الحال، فإنَّ هذه القبَّة ليس بناؤها منه ﷺ ولا من =

السادس: قوله: «عن جندب بن عبد الله». أي: ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور مات بعد الستين.

قوله: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل**»(١) أي: أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله، والخلة فوق المحبة، والخليل: هو المحبوب غاية الحب مشتق من (الخَلَّة) بفتح الخاء، وهي تخلل المودة في القلب، كما قال الشاعر:

قد تخلَّلت مسلكَ الرُّوحِ مني ... وبذا سُمِّيَ الخليلُ خَليلا(٢)

هذا هو الصحيح في معناه، كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير(٣).

قوله: «**فإن الله اتخذني خليلاً**» فيه بيان أن الخلة فوق المحبة، قال ابن القيم(٤) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة وأن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله، فمن جهله، فإن المحبة عامة، والخُلّة خاصة، وهي نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبِّه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب [ومعاذ بن جبل](٥) وغيرهم. وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين،

= أصحابه، ولا مِن تابعيهم، ولا تابعي التابعين، ولا مِن علماء أمَّته وأئمَّة مِلَّتِه، بل هذه القبَّة المعمولةُ على قبره ﷺ مِن أبنية بعض مُلوك مصر المتأخرين، وهو قَلَاوُون الصالحي المعروف بالملك المنصور، في سنة ثمان وسبعين وستمائة، ذكره في «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة»، فهذه أمورٌ دولية لا دليلية، يتبع فيها الآخرُ الأول.
وهذا آخرُ ما أردناه مِمَّا أوردناه لَمَّا عمَّت البلوى، واتُّبعت الأهواء، **وأعرض العلماء عن النكير، الذي يجب عليهم، ومالوا إلى ما مالت العامَّة إليه**، وصارَ المنكرُ معروفاً والمعروف منكراً، ولَم نجد من الأعيان ناهياً عن ذلك ولا زاجراً».

(١) مضى تخريجه.

(٢) البيت من غير نسبة في «محاضرات الأدباء» (٣/ ١٣ ـ مكتبة الحياة)، و«روضة المحبين» (ص٨٢، ط. دار ابن كثير).

(٣) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وغيرهم».

(٤) انظر: «الجواب الكافي» (ص٢٠٠).

(٥) أما إخباره بحب عائشة وأبيها وعمر: فقد أخرج البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص قال: «قلت: أيُّ الناس أحب إليك؟ قال ﷺ: «**عائشة**». فقلت: من الرجال؟ فقال: «**أبوها**». قلت: ثم من؟ قال: «**ثم عمر بن الخطاب، فعدّ رجالاً**».
وأما إخباره بحب معاذ: فهو مشهور في حديث الأذكار التي بعد الصلاة، وأوله: =

ويحب الصابرين[١] وخلته خاصة بالخليلين».

قوله: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة، وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شر أهل البدع، وأخرجهم بعض السلف من الثلاث وسبعين فرقة[٢]، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد، قاله المصنف رَحِمَهُ اللهُ، وهو كما قال بلا ريب.

وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره، وقد استخلفه على[٣] الصلاة بالناس[٤]، وغضب ﷺ لما قيل: يصلِّي بهم عمر، وذلك في مرضه الذي توفي فيه ﷺ[٥]. واسم أبي بكر عبد الله بن عثمان[٦] الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم، مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة.

قوله: **«ألا»** حرف استفتاح **«وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد»** الحديث. قال [الخطابي[٧]: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مُخرَّج[٨] على وجهين:

= **«يا معاذ إني أُحبك»**.
أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٠)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣) وفي «عمل اليوم والليلة» (١٠٩)، وأحمد (٥/ ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧)، وعبد بن حميد (١٢٠ ـ «المنتخب»)، والشاشي (١٣٤٣) في «مسانيدهم»، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠، ٢٠٢١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٥٤)، وفي «المعجم الكبير» (٢٠/رقم ١١٠)، والحاكم (١/ ٢٧٣ و٣/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤)، وأبو نعيم (١/ ٢٤١ و٥/ ١٣٠) وغيرهم.
وإسناده صحيح.
وما بين المعقوفتين غير موجود في مطبوع «الفتح».

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الطاهرين».
(٢) يريد: إن الثلاث والسبعين من أهل البدع والضلال، وليس بكفار، وإنْ توعّدوا بالنار، والرافضة والجهمية خارجتان من هذه إلى الكفر.
(٣) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «في».
(٤) ثبت ذلك عند البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).
(٥) انظر: «صحيح مسلم» (٤١٨) (٩٥).
(٦) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة».
(٧) في مطبوع «الفتح»: «الخلخالي»!! (٨) في مطبوع «الفتح»: «يخرج».

أحدهما: إنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً(١).

الثاني: إنهم يجوّزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأول هو الشرك الجلي، والثاني الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته» أي: كما في حديث جندب، وهذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا ما بعده.

قوله: «ثم إنه لعن، وهو في السياق من فعله» كما في حديث عائشة.

قلت: فكيف يسوغ بعد(٢) هذا التغليظ من سيد المرسلين أنْ تُعظَّم القبور ويبنى عليها ويصلى عندها وإليها؟ هذا أعظم مشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعقلون.

وقوله: «والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبنِ مسجد» أي: من اتخاذها مساجد، الملعون فاعله، وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

السابع: وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعاً: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام**»(٣). رواه أحمد وأهل «السنن» وصححه ابن حبان والحاكم، قال ابن القيم(٤) رحمه الله: «وبالجملة؛ فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه(٥): صيغة (لا تفعلوا) وصيغة «**إني أنهاكم عن ذلك**». ليس لأجل

---

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «لهم». (٢) في مطبوع «الفتح»: «مع».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٨٣، ٩٦)، والترمذي (٣١٧)، وأبو داود (٤٩٢)، وابن ماجه (٧٤٥)، والدارمي (١/ ٣٢٣)، وأبو يعلى (١٣٥٠)، وابن خزيمة (٧٩١)، وابن حبان (١٦٩٩، ٢٣١٦، ٢٣٢١)، والحاكم (١/ ٢٥١)، والبيهقي (٢/ ٤٣٥) عن أبي سعيد مرفوعاً، وروي عن عمرو بن يحيى عن أبيه مرسلاً، كما عند ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٩)، وعبد الرزاق (١٥٨٢)، وابن ماجه (٧٤٥)، وأبو يعلى (١٣٥٠)، والبيهقي (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

ووصله خمسة ـ وأكثرهم ثقات ـ وأرسله الثوري وحده، ومع هذا قال الدارقطني في «العلل» (٤/ ق٣): «والمرسل المحفوظ». وهذا الذي رجحه الترمذي، إلا أن **الحديث صحيح بشواهده**، انظر: «نصب الراية» (٢/ ٣٢٤) و«التلخيص الحبير» (١/ ٢٧٧).

(٤) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٨).

(٥) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بصيغته».

النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقلَّ نصيبه أو عدم من لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له، وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلوّاً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله! من هذا الباب دخل الشيطان[1] على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عُبّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم».

قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً»، أي: لما علموا من تشديده في ذلك، وتغليظه [النهي عنه][1] ولعن من فعله.

قوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً»: أي: وإن لم يُبن مسجد، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، يعني: وإن لم يُقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلي فأوقع الصلاة [في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة][2] عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً.

قوله: كما قال: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[3] أي: فسمى الأرض مسجداً تجوز الصلاة في كل بقعة منها، إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها، قال البغوي في «شرح السنة»[4]: «أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيَعهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا؛ تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس»[5]. اهـ.

الثامن: قوله: «ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعاً: «**إن من شرار**

---

(١) غير موجود في مطبوع «الفتح».
(٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.
(٣) مضى تخريجه.
(٤) (٢/ ٤١٢).
(٥) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٧).

الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[١]». قوله: «**إن من شرار الناس**» بكسر الشين، جمع شرير، قوله: «**من تدركهم الساعة وهم أحياء**» أي: مقدماتها، كخروج الدابة؛ وطلوع الشمس من مغربها؛ وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: «**والذين يتخذون القبور مساجد**» معطوف على خبر (إن) في محل نصب على نية تكرار العامل، أي: وإن من أشرار[٢] الناس الذين يتخذون القبور مساجد، أي: بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها.

وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من اليهود والنصارى، وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك؛ تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى، فما رفع أكثرهم بذلك رأساً، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قُربة إلى الله، وهو مما يُبعدهم عنه ويطردهم عن رحمته ومغفرته، **والعجب أن أكثر من يدَّعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة، والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.**

قال شيخ الإسلام [رحمه الله]: «أما بناء المساجد على القبور، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه» قال: «ولا ريب في القطع بتحريمه» ثم ذكر الأحاديث في ذلك إلى أن قال: «وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدمٍ أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين»[٣].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «يجب هدم هذه القباب التي بنيت على القبور؛ لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ»[٤].

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرّافة من الأبنية، منهم: ابن الجُمَّيزي والظهير التَّزْمَنْتِي[٥] ....

(١) سبق تخريجه. (٢) في مطبوع «الفتح»: «شرار».
(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٧).
(٤) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٨).
(٥) كذا في مطبوع «الفتح». وهو نسبة إلى (تزمنت) بفتح التاء وسكون الزاي، قاله =

وغيرهما[(١)]. وقال القاضي ابن كج: «ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب [ولا غير قباب][(٢)]، والوصية بها باطلة»[(٣)]. وقال الأذرعي: «وأما بطلان الوصية ببناء [القباب وغيرها من][(٢)] الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة؛ فلا ريب في تحريمه»[(٤)]. وقال القرطبي في حديث جابر: «نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه»[(٥)]: «وبظاهر هذا الحديث قال مالك وكره البناء والجصَّ على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه»[(٦)].

وقال ابن رشد: «كره مالك البناء على القبر وجَعْل البلاطة المكتوبة»[(٧)].

= ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ١٣٩)، وابن قاضي شهبة في «طبقاته» (٢/ ١٧٢)، ويكسر التاء قاله ياقوت في «معجم البلدان» (٢/ ٢٩)، وابن العماد في «الشذرات» (٩/ ٣٨٠) وهي بلدة من صعيد مصر من عمل البهنسا، وتحرف في الأصل إلى «الترميني»!

(١) نقله عنهما الدَّميري في «النجم الوهاج في شرح المنهاج» (٣/ ١١١) وغيره من متأخري الشافعية. انظر: «حواشي الشرواني والعبادي على تحفة المحتاج» (٣/ ١٩٨).

(٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٣) قال الشافعي في «الأم» (١/ ٢٧٧): «ورأيت الولاة عندنا بمكة يأمرون بهدم ما يبنون منها ـ أي: القباب على القبور ـ ولم أر الفقهاء يعيبون ذلك عليهم، وإن كان ذلك في ملكه، فإن لم يكن محظوراً لم يكن مختاراً».
ونقله عنه جمع، مثل: الماوردي في «الحاوي الكبير» (٣/ ١٩٣) ـ وفيه: «وأما البناء على القبور كالبيوت والقباب فإن كان في غير ملكه لم يجز» ـ ونحوه في «البيان» (٣/ ١١٠) للعمراني، و«شرح الرافعي على الوجيز» (٢/ ٤٥٢) وصاحب «العباب المحيط» (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١)، والروياني في «بحر المذهب» (٣/ ٣٢٢). ويريد بالكراهة التحريم ـ كما هو معلوم في كلامه ـ. والصواب ما اقتضاه إطلاق ابن كج من التحريم من غير فرق بين ملك وغيره للنهي العام، ولما فيه من الابتداع القبيح وإضاعة المال والشرف، ولمضاهاة الجبابرة والكفار، والتحريم يثبت بدون ذلك. وأما الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية العظيمة، وإنفاق الأموال الكثيرة عليها فلا ريب في تحريمه، والعجيب كل العجب من يلزم ذلك الورثة من حكام العصر ويعمل بالوصية بذلك، مع قول الأصحاب: لا تنفذ الوصية، حيث لا حاجة إليه، أفاده ابن أبي زهرة في «تعليقة له على روضة الطالبين» (١/ ٦٥٣، ط. دار الكتب العلمية).

(٤) نقله عنه ابن حجر الهيتمي في «تحفة المتحاج» (٣/ ١٩٨ ـ مع «حواشي الشرواني والعبادي»).

(٥) أخرجه مسلم (٩٧٠).

(٦) انظر: «المفهم» (٢/ ٦٢٦).

(٧) انظر: «المقدمات الممهدات» (١٧٤)، و«البيان والتحصيل» (٢/ ٣٤٨)، كلاهما لابن رشد.

وهيَ[١] من بدع أهل الطَّول، أحدثوه إرادةَ الفخرِ والمباهاةِ والسُّمعةِ، وهو مما لا اختلاف فيه.

وقال الزيلعي في «شرح الكنز»: «ويكره أن يبنى على القبر»[٢] وذكر قاضي خان: «إنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه؛ لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر[٣]، والمراد بالكراهة عند الحنفية رحمهم الله كراهة التحريم، وقد ذكر ذلك[٤] ابن نجيم في «شرح الكنز»، وقال الشافعي رحمه الله: «أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس»[٥]، وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مراده بالكراهة كراهة التحريم.

قال الشارح رحمه الله: «وجزم النووي رحمه الله في «شرح المهذب»[٦] بتحريم البناء مطلقاً، وذكر في «شرح مسلم»[٧] نحوه أيضاً، وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار، كـ«المغني» و«الكافي» [وغيرهما، ـ رحمه الله تعالى ـ][٨]: «ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور، لأن النبي ﷺ، قال: «**لعن الله اليهود والنصارى**»[٩] الحديث، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات واتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها». انتهى[١٠].

قال شيخ الإسلام [ابن تيمية][٨] رحمه الله: «أما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة. انقلبت تربتها أو لم تنقلب، ولا فرق بين أن يكون بينه و[بين الأرض][١١] حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي ﷺ لعن الذين

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «وهو».

(٢) انظر: «تبيين الحقائق» (١/ ٢٤٦). والمنع مشهور جدّاً في كتب الحنفية، انظر: «المبسوط» (٢/ ٦٢)، «بدائع الصنائع» (١/ ٣٢٠)، «تحفة الفقهاء» (٢/ ٢٥٦)، «حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح» (٣٣٥)، «البحر الرائق» (٢/ ١٩٤)، «الفتاوى الهندية» (١/ ١٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٠) من حديث جابر.

(٤) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٥) نقله الروياني في «بحر المذهب» (٣/ ٣٢٢) عن الشافعي، ثم وجدته في كتابه«الأم» (١/ ٢٧٨).

(٦) هو «المجموع» (٥/ ٢٧٠).

(٧) (٧/ ٣٧).

(٨) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد».

(٩) سبق تخريجه.

(١٠) انظر: «المغني» (٢/ ٥٠٨).

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بينه وبينها».

اتخذوا قبور أنبيائهم[١] مساجد[٢]، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة، فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد[٣] بني عليه مسجد فلا يصلى في هذا المسجد، سواء كان[٤] خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب، لأن النبي ﷺ قال: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[٥]، وخص قبور الأنبياء [والصالحين][٣] لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم واتخاذها [مساجد][٣] أشد.

وكذلك إن لم يكن بني عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»[٦]، وإن كان موضع قبر أو قبرين[٧]، وقد تقدم عن علي أنه قال: «لا أصلي في حمام ولا عند قبر»[٨]، فعلى هذا [ينبغي أن][٩] يكون النهي متناولاً تحريم القبر وبنائه[١٠] ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور، أو كان مكشوفاً»[١١].

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق، فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بيَّنوا أن علة النهي ما يؤدِّي إليه ذلك من الغلوِّ فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع، والله المستعان.

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «الأنبياء».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) من مطبوع «الفتح»، وسقط من الأصل.
(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «صلى»!
(٥) مضى تخريجه.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها، لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر».
(٨) انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١/ ٤٠٥)، «الأوسط» لابن المنذر (٢/ ١٨٣).
(٩) غير موجود في مطبوع «الفتح».
(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وفنائه».
(١١) انظر: «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (٢/ ٦٧٢).

وقد حدث بعد الأئمة الذين[١] يعتد بقولهم الناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلُظَ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت[٢] الانقياد، وغيروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراده، فقال بعضهم: النهي عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة والنهي عن الصلاة فيها لتنجّسها بصديد الموتى[٣]، وهذا كله باطل من وجوه[٤]:

منها: إنه من القول على الله بلا علم، فهو[٥] حرام بنص الكتاب.

ومنها: إنّ ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه[٦] وما المانع له أن يقول: من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله؟ ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي ﷺ لم يبين العلة، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة، وهذا باطل قطعاً وعقلاً وشرعاً لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصَّر في البلاغ، وهذا من أبطل الباطل، فإن النبي ﷺ بلّغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد[٧]، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

ويقال أيضاً: هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يعمُّ الأنبياء وغيرهم، فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء لكون أجسادهم طرية، لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»[٨].

التاسع: قوله: (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله):

---

(١) في مطبوع «الفتح»: «ومن».
(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واهنت»!
(٣) في مطبوع «الفتح»: «الأموات».
(٤) في مطبوع «الفتح»: «لوجوه».
(٥) في مطبوع «الفتح»: «وهو».
(٦) غير موجود في مطبوع «الفتح».
(٧) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «واحد»!
(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٣٩٧ ـ ٤٠٤).

روى مالك في «الموطأ» أن رسول الله ﷺ، قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[١].

هذا الحديث رواه مالك مرسلاً، والبزار[٢] موصولاً.

قوله: «رواه مالك في «الموطأ»» هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وأحد المتقنين للحديث، حتى قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين، وقيل: أربع وتسعين، وقال الواقدي بلغ تسعين سنة.

قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**» قد استجاب الله دعاءه، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

فأجاب ربُّ العالمينَ دُعاءَه ... وأحاطَهُ بثلاثةِ الجُدرانِ
حَتَّى غَدَت[٣] أرجاؤه بدعائِه ... في عِزَّةٍ وحِمَايةٍ وصِيَانِ[٤]

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثناً، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس، فلا يوصل إليه، ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره[٥] العابد من القبور والتوابيت التي عليها، وقد عَظُمَتْ الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد الله بن مسعود: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس يتخذونها سنة إذا غيرت؛ قيل: غيرت السنة»[٦]. اهـ[٧].

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ، قال ابن وضاح: «سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البزار في «المسند» (رقم ٤٤٠ ـ «كشف»). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٨): «رواه البزار وفيه عمر بن صهبان وقد أجمعوا على ضعفه» وعزاه الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٤٢) إلى البزار من طريق عمر بن محمد القمري وصححه، وسبق بيان ذلك، والحمد لله وحده.

(٣) في مطبوع «النونية»: «اغتدت».

(٤) انظر: «الكافية الشافية» (ص٢٩٢).

(٥) في مطبوع «الفتح»: «يباشر».

(٦) سبق تخريجه.

(٧) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٤٠).

النبي ﷺ، فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة»[١].

وقال المعرور بن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة في المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها»[٢].

وفي «مغازي ابن إسحاق» من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة بن دينار حدثنا أبو العالية قال: «لما فتحنا تُسْتَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب قرأته مثل ما أقرأ القرآن فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان الليل دفناه وسوَّينا القبور كلها لنعمِّيه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض»[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به[٤]، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله»[٥].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارع قصدها، فهو من المنكرات وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها[٦] أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) بعدها في مطبوع «الفتح»: «ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به».
(٥) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٢).
(٦) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

عندها[١] أو لينسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي[٢] لم يشرع تخصيصها به، لا نوعاً ولا عيناً، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها، كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنة[٣].

وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره فهذا هو المنهي عنه»[٤]. اهـ. ملخصاً.

قوله: **«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** فيه[٥] تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر و[في «القرى»][٦] للطبري عن[٧] أصحاب مالك عن مالك «أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، وعلل ذلك بقوله: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»** الحديث، كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر، لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سدّاً للذريعة»[٨].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومالك قد أدرك التابعين وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ. . .» إلى أن قال: «وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريدون[٩] به الزيارة البدعية، وهو[١٠] قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة، فكره[١١] مالك

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «فيها».

(٢) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل. (٣) في مطبوع «الفتح»: «السنة به».

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨١ ـ وما بعدها).

(٥) في مطبوع «الفتح»: «ففيه».

(٦) من مطبوع «الفتح» وبدله بياض في الأصل!

(٧) في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».

(٨) انظر: «القِرى لقاصد أم القرى» (٦٢٩)، «الصارم المنكي» (٢٩٠)، «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٤٢)، «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٣٩، ٣٥٥، ٢٧/ ٣٠١، ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، «المدخل» (١/ ١٦٢) لابن الحاج، «الشفا» (٢/ ٦٦٧)، «غاية الأماني» (١/ ١٧٨) للآلوسي. والحديثان مضى تخريجهما.

(٩) في مطبوع «الفتح»: «يريد». (١٠) في مطبوع «الفتح»: «وهي».

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وكره»!

أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد بخلاف الصلاة عليه والسلام[١]، فإن ذلك مما أمر الله به.

أما لفظ الزيارة في عموم القبور؛ فلا يفهم منها مثل هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله: «**فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**»[٢]، مع زيارته لقبر أمه[٣]؟ فإن هذا يتناول قبور الكفار، فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع، بخلاف ما إذا كان المزور معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيراً ما يُعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية، فلهذا كره مالك ذلك في مثل[٤] هذا وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة»[٥]. اهـ.

وفيه: «إن النبي ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه». ذكره المصنف رحمه الله[٦]

وقوله «عن سفيان»؛ الظاهر أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري[٧]، أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهداً، وله أتباع يتفقهون على مذهبه، مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة.

قوله: «عن مجاهد» هو ابن جبر بالجيم والموحدة، أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة إمام في التفسير، أخذه[٨] عن ابن عباس وغيره، مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان، وقال ابن حبان[٩]: مات سنة اثنتين أو ثلاثة

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «بخلاف الصلاة والسلام عليه».

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة بلفظ: «**نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**». وبرقم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة بلفظ: «**فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**». واللفظ المذكور لابن ماجه (١٥٧١)، وابن حبان (٩٨١) من حديث ابن مسعود.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٧٦) من حديث أبي هريرة.

(٤) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/٣٥٨)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٦٢).

(٦) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٠٥ ـ ٤١٠).

(٧) هو أوثق الناس في منصور الذي روى هنا، ومنصور يروي عنه السفيانان: الثوري وابن عيينة، وروايتها عنه في «الصحيحين». وأورد ابن جرير أثر مجاهد من طرق عدة عن سفيان، رواه عنه من طريق مؤمل ومهران بن أبي عمر الرازي وعبد الرحمن بن مهدي، ومؤمل ومهران لا يرويان إلا عن الثوري، فصح ما استظهره صاحب «فتح المجيد».

(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «أخذ».

(٩) في كتابه «الثقات» (٥/ ٤١٩).

ومائة وهو ساجد، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر»[١].

قلت: وفي الباب حديث أبي هريرة، وحديث حسان بن ثابت، أما[٢] حديث أبي هريرة، فرواه أحمد والترمذي وصححه[٣].

قلت: ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصاً بالرجال، خص بقوله: «**لعن الله زوارات القبور**»[٤] الحديث، فيكون من العام المخصوص، قوله: «والسرج» قال أبو محمد المقدسي: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يُلعن من فعله، لأن فيه تضييعاً للمال في غير ما[٥] فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام.

قوله: «رواه أهل «السنن»» يعني: أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط[٦].

قوله: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك).

الجناب: هو الجانب، والمراد حمايته عما يقرب إليه[٧] ويخالطه من الشرك وأسبابه.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ إلى آخره»، قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله[٨] ﷺ في حق

---

(١) من «فتح المجيد» (١/ ٤١١ ـ ٤١٢) بتصرف.

(٢) في مطبوع «الفتح»: «فأما».

(٣) يريد حديث: «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور». أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، والطيالسي (٢٣٥٨)، والترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وأبو يعلى (٥٩٠٨)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» (٣٠٦)، وابن حبان (٣١٧٨)، والبيهقي (٤/ ٧٨) **وإسناده حسن**، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وصححه البغوي (٢/ ٤١٧)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٦٠). وأما حديث حسان بن ثابت، فقد أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، وأحمد (٣/ ٤٤٣)، وابن ماجه (١٥٧٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٠٧١)، والطبراني (٣٥٩١، ٣٥٩٢)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» رقم (٣٠٨)، والحاكم (١/ ٣٧٤)، والبيهقي (٤/ ٧٨) بسندٍ فيه عبد الرحمن بن بهمان، لم يوثقه غير ابن حبان، ولم يرو عنه سوى عبد الله بن عثمان بن خُثيم، ولذا قال ابن المديني: «لا نعرفه»، **إلا أن الحديث حسن**.

(٤) انظر: الهامش السابق.

(٥) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٦) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤١٣ ـ ٤٢١) بتصرف.

(٧) في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «منه».

(٨) في مطبوع «الفتح»: «رسوله».

أمته أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبيَّن لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها واليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث(١)»(٢).

العاشر: قوله: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»**(٣)، قال شيخ الإسلام: «أي: لا تعطِّلُوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحرِّي العبادة في البيوت ونهى عن تحرِّيها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة. وفي «الصحيحين» عن ابن عمر مرفوعاً: **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»**(٤). وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر مرفوعاً: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه(٥)»**(٦).

قوله: **«ولا تجعلوا قبري عيداً»**، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً(٧)؛ إما يعود السنة أو يعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك»(٨).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «العيد: ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان مأخوذ من المعاودة أو الاعتياد، فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة [أو لغيرها](٩)، كما كان المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام [التعبد فيها](١٠) عيداً. وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم

---

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «الباب».
(٢) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٥) بتصرف.
(٣) مضى تخريجه.
(٤) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).
(٥) أخرجه مسلم (٧٨٠)، والترمذي (٢٨٨٠).
(٦) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٧).
(٧) في مطبوع «الفتح»: «عائد».
(٨) انظر: «الاقتضاء» (١/ ٤٤١).
(٩) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وغيرها».
(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدله في الأصل: «العيد فيه»!

عن[1] أعياد المشركين المكانية بالكعبة[2] ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر»[3].

قوله: «**وصلوا عليّ[4] فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[5]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قُربكم من قبري وبُعدكم، فلا حاجة بكم[6] إلى اتخاذه عيداً[7]»[8].

[قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**»[4]. تقدم في كلام شيخ الإسلام في معنى الحديث قبله. اهـ][9].

قوله: «وعن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**»[4]، رواه في «المختارة».

هذا الحديث والذي قبله جيدان حَسَنا الإسنادين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط»[10]. اهـ[11].

الحادي عشر: «قوله: علي بن الحسين» أي: ابن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم، قال الزهري: «ما رأيت قرشياً أفضل منه». مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح، وأبوه الحسين سبط رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة.

قوله: «إنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجة». بضم الفاء وسكون الراء، وهي

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «من».
(٢) في مطبوع «الفتح»: «الكعبة». (٣) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٩).
(٤) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل. (٥) مضى تخريجه.
(٦) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «لكم».
(٧) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٧).
(٨) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧).
(٩) غير موجود في «مطبوع «فتح المجيد».
(١٠) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٠).
(١١) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩) بتصرف.

الكُوة في الجدار والخوخة ونحوهما[١].

قوله: «فيدخل فيها فيدعو فنهاه» هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما علمت أحداً رخّص فيه، لأن ذلك[٢] من اتخاذه عيداً، ويدل أيضاً على[٣] أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه، لأن ذلك لم يشرع. وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك. قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل[٤].

وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة أو الدعاء[٥] فلم يشرعه لهم بل نهاهم عنه[٣] في قوله: **«لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني»**[٦]، فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذ[٧] كانت عائشة فيها وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه[٨] لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء[٩] لأنفسهم ولا لغيرهم ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث أو أنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم، فأضلهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدِّثهم في الظاهر وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر، ويظنون

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «عندها»!
(٢) بعدها في مطبوع «الفتح»: «نوع». (٣) غير موجود في مطبوع «الفتح».
(٤) انظر كلام الإمام مالك في: «المدخل» (١/ ٦٢) لابن الحاج.
(٥) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «والدعاء»!
(٦) مضى تخريجه. (٧) في مطبوع «الفتح»: «إذا».
(٨) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «عليه».
(٩) في مطبوع «الفتح»: «لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء».

أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلّمهم، وأن روح الموتى تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود أن الصحابة لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلّم عليه[١] إذا قدم من سفره كما كان ابن عمر يفعله، قال عبيد الله بن عمر عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف[٢]. قال عبيد الله: ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر، وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة فكان بدعة محضة[٣]. وفي «المبسوط»: قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يسلم ويمضي. ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره[٤].

وبالجملة، فقد[٥] اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟»[٦].

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها،

---

(١) من مطبوع «الفتح» وسقطت من الأصل.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦٧٢٤) وابن بطة في «الإبانة» بإسناد صحيح، كما في «الاقتضاء» (٢/ ٦٦٣)، وسعيد بن منصور في «السنن»، كما في «الاقتضاء» أيضاً (٢/ ٧١٨)، ومالك في «الموطأ» (باب الصلاة، رقم ٢٤٤ ـ رواية يحيى، ورقم ٥٠٦ ـ رواية أبي مصعب الزهري، وص١٤٥ ـ رواية سويد ص٣٣٤ ـ رواية محمد بن الحسن)، وعنه القاضي إسماعيل في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (٩٨) بغير هذا اللفظ ولفظ يحيى بن يحيى مُعلّ، بسط ذلك ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص٥٦١ ـ ٥٦٢، ٦٤٩، ٦٥٨ ـ ٦٦١ ـ بتحقيقي)، وانظر ـ لزاماً ـ: «الاستذكار» (٦/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣)، و«التمهيد» (١٧/ ٣٠٤)، و«البيان والتحصيل» (١٨/ ٦٠٤) لابن رشد، و«الصارم المنكي» (١١٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٩٦).

(٤) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «يستدبرها».

(٥) في مطبوع «الفتح»: «قد».

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٣٠).

وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رحمه الله - أعني: من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها[(١)] اختلاف العلماء، فمن مبيح لذلك كالغزالي وأبي محمد المقدسي ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي محمد الجويني[(٢)] والقاضي عياض، وهو قول الجمهور، نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة وهو الصواب، لما في «الصحيحين» عن أبي سعيد عن النبي ﷺ، قال: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[(٣)]. فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نفياً.

وجاء في رواية بصيغة النهي، فتعين أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصحابة المنع، كما في «الموطأ» و«المسند» و«السنن»، عن بصرة[(٤)] بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة وقد أقبل من الطور: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تُعْمَل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[(٥)]. وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في «أخبار المدينة» بإسناد جيد عن قَزَعَة قال: «أتيت ابن عمر، فقلت: إني أريد الطور، فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، فدع عنك الطور ولا تأته»[(٦)].

---

(١) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل!

(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الجوني»!

(٣) أخرجه البخاري (١١٩٧)، ومسلم (٨٢٧).

(٤) كذا رواية مالك وغيره، وصوابه «لقيتُ أبا بصرة...» بيّن ذلك ابن عبد البر، كما سيأتي في التخريج، وهو كذلك عند أحمد في الموطن الثاني، ومن طريقه الطبراني (٢١٦١).

(٥) أخرجه مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة، باب الصلاة رقم (٩٣)، - ومن طريقه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٩٤)، والطحاوي في «المشكل» (٥٨١، ٥٩٠)، وابن حبان (٢٧٧٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٢٣٧)، والضياء في «فضائل بيت المقدس» (٣) -، وأحمد (٦/ ٧، ٣٩٧ - ٣٩٨)، والنسائي (٣/ ١١٣)، والحميدي (٩٤٤)، والفسوي (٢/ ٢٩٤)، والطيالسي في «المسند» رقم (١٣٤٨)، **وإسناده صحيح على وهم فيه**، بيّنه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٣/ ٣٨)، و«الاستيعاب» (٢/ ٣٩ - ٤٠).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٣٦٥)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ١٣٥)، وأحمد (٣/ ٤٥) وهو مختصراً عند مسلم (٨٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٢٧٩١)، والطحاوي في «المشكل» (٥٧٨).

فابن عمر وبَصْرة بن أبي بصرة جعلا الطور مما نُهي عن شد الرحال إليه.

لأن اللفظ الذي ذكراه في[١] النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القُربة، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصّاً بالمساجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث، والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة، فإن الله سماه (الوادي المقدس)، و(البقعة المباركة) وكلم كليمه موسى ﷺ هناك.

وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الأخنائي[٢] فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث [الصحيحة][٣] وأخذ به العلماء[٤] وقياس الأولى، لأن المفسدة في ذلك ظاهرة.

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال ولا مزية تدعو إليه. وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب «الصارم المنُكي» في ردّه على السبكي، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ، وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه مع أنها لا تدل على محل النزاع، إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة.

قوله: «رواه في «المختارة»»، «المختارة»: كتاب جمع فيه مؤلِّفُه الأحاديثَ الجياد الزائدة على «الصحيحين». ومؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام، قال الذهبي: «أفنى عمره في

---

(١) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «ذكر فيه»!

(٢) اسمه «الاستغاثة في الرد على البكري» طبع مرات، وحققه غير واحد كل على حدة، منهم عبد الله السهيلي عن دار الوطن في مجلدين، ومحمد عجال عن الغرباء في مجلدين، وطبع قديماً دون تحقيق.

(٣) غير موجود في مطبوع «فتح المجيد».

(٤) بعدها في مطبوع «الفتح»: «وفي «الجواب الباهر» الذي نقل عنه ابن عبد الهادي ـ رحمه الله تعالى ـ».

هذا الشأن مع الدين المتين والورع والفضيلة التامة والإتقان، فالله يرحمه ويرضى عنه»[(١)]. وقال شيخ الإسلام: «تصحيحه في «مختارته»[(٢)] خير من تصحيح الحاكم بلا ريب»[(٣)]. مات سنة ٦٤٣[(٤)].

باب قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

قال (ك): «قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ﴾ أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم[(٥)] متصفون بهذه الصفات [المفسرة بقوله تعالى][(٦)]: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ روى سفيان الثوري[(٧)] عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لا يهلك قوماً ـ أو قال: إن الله لم يمسخ قوماً ـ فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك**»[(٨)] وقد رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ﴾ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، وقرئت قراءات أخرى[(٩)] يرجع معناها كلها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا

---

(١) انظر: «السير» (٢٣/ ١٢٦).
(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «مختاراته»، وطبع القسم الموجود من الكتاب!
(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٥).
(٤) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٣٠ ـ ٤٣٦).
(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «القصيرة، فقوله».
(٧) بينه وبين ابن مسعود مفاوز، وهذا تصرف من المصنف لحذف السند بعبارة غير دقيقة، فالذي عند ابن كثير: «وقد قال سفيان الثوري: عن علقمة بن مرثد عن المغيرة بن عبد الله عن المعرور بن سويد عن ابن مسعود..» وساق الحديث، ثم قال: «وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومسعر كلاهما عن مغيرة بن عبد الله اليشكري به».
(٨) أخرجه مسلم (٢٦٦٣)، وأحمد (١/ ٤١٣).
(٩) مثل: «وعَبَدَ الطاغوتِ» و«عَبَدَ الطاغوتَ» و«عَبُدِ الطاغوتِ» و«عبدوا الطاغوتَ» و«من عبدوا الطاغوت» و«عَبْدَ الطاغوتِ» و«عَبَدَةَ الطاغوت» و«عَبْدَ الطاغوتَ» و«عُبِدَ الطاغوتُ» و«عُبِدَت الطاغوتُ» و«عَبَدَةُ الطاغوت» و«عُبُدَ الطاغوتِ» و«عبادة الطاغوت» و«عُبَّدَ الطاغوتَ» و«عُبِّد الطاغوتُ» وكثير من هذه القراءات شاذة، انظر توثيقها مع توجيهها في: =

الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وقد وجدت فيكم جميع أنواع عبادة الطاغوت؟ ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي: مما تظنون بنا، ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر[١] مشاركة، كقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٌ مُّسۡتَقَرًّا وَأَحۡسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤]»[٢].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يذم فاعله، لأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**»[٣]. أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم[٤].

الثاني عشر: قوله: عن أبي سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**». قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**». أخرجاه[٥]، وهذا سياق مسلم.

قوله: «**سَنَن**» بفتح المهملة، أي طريق من كان قبلكم، قال المهلَّب: «الفتح أولى»، قوله: «**حذو القذة بالقذة**» بنصب «**حذو**» على المصدر و(**القُذَّة**) بضم القاف واحدة القذذ[٦] وهو ريش السهم، أي: لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة وقد وقع كما أخبر، وهو عَلَمٌ من أعلام النبوة، قوله: «**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»[٥] وفي حديث آخر: «**حتى لو كان فيهم من يأتي أمه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك**»[٧]. أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئاً مما كان

= «معجم القراءات» (٢/ ٣٠١ ـ ٣١١).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «الطرق الأخرى»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٣ ـ ٢٧٥) بتصرف.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٣٩، ٤٤٢) بتصرف.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) في مطبوع «الفتح»: «القذاذ».

(٧) قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨)، والعقيلي (٢/ ٢٦٢)، وابن نصر المروزي في «السنة» رقم (٦٢)، وابن وضاح في «البدع» رقم (٢٧٠)، والآجري في «الشريعة» (ص١٥ ـ ١٦)، و«الأربعين» رقم (٣)، والتيمي في «الحجة» رقم =

يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً، ولهذا قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى»[١].

قلت: فما أكثر الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في حديث ثوبان الآتي قريباً، قوله: «قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**» هو برفع (اليهود) خبر مبتدأ محذوف، أي: أهم اليهود والنصارى الذي نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف، تقديره: تعني اليهود[٢]؟ قوله: «قال: **فمن؟**» استفهام إنكاري، أي: فمن هم غير أولئك؟»[٣].

الثالث عشر: قوله: «ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة وأن لا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيسْتَبيحَ بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**»، ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق**

= (١٦، ١٧)، واللالكائي في «السنة» رقم (١٤٧)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ٢٦٥)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٦) من حديث عبد الله بن عمرو، ومن حديث أخرجه الدولابي في «الكنى» (٢/ ٣٠)، والحاكم (٤/ ٤٥٥) من حديث ابن عباس، **هو بهما ـ إن شاء الله تعالى ـ حسن**. وحسنه شيخنا الألباني. انظر: «الصحيحة» تحت (١٣٤٨) ونبه على أنه وقع محرفاً في «المستدرك» في حديث ابن عباس «امرأته» بدل «أمّه»، فلتنتبه لذاك، تولى الله هداك.

(١) نقل هذا الأثر ابن تيمية في «الاقتضاء» (١/ ٦٧).

(٢) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٣) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤) بتصرف.

منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»[١].
هذا الحديث رواه أبو داود في «سننه» وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف.

قوله: «عن ثوبان» هو مولى النبي[٢] ﷺ، صَحِبه ولازمه ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين، قوله: **«زوى لي الأرض»**، قال التوربشتي: «زَوَيْتُ الشيء: جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب»[٣]. وحاصله أنه طوى الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره، قال الطيبي: «أي: جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها»[٤].

قوله: **«وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها»**، قال القرطبي: «هذا الخبر وجد مخبره كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة [بالنون والجيم][٥]، الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما [هو][٦] وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد[٧] السند والهند والصغد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه»[٨][٩].

قال محمد تقي الدين: هذا خطأ، فإن طنجة هي أول عمارة المغرب، وآخرها نهاية شنقيط عند حدود السنيغال، وكيف يرتكبه القرطبي وبلده قرطبة طال ما كان مع المغرب دولة واحدة وليس بين قرطبة وطنجة إلا نحو مائتي ميل. وكان القرطبي متبحراً في علوم كثيرة، ولكنه في تخطيط البلدان أبدى غاية الضعف، والكمال لله. اهـ.

---

(١) سبق تخريجه قريباً.
(٢) انظر: «الفخر المتوالي فيمن انتسب للنبي ﷺ من الخدم والموالي» للسخاوي (رقم ٣٢ ـ بتحقيقي).
(٣) وهو في «شرح الطيبي على المشكاة» (١١/ ٣٦٣٧).
(٤) «شرح الطيبي على المشكاة» (١١/ ٣٦٣٧).
(٥) غير موجود في مطبوع «المفهم»، وهو كذلك في مطبوع «الفتح».
(٦) غير موجود في مطبوع «المفهم».
(٧) من مطبوع «المفهم»، وسقط من «فتح المجيد» والأصل.
(٨) انظر: «المفهم» (٧/ ٢١٧).
(٩) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٦).

قوله: «**زوى لي منها**» يحتمل أن يكون مبنيّاً للفاعل، وأن يكون مبنيّاً للمفعول.

قوله: «**وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض**»، قال القرطبي: «يعني به كنز كسرى وهو مَلِك الفرس، وكنز[1] قيصر وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما [وقد قال ﷺ][2]: «**والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[3] وعبّر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة، [ووجد ذلك في خلافة عمر][4]، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر»[5]. والأبيض والأحمر، منصوبان على البدل.

قوله: «**وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**» هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله «بعامة» بالباء، وهي رواية صحيحة في «صحيح مسلم» وفي بعضها بحذفها، قال القرطبي: «وكأنها زائدة؛ لأن «عامة» صفة السنة[6]، والسنة[7] والجدب[8] الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط: سنة، ويجمع على سنين، كما قال [تعالى]: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، أي: الجدب[9] المتوالي»[10].

قوله: «**من سوى أنفسهم**» أي: من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، كما هو مبسوط في التاريخ فيما قبل، وإلى[11] زماننا

---

(١) في مطبوع «المفهم»: «ومُلك».

(٢) في مطبوع «المفهم»: «وقد دلّ على ذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر حين أخبر عن هلاكهما:».

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٢٩) ومسلم (٢٩١٩) من حديث جابر بن سمرة، وهو عند البخاري (٦٦٣٠) ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة.

(٤) في مطبوع «المفهم»: «وقد ظهر ذلك ووجد كذلك في زمان الفتوح في خلافة عمر رضي الله عنه».

(٥) انظر: «المفهم» (٧/ ٢١٧).

(٦) في مطبوع «المفهم»: «صفة لسنة، فكأنه قال: بسنة عامة».

(٧) في مطبوع «المفهم»: «ويعني بالسَّنة». (٨) بعدها في مطبوع «المفهم»: «العام».

(٩) في مطبوع «المفهم»: «بالجدب». (١٠) انظر: «المفهم» (٧/ ١٢٧).

(١١) كذا في مطبوع «الفتح»، وبدلها في الأصل: «وفي»!

هذا، نسأل الله العفو والعافية، قوله: «**فيستبيح بيضتهم**»، قال الجوهري: «بيضة كل شيء: حوزته، وبيضة القوم: ساحتهم»[(١)] وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها، وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم وإن قلّوا.

قوله: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً**»، والظاهر أن «حتى» عاطفة أو تكون لانتهاء الغاية.

قال محمد تقي الدين: بل هي لانتهاء الغاية يقيناً، وقد سلط[(٢)] بعضهم على بعض كما هو الواقع وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم. قوله: «**وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد**» قال بعضهم: «إذا حكمتُ حُكماً مُبرماً نافذاً فإنه لا يُردُ بشيء، ولا يقدرُ أحد على رده» كما قال النبي ﷺ: «**ولا راد لما قضيت**»[(٣)].

قوله: «رواه البرقاني في «صحيحه»»، هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد الخوارزمي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة، قال الخطيب: «كان ثبتاً ورعاً[(٤)] لم نَرَ في شيوخنا أثبت منه[(٥)]، عارفاً بالفقه، كثير التصانيف صنف[(٦)] «مسنداً» ضمنه ما اشتمل عليه «الصحيحان»، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة»[(٧)]، وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه[(٨)].

---

(١) انظر: «الصحاح» (٣/١٠٦٨).
(٢) في مطبوع «الفتح»: «يسلط».
(٣) قطعة من حديث أصله عند البخاري (٨٤٤، ١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة دون هذه اللفظة، وأخرجه من حديثه بها: عبد الرزاق (١٩٦٣٨)، وعبد بن حميد (٣٠٩٨)، وابن خزيمة (٧٤٢)، والطبراني في «الدعاء» (٦٨٦) **وسنده صحيح**، وانظر: «الترغيب في الدعاء» للمقدسي (٨٠)، و«العلل» للدارقطني (٧/ ١٢١ ـ ١٢٤).
(٤) بعدها عند الخطيب: «متقناً متثبتاً فهماً».
(٥) بعدها عند الخطيب: «حافظاً للقرآن».
(٦) عند الخطيب: «... بالفقه، له حظ من علم العربية، كثير الحديث، حسن الفهم له، والبصيرة فيه، وصنَّف...».
(٧) انظر: «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٧، ط. دار الغرب).
(٨) سبق بيان ذلك، ولله الحمد والمنّة.

وروى في «سننه» أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح ويكثر الهرج**» قيل: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**القتل القتل**»(١).

قوله(٢): «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»، أي: الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم(٣) كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب ونحو(٤) هذا، وهذا هو الضلال البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، ومن هذا الضرب من يدّعي أنه يصل مع الله إلى حال تسقط [فيها عنه](٥) التكاليف، ويدّعي(٦) أن الأولياء يُدعون أو يستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وإنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم أو يجوّز بناء المساجد على قبور الأولياء(٧) والصالحين وإيقادها بالسرج، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله، فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

[وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون**»(٨)، رواه أبو داود الطيالسي. وعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»(٩)، رواه الترمذي](١٠)، وقد بيّن الله

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٥)، وهو عند البخاري (٢٠٦١)، ومسلم (١٥٧).
(٢) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «قال».
(٣) في مطبوع «الفتح»: «فيضلوهم». (٤) في مطبوع «الفتح»: «أو نحو».
(٥) بدلها في مطبوع «الفتح»: «عنهم». (٦) في مطبوع «الفتح»: «أو يدّعي».
(٧) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «الأنبياء».
(٨) أخرجه الطيالسي (٩٧٥ أو ١٠٦٨، ط. هجر)، وأحمد (٦/ ٤٤١)، والدارمي (٢١١) بإسناد فيه مجهول، **والحديث صحيح له شواهد**. انظر: «الصحيحة» (١٥٨٢)، والحديث الآتي.
(٩) أخرجه الترمذي (٢٢٢٩)، وأحمد (٥/ ٢٧٨، ٢٨٤) والدارمي (٢٠٩، ٢٧٥٢) والقضاعي (١١٦٦). **وإسناده صحيح**.
(١٠) غير موجود في مطبوع «الفتح».

تعالى في كتابه صراطَه المستقيم، الذي هو سبيل المؤمنين، فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ، فهو ملعون وحدثه مردود، كما قال ﷺ: «**من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً**»[١]، وقال: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[٢]، وقال: «**كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»[٣] وهذه أحاديث صحيحة.

ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها، وقد بيّن الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية: ١٨]، ونظائرها في القرآن كثيرة.

وعن زياد بن حُدير قال: قال لي عمر: «هل تعرف ما يهدم الإسلام»؟ قلت: لا، قال: «يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين»[٤]. رواه الدارمي.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧١) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والمروزي في «السنة» رقم (٦٩ ـ ٧٢)، والحاكم (١/ ٩٥) وهو قطعة من آخر حديث العرباض بن سارية، **وهو صحيح**، صححه جماعة من الحفاظ، وسيأتي بيان ذلك مع تخريج أوسع في (٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٤) أخرجه الدارمي في «السنن» رقم (٢٢٠)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (١٤٧٥)، والفريابي في «صفة المنافق» (ص٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٦)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٨٦٧، ١٨٦٩، ١٨٧٠)، والآجري في «تحريم النرد والشطرنج» رقم (٤٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٣٤)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٨٣٣)، واللالكائي في «السنة» رقم (٦٤١، ٦٤٣) من طرق عن عمر **بعضها إسناده صحيح**.

قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٦٦٢)، بعد أن ساق طرقه: «فهذه طرق يشدّ القوي منها الضعيف، فهي صحيحة من قول عمر رضي الله عنه، وفي رفع الحديث نظر، والله أعلم».

والأثر معزو لآدم بن أبي إياس في «العلم»، والعسكري في «المواعظ»، والبغوي والإسماعيلي ونصر المقدسي في «الحجة»، كما في «كنز العمال» رقم (٢٩٤٠٥، ٢٩٤١٢)، و«مسند الفاروق» (٢/ ٦٦٠ ـ ٦٦١).

وقال يزيد بن عَميرة[١]: كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا ويقول[٢]: «الله حكم قسط، هلك المرتابون. ـ وفيه ـ: فاحذروا زيغة الحكيم،

بالمشركين»[(١)]، والمعنى: إنهم[(٢)] يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ويلحقون[(٣)] بأهل الشرك.

قوله: «**حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**» (الفئام) [بكسر الفاء][(٤)] مهموز: الجماعات الكثيرة، قاله أبو السعادات[(٥)] وفي رواية أبي داود[(٦)]: «**وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان**» وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان، وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد.

فالتوحيد هو أعظم مطلوب والشرك هو أعظم الذنوب، وفي معنى هذا الحديث: ما في «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيَاتُ نساء دَوْسٍ على ذي الخَلَصة**» قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية[(٧)].

وروى ابن حبان عن معمر قال: «إن عليه الآن بيتاً مبنيّاً مغلقاً»[(٨)]، قال العلامة ابن القيم[(٩)] رحمه الله في قصة هدم اللات، لما أسلمت ثقيف: «فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، وكذلك[(١٠)] حكم المشاهد التي بنيت على القبور والتي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك[(١١)] والنذر، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم[(١٢)] شركاً عندها وبها، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم وصار[(١٣)] المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة،

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.
(٣) في مطبوع «الفتح»: «ولحوقهم».
(٤) غير موجود في مطبوع: «الفتح».
(٥) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٤٠٦).
(٦) سبق تخريجه.
(٧) أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).
(٨) أخرجه ابن حبان (٨/ ٢٦٤)، وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٧٩٥) **وإسناده صحيح**.
(٩) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٦).
(١٠) كذا في مطبوع «الفتح»، وفي الأصل: «وكذا».
(١١) في مطبوع «الفتح»: «للشرك».
(١٢) في مطبوع «الفتح»: «وأعظم».
(١٣) في مطبوع «الفتح»: «فصار».

وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العلماء وغلب السفهاء وتفاقم الأمر واشتد البأس و﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين»(١).

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع، وقال الحافظ: «وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله(٢) ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم(٣)، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر [قتله وحشي قاتل حمزة يوم أحد، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار](٤)، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر ﷺ، ونقل أن سجاح تابت أيضاً، ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، وأعان عليه فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه، ومنهم الحارث الكذاب(٥)، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل وخرج في خلافة بني العباس جماعة، وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً، فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته(٤) عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا، وقد أهلك الله تعالى من وقع له(٤) منهم ذلك، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر»(٦).

قوله: «**وأنا خاتم النبيين**»، قال الحسن، الخاتم(٧): الذي ختم به، يعني(٨):

---

(١) بعدها في مطبوع «الفتح»: «انتهى ملخصاً»، أي: من كلام ابن القيم في «الزاد».

(٢) في مطبوع «الفتح»: «النبي».

(٣) انظر أخبار هؤلاء ـ بالترتيب ـ في: «المتنبئون نشأتهم أصولهم نهايتهم» (٢٨، ٢٢، ٢٦، ٣٢)، و«عقيدة ختم النبوة» (١٧٥، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١).

(٤) غير موجود في مطبوع «الفتح».

(٥) هو ابن سعيد، وكان مولى لابن الجلاس. انظر أخباره في: «تلبيس إبليس» (٤٢٩)، «البداية والنهاية» (٩/٢٨)، «المتنبئون» (١٣٧)، «عقيدة ختم النبوة المحمدية» (٢٢٨).

(٦) انظر: «فتح الباري» (٦/٦١٧).

(٧) في مطبوع «الفتح»: «خاتم».

(٨) في مطبوع «الفتح»: «أي».

أنه آخر النبيين كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته، فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة، قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فليكْسِرنّ الصليب، وليقتُلنّ الخنزير، وليضعن الجزية»**[(١)].

قوله: **«ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»**، قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»[(٢)].

قال ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري وغيرهم: «إنهم أهل الحديث»[(٣)].

قال النووي: «يجوز أن تكون الطائفة جماعة[(٤)] متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله»[(٥)].اهـ. ملخصاً مع زيادة فيه، قاله الحافظ[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) أما رواية يزيد فأخرجها الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» رقم (٢٧)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٦).
وأما رواية أحمد فأخرجها الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٨)، والحاكم في «المعرفة» (٢)، وابن الجوزي في «المناقب» (٢٣٤)، **وإسناده صحيح**، كما قال الحافظ في «فتح الباري» (١٣/ ٢٩٣).

(٣) أخرج رواياتهم ـ على الترتيب ـ الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٧، ٥٠، ٤٩، ٥١).

(٤) من مطبوع «الفتح»، وسقط من الأصل.

(٥) انظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٣/ ٩٧ ـ ٩٨ ـ ط. قرطبة).

(٦) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٢٩٥).

قال القرطبي: «[وفيه دليل على أن الإجماع حجة، لأن[١] الأمة إذا اجتمعت فقد دخلت فيهم الطائفة المنصورة][٢]»[٣].

قال المصنف رَحِمَهُ الله: وفيه الآية العظيمة، أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وفيه البشارة[٤] بأن الحق لا يزول بالكلية، قلت: واحتج به الإمام أحمد[٥] على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة»[٦].

هذا ما قصدت إثباته من كتاب «التوحيد» و«شرحه»، رحمة الله على من ألفهما والحمد لله رب العالمين.

---

(١) في مطبوع «المفهم»: «وفي هذا الحديث دلالة على صحة الإجماع لأن...».
(٢) في مطبوع «المفهم»: «هذه العصابة المختصة».
(٣) انظر: «المفهم» (٣/ ٧٦٤).
(٤) في مطبوع «فتح المجيد»: «والبشارة» دون «فيه».
(٥) من مطبوع «الفتح» وسقط من الأصل.
(٦) انظر: «فتح المجيد» (١/ ٤٤٨ ـ ٤٥٩) بتصرف.

الموضوعات والمحتويات

الموضوع	الصفحة

سورة الكهف

سورة مريم

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الحج

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة النمل

سورة القصص

الموضوع **الصفحة**

سورة العنكبوت

سورة الروم

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة المؤمن

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

سبيل الرشاد

في

هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي

رحمه الله تعالى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

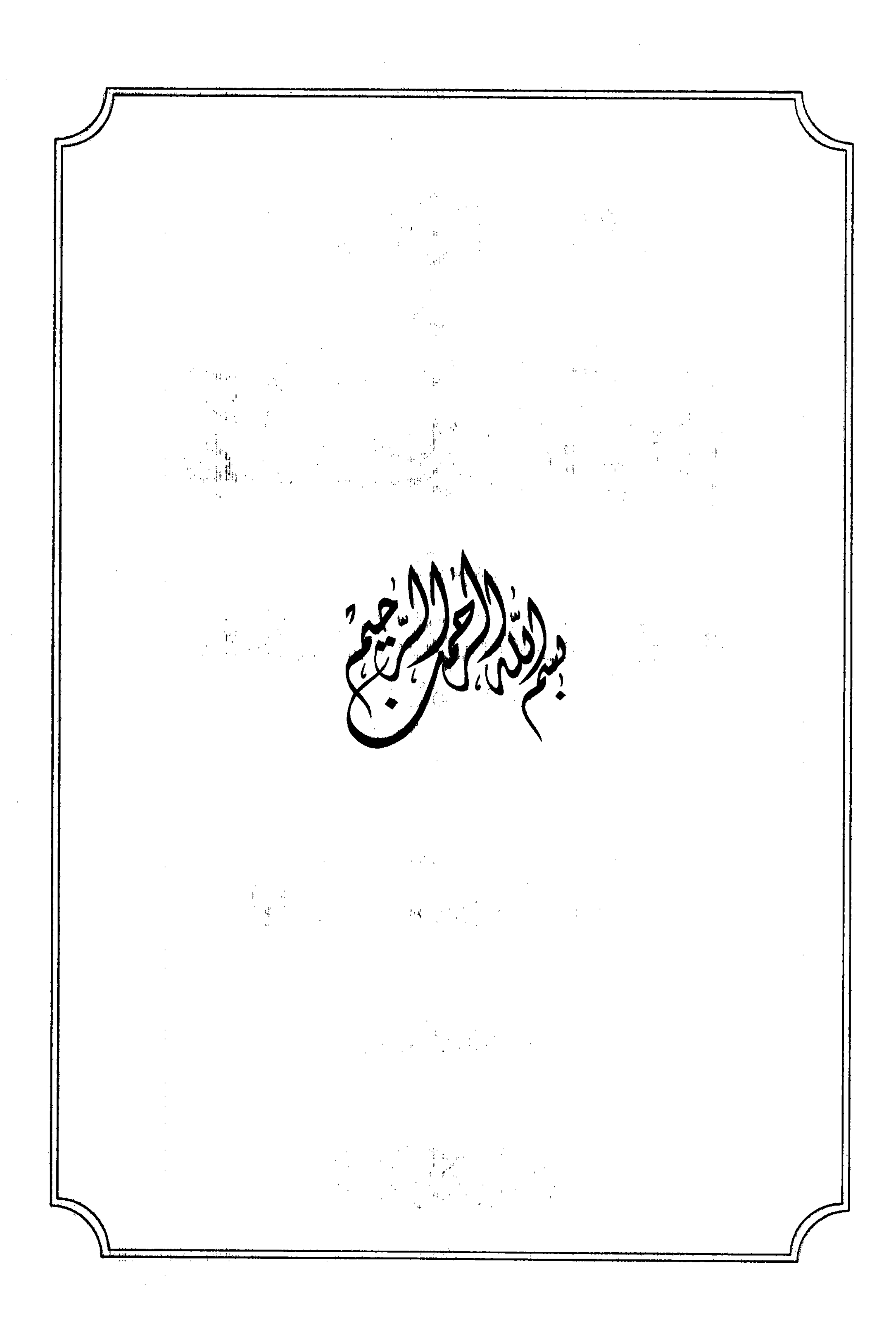
(١٨٩٣ - ١٩٨٧ هـ)

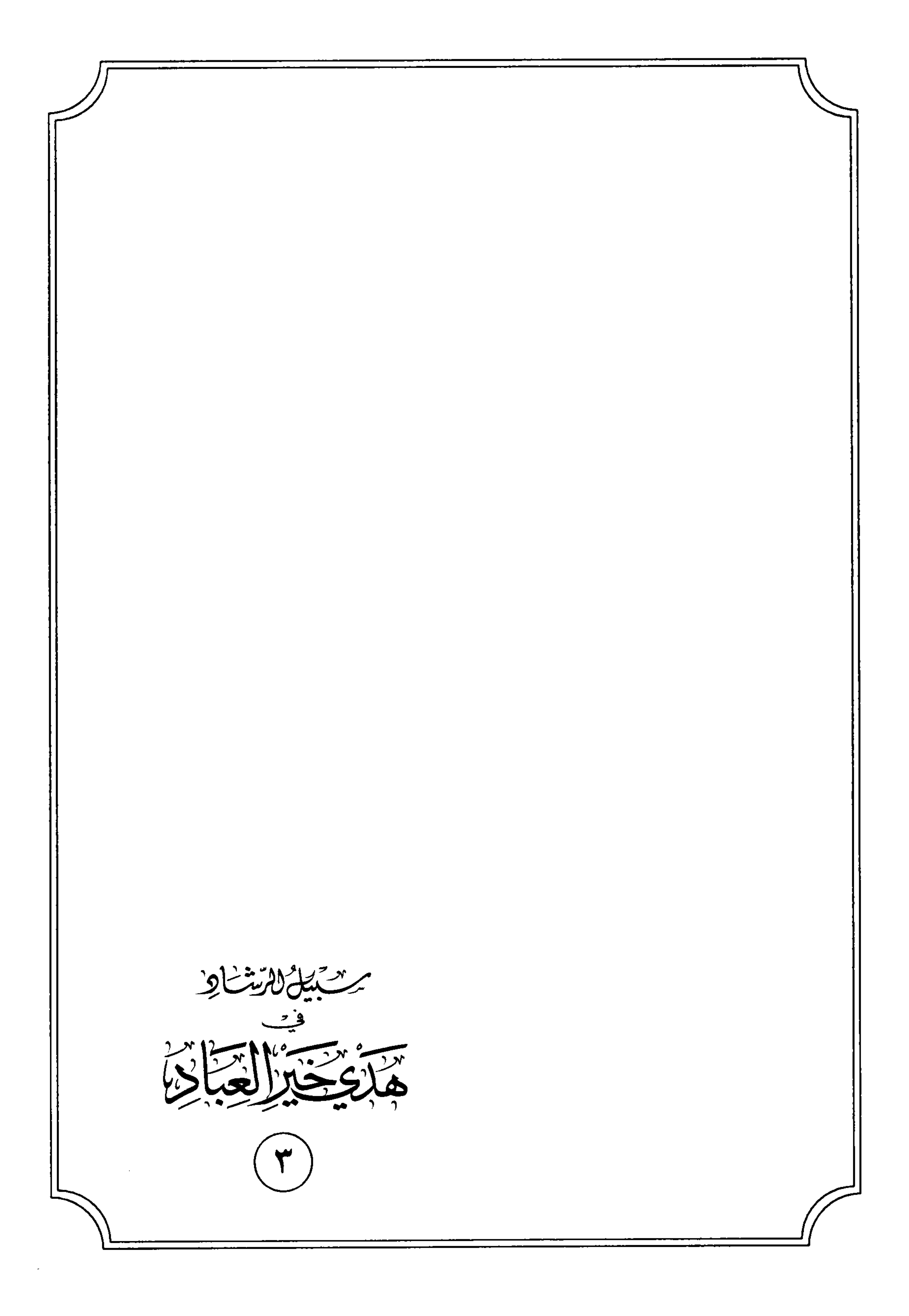
قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الثالث

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم



سبل الرشاد

في

هدي خير العباد

٣

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



عمان - الأردن - تلفاكس: ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢
خلوي: ٧٩٥٩٤٣٤٥٦/٠٠٩٦٢ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠
الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com

الحمد لله الذي أكرمنا بالإيمان برسوله وخليله محمد المبعوث رحمة للأنام، وهادياً العباد إلى دار السلام، لم يترك شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا دعا إليه وحثَّ عليه، ولا ترك شيئاً من شر الدنيا والآخرة إلا حذرنا منه ونبهنا عليه. اللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه وكل من اقتدى به.

أما بعد:

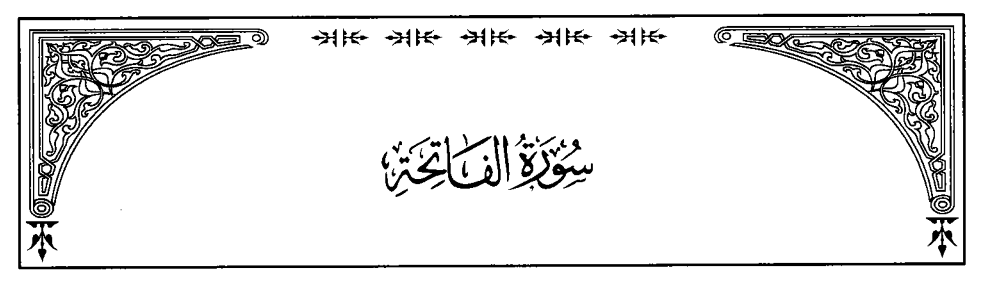
فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الكبير المتعالي **محمد تقي الدين بن عبد القادر الحسيني الهلالي**، عفا الله عنه، وغفر ذنبه وستر في الدارين عيبه: لقد منَّ الله عليّ وأعانني على إنجاز (القسم الأول) من كتاب «سبيل الرشاد»، وهو في (توحيد الربوبية والعبادة)، فجاء في (جزءين) يشتمل على (ثمان مائة وخمسين صفحة) تقريباً[(١)] وها أنذا أقف خاضعاً ذليلاً بباب الغني الكريم، أسأله من فضله أن يعينني على تأليف (القسم الثاني) ثم (القسم الثالث).

و(القسم الثاني) في (توحيد الاتباع) كما هو معلوم. والمراد: اتباع الكتاب والسنة في جميع أمور الدين، من عقيدة وأعمال وأخلاق ومعاملات.

---

(١) هذا في النشرة السابقة، أما في نشرتنا بعد التحقيق والتخريج والتوثيق، فهو يشتمل على أكثر من ألف صفحة.





قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ...﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخرها

أمر الله عباده أن يستعينوا به ولا يستعينوا بغيره، حين أمرهم أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ فلا يعبد إلا الله، ولا يستعان إلا بالله في كل موطن أو حال لا قدرة للمخلوق أن يعين فيها بسبب من الأسباب، كإنزال المطر وشفاء المريض، وتسهيل الولادة على من أخذها الطلق، وتفريج الكروب وشرح الصدور وهداية القلوب، ولذلك أمر عباده أن يقولوا في كل ركعة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ جاء في القرآن العظيم في مواضع كثيرة[(١)]، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وبالنسبة إلى هذه الأمة هو ما كان عليه رسول الله ﷺ في أمور الدين. أما أمور الدنيا، فللمسلم أن يتصرف فيها كما يريد في الحرث والتجارة والزراعة، فقد قال النبي ﷺ في قضية تلقيح النخل، حين نهاهم عنه فتركوه، ففسد التمر وصار شيصاً، فأخبر النبي ﷺ فقال: «**إذا حدثتكم عن الله فخذوا به، فإني لا أكذب على الله، وأنتم أعلم بأمور دنياكم**»[(٢)].

---

(١) انظرها في: الفاتحة: ٦، والبقرة: ١٤٢، ٢١٣، وآل عمران: ٥١، ١٠١، والنساء: ٦٨، ١٧٥، والمائدة: ١٦، والأنعام: ٣٩، ٨٧، ١٢٦، ١٥٣، ١٦١، والأعراف: ١٦، ويونس: ٢٥، وهود: ٥٦، والحجر: ٤١، والنحل: ٧٦، ١٢١، ومريم: ٣٦، والحج: ٥٤، والمؤمنون: ٧٣، والنور: ٤٦، وياسين: ٤، ٦١، والصافات: ١١٨، والشورى: ٥٢، والزخرف: ٤٣، ٦١، ٦٤، والفتح: ٢، ٢٠، والملك: ٢٢.

(٢) ورد نحوه في ثلاثة أحاديث كلها في «صحيح مسلم»: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، رقم (٢٣٦١، ٢٣٦٢، ٢٣٦٣):

الأول: من حديث موسى بن طلحة عن أبيه: قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على =

فكل مسلم يجب عليه أن يتبع رسول الله ﷺ في جميع أمور دينه بلا زيادة ولا نقصان، ولا يجوز له أن يتبع فرقة بعينها قد اتخذت لها طريقاً خاصًّا تتعصب له: توالي له وتعادي له وتعطي وتمنع لأجله وتحب وتبغض بسببه، وتخالف القرآن وصحيح الحديث إذا لم يتفق مع أصولها وما خطه لها رؤساؤها، ولذلك قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. والمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى.

وقد أخبر النبي ﷺ أن بعض هذه الأمة المحمدية يتبع سنن اليهود، وبعضهم يتبع سنن النصارى، وبعضهم يتبع سنن المجوس، وبعضهم يتبع سنن المشركين عبدة الأوثان، ولا ينجو من ذلك أحد إلا من اتبع الكتاب والسنة الصحيحة بلا زيادة ولا نقصان، وكان في اعتقاده وأعماله الدينية كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، ويلزم من ذلك أن لا يتقيد بمذهب أو طريقة أو نحلة من النحل. قال الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني مؤلف كتاب «سبل السلام شرح بلوغ المرام» في «القصيدة الدالية» التي أرسل بها إلى الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب الدرعي ومطلعها:

سلامي على نجد ومَنْ حلَّ في نجدٍ ... وإنْ كان تسليمي من البُعْدِ لا يُجدي

والمراد نقله منها هو قوله:

ومـا كـلُّ قـولٍ بـالـقَـبـول مُـقَـابَـلٌ ... ولا كـلُّ قـولٍ واجـبُ الـردِّ والـطَّـردِ

= رؤوس النخل، فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟**» فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيتلقح، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أظن يغني ذلك شيئاً**» قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك؛ فقال: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنّاً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً، فخذوا به، فإني لن أكذب على الله ﷻ**».

والثاني: عن رافع بن خديج قال: قدم نبي الله ﷺ المدينة وهم يأبرون النخل ـ يقولون: يلقحون النخل ـ، فقال: «**ما تصنعون به؟**» قالوا: كنا نصنعه، قال: «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً**» فتركوه فنفضت أو فتعصت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: «**إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي، فإنما أنا بشر**».

والثالث: عن عائشة وأنس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ مرَّ بقوم يلقحون، فقال: «**لو لم تفعلوا لصلح**» قال: فخرج شِيصاً، فمر بهم فقال: «**ما لنخلكم؟**» قالوا: قلت كذا وكذا، قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**».

سوى ما أتى عن ربِّنا ورسولِه ... فذلك قول جل يا ذا[1] عن الردِّ
وأما أقاويلُ الرِّجالِ فإنَّها ... تدورُ على حسب[2] الأدلَّةِ في النَّقدِ

ومضى إلى أن قال:

«سلامي على أهل الحديثِ فإنَّني ... نشأتُ على حبِّ الأحاديثِ من مهدي
همُ بذلوا في حفظِ سنَّة أحمدَ ... وتنقيحِها مِنْ جهدهم غاية الجَهْدِ
وأعني بهم أسلاف سنة أحمد ... أولئك في بيت القصيدة هم قَصْدي
أولئك أمثال البخاري ومسلم ... وأحمد أهلُ الجَهدِ في العلم والجدِّ
بحور أحاشيهم عن الجزر إنما ... لهم مدد يأتي من الله بالمدِّ
رووا وارتووا من بحر علمِ محمدٍ ... وليس لهم تلك المذاهب من وردِ
كفاهم كتاب الله والسنة التي ... أتاهم بها صحب الرسول ذوو المجدِ
أأنتمُ أهدى من صحابةِ أحمد ... وأهل الكسا هيهات ما الشَّوك كالوردِ
أولئك أهدى في الطريقة منكمُ ... فهم قدوتي حتى أوسد في لحدي
وشتان ما بين المقلِّد في الهدى ... ومن يقتدي والضدُّ يعرف بالضدِّ
فمقتدياً كُنْ في الهدى لا مقلِّداً ... وخَلِّ أخا التَّقليدِ بالأسرِ في القدِّ
على ما جعلتم أيها الناس ديننا ... لأربعة لا شك في فضلهم عندي
هم علماءُ الدين شرقاً ومغرباً ... وهم عند ذكر الفضل واسطة العقدِ
ولكنهم كالناس ليس كلامهم ... دليلاً ولا تقليدهم في غدٍ يجدي
ومن قلَّد النعمان أصبح شارباً ... نبيذاً وفيه القولُ للبعض بالحدِّ»[3]

وقال الإمام الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١) في كتابه: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» بعد فاتحة الكتاب ما نصه: «أما بعد: فإن أولى ما يتنافس فيه المتنافسون وأحرى ما يتسابق في حلبة سباقه المتسابقون، ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلاً وعلى طريق هذه السعادة دليلاً، وذلك العلم النافع والعمل

---

(١) في مطبوع «عقيدة محمد عبد الوهاب»: «قدراً».
(٢) في مطبوع «عقيدة محمد عبد الوهاب»: «قدر».
(٣) ذكر بعض هذه الأبيات عثمان بن بشر النجدي في «عنوان المجد في تاريخ نجد» (١/ ٥٤ ـ ٥٥)، وأحمد بن حجر آل بوطامي في كتابه الجيّد «الشيخ محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية» (ص٨٠ ـ ٨١).

الصالح، اللذان لا سعادة للعبد إلا بهما ولا نجاة له إلا بالتعلق بسببهما، فمن رُزِقهما فقد فاز وغنم، ومن حرمهما فالخير كله حرم.

وهما مورد انقسام العباد إلى مرحوم ومحروم، وبهما يتميز البر من الفاجر، والتقي من الغوي والظالم من المظلوم، ولما كان العلم للعمل قريناً وشافعاً وشرفه لشرف معلومه تابعاً، كان أشرف العلوم على الإطلاق علم التوحيد، وأنفعها على أحكام أفعال العبيد، ولا سبيل إلى اقتباس هذين النورين، وتلقي هذين العِلْمين إلا من مشكاة من قامت الأدلة القاطعة على عِصْمَته وصرحت الكتب السماوية بوجوب طاعته ومتابعته، وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٤].

ولما كان التلقي عنه ﷺ على نوعين: نوع بواسطة، ونوع بغير واسطة، وكان[1] بلا واسطة حظ أصحابه الذين حازوا قصبات السباق، واستولوا على الأمد فلا طمع[2] لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق. ولكن المبرِّز من اتبع صراطهم المستقيم، واقتفى منهاجهم القويم، والمتخلِّف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال، فذلك المنقطع التائه في بيداء المهالك والضلال، فأي خصلة خير لم يسبقوا إليها؟! وأي خطة رُشدٍ لم يستولوا عليها؟!

تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذباً صافياً زُلالاً، وأيدوا[3] قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً، فتحوا القلوب بعَدْلهم وبالقرآن والإيمان، والقُرَى بالجهاد بالسيف والسنان، وألقَوا إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصاً صافياً، وكان سندهم فيه عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سنداً صحيحاً عالياً، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدنا إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم؛ فَجَرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم، واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم.

ثم سلك تابعو التابعين هذا المسلك الرشيد، ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤﴾ [الحج: ٢٤]. وكانوا بالنسبة إلى مَنْ قَبْلَهم كما قال أصدق القائلين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤].

---

(١) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «التلقي». (٢) في مطبوع «الإعلام»: «مطمع».
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «وأطدّوا».

ثم جاء[١] الأئمة من القرن الرابع المفضل في إحدى الروايتين، كما ثبت في «الصحيح»[٢] من حديث أبي سعيد وابن مسعود وأبي هريرة وعائشة وعمران بن حصين، فسلكوا على آثارهم اقتصاصاً واقتبسوا هذا الأمر عن[٣] مشكاتهم اقتباساً، وكان دين الله سبحانه أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليه رأياً أو معقولاً أو تقليداً أو قياساً، فطار لهم الثناء الحسن في

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «جاءت».

(٢) حديث أبي سعيد: رواه البخاري في «صحيحه» (٢٨٩٧) في «الجهاد»، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، و(٣٥٩٤) في «المناقب» في «علامات النبوة»، و(٣٦٤٩) في «الفضائل»، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم (٢٥٣٢) في «فضائل الصحابة»، باب فضل الصحابة.

وحديث ابن مسعود: رواه البخاري (٢٦٥٢) في «الشهادات»، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، و(٣٦٥١) في «فضائل الصحابة»، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، و(٦٤٢٩) في «الرقاق»، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس عليها، و(٦٦٥٨) في «الأيمان والنذور»، باب إذا قال: أشهد بالله أو شهدت بالله، ومسلم (٢٥٣٣) في «الفضائل»، باب فضل الصحابة.

وقد ورد في «الصحيحين» بذكر: **«ثم الذين يلونهم»** مرتين، ولكنه عند ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ١٧٥) ـ ومن طريقه ابن حبان ـ (٧٢٢٧) ـ، ذكرها ثلاث مرات، وفي بعض طرق مسلم: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: **«ثم يتخلف»**.

وأما حديث أبي هريرة: فرواه مسلم (٢٥٣٤) في «الفضائل»، باب فضائل الصحابة بلفظ: **«خير أمتي قرني الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم»** والله أعلم أذكر الثالث أم لا؟.

وأما حديث عمران بن حصين: فرواه البخاري (٢٦٥١) في «الشهادات»، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، و(٣٦٥٠) في «فضائل الصحابة»، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، و(٦٤٢٨) في «الرقاق»، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، و(٦٦٩٥) في «الأيمان والنذور»، باب فضل الصحابة. وفيه: «فلا أدري! أقال رسول الله ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثة؟!».

أقول: وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» (١٢/ ١٧٦)، ومن طريقه ابن حبان (٧٢٢٩)، ذكر: **«ثم الذين يلونهم»** ثلاث مرات، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٨/رقم ٥٨٥)، من طريق ابن أبي شيبة، فذكر: **«ثم الذين يلونهم»** مرتين.

وأما حديث عائشة: رواه مسلم (٢٥٣٦)، ولفظه: **«القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث»**.

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «من».

العالمين، وجعل الله سبحانه لهم لسان صدق في الآخرين.

ثم سار على آثارهم الرعيل الأول من أتباعهم، ودرج على منهاجهم الموفَّقون من أشياعهم زاهدين في التعصب للرجال واقفين مع الحجة والاستدلال، يسيرون مع الحق أين سارت ركائبه، ويستقلون مع الصواب حيث استقلت مضاربه، إذا بدا لهم الدليل[1] طاروا إليه زُرَافات ووُحْداناً، وإذا دعاهم الرسول إلى أمر انتدبوا إليه ولا يسألونه على ما قال برهاناً، ونصوصه أجلّ في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليها قول أحد من الناس أو يعارضوها برأي أو قياس.

ثم خلف من بعدهم خُلُوف ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً وكل إلى ربهم راجعون، جعلوا[2] التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ورؤوس أموالهم التي بها يتَّجرون، وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب، ولسان الحق يتلو عليهم: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ [النساء: ١٢٣].

قال الشافعي[3] قدس الله روحه: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس». قال[4] أبو عمر[5] وغيره من العلماء: «أجمع الناس على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله». وهذا كما قال أبو عمر رحمه الله تعالى: «فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد».

فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصب بالهوى والمقلِّد الأعمى عن زمرة العلماء، وسقوطهما باستكمال مَنْ فوقهما الفروض من وراثة الأنبياء «**فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا**

(١) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «بأُخذته». (٢) في مطبوع «الإعلام»: «وجعلوا».
(٣) في كتابه «الرسالة» (ص٤٢٥). (٤) في مطبوع «الإعلام»: «وقال».
(٥) في «جامع بيان العلم» (٢/ ٧٨٧ و٩٩٣، ط. ابن الجوزي) بنحوه.

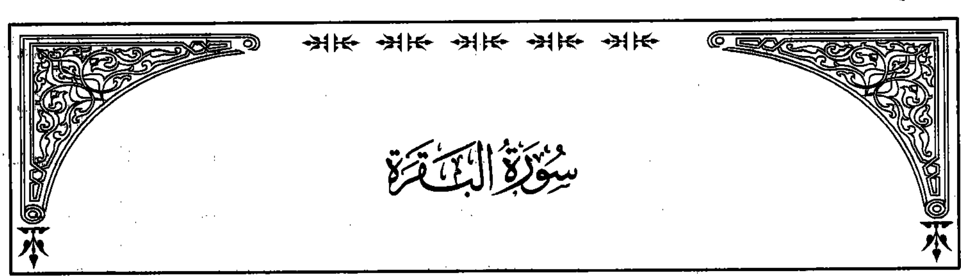
العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[١]. وكيف يكون من ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلِّده ومتبوعه؟ ويُضيِّع[٢] ساعات عمره في التعصب والهوى ولا يشعر بتضييعه؟ تالله إنها فتنة عمَّت فأعْمَت، ورَمَتِ القلوب فأَصَمَّتْ، رُبِّيَ عليها الصغير وهرم فيها الكبير، واتخذ لأجلها القرآن مهجوراً، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً.

ولما عمَّت بها البليَّة، وعظمت بسببها الرزيَّة، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها، ولا يعدُّون العلم إلا إياها، فطالِبُ الحق من مظانِّه لديهم مفتون، ومُؤثِره على ما سواه عندهم مغبُون، نصبوا لمن خالفهم في طريقهم الحبائل، وبغوا له الغوائل ورَمَوْه عن قوس الجهل والبغي والعناد، وقالوا لإخوانهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ[٣] أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن[٤] يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

فحقيق بمن لنفسه عنده قدر وقيمة أن لا يلتفت إلى هؤلاء ولا يرضى لها بما لديهم، وإذا رُفع له علم السنة النبوية شمَّر إليه ولم يحبس نفسه عليهم، فما هي إلا ساعة حتى يُبَعثَر ما في القبور، ويحصَّل ما في الصدور، وتتساوى[٥] أقدام الخلائق في القيام لله، وينظر كل عبد ما قدمت يداه، ويقع التمييز بين المحقين والمبطلين، ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم وسنة نبيهم أنهم كانوا كاذبين»[٦].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «عليه».
(٣) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «إنا نخاف».
(٤) في الأصل: «وأن»!
(٥) كذا مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «تساوى»!
(٦) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٧ ـ ١٢ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة ـ والمراد الذرية ـ أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل، كما قال أبو العالية: الهُدى: الأنبياء والرسل والبينات[1]، وقال مقاتل بن حيان: الهدى: محمد ﷺ. وقال الحسن: الهدى القرآن. وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: من أقبل على ما أُنزلتْ به الكتب وأُرسلتْ به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]. قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٩] أي: مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: المراد بالهدى كل ما جاء من الله تعالى بواسطة الرسل، وما عداه فهو ضلال، وقوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: خطاب لآدم وحواء وإبليس

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والبيان».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

وقوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الخطاب هنا لآدم وحواء باعتبار ذريتهما؛ لأن إبليس قد علم الله أنه لا يتبع الهدى. وقد نفى الله الخوف والحزن عن كل من اتبع الكتاب والسنة في آيات البقرة، ونفى الشقاء والضلال عنهم في سورة طه، ويفهم من ذلك أن من لم يتبع الهدى بل أعرض عن الكتاب والسنة لتقليد مذهب أو شيخ طريقة أو رجال حزب أو تعصباً، وهذا هو الواقع، وقد أكّد ذلك سبحانه بقوله في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]. قال صاحب «القاموس»(١): «الضَّنْك: الضيق في كل شيء للذكر والأنثى، ضَنُكَ كَكَرُمَ ضَنْكاً وضَناكة وضُنوكة: ضاق، و ـ فلان ضَناكة فهو ضَنيك ضَعُف في رَأيِهِ وجِسْمه ونَفْسِهِ وعَقْلِهِ».

قال محمد تقي الدين: فكل من أعرض عن ذكر الله وهو كلامه مع بيان رسوله الكريم ﷺ يعيش في ضنك وضيق في رأيه وجسمه ونفسه وعقله أو في بعضها، وهو الرأي والعقل والنفس وإن قوى الجسم فقد قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٣٩﴾ [البقرة: ٣٩]: فيه وعيد شديد لمن لم يتبع كتاب الله وسنة رسوله وتسميته مكذباً؛ لأن من صدق الرسول لا بدّ أن يتبع ما جاء به. يزيد ذلك وضوحاً قوله تعالى في توبيخ اليهود في هذه السورة رقم (٢)(٢): ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] فسماهم مكذبين بترك العمل. وسيأتي توضيح ذلك قريباً إن شاء الله. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾

[البقرة: ٤٢]

قال ابن كثير: «يقول تعالى ناهياً اليهود عما كانوا يتعمّدونه من تلبيس الحق

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص١٢٢٣ ـ ضنك).

(٢) في الأصل: «رقم (١٥)»!

بالباطل، [بتمويهه][١] وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فنهاهم عن الشيئين معاً وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به، ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب، وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل وأدّوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ. ويروى عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مبتدع يحرف القرآن والسنة لنصر بدعته كالخوارج والمعتزلة والمتأخرين من الأشعرية المعادين لمذهب السلف، وممن سار على مذهب السلف الصالح أبو الحسن الأشعري رحمة الله عليه. وكل مدعٍ للفقه متمذهب متعصب يحرف الكتاب والسنة؛ لنصر مذهبه مع ظهور بطلانه، كمحمد الخضر بن مايابا الذي ألّف كتاباً سماه «إبرام النقض في تقرير السدل وإبطال القبض» وزعم أن أحاديث وضع اليمنى على اليسرى الصحيح منها منسوخ[٣]؛ إذ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وبتمويهه به».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٩).

(٣) انظر: «إبرام النقض» (ص٢٨، ٤٠، ٩٢).

وقد رد دعوى النسخ بشيء من التفصيل محمد بن محمد الميموني في كتابه «النصح الأوفى» (ص١٠٣) وبيّن أن أول من تزعّم هذا الادعاء (الشيخ عليش)، والذي حمله على ذلك التعصب المذهبي الذي كان يمتاز به بين أهل عصره، لكنه صدر منه ما صدر - كما قال أحمد بن الصديق في كتابه «المثنوي» (ص٣٢٠) - «عن تساهل وتهور وعدم إمعان وتدبر، مع ما للعصبية من التأثير العظيم في تزيين الباطل وقلب الحقائق».

وممن لم يوافق الشيخ عليش في دعواه على الرغم من انتصاره للسدل وتشهيره: صاحب «بيان مشهورة السدل والإرسال» فإنه قال (ص٣٩): «وأما ما ذكره في «شرحه» وفي «نوازله» من أن دليل ذلك - يعني النسخ - استمرار عمل أهل المدينة على السدل فيكون القبض منسوخاً فلا يعول عليه؛ لأن جمهور الصحابة بعد موته ﷺ صدر منهم القبض وكذلك جمهور التابعين، كما قاله الحافظان ابن عبد البر وابن حجر وغيرهما».

وقد صنّف جمع من العلماء لا سيما المتأخرين منهم رسائل عدة في مسألة القبض والإرسال ما بين مؤيدٍ ومخالف، وهذه عناوين الرسائل التي وقفت عليها:

١ - «تحفة الأخيار في الرد على من قال بالقبض في هذه الأعصار» لأبي شعيب محمد بن =

= القاسم الهواري، مطبوع، أفاده عبد العزيز بن عبد الله في «الموسوعة المغربية» (٣/ ٣٨) وفي «معلمة الفقه المالكي» (ص٢٨٥).

٢ ـ «البحر المتلاطم الأمواج المذهب بما في سنة القبض من العناء واللجاج» لعبد الحي الكتاني، أفاده محمد بن عبد الله التليدي في «تراث المغاربة في الحديث النبوي».

٣ ـ «المنهج الأقوم في مسألتي الرفع والضم» لمجد الدين المؤيدي (مخطوط).

٤ ـ «المثنوي البتار» لأحمد الصديق الغماري، مطبوع في مصر، سنة (١٣٥٢هـ).

٥ ـ «سنة القبض والرفع في الصلاة» لمحمد الإطاري كما في «معجم المؤلفين في القطر الشنقيطي» (ص١٠٥).

٦ ـ «زهرة الأفكار في الرد على المخالفين بالقبض في هذه الأعصار» لعبد السلام بن الطيب الشرقي العربي، مطبوع.

٧ ـ «الحسام المنتضد المسنون على من قال: إن القبض غير مسنون» لعبد الرحمٰن بن جعفر الكتاني، مطبوع.

٨ ـ «الدليل الواضح لبيان أن القبض في الصلوات كلها مشهور وواضح» لأبي عبد الله المسناوي، مطبوع.

٩ ـ «إبرام النقض في مسألة القبض» لمحمد الحضري الجكني الشنقيطي، مطبوع في «دار البشائر»، سنة (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

١٠ ـ «الكتاب الثمين في الضم والتأمين» لبدر الدين الحوثي، مخطوط في مكتبة «ضحيان» باليمن.

١١ ـ «نصرة الرفع والقبض في الصلاة النفل والفرض» لمحمد الكانوني الآسفي، أفاده عبد العزيز بن عبد الله في «معلمة الفقه المالكي» (ص٢٨٥).

١٢ ـ «سلوك السبيل الواضح في بيان أن القبض في الصلوات كلها مشهور راجح» لمحمد بن جعفر الكتاني، أفاده عبد العزيز بن عبد الله في «معلمة الفقه المالكي» (٢٨٥).

١٣ ـ «نصرة القبض والرد على من أنكر مشروعيته في الصلاة» لمحمد بن أحمد المشاوي، مخطوط في الأزهرية.

١٤ ـ «الجواب المسكت في رد حجج المعترض على القائلين بندبية القبض في صلاة النفل والفرض» لأبي الخير الأرواني، مخطوط في موريتانيا.

١٥ ـ «رفع الشأن المنصف السالك بإثبات سنة القبض في الصلاة في مذهب الإمام مالك» لأحمد الغماري، أفاده محمود سعيد ممدوح في «تشنيف الأسماع» (ص٨٢)، مطبوع في مصر سنة (١٩٣٣م).

١٦ ـ «هيئة الناسك في أن القبض في الصلاة مذهب مالك» لابن عزوز، مطبوع في مصر، سنة ١٩٦٣م. =

لا يعقل أن يروي الإمام مالك حديثاً صحيحاً عن النبي ﷺ، ورواه عنه البخاري ومسلم[١] ولا شك في صحته ثم يفتي بخلافه فيما رواه عنه ابن القاسم في «مدونة سحنون»[٢]، وقد هيأ الله له عالماً شنقيطيًّا من أهل بلده؛ فألف كتاباً في الرد عليه سماه «الصوارم والأسنة في الذب عن السنة»[٣]، وتبرع بطبعه المجاهد الأكبر في المغارب كلها الذي أنقذ الله به أهل المغرب الأكبر من حدود السينغال إلى حدود مصر من ربقة الاستعمار وظلمته إلى حرية الاستقلال ونوره، ألا وهو الملك محمد الخامس[٤] رحمة الله عليه، ومن أجل المكارم أن شريكه في الجهاد الملك الحسن الثاني أطال الله بقاءه وأدام ارتقاءه. لما نفدت نسخ هذا الكتاب أمر بطبع ثانية، أجزل الله ثوابه وجزاه أحسن الجزاء.

ومؤلف هذا الكتاب هو العلامة السلفي المحدث الأصولي المفسر الأديب الشاعر المتفنن محمد بن أبي مدين الأستاذ في معهد بوتيلمت من بلاد شنقيط، وهذا الرجل نادرة زمانه يحتاج إليه أساتذة الأزهر وأساتذة الجامعة الإسلامية بالمدينة وكل جامعة عربية، لا أقول: الطلبة بل الأساتذة.

ومن سوء حظ العرب في هذا الزمان عموم الجهل والتقليد فيهم، وسيرهم

= ١٧ ـ «رسالة النصر لكراهة القبض والاحتجاج على من نازع فيها في صلاة الفرض» لأبي عيسى سيدي المهدي الوزاني، مطبوع في موريتانيا.

١٨ ـ «القول الفصل في تأييد سنة السدل على مذهب إمام دار الهجرة النبوية الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه» لمحمد عابد، مطبوع في موريتانيا.

١٩ ـ «إرشاد السالك إلى إرسال مالك» لعلي القاري، مطبوع (بتحقيقي).

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٥٨ ـ ١٥٩) كتاب قصر الصلاة في السفر، باب وضع اليدين إحداهما على الأخرى في الصلاة، والبخاري (٧٤٠) من حديث سهل بن سعد ومسلم (٤٠١) من حديث وائل بن حجر.

(٢) انظر: «المدونة» (١/ ١٠٨).

(٣) طبع هذا الكتاب عدة طبعات، وكانت الطبعة الأولى كما ذكر المصنف، وأما الطبعة الثانية فكانت سنة (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م). أعيدت طباعته على نفقة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، وهي التي سنعزو لها.

(٤) للمصنف مقالة بعنوان «منقبة المجاهد الأكبر محمد الخامس ـ طيب الله ثراه ـ» نشرت في مجلة «الجامعة السلفية الهندية» (المجلد الثالث عشر/ العدد السادس، شعبان ١٤٠١هـ ـ الموافق ـ يونيو ـ) سنة ١٩٨١ (ص٥ ـ ٧) وهي في كتابنا «مقالات الهلالي» يسر الله إتمامه ونشره.

على صراط معوج؛ لأنهم لا يعتبرون العلم وإنما يعتبرون الشهادات المزيفة التي يحصل عليها كثير من الدواب فيتسنَّمون أعلى المراتب في الجامعات، وهم صمٌّ بكمٌ عمي، فوالله الذي لا إله إلا هو لو ظفر بهذا الرجل أساتذة الجامعات في أوروبا؛ لاستفادوا من علمه وبذلوا النفس والنفيس في خدمته، ولكن كما قلنا من ضلالات العرب أنهم يتركون العين ويطلبون الأثر باعتمادهم على الشهادات، فهم كما قال الشاعر:

ولو لبس الحمارُ ثيابَ خزٍّ لقال النّاسُ يا لك من حمارِ

فكذلك الجاهل إذا أخذ الشهادة من الجامعة يقول الناس: يا لك من عالم! وإذا لم تكن له شهادة يقول أشباه الناس: يا لك من جاهل! فمن أراد أن يعرف تحريف المقلدين المتعصبين إلى أي حد بلغ في الإسفاف، فليقرأ هذين الكتابين فيرى الأول ظلمة ويرى الثاني نوراً، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»[(١)]. فقد وجد في هذه الأمة من يلبس الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون[(٢)].

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية. هؤلاء[(٣)] صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٨٧).

(٢) الخطاب الوارد في الآية وإن كان وارداً في بني إسرائيل، فهو تنبيه لسائر الخلق، وتحذير من مثله، فصار الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة، لكنه عام في المعنى، وأنت ترى كثيراً من الذين يروجون مقاصدهم يؤولون الأدلة، ويحيلونها إلى وجه بعيد، ويكتمون الحق ويسترونه بالباطل، حتى إذا كانت الأدلة لهم، قاموا في تأييدها ونصرتها، وإن كانت عليهم حرفوها وبدلوها، ونبذوها وراء ظهورهم، فكتموا الحق تارة، ولبسوه بالباطل تارة ثانية، قاله ابن بدران في «جواهر الأفكار» (١٩٣).

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هو»!

وأكل أموال الناس بالباطل، والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة، وقال ابن عباس: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرؤونه غضًّا لم يَشِب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدَّلوا كتاب الله، وغيَّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل إليكم». رواه البخاري[١].

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: «الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها»، وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد وجد في هذه الأمة من اتبع طريقهم، فكتبوا المجلدات في الأحكام الشرعية ونسبوها إلى الله ورسوله، وليس فيها: قال الله، ولا قال رسوله، فحللوا بها الفروج، ونقلوا الأموال من ملك شخص إلى شخص آخر، وسفكوا بها الدماء افتراء على الله، وهذا الوصف ينطبق على كل كتاب ألِّف فيما يسمونه الفقه وحشي بالمسائل المجردة عن الدليل من الكتاب والسنة[٣]، وما أكثر هذه الكتب المظلمة، ورحمة الله على عبد المؤمن بن علي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٥).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/٤٦٦، ٤٦٨، ٤٦٩).

(٣) **(إفاضة وإضافة)** قال أبو عبيدة: ومما يلتقي مع هذه الآية قبل المذكورة هنا، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨].
فقد وصف تعالى قسماً من اليهود بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: لا يعرفون التوراة ليطالعوها ويتحققوا ما في تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا، أو أنهم لا يعرفون إلا القراءة الخالية عن التدبر والفهم، المقرونة بالتمني، ولذا قال: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾، جمع «أمنية»، وهي تقدير الوقوع فيما يترامى إليه الأمل، والمعنى: إذا كانت الأماني مما يصح وصفه بالعلم فهي لهم، لا غيرها من جميع أنواعه، وقيل: الأماني بمعنى الأكاذيب، والمعنى عليه: لا يعلمون الكتاب إلا أماني، أي: أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم =

الملك الموحدي العالم، الذي أمر بإحراق كتب الفروع[(١)] في جميع أنحاء

= فتقبلوها على التقليد، وهذا يساعده إخبار الله تعالى عنهم بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، أي: أن أسلافهم حرفوا الكلام، ومزجوا شرحها بالأكاذيب والتمويه والتضليل، وهؤلاء أخذوا ذلك منهم من غير تمحيص ولا نظر، يساعده قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أي: ما هم إلا قوم قصارى أمرهم التقليد والظن، من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم، فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين، وفي الإتيان بـ﴿إِنْ﴾ التي معناها النفي، والاستثناء بـ﴿إِلَّآ﴾ تأكيد لنفي العلم عنهم.

ولما ذم الله تعالى من لا يعلم، عُلم أن المعارف كسبية لا ضرورية.

ويؤخذ من أحكام هذه الآية: أن الاكتفاء بالظن في أصول الدين غير جائز، وأن التقليد لا يعد علماً؛ لأنه أخذ قول الغير بلا دليل، ومثل هذا لا يليق أن يكون متصفاً بالعلم أصلاً؛ لأن هذه طريقة العوام، وأن المُضلَّ وإن كان مذموماً، فالمغتر بإضلال المضِل أيضاً مذموم؛ لأنه تعالى ذمهم وإن كانوا بهذه الصفة.

ولما أثبت لهذا الفريق القطع على الله بما لا علم لهم به، وكان هذا معلوم الذم محتوم الإثم، سبب عنه الذم والإثم بطريق الأولى لفريق هو أردؤهم وأضرهم لعباد الله، وأعداهم فقال: ﴿فَوَيْلٌ﴾، والويل جماع الشر كله، أي: ما يجمع الشر كله كائن ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ﴾ منهم، أو من غيرهم، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذين يعلمون أنه من عندهم لا من عند الله تعالى، أو يكتبون التأويلات الزائفة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز كقولك: كتبته بيميني.

ثم أشار إلى قبح هذا الكذب وبعد رتبته في الخبث بـ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة للتراخي، فقال: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾، أي: لما كتبوه كذباً وبهتاناً ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

ثم بين بالعلة الحاملة لهم على ذلك خساستهم وتراميهم إلى النجاسة، ودناءتهم، فقال: ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ﴾، أي: بذلك الكذب الذي صنعوه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، ثم سبب عنه قوله: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من ذلك الكذب على الله، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، أي: يجددون كسبه مما اشتروه به، والمراد مما يكسبون من الخبث، ولكنه حذفه لوضوح الدلالة عليه بقرينة ما تقدم.

وفي هذه الآية بيان لما شرف به كتابنا من أنه لإعجازه، لا يقدر أحد أن يأتي من عنده بما يدسه فيه، فيلبس به، فله تعالى الحمد والمنة.

وأشارت الآية إلى أن كسبهم هذا في غاية الرداءة لأنهم ضلوا عن الدين، وأضلوا، وباعوا آخرتهم بدنياهم، فذنبهم أعظم من ذنب غيرهم، فإن المعلوم أن الكذب على الغير مما يضر بعظم إثمه، فكيف بمن يكذب على الله ويضم إلى الكذب الإضلال، ويضم إليهما حب الدنيا والاحتيال في تحصيلها، ويضم إليها أنه مهد طريقاً في الإضلال باقياً على وجه الدهر، فلذلك عظم الله تعالى ما فعلوه» قاله العلامة ابن بدران في «جواهر الأفكار» (٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(١) انظر تفصيل ذلك في مقالة (موقف الموحدين من كتب الفروع) للأستاذ سعيد =

مملكته، وأمر القضاة والمفتين ألا يقضوا ولا يفتوا إلا بدليل من الكتاب والسنة.

قال صاحب «الاستقصاء» في (الجزء الثاني ص١٣٦) ما نصه: «لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها في جميع مملكته وبتغيير المنكرات ما كانت، وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع، ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها، وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الأندلس والعدوة؛ فجزاه الله خيراً».

قال المحشي: «الذي في كتاب «المعجب» لعبد الواحد المراكشي أن يعقوب المنصور هو الآمر بذلك. فانظر هل فعل هذا اقتداءً بجده أم من ذاته لأول مرة؟ لكن الظاهر هو كلام المراكشي أن إحراق كتب الفروع وردَّ الناس إلى الكتاب والسنة كان مقصداً وعزماً لعبد المؤمن وابنه يوسف إلا أنهما لم يظهراه، وأظهره يعقوب بعدهما[1].اهـ». وما ذكره المؤلف هنا منقولاً عن صاحب «القرطاس»، وكلام صاحب «المعجب» أولى بالاعتبار؛ لقُربه من الزمان المذكور ومشاهدته للواقع.

قال محمد تقي الدين: الرأي الأول عندي أرجح لأنه إذا ثبت أن هذا الأمر كان مقصوده، فما الذي يمنعه من تنفيذه وقد كان أقوى وأشد تمكيناً من حفيده؟ والله أعلم. اهـ.

وقال صاحب «الاستقصاء» أيضاً في الجزء نفسه صفحة (٢٠٠) في (ذكر أخبار يعقوب المنصور) ما نصه: «وأمر برفض فروع الفقه وإحراق كتب المذاهب، وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين؛ بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم

= أعراب[1] ـ رحمه الله تعالى ـ، وهي منشورة في مجلة «دعوة الحق» المغربية، العدد (٢٤٩) (ص٢٥ وما بعدها).

(١) للهلالي كلام مفصل في ذلك في مقالات عديدة، تطلبتُها وجمعتُها من بلدان مختلفة، ثم وجدته بيَّن ذلك في تقديمه لكتيب «خطبة السلطان المقدس مولانا سليمان العلوي رحمه الله في الانتصار للسنة ومحاربة بدع الطوائف الضالة» (ص٣ ـ ٩) ط. مكتبة الساحل، الرباط، دون تأريخ. وانظر كتابي: «مقالات العلامة السلفي محمد تقي الدين الهلالي» يسر الله إتمامه ونشره.

---

(١) هو من تلاميذ العلامة الهلالي، وظفرت بمراسلات بينهما، وبعضها استفتاءات وجهها أعراب لشيخه، رحمهما الله تعالى.

القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس»[(١)].اهـ.

وقال في صفحة (١٩٩) من الجزء نفسه: «وكان قد أمر لأول دولته بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات».اهـ.

قال محمد تقي الدين: وكنت قرأت في كتاب من كتب التاريخ أن أحد ملوك الموحدين ـ أظنه عبد المؤمن بن علي، أو يعقوب المنصور أو غيرهما ـ قال لوزيره ـ وكان يدعى أبا بكر ـ: يا أبا بكر! أجد في «المدونة» في المسألة الواحدة أقوالاً متعددة متناقضة، فما المخرج في ذلك؟ فقال: يا أمير المؤمنين اختلف علماء الأصول في القول المشهور الذي يجب اتباعه في مذهب مالك، فقيل: هو ما وافق مذهب مالك في «المدونة»، وقيل: هو ما كثر القائلون به، وقيل: هو ما قوي دليله، فأحضر ذلك الملك نسخة من «سنن أبي داود» والمصحف، وقال: يا أبا بكر ما زدتني بجوابك إلا حيرة، أنا ما عندي إلا هذا وهذا ـ وأشار إلى كتاب الله و«سنن أبي داود» ـ أو هذا ـ وسلَّ السيف ـ.

وأظن أن هذا الخبر يوجد في كتاب «المعجب»[(٢)] لعبد الواحد المراكشي،

---

(١) «الاستقصاء» (١/ ١/ ١٩٧) بنحوه.

(٢) نعم الخبر فيه (ص٤٠٠) ولكنه على لسان يوسف بن عبد المؤمن مع وزيره أبي بكر بن الجد، ومما قاله في هذا الأمر: «يا أبا بكر، المسألة فيها أربعة أقوال، أو خمسة أقوال، أو أكثر من هذا، فأي الأقوال هو الحق؟ ما نصه: وقال: «يا أبا بكر! ليس إلا هذا، وأشار إلى كتاب «السنن لأبي داود» ـ وكان عن يمينه ـ أو السيف»، وأما ولده يعقوب فهو الذي تجرأ جداً على نبذ كتب الفروع، وعمل على إحراق كتب المذاهب، قال المراكشي في «المعجب» (٤٠٠ ـ ٤٠١): «لقد شاهدت منها وأنا يومئذٍ بمدينة فاس، يؤتى منها بالأحمال، فتوضع، ويطلق فيها النار».
وأما عبد المؤمن (والد يوسف المذكور آنفاً) ففي زمنه انطلقت شرارة التحذير والتخويف من النظر في كتب الفروع، وأكد لفقهاء زمانه ليس ثمة إلا الكتاب والسنة، وألَّف العلماء في عصره كتباً فقهية مهمة وجليلة فيها نصرة للدليل، منها: «الإنجاد في أبواب الجهاد» وطبع في مجلدين بتحقيقي، وهو للعلامة محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ، المعروف بـ(ابن المناصف) (٥٦٣ ـ ٦٢٠هـ)، قال في (أوله): «ولما توخيت أن يكون هذا المجموع مبنياً على دلائل الكتاب والسنة، منزّهاً عن شبه التقليد واتباع مذهب بغير دليل...»، وذكرتُ في تقديمي له (ص١٢٥ ـ ١٢٦) نبذة عن محاربة الموحّدين للجمود الفقهي، ولكن الأمر لم يطل، يقول الدكتور محمد بن شريفة في مقدمته لتحقيق كتاب «مذاهب الحكام في نوازل الأحكام» (ص٢١) على إثر طلب الموحدين أن لا يتولى القضاء إلا المحدثون، قال: «وقد أحدث هذا الأمر خللاً في سير خطة القضاء وخروجاً =

وهذا الذي قاله هذا الملك رحمة الله عليه هو الذي جاء به الرسول ﷺ وسار عليه الخلفاء الراشدون. اهـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء الكفرة من المشركين ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على رسوله واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قَالُوا﴾ في جواب ذلك ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ أي: وجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم عقل[(١)] ولا هداية.

وروى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام. فقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فأنزل الله هذه الآية»[(٢)]. وقال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري في كتابه: «جامع بيان العلم وفضله» في (الجزء الثاني صفحة ١٠٩) ما نصه:

= عن رسومها المعهودة في الأندلس والمغرب وأصبح الحال كما يقول بعضهم: «لقد كان الذين استقضوا منهم (أي من المحدثين) عند الناس في حالة تقصير في قضائهم، وكانت أحكامهم سخنة عين، وظهر ذلك عند العامة والخاصّة إذ لا اطّلاع لهم على جزئيات المسائل اطّلاع أهل الفقه والفروع حتى كان منهم ممن له دين ربّما يباطن بعض الفروعيين ويسأله عن مشكلات المسائل ويتّخذه معيناً في قضاياه»، ثم قال بعد ذلك: «ثم هدأت الفورة وفشلت الفكرة وعاد القضاء إلى القائمين على «المدونة» وغيرها من كتب الفروع».

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فهم».

(٢) أخرجه ابن إسحاق ـ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٢)، ومن طريقه: ابن جرير (٢/ ٤٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٨١) رقم (١٥١١) ـ قال: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به.
وإسناده ضعيف، محمد مولى زيد بن ثابت مجهول، لم يرو عنه غير ابن إسحاق، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٤٦).

«وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤] فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وفي هؤلاء ومثلهم(١) قال الله ﷻ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ

(١) بل الآية رقم (١٧١) من هذه السورة وهي عقب الآية التي يفسرها هنا، تدل عليه، ونسوق كلام ابن بدران في «جواهر الأفكار» (٤٤٤ ـ ٤٤٥) لنفاسته، ومنه يظهر الذين ذكرناه على وجه لائح، قال رحمه الله تعالى: «يقول الله لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تتبعون ما وجدتم عليه آباؤكم، فتتركون ما يأمركم به ربكم، وآباءكم لا يعقلون من أمر الله شيئاً، ولا هم مصيبون حقاً، ولا مدركون رشداً؟ وإنما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشيء، المستعمل له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه فيما هو به جاهل، إلا من عقل له ولا تمييز.
والواو في قوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ للحال، والهمزة بمعنى الرد والتعجب؛ ﴿أَلۡفَيۡنَا﴾ بمعنى وجدنا، بدليل قوله: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان: ٢١] وهذه الآية صريحة في ذم التقليد، صراحة لا تقبل التأويل ولا الصرف عن ظاهرها.
وقد حكى ابن عطية: أن الإجماع منعقد على إبطاله في العقائد.
وقرر فخر الدين الرازي في تفسيره، بطلان التقليد بوجه عقلي، فقال: يقال للمقلد: هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الإنسان، أن يعلم كونه محقاً، أم لا؟ فإن اعترفت بذلك، لم تعلم جواز تقليده إلا بعد أن تعرف كونه محقاً، فكيف عرفت أنه محق؟ وإن عرفته بتقليد آخر لزم التسلسل، وإن عرفته بالعقل فذاك كافٍ، فلا حاجة إلى التقليد، وإن قلت: ليس من شرط جواز تقليده، أن يعلم كونه محقاً، فإذن قد جوزت تقليده، وإن كان مبطلاً؟! فإذن أنت على تقليدك لا تعلم أنك محق أو مبطل؟
وأيضاً هب أن ذلك المتقدم الذي قلدته كان عالماً بذلك الشيء، إلا أنّا لو قدرنا أن ذلك المتقدم، ما كان عالماً بذلك الشيء قط، وما اختار فيه البتة مذهباً، فأنت ماذا كنت تعمل؟ فعلى تقدير أن لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه، كان لا بد من العدول إلى النظر؛ فكذا هٰهنا.
وأيضاً إذا قلدت من قبلك، فذلك المتقدم كيف عرفته؟ أعرفته بتقليد أم لا تقليد؟ فإن عرفته بتقليد لزم إما الدور، وإما التسلسل، وإن عرفته لا بتقليد، بل بدليل، فإذا أوجبت تقليد ذلك المقدم، وجب أن تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد؛ لأنك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل، مع أن ذلك المتقدم طلبه بالدليل لا بالتقليد، كنت مخالفاً له!! فثبت أن القول بالتقليد يفضي ثبوته إلى نفيه، فيكون باطلاً.
وما قاله هنا، الدليل يعم المقلد في التوحيد، والمقلد في الفروع، وقد جعل العلماء للمقلد في الفروع ميزاناً عادلاً، فاتفقوا على أن المكلف متى عرف الحق، لا يجوز له تقليد أحد في خلافه. =

= وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال، وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق، وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق، فلا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره.

وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩] وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ، كما في الاجتهاد في القبلة، وأما إن قلد شخصاً دون نظيره باتباع هواه، ونصره بلسانه ويده من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً. كمن قال في القرآن برأيه فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار.

ومن ثم قال الشافعي: أجمع المسلمون، على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس.

وقال ابن عبد البر وغيره: أجمع الناس على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله.

وهذا كما قال، فإن الناس لا يختلفون، أن العلم هو: المعرفة الحاصلة عن الدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو التقليد، فقد تضمن هذان الإجماعان إخراج المتعصب بالهوى، والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء، وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من ورثة الأنبياء، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وكيف يكون من ورثة الرسول، من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه، ويضيع ساعات عمره في التعصب والهوى.

ولما كان أولئك المقلدة المذكورين في هذه الآية، بالوصف الذي ذكره تعالى عنهم من ترك النظر والتدبر والإخلاد إلى التقليد بقولهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ضرب لهم مثلاً تنبيهاً للسامعين لهم، أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، أو قلة الاهتمام بالدين، فصيرهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام، فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

وذلك لأن مثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره، حيث صيره كالبهيمة، فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه، عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد».

ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢] وقال: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] وقال ﷻ عائباً لأهل الكفر وذامًّا له: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣] وقالوا[١]: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلِّد، كما لو قلَّد رجلاً[٢] فكفر وقلد آخر فأذنب فقلّد[٣] آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة: ١١٥].

وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب قبل هذا، وفي ثبوته إبطال التقليد أيضاً، فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها وهي الكتاب والسنة، أو ما كان في معناهما بدليل جامع بين ذلك» ثم قال أبو عمر بسنده إلى عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة**». قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**أخاف عليهم من زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوًى متبع**»[٤]. وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: «**تركت فيكم أمرين، لن**

---

(١) في مطبوع «جامع بيان العلم وفضله»: «وقال».

(٢) في مطبوع «جامع بيان العلم وفضله»: «رجل».

(٣) في مطبوع «جامع بيان العلم وفضله»: «وقلَّد».

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤/رقم ١٧)، والبزار (١٨٢ ـ «كشف الأستار»)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ١٧٤)، والمعافى بن عمران في «الزهد» رقم (٢١٩)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٨٣٠)، وأبو نعيم (٢/ ١٠)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٥)، وقال الهيثمي في«المجمع» (١/ ١٨٧): «فيه كثير بن عبد الله بن عوف وهو متروك، وقد حسن له الترمذي». وقال في (٥/ ٢٣٩): «كثير بن عبد الله ضعيف». وقال الحافظ في «التقريب»: «ضعيف ومنهم من نسبه إلى الكذب»، **فإسناده ضعيف جداً**.

تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»[١]. ثم قال بسنده إلى زياد بن حُدَير[٢] قال: قال عمر[٣]: «ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم وجدال منافق بالقرآن وأئمة مضلون»[٤]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين الهلالي: كل من دعي إلى كتاب الله أو سنة رسوله، فأعرض عنهما، فهو من شر الدواب الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية؛ لأن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فالاستجابة لله وللرسول فيها الحياة حياة الدنيا بسعادة وحياة الآخرة بسعادة ورضوان من الله. وعدم الاستجابة لله وللرسول فيها الموت الحقيقي وهو موت القلب كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٦٥) بإسناد الحديث السابق، وسبق أنه **ضعيف جداً**، وذكره مالك في «الموطأ» كتاب القدر رقم (٣) بلاغاً عنه ﷺ، **والحديث صحيح له شواهد كثيرة**، انظرها في: «السلسلة الصحيحة» (١٧٦١).
وأخرجه الحاكم (١/ ٩٣) من حديث أبي هريرة وابن عباس، وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٣٥٧): «**وهي وإن كانت مفرداتها لا تخلو من ضعف فبعضها يقوي بعضاً**، وخيرها حديث ابن عباس».
وأصل الحديث في مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم.
وانظر: «الصحيحة» (١٧٦١).

(٢) في الأصل: «جُدير» بالجيم في أوله، وصوابه بالحاء المهملة.

(٣) أخرج مقولته رضي الله عنه الدارمي في «السنن» (١/ ٧١)، والآجري في «تحريم النرد والشطرنج» رقم (٤٨)، والفريابي في «صفة النفاق» (ص٧١)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (١٤٧٥)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٣٤)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٨٣٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (٦٤١، ٦٤٣)، والهروي في «ذم الكلام» رقم (٧٦، ٧٧)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٦٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٦)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٨٦٧، ١٨٦٩، ١٨٧٠)، وآدم بن أبي إياس في «العلم»، والعسكري في «المواعظ»، والبغوي والإسماعيلي، ونصر المقدسي في «الحجة»؛ ـ كما في «كنز العمال» (١٠ رقم ٢٩٤٠٥، ٢٩٤١٢)، و«مسند الفاروق» (٢/ ٦٦٠ ـ ٦٦١) ـ من طرق، عن عمر، بعضها إسناده صحيح.
قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٦٦٢) بعد أن ساقه بطوله: «فهذه طرق يشدّ القوي منها الضعيف؛ فهي صحيحة من قول عمر رضي الله عنه، وفي رفع الحديث نظر، والله أعلم».

(٤) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٧٧ ـ ٩٧٩، ط. ابن الجوزي).

نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فالذين استجابوا لله وللرسول وكانوا أمواتاً بالكفر أو الشرك أو البدعة يصيرون بالاستجابة أحياء ويجعل الله لهم نوراً يمشون به في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، والذين لم يستجيبوا لله يبقون أمواتاً، ولا يجعل الله لهم نوراً، فيبقون متخبطين في الظلمات في الدنيا والآخرة.

فصل

كل مشرك أو مبتدع ينسب شركه أو بدعته إلى نبي من الأنبياء أو إمام من الأئمة، كما فعلت النصارى حين نسبوا إلى عيسى أنه قال لهم: أنا ابن الله، وأنه قال لهم: أنا الأقنوم الثاني، فاعبدوني وهم كاذبون، انظر «البراهين الإنجيلية» لمؤلف هذا الكتاب[1].

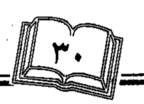
وكذلك عباد القبور وأصحاب الطرائق الذين يستمدون الهداية وتنوير القلوب من شيوخهم، يزعمون أن شيوخهم أمروهم بذلك، فإن كان شيوخهم صالحين فإنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، وإن كانوا طالحين فإنهم أيضاً يتبرؤون منهم كما قال رئيسهم إبليس: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]. اهـ. وإذا تبرؤوا منهم تعظم حسرتهم وندامتهم حين لا ينفع الندم، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٦٧].

فصل

قول الحافظ أبي عمر: (وإن اختلفت الآثام)، معناه: إن الآية واردة في النوع الأول والثاني من المقلدين، فمن قلد رجلاً فأشرك بالله كان كافراً آيساً من رحمة الله، ومن قلّد رجلاً ففعل محرماً أو ترك سنة كان آثماً، وهذا معنى اختلاف الآثام، ومن قلد رجلاً في أمر من أمور الدنيا كالتجارة والزراعة والصناعة فأخطأ الصواب، وخسر في أمر دنياه؛ كان ذلك التقليد وبالاً عليه.

---

(١) مضى النقل عنه مطولاً في (٢/٢٧)، وينظر ما سيأتي في هذا الجزء (ص١٦٨ ـ ١٦٩).



فصل

قول النبي ﷺ: «**إني لأخاف على أمتي من أعمال ثلاثة...**»[(١)] إلى آخره، **أولها: زلة العالم**، فالعالم لا يعرف زلله وخطأه من صوابه يطرح التقليد وسؤاله عن الدليل، أما المقلد الأعمى الذي يأخذ من العالم كل ما قال يغلو في تعظيمه حتى يجعله معصوماً، فهذا هو الذي يهلك وعليه خاف النبي ﷺ وهذا شر الثلاثة، فإن الحكم الجائر يعرفه الناس وينكرون، إما بأيديهم أو بألسنتهم أو بقلوبهم، والهوى المتبع كذلك يعرفه الناس فيحذرون صاحبه، وهو يعرف نفسه، فربما يتوب ويرجع إلى الحق.

فصل

الحديث الثاني واضح، فإن الناس ما داموا متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله لا يقلِّدون أحداً؛ فيكونون مهتدين باتباعهم كتاب الله وسنة رسوله. وأما **أثر عمر**[(٢)] رضي الله عنه؛ فقد تقدم الكلام على زلة العالم، وأما **جدال المنافق** بالقرآن فلا يقطعه إلا العلم بسنة النبي ﷺ، كما إذا احتج المعتزلي بقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] على عدم رؤية الله تعالى بالإبصار يوم القيامة، وتأول قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] يَسلّ عليه المتبع للسنة سيفاً صقيلاً من حديث رسول الله ﷺ وهو قوله: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، ليس دونه غمام**»[(٣)]، وهو حديث في غاية الصحة. اهـ.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ

---

(١) سبق تخريجه قريباً. (٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة، وهو عند البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]

قال ابن عباس: كانوا[١] [على هدى][٢] على ملة آدم، [فلما ضلوا و][٣] عبدوا الأصنام [بعث الله][٤] نوحاً، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وقال عبد الرزاق بسنده عن أبي هريرة في قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ﴾ الآية. قال: قال النبي ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بَيْد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، فغداً لليهود، وبعد غد للنصارى**»[٥]. اهـ. وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦۗ﴾ أي: بعلمه بهم وبما هداهم له. قاله ابن جرير ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: من خلقه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وله الحكمة والحجة البالغة. وفي «صحيح البخاري ومسلم»[٦] عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه**

---

(١) قبلها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] يقول: كانوا كفاراً ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]. والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنىً؛ لأن الناس».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) بدلها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حتى».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فبعث الله إليهم».

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ٨٢ ـ ٨٣)، وهو عند مسلم (٨٥٥)، وأبي يعلى (١١/ ٨٩ ـ ٨١) رقم (٣٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٨٨ ـ ٨٩).

(٦) أخرجه مسلم (٧٧٠)، ولم أقف عليه عند البخاري.

يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»، وفي الدعاء المأثور: «**اللهم أرنا الحق حقًّا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً**»[١].

فصل

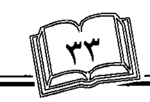
قال محمد تقي الدين: وكذلك هذه الأمة اختلفت على ثلاث وسبعين فرقة، كما أخبر النبي ﷺ[٢]؛ ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة هم الذين يسيرون في أمور دينهم على ما كان عليه رسول الله ﷺ فلا يزيدون فيه مثقال ذرة ولا ينقصون منه، وبالله التوفيق.

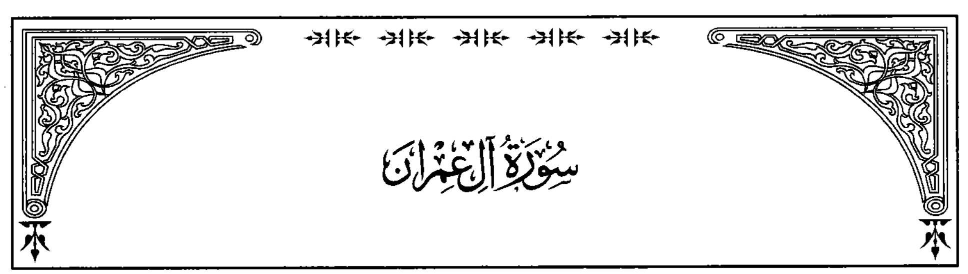
قال: فالذين تفرقوا على مذاهب وطرائق وفرق في العقائد ليسوا على منهاج النبي ﷺ، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩]. اهـ.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/٢٧٨ ـ ٢٨١) بتصرف.

(٢) سبق لفظه وتخريجه.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: ٢٣ ـ ٢٥]

قال (ك): «يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابَيهم الذين بأيديهم، وهما: التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ، تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي: إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوا[1] ولم ينزل الله به سلطاناً، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وافتعلوه».

فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه والعلماء ـ من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله وحاكم عليهم[(١)] ومجازيهم به، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه وكونه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد وجد في هذه الأمة من زاد على اليهود في دعواهم، فادعى أن النار لا تمسه أصلاً مع ارتكاب موجبها من المعاصي، وقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

قال (ك): «وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً، وقال البخاري بسنده[(٣)] عن النعمان بن بشير قال: سمعت ابن جرير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] هي آخر ما نزل وما نسخها شيء». اهـ.

وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف: زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك بن مزاحم، نقله ابن أبي حاتم[(٤)]. والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ﷻ»[(٥)].

وقال صاحب «الرّماح»[(٦)] وهو عمر بن سعيد الفوتي: أخبرني محمد الغالي أن الشيخ التجاني قال: «صاحبي لا تمسه النار، ولو قتل سبعين روحاً إذا تاب

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومحاسبهم عليه».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤١). (٣) أخرجه البخاري (٤٥٩٠).
(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٥٨١٥).
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٩).
(٦) اسمه «رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم» لمؤلفه المذكور آنفاً، وهو من أهم كتب التيجانية، وقد قال عنه المصنف في «الهدية الهادية» (ص٢٤): «وهو عند جميع التيجانيين ثقة فيما ينقل، لا يتطرق الشك إليه»!!

بعد ذلك». مفهومه إن لم يتب تمسه النار، وهذا يهدم كل ما تقدم من أن من أخذ ورده فهو محرر من النار، وأنه من الآمنين، وأن الله يغفر له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر، وينجيه من جميع عذابه وتخويفه وأن الله يؤدي عنه جميع تبعاته من فضله لا من حسناته، وأنه لا يرى أهوال الموقف وأنه يدخل الجنة في أول الزمرة الأولى هو ووالداه وأولاده وأزواجه، وهذه معضلة يجب على التيجانيين أن يحلوها، ولن يستطيعوا لحلها سبيلاً[(١)]. اهـ.

قال محمد تقي الدين الهلالي: كل من دعي إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ فامتنع من القبول، فهو متعرض لهذا الوعيد، وسيأتي في سورة النساء إن شاء الله زيادة بيان لهذا المعنى.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]

قال (ك): «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب[(٢)] في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله[(٣)]، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو ردّ»**[(٤)]. ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: «ليس الشأن أن تُحِب إنما الشأن أن تُحَب»، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: «زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾».

---

(١) انظر: «الهدية الهادية» (٩٨)، وانظر (ص١٠٠) منه.
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في دعواه».
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأحواله».
(٤) سبق تخريجه.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: باتباعكم الرسول[1] ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته، ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: خالفوا[2] أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتبع[3] الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٨١] إن شاء الله تعالى»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآية هي الفاصلة بين المحقين والمبطلين والصادقين والكاذبين؛ فإن كل من يدعي الإسلام ويدعي أنه يحب الرسول ﷺ[5]؛ ولكن الله تعالى بهاتين الآيتين وضع امتحاناً للمدعين وهو الاتباع، فمن اتبع الرسول تصديقاً وعملاً بما جاء به، ولم يردّ من حديثه شيئاً والتزم الحكم بالشرع الذي جاء به فهو محقٌّ، ومن أعرض عما جاء به فهو كاذب في ادعائه.

ومن أدلة الاتباع الدالة على المحبة الصادقة في حق الأمم: العزة والنصر، فإن الله تعالى يقول في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]. فإذا كانوا أذلة استمر عليهم الذل زماناً طويلاً فليسوا بمؤمنين؛ لأن الله وعد المؤمنين بالنصر والله لا يخلف الميعاد، فإذا كان العدو يساوي المسلمين في العدد وانهزم المسلمون مرة بعد مرة وطال زمان غلبته فأولئك ليسوا مؤمنين حقًّا، لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[6] [النساء: ١٤١].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «للرسول».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عن».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتابع».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/٤٦ ـ ٤٧) بتصرف.
(٥) هذه الجملة لا خبر لها: كذا في الأصل.
(٦) ولا سيما أن ﴿سَبِيلًا﴾ نكرة في سياق النهي، وهذا من ألفاظ العموم، وعليه بنى بعض الفقهاء حرمة أي عمل فيه احتقار وإهانة للمسلم من قبل الكافر.

وإذ جاء الأمر باتباع غير النبي ﷺ، كقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

فاتباع غير المعصوم لا بدّ له من دليل وإلا كان تقليداً، والتقليد في دين الله حرام بالنسبة لمن عنده من العلم ما يميز به الحق من الباطل، أما إذا كان عاميًّا صرفاً فيجب عليه أن يسأل أهل العلم بالكتاب والسنة الذين يثق بدينهم وأمانتهم، ولا يجوز أن يتقيد بمذهب.

ويحسن أن أذكر هنا الفرق بين التقليد والاتباع، فإن كثيراً من الناس لا يفرقون بينهما. قال الحافظ أبو عمر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»(١) في (الجزء الثاني): «قال أهل العلم والنظر: حد العلم: [علم الشيء](٢) وإدراك المعلوم على ما هو به(٣)، فمن بان له الشيء فقد علمه، قالوا: والمقلد لا علم له، ولم(٤) يختلفوا في ذلك، ومن هنا(٥) - والله أعلم - قال البحتري(٦):

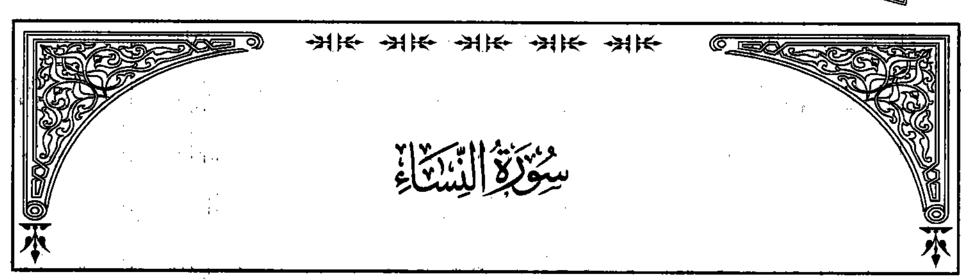
وأرى الناس مجمعين(٧) على فضلك ... من بين سيدٍ ومسودِ
عرف العالمون فضلك بالعلم ... وقال الجهّالُ بالتَّقليدِ

وقال أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي: «التقليد: معناه في الشرع: الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك(٨) ممنوع منه في الشريعة. والاتباع ما ثبت عليه حجة». وقال في موضع آخر من كتابه: «كل من اتبع(٩) قوله من غير أن [يوجب](١٠) عليك [الدليل اتباع قوله](١١) فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح، وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه والاتباع في الدين مسوغ، والتقليد ممنوع». اهـ.

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٩٣).
(٢) في مطبوع «الجامع»: «التبيين». (٣) في مطبوع «الجامع»: «فيه».
(٤) في مطبوع «الجامع»: «لم». (٥) في مطبوع «الجامع»: «هٰهنا».
(٦) بعدها في مطبوع «الجامع»: «في محمد بن عبد الملك الزيات».
(٧) في مطبوع «الجامع»: «مجمعون» والأبيات فيه فيها تقديم وتأخير.
(٨) في مطبوع «الجامع»: «وهذا». (٩) في مطبوع «الجامع»: «اتبعت».
(١٠) في مطبوع «الجامع»: «يجب».
(١١) في مطبوع «الجامع»: «قبوله لدليل يوجب ذلك».





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنٗا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٥٩ ـ ٦٤]

«روى أحمد[١] بسنده عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فأجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنارٍ فأضرمها فيه. ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن

(١) أخرجه أحمد (١/ ٨٢)، والبخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «**لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف**»، أخرجاه في «الصحيحين»»[(١)]. وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[(٢)] قال (ك): «يعني العلماء، والظاهر والله أعلم أنها عامة في[(٣)] أولي الأمر من العلماء[(٤)] والأمراء»[(٥)].

قال محمد تقي الدين: إذا كان الأمراء علماء، وكان الأمر واضحاً فقد اجتمع فيهم الفريقان، وإن لم يكن واضحاً وجب عليهم أن يستشيروا العلماء كما كان عمر رضي الله عنه يفعل[(٦)]، وإن لم يكن الأمراء علماء وجب على العلماء أن يبينوا حكم الله، وعلى الأمراء أن ينفذوا.

ثم قال (ك): «﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: خذوا سنته[(٧)] وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف[(٨)]: إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠]

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣١).

(٢) كتب إليَّ الأخ المحقق النبيه محمد زياد التكلة في ٢٢ شعبان ١٤٢٦هـ أنه كان في معايدة مع أخيه الشيخ صديقنا عمر الحفيان بعد صلاة العشاء ليلة الاثنين ١٤/ ١٢/ ١٤٢٥هـ لفضيلة الشيخ المربي العلامة عبد الرحمن الباني ـ حفظه الله ـ وحدثهم على لسان العلامة الهلالي أن الفرنسيين لما استولوا على المغرب والجزائر وتونس طبعوا المصحف في المغرب طبعة أنيقة جذابة، مليئة بالحسن والفن، وما عملوا تغييراً إلا أربعة حروف كلمة ﴿منكم﴾. في هذه الآية وراجت على الناس، ثم تنبهوا لها، فجمعوا كل النسخ المطبوعة وأحرقوها. قال أبو عبيدة: وظفرتُ بنحوها بقلم الهلالي نفسه في بعض مقالاته المنشورة، وقد تجمع لي منها ـ ولله الحمد ـ الشيء الكثير وسترى النور قريباً، نفع الله بها، وتقبّلها من صاحبها وجامعها، آمين.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كل».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الأمراء والعلماء».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٦).

(٦) مشاورة عمر رضي الله عنه ثابتة في غير ما حادثة، ستأتي واحدة منها عند المصنف (ص٧٦) وتخريجها هناك.

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بسنته».

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي» والمذكور لفظ كلام الشافعي، وبسط ابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٩٢) عبارات السلف في هذا الباب، وخرجتها في تعليقي عليه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فما حكم به الكتاب والسنة[١] وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

فدل على أن من لم يتحاكم في محل[٢] النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع[٣] ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبة ومآلاً، كما قاله السدي وغير واحد، وقال مجاهد: وأحسن جزاءً، وهو قريب»[٤]. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآيات قال (ك): «هذا إنكار من الله ﷻ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف[٥]، وقيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية[٦]، وقيل

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كتاب الله وسنة رسوله».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مجال».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في فصل النزاع إليها».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٧).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٩١ رقم (٥٥٤٨) والطبري في «تفسيره» (٧/ ١٩٤) **بسند صحيح إلى مجاهد**، وصححه الحافظ في «الفتح» (٥/ ٣٧) بقوله: «وروي بإسناد آخر صحيح إلى مجاهد».
وأخرجه بنحوه إسحاق بن راهويه في «تفسيره» ـ ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص١٠٧) ـ وابن جرير (٧/ ١٩٣)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٧١١) من مرسل الشعبي، **وإسناده صحيح**، وصحح ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٣٧) إسناد مرسل الشعبي، وعزاه لابن راهويه في «تفسيره»، وهما **مرسلان، لا يعضد أحدهما** الآخر، إذ الضعف في محل واحد.

(٦) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ـ ومن طريقه ابن أبي حاتم ـ في «تفسيره» كما في «العجاب» (٢/ ٩٠٢)، ومداره على شيخ ابن إسحاق وهو مجهول، وزاد عزوه في «الدر المنثور» لابن المنذر.

غير ذلك[(١)]. والآية أعم من ذلك كله؛ فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم[(٢)] إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا[(٣)] ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى آخرها.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أي: يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين[(٤)] كما قال تعالى في[(٥)] المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]، وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الآية.

ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة لا اعتقاداً[(٦)] في صحة تلك الحكومة، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢] وقد قال الطبراني بسنده[(٧)] عن ابن عباس قال: كان أبو برزة[(٨)] الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المشركين، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

---

(١) انظره في: «العجاب» (٢/ ٩٠٣)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٣٣٠)، و«الفتح السماوي» (٢/ ٤٩٧)، و«الاستيعاب في بيان الأسباب» (١/ ٤١٨ ـ ٤٢٤).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتحاكموا». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هاهنا».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عن ذلك».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عن». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير» زيادة: «منا».

(٧) أخرجه الحسن بن سفيان في «مسنده» ـ ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص١٠٦ ـ ١٠٧) ـ، والطبراني في «الكبير» (١١/ رقم ١٢٠٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٥٥٤٧) **وإسناده صحيح**، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». وصححه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٥٨٠)، وفي «لباب المنقول» (ص٧٢).

(٨) قال ابن حجر في «العجاب» (٢/ ٩٠٠ ـ ٩٠١): «قلت: كذا وقع في هذه الرواية (أبو برزة) ـ براء ثم زاي منقوطة ـ ووقع في غيرها (أبو بردة) ـ بدال بدل الزاي وضم أوله ـ وهو أولى، فما أظن أبا برزة الأسلمي الصحابي المشهور إلا غير هذا الكاهن».

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾. هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتف به يا محمد فيهم؛ فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم، ولهذا قال له: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لا تعنِّفهم على ما في قلوبهم ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ أي: وانههم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع[1] لهم»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ إلى آخر الآيات. قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فرضت طاعته على من أرسل[3] إليهم وقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: أي: لا يطيع أحد إلا بإذني، يعني: لا يطيعه إلا من وفَّقتُه لذلك كقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي: عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ الآية يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ[4] فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يغفر لهم؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: حديث عليّ يدلنا على أن الطاعة المطلقة في الإسلام لا تكون إلا لله ولرسوله، أما طاعة الله تعالى، فلأنه ربنا ومالكنا ونحن عبيده، وأما طاعة الرسول ﷺ فلأنه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤] وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] ولأن النبي ﷺ معصوم من الخطأ فيما يبلغنا عن ربه ﷻ وفيما يقول في أمور الدين وأما أولو الأمر ومنهم ذلك الأمير[6]. الذي أمر أصحابه لما

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وادع»!
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/١٣٨ ـ ١٣٩).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أرسله».
(٤) سيأتي من المصنف بيان ما في قول ابن كثير هذا.
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/١٤٠).
(٦) الذي وردت قصته في الحديث المتقدم آنفاً، وهناك تخريجه.

غضب عليهم أن يجمعوا حطباً، فجمعوه وأوقدت فيه النار، فأمرهم أن يدخلوها، فأخبر النبي ﷺ أنهم لو أطاعوه ودخلوها لاتصلت لهم بنار جهنم؛ لأن هذا الأمر الذي أمرهم به الأمير منكر، والطاعة للأمراء إنما تكون في المعروف؛ لأن الأمراء غير معصومين؛ فقد ينطقون عن الهوى، فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لهم.

وفي هذا الحديث فائدة أخرى، وهي أن الشباب أكثر استفادة وفهماً للدعوة من الشيوخ؛ لأن الشيوخ أرادوا أن يدخلوا النار فمنعهم الشاب، وقال: إن هذا الذي أمر به الأمير يمكن أن يكون من هوى نفسه ولا يرضى به النبي ﷺ، خصوصاً والرجل غضبان والغضب يشبه الجنون، فكان رأي الشاب صحيحاً موافقاً للحق فقد أقرّه النبي ﷺ.اهـ.

وقول ابن كثير في تفسير طاعة الله وطاعة الرسول أنهما (اتباع الكتاب والسنة) ردٌّ على من يحتج بأقوال غير المعصوم فيحلل بها ويحرم.

قال محمد تقي الدين: ما قاله الحافظ (ﷺ) في رد كل نزاع إلى الكتاب والسنة واضح لا يحتاج إلى زيادة بيان فجزاه الله خيراً. وقوله: كعب بن الأشرف هو قاضي اليهود في المدينة، وقوله: فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل.

قال محمد تقي الدين: فكل قوم حصروا التحاكم في مذهبهم وألزموا الحاكم أن لا يخرج عنه وإن كان مخالفاً للكتاب والسنة، أو لا دليل عليه منهما أو مما في معناهما، فهم متحاكمون إلى الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به، وقد أضلهم الشيطان ضلالاً بعيداً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية دليل قاطع على أن كل من دعي إلى كتاب الله وسنة رسوله للتحاكم أو العبادة أو التخلق أو التحليل والتحريم فلم يجب إلى ذلك أنه من المنافقين وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، ولا بدّ أن تصيبه المصائب ولا ترفع عنه إلا بالتوبة والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذه المصيبة التي أصابت المسلمين عموماً والعرب خصوصاً وهي أن شرذمة قليلة من يهود الآفاق استطاعت أن تغتصب ثالث المساجد المقدسة[1]

---

(١) هذا هو الصواب، وقوله: «ثالث الحرمين» المشهورة على الألسنة غير صواب، =

من ست مائة مليون مسلم ومائة مليون من العرب أكثرهم مسلمون، فعجز هؤلاء كلهم أن يستردوا ذلك المسجد المقدس، ولما أرادوا أن يستردوه نكصوا على أعقابهم وخسروا أراضي أخرى. وقع لهم ذلك أكثر من مرة، وإلى الآن لا يزالون يتخبطون في ظلماتهم ولم يهتدوا إلى طريق الخلاص، وهو ظاهر لكل من أوتي شيئاً من نور العلم والإيمان ألا وهو الرجوع إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ.

ووالله ثم والله لن ترفع عنهم هذه المصيبة إلا بالتوبة إلى الله مما هم فيه من الحكم بغير ما أنزل الله، واتباع غير سبيل المؤمنين، ونحن لا نستطيع إلا النصيحة والدعاء، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وقول (ك): «يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول. . .» إلى آخره، **خطأ عظيم** لأن الضمائر السبعة تعود على المتحاكمين إلى الطاغوت التاركين التحاكم إلى الله ورسوله، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] فهذه ستة ضمائر تضاف إلى السبعة المتقدِّم ذكرها، فيصير المجموع ثلاثة عشر ضميراً كلها للمنافقين، وفي هذا حث لهم على التوبة من نفاقهم إلى الله تعالى، ومن كمال توبتهم أن يجيؤوا إلى الرسول ﷺ ويسألوه العفو عن الصدود الذي وقع منهم والإعراض عن التحاكم إليه ويلتمسوا أن يستغفر الله لهم، وليس الكلام في عامة العصاة والمذنبين كما توهم الحافظ (ك) والكمال لله؛ لأن ذلك يقتضي أن كل من أذنب ذنباً في حياة النبي ﷺ مأمور أن يأتي إلى النبي ليستغفر له وهذا غير صحيح، والطامة الكبرى أنه ذكر بعد ذلك حكاية تدل على [أن] المذنبين حتى بعد وفاة النبي ﷺ ينبغي لهم أن يأتوا إلى حجرته التي هو مدفون فيها فيفعلوا ذلك، يدل على ذلك الحكاية التي حكاها ولم ينقلها من كتب الحديث بسند أو بغير سند وإنما نسبها إلى شيوخ ذكر منهم واحداً، وهو أبو منصور الصباغ، وهي حكاية الأعرابي عن العتبي أنه قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال:

= إذ الأقصى ليس بحرم، وهذا خطأ قديم، نبَّه عليه وعلى خطأ قولة (مسجد حرم الخليل إبراهيم): شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ١٤ ـ ١٥)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (ص٤٣٤).

السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

وقد جئتك مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفنتْ بالقاعِ أعظمُه ... فطابَ من طيبهنّ القاعُ والأكمُ

نفسي الفداءُ لقبرٍ أنتَ ساكنُه ... فيه العفافُ وفيه الجُودُ والكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: «يا عتبي الحق الأعرابي، فبشِّره أن الله قد غفر له». اهـ[١].

قال محمد تقي الدين: قوله: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ ظاهره باطل؛ لأن بينه وبين قبر النبي جداران وحائط بيت عائشة وقد حفظ الله قبر النبي ﷺ فلم تره عين ولم تمسه يد بعد زمان الصحابة رضوان الله عليهم، وفي زمان الصحابة كانت أم المؤمنين عائشة ساكنة في بيتها الذي في حجرته القبور الثلاثة، ولم يأت أحد قط من الصحابة لا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم إلى بيت عائشة ويستأذن في زيارة قبر النبي ﷺ، اللهم إلا عمر، بعث ابنه عبد الله إلى عائشة يستأذنها أن يدفن مع صاحبيه لما حضرته الوفاة فأذنت، ودفن مع صاحبيه في مكان واحد[٢].

ولو كان إتيان القبر مشروعاً لكل مذنب لما قدرت عائشة أن تسكن في بيتها

(١) أخرجها ابن الجوزي في «مثير العَزم الساكن» (٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢)، وابن النجار في «الدرة الثمينة» (ص١٤٧)، وفي إسنادها الحسن بن محمد البلخي، قال ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٧٣٥): «والحسن بن محمد البلخي هذا لا أدري هل له من الحديث غير ما ذكرت أم لا؟ وإن روي عنه غير ما ذكرته فإنه يكون قليلاً وكلها مناكير».

وقال ابن عبد الهادي في «الصارم المنكي» (ص٢٥٣):

«وفي الجملة ليست هذه الحكاية المذكورة عن الأعرابي مما تقوم به الحُجَّة، **وإسنادها مظلم**، ولفظها مختلف أيضاً...». ثم قال: «... **ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم** وبالله التوفيق».

وانظر للتفصيل في رد هذه القصة وبيان وهنها: «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» لابن تيمية (ص١٦٠ ـ ١٦١)، و«الصارم المنكي» (ص٢٥٢ ـ ٢٥٣) لابن عبد الهادي، و«التوصل إلى حقيقة التوسل» (ص٢٧٣ ـ ٢٨٩) لشيخنا محمد نسيب الرفاعي ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٠٠)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٤٧٦) من طريق عمرو بن ميمون.

لكثرة المذنبين المستأذنين، ولكن ذلك لم يفعله أحد لا في زمان الصحابة ولا في زمان التابعين فيما نعلم، ولو فعله أحد لكان مبتدعاً؛ لأن الله لم يأمر به ولا أمر به رسوله ﷺ، ولا فعله الصحابة ولا الأئمة المقتدى بهم.

وحكاية العتبي مكذوبة وخارجة عن الصراط المستقيم، ودونك ما فسر به المحققون هذه الآية: قال ابن الجوزي في تفسيره المسمى «زاد المسير» ما نصه: «وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يرجع إلى المتحاكمين الذين سبق ذكرهم[1]، قال ابن عباس: ظلموا أنفسهم بتركهم[2] قضاء الرسول: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾من صنيعهم»[3].

وقال العلامة صديق حسن القنوجي في تفسيره المسمى بـ «فتح البيان» ما نصه: «﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك من الطاغوت وغيره، ﴿جَآءُوكَ﴾[4] تائبين من النفاق متنصلين عن جناياتهم ومخالفاتهم ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ لذنوبهم بالتوبة والإخلاص[5] وقمت شفيعاً فاستغفرت لهم، وإنما قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، على طريقة الالتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول ﷺ وتعظيماً لاستغفاره وإجلالاً للمجيء إليه. ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي كثير التوبة عليهم والرحمة لهم، وهذا المجيء يختص بزمان حياته ﷺ وليس المجيء إليه يعني إلى قبره[6] بعد وفاته مما تدل عليه هذه الآية [الكريمة][7] كما قرره في «الصارم المنكي»[8]، ولهذا لم يذهب إلى هذا الاحتمال البعيد أحد من سلف الأمة وأئمتها لا من الصحابة ولا من التابعين ولا ممن تبعهم بالإحسان»[9].

وقال جمال الدين القاسمي في «تفسيره» ما نصه: «﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ هذا الظلم العظيم غاية العظم، إذ عرضوها لعذاب على عذاب بالنفاق[10]، بترك طاعتك والتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من النفاق

---

(١) في مطبوع «زاد المسير»: «ذكرهما». (٢) في مطبوع «زاد المسير»: «بسخطهم».
(٣) انظر: «زاد المسير» (٢/ ١٤٨).
(٤) بعدها في مطبوع «فتح البيان»: «متوسلين إليك».
(٥) بعدها في مطبوع «فتح البيان»: «وتضرعوا إليك حتى».
(٦) في مطبوع «فتح البيان»: مرقده المنوّر». (٧) غير موجود في مطبوع «فتح البيان».
(٨) انظر: «الصارم المنكي» (ص٣١٤ ـ ٣١٩، ط. الريان).
(٩) انظر: «فتح البيان» (٢/ ١٠٦). (١٠) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «النفاق».

متنصلين عما ارتكبوا ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ من ذلك وتابوا إليه تعالى من صنيعهم: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: دعا لهم بالمغفرة، فكان استغفاره شفاعة لقبولِ استغفارهم ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا﴾ أي: قابلاً لتوبتهم ﴿رَّحِيمًا﴾ أي: متفضلاً عليهم بالرحمة وراء قبول التوبة»[١].

تنبيهات

الأول: دلت الآية على أن توبة المنافق مقبولة عند الله وفاقاً، وأما في الظاهر، فظاهر الآية قبولها؛ لأنه جعل النبي ﷺ مستغفراً لهم وشافعاً. وعن الراضي بالله في «الباطنية»: إن أظهروا شبههم وما يعتدون كتمه دل ذلك على صدق توبتهم فتقبل وإلا فلا، ودلت الآية على أن من تكررت منه المعصية والتوبة صحت توبته لقوله تعالى: ﴿تَوَّابًا﴾ وذلك ينبئ عن التكرار، كذا في بعض التفاسير.

الثاني: قال الرازي: «لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح، لكانت توبتهم مقبولة؟ فما الفائدة في ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟ قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأول: إن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله، وكان أيضاً إساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام[٢]، ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره، فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم.

الثاني: إن القوم لمّا لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم ذلك التمرد، فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذلك إلا بأنهم يذهبون[٣] إلى الرسول ﷺ ويطلبون[٤] منه الاستغفار.

الثالث: لعلهم إذا أتوا[٥] بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول»[٦]. اهـ. وفي «الجلالين» ما نصه: ﴿وَلَوْ

---

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (٥/ ٢٧٢).
(٢) بعدها في «تفسير الرازي»: «وإدخالاً للغم في قلبه».
(٣) في «تفسير الرازي»: «يذهبوا». (٤) في الأصل: «ويطلبون».
(٥) في مطبوع «تفسير الرازي»: «تابوا». (٦) انظر: «تفسير الرازي» (١٠/ ١٣٠).

﴿أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتحاكمهم إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فيه التفات عن الخطاب تفخيماً لشأنه: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا﴾ عليهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم»[1].

وقال البيضاوي في «تفسيره»: «﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر (أن) و(إذ) متعلق به ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شفيعاً، وإنما عدل عن الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة»[2].

وقد تبين من كلام هؤلاء المفسرين صحة ما ذكرتُ من قبل، وخطأ الحافظ ابن كثير، فالله يغفر له ويرحمه.

ثم رأيتُ أن أنقل تفسير الآيات المتقدمة من كلام الحافظ ابن القيم مع ما فيه من التكرار لما رأيت فيه من الفائدة العظيمة لطلبة العلم في هذا الزمان؛ قال ابن القيم في (المجلد الأول) من «إعلام الموقعين» (صفحة ٥٣) ما نصه:

(فصل في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص، والرأي الذي لم تشهد له النصوص بالقبول). قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠] فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما: إمّا الاستجابة لله والرسول وما جاء به. وإما: اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى.

وقال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦] فقسَّم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق، وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه.

وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ

(١) انظر: «تفسير الجلالين» (ص١١١).
(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٢٢٢).

﴿أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩]، فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها وأوحى إليه العمل بها وأمر الأمة بها، وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون، فأمر بالأول ونهى عن الثاني.

وقال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٣] فأمر باتباع المنزَّل منه خاصة، واعلم أن من اتبع غيره؛ فقد اتبع من دونه أولياء.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩] فأمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول، تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب(١)، بل إذا أمر وَجبَتْ طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أم(٢) لم يكن فيه، فإنه أوتيَ الكتاب ومثله معه. ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع له ولا طاعة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**(٣). وقال: **«إنما الطاعة في المعروف»**(٤). وقال في ولاة الأمور:

(١) بعده في الأصل: «والسنة»! وهو غير موجود في مطبوع «إعلام الموقعين».
(٢) في مطبوع «الإعلام»: «أو».
(٣) أخرجه بهذا اللفظ من حديث عمران بن حصين: القضاعي في «مسند الشهاب» (٨٧٣) وعلقه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٤٥)، **وإسناده جيد، لكن في سماع محمد بن سيرين من عمران نظر**. وفي بعض طرق الحديث سماعه منه وهذا بحاجة إلى بحث.
ورواه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٠٥) بلفظ: **«لا طاعة في معصية الله»**، ورواه أيضاً (١١/ ٥٠٦) عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»** مرسلاً.
واعلم أن حديث عمران بن حصين هذا **ثابت من طرق عنه** باللفظ المذكور، أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٦، ٤٣٢)، والطيالسي (٨٥٦)، وعبد الرزاق (٢٠٧٠٠)، والطبراني (١٨/ رقم ٤٣٢ ـ ٤٣٥، ٧٥١)، وفي «الأوسط» (١٣٧٤)، والبزار (٣٦١٤)، والقضاعي (٨٧٣).
(٤) هو جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠) عن علي بن أبي طالب.

«من أمركم منهم بمعصية الله، فلا سمع له ولا طاعة»(١).

وقد أخبر ﷺ عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها أنهم: «لو دخلوها لما خرجوا منها»(٢) مع أنهم إنما [أرادوا أن يدخلوها](٣) طاعة لأميرهم، وظنًّا أن ذلك واجب عليهم، ولكن لما قصَّروا في الاجتهاد وبادروا إلى طاعة من أمر بمعصية الله وحملوا عموم الأمر بالطاعة بما لم يُرِدْه الآمر ﷺ، وما قد عُلم من دينه إرادة خلافه، فقصروا في الاجتهاد وأقدموا على تعذيب أنفسهم وإهلاكها من غير تثبت وتبين: هل ذلك طاعة لله(٤) ورسوله أو(٥) لا؟ **فما الظن بمن أطاع غيره في صريح مخالفة ما بعث الله به رسوله؟** ثم أمر الله تعالى برد ما تنازع فيه المؤمنون إلى الله ورسوله إن كانوا مؤمنين، وأخبر(٦) أن ذلك خير لهم في العاجل، وأحسن تأويلاً في العاقبة. وقد تضمن هذا أموراً منها:

إن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولا يخرجون بذلك عن الإيمان، وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم [سادة](٧) المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يَسُوموها تأويلاً ولم يُحرِّفوها عن مواضعها تبديلاً، ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم: يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً، وأَجْرَوها على سَنن واحد ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع، حيث جعلوها عِضِين، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٦٧)، وابن أبي شيبة (١٢/٥٤٣ و١٤/٣٤١)، وابن ماجه (٢٨٦٣)، وأبو يعلى (١٣٤٩) ومن طريقه ابن حبان (٤٥٥٨)، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/١٢٣): «هذا إسناد صحيح». قلت: بل هو حسن، فيه محمد بن عمرو بن وقاص الليثي، حسن الحديث.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «كانوا يدخلونها».

(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «الله»!

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «أم».

(٦) في مطبوع «الإعلام»: «وأخبرهم».

(٧) في مطبوع «الإعلام»: «سادات».

فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه، والمقصود أن أهل الإيمان لا يخرجهم تنازعهم في بعض مسائل الأحكام عن حقيقة الإيمان إذا ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، كما شرطه الله عليهم بقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولا ريب أن الحكم المعلق على شرط ينتفي عند انتفائه.

ومنها أن قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من وسائل الدين دِقِّه وجِلِّه، وجليِّه وخفيِّه، ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه [ولو لم][1] يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه؛ إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع.

ومنها أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.

ومنها أنه جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه، فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه، ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين، فإنه من الطرفين وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر. ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة. ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكَّم الطاغوت وتحاكم إليه، والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله[2]، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها؛ رأيت أكثرهم فروا من[3] عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول[4] إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله [إلى طاعة الطاغوت ومتابعته][5]، وهؤلاء لم يسلكوا

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «ولم».
(٢) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «الله».
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «أكثرهم ممن أعرضوا».
(٤) في مطبوع «الإعلام»: «ورسوله».
(٥) من مطبوع «الإعلام»، وسقط من الأصل.

طريق الناجحين الفائزين من هذه الأمة، وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معاً. ثم أخبر تعالى عن هؤلاء بأنهم إذا قيل لهم: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، أعرضوا عن ذلك ولم يستجيبوا للداعي ورضوا بحكم غيره. ثم توعدهم بأنهم إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم وأديانهم وبصائرهم وأبدانهم وأموالهم بسبب إعراضهم عما جاء به الرسول وتحكيم غيره والتحاكم إليه كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، اعتذروا بأنهم إنما قصدوا الإحسان والتوفيق، أي: بفعل ما يرضي الفريقين ويوفق بينهما، كما يفعله من يرى[1] التوفيق بين ما جاء به الرسول وبين ما خالفه، ويزعم أنه بذلك محسن قاصد الإصلاح والتوفيق، والإيمان إنما يقتضي إلقاء الحرب بين ما جاء به الرسول وبين كل ما خالفه من طريقة[2] وعقيدة وسياسة ورأي، فمحض الإيمان في هذا الحرب لا في التوفيق، وبالله التوفيق.

ثم أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكِّموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عن قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً وينقادوا انقياداً وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فأخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله، ومن تخير بعد ذلك فقد ضلّ ضلالاً مبيناً.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١] أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويُمْضِيه، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»[3]. وروى العوفي عنه قال: «نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه»[4]. والقول

---

(١) في الأصل: «يروا»! (٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «وحقيقة».

(٣) رواه الطبري (٢٦/١١٦)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٣٠٢) كلاهما في «التفسير»، وأبو ذر الهروي في «ذم الكلام» (٢/١١٥ ـ ١١٦) رقم (٢٦٦)، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (١١٧٣).

(٤) رواه الطبري (٢٦/١١٦)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٣٠٢) كلاهما في «التفسير».

الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢]. فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه، أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم؟

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنُه يُعرَف بدلالة ما جاء به على أنه أذِن فيه، وفي «صحيح البخاري»[1] عن عروة بن الزبير قال: خرج علينا عبد الله بن عمرو بن العاص فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا ينزع العلم بعد إذ أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينزعه مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون**». ثم ذكر[2] بسنده إلى عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم، يحرمون ما أحل الله، ويحلون ما حرم الله**»[3]. قال أبو عمر بن عبد البر: «هذا هو القياس على غير

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٢) المراد ابن عبد البر لا البخاري كما يوهم السياق!

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨/ ٩٠)، وفي «مسند الشاميين» رقم (١٠٧٢)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٦٤ و٧/ ٢٤٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٣٠)، والبزار في «المسند» (رقم ١٧٢ ـ «زوائده»)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، و«الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٢٠٧)، والهروي في «ذم الكلام» (ص٨٣)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٨١٣)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٦٧٣)، وابن حزم في «إبطال القياس» من طرق عن نعيم بن حماد عن عيسى بن يونس عن حريز بن عثمان الرَّحبي عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن عوف بن مالك الأشجعي مرفوعاً، **والحديث ضعيف**، وأشار إلى ذلك الشاطبي في «الموافقات» (٥/ ١٤٧ ـ بتحقيقي) بقوله: «ذكره ابن عبد البر بسند لم يرضه»، ثم قال: «وإن كان غيره قد هون الأمر فيه».

=

= **قلت: الحديث ضعيف** آفته نعيم بن حماد، وقد تكلم الحفاظ فيه بسببه، قال ابن عدي: «وهذا إنما يعرف بنعيم بن حماد، رواه عن عيسى بن يونس فتكلم النّاس بجرّاه، ثم رواه رجل من أهل خراسان، يقال له: الحكم بن المبارك، يكنى أبا صالح، يقال له: الخواشتي، ويقال: إنه لا بأس به، ثم سرقه قوم ضعفاء ممن يعرفون سرقة الحديث، منهم: عبد الوهاب بن الضحاك، والنضير بن طاهر، وثالثهم سويد الأنباري»، وقال البيهقي عقبه: «تفرد به نعيم بن حماد، وسرقه عنه جماعة من الضعفاء، وهو منكر، وفي غيره من أحاديث «الصحاح» الواردة في معناه كفاية، وبالله التوفيق».

وقال ابن عبد البر: «هذا عند أهل العلم بالحديث، حديث غير صحيح حملوا فيه على نعيم بن حماد، وقال أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين: حديث عوف بن مالك هذا لا أصل له، وأما ما روي عن السلف في ذم القياس؛ فهو عندنا قياس على غير أصل أو قياس يُردُّ به الأصل».

قلت: مراد أحمد ويحيى هذا الحديث بلفظه المذكور، وفيه ذكر وذم للقياس، وإلا فقد أخرج ابن ماجه في «السنن» رقم (٣٩٩٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٦٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (١٤٩) **بسند جيد**، من حديث عوف بن مالك مرفوعاً: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنة، وسبعين في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وإحدى وسبعين في النار، والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنة واثنتان وسبعين في النار**».

قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «**هم الجماعة**».

وأخرجه من حديثه ـ أيضاً ـ الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩) من طريق أخرى، ولكن فيها كثير بن عبد الله المزني، لا تقوم به الحجة.

ولحديث عوف بلفظه السابق ـ وليس بلفظ المصنف ـ شواهد عديدة من حديث أبي هريرة، ومعاوية، وأنس وعبد الله بن عمرو، وقد صححه جمع من الحفاظ كما بيّن ذلك بتطويل وتحقيق متين شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٠٣، ٢٠٤).

وقد ضعف حديث عوف هذا الزركشي، فقال في «المعتبر» (ص٢٢٧): «هذا حديث لا يصح، مداره على نعيم بن حماد، قال الحافظ أبو بكر الخطيب في «تاريخه» [١٣/ ٣١١] بهذا الحديث سقط نعيم بن حماد عند كثير من أهل الحديث، وكان يحيى بن معين لا ينسبه إلى الكذب، بل إلى الوهم، وقال النسائي: ليس بثقة.

وقال أبو زرعة: قلت ليحيى بن معين في حديث نعيم هذا، وسألته عن صحته فأنكره، قلت له: من أين يؤتى؟ قال: شُبِّه له. وقال محمد بن علي بن حمزة المروزي: سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث؟ قال: ليس له أصل. قلت: فنعيم بن حماد؟ قال: نعيم ثقة. قلت: كيف يحدث ثقة بباطل؟ قال: شُبِّه له».

أصل، والكلام في الدين بالخَرْص والظن، ألا ترى إلى قوله في الحديث: «**يحلون الحرام ويحرمون الحلال**». ومعلوم أن الحلال ما في كتاب الله وسنة رسوله تحليله، والحرام ما في كتاب الله وسنة رسوله تحريمه، فمن جهل ذلك وقال فيما سئل عنه بغير علم وقاس برأيه ما خرج منه[(١)] عن السنة، فهذا الذي قاس الأمور برأيه؛ فَضَلَّ وأضل، [ومن][(٢)] رد الفروع إلى أصولها فلم يقل برأيه»[(٣)].

ثم قال: **(فصل فيما [روينا][(٤)] عن صديق الأمة وأعلمها من إنكار الرأي)** روينا عن عبد[(٥)] بن حميد وذكر سنده إلى ابن أبي مُليكة قال[(٦)]: لم يكن أحد أهيَبَ بما لا يعلم من أبي بكر رضي الله عنه، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب بما[(٧)] لا يعلم من عمر رضي الله عنه، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ولا في السنة أثراً فاجتهد برأيه، ثم قال: «هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني وأستغفر الله». ثم قال: **(فصل في المنقول من ذلك عن عمر بن الخطاب** رضي الله عنه**)** قال ابن وهب بسنده[(٨)] عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو على المنبر: «يا أيها الناس، إن الرأي إنما كان من رسول الله ﷺ مصيباً، إن الله كان يريه، وإنما هو منا الظن والتكلف». قلت: مراد عمر رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] فلم يكن له رأي غير ما أراه الله إياه، وأما ما رأى غيره فظن وتكلف.

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «به». (٢) في مطبوع «الإعلام»: «فأما من».
(٣) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ١٠٣٩). (٤) في مطبوع «الإعلام»: «روي».
(٥) كذا في مطبوع «الإعلام»، وتحرف في الأصل إلى «حمير»!
(٦) وقع سبق نظر إما من المصنف وإما من الطابع، فإن أثر ابن أبي مُليكة هذا لفظه: «قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: «أي أرض تقلني وأيُّ سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي أو بما لا أعلم». وهذا الأثر له طرق كثيرة متعددة عن أبي بكر وهي لا تخلو من كلام أو انقطاع **ولكنه بمجموعها يصل إلى درجة الحسن** ـ إن شاء الله تعالى ـ كما قال الحافظ ابن حجر وغيره، وانظر تخريجه بتفصيل في تعليقي على: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٠٠). والأثر الذي ذكره المصنف هنا هو من كلام ابن سيرين، وابن سيرين لم يسمع من أبي بكر ولا من عمر، وقد أورده ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٩١١) عن ابن مسعود ولم يسنده.
(٧) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «لما»!
(٨) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٠٠) من طريق ابن وهب به، **وإسناده منقطع**، ابن شهاب لم يدرك عمر.

قال سفيان الثوري بسنده عن مسروق قال: كَتَب كاتبٌ لعمر بن الخطاب: «هذا ما رأى الله ورأى عمر». فقال: «بئس ما قلت، قل: هذا ما رأى عمر، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمن عمر»(١). وعنه أيضاً أنه قال: «السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة»(٢). وقال: «اتقوا الرأي في دينكم»(٣) وكان يقول: «أصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، وتفلَّتَتْ منهم أن يَعُوها. واستحيَوْا حين سُئلوا أن يقولوا: لا [أدري](٤) فعارضوا السنن برأيهم فإياكم وإياهم».

وذكر محمد بن عبد السلام الخُشَني بسنده عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال: «أيها الناس اتهموا الرأي في الدين فلقد رأيتني وإني لأردُّ أمر رسول الله ﷺ برأيي فأجتهد ولا آلو، وذلك يوم أبي جَنْدَل والكتاب يكتب وقال: «**اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم**». فقال [النائب عن المشركين سهيل بن عمرو](٥): [اكتب](٦): باسمك اللهم، فرضي رسول الله ﷺ وأبيْتُ، فقال: «**يا عمر، تراني قد رضيت وتأبى؟**»(٧).

وقال أبو بكر بن [أبي] شيبة بسنده(٨) إلى رفاعة بن رافع قال: بينما أنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ دخل عليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين هذا زيد بن

---

(١) أخرجه البيهقي (١٠/ ١١٦) وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (٤/ ١٩٥): «**إسناده صحيح**».

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠١٤)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٧٨٦) وعبيد الله بن أبي جعفر لم يسمع من عمر، إذ هو متأخر عنه، **فإسناده منقطع**، وذكره القاضي أبو يعلى في «العدة» (٤/ ١٣٠٥) عن ابن عمر لا عن عمر.

(٣) أخرجه البيهقي في «المدخل» (٢١٠)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٠٢) **والإسناد منقطع**، عبيد الله لم يسمع من عمر، وصح عنه: «اتهموا الرأي في الدين» وسيأتي قريباً.

(٤) في مطبوع «الإعلام»: «نعلم».

(٥) غير موجود في مطبوع «الإعلام».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يكتب».

(٧) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد فضائل الصحابة» (٥٥٨)، والطبراني في «الكبير» (٨٢)، والبيهقي في «المدخل» (٢١٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٧٩): «رواه أبو يعلى ورجاله موثقون، وإن كان فيهم مبارك بن فضالة وهو مدلس وقد عنعن».

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ١١٠، ١١١، ط. دار الفكر)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩)، و«شرح معاني الآثار» (١/ ٥٨ ـ ٥٩)، والطبراني (٥/رقم ٤٥٣٦) **بسند رجاله ثقات غير ابن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنعن**.

ثابت يفتي الناس في المسجد برأيه في الغسل من الجنابة. فقال عمر: عليَّ به. فجاء زيد فلما رآه عمر، قال عمر: أي عدوَّ نفسه: قد بلغت أن تفتي الناس برأيك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما فعلتُ، ولكن سمعت من أعمامي حديثاً فحدثت به من أبي أيوب ومن أُبيّ بن كعب ومن رفاعة بن رافع. فقال عمر: عليَّ برفاعة بن رافع. فقال: قد كنتم تفعلون ذلك إذا أصاب أحدكم المرأة فأكسل أن يغتسل؟ قال: قد كنا نفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ، لم [يأتينا][1] فيه عن الله تحريم ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شيء. فقال عمر: ورسول الله ﷺ يعلم ذلك؟ قال: ما أدري.

فأمر عمر بجمع المهاجرين والأنصار، فجُمعوا وشاورهم، فأشار الناس أن لا غسل إلا ما كان من معاذ وعلي، فإنهما قالا: إذا جاوز الختان الختان وجب الغسل، فقال عمر: هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم فمن بعدكم أشد اختلافاً، فقال علي: يا أمير المؤمنين[2] ليس أحد أعلم بهذا من شأن رسول الله ﷺ من أزواجه، فأرسل إلى حفصة، فقالت: لا علم لي، فأرسل إلى عائشة فقالت: إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل. فقال: لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضرباً».

(قول عبد الله بن مسعود)[3] قال البخاري بسنده إلى مسروق أن عبد الله بن مسعود قال: «لا يأتي عليكم عام إلا وهو شر من الذي قبله، أما إني لا أقول: أمير خير من أمير، ولا عام أخصب من عام، ولكن فقهاؤكم يذهبون، ثم لا تجدون منهم خلفاً، ويجيء قوم يقيسون الأمور برأيهم»[4]، وقال ابن وهب: ثنا

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «يأتنا». (٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «إنه».

(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «في ذم الرأي».

(٤) أخرجه الدارمي في «السنن» (١/ ٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٠٩)، وابن وضاح في «البدع» رقم (٧٨، ٢٤٨)، وابن أبي زمنين في «السنة» رقم (١٠)، والفسوي في «المعرفة» (٣/ ٣٩٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٢)، والداني في «الفتن» رقم (٢١٠، ٢١١) من طرق مدارها على مجالد بن سعيد، **وإسناده ضعيف**؛ لضعف مجالد واختلاطه. قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٨٠): «وفيه مجالد بن سعيد وقد اختلط». ومع هذا فقد جوّده ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٢٠). نعم هو **جيد من طرق أخرى**، أخرجه يعقوب بن شيبة، أفاده ابن حجر ـ أيضاً ـ (١٣/ ٢٠)، وانظر: «سنن البيهقي» (٣/ ٣٦٣) وأوله محفوظ من حديث أنس مرفوعاً، أخرجه البخاري (٧٠٦٨) وغيره بسنده إلى الزبير بن عدي.

شقيق، عن مجاهد به قال: «ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم، ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم؛ فينهدم الإسلام»[(١)]. وقال ابن أبي شيبة بسنده إلى مسروق أن عبد الله قال: «علماؤكم يذهبون ويتخذ الناس رؤوساً جهالاً يقيسون الأمور برأيهم»[(٢)]. وقال سُنَيد بن داود بسنده[(٣)] إلى الربيع بن خُثَيم أن عبد الله قال: «ما علّمَك الله[(٤)] في كتابه فاحمد الله، وما استأثر به عليك من علم فكِلْه إلى عالمه ولا تتكلف، فإن الله ﷻ يقول لنبيه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦]». وقال سعيد بن منصور بسنده[(٥)] إلى الشعبي أن عبد الله قال: «إياكم[(٦)] وأرأيت، أرأيت فإنما هلك من كان قبلكم بأرأيت أرأيت[(٧)]، ولا تقيسوا شيئاً فتزلَّ قدم بعد ثبوتها، وإذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل: لا أعلم فإنه ثلث العلم». وصح عنه في المفوِّضة أنه قال: «أقول فيها برأيي[(٨)] فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريء منه»[(٩)].

قول عثمان بن عفان[(١٠)]: قال محمد بن إسحاق بسنده[(١١)] عن [عبيد][(١٢)] الله بن الزبير قال: إنا والله مع عثمان بن عفان بالجحفة، إذ قال عثمان

---

(١) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «ويثلم»، وهذه الزيادة عن مجاهد عند ابن وضاح والداني.
(٢) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠١٠) وفيه مجالد، وهو **ضعيف**.
(٣) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠١١)، وأبو ذر الهروي في «ذم الكلام» (ص١٣٨) وسُنيد **ضعيف**.
(٤) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «من علم».
(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٠٩)، وأبو ذر الهروي في «ذم الكلام» رقم (٢٧٨) من هذا الطريق، قال الهيثمي (١/ ١٨٠): «الشعبي لم يسمع من ابن مسعود، وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف». ورواه الطبراني (٩٠٨١) بإسناد متصل لكن فيه جابر الجعفي، وفيه يحيى الحماني وهو متهم بسرقة الحديث، **فإسناده واهٍ**، وورد نحوه عن ابن عباس عند الهروي في «ذم الكلام» رقم (٢٧٣).
(٦) في مطبوع «الإعلام»: «إياك».
(٧) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «رأيت».
(٨) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «برأي».
(٩) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠٨٩٨) عن علقمة عن ابن مسعود.
(١٠) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «في ذم الرأي».
(١١) اختلاف عثمان في المسألة المذكورة ثابت بغير هذا السياق، انظره في «صحيح البخاري» (١٥٦٣، ١٥٦٩).
(١٢) في مطبوع «الإعلام»: «عبد».

ـ وذُكِر له التمتع بالعمرة إلى الحج ـ: أتموا الحج وأخلصوه في أشهر الحج، فلو أخَّرتم هذه العمرة حتى تزوروا هذا البيت زورتين كان أفضل، فإن الله قد أوسع في الخير. فقال له علي: عمدتَ إلى سنة رسول الله ﷺ ورخصة رخص الله للعباد بها في كتابه تضيق عليهم فيها، وتنهى عنها، وكانت لذي الحاجة والنائي الدار، ثم أهلّ علي بعمرة وحج معاً. فأقبل عثمان بن عفان رضي الله عنه على الناس فقال: «أنهيت عنها؟ إني لم أنه عنها، إنما كان رأياً أشرت به، فمن شاء أخذه ومن شاء تركه». فهذا عثمان يخبر عن رأيه أنه ليس بلازم للأمة الأخذ به، بل من شاء أخذ به ومن شاء تركه، بخلاف سنة رسول الله ﷺ، فإنه لا يسع أحداً تركها لقول أحد كائناً من كان.

قول علي بن أبي طالب(١): قال أبو داود بسنده(٢) إلى علي بن أبي طالب قال: «لو كان الدين بالرأي؛ لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه».

قول عبد الله بن عباس(٣): عن ابن عباس أنه قال: «من أحدث رأياً ليس في كتاب الله ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ لم يدر على ما هو منه إذا لقي الله ﷻ»(٤). وعنه أنه قال: «إنما هو كتاب الله وسنة [رسوله](٥) ﷺ، فمن قال بعد ذلك برأيه، فلا أدري أفي حسناته يجد ذلك أم في سيئاته؟»(٦). وقال

(١) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «في ذم الرأي».

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٢، ١٦٣، ١٦٤)، وابن أبي شيبة (١/ ١٨، ١٩) ـ ومن طريقه الهروي في «ذم الكلام» (٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧) ـ، والدارقطني (١/ ١٩٩ ـ ٢٠٤)، وابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ١١١)، والطحاوي (١/ ٣٥)، والبيهقي (١/ ٢٩٢)، وفي «المدخل» (٢١٩)، والبغوي (٢٣٩)، وأبو نعيم (٨/ ١٩٠)، وابن عبد البر (١١/ ١٤٩)، وابن حزم (٢/ ٥٦). وقال الحافظ في «التلخيص» (١/ ١٦٠): «**إسناده صحيح**»، وانظر تخريجه مفصلاً في تعليقي على: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ بتحقيقي)، وانظر ـ غير مأمور ـ «علل الدارقطني» (٤/ ٤٤).

(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «في ذم الرأي».

(٤) أخرجه الدارمي (١/ ٥٧)، والبيهقي في «المدخل» (١٩٠)، والهروي في «ذم الكلام» (٢/ ٢١٦) رقم (٢٨٠).

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «رسول الله».

(٦) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٤٠٢ و٢٠١٣) وفيه عبد الرحمن بن زياد هو ابن أنعم الإفريقي ضعيف، وأبو فزارة راشد بن كيسان لم يدرك ابن عباس، **فإسناده ضعيف**.

«من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[(١)].

قول سهل بن حُنَيف[(٢)]: قال سهل بن حنيف: «أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله ﷺ لرددته»[(٣)].

قول عبد الله بن عمر[(٤)]: كان عبد الله بن عمر إذا لم يجد في الأمر يُسأل عنه شيئاً قال: «إن شئتم أخبرتكم بالظن»[(٥)].

وروى البخاري بسنده إلى جابر بن زيد قال: لقيني ابن عمر فقال: «يا جابر إنك من فقهاء البصرة وتُستفتى، فلا تفتينَّ إلا بكتاب ناطق أو سنة ماضية»[(٦)]، وقال مالك عن نافع عنه: «العلم ثلاث: كتاب الله الناطق[(٧)]، وسنة ماضية، ولا أدري»[(٨)].

قول زيد بن ثابت[(٤)]: وقال البخاري بسنده[(٩)] إلى الشعبي قال: أتى زيدَ بن

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٣)، والترمذي (٢٩٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٨٥)، وأبو داود ـ رواية ابن العبد، كما في «التحفة» (٤/ ٤٢٣) ـ، والطبري (١/ ٣٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٩٢)، والبغوي (١١٨) من طريق عبد الأعلى بن عامر الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً، وأخرجه ابن جرير مرفوعاً وموقوفاً. ومدار المرفوع والموقوف على عبد الأعلى الثعلبي، **وهو ضعيف**، ومع هذا فقد حسنه الترمذي وابن القطان؛ نقله عنه ابن حجر في «النكت الظراف» (٤/ ٤٢٣)، ولم أظفر به في «بيان الوهم والإيهام» وضعّفه شيخنا الألباني، وهو الذي تقتضيه الصنعة الحديثية.

(٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «في ذم الرأي ـ رضي الله عنه ـ».

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨١)، ومسلم (١٧٨٥).

(٤) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «في ذم الرأي ـ رضي الله عنه ـ».

(٥) ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (١٤٤٣)، قال: «قال ابن وهب. . .» وذكره، **وسنده صحيح**.

(٦) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٠٤) ومن طريقه ابن حزم في «الإحكام» (٨/ ٥٤٠) **وسنده صحيح**.

(٧) في مطبوع «الإعلام»: «كتاب ناطق».

(٨) رواه الطبراني في «الأوسط» (١٠٠٥)، وفيه عمر بن حفص أبو حفص العبدي قال عنه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٣٤٤): «كان ضعيفاً عندهم في الحديث كتبوا عنه وتركوه» وقال ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٠٦): «وأبو حفص العبدي له أحاديث غير ما ذكرت والضعف بيِّن على رواياته»، **فإسناده ضعيف**.

ورواه ابن عبد البر في «الجامع» (١٣٨٧) من طريق آخر فيه راويان **ضعيفان**.

(٩) رواه من طريقه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٦٩)، وفيه سنيد بن داود وهو **ضعيف**.

ثابت قوم فسألوه عن أشياء، فأخبرهم بها فكتبوها، ثم قالوا: لو أخبرناه قال: فأتوه فأخبروه، فقال: «أغدراً؟ لعل كل شيء حدثتكم خطأ! إنما اجتهدتُ لكم رأيي»[١].

قول معاذ بن جبل[٢]: قال معاذ بن جبل: «تكون فتن فيكثر فيها المال، ويفتح القرآن، حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير والمنافق والمؤمن، فيقرؤه الرجل فلا يُتَّبع فيقول: والله لأقرأنّه علانية، فيقرؤه علانية فلا يتبع، فيتخذ مسجداً ويبتدع كلاماً ليس من كتاب الله ولا من سنة رسوله[٣] ﷺ، فإياكم وإياه، فإنه بدعة وضلالة» قاله معاذ ثلاث مرات[٤].

قول أبي موسى الأشعري[٢]: قال البغوي بسنده إلى أبي رجاء العطاردي أن أبا موسى الأشعري قال: «من كان عنده علم فليُعلِّمه الناس، وإن لم يعلم فلا يقولن ما ليس له به علم، فيكون من المتكلفين ويمرُق من الدين»[٥].

قول معاوية بن أبي سفيان[٢]: قال البخاري بسنده: عن محمد بن جبير بن مطعم أنه كان عند معاوية وفد من قريش، فقام معاوية فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنه قد بلغني أن رجالاً فيكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله ولا تُؤْثَر عن رسول الله ﷺ فأولئك جهّالكم»[٦].

فهؤلاء من الصحابة: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر

---

(١) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «برأي»!

(٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «في ذم الرأي ـ رضي الله عنه ـ».

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «رسول الله».

(٤) أخرجه الدارمي (١/ ٦٧) أو رقم (٢٠٥)، والحاكم (٤/ ٤٦٦)، وابن وضاح في «البدع» رقم (٦٣)، والتيمي في «الحجة» (١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)، واللالكائي في «السنة» (١/ ٨٩) رقم (١١٧)، والهروي في «ذم الكلام» (ص١٨٧)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» رقم (٢٨٤) من طرق عن معاذ، وصحح الحاكم واحدة منها على شرط مسلم، وهو كما قال، وانظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ١١٢)، و«تالي تلخيص المتشابه» (٢/ ٤٩٦) وتعليقي عليهما.

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٠٩ ـ ١١٠) **وإسناده حسن**، ولم يعزه في «الدر المنثور» (٧/ ٢٠٩) إلا لابن سعد.

(٦) أخرجه البخاري (٣٥٠٠).

وزيد بن ثابت وسهل بن حُنَيف ومعاذ بن جبل ومعاوية[١] وأبو موسى الأشعري [رضي الله عنهم][٢] يُخرجُون الرأي عن العلم، ويذمونه ويحذّرون منه، وينهون عن الفتيا[٣] ومن اضطُرَّ منهم إليه أخبر أنه ظن وأنه ليس على ثقة منه، وأنه يجوز أن يكون منه ومن الشيطان. وأن الله ورسوله بريء منه، وأن غايته أن يسوغ الأخذ به عند الضرورة من غير لزوم لاتباعه ولا العمل[٤] به، فهل تجد[٥] عن أحد منهم قط أنه جعل رأي رجل بعينه ديناً تترك له السنن الثابتة عن رسول ﷺ ويبَدِّع ويضلّل من خالفه إلى اتباع السنن؟ فهؤلاء برك[٦] الإسلام وعصابة الإيمان وأئمة الهدى ومصابيح الدجى، وأنصح الأئمة للأمة، وأعلمهم بالأحكام وأدلتها وأفقههم في دين الله، وأعمقهم علماً، وأقلهم تكلفاً، وعليهم دارت الفتيا، وعنهم انتشر العلم، و[أصحابهم][٧] هم فقهاء الأمة ومنهم من كان مقيماً بالكوفة كعلي وابن مسعود، وبالمدينة كعمر بن الخطاب وابنه وزيد بن ثابت، وبالبصرة كأبي موسى الأشعري، وبالشام كمعاذ بن جبل ومعاوية بن أبي سفيان، وبمكة كعبد الله بن عباس، وبمصر كعبد الله بن عمرو بن العاص، وعن هذه الأمصار انتشر العلم في الآفاق، وأكثر من رُوي عنه التحذير من الرأي من كان بالكوفة إرهاصاً بين يدي ما عَلِم الله سبحانه[٨] يحدث فيها بعدهم». ثم قال:

فصل

«ونحن نذكر آراء التابعين ومن بعدهم بذلك ليتبين مرادهم، قال الخُشني بسنده عن الشعبي قال: «لعن الله أرأيت»[٩]. وسأل صالح بن مسلم **الشعبي** عن

---

(١) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «خال المؤمنين».
(٢) غير موجود في مطبوع «الإعلام».
(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «به».
(٤) في مطبوع «الإعلام»: «للعمل».
(٥) في مطبوع «الإعلام»: «يوجد».
(٦) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «ترك»!
(٧) من مطبوع «الإعلام»، وسقطت من الأصل!
(٨) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «أنه».
(٩) أخرجه البيهقي في «المدخل» رقم (٢٢٦)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (٢٠٩٥)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٦٠٥). وفي إسناده مجالد بن سعيد وهو ضعيف، لكن هو **صحيح** عنه، فانظر: «الموافقات» (٥/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤) وتعليقي عليه.

مسألة من النكاح، فقال: «إن خبرتك برأيي فَبُل[١] عليه»[٢] قالوا: فهذا قول الشعبي في رأيه وهو من كبار التابعين وقد لقي مائة وعشرين من الصحابة وأخذ عن جمهورهم، وقال الطحاوي بسنده عن **الشعبي** قال: «ما جاءكم به هؤلاء من[٣] أصحاب رسول الله ﷺ فخذوه وما كان من رأيهم فاطرحوه في الحش»[٤].
وقال البخاري بسنده إلى عمرو بن دينار قال: قيل **لجابر بن زيد**: إنهم يكتبون ما يسمعون منك. قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون يكتبونه وأنا أرجع عنه غداً»[٥].
قال إسحاق بن راهويه: قال سفيان بن عيينة: «اجتهاد الرأي هو مشاورة أهل العلم، لا أن يقول هو برأيه»[٦]، وقال ابن أبي خيثمة بسنده إلى **عمر بن عبد العزيز** أنه كتب إلى الناس: «إنه لا رأيَ لأحد مع سُنة سنها رسول الله ﷺ»[٧].
قال أبو نضرة[٨]: سمعت **أبا سلمة**[٩] **بن عبد الرحمن** يقول للحسن البصري: «بلغني أنك تفتي برأيك، فلا تفت برأيك إلا أن يكون سنة عن رسول الله ﷺ»[١٠].

---

(١) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «قبل»!
(٢) أخرجه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣١٩)، ونحوه في «طبقات ابن سعد» (٦/ ٢٥٠).
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «عن».
(٤) رواه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٤) من طريق الطحاوي به، والدارمي (١/ ٦٧) ومن طريقه الذهبي في «السير» (٤/ ٣١٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ٢٥٦)، والبيهقي في «المدخل» (٨١٤)، **وإسناده صحيح**. «والحُش» ـ بضم الحاء وفتحها وكسرها ـ والجمع: الحِشَّان، مثل: ضيف وضيفان والحش ـ أيضاً ـ: البستان المخرج ـ أيضاً ـ، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين، والجمع: الحشوش.
(٥) رواه من طريق البخاري ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٧٠) وعنه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٢٥)، **وسنده ضعيف**.
(٦) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٣٩).
(٧) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٤٥٦) وعنه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٣)، وانظر: «الموافقات» (٣/ ٢٩ ـ ٣٠) و(٤/ ٤٦٠ ـ ٤٦١) وتعليقي عليه.
(٨) كذا في مطبوع «الإعلام» (٢/ ١٣٩) المقابل على أكثر من نسخة خطية بتحقيقي، وهو الصواب، واسمه المنذر بن مالك وهو من الثقات، وفي سائر النسخ المطبوعة منه: «أبو بصيرة» وكذا نقلها المصنف في أصل كتابنا هذا!
(٩) كذا في مطبوع «الإعلام»، وهو الصواب، وفي الأصل: «أبا أسامة»!
(١٠) أخرجه الدارمي في «السنن» (١/ ٥٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٣)، والهروي في «ذم الكلام» رقم (٣٢١)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٤)، **وإسناده صحيح**.

وقال البخاري بسنده(١) إلى عبد الواحد، ثنا الزِّبرقان(٢) بن عبد الله الأسيدي أن **أبا وائل شقيق بن سلمة** قال: «إياك ومجالسة من يقول: أرأيت أرأيت».

وقال أبان بن عيسى بن دينار يسنده إلى مالك أن **ابن شهاب قال**: «دَعوا السنة تمضي لا تعرَّضوا لها بالرأي»(٣).

وقال يونس: [ثنا ابن وهب: أخبرني سعيد بن أبي أيوب]، عن أبي الأسود ـ وهو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ـ: سمعت **عروة بن الزبير يقول**: «ما زال أمر بني إسرائيل معتدلاً، حتى نشأ فيهم المولَّدون أبناء سبايا الأمم، فأخذوا فيهم بالرأي فأضلوهم»(٤).

وذكر ابن وهب عن **ابن شهاب** أنه قال ـ وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأي وتركهم السنن ـ فقال: «إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي بأيديهم حين اتَّبعوا الرأي وأخذوا فيه»(٥).

وقال ابن وهب: حدثني ابن لهيعة أن رجلاً سأل **سالم بن عبد الله بن عمر**، عن شيء فقال: لم أسمع في هذا شيئاً، فقال له الرجل: فأخبرني أصلحك الله برأيك. فقال: لا، ثم أعاد عليه، فقال: إني أرضى برأيك، فقال سالم: إني لعلي إن أخبرتك برأيي ثم تذهب، فأرى بعد ذلك رأياً غيره فلا أجدك»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الأوسط» (١/ ٣٧٤) (رقم ٨٣١ ـ رواية الخفاف) ـ ومن طريقه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٥) ـ، والدارمي (١/ ٦٦)، والبيهقي في «المدخل» (٢٢٩)، والهروي في «ذم الكلام» رقم (٣٦٨)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (٢٠٩٤)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٤١٥، ٤٢٩)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٢٢٨)، **وإسناده صحيح**.

(٢) في الأصل: «عبد الواحد بن الزبرقان» وهو خطأ، صوابه المثبت، كما في مصادر التخريج، وانظر تعليقنا على: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٤٠).

(٣) أخرجه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٥)، ورشيد الدين العطار في «مجرد أسماء الرواة عن مالك» رقم (١٣٣٥)، وانظر تعليقي على: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٤٠).

(٤) أخرجه بهذا الإسناد: ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٥) وما بين المعقوفتين منه، وسقط من نسخ «الإعلام» المطبوعة والمخطوطة، والمصنف ينقل منه (٢/ ١٤٠ ـ بتحقيقي)، وأخرجه الدارمي (١/ ٥٠) من طريق آخر، **وإسناده صحيح**.

(٥) ذكره عنه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٢٨) دون إسناد.

(٦) أخرجه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٥)، وذكره ابن عبد البر (١٤٤٢) **وسنده حسن**،

وقال البخاري بسنده عن مالك بن أنس قال: كان ربيعة يقول لابن شهاب: «إن حالي ليس يشبه حالك أنا أقول برأيي، من شاء أخذه وعمل به ومن شاء تركه»[(١)].

وقال الفريابي بسنده إلى حماد بن زيد قال: قيل[(٢)] لأيوب السختياني: «ما لك لا تنظر في الرأي؟ فقال أيوب: قيل للحمار ما لك لا تجترُّ؟ قال: أكره مضغ الباطل[(٣)]. وقال الأوزاعي: «عليك بآثار مَنْ سلف وإن رفضك الناس وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك القول»[(٤)].

وكان سعيد بن عبد العزيز[(٥)] إذا سئل لا يجيب حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا الرأي والرأي يخطئ ويصيب[(٦)].

وقال أبو حنيفة: «عِلمُنَا هذا رأي وهو أحسن ما قَدِرنا عليه ومن جاءنا بأحسن منه قبلناه منه»[(٧)]. وقال أشهب بن عبد العزيز: كنت عند مالك فسئل عن البتة[(٨)] فأخذت لوحي[(٩)] لأكتب ما قال، [فقال لي][(١٠)] مالك: لا تفعل، فعسى

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) **ورواته ثقات**.

(٢) من في مطبوع «الإعلام»، وسقط من الأصل.

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (رقم ٢٩٥٠ ـ بتحقيقي)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٨٥)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٣)، **وإسناده صحيح**.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٧٧)، وعنه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٢ ـ ٥٣) ومن طريقه الفريابي، **وإسناده جيد**. وأخرجه البيهقي في «المدخل» (٢٣٣)، والآجري في «الشريعة» (ص٥٨، ط. القديمة و١/ ٤٤٥) رقم (١٢٧)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٨)، والهروي في «ذم الكلام» رقم (١١٦) من طريق أخرى.
وذكره الذهبي في «العلو» (ص١٣٨)، وابن قدامة في «ذم التأويل» (ص٦٧).

(٥) وقع هنا سبق نظر إما من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ وإما من الطابع إذ إن هذا الأثر من طريق سعيد بن عبد العزيز عن مكحول أنه كان إذا سئل... إلخ.

(٦) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (١/ ٣٢٦) رقم (٦٢٢) ـ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١١/ق ٣٩٩) ـ، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٧)، وذكره الذهبي في «السير» في ترجمة (مكحول) (٥/ ١٦١) **ورواته ثقات**.

(٧) ذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ١٤٣ ـ بتحقيقي).

(٨) «البتة»: يريد طلاق البتة، وهو أن يقول الرجل لزوجته: أنت طالق البتة: أي لا رجعة لك.

(٩) في مطبوع «الإعلام»: «ألواحي».

(١٠) من مطبوع «الإعلام»، وسقط من الأصل.

في العشي أقول: إنها واحدة»[١].

وقال معن بن عيسى القزاز: سمعت مالكاً يقول: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في قولي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[٢].

فرضي الله عن أئمة الإسلام وجزاهم عن نصيحتهم[٣] خيراً، ولقد امتثل وصيتهم وسلك سبيلهم أهلُ العلم والدين من أتباعهم، وأما المتعصبون فإنهم عكسوا القضية، ونظروا في السنة، فما وافق أقوالهم منها قبلوه، وما خالفها تحيَّلوا في ردّه أو ردّ دلالته، وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سنداً ودلالة وكان يوافق[٤] قولهم قبلوه[٥] ولم يستجيزوا ردّه واعترضوا به على منازعيهم وأشاحوا[٦] وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم دفعوه ولم يقبلوه، وسنذكر من هذا إن شاء الله طرفاً عند ذكر غائلة التقليد وفساده والفرق بينه وبين الاتباع.

وقال بقي بن مخلد بسنده[٧] عن **مالك** إنه كان يكثر أن يقول: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢][٥]. وقال القعنبي: دخلت على **مالك بن أنس** في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه ثم جلست، فرأيته يبكي فقلت له: يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك؟ فقال لي: يا ابن قعنب، وما لي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني؟ والله لوددْتُ أني ضُربت بكل مسألة أفتيت فيها بالرأي سَوْطاً، وقد كانت لي السعة فيما قد سُبقت إليه وليتني لم أفتِ بالرأي»[٨]. وقال ابن أبي داود

(١) رواته ثقات، ونحوه في «ترتيب المدارك» (١/ ١٥٠)، و«الموافقات» (٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٢ ـ بتحقيقي).

(٢) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (١٤٣٥) **وإسناده حسن**، وذكره القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، والشاطبي في «الموافقات» (٥/ ٣٣١ ـ بتحقيقي) وغيرهما.

(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «للأمة». (٤) في مطبوع «الإعلام»: «موافقاً».

(٥) من مطبوع «الإعلام»، وسقطت من الأصل!

(٦) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «على منازعهم وأشاعوا»!

(٧) ذكره ابن عبد البر بصيغة التمريض (٢٠٩٢) دون إسناده، وذكره أيضاً القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٨)، والشاطبي في «الموافقات» (٥/ ٣٢٩ ـ بتحقيقي).

(٨) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٨١)، وفي سنده محمد بن عمر بن لبابة ضعيف =

بسنده إلى **الشافعي** أنه قال: «مَثَلُ الذي ينظر في الرأي ثم يتوب[١] منه مثل المجنون الذي عولج حتى برأ [كأعقل][٢] ما يكون [ثم عاد إليه الجنون][٣]»[٤].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت **أبي** يقول: الحديث الضعيف أحب إلي من الرأي. [فقال][٥] عبد الله: سألت أبي عن الرجل يكون ببلد لا يجد فيه إلا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيمه، وأصحاب رأي فتنزل [به][٦] النازلة؟ فقال أبي: «يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأي، ضعيف الحديث أقوى من الرأي»[٧].

وأصحاب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأي وعلى ذلك بنى مذهبه كما قدّم[٨] حديث[٩] الوضوء بنبيذ التمر في السفر[١٠] مع ضعفه على الرأي والقياس، ومنع

= الرواية، وأخرجه الحميدي في «جذوة المقتبس» (٢/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣)، والضبي في «البغية» (ص٤٦٤)، وابن حزم في «إبطال القياس» (٦٧) وقال: «**ثبت عنه**»، ونحوه في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، و«الموافقات» (٥/ ٣٣٠ ـ بتحقيقي).

(١) كذا في مطبوع «الإعلام»، وسائر المصادر، وفي الأصل: «لا يتوب» والصواب حذف «لا» ويدل عليه السياق.

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «فأعقل». (٣) في مطبوع «الإعلام»: «قد هاج به».

(٤) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٣٤) **وإسناده حسن**.

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «وقال». (٦) في مطبوع «الإعلام»: «بهم».

(٧) الذي وجدته في «مسائل عبد الله» (ص٤٣٨): «سألت أبي عن الرجل يريد أن يَسأل عن الشيء من أمر دينه مما يبتلى به من الأيمان في الطلاق وغيره، وفي مصره من أصحاب الرأي، ومن أصحاب الحديث لا يحفظون، ولا يعرفون الحديث الضعيف، ولا الإسناد القوي، فلمن يسأل؟ لأصحاب الرأي، أو لهؤلاء ـ أعني ـ أصحاب الحديث، على ما قد كان من قلّة معرفتهم؟ قال: يسأل أصحاب الحديث، لا يسأل أصحاب الرأي؛ ضعيف الحديث خير من رأي أبي حنيفة». والمذكور لفظ ابن حزم في «ملخص إبطال القياس» (ص٦٧).
ورواه عن عبد الله عن أحمد بنحو ما عند المصنف: الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٤١٨)، والهروي في «ذم الكلام» (٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠) رقم (٣٢٦).

(٨) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «تقدم»!

(٩) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «القهقهة مع ضعفه على القياس والرأي وقدّم حديث». انظر: «الخلافيات» (٢/ ٣٦٥).

(١٠) أخرجه عبد الرزاق في «المصنَّف» (١/ ١٧٩) رقم (٦٩٣) ـ ومن طريقه أحمد (١/ ٤٥٠) ـ، =

قطع السارق بسرقة أقل من عشرة دراهم[(١)] والحديث فيه ضعيف وجعل أكثر الحيض عشرة أيام[(٢)] والحديث فيه ضعيف، وشَرَط في إقامة الجمعة المِصْرَ[(٣)]

= وابن ماجه (١/ ١٣٥) رقم (٣٨٤)، والشاشي (٨٢٧، ٨٢٨)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٧٢٧)، والطبراني في (١٠/رقم ٩٩٦٢)، وابن عدي (٧/ ٢٧٤٦)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ٢٥٦) رقم (١٧٣)، والبيهقي (١/ ٩)، **وإسناده ضعيف جداً**، وفيه نكارة أيضاً. وفصل طرقه وبيّن ضعفها بما لا مزيد عليه البيهقي في «الخلافيات» (١/ ١٥٧ ـ ١٩٢)، وأطلت النفس جداً في بيان وهائه وإظهار نكرته، ونقلت ذلك عن جماعة من جهابذة الأئمة والنقاد، والواقف على ما سطرت يقطع بوهاء الحديث، وأنه لا ينهض حجة للاستدلال، والحمد لله على كل.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٦٧)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٤٠٩)، والدارقطني (٣/ ١٩٢، ١٩٣)، **وإسناده ضعيف**، وفيه الحجاج بن أرطأة، فإنه كثير الخطأ والتدليس، وانظر: «نصب الراية» (٣/ ٣٥٥ ـ ٣٦٠)، و«مجمع الزوائد» (٦/ ٢٧٣)، و«فتح الباري» (١٢/ ١٠٣).

(٢) أخرجه الفسوي في «المعرفة» (٣/ ٤٦) ـ ومن طريقه البيهقي في «الخلافيات» (٣/ ٣٥٤ ـ بتحقيقي) ـ، والدارمي في «السنن» (١/ ٢١٠)، والبيهقي في «الكبرى» (١/ ٣٢٢) عن أنس قوله، **وإسناده ضعيف**، فيه الجلد بن أيوب، وبيّنتُ ضعف هذا الأثر في تعليقي على «الخلافيات» (٣/ ٣٥٤ ـ ٣٧٤) بما لا مزيد عليه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) يريد حديث: «**لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع**»، وهذا قال عنه الزيلعي في «نصب الراية» (٢/ ١٩٥): «**غريب مرفوعاً**».
أما الحافظ ابن حجر فقال في «التلخيص» (٢/ ٢٥٤): «**ضعيف**». وقال النووي في «**المجموع**»: «**ضعيف جداً**» وهذا يوهم أنّ له سنداً مرفوعاً وليس كذلك!!.
فقد رواه عبد الرزاق (٥١٧٥) (٥/ ١٦٧)، من طريق الحارث، عن علي موقوفاً، والحارث ضعيف، وعزاه الزيلعي لابن أبي شيبة من طريق الحارث ـ أيضاً ـ، ولم أجده فيه، ولعله في «مسنده»، والمطبوع منه ناقص.
ورواه عبد الرزاق (٥١٧٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٠ ـ دار الفكر)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٧٩)، وفي «معرفة السنن والآثار» (١٦٧٢، ٢/ ٤٦٧)، من طريق سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي، **وسنده صحيح**، وعزاه الحافظ في «الفتح» (٢/ ٤٥٧) لأبي عبيد، وصححه موقوفاً على علي، وكذا في «الدراية» (١٣١).
ورواه ابن عدي (١/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧)، عن علي موقوفاً بإسناد فيه راوٍ ضعيف.
وانظر في توجيه قول علي والرد على الحنفية في الاحتجاج به: «التحقيقات العلى بإثبات فرضية الجمعة في القرى» (ص٣٣ ـ ٣٤) لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، وانظر في المسألة: «إعلاء السنن» (٨/ ١)، «فضائل الجمعة» (ص٩٧ ـ ١٠٢).

والحديث فيه كذلك، وترك القياس المحض في مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة[1] [قط][2]، فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة على القياس والرأي قوله وقول الإمام أحمد، وليس المراد بالحديث الضعيف في اصطلاح السلف هو الضعيف في اصطلاح المتأخرين، بل ما يسميه المتأخرون حسناً، قد يسميه المتقدمون ضعيفاً كما تقدم بيانه.

والمقصود أن السلف جميعهم على ذم الرأي والقياس المخالف للكتاب والسنة، وأنه لا يحل العمل به لا فُتيا ولا قضاء[3] وأن الرأي الذي لا يُعلم مخالفته للكتاب والسنة ولا موافقته فغايته أن يسوغ العمل به عند الحاجة إليه من غير إلزام ولا إنكار على من خالفه، قال أبو عمر بن عبد البر بسنده، عن عبد الله بن يحيى أن أباه كان يأتي ابن وهب فيقول له: من أين؟ فيقول له: من عند ابن القاسم، فيقول له **ابن وهب**: «اتق الله، فإن أكثر هذه المسائل رأي»[4].

وقال الحافظ أبو محمد بسنده عن أبان بن **عيسى بن دينار** قال: «كان أبي قد أجمع على ترك الفتيا بالرأي، وأحبَّ الفتيا بما رُوي من الحديث، فأعجلته المنية عن ذلك»[5].

وقال أبو عمر: وروي عن **الحسن بن واصل** أنه قال: «إنما هلك من كان قبلكم حين تشعَّبَتْ بهم السبُلُ، وحادوا عن الطريق، وتركوا الآثار، وقالوا في

---

(١) انظر في المسألة: «شرح فتح القدير» (١/ ١٠٢ ـ ١٠٣) لابن الهمام، و«البناية شرح الهداية» (١/ ٤٠٦) للعيني، و«الجوهر النقي» (١/ ٢٦٧) لابن التركماني.
وانظر الآثار الواردة في الباب عند: أبي عبيد في «الطهور» (ص٢٤١ ـ ٢٤٩ ـ بتحقيقي)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ١٦٢)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ٢٧٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١/ ٨٢ ـ ٨٣)، والدارقطني في «السنن» (١/ ٣٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٢٦٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ٣٢٦)، وابن حزم في «المحلى» (١/ ١٤٦).

(٢) غير موجود في مطبوع «الإعلام».

(٣) انظر في تقرير هذا: «بيان فضل علم السلف على علم الخلف» (ص٥٧)، ورسالة «جميع الرسل كان دينهم الإسلام» (ص٣٤ ـ ٣٨) كلاهما لابن رجب، و«صون المنطق» (ص١٥٥ ـ ١٥٧)، و«فتح الباري» (١٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٤) الخبر في «ترتيب المدارك» (١/ ٥٤١، ط. مكتبة الحياة).

(٥) أورده القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (٢/ ١٩، ط. الحياة)، والذهبي في «السير» (١٠/ ٤٤٠).

الدين برأيهم فضلُّوا وأضلُّوا»[(١)].

قال أبو عمر بسنده عن **مسروق**: «من يرغب برأيه عن أمر الله يَضِل»[(٢)].

وذكر ابن وهب بسنده عن رجل من قريش أنه سمع **ابن شهاب** يقول ـ وهو يذكر ما وقع فيه الناس من هذا الرأي وتركهم السنن ـ فقال: «إن اليهود والنصارى إنما انسلَخُوا من العلم الذي كان بأيديهم حيث اشتقوا الرأي وأخذوا فيه»[(٣)].

وذكر ابن جرير في كتاب «تهذيب الآثار»[(٤)] عن **مالك** قال: «قُبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن[(٥)] تتَّبع آثار رسول الله ﷺ ولا يتَّبع[(٦)] الرأي، فإنه من اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى منه في الرأي فاتبعه، فأنت كلما جاء رجل غَلَبَكَ، اتبعته!»[(٧)].

وقال نُعيم بسنده عن عبد الله بن وهب أن رجلاً جاء إلى **القاسم بن محمد** فسأله عن شيء فأجابه، فلما ولى الرجل دعاه فقال له: «لا تقل: إن القاسم زعم أن هذا هو الحق، ولكن إذا اضطُرِرْتَ إليه عملتَ به»[(٨)].

وقال أبو عمر بسنده إلى **مالك بن أنس** وهو يُنكر كثرة الجواب للمسائل: «يا عبد الله ما علمتَه فقُلْ به ودُلَّ عليه، وما لم تعلم فاسكت، وإياك أن تتقلد للناس قِلادة سوء»[(٩)].

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٢٦) دون إسناد.

(٢) هو في «الجامع» (٢/ ١٠٥١) رقم (٢٠٢٧) **ورجاله ثقات غير نُعيم بن حماد ففيه كلام.**

(٣) ذكره هكذا ابن عبد البر (٢٠٢٨) وفيه الراوي المبهم.

(٤) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «له».

(٥) غير موجود في مطبوع «الإعلام». (٦) في مطبوع «الإعلام»: «تتَّبع».

(٧) ذكر سنده ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١٠٩٩)، وفيه إسحاق وهو ابن إبراهيم الحنيني، وهو ضعيف، ثم رواه (٢١١٧) من طريق يعقوب الفسوي عن الحسن به وفيه ـ أيضاً ـ إسحاق.

(٨) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١٠٧٠) **ورواته ثقات غير نُعيم بن حماد ففيه كلام.**

(٩) أخرجه الدوري في «ما رواه الأكابر عن مالك» رقم (٣٩)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٨٢٢)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٧٠)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١٠٧١) **بإسناد صحيح إلى ابن وهب.**

وذكره الشاطبي في «الموافقات» (٥/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ـ بتحقيقي).

وقال أبو عمر بسنده إلى **سحنون** قال: «ما أدري ما هذا الرأي؟! سُفِكت به الدِّماء، واستُحِلَّت به الفروج، واستُحِقَّت به الحقوق، غير أنّا رأينا رجلاً صالحاً فقلدناه»(١).

وقال سلمة بن شبيب: سمعت **أحمد** يقول: «رأيُ الشافعي ورأيُ مالك ورأيُ أبي حنيفة كله عندي رأي، وهو عندي سواء، وإنما الحجة في الآثار»(٢).

وقال أبو عمر بسنده(٣) إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن **أبيه** أنه أنشد:

دينُ النبيِّ محمدٍ آثارُ ... نِعْمَ المطيَّةُ للفتى الأخبارُ
لا ترغبن(٤) عن الحديث وأهلِه ... فالرأيُ ليلٌ والحديثُ نَهَارُ
ولربما جَهِل الفتى طُرُقَ الهدى ... والشمسُ طالعةٌ لها أنوارُ(٥)

ولبعض أهل العلم:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابةُ ليس خُلفٌ فيهِ
ما العلم نصبك للخلاف سفاهَةً ... بين النصوص وبين رأي سَفِيهِ
كلا ولا نَصْبُ الخلاف جَهَالة ... بين الرسول وبين رأي فقيهِ
كلا ولا ردُّ النصوص تعمُّداً ... حذراً من التجسيم والتَّشبيهِ
حاشا النصوصَ من الذي رُمِيَتْ به ... من فرقَةِ التعطيل والتَّمويهِ

فصل
في الرأي المحمود

وهو أنواع:

النوع الأول: رأي أفقه الأمة وأبر الأمة قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً وأصحهم قُصُوداً وأكملهم فِطرة وأتمهم إدراكاً وأصفاهم أذهاناً، الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل وفهموا مقاصد الرسول، فنسبة آرائهم وعلومهم وقصودهم

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٨٢) **بإسناد صحيح**.
(٢) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢١٠٧) **وإسناده صحيح**.
(٣) هو في «الجامع» رقم (١٤٥٩).
(٤) في مطبوع «الإعلام»: «لا تخدعن».
(٥) الأبيات في «الجامع» (١٤٥٩) لابن عبد البر، ونسبها الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١١٣) لعبدة بن زياد الأصبهاني، وكان عبد الرحمٰن بن مهدي يتمثل بها، أخرج ذلك الهروي في «ذم الكلام» (٢/١٩٣ ـ ١٩٤) رقم (٣٤٧).

إلى ما جاء به الرسول ﷺ كنسبتهم إلى صحبته، والفرق بينهم وبين من بعدهم في ذلك كالفرق بينهم وبينهم في الفضل، فنسبة رأي من بعدهم إلى رأيهم كنسبة قَدْرهم إلى قَدْرهم، قال الشافعي رحمه الله في «رسالته البغدادية» التي رواها عنه الحسن بن محمد الزعفراني وهذا لفظه: «وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، أدَّوا إلينا سُنَن رسول الله ﷺ وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا وعزماً وإرشاداً، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم[١] واجتهاد وورع وعقل وأمر استدرك به علم استنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدْرَكنا ممن يُرضى أو حُكي لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنَّة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول ولم نخرج عن أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله»[٢].

ولما كان رأي الصحابة عند الشافعي بهذه المثابة قال[٣] في الجديد في «كتاب الفرائض في ميراث الجد والإخوة»[٤]: «وهذا مذهب تلقيناه عن زيد بن ثابت وعنه أخذنا أكثر الفرائض».

وقال[٥]: «والقياس عندي قتل الرَّاهب، لولا ما جاء عن أبي بكر رضي الله عنه»[٦]

(١) في مطبوع «الإعلام»: «عمل».

(٢) هكذا ذكر البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٤٤٢) دون إسناد وكذا في «المدخل» (٤١) مقتصراً على أوله.

(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «الشافعي».

(٤) انظره في: «كتاب الأم» (٤/ ٨٥)، ولفظه هناك: «وهذا قول زيد بن ثابت، وعنه قبلنا أكثر الفرائض».

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «قال».

(٦) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٤٧) ـ ومن طريقه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٨٦) ـ، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ١٩٩) رقم (٩٣٧٥، ٩٣٧٦)؛ عن أبي بكر قوله ضمن وصية له لما بعث جيوشاً إلى الشام، وفيه يحيى بن سعيد لم يسمع أبا بكر؛ فإسناده منقطع.

=

فترك صريح القياس لقول الصديق، وقال في رواية الربيع[١] عنه: «والبدعة ما خالف كتاباً أو سنةً أو أثراً عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ». فجعل ما خالف قول الصحابي بدعة وسيأتي إن شاء الله تعالى إشباع الكلام في هذه المسألة، وذكر نصوص الشافعي عند ذكر (تحريم الفتوى بخلاف ما أفتى به الصحابة ووجوب اتباعهم في فتاويهم وأن لا يخرج من جملة أقوالهم، وأن الأئمة متفقون على ذلك).

والمقصود أن أحداً ممن بعدهم لا يساويهم في رأيهم، وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأي فينزل القرآن بموافقته، كما رأى عمر في أسارى بدر أن تضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته[٢]، ورأى أن تُحجب نساء النبي ﷺ فنزل القرآن بموافقته[٣]، ورأى أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى فنزل القرآن بموافقته[٣] وقال لنساء النبي ﷺ لما اجتمعن في الغيرة عليه: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات» فنزل القرآن بموافقته[٢]، ولما توفي عبد الله بن أُبيّ قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوبه فقال: يا رسول الله إنه منافق! فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤][٤].

وقد قال سعد بن معاذ لما حكَّمه النبي ﷺ في بني قريظة: «إني أرى أن

= وأخرجه سعيد بن منصور (٢٣٨٤)، والبيهقي (٩/ ٨٦) في «سننيهما»، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ترجمة الشيخين) من طرق أخرى عن أبي بكر. وانظر: «المجالسة» رقم (١٥٣٥)، و«الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (مسألة رقم ١٥٩٢) وتعليقي عليهما، وفي الأخير بسط للمسألة المنوَّه بها، وكذا في «الإنجاد» (١/ ٢٢٥) لابن المناصف، وهو من أوعب وأدق الكتب التي اعتنت في مسائل الجهاد مع التدليل والتوجيه، ونشر بتحقيقي ومشاركة الأخ أبي أنس محمد زكريا أبو غازي في مجلدين، عن دار الإمام مالك، أبو ظبي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) من مطبوع «الإعلام»، وسقطت من الأصل.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٢)، ومسلم (٢٣٩٩)، وأحمد (١/ ٢٣)، والنسائي (١٨، ٤٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٦٩)، ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر.

وقد جمع موافقات عمر وتكلم عليها في رسالة مفردة السيوطي في «قطف الثمر» وهي مطبوعة ضمن «الحاوي للفتاوى»، واعتنى بها عناية جيدة ابن شبة في «تاريخ المدينة» وذكر طرفاً منها ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (ص٩٧ وما بعدها ـ ترجمة عمر).

تُقتل مقاتلتُهم وتسبى ذرياتُهم وتُغنم أموالُهم. فقال النبي ﷺ: **«لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات»**[(١)]. ولما اختلفوا إلى ابن مسعود شهراً في المفوضة[(٢)] قال: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريء منه، أرى أن لها مَهْر نسائها لا وَكْس ولا شَطَط، ولها الميراث وعليها العِدة». فقام ناس من أشجَع فقالوا: «نشهد أن رسول الله ﷺ قضى في امرأة منا يقال لها: بَرْوَع بنت واشِق مثل ما قضيت به». فما فرح ابن مسعود بشيء بعد الإسلام فرحه بذلك[(٣)].

وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة أن يكون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا، وكيف لا؟! وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة نوراً وإيماناً وحكمة وعلماً ومعرفة وفهماً عن الله ورسوله ونصيحة للأمة وقلوبهم على قلب نبيهم، ولا واسطة بينهم وبينه، وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاةِ النبوة غضًّا طريًّا لم يشبه إشكالٌ ولم يشبه اختلاف[(٤)] ولم تدنسه[(٥)] معارضة، فقياس رأي غيرهم بآرائهم من أفسد القياس.

فصل

النوع الثاني من الرأي المحمود

الرأي الذي يفسر النصوص ويبيّن وجه الدلالة منها[(٦)] ويوضح محاسنها ويسهّل طريق الاستنباط منها، كما قال عَبْدان: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: «ليكن الذي تعتمد عليه الأثر وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث»[(٧)] وهذا هو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «في المفوضة شهراً إلى ابن مسعود».

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٧)، وأبو داود (٢١١٦)، والترمذي (١١٤٥)، وابن ماجه (١٨٩١)، والنسائي (٦/ ١٢٢)، وفي «الكبرى» (٥٥١٥، ٥٥١٧)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٠٠)، وعبد الرزاق (١٠٨٩٨، ١١٧٤٥)، وابن الجارود (٧١٨)، وابن حبان (٤٠٩٨، ٤٠٩٩، ٤١٠٠، ٤١٠١)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/رقم ٥٤٢ ـ ٥٤٦)، والحاكم (٢/ ١٨٠)، والبيهقي (٧/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) من طرق عن ابن مسعود، **وهو صحيح**.

(٤) في مطبوع «الإعلام»: «خلاف». (٥) «ولم تدنسه» مكررة في الأصل!

(٦) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «ويقررها».

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٦٨)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٤٥٧)، والهروي في «ذم الكلام» (٢/ ٢٦٨)، وكلمة «الحديث» سقطت من الأصل! وأثبتها من =

الفهم الذي يختص الله سبحانه به من يشاء من عباده، ومثال هذا رأي الصحابة ﷺ في العول[١] في الفرائض عند تزاحم الفروض، ورأيهم في مسألة زوج وأبوين وامرأة وأبوين أن للأم ثلث ما بقي بعد فرض الزوجين، ورأيهم في توريث المبتوته في مرض الموت، ورأيهم في مسألة جَرِّ الولاء، ورأيهم في المُحْرم يقع على أهله بفساد حجه ووجوب المضي فيه والقضاء والهَدْي من قابل، ورأيهم في الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وقضتا وأطعمتا لكل يوم مسكيناً، ورأيهم في الحائض تَطْهُرُ قبل طلوع الفجر تصلي المغرب والعشاء وإن طهرت قبل الغروب صلت الظهر والعصر، ورأيهم في الكلالة وغير ذلك.

فصل
النوع الثالث من[٢] الرأي المحمود

الذي تواطأت عليه الأمة وتلقاه خلَفُهم عن سلفهم فإن ما تواطؤوا عليه من الرأي لا يكون إلا صواباً كما تواطؤوا عليه من الرواية والرؤيا، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه وقد تعددت منهم رؤيا ليلة القدر في السبع[٣] الأواخر من رمضان: **«أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر»**[٤]. فاعتبر ﷺ تواطؤ رؤيا المؤمنين، فالأمة معصومة فيما تواطأت عليه من روايتها ورؤياها[٥]، ولهذا كان من سداد الرأي وإصابته أن يكون شورى بين أهله ولا ينفرد به واحد، وقد مدح الله سبحانه المؤمنين بكون أمرهم شورى بينهم ـ وكانت النازلة إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ليس عنده فيها نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها

= مصادر التخريج ومن «الإعلام».

(١) كذا في مطبوع «الإعلام»، وتحرفت في الأصل إلى «القول»! والمراد: إذا زادت سهام المسألة على أصل حساب الموجب عن عدد وارثيها، كمن مات وخلَّف ابنتين وأبوين وزوجة، فللابنتين الثلثان، وللأبوين السدسان، وهما الثلث، وللزوجة الثمن، مجموع السهام واحد وثمن واحد، فأصلها ثمانية، والسهام تسعة.

(٢) غير موجود في مطبوع «الإعلام».

(٣) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «العشر»!

(٤) أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم (١١٦٥) من حديث ابن عمر.

(٥) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «ورأيها».

أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم»[١].

توضيح لما تقدم، وفيه مسائل:

الأولى: قول الحافظ ابن القيم: «**ولا ريب أن الحكم المعلق على شرط ينتفي عند انتفائه**».اهـ. معناه إن كلَّ مَنْ لم يرد ما تنازع فيه مع غيره إلى كتاب الله وسنة رسوله، ينتفي عنه الإيمان الذي لا نجاة له من عذاب الله إلا به.اهـ.

الثانية: قوله: «﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ **نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين**».اهـ.

قال محمد تقي الدين: ولا يستثنى منها شيء، فإن المبتدعين والمخالفين يستصغرون بعض المسائل ويسمونها سنة أو مستحبًّا، ويزعمون أن العمل بها غير واجب، فلا حرج على من تركها، كوضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، ورفع اليدين في المواضع الأربعة، والأكل باليمنى، وتسوية الصفوف وما أشبه ذلك، فنقول لهم: لا نسلم لكم أن هذا الأمر غير واجب ولا عقاب على من تركه حتى تقيموا على ذلك دليلاً من كتاب الله أو سنة رسوله أو كلام الصحابة، ونتبرع لكم بالدليل على أنكم مخطئون، فإن وضع اليمنى على اليسرى جاء في الموطأ و«الصحيحين» بلفظ: «كان الناس يؤمرون على عهد رسول الله ﷺ»[٢]. ولا آمر في عهده غيره، فما أمر به فهو واجب حتى يقوم دليل على أن الأمر ليس للوجوب، وقد ثبت في الحديث «أن عبد الله بن عمر كان يحصب من لا يرفع يديه عند الركوع»[٣] أي: يرميه بالحصباء، فلو كان رفع اليدين عند الركوع مستحبًّا لا واجباً لم يعاقبه عليه.

---

(١) كان ﷺ يجمع الشباب تارة وأهل بدر تارة أخرى، أخرج الأول عنه: الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (١٩٣)، والخليلي في «الإرشاد» (١/ ٣٠٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٠٦، ط. القديمة)، وذكره الذهبي في «السير» (٨/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).
وأخرج الثاني: البيهقي في «المدخل» رقم (٨٠٣)، وما مضى بحروفه من «إعلام الموقعين» (٢/ ٨٨ ـ ١١٤، ١٣٧ ـ ١٥٦ ـ بتحقيقي) بتصرف.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الحميدي (٦١٥)، والبخاري في «جزء رفع اليدين» رقم (١٥)، وعبد الله بن أحمد في «مسائل أبيه» (ص٧٠)، والدارقطني (١/ ٢٨٩)، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص٢١٨، ط. الهندية ورقم ٥٤٨، ط. سلوم)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص٤٣٣)، وابن الجوزي في «مناقب أحمد» (ص٨٣) **وإسناده صحيح**، وانظر: «التمهيد» (٥/ ٦٥).

وقد دعا النبي ﷺ على من أبى أن يأكل بيمينه بالشلل، فشلّت يده[١]، وما كان النبي ﷺ ليدعو على من ترك مستحبًا، كصلاة ركعتين بين الأذان والإقامة مثلاً، بمثل هذا العقاب، وجاء الوعيد الشديد في عدم تسوية الصفوف[٢] وذلك يدل على وجوبها، فإذا قال أحد من المقلدين أو غيرهم ممن جاء بعد الصحابة في شيء من أمور الشريعة: هذه سنة أو هذا مستحب لا إثم على من تركه فطالبه بالدليل فإنه لا يجده فتقوم عليه الحجة.

الثالثة: قوله: «**ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولو لم يكن كافياً لم يأمر بالرد إليه**»، كثير من المخالفين في هذا الزمان يقولون: إن الكتاب والسنة لا يكفيان للحكم في جميع المسائل التي تحدث في الأزمنة المتطاولة، وذلك غير صحيح، ولو كان صحيحاً لما أمرنا الله تعالى أن نرد كل نزاع في كل شيء إلى الله والرسول، وهو سبحانه عليم بكل ما سيحدث إلى يوم القيامة، وسيأتي تفصيل هذا المقصد فيما نقلته من كلام ابن القيم.

الرابعة: قوله: «**ثم أخبرهم أن هذا الرد خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة**».

قال محمد تقي الدين: كل شعب أسعد الله أسلافه بالإسلام، فأعزهم بعد المذلة، وأغناهم بعد الفقر، وقواهم بعد الضعف، وجمع أمرهم بعد الشتات، فقامت عليهم حجة الله أعظم قيام، ثم تنكّروا للإسلام، ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله لا بد أن يصابوا بمصائب في عاجلهم وآجلهم في دنياهم وآخرتهم، كما قال تعالى بعد هذا: ﴿**فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ [النساء: ٦٢] وهذا مجرَّب واضح، فإن جميع البلدان الإسلامية التي ترك أهلها شريعة الرسول ﷺ في غاية ما يكون من الشقاء.

الخامسة: قول سهيل بن عمرو: «**يكتب باسمك اللهم**». اعلم أن العرب قبل الإسلام كانوا يفتحون الكتب بهذا اللفظ: «باسمك اللهم»، أي: باسمك يا الله نبتدئ كتابنا هذا، فلما جاء الإسلام كان النبي ﷺ يفتتح كتبه ببسم الله الرحمن الرحيم، فلما أراد النبي ﷺ إملاء كتاب الصلح في الحديبية بينه وبين

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢١)، وأحمد (٤/ ٤٥)، وابن حبان (١٤/ ٤٤٢)، والبيهقي (٧/ ٢٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع.

(٢) انظر طرفاً من الأحاديث الواردة في ذلك في كتابي: «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص٢٠٨ ـ ٢١٤).

المشركين[١] من أهل مكة أملى على الكاتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال له المفاوض بالنيابة عن المشركين: بل يكتب كما كنا نكتب: باسمك اللهم، ولما قال النبي ﷺ للكاتب: «**اكتب: هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو**». فقال سهيل: «لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن بيته، اكتب اسمك واسم أبيك». فرضي رسول الله ﷺ بكتابة «باسمك اللهم» و«محمد بن عبد الله» ولم يرض عمر رضي الله عنه؛ لأنه رأى في ذلك ضعفاً أمام المشركين، ولم يكن ذلك ضعفاً وإنما حكمة وسياسة حسنة[٢]، كان لها أحسن الأثر فيما بعد، عندما

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) وبيانه: أنه بلغ رسول الله أن تحالفاً عسكرياً عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة، وخيبر في شمالها، والغاية من هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بين طرفي الكماشة، ثم إطباق فكيها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها.
ولما لم يكن في مقدور رسول الله ﷺ كسر ذلك التحالف عسكرياً بالمواجهة المسلحة، فكر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكسره سياسياً، ولا بد من أن يكون قد جال في خاطر رسول الله ما يلي:
الكعبة في نظر العرب قاطبة ليست ملكاً لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زياراتها من تشاء، وتجيز من تشاء. هذه حقيقة لا جدال فيها عند العرب ولا عند قريش نفسها.
فمن حق محمد ﷺ وأصحابه إذن زيارة الكعبة، وفكر رسول الله ﷺ أنه إذا ما عزم على هذه الزيارة ومشى إليها، فلا بد من أن يُواجهه أحد ثلاثة احتمالات:
الاحتمال الأول: أن تمنعه قريش بالقوة من دخول مكة وزيارة الكعبة نظراً لما بينها وبينه من الدماء. ولكن قريشاً لن تقدم على هذا التصرف لأمرين: **أولهما**: إن هذا سيثير حفيظة العرب ضد قريش؛ لأنها تمنع من يريد تعظيم الكعبة من تعظيمها، وإن أقدمت قريش على هذا العمل، فهو في صالح الدولة الإسلامية قطعاً، لأنه سيثير شقاقاً في الصف العربي المعادي للدولة الإسلامية، وقريش أعقل من أن تقدم على مثل هذا التصرف. **وثانيهما**: إن الدولة قد أكدت وجودها في الجزيرة العربية، وأوقعت الرعب في قلب القبائل العربية، وقريش تعلم هذا تمام العلم، ولذا فإنها لن تجازف بخوض حرب معها.
الاحتمال الثاني: أن تسمح قريش لرسول الله وأصحابه دخول مكة، ولكن هذا أمر تأباه الكرامة العربية، إذ كيف يطأ القاتل أرض المقتول متمتعاً بحماية ذويه له؟!!
وعلى فرض أن قريشاً تجاوزت ذلك كله وقبلت دخول محمد وأصحاب محمد، فمن يضمن أن لا تقع بعض الحوادث عندما يشاهد الرجل قاتل أبيه وأخيه ينعمان بالأمن والحرية أمامه؟! وإذا ما وقعت بعض هذه الحوادث فلن يكون ذلك في صالح قريش؛ =

. . . .

= لأنه سيشيع بين العرب أن قريشاً تقتل في الحرم من أتى لتعظيم الكعبة، وأكبر بها من قولة!

الاحتمال الثالث: أن تعرض قريش على الرسول الرجوع دون دخول مكة، وهو في هذه الحالة لن يعود إلا بشروط يرضاها، وستبذل له قريش ما يريد خوفاً من الوقوع في أحد الاحتمالين السابقين.

وكيفما كان الأمر، وأي الاحتمالات الثلاثة قد وقع فهو في مصلحة الدولة الإسلامية إذا نُظر إليه سياسيّاً.

ولذلك أعلن رسول الله أنه يريد أداء العمرة، وجمع الجموع وسار بهم إلى الحديبية، وحدث الاحتمال الثالث، وتمت معاهدة هدنة الحديبية على الشكل المعروف في السيرة بين قريش والدولة الإسلامية.

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوالاً، وخرج في ذي القعدة معتمراً لا يريد حرباً، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا: أن يعرضوا له بحرب أن يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العُوذ المطافيل[1]، وقد نزلوا بذي طُوى[2] يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الولد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغَميم[3]. فقال رسول الله ﷺ: «**يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[4]**».

إن هذا التصريح السياسي لرسول الله ليدل على صواب تفسيرنا السياسي لهدنة الحديبية، وأن رسول الله لم يرد العمرة في الأصل ـ وإن أظهر ذلك ـ وإنما كان يريد الحصول على هدنة بينه وبين قريش تمكنه من التحرك العسكري المأمون، ولا نشك بأن هذا التصريح =

---

(١) العوذ: جمع عائذ، وهي الحديثة النتاج من الإبل. المطافيل: التي معها أولادها. يريد أنهم خرجوا بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا من ألبانها ولا يرجعوا حتى يناجزوا محمداً.

(٢) ذو طوى: موضع قرب مكة.

(٣) كراع الغميم: وادٍ أمام عسفان بثمانية أميال.

(٤) السالفة: صفحة العنق.

وقعت الهدنة واختلط المسلمون بالمشركين فأثر المسلمون على المشركين، فأسلم كثير منهم، والإسلام يربح بالسلم أكثر مما يربح بالحرب، فهو لا يحارب إلا اضطراراً!!

السادسة: قوله: «**لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضرباً**»، إن المراد بقوله ذلك ما ذكره أكثر الصحابة من قولهم: لا غسل، أي: من أفتى بعدم الغسل عند الإكسال ـ وهو جماع الرجل امرأته مع عجزه عن الإنزال ـ، أي: إتمام الجماع بخروج المني، أوعده عمر أن يوجعه ضرباً؛ لأن قول علي ومعاذ بوجوب الغسل هو الصواب؛ لأن عائشة وافقتهما، وهذا هو الأمر الأخير الذي أمر به النبي ﷺ، وفي أول الأمر كانوا لا يغتسلون إلا إذا خرج الماء اعتماداً على ما رواه أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إنما الماء من الماء**»، رواه مسلم وأصله في «البخاري»[(١)]، وهذا الحديث منسوخ نسخه ما رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها، فقد وجب الغسل**». متفق عليه. زاد مسلم: «**وإن لم ينزل**»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: رأينا في هذه الحكاية، أن عمر ﷺ لما سمع أن زيد بن ثابت يفتي بالغسل عند الإكسال دعاه وعاتبه على الإفتاء بالرأي، فحلف له بالله أنه ما أفتى إلا بما سمعه من أعمامه وهم ثلاثة من كبار الصحابة، فلما سأل عمر أحد هؤلاء الأعمام قال له: كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ ولم يأتنا فيه عن الله تحريم، ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شيء، فلم يقتنع عمر بهذا الجواب لأن هذا غايته عدم العلم بالحكم، فجمع عمر أهل بدر وسألهم فأجابوا بخلاف ما قاله الأعمام أن لا غسل، وقال علي ومعاذ: فيه الغسل،

= السياسي قد بلغ قريشاً، ولذلك تحولت قريش إلى الهدنة وبدأت فعلاً مفاوضاتها، وترتب على هذه الهدنة مع قوم يراعون العهود والمواثيق أن تفرغ النبي ﷺ لأعداء منطقة شمال المدينة (اليهود)، وكسرهم ودحرهم، هو نصرة للنبي ﷺ وصحبه، وهذا مستلزم ضرورة لفتح مكة، ولذا كان الفتح المبين الوارد في القرآن إنما هو مقدمة فتح مكة، وهو الحديبية، ومقدمة النصر نصر، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] وذكر قصة الغار، وهي مقدمة لقدومه المدينة، وبها حصلت نصرة الله لدينه بنبيه وصحبه.

(١) أخرجه مسلم (٣٤٣)، وأصله عند البخاري (١٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩١)، ومسلم (٣٤٨، ٣٤٩) من حديث أبي هريرة، والزيادة لمسلم فقط.

فوافقتهما عائشة، فحصل من ذلك ثلاثة أقوال: قول بالغسل بدون دليل قاطع، وقول بعدم الغسل بدون دليل، وقول بالغسل بدليل، فرجح عمر هذا القول وتوعد من خالفه أن يوجعه ضرباً، وفي هذا عبرة لمن يتجرأ على الإفتاء في دين الله بلا دليل أصلاً، بل بمجرد أن يرى الحكم في كتاب من كتب الفروع المظلمة فيقلدها ويفتي بما فيها، فما أبعده عن الصواب! والتقليد جهل والإفتاء به حرام في دين الله.

السابعة: «**قول أشهب: كنت عند مالك، فسئل عن البتة...**» إلى آخره، يفهم منه أن مالكاً أفتى فيمن طلق امرأته البتة أنها حرمت عليه كما إذا طلقها ثلاثاً، فأراد أشهب أن يكتب تلك الفتوى، فنهاه مالك وقال: لا تكتب ذلك، فإنما هو رأي رأيته، ولعلي أرجع عنه في العشي، فأفتي بأنها طلقة واحدة».

قال محمد تقي الدين: والصواب أنها طلقة لقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠]؛ يعني بعد التطليقة الثالثة وعن ابن عباس: «إن الطلاق بالثلاث كان يعد طلقة واحدة على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر، فلما رأى عمر أن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة أنجزه عليهم». رواه مسلم[1] وفعل عمر ليس بتشريع وإنما هو عقاب لمن خالف السنة ونطق بالطلاق الثلاث في لفظ واحد. وللإمام أن يعاقب رعيته بمنعهم من بعض المباحات، كالحبس في مكان والمنع من غيره أو النفي من البلد ومنعهم من السكنى فيه ونحو ذلك والله أعلم.

الثامنة: قوله: «**ومثال ذلك رأي الصحابة ﷺ في العول في الفرائض عند تزاحم الفروض**» مثال ذلك ما ذكره بعده مباشرة: هلكت زوجة وتركت بعلها وأبويها، هذه مسألة عول تزاحمت فيها الفروض إذ لا يمكن اجتماع النصف والثلثين، وقد حلها الصحابة ﷺ بطريقة العول[2] فجعلوا للبعل النصف والنصف الباقي للأم منه الثلث، وما بقي فللأب. ومعنى العول في اللغة: الزيادة، والمسألة الثانية: أن يموت رجل ويترك زوجة وأبوين، فللزوجة الربع، وما بقي تأخذ منه الأم الثلث، وما بقي فللأب.اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٢) من حديث ابن عباس.

(٢) ليس في الميراث أن يكون الأب يرث الثلث، فيجتمع مع الأم بثلثين، بل هذه صورة (العمريتين)، وليست مثالاً على العول، بل على أخذ الأم ثلث ما بقي وهو (الفرض السابع) عند الجمهور.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٦ - ٧٠]

قال (ك): «ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ قال السدي: أي وأشد تصديقاً ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ يعني: الجنة ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: من عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله ﷻ يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصِّدِّيقون، ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم.

ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ وقال البخاري بسنده عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ﴾ فعلمت أنه خُيِّر. ورواه مسلم[1]، وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: «**اللهم الرفيق الأعلى**»[2] ثلاثاً، ثم قضي عليه أفضل الصلاة والتسليم.

قال ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «**يا فلان ما لي أراك محزوناً؟**» فقال: «يا نبي الله شيء فكرت فيه» فقال: «**ما هو؟**» قال: «نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك». فلم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٦)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، ومسلم (٢٤٤٤).

يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية فبعث النبي ﷺ فبشره[(١)]، وقد روي هذا الأثر مرسلاً عن جماعة من التابعين[(٢)].

وثبت في «صحيح مسلم» بسنده عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: «**سل**» فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: «**أوَ غير ذلك؟**» قلت: هو ذاك. قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[(٣)].

وقال الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن مرَّة الجهني قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال يا رسول الله: شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان. فقال رسول الله ﷺ: «**من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ـ ونصب إصبعيه ـ ما لم يعق والديه**»[(٤)]. تفرد به أحمد.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٧/ ٢١٣) **وإسناده ضعيف جدّاً، وواهٍ بمرة**، فشيخ الطبري متهم، وهو مرسل وفي الباب عن عائشة بنحوه. أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٢٦)، وفي «الأوسط» (٤٧٧)، وأبو نعيم (٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ و٨/ ١٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص١١١)، وقال ابن حجر في «العجاب» (٢/ ٩١٤): «رجاله موثقون»، وقال الضياء المقدسي في «صفة الجنة» ـ كما في «تفسير ابن كثير» ـ: «لا أرى بإسناده بأساً، والله أعلم».
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٧)، وعزاه لـ«صغير» و«أوسط» الطبراني: «رجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة».
وأرجو **أن يكون الحديث حسناً، لشواهده الآتي بعضها**، والله الموفق والمسدد.

(٢) أصحها إسناداً مرسل مسروق، أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٠١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٩٧ رقم ٥٥٧٧)، وابن جرير (٧/ ٢١٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص١١٠) **بسندٍ رجاله ثقات**، وزاد في «الدر المنثور»: عزوه لعبد بن حميد.
وفي الباب عن الشعبي مرسلاً، أخرجه سعيد بن منصور (٦٦١) ـ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٣٨٠) ـ وجعله بعض الرواة عنه عن ابن عباس، كما عند الطبراني (١٢٥٥٩)، ولعله من تخاليط الراوي عنه عطاء بن السائب.
وفي الباب من مراسيل قتادة والسدي والربيع بن أنس وعكرمة، وانظر: «**العجاب**» (٢/ ٩١٤)، و«الفتح السماوي» (٢/ ٥٠٠ ـ ٥٠٢) للمناوي.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٩)، وأبو داود (١٣٢٠).

(٤) أخرجه أحمد ـ كما في «إتحاف المهرة» (١٢/ ٥٢٦)، و«أطراف المسند» (٥/ ١٥٤)، ثم =

وروى الترمذي[1] بسنده إلى أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء [والصالحين]**[2]». ثم قال: هذا حديث حسن. وفي «الصحيح»[3] و«المسانيد» وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «**المرء مع من أحب**»[4]. [قال أنس][5]: فما فرح المسلمون مثل فرحهم بهذا الحديث، وفي رواية عن أنس أنه قال: «إني لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأرجو الله أن يبعثني معهم[6] وإن لم أعمل

= وجدته فيه (٣٩/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣، ط. مؤسسة الرسالة) وهو ساقط من الطبعة الميمنية ـ، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٣٠٨)، والفسوي (١/ ٣٣٣)، وابن قانع (٢/ ١٩٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٥٥٨)، والبزار (٢٥ ـ «زوائد»)، وابن خزيمة (٢٢١٢)، وابن حبان (٣٤٣٧ ـ «الإحسان») أو ٥/ ٣٠٣ ـ «التعليقات الحسان») وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٥٠): «رواه أحمد والطبراني بإسنادين ورجال إسنادي الطبراني رجال الصحيح»، **وصححه** شيخنا الألباني.

(١) أخرجه الترمذي (١٢٠٩)، والدارمي (٢٥٤٢)، وعبد بن حميد (٩٦٦ ـ «المنتخب»)، والدارقطني (٣/ ٧)، والحاكم (٢/ ٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٠٢٥). قال الترمذي: «هذا حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث الثوري عن أبي حمزة»: قال: «وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر، وهو شيخ بصري». كذا قال! بينما قال الدارمي: «أبو حمزة هذا هو صاحب إبراهيم وهو ميمون الأعور».
قال أبو عبيدة: ميمون متفق على تضعيفه، والأول فيه خلاف، وأمره يدور بين (صدوق) و(مقبول)! غير أن الحديث من طريق الحسن عن أبي سعيد، وهو لم يسمع منه.
نعم، له شاهد من حديث ابن عمر، أخرجه ابن ماجه (٢١٣٩)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٣٠)، والدارقطني (٧٣)، والحاكم (٢/ ٦)، والبيهقي في (٥/ ٢٦٦)، وفي «الشعب» (١٢٣٠، ٤٨٥٥) وفي إسناده كلثوم بن جوشن. وبه أعله أبو حاتم كما في «علل ابنه» (١١٥٦)، ومع هذا فقد أورد الذهبي في ترجمته في «الميزان» هذا الحديث، وقال: «حديث جيد الإسناد، صحيح المعنى، ولا يلزم من المعية أن يكون في درجتهم»، ولعل تحسين الترمذي لهذا الشاهد! **وضعّفه** شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير»، ولا في «جامع الترمذي».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحاح».

(٤) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث ابن مسعود.

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل.

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أن يبعثني الله معهم».

كعملهم»[١].

وأخرج الشيخان من طريق مالك ـ واللفظ لمسلم ـ بسندهما إلى أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب للتفاضل بينهم**». قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلى؛ والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»[٢]. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عند الله برحمته وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: كلُّ مَن ردَّ شيئاً من سنة النبي ﷺ أو مما دل عليه كتاب الله تعالى، أو أعرض عنهما، ولم يرفع بهما رأساً، ولا درسهما، ولا سأل عنهما، واكتفى بظلمات الرأي الذي لا يدرى موافقته لهما أو مخالفته، كالمتمسكين بكتب الفروع المجردة، فلن يعد ممن فعلوا ما يوعظون به، فلا خير له ولا تثبيت ولا أجر ولا هداية إلى الصراط المستقيم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يعد ممن أطاع الله والرسول، فهو غير جدير أن يكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والله لا يهدي القوم الظالمين.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠]

قال (ك): «يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذلك إلا لأنه لا[٤] ينطق عن الهوى إن

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/١٤٩ ـ ١٥٧) بتصرف.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما».

هو إلا وحي يوحى، قال ابن أبي حاتم بسنده[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني**». وهذا الحديث ثابت في «الصحيحين»[٢].

وقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: ما[٣] عليك منه، إن عليك إلا البلاغ، فمن اتبعك سعد ونجا، وكان له[٤] من الأجر نظير ما حصل [لمن فعل فعله][٥]، ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء كما جاء في الحديث[٦]: «**من يطع الله والرسول فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله؛ فإنه لا يضر إلا نفسه**»[٧].

الباب الرابع

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٩]

قال (ك): «يقول تعالى مخاطباً لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٥٦٦٤)، وأحمد (٢/ ٢٥٢)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٢١٢)، والطيالسي (٢٤٣٢)، وابن ماجه (٣، ٢٨٥٩)، والبغوي (٢٤٥٠)، وهو في «الصحيحين» كما في الهامش الآتي.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥) من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لك».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «له».

(٦) أخرجه أبو داود (٢١١٩)، والبيهقي (٣/ ٢١٥) والمحفوظ ما في «صحيح مسلم» (٨٧٠) ولفظه: «**من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى**».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١).

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: هو حق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه، وقوله: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول(١) إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في «الصحيحين» بسندهما إلى أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: **«ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو ما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو ليذرها»**(٢).

وقال الإمام أحمد بسنده إلى أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: **«إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها انتظاماً في عنقه يوم القيامة»**، فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه»**(٣). وقد روى أبو داود من حديث أسامة بن زيد بن وراد: **«إني إنما أقضي بينكما برأيي فيما لم ينزل عليَّ فيه»**(٤).

وقد روى ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس «أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم، فأظن بها رجلاً من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: «إن طعمة بن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر

---

(١) انظر في توجيه الآية عليه: كلام الطوفي في «الإشارات الإلهية» (٢/ ٤٢ ـ ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٢٠)، وابن أبي شيبة (٩/ ٤٩٢)، وإسحاق ابن راهويه في «مسنده» (٤/ ٦١)، وابن الجارود في «المنتقى» (١٠٠٠)، وأبو يعلى (٦٨٩٧، ٧٠٢٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، والطبراني (٢٣/ رقم ٦٦٣)، والدارقطني (٤/ ٢٣٨، ٢٣٩)، والحاكم (٤/ ٩٥)، والبغوي (٢٥٠٨)، والبيهقي (٦/ ٦٦ و١٠/ ٢٦٠) من حديث أم سلمة، **وإسناده صحيح**، وصححه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤٥٥)، و«الإرواء» (١٤٢٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥٨٤) وهذا اللفظ من تفردات أسامة بن زيد، وذلك مما يجعلنا **نتوقف** عن الاحتجاج بما تفرد به، أفاده شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٤٥٥).

من عشيرته: إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء! وإن صاحب الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علماً فأعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مُسْتَخْفِينَ بالكذب: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآيتين، يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين، ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء: ١١٠] الآية يعني: الذين أتوا رسول الله ﷺ مُسْتَخْفِينَ بالكذب. ثم قال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٢]؛ يعني السارق والذين جادلوا عن السارق»(١). وهذا سياق غريب.

وروى ابن إسحاق والترمذي وابن جرير وغيرهم عن قتادة بن النعمان قال: «كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق: بشر وبشير ومُبشِّر، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله لبعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث [أو كما قال الرجل، وقالوا: ابن الأبيرق قالها](٢)، قالوا: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام [بالدَّرْمَك](٣) ابتاع الرجل

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧/ ٤٦٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ٥٩٥٣)، وعزاه ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٦١) لابن مردويه، **وإسناده ضعيف مسلسل بالعوفيين**، وللحديث شاهد عن قتادة بن النعمان يأتي، هو بها **حسن**.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقال: أو كلما قال الرجال قصيدة:

أضيموا وقالوا ابن الأبيرق قالها»

وهي كذا عند ابن جرير وفي «الدر المنثور»، والخلل في النسخة التي ينقل منها المصنف من «تفسير ابن كثير»، وسيأتي تصريح المصنف بذلك تحت (السابعة) ضمن (التوضيحات) الآتية.

(٣) في مطبوع «الترمذي»: «من الدرمك».

منها فخصَّ بها نفسه وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقَدمَتْ ضافطة من الشام فابتاع عمِّي رفاعة بن زيد حِمْلاً من الدَّرْمَك، فجعله في مشربة له وفي المشربة سلاح ودرع وسيف، فعُدِي عليه من تحت البيت[١] فَنُقِّبتِ المَشْرَبة وأُخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمِّي رفاعة فقال: يا ابن أخي إنه[٢] قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنُقِّبتْ مشْرَبَتُنا فذُهب بطعامنا وسلاحنا، قال: فَتَحَّسسنا[٣] الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أُبَيْرِقٍ استوقدوا في هذه الليلة ولا نُرى فيما نُرىٰ إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أُبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار: والله ما نُرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلاً[٤] منا له صلاح وإسلامٌ فلما سمع لبيد اخترَط سيفَه وقال: أنا أسرِق والله[٥] ليخالطنكم هذا السيف أو لَتُبَيّنَن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمِّي: ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنَقَّبوا مشربةً له وأخذوا سلاحه وطعامه فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي ﷺ: «**[سأنظر][٦] في ذلك**». فلما سمع بذلك بنو أُبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أُسير[٧] بن عروة، فكلَّموه في ذلك فاجتمع في ذلك أناس[٨] من أهل الدار، فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عَمَدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمُونَهم بالسرقة من غير بينة ولا ثَبْت.

قال قتادة: فأتيت النبي ﷺ فكلَّمتُه فقال: «**عَمَدْتَ إلى أهل بيتٍ ذُكِر عنهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير ثبت [ولا بينة][٩]**» قال: فرجعت ولَوَدِدْتُ أني خرجت من بعض مالي ولم أُكلِّم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني

(١) كذا في مطبوع «الترمذي»، وفي الأصل: «تحت الليل»!
(٢) من مطبوع «الترمذي»، وسقط من الأصل.
(٣) بعدها في مطبوع «جامع الترمذي»: «في».
(٤) في مطبوع «جامع الترمذي»: «رجلٌ». (٥) في مطبوع «جامع الترمذي»: «فوالله».
(٦) في مطبوع «جامع الترمذي»: «سآمر».
(٧) كذا في مطبوع «جامع الترمذي»، وفي الأصل: «أُسيد».
(٨) في مطبوع «جامع الترمذي»: «ناس». (٩) في مطبوع «جامع الترمذي»: «وبيِّنة».

عَمِّي رفاعة فقال: ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم نلبث[١] أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾؛ يعني[٢] بني أبيرق ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ﴾ أي: مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿رَّحِيمًا﴾ أي: لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

قوله[٣]: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣ ـ ١١٤]فلما نزل القرآن أتي رسول الله ﷺ بالسلاح فردَّه إلى رفاعة، فقال قتادة: لمّا أتيتُ عمِّي بالسلاح وكان شيخاً قد عمي أو عشي ـ الشك من أبي عيسى ـ في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي: هي[٤] في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بُشَيْرٌ بالمشركين فنزل على سُلافة بنت سعد ابن سميّة[٥] فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٥، ١١٦] فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها[٦] حسان بن ثابت بأبيات من شعر[٧]، فأخذت رَحْلَه فوضعَتْهُ على رأسها، ثم خرجت به فرمته[٨] في الأبطح، ثم قالت: أَهْدَيْتَ لي شِعْر حسان؟ ما كنت تأتيني بخير»[٩]. لفظ الترمذي: هذا حديث غريب، قال

---

(١) في مطبوع «جامع الترمذي»: «يلبث». (٢) غير موجود في مطبوع «جامع الترمذي».

(٣) في مطبوع «جامع الترمذي»: «قولهم للبيد».

(٤) في مطبوع «جامع الترمذي»: «هو».

(٥) كذا في مطبوع «جامع الترمذي»، وفي الأصل: «ابن شهيد»!

(٦) في مطبوع «جامع الترمذي»: «رماها».

(٧) في مطبوع «جامع الترمذي»: «شعره»، وستأتي هذه الأبيات قريباً.

(٨) في مطبوع «جامع الترمذي»: «فرمت به».

(٩) أخرجه الترمذي (٣٠٣٦)، والحاكم (٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني (٤/ ١٥)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ١٦ ـ ١٨ رقم ١٥)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٥٨ ـ ٤٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٠٥٩، ١٠٦٠) رقم (٥٩٣٣، ٥٩٣٦، ٥٩٤٨، ٥٩٥١، ٥٩٥٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٦٦)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣) جميعهم من طريق ابن إسحاق عن =

(ك): «روى هذا الحديث الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في كتابه «المستدرك» وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»[(١)].

قال محمد تقي الدين: والأبيات التي ذكرت في الحديث ذكرها السهيلي في «الروض الأنف» في (٢٣٩) وهي هذه:

«وما سارق الدِّرعين إذ كنتَ ذاكراً بـذي كَـرَم مـن الـرجـال أوادِعـه
وقد أنزَلَته بنتُ سعد فأصبحتْ ينـازعـهـا جَـارُ اسْـتِـهـا وتُـنـازعُـه
ظننتمْ بأن يخفَى الذي قد صنعتمُ وفيكم نبيٌّ عنده الوحي واضعه»[(٢)]

ومعنى البيت الثاني: وقد أنزلته سلافة بنت سعد البغيُّ المشهورة بمكة في بيتها يفجُر بها، فصارت ينازعها فرجها وهو جار استها أي دبرها، وتنازعه شوقاً إلى الزنا، وهذا سبب غضبها وطردها لذلك المعتدي الخبيث الذي أعياه النفاق فخرج إلى إعلان الكفر.

والضافطة: جماعة يجلبون الميرة ـ وهي الحبوب والطحين ـ إلى المدن؛ لأن الحجاز أرض فقيرة لا يحصل منها ما يكفي لمعيشة أهلها من الحبوب، فهي محتاجة دائماً إلى أن ترد عليها الحبوب من جهة الشمال وهي الشام، أو من جهة الجنوب وهي اليمن، أو من جهة الشرق وهي نجد، والدرمك هو الحُواري، أي الدقيق الأبيض.

وفي هذا الحديث علمنا أن الرجال في المدينة كانوا يخصون أنفسهم بالبر والدقيق الأبيض، ولا يشركون عيالهم فيه، بل يتركونهم يعيشون بالتمر والشعير.

= عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة به. وعمر لم يرو عنه سوى ابنه عاصم، ولم يوثقه غير ابن حبان (٥/ ١٤٦) ولذا قال الذهبي في «الميزان» (٣/ ٢١٨): «لا يعرف إلا من رواية ولده عنه». قلت: **والقصة حسنة**، ولها طرق أخرى عند ابن جرير وابن سعد، وحسنها شيخنا الألباني، وأحمد شاكر في تعليقه على «تفسير الطبري» (٩/ ١٧٧ ـ ١٨١) رقم (١٠٤١١)، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٦٧٧) نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ. وانظر كتابنا: «المحاماة» (ص٩١ ـ ٩٣) وفي الطبعة الجديدة منه ـ يسر الله ظهورها ـ تفصيل جيد في تخريجه.

(١) كذا قال! وفي إسناده عمر بن قتادة وهو مجهول كما قلنا، ولم يخرج له مسلم شيئاً. انظر: «تهذيب التهذيب» (٧/ ٤٨٩)، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٥٩ ـ ٢٦٥) بتصرف.

(٢) انظر: «الروض الأنف» (٤/ ٤١٣، ط. الوكيل).

وقد رأيت مثل هذا في بادية حميان بأرض الجزائر، فإن النساء عندهم لا حظ لهن في البر وإنما طعامهن الشعير، ففي كل خيمة يصنع نوعان من الطعام: نوع للرجال من البُرّ ونوع للنساء من الشعير، فترى الرجل وأولاده الذكور يأكلون طعام البر، وزوجته وبناته لا حظ لهن فيه ولو مرة في السنة، وأعرف رجلاً اسمه بو مدين كان شيخاً كبيراً وله زوجة وليس لهما أولاد، فكانت زوجته تصنع طعامين طعاماً من البر له، وطعاماً من الشعير لها.

وبالمناسبة أذكر قصة وقعت لي مع هذا الرجل، فإنه جاءني عند الزوال فقال: قم فصل الظهر وأنا إمام الحي، فقلت له: انتظر قليلاً حتى يتحقق دخول الوقت، فقال لي: إن الوقت قد دخل وأنا مستعجل أريد أن أصلي وأذهب إلى شغلي، فقلت: إن صلاة الظهر قبل تحقق دخول الوقت لا تجوز، فخاصمني وشتمني وقال لي: إن لم تكن راضياً فهذه الثنية أمامك فاذهب، والثنية هي الطريق بين جبلين، فأخذت سبحتي وأنا يومئذٍ تجاني مخلص في الطريقة أشد الإخلاص من فرط جهلي وشقائي، فوجهت سبحتي كالبندقية إلى خيمته طلباً للانتقام منه، فخاف خوفاً شديداً وانصرف، وفي ذلك اليوم ضلت له أحسن ناقة من إبله فجاءني في الغد خاشعاً ذليلاً وقال لي: يا سيدي محمد! إنك قطعت في خويدمك، - أي انتقمت منه - بلا رحمة، فقلت: مَهْيَمْ، فقال لي: ضاعت الناقة الحمراء فاغفر لي إساءتي إليك، وادع الله أن يردها فدعوت وغفرت له، ولكن الناقة لم ترجع.

فمنذ ذلك اليوم صار يخدمني خدمة العبد لسيده إلى أن افترقنا. فانظر إلى هذا الجهل العظيم من المخدوم والخادم والمعبود والعابد، فاللهم لك الحمد على ما أنعمت به علينا وأخرجتنا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وبهذا يعلم أن الشيخة بهية وهي امرأة مكفوفة البصر لا يفوتها درس من دروس وعظي لا مع الرجال ولا مع النساء، قالت لبعض النساء لا يزلن متمسكات ببدعة السبحة[1]: ألقين عنكنّ هذه الأصنام، فإن السبحة قد تكون وثناً، كما وقع لي حين وجهتها إلى خيمة الرجل.

---

(١) لا يشك منصف أن حمل السبحة والتظاهر بها تكثير لسواد المبتدعة! فما ينبغي أن يفعله من في قلبه أدنى حرص على الالتزام بالسنة، وكذا التسبيح بها، ولا سيما دبر الصلوات، فإن السبحة قضت على سنة العد بالأصابع، أو كادت، مع اتفاقهم على أنها أفضل. وانظر كتابي: «القول المبين» (ص٢٩٩ - ٣٠٠).

توضيحات لما تقدم

الأولى: الخبر: هو ما يخبر الله تعالى به عباده. والطلب: هو ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه. والجلبة: الصياح.

الثانية: قول رسول الله ﷺ: «**فمن قضيت له بحق مسلم...**» إلى آخره. معناه: إن كان أحد الخصمين فصيحاً بليغاً يزخرف القول ويقلب الحقائق[1] وكان خصمه حصراً لا يستطيع أن يبين حقه، فظهر لي أن الظالم هو المظلوم، فحكمت له بما تنازعا فيه ـ كبستان أو بيت أو دراهم ـ وهو يعلم أن الحق لخصمه فأخذ ذلك الشيء معتمداً على حكمي له، فإنه قطعة من النار، لا يحل له أبداً[2]، وإن حكمت له به لأنه خدعني، وهذا أيضاً يدل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، فتعساً للمشركين الذين يزعمون إن كل ما يعلمه الله يعلمه رسول الله، والفرق بينهما أن علم الله غير محدث وعلم النبي ﷺ، محدث، ومن اعتقد هذا فهو كافر بالقرآن العظيم. انظر (الجزء الثاني): (القسم الأول) من «سبيل الرشاد»[3] عند قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقولها: **(درست)**، أي: قدم عهدها.

قوله: **(انتظاماً)**، الانتظام: الحديدة التي تحرك بها النار وتسعر.

الثالثة: قول النبي ﷺ: «**فاقتسما ثم استهما**»: معناه: اقتسما ما تنازعتما فيه من أرض أو بستان مثلاً واقترعا على القسمين، والمغاربة يسمون ذلك (ضرب العود)، ومعنى **(ليحلل أحدكما الآخر)**: أي يسامحه ويجعله في حل. اهـ.

الرابعة: قول النبي ﷺ: «**فيما لم ينزل علي فيه**» يدل على أن النبي ﷺ إذا لم يكن عنده في القضية وحي من الله تعالى يجتهد ويحكم برأيه، وكذلك شرع لحكام أمته كما تقدم مبسوطاً في الباب الذي قبله، وهذا عين ما فعله في هذه القضية قبل أن يتبين له أن أولئك القوم خائنون.

---

(١) وفيه التهديد والوعيد للمحامين، وللذين يتأكلون بألسنتهم من المذيعين والصحفيين إن فعلوا ذلك! وأن البيان يمدح أو يذم حسب استخدامه، والأثر المترتب عليه.

(٢) وفيه: إن حكم الحاكم ينفذ في الظاهر دون الباطن، وهذا مذهب الجماهير، ـ وهو الراجح ـ عدا الحنفية.

(٣) انظره (١/ ٣٣٨).

قوله: **(فسرقت درع)**: في بعض الروايات **(سلاح)** وفي بعضها **(درعان وسيفان)** وهي أرجح لما جاء في شعر حسان الآتي ذكره.

قوله: **(فأظنّ بها رجلاً)** أي اتهمه.

قوله: **(طعمة)**: سيأتي في الرواية التالية أن أبناء أبيرق ثلاثة بشر وبشير ومبشر، فلعل طعمة أخ لهم، أو لقب لأحدهم.

الخامسة: قول الله تعالى لخليله محمد صلوات الله عليه: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ وقوله له في سورة القتال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] هذا كلام السيد مع عبده بل خير عباده، فللسيد أن يسمي اجتهاد عبده ذنباً ويأمره بالاستغفار منه، وليس ذلك في الحقيقة ذنباً كذنوب العباد غير المعصومين، والدليل على ذلك أن هذه القضية لو وقعت لأحد الصحابة أو التابعين أو من بعدهم من الحكام فلم يجد فيها نصًّا من كتاب الله ولا سنة من سنن رسول الله واستشار علماء بلده فلم يجد عندهم شيئاً فحكم برأيه، ثم جاء عالم من بلد يحفظ حديثاً صحيحاً يخالف ما قضى به ذلك الحاكم لم يكن ذلك الحاكم مذنباً، لقول النبي ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم وأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد**»[١]. والأجر إنما يكون على الطاعة لا على الذنب، هذا على التنزُّل؛ لأن ذلك الحاكم يمكن أن يكون مقصراً في البحث؛ لأن الحكم كان موجوداً عند غيره، ولكنه عذر لأنه بذل جهده، وباذل جهده لا جناح عليه.

أما النبي ﷺ فلم يكن عنده وحي ولا عند غيره في أي مكان من بلاد الله فهو أولى بالعذر، والاستغفار عبادة نتيجتها محبة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ولذلك كان النبي ﷺ: يستغفر الله في اليوم سبعين مرة[٢] وفي حديث آخر: «يستغفر الله مائة مرة»[٣]. وينبغي أن يسلك هذا المسلك في كل موضع من كتاب الله وحديث الرسول جاء فيه نسبة الذنب إلى النبي ﷺ، فشد يدك على هذا فإنه **(مهم)**[٤].

السادسة: قول **(ك)**: في هذا الحديث: **(وهذا سياق غريب)** كقول الترمذي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٤٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر بن يسار المزني.

(٤) سقط من الأصل.

في الحديث المذكور بعده أنه غريب، يدل على ضعف هذا الحديث مع تعدد طرقه، وتفسير جماعة من التابعين بهذه الآيات بمعناه مما يدل أن له أصلاً مشكلاً، وسيرتفع الإشكال أو يكاد بقول الحاكم: إنه صحيح الإسناد على شرط مسلم، وسلّمه (ك)، وعسى أن يكون الذهبي أيضاً سلَّمه[(١)].

قوله: **(ينحله لبعض العرب)**: أي ينسبه إليهم على أنهم قالوه.

السابعة: قوله: (أو كما قال، وقالوا: ابن الأبيرق قالها): هذا تحريف وبتر من الناشرين المجرمين وما أكثره في الطبعات المتعددة لـ«تفسير (ك)» وقد قابلت هذه القصة على الكيفية التي نقلها جمال الدين القاسمي في «تفسيره»، فوجدت فيها أخطاء عديدة في الطبعات المختلفة، فعلمت أنه نقلها من نسخة مخطوطة فسلم نقله من الخطأ. والصواب أن هذا الكلام بيت شعر قاله بشير بن الأبيرق، ونصه كما في «تفسير القاسمي»[(٢)]:

أَوَ كُلَّما قالَ الرجالُ قصيدةً ... أَضِمُوا وقالوا ابنُ الأُبَيرِقِ قالها[(٣)]

ومعنى **(أضِموا)**: أي غضبوا وهو بكسر الضاد.

و**(الحاجة)**: الفاقة والفقر ـ و**(اليسار)**: الغنى ـ و**(المشربة)** الغرفة: وتسمى العُلِّيَّةُ.

قوله: **(فتحسسنا في الدار)**: المراد بالدار هنا مجموعة من المساكن، متصل بعضها ببعض، وفي وسطها حجرة باللغة المغربية «حوش»، وهكذا كان بناء البيوت في المدينة النبوية إلى زمان قريب، وقد أدركت ذلك أول ما سكنت في المدينة سنة ١٣٤٦هـ.

قوله: **(استوقدوا في هذه الليلة)** أي: أوقدوا شيئاً يستضيئون به كنار أو قنديل، واستدلوا بذلك على أنهم السارقون.

قوله: **(أهل جفاء)**: الجفاء خشونة الطبع وسوء الأدب.

---

(١) ليس كذلك، كما بيناه، نعم الحديث حسن بطرقه، ولكنه ليس على شرط مسلم ومضى بيان ذلك.

(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (٥/ ٤٤٤).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٤٥٩)، و«الدر المنثور» (٤/ ٦٧٨)، وذكره صاحب «الوافي بالوفيات» (١٠/ ١٠٦، ط. إحياء التراث) إلّا أن عجز البيت عنده بلفظ آخر وهو: «قالوا الأبيرقُ لا أبا لك قالها».

قوله: **(خرجت من بعض مالي)**: أي خسرت بعض مالي.

قال القاسمي[١] ما نصه: «﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإعلامك ما هم عليه بالوحي وتنبيهك على الحق ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ برمي البريء والمجادلة عن الخائنين، يعني: أُسير[٢] بن عروة وأصحابه، يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن وباله عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأنك إنما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك.

ولما أنزل تعالى فصل القضية وجلّاها لرسوله ﷺ امْتَنّ عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآن والسنة ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ من أمور الدين والشرائع ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي: قبل نزول ذلك عليك، كقوله[٣]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] الآية وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي فيما علمك وأنعم عليك».

قال الرازي[٤]: «هذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب، ثم أشار تعالى إلى ما كانوا يتناجون فيه حين يبيتون ما لا يرضى من القول».

الثامنة: قوله: (قد عمي أو عشي، الشك من أبي عيسى)، عبارة القاسمي فيما نقل من النسخ الصحيحة من (ك) هكذا: «قال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح، وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية. وكنت أرى إسلامه مدخولاً». اهـ. قال صاحب «القاموس»: «عسا الشيخ يَعْسُو عَسْواً[٥] وعَسِيَ عَسًى كَبِر»[٦].

---

(١) في تفسيره المسمى «محاسن التأويل» (٥/ ٤٥٣).
(٢) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، ومصادر التخريج، وفي الأصل: «أسيد» بدال في آخره!
(٣) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «قوله».
(٤) في «تفسيره» (١١/ ٣٢ ـ ٣٣) بتصرف.
(٥) بعدها في مطبوع «القاموس»: «وعُسُوّاً وعُسِيّاً وعَساءً».
(٦) انظر: «القاموس المحيط» (ص١٦٩٠ ـ عسا).

والمعنى أن رفاعة بن زيد شاخ في الجاهلية، فلذلك ظن ابن أخيه قتادة بن النعمان أن إسلامه مدخول حتى رآه وهب السلاح في سبيل الله زيادة على ما خسر من حمل الدرمك، فعلم أن إيمانه صحيح ويناسب معنى عسا هناك قول الشاعر:

لولا الحياءُ وأنَّ رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أم القاسم

وفي كتب اللغة من معاني عسا: «اشتد وغلظ»[١]، فمعنى عسا فيه المشيب: اشتد وانتشر، فمنعه الحياء وشيب رأسه من زيارة أم القاسم زيارة ريبة.

قوله: **(لحق بشر بالمشركين)** أظن هذا أيضاً من تحريف[٢] الناشرين، والذي في «تفسير القاسمي»: «لحق بشير» والظاهر أنه هو الصحيح؛ لأن بشيراً هو الذي كان يهجو أصحاب رسول الله وينحل الهجاء للكفار، والظاهر أيضاً أنه هو الذي سرق وساعد أخواه أو إخوته ـ على أن طعمة المذكور سابقاً أخ لهم ـ بل ساعدهم كثير من أهل الدار أيضاً كما تقدم.

التاسعة: ظاهر السياق أن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية [النساء: ١١٥] نزلت[٣] في بشير بن أبيرق الذي أعلن ردته، وسواء كان هذا سبب نزولها أو لم يكن، فإن من العموم تشمل كل من اتصف بمضمون الآية، فالمقلد الذي يقضي بالتقليد أو يفتي به، فيسفك الدماء ويحل الفروج وينقل الأموال من ملك شخص إلى شخص آخر بلا برهان ولا هدى ولا كتاب منير هو من المشاقين للرسول؛ لأنه يحلل ويحرم بلا برهان.

قوله: **(فأخذت رحله)**: الرحل: للبعير كالسرج للفرس، ولم يكن له متاع في بيتها إلا رحل ناقته، فألقته في الأبطح خارج مكة إلى جهة منى؛ لأنه جلب

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٥٤ ـ عسا). (٢) في الأصل: «تحريض»!

(٣) ورد ذلك مصرحاً به عند ابن جرير (٥/ ١٧١ ـ ١٧٢) من معضل عبد الرحمٰن بن زيد، وهو متروك، ومن معضل السدي عند ابن جرير وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/رقم ٥٩٦٧) وفيه أسباط بن نصر ضعيف، ومن مرسل عكرمة عند ابن جرير أيضاً، وفيه انقطاع، ومثله مرسل الضحاك، وأخرجه عبد الرزاق (١/ ١/ ١٧٢)، وابن جرير (٥/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم (٤/رقم ٥٩٦٥) في «تفاسيرهم» من مرسل قتادة، وعزاه في «الدر» (٢/ ٦٧٦) لعبد بن حميد وابن المنذر، وعزاه لابن المنذر عن مرسل الحسن، وفيه أيضاً التصريح بسبب النزول، وهذه الطرق لا تنهض للجزم بأن سبب نزول الآية هذه الحادثة، والله أعلم.

لها الفضيحة بهجاء حسان، والشعر سلاح حاد يفتك بالأعداء أكثر من فتك السيوف، وقد وفقني الله لاستعمال هذا السلاح فهجوت كثيراً من الطواغيت فذاقوا وبال أمرهم، ويوجد كثير من هذا الهجاء في كتاب «الدعوة إلى الله» لمؤلف هذا الكتاب[١]، وكذلك شيخ الطريقة الذي يدعو الناس إلى إعطائهم الورد وإدخالهم في ربقته واستعباده؛ فيقضي على أديانهم وأعراضهم وأموالهم، ويضمن لهم الجنة، ويوهمهم أنه يمدهم بتنوير القلوب والهداية ويحفظ دينهم ودنياهم، وهو أكبر مفسد للدين والدنيا، فإنه مشاق للرسول متبع غير سبيل المؤمنين، وهم الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون ومن اتبعهم بإحسان.

العاشرة: قال محمد تقي الدين: من العجب العجاب أني لم أر أحداً ممن قرأت تفاسيرهم ذكر عقاب النبي ﷺ لهؤلاء السراق، وقد ثبتت عليهم السرقة بشهادة الله تعالى وشهادة الناس ولم يقتصروا على السرقة حتى دعوا أقاربهم ليعينوهم على الباطل ورموا البريء بذنبهم وخدعوا الرسول، فلماذا لم يقطع النبي ﷺ أيديهم؟ لا أجد جواباً لهذا السؤال وعسى الله أن يأتي به[٢].

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥]

«يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبراً[٣] بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبهة، ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ أي: ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جريج وغيره: هو[٤] القرآن ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله

---

(١) جمعت ما وقفت عليه من أشعار للمصنف في ديوان مفرد. وله أيضاً «منحة الكبير المتعالي» حصلتُه ـ ولله الحمد ـ بعد جهد مرقوماً على الآلة الكاتبة، وانظر ترجمتنا للمصنف في أول هذا الكتاب.

(٢) وقع التصريح بذلك في آخر القصة عند الترمذي، ففيها: «فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين»، والله أعلم.

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لهم». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو».

في جميع أمورهم، وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن، رواه ابن جرير[١] ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: طريقاً واضحاً قويماً[٢] لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع المعتقدات والأعمال[٣]، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات، وفي حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال: «**القرآن صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين**»[٤]، وقد تقدم الحديث بتمامه في أول التفسير ولله الحمد والمنة».

فصل

قال محمد تقي الدين: النور المبين هو القرآن والسنة يقيناً؛ لأن كلاًّ منهما منزَّل من الله تعالى، وهما متلازمان لا يمكن اتباع أحدهما إلا باتباع الآخر، كالشهادتين وكالإسلام والإيمان، ولا يستفيد أحد من هذا النور إلا إذا ترك التقليد واتبع الكتاب والسنة، فنورهما يضيء له طريقه في الحياة الدنيا وعند الموت وفي البرزخ وفي يوم القيامة، وقد علم الله أن بعض الناس يؤمنون بالله ويعتصمون به فيتبعون كتابه ورسوله، فهؤلاء هم أهل رحمته وفضله في الدنيا والآخرة، وهم الذين هداهم الله صراطه المستقيم، وعلم سبحانه أن بعضهم لا يؤمنون بالله حقًّا ولا يعتصمون به فلا يتبعون كتابه ولا رسوله فلا يكونون أهلاً لرحمة الله وفضله، ولا يسلكون الصراط المستقيم؛ فيستحقون الظلمة والضلال في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة. اهـ.

---

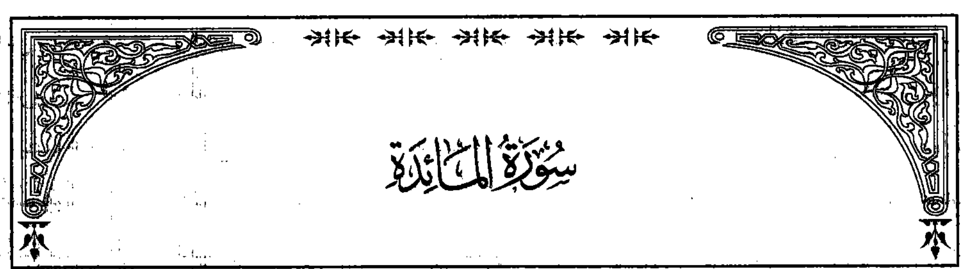
(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٧/ ٧١٢)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٢٤٩) لابن جرير وابن المنذر.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قصداً قواماً».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الاعتقادات والعمليات».

(٤) أخرجه الترمذي (٢٩٠٨)، والدارمي (٢/ ٤٣٥)، والفريابي في «فضائل القرآن» (١٨٤/ ٨٠ و٨١)، والبغوي في «شرح السنة» (١١٨١)، **وإسناده ضعيف**. وقال الترمذي: «لا نعرفه إلّا من هذا الوجه» وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال، وأقره البغوي وضعفه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٣٦) وشيخنا الألباني في الضعيفة (٦٣٩٣).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣]

في «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» لمؤلفه أخينا العالم السلفي المحقق محمد نسيب الرفاعي ما نصه:

«ينهى الله عباده عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، لما فيها من المضرة من الدم المحتقن فهي ضارة للدين وللبدن، فلهذا حرمها الله ﷻ، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك والشافعي وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال: «**هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميتته**»[(١)]، وهكذا الجراد، لما سيأتي من الحديث...

(١) أخرجه مالك (١/ ٥٠) ومن طريقه الشافعي (١/ ٦٥) (٤٢ ـ «شفاء العي») وأحمد (٢/ ٢٣٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٤٧٨)، وأبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٣٢٤٦)، وابن خزيمة (١١١)، وابن حبان (٤/ ٤٩)، والدارمي (٧٣٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٨١)، والحاكم (١/ ١٤٠)، والبيهقي (١/ ٣). **والحديث صحيح**، صححه البخاري، نقل ذلك عنه تلميذه الترمذي في «العلل الكبير» (١/ ١٣٦)، =

وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّمُ﴾ يعني: به المسفوح، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]قاله ابن عباس وغيره، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم. فقال: إنما حرم عليكم الدم المسفوح[1]، وكذا رواه حماد عن عائشة: إنما نهي عن الدم السافح[2]، وروى الشافعي عن ابن عمر مرفوعاً: قال رسول الله ﷺ: «**أحل لكم ميتتان ودمان، فأما الميتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال**»[3]. قال الأعشى[4]:

= ونقل ابن حجر في «التهذيب» (ترجمة المغيرة بن أبي بردة) تصحيحه عن كل من ابن خزيمة وابن حبان وابن المنذر والخطابي والطحاوي وابن منده والحاكم وابن حزم والبيهقي وعبد الحق الإشبيلي في جماعة آخرين بيّنتُهم بالتفصيل في تعليقي على كتاب «الطهور» (ص٢٩٣ ـ ٢٩٩) لأبي عبيد.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٩٩)، والبيهقي (١٠/ ٧) **وإسناده ضعيف**، رواية سماك عن عكرمة خاصة مضطربة، وعزاه ابن كثير (٥/ ٢٣) لابن أبي حاتم، وهو ليس في القسم المطبوع، وزاد عزوه في «الدر المنثور» (٢/ ٩٧) لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٢) هذا من تمام كلام ابن أبي حاتم، والتصرف المذكور من «التيسير» وهو فيه من هذا النحو كثير على غير قاعدة، وليس بطريقة يفهم منها المراد، ونص ما عند ابن كثير: «وكذا رواه حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة: ..» به، فحذف ما بين (حماد) و(سلمة) من شيخنا محمد نسيب الرفاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتبعه عليه الهلالي، ولا يوجد ما يدل عليه في السياق، فهو ليس بجيد، ومثله في «المختصر» كثير جداً، ظهر لي ذلك لما درسته في دروس الفجر اليومية، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٣) أخرجه الشافعي في المسند (٢/رقم ٦٠٨ ـ «شفاء العي»)، وعبد بن حميد (٨٢٠)، وأحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجه (٣٢١٨، ٣٣١٤)، وابن حبان في «المجروحين» (٣/ ٥٨)، والدارقطني (٤/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)، والبغوي (٢٨٠٣)، والبيهقي (١/ ٢٥٤ و٩/ ٢٥٧ و١٠/ ٧)، وفي «المعرفة» (١٨٨٥٣) من حديث ابن عمر مرفوعاً، **وإسناده حسن**. وقال أبو زرعة الرازي في «العلل» (٢/ ١٧): «الموقوف أصح» أي على ابن عمر، وأخرجه البيهقي (٩/ ٢٥٧) وقال: «هذا إسناده صحيح وهو في معنى المسند». وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١١١٨): «وهو في حكم المرفوع». قلت: من المقرر عند أهل الصنعة الحديثية أن قول الصحابي: «أحل لنا» له حكم الرفع، ولا ينصرف إلا إلى إحلال النبي ﷺ، وكذا التحريم، أفاده ابن القيم في «الزاد» (٣/ ٣٩٢).

(٤) في «ديوانه» (ص٦١).

وإِيَّـاكَ والـميتـاتِ لا تـقـربـنَّـهـا[١]   ولا تأْخُذَنْ عظماً[٢] حديداً فتفصدا[٣]

أي: لا تفعل فعل الجاهلية، وكان أحدهم إذا جاع يأخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه، فيفصد به بعيره فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ يعني: إنسيَّه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم»[٤].

قال (ك): «روى ابن أبي حاتم عن أبي أمامة ـ وهو صُديّ بن عجلان ـ قال: بعثني[٥] رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله، وأعرض عليهم شرائع الإسلام، فأتيتهم، فبينما[٦] نحن كذلك إذ جاؤوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها، فقالوا: هلم يا صدي، فكل، قال: قلت: ويحكم، إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم[٧]، فأقبلوا عليه، قالوا: وما ذاك؟[٨] فتلوت عليهم هذه الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ الآية[٩].

ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه، وزاد بعد هذا السياق[١٠]: «قال:

---

(١) في «الديوان»: «لا تأكُلَنَّها».   (٢) في «الديوان»: «سهما».

(٣) في «الديوان»: «لتَفْصِدا».   (٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٥).

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فبينا».

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأنزل الله عليه».

(٨) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٩) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٢٣٤)، والطبراني (٨/رقم ٨٠٧٣، ٨٠٧٤، ٨٠٩٩)، والحاكم (٣/ ٦٤١، ٦٤٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ١٢٦، ١٢٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٦٢، ط. الفكر) من ثلاثة طرق عن أبي غالب عن أبي أمامة رفعه، وحسنه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٦/رقم ٢٧٠٦). قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٣٥): «فيه بشير بن سريج وهو ضعيف».

قلت: تابعه صدقة بن هرمز، في رواية للطبراني والحاكم، وضعفه ابن معين، والحسين بن واقد ـ وهو ثقة له أوهام ـ في رواية للطبراني، ولذا قول الهيثمي عن الأخرى: «رواه الطبراني بإسنادين، وإسناده الأول حسن» جيد، إلا أن أبا غالب حزوَّر صدوق يخطئ، وقد يمشَّى حديثه. وعزاه في «الإصابة» (٢/ ١٨٢) لأبي يعلى، وعزاه ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٢٤ ـ ٢٥) لابن أبي حاتم ـ وهو ساقط من مطبوع «تفسيره» ـ، وابن مردويه، وانظر كتابي: «المقدمات الممهدات السلفيات في تفسير الرؤى والمنامات» (ص٣٠ ـ ٣٢).

(١٠) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بعده».

فجعلت أدعوهم إلى الإسلام، ويأبون عليَّ، فقلت لهم[(١)]: ويحكم اسقوني شربة من ماء فإني شديد العطش، قال: وعليَّ عباءتي، فقالوا: لا، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً. قال: فاغتممت وضربت برأسي في العباءة[(٢)] ونمت على الرمضاء في حر شديد، قال: فأتاني آت في منامي بقدح من زجاج، لم ير الناس أحسن منه، وفيه شراب لم ير الناس ألذ منه، فأمكنني منه فشربته[(٣)]، فلما فرغت من شرابي استيقظت فلا والله! ما عطشت ولا عريت [عَرِي كفَرِح: فسدت معدته، «قاموس»][(٤)] بعد تيك الشربة، ورواه الحاكم في «مستدركه» وزاد بعد قوله: «بعد تيك الشربة»: «فسمعتهم يقولون: أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تمجعوه بمذقة. فأتوني بمذقة، فقلت: لا حاجة لي فيها، إن الله أطعمني وسقاني، وأريتهم بطني، فأسلموا عن آخرهم»[(٥)]. اهـ.

والمجع: أكل التمر باللبن.

وفي «تفسير البيضاوي»: «﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة، بنحو خشب أو حجر حتى تموِّت من وقذته إذا ضربته[(٦)] ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علو أو في بئر فماتت، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ التي نَطَحَتْها أخرى فماتت بالنطح، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ وما أكل منه السبع فمات وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم يحل ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك، والذكاة في الشرع [تكون بقطع][(٧)] الحلقوم والمريء بمحدد ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾»[(٨)].

وقال «(ك)»: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ قال مجاهد[(٩)] وابن جريج[(١٠)]: «كانت

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العباء».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منها فشربتها».
(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٤ ـ ٢٦) بتصرف.
(٦) كذا في مطبوع «تفسير البيضاوي»، وفي الأصل: «ضربها»!
(٧) بدل ما بين المعقوفتين في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «لقطع».
(٨) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٢٥٤).
(٩) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٨/ ٧٠)، وذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٤٥٤) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(١٠) أخرجه الطبري في «التفسير» (٨/ ٧٠).

النصب حجارة حول الكعبة وهي ثلاثمائة وستون نصباً، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها[١] وينضحون ما أقبل منها إلى البيت، بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم، ويضعونه على النصب»، وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله، [فالذبح][٢] عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أُهِلَّ لغير الله [به][٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ أي: حرم عليكم أيها المؤمنون أن تستقسموا[٤] بالأزلام، واحدها زُلَم وقد تفتح الزاي، فيقال: زَلَم، قد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك وهي عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب: «افعل»، وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله، أو النهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد، والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام.

وفي «الصحيحين»[٥]: إن النبي ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها وفي أيديهما الأزلام، فقال: **«قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً»**[٦]. وقد أمر الله تعالى المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما روى الإمام البخاري وأهل «السنن» عن جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول: **«إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ـ ويسميه باسمه ـ خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل أمري وآجله ـ، فاقدره لي ويسره لي**

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيها»!

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لما في الذبح».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الاستقسام».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».

(٦) أخرجه البخاري (١٦٠١، ٣٣٥٢، ٤٢٨٨)، وأبو داود (٢٠٢٧)، وأحمد (١/ ٣٣٤)، وهو عند مسلم (١٣٠٣٠) مختصراً من حديث ابن عباس.

ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري؛ فاصرفني عنه واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضّني به». »[١].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ أي: يئسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله، ولهذا قال تعالى آمراً لعباده[٢] المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحداً إلا الله، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم واخشوني أنصركم عليهم وأبدْهم[٣] وأظفركم بهم، واشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه وكل شيء أخبر به فهو الحق والصدق[٤] لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه[٥] ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه، وبعد هذه الآية لا يحتاج المؤمنون المسلمون إلى زيادة أبداً، قد أتم الله الإسلام فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً، وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ومات رسول الله ﷺ بعد عرفة بأحد وثمانين يوماً.

روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: «جاء رجل من اليهود إلى

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢)، وأبو داود (١٥٣٨)، والترمذي (٤٨٠)، والنسائي (٦/ ٨٠)، وابن ماجه (١٣٨٣).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عباده».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأبيدهم».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حق وصدق».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أحبه الله».

عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ: عشية عرفة في يوم جمعة».

ورواه الستة إلا أبا داود وابن ماجه[1].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله[2]، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له»[3].

قال القاسمي في فوائده المتعلقة بهذه الآية ما نصه:

«**الثالثة**: قال صاحب «فتح البيان»[4]: «لا معنى للإكمال في الآية إلا وفاء النصوص بما يحتاج إليه الشرع، إما بالنص على كل فرد فرد، أو باندراج ما [يحتاجون][5] إليه تحت العمومات الشاملة، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**تركتكم على [الواضحة][6] ليلها كنهارها**»[7].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٨)، والبخاري (٤٦٠٦)، ومسلم (٣٠١٧)، والنسائي (٥/ ٢٥١ و٨/ ١١٤)، والترمذي (٣٠٤٣).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تناول ذلك».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٠ ـ ٤٧، ٤٨، ٥٤).

(٤) انظر: «فتح البيان» (٢/ ٢١٠ ـ ٢١٢).

(٥) في مطبوع «فتح البيان» و«تفسير القاسمي»: «يحتاج».

(٦) في الحديث «على البيضاء».

(٧) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود في «السنن» كتاب السنة، باب في لزوم السنة، (٤/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) رقم (٦٤٠٧)، والترمذي في «الجامع» أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٥/ ٤٤/رقم ٢٦٧٦)، وابن ماجه في «السنن» المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/ ١٥ ـ ١٦ و١٦، ١٧/ رقم ٤٢ ـ ٤٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ ٢١٢)، والدارمي في «السنن» (١/ ٤٤)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٠٥/رقم ١٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» =

وجاءت نصوص الكتاب العزيز بإكمال الدين، وبما يفيد هذا المعنى، ويصحح[1] دلالته ويؤيد برهانه، ويكفي في دفع الرأي وأنه ليس من الدين [قول الله تعالى هذا][2]، فإنه إذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض إليه نبيه ﷺ، فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه؟ لأنه إن كان من الدين في اعتقادهم ـ فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه ردّ للقرآن، وإن لم يكن من الدين، فأي فائدة في الاشتغال بما ليس منه؟ وما ليس منه فهو ردّ

= (١/١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٩، ٣٠)، ومحمد بن نصر في «السنة» (ص٢١، ٢٢)، والحارث بن أبي أسامة في «المسند» (ق١٩ ـ مع «بغية الباحث»)، والآجري في «الشريعة» (ص٤٦، ٤٧)، وابن حبان في «الصحيح» (١/ ١٠٤/رقم ٤٥ ـ مع «الإحسان»)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦، ٢٤٦ ـ ٢٤٧، ٢٤٧، ٢٤٧ ـ ٢٤٨، ٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٢٤٩، ٢٥٧)، و«المعجم الأوسط» رقم (٦٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٢٢٢، ٢٢٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٥ ـ ٩٦، ٩٦، ٩٧)، و«المدخل إلى الصحيح» (١/ ١)، والخطيب في «موضح أوهام الجمع والتفريق» (٢/ ٤٢٣)، و«الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧)، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ١٠ ـ ١١)، و«الاعتقاد» (ص١١٣)، و«دلائل النبوة» (٦/ ٥٤١، ٥٤١ ـ ٥٤٢)، و«المدخل إلى السنن الكبرى» (ص١١٥، ١١٥ ـ ١١٦) رقم (٥٠ و٥١)، و«السنن الكبرى» (١٠/ ١١٤)، وابن وضاح في «البدع» (ص٢٣، ٢٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٢٠، ٢٢١ و١٠/ ١١٤، ١١٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ٦٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ٧٤، ٧٥)، والهروي في «ذم الكلام» (٦٩/ ١ ـ ٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ٢٦٥/ ١، ٢٦٦/ ١)، وأحمد بن منيع في «المسند»؛ كما في «المطالب العالية» (٣/ ٨٩) من طرق كثيرة عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.
وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، وقال الهروي: «وهذا من أجود حديث في أهل الشام»، وقال البزار: «حديث ثابت صحيح»، وقال البغوي: «حديث حسن»، وقال ابن عبد البر: «حديث ثابت»، وقال الحاكم: «صحيح ليس له علة»، ووافقه الذهبي، وقال أبو نعيم: «هو حديث جيد من صحيح الشاميين»، وصححه الضياء المقدسي في «جزء في اتباع السنن واجتناب البدع» رقم (٢)، وقال ابن كثير في «تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب» رقم (٣٦): «صححه الحاكم وقال: ولا أعلم له علَّة، وصححه أيضاً الحافظ أبو نعيم الأصبهاني والدغولي، وقال شيخ الإسلام الأنصاري: هو أجود حديث في أهل الشام وأحسنه»، وبنحوه في «المعتبر» للزركشي (ص٧٨).
وانظر: «إرواء الغليل» (٨/ ١٠٧) رقم (٢٤٥٥)، و«جامع العلوم والحكم» (ص١٨٧).

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «وبصحيح».
(٢) من مطبوع «تفسير القاسمي» و«فتح البيان»، وسقط من الأصل.

بنص السنة المطهرة ـ كما ثبت في «الصحيح»[(١)].

وهذه حجة قاهرة ودليل باهر لا يمكن أهل الرأي أن يدفعوه بدافع أبداً، فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي، وترغم به أنفهم[(٢)]، وتدحض به حجتهم، فقد أخبرنا الله[(٣)] في محكم كتابه أنه أكمل دينه؛ ولم يمت رسول الله ﷺ إلا بعد أن أخبرنا بهذا الخبر عن الله ﷻ، فمن جاء بشيء من عند نفسه وزعم أنه من ديننا قلنا له: إن الله أصدق منك؛ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] اذهب لا حاجة لنا في رأيك، وليت المقلدة فهموا هذه الآية حق الفهم حتى يستريحوا ويريحوا.

وقد أخبرنا الله في محكم كتابه أن القرآن أحاط بكل شيء علماً فقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩]. ثم أمر عباده بالحكم بكتابه فقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وفي آية ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] وفي أخرى: ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] وأمر عباده أيضاً في محكم كتابه باتباع ما جاء به رسوله ﷺ فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وهذه أعم آية في القرآن وأبينها في الأخذ بالسنة المطهرة.

وقال: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ وقد تكرر هذا في مواضع من الكتاب العزيز. وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١] وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والاستكثار من الاستدلال على وجوب طاعة الله وطاعة رسوله لا يأتي بعائدة ولا فائدة زائدة، فليس أحد من المسلمين يخالف في ذلك، ومن أنكره فهو خارج عن حزب المسلمين، وإنما أوردنا هذه الآيات الكريمة والبينات

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي» و«فتح البيان»: «آنافهم».

(٣) من مطبوع «تفسير القاسمي» و«فتح البيان»، وسقطت من الأصل.

العظيمة تليناً لقلب المقلد الذي جمد وصار كالجلمود[1]، فإنه إذا سمع مثل هذه الأوامر القرآنية، ربما امتثلها وأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ طاعة لأوامره، فإن هذه الطاعة وإن كانت معلومة لكل مسلم، لكن الإنسان قد يذهل عن القوارع الفرقانية والزواجر المحمدية، فإذا ذُكِّر بها ذَكَر، ولا سيما من نشأ على التقليد، وأدرك سلفه ثابتين عليه غير متزحزحين عنه فإنه يقع في قلبه أن دين الإسلام هو هذا الذي هو عليه، وما كان مخالفاً له فليس من الإسلام في شيء، فإذا راجع نفسه رجع، ولهذا تجد الرجل إذا نشأ على مذهب من هذه المذاهب، ثم سمع ـ قبل أن يتمرن[2] بالعلم ويعرف ما قاله الناس ـ خلاف ذلك المألوف، استنكره وأباه قلبه، ونفر عنه طبعه، وقد رأينا وسمعنا من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر.

ولكن إذا وازن العاقل بعقله بين من اتبع أحد أئمة المذاهب في مسألة من مسائله التي رواها عنه المقلد ولا مستند لذلك العالم فيها، بل قالها بمحض الرأي لعدم وقوفه على الدليل، وبين من تمسك في تلك المسألة بخصوصها بالدليل الثابت في القرآن والسنة، أفاده العقل بأن بينَهما مسافات تنقطع فيها أعناق الإبل، لا جامع بينهما؛ لأن من تمسك بالدليل أخذ بما أوجب الله عليه الأخذ به، واتبع ما شرعه الشارع لجميع الأمة، أولها وآخرها وحيها وميتها، والعالم يمكنه الوقوف على الدليل من دون أن يرجع إلى غيره، والجاهل يمكنه الوقوف على الدليل بسؤال علماء الشريعة واسترواء النص، وكيف حكم الله في محكم كتابه أو على لسان رسوله في تلك المسألة فيفيدونه النص إن كان ممن يعقل الحجة إذا دل عليها، أو يفيدونه مضمون النص بالتعبير عنه بعبارة يفهمها، فهم رواة وهو مسترو وهذا عامل بالرواية؛ لا بالرأي، والمقلد عامل بالرأي لا بالرواية؛ لأنه يقبل قول الغير من دون أن يطالبه بحجة، وذاك في سؤاله يطالب بالحجة لا بالرأي، فهو قابل لرواية الغير لا لرأيه، وهما من هذه الحيثية متقابلان؟! فانظر كم الفرق بين المنزلتين؟! والكلام في ذلك يطول ويستدعي استغراق الأوراق الكثيرة، وهو مبسوط في مواطنه، وفيما ذكرناه مقنع وبلاغ، وبالله التوفيق»[3].

---

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي» و«فتح البيان»: «كالجلمد».
(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي» فقط: «يتمرد».
(٣) انظر: «تفسير القاسمي» (٦/ ٥٠ ـ ٥٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من يدعو إلى توحيد الله بصدق وإخلاص يعطيه الله تعالى كرامات لا حدّ لها، كما أعطى أبا أمامة هذه الكرامة لما منعوه الشراب والطعام سقاه الله تعالى في المنام شربة أشبعته وأروته، اللهم ارزقنا الإخلاص في الدعوة إليك، وافتح لنا القلوب المقفلة، والأبواب المغلقة فأنت الغني الكريم.

وقوله: «**وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم يحل**» جوارح الصيد هي الكلاب والبزاة والصقور التي يستعملها الصيادون»، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤] وقال النبي ﷺ: «**إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل**»[(١)] أو كما قال النبي ﷺ: والتكليب هو تعليم الكلاب أن تصيد الوحوش، فما صاده الكلب المعلم جاز أكله وإن وجد ميتاً، وما صاده الكلب غير المعلم أو الناقص التعليم إذا أدركت حياته وذبح فسال منه الدم وحرك يداً أو رجلاً فهو حلال، وأما إذا لم تدرك ذكاته فإنه لا يحل، وعلامة الكلب المعلم أن ترسله على الصيد ثم تدعوه فيرجع، فهذا يصيد لك، فإن لم يرجع فإنما يصيد لنفسه.

قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ تقدم في (الجزء الأول) من «سبيل الرشاد»، أن الذبح بقصد التعظيم عبادة، فمن ذبح على قبة أو قبر أو شجرة أو حجر أو عين ماء أو ذبح للجنية عائشة قنديشة أو لزميلتها مسعودة أو للشيخ جمعة ـ وهو اسم جني يعبده جهال المصريين ـ أو لميمون بن شمهروش ـ وهو من معبودات المغاربة ـ أو ذبح للجن بدون تعيين بعد نهاية بناء دار لئلا يؤذوه، أو ذبح على أهل بيت ليزوجوه ابنتهم، كل ذلك شرك وكفر، وأكل تلك الذبيحة حرام؛ لأن كل ذلك مما أهل به لغير الله وإن ذكر اسم الله عليها؛ لأن الأعمال إنما هي بالنيات وهم قد قصدوا تعظيم تلك البقعة بالذبح.اهـ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٥٢) وأصل الحديث عند البخاري (٥٤٧٥، ٥٤٧٦، ٥٤٨٤، ٥٤٨٧)، ومسلم (١٩٢٩) من حديث عدي بن حاتم، وفي الباب عن أبي ثعلبة الخشني، خرجته في تعليقي على «إعلام الموقعين» (٦/ ٥٣١ ـ ٥٣٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: الاستقسام بالأزلام موجود عند الشعوب الجاهلة بما جاء به الأنبياء والمرسلون من توحيد الله تعالى واعتقاد أنه لا يعلم الغيب غيره، والمجرمون المحتالون يستغلون جهل الشعوب فيستقسمون لهم بالأزلام بطرق مختلفة، منها ما ذكر في تفسير هذه الآية، ومنها في هذا الزمان شيء يسمى (قرعة الأنبياء) وهو جدول كل بيت من بيوته فيه اسم نبي، فيجيء الجاهل أو الجاهلة إلى الكاهن فيضع له الجدول ويقول: غمض عينيك وضع أصبعك فيضع أصبعه، فإن أصابت سهم آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى يقرأ عليه ما كتب من القصة، فيخبره بأنه سيجري عليه من المصائب أو النعم تقريباً مثل ما جرى على ذلك النبي، ويزيد في ذلك ويزخرف القول ويجعل النتيجة حسنة والعاقبة حميدة، فيأخذ منه شيئاً من الدراهم على هذا التكهن، وبعضهم يستعمل خط الرمل وبعض الكهان يبيتون.

ولما زرت بلاد شرقي الحجاز وأوائل نجد وجدت عندهم كاهنات إذا أراد شخص أن يتزوج أو يسافر أو يتّجر في شيء يأتي إلى الكاهنة ويقدم لها الحلوان ولا يكون أقل من بعير، فتبيِّت له وفي الصبح تخبره وتأمره بالإقدام أو الإحجام، وهؤلاء القوم من أهل البادية لم تبلغهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فدعوتُهم إلى توحيد الله وسنة رسول الله، وكان معي أحد أمراء تلك النواحي: ماجد بن موكد أمير النخيل، وقد جاء الإسلام بالاستخارة المذكورة في حديث جابر وقد تقدم، وقد قال النبي ﷺ: **«ليس منا من تكهن أو تُكهن له، أو تَطير أو تُطير له»**[1].

قوله: **«واخشون أنصركم عليهم»** كل من خاف الله خوّف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء، وقد رأينا تاريخ الإسلام وتتبعناه من أوله، فرأينا المسلمين حين كانوا يخافون الله نصرهم الله في كل معركة وفي كل مكان،

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (١٦٩ ـ «زوائده»)، والطبراني في «الأوسط» (٤/٣٩٣) من حديث ابن عباس. وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/١١١١ ـ بعنايتي): «رواه البزار بإسناد جيد»، وقوله مردود؛ لأن فيه زمعة بن صالح وقد ضعفه البزار، لكن للحديث شواهد يرتقي بها إلى الحسن، **فالحديث حسن لغيره**، أفاده شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥٠).

فلما قلَّ خوفهم من الله قلَّ انتصارهم وفي هذا الزمان انعدم انتصارهم، وصاروا عبرة لأولي الأبصار وأصيبوا بذل لم ير التاريخ مثله، وصدق العظيم القائل في سورة القتال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٩﴾.

فصل

وبهذه الآية وما كتب في تفسيرها تعلم أيها القارئ الموفق والمستمع المهتدي أن التمذهب كله شر وبدعة من أقبح البدع، وحسب أهله ضلالاً أنهم تفرقوا في دينهم، وليسوا من الله في شيء، ورسوله ليس منهم في شيء، والواجب على كل مسلم أن يكون في أمور الدين كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إمام واحد، ودين واحد، وأمة واحدة، وإله واحد لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، لا مذاهب، لا طرائق متصوفة[1]، لا أحزاب سياسية وحسبنا حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

قال الشاطبي في «الاعتصام»: «قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ [لأني سمعت الله][2] يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وما لم يكن يومئذٍ ديناً [لا][3] يكون اليوم ديناً[4]»، ومن المعلوم أن التمذهب واتباع طرائق الصوفية ولبس الخرقة واتخاذ الأوراد والاجتماع للذكر بلسان واحد كما يفعل اليهود والنصارى في كنائسهم، والتفرق إلى أحزاب متناطحة، والاجتماع على الرقص والغناء وآلات اللهو والمكاء والتصدية كأصوات الحيوان ونسبة ذلك إلى دين الله إفك مبين، وبناء القباب على القبور والذبح عليها والنذر لها واتخاذها مواسم وأعياداً، كل ذلك لم يكن في زمن النبي ﷺ ديناً، فلن يكون ديناً أبداً.

قال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري في كتابه «جامع بيان

---

(١) نشر الهلالي في مجلة «الشهاب» الجزائرية، عدد (١٧٠) مقالة بعنوان (سبيل الله وسبل الشيطان، لا طرق في الإسلام)، ونشر في المجلة نفسها عدد (١٧١): مقالة (معنى الطرقي في العرف)، وله فيها (الأعداد ١٥٠ ـ ١٥٢) مقالة بعنوان (الطرائق في الحجاز، علاج داء الطرق). وكلها في كتابي «مقالات الهلالي» يسر الله نشره بخير وعافية.

(٢) في مطبوع «الاعتصام»: «لأن الله». (٣) في مطبوع «الاعتصام»: «فلا».

(٤) ذكره صاحب «تهذيب الفروق» (٤/ ٢٢٥)، وانظر: «الاعتصام» (١/ ٦٢ ـ بتحقيقي).

العلم وفضله» في (الجزء الثاني) (صفحة ١٠٩) ما نصه:

«قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]»[١]. ثم ذكر الآيات والآثار التي تقدم ذكرها في (الباب الرابع) من (سورة البقرة)، و(الباب الأول) من (سورة النساء)، ومضى إلى أن قال فيما رواه بسنده عن الحسين بن علي من آل علي بن أبي طالب: «وكان أفضل [أهل زمانه][٢]:

تريد تنام على ذي الشبه	وعلَّك إن نمتَ لم تَنْتَبِه
فجاهد وقلِّد كتاب الإلٰه	لتلقى الإله إذا متَّ به
فقد قلَّد الناسُ رهبانهم	وكلٌّ يجادل عن راهبه
وللحقِّ مُسْتَنبِطٌ واحدٌ	وكلٌّ يرى الحقَّ في مذهبه
[ففيما][٣] أرى عجب غير أن	بيان التفرق من أعجبه»

ثم قال: «ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها وأنهم المرادون بقول الله ﷿: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وأجمعوا على أن الأعمى لا بدّ له من تقليد غيره ممن يثق بميزه [للقبلة][٤] إذا أشكلت عليه، فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بدّ له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا، وذلك ـ والله أعلم ـ لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم، وقد نظمت في التقليد وموضعه أبياتاً رجوتُ في ذلك جزيل الأجر لما علمت أن من الناس من يسرع إليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور، وهي من قصيدة لي[٥]:

يا سائلي عن موضع التقليدِ خُذْ	منِّي[٦] الجوابَ بفهمِ لُبٍّ حاضرِ
واصغ[٧] إلى قولي ودِن بنصيحتي	واحفظ عليَّ بوادري ونوادري

---

(١) انظر: «الجامع» (٢/ ٩٧٥).

(٢) في مطبوع «الجامع»: «أهل بيته وزمانه في وقته».

(٣) في مطبوع «الجامع»: «ففي ما».

(٤) في مطبوع «الجامع»: «بالقبلة».

(٥) الشعر لابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٩٩٠)، ونقله المصنف في كتابه «الحسام الماحق» (٤٦، ٤٧)، و«مختصر هدي خليل» (٨٩، ٩٠).

(٦) في مطبوع «الجامع»: «عني».

(٧) في الأصل: «واصخ»! والمثبت من «جامع ابن عبد البر».

لا فرقَ بين مقلِّد وبهيمةٍ ... تنقاد بين جنادل ودعاثرِ
تبًّا لقاضٍ أو لمفتٍ لا يرى ... عللاً ومعنًى للمقال السائرِ
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة المبعـ ... ـوث بالدين الحنيف الطاهرِ
ثم الصحابة عند عدمك سنة ... فأولاك أهلُ نُهًى وأهل بصائرِ
وكذاك إجماع الذين يلونهم ... من تابعيهم كابراً عن كابرِ
إجماع أُمتنا وقول نبينا ... مثل النصوص [لذا][1] الكتاب الزاهرِ
وكذا المدينة حجة إن أجمعوا ... متتابعين أوائلاً بأواخرِ
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد ... ومع الدليل فمِلْ بفهم وافرِ
وعلى الأصول فَقِسْ فروعَك لا تَقِسْ ... فرعاً بفرعٍ كالجهول الحائرِ
والشر ما فيه فديتك أسوة ... فانظر ولاً تحفل بزلَّة ماهرِ

ثم روى أبو عمر من طريق ابن وهب صاحب مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانه، ومن أفتى بفتيا عن غير ثبت[2] فإنما إثمها على من أفتاه**»[3][4].

قال محمد تقي الدين: جميع المفتين بالتقليد من كتب الفروع المذهبية [ينطبق عليهم][5] هذا الأثر الذي أوعد به رسول الله ﷺ، ثم قال أبو عمر: «وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بغير[6] ما تقدم، فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزني رحمه الله وأنا أورده قال: «يقال لمن حكم بالتقليد: هل لك من حجة فيما[7] حكمت به؟ فإن قال:

---

(١) في مطبوع «الجامع»: «الذي».
(٢) كذا في مطبوع «الجامع» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «تثبت»!
(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٥٩)، وأبو داود (٣٦٥٧)، وابن ماجه (٥٣) مختصراً، وأحمد (٢/ ٣٢١)، وابن أبي شيبة (٨/ ٧٦٢)، وابن راهويه (٣٣٤)، والدارمي (١٥٩)، والطحاوي في «المشكل» (٤١٠، ٤٢٩٧، ٤٢٩٩)، والحاكم (١/ ١٢٦)، والبيهقي (١٠/ ١١٢، ١١٦) وحسنه شيخنا الألباني، وللحديث بفقراته شواهد عديدة.
(٤) انظر: «الجامع» (٢/ ٩٨٩ ـ ٩٩١) بتصرف.
(٥) ما بين المعقوفتين غير مقروء في الأصل!
(٦) كذا في مطبوع «الجامع»، وفي الأصل: «بعد»!
(٧) من قوله: «وقد احتج جماعة..» إلى هنا مكرر في الأصل.

نعم. أبطل التقليد؛ لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد.

وإن قال: حكمتُ فيه بغير حجة، قيل له: فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج وأتلفت الأموال وقد حرَّم الله ذلك إلا بحجة؟ قال ﷻ: ﴿إِنْ[1] عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ٣٨] أي من حجة بهذا، [قال][2]: فإن قال: أنا أعلم أني قد أصبت وإن لم أعرف الحجة، لأني قلدت كبيراً من العلماء، وهو لا يقول إلا بحجة خَفِيَتْ عليَّ، قيل له: إذا جاز [لك][2] تقليد معلِّمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك [فقلد][3] معلِّم معلمك[4] [فإنه][5] لا يقول إلا بحجة خفيت [عليك][6]؛ فإن قال: نعم، ترك تقليد [معلمه إلى تقليد][2] معلم معلمه، وكذلك من هو أعلى حتى ينتهي [الأمر][2] إلى أصحاب رسول الله ﷺ، وإن أبى ذلك نقض قوله، وقيل له: كيف [تجوّز][7] تقليد من هو أصغر [منك][2] وأقل علماً، ولا [تجوز][7] تقليد من هو أكبر [منك][2] وأكثر علماً؟ وهذا [متناقض][8].

فإن قال: لأن معلمي وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك، قيل له: وكذلك من تعلّم من معلمك فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك، وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك، لأنك جمعت علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمك، فإن [أعاد][9] قوله جعل الأصغر ومن يحدِّث من صغار العلماء أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله ﷺ، وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع، والتابع من دونه في قياس قوله والأعلى الأدنى أبداً. وكفى بقول يؤول إلى هذا قبحاً وفساداً».

قال أبو عمر: «وقال أهل العلم والنظر: حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ما هو [به][10]، فمن بان له الشيء فقد علمه، قالوا: والمقلد لا علم له ولم يختلفوا في ذلك، ومن هنا والله أعلم قال البحتري[11]:

---

(١) في الأصل: «هل».
(٢) غير موجود في مطبوع «الجامع».
(٣) في مطبوع «الجامع»: «فتقليد».
(٤) بعدها في مطبوع «الجامع»: «أولى».
(٥) في مطبوع «الجامع»: «لأنه».
(٦) في مطبوع «الجامع»: «على معلمك كما لم يقل معلمك إلّا بحجة خفيت عليك».
(٧) في مطبوع «الجامع»: «يجوز».
(٨) في مطبوع «الجامع»: «يتناقض».
(٩) في مطبوع «الجامع»: «فاد».
(١٠) في مطبوع «الجامع»: «فيه».
(١١) في مطبوع «الجامع» بعدها: «في محمد بن عبد الملك الزيات».

عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهال بالتقليد
وأرى الناس [مجمعين][(١)] على فضلك من بين سيِّد ومَسُودِ

وقال أبو عبد الله بن خويز [منداد][(٢)] البصري المالكي: «التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، [وذلك][(٣)] ممنوع منه في الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه حجة». وقال في موضع آخر من كتابه: «كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله[(٤)] لدليل يوجب ذلك فأنت مقلِّده، والتقليد في دين الله غير صحيح، وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه»[(٥)].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم أمّيهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ أي: يبين ما بدلوه وحرّفوه وأوّلوه وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيّروه ولا فائدة في بيانه.

وقد روى الحاكم في «مستدركه»[(٦)] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ

---

(١) في مطبوع «الجامع»: «مجمعون». (٢) في مطبوع «الجامع»: «بغداد».
(٣) في مطبوع «الجامع»: «وهذا».
(٤) كذا في مطبوع «الجامع»، وفي الأصل: «قوله».
(٥) انظر: «الجامع» (٢/ ٩٩٢ ـ ٩٩٣).
(٦) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ـ «التعليقات الحسان»)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٢٧٥) وهو صحيح.

جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه». ثم قال: «صحيح ولم يخرجاه».

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: طريق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: قال جمال الدين القاسمي في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥] ما نصه:

«وفي هذه الآية بيان معجزة له ﷺ، فإنه لم يقرأ كتاباً ولم يتعلم علماً من أحد، فإخباره بأسرار ما في كتابهم إخبار عن الغيب، فيكون معجزاً»[٢].

وقد أجاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كل الإجادة، فلو أن شخصاً في هذا الزمان الذي سهلت فيه دراسة اللغات والعلوم أراد أن ينتقد كتب اليهود والنصارى المقدسة عندهم وعند المسلمين في الجملة لاحتاج إلى ذكاء خارق وجهود مضنية وسنين كثيرة؛ ليطلع على ما يخفونه ولا يحبون أن يطلع عليه غيرهم من السوآت والمخازي، فإذا وجد شخص في زمان لم تكن فيه مدارس حرة ولا جامعات، وكانت الدراسة محتكرة عند أهل كل دين لا يسمحون بتعلم كتابهم المقدس عندهم إلا للخاصة، وهذا الشخص ليس يهوديًا ولا نصرانيًا، ولا يوجد في بلده أحد من اليهود والنصارى ثم أخبر بما يخفونه ولا يطلع عليه إلا خاصتهم لكان ذلك من أكبر المعجزات وخوارق العادات، وخصوصاً بعد ما جاورهم النبي ﷺ في المدينة وأخذ يفضحهم ويبيِّن ما يخفونه كآية الرجم.

وفي «صحيح البخاري»[٣] أن يهوديًا زنى بيهودية فاختلف علماء اليهود في

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ١٣٥ ـ ١٣٦).
(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (٦/ ١٣٦ ـ ١٣٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩).

عقابهما، فرفعوا أمرهما إلى النبي محمد ﷺ ليمتحنوه من جهة وليفصل النزاع من جهة أخرى، وقبل أن يحكم في هذه القضية سألهم: **«ما تجدون في كتابكم»؟** قالوا: نسخِّم وجوههما ونطوف بهما ليفتضح أمرهما وحسبهما ذلك عقاباً. فقال لهم النبي ﷺ **«كذبتم! عقابهما في كتابكم الرجم بالحجارة حتى يموتا»**. فقالوا: هذا لا يوجد في كتابنا. فأمرهم بإخراج التوراة وقراءتها فأتوا بها وجعل أحد علمائهم يقرأها، وعبد الله بن سلام رضي الله عنه حاضر وقد وضع اليهودي يده على آية الرجم، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فافتضح أمرهم فأمر النبي ﷺ برجمهما، فرجما حتى ماتا.

وفي قصة إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه برهان قاطع على أن الذي يعلِّم محمداً ﷺ بما في كتب اليهود هو الله وحده لا شريك له، فإن عبد الله بن سلام كان أعلم اليهود في المدينة وكان أبوه كذلك، فلم يزل ينقب في التوراة ويختار أصعب المسائل فيلقيها على النبي ﷺ فينزل عليه الوحي ويجيبه عنها حتى أيقن أن أمر محمد صلوات الله وسلامه عليه رباني لا حيلة فيه فقال عند ذلك: أشهد أن لا إله [إلا] الله وأن محمد رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإني أريد أن تسألهم عني قبل أن يطلعوا على إسلامي، فخبأه النبي ﷺ ثم دعا رؤساء اليهود وعلماءهم، وقال لهم: **«ما تقولون في عبد الله بن سلام؟»**. فقالوا كلهم: «سيدنا وابن سيدنا، واعلمنا وابن أعلمنا» فقال: **«أرأيتم لو أسلم»؟** يعني: أتسلمون، فقالوا: أعاذه الله من ذلك؟ فقال رسول الله: **«يا عبد الله اخرج»** فخرج من مخبئه، وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله». فقالوا: أجهلنا وابن أجهلنا، وأرذلنا وابن أرذلنا»[1]. فتناقضوا في الحين، وكذّبوا أنفسهم تعصباً منهم للباطل.

فصل

إذاً؛ علم أن من اتبع رضوان الله لا بدّ أن يتبع النور والكتاب المبين، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٩، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (٦/رقم ٨٢٥٤)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٢٥)، وعبد بن حميد (١٣٨٩)، والطيالسي (٢٠٥٠، ٢٠٥١)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (١٩٣)، وأبو يعلى (٣٤١٤، ٣٨٥٦، ٣٧٤٢، ٣٧٨٢)، وأحمد (٣/١٠٨، ٢٧٢)، وابن حبان (١٠/٤٠٨ ـ ٤٠٩ ـ «التعليقات الحسان» أو رقم ٧١٦١، ط. الرسالة).

يقلِّد في دين الله أحداً ولا يشرك بالله شيئاً ولا يبتدع في دين الله مثقال ذرة، وحينئذٍ فقط يُهدى سبل السلام ويخرج من الظلمات إلى النور بإذن الله ويهدى إلى صراط مستقيم. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٥٠]

قال (ﷺ) ـ أي: مختصر ابن كثير[(١)] ـ ما نصه:

«﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدِّلونها ولا يحرفونها ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ أي: عبَّادهم وعلماؤهم ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما استودعو من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: لا تخافوهم وخافوني[(٢)] ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهمّا.

وقد روى العوفي وعلي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس: «إن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا»[(٣)]. »[(٤)].

قال البيضاوي في «تفسيره» ما نصه:

«﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ مستهيناً به منكراً له ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره ولذلك وصفهم بقوله: ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ و﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ و﴿ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ فكفَّرهم لإنكاره، وظلَّمهم بالحكم على خلافه، وفسَّقهم بالخروج عنه، ويجوز أن تكون[(٥)] كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار[(٦)] انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) هو فضيلة شيخنا الداعي إلى الله على بصيرة محمد نسيب الرفاعي ـ رحمه الله تعالى ـ، صلينا عليه الجنازة في الهاشمي الشمالي في الأردن بصحبة شيخنا الألباني عام ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ـ رحمهما الله تعالى ـ، ومدحه الهلالي فيما تقدم (ص١٠٠)، وكذا في تقديمه لـ«تيسير العلي القدير»، أملى عليَّ مرة نبذة حسنة من ترجمته، ثم وجدته قد دونها بقلمه، ولم تتم، وانظر عنه: جريدة الدستور ١٢/ ١٢/ ١٩٩٢م وجريدة اللواء ٢٧/ ١/ ١٩٩٣م و«ذيل الأعلام» (٢٠٤ ـ ٢٠٥) و«إتمام الأعلام» (٤١٧ ـ ٤١٨).

(٢) في مطبوع «مختصر تفسير ابن كثير»: «تخافوا منهم وخافوا مني».

(٣) أخرجه مسلم (١٧٠٠) من حديث البراء بن عازب، وأما سبب النزول المروي عن ابن عباس، فله عنه طرق، فقد أخرجه أحمد (١/ ٢٤٦)، وأبو داود (٣٥٧٦) مختصراً، وابن جرير (٦/ ١٦٤، ١٦٥)، والطبراني (١٠٧٣٢) **بسندٍ حسن**، وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ٧٤) أيضاً لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٦/ رقم ٢٥٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٢٠).

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٥١ ـ ٥٢) بتصرف.

(٥) في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «يكون».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «حال».

وفرضنا على اليهود ﴿فِيهَآ﴾ في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي: إن النفس تقتل بالنفس وكذلك العين مفقوءة بالعين، والأنف مجدوع بالأنف، والأذن مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسن. ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي: ذات قصاص، ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص أي فمن عفا عنه ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدق ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ للمتصدق يكفر الله به ذنوبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القصاص وغيره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾»[1].

قال ابن الجوزي في «تفسيره» ما نصه:

«قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: وأتبعنا على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿بِعِيسَى﴾ فجعلناه يقفو آثارهم ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: بعثناه مصدقاً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا﴾ ليس هذا تكراراً للأول؛ لأن الأول لعيسى، والثاني للإنجيل؛ لأن عيسى كان يدعو إلى التصديق بالتوراة، والإنجيل أنزل وفيه ذكر التصديق بالتوراة وقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ أي: أمر أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ يعني القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال ابن عباس: يريد كل كتاب أنزله الله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ أي: شاهداً»[2]؛ قاله صاحب «اللسان»[3]، وغيره «وهو من آمن غيره من الخوف، قلبت الهمزة هاء».

وفي «تفسير الجلالين» ما نصه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[4] ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ عادلاً ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الأمم ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ طريقاً واضحاً في الدين يمشون عليه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على شريعة واحدة ﴿وَلَٰكِن﴾ فرَّقكم فرقاً ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة لينظر المطيع منكم والعاصي ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ سارعوا إليها ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٢٦٨) بتصرف.

(٢) انظر: «زاد المسير» (٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧١).

(٣) انظر: «لسان العرب» (١٣/ ٤٣٦ ـ همن) بتصرف. والكلام ما بين الأقواس من كلامه ونحوه في «القاموس» (١٦٠٠ ـ همن).

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير الجلالين»: «إليك».

بالبعث ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين ويجزي كلاً منكم بعمله ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ﴾ [أن][1] ﴿يَفْتِنُوكَ﴾، يضلوك، ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم﴾ بالعقوبة في الدنيا ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ التي أتوها ومنها التولي ويجازيهم على جميعها في الأخرى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾ بالياء والتاء: يطلبون من المداهنة والميل إذا تولوا استفهام إنكاري ﴿وَمَنْ﴾ أي: لا أحد ﴿أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ﴾ عند قوم ﴿يُوقِنُونَ﴾ به، خصوا بالذكر لأنهم الذين يتدبرونه»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله: «**مستهيناً به منكراً له**» أي مستهيناً بما أنزل الله، ومنكراً أن يكون صالحاً للحكم كأكثر حكام أهل هذا الزمان!! فإنهم يصرحون بأن الشريعة المحمدية لا تصلح للحكم في هذا الزمان[3]، ويطبقون ذلك فعلاً، فيحكمون بقوانين مأخوذة من أعداء الإسلام ولا يقيمون شيئاً من الحدود، فهم المعنيون بهذه الآية، وقد أمر الله جميع الأنبياء وأممهم أن يحكموا بشرعه وحذرهم مع عصمتهم أن يحكموا بخلافه وهذا التحذير موجه لأممهم وناهيك أنه قال لخير خلقه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآيات، فكل أمة تعلم شريعة رسول ثم تعرض عنها فبشرها بعذاب مهين، لا تدرك خيراً في دنياها ولا في أخراها، ويبقى غضب الله واقعاً عليها حتى ترجع إلى ما تركته من الحق.

الباب الرابع

الآية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٦]

---

(١) في مطبوع «تفسير الجلالين»: «لـ(أن) لا».

(٢) انظر: «تفسير الجلالين» (ص١٣٥ ـ ١٣٦، ط. الكتاب العربي).

(٣) من صرح منهم فيحكم بكفره، وليس حال الأكثرية كما قال المصنف، عفى الله عنا وعنه.

قال (ك): «﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو القرآن ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير؛ لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾؛ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض، [وهذا][1] كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ الآية [الروم: ٤١]، وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن زياد بن لبيد أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: «**وذاك عند ذهاب العلم**» قال: قلنا: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرّئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن لبيد! إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوَليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيهما بشيء**»[2].

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩] وكقوله في أتباع عيسى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧] الآية، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين»[3].

---

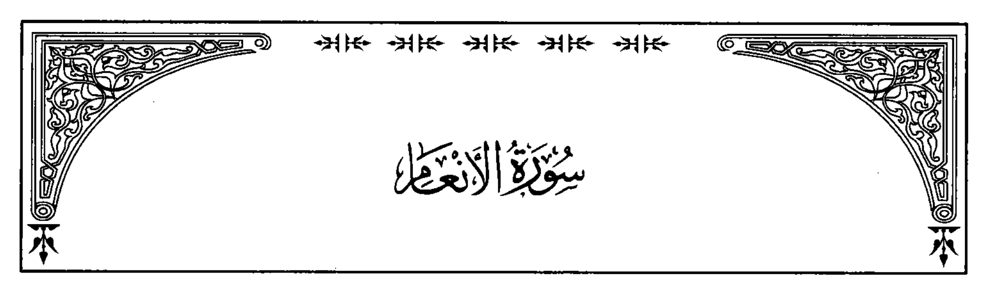
(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٠)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، وزهير بن حرب في «كتاب العلم» رقم (٥٢)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٩٩٩)، والطحاوي في «المشكل» (٣٠٥)، والطبراني (٥٢٩٠ ـ ٥٢٩٣)، والحاكم (٣/ ٥٩٠)، **والحديث صحيح**، وقال شيخنا الألباني في التعليق على «كتاب العلم» (ص١٦): «حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٤) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل أمة آمنت برسولها وبجميع الرسل، وبكتابها وبسائر الكتب المنزلة، واتبعت سنة رسولها، يوسع الله رزقها وينصرها على أعدائها، وكل أمة ارتدت على أدبارها ونبذت كتاب ربها وسنة نبيها يضيق رزقها الحسي والمعنوي، وتشقى شقاءً عظيماً لا نهاية له، إلا برجوعها إلى الله وتوبتها واتباع كتاب ربها وسنة رسولها. أما قراءة القرآن المجردة بدون فهم ولا اتباع فإنها لا تزيدها إلا شرًّا.



سورة الأنعام

الباب الأول

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٤ ـ ١١٦]

قال محمد تقي الدين: أنقل تفسير هذه الآيات من كتابي «الإلهام والإنعام في تفسير سورة الأنعام»[١] ما نصه:

«تقدم أن المشركين أرادوا أن يحاكموا النبي ﷺ إلى عمه أبي طالب، فأمره الله أن يقول لهم: أفغير الله أطلب حكماً؟ لن أفعل ذلك أبداً، أنا لا أرضى إلا بحكم الله، والحَكَم هو الحاكم النزيه الذي لا يحكم إلا بالحق، وكما أن الخلق والأمر لله فالحكم لله وحده، قال تعالى في سورة يوسف: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] فأنبياء الله وأتباعهم لا يحكمون إلا بحكم الله ولا يتحاكمون إلا إلى الله، فهو وحده الحَكَم العدل[٢]، وكل حكم يخالف حكمه فهو

(١) ذكره له جماعة منهم الجراري في «التأليف ونهضته بالمغرب»، (ص٢٣). ونشر على حلقات كثيرة في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية، وقد أودعته ـ ولله الحمد ـ في كتابي «مقالات الهلالي»، ثم نمي إليّ أنه طبع في الهند، وصوره لي بعض الإخوة الأحبَّة من مكتبة السري الوجيه جمعة الماجد في الإمارات العربية، فله جزيل الشكر والأجر. والكلام الآتي فيه (ص٩١).

(٢) في مطبوع «الإلهام والإنعام»: «والعدل».

باطل، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾؛ يعني أن الذي أنزل الكتاب وبيَّن فيه جميع الأحكام لا يعدل عن حكمه إلا خاسر مبطل. فكيف يطمعون من نبي الله أن يرضى بحكم غير الله؟ وإنما أرسله الله ليجاهد في سبيله حتى يكون الحكم له وحده، لا شريك له، وما دخل الخلل والضعف والخذلان على المسلمين إلا بعد ما جعلوا الحكم لغير الله وابتغوا غيره حَكَماً، وجعلوا كتابه وراء ظهورهم فعاقبهم الله وجعلهم وراء الناس جزاءً وفاقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ، إخبار منه سبحانه بأن أهل الكتاب علماءهم يعلمون أن القرآن منزل من الله ملازم للحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويعلمون أن الرسول محمداً حق. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين، ومثله قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤﴾ [يونس: ٩٤].

ثم قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾ إلخ. يعني أن كل ما أخبر الله به فهو حق واقع، وكل ما حكم به فهو عدل، فمما أخبر به من[1] أن رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم منصورون وهم الأعلون، وأن أعداءهم خاسرون مخذولون، يلازمهم الخزي والضلال المبين، وكل ما أوجبه الله في القرآن فالعامل به موفق سعيد، وتاركه شقيٌّ خائب مهين، وكل ما نهى الله عنه فهو مفسدة محققة ومضرة مهلكة، ولن يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله لا ألفاظها ولا مدلولاتها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وأفعالهم المجازي كلاً بما يستحق.

ثم قال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾ الخرص هو القول بالحزر والكذب، المعنى العام: هذا خطاب من الله تعالى لرسوله ﷺ يخبره أن أكثر أهل الأرض هم على باطل وضلال، فلا يستوحش أحد من قلة المؤمنين الصالحين، ولا يغتر أحد

---

(١) لا وجود لها في مطبوع «الإلهام والإنعام».

بكثرة الكافرين الضالين(١)، فموافقة الأكثرين خروج عن سبيل الله وضلال، فأوجب الله على رسوله وعلى المؤمنين به أن يكونوا مع الصادقين وأن يتمسكوا بالحق ولا يغتروا بكثرة أهل الباطل، كما أخبر أن أهل الباطل ليسوا على بصيرة من أمرهم، وإنما يحزرون ويقدرون ويتبعون الظنون الكواذب، بخلاف أهل الحق فإنهم على يقين لا شك فيه، اطمأنت قلوبهم بالإيمان ونشطت أجسامهم للعمل.

وقد أخبرنا النبي ﷺ كما في «صحيح البخاري»(٢) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق أن المؤمن يسأل في قبره، يقال له: «**ما علمك بهذا الرجل؟ فيقول: هو محمد جاءنا بالبينات فآمنا به وصدقنا**(٣) **واتبعناه، هو محمد هو محمد هو محمد، فيقال له: نم صالحاً، قد علمنا إن كنت لموقناً به، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته**» فالمؤمن على يقين من أمره في الدنيا وفي القبر، والمنافق والمرتاب ليس عنده إلا الخرص والظن في الدنيا وفي الآخرة، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ [الإسراء: ٧٢]».

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله نبيه ﷺ أن لا يتحاكم إلى غيره، وفي ذلك أمر لأمته أن لا يتخذوا حكماً إلا الله، ويردوا كل نزاع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وقد تقدم الكلام في هذا مستوفًى في سورة النساء.

الباب الثاني

الآية (١٢٢) ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾

تفسير هذه الآية من كتاب «الإلهام والإنعام»(٤) ونصه:

---

(١) راجع رسالة أخينا الشيخ محمود بن عطية «القلة المحمودة والكثرة المذمومة في ضوء الكتاب والسنة»، نشر مكتبة البلاغ، دبي.

(٢) برقم (١٠٥٣)، وفيه: «هو محمد رسول الله ﷺ جاءنا...» دون «هو محمد» ثلاثاً!

(٣) مكانه في الأصل بياض، وأثبتُّه من «الإلهام والإنعام» (ص٩٣).

(٤) كلمة «والإنعام» ساقطة من الأصل! والكلام الآتي فيه (ص٩٧).

«ضرب الله سبحانه مثلاً للمؤمنين والكافرين، فأخبر أن من كان كافراً فأسلم كمن كان ميتاً فأحياه الله وأعطاه نوراً يسير به في الناس، يعرف به ما ينفعه ويرفعه فيرغب فيه ويأتيه، وما يضره ويخفضه فيرغب عنه ويذره، أما من بقي على كفره فهو ميت في ظلمات: ظلمة في عقيدته لجهله بالحق واعتقاده الباطل، وظلمة في أخلاقه، إذ ليس له وازع يمنعه من ارتكاب مساوئ الأخلاق، وظلمة في معاملته للناس، إذ ليس عنده شيء من مراقبة الله وخشيته، حتى يعامل الناس بالعدل والرحمة فهو في ظلمات متنوعة، وقد جاء هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتاب الله، قال تعالى في سورة البقرة رقم (٢٥٧): ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ وقال تعالى في سورة فاطر (١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢): ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قال مؤلفه: المراد بالتزيين عدم إجبارهم وقسرهم على اتباع الحق.

فصل

قال محمد تقي الدين: اتباع القرآن وبيانه الذي جاء به الرسول ﷺ - وهو السنة - حياة ونور، والإعراض عنهما موت وظلمة، وسبب الموت والظلمة اللذين أصيب بهما المسلمون في هذا الزمان إعراضهم عن كتاب الله وسنة رسوله، فما داموا في هذا الإعراض يستمر موتهم وظلمتهم حتى يرجعوا إليهما، وهذا الموت المعنوي والظلمة المعنوية أشد ضرراً من الموت الحسي والظلمة الحسية كما قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ
إنما الميت مَنْ يعيش كئيباً ... كاسفاً باله قليلَ الرجاءِ

وهذه حال المسلمين في هذا الزمان.

الباب الثالث

الآيــة (١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ١٥٩﴾

تفسير هذه الآية من كتاب «الإلهام»[١] ونصه:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ إلخ أي تفرقوا فيه شيعاً أي فرقاً ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ﴾ أي: أنت بريء منهم براءة تامة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: حسابهم وعقابهم إلى الله موكول، وهو الذي يخبرهم بما كانوا يفعلون ويعاقبهم عليه، ولهذه الآية نظائر في الكتاب العزيز منها قوله تعالى في سورة الشورى رقم (١٣): ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾. فأخبر ﷻ أن ما شرعه لأمة محمد ﷺ من الدين هو عين ما شرعه للأمم السابقة بواسطة رسلهم، فتوحيد الله واحد، وتصديق جميع الرسل واحد، وإقامة العدل والإحسان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصر المظلوم، والتعاون على البر، والجهاد في سبيل الله، والرحمة لخلق الله، فهذه الأصول لا يختلف فيها دين أي رسول مع دين غيره من الرسل.

ومن توحيد الله جعل الحكم له وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه، والإيمان بالله ورسله يستلزم أنهم وحدهم المتوسطون بين الله وعباده في تبليغ الأحكام، فلا شارع إلا الله ولا مبلغ إلا رسل الله، وكذلك المجتهد لا يدعي أنه حكم بين الخصمين بما أنزل الله، بل يقول كما قال عبد الله بن مسعود: «أقول فيها برأيي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريء منه»[٢].

أما تقليد غير المعصوم والاستغناء بما نقل عنه من الأقاويل عن كتاب الله والاعتماد في الحكم والإفتاء على ذلك ونسبة ذلك إلى الله ورسوله، فهو افتراء على الله وصد عن سبيله وتبديل لدينه، فنعوذ بالله من الخذلان، وهنا يحسن أن أنقل من كلام الأئمة في رد التقليد والتمذهب والتعصب ما يكون قرة عين لطالب الحق وسخنة عين للمبتدعين، الذين فرقوا دين الله وصدوا عن سبيل الله، وقبل

---

(١) (ص١٤٤ ـ ١٤٩).

(٢) مضى تخريجه.

أن أنقل هذه النبذة اليسيرة أحيل القارئ على مطالعة كتاب «إعلام الموقعين عن رب العالمين»[1] للإمام الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية، وكتاب «جامع بيان العلم وفضله» للإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النَّمَري[2]، وكتاب «إيقاظ همم أولي الأبصار، للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، وتحذيرهم من[3] الابتداع الشائع في القرى والأمصار، من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار» للإمام المحقق، بقية السلف، صالح بن محمد بن نوح الفلاني المغربي، وكل هذه الكتب مطبوعة في مصر، وهناك كتب أخرى تشتمل على مباحث قيمة في هذا المعنى، لكن الكتب الثلاثة المتقدمة مطبوعة في مصر تغني عنها[4].

قال الفُلاني رَحِمَهُ اللهُ بعد ما ذكر الآيات الدالة على وجوب اتباع الكتاب والسنة في كل زمان ومكان وترك الإفتاء والقضاء بالتقليد، وما جاء في ذلك من الوعيد الشديد، قال ما نصه في (صفحة ٦): «وأما الأحاديث الدالة على وجوب العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فكثيرة، «ففي الصحيحين»[5] من حديث ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سحماء عند النبي ﷺ، فذكر حديث اللعان، وقول النبي ﷺ: **«أبصروها؛ فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين، فهو لشريك بن سحماء، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية»**، فجاءت به على النعت المكروه، فقال النبي ﷺ: **«لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»**، يريد ـ والله أعلم ـ بكتاب الله قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ [النور: ٨] ويريد بالشأن ـ والله أعلم ـ أنه كان يحدّها؛ لمشابهة ولدها بالذي رميت به، ولكن كتاب الله فصل الحكومة وأسقط كل قول وراءه، ولم يبق للاجتهاد بعده موضع».

قال محمد تقي الدين: إذا كان رسول الله ﷺ، وهو سيد العلماء وإمام

---

(١) نشرته محققاً ـ ولله الحمد والمنة ـ على عدة نسخ خطية، واعتنيت عناية جيدة بتخريج أحاديثه وآثاره وتوثيق نصوصه مع ضبطها، وصنع فهارس متنوعة له، وهو منشور عن دار ابن الجوزي، الدمام في سبعة مجلدات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٢) في مطبوع «الإلهام والإنعام» (ص١٤٥): «النموي»!!

(٣) في مطبوع «الإلهام»: «عن».

(٤) في مطبوع «الإلهام» (ص١٤٦): «المتقدمة الذكر تغني عنها».

(٥) أخرجه البخاري (٥٣١٠) ومسلم (١٤٩٧) من حديث ابن عباس.

الأئمة وهو معصوم من الخطأ أحجم عن الحكم برأيه احتراماً للنص القرآني، عملاً بقوله تعالى في هذه السورة: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنعام: ١٠٦] فإذا وجب على النبي ﷺ أن يدع رأيه لكتاب الله، فكيف لا يجب على غيره من الناس ـ وهم ليسوا بأنبياء معصومين ـ ترك رأيهم إذا خالف نص الكتاب والسنة[1]؟ هذا بيان ما قصده الأئمة من الاستدلال بهذا الحديث.

ثم قال الفلاني رحمه الله: «وقال الشافعي في «الرسالة» التي أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدي: أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله بن أبي يزيد عن أبيه قال: أرسله عمر بن الخطاب إلى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا، فذهبت معه إلى عمر، فسأله عن وليدة من ولائد الجاهلية، فقال: أما الفراش فلفلان وأما النطفة فلفلان، فقال: صدقت، ولكن رسول الله ﷺ قضى بالفراش»[2].

قال محمد تقي الدين: وجه الاحتجاج بهذا الخبر على[3] من يفتي ويقضي بالتقليد أن عمر بن الخطاب صدّق الرجل في شهادته بأن النطفة لفلان، يعني: الزاني بتلك الأمة، والفراش لفلان، يعني: الذي كان يملك تلك الأمة، ومع ذلك حكم بأن الولد للفراش؛ عملاً بقول النبي ﷺ: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»[4] رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فحكم بنصِّ الحديث وترك الرأي جانباً.

ثم قال الفلاني: «قال الشافعي[5]: وأخبرني من لا أتهم عن ابن أبي ذئب،

---

(١) في مطبوع «الإلهام» (ص١٤٦): «أو السنة».

(٢) هو في «مسند الشافعي» (٢/ ٣٠) ورواه من طريقه: البيهقي (٧/ ٤٠٢)، وفي «المعرفة» (٧/ ٢٣٨) رقم (٢٢٩٠) ورواه بنحوه ابن ماجه (٢٠٠٥)، والحميدي (٢٤)، ومسدد والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٥٨)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٠٤)، وابن أبي عمر في «مسنده» ـ كما في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٤٩) ـ وقال البوصيري: «**إسناده صحيح**، رجاله ثقات» وهو كما قال، وما سبق من «إيقاظ همم أولي الأبصار» (ص٦).

(٣) سقطت من «الإلهام».

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٥٣، ٢٢١٨، ٢٤٢١، ٢٥٣٣، ٢٧٤٥، ٤٣٠٣، ٦٧٤٩، ٦٧٦٥، ٦٨١٧، ٧١٨٢)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة.

(٥) هو في «مسند الشافعي» (٢/ ١٤٤)، و«الرسالة» (ص٤٤٨) رقم (١٢٣٢) ومن طريقه البيهقي (٥/ ٣٢١)، وانظر تعليق الشيخ العلامة أحمد شاكر على «الرسالة».

قال: أخبرني مخلد بن خفاف، قال: ابتعتُ غلاماً فاستغللته، ثم ظهرت منه على عيب، فخاصمت فيه إلى عمر بن العزيز فقضى لي بردِّه، وقضى عليّ بردِّ غلّته، فأتيت عروة فأخبرته فقال: أروح إليه العشية، فأخبره أن عائشة أخبرتني أن رسول الله ﷺ قضى في مثل هذا أن الخراج بالضمان[1]، فعجلتُ إلى عمر،

(١) رواه أحمد (٦/ ٨٠ و١١٦)، وأبو داود (٣٥١٠) في «البيوع»، باب فيمن اشترى عبداً فاستعمله ثم وجد به عيباً، والترمذي تعليقاً، بإثر حديث (١٢٨٥) في «البيوع»، باب ما جاء فيمن يشتري العبد ويستغله ثم يجد به عيباً، وابن ماجه (٢٢٤٣) في «التجارات»، باب الخراج بالضمان، والدارقطني (٣/ ٥٣)، والطحاوي (٤/ ٢١ ـ ٢٢)، وابن الجارود (٦٢٦)، والحاكم (٢/ ١٤ ـ ١٥) من طرق عن مسلم بن خالد الزنجي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعاً، وقال أبو داود: **إسناده ليس بذلك**، وأما الحاكم فصححه ووافقه الذهبي!
قلت: مسلم بن خالد ضعيف سيئ الحفظ، ولكنه توبع.
فرواه: الترمذي (١٢٨٦)، وابن عدي (٥/ ١٧٠٢)، والبيهقي (٥/ ٣٢٢) من طريق عمر بن علي المقدمي عن هشام به.
وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح غريب من حديث هشام بن عروة، واستغرب محمد بن إسماعيل هذا الحديث من حديث عمر بن علي» قلت: عمر بن علي ثقة لكنه مدلس، فلا يبعد أن يكون أخذه من مسلم بن خالد؛ لذلك قال ابن عدي: وهذا يعرف بمسلم بن خالد.
ورواه ابن عدي (٧/ ٢٦٠٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٢٩٧)، وابن الجوزي في «العلل» (٤٨٢) من طريق خالد بن إبراهيم المكفوف عن هشام به. وزاد ابن عدي: ويعقوب بن الوليد، وقال: هذا حديث مسلم بن خالد عن هشام بن عروة سرقه منه يعقوب هذا، وخالد بن مهران وهو مجهول. وله طريق آخر عن عروة:
رواه الشافعي (٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤)، والطيالسي (١٤٦٤)، وأحمد (٦/ ٤٩ و١٦٠ و٢٠٨ و٢٣٧)، وأبو داود (٣٥٠٨)، والترمذي (١٢٨٥)، والنسائي (٧/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥) في «البيوع»، باب الخراج بالضمان، وابن ماجه (٢٢٤٢)، والدارقطني (٣/ ٣٥)، وابن الجارود (٦٢٧)، والعقيلي (٤/ ٢٣١)، وأبو يعلى (٤٥٣٧ و٤٥٧٥ و٤٦١٤)، والحاكم (٢/ ١٥)، والبيهقي (٥/ ٣٢١) من طرق عن ابن أبي ذئب عن مخلد بن خفاف عن عروة به وفيه قصة، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.
أقول: ومخلد بن خفاف هذا قال فيه أبو حاتم: لم يرو عنه غيره (أي ابن أبي ذئب)، وليس هذا إسناد تقوم بمثله حجة. وقال ابن عدي: لا يعرف له غير هذا الحديث. وقال البخاري: فيه نظر. ووثقه ابن حبان وابن وضاح!!
أقول: ذكر الحافظ في «التهذيب» أنه روى عنه أيضاً يزيد بن عياض لكنه متروك.
والحديث **صححه** ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٥/ ٤٩٤) رقم (٢٧١٨) وأقره =

فأخبرته بما أخبرني به عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ، فقال عمر بن عبد العزيز: فما أيسر عليّ من قضاء قضيته ـ والله يعلم أني لم أرد فيه إلا الحق ـ فبلغتني فيه سنة عن رسول الله ﷺ فأردّ قضاء عمر وأنفذ سنة رسول الله ﷺ، فراح إليه عروة، فقضى لي أن آخذ الخراج من الذي قضى به علي له»[1].

قال محمد تقي الدين: بيان هذا الخبر لمن يقصر فهمه عنه من القراء: أن مخلد بن خفاف اشترى عبداً من رجل واستخدمه، ثم ظهر له فيه عيب، فدعا بائعه إلى خامس الخلفاء الراشدين[2] عمر بن عبد العزيز الأموي، فحكم عمر على البائع أن يأخذ العبد ويرد ثمنه إلى المشتري، وحكم على المشتري أن يعطي البائع أجرة خدمة العبد في المدة التي بقي عنده، ثم قصد مخلد عروة بن الزبير ابن[3] أخت عائشة وتلميذها، فحكى له ما حكم به عمر، فظهر لعروة أن ما حكم به عمر مخالف للحديث الذي رواه عن خالته عائشة عن النبي ﷺ، وهو قضاؤه أن الخراج بالضمان.

ومعنى هذا أن النبي ﷺ حكم في مثل هذه القضية أن المشتري لا يعطي البائع أجرة خدمة العبد؛ لأنه كان في ضمانه، فلو تلف العبد أو سرق لم يكن للمشتري أن يطالب البائع بثمنه، فأجرة خدمته تقابل ضمانه له، ومن الضمان إيواؤه والنفقة عليه، ووعد عروة السائل أن يذهب إلى الخليفة عمر ويخبره بأن حكمه في تلك القضية مخالف لما حكم به النبي ﷺ، غير أن الرجل لم يصبر حتى ينطلق عروة إلى الخليفة ويخبره بذلك، بل ذهب من فوره وأخبر الخليفة بما قاله عروة، فقال الخليفة عمر بن عبد العزيز كلمته العظيمة، ومعناها: ما أسهل عليّ أن أرجع عن حكمي الذي حكمت به، وأنفذ حكم رسول الله ﷺ، والله

= ابن حجر في «التلخيص» (٣/ ٢٢)، **وقواه** شيخنا الألباني أيضاً في «إرواء الغليل» (١٤٤٦، ١٥٢١).

وفسره الترمذي بأن يشتري الرجل العبد يستغله ثم يظهر به عيب فيرده، فالغلة للمشتري لأن العبد لو هلك هلك في ضمانه، ونحو هذا يكون في الخراج بالضمان. وانظر: «نيل الأوطار» (٥/ ٢٤٥) للشوكاني، و«الموافقات» (٣/ ٢٠٤، ٤٢٧، ٤٣٠، ٤٥٥ ـ بتحقيقي)، «وتهذيب السنن» لابن القيم (٥/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(١) انظر: «إيقاظ همم أولي الأبصار» (ص٧).

(٢) هذا الإطلاق فيه نظر، وكأن به مغمزاً في خلافة معاوية، فتأمل!

(٣) سقط من مطبوع «الإلهام والإنعام» (١٤٨).

يعلم أني لم أرِدْ بحكمي[١] ذلك إلا الحق، وهو الموافق لكتاب الله وسنة رسوله، وإذ قد ظهر أني أخطأت فما أسهل الرجوع إلى الحق.

قال مخلد: «فذهب إليه عروة وأخبره بالحديث، فحكم على البائع أن يردَّ لي ما أعطيته من أجرة خدمة ذلك العبد مدة إقامته عندي»؛ وفي هذه القصة (فائدة أخرى جليلة) وهي أن ملوك المسلمين في ذلك الزمان كانوا يذعنون للحق ويفرحون به وينفذونه، ولم يكن العلماء يهابونهم إذا أخطؤوا في الحكم أن يعلموهم بخطئهم.

وهذا يفسر لنا ما أدركه المسلمون في ذلك الزمان من العزة والسؤدد، **فأين هذا من الديمقراطية التي يتبجح بها أهل هذا الزمان؟** لا جرم لو أن قاضياً من قضاة العصور المتأخرة حكم بحكم فجاءه عالم وأخبره بخطئه، لكان نصيب ذلك العالم أن يسمع منه ما يكره، هذا إذا لم يأمر بحبسه، هذا إذا اعترض على قاضٍ فقط، فكيف بمن هو فوقه من الرؤساء كوزير العدل، فضلاً عن رئيس الدولة؟

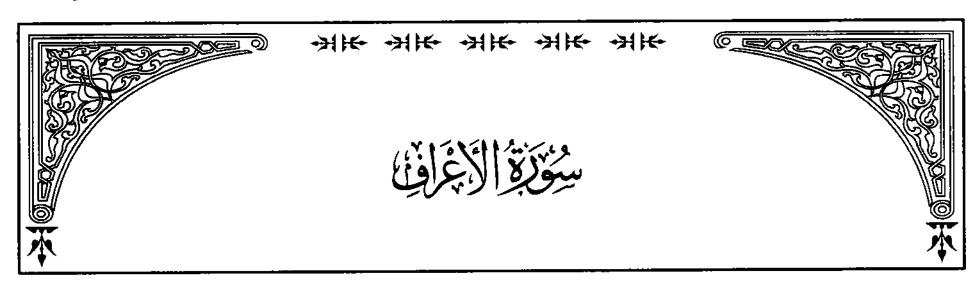
ثم قال الفلاني: «قال الشافعي[٢]: وأخبرني من لا اتهم من أهل المدينة عن ابن أبي ذئب قال: قضى سعد بن إبراهيم على رجل بقضية برأي ربيعة بن أبي عبد الرحمن فأخبرته عن النبي ﷺ بخلاف ما قضى به.

فقال سعد لربيعة: هذا ابن أبي ذئب وهو عندي ثقة يخبرني عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيت به، فقال له ربيعة: قد اجتهدت ومضى حكمك، فقال سعد: واعجباً، أنفذ قضاء سعد ابن أم سعد وأرُدُّ قضاء رسول الله ﷺ [بل أرد قضاء سعد ابن أم سعد، وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ][٣] فدعا سعد بكتاب القضية فشقه، وقضى للمقضي عليه».

فعليك بقراءة هذا الكتاب فإن فيه من الفوائد العلمية ما تشتد حاجة كل طالب علم إلى معرفته»[٤].

---

(١) في الأصل: «بحكم»، والمثبت في «الإلهام والإنعام».
(٢) أخرجه الشافعي في «الرسالة» (ص٤٥٠) رقم (١٢٣٣).
(٣) سقط من الأصل، وأثبته من «الإلهام والإنعام» (ص١٤٩).
(٤) إلى هنا انتهى النقل من «الإلهام والإنعام».



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٢ ـ ٣]

قال (ك): «أي هذا ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي من ربك ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه. وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣] وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦] وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: للدين مصدران اثنان، فهما عينان نضاختان، فيهما الهدى والنور والسعادة الأبدية، فمن أعرض عنهما خاب وخسر، ألا وهما: كتاب الله وسنة رسوله ولا ثالث لهما، فمن اتبع رأي شخص غير النبي ﷺ وقلده

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨).

أمر دينه ولم يطالبه بدليل؛ لأنه بالغ في تعظيمه حتى جعل رأيه مغنياً عن كتاب الله وسنة رسوله، فقد اتخذ من دون الله وليًّا وأشرك به في عبادته فحبط عمله، وهذا ينطبق على غلاة المتمذهبين وأصحاب الطرائق القدد والمتحزبين في هذا الزمان، أحزاباً سياسية ينطح بعضها بعضاً وكلهم خاسرون.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٦ ـ ٧].

قال (ك): «﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص: ٦٥] وقوله: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [المائدة: ١٠٩] فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ قال[(١)]: «عما بلغوا»[(٢)]، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾: «يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون»[(٣)].

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾؛ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير؛ لأنه تعالى الشهيد[(٤)] على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين ويسأل المرسلين».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٤٣٩)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٧) لابن المنذر والبيهقي في «البعث» وهو غير موجود في المطبوع منه.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٤ ـ ٦٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٤٤٥) وهو في «الدر المنثور» (٣/ ٦٧) من تمام الأثر السابق.

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شهيد».

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: الذي أرسل إلينا نحن معشر المسلمين هو خير خلق الله محمد رسول الله، فبلَّغ إلينا كل ما أنزل الله عليه، والله يشهد وأهل العلم يشهدون أنه لم يكتم شيئاً من ذلك، فإذا سأله الله تعالى شهد له المؤمنون، وإذا سألنا نحن: هل بلَّغكم رسولكم ما أرسلته به إليكم؟ فلا سبيل إلى الجحود، فمن اتبعه بصدق وإخلاص سعد وفاز، ومن اتخذ من دون الله أولياء ـ أئمة وشيوخاً ورؤساء أحزاب ـ هوى وشهوات؛ حقت عليه كلمة العذاب.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٖۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨]

في (**خك**): «[﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾](٢) أي اكتب لنا في هذه الدنيا وفي الآخرة لتحصيل المقصود، أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٢) غير موجود في مطبوع «مختصر تفسير ابن كثير».

حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١] أي: عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] روى الإمام أحمد[٢] عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «**إن لله ﷻ مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة**». وأخرجه مسلم. وقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية؛ يعني: فأوجبها[٣] أي: فسأوجب حصول رحمتي منَّةً مني وإحساناً إليهم. وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الشرك والعظائم من الذنوب. وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ قيل: زكاة النفوس، وقيل: الأموال، يحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم، وأخرج البخاري وابن جرير[٤] عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: «أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥] وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميّتك[٥] المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق ولا يجزي السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن

---

(١) بعدها في «مختصر تفسير ابن كثير»: «أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ولي الحكمة والعدل في كل ذلك ﷻ لا إله إلّا هو. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٩)، وهو عند مسلم في «صحيحه» (٢٧٥٣).

(٣) في مطبوع «التيسير»: «فسأوجبها».

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٥)، وأحمد (٢/ ١٧٤)، وابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٤٩١ ـ ٤٩٢)، وخرجته مفصلاً في تعليقي على «المجالسة» (١٢٩٧) للدينوري.

(٥) في مطبوع «التيسير»: «اسمك».

يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عميًا، وآذاناً صمًّا وقلوباً غلفاً». اهـ.

هذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر، كما قال عبد الله بن مسعود: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأعرها سمعك، فإنه خيرٌ تُؤمر به أو شر تنهى عنه»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلّونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: فكل ما أحل الله فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: إنه جاء(٣) التيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٣١٧)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (٧٤ ـ ٧٥)، وأحمد في «الزهد» (١٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٠).

(٢) انظر تفصيل هذا في «تحقيق البرهان في شأن الدخان» للشيخ مرعي الكرمي (ص١٢٧ ـ ١٣٠)، وأسهبتُ في تقريره وترجيحه في تعليقي عليه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وقد أسهب شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة ـ رحمه الله تعالى ـ في ترجيح قول من قال: إنَّ الأصلَ في الأشياء الإباحة، فقال: «اعلم أنَّ الأصلَ في جميع الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها وتباين أوصافها، أن تكون حلالاً مطلقاً للآدميين، وأن تكون طاهرةً لا يحرم عليهم ملابستها ومباشرتها ومماستها، وهذه كلمة جامعة، ومقالة عامَّة، وقضية فاضلة، عظيمة المنفعة، واسعة البركة، يفزع إليها حَمَلةُ الشريعة، فيما لا يحصى من الأعمال، وحوادثِ الناس، وقد دلَّ عليها أدلَّةٌ عشرةٌ ـ فيما حضرني ذكره مِن الشَّريعة ـ وهي: كتاب الله، وسنَّة رسوله، واتباع سبيل المؤمنين المنظومة في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾، ثم مسالك القياس والاعتبار ومناهج الرأي والاستبصار...» ثم ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ باقي هذه الأدلَّة العشرة، وعرَّج على الرأي المخالف ـ وهو أنَّ الأصل في الأشياء الحظر ـ وقال فيه: «وهذا قولٌ متأخرٌ لم يؤثر أصلُه عن أحدٍ من السابقين، من له قدم...». انظر «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢١/ ٥٣٥، ٥٣٩ و٢٩/ ١٥١ و٧/ ٤٥ ـ ٤٦).

(٣) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «جائز»!

«**بعثت بالحنيفية السمحة**»[١].

وقوله ﷺ لأميريه[٢] معاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «**بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»[٣]. وقال عليه الصلاة والسلام فيما جاء عن صاحبه أبي برزة الأسلمي: «**إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل**»[٤] وقال ﷺ: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٥]. ولهذا قال مرشداً لهذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ

---

(١) سبق تخريجه، وتكلمت عليه مطولاً في التحقيق الثاني لـ«الجواب الذي انضبط» للسخاوي، وهو قيد الطبع.

(٢) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «لأميرين»!

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (١٧٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧)، وأبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١١٨٣).

(٥) أخرجه ابن ماجه في «السنن» كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي (١/ ٦٥٩) رقم (٢٠٤٥) من طريق الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس رفعه بلفظ: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي...**».
وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٩٥)، والدارقطني في «سننه» (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٩٨)، والطبراني في «الصغير» (٧٦٥)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٠٤٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٣٥٦)، وابن حزم في «الإحكام» (٥/ ١٤٩) من طريق الأوزاعي عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس مرفوعاً.
وهذا إسناد صحيح، وقد أعله أحمد في «العلل» (١/ ٢٢٧) بالنكرة، وأبو حاتم في «العلل» (١/ ٤٣١) بالانقطاع؛ فقال: «لم يسمع الأوزاعي هذا الحديث من عطاء»!!
ورجح شيخنا الألباني في «الإرواء» رقم (٨٢) **صحة** هذا الطريق.
وأخرجه الفضل بن جعفر التيمي المعروف بـ«أخي عاصم» في «فوائده» ـ كما في «التلخيص الحبير» (١/ ٢٨٣) ـ من حديث ابن عباس: «**رفع الله عن أمتي...**»، وعزاه بلفظ المصنّف السيوطي في «الجامع الصغير» (٢/ ١٦) إلى الطبراني من حديث ثوبان، وهو خطأ، ولفظ الطبراني في «الكبير» (٢/ ٩٤) رقم (١٤٣٠): «**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ...**»، وتابع السيوطي على هذا الوهم: المناوي في «الفيض» (٤/ ٣٥). وأقر السيوطي شيخنا الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٥١٥)، ولكنه نبه في «الإرواء» رقم (٨٢) أنه **منكر** بلفظ: «**رفع عن أمتي...**».
وعلى كلٍّ فالحديث له شواهد عديدة، ولحديث ابن عباس طرق كثيرة يصل معها إلى درجة **الصحة**، وحسنه النووي في «أربعينه» رقم (٣٩).
وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٥٧٣)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ٩٠ ـ ٩١) من طريق جعفر بن جسر عن أبيه عن الحسن عن أبي بكرة مرفوعاً: «**رفع الله ﷻ عن هذه الأمة الخطأ والنسيان والأمر يكرهون عليه**»، **وإسناده ضعيف**، فيه جعفر بن جسر؛ في حفظه اضطراب شديد، كان يذهب إلى القدر، وحدث بمناكير، وأبوه مضعف. =

أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في «صحيح مسلم»: أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه «**قد فعلت قد فعلت**»[1].

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي: عظموه ووقروه، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: القرآن والسنة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب عام للأحمر والأسود والأبيض والعربي والعجمي ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] والآيات في هذا كثيرة والأحاديث أكثر من أن تحصر، وهو أمر معلوم من دين الإسلام ضرورةً أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رسول الله إلى الناس كلهم.

روى الإمام أحمد[2] عن [عمرو] بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «**لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي: أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر لملئ مني رعباً، وأحلت لي الغنائم أكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم، والخامسة هي: ما قيل لي: سل فإن كل نبي قد سأل، فأخرت مسألتي إلى**

= انظر: «الميزان» (١/ ٤٣٠ ـ ٤٠٤)، ولأحمد الغماري جزء بعنوان: «شهود العيان بثبوت حديث: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان**»»، وصححه ابن حبان والضياء المقدسي والذهبي والسخاوي في «المقاصد» (ص٢٢٩) وجماعة.

وانظر ـ مفصلاً ـ: «نصب الراية» (٢/ ٦٥).

(١) أخرجه مسلم (١٢٦) من حديث ابن عباس. (٢) سبق تخريجه.

يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله». إسناده قوي جيد[1] ولم يخرجوه.

وروى مسلم[2] عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»**. روى الإمام أحمد[3] عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ قال: **«من سمع بي من أمتي يهودي أو نصراني، فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة»**. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ صفة لله[4] تعالى في قول رسول الله ﷺ، أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الإحياء والإماتة وله الحكم.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم وهو الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم ولهذا قال: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى الصراط المستقيم»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: حسنة الدنيا التي طلبها موسى عليه السلام والتي ذكرها الله تعالى في سورة البقرة في صفة عباده المؤمنين الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] وأخبر سبحانه أن لهم نصيباً مما كسبوا، فسرها (ك) بقوله: «فإن الحسنة[6] تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار[7]، وزوجة[8] ورزق وعلم نافع وعمل صالح، ومركب هنيء[9]،

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «جيد قوي».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٠)، ومسلم (١٥٣).
(٤) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «الله».
(٥) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٦) بتصرف.
(٦) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في الدنيا».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رحبة».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حسنة».
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «هين»!

وثناء جميل[١]، فكل ذلك مندرج[٢] في الحسنة في الدنيا، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر[٣]، وتيسير الحساب، وأما النجاة من النار فإنها تقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والحرام، وقال القاسم أبو عبد الرحمن: «من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أوتي في الدنيا وفي الآخرة حسنة ووقي عذاب النار». ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء.

روى الإمام أحمد عن أنس: «أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: **«هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟»** قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: **«سبحان الله، لا تطيقه ولا تستطيعه، فهلا قلت: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾** [البقرة: ٢٠١]: قال: فدعا الله فشفاه»[٤]. انفرد به مسلم.

روى الإمام الشافعي بسنده عن عبد الله بن السائب: «أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركنين ـ ركن بني جمح والركن الأسود ـ: **﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾**[٥].

روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما مررت**

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ولا منافاة بينها».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فإنها كلها مندرجة».

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في العرصات».

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٧)، ومسلم (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٤٨٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٥٣) وعبارة ابن كثير (٢/ ٢٦٤): «انفرد بإخراجه مسلم فرواه من حديث ابن أبي عدي به». فليس مسلم بمتفرد به مطلقاً، كما توحي العبارة التي نقلها المصنف!

(٥) أخرجه الشافعي في «الأم» (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، وفي «المسند» (١/ ٣٤٧)، وعبد الرزاق (٨٩٦٣)، وأحمد (٣/ ٤١١)، وأبو داود (١٨٩٢)، وابن خزيمة (٢٧٢١)، وابن حبان (٣٨٢٦)، والحاكم (١/ ٤٥٥)، والبيهقي (٥/ ٨٤)، والبغوي (٧/ ١٢٨) رقم (١٩١٥)، والأزرقي في «تاريخ مكة» (١/ ٣٤٠) من حديث عبد الله بن السائب، وصححه الحاكم على شرط مسلم! ووافقه الذهبي! وفيه عُبيد مولى السائب، ذكره ابن حبان في «الثقات»، وسلكه بعضهم في الصحابة! وباقي رجاله ثقات **والحديث حسن لغيره**، قاله شيخنا الألباني في «صحيح الموارد» (٨٣١/ رقم ١٠٠١).

على الركن إلا رأيت عليه مَلَكاً يقول: آمين فإذا مررتم عليه فقولوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

قال محمد تقي الدين: أعظم الحسنات رضوان الله تعالى؛ لقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

وإذا حصل رضوان الله تعالى حصل كل شيء من حسنات الدنيا والآخرة. وركن بني جمح: هو الركن اليماني الذي يمر عليه الحاج وهو يطوف بالبيت، قبل أن يصل الركن الذي فيه الحجر الأسود.

قوله: لأن الآية مكية، يعني أن زكاة الأموال لم تكن مفروضة في مكة وإنما فرضت في المدينة، والتحقيق أن الزكاة بمعنى الصدقة لم تزل مفروضة في الإسلام، والزكاة التي هي أحد أركان الإسلام، وقد بيّنها النبي ﷺ: بيَّن أنواعها والمقادير التي تعطى وأوقاتها ومن تصرف إليهم، تأخر ذلك إلى ما بعد الهجرة قال الله تعالى في سورة البينة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥] وسورة البينة مكية.

قال محمد تقي الدين: قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] توهم الإمام (ﷺ) أن الضمير يعود على النبي ﷺ والصحيح، أنه يعود على القرآن، لكن الإيمان بالنبي والإيمان بالقرآن متلازمان، فمن لم يؤمن بالنبي لم يؤمن بالقرآن، ومن لم يؤمن بالقرآن لا يؤمن بالنبي.

فصل

قال محمد تقي الدين: لما كان **الغرض من تأليف هذا الكتاب إقامة البراهين على وجوب اتباع الكتاب والسنة وترك التفرق والتحزب بشكل مذاهب أو طرائق أو أحزاب**، لم أرد أن أتوسع فيما يرد أثناء البحث من المسائل الأخرى، كبشارة الكتب السابقة بنبينا محمد ﷺ، ولكني أبيِّن المصادر التي وفتَّها حقَّها[2]:

---

(١) عزاه ابن كثير في (٢/ ٢٦٤) لابن مردويه، وما سبق منه (٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤).

(٢) خص هذا الموضوع بالتصنيف عدد كبير، وجمع غفير، منهم: الخالدي في «البشائر النبوية» كذا في «هدية العارفين» (١/ ٣٢٨)، ولمحمد الفيلالي «النفحات المعنوية في المبشرات النبوية» منه نسخة في مكتبة البلدية بالإسكندرية، وطبع أحمد السقا في مصر سنة ١٣٩٧ هـ «البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل»، ونشر في الأردن «البشارات العجاب في صحف أهل الكتاب» =

الأول: كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي، فإنه ذكر ثماني عشرة بشارة نقلها من كتب اليهود والنصارى، وأجاد في النقل والبحث والتحقيق، انظر الكتاب المذكور مبتدئاً من صفحة (١١٨)[١].

الثاني: «فتح البيان»[٢] للإمام القنوجي في هذا الموضع من تفسير سورة الأعراف.

الثالث: «تفسير القاسمي»[٣].

الرابع: «تفسير الرازي»[٤] وينبغي: أن ينظر في هذه التفاسير في هذا الموضع من سورة الأعراف وفي سورة الصف وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ من سورة البقرة [آية: ٤٢].

فصل

الاستدلال بهذه الآيات على اتباع الرسول ﷺ من وجوه:

الأول: إن رحمة الله لا تكتب إلا لمن يتبع الرسول.

الثاني: إن الفلاح الذي هو الفوز بالمرغوب والنجاة من المرهوب لا يحصل أبداً إلا للذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، فهذه أمور أربعة: الإيمان به، وتعزيره أي: تعظيمه، ونصره في حياته ونصر سنته بعد وفاته، واتباع النور الذي أنزل معه وهو القرآن والسنة، فمن لم يجمع هذه الأربعة لا يكون من المفلحين أبداً، **وكل من اتخذ وليجة تحول بينه وبين هذه الأربعة كالنِّحْلة والمذهب والطريقة والحزب والوطنية والقومية، لا يستطيع أبداً أن يتصف بهذه الأربعة ويكون حنيفاً.**

الثالث: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: توكيد لما تقدم، وبيان أن الاهتداء بدون اتباع؛ مستحيل.

= لصلاح صالح الراشد، وألف ولي الله الدهلوي «الدر الثمين في مبشرات النبي الأمين»، ولعبد الحي الكتاني «جزء في المبشرات النبوية» ذكره صاحب «الدليل المشير» (١٥٨).
وفات المصنف ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «الجواب الصحيح»، فهو من أهم المصادر في هذا الباب، والله الهادي والموفق للصواب.

(١) انظر: «إظهار الحق» (٤/ ١١١٧ ـ ١١٨٥، ط. الرئاسة العامة للإدارات والبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد).

(٢) انظره (٢/ ٥٨٧ ـ ٦٠٠ و٧/ ٦٦ ـ ٧٨). (٣) انظره (٧/ ٢٦٨ ـ ٢٧٧).

(٤) انظره (٣/ ٤٠ ـ ٤١) [البقرة: ٤٢] و(٢٩/ ٢٧٢) [الصف: ٧].

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٨]

قال (ك) في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: «هو بلعام بن باعوراء ويتصل نسبه بلوط بن هارون بن آزر. قال ابن عساكر: وهو الذي كان يعرف الاسم الأعظم فانسلخ من دينه وله ذكر في القرآن[(١)]».

روى محمد بن إسحاق بن يسار «عن سالم أبي[(٢)] النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل بأرض[(٣)] بني كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه، فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم قال: ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ فلم يزالوا به حتى فتنوه.

فافتُتِن، [فسار][(٤)] متوجهاً إلى الجبل الذي يطل[(٥)] على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حُسبان، حتى إذا أشرف[(٦)] على رأس حسبان وعلى عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله[(٧)]

---

(١) بنحوه عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٠٦).

(٢) كذا في مصادر التخريج، وفي الأصل: «ابن»!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في أرض».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فركب حمارة له».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يطلعه».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أشرفت به».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «به».

لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أتدري يا بلعام[١] ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، ثم قال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال، جمّلوا النساء وأعطوهنّ السلع ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه، ومروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم، ففعلوا.

فلما دخلت النساء المعسكر[٢] مرت امرأة من الكنعانيين برجل عظيم من بني إسرائيل فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى، وقال: إني أظنك ستقول: هذا حرام عليك لا تقربها؟ قال: أجل، هي حرام عليك. قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قبته فوقع عليها، وأرسل الله ﷻ الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى غائباً، فجاء والطاعون يجوس فيهم، فأخبر الخبر فأخذ حربته، ـ وكانت من حديد كلها ـ ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، وجعل يقول: «اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك» ورفع الطاعون، فبلغ عدد الهالكين سبعين ألفاً، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾»[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ أي: صار مثل الكلب في ضلاله واستمراره فيه هذا من حيث أن الكلب من عادته أن يلهث، إن زجرته أو تركته، وكذلك بلعام لم يعد ينتفع بالدعاء إلى الإيمان أو عدم الإيمان، ففي الحالتين لا ينتفع بالموعظة ولا بالدعوة إلى الإيمان، وذلك كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالِمين

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بلعم».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العسكر».

(٣) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٥٧٩ ـ ٥٨١)، وفي «التاريخ» (١/ ٤٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٠١ ـ ٤٠٣) **وإسناده ضعيف جدًا**، فهو من معضل سالم أبي النضر، وسالم هذا متروك، وفيه محمد بن حميد شيخ ابن جرير متروك، وعنعنة ابن إسحاق وهو مدلس.

بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم ـ الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب ـ في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمان وشَعْب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان كليم الله موسى بن عمران ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيحذروا[١] أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميَّزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته.

[وإن من ينصرف عن الإيمان به ﷺ منهم][٢] وخالف[٣] ما في التوراة من صفته وكتمها، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي[٤]: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، فشبهوا بالكلاب التي لا هم[٥] لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة.

فمن خرج من حوزة العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب وبئس المثل مثله، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، والركون إلى دار البلى وموافقة الهوى»[٦].

وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾:

قال (ك): «يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن**

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فيحذرون».
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولهذا من خالف».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يقول تعالى».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «همة».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٥٤ ـ ٤٥٧) بتصرف.

يضلل فلا هادي له»[١]، الحديث بتمامه، رواه أحمد وأهل «السنن» وغيرهم»[٢]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من آتاه الله القرآن وعلمه السنة ولم يعمل بهما فهو بلعام، أي: يصيبه ما أصابه؛ لأنه انسلخ من آيات الله وأتبعه الشيطان وكان من الغاوين، ولم يرفعه الله بآيات القرآن بل خفضه بها؛ لأنه أخلد إلى أرض الشهوات ونبذ العمل بالآيات، فمثله كمثل الكلب، قال بعض العلماء: لو علم الله مثلاً شرًّا من الكلب والحمار لضربه لعلماء السوء الذين لم يعملوا بكتاب الله، فقد شبهوا بالكلاب في هذه الآية وبالحمير في آية الجمعة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَاۢ﴾ فإذا حُمِلَت كتبُ العلم على ظهر الحمار، لا يصل إلى قلبه منها شيء مع مشقة حملها، فكذلك القراء والفقهاء المقلّدون الذين لا يتبعون كتاب الله ولا سنة رسوله، وكذلك أصحاب الطرائق الضالون الذين يأخذون دينهم عن شيوخ السوء الجهلة، بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير.

فصل

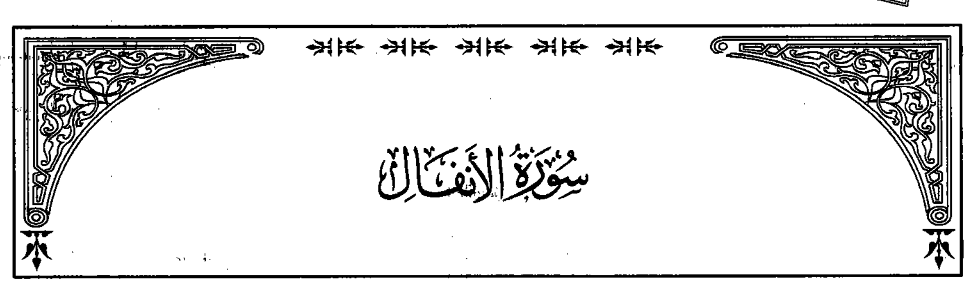
في قصة بلعام عبرة عظيمة لأهل هذا العصر، الذين فتنوا بالنساء وأغروهن بالتبرج، وكشف سوآتهن على رؤوس الأشهاد، وصاروا عبيداً لهن، فخسروا الدنيا والآخرة، ولم يبق لهم عرض ولا دين[٣]، كذلك يضل الله الظالمين.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣، ٤٣٢)، وأبو داود (٢١١٨)، والنسائي (٣/ ١٠٤ و٦/ ٨٩)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢) من حديث ابن مسعود، وهو عند مسلم (٨٦٨) من حديث ابن عباس. وللحديث طرق أخرى أعرضنا عنها اختصاراً، ومن أراد التفصيل فلينظر رسالة شيخنا الألباني: «خطبة الحاجة»، **والحديث صحيح دون قوله: «ونستهديه»** فهي مما لم يثبت.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٥٧).

(٣) للمصنف رسالة جيدة مطبوعة في هذا الباب، وهي بعنوان «صيانة العرض، لا دين ولا شرف إلا بصون العرض»، مطبوعة في المغرب سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٠ ـ ٢٩]

قال (ك): «يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ أي: تتركوا طاعته، وامتثال أوامره، وترك زواجره ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾

أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ قيل: المراد: المشركون، وقيل: المنافقون، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك». قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا، لأن كلًّا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح.

[ثم أخبر الله تعالى أن هذا النوع من بني آدم شر الخلق والخليقة، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن فهمه، ولهذا قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا. ولهذا شبَّههم بالأنعام في قوله ﷻ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾][1].

ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم ولا قصد لهم صحيح، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ...﴾ إلى آخره.

روى البخاري[2]: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾ أجيبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم، ثم روى بسنده إلى أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني، فلم آته حتى صليت ثم أتيتُه، فقال: «**ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «**لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج**»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له، وقال معاذ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه بهذا سمع وقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ **هي السبع المثاني**»[3]. هذا لفظه بحروفه.

وقوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال مجاهد[4]: للحق، وقال قتادة[5]: هو

---

(١) هذا النقل الذي بين المعقوفتين من «تيسير العلي القدير» (٢/ ٢٨١)، وهو غير موجود في «تفسير ابن كثير».

(٢) انظر: «البخاري» (كتاب التفسير، باب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ...﴾).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٤٧) وغيره.

(٤) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!

(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!

هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة، وقال السدي[(١)]: ففي الإسلام حياتهم[(٢)] بعد موتهم بالكفر، وقال [عروة بن الزبير][(٣)]: أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل والضعف والقهر، وكله قريب وصحيح[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ قال الإمام أحمد عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، كقلب واحد يصرفها كيف يشاء..**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك**»[(٥)] انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري»[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

قال (ك): «يحذر تعالى عباده المؤمنين اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب»، وهذا تفسير حسن جدّاً. ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ هي أيضاً لكم، يعني نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ وفي غيرهم.

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم، وإن كان الخطاب معهم، هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ومن أخص ما يذكر هاهنا: ما رواه الإمام أحمد[(٧)] عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أحياؤهم».
(٣) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!
(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٢٨٢).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٥).
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥ ـ ٤٩) بتصرف.
(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨)، والترمذي (٢١٩٩)، والبغوي (٤١٥٤)، والبيهقي (١٠/ ٩٣)، وفي «الشعب» (٧٥٥٨)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٥/ ٢٢٤). **والحديث حسن**، وله شواهد، وروي موقوفاً عليه، كما في الرواية الآتية.

«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». وقال عنه أيضاً: «إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتحاضُّنَّ على الخير، أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمِّرنَّ عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[(١)].

روى الإمام أحمد[(٢)] عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده**» فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «**بلى**»، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «**يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان**».»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

قال (ك): «ينبّه الله تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، إذ كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين وخائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم[(٤)] فأطاعوه في جميع أوامره، هكذا كانوا بمكة قليلين مستضعفين مستخفين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر البلاد، فلم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٤٤ ـ ٤٥)، وأحمد (٥/ ٣٩٠) ـ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٩) ـ والأثر ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٩٧)، وعزاه لأحمد وقال: «وفيه أبو الرُّقَاد الجهني ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات».
والأثر حسن؛ إذ له طريق أخرى عند ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٩٦)، وأبي نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤، ٣٠٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣٢٥) رقم (٧٤٧)، وأورده الهيمثي في «المجمع» (٧/ ٢٦٨) وقال: «رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح».
قلت: فيه شريك النخعي، وامرأة مبهمة، وروي على وجوه وألوان، كما تراه في «المسند» (٦/ ٤١) أيضاً و«مسند الحميدي» (٢٦٤) و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٥/ ٤٢ ـ ٤٣) و«مسند إسحاق» (١١٠٨) و«مستدرك الحاكم» (٤/ ٤٢٣) ويغني عنه حديث ابن عمر، انظره في «صحيح البخاري» (٧١٠٨) و«صحيح مسلم» (٢٨٧٩).

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٢٨٣) بتصرف.

(٤) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «وكثرهم»!

يزل ذلك شأنهم حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة فآواهم إليها، وقيض لهم أهلها.

فآووا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم، وبذلوا مهجهم في طاعة الله ورسوله، قال قتادة بن دعامة السدوسي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً وأشقاهم[١] عيشاً وأجوعهم[٢] بطوناً، وأعراهم[٣] جلوداً، وأبينهم[٤] ضلالاً[٥]، من عاش منهم عاش شقيّاً، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يؤكلون ولا يأكلون.

والله لا[٦] نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به البلاد، ووسع به الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه[٧] فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تعالى»[٨].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ . . .﴾ إلى آخره.

قال (ك): «قال بعض المفسرين: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة؛ لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه، أي إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشيّاً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلّوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة. فقال: «**يجزيك الثلث أن تصدق به**» رواه

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «وأشقاه». (٢) في مطبوع «التيسير»: «وأجوعه».
(٣) في مطبوع «التيسير»: «وأعراه». (٤) في مطبوع «التيسير»: «وأبينه».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مكعومين على رأس حجر بين الأسدين، فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذٍ من شيء يحسدون عليه».
(٦) في مطبوع «التيسير»: «ما».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لله نعمه».
(٨) انظر: «التيسير» (٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

عبد الرزاق عن قتادة[١] والزهري»[٢].

قال (ك): «والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء.

والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية، وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الأمانة: الأعمال التي ائتمن عليها العباد. يعني: الفريضة، يقول: لا تخونوا لا تنقضوها»[٣]، وقال في رواية: «لا تخونوا الله والرسول بترك سنته وارتكاب معصيته»[٤].

وقال السدي: «إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم»، وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي: اختبار وامتحان منه لكم إذا أعطاكموها؛ ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، وفي «الصحيح» عن رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه، وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»**[٥].

---

(١) كذا في الأصل! وهو خطأ، صوابه: «عبد الله بن أبي قتادة» كما سيأتي في التخريج.

(٢) أخرجه ابن جرير (٩/ ١٤٦) من طريق سنيد صاحب «التفسير» ـ وعزاه له في «الدر المنثور» (٧/ ٩٠) ـ **بسندٍ ضعيف من مرسل الزهري**.
وفي الباب عن لبابة بنت أبي لبابة، أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ رقم ٧٨٢٨) **وسنده ضعيف**. انظر: «الإصابة» (٤/ ٣٩٩).
وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٤٠٥)، وسعيد بن منصور (رقم ٩٨٧ ـ التفسير)، وابن أبي حاتم (٥/ رقم ٨٩٧٥)، وابن جرير (٩/ ١٤٦) **بسندٍ صحيح من مرسل عبد الله بن أبي قتادة**.

(٣) أخرجه ابن جرير (١١/ ١٢٥) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٣، ١٦٨٤)، وعزاه في «الدر المنثور» (٧/ ٩٢ ـ ٩٣) لابن المنذر، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٥٣٤، ٥٣٥).

(٤) هو قطعة من الأثر السابق، هذا في خيانة الله ورسوله، وذاك في خيانة الأمانة.

(٥) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ الآية قال ابن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فصلاً بين الحق والباطل. وهذا التفسير عام شامل فهو يستلزم المخرج والنجاة والنصر، فإن من اتقى[1] الله بفعل أوامره وترك زواجره؛ وفّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ولنيل الثواب الجزيل، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨]»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من أعرض عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهو يدعي الإيمان بهما ينطبق عليه هذا الوصف، فيكون من الذين قالوا: سمعنا، وهم لا يسمعون، ويكون من شر الدواب؛ لأن العبرة بعموم اللفظ، ولا يكون مستجيباً لله وللرسول وقد دعاه لما يحييه، ففضل الموت على الحياة والظلمة على النور والضلال على الهدى، وحيل بينه وبين قلبه فغوى واتبع هواه فسوف يلقى غيّاً إلا من تاب.

فصل

قول النبي ﷺ: «**بين أصبعين من أصابع الرحمن**»[3]. كقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وكقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧] فنحن نؤمن أن لله يدين ووجهاً وأصابع لا كأيدينا ولا كوجوهنا ولا كأصابعنا، كما أن له علماً ليس كعلمنا، وقدرة ليست كقدرتنا، وحياة ليست كحياتنا، وهذا هو إثبات الصفات الذي يأتي إن شاء الله في (الجزء الثالث) من هذا الكتاب «سبيل الرشاد» وهو قادر على أن يبلغنا أمنيتنا في إتمام «سبيل الرشاد» وانتفاعنا به قبل الموت، وهو الغني الكريم.

ومن ردّ بعض الصفات وأثبت بعضها من أهل البدع، كالخوارج والمعتزلة والأشعرية المتأخرة، فقد حُرِم من اتباع الرسول والصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «اتق»!

(٢) انظر: «التيسير» (٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

(٣) سبق تخريجه.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ على تفسير ابن عباس[(١)]؛ يبين لنا أن كل قوم سكتوا على المنكر، كالتبرج والزنى وأكل الربا والحكم بغير ما أنزل الله وشرب الخمر وصنعها وبيعها، وأعظم من ذلك: بناء القباب على القبور، وعبادتها بالذبح والنذر، والطواف بها وإقامة المواسم عليها، والرشوة، وعدم نصر المظلوم، يعمهم الله بعذابه.

فصل

قال محمد تقي الدين: تأملوا قصة أبي لبابة[(٢)]، تعلموا أن الصحابة أيضاً كانت تصدر منهم ذنوب، والفرق بيننا وبينهم هو المبادرة إلى التوبة والإخلاص فيها، فربط الإنسان نفسه بسارية من سواري المسجد وتركه الطعام والمنام والراحة تسعة أيام ليس بالأمر الهيّن، ولم يكفه ذلك حتى أراد أن يخرج من ماله، لولا أن النبي ﷺ منعه من ذلك وأَذِن له في الثلث فقط. فهكذا تكون توبة الصادقين.

فصل

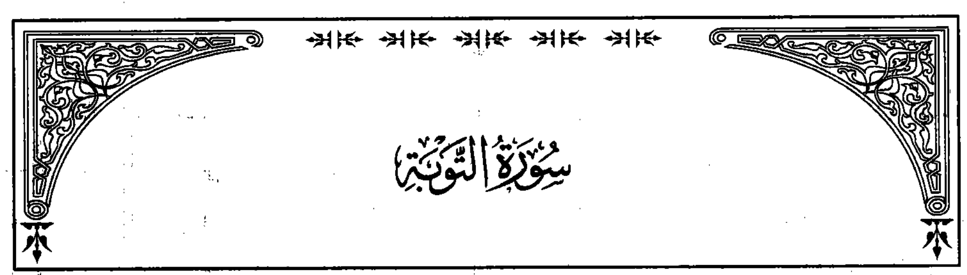
قوله: «أي اختبار وامتحان منه لكم إذا أعطاكموه؛ ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أم تشتغلون بها عنه»؟

العلم هنا علم ظهور يراه الناس ويعرفونه، فإن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وليس معناه لينكشف له شيء كان خافياً عليه، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) المتقدم قريباً.

(٢) المذكورة في سبب نزول الآية، وتقدمت قريباً، **وهي مرسلة، لم تأت من وجه صحيح موصول ثابت!**



سورة التوبة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦]

قال (ﷺ): «يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن تهملوا فلا نخبركم بما يميز أهل العزم الصادق من الكاذب: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة دخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

واختباره المؤمنين هنا حصل بمشروعية الجهاد لهم، وفيه الاختبار لعبيده من يطيعه فيه ممن يعصيه، وهو ـ تعالى ـ العالِم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه»[١].

قال الحافظ ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٩٣) بعد أن ذكر الآيات التي وردت في ذم اتباع الآباء بلا بصيرة ـ وقد تقدم بعضها في (الباب الرابع) من (سورة البقرة) ـ ما نصه:

«وهذا في القرآن كثير، يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء، فإن قيل: إنما ذم من قلد الكفار وآباءه الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ولم

---

(١) انظر: «التيسير» (٢/ ٣٢١).

يذم من قلد العلماء المهتدين، بل قد أمر بسؤال أهل الذكر ـ وهم أهل العلم ـ، وذلك تقليد لهم، فقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وهذا أمر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم، فالجواب: أنه سبحانه ذم من أعرض عما أنزله إلى تقليد الآباء، وهذا القدر من التقليد هو مما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه، وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه، فهذا محمود غير مذموم، ومأجور غير مأزور، كما سيأتي بيانه عند ذكر التقليد الواجب السائغ إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٢٦] والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم كما سيأتي وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فأمر باتباع المُنزَّل خاصة والمقلِّد ليس له علم أن هذا هو المنزَّل، وإن كان قد تبيَّنت له الدلالة في خلاف قول من قلَّده فقد علم أن تقليده في خلافه اتباع لغير المنزل.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] فمنعَنَا سبحانه من الرد إلى غيره وغير رسوله وهذا يبطل التقليد، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه عياراً[1] على كلام الله وكلام رسوله وكلام سائر الأمة، يقدمه على ذلك كله ويَعْرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله، فما وافقه منها قَبِلَه لموافقته لقوله، وما خالفه منها تلطَّف في ردّه، وتطلب[2] له وجوه الحيل، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦، ٦٧] وهذا نص في بطلان التقليد. فإن قيل: إنما فيه ذم من قلد من أضله السبيل، أما

(١) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «مختاراً»!

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «وطلب».

من هداه السبيل فأين ذم الله تقليده؟ قيل: جواب هذا السؤال في نفس السؤال، فإنه لا يكون العبد مهتدياً[١] حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله، فهذا المقلد إن كان يعرف ما أنزل الله على رسوله فهو مهتدٍ وليس بمقلد، وإن كان[٢] لم يعرف ما أنزل الله على رسوله، فهو جاهل ضال بإقراره على نفسه، فمن أين يعرف أنه على هدى في تقليده؟ وهذا جواب كل سؤال يوردونه في هذا الباب، وأنهم إنما يقلدون أهل الهدى فهم في تقليدهم على هدى.

فإن قيل: فأنتم تقرون أن الأئمة المقلدين في الدين على هدى فمقلدوهم على هدى قطعاً؛ لأنهم سالكون خلفهم، (قيل): سلوكهم خلفهم مبطل لتقليدهم لهم قطعاً، فإن طريقتهم كانت اتباع الحجة والنهي عن تقليدهم، فمن ترك الحجة وارتكب ما نَهوا عنه ونهى الله ورسوله عنه قَبْلهم فليس على طريقتهم وهو من المخالفين لهم، وإنما يكون على طريقتهم من اتبع الحجة وانقاد للدليل ولم يتخذ رجلاً بعينه سوى الرسول ﷺ يجعله مختاراً على الكتاب والسنة يعرضهما[٣] على قوله، وبهذا يظهر بطلان فهم من جعل التقليد اتباعاً وإيهامه وتلبيسه بل هو مخالف للاتباع، وقد فرق الله ورسوله وأهل العلم بينهما، كما فرقت الحقائق بينهما، فإن الاتباع سلوك طريق المُتَّبَع والإتيان بمثل ما أتى به»[٤].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]

قال (ك): «روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه «أنه لما بلغته دعوة الرسول ﷺ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ،

(١) في مطبوع «الإعلام»: «مهديًّا».
(٢) غير موجود في مطبوع «الإعلام».
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «يعرضها».
(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٤٨ ـ ٤٥٠ ـ بتحقيقي).

فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدثت الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: «إنهم لم يعبدوهم» فقال: «**بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**يا عدي ما تقول؟ أيضرك أن يقال: الله أكبر، فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرك... أيضرك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟**»(٢)؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «**إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون**»(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: [تعالى وتقدس و](٤)تنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه»(٥).

وقال الإمام صديق بن حسن القنوجي في «فتح البيان» ما نصه:

«قال الرازي في «تفسيره»(٦): قال شيخنا رضي الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأتُ عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إليَّ كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

والقول الثاني في تفسير هذه الربوبية: إن الجهال والحشوية إذا بالغوا في تعظيم شيخهم وقدوتهم فقد يميل طبعهم إلى الحلول والاتحاد، وذلك الشيخ إذا كان طالباً للدنيا بعيداً عن الدين، كأن يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له،

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) غير موجود في مطبوع «التيسير».
(٥) انظر: «التيسير» (٢/ ٣٣١).
(٦) انظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٣١) بتصرف.

وكأن يقول لهم: أنتم عبيدي، فكان يلقي إليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء، ولو خلا ببعض الحمقى[(١)] من أتباعه فربما ادعى الإلهية، فإذا كان ذلك مشاهداً في هذه الأمة فكيف يبعد ثبوته في الأمم السالفة؟ وحاصل الكلام أن تلك الربوبية تحتمل أن يكون المراد منها أنهم قبلوا أنواع الكفر، فكفروا بالله، فصار ذلك جارياً مجرى أنهم اتخذوا أرباباً من دون الله، ويحتمل أنهم أثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد، وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع في هذه الأمة». اهـ.

ثم قال القنوجي: «وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وإيثار[(٢)] ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدي بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم[(٣)] بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وحللوا ما حللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء.

فيا عباد الله! ويا أتباع محمد بن عبد الله! ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما، وطلبه منهم بما دلّا عليه وأفاداه، فعملتم بما جاؤوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسنة تنادي بأبلغ نداء، وتصوّت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموها آذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولاً مهيضة، وأذهاناً كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا مِنْ غزيَّة إنْ غَوَتْ غويتُ وإن ترشد غزية أرشد[(٤)]

فدعوا ـ أرشدكم الله ـ رأياً من كتبٍ كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم[(٥)] ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم،

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «الحمقاء» والمثبت من «تفسير الرازي» والأصل.
(٢) في مطبوع «فتح البيان»: «وتأثير». (٣) في مطبوع «فتح البيان»: «يعبدونهم».
(٤) انظر: «خزانة الأدب» (١١/ ٢٧٨)، و«الحماسة» (٢/ ٨١٥ ـ «شرح المرزوقي»).
(٥) في مطبوع «فتح البيان»: «خالفهم ـ بالفاء ـ وخالقكم».

واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم، وما جاؤوكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتهم وقدوتكم وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ:

دعوا كلَّ قولٍ عند قول محمد ... فما آمن في دينه كمخاطر

اللهم هادي الضال، مرشد التائه، موضح السبيل، اهدنا إلى الحق، وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: والحال أنهم ما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبياهم إلا بعبادة الله وحده، وما أمر الذين اتخذوهم أرباباً من الأحبار والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أرباباً؟». اهـ[١].

وقال محمد بن يوسف الشهير بالمواق في «شرحه لمختصر خليل» عند قول خليل: **«وجهر بها في مسجد كجماعة»**:

«كره مالك اجتماع القراء في سورة واحدة، وقال: لم يكن من عمل الناس، ورآها بدعة، قال محيي الدين النووي في قوله ﷺ: **«وما اجتمع قوم يتلون كتاب الله»**[٢]: «الحديث فيه جواز قراءة القرآن بالإدارة، وهو مذهبنا ومذهب الجمهور، وكرهه مالك، وتأول ذلك بعض أصحابه. (ابن رشد)»[٣] إنما كرهه مالك لأنه أمر مبتدع، ولأنهم يبتغون به الألحان على نحو ما يفعل في الغناء، فوجه المكروه في ذلك بيّن. [قال] المازري[٤]: «وظاهر الحديث يبيح الاجتماع لقراءة القرآن في المساجد، وإن كان مالك قد قال[٥] بالكراهة؛ لنحو ما اقتضى هذا الظاهر جوازه، وقال: يُقامون: أي يُطردون، ولعله لما صادف العمل لم يستقر[٦] عليه كره إحداثه، وكان كثيراً ما يترك بعض الظواهر

---

(١) انظر: «فتح البيان» (٣/ ١٠٤ ـ ١٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) ضمن حديث طويل عن أبي هريرة.

(٣) عبارة النووي في «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٣٥): «وفي هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد، وهو مذهبنا، ومذهب الجمهور، وقال مالك: يكره، وتأوله بعض أصحابه».

(٤) في «المعلم بفوائد مسلم» (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ط. الغرب).

(٥) بعدها في مطبوع «المعلم»: في «المدونة».

(٦) في مطبوع «المعلم»: «يستمر عليه، ورأى السلف لم يفعلوه مع حرصهم على الخير، =

للعمل»»[١].

وقال عز الدين بن عبد السلام في «قواعده»: من العجب العجيب أن يقف المقلِّد على ضعف مأخذ إمامه، وهو مع ذلك يقلده كأن إمامه نبي أرسل إليه، وهذا نأي عن الحق، وبُعْدٍ عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب، بل تجد أحدهم يناضل عن مقلّده، ويتحيل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأولها، وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس، فإذا ذكر لأحدهم خلاف ما وطن عليه نفسه، تعجب منه غاية العجب؛ لما ألفه من تقليد إمامه، حتى ظن أن الحق منحصر في مذهب إمامه! ولو تدبر لكان تعجبه من مذهب إمامه أولى من تعجبه من مذهب غيره.

فالبحث مع هؤلاء ضائع، مفضٍ إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة، فالأولى ترك البحث مع هؤلاء الذين إذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه، قال: لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه! ولا يعلم المسكين أن هذا مقابل بمثله، ويفضل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح، فسبحان الله! ما أكثر من أعمى التقليد بصره؟! حتى حمله على مثل ما ذكرته، وفقنا الله لاتباع الحق أينما كان وعلى لسان من ظهر»[٢]. اهـ بنصه.

قال ابن عبد البر في كتابه: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٧١):

«واعلم يا أخي أن الفروع لا حد لها تنتهي إليه أبداً؛ ولذلك[٣] تشعبت، فمن[٤] رام أن يحيط بآراء الرجال فقد رام ما لا سبيل له ولا لغيره[٥] إليه؛ لأنه لا يزال يرد عليه ما لم يسمع، ولعله أن ينسى أول ذلك بآخره؛ لكثرته فيحتاج أن[٦] يرجع إلى الاستنباط الذي يفزع منه ويجبن عنه تورعاً بزعمه أن غيره كان أدرى بطريق الاستنباط منه، فلذلك عوَّل على حفظ قوله ثم إن الأيام تضطره إلى الاستنباط مع جهله بالأصول فجعل الرأي أصلاً واستنبط عليه، وقد تقدم في

= كره...» وانظر ـ لزاماً ـ «الاعتصام» (٢/ ٩٤ ـ ٩٥) وتعليقي عليه.

(١) انظر: «التاج والإكليل» (٢/ ٦٨ ـ مطبوع بهامش «مواهب الجليل»).

(٢) بنحوه في «قواعد الأحكام» (٢/ ١٣٥) ونقله صاحب «التاج والإكليل» والمصنف ينقل منه، وكلام العز نقله أيضاً الدهلوي في «عقد الجيد» (١٥، ط. محب الخطيب).

(٣) في مطبوع «الجامع»: «فلذلك».

(٤) في مطبوع «الجامع»: «فلذلك من».

(٥) في مطبوع «الجامع»: «بغيره».

(٦) في مطبوع «الجامع»: «إلى أن».

كتابنا هذا كيف وجه القول واجتهاد الرأي على الأصول عندما ينزل بالعلماء من النوازل في أحكامهم ملخصاً في أبواب مهذبة من تدبرها وفهمها وعمل عليها نال حظه، ووفق لرشده إن شاء الله.

واعلم أنه لم تكن مناظرة بين اثنين أو جماعة من السلف إلا لتفهم وجه الصواب، فيصار إليه ويعرف أصل القول وعلته فيجري عليه أمثلته ونظائره، وعلى هذا الناس في كل بلد إلا عندنا كما شاء الله[١] ربنا، وعند من سلك سبيلنا من أهل المغرب، فإنهم لا يقيمون علة ولا يعرفون للقول وجهاً. وحسب أحدهم أن يقول: فيها رواية لفلان ورواية لفلان.

ومن خالف عندهم الرواية التي لا يقف على معناها وأصلها وصحة وجهها، فكأنه قد خالف نص الكتاب وثابت السنة، ويجيزون حمل الروايات المتضادة في الحلال والحرام وذلك خلاف أصل مالك، وكم لهم من خلاف أصول مذهبه[٢] مما لو ذكرناه لطال الكتاب بذكره. ولتقصيرهم عن علم أصول مذهبهم صار أحدهم إذا لقي مخالفاً ممن يقول بقول أبي حنيفة أو الشافعي أو داود بن علي أو غيرهم من الفقهاء، وخالفه في أصل قوله بقي متحيراً ولم يكن عنده أكثر من حكاية قول صاحبه فقال: هكذا قال فلان وهكذا روينا، ولجأ إلى أن يذكر فضل مالك ومنزلته، فإن عارضه الآخر بذكر فضل[٣] إمامه أيضاً صار في المثل كما قال الأول:

شكونا إليهم خراب العرا ... ق فعابوا علينا شحوم[٤] البقر
فكانوا كما قيل فيما مضى ... أريها السها وتريني القمر

وفي مثل ذلك يقول منذر بن سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ:

عذيري من قوم يقولون كلما ... طلبتُ دليلاً هكذا قال مالك
فإن[٥] عدتُ قالوا هكذا قال أشهب ... وقد كان لا تخفى[٦] عليه المسالك
[وقد قاله ابن القاسم العالم الذي ... على قصد منهاج الهدى هو سالك][٧]
فإن زدتُ قالوا قال سحنون مثله ... ومن لم يقل ما قاله فهو آفك

---

(١) غير موجود في مطبوع «الجامع».
(٢) في مطبوع «الجامع»: «مذهبهم».
(٣) في مطبوع «الجامع»: «يذكر فضائل».
(٤) في مطبوع «الجامع»: «لحوم».
(٥) في مطبوع «الجامع»: «وإن».
(٦) في مطبوع «الجامع»: «يخفى».
(٧) غير موجود في مطبوع «الجامع».

فإن قلت قال الله ضجُّوا وأكثروا وقالوا جميعاً أنت قرن مماحك
وإن قلتُ قد قال الرسول فقولهم أتت[1] مالكاً في ترك ذاك المسالك[2]

وأجازوا النظر في اختلاف أهل مصر وغيرهم من أهل المغرب فيما خالفوا فيه مالكاً من غير أن يعرفوا وجه قول مالك ولا وجه قول مخالفه منهم، ولم يبيحوا النظر في كتب من خالف مالكاً إلى دليل يبينه ووجه يقيمه لقوله وقول مالك، جهلاً منهم[3] وقلة نصح وخوفاً من أن يطّلع الطالبُ على ما هم فيه من النقص والتقصير[4] فيزهد فيهم، وهم مع ما وصفنا يعيبون من خالفهم ويغتابونه ويتجاوزون القصد في ذمّه؛ ليوهموا السامع أنهم على حق وأنهم أولى باسم العلم وهم ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وإن أشبه الأمور بما هم عليه ما قاله منصور الفقيه:

خالفوني وأنكروا ما أقول قلت لا تعجلوا فإني سؤول
ما تقولون في الكتاب فقالوا هو نور على الصواب دليل
وكذا سنة الرسول وقد أفلح من قال ما يقول الرسول
واتفاق الجميع أصل وما تنـ ـكر هذا وذا وذاك العقول
وكذا الحكم بالقياس فقلنا من جميل الرجال يأتي الجميل
فتعالوا نرد من كل قول ما نفى الأصل أو نفته الأصول
فأجابوا فناظروا فإذا العلم لديهم هو اليسير القليل

فعليك يا بني[5] بحفظ الأصول والعناية بها، واعلم أن من عني بحفظ السنن والأحكام المنصوصة في القرآن، ونظر في أقاويل الفقهاء فجعله عوناً له على اجتهاده، ومفتاحاً لطرائق النظر وتفسيراً لحمل السنن[6] المحتملة للمعاني، ولم يقلد أحداً منهم تقليد السنن التي يجب الانقياد إليها على كل حال دون نظر، ولم يرح نفسه مما أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبرها واقتدى بهم[7] في البحث والتفهم والنظر، وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونبهوه[8] عليه وحمدهم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم ولم يبرئهم من الزلل كما لم يبرئوا أنفسهم

(١) في مطبوع «الجامع»: «ائت».
(٢) في مطبوع «الجامع»: «المالك»!
(٣) في مطبوع «الجامع»: «فيهم».
(٤) في مطبوع «الجامع»: «والقصر».
(٥) في مطبوع «الجامع»: «أخي».
(٦) في مطبوع «الجامع»: «وتفسير الجُمَل».
(٧) في مطبوع «الجامع»: «واقتدائهم».
(٨) في مطبوع «الجامع»: «ونبهوا».

منه فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح وهو المصيب لحظه والمعاين لرشده والمتبع لسنة نبيه ﷺ وهدي صحابته ﷺ[(١)]، ومن أعفى نفسه من النظر وأضرب عما ذكرنا وعارض السنن برأيه، ورام أن يردها إلى مبلغ نظره، فهو ضال مضل»[(٢)].

ونقل الحافظ ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم» عن الإمام ابن هبيرة الحنبلي أنه قال: «من مكايد الشيطان أن يقيم أوثاناً في المعنى تعبد من دون الله، مثل أن يتبين لأحدهم الحق، فيقول: ليس عليه مذهبنا، تعظيماً لمقلد عنده قد قدمه على الحق»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: انظر إلى كرم رسول الله ﷺ وإنزاله الناس منازلهم ورحمته لعزيز قوم ذل، فإن أخت عدي ابنة حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود، أسرت مع من أسر من قومها، فلما وصلت إلى النبي ﷺ لم يقتصر على إطلاق سراحها بل زادها العطاء، فكان ذلك سبباً لأن تدعو أخاها عديّاً

(١) بعدها في مطبوع «الجامع»: «وعمن اتبع بإحسان آثارهم».

(٢) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ١١٣٧ ـ ١١٣٩).

(٣) نقله ابن النجار في «شرح الكوكب المنير» (٤/ ٥٧٦) عن ابن هبيرة ـ رحمهما الله تعالى ـ، ولم أظفر به في «جامع العلوم والحكم»! ثم وجدت الهلالي يقول في «العيون الزلالية» (١/ق ٢٣٤): «قرأت منذ زمان طويل في «شرح الحافظ ابن رجب الحنبلي لخمسين حديثاً من جوامع الكلم» ـ وهي «الأربعون النووية» وما زاده عليها من الأحاديث ـ كلاماً حسناً جداً، نقله عن ابن هبيرة الحنبلي وهو قوله رَحِمَهُ اللهُ: ...» وساقه، ثم قال: «وهذا قرأته في نسخة من خط اليد، ثم نظرتُ في المطبوع، فلم أجده، ولا أشك أن بعض شياطين المقلدين وقف على طبع الكتاب، فسطا على تلك العبارة، وحذفها» ثم تكلم على مقولة ابن هبيرة، فقال: وقول ابن هبيرة (أوثاناً في المعنى) في غاية الحسن، فقد قسم رَحِمَهُ اللهُ الأوثان إلى قسمين: قسم حسي كالتماثيل والقباب والقبور والأشجار والأحجار والنار والشمس والقمر. وقسم معنوي، كأن يتخيل المتمذهب أن هناك رجلاً اسمه مالك قد أحاط بكل شيء من الآيات والأحاديث علماً، وهو معصوم من الخطأ والزلل والنسيان، فكل ما قاله في الدين حق لا شك فيه، وإذا خالفه غيره فالحق دائماً معه، وأن الله نصبه واسطة بينه وبين المقلدين، فما أحله لهم فهو حلال، وما حرمه عليهم فهو الحرام، ولا يجوز لهم أن يتخطوا أقواله أبداً إلا إذا خالفه أحد المنتمين إلى مذهبه فلا بأس، إلى غير ذلك من الوساوس الشيطانية».

بعدما فرّ من بلاد الإسلام إلى الشام إلى إخوانه النصارى اليونانيين، فجاء إلى النبي ﷺ، وقد تبدل خوفه أمناً وبغضه حبّاً وإدباره إقبالاً، وكان في عنقه صليب من فضة، والنصارى لفساد عقولهم يعتقدون أن المسيح صلب من أجل إنقاذهم ويقدسون عقيدة الصلب ويجعلونها أهم شيء في دينهم، ولذلك يتبركون بالصلبان ويتخذونها من الذهب والفضة وغيرهما من المعادن أو الأخشاب، ويعتقدون أن اتخاذها في البيوت وتعليقها في الأعناق ينجيهم من الشر في الدنيا والآخرة، وإذا مروا بكنيسة خطوا بأصابعهم في الهواء صلباناً مشابهة للصليب الذي فوق الكنيسة، وقصة الصلب في «الأناجيل الأربعة» كذبها ظاهر لكل من يقرؤها، انظر كتابي «البراهين الإنجيلية»[١].

---

(١) قال المصنف فيه (ص٣٩ ـ ٤٤): «وحكايتهم لقصة قتله تشهد على دعواهم بالبطلان، ويتلخص ذلك في مسائل يجب على النصراني الطاعن في الإسلام أن يجيب عنها:
١ ـ هل كان الذين قبضوا على عيسى ـ بزعمكم ـ يعرفون شخصه أو لا يعرفونه؟ إنجيل متى يشهد بأنهم لم يكونوا يعرفونه.
٢ ـ هل كان ذلك ليلاً أو نهاراً؟ يقول إنجيل متى: إنه كان ليلاً.
٣ ـ من هو الذي دلهم عليه؟ يقول إنجيل متى: إنه تلميذه الثاني عشر (يهوذا الإسخريوطي).
٤ ـ هل دلهم على ذلك مجاناً أو بجعل جعلوه له؟ يقول إنجيل متى: إنه دلهم عليه بجعل جعلوه له ومقداره ثلاثون درهماً من الفضة.
٥ ـ كيف كانت حال المسيح في تلك الليلة؟ يقول إنجيل متى: إنه كان مضطرباً خائفاً يدعو الله ويقول في دعائه: اللهم إن كنت تقدر أن تصرف عني هذه الكأس فاصرفها، وهذا مستحيل أن يقوله مؤمن بالله، فضلاً عن نبي الله؛ لأن المؤمنين يعتقدون أن الله على كل شيء قدير.
٦ ـ كيف كانت حال تلاميذه الأحد عشر؟ يقول إنجيل متى: إن النوم غلبهم في تلك الليلة مع ما كان فيه أستاذهم؛ بزعمكم من الفزع.
٧ ـ هل كان عيسى عليه السلام راضياً عن حالهم؟ يقول إنجيل متى: إنه لم يكن راضياً وكان يجيء إليهم فيوقظهم ويقول: قوموا ادعوا الله واسألوه العافية من البلاء والفتن، ثم يجيء مرة أخرى فيجدهم نائمين فيوقظهم ويقول لهم مثل ذلك، وهذه الصفة لا تنطبق على التلاميذ الأبرار، وإن كانوا تلاميذ عالم من العلماء الصالحين، فكيف بتلاميذ المسيح عليه السلام؟!
٨ ـ هل نصروه حين قبض الأوباش عليه؟ يقول إنجيل متى: إنهم خذلوه وهربوا.
٩ ـ هل كان عيسى يحسن الظن بتلاميذه في تلك الليلة؟ يقول إنجيل متى: إنه أخبرهم أنهم سيخذلونه، ولما قال له أحدهم ـ وهو بطرس ـ: أنا لا أتبرأ منك ولو اضطررتُ أنْ =

ولما رأى النبي ﷺ الصليب في عنق عدي، قال له: «**ألق عنك هذا الوثن**» فالصليب وثن حسي، وكذلك القبة والقبر إذا عبدا ورجيت منهما البركة، وكل جماد ينسب إلى ملك أو نبي أو صالح ترجى منه البركة فهو وثن، وما أحسن كلام النبي ﷺ لعدي في بيان التوحيد.

فصل

قال محمد تقي الدين: فكل مَنْ جُعِل له التحليل والتحريم والإيجاب

= أموت، قال له المسيح: إنك ستتبرأ مني قبل أن يصيح الديك في هذه الليلة ثلاث مرات، قال إنجيل متى: وكذلك وقع.

١٠ ـ كيف أخذه أولئك الأوباش؟ يقول إنجيل متى: إنهم جاؤوه بسيوف وعصي، وبعدما دلهم عليه يهوذا الإسخريوطي قبضوا عليه وأخذوه إلى رئيس الأحبار، فحكم عليه بالموت ووافقه أحبار اليهود، فأخذه الأوباش وبصقوا في وجهه ولكموه، وبعد ذلك جردوه من ثيابه وألبسوه ثوباً أحمر، ووضعوا على رأسه إكليلاً من شوك، وأخذوا يستهزئون به، وقالوا له: أنت ملك إسرائيل بزعمك، وأهانوه أشد الإهانة.

١١ ـ من الذي بتَّ في حكم قتله؟ يقول إنجيل متى: إنه بلاطوس اليوناني الرومي الذي كان حاكماً على فلسطين في ذلك الزمان.

١٢ ـ لما جاء الأوباش إلى الحاكم بذلك الرجل، وأخبروه بأن أحبار اليهود حكموا عليه حكم التوراة بالقتل مصلوباً، هل صدقهم في قولهم بدون بحث؟ يقول إنجيل متى: إنه لم يصدقهم بل سأل ذلك الرجل أصحيح ما يقول هؤلاء؟ فسكت ولم يجب بشيء، وكرر عليه السؤال فاستمر على الصمت، وسكت عن قول الحق وكان الواجب عليه ـ ولو لم يكن نبيًّا ولا رسولاً ـ أن يصرح بالحق وينفي ما زعمه اليهود، وأرسلت زوجته إليه، وقالت: إياك أن توافقهم على قتل ذلك الرجل الصالح، فإني تألمت اليوم في حلم بسببه، وقد قال الإنجيل: إنه كان يخطب في جموع اليهود الخطب الطويلة، ويقرعهم ويوبخهم توبيخاً يبلغ حد الشتم والقذف فما باله يسكت اليوم، وقد سأله الحاكم وهو يريد نصرة الحق؟

١٣ ـ كيف كان صلبه بزعمهم؟ يقول إنجيل متى: إنهم صلبوه بين لصين، وكانا يشتمانه ويقولان له: إن كنت صادقاً فخلص نفسك.

١٤ ـ وهي الطامة الكبرى، ماذا قال وهو مصلوب بزعمكم؟ يقول إنجيل متى: إنهم سمعوه يقول بصوت عالٍ: (إيلي إيلي لما شبقتني) وهذا اللفظ سيرياني ومعناه: إلهي إلهي لماذا خذلتني، وهذا كفر بإجماع أهل الملل، ومن نسبه إلى نبي فهو كافر بجميع الأديان السماوية». انتهى بحروفه، فتدبره أخي القارئ جيداً، لتعلم مدى بُعدك عن الترهات والبواطيل، لمّا تستمسك بالعقيدة الصحيحة، القائمة على الأدلة الصريحة. .

والإباحة والاستحباب من المخلوقين فقد اتخذ ربّاً؛ حاشا رسل الله الذين يبلغون رسالات الله، ولا ينطقون عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فالرسل لا يطالبون بالدليل؛ لأن كلامهم في الدين نِعْمَ الدليل، وغيرهم لا يجوز قبول قوله إلا بدليل.

فصل

قال محمد تقي الدين: ما أحسن قول الإمام الرازي: «ولو تأملت وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا»(١).

سمى التقليدَ داءً، وقد أحسن في هذه التسمية، فإن التقليد أشد أمراض القلوب، فإن مرض الجسم يمنع الإنسان من الحركة والعمل اللذين بهما يتوصل إلى المنافع، والتقليد داء في القلب يمنعه من التفكير والبحث والاستدلال الذي يوصله إلى معرفة الحق.

فصل

قال محمد تقي الدين: قول الإمام الرازي: «ولو خلا بالحمقى من أصحابه فربما ادعى الإلهية»(١)، أقول: قد ادعاها الحلاج وابن العربي(٢) الحاتمي وابن سبعين وابن الفارض، انظر كتاب: «تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي»(٣) للإمام البقاعي، و«تاريخ مكة»(٤) للفاسي، وقد أنشد ابن عربي في «الفتوحات» لنفسه:

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (١٦/ ٣١).

(٢) يذكر الصوفي ـ قديماً ـ بالتعريف أيضاً، كالمالكي صاحب «أحكام القرآن»، وشتان ما بينهما!

(٣) أما ادعاء الحلاج فانظره في «تنبيه الغبي» (ص١٦٠)، وادعاء ابن عربي فيه أيضاً (ص٢٢)، وادعاء ابن الفارض فيه (ص٥٤ ـ ٥٥) ولم أجد لابن سبعين كلاماً في «تنبيه الغبي»، وانظر له كتاب: «الوحدة المطلقة عند ابن سبعين» لمحمد ياسر شرف، نشر بغداد، سنة ١٩٨١م.

(٤) هو المسمى بـ«العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» فقد ذكر فيه (٢/ ١٦١ ـ ١٩٩) بعض ما ادعاه ابن عربي من الكفر والضلال، وزيَّف جميع أقواله. وأجمع رد وقفتُ عليه للسخاوي «القول النبي» وقفتُ على نسخ خطية منه، ونسخت قسماً منه، ثم اتصل بي أحد الباحثين، وأخبرني أنه سجله أطروحة علمية، فأرسلت إليه منسوختي، ولا أدري ما حال الكتاب الآن!! =

العـبـدُ ربٌّ والـرَّبُّ عـبـدٌ يا ليتَ شِعري مَن المكلَّفُ
إنْ قلتَ عبدٌ فذاك حقٌّ أو قلتَ ربٌّ أنى يُكلَّفُ[(١)]

وقال فيها في تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٢] الآية ما نصه: «إن الذين عبدوا العجل ما عبدوا إلا الله»[(٢)]، وإلى ذلك أشار الإمام الصنعاني بقوله في «القصيدة الدالية»[(٣)] ـ التي تقدم بعضها في أول هذا الكتاب، ونص ما قال فيهم ـ يقصد ابن عربي الحاتمي ـ:

وأكفرُ أهلِ الأرضِ مَنْ ظنَّ أنهُ إلهٌ تعالى الله جَلَّ عن النِّدِّ
مُسمَّاه كلَّ الكائناتِ جميعها من الكلبِ والخنزيرِ والفهدِ والقردِ
وإنَّ عذابَ النار عَذْبٌ لأهلِها سواءٌ عذابُ النَّارِ أو جنَّةُ الخُلدِ

= ورأيت كتاباً مفيداً غاية، محرراً محققاً في الرد عليه للحسين بن الأهدل اليمني (ت٨٥٥هـ)، طبع في تونس سنة ١٩٦٤ بعنوان «كشف الغطاء عن حقائق التوحيد والرد على ابن عربي الفيلسوف المتصوف»، وطبع حديثاً للعلامة إبراهيم بن محمد الحلبي (ت٩٤٥) ـ وكان إمام وخطيب جامع السلطان محمد الفاتح ـ «نعمة الذريعة في نصرة الشريعة»، وهو أشمل رد علمي رصين على ضلالات وأكاذيب ابن عربي في «فصوص الحكم». وصدر لكمال محمد عيسى «نظرات في معتقد ابن عربي»، ولكمال أحمد عون «كتاب الفتوحات المكية وما وراءه من أيادٍ خفية»، وهي جميعاً مطبوعة، وغيرها كثير كثير، ولا داعي للإطالة، ففيما ذكرناه كفاية لمن رزق الهداية.

وأما كلام ابن الفارض الذي أومأ إليه المصنف فقد ذكره الفاسي في «العقد الثمين» (٦/ ٣٥١ ـ ٣٥٣)، وكلام ابن سبعين ذكره الفاسي في (٥/ ٣٢٧ ـ ٣٣٣) ولم أجد كلاماً للحلاج، وله كلام مذكور في «الرد على القائلين بوحدة الوجود» لعلي القاري (ص١٣١ ـ ١٣٢)، فانظره غير مأمور.

(١) انظر كتابي: «شعر خالف الشرع»، فقد أتيت على هذا الشعر ونحوه في (فصل) مستقلٍّ منه، وبيّنتُ مَنْ نقده، اللهم يسر وعجل في إتمامه ونشره، ولا سيما أنه طال وكاد أن يحوي (طاغوت الأدب) في هذا العصر، ولو بالإشارة.

(٢) لم أظفر به في مطبوع «الفتوحات المكية» **(ملاحظة)** ذكر الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في موطنين من «ذكرياته» (١/ ١٢١، ١٣٨) أن «الفتوحات المكية» مطبوع في نسخة كاملة في (قونية) بخط المؤلف، وأن جده الشيخ محمداً وتلميذه محمد الطيب هما اللذان تولّيا طبعه عنها! وقال عنه: «فيه كلام لا يشك في أنه كفر. وأنه أخذ الأفلاطونية الجديدة لأفلوطين فجعلها من الدين».

(٣) سبق توثيق هذا الشعر (ص٩).

وعُبّاد عجلِ السّامري على هدىً ... ولائمُهم في اللومِ ليس على رُشدِ
تناشدنا عنه نصوصُ فصوصِه ... تنادي خذوا في النّظم مكنونَ ما عندي
وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى ... بي الأمرُ حتى صار إبليسُ من جُندي
فلو مات قبلي كنت أدركتُ بعده ... دقائقَ كفرٍ ليس يدركها بعدي
يلوذون عند العجز بالذّوق ليتهم ... يذوقون طعمَ الحقّ فالحقُّ كالشّهدِ
فقلنا لهم ما الذّوقُ قالوا مثالُه ... عزيزٌ فلا بالرَّسم يُدْرَكَ والحَدِّ
فَفَسْرُهم بالكشف والذَّوقِ مُشعرٌ ... بأنَّهم عن مطلب الحقِّ في بُعْدِ
ومَنْ يطلب الإنصافَ يدلي بحجَّةٍ ... ويرجع أحياناً ويُهْدَى ويستهدي
وهيهات كل في الديانة تابع ... أباه كأن الحقَّ بالأبِ والجَدِّ

فصل

قال محمد تقي الدين: إيراد المواق لكلام عز الدين بن عبد السلام قصد به الرد على الذين يقدسون قول مالك، إذا جاء مخالفاً لما يفهم من حديث النبي ﷺ والذي كرهه مالك وأباحه الشافعي واستدل عليه النووي[1] بحديث أبي هريرة عند مسلم: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم**»[2] الحديث، هو القراءة بالإدارة كما قال النووي، وذلك أن يجتمع جماعة من القراء فيقرؤون بالتناوب في سورة واحدة، يقرأ أحدهم آيات محدودة ثم يسكت، ويقرأ الذي يليه عن يمينه نصيباً معلوماً، ثم يقرأ الذي يليه، وهكذا حتى ترجع النوبة إلى الأول، وكل منهم يجتهد أن يجود قراءته ليستمتعوا باختلاف الأصوات والنغمات، أما القراءة التي جاءت من الأندلس إلى المغرب في زمان الموحدين ـ على ما يقال ـ وهي القراءة بصوت واحد مجتمعين لا يستمع أحد لأحد فهي بدعة، لم يعرفها مالك ولا وقعت في زمانه؛ لأنها مأخوذة من الكنيسة النصرانية، فإن النصارى يرتلون صلواتهم من الأناجيل بصوت واحد فهذه بدعة جديدة وفيها مفاسد متعددة:

الأولى: إنها بدعة، وكل بدعة ضلالة.

الثانية: إن فيها معصية لله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

---

(١) في «شرحه على صحيح مسلم» (١٧/ ٣٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.

الثالثة: إن كل واحد من القراء تنقطع قراءته عند اضطراره إلى التنفس، فتفوته كلمة أو كلمات.

الرابعة: إنهم يضطرون إلى قطع المد الواجب، لأجل التنفس في نحو: جاء وشاء، وذلك حرام، وفي نصوص محمد التهامي بن الطيب السجلماسي الغرفي صاحب «نصرة الكتاب» ما نصه:

«الجمع بين الوصل والوقف حرام، نص عليه غيرُ عالم همام، هذا في الوقف على آخر الكلمة دون سكت، فكيف بمن يقطع الكلمة نصفين؟»».

وقد شرع أخونا حسن وجاج في تأليف كتاب يقيم فيه البراهين القاطعة على بدعة ما يسمى عند المغاربة بالحزب، ويحدد تاريخ وصولها إلى المغرب وما فيها من المفاسد، وهو عمل مشكور نرجو أن ينفع الله به من شاء من عباده حتى يقضي على هذه البدعة التي أصيب بها المغاربة وحدهم دون جميع المسلمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[(١)].

قول الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالأولى ترك البحث مع هؤلاء»؛ لأن البحث مع المقلد كالكلام مع البهيمة، بل بعض البهائم يفهم ما يقال له ويستجيب إذا دعي، كالكلب المعلم والقرد[(٢)]، والمقلد لا يكاد يفهم ولا

---

(١) انظر لهذه المسألة بتفصيل: «البدع» لابن وضاح (ص٣٩ وما بعد) «المعيار المعرب» (١١/ ٣٩ وما بعد، ١١٢)، «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص٢٤٣ ـ ٢٤٤ ـ بتحقيقي)، و«الحوادث والبدع» للطرطوشيّ (ص١٤٩) و«المدخل» لابن الحاج (١/ ٩١، ٩٦) و«فتاوى الشاطبي» (١٩٣ ـ ١٩٧) و«الاعتصام» (١/ ٤٦ و٢/ ٦٠ ـ ٦١، ٨٥ ـ ٨٧، ٩٢ ـ ٩٤ ـ بتحقيقي) وتعليقي عليهما، «المكتفى في الوقف والابتدا» لأبي عمرو الداني (ص١١٢ ـ ١١٥)، و«نظام الأداء في الوقف والابتداء» لابن الأصبغ الأندلسي. ولحسن وجاج مقدمة نافعة في المسألة وضعها في أول تحقيقه لكتاب «تقييد وقف القرآن» لمحمد بن أبي جمعة الهبطي (ت٩٣٠هـ)، وهو مطبوع بمطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء. والمصنف يريد ما قام به الشيخ وجاج في أطروحته للدكتوره من دار الحديث الحسنية بالرباط سنة ١٤٠٧هـ، من دراسة وتحقيق نظم «المنبهة» للداني، وخصص الشيخ وجاج فصلاً في قسم الدراسة في بيان بدعية هذه القراءة الجماعية.

(٢) ولذا نص ابن النجار في «منتهى الإرادات» (٢/ ٤٨٣) وغيره من الحنابلة أنّ مَن علّم قرداً السرقة، فعليه الغُرم فقط، وقال المناوي في «فيض القدير» (١/ ٤٩١): «وقد صحَّ أن جمعاً رأوا أنّ قرداً خياطاً، وآخرون رأوا قرداً يحرس الحوانيت بالأجرة»، قال: «والحكايات في مثل هذا كثيرة»، وذكر المسعودي في «التنبيه والإشراف»، (٣٤٠) عن =

يجيب، فهو كما قال ابن المعتز: «لا فرق بين بهيمة تنقاد وإنسان يقلد»، وتقدمت أبيات الحافظ ابن عبد البر التي يقول فيها:

لا فـرق بـيـن مـقـلِّـدٍ وبـهـيـمـةٍ   تـنـقـادُ بـيـن جـنـادلَ ودعـاثـر[1]

ولكن هنالك طريق آخر لإيصال الحق إلى القلوب السليمة، وهو طريق الدعوة إلى اتباع الكتاب وطرح التقليد والمذهب. وقد سلكنا هذا الطريق منذ خمس وخمسين سنة فوجدناه مفيداً له ثمرة طيبة وفيه القضاء على المقلدين من أدعياء الفقه؛ لأنهم إذا رأوا العامة أعرضوا عنهم حين تبين لهم نور الكتاب والسنة، ونبذوهم نبذ الحذاء الممزق، يُسْقَط في أيديهم ويبقون وحدهم منعزلين كالبعير الأجرب، فيرجع كيدهم في نحورهم ولا يضرون إلا أنفسهم.

قوله: «ولا يعلم المسكين. . . إلى آخره» مثل ذلك: مقلِّد يزعم أنه مالكي، يعادي سنة وضع اليمنى على اليسرى عند القيام في الصلاة، تناظر مع حنفي أو شافعي أو حنبلي أو مالكي مهتدي، فيقول المدعي أنه مالكي: وضع اليمنى على اليسرى مكروه والسنة السدل، فيقول له خصمه: وما دليلك؟ فيقول: دليلي ما جاء في «المدونة»، وهو أن سحنوناً روى عن ابن القاسم أن مالكاً كره وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة الفريضة لما فيه من الاعتماد المزعوم، فيقول له خصمه: وقد روى إمامي أنا عن شيوخه خلاف ذلك، وشيوخ إمامي أقدم من إمامك، وأقرب إلى زمان النبوة، فيسقط كلامه بكلام خصمه، ويفضل لخصمه الدليل القاطع الذي رواه جميع الأئمة ومنهم إمامه على حسب دعواه، فإن البخاري ومسلماً رويا حديث «وضع اليمنى على اليسرى» عن مالك، ولم يثبت أن مالكاً سدل يديه، بل قال ابن عبد البر ـ وهو أعلم الناس بعلم مالك ـ[2]:

«ما زال مالك يقبض حتى قبضه الله»، وجميع أصحاب مالك من العراقيين والحجازيين والمصريين إلا ابن القاسم على قول الحافظ ابن عبد البر. «وعلى

= الأسود العنسي الكذاب: «كان له حمار قد راضه وعلَّمه، فكان يقول له: اسجد؛ فيسجد، ويقول له: اجثُ فيجثو، وغير ذلك من أمور كان يدّعيها، ومخاريق كان يأتي بها، يجتذب بها قلوب متّبعيه» وانظر: كتابي «المروءة وخوارمها» (ص٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(١) سبق ذكره (٢/ ٤٧) وانظر (٤/ ٦٢).

(٢) سبق ذكر هذه المسألة، وبعض الأحاديث التي فيها، وسردت أسماء المصنفات المفردة حولها. انظر التعليق على (ص١٦ ـ ١٨).

هذا الناس في كل بلد، إلا عندنا كما شاء الله ربنا، وعند من سلك سبيلنا من أهل المغرب فإنهم لا يقيمون علة ولا يعرفون للقول وجهاً، وحسب أحدهم أن يقول: فيها رواية لفلان ورواية لفلان»[1]، إلى آخر ما تقدم نقله، يدلك على أن هذا المرض وهو الجمود على الفروع التي هي من آراء الرجال بدون دليل ظلمات بعضها فوق بعض، هذا المرض قديم في الأندلس والمغرب، فإن الإمام ابن عبد البر من علماء القرن الخامس فإنه (توفي سنة ٤٦٣) وقد مضى على وفاته أزيد من تسع مائة سنة زاد فيها الجهل والبعد عن الكتاب والسنة وذهب أمثاله من العلماء الذين كانوا ينورون الظلمات ويقمعون أهل التقليد والرأي، ولكن حتى في زماننا هذا ـ ولله الحمد ـ يوجد بصيص من نور الكتاب والسنة أوقده شيخنا محمد بن العربي العلوي[2] رحمة الله عليه، واقتبسه من كتب الشيخين الربانيين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، زادنا الله من هذا النور، فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله[3].

وقول الحافظ ابن عبد البر في إنشاده البيتين:

شكونا إليهم خراب العرا ق فعابوا علينا شحوم البقر[4]

أنشده الحافظ ابن القيم في هذا المعنى، وسأشرحه حسب ما يظهر لي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فهو مني:

خراب العراق: معناه القحط والجدب وقلة الطعام. وشحوم البقر: معناه التوسع في المآكل والمشارب.

ومعنى ذلك أنهم فهموا ضد ما أردنا كما في المثل العربي القديم (أريها

---

(١) نحوه في «التمهيد» (٥/ ٥٩).

(٢) هو الذي تاب الهلالي على يديه بعد مناظرة طويلة معه، سقناها في تقديم هذا الكتاب، ومصادر ترجمته هناك.

(٣) انتشرت في هذه الآونة ـ ولله الحمد والمنة ـ الدعوة إلى الكتاب وصحيح السنة، بفهم سلف الأمة، وأينعت جهود المصلحين في المشرق والمغرب، ومن سنة الله الكونية والشرعية عدم تضييع عمل المصلحين المحسنين، نعم، قد لا يرون الثمرة، ولكن ينعم بها من يجيء بعدهم، كما هو حاصل في دعوة ابن تيمية، ودعوة ابن عبد الوهاب، ودعوة ابن باز، ودعوة الألباني، ـ رحمهم الله ـ جميعاً. وألحقنا بهم في الصالحين.

(٤) سبق ذكره.

السها ـ كوكب صغير يكاد لا يرى بالبصر ـ، والقمر واضح)[١] يراه كل ذي بصر، فيضرب هذا المثل لمن يتكلم في أمر دقيق لا يفهمه إلا الأذكياء، يقابل بأمر واضح يفهمه جميع الناس ولا يحتاج إلى بحث، كالذي يعلّم إنساناً دقائق علم الجبر فيقول له: «الواحد نصف الاثنين».

وحضرني الآن مثل يضرب في بلدنا سجلماسة، وهو قولهم: كانت امرأة فقيرة تحمل ابنها الصغير وهو يبكي، وكانت تتكلم مع امرأة غنية ومعها ابنها أيضاً، فقال ابن الغنية لأمه: لماذا يبكي هذا؟ فقالت: من الجوع يا بني، فقال لها: فهلا صعد إلى غرفة بيته وأكل بوسكري ـ وبوسكري بلغة المغاربة، هو: التمر المعروف بالسكري في بلاد نجد وهو أفضل أنواع التمر ـ. فظن الغلام أن كل غرفة يوجد فيها السكري كما يوجد في غرفة أبيه وأمه، وفي هذا النوع من التمر قال الأديب الكبير والعالم المحقق فخر سجلماسة بل فخر المغرب أحمد بن عبد العزيز الهلالي[٢]:

جدير بأنْ يُدعى الشَّهي أبو سكَّري ... أبا سكر بين الثمار بلا نكري
يكاد يحاكي في لذاذة طعمه ... مذاكرتي في العلم مع أبوي بَكْري

وكان لهذا العالم تلميذان كل منهما يدعى أبا بكر، وإليهما أشار بقوله (مذاكرتي في العلم مع أبوي بكري).

قال محمد تقي الدين: منذر بن سعيد إمام حافظ حجة، انظر ترجمته في «نفح الطيب»[٣]، وله أخبار ظريفة طريفة، وهذه الأبيات تدل على علمه وأنه كان يحارب التقليد والعصبية الجاهلية للمذهب، وقد صرح بأن معاصريه من المقلدين

---

(١) تتمته في كتب الأمثال: «وتريني القمر». انظر: «المستقصى» للزمخشري (١/ ١٤٧)، و«مجمع الأمثال» لأبي الفضل الميداني (٢/ ٣١).
قال الزمخشري: «وأصله أن رجلاً كان يكلم امرأة بالخفيّ الغامض من الكلام، وهي تكلمه بالواضح المبين، فضرب السهى والقمر مثلاً لكلامه وكلامها، ويضرب لمن اقترح على صاحبه شيئاً، فأجابه بخلاف مراده».
وقال الميداني: «يُضرب لمن يغالط فيما لا يخفى».

(٢) ستأتي ترجمته في التعليق على (٦/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

(٣) انظر ترجمته في: «نفح الطيب» (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩٣). وله ترجمة فيه «جذوة المقتبس» (٢/ ٥٥٥) رقم (٨١١)، و«تاريخ علماء الأندلس» لأبي الوليد الأزدي (٢/ ١٤٤) رقم (١٤٥٤).

الدواب، جعلوا قول مالك وابن القاسم وأشهب وحتى سحنون الذي هو أحد تلاميذ مالك كل ذلك جعلوه حجة يخالفون من أجله كتاب الله وسنة رسوله، ويحاربون من اقتدى بهما، ويقولون له: أنت قرن مماحك، أي: خصم مغالط، وإذا احتج عليهم بالحديث الصحيح المحكم، قالوا له: هذا الحديث لا يخفى على مالك وما تركه إلا لعلة أوجبت تركه، كأن مالكاً أحاط علماً بجميع أحاديث الرسول ﷺ، لا يغفل عن شيء منها ولا يسهو، ولا يخطئ في فهم شيء، كذبوا، والله مالك بريء من هذا القول على أن الأحاديث المسندة في «الموطأ» لا تزيد على خمسمئة[1]، والأحاديث الصحيحة والحسنة

---

(١) «الموطأ» روايات و«أكثرها زيادة رواية أبي مصعب» قاله العلائي، وهو مطبوع، وآخر رقم فيه (٣٠٦٩) وهو رقم عام، يدخل فيه كلام الإمام أيضاً! قال ابن حزم: «في «موطأ أبي مصعب هذا زيادة على سائر الموطآت» نحومئة حديث» وذكر صديقنا الدكتور بشار عواد في تحقيقه له (١/ ٤١) أن الزيادات التي وقف عليها فيها خمسة عشر حديثاً، هذا بالنسبة لرواية يحيى بن يحيى المصمودي، وآخرين مرسلين، وواحداً متصلاً فيها، بلاغاً في رواية يحيى، وستة أحاديث مرسلة لا ذكر لها في رواية يحيى أيضاً فهذه أربعة وعشرون حديثاً متصلة لم ترد ـ أصلاً أو متصلة ـ في رواية يحيى وكلام ابن حزم في الزيادات على جميع الروايات، وهو متجه.

قال ابن حزم في «مراتب الديانة» ـ كما في «تدريب الراوي» (ص٥٤ ـ ٥٥) ـ: «وأحصيتُ ما في «موطأ مالك»، فوجدتُ فيه من المسند خمس مئة ونيفاً، وثلاث مئة مرسلاً ونيفاً» وانظره بتمامه في «نوادر ابن حزم» (١/ ٢٤).

ونقل الخليلي في «الإرشاد» (١٩٤) عن البويطي أنه سمع الشافعي يقول: «أصول الأحكام نيف وخمس مئة حديث، كلها عند مالك: إلا ثلاثين حديثاً».

وذكر ابن عبد البر في نهاية «التجريد» الأحاديث التي لم تذكر في رواية يحيى الليثي، وهي ثابتة في روايات آخرى من روايات الموطأ، وحصيلة هذه الزيادة (أربع وستون حديثاً).

وهنالك، أقاويل ذكرها القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٩٣) والزرقاني في «شرحه على الموطأ» (١/ ١٢، عن الكيا الهرَّاسي أن «الموطأ» كان تسعة آلاف حديث، وفي رواية عتيق الزبيري: عشرة آلاف حديث، ثم لم يزل ينتقي مالك حتى رجع إلى سبع مئة، والدراسة والتمحيص تردّ هذه الأقوال، كما بسطه الأستاذ الشيخ محمد مصطفى الأعظمي في تقديمه لتحقيق «الموطأ» (١/ ٩٦ ـ ١١٢).

ومما يعين على ضبط العدد: ما قام به أبو العباس الداني (ت٥٣٢هـ) في كتابه «الإيماء إلى أطراف أحاديث كتاب الموطأ»، فإنه رتب الأحاديث على مسانيد الصحابة، وذكر عدد كل حديث، وهو مطبوع عن مكتبة المعارف، في خمسة مجلدات. =

تعد بآلاف، يعلم ذلك كل من له أدنى علم بالحديث، ومالك رحمه الله بريء منهم كما تقدم.

قوله: «وأجازوا النظر في اختلاف أهل مصر وغيرهم من أهل المغرب فيما خالفوا فيه مالكاً ـ إلى آخره ـ.

هذا من عجائب المتمذهبين، يعتدّون بالخلاف في داخل المذهب وإن لم يكن عليه دليل ولا يعتدون بالخلاف في خارج المذهب وإن كان معه ألف دليل، فمثلهم مثل الأحزاب في هذا الزمان فأهل الحزب الواحد إذا وقع بينهم اختلاف يأخذون برأي الأكثر، أما إذا وقع بينهم وبين حزب آخر الخلاف فإنهم يضربون به عرض الحائط، وقد تقدم أن الواجب على المؤمنين بالله أن يردوا كل نزاع إلى الوحي والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قول منصور الفقيه: «هذا وذا وذاك». يريد الكتاب والسنة والإجماع، فتأملوا رحمكم الله فيما نقلته من كلام هذا الإمام، فلّله دره ما أنصحه للأمة! وما أعلمه بأمراضها ودوائها! جعلنا الله وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

= وللأستاذ نذير حمدان في كتاب «الموطآت» (ص١٩١ ـ ١٩٣) كلمة جامعة عن عدد الأحاديث التي في «الموطأ».

ولا يفوتني ـ أخيراً ـ هنا نقلان:

الأول: ما ذكره الذهبي في ترجمة (الإمام مالك) في «السير» (٨/ ٥١) عند سرد شيوخه، وذكر إلى جانب كل واحد منهم ما روى عنه في «الموطأ»، وقال بعد سردهم على حروف المعجم: «فعنهم كلهم ست مئة وستة وثلاثون حديثاً، وستة أحاديث عمن لم يسم، واختلف في ذلك في أحد وسبعين حديثاً».

والآخر: قال الحافظ أبو القاسم الجوهري (ت٣٨١هـ) في آخر كتابه «مسند موطأ» (ص٦٤٠) ـ وقد جمع فيه اثنتي عشرة رواية لـ«الموطأ» ـ: «فذلك ست مئة حديث وستة وستون حديثاً، منها سبعة وتسعون حديثاً اختلفوا فيها، وتسعة وعشرون حديثاً مرسلة، وخمسة عشر حديثاً موقوفاً».

فالأحاديث التي في «الموطأ» تزيد على خمس مئة بمئة ونيف، بالنظر إلى مجموع الروايات، وليس كما قال المصنف ـ عفى الله عنا وعنه ـ: «لا تزيد على خمس مئة»، ولعله قال هذا بالنظر إلى رواية يحيى الليثي، وهي المشهورة المتداولة، والله أعلم.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٢]

قال (ك): «عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه[١] عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون فيه[٢] ويقولون للنبي[٣] ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا[٤] قدمنا عليهم، قال: فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا[٥]: من أسلم فهو منا، وينذرونهم ربهم[٦] حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة»[٧].

قال محمد تقي الدين: ومن المناسب أن يذكر هنا حديث مالك بن الحويرث الذي رواه البخاري في «صحيحه»:

قال مالك بن الحويرث: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ، فأقمنا عنده ست عشرة ليلة أو سبع عشرة ليلة وكان رحيماً، فرأى أنا قد اشتقنا إلى أهلنا، فقال: **«ارجعوا فعلِّموا من وراءكم، وإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم سنّاً، وصلوا كما رأيتموني أصلي»**[٨].

نفهم من هذا أن الناس كانوا يرحلون من أوطانهم إلى النبي ﷺ، ليتعلموا منه ويشاهدوا صلاته ووضوءه ويسمعوا أحاديثه ويتفقهوا في دين الله، عند سيد

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويسألونه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في دينهم».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لنبي الله».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نقول لعشائرنا إذا».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نادَوْا إن».
(٦) من مطبوع «تفسر ابن كثير»، وسقطت من الأصل.
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/٣١٨ ـ ٣١٩).
(٨) أخرجه البخاري (٦٠٠٨)، ومسلم (٦٧٤).

المعلمين، وخير الفقهاء، وإمام الأئمة صلوات الله وسلامه عليه.

قال البخاري[1] في كتاب العلم: «باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». ثم روى بسنده عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»**.

قال الحافظ في «الفتح»: «وهذا الحديث مشتمل على ثلاثة أحكام:

أحدها: فضل التفقه في الدين.

وثانيها: إن المعطي في الحقيقة هو الله.

وثالثها: إن بعض هذه الأمة يبقى على الحق أبداً. فالأول: لائق بأبواب العلم، والثاني: لائق بقسم الصدقات، والثالث: لائق بذكر أشراط الساعة، وقد أورده المؤلف في (الاعتصام) لالتفاته إلى مسألة عدم خلو الزمان عن مجتهد، والمراد «بأمر الله» هنا: الريح التي تقبض روح كل من في قلبه شيء من الإيمان ويبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة». ثم قال الحافظ: «وقد جزم البخاري بأن المراد بهم أهل الحديث[2] بالآثار، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: المراد بالتفقه في الدين في الآية والحديث معرفة معاني كتاب الله وأحاديث: رسول الله ﷺ وكل علم يوصل إلى ذلك، أما الفروع المولدة التي يسميها المتأخرون فقهاً، فهي فقر وجهل ولا تمت إلى الفقه بصلة، وقد تقدم الكلام في ذلك، وجزم البخاري[4] وأحمد بن حنبل[5] بأن المراد

---

(١) أخرجه البخاري (٧١).

(٢) في مطبوع «فتح الباري»: «العلم».

(٣) انظر: «فتح الباري» (١/ ٢١٦).

(٤) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص٦٢) **بسندٍ صحيح**، وانظر: «الحجة في بيان المحجة» (١/ ٢٤٦).

(٥) أخرج ذلك عنه: الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص٣) **بسندٍ صحيح**، وصححه ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٣٠٦)، وأخرجه أيضاً: الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص٥٧، ٦١)، وابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٢٣٥)، وانظر: «الآداب =

بالطائفة التي أخبر الرسول ﷺ بوجودها في أمته حتى يأتي أمر الله هم العلماء بالحديث العالمون به الداعون إليه.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩]

قال (ك): «يقول الله تعالى ممتناً على المؤمنين [لما][(١)] أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبلُغَتِكم كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته... وذكر الحديث[(٢)]»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: وقيل معناه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يا بني آدم فاتباعه أسهل عليكم من اتباع رسول من الملائكة. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه كل ما يوقعكم في العنت والشدة والمشقة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم وسعادتكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة مشفق عليهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة إذا خالفوه وعصوا ربهم، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: أعرضوا عن الإيمان والاتباع ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: يكفيني ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت وقد ضمن لي النصر على من ناوأني وعاداني، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو على نصر رسوله ومن اتبعه قدير.

= الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢١١)، و«السلسلة الصحيحة» (١/ ٥٤٣).

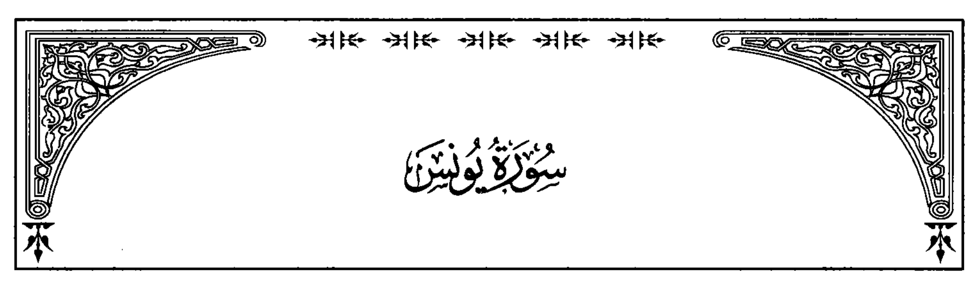
(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بما».

(٢) سبق بطوله وهناك تخريجه.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٢٤).

وفي «صحيح البخاري» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يصدهم عنها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تأبون إلا أن تقحموا فيها**»[١] هذا معنى الحديث، فالنبي ﷺ حريص على إبعادنا عن كل شر، وأن يوصلنا إلى كل خير، فمن اتبع الرسول في كل ما جاء به وانتهى عما نهاه عنه ظفر بالسعادة الكبرى، ومن قصر عن ذلك كانت سعادته بقدر ما وفق إليه من الاتباع. وأبواب الشر التي حرص الرسول ﷺ أن يبعدنا عنها، هي: الشرك والابتداع والتقليد والمعاصي.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٦٠]

قال القنوجي في «فتح البيان» ما نصه باختصار:

«﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قيل: أراد قريشاً وقيل: هو على العموم، وهو الأولى ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾؛ يعني: القرآن يَتعظ[١] به من قرأه[٢] وعرف معناه، والوعظ: هو التذكير بالعواقب بالترغيب والترهيب ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: موعظة كائنة من مواعظ ربكم ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من الشكوك التي تعتري بعض المرتابين، وإنما خص الصدر بالذكر؛ لأنه موضع القلب. وداء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن، والقرآن مزيل لأمراض القلب كلها، والهدى الإرشاد لمن اتبع القرآن وتفكر فيه وتدبر معانيه إلى الطريق الموصل إلى الجنة والرحمة، هي ما يوجد في الكتاب العزيز من الأمور التي يرحم بها عباده ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ المراد بالفضل من الله سبحانه، هو: تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**فضل الله: القرآن، ورحمته أن**

---

(١) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «يتعض».
(٢) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «رآه».

جعلكم من أهله»[١]. رواه أبو الشيخ، والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم، والفرح هو اللذة في القلب بسبب إدراك المطلوب ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا ولذاتها الفانية.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أنكم تحكمون بتحليل البعض وتحريم البعض، فإن كان بمجرد الهوى فهو مهجور باتفاق العقلاء مسلمهم وكافرهم، وإن كان لاعتقادكم أنه حكم الله فيكم وفيما رزقكم فلا تعرفون ذلك إلا بطريق موصلة إلى الله، ولا طريق يتبين بها الحلال من الحرام إلا من جهة الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده، ومعنى إنزال الرزق: كون المطر ينزل من جهة العلو ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذا التحليل والتحريم، والهمزة للإنكار ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ قال الكرخي: وكفى به زاجراً لمن أفتى بغير إتقان كبعض فقهاء هذا الزمان» اهـ. وإظهار الاسم

---

(١) سيأتي عند أبي الشيخ عن أبي سعيد الخدري قوله!

وورد نحوه من حديث أُبيّ بن كعب، أخرجه الطيالسي (٥٤٥)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٦٤ و١٢/ ١٤١)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» رقم (٥٤، ٥٥)، وأحمد (٥/ ١٢٢ ـ ١٢٣) في «مسنديهما»، والبخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧)، وأبو داود (٣٩٨٠، ٣٩٨١)، وابن سعد (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١)، وابن جرير في «التفسير» (١٥/رقم ١٧٦٨٨، ط. شاكر)، والحاكم (٢/ ٢٤٠ و٣/ ٣٠٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥١) وفي «معرفة الصحابة» (٢/رقم ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥/رقم ٢٣٥٦) **وإسناده حسن.**

وورد باللفظ المذكور عن جمع من الصحابة، وهذا ما وقفتُ عليه منها: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٣٤٧) عن البراء موقوفاً، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٣٦) ـ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٥٢٤) ـ، وابن جرير (١٥/رقم ١٧٦٦٨، ط. شاكر)، وابن أبي حاتم (رقم ٢١٥١، ٢١٦١ سورة يونس)، وسعيد بن منصور رقم (١٠٦٤)، وأبو الشيخ ـ ومن طريقه الواحدي في «الوسيط» (٢/ ٥٥١) ـ عن أبي سعيد موقوفاً وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٥، ط. الفكر): «رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه عطية العوفي وهو ضعيف».

قلت: وفيه حجاج بن أرطاة صدوق كثير الخطأ والتدليس. وأخرجه سعيد بن منصور (١٠٦٣) ـ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٥/رقم (٢٣٥٧) ـ وابن أبي حاتم (٢١٦٣ ـ يونس) عن ابن عباس قوله، **وإسناده صحيح**. وله طريق أخرى عن ابن عباس عند أبي عبيد في «فضائل القرآن» رقم (٢٠، ٢١) وابن أبي حاتم (٢١٥٣ ـ يونس) **بإسناد ضعيف جداً، مسلسل بالعوفيين الضعفاء.**

الشريف وتقديمه على الفعل للدلالة على كمال قبح الافتراء.

قلت: وفي هذه الآية الشريفة ما يصك مسامع المتصدرين للإفتاء لعباد الله في شريعته بالتحليل والتحريم، والجواز وعدمه، مع كونهم من المقلدين الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمونها ولا يدرون ما هي، ومبلغهم من العلم الحكاية لقول قائل من هذه الأمة قد قلدوه في دينهم، وجعلوه شارعاً مستقلّاً: ما عمل به من الكتاب والسنة فهو المعمول به عندهم، وما لم يبلغه أو بلغه ولم يفهمه حق فهمه وأخطأ الصواب في اجتهاده وترجيحه فهو في حكم المنسوخ عندهم، المرفوع حكمه عن العباد، مع كون مَنْ قلَّدوه متعبَّداً بهذه الشريعة كما هم متعبدون بها، ومحكوماً عليه بأحكامها كما هم محكوم عليهم بها، وقد اجتهد رأيه وأدى ما عليه وفاز بأجرين مع الإصابة وأجر مع الخطأ، إنما الشأن في جعلهم لرأيه الذي أخطأ فيه شريعة مستقلة ودليلاً معمولاً به!! وقد أخطؤوا في هذا خطأً بيناً وغلطوا غلطاً فاحشاً، فإن الترخيص للمجتهد في اجتهاد رأيه يخصه، ولا قائل من أهل الإسلام المعتد بأقوالهم أنه يجوز لغيره أن يعمل به تقليداً له واقتداءً به. وما جاء به المقلِّدة في تحسين هذا الباطل، فهو من الجهل العاطل.

اللهم كما رزقتنا من العلم ما نميز به الحق والباطل، فارزقنا من الإنصاف ما نظفر به بما هو الحق عندك يا وهاب الخير. قال النسفي[1]: «الآية زاجرة عن التجوّز فيما يسأل من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه وأن لا يقول أحد في شيء: جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، وإلا فهو مفترٍ على الديان»»[2].

وقال الحافظ ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٩٣) في الرد على المقلِّدين الذين يحلون ويحرمون بآرائهم وآراء غيرهم، بدون دليل من الكتاب والسنة.

«وقد قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] ولم يقل: إلى أقيستكم[3] وآرائكم. ولم يجعل الله آراء الرجال وأقيستها حاكمة

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٥).
(٢) انظر: «فتح البيان» (٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٣) بتصرف.
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «قياساتكم».

بين الأمة أبداً، قالوا: وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فإنما منعهم من الخِيَرة عند حكمه وحكم رسوله لا عند آراء الرجال وأقيستهم وظنونهم، وقد أمر سبحانه رسوله باتباع ما أوحاه إليه خاصة. وقال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] قالوا: فدل هذا النص على أن ما لم يأذن به الله من الدين فهو شَرْع غيرِهِ الباطل، قالوا: وقد أخبر النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أن كل ما سكت عن إيجابه أو تحريمه فهو عفو عفا عنه لعباده، مباح[1] إباحة العفو، فلا يجوز تحريمه ولا إيجابه قياساً على ما أوجبه أو حرمه بجامع بينهما، فإن ذلك يستلزم رفع هذا القسم بالكلية وإلغاءه إذ السكوت عنه لا بدّ أن يكون بينه وبين المحرَّم شبه ووصف جامع أو بينه وبين الواجب، فلو جاز إلحاقُه به لم يكن هناك قسم قد عفا عنه ولم يكن ما سكت عنه قد عفا عنه، بل يكون ما سكت عنه قد حرمه قياساً على ما حرمه، وهذا لا سبيل إلى دفعه، وحينئذٍ فيكون تحريم ما سكت عنه تبديلاً لحكمه».

ومضى إلى أن قال: «وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فقسَّم الحكم إلى قسمين: قِسمٌ أذنَ فيه، وهو الحق، وقسم افتُرِيَ عليه فيه[2] وهو ما لم يأذن فيه، فأين أذِن لنا أن نقيس البلوط على التمر في جريان الربا فيه؟ وأن نقيس القصدير على الذهب والفضة؟ والخردلَ على البر؟ فإن كان الله ورسوله وصَّانا بهذا فسَمْعاً وطاعة لله ولرسوله، وإلا فإنا قائلون لمنازعينا[3]: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤] فما لم تأتنا به وصية من عند الله على لسان رسوله ﷺ، فهو عين الباطل. وقد أمرنا الله برد ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله ﷺ فلم يُبِح لنا قط أن نرُدَّ ذلك إلى رأي ولا قياس ولا تقليد إمام ولا منام ولا كُشوف ولا إلهام ولا حديث قلب ولا استحسان ولا معقول ولا

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «يباح»، وانظر لفظ الحديث المومأ إليه في هذا الكلام مع تخريجه في (ص٢٧٠).

(٢) من مطبوع «الإعلام»، وسقط من الأصل!

(٣) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «لمنازعين».

شريعة الديوان ولا سياسة الأمراء[(١)] ولا عوائد الناس التي ليسَ على شرائع المرسلين أضر منها»[(٢)].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

[يونس: ١٠٨، ١٠٩]

قال (ك): «يأمر تعالى النبي ﷺ أن يخبر الناس أن ما جاءهم به من الله هو الحق لا شك فيه، فالمهتدي إنما ينفع نفسه، ومن ضل فراجع ذلك عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم والهداية من الله تعالى، وقوله ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ أي: تمسك بما أوحاه إليك واصبر على مخالفيك ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بعدله وحكمته سبحانه وتعالى لا رب غيره»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أريد أن أتحف القراء والمستمعين بنقل نبذة من كلام ابن القيم في التشنيع على من اتبع الرأي والقياس وترك أحاديث الرسول ﷺ، قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٠٢):

«لو كان القياس من الدين لكان أهله أتبع الناس للأحاديث، وكان كلما توغل فيه الرجل كان أشد اتباعاً للأحاديث والآثار[(٤)]، ونحن نرى أن كل ما اشتدَّ توغُّل الرجل فيه اشتدَّتْ مخالفته للسنن، ولا نرى خلاف[(٥)] السنن والآثار إلا عند أصحاب الرأي والقياس، فيالله كم من سنة صحيحة صريحة قد عُطِّلت به، وكم من أثر درس حكمه بسببه، فالسنن والآثار عند الآرائيين والقياسيين

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «الملوك».

(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ٤٢٩ ـ ٤٣٢ ـ بتحقيقي) بتصرف.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٨) بتصرف.

(٤) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «قالوا».

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «مخالفة».

خاوية على عروشها معطلة أحكامها معزولة عن سلطانها وولايتها، لها الاسم ولغيرها الحكم، لها السِّكَة والخطبة ولغيرها الأمر والنهي، وإلا فلماذا تُرِكَ [العمل بالأحاديث التالية][1]:

١ - حديث العرايا[2].

٢ - حديث أن للزوجة سبع ليال إن كانت بكراً، وثلاثاً إن كانت ثيباً، ثم يقسم بالسوية[3].

٣ - حديث تغريب الزاني غير المحصن[4].

٤ - حديث المسح على الجوربين[5].

٥ - حديث عمران بن حصين وأبي هريرة في أن كلام الناسي والجاهل لا يبطل الصلاة[6].

---

(١) غير موجود في «الإعلام».

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢١٣)، ومسلم (١٤٦١) من حديث أنس.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٣)، ومسلم (١٦٩٠)، وأبو داود (٤٤١٦) من حديث عبادة بن الصامت.

(٥) ورد عن جماعة من الصحابة، ومن أمثلها: حديث المغيرة بن شعبة:
رواه أحمد (٤/ ٢٥٢)، وأبو داود (١٥٩) في «الطهارة»، باب المسح على الجوربين، والترمذي (٩٩)، وابن ماجه (٥٥٩) في «الطهارة»، باب ما جاء في المسح على الجوربين، والنسائي (١/ ٨٣)، وفي «الكبرى» (١٢٩)، وابن أبي شيبة (١/ ٨٨) وعبد بن حميد (٣٩٨ - «المنتخب»)، وابن خزيمة (١٩٨)، وابن حبان (١٣٣٨)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٩٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/رقم ٩٩٦)، والبيهقي في «السنن» (١/ ٢٨٣)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقد طعن فيه بعضهم؛ كما في «نصب الراية» (١/ ١٨٤ - ١٨٥)، و«إرواء الغليل» (١/ ١٣٨) والصحيح أنه صحيح.
وقد ورد المسح عن جماعة من الصحابة، وانظر رسالة القاسمي: «المسح على الجوربين» بتحقيق شيخنا الألباني رحمه الله (ص٢٣).

(٦) حديث عمران بن الحصين، رواه مسلم (٥٧٤) في «المساجد»، باب السهو في الصلاة والسجود له، وعزاه الزيلعي في «نصب الراية» للبخاري أيضاً، وليس هو فيه!! إذ لم يعزه إليه المزّي ولا غيره.
وحديث أبي هريرة رواه البخاري في مواطن منها: (٧١٤) في الأذان، باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس؟ و(١٢٢٧) في السهو، باب إذا سلم في ركعتين أو في ثلاث فسجد سجدتين مثل سجود الصلاة أو أطول، ومسلم (٥٧٣).

٦ ـ حديث المصراة[١].

٧ ـ حديث خيار المجلس[٢].

٨ ـ حديث إتمام الصوم لمن أكل ناسياً[٣].

٩ ـ حديث إتمام صلاة الصبح لمن طلعت عليه الشمس وقد صلى منها ركعة[٤].

١٠ ـ حديث من وجد متاعه عند رجل قد أفلس[٥].

١١ ـ حديث القضاء بالشاهد مع اليمين[٦].

---

(١) أخرج البخاري رقم (٢١٤٨) في «البيوع»، باب النهي للبائع أن لا يحفّل الإبل والبقر والغنم، ومسلم رقم (١٥٢٤) في «البيوع»، باب حكم بيع المصرَّاة، عن أبي هريرة رفعه: **«لا تصرُّوا الإبل والغنم للبيع، فمن ابتاعها بعد ذلك، فهو بخير النظرين من بعد أن يحلبها، إنْ رضي أمسكها، وإن سخطها ردّها، وصاعاً من تمر»**.
وفي رواية لمسلم: **«من اشترى مصراة فهو بالخيار ثلاثة أيام، فإنْ ردّها، ردّ معها صاعاً من تمر لا سمراء»**، وهي في «صحيح البخاري» معلقة، دون **«لا سمراء»**.

(٢) فيه حديث: **«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»**.
أخرجه البخاري (٢١٠٧) في «البيوع»، باب كم يجوز الخيار؟، و(٢١٠٩) في: إذا لم يُوَقِّت الخيار هل يجوز البيع؟، و(٢١١١)، باب البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، و(٢١١٢)، باب إذا خير أحدهما صاحبه بعد البيع فقد وجب البيع، و(٢١١٣)، باب إذا كان البائع بالخيار هل يجوز البيع، و(٢١١٦)، باب إذا اشترى شيئاً فوهب من ساعته قبل أن يتفرقا، ومسلم (١٥٣١) في «البيوع»، باب ثبوت خيار المجلس، من حديث ابن عمر.
وفي الباب عن حكيم بن حزام، رواه البخاري (٢٠٧٩) و(٢٠٨٢) و(٢١٠٨) و(٢١١٠) و(٢١١٤)، ومسلم (١٥٣٢)، وللمنذري جزء مفرد مطبوع في هذا الحديث.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٣٣) في «الصوم»، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً، و(٦٦٦٩) في «الأيمان والنذور»، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان، ومسلم (١١٥٥) في «الصوم»، باب أكل الناسي وشربه وجِماعه لا يفطر، من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك من الفجر ركعة (٢/ ٥٦/رقم ٥٧٩)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساجد، باب من أدرك ركعة من الصلاة (١/ ٤٢٤) رقم (٦٠٨)، عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٠٢) في «الاستقراض»، باب إذا وجد ماله عند مفلس في البيع والقرض، ومسلم (١٥٥٩) في «المساقاة»، باب من أدرك ما باعه عند المشتري وقد أفلس، من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرج مسلم في «الصحيح» كتاب الأقضية، باب القضاء باليمين والشاهد (٣/ ١٣٣٧) رقم =

١٢ ـ حديث تخيير الغلام بين أبويه إذا افترقا[١].

١٣ ـ حديث من تزوج امرأة أبيه فيه الأمر بضرب عنقه وأخذ ماله[٢].

= (١٧١٢)، وأبو داود في «السنن» كتاب الأقضية، باب القضاء باليمين والشاهد (٤/ ٣٢) رقم (٣٦٠٨)، والنسائي في «الكبرى» ـ كما في «مختصر سنن أبي داود» (٥/ ٢٢٥) للمنذري ـ، وابن ماجه في «السنن» كتاب الأحكام، باب القضاء بالشاهد واليمين (٢/ ٧٩٣) رقم (٢٣٧٠)، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٤٨، ٣١٥)، والشافعي في «المسند» (٢/ ١٧٨) رقم (٦٢٧، ٦٢٨ ـ «ترتيبه»)، والدارقطني في «السنن» (٤/ ٢١٤)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٦٧) عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد.

(١) أخرجه أبو داود (٢٢٧٧) في «الطلاق»، باب من أحق بالولد؟ والترمذي (١٣٥٧) في «الأحكام»، باب ما جاء في تخيير الغلام بين أبويه، وفي «العلل الكبير» (٣٦٩)، والنسائي (٦/ ١٨٥ و١٨٦) في «الطلاق»، باب إسلام أحد الزوجين وتخيير الولد، وابن ماجه (٢٣٥١) في «الأحكام»، باب تخيير الصبي بين أبويه، وأحمد (٢/ ٤٤٧)، وعبد الرزاق (١٢٦١١)، والشافعي في «الأم» (٥/ ٩٢)، و«المسند» (٢/ ٦٢)، وسعيد بن منصور (٢٢٧٥)، والحميدي (١٠٨٣)، والدارمي (٢٢٩٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٠٨٥)، وأبو يعلى (٦١٣١)، والحاكم (٤/ ٩٧)، والبيهقي (٨/ ٣)، والبغوي (٢٣٩٩) من طريق هلال بن أبي ميمونة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ خيَّر غُلاماً بين أبيه وأُمّه، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ١٠٤ ـ ١٠٥)، والنسائي (٦/ ١٠٩)، وأحمد (٤/ ٢٩٠)، والطحاوي (٣/ ١٤٨)، وابن حبان (٤١١٢)، والحاكم (٢/ ١٩١) من طريق السُّدي (إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة) عن عدي بن ثابت عن البراء به، **وهذا إسناد جيد رجاله ثقات**، وفي إسماعيل كلام رغم أنه من رجال مسلم، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وأخرجه عبد الرزاق (١٠٨٠٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ١٠٤)، وسعيد بن منصور (٩٤٢)، وأحمد (٤/ ٢٩٢)، وأبو داود (٤٤٥٧) في «الحدود»، باب الرجل يزني بحريمه، والترمذي (١٣٦٢) في «الأحكام»، باب فيمن تزوج امرأة أبيه، وفي «العلل الكبير» (٣٧٢)، وابن ماجه (٢٦٠٧) في «الحدود»، باب من تزوج امرأة أبيه من بعده، وأبو يعلى (١٦٦٦، ١٦٦٧)، والطحاوي (٣/ ١٤٨)، والدارقطني (٣/ ١٩٦)، والبغوي (٢٥٩٢) وابن حزم في «المحلى» (١١/ ٢٥٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٥/ ٢٦٥)، من طرق عن أشعث بن سوار عن عدي بن ثابت عن البراء.

وأشعث هذا ضعيف، ثم رواه على وجه آخر.

فرواه عن عدي بن ثابت عن يزيد بن البراء عن البراء.

أخرجه البيهقي (٨/ ٢٣٧)، ولم ينفرد أشعث هذا؛ بل رواه أحمد (٤/ ٢٩٢ و٢٩٥)، والنسائي (٦/ ١٠٩ ـ ١١٠)، والبيهقي (٧/ ١٦٢)، والدارمي (٢/ ١٥٣)، والحاكم =

١٤ ـ حديث: «لعن الله المحلل والمحلل له»[1].

= (٤/ ٣٥٧)، وابن حزم (١١/ ٢٥٢) من طرق عن عدي عن يزيد عن البراء، فلعله يصح على الوجهين، فيكون عدي سمعه من يزيد ثم سمعه من البراء، وصححه ابن حزم وغيره، وانظر: «نيل الأوطار» (٧/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).
ورواه سعيد بن منصور (٩٤٣)، وأحمد (٤/ ٢٩٥)، وأبو داود (٣٣٥٦)، والدارقطني (٣/ ١٩٦)، والبيهقي (٨/ ٢٣٧) من طريق مطرف عن أبي الجهم عن البراء.

(١) ورد من حديث جمع من الصحابة، منهم:
أولاً: حديث ابن مسعود، وله عنه طرق:
الأولى: هزيل بن شرحبيل عنه، أخرجه من طريقه أحمد (١/ ٤٤٨، ٤٦٢)، والترمذي في «النكاح» (١١٢٠)، باب ما جاء في المحلل والمحلل له، والنسائي (٦/ ١٤٩) في «الطلاق»، باب حلال المطلقة ثلاثاً، وما فيه من التغليظ، والدارمي (٢/ ١٥٨)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٩٢)، وأبو يعلى (٥٣٥٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٠٨)، و«المعرفة» (٥/ ٣٤٦).
وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/ ١٧٠): «صححه ابن القطان، وابن دقيق العيد على شرط البخاري».
وانظر ـ غير مأمور ـ: «بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٤٤٢)، و«الاقتراح» (٢٠٧) لابن دقيق العيد، و«تحفة المحتاج» (٢/ ٣٧٢) لابن الملقن.
الثانية: أبو واصل، رواه أحمد (١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١)، وأبو يعلى (٥٠٥٤)، والبغوي (٢٢٩٣)، وأبو واصل هذا مجهول ـ كما في «تعجيل المنفعة» (ص٥٢٧) ـ.
الثالثة: الحارث عن ابن مسعود، رواه عبد الرزاق (٦/رقم ١٠٧٩٣)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» ـ كما في «التلخيص الحبير» ـ، والحارث هذا هو الأعور وهو ضعيف، والحديث عنه عن علي، كما سيأتي.
قال الذهبي في «الكبائر» (ص٢١٣ ـ بتحقيقي) بعد أن أورده عن ابن مسعود: «جاء ذلك من وجهين جيدين عنه ﷺ».
ثانياً: حديث علي رضي الله عنه، رواه عبد الرزاق (٦/رقم ١٠٧٩٠)، والنسائي في رواية ابن حيويه ـ كما في «تحفة الأشراف» (٧/ ١٨) ـ، وأبو داود (٢٠٧٦) في «النكاح»، باب التحليل، والترمذي (١١١٩) في «النكاح»، باب ما جاء في المحلل والمحلل له، وابن ماجه (١٩٣٥) في «النكاح»، باب المحلل والمحلل له، والبيهقي (٧/ ٢٠٨)، وأحمد (١/ ٨٣ و٨٧ و١٠٧ و١٢١، ١٣٣، ١٥٠، ١٥٨ ـ ١٥٩)، وأبو يعلى (٤٠٢) من طريق الشعبي عن الحارث عن علي، والحارث ضعيف، وأعله الترمذي.
ثالثاً: حديث ابن عباس، رواه ابن ماجه (١٩٣٤) في «النكاح»، باب المحلل والمحلل له، وأعله البوصيري في «مصباح الزجاجة» بـ(زمعة بن صالح).
رابعاً: حديث جابر، رواه الترمذي في «النكاح» (١١١٩)، باب ما جاء في المحلل والمحلل له، وأعله الترمذي، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٠٧٣). =

١٥ ـ حديث: «لا نكاح إلا بولي»(١).

١٦ ـ حديث: «أصدقها، ولو خاتماً من حديد»(٢).

= **خامساً**: حديث عقبة بن عامر، رواه ابن ماجه (١٩٣٦) في «النكاح»، باب المحلل والمحلل له، والطبراني (١٧/ ٨٢٥)، والدارقطني (٣/ ٢٥١)، والحاكم (٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩)، والبيهقي (٧/ ٢٠٨)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٠٧٢)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وحسّنه عبد الحق في «الأحكام الوسطى» (٣/ ٢٢٨).

وأعله ابن الجوزي بأبي صالح كاتب الليث، وبمشرح بن هاعان، أما أبو صالح فقد توبع، وأعله البوصيري في «مصباح الزجاجة» بمشرح بن هاعان ـ أيضاً ـ، وأنكر أبو حاتم وأبو زرعة سماع الليث من مشرح بن هاعان، وأثبت ذلك الحاكم!! وانظر: «بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٥٠٤ ـ ٥٠٦)، و«العلل» (١/ ٤١١) لابن أبي حاتم.

سادساً: حديث أبي هريرة، رواه أحمد (٢/ ٣٢٣)، والترمذي في «العلل» (٢٧٣)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٩٢)، وابن الجارود (٦٨٤). والبزار (٢/ ١٦٧ ـ «زوائده»)، والبيهقي (٧/ ٢٠٨). قال الترمذي: «فسألت محمداً عن هذا الحديث، فقال: هو حديث حسن».

وانظر في الحديث: «نصب الراية» (٣/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، و«مجمع الزوائد» (٤/ ٢٦٧)، و«إرواء الغليل» (٦/ ٣٠٧ ـ ٣١١). وفي المسألة: «زاد المعاد» (٤/ ٥ ـ ٦، ٦٦، ٢١٢)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٧).

(١) الحديث ورد عن جماعة من الصحابة، أمثلها حديث عائشة:

رواه عبد الرزاق (١٠٤٧٢)، والطيالسي (١٤٦٣)، وأحمد (٦/ ٤٧، ١٦٥ ـ ١٦٦)، وأبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩)، وابن الجارود (٧٠٠)، والطحاوي (٣/ ٧، ٨)، والدارقطني (٣/ ٢٢١ و٢٢٥ ـ ٢٢٦)، والحاكم (٢/ ١٦٨)، والبيهقي (٧/ ١٠٥ و١١٣ و١٢٤ ـ ١٢٥ و١٢٥ و١٣٨) من طرق عن سليمان بن موسى عن الزهري عن عروة عن عائشة.

ورجاله رجال الشيخين عدا سليمان بن موسى، وهو صدوق، وللحديث علة، وهي: قال ابن جريج: فلقيت الزهري فسألته عن هذا الحديث فلم يعرفه.

وردَّ هذا الأئمة، منهم: الترمذي والحاكم وابن حبان وابن عدي وابن عبد البر. انظر: «التلخيص الحبير» (٣/ ١٥٧)، و«السنن الكبرى» (٧/ ١٠٧)، و«إرواء الغليل» (٦/ ٢٤٣ ـ ٢٤٩)، ولصديقنا الشيخ مفلح الرشيدي دراسة بعنوان «التحقيق الجلي لحديث: **«لا نكاح إلا بولي»**»، وهي مطبوعة، عن مؤسسة قرطبة، مصر.

وانظر: تعليقي على «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (٣/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١٠) في «الوكالة»، باب وكالة المرأة الإمام في النكاح، و(٥٠٢٩) في «فضائل القرآن»، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، و(٥٠٣٠) في باب القراءة عن ظهر قلب، و(٥٠٨٧) في «النكاح»، باب تزويج المعسر، و(٥١٢١) في باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح، و(٥١٣٢) في باب إذا كان الولي هو الخاطب، =

١٧ ـ حديث إباحة لحوم الخيل[1].

١٨ ـ حديث: **«كل مسكر حرام»**[2].

١٩ ـ حديث: **«الرهن مركوب ومحلوب»**[3].

٢٠ ـ حديث النهي عن تخليل الخمر[4].

= و(٥١٣٥)، باب السلطان ولي، و(٥١٤١)، باب إذا قال الخاطب للولي: زوجني فلانة، و(٥١٤٩)، باب التزويج على القرآن وبغير صداق، و(٥١٥٠)، باب المهر بالعروض وخاتم الحديد، و(٥٨٧١) في «اللباس»، باب خاتم الحديد، و(٧٤١٧) في «التوحيد»، باب ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾، ومسلم (١٤٢٥ بعد ٧٧) في «النكاح»، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن، وخاتم حديد وغير ذلك، من حديث سهل بن سعد، ولفظه: **«التمس ولو خاتماً من حديد»**.

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٩) في «المغازي»، باب غزوة خيبر، و(٥٥٢٠) في «الذبائح»، باب لحوم الخيل، و(٥٥٢٤)، باب لحوم الحمر الإنسية، ومسلم (١٩٤١) في «الصيد»، باب في أكل لحوم الخيل، من حديث جابر.

(٢) ورد من حديث جماعة من الصحابة، منهم: ابن عمر، أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).
وعائشة: أخرجه البخاري (٢٤٢) و(٥٥٨٥ و٥٥٨٦)، ومسلم (٢٠٠١).
وانظر مفصلاً: «الأشربة» لأحمد (ص٩٧)، و«الأشربة» لابن قتيبة (ص٣١، ٦٦، ١١٥، ١٢٥)، و«ذم المسكر» لابن أبي الدنيا رقم (٥٨، ٦٠)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٧٤)، و«إرواء الغليل» (٨/ ٤٠ ـ وما بعدها)، و«الموافقات» (٢/ ٥٢٢) و(٤/ ٣٦٠) و(٥/ ٤١٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٨/ ٢٤٤) رقم (١٥٠٦٦)، وابن عدي (١/ ٢٧٢ و٢/ ٧٥٧ و٧/ ٢٥٠٤ و٢٧٢٧)، والدارقطني (٣/ ٣٤)، و«الغرائب» (١/ق ٣٢٠ ـ «أطرافه»)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٤٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٨)، وابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٣٧٤)، والبزار (ق٢٢١/ أ)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/ ١٨٥)، والبيهقي (٦/ ٣٨) من طرق عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً.
وقد أعل بالوقف ورجح ابن أبي حاتم (١/ ٣٧٤)، والدارقطني (١٠/ ١١٢ ـ ١١٤) رقم (١٩٠٣) كلاهما في «العلل»، وابن عدي، والبيهقي رواية الوقف.
قال ابن عدي: «الأصل فيه موقوف، وقد رواه عن أبي عوانة: عيسى بن يونس وأبو معاوية وشعبة والثوري مرفوعاً وموقوفاً، **والأصح هو الموقوف**».
أما الحاكم فقال: «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لإجماع الثوري وشعبة على توقيفه عن الأعمش، وأنا على أصلي الذي أصلته في قبول الزيادة من الثقة».
وانظر: «التلخيص الحبير» (٣/ ٣٦)، وتعليقي على «الإشراف» (٣/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٨٣) من حديث أنس.

٢١ ـ حديث: **«لا تحرم المصة ولا المصتان»**[(١)].

٢٢ ـ حديث: **«إذا لم يجد المحرم الإزار يلبس السراويل»**[(٢)].

٢٣ ـ حديث منع الرجل من تفضيل بعض ولده على بعض، وأنه جور لا تجوز الشهادة عليه[(٣)].

٢٤ ـ حديث: **«أنت ومالك لأبيك»**[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣١ و٩٥ ـ ٩٦ و٢١٦ و٢٤٧)، ومسلم (١٤٥٠) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٤١) في «جزاء الصيد»، باب لبس الخفين للمحرم إذا لم يجد النعلين، و(١٨٤٣) في: إذا لم يجد الإزار فليلبس السراويل، و(٥٨٠٤) في «اللباس»، باب السراويل، و(٥٨٥٣) في باب النعال السبتية وغيرها، ومسلم (١١٧٨) في «الحج»، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة وما لا يباح، من حديث ابن عباس.
وأخرجه البخاري (٥٧٩٤) في «اللباس»، باب لبس القميص، من حديث ابن عمر، ورواه البخاري (١١٧٩) في الحج من حديث جابر.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٨٦) في «الهبة»، باب الهبة للولد، و(٢٥٨٧)، باب الإشهاد في الهبة، و(٢٦٥٠) في «الشهادات»، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، ومسلم في «الهبات» (١٦٢٣)، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة، من حديث النعمان بن بشير.

(٤) ورد عن جمع من الصحابة منهم: جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وسمرة بن جندب، وعائشة رضي الله عنهم، وهذا التفصيل، والله المستعان:
* **أما حديث جابر**، فأخرجه ابن ماجه في «السنن» رقم (٢٢٩١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٨)، وفي «المشكل» (٤/ ٢٧٧) رقم (١٥٩٨، ط المحققة)، أو (٢/ ٢٣٠، ط القديمة)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٣٥٣٤، ٦٧٢٨)، والمخلص في «حديثه» (١٢/ ٦٩/ب ـ المنتقى منه) ـ كما في «الإرواء» (٣/ رقم ٨٣٨) ـ، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٢١ ـ ٢٦٢٢) من طريق عيسى بن يونس، عن يوسف بن إسحاق بن أبي إسحاق السبيعي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر رفعه.
قال البوصيري في «زوائد ابن ماجه» (٢/ ٢٠٢): «إسناده صحيح: ورجاله ثقات على شرط البخاري»، وعزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة» رقم (١٩٦) لبقي بن مخلد من هذا الطريق، وتابع يوسف على وصله:
* **أبان بن تغلب**، عند الإسماعيلي في «المعجم» (٨٠٦/ رقم ٤٠٨)، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٢٧)، وقال: «وهذا الحديث رواه عن ابن المنكدر جماعة، ومن حديث أبان بن تغلب غريب لم يروه غير زهير، وعن زهير عمار بن مطر».
قلت: وعمار هالك، وتركه بعضهم. انظر: «اللسان» (٤/ ٢٧٥).
* **عمرو بن أبي قيس**، عند: الخطيب في «الموضح» (٢/ ٧٤)، وابن بشران في =

. . . .

= «الأمالي» (٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) رقم (١٥٢٦) ونقل ابن الملقن في «خلاصة البدر المنير» رقم (١٩٩٩) عن البزار أنه صححه، وقال المنذري: «إسناده ثقات»، وصححه عبد الحق الإشبيلي في «الأحكام الكبرى» (ق١٧٠/ ب).

* **المنكدر بن محمد بن المنكدر**، عند الطبراني في «الصغير» (٢/ ٦٢ ـ ٦٣)، و«الأوسط» رقم (٦٥٧٠)، وفيه قصة ومعجزة، أخرجه من أجلها البيهقي في «الدلائل»، ورواه في «السنن» (٧/ ٤٨١) مختصراً دونها، وخرجه أبو الشيخ في «عوالي حديثه» (١/ ٢٢/ أ)، والمعافى بن زكريا في «جزء من حديثه» (ق٢/ أ) مطولاً، وقال الطبراني عقبه: «لا يُروى عن محمد بن المنكدر بهذا التمام إلا بهذا الإسناد، تفرد به عبيد بن خلصة»، والمنكدر ضعفوه من قبل حفظه، وهو في الأصل صدوق.

وعبيد بن خلصة لا يعرف، ولم أجد من ترجمه، كذا قال شيخنا في «الإرواء» (٣/ ٣٢٥)، وهو المراد بقول السخاوي في «المقاصد» (١٠١)، وقبله الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٥٥)، والغماري في «الهداية» (٨/ ٥٤٠): «وفي إسناده من لا يعرف».

* **هشام بن عروة**، أخرجه البزار في «مسنده»، ومن طريقه ابن حزم في «المحلى» (٨/ ١٠٣)، وصححه فيه (٨/ ١٠٦ و٩/ ٤٠٧ و١٠/ ١٦٠ و١١/ ٣٤٤)، وصححه ابن القطان من هذا الوجه ـ كما في «المقاصد» (ص١٠٠) ـ.

وقد أعلّ هذا الطريق كثير من المتقدمين بمخالفة الثوري وابن عيينة لمن وصلوه، قال أبو حاتم بعد ذكره لمن وصله ـ وهم الثلاثة المتقدمون ـ: «هذا خطأ، وليس هذا محفوظاً عن جابر، رواه الثوري وابن عيينة عن ابن المنكدر أنه بلغه عن النبي ﷺ أنه قال ذلك، قال أبي: وهذا أشبه» كذا في «العلل» (١/ ٤٦٦) رقم (١٣٩٩) لابنه.

وقال البزار عقبه: «إنما روي عن هشام مرسلاً» يعني بدون جابر.

ونقل ابن التركماني في «الجوهر النقي» (٧/ ٤٨١) قول البزار عنه: «ومن صحيح هذا الباب حديث ذكره بقي بن مخلد. . .».

قلت: أخرجه الشافعي في «الرسالة» (رقم ١٢٩٠، ط. شاكر)، ومن طريقه البيهقي في «المعرفة» (١/ ١٦٦) رقم (٢٦٣)، و(١١/ ٢٩٨) رقم (١٥٥٨٧)، وسعيد بن منصور في «سننه» رقم (٢٢٩٠): أخبرنا سفيان عن محمد بن المنكدر به مرسلاً.

وأفاد البيهقي قبله أنه لم يقل أحد من أهل الفقه به!! وقال بعده: «لا يثبت عن النبي ﷺ»، وقال: «وإن الله لما فرض للأب ميراثه من ابنه، فجعله كوارث غيره، فقد يكونُ أقل حظًّا من كثير من الورثة، دل ذلك على أن ابنه مالك للمال دونه»، وقال: «ومحمد بن المنكدر غاية في الثقة والفضل في الدين والورع، ولكنا لا ندري عمن قبل هذا الحديث».

قال البيهقي في «المعرفة» (١/ ١٦٧) عقب قول الشافعي الأخير: «وقد رواه بعض الناس موصولاً بذكر جابر فيه، وهو خطأ».

ونقل فيه ـ أيضاً ـ (١٢/ ١٥٨) تضعيف الشافعي له، ونقل الشافعي ـ بناءً على ما تقدم ـ =

. . . .

= أن أهل العلم أجمعوا على خلافه!!

قلت: **لا يوجد حديثٌ لرسول الله ﷺ إلا أسعد الله عالماً وقال به**، وقد رأيت منذ عشر سنوات تقريباً بحثاً ماتعاً في هذا للسندي في «دراسات اللبيب»؛ فانظره غير مأمور.

والحديث على توجيه الشافعي السابق، ومعارضته له بما فرض الله للأب مع عدم حفظ من وصله ينحى إلى ضعفه، وزاد البيهقي ـ نصرةً له، ووجد الموصول ـ أن زيادة «عن جابر» خطأ! وفصَّل في «الكبرى» (٧/ ٤٨١) منشأ هذا باستشكال ثم عَرَّج على تأويل له، قال: «من زعم أن مال الولد لأبيه احتجَّ بظاهر هذا الحديث، ومن زعم أن له من ماله ما يكفيه إذا احتاج إليه، فإذا استغنى عنه لم يكن للأب من ماله شيء، احتج بالأخبار التي وردت في تحريم مال الغير، وأنه لو مات وله ابن لم يكن للأب من ماله إلا السدس، ولو كان أبوه يملك مال ابنه لحازه كله».

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل أحد أحق بماله من والده وولده والناس أجمعين**» وبمثل هذا احتج ابن حزم في «المحلى» (٨/ ١٠٣ ـ ١٠٦ و٩/ ٤٤٧ و١٠/ ٤٦٠ و١١/ ٣٤٤) على أنه منسوخ! وأطال في ذلك.

قلت: الحديث الناسخ «**كل أحد...**» **ضعيف**، أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٢٢٩٣)، والدارقطني في «السنن» (٤/ ٢٣٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٨١ و١٠/ ٣١٩) عن حبان بن أبي جبلة مرفوعاً، وهو ضعيف، حبان من التابعين، ولذا تعقب المناوي في «فيض القدير» (٥/ ٩) السيوطي لما رمز لصحته في «الجامع الصغير» فقال: «أشار المصنف لصحته، وهو ذهول أو قصور، فقد استدرك عليه الذهبي في «المهذب» فقال: قلت: لم يصح مع انقطاعه».

وأخرجه البيهقي في «الكبرى» (٦/ ١٧٨) عن عمر بن المنكدر مرسلاً. ونقل الطحاوي في «المشكل» (٤/ ٢٧٩) عن شيخين له توجيهاً آخر، وهذا نص كلامه:

«سألت أبا جعفر محمد بن العباس ـ [والعجيب أنّ محققه لم يعرفه، وهو مترجم في «السير» (١٤/ ١٤٤ ـ ١٤٥)] ـ عن المراد بهذا الحديث، فقال: المراد به موجود فيه، وذلك أن النبي ﷺ قال فيه: «**أنت ومالك لأبيك**» فجمع فيه الابن، ومال الابن، فجعلهما لأبيه، فلم يكن جعله إياهما لأبيه على ملك أبيه إياه، ولكن على أن لا يخرج عن قول أبيه فيه، فمثل ذلك قوله: مالك لأبيك، ليس على معنى تمليكه إياه ماله، ولكن على معنى أن لا يخرج عن قوله فيه.

وسألت ابن أبي عمران عنه، فقال: قوله ﷺ في هذا الحديث: «**أنت ومالك لأبيك**» كقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه للنبي ﷺ: إنما أنا ومالي لك يا رسول الله، لما قال رسول الله ﷺ: «**ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر**» ـ [وخرجته بإسهاب في تعليقي على «المجالسة» رقم (١٥١) للدينوري، فانظره غير مأمور] ـ.

وقد لخص ابن عبد البر في «الاستذكار» (٢٤/ ١٤٢) معنى كلامهما بقوله: «قوله ﷺ: «**أنت**» ليس على التمليك، فكذلك قوله ﷺ: «**ومالك**» ليس على التمليك، ولكنه على =

. . . .

= البر به، والإكرام له».
ونحوه عند ابن حبان في «الصحيح» (٢/ ١٤٣ و١٠/ ٧٥ ـ «الإحسان»).
والتوجيه الأول أقرب لزيادة ـ وردت في حديث عائشة ـ ستأتي، والله الموفق.
والخلاصة: الحديث صحيح بمجموع طرقه، قال ابن حجر في «الفتح» (٥/ ٢٢١): «فمجموع طرقه لا تحطه من القوة، وجواز الاحتجاج به»، وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٠٠ ـ ١٠٢) بعد أن سرد طرقه: «والحديث قوي».
أما شواهده:
فحديث ابن عمر، وله أربع طرق:
الأولى: ما أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٤٠٦) قال لي محمد بن مهران، وأبو يعلى في «المسند» (١٠/ ٩٨ ـ ٩٩) رقم (٥٧٣١): حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي سمينة، وابن معين في «تاريخه» (٤/ ١٥٦ ـ ١٥٧) رقم (٣٦٨٥) ثلاثتهم، قال: حدثنا معتمر بن سليمان قال: فيما قرأت على فضيل بن ميسرة، عن أبي حريز عن إسحاق أنه حدثه أن عبد الله بن عمر، وذكر نحوه.
وقال ابن أبي سمينة: «عن أبي إسحاق» بزيادة «أبي»!!
قال الدوري في «تاريخه» عقبه: «قلت ليحيى: ابن أبي سمينة البصري حدثنا به عن معتمر يقول: عن أبي إسحاق؟! فأخرج يحيى «كتاب معتمر» فإذا فيه: «أن إسحاق حدثه»».
قلت: يتأكد ذلك أن البخاري أورده في ترجمة إسحاق في باب (ومن أفناء الناس)، وإسحاق هذا في عداد المجاهيل، وقد خفي ذلك على شيخنا الألباني في «الإرواء» (٣/ ٣٢٨)؛ فقال: «وهذا سند حسن في المتابعات، رجاله كلهم ثقات غير أبي حريز، واسمه عبد الله بن حسين، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق يخطئ».
قلت: نعم، أبو حريز وثقه أبو زرعة وأبو حاتم، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وضعفه أحمد وغيره، ولكن لم ينتبه لإسحاق، وأثبته (أبو إسحاق) مع عزوه له لـ«تاريخ ابن معين»، ولم يلتفت لمقولة الدوري عقبه آنفة الذكر، ولم يعزه لـ«تاريخ البخاري».
وعلى فرض أنه (أبو إسحاق) ـ وهيهات ـ فهو السبيعي!! ونقل ابن أبي حاتم في «المراسيل» (ص١٤٦) عن أبيه قوله: «لم يسمع أبو إسحاق من ابن عمر، ما رآه رؤية».
وأخرج أحمد في «الورع» رقم (٣٩٦): حدثنا معتمر ـ كذا ـ قال: قرأت على الفضيل أنّ أبا إسحاق ـ كذا بزيادة (أبي) وإسقاط (أبي حريز) ولعله من المحقق ـ، فالكتاب مليء بمثل هذا على جودة مادته ونفاسته، ولا قوة إلا بالله.
الثانية: أخرج البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١/ ٤٠٦)، وابن قتيبة في «عيون الأخبار» (٣/ ٨٦، ط. المصرية، و٣/ ٩٨، ط. دار الكتب العلمية) من طريق عبد الأعلى، ثنا سعيد، عن مطر، عن الحكم بن عتيبة، عن النخعي، عن ابن عمر رفعه، وفي آخره: «**أو ما علمت أنك ومالك لأبيك؟**» لفظ ابن قتيبة، ولم يورد البخاري لفظه.
الثالثة: أخرجه البزار في «مسنده» ـ كما في «نصب الراية» (٣/ ٣٣٩) ـ من طريق =

....

= ميمون بن زيد، عن عمر بن محمد بن زيد، عن أبيه، عن ابن عمر... فذكره.
وقال: «لا نعلمه يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد!! وعمر بن محمد فيه لين».
قلت: ورد عن ابن عمر من غير هذا الإسناد، فليس الأمر كما قال البزار، وميمون ليّنه أبو حاتم، وعزاه الغماري في «الهداية» (٨/ ٥٤٢) من هذا الطريق للطبراني في «الكبير»، وما إخاله إلا وهماً!
الرابعة: أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٥١٣٢) من طريق محمد بن أبي بلال، ثنا خلف بن خليفة عن محارب بن دثار عنه مرفوعاً بلفظ: «**الولد من كسب الوالد**».
قال شيخنا الألباني في «الإرواء» (٣/ ٣٢٨): «وابن أبي بلال هذا لم أعرفه».
قلت: هو محمد بن بكار بن بلال العاملي، وسيأتي عنه في حديث عمر!
وقد خالفه سعيد بن منصور، فأخرجه في «سننه» رقم (٢٢٩٥): نا خلف بن خليفة قال: سمعت والله محارب بن دثار رفعه، هو مرسل، وهو الأشبه، في هذا الطريق.
وحديث عبد الله بن عمرو، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٦١) من طريق ابن جريج، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢١٤)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٩٥)، والبيهقي في «معرفة السنن» (١١/ ٣٠٠) رقم (١٥٥٩٦)، وفي «الكبرى» (٧/ ٤٨٠) من طريق عبيد الله بن الأخنس، وأبو داود في «السنن» رقم (٣٥٣٠)، وابن خزيمة - كما في «الهداية» (٨/ ٥٤١) -، وابن المقرئ في «معجمه» (٥٢٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٨٠) من طريق حبيب المعلم، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٨) من طريق حسين - وأخشى أن يكون تصحيفاً عن (حبيب): المعلم -، وأحمد في «المسند» (٢/ ٥١٤)، وابن ماجه في «السنن» (رقم ٢٢٩٢) من طريق حجاج بن أرطاة، كلهم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «أتى أعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن أبي يريد أن يجتاح مالي، قال: «**أنت ومالك لوالدك، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أموال أولادكم من كسبكم، فكلوه هنيئاً**».
وأخرجه أبو بكر الشافعي في «حديثه» (٢/ب)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٢٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٤٩)، والأبهري في «الفوائد» (٢/أ)، والسِّلفي في «الطيوريات» (ج٧/ ق١١٥/ ب)، وابن النقور في «القراءة على الوزير» (٢/ ٢٠/ ب)، - كما في «الإرواء» (٣/ ٢٢٥) - من طريق قتادة عن عمرو بن شعيب به مختصراً مقتصراً على «**أنت ومالك لأبيك**» من غير ذكر ذلك الرجل أو الأعرابي.
قال البيهقي في «المعرفة» (١/ ١٦٧) رقم (٢٦٦): «وقوله: (إن لأبي مالاً) ليس في أكثر الروايات عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده»!!
قلت: تبرهن لك خلاف ذلك، فهذا القول سقط من رواية قتادة فحسب، وهو موجود في رواية خمسة من أصحاب عمرو بن شعيب، فتنبه.
وحديث عبد الله بن مسعود، أخرجه ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٤٧٢) رقم (١٤١٦)، والطبراني في «الصغير» (١/ ٨)، و«الأوسط» (١/ ٦٧) رقم (٥٧)، و«الكبير» (١٠/ ٨٢) =

. . . .

= رقم (١٠٠١٩)، و«مسند الشاميين» (٣/رقم ٢٤٨١)، والمعافى بن زكريا في «جزء من حديثه» (ق٢/أ)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٣٩٨)، وعبد الأعلى بن مسهر في «نسخته» رقم (٤٨)، وابن المقرئ في «معجمه» (٨٩٦) من طرق عن أبي مطيع معاوية بن يحيى، ثنا إبراهيم بن عبد الحميد بن ذي حماية عن غيلان بن جامع عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم النخعي عن ابن مسعود به.
قال الطبراني: «لا يروى عن ابن مسعود إلا بهذا الإسناد، تفرد به ابن ذي حماية، وكان من ثقات المسلمين».
قلت: ابن ذي حماية تحرف في «المجمع» (٤/ ١٥٤) إلى حماد.
وقال الهيثمي: «لم أجد من ترجمه». وتوثيق الطبراني السابق عزيز، وهو مترجم في «التاريخ الكبير» (١/ ١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، وقال الهيثمي: «وبقية رجاله ثقات».
قلت: معاوية بن يحيى، وحماد بن أبي سليمان، كلاهما صدوق له أوهام.
وأعله أبو حاتم الرازي بكلام سيأتي في حديث عائشة ﵂.
وحديث أنس بن مالك: أخرجه أبو بكر الشافعي في «فوائده» (رقم ٨٨ ـ بتحقيقي ـ انتقاء الدارقطني «الرباعيات») وفيه الحباب بن فضالة ضعيف.
وحديث أبي بكر الصديق (أو حديث رجل مبهم رفعه للنبي بحضرة أبي بكر): أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩) رقم (٨١٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٨١)، و«المعرفة» (١/ ٣٠٠) رقم (١٥٥٩٧)، **وإسناده ضعيف**، فيه المنذر بن زياد قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن إسماعيل بن أبي خالد إلا المنذر بن زياد».
قلت: وهو متروك كما قال الدارقطني، وكذا في «المجمع» (٤/ ١٥٥)، وقال البيهقي: «غير قوي».
وحديث عمر بن الخطاب: أخرجه البزار في «البحر الزخار» (١/ ٤١٩ ـ ٤٢٠) رقم (٢٩٥)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢١٢)، والدارقطني في «الأفراد» (ق٢٠/ب) من طريق محمد بن بلال نا سعيد بن بشير، عن مطر، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب، عن عمر به.
قال البزار: «وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن عمر عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، وقد رواه غير مطر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده».
وقال الدارقطني: «تفرد به مطر الوراق، عن عمرو بن شعيب عنه، ولم يروه عنه غير سعيد بن بشير».
وقال ابن عدي: «ولا أدري تشويش هذا الإسناد ممن هو؛ لأن هذا الحديث يرويه جماعة عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، ولا أعلم عن سعيد بن المسيب عن عمر إلا من حديث سعيد بن بشير هذا»، وقال عن سعيد بن بشير: «ولعله يهم في الشيء بعد الشيء ويغلط».
وقال أبو حاتم في «العلل» (٢/ ٤٦٩) رقم (١٤٠٨) لابنه عن طريق حديث عمر: «هذا =

. . . .

= خطأ، إنما هو عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ».
ونحوه في «مسند الفاروق» لابن كثير (٢/ ٥٥٧).
وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٨٤): «وسعيد بن المسيب لم يسمع من عمر».
قلت: وقع خلاف في ذلك، ورجح المزي وابن حجر أنه روى عنه وسمع منه، وليس هذا موطن التفصيل.
وحديث سمرة بن جندب: أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٧٠٨٤)، و«الكبير» (٧/ ٢٣٠) رقم (٦٩٦١)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٣٤)، والبزار في «مسنده» (رقم ١٢٦٠ ـ «زوائده») ـ كما في «نصب الراية» (٣/ ٣٣٨) ـ من طريق أبي مالك الجوداني ـ واسمه عبد الله بن إسماعيل ـ عن جرير بن حازم عن الحسن به.
وإسناده ضعيف ومنقطع، الحسن لم يسمع من سمرة إلا حديث العقيقة، وعبد الله بن إسماعيل «تفرد به»؛ كما قال الطبراني، وقال العقيلي عنه: «عن جرير منكر الحديث، لا يتابع على شيء من حديثه».
قلت: والحقيقة أنه توبع، ولكن المتابعة عدم، فأخرجه ابن بشران في «الأمالي» (ق٥٦/ أ) أو (١/ ١٤٨) رقم (٣٣٤) من طريق عبد الله بن حرمان الجهضمي عن جرير به.
وابن حرمان لم أظفر به، وغالب الظن أنه محرف!
حديث عائشة ﵂: قال العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٢٣٤) عقب حديث سمرة السابق: «وفي هذا الباب أحاديث من غير هذا الوجه، وفيها لين، وبعضها أحسن من بعض، ومن أحسنها حديث الأعمش عن منصور عن عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة أن النبي ﷺ قال: **«أولادكم من كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم»**».
قلت: أخرج هذا الحديث بهذا اللفظ ونحوه: سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٢٢٨٧، ط. الأعظمي)، وإسحاق بن راهويه في «المسند» رقم (١٥٠٨، ١٦٥٧)، والدارمي في «السنن» (٢/ ٢٤٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧)، وأبو داود في «السنن» رقم (٣٥٢٧، ٣٥٢٩)، والنسائي في «المجتبى» (٧/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، والترمذي في «الجامع» رقم (١٣٥٨)، وابن ماجه في «السنن» رقم (٢٢٩٠، ٣١٣٧)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٣١، ٤١، ١٢٧، ١٦٢، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٣)، والحميدي في «المسند» (٢٤٦)، والطيالسي في «المسند» رقم (١٥٨٠)، وابن حبان في «الصحيح» (١٠/ ٧٢ ـ ٧٣) رقم (٤٢٥٩ ـ «الإحسان»)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٥، ٤٦)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (٢٣٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٤٨٠)، و«المعرفة» (١١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) رقم (١٥٥٨٩، ١٥٥٩٠) من طريق عمارة به.
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.
قلت: عمة عمارة لم أهتد إليها، وفي بعض الروايات: «عن أمه»، وأم عمارة لم أهتدِ إليها أيضاً، وفي «المستدرك»: «عن أبيه»، بدل «عن عمته»، ولكنها توبعت، تابعها =

. . . .

= الأسود عن عائشة، كما عند سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٢٢٨٨)، وإسحاق في «مسنده» رقم (١٥٠٧، ١٥٦١)، والنسائي في «المجتبى» (٧/ ٢٤١)، وابن ماجه في «السنن» رقم (٢١٣٧)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٤٢، ٢٢٠)، وابن حبان في «الصحيح» (١٠/ ٧٤ رقم ٤٢٦٠، ٤٢٦١ ـ «الإحسان»)، والبيهقي في «المعرفة» (١١/ ١٩٩) رقم (١٥٥٩٣)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص٧٦) **وإسناده صحيح**.

وأخرجه سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٢٢٨٩) عن هشيم عن مغيرة عن إبراهيم عن عائشة قولها.

وعد أبو حاتم الرازي ـ كما في «العلل» (١/ ٤٧٢) رقم (١٤١٦) ـ طريق أبي مطيع معاوية ـ وفي المطبوع بينهما (ابن)!! فلتحذف ـ عن ابن أبي حماية به إلى ابن مسعود رفعه بلفظ: **«أنت ومالك لأبيك»** خطأً، قال: «إنما هو حماد عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة».

قلت: زاد فيه حماد عن إبراهيم: **«إذا احتجتم»** قال الثوري: وهذا وهم من حماد، وقال أبو داود: هو منكر، قاله البيهقي في «المعرفة» (١١/ ٢٩٩).

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٨٠) من طريق إبراهيم بن ميمون الصائغ عن حماد عن إبراهيم عن الأسود عنها، بلفظ: **«إن أولادكم هبة الله لكم** ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، **فهم وأموالهم لكم إذا احتجتم إليها»**.

وإسناده صحيح، وفيه **(فائدة فقهية هامة)** وهي، أنه يبين أن الحديث المشهور: **«أنت ومالك لأبيك»**، ليس على إطلاقه، بحيث إن الأب يأخذ من مال ابنه ما يشاء، كلا؛ وإنما يأخذ ما هو بحاجة إليه، أفاده شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٥٦٤).

وانظر عن معناه: «بر الوالدين» (ص١٨٣ ـ ١٨٥) للطرطوشي.

وورد عن عائشة باللفظ الذي أورده المصنف من ثلاثة طرق:

الأولى: ما أخرجه ابن حبان في «الصحيح» (٢/ ١٤٢ رقم ٤١٠ ـ «الإحسان»)، و(١٠/ ٧٤ ـ ٧٥ رقم ٤٣٦٢ ـ «الإحسان») من طريق حصين بن المثنى، حدثنا الفضل بن موسى، عن عبد الله بن كيسان، عن عطاء به.

وإسناده ضعيف، الحصين مترجم في «الجرح والتعديل» (٣/ ١٩٧)، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وابن كيسان ضعفه أبو حاتم، والنسائي، وقال العقيلي: «في حديثه وهم كثير».

والعجب من ابن الملقن فإنه اقتصر عليه في «تحفة المحتاج» (٢/ ٣٧٧) وقال: «وهو أصح طرقه الثمانية»؛ ولكنه قال في «خلاصة البدر المنير» رقم (١٩٩٩): «له سبع طرق أُخر، موضحة في الأصل، وأصحها هذا، وطريق جابر». وانظر: «الإرواء» (٦/ ٦٦ ـ ٦٧).

الثانية: أخرجه أبو القاسم الحامض في «حديثه» ـ كما في «المنتقى منه» (٢/ ٨/ ١) ـ: =

٢٥ ـ حديث الوضوء من لحوم الإبل[1].

٢٦ ـ حديث المسح على العمامة[2].

= حدثنا إبراهيم بن راشد، ثنا أبو عاصم، عن عثمان بن الأسود.

قلت: وإبراهيم بن راشد هو الأدمي، قال ابن أبي حاتم (١/ ١/ ٩٩): «كتبنا عنه ببغداد، وهو صدوق» قلت: وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير الأسود، وهو ابن موسى بن باذان المكي، لم أجد له ترجمة، وقد ذكره في «التهذيب» في جملة من روى عنهم ابنه عثمان، قاله شيخنا في «الإرواء» (٣/ ٣٢٦).

الثالثة: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٧٤٧) من طريق الحسن بن عبد الرحمٰن: ثنا وكيع، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رفعته، وقال عقبه: «وهذا حديث ليس له أصل عن وكيع، وإنما يروى هذا عن عبد الله بن عبد القدوس، عن هشام بن عروة».

قلت: والحسن بن عبد الرحمٰن الاحتياطي يسرق الحديث منكر عن الثقات.

انظر: «اللسان» (٢/ ٢١٨)، و«تاريخ بغداد» (٧/ ٣٣٧).

وأخرجه ابن عدي في «الكامل« (٢/ ٦١١)، والخطيب في «تالي التلخيص» (رقم ٣١٠ ـ بتحقيقي) من طريقين عن الحارث بن عبيدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وفيه: **«اردد على أبيك ما حبست عنه، فإنك ومالك كسهم من كنانته»**.

والحارث هو الكلاعي ضعفه الدارقطني، وقال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٢٤): «يأتي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم، لا يعجبني الاحتجاج بخبره إذا انفرد».

وقال أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/ ١/ ٨١): «شيخ ليس بالقوي».

وورد عن عائشة مرفوعاً بلفظ: **«يد الوالد مبسوطة في مال ولده، وإن أمرك في أن تخرج من أهلك، فاخرج منها»**.

أخرجه أبو الشيخ في «الفوائد» رقم (٢٢) **بسند ضعيف، ومنقطع**.

وورد ـ أيضاً ـ عن مبهمين من الصحابة رضي الله عنهم أحدهما أنصاري، عند سعيد بن منصور في «سننه» رقم (٢٢٩١، ٢٢٩٢).

ومن مرسل محمد بن المنكدر، وعمر بن المنكدر، ومضيا عند كلامي على حديث جابر، ومن مرسل محارب بن دثار، ومضى عند الكلام على حديث ابن عمر، ومن مرسل المطلب بن عبد الله بن حَنْطب، عند: أبي عبيد في «المواعظ والخطب» رقم (١٧) وفيه: **«وأطع والديك، وإن أمراك أن تخرج من مالك فاخرج منه»**.

والخلاصة: إن الحديث صحيح بمجموع طرقه هذه كما أسلفنا، وهذا ما قال به ابن حجر وتلميذه السخاوي، فيما قدمناه عنهما، والله الموفق والهادي.

(١) أخرجه مسلم (٣٦٠) من حديث جابر بن سمرة.

(٢) ورد من حديث المغيرة بن شعبة: أخرجه مسلم (٢٧٤ بعد ٨٢ و٨٣) في «الطهارة»، باب المسح على الناصية والعمامة. =

٢٧ ـ حديث الأمر بإعادة الصلاة لمن صلى خلف الصف وحده(١).

= ومن حديث عمرو بن أمية الضمري: أخرجه البخاري (٢٠٥) في «الوضوء»، باب المسح على الخفين.
ومن حديث بلال بن رباح: أخرجه مسلم (٢٧٥) في «الطهارة»، وغيرها.

(١) الحديث يرويه وابصة بن معبد الأسدي ورواه عنه:
أولاً: عمرو بن راشد: أخرجه من طريقه الطيالسي (١٢٠١)، وأحمد (٤/ ٢٢٨)، وأبو داود (٦٨٢) في «الصلاة»، باب ما جاء في الصلاة خلف الصف وحده، والترمذي (٢٣١) في «الصلاة»، باب ما جاء في الصلاة خلف الصف وحده، والطحاوي في «معاني الآثار» (١/ ٣٩٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٧١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٠٤) من طريق عمرو بن مرة عن هلال بن يساف عنه به.
ورواته ثقات من رجال الصحيح، غير عمرو بن راشد فقد ذكره ابن حبان في «الثقات»، وروى عنه اثنان ثم هو متابع.
وقد جاء الحديث من طريق هلال عن وابصة بإسقاط عمرو، رواه أحمد (٤/ ٢٢٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٨٣) من طريق شِمْر بن عطية عن هلال به.
وسنده صحيح إنْ صحَّ سماع هلال من وابصة، حيث لم أر في كتب الرجال من نفاها.
ثانياً: زياد بن أبي الجعد: أخرجه من طريقه الحميدي (٨٨٤)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٩٢ و١٩٣)، وأحمد (٤/ ٢٢٨)، والترمذي (٢٣٠) في «الصلاة»، باب ما جاء في الصلاة خلف الصف وحده، وابن ماجه (١٠٠٤) في «الإقامة»، باب صلاة الرجل خلف الصف وحده، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٧٦ و٣٧٧ و٣٧٨ و٣٧٩ و٣٨٠ و٣٨١)، وابن حبان (٢٢٠٠)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ١٠٤) من طريق حصين ـ وهو: ابن عبد الرحمٰن السهمي ـ عن هلال بن يساف أن زياد بن أبي الجعد أخبره عن وابصة.
قال ابن حبان: «سمع هذا الخبر هلال بن يساف عن عمرو بن راشد عن وابصة، وسمعه من زياد بن أبي الجعد عن وابصة». أي: إنه عند هلال على الوجهين، وهو صحيح عنده، وزياد هذا لم يوثقه إلا هو، وروى عنه اثنان. أما الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «قال بعضهم: حديث عمرو بن مرة أصح، وقال بعضهم: حديث حصين أصح، وهو عندي أصح من حديث عمرو لأنه روي من غير وجه عن هلال عن زياد عن وابصة».
وأما البزار، فقد قال فيما نقله الزيلعي عنه في «نصب الراية» (٢/ ٣٨): «وأما حديث عمرو بن راشد، فإن عمرو بن راشد رجل لا يُعلم حَدّث إلا بهذا الحديث، وليس معروفاً بالعدالة، فلا يحتج بحديثه، أما حديث حصين فإن حصيناً لم يكن بالحافظ، فلا يحتج بحديثه في حكم، وأما حديث يزيد بن زياد (يرويه عن عمّه عبيد بن أبي الجعد عن زياد عند أحمد (٤/ ٢٢٨)، وابن حبان (٢٢٠١))، فلا نعلم أحداً من أهل العلم إلا وهو يضعف أخباره، فلا يحتج بحديثه، وقد روى عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف عن وابصة، وهلال لم يسمع من وابصة، فأمسكنا عن ذكره لإرساله». وفي كلام البزار مبالغة، فحصين بن عبد الرحمٰن من رواة الصحيح، ويزيد بن زياد صدوق، وأما عمرو بن راشد فقد عرفت حاله. =

٢٨ ـ حديث: «من دخل والإمام يخطب يصلي تحية المسجد»[(١)].

٢٩ ـ حديث الجهر بآمين في الصلاة[(٢)].

= والحديث رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٨٨ و٣٩٠ و٣٩١) من طريق سالم بن أبي الجعد و(٢٢/ ٣٩٢ و٣٩٣ و٣٩٤)، وأبو يعلى (١٥٨٨) من طريق الشعبي، والطبراني (٢٢/ ٣٩٥ و٣٩٦ و٣٩٧) من طريق حنش بن المعتمر، و(٢٢/ ٣٩٨) من طريق بكير بن الأخنس كلهم عن وابصة وأسانيدها فيها نظر.

وفي الباب عن علي بن شيبان، أخرجه أحمد (٤/ ٢٣)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٩٣)، وابن ماجه (١٠٠٣)، وابن سعد (٥/ ٥٥١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦)، وابن خزيمة (١٥٦٩)، وابن حبان (٢٢٠١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٩٤)، والبيهقي (٣/ ١٠٥)، ولفظه: **«استقبل صلاتك، لا صلاة للذي خلف الصف»** **وسنده صحيح.**

(١) أخرجه البخاري (٩٣٠) في «الجمعة»، باب إذا رأى الإمام رجلاً جاء وهو يخطب أمره أن يصلي ركعتين خفيفتين، و(٩٣١)، باب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين، و(١١٦٦) في «التهجد»، باب ما جاء في التطوع مثنىٰ مثنى، ومسلم (٨٧٥) في «الجمعة»، باب التحية والإمام يخطب، من حديث جابر.

(٢) هو حديث وائل بن حجر:

وقد أخرجه أحمد (٤/ ٣١٦ و٣١٧)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٢٥)، وأبو داود (٩٣٢ و٩٣٣)، والترمذي (٢٤٨ و٢٤٩)، والدارمي (١/ ٢٨٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ رقم ١١١ و١١٣)، والدارقطني (١/ ٣٣٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٥٧)، وفي «معرفة السنن والآثار» (١/ ٥٣٠) رقم (٧٣٨) من طرق عن سلمة بن كهيل عن حجر بن عنبس عن وائل، وفيه: **«يمد بها صوته»**.

ومن ضمن من رواه هكذا بالجهر سفيان الثوري، **وهذا إسناد صحيح.**

لكن رواه الطيالسي (١٠٢٤)، ومن طريقه البيهقي في «السنن» (٢/ ٥٧)، ورواه أحمد (٤/ ٣١٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/رقم ١٠٩، ١١٠، ١١٢)، والحاكم (٢/ ٢٣٢)، وابن حبان (١٨٠٥) من طريقين عن شعبة عن سلمة بن كهيل به، وفيه أنه أخفى صوته بها.

وصححه الحاكم على شرط الشيخين!!

وقد انتقد غير واحد من العلماء رواية شعبة هذه وصححوا رواية سفيان السابقة منهم: الدارقطني والبيهقي وابن حجر، بل ذكر البيهقي في «معرفة السنن» أن أبا الوليد الطيالسي روى الحديث عن شعبة بالجهر.

وللحديث طريق آخر عن وائل، يرويه أحمد (٤/ ٣١٨)، والنسائي (٢/ ١٤٥)، وابن ماجه (٨٥٥)، والدارقطني (١/ ٣٣٤، ٣٣٥)، والطبراني (٢٢/ ٣٠ ـ ٤٠)، والبيهقي (٢/ ٥٨) من طرق عن أبي إسحاق عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه، وفيه الجهر بآمين. =

٣٠ ـ حديث جواز رجوع الأب فيما وهبه لولده ولا يرجع غيره[١].

٣١ ـ حديث الخروج إلى العيد من الغد إذا علم بالعيد بعد الزوال[٢].

٣٢ ـ حديث نضح بول الغلام الذي لم يأكل الطعام[٣].

= وقد أفردتُ هذا الحديث في جزء مستقلٍ، يسر الله نشره، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧ و٧٨)، وأبو داود (٣٥٣٩) في «البيوع والإجارات»، باب الرجوع في الهبة، والترمذي (١٢٩٩) في البيوع، باب ما جاء في الرجوع في الهبة، والنسائي (٦/ ٢٦٥) في «الهبة»، باب رجوع الوالد فيما يعطي ولده، و(٦/ ٢٦٧ و٢٦٨)، باب ذكر الاختلاف على طاوس، وابن ماجه (٢٣٧٧) في «الهبات»، باب من أعطى ولده ثم رجع فيه، وأبو يعلى (٢٧١٧)، والحاكم (٢/ ٦٤)، والبيهقي (٦/ ١٧٩، ١٨٠) من طرق عن حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن طاوس عن ابن عباس وابن عمر، **وصححه** الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٥٧، ٥٨)، وابن أبي شيبة (٣/ ٦٧)، وعبد الرزاق (٧٣٣٩)، وأبو داود (١١٥٧) في «الصلاة»، باب إذا لم يخرج الإمام للعيد من يومه يخرج من الغد، والنسائي (٣/ ١٨٠) في «صلاة العيدين»، باب الخروج إلى العيد من الغد، وابن ماجه (١٦٥٣) في «الصيام»، باب ما جاء في الشهادة على رؤية الهلال، والدارقطني (٢/ ١٧٠)، والبيهقي (٣/ ٣١٦)، و(٤/ ٢٤٩ و٢٥٠)، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» (١٧٨٧) من طريق جعفر بن أبي وحشية عن أبي عمير عبد الله بن أنس بن مالك عن عمومة له من أصحاب النبي ﷺ، وقال الدارقطني: هذا إسناد حسن ثابت.

وقال البيهقي في الموضع الأول: **إسناده صحيح**، وأقره النووي في «المجموع» (٥/ ٣٣)، وقال في الموضع الثاني: هو إسناد حسن.

رواه أبو عمير عن عمومة له من أصحاب النبي ﷺ، وأصحاب النبي ﷺ كلهم ثقات، فسواء سموا أم لم يسموا.

وأبو عمير هذا وثقه ابن سعد وابن حبان، وجهله ابن عبد البر، وفيه نظر، وصححه **ابن السكن، وابن المنذر، وابن حزم ـ كما في «التلخيص الحبير» (٢/ ٨٧) ـ.**

والحديث أخرجه البزار (٩٧٢)، وابن حبان (٣٤٥٦)، والبيهقي (٤/ ٢٤٩) من طريق سعيد بن عامر عن شعبة عن قتادة عن أنس أن عمومة له.

قال البزار: أخطأ فيه سعيد بن عامر، وإنما رواه شعبة عن أبي بشر عن أبي عمير بن أنس أن عمومة له شهدوا.

وكذا قال البيهقي.

(٣) ورد بلفظ: **«ينضح بول الغلام، ويغسل بول الجارية»**.

أخرجه أحمد (١/ ٧٦ و٩٧ و١٣٧)، وأبو داود (٣٧٨) في «الطهارة»، باب بول الصبي يصيب الثوب، والترمذي (٦١٠) في الصلاة، باب ما ذكر في نضح بول الغلام الرضيع، =

٣٣ ـ حديث من زرع في أرض قوم بغير إذنهم، فليس له من الزرع شيء، وله نفقته[1].

= وابن ماجه (٥٢٥) في «الطهارة»، باب ما جاء في بول الصبي الذي لم يطعم، وابن خزيمة (٢٨٤) من حديث علي بن أبي طالب، قال الحافظ في «التلخيص الحبير» (١/ ٢٨): إسناده صحيح إلا أنه اختلف في رفعه، ووقفه، وفي وصله، وقد رجح البخاري صحته، وكذا الدارقطني.

وفي «صحيح البخاري» (٢٢٣) في «الطهارة»، و(٥٦٩٣) في «الطب»، باب السعوط بالقسط الهندي والبحري، ومسلم (٢٨٧) في «الطهارة»، باب حكم بول الطفل الرضيع من حديث أم قيس بنت محصن الأسدية: «فأخذ رسول الله ﷺ ماء فنضحه، ولم يغسله».

وفي «صحيح البخاري» ـ أيضاً ـ (٢٢٢) و(٥٤٦٨) و(٦٠٠٢) و(٦٣٥٥)، ومسلم (٢٨٦) من حديث عائشة كذلك، عدم غسل النبي ﷺ لبول الغلام.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٥ و٤/ ١٤١)، وأبو داود (٣٤٠٣)، والترمذي (١٣٦٦)، وفي «العلل الكبير» رقم (٢٢٦)، وابن ماجه (٢٤٦٦)، وأبو عبيد في «الأموال» (٣٦٤، ٧٠٨)، ويحيى بن آدم في «الخراج» رقم (٢٩٥)، وابن زنجويه في «الأموال» رقم (١٠٥٧)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ١١٧ ـ ١١٨)، وفي «مشكل الآثار» (٢٦٦٧ ـ ٢٦٦٩)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٣٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ١٤٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٣٦)، وابن عدي (٤/ ١٣٣٤) كلهم من طرق عن شريك عن أبي إسحاق عن عطاء بن أبي رباح عن رافع بن خديج.

وقال الترمذي: «حسن غريب لا نعرفه من حديث أبي إسحاق إلا من هذا الوجه من حديث شريك بن عبد الله، وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هو حديث حسن».

ويفهم من كلام البيهقي في «السنن» عقب الحديث أن فيه عللاً:

الأولى: شريك القاضي، وهو سيئ الحفظ.

الثانية: أبو إسحاق مدلس... ثم هو اختلط.

الثالثة: عطاء لم يسمع من رافع بن خديج، ونقل هذا عن الشافعي، ورد ذلك أبو حاتم، وقال: بل قد أدركه.

أقول: ومما يدل على تدليس أبي إسحاق أن ابن عدي رواه من طريق حجاج بن محمد عن شريك عن أبي إسحاق عن عبد العزيز بن رفيع عن عطاء به، فزاد عبد العزيز، وشريك توبع تابعه قيس بن الربيع عن أبي إسحاق به.

وأخرجه البيهقي (٦/ ١٣٦)، وقيس هذا ضعيف، وبقي فيه علة.

قال البيهقي (٦/ ١٣٧) وقد رواه عقبة بن الأصم عن عطاء قال: حدثنا رافع.

وعقبة هذا ضعيف لا يحتج به.

وله طريق أخرى عن رافع بن خديج: =

٣٤ ـ حديث بيع جابر بعيره واشتراط ظهره[(١)].

٣٥ ـ حديث: **«لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبته في جداره»**[(٢)].

٣٦ ـ حديث: **«إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج»**[(٣)].

٣٧ ـ حديث: **«من باع عبداً وله مال فماله للبائع»**[(٤)].

= أخرجها أبو داود (٣٤٠٢)، والبيهقي (٦/ ١٣٦) من طريق بكير عن عبد الرحمٰن بن أبي نعم عن رافع بمعناه، قال البيهقي: «بكير وإن استشهد به مسلم بن الحجاج في غير هذا الحديث فقد ضعفه يحيى بن سعيد القطان، وحفص بن غياث، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين».

وله طريق أخرى: أخرجها أبو داود (٣٣٩٩)، ومن طريقه البيهقي (٦/ ١٣٦) من طريق يحيى القطان: حدثنا أبو جعفر الخطمي عن سعيد بن المسيب عن رافع بمعناه.

ورواه حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي مرسلاً، أشار إلى ذلك أبو حاتم في «العلل» (١/ ٤٧٥)، وصحح الطريق الموصول وقال: «هذا يقوي حديث شريك عن أبي إسحاق عن عطاء عن رافع بن خديج عن النبي ﷺ».

وأما البيهقي فقال: «أبو جعفر عمير بن يزيد الخطمي لم أر البخاري ولا مسلماً احتجا به في الحديث»!!!

ولا شك أن **الحديث بمجموع طرقه صحيح خلا لفظة: «بغير إذنهم»، فهي من انفرادات أبي إسحاق** فيما ذكر الإمام أحمد في «مسائل أبي داود» (ص٢٠٠)، وحسنه ابن القيم في «تهذيب السنن» (٥/ ٦٤)، وذكر أن لفظة: «بغير إذنهم» صحيحة في النظر، وإن لم تثبت في النقل، وانظر تعليقي على: «تقرير القواعد» لابن رجب (٢/ ١٣٤ ـ ١٤٠).

(١) رواه البخاري (٢٠٩٧) في «البيوع»، باب شراء الدواب والحمير، و(٢٣٠٩) في «الوكالة»، باب إذا وكل رجل رجلاً، و(٢٩٦٧) في «الجهاد»، باب استئذان الرجل الإمام، ومسلم (٣/ ١٢٢١) (٧١٥) في «المساقاة»، باب بيع البعير واستثناء ركوبه، من حديث جابر.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المظالم، باب لا يمنع جاره أن يغرز خشبةً في جداره (٥/ ١١٠) رقم (٢٦٤٣)، وكتاب الأشربة، باب الشرب من فم السِّقاء (٩/ ٩٠) رقم (٥٦٢٧)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساقاة، باب غرز الخشب في جدار الجار (٣/ ١٢٣٠) رقم (١٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٢١) في «الشروط»، باب الشروط في المهر عند عقدة النكاح، و(٥١٥١) في «النكاح»، باب الشروط في النكاح، ومسلم (١٤١٨) في «النكاح»، باب الوفاء بالشروط في النكاح، من حديث عقبة بن عامر.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» في «المساقاة»، باب الرجل يكون له ممر أو شرب في حائط أو نخل (٥/ ٤٩/ ٢٣٧٩)، ومسلم في «صحيحه» في «البيوع»، باب من باع نخلاً عليها ثمر (٣/ ١١٧٢) رقم (١٥٤٣) من حديث ابن عمر وفيه زيادة: «إلا أن يشترط المبتاع».

٣٨ ـ حديث: «**إذا أسلم وتحته أختان اختار أيتهما شاء**»(١).

٣٩ ـ حديث الوتر على الراحلة(٢).

٤٠ ـ حديث: «**كل ذي ناب من السباع حرام**»(٣).

٤١ ـ حديث من السنة وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة(٤).

٤٢ ـ أحاديث رفع اليدين في الصلاة عند الركوع والرفع منه(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣١٧)، وعبد الرزاق (١٢٦٢٧)، وأحمد (٤/ ٢٣٢)، وأبو داود (٢٢٤٣) في الطلاق، فيمن أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان، والترمذي (١١٢٩ و١١٣٠) في النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أختان، وابن ماجه (١٩٥٠ و١٩٥١) في النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أختان، والعقيلي (٢/ ٤٤)، وابن حبان (٤١٥٥)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٨٤٣ و٨٤٤ و٨٤٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٥/ ٣١١) رقم (٢٨٤٧)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١٢/ ٤٢٥٩، ٤٢٦٠) رقم (١٥٢٨، ١٥٢٩)، والدارقطني (٣/ ٢٧٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ١٨٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٢٥٥)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ٢٢٩٧ ـ ٢٢٩٨) رقم (٥٦٧٣) من طريق أبي وهب الجيشاني عن الضحاك بن فيروز عن أبيه.
وقال الترمذي: «**حديث حسن**»، وأبو وهب الجيشاني: اسمه الديلم بن هوشع.
أقول: أبو وهب هذا جهله ابن القطان، وقال البخاري: في إسناده نظر، وقال العقيلي بعد روايته للحديث من طريقه: «لا يحفظ إلا عنه» وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» وروى عنه جماعة.
ومثله الضحاك بن فيروز لم يوثقه إلا ابن حبان وروى عنه جمع، وقال الحافظ في «التلخيص الحبير» (٣/ ١٧٦): «وصححه البيهقي وأعله العقيلي وغيره».

(٢) رواه البخاري (٩٩٩) في «الوتر»، باب الوتر على الدابة، و(١٠٠٠)، باب الوتر في السفر، و(١٩٠٥) كتاب تقصير الصلاة، باب صلاة التطوع على الدواب، و(١٠٩٦)، باب الإيماء على الدابة، ومسلم (٧٠٠) (٣٦ و٣٨) في «صلاة المسافرين»، باب جواز صلاة النافلة على الدابة، من حديث ابن عمر.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: مسلم (١٩٣٣) في «الصيد»، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع، من حديث أبي هريرة.
ورواه البخاري (٥٥٣٠) في الصيد، باب أكل ذي ناب من السباع، و(٥٧٨٠ و٥٧٨١) في الطب، باب ألبان الأتن، ومسلم (١٩٣٢) في «الصيد»، باب تحريم أكل ذي ناب من السباع، من حديث أبي ثعلبة الخشني، ولفظه: «**نهى عن أكل ذي ناب من السباع**».

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري في جزء «رفع اليدين في الصلاة»، وتكلم عليها بنفسٍ علميٍّ مسهبٍ محققُهُ الشيخُ بديع السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جلاء العينين» وهو مطبوع، وقال الذهبي في «السير» =

٤٣ ـ أحاديث الاستفتاح[١].

٤٤ ـ حديث كان للنبي ﷺ سكتتان في الصلاة[٢].

٤٥ ـ حديث حمل الصبية في الصلاة[٣].

٤٦ ـ حديث: **«لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذنك ففقأت عينه فلا شيء عليك»**[٤].

٤٧ ـ حديث: **«أيدع يده في فيك تقضمها كما يقضم الفحل؟»**[٥].

= (٥/ ٢٩٣) عن هذه السنة: **«إنها متواترة»**.

(١) ورد عن جمع من الصحابة، منها: حديث علي في «صحيح مسلم» (٧٧١) في «صلاة المسافرين»، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.
ومنها: حديث أبي هريرة (٥٩٨) عنه في المساجد، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة.
ومنها: حديث ابن عمر: عند مسلم (٦٠١).
ومنها: حديث أنس عند مسلم ـ أيضاً ـ (٦٠٠).
وانظر: «التلخيص الحبير» (١/ ٢٢٩)، و«نصب الراية» (١/ ٣١٩)، و«إرواء الغليل»، وتعليقي على «الإشراف» (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢) للقاضي عبد الوهاب، وانظر: «صحيح ابن حبان» (١٧٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧، ١١، ١٢، ١٥، ٢٠، ٢١)، وأبو داود (٧٧٧ و٧٧٨ و٧٧٩، و٧٨٠) في «الصلاة»، باب في السكتة عند الافتتاح، والترمذي (٢٥١) في «الصلاة»، باب ما جاء في السكتتين في الصلاة، وابن ماجه (٨٤٤ و٨٤٥) في «إقامة الصلاة»، باب في سكتتي الإمام، والطبراني (٦٨٧٥ و٦٨٧٦ و٦٩٤٢)، والدارقطني (١/ ٣٣٦)، والبيهقي (٢/ ١٩٦) من حديث الحسن عن سمرة.
وفي بعض طرقه: «فسأل سمرة عمران بن حصين».
وأخرجه ابن حبان (١٨٠٧) لهذا، حيث قال: «الحسن لم يسمع من سمرة شيئاً، وسمع من عمران بن حصين، واعتمادنا فيه على عمران دون سمرة».
وانظر الكلام على الحديث في: «إرواء الغليل» (٢/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٦) في «الصلاة»، باب حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، ومسلم (٥٤٣) في «المساجد»، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، من حديث أبي قتادة.

(٤) أخرجه البخاري (٦٨٨٨) في «الديات»، باب من أخذ حقه أو اقتص دون السلطان، و(٦٩٠٢)، باب من اطلع في بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية له، ومسلم (٢١٥٨) في «الآداب»، باب تحريم النظر في بيت غيره، من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه البخاري (٢٢٦٥) في «الإجارة»، باب الأجير في الغزو، و(٢٩٧٣) في =

٤٨ ـ حديث: «**إن بلالاً يؤذِّن بليل**»[١].

٤٩ ـ حديث النهي عن عسب الفحل[٢].

٥٠ ـ حديث: «**المحرم إذ مات لم يُخَمَّر رأسه**»[٣].»[٤].

قال محمد تقي الدين: هذه خمسون حديثاً اخترتها من الأحاديث[٥] التي ذكرها الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مما يخالفها أصحاب المذاهب، تعصباً لقول إمامهم أو بعض أهل مذهبهم، وسأبين هنا معانيها باختصار الحديث[٦]:

الأول: رخص النبي ﷺ في بيع العرايا بخرصها من التمر اليابس، والعرايا: جمع عرية وهي النخلة تكون في بستان رجل فيكره أن يدخل بستانه

= «الجهاد»، باب الأجير، و(٤٤١٧) في «المغازي»، باب غزوة تبوك، ومسلم (١٦٧٤) في القسامة، باب الصائل على نفس الإنسان أو عضوه، من حديث يعلى بن أمية.

(١) أخرجه البخاري (٦١٧) في «الأذان»، باب أذان الأعمى، و(٦٢٠)، باب الأذان بعد الفجر، و(٦٢٢ و٦٢٣)، باب الأذان قبل الفجر، و(١٩١٨) في «الصوم»، باب قول النبي ﷺ: «**لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال**»، و(٢٦٥٦) في «الشهادات»، باب شهادة الأعمى، و(٧٢٤٨) في «أخبار الآحاد»، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان، ومسلم (١٠٩٢) في «الصيام»، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، من حديث ابن عمر.
وأخرجه البخاري (٦٢١) في «الأذان»، باب الأذان قبل الفجر، و(٥٢٩٨) في «الطلاق»، باب الإشارة في الطلاق والأمور، و(٧٢٤٧) في «أخبار الآحاد»، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، ومسلم في «الصحيح» كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (١٠٩٣) من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٨٤) في «الإجارة»، باب عَسْب الفحل، وأبو داود (٣٤٢٩) في «البيوع»، باب في عسب الفحل، والترمذي (١٢٧٣) في «البيوع»، باب ما جاء في كراهية عسب الفحل، من حديث ابن عمر.

(٣) أخرجه البخاري (٨٥١) في «جزاء الصيد»، باب سنة المحرم إذا مات، ومسلم (١٢٠٦) في «الحج»، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات، عن ابن عباس أن رجلاً كان مع النبي ﷺ فوقصته ناقته ـ وهو محرم ـ فمات، فقال رسول الله ﷺ: «**اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسُّوه بطيب، ولا تخمِّروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًّا**».

(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٤٥) بتصرف.

(٥) هي صحيحة، وأسهبت في بيان صحة ما اختلف فيه الحفاظ، ولذا شددت النفس في التخريج وبيان كلام المخرجين، والحمد لله على آلائه ونعمائه.

(٦) وإهمال تخريجه، إن سبق بيان ذلك مفصَّلاً، وكذا إهمال التنويه على ما مضى، اكتفاءً بهذا التنبيه، والله وليّ التوفيق.

صاحبها في كل يوم ليجني رطبها شيئاً فشيئاً، فيقول: بعني رطب هذه النخلة بخرصها تمراً يابساً، مع أن بيع التمر بالتمر لا يجوز؛ لأنه من أنواع الربا «**إلا مثلاً بمثل يداً بيد**»[١]، واستثنى النبي ﷺ العرية للضرر الذي يلحق صاحب البستان بدخول ذلك الرجل كل يوم، هكذا فسرها مالك[٢]، وقال الشافعي[٣]: «العرية: رطب نخلة أو نخلتين يشتريه شخص بمثله تمراً يابساً على سبيل الخرص».

الثاني: إذا كان للرجل زوجة أو أكثر ثم تزوج امرأة يجوز أن يقيم عندها سبعة أيام إن كانت بكراً، وثلاثة أيام إن كانت ثيباً، يخصها بذلك ثم بعد ذلك، يجب عليه القسم بين الزوجتين أو الزوجات لكل واحدة يوماً وليلة.

الثالث: إذا زنا رجل بامرأة وهو غير محصن ـ أي: غير متزوج ـ يجلد مائة وينفى من بلده سنة، خالفها بعض المذاهب فنفى التغريب[٤].

الرابع: المسح على الجوربين من صوف أو شعر أو قطن جائز بالأحاديث الصحيحة، وقد ألّف فيه جمال الدين القاسمي[٥]، وبعض المذاهب يشترط أن يكون الممسوح من جلد[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٨٧) من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) انظر: «الموطأ» (ص٥١٨ ـ ط دار الآفاق) و«شرح حدود ابن عرفة» (٢/ ٣٩٠).

(٣) انظر: «الأم» (٤/ ١١٤)، و«المغني في الإنباء» (١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤)، و«الزاهر» (ص٣٠١ ـ ٣٠٢).

(٤) هو مذهب أبي حنيفة، فقد حملوا التغريب على وجه التعزير. قالوا: وهو مناط بيد الإمام إن شاء غرَّب وإن شاء ترك. انظر: «مختصر الطحاوي» (٢٦٢)، «مختصر اختلاف العلماء» (٣/ ٢٧٧) رقم (١٣٩٣)، «اللباب» (٣/ ١٨٧)، «فتح القدير» (٥/ ٢٤١)، «العناية» (٥/ ٢٤١)، «حاشية رد المحتار» (٤/ ١٤)، «المبسوط» (٩/ ٤٤)، «مختصر القدوري» (٩٥).

تنبيه: قال ابن حجر في «الفتح» (١٢/ ١٥٧): «ووافق الجمهور منهم ابن أبي ليلى وأبو يوسف».

(٥) وهي رسالة «المسح على الجوربين» وهي مطبوعة، حققها شيخنا الألباني وكتب بذيلها «تمام النصح في أحكام المسح».

(٦) هو مذهب المالكية والحنفية إلّا أن بعض أتباع الإمام أبي حنيفة قال: إنه رجع إلى قولَي أبي يوسف ومحمد بن الحسن قبل موته.

انظر للحنفية: «المبسوط» (١/ ١٠٢)، «حاشية ابن عابدين» (١/ ٢٧٠)، وانظر للمالكية: =

الخامس: إذا تكلم الرجل في صلاته وهو يجهل أن الكلام لا يجوز، ثم نُبِّه على ذلك وترك الكلام، فصلاته صحيحة، وكذلك إذا تكلم ناسياً[(١)]، أو تكلم لإصلاح الصلاة لا تبطل صلاته[(٢)]. وقالت الحنفية: تبطل بكل كلام كيف ما كان[(٣)].

السادس: المصراة[(٤)]، هي الشاة أو البقرة يترك صاحبها حلبها يوماً أو يومين ليخدع المشتري، فإذا فعل ذلك؛ فللمشتري أن يردَّها ويرد معها صاعاً من تمر، ترك العمل به بعض المذاهب[(٥)].

= «التفريع» (١/ ١٩٩)، «التلقين» (١/ ٧٢)، «المدونة» (١/ ١٤٣)، و«الإشراف على نكت مسائل الخلاف» (١/ ٨٢ ـ بتحقيقي)، و«الاستذكار» (١/ ٢٧٩).

(١) هذا هو مذهب المالكية. انظر: «الإشراف» (١/ ٣٠٥ ـ بتحقيقي)، و«المدونة» (١/ ٢١٩)، و«الذخيرة» (٢/ ١٣٨)، و«التلقين» (١/ ١١٤).
والشافعية انظر: «الأم» (١/ ١٢٤)، و«المجموع» (٤/ ١٠)، و«روضة الطالبين» (١/ ٢٩٠)، و«مغني المحتاج» (١/ ١٩٥).
وأحمد؛ انظر: «المغني» (٢/ ٤٦)، و«الإنصاف» (٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، و«المبدع» (١/ ٥١٣ ـ ٥١٤).

(٢) هو مذهب بعض المالكية. انظر: «المدونة» (١/ ٢١٩)، و«التلقين» (١/ ١١٤)، و«الإشراف» (١/ ٣٠٦ ـ بتحقيقي)، و«الذخيرة» (١/ ١٣٨)، و«التمهيد» (١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).
خلافاً لأبي حنيفة. انظر: «الأصل» (١/ ١٦٩)، و«الحجة» (١/ ٢٤٥) و«شرح معاني الآثار» (١/ ٤٤٣ ـ ٤٥٣)، و«المبسوط» (١/ ١٧٠ ـ ١٧١)، و«شرح فتح القدير» (١/ ٣٤٤)، و«حاشية ابن عابدين» (١/ ٦١٣ ـ ٦١٤).
والشافعي؛ انظر: «الأم» (١/ ١٢٤ ـ ١٢٩)، و«المجموع» (٤/ ٨ ـ ١٠)، و«روضة الطالبين» (١/ ٢٨٩)، و«مغني المحتاج» (١/ ١٩٤ ـ ١٩٥). وأحمد؛ انظر: «المغني» (٢/ ٤٥، ٥٠)، و«المحرر» (١/ ٧٢)، و«المبدع» (١/ ٥١١ ـ ٥١٢)، و«الإنصاف» (٢/ ١٣٤).

(٣) انظر: «الأصل» (١/ ١٦٩)، و«الحجة على أهل المدينة» (١/ ٢٤٥ وما بعد)، و«شرح معاني الآثار» (١/ ٤٤٣ ـ ٤٥٣)، و«رؤوس المسائل» (١٥٩)، و«القدوري» (١١)، و«المبسوط» (١/ ١٧٠)، و«البدائع» (٢/ ٥٧٧)، و«شرح فتح القدير» (١/ ٣٤٤)، و«حاشية ابن عابدين» (١/ ٦١٣ ـ ٦١٤)، و«النتف في الفتاوى» (١/ ٧٣).

(٤) انظر: «المغني في الإنباء» (١/ ٣٣١ ـ ٣٣٣).

(٥) هو مذهب الحنفية؛ فقالوا: لا يثبت بها حق الرد ولا أثر لها في البيع. انظر: «مختصر الطحاوي» (٧٩)، و«المبسوط» (١٣/ ٣٨)، و«فتح القدير» (٦/ ٤١١)، و«عمدة القاري» (١١/ ٢٧٠)، و«حاشية ابن عابدين» (٥/ ٤٤)، و«إعلاء السنن» (١٣/ ٦٠).

السابع: قال النبي ﷺ: «**المتبايعان بالخيار ما لم يتفرقا**»، ومعناه: أن كل واحد من المتبايعين يجوز له أن يرجع عن البيع أو الشراء ما داما في المجلس الذي وقع فيه البيع، وقالت المالكية: لا يجوز(١)، وأوَّلوا التفرق بالتفرق في الكلام تعصباً لمذهبهم، مع أن عبد الله بن عمر الذي روى الحديث عن النبي ﷺ: «**كان إذا باع شيئاً وأراد أن يثبت البيع فارق ذلك المجلس، ثم يرجع إن شاء**»(٢).

الثامن: قال رسول الله ﷺ: «**من أكل أو شرب في نهار رمضان ناسياً، فإنما أطعمه الله وسقاه فلا قضاء عليه**»، وقالت المالكية: «يجب عليه القضاء»(٣).

التاسع: صح عن النبي ﷺ أن من صلى ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، وقالت الحنفية: «إذا طلعت عليه الشمس وهو في صلاة الصبح بطلت»(٤).

العاشر: صح الحديث عن النبي ﷺ أن من وجد متاعه بعينه عند رجل أفلس فله أن يأخذه، وأنكر بعض المذاهب، وقالوا: يقتسمه الغرماء، فردوا

---

(١) انظر: «المدونة الكبرى» (٤/ ١٨٨)، و«المعونة» (٢/ ١٠٤٣)، و«التفريع» (٢/ ١٧١)، و«التلقين» (٢/ ٣٦٤)، و«الإشراف» (٢/ ٤٣٦ ـ ٤٣٨ ـ بتحقيقي)، و«حاشية الدسوقي» (٣/ ٩١)، و«الذخيرة» (٥/ ٢٠)، و«أسهل المدارك» (٢/ ٢٢١)، و«جامع الأمهات» (ص٣٥٦)، و«الموافقات» (١/ ٤٣٣ ـ بتحقيقي)، و«شرح الزرقاني على الموطأ» (٣/ ٣٢٢).

وهذا مذهب الحنفية. انظر: «فتح القدير» (٥/ ١٨١)، و«شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥)، و«تحفة الفقهاء» (٢/ ٥٠)، و«بدائع الصنائع» (٥/ ١٣٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٧٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٦٣٦)، والشافعي في «مسنده» (٢/ ٣١٨ ـ ٣١٩ ـ بترتيب السندي)، وللمنذري جزء مطبوع في المسألة.

(٣) انظر: «المدونة» (١/ ١٨٥، ط. دار الفكر)، «التفريع» (١/ ٣٠٥)، «المعونة» (١/ ٤٧١)، «الرسالة» (١٦١)، «الكافي» (١٢٥)، «التلقين» (١/ ١٨٧)، «الذخيرة» (٢/ ٥٢٣)، «عقد الجواهر الثمينة» (١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨)، «عارضة الأحوذي» (٣/ ٢٧٤)، «بداية المجتهد» (١/ ٤٠٢)، «مقدمات ابن رشد» (١/ ١٧٧)، «تفسير القرطبي» (٢/ ٣٢٣)، «إكمال إكمال المعلم» (٣/ ٢٤٣)، «جامع الأمهات» (ص١٧٥)، «المنتقى» (٢/ ٦٥)، «الفقه المالكي وأدلته» (٢/ ١١٨ ـ ١١٩).

وهذا مذهب الليث؛ قاله الجصاص.

(٤) انظر: «الأصل (١/ ١٥٣ ـ ١٥٤)، و«خزانة الفقه» (١/ ١٢٠)، و«الأوسط» لابن المنذر (٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

صريح الحديث تعصباً لمذهبهم[١].

الحادي عشر: صح عن النبي ﷺ القضاء بشاهد واحد مع يمين المدَّعِي ـ بكسر العين ـ، ورده بعض المذاهب وقالوا: «لا بدّ من شاهدين»[٢].

الثاني عشر: صح عن النبي ﷺ أن الغلام ـ أي: الصبي ـ إذا كان مميزاً وافترق أبوه مع أمه يخيّر أن يتبع أيهما شاء، ورده بعض المذاهب وقالوا: لا خيار له، بل يجب أن تحضن عليه أمه[٣].

الثالث عشر: صح عن النبي ﷺ أنه بعث إلى من تزوج بامرأة أبيه أن يقتل ويؤخذ ماله، وبعض المذاهب لا يقول بذلك[٤].

الرابع عشر: هذا الحديث صريح في تحريم التحليل، وهو أن الرجل إذا حرمت عليه زوجته بأن طلقها ثلاثاً، يستأجر رجلاً يتزوج بها ليلة ثم يطلقها له ليتزوج بها، ويتحمل لعنة الرسول ﷺ المحلل والمحلل له.

الخامس عشر: ثبت عن النبي ﷺ من حديثه، ومن دلالة كتاب الله، أنه لا يصح نكاح بلا ولي، وقالت الحنفية: يجوز للمرأة أن تزوّج نفسها[٥].

---

(١) هو مذهب أبي حنيفة. انظر: «مختصر الطحاوي» (٩٥ ـ ٩٦)، و«اللباب» (٢/ ٧٣ ـ ٧٤)، و«رد المحتار» (٦/ ١٥٢)، و«تبيين الحقائق» (٥/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٩/ ٢٧٨)، و«حاشية ابن عابدين» (٤/ ٤٤).

(٢) هذا مذهب أبي حنيفة. انظر: «ظفر اللاظي» (ص١٤١)، وتفصيل المسألة في كتاب ابن القيم: «الطرق الحكمية» (بتحقيقي)، وكدت أن أفرغ من تحقيقه، يسر الله نشره بمنّه وكرمه.

(٣) وهو قول مالك. انظر: «المدونة» (٢/ ٢٤٤)، و«عيون المجالس»، و«الإشراف على مذاهب أهل العلم» (١/ ١٣٢ ـ ١٣٤). وقد فصّل في هذه المسألة تفصيلاً بديعاً ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (٥/ ٣٨٧ ـ ٤٣٧).

(٤) هو مذهب الحنفية، وقالوا: إن كان عالماً بحرمة العقد عليها عوقب بأبعد ما يكون عن التعزير سياسة، وإن لم يكن عالماً فلا تعزير عليه. وبه قال زفر والثوري.
انظر: «المبسوط» (٩/ ٨٥)، و«مختصر اختلاف العلماء» (٣/ ٢٩٦) رقم (١٤١٤)، و«البناية» (٥/ ٣٩٦ ـ ٤٠٥)، و«اللباب» (١/ ٣٠٠)، و«بدائع الصنائع» (٩/ ٤١٥٤)، و«الهداية» (٤/ ١٤٧)، و«فتح القدير» (٤/ ٢٠٢).

(٥) اشترطوا إذا كانت بالغة عاقلة رشيدة. انظر: «مختصر الطحاوي» (١٧١)، «اللباب» (٣/ ٨)، «مختصر اختلاف العلماء» (٢/ ٢٤٧) رقم (٧١٣)، «الاختيار» (٣/ ٩٠)، «فتح القدير» (٣/ ٢٥٥)، «تبيين الحقائق» (٢/ ١١٧)، «البحر الرائق» (٣/ ١١٧)، «شرح العيني» =

السادس عشر: صح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل أراد أن يتزوج بامرأة: «**التمس ولو خاتماً من حديد**». فخالفه بعض المذاهب وحددوا الصداق، بعضهم بربع دينار(١) وبعضهم بأكثر(٢) وردوا حديث النبي ﷺ.

السابع عشر: روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت: نحرنا على عهد النبي ﷺ فرساً فأكلناها، فقالت المالكية: لا يجوز أكل لحوم الخيل(٣).

الثامن عشر: صح عن النبي ﷺ أن كل ما أسكر كثيره من الأشربة فقليله حرام، وهو خمر يقام الحد على شاربه، وقالت الحنفية: إن الخمر لا تكون إلا من العنب، والأشربة التي من غيرها لا يحد شاربها ولو سكر، ويجوز تناول القليل منها الذي لا يسكر، مع أن الخمر لما أنزل الله تحريمها وأمر النبي ﷺ بإراقتها، لم يكن في المدينة خمر إلا من تمر(٤).

التاسع عشر: صح عن النبي ﷺ في الرهن إذا كان حيواناً يركب أو يحلب، أن ينتفع المرهون عنده بركوبه أو لبنه في مقابلة العلف والضمان، وردّه بعض المذاهب وقالوا: لا يجوز(٥).

= (١/ ١١٩)، «طريقة الخلاف في الفقه» (٦٦ ـ ٧١)، «تحفة الفقهاء» (٢/ ٢٣٥)، «إيثار الإنصاف» (١١٤). وانظر: «مختصر الخلافيات» (٤/ ٩٧) رقم (١٩١).

(١) هو مذهب المالكية. انظر: «المدونة» (٢/ ١٧٠)، «التفريع» (٢/ ٣٧)، «الرسالة» (١٩٦)، «الكافي» (٢٤٩)، «الإشراف» (٣/ ٣٥٢ ـ بتحقيقي)، «المعونة» (٢/ ٧٥٠)، «جامع الأمهات» (٢٧٥)، «بداية المجتهد» (٢/ ١٨)، «الخرشي» (٣/ ٢٥٣)، «مقدمات ابن رشد» (٢/ ٣٠ ـ ٣١).

(٢) هو عند الحنفية، وأقله عشرة دراهم أو قيمتها.
انظر: «الجامع الكبير» (٩١)، «الاختيار» (٣/ ١٠١)، «فتح القدير» (٣/ ٣١٧)، «المبسوط» (٥/ ٨٠)، «تحفة الفقهاء» (٢/ ٢٠٠، ٢٠١)، «بدائع الصنائع» (٣/ ١٤٢٦)، «تبيين الحقائق» (٢/ ١٣٦)، «البحر الرائق» (٣/ ١٥٢)، «رؤوس المسائل» (٣٩٩).

(٣) انظر: «التمهيد» (١٠/ ١٢٧، ط. الغرباء)، و«الاستذكار» (٥/ ٥٢٥)، و«المنتقى» للباجي (٣/ ١٣٣)، و«شرح الزرقاني» (٣/ ٩١ ـ ٩٥)، و«أوجز المسالك» (١٠/ ١٢١ ـ ١٢٤)، و«إكمال المعلم» (٦/ ٣٨٣).

(٤) انظر: «بدائع الصنائع» (٥/ ١١٢)، و«مختصر القدوري» (ص٦٣٨ ـ ٦٣٩)، و«الهداية» (٧/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧ ـ مع «تخريج اللكنوي»).

(٥) هم المالكية. انظر: «المدونة» (٤/ ١٥٥)، «المعونة» (٢/ ١١٦١ ـ ١١٦٢)، «الإشراف» =

العشرون: صح النهي عن تخليل الخمر عن النبي ﷺ، أي: تصييرها خلاً بالطبخ أو غيره، وقال بعض المذاهب: إذا خللت حلت[(١)].

الحادي والعشرون: صح عن النبي ﷺ أن المصة والمصتين يمصهما الطفل أو الطفلة من امرأة غير أمه لا يحرم بهما النكاح، وإنما يحرم بخمس رضعات كاملات، وقالت الحنفية والمالكية: تثبت الحرمة بقليل الرضاع وكثيره[(٢)].

الثاني والعشرون: صح عن النبي ﷺ أنه رخص للمحرم إذا لم يجد إزاراً

= (٣/ ١٩ ـ بتحقيقي)، «جامع الأمهات» (٣٧٧)، «قوانين الأحكام» (٢٧٧)، «الشرح الكبير» (٣/ ٢٤٦)، «منتخب الأحكام (ص٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢).

والمذهب أنه داخل معه إن كان لا يتميز؛ كالسِّمن، أو كان نسلاً؛ كالولادة والنتاج، وفي معناه: فَسيل النخل، وما عدا ذلك من غلَّة وثمرة ولبن وصوف فلا يدخل فيه إلا أن يشترطه، والفرق بينهما أن الأولاد تبع في الزكاة للأمهات، وليس كذلك الأصواف والألبان وثمر الأشجار؛ لأنها ليست تبعاً للأمهات في الزكاة، ولا هي في صُوَرها ولا في معناها ولا تقوم معها؛ فلها حكم نفسها لا حكم الأصل، خلاف الولد والنتاج، والله أعلم بصواب ذلك. قاله القرطبي في «تفسيره» (٣/ ٤١٤).

(١) هو قول المالكية. انظر: «المدونة» (٦/ ٢٦٤)، «المعونة» (٢/ ٧١٣)، «التفريع» (١/ ٤١٠ ـ ٤١١)، «الإشراف» (٣/ ١٣ ـ بتحقيقي)، «البيان والتحصيل» (٩/ ٣٥٦، ١٨/ ٦١٩)، «الكافي» (١٩٠)، «شرح الزرقاني على مختصر خليل» ١/ ٢٧، ٦/ ١٤٢)، «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٩٠).

وقال به أيضاً: الحنفية وجماعة من علماء الأمصار:

انظر: «مختصر الطحاوي» (ص٢٧٩)، «المبسوط» (٢٤/ ٧، ٢٢)، «الهداية» (٤/ ١١٣)، «تبيين الحقائق» (٦/ ٤٨)، «القدوري» (ص٩٨)، «مختصر اختلاف العلماء» (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٣)، «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣)، «تحفة الفقهاء» (٣/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦)، «مجمع الضمانات» (١٠٨)، «رؤوس المسائل» (٣٠٨)، «حاشية ابن عابدين» (٤/ ٣٨)، «مصنف عبد الرزاق» (٩/ ٢٥٢ ـ ٢٥٤).

(٢) هو قول المالكية. انظر: «المدونة» (٢/ ٢٨٨)، «التفريع» (٢/ ٦٨ ـ ٦٩)، «الكافي» (٢٤٢)، «المعونة» (٢/ ٩٤٦)، «الإشراف» (٤/ ٤٩ ـ بتحقيقي)، «جامع الأمهات» (ص٣٢٩)، «قوانين الأحكام الشرعية» (ص٢٣٠)، «أسهل المدارك» (٢/ ٢١١)، «مواهب الجليل» (١٧٨٤)، «بداية المجتهد» (٢/ ٣٥)، «تفسير القرطبي» (٥/ ١١١)، «عقد الجواهر الثمينة» (٢/ ٢٨٧).

وهو مذهب أبي حنيفة أيضاً. انظر: «مختصر الطحاوي» (٢٢٠)، «المبسوط» (٥/ ١٣٤)، «البناية» (٤/ ٣٣٨)، «الاختيار» (٣/ ١١٧)، «فتح القدير» (٣/ ٤٣٨)، «حاشية ابن عابدين» (٣/ ٢٠٩).

أن يلبس سراويل، وإذا لم يجد نعلين أن يلبس خفين ويقطعهما أسفل من الكعبين وقال بعض المذاهب: لا يجوز ذلك[(١)].

الثالث والعشرون: صح عن النبي ﷺ أن رجلاً جاءه ليشهده على شيء منحه لأحد أبنائه، وقال له النبي ﷺ: «**أمنحت كل واحد من أبنائك مثله؟**» قال: لا، فقال له النبي: «**أشهد غيري، فإني لا أشهد على باطل، اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**». خالفه بعض المذاهب فقال: يجوز للأب أن يخص بعض أولاده بهبة دون الآخرين[(٢)].

الرابع والعشرون: صح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل تخاصم مع أبيه في مال: «**أنت ومالك لأبيك**» ورده بعض المذاهب، ولم يبيحوا للأب أن يأخذ شيئاً من مال ابنه[(٣)].

---

(١) أما منع لبس السراويل للمحرم إذا لم يجد إزاراً فهو قول المالكية، وألزموا من فعل ذلك بالفدية. انظر: «الموطأ» (١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٨)، «المدونة» (١/ ٤٦٣، ٤٨٩)، «المعونة» (١/ ٥٢٧)، «الإشراف» (٢/ ٣٤١ ـ بتحقيقي)، «التفريع» (١/ ٣٢٣)، «الرسالة» (١٨٠)، «الكافي» (١٥٣)، «المنتقى» (٢/ ١٩٦)، «بداية المجتهد» (١/ ٣٢٧)، «الخرشي» (٢/ ٣٤٧)، «شرح الزرقاني على الموطأ» (٣/ ١٩)، «إكمال إكمال المعلم» (٣/ ٢٩٣)، «جامع الأمهات» (ص٢٠٧)، «الفقه المالكي وأدلته» (٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

وأما منع لبس الخفين وقطعهما أسفل من الكعبين فهو قول المالكية أيضاً وألزموا من لبسه الفدية. انظر: «الموطأ» (١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٨)، «المدونة» (١/ ٤٦٣، ٤٨٩)، «الإشراف» (٢/ ٣٤٠ ـ بتحقيقي)، «المعونة» (١/ ٥٢٨)، «التفريع» (١/ ٣٢٣)، «الرسالة» (١٨٠)، «الكافي» (١٥٣)، «المنتقى» (٢/ ١٩٦)، «عقد الجواهر الثمينة» (١/ ٤٢٣)، «بداية المجتهد» (١/ ٣٢٧، ٣٧٤)، «المقدمات» (١/ ٢٩٦)، «الخرشي» (٢/ ٣٤٦)، «إكمال إكمال المعلم» (٣/ ٢٩٢)، «جامع الأمهات» (ص٢٠٥)، «الفقه المالكي وأدلته» (٢/ ١٨٧).

(٢) هو قول المالكية وقالوا: يكره أن ينحله جميع ماله. انظر: «الموطأ» (٢/ ٧٥١)، شرحه «المنتقى» (٦/ ٩٣)، «التفريع» (٢/ ٤١٥)، «الرسالة» (٢٣٠)، «الكافي» (٥٣٠)، «المعونة» (٣/ ١٦١٦ ـ ١٦١٧)، «التلقين» (٢/ ٥٥١)، «الإشراف» (٣/ ٢٥٨ ـ بتحقيقي)، «بداية المجتهد» (٢/ ٣٢٨)، «المقدمات الممهدات» (٣/ ١١٧)، «مواهب الجليل» (٦/ ٥٣)، «فصول الأحكام» (٢٢٢)، «شرح زرّوق على الرسالة» (٢/ ١٧١)، «شرح الزرقاني على خليل» (٨/ ٧٩)، «قوانين الأحكام» (٣١٥)، «معين الحكام» (٢/ ٧٤٤)، «أسهل المدارك» (٣/ ٩٤)، «الخرشي» (٨/ ١٧١)، «الشرح الكبير» (٤/ ٤٢٧)، «حاشية البناني» (٨/ ١٧٩)، «حاشية العدوي على كفاية الطالب الرباني» (٢/ ٢٠٧)، «أصول الفتيا» (٢٦٤)، «الموافقات» (٤/ ٤٢١ ـ ٤٢٢ ـ بتحقيقي).

(٣) سبق بيان ذلك مفصلاً عند تخريجنا للحديث، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الخامس والعشرون: صح عن النبي ﷺ أنه سئل: «أنتوضأ من لحوم الغنم» قال: «**إن شئت**». فقال السائل: أنتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «**نعم**»، وأكثر المذاهب ردوا هذا الحديث وقالوا: لا وضوء على من أكل لحم الإبل(١).

السادس والعشرون: صح عن النبي ﷺ المسح على العمامة، أو على الناصية والعمامة، ورده بعض المذاهب وقالوا: لا يجوز المسح على العمامة(٢).

السابع والعشرون: صح عن النبي ﷺ أنه أبطل صلاة من صلى منفرداً خلف الصف، وبعض المذاهب يقولون بصحتها(٣).

الثامن والعشرون: قال النبي ﷺ إذا دخل أحدكم والإمام يخطب فليركع ركعتين، وقالت الحنفية والمالكية: لا يركع ركعتين وهذه معصية للرسول ظاهرة(٤).

---

(١) هو قول أحمد، فروي عنه أنه قال: «لا وضوء من طعام أحله الله»، والمشهور من مذهبه الوضوء على من أكل لحوم الإبل. انظر: «مسائل الإمام أحمد» (١٧)، و«مختصر الخرقي» (١٨)، و«المغني» (١/ ١٨٧)، و«الكافي» (١/ ٤٤)، و«الإنصاف» (١/ ٢١٦)، و«شرح منتهى الإرادات» (١/ ٦٩)، و«الروض المربع» (٢٥ ـ ٢٦).
وأما قول المالكية والحنفية والشافعية فهو عدم وجوب الوضوء من أكلها. انظر: «الموطأ» (١/ ٤٣)، «المدونة» (١/ ١٢٤)، «التلقين» (١/ ٧٢ ـ ٧٣)، «مختصر خليل» (ص١٩)، «جواهر الإكليل» (١/ ٢٩)، «مواهب الجليل» (١/ ٣٦٢)، «حاشية الدسوقي» (١/ ٨٨ ـ ٨٩، ١٦٣)، «المعونة» (١/ ١٢٥)، «الإشراف (١/ ٤٤ ـ بتحقيقي)، «الرسالة» (٩٦)، «التفريع» (١/ ١٩٠ ـ ١٩١)، «الكافي» (٢٣)، «مقدمات ابن رشد» (١/ ١٤)، «بداية المجتهد» (١/ ١٠).

(٢) هو مذهب الحنفية، انظر: «المبسوط» (١/ ١٠١) و«تبيين الحقائق» (١/ ٥٢)، «الفتاوى الهندية» (١/ ٦) و«حاشية ابن عابدين» ومذهب مالك، انظر: «المدونة» (١/ ١٢٤)، «المنتقى» (١/ ٧٥)، «مواهب الجليل» (١/ ٢٠٧)، «حاشية الدسوقي» (١/ ١٦٣، ١٦٤) وهو أيضاً مذهب الشافعية، انظر: «الأم» (٧/ ٢٩)، «المجموع» (١/ ٤٣٩) وبسط المسألة في «أحكام المسح على الحائل» (٤٩٩ ـ ٥٣١) و«فقه الممسوحات في الشريعة الإسلامية» (ص١٣٥ ـ ١٧٥).

(٣) هو قول المالكية. انظر: «المدونة» (١/ ١٩٤)، «التفريع» (١/ ٢٦٠)، «المعونة» (١/ ٢٥٥)، «الإشراف» (١/ ٣٧٥ ـ بتحقيقي)، «الذخيرة» (٢/ ٢٦١)، «التمهيد» (١/ ٢٦٩)، «بداية المجتهد» (١/ ١١٦ ـ ١١٧).

(٤) هو قول المالكية. انظر: «المعونة» (١/ ٣٠٨)، «الإشراف» (٢/ ١٠ ـ بتحقيقي)، «التفريع» (١/ ٢٣٢)، «جامع الأمهات» (ص١٢٤)، «الذخيرة» (٢/ ٣٤٦)، «تفسير القرطبي» (١٨/ ١١٧). =

التاسع والعشرون: ثبت عن النبي ﷺ من غير وجهٍ الجهر بالتأمين ورفع الصوت ومده بآمين، وقالت الحنفية والمالكية: لا يجهر بها[(١)].

الثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أن الأب له أن يرجع فيما وهب أبناءه، ورده بعض المذاهب وقالوا: لا يرجع[(٢)].

الحادي والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه رجل من بعد الزوال فأخبره أنه رأى هلال العيد فأمر الناس أن يخرجوا إلى مصلاهم صباح الغد، وبعض المذاهب يقولون: لا يخرجون[(٣)].

الثاني والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ النضح من بول الغلام الرضيع قبل أن يأكل الطعام والغسل من بول الجارية، وقال بعض المذاهب: هما سواء[(٤)].

= وقول ابن سيرين، وعطاء، وشريح، وقتادة، والنخعي، والليث، والثوري، وأبي حنيفة، وسعيد بن عبد العزيز.
انظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٢/ ١١١)، «مصنف عبد الرزاق» (٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٧١)، «المجموع» (٤/ ٣٨٥)، «المغني» (٢/ ٣١٩)، «الأوسط» (٤/ ٩٤ ـ ٩٥)، «شرح فتح القدير» (٢/ ٦٨)، «بدائع الصنائع» (٢/ ٦٧١)، «عمدة القاري» (٥/ ٣٢٤).

(١) انظر قول الحنفية في: «شرح فتح القدير» (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، و«مختصر القدوري» (ص٩٩ ـ ١٠٠)، «والهداية» (١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، «وتبيين الحقائق» (١/ ١٠٧).
وقول المالكية في: «عقد الجواهر الثمينة» (١/ ١٣٤)، و«التلقين» (١/ ١٠٧)، و«الإشراف» (١/ ٢٦٠ ـ بتحقيقي)، و«الشرح الصغير» (١/ ١٣٠)، و«الثمر الدَّاني» (١٠٤)، و«جامع الأمهات» (ص٩٤).

(٢) هو قول الحنفية. انظر: «مختصر الطحاوي» (١٣٩)، «اللباب» (٢/ ١٧٥)، «تحفة الفقهاء» (٣/ ٢٦٥ ـ ٢٧١)، «المبسوط» (١٢/ ٨٧)، «مختصر اختلاف العلماء» (٤/ ١٤٣ ـ ١٤٤)، «الاختيار» (٢/ ٥٣ ـ ٥٤)، «رد المحتار» (٥/ ٧٠٢)، «تبيين الحقائق» (٥/ ٩٨)، «فتح القدير» (٩/ ٤١)، «شرح العيني» (٢/ ١٤٥).

(٣) قال ابن القصار ـ كما في «عيون المجالس» (١/ ٤٣٤) ـ: «مسألة: ولا تصلى صلاة العيدين في غير يوم العيد، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله، وللشافعي رحمه الله قولان، فقول مثل قولنا والآخر: أنها تقضى من الغد، وقاله أحمد رحمه الله».
وانظر: «التفريع» (١/ ٢٣٥)، و«التاج والإكليل» (٢/ ١٩٧ ـ المطبوع مع «مواهب الجليل»).
وانظر تحقيق مذهب الحنفية في: «الهداية» (٢/ ١٢٧)، و«شرح فتح القدير» (٢/ ٧٩)، و«مختصر القدوري» (ص١٦٧)، و«تبيين الحقائق» (١/ ٢٢٦)، و«بدائع الصنائع» (١/ ٢٧٦).

(٤) هو قول المالكية. انظر: «المدونة» (١/ ٢٧)، و«عيون المجالس» (١/ ١٩٧)، و«بداية المجتهد» (١/ ١٠٩).

الثالث والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس لعرق ظالم حق، فمن زرع في أرض قوم بغير إذنهم، فلا حق له في الزرع، وإنما يعطى نفقته**»، وخالفه بعض المذاهب(١).

الرابع والثلاثون: باع جابر بعيراً من النبي ﷺ واشترط أن يركبه إلى المدينة، وقال بعض المذاهب: لا يصح هذا البيع(٢).

---

(١) قال المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٤/ ٢٦٨):
«قوله: «**فليس له من الزرع شيء**» يعني ما حصل من الزرع يكون لصاحب الأرض، ولا يكون لصاحب البذر إلا بذره، وإليه ذهب أحمد. وقال غيره: ما حصل من الزرع؛ فهو لصاحب البذر، وعليه نقصان الأرض، كذا نقله القاري عن بعض العلماء الحنفية. ونقل عن ابن الملك أنه عليه أجرة الأرض من يوم غصبها إلى يوم تفريغها.. انتهى. قلت: ما ذهب إليه الإمام أحمد هو ظاهر الحديث: «**وله نفقته**» أي: ما أنفقه الغاصب على الزرع من المؤنة في الحرث والسقي وقيمة البذر وغير ذلك. وقيل: المراد بالنفقة قيمة الزرع؛ فتقدر قيمته، ويسلمها المالك، والظاهر الأول».
وانظر: «عون المعبود» (٩/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٤٢٤): «وقد احتج به للمالكية والحنفية في أن القبض في جميع الأشياء بالتخلية، وإليه مال البخاري كما تقدم له في «باب شراء الدواب والحمر» إذا اشترى دابة وهو عليها هل يكون ذلك قبضاً؟ وعند الشافعية والحنابلة: تكفي التخلية في الدور والأراضي وما أشبهها دون المنقولات. ولذلك لم يجزم البخاري بالحكم بل أورد الترجمة مورد الاستفهام. وقال ابن قدامة: «ليس في الحديث تصريح بالبيع، فيحتمل أن يكون قول عمر: «هو لك» أي: هبة. وهو الظاهر فإنه لم يذكر ثمناً». قلت: وفيه غفلة عن قوله في حديث الباب: «فباعه من رسول الله ﷺ» وقد وقع في بعض طرق هذا الحديث عند البخاري: «فاشتراه» وسيأتي في الهبة، فعلى هذا فهو بيع، وكون الثمن لم يذكر لا يلزم أن يكون هبة مع التصريح بالشراء، وكما لم يذكر الثمن يحتمل أن يكون القبض المشترط وقع وإن لم ينقل، قال المحب الطبري: يحتمل أن يكون النبي ﷺ ساقه بعد العقد كما ساقه أولاً، وسوقه قبض له؛ لأن قبض كل شيء بحسبه».
(**لطيفة وفائدة**) ظفرتُ في «جزء ابن عمشليق» (رقم ٢٨) ـ ولا أدري لماذا أدرج ضمن «فوائد ابن منده» (٢/ ١٨٢)؟! ـ بسنده إلى عبد الوارث بن سعيد قال: «قدمت مكة، فوجدتُ بها أبا حنيفة، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، فسألت أبا حنيفة، فقلت: ما تقول في رجل باع بيعاً وشرط شرطاً؟ فقال: البيع باطل، والشرط باطل، ثم أتيت ابن أبي ليلى، فقال: البيع جائز، والشرط باطل، ثم أتيت ابن شبرمة، فقال: البيع جائز، والشرط جائز، فقلت: سبحان الله ثلاثة من فقهاء أهل العراق، اختلفوا عليَّ في مسألة واحدة، فأتيت أبا حنيفة، فقال: ما أدري ما قالا، حدثنا عمرو بن شعيب، عن أبيه، =

الخامس والثلاثون: روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبته في جداره»** وقال بعض المذاهب: له أن يمنعه[(١)].

السادس والثلاثون: حديث يدل على أن ما شرطه ولي المرأة على الزوج يجب الوفاء به، وقال بعض المذاهب: لا يجب[(٢)].

السابع والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أن من باع عبداً يكون ماله لبائعه، ولا حق فيه لمن اشتراه، وقال بعض المذاهب: له الحق فيه[(٣)].

الثامن والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أن من أسلم وعنده أختان يختار إحداهما ويطلق الأخرى، وخالفه بعض المذاهب[(٤)].

= عن جده، أن النبي ﷺ نهى عن بيع وشرط البيع باطل والشرط باطل.
وذكر ابن شبرمة وابن أبي ليلى مستنديها، والخبر في (الجزء الخامس) من «فوائد الحمامي»، و«المحلى» (٨/ ٤١٥)، وإسناده ليس بذاك، وفيه ما يفيد في الخلاف الذي ذكره المصنف، وتوسع ابن القيم في تأصيل حل الشروط في ألوان كثيرة من أبواب الفقه، وألقى الملامة على من منع، وذكر نصوصاً حسنة في كتابه «إعلام الموقعين» (٥/ ٣٧٣ ـ ٣٧٩) فانظره، فإنه مفيد.

(١) قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» (١١/ ٦٧): «واختلف العلماء في معنى هذا الحديث، هل هو على الندب إلى تمكين الجار من وضع الخشب على جدار جاره؟ أم على الإيجاب، وفيه قولان للشافعي وأصحاب مالك، أصحهما في المذهبين الندب، وبه قال أبو حنيفة والكوفيون. والثاني الإيجاب، وبه قال أحمد وأبو ثور وأصحاب الحديث، وهو ظاهر الحديث، ومن قال بالندب قال: ظاهر الحديث أنهم توقفوا عن العمل، فلهذا قال: (ما لي أراكم عنها معرضين) وهذا يدل على أنهم فهموا منه الندب لا الإيجاب، لو كان واجباً لما أطبقوا على الإعراض عنه، والله أعلم».

(٢) الشروط أنواع، ويختلف الوفاء بها، فمنه ما يجب اتفاقاً، ومنها ما لا يوفى به اتفاقاً، كسؤال طلاق أختها، ومنها ما اختلف فيه، انظر: البسط في «فتح الباري» (٩/ ٢١٧ ـ ٢١٩).

(٣) هو قول أبي حنيفة. انظر: «أحكام القرآن» (٣/ ١٨٦) للجصاص، «البناية شرح الهداية» (٨/ ٣١٢ ـ ٣١٤)، «المبسوط» (٦/ ٥٨ ـ ٥٩)، «تحفة الفقهاء» (٢/ ٤١٨)، «رؤوس المسائل» (٢٩٨)، «موجبات الأحكام» (١٧١).
وهو أحد قولي الشافعي وظاهر المذهب.
انظر: «الأم» (٤/ ٥)، «المهذب» (١/ ٣٦٧)، «التنبيه» (٨٢)، «الوجيز» (١/ ١٥٢)، «المنهاج» (٥٢)، «الروضة» (٣/ ٥٧٤)، «مغني المحتاج» (٢/ ١٠٢)، «نهاية المحتاج» (٤/ ١٨١)، «حلية العلماء» (٤/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧)، «مختصر الخلافيات» (٣/ ٣٢٩) رقم (١٠٢)، «إخلاص الناوي» (٢/ ١١٩).

(٤) قال العظيم آبادي في «عون المعبود» (٦/ ٢٣٠ ـ ٢٣١): «ذهب الشافعي ومالك وأحمد =

التاسع والثلاثون: ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يصلي الوتر على راحلته حيث توجهت به، ومنع ذلك بعض المذاهب[١].

الأربعون: روى مالك في «الموطأ» وغيره أن النبي ﷺ قال: «**كل ذي ناب من السباع حرام**». وقالت المالكية: فيه ثلاثة أقوال عن مالك، والمشهور أنه مكروه كراهة تنزيه، وبذلك أباحوا أكل الكلاب[٢]!! حتى عيّرتهم جميع المذاهب بذلك، قال الزمخشري[٣]:

وإن مالكيّاً قلتُ قالوا بأنّني أبحتُ لهم أكلَ الكلابِ وهم همُ

فنسبوا إلى مالك تحليل ما حرمه النبي ﷺ، فماذا تركوا لأعداء مالك وهم يدَّعون محبته وتعظيمه؟ وحاشا لمالك أن يحل ما حرمه الرسول؛ بل هم كاذبون عليه.

الحادي والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ وضع اليد اليمنى على اليد اليسرى في الصلاة، وثبت عن جميع أئمة المذاهب مثل ذلك، ومنهم مالك وأصحابه الحجازيون والعراقيون والمصريون إلا ابن القاسم، فرجحت المالكية خطأ ابن القاسم على ذلك كله، وقالوا بكراهته، انظر: «كتاب الصوارم والأسنة في الذب عن السنة» للمحقق محمد بن أبي مدين الشنقيطي[٤].

الثاني والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ رفع اليدين عند كل ركوع، وكل رفع من الركوع، وعند القيام من اثنتين رفع اليدين، وألف فيه البخاري كتاباً[٥]، وردّه

= إلى أنه لو أسلم رجل وتحته أختان وأسلمتا معه كان له أن يختار أحدهما، سواء كانت المختارة تزوجها أولاً أو آخراً. وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن تزوجهما معاً لا يجوز له أن يختار واحدة منهما، وإن تزوجهما متعاقبتين له أن يختار الأولى منهما دون الأخيرة»، وانظر: «تحفة الأحوذي» (٣/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠).

(١) هو مذهب الحنفية. انظر: «الأصل» (١/ ٢٩٥)، «المبسوط» (١/ ٢٥٠) «البناية شرح الهداية» (٢/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩)، «حاشية ابن عابدين» (١/ ٤٦٩)، «رد المحتار» (٢/ ٢٣٩)، «الأوسط» لابن المنذر (٥/ ٢٥٠).
والشافعية. انظر: «المجموع» (٣/ ٢١٩)، «الإقناع» (٢/ ٢٨٨)، «حلية العلماء» (١/ ٧٧)، «الأوسط» لابن المنذر (٥/ ٢٥٠).

(٢) انظر: «عيون المجالس» (٢/ ٩٧٩)، «والتفريع» (١/ ٤٠٦)، و«القوانين الفقهية» (ص١٧١).

(٣) في «الكشاف» (المقدمة/ ٤).

(٤) سبق ذكر هذه المسألة مراراً، وقد مدح المصنِّفُ ابنَ أبي مدين وكتابه في (ص١٨ ـ ١٩).

(٥) وهو «جزء رفع اليدين» وهو مطبوع عدة مرات، أحسنها بتحقيق الشيخ العلامة أبي محمد بديع الدين السندي رحمه الله.

الحنفية[1] وجهال المالكية[2].

الثالث والأربعون: أحاديث دعاء الاستفتاح ثابتة عن النبي ﷺ وأخذ بها جميع أهل المذاهب، وأنكرتها المالكية تعصباً وجهلاً[3].

الرابع والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ في الركعة الأولى من الصلاة الجهرية ثلاث سكتات، وفي الثانية سكتتان، وأحاديثها في «الصحيحين» وغيرهما،

---

(١) انظر: «الهداية» (١/ ٣٣٥)، و«بدائع الصنائع» (١/ ١٩٩).

(٢) انظر: «التفريع» (١/ ٢٢٦)، و«القوانين الفقهية» (ص٦٢).

(تنبيه): قد يبدو في قول المصنف: «وجهال المالكية» حدّة وشدّة، والأمر ليس كذلك، فقد ذكر ابن العربي المالكي في «أحكام القرآن» (٤/ ١٩١٢) ـ وعنه القرطبي في «جامعة» (١٩/ ٢٨١) والشاطبي في «الاعتصام» (٢/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠، بتحقيقي) ـ قصة واحد من هؤلاء الجهلة، كاد أن يبطش بإمام إلى حد القتل، وهذا نص ابن العربي، قال: «فحضر عندي يوماً في مَحْرَس ابن الشوَّاء ـ بالثَّغر مَوْضع تدريسي ـ عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المحْرس المذكور، فتقدَّم إلى الصف الأول وأنا في مؤخّره قاعد على طاقات البحر أتنسَّم الريحَ من شدَّة الحر، ومعي في صفٍّ واحد أبو ثمنةَ رئيس البحر وقائده مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ويتطلَّع على مراكب المنار، فلما رفع الشيخ الفهري يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه؛ قال أبو ثمنة وأصحابه: ألا ترون إلى هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا؟ قوموا إليه فاقتلوه وارمُوا به في البحر فلا يراكم أحد. فطار قلبي من بين جوانحي، وقلت: سبحان الله! هٰذا الطُّرطُوشي فقيه الوقت! فقالوا لي: ولمَ يرفَعُ يديه؟ فقلت: كذٰلك كان النبي ﷺ يفعل، وهو مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه وجعلتُ أسكّنُهم وأسكّتُهم حتى فرغ من صلاته، وقمتُ معه إلى المسْكَن من المحْرس، ورأى تغيُّر وجهي فأنكره، وسألني فأعلمتُه فضحك وقال: ومن أين لي أن أقتل على سُنة؟ فقلتُ له: ويحل لك هٰذا؛ فإنك بين قوم إن قُمتَ بها قاموا عليك، وربما ذهب دمُك؟! فقال: دع هٰذا الكلامَ وخُذْ في غيره». قال الشاطبي على إثرها: «فتأمَّلوا هٰذه القصة ففيها الشفاء، إذ لا مفسدة في الدُّنيا توازي مفسدة إماتة النفس، وقد حصلت النسبة إلى البدعة، ولٰكن الطرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ لم ير ذٰلك شيئاً.

فكلامه للاتباع أولى من كلام هٰذا الراد، إذ بينهما في العلم ما بينهما».

وانظر مذهب مالك وتحريره في المسألة: «المدونة» (١/ ١٦٥)، «الكافي» (٤٣)، «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (١/ ٢٤٨ رقم ١٧٠ ـ بتحقيقي) «مقدمات ابن رشد» (١/ ١٦٦)، «بداية المجتهد» (١/ ١٠٤)، «الاستذكار» (٢/ ١٢٣ ـ ط المصرية)، «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٢١)، «الشرح الصغير» (١/ ٣٢٤)، «جامع الأمهات» (٩٧)، وانظر: «الأوسط» (٣/ ١٤٧)، «فتح الباري» (٢/ ٢٢٠)، «مختصر الخلافيات» (٢/ ٦٩ رقم ٧٩).

(٣) انظر: «المدونة» (١/ ١٦١)، «عقد الجواهر الثمينة» (١/ ١٣٢)، و«التلقين» (١/ ١٠٣)، و«الإشراف» (١/ ٢٥١ ـ بتحقيقي)، و«الذخيرة» (٢/ ١٨٧)، و«المعونة» (١/ ٢١٦).

وأنكرتها المالكية تعصباً وجهلاً[(١)].

الخامس والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ أنه حمل أمامة ابنة ابنته زينب وصلى بها، فكان إذا سجد وضعها وإذا قام حملها، وقال بعض المذاهب: لا يجوز ذلك؛ لأنه عمل كثير يبطل الصلاة، ولأن الطفلة لا تؤمن عليها النجاسة، وهذه غاية الوقاحة[(٢)].

السادس والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ أن من اطلع علي قوم بغير إذنهم وفقؤوا عينه بأشفى[(٣)] لم يكن له أن يطالبهم بدية ولا بقصاص، ورده بعض المذاهب[(٤)].

السابع والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ أن من عض يد إنسان فجذب يده فانكسرت سن الجاني فلا دية ولا قصاص على المعضوض، وخالفه بعض المذاهب[(٥)].

الثامن والأربعون: ثبت في «الصحيحين» قول النبي ﷺ: **«إن بلالاً يؤذن**

---

(١) قال ابن العربي في «عارضة الأحوذي» (٢/ ٥٢ ـ ٥٣): «واختلف الناس في هذه السكتة على ثلاثة أقوال: **الأول**: إنها ساقطة، قاله علماؤنا. **الثاني**: إنها مشروعة لتزداد النفس، قاله قتادة. **الثالث**: إنها مشروعة ليقرأ فيها المأموم، قاله الشافعي. وقول ذلك أحسن، والافتتاح بالذكر أجمل. وقد روي عن مالك في «مختصر ما ليس في المختصر» أنه كان يقول: كلمات عمرو وكلمات النبي ﷺ أحق بالقول».

(٢) هو قول المالكية. انظر: «إكمال المعلم» (٢/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥)، وانظر كلام الحافظ في: «الفتح» (١/ ٧٦٥)، ويا ليت المصنف تلطف في الرد.

(٣) كذا في الأصل، ولم يظهر لي معناه، وورد في الأحاديث: «بمشْقَص، أو بمشاقص» و«مِدْرى»، وخرجت ألفاظها في تعليقي على «إعلام الموقعين» (٤/ ١٨١).

(٤) هو قول المالكية. انظر: «الكافي» لابن عبد البر (ص٦٠٠)، و«عيون المجالس» (٥/ ٢٠٣٩).

وهو قول أبي حنيفة. انظر: «حاشية ابن عابدين» (٦/ ٥٥٠).

(٥) هو قول المالكية. انظر: «المعونة» (٣/ ١٣٦٩)، «الإشراف» (٤/ ١٤٧ ـ بتحقيقي)، «الكافي» (٦٠٧)، «مواهب الجليل» (٦/ ٣٢٢)، «الخرشي» (٨/ ١١١)، «عقد الجواهر الثمينة» (٣/ ٣٥٤)، «جامع الأمهات» (ص٥٢٥).

وهذا مذهب ابن أبي ليلى، وقال عثمان البتِّي: إن انتزعها من ألم العضّة فلا شيء عليه، وإن انتزعها من غير ألم أصابه؛ فعليه.

انظر: «مختصر اختلاف العلماء» (٥/ ١٤٢).

بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذِّن ابن أم مكتوم». وكان رجلاً أعمى لا يؤذن حتى يقال له: أصبحت أصبحت، وقال بعض المذاهب: لا يجوز الأذان إلا بعد طلوع الفجر[١].

التاسع والأربعون: ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن أخذ ثمن عسب الفحل، إذا طلب إنسان ثور إنسان أو كبشه أو تيسه أو حصانه للضراب لا يجوز لصاحب الفحل أن يطلب أجرة، وقال بعض المذاهب: له ذلك[٢].

الخمسون: ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن تغطية رأس المحرم إذا مات محرماً، وقال: **«إنه يبعث ملبِّياً»**. وقال بعض المذاهب: بل يغطى رأسه[٣].

انتهى شرح الأحاديث باختصار، وفيها عبرة لمن اعتبر ورد لما يدعيه أصحاب المذاهب من قولهم: (وكلهم من رسول الله ملتمس)، بل كل واحد منهم يصيب ويخطئ، فيجب علينا أن نأخذ صوابه ونترك خطأه، والذي لا يخطئ أبداً هو النبي ﷺ، فهو في الحقيقة إمامنا وإمام كل من هداه الله إلى الصراط المستقيم، رضينا به إماماً، ومن لم يرض به فليطلب غيره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) هو قول أبي حنيفة. انظر: «الأصل» (١/ ١٣١)، «الحجة على أهل المدينة» (١/ ١٧١)، «مختصر الطحاوي» (٢٥)، «البدائع» (١/ ٤٢١)، «الهداية» (/٣ ٤٣)، «رؤوس المسائل» (١٣٥)، «تبيين الحقائق» (١/ ٩٣)، «اللباب» (١/ ٢٣٤)، «النتف في الفتاوى» (١/ ٥٢)، «مختصر اختلاف العلماء» (١/ ١٨٧) رقم (١١٩).

(٢) قال المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٤/ ١٧٠): «وفي وجه للشافعية والحنابلة: تجوز الإجارة مدة معلومة».

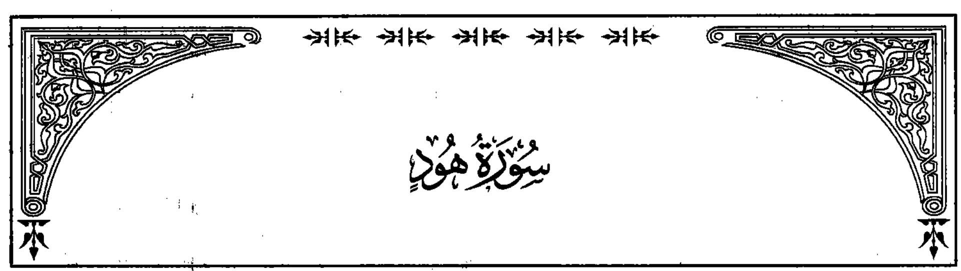
وقال ابن قدامة في «المغني» (٦/ ٣٠٢): «وإجارة الفحل للضراب حرام والعقد فاسد، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، وحُكي عن مالك جوازه. وقال ابن عقيل: ويحتمل عندي الجواز، لأنه عقد على منافع الفحل ونَزْوِهِ».

وانظر: «نظرية الغرر» (٢/ ٥٩ ـ ٦٠) لأستاذنا ياسين درادكة ـ رحمه الله تعالى ـ، و«الغرر وأثره في العقود» للضرير (ص١٨٨ ـ ١٨٩).

(٣) هو مذهب المالكية. انظر: «الإشراف» (٢/ ٦٠ ـ بتحقيقي)، «عقد الجواهر الثمينة» (١/ ٢٥٧)، «بداية المجتهد» (١/ ١٨٥)، «الكافي» (١/ ٢٨٢)، «قوانين الأحكام الشرعية» (١٠٩)، «التاج والإكليل» (٢/ ٢٢٦)، «الخرشي» (٢/ ١٢٧)، «حاشية الدسوقي» (١/ ٤١٨)، «الذخيرة» (٢/ ٤٥٥)، «جامع الأمهات» (ص١٣٩).

وهو مذهب الحنفية.

انظر: «الأصل» (١/ ٤٠٦)، «الحجة» (١/ ٣٥١)، «البحر الرائق» (٢/ ١٩١).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢]

قال (ك): «يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مصرعه وخيم[(١)] ولو كان على مشرك، واعلم أنه تعالى ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمال العباد لا يخفى عليه شيء»[(٢)].

وقال القنوجي في «فتح البيان» ما نصه:

«﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: كما أمرك الله، فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه؛ لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه؛ كما أمره بفعل ما تعبده بفعله وأمته أسوته في ذلك، وقال سفيان: استقم على القرآن، وعن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية قال: «**شمروا شمروا**» فما رئي ضاحكاً، قال أبو السعود[(٣)]: «وبالجملة فهذا الأمر منتظم لجميع محاسن الأحكام الأصلية والفرعية، والكمالات النظرية والعملية. والخروج عن عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة، ولذلك قال ﷺ: «**شيبتني سورة هود (وأخواتها)**»[(٤)]

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حتى»! (٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٦).

(٣) في «تفسيره» المسمى «إرشاد العقل السليم» (٤/ ٢٤٤).

(٤) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (ص٤٣)، والدارقطني في «العلل» (١/ ٢٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٥٠) من حديث علي بن صالح عن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: «قالوا: يا رسول الله نراك قد شبت» قال: «**شيبتني هود وأخواتها**». وعلقه الترمذي في «العلل الكبير» (٢/ ٧٩٥) فقال: قال محمد بن بشر: نا علي بن صالح عن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قالوا: يا رسول الله... فذكره، وقال: «سألت محمداً أيهما أصح - يعني =

ليستقيم[(١)].

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: آمن ورجع عن الكفر إلى الإسلام وشاركك في الإيمان، وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة والذوات المقدسة، ولهذا يقول المصطفى ﷺ: «**شيبتني هود**» كما تقدم، وعن سفيان بن عبد الله[(٢)] قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**»[(٣)]. أخرجه مسلم.

أقول: هي تشمل العقائد والأعمال والأخلاق، فإنها في العقائد اجتناب التشبيه والتأويل والتعطيل والصرف عن الظاهر، وفي الأعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان والبدع المحدثات[(٤)] والتغيير للكتاب والتبديل للسنن والتقليد للرجال وللآراء، وفي الأخلاق التباعد عن طرفي الإفراط والتفريط وهذا في غاية العسر، وبالله التوفيق وهو المستعان ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ الطغيان مجاوزة الحد لما أمر الله

= حديث أبي جحيفة أو حديث ابن عباس ـ فقال: دعني أنظر فيه. ولم يقض فيه بشيء». اهـ.

والمراد بحديث ابن عباس، أي: الذي رواه عن أبي بكر بنحوه.

أخرجه ابن سعد (١/ ٤٣٥)، والترمذي (٣٢٩٧)، وفي «الشمائل» (ص٤٢ ـ ٤٣)، وفي «العلل الكبير» (٢/ ٧٩٥)، والمروزي في «مسند أبي بكر» (ص٦٩)، والدارقطني في «العلل» (١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، وأبو نعيم (٤/ ٣٥٠)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه».

وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٢٥٦): «حديث أبي بكر رواه أبو بكر الشافعي في «الفوائد الغيلانيات» (١٠٨)، بل وأخرجه ابن أبي شيبة في «مسنده» عن أبي الأحوص، وكذا هو عند أبي يعلى من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن عكرمة قال: قال أبو بكر: .... فذكر السخاوي الحديث ثم قال: «وهو مرسل صحيح إلا أنه موصوف بالاضطراب، ونقل عن حمزة السهمي عن الدارقطني قوله: «طرقه كلها معتلة». اهـ. قلت: هو كذلك في «سؤالات حمزة السهمي للدارقطني» (ص٧٦/ رقم ٩) وأطال النفس جداً في «العلل» (١/ ١٩٣ ـ ٢١١) في سرد طرقه، وبيان ما فيها.

وانظر: «الصحيحة» (٩٥٥) ولمحمد مرتضى الزَّبيدي جزء مطبوع في طرق هذا الحديث.

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «ليستقم».

(٢) في مطبوع «فتح البيان»: «سفيان الثقفي». (٣) أخرجه مسلم (٣٨).

(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «والمحدثات».

سبحانه بالاستقامة المذكورة، بيد أن الغلو في العبادة والإفراط في الطاعة على وجه يخرج به عن الحد الذي حده، والمقدار الذي قدره، ممنوع منه منهي عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغّب فيه، ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: «**أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(١)][(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: الأمر بالاستقامة المطابقة لما أمر الله به وهو الكتاب والسنة، والنهي عن الطغيان، كل ذلك عام لا يخص قوماً دون قوم ولا زماناً دون زمان. وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ مقيد للاستقامة لتكون طبق الأمر، فإذا خالفته فهي غير مقبولة. و(الطغيان) تجاوز الحد الذي حده الله في العقائد والعبادات وأحكام الشريعة، وقد أحسن الإمام القنوجي عندما أورد حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ فلما سمعوها كأنَّهم تقالُّوها، وأرادوا الزيادة عليها، فغضب عليهم النبي ﷺ، وأخبرهم أنه جاء بالاعتدال والتوسط في العبادات ومراعاة جميع الحقوق والواجبات، فإنَّ المتعبِّد إذا أفرط في نوع ضيَّع غيره.

ويحسن هنا أن يورد حديث زيارة سلمان لأبي الدرداء، إذ وجده قد أفرط في الصيام والقيام، وإهمال حقوق زوجته وضيفه ونفسه فقال له: «إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقّاً، وإن لزوجك عليك حقّاً، وإن لضيفك عليك حقّاً، فأعط كل ذي حق حقه». فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «**صدق سلمان**»[(٣)]. وهذا يبطل ما عليه أصحاب الطرائق وسائر المتصوفة من الترهب بدخول الخلوة، واعتزال الناس[(٤)] والسياحة للتعبد بها لا للجهاد ولا حج ولا طلب علم، فقد

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «فتح البيان» (٣/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨) بتصرف.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) العزلة لها شروط وقيود، وهي لا تنفع جميع الناس، وهي نافعة لأصحاب العلم والهمم العالية، الذين يعرفون ما لهم وما عليهم، وقد صدق من قال: «العزلة بغير عين العلم (زلّة)، وبغير زاي الزهد (علّة)، كذا في «المرقاة» (٤/ ٧٤٣).
=

روى أبو داود في «سننه» من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: **«سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»**(١).

والمراد من السياحة ما يفعله بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: **«يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»**(٢)، وعن عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله، والتكبير على كل شرف»**(٣).

قال محمد تقي الدين: السياحة من أعظم أركان الدين الهندي البرهمي.

= قال الخطابي في «العزلة» (ص٢٢٥): «فالعزلة إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضر شيء على الجهال» ولا تكون إلا في حق من «لم يتعيّن عليه فرض من جهاد، أو تغيير منكر، وتعلُّم أو تعليم، أو مانع شرعي ممن يجب طاعته شرعاً، من أحد الوالدين أو إمام أو قاض، أو خصم له حق واجب، أو حق مسلم لازم أو راجح، لم تعارضه خوف فتنة في الدين» قاله ابن الوزير في «الأمر بالعزلة في آخر الزمان» (ص٤٩، ٥٣) والحاصل أن العزلة لا بدّ أن تكون خادمة لمطلوب أو مقصود، انظر: «الموافقات» (٣/ ٥٣٠ ـ بتحقيقي) وتحقيقي لأول كتاب ألف في هذا الموضوع، وهو «العزلة والانفراد» لابن أبي الدنيا (ص٢١ ـ ٢٢) وانظر عن الطريقة البدعية في العزلة التي أومأ لها المصنف في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/ ٦١٢).

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٨٦) وحسنه شيخنا الألباني، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٨٤٥) ـ ومن طريقه البغوي في «التفسير» (٢/ ٥٩)، و«شرح السنة» (٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١) رقم (٤٨٤) ـ من طريق رشدين بن سعد، حدثني ابن أنعم عن سعد بن مسعود قال: إن عثمان بن مظعون. . . وذكره.

قال شيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣١١٤): «هذا الإسناد فيه علتان:

الأولى: الإرسال، فإن سعد بن مسعود تابعي لم يدرك القصة، ولم يسندها، كما هو ظاهر، وقد خفيت هذه العلة على المعلق على «الشرح» فلم يتعرض لها بذكر.

والثانية: ضعف رشدين وابن أنعم، واسمه عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي».

(٢) أخرجه البخاري (١٩) وغيره، وخرجته مفصلاً في تعليقي «على العزلة والانفراد» (١٥، ١٩٨) لابن أبي الدنيا.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» رقم (١٧) عن ابن لهيعة قال: أخبرني عمارة بن غزية به، وهذا مرسل أو معضل.

قال الدكتور أحمد شلبي في كتابه: «مقارنة الأديان» وهو مقرر في الجامعة الأزهرية في التعليم العالي ما نصه:

«وفي كتبهم المقدسة عندهم (أي عند الهنادك البراهمة: ما معناه: «إن الذي تغلّب على نفسه فقد تغلب على حواسه التي تقوده إلى الشر». والنفس لا تشبع أبداً بل يزداد جَشعها بعد أن تنال مشتهاها، فالذي أوتي كلَّ ما[1] يشتهي وأعطى نفسه هواها فقد أهلكها وأشقاها، أما الذي ترك كلَّ ما[1] تشتهيه نفسه، وتخلَّى عن الدنيا؛ فقد أنقذ نفسه وقادها إلى السعادة».

على طالب العلم أن يهذب نفسه بأن يتجنب الحلوى واللحوم والروائح الطيبة والنساء، وكذلك يجب عليه أن لا يدلك جسده بما له رائحة ولا يكتحل ولا يلبس حذاء ولا يتظلل من الشمس، وعليه أن لا يهتم برزقه، بل يحصّل رزقه بسؤال الناس، وعندما تدخل في الشيخوخة عليك بالعزلة وعدم قرب النساء والأهل والإقامة في الغابة، وإذا أقمت في الغابة فليس لك أن تقص شعرك ولحيتك وشاربك، ولا أن تقلم أظافرك، وليكن طعامك ما تنبته الأرض وتثمره الأشجار، ولا تقطف الثمر بيدك بل كُل منه ما يسقط من الشجرة، وعليك بالصوم تصوم يوماً وتفطر يوماً، وإياك واللحم والخمر، عوّد نفسك على تقلبات الفصول فاجلس تحت الشمس المحرقة، وابق أيام المطر تحت السماء وارتدِ الرداء المبلل في الشتاء، لا تفكر في الراحة البدنية، اجتنب سائر الملذات، نم على الأرض ولا تأنس بالمكان الذي أنت فيه، إذا مشيت فامش حذراً لا تتخطى عظماً أو شعراً وحتى لا تطأ حشرة، وإذا شربت الماء فاحذر أن تبلع بعوضة أو نحوها، لا تفرح باللذيذ ولا تحزن للرديء»[2]. وفي الكتب المقدسة عند البراهمة: يجب على البرهمي أن يقسّم حياته ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من طفولته إلى أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره يسيح في الأرض لطلب العلم، ولا يشتغل بالكسب بل يعيش على ما يجده من الثمر الساقط من الأشجار والنبات، وإذا اضطر إلى السؤال سأل الناس.

---

(١) في مطبوع «مقارنة الأديان»: «كل شيء».

(٢) انظر: «أديان الهند الكبرى» (ص٧٠)، وللهلالي مقالة نشرت في مجلة «الفتح» المصرية، عدد (٤٠٩) بتأريخ ١٣ جمادى الأولى، سنة ١٣٥٣هـ (ص٨ ـ ١٠) بعنوان (هل كان إمام طائفة (السيك) مسلماً؟).

القسم الثاني: بعد نهاية خمس وعشرين سنة يشتغل بالكسب ويتزوج، ويكون له أولاد إلى أن يبلغ خمسين سنة.

القسم الثالث: بعد نهاية خمسين سنة يسيح في الأرض على الصفة التي تقدم ذكرها من التقشف والبعد عن الملاذ والاعتزال عن الناس، إلا إذا كانوا زهاداً مثله، ويستمر على ذلك إلى أن يموت[١]. وجاء في سيرة بوذا: إنه كان ابن أحد كبار الأغنياء، ولما بلغ خمساً وعشرين سنة تزوّج فوُلِد له ولد، ثم هجر معيشة الترف وساح هائماً على وجهه، فلقي خمسة من الزهاد، فصحبهم مدة ثم تركهم واستمر في السياحة والتقشف وتعذيب النفس إلى أن جاءته الحكمة وهو جالس تحت شجرة في الغابة، ثم توجه إلى بنارس وأخذ يعلم الناس دينه[٢].

وهذه السياحة الهندية الوثنية هي التي ذكرت عند رسول الله ﷺ فنهى عنها، وقال: «**قد أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله، والتكبير على كل شرف**»[٣].
وقد اقتبس بعض الجهال من المتصوفة تعذيب النفس من الدين الهندي الوثني، وقد ذكر الحافظ ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» حكايات كثيرة في تعذيب المتصوفة أنفسهم بالجوع؛ زادوا فيها على نسّاك الهند الوثنيين أضعافاً كثيرة أذكر منها شيئاً يسيراً، فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن الجوزي في الكتاب المذكور (ص٢٠٠): «حكى أبو حامد الطوسي عن سهل ـ يعني ابن عبد الله التَّسْتُري ـ قال: كان سهل يقتات ورق النبق مدة، وأكل دقاق التبن مدة ثلاث سنين، واقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين»[٤].

ولم يزل جهال المتصوفة يأخذون هذه الضلالات عن عبدة الأصنام في الهند وعن رهبان النصارى إلى يومنا هذا، ومن **ذلك السياحة التي يدعو إليها طائفة التبليغ المتبعين للشيخ محمد إلياس الهندي** وهم منتشرون في جميع أنحاء الدنيا، والركن الأعظم من طريقتهم هو ما يسمونه (**الخروج في سبيل الله**) فإنهم يبذلون جهوداً عظيمة في الدعوة إلى هذا الركن، وهم في ذلك مخلصون لطريقتهم وناجحون في عملهم، وكل داعٍ مخلص ناجح على قدر إخلاصه يكون نجاحه سواء دعا إلى حق أو إلى باطل.

---

(١) انظر: «أديان الهند الكبرى» (ص٥٨).
(٢) انظر: «أديان الهند الكبرى» (ص١٣٧ ـ ١٣٨).
(٣) مضى تخريجه قريباً.
(٤) انظر: «تلبيس إبليس» (٣/ ١٢٦٠).

وهذا الركن الذي يسمونه (**الخروج في سبيل الله**) وما يلزمه من التقشف في المعيشة هو بعينه السياحة التي تقدم ذكرها ونهى عنها النبي ﷺ، وهي (**بدعة**) محضة لم يفعلها النبي ﷺ، فإنه خرج إلى الطائف لدعوة أميرها ولم يكن معه إلا خادمه مولاه ـ أي عبده المعتق ـ زيد بن حارثة، فلما دعا أمير الطائف رد عليه ردّاً قبيحاً، وقعد له سفهاء الطائف في طريقه سماطين ـ أي: صفين ـ ورموه بالحجارة حتى سال الدم من رجليه عليه الصلاة والسلام ثم رجع إلى مكة، والقصة معروفة في السيرة[1]، ولم يخرج معه أحد من المسلمين من أهل مكة، وكذلك توجه إلى دعوة أحد رؤساء العرب ـ وهو: ابن عبد ياليل بن عبد كلال ـ وحده فرد عليه ردّاً قبيحاً.

فأصابه من الغم ما أذهله، حتى أنه مشى في البرية مغموماً محزوناً، فلم يشعر إلا وهو في قرن الثعالب، فرفع بصره إلى السماء فرأى سحابة وفيها جبريل ومعه مَلَكُ الجبال، فسلَّم مَلَكُ الجبال على النبي ﷺ، وأخبره أن الله تعالى أمره أن يفعل ما يأمره به النبي ﷺ، وقال له: إنْ شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين، أي: الجبلين، فقال النبي ﷺ: «**إني أرجو أن يخرج الله من ظهورهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً**»[2].

وهذا أشد يوم على النبي ﷺ. فإن عائشة رضي الله عنها سألته: هل مرّ عليك يوم أشد من يوم أحد؟ فقال لها: «**نعم**» وأخبرها بالحكاية المتقدمة.

وفي غزوة أحد كان المشركون قد حفروا حفراً في الجبل، فسقط النبي ﷺ في إحدى الحفر فأغمي عليه، ودخلت حلقة من حلقات المغفر في خد النبي ﷺ، فأخرجها أحد الصحابة عاضّاً عليها بأسنانه حتى انكسرت له سن، وكسرت رباعية النبي ﷺ ـ أي سنه ـ في ذلك السقوط، وجرحت شفته وسال الدم من وجهه، ولما استفاق ورجع إلى المعسكر خرج له أبي بن خلف راكباً على فرس له مدججاً بالسلاح، فقال: أين محمد؟ فانتدب عشرة من الصحابة لقتاله، فمنعهم النبي ﷺ، وخرج له وهو على تلك الحال، وأخذ حربة وكان عدو الله قد غطى جسمه بالحديد ورأسه كذلك، ولا يظهر منه إلا ثغرة في نحره، فطعنه النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس.

بالحربة في تلك الثغرة، فسقط على الأرض ومات بعد ذلك»[١]، ورجع النبي ﷺ مظفراً منصوراً.

فهذه هي الشدائد التي أصابته في يوم أحد، ومع ذلك كانت هذه الشدائد أهون عليه مما أصابه من الغم حين دعا ذلك الكافر ولم يجبه؛ لأنه كان في يوم أحد معه جيش، وفي يوم قرن الثعالب لم يكن معه أحد، **وادّعاؤهم أن تلك البدعة سنة النبي ﷺ وأصحابه ولولا ذلك لم ينتشر الإسلام في الشرق والغرب باطل**؛ لأن الصحابة حين نشروا الإسلام خرجوا للجهاد في سبيل الله، وكانوا لا يتركون بلداً حتى يسلم أهله أو يصالحوا المسلمين، أو يكونوا تحت ذمتهم وترتفع فيه راية الإسلام ويحكم بشريعته، ثم يتقدمون إلى بلد آخر، لا على طريقة السياحة الصوفية المقتبسة من الديانة الوثنية التي ليس فيها جهاد ولا تغيير منكر، بل فيها إقرار المَنَاكر والسكوت عليها، والصلاة عند الأضرحة المعبودة وفاعلها ملعون على لسان النبي ﷺ[٢].

فقياس هذه السياحة على الجهاد في سبيل الله من أفسد القياس، وفي هذه السياحة **مفاسد كثيرة**، منها: **تضييع العيال**، وقد قال النبي ﷺ: «**كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول**»[٣]. وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وعرض عليه نفسه ليجاهد في سبيل الله معه، فقال له: «**ألك والدان**»؟ قال: نعم. قال: «**ارجع ففيهما فجاهد**»[٤] أي: ارجع إلى برهما وخدمتهما، فهي أفضل من الجهاد.

وهؤلاء الإلياسيون يكرهون الناس بسيف الحياء على السياحة، فإذا اعتذروا لهم بالوالدين الضعيفين أو بالأولاد والزوجة أو بالتجارة أو بالعمل الذي التزمه الإنسان، فوجب عليه أداؤه وحرم عليه تركه كالأجير والمعلم، يقولون: اترك ذلك وتوكل على الله، وكيف يترك ما أوجبه الله عليه وينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ويخون الأمانة، ويكون مع ذلك متوكلاً على الله وخارجاً في سبيل الله؟

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ٣٥٥)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٠٤) في «مصنفيهما»، والحاكم (٢/ ٣٢٧)، وله طرق عديدة، يثبت بها، وينظر له «فتكات الأُسُد في مقاعد القتال بأُحُد» لأبي تراب الظاهري» (٥٧، ٧٠، ٨٢، ٨٦، ١٥٣).

(٢) انظر: الأحاديث الواردة في ذلك (١/ ٣٩٥)، وهناك تخريجها، والله الموفّق، لا ربَّ سواه.

(٣) أخرجه مسلم (٩٩٦) من حديث عبد الله بن عمرو بنحوه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

وقد أخبرني أحمد الزوين ـ الذي يسوق سيارة النقل للأخ السلفي الحاج مصطفى بن هاشم الودغيري ـ أنه كان قد حمل في سيارته ما يساوي خمسة عشر ألف درهم من فواكه، فجاءه جماعة الإلياسيين، وقالوا له: تخرج معنا في سبيل الله؟ فقال لهم: انظروا هذه السلعة المحمولة على السيارة، أنا متوجِّه بها إلى الجزائر، فقالوا له: اتركها وتوكل على الله، وذهبوا إلى السيد أحمد بن إدريس الإدريسي ـ وهو صاحب معامل النسيج في مدينة مراكش، وصاحب تجارة واسعة يؤدي زكاتها ـ وله زوجة شابة، فأخرجوه من بيته وأخذوه إلى الهند، فبقي سبعة أشهر غائباً.

وهذا حرام بلا شك من وجوه، منها: ما تقدم، ومنها أن عمر رضي الله عنه سأل أم المؤمنين حفصة ابنته: كم تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها إذا خرج للجهاد في سبيل الله؟ فقالت: أربعة أشهر، فأمر أن لا يتغيب جندي عن أهله أكثر من أربعة أشهر[1].

كم من عامل وموظف ومعلم وطالب كانوا لهم سبباً في طردهم من أعمالهم، ولا ننكر أنه تاب على أيديهم كثير من الفساق والفجار، واهتدوا، وتمسكوا بالدين[2]، ولكن المحافظة على رأس المال ـ وهو سنة النبي ﷺ ـ قبل

---

(١) أخرجه الحنائي في «فوائده» (رقم ٢٦٦ ـ بتحقيقي) ـ ومن طريقه ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٢٨٤) ـ والبيهقي (٩/ ٢٩) والعسكري في «الأوائل» (ص٢٨١ ـ ٢٨٢) من طريق مالك عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر.. وذكر قصة، وفي آخرها هذا الخبر.

قال النخشبي في تخريج هذا الخبر: «هذا حديث حسن، غير أنه مرسل» قال أبو عبيدة: نعم، لم يسمع ابن دينار من عمر شيئاً، انظر: «جامع التحصيل» (٣٥٤) و«تحفة التحصيل» (ص١٧٣).

وطرقه كلها منقطعة، كما عند: عبد الرزاق (١٢٥٩٣، ١٢٥٩٤) وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٥٩) وأبو عبد الله اليزيدي في «الأمالي» (ص٩٨ ـ ٩٩) والخرائطي في «اعتلال القلوب» (رقم ٤٠٠)، وتتمة الكلام عليه في تعليقي على «الحنائيات»، ودفعته للنشر منذ مدة طويلة، يسر الله إظهاره بخير وعافية.

(٢) لكنه بقي في إطار دعوتهم ومنهاجهم وطريقتهم، فنقلوه من الفسق والفجور إلى الإحداث أو تعظيم من كان هذا حاله، وهما أشد وأشر في الدين وعلى الدين؛ لأن فيهما اعتداء على منهج الصحابة والقرون الخيّرة، وفيه إحياء للتقليد، واتباع الرجال دون برهان ولا دليل.

وانظر: «القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ» (ص٢٤ وما بعد، و٢٢٨ وما بعد) للشيخ حمود التويجري.

التشوف إلى الربح، وكذلك نعترف لهم بحسن الخلق وحسن المعاشرة والسمت الحسن[١] **فعسى الله أن يوفقهم لترك بدعة السياحة** وتغيير المنكر والحب في الله والبغض في الله، والموالاة لله والمعاداة لله، **ويوفق أهل الهند وباكستان منهم أن يتركوا بدعة الجمود على المذهب الحنفي ويعملوا بكل حديث صح عن النبي ﷺ ويتركوا كذلك العقيدة الأشعرية والماتريدية**، ويعتقدوا ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون، ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رَحِمَهُ اللهُ، فإن عقيدته كانت مطابقه لعقيدة الصحابة والتابعين، جعلنا الله من أتباعهم[٢].

ومن مصائب هذا الزمان أن الناس مفتونون بالخوارق، فصاروا بذلك فريسة للدجالين والمحتالين، يوقعونهم في حبائلهم بأدنى الأسباب، وقد كان في تطوان شيخ ضال يدعي التصوف، وكان يمخرق على الناس بسحر خسيس، وذلك أنه يدعو شخصاً من المغفلين فيملأ كأساً من الماء ويأخذه المغفل في يده، فيتكلم الشيخ الضال بكلام من السحر مما يسمونه: **(استحضار الأرواح)**، فلا يزال

---

(١) يظهر هذا منهم مع من يخرج معهم، أو مع من يطمعون في خروجه، أو يخافون من لسانه، أما من خالفهم؛ فالأمر على العكس تماماً!!

(٢) كان الهلالي ـ وهو في العراق ـ يحسِّن الظن بجماعة التبليغ، وكتب مقالة بعنوان «الرحمة والمودة والتسامح في الإسلام» نشرت في مجلة «الإخوة الإسلامية» البغدادية، العدد الأول، السنة الثانية، الجمعة ٢٠ ربيع الأول ١٣٧٣هـ ـ ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩٥٣م، ثم عرف فيما بعد حقيقتهم، وحقق مناط دعوتهم في هذه الكلمات المحتوية على الحق والعدل في آنٍ واحدٍ، وله كتاب مفرد فيهم مطبوع مشهور، وهو بعنوان: «السراج المنير في تنبيه جماعة التبليغ على أخطائهم».

وكانوا ـ هداهم الله ـ يعادونه، حتى قال صهيب الزمزمي في كتابه «جماعة التبليغ أو أصحاب الدعوة الباكستانية خطر على المسلمين» (ص٣٧): «وقديماً بلغنا عنهم أنهم يقولون عن الدكتور الهلالي: إنه مسيحي! والسبب هو هو، فالدكتور الهلالي قد عاش مدة بالباكستان وعرف عنهم الكثير، فهو لذلك لا يسمّيهم إلا (الإلياسيين) نسبة إلى شيخهم، ويقول: (إنهم أصحاب طريقة عصرية). **قال أبو عبيدة**: هذا إمام بالمغرب (الهلالي) تطابق قوله في (أصحاب الطريقة الباكستانية) مع أخيه إمام المشرق في الدعوة السلفية، وهو شيخنا الألباني، وسمعناه مراراً وتكراراً يقول عنهم: **(خرجوا من الصوامع إلى الشوارع)** ويقول عنهم أيضاً: **(صوفية متنقلة)** وقد كذب عليه غيرُ واحد من أصحاب هذه الطريقة، لمَّا زعموا أن الشيخ تاب من التحذير منهم في أواخر حياته! فوالله إن هذا كذب عليه، كما كذبوا على أخيه العلامة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحم الله الجميع ـ لما زعموا أنه يدعو لطريقتهم وشجّع على الخروج معهم!

كذلك حتى تهتز الكأس في يد المغفل، وذلك علامة على أن شيطانه قد حضر، فيسأل حاجته منه، وقد دعا أحد المفتونين صاحبنا الشيخ الزبير التفروتي؛ لمشاهدة هذه الكرامة بزعمه وناوله الشيخ الضال الكأس مملوءة بالماء، وأخذ يتكلم بالسحر حتى اهتزت الكأس في يد الشيخ الزبير، فألقاها في الأرض فانكسرت وأريق ماؤها، فقال الشيخ الزبير للسحار: هل تستطيع أن ترد الكأس صحيحة وترد لها ماءها؟ ولو أنك استطعت ذلك ما آمنت بسحرك، فبطل كيد الساحر وافتضح.

والجهال المحرومون يستدلون بمثل هذه المخارق على استقامة فاعلها وصلاحه وولايته لله، وأن طريقته مقبولة عند الله، وقال الجنيد رحمه الله: «إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يسير على الماء، فلا تعتبروه شيئاً حتى تعرضوا قوله وعمله على كتاب الله وسنة رسوله، فتروهما موافقين لهما»[1]، ويروى عنه أنه قال: «الاستقامة أفضل من ألف كرامة»[2]. وقد قال الجنيد رحمه الله: «طريقتنا هذه مبنية على أربعة أمور: اتباع السنة، ويتضمن ذلك العلم بالقرآن والحديث حتى يعرف ما يتبع وما لا يتبع، وأكل الحلال، وكف الأذى، وحمل الأذى»[3].

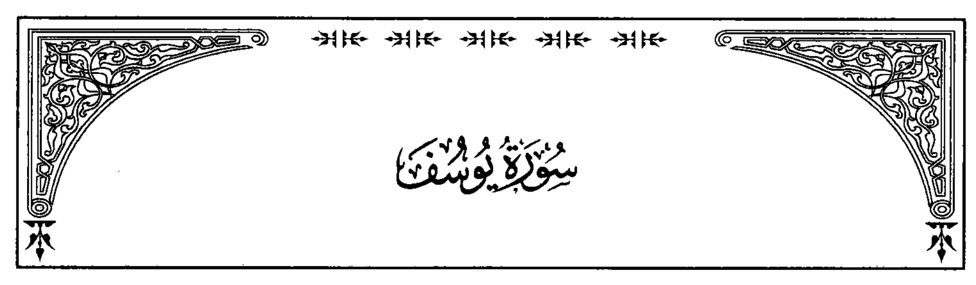
قال محمد تقي الدين: وهذه الأربعة دلائلها موجودة في كتاب الله وسنة رسوله، وبذلك يعلم أن طريقة الجنيد بريئة من مخالفة كتاب الله وسنة رسوله، فانتساب أصحاب الطرائق إلى الجنيد كذب وزور.

---

(١) هذا الكلام ليس من قول الجنيد، وإنما هو من قول الليث والشافعي. انظر: «آداب الشافعي ومناقبه» (ص١٨٤)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (١/ ١٤٥)، وفي «الحلية» (٩/ ١١٦) الشطر الأول منه، وينظر «الأمر بالاتباع»، (ص٦٩) وتعليقي عليه.

(٢) انظرها في: «روح المعاني» (١/ ٧٥).

(٣) لم أجدها من كلام الجنيد وإنما هي من كلام سهل التستري نحوها.
أخرجها السلمي في «طبقات الصوفية» (ص٢١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩٠)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٦١)، وانظر: «الاعتصام» (١/ ١٥٧ ـ بتحقيقي).
(فائدة مهمة) وقد قال الإمام الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ١٦٦ ـ بتحقيقي): «فكثيراً ما ترى المتأخرين ممَّن يتشبَّه بهم يرتكبُ من الأعمال ما أجمع النَّاسُ على فساده شرعاً، ويحتجُّ بحكاياتٍ هي قضايا أحوال، إن صحَّت؛ لم يكن فيها حُجَّة؛ لوجوه عدَّة، ويترك من كلامِهم وأحوالِهم ما هو أوضحُ في الحقِّ الصَّريح، والاتِّباع الصَّحيح؛ شأن مَن اتَّبع من الأدلَّة الشَّرعيَّة ما تشابه منها».



سورة يوسف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]

قال (ك): «يقول تعالى لرسوله(١) ﷺ [آمراً له أن يخبر الإنس والجن](٢) أن هذه سبيله؛ أي: طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان [عقلي وشرعي](٣). وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأنزّه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه عن أن يكون له شريك أو نظير(٤) أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدّس وتنزّه وتعالى عن ذلك كله علوّاً كبيراً»(٥).

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مسلم يجب عليه أن يدعو إلى الله وأن تكون دعوته على بصيرة، فمن ترك الدعوة إلى الله لا يصح أن يكون متبعاً لرسول الله، كلٌّ بقدر طاقته ووسعه: العالم بعلمه، والغني بماله، والفقير بلسانه وعمله، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] وكذلك ذو الجاه بجاهه، ولا بد أن تكون الدعوة على بصيرة، أي: علم وبرهان لا بجهل وتقليد، ومن كان لا

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لعبده ورسوله».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى الثقلين الجن والإنس آمراً له أن يخبر الناس».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «شرعي وعقلي».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أو عديل أو نديد».
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٩١ ـ ٩٢).

يحسن إقامة البرهان يتَّبِعُ من يحسنها ويؤيده ويعينه، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، فهذان أمران:

الأول: أن تكون الدعوة إلى الله: **والثاني**: أن تكون على بصيرة.

ويضادهما أمران:

الأول: أن تكون الدعوة إلى غير الله في الحقيقة، وإن كانت باللسان والادعاء إلى الله؛ كمن يدعو إلى اتباعه أو اتباع شيخه أو أهل مذهبه أو حزبه، ويسمي ذلك دعوة إلى الله؛ تلبيساً على الناس، وخداعاً لهم! فلْيُحْذَرْ مَنْ هذه حالُه!

الثاني: أن تكون على [غير][1] بصيرة، فمن دعاكم إلى أن تعبدوا معه شيخه بالبدع، كالرقص والخوار والمكاء والتصدية واتخاذ السبح والاستمداد من شيخه والاستغاثة به، فإنما هو شيطان فلا تتبعوه فإن دعوته ليست على بصيرة، **ومن دعاكم إلى أن تنصروا معه مذهبه أو فرقته أو حزبه دون أن يستدل بالقرآن والحديث الصحيح على ما يفعله وعلى ما يترك فإياكم أن تتبعوه**. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣] فسبيل الله واحدة وسبل الضلال كثيرة.

قال الحافظ ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٧٣) ما نصه: «واعلم يا أخي أن السنة[2] والقرآن هما أصل الرأي والعيار عليه وليس الرأي بالعيار على السنة بل السنة عيار عليه ومن جهل الأصل لم يصب[3] الفرع أبداً.

وقال ابن وهب: حدثنا مالك أن إياس بن معاوية قال لربيعة: «إن الشيء إذا بُني على عِوَج لم يكد يعتدل»، قال مالك: يريد بذلك المفتي الذي يتكلم على غير[4] أصل يبني عليه كلامه، قال أبو عمر: ولقد أحسن صالح بن عبد القدوس حيث يقول:

---

(١) سقطت من الأصل!

(٢) في مطبوع «الجامع»: «السنن».

(٣) كذا في مطبوع «الجامع»، وفي الأصل: «يصل»!

(٤) من مطبوع «الجامع»، وسقط من الأصل!

يـا أيـهـا الـدارس عـلـمـاً ألا   تـلـتـمـس الـعـونَ عـلـى دَرْسِـهْ
لـن تـبـلـغَ الـفـرعَ الـذي رُمْـتَـه   إلّا بـبـحـثٍ مـنـكَ عـن أُسِّـهْ»[١]

قال محمد تقي الدين: وصالح بن عبد القدوس هذا كان زنديقاً و«**الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها**»[٢].

«خذ الثمار وخل العود للنار»[٣].

ولما أراد الخليفة العباسي قتله من أجل الزندقة، وقامت عليه الحجة أظهر التوبة، فلم يقبلها منه بناء على القول بأن الزنديق لا توبة له[٤]، واحتج عليه الخليفة ببيت من هذه القصيدة وهو قوله:

والـشَّـيـخُ لا يـتـركُ أخـلاقَـه   حـتـى يُـوَارى فـي ثَـرى رمـسـه

فقال له: أنت شيخ طاعن في السِّنِّ، فلن تترك زندقتك، فأنتَ حكمت على نفسك[٥]. وقال عبد الله بن مسعود: «الصراط المستقيم هو ما تركنا عليه رسول الله ﷺ»[٦].

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ١١٤٠).

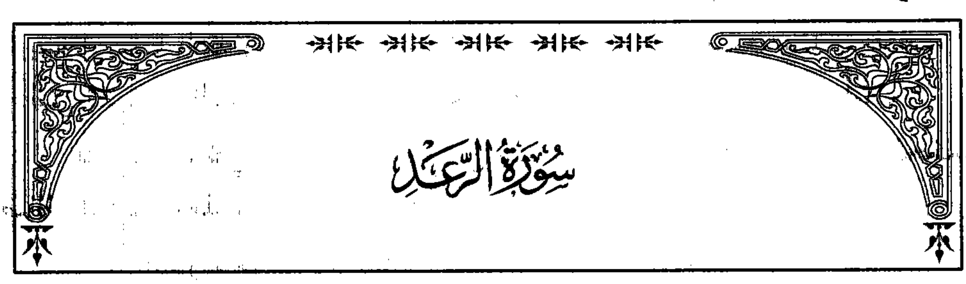
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (٥٢، ١٤٦) من حديث أبي هريرة، وقال عنه شيخنا الألباني: «**ضعيف جدًّا**».
وأخرجه البيهقي في «المدخل» عن ابن عباس قوله، كما في «المقاصد الحسنة» (ص١٩٢).
قال الإمام السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص١٩٢): «قال العسكري: أراد ﷺ: أن الحكيم يطلب الحكمة أبداً وينشدها، فهو بمنزلة المضل ناقته يطلبها. ثم أسند عن مبارك بن فضالة قال: خطب الحجاج فقال: إن الله أمرنا بطلب الآخرة، وكفانا مئونة الدنيا، فليته كفانا مؤنة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا قال: يقول الحسن: ضالة مؤمن عند فاسق فليأخذها، وعن يوسف بن أسباط قال: كنت مع سفيان الثوري وخازم بن خزيمة يخطب فقال خازم: إن يوماً أسكر الكبار، وأشاب الصغار، ليوم عسير شره مستطير، فقال سفيان: حكمة من جوف خرب ثم أخرج شريحة ـ يعني ألواحاً ـ فكتبها، ونحوه: «**فرب مبلَّغ أوعى من سامع**»».

(٣) وقيل في أمثال العرب: «خُذ ما صفا ودع ما كَدِرَ». انظر: «المستقصى» (٢/ ٧٢) للزمخشري.

(٤) انظر تفصيل المسألة في: «إعلام الموقعين» (٤/ ٥١١، ٥٤٧ ـ ٥٥١)، و«الإشراف» للقاضي عبد الوهاب وتعليقي عليهما.

(٥) انظر: «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٤٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٣٢) مقتصرين =



سورة الرعد

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١]

قال (ك): «يمدح الله القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ. وفضله[1] على سائر الكتب المنزَّلة قبله، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تنشق به الأرض، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن أولى الكتب[2] اتصافاً بذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا بأن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله ﷻ، وقد يطلق اسم القرآن على كلٍّ من الكتب المتقدمة لأنه جامع لها، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل**

= على هذا اللفظ، وأخرجه مطولاً: ابن وضاح في «البدع» (رقم ٨٦، ط. بدر أو رقم ٧٩، ط. عمرو سليم)، وابن مردويه في «تفسيره» ـ كما في «تفسير ابن كثير» ـ، وعبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٢٢٣)، وابن جرير في «التفسير» (٨/ ٨٨ ـ ٨٩)، والقاضي إسماعيل في «أحكام القرآن»، ومدار المطول على أبان بن أبي عياش متروك، **واللفظ المذكور المختصر هو المحفوظ**، وانظر: «الاعتصام» (١/ ٧٨ ـ ٧٩ ـ بتحقيقي).

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «ويفضله».

(٢) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «بالكتب»!

إلا من عمل يديه»[١]. انفرد به البخاري، والمراد بالقرآن الزبور.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنه ليس ثَمَّ حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن، الذي «ما تركه من جبار إلا قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتَّعظوا ويعتبروا؛ روى أبو داود الطيالسي[٣] عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ قال سرية: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾[٤]، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ قال: «فتح مكة». وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة ولأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧﴾ [إبراهيم: ٤٧]»[٥].

فصل

قال محمد تقي الدين: أنزل الله هذا القرآن على عبده ورسوله محمد ليكون للعالمين نذيراً، وهو أفضل الكتب السماوية كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] وقد نفع الله بجميع الكتب التي بعث بها رسله، إلا أنّ نفع هذا القرآن أعظم؛ لأنه قلَب العالم وغيَّر معالمه وأحواله في خمس وعشرين سنة، وصل في المشرق إلى الصين، ووصل في المغرب إلى أرضنا هذه، ولم يعرف بعدها في ذلك الزمان أرض معمورة، ولما انكشفت أمريكا[٦] وصلها

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٣٤١٧).

(٢) هو جزء من حديث روي مرفوعاً وموقوفاً على علي، **والموقوف أصح**، وسبق بيان ذلك مفصلاً.

(٣) أخرجه من طريقه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٦٨) **بسند حسن**.

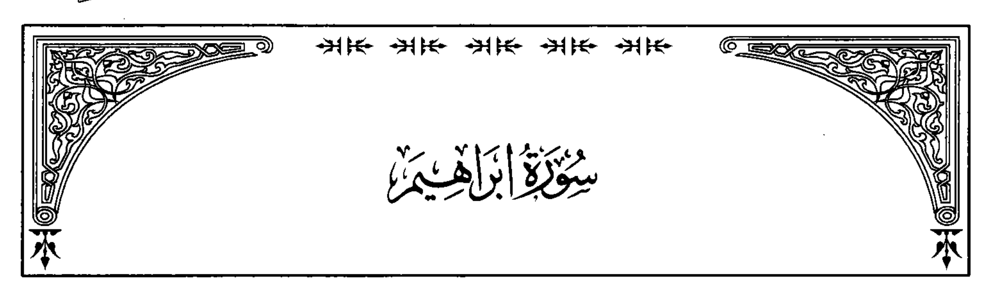
(٤) بعدها في مطبوع «التيسير»: «قال محمد ﷺ».

(٥) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣).

(٦) كان (كولومبس) عارفاً بها قبل أن يبحر إليها سنة ١٤٩٢م، وسجلات (لشبونة) تؤكد ذلك، انظر: «الارتياد والكشف الجغرافي» (ص٦٩ ـ ٨٨). و«ذو القرنين وسد الصين» =

القرآن أيضاً، ولم يؤثر كتاب سماوي في البشر مثل تأثيره، فلو أن كتاباً سماوياً نقلت به الجبال من أماكنها، وشقت به الأرض حتى صارت قطعاً مفصولاً بعضها عن بعض، أو كُلِّم به الموتى في قبورهم، فسمعوا وأجابوا؛ لكان هذا الكتاب الذي أنزل على محمد من عظم شأنه، وقوة تأثيره إذا وجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية وهمماً عالية تحدث به العجائب والغرائب. وإذا طرح في زوايا الإهمال وبقي نسياً منسيّاً، فإنها تحدث به عجائب وغرائب أيضاً من الذلة والإهانة والخزي المبين، حتى تغلب ثلاثة ملايين سبعمائة مليون، وأي شيء أعجب من هذا؟! وطريق الخلاص واضح وهو الرجوع إلى الكتاب وبيانه من سنة النبي ﷺ والله يهدي من ينيب، **وهذا التفرق في المذاهب وفي الطرائق والأحزاب وفي القومية والوطنيات من أسباب شقاء هذه الأمة.**

= لشيخ مشايخنا محمد راغب الطباخ (ص١٥٦ ـ ١٦٢، ١٧١ ـ ١٧٢) وتعليقي عليه، ففيها ما يثبت أن الرحلة الكولومبيسية معدة على ضوء المعلومات التي استمدها من الرواسب التاريخية لرحلات تعددت قام بها المسلمون إلى الدنيا الجديدة، وتفسيرها الذي حرك حول الرحلة زوبعة من الجدال. والتفصيل والتدليل هناك، ولا يتسع له هذا المقام، والله المستعان ثم رأيت بعد كتابة هذه السطور في مجلة «لغة العرب»، المجلد الثاني، الجزء (١١) من السنة الثانية، بتأريخ جمادى الآخرة ١٣٣١هـ ـ أيار ١٩١٣م (ص٤٩٥ ـ ٤٩٨) مقالة بعنوان (آثار دخول الشرقيين أميركة قبل اكتشافها)، وفيها ما يؤكد الكلام المزبور.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤ ـ ٤٦]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن قول[(١)] الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ كقوله[(٢)] تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩]، [وكقوله تعالى][(٣)]: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، [فقال][(٤)] تعالى راداً عليهم[(٥)]: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه [الحالة][(٦)] أنه لا[(٧)] معاد ولا جزاء؟ فذوقوا هذا بذلك [كقوله تعالى][(٨)]: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قيل». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما قال».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في قولهم هذا».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الحال».
(٧) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كما أخبر عنهم تعالى».

﴿أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا[1] بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ وقد روى العوفي عن ابن عباس في تفسيرها يقول: «ما كان مكرهم لتزول منه الجبال[2]».

وقال: كذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من [شركهم بالله وكفرهم به][3] ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم. قلت: ويشبه هذا [قول الله][4] تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧] والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يقول: شركهم، كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٩٠] وهكذا قال الضحاك وقتادة»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: إنما سقت هذه الآيات وتفسيرها لقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عام في جميع الظالمين، يدخل فيه الذين ظلموا أنفسهم بالشر والكفر، ويدخل فيه الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الرسول وعدم اتباعه والاكتفاء بتقليد الرجال، كل هؤلاء الظالمين يندمون يوم القيامة على عدم اتباع الرسول، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا للتكفير عن ذنوبهم باتباع الرسول، وهيهات! هيهات!

---

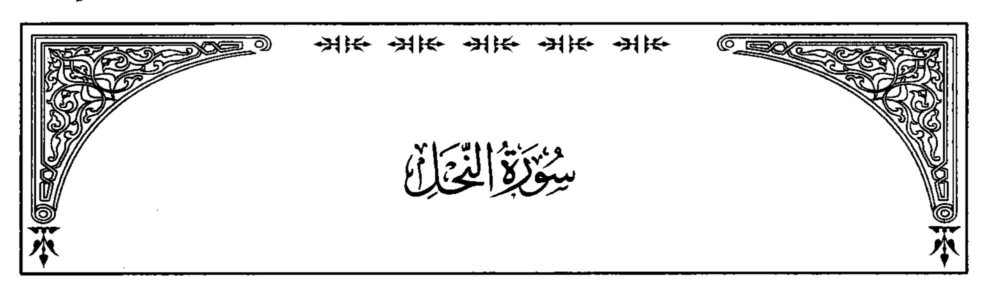
(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «أحل»!

(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقط من الأصل. وأثر ابن عباس أخرجه ابن جرير (١٣/ ٧٢٥) ولم يعزه في «الدر» (٨/ ٥٦٨) إلا له.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كفرهم بالله وشركهم به».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إذا قوله».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢)، وأثر ابن عباس والضحاك أخرجهما ابن جرير (١٣/ ٧٢٢)، وكذا في «الدر» (٨/ ٥٦٨) أثر ابن عباس لابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» (رقم ٦٨٤).



سورة النحل

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٣ ـ ٤٤]

قال (ك): «قال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ أنكر قسم من العرب ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية [يونس: ٢][(١)]. وقال تعالى هنا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾؛ يعني: فسألوا أهل الكتب الماضية: أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانت[(٢)] ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ بشراً رسولاً، وكذا قال مجاهد عن ابن عباس[(٣)] أن المراد بأهل الذكر هم أهل الكتاب، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠] ثم أرشد تعالى الذين يشكّون في كون الرسل من البشر أن يسألوا أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ بالحجج

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/٢٢٨)، وابن أبي حاتم (٦/١٩٢٢) كلاهما في «التفسير»، **وإسناده منقطع**، الضحاك لم يلق ابن عباس، وفيه بشر بن عمارة وهو ضعيف.

(٢) في مطبوع «التيسير»: «كانوا».

(٣) بنحوه عند ابن جرير (١٤/٢٢٧، ٢٢٨) وعزاه في «الدر» (٩/٥١) للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

والدلائل والزبر، وهي: الكتب، قاله[1] ابن عباس وغيره[2]، والزبر جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٢] ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل، وتبين ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: قد احتج العلماء بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ على أن من لم يعرف شيئاً من أصول الدين وفروعه وجب عليه أن يسأل أهل القرآن، وأهل القرآن لا يكونون إلا أهل الحديث، كما تقدم عن البخاري وأحمد بن حنبل[4] وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فميراث الرسول ﷺ منحصر في القرآن والسنة، والفقه منحصر في فهمهما، ولم يمنع العلماء تفسير ابن عباس أنها نزلت فيما تقدم ذكره؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]

وفي «تفسير الجلالين» ما نصه: «﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ أي: لوصف ألسنتكم ﴿ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «قال»!

(٢) مثل: مجاهد، أسنده عنه ابن جرير (١٤/ ٢٣١) وعزاه في «الدر» (٩/ ٥٣) لأبي أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٥٨٥ ـ ٥٨٦).

(٤) سبق ذكر كلامهما وتخريجه.

﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بنسبة ذلك إليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لهم ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم»[(١)].

قال القنوجي في «فتح البيان»: «عن أبي نضرة قال: «قرأت هذه الآية في سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا». قلت: صدق رَحِمَهُ اللَّهُ فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ، كما يقع كثيراً من المؤثرين للرأي المقدِّمين له على الرواية، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة، كالمقلِّدة، وأنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاواهم ويمنعوا من جهالاتهم، فإنهم أفتوا بغير علم من الله ولا هدى ولا كتاب منير، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا، فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل:

كبهيمةٍ عمياءَ قاد زمامَها ... أعمى على عوج الطريق الحائر»[(٢)]

وقال الحافظ ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/ ١) ما نصه في (حكم عمل أهل المدينة):

فصل

وأما العمل الذي طريقه الاجتهاد والاستدلال، فهو معترك النزال ومحل الجدال، قال القاضي عبد الوهاب[(٣)]: «وقد اختلف أصحابنا فيه على ثلاثة أوجه:

أحدها: إنه ليس بحجة أصلاً، وإن الحجة هي إجماع أهل المدينة من طريق النقل، ولا يرجح[(٤)] به أيضاً أحد الاجتهادين على الآخر.

وهذا قول أبي بكر[(٥)] وأبي يعقوب الرازي والقاضي أبي بكر بن منتاب

---

(١) انظر: «تفسير الجلالين» (ص٣٣٤). (٢) انظر: «فتح البيان» (٤/ ٩١).

(٣) في كتابه «أصول الفقه» كما صرح به ابن تيمية في «صحة أصول أهل المدينة» (٣٣)، ونقل القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ٤٧ وما بعد)، والزركشي في «البحر المحيط» (٤/ ٤٨٥)، والقرافي في «نفائس الأصول» جلّ هذا النقل، وانظر: «عمل أهل المدينة» (ص٨٨ وما بعدها).

(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «يرجع»!

(٥) هو أبو بكر القاضي، محمد بن الطيب الباقلاني (المتوفى ٤٠٣هـ) الملقَّب بشيخ السنة، من رؤساء المذهب المالكي، له مصنفات كثيرة، ترجمته في «الديباج» (٢٦٧)، =

والطيالسي والقاضي أبي الفرج والشيخ أبي بكر الأبهري، وأنكروا أن يكون هذا مذهباً لمالك أو لأحد من معتمدي أصحابه.

والوجه الثاني: إنه وإن لم يكن حجة فإنه يُرجَّح به اجتهادهم على اجتهاد غيرهم، وبه قال بعض [أصحاب الشافعي][(١)].

والثالث: إن إجماعهم من طريق الاجتهاد حجة، وإن لم يحرم خلافه، كإجماعهم من طريق النقل، وهذا مذهب قوم من أصحابنا».

ثم قال ابن القيم: «ومن المعلوم أن العمل بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين والصحابة بالمدينة كان بحسب مَن فيها من المفتين والأمراء والمحتسبين[(٢)] وصار عملاً. فهذا هو الذي لا يُلتفت إليه في مخالفة السنن، لا عمل رسول الله ﷺ وخلفائه والصحابة فذلك هو السنة فلا يُخلط أحدهما بالآخر، فنحن لهذا العمل أشد تحكيماً، وللعمل الآخر إذا خالف السنة أشد تركاً وبالله التوفيق.

وقد كان ربيعة بن عبد الرحمن يفتي وسليمان بن بلال المحتسب ينفِّذ فتواه، فتعمل الرعية بفتوى هذا وتنفيذ هذا، كما يطّرد العمل في بلد أو إقليم ليس فيه إلا قول مالك على قوله وفتواه، ولا يجوّزون العمل هنالك بقول غيره من أئمة الإسلام. فلو عمل به أحد لاشتد نكيرهم عليه، وكذلك كل بلد أو إقليم لم يظهر فيه إلا مذهب أبي حنيفة، فإن العمل المستمر عندهم على قوله[(٣)] والعمل الصحيح ما وافق السنّة.

وإذا أردت وضوح ذلك؛ فانظر العمل في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في جهره بالاستفتاح في الفرض في مصلى النبي ﷺ وعمل

= و«شذرات الذهب» (٣/ ١٦٧) ثم وجدته في «ترتيب المدارك» (١/ ٥٠): «ابن بُكير» ولعله الصواب والله أعلم.

(١) في مطبوع «الإعلام»: «الشافعية». وقال القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ٥١): «لم يرتضه القاضي أبو بكر [الباقلاني] ولا محققو أئمتنا ولا غيرهم».

(٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «ولم تكن الرعية تخالف هؤلاء، فإذا أفتى المفتون نفَّذه الوالي وعمل به المحتسب».

(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «وكل طائفة اطرد عندهم عمل من وصل إليهم قوله ومذهبه ولم يألقوا غيره، ولا فرق في هذا العمل بين بلد وبلد».

الصحابة به[١]، ثم العمل في زمن مالك بوصل التكبير بالقراءة من غير استفتاح ولا تعوذ[٢]، وانظر العمل في زمن الصحابة كعبد الله بن عمر في اعتبار خيار المجلس ومفارقته لمكان التبايع ليلزم العقد[٣] ولا يخالفه في ذلك صحابي ثم العمل به في زمن التابعين.

وإمامهم وعالمهم سعيد بن المسيب [يعمل به ويفتي به][٤] ولا ينكره عليه مُنكِر، ثم صار العمل في زمن ربيعة وسليمان بن بلال بخلاف ذلك، وانظر إلى العمل في زمن رسول الله ﷺ والصحابة خَلْفَه وهم يرفعون أيديهم في الصلاة في الركوع والرفع منه[٥]. ثم العمل في زمن الصحابة بعده حتى كان عبد الله بن عمر

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٣٩٩) (٥٢) في «الصلاة»، باب حجة من قال: لا يجهر بالبسملة، من طريق الوليد بن مسلم: حدّثنا الأوزاعي عن عبدة أن عمر بن الخطاب كان يجهر بهؤلاء الكلمات يقول: سبحانك اللّهمّ وبحمدك.
وعبدة هو ابن أبي لبابة، قال أبو حاتم: رأى ابن عمر رؤية، وقال العلائي (ص٢٣١): أخرج له مسلم عن عمر، والظاهر أنه مرسل إذ إنه لم يدرك ابن عمر وأم سلمة.
أقول: ورواية مسلم هذه في الشواهد، وانظر: «تذكرة المحتاج» (ص٤٥ ـ ٤٦) لابن الملقن، و«شرح النووي على مسلم» (٤/ ١١١ ـ ١١٢)، و«غرر الفوائد المجموعة» (٢/ ٧٧٨ ـ ملحق بآخر كتابي «الإمام مسلم ومنهجه في الصحيح»)، و«التلخيص الحبير» (١/ ٢٢٩).
وروى الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١١١) من طريق الحكم عن عمرو بن ميمون، قال: صلّى بنا عمر ﷺ بذي الحليفة فقال: الله أكبر سبحانك اللّهمّ وبحمدك. . . ورجاله ثقات.
وله طريق آخر، خرجته في «الطهور» رقم (٩٦) لأبي عبيد القاسم بن سلام.
وفي «مصنف عبد الرزاق» (٢/ ٧٥) روايات عن عمر في دعاء الاستفتاح، لكن ليس فيها أنه كان يجهر بها.
وانظر حول دعاء الاستفتاح، وترجيح القول بسنيته: «زاد المعاد» (١/ ٥٢)، و«الإشراف» (١/ ٢٥١ مسألة ١٧٢) للقاضي عبد الوهاب وتعليقي عليه.

(٢) انظر: «عقد الجواهر الثمينة» (١/ ١٣٢)، و«التلقين» (١/ ١٠٣)، و«الإشراف» (١/ ٢٥١ ـ بتحقيقي)، و«الذخيرة» (٢/ ١٨٧)، و«المدونة» (١/ ١٦١)، و«المعونة» (١/ ٢١٦)، و«بداية المجتهد» (١/ ٩٦)، و«قوانين الأحكام» (ص٧٥)، و«جامع الأمهات» (ص٩٤).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في مطبوع «الإعلام»: «يفتي به ويعمل به».

(٥) سبق تفصيل هذا الإجمال وتخريجه هناك، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (١/ ٢١٨ ـ ٢١٩) أنه ورد الرفع عن ثلاثين نفساً.

إذا رأى من لا يرفع يديه حصبه[١]، وهو عمل كأنه رأي عَيْن، وجمهور التابعين يعمل به في المدينة وغيرها من الأمصار، كما حكاه البخاري ومحمد بن نصر المروزي وغيرهما عنهم[٢] ثم[٣] صار العمل بخلافه.

وانظر إلى العمل الذي كأنه رأي عين من صلاة رسول الله ﷺ على ابني بَيْضاء سُهيل وأخيه في المسجد والصحابة معه[٤]، وصلت عائشة على سعد بن أبي وقاص في المسجد[٥]، وصُلِّي على عمر بن الخطاب في المسجد، ذكره

---

(١) رواه البخاري في «جزء رفع اليدين» (١٥) عن الحميدي ـ وهو في «مسنده» رقم (٦١٥، ط. الأعظمي، ورقم ٦٢٧، ط. حسين أسد) ـ، والدارقطني (١/ ٢٨٩)، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص٢١٨)، والسهمي في تاريخ جرجان» (ص٤٣٣)، وابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٨٣) جميعهم من طريق الوليد بن مسلم: سمعت زيد بن واقد يحدث عن نافع به، **وإسناد صحيح، وصرّح الوليد بالتحديث.**
لكنه قال: رماه بالحصى.
وباللفظ الذي ذكره المؤلف عزاه الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (١/ ٢٢٠) لـ«المسند»! ـ ولم أجده فيه ـ ولم يذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٠١ ـ ١٠٣)، ولا ابن حجر نفسه في «أطراف المسند»، واقتصر في «إتحاف المهرة» (٩/ ٩٠) في عزوه على الدارقطني، وأهمل أحمد، وقد ذكره الحافظ أيضاً في «الفتح» (٢/ ٢٢٠)، وعزاه للبخاري في «جزئه» فقط، وهو في «مسائل عبد الله لأبيه» (ص٧٠، ط. المكتب الإسلامي)، ولعل هذا هو سبب عزوه لـ«المسند»، فعزاه بعضهم لأحمد، وأهمل، فظن ابن حجر أنه في «المسند» أو لعلها زيادة من النساخ!
وعزاه ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٦٥) لأبي بكر الأثرم عن أحمد، انظر: «تنقيح التحقيق» (١/ ٧٦٩).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٨٩ ـ ٩٠ و٤/ ٩١)، و«زاد المعاد» (١/ ٥٢، ٥٥، ٦٢ ـ ٦٣)، و«تهذيب السنن» (١/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩)، جميعها لابن القيم.
وانظر: «جزء رفع اليدين» للبخاري (ص١٥٤ وما بعد)، و«المحلى» (٤/ ٧٩ ـ ٨٠)، و«الاستذكار» (٢/ ١٢٦، ط. المصرية القديمة)، و«إيضاح أقوى المذهبين في مسألة رفع اليدين» لأبي حفص عمر بن عيسى الباريني (ت٧٦٤هـ)، نشر دار البخاري، المدينة النبوية.

(٣) من مطبوع «الإعلام»، وسقطت من الأصل!

(٤) رواه مسلم (٩٧٣) (١٠١) من حديث عائشة، قالت: والله ما صلّى رسول الله ﷺ على ابني بيضاء إلّا في المسجد: سُهيل وأخيه.
ورواه (٩٧٣) (٩٩) و(١٠٠) قالت: «ما صلّى رسول الله ﷺ على سُهيل ابن بيضاء...» فقط.

(٥) هو جزء من الحديث السابق، لكن هي أمرت أن يدخل إلى المسجد فيُصلّى عليه. وجزم =

مالك عن نافع عن عبد الله(١).

قال الشافعي: ولا نرى أحداً من الصحابة حضر موته فتخلَّف عن جنازته، فهذا عمل مجمع عليه عندكم. قاله لبعض المالكية.

وروى هشام عن أبيه أن أبا بكر صُلِّي عليه في المسجد(٢) فهذا العمل حق(٣) ولو تركت السنن للعمل لتعطَّلت سنن رسول الله ﷺ ودرست رسومها وعَفَت آثارها.

وكم من عمل قد اطّرد بخلاف السّنة الصريحة على تقادم الزمان وإلى الآن، وكل وقت تُترك سنة ويُعمل بخلافها ويستمر عليه العمل فتجده(٤) يسيراً من السنة معمولاً به على نوع تقصير، وخذ بلا حسبان(٥) ما شاء الله من سنن قد أهملت وعُطِّل العمل بها جملة، فلو عمل بها من يعرفها لقال الناس: تركت

= الحافظ ابن حجر في «الإصابة» أنه صُلّي عليه في المسجد.

(١) رواه مالك (١/ ٢٣٠) ومن طريقه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٤٢)، وعبد الرزاق (٦٥٧٧) عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال: صُلِّي على عمر في المسجد، **وإسناده صحيح غاية**، وانظر الهامش الآتي، وله إسناد آخر: رواه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٤٣) وفيه مجاهيل.

(٢) رواه عبد الرزاق (٦٥٧٦) ـ ومن طريقه ابن حزم في «المحلى» (٥/ ١٦٢) ـ وابن أبي شيبة (٣/ ٢٤٢)، وابن سعد (٣/ ٢٠٦، ٢٠٧)، وأبو بكر الدينوري في «المجالسة» (رقم ٢١٧٩ ـ بتحقيقي) من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه ـ وفي رواية عند ابن سعد: عن أبيه أو غيره، شك وكيع ـ قال: ما صُلّي على أبي بكر إلّا في المسجد، وهذا **إسناد منقطع**؛ عروة لم يدرك أبا بكر، ولد في خلافة عثمان.

ورواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ١٨٥ ـ ١٨٦) رقم (١٢٠) عن ابن أبي عمر عن سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن مولىً لهم قال: «صُلّي على أبي بكر رضي الله عنه في المسجد».

وأخرج ابن سعد (٣/ ٢٠٦) عن المطلب بن عبد الله بن حنطب أن أبا بكر وعمر صلّي عليهما في المسجد تجاه المنبر.

وأخرج ابن سعد (٣/ ٢٠٧)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (ص٨٠ ـ أخبار الشيخين) عن ابن جريج عن بعض ولد سعد: أن عمر حين صلّى على أبي بكر في المسجد ربَّع.

وذكره الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٩٩) ساكتاً عنه!!

(٣) انظر: «زاد المعاد» (١/ ١٤٠ و٣/ ٤٧)، و«تهذيب السنن» (٤/ ٣٢٥)، و«الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (١/ ٩٣ ـ ٩٤ مسألة رقم ٤١٧) وتعليقي عليه.

(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «فتجد»!

(٥) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «حساب»!

السّنة فقد تقرَّر أن كل عمل خالف السّنة الصحيحة لم يقع من طريق النقل البتّة وإنما يقع من طريق الاجتهاد. والاجتهاد إذا خالف السنة كان مردوداً، وكل عمل طريقه النقل فإنه لا يخالف سنّة صحيحة البتّة.

فلنرجع إلى الأمثلة التي تُرك فيها المحكم للمتشابه، فنقول: ترك السنة المحكمة الصحيحة في الجهر بآمين في الصلاة[1]، كقوله في «الصحيحين»: «**إذا أمّن الإمام فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه**»[2]، ولولا جهره بالتأمين لما أمكن المأموم أن يؤمّن معه ويوافقه في التأمين.

وبالإسناد المتصل[3] عن وائل بن حُجْر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قال: «﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾» قال: «**آمين**» ورفع بها صوته، وفي لفظ: «وطول بها»[4]. رواه الترمذي وغيره، وإسناده صحيح».

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٥٢)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٥٢)، و«تهذيب السنن» (١/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٨٠) في «الأذان»، باب جهر الإمام بالتأمين، و(٦٤٠٢) في «الدعوات»، باب التأمين، ومسلم (٤١٠) في «الصلاة»، باب التسميع والتحميد والتأمين، من حديث أبي هريرة.
وله لفظ آخر عن أبي هريرة أيضاً: «**إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فإنه من وافق...**».
رواه البخاري (٧٨٢ و٤٤٧٥)، ومسلم (٤١٠) (٧٦).

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «وأصرح من هذا حديث سفيان الثوري عن سلمة بن كُهَيل عن حُجْر بن عَنْبَس».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٢٥)، وأحمد (٤/ ٣١٦ و٣١٧)، وأبو داود (٩٣٢) في «الصلاة»، باب التأمين وراء الإمام، والترمذي (٢٤٨) في «الصلاة»، باب ما جاء في التأمين، والدارمي (١/ ٢٨٤)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ رقم ١١١)، والدارقطني (١/ ٣٣٤)، والبيهقي (٢/ ٥٧)، والبغوي (٥٨٦) من طريق سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن حجر بن عنبس باللفظ المذكور.
ورواه أيضاً عن سلمة ابنه محمد، أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ رقم ١١٣).
ورواه أيضاً العلاء بن صالح: رواه ابن أبي شيبة (١/ ٢٩٩)، وأبو داود (٩٣٣)، والترمذي (٢٤٩)، والطبراني (٢٢/ رقم ١١٤)، ووقع عند أبي داود (علي بن صالح) وهو وهم، قاله المزي.
وقال شعبة: «وأخفى بها صوته» وروايته عند الطيالسي (١٠٢٤) ـ ومن طريقه البيهقي (٢/ ٥٧) ـ، وقد اختلف عليه، فرواه مرة كرواية عامة أصحابه، أخرجه الطبراني =

ثم قال: «ومن ذلك ترك القول بالسنة الصحيحة الصريحة المحكمة في أن الصلاة الوسطى صلاة العصر[(١)]، بالمتشابه من قوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وهذا عجب من العجب، وأعجب منه تركها بأن في مصحف عائشة «وصلاة العصر»[(٢)].

ومن ذلك ترك السنة الصحيحة الصريحة في قول الإمام: «ربنا ولك الحمد» كما في «الصحيحين»[(٣)] من حديث أبي هريرة: «كان رسول الله ﷺ إذا قال: **«سمع الله لمن حمده»** قال: **«اللهم ربنا ولك الحمد»**»[(٤)].

قال محمد تقي الدين: وأكتفي بهذا القدر من ذكر الأمثلة التي خالف فيها المالكيون السنن الواضحة، بالرأي الفاسد، أو بادعاء عمل أهل المدينة وقد علمت ما فيه.

= (٢٢/رقم ١٠٩)، ورواه مرة فأقام إسناده ومتنه، أخرجه البيهقي (٢/ ٥٧) وصحح إسناده في «المعرفة»، والمشهور عن شعبة خلاف رواية الثوري، والصحيح رواية الثوري، قال ابن حجر في «التلخيص»: «قد رجحت رواية سفيان بمتابعة اثنين له، بخلاف شعبة، فلذلك جزم النقاد بأن روايته أصح». انظر: «تهذيب السنن» (١/ ٤٣٨) لابن القيم، «تنقيح التحقيق» (٢/ ٨٣٢ ـ ٨٣٣، ط. عامر صبري)، و«الأحكام الوسطى» (٢/ ١٧٧)، و«بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٤٦٤)، وانظر: «نصب الراية» (١/ ٣٧١)، و«التلخيص» (١/ ٢٣٧)، وجزءنا المفرد في طرق هذا الحديث: «القول الجلي في صفة صلاة النبيّ ﷺ الواردة في حديث وائل بن حجر الحضرمي»، يسر الله إتمامه ونشره.

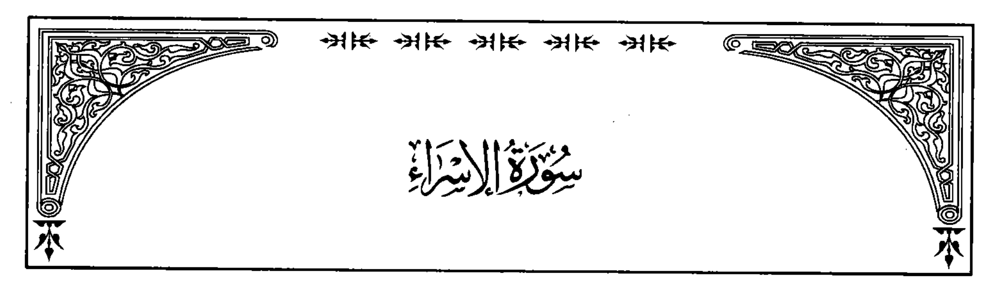
(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٦٢٨)، والترمذي في «الجامع» رقم (١٨١ و٢٩٨٥)، والطيالسي في «المسند» رقم (٣٦٦)، وأحمد في «المسند» (١/ ٣٩٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٥٦)، وغيرهم عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٢) في مصحف عائشة وحفصة: «وهي صلاة العصر»، وقرأ «صلاة العصر» أُبيّ، وابن عباس وعبيد بن عمير وحفصة وأم سلمة وعبد الله بن رافع. انظر: «البحر» (٢/ ٢٤٠)، «المحرر» (٢/ ٣٣٠)، «معجم القراءات القرآنية» (١/ ٣٣٥).
وأثر عائشة أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب المساجد، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى صلاة العصر، رقم (٦٢٩).

(٣) حديث أبي هريرة الذي في «صحيح البخاري» (٧٩٦) في «الأذان»، باب فضل «اللهمّ ربنا لك الحمد»، و(٣٢٢٨) في «بدء الخلق»، باب إذا قال أحدكم: آمين، و«صحيح مسلم» (٤٠٩) في «الصلاة»، باب التسميع والتحميد... لفظه: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده: ... فقولوا» فهو من قوله عليه السلام.

(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٦٦ ـ ٢٨٠ ـ بتحقيقي) بتصرف.

وقال ابن القيم: «وأعجب منه تركها بأن في مصحف عائشة (وصلاة العصر)»؛ فيه إبهام يحتاج إلى بيان، والمعنى: وأعجب مما تقدم ترك السنة الصحيحة الصريحة، وهي القول بأن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر مع أن في مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) وهذه الزيادة وإن لم تكن قرآناً؛ لعدم تواترها، فهي في حكم الحديث الصحيح.



سُورَةُ الإِسْرَاءِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [الإسراء: ٩ ـ ١٠]

قال (ك): «يمدح الله تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: اختلف المفسرون في تقدير الموصوف بالتي هي أقوم، هل يكون (الطريقة) أو (الحال) أو (الملة) أو (الكلمة)؟ والخطب في ذلك سهل لأن هذه الكلمات معناها واحد، فالقرآن والسنة التي هي بيانه يهديان كل أمة تمسكت بهما إلى الطريقة أو الحالة التي هي أكثر استقامة، وفيها سعادة الدنيا والآخرة، ويبشر أعداءهم بأن لهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، فهذه الجماعات استنكفت أن تسمي أنفسها باسم الإسلام، وخدعها أعداء الإسلام فصارت تدعو إلى العروبة، **وهذه الشعوب التي تنتسب إلى الإسلام خذلت القرآن والسنة، فحرمت الهداية إلى التي هي أقوم وسلكت طرقاً معوجة، وحرمت النصر والعزة وأصيبت بالانهزام والذلة**، وذلك هو العذاب الأليم في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٤٠).

﴿ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧] والعروبة (قسمان): عروبة (محمد رسول الله ﷺ)، وهي ملازمة للقرآن والسنة، وعروبة (أبي جهل) وهي ملازمة لعداوة القرآن والسنة، والشقاء في الدنيا والآخرة مضمون لأصحابها، أما الشعوب من غير العرب التي تنتسب إلى الإسلام وتعرض عن القرآن والسنة، فإنها مصابة بعبادة القوميات المختلفة وذلك يضمن لها الخسران في الدنيا والآخرة، وإذا كان اتباع القرآن والسنة سبباً لكل خير وعدم اتباعهما سواء أكان إعراضاً أو تقليداً لغير المعصوم، فلا يجوز لأحد أن يفتي أو يقضي إلا بدليل منهما، أو ما في معناهما، قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٣/٤٤٦) ما نصه:

«ومن أفتى الناس وليس بأهل للفتوى فهو آثم عاص، ومن أقره من ولاة الأمور على ذلك فهو آثم أيضاً، قال أبو الفرج ابن الجوزي[١] رحمه الله: «ويلزم ولي الأمر منعهم[٢]، وهؤلاء بمنزلة من يدل الركب وليس له علم بالطريق، وبمنزلة الأعمى الذي يرشد الناس إلى القبلة، وبمنزلة من لا معرفة له بالطب وهو يطب الناس، بل هؤلاء أسوأ حالاً من هؤلاء كلهم، وإذا تعيَّن على ولي الأمر منع من لم يحسن التطبب من مداواة المرضى، فكيف بمن لم يعرف الكتاب والسنة ولم يتفقه في الدين؟!».

وكان شيخنا[٣] رضي الله عنه شديد الإنكار على هؤلاء، فسمعته يقول: قال لي بعض هؤلاء: أجعلت محتسباً على الفتوى؟ فقلت[٤]: يكون على الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون على الفتوى محتسب؟

وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه عن النبي ﷺ مرفوعاً: **«من أفتي بغير علم، كان إثمه ذلك على الذي أفتاه»**[٥].

---

(١) هذا الكلام منقول من «تعظيم الفتيا» وهو ساقط من أصلَيه الخطيين اللذين، يسر الله لنا تحقيق هذه الرسالة عنهما، وفيهما فوت يسير، فانظرها (ص١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «كما فعل بنو أمية».

(٣) يريد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ.

(٤) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «له». (٥) سبق تخريجه.

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال، ولكن يقبضه بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»(١). وفي أثر مرفوع ذكره أبو الفرج وغيره: «**من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض**»(٢). وكان مالك رحمه الله(٣) يقول: من سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة ثم يجيب فيها(٤). وسئل عن مسألة فقال: لا أدري. فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة. فغضب وقال: «ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]؟ فالعلم كله ثقيل وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة»(٥). وقال: «ما أفتيت حتى شهد

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) في «العلم»، باب كيف يطلب العلم؟ و(٧٣٠٧) في «الاعتصام»، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس، ومسلم (٢٦٧٣) في «العلم»، باب رفع العلم وقبضه.

(٢) رواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٤٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥/ ق٥٦) وفي «مشيخته» (ق١٠٩/أ) من طريق عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي عن أبيه عن علي بن موسى الرضا عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب رفعه. **وإسناده واهٍ جدًّا**، قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٩٠) في ترجمة (عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي): «عن أبيه عن علي الرضا عن آبائه بتلك النسخة الموضوعة الباطلة، ما ينفك عن وضعه أو وضع أبيه». ومع هذا فقد حكم عليه شيخنا في «ضعيف الجامع» رقم (٥٤٥٩) بالضعف.

وأما قول المصنف: «ذكره أبو الفرج» أي في رسالته «تعظيم الفتيا» ـ وهو في أول الفوت من النسختين الخطيتين اللتين اعتمدتهما في تحقيقها ـ (ق٩/أ) بإسناده إلى ابن مردويه: حدثنا علي بن الحسين. وبعده نقص، ولعل تتمة الإسناد لهذا المتن لأنه تحت باب (وقد جاء الوعيد الشديد لمن يفتي وليس من أهل الفتوى)، والله أعلم.

(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «ورضي عنه».

(٤) نقله القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٤)، وابن الصلاح في «أدب المفتي» (٨٠)، والشاطبي في «الموافقات» (٥/ ٣٢٩ ـ بتحقيقي)، وانظر: «تعظيم الفتيا» (ص٧٨ ـ بتحقيقي).

(٥) نقله القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، وابن الصلاح في «أدب المفتي» (٨٠)، والشاطبي في«الموافقات» (٥/ ٣٢٩ ـ بتحقيقي)، وانظر: «الإمام مالك مفسراً»، و«صفة الفتوى والمفتي» (٨٠) لابن حمدان.

لي سبعون أني أهل لذلك»[١].

وقال[٢]: وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ولا يجيب أحد منهم عن[٣] مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه، مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة، فكيف بنا نحن الذين غطَّت الذنوب والخطايا قلوبنا؟!»[٤].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]

قال (ك): «﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تقل ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تقل: رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله وقوله تعالى: ﴿كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة وتسأل عنه وعما عمل فيها[٥]»[٦].

قال: القنوجي في «تفسيره» لهذه الآية ما نصه:

«وأما [التواثب][٧] على الرأي مع وجود الدليل في الكتاب أو السنة ولكنه قصر صاحب الرأي عن البحث فجاء[٨] برأيه، فهو داخل تحت هذا النهي دخولاً أولياً؛ لأنه محض رأي في شرع الله، وللناس عنه غنىً بكتاب الله سبحانه وبسنة رسوله ﷺ ولم تدع إليه حاجة على أن الترخيص في الرأي عند عدم وجود الدليل

---

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣١٦). وهو في «إعلام الموقعين» (٥/ ١٣٢ ـ بتحقيقي)، و«إتحاف السالك» لابن ناصر الدين رقم (٢)، و«صفة الفتوى والمفتي» (٨)، و«تعظيم الفتيا» لابن الجوزي (ص١٢٢ ـ ١٢٣ ـ بتحقيقي).

(٢) أي الإمام مالك، ونقل قوله هذا القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٥)، وابن الصلاح في «أدب المفتي والمستفتي» (٨٠)، وابن حمدان في «صفة الفتوى والمفتي» (٨ ـ ٩).

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «في».

(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٦/ ١٣١ ـ ١٣٣ ـ بتحقيقي).

(٥) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «بها»!

(٦) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٢٧). (٧) في مطبوع «فتح البيان»: «التوثب».

(٨) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «فحاد»!

إنما هو رخصة للمجتهد، يجوز له أن يعمل به، ولم يدل دليل على أنه يجوز لغيره العمل به وينزله(١) منزلة مسائل الشرع، وبهذا يتضح لك أتم اتضاح ويظهر لك أكمل ظهور أن هذه الآراء المدونة في الكتب الفروعية ليست من الشرع في شيء، والعامل بها على شفا جرف هار، فالمجتهد المستكثر من الرأي قد قفا ما ليس له به علم، والمقلد المسكين العامل برأي ذلك المجتهد قد عمل بما ليس له به علم، ولا لمن قلده، ظلمات بعضها فوق بعض»(٢).

وقال الحافظ أبو عمر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٧٧) ما نصه:

«[ومن هذا القبيل: كراهة السلف الصالح الجرأة على الفتيا والحرص عليها والمسارعة إليها والإكثار منها، وروى ابن لهيعة عن عبد الله بن جعفر مرسلاً عن النبي ﷺ قال: **«أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار»**(٣). وقال علقمة: كانوا يقولون: أجرؤكم على الفتيا أقلكم علماً](٤)، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى(٥) قال: أدركت عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، يسأل أحدهم عن المسألة ما منهم من رجل إلا ود أن أخاه كفاه»(٦)، وفي رواية: «فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول»(٧)، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «وينزل». (٢) انظر: «فتح البيان» (٤/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٣) أخرجه الدارمي (١/ ٥٧) عن عُبيد الله بن أبي جعفر ـ وليس عبد الله بن جعفر ـ **معضلاً أو مرسلاً، ورجاله ثقات مشهورون من رجال الصحيح**، وعزاه في «كشف الخفاء» (١/ ٥٠) لابن عدي، وجعله ابن بطة في «إبطال الحيل» (٦٢) عن عمر قوله!

(٤) غير موجود في مطبوع «الجامع».

(٥) كذا في مطبوع «الجامع» ومصادر التخريج، وفي الأصل: «وعن البراء»!

(٦) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب في «العلم» رقم (٢١)، وقاسم بن أصبغ ـ ومن طريقه ابن عبد البر في «الجامع» رقم (٢٢٠١) ـ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٢٠٢)، وابن الجوزي في «الحدائق» (١/ ٥٢٧)، وفي «تعظيم الفتيا» (رقم ٩ ـ بتحقيقي)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٥١)، **والأثر صحيح**.

(٧) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨١٧) ـ ومن طريقه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (٦٤٠، ٦٤١) ومن طريقه البيهقي في «المدخل» رقم (٨٠٠، ٨٠١) ـ، والدارمي في «سننه» رقم (١٤٢)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ١١٠)، وأبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (١/ ٦٧٠ ـ ٦٧١) رقم (٢٠٣١)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (٥٨) ـ ومن طريقه ابن عبد البر في «الجامع» (٢١٩٩) ـ، والآجري في «أخلاق =

قال: «إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون»[(١)]، وسئل عمر بن عبد العزيز عن مسألة فقال: «ما أنا على الفتيا بجريء». وكتب إلى بعض عماله: إني والله ما أنا بحريص على الفتيا، ما وجدت منها بدّاً، وليس هذا الأمر لمن ود أن الناس احتاجوا إليه، إنما هذا الأمر لمن ود أنه وجد من يكفيه»[(٢)]، وعنه أنه قال: «أعلم الناس بالفتاوى أسكتهم، وأجهلهم بها أنطقهم»[(٣)]، وقال سفيان الثوري: «أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا، حتى لا يجدوا بدّاً من أن يفتوا، وإذا أعفوا منها كان أحب إليهم»[(٤)].

= العلماء» (١١٧)، وابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (رقم ١٠ ـ بتحقيقي)، **والأثر صحيح**.
وذكره ابن الصلاح في «أدب المفتي والمستفتي» (٧٥، ١٠٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٤٠٥)، وابن حمدان في «صفة الفتوى» (٧)، والسيوطي في «أدب الفتيا» (ص٤٠ ـ ٤١، ط. العراقية)، وابن القيم في «الإعلام» (١/ ٦٢، ٦٣ و٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ بتحقيقي)، وفي «بدائع الفوائد» (٣/ ٢٧٥)، والمناوي في «فيض القدير» (١/ ١٥٩) وعقب عليها بقوله: «فانظر كيف انعكس الحال صار المرهوب منه مطلوباً، والمطلوب مرهوباً!! وبما تقرر علم أنه يحرم على المفتي التساهل، وعليه التثبت في جوابه، ولو ظاهراً».

(١) رواه الدارمي (١/ ٦١)، وأبو خيثمة في «العلم» (١٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٢١١) رقم (٨٩٢٣ و٨٩٢٤)، وابن بطة في «إبطال الحيل» (٦٦)، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» رقم (٣٢٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٩٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» رقم (١٥٩٠)، والبيهقي في «المدخل» (٧٩٨) من طرق عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود. **وإسناده صحيح**.
وتابع أبا وائل: موسى بن أبي كثير ـ ولم يسمع من ابن مسعود ـ أخرجه أبو يوسف في «الآثار» (١/ ٢٠٠) رقم (٩٠٣).
وأخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١٦٤)، والبيهقي في «المدخل» (٧٩٩) ص(٤٣٣) من طريق مالك عن يحيى بن سعيد قال: قال ابن عباس مثله.
وهو منقطع، يحيى لم يدرك ابن عباس.

(٢) ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (١٦١٧) تعليقاً بنحوه.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٧٩)، وابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (ص٧٧ ـ بتحقيقي) من كلام سفيان بن عيينة.
وقال الخطيب عقبه: «قلت: وقل من حرص على الفتوى، وسابق إليها، وثابر عليها، إلا قل توفيقه، واضطرب في أمره، وإذا كان كارهاً بذلك غير مختار له، ما وجد مندوحة عنه، وقدر أن يحيل بالأمر فيه على غيره، كانت المعونةُ له من الله أكثر، والصلاح في فتواه، وجوابه أغلب».

(٤) أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (١١٧ ـ ١١٨) ومن طريقه الخطيب في «الفقيه =

وقال الإمام أحمد: «من عرَّض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم، إلا أنه قد تلجئ إليه الضرورة. قيل له: فأيهما أفضل الكلام أم السكوت[(١)]؟ قال: الإمساك أحب إليّ، قيل له: فإن كانت الضرورة؟ فجعل يقول: الضرورة الضرورة»[(٢)]! وقال: الإمساك أسلم له، وليعلم المفتي أنه يوقع عن الله أمره ونهيه وأنه موقوف ومسؤول عن ذلك، قال الربيع بن خثيم: «أيها المفتون انظروا كيف تفتون»[(٣)]، و«كان ابن سيرين إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام تغيَّر لونُه وتبدَّل، حتى كأنه ليس بالذي كان»[(٤)]، و«كان النخعي يسأل، فتظهر عليه الكراهة، ويقول: ما وجدت أحداً تسأله غيري»[(٥)].

وقال: «قد تكلمت ولو وجدت بدّاً ما تكلمت، وإن زماناً أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء»[(٦)]. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «إنكم لتستفتوننا استفتاءً نود أن لا نسأل عما نفتيكم به»[(٧)]، وعن محمد بن واسع قال: «أول من يدعى إلى الحساب الفقهاء»[(٨)]. وعن مالك رحمه الله أنه: «كان إذا سئل عن المسألة كأنه واقف

= والمتفقه» رقم (٦٤٩)، وابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (ص٧٥ ـ ٧٦ ـ بتحقيقي).

(١) في مطبوع «تعظيم الفتيا»: «الإمساك».

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (٦٥٠) ومن طريقه ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» رقم (١٩).

(٣) أخرجه الهروي في «ذم الكلام» (رقم ٨٤٢، ط. الغرباء).

(٤) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٦٠) ومن طريقه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٨٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٣/ ١٩٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ١٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٦٤) ونقله الذهبي في «السير» (٤/ ٤١٣).

(٥) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» رقم (١٣١)، وابن سعد (٦/ ٢٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٢٦)، وذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (١٤٨).

(٦) ذكره ابن الصلاح في «آداب المفتي» (٦٧).

(٧) لم أجده عن عمر، وإنما وجدته عن ابنه عبد الله:
أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» رقم (٢٠٦) ـ ومن طريقه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٩٠) ـ والخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٩١)، ومن طريقه ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» رقم (٥٣).
وإسناده ضعيف، فيه سيار، هو ابن أبي سيار العنزي أبو الحكم، لم يدرك ابن عمر، انظر له: «تحفة التحصيل» (١٤٣)، و«جامع التحصيل» (٢٣٥)، و«تهذيب الكمال» (١٢/ ٣١٣)، و«الأسامي والكنى» (٤/ ١٩) لأبي أحمد الحاكم، وأبو مخزوم النَّهشلي، لم أظفر به.

(٨) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٩٤) ومن طريقه ابن الجوزي في «تعظيم =

بين الجنة والنار»[١]، وقال بعض العلماء لبعض المفتين: «إذ سئلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل، ولكن تخليص نفسك أولاً»[٢]، وقال الآخر: «إذا سئلت عن مسألة فتفكر، فإن وجدت لنفسك مخرجاً فتكلَّم، وإلا فاسكت»[٣].

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥]

= الفتيا» رقم (٥٥). **وإسناده واهٍ جدًّا**، فيه عبد الحكيم بن منصور الخُزاعي، نقل الدوري في «تاريخه» (٢/ ٣٤١) عن ابن معين قوله فيه: «كذاب». وقال ابن محرز في «سؤالاته» رقم (١٢٨) عن ابن معين فيه: «ليس بشيء سرق حانوتاً بواسط». وكذبه جمع، وانظر: «تهذيب الكمال» (٦/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦)، و«المجروحين» (٢/ ١٤٤). ولذا أهمل هذا الأثر من توسع في ترجمة (ابن واسع) مثل: ابن عساكر في «تاريخه»، وأبو نعيم في «الحلية»، وغيرهما.

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٨٧) ومن طريقه ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» (رقم ١٨ ـ بتحقيقي)، وذكره ابن الصلاح في «آداب المفتي» (٨٠)، وابن القيم في «الإعلام» (٥/ ١٢٨ ـ بتحقيقي)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٢٧٦)، وابن حمدان في «صفة الفتوى والمفتي» (٨)، والقاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٤)، والشاطبي في «الموافقات» (٥/ ٣٢٤ ـ بتحقيقي).

(٢) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٥٥٦) ـ ومن طريقه البيهقي في «المدخل» رقم (٨٢٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٩٧) ومن طريقه ابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» رقم (٥٦) ـ، وأبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (١/ ٤٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) من طريق أبي مسهر عن مالك به.
وأخرجه ابن بطة في «الحيل» (٦٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» رقم (١٠٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٦١) من طريقه، والوليد بن مسلم كلاهما عن مالك قال: قال ربيعة: قال لي ابن خلدة: . . . إلخ.
وذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٤٤٦ ـ بتحقيقي) والمزي في «تهذيب الكمال» (٢١/ ٣٢٩).

(٣) بنحوه عن أحمد عند الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٦٥٠)، وابن الجوزي في «تعظيم الفتيا» رقم (١٩)، وانظر: «إعلام الموقعين» (٦/ ١٣٣ ـ ١٣٤ ـ بتحقيقي).

قال القاسمي: «إخبار عن تأييده تعالى رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وتولي أمره وحفظه، فإن المشركين، لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم، كادوا أن يفتنوه، ولكن الله بحفظه وعنايته[١]، هو الذي ثبَّت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره، وقد روي أن ثقيفاً قالوا: لا نؤمن حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب: لا ننحني في الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها فإن خشيت أن يسمع العرب (لم أعطيتهم ما لم تعطنا)؟ فقل: الله أمرني بذلك[٢].

وروي أن قريشاً قالوا: لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا، وقالوا أيضاً: نؤمن بك إن تمس آلهتنا[٣].

قال الإمام الطبري[٤]: «يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر، وأن تكون غير ذلك. ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أيّ ذلك كان، فالأصوب الإيمان بظاهره حتى يأتي ما يجب التسليم له، ببيان ما عني بذلك منه».

قال الزجاج[٥]: «معنى الكلام: كادوا يفتنونك، ودخلت (إنْ) المخففة من الثقيلة و(اللام) للتأكيد»، والمعنى: إن الشأن: قاربوا أن يفتنوك، أي[٦]: يخدعوك، ويصرفوك عن القرآن، أي: عن حكمه، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن.

---

(١) في الأصل: «ولكن عناية الله وحفظه»! والصواب ما أثبتناه، فتأمل!

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٤، ١٥) وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٩/ ٤٠٨) و«لباب النقول» (ص١٣٩) ـ، وسنده مسلسل بالضعفاء.
وقوله: «وأن تمتعنا باللات سنة» وأن النبي ﷺ كاد أن يفتن بذلك، من الباطل، الذي لا يجوز أن يظن برسول الله ﷺ، قاله ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٦٧، ٦٨) وزاد: «وكل ذلك محال في حقه وفي حق الصحابة أنهم رووا عنه ذلك».

(٣) أخرجه ابن إسحاق ـ من طريقه ابن أبي حاتم وابن مردويه، كما في «لباب النقول» (ص١٣٨) ـ وسنده ضعيف، فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد وشيخ ابن إسحاق، مجهول، وورد نحوه عند ابن جرير (١٥/ ١٨) وغيره، وهي مراسيل، ولا تسلم من مقال، وانظر «الدر المنثور» (٩/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٥) بتصرف.

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٢٥٣) له.

(٦) كذا في مطبوع «القاسمي»، وفي الأصل: «أن»!

وقوله: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي: غير ما أوحينا إليك، وهو قولهم: قل الله أمرني بذلك: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: لو فعلت ما أرادوا؛ لاتخذوك خليلاً، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كفرهم، وراض بشركهم. ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أي: على الحق بعصمتنا إياك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تميل إليهم ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ عبارة عن المصدر، أي: ركوناً قليلاً. وعن قتادة: لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ: **«اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»**(١). ثم توعده في ذلك أشد التوعد، فقال:

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. والضعف عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله، ودل على إضمار العذاب: وصف العذاب بالضعف في كثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١] وقال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] والسبب في تضعيف العذاب: أن أقسام نعم الله على الأنبياء أكثر، فكانت ذنوبهم أعظم، فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: المقصود بإيراد هاتين الآيتين أنه إذا كان النبي ﷺ وهو أفضل خلق الله لو ترك الوحي لضوعف له العذاب في الدنيا والآخرة، فكيف بغيره من آحاد الأمة إذا أعرض عن الوحي فلم يتعلمه ولا عمل به، أو

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٧٠)، والبزار (٣١٠٧ ـ «كشف الأستار»)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٤٦٦ ـ «المنتقى»)، والحاكم (١/ ٥٤٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٢١٣)، والضياء المقدسي في «المختارة» (٦/رقم ٢٣١٩ ـ ٢٣٢٢) من حديث أنس. **وإسناده حسن**، وحسنه ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/ ٣٨٥) وشيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٧)، وعزاه ابن حجر لابن أبي الدنيا في «الذكر» والمعمري في «عمل اليوم والليلة».

(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (١٠/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

تعلمه ولم يعمل به، أو عمل بما يوافق هواه ومذهبه أو طريقته أو حزبه ورفض العمل بما يخالف ذلك؟ فإنه بلا شك يضاعف له العذاب ضعفين، والنبي ﷺ لم يركن إلى الكفار لأنه معصوم من ذلك، فالمعنيُّ بهاتين الآيتين غيره من أمته، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء على الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وكان منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من نفعه الله بما جئت به، فعَلِم وعلَّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»[1]. رواه البخاري. فالمتمذهبون المتعصبون وأصحاب الطرائق القدد لم ينفعهم الله بما جاء به النبي ﷺ، فما رفعوا به رأساً ولا قبلوا هدى الله الذي أرسل به، فكانوا من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤] ولما كنت في الهند للمرة الأولى سنة اثنين وأربعين وثلاث مائة وألف وكنت ضيفاً عند السيد سليمان الندوي في دار المصنفين بمدينة (أعظم كر)، جاءني رجلان مدرسان في المدرسة الحنفية، وأخذا يجادلانني ويدافعان عن المذهب الحنفي فيما خالف فيه السنة من صلاة المغرب إلى أذان العشاء، فقالا لي: إن ما تقول هو الحق ولكن لو أننا أخذنا به واطلع على ذلك أهل المدرسة لعزلونا وكل واحد منا له زوجة وأولاد، وليس لنا ما نعيش به إلا ما نأخذه من التعليم في هذه المدرسة. فقلت لهما: فهلا اعترفتما بهذا في أول المعركة، وكفيتماني مؤونة هذا الجدال الطويل الذي أرهقني عسراً؟ ووقع مثل ذلك هنا في مكناس مع فقيه مشهور اسمه عبد الرحمن الهواري، فإنه جادلني ساعتين، ثم قال لي: إن ما تقول هو الحق، ولكني لا أعمل به؛ لأنني عدل أكتب الشهادات، ولو اطلع الناس على أني أعتقد هذا وأدعو إليه لتعطل شغلي. فنعوذ بالله من الخذلان: استيلاء الشيطان على قلب الإنسان.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩]

قال القنوجي في «فتح البيان»: «﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ﴾ أي: بيّنا أو كررنا ضروب القول فيه من الأمثال والعبر والحكم والحجج والمواعظ والقصص والأخبار والأوامر والنواهي وغيرها، وقيل: ﴿فِي﴾ زائدة[1]، والتقدير:

---

(١) الراجح أنه لا يوجد في القرآن شيء زائد وكل ما قيل فيه هذا فله أسرار بلاغية، ولذا سأنقل هذه الأسرار من كتاب الدكتورة هيفاء عثمان فدا: «زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم» (ص٧٠٦ ـ ٧٠٨) مع تصرف يسير، يستدعيه المقام:

«الآية تعقيب وردّ وبيان لجهل وضلال من افترى على الله الكذب بادعاء أنَّ الله تعالى اتخذ من الملائكة إناثاً؛ إذ تبيّن أنّ القرآن الكريم يشتمل على الهدى الكافي، والدلائل البيّنة، والآيات القوية التي صَرَّفها تعالى ليتدبروا فيها ويتذكروا بها، ولكنهم ما يزدادون إلا إعراضاً ونفوراً.

ومجمل أراء العلماء في حرف الظرف «في» على النحو التالي:

١ ـ أنَّه أصلي: إمَّا على حذف المفعول، وتقديره: العبر والآيات والحجج. وأشار إليه الطبري (٩/ ١٥) والزمخشري (٢/ ٣٦٢) وغيرهما.

وإمَّا على تنزيل الفعل الخاص منزلة الفعل العام بتنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم وتعديته بـ«في»، أي: أوقعنا التصريف فيه، كما ذكر الزمخشري (٢/ ٣٦٢)، والشهاب في «حاشيته على البيضاوي» (٦/ ٣٥).

٢ ـ أنَّه زائد، وقد نقله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٠/ ٢٩٨) عن بعض من شدد الرّاء، ثم ضعّفه، وعلل أبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٣٩) هذا التضعيف بأن «في» لا تزاد.

ونقول: إن الفعل (صَرَّف) تكرر في القرآن الكريم ١٠ مرات، عُدِّي في أربع منها بحرف الجر «في» مع عدم نصب المفعول، وما عدا ذلك تخلف حرف الجر مقابل ذكر المفعول منصوباً، في توازن عجيب ودقيق على نحو لا يتأتى إلا في كلام الحق تبارك وتعالى.

وأصل التصريف فيما ألمح إليه الرازي في: «تفسيره» (٢٠/ ٢١٦) «عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور. هذا هو الأصل في اللغة. ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين؛ لأن من حاول بيان شيء فإنّه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر، ومن مثال إلى مثال آخر، ليكمل الإيضاح ويقوي البيان».

والواقع أن للفعل (صَرّف) هنا مذاقاً خاصاً: فهو بدلالته يشير إلى ضروب شتى وطرق متنوعة سلكها القرآن الكريم لتمكين الهداية والعقيدة في القلوب، خاصة إذا علمنا أنَّ =

ولقد صرفنا هذا القرآن، والتصريف في الأصل: صرف الشيء من جهة إلى جهة والتشديد فيه؛ للتكثير والتكرير. وقيل: معنى التصريف المغايرة؛ أي: غايرنا بين المواعظ، قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ فسره بعضهم بالجحود»[١].

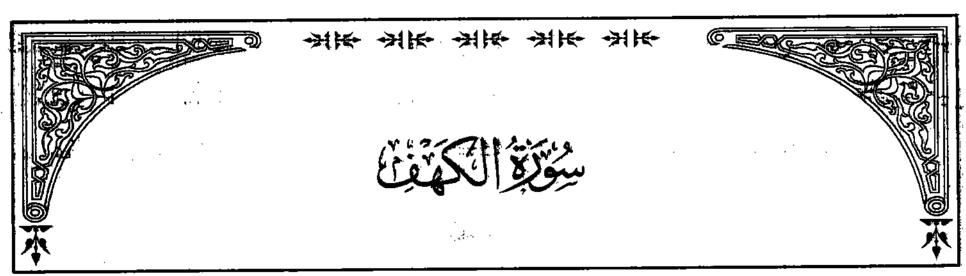
فصل

قال محمد تقي الدين: والمراد أن أكثر الناس أعرضوا عن القرآن، ولم ينتفعوا بما فيه من الحجج والمواعظ والأمثال، فبعضهم كفر به وبعضهم ادعى الإيمان به، ولكنه لم ينتفع به للطبع الذي في قلبه وللشبهات التي تعرض له. ومن الموانع التي تمنع من الاهتداء به: التعصب للمذاهب والطرائق والأوطان والأحزاب، ومن شرح الله صدره للإسلام وكان على نور من ربه لم يمنعه شيء من ذلك، ولم يبال بمن خالفه وصمم على اتباعه، ولو بقي وحده ولم يستوحش من قلة الأنصار، وكثرة المحاربين، ففاز بالسعادة الكبرى، فعليك بهذا القرآن وبالسنة التي تبيّنه، وهي مفتاحه؛ تظفر بخير الدنيا والآخرة.

= هذه السورة ـ وهي مكيّة ـ تدور معظم آياتها حول العقيدة. وهو بحذف مفعوله وإبهامه يشير إلى أنواع تصاريف الكلام من الخبر والعبر وضرب المثل، والأوامر والنواهي والمواعظ والإرشادات على رأي الأسكافي في «درة التنزيل» (٢٧٤) وهو ببنائه على التشديد يشير إلى التكثير والتكرير على ما ذكر الخازن في «لباب التأويل» (٣/ ١٦٥) وعليه: فهذا الفعل يُدل به على إعجاز الآيات وقوتها على أنحاء مختلفة وهو دال على قهر القرآن وإعجازه واقتداره حينما يواجه المسار ويوضح جانب الحق؛ لأنّه يردّ على كفار العرب الذين وهبوا من أساليب البيان وطرق الفصاحة ما تفوقوا به على غيرهم. أمّا حرف الجر «في» فهو على أصل معناه الظرفية من حيث إنَّ هذا القرآن وعاء، وأنه قد اشتمل على ضروب الآيات والعظات، وأنَّها متمكنة فيه غاية التمكن».

(١) في «فتح البيان» (٤/ ١٧٣) بنحوه، وانظر: «فتح القدير» (٣/ ٣٥٧) للشوكاني.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)﴾ [الكهف: ١ ـ ٣]

قال (ك): «يمدح الله تعالى نفسه المقدسة، عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي: ليس معوجاً ولا مائلاً بل ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لينذر به الذين لا يؤمنون به عقوبة في الدنيا والآخرة ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: مثوبة من عند الله ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ في ثوابهم، وهو الجنة خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ دائماً لا زوال له»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: علَّم الله تعالى عباده كيف يحمدونه على النعمة الكبرى، وهي إنزاله القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ في غاية الاستقامة والكمال، كفيلاً بمصالح العباد، لا يعتريه نقص من أي جهة، أنذر الله به عباده وحذرهم من عذابه في الدنيا والآخرة، وبشر به المؤمنين العاملين كل ما أمرهم

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/١٠٢) بتصرف.

به، التاركين كل ما نهاهم عنه أن لهم أجراً عظيماً حسناً في الدنيا والآخرة، يمكثون أي: يبقون فيه أبداً لا ينتهي بالموت ولا ينقطع بعده، فكل من بلغه وأعرض عنه يناله البأس الشديد، ويلزمه الشقاء في الدنيا والآخرة، وليس له عن ذلك محيد، وهذه الأمم التي سعدت به نراها شقية بتركه، تتخبط في ظلمات الجهل، قد انسدت الأبواب في وجوهها، فلا تجد مخرجاً ولا مفرّاً، ومن المعلوم أن القرآن لا يمكن الاهتداء به إلا بمعرفة بيان الرسول الذي جاء به.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٢٦]

قال (ك): «أي إذ سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذه[1]: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه[2] عليه من خلقه، هذا الذي قلناه قاله غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف، وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ﴾ أي: ما أبصره! وما أسمعه! يعني: لا أحد أبصر من الله ولا أسمع، وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: أنه تعالى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى الله وتقدس»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: فسَّروا الحكم في قوله تعالى بالقضاء، أي لا يشرك الله تعالى في قضائه أحداً.

ومعنى الحكم أعم من ذلك، فقد قال الله تعالى في شأن المهاجرات

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أو من أطلعه الله».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٢٥ ـ ١٢٦) بتصرف.

المؤمنات إلى المدينة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] إشارة إلى عدم ردهن إلى الكفار، وأنهن لا يحللن لهم وأنهم يعطون أزواجهن ما أنفقوا عليهن، وأنه يجوز لهم أن يتزوجوا بهن فسمى الله ذلك حكماً. وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] أي: بالرجم على الزانيين المحصنين[١]. وقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ حين حكم بقتل رجال بني قريظة: «**لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات**»[٢]. فالحكم هنا كذلك يشمل الأحكام الخمسة وهي: الواجب والمندوب والحرام والمكروه والمباح كلها لله، كما قال النبي ﷺ: «**الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه رحمة بكم من غير نسيان فهو مما عفا عنه**»[٣].
وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] فالله تعالى هو الذي له الحكم لا يشاركه فيه مَلَكٌ مقرَّب ولا نبي مرسل، وما حكم به النبي ﷺ فهو

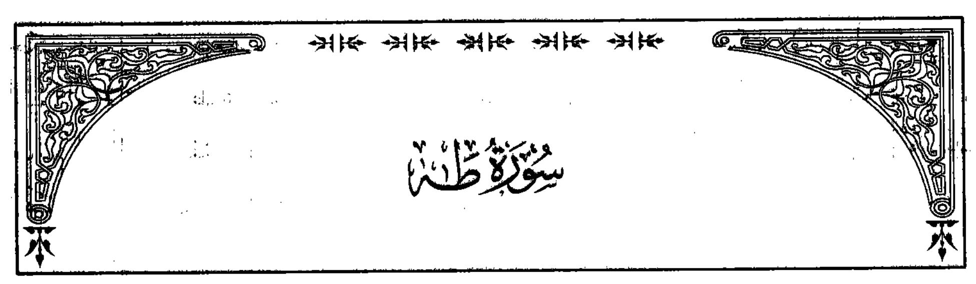
---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء (٤/ ٢٢٠) رقم (١٧٢٦)، وابن ماجه في الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن (٢/ ١١١٧) رقم (٣٣٦٧) من طريق سيف بن هارون البرجميّ عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي به.
وقال الترمذي في «جامعه»:
«وهذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وروى سفيان وغيره عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان قوله، **وكأن الحديث موقوفاً أصح**، وسألت البخاري عن هذا الحديث، فقال: ما أراه ـ أي: أظنه ـ محفوظاً، روى سفيان عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان موقوفاً، قال البخاري: وسيف بن هارون مقارب الحديث، وسيف بن محمد عن عاصم ذاهب الحديث».
ومن هذا الطريق أخرجه: الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١١٥)، والطبراني في «الكبير» (٦١٢٤)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٠) رقم (١٥٠٣)، ـ وقال: «هذا خطأ، رواه الثقات عن التيمي عن أبي عثمان عن النبي ﷺ، ليس فيه سلمان وهو الصحيح» ـ، وبيبي الهرثمية في «جزئها» رقم (٨٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٢١٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٤٦)، وابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/ ١٢٦٧)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ١٧٤)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٢/ ٣٣٥)، وقال الحاكم: «هذا حديث مفسر في الباب، وسيف بن هارون لم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي في «التلخيص» فقال: «فقلت: ضعفه جماعة» يعني سيفاً هذا، ونقل العقيلي عن يحيى بن معين، أنَّه قال فيه: «ليس سيف بشيء»، ثم قال عقب روايته لهذا الحديث: «ولا يحفظ إلا عنه بهذا الإسناد».

حكم الله؛ لأنه معصوم لا ينطق عن الهوى، فمن جعل الحكم لإمام أو شيخ أو أمير أو قائد وأطاعه طاعة مطلقة فقد عبده من دون الله، وتذكر حديث عدي بن حاتم[١] الذي تقدم في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. اهـ.

(١) سبق تخريجه.



سورة طه

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠١]

قال (ك): «كما يقص تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى عليه السلام تماماً بلا نقص، فإنه يقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾ أي: كذلك نقص عليك الأخبار الماضية، هذا ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل والذي لم يعط نبي كتاباً مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كذب به ولم يتبعه، وابتغى الهدى في غيره ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: إثماً، وهذا عام في كل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن أعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا، والنار موعده في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ﴾ أي: لا محيد لهم عنه، أي: عن ذلك الحمل ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس الحمل حملهم»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: سمي القرآن ذكراً؛ لما فيه من التذكرة بالثواب لمن اتبعه واستقام على طاعة ربه، وبالعقاب لمن صد عنه واتبع هواه وآثر الحياة الدنيا، ومن أعرض عنه وعن بيانه الذي جاء به رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ١٥٠ ـ ١٥١).

وتروكه ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾، أي: ذنباً عظيماً يثقل كاهله، ويدخله النار فيخلد في عذابها بعد ما أصابه من عذاب الدنيا. والحاصل أن من بلغه الكتاب والسنة ولم يستضئ بنورهما فإنه يشقى في دنياه وأخراه، وسبب شقاء هؤلاء القوم الذين ينتسبون إلى الإسلام في هذا الزمان، ويقرأ فيهم القرآن فلا يعبؤون به، هو: إعراضهم عن الذكر، ولا دواء لدائهم، ولا فرج لكربتهم إلا الرّجوع إلى اتباع الذكر والاهتداء به.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧]

قال (ك): «يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس. ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي: من الجنة كلكم وقد [بسطنا][(١)] ذلك في سورة البقرة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: آدم وذريته وإبليس وذريته. وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة[(٢)]، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: خالف الأمر الذي[(٣)] أنزلته على رسولي[(٤)] وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قدمنا بسط».

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٨١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢١٣)، والطبري في «التفسير» (١٦/ ١٩١)، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وضعفه شيخنا الألباني مرفوعاً.
وقال رحمه الله في «الضعيفة» (٤٥٣١): «والظاهر أن هذا هو أصل الحديث؛ موقوف على ابن عباس؛ رفعه ذلك المتهم ـ عمران بن أبي عمران ـ ويؤيد ذلك مجيئه من طرق عن ابن عباس موقوفاً».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «خالف أمري وما».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أعرض عنه».

مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة ولا انشراح[(١)]، بل صدره ضيق[(٢)] لضلاله، فمهما تنعم من نعم الدنيا فإن قلبه لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو دائماً في قلق وحيرة وشك وفي الآخرة ينتظر عذاب القبر ثم عذاب النار، وروى البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «**المعيشة الضنك الذي قال الله أنه يسلط عليه تسعة وتسعين حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة**»[(٣)]. وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ قال عكرمة: «عُمِّي عليه كل شيء إلا جهنم»، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ...﴾ [الإسراء: ٩٧] الآية ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: لما أعرضت عن آيات الله وعامَلْتَها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ﴿وَكَذَٰلِكَ[(٤)]

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لصدره».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حرج».

(٣) ذكره ابن رجب في «أهوال القبور» (٣٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٠٨)، والزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٤١٩)، والصنعاني في «جمع الشتيت» (٤٣)، وعزوه إلى ابن أبي الدنيا في «الموت»، وزادوا عزوه إلى الحكيم في «النوادر»، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والآجري، وابن منده، والبيهقي.
قلت: أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» (رقم ٢٦٢ ـ بتجميعي)، وأبو يعلى (٦٦٤٤)، وابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٢٢٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٤٣٩) رقم (١٣٥٦٤)، وابن حبان (٨٧١ ـ «موارد»)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» رقم (٨٠) من طريق ابن وهب، ثنا عمرو بن الحارث أن أبا السمح حدّثه عن ابن حجيرة عن أبي هريرة رفعه.
قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٥٥): «وفيه دراج، وحديثه حسن، واختلف فيه».
قال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٤٤): «رفعه منكرٌ جداً».
وله شواهد خرجتها في تعليقي على «التخويف من النار» لابن رجب، يسر الله إتمامه بخيرٍ وعافيةٍ، ولعل شيخنا الألباني رحمه الله حسنه من أجلها في «التعليقات الحسان» (٥/ ١٠٢ ـ ١٠٣).
وانظر: «مسند أبي يعلى» (١٣٢٩)، و«إثبات عذاب القبر» للبيهقي رقم (٦٩، ٧٠، ٧٩)، والخبر في «القبور» لأبي أبي الدنيا (رقم ٢٥٢، الملحق ـ بتحقيقي).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كذلك».

﴿ٱلْيَوْمَ﴾، نعاملك معاملة مَنْ ينساك[1] ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن، مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعَّداً عليه من جهة أخرى، روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما من رجل قرأ القرآن فنسيه، إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم**»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ الآية قال (ك): «يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة. ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

أي: أشد ألَماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم فهم مخلَّدون فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»[3].»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: من آيات الله الكبرى التي نشاهدها في هذا الزمان أن كل من أعرض عن القرآن من الشعوب التي عرفته وسعدت به في الماضي في حربها وسلمها، نراها في معيشة ضنك ويتبين لك ذلك في الأمم المتحدة في رؤوسها وأذنابها، فقد أسست على أساس فاسد، فخمسة دول منها، وهي: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وبريطانية وفرنسة والصين.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نسيك».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، وأبو داود (١٤٧٤)، والدارمي (٣٣٤٠)، وعبد بن حميد (٣٠٦، ٣٠٧)، وعبد الرزاق (٥٩٨٩)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٧٨ و١٢/ ٢١٩)، ومسدد في «مسنده» ـ كما في «إتحاف الخيرة» (٥٧٢٥)، ومن طريقه الحربي في «غريب الحديث» (٢/ ٤٢٨) ـ، والطبراني في «الكبير» (٥٣٨٧ ـ ٥٣٩٢)، وسعيد بن منصور في «سننه» (رقم ١٨ ـ التفسير)، والبزار (٣٧٣٩)، وأبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٤٨)، وفي «فضائل القرآن» (ص٢٠٢)، والخطيب في «الجامع» (٨٥، ٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٩٧٠)، **وإسناده ضعيف**، الراوي عن سعد بن عبادة مبهم، وأسقطه بعض الرواة! والراوي عن عيسى بن فائد مجهول.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣١١)، ومسلم (١٤٩٣) من حديث ابن عمر.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٣٧٦ ـ ٣٨٠) بتصرف.

رؤوس يقبلون من أحكام الأمم المتحدة ما شاؤوا، ويرفضون ما شاؤوا، وسائر الأمم ـ وهي أكثر من مائة وخمسة وعشرين ـ أذناب، عليهم أن يقبلوا كل حكم، وليس لهم أن يرفضوا شيئاً من الأحكام وإن كان ظلماً صريحاً منصبّاً على رؤوسهم، وليس لهم من الشجاعة والقوة ما يمكنهم من الخروج عن هذه الربقة، والمسلمون والعرب وعددهم سبعمائة مليون[1] في درجة الأذناب؛ حقوقهم مهضومة وكلمتهم غير مسموعة، يُرْمَون ولا يرمون، ويأكلون كل ما علفوا من خبيث وطيب، فأي معشية ضنك أشد من هذه؟ ولما كان القرآن سراجاً منيراً بأيديهم كانوا رؤوساً وكان غيرهم أذناباً، فسبحان من طبع على قلوبهم فرضوا بهذا الذل وقنعوا بهذا الغبن، ومن الغريب أن الصين الشيوعية خرجت عليهم وتحدتهم وصرخت عليهم وغبرت في وجوههم واستغنت عنهم، والصين الوطنية التي هي إحدى الدول المؤسسة الرئيسية لما سحقت تحت الأقدام لم تكتف الدول الرؤوس بخذلانها وعدم نصرتها، بل اغتصبت التاج الذي كان على رأسها وتملقت به للصين الشيوعية وقدمته لها رشوة، فسبحان من يغير ولا يتغير ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال الحافظ ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ٩) ما نصه:

«ولما كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المفلحين، وأتباعه من العالمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] وكان التبليغ عنه نوعين[2]: تبليغ ألفاظه وما[3] جاء به، وتبليغ معانيه، كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين: أحدهما حُفّاظ الحديث وجهابذته ونُقّاده[4] الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام الذين حفظوا على الأمة معاقد الدين ومعاقله، وحَمَوا من التغيير والتكدير موارِدَه ومناهله، حتى ورد من سبقت له من الله الحسنى تلك المناهِلَ صافية من الأدناس لم تَشُبْها الآراء تغييراً، ووردوا فيها: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ وهم الذين قال فيهم الإمام أحمد بن حنبل في خطبته

---

(١) أما الآن، فزاد عددهم عن هذا كثيراً، وأصبح ما يقارب المليار ومئتي مليون.

(٢) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «من عين» ولا معنى له!

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «ما».

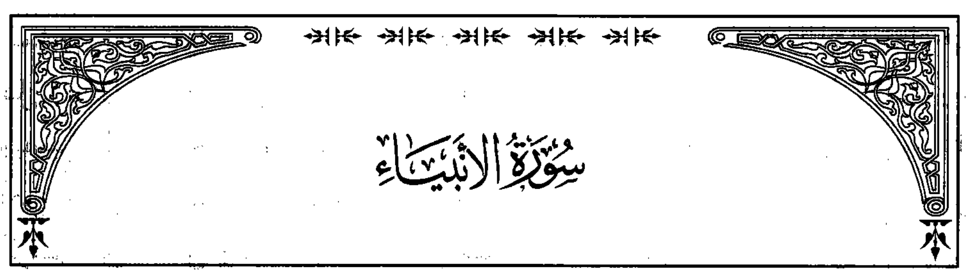
(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «والقادة»!

المشهورة في كتابه «الرد على الزنادقة والجهمية»(١): «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحْيُون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصّرون بنور الله أهل العمى، وكم قتيل لإبليس قد أحْيَوه وكم من ضال تائه قد هَدَوْه، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم، يَنْفُون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألْوِيَةَ البدعة وأطلقوا عِنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدَعُون جُهَّال الناس بما يُشَبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المُضِلِّين»(٢).

---

(١) انظر: «الرد على الزنادقة والجهمية» (ص١٧٠ ـ ط غراس أو ٥٢ ـ ضمن «عقائد السلف»).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ١٣ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء: ٤٥]

قال (ك): «أي ما أنذرتكم به إنما هو الوحي من الله تعالى، ولكن لا يجدي الإنذار بالعذاب من أعمى الله بصيرته جزاء صدوده عن آيات الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ..﴾ إلى آخره، أي: يعترفون بذنوبهم عندما يقع بهم أدنى شيء من العذاب، وبما ظلموا أنفسهم في الدنيا»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبر الله تعالى أن إنذار رسوله ﷺ لا يكون إلا بالوحي، والوحي هو القرآن والسنة، فكذلك المنذَرون من هذه الأمة لا يجوز لهم أن ينذروا الناس إلا بالوحي لا بآراء الرجال، أما أهل[(٢)] المذاهب والطرائق؛ لأن الله قد أكمل دينه وأتم نعمته، فمن زاد في دينه شيئاً فقد تعدى وظلم لأن الزيادة في الكامل نقص، وأخبرنا سبحانه أن من أعرض عن الوحي واتبع الآراء تمسه نفحة من عذاب الله فيندم، ويقول: يا ولينا إنا كنا ظالمين، نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكور، والضلال بعد الهدى.

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ١٧٠).

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «كأهل...».

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨ ـ ٥٠]

قال (ك): «قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني: التوراة حلالها وحرامها وما فرّق الله بين الحق والباطل، كما أن كل الكتب السماوية مشتملة على هذا، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: تذكيراً لهم وعِظَة ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن العظيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: أفتنكرونه(١) وهو في غاية الجلاء]؟»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: إنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا شريك له وتتبع رسله وكتبه، وبذلك وحده تسعد الأمة وتنكشف عنها الغمة وتنتصر على أعدائها ولا يستطيع أحد أن يقف في وجهها، والفرقان الذي أعطاه الله تعالى أمة محمد ﷺ، والضياء والذكر أفضل من كل ما أعطى من قبلها، ولكن هذا الضياء وهذا الفرقان وهذا الذكر لا يتذكر به ولا ينتفع به إلا المتقون الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون، وكل من مات فقد قامت قيامته الصغرى، وأخذ يواجه مصيره ويجد ما قدمه ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾

---

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «فتنكرونه»!

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ١٧١ ـ ١٧٢).

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٦] ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٤] فهذه الضيافة من الحميم وهو الماء الحار الذي يقطع الأمعاء، يحتسيه المسلمون والعرب في هذه الدار وإن لم يتوبوا إلى الله فستكمل لهم الضيافة بتصلية الجحيم، صدق الله العظيم. وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾، نعم قد أنكره الأولون فأذلهم الله وقطع دابرهم بسيوف المؤمنين، وهؤلاء المتأخرون ينكرونه وقد أذلهم الله بقنابل أعدائهم وصاروا عبرة للآخرين.

قال الإمام المجدد محيي السنة ومميت البدعة وعدو التقليد، صالح بن محمد بن نوح العمري الشهير بالفلاني (المتوفى في المدينة سنة ثماني عشرة ومئتين وألف) رحمه الله [في] كتابه «إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار» ما نصه:

«المقدمة في وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ واتباع الكتاب والسنة، وذم الرأي والقياس على غير أصوله، والتحذير من إكثار المسائل، وبيان أصول العلم وحده مقسوماً ومجزاً[1]، ومن يستحق أن يسمى فقيهاً أو عالماً حقيقة لا مجازاً وبيان فساد التقليد في دين الله وسنة نبيه.

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقد فرض الله تعالى عليهم اتباع ما نزل إليهم، وأعلم أن معصيته تعالى في ترك أمره وأمر رسوله ﷺ ولم يجعل لهم إلا اتباعه، ولذا قال لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] مع ما علم الله تعالى نبيه ثم [ما فرض من][2] اتباع كتابه فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، وأعلمهم أنه أكمل لهم دينه فقال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ثم مَنَّ عليهم بما آتاهم من العلم فأمرهم بالاقتصار عليه وأن لا يقولوا غيره إلا ما علَّمهم فقال لنبيِّه ﷺ:

---

(١) في مطبوع «الإيقاظ»: «محازاً».

(٢) في مطبوع «الإيقاظ»: «ما فرض»، وفي مطبوع «الإعلام»: «فرض».

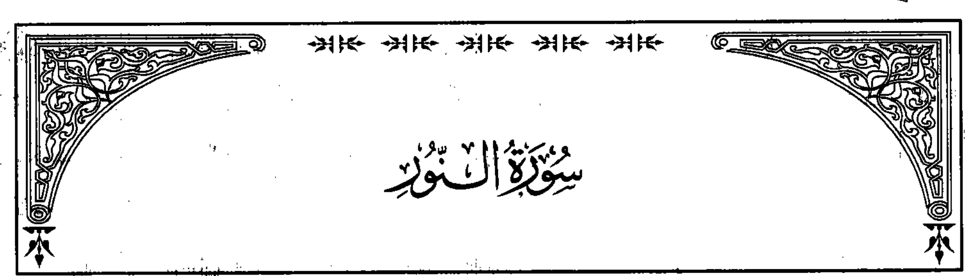
﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ثم أنزل على نبيه ﷺ ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾[1] [الإسراء: ٣٦].

وبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأنزل عليهم كتابه بالهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه وخاصه وعامّه وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب فكان رسول الله ﷺ هو المعبِّر عن كتاب الله الدالّ على معانيه، شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله تعالى لنبيه واصطفاهم له ونقلوا ذلك عنه، فكانوا هم أعلم الناس برسول الله ﷺ بما أراد الله تعالى من كتابه بمشاهدتهم ما قصد له الكتاب، فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ»[2].

---

(١) قارن ما سبق بما في: «الأم» كتاب الاستحسان (٧/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) بتصرف، و«إعلام الموقعين» (٤/ ٥٢ ـ بتحقيقي).

(٢) انظر: «إيقاظ همم أولي الأبصار» (ص٣ ـ ٤).



سورة النور

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥٦]

قال (ك): «يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال

تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية أي: إذا طلبوا اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه، واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مُذْعِنِينَ﴾. وإذا كانت الحكومة عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي ﷺ ليروجوا باطلهم، ثم إن إذعانهم[١] أولاً لم يكن عن اعتقاد منهم أن ذلك هو الحق. بل لأنه موافق لهواهم، ولهذا لما خالف قصدهم عدلوا عنه إلى غيره ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية، يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها. أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيّاً ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم وما هو منطوٍ عليه من هذه الصفات.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: هم الظالمون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون، ثم أخبر تعالى عن صفات المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعاً وطاعة، ولهذا وصفهم الله بالفلاح فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: «لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة والنصيحة لله وللرسول وللخليفة وللمؤمنين عامة»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قال قتادة: يطيع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل. وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾؛ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمِنوا من كل شر في الدنيا والآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

---

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «ادعائهم»!

(٢) علقه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٦٢٣ ـ ٢٦٢٤) على إثر (١٤٧٤٥).

قال (ك): «يخبر تعالى عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالغزو ليخرجن، فقال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ أي: لا تحلفوا، وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: طاعتكم معروفة أنها لا فعل معها بل قول مجرد، وحلفهم كاذب، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، فلا فائدة من إظهار الطاعة والباطن بخلافه، فإن الله لا يروج عليه شيء من التدليس فهو الخبير بسرائر عباده وإن أظهروا خلافها، ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: اتبعوا الكتاب والسنة، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما جاءهم به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: إبلاغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: بقبولها وتنفيذها ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ قال (ك): «هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته الولاة على الناس فتصلح بهم البلاد، وتخضع لهم العباد ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وحكماً وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة، ففتح رسول الله ﷺ مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل والمقوقس وملوك عُمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملّك بعد النجاشي المسلم أصحمة رحمه الله وأكرمه.

ثم تولى أبو بكر الصديق فلمَّ شعْث ما وَهَى بعد موته عليه الصلاة والسلام، فمهّد الجزيرة العربية، وفتح طرفاً[2] من فارس بقيادة خالد بن الوليد[3]. وألهم الله الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، الذي قام بعده بالأمر

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٢٩١ - ٢٩٢).

(٢) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «طرقاً»!!

(٣) بعدها في مطبوع «التيسير»: «وفتح بصرى ودمشق وحوران بقيادة أبي عبيدة، وبلاد مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين».

قياماً تامّاً، فتمَّ في أيامه فتح الشام ومصر وأكثر إقليم فارس، وتقهقر كسرى إلى أقصى مملكته، وفر قيصر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما في سبيل الله.

ثم امتدت دولة عثمان إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت المغرب إلى البحر المحيط. ومن ناحية المشرق مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون الترك مقتلة عظيمة جدّاً. وخذل الله ملكهم (خاقان) ولهذا ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»[١]. فها نحن نتقلب فيما وعد الله ورسوله ﷺ[٢]، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا. قال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ونحن في خوف شديد[٣]. أي: كانوا خائفين يمسون ويصبحون في السلاح.

وإن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول ﷺ: «**لن تصبروا إلا يسيراً، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس فيه حديدة**» فأنزل الله هذه الآية الكريمة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤] الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ كما روى أحمد عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشِّر هذه الأمة بالسناء والرفعة في الدين**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) بعدها في مطبوع «التيسير»: «وصدق الله ورسوله ﷺ فنسأل الله الإيمان به وبرسوله ﷺ».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢٨) رقم (١٤٧٦٧) وفيه أبو إسحاق السبيعي مدلس مختلط وقد عنعن، وذكره السيوطي في «الدر» (١١/ ٩٧) وزاد نسبته لابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٠٢٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٢٢)، والحاكم (٢/ ٤٠١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٦)، وابن مردويه ـ ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١١٤٦) ـ من حديث أُبيّ بن كعب، **وإسناده حسن**، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٥ ـ ٢١٦) نسبته لابن المنذر، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الضياء، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٨٣) بعد عزوه لـ«أوسط الطبراني»: «رجاله ثقات».

والنصر والتمكين في الأرض؛ فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»[1].

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ يفسره ما جاء في «الصحيحين» من حديث قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، قال: «**يا معاذ**»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**هل تدري ما حق الله على العباد**»؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**» قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «**يا معاذ بن جبل**» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: «**فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك**»؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنَّ حقَّ العباد على الله أن لا يعذبهم**»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ وأطوعهم له؛ كان نصرهم بحسبهم، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، وقد ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة** - وفي رواية: - **حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون**»[3]. وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤)، وفي «الزهد» (٣٢)، وابنه عبد الله في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٤)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٦٨)، والدولابي في «الكنى» (١/ ١٨٠)، والشاشي (١٤٩١ - ١٤٩٥)، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٤/ ٣١١، ٣١٨)، والبغوي (٤١٤٤، ٤١٤٥)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٦٥٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٤٤)، والدينوري في «المجالسة» (٢٢٢١ - بتحقيقي)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣١٧ - ٣١٨)، وفي «الشعب» (٦٨٣٣، ٦٨٣٤، ١٠٣٣٥)، وأبو نعيم (٩/ ٤٢ و١٠/ ٢٩٠)، والضياء في «المختارة» (١١٥١ - ١١٥٤)، **وإسناده جيد**، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٢٠) وقال: «رواه أحمد وابنه من طرق، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٢٩٣ - ٢٩٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية.

قال (ك): «يأمر عباده سبحانه بإقامة الصلاة له وحده وإيتاء الزكاة لوجهه، وهي الإحسان إلى المخلوقين: ضعفائهم وفقرائهم، سالكين طريق ما أمرهم به رسول الله ﷺ، وترك ما زجرهم عنه ابتغاء مرضاته تعالى ورحمته»(١).

قال المحقق القنوجي رحمه الله في تفسير هذه الآيات عند قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾: «وهذا هو شأن مقلدة المذاهب بعينه اليوم، يُعرِضون عن إجابة الداعي إلى الله ورسوله وعن التحاكم إليهما، أي: إلى كتابه وسنة رسوله ﷺ»(٢). ومضى إلى أن قال عند قوله تعالى: ﴿يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾: «وما أصدق هذه الآية على المقلدين في صنيعهم مع أهل القرآن وأصحاب الحديث». وقال عند قوله تعالى: ﴿بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾: «فإن كان القاضي مقصِّراً لا يعلم بأحكام الكتاب والسنة ولا يعقل حجج الله ومعاني كلامه وكلام رسوله، بل كان جاهلاً جهلاً بسيطاً وهو من لا علم له بشيء من ذلك، أو جهلاً مركباً وهو من لا علم عنده بما ذكرنا ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين واطلع على شيء من علم الرأي فهذا في الحقيقة جاهل وإن اعتقد أنه يعلم بشيء من العلم فاعتقاده باطل، فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم بين المتخاصمين إليه، بل هو من قضاة الطاغوت وحكَّام الباطل. فإن ما عرفه من علم الرأي إنما رخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب والسنة ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده، وإذا تقرر لديك هذا وفهمته حق فهمه علمت أن التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره والتعبد بجميع ما جاء به من رواية ورأي، وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية من البدع المضلة والفواقر الموحشة فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقد أوضحت هذا في كتابي «الجنة»، وأوضحه الشوكاني في «القول المفيد» و«أدب الطلب» وغيره في غيرهما، لمن(٣) أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت الآفاق الإسلامية»(٤).

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٢٩٥). (٢) انظر: «فتح البيان» (٤/ ٦٠٧).
(٣) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «فمن»!
(٤) انظر: «فتح البيان» (٤/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩).

فصل

قال محمد تقي الدين: لم يبق لي ما أزيده في الرد على المقلّدين المتعصبين للمذاهب أو الطرائق أو الأحزاب، ولكن بقي لي كلام مع السياسيين ودعاة العروبة والاشتراكية والمحاربين بزعمهم للرجعية، فأقول لهم وبالله أستعين: قد علمتم أن الله وعد الذين آمنوا بمحمد والقرآن وعملوا الصالحات، أي: صدقوا في إيمانهم وشفعوا القول بالعمل، أن يجعلهم خلفاء الأرض يتصرفون فيها كيف يشاؤون، فهم الحكام وهم العلماء وهم الأمناء على كنوز الأرض وثمرات الأعمال، لا يد فوق يدهم، واستمر ذلك من عهد النبوة إلى نهاية الحروب الصَّليبية وامتد بعضه إلى الحكم العثماني.

لكن ماذا حدث؟! بعد ذلك زال الإيمان والعمل فذهب العز والنصر، ويا أيها المسلمون! ويا أيها العرب المسلمون! ارجعوا إلى الإيمان والأعمال الصالحة والاتحاد على اتباع كتاب الله وسنة رسول الله ونزِّهوا أنفسكم من التعصب للأوطان وللأجناس وللفرق والمذاهب، واجعلوا إلهكم واحداً، وارضوا بالله صاحباً، استضيؤوا بنور الكتاب وسنة النبي الكريم والأصحاب، إذا شئتم أن يرد الله لكم ما كان لأسلافكم من العز والتمكين والنصر المبين، ويكبت أعداءكم. ألا تستحيون من الله ثم من الناس أن يجمع اليهود شملهم بعد أن تشتتوا آلاف السنين، ثم يعمدوا إلى الأرض المقدسة التي أخرجهم الله منها بسبب ذنوبهم وتركهم رسولهم وكتابهم واختلافهم فيما بينهم، فيغتصبوا منكم تلك الأرض اغتصاباً وعددهم بالنسبة إلى عددكم نحو ربع واحد في المائة، أما أنتم أيها النصارى العرب فدعوا الكيد والدس والخداع لإضلال المسلمين وتشتيت شملهم، ولا تكونوا كالذي قال: (اقتلوني ومالكاً) فإن ذلك لا يشفي ما في صدوركم ولا يغني عنكم إلا قليلاً، فإنكم دعوتم للتعصب للعروبة وأنتم أبعد الناس عنها فما لكم منها إلا الاسم، فإنكم عاديتم الدين الذي به شرفتم، وواليتم أعداء العرب وتسميتم بأسماء عجمية، فما هذه العروبة التي تدعون إليها أهي عروبة محمد رسول الله؟ كلا فإنكم تبغضونها وتحاربونها. أم هي عروبة أبي جهل وأبي لهب؟ فهذه العروبة ليس فيها إلا الجهل والذل والخزي والشتات وعبادة الأصنام ووأد البنات وأكل الميتة وعدم توريث الإناث والأنصاب والأزلام والميسر والقتل والنهب واستعباد الأخ لأخيه.

أهذا هو البعث العربي؟ كلا: والله بل هو الموت، فإن قلتم: إننا ما قمنا بهذه المكيدة إلا دفاعاً عن النفس؛ لأن هؤلاء العرب الذين يدعون الإسلام، بله العجم لم يبق لهم من الإسلام إلا اسمه وقد تعصبوا علينا وأهانونا، قلنا: كل واحد من الفريقين يرجع عن غيه، واجتمعوا على الإنصاف.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: ٦٢ ـ ٦٤]

قال (ك): «وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول أمرهم كذلك بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ثم أمر الله رسوله ﷺ إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾ الآية. وقد روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، وإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة**»[1]. هكذا رواه النسائي والترمذي

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨)، وأبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٧٠٦)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١٠٢٠١) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٣٦٩ ـ ٣٧٢) ـ، والحميدي (١١٦٢)، وأحمد (٢/ ٢٣٠)، وأبو يعلى (٦٥٦٦، ٦٥٦٧) في «مسانيدهم»، وابن حبان (٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦)، والطحاوي في «المشكل» (١٣٥٠)، وفي «شرح معاني الآثار» (٢/ ١٣٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٠)، والبيهقي في «الشعب» (٨٨٤٦، ٨٨٤٧)، والبغوي (٣٣٢٨) من حديث أبي هريرة، **وإسناده جيد**.

وقال: «حديث حسن»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ إلى آخره. قال (ك): «عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم ﷻ عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ قال: فقولوا: يا نبي الله يا رسوله الله»[(٢)]، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٢ ـ ٥]. فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال مقاتل بن حيان: «هم المنافقون كانت تثقل عليهم الخطبة يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب النبي ﷺ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح[(٣)] للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن النبي ﷺ في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو منهاجه وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(٥)] أي: فليخش من خالف سنة رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً ﴿أَن

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٥٤ ـ ٢٦٥٥)، **بسندٍ ضعيف**، فيه بشر بن عمارة، ومنقطع؛ لأن الضحاك لم يدرك ابن عباس، وهو من طريق الضحاك عند أبي نعيم في «الدلائل» ـ القسم المفقود ـ عزاه له السيوطي في «لباب النقول» (ص٦٢)، وعزاه في «الدر» (٦/ ٢٣٠) لابن مردويه أيضاً.

(٣) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «يصح»!

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٥٦)، وأبو داود في «المراسيل» (ص١٠٥) رقم (٦٢)، ومقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٢١١)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ١٢٩) لابن أبي حاتم، وهو معضل، وفي إسناده بُكير بن معروف وهو ضعيف، **فإسناده ضعيف جدًّا**.

(٥) سبق تخريجه.

﴿تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[1] في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها. وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها**» قال «**فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، فتغلبونني وتقتحمون فيها**»[2]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق»[3].

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. قال (ك): «يخبر تعالى أنه مالك السمٰوات والأرض وعالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ و﴿قَدْ﴾ للتحقيق كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ . . .﴾ [البقرة: ١٤٤] فقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة. كقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: يخبرهم بكل ما فعلوه في الدنيا صغيراً كان أو كبيراً كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ولهذا قال هٰهنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾»[4].

قال القنوجي في «فتح البيان» في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ . .﴾ الآية ما نصه:

«والآية تشمل كل من خالف أمر الله وأمر رسوله، ويدخل فيها الجامدون

---

(١) بعدها في مطبوع «التيسير»: «أي». (٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

على ضلالة التقليد من بعد ما تبين له الهدى، وظهر الصواب من الخطأ»[١].

قال المحقق سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد»، ما نصه (المتن ممزوج بالشرح):

«(باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرمه الله؛ فقد اتخذهم أرباباً من دون الله).

لما كانت الطاعة من أنواع العبادة، بل هي العبادة، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله ﷺ، نبه المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها، وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله، وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً، والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ، فإنه لا ينطق عن الهوى فهو مشرك كما بينه الله تعالى في قوله: ﴿اتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ﴾ أي: علماءهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وفسرها النبي ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام كما سيأتي في حديث عدي[٢].

فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] قيل: هم العلماء، وقيل: هم الأمراء وهما روايتان عن أحمد، قال ابن القيم: **«والتحقيق بأن الآية تعم الطائفتين»**[٣].

قيل: إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العلماء مبلِّغين لأمر الله وأمر رسوله والأمراء منفذين له، فحينئذٍ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله كما قال ﷺ: **«لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف»**[٤]. وقال: **«على المرء المسلم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**[٤]: حديثان صحيحان، فليس في هذه الآية ما يخالف آية براءة.

---

(١) انظر: «فتح البيان» (٤/٦٢٦ ـ ٦٢٧) بنحوه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/١٦ ـ بتحقيقي) بنحوه، فيه بيان مفصل لمن قال: هم العلماء، ومن قال: هم الأمراء.

(٤) سبق تخريجه.

قال: وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر!!»[(١)].

(ش): قوله: يوشك بضم أوله وكسر الشين المعجمة. قال أبو السعادات «أي: يقرب ويدنو ويسرع»[(٢)]، وهذا الكلام قاله ابن عباس لمن ناظره في متعة الحج، وكان ابن عباس يأمر بها فاحتج عليه المناظر بنهي أبي بكر وعمر عنها[(٣)] أي: هما أعلم منك وأحق بالاتباع، فقال هذا الكلام الصادر عن محض الإيمان وتجريد المتابعة للرسول ﷺ، وإن خالفه من خالفه كائناً من كان كما قال الشافعي: «أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»[(٤)] [كائناً من كان][(٥)] فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر ـ وهما هما ـ فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنن الرسول ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذي[(٦)] ينتسب إليه، ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة: فما وافقه قبله وما خالفه رده، أو تأوله؟ فالله المستعان، وما أحسن ما قال بعض المتأخرين[(٧)]:

---

(١) روى أحمد في «مسنده» (١/ ٣٣٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (٢٣٧٨ و٢٣٨١) من طريق شريك عن الأعمش عن فضيل بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال... ثم جاء فيه: أراهم سيهلكون، أقول: قال رسول الله ﷺ، ويقولون: قال أبو بكر وعمر؟!

وهذا إسناد ضعيف، شريك هو ابن عبد الله القاضي ضعفوه، لسوء حفظه.

وروى الطبراني في «معجمه الأوسط» رقم (٢١)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» ـ كما في «المطالب العالية» (٧/ ٩٦) ـ من طريق ابن أبي مليكة عن عروة بن الزبير أنه أتى ابن عباس فقال: فقد كان أبو بكر وعمر ينهيان عن ذلك، فقال: أهما ـ ويحك ـ آثر عندك أم ما في كتاب الله وما سن رسول الله ﷺ في أصحابه، وفي أمته؟!

قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٣٤): وإسناده حسن.

ونسب ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (٢٣٧٧) لعبد الرزاق عن معمر عن أيوب قال: قال عروة لابن عباس... فقال ابن عباس: والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله؛ نحدثكم عن رسول الله ﷺ، وتحدثونا عن أبي بكر وعمر... **وهذا إسناد صحيح**.

(٢) انظر: «النهاية» (٥/ ١٨٩).

(٣) سبق تخريج ذلك عنهما.

(٤) انظر: «الرسالة» (ص٤٢٥).

(٥) غير موجود في مطبوع «تيسير العزيز الحميد».

(٦) من مطبوع «تيسير العزيز الحميد»، وسقط من الأصل!

(٧) هو الأمير الصنعاني ـ رحمه الله تعالى ـ، وسبق توثيق شعره.

«فما جاءهم فيه الدليل موافقاً لـما كـان لـلآبـا إلـيـه ذهـابُ
رضـوه وإلا قـيـل هـذا مُـؤوّلٌ فـيـركـب لـلـتَّـأويـلِ فـيـه صِـعَـابُ»

ولا ريب أن هذا داخل في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قال المصنف: وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

(ش): هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب. قال الفضل عن أحمد[1]: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعاً[2]، ثم جعل يتلو ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة إلا الشرك لعله إذا رد[3] بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه؛ فيهلك، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]. وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان، فقال: عجبت لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي، ذكر ذلك شيخ الإسلام. قلت: وكلام أحمد في ذم التقليد وإنكار تأليف كتب الرأي كثير مشهور.

---

(١) للإمام أحمد كتاب في طاعة الرسول ﷺ، رد فيه على من احتج بظاهر القرآن في معارضة سنن رسول الله ﷺ وترك الاحتجاج بها، أفاده ابن القيم في «الإعلام» (٤/ ٥٣ ـ بتحقيقي) وأورد خطبة الكتاب، وكذلك فعل في «مختصر الصواعق» (٢/ ٥٣٠)، وزاد: «رواه عنه ابنه صالح»، وأكثر أبو يعلى الفراء في كتابه «العدة في أصول الفقه» من النقل عنه. انظر: «فهارسه» (٥/ ١٧٩٠).

(٢) انظرها في: «إعلام الموقعين» (٤/ ٥٤ ـ ٥٦).

(٣) في مطبوع «التيسير»: «أراد».

قوله: **(عرفوا الإسناد)** أي: إسناد الحديث وصحته؛ أي: صحة الإسناد دليل على صحة الحديث.

قوله: **(يذهبون إلى رأي سفيان)** أي: الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب ومذهب مشهور فانقطع، ومراد أحمد الإنكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة؛ إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد والاجتهاد انقطع منذ زمان، وإما بأن هذا الإمام الذي قلدته أعلم مني، فهو لا يقول إلا بعلم ولا يترك هذا الحديث - مثلاً - إلا عن علم، وإما بأن ذلك اجتهاد ويشترط في المجتهد أن يكون عالماً بكتاب الله عالماً بسنة رسول الله ﷺ ناسخ ذلك ومنسوخه وصحيح السنة وسقيمها عالماً بوجوه الدلالات، عالماً بالعربية والنحو والأصول، ونحو ذلك من الشروط التي لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر ﵄ كما قاله المصنف؟ فيقال له: هذا إنْ صح؛ فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، أما أن يكون ذلك شرطاً في جواز العمل بالكتاب والسنة فكذب على الله، وعلى رسول الله ﷺ، وعلى أئمة العلماء، بل الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلم معنى ذلك في أي شيء كان أن يعمل به ولو خالفه من خالفه. فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى ونبينا ﷺ، وأجمع على ذلك العلماء قاطبة إلا جهال المقلدين وجفاتهم، ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم، كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا من أهل العلم: أبو عمر ابن عبد البر وغيره[1].

قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤] فشهد تعالى لمن أطاع الرسول ﷺ بالهداية، وعند جفاة المقلدين أن من أطاعه ﷺ ليس بمهتد إنما المهتدي من عصاه، وعدل عن أقواله، ورغب عن سنته إلى مذهب أو شيخ ونحو ذلك، وقد وقع في هذا التقليد المحرم خلق كثير ممن يدّعي العلم[2] والمعرفة بالعلوم ويصنف التصانيف في الحديث والسنن، ثم بعد ذلك تجده جامداً على أحد هذه المذاهب يرى[3]

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٨٩).

(٢) كذا في مطبوع «التيسير العزيز الحميد»، وفي الأصل: «الإسلام»!

(٣) في مطبوع «تيسير العزيز الحميد»: «ويرى».

الخروج عنها من العظائم، وفي كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم. إنما المذموم المنكر الحرام: الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم وينكر الإعراض عن كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ والإقبال على تعلم الكتب المصنفة في الفقه استغناء بها عن الكتاب والسنة، بل إن قرؤوا شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنما يقرؤون تبركاً لا تعلماً وتفقهاً. أو لكون بعض [الواقفين][(١)] وقف على من قرأ البخاري مثلاً؛ فيقرؤونه لتحصيل الوظيفة لا لتحصيل الشريعة، فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم في [قوله][(٢)] تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠﴾ [طه: ٩٩، ١٠٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٧].

فإن قلت: فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب؟ قيل: يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة، وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية، أما أن تكون هي المقدمة على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه المدعو إلى التحاكم إليها دون التحاكم إلى الله والرسول ﷺ فلا ريب أن ذلك منافٍ للإيمان مضادٌّ له، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥] فإذا كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله أو رسوله إثماً إذا قضى الله ورسوله أمراً وجدت الحرج في نفسك، وإن قضى أهل [ذلك][(٣)] الكتاب بأمر لم تجد حرجاً، ثم إن[(٤)] قضى الرسول ﷺ بأمر لم تسلم له، وإن[(٤)] قضوا بأمر سلمت له، فقد أقسم[(٥)] الله تعالى سبحانه وهو أصدق القائلين بأجل مقسم به، وهو نفسه تبارك وتعالى أنك لست بمؤمن والحالة هذه، وبعد ذلك، فقال: قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة: ١٤، ١٥] على أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم، قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة، فكلام أحمد الذي ذكره المصنف كافٍ عن تكثير النقل عنه. وقال

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «الموقفين». (٢) في مطبوع «التيسير»: «قول الله».
(٣) غير موجود في مطبوع «التيسير». (٤) في مطبوع «التيسير»: «إذا».
(٥) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «قسم»!

أبو حنيفة: «إذا جاء الحديث عن الرسول فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين: فنحن رجال وهم رجال»(١).

وفي «روضة العلماء»: «سئل أبو حنيفة: إذا قلتَ قولاً وكتاب الله يخالفه، قال: اتركوا قولي لكتاب الله، قيل: إذا كان قول الرسول يخالفه، قال: اتركوا قولي للرسول ﷺ. قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه، قال: اتركوا قولي لقول الصحابة». فلم يقل: هذا الإمام ما يدعيه جفاة المقلدين له إنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله، حتى أنزلوه بمنزلة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وروى البيهقي في «السنن» عن الشافعي أنه قال: «إذا قلت قولاً وكان عن النبي ﷺ قول يخالف قولي فما يصح من حديث رسول الله ﷺ أولى فلا تقلدوني»(٢). وقال الربيع: «سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت»(٣). وتواتر عنه أنه قال: «إذا صح الحديث ـ أي: بخلاف قولي ـ فاضربوا بقولي عرض الحائط»(٤). وقال مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ»(٥). وكلام الأئمة مثل هذا

---

(١) رواه البيهقي في «المدخل» رقم (٤٠)، وذكره الذهبي في «السير» (٦/ ٤٠١)، وابن عبد البر في «الانتقاء» (١٤٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (٦٧، ٦٨، ٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٦ ـ ١٠٧)، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٤٧٣)، وهو في «مختصر المؤمل» (٥٨)، و«الإيقاظ» (٥٠، ١٠٤).

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٥٠)، والبيهقي في «المدخل» (٢٤٩)، و«المناقب» (١/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣)، وأبو نعيم (٩/ ١٠٧)، ونحوه في «آداب الشافعي ومناقبه» (١/ ٦٧ ـ ٦٨)، و«معنى قول الإمام المطلبي» (٧٢، ٧٦)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٢٥٧)، و«مقدمة المجموع» (١/ ١٠٨)، و«السير» (١٠/ ٣٤، ٧٨)، و«مختصر المؤمل» (٥٧)، و«الإيقاظ» (١٠٠).

(٤) بنحوه في «آداب الشافعي» (٦٧ ـ ٦٨، ٩٣) لابن أبي حاتم، و«الحلية» (٩/ ١٠٦ ـ ١٠٧)، و«مناقب الشافعي» (١/ ٤٧٣)، و«المدخل» رقم (٢٤٩) كلاهما للبيهقي، و«مختصر المؤمّل في الرد إلى الأمر الأول» (٥٨ ـ ٥٩)، وأفرد السبكي هذه المقولة بتصنيف مفرد بعنوان «معنى قول الإمام المطلبي: إذا صح الحديث فهو مذهبي»، وهو مطبوع.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٤٣٥، ١٤٣٦)، وابن حزم في «الأحكام» (٦/ ١٤٩) **بسندٍ حسن.**

كثير، فخالف المقلِّدون ذلك، وجمدوا على ما وجدوه في الكتب المذهبية، سواء كان صواباً أم خطأً، مع أن كثيراً من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوصاً عليها، وإنما هي تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس على أقوالهم، ولسنا نقول: إن الأئمة على خطأ بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم، وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ ومتابعته، ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول، فهو الذي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ فما العذر في اتباعهم وترك اتباع الذي لا ينطق عن الهوى»؟

قوله: «لعله» أي: لعل الإنسان الذي تصح عنده سنة رسول الله ﷺ، قوله: «إذا رد بعض[1] قول النبي ﷺ»، قوله: «أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»، هذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب الذي هو سبب الهلاك في الدنيا والآخرة، فإذا كانت إساءة الأدب معه في الخطاب سبباً لحبوط الأعمال كما قال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] فما ظنك برد أحكامه وسنته، لقول أحد من الناس كائناً من كان؟ قال شيخ الإسلام: «فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك ومن العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو بما يقترن به من استخفاف بحق الآمر كما فعل إبليس لعنه الله. فإذا علمت أن المخالفة عن أمره ﷺ، سبب للفتنة، التي هي الشرك والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، علمت أن من ردّ قوله وخالف أمره لقول أبي حنيفة، أو مالك أو غيرهما: لهم النصيب الكامل، والحظ الوافر من هذه الآية، وهذا الوعيد على مخالفة أمره ﷺ، وقد استدل بهذه الآية كثير من العلماء، على أن أصل الأمر للوجوب حتى يقوم دليل على استحبابه، قال عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١] فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه**». فقلت: بلى قال: «**فتلك عبادتهم**»[2] رواه أحمد والترمذي **وحسنه**.

---

(١) بعدها في مطبوع «التيسير»: «قوله أي».

(٢) سبق تخريجه.

(ش): هذا الحديث قد روي من طرق: فرواه ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «السنن» وفيه قصة اختصرها المصنف.

قوله: «عن عدي بن حاتم» أي: الطائي المشهور، وهو ابن عبد الله بن سعد بن الحَشْرج ـ بفتح المهملة وسكون المعجمة وآخره جيم ـ، مات مشركاً وعدي يكنى أبا طريف ـ بفتح المهملة ـ صحابي شهير، حسن الإسلام، مات سنة ثمان وستين وله مائة وعشرون سنة.

قوله: «فقلت: إنا لسنا نعبدهم»؛ ظنَّ عديٌّ أن العبادة المراد بها التقرب إليهم بأنواع العبادة، من السجود والذبح والنذر ونحو ذلك فقال: «إنا لسنا نعبدهم»، قوله: **«أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه»** إلى آخره؟ صرح ﷺ في هذا الحديث بأن عبادة الأحبار والرهبان هي طاعتهم في تحريمهم الحلال وتحليل الحرام، وهو طاعتهم في خلاف حكم الله ورسوله.

قال المصنف ﷺ: وفيه تغيير الأحوال إلى هذه الغاية صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ويسمّونها[1] الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين. وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

قوله: «صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال»، يشير إلى ما يعتقده كثير من الناس ممن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع والعطاء والمنع، ويسمون ذلك الولاية والسر ونحو ذلك، وهو الشرك.

قوله: «وعبادة الأحبار هي العلم والفقه» أي: هي التي تسمى اليوم العلم والفقه المؤلَّف على مذهب الأئمة ونحوهم، فيطيعونهم في كل ما يطيعونك سواء وافق حكم الله أم خالفه، بل لا يعبؤون بما خالف ذلك من كتاب وسنة، بل يردون كلام الله وكلام رسوله لأقوال مَنْ قلَّدوه، ويصرِّحون بأنه لا يحتمل العمل بكتاب ولا سنة، وأنه لا يجوز تلقي العلم والهدى منهما، وإنما الفقه والهدى عندهم هو[2] ما وجدوه في هذه الكتب، بل أعظم من ذلك وأطمُّ: رمي كثير

(١) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «الأعمال ولا سيما».
(٢) من مطبوع «التيسير»، وسقطت من الأصل.

منهم كلام الله ورسوله بأنه لا يفيد العلم ولا اليقين في باب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده، ويسمونها ظواهر لفظية، ويسمون ما وضعه الفلاسفة المشركون القواطع العقلية. ثم يقدّمونها في باب الأسماء والصفات والتوحيد على ما جاء من عند الله، ثم يرمون من خرج عن عبادة الأحبار والرهبان إلى طاعة رب العالمين، وطاعة رسوله وتحكيم ما أنزل الله في موارد النزاع بالبدعة أو الكفر.

وقوله: «ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من ليس من الصالحين». وذلك كاعتقادهم في كثير ممن ينتسب إلى الولاية من الفساق والمجاذيب، وقوله: «وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين»، وذلك كاعتقادهم العلم في أناس من جهلة المقلِّدين فيُحسِّنون لهم البدع والشرك فيطيعونهم، ويظنون أنهم علماء مصلحون ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢]»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قول الإمام أحمد رحمه الله لصاحبه الفضل بن زياد: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه زيغ فيهلك»: من المعلوم أن اتباع النبي ﷺ الذي هو آية الإيمان ناتج عن محبته وتعظيمه، وهما لازمان للمتبع فإذا خالف شخص كلام النبي ﷺ متعمداً فلا بدّ أن ينقص تعظيمه ومحبته من قلبه، وإذا استمرت المخالفة استمر نقص المحبة والتعظيم حتى يزولا بالكلية، وذلك هو الكفر؛ فإن كل من خالفه الإنسان وكان في قلبه له تعظيم ومحبة، كالوالد والوالدة والصديق والأمير لا بدّ أن تنقص محبته وتعظيمه من قلبه، وما بعد النقص إلا الزوال. فإذا قلت لشخص من المخالفين: لماذا لا تصلي صلاة رسول الله، أو لماذا تخالف سنة رسول الله وهي في غاية الوضوح؟ يغالطك ويقول: الله يهدينا. فإن شددت عليه غضب وتبرأ من سنة النبي أو تحيَّل في ردِّها، وذلك هو طريق الكفر وما أحسن ما قال الشاعر:

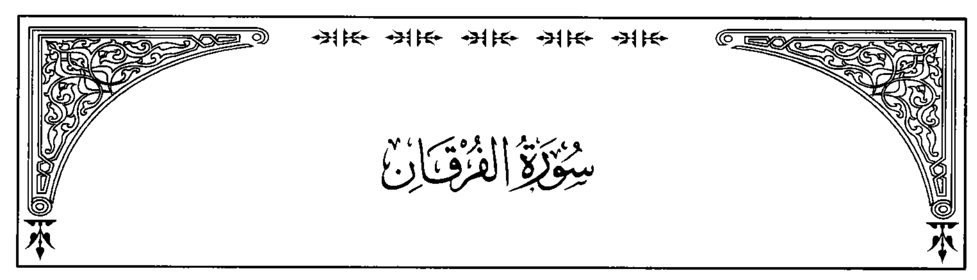
«تعصي الرسول[(٢)] وأنت تظهر حبَّه ... هذا محالٌ في القياس بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ»[(٣)]

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٤٣ ـ ٥٥٤) بتصرف.

(٢) في البيت «الإله».

(٣) نسبة هذين البيتين مضطربة، فنُسبت لعدة من الشعراء؛ ففي «بهجة المجالس» (١/ ٣٩٥)، =



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]

قال (ك): «يمدح[1] الله تعالى نفسه الكريمة على ما نزَّل على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ وقال ههنا: ﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ نزل فعل من التكرر والتكثر؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل آيات [بعد آيات][2] وأحكاماً بعد أحكام وسوراً بعد سور، وهذا أبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال تعالى في هذه السورة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣] ولهذا سماه[3] الفرقان لأنه يفرِّق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد والحلال والحرام.

= و«الآداب الشرعية» (١/ ٧٤) جعلاه للوراق، ثم نسباه للشافعي! وهما في «ديوان النابغة» (ص١٦١). ونسبا في «تاريخ دمشق» (٤/ ٢٤٩) لرابعة العدوية، ونسبا في «عوارف المعارف» (٢٤١)، و«مكاشفة القلوب» (٣٥) لابن المبارك، ونسبا في «المحاسن والأضداد» (١٤٢) للحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، وهما في «ديوان محمود الوراق» (ص٩٠) وبلا نسبة في: «روضة الطالبين» (٢٦٦)، و«الجليس الصالح» (٢/ ٢٠٢)، و«سراج الملوك» (ص٣٨).

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «يحمد».

(٢) من «تيسير العلي القدير»، وسقطت من الأصل.

(٣) بعدها في «تيسير العلي القدير»: «هاهنا».

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه [أضاف][(١)] عبوديته [إلى ربه][(٢)] كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ كما قال ﷺ: «**إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**» فذكر منهن: «**أن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[(٣)]. »[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أرسل الله رسوله محمداً ﷺ نذيراً لمن عصاه بالعذاب المهين في الدنيا والآخرة، وبشيراً لمن أطاعه بالسعادة الأبدية، وإنما يكون العذاب على قدر بلوغ الحجة وقيامها على المنذرين، ولذلك نرى المسلمين في هذا الزمان أشد الناس شقاء وأعظمهم ذلة وهواناً، وهذا الشقاء يعم أفرادهم وجماعاتهم، وهو ملازم لهم في بلادهم وحين يخرجون منها، ولا يزالون كذلك حتى يتوبوا من جرائمهم، ويتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ويجتمعوا عليهما ويستضيؤوا بنورهما ويتخلقوا بأخلاقهما، ويعمروا بهما مساجدهم ومدارسهم ومحاكمهم ومؤتمراتهم ومجالسهم، وقد أعذر من أنذر، ولله عاقبة الأمور.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٣١]

قال (ك): «يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول، وما جاء به من عند الله من الحق البيّن الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أُخرى غير سبيل

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «إضافة إلى».
(٢) غير موجود في مطبوع «التيسير».
(٣) سبق تخريجه.
(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/٣٠٢ ـ ٣٠٣) بتصرف.

الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط[(١)] أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ الآيتين. فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلاً: ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف أو[(٢)] أخوه أُبي بن خلف أو غيرهما: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ أي بعد بلوغه إليَّ[(٣)] قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي: يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ . . .﴾ إلى آخره، قال (ك): «يخبر الله تعالى عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وذلك أن المشركين إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه[(٥)] فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به، وعدم تدبره أو[(٦)] ترك العمل به، والعدول عنه إلى غيره، كل ذلك من هجرانه أيضاً، نسأله تعالى أن يجنبنا ما يسخطه، ويستعملنا في ما يرضيه من حفظ كتابه بفهمه والعمل بمقتضاه دائماً على الوجه الذي يرضاه، إنه سميع مجيب كريم وهَّاب، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما أن قومك عادوك لما دعوت إلى توحيد الله، كذلك فعل الأمم الماضية مع رسلهم، فكان منهم أعداء لهم يصدون الناس عن الهدى، ولكن الله تعالى هو الهادي فلا يستطيع أحد أن يحول دون هدايته، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدّقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، والله غالب على أمره»[(٧)].

---

(١) ورد ذلك في خبر، أخرجه ابن جرير (١٨/ ١٤٥) **بسندٍ ضعيف**، فيه محمد بن أبي محمد شيخ ابن جرير مجهول، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧) لابن المنذر.

(٢) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «و».

(٣) بعدها في الأصل: «أن»! ولا وجود لها في «التيسير».

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣١٠).

(٥) كذا في مطبوع «التيسير»، وفي الأصل: «يسمعوه».

(٦) في مطبوع «التيسير»: «و».

(٧) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣١١).

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآيات تشمل كلَّ مَنْ بلغته دعوة الرسول ﷺ وأعرض عنها، سواء أكان من المكذبين أم من المنافقين الذين يقولون: سمعنا وهم لا يسمعون، أم من المقلدين المتعصبين الذين يقولون بلسان حالهم أو قالهم أو بهما معاً: ما وافق قول إمامنا وأهل مذهبنا من سنة النبي ﷺ قبلناه وعملنا به، وما خالفه رددناه؛ إما بتأويل يحرف معناه، أو ادعاء نسخ أو ضعف أو غير ذلك من وجوه الرد. وقوله: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يصدق على كل مؤلف يخالف في تأليفه كتاب الله وسنة رسوله تعصباً لمقلَّده بفتح اللام.

قال الإمام المحقق سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتاب «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» ما نصه (المتن ممزوج بالشرح):

«باب قوله الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى الطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

(ش): لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ مستلزماً له، وذلك هو [معنى][١] الشهادتين، ولهذا جعلهما النبي ﷺ ركناً واحداً في قوله: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً**»[٢]، نبه في هذا الباب على ما تضمنه التوحيد، واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع، إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ولازمها الذي لا بد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إله إلا الله، فلا بد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره الذي جاء من عنده على يد رسوله محمد ﷺ، فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول في موارد النزاع فقد كذب في شهادته، وإن شئت قلت: لما كان التوحيد مبنيّاً على الشهادتين، إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى؛ لتلازمهما، وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده، نبه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمداً رسول الله، التي تتضمن حقَّ الرسولِ ﷺ،

(١) غير موجود في مطبوع «تيسير العزيز الحميد».
(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر.

فإنها تتضمن أنه عبد لا يعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع؛ لأنه المبلغ عن الله تعالى: فله عليه الصلاة والسلام منصب الرسالة، والتبليغ عن الله والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه: إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله ومحبته [أكثر من][(١)] النفس، والأهل والمال والوطن [شرط الإيمان][(٢)] وليس له من الإلهية شيء؛ بل هو عبد الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩] وقال ﷺ: «**إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**»[(٣)]، ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره كالمنافقين الذين يدعون الإيمان به ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين، إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم لها: إن الله تبارك وتعالى أنكر على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر المصنف في سبب نزولها.

قال ابن القيم: «والطاغوت كل من تعدى به حده، من الطغيان؛ وهو مجاوزة الحد»[(٤)]، فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو طاغوت إذ قد تعدى به حدَّه، ومن هذا كل من عبد شيئاً دون الله فإنه[(٥)] عبد الطاغوت، وجاوز بمعبوده حده فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت، وتأمل تصديره سبحانه الآية منكراً لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزله الله على رسوله ﷺ وعلى من قبله، ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ ويتحاكم إليه عند النزاع. وفي ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ نفي لما زعموه من الإيمان، ولهذا لم يقل: (ألم تر إلى الذين آمنوا)، فإنهم لو كانوا من أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ، ولم يقل فيهم: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ فإن هذا إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب أو

---

(١) في مطبوع «تيسير العزيز الحميد»: «على».
(٢) غير موجود في مطبوع «تيسير العزيز الحميد».
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق ذكره.
(٥) في مطبوع «تيسير العزيز الحميد»: «فإنما».

منزل منزلة الكاذب، لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها.

قال (ك): «والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هٰهنا»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالطاغوت وهو دليل على أن التحاكم إلى الطاغوت منافٍ للإيمان مضاد له، فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به وترك التحاكم إليه، فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله، وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي: لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من طاعة الشيطان، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير، وفي الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت، الذي هو ما سوى الكتاب والسنة من الفرائض وأن المتحاكم إليه غير مؤمن بل ولا مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١] أي: إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا إعراضاً مستكبرين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٨] قال ابن القيم: «هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة، فلم يقبل، وأبى ذلك أنه من المنافقين»[2]، و﴿يَصُدُّونَ﴾ هنا لازم لا متعدٍ، هو بمعنى يعرضون، لا بمعنى يمنعون غيرهم، ولهذا أتى مصدره على صدود، ومصدر المتعدي صدّاً. فإذا كان المعرضون[3] عن ذلك قد حكم الله سبحانه بنفاقهم، فكيف بمن زاد[4] إلى إعراضه منع الناس من تحكيم الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما بقوله وعمله وتصانيفه؛ ثم يزعم مع ذلك أنه إنما أراد الإحسان والتوفيق، الإحسان في فعله ذلك أو التوفيق بين الطاغوت الذي حكمه، وبين الكتاب والسنة؟ قلت: وهذا حال كثير ممن يدعي العلم والإيمان في هذه الأزمان، إذا قيل لهم: تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتهم يصدون وهم مستكبرون، ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك، ولا يعقلون، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون»[5].

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٨).
(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٥) بنحوه.
(٣) في مطبوع «التيسير»: «المعرض». (٤) في مطبوع «التيسير»: «ازداد».
(٥) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٥٤ ـ ٥٥٧).

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع الأرض وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وفي «الصحيحين»: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»[(١)] وفيهما: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[(٢)] ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾؛ يعني: القرآن قاله ابن عباس[(٣)]، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: غليظاً»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: الكافرون بالقرآن وبيان النبي ﷺ للقرآن على نوعين:

أحدهما: يجهر بالكفر.

والآخر: يخفي الكفر ويظهر الإيمان، ولكنه لا يقبل ما جاء به الرسول، بل يتبع هواه، فيقبل ما وافقه أو وافق مذهبه أو طريقته أو حزبه أو فرقته، ويردّ ما خالف ذلك بأنواع من الحيل والروغان والتدليس، وقد أمر الله رسوله والمؤمنين به أن يجاهدوهم جهاداً كبيراً، ولا يكون متبعاً للنبي ﷺ حق الاتباع إلا من جاهدهم، فنسأل الله أن يجعلنا من المجاهدين، وأن يجعل النصر حليفنا، ويهدينا صراطه المستقيم.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٦، ٥٧]

قال (ك): «﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: بشيراً للمؤمنين، ونذيراً

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٤٧٠)، وعزاه في «الدر المنثور» (١١/ ١٩١) لابن المنذر أيضاً.

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣١٦).

للكافرين لمن خالف أمره ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ إنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: أرسل الله رسوله محمداً ﷺ مبشراً للمتبعين له الذين لا يتخذون من دونه وليجة تعوقهم عن الاتباع، لا مذهباً ولا طريقة ولا حزباً ولا قومية ولا اشتراكية ولا شيوعية، بل يعتقدون أن الله واحد في السماء هو ربهم، وأنه بيده جميع أمورهم، وأن محمداً ﷺ واحد في الأرض هو إمامهم، به يقتدون، وبه يهتدون، وبسنته وهديه يعملون، وإذا سئلوا في قبورهم وقيل لكل منهم: «ما علمك بهذا الرجل؟» يقول ـ إن شاء الله ـ: «هو محمد، جاءنا بالبينات فآمنا به واتبعناه، هو محمد، هو محمد، هو محمد» فيقال له: «نم صالحاً قد علمنا، إن كنت لموقناً به. ويفتح له باب إلى النار فيقال له: هذا مقامك لو لم تتبع الرسول ثم يفتح له باب إلى الجنة، فلا يزال يناله من نعيمها وبركاتها ما تقر به عينه حتى يبعثه الله»(٢)، والذي ينام هو جسمه، أما روحه فإنها تتنعَّم في الجنة حرة طليقة، حتى يردها الله إلى جسدها يوم القيامة، نسأل الله أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين قال الحسن: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم وأعمى؟!(٣)، قال ابن أبي حاتم عن عون قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا، أيسجد معهم؟

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣١٧).

(٢) كلام المصنف مقتبس من حديث أخرجه البخاري (١٣٧٤) من حديث أنس.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٤١)، وعزاه في «الدر المنثور» (١١/ ٢٢٩) لعبد بن حميد فقط!

فتلا هذه الآية[١]. . . يعني لا يسجد معهم؛ لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بيِّن، وقال مجاهد[٢]: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ قال: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: الإمعة: هو الغمر المقلِّد الذي لا يفكر بعقله، ولا يميز الهدى من الضلال، وإنما يتبع غيره بدون دليل ولا برهان، قال ابن مسعود: «كنا نعد الإمعة في الجاهلية الذي يتبع القوم إذا دعوا إلى وليمة دون أن يكون هو مدعوّاً، وهو فيكم المحقب دينه الرجال»[٤]، أي: الذي يجعل دينه كالحقيبة ويضعه على رجل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٤١)، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٥٢٨)، ولم يورده السيوطي في «الدر» في تفسير هذه الآية!

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٤٠)، وابن جرير في «التفسير» (١٧/ ٥٢٧) بنحوه، وعزاه في «الدر المنثور» (١١/ ٢٢٩) للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٢٣).

(٤) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣٩٩)، وسعدان بن نصر في «جزئه» رقم (١٤٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٨٨)، والخطيب في «التطفيل» (ص٦٤ ـ ٦٥)، والحنائي في «فوائده» (رقم ١٠٦ ـ بتحقيقي)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٤٥) و(١٨٧٤ ـ ١٨٧٦)، والبيهقي في «المدخل» (٣٧٨)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٦٨، ١٤٧).
ورواه عن ابن مسعود جماعة، وهم:
أولاً: أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود: رواه أبو بكر بن أبي شيبة (٨/ ٥٤١)، ووكيع في «الزهد» (٣/ ٨٢٩)، وأبو خيثمة في «العلم» (١)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٣٩ و١٤٧).
وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.
ثانياً: عبد الملك بن عمير: رواه الطبراني في «الكبير» (٨٧٥٢).
قال الهيثمي (١/ ١٢٢): «رجاله رجال الصحيح إلا أن عبد الملك بن عمير لم يدرك ابن مسعود».
ثالثاً: سهل الفزاري، ولفظه: «اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكونن الرابع فتهلك»، رواه أبو خيثمة في «العلم» (١١٦).
وسهل هذا مجهول كما قاله الذهبي.
رابعاً: هارون بن رئاب: رواه الدارمي (١/ ٩٧)، والفسوي (٣/ ٣٩٩)، وابن عبد البر (١٤٦).
وهارون لم يسمع من ابن مسعود.
خامساً: الحسن البصري: رواه وكيع في «زهده» (٥١٣)، والدارمي (١/ ٧٩)، والبيهقي =

يقلده لا يعرف صوابه من خطئه. ويروى عن علي بن أبي طالب أنه كان كثيراً ما ينشد:

إذا المعضلاتُ تصدَّينَ لي ... كشفتُ حقائقَها بالنَّظرْ
ولستُ بإمَّعةٍ في الرِّجا ... لِ أسائل هذا وذا: ما الخَبَرْ؟[1]

وقال بعض الناصحين:

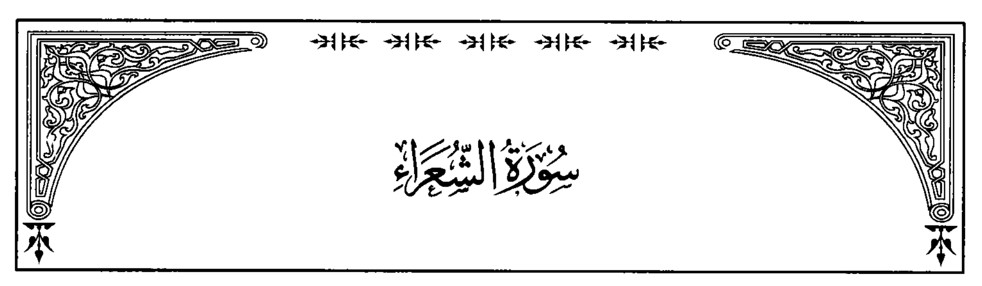
ولا تكُنْ إمَّعةَ الأقوامِ ... وقُلْ بما عندكَ من إفهام

وقد أثنى الله على أصناف من الناس في هذه الآيات وجعل منهم الذين إذا ذكروا بآيات الله، ـ أي: القرآن ـ وبيانه من سنة الرسول ﷺ لم يعرضوا عنها إعراض الصم العمي، بل يتدبرونها ويؤمنون بما دلت عليه ويعملون به، والمقلد لمذهب أو شيخ طريقة لا يفكر إلا فيما يأمره به مذهبه أو شيخه، ولا يعرض شيئاً من ذلك على كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ؛ لينظر أهو حقٌّ أم باطل؟ لأن أئمة مذهبه وشيخ طريقته ليسوا معصومين من الخطأ، فلا بدّ أن توضع آراؤهم في الميزان، فيأخذ ما وافق الحق منها، ويطرح ما خالفه.

= في «المدخل» (٣٨٠)، وقال: وهو منقطع؛ لأن الحسن لم يسمع من ابن مسعود.
وهذه الطرق تؤكد أن له أصلاً عن ابن مسعود، والله أعلم.
سادساً: الضحاك بن مزاحم: رواه الدارمي ـ ومن طريقه الذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٤٦٣) ـ، والضحاك لم يسمع من ابن مسعود، وهو كثير الإرسال.
سابعاً: يحيى بن عبد الرحمٰن: رواه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (١/ ١٨٤) عنه بلفظ: «لا يكونن أحدكم إمعة»، قالوا: وما الإمعة؟ قال: «يجري مع كل ريح».
ثامناً: طرفة المسلي: رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٤/ ٣٦٧)، وأبو داود في «الزهد» رقم (١٤١).
تاسعاً: عبد الرحمٰن بن يزيد: رواه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٦٦ ـ ١٦٧) رقم (٨٧٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٦ ـ ١٣٧)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ١٢٤)، **والأثر صحيح بمجموع هذه الطرق**.

(١) ذكر ابن عبد البر في «الجامع» (١٨٧٩) تمثُّل علي بن أبي طالب به، **وإسناده ضعيف جدًّا**، ونسبت له في «أمالي القالي» (٢/ ١٠١)، و«زهر الآداب» (١/ ٤٠)، و«تذكرة الخواص» (١٦٨)، و«صوارم الأسنة» (٢٢٥). والأبيات منسوبة للشافعي في: «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٦١)، و«طبقات الشافعية» (٤٧) للعبادي، و«طبقات الشافعية» (١/ ٣٠٠ و٢/ ١٩٥) لابن السبكي، و«السير» (١٠/ ٥٠). ونسبت في «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ٥٩٦) لأبي الأسود الدؤلي. وهي في «ديوان الصاحب بن عباد» (٢٢٣)، وكذا في «أخلاق الوزيرين» (٢٤٩)، ولصاحب هذه السطور جمع علمي موثق لشعر علي بن أبي طالب، يسر الله له إتمامه بخير وعافية.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَتُ ٱلْكِتَبِ ٱلْمُبِينِ ۝ لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَضِعِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾ [الشعراء: ٢ ـ ٦]

قال (ك): «أي هذا القرآن الواضح الجلي الفاصل بين الحق والباطل، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ﴾[١] أي: مهلك ﴿بَخِعٌ﴾ أي: من شدة ما تحرص وتحزن عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذه تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ثم قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَضِعِينَ ۝﴾ لو نشاء لأنزلنا معجزة تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نريد إلا الإيمان الاختياري، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝﴾ أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض أكثر الناس عنه كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [يوسف: ١٠٣] وقال تعالى هنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾ أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون ما سيحيق بهم»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه الآيات فوائد:

(١) بعدها في الأصل: «نفسك»! ولا وجود لها في «التيسير»!
(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/٣٢٦ ـ ٣٢٧).

الأولى: شدة حرص النبي ﷺ على هداية الناس وإيمانهم بالله ورسوله، حتى كاد يقتل نفسه من شدة الغم والأسف.

الثانية: تسلية الله تعالى له، وفي ضمنها تبشيره بأن تلك الحال التي كانت في مكة عند نزول سورة الشعراء لا تدوم، وسيعقبها الفتح والنصر المبين، فيدخل الناس في دين الله أفواجاً، وتقر عين النبي ﷺ وأعين المؤمنين.

الثالثة: إعلام الله نبيه أن حكمته تعالى اقتضت ترك الاختيار للناس وعدم إجبارهم على الإيمان؛ ليكون الثواب للمحسنين والعقاب للمسيئين.

الرابعة: إخبار الله تعالى عن المشركين أنهم كلما جاءتهم آية من آيات الله قابلوها بالإعراض، وكلما نزل شيء من الوحي لم يستمعوا له، وكذبوا رسول الله ﷺ واستهزؤوا به وبمن اتبعه.

الخامسة: إن عقاب الله لا بدّ أن ينزل بهم عاجلاً أو آجلاً.

السادسة: إن كل من ترك العمل بآية أو حديث فهو داخل في الجملة في هذا الوعيد. قال رسول الله ﷺ: «**ومن رغب عن سنتي فليس مني**»[1]. فالمقلد الذي يقدِّم قول إمامه أو بعض أهل مذهبه على كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ معرض في حكم المكذب، فإن قلت: وهل يوجد من يقدم رأيه أو رأي غيره على كتاب الله من مقلدة المذاهب؟ أقول: نعم؛ المنتسبون إلى مذهب مالك في هذا الزمان يجعلون عدة المرأة المطلقة ثلاثة أشهر ولو كانت تحيض[2]، ويعللون ذلك بأن النساء في هذا الزمان ليس لهن دين يمنعهن من الكذب، فلو وكلت الأمر إلى المرأة لكذبت وادعت أنها حاضت ثلاث حيضات، فالصواب عندهم أن تكون عدتها ثلاثة أشهر كاليائسة والصغيرة التي لم تحض، فجمعوا بين ما فرق الله بينه، وأعرضوا عن كتاب الله وحديث رسول الله وإجماع الصحابة، وقد تقدم في (الباب الثاني) من (سورة يونس) ذكر أمثلة متعددة لمخالفة بعض أهل المذاهب للأدلة الشرعية تعصباً لمذاهبهم، نسأل الله العافية.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «التفريع» (٢/ ١١٤)، و«الرسالة» (١٠٦)، و«الكافي» (٢٩٣)، و«الإشراف» (٣/ ٧ - بتحقيقي).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ٢٠٤]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي أوحاه إليك ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أي: نزل به على قلبك سالماً من الزيادة والنقص لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ أي: أنزلنا القرآن باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل؛ ليكون واضحاً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة.

روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: «بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دُجُنٍّ[١] إذ قال لهم: «**كيف ترون بواسقها؟**»[٢]؟ قالوا: ما أحسنَها وأشدَّ تراكمها! قال: «**فكيف ترون قواعدها؟**» قالوا: ما أحسنَها وأشدّ تمكنَها! قال: «**فكيف ترون جريها؟**» قالوا: ما أحسنه وأشد سواده!، قال: «**فكيف ترون رحاها استدارت؟**» قالوا: ما أحسنها وأشدّ استدارتها! قال: «**فكيف ترون برقها؟ أَوَميضاً أو خفقاً، أم يشق شقّاً؟**» قالوا: بل يشق شقّاً. قال: «**الحيا[٣] الحيا إن شاء الله**» قال: فقال رجل: يا رسول الله، بأبي وأمي ما أفصحك! ما رأيت الذي هو أعرب منك. قال: فقال: «**حق لي، وإنما أنزل القرآن بلساني،**

---

(١) في «القاموس»: «الدُّجُنّ كعُتُلّ: اليوم الريان المظلم». (منه).

(٢) «البواسق»: «جنس من النخل». (منه).

(٣) «الحيا»: «المطر». (منه).

والله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾»[(١)](٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] والزبر جمع زبور وهو الكتاب، والزبور الكتاب الذي نزل على داود عليه السلام، ومعنى زبر الأولين: كتب الأولين، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ أي: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن علماء بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟! والمراد: العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه(٣) كعبد الله بن سلام وغيره»(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ أي: إن قريشاً من شدة عنادهم وكفرهم بهذا القرآن: أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يونس: ٩٦] وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ . . .﴾ [الحجر: ١٢] إلى آخره».

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٨١٨)، وابن أبي الدنيا في «المطر والرعد» رقم (١٢)، والرامهرمزي في «أمثال الحديث» (ص١٥٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/رقم ٧١٦، ٧١٧)، والبيهقي في «الشعب» (٢/رقم ٤٣١، ٤٣٢) من **معضل** محمد بن إبراهيم التيمي، وفي إسناده موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي متروك، **فإسناده ضعيف جداً**، وعزاه في «كنز العمال» (٦/ ١٧٤) للعسكري، وهو في «أمثاله» والمطبوع منه ناقص وغير مسند!

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٤٨). (٣) بعدها في مطبوع «التيسير»: «وأمته».

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٤٩).

كذلك أدخلنا التكذيب والكفر والجحود والعناد في قلوب المجرمين جزاءً وفاقاً لما كذبوا به أول مرة فسلكناه في قلوبهم عقاباً لهم وجعلناهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالحق الذي كفروا به ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ حين لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: عذاب الله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ أي: يتمنون لو يؤجلون ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً، كما حصل لفرعون لعنه الله، ولكن ما ينفع الندم إذا أتى أمر الله.

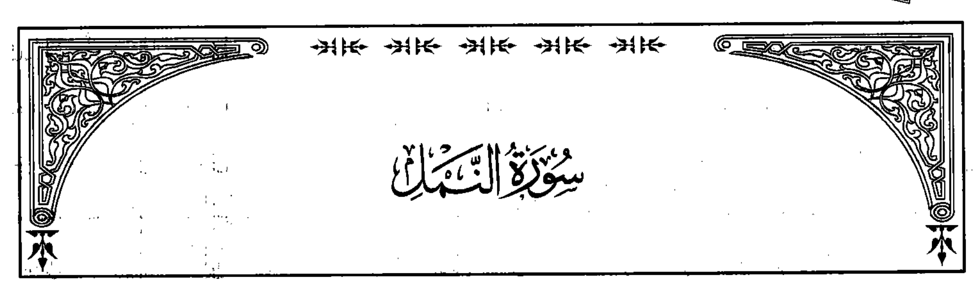
وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم، فقد كانوا يكذبون بالعذاب ويستبعدون وقوعه»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الله سبحانه وتعالى القول بأن القرآن تنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ؛ ليكون من المنذرين المحذرين من عذاب الله لكل من خالفه ونبذه وراء ظهره وابتغى الهدى في غيره، وقد جاء في حديث الحارث الأعور عن علي عن النبي ﷺ: «**من تركه تجبراً قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله**»[٢]، ونحن اليوم نرى الشعوب التي سعد أسلافها به تتخبط في ظلمات الجهل، وتتقلب في أنواع الشقاء، وتلتمس حل مشاكلها من طرق مسدودة، كالالتجاء إلى دول الشرق أو دول الغرب، وهيهات! هيهات! أن تجد حلاً لمشاكلها، ولا فرجاً لكربتها، إلا في هذا القرآن وسنة من إنزاله الله عليه، وكذلك المقلدون يلتمسون العلم في كتب الفروع التي هي ظلمات بعضها فوق بعض، ويتركون المورد العذب الصافي، وهو كتاب الله وسنة رسوله الكريم، نسأل الله أن يجعلهما شفاء لما في صدورنا من الجهل، ويهدينا بهما صراطه المستقيم.

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).
(٢) روي مرفوعاً وموقوفاً، والصحيح أنه من قول علي. انظر التعليق على (ص٩٩).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ [النمل: ١ ـ ٣]

قال (ك): «قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ أي: هذه آيات ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّن واضح ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ أي: هو بشارة وهدىً لمن اتبعه وصدقه ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ أي: يقيمون الصلاة المكتوبة ويؤتون الزكاة المفروضة وأيقنوا بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ الآية [فصلت: ٤٤]»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبرنا الله سبحانه أن آيات القرآن فيها هدىً وبشرى، فالهدى يمنع من الضلال في أمور الدين والدنيا، والبشرى تدخل السرور والانشراح على قلوب أهل الإيمان وتظهر نضرتها على وجوههم، كما قال النبي ﷺ: «**نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع**»(٢). وهذا الهدى وهذه البشرى خاصتان بالمؤمنين الذين يصدقون

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٥٥).

(٢) رواه أحمد في (١/ ٤٣٧)، والترمذي (٢٦٥٧ و٢٦٥٨) في «العلم»، باب ما جاء في =

كل ما جاء به الرسول بقلوبهم ويعملون الصالحات بجوارحهم، وأهمها إقامة الصلاة؛ أي: وَإِكْمالها وأداؤها كاملة مستوفية الشروط جامعة للآداب مطابقة لصلاة رسول الله ﷺ، وهو القائل: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1]. وأعظم ركن بعد الصلاة: الزكاة، وهما متلازمتان لا تتم إحداهما بدون الأخرى، ولذلك قرنهما الله تعالى في أكثر المواضع التي جرى ذكر إحداهما فيها، ثم وصفهم سبحانه وتعالى بوصف آخر وهو أصل كل صفة، وذلك إيقانهم المتجدد الذي لا ينقطع بالآخرة وهي دار الجزاء، ولا شك أن جامع هذه الأوصاف يكون متبعاً للرسول لا مقلداً ولا متمذهباً ولا صاحب طريقة ولا حزب إلا حزب الله ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٧٦ ـ ٨١]

قال (ك): «يخبر الله تعالى عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان، أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل، ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسى فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليهم[2] أفضل الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

= الحث على تبليغ السماع، وابن ماجه (٢٣٢) في «المقدمة»، باب من بلغ علماً، والحميدي (٨٨)، والرامهرمزي (٦) و(٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٨ و١٨٩ و١٩٠) من حديث ابن مسعود **وهو صحيح**، وجمع طرقه شيخنا عبد المحسن العباد ـ حفظه الله ـ في جزء مفرد مطبوع.

(١) أخرجه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٧٤) من حديث مالك بن الحويرث.

(٢) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «عليه».

قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وبلّغ رسالة ربك ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وإن خالفك الكافرون الذين لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لأن حالهم في عدم سماع الحق يشبه حال الموتى الذين تعطل سمعهم بالموت، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: إنما يستجيب لك من ينفعه سمعه وبصره الخاضع لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل الكرام على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أجاد الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات، وغرضي أنا منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾، إن القرآن في هذا الزمان يقرأ ويحفظ أكثر مما كان يقرأ ويحفظ في زمان النبي ﷺ والصحابة أضعافاً مضاعفة، ولكن هل يحصل به من الهدى والرحمة ما كان يحصل به في ذلك الزمان؟ الجواب: لا ثم لا؛ لأنه في ذلك الزمان كان تعلمه لله وقراءته لله مصحوبة بتدبر وخشوع يعمل به ويحكم به ويتأدب بأدبه، وفي هذا الزمان عكس ذلك، فالانتفاع بالقرآن كالانتفاع بالدواء، إذا استعمل حسب ما وصف الطبيب وتجنب المريض ما نهاه عنه طبيبه من المأكولات والمشروبات نفعه الدواء، وإذا استعمله على خلاف ذلك لا ينفعه بل يضره وقد جاء في الخبر: «**رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه**»[٢]. وذلك واضح في الظالم الذي يقرأ القرآن فيقرأ فيه ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٨] وفي الكاذب الذي يقرأ القرآن فيقرأ فيه: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] وفي الذي يقرأ القرآن ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر فيقرأ فيه ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).

(٢) ذكره الغزالي في «الإحياء» (١/ ٣٦٤) بلفظ: «رب تالٍ...» من قول أنس، وهو ليس بحديث، **لا أصل له**.

كَفَرُوا مِنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقد قال النبي ﷺ: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليلعننكم الله كما لعنهم**»(١). وفي الوقت الذي استولى المستعمرون على المغرب بأسره، كان القرآن يختم في كل شهر آلاف المرات، فلم ينفع المغاربة شيئاً، بل هزموا شر هزيمة واستولى عليهم أعداؤهم واستمر استيلاؤهم عشرات السنين، ولو كان القرآن يقرأ فيهم كما كان يقرأ في زمان النبي ﷺ وأصحابه لما قدر أولئك الأعداء أن يستولوا عليهم، ومن ذلك نعلم أن القرآن يكون هدى ورحمة للمؤمنين الذين يتعلمونه لله، ويعلمونه لله، ويعملون به، ويجعلونه إماماً وحكماً ويتأدبون بآدابه، ويستضيؤون بنوره، وإلا كانوا كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٠ ـ ٢٠٣] **وهيهات هيهات!** لا ينظرون والمقلد مع القدرة على معرفة الدليل أو معرفته بالفعل والإعراض عنه لا ينال من هدى القرآن ورحمته شيئاً، وكذلك المبتدع والحاكم الذي يحكم بخلاف ما في القرآن. فنيل الهدى والرحمة متوقف على الإيمان والعمل.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٣]

يخبر الله تعالى رسوله ويأمره أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ [قريش: ٣] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي: هو

(١) سبق تخريجه.

الذي حرمها فصارت حراماً شرعاً وقدراً، كما ثبت في «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه**»[1]. وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع، كما هو مبين في موضعه من كتاب (الأحكام)، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحدين المطيعين له، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: على الناس أبلِّغهم إياه ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ [فصلت: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء. قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس لا يَغْتَرَّنَّ أحدكم بالله، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة**»[2]. وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين[3] ـ إما له وإما لغيره ـ:

إذا ما خلوتَ الدَّهرَ يوماً، فلا تَقُلْ: خَلَوتُ ولكنْ قُلْ: عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ولا أن ما تُخفي عليه يغيبُ»[4]

---

(١) سبق تخريجه.

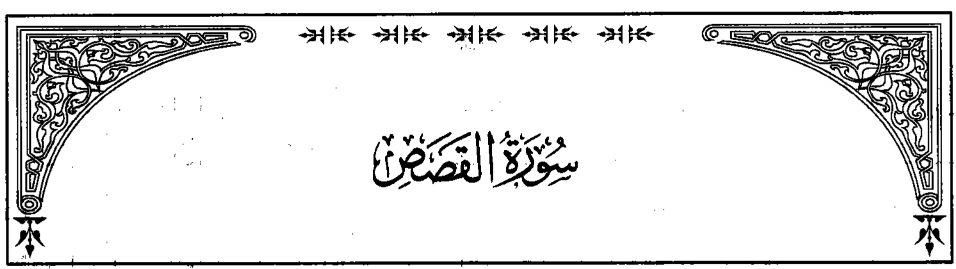
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٣٧)، والديلمي في «الفردوس» (٨١٦٧) **وإسناده ضعيف جدًّا**، فيه أبو أمية بن يعلى الثقفي، متروك، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (١٢١٤).

(٣) ذكرهما لأحمد ـ أو تمثله بهما ـ في: «الحلية» (٩/ ٢٢٠)، «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٠٥)، «طبقات الحنابلة» (١/ ٨٣)، «مناقب الإمام أحمد» (ص٢٦٥)، «عين الأدب والسياسة» (ص١٨٦)، و«المنهج الأحمد» (١/ ٢٥) ووقع اضطراب في نسبتها، بيّنته في تعليقي على «المجالسة» (٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥) للدينوري، فانظره غير مأمور.

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: محل الشاهد هنا هو قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ وأما دلالتها على التوحيد فقد تقدمت في (القسم الأول). والمراد بالإسلام هنا: الانقياد لطاعة الله وحده لا شريك له، والمراد بتلاوة القرآن: العمل به واتباع ما أنزل الله وعدم الخروج عنه، وقد أنذر النبي ﷺ أمته وحذرهم من معصية الله ومخالفة القرآن والسنة، فإن في خلافهما خزي الدنيا وعذاب الآخرة، كما أن في اتباعهما سعادة الدنيا والآخرة، والمقلد يمتنع من اتباعهما، إلا عندما يوافقان مذهب إمامه الذي اتخذه إلهاً من دون الله، يحلل ويحرم بقوله، ويوالي ويعادي لأجله، ونعوذ بالله من الخذلان.



سورة القصص

الباب الأول

قـولـه تـعـالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]

قال (ك): «أي: إن لم يتبعوا الحق. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: بغير حجة من كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾»[١].

قال الإمام المحقق محمد صديق حسن القنوجي في كتابه «الدين الخالص» (٣/ ٥٠) ما نصه: «لا تقليد في الدين الإسلامي».

يشير إلى قول نبينا محمد ﷺ: «**لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي، ولو كان موسى حيّاً واتبعتموه وتركتموني؛ لضللتم، أنا حظكم من الأنبياء، وأنتم حظي من الأمم**»[٢].

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٤٧)، وأحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (٤٣٥) ـ وسيأتي لفظه قريباً ـ، وأبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٢٨ ـ ٢٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٠)، والبزار (١٢٤ ـ «زوائده»)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، والبغوي (١٢٦)، والبيهقي (٢/ ١٠ ـ ١١)، وفي «الشعب» (١٧٧ ـ ١٧٩) من طرق عن مجالد عن الشعبي عن جابر رفعه.

وإسناده ضعيف، لضعف مجالد بن سعيد، وانظر: «التاريخ الكبير» (٥/ ٣٩) للبخاري و«الإصابة» (٤/ ٣٠). وأخرجه أحمد (٣/ ٤٧٠ ـ ٤٧١ و٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦) عن عبد الرزاق في «المصنف» (١٠١٦٤، ١٩٢١٣)، والبيهقي في «الشعب» (٥٢٠١) من طريق جابر الجعفي عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت بنحوه، **وإسناده ضعيف**، لضعف جابر.

وللحديث شواهد أخرى، هو بها ـ إن الله تعالى ـ حسن، وفصلت ذلك في تعليقي على =

«وهذا الحديث نص قاطع وبرهان ساطع على رد التقليد؛ لأنه إذا لم يسع موسى النبي ﷺ إلا اتباعه ﷺ، فمن ذاك الذي يجب تقليده واتباعه في الدين؟ وفي لفظة: «**البيضاء النقية**»[1] إشارة إلى أن أحكامها لا تحتاج إلى مزيد إيضاح بإلحاق الأقيسة والآراء، وضم التفاريع المبنية على الأهواء؛ لأنها إذا كانت محتاجة إلى ذلك، فلا يصح القصر عليها.

وإنما يستقيم اتباعها إذا ثبت كونها كاملة[2] واضحة غير خفية، وهي كذلك ولله الحمد.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

فهذا الملة الحنيفية السمحة السهلة البيضاء النقية، أدلتها وافية كافية شافية لفصل جميع الخصومات وقطع المنازعات، وقضايا الحوادث [الآتية][3]، بعموماتها وخصوصاتها، لا ملجأ لعارفها إلى إدراك ما قرره أهل الرأي، وحرره أصحاب البدع والأهواء.

ولولا ذلك لما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ثم قيده بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ فأفاد أن الرد عند التنازع إلى غيرهما مناف للإيمان، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرد ﴿خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

إنك يا مسكين! إذا تأملت في صنائع أهل الرأي والهوى أدركت أن كل آفة وقعت في الإسلام، وكل غربة جاءت فيه إنما نشأت من عدم الرد إلى الله ورسوله، والرد إلى الأحبار والرهبان، وتقديم أقوالهم على الآيات البينات والأحاديث الصحيحات، بنوع من التحريف والتأويل والانتحال، اللهم وفقنا لصالح الأعمال، وجنبنا عما يهلكنا في الحال، أو في المآل.

وفي حديث جابر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ بنسخة من

= «الأقوال القويمة» للبقاعي (ص١١٢ ـ ١١٤، ٢٦٨، ٢٦٢، ٣٦٢)، وهو قيد النشر، يسر الله ذلك بمنّه وكرمه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «تامة».

(٣) في مطبوع «الدين الخالص»: «الآتيات».

التوراة[1]، فسكت، فجعل يقرأ ووجه الرسول ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل! أما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: «أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً».

فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني، لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيّاً وأدرك نبوتي لاتّبعني»**[2] رواه الدارمي[3].

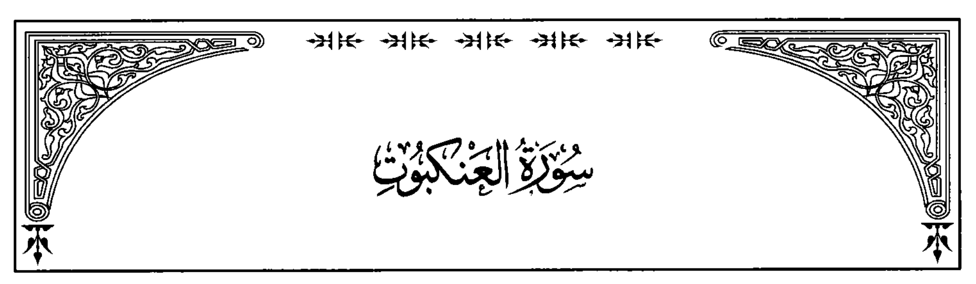
وهذا أوضح من الأول، وفيه القضاء بالضلال على من تبع غير رسول الله ﷺ ولو كان في أعلى مرتبة من النبوة، فكيف باتباع من ليس بنبي، ولا برسول؛ بل من آحاد الأمة، وهو متعبد بكتاب الله وسنة رسوله كغيره من العباد، مثل أئمة المذاهب[4] الأربعة وغيرهم من الأحبار والرهبان؟ وهذا يفيد أن تقليد الرجال، واتباع القيل والقال، ضلال وجهل ووبال، ولا يجوز لأحد أن يقلد أحداً في شيء، حتى يوافق قوله قول الرسول المعصوم من الخطأ.

فيكون اتباعه له في الحقيقة اتباع الدليل، لا تقليد ذلك الإمام الجليل، وحيث إن أكثر الناس الجهلة لا يعلمون الفرق بين التقليد والاتباع، يطعنون في العاملين بالحديث على قبول الدليل الذي ذكره أحد من أئمة الحديث وفقه السنة، ولا يدرون أن بين قبول الرأي وقبول الرواية بوناً بعيداً، ومن لم يفرق بينهما، فليس أهلاً للخطاب، والله أعلم بالصواب»[5].

قال محمد تقي الدين: لقد أجاد هذا الإمام الجليل في الرد على المقلّدين، ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

---

(١) بعدها في «الدين الخالص»: «فقال: يا رسول الله هذه نسخة من التوراة».
(٢) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «اتبعني».
(٣) سبق تخريجه قريباً.
(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «الملة».
(٥) انظر: «الدين الخالص» (٣/ ٣٤ ـ ٣٥).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت: ٤٥]

قال (ك): «يقول[١] تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ يعني: إن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش، والمنكرات، أي: إن[٢] مواظبتها تحمل على ترك ذلك، وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعاً «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً**»[٣].

وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس هل تدري ما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلت: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: «لقد قلت قولاً عجيباً وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عِنْدَ ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه[٤]، وقد روي هذا من غير وجه عن

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٤١١)، وعبد الرزاق (٢/ ٩٨)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٧)، ومجاهد (ص٥٣٥) في «تفاسيرهم»، والحاكم (٢/ ٤٠٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٧٤)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٥٥٤) للفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر.

ابن عباس وغيره»[١].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ أي: يعلم كل ما تفعلونه وسوف يجزيكم عليه؛ إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر[٢]، ومن ذلك تلاوة القرآن والعمل به وتبليغه وإقامة الصلاة وأداؤها على الوجه الأكمل، المطابق لفعل النبي ﷺ لقوله: «**وصلوا كما رأيتموني أصلي**»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ بتلاوة القرآن وبيانه للناس كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ[٤]﴾ [النحل: ٤٤] وأمره باتباعه في قوله سبحانه: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام: ١٠٦] وأمره بالتمسك به في قوله: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤] وأمره بالحكم به في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة: ٤٩] وأمر الناس كلهم باتباع القرآن فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٣] واتباع القرآن مع بيان الرسول ﷺ ـ وهو السنة ـ شرط في سعادة الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه كان شقيّاً في الدنيا والآخرة إذا بلغه وقامت عليه الحجة، وهناك أمور كثيرة تحول دون اتِّباعه منها الجهل والغفلة وعدم الإيمان أو ضعفه، ومنها اتباع الرؤساء المضلين، ومنها التقليد والمذهب واتخاذ الطرائق المضلة ورفقاء السوء والأحزاب الناكبة عن الصراط المستقيم، فالسعيد الموفق هو الذي يرضى بالغربة ويتمسك بالقرآن والسنة ويأمر أهله بذلك كما قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: ١٣٢] ولا يبالي بضلال الناس ولو بقي وحده، والهدى بيد الله.

قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» (٣/ ٦٠) ما نصه:

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥١٣، ٥١٦).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢١١)، وفي «روح المعاني» (٢٠/ ١٦٥) بنحوه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في الأصل: «يتذكرون»!

«ونظيره[١] اليوم بدعة التقليد فإنه منذ أحدثه الأقوام، نزع الله منهم سنة الاتباع الذي أمروا به، ثم لم يعدها[٢] إليهم إلى الآن ولا عبرة بشرذمة قليلة من القبائل الشاذة الفاذة، فإن الحكم للأكثر، وللأكثر حكم الكل.

ولا شك أنّ المقلِّدين أكثر والمحدِّثين أقل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ولا تعجبك كثرة الخبث[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من كان مستنّاً ـ أي يريد السلوك على الصراط السوي وسواء السبيل والطريق القويم والهدي المستقيم ـ فليستن بمن قد مات ـ أي: يقتدي بالميتين على الإسلام والعلم والعمل ـ فإنَّ الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة»[٤].

قال في «الأشعة»[٥]: هذا القول قاله ابن مسعود في زمانه للتابعين، ونصحهم، وأراد بمن مات: الصحابة، وبالحي: أهل زمنه غير الصحابة، «أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة»[٦] ممن سواهم «وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً» أي أكثرها غوراً من جهة العلم النافع، «وأدقها فهماً» في اتباع الكتاب والسنة «وأقلها تكلفاً» أي: تصنعاً ورياء وسمعة ومراعاة للرسوم والعادات المتعارفة بين الناس، قال تعالى في رسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

«اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه»، وهذا يدل على أفضليتهم وأكمليتهم؛ لأن الله لما اصطفاهم من بين الخلق أجمعين، وجعلهم أصحاب نبيه ﷺ على أنهم أفضل الخلائق، وأخيار الأمة، وجواهر نفوسهم أليق وأحرى

---

(١) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «وخطيره».

(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «يُعِده». (٣) في مطبوع «الدين الخالص»: «الخبيث».

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١٨١٠)، والهروي في «ذم الكلام» (ص١٨٨)، ورزين ـ كما في «المشكاة» (١/ ٦٧ ـ ٦٨) ـ عن قتادة به، **فهو منقطع**.
وفي «الحلية» (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) من طريق عمر بن نبهان عن الحسن عن ابن عمر قال: **«من كان مستنًّا فليستن بمن قد مات، أولئك...»**. **وهذا إسناد ضعيف**، لضعف عمر بن نبهان.

(٥) كذا في مطبوع «الدين الخالص»: وهو «أشعة اللمعات شرح المشكاة»، وتحرف في الأصل إلى «شرحه».

(٦) قطعة من أثر لابن مسعود، سيأتي مع شرحه ممزوجاً، وعزاه المصنف لرزين! وهناك تخريجه.

بانعكاس أنوار الهداية والإيمان كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. وقد وردت أحاديث في اصطفاء الصحابة واختيارهم على من سواهم، لصحبة نبيه ﷺ.

فالويل كل الويل لمن يسبهم ويشتمهم، ولا يعرف فضلهم، كالرافضة ومن ضاهاهم في هذه الصفة الملعونة.

«فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم» أي: في العلم النافع والعمل الصالح وإخلاص التوحيد ومحض الاتباع السديد، «وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»؛ لأنهم كانوا أتباع الرسول الكريم، في كل نقير وقطمير، وحقير وجليل ووضيع وعظيم. رواه رزين(١).

وفي هذا الحديث: دليل على إيثار آثار الصحابة والتمسك بأخلاقهم المرضية وسيرهم على السنة الصحيحة المأثورة، ولا شك أنهم أحق بذلك بعد الاعتصام بأدلة الكتاب والسنة. ثم الأمثل فالأمثل.

والتمسك غير التقليد لغة واصطلاحاً، وكذلك الاقتداء، ولهذا قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولم أقف على قول لعالم يعتمد عليه، أنه فسر هذه الألفاظ بالتقليد، بل فيه إشارة إلى ترك تقليد الرجال؛ لأن ابن مسعود حصر التمسك فيهم، ولم يرشد إلى التمسك بمن بعدهم من أئمة الأمة، فخرج بذلك تقليدات الأئمة الأربعة الفقهاء، الكائنين بعد عصر الصحابة، ولهذا نهى الأربعة(٢) المذكورون عن تقليدهم، وتقليد غيرهم، لا سيما أبو حنيفة(٣).

كيف؟! وهو يقتدي بروايات ابن مسعود، في كثير من فتاواه، ولا ينبغي له أن يخالفه في هذه الفتوى.

ولهذا روي عنه رحمه الله تعالى أنه قال: «ما جاء عن الصحابة فعلى

---

(١) عزاه التبريزي في «المشكاة» (١/ ٦٧ - ٦٨) لرَزِين - على وزن (أمير) - في «التجريد»، وأسنده عن ابن مسعود: ابن عبد البر في «الجامع» (١٨١٠)، والهروي في «ذم الكلام» (ص١٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٥ - ٣٠٦) من طريقين عنه، فيهما كلام، هو بهما - إن شاء الله تعالى - حسن.

(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «الأربع».

(٣) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «أعظمهم وأفقههم».

الرأس والعين، وما جاء عن التابعين زاحمناهم، فإنهم رجال، ونحن رجال»[١].

وهذا القول من ذاك الإمام[٢] أدل دليل على ترك التقليد، وإرشاد منه لغيره إليه، وهو اللائق بإمامته[٣]، بل هذا من علامات إمامة الأئمة، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة وأئمتها قاطبة، ولم يخالفهم أحد إلا من لا يعتد به ولا يلتفت إليه، من أفراخ الرأي، وأبناء البدع، وأصحاب الجدل وأرباب الجهل، ومقلِّدة دينهم الأحبار والرهبان، عافانا الله من ذلك[٤].

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني فرطكم على الحوض**»[٥]، «الفَرَط» بفتحتين: الفارط المتقدم إلى المنزل؛ لإصلاح الحياض والدلاء والأرشية، أي أنا سابقكم المهيِّئ[٦] لكم «**من مر علي شرب**» من الحوض «**ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني**» قيل: لعلهم الذين قال فيهم أصحابي «**ثم يحال بيني وبينهم فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي**» أي: بُعداً أو هلاكاً. «متفق عليه»[٧].

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال**[٨] **فأقول: أصيحابي أصيحابي** ـ على صيغة جمع القلة والتصغير، لقلة عددهم ـ **فيقول** ـ أي الله سبحانه ـ: **إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. فأقول كما قال العبد الصالح** ـ أي عيسى عليه السلام معتذراً[٩] ـ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧ ـ ١١٨]» متفق عليه[١٠].

وتمام الآية ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «الأعظم».

(٣) في مطبوع «الدين الخالص»: «بعظمة إمامته».

(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «منه».

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٨٣) وغيره.

(٦) في مطبوع «الدين الخالص»: «المتهيئ».

(٧) أخرجه البخاري (٦٥٨٤)، ومسلم (٢٢٩٠) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٨) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «أي التي يذهبون بالعصاة إليها».

(٩) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «واستخلاصاً لقومه».

(١٠) أخرجه البخاري (٤٦٢٥) من حديث ابن عباس ومسلم (٢٣٠٤) من حديث أنس.

قال في «أشعة اللمعات»: «قالوا: ليس المراد بهذا خواص الأصحاب، لأنا نعلم ـ يقيناً ـ أنه لم يرتد أحد منهم بعد النبي ﷺ إلا قوم من جفاة العرب من أصحاب (مسيلمة الكذاب) و(الأسود العنسي)[١] أو بعض مؤلفة القلوب الذي لم تكن لهم بصيرة بالدين ولا قوة في الإيمان.

أو المراد بالردة: خروج عن حد الاستقامة في بعض الحقوق، وإصلاح السريرة في بعض الأمور[٢]، ورعاية أهل البيت في التأدب معهم للابتلاء بالدنيا والفتن؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا أخاف عليكم الكفر وعبادة الأوثان، إنما أخاف عليكم الدنيا وآفاتها**»[٣] كذا قالوا، لا رجوعهم عن دين الإسلام». انتهى.

وبالجملة قد دلّ الحديث على نفي علم الغيب عنه ﷺ لقوله: «**لا تدري**» ودلّ على وقوع الإحداث بعده ﷺ[٤]، لأن الحديث الثاني زاده إيضاحاً بقوله: «**أصيحابي**» حيث إن كل من رأى النبي ﷺ لحظة، وأسلم، يطلق عليه لفظ (الصاحب) صح أن بعض من كان صاحباً بهذه الصفة أحدث شيئاً بعد النبي ﷺ لعدم رسوخه في الإسلام، وهذا خاص بمثل هؤلاء الأصيحاب.

ومن عمم الحديث فيهم فقد غلط غلطاً بيّناً؛ لأن نفس الحديث يرد عليه مراده هذا، كالرافضة قاتلهم الله، فإنهم تعلقوا بهذا الحديث في إثبات ردّة أكابر الصحابة، لا سيما الراشدين منهم، ولا حجة لهم[٥] في ذلك، والحديث دل أيضاً على الدعاء على أهل الإحداث وهو ضد الاتباع، «**وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[٦].

ودلّ الاستشهاد في الحديث الثاني بقول العبد الصالح المذكور، على أن عيسى عليه السلام كان عبداً ولم يكن يعلم الغيب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**» أي: امتنع من قبول ما جئت به، كأهل البدع، من التقليد وغيره،

---

(١) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «والأعور»!

(٢) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «والرجوع عن مرتبة حسن الأخلاق وصدق النية والتقصير في بعض الحقوق».

(٣) أخرجه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦) من حديث عقبة بن عامر.

(٤) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «في الأمة وأي أمة هي أفضل الأمة».

(٥) من مطبوع «الدين الخالص»، وسقط من الأصل.

(٦) مضى تخريجه (ص١٠٦ ـ ١٠٧).

فإنهم أبوا أن يتبعوا الكتاب والسنة، وتمسكوا في مقابلته بالتفريعات المحدثة، والتخريجات المبتدعة، واتخذوها ديناً. قيل: ومن أبى؟ قال: «**من أطاعني**» باتباع سنتي والاعتصام بكتاب الله «**دخل الجنة، ومن عصاني**» ولم يعمل بما جئت به من القرآن والحديث «**فقد أبى**» رواه البخاري[١].

قال في الترجمة: أي عصاني بإيثار البدعة واتباع هوى النفس، فقد عصى[٢] ولا يدخل الجنة. اهـ.

وهذا ظاهر في عدم دخول المبتدعة[٣] الجنة، وفي ذلك من الوعيد ما لا يقدر قدره؟

وبهذا تقرر أن الابتداع عصيان للرسول، كما أن الاتباع طاعة له ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

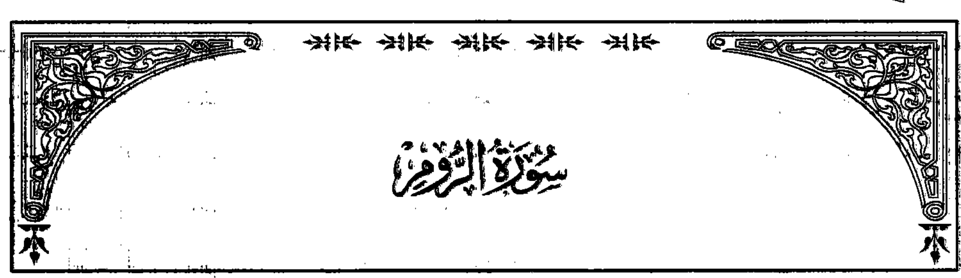
وفي حديث أنس مرفوعاً في قصة ثلاث[٤] رهط: «**أما والله، إني لأخشاكم لله واتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلِّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**». متفق عليه[٥].

أي: من أعرض عن سنتي استهانة، وزهداً، فليس من أشياعي، وكل من لا يتبع السنة فإنه مستهين بها زاهد فيها»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).
(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «عتى».
(٣) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «في».
(٤) كذا في الأصل، والصواب: «الثلاثة».
(٥) سبق تخريجه.
(٦) انظر: «الدين الخالص» (٣/ ٤١ ـ ٤٤).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ [الروم: ٥٨ ـ ٦٠]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: لو رأوا أيَّ آية كانت، سواء[(١)] باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. ولهذا قال ههنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك [عليهم][(٢)] وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه ولا تعدل عنه، وليس فيما سواه هدى يتبع بل الحق كله منحصر فيه، قال سعيد عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾ [الزمر: ٦٥] فأنصت له علي حتى فهم

---

(١) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

ما قاله[١] فأجابه وهو في الصلاة ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[٢]. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في الأبواب السابقة أن القرآن سبب السعادة في الدنيا والآخرة لكل من بلغه واعتقد صدقه وعمل به، وبيانه في سنة الرسول ﷺ، ومن أعرض عنه فهو خاسر في الدنيا والآخرة.

قال القنوجي في «الدين الخالص»:

«عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»**[٤]. متفق عليه.

و«الأجادب»: الأراضي الصلبة المنخفضة التي تمسك الماء.

و«الكلأ» بالكاف واللام المفتوحتين مهموزاً هو على زنة جبل، يقع على الرطب واليابس، و«العشب» بالضم الرطب، و«القيعان» جمع «قاع» وهي الأرض المستوية.

ذكر في هذا الحديث أن الناس قسمان منتفع بدينه وغير منتفع به، وكذلك الأرض على قسمين: منتفعة بالماء، وغير منتفعة به، والمنتفعة نوعان: منبت: وغير منبت.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٩٥) كلاهما في «التفسير»، والحاكم (٣/ ١٤٦)، والبيهقي (٢/ ٢٤٥)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١/ ٦١٣) لابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٤١ ـ ٤٢).

(٤) سبق تخريجه.

وكذلك المنتفع بالدين على صنفين:

أحدهما: عالم عابد، متفقه، مُتفهِّم معلِّم، كالطائفة الطيبة من الأرض التي قبلت الماء وأنبتت الكلأ ونفع الله بها الناس.

والثاني: عالم معلِّم غير متعبد بالنوافل لم يتفقه فيما جمع من العلم كالأرض الجدبة التي أمسكت الماء وانتفع به الناس.

وأما من لم يرفع رأسه، ولم يلتفت إلى العلم قطعاً، أو التفت ولم يعمل به مطلقاً ولم يعلِّم أحداً، سواء دخل في الدين أو لم يدخل، وبقي كافراً، فهو كالقاع لم يمسك ماء، ولم ينبت كلأ، هذا خلاصة ما ذكره شرّاح «صحيح البخاري»[(١)].

قال في الترجمة: ويمكن أن يقال: إن القسم الأول عبارة عمن تعلم واجتهد، واستنبط المعاني والنكات والأسرار وشرح وبيّن كالفقهاء المجتهدين، والعلماء المتقنين[(٢)] المحققين، فإنهم كالأرض المنبتة للكلأ النابت من الأرض وثمراتها ونتائجها.

ومصداق القيعان طوائف أهل البدعة والمحدثات من سائر الفرق الإسلامية الماضية، والحاضرة، والآتية إلى قيام الساعة، فإنهم لم يرفعوا رؤوسهم بالهدى والعلم، ولم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله ﷺ إليهم، بل قدموا بدعهم على السنن، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولا شيء أشق عليهم من تلاوة آية من كتاب أو ذكر حديث[(٣)] صحيح عند المناظرة في المسائل والأحكام، وإذا حررت لهم رواية من كتب الرأي، وصحف الفقه وذكرت قولاً لإمام، برقت أساريرهم، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥] وما أجمع هذا الحديث للفوائد الكثيرة.

وبالتأمل فيه تظهر الفوائد الغزيرة لمن رزقه الله فهما صحيحاً، وقلباً سليماً، وألقى السمع وهو شهيد.

---

(١) انظر «فتح الباري» (١/ ١٧٥ ـ ١٧٧)، و«عمدة القاري» (٢/ ٧٦ ـ ٧٧) و«شرح ابن بطال» (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤) و«شرح الكرماني» (٢/ ٥٥ ـ ٥٨).

(٢) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «المتقين»!

(٣) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «من».

وعن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أُلْفِيَنَّ أحدكم**»، أي: لا أجدن «**متكئاً على أريكته**». أي: سريره المزين بالحلل والأثواب «**يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه**» وهي الأوامر والنواهي المدونة في الكتب الستة وغيرها من دواوين الحديث ومسانيد الأخبار «**فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه**»[١] رواه أحمد وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي في «دلائل النبوة». قال في المرقاة: «المعنى: لا يجوز الإعراض عن حديثه ﷺ لأن المعرض عنه، معرض عن القرآن»[٢] .اهـ.

وقال في «الأشعة»: «أخبر رسول الله ﷺ عن حال بعض أهل الجهل والفراغ والتكبر، أنه يتقاعَدُ ويتكاسل عن العمل بالحديث في الأمر الذي لا يوجد حكمه في القرآن، ويظن أن الأحكام تنحصر في القرآن فقط، وهو جاهل بأن أكثر الأحكام في الأحاديث، وليس في الكتاب.

وكما أن القرآن حجة، فكذلك الحديث أيضاً حجة، وكما أن الرسول ﷺ أعطي القرآن فكذلك أعطي أيضاً الأحاديث، فكلاهما وحي كما في حديث المقداد بن معد يكرب يرفعه: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله**»[٣] الحديث. رواه أبو داود، وروى الدارمي نحوه، وكذلك ابن ماجه.

قال: المماثلة هي في كونهما وحياً، فكما أن القرآن وحي منزل من الله تعالى، فكذلك الأحاديث وحي من الله الحق تعالى.

والشبعان كناية عن بلادة العقل وسوء الفهم؛ لأن الشبع والشره للطعام سبب لذلك، أو كناية عن الكبر والحماقة التي يوجبها التنعم والترفه».اهـ.

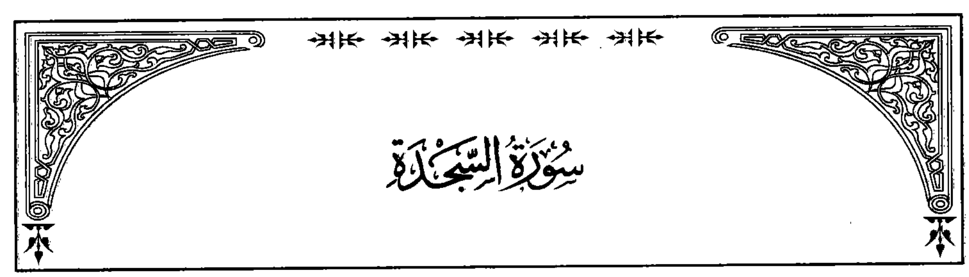
قلت: قصر التمسك على الكتاب العزيز شعبة من الخروج ونوع من النفاق، والخارجية هم القائلون في مقابلة علي عليه السلام: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: لا نقبل شيئاً إلا ما في القرآن والمراد بهذا إنكار الحديث، والفرار[٤] عن اتباعه، فمن لم يقبل السنة، واقتصر على القرآن، ففيه شائبة، بل شيمة الخارجية بلا تفاوت، ولا

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ١٩٥).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «والقرار».

يصح إيمان أحد حتى يتبع السنن كما يتبع القرآن، كيف وقد جاءنا بهذه من جاء بالقرآن، ولم نعلم القرآن إلا ببيان الرسول، فإذا لم يقبل أحد بيانه ﷺ فإنه غير قابل للقرآن أيضاً»[١].

(١) من: «الدين الخالص» (٣/ ٤٤ ـ ٤٧) بتصرف.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ [السجدة: ٢، ٣]

قال (ك): «أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: اختلقه من تلقاء[١] نفسه ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: يتبعون الحق»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: القرآن حق أنزله الله على قلب محمد ﷺ؛ لينذر به العرب والعجم والإنس والجن. وكل من قبله واتبعه صار من المهتدين إلى طرق السعادة في الدنيا والآخرة، وكل من ردّه كله أو ردّ بعضه فقد خاب وخسر في الدارين. وهذه سبعمائة مليون من المدعين للإسلام خائبون خاسرون، وهذا أكبر شاهد. ثم قال المحقق القنوجي في (٣/ ٦٩): «[بل الذي][٣] يجب الأخذ[٤] بهما جميعاً ولا يؤخذ بغيرهما فإن أصل الأصول الإسلامية، هو هذان الأصلان لا ثالث لهما ولا رابع، وإنما يستأنس بالإجماع وبالقياس للمتابعة والشهادة، لا إنهما أصلان مستقلان يبنى عليهما شيء من أحكام الإسلام، فإنه لم يقل[٥] بذلك أحد ممن يعتد به من علماء الإسلام، والله أعلم.

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «عند». (٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٤٦٤).

(٣) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وبدله في الأصل: «واللذين».

(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «أن يأخذ». (٥) في مطبوع «الدين الخالص»: «لا قائل».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أكل طيباً وعمل في سُنَّة، وأمن الناسُ بوائقَه دخل الجنة»**[(١)].

«البائقة»: الداهية، والمراد هنا: الشرور.

والمعنى من أكل الحلال، واجتنب الحرام، وعمل على وفق الحديث والقرآن، والناس من شره في أمان، فهو مستحق لدخول الجنان.

فقال رجل: يا رسول الله، إن هذا اليوم لكثير في الناس، قال: **«وسيكون في قرون بعدي»**، المراد بالقرن: أهل العصر، وكلما بعد عصر من زمان النبي ﷺ كان الصلحاء فيه أقل ممن قبلهم، ولهذا قال: **«خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**[(٢)] والمراد بقوله: **«سيكون زمان»** العامل بالحديث من غرباء الإسلام، وفيه إخبار بأن الخير لا ينقطع من أمته ﷺ مطلقاً، وإن تفاوت بالقلَّة والكثرة، وأنه يكون في آخر الزمان جماعة تقوم على طريقة التقوى والسنة المطهرة كما في الترجمة.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنكم في زمان من ترك منكم عُشر ما أمر به هلك، وعوقب عليه، ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا»**[(٣)]. رواه الترمذي. أي: نجا من العذاب وأثيب عليه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٢٠)، وفي «العلل الكبير» (٦١٩) والحاكم (٤/ ١٠٤)، والطبراني في «الأوسط» (٤/ ٢٥)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٥٤) **وإسناده ضعيف**، فيه أبو بشر صاحب أبي وائل الراوي عن ابن مسعود، مجهول قال البخاري فيما نقل عنه الترمذي: «لا أعرف أبا بشر هذا، ولا أدري ما هذا الحديث» قال الترمذي عنه أيضاً: «وعرف هذا الحديث من هذا الوجه وضعّفه» وقال الإمام أحمد ـ كما في «فيض القدير» (٦/ ٨٦) ـ «ما سمعت بأنكر من هذا الحديث» وضعفه شيخنا الألباني.

(٢) سبق تخريجه (ص١١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢٦٧) والطبراني في «الصغير» (٢/ ١٣٨)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (٤٦٤)، وأبو نعيم (٧/ ٣١٦) والهروي في «ذم الكلام» رقم (٩٨) من حديث أبي هريرة، ومداره على نعيم بن حماد، قال الذهبي في «السير» (١٠/ ٦٠٦) عن نعيم: «تفرد بذلك الخبر المنكر»، وانظر: «العلل» (٢٧٩٤) لابن أبي حاتم، وأخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٣٧٤)، وأحمد (٥/ ١٥٥) والهروي في «ذم الكلام» (٩٧) من حديث أبي ذر، **وفي إسناده كلام**، وورد في الباب عن عبد الله بن سعد مرفوعاً، وعن ابن مسعود موقوفاً، عند مالك (٨٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٩٠)، وعبد الرزاق (٣٧٨٧)، وهناد في «الزهد» (٦٧٠)، وأبو خيثمة في «العلم» (١٠٩)، والطبراني =

وقال في «المرقاة»: ««**ما أمر به**» من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ لا يجوز صرف هذا القول إلى عموم المأمورات؛ لأنه عرف أن مسلماً لا يعذر فيما يهمل من الفرض الذي تعلق بخاصة نفسه.

والمراد بـ«**هلك**»: إن الدين اليوم عزيز، والحق ظاهر، وفي أنصاره كثرة، فالترك يكون تقصيراً منكم فلا يعذر أحد منكم في التهاون، «**ثم يأتي زمان**» يضعف فيه الإسلام «**من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا**»، لانتفاء تلك المعاني المذكورة». انتهى[(١)].

والحاصل أن قليل العمل في زمان كثير الفتن، يوجب النجاة»[(٢)].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢]

قال (ك): «أي: لا أظلم ممن ذكّره الله بآياته وبيّنها له ووضَّحها ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها، قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز أشد العَوَز[(٣)]، ولهذا قال تعالى متهدِّداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: والمقلِّدون يدخلون في هؤلاء دخولاً بيناً، فكل من أعرض عن اتباع الكتاب والسنة داخل في هذا الوعيد دخولاً أوليّاً، ويسمَّى مجرماً شرعاً ويكون متعرضاً لانتقام الله تعالى، كما ترى في أهل هذا الزمان نسأل الله العافية.

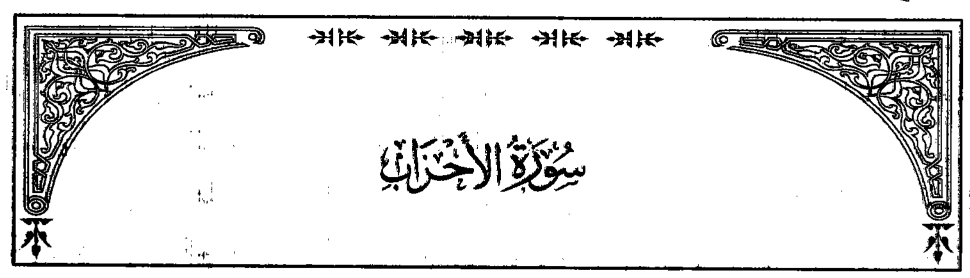
= (٨٥٦٧، ٩٤٩٦)، والحاكم (٤/ ٤٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥٠٠٠)، **وإسناده صحيح وصححه** شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥١٠)، وله حكم الرفع، وهو أمثل ما ورد في الباب وانظرها (٣١٨٩).

(١) النقل من «مرقاة المفاتيح» (١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) بتصرف.

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٣/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعظم من أعظم الذنوب».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٠٤).



سورة الأحزاب

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦]

قال (ك): «قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وفي «الصحيح»: **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»**[(١)]، وفي «الصحيح» أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي»، فقال ﷺ: **«لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك»**. فقال: «يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي»، فقال ﷺ: **«الآن يا عمر»**[(٢)]. ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وقال البخاري في هذه الآية الكريمة بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة؛ اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته مَنْ كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»**[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والتوقير

---

(١) أخرجه البخاري (١٤)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢). (٣) أخرجه البخاري (٤٧٨١).

والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمَّى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين كما هو منصوص عن الشافعي رحمه الله عنه في «المختصر»[(١)]، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدَّر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدَّل ولا يغيَّر، قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جارٍ في قدره الأزلي وقضائه القدري الشرعي، والله أعلم»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: هاتان الآيتان وما جاء في تفسيرهما يحتم على كل مسلم اتباع الكتاب والسنة وترك الرأي والتقليد إلا بقدر الضرورة. قال المحقق القنوجي رحمه الله في (٤/١٠٨): (باب في رد بدعات التقليد): «وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] المجيء بالنون في الفعلين، لقصد الإخبار عن سائر الموحدين، وفيه إشعار على التزام جماعة السنة وإطلاق العبادة والاستعانة لقصد التعميم، ليتناول ترك كل معبود ومستعان به، واستحسنه الزمخشري[(٣)]، أفادت الآية الشريفة تخصيص العبادة لله، والاستعانة بالله، وترك التقليد؛ لأن التقليد العرفي المصطلح عليه، إذا تأملت فيه وجدته نوعاً من أنواع العبادة لغير الله، والاستعانة بغيره[(٤)] سبحانه وتعالى، لكونه اتباعاً للهوى، ومن اتبع هواه فقد اتخذه معبوداً له.

---

(١) انظر: «مختصر المزني» (ص١٦٣ أو ٨/١١) ـ مع شرح الماوردي «الحاوي الكبير»).
(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/٤٧٧ ـ ٤٧٨).
(٣) انظر: «الكشاف» (١/١٠، ط. المعرفة). (٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «بدونه».

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وإطلاق «الهوى» على التقليد مشعر بكونه من أبواب الشرك، المخالف للتوحيد، ولهذا جزم ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ بكون التقليد شركاً وأنه حرام على الإطلاق[١].

فهذه الآية الكريمة، كما دلت على التوحيد ونفي الشرك، فهكذا دلت بالإشارة إلى نفي التقليد.

ويا لله العجب[٢] من أقوام يقرؤون هذه الآية في سورة الفاتحة كل يوم خمس مرات فصاعداً، في كل صلاة، ويقرّون بتخصيص العبادة لله والاستعانة به ثم يشركون خارج الصلوات، ويقلِّدون في الشرائع الأموات، ولا يخطر ببالهم أن ذلك يقع منهم موقع الكذب بين يدي الله سبحانه، فما أعظم إثم ذلك!! أعاذنا الله مما هنالك.

وهذه أول آية في القرآن الشريف ترد الشرك والتقليد.

والثانية: قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

والصراط المستقيم هو اتباع القرآن والحديث، في كل نقير وقطمير، وحقير(!!) وجليل، وصغير وكبير.

ومن ترك اتباعهما وقلد الناس ـ أي ناس كانوا ـ فقد بَعُد عن الصراط المستقيم، والتنصيص على أن صراط المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكد وجه وأبلغه. بحيث لا يذهب الوهم عند ذكره إلا إليه.

وهذا يرشدك إلى أن المطيع لله ولرسوله، وهو: الذي يتبع الكتاب العزيز والسنة المطهرة، دون من يطيع الأحبار والرهبان. [فإنه ليس من هذه الإطاعة المشار إليها في شيء][٣].

---

(١) انظر: «الإحكام في أصول الأحكام» (٢/٦/١٠٨٩، ط. دار الحديث)، ولابن حزم كتاب مفرد في «إبطال القياس والاستحسان والرأي والتقليد» طبع «ملخصه»، وهو للذهبي وليس لابن حزم كما أُثبت على طرته! وقد فرغت من تحقيقه على نسخة خطية وحيدة، يصعب جدًّا قراءتها، ويسر الله لي التأمل الشديد في كلماتها وأنا في الطائرة في جملة أسفار، يسر الله إتمامه بخير وعافية وإظهاره في الأسفار، إنه ولي ذلك والقادر عليه، و(ص٨٠٠، ط. أحمد شاكر).

(٢) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «للعجب»!

(٣) غير واضح في الأصل، والمثبت من مطبوع «الدين الخالص».

وفيه أن ذلك إنما يحصل بطاعة الله، أي: طاعة كتابه وطاعة الرسول، أي: اتباعه. ومفهومه أنه لا يحصل لمن قلد غيرهما، فالآية الشريفة حاملة لهم على سؤال اتباع الكتاب والسنة، ومشيرة إلى ترك التقليد. وكذا ما بعدها وهو قوله سبحانه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]؛ لأن المراد بهم اليهود والنصارى، كما ورد بذلك الحديث(١).»(٢).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]

قال (ك): «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه ﷻ صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين قلقوا(٣) وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ؟»(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مسلم يجب عليه أن يقتدي بالنبي ﷺ وهذا معنى الأسوة، فإن كان عالماً بالكتاب والسنة لم يحل له أن يعمل ويفتي بغيرهما، وإن كان جاهلاً وجب عليه أن يسأل العلماء عنهما، فإذا اتخذ إماماً ومذهباً بدلاً من الكتاب والسنة، فقد خرج عن طاعة الله ورسوله وأشرك بالله وعبد معه غيره لأنه جعل له الحكم، وكما أن الصلاة والدعاء والذبح والنذر والاستغاثة والحج والصدقة والحلف والتوكل والرجاء والخوف والرغبة وما جرى مجراها لا يكون شيء من ذلك إلا لله، فكذلك الحكم وهو التحليل والتحريم

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٧٣ ـ ٧٥) بتصرف.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تقلقلوا».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

والإيجاب والكراهة والاستحباب والإباحة؛ هذه الأحكام خاصة بالله وحده، ومن جعل شيئاً منها لغير الله فقد اتخذه إلهاً من دون الله، راجع حديث عدي بن حاتم[1] في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣١]. فاتخاذهم الأحبار وهم العلماء والرهبان ـ وهم العباد ـ أرباباً إنما ذلك لأنهم جعلوا لهم التحليل والتحريم، ولم يعبدوهم بصلاة ولا غيرها وعبدوا المسيح بالصلاة والسجود والدعاء، فسوّى الله تعالى بين العبادتين فلا فرق بين الصلاة وجعل الحكم، كل ذلك شرك. وأخبر الله تعالى في هذه الآية أن الذين يقتدون برسول الله ﷺ ويتبعونه هم الذين يرجون الله واليوم الآخر ويذكرون الله كثيراً، ومن اتخذ لنفسه إماماً غير النبي ﷺ وكتاباً غير كتاب الله وحزباً غير أصحاب رسول الله ﷺ يسميهم أهل مذهبه فتلك علامة على أنه لا يرجو الله واليوم الآخر ولا يذكر الله كثيراً. وقوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: تأسٍّ حسن، وهو الاتباع التام في كل شيء من أمور الدين، فإن كان يقتدي بالنبي ﷺ فيما يوافق مذهبه أو قول إمامه ويتحيل على ردّ ما خالفه إما بالتحريف وإما بادعاء الضعف أو النسخ أو يدَّعي أن إمامه قد أحاط بجميع مسائل الكتاب والسنة، لا يغفل ولا ينسى ولا يجهل شيئاً فما ترك ذلك الحديث إلا لعلة، فقد ضل ضلالاً بعيداً. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦]

قال (ك): «هذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥] وفي

---

(١) مضى تخريجه.

الحديث: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[(١)]. ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآية من أعظم الحجج على المقلدين والمتمذهبين وأصحاب الطرائق والأحزاب التي ينتسب أفرادها إلى الإسلام، هؤلاء إذا خالفوا حكماً واحداً مما حكم الله ورسوله به، فلا عجب إذا غلبت خمسة عشر مليوناً ـ وهو عدد اليهود في الدنيا كلها ـ سبعمائة مليون[(٣)] يدّعون الإسلام ويحكمون بغير ما أنزل الله علانية، وقد بان لهم البرهان في الهزائم المتوالية عليهم، وفي ذلتهم وهوانهم على الناس لو كانوا يعقلون، فنسأل الله أن يبصرهم من العمى، ويهديهم من الضلال. انتهى.

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان في «الأربعين» رقم (٩) ومن طريقه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، والبيهقي في «المدخل» (ص١٨٨)، وأبو نعيم في «الأربعين»، والبغوي (١٠٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٦٩)، وأبو الطاهر السلفي (رقم ٤٥، ط. السعدي وص١٧٧، ط. عبد الله رابح)، وفي «معجم السفر» (ص٣٧٥)، والهروي في «ذم الكلام» (رقم ٣١٣، ط. الشبل)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨) رقم (٢٧٩).
وإسناده ضعيف، فيه نُعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه، وقد اتهمه بعضهم، وقد ذكر له الحافظ ابن رجب علتين أخريين في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧)، فراجعه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٧٠).

(٣) عدد المسلمين اليوم مليار ومئتا ألف، وما زالوا ـ ولا قوة إلا بالله ـ مغلوبين من اليهود وغيرهم، اللهم جمِّل حالنا، وبدِّله، بأن تمنّ علينا بفهم ديننا، ومعرفة سنتك في التغيير، وأن ترزقنا العمل الجادَّ المثمر لخدمة كتابك وسنة نبيك ﷺ بفهم سلف الأمة، وأن تبقي ثمرته وتبارك في آثاره، وأن لا تجمع علينا خسارتي الدنيا والآخرة، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك.

الموضوعات والمحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة آل عمران

سورة النساء

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة المائدة

الموضوع | الصفحة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

الموضوع | الصفحة

سورة الأنفال

الموضوع | الصفحة

سورة التوبة

الموضوع	الصفحة

سورة يونس

الموضوع الصفحة

سورة إبراهيم

سورة النحل

سورة الإسراء

الموضوع | الصفحة

الموضوع | **الصفحة**

سورة الفرقان

الموضوع | الصفحة

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

الموضوع — الصفحة

سورة الروم

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سبيل الرشاد

في

هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي

رحمه الله تعالى

(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)

(١٨٩٣ - ١٩٨٧ مـ)

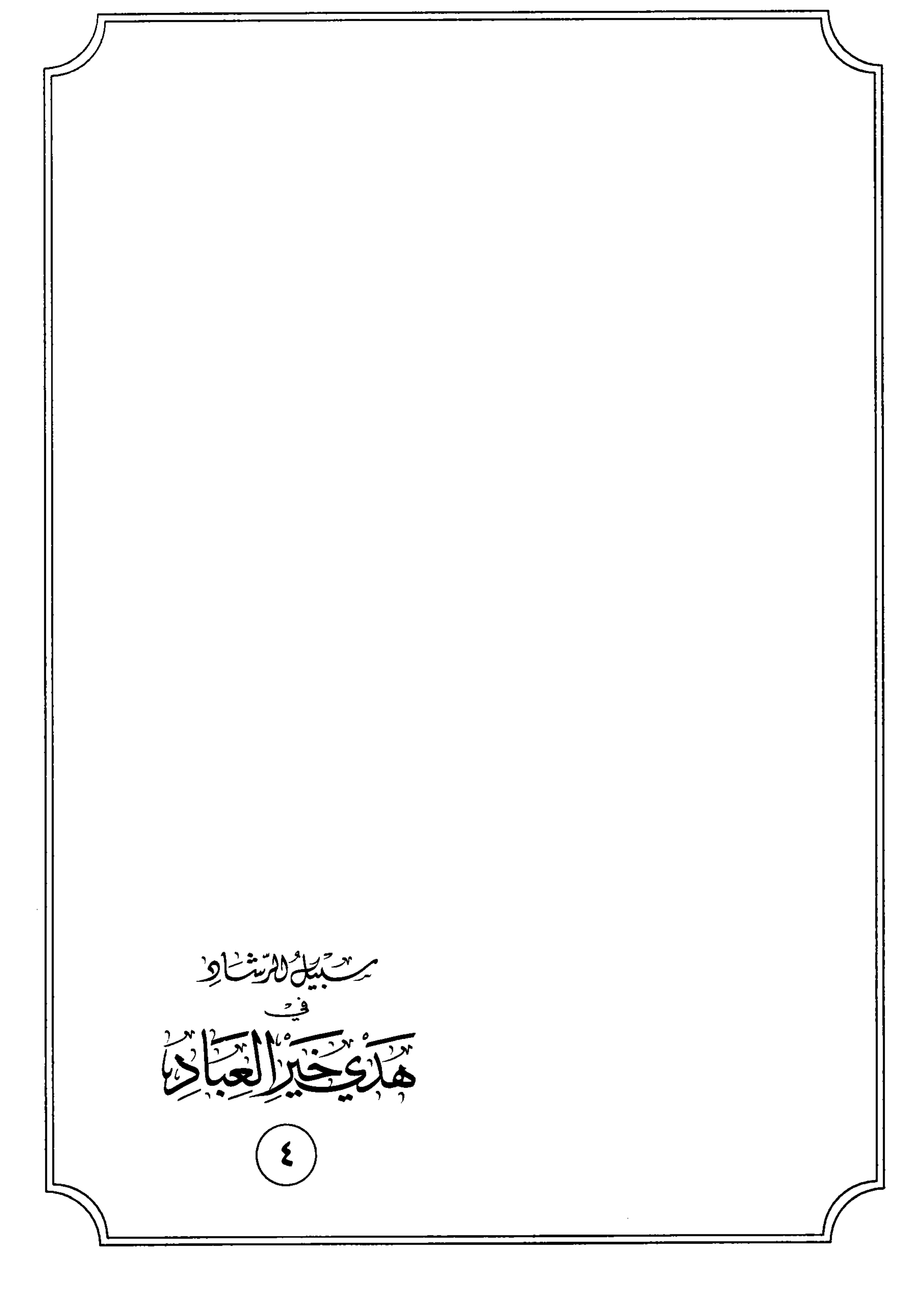
قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه

أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الرابع

الدار الأثرية

بسم الله الرحمن الرحيم


سبيل الرشاد
في
هدي خير العباد
٤

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الدار الأثرية

عمّان - الأردن - تلفاكس: ٠٠٩٦٢ / ٦٥٦٥٨٠٤٥
خلوي: ٠٠٩٦٢/ ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠
الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٨]

«قال البخاري في «كتاب البيوع» تحت ترجمة: (باب كراهة الصخب في السوق)، ثم روى بسنده إلى عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكل ليس بفظّ ولا غليظ ولا [صخاب][1] في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صمًّا وقلوباً غلفاً»[2].

وقاله سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام»[3].

قال محمد تقي الدين: ورواية هذا الحديث عن عبد الله بن سلام أولى من روايته عن عبد الله بن عمرو[4]؛ لأن عبد الله بن سلام حبر عالم بالتوراة وقد كان

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سخّاب».

(٢) أخرجه البخاري (٢١٢٥، ٤٨٣٨)، وأحمد (٢/ ١٧٤)، وخرجته بتطويل وتفصيل في تعليقي على كل من: «المجالسة» (١٢٩٧) و«جلاء الأفهام» (٢٩٠/رقم ٢١٢) و«أمالي المحاملي» (رقم ١٧٤ ـ رواية ابن مهدي) عن ابن سلام وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٨٥).

(٤) رجح ابن حجر في «الفتح» (٤/ ٣٤٣) و«تغليق التعليق» (٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥) أن الخبر =

قبل إسلامه أكبر علماء اليهود في المدينة، وإسلامه حجة على اليهود؛ لأنه لم يسلم إلا بعد أن سأل النبي ﷺ عن أصعب المسائل الواردة في الكتب السابقة، فأجابه عن كل ذلك بما بهره، وقد ذكرنا قصة إسلامه فيما مضى(١) وهذه القصة التي ذكرها عبد الله بن سلام للنبي ﷺ في التوارة بذلت كل ما استطعت من الجهد أن أجدها في مجموعة العهد القديم فلم أجدها، وقرأت البشارات التي ذكرها مؤلف كتاب «إظهار الحق»(٢) رحمة الله علي بن خليل الرحمٰن الهندي مما وجده في التوراة والإنجيل، وهي ثماني عشرة بشارة(٣)، ولم يذكر فيها حديث عبد الله بن سلام(٤) المتقدم الذكر.

فلعل اليهود حذفوه، فإن من أمعن في قراءة التوراة يعلم يقيناً أن اليهود حذفوا كثيراً منها، وقد بقي فيها كثير مما هو حُجَّة عليهم(٥)، انظر كتاب «إظهار الحق».

والمراد هنا أن النبي ﷺ مبشر لكل من اتبعه من الناس بإدراك سعادة الدنيا والآخرة، ونذير لمن خالفه ـ سواء أكان يدعي الإسلام أم لا يدعيه ـ بالشقاء في الدنيا والآخرة، هذا في حق مَنْ بلغته سنته، أو قدر على البحث عنها فلم يبحث، وسماه الله سراجاً منيراً؛ لأنه أضاء للبشر سبيل معاشهم ومعادهم، فمن اتبعه جعل الله له نوراً يمشي به في حياته فلا يضل أبداً، ومن خالفه لم يجعل الله

= محفوظ من الطريقين، وتأكد لي ذلك من ثلاث قرائن ذكرتها في تعليقي على «المجالسة» (٤/ ١٢٦ ـ ١٣٠)، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) انظرها وهنالك التخريج.

(٢) انظره (٤/ ١١١٧ ـ ١١١٨٥).

(٣) سبق الإيماء إليها (٣/ ١٤٥) وينظر (١/ ١٤٩ ـ ١٥٣).

(٤) جعله بعض الكذّابين، وهو أحمد بن عبد الله الجويباري نحواً من ألف مسألة أو أكثر، وفصَّل كذبه فيه الإمام البيهقي في جزء مفرد، بعنوان «جزء الجويباري»، وهو مطبوع بتحقيقي ضمن «مجموعة أجزاء حديثية» (٢/ ٢١١ ـ ٢٤٠).

(٥) عناية المصنف بـ«التوراة» وترجمتها إلى العربية، وتطلبه النسخ الخطية منها و«شروحها» أمر ظاهر في رسائله مع الأستاذ المحقق المدقق، العلامة اللغوي البارع الفلسطيني ربحي توفيق كمال (ت١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م)، وقد وقفت على رسائل متبادلة بينهما، فيها علم غزير، وتتبع دقيق لهذا الأمر، ووضعتها في (مراسلاته) ضمن الترجمة التي أعدّها للهلالي، يسر الله إتمامها بمنّه وكرمه.

له نوراً، وبقي يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء كالمقلدين، قال الحافظ أبو محمد علي بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في (المجلد الأول: صفحة ٦٦) ما نصه:

«مسألة: ولا يحل لأحد أن يقلد أحداً لا حيًّا ولا ميتاً، وعلى كل أحد من الاجتهاد حسب طاقته، فمن سأل عن دينه فإنما يريد معرفة ما ألزمه الله ﷻ في هذا الدين، ففرض عليه ـ وإن كان أجهل البرية ـ أن يسأل عن أعلم أهل موضعه بالدين الذي جاء به رسول الله ﷺ، فإذا دل عليه سأله، فإذا أفتاه قال له: هكذا قال الله ﷻ ورسوله؟ فإن قال له: نعم، أخذ بذلك وعمل به أبداً، وإن قال له: هذا رأيي أو[1] قياس، أو هذا قول فلان، وذكر له صاحباً أو تابعاً أو فقيهاً قديماً أو حديثاً، أو سكت أو انتهره أو قال له: لا أدري، فلا يحل له أن يأخذ بقوله ولكنه يسأل غيره.

برهان ذلك قول الله ﷻ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فلم يأمرنا ﷻ قط بطاعة بعض أولي الأمر، فمن قلد عالماً أو جماعة علماء فلم يطع الله تعالى ولا رسوله ﷺ ولا أولي الأمر، وإذا لم يرد إلى من ذكرنا فقد خالف أمر الله ﷻ. ولم يأمر الله ﷻ قط بطاعة بعض أولي الأمر دون بعض، فإن قيل: فإن الله ﷻ قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] قلنا: نعم، ولم يأمر الله ﷻ أن يقبل من النافر للتفقه في الدين رأيه ولا أن يطاع أهل الذكر في رأيهم ولا في دين يشرعونه لم يأذن به الله ﷻ، وإنما أمر تعالى بأن يسأل أهل الذكر عما يعلمونه في الذكر الوارد من عند الله تعالى فقط، لا عمن قاله من لا سمع له ولا طاعة، وإنما أمر الله تعالى بقبول نذارة النافر للتفقه في الدين فيما تفقه فيه من دين الله تعالى الذي أتى به رسول الله ﷺ لا في دين لم يشرعه الله ﷻ، ومن ادعى وجوب تقليد العامي للمفتي فقد ادعى الباطل وقال قولاً لم يأت به قط نص قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا قياس، وما كان هكذا فهو باطل؛ لأنه قول بلا دليل، بل البرهان قد جاء بإبطاله؛ قال تعالى ذامًّا لقوم قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧].

والاجتهاد إنما معناه بلوغ الجهد في طلب دين الله ﷻ الذي أوجبه على

(١) بعده في مطبوع «المحلى»: «هذا».

عباده، وبالضرورة يدري كل ذي عقل[(١)] سليم أن المسلم لا يكون مسلماً إلا حتى يقر بأن الله تعالى إلٰهه لا إلٰه غيره، وأن محمداً[(٢)] رسول الله ﷺ [جاء][(٣)] بهذا الدين إليه وإلى غيره، فإذ لا شك في هذا؛ فكل سائل في الأرض عن نازلة في دينه فإنما يسأله عما حكم الله تعالى به في هذه النازلة، فإذ لا شك في هذا ففرض عليه أن يسأل إذا سمع فتيا، أهذا حكم الله وحكم رسوله ﷺ؟ وهذا لا يعجز عنه من يدري ما الإسلام، ولو أنه كما جُلِب من كوكو[(٤)]. وبالله التوفيق»[(٥)].

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٨]

قال (ك): «أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه، ثم قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ﴾ [وهم كذلك][(٦)] ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أي: يسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يَوَدون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾.

---

(١) في مطبوع «المحلى»: «حس».
(٢) بعدها في مطبوع «المحلى»: «هو».
(٣) غير موجود في مطبوع «المحلى».
(٤) كوكو: بلد في السودان، كان يجلب منه الناس ويباعون في الأسواق ظلماً وعدواناً. (منه) قلت: وفي مطبوع «المحلى»: «قوقوا».
(٥) انظر: «المحلى» (١/ ٦٦ ـ ٦٧).
(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

وقال طاوس: ﴿سَادَتَنَا﴾ يعني: الأشراف، ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعني: العلماء، ورواه ابن أبي حاتم[١]، أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾»[٢].

قال المحقق القنوجي عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾: «وفي هذا زجر عن التقليد شديد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدي به وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله وبرسوله[٣]، والسبيل هو التوحيد»[٤].

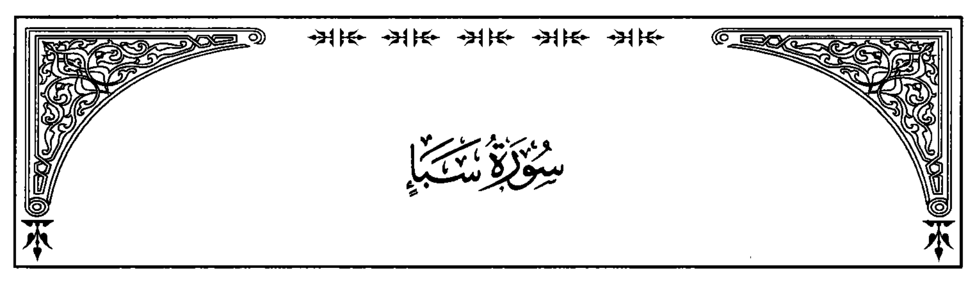
فصل

قال محمد تقي الدين: صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن هذا الوصف ينطبق على المقلدين الذين يتعصبون لمذهبهم أو قول إمامهم، وهم يرونه مخالفاً لما صح عن النبي ﷺ كالمالكية في ترك وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة، وترك التعوذ والبسملة ودعاء الاستفتاح ورفع اليدين عند الركوع والرفع منه، وترك الرحمة والبركة في السلام، إلى غير ذلك، وكالحنفية في ترك رفع اليدين عند الركوع والرفع منه والقيام من اثنتين، والجهر بالتأمين، والاعتدال بعد الركوع إلى غير ذلك[٥]، نسأل الله العافية، ونحمده أن شرح صدورنا لاتباع الرسول، وحبَّب لنا سنته وزينها في قلوبنا، وكره إلينا التقليد والتعصب، وقد تبرأ الأئمة الأربعة وغيرهم من المقلدين المتعصبين الذين ينسبون إليهم ما هم منه براء. قال المحدث الشيخ صالح الفلاني في منظومة[٦] له في تأييد الاعتماد على العمل بالكتاب والسنة وإن خالفهما رأي الفقهاء:

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسيره» (١٠/ ٣١٥٧).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) بتصرف.
(٣) في مطبوع «فتح البيان»: «وبرسله». (٤) انظر: «فتح البيان» (٥/ ٤١٣).
(٥) سبق ذكرها جميعاً، مفصّلة مدلَّلة.
(٦) لم أظفر بالأبيات في «إيقاظ همم أولي الأبصار»، وللفُلَّاني ترجمة مطولة في «فهرس الفهارس والأثبات» (٢/ ٩٠١ ـ ٩٠٦).

قال أبو حنيفة الإمامُ ... لا ينبغي لمن له إسلامُ
الأخذُ بالأقوالِ حتى تُعرضا ... على الكتابِ والحديثِ المرتضى
ومالك إمامُ دار الهجرهْ ... قال وقد أشار نحو الحُجْرَهْ
كلُّ كلامٍ منه ذو قبولِ ... ومنه مردودٌ سوى الرَّسولِ
والشافعي قال إنْ رأيتم ... قولي مخالفاً لما رويتم
من الحديث فاضربوا الجدارا ... بقولي المخالف الأخبارا
وأحمد قال لهم لا تكتبوا ... ما قلته بل أصل ذلك اطلبوا
فاسمع مقالات الهداة الأربعهْ ... واعملْ بها فإنّ فيها منفعهْ
لقمعِها لكلِّ ذي تعصُّبِ ... والمُنصفون يكتفون بالنبي



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑥﴾ [سبأ:]

قال المحقق القنوجي في تفسير هذه الآية ما نصه:

«﴿وَيَرَى﴾ أي يعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم الصحابة؛ قاله قتادة، وقال مقاتل: «هم [مؤمنوا][1] أهل الكتاب»[2]، وقيل: جميع المسلمين، والأولى أنه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا في [تأويل][3] الآيات أي: إن ذلك السعي منهم يدل على جهلهم؛ لأنهم مخالفون لما يعلمه أهل العلم في شأن الكتاب ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ أي: الصدق، يعني: إنه من عند الله ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ﴾ معطوف على الحق [عطف فعل على الحق][3] عطف فعل على اسم؛ لأنه في تأويله كما في قوله: ﴿صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩] أي: وقابضات كأنه قيل: (وهادياً). وقيل: إنه مستأنف وفاعله ضمير يرجع إلى فاعل ﴿أُنزِلَ﴾ وهو القرآن، والصراط: الطريق، أي: يهدي إلى طريق ﴿الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْحَمِيدُ﴾ عند خلقه. والمراد[4]: يهدي إلى دين الله الإسلام وهو التوحيد»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: الصواب في تفسير ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ هو العموم؛

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «مؤمنو».
(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٥٢٤).
(٣) غير موجود في مطبوع «فتح البيان».
(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «أن».
(٥) انظر: «فتح البيان» (٥/ ٤٢٢).

لأن لفظ الذين من ألفاظ العموم، ولا داعي إلى تخصيصه بأهل الكتاب أو الصحابة، بل هو عام في كل من عرف الحق واعترف به، يدلنا على ذلك أن كثيراً من أهل الكتاب يعترفون بأن هذا القرآن حق ويهدي إلى صراط مستقيم، مع أن هذا الزمان من شر أزمنة الإسلام أو هو شرها على الإطلاق، فإنه لم يبلغ من الضعف فيما مضى مثل ما بلغ في هذا الزمان، ومن أراد أن يرى البرهان على ذلك؛ فليقرأ كتاب «رجال ونساء أسلموا»، وكتاب «لماذا أسلمنا» وكلاهما طبع وانتشر بالإنكليزية والعربية.

ومن عرف أن ما أنزل إلى رسول الله ﷺ هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد لا بد أن يتبعه مع بيان النبي ﷺ ويقنع به، ويرى ما سواه باطلاً وهو الرأي والتقليد والتمذهب والتفرق والاستغناء بآراء الرجال عن هذا الحق المبين.

قال العلامة المحقق فخر بلاد شنقيط، بل فخر بلاد المغرب في هذا الزمان محمد بن أبي مدين في كتابه «الصوارم والأسنة في الذب عن السنة» ما نصه: «قال العلماء: التقليد لغة: جعل القلادة في العنق، ومنه تقليد الولاة الأعمال، والبدن ما تعرف به، وشرعاً: أَخْذُ مذهب من ليس قوله إحدى الحجج الأربع الشرعية بدون واحدة منها، فالرجوع إلى الكتاب والسنة أو إجماع الأمة أو القياس الجلي ليس تقليداً بل هو اتباع[١]، وإن شئت قلت: هو قبول مذهب الغير من دون مطالبة بحجة. اهـ.

وله حدود [أخرى][٢] لكن لا يسلم أكثرها من إشكال واعتراضات. اهـ.

قال الحافظ السيوطي في كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»[٣] ما نصه.

«اعلم أنه ما زال السلف والخلف يأمرون بالاجتهاد ويحضون عليه، وينهون عن التقليد ويذمونه ويكرهونه، وقد صنف جماعة لا يحصون في [ذمه][٤]، فممن صنف في ذلك المزني صاحب الإمام الشافعي، ألف كتاب «فساد التقليد» نقل

---

(١) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «اتباعه».
(٢) في مطبوع «الصوارم»: «أخر». (٣) (ص١١٧، ط. الكتب العلمية).
(٤) في مطبوع «الرد على من أخلد إلى الأرض»: «ذم التقليد».

عنه ابن عبد البر في «كتاب العلم» والزركشي في «البحر» ولم أقف عليه، وألف ابن حزم ثلاثة كتب في [إبطاله][(١)] وقفت عليها[(٢)]، وألف ابن عبد البر «كتاب العلم»[(٣)] في ذلك وقفت عليه، وألف أبو شامة في ذلك كتابه المسمى «خطبة الكتاب المؤمل في الرد إلى الأمر الأول»[(٤)] وقفت عليه، وألف ابن دقيق العيد كتاب «التسديد في ذم التقليد»[(٥)] لم أقف عليه، وألف ابن القيم [كتاب «إعلام

---

(١) في مطبوع «الرد على من أخلد إلى الأرض»: «إبطال التقليد».

(٢) طبع «ملخص إبطال القياس»، وتبرهن لي أنه للذهبي، ولم يذكره أحد له، ولم يعرفه المتخصصون بدراسة الذهبي وكتبه، ووقفت منه على نسخة بخط الذهبي نفسه، ثم وقفت على أصل الكتاب ـ وهو واحد من الثلاثة المذكورة في كلام السيوطي ـ واسمه بتمامه: «إبطال الرأي والقياس والاستحسان والتعليل والتقليد»، ولا أعلم له إلا نسخة فريدة وحيدة، خطها وعر وفي غاية الصعوبة، وجهدت في ترسمه وقاربت على الانتهاء من نسخه وأنا بين الأرض والسماء، في عدة رحلات جوية، بعضها طويل، يزيد على عشر ساعات، ومما طبع حديثاً لابن حزم بتحقيق جيد كتابه «الإعراب عن الحيرة والالتباس الموجودَين في مذاهب أهل الرأي والقياس».

(٣) هو «جامع بيان العلم وفضله» طبع مراراً، أحسنها آخرها عن دار ابن الجوزي، على عِوز فيه، ظهر لي من خلال عملي في «الإعلام».

(٤) حققه أخونا الفاضل المحقق البارع صلاح الدين مقبول، ونشره مرات، آخرها عن دار غراس ـ الكويت.

(٥) وقفتُ على رسالة بخط العلامة حماد الأنصاري رحمه الله مؤرخة في ٢٦/ ٥/ ١٣٩٤هـ أرسلها إلى صديقنا الأستاذ البحاثة محمد أبو الفضل ـ حفظه الله تعالى ـ يذكر فيها نسخة خطية محفوظة بطنجة بعنوان «ما خالف فيه الأئمة النصوص»، قال: «وقد ذكر الغماري أنّ مؤلفه ابن الملقن الأنصاري، وأما أنا فأقول: إن مؤلفه ابن دقيق العيد، والله أعلم» قال أبو عبيدة: لا يبعد عندي إن أصاب ظن الشيخ حماد أنه الكتاب المذكور هنا، والله أعلم، وانظر له: «رحلة التجيبي» (٢٠٠) ومما يجدر ذكره أمران:

أحدهما: إني فتشت في فهارس الدور الخطية على الكتاب المذكور، فلم أظفر بشيء، ولعل السبب في ذلك. **الأمر الآخر**: ظفرتُ في «الرد على من أخلد إلى الأرض» (ص١٩٦) ما نصه:

«قال الكمال الأدفوي، أخبرني الشيخ نجم الدين القمولي أن الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد أعطاه دراهم وأمره أن يشري بها ورقاً ويجلده أبيض، قال: ففعلت ذلك وكان عدد الكراريس خمسة وعشرين كراساً فصنف تصنيفاً وقال: إنه لا يظهر في حياته.

قال ابن النقاش: يذكر أن ذلك الكتاب اسمه (التسديد في ذم التقليد).

وذكروا أن ابن عدلان أخذه إليه واختص به قال: ولعمري إن هذا الكتاب لفرد في معناه، فذ في جلالته ومبناه». =

الموقعين عن رب العالمين»[١] في أربعة من المجلدات][٢] في ذم التقليد وقفت على [كراستين][٣] منه، وألف[٤] صاحب «القاموس» كتاب «الإصعاد إلى رتبة الاجتهاد» لم أقف عليه». اهـ كلام السيوطي بلفظه.

قلت: وممن صنف في ذلك بعد السيوطي: الشوكاني؛ ألف كتابه «القول المفيد في أدلة الاجتهاد [وذم] التقليد»، وقد وقفت عليه، وألف السنوسي كتابه «إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن» وقد وقفت عليه، وألف الصنعاني صاحب «سبل السلام» كتابه «إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد» [ولم أقف][٥] عليه». اهـ[٦]، ثم ذكر ما نقلته من كتاب «جامع بيان العلم وفضله» عن ابن خويز منداد البصري المالكي[٧].

= قلت: حقّ لأمثال العلامة الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله، ملاحقة أخبار هذا الكتاب، وكثرة السؤال عنه، وقد مر بي قبل ما يزيد على خمسة عشر سنة بعض تلاميذه ذاهباً إلى ألمانيا، بطلب منه، لتتبع أخبار بعض الكتب، وأراني قائمة فيها (نوادر الكتب)، وكان الشيخ رحمه الله يسمّيها (مُسيِّل اللعاب)!

(١) حققته ـ ولله الحمد ـ على عدة نسخ خطية، وأفردت له مقدمة في مجلد، مهمة جداً في التعريف بالكتاب وبيان أهميته، وصدر عن دار ابن الجوزي، في سبعة مجلدات.

(٢) غير موجود في مطبوع «الرد على من أخلد إلى الأرض».

(٣) في مطبوع «الرد على من أخلد إلى الأرض»: «كراسين».

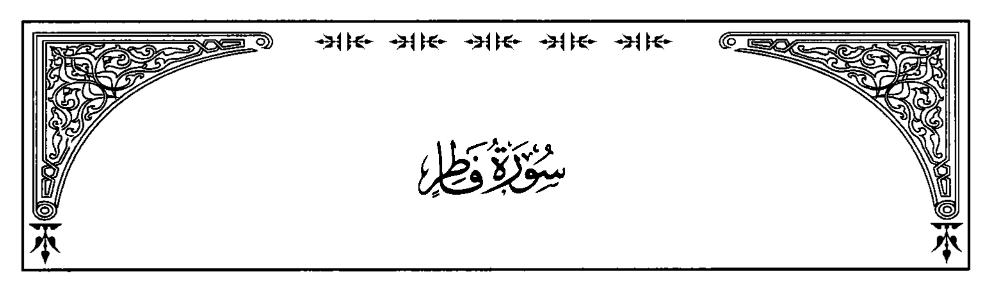
(٤) بعدها في مطبوع «الرد على من أخلد إلى الأرض»: «المجد الشيرازي».

(٥) في مطبوع «الصوارم»: «وقد وقفت»، و«إرشاد النقاد» للصنعاني مطبوع بتحقيق محمد صبحي الحلاق، عن مؤسسة الريان، سنة ١٤١٣هـ، وألف في هذا الباب كتب كثيرة، يصعب حصرها، وتعدادها، ومن أجودها «بدعة التعصب المذهبي»، لأخينا المفضال الشيخ محمد عيد عباسي، وانظر سائر المصنفات في: «معجم الموضوعات المطروقة» (١/ ٣٩ ـ ٤١ و٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٦) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٠٠ ـ ٢٠١).

(٧) سبق ذكره.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨]

قال (ك): «يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله [فما لك][(١)] فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ أي بقدره كان ذلك: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ أي: لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام، ولهذا قال [تعالى][(٢)]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: وكل من رد آيات القرآن وسنة النبي الكريمة عليه الصلاة والسلام لتقليد مذهب أو شيخ طريقة أو حزب أو قومية أو هوى نفسه الأمارة وادعى أن الخير فيما ذهب إليه وأنه هو الصواب، فهو ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً، فينبغي لنا أن ندعوه بالتي هي أحسن، ونفهمه خطأه ونقيم له الأدلة على ذلك، فإن أبى نتأسف عليه ولا تبالغوا في التأسف حتى نقتل أنفسنا حزناً؛ امتثالاً لأمر الله تعالى الذي أمر به إمامنا ورسولنا محمداً ﷺ. ثم قال العلامة محمد بن أبي مدين في «الصوارم» ما نصه:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ألك». (٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٠٧ - ٣٠٨).

«قال الإمام الغزالي في (الجزء الثاني) من كتاب «المستصفى» ما نصه: «التقليد هو قبول قول بلا حجة وليس ذلك طريقاً إلى العلم لا في الأصول ولا في الفروع»[(١)] .اهـ كلامه بلفظه. وقال الحافظ ابن الجوزي في كتابه «التلبيس» ما نصه: «اعلم أن المقلد على غير ثقة [فيما][(٢)] قلد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل؛ لأنه إنما خُلِق للتأمل والتدبر. وقبيح بمن أُعطِي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في [الظلمة][(٣)]. واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم الشخص فيتبعون قوله من غير تدبر لما قال، وهذا عين الضلالة؛ لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل»[(٤)] .اهـ كلامه بلفظه.

وفي «تفسير البيضاوي» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] ما نصه: «التقييد بالمعروف مع أن الرسول[(٥)] لا يأمر إلا به [للتنبيه][(٦)] على أنه لا [تجوز][(٧)] طاعة مخلوق في معصية الخالق»[(٨)]اهـ منه بلفظه. وفي (الجزء الأول) من «الاعتصام» لأبي إسحاق الشاطبي ما نصه: «وذكر الطبري في كتاب «تهذيب الآثار»[(٩)] له بإسنادٍ إلى مالك قال: قال مالك: «قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل؛ فإنما ينبغي أن نتبع [آثاره][(١٠)] ﷺ ولا [نتبع][(١١)] الرأي»[(١٢)].

ومضى إلى أن قال: «وفي «القول المفيد» للشوكاني ما نصه: «ويكفي في دفع الرأي وأنه ليس من الدين قول الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

---

(١) انظر: «المستصفى» (٢/ ٤٦٢، ط. الرسالة).
(٢) في مطبوع «تلبيس إبليس»: «مما». (٣) في مطبوع «تلبيس إبليس»: «الظلم».
(٤) انظر: «تلبيس إبليس» (٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «ﷺ».
(٦) في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «تنبيه». (٧) في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «يجوز».
(٨) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٤٨٨).
(٩) ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١٠٦٩) رقم (٢٠٧٢) عن الطبري في «تهذيب الآثار» بسنده إلى مالك.
وأسنده بنحوه من طريق آخر (٢/ ١٠٨٥ ـ ١٠٨٦) (رقم ٢١١٧)، و«التهذيب» ناقص من أصوله الخطية، والنقل المذكور لم أظفر به في القسم المطبوع منه.
(١٠) في مطبوع «الاعتصام»: «آثار رسول الله».
(١١) في مطبوع «الاعتصام»: «يتبع». (١٢) انظر: «الاعتصام» (١/ ١٨١ ـ بتحقيقي).

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فإذا كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض نبيه ﷺ فما هذا الرأي الذي قد [أحدث][(١)] بعد أن أكمل الله دينه؟ إن كان من الدين في اعتقادهم فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه رد [القرآن][(٢)]، وإن لم يكن من الدين فأي فائدة [فيما][(٣)] ليس من الدين؟ وهذه حجة قاهرة ودليل عظيم لا يمكن صاحب الرأي أن يدفعه بدافع أبداً، فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي، وترغم به آنافهم وتدحض به حججهم، فقد أخبر الله في محكم كتابه أنه أكمل دينه ولم يمت رسول الله ﷺ [حتى][(٤)] أخبرنا بهذا الخبر عن الله ﷻ، فمن جاءنا بالشيء من عند نفسه وزعم أنه من ديننا قلنا له: [رسول الله ﷺ][(٥)] أصدق منك، فاذهب فلا حاجة لنا في رأيك»[(٦)]. اهـ منه بلفظه»[(٧)].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٢ ـ ٣٥]

قال (ك): «يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الذين اصطفينا من عبادنا، وهم

---

(١) في مطبوع «القول المفيد»: «أحدثه أهله».

(٢) في مطبوع «القول المفيد»: «للقران».

(٣) في مطبوع «القول المفيد»: «في الاشتغال بما».

(٤) في مطبوع «القول المفيد»: «إلّا بعد أن».

(٥) في مطبوع «القول المفيد»: «الله».

(٦) انظر: «القول المفيد» (ص٣٨، ط. الكتب العلمية، مطبوع ضمن الرسائل السلفية ـ الرسالة السابعة).

(٧) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٠١ ـ ٢٠٤) بتصرف.

هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال [تعالى][(١)]: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات «﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله [تعالى][(١)] كل كتاب أنزله فظالمهم يُغفَر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب»[(٢)].

ثم حكى (ك) خلاف هذا القول ثم قال: «والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير[(٣)]، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿لُغُوبٌ﴾.

قال (ك): «يخبر تعالى أن[(٥)] هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين [يوم القيامة مأواهم][(٦)] ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله ﷻ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ وثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة**». وقال: «**هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**»[(٧)].

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) انظر: «صحيفة علي بن أبي طلحة» (١٠٤٨) وهو عند ابن جرير (١٩/ ٣٦٨)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣١٨١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (ص٨٦)، وابن المنذر وابن مردويه، كما في «الدر المنثور» (٥/ ٥١).
(٣) انظره في «تفسيره» (١٩/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مأوى».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مأواهم يوم القيامة».
(٧) أخرجه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس.

وقال الطبراني بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ: «**ليس على أهل لا إلٰه إلا الله وحشة في الموت ولا في [القبور]**[١] **ولا في النشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾**»[٢].

قال ابن عباس وغيره: «غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات»[٣] ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومَنّه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يدخلَ أحداً منكم عملُه الجنةَ**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل**»[٤].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصَب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب[٥]، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم، فمن ذلك أنهم كانوا يُدئِبُون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله [تبارك][٦] وتعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]»[٧].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قبورهم».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» رقم (٧٧)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٨٢)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ١٨١)، و«الدعاء» (١٤٨٤)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ١١٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٦٦)، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه يحيى بن عبد الحميد الحماني، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، كلاهما ضعيف. وقال شيخنا الألباني في «الضعيفة» (٣٨٥٣): «ضعيف جداً»، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٣).

(٣) بنحوه عند ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٨٣) رقم (١٧٩٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٥) النصب: شدّة التعب، واللغوب: إعياء لا مزيد عليه، انظر: «فرائد اللغة في الفروق» (ص٤١٣).

(٦) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الحافظ (ﷺ) في معنى الظالم أحاديثَ كثيرةً تدل على أن أهل هذا القسم لا يدخلون جهنم، ولكن يطول وقوفهم في المحشر، ويصيبهم الحزن والخوف وذلك هو عذابهم، وهذه الأحاديث كلها ضعيفة لكنه استأنس بها لكثرة طرقها؛ وهذا القول لا يتفق أبداً مع ما نطقت به آيات الكتاب والأحاديث الصحيحة، وأجمع عليه أهل السنة من أن طائفة من الموحدين يدخلون النار، ويخرجون منها بشفاعة النبي ﷺ.

ومن الأدلة على ذلك ما جاء في «جامع الصغير» للسيوطي[١] في حرف اللام: «**ليردن علي ناس من أصحابي الحوض، حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: يا رب؛ أصيحابي! أصيحابي! فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[٢].

رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أنس بن مالك، وعن حذيفة بن اليمان[٣].

وقد حكى ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير» في معنى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أربعة أقوال: «**الأول**: إنهم أهل الصغائر، فلا يدخل أحد منهم النار، **والثاني**: أنهم من مات على الكبائر، **والثالث**: أنهم الكفار، **والرابع**: أنهم المنافقون»[٤].

ولما كان الكفار والمنافقون في الحقيقة قسماً واحداً؛ لأنهم من رحمة الله آيسون، وفي عذاب جهنم خالدون، صارت الأقوال ثلاثة، الراجح منها هو الثاني للعلة المتقدم ذكرها، والذين أورثوا الكتاب لا يمكنهم الاعتقاد والعمل به إلا بمعرفة بيان الرسول ﷺ وهو السنة، فالمقلدون المتعصبون لأئمتهم شر من القسم الثاني وهم الذين يموتون على الكبائر؛ لأن البدعة شر من الكبيرة، ولأن مرتكب الكبيرة، يعصي الله تعالى وهو معترف بذنبه راجٍ أن يتوب الله عليه، أما المقلد والمبتدع فإنهما يعصيان الله تعالى ويردان كتابه وسنة رسوله مع اعتقادهما أن ذلك قربة إلى الله وصواب وخير، ولا تخطر في بالهم التوبة من ذلك.

---

(١) انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٢/ ٩٤٧).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) في الأصل: «إيمان»!

(٤) انظر: «زاد المسير» (٦/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩) بتصرف.

وفي «الصوارم»: «قال ابن مسعود: «ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً؛ إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر»[١]، وقال: «ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره»[٢].

ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة فيقلده دينه دون غيره. وقد انطوت القرون الفاضلة ببراءة أهلها[٣] من هذه النسبة، بل لا يصح للعامي مذهب ولو تمذهب به؛ لأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال، فمن ليس كذلك لا يكون بقوله: أنا مالكي، ـ مثلاً ـ مالكيًّا، بل هي مجرد دعوى كاذبة، وهذه بدعة قبيحة حدثت في الأمة لم يقل بها أحد من أئمة الإسلام.

وأبعد منه القول بلزوم واحد من الأربعة، فيا لله [للعجب][٤]، ماتت مذاهب الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر أئمة الإسلام وبطلت جملة إلا مذاهب أربع أنفس فقط من بين الأئمة والفقهاء، وهل قال بذلك أحد من الأئمة أو دعا إليه، أو دلت لفظة واحدة من كلامه عليه، والذي أوجبه الله ورسوله على الصحابة والتابعين هو الذي أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة؟

وإذا تأملت هذا يظهر لك أن التقليد لمذهب إمام معين من غير نظر إلى دليل من الكتاب والسنة جهل عظيم؛ لأنه مجرد هوى وعصبية، والأئمة المجتهدون قاطبة على خلافه؛ لأنه صح عن كل واحد منهم ذم التقليد بغير دليل وإبطاله، ويظهر لك أنه يجوز لمن يقتدي بمذهب إمام معين أن يجتهد وينظر إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (٨٧٦٤)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٩٧، ١٤٧)، وذكره ابن عبد البر في «الجامع» (١٨٨٢) دون إسناد، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨٠): «رجاله رجال الصحيح». قلت: لكنه منقطع، قاله ابن حزم. وانظر ـ غير مأمور ـ تعليقنا على: «الإحكام».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٩)، وذكره التقي الفاسي في «ذيل التقييد» (١/ ٣٦٧) عن أبي نعيم في ترجمة (محمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم)، والصحيح أنه من قول أيوب السختياني، أخرجه الدارمي في «سننه» (٦٧٦)، وأبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (٢/ ٦٨٠) رقم (٢٠٧٢). ولفظ الدارمي: «إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك، فجالس غيره» ولفظ أبي زرعة: «لا تعرف خطأ...» مثل الذي عند المصنف.

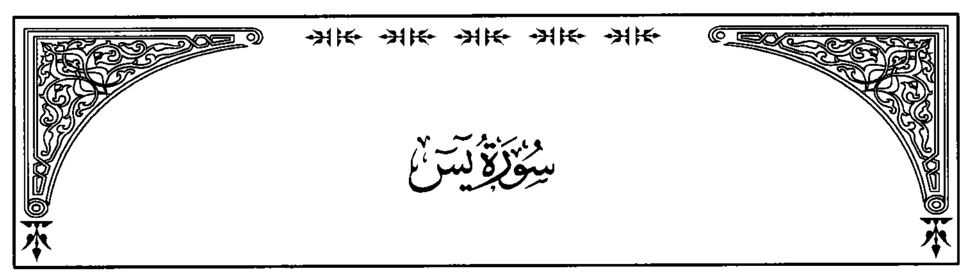
(٣) من مطبوع «الصوارم»، وسقط من الأصل.

(٤) غير موجودة في مطبوع «الصوارم».

الدليل حسب طاقته، فمتى وجد دليلاً يدل على خلاف رأي إمامه تركه وتمسك بالدليل، ويكون بذلك متبعاً لإمامه وسائر الأئمة، ومتبعاً لكتاب الله وسنة رسوله. وإنما يكون خارجاً عن مذهب إمامه وعن سائر مذاهب المجتهدين، إذا صمم على تقليد إمامه بعد ظهور الدليل من كتاب أو سنة أو إجماع على خلاف رأي إمامه الذي تمسك به؛ لأن إمامه لو بلغه[١] السالم من المعارض لترك رأيه واتبع الحديث، فالمصمم على التقليد في هذه الحالة عاصٍ لله ورسوله متبع لهواه، وقد برئ منه الأئمة الأربعة وغيرهم، وصار من حزب الشيطان والهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] الآية، أجارنا الله من العمى بعد الهدى»[٢]. اهـ. المراد منه بلفظه، قلت: قوله: «إن العامِّيَّ لا يصح له مذهب ولو تمذهب به» أصله لإمام الحرمين في «البرهان»[٣] ومثله في «التحرير»[٤] لابن الهمام الحنفي و«شرحه» لابن الحاج»[٥].

---

(١) بعدها في مطبوع «الصوارم»: «الحديث».
(٢) هذا النقل من كتاب «إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن» للسنوسي.
(٣) قال إمام الحرمين الجويني في «البرهان» (٢/ ٨٧٧): «لا يخفى أن المقلد ليس له أن يقلد غيره إلّا بعد نظر واجتهاد».
(٤) انظر: «التقرير والتحبير» (٣/ ٣٤٦).
(٥) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٠٦ ـ ٢٠٧).
قال أبو عبيدة: كذا في الأصل و«الصوارم»: «لابن الحاج»! وهو خطأ، صوابه ـ كما رأيتُه بخطه في آخر «الخصال المكفرة» نسخة كوبرلي: «ابن أمير حاج الحلبي الحنفي» وهو محمد بن محمد بن محمد، ويقال له: (ابن الموقت)، ترجمته في «الضوء اللامع» (٩/ ٢١٠)، و«إعلام النبلاء» (٥/ ٢٨٥). وكلامه في «شرح التحرير» المسمى «التقرير والتحبير»، وتقدم آنفاً.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس: ١ ـ ١١]

في «تفسير الجلالين»: «قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾ الله أعلم بمراده ﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿عَلَىٰ﴾ متعلق بما قبله ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق الأنبياء قبلك: التوحيد والهدى، والتأكيد بالقسم وغيره رد لقول الكفار له: لستَ مرسلاً، ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الرَّحِيمِ﴾ بخلقه ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: لم ينذروا في زمن الفترة ﴿فَهُمْ﴾ أي: القوم ﴿غَٰفِلُونَ﴾ عن الإيمان [أو][1] الرشد، ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ وجب ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ بالعذاب ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: الأكثر ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ بأن تضم إليها الأيدي؛ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق ﴿فَهِىَ﴾ أي: الأيدي مجموعة ﴿إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، وهذا تمثيل.

(١) في مطبوع «تفسير الجلالين»: «و».

والمراد أنهم لا يذعنون للإيمان ولا يخفضون رؤوسهم له، ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [أي حاجزاً عن الهداية][(١)] ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ [أي غطينا قلوبهم وأبصارهم][(١)] ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تمثيل أيضاً لسد طرق الإيمان عليهم ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ينفع إنذارك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ خافه ولم يره ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ وهو الجنة»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبر الله سبحانه وتعالى مؤكداً بالقسم وغيره من المؤكدات أن محمداً ﷺ من المرسلين، وأنه على صراط مستقيم، كل من اتبعه سعد وكل من خرج عنه شقي، وأخبر سبحانه أنه أنزل هذا القرآن على رسوله لينذر به أهل الأرض كلهم عامة والعرب خاصة، إذ لم يرسل إليهم نذير من قبله، ولا كان عندهم كتاب يرجعون إليه ولا سنة نبي يتمسكون بها، فهم لذلك في غاية الغفلة والجهالة والظلمة.

ولما كذبوا الرسول وكفروا بما أنزل إليهم من ربهم وجحدوه ظلماً وعلوًّا حقت عليهم كلمة الله وسدت عليهم أبواب الهداية، وتحتم عذابهم وشقاؤهم، وحيل بينهم وبين الإيمان بسبب إعراضهم وطغيانهم.

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن الذين ينتفعون بالإنذار هم الذين يستمعون القرآن ويتبعونه، ويمنعهم خوف الله تعالى عن مخالفة القرآن والرسول ﷺ، فأولئك بشرهم الله بمغفرة ذنوبهم، وبالأجر العظيم والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، وصدق الله وعده، فانتصروا على أعدائهم واستولوا على مشارق الأرض ومغاربها وأذعنت لهم أمم الأرض وشعوبها، ومضوا على ذلك قروناً طوالاً حتى نبذوا القرآن والسنة؛ فسلبهم الله ما وهبهم وجعلهم عبرة لأولي الأبصار، ولا يزال باب التوبة مفتوحاً أمامهم لو رجعوا إلى رشدهم وأنابوا إلى ربهم.

ولما كان التقليد والتعصب والتفرق والتمذهب واتباع الطرائق القدد

---

(١) ما بين المعقوفتين غير موجود في مطبوع «تفسير الجلالين».

(٢) انظر «تفسير الجلالين» (ص٥٣٣) بتصرف.

والأحزاب البدد والقوميات والوطنيات والأهواء والعادات من أعظم أسباب شقائهم التي سدت عنهم أبواب الخير وفتحت لهم أبواب الشقاء، عزمت في هذا القسم من «سبيل الرشاد» أن أبذل كل جهد في التحذير من هذه الطرق المعوجة وأنقل كلام الأئمة مصحوباً بالحجة.

قال العلامة محمد بن أبي مدين في «الصوارم»:

«وقال الإمام سند بن عنان بن إبراهيم أبو علي الأزدي المتوفى بالإسكندرية سنة إحدى وأربعين وخمس مائة ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه على «المدونة» المسمى بـ«طراز المَجَالِس وفاكهة المُجالِس»[١] في نحو ثلاثين سفراً وتوفي قبل إكماله ما نصه: «نفس المقلد ليست على بصيرة، ولا يتصف من العلم بحقيقة؛ إذ ليس التقليد بطريق إلى العلم بوفاق أهل الآفاق. فإن نوزعنا في ذلك أبدينا برهاناً فنقول: قال الله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] وقال: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

ومعلوم أن العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه، فنقول للمقلد: إذا اختلفت الأقوال وتشعبت المعاني، من أين تعلم صحة قول من قلدته دون غيره؟ أو صحة قولة على قولة أخرى؟ ولا يبدي كلاماً في [قوله][٢] إلا انعكس عليه في نقيضه، لا سيما إذا عرض له ذلك في قولة لإمام مذهبه الذي قلده وقولة تخالفها لبعض الأئمة [من][٣] أصحابه[٤]، ولا يبقى له محصول.

أما التقليد: فهو قبول قول الغير من غير حجة، فمن أين يحصل به علم، وليس له مستند إلى قطع؟ وهو أيضاً في نفسه بدعة محدثة؛ لأنّا نعلم بالقطع أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن في زمانهم وعصرهم مذهب لرجل معين يدرس ويقلد، وإنما كانوا يرجعون في النوازل إلى الكتاب والسنة أو إلى ما

---

(١) ظفرتُ في «فهرس مخطوطات الخزانة العامة بالرباط» (٢/ ١/ ٢٩٦) أن (الجزء الثاني) منه محفوظ فيها، ولكنه معزو لمجهول! وكذا في «الفهرس الشامل» (٦/ ١٤٤ ـ الفقه وأصوله)، الصادر عن مؤسسة آل البيت، الأردن.

(٢) في مطبوع «الصوارم»: «قول».

(٣) غير موجود في مطبوع «الصوارم».

(٤) بعدها في مطبوع «الصوارم»: «وتتبع الكليات».

يتمحض بينهم من النظر عند فقد الدليل، وكذلك تابعوهم أيضاً يرجعون إلى الكتاب والسنة، فإن لم يجدوا نظروا إلى ما أجمع عليه الصحابة، فإن لم يجدوا اجتهدوا واختار بعضهم قول صحابي فرآه الأقوى في دين الله تعالى.

ثم كان القرن الثالث وفيه كان الأئمة الأربعة، فإن مالكاً توفي سنة تسع وسبعين ومائة. وتوفي أبو حنيفة سنة [خمسين](١) ومائة وفي هذه السنة ولد الشافعي، وولد ابن حنبل سنة أربع وستين ومائة، فكانوا على منهاج من مضى لم يكن في عصرهم مذهب رجل(٢) معين يتدارسونه، وعلى قريب منهم كان أتباعهم فكم من قولة لمالك ونظائره(٣) خالفه فيها أصحابه؟ ولو نقلنا ذلك لخرجنا عن مقصود هذا الكتاب، وما ذلك إلا لجمعهم آلات الاجتهاد وقدرتهم على ضروب الاستنباطات، ولقد صدق الله نبيه في قوله: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»(٤). [ثم القرن عند المحققين أربعون سنة](٥). ذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة(٦)، والحديث في «صحيح البخاري».

فالعجب لأهل التقليد: كيف يقولون: «هذا هو الأمر القديم» و«عليه أدركنا الشيوخ» وهو إنما حدث بعد مائتي سنة بعد الهجرة، وبعد فناء القرون الذين أثنى عليهم الرسول ﷺ، ولو قلت لأحدهم: مالك رحمه الله مذهبه مذهب من؟ لم يُجِب بجواب. وحكى أهل التاريخ أن الذي أشاع مذهب مالك بالأندلس إنما هو عيسى بن دينار، وإنما كان يعمل فيه بمذهب الأوزاعي ومكحول، فكيف يدعون أنه هو الأمر القديم عندهم؟.

ولما أرغم بعض أهل التقليد [على](٧) الحجة واستبانت له المحجة، قال: نحن لا ننكر أن أصول الفتوى الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ولكن من [يفي](٨) بشرطية النَّظر ويستقل بأعبائه؟ فنقول لهم: نحن نقطع أنه ما من باب من أبواب العلم كان يسلك في عصر مالك إلا وهو مفتوح إلى الآن لمن شاء أن

(١) هذا هو الصواب، وكذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «خمس»!!
(٢) من مطبوع «الصوارم»، وسقط من الأصل.
(٣) في مطبوع «الصوارم»: «ونظرائه».
(٤) سبق تخريجه.
(٥) غير موجود في مطبوع «الصوارم»، ولعله من كلام المصنف رحمه الله.
(٦) فصلنا ذلك في التعليق على (٣/ ١١).
(٧) غير موجود في مطبوع «الصوارم».
(٨) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «يفتي».

يسلكه، ولا يحتاج الناظر أن يكون في كل فن لا رتبة فوقه، فإنا نعلم قطعاً أن الصحابة كانوا مختلفي الرتبة، وكان الإمام منهم يستفتي من هو دونه، ويرى أن نظره نافذ وحكمه ماضٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وقد مات أبو بكر وعمر ﵄ وهما لم يستتما حفظ القرآن، والرواية عن علي في ذلك مختلفة، وكان عمر في مجالس عديدة يستدعي الحديث عن رسول الله ﷺ في بعض النوازل ممن حضره من الصحابة ﵃ أجمعين، وكذلك أبو بكر ﵁ فإنه قال للجدة: «ما علمت لك في كتاب الله نصيباً ولا في السنة». حتى روي له الحديث فيها[1]. ولقد كان مالك وأبو حنيفة ونظراؤهما غير

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٥١٣) في «الفرائض»، باب ميراث الجدة، ومن طريقه رواه أبو داود (٢٨٩٤) في «الفرائض»، باب ميراث الجدة، والترمذي (٢١٠١) في «الفرائض»، باب ما جاء في ميراث الجدة، والنسائي في «السنن الكبرى» (٤/ ٧٥) رقم (٦٣٤٦)، وابن ماجه (٢٧٢٤) في «الفرائض»، باب ميراث الجدة، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦)، وابن الجارود (٩٥٩)، وأبو يعلى (١١٩)، وابن حبان (٦٠٣١)، والبغوي (٢٢٢١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٣٤) عن ابن شهاب عن عثمان بن إسحاق بن خَرَشة عن قبيصة بن ذؤيب أنه قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر. . .

والحديث رجاله ثقات، لكن عثمان بن إسحاق هذا ليس له إلا هذا الحديث، قال الدوري عن ابن معين: ثقة، وذكره ابن حبان في «الثقات»، أما ابن عبد البر فقال: فهو معروف النسب، إلا أنه غير مشهور بالرواية، **وفي سماع قبيصة من أبي بكر نظر**، فقد قال الحافظ في «التلخيص الحبير» (٣/ ٨٢): إسناده صحيح؛ لثقة رجاله إلا أنّ صورته الإرسال، فإن قبيصة لا يصح له سماع من الصديق، ولا يمكن شهوده القصة. قاله ابن عبد البر بمعناه. وقد اختلف في مولده، والصحيح أنه ولد عام الفتح، فيبعد شهوده القصة، وقد أعلَّه عبد الحق تبعاً لابن حزم **بالانقطاع**.

وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٨٢): «روي عن أبي بكر ـ إن صح ـ».

ورواه الترمذي (٢١٠٠)، والنسائي في «الكبرى» (٦٣٤٥)، وابن أبي شيبة (١١/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، وسعيد بن منصور رقم (٨٠)، عن سفيان، حدثنا الزهري، قال مرّة: قال قبيصة، وقال مرة: عن رجل عن قبيصة بن ذؤيب به.

ورواه عبد الرزاق (١٠/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) رقم (١٩٠٨٣)، وأحمد (٤/ ٢٢٥)، وأبو يعلى (١٢٠)، وابن ماجه (٢٧٢٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦٣٣٩ ـ ٦٣٤٤)، والحاكم (٤/ ٣٣٨)، وآخرون، أشار إلى روايتهم الدارقطني في «العلل» (١/ ٢٤٩) من طرق عن الزهري عن قبيصة به، بإسقاط الواسطة.

ورجَّح الدارقطني في «العلل» إثبات الواسطة: عثمان بن إسحاق. قال النسائي: =

متبحرين في علم اللغة والنحو حتى نقل عن بعضهم في ذلك ما لا يخفى مثله.اهـ. قلت: نقل كلام سند هذا برمته السنوسي في «الإيقاظ»، ونقل بعضه الشوكاني في «القول المفيد»[١]. اهـ»[٢].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]

في «تفسير الجلالين»: «﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: النبي ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ رد لقولهم أن ما أتى به من القرآن شعر ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ يليق[٣] ﴿لَهُۥٓ﴾ الشعر ﴿إِنْ هُوَ﴾ ليس الذي أتى به ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ مظهر للأحكام وغيرها ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء والتاء به ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ يعقل ما يخاطب به وهم المؤمنون ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ بالعذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهم كالميتين ولا يعقلون ما يخاطبون به»[٤]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من يعرف اللغة العربية سواء أكان من أهلها أم ممن تعلمها من الأجانب يعلم يقيناً أن القرآن ليس بشعر، ومن زعم من كفار العرب أنه شعر فهو إما جاهل أو متجاهل، وما جرى على لسان النبي ﷺ من الكلام المتزن كقوله: **«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»**[٥]؛ فإنه لم يقصده، ومثل هذا يجري على ألسنة جميع الناس في محاوراتهم ومحادثاتهم.

ولا إشكال في كون القرآن ليس شعراً ولا في كون محمد رسول الله غير شاعر، والمهم هنا هو قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ فجعل

= الزهري لم يسمعه من قبيصة.
ورواه الدارمي (٢/ ٣٥٩) من طريق الأشعث عن الزهري قال: جاءت الجدة... معضلاً.

(١) (ص١٧، ط. المنيرية، أو ص٤٢ ـ ٤٣، ط. دار القلم/ الكويت).
(٢) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٠٧ ـ ٢٠٨).
(٣) في مطبوع «الجلالين»: «يسهل».
(٤) انظر: «تفسير الجلالين» (ص٥٣٨).
(٥) أخرجه البخاري (٢٨٦٤، ٢٨٧٤، ٢٩٣٠) عن البراء بن عازب.

الناس فريقين: فريقاً أحياء القلوب يتلقون القرآن وبيانه بالقبول ويؤمنون به ويتبعونه، كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وفريقاً أموات القلوب وهم الكافرون والمنافقون ولا ثالث لهذين القسمين، فمن رد القرآن وبيانه لتقليد أو وليجة أخرى من الولائج فهو من أموات القلوب.

قال العلامة محمد بن أبي مدين في «الصوارام»: «وفي (الجزء الأول) من «شرح الحطاب لمختصر خليل»[1] عازياً إياه لتقي الدين السبكي[2] يخاطب أصحاب المذاهب الأربعة ما نصه: «وأما تعصبكم في فروع الدين، وحملكم الناس على مذهب واحد فهو الذي لا يقبله الله منكم ولا يحملكم عليه إلا محض التعصب والتحاسد، ولو أن الشافعي ومالكاً وأبا حنيفة وأحمد أحياء يُرزقون لشدَّدوا النكير عليكم وتبرؤوا منكم فيما تفعلون».اهـ. منه بلفظه.

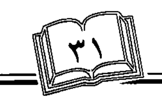
وفي «الرد على من أخلد إلى الأرض»[3] للسيوطي ما نصه: «قال ابن حزم في كتابه «النبذ الكافية في علم الأصول»[4]: «التقليد حرام ولا يحل لأحد أن يأخذ قول[5] أحد [غير رسول الله ﷺ][6] بلا برهان لقوله[7] تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠] وقال في حق من لم يقلد[8]: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨][9] وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

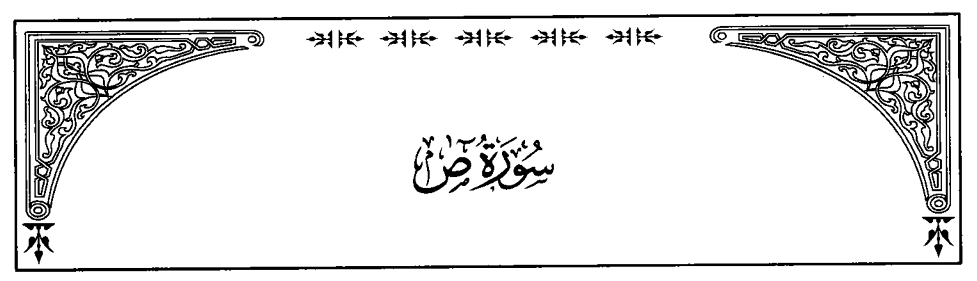
---

(١) المسمى «مواهب الجليل» (١/ ٢٦).
(٢) كلامه في كتابه «مفيد النِّعم ومبيد النِّقم» (ص٧٦).
(٣) (ص١٣١).
(٤) (ص٥٥، ط. الكوثري أو ص١٤٠، طبعة صديقنا الشيخ محمد النجدي).
(٥) في «النبذ»: «بقول».
(٦) غير موجود في «النبذ».
(٧) في «النبذ»: «قوله».
(٨) في «النبذ»: «وقال تعالى مادحاً لقوم لم يقلّدوا».
(٩) بعدها في «النبذ»: «فلا يزهد امرؤ في ثناء الله تعالى بأنه قد هداه، وأنه من أولي الألباب».

فلم يُبح الله تعالى الرد عند التنازع إلى أحد[١] دون القرآن والسنة[٢]، وقد صح إجماع الصحابة كلهم وإجماع جميع التابعين وإجماع تابعي التابعين على الامتناع[٣]، والمنع من أن يقصد منهم أحد إلى قول إنسان منهم أو[٤] ممن قبلهم فيأخذه كله، فلْيعلم من أخذ بجميع أقوال[٥] أبي حنيفة، أو جميع أقوال[٥] مالك، أو جميع أقوال[٥] الشافعي، أو جميع أقوال[٥] أحمد[٦][رضي الله عنهم، ممن يتمكّن من النَّظر، ولم يترك من اتبعه منهم إلى غيره][٧] أنه قد خالف إجماع الأمة كلها بيقين لا إشكال فيه، وأنه لا يجد لنفسه سلفاً في جميع الأعصار المحمودة الثلاثة، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين. نعوذ بالله من هذه المنزلة.اهـ. المراد منه بلفظه»[٨].

(١) في «النبذ»: «الرد إلى أحد عند التنازع».
(٢) في «النبذ»: «وسنة نبيه ﷺ».
(٣) في «النبذ»: «إجماع جميع الصحابة رضي الله عنهم أولهم عن آخرهم، وإجماع جميع التابعين أولهم عن آخرهم، على الامتناع».
(٤) في الأصل «أم» وفي «النبذ» و«الرد إلى من أخلد...» و«الصوارم» المثبت.
(٥) في «النبذ»: «قول».
(٦) إذا كان الحال هكذا مع الأئمة الفقهاء الكبار، فكيف مع أصحاب الطرق والجماعات والأحزاب؟ فتأمل أيها المنصف، ولا يغلب على لسانك في المجالس إلا الدندنة بالكتاب وصحيح السنة على فهم سلف الأمة، ولكن أنى توفّق لذلك، وقلبك مملوء بحب غيرهما، ويطرق سمعك حديث وحال رجالات هذه الطرق والأحزاب، فَصُنْ سمعك عن ذلك، وقاك الله المهالك، واقتصر في التسليم لمن زكاهم نبيّك ﷺ من أصحاب القرون المفضلة، واعلم أن (التخلية) عن التعصب قبل (التحلية) بالاتباع، وما أسوأ حال من أظهر الثاني، وهو متدنس يتلطخ بالأول، ولا قوة إلا بالله، ويا غوثاه من صنيع بعض المتعصبين، وهم يظهرون الأتباع والسنة! فما أسوأ أثرهم على الأتباع! وأشد خطرهم على الاتِّباع! لو كانوا يعلمون!
(٧) من «النبذ» ونحوه في «الرد»، وسقط من «الصوارم» والأصل.
(٨) «الصوارم والأسنة» (ص٢٠٨ ـ ٢٠٩).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]

قال القنوجي: «﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: القرآن كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ أي كثير الخير والبركة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلق بأنزلناه، وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه لا بمجرد التلاوة بدون تدبر»[(١)]. اهـ.

وفي تفسير «القاسمي» ما نصه: «قال الزمخشري[(٢)]: تدبر الآيات: التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما [يقتضي][(٣)] ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحظ[(٤)] منه بكثير طائل أو[(٥)] كان مثله كمثل من له لقحة درور[(٦)] لا يحلبها، ومهرة نثور[(٧)] لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلُق ولا عمل، والله ما هو[(٨)] بحفظ حروفه مع إضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء

(١) انظر: «فتح البيان» (٦/ ٢٢).
(٢) في «كشافه» (٤/ ٩٠).
(٣) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «يدبر».
(٤) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «يَحْل».
(٥) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «و».
(٦) من مطبوع «تفسير القاسمي»، وسقطت من الأصل.
(٧) قال في «القاموس»: «النثور: الكثيرة الولد». (منه).
(٨) من مطبوع «تفسير القاسمي»، وسقط من الأصل.

ولا الورعة[1] لا كثّر الله في الناس مثل هؤلاء، اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعذنا من القراء المتكبرين»[2].اهـ.

قال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»[3] (١/١٠٧) ما نصه:

«وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟»** ثم قال لأصحابه: **«هل في أولئك من خير؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار»**[4]. رواه البزار بإسناد لا بأس به».

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الله الغرض الذي من أجله أنزل القرآن في مواضع من كتابه، منها قوله تعالى في أول سورة إبراهيم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى في أول سورة طه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه: ٢، ٣].

وقال تعالى في سورة الأنعام رقم(٩٢): ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ وقال تعالى فيها أيضاً رقم (١٥٥): ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكلها تدل على أن من قرأ القرآن لغرض غير الغرض الذي أنزله الله لأجله كابتغاء حسن الذكر والافتخار والتأكل به والمراء والجدال هو كما قال النبي ﷺ من وقود النار، انظر «صحيح البخاري»

---

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «الوزعة».

(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (١٤/١٦٦).

(٣) انظر: «الترغيب والترهيب» (١/١١٩ ـ بعنايتي).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/٢٢١)، والبزار في «مسنده» (١/٤٠٥) رقم (٢٨٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٨٦): «رواه الطبراني في «الأوسط»، والبزار، ورجال البزار موثقون». وقال شيخنا الألباني في «صحيح الترغيب»: «**حسن لغيره**».

و«شروحه» عند قوله: (باب من تأكّل بالقرآن أو فخر به)[١]. وقد رأينا المقلِّدين لا يقرؤون القرآن لتدبر آياته أو العمل بها أو الخروج بها من الظلمات إلى النور، ولذلك حرموا من بركات القرآن وبقوا في ظلمات الجهالات.

وفي «الصوارم» لابن أبي مدين ما نصه: «وفي (الجزء الثالث) من «الإعلام» لابن القيم ما نصه: «ومن المحال أن يكون هؤلاء المتأخرون على مذهب الأئمة دون أصحابهم الذين لم يكونوا يقلدونهم، فأَتْبعُ الناس لمالك ابنُ وهب وطبقته ممن يحكِّم الحجة وينقاد للدليل أين كان، وكذلك أبو يوسف[٢] أَتْبع لأبي حنيفة من المقلدين له مع كثرة [مخالفته][٣] له، وكذلك[٤] الأثرم وطبقته من أصحاب أحمد أتبع له من المقلدين المنتسبين إليه، وعلى هذا فالوقف على أتباع الأئمة أهل الحجة والعلم أحق به من المقلدين في نفس الأمر، وقد أنكر بعض المقلدين على شيخ الإسلام ابن تيمية في تدريسه في مدرسة ابن الحنبلي ـ وهي وقف على الحنابلة والمجتهد ليس منهم ـ فقال: إنما أتناول ما أتناوله منها على معرفتي بمذهب أحمد لا على تقليدي له»[٥]. اهـ المراد منه بلفظه.

قلت: نقل كلام ابن تيمية هذا السيوطي في كتابه «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»[٦]. وقال عقبه ما نصه: «وقد كنت أجبت بمثل هذا الجواب قبل أن أقف عليه لمَّا قيل لي [مثل] ذلك في العام الماضي، واستندت إلى أن ابن الصباغ ولي تدريس الشافعية بالنظامية وهو موصوف بالاجتهاد المطلق، وابن عبد السلام ولي تدريس الشافعية بالصالحية وبالظاهرية، وابن دقيق العيد ولي تدريس المدرسة المجاورة لضريح الإمام

---

(١) انظر: «فتح الباري» (٩/ ١٢٤ ـ ١٢٦)، و«شرح الكرماني» (١٩/ ٤٩ ـ ٥٠)، و«شرح العيني» (٢٠/ ٦١ ـ ٦٢)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤٨٥ ـ ٤٨٧)، و«التوشيح» (٧/ ٣٢٠٠ ـ ٣٢٠١)، و«تحفة الباري» (٥/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

(٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «ومحمد».

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «مخالفتهما».

(٤) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «البخاري ومسلم وأبو داود».

(٥) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣ ـ بتحقيقي) بتصرف.

(٦) انظره (ص١٦٦).

الشافعي وغيرها من المدارس الموقوفة على الشافعية، وكذلك السبكي والبُلْقيني كل قد ولي مدارس الشافعية، مع القطع بأنهم مجتهدون بقولهم وشهادة الناس لهم»(١). اهـ كلام السيوطي بلفظه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٥ ـ ٦٨]

قال (ك): «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ لست كما تزعمون ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: غفار مع [عظمته وعزته](٢). ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ أي: خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله [تعالى](٣) إياي إليكم ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: غافلون»(٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: وهذا النبأ العظيم الذي أحدث انقلاباً على وجه الأرض لا يعرف له نظير في التاريخ، فسعدت به أمم وشعوب وارتفعت به من الحضيض الأسفل إلى أعلى درجات الرقي. هذه الأمم نفسها قد أعرضت عنه أيما إعراض، فكان لها هذا الإعراض أحد أسباب الانقراض، ومن الأمور التي صدتها عنه التقليد والتمذهب والقوميات والوطنيات وطرائق المتصوفة واتباع الأهواء ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

---

(١) انظر: «الرد على من أخلد إلى الأرض» (ص١٦٧)، و«الصوارم والأسنة» (٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عزته وعظمته».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١٠٦).

قال العلامة محمد بن أبي مدين في «الصوارم»:

«وفي (الجزء الثالث) من «سبل السلام شرح بلوغ المرام» للصنعاني ما نصه: «والتكلف لرد الظواهر من الأدلة محاماة(١) عن المذهب، ليس من شأن المتبع لما جاء عن الله ورسوله ﷺ»(٢). اهـ.

وفي «القوانين الفقهية» لابن جُزَيّ ما نصه: «والتعصب لمذهب دون آخر من حمية الجاهلية»(٣). اهـ.

وفي «تعليق الأستاذ حسين على موافقات الشاطبي» ما نصه: «التعصب للمذهب ينشأ عن قصر النظر وعدم التفقه في الأصول العالية، ولهذا تجد المتبحر في علم الكتاب والسنة، المطَّلع على مذاهب الفقهاء ومداركها لا يزيد احترامه للمذهب الذي يتبعه على احترامه للمذاهب الأخرى(٤)، وذلك لما يبدو له من رجحانها وتفوّقها على مذهبه في كثير من المسائل»(٥). اهـ.

---

(١) في مطبوع «سبل السلام»: «محاباة».

(٢) انظر: «سبل السلام» (٦/ ٣٢٧) بتصرف يسير.

(٣) انظر: «القوانين الفقهية» (١٧).

(٤) العبارة في «تعليق الشيخ محمد الخضر حسين التونسي على الموافقات» هكذا: «.. ومداركها يكاد احترامه للمذهب الذي يتبعه لا يزيد على احترامه للمذاهب الأخرى...».

(٥) «تعليقات الشيخ محمد الخضر حسين على الموافقات» (١/ ٥٣، ط. التونسية، أو ١/ ١٢٤ ـ بتحقيقي)، إذ وضعت ـ بتوفيق من الله ﷻ ـ في هامش الطبعة التي حققتُها جميع هوامش العلماء والمعلقين على «الموافقات»، بما في ذلك تعليقات العلامة محمد الخضر حسين ـ رحمه الله تعالى ـ.

وظفرتُ بعبارة للشاطبي في «الموافقات» (٣/ ١٣١ ـ ١٣٢) **مهمة غاية في هذا الباب**، يقول فيها: «إن اعتياد الاستدلال لمذهب واحد ربما يكسب الطالب نفوراً وإنكاراً لمذهب غير مذهبه، من غير اطلاع على مأخذه، **فيورث ذلك حزازة في الاعتقاد في الأئمة**، الذين أجمع الناس على فضلهم وتقدّمهم في الدين، واضطلاعهم بمقاصد الشارع، وفهم أغراضه».

قلت: ومن الجدير بالذكر هنا ما أورده الذهبي في «السير» (٨/ ٩٠) متعقباً مقولة من قال: «إن الإمام لمن التزم بتقليده، كالنبي مع أُمته، لا تَحِلُّ مخالفته»! قال: «قلت: قوله: (لا تَحِلُّ مخالفته)! مجرد دعوى، واجتهاد بلا معرفة، بل له مخالفةُ إمامه إلى إمام آخر، حجَّتُه في تلك المسألة أقوى، لا؛ بل عليه اتباعُ الدليل فيما تبرهنَ له، لا كمن تمذهَب لإمام، فإذا لاح له ما يُوافقُ هواه، عَمِلَ به من أيِّ مذهبٍ كان، ومن تتبَّع رُخَصَ =

وفي (الجزء الأول) من «زاد المعاد» لابن القيم ما نصه: «ويا لله ما يصنع التقليد ونصرة الآراء بأصحابه»[١]. اهـ.

وفي «القواعد الكبرى» لعز الدين بن عبد السلام ما نصه: «ولم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بُعد مذهبه عن الأدلة، مقلداً له فيما قال كأنه نبي أرسل إليه، وهذا نأي عن الحقِّ، وبُعدٍ عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب»[٢]. اهـ.

وفي (الجزء الثاني) من «فتاوى شيخ الإسلام» تقي الدين ابن تيمية ما نصه: «وإذا كان الرجل متبعاً بعض الأئمة الأربعة، ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى فاتَّبعه كان قد أحسن في ذلك، بل هذا أولى بالحق وأحب إلى الله ورسوله ممن يتعصب لواحد معين، ويرى أن قوله هو الصواب دون قول الذي خالفه، وما زال المسلمون يستفتون علماءهم فيقلدون هذا تارة وهذا تارة، فإذا كان المقلد يقلد في مسألة يراها أصلح لدينه أو القول بها أرجح، جاز هذا باتفاق جماهير علماء المسلمين»[٣]. اهـ.

وفي «سنن المهتدين في مقامات الدين» للمَوَّاق ما نصه: «لا يتعين على العامي إذا قلد إماماً في مسألة أن يقلد غيره في[٤] سائر مسائل الخلاف؛ لأن الناس من لدن الصحابة إلى أن ظهرت المذاهب يسألون عما[٥] يسنح لهم العلماء

= العلماء، وزلَّاتِ المجتهدين؛ فقد رقَّ دينُه، كما قال الأوزاعي أو غيرُه».
ثم قال (٨/ ٩٣ ـ ٩٤):
«ولا ريبَ أن كلَّ من أَنِسَ من نفسه فقهاً، وسَعَةَ علم، وحُسنَ قصدٍ، فلا يسعهُ الالتزام بمذهبٍ واحدٍ في كل أقواله؛ لأنه قد تبرهن له مَذهبُ الغيرِ في مسائل، ولاح له الدليل، وقامت عليه الحجَّةُ، فلا يُقلِّدُ فيها إمامه، بل يعمل بما تَبَرْهَن، ويُقلِّد الإمامَ الآخرَ بالبرهان، لا بالتَّشهي والغرض». وانظر: «الاعتصام» للشاطبي (٣/ ١٤١) وتعليقي عليه.

(١) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ٢١٣).
(٢) انظر: «قواعد الأحكام» (٢/ ٢٧٤، ط. دار القلم) بتصرف واختصار وما قدمناه عن الإمام الذهبي قريباً.
(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٢٤٨) بنحوه.
(٤) في «سنن المهتدين»: «أن يقلده في».
(٥) في «سنن المهتدين»: «فيما».

المختلفين من غير نكير من أحد، وسواء اتباع[١] الرخص في ذلك أو العزائم؛ لأن من جعل المصيب واحداً لم يعينه، ومن قال: كل مجتهد مصيب، فلا إنكار على من قلد في الصواب»[٢]. اهـ.

قلت: تصويب كل مجتهد عند من قاله من الصواب الذي لا ينافي الخطأ، بمعنى أن المجتهد لا يأثم بالخطأ، بل يؤجر عليه بعد توفية الاجتهاد حقه، لا من الإصابة التي هي مقابلة للخطأ، فإن ذلك لا يقوله عالم[٣]؛ لأن النبي ﷺ قسّم ما يصدر من المجتهد إلى صواب وخطأ فقال: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر**»، أخرجه الشيخان والأربعة[٤]. قال السندي في «حاشيته على البخاري» في الكلام على الحديث المذكور ما نصه: «وفيه دلالة على أن الحق عند الله واحد وأن المجتهد يخطئ ويصيب»[٥]. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص ٨٦ ـ ٨٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ

---

(١) في «سنن المهتدين»: «اتبع».

(٢) «سنن المهتدين» (ص٧٠، ط. محمدن ولد حمينا) وقد صرح الموّاق بنقله من العز بن عبد السلام، وينظر ـ لزاماً ـ لمقولة (كل مجتهد مصيب)!: كتابي «التحقيقات والتنقيحات السلفيات على متن الورقات» (ص٦٦١ وما بعدها).
(**لطيفة**) مما ذكرته في «شرحي» مستدلاً على خطأ مقولة (كل مجتهد مصيب)، وأن الصواب خلافها ما نصه:
«ومن لطيف ما يستدل عليه: أنَّ لازم قول القائل: (كل مجتهد مصيب) صحةُ هذا الترجيح، ذلك أنَّ القائل إمَّا أَنْ يعتقد أنَّ قولة: (ليس كل مجتهد مصيب): صحيحة أو باطلة؛ فإنِ اعتقد بطلانها نقض قوله، وإنِ اعتقد خلاف ذلك سَلَّم بما رجَّحنا، فتأمل».

(٣) انظر: في انفكاك الإثم عن الخطأ: «منهاج السنة النبوية» (٥/١١١)، «مجموع الفتاوى» (١٩/٢١٦ ـ ٢١٧) وآخر «شرحي على الورقات» (٦٧١ ـ ٦٧٢).

(٤) أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (١٧١٦)، وأبو داود (٣٥٧٤)، وابن ماجه (٢٣١٤) من حديث عمرو بن العاص، وأخرجه الترمذي (١٣٢٦)، والنسائي (٥٣٨١) من حديث أبي هريرة.

(٥) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢١٠ ـ ٢١١).

﴿عَلَيۡهِ﴾ أي: على [إبلاغ][1] الرسالة، والنصح ﴿مِنۡ أَجۡرٖ﴾ من عرض الدنيا تعطونيه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ وما أمرت بتبليغه فقد بلغته وأديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة، قال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود قال: «يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾. أخرجاه من حديث الأعمش به[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾ أي يوم القيامة.

قال الحسن: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر»[3].

وفي «الصوارم»: «وقال مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: ليس في اختلاف الصحابة سعة وإنما الحق في واحد، قيل له: فمن يقول: إن كل مجتهد مصيب؟ فقال: لا يكون قولان مختلفان صوابين. وهذا قول الليث والأوزاعي والشافعي وأبي ثور وجماعة أهل النظر فمن زعم أن تصويب كل مجتهد من الإصابة للحق فقد غلط غلطاً بيناً، ومن لم يفهم الفرق فعليه أن يتهم نفسه، انظر: «القول المفيد» للشوكاني و(الجزء الرابع) من «مقامات[4] الشاطبي» و«الجامع» لابن

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بلاغ».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٠).

(٤) لعل الصواب من «موافقات». (منه). قال أبو عبيدة: صوابه يقيناً «الموافقات»، والنقل المذكور فيه (٥/ ٧٥ ـ بتحقيقي) نقلاً عن «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٠٦ ـ ٩٠٧) لابن عبد البر، ومقولة مالك في «ترتيب المدارك» (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣)، و«إعلام الموقعين»، وصفة الفتوى» (٤١) لابن حمدان، و«آداب المفتي والمستفتي» (١٢٥)، وللشافعي مقالة قوية في «إبطال الاستحسان» (٤١)، وينظر في المسألة: «قواطع الأدلة» (٢/ ٣٠٧)، «كشف الأسرار» (٤/ ٣٠)، «إرشاد الفحول» (٣٨٦)، «التبصرة» (٤٩٨)، «فتح الباري» (٧/ ٤٠٩)، «البحر المحيط» (٨/ ٢٨٥)، ولابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٢) كلمة في معنى قولهم (كل مجتهد مصيب)، «القول المفيد» (ص٤٤، ط. المنيرية، سنة ١٣٤٠هـ)، «المحلى» (١/ ٧٠) رقم (١٠٩). =

عبد البر و(الجزء الأول) من «المحلى» لابن حزم و(الجزء الثالث) من «تهذيب السنن» لابن القيم وغيرها من كتب الأصول.اهـ.

وفي «جمع الجوامع» لابن السبكي ما نصه ممزوجاً بكلام شارحه المحلِّي: «(**وأما الجزئية التي فيها قاطع** من نص أو إجماع واختلف فيها لعدم الوقوف عليه، **(فالمصيب فيها واحد وفاقاً)**، وهو من وافق ذلك القاطع»[1].اهـ. وقال أبو عمر بن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»[2] ما نصه: «واعلم أن مَنْ عني بحفظ السنن والأحكام المنصوصة في القرآن، ونظر في أقاويل الفقهاء، فجعلها عوناً له على اجتهاده ومفتاحاً لطرائق النظر وتفسيراً[3] على كل حال دون نظر، ولم يرح نفسه مما أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السنن وتدبرها واقتدى بهم في[4] البحث والتفهم والنظر، وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونبَّهوا عليه، وحمدهم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم، ولم يبرّئهم من الزلل كما لم يبرؤوا أنفسهم منه، **فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف الصالح**، وهو المصيب لحظِّه، والمعاين لرشده، والمتبع لسنة نبيه ﷺ وهدي صحابته ﵃، ومن أعفى نفسه من النظر، وأضرب عما ذكرنا، وعارض السنن برأيه، ورام أن يردها إلى مبلغ نظره، فهو ضال مضل، ومن جهل ذلك كله وتقحم في الفتوى بلا علم، فهو أشد عمًى وأضل سبيلاً»[5].اهـ.

= **(لطيفة)** نقل شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٢٠٥) عن أبي إسحاق الإسفرائيني وغيره قولهم عن (كل مجتهد مصيب في الأصول): «هذا القول أوله سفسطة، وآخره زندقة».

(١) «حاشية المحلي على جمع الجوامع» (٢/ ٤٢٩ ـ مع «حاشية العطار»).

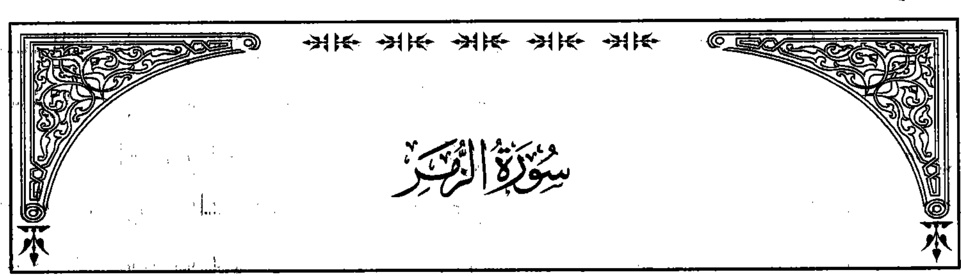
(٢) (٢/ ١١٣٩، ط. دار ابن الجوزي).

(٣) بعدها في مطبوع «الصوارم» و«الجامع»: «الجمل السنن المحتملة للمعاني ولم يقلد أحداً منهم تقليد السنن التي يجب الانقياد إليها».

(٤) في مطبوع «الجامع»: «واقتدائهم في».

(٥) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢١١ ـ ٢١٢).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣].

قال (ك): «أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟ كقوله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾»(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ...﴾ الآية.

قال (ك): «هذا مدح من الله ﷻ لكتابه العظيم فقال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ قال بعض العلماء ومنهم سفيان بن عيينة: إن سياقات القرآن تارة تكون في معنىً واحد فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين أو كصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا.. فهذا من المثاني كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. وأما إذا كان السياق كله في معنىً واحد يشبه بعضه بعضاً فهو المتشابه.

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/٤٨).

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه صفة الأبرار عند سماع كلامه جل جلاله [بما يفهمونه][١] منه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه: **أحدها**: إن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات. **الثاني**: إنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمٰن خروا سجداً وبكيًّا، بأدب وخشية ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣] أي: إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة، لا عن جهل وتقليد أعمى ومتابعة لغيرهم. **الثالث**: إنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة[٢] يسمعونها وتقشعر جلودهم وتلين قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الأدب والسكون والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالرضا والمدح من الله في الدارين بخلاف بعض الجماعات الذين تذهب عقولهم ويغشى عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هذه صفات من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك، فهو ممن أضله الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من شرح الله صدره للإسلام الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ بلا تبديل ولا تغيير ولا زيادة ولا نقصان يكون على نور من ربه يخرجه الله من الظلمات إلى النور، ويكون قلبه ليناً إذا سمع كتاب الله اقشعر قلبه ولان جلده وانتفع بكتاب الله وكان من المهتدين، ولا يمكن مع ذلك أن يرد شيئاً من كتاب الله أو من سنة رسوله ﷺ؛ لتقليد أو تمذهب أو تعصب لحزب أو وطن

(١) في مطبوع «التيسير»: «لما يفهمون».

(٢) بعدها في مطبوع «التيسير»: «رضي الله عنهم».

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٩).

أو جنس، قال العلامة محمد بن أبي مدين في «الصوارم» ما نصه:

«وقال محيى السنة الشيخ سيدي ابن الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي رحمهم الله تعالى في ترجمة كتابه «إرشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين» ما لفظه: أما بعد: فهذه نقول قصد بها بيان أن الأولى للمقلد لأحد الأئمة الأربعة إذا وجد خلاف إمامه عن أحد الأئمة الثلاثة في مسألة وتبين له رجحانه على مذهب إمامه في تلك المسألة بموافقته للقرآن أو السنة الصحيحة المخرجة في «الصحيحين» أو في أحدهما، أو نص الترمذي مثلاً على صحتها ولم يجد مثل ذلك لإمامه، أو وجد ثلاثة من الأئمة الأربعة متوافقين على خلاف إمامه في مسألة ولم يجد فيها دليلاً من القرآن أو السنة الصحيحة موافقاً لإمامه، ولا سيما إن اجتمعت هذه المرجِّحات كلها ومعها رواية عن إمامه أن يعمل بما تبين له رجحانه إن كان متحرياً للحق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١]. اهـ.

وقد قرظ[٢] كتابه المذكور بقوله:

هذي نقولٌ صحيحات صريحات ... في قَفْوها لإله الناس مرضاةُ

تهديك نحو كتاب الله أو سُنن ... قد أثبتَتْها عن المختار أثباتُ

وأَعملتها وعاةُ العلم كلُّهم ... أو جلهم إن تكن ثم اختلافاتُ

قد جُمعت من بطون الكتب فالتأمت ... وكن يلفين[٣] فيها وهي أشتاتُ

يرضى بها مِنْ أولي الألباب مَن صُقِلت ... من قلبه لقبول الحق مرآةْ

لا يمتري عاقل فيها إذا سمعت ... إن كان منه لقول الحق إنصاتُ

لكنها حين عاد الدِّين مغتربا ... وهن عروته[٤] الوثقى غريباتُ

فهذه السنة الغراء دارسة ... وأهلها في تُخُوم الأرض أمواتُ

وعْد كذلك موقوت بلا كذب ... قد حان من عصره الموعود ميقاتُ

وفي اتباع كتاب الله أو سُنن ... صحت عن المصطفى للدين منجاةُ

والرأي في وقته من أهله حسن ... ولا تراه على المنصوص يفتاتُ

---

(١) بعدها في مطبوع «الصوارم»: «كلامه بلفظه».

(٢) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «قرض»!

(٣) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «يلقين»!

(٤) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «وهي وعرواته»!

إن البدايات من يُحكِم تحققها   تحققت عنده منها النِّهاياتُ»[١]

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

[الزمر: ٤١]

قال (ك): «يخاطب تعالى رسوله محمداً ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك في نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: يعود وبال ذلك على نفسه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢][٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي: لتبشر وتنذر جميع الناس، وكل من بلغه هذا التبشير وهذا الإنذار على وجهه بدون تبديل ولا تغيير على يد دعاة مخلصين يشفعون أقوالهم بأفعالهم فهو حجة عليه، لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. ومن أعرض عنه بتكذيب ظاهر غير مستتر أو بتكذيب يستره بتقليد أو أخذ العهد والورد من شيخ، أو الانضمام إلى حزب، أو بسبب وطنية أو وثنية أو تعصباً لقومية جاهلية، فقد قامت عليه حجة الله، وسيعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير.

وفي «الصوارم» ما نصه:

«وقال شمس الدين ابن القيم في «الإعلام»[٤] ما نصه: «كل طائفة منكم

---

(١) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢١٢).

(٢) بعدها في مطبوع «التيسير»: «كقوله تعالى».

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٥٤).

(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٩٠ ـ ٤٩١، ٥٢٣ ـ ٥٢٤ ـ بتحقيقي) بتصرف.

معشر المقلدين قد نزلت[١] جميع الصحابة والتابعين وجميع علماء الأمة إلا من قلدتموه[٢] في مكان من[٣] لا يعتد بقوله ولا ينظر في فتواه إلا لإعمال الفكر في الرد عليهم إذا خالف قولُهم قولَ متبوعهم، فإذا خالف قول متبوعهم نصًّا عن الله ورسوله فالواجب ـ عندهم ـ التكلف في إخراج ذلك النص عن دلالته والتحيل لدفعه بكل طريق حتى يصح قول متبوعهم، فيالله لدينه وكتابه وسنة رسوله ولبدعة كادت تثل عرش الإيمان، وتهد ركنه لولا أن الله ضمن لهذا الدين أن لا يزال فيه من يتكلم بإعلائه[٤] ويذب عنه، ومن أعجب أمركم أنكم أقررتم على أنفسكم بالعجز عن معرفة الحق بدليله من كلام الله وكلام رسوله مع سهولته وقرب مأخذه واستيلائه على أقصى غايات البيان واستحالة التناقض والاختلاف عليه، فهو نَقْل محض[٥] عن قائل معصوم، وقد نصب الله سبحانه الأدلة الظاهرة على الحق وبيَّن لعباده ما يتقون، فادعيتم العَجْزَ عن معرفة ما نصب عليه الأدلة وتولّى سبحانه بيانه، ثم زعمتم أنكم عرفتم بالدليل أن صاحبكم أولى بالتقليد من غيره، فعجباً كل العجب لمن خفي عليه الترجيح فيما نصب الله عليه الأدلة من الحق ولم يهتد إليها واهتدى إلى أن متبوعه أولى بالصواب ممن عداه، ولم ينصب الله على ذلك دليلاً واحداً، وطريقة أهل العلم سلفاً وخلفاً طلب النظر في أقوال العلماء وضبطها وعرضها على القرآن والسنن وأقوال الخلفاء الراشدين، فما وافق ذلك قبلوه ودانوا الله به وأفتوا به، وما خالف ذلك منها ردوه ولم يلتفتوا إليه، وما لم يتبين لهم جعلوه من مسائل الاجتهاد التي غايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبته من غير أن يلزموا بها أحداً ولا يقولون إنها الحق دون ما خالفها.

وأما هؤلاء الخلف؛ فعكسوا الطريق وقلبوا أوضاع الدين؛ فزيَّفُوا كتاب الله وسنة رسوله وأقوال خلفائه وأصحابه، فعرضوها على أقوال من قلدوه، فما وافقه منها انقادوا له مذعنين، وما خالف أقواله منها لم يقبلوه، واحتال فُضَلاؤهم في ردِّها بكل ممكن، وتطلَّبوا لها وجوه الحِيل التي تردها، فإذا كانت موافقة لمذاهبهم وكانت تلك الوجوه بعينها، قائمة فيها شنَّعوا على منازعهم وأنكروا عليه

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «أنزلت».

(٢) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «قلّدوه»!

(٣) من مطبوع «الإعلام».

(٤) في مطبوع «الإعلام»: «بأعلامه»..

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «مصدق».

ردًّا بتلك الوجوه بعينها وقالوا: لا تُرد النصوص بمثل هذا، **ومن له همة تسمو إلى الله ومرضاته ونصر الحق الذي بعث به رسوله أين كان ومع من كان لا يرضى لنفسه بهذا المسلك الوخيم والخلق الذميم».اهـ.**

قلت: قد صدر هذا الكلام من ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ منذ ستمائة سنة ونيف وعشرين سنة والعلماء إذ ذاك متوافرون والروضة أنف والحوض ملآن[1]، وأما الآن فقد بلغ السيل الزبى وريعت الأرباء بكل أربى[2]، فإنا لله وإنا إليه راجعون والله المستعان، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.اهـ.

وفي (الجزء الأول) من «المدخل» لابن الحاج المالكي ما نصه: «ولو قلت لأحدهم مثلاً: السنة كذا وكذا، قابلك بما لا يليق فيقول: كان شيخي يفعل كذا وكذا، وما هذا طريق شيخي، ويصادم بذلك السنة الواضحة، وليتهم وقفوا عند هذا الحد لو كان سائغاً، بل زادوا على ذلك الأمر المخوف، وهو ما بلغني ممن أثق به أن بعض من ينسب إلى العلم تكلم في مسألة ونقل فيها عن بعض شيوخه نقلاً تأباه الشريعة، فقال له بعض من حضره: حديث النبي ﷺ يرد هذا. فقال له: حديث النبي ﷺ إنما يراد للتبرك والشيوخ هم الذين يقتدى بهم، وهذا إن كان معتقداً لما قاله كان كافراً حلال الدم، وإن لم يعتقده فهو مرتكب لكبيرة عظمى، يجب عليه أن يتوب منها مع الأدب الموجع»[3].اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ

---

(١) في مطبوع «الصوارم»: «ملآن». (٢) أي روع العقلاء بكل داهية. (منه).

(٣) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢١٣ ـ ٢١٤).

تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر]

قال (ك): «أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو القرآن العظيم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون، ثم قال ﷻ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله ﷻ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أخبر الله ﷻ ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وبعملهم[1] قبل أن يعملوه»[2]، وقال [تعالى][3] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ فأخبر الله ﷻ[4] أن لو رُدّوا لما قدروا على الهدى فقال[5]: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وقد قال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل أهل النار**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وعملهم».

(٢) انظر: «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (١١١٠).

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تعالى».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال تعالى».

يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني. فتكون عليه حسرة»، قال: **«وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني. قال: فيكون له الشكر»**[(١)].

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على [عدم][(٢)] تصديق آيات الله واتباع رسله قال [ﷻ][(٢)]: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْزَنُونَ﴾ قال (ﷺ): «يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هٰهنا: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أليست جهنم كافية لهم سجناً وموئلاً، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق؟ قال ابن أبي حاتم بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً من النار في وادٍ يقال له: بولس، من نار الأنيار ويسقون من عصارة أهل النار ومن طين[(٤)] الخبال»**[(٥)]. وقوله تبارك وتعالى:

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٢، ٥٤٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٥٤) ـ وهو في «تفسيره» (٤٧٤) ـ، والحاكم (٢/ ٤٣٥، ٤٣٦) وعنه البيهقي في «البعث والنشور» (٢٤٣)، **وإسناده صحيح.**
وأخرجه البخاري (٦٥٦٩) بنحوه من حديث أبي هريرة.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من طينة».

(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٧)، والترمذي (٢٤٩٢)، والنسائي في «الكبرى» ـ كما في «التحفة» (٦/ ٣٣٧) ـ ونعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (١٩١)، والبغوي (٣٥٩٠)، والدينوري في «المجالسة» (١٩٥٧ ـ بتحقيقي) من طريق ابن المبارك، وأحمد =

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر، نائلون[1] كل خير»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ خطاب لمن خوطبوا بقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وهو شرط في مغفرة الذنوب خلافاً للمحدِّث القنوجي؛ لأنهم إذا لم ينيبوا ولم يسلموا ولم يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم لا يستحقون المغفرة؛ لأنهم لم يتوبوا من إسرافهم على أنفسهم فهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥] وكل نفس لم تنب إلى الله تعالى ولم تسلم ولم تتبع القرآن واستمرت على ذلك إلى الموت، فلا بد أن يأتيها العذاب ولا بد أن تندم وتقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] والمعرض عن القرآن والسنة لتقليد أو اتباع طريقة أو تعصب لحزب أو مذهب أو وطنية وثنية أو قومية طاغية داخل في هذا الوعيد، فإن كان يشهد لله تعالى بالتوحيد قولاً وعملاً واعتقاداً، ويشهد لرسول الله ﷺ بالبلاغ وقد قصر في طلب علم السنة، أو علمها وخالفها تعصباً لما تقدم من النحل يخشى عليه العذاب الأليم والشقاء في الدنيا والآخرة».

= (٢/ ١٧٩) من طريق يحيى بن سعيد، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٣٢٣)، و«صفة النار» (٤٦)، و«الأهوال» (٢٤٠) من طريق سليمان بن حيان الأحمر، والحميدي (٥٩٨)، وأبو بكر بن المقرئ في «جزء فيه أحاديث نافع بن أبي نعيم» (٢٦)، والأصبهاني في «الترغيب» (٥٩٩، ٢٣٣٠) من طريق سفيان بن عيينة جميعهم عن محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، **وإسناده حسن**، وقال الترمذي: «حسن»، وله طريق آخر، وشواهد، ذكرتها في تحقيقي لـ«التخويف من النار» لابن رجب رقم (٤٢٥).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «مؤمّلون».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٤٥).

وفي «الصوارم والأسنة» نقلاً[١] عن «إعلام الموقعين» ما نصه[٢]:

«قال شمس الدين ابن القيم في كتابه: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» مجيباً لهم عن هذه الحجج ما نصه:

«أما احتجاجكم على وجوب التقليد بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ [التوبة: ١٢٢] الآية فإن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذرهم[٣] به من الوحي الذي ينزل في غيبتهم عن النبي ﷺ في الجهاد، وليس في الآية ما يقتضي صحة القول بالتقليد المذموم؛ بل هي حجة على فساده؛ لأن الإنذار إنما يقوم بالحجة، فمن لم يأت بها فليس بنذير، ومن لم تقم عليه الحجة لم يكن قد أنذر، فإن سميتم ذلك تقليداً فليس الشأن في الأسماء، ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى، فسمّوه ما شئتم، وإنما ننكر نصب رجل معين يجعل قوله عياراً على القرآن فما وافق قوله منها قبل وما خالفه لم يقبل، ويقبل قوله بغير حجة ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يُعلن إنكارَه وذمَّه وذم أهله»[٤].

«واحتجاجكم بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فقد خفي عليكم أنهم إنما يطاعون إذا أمروا بأمر الله ورسوله، فطاعتهم إنما هي تبع لا استقلال، ولهذا قرنها بطاعة الرسول، ولم يُعِدْ العامل، وأفرد طاعة الرسول وأعاد العامل لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعاً وليس كذلك، بل طاعته واجبة استقلالاً سواء كان ما أمر به في القرآن أو لم يكن، فأين في الآية تقديم آراء الرجال على السنة وإيثار التقليد عليها؟ وأولو الأمر قد نهوا عن تقليدهم كما صح ذلك عن معاذ[٥] وابن مسعود[٦] وابن عمر[٧] وابن

(١) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢١٦ ـ ٢١٩).

(٢) وهذه النقول متقطعة من مواطن متعددة من الكتاب، وقد أشرت إلى كل موضع فيها.

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «أنذروهم».

(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦ ـ بتحقيقي) بتصرف.

(٥) سيأتي عنه أثر يدل على ذلك (ص٧٠)، وهناك تخريجه، وانظر: «الأعلام» (٢/ ١١١ ـ ١١٢).

(٦) ورد عنه قوله: «لا يقلدنّ أحدُكم دينَه رجلاً» انظره بتمامه مع تخريجه في (ص٢١)، وأورد ابن القيم في «الإعلام» (٢/ ١٠٥ ـ ١٠٧) جملة من الآثار، وخرجتها في تعليقي عليه.

(٧) أخرج أبو نعيم (١/ ٣٠٥) بسند ضعيف عن قوله: «من كان مستنّاً، فلْيستنّ بمن قد مات» =

عباس[(١)] وغيرهم من الصحابة[(٢)]، وذكرناه نصًّا عن الأئمة الأربعة وغيرهم وحينئذٍ فطاعتهم في ذلك إن كانت واجبة بطل التقليد وإن لم تكن واجبة بطل الاستدلال، فهذه الآية من أكبر الحجج عليكم وأعظمها إبطالاً للتقليد.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧] فما ذكرتم بعينه حجة عليكم؛ لأن الله سبحانه أمر بسؤال أهل الذكر وهو القرآن والحديث، فهما الذكر الذي أمر الله من لا علم عنده أن يسأل أهله، وهذا هو الواجب على كل أحد أن يسأل أهل العلم بالذكر، فإذا أخبروه به لم يسعه غير اتباعه، هذا كان شأن أئمة أهل العلم، لم يكن لهم مقلد معين يتبعونه في كل ما قال، فكان ابن عباس يسأل الصحابة عن ما قاله رسول الله ﷺ أو فعله لا يسألهم عن غير ذلك، وكان الصحابة يسألون أمهات المؤمنين خصوصاً عائشة عن فعله ﷺ في بيته، وكان التابعون يسألون الصحابة عن فعل نبيهم فقط، وكذلك أئمة الفقه كما قال الشافعي لأحمد: «أنت أعلم بالحديث مني، فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه شاميًّا كان أو كوفيًّا أو بصريًّا»[(٣)]، ولم يكن أحد من أهل العلم قط يسأل عن رأي رجل بعينه أو مذهبه فيأخذ به وحده ويخالف له ما سواه».

= وعلق ابن وهب عنه بسند صحيح أنه كان إذا لم يجد في الأمر يُسأل عنه شيئاً، قال: «إنْ شئتُ أخبرتكم بالظن» ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (١٤٤٣) وصح عنه قوله لجابر بن زيد: «إنك من فقهاء البصرة، وتُستفتى، فلا تفتين إلا بكتاب ناطق أو سنة ماضية» أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٠٤) ـ ومن طريقه ابن حزم في «الإحكام» (٨/ ٥٤٠) ـ والدارمي (٢/ ١٦١)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٣)، وأبو نعيم (٣/ ٨٦)، والهروي في «ذم الكلام» (٢٨٢) **وإسناده صحيح**.

(١) أخرج البيهقي في «المدخل» (٨٣٥، ٨٣٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٤)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٩٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٧٧) **بسند صحيح** عنه قوله: «ويل للأتباع من عثرة العالم» وفسر (العثرة) بقوله: «يقول العالم من قبل رأيه، ثم يسمع من هو أعلم برسول الله منه، فيخبره، فيرجع، ويقضي الأتباعُ بما حكم» وورد عنه غير ذلك، فلينظر: «الإعلام» (٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩ و٣/ ٤٥٥)، والموافقات» (٤/ ٩٠ و٥/ ١٣٤)، وتعليقي عليهما.

(٢) ذكره بإسهاب ابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٩٩ ـ ١١٤) عن جمع منهم رضوان الله عليهم.

(٣) بنحوه في «آداب الشافعي ومناقبه» (٩٥)، و«الحلية» (٩/ ١٧٠)، «الانتقاء» (٧٥)، «مناقب الشافعي» (١/ ٤٧٦) للبيهقي، «معنى قول الإمام المطلبي» (٧٤).

«وأما قولكم: قد صح عنه ﷺ أنه قال: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»**(١) وقال: **«اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»**(٢)، فهو من أكبر حجتنا عليكم، إذ من المعلوم أن أحداً منهم لم يكن يدع

(١) سبق تخريجه مطولاً، **وهو صحيح.**

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٣١٠)، وابن ماجه (١/ ٣٧) رقم (٩٧)، والحميدي رقم (٢٤٩)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١١) رقم (١١٩٩١) و(١٤/ ٥٦٩) رقم (١٨٨٩٥)، وأحمد (٥/ ٢٩٩، ٣٨٢، ٤٠٢)، وفي «فضائل الصحابة» رقم (٤٧٨، ٤٧٩)، وابنه عبد الله في «زوائده على الفضائل» (١/ ١٨٦) رقم (١٩٨)، و«السنة» رقم (١٣٦٧ ـ ١٣٦٩)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٩/ ٥٠ ـ «الكنى»)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٨٣، ٨٤، ٨٥)، والحاكم (٣/ ٧٥)، وابن سعد (٢/ ٣٣٤)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٨٠)، والخلال في «السنة» رقم (٣٣٦)، والبزار (١/ ٢٤٨ ـ ٢٥١) رقم (٢٨٢٧، ٢٨٢٨، ٢٨٢٩)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٣٨١)، والطبراني في «أحاديث منتقاة» (رقم ٥ ـ «انتفاء ابن مردويه»)، وأبو الشيخ في «ذكر الأقران» رقم (٤٢٨)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (٢/ ٢٠٨ و١٠/ ٥٧)، وابن حبان في «صحيحه» (رقم ٢١٩٣ ـ «موارد»)، وابن شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة» رقم (١٤٧)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٥٠)، والقطيعي في «جزء الألف دينار» رقم (١٦٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٥٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦) رقم (١١٤٨، ١١٤٩)، وأبو نعيم في «فضائل الخلفاء» رقم (٩٣)، و«تثبيت الإمامة» رقم (٤٩، ٥٠)، و«الحلية» (٩/ ١٠٩)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٦١، ٦٢، ٦٣)، وفي «السنن الكبرى» (٥/ ٢١٢ و٨/ ١٥٣)، وفي «مناقب الشافعي» (١/ ٣٦٢)، والبغوي (١٤/ ١٠١) رقم (٣٨٩٥)، والتيمي في «الترغيب» (١/ ١٧٠) (رقم ٣٣٤، ط. زغلول)، و«سير السلف» (ق١٧/ ب)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ق ٦٤٤ و١٣/ ق ٧٠ ـ ٧١)، والخليلي في «الإرشاد» (١/ ٣٧٨ و٢/ ٦٦٤ ـ ٦٦٥)، وبيبي الهرثمية في «جزئها» رقم (٨٤)، والآجرِّي في «الشريعة» (٣/ ٨٤ ـ ٨٥) رقم (١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤)، واللالكائي في «السنة» (٧/ ١٣١٥ ـ ١٣١٦) رقم (٢٤٩٨، ٢٤٩٩)، والروياني في «مسنده» (٣/ ١٠٣) رقم (٧٩ ـ «المستدرك») ـ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ق ٧٢) و(ص٦٣، ٦٤ ـ جزء ابن مسعود) ـ، وابن حزم في «الإحكام» (٨/ ٨٠٩)، والذهبي في «السير» (١/ ٤٨١ و١٠/ ٨٨)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣٠/ ٣٥٦)، وابن بلبان في «تحفة الصديق» (ص٦٤)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٢٢٣، ٢٢٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧٧)، و«التاريخ» (٧/ ٤٠٣ و١٢/ ٢٠ و١٤/ ٣٦٦)؛ عن حذيفة مرفوعاً.

والحديث ـ كما قال الخليلي في «الإرشاد» (١/ ٣٧٨) ـ **«صحيح معلول»**؛ أي: بعلَّةٍ غير قادحة، وقال العقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٩٥) بعد كلام: «يروى عن حذيفة عن النبي ﷺ =

السنة إذا ظهرت لقول غيره كائناً من كان، ولم يكن له معها قول البتة، فالأخذ بسنتهم ليس تقليداً لهم بل اتباع له ﷺ، مع أنكم أول مخالف لهذين الحديثين، فإنكم لا ترون الأخذ بسنتهم واجباً وليس قولهم عندكم حجة، وقد صرح بعض غلاتكم أنه لا يجوز تقليدهم ويجب تقليد إمامه، فمن العجائب احتجاكم بشيء أنتم أشد الناس له خلافاً، فالحديث بجملته حجة عليكم من كل وجه، فإنه أمر عند الاختلاف بسنته وسنة خلفائه، وأمرتم أنتم برأي فلان ومذهب فلان، وحذّر من محدثات الأمور وأخبر أن «**كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[1] ومعلوم أن ما أنتم عليه من التقليد الذي ترك له كتاب الله وسنة رسوله ويعرضان عليه ويجعل معياراً عليهما من أعظم المحدثات والبدع، التي برّأ الله سبحانه القرون التي فضلها على غيرها منها.

وقد قال في نفس الحديث: «**فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**»[2] وهذا ذم للمختلفين وتحذير من سلوك سبيلهم، وإنما كثر الاختلاف بسبب التقليد؛ كل فرقة من أهله تنصر متبوعها وتذم من خالفها ولا يرون العمل بقولهم حتى كأنهم ملة أخرى، يدأبون في الرد عليهم ويقولون: كتبهم وكتبنا، وأئمتهم وأئمتنا، ومذهبهم ومذهبنا[3]، والنبي واحد والقرآن واحد والدين واحد والرب واحد، فالواجب على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواء بينهم، وأن لا يطيعوا إلا الرسول ولا يجعلوا أقوال غيره كنصوصه، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فلو اتفقت كلمتهم على ذلك وتحاكموا إلى السنة وآثار الصحابة لقل الاختلاف، ولذا تجد **أقل الناس اختلافاً أهل السنة والحديث** لما بنوا على هذا

= **بإسنادٍ جيد ثابت**».
وحسنه الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٢/ ٢٥٧).
وانظر: «تحفة الأشراف» (٣٠/ ٢٨).
وتفصيل طرقه وسائر شواهده أمر يطول جداً، وخرجت منها حديث ابن مسعود في تعليقي على «المجالسة» (٨/ ٢٥٨ ـ ٢٦٣) رقم (٣٥٢٨)، وأكتفي بما قدمت، والله الموفق، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (١٢٣٣).

(١) سبق تخريجه.
(٢) قطعه من حديث العرباض بن سارية، وسبق تخريجه.
(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «هذا».

الأصل، وكلما كانت الفرقة عن الحديث أبعد كان اختلافهم أشد وأكثر، فإن من رد الحق مرج عليه أمره والتبس عليه الصواب كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥]»[١].

«وأما احتجاجكم بأنه ﷺ حصر شفاء العي في سؤال العلماء والتقليد لهم فيما قالوه، فجوابه أنه إنما أرشد المستفتين كصاحب الشجة للسؤال عن حكمه وسنته فقال: «**قتلوه قتلهم الله**»[٢] فدعا عليهم حين أفْتَوا بغير علم، وفي هذا

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٥٥ ـ ٥٥٧ ـ بتحقيقي) بتصرف.

(٢) رواه الأوزاعي، وقد اختلف عنه: فرواه ابن ماجه (٥٧٢) في (الطهارة)، باب المجروح تصيبه الجنابة، والدارقطني (١/ ١٩٠ ـ ١٩١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣١٧ ـ ٣١٨)، وأبو يعلى (٢٤٢٠)، والحاكم (١/ ١٧٨)، والبيهقي في «الخلافيات» (٢/ ٤٩٣) رقم (٨٣٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٦٨) من طرق عنه عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه قصة.

ورواه الدارمي (١/ ١٩٢)، وأحمد (١/ ٣٣٠)، والبخاري في «التاريخ» (٨/ ٢٨٨)، وأبو داود (٣٣٧) في (الطهارة)، باب في الجروح، والدارقطني (١/ ١٩١ ـ ١٩٢)، والبيهقي (١/ ٢٢٧)، وفي «الخلافيات» (٢/ ٤٩٣) رقم (٨٣٧) من طرق عنه بلغني أن عطاء بن أبي رباح قال: إنه سمع ابن عباس به.

ووقع تصريح عطاء بسماعه من ابن عباس من رواية الوليد بن عبيد الله بن أبي رباح ـ وهو ضعيف ـ عنه، رواه ابن خزيمة (٢٧٣)، وابن حبان (١٣١٤)، وابن الجارود (١٢٨)، والحاكم (١/ ١٦٥)، والبيهقي (١/ ٢٢٦)، وفي «الخلافيات» (٢/ ٥٠٦) رقم (٨٤٧)، وانظر: «التلخيص الحبير» (١/ ١٤٧ ـ ١٤٨).

ورواه عبد الرزاق (٨٦٧)، ومن طريقه الدارقطني (١/ ١٩١)، والبيهقي في «الخلافيات» (٢/ ٤٩٥) رقم (٨٣٨) عن رجل عن عطاء به.

لكن رواه الطبراني في «الكبير» (١١٤٧٢) من طريق عبد الرزاق فقال: عن الأوزاعي سمعتُه مِنْ أو أُخْبِرتُه عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس، على الشك، ولعل هذا من عبد الرزاق.

وقال أبو حاتم وأبو زرعة ـ كما رواه عنهما ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٣٧) ـ: روى هذا الحديث ابن أبي العشرين عن الأوزاعي عن إسماعيل بن مسلم عن عطاء عن ابن عباس، وأفسد الحديث.

أقول: إذا كان إسماعيل هو المجهول في السند السابق، فهو ضعيف.

ورواه الحاكم (١/ ١٧٨) من طريق بشر بن بكر حدثني الأوزاعي حدثنا عطاء بن أبي رباح أنه سمع عبد الله بن عباس (فذكره) هكذا موصولاً.

وقال الحاكم: وقد رواه الهِقْل ـ وهو من أثبت أصحاب الأوزاعي ـ، ولم يذكر سماع =

تحريم الإفتاء بالتقليد، فكل ما دعا ﷺ على فاعله فهو حرام، وكذلك سؤال ابن[1] العسيف ـ الذي زنا بامرأة مستأجره ـ أهل[2] العلم[3]، فإنهم لما أخبروه بسنته ﷺ في البكر الزاني أقره على ذلك ولم ينكره فلم يكن سؤالهم عن رأيهم ومذاهبهم، فما احتججتم به من أكبر الحجج عليكم»[4]، «وأما قولكم: يكفي في صحة التقليد الحديث المشهور: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**»[5].

= الأوزاعي من عطاء.

أقول: وبشر هذا قال عنه مسلمة بن قاسم: يروي عن الأوزاعي أشياء انفرد بها، وقال الحافظ في «التقريب»: «ثقة يغرب». ورواية هِقْل عند: الحاكم (١/ ١٧٨)، والدارقطني (١/ ١٩٠، ١٩١)، وأبو يعلى (٢٤٢٠) وتابعه ابن أبي العشرين:

رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٥٢٦) من طريق هشام بن عمار عنه عن الأوزاعي حدثنا عطاء به.

وعبد الحميد هذا روايته المتقدمة عند ابن ماجه (٥٧٢)، وليس فيها تصريح!! وهو عنده أخطاء، والراوي عنه هشام له أخطاء أيضاً.

والحديث رواه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (١/ ١٩٠)، والبيهقي (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) وفي «الخلافيات» (٢/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠ رقم ٨٣٤، ٨٣٥ ـ بتحقيقي)، و«المعرفة» (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢) رقم (٣٤٧)، والبغوي (٣١٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ١٩١) رقم (١١٦٣) من طريق الزبير بن خُريق عن عطاء بن أبي رباح عن جابر به.

ورجح الدارقطني والبيهقي رواية الأوزاعي وقال الدارقطني: «لم يروه عن عطاء عن جابر غير الزبير بن خُريق وليس بالقوي» وضعفه أبو داود والبيهقي والذهبي بابن خريق في «المهذب» (١/ ١٣٨) رقم (٨٤١) وقبله ابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ٢٢).

فرجع الحديث إلى الإسناد الأول، وهو منقطع، ولذلك ضعفه ابن حجر في «بلوغ المرام» رقم (١٣٤)، والغساني في «تخريج الأحاديث الضعاف من «سنن الدارقطني»» رقم (١١٤)، وشيخنا الألباني كَلَلهُ في «الإرواء» (١/ ١٤٢) وهو الظاهر. وانظر: «تحفة المحتاج» (١/ ٢٢٦) لابن الملقن، و«التلخيص الحبير» (١/ ١٤٧).

وفي الباب عن أبي سعيد. رواه ابن عدي (٥/ ١٧٨٠)، والبيهقي في «الخلافيات» (رقم ٨٤٨ ـ بتحقيقي)، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه عمرو بن شمر، وهو متروك. وله علل أخرى، وانظر: «التلخيص الحبير» (١/ ١٤٨).

(١) في مطبوع «الإعلام»: «أبي». (٢) في مطبوع «الإعلام»: «لأهل».

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٢٧، ٦٨٢٨) من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد ﵄.

(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٩).

(٥) ورد بألفاظ متقاربة عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، هم:

• **ابن عباس**، أخرجه أبو العباس الأصم في «حديثه» رقم (١٤٢) ـ ومن طريقه البيهقي =

....

= في «المدخل» رقم (١٥٢) ـ والخطيب في «الكفاية» (٤٨)، والديلمي في «الفردوس» (٤/ ٧٥) من طريق سليمان بن أبي كريمة عن جويبر عن الضحاك عنه به.
وإسناده ضعيف جداً، آفته: ابن أبي كريمة ضعيف، وجويبر متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس، ولذا قال الزركشي في «المعتبر» (ص٨٣): «وهذا الإسناد فيه ضعفاء».
وأخرجه البيهقي من حديث أبي زرعة: ثنا إبراهيم بن موسى، ثنا يزيد بن هارون عن جويبر عن جواب بن عبيد الله رفعه.
ثم قال البيهقي: «هذا حديث مشهور، **وأسانيده كلها ضعيفة، لم يثبت منها شيء**».
وأخرجه أبو ذر الهروي في كتاب «السنة» من حديث مندل عن جويبر عن الضحاك بن مزاحم منقطعاً، وهو في غاية الضعف، قاله ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٩١).
ورواه ابن بطة في «الإبانة» رقم (٧٠٢) من طريق آخر عن ابن عباس، وفيه حمزة بن أبي حمزة، وهو كذاب.
• **جابر**، أخرجه الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٤/ ١٧٧٨)، ـ ومن طريقه ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٩٢٥) رقم (١٧٦٠) ـ، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٨٢) من طريق سلام بن سليم عن الحارث بن غصين عن الأعمش عن أبي سفيان به.
قال ابن عبد البر عقبه: «هذا إسناد لا تقوم به حجة؛ لأن الحارث بن غصين مجهول».
وقال ابن حزم: «هذه رواية ساقطة؛ أبو سفيان ضعيف، والحارث بن غصين هذا هو أبو وهب الثقفي، وسلام بن سليمان يروي الأحاديث الموضوعة، وهذا منها بلا شك».
قلت: أبو سفيان أخرج له مسلم في «صحيحه»، وهو صدوق.
وقال ابن طاهر: «هذه الرواية معلولة بسلام المدائني، فإنه ضعيف»، نقله عنه الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٣٠)، وبه أعله شيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٥٨).
وأخرجه الدارقطني في «غرائب مالك» من طريق آخر عن جابر، ثم قال: «هذا لا يثبت عن مالك، ورواته عن مالك مجهولون»، أفاده الزيلعي وابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٩٠).
• **أبو هريرة**، أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٧٥) رقم (١٣٤٦)، وهو معلول بجعفر بن عبد الواحد، وقد كذبوه.
• **حديث ابن عمر**، أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» رقم (٧٨٣)، والدارقطني في «فضائل الصحابة» ـ كما قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٣١)، وابن الملقن في «تذكرة المحتاج» (ص٦٨)، وليس له وجود في القطعة المطبوعة من «فضائل الصحابة» ـ، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٧٠١)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٧٨٥، ٧٨٥ ـ ٧٨٦)، وأبو ذر في «السنة» ـ كما في «المعتبر» (ص٨١) ـ من طريق حمزة الجزري عن نافع به، لكنه قال بدل «اقتديتم»: «بأيهم أخذتم بقوله اهتديتم»، وهو هو. =

= وذكره ابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٧٥٩) عن ابن عمر معلقاً من طريق حمزة، وقال: «**هذا إسناد لا يصح**، ولا يرويه عن نافع من يحتج به»، وعنه ابن حزم في «الإحكام» (٦/٨٣) وقال: «فقد ظهر أن هذه الرواية لا تثبت أصلاً، بل لا شك أنها مكذوبة» وأسهب في بيان بطلان هذا الحديث دراية بكلام متين حسن، وكان قد بيَّن قبل (٥/٦٤) تحت باب (ذم الاختلاف) بطلان هذا الحديث، وقال عنه: «وهذا الحديث باطل مكذوب، من توليد أهل الفسق لوجوه ضرورية»، وساق ثلاثة منها.

وقال ابن عدي في ترجمة (حمزة) ـ وساق له أحاديث ـ: «وكل ما يرويه أو عامته مناكير موضوعة، والبلاء منه»، وقال ابن حجر في «المطالب العالية» (٤/١٤٦)، وعزاه لعبد: «فيه ضعيف جدّاً»، وقال ابن طاهر: «حمزة النصيبي كذاب»، قال: «ورواه بشر بن الحسين الأصبهاني عن الزبير بن عدي عن أنس، وبشر هذا يروي عن الزبير الموضوعات»، أفاده الزيلعي.

● **حديث أنس**، وعزاه ابن حجر في «المطالب العالية» (٤/١٤٦) رقم (٤١٩٣) لابن أبي عمر في «مسنده» عن أنس، وقال: «إسناده ضعيف» وأسنده ـ أي: ابن حجر ـ في «موافقة الخبر الخبر» (١/١٤٧) من طريق ابن أبي عمر، وقال: «وفي إسناده ثلاثة ضعفاء في نسق: سلام وزيد ويزيد، وأشدهم ضعفاً سلام»، وكان قد ذكر أن سلاماً خالف عبد الرحيم بن زيد، فقال: «عن أنس»، وقال عبد الرحيم: «عن عمر»، وروايته هي الآتية.

● **حديث عمر بن الخطاب**، أخرجه ابن بطة في «الإبانة» رقم (٧٠٠)، والخطيب في «الكفاية» (٤٨)، و«الفقيه والمتفقه» (١/١٧٧)، والبيهقي في «المدخل» رقم (١٥١)، ونظام الملك في «الأمالي» (رقم ٢١ ـ بتحقيقي)، وابن عدي في «الكامل» (٣/١٠٥٧)، والديلمي في «مسنده» (٢/١٩٠)، والضياء في «المنتقى من مسموعاته بمرو» (٢/١١٦)، وكذا ابن عساكر (٦/٣٠٣/١)، وابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (١/١٤٦ ـ ١٤٧) من طريق نعيم بن حماد، ثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب به.

وإسناده هالك، قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/٧٠٠ ـ ٧٠١): «هذا حديث ضعيف من هذا الوجه؛ فإن عبد الرحيم بن زيد هذا كذبه ابن معين، وضعفه غير واحد من الأئمة». ثم قال: «إلا أن هذا الحديث مشهور في ألسنة الأصوليين وغيرهم من الفقهاء، يلهجون به كثيراً محتجين به وليس بحجة، والله أعلم».

وأعله الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/٢٣٢)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢/٢٩٤) بالعمّي، وقال الأول: «وفيه أيضاً شائبة الانقطاع بين سعيد وعمر»، وقال الثاني: «والكلام أيضاً منكر عن النبي ﷺ»، وعزاه الزركشي في «المعتبر» (ص٨٠) للدارمي في «مسنده»، ولم أظفر به في «سننه» المطبوعة، وضعفه بالعمّي والانقطاع، =

= ورده بقوله: «لكن ذكرت في باب الوتر من «الذهب الإبريز» ما يصحح سماعه منه»، وحكم عليه شيخنا في «الضعيفة» رقم (٦٠) بالوضع، **وعلى كل حال الحديث ليس بصحيح، ومتنه منكر، ولا يجوز الاحتجاج به.**

ولا التفات إلى تصحيح الشعراني له في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٠) بالكشف، فهي دعوى فارغة أدخلت شروراً وآفات وبلايا ورزايا لا تحصى.

وبهذا حكم عليه الحفاظ، وهذا بعض منهم:

• قال البزار ـ وقد سئل عن هذا الحديث ـ: «منكر، ولا يصح عن رسول الله ﷺ، نقله ابن عبد البر وابن الملقن في «تذكرة المحتاج» (ص٦٨)، وابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (١/ ١٤٧)، والزركشي في «المعتبر» (٨٣)»، وسيأتي نقله من قبل المصنف عن ابن القيم.

• قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٢٨٣): «هذا لا يصح».

• قال ابن حزم في رسالته الكبرى «في الكلام على إبطال القياس والتقليد وغيرهما»: «هذا حديث مكذوب موضوع باطل، لم يصح قط»، وبنحوه قال في «الإحكام» (٥/ ٦٤).

• وأشار ابن الملقن في «تحفة المحتاج» (ص٦٧ ـ ٦٨) إلى بعض طرقه، وقال: «وكلها معلولة».

• وقال البيهقي في «الاعتقاد» (ص٣١٩) بعد أن ذكر حديث أبي موسى المرفوع: **«النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»**: «رواه مسلم [في «صحيحه» رقم (٢٥٣١)] بمعناه، وروي عنه في حديث بإسناد غير قوي، وفي حديث منقطع، أنه قال: **«مثل أصحابي كمثل النجوم في السماء، من أخذ بنجم منهم اهتدى»**، قال: «والذي روينا هاهنا من الحديث الصحيح يؤدي بعض معناه».

وتعقبه الزركشي في «المعتبر» (ص٨٤) بقوله: «ولا يخلو عن نظر»، وبيَّن ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٩١) وجهه؛ فقال: «هو ـ أي: حديث أبي موسى ـ يؤدي صحة التشبيه للصحابة بالنجوم خاصة، أما في الاقتداء، فلا يظهر من حديث أبي موسى».

• وقال العلائي في «إجمال الإصابة» (ص٥٨): «روي من طرق في كلها مقال».

بقي بيان وجه من قال بنكارته، وهو أنه لو كان صحيحاً ما خطأ بعضهم بعضاً ولا أنكر بعضهم على بعض، ولا رجع أحد إلى قول صاحبه، وإنما لقال كل لصاحبه: بأينا اقتدى الآخر في قوله؛ فقد اهتدى، ولكن كل منهم طلب البينة والبرهان على قوله؛ فثبت نكارته، أفاده المزني. ونقله عنه ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١١٠، ط. القديمة) وغيره.

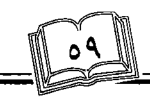
فجوابه: إن البزار قال: هذا الكلام لا يصح عن النبي ﷺ، مع أنكم استجزتم ترك تقليد النجوم التي يهتدى بها، وقلدتم من هو دونهم بمراتب كثيرة.

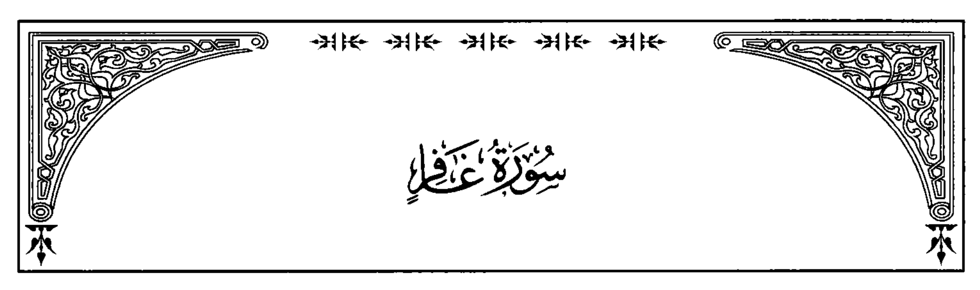
فكان تقليد الأئمة الأربعة آثر عندكم من تقليد الخلفاء الأربعة، فما دل عليه الحديث خالفتموه صريحاً واستدللتم به على تقليد من لم يتعرض له بوجه، والاقتداء بالصحابة هو اتباع القرآن والسنة والقبول من كل من دعا إليهما، فالاقتداء بهم يحرم عليكم التقليد ويوجب الاستدلال وتحكيم الدليل كما كان عليه القوم ﷺ، فالحديث من أقوى الحجج عليكم»[1].

«وأما قولكم: كان الصحابة يفتون ورسوله ﷺ حي بين أظهرهم وهذا تقليد من المستفتين لهم، فجوابه أن فتوى الصحابة في حياته نوعان: **أحدهما**: ما كان يبلغه ويقر عليه، فهو حجة بإقراره، لا بمجرد إفتائهم. **الثاني**: ما كانوا يفتون به مبلغين له عن نبيهم، فهم فيه رواة لا مقلِّدون ولا مقلَّدون»[2].

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤، ٥٥٤ ـ بتحقيقي) بتصرف.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤ ـ بتحقيقي) بتصرف.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ۝٣٥﴾ [غافر]

قال (ﷺ): «أي: الذين يدفعون الحق بالباطل ويردون[1] الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله [تعالى][2]، فإن الله [عز وجل][2] يمقت على ذلك أشد المقت، ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ أي: والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفاته[3]، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً، ولهذا قال [تبارك وتعالى][2]: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٖ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة، وحكى عن الشعبي أنهما قالا[4]: «لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين». وقال أبو عمران الجوني وقتادة: «آية الجبابرة القتل بغير حق». [والله تعالى أعلم][2]»[5].

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان المقلدون والمبتدعون كما تقدم في كلام ابن القيم، فقد رد شبهاتهم من ثمانين

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ويجادلون».

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صفته».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنه قال».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٩٠ ـ ١٩١).

وجهاً تقدم ذكر بعضها في هذا الكتاب. قال صاحب «الصوارم» في حديث: **«قتلوه قتلهم الله»**(١) ما نصه:

«قلت: حديث صاحب الشجة أخرجه ابن ماجه موصولاً وأبو داود منقطعاً، وفيه من العلم أنه عابهم بالفتوى بغير علم وألحق بهم الوعيد على ذلك بأن دعا عليهم وجعلهم في الإثم قتلة، وفيه من الفقه الجمع بين التيمم وغسل سائر البدن، وكون أحد الأمرين ليس كافياً دون الآخر. قال عطاء بن أبي رباح: بلغنا أنه ﷺ قال: **«لو غسل جسده وترك رأسه حيث أصابه الجرح [وتيمم لأجزأه]»**(٢).
وقال الصنعاني في (الجزء الثاني) من كتابه «سبل السلام شرح بلوغ المرام» ما نصه: «وأما حديث **«عليكم بسنتي»**(٣) الحديث، وحديث **«اقتدوا باللذين من بعدي»**(٤) الحديث، فإنه ليس المراد إلا طريقتهم الموافقة لطريقته ﷺ من جهاد الأعداء وتقوية شعائر الدين، فإن الحديث عام لكل خليفة راشد ومعلوم أنه ليس لخليفة راشد أن يشرع طريقة غير ما كان عليها النبي ﷺ فتأمل، على أن الصحابة خالفوا الشيخين في مواضع، فدل على أنهم لم يحملوا الحديث على أن ما قالاه وفعلاه حجة»(٥). اهـ.

وفي «الإرشاد» للشوكاني ما نصه: «وأما ما تمسك به بعض القائلين بحجة(٦) قول الصحابي مما روي عنه ﷺ أنه قال: **«أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»**(٧) فهذا مما لم يثبت قط والكلام فيه معروف عند أهل هذا الشأن، بحيث لا يصح العمل بمثله في أدنى حكم من أحكام الشرع، فكيف بمثل هذا الأمر العظيم والخطب الجليل؟»(٨). اهـ.

---

(١) سبق تخريجه مطولاً قريباً.
(٢) أخرجه الدارمي (١/ ٢١٠)، وأبو يعلى (٢٤٢١ ـ ضمن مسند ابن عباس)، والحاكم (١/ ١٧٨)، والدارقطني (١/ ١٩٠، ط. المعرفة) وما بين المعقوفتين غير موجودة في «الصوارم»، وهي عند الحاكم والدارقطني وأبي يعلى، **والحديث لم يثبت، وهو من مرسل عطاء.**
(٣) مضى تخريجه مطولاً في التعليق على (٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧).
(٤) مضى تخريجه قريباً.
(٥) انظر: «سبل السلام» (٣/ ٣٦ ـ ٣٨) بتصرف.
(٦) في مطبوع «إرشاد الفحول»: «بحجيّة».
(٧) سبق تخريجه قريباً.
(٨) انظر: «إرشاد الفحول» (ص٧٩٨).

وفي «تفسير البيضاوي» عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] ما نصه: «وفي الآية[١] دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد»[٢]. اهـ.

وفي «التقرير والتحبير»[٣] لابن أمير الحاج الحنفي ما نصه: «قال ابن حزم: أجمعوا أنه لا يحل لحاكم ولا مفت تقليد رجل فلا يحكم ولا يفتى إلا بقوله»[٤]. اهـ.

وقال ابن حزم أيضاً في كتابه «الدُّرَّة»[٥] ما نصه: «ولا يحل لأحد أن يقلد أحداً لا حيًّا ولا ميتاً، ولا أن يتبع أحداً من دون رسول الله ﷺ لا قديماً ولا حديثاً، ومن التزم بطاعة إنسان بعينه بعد رسول الله ﷺ كان قائلاً بالباطل ومخالفاً لما عليه جماعة الصحابة والتابعين وتابعي التابعين بلا خلاف من أحد منهم، وما كان في الأعصار الثلاثة واحد فما فوقه أخذ قول إنسان فوقه فنصره كله واعتقده بأسره وانتسب إليه، فهذه بدعة خالف الإجماعَ التام صاحبُها». اهـ.

وفي أوائل (الجزء الثاني عشر) من «جامع المعيار»[٦] أن الشيوخ يقولون: «أصح الإجماعات إجماعات ابن حزم»[٧]. اهـ. وفي (الجزء الثاني) من «المهذب»[٨] في الفروع للشيخ الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن محمد[٩] الشيرازي

---

(١) في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «وهو». (٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ١٠٠).

(٣) (٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥١).

(٤) بنحوه في «النبذ» (ص١٤١)، و«ملخص إبطال القياس» (٥٢).

(٥) (ص١٨٦). (٦) (١٢/ ٣٢).

(٧) عبارته بتمامها: «لا يقال: إجماعات أبي عمر ـ أي: ابن عبد البر ـ مدخولة، وقد حذّر الناصحون منها، ومن اتفاقات ابن رشد، واحتمالات الباجي، واختلاف اللخمي. لأنا نقول: غاية هذا نسبة الوهم إلى أبي عمر من غير دليل، ولئن سُلّم على سبيل التنزّل، فما الذي حرّم إجماع ابن حزم، لا سيما الشيوخ يقولون...» وذكرها.
قال أبو عبيدة: ذكر أبو عبد الله المقَّري (ت٧٥٨) في (القاعدة الحادية والعشرين بعد المئة) من كتابه «القواعد» (١/ ٣٤٩) عن بعضهم قال: «احذر أحاديث عبد الوهاب والغزالي، وإجماعات ابن عبد البر، واتفاقات ابن رشد، واحتمالات الباجي، واختلاف اللخمي»، وانظر تقديمي لكتاب «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (١/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٨) (٢/ ٢٩٢).

(٩) صوابه «ابن علي بن يوسف» كما في مصادر ترجمته، منها: «وفيات الأعيان» (١/ ٤).

الشافعي المتوفى سنة ست وسبعين وأربعمائة من (كتاب الأقضية) ما نصه:

«فصل: ولا يجوز أن يعقد[(١)] تقلد القاضي[(٢)] على أن يحكم بمذهب بعينه لقوله ﷻ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، والحق ما دل عليه الدليل، وذلك لا يتعين في مذهب بعينه، فإن قلد على هذا الشرط بطلت التولية؛ لأنه علّقها على شرط، وقد بطل الشرط فبطلت التولية».»[(٣)].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر: ٥٨، ٥٩]

قال (ك): «أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس! ثم قال [تعالى][(٤)]: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ أي: لكائنة وواقعة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها»[(٥)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قد علمت مما تقدم أن كل مقلد لإمام أو شيخ أو رئيس غير المعصوم عليه الصلاة والسلام أنه جاهل لا فرق بينه وبين البهيمة كما تقدم في أبيات الحافظ أبي عمر بن عبد البر:

«لا فرق بين مقلِّدٍ وبهيمةٍ ... تنقادُ بين جنادلَ ودعاثرِ

تبًّا لقاضٍ أو لمفتٍ لا يرى ... عِلَلاً ومعنىً للمقال السَّائرِ

(١) كذا في مطبوع «الصوارم» والمهذب»، وفي الأصل: «يعتقد»!

(٢) في مطبوع «المهذب»: «القضاء».

(٣) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢١٩ ـ ٢٢٠) بتصرف.

(٤) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٠٢).

فإذا اقتديتَ فبالكتاب وسنةِ الـ ـمبعوث بالدِّين الحنيف الطَّاهرِ
وإذا الخلافُ أتى فدونَكَ فاجْتَهِد ومع الدَّليل فَمِل بفهمٍ حاضرِ»[١]

قال صاحب «الصوارم»:

«وفي «المعيار» للونشريسي في (الفصل الذي ذُكِرَ فيه المُسْتَحْسَنُ من البدع وغيره)[٢] ما نصه:

«ومنها ما حكاه الباجي[٣] قال: كان الولاة عندنا بقرطبة إذا ولوا القضاء رجلاً شرطوا عليه في سجله أن لا يخرج عن قول ابن القاسم ما وجده، قال الأستاذ أبو بكر الطرطوشي: «وهذا جهل عظيم، والتولية صحيحة، والشرط باطل كان موافقاً لمذهب[٤] المشترط أو مخالفاً له».اهـ. قال صاحب «الإيقاظ»: «ونقل هذا الكلام ابن الحاجب[٥] والقرافي[٦] وأقراه، قال القرافي: «يريد أن الحق ليس محصوراً في رأي شخص معين».اهـ. قلت: ونقله عنه خليل[٧] في «التوضيح» ونقل ابن فرحون في «التبصرة»[٨] عنه بطلانهما». وفي «تحرير الكلام في مسائل الالتزام»[٩] للحطاب ما نصه:

---

(١) سبق ذكرها.
(٢) انظره في: «المعيار المعرب» (٢/ ٤٦١).
(٣) نقل كلامه وكلام الأستاذ الطرطوشي: ابن شاس في «عقد الجواهر الثمينة» (٣/ ١٠١)، والحطاب في «تحرير الكلام في مسائل الإلزام» (ص٤٠٨).
(٤) كذا في مطبوع «الصوارم» و«المعيار»، وفي الأصل: «المذهب».
(٥) انظر: «مختصره» الأصولي (٤/ ٢٧١ ـ مع شرحه «تحفة المسؤول»).
(٦) انظر له: «الفروق» (٢/ ٥٣٧)، و«الذخيرة» (١٠/ ٨٩)، و«الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام» (ص٨٢، ٨٨، ١٢٩، ١٣٦، ١٨٤، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٣٠ ـ ٢٣١).
(٧) يريد به الشيخ خليل بن إسحاق، له أشهر متن فقهي للمالكية، لخص فيه «توضيح ابن الحاجب»، وابن الحاجب لخص «جواهر ابن شاس»، وابن شاس لخص ابن بشير، وابن بشير لخص «مقدمات ابن رشد»، وهي خلاصة «تهذيب البرادعي» والبرادعي لخص «مسائل سحنون» المعروفة بـ«المدونة»، و«مختصر خليل» هو المعول عند متأخري المالكية في الدرس والتدريس والإفتاء والحكم به، وأكثر المصنف في «رسائله» و«فتاويه» و«مناظراته» من ذكره، وبيان ما فيه من مخالفة للأدلة النصية، وانظر منه على المزبور (ص٢٩٣، ط. البابي الحلبي).
(٨) (ص٤٠٧ ـ ٤٠٨).
(٩) انظره (١/ ١٦ ـ ١٧).

«قال في «الجواهر»[1]: فإن شرط على القاضي أن يحكم بمذهب إمام معين من أئمة المسلمين ولا يحكم بغيره، فالعقد[2] صحيح والشرط باطل، كان موافقاً لمذهب المشترط أو مخالفاً له.اهـ. قلت: قد وقع الاتفاق كما رأيت على بطلان الشرط وإنما الخلاف في التولية، فأبطلها الشافعية وصححها المالكية.

وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في (الجزء الثاني) من «فتاويه» ما نصه:

«من أوجب تقليد[3] إمام بعينه استتيب فإن تاب وإلا قتل، وإن قال: ينبغي... كان جاهلاً ضالًا»[4].اهـ. وفي «الإرشاد» للشوكاني ما نصه: «اختلفوا في المسائل الشرعية الفرعية هل يجوز التقليد فيها أم لا؟ فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا يجوز مطلقاً، قال ابن حزم: فمالك ينهى عن التقليد، وكذلك الشافعي وأبو حنيفة. وبهذا تعلم أن المنع من[5] التقليد إن لم يكن إجماعاً فهو مذهب الجمهور، ويؤيد هذا ما سيأتي من حكاية الإجماع على عدم جواز تقليد الأموات، وما سيأتي من أن عمل المجتهد برأيه إنما هو رخصة له عند عدم الدليل، ولا يجوز لغيره أن يعمل به بالإجماع، فهذان الإجماعان يجتثان التقليد من أصله، فالعجب من كثير من أهل الأصول حيث لم يحكوا هذا القول إلا عن بعض المعتزلة، والحاصل أنه لم يأتِ من جوّز التقليد ـ فضلاً عمن أوجبه ـ بحجة ينبغي الاشتغال بجوابها قط، ولم نؤمر برد شرائع الله سبحانه إلى آراء الرجال، بل أمرنا بما قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] أي: كتاب الله وسنة رسوله»[6].اهـ. ونحوه في تفسيره المسمى «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير» في الكلام على قوله

(١) (٣/ ١٠١) والمذكور نقله عن الأستاذ أبي بكر الطرطوشي، وفي «تحرير الكلام»: «قال في «الجواهر» ناقلاً عن الطرطوشي ما نصه: ...».
(٢) في مطبوع «عقد الجواهر الثمينة»: «فالحكم» والمثبت من «تحرير الكلام» و«الصوارم».
(٣) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «تقيد»!
(٤) انظر: «الفتاوى الكبرى» (٥/ ٥٥٥، ط. المعرفة).
(٥) كذا في مطبوع «إرشاد الفحول»، وفي الأصل: «مع»!
(٦) انظر: «إرشاد الفحول» (ص٨٦٦ ـ ٨٧٠) بتصرف.

تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣]»[١].». اهـ[٢].

قال محمد تقي الدين: جاء فيما نقله صاحب «الصوارم» عن الونشريسي لفظ «فيما يستحسن من البدع»؛ وهو كلام باطل في غاية الضلالة والجهالة[٣]؛ فإن البدع كلها قبيحة وضلالة لقول النبي ﷺ: **«كل بدعة ضلالة»**[٤]. وقال مالك رَحِمَهُ اللهُ: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأني سمعت الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣] وما لم يكن يومئذٍ ديناً لا يكون اليوم ديناً»[٥]، ذكره عنه الشاطبي في «الاعتصام»[٦]. اهـ.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ

---

(١) انظر: «فتح القدير» (٤/ ٧٢١ ـ ٧٢٣). (٢) انظر: «الصوارم والأسنة» (٢٢١).

(٣) ذكر الونشريسي في «معياره» (٢/ ٤٦١) (فصلاً) قال فيه: «أذكر فيه المُسْتَحْسَنَ من البدع وغيرَه» وذكر كلام الفقهاء، وتبع في بعضه القرافي في «الفروق»، وللشاطبي تنبيه منهجي مهم في خطأ القرافي، وتوسعه في التخريج على كلام العز، ينظر في «الاعتصام».
ومن بديع صنيع الونشريسي في «المعيار» (٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣) أنه ربط بين ضياع قرطبة، وإجبار قضاتها على عدم الخروج عن قول ابن قاسم، وهذا الذي أكده المصنف مراراً في كلام سابق ولاحق له، وهذا نص ما في «المعيار» بحروفه:
«يالله ويالمسلمين! ذهبت قرطبة وأهلها، ولم يبرح من الناس جهلها، ما هذا إلَّا لأن الشيطان سعى في محو الحق فيُنسيه، والباطل لا يزال يلقنه ويلقيه. ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتأبين والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والخط والتشاؤم وما أشبه ذلك وأسماؤها كالعتمة ويثرب، وكذلك التنابز بالألقاب وغيره مما نُهي عنه وحُذر منه كيف لم تزل من أهلها، وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً، ويجعلون العادات القديمة أُسّاً. وكذلك محبة الشعر والتاريخ والنسب وما انخرط في هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب، والشرع له فينا سبعمائة وسبع وستون سنة لا تحفظ إلا قولاً، ولا نحمله إلَّا كَلّاً»!

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله.

(٥) سبق ذكره. (٦) انظره (٢/ ٣٦٨ ـ بتحقيقي).

يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر: ٦٩ ـ ٧٦]

قال (ﷺ): «يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف تُصرَفُ عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟! ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ﴾ أي: من الهدى والبيان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ وقوله [عز وجل][(١)]: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم، ولهذا قال [تعالى][(١)]: ﴿يُسْحَبُونَ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ وقوله [تعالى][(١)]: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾؟ أي: قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ﴾ أي: جحدوا عبادتهم[(٢)] ولهذا قال [عز وجل][(٣)]: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله[(٤)] [والله أعلم][(٣)]»[(٥)]. اهـ.

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «عبادته».

(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحججه».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٢٠٩ ـ ٢١٠) بتصرف.

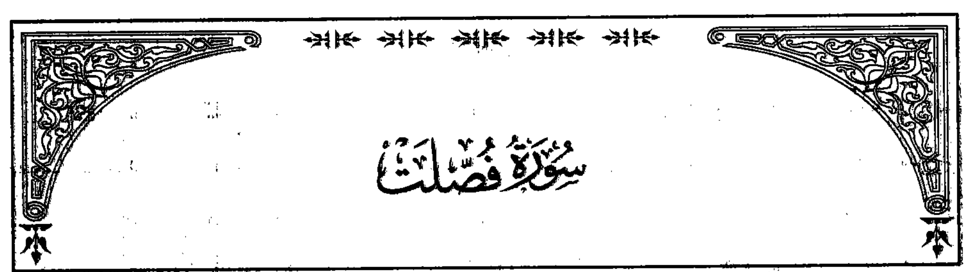
فصل

قال محمد تقي الدين: كل من رد حديث النبي ﷺ ولو في مسألة واحدة تعصباً لمذهبه أو نحلته كائنة ما كانت، ودافع عن رأيه واعتقد أنه هو الصواب فهو من الذين يجادلون في آيات الله، وهو من المكذبين بالكتاب قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧] وقد تقدم حديث: «**إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم ومن هوى متَّبع ومن حكم جائر**»[١]. اهـ.

وفي «الصوارم» ما نصه: «وروي عن ابن المبارك أنه قال: كنا في الكوفة فناظروني في النبيذ المختلف فيه، فقلت لهم: تعالوا فليحتج المحتج منكم عن من شاء من أصحاب النبي ﷺ، فإن لم نبين الرد عليه عن ذلك الرجل بشدة صحت عنه فاحتجوا، فما جاؤوا عند[٢] واحد برخصة إلا جئناهم بشدة، فلما لم يبق في يد أحد منهم إلا ابن مسعود، وليس احتجاجهم عنه في رخصة النبيذ بشيء يصح عنه. قال ابن المبارك: فقلت للمحتج عنه في الرخصة: يا أحمق عُدَّ أن ابن مسعود لو كان هاهنا جالساً فقال: هو لك حلال، وما وصفنا عن النبي ﷺ وأصحابه في الشدة كان ينبغي لك أن تحذر[٣] أو تخشى، فقال قائلهم: يا أبا عبد الرحمن، فالنخعي والشعبي وسمى عدة منهما كانوا يشربون الحرام؟! فقلت لهم: دعوا عند الاحتجاج تسمية الرجال، فرب رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا وعسى أن يكون منه زلة، أفلأحد أن يحتج بها؟ فإن أبيتم فما قولكم في عطاء وطاوس وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وعكرمة؟ قالوا: كانوا خياراً. فقلت: إن هؤلاء رأوه حلالاً فماتوا وهم يأكلون الحرام[٤]. وانقطعت حجتهم»[٥].

---

(١) مضى تخريجه.
(٢) في مطبوع «الصوارم»: «عن».
(٣) بعدها في مطبوع «الصوارم»: «أو تحير».
(٤) بعدها في مطبوع «الصوارم»: «فبقوا».
(٥) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٢٢ ـ ٢٢٣) وأسند مناظرة ابن مسعود في النبيذ: «البيهقي =



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فصلت: ٢ ـ ٥]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾؛ يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقوله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: بُيّنت معانيه وأحكمت أحكامه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: في حال كونه قرآناً[1] عربيًّا بيناً واضحاً فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكلة.

وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي: في غلف مغطاة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ

= في «السنن الكبرى» (٨/٢٩٨ ـ ٢٩٩) وعنه ابن تيمية في «بيان الدليل» (٢٠٣ ـ ٢٠٤)، قال: «وهذا الذي ذكره ابن المبارك متّفق عليه بين العلماء، فإنه ما من أحد من أعيان الأئمة من السابقين الأولين ومن بعدهم إلا وله أقوال وأفعال خفي عليهم فيها السنة».
وبنحوه لابن عبد البر في «الاستذكار» (١/١٨٨)، ونقل مناظرة ابن المبارك وكلام شيخ الإسلام عليها: ابن القيم في «الإعلام» (٥/٢٣٥ ـ ٢٣٦)، والشاطبي في «الموافقات» (٥/١٣٧ ـ ١٣٨) وينظر ما ورد عن ابن مسعود وتحقيق مذهبه في المسألة عند ابن قتيبة في كتابه «الأشربة» (ص٢١ ـ ٢٢، ط. محمد كرد علي).

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لفظاً».

ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صمم عما جئتنا به ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

قال الإمام العالم[١] عبد بن حميد في «مسنده» بسنده[٢] إلى جابر بن عبد الله قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فلْيكلِّمْه، ولننظر ماذا يَرُدّ عليه، فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، وإنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا وشتت أمرنا، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش[٣] كاهناً، والله ما ننتظر إلا صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل! إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش[٤]، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش [شئت][٥] فلنزوجك عشراً

فقال رسول الله ﷺ: «فرغت؟» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿حم ① تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ②﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «العلم».
(٢) أخرجه عبد بن حميد (١١٢٣ ـ «المنتخب»)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٠٨)، وأبو يعلى (١٨١٨)، وابن حبان في «الثقات» (١/ ٧٠)، والحاكم (٢/ ٢٥٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٢٤٣)، وأبو نعيم (١٨٢)، والبيهقي (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤) كلاهما في «الدلائل»، وزاد السيوطي نسبته في «الدر» (١٣/ ٧٨) لابن مردويه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢): «فيه الأجلح الكندي؛ وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وباقي رجاله ثقات». قلت: وفيه من روى عنه الأجلح وهو ذيال بن حرملة، روى عنه جمع، ووثقه ابن حبان، فمثل حديثه يمشى، **فإسناد هذه القصة حسن**.
(٣) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ساحراً، وإن في قريش».
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «رجلاً».
(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: يا معشر قريش! والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فقال أبو جهل: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب عتبة، وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً، وقال: والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: وقد عامل أهل هذا الزمان الذين يدعون الإسلام من العرب وغيرهم هذا الكتاب العظيم بمثل ما عاملته قريش في أول الأمر، فوقعوا فيما أنذرهم به، ولا نجاة لهم منه إلا بالرجوع إلى الإيمان به واتخاذه إماماً، والاستضاءة بنوره، ومن المعرضين عنه وعن السنة التي هي بيانه المقلدون الذين ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] فذرهم في غمرتهم حتى حين.

ثم قال صاحب: «الصوارم»: «والحق ما قاله ابن المبارك؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وعن أبي الدرداء: «إن مما أخشى عليكم زلة العالم أو جدال المنافق بالقرآن»[2]. وكان معاذ بن جبل يقول في خطبته: «إياكم وزيغة الحكيم، قالوا: وكيف هي؟ قال: هي كلمة تروعكم وتنكرونها، فاحذروا زيغته ولا تصدنكم عنه، فإنه يوشك أن يفيء

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢١٥ ـ ٢١٧) بتصرف.

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (٢/ ٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٨٦٨)، ورجاله ثقات، وفيه الحسن البصري وهو مدلس ولم يسمع من أبي الدرداء، **فإسناده منقطع.**

ويراجع الحق»[١]. وعن المعتمر بن سليمان قال: «رآني أبي وأنا أنشد الشعر فقال: يا بني لا تنشد الشعر، فقلت له: يا أبت كان الحسن وابن سيرين ينشدانه، فقال لي: أي بني إن أخذت بشرِّ ما في الحسن وابن سيرين اجتمع فيك الشر كله»[٢].

قال الغزالي: «إن زلة العالم قد تصير كبيرة وهي في نفسها صغيرة، فيموت العالم، ويبقى شره مستطيراً في العالم فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، وهذا الحكم مستمر في زلته في الفتيا من باب أولى، فإنه ربما خفي على العالم بعض السنة، فيفضي ذلك إلى أن يصير قوله شرعاً يتقلد وقولاً يعتبر في مسائل الخلاف، فربما رجع عنه وتبين له الحق فيفوته تدارك ما سار في البلاد عنه، ومن هنا قالوا: زلة العالم مضروب بها الطبل»[٣].

---

(١) رواه أبو داود في «السنة»، باب لزوم السنة (٤٦١١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٢٢)، وعبد الرزاق (٢٠٧٥٠)، والفريابي في «صفة النفاق» (٤١، ٤٢)، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (٢٥)، والبيهقي في «المدخل» (٨٣٤)، والخطيب في «تالي التلخيص» (٢/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨) رقم (٣٠٠ ـ بتحقيقي)، والآجري في «الشريعة» (٤٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٣)، واللالكائي في «السنة» (١١٦، ١١٧)، وابن بطة في «الإبانة» (١٤٣)، والذهبي في «السير» (١/ ٤٥٦ و٨/ ١٤٣)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٢١٩) من طرق عن ابن شهاب أن أبا إدريس الخولاني عائذ الله أخبره أن يزيد بن عميرة، وكان من أصحاب معاذ قال: كان معاذ لا يجلس مجلساً...، **وسنده صحيح**.

ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٢) من طريق ابن عجلان عن الزهري به دون ذكر يزيد بن عميرة. ورواه ابن عبد البر في «الجامع» (١٨٧١) من طريق الليث عن ابن عجلان عن ابن شهاب أن معاذاً...، وابنُ شهاب لم يدرك معاذ بن جبل. وانظر: «الاعتصام» (١/ ٤٩ ـ ٥٠)، و«إعلام الموقعين» (٣/ ٤٥٥)، و«الموافقات» (٤/ ٨٩، ٥/ ١٣٣)، وتعليقي عليها.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٩٢٧) رقم (١٧٦٦، ١٧٦٧) **بإسناد صحيح**، وانظر: «الموافقات» (٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، و«إعلام الموقعين» (٥/ ٢٣٦)، و«بيان الدليل» (٢٠٤).

(٣) أسند مقولة: «زله العالم...» المعافى النهرواني في «الجليس الصالح» (٣/ ١٧٧) عن الخليل بن أحمد، وانظر: «الموافقات» (٥/ ١٣٦) فالنقل عن الغزالي فيه، وهو في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٣)، والمصنف ينقل بواسطة «الصوارم والأسنّة».

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٤]

قال (ك): «هو القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ أي: منيع الجناب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ أي: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين، ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أي: ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله ﴿حَمِيدٖ﴾ بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع، محمودة عواقبه وغاياته، ثم قال ﷻ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ قال قتادة وغيره: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كُذِّبت كُذِّبوا[1] وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ أي: لمن تاب إليه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقائه[2] ومخالفته»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ إلى قوله: ﴿بَعِيدٖ﴾.

قال (ك): «لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبَّه على أن كفرهم به كُفْر عناد وتعنت كما قال [عز وجل][4]: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فكما قد كذبت فقد كذبوا».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وشقاقه».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٤٦).

(٤) غير موجودة في مطبوع «تفسير ابن كثير».

مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب لأنكروا(١) ذلك، فقالوا(٢): ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟ ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال ابن جرير: معناه كأنّ مَن يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول»(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: لا شك أن القرآن كان لأصحاب رسول الله والتابعين وسائر أهل القرون المفضلة هدىً وشفاءً، هداهم الله به من الضلال وشفى به صدورهم مما كان فيها من الأمراض المعنوية، وفيه هدىً وشفاءٌ لكل من اتبعه من الجماعات والأفراد، وكل من عرف تاريخ الإسلام والشعوب التي سعدت به يعلم هذا يقيناً، ويعلم أن سبب شقائها هو الإعراض عنه، ومن جملة المحرومين مما فيه من الهدى والشفاء المقلدون وأصحاب الطرائق.

وفي «الصوارم» ما نصه:

«وفي «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لتقي الدين ابن تيمية ما نصه: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم، فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يجب الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل ،وتجب

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولأنكروا».

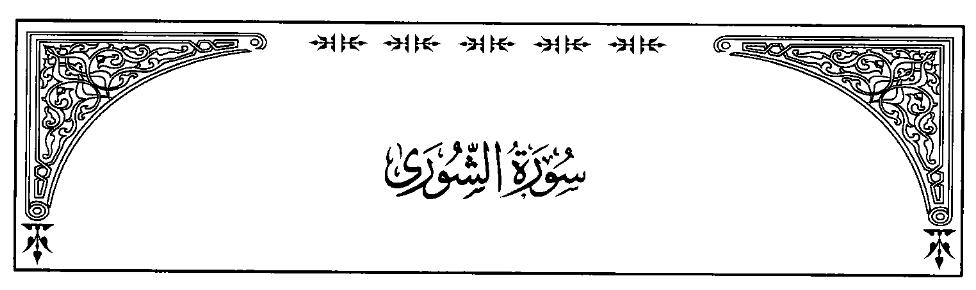
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقالوا»، والمذكور معنى ما عند ابن جرير في «التفسير» (٢٠/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء[(١)]، فإنهم يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة؛ فما وافقهما وجب قبوله، وما خالفهما كان مردوداً، و[إن][(٢)] كان صاحبه من أولياء الله، وكان مجتهداً أجر[(٣)] على اجتهاده...، وكثير من الناس يغلط في هذا[(٤)] فيظن في شخص أنه ولي لله[(٥)] ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله، ويسلِّم له كل ما يفعله، وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك الشخص ويخالف ما بعث الله به رسوله...، فتجره مخالفة الرسول وموافقته[(٦)] ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال وآخراً إلى الكفر والنفاق»[(٧)].اهـ.

---

(١) يعني أولياء الأمور وهم الحكام. (منه).
قلت: وفي مطبوع «الفرقان» بعدها: «فإنه لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض....».
(٢) من مطبوع «الفرقان» و«الصوارم»، وسقط من الأصل.
(٣) في مطبوع «الصوارم»: «أوجر» وفي مطبوع «الفرقان»: «مجتهداً معذوراً فيما قاله، وله أجر...».
(٤) بعدها في «الفرقان»: «الموضع».
(٥) من مطبوع «الفرقان» و«الصوارم»، وسقط من الأصل.
(٦) في مطبوع «الصوارم»: «موافقه» والمثبت من «الفرقان» والأصل.
(٧) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٢٣ ـ ٢٢٤) وما سبق من «الفرقان» (ص١٥٨، ١٦٣، ١٦٤، ط. دار الفضيلة) ومحل النقاط كلام محذوف، وفي بعضه طول، واقتصرنا على ما في الأصل.



سُورَةُ الشُّورَىٰ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ [الشورى: ٧، ٨]

قال القاسمي في «تفسيره»: «﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلها، هي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من العرب وسائر الناس ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي: يوم القيامة الذي تكون فيه الفضيحة أعظم؛ لأنه يجمع فيه الخلائق ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: منهم فريق في الجنة وهم الذين آمنوا بالله واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ، وفريق في السعير؛ أي: النار الموقدة المسْعُورة على أهلها، وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: أهل دين واحد وملة واحدة ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: ولكن لم يفعل ذلك فيجعلهم أمة واحدة، لمنافاة ذلك ما تقتضيه[1] حكمة خلق الإنسان من تنوع أفراده المستلزم اختلاف أميالهم ومشاربهم، ولذا شاء ما اقتضاه خلقهم واستعدادهم، فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون، فأدخل من شاء في رحمته وهم المؤمنون، وفي عذابه الكافرين، قال أبو السعود: «ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله»[2] ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: والكافرون بالله ما لهم من ولي يتولاهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله فينقذهم من عذابه؛ لأنه يدخلهم في

---

(١) في مطبوع «القاسمي»: «يقتضيه».

(٢) انظر: «تفسير أبي السعود» (٨/ ٢٣).

قهره، ووصفهم[١] بالظالمين إشارة إلى عدل المؤمنين في باب الاعتقادات والأخلاق والأعمال والأفعال، وأنه تعالى يواليهم وينصرهم»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا القرآن العربي الذي أنزله الله تعالى على عبده ورسوله خاتم النبيين محمد ﷺ؛ حجة على جميع أهل الأرض على كل من بلغه على وجه صحيح، ومن أعرض عنه بعد بلوغه خسر الدنيا والآخرة، وكان الشقاء حليفه، والبرهان على ذلك أوضح من الشمس، فهذه سبعمائة مليون[٣] يتخبطون في ظلمات الشقاء بسبب الإعراض عنه، ولم يجدوا وليًا ولا نصيراً وعلى قدر تحقق البلوغ يكون العقاب.

وفي «الصوارم» ما نصه:

«في (الجزء الأول) من «سبل السلام» للصنعاني ما نصه: وليس أحد من أفراد العلماء إلا وله نادرة ينبغي أن تغمرها في جنب فضله وتجتنب»[٤]. اهـ. وفي «الجامع» لابن عبد البر ما نصه: «وتشبه زلة العالم بانكسار السفينة؛ لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير، وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطئ لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه». اهـ.

قلت: وقال ﷺ: **«اتقوا زلة العالم»**[٥] الحديث رواه الديلمي في «مسند

---

(١) في مطبوع «القاسمي»: «وتوصيفهم».

(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (١٤/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).

(٣) زاد العدد هذه الأيام إلى مليار ومئتي مليون! فاللهم احفظهم من كيد أعدائهم، وسيئات أفعالهم، وشرور أنفسهم، وبارك في مسؤوليهم، وارزقهم الاستقلال في مواقفهم وآرائهم على الوجه الذي يخدمون به دينهم وشعوبهم، وشرفهم بذلك، وكثر علماءهم، وأرشدهم إلى معرفة واجب الوقت، وأشغلهم به، وآفة المسلمين التي ينبع منها كل تقصير وخلل: (عجز العلماء) و(جهل الأبناء)، فاستخدمنا يا مولانا لنصرة دينك، وتعليمه، ونشر سنة نبيك ﷺ، والذب عنها، آمين.

(٤) انظر: «سبل السلام» (٢/ ٢٣٥) بنحوه.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ: البيهقي في «المدخل» (٨٣١) وفي «السنن الكبرى» (١٠/ ٢١١) من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده رفعه.

وأخرجه من الطريق نفسه، ولكن بلفظ: «إني أخاف على أمتي من بعدي... أخاف =

الفردوس»، وقال ابن عبد البر في «جامعه»: وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**احذروا زلة العالم**». وعن عمر ومعاذ وسلمان مثل ذلك(١).اهـ. وفي «الإعلام» لابن القيم ما نصه: والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله، وبين زلة العالم؛ ليبينوا بذلك فساد التقليد وأن العالم قد يزل ولا بدّ؛ إذ ليس بمعصوم، فلا يجوز قبول كل ما يقوله وينزّل قوله منزلة قول المعصوم، فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض، وحرّموه وذموا أهله، وهو أصل بلاء المقلّدين وفتنتهم، فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل فيه، وليس لهم تمييز بين ذلك فيأخذون الدين بالخطأ ولا بدّ، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويشرعون ما لم يشرع ولا بدّ لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه، فالخطأ واقع منه ولا بدّ، ومن المعلوم أن المخوف في زلة العالم تقليده فيها، إذ لولا التقليد لم يخف على زلة العالم على غيره.اهـ.

قلت: ولأجل الحذر من هذا المعنى وقع التصريح من كل إمام كما تقدم بأن اتباعه إنما يجوز على شرط أنه حاكم بالسنة، فإذا ظهر أنه حاكم بغيرها فقد خرج أتباعه بالتصميم على تقليده عن شرطه.اهـ.

وقال علي كرّم الله وجهه(٢):

إذا المشكلات تَصدَّينَ لي ... كشفتُ حقائقَها بالنَّظَرْ
ولستُ بإمَّعةٍ في الرِّجا ... ل يسائل هذا وذا: ما الخَبَرْ(٣)

= عليهم زلة العالم»: المعافى بن عمران في «الزهد» رقم (٢١٩)، والطبراني في «الكبير» (١٧/١٧) رقم (١٤)، والبزار في «مسنده» (رقم ١٨٢ ـ زوائده)، والبيهقي في «المدخل» رقم (٨٣٠)، وأبو نعيم (٢/ ١٠)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٨٦٥)، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه كثير بن عبد الله، هو متروك، وبه أعله اليهثمي في «المجمع» (١/ ١٨٧ و٥/ ٢٣٩).

وله طريق أخرى، ولكنها مرسلة، أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٥٣٣)، وفي إسنادها إبراهيم بن طريف مجهول، فالحديث لم يصح مرفوعاً، ولذا قال عنه شيخنا الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢٥): «ضعيف جداً».

(١) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ٩١٠ ـ ٩١١).

(٢) سبق ذكرها.

(٣) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٢٤ ـ ٢٢٥).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشورى: ١٣ ـ ١٦]

قال (ك): «يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم، وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وفي الحديث: «**نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد**»(١) أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله جلَّ جلاله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ولهذا قال [تعالى] هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: أوصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

---

(١) سبق تخريجه.

وقوله ﷻ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد، ثم قال تعالى جل جلاله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: هو الذي يُقدِّر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟(١) إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجَّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً، وقوله: [جلت عظمته](٢): ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم [وإيمانهم](٢) وإنما هم مقلِّدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشكٍّ مريب وشقاق بعيد»(٣).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ قال (ك): «اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها(٤)، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي فإنها أيضاً عشر فصول كهذه، وقوله(٥): ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصّينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه، وقوله ﷻ: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم(٦) الله ﷻ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ يعني: المشركين فيما اختلقوه وكذّبوه وافتروه من عبادة الأوثان.

---

(١) هذا هو الصواب، وفي الأصل ـ تبعاً لبعض طبعات «تفسير ابن كثير»، وهي كذلك في مصورة، ط. دار المعرفة، بيروت ـ: «وما اختلفوا»! والذي في الجاثية: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾، والذي أثبتناه ما في سورة الشورى.

(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «برأسه». (٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقوله».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أمرك».

وقوله جل وعلا: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: صدّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله، وقوله [جلت عظمته][(١)]: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختياراً وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً[(٢)]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي: نحن براء منكم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١] وقوله [تعالى][(١)]: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: أي: لا خصومة، قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف، وهذا مُتّجه؛ لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة، وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمئاب يوم الحساب»[(٣)].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ الآية».

قال (ك): «يقول تعالى متوعِّداً الذين يصُدّون عن سبيل الله من آمن به: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة. قال ابن عباس ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى وطمعوا أن تعود الجاهلية[(٤)]، وقال قتادة: هم اليهود والنصارى قالوا لهم: ديننا خير من دينكم ونبينا خير من نبيكم[(٥)] ونحن خير منكم وأولى بالله منكم وقد كذبوا في ذلك»[(٦)].

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «واختياراً».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) بتصرف.
(٤) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٤٨٨)، وابن أبي حاتم وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤) عن ابن عباس، وهو في «تفسير مجاهد» (ص٥٨٩) ـ، وعزاه في «الدر» لعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد، وانظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٩١).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قبل نبيكم».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: اعلم أن دين الرسل واحد في أصوله، وهي **أربعة**: توحيد الله في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، ومن توحيده في عبادته جعل الحكم له. **الثاني**: الإيمان بجميع الرسل وبجميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه من عرفنا منهم ومن لم نعرف. **الثالث**: إقامة العدل بين الناس لا تفضيل لشعب على شعب ولا لفرد على فرد إلا بتقوى الله العظيم وما خص الله به الأنبياء من الوحي والعصمة لا يشاركهم في ذلك أحد. **الرابع**: حسن الخلق ورحمة أهل الأرض كلهم حتى البهائم. فهذه لا يختلف فيها رسول ورسول ولا ملة وملة.

أما الشرائع كالحلال والحرام والعقوبات على الجرائم، فإنها كانت مختلفة في شرائع الأنبياء السابقين قبل بعثة خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه، أما بعد بعثته فجميع بني آدم لهم ملة واحدة يجب عليهم اتباعها وهي الإسلام عقيدة وشريعة، ومن أبى من أهل الكتاب أن يدخل في الإسلام ويدين الله به وارتبط مع المسلمين بعهد وذمة فله شريعته يحكم بها في الدنيا، أما بالنسبة إلى الآخرة فكل من بلغته دعوة خاتم النبيين على وجهها كما بلغها أصحاب رسول الله ﷺ إلى فارس والروم ومصر وبعض أهل الهند وخراسان ولم يؤمن بها ويَدِنِ اللهَ بها فإن الله يعذبه عذاباً شديداً، وأما من لم تبلغه أو بلغته مشوهة مبدلة فنكل أمره إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] والآيات في هذا المعنى كثيرة في القرآن ولا يظلم ربك أحداً.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ يمنع اتباع الفرق والمذاهب ويجعل أهل الحق أمة واحدة، فمن حاد الله ورسوله وشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين وهم أصحاب رسول الله ﷺ وسائر القرون المفضلة يوله الله ما تولى ويُصْلِهِ جهنم وساءت مصيراً.

وقلت في قصيدة[1]:

---

(١) سبقت الأبيات مع فرق يسير وزيادة عما هنا، وهي ضمن قصيدة طويلة جدّاً ذكرها في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص٦٣ ـ ٦٦)، وترى منها أبيات في (١/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣)، وتكلمنا هناك عن مناسبة إنشائه لها.

ومَنْ ردّ قول المصطفى بعد صحةٍ ... فذلك كَفَّارٌ أثيمٌ ومعتدِ
سيسوَّد في يوم القيامة وجهه ... وإن يأت للحوضِ المباركِ يطردِ
ويبرأ منه ذلك اليوم مالكٌ ... وكلُّ تقيٌّ للإله موحِّدِ
سواء أصلَّى قابضاً في صلاته ... أم اختار سدلاً نقله لم يؤيدِ

وفي «الصوارم» ما نصه:

«وقال تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى من قصيدة له يخاطب بها ابنه الأكبر أبا بكر:

وإذا أتتك مقالةٌ قد خالفتْ ... نصَّ الكتابِ أو الحديث المسندِ
فاقْفُ الكتابَ ولا تَمِل عنه وقِفْ ... متأدباً مع كلِّ حبر أوْحَدِ. اهـ

وقال الحافظ أبو محمد ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى:

واحذر من التقليد فهو مضلة ... إنَّ المقلِّدَ في سبيل الهالكِ[١]
تأبونه في العقل وهو مقالكم ... في الدِّين يا له من ضلال فاتكِ

قوله: «يا له»، بالاختلاس وهو لغة بني عقيل[٢] ويجوز عند غيرهم اضطراراً. اهـ.

وفي «روح البيان»[٣] للشيخ إسماعيل حَقِّي أفندي التركي[٤] ما نصه: «الآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه وإن أخطأه اجتهاد مقلِّده». اهـ.

---

(١) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «الممالك».

(٢) بعدها في مطبوع «الصوارم»: «وبني كلاب»، والذي يظهر أنها بالإسكان لا بالاختلاس فالهاء ساكنة حتماً، وبذا ينضبط الوزن.

(٣) (٣/ ٤٨١ ـ اختصاره «تنوير الأذهان»).

(٤) ولد في بلدة (أيدوس) من بلاد بلغاريا الآن. وأقام مدة في (أسكوب) في ألبانيا، ثم ألقى عصا التسيار في مدينة (بروسة) أقدم عاصمة للدولة العثمانية، وبنى بها خانقاهاً انصرف فيه إلى التأليف والإرشاد والوعظ والتذكير إلى أن توفي هناك سنة ١١٣٧هـ، ودفن في خانقاهه قرب (طوز بازاري) سوق الملح في وسط المدينة المذكورة، له من المؤلفات ما يزيد على مئة مؤلف، ولم تزل أغلبها بخطه محفوظة في الخانقاة المذكورة.
وتفسيره «روح البيان» مطبوع في أربعة مجلدات ضخام، للوعاظ شغف عظيم به لما فيه من الحكايات المرققة للقلوب، وفيه نقول كثيرة عن كتب فارسية، وفيه كثير من إشارات الصوفية بل يكثر النقل فيه من التأويلات النجمية لصاحب «منارات السائرين» وفيه أيضاً من وجوه البيان ما تستلذه الأسماع، إلا أنه لا يتحاشى عن النقل عن كل من هب ودب على غلوّه في وحدة الوجود، أفاده الكوثري في «مقالاته» (٤٨٢ ـ ٤٨٣).

وفي «تفسير الفخر الرازي» في الموضع المذكور ما نصه:

«ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا». اهـ.

وفي «الاعتصام»[١] للشاطبي بعد ذكره حديث عدي بن حاتم[٢] المذكور ما نصه:

«فتأملوا يا أولي الألباب كيف حال الاعتماد في الفتوى على الرجال من غير تحر للدليل الشرعي بل لمجرد الغرض[٣] العاجل عافانا الله من ذلك بمنه»[٤]. اهـ. قلت: الأحبار العلماء والرهبان العباد كما نص عليه غير واحد. اهـ.

وفي (الجزء الأول) من «حاشية الصاوي على تفسير الجلالين» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤] في (سورة آل عمران) ما نصه: «واتخاذهم أرباباً من حيث أنهم ينسبون التحليل والتحريم والإقالة من الذنوب لهم ولا يتبعون ما أنزل الله، والمدار[٥] عندهم على ما حللته[٦] الرهبان والأحبار أو حرموه، وهذه الآية وإن كانت خطاباً لليهود والنصارى إلا أنها تجر ذيلها[٧] على من يشرك بالله غيره من المسلمين كضعفاء الإيمان الذين يعتقدون في الأولياء أنهم يضرون أو ينفعون بذواتهم ويحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، ومع ذلك يحدثون بدعاً[٨] عظيمة ما أنزل الله بها من سلطان ويجعلون تلك البدع طرقاً لهؤلاء الأولياء[٩] ويزعمون أنها منجية وإن كانت مخالفة للشرع ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٨، ١٩]»[١٠][١١].

---

(١) انظر: «الاعتصام» (٣/ ٤٦٠ ـ بتحقيقي).

(٢) تقدم لفظه وتخريجه.

(٣) في مطبوع «الاعتصام»: «بمجرد نيل الغرض».

(٤) في مطبوع «الاعتصام»: «بفضله».

(٥) في مطبوع «حاشية الصاوي»: «بل المدار».

(٦) في مطبوع «حاشية الصاوي»: «حلله». (٧) في مطبوع «حاشية الصاوي»: «بذيلها».

(٨) في مطبوع «حاشية الصاوي»: «فدعاً»! (٩) في مطبوع «حاشية الصاوي»: «الأولباه»!

(١٠) انظر: «حاشية الصاوي على تفسير الجلالين» (١/ ١٩٠، ط. إحياء التراث).

(١١) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٢٥ ـ ٢٢٧) بتصرف.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى: ٢١ ـ ٢٣]

قال المحقق القنوجي في تفسيره «فتح البيان»: «﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي: بل ألهم شركاء؟! أو أيقبلون ما شرع الله من الدين أم لهم آلهة ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ من الشرك والمعاصي والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا؟ والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به الله سبحانه أو رسوله، فيدخل فيه التقليد؛ لأنه مما لم يأذن به الله بل ذمه في كتابه في غير موضع ولم يأذن به رسوله ولا إمام من أئمة الدين ولا أحد من سلف الأمة وسادتها وقادتها، بل نهى عنه المجتهدون الأربعة ومن كان بعدهم من أهل الحق برك[1] الإيمان وأتباع السنة المطهرة، وإنما أحدثه من أحدث من الجهال والعوام بعد القرون المشهود لها بالخير، فرحم الله امرأ سمع الحق فاتبعه وسمع الباطل ودمغه وبالله التوفيق.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ وهي تأخير عذابهم حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا فعوجلوا بالعقوبة والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ راجع إلى المؤمنين والمشركين أو المشركين وشركائهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين الكافرين والمكذبين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم في الدنيا والآخرة ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين وجلين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من السيئات وذلك الخوف والوجل يوم القيامة ﴿وَهُوَ﴾ أي: جزاء ما كسبوا ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ نازل عليهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا.

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «ركب».

ولما ذكر سبحانه حال الظالمين ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ فيه تنبيه على أن عصاة المسلمين من أهل الجنة؛ لأنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من صنوف النِّعم وأنواع المستلذَّات ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر للمؤمنين ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الذي لا يوصف ولا تهتدي العقول إلى كنه صفته ومعرفة حقيقته؛ لأن الحق إذا قال (كبير) فمن ذا الذي يقدر قدره؟! ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الفضل الكبير ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ ثم وصف العباد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل بما أمر الله به وترك ما نهى عنه هم المبشرون بتلك البشارة، ثم لما ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه ﷺ من هذه الأحكام الشريفة التي اشتمل عليها كتابه، أمره بأن يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ ثواباً منهم فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: قل يا محمد: لا أطلب منكم الآن ولا في مستقبل الزمان لا على تبليغ الرسالة ببشارة أو نذارة جعلاً ولا نفعاً وإن قلَّ. والخطاب إما لقريش أو للأنصار لأنهم أخواله أو لجميع العرب؛ لأنهم أقاربهم[1] في الجملة ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ العظيمة الواسعة ﴿فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾»[2].

وقال (ك): «أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلِّغ رسالات ربي إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. قال البخاري بسنده[3] إلى عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاوساً يحدث عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة»، ومضى إلى أن قال: «وقوله ﷻ ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: ومن يعمل حسنة ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: أجراً وثواباً كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «أقارب».
(٢) انظر: «فتح البيان» (٦/ ١٩٦ ـ ١٩٨) بتصرف.
(٣) أخرجه البخاري (٤٨١٨)، وأحمد (١/ ٢٢٩)، والترمذي (٣٢٥١)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٧٤).

﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]. وقال بعض السلف[1]: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها». وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: تأمل يا أيها السامع! وتأمل يا أيها القارئ! قول المحقق محمد صديق حسن ملك بهوبال وملك العلماء في زمانه رحمه الله: «والآية بعمومها تشمل كل شيء لم يأمر به الله سبحانه أو رسوله فيدخل فيه التقليد؛ لأنه مما لم يأذن به الله؛ بل ذمه في كتابه في غير موضع، ولم يأذن به رسوله ولا إمام من أئمة الدين، ولا أحد من سلف الأمة وسادتها وقادتها، بل نهى عنه المجتهدون الأربعة ومن كان بعدهم من أهل الحق، برك الإيمان...» إلى آخره يظهر لك فساد ما عليه أهل هذا الزمان من التقليد والتفرق في الدين ونبذ كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الأئمة المجتهدين، والاعتماد على أقوال المقلدين الذين هم في غمرة ساهون، وفي طغيانهم يعمهون.

وقال صاحب «الصوارم»:

«وقال تقي الدين ابن تيمية في كتابه: «اقتضاء الصراط المستقيم»[3] ما نصه: «واليهود مقصّرون عن الحق، والنصارى غالون فيه، فكفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم مجتهدون[4] في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى»[5]. اهـ.

---

(١) عزاها شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/١١) لسعيد بن جبير.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٢٦٨، ٢٧٤ ـ ٢٧٥) بتصرف.
(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٧٩).
(٤) في مطبوع «اقتضاء الصراط المستقيم»: «يجتهدون».
(٥) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٢٧ ـ ٢٢٨).

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٨]

قال (ك): «أي: اتبعوا رسوله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي أعظم العبادات لله ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه؛ ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة حين طُعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم(١). ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب»(٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: تفسير هذه الآية في قوله تعالى في سورة الرعد رقم (١٨): ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: ١٨].

وهؤلاء الذين لم يستجيبوا لربهم بعضهم ترك الاستجابة كفراً وجحوداً، وبعضهم أجابوا بلسانه ولم يستجب بقلبه، وعمله ومن هؤلاء المقلِّدون والمبتدعون كأصحاب الطرائق.

قال المحقق القنوجي في كتابه «الدين خالص» (٤/ ٨٢) ما نصه: «أكبر بلية أصيب بها المسلمون هي فتنة التقليد»(٣).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان ﵁، وفيه مقتل عمر بن الخطاب ﵁، رقم (٣٧٠٠) من حديث عمرو بن ميمون.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

(٣) انظر: «الدين الخالص» (٣/ ٤٣٠) بنحوه.

وانظر ـ إن كنت ممن يعتبر ـ ما ابتليت به هذه الأمة من التقليد للأموات في دين الله، حتى صارت كل طائفة تعمل في جميع مسائل الدين بقول عالم من علماء المسلمين، ولا تقبل قول غيره ولا ترضى به، وليتها وقفت عند عدم القبول والرضا، لكنها تجاوزت ذلك إلى الحط على سائر علماء المسلمين، والوضع من شأنهم، وتضليلهم، وتبديعهم والتنفير عنهم، ثم تجاوزوا ذلك إلى التفسيق والتكفير، ثم زاد الشر حتى صار أهل كل مذهب كأهل ملة مستقلة، لهم نبي مستقل، وهو ذلك العالم الذي قلدوه، فليس الشرع إلا ما قال به دون غيره، وبالغوا وغلوا فجعلوا قوله مقدَّماً على قول الله ورسوله، وهل بعد هذه الفتنة والمحنة شيء من الفتن والمحن؟

فإن أنكرت هذا، فهؤلاء المقلدون على ظهر البسيطة، قد ملؤوا الأقطار الإسلامية، فاعمد إلى أهل كل مذهب، وانظر إلى مسألة من مسائل مذهبهم، هي مخالفة لكتاب الله أو لسنة رسوله، ثم أرشدهم إلى الرجوع عنها إلى ما قاله الله ورسوله، وانظر بماذا يجيبونك؟ فما أظنك تنجو من شرهم ولا تأمن من مضرتهم، وقد يستحلون لذلك دمك ومالك، وأورعهم يستحل عرضك وعقوبتك، وهذا يكفيك، إن كان لك فطرة سليمة وفكرة مستقيمة[1].

(١) قد يخطر في بالك ـ أخي القارئ ـ تساؤل: هل هذا كائن في المسلمين؟ وفيهم أهل صلاح وتقوى، وعلم وعمل!!
وأقول مجيباً على هذا الاستفسار:
نعم، إن التعصّبَ ـ قديماً وحديثاً ـ للمذاهب والطّرق، وللأشخاص والهيئات، وللجماعات والدعوات، أصلُه أمران:
الأوّل: إن من طباع البشر وأخلاقهم أن لا يجتمعوا على شيء إلا إذا اعتقدوا أنَّ فيه خيراً لهم، وقد يكون هذا الاعتقاد لبعضهم عن نظرٍ واستدلال، أو تجربة واختبار، وللبعض الآخر عن اتباع وتقليد لمن اعتقدوا فيه الفضل والكمال!!
الثاني: إن من طبعهم كذلك: أن يأخذ ما ألفوه بالرّضا والتسليم، ويأنسوا به، فإذا وجدوا لهم مخالفاً فيه، تعصبوا له، ووجّهوا قواهم إلى استنباط ما يؤيّده ويثبته، ويدفع عنه هجمات المخالفين لهم فيه، لا يلتفتون في ذلك إلى تحري الحق، واستبانة الصواب فيما تنازعوا فيه.
ولولا فشوُّ هذا الخُلُق في الناس، لما بقيت الأديان والمذاهب والأحزاب الشّيع، والحقُّ في كلٍّ منها واحدٌ، لا تعدد فيه.
وهٰهنا مسألة، لا بد من التصريح بها، وإيضاحها إيضاحاً لا لبس فيه: إن على العاملين =

= للإسلام في هذا العصر، تصحيح كثيرٍ من مفاهيمهم وتصوّراتهم:
أولاً: تجاه قاداتهم ومسؤوليهم وزعمائهم.
ثانياً: تجاه أُطرهم وتنظيمهم ومصطلحاتهم.
ثالثاً: تجاه سائر المسلمين.
وقد عالج شيخُ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٩ ـ ٢٥) الأمر الأوّل والأخير، فتعرّض إلى حرمة الاعتداء على أحدٍ من المسلمين، وإيذائه بقول أو فعل، بغير حق، وأنه لا يجوز لمن تحزب لمعلِّم أن يطيع أستاذه في عقوبة أحد من سائر المسلمين، بمجرد أنه أمر أو نهى، ولكن لا بُدّ من التثبّت والتمحص، ومن ثم العقوبة بقدر الذّنب بلا زيادة.
وتعرض إلى وجوب التثبت عند حصول منازعة بين معلّم ومعلّم أو تلميذ وتلميذ أو معلم وتلميذ، وحرمة النصرة بجهلٍ وهوى، سواء كان المحق من الأصحاب أم الأبعاد.
ونقول في معالجة الأمر الثاني:
في صفوف العاملين للإسلام اليوم مجموعة من المفاهيم التي يجب أن تصحح، وعدم تصحيحها يعني: الاستمرار في ترسيخ العوائق التي تفرّق القلوب، وتشتّت الجهود، وتمنع من الاستفادة الجادّة البصيرة من تجارب العاملين للإسلام في أنحاء الأرض، فضلاً عن الاستفادة من تجارب غيرهم.
وإنّ من جملة ما يجب تصحيحُه لدى الكثرة الكاثرة من العاملين للإسلام:
أوّلاً: مفهوم البيعة.
ثانياً: مفهوم الجماعة.
وقد تعرّض شيخ الإسلام رحمه الله إلى المفهوم الأوّل، فتأمّل معي مقولته في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٦ وبعدها):
«وليس لأحد منهم ـ أي المعلِّمين ـ أن يأخذ على أحد عهداً بموافقته في كل ما يريده، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل مَنْ فعل هذا كان من جنس جنكزخان وأمثاله الذين يجعلون مَنْ وافقهم صديقاً والياً، ومن خالفهم عدواً باغياً. بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله، بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله» ولبيان ما نعنيه نقول:
حين وصل العالم الإسلامي بجهله وتخلّفه وتفرّقه إلى هاوية السقوط، تمكّن الغرب من إخضاع معظم أجزاء بلاد المسلمين لسلطانه العسكري والسياسي والحضاري، فكانت الصدمةُ عنيفةً... فاستيقظ بتأثير الصّدمة رجالٌ أخذوا على عاتقهم دعوة الأُمّة إلى النّهوض من عثرتها، وبذلوا جهوداً مشكورةً في عملية إعادة الثّقة بالإسلام، أنه منهج حياة كامل، بعد أن اهتزّت هذه الحقيقة في القلوب والعقول.
استجاب عدد من المسلمين لدعوة أولئك الروّاد، وتجمّعوا حولهم، فَوُلِدَ بذلك ما نسمّيه «الحركة الإسلامية المعاصرة» التي ظهرت على السّاحة ممثّلة في عدد من =

....

= «التنظيمات»... وكان طبيعياً أن تتحرّك «التنظيمات» باتجاه دعوة المسلمين إلى الالتفاف حولها، وضمّ جهودهم إلى جهودها، ولكي تقيم الدليل على وجوب التعاون من أجل تحقيق الأهداف الإسلاميّة عمدت إلى نصوص الإسلام ـ وهذا حق ـ تبرز منها ما تعتقد أنه يقيم الحجّة، ويداوي العلل.

وإبراز نصوص معيّنة من الوحي، في ظروفٍ شاذّة، ليس أمراً سهلاً، فهذا العمل يفرض على المتصدّين له أن يكون لديهم علم شرعي، قائم على الكتاب وصحيح السنة ونهج السلف الصالح، ومعرفة كافية بالواقع، ضمن ظروف الفترة الزّمنية التي تمر بها البشرية، ثم بعد ذلك قدرة على الربط بين النصوص والواقع، بحيث لا يتم إسقاط بغير علم على نص من النصوص، أو إسقاط نص بجهل على واقع ما، فينشأ عن ذلك انحرافات تتفاوت في درجة خطورتها.

وفي جملة النصوص التي أبرزت في ساحة العمل الإسلامي الحركي، وكان لها نتائجُ تربويّة خطيرة، تلك التي تحض على «البيعة» وتأمر بالتزام «الطاعة والجماعة».

والنصوص في هذه المعاني كثيرة، فنكتفي بذكر بعضها، مع الإشارة إلى مكمن الخطر في فهم ما فيها من معانٍ:

روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر رفعه إلى النبي ﷺ:

«من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة، ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتةً جاهلية».

وروى مسلم في «الصحيح» أيضاً وأحمد في «المسند» والنسائي في «المجتبى» من حديث أبي هريرة مرفوعاً:

«من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عميّة، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، فقتل، فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهدٍ عهده، فليس مني، ولستُ منه».

هذه النصوص، وما ورد في معناها، تطرح قضايا أساسيّة في فهم طبيعة العمل الجماعي في عصرنا... أبرزها قضيتان:

القضية الأولى: ما البيعة الواجبة التي يأثم المسلم بتركها:

هل هي بيعة الشيخ أو رئيس التنظيم الإسلامي؟ ومن هو هذا الشيخ أو رئيس التنظيم المؤهل للبيعة؟ فالشيوخ كثيرون، والتنظيمات متعددة!! أو أن هذه البيعة، التي يأثم المسلم بتركها تكون للسلطان المسلم المقيم لشرع الله ﷻ؟

وإذا كان هذا هو المعنى المتعيّن، ولم يكن للمسلمين سلطانهم المؤهّل للبيعة الشرعيّة الواجبة، فهل يلحقهم الإثم في هذه الحالة؟ أو أنهم يأثمون إذا قام السلطان المسلم ولم يبايعوه؟.

إن الذي يظهر لنا من مجموع نصوص «البيعة» أن البيعة الواجبة إنما هي «بيعة السلطان =

= المسلم» وهذا الواجب يأثم المسلم بتركه مع القدرة عليه، فإن عجز أو لم تكن الشروط متوافرة انتفى الإثم، والله أعلم.
والذي دعانا إلى الحديث عن «البيعة» كثرة ذكر أحاديث البيعة في العمل الإسلامي الجماعي، وكثير من «التنظيمات» تورد هذه الأحاديث للتأثير على الآخرين، وإقناعهم بضرورة الانتظام في صفوفها، فينشأ عن ذلك اقتناع بأن جميع الذين ليس في عنقهم بيعة، كبيعة «التنظيم» آثمون، ويُخشى أن يموتوا ميتة جاهلية!!.
وهذا خطأ في الفهم يؤدي إلى مواقف متشنّجة.
وأنقل إليك ـ أخي القارئ ـ أقوال ثُلّةٍ من العلماء المعروفين، ليزداد الأمرُ وضوحاً، وليظهر الحقُّ جليّاً، دون غموض أو لبس:
قال الإمام أحمد في «مسائل ابن هانئ»: رقم (٢٠١١) بعد أن أورد قوله ﷺ: **«ومن مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية»** مجيباً إسحاق بن إبراهيم بن هانئ، عندما سألَهُ: ما معنى هذا الحديث؟ فقال: «تدري ما الإمام؟ الذي يجتمع المسلمون عليه كلهم. يقول: هذا إمام، فهذا معناه».
وقال الكشميري في «فيض الباري» (٤/ ٥٩):
«اعلم أن الحديث يدل على أن العبرة بمعظم جماعة المسلمين، فلو بايعه رجل أو اثنان أو ثلاثة فإنه لا يكون إماماً ما لم يبايعه معظمهم، أو أهل الحلّ والعقد».
قلت: وعليه فلا ينطبق الوعيد في ترك البيعة الوارد في قوله ﷺ: **«من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»** إلا على الإمام الذي يجتمع عليه المسلمون. أما إذا لم يكن لهم إمام فلا ينطبق هذا الوعيد، يدلّكَ على ذلك أن النبي ﷺ أرشد حذيفة عند عدم وجود الجماعة والإمام بأن يعتزل، فهل نرى أن النبي ﷺ يرشد حذيفة إلى أن يموت ميتة جاهلية؟! كلا، وبهذا تعرف خطأ من يتمسك بهذا الحديث فيوجب به مبايعة إمام قبل أن يقوم بالدّعوة والبيان، وأن تعرف أن النبي ﷺ لم يبايع الأنصار إلا بعد أن صدع بالحقّ وبيّن، ولم تكن بيعتُه هذه إلا على الإيمان وحده، والاستمساك بفضائل الأعمال، والبُعد عن مناكرها. وكانت البيعة الثانية تمكيناً للهجرة، وتوثيقاً لموقف الأنصار من الرسول ﷺ، واطمئناناً إلى صفاء الجو في المدينة.
وقال السيّد الآلوسي في «تفسيره» من تفسير «سورة الجمعة» في باب الإشارة عند قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ متكلّماً على الرابطة بين المتصوّفة، فقال عنهم:
«. . . وقالوا بالرابطة، ليتهيأ ببركتها القلب لما يفاض عليه، ولا أعلم لثبوت ذلك دليلاً يعوَّل عليه عن الشارع الأعظم ﷺ، ولا عن خلفائه ﷺ، وكل ما يذكرونه في هذه المسألة، ويعدّونه دليلاً. لا يخلو من قادح. بل أكثر تمسكاتهم فيها، تشبه التمسكَ بحبال القمر، ولولا خوف الإطناب لذكرتُها مع ما فيها».
فأنت ترى هذا العالم الجليل، الواسع الاطلاع، الواقف على ما قال أنصار هذه الطريقة في الاستدلال على الرابطة والتوجّه، لم يعثر لهما على دليل، ولم يُرْضه شيء مما قيل. =

....

= فهل كانت تخفى عليه مثل الأحاديث السابقة. وهي مشهورة مستفيضة عند المبتدئين في الطلب فضلاً عن أمثاله من المتبحرين الموسوعيين؟!

وعلى فرض خفائها عليه، فهل تخفى على أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فإنه سئل هل يجوز للمبتدئ أن يأخذ على نفسه عهداً لمعلِّم بحيث يقوم معه إذا قام بحق أو باطل، ويعادي من عاداه، ويوالي مَن والاه؟ فكان جوابه المسطر آنفاً، ولم يتعرض للاحتجاج بالأحاديث السابقة مطلقاً، فلو كان هذا مقامها، فإنها غير خافية عليه، يعلم ذلك المطَّلعُ على كتبه، لا سيما «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرَّعيّة».

ومن ثم... فإن ابن عابدين ـ رحمه الله تعالى ـ سئل:

رجل من الصوفية أخذ العهد على رجل، ثم اختار الرجل شيخاً آخر، وأخذ عليه العهد. فهل العهد الأول لازم، أم الثاني:

فأجاب كما في «تنقيح الفتاوى الحامدية» (٢/ ٣٣٤) بقوله:

«الجواب: لا يلزمه العهد الأول ولا الثاني، ولا أصل لذلك» وكذلك قال السيوطي في «الحاوي للفتاوى» (١/ ٢٥٣) وقال محمود خطاب السبكي في «الدِّين الخالص» (٦/ ٢٩٠):

«وأما ما يقع من متصوّفة الزّمان من وضع أيديهم في أيدي الرجال والنساء، ومعاهدتهم على أن يكونوا تلامذة لهم، ليتمشيخوا عليهم، ويشاركوهم في أموالهم، تارة بالأكل في بيوتهم، وتارة بضرب عوائد يدفعونها في وقت معين، كأنها جزية تؤخذ بالجبروت، فهو إجرام وإفساد خارج عن حدّ الشّرع ولا يقرّه عقل، نسأل الله لنا ولجميع الأمة كمال الهداية، وتمام التوفيق».

ولم يقتصر الإنكار على هؤلاء العلماء المتأخرين، بل سبقهم إليه عالم من كبار ثقات التّابعين، هو: مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، فأخرج أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٤) ومن طريقه الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: (٤/ ١٩٢): **بإسنادٍ صحيح إلى مُطَرِّف** قال:

«كنا نأتي زيد بن صُوحان، وكان يقول:

يا عباد الله أكرموا وأجملوا، فإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين: الخوف والطمع، فأتيتُه ذات يوم وقد كتبوا كتاباً، فنسقوا كلاماً من هذا النحو: «إن الله ربُّنا، ومحمداً نبيّنا، والقرآن أمامنا، ومن كان معنا كنا... وكنا له...، ومن خالفنا كانت يدنا عليه، وكنا وكنا» قال:

فجعل يعْرِضُ الكتاب عليهم رجلاً رجلاً، فيقولون: أقررتَ يا فلان؟ حتى انتهوا إليَّ فقالوا: أقررتَ يا غلام؟ قلت: لا.

قال ـ يعني زيداً ـ: لا تعجلوا على الغلام، ما تقول يا غلام؟

قلت: إنَّ الله قد أخذ عليَّ عهداً في كتابه، فلن أُحدث عهداً سوى العهد الذي أخذه علي.

فرجع القوم من عند آخرهم، ما أقرَّ منهم أحد، وكانوا زُهاء ثلاثين نفساً» انتهى. =

= وزيد بن صوحان، كان يقوم الليل، ويكثر الصيام، وإذا كانت ليلة الجمعة أحياها، فإنه كان يكرهها إذا جاءت، مما كان يلقى فيها، فبلغ سلمان ما كان يصنع، فأتاه فقال: أين زيد؟ قالت امرأته: ليس هاهنا.
قال: فإني أقسم عليك لما صنعتِ طعاماً، ولبستِ محاسن ثيابك، ثم بعثت إلى زيد. فجاء زيد، فقرب الطعام، فقال سلمان: كُل يا زيد. قال: إني صائم. قال: كل زييد لا ينقص ـ أو تنقص دينك ـ إن شر السير الحقحقة ـ وهو المتعب من السير، وقيل: أن تحمل الدابة على ما لا تطيقه ـ إن لعينك عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لزوجتك عليك حقاً، كل يا زييد، فأكل، وترك ما كان يصنع. وانظر: «تاريخ بغداد» (٨/ ٤٣٩).
ومنه تعلم وجه إنكار مطرف عليه، فإن زيداً يومها كان من المغالين في الطّاعة، إلا أنه ترك ما كان يصنع، كما تقدّم.
ولم يكن مطرّف من المبتعدين عن الجماعة، فإنه كان يقول ـ كما في «الحلية» (٢/ ٢٠٨) ـ: «ما أرملةٌ جالسة على ذيلها بأحوج إلى الجماعة مني».
فإنه ـ رحمه الله تعالى ـ كان وقّافاً عند الشّرع، بعيداً عن أهل البدع، فقد أتت الحروريةُ مطرفاً يدعونه إلى رأيهم، فقال:
يا هؤلاء، لو كان لي نفسان، بايعتُكم بإحداهما وأمسكتُ الأخرى، فإنْ كان الذي تقولون هدىً أَتْبَعْتُها الأخرى. وإنْ كانت ضلالة، هلكَتْ نَفْسٌ وبقيتْ لي نَفْس، ولكن هي نَفْسٌ واحدة لا أُغرِّرُ بها، انظر: «طبقات ابن سعد» (٧/ ١٤٣)، «السير» (٤/ ١٩٥)
والحاصل: إنَّ القول بأنَّ إعطاء «البيعة» للمشايخ والجماعات مشروعة للأحاديث الواجبة في بيعة أمير المؤمنين، **مجازفةٌ من القول، وبُعدٌ عن الصّواب**، ولا مشابهة بين «بيعة» المشايخ وغيرهم و«بيعة» أمير المؤمنين، لاختلاف آثار البيعتين، فلو كانتا متشابهتين لتفطن إلى ذلك ابن تيمية وابن عابدين والسبكي وغيرهم، ولترتّب على ذلك آثار لا يقول بها عاقل. فضلاً عمّن شمّ رائحاً من علم أو فقهٍ.
وذكر ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٥ ـ ١٢٦) أن من كيد الشيطان بالصوفية:
«أمرهم بلزوم زِيٍّ واحد، ولِبسْة واحدة، وهيئة ومِشية معينة، وشيخ معين، وطريقة مخترعة، ويفرض عليهم لزوم ذلك، بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض، فلا يخرجون عنه، ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمّونه» ثم قال ـ رحمه الله تعالى ـ.
«وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة، فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة، ليسوا مع أهل الفقه، ولا مع أهل الحقائق، فصاحب الحقيقة أشدّ شيء عليه التقيد بالرسوم الوضعية. وهي من أعظم الحجب بين قلبه وبين الله، فمتى تقيد بها حبس قلبه عن سيره، وكان أخس أحواله الوقوف معها، ولا وقوف في السير، بل إما تقدّم وإما تأخر، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾. انتهى.
قال أبو عبيدة: لا بّد للعاملين للإسلام أن يبقوا مستحضرين أهدافهم السامية، متمسكين =

= بها، حريصين على نهج سلفهم الصالح، بعيدين عن الآصار والأغلال، التي تجعلهم يتقوقعون على أنفسهم، فتظهر فيهم كثير من العوارض المرَضِيّة، من ظن فاسد في الناس عموماً أو في غيرهم من الدّعاة خصوصاً، وطالما سمعنا التراشق بالعبارات، التي تصل إلى حدّ الاستتابة لبعضهم البعض!! وحينئذٍ يجمعون بين هذا الظن الفاسد، والتعصب الحاضر، فتكون النتيجة بطلان الأجر أو تنقيصه، والعياذ بالله تعالى.

القضية الثانية: ما المقصود بـ«الجماعة» التي يأثم المسلم بتركها؟

هل المقصود «التنظيمات» الموجودة في عصرنا، والموزّعة في أرجاء الأرض؟

أو أن المقصود «جماعة المسلمين» المجتمعين على بيعة سلطان مسلم؟

والذي يظهر من النصوص بقوة: إن المعنى المتعيّن لـ«الجماعة التي يأثم المسلم بمفارقتها» هو «جماعة المسلمين الذين على رأسهم إمام مسلم».

وإبراز هذا المعنى ضروري في هذه الأيام؛ لأن النظر إلى «التنظيم» على أنه المقصود بـ«الجماعة» الواردة في النصوص، يسيطر ـ عمليّاً ـ على مواقف ومشاعر الكثرة الكاثرة من الذين يتحركون في إطار التنظيمات الإسلامية المعاصرة!.. ويظهر هذا الفهم الخاطئ في أجلى صوره حين يترك فرد أو مجموعة، تنظيماً من التنظيمات القائمة... وهذا يؤدي إلى مآسٍ نفسيّة وأخلاقيّة مدمّرة.

لذلك... فإننا نؤكد أن كل تنظيم من التنظيمات، أو حركة من الحركات، أو جماعة من الجماعات. إنما هي جماعة من المسلمين، وليسوا ـ متفرّقين أو مجتمعين ـ جماعة المسلمين. كما أن الذي لا ينتسب إلى تنظيم إسلامي، أو حركة إسلاميّة... فإنه لا يكون مفارقاً للجماعة، وإذا مات لم تكن ميتته جاهليّة، بل إن المتعصبين للأسماء والشارات واللافتات والأسماء هم في جاهلية، فقد قال النبي ﷺ فيما ثبت عنه لما سمع رجلاً يقول: «يا للأنصار» ويقول آخر: «يا للمهاجرين» قال ﷺ: «**أجاهلية وأنا بين ظهرانيكم**» فكل من يعقد سلطان الحب والبغض والولاء والبراء على أسماء دون حقائق الأشياء فهو في جاهلية!

وأخيراً.. يدعونا انتشار الفهم الخاطئ لمعنى الجماعة التي يأثم المسلم بمفارقتها إلى التأكيد على أن الأخوّة بين المسلمين، إنما هي بأصل الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وليسوا إخوة لانتمائهم لتنظيم ما أو حركة من الحركات.

ومما يؤكد هذا: ما قاله الإمام الشافعي في «الرسالة» (ص٤٧٥): «إذا كانت جماعتُهم مُتفرِّقةً في البلدان فلا يقْدِرُ أحدٌ أنْ يلزم جماعة أبدانِ قوم متفرقين، وقد وُجِدَتْ أبدانٌ تكون مجتمعةً من المسلمين والكافرين والأتقياء والفُجّار. فلم يكن في لزوم الأبدان معنى؛ لأنه لا يمكن، ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئاً، فلم يكن لِلُزُوم جماعتهم معنىً، إلا ما عليه جماعتُهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما».

وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جيّد متين، جدير بالتأمّل، وهو موافق لما سنذكره: إن أيَّ جماعة من الجماعات إنما هي من المسلمين، لا جماعة المسلمين. =

فانظر كيف خصوا بعض علماء المسلمين واقتدوا بهم في مسائل الدين، ورفضوا الباقين، بل جاوزوا هذا إلى أن الإجماع ينعقد بأربعة من علماء هذه الأمة، وأن الحجة قائمة بهم، مع أن في عصر كل واحد منهم من هو أكثر علماً منه، فضلاً عن العصر المتقدم على عصره والعصر المتأخر على عصره، وهذا يعرفه كل من يعرف أحوال الناس.

= ينشأ عن هذا... أنه يجب أن يعامل معاملة المؤمن، كلٌّ من تشهد له نصوص الإسلام، أنه من المسلمين، سواء كان في تنظيم أم كان غيرَ منظَّم.
وحينها يتجاوز العمل الإسلامي عتبات الحزبيّة، ويكون العاملون ملتزمين في عملهم بمنهج الإسلام، ولا يكون الالتزام بالأشخاص أو التنظيمات أو الجماعات، التي هي دائماً محل للخطأ والصواب، والكارثة والخلل والأمراض والعلل تتسلل إلى صفوف العاملين من خلال العدول عن هذا المقياس، فالذي ندعو إليه أن نتمسك بدين الوحي من النصوص وليس بآراء وأفكار تبلورت وقدمت لظروف وملابسات الله أعلم بها.
وحينئذٍ تخلع العصمة الكاذبة عن بعض الأشخاص، والمسوغات المضحكة التي توضع لتصرفاتهم وأخطائهم.
وحينها تزول العصبية لفئة أو شخص، التي لا تظهر إلا في حالة الانهزام العقلي، وعدم الإبصار الصحيح، أو في حالة عدم وجود العزمة الأكيدة على الالتزام بهذا الدين.
وحينها توضع الأمور في نصابها، وينظر إلى العاملين، على أنهم بشر، فلا يفسقهم التلاميذ والمحبّون، ولا يبدعهم الشانئون والمبغضون.
وحينها لا تعتبر عملية النقد والمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اضطراب في العمل أو تشويش وتهويش وتمزيق للصف.
وحينها نبتعد عن التشرذم والطائفيات الجديدة، التي تتمزق على أرضها رقعة التفكير، وتنمو الجزئيات، وتغيب الكليات، ويضطرب سلّم الأولويات.
وحينها تتغلب دراسة أسباب التقصير، على عملية صناعة التسويغ.
وحينها تغيب كثير من المصطلحات السيّئة. التي تطلق على مَن فارق حزباً ما، لخلافٍ فكريٍّ معتمدٍ، من مثل: «سقط على الطريق» أو «انحرف» أو «انهزم» أو «ارتكس»....
وحينها لا تتداخل الوسائل بالغايات، ولا يتوقف العمل المنتج، ولا تتمحور الصورة الإسلامية حول أشخاص، لا ترى القضية الإسلامية إلا من خلالهم.
وحينها لا يكون مجال للمصلحة! ولا للباقة! ولا للكياسة! ولا للسياسة! ولا للمهارة ولا للدهان! ولا للتمويه! في إخفاء ما يحرج، وتغطية ما يسوء!.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٧، ٤٨]

قال (ك): «لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذّر منه وأمر بالاستعداد له فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، ليس له دافع ولا مانع، وقوله ﷻ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه فتغيبون[1] عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾؛ يعني: المشركين ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر وقال ﷻ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقال جل وعلا هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ يعني: الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: جدب[2] ونقمة وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر وإن أصابته محنة يئس وقنط كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «**يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار**». فقالت امرأة: ولِمَ يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**لأنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوماً قالت: ما رأيت**

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فتغيبوا».
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وبدلها في الأصل: «الجدب».

منك خيراً قط»[1] وهذا حال أكثر النساء[2] إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال ﷺ: «**إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»**[3]».

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله فإنه لم يستجب لربه وهو متعرض للمصائب كما تقدم في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء: ٦٢] ونحن نرى اليوم هذه الشعوب التي استجاب أسلافها لربهم، فأطاعوا الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، لما أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله أصابتهم مصائب شتى وهم يقاسونها ويعذبون بها، ولم يهتدوا سبيلاً إلى التخلص منها بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله، بل هم مستمرون في ضلالتهم، ومن أسباب إعراضهم عن الكتاب والسنة: التقليد والتعصب واتباع الطرائق القدد.

قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» ما نصه:

«ثم تجاوزوا في ذلك إلى أنه لا اجتهاد لغيرهم، بل هو مقصور عليهم، فكأن هذه الشريعة كانت لهم، لا حظ لغيرهم فيها، ولم يتفضل الله على عباده بما تفضل عليهم، وكل عاقل يعلم أن هذه المزايا التي جعلوها لهؤلاء الأئمة رحمهم الله تعالى، إن كانت باعتبار كثرة علمهم وزيادة على علم غيرهم، فهذا مدفوع عند كل من له اطلاع على أحوالهم وأحوال غيرهم، فإن في أتباع كل واحد من هو أعلم منه، لا ينكر هذا إلا مكابر أو جاهل، فكيف بمن لم يكن من أتباعهم من المعاصرين لهم والمتقدمين عليهم والمتأخرين عنهم؟

وإن كانت تلك المزايا بكثرة الورع والعبادة فالأمر كما تقدم، فإن في معاصريهم والمتقدمين عليهم والمتأخرين عنهم من هو أكثر عبادة وورعاً منهم، لا ينكر هذا إلا من لا يعرف تراجم الناس بكتب التواريخ.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩، ٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري.
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الناس».
(٣) سبق تخريجه، وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

وإن كانت تلك المزايا بتقدم عصورهم فالصحابة والتابعون أقدم منهم عصراً بلا خلاف، وهم أحق بهذه المزايا ممن بعدهم لحديث: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[١].

وإن كانت تلك المزايا لأمر عقلي، فما هو؟ أو لأمر شرعي، فأين هو؟ ولا ننكر أن الله قد جعلهم بمحلٍّ من العلم والورع، وصلابة الدين، وأنهم من أهل السبق في الفضائل والفواضل، ولكن الشأن في المتعصب لهم من أتباعهم القائلين إنه لا يجوز تقليد غيرهم، ولا يعتد بخلافه إن خالف، ولا يجوز لأحد من علماء المسلمين أن يخرج عن تقليدهم، وإن كان عارفاً بكتاب الله وسنة رسوله، قادراً على العمل بما فيهما متمكناً من استخراج المسائل الشرعية منهما.

فلم يكن مقصودنا إلا التعجب لمن كان له عقل صحيح وفكر رجيح، وتهوين الأمر عليه فيما نحن بصدده من الكلام على ما يفعله المعتقدون للأموات، وأنه لا يغتر العاقل بالكثرة وطول المهلة مع الغفلة، فإن ذلك لو كان دليلاً على الحق، لكان ما زعمه المقلدون المذكورون حقًّا، ولكان ما يفعله المعتقدون للأموات حقًّا».

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]

قال (ك): «يعني القرآن ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾ [فصلت: ٤٤] والآية وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحق القويم، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ أي: ربهما[٢] ومالكهما[٢] والمتصرف فيهما[٢] والحاكم الذي لا

---

(١) مضى تخريجه (٣/ ١١).

(٢) كذا في الأصل بالتثنية!

معقب لحكمه ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها [سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا]»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أوحى الله هذه الروح الذي هو القرآن به حياة من اتبعه، وبتركه موت من تركه، وقد بلَّغه النبي ﷺ إلينا بأقواله وأفعاله وأخلاقه، فقامت علينا حجة الله وجعله نوراً ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦] ومن لم يتبع القرآن والسنة فقد خرج عن صراط الله، وصار كل ما في السموات والأرض أعداء له، ولله جنود السموات والأرض.

قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» ما نصه (٤/ ٣٠٨):

«بيان تلاعب المقلدين بالنصوص وتأويلها حسب مشتهياتهم تعصباً لمذاهبهم؛ ولنذكر من هذا طرفاً فإنه من عجيب أمرهم، «فاحتج طائفة منهم في[(٢)] سلب طهورية الماء المستعمل في رفع الحدث بأن النبي ﷺ «**نهى أن يتوضأ الرجل بفضل وَضوء المرأة والمرأة بفضل وَضوء الرجل**»[(٣)]، وقالوا: الماء المنفصل عن أعضائهما هو فضل وَضوئهما، وخالفوا نفس الحديث، فجوزوا لكل منهما أن يتوضأ بفضل طَهور الآخر، وهو المقصود بالحديث، فإنه نهى أن يتوضأ الرجل بفضل وَضوء المرأة إذا خلت بالماء، وليس عندهم للخلوة أثر، ولا لكون الفضلة فضلة امرأة أثر، فخالفوا نفس الحديث الذي احتجوا به، وحملوا الحديث على غير محله، إذ فضل الوضوء ـ بيقين ـ هو الماء الذي فضل منه، ليس هو الماء المتوضأ به فإن ذلك لا يقال له: فضل الوضوء.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٩٥)، وما بين المعقوفتين ليس في مطبوعه.

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «على».

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي (١٢٥٢)، ومن طريقه أحمد (٥/ ٦٦)، وأبو داود (٨٢) في الطهارة، باب النهي عن ذلك، والترمذي (٦٤)، في الطهارة، باب ما جاء في كراهية فضل وضوء المرأة، وابن ماجه (٣٧٣) في الطهارة، باب النهي عن ذلك، وابن حبان (١٢٦٠)، والطبراني (٣١٥٦)، والدارقطني (١/ ٥٣)، والبيهقي (١/ ١٩١) من حديث الحكم بن عمرو الغفاري ولفظه: «إن رسول الله ﷺ نهى أن يتوضأ بفضل وضوء المرأة». =

فاحتجوا به فيما لم يرد به، وأبطلوا الاحتجاج به فيما أريد به[١]، ومن ذلك احتجاجهم على نجاسة الماء بالملاقاة وإن لم يتغير بنهيه ﷺ أن يبال في الماء الدائم[٢].

ثم قالوا: لو بال في الماء الدائم، لم ينجسه حتى ينقص عن قلتين، واحتجوا على نجاسته أيضاً بقوله ﷺ: **«إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً»**[٣].

ثم قالوا: لو غمسها قبل غسلها، لم يتنجس الماء ولا يجب عليه غسلها، وإن شاء أن يغمسها قبل الغسل فعل[٤].

= ولتمام تخريجه، انظر: «الطهور» (١٩٣ ـ بتحقيقي) لأبي عبيد. أما نهي المرأة عن الوضوء بفضل الرجل، فيدل عليه ما رواه أحمد (٤/ ١١١، ٥/ ٣٦٩)، وأبو داود (٨١) في الطهارة، باب النهي عن ذلك، والنسائي (١/ ١٣٠) في الطهارة، باب ذكر النهي عن الاغتسال بفضل الجنب، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٤)، وعبد الرزاق (١/ ١٠٦)، وابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (٥١)، والبيهقي (١/ ١٩٠) عن حميد الحميري قال: لقيتُ رجلاً صحب النبي ﷺ كما صحب أبو هريرة، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن تغتسل المرأة بفضل الرجل، ويغتسل الرجل بفضل المرأة»، وهذا الرجل هو عبد الله بن سرجس، كما بينته في تعليقي على «الطهور» (ص٢٥٩) لأبي عبيد. وقد وقع التصريح بأنه هو في رواية فيه رقم (١٩٤).

وحديث حميد هذا، رجاله ثقات، قاله ابن حجر في «الفتح» (١/ ٣٠٠) وزاد: «ولم أقف لمن أعلّه على حجّة قوية» قلت: وقد صححه جماعة من المحدثين، منهم ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (١/ ٩٩٧)، وانظر تفصيل ذلك في التعليق على: «الطهور» (ص٢٥٨ ـ ٢٥٩) والله الموفق.

(١) انظر تفصيل ذلك مع الرد عليهم في «تهذيب السنن» (٨٠ ـ ٨٢) فإنه مهم، و«بدائع الفوائد» (٥٧١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٨) في الوضوء، باب البول في الماء الدائم، ومسلم (٢٨٢) من حديث أبي هريرة ولفظه: **«لا يبولنّ أحدكم في الماء الدائم»**.

وروى مسلم (٢٨١) في الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد من حديث جابر عن النبي ﷺ: نهى أن يُبال في الماء الراكد.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الوضوء، باب الاستجمار وتراً (١/ ٢٦٣) رقم (١٦٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها في الإناء قبل غسلها ثلاثاً (١/ ٢٣٣) رقم (٢٧٨)، والمذكور لفظه عن أبي هريرة، وقد أسهبتُ في تخريجه في تعليقي على كتاب «الطهور» رقم (٢٧٩).

(٤) انظر ذِكْرَ ابن القيم رحمه الله لعِلّة النهي في «تهذيب السنن» (١/ ٦٩ ـ ٧٠)، و«بدائع الفوائد» (٤/ ٨٧).

واحتجوا في هذه المسألة بأن النبي ﷺ أمر بحفر الأرض التي بال فيها البائل وإخراج ترابها[١].

ثم قالوا: لا يجب حفرها، بل لو تركت حتى يبست بالشمس والريح طهرت، واحتجوا على منع الوضوء بالماء المستعمل بقوله ﷺ: **«يا بني عبد المطلب إن الله كره لكم غسالة أيدي الناس»**[٢]. (يعني الزكاة)، ثم قالوا: لا تحرم الزكاة على بني عبد المطلب.

واحتجوا على أن السمك الطافي إذا وقع في الماء ينجسه بخلاف غيره من ميتة البحر[٣]، فإنه ينجس الماء بقوله ﷺ في البحر: **«هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»**[٤].

---

(١) ورد من حديث ابن مسعود رواه الدارقطني في «سننه» (١/ ١٣٢) من طريق أبي بكر بن عياش، حدثنا سمعان بن مالك عن أبي وائل عنه، وقال: سمعان مجهول. وقال أبو زرعة ـ كما في «العلل» (٢٤١) ـ: ليس بقوي ـ. ونقل الزيلعي عبارة أبي زرعة هذه: منكر ليس بالقوي.

ومن حديث أنس، علقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٥٤٥) ـ وعزاه الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٢١٢)، وابن حجر في «التلخيص» (١/ ٣٧) للدارقطني، ولم أجده فيه ـ من طريق عبد الجبار بن العلاء عن ابن عيينة عن يحيى بن سعيد عن أنس، وقال الدارقطني: ووهم عبد الجبار على ابن عيينة لأن أصحاب ابن عيينة الحفاظ رووه عنه عن يحيى بن سعيد، فلم يذكر أحد منهم الحفر، وإنما روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس أن النبي ﷺ قال: **«احفروا مكانه»** مرسلاً.

ورُوي مرسلاً، أحدها هذا الذي أشار إليه الدارقطني وهو مرسل طاوس، رواه عبد الرزاق (١/ ٤٢٤) وله مرسل آخر رواه أبو داود في «المراسيل» (١١)، وفي «السنن» (٣٨١)، والدارقطني (١/ ١٣٢)، والبيهقي (٢/ ٤٢٨) من طريق عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن معقل بن مُقَرِّن قال... قال أبو داود: هو مرسل، ابن معقل لم يدرك النبي ﷺ. ورجاله ثقات.

وحاول ابن حجر في «التلخيص» تقويته، مرسلاً وموصولاً، **والذي يظهر عدمه**؛ لمخالفته لما صح في الأحاديث المشهورة.

(٢) ذكره الزيلعي في «نصب الراية» (٢/ ٤٠٣)، وقال: «غريب بهذا اللفظ» أي: **لا أصل له**، وبمعناه ما رواه مسلم في «صحيحه» (١٠٧٢) في «الزكاة»، باب ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة، ضمن حديث طويل جاء فيه: **«إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس»**.

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «البر»، وهو الصواب.

(٤) أخرجه مالك في «الموطأ» كتاب الطهارة، باب الطهور للوضوء (١/ ٢٢) رقم (١٢) ـ ومن =

ثم خالفوا[1]: هذا الخبر بعينه[2]، وقالوا: لا يحل ما مات في البحر من السمك ولا يحل شيء مما فيه أصلاً غير السمك.

واحتج أهل الرأي على نجاسة الكلب وولوغه بقوله ﷺ: **«إذا ولغ الكلب**

= طريقه الشافعي في «الأم» (١/ ١٦)، و«المسند» (٨/ ٣٣٥ ـ مع «الأم»)، وأبو عبيد في «الطهور» رقم (٢٣١)، ومحمد بن الحسن في «الموطأ» رقم (٤٦) ـ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ١٣١)، و«المسند» ـ كما في «نصب الراية» (١/ ٩٦) ـ، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٣٧ و٣٦١ و٣٩٣)، والنسائي في «المجتبى» كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (١/ ١٧٦)، وكتاب الصيد والذبائح، باب ميتة البحر (٧/ ٢٠٧)، و«السنن الكبرى» رقم (٦٧)، والترمذي في «الجامع» أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور (١/ ١٠٠ ـ ١٠١) رقم (٦٩)، وأبو داود في «السنن» كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (١/ ٦٤) رقم (٨٣)، والدارمي في «السنن» كتاب الطهارة، باب الوضوء من ماء البحر (١/ ١٨٦)، وكتاب الصيد، باب في صيد البحر (٢/ ٩١)، وابن ماجه في «السنن» كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر (١/ ١٣٦) رقم (٣٨٦)، وكتاب الصيد، باب الطافي من صيد البحر (٢/ ١٠٨١) رقم (٣٢٤٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٤٧٨، ترجمة سعيد بن سلمة المخزومي)، وابن حبان في «الصحيح» (رقم ١١٩ ـ «موارد الظمآن»)، وابن خزيمة في «الصحيح» (١/ ٥٩) رقم (١١١)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٤٣)، والدارقطني في «السنن» (١/ ٣٦)، والحاكم في «المستدرك (١/ ١٤٠ ـ ١٤١)، و«معرفة علوم الحديث» (ص٨٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٣)، و«السنن الصغرى» (١/ ٦٣) رقم (١٥٥)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/ ٢٤٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٢/ ٥٥ ـ ٥٦) رقم (٢٨١)، والجورقاني في «الأباطيل والمناكير» (١/ ٣٤٦)، وقال: «**إسناده متصل ثابت**»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، ونقل عن البخاري تصحيحه لهذا الحديث.

وصححه ابن خزيمة وابن حبان وابن السَّكن وابن المنذر والخطّابي والطحاوي وابن منده وابن حزم والبيهقي وعبد الحق وابن الأثير وابن الملقّن والزّيلعي وابن حجر والنووي والشوكاني والصنعاني وأحمد شاكر وشيخنا الألباني.

انظر: «نصب الراية» (١/ ٩٥)، و«التلخيص الحبير» (١/ ٩)، و«المجموع» (١/ ٨٢)، و«خلاصة البدر المنير» رقم (١)، و«تحفة المحتاج» رقم (٣)، و«البناية شرح الهداية» (١/ ٢٩٧)، و«تعليق شاكر على جامع الترمذي» (١/ ١٠١)، و«نيل الأوطار» (١/ ١٧)، و«سبل السلام» (١/ ١٥)، و«إرواء الغليل» (١/ ٤٢)، و«البدر المنير» (٢ ـ ٥).

وقال الإمام الشافعي في هذا الحديث: «هذا الحديث نصف علم الطهارة». انظر: «المجموع» (١/ ٨٤)، وانظر لزاماً: «الطهور» لأبي عبيد رقم (٢٣١ ـ ٢٤٠) مع تعليقي عليه.

(١) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «قالوا»!

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «نفسه».

في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات»[١] ثم قالوا: لا يجب غسله سبعاً بل يغسله مرة ومنهم من قال: ثلاثاً[٢]. واحتجوا على تفريقهم في النجاسة المغلظة بين قدر الدرهم وغيره بحديث لا يصح، من طريق [روح بن][٣] غطيف عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة يرفعه: **«تعاد الصلاة من قدر الدرهم»**[٤].

ثم قالوا: لا تعاد الصلاة من قدر الدرهم[٥]، ثم احتجوا بحديث عمرو بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب الماء الذي يُغسل به شعر الإنسان (١/ ٢٧٤) رقم (١٧٢)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب (١/ ٢٣٤) رقم (٢٧٩) من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم ـ أيضاً ـ في كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب (١/ ٢٣٤) رقم (٢٨٠) من حديث عبد الله بن مغفل، وانظر: «كتاب الطهور» لأبي عبيد القاسم بن سلام (رقم ٢٠١ ـ ٢٠٤ ـ بتحقيقي).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ٥٢) و ـ لزاماً ـ: «الخلافيات» (٣/ ٢٥ مسألة رقم ٣٨) وتعليقي عليه.

(٣) سقط من الأصل، وأثبتُّه من مصادر التخريج.

(٤) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٣٠٨ و٣٠٩)، وفي «الصغير» (١/ ٣٠٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٥٧)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٩٩٨)، والدارقطني في «سننه» (١/ ٤٠١)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٩٨)، والبيهقي (٢/ ٤٠٤) وفي «الخلافيات» (رقم ٣٨١، ٣٨٢ ـ بتحقيقي)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٧٦) من طرق عن روح بن غطيف عن الزهري به.
قال البخاري: هذا حديث باطل وروح منكر الحديث، وقال ابن حبان: موضوع لا شك فيه لم يقله رسول الله ﷺ، ولكن اخترعه أهل الكوفة، وكان روح بن غطيف يروي الموضوعات عن الثقات.
وقد خالف أسد بن عمرو في الحديث عند الدارقطني (١/ ٤٠١) ـ ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٧٦) ـ فقال: عن غطيف الثقفي، كذا سماه عن الزهري وهو وهم [وصوابه روح] كما قال الدارقطني وله لفظ آخر: «إذا كان في الثوب قدر الدرهم من الدم غسل الثوب وأعيدت الصلاة».
رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٣٣٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٧٥) من طريق نوح بن أبي مريم عن يزيد الهاشمي عن الزهري به.
ونوح: قال الدارقطني: متروك، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات، لا يجوز الاحتجاج به بحال. وأقر السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٣)، وابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٣٦٩) **الحكم على الحديث بالوضع**. وكذا الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٢١٢). وانظر تفصيلاً مستطاباً ونقولاتٍ عديدةً عن العلماء في وضع هذا الحديث: «الخلافيات» للبيهقي (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٩) وتعليقي عليه.

(٥) انظر: مبحث العفو عن يسير النجاسة في «إغاثة اللهفان» (١/ ٦٣، ١٤٤ ـ ١٤٧، ١٥٠ ـ ١٥٩). =

حزم: «**إن ما زاد على مائتي درهم فلا شيء فيه حتى يبلغ أربعين، فيكون فيها درهم**»[(١)]، وخالفوا الحديث بعينه[(٢)] في نص ما فيه، في أكثر من خمسة عشر موضعاً.

واحتجوا على أن الخيار لا يكون أكثر من ثلاثة أيام بحديث المصراة[(٣)]، وهذا من إحدى العجائب، فإنهم من أشد الناس إنكاراً له ولا يقولون به، فإن كان حقًّا وجب اتباعه، وإن لم يكن صحيحاً لم يجز الاحتجاج به في تقدير الثلاث، مع أنه ليس في الحديث تعرض لخيار الشرط، فالذي أريد بالحديث ودل عليه خالفوه، والذي احتجوا عليه به لم يدل عليه.

واحتجوا لهذه المسألة أيضاً بحديث حبان بن منقذ الذي كان يُغبَن في البيع، فجعل له النبي ﷺ الخيار ثلاثة أيام[(٤)]، وخالفوا الخبر كله. فلم يثبتوا

= وانظر مذهب الحنفية في: «الأصل» (١/ ٦٨) لمحمد بن الحسن، و«المبسوط» (١/ ٨٦)، و«بدائع الصنائع» (١/ ١٨)، و«فتح القدير» (١/ ٢٠٢، ٢٠٨)، و«البحر الرائق» (١/ ٢٣٩)، و«الاختيار» (١/ ٣١)، و«فتح باب العناية» (١/ ٢٥٩)، و«حاشية ابن عابدين» (١/ ٢١٣).

(١) كتاب عمرو بن حزم في الصدقات رووه مطولاً ومختصراً، وأنا أذكر من روى هذا الطرف: رواه ابن حبان (٦٥٥٩)، والحاكم (١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧)، والبيهقي (٤/ ٨٩ ـ ٩٠) من طريق سليمان بن داود عن الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جدِّه، وقد اختلف في وصله وإرساله، ورجح الإرسال أبو داود والنسائي.
وأما الحاكم فقال: إسناده صحيح وهو من قواعد الإسلام. وانظر للأهمية: «نصب الراية» (٢/ ٣٤١ ـ ٣٤٢) وتعليقي على «الخلافيات» للبيهقي (١/ ٥٠١) رقم (٢٩٧) فقد طولت النفس جدّاً في جمع طرقه، والكلام عليها، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات.

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «نفسه».

(٣) أخرج البخاري في «الصحيح» كتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفّل الإبل والبقر والغنم (٣/ ٣٦١) رقم (٢١٤٨)، ومسلم في «الصحيح» كتاب البيوع، باب حكم بيع المصرَّاة (٣/ ١١٥٨) رقم (١٥٢٤) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**لا تصروا الإبل والغنم للبيع، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النَّظَرَين من بعد أن يحلبها؛ إنْ رضيَ أمسكها، وإنْ سخطها ردَّها وصاعاً من تمر**»، وفي رواية لمسلم: «**من اشترى مصراة؛ فهو بالخيار ثلاثة أيام، فإن رَدها؛ ردَّ معها صاعا من تمرٍ لا سمراء**».
وهي في «البخاري» معلقة، دون: «**لا سمراء**».

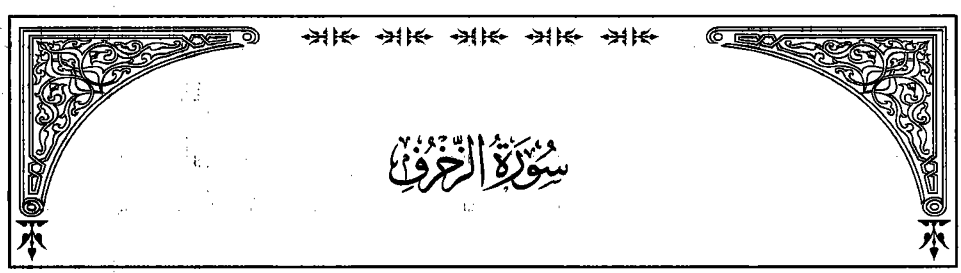
(٤) أخرجه الشافعي (١٢٥٥ ـ «بدائع المنن»)، ومن طريقه البيهقي في «المعرفة» (٣٣٢٦)، وابن الجارود في «المنتقى» (٥٦٧)، والدارقطني (٣/ ٥٤ ـ ٥٥)، والحاكم (٢/ ٢٢)، =

الخيار بالغبن ولو كان يساوي عشر معشار ما بذله فيه، وسواء قال المشتري: «لا خلابة»، أو لم يقل، وسواء غبن قليلاً أو كثيراً، لا خيار له في ذلك»[1].

ثم مضى إلى أن عد ثلاثة وخمسين حديثاً كلها خالف مدلولها المتمذهبون واحتجوا بها فيما لا تدل عليه، وذلك غاية في التناقض واتباع الهوى.

= والبيهقي في «سننه الكبرى» (٥/ ٢٧٣) من طريق سفيان عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر، وسكت عليه الحاكم وقال الذهبي: صحيح.
قال الشافعي: وأصل البيع على الخيار لولا الخبر كان ينبغي أن يكون فاسداً. أقول: وابن إسحاق مدلس وقد عنعن في جميع المصادر، إلا أنني وجدته عند أحمد في «المسند» (٢/ ١٢٩) قد صَرّح بالسماع ولكن ليس فيه تعيين الخيار بثلاثة أيام.
والحديث بمعناه له طريق آخر رواه الدارقطني (٣/ ٥٤)، والطبراني في «الأوسط» وفيه ابن لهيعة.
واعلم أنه قد اختلف في اسم القائل الذي حدثت معه القصة، فوقع هنا حبان بن منقذ.
وروى البيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٧٣)، والدارقطني (٣/ ٥٥) من طرق عن ابن إسحاق: حدثني نافع عن ابن عمر أن رجلاً. قال ابن إسحاق: فحدثت بهذا الحديث محمد بن يحيى بن حبان قال: كان جدي منقذ بن عمرو.
وروى ابن ماجه (٢٣٥٥) في الأحكام أيضاً من طريق ابن إسحاق عن محمد بن يحيى بن حبان قال: هو جدي منقذ بن عمرو، وكذا رواه أيضاً البخاري في «التاريخ الكبير» (٨/ ١٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٤٠٦، ط. دار الفكر).
وأصل حديث الباب رواه البخاري (٢١١٧) و(٢٤٠٧) و(٢٤١٤) و(٤٩٦٤)، ومسلم (١٥٣٣) من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر، وليس فيه أن له الخيار ثلاثة أيام، وأخشى أن تكون هذه الزيادة من أوهام ابن إسحاق. ثم وجدت الحافظ في «التلخيص» (٣/ ٢١) نقل عن ابن الصلاح قوله: «وأما **رواية الاشتراط منكرة لا أصل لها**».
ورواه أحمد (٣/ ٢١٧)، وأبو داود (٣٥٠١)، والترمذي (١٢٥٠)، والنسائي (٧/ ٢٥٢)، وابن ماجه (٢٣٥٤) وغيرهم من حديث أنس، وليس فيه أيضاً ذكر الخيار بثلاثة أيام.

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢١٤ ـ ٢١٦). وهذا الكلام برمته في «إعلام الموقعين» (٣/ ٤٩٢ ـ ٤٩٦ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٨]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها، والمراد هٰهنا عشا البصيرة ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ [النساء: ١١٥] الآية، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وكقوله جل جلاله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآية ولهذا قال تبارك وتعالى هٰهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى فقيض[1] له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم، فإذا وافى الله ﷻ يوم القيامة يتبرأ[2] من الشيطان الذي وكل به ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ وقرأ بعضهم[3]: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَانَا﴾ يعني: القرين والمقارِن. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن سعيد الجُرَيري قال: «بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة شفع بيده شيطان لم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار فذلك حين يقول:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «نقيض». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يتبرم».

(٣) هي قراءة أبي جعفر وشيبة وقتادة والزهري والجحدري وأبي بكر عن عاصم ونافع وابن كثير وابن عامر وابن محيصن والسلمي، انظر: «البحر المحيط» (٨/ ١٦)، «المحرر» (١٣/ ٢٢٤)، «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩)، «حجة القراءات» (٦٥٠).

﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[١]». والمراد بالمشرقين ههنا[٢] ما بين المشرق والمغرب، وإنما استعمل هٰهنا تغليباً كما يقال[٣]: القمران والعمران والأبوان، قاله (ج) وغيره»[٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: ذكر الرحمٰن هو القرآن، من أعرض عنه أو عن السنة المبينة له يقيض الله له شيطاناً يزين له الإعراض، ولا يزال معه يمنعه من الاهتداء إلى أن يموت على الضلال وهو يحسب أنه مهتدٍ بتزيين شياطين الإنس والجن، وكل من اختار التقليد وعمي عن الحجة فإنه يخشى عليه من هذا الوعيد؛ لأن اتباع الذكر يمنع من التقليد والتعصب والتمذهب وكل بدعة في دين الله.

قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» (٤/ ٣٢٣) ما نصه:

«رجوع إلى ذكر بقية الوجوه من الأدلة العقلية والنقلية على بطلان التقليد:

الوجه العشرون: إن فرقة التقليد قد ارتكبت مخالفة أمر الله وأمر رسوله، وهدي أصحابه، وأحوال أئمتهم وسلكوا ضد طريق أهل العلم، أما أمر الله، فإنه أمر برد ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى رسوله، والمقلدون قالوا: إنما نرده إلى من قلدناه[٥].

وأما أمر رسوله، فإنه ﷺ أمر ـ عند الاختلاف ـ بالأخذ بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين، وأمر أن يتمسك بها، ويعض عليها بالنواجذ[٦].

وقال المقلدون: بل عند الاختلاف نتمسك بقول من قلدناه ونقدمه على كل ما عداه.

وأما هدي الصحابة فمن المعلوم ـ بالضرورة ـ أنه لم يكن فيهم شخص

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ١٩٦)، وابن جرير (٢٠/ ٥٩٩) في «تفسيريهما»، وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (١٣/ ٢٠٧) لابن المنذر.

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قيل».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣)، و«تفسير ابن جرير» (٢٠/ ٥٩٨).

(٥) في مطبوع «الدين الخالص»: «قلَّدنا».

(٦) ورد في ذلك في حديث العرباض بن سارية ﷺ، وتقدم لفظه وتخريجه.

واحد يقلد رجلاً في جميع أقواله، ويخالف من عداه من الصحابة. بحيث لا يرد من أقواله شيئاً، ولا يقبل من أقوالهم شيئاً، وهذا من أعظم البدع، وأقبح الحوادث.

وأما مخالفتهم لأئمتهم، فإن الأئمة نهوا عن تقليدهم، وحذروا منه كما تقدم ذكر بعض ذلك عنهم.

وأما سلوكهم ضد طريق أهل العلم، فإن طريقهم طلب أقوال العلماء وضبطها، والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله ﷺ وأقوال خلفائه الراشدين.

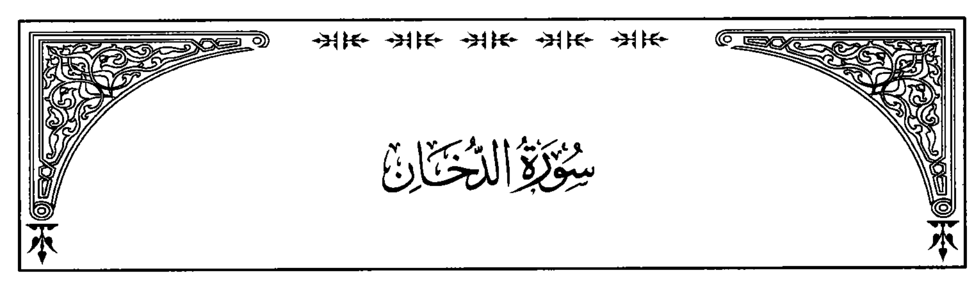
فما وافق ذلك منهم[١]، قبلوه ودانوا الله به وقضوا به وأفتوا به، وما خالف ذلك منها، لم يلتفتوا إليه، وردوه.

وما لم يتبين لهم، كان عندهم من مسائل الاجتهاد، التي غايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع من غير أن يلزموا بها أحداً، ولا يقولوا: إنها الحق دون ما خالفها. هذه طريقة أهل العلم سلفنا وخلفنا»[٢].

---

(١) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «منها».

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).



سورة الدخان

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٠، ١١]

وفي «الجلالين»: «﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ [لهم][1] ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأجدبت الأرض واشتد بهم الجوع إلى أن رأوا من شدته كهيئة الدخان بين السماء والأرض ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ فقالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ مصدِّقون نبيَّك قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: لا ينفعهم الإيمان عند نزول العذاب: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الرسالة ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾أي: يعلمه القرآن بشر ﴿مَّجْنُونٌ﴾، ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: الجوع عنكم زمناً ﴿قَلِيلًا﴾ فكشف عنهم ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى كفركم فعادوا إليه، اذكر ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ هو يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ منهم والبطش الأخذ بقوة»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: عاقب الله قريشاً بالجدب والقحط؛ لأنهم لم يتبعوا رسوله ولا قبلوا كتابه، ثم عاقبهم بالقتل والهزيمة في غزوة بدر، وكانت العقوبة الثالثة ـ وهي الأخيرة ـ غزوة الفتح فيها جاء نصر الله، وخسر حزب الشيطان،

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير الجلالين».
(٢) انظر: «تفسير الجلالين» (ص٦٠٤).

وكسرت قرون الكفر، وخضع أبو سفيان ورهطه، وقد ضمن الله ﷻ لكل من بلغه الإنذار بالقرآن والسنة وردهما وأعرض عنهما واستكبر عن اتباعهما وابتغى الهدى في غيرهما ضمن الله له شقاء الدارين وتمام الخسارتين، لا يشك في هذا عاقل منصف، وإن كان من أبعد الناس عن الإسلام، ولا يكشف عنهم هذا العذاب إلا بالرجوع إلى القرآن، والله عزيز ذو انتقام.اهـ.

قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» (٤/ ٣٢٤) ما نصه: «الوجه الحادي والعشرون: إن الله سبحانه ذم ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] وهؤلاء هم أهل التقليد بأعيانهم بخلاف أهل العلم، فإنهم ـ وإن اختلفوا ـ لم يفرقوا دينهم، ولم يكونوا شيعاً، بل شيعة واحدة، متفقة على طلب الحق، وإيثاره عند ظهوره، وتقديمه على كل ما سواه.

فهم طائفة واحدة، قد اتفقت مقاصدهم وطريقتهم، فالطريق واحد، والقصد واحد.

والمقلدون بالعكس، مقاصدهم شتى، وطرقهم مختلفة، فليسوا مع الأئمة في القصد ولا في الطريق.

الوجه الثاني والعشرون: إن الله سبحانه ذمَّ الذين: تَقَطَّعُوا ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، و﴿ٱلزُّبُرِ﴾: الكتب المصنفة، التي رغبوا بها عن كتاب الله، وما بعث به رسوله، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٣].

فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحاً، وأن يعبدوه وحده، ويطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين.

فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك، ممتثلين لأمر الله، قابلين لرحمته حتى نشأت خلوف ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] فمن تدبر هذه الآيات، ونزلها على الواقع، تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان»[١].

---

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦) وهو مأخوذ من «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٤ ـ بتحقيقي) بتصرف.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ [الدخان: ٥٨، ٥٩]

قال (ﷺ): «أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جليًّا بلسانك الذي هو أفصح اللغات[١] وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعلمون، ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان[٢] من الناس مَنْ كفر وخالف وعاند قال تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له [وواعداً له][٣] بالنصر ومتوعداً لمن كذبه بالعطب[٤] والهلاك: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: فسيعلمون لمن تكون النصرة[٥] والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] الآية وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢]»[٦].

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أجاد الحافظ (ﷺ) في تفسير الآيتين، وفيهما فوائد:

الأولى: إن الله يسر القرآن وسهَّله قراءة وحفظاً وفهماً، وسهّل العمل به والحكم به والدعوة إليه وتعليمه ونشره، وقد ادَّعى المقلِّدون المتفرقون في دينهم خلاف ذلك، وزعموا أنه لا يفهم حتى قالوا قولتهم الشنيعة: (صوابه خطأ وخطأه كفر)[٧]، ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وأجلاها».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «البيان والوضوح».
(٣) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بالغضب».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يكون النصر».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٥٥).
(٧) سبق التعليق على هذه المقولة، وبيان الخطأ الذي فيها في (٢/ ٥٦ ـ ٥٩)، فراجعه، فإنه مهم.

سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [التوبة: ٩] وجعلوا القرآن مقصوراً على قراءته للتبرك بلا تدبر، ولا فهم ولا عمل ولا تحكيم ولا اتباع، وعلى قراءته على القبور، وإهداء ثوابه للأموات، والسحر به، فلذلك أخذهم الله بذنوبهم وسلبهم نِعَمه، وعذّبهم في هذه الدنيا عذاباً مهيناً ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

الثانية: إن الغرض من إنزاله التذكر والعمل والتحكيم، واتخاذه إماماً، والتأدب والتخلق به، ولم يفعلوا شيئاً من ذلك.

الثالثة: إن كل من أعرض عنه يرتقب عذاب الله في الدنيا والآخرة وما لهم من ولي ولا نصير، ومن اتبعه واستضاء بنوره يرتقب نصر الله ورحمته في الدنيا والآخرة، وتكون لهم العاقبة كما قال الحافظ (ك) رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم قال المحقق القنوجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/ ٣٢٥) ما نصه:

«الوجه الثالث والعشرون: إن الله سبحانه قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤] فخص هؤلاء بالفلاح دون من عداهم. والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان.

الوجه الرابع والعشرون: إن الله سبحانه ذم من إذا دُعِيَ إلى الله ورسوله أعرض ورضي بالتحاكم إلى غيره، وهذا شأن أهل التقليد.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

فكل من أعرض عن الداعي له إلى ما أنزل الله و[إلى][1] رسوله إلى غيره، فله نصيب من هذا الذم؛ فمستكثر ومستقل.

الوجه الخامس والعشرون: أن يقال لفرقة التقليد: دين الله ـ عندكم ـ قول واحد، أو في القول وضده.

فدينه هو الأقوال المتضادة التي ينقض بعضها بعضاً، ويبطل بعضها بعضاً، كلها دين الله؟

فإن قال: بل هذه الأقوال المتضادة المتعارضة، التي يناقض بعضها بعضاً

(١) غير موجود في مطبوع «الدين الخالص».

كلها دين الله، خرجوا على[١] نصوص أئمتهم، فإن جميعهم على أن الحق في واحد من الأقوال، كما أن القبلة في جهة من الجهات.

وخرجوا عن نصوص القرآن، والسنة والمعقول الصريح، وجعلوا دين الله تابعاً لآراء الرجال.

وإن قالوا: الصواب الذي لا صواب غيره: إن دين الله واحد، وهو ما أنزل الله به كتابه وأرسل به رسله، وارتضاه لعباده كما أن نبيه واحد، وقبلته واحدة، فمن وافقه فهو المصيب وله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد على اجتهاده، لا على خطئه.

قيل له: فالواجب إذاً طلب الحق، وبذل الاجتهاد في الوصول إليه بحسب الإمكان؛ لأن الله سبحانه أوجب على الخلق تقواه، بحسب الاستطاعة، وتقواه فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

فلا بد أن يعرف العبد ما أمر به ليفعله، وما نهي عنه ليجتنبه، وما أبيح له ليأتيه.

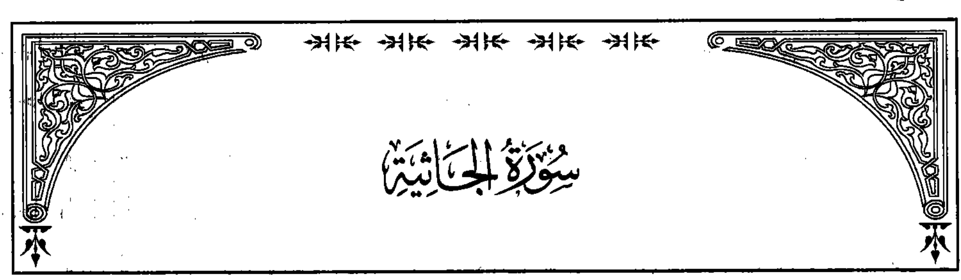
وهذا[٢]، لا يكون إلا بنوع اجتهاد، وطلب، وتحرٍّ للحق، فإذا لم يأت بذلك فهو في عهدة الأمر، ويلقى الله، ولما يقضِ ما أمره»[٣].

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «عن».

(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «ومعرفة هذا».

(٣) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) بتصرف، ونحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥ ـ بتحقيقي).



سورة الجاثية

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الجاثية: ٦، ١١]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: متضمنة الحق[١] فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ أي: أفاك في قوله كذاب حلاف مهين ﴿أَثِيمٍ﴾ في فعله وقيله[٢] كافر بآيات الله ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريًا وهزواً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: مقابل ما استهان بالقرآن واستهزأ به، ولهذا روى مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو»[٣]. ثم فسر العذاب الحاصل له

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من الحق».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وقلبه»!

(٣) أخرجه مسلم (١٨٦٩)، وخرجته مفصلاً في تعليقي على «تالي تلخيص المتشابه» للخطيب =

يوم معاده فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كل من اتصف بذلك سيصير[(١)] إلى جهنم يوم القيامة ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ يعني: القرآن ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو المؤلم الموجع، والله ﷻ أعلم»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الشعوب التي تدعي الإسلام قد نبذت كتاب الله وراء ظهورها، وآمنت بالتشبه بالأجانب واتخاذهم أرباباً، واقتباس قوانينهم وعاداتهم، فما زادتهم إلا خبالاً، فهم أحقر الناس وأخسر الناس وأفقر الناس، وإن كانت الأموال الكثيرة بأيديهم، فهم كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

بل كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] فأسفار العلم فيها الهدى والنور وفيها الحياة والرفعة والعيشة الراضية، ولكن الحمار إذا حملها لا تصل إلى قلبه ولا يناله منها إلا الثقل والعناء، فهذا القرآن الذي أحيا الله به شعوباً ورفعهم من حضيض الهوان إلى أوج العزة والسعادة مهجور عند هؤلاء منبوذ لا يستضاء بنوره، ولا ينتفع بحكمه، ولا يستفاد من أحكامه، فاعجبوا يا أولي الأبصار ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] لكان هذا القرآن ولكن إنما ينذر به ﴿مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر: ٢١] فقلوبهم أقسى من الحجارة صمٌّ بكمٌ عميٌّ فهم لا يفقهون.

ثم قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» (٤/٣٢٧) ما نصه:

= البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سيصيرون».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/٣٥٨).

«الوجه السادس والعشرون: إن دعوة الرسول ﷺ عامة لمن كان في عصره، ولمن يأتي بعده إلى يوم القيامة.

الواجب على مَنْ بعد الصحابة، هو الواجب عليهم بعينه، وإن تنوعت صفاته وكيفياته، باختلاف الأحوال.

ومن المعلوم ـ بالاضطرار ـ أن الصحابة لم يكونوا يعرضون ما يسمعون منه ﷺ على أقوال علمائهم، بل لم يكن لعلمائهم قول غير قوله، ولم يكن أحد منهم يتوقف في قبول ما سمعه منه علي موافقة موافق أو رأي ذي رأي أصلاً، وكان هذا هو الواجب الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وهو ـ بعينه ـ الواجب علينا وعلى سائر المكلَّفين إلى يوم القيامة. ومعلوم أن هذا الواجب لم ينسخ بعد موته ولا هو مختص بالصحابة، فمن خرج عن ذلك، فقد خرج عن نفس ما أوجبه الله ورسوله»[(١)].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]

أي: اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إلٰه إلا هو وأعرض عن المشركين وقال جل جلاله هٰهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ﴾ [الجاثية: ١٩] أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهو تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧][(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم في كلام ابن القيم الكلام في هذه الآية ونظائرها وبيّن بغاية الوضوح أنهما أمران لا ثالث لهما: إما اتباع الوحي، وإما اتباع الهوى، والتقليد ليس من اتباع الوحي يقيناً، فهو إذاً من اتباع الهوى،

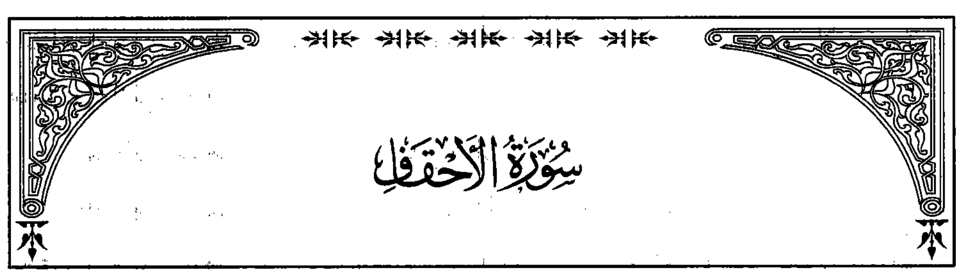
(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٧)، و«إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٦ ـ بتحقيقي).
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٣٦١).

واتباع الهوى ضلال ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩] والمتقون لا يفتون ولا يقضون بالتقليد أبداً.

ثم قال صاحب «الدين الخالص» في (٤/ ٣٢٧) ما نصه:

«الوجه السابع والعشرون: إن أقوال العلماء وآراءهم لا تنضبط، ولا تنحصر، ولم يضمن لها العصمة إلا إذا اتفقوا ولم يختلفوا، فلا يكون اتفاقهم إلا حقًّا، ومن المحال أن يحيلنا الله ورسوله على ما لا ينضبط، ولا ينحصر ولم يضمن لنا عصمته من الخطأ، ولم يقم لنا دليلاً على أن أحد القائلين أولى أن نأخذ قوله كله من الآخر، بل يترك قول هذا كله ويؤخذ قول هذا كله، محال أن يشرعه الله، أو يرضى به إلا إذا كان أحد القائلين رسولاً، والآخر كاذباً على الله؛ فالفرض حينئذٍ ما يعتمده هؤلاء المقلدون مع متبوعهم»[1].

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٦).



سُورَةُ الأَحْقَافِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف: ٩ ـ ١٢]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: ما أنا بأوَّل رسول، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وكذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم العلاء قالت: اشتكى عثمان بن مظعون عندنا فمرَّضناه، حتى إذا تُوَفِّي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله ﷻ، فقال رسول الله ﷺ: **«وما يدريك أن الله تعالى أكرمه»**؟ فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: **«أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري[1] ما يفعل بي»**. قالت: فقلت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فنمتُ فرأيتُ لعثمان عيناً تجري، فجئت

(١) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «وأنا رسول الله».

إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: **«ذلك عمله»** أخرجه البخاري وفي لفظ له: **«وما أدري[١] وأنا رسول الله ﷺ ما يُفعل به»**[٢]. وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها: فأحزنني ذلك. وفي هذا الحديث وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع الحكيم على تعيينه كالعشرة، وابن سلام والغميصاء[٣] وبلال وسراقة، وعبد الله والد جابر بن عبد الله، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة وما أشبه هؤلاء[٤] وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما أتّبع إلّا ما ينزل عليّ من الوحي، وما أنا إلا مبلغ عن ربي من النذارة الواضحة لكل ذي عقل، والله أعلم»[٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال (ك): «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكافرين بالقرآن ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ ما ظنكم أن الله صانع بكم؟ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو عبد الله بن سلام ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: على مثل ما في التوراة بصدق القرآن لمعرفته بحقيقته من التوراة ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: هذا الشاهد بنبيّه وكتابه ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباع القرآن فكفرتم بنبيكم وكتابكم. روى[٦] مالك عن سعد قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ رواه البخاري ومسلم[٧]. وقال ابن عباس وجماعة من التابعين: إنه عبد الله بن سلام[٨].

(١) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «أرى»!
(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٣، ٣٩٢٩، ٧٠٠٣)، وأحمد (٦/ ٤٣٦) وغيرهما.
(٣) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «والغميماء»!
(٤) من مصنفات الحافظ عبد الغني المقدسي (ت٦٠٠هـ) المحفوظة في المكتبة الظاهرية في مجموع رقم (٧٨) (ق١٨٤ ـ ١٨٦) **«فتوى له بأنه لا يجوز القطع بالجنة للأئمة الأربعة»** وهي بخطه. أفاده شيخنا الألباني في «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية» (ص٤٧٧ ـ بعنايتي).
(٥) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ١٦٧).
(٦) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «رواه».
(٧) أخرجه البخاري (٣٨١٢)، ومسلم (٢٤٨٣).
(٨) صح عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك، انظر: «تفسير ابن جرير» (٢١/ ١٢٨)، =

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي: قال الكفار: لو كان في القرآن خير ما سبق[1] إليه أمثال المستضعفين، كعمار وبلال وصهيب وخباب وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دونهم؛ لأنهم يعتقدون في أنفسهم أنهم وجيهون عند الله وله بهم عناية، وهذا هو الخطأ الفاحش الذي دعاهم يقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون: كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة هُوَ بدعة لأنه لو كان خيراً سبقونا[2] إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كذب قديم [أي][3] مأثور عن [الناس][3] الأقدمين؛ ينتقصون القرآن[4] وأهله وهذا هو الكبر الذي حدث عنه رسول الله ﷺ: «**بطر الحق وغمط الناس**»[5]. ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهي التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [للناس][3] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لما قبله من الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: فصيحاً بيناً واضحاً ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين»[6].

فصل

قال محمد تقي الدين: إن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ٢]، مشكل؛ لأن

= و«تفسير مجاهد» (٦٠٢)، و«طبقات ابن سعد» (٢/ ٣٥٣)، و«تاريخ دمشق» (٢٩/ ١٢٩، ١٣٠، ١٣١)، و«المستدرك» (٣/ ٤١٤)، و«الدر المنثور» (٦/ ٣٩).

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «خير ما سبقنا».
(٢) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «لسبقونا».
(٣) غير موجود في مطبوع «تيسير العلي القدير».
(٤) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «انتقاصاً للقرآن».
(٥) أخرجه مسلم (٩١)، والترمذي (١٩٩٩) من حديث ابن مسعود، وأخرجه أبو داود (٤٠٩٢) وغيره من حديث أبي هريرة، **وإسناده صحيح**.
(٦) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ١٦٨ ـ ١٦٩) بتصرف يسير.

الأخبار لا يدخلها النسخ إذ كلها صادقة والصواب أن يقال: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ من أمور الدنيا، كالإخراج من الوطن(١) والحبس والقتل والنصر والهزيمة، فهي محكمة على هذا الوجه(٢).

أما حديث عثمان بن مظعون فالرواية الصحيحة(٣) هي رواية: «**ما أدري ما يفعل به**» كما أشار إليه بعض المفسرين.

قوله: «وأما أهل السنة. . .» إلى آخره، يقتضي أن يكون أصحاب الطرائق وعباد القبور والمتخذون المذاهب من المبتدعين، ويؤيده قول مالك إمام دار الهجرة: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأني سمعت الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وما لم يكن يومئذٍ ديناً، لا يكون اليوم ديناً»(٤).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢]

وفي «الجلالين» قوله: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ﴾ وجّهنا(٥) ﴿إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ

---

(١) أضعف هذا كلامه في الحديث الصحيح مع ورقة بن نوفل: «أو مخرجي هم»، وهو في «الصحيحين».

(٢) بمعنى: إن هذا ليس بنسخ، وإنما هو زيادة علم وفضل إلى فضل، لا أدري كذا، ثم عرفه الله، فلا يقال: إن هذا نسخ، إنما هو تعليم بما لم يكن يعلم، وفضل زائد إلى ما تقدم. وانظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن العربي (٢/ ٣٦٣ ـ ٣٧١)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٥٨٠ ـ ٥٨١)، و«الإيضاح» (ص٣٥٦ ـ ٣٥٧)، و«الناسخ والمنسوخ» (ص٢١٩) للنحاس.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في مطبوع «تفسير الجلالين»: «أَمَلْنا».

﴿الْجِنِّ﴾[١] نصيبين باليمن أو جن نينوى وكانوا سبعة أو تسعة وكان ﷺ ببطن نخلة[٢] يصلي بأصحابه الفجر. رواه الشيخان[٣]. ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا﴾ اصغوا لاستماعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ فرغ من قراءته ﴿وَلَّوْا﴾ رجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ مخوفين قومهم العذاب إن لم يؤمنوا وكانوا يهوداً وقد أسلموا ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ هو القرآن: ﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: تقدمه كالتوراة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الإسلام ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريقه ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ محمداً ﷺ إلى الإيمان ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضها لأن منها المظالم ولا تغفر إلا بردها إلى أصحابها[٤] ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته: ﴿وَلَيْسَ لَهُ﴾ لمن لا يجيب[٥] ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: الله ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ أنصار يدفعون عنه العذاب ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين لم يجيبوا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٦] ظاهر»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: نَصيبين ليست من اليَمن وقد أشار إلى ذلك الجمل[٨] بقوله: «قوله: «من اليمن» هذا أحد قولين، والذي في «شرح المواهب» أنها بالجزيرة وهي بين الشام والعراق»[٩]. اهـ.

(١) في مطبوع «تفسير الجلالين»: «الجن». (٢) في مطبوع «تفسير الجلالين»: «نخل».

(٣) أخرجه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩) من حديث ابن عباس.

(٤) في مطبوع «تفسير الجلالين»: «إلّا برضا أصحابها».

(٥) في مطبوع «تفسير الجلالين»: «يجب».

(٦) بعدها في مطبوع «تفسير الجلالين»: «بيِّن».

(٧) انظر: «تفسير الجلالين» (ص٦١٦ ـ ٦١٧).

(٨) في حاشيته على «تفسير الجلالين» المسماة «الفتوحات الإلهية» (٧/ ١٧٤).

(٩) الصواب أن (نصيبين) في الجزيرة، وتقع على الضفة اليمنى من الفرات، واسمها عند الرومان (أنطوكيا مغدونيس)، وذكرت في «التوراة» باسم (صوبة) أو (صوبي)، (سفر الملوك الثاني ٨/ ٣) وهي تقع في جنوب طور عبدين، المسمى عند الغربيين (مازيوس)، وذهب أهلها إلى أن مؤسسها كان نمرود، واشتهرت في سنة ١٨٣٩ بانتصار إبراهيم باشا على الترك، وكانت في صدر عهد العباسيين وقبيلة حاضرة (بيت عربايا) ولها في التاريخ شهرة عظيمة، ويسمّيها الفرنج اليوم (نزيب). انظر عنها مجلة: «لغة العرب» الجزء (٨) من (السنة ٨)، آب ١٩٣٠م (ص٦٢٣ ـ ٦٢٤).

ونفهم من هذه الآيات أن كل من أجاب داعي الله محمداً رسول الله ﷺ وتلقاه بالإيمان والنصرة يغفر له الله سبحانه من ذنوبه ويجيره من عذاب أليم في الدنيا والآخرة، ومن لا يجب داعي الله يقصمه الله ولا يجد وليًّا ولا نصيراً، والمقلدون لا يجيبون داعي الله بل يجتهدون في رد ما جاء به ويركبون في ذلك الصعب والذلول، ومن قرأ كتبهم يعلم ذلك علم اليقين وقد تقدم نموذج من ذلك فيما نقلته من كتاب «الدين الخالص» وهو قليل من كثير فمن أراد التفصيل، فليقرأه؛ يرى العجب العجاب، فالحمد لله على السلامة والعافية. وقلت في التبرؤ من المتمذهبين:

برئت إلى الرحمٰن مِنْ كُلِّ مذهبٍ ... سوى مذهب المختار سُؤْلي ومَطْلَبي
مدى الدهر لا أبغي بديلاً به ولو ... يزخرفه قومٌ بقولٍ مُكَذَّب
لقد عبدوا الأوثان معنىً وما دَرَوا ... فباؤوا بإشراكٍ وجهلٍ مركَّبِ[(١)]

وقال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٢٨) ما نصه:

«الوجه الثامن والعشرون: إن النبي ﷺ قال: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**»[(٢)].

وأخبر أن العلم يقل، فلا بد من وقوع ما أخبر به الصادق.

ومعلوم أن كتب المقلدين قد طبَّقت شرق الأرض وغربها، ولم تكن في وقت قط أكثر منها في هذا الوقت، ونحن نراها كل عام في ازدياد وكثرة، والمقلدون يحفظون منها ما يمكن حفظه بحروفه.

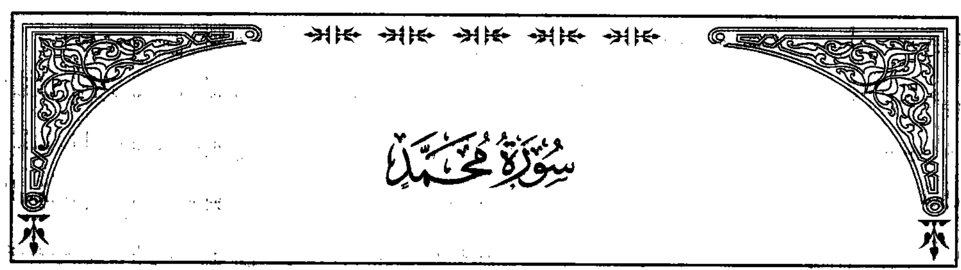
وشهرتها في الناس خلاف الغربة، بل هي المعروف الذي لا يعرفون غيره، فلو كانت هي العلم الذي بعث الله به رسوله، لكان الدين كل وقت في ظهور وزيادة، والعلم في شهرة وظهور وهو خلاف ما أخبر به الصادق»[(٣)].

---

(١) الأبيات في «ديوان الهلالي» المسمى «منحة الكبير المتعالي» (ص١٠ ـ مرقوم على الآلة الكاتبة)، وقبلها فيه: «وقلت في الرد على عباد القبور والمبتدعين»!!

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة، وفي الباب عن غيره، خرجتها جميعاً في تعليقي على «الاعتصام» (١/ ٢ ـ ٥).

(٣) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٨)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧ ـ بتحقيقي).



سورة محمد

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [محمد: ١٤]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على بصيرة ويقين من الله وأمره[(١)] ودينه ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون ومن اتبع طريقهم ـ وهو اتباع الكتاب والسنة ـ كان على بينة من ربه، وأصحاب الفرق من المبتدعين في العقائد والمقلدين في الفروع وأصحاب الطرائق المستمدون من شيوخهم تنوير القلوب وانشراحها، كل هؤلاء لم يكونوا على بينة من ربهم، بل زين لهم سوء عملهم واتبعوا أهواءهم، وقد تقدم مثل هذا المعنى في مواضع.

ثم قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» (٤/ ٣٢٨) ما نصه:

«الوجه التاسع والعشرون: إن الاختلاف كثير في كتب المقلدين وأقوالهم، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه، بل هو حق يصدق بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾»[(٣)] [النساء: ٨٢].

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «في أمر الله».

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ١٨٥).

(٣) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٨)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٧ ـ بتحقيقي).

قال محمد تقي الدين: ومن المعلوم أن أصحاب المذاهب بينهم اختلاف كثير بعضهم مع بعض، وفي داخل كل مذهب اختلاف كثير، فلا يكون من الله تعالى، وإذا لم يكن من الله تعالى، فهو من اتباع الهوى، كما تقدم فيما نقلته عن ابن القيم.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [محمد: ٢٤ ـ ٢٦]

قال (ك): «يأمر تعالى بتدبر القرآن وتفهّمه وناهياً من الإعراض عنه، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ـ والعياذ بالله تعالى من سوء المنقلب ـ ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم ذلك وحسّنه ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: غرّهم وخدعهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: مالؤوهم ونصحوهم في الباطن[١] وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: ما يخفون»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن المعلوم أن المقلدين لا يتدبّرون القرآن، فقلوبهم مقفلة عنه ولو علموا معناه لا يعملون به، فقد زين لهم شيطانهم أن الأحكام لا تؤخذ من القرآن وإنما تؤخذ من آراء أئمتهم، ويزعمون أن أئمتهم قد مخضوا القرآن والسنة، وأخرجوا زبدهما وأودعوه كتب الرأي، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «وناصحوهم في الباطن على الباطل».
(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ١٨٩ ـ ١٩٠).

عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨].

قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» (٤/ ٣٢٨) ما نصه:

«الوجه الثلاثون: إنه لا يجب على العبد أن يقلد زيداً دون عمرو، بل يجوز له الانتقال من تقليد هذا إلى تقليد الآخر عند المقلدين.

فإن كان قول من قلده ـ أولاً ـ هو الحق لا سواه، فقد جوزتم له الانتقال عن الحق إلى خلافه، وهذا محال.

وإن كان الثاني هو الحق وحده، فقد جوزتم الإقامة على خلاف الحق، وإن قلتم: القولان المتضادان المتناقضان حق، فهو أشد ضلالة[1]، ولا بد لكم من قسم من هذه الأقسام الثلاثة»[2].

قال محمد تقي الدين: والمقلد لواحدٍ من هذه المذاهب **إما أن يكون عاقلاً رشيداً**، كالذي يسلم. فنسأل المقلدين: أي مذهب تختارونه له؟ فلا شك لا يتفقون على اختيارٍ أبداً، بل كل فرقة منهم تقول له يجب أن تدخل في مذهبنا، وتعدد له فضائله، ولا تبيح له أن يدخل في مذهب آخر فيبقى متحيراً، وربما رجع إلى دينه الأول؛ لأنه إذا انضم إلى فرقة منهم أغضب الفرق الأخرى، وهذا ما قال الدكتور أمبدكار زعيم المتحررين من المنبوذين في الهند[3]، فإن أصحابه الذين اقتنعوا بأن المنبوذية باطلة، وأن الله تعالى أعدل وأرحم من أن يحكم على أطفال بأنهم أنجاس محرومون يجب إبعادهم وتعذيبهم من خروجهم من بطون أمهاتهم إلى موتهم بسبب ذنوب ارتكبتها أرواحهم في التجسدات السابقة، هذا على فرض صحة عقيدة التناسخ، وهي فاسدة؛ فإن الأرواح لا تدخل الأجساد إلا مرة واحدة ثم ترجع إلى ربها لتلقى جزاء عملها، أجمعت على ذلك الديانات السماوية واتفق عليه جميع الرسل والأنبياء.

سأل هؤلاء المتحررون الذين أُنقذوا من المنبوذية زعيمهم الدكتور أمبدكار: في أي دين ندخل الآن بعد ما تحررنا من دين الهنادك؟ فقال لهم: أفضل الأديان

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «أشد إحالة»، وله وجه.

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٨)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٧ ـ بتحقيقي).

(٣) ظفرتُ بأكثر من مقالة للمصنف، يتكلم فيها عن هؤلاء المنبوذين وغيرهم، مما ينبئ عن معرفته التفصيلية بأحوال الهند، ولا غرو في ذلك، فقد عاش مدة هناك، وأفاد واستفاد، رحمه الله تعالى، ولينظر: «مقالات الهلالي»، يسر الله نشره بخير وعافية.

في نظري هو الإسلام، ولولا اختلاف المسلمين على فرق ومذاهب لنصحت لكم أن تدخلوا في الإسلام، فلم يبق لكم إلا أن تدخلوا في (البدية) فإنها ملة هندية خالية من عقيدة التناسخ. **وإن ولد في الإسلام ووجد والديه مقلدين لمذهب ومنتسبين لفرقة ومتمسكين بطريقة** فإنه يتبع والديه في ضلالهم، ويقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وهذا ما وقع لنا معشر الحنفاء الموحدين، فأنا مثلاً وجدت والدي مقلداً للمذهب المالكي، ومنتسباً إلى الفرقة الأشعرية، ومتمسكاً بالطريقة الدرقاوية الشاذلية فلم يكن لي بد من اتباعه، ثم انتقلت من الدرقاوية إلى التجانية، وبقيت فيها مدة تسع سنين حتى لقيت شيخنا العلامة الداعي إلى الله على بصيرة محمد بن العربي العلوي في مدينة فاس سنة ١٣٣٨هـ، في ربيع الأول في اليوم ـ ١٢ـ منه وهو الذي يحتفل به المبتدعون وعباد القبور أجمعون، وكان عمري حينئذٍ ثماني وعشرين سنة، وقد قرأت القرآن وحفظته وجودته وقرأت (عبادات خليل) ومن علم النحو درست «الآجرّومية» و«ملحة الأعراب» و«ألفية بن مالك»، ومع ذلك كله بقيت على عقيدة أبي وأمي، ففتح أستاذي ـ بإذن الله ـ عين بصيرتي، وعلمتُ أني كنت في ظلمات بعضها فوق بعض، وتبت إلى الله من عقيدة الأشعرية المتأخرين، ومن التقليد، ومن الطريقة[1].

إذا اصطفاك لأمر هيأتك له يد العناية حتى تبلغ الأملا

وهذا يبين لك شؤم التفرق في الدين، وأنه سبيل الهالكين.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٢ ـ ٣٣]

قال (ك): «يخبر تعالى عمن كفر وصدَّ عن سبيل الله وخالف الرسول شاقه وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئاً. وإنما يضر

(١) فصل قصة توبته في كتابه «الدعوة إلى الله تعالى في أقطار مختلفة»، وخصها بمقالات نشرت على ثلاث حلقات في مجلة «الحرية» بعنوان «كيف خرجت من الطريقة التجانية»، وسبق أن ذكرنا ذلك في تقديمنا لهذا الكتاب، وانظر أيضاً: «الدعوة إلى الله» (٧٣ ـ ٧٤، ٩٦)، «ديوان الهلالي» (ق٢٥).

نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف عمله الذي عقبه بردته مثقال[1] بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

روى الإمام أحمد من طريق عبد الله بن المبارك عن ابن عمر قال: «كنا معشر أصحاب رسول الله نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولاً حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها»[2]. ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدارين، ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: بالردة»[3].

قال المحقق القنوجي في «تفسيره» لهذه الآية: «واستدل بهذه الآية من لا يرى إبطال النوافل حتى لو دخل في صلاة تطوع أو صوم تطوع، لا يجوز له إبطال ذلك العمل والخروج منه. وبه قال أبو حنيفة رحمه الله، وقال الشافعي بخلافه، ولا دليل لهم في الآية ولا حجة؛ لأن السنة مبينة للكتاب، وقد ثبت في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ أصبح صائماً فلما رجع إلى البيت وجد حيساً، فقال لعائشة، «قرِّبيه[4] فلقد أصبحت صائماً فأكل»[5]. وهذا معنى الحديث وليس

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بردةٍ ولا مثقال».

(٢) لم أجده في «مسند أحمد» ولعله في بعض «مسائل» أصحابه له. وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/٢٢٩ ـ ٢٣٠)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/٦٤٦) رقم (٦٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٥٤٢١، ٥٤٢٦) **وإسناده لين**. وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (١٣/٤٥١) لابن مردويه، وفي الباب من مرسل أبي العالية، أخرجه ابن نصر (٦٩٨) وفي إسناده أبو جعفر الرازي، صدوق سيئ الحفظ، وهو من رواية أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، قال ابن حبان في «الثقات» (٤/٢٢٨): «الناس يتقون حديث الربيع ما كان من رواية أبي جعفر عنه؛ لأن فيها اضطراباً كثيراً»، وعزاه في «الدر» لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/١٩١ ـ ١٩٢).

(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «قربيه».

(٥) أخرجه مسلم (١١٥٤) من حديث عائشة، ولم أجده عند البخاري.

بلفظه، وليس[1] في هذه الآية دليل كما ظنه الزمخشري[2] على إحباط الطاعات بالكبائر على ما زعمت المعتزلة، والخوارج بجمهورهم على أن كبيرة واحدة تحبط جميع الطاعات، حتى إن من عبد الله طول عمره ثم شرب جرعة خمر، فهو كمن لم يعبده قط».

فصل

قال محمد تقي الدين: من مبطلات الأعمال يقيناً مخالفة سنة النبي ﷺ، روى مسلم عن أم المؤمنين عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[3] فكل امرئ يسمي نفسه مالكيًّا ويصلي سادلاً يديه بعد علمه بما رواه مالك وغيره كالبخاري ومسلم عن النبي ﷺ من «وضع اليمنى على اليسرى»[4]، لا صلاة له[5]!! للحديث المتقدم ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وتقدم تفسير أحمد بن حنبل للفتنة بالكفر، ويدل على ذلك أيضاً حديث سلمة بن الأكوع في الرجل الذي أكل بشماله عند النبي ﷺ: فدعا عليه فأشل[6] الله يده[7]. والحنفي الذي لا يرفع يديه عند الركوع ولا عند الرفع منه ولا عند القيام من اثنتين ويمنع الجهر بالتأمين لا صلاة له[5]!! إذا عرف أن سنة النبي ﷺ بخلاف ذلك.

وقال في: «الدين الخالص» (٤/ ٣٢٩) ما نصه:

«الوجه الحادي والثلاثون: أن يقال للمقلد: بأي شيء عرفت أن الصواب مع من قلدته دون من لا تقلده؟

فإن قال: عرفته بالدليل، فليس بمقلد، وإن قال: عرفته تقليداً له، فإنه أفتى بهذا القول، ودان به وعلمه[8] وحسن ثناء الأمة عليه، يمنعه أن يقول غير الحق.

قيل له: أفمعصوم هو عندك، أمن يجوز عليه الخطأ؟

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «فليس».
(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) ليس كذلك، إذ النهي في هذه المواطن لا يقتضي البطلان، والقبض ورفع اليدين والتأمين ليس من الأركان! ولا أعرف أحداً من العلماء الأعيان يُرَتِّبُ على مثل هذا الفوات البطلان! والله المستعان.
(٦) في المصادر: «فشلّ».
(٧) سبق تخريجه.
(٨) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «دينه».

فإن قال بعصمته، أبطل، وإن جوّز عليه الخطأ قيل له: فما يؤمنك أن يكون قد أخطأ فيما قلدته فيه، وخالف فيه غيره؟

فإن قال: وإن أخطأ فهو مأجور، قيل: أجل هو مأجور لاجتهاده، وأنت غير مأجور لأنك لم تأت بموجب الأجر، بل قد فرطت في اتباع[١] الواجب، فأنت إذاً مأزور.

فإن قال: كيف يأجره الله على ما أفتى به ويمدحه عليه، ويذم المستفتي على قبوله منه، وهل يعقل هذا؟

قيل: المستفتي إن قصر وفرط في معرفة الحق مع قدرته عليه، لحقه الذم والوعيد، وإن بذل جهده ولم يقصر فيما أمر به واتقى الله ما استطاع، فهو مأجور أيضاً، وأما المتعصب الذي جعل قول متبوعه عياراً على الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، يزنها به[٢]، فما وافق[٣] قول متبوعه منها قبله، وما خالفه رده، فهذا إلى الذم والعقاب أقرب منه إلى الأجر والثواب.

وإن قال ـ وهو الواقع ـ: اتبعته وقلدته، ولا أدري، أعلى صواب هو، أم لا؟ فالعهدة على القائل، وأنا حاكٍ لأقواله.

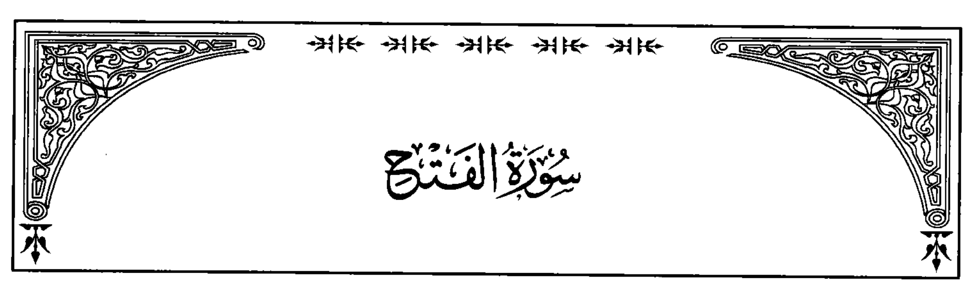
قيل له: فهل تتخلص بهذا من الله عند السؤال لك عما حكمت به بين عباد الله وأفتيتهم به؟

فوالله إن للحكام والمفتين لموقفاً للسؤال، لا يتخلص فيه إلا من عرف الحق، وحكم به وعرفه وأفتى به.

وأما من عداهما فسيعلم ـ عند انكشاف الحال ـ إنه لم يكن على شيء»[٤].

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «الاتباع».
(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «بها».
(٣) في مطبوع «الدين الخالص»: «يوافق».
(٤) انظر: «الدين الخالص» (٤/٢٢٨ ـ ٢٢٩)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/٥٢٧ ـ ٥٢٨ ـ بتحقيقي).



سُورَةُ الفَتْح

الباب الأول

قـولـه تـعـالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح: ٨ ـ ١٠]

قال (ك): «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: على الخلق ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: للمؤمنين: ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: تعظموه(1) ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره. ثم قال ﷻ لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ كقوله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾ [التوبة: ١١١] وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «**والله ليبعثنه ﷻ يوم القيامة**

(١) أخرجه ابن جرير (٢١/ ٢٥١) عن ابن عباس والضحاك وقتادة، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٧١) عن ابن عباس لابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو عند عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٢٢٦) عن قتادة.

له عينان ينظر بهما ولسان ينطق به ويشهد على من استلمه بالحق فقد بايع الله تعالى». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[(١)] ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود وَبَال ذلك على الناكث والله غني عنه: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة سمرة[(٢)] بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذٍ، قيل: ألف وثلاث مائة، وقيل: وأربع مائة، وقيل: وخمس مائة، والأوسط أصح»[(٣)].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل مسلم يعتبر مبايعاً للرسول ﷺ كأنه وضع يده في يده أن يطيعه في كل ما أمر به وأن ينتهي عن كل ما نهى عنه، وأن يحبه أكثر من نفسه ووالديه وأولاده والناس أجمعين، فمن أوفى ببيعته سعد في الدنيا والآخرة، ومن نكث بيعته تعرض لعذاب الله وغضبه ونقمته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢] من ترك سنة النبي ﷺ واتبع آراء الرجال وقلدهم قلادة سوء فقد نكث البيعة ونقض العهد.

وقال صاحب «الدين الخالص»، (١/ ٣٣٠) ما نصه:

«الوجه الثاني والثلاثون: أن نقول: أخذتم بقول فلان؛ لأن فلاناً قاله، أو لأن رسول الله ﷺ قاله؟

فإن قلتم: لأن فلاناً قاله، جعلتم قول فلان حجة، وهذا عين الباطل، وإن قلتم: لأن رسول الله ﷺ قاله، كان هذا أعظم وأقبح فإنه ـ مع تضمنه للكذب على رسول الله ﷺ وتقويلكم عليه ما لم يقله، وهو أيضاً كذب على المتبوع، فإنه لم يقل: هذا قول رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٦١)، وابن ماجه (٢٩٤٤)، وأحمد (١/ ٢٤٧، ٢٩١، ٣٠٧)، والدارمي (١٨٣٩)، وابن خزيمة (٢٧٣٥)، وابن حبان (٣٧١٢)، والطبراني (١١٤٣٢، ١٢٤٧٩)، والبيهقي (٥/ ٧٥)، وأبو نعيم (٦/ ٢٤٣)، **وإسناده صحيح**، وصححه شيخنا الألباني.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سمر».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٩١ ـ ٩٢) بتصرف.

فقد دار قولكم بين أمرين لا ثالث لهما: إما جعل قول غير المعصوم حجة. وإما تقويل المعصوم ما لم يقله، ولا بد من واحد من الأمرين، فإن قلتم: بل منهما بد وبقي قسم ثالث، وهو أنا قلنا كذا؛ لأن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتبع من هو أعلم منا، ونسأل أهل الذكر إن كنا لا نعلم، ونرد ما لم نعلمه إلى استنباط أولي العلم، فنحن في ذلك متَّبعون ما أمرنا به نبينا.

قيل: وهل نندندن إلا حول اتباع أمره ﷺ؟ فحيَّهلا بالموافقة على هذا الأصل الذي لا يتم الإيمان والإسلام إلا به، فنناشدكم بالذي أرسله، إذا جاء أمره، وجاء قول من قلدتموه، هل تتركون قوله لأمره ﷺ، وتضربون بِهِ الْحَائط، وتحرِّمون الأخذ به، والحالة هذه حتى تتحقق المتابعة كما زعمتم؟ أم تأخذون بقوله وتفوضون أمر الرسول ﷺ إلى الله وتقولون: هو أعلم برسول الله ﷺ منا، ولم يخالف هذا الحديث إلا وهو عنده[1] منسوخ أو معارض ما هو أقوى منه، أو غير صحيح عنده، فتجعلون قول المتبوع محكماً، وقول الرسول متشابهاً؟»[2].

الباب الثاني

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١٧]

قال (ك): «يذكر الله تعالى الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ، ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش: ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار، والله تعالى أعلم»[3].

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «وعنده».

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٨ ـ بتحقيقي).

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٢٠١) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ إلى آخره عام يشمل كل مطيع، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يشتمل كل معرض عن الكتاب والسنة، سواء أكان مرتدّاً يصرح بأن الكتاب والسنة لا يصلحان لهذا العصر، أو مبتدعاً مقلداً يقدم رأي شيخه وإمامه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن الله يعذبهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٣١) ما نصه:

«ثم نقول في الوجه الثالث والثلاثين: وأين أمركم رسول الله ﷺ بأخذ قول واحد من الأئمة بعينه، وترك قول نظيره؟ ومن هو أعلم منه وأقرب إلى الرسول؟ وهل هذا إلا نسبة رسول الله ﷺ إلى أنه أمر بما لم يأمر به قط، يوضحه:

الوجه الرابع والثلاثون: إن ما ذكرتم بعينه، حجة عليكم. فإن الله سبحانه أمر بسؤال أهل الذكر، والذكر هو القرآن والحديث الذي أمر الله نساء نبيه أن يذكرنه بقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] فهذا هو الذكر الذي أمرنا باتباعه، وأمر من لا علم عنده أن يسأل أهله.

وهذا هو الواجب على كل أحد أن يسأل أهل العلم بالذكر الذي أنزله على رسوله ليخبروه به، فإذا أخبروه به، لم يسعه غير اتباعه، وهذا كان شأن أئمة أهل العلم، لم يكن لهم مقلَّد معيَّن يتبعونه في كل ما قال، فكان عبد الله بن عباس يسأل الصحابة عما قاله رسول الله ﷺ أو فعله، أو سنه، لا يسألهم عن غير ذلك، وكذلك الصحابة كانوا يسألون أمهات المؤمنين، خصوصاً عائشة، عن فعل رسول الله ﷺ في بيته، وكذلك التابعون كانوا يسألون الصحابة عن شأن نبيهم فقط.

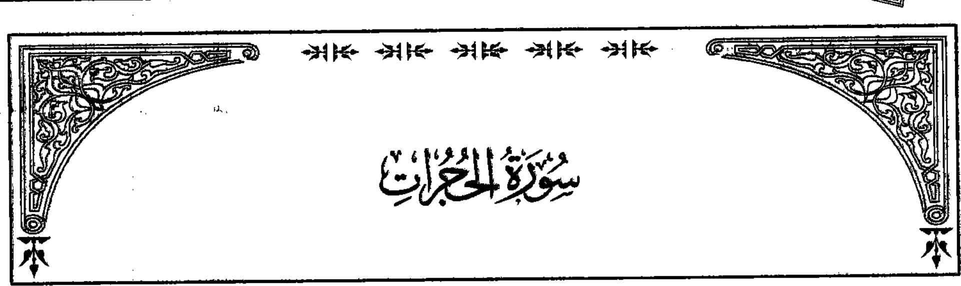
وكذلك أئمة الفقه كما قال الشافعي لأحمد: يا أبا عبد الله أنت أعلم بالحديث مني، فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه، شاميًّا أو كوفيًّا، أو بصريًّا[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي ومناقبه» (٩٤ ـ ٩٥)، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٤٧٩)، و«المدخل» (١٧٣، ١٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٦، ١٧٠)، وابن عبد البر في «الانتقاء» (ص٧٥).

ولم يكن أحد من أهل العلم قط يسأل عن رأي رجل بعينه ومذهبه فيأخذ به وحده ويخالف له ما سواه»[١].

(١) «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩ ـ بتحقيقي).



سورة الحجرات

الباب الأول

قوله تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ١ ـ ٣]

قال (ك): «هذه آيات أدّب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي: حديث معاذ حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «**بم تحكم؟**» قال: بكتاب الله تعالى، قال: «**فإن لم تجد**» **قال:** بسنة رسول الله، قال: «**فإن لم تجد**» قال: اجتهد رأيي، فضرب في صدره، وقال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله ﷺ**». وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه[1]. فالغرض منه، أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢)، وأبو داود في «السنن» كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء (٤/ ١٨ ـ ١٩) رقم (٣٥٩٢)، والترمذي في «الجامع» أبواب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي (٣/ ٦١٦) رقم (١٣٢٧)، والدارمي في «السنن» المقدمة، باب الفتيا وما فيه من الشدة (١/ ٦٠)، والطيالسي في «المسند» (١/ ٢٨٦ ـ «منحة المعبود»)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» =

= (٢/ ٣٤٧، ٥٨٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (ص١٥ ـ ١٥٥، ١٨٨ ـ ١٨٩)، وابن عبد البر في «جامع البيان» (٢/ ٥٥ ـ ٥٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٤)، و«معرفة السنن والآثار» (١/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، والجورقاني في «الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير» (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) رقم (١٠١)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٢١٥)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٢٤)، وابن حزم في «الإحكام في أصول الأحكام» (٦/ ٢٦، ٣٥ و٧/ ١١١ ـ ١١٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٢٧٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٥/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧) من طرق عن شعبة عن أبي عون الثقفي؛ قال: سمعت الحارث بن عمرو يحدث عن أصحاب معاذ من أهل حمص أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: . . . وذكره، وذكر بعضهم أن شعبة قال في الحارث: «ابن أخي المغيرة بن شعبة».

ورجال إسناد الحديث ثقات إلا الحارث بن عمرو؛ فأبو عون اسمه محمد بن عبيد الله الثقفي، الكوفي، الأعور، ثقة، من الرابعة ـ كما في «التقريب» (٢/ ١٨٧)، و«التهذيب» (٩/ ٣٢٢) ـ.

ومدار إسناد الحديث على الحارث بن عمرو، قال الترمذي عقبه: «لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

فتحرير حاله، وبيان أصحاب معاذ، وهل هم الذين رفعوا الحديث أم رووه عن معاذ، ومن هو الذي رفعه؟ هذه الأمور هي الفيصل في الحكم على الحديث.

الكلام على الحارث بن عمرو:

قال ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦١٣): «سمعت ابن حماد يقول: قال البخاري: الحارث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة، روى عن أصحاب معاذ عن معاذ، روى عنه أبو عون، لا يصح ولا يعرف، والحارث بن عمرو، وهو معروف بهذا الحديث الذي ذكره البخاري عن معاذ لما وجهه النبي ﷺ إلى اليمن. . . فذكره» انتهى بحروفه.

قلت: المتمعن في هذا النقل يتأكد له ما قاله الترمذي من أن حديث معاذ لا يعرف إلا من طريق الحارث هذا، ووجدت الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في «التاريخ الكبير» (٢/ ١/ ١٧٧، ٢٧٥)، يقول في الحارث وحديثه هذا: «ولا يصح ولا يعرف إلا بهذا».

ونقله عنه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٢١٥) وارتضاه بسكوته عنه، وكذلك فعل الحافظ ابن كثير القرشي في «تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب» (ص١٥٢).

وجهَّل الحارث بن عمرو جماعةٌ من أهل العلم؛ منهم ابن الجوزي؛ فقال في «العلل المتناهية» (٢/ ٢٧٢): «. . . ثبوته لا يعرف لأن الحارث بن عمرو مجهول. . .»، وقال الجورقاني في «الأباطيل» (١/ ١٠٦): «هذا حديث باطل، رواه جماعة عن شعبة عن أبي عون الثقفي عن الحارث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة كما أوردناه، واعلم أنني تصفحت عن هذا الحديث في المسانيد الكبار والصغار، وسألت من لقيته من أهل العلم =

= بالنقل عنه، فلم أجد له طريقاً غير هذا، والحارث بن عمرو هذا مجهول». وقال ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٦٨): «والحارث هو ابن أخي المغيرة بن شعبة، ولا تعرف له حال ولا يدرى روى عنه غير أبي عون: محمد بن عبيد الله الثقفي».

قلت: وقال بنحو كلام الجورقاني هذا شيخه ابن طاهر القيسراني في تصنيف مفرد في طرق هذا الحديث، ونقل خلاصة كلامه الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٨٣)؛ فقال: «اعلم أنني فحصت عن هذا الحديث في المسانيد الكبار والصغار، وسألت عنه من لقيته من أهل العلم بالنقل؛ فلم أجد له غير طريقين: أحدهما: طريق شعبة، والأخرى: عن محمد بن جابر، عن أشعث بن أبي الشعثاء، عن رجل من ثقيف، عن معاذ، وكلاهما لا يصح».

ثم أفاد الحافظ ابن حجر أن الخطيب البغدادي أخرجه في كتاب «الفقيه والمتفقه» من رواية عبد الرحمٰن بن غنم عن معاذ بن جبل، فلو كان الإسناد إلى عبد الرحمٰن ثابتاً؛ لكان كافياً في صحة الحديث. انتهى.

ولا بد هنا من ضرورة التأكيد على صحة ما قدمناه عن جماعة من جهابذة الجرح والتعديل: أن الحارث بن عمرو قد تفرد بالحديث عن أصحاب معاذ، ومجرد وجود طرق أخرى من غير طريق أصحاب معاذ، لا يعني أن الحارث لم يتفرد به.

وهنا طريقان غير طريق الحارث:

الأولى: التي ذكرها ابن طاهر: محمد بن جابر عن أشعث بن أبي الشعثاء عن رجل من ثقيف عن معاذ، وهي غير صحيحة؛ كما قال ابن طاهر، للإبهام الذي فيها، ولضعف رواتها.

والثانية: طريق عبد الرحمٰن بن غنم عن معاذ، وتفرد بها عبادة بن نُسَيّ ـ بضم النون، وفتح السين، بعدها ياء مشددة ـ، وهو من الرواة الأردنيين، يكنى أبا عمر، ثقة فاضل مات سنة ثمان عشرة ومئة؛ كما في «التهذيب» (٥/ ١١٣).

وروى هذا الحديث عن عبادة بن نُسَيّ محمد بن سعيد بن حسان، وقد أبهم في رواية الإمام سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في كتاب «المغازي» له ـ كما في «النكت الظراف» (٨/ ٤٢٢) لابن حجر، و«تحفة الطالب» (ص١٥٣) لابن كثير ـ، فوقع إسناد الحديث عنده هكذا: قال الإمام سعيد بن يحيى: حدثني أبي حدثني رجل عن عبادة بن نُسَيّ به.

ولكن وقع التصريح به في «سنن ابن ماجه» (١/ ١٢) رقم (٥٥)، ومن طريقه الجورقاني في «الأباطيل» (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩) رقم (١٠٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٣١٠/أ)؛ فرواه من طريق الحسن بن حماد سجادة ـ صدوق ـ، ثنا يحيى بن سعيد الأموي عن محمد بن سعيد بن حسان عن عبادة به.

قال الجورقاني عقبه: «هذا حديث غريب حسن»، وذكره ابن القيم رحمه الله في «تهذيب السنن» (٥/ ٢١٣)، وقال: «هذا أجود إسناداً من الأول (أي: حديث معاذ المتكلم =

= عليه)، ولا ذكر للرأي فيه». انتهى.
قلت: ولفظ هذا الحديث: «**لا تقضين ولا تفصلن إلا بما تعلم، فإنْ أشكل عليك أمر؛ فقف حتى تبينه أو تكتب إِلَيّ فيه**».
وذكره الجورقاني وحسنه مع غرابته، كما تقدم ليبيِّن بطلان لفظ حديث معاذ هذا، إذ أورده تحت عنوان في (خلاف ذلك).
وما أصاب الجورقاني، ولا ابن القيم في قولهم: إن إسناد هذا الحديث أجود من الحديث الذي فيه للرأي ذكر؛ إذ فيه: «محمد بن سعيد بن حسان»: وهو المصلوب، المتهم الكذاب.
قال ابن كثير في «تحفة المطالب» (ص١٥٥) بعد أن ذكر طريق الأموي في «مغازيه» بوجود المبهم فيه، ومن ثم طريق ابن ماجه المبينة أنه المذكور؛ فقال: «فتبيَّنا بهذا أن الرجل الذي لم يُسَمّ في الرواية الأولى، هو محمد بن سعيد بن حسان، وهو المصلوب، وهو كذاب وضاع للحديث، اتفقوا على تركه».
ولهذا قال البوصيري في «زوائد ابن ماجه» (ورقة ٥/ب): «هذا إسناد ضعيف، محمد بن سعيد هو المصلوب، اتهم بوضع الحديث»، وقال ابن حجر في «موافقة الْخُبْر الْخَبر» (١/ ١٢٢): «لا يصلح حديثه لاستشهاد ولا متابعة».
نعم، لم يتفرد به محمد بن سعيد المصلوب؛ فقد رواه آخر عن عبادة بن نُسَيّ، ولكن إسناده لا يفرح به؛ فقد أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٣١٠/أ) من طريق سليمان الشاذكوني: نا الهيثم بن عبد الغفار، عن سَبْرة بن معبد، عن عُبادة به، ولكن الشاذكوني كذاب؛ فهذه الطريق كالماء، لا تشدُّ شيئاً.
فالخلاصة: **إن هذين الطريقين غير صحيحين**، ولهذا قال الحافظ عبد الحق الإشبيلي في «الأحكام الوسطى» (٣/ ٩٦): «لا يسند، ولا يوجد من وجه صحيح»، بل قال ابن الملقن في «البدر المنير» (٥/ ق٢١٤): «وهو حديث ضعيف بإجماع أهل النقل فيما أعلم»، ونقل فيه عن ابن دحية في كتاب «إرشاد الباغية والرد على المعتدي مما وهم فيه الفقيه أبو بكر بن العربي»: «هذا حديث مشهور عند ضعفاء أهل الفقه، لا أصل له؛ فوجب اطراحه».
عودة إلى الحارث بن عمرو:
اضطرب الإمام الذهبي في الحكم على «الحارث بن عمرو»؛ فقال في ترجمته في «الميزان» (١/ ٤٣٩): «ما روى عن الحارث غير أبي عون؛ فهو مجهول»، وأورده في «مختصر العلل» (ص١٠٤٦ ـ ١٠٤٧)، وقال: «قال ابن الجوزي وغيره: الحارث مجهول، قلت (الذهبي): ما هو مجهول، بل روى عنه جماعة، وهو صدوق إن شاء الله».
كذا قال هنا، مع أنه قال في «الميزان»: «مجهول»؛ فانظر إلى هذا الاضطراب.
ووجدت له في «السير» (١٨/ ٧٢) في ترجمة الجويني اضطراباً آخر، إذ قال: «... بل مداره على الحارث بن عمرو، وفيه جهالة، عن أهل حمص عن معاذ، فإسناده صالح» =

= فجعل إسناده صالحاً هنا، مع تصريحه بجهالة الحارث.

ولم يذكر لنا الجماعة الذين رووا عنه، أما إخراج بعضهم له من حيز الجهالة ـ كما فعل الكوثري في «مقالاته» (ص٦٠ ـ ٦١) ـ بمجرد قول شعبة: «ابن أخي المغيرة بن شعبة»؛ فلا شيء لأنه لم يقل أحد من علماء الحديث أن الراوي المجهول إذا عرف اسم جده أو بلده، بله اسم أخي جده، خرج بذلك عن جهالة العين إلى جهالة الحال، قال الخطيب في «الكفاية»: «المجهول عند أهل الحديث من لم يعرفه العلماء، ولا يعرف حديثه إلا من جهة واحدة...»، ومن ثم؛ فإن قول: «وهو ابن أخي المغيرة بن شعبة» يحتمل أن تكون ممن هو دون شعبة، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط من الاستدلال.

أصحاب معاذ:

ضعّف هذا الحديث كثير من المحدثين بجهالة أصحاب معاذ، قال ابن حزم: «هذا حديث ساقط، لم يروه أحد من غير هذا الطريق، قلت: أي طريق الحارث، وأول سقوطه أنه عن قوم مجهولين لم يسموا؛ فلا حجة فيمن لا يعرف من هو»، وقال بعد نَقْل قول البخاري السابق فيه ما نصه: «وهذا حديث باطل لا أصل له»، وقال الجورقاني: «وأصحاب معاذ من أهل حمص لا يعرفون، ومثل هذا الإسناد لا يعتمد عليه في أصل من أصول الشريعة»، وكذا قال ابن الجوزي في «الواهيات».

وأعله الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث البيضاوي» (ص٨٧ ـ بتحقيق العجمي) بجهالة أصحاب معاذ ـ أيضاً ـ، وسيأتي كلامه إن شاء الله تعالى.

ورد ابن القيم هذه العلة؛ فأجاب عنها بقوله في «إعلام الموقعين» (٢/ ٣٤٤، ٣٥١): «وأصحاب معاذ وإن كانوا غير مسمين؛ فلا يضره ذلك؛ لأنه يدل على شهرة الحديث، وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق، بالمحل الذي لا يخفى...»، وكذا قال ابن العربي في «العارضة» (٦/ ٧٢ ـ ٧٣)، وقبله الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٩).

وقال المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٤/ ٥٥٩) بعد أن نقل رد ابن القيم لعلة جهالة أصحاب معاذ: «قلت: الكلام كما قال ابن القيم لكن ما قال في تصحيح حديث الباب ففيه عندي كلام».

قلت: وكلامهم متين وقوي، ولكن علة الحديث غير محصورة في جهالة أصحاب معاذ؛ فالحديث يعل بالعلة الأولى والأخيرة، ولا يعل بهذه، ولبسط ذلك وتوضيحه أقول في كون هذه العلة قاصرة غير صالحة: أخرج البخاري ـ الذي شرطه الصحة ـ حديث عروة البارقي: سمعت الحي يتحدثون عن عروة، ولم يكن ذلك الحديث في جملة المجهولات، وقال مالك في «القسامة»: «أخبرني رجال من كبراء قومه»، وفي «الصحيح» عن الزهري: «حدثني رجال عن أبي هريرة: **«من صلى على جنازة؛ فله قيراط»**».

فجهالة أصحاب معاذ جرح غير مؤثرة، لا سيما أن مذهب جمع من المحدثين كابن رجب، وابن كثير تحسين حديث المستور من التابعين، والجماعة خير من المستور كما =

= لا يخفى، ولهذا لم يذكر ابن كثير في «تحفة الطالب» هذه العلة البتة، مع أن كلامه يفيد تضعيفه للحديث.

تنبيه: وقال الذهبي في «مختصر العلل» (ص١٠٤٦ ـ ١٠٤٧) في رد هذه العلة: «وقال ـ أي ابن الجوزي ـ: وأصحاب معاذ لا يعرفون، قلت (الذهبي): ما في أصحاب محمد ـ بحمد الله ـ ضعيف لا سيما وهم جماعة».

كذا وقع فيه، والعبارة لا تخلو من أمرين: إما سليمة فهذا وهم من الذهبي رحمه الله، فأصحاب معاذ ليسوا أصحاب محمد ﷺ؛ حتى يقال فيهم هذا الكلام، والسياق يدل على أنهم من التابعين، والتابعي يجوز أن يكون ضعيفاً، وإما خطأ من النساخ، والصواب (أصحاب معاذ)، وهذا الظاهر؛ فحينئذٍ يتوافق ما قلناه مع ما عنده، مع ملاحظة أن التابعي يجوز أن يكون ضعيفاً.

الكلام على وصله وإرساله:

وخير من تكلم وحرر هذا المبحث الدارقطني في «العلل» (م٢/٤٨/ب، و٤٩/أ ـ مخطوط)؛ فقال: «رواه شعبة عن أبي عون هكذا (أي: موصولاً)، وأرسله ابن مهدي وجماعات عنه، والمرسل أصح، قال أبو داود (أي: الطيالسي): أكثر ما كان يحدثنا شعبة عن أصحاب معاذ أن رسول الله ﷺ. وقال مرة: عن معاذ». انتهى.

وقال الترمذي في الحديث: «ليس إسناده عندي بمتصل»، قال ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (١/١١٨): «وكأنه نفى الاتصال باعتبار الإبهام الذي في بعض رواته، وهو أحد القولين في حكم المبهم».

وأعل العراقي الحديث في «تخريج أحاديث البيضاوي» بعلل ثلاث: الأولى: الإرسال هذا، والثانية: جهالة أصحاب معاذ، والثالثة: جهالة الحارث بن عمرو.

مسرد عام بأسماء من ضعف الحديث:

ضَعّف حديث معاذ هذا جماعة من جهابذة أهل الحديث، على رأسهم أميرهم الإمام البخاري، وتلميذه الترمذي، والدارقطني، والعقيلي، وابن طاهر القيسراني، والجورقاني ـ بالراء المهملة وليس بالمعجمة، ذاك الجوزجاني صاحب «أحوال الرجال» ـ، وابن حزم، والعراقي، وابن الجوزي، وابن كثير، وابن حجر، وغيرهم من الأقدمين، واضطرب فيه الذهبي كما بينا.

مسرد بأسماء من صحح الحديث:

صحح حديث معاذ هذا أبو بكر الرازي، وابن العربي المالكي في «عارضة الأحوذي»، والخطيب البغدادي، وابن قيم الجوزية، وغيرهم من المتأخرين.

ملحظ من صححه ومن ضعفه:

نظر مصححوه إلى عدم كون جهالة أصحاب معاذ علة قادحة فيه، وتناسوا الإرسال، وجهالة الحارث بن عمرو، أما من ضعفه؛ فبعضهم ذكر العلل القادحة ـ على ما بيناه ـ، وهما علتا الإرسال، وجهالة الحارث، كالحافظ ابن كثير في «تخريج أحاديث منتهى ابن =

....

= الحاجب»، وبعضهم زاد علة غير قادحة ـ على ما حققناه ـ، وهي جهالة أصحاب معاذ، ونحى بعضهم منحىً آخر؛ فقال بعد أن اعترف بضعفه، وأنه لا يوجد له إسناد قائم: «لكن اشتهاره بين الناس وتلقيهم له بالقبول مما يقوي أمره»؛ كما فعل عبد الله الغماري في «تخريج أحاديث اللمع في أصول الفقه» (ص٢٩٩)، وسبقه أبو العباس ابن القاضي فيما نقله عنه الحافظ في «التلخيص» (٤/ ١٨٣)، وقال الغزالي في «المستصفى» (٢/ ٢٥٤): «وهذا حديث تلقته الأمة بالقبول، ولم يظهر أحد فيه طعناً وإنكاراً، وما كان كذلك؛ فلا يقدح فيه كونه مرسلاً، بل لا يجب البحث عن إسناده»، وأطلق صحة الحديث جماعة من الفقهاء ـ أيضاً ـ كالباقلاني، وأبي الطيب الطبري؛ لشهرته وتلقي العلماء له، وكأني بالجورقاني يرد عليهم عندما قال في «الأباطيل» (١/ ١٠٦): «فإن قيل لك: إن الفقهاء قاطبة أوردوه في كتبهم واعتمدوا عليه؟ فقل: هذه طريقة، والخَلَف قلّد فيه السلف، فإن أظهروا غير هذا مما ثبت عند أهل النقل رجعنا إلى قولهم، وهذا مما لا يمكنهم البتة»، وكذلك ابن الجوزي عندما قال في «العلل المتناهية» (٢/ ٢٧٢): «وهذا حديث لا يصح، وإن كان الفقهاء كلهم يذكرونه في كتبهم ويعتمدون عليه».

هل معنى حديث معاذ صحيح؟

اختلف العلماء: هل معنى هذا الحديث صحيح أم لا؟ فمن نفى صحة معناه؛ فنفيه لصحة مبناه من باب أولى؛ ولكن كان سبب صحة معناه عند بعضهم صحة مبناه؛ فكأنه صححه لشواهده، واعتدل الآخرون فنفوا صحته من حيث الثبوت، وأثبتوها من حيث الدلالة، وإن كان إطلاق ذلك لا يسلم من كلام ما سيتبين معك ـ إن شاء الله تعالى ـ.

فممن صحح معنى الحديث، وانبنى عليه تصحيحه لمبناه: الإمام الذهبي؛ فقال في «مختصر العلل»: «هذا حديث حسن الإسناد، ومعناه صحيح، فإن الحاكم يضطر إلى الاجتهاد وصح أن النبي ﷺ قال: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر**».

فتحسينه لإسناده غير صحيح؛ إذ لم يسلم من علة الإرسال، وجهالة الحارث؛ ولكن تصحيح معناه فيما يتعلق بالاجتهاد عند فقدان النص صحيح، لا مجال للقول بخلافه، لا سيما أن شواهده كثيرة من نصوص أخرى تؤكد هذا المعنى.

وأطلق ابن الجوزي تصحيح معنى الحديث في «العلل المتناهية» (٢/ ٢٧٢)، وإن كان يرى عدم ثبوته؛ فقال: «... ولعمري إن كان معناه صحيحاً، إنما ثبوته لا يعرف».

قلت: وإطلاق تصحيح معناه فيه نظر؛ فمتنه لا يخلو من نكارة؛ إذ فيه تصنيف السنة مع القرآن، وإنزاله إياه معه منزلة الاجتهاد منهما، فكما أنه لا يجوز الاجتهاد مع وجود النص في الكتاب والسنة؛ فكذلك لا يأخذ بالسنة إلا إذا لم يجد في الكتاب، وهذا التفريق بينهما مما لا يقول به مسلم، بل الواجب النظر في الكتاب والسنة معاً، وعدم التفريق بينهما؛ لما علم من أن السنة تبين مجمل القرآن وتقيد مطلقه، وتخصص عمومه؛ كما هو معلوم، أفاده شيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٨٨١). =

والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله ﷺ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة[1]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هذا أدب ثان أدّب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته.

روى البخاري عن عبد الله بن الزبير: إنه قدم ركب بني تميم على النبي ﷺ فقال: أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾

= **الخلاصة والتنبيهات:**
وخلاصة ما تقدم أن حديث معاذ هذا أعل بثلاث علل، لم تسلم إلا واحدة منها، وهي جهالة أصحاب معاذ، وبقيت اثنتان، وهما جهالة الحارث والإرسال؛ فهو ضعيف من حيث الثبوت، وصحيح في بعض معناه، ومنكر في التفرقة بين الكتاب والسنة من حيث الحجية، وحصر حجية السنة عند فقد الكتاب؛ كما ذكرناه آنفاً.
ونختم الكلام على هذا الحديث بملاحظتين:
الأولى: أفاد ابن حزم في «إبطال القياس» (ص١٤ ـ «ملخصه») أن بعضهم موه وادّعى فيه التواتر!! قال: «وهذا كذب، بل هو ضد التواتر؛ لأنه لا يعرف إلا عن أبي عون، وما احتج به أحد من المتقدمين»، وأقره الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٨٣).
والأخيرة: قال ابن طاهر القيسراني: «وأقبح ما رأيت فيه قول إمام الحرمين في كتاب «أصول الفقه»: «والعمدة في هذا الباب على حديث معاذ! قال: وهذه زلة منه، ولو كان عالماً بالنقل لما ارتكب هذه الجهالة».
وتعقبه الحافظ في «التلخيص» (٤/ ١٨٣)؛ فقال: «قلتُ: أساء الأدب على إمام الحرمين، وكان يمكنه أن يعبر بألين من هذه العبارة، مع أن كلام إمام الحرمين أشد مما نقله عنه؛ فإنه قال: والحديث مدون في «الصحاح»، متفق على صحته، لا يتطرق إليه التأويل، كذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ».
اللهم ارزقنا الأدب مع علمائنا ومشايخنا، وتقبل منا، وارزقنا السداد والصواب، وجنبنا الخطأ والخلل والزلل.

(١) أخرجه ابن جرير (٢١/ ٣٣٥)، وابن أبي حاتم ـ كما في «الإتقان» (٢/ ٤٣) ـ وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٩٨)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ٨٤) لابن المنذر وابن مردويه، وهو في «صحيفة علي بن أبي طلحة» رقم (١١٧٣).

الآية[١]. وروى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله! أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى[٢]: فرجع إليه[٣] المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: **«اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»**[٤]. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقوله ﷻ: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في «الصحيح»: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً، يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار، أبعد ما بين السماء والأرض»**[٥]. ثم ندب تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، أي: أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلًّا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وقد قال الإمام أحمد عن مجاهد قال: كتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل؟ أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٦٧) من حديث عبد الله بن الزبير.

(٢) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «يعني ابن أنس بن مالك».

(٣) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «إلى»!

(٤) أخرجه البخاري (٤٦١٣)، ومسلم (١١٩).

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرج أثر عمر أحمد في «الزهد» ـ وليس في مطبوعه، وهو ناقص ـ، وعزاه له ابن كثير في «تفسيره» (٧/٣٤٨)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٣/٥٣٨)، وانظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٢١٤ ـ ٢١٦) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه الآيات الكريمة فيها من الأمر بتعظيم النبي ﷺ وإجلاله ما لا حدّ له، وقد تقدم أن من لم يحب النبي ﷺ أكثر من نفسه ووالديه وأولاده والناس أجمعين لا يكون مؤمناً حقًّا، وذلك معنى قول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[(١)]. قال العلماء: ويدخل في الناس أجمعين كل محبوب لديه منهم حتى هو نفسه، وكل من آمن بهذا يستحيل أن يخالف أمر النبي ﷺ في عقيدة أو عبادة أو معاملة أو خلق، وقد أشار الحافظ (ﷺ) إلى ذلك وبينه غاية البيان، وبسط القول فيه الحافظ ابن القيم، وقد تقدم كلامه ويدخل في هذا الوعيد المقلدون المتمذهبون وأصحاب الطرائق والأحزاب السياسية والتعصب للأوطان والقوميات.

ثم قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٣٢) ما نصه:

«الوجه الخامس والثلاثون: إن النبي ﷺ إنما أرشد المستفتين كصاحب الشجة، بالسؤال عن حكمه وسننه، فقال: «**قتلوه قتلهم الله**»[(٢)]، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم، وفي هذا تحريم الإفتاء بالتقليد فإنه ليس علماً باتفاق الناس، فإن ما دعا رسول الله ﷺ على فاعله فهو حرام، وذلك أحد أدلة التحريم.

فما احتجَّ به المقلِّدون هو من أكبر الحجج عليهم، والله الموفق.

وكذلك سؤال أبي العسيف[(٣)] الذي زنى بامرأة مستأجره عند أهل العلم، فإنهم لما أخبروه بسنة رسول الله ﷺ في البكر الزاني، أقره على ذلك، ولم ينكره، فلم يكن ثم سؤالهم عن رأيهم ومذاهبهم»[(٤)].

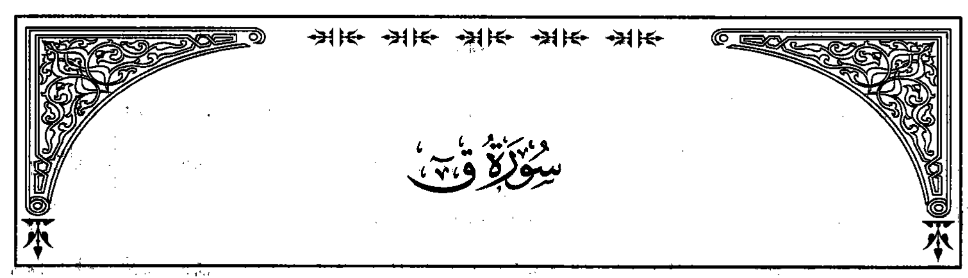
---

(١) مضى تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣١)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٢٩ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]

قال (ك): «أي: بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهولنك ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: وما أنت بمجبرهم على الإيمان، إنما أنت مبلِّغ، ثم قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: بلِّغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وكان قتادة يقول: «اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك يا بار يا رحيم». »[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من يؤمن بالله ورسوله وما أنزل عليه ويخاف الله فإن الذكرى تنفعه، فيتبع الكتاب والسنة، يجتنب التقليد والشرك والبدعة، فيكون من الذين هداهم الله وهم أولوا الألباب.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٣٣) ما نصه:

«الرد على القائلين بمشروعية التقليد استناداً إلى قول عمر: «إني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر».

الوجه السادس والثلاثون: قولهم: إن عمر قال في الكلالة: «إني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر»[٢] وهذا تقليد منه له، فجوابه من خمسة أوجه:

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٢٣٧).
(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٣٠٤) رقم (١٩١٩١)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤١٥ ـ ٤١٦)، =

أحدها: إنهم اختصروا الحديث، وحذفوا منه ما يبطل استدلالهم، ونحن نذكره بتمامه.

قال شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي: إن أبا بكر قال في الكلالة: «أقضي[1] فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء، هو ما دون الولد والوالد».

فقال عمر بن الخطاب: «أني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر»[2].

فاستحيى عمر من مخالفة أبي بكر في اعترافه بجواز الخطأ عليه، وأنه ليس كلامه كله صواباً، مأموناً عليه الخطأ.

ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب أقرّ عند موته أنه لم يقض في الكلالة بشيء، وقد اعترف أنه لم يفهمها[3].

الوجه الثاني: إن خلاف عمر لأبي بكر أشهر من أن يذكر كما خالفه في سبي أهل الردة، فسباهم أبو بكر، وخالفه عمر، وبلغ خلافه إلى أن ردَّهُن حرائر إلى أهلهن إلا مَنْ ولدت لسيدها منهن، ونَقَضَ حكمه[4]، ومن جملتهن خولة

= والدارمي (٢/ ٣٦٥)، وسعيد بن منصور (٣/ ١١٨٥) رقم (٥٩١)، وابن المنذر، وابن جرير (٦/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤) جميعهم في «التفسير»، والبيهقي (٦/ ٢٢٤)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ١٢٧) من طرق عن عاصم الأحول عن الشعبي قال: قال عمر... وذكره.

وتابع عاصماً: جابر الجعفي. رواه عبد الرزاق (١٩١٩٠)، وابن جرير (٦/ ٢٨٤).

وإسناده منقطع، الشعبي لم يدرك أبا بكر، وسنه أصغر من سماعه عمر.

وأورده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٩١١) رقم (١٧١٢) عن ابن مسعود ولم يسنده.

(١) في الأصل: «أقصي»!

(٢) مضى تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٩١٩٤، ١٩١٩٥) وإسحاق ـ كما في «المطالب العالية» (رقم ١٥٥١ ـ المسندة)، وابن جرير (٩/ ٤٣١ رقم ١٠٨٦٦، ط. شاكر)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ١٢٨)، وهو **حسن بمجموع طرقه**، وانظر تعليقي على «الإعلام» (٣/ ٥٣٠).

(٤) هذا أمر مشهور عن عمر، انظر: «معالم السنن» (٢/ ٢٠٢)، و«إكمال المعلم» للقاضي عياض (١/ ١٩٧، ١٩٩ ـ ٢٠٠) كتاب الإيمان، و«المفهم» (١/ ١٨٥ ـ ١٨٧) لأبي العباس القرطبي، و«المجموع» (٥/ ٣٣٤) للنووي، و«فتح الباري» (١٢/ ٢٨٠)، وانظر ذلك مسنداً في «الأموال» (٢/ ١٣٣) لأبي عبيد، و«الأموال» (١/ ٣٤٩) لابن زنجويه، و«السنن الكبرى» (٩/ ٧٣، ٧٤) للبيهقي، و«السير» (٥/ ٢٢٣٧) لمحمد بن الحسن.

الحنفية أم محمد بن علي[(١)]، فأين هذا من فعل المقلِّدين لمتبوعهم؟

وخالفه في أرض العنوة، فقسمها أبو بكر، ووقفها عمر[(٢)]، وخالفه في المفاضلة في العطاء، فرأى أبو بكر التسوية، ورأى عمر المفاضلة[(٣)]، ومن ذلك مخالفته له في الاستخلاف، وصرح بذلك فقال: «إن أستخلف [فقد استخلف] أبو بكر، وإن لم أستخلف، فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف».

قال ابن عمر: فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ فعلمت أنه لا يعدل برسول الله ﷺ أحداً، وإنه غير مستخلف[(٤)]، فهكذا يفعل أهل العلم حين يتعارض عندهم سنة رسول الله ﷺ وقول غيره، لا يعدلون بالسنة شيئاً سواها. لا كما يصرح به المقلدون. وخلافه له في الجد، والإخوة[(٥)] معلوم أيضاً.

الثالث: أنه لو قدِّر تقليد عمر لأبي بكر في كل ما قاله لم يكن في ذلك مستراح لمقلدي من هو بعد الصحابة والتابعين، ممن لا يداني الصحابة ولا يقاربهم، فإن كان ـ كما زعمتم ـ لكم أسوة بعمر، فقلِّدوا أبا بكر، واتركوا تقليد غيره، والله ورسوله وجميع عباده يحمدونكم على هذا التقليد، ما لا يحمدونكم على تقليد غير أبي بكر.

الرابع: إن المقلدين لأئمتهم لم يستحيوا مما استحيى منه عمر؛ لأنهم

(١) هي خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة، وكانت أمة سوداء من سبي بني حنيفة، ولم تكن منهم، انظر: «طبقات ابن سعد» (٥/ ٦٦).

(٢) انظر الروايات في ذلك عند أبي عبيد في: «الأموال» رقم (٥٨، ٥٩)، وأبي يوسف في «الخراج» (٢٦، ٤٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٣٤)، وابن حزم في «المحلى» (٧/ ٣٤١، ٣٤٤)، وانظر: «صحيح البخاري» (٢٣٣٤)، و«مسند أحمد» (١/ ٣١)، وتوجيه قول عمر في المسألة في «المغني» (٢/ ٧١٦)، و(٨/ ٣٧٩)، و«الرخصة العميمة في قسمة الغنيمة» لابن الفركاح، ورد النووي عليه في «وجوب قسمة الغنيمة» كلاهما بتحقيقي ـ يسر الله نشرهما ـ و«موسوعة فقه عمر» (٦٢ ـ ٦٤).

(٣) أما عمر: فقد روى البخاري في «صحيحه» (٤٠٢٢) في (المغازي)، من طريق إسماعيل بن قيس قال: كان عطاء البدريين خمسة آلاف، وقال عمر: لأفضلنهم.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٢٣) من حديث ابن عمر.

(٥) خرجناه في التعليق على «الموافقات» (٥/ ١٦١) للشاطبي، وجميع الأمثلة السابقة عند ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٦٦) وقال: «وفي غير ذلك كثيراً بالأسانيد الصحاح، المبطل لقول من قال: إنه كان لا يخالفه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات». ونقلها عنه ابن القيم في «الإعلام». ونقلها المصنف عن ابن القيم، رحم الله الجميع.

يخالفون أبا بكر وعمر معه، ولا يستحيون من ذلك، لقول مَن قلَّدوه من الأئمة، بل قد صرح بعض غلاتهم في بعض الكتب الأصولية أنه لا يجوز تقليد أبي بكر وعمر، ويجب تقليد الشافعي.

فيا لله للعجب!! ما الذي أوجب تقليد الشافعي، وحرم عليكم تقليد أبي بكر وعمر؟

ونحن نشهد الله، شهادة نسأل عنها يوم نلقاه، أنه إذا صح عن الخليفتين الراشدين اللذين أمرنا رسول الله ﷺ باتباعهما والاقتداء بهما[1] قول، وأطبق أهل الأرض على خلافه، لم نلتفت إلى أحد منهم، ونحمد الله أن عافانا مما ابتلى به من حرَّم تقليدهما، وأوجب تقليد متبوعه من الأئمة.

وبالجملة، فلو صح تقليد عمر لأبي بكر لم يكن في ذلك راحة لمقلِّدي من لم يأمر الله ولا رسوله بتقليده، ولا جعله عياراً على كتابه وسنة نبيه، ولا هو جعل نفسه كذلك.

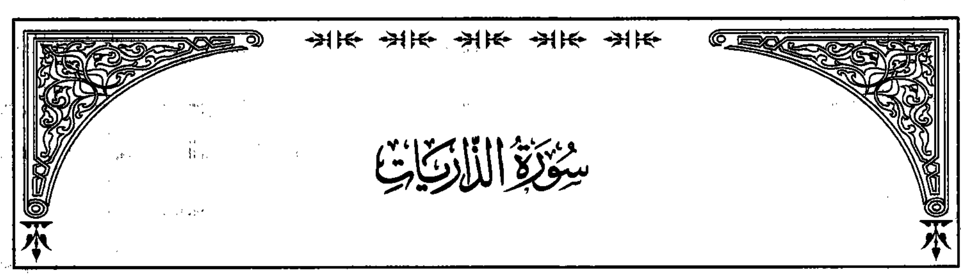
الخامس: إن غاية هذا، أن يكون عمر قلد أبا بكر في مسألة، فهل في هذا دليل على جواز اتخاذ أقوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع، لا يلتفت إلى أقوال من سواه، بل ولا إلى نصوص الشارع، إلا إذا وافقت أقواله؟

فهذا ـ والله ـ هو الذي أجمعت الأمة على أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة»[2].

---

(١) في حديث صحيح سبق لفظه وتخريجه.

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٣)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٣٠ ـ ٥٣٢ ـ بتحقيقي).



سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٤، ٥٥]

قال (ﷺ): «﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾؛ يعني: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة»[١].

فصل

قال محمد تقي الدين: صدق الله في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فإن النبي ﷺ بلغ الرسالة وأدّى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده ونصح لعباده وعَبَدَ اللهَ حتى أتاه اليقين، اللهم صلِّ على محمد وعلى آله، ومن اقتدى به إلى يوم الدين، وقد ذكر أحسن التذكرة، وخلف فينا كتاب الله وسنته هدى وتبصرة، فجزاه الله عنا أحسن الجزاء، فمن قَبِلَ تذكرته وعمل بها فهو الموفَّق السعيد، ومن ردها أو خالفها بعناد أو تقليد فهو الخاسر البليد.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٣٥) ما نصه:

«الوجه السابع والثلاثون: قولهم: إن عمر قال لأبي بكر: «رأينا لرأيك تبع»[٢] فالظاهر أن المحتجَّ بهذا، سمع الناس يقولون: كلمة تكفي العاقل، فاقتصر من الحديث على هذه الكلمة، واكتفى بها، والحديث من أعظم الأشياء إبطالاً لقوله، ففي «صحيح البخاري» عن طارق بن شهاب قال: جاء وفد[٣] من

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٢٢). (٢) سيأتي لفظه بتمامه وتخريجه هناك.

(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «بزاخة».

(أسد) و(غطفان) إلى أبي بكر، يسألون الصلح، فخيرهم بين الحرب المُجْلية[(١)]، والسِّلم المخزية[(٢)].

فقالوا: هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية؟ قال: «ننزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا لكم، وتردون لنا ما أصبتم منا، وتَدُون لنا قتلانا، ويكون قتلاكم في النار، وتتركون أقواماً يتبعون أذناب الإبل حتى يُري الله خليفة رسوله والمهاجرين أمراً يعذرونكم به»، فعرض أبو بكر ما قال على القوم، فقام عمر بن الخطاب فقال: «قد رأيت رأياً، وسنشير عليك.

أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية، فنعم ما ذكرت.

وأما ما ذكرت: «يدون قتلانا ويكون قتلاهم في النار» فإن قتلانا قاتلت فقتلت على أمر الله، أجورها على الله ليس لها ديات، فتتابع القوم على ما قال عمر. فهذا هو الحديث الذي في بعض ألفاظه: «قد رأيت رأياً، ورأينا لرأيك تبع»[(٣)]، فأيُّ مستراحٍ في هذه لفرقة التقليد؟!»[(٤)].اهـ.

---

(١) هي التي تجلي الناس عن أوطانهم.

(٢) وهي التي تخزيهم، أي توقعهم في الخزي، وهو الهوان.

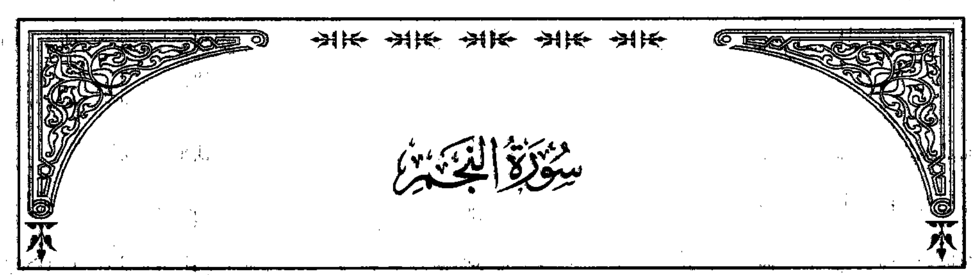
(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٢٢١) في «الأحكام»، باب الاستخلاف وهو عنده مختصر جدّاً.

وهو بهذه السياقة التي ذكرها المؤلف: رواه البرقاني في «مستخرجه» كما ذكر الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٢١٠) بالإسناد الذي رواه البخاري نفسه.

وذكره الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (١/ ٩٦) رقم (١٧)، وعزاه له ابن الأثير في «جامع الأصول» (١١/ ٧٩٣).

وانظر أيضاً: «عمدة القاري» (٢٤/ ٢٨١) حيث قال: وقال يعقوب بن محمد الزهري... فذكره بإسناده مطولاً كما هنا. ورواه سعيد بن منصور في «السنن» (٢/ ٣٦١)، وأبو عبيد (٢٥٤) وعنه ابن زنجويه (٢/ ٤٦٠، ٤٦١) رقم (٧٤٢) كلاهما في «الأموال»، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٣٣٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٣٠)، **وإسناده صحيح على شرط الشيخين.**

(٤) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٣)، ونقله من «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٣٣ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]

قال (ك): «أي: أعرض عن الذي أعرض عن الحق وهجره[١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا فذاك[٢] هو غاية ما لا خير فيه، ولهذا قال تعالى[٣]: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه، وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»**[٤] وفي الدعاء المأثور: **«اللهم لا تجعل الدنيا أكبر**

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «واهجره».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فذلك».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولذلك قال».

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٧١)، وابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (١٨٢) ـ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٠٦٣٨) ـ **بسندٍ ضعيف**، في إسناد أحمد: دويد غير منسوب، وهو مجهول، انظر له: «المؤتلف والمختلف» للدارقطني (٢/ ١٠٠٨). وفي إسناد ابن أبي الدنيا: أبو سليمان النصيبي، لم نظفر له بترجمة، ومع هذا فقد جوّده المنذري في «الترغيب» (٣/ ١١٧٦) (رقم ١٤٨٤ بعنايتي)، والعراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣/ ٢٠٣). وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٨٨) بعد عزوه لأحمد: «رجاله رجال الصحيح، غير دويد وهو ثقة»، وتجوز السخاوي على وجه أشد وأبلغ لما قال في «المقاصد الحسنة» (٤٩٤): «رجاله ثقات»! وضعفه شيخنا في «الضعيفة» (١٩٣٣)، وهو الذي تقتضيه الصنعة الحديثية! نعم؛ ورد موقوفاً على ابن مسعود ـ وهو أشبه ـ عند أحمد في «الزهد» (٢٠٠)، وابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (١٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٦٣٧) من طريق مالك بن مغول قال: قال ابن مسعود: **وإسناده منقطع**، ابن مغول لم يسمع ابن مسعود، بل لم يدركه!

همنا، ولا مبلغ علمنا»[(١)]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبداً، لا في شرعه ولا في قَدَره»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: من أعرض عن ذكر الله ضل، ومن اتبعه اهتدى، والذين ضلوا عن الذكر مختلفون، بعضهم بلغه فلم يؤمن به، فهو من الضالين الهالكين، وبعضهم بلغه فادعى أنه آمن به ولم يتخذه إماماً وحكماً؛ لأن الشيطان لبَّس عليه وزين له التقليد واتباع الطرائق، وإن خالف ذلك القرآن والسنة فهؤلاء أيضاً من الضالين.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٣٦) ما نصه:

«الوجه الثامن والثلاثون: قولهم: إن ابن مسعود كان يأخذ بقول عمر، فخلاف ابن مسعود لعمر أشهر من أن يتكلف إيراده[(٣)] وإنما كان يوافقه كما يوافق العالِمُ العالِمَ، وحتى لو أخذ بقوله تقليداً، فإنما ذلك في نحو أربع مسائل نعدها، وكان من عماله، وكان عمر أمير المؤمنين، وأما مخالفته ففي نحو مائة مسألة.

منها: أن ابن مسعود صح عنه أن أم الولد تعتق من نصيب ولدها[(٤)].

ومنها: أنه كان يُطبِّق في الصلاة إلى أن مات[(٥)]، وعمر كان يضع يديه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٠١، ٤٠٢)، والبغوي (١٣٧٤)، وفي «الشمائل» (١١٨١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٤٠)، والحاكم (١/ ٥٢٨) من حديث ابن عمر، وهو **حسن**، كما بينته في تعليقي على «المجالسة» (٧٢٥).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٩٢)، و«الإحكام» (٦/ ٦٨) لابن حزم.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٣٨)، وعبد الرزاق (٧/ ٢٧٩) رقم (١٣٢١٤، ١٣٢١٥) في «مصنفيهما»، وابن سعد في «الطبقات» (ق١/ ٣/ ٢٧٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٤٨)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ١٦) **وإسناده صحيح**.

(٥) الذي وجدته أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يطبق، وقد روى في هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ رواه مسلم في «صحيحه» (٥٣٤) في «المساجد ومواضع الصلاة». وفي «مصنف ابن أبي =

على ركبتيه[١].

ومنها: أن ابن مسعود كان يقول في الحرام: هي يمين[٢] وعمر يقول:

= شيبة» (١/ ٢٧٧)، و«مصنف عبد الرزاق» (٢/ ١٥٢)، وغيرها من كتب السنة أنه رضي الله عنه كان يطبق، ولم أجد نصّاً صريحاً أنه فعل ذلك إلى الممات ـ وهذه عبارة ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٦٢) ـ وإن كان هذا هو الظاهر.

(١) ورد عنه أنه قال: «سُنَّت لكم الركب فأمسكوا بالركب»، أخرجه الترمذي (٢٥٨) في «الصلاة»، باب ما جاء في وضع اليدين على الركبتين في الركوع، والنسائي (٢/ ١٨٥)، في «التطبيق»، باب الإمساك بالركب في الركوع، وعبد الرزاق (٢٨٦٣)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٢٩٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٨٤) من طرق عن أبي حصين عثمان بن عاصم عن أبي عبد الرحمٰن السلمي عنه.
قال الترمذي: حديث عمر حسن صحيح.
ورواه النسائي (٢/ ١٨٥) من طريق الطيالسي عن شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي عبد الرحمٰن به.
قال الدارقطني في «العلل» (٢/ ٢٤٤): ولم يتابع عليه (أي الطيالسي)، والمحفوظ حديث أبي حصين.
وروى ابن أبي شيبة (٢٧٥١)، وعبد الرزاق (٢/ ١٥٢) **بأسانيد صحيحة** عن عمر أنه كان يضع يديه على ركبتيه في الركوع.

(٢) روى عبد الرزاق (١١٣٦٦)، وسعيد بن منصور (١٦٩٣) عن ابن عيينة عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عنه أنه قال: هي يمين.
وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات.
ورواه كذلك ابن أبي شيبة (٤/ ٥٧) من طريق جويبر عن الضحاك، أن أبا بكر وعمر وابن مسعود. . .
وهذا إسناد ضعيف جداً؛ لحال جويبر.
لكن روى سعيد بن منصور في «سننه» (١٦٩٨)، وابن أبي شيبة (٤/ ٥٦)، والبيهقي (٧/ ٣٥١)، وذكره عبد الرزاق (١١٣٦٦) عن الثوري عن أشعث بن سَوَّار عن الحكم عن ابن مسعود قال: إن كان نوى طلاقاً فطلاق، وإن نوى يميناً فيمين.
وأشعث بن سوار ضعّفه أحمد وأبو زرعة وأبو داود وبُندار وابن عدي وغيرهم.
ونحو هذا ورد عنه من طريق آخر، فقد رواه ابن أبي شيبة (٤/ ٥٦) من طريق شريك عن مخول بن راشد عن عامر عنه، وشريك هو القاضي ضعيف، وعامر لعله الشعبي لكن لم يذكروا لمخول رواية عنه!
ورواه ابن أبي شيبة أيضاً من طريق يزيد بن هارون عن مخول عن أبي جعفر مثله. لا أدري هل يريد باقي الإسناد أم إلى عبد الله بن مسعود؟
وأبو جعفر هذا هو محمد بن علي بن الحسين، وهو من الثقات لكنه لم يدرك ابن مسعود.

طلقة واحدة(١).

ومنها: أن ابن مسعود كان يحرم نكاح الزانية على الزاني أبداً(٢)، وعمر

(١) اختلفت الرواية عن عمر: فقد روى عبد الرزاق (١١٣٩١)، والبيهقي (٧/ ٣٥١) عن الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن إبراهيم، قال: رُفع إلى عمر رجل فارق امرأته بتطليقتين ثم قال: أنت عليَّ حرام، قال: ما كنت لأردها عليه أبداً.
وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع، إبراهيم هذا هو ابن سعد بن أبي وقاص؛ لأنه هو الذي ذكروا أنه يروي عنه حبيب، وهو لم يدرك عمر. وفي هذه الطبقة إبراهيم النخعي وهو لم يدرك عمر أيضاً.
وروى ابن أبي شيبة (٤/ ٥٦)، وسعيد بن منصور (١٧٠١) من طريق (أيوب وخالد الحذاء) كلاهما عن عكرمة عن عمر أنه قال: الحرام يمين.
وعكرمة لم يدرك عمر أيضاً.
وروى البيهقي (٧/ ٣٥١) من طريق الثوري عن جابر عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر أنه كان يجعل الحرام يميناً، وجابر هو الجعفي ضعيف.

(٢) روى سعيد بن منصور في «سننه» (٨٩٦)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ١٥٦) من طريق عبد الوهاب وأبي عوانة عن سعيد عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عنه أنه قال: هما زانيان ما اجتمعا.
وإسناده صحيح رجاله ثقات، وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» (٣/ ٣٦٢) لكن في الإسناد تخليط.
ثم رواه البيهقي بإسناد آخر عنه.
لكن ورد عنه غير ذلك، فقد روى عبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٧٩٨) عن معمر عن قتادة عن أيوب عن ابن سيرين قال: سئل ابن مسعود عن الرجل يزني بالمرأة ثم ينكحها؟ قال: هما زانيان ما اجتمعا. قال: فقيل لابن مسعود: أرأيت إن تابا؟ قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] قال: فلم يزل ابن مسعود يرددها حتى ظننا أنه لا يرى به بأساً.
ورجاله ثقات لكنه منقطع؛ ابن سيرين لم يدرك ابن مسعود.
وروى قريباً من هذا المعنى عنه أيضاً سعيد بن منصور (٩٠٢)، والبيهقي (٧/ ١٥٦) من طريق أبي جناب الكلبي عن بُكير بن الأخنس عن أبيه عن ابن مسعود، وأبو جناب الكلبي هذا ضعفوه لكثرة تدليسه.
وروى سعيد بن منصور (٩٠٣)، ومن طريقه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٥٦) عن خلف بن خليفة عن أبي جناب به، فقال ابن مسعود: ليتزوجها.
وعلق البيهقي من طريق إبراهيم بن مهاجر عن النخعي عن همام بن الحارث عن ابن مسعود في الرجل يفجر بالمرأة ثم يريد أن يتزوجها قال: لا بأس بذلك.
وإبراهيم بن مهاجر هذا له أوهام.

يتوّبهما وينكح أحدهما الآخر[١]؟

والعجب أن المحتجين بهذا، لا يرون تقليد ابن مسعود، ولا تقليد عمر.

وتقليد مالك، وأبي حنيفة، والشافعي أحب إليهم وآثر عندهم، ثم كيف يُنسب إلى ابن مسعود تقليد الرجال وهو يقول: «لقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني أعلمهم بكتاب الله! ولو أعلم أن أحداً أعلم مني، لرحلت إليه.

قال شقيق: فجلت[٢] في حلقة من أصحاب رسول الله ﷺ فما سمعت أحداً يرد ذلك»[٣].

وكان يقول: «والذي لا إله إلا هو، ما في كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني، تبلغه الإبل، لركبت إليه»[٤].

---

(١) روى سعيد بن منصور في «سننه» (٨٨٥)، والشافعي في «مسنده» (٢/ ١٥)، ومن طريقه البيهقي (٧/ ١٥٥)، عن سفيان بن عيينة حدثني عبيد الله بن أبي يزيد عن أبيه أن رجلاً تزوج امرأة ولها ابنة من غيره، وله ابن من غيرها، ففجر الغلام بالجارية فظهر بها حَبَل، فلما قدم عمر.. فجلدهما عمر الحد وحرص أن يجمع بينهما فأبى الغلام.
وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وأبو يزيد والد عبيد الله يقال: إن له صحبة.
ورواه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٦٠) من طريق سفيان بن عيينة به، وسَمَّى الرجل الذي تزوج المرأة سباع بن ثابت.
لكن رواه عبد الرزاق (١٢٧٩٣)؛ أخبرنا ابن جريج قال: أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد أنه سمع سباع بن ثابت يقول: إن وهب بن رباح... فذكره، فسمي الرجل وهباً (وفي الصحابة موهب بن رباح)، وعلى كل حال لا يهم من وقعت معه القصة، وقد اتفقت الروايات على المعنى وهو أن عمر أراد أن يجمع بينهما بعدما زنيا وأُقيم عليهما الحد.
فإما أن تكون رواية سفيان بن عيينة هي الأرجح أو أن الروايتين كلتيهما صحيحة، والله أعلم.

(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «فجلست».

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (٩/ ٤٦ ـ ٤٧/ ٥٠٠٠)، ومسلم في «الصحيح» كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (٤/ ١٩١٢/ ٢٤٦٢) ـ ومن طريقه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٦٢) ـ وغيرهما.

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (٩/ ٤٧/ ٥٠٠٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (٤/ ١٩١٣/ ٢٤٦٣) ـ ومن طريقه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٦٣) ـ وغيرهما.

وقال أبو موسى الأشعري: كنا جئنا، وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت النبي ﷺ، من كثرة دخولهما ولزومهما[١] له[٢].

وقال أبو مسعود البدري: ـ وقد قام عبد الله بن مسعود ـ: ما أعلم رسول الله ﷺ ترك بعده أعلم بما أنزل الله من هذا القائم، فقال: أبو موسى: لقد كان يشهد إذا ما غبنا[٣] ويؤذن له إذا حُجبنا[٤]، وكتب عمر إلى أهل الكوفة: إني بعثت إليكم عمَّاراً أميراً، وعبد الله معلماً ووزيراً وهما من النجباء، من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر، فخذوا عنهما، واقتدوا بهما، فإني آثرتكم بعبد الله على نفسي[٥].

وقد صح عن ابن عمر أنه استفتى ابن مسعود في (البتة) وأخذ بقوله[٦]، ولم يكن ذلك تقليداً له، بل لمّا سمع قوله فيها تبيَّن له أنه الصواب.

فهذا هو الذي كان يأخذ به الصحابة من أقوال بعضهم بعضاً.

وقد صح عن ابن مسعود أنه قال: «اغد عالماً، أو متعلماً، ولا تكونن إمعة»[٧]. فأخرج الإمعة ـ وهو المقلد ـ من زُمرة العلماء والمتعلمين.

وهو كما قال، فإنه لا مع العلماء، ولا مع المتعلمين للعلم والحجة كما هو معروف ظاهر لمن تأمله»[٨].

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «دخولهم ولزومهم».

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٣) في «فضائل الصحابة»، باب مناقب عبد الله بن مسعود، و(٤٣٨٤) في «المغازي»، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، ومسلم (٢٤٦٠) في «فضائل الصحابة»، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه.

(٣) في مطبوع «الدين الخالص»: «إذا غبنا».

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٦١)، ومن طريقه ابن حزم (٦/ ٦٣).

(٥) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٤٧٨)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٨٨)، والبيهقي في «لمدخل» (١٠١) من طريق أبي نعيم ووكيع وسفيان، وابن حزم في «الإحكام» (٤/ ٢١١) من طريق شعبة كلهم عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب به.
وأبو إسحاق السبيعي اختلط إلا أن سفيان الثوري روى عنه قبل الاختلاط.
قال الهيثمي (٩/ ٢٩١): رجال الطبراني رجال «الصحيح» غير حارثة وهو ثقة.

(٦) ذكره ابن حزم في «الإحكام» (٤/ ٢١٤) بحرفه.

(٧) سبق تخريجه.

(٨) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٣٤ ـ ٥٣٨ ـ بتحقيقي).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ [النجم: ٥٧ ـ ٦٢]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧﴾ اقتربت القريبة وهي القيامة ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ أي: لا يدفعها[1] من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه، والنذير الحذر لها يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: إني ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] ثم قال تعالى منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه: ﴿تَعْجَبُونَ﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾[2] استهزاء وسخرية ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي: كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ أي: مستكبرون معرضون ثم قال تعالى آمراً عباده بالسجود له، والعبادة المتابعة لرسول الله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ أي: فاخضعوا له وأخلصوا ووحّدوه.

روى البخاري[3] عن ابن عباس قال: «سجد النبي ﷺ[4] وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس» وروى الإمام أحمد والنسائي[5] عن المطَّلِب بن أبي وَدَاعة قال: «قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذٍ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه»[6].

(١) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «إذاً».
(٢) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «منه».
(٣) في «صحيحه» برقم (٤٨٦٢).
(٤) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بالنجم».
(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٠ و٦/ ٣٩٩) ـ ومن طريقه النسائي (٢/ ١٦٠) ـ وفي «الكبرى» (١٠٣٠)، وعبد الرزاق (٥٨٨١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٨١٣)، والطبراني (٢٠/رقم ٦٧٩)، والطحاوي (١/ ٣٥٣)، والحاكم (٣/ ٦٣٣)، والبيهقي (٢/ ٣١٤)، **والحديث صحيح لغيره**، وحسنه شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.
(٦) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٢٦٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: القرآن كلام الله ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢] أشرق نوره في قلوب المؤمنين فنالوا به سعادة الدارين، وعمى عنه الأشقياء الكافرون والمنافقون ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾[1] [البقرة: ٧] بما كانوا يكذبون، والمقلدون وإن كانوا لا يعجبون ولا يضحكون فإنهم عن القرآن والسنة سامدون والمنتسبون للمذهب المالكي منهم لا يسجدون هذه السجدة التي سجدها النبي ﷺ وسجدها معه الإنس والجن والمسلمون والكافرون، تركوا سنة خليل الله نسياً منسيًّا، واتبعوا أمر خليلهم[2]، فإن لم يتوبوا فسيقولون يوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٣٠].

«الوجه التاسع والثلاثون:[3] قولهم: إن عبد الله كان يدع قوله لقول عمر، وأبو موسى كان يدع قوله لقول علي، وزيد كان يدع قوله لقول أُبيّ بن كعب.

فجوابه: إنهم لم يكونوا يدَعون ما يعرفون من السنة تقليداً لهؤلاء الثلاثة، كما تفعله فرقة التقليد.

بل من تأمّل سيرة القوم، رأى إنهم كانوا إذا ظهر[4] لهم السنة لم يكونوا يدعونها لقول أحد، كائناً من كان.

وكان ابن عمر يدع قول عمر إذا ظهرت له السنة، وابن عباس ينكر على من يعارض ما بلغه من السنة بقوله: قال أبو بكر، وعمر، ويقول: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟»[5].

---

(١) في الأصل: «أليم»!

(٢) يريد خليل بن إسحاق، صاحب المتن المشهور، وعرفنا به سابقاً.

(٣) سقطت قبلها، قول المصنف: «قال صاحب «الدين الخالص» ما نصه».

(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «ظهرت».

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٣٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم =

فرحم الله ابن عباس ورضي عنه، فوالله لو شاهد خلفنا هؤلاء الذين إذا قيل لهم: قال رسول الله فقالوا: قال فلان وفلان، لمن لا يداني الصحابة، ولا قريباً من قريب، وإنما كانوا يدعون أقوالهم لأقوال هؤلاء؛ لأنهم يقولون القول، ويقول هؤلاء، فيكون الدليل معهم، فيرجعون إليهم، ويدعون أقوالهم، كما يفعل أهل العلم الذين هو أحب إليهم مما سواه.

وهذا عكس طريقة فرقة أهل التقليد من كل وجه، وهذا هو الجواب عن قول مسروق: ما كنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس»[1].

= (٢٣٧٨ و٢٣٨٩) من طريق شريك عن الأعمش عن فضيل بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال... ثم جاء فيه: أراهم سيهلكون، أقول: قال رسول الله ﷺ، ويقولون قال: أبو بكر وعمر؟!

وهذا إسناد ضعيف، شريك هو ابن عبد الله القاضي ضعفوه، لسوء حفظه.

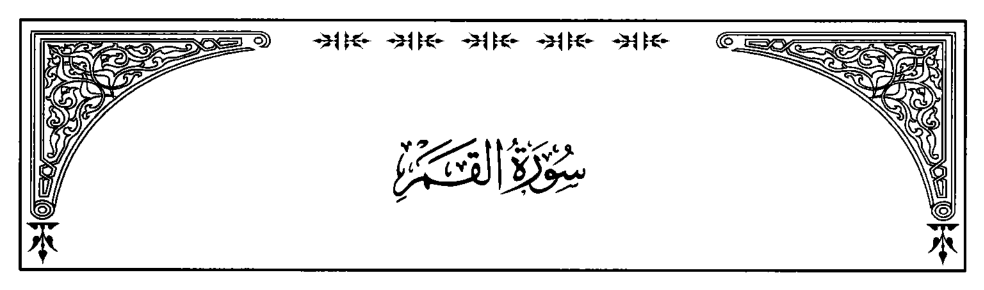
وروى الطبراني في «معجمه الأوسط» رقم (٢١) من طريق إبراهيم بن أبي عبلة عن ابن أبي مليكة عن عروة بن الزبير أنه أتى ابن عباس فقال: فقد كان أبو بكر وعمر ينهيان عن ذلك، فقال: أهما ـ ويحك ـ آثر عندك أم ما في كتاب الله وما سن رسول الله ﷺ في أصحابه، وفي أمته!

قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٢٣٤): «وإسناده حسن».

ونسب ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (٢٣٧٧) لعبد الرزاق عن معمر عن أيوب قال: قال عروة لابن عباس... فقال ابن عباس: «والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله؛ نحدثكم عن رسول الله ﷺ، وتحدثونا عن أبي بكر وعمر... **وهذا إسناد صحيح**.

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٥)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩ ـ بتحقيقي).

ومقولة «ما كنت أدع..» أسندها ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٦٧) عن جندب، وفي إسنادها جابر الجعفي، وهو ضعيف، وانظر: «الإعلام» (٣/ ٤٧٣ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٤، ٥] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]

تفسير الآيتين:

قال (ك): «﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة[١] بالرسل وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب، وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ﴾ أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾؛ يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩] وكذا[٢] قوله تعالى: ﴿وَمَا[٣] تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]»[٤].

تفسير الآية المفردة:

قال (ك): «أي: سهّلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس كما قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ[٥] مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى:

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المكذبين».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وكذلك».
(٣) في الأصل: «فما»!
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٩٥).
(٥) في الأصل: «أنزلنا»!

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾؛ يعني: هونًا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وقال الضحاك عن ابن عباس: «لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ».

(قلت) ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف**»[1] وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة. وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من[2] منزجر عن المعاصي، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن مطر ـ هو الوراق ـ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: هل من طالب علم فيعان عليه؟ وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق ورواه ابن جرير[3]»[4].

فصل

قال محمد تقي الدين: إن في كتاب الله من الأخبار والقصص والأمثال ما يفتح القلوب المقفلة الغلف والعيون العمي والآذان الصم، ولكن لا يحصل ذلك إلا لمن طلب الحق بإخلاص وتجرد من هوى نفسه الأمارة بالسوء، فهذا هو الذي ينتفع بالنذر، والمقلد المتعصب الذي اتخذ إلهه هواه لا ينتفع بذلك، وقد يسر النطق به، فترى التركي والهندي كلاهما يقرآنه بغاية التجويد مع بعد لغاتهما عن اللغة العربية، ويسر حفظه، حتى أنه يوجد في البلدان التي تحبه وتعتني به كثير من الصبيان يحفظونه في سن مبكرة فمنهم من يحفظه وهو ابن سبع سنين. يوماً من الأيام كنت أسير ومعي رفيق في شارع من شوارع (لكنو) ـ مدينة مشهورة بالهند ـ فمررت على باب قرأت في أعلاه ما نصه:

(١) أخرجه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر.
(٢) من مطبوع «تفسير ابن كثير» وسقط من الأصل.
(٣) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٢/ ١٣٢)، والدارمي (١/ ٩٩)، وأبو نعيم (٣/ ٧٦)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٩٤٥)، وعزاه السيوطي في «الدر» (٦/ ١٣٥) إلى ابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم، وعلقه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

في هذا البيت طفلة لا يتجاوز عمرها خمس سنين، تحفظ القرآن كله فمن أراد أن يشاهدها فليدخل، فدخلنا وصعدنا درجاً انتهى بنا إلى غرفة كبيرة، وجدنا فيها رجلاً ذا لحية سوداء، جالساً على حصير، ورأينا طفلة تلعب بلعب مختلفة في ناحية من الغرفة، فسلَّمنا عليه فرد علينا السلام، ودعانا إلى الجلوس فجلسنا، فقال لنا: أي جزء من القرآن تريدان أن تقرأ لكما منه هذه الطفلة؟ فقلت أنا: من قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ فلم ينادها ولم يأمرها بالقراءة، بل بدأ هو يقرأ بعد الاستعاذة، مبتدئاً بالآية التي طلبتُ أنا فتركتْ الطفلةُ اللعبَ وأقبلتْ عليه وجلستْ أمامه، وبدأت تقرأ في الموضع نفسه، فسكت هو وتركها وحدها فاستمرت كالسهم بدون تلكؤ ولا تعتعة، حتى قلنا لها: حسبك، وكانت قراءتها فصيحة ومنظرها يدل على أنها إن لم تكن بنت خمس كما هو في الإعلان لا تزيد على سبع، وهذا برهان يفسر لنا هذه الآية، وأنا أعتقد أن هذه الطفلة لو وجدت من يعلمها معنى القرآن ولغة القرآن والسنة التي تبين معناه لتعلمت ذلك في أقرب وقت. فيا أسفا على هؤلاء الذين وهبهم الله القرآن يقرأ عندهم صباح مساء، وهم في ظلماتهم يتخبطون، لا يتدبرونه ولا يتعظون به، ولا يتأدبون بأدبه، ولا يستضيؤون بنوره، أولئك هم الخاسرون، وأعطينا ذلك الرجل شيئاً من الدراهم، وقد سررنا غاية السرور، ولم ينقض عجبنا مما رأينا وسمعنا.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٣٩) ما نصه:

«الوجه الأربعون: قولهم: إن النبي ﷺ قال: «**قد سن لكم معاذ فاتبعوه**»[(١)].

فعجباً لمحتج بهذا على تقليد الرجال في دين الله وهل صار ما سنه معاذ سنة إلا بقوله: «**فاتبعوه**» كما صار الأذان سنة بقوله وإقراره وشرعه[(٢)]، لا بمجرد المنام؟

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٩٥)، والطيالسي (٥٦٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٠٤)، وأحمد (٥/ ٢٤٦)، وأبو داود (٥٠٦، ٥٠٧)، والشاشي (٢/ ١٣٦٢، ١٣٦٣)، وابن خزيمة (٣٨١ ـ ٣٨٣)، والطحاوي في «المشكل» (٤٧٨)، والطبراني (٢٠/رقم ٢٧٠)، والحاكم (٢/ ٢٧٤)، والبيهقي (١/ ٣٩١، ٤٢٠ ـ ٤٢١ و٢/ ٢٩٦ و٤/ ٢٠٠)، وصححه شيخنا الألباني لشواهده، وهو حديث طويل جدّاً، والمذكور قطعة يسيرة منه.

(٢) حديث رؤية الأذان في المنام هو حديث عبد الله بن زيد، وله طرق عن عبد الله، أحدها: طريق محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي عن محمد بن =

فإن قيل: فما معنى الحديث؟

قيل: معناه: إن معاذاً فعل فعلاً جعله الله لكم سنة؛ وإنما صار سنة لنا، حين أمر به النبي ﷺ لا لأن معاذاً فعله فقط.

وقد صح عن معاذ أنه قال: كيف تصنعون بثلاث:

١ ـ دنيا تقطع أعناقكم.

٢ ـ وزلة عالم.

٣ ـ وجدال منافق بالقرآن؟

فأما العالم، فإن اهتدى فلا تقلِّدوه دينكم، وإن افتتن فلا تقطعوا منه إياسكم، فإن المؤمن يفتتن ثم يتوب.

وأما القرآن فإن له مناراً كمنار الطريق، لا يخفى على أحد، فما علمتم منه فلا تسألوا عنه أحداً، وما لم تعلموه، فكِلُوه إلى عالمه.

= عبد الله بن زيد بن عبد ربه عن أبيه عبد الله بن زيد.
رواه من هذا الطريق: أحمد (٤/ ٤٣)، والدارمي (١/ ٢٦٨ و٢٦٩)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١٨٠ و١٨١)، وأبو داود (٤٩٩) في «الصلاة»، باب كيف الأذان، والترمذي (١٨٩) مختصراً، وابن ماجه (٧٠٦) في «الأذان»، باب بدء الأذان، وابن الجارود (١٥٨)، وابن حبان (١٦٧٩)، وابن خزيمة (٣٧١)، والدارقطني (١/ ٣٤١)، والبيهقي (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١ و٤١٥).
قال الترمذي: حسن صحيح، وقال ابن خزيمة: سمعت محمد بن يحيى (الذهلي) يقول: ليس في أخبار عبد الله بن زيد في قصة الأذان خبرٌ أصح من هذا لأن محمد بن عبد الله بن زيد سمعه من أبيه.
وقال ابن خزيمة: وخبر عبد الله بن زيد ثابت صحيح من جهة النقل.
وقد صححه أيضاً البخاري فيما نقله عنه الترمذي في «العلل الكبير»، وانظر: «تنقيح التحقيق» (١/ ٧٠٦، ٧٠٧)، «التلخيص الحبير» (١/ ٢٠٩)، «نصب الراية» (١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠)،
«الإشراف» (١/ ٢٣٣) للقاضي عبد الوهاب وتعليقي عليه.
أقول: ونحن إنما نخشى من تدليس ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع، وقد جاء في هذا الحديث: فلما خَبَّرتُها رسول الله ﷺ قال: «**إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألقها عليه؛ فإنه أندى صوتاً**». فلما أذّن بها بلال سمع بها عمر بن الخطاب فخرج إلى رسول الله ﷺ يجر رداءه وهو يقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثلما رأى! فقال رسول الله ﷺ: «**فللَّه الحمد**».

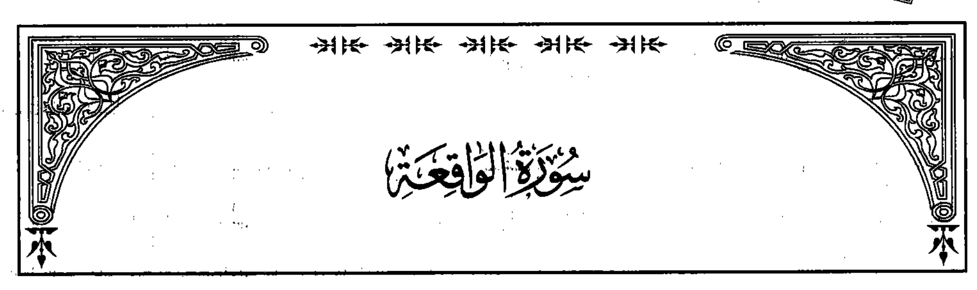
وأما الدنيا فمن جعل الله غناه في قلبه فقد أفلح، ومن لا، فليست بنافعته دنياه»[١].

فصدع رضي الله عنه بالحق، ونهى عن التقليد في كل شيء، وأمر باتباع ظاهر القرآن، وأن لا يُبالى بمن خالف فيه، وأمر بالتوقف فيما أشكل، وهذا كله، خلاف طريقة المقلدين، وبالله التوفيق»[٢].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٩٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ٤٣٨) **وصححه** ابن القيم في «الإعلام» (٣/ ٥٤٠ ـ بتحقيقي) وهو كما قال، وانظر لتمام التخريج: «الإعلام» (٢/ ١١٢، ١٩٤ ـ ١٩٥ و٣/ ٤٥٥)، «الاعتصام» (١/ ٤٩ ـ ٥٠) وتعليقي عليهما.

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٣٩ ـ ٥٤١ ـ بتحقيقي).



سُورَةُ الوَاقِعَةِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢]

قال الإمام المحقق معين الدين في تفسيره «جامع البيان» ما نصه: «﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لا: مزيدة لتأكيد القسم وردًّا لقول الكفار أنه سحر وشعر ثم استأنف القسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها، أو بمغارب نجوم السماء أو منازلها أو انتشارها يوم القيامة ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ هذا القسم الذي أقسمت به ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ كثير النفع ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ مصون من الشياطين وهو اللوح ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أي: الكتاب ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: الملائكة، زعمت قريش أن القرآن تنزلت به الشياطين فردهم الله تعالى بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ صفة أخرى للقرآن ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ متهاونون مكذبون ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ الرزق بمعنى الشكر في لغة أو شكر رزقكم الذي هو المطر ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بمعطيه وتقولون: مطرنا بنوء كذا، وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن تكذيبكم به».

فصل

قال محمد تقي الدين: هذا القرآن الكريم صنع المعجزات واعترف بها العدو والصديق حتى أعداء الدين الملاحدة، ومنهم المؤرخ المشهور جوزيف ماك

كيب، في الكتاب الذي ترجمته له: «مدنية المغاربة في إسبانيا»[١] (The Moorich Civilization in Spain): «لا توجد حضارة مبنية على الدين لأن الدين لا يثمر الحضارة أبداً، ولكن لا شك أن القرآن وتعاليم محمد نفخت في العرب روح الحياة فاجتمعوا وتعاونوا وبذلك تمت لهم الفتوحات العظيمة وورثوا حضارات الأمم السابقة كالفرس واليونانيين وعلّموها الأوروبيين»[٢].

فهذا الرجل يعادي الأديان كلها ومع ذلك لم يجد بدًّا أن يعترف أن القرآن ودعوة محمد رسول الله سبب قوة العرب والدول الإسلامية، فيا أسفاً على هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام الذين أعرضوا عن الكتاب والسنة ونبذوهما وراء ظهورهم فماتوا موتاً معنويّاً تامّاً، وكذلك المقلدون وأصحاب الطرائق بإعراضهم عن الكتاب والسنة جعلوا الدين جسماً بلا روح، فكان ذلك سبب شقائهم وحرمانهم.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٠) ما نصه:

«الوجه الحادي والأربعون: قولكم: إن الله سبحانه أمر بطاعة أولي الأمر وهم العلماء، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به.

فجوابه: إن أولي الأمر قد قيل: هم الأمراء، وقيل: هم العلماء[٣]، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

والتحقيق: إن الآية تتناول الطائفتين، وطاعتهم من طاعة الرسول، لكن خفي على المقلدين أنهم إنما يطاعون في طاعة الله، إذا أمروا بأمر الله ورسوله،

(١) طبع فيما أعلم ـ مرتين ـ:
الأولى: في بغداد، وعنوانه «الهلال والصليب مدلول العصور المظلمة أو القرون الوسطى» في (١٨٢) صفحة.
والأخرى: في المغرب عن مكتبة المعارف، الدار البيضاء، سنة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥) بعنوان «مدنية المسلمين في إسبانيا» في (١١١) صفحة، عدا الفهارس.
والكتاب مترجم عن الإنكليزية، وللهلالي حواشٍ مفيدة، وتعقبات متينة عليه، وأودعته في (قسم الترجمة) من (مقالات الهلالي)، إذ وجدته منشوراً ـ أو بعضه ـ في أكثر من مجلة، وهي الآن قيد التنضيد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

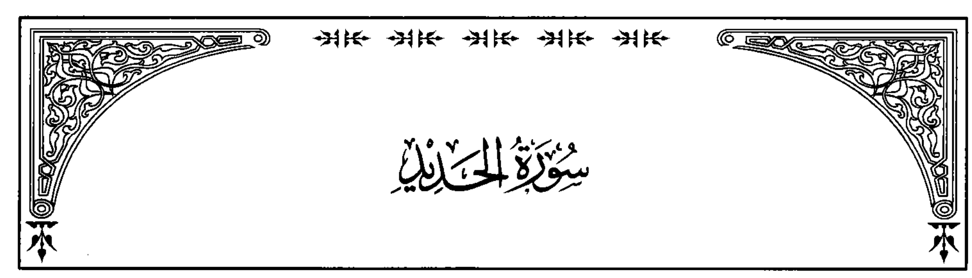
(٢) (ص٢١، ط. المغربية) بنحوه، وانظر في المعنى نفسه ـ مفصلاً ـ منه (ص٨٧، ٩٢ ـ ٩٣).

(٣) سبق تخريجه.

فكان العلماء مبلغين لأمر الرسول، والأمراء منفذين له، فحينئذٍ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله؟

فأين في الآية تقديم آراء الرجال على سنة رسول الله ﷺ وإيثار التقليد عليها؟»[١]

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٦) وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤١ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قــولــه تــعــالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩﴾ [الحديد: ٩]

قال (ك): «حججاً واضحات ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ﴿لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين[١] ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: في إنزاله الكتاب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبه»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: لا يرتاب أحد لا مسلم ولا كافر كما قدمنا من كلام جُزِيف ماك كيب عدو الأديان أن القرآن أخرج العرب من الظلمات إلى النور، وأخرج جميع الدول الإسلامية السابقة من ظلمات الجهل والفقر والذلة والتشتت والضعف إلى أضدادها، وفي قتال المسلمين لجميع دول أوربا بملوكها وجيوشها، مدة مئة وتسعين سنة على أرض فلسطين وما حولها، وانتصار المسلمين عليهم شاهد من أعظم الشواهد للمقارنة مع استيلاء ثلاثة ملايين من غرباء الآفاق من اليهود إلى المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة المقدسة عند المسلمين، ويقابل هذه الملايين الثلاثة مائة مليون من العرب وست مائة مليون[٣] من المسلمين غير العرب، وقد حارب العرب اليهود مراراً وتكراراً فلم يحصلوا

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والإيمان».
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٢٢).
(٣) أصبح عددهم الآن مليار ومئتي مليون، وهم ـ إلا من رحم ـ غثاء كغثاء السيل، ولا قوة إلا بالله!

على طائل، فكل من اتبع القرآن والسنة من الشعوب والدول والأفراد يخرجه الله من الظلمات إلى النور، وكل من خالفهما بعد المعرفة يخرجه الله من النور إلى الظلمات، ومن المخالفين لهما المقلدون وأصحاب الطرائق الذين فرقوا دينهم وصاروا شيعاً.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٠) ما نصه:

«الوجه الثاني والأربعون: إن هذه الآية من أكبر الحجج عليهم وأعظمها إبطالاً للتقليد، وذلك من وجوه:

أحدها: الأمر بطاعة الله التي هي امتثال أمره واجتناب نهيه.

الثاني: طاعة رسوله، ولا يكون العبد مطيعاً لله ورسوله حتى يكون عالماً بأمر الله.

ومن أقر على نفسه بأنه ليس من أهل العلم بأوامر الله ورسوله، وإنما هو مقلد فيها لأهل العلم، لم يمكنه تحقيق طاعة الله ورسوله البتة.

الثالث: إن أولي الأمر قد نهوا عن تقليدهم كما صح ذلك عن معاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وغيرهم من الصحابة، وذكرناه نصًا عن الأئمة الأربعة وغيرهم(١).

وحينئذٍ فطاعتهم في ذلك: إن كانت واجبة بطل التقليد، وإن لم تكن واجبة بطل الاستدلال.

الرابع: إنه سبحانه قال في الآية نفسها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]. وهذا صريح في إبطال التقليد، والمنع من رد المتنازع فيه إلى رأي، أو مذهب، أو تقليد، فإن قيل: فما هي طاعتهم المختصة بهم؟ إذ لو كانوا إنما يطاعون فيما يخبرون به عن الله ورسوله، كانت الطاعة لله ورسوله لا لهم.

قيل: وهذا هو الحق، وطاعتهم إنما هي تبع لا استقلال، ولهذا قرنها بطاعة الرسول، ولم يُعِدْ العامل، وأفرد طاعة الرسول وأعاد العامل(٢)، لئلا يتوهم أنه إنما يطاع تبعاً كما يطاع أولو الأمر تبعاً، وليس كذلك.

(١) سبق بيان ذلك مفصلاً مع تخريجه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٢) أي لم يقل: «وأطيعوا أولي الأمر»، وإنما قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.

بل طاعته واجبة استقلالاً، كان ما أمر به ونهى عنه في القرآن أو لم يكن»[١].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: أما آن أن تلين قلوبهم عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه، قال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة [سنة][٢] من نزول القرآن فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي حاتم ثم روى هو ومسلم عن ابن عباس[٣] قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين. كذا رواه مسلم في آخر «الكتاب» وأخرجه النسائي وابن ماجه والبزار عن ابن مسعود[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي: في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧). وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤١ ـ ٥٤٢ ـ بتحقيقي).

(٢) غير موجود في مطبوع «تيسير العلي القدير».

(٣) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «ابن مسعود».

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٢٧)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٨١)، وابن ماجه (٤١٩٢)، والبزار في «مسنده» (٤/ ٢٧٥).

﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية»[(١)].

فصل

قال محمد تقي الدين: من قرأ القرآن لوجه الله على الطريقة التي قرأه عليها أصحاب رسول الله ﷺ ،لا بد أن يخشع عند سماعه وأن يعمل به وأن يتحاكم إليه ويحكمه ويتأدب بأدبه ويستضيء بنوره، أما الذي لم يؤمن به ولم يقرأه لله ولا على طريقة أصحاب رسول الله الذين كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتجاوزوهن حتى يعرفوا معناهن والعمل بهن، بل قرأه ليأكل به أو ليفخر به، فهو جدير أن لا يتدبر آياته ولا يخشع ولا يتذكر ولا يتأثر، وهذه حال أكثر قرائه في هذا الزمان ـ لا كثرهم الله ـ فإن كثرتهم تجلب غضب الله وتكثر من معصية الله وتبعد عن طاعة الله، والمقلدون لا ينتفعون بالقرآن ولو فهموا معناه؛ لأنهم لا يعملون به إلا إذا وافق مقلدهم ومذهبهم.

قال صاحب «الدين الخالص» (٣/٣٤١) ما نصه:

«الوجه الثالث والأربعون: قولهم: إن الله ﷻ أثنى على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وتقليدهم ليس[(٢)] اتباعهم بإحسان، فما أصدق المقدمة الأولى وما أكذب الثانية!

بل الآية من أعظم الأدلة ردًّا على فرقة التقليد، فإن اتباعهم هو سلوك سبيلهم ومنهاجهم، وقد نهوا عن التقليد وكون الرجل إمّعة، وأخبروا أنه ليس من أهل البصيرة.

ولم يكن فيهم ـ ولله الحمد ـ رجل واحد على مذهب هؤلاء المقلدين، وقد أعاذهم الله وعافاهم، مما ابتلي به من يرد النصوص لآراء الرجال وتقليدهم[(٣)]، فهذا ضد متابعتهم وهو نفس مخالفتهم.

فالتابعون لهم بإحسان حقًّا هم أولو العلم والبصائر، الذين لا يقدمون على كتاب الله وسنة رسوله رأياً ولا قياساً، ولا معقولاً، ولا قول أحد من العالمين،

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/٣٠٩ ـ ٣١٠).

(٢) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «هو».

(٣) في مطبوع «الدين الخالص»: «وتقليدها».

ولا يجعلون مذهب أحد عياراً على القرآن والسنة[١]، فهؤلاء أتباعهم حقّاً، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته»[٢].

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد: ٢٨ ـ ٢٩]

قال (ك): «قد تقدم أنه ورد في «الصحيحين»[٣] عن أبي موسى الأشعري أن مؤمني أهل الكتاب يؤتون أجرهم مرتين[٤] كما في الآية في سورة القصص (٤٥) قال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي: ضعفين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وزادهم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يعني: هدىً يتبصّر به من العمى والجهالة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ففضلهم بالنور والمغفرة، رواه ابن جرير[٥]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩]. روى أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي من**

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «والسنن».

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨). وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤٢ ـ بتحقيقي).

(٣) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «الصحيح».

(٤) أخرجه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

(٥) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٢/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧) من مرسل سعيد بن جبير، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه شيخ ابن جرير محمد بن حميد ضعيف بل متهم، ومهران صدوق له أوهام سيئ الحفظ، ووصله الطبراني في «الأوسط» (٧٦٦٢) وفيه شيخه محمد بن موسى الاصطخري، لم أظفر له بترجمة، ولذا قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٢١) بعد عزوه لـ«أوسط الطبراني»: «وفيه من لم أعرفه». وقال السيوطي في «لباب النقول» (ص٢٠٥): «بسند فيه من لا يعرف»، وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٤١٩) للزيلعي.

صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط؟[١] فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء! قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء»[٢]. ورواه البخاري»[٣] «قال ابن جرير: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي: ليعلم، وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها «لكي يعلم»[٤] وكذا عطاء بن عبد الله وسعيد بن جبير»[٥].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من اتقى الله بامتثال الأوامر واجتناب المنهيات لا بد أن يتبع كتاب الله وسنة رسوله، وحينئذٍ يجعل الله له نوراً يمشي به في الناس، ويبارك له في رزقه وعمله وعلمه وفي كل شيء من أمر دينه ودنياه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] أي: يفرج عنه كل كربة ويأتيه الرزق الحسي والمعنوي من الجهات التي لا يظن أنه يأتيه منها، والمقلد وصاحب الطريقة والحزبي والمتعصب للوطن أو الجنس يمنعه ذلك من اتباع كتاب الله وسنة رسوله، فلا يحصل على شيء من تلك الفضائل.

قال المحقق القنوجي في «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٢) ما نصه:

«الوجه الرابع والأربعون: إن أتباعهم لو كانوا هم المقلدين الذين هم

(١) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «ألا».

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٨)، وأحمد (٢/ ٦).

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣١٦).

(٤) هكذا قرأها ابن جبير وعكرمة وابن مسعود وابن عباس، انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٩)، و«إعراب القرآن» (٣/ ٣٧٠) للنحاس، و«معاني القرآن» (٣/ ١٣٧)، و«المحرر الوجيز» (١٤/ ٣٣٠)، و«فتح الباري» (٨/ ٤٨٢)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٢٤٩).
وعزى السيوطي في «الدر المنثور» (١٤/ ٢٩٧) لعبد بن حميد وابن المنذر أن سعيد بن جبير قرأها هكذا.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٤٠).

مقرّون على أنفسهم، وجميع أهل العلم على أنهم ليسوا من أولي الأمر، لكان سادات العلماء الدائرين مع الحجة ليسوا من أتباعهم، والجهال أسعد بأتباعهم منهم، وهذا عين المحال، بل من خالف واحداً منهم للحجة، فهو المتبع له ، دون من أخذ قوله بغير حجة، وهكذا القول في أتباع الأئمة.

معاذ الله أن يكونوا هم المقلدين لهم الذين ينزلون آراءهم منزلة النصوص، بل يتركون لها النصوص، فهؤلاء ليسوا من أتباعهم.

وإنما أتباعهم من كان على طريقهم، واقتفى منهاجهم.

ولقد أنكر بعض المقلدين على شيخ الإسلام (ابن تيمية) في تدريسه بمدرسة ابن الحنبلي، وهي وقف على الحنابلة، والمجتهد ليس منهم.

فقال: «إنما أتناول ما أتناوله منها على معرفتي بمذهب أحمد، لا على تقليدي له»[١]، ومن المحال أن يكون هؤلاء المتأخرون على مذهب الأئمة دون أصحابهم الذين لم يكونوا يقلدونهم.

فأتبع الناس لـ(مالك) ابن وهب وطبقته، ممن يحكم بالحجة، وينقاد للدليل أين كان.

وكذلك أبو يوسف ومحمد أتبع لأبي حنيفة من المقلدين له مع مخالفتهما له.

كذلك البخاري، ومسلم[٢]، وأبو داود، والأثرم، وهذه الطبقة من أصحاب أحمد أتبع له من المقلدين المحض في المنتسبين إليه.

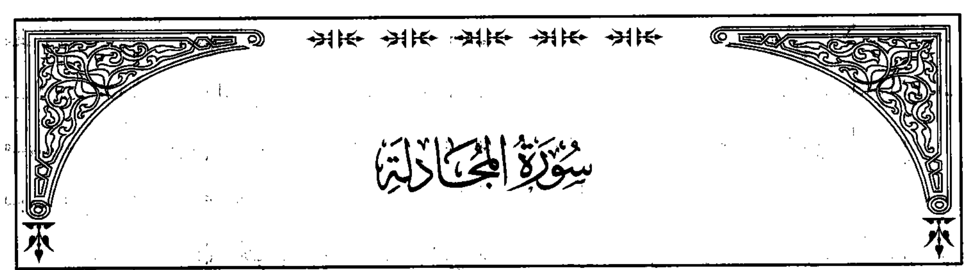
وعلى هذا، فالوقف على أتباع الأئمة أهل الحجة والعلم أحق به من المقلدين في نفس الأمر»[٣].

---

(١) سبق ذكره.

(٢) انظر في تحقيق مذهبه الفقهي وتأكيد المذكور هنا ما حققناه في كتابنا: «الإمام مسلم ومنهجه في الصحيح» (١/ ٣٧ ـ ٤٧).

(٣) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٨). وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤٢ ـ ٥٤٣ ـ بتحقيقي).



سُورَةُ المُجَادلَةِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١]

قال (ك): «يخبر تعالى عن الكفار المعاندين المحادين[١] لله ورسوله، يعني: الذين هم في حد، والشرع في حد [آخر][٢]، أي مجانبون للحق مشاقون له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: في الأشقياء الأذلين في الدنيا والآخرة ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي: قد حكم وكتب وقدر بأن النصرة لله ولكتبه[٣] ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين وأن النصر للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١][٤].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من بلغته دعوة محمد ﷺ على وجهها وعرفها حق المعرفة ثم تنكّر لها ونبذها وراءه واستبدلها بالقوانين والأعراف والعادات التي لم تنزل من السماء وإنما جاءت من الأرض، فهو محاد لله ولرسوله ولا بد أن يكون من الأذلين لا من الأذلاء فقط بل من الأذلين، أي أذل أهل عصره، وأنت إذا تأملت حال المسلمين في الوقت الحاضر وعددهم سبع مائة مليون تجدهم أذل الناس، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقٗا وَعَدْلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» وفي الأصل: «المعادين»!
(٢) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولكتابه».
(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٢٨).

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾. وكل من بلغته سنة النبي ﷺ وعرف صحتها وخالفها لتقليد مذهب أو طريقة أو الانتماء إلى حزب أو قومية كان مستحقًّا هذا الوعيد، **فيا أيها المسلمون اتقوا الله وارجعوا إلى سنة نبيكم، ودعوا التفرقة والتحزب، وكونوا أمة واحدة،** إِلَٰهُهَاَ واحد ونبيها واحد وكتابها واحد وشريعتها واحدة ودينها واحد، اللهم اهدنا وإياهم يا رب العالمين إلى اتباع صراطك المستقيم.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٣) ما نصه:

«الوجه الخامس والأربعون: قولهم: يكفي في صحة التقليد الحديث المشهور: «**أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم**»[(١)] جوابه من وجوه:

أحدها: إن هذا الحديث قد روي من طريق الأعمش، عن أبي سفيان عن جابر، ومن حديث سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، ومن طريق حمزة الجزري[(٢)] عن نافع عن ابن عمر، لا يثبت شيء منها.

قال ابن عبد البر[(٣)] وذكر سنده إلى البزار أنه قال: «وأما ما يروى عن النبي ﷺ: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**» فهذا الكلام لا يصح عن النبي ﷺ».

الثاني: أن يقال لهؤلاء المقلدين: فكيف استجزتم ترك تقليد النجوم التي يهتدى بها، وقلدتم من هو دونهم بمراتب كثيرة؟

فكان تقليد مالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، آثر عندكم من تقليد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، فما دل عليه الحديث خالفتموه صريحاً، واستدللتم به على تقليد من لم يتعرض له بوجه.

الثالث: إن هذا يوجب عليكم تقليد من ورث[(٤)] الجد مع الإخوة منهم، ومن أسقط الإخوة به معاً، وتقليد من قال: الحرام يمين، ومن قال: هو طلاق، وتقليد من حرم الجمع بين الأختين بملك اليمين، ومن أباحه.

(١) سبق تخريجه من جميع الطرق الآتية، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٢) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «الحريري»!

(٣) في «الجامع» (٢/ ٩٢٣ ـ ٩٢٤)، ونقل قول البزار هذا: ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٨٣)، وابن الملقن في «تذكرة المحتاج» (ص٦٨)، والزركشي في «المعتبر» (٨٣)، وابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (١/ ١٤٧).

(٤) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «ورت»!

وتقليد من جوز للصائم أكل البرد، ومن منع منه، وتقليد من قال: تعتد المتوفى عنها زوجها بأقصى الأجلين، ومن قال بوضع الحمل.

وتقليد من قال: يحرم على المحرم استدامة الطيب، وتقليد من أباحه.

وتقليد من جوز بيع الدرهم بالدرهمين، وتقليد من حرمه.

وتقليد من أوجب الغسل من الإكسال، وتقليد من أسقطه.

وتقليد من ورَّث ذوي الأرحام، ومن أسقطهم.

وتقليد من رأى التحريم برضاع الكبير، ومن لم يره.

وتقليد من منع تيمم الجنب، ومن أوجبه.

وتقليد من أباح لحوم الحمر الأهلية، ومن منع منها.

وتقليد من رأى النقض بمس الذكر ومن لم يره.

وتقليد من رأى بيع الأمة طلاقها، ومن لم يره.

وتقليد من وقف المولى عند الأجل، ومن لم يقفه[(١)].

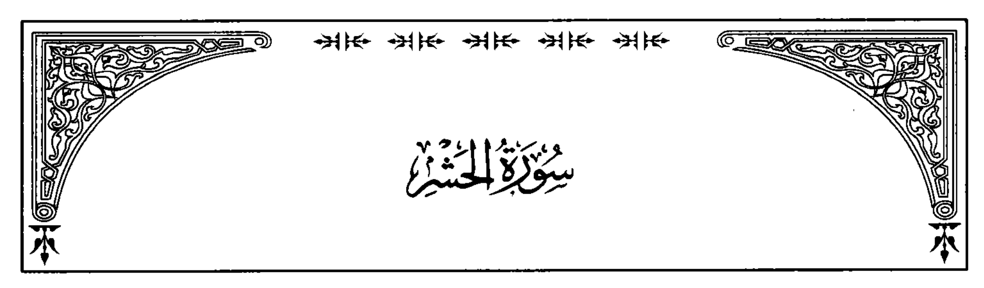
وأضعاف أضعاف ذلك مما اختلف فيه أصحاب رسول الله ﷺ، فإن سوغتم هذا، فلا تحتجوا بقول على قول، ومذهب على مذهب، بل اجعلوا الرجل مخيراً في الأخذ بأي قول شاء من أقوالهم، ولا تنكروا على من خالف مذاهبكم، واتبع قول أحدهم. وإن لم تسوغوه فأنتم أول مبطل لهذا الحديث ومخالف له وقائل بمقتضاه، وهذا مما لا انفكاك لكم منه.

الرابع: إن الاقتداء بهم، يحرم عليكم التقليد، ويوجب الاستدلال، وتحكيم الدليل كما كان عليه القوم ﷺ، وحينئذٍ فالحديث من أقوى الحجج عليكم وبالله التوفيق»[(٢)].

---

(١) سبق ذكر جميع الفروع المزبورة مع تخريجها بالتفصيل، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠). وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤٣ ـ ٥٥٤ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧]

قال (ك): «أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ...﴾ إلى آخرها. والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه[(١)]، روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ـ وقال مرة: قوت سنته ـ، وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله ﷻ». هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً، وقد أخرجه الجماعة في كتبهم إلا ابن ماجه[(٢)].

والمعلوم أن ما تركه رسول الله ﷺ بعد وفاته فهو صدقة لا يرثه أحد لقوله: «**لا نورث ما تركنا صدقة**»[(٣)] ولهذا فقد منع أبو بكر الصديق فاطمة مما ترك رسول الله ﷺ مستنداً إلى هذا الحديث، وكان أبو بكر على حق في ذلك، فلما توفي أبو بكر وتولى من بعده الخلافة عمر بن الخطاب جاء بعد زمن من

(١) في الأصل: «ووجوهه»!

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧)، والترمذي (١٧١٩)، وأبو داود (٢٩٦٥)، والنسائي (٤١٤٠)، وأحمد (١/ ٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث أبي بكر.

خلافته العباس وعلي ودخلا عليه، فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقضي بيني وبين هذا، فأقبل عليهما عمر، وقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله قال: «**لا نورث، ما تركناه**[(١)] **صدقة**»؟ فقالا: نعم... ثم قال: فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ: «**لا نورث، ما تركنا صدقة**». والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر، فلما توفي قلت: أنا ولي رسول الله وولي أبي بكر، فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها فقلت: إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تلياها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها، فأخذتماها مني على ذلك، ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك، والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إليه). أخرجوه من حديث الزهري به[(٢)] وكان اللذان[(٣)] سألاه ـ أي العباس وعليًّا[(٤)] ـ أموالَ بني النضير[(٥)] التي كانت خالصة لرسول الله، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر.

روى ابن أبي حاتم عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة، أشيء وجدته في كتاب الله تعالى، أو

(١) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «تركنا».
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧)، وأبو داود (٢٩٦٣، ٢٩٦٤)، والترمذي مختصراً (١٦١٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٧٥).
(٣) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «الذي».
(٤) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «وعلي».
(٥) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «النظير»!

عن رسول الله ﷺ؟ قال: بلى شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله. قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول! قال: فما وجدتِ فيه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة، قالت: فلعله في بعض أهلك، قال: فادخلي فانظري فدخلت فنظرت ثم خرجت، قالت: ما رأيت بأساً. فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[1] [هود: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره فإنه شديد العقاب لمن عصاه، وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ من أعظم الحجج على إبطال التقليد، فإن جميع الأحكام يجب أن نأخذها من الرسول ﷺ، وكل من عداه من العلماء من عصر الصحابة إلى يوم القيامة ليس لهم إلا التبليغ، ومن جعل لهم الحكم فقد اتخذهم أرباباً من دون الله؟

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٤) ما نصه:

«الوجه السادس والأربعون: قولكم: قال عبد الله بن مسعود: «من كان مستنًّا، فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد»[3].

فهذا من أكبر الحجج عليكم من وجوه: فإنه نهى عن الاستنان بالأحياء وأنتم تقلدون الأحياء والأموات.

والثاني: إنه عيَّن المستن بهم، بأنهم خير الخلق، وأبر الأمة، وأعلمهم، وهم الصحابة.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٣٤٦) وأصل القصة في «الصحيحين» وغيرهما فأخرجها البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥)، وانظر تعليقي على: «إعلام الموقعين» (٤/ ٤١٣).

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥).

(٣) سبق تخريجه.

وأنتم معاشر المقلدين لا ترون تقليدهم ولا الاستنان بهم، وإنما ترون تقليد فلان وفلان، ممن هو دونهم بكثير.

الثالث: إن الاستنان بهم هو الاقتداء بهم، وهو بأن يأتي المقتدي بمثل ما أتوا به، ويفعل كما فعلوا، وهذا يبطل قبول قول أحد بغير حجة كما كان الصحابة عليه.

الرابع: إن ابن مسعود قد صح عنه النهي عن التقليد، وأن لا يكون الرجل إمعة لا بصيرة له[١]، فعلم أن الاستنان عنده غير التقليد»[٢].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ١٨ ـ ٢١]

قال (ك): «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل ما به أمر وترك ما عنه زجر، وقوله تعالى: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تأكيد ثانٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: اعلموا أنه سبحانه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه[٣] من أموركم جليل ولا حقير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي: لا تنسوا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٠)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥ ـ بتحقيقي).

(٣) من مطبوع «تيسير العلي القدير»، وسقط من الأصل!

ذكر الله تعالى فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزاء من نوع العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨]. وكثيرةٌ الآيات الدالة[١] على أن الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: الناجون المسلَّمون من عذاب الله ﷻ»[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآية.

قال (ك): «يقول تعالى معظماً لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: إذا كان الجبل مع[٣] قساوته وغلظته وصممه لو سمع وفهم هذا القرآن فتدبرَ بِما فيه لخشع وتصدع من ثقله ومن خوف الله وخشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم آياته؟ وكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشيته تبارك وتعالى؟ ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد ذكر في الحديث المتواتر[٤]: «إن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حنَّ

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «الدالات».
(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠).
(٣) بدلها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «رغم».
(٤) أخرجه البخاري (٢٠٩٥) من حديث جابر بن عبد الله، وانظر لتواتره: «نظم المتناثر» (٢٢١ ـ ٢٢٣) رقم (٢٦٣) و«لقط اللآلئ المتناثرة» (ص٢٨ ـ ٣٠) رقم (٤).

الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده: فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله من الجذع»(١).

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من أعرض عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقد نسي الله، وجزاؤه أن ينسيه الله مصالح نفسه؛ أي يمهله ولا يعجل عقابه فيزداد اطمئناناً إلى ضلاله حتى يأتيه العذاب بغتة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥] وهذا القرآن الذي وصفه الله تعالى بهذه الصفة وهي أنه لو أنزل على جبل وأعطي ذلك الجبل العقل والفهم لتصدع، أي: تشقق وتباينت أجزاؤه خوفاً من الله تعالى، فالذي لا يؤثر فيه القرآن قلبه أقسى من الجبل ولا يعود وبال ذلك إلا عليه، ومن أعرض عن الكتاب والسنة بسبب تقليد الآباء والشيوخ فقد عرض نفسه للهلاك في العاجل والآجل.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٥) ما نصه:

«الوجه السابع والأربعون: قولكم: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»(٢) وقال: «**اقتدوا باللذين من بعدي**»(٣).

فهذا من أكبر حججنا عليكم في بطلان ما أنتم عليه من التقليد، فإنه خلاف سنتهم.

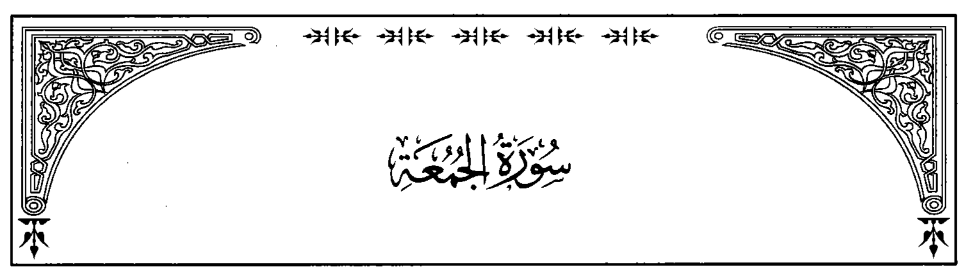
ومن المعلوم بالضرورة أن أحداً منهم لم يكن يدع السنة ـ إذا ظهرت ـ لقول غيره، كائناً من كان، ولم يكن له معها قول البتة، وطريقة فرقة التقليد خلاف ذلك»(٤).

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

(٢) سبق تخريجه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٠). وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٥٥ ـ بتحقيقي).



سُورَةُ الجُمُعَةِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٥]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الأميّون هم العرب وتخصيص الأميّين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنّة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وهو كذلك لغيرهم يتذكرون به، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم وقد تقدم تفسير ذلك في (سورة الأعراف) بالآيات والأحاديث الصحيحة، وهذه الآية هي مصداق إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩] فبعثه الله سبحانه وتعالى ـ وله الحمد والمنة ـ على حين فترة من الرسل وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدّلوه

وغيَّروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله تعالى، كما فعل أهل الكتاب الذين بدَّلوا كتبهم وحرَّفوها وأوَّلوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع كامل شامل يدعو الجميع إلى ما يقربهم إلى الجنة وما يبعدهم عن النار.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ روى الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «**لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال ـ أو رجل ـ من هؤلاء**»[1].

ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق بالسند إلى أبي هريرة به، ففي هذا دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم، [إلى] الله ﷻ، وقال مجاهد وغيره في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ قال: هم الأعاجم وكل من صدّق النبي من غير العرب، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره»[2].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ الآية.

قال (ك): «يقول تعالى ذامّاً لليهود الذين أُعطوا التوراة وحُمِّلوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي: إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها فهو يحملها حملاً حسِّياً لا يدري ما عليه، وكذلك اليهود في حملهم التوراة التي أوتوها حفظوها لفظاً ولم يفهموها ولا عملوا بمقتضاها، بل أوَّلوها وحرفوها[3] وبدلوها، فهم أسوأ حالاً من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦)، والترمذي (٣٣٠٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٢٧٨، ١٨٥٩٢)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٥٥)، وابن جرير (٢٢/ ٦٣٠) كلاهما في «التفسير».

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٦١).

(٣) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «وصرفوها».

كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال تعالى هاهنا: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ روى الإمام أحمد[(١)] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة»**.»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أخبرنا الله تعالى أن الرسول ﷺ جاء إلى الناس ليقرأ عليهم القرآن، ويشرحه لهم بأقواله وأفعاله وتروكه، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ ويطهرهم بذلك من الشرك والمعاصي إذا عملوا به ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: الكتاب هو القرآن. والحكمة هي السنة، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤] فمن تلقى الكتاب والحكمة بإيمان وإخلاص من الجماعات والأفراد أسعده الله بهما سعادة كاملة في روحه وجسمه وعاجله وآجله، ومن أعرض عنهما ولم يقبلهما ولم يعمل بهما شقي شقاء تامًّا، ومن الذين يشقون بهما المقلدون وأصحاب الطرائق والأحزاب المؤسسة على اتباع الهوى، والذين غووا بالعصبية القومية والوطنية واتبعوا قول هتلر: (جرمانية فوق الجميع)، ومعنى ذلك أنه يسعى هو ومن اتبعه لتقوية قومه وإسعاد قومه ولا يهمه أن يشقى جميع الناس، وهذه عقيدة كل مستعمر وكل ظالم.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٥) ما نصه:

«الوجه الثامن والأربعون: إنه ﷺ قرن سنتهم بسنة الخلفاء الراشدين، في[(٣)] وجوب الاتباع[(٤)]، والأخذ بسنتهم ليس تقليداً لهم، بل اتباعاً لرسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٠)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٢٥)، والبزار (٦٤٤)، والرامهرمزي في «الأمثال» (ص٩١)، والطبراني (١٢٥٦٣) **وإسناده ضعيف**، فيه مجالد بن سعيد، وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٨٧): «رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير» وفيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية».
وقسم من الحديث: «**الذي يقول: له أنصت**» نحوه في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٦٢).

(٣) في مطبوع «الدين الخالص»: «بسنته في...».

(٤) ورد ذلك في حديث العرباض بن سارية، وقد سبق لفظه وتخريجه في (٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

كما أن الأخذ بالأذان لم يكن تقليداً لمن رآه في المنام[١]، والأخذ بقضاء ما فات المسبوق من صلاته بعد سلام الإمام لم يكن تقليداً لمعاذ، بل اتباعاً لمن أمرنا بالأخذ بذلك[٢]، فأين التقليد الذي أنتم عليه من هذا؟

يوضحه الوجه التاسع والأربعون: إنكم أول مخالف لهذين الحديثين، فإنكم لا ترون الأخذ بسنتهم والاقتداء بهم واجباً، وليس قولهم عندكم حجة، وقد صرح بعض علماؤكم أنه لا يجوز تقليدهم، ويجب تقليد الشافعي، فمن العجائب احتجاجكم بشيء أنتم أشد الناس خلافاً له. وبالله التوفيق»[٣].

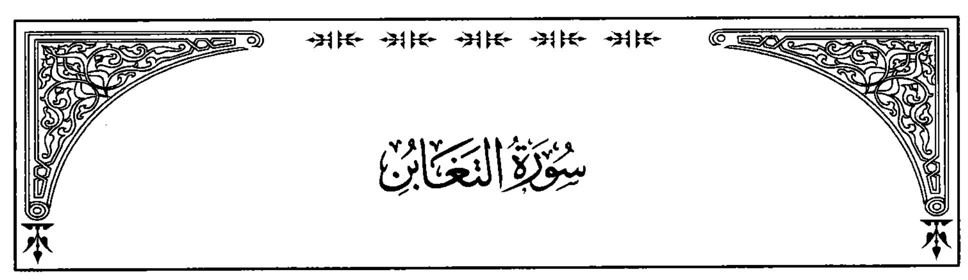
---

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) يشير إلى قوله ﷺ: **«إن معاذاً قد سنَّ لكم، فكذلك فافعلوا» قاله في شأن الصلاة حيث تأخّر، فصلى ما فاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً، ثم يدخلون مع الإمام.**
أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٦)، وأبو داود (٥٠٧)، والحاكم (٢/ ٢٧٤)، والبيهقي (٢/ ٢٩٦ و٣/ ٩٣) من طريق عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن معاذ، وهذا إسناد منقطع، عبد الرحمٰن لم يسمع من معاذ، قاله ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢/ ٤٢).
وأخرجه أبو داود (٥٠٦)، والبيهقي (٣/ ٩٣)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٧٠ ـ ٧١) من طريق ابن أبي ليلى قال: حدثنا أصحابنا، وفيه: «فقال معاذ» قال البيهقي (٢/ ٢٩٦): «وهذا أصح؛ لأن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى لم يدرك معاذاً، ففيه جهالة الأصحاب» وضعفه ابن حزم، خلافاً لما نقله ابن التركماني عنه!

(٣) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٠ ـ ٢٤١). وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦ ـ بتحقيقي).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ [التغابن: ٨ ـ ١٠]

قال (ك): «﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾؛ يعني: القرآن ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة، سُمي بذلك لأنه يُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ قال ابن عباس: «هو اسم من أسماء يوم القيامة»[(١)] وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وقد فسر بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ١٠) ونسبه في «الدر المنثور» (١٤/ ٥١٥) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٧٤).

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ في هذا الزمان يقول الجهال الأغمار المتأثرون بالدعاية الاستعمارية استعماراً روحيًّا وهو شر من الاستعمار المادي: ما فائدة الإيمان بالله ورسوله؟ أين النور الذي أنزله الله بزعمكم أيها المؤمنون؟ فنقول لهم: اقرؤوا التاريخ العالمي لا الإسلامي وحده؛ لأنكم لا تؤمنون بالإسلام، تتيقنوا أن الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله ـ وهو القرآن والسنة التي تشرحه ـ أحدث انقلاباً في جزيرة العرب لم ير الناس مثله في التاريخ، فقد كان العرب ثلاثة أقسام:

القسم الشرقي: يحكمه الفرس، والقسم الغربي: يحكمه البِزَنطيون اليونانيون، والقسم الأوسط: كان أهله فوضى كل قبيلة لها شيخ يتقاتلون فيما بينهم بالقتل والنهب والسبي، فما الذي غيّر حالهم وجعلهم أمة واحدة خرجت من الشتات إلى الاجتماع، ومن الجهل إلى العلم، ومن الضعف إلى القوة، ومن مساوئ الأخلاق، إلى مكارم الأخلاق ومن كونها محكومة إلى كونها حاكمة، ومن التوحش إلى أعلى درجات المدنية؟ وسبب ذلك هو الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله الله.

وقد تقدم نقل كلام[1] الملحد الكبير الذي هو عدو جميع الأديان: جوزيف ماك كيب الذي ترجمتُ كتابه وقد تقدم ذكره[2] قريباً، اعترف بأن دعوة محمد والقرآن هو الذي نفخ في العرب روح الحياة وفتح بصائرهم لتحصيل المدنية، وقد نقل هذا الرأي عن جميع العلماء الأحرار من الأوروبيين والأمركيين وهو واضح ومن أراد اليقين فليقرأ كتابي «مدنية المغاربة في إسبانيا»[3].

فأنتم ترون الأوربيين الذين تحاولون تقليدهم كما يقلد القرد الإنسان والصبيان الرجال بلا علم ولا عقل، اعترفوا بهذا النور، فجحدكم له أنتم جهل وتأثر بالدعاية الكاذبة، وإذا اعترفت الرؤوس فلا عبرة بالأذناب، هكذا نقول للمتملحدين ولا نسميهم ملاحدة؛ لأن الملحد الحقيقي هو الذي يدرس التاريخ

---

(١) في الأصل: «الكلام»! والصواب هو المثبت.

(٢) (ص١٦٦ ـ ١٦٧) انظر ترجمتنا للمصنف أول الكتاب، والله الموفق للصواب.

(٣) هو ترجمة الهلالي لكتاب ماك كيب السابق.

العالمي ويدرس المعتقدات والنحل حتى يقتلها بحثاً ولا يستطيع عقله أن يقبل شيئاً منها، أما الجاهل المتأثر بالدعاية الكاذبة بلا دراسة ولا علم فإنه كاذب في ادعاء الإلحاد، وإنما يسمى متملحداً كما يقال للشباب الذي يتظاهر بأنه شيخ تمشيخ، قال الشاعر[1]:

أعـوذ بـالله مـن أنـاس ... تـمـشـيـخـوا قـبـل أن يـشـيـخـوا
تـقـوسـوا وانـحـنـوا ريـاء ... فـاحْـذَرهـم إنَّـهـم فـخـوخُ

وأما المقلدون وأصحاب الطرائق القدد فنقول لهم: أنتم معترفون بأن القرآن والسنة نور وزعمتم أنكم تؤمنون بهما، ولكن تقليدكم لشيوخكم أعمى بصائركم وأبطل تفكيركم، فاتخذتم شيوخكم أرباباً من دون الله تعرضون آيات الكتاب وسنن الرسول على آرائهم، فما وافق قبلتموه وما خالف تحيلتم في ردّه، فتقليدكم هو سبب شقائكم وعن قريب تندمون حين لا ينفع الندم، إذا وضعتم في قبوركم، وأهيل عليكم التراب، وغاب عنكم الأحباب، وبقيتم مستوحشين تجيئكم ملائكة الله تعالى فيقول لكم الملك: «**ما علمك بهذا الرجل** - يعني محمداً رسول الله صلوات الله وسلامه عليه -» فماذا تجيبون؟ تجيبون بما أخبر به الرسول ﷺ: «**هاه هاه! لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته**» فتجيبكم ملائكة السؤال: «**لا دريت ولا تليت**»[2]. وتعذبون في قبوركم وفي البرزخ وفي المحشر ومأواكم جهنم وبئس المصير.

وهذا شيء من معنى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ: يقول في خطبة الاستسقاء: «**وأوحي إلي إنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة المسيح الدجال يقال: ما علمك بهذا الرجل فأما المؤمن أو الموقن**» قال الراوي: لا أدري أيهما قالت أسماء: «**فيقول: هو محمد جاءنا بالبينات فآمنا به واتبعناه هو محمد هو محمد هو محمد: فيقال له: نم صالحاً قد علمنا إن كنت لموقناً به. وأما المنافق أو المرتاب**» قال الراوي: لا أدري أيهما قالت أسماء، «**فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته...**» الحديث[3]. وهذا هو المقلد بعينه.

(١) ذكره المقَّري في «نفح الطيب» (٥/ ٧٩٧) ولم يعزه.
(٢) هذا الكلام ورد في حديث سبق تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري (١٠٥٣).

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٦) ما نصه:

«الوجه الخمسون: إن الحديث ـ بجملته ـ حجة عليكم من كل وجه، فإنه أمر ـ عند كثرة الاختلاف ـ بسنته، وسنة خلفائه، وأمرتم ـ برأي فلان ومذهب فلان ـ. الثاني: أنه حذر من محدثات الأمور، وأخبر أن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة(١).

ومن المعلوم بالاضطرار أن ما أنتم عليه من التقليد الذي تُرك له كتاب الله وسنة رسوله، ويُعرض القرآن والسنة عليه، ويُجعل معياراً عليهما، من أعظم المحدثات والبدع، التي برّأ الله سبحانه القرون(٢) التي فضّلها، وخيَّرها على غيرها [منها](٣)، وبالجملة فما سنه الخلفاء الراشدون أو أحدهم للأمة. فهو حجة لا يجوز العدول عنها، فأين هذا من قول فرقة التقليد: ليست سنتهم حجة، ولا يجوز تقليدهم فيها بوجه؟(٤)

الحادي والخمسون: إنه ﷺ قال في نفس هذا الحديث: «**فإنه من يَعِيشُ من بعدي، فسيرى اختلافاً كثيراً**»(١). وهذا ذم للمختلفين، وتحذير من سلوك سبيلهم، وإنما كثر الاختلاف، وتفاقم أمره بسبب التقليد وأهله(٥)، الذين فرقوا الدين، وصيَّروا أهله شيعاً، كل فرقة تنصر متبوعها، وتدعو إليه وتذم من خالفها، ولا يرون العمل بقولهم، حتى كأنّهم ملة أخرى سواهم، يدأبون ويكدحون في الرد عليهم، ويقولون: كتُبهم وكتبنا، وأئمتهم وأئمتنا، ومذهبهم ومذهبنا.

هذا والنبي واحد، والقرآن واحد، والدين واحد، والرب واحد، فالواجب على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواء بينهم كلهم، وأن لا يطيعوا إلا الرسول، ولا يجعلوا معه مَنْ يكون(٦) أقواله كنصوصه، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً، فلو اتفقت كلمتهم على ذلك، وانقاد كل واحد منهم لمن دعاه إلى الله ورسوله، وتحاكموا كلهم إلى السنة، وآثار الصحابة، لقل الاختلاف، وإن لم يعدم(٧) من الأرض.

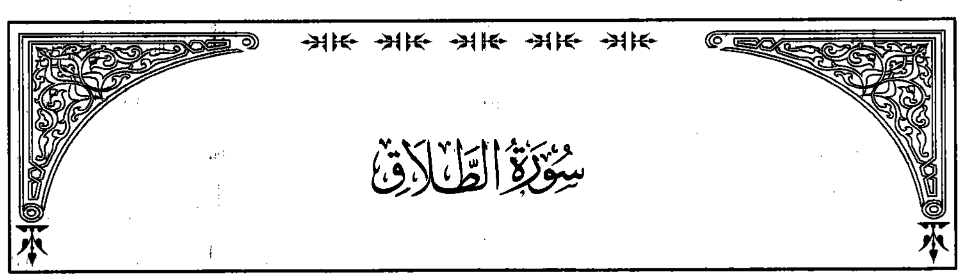
(١) سبق تخريجه، وهو حديث العرباض. (٢) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «الثلاثة».
(٣) غير موجود في مطبوع «الدين الخالص».
(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «يوضحه الوجه».
(٥) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «هم». (٦) في مطبوع «الإعلام»: «تكون».
(٧) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «ينعدهم»!

ولهذا تجد أقل الناس اختلافاً[(١)] **أهل السنة والحديث، فليس على وجه الأرض طائفة أكثر اتفاقاً، وأقل اختلافاً منهم،** لما بنوا على هذا الأصل، وكلما كانت الفرقة عن الحديث أبعد، كان اختلافهم في أنفسهم أشدّ وأكثر، فإن من ردَّ الحق، مَرجَ عليه أمره واختلط عليه، والتبس عليه وجه الصواب فلم يدر أين يذهب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥]»[(٢)].

---

(١) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «هم».

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/٢٤١)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/٥٥٦ ـ ٥٥٧ ـ بتحقيقي).



سورة الطلاق

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق: ٨ ـ ١١]

قال (ك): «يتوعد الله تعالى من يخالف أمره ويكذب رسله ويسلك غير ما شرعه. ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: تمردت على اتباع أمر الله تعالى ومتابعة رسله ﷺ ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكراً فظيعاً ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ بعد مخالفتها وندموا حيث لا ينفع الندم ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ﴾ أي: في الدار الآخرة مع ما حل بهم من العذاب في الدنيا، ثم قال تعالى بعدما قص من خبر هؤلاء: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا بالله ورسله.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾؛ يعني: القرآن وقوله تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: الرسول ترجمة عن الذكر [أي تفسيراً له ولهذا قال تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾][(١)] أي: [حال][(١)] واضحة ﴿لِّيُخْرِجَ

(١) من مطبوع «تيسير العلي القدير»، وسقط من الأصل.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمّى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً، لما يحصل به من الهدى كما سماه روحاً، لما يحصل به حياة القلوب، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا أكثر من مرة بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: أعيد وأكرر أن كل شعب أو أمة أو فرد بلغه أمر ربه بواسطة رسل الله تعالى، فعصى أمره وكذب رسله؛ يعذبه الله في هذه الدنيا عذاباً أليماً، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ولا يفلح أبداً، فإن قلت: هذه الأمم الأوروبية نراها تعيش في سعادة دنيوية عزيزة منصورة موسعاً عليها في الرزق، مع أنها عتت عن أمر ربها؟ فالجواب: من بلغها الإسلام على وجهه ونحن نعلم أن ارتقاءها بدأ عند انحطاط المسلمين ورجوعهم إلى الوراء، اقرأ «المدنية المغربية في إسبانيا»[2] ترجمة مصنف هذا الكتاب وقد تقدم ذكره. وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الذكر هو التذكرة والتبصرة، والذي جاء بها هو الرسول ﷺ ومعه كتاب الله، فمن اتبع الكتاب والسنة خرج من الظلمات إلى النور، ومن أعرض عنهما بعد أن قامت عليه حجة الله خرج من النور إلى الظلمات، ومن الحياة إلى الموت إن كان قبل ذلك حيًّا، والمقلد الذي يرد نصوص الوحي تعصباً لمن قلده أو يتحيل في ردّها بادعاء النسخ أو يقول: إمامي أعلم بها ما تركها إلا لعلة؛ تارك للنور متخبط في الظلمات.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٤٧) ما نصه:

«الوجه الثاني والخمسون: قولكم: إن عمر كتب إلى شريح: أن اقضِ بما

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧).

(٢) انظره (ص١٢١، ط. المغربية) وسبق أن عرفت به في التعليق على (ص١٦٧).

في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله فبما في سنة رسول الله، فإن لم يكن في سنة رسول الله، فبما قضى به الصالحون؟[(١)].

فهذا من أظهر الحجج على بطلان التقليد، فإنه أمر أن يقدم الحكم بالكتاب على كل ما سواه، فإن لم يجده في الكتاب، ووجده في السنة لم يلتفت إلى غيرها، فإن لم يجده في السنة، قضى بما قضى به الصحابة.

ونحن نناشد الله فرقة التقليد، هل هم كذلك، أو قريب من ذلك؟ وهل إذا نزلت بهم نازلة حدَّث أحدٌ منهم نَفْسَه، أن يأخذ حكمها من كتاب الله ثم ينفذه، فإن لم يجدها في كتاب الله، أخذها من سنة رسول ﷺ فإن لم يجدها في السنة، أفتى فيها بما أفتى به الصحابة؟

والله يشهدُ عليهم، وملائكتهُ، هم شاهدون على أنفسهم بأنهم إنما يأخذون حكمها من قول من قلَّدوه.

وإن استبان لهم في الكتاب، أو السنة، أو أقوال الصحابة[(٢)]، خلاف ذلك لم يلتفتوا إليه، ولم يأخذوا بشيء منه إلا بقول من قلدوه.

فكتاب عمر من أشد الأشياء إبطالاً وكسراً[(٣)] لقولهم. وهكذا كان سير السلف المستقيم، وهديهم القويم»[(٤)].

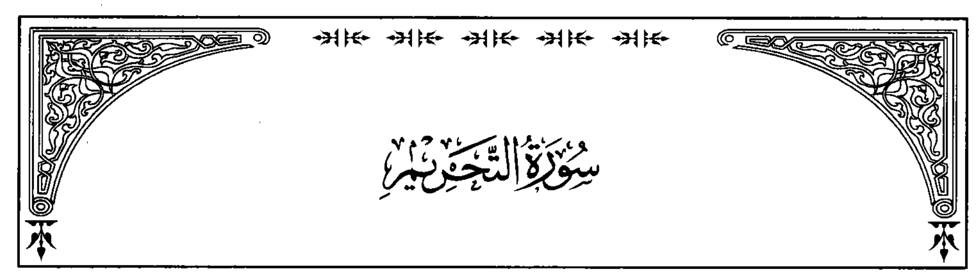
---

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» كتاب آداب القضاة، باب الحكم باتفاق أهل العلم (٨/ ٢٣١) ـ ومن طريقه الضياء في «المختارة» رقم (١٣٣) ـ والدارمي في «سننه» (١/ ٦٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٢٤١، ط. دار الفكر) ومن طريقه ابن أبي عاصم ـ كما في «مسند الفاروق» (٢/ ٥٤٨) ـ، ومن طريقه الضياء في «المختارة» رقم (١٣٤)، وسعيد بن منصور ـ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١١٠) ـ، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٩٩)، وابن عبد البر ـ والمذكور لفظه ـ في «الجامع» (٢/ ٨٤٦) رقم (١٥٩٥)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٢٩ ـ ٣٠)، والبيهقي (١٠/ ١١٥) من طرق عن الشعبي عن شريح أنه كتب إلى عمر ﷺ يسأله: فكتب إليه، وذكروه بألفاظه، منها المذكور هنا، **وإسناده صحيح**، وصححه ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (١/ ١٢٠)، وعزاه ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٥٤٨) لأبي يعلى، وفي آخره قصة رؤيا عامل عمر على حمص اقتتال الشمس والقمر، وإسنادها ضعيف.

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «أو عن الصحابة».

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «فكتاب عمر من أبطل الأشياء وأكسرها».

(٤) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٢)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٥٧ ـ بتحقيقي).



سورة التحريم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أي: تأمر نفسك وأهلك من زوجة وولد وإخوان وقرابة وإماء وعبيد بطاعة الله، وتنهى نفسك وجميعَ من تعول عن معصية الله تعالى، وتعلمهم وتؤدبهم، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به وتساعدهم عليه فإذا رأيت معصية[1]، قذعتهم وزجرتهم عنها وهذا حقٌّ على كل مسلم أن يعلِّم من هم تحت إمرته ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه، وفي معنى هذا الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن [الرَّبيع بن][2] سَبْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: **«مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها»**[3] وهذا لفظ أبي داود. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، قال: الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرّناً[4] له على العبادات، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة، ومجانبة

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لله معصية».

(٢) غير موجود في مطبوع «تيسير العلي القدير».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٤)، وأبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧)، والدارمي (١/ ٣٣٣)، وابن أبي شيبة (١/ ٣٤٧)، وابن الجارود (١٤٧)، وابن خزيمة (١٠٠٢)، والطحاوي في «المشكل» (٢٥٦٥)، والطبراني (٦٥٤٦ ـ ٦٥٤٨)، والحاكم (١/ ٢٥٨)، والبيهقي (٢/ ١٤ و٣/ ٨٣ ـ ٨٤) **وإسناده حسن، والحديث صحيح بشواهده**، وقال شيخنا الألباني عنه: «حسن صحيح».

(٤) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «تمريناً».

المعصية وترك المنكر، والله الموفق»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي: حطبها الذي يلقى فيه جثث بني آدم ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ قيل: الأصنام وقال ابن مسعود وغيره: حجارة من كبريت[٢] زاد مجاهد: أنتن من الجيفة[٣]، رواه ابن أبي حاتم»[٤].

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أي: غلاظ الطباع، نزع الله من قلوبهم الرحمة بالكافرين ﴿شِدَادٌ﴾ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج: مظلمة وجوههم[٥]، كالحة أنيابهم، ليس في قلب واحد منهم مثقال ذرة من الرحمة[٦].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: لا يتأخرون عن أمر الله طرفة عين وهم قادرون على ذلك ما بهم عجز عنه، وهؤلاء الزبانية ـ عياذا بالله منهم ـ»[٧].

---

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه السدي في «تفسيره» عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة، قاله ابن رجب في «التخويف من النار» (رقم ٤٨٤ ـ بتحقيقي).
وأخرجه ابن جرير (١/ ٢٤٤) رقم (٤٢٢)، وابن أبي حاتم (١/ ٦٤) رقم (٢٤٥) كلاهما في «التفسير» من طريق عمرو بن حماد عن أسباط عن السدي به، **وإسناده ضعيف**.
نعم؛ لأثر ابن مسعود طريق آخر.
أخرجه ابن جرير (١/ ١٣١)، وابن أبي حاتم (١/ ٦٤) رقم (٢٤٤) كلاهما في «التفسير»، وهناد في «الزهد» (٢٦٣)، والطبراني (٩٠٢٦)، والحاكم (٢/ ٢٦١، ٤٩٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٠٣) من طريق عبد الملك بن ميسرة عن عبد الرحمٰن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، **وصححه** الحاكم ووافقه الذهبي، وهو **كما قالا**، وانظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٧)، و«التخويف من النار» (٤٨٣ ـ بتحقيقي) لابن رجب.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٦٤) رقم (٢٤٥)، وعزاه له ابن رجب في «التخويف من النار» رقم (٤٨٥)، وقال: «وهكذا قال أبو جعفر وابن جريج وعمرو بن دينار وغيرهم».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٥٩) بتصرف.

(٥) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «سود وجوههم».

(٦) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بالكفّار».

(٧) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٩٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: أمرنا الله تعالى أن نحفظ أنفسنا وأهلنا من النار بطاعة الله ورسوله بالنسبة إلى أنفسنا وبأمر أهلنا بذلك، وقد قال النبي ﷺ: **«كلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته؛ الرجل راعٍ في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والعبد راعٍ في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته»**(١). فواجب الرعاية يقضي علينا أن نأمر أهل بيتنا بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، فإذا أهملناهم استحققنا العذاب، وهذا هو الواقع في هذا الزمان في أكثر الناس حتى علماء الدين، قلَّ أن تجد عالماً قد ربى أبناءه وبناته على طاعة الله ورسوله، وهذا من أسباب شقاء المسلمين. وطاعة الله ورسوله تقتضي العمل بكتاب الله وبما صح عن نبيه ﷺ فمن رد شيئاً من ذلك فهو عاصٍ لله تعالى ولرسوله ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] والمقلد وصاحب الطريقة والمنتسب إلى الحزب السياسي والمتعصب لوطنه أو قومه لا بد أن يرد شيئاً من الكتاب والسنة؛ لأن متبوعه غير معصوم من الخطأ والجهل ببعض الأحكام، وهو قد التزم طاعته وإن خالف رأيه الكتاب والسنة، فنحمدك اللهم على العافية، يا رب زدنا إيماناً واتباعاً لكتابك وسنة نبيك الكريم.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٥٢) ما نصه:

«الوجه الثالث والخمسون: قولكم: منع عمر من بيع أمهات الأولاد(٢)،

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن رقم (٨٩٣)، وفي كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب العبد راعٍ في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، رقم (٢٤٠٩)، وفي كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي أو أمتي رقم (٢٥٥٤)، وباب العبد راعٍ في مال سيده رقم (٢٥٥٨)، وفي كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ...﴾ رقم (٢٧٥١)، وفي النكاح، باب ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ رقم (٥١٨٨)، وباب المرأة راعية في بيت زوجها رقم (٥٢٠٠)، وكتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ رقم (٧١٣٨)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق رقم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرج عبد الرزاق (١٣٢٢٤)، والشافعي في «الأم» (٧/ ١٦٢)، وسعيد بن منصور =

وتبعه الصحابة، وألزم بطلاق الثلاث[(١)] وتبعوه أيضاً، جوابه من وجوه:

[**أحدهما**: أنهم لم يتبعوه تقليداً له، بل أدّاهم اجتهادهم في ذلك إلى ما أداه إليه اجتهاده ولم يقل أحد منهم قط: إني رأيت ذلك تقليداً لعمر][(٢)].

الثانية[(٣)]: أنهم لم يتبعوه كلهم، فهذا ابن مسعود يخالفه في أمهات الأولاد[(٤)]، وهذا ابن عباس يخالفه في الإلزام بالطلاق الثلاث[(٥)]، وإذا اختلف الصحابة وغيرهم، فالحاكم هو الحجة.

الثالثة: إنه ليس في اتباع قول عمر[(٦)] في هاتين المسألتين وتقليد الصحابة

= (٢٠٤٦، ٢٠٤٨)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٢٩)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٤٢)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ١١٣)، وأبو عبيد في «الأموال» رقم (٨٥٠)، والبيهقي (١٠/ ٣٤٣، ٣٤٨)، وفي «المدخل» رقم (٨٦)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٧٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٦٤) عن عبيدة قال: سمعت علياً يقول: اجتمع رأيي ورأي عمر في أمهات الأولاد أن لا يبعن، **وسنده صحيح**.
وورد النهي عن بيعهن في عدة أحاديث من المرفوع عن النبي ﷺ، أرجاها عندي حديث أبي أيوب، أخرجه أحمد (٥/ ٤١٣)، والترمذي (١٢٨٣)، والدارمي (٢/ ٢٢٨)، والطبراني (٤/ ٢١٧)، والدارقطني (٣/ ٦٧)، والبيهقي (٩/ ١٢٦)، **وإسناده حسن**.
وانظر: «الموافقات» (٣/ ٤٧١ ـ ٤٧٢)، و«إعلام الموقعين» (٣/ ٧١٢) وتعليقي عليهما، و«مجمع الزوائد» (٤/ ١٠٢).

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٢) من حديث ابن عباس.

(٢) ما بين المعقوفتين من مطبوع «الدين الخالص» وسقط من الأصل.

(٣) من مطبوع «الدين الخالص»، وسقط من الأصل!

(٤) سبق تخريجه، وخالفه ابن عباس أيضاً. انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١٣٢١٦، ١٣٢١٨، ١٣٢٢٢)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٢١٧)، و«إعلام الموقعين» (٤/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤) وتعليقي عليه.

(٥) روى مسلم في «صحيحه» (١٤٧٢) عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم.
وله لفظ آخر في «صحيح مسلم» أيضاً.
لكن جاء بأسانيد صحيحة عن ابن عباس أنه جعل الثلاث ثلاثاً! فانظر الروايات في «سنن البيهقي» (٧/ ٣٣٧)، وانظر: «إرواء الغليل» (٧/ ١٢١)، و«زاد المعاد» (٥/ ٢٤١ ـ ٢٧٢)، و«إعلام الموقعين» (٤/ ٣٩١ ـ ٣٩٢) وتعليقي عليه.

(٦) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «بن الخطّاب ﷺ».

ـ لو فرضنا[١] له في ذلك ـ ما يسوغ تقليد من هو دونه بكثير، في كل ما يقوله، وتَرْك قول من[٢] هو مثله، ومن هو فوقه، وأعلم منه، فهذا من أبطل الاستدلال وهو تعلُّق ببيت العنكبوت؟ فقلِّدوا عمر، واتركوا تقليد فلان وفلان.

فأما أنتم تصرحون بأن عمر لا يقلَّد، وأبو حنيفة، والشافعي، ومالك يُقلَّدون، فلا يمكنكم الاستدلال بما أنتم مخالفون له، فكيف يجوز للرجل أن يحتج بما لا يقول به؟

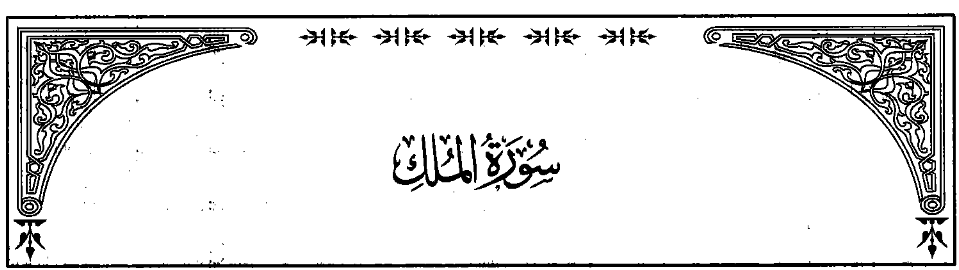
الوجه الرابع والخمسون: قولكم: إن عمرو بن العاص قال لعمر ـ لما احتلم ـ: خذ ثوباً غير ثوبك، فقال: «لو فعلت صارت سنة»[٣]، فأين في هذا من الإذن من عمر في تقليده، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله.

وغاية هذا أنه تركه لئلا يقتدي به من يراه يفعل ذلك ويقول: لولا أن هذا سنة رسول الله ﷺ ما فعله عمر.

فهذا هو الذي خشيه عمر، والناس مقتدون بعلمائهم شاؤوا أم[٤] أبوا فهذا هو الواقع، وإن كان الواجب فيه تفصيل»[٥].

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «لو فرض».
(٢) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «ما»!
(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٥٠ ـ رواية يحيى و١/ ٥٦/رقم ١٣٧ ـ رواية أبي مصعب) عن هشام بن عروة عن أبيه عن يحيى بن عبد الرحمٰن بن حاطب أنه اعتمر مع عمر بن الخطاب في رَكْب فيهم عمرو بن العاص وذكر القصة. وظاهر الإسناد أن يحيى هذا لقي عمر ولكن الثابت في ترجمته أنه مات بعد المئة، فهو لم يدرك عمر قطعاً وأظنه سقط من السند ـ عن أبيه ـ إذ إن أباه عبد الرحمٰن له رؤية.
وأخرج القصة البيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ١٧٠)، وفي «المعرفة» (١/ ٢٦٥)، والخطيب في «التالي» (رقم ٢٠٣ ـ بتحقيقي) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن زبيد بن الصلت قال: صلى عمر... فذكره لكن ليس فيها موطن الاحتجاج: «لو فعلتها لصارت سنة»، وانظر: «الاستذكار» (٣/ ١١٦).
(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل و«الدين الخالص»: «أو».
(٥) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٥)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦١ ـ ٥٦٢ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك: ٧ ـ ١٠]

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ يعني: صياحاً ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة وإرسال الرسول إليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ روى الإمام أحمد بسنده[1] إلى من سمعه من رسول الله ﷺ: **«لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن[2] النار أولى به من الجنة»**.»[3].

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وعزوه لأحمد خطأ، وعند ابن كثير في «تفسيره» (١٤/ ٧٣ ـ ٧٤) حديث عزاه لأحمد، وقال عقبه: «وفي حديث آخر: . . .» وذكر هذا الحديث، وسقطت «وفي حديث آخر» من بعض النسخ، بما فيها نسخة المصنف، فحصل هذا الوهم في العزو! ولم أظفر باللفظ المذكور، **ولا إخاله يصح**.

(٢) من مطبوع «تيسير العلي القدير»، وسقطت من الأصل.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٠٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: فهمنا من هذا الكلام أن خزنة جهنم يقولون لكل جماعة تدخل النار: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ألم تبلغكم دعوة رسول من الرسل؟ فيجيبون بقولهم: بلى، قد جاءنا نذير فكذبناه، وقلنا له: ما أنزل الله عليك من شيء بل أنت ضال كاذب. وفرق التقليد وأصحاب الطرائق يقولون للرسول بلسان الحال وهو أبلغ من لسان المقال: أنت صادق آمنا بأن الله أنزل عليك كتابه وبعثك إلينا رسولاً وجعلك علينا حجة، **ولكننا قد اتخذنا إماماً من أمتك نعترف أنه يجوز عليه الخطأ والنسيان والجهل ويجوز كذلك عليه أن يزل، فنحن نعرض ما جئت به على مذهب إمامنا فما وافقه قبلنا، وما خالفه تحيلنا في رده وعادينا من يأخذ به، وحاربناهم وسميناهم وهابية وأصحاب مذهب خامس**، فلا جرم أن هؤلاء أيضاً إذا لم يتوبوا وبقوا على اعتقادهم إلى الممات يدخلون جهنم ويجري عليهم ما جرى على المكذبين، راجع تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] في آخر سورة النور من هذا الكتاب.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٥٣) ما نصه:

«الوجه الخامس والخمسون: قولكم: قد قال أُبيّ: «وما اشتبه عليك فكِله إلى عالمه»[١]، فهذا حق. وهو الواجب على من سوى الرسول. فإن كل أحد بعد الرسول لا بد أن يشتبه عليه[٢] بعض ما جاء به، وكل من[٣] اشتبه عليه شيء، وجب عليه أن يكِله إلى من هو أعلم منه فإن تبيَّن له، صار عالماً مثله وإلا وَكَلُه إليه ولم يتكلف ما لا علم له به فهذا هو الواجب علينا في كتاب ربنا وسنة نبينا، وأقوال أصحابه، وقد جعل الله سبحانه، فوق كل ذي علم عليماً[٤].

فمن خفي عليه بعض الحق فوَكَلَه إلى مَنْ هو أعلم منه، فقد أصاب، فأي شيء في هذا من الإعراض عن القرآن، والسنن، وآثار الصحابة واتخاذ رجل بعينه معياراً على ذلك، وترك النصوص لقوله، وعرضها عليه، وقبول كل ما أفتى به، ورد كل ما خالفه؟!

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) من مطبوع «الدين الخالص»، وسقطت من الأصل.

(٣) من مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «وكلما»!

(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «عليم».

وهذا الأثر نفسه، من أكبر الحجج على بطلان التقليد، فإن أوله: «ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه»[(١)].

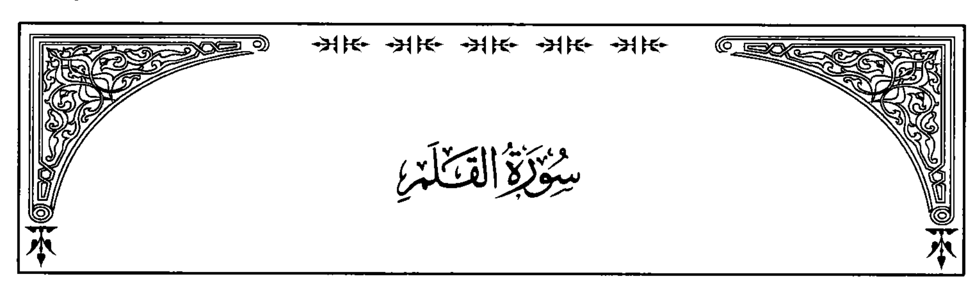
ونحن نناشدكم الله إذا استبانت لكم السنة، هل تتركون قول من قلدتموه لها، وتعملون بها، وتفتون أو تقضون بموجبها، أم تتركونها وتعدلون عنها إلى قوله، وتقولون: هو أعلم بها منا؟ فأُبيّ مع سائر الصحابة على هذه الوصية، وهي مبطلة للتقليد قطعاً، وبالله التوفيق.

ثم نقول: هلا وكلتم ما اشتبه عليكم من المسائل إلى عالمها من أصحاب رسول الله ﷺ، إذ هم أعلم الأمة وأفضلها؟ ثم تركتم أقوالهم وعدلتم عنها؟ فإن كان من قلدتموه ممن يوكل ذلك إليه، فالصحابة أحق أن يوكل ذلك إليهم؟»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٢ ـ ٥٦٣ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤ ـ ٤٥]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن، وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإياه أنا أعلم به منه كيف أستدرجه وأمدُّه في غيّه وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك كرامة من الله، وهو في حقيقة الأمر إهانة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤] ولهذا قال هاهنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: وأؤخرهم وأمدّهم وذلك من كيدي ومكري بهم ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي، وفي «الصحيحين»[1]: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»[2].

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم أن المقلدين وأصحاب الطرائق القدد لا يصرحون بتكذيب الكتاب والسنة، **ولكنهم في الواقع يعاملونهما معاملة المكذِّبين**، ولا بد أن يعذبهم الله في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا قبل الموت،

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤١٢).

فالمقلد يقول: إمامي إمامي؛ مذهبي مذهبي لا أحيد عنه قيد شعرة. كنت أصلي في المسجد النبوي قبل ثلاث سنين تقريباً وكان إلى جانبي شخص يصلي النافلة فأقيمت صلاة الفريضة وبقي مستمرًا في نفله حتى أكمله بعد ركوع الإمام ورفعه من الركوع، فقلت له بلطف: يا أخي، كان ينبغي لك أن تسلم وتدخل مع الإمام. وبعبارة أخرى: أن تقطع النافلة، قال رسول الله ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**»(١) وفي حديث آخر: «**فلا صلاة إلا التي أقيمت**»(٢). فقال لي بغضب: مذهب أبي حنيفة سيد المذاهب، والمغاربة جهال وصلاتهم فاسدة. فقلت له: أنا لا أدافع عن المغاربة وإنما أدافع عن سنة النبي ﷺ، فازداد لجاجاً فأعرضت عنه، وأما صاحب الطريقة فيؤمن بما يقوله شيوخه أن علماء الرسوم والأوراق والروايات إنما يعلمون قشور الشريعة ونحن نعرف الحقيقة التي هي لباب الشريعة، فإذا قال لك علماء الظاهر: حدثني أبي عن جدى فقل لهم: حدثني قلبي عن ربي، ومراده بحدثني أبي عن جدي مثلاً حديث علي بن الحسين عن أبيه الحسين عن جده علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله وسلم عليهم، ومعنى هذا أن غلاة المتصوفة يزعمون أنهم يأخذون العلم عن الله بدون وساطة الرسول ﷺ، أعني علم الشريعة، وهذا كفر بإجماع المسلمين.

قال صاحب: «الدين الخالص» (ج٤/ ٣٥٤) ما نصه:

«الوجه السادس والخمسون: قولكم: كان الصحابة يفتون ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، وهذا تقليد للمستفتين لهم.

فجوابه: إن فتواهم إنما كانت تبليغاً عن الله ورسوله، وكانوا بمنزلة المخبرين فقط، لم تكن فتواهم تقليداً لرأي فلان وفلان، وإن خالفت النصوص فهم لم يكونوا يقلدون فتواهم ولا يُفتون بغير النصوص، ولم يكن المستفتي لهم يعتمد إلا على ما يبلغونه(٣) إياه عن نبيهم، فيقولون: أمر بكذا، وفعل كذا، ونهى عن كذا.

---

(١) أخرجه مسلم (٧١٠) في صلاة المسافرين، باب كراهة الشروع في نافلة بعد شروع المؤذّن، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجها أحمد (٢/ ٣٥٢) وإسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة، وأبو تميم الزُّهري مجهول، لم يرو عنه غير عياش بن عباس.

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «ولم يكن المستفتون لهم يعتمدون إلّا على ما يبلغونهم».

هكذا كانت فتواهم، فهي حجة على المستفتين. كما هي حجة عليهم، ولا فرق بينهم، وبيّن المستفتين لهم في ذلك إلا في الواسطة بينهم وبين الرسول وعدمها، والله ورسوله وسائر أهل العلم يعلمون أنهم وأن مستفتيهم لم يعلموه إلا بما علموه عن نبيهم، وشاهدوه، وسمعوه منه، هؤلاء بواسطة، وهؤلاء بغير واسطة.

ولم يكن فيهم من يأخذ قول واحد من الأمة، يحلل ما حلله، ويحرم ما حرمه، ويستبيح ما أباحه.

وقد أنكر النبي ﷺ على من أفتى بغير السنة منهم، كما أنكر على أبي السنابل[(١)] وكذبه[(٢)]، وأنكر على من أفتى برجم الزاني البكر[(٣)].

وأنكر على من أفتى باغتسال الجريح حتى مات[(٤)] وأنكر على من أفتى بغير علم، كمن يفتي بما لم يعلم صحته، وأخبر أن إثم المستفتي عليه[(٥)].

فإفتاء الصحابة في حياته نوعان:

أحدهما: كان يبلغه، ويقرِّهم عليه، فهو حجة بإقراره، لا بمجرد إفتائهم.

الثاني: ما كانوا يفتون به، مبلغين له عن نبيهم، فهم فيه رواة لا مقلِّدون ولا مقلَّدون[(٦)].

---

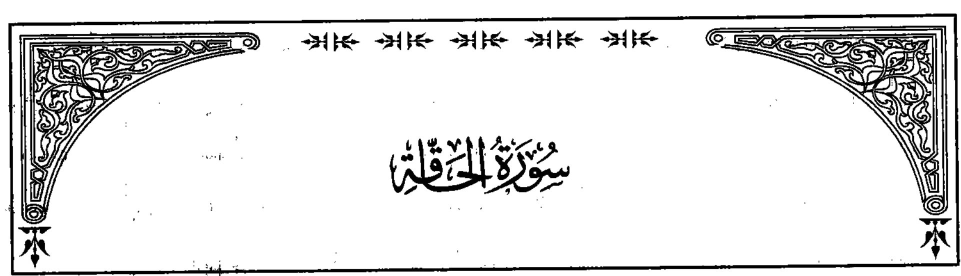
(١) الأصل: «ابن أبي السنابل»! والمثبت من «الدين الخالص» وسائر المصادر.

(٢) هو في حديث رواه البخاري (٥٣١٩)، و(٥٣٢٠) في «الطلاق»، باب ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، ومسلم (١٤٨٤) في «الطلاق»، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل من حديث، سبيعة الأسلمية.
وقد جاء ـ أيضاً ـ في حديث رواه أبو السنابل نفسه، رواه أحمد (٤/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، والترمذي (١١٩٣)، والنسائي (٦/ ١٩٠ ـ ١٩١)، وابن ماجه (٢٠٢٧)، والطبراني (٢٢/ رقم ٨٩٦ ـ ٩٠٠)، إلا أن فيه انقطاعاً كما قال الترمذي وغيره، وانظر: «الإصابة» (٤/ ٩٦) (ترجمة أبي السنابل).

(٣) يريد حديث العسيف الذي رواه البخاري (٢٣١٤) في «الوكالة»، باب الوكالة في الحدود ـ وأطرافه كثيرة ـ، ومسلم (١٦٩٧) في «الحدود»، باب من اعترف على نفسه بالزنا من حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني، وفيه: وإني أُخبرت أن على ابني الرجم... فقال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله... وعلى ابنك جَلْد مئة وتغريب عام»**.

(٤) سبق تخريجه. (٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤ ـ بتحقيقي).



سورة الحاقة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٥٢]

قال (ك): «يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ يعني: محمداً ﷺ إضافة إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ روى الإمام أحمد بسنده إلى عمر بن الخطاب قال: «خرجت أتعرض لرسول[1] الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ قال: فقلت: كاهن قال: فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «رسول».

مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ . . .﴾ إلى آخر السورة قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع»[١]. فهذه جملة الأسباب[٢] التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب كما أوردنا كيفية إسلامه في سيرته المفردة، ولله الحمد والمنة»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ . . .﴾ إلى آخر السورة.

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفترياً فزاد في الرسالة أو نقص[٤] منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهو نياط القلب أي: العرق المعلق فيه القلب، وقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: فما يستطيع أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، والمعنى: بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ يعني: القرآن كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤] ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ أي: إنه الخبر الصدق الحق الذي لا شك فيه ثم قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ الذي أنزل هذا[٥] القرآن العظيم»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧)، والطبراني في «الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» (٩/ ٦٢) وقال: «رجاله ثقات إلّا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر» وقال الشيخ أحمد شاكر في «تعليقه على المسند» (١/ ١٠٨): «**إسناده ضعيف لانقطاعه**؛ شريح بن عبيد الحمصي تابعي متأخر لم يدرك عمر».

(٢) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «من جملة الأسباب».

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤١٩).

(٤) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «أنقص».

(٥) من مطبوع «تيسير العلي القدير»، وسقطت من الأصل.

(٦) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٢٠).

فصل

قال محمد تقي الدين: برّأ الله نبيه ﷺ مما اتهمه به الكفار من زعمهم أنه شاعر أو كاهن، وأخبر أن هذا القرآن ليس شعراً ولا كهانة، وإنما هو تذكرة، أي: موعظة بليغة، ولكن لا ينتفع بها إلا المتقون الذين لم يمنعهم الحسد ولا الهوى من اتباع الحق واجتناب الباطل، فالكبر والحسد واتباع الهوى هذه الصفات الخبيثة منعت الناس في كل زمان ومكان من اتباع القرآن والاهتداء به، وهذه الصفات نفسها هي التي منعت المقلدين وأصحاب الطرائق الجهال والشيوخ المحتالين من اتباع القرآن، الذي هو حبل الله المتين، من تركه تجبراً قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وأي عاقل يقدم «مختصر خليل» المالكي وكتاب «الهداية» الحنفي وكتاب «المنهاج» الشافعي على كتاب الله وسنة رسوله إلا شقي ضال مضل.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٥٥) ما نصه:

«الوجه السابع والخمسون: قولكم: وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فأوجب قبول نذارتهم، وذلك تقليد لهم.

جوابه من وجوه:

أحدها: إن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول ما أنذروهم به من الوحي، الذي ينزل في غيبتهم على النبي ﷺ في الجهاد.

فأين في هذا حجة لفرقة[1] التقليد على تقديم آراء الرجال على الوحي؟

الثاني: إن الآية حجة عليهم ظاهرة، فإنه سبحانه نوع عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين:

أحدهما: نفير الجهاد، **والثاني**: التفقه في الدين.

وجعل قيام الدين بهذين الفريقين، وهم الأمراء والعلماء، أهل الجهاد، وأهل العلم.

فالنافرون يجاهدون عن القاعدين والقاعدون يحفظون العلم للنافرين، فإذا رجعوا من نفيرهم استدركوا ما فاتهم من العلم بإخبار مَنْ سمعه من رسول الله ﷺ، وهنا للناس [في] الآية قولان:

(١) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «فرقة».

أحدهما: إن المعنى: فهلّا نفر من كل فرقة طائفة تتفقه وتنذر القاعدة، فيكون المعنى في طلب العلم، وهذا قول الشافعي وجماعة من المفسرين واحتجوا به على قبول خبر الواحد؛ لأن الطائفة لا يجب أن تكون عدد التواتر.

والثاني: أن المعنى: فلولا نفر من كل فرقة طائفة تجاهد لتتفقه القاعدة، وتنذر النافرة للجهاد إذا رجعوا إليهم، ويخبروهم[١] بما نزل بعدهم من الوحي، وهذا قول الأكثرين، وهو الصحيح؛ لأن النفير إنما هو الخروج للجهاد، كما قال النبي ﷺ: **«وإذا استنفرتم فانفروا»**[٢].

وعلى كلا القولين، فليس في الآية ما يقتضي صحة القول بالتقليد[٣] المذموم، بل هي حجة على فساده وبطلانه، فإن الإنذار إنما يقوم بالحجة، فمن لم يقم عليه[٤] الحجة، لم يكن قد أنذر، كما أن النذير من أقام الحجة فمن لم يأت بحجة فليس بنذير، فإن سميتم ذلك تقليداً!! فليس الشأن في الأسماء.

ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى، فسموه ما شئتم، وإنما ننكر نصْب رجل معين، يُجعل قوله عياراً على القرآن والسنن، فما وافق قوله منها قُبل، وما خالفه لم يقبل، ويقبل قوله بغير حجة، ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يُعلن بإنكارِه وذم أهله»[٥].

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «ويخبرونهم».

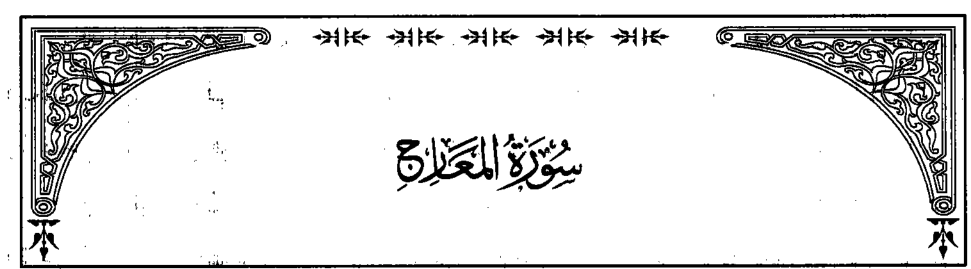
(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٤) في «جزاء الصيد»، باب لا يحل القتال بمكة، و(٢٧٨٣) في «الجهاد»، باب فضل الجهاد، و(٢٨٢٥)، باب وجوب النفير، و(٣٠٧٧)، باب لا هجرة بعد الفتح، ومسلم (١٣٥٣) في «الحج»، باب تحريم مكة وصيدها... وفي «الإمارة»، باب المبايعة بعد فتح مكة، من حديث ابن عباس.

(٣) انظر في هذا المعنى المستنبط من الآيات: «بدائع الفوائد» (٤/١٨٩ ـ ١٩٠).

(٤) من مطبوع «الدين الخالص»، وسقطت من الأصل.

(٥) انظر: «الدين الخالص» (٤/٢٤٧ ـ ٢٤٨) بتصرف، ونحوه في «إعلام الموقعين» (٣/٥٦٤ ـ ٥٦٦ ـ بتحقيقي).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٣٦ ـ ٤٤]

قال (ك): «ينكر الله على الكفار الذين تفرقوا عن رسول الله ﷺ، فِرقاً فِرقاً مع أنهم كانوا في زمانه وشاهدوه وما أيدَهُ الله به من المعجزات[١] الباهرات. فيقول الله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: نافرين منك منطلقين بسرعة ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ معرضين متفرقين يميناً وشمالاً يقولون: ما قال هذا الرجل..؟ وعن جابر بن سمرة: إن رسول الله ﷺ، خرج عليهم وهم حِلَقٌ، فقال: «**ما لي أراكم عزين**»[٢] أي: متفرقين حِلَقاً حِلَقاً. رواه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ﴾ أي: أيطمع هؤلاء ـ والحالة هذه من فرارهم عن رسول الله ﷺ، ونفارهم عن الحق ـ أن يدخلوا جنة النعيم؟. ﴿كَلَّآ﴾ بل مأواهم جهنم، ثم قال تعالى مقرراً وقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروه واستبعدوا وجوده، مستدلاً عليهم بالبداءة التي

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بالمعجزات».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٩٣)، ومسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٤٥٢٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٢٢)، وغيرهم.

الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها، فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من المني الضعيف كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠] ثم قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي: بخالق السموات والأرض والنجوم التي تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها، تقدير الكلام: إن البعث والنشور والحساب كل ذلك واقع لا محالة ولا يمنعه إنكارهم ولهذا أتى: «بلا» في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، أي: لا... ليس الأمر كما تزعمون ﴿أُقْسِمُ﴾ وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، ولهذا قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]؟ وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨١، ٨٢].

وقال ههنا: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: يوم القيامة[1] بأبدان خير من هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [ثم][2] قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: يا محمد ﴿يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ [أي: دعهم ﴿يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾][2] أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: فسيعلمون نتائج ذلك ويذوقون الوبال ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعاً كأنهم إلى أصنامهم يسرعون، أي: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى أصنامهم يبتدرون أيهم يستلمه أول؟

وهذا مروي عن مجاهد وغيره، وقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: خاضعة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾»[3].

---

(١) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «نعيدهم».

(٢) غير موجود في مطبوع «تيسير العلي القدير».

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

فصل

قال محمد تقي الدين: عاب الله تعالى على الكفار إعراضهم عن النبي ﷺ وتفرقهم فرقاً مع اتفاقهم على الكفر به، وتوعدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة. والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ كله شر، سواء أكان مع ادعاء الإيمان به أم مع التصريح بالكفر، فمن ادعى الإيمان به صلوات الله عليه ولم يتبعه فقد حرم الخير كله ويخشى عليه الكفر، كما تقدم عن أحمد بن حنبل رحمه الله في تفسير قوله تعالى في آخر سورة النور: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الآية.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٥٧) ما نصه:

«الوجه الثامن والخمسون: قولكم: إن ابن الزبير سئل عن الجد والإخوة فقال: أما الذي قال رسول الله ﷺ: **«لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذته خليلاً»** يريد أبا بكر، فإنه أنزله أباً[1].

فأي شيء في هذا مما يدل على التقليد بوجه من الوجوه؟ وقد تقدم من الأدلة الشافية التي لا مطمع في دفعها مما يدل على أن قول الصديق في الجد أصح الأقوال على الإطلاق.

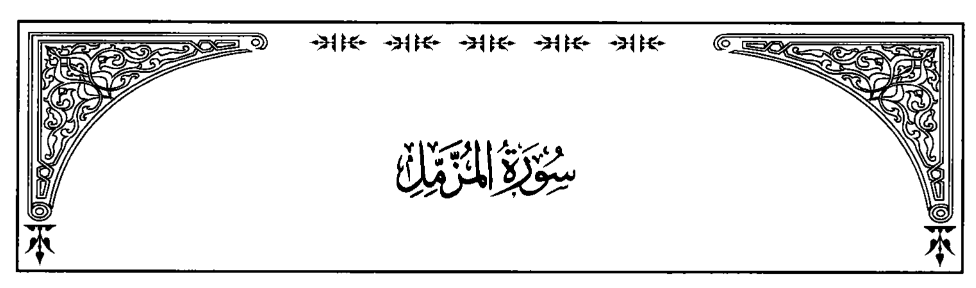
وابن الزبير لم يخبر بذلك تقليداً، بل أضاف المذهب إلى الصديق، لينبه على جلالة قائله، وأنه ممن لا يقاس غيره به، لا لِيُقبل قوله بغير حجة، ويترك الحجة من القرآن، والسنة لقوله؛ فابن الزبير وغيره من الصحابة، كانوا أتقى لله، وحجج الله وبيِّناته أحب إليهم من أن يتركوها لآراء الرجال ولقول أحد كائناً من كان.

وقول ابن الزبير: «إن الصديق أنزله أباً» متضمِّن للحكم والدليل معاً»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٨)، وأحمد (٤/ ٤ و٥)، والبيهقي (٦/ ٢٤٦).

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٦ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٢ ـ ٥]

قال (ك): «أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة، أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك، ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: اقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه وفي «صحيح البخاري» عن أنس: «أنه سئل عن قراءة رسول الله فقال: كانت مدًّا ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» يمد: «بسم الله» ويمد «الرحمن» ويمد «الرحيم»[(١)] وعن أم سلمة أنها سئلت عن قراءة رسول الله، فقالت: «كان يقطع قراءته آية آية» ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾» رواه أحمد وأبو داود والترمذي[(٢)].

وفي الحديث: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»[(٣)]، و«**ليس منا من لم يتغنَّ**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٢)، وأبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٧)، وفي «الشمائل» (٣٠٩)، وابن أبي شيبة (٢/ ٥٢٠ ـ ٥٢١ و١٠/ ٥٢٤)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٧٤)، وأبو يعلى (٦٩٢٠، ٧٠٢٢)، وابن المنذر في «الأوسط» (١٣٤٤)، والطحاوي في «المشكل» (٥٤٠٥، ٥٤٠٦)، والطبراني (٢٣/رقم ٦٠٣)، والدارقطني (١/ ٣١٢ ـ ٣١٣)، والحاكم (٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢)، والبيهقي (٢/ ٤٤)، **والحديث صحيح**.

(٣) ذكره البخاري في «صحيحه» تعليقاً في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع الكرام البررة**»، وأخرجه مسنداً في «خلق أفعال العباد» (٢٥٠، ٢٥١)، وأحمد (٤/ ٢٨٣، ٢٩٦)، وأبو داود (١٤٦٨)، والنسائي (٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، وفي «الكبرى» (١٠٨٨، ٨٠٥٠)، وابن ماجه (١٣٤٢)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٢)، والدارمي =

بالقرآن»[١] و«**لقد أوتي هذا... مزماراً من مزامير آل داود**»[٢]؛ يعني: أبا موسى الأشعري.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ أي: ثقيل وقت نزوله من عظمته، كما قال زيد بن ثابت: «أنزل على رسول الله وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي»[٣].

وفي «صحيح البخاري»[٤] عن عائشة رضي الله عنها: «إن الحارث بن هشام سأل رسول الله: كيف يأتيك الوحي؟»، فقال: «**أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**»، قالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً». هذا لفظه»[٥].

فصل

قال محمد تقي الدين: القرآن كنز عظيم جاءنا به النبي الكريم فاستغله سلف هذه الأمة أحسن استغلال، وبلغوا به أوج العلا في سعادة الروح والجسد، وحكموا به مشارق الأرض ومغاربها، وملأوا الدنيا علماً وعدلاً، ثم خلف من بعدهم خلوف نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فردُّوا إلى أسفل سافلين، وهم في ظلماتهم يعمهون، وقد تعلقوا بالسراب يظنون أنه شراب، **ولن يجدوا لدائهم دواءً**

= (٣٥٠١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ١٧٧) ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (ص٩٥)، وأبو يعلى (١٧٠٦)، وفي «معجم شيوخه» (١٧٨)، وأبو عوانة ـ كما في «إتحاف المهرة» (٢/ ٤٧٤) ـ، والإسماعيلي في «معجم الشيوخ» (١٦١، ٣١٥)، والحاكم (٢/ ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥)، وتمام في «فوائده» (١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨ ـ «الروض البسام»)، والبيهقي في «الشعب» (٢١٤٠، ٢١٤١)، والخطيب في «تلخيص المتشابه» (١/ ٣٣٨) من طرق عن البراء بن عازب، وبعضها **صحيحة**.

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٠)، وأبو داود (٢٥٠٧، ٣٩٧٥)، وسعيد بن منصور (٢٣١٤ ـ التفسير)، وابن سعد (٤/ ٢١١)، والطحاوي في «المشكل» (١٤٩٩)، والطبراني (٤٨٥١، ٤٨٥٢)، والحاكم (٢/ ٨١ ـ ٨٢)، والبيهقي (٩/ ٢٣ ـ ٢٤)، **والحديث صحيح**.

(٤) برقم (٢).

(٥) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

ولا لمشاكلهم حلًّا إلا بالرجوع إلى القرآن درساً وتعليماً وتحكيماً، ويتخذونه سراجاً لهم يضيء ظلمات الحياة الدنيا ويسعدهم في الأخرى.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٥٧) ما نصه:

«الوجه التاسع والخمسون: قولكم: وقد أمر الله بقبول شهادة الشاهد، وذلك تقليد له، فلو لم يكن في آفات[١] التقليد غير هذا الاستدلال، لكفى به بطلاناً، وهل قبلنا قول الشاهد إلا بنص كتاب ربنا، وسنة نبينا، وإجماع الأمة على قبول قوله؟ فإن الله سبحانه نصبها حجة يحكم الحاكم بها، كما يحكم بالإقرار، وكذلك قول المقر أيضاً، حجة شرعية، وقبوله تقليداً[٢] له كما سمَّيتم قبول شهادة الشاهد تقليداً.

فسموه ما شئتم، فإن الله سبحانه أمرنا بالحكم بذلك، وجعله دليلاً على الأحكام، فالحاكم بالشهادة والإقرار، منفِّذ لأمر الله ورسوله، وقد كان النبي ﷺ يقضي بالشاهد[٣] وبالإقرار[٤]، وذلك حكم بنفس ما أنزل الله لا بالتقليد، فالاستدلال بذلك على التقليد المتضمن للإعراض عن الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وتقديم آراء الرجال عليها وتقديم قول الرجل على مَن هو أعلم منه، واطِّراح قول من عداه جملة، من باب قلب الحقائق، وانتكاس العقول والأفهام، بالجملة؛ فنحن إذا قبلنا قول الشاهد، لم نقبله لمجرد كونه شهد به، بل لأن الله سبحانه أمرنا بقبول قوله.

---

(١) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «آفاق»!

(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «تقليدٌ».

(٣) أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة.

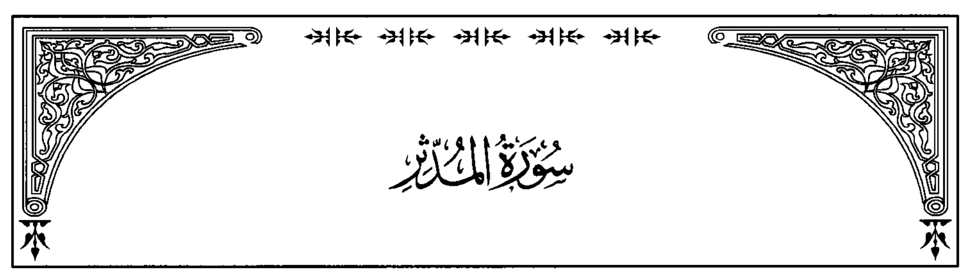
(٤) ورد أخذ النبي ﷺ بالإقرار في قصة ماعز في الزنى، وقد ورد هذا من رواية جمع من الصحابة منهم:
أبو سعيد الخدري: رواه مسلم (١٦٩٤) في «الحدود»، باب من اعترف على نفسه بالزنا.
وأبو هريرة: رواه مسلم (١٦٩١) (١٦).
وجابر بن سمرة: رواه مسلم (١٦٩٢).
وبريدة في «صحيح مسلم» أيضاً (١٦٩٥)، وفيه اعتراف الغامدية، وفيه قصة المرأة التي اعترفت بالزنا، وورد من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني: رواه البخاري (٢٣١٤)، وأطرافه كثيرة انظرها هناك، ومسلم (١٦٩٦)، والمرأة التي من جهينة التي اعترفت بالزنا: رواه مسلم (١٦٩٦).

فأنتم ـ معاشر المقلدين ـ إذا قبلتم قول من قلَّدتموه، قبلتموه بمجرد[١] كونه قاله، لا لأنَّ الله أمركم بقبول قوله، وطرح قول من سواه[٢]»[٣].

(١) في مطبوع «الإعلام»: «لمجرد».

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «وطرح ما سواه».

(٣) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٩)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٦ ـ ٥٦٧ ـ بتحقيقي).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٦]

قال (ك): «يقول تعالى متوعداً للوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه الله، وقد روى ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهَذْي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا: والله لئن صبأ الوليد، لتصبأ قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم ترَ قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدَّث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾: ـ إلى قوله ـ: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾[1].

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٣/٤٢٩ ـ ٤٣٠) **بسندٍ ضعيف جداً، مسلسل بالعوفيين الضعفاء.**

=

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه يعلو[١] وما يُعلى عليه، وما أشك أنه سحر...! فأنزل الله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[٢] فيقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدَّلها كفراً، وقابلها بالجحد بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ أي: خرج من بطن أمه وحيداً وحده، لا مال له ولا ولد، ثم رزقه الله تعالى رزقاً عظيماً فقال: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ أي: واسعاً كثيراً، قيل: مئة ألف دينار وقيل: أرضاً[٣] يستغلها، وجعل له ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ أي: حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارة[٤] بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم، وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتحلى[٥] بهم، وكانوا فيما ذكر[٦] السدي وأبو مالك وعاصم بن عمر وقتادة ثلاثة عشر. وهذا أبلغ في النعمة ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ أي: معانداً وهو الكفر بعد

= وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٩٩ - ٢٠١)، و«الشعب» (١/ ٣٩٤ - ٣٩٦)، وأبو نعيم في «الدلائل» (١/ ٢٣٣) من طريق ابن إسحاق: ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وإسناده ضعيف جداً؛ شيخ ابن إسحاق مجهول، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٥/ ٧٤) لابن مردويه.

وأخرجه من طريق آخر عن ابن عباس: الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٩٥)، والحاكم (٢/ ٥٠٦ - ٥٠٧)، وعنه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٩٨ - ١٩٩)، وفي «الشعب» رقم (١٣٣).

وبنحوه من مرسل عكرمة عند عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٣٢٨)، وابن جرير، وعزاه في «الدر» لابن المنذر وأبي نعيم في «الحلية».

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «ليعلو».

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٣/ ٤٣٠) **بسند صحيح** إلى قتادة، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٥/ ٧٠) لعبد بن حميد أيضاً.

(٣) من مطبوع «تيسير العلي القدير»، وسقطت من الأصل.

(٤) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بالتجارات».

(٥) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «ويتملّى».

(٦) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «ذكره».

العلم، قال الله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾. روى الإمام أحمد بسنده إلى أبي سعيد عن رسول الله قال: «**ويل: وادٍ في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصَّعود: جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي به كذلك فيه أبداً**»(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ أي: تروَّى ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ دعاء عليه ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ أي: أعاد النظرة والتروّي ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: قبض بين عينيه وقطب ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كلح(٢)، وقوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: صرف عن الحق ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ليس بكلام الله، قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: سأغمره فيها»(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ كان عناده بالتكذيب وهو يعلم أن القرآن حق، والمقلدون وأصحاب الطرائق يقولون: آمنا بالقرآن وبالرسول ﷺ، وبكل ما جاء به ولكنهم لا يعملون بسنته ولا بكتاب الله إلا إذا وافق مذهبهم أو طريقتهم، فأصحاب الطرائق يقدسون ابن عربي الحاتمي ويسمونه الشيخ الأكبر وهو يكذب كتاب الله والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. وابن عربي يقول: «إن الذين عبدوا العجل ما عبدوا إلا الله» لأن كل شيء عنده هو الله ويقول في قوله تعالى في قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ يقول: أغرقوا في بحار

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، والترمذي (٢٥٧٦، ٣١٦٤)، وعبد بن حميد (٩٢٤)، وأبو يعلى (١٣٨٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٣٤)، وابن حبان (٧٤٦٧)، والحاكم (٢/ ٥٠٧ و٤/ ٥٩٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥١٢، ٥٣٧، ٧١٣) جميعهم من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رفعه. **وإسناده ضعيف**؛ لأنه من رواية دراج عن أبي الهيثم، وفصلت في تخريجه في تعليقي على «التخويف من النار» لابن رجب، يسر الله إتمامه بخير وعافية.

(٢) بعدها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «وكره».

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).

العلم بالله، فأدخلوا نار المحبة في الله. ويزعم أن فرعون كان مؤمناً وأنه كان من العارفين. وأصحاب المذاهب يأبون أن يتبعوا رسول الله ﷺ، أن يصلوا صلاته وأن يحجوا كما حج، وأن يعتمروا كما اعتمر، فيعرضون عباداته على مذاهبهم ويتبعونها وإن خالفت سنة الرسول ﷺ، أليس هذا عناداً للكتاب والسنة؟ ومن لم يتب منهم فجزاؤه أن يصلى سقر، نسأل الله أن يهدينا وإياهم صراطه المستقيم ويبعدنا جميعاً من طريق أصحاب الجحيم.

قال صاحب «الدين الخالص» (ج٤/٣٥٨) ما نصه:

«الوجه الستون: قولكم: وقد جاءت الشريعة بقبول قول القائف، والخارص، والقاسم، والمقوِّم، والحاكمين بالمثل في جزاء الصيد، وذلك تقليد محض، أتعنون به أنه تقليد لبعض العلماء في قبول أقوالهم، وتقليد لهم فيما يخبرون به؟ فإن عنيتم الأول فهو باطل، وإن عنيتم الثاني فليس فيه ما تستروحون[1] إليه من التقليد الذي قام الدليل على بطلانه.

وقبول قول هؤلاء من باب قبول خبر المُخبر والشاهد، لا من باب قبول الفتيا في الدين بغير[2] قيام دليل على صحتها، بل بمجرد[3] إحسان الظن بقائلها مع تجويز الخطأ عليه، فأين قبول الأخبار، والشهادات والأقارير، إلى التقليد في الفتوى؟ والمخبر بهذه الأمور يخبر عن أمر حسي، طريق العلم به إدراكه بالحواس، والمشاعر الظاهرة والباطنة، وقد أمر الله سبحانه بقبول خبر المُخبر به، إذا كان ظاهر الصدق والعدالة، وطرد[4] هذا.

ونظيره قبول خبر المخبر عن رسول الله ﷺ، بأنه قال، وفعل[5]، وقبول خبر المخبر عمن أخبر عنه بذلك وهلم جراً، فهذا حق لا ينازع فيه أحد.

وأما تقليد الرجل فيما يخبر به عن ظنه، فليس فيه أكثر من العلم بأن ذلك ظنه واجتهاده، أفتقليدنا[6] له في ذلك، بمنزلة تقليدنا له فيما يخبر به عن رؤيته وسماعه، وإدراكه؟ فأين في هذا ما يُوجب علينا أو يسوِّغ لنا، أن نفتي بذلك أو نحكم به، وندين الله به، ونقول: هذا هو الحق، وما خالفه باطل، ونترك له

---

(١) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «تستريحون»!

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «من غير».

(٣) في مطبوع «الإعلام»: «لمجرد».

(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «اطرد».

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «أو فعل».

(٦) في مطبوع «الدين الخالص»: «فتقليدنا».

نصوص القرآن والسنة، وآثار الصحابة، وأقوال من عداه من جميع أهل العلم؟
ومن هذا الباب: تقليد الأعمى في القبلة، ودخول الوقت، لغيره، وقد كان ابن أم مكتوم لا يؤذن حتى يُقلِّد غيره في طلوع الفجر، ويقال له: «أصبحت أصبحت»[(١)] وكذلك تقليد الناس للمؤذن في دخول الوقت، وتقليد مَن في المطمورة لمن يُعْلِمه بأوقات الصلاة، والفطر والصوم، وأمثال ذلك.

ومن ذلك: التقليد في قبول الترجمة والرسالة والتعريف والتعديل والجرح، كل هذا من باب الأخبار التي أمر الله بقبول المُخبر بها، إذا كان عدلاً صادقاً، وقد أجمع الناس على قبول خبر الواحد في الهديّة، وإدخال الزوجة على زوجها، وقبول خبر المرأة، ذمِّية كانت أو مسلمة، في انقطاع دم حيضها لوقته، وجواز وطئها، وإنكاحها بذلك.

وليس هذا تقليداً في الفتيا والحكم، وإذا كان تقليداً[(٢)] لها، فالله سبحانه شرع لنا أن نقبل قولها ونقلدها فيه، ولم يشرع لنا تلقِّي[(٣)] أحكامه عن غير رسوله، فضلاً عن ترك سنة رسوله، لقول واحد من أهل العلم، وتقديم[(٤)] قوله على قول من عداه من الأمة»[(٥)].

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥٦]

قال (ك): «أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قِبَلَك عما تدعوهم إليه وتذكِّرهم به معرضين ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ أي: كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه، حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من

(١) سبق تخريجه.
(٢) من مطبوع «الإعلام»، وسقط من الأصل.
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «أن نتلقى».
(٤) في مطبوع «الإعلام»: «ونقدم».
(٥) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥١)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨ ـ بتحقيقي).

أسد، وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي: حقًّا إن القرآن تذكرة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ كقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو أهل أن يخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب، قاله قتادة.

وعن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وقال: «**قال ربكم: أنا أهل أن أتقى فلا يُجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له**». رواه أحمد[١] وغيره.»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: إن كفار العرب وغيرهم نفروا من دعوة النبي ﷺ، كما تنفر حمر الوحش من الأسد إذا أحست به، وكل من اتخذ وليجة من دون الله ورسوله فإنه يفر من اتباع الكتاب والسنة وينفر منهما أعظم النفور، وإذا شئت أن تعلم ذلك يقيناً فَأْتِ عباد القبور عن الذبح والنذر لها والتمسح والطواف بها ودعائها والدعاء عندها، وأْمُرْ مقلداً حنفيًّا يجهر بالتأمين أو يرفع يده عند الركوع والرفع منه. وقد ألف البخاري رحمه الله كتاباً خاصًّا في «رفع اليدين»[٣] روى فيه أحاديث كالشمس، وكان عبد الله بن عمر يحصب من لا يفعله[٤] أي: يرميه بالحصباء فإنهم لا يفعلون ذلك ولو قطعت أيديهم، أي: هددتهم بقطعها. وأْمُرِ المقلد المالكي أن يضع يده اليمنى على اليسرى في حال القيام في الصلاة فإنه ينفر أعظم النفور. ولا يقبل كلام النبي ﷺ، الذي رواه مالك[٥] الذي هو إمامه ـ بزعمه ـ فيرد حديث النبي ﷺ، وعمل مالك وجميع أصحابه إلا رجلاً واحداً

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٢)، والترمذي (٣٣٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٣٠)، وابن ماجه (٤٢٩٩)، والدارمي (٢٧٢٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٦٩)، وأبو يعلى (٣٣١٧)، والطبراني في «الأوسط» (٨٥١٠)، وابن عدي (٣/ ١٢٨٨)، والبغوي في «التفسير» (٤/ ٤٢٠) **وإسناد ضعيف**، لضعف سهيل بن أبي حزم القُطعي، قال الترمذي عقبه: «هذا حديث غريب، وسهيل ليس بالقوي في الحديث وقد تفرد بهذا الحديث عن ثابت». وضعّفه شيخنا الألباني.

(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٥٢).

(٣) طبع أكثر من مرة، أحسنها بتحقيق العلامة الشيخ بديع الدين السندي، المسمى «جلاء العينين».

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

وهو ابن القاسم الذي روى عن مالك رواية معتلة مختلة في ترك وضع اليمنى على اليسرى في الفريضة، فنسأل الله العافية.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٦٠) ما نصه:

«الوجه الحادي والستون: قولكم: وأجمعوا على جواز شراء اللُّحمان والأطعمة والثياب، وغيرها من غير سؤال عن حِلِّها، اكتفاء بتقليد أربابها.

جوابه: إن هذا ليس تقليداً في حكم من أحكام الله ورسوله من غير دليل، بل هو اكتفاء بقبول قول الذابح والبائع، وهو اقتداءٌ واتباع لأمر الله ورسوله.

حتى لو كان الذابح والبائع يهوديًّا، أو نصرانيًّا، أو فاجراً، اكتفينا بقوله في ذلك، ولم نسأله عن أسباب الحل، كما قالت عائشة ﵂: يا رسول الله إن ناساً يأتوننا باللُّحْمان، لا ندري، أذكروا اسم الله عليه أم لا؟، فقال: **«سموا أنتم وكُلوا»**[1]. فهل يسوغ لكم تقليد الكفار والفساق في الدين، كما تقلدونهم في الذبائح والأطعمة؟

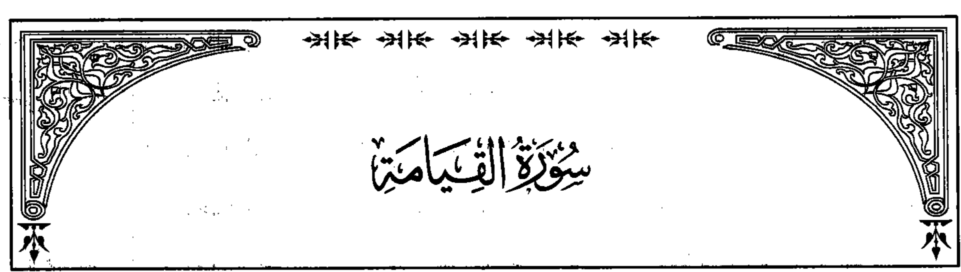
فدعوا هذه الاحتجاجات الباردة، وادخلوا معنا في الأدلة الفارقة بين الحق والباطل، لنعقد معكم عقد الصلح اللازم، على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله، والتحاكم إليهما وترك أقوال الرجال لهما، وأن ندور مع الحق حيث كان، ولا نتحيَّز إلى شخص معين غير الرسول نقبل قوله كُلَّه ونردُّ قول مَن خالفه كله، وإلا فاشهدوا بأنّا أولُ منكر لهذه الطريقة، وراغبٍ عنها، داعٍ إلى خلافها والله المستعان؟»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٥).

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٥١)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩ ـ بتحقيقي).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]

قال (ك): «هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقِّيه الوحي من الملَك، فإنه كان يبادره إلى أخذه ويسابق الملَك في قراءته فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل الله أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه، فالحالة **الأولى**: جمعه في صدره. **والثانية**: تلاوته. **والثالثة**: تفسيره وإيضاح معناه. ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ أي: بالقرآن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: بعد حفظه وتلاوته، نبيِّنه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: تكفل الله تعالى ببيان القرآن لنبيه محمد ﷺ، وبينه للناس هذا النبي الكريم وأمر الله ورسوله باتباع القرآن وبيانه، فسنة النبي بيان للقرآن فيجب على الأمة الإسلامية أن تتبع القرآن وبيانه، بل يجب على كل من بلغه القرآن بلاغاً كافياً شافياً أن يتبعه ومن لم يتبعه، كان من الخاسرين. فيا أيها

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٥٥).

المسلم اتبع كتاب الله وكن حنيفاً، **لا تتعصب لطريقة ولا لمذهب ولا لحزب ولا لوطنية، واقطع كل علاقة تمنعك من اتباع الوحي، وكن كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون والأئمة المجتهدون.**

دعوا كلَّ قولٍ غيرَ قول محمدٍ فما آمنٌ في دينه كمخاطرِ

وقال غيره:

فإن أنتمُ لم تقنعُوا بمقاله[١] فإني بما قال النبي لقانع[٢]

وقال آخر:

وهل تَرَكَ الإنسانُ في الدين غايةً إذا قال قَلَّدتُ النَّبيَّ محمَّدا[٣]

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٦١) ما نصه:

«الوجه الثاني والستون: قولكم: لو كلف الناس كلهم الاجتهاد، وأن يكونوا علماء، ضاعت مصالح العباد، وتعطَّلت الصنائع والمتاجر، وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً وقدراً، فجوابه من وجوه:

أحدها: إن من رحمة الله سبحانه بنا ورأفته، أنه لم يكلفنا بالتقليد، فلو كلفنا به، لضاعت أمورنا، وفسدت مصالحنا؛ لأنّا لم نكن ندري من نقلد من المفتين والفقهاء، وهم عدد فوق المئين، ولا يدري عددهم ـ في الحقيقة ـ إلا الله.

فإن المسلمين قد ملؤوا الأرض، شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، وانتشر الإسلام ـ بحمد الله وفضله ـ وبلغ مبلغ[٤] الليل.

فلو كُلفنا التقليد[٥]، لوقعنا في أعظم العنت[٦] والفساد، وتكلفنا[٧] بتحليل

(١) في مطبوع «الإصابة»، و«الاستيعاب»، و«أسد الغابة»: «بقضائه».

(٢) نسب هذا البيت لأسماء بن ربّان الجرمي. ذكره عنه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (ص٦٦)، وابن حجر في «الإصابة» (١/ ٦٥)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٩٣).
وعزاه ابن حجر أيضاً في «الإصابة» (٦/ ١٥٠) لمعاوية بن أبي ربيعة إلّا أنه قال: «المانع» بدل «القانع».

(٣) هو لأبي الكرم خميس بن علي الحوزي، كما في ترجمته في «الوافي في الوفيات» (١٣/ ٢٦٣).

(٤) في مطبوع «الإعلام»: «ما بلغ».

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «بالتقليد».

(٦) في مطبوع «الإعلام»: «العبث».

(٧) في مطبوع «الإعلام»: «ولكلفنا».

الشيء وتحريمه، وإيجاب الشيء، وإسقاطه معاً، إن كلفنا بتقليد كل عالم، وإن كلفنا بتقليد الأعلم فالأعلم، فمعرفة ما دل عليه القرآن والسنن من الأحكام، أسهل بكثير من معرفة الأعلم الذي اجتمعت فيه شروط التقليد.

وفي معرفة[(١)] ذلك مشقة على العالم الراسخ فضلاً عن المقلد الذي هو كالأعمى، وإن كلفنا البعض، وكان جعل ذلك إلى شهوتنا[(٢)] واختيارنا، صار دين الله تبعاً لإرادتنا واختيارنا وشهواتنا، وهو عين المحال.

فلا بدّ أن يكون ذلك راجعاً إلى أمر الله باتباع قوله، وتلقِّي الدين منه[(٣)] وذلك (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله) وأمينه على وحيه، وحجته على خلقه، ولم يجعل الله هذا المنصب لسواه بعده أبداً.

الثاني: إن بالنظر إلى الاستدلال، صلاح الأمور لا ضياعها، وبإهماله ذلك وتقليد مَن يُخطئ ويصيب، إضاعتها وفسادها، كما أن الواقع شاهد به.

الثالث: إن كل واحد منا مأمور بأن يُصدِّق الرسول فيما أخبر[(٤)]، ويطيعه فيما أمر، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة أمره وخبَرِه.

ولم يُوجب الله سبحانه من ذلك على الأمّة إلا ما فيه حفظ دينها ودنياها، وصلاحها في معاشها ومعادها، وبإهمال ذلك تضيع مصالحها، وتفسد أمورها، فما خراب العالم إلا بالجهل ولا عمارته إلا بالعلم.

وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة، قلَّ الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد، ومن لم يعرف هذا فهو ممن لم يجعل الله له نوراً.

قال الإمام أحمد: لولا العلم، كان الناس كالبهائم.

وقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب محتاج[(٥)] إليه في اليوم مرتين أو ثلاثاً، والعلم يحتاج إليه في كل وقت[(٦)].

الرابع: إن الواجب على كل عبد[(٧)] أن يعرف ما يخصه من الأحكام،

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «ومعرفة». (٢) في مطبوع «الإعلام»: «تشهّينا».
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «من بين شفتيه». (٤) في مطبوع «الإعلام»: «أخبر به».
(٥) في مطبوع «الإعلام»: «يحتاج».
(٦) قاله أحمد في رواية حرب، كما في «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٦، ط. القديمة).
(٧) في مطبوع «الإعلام»: «على العبد».

ولا يجب عليه أن يعرف ما لا تدعوه الحاجة إلى معرفته، وليس في ذلك إضاعة لمصالح الخلق، ولا تعطيل لمعاشهم، فقد كان الصحابة قائمين لمصالحهم(١) ومعاشهم وعمارة حروثهم، والقيام على مواشيهم، والضَّرْب في الأرض لمتاجرهم، والصفق بالأسواق(٢)، وهم أهدى العلماء الذين لا يشق غبارهم(٣).

الخامس: إن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول، دون مقدَّرات الأذهان، ومسائل الخرص والألغاز، وذلك ـ بحمد الله ـ أيسر شيء على النفوس، تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسَّره للذكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

قال البخاري في «صحيحه»: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه(٤)؟ ولم يقل: فتضيع عليه مصالحه، وتتعطل عليه معايشه.

وسنة رسوله وهي بحمد الله ـ مضبوطة، محفوظة، أصول الأحكام التي يدور عليها خمسمائة حديث، وفروعها وتفاصيلها، نحو أربعة آلاف، وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدَّرات الأذهان. وأغلوطات المسائل والفروع والأصول، التي ما أنزل الله بها من سلطان، التي كل

(١) في مطبوع «الإعلام»: «بمصالحهم».
(٢) يشهد لهذا نصوص عديدة وكثيرة منها:
ما أخرجه عباس الدُّوري في «تاريخ ابن معين» (٢/ ٢٠٧) **بسنده الصحيح** إلى سعيد بن المسيب؛ قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يتَّجرون في البحر، منهم سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله».
وما أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٨٤٧) عن عائشة؛ قالت: «كان الناس أهل عمل ولم يكن لهم كفاة».
وما أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٢٠٧١) عنها بلفظ: «كان أصحاب رسول الله ﷺ عمال أنفسهم»، وانظر: «الرسالة» رقم (٨٤٦) للشافعي.
وفي الحديث المتفق عليه حديث تطويل معاذ في الصلاة، وفيه: «ونحن نعمل بأيدينا».
وما **ثبت** عن أبي هريرة: «وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم»، وانظر: «المجالسة» رقم (٧٥٤) وتعليقي عليه، و«الإحكام» (٦/ ٩٢) لابن حزم.
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «لا يشق في العلم غُبارهم».
(٤) سبق ذكره.

مالها[١] في نمو وزيادة وتوليد[٢]، والدين لا يزال في غربة ونقصان، والله المستعان[٣]»[٤].

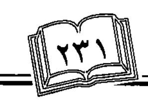
---

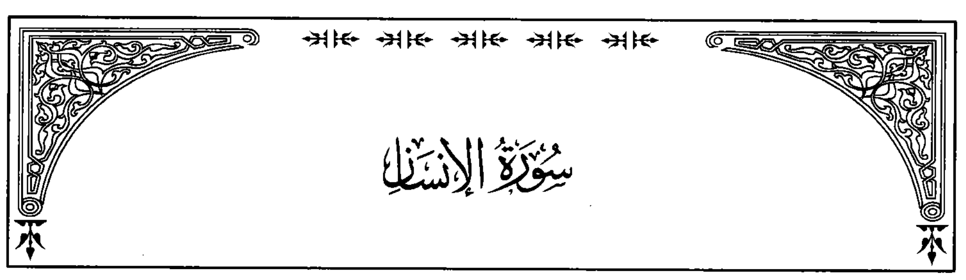
(١) كذا في الأصل!

(٢) وقد أحسن من قال: «العلم نقطة كثّرها الجاهلون».

(٣) يضاف إلى ذلك أننا لم نأمر جميع الناس أن يكونوا علماء، بل نقول كما قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فمن لم يكن له علم بمسألة ترجع إلى الأحكام الخمسة؛ فليسأل أهل العلم الذين يتبعون لا يقلدون. (منه).

(٤) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٣)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٦٩ ـ ٥٧١ ـ بتحقيقي).





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٣١]

قال (ك): «يمتن الله سبحانه على رسوله بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: فاصبر على قضائه وقدره وإنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: لا تطع من أرادوا صدَّك عمّا أنزل إليك، بل بلّغ ما أنزل إليك من ربك وتوكّل على الله فإنه يعصمك من الناس الفاجرين في أعمالهم، والكافرين في قلوبهم ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: أوّل النهار وآخره ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ أيّ: هؤلاء الكفار يحبّون الدنيا وبهرجها ويذرون الآخرة ثم قال تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أي خلقهم ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: أتينا بقوم آخرين غيرهم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ[1]﴾ يعني:

(١) في الأصل: «ذكرة»!

﴿هَٰذِهِۦ﴾ السورة[(١)] ﴿تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: من شاء اهتدى بالقرآن ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يستطيع أحد أن يهدي نفسه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحجة البالغة ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أنزل الله تعالى القرآن تذكرة وإنما يتذكر أولوا الألباب، فمن نفعه الله به واتبعه سعد في دنياه وأخراه، ومن أعرض عنه بعد أن عرفه فإن له معيشة ضنكاً في هذه الدنيا كلها شقاء، ويحشره الله يوم القيامة أعمى ويسلكه عذاباً صعداً، والمقلدون وأصحاب الطرائق أعرضوا عنه فلا بد أن يصيبهم الوعيد الذي ذكره الله تعالى، وقد أصابهم. فمتى يتوبون إلى الله ويرجعون عن غيهم ويمتثلون أمر ربهم؟

قال صاحب «الدين الخالص» (٣/ ٣٦٣) ما نصه:

«الوجه الثالث والستون: قولكم[(٣)]: قد أجمع الناس على تقليد الزوج لمن يهدي إليه زوجته ليلة الدخول، وعلى تقليد الأعمى في القبلة والوقت، وتقليد المؤذنين وتقليد الأئمة في الطهارة وقراءة الفاتحة، وتقليد الزوجة في انقطاع دمها ووطئها وتزويجها.

فجوابه ما تقدم، إن استدلالكم بهذا من باب المغاليط، وليس هذا من التقليد المذموم ـ على لسان السلف والخلف ـ في شيء.

ونحن لم نرجع إلى أقوال هؤلاء، لكونهم أخبروا بها، بل لأن الله ورسوله

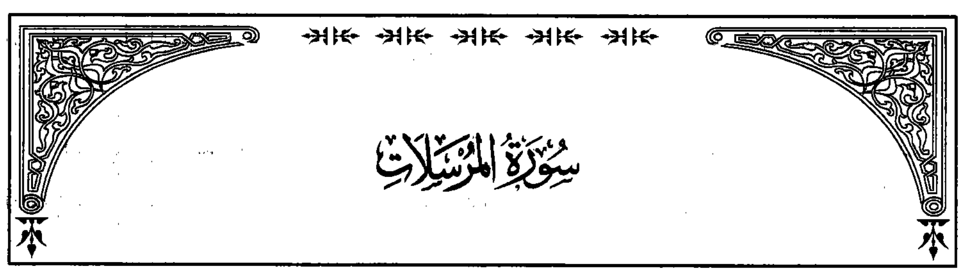
(١) من مطبوع «تيسير العلي القدير»، وسقط من الأصل.
(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٦٣).
(٣) من مطبوع «الأعلام»، وسقطت من الأصل.

أمر بقبول قولهم، وجعله دليلاً على ترتُّب الأحكام، فإخبارهم بمنزلة الشهادة والإقرار.

فأين في هذا ما يسوغ التقليد في أحكام الدين، الإعراض عن القرآن والسنن، ونصب رجل بعينه ميزاناً على كتاب الله وسنه رسوله؟»[1].

---

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٥٣)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٧١ ـ ٥٧٢ ـ بتحقيقي).



سورة المرسلات

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المرسلات: ٥٠]

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به؟

روى ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي هريرة أنه إذا قرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ - فقرأ - ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾، فليقل[١]: (آمنت بالله وبما أنزل)[٢].»[٣].

فصل

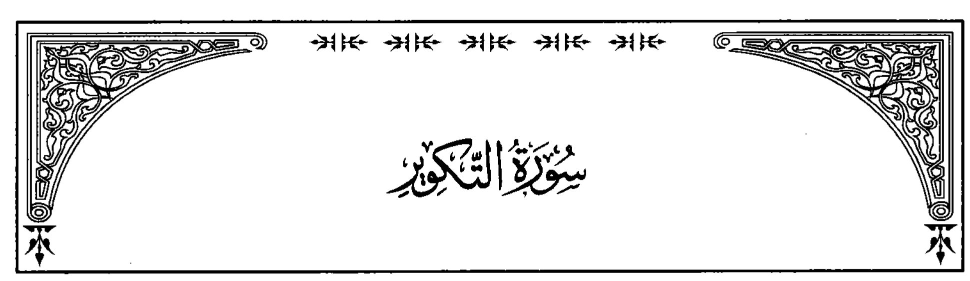
قال محمد تقي الدين: من ادعى الإيمان بالقرآن ولم يعمل به في مسجده وبيته وسوقه ومحكمته وسلمه وحربه فإيمانه دعوى تكذبها سيرته، والمقلد وصاحب الطريق كذلك، فهو كالمريض الذي عنده دواء ولا يستعمله، فكأنه لا دواء عنده أو يستعمله بغير ما وصفه الطبيب، والطبيب هنا هو رسول الله ﷺ، فلا ينفعه ذلك الدواء بل يضره؟

---

(١) في الأصل: «فليقول»، وصوابه: «فليقل»، وكذا في مطبوع «تيسير العلي القدير».

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٩)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، والحميدي (٩٩٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٣٦)، والبيهقي (٢/ ٣١٠ - ٣١١)، والبغوي (٦٢٣) عن إسماعيل بن أمية سمعه من شيخ، فقال مرة: سمعتُه من رجل من أهل البادية أعرابي سمعت أبا هريرة به. **وإسناده ضعيف**، الراوي عن أبي هريرة مجهول.
نعم، سمي عند الحاكم (٢/ ٥١٠) إذ رواه من طريق أبي اليسع عن أبي هريرة، وأبو اليسع هذا مجهول، قاله الذهبي في «الميزان» (٣/ ٣٨٨)، وفي «اللسان» (٦/ ٤٥٤): «لا يدرى من هو، والسند بذلك مضطرب»، وضعّفه شيخنا الألباني.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٦٨).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢٩]

قال (ك): «روي عن علي: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ هي النجوم تخنس بالنهار وتكنس بالليل[(١)]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ أي: إذا اشتد ظلامه، والمراد: إذا أقبل. كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل: ١ ـ ٢] أي: إذا طلع وأضاء وأقبل وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ يعني: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم؛ أي مَلَك شريف وهو: جبريل عليه الصلاة والسلام، ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥ ـ ٦] أي: شديد الخلق شديد البطش والفعل: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله ﷻ، ومنزلة رفيعة ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: في السموات وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى، وليس هو من[(٢)] أفناد الملائكة، بل هو من السادة والأشراف،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، والحاكم (٢/ ٥١٦)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٢٤٠٤) تعليقاً، وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (١٥/ ٢٦٨) نسبته للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد.

(٢) أفناد: عامة الملائكة. (منه).

معتني به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة، وقوله تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جدًّا أن الرب ﷻ يزكي عبدَه ورسوله الملكي جبريل كما زكّى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: محمداً ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ يعني: ولقد رأى محمّدُ جبريلَ الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ، على الصورة الملكية التي خلقه الله عليها له ست مائة جناح ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وهي الرؤية الأولى المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النجم: ٧ ـ ٨] والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذه السورة نزلت قبل الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلّا هذه الرؤية الأولى، أما الثانية فهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد سورة الإسراء، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ قرئ (ضنين) وقرئ (ظنين) وكلاهما متواتر[1] فعلى قراءة (ظنين)؛ أي: وما محمد

(١) قال الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٣١٨): «هو في مصحف عبد الله بالظاء؛ وفي مصحف أبي بالضاد، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما» واختار أبو عبيدة قراءة الظاء؛ لأنهم لم يبخّلوه، بل كذبوه، وقال الشهاب في «حاشيته على البيضاوي» (٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣١): «ما نقلوه موافق للقراءة المتواترة» وقال ابن جرير: «وبالضاد خطوط المصاحف كلها».
قال القباقبي في «إيضاح الرموز» (ص٧٢٤): «قرأ المكيان والكسائي والبصريون والحسن ﴿بظنين﴾ بالظاء، والباقون بالضاد»، وانظر: «البحر المحيط» (٨/ ٤٣٥)، و«السبعة» (٦٧٣)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٢)، و«المحرر الوجيز» (١٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣)، و«حجة القراءات» (٧٥٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٣/ ٣٦٤) أما الرواية، فهذا الذي وجدته:
أخرج الدارقطني في «الأفراد» (وليس في مسند عائشة من «الأطراف»)، وأبو عمر الدوري في «جزء فيه قراءات النبي ﷺ» رقم (١٢٢ ـ ١٢٣)، والحاكم (٢/ ٢٥٢)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٣٥١، ٩/ ٤٤٤)، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٦) ـ عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقرؤها: «وما هو على الغيب بظنين» وإسناده ضعيف جدًّا فيه إسحاق بن أبي فروة الأموي مولاهم المدني، متروك.
وأخرج عبد الرزاق (٢/ ٣٥٣)، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٦) ـ عن ابن الزبير أن النبي ﷺ كان يقرؤها: «وما هو على الغيب بظنين».
وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقرأ «بظنين».
وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود أنه =

على ما أنزله الله إليه بمتَّهم، وعلى قراءة (ضنين): أي ما ضنَّ بالقرآن على الناس بل نشره وبلغه وبذله للناس جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقًّا من عند الله تعالى؟! وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتّعظون، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: من أراد الهداية، فعليه بهذا القرآن، ولا هداية فيما سواه، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ليست المشيئة موكولةٌ لكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئته تعالى رب العالمين»[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ معناه: إن القرآن أنزله الله لتذكير جميع العالمين من الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١] ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾، والخطاب للعالمين ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ باتباعه واتباع السنة التي هي بيانه وهي أقوال النبي ﷺ، وأفعاله وأخلاقه وتروكه؛ أي ما ترك من الأمور التي تنسب إلى الدين، فلا يمكن أحداً أن يستقيم إلا بذلك. ولما كان المسلمون متبعين للكتاب والسنة كانوا مستقيمين سالكين الصراط المستقيم

= قرأها: «وما على الغيب بظنين».
وأخرج عبد بن حميد وابن جرير (٢٤/ ١٦٩) عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وما على الغيب بظنين».
وأخرج عبد بن حميد عن زرٍّ قال: في قراءتنا: «بظنين» بمتهم وفي قراءتكم: ﴿بضنين﴾ ببخيل.
وانظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨).

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦).

سعداء أقوياء، ولما تركوا اتباعهما فقدوا سعادتهم وقوتهم وعزتهم. ومن أسباب الإعراض عن الكتاب والسنة ظهور التقليد والطرائق التي فرقت المسلمين، فإن أرادوا استرداد ما فقدوا فليرجعوا إلى الكتاب والسنة.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٧١) ما نصه:

«الوجه السابع والستون: قولكم: وقد جعل الله سبحانه في فِطَر العباد تقليد المتعلمين للمعلمين والأستاذين، في جميع الصنائع والعلوم... إلى آخره؟

فجوابه: إن هذا حق لا ينكره عاقل، ولكن كيف يستلزم ذلك صحة التقليد في دين الله، وقبول قول المتبوع بغير حجة توجب قبول قوله، وتقديم قوله على قول من هو أعلم منه، وترك الحجة لقوله، وترك أقوال أهل العلم جميعاً من السلف والخلف لقوله، فهل جعل الله ذلك في فطرة أحد من العالمين؟

ثم يقال: بل الذي فطر الله عباده[1]: طلبُ الحجة، أو الدليل المثبت لقول المدعي، فركز سبحانه في فِطَر الناس أنهم لا يقبلون قول من لم يقم الدليل على صحة قوله.

ولأجل ذلك أقام الله سبحانه البراهين القاطعة، والحجج الساطعة، والأدلة الظاهرة، والآيات الباهرة على صدق رسله؛ إقامةً للحجة وقطعاً للمعذرة، هذا وهم أصدق خلقه، وأعلمُهم وأبرُّهم، وأكملهم، فأتوا بالآيات والحجج والبراهين مع اعتراف أممهم لهم بأنهم أصدق الناس.

فكيف يُقبل قول من عداهم بغير حجة توجب قبول قوله؟

والله تعالى إنما أوجب قبول قولهم بعد قيام الحجة، وظهور الآيات المستلزمة لصحة دعواهم، لما جعل في فطر عباده من الانقياد للحجة وقبول[2] صاحبها، وهذا أمر مشترك بين جميع أهل الأرض: مؤمنِهم وكافرهم، وبرِّهم وفاجرهم والانقياد للحجة، وتعظيم صاحبها، وإن خالفوه عناداً وبَغْياً، فلفوات أغراضهم بالانقياد. ولقد أحسن القائل:

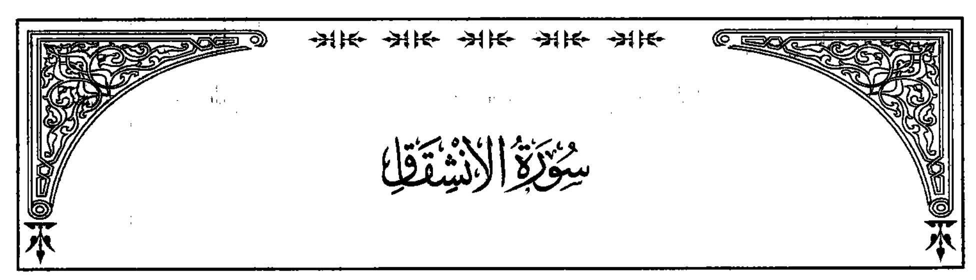
إذا غاب[3] وجهُ الحقّ عن قلبِ سامعٍ ... فدَعْه فنورُ الحق يسير ويُشرقُ

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «فطر الله عليه عباده».

(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «قول». (٣) في مطبوع «الدين الخالص»: «أبْن».

سيؤنسه رشداً[١] وينسىٰ نِفَارَه   كما نسي التَّوثيق من هو مُطْلَقُ
ففطرة الله وشرعه[٢] من أكبر الحجج على فرقة التقليد»[٣].

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «رفقاً».
(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «شرعته».
(٣) انظر: «الدين الخالص» (٤/٢٥٨ ـ ٢٥٩)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٤/١١ ـ ١٢ ـ بتحقيقي).



سُورَةُ الانشِقَاقِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الإنشقاق: ٢٠ ـ ٢٥]

قال (ك): «قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾، أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً، وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يكتمون في صدورهم ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: فأخبرهم يا محمد بأن الله ﷻ قد أعد لهم عذاباً أليماً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: لكن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: بجوارحهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

إن الله ﷻ له المنة على أهل الجنة في كل حال وآنٍ ولحظة، وإنّما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائماً سرمداً، والحمد لله وحده أبداً، ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَفَس، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين»(١).

(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٩٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾» رواه مسلم[1].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذه السورة سجدة من سجدات القرآن وقد نفاها المنتسبون إلى المذهب المالكي ونفوا معها ثلاث سجدات أخرى ثابتة عن النبي ﷺ؛ وهي السجدة الثانية من سورة الحج، وسجدة آخر سورة النجم، وسجدة آخر سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وليس لهم عذر في نفي هذه السجدات إلا الجهل أو العناد، وإذا ثبت أن الإمام مالكاً رحمه الله لم يُثبت هذه السجدات فعذره أن الحديث في زمانه لم يكن قد تكامل جمعه، ولم يطف في الدنيا لطلب علم الحديث، وقد عمل بما بلغه وقال: «إنما أنا بشر أصيب وأخطئ»[2]، وقال: «ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر» وأشار إلى بيت النبي صلى الله ﷺ[3]، وتقدم أن عبد الله بن قعنب ـ وهو من الرواة عنه ـ دخل فوجده يبكي فسأله عن بكائه: ما سببه؟ فقال: «إنا لله! يا ابن قعنب على ما فرط مني، ووددت أني ضربت بكل فتوى أفتيتها برأيٍ واجتهادي سوطاً ولم أسبق إلى شيء تركه من هو خير مني ـ يعني أصحاب رسول الله ﷺ ـ»[4]، وهو فيما بكى عليه رحمه الله معذور ومأجور. أما المنتسبون إليه فهم غير معذورين ولا مأجورين بل هم مأزورون؛ لأن الحديث في زمانهم قد جمع وحقق وانتشر ونخل، حتى تبين صحيحه من سقيمه وغثه من سمينه.

(١) في «صحيحه» رقم (٥٧٨).

(٢) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (١٤٣٥ ـ ١٤٣٦) **وإسناده حسن**، وذكره القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، والشاطبي في «الموافقات» (٥/ ٣٣١ ـ بتحقيقي).

(٣) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٨/ ٣٠٢، ط. هجر).

(٤) رواه ابن عبد البر في «الجامع» (٢٠٨١)، (ص١٠٧٢) من طريق مالك بن علي عن القعنبي به. وفي سنده محمد بن عمر بن لبابة ضعيف الرواية.
وأسنده من طريق القعنبي به: الحميدي في «جذوة المقتبس» (٢/ ٥٥١ ـ ٥٥٣)، والضبي في «البغية» (ص٤٦٤)، وابن حزم في «إبطال القياس» (٦٧) وقال: «**ثبت عنه**»، ونحوه في «ترتيب المدارك» (١/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، و«الموافقات» (٥/ ٣٣٠ ـ بتحقيقي) و«الإعلام» (٢/ ١٤٤).

قال الأُبّي في «شرحه لصحيح مسلم»[١] عند حديث: «**إذا اجتهد الحاكم وأصاب فله أجران**...[٢]» إلخ: «إن الاجتهاد في زماننا أيسر منه في زمان مالك لأن من قرأ «الأحكام الكبرى» لعبد الحق الإشبيلي في مسألة وجد فيها من الأحاديث ما لا يكاد يحضر مالكاً»[٣]. والأبّي من أهل القرن الثامن للهجرة فرحمه الله فقد نصح وبلغ ولم يكتم وهذا شأن العلماء العاملين والأئمة والمخلصين، وقال شيخنا محمد بن العربي العلوي رحمة الله عليه: «إذا رأيت خليلاً يقول: «لا» فإنه يرد على النبي ﷺ».

وقد قال خليل في «مختصره» في هذه السجدات الأربع ما نصه:

«لا ثانية الحج والنجم والانشقاق والعلق»[٤]، و«مختصر خليل» هو عمدة المتأخرين من المنتسبين إلى المذهب المالكي، قلدوه قلادة سوء وصار حجة عندهم يفتخرون به، ولله در من قال:

انظر فلا عجب يوماً لمعتبر أشد من ذي عمىً يسطو بقائده

ومعناه: إن الأعمى إذا افتخر بمن يقوده وادعى أنه أحدّ الناس بصراً يكون كاذباً؛ لأنه مقلد أعمى لا يستطيع أن يعرف تفاوت الناس في الإبصار، هذا إذا كان قائده مبصراً أما إذا كان قائده أعمى أيضاً فذاك أشد عجباً وأكثر ضلالاً وجهلاً. وخليل في «مختصره» لا يذكر الأدلة، فهو أعمى يقود عمياناً، فيقعون جميعاً في حفر الضلال، وقد تقدم الكلام في هذا مستوفىً، فالحمد لله على العافية.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٧٢) ما نصه:

«الوجه الثامن والستون: قولكم: إن الله سبحانه فاوت بين قوى الأذهان كما فاوت بين قوى الأبدان، فلا يليق بحكمته وعدله أن يفرض على كل أحد معرفة الحق بدليله في كل مسألة... إلى آخره. فنحن لا ننكر ذلك ولا ندَّعي

---

(١) المسمى بـ«إكمال إكمال المعلم» وهو مطبوع مع شرحه «مكمِّل إكمال الإكمال» للسنوسي، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «إكمال إكمال المعلم» (٥/ ١٦) بنحوه، وللصنعاني رسالة مستقلة بديعة في تقرير هذا المعنى وهي مطبوعة بعنوان «إرشاد النقاد في تيسير الاجتهاد».

(٤) انظر: «مختصر خليل» (ص٣٦).

أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله في كل مسألة في مسائل الدين دِقّه وجِلّه؛ إنما أنكرنا ما أنكره الأئمة، ومَن تقدَّمهم من الصحابة والتابعين، وما حدث في الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة في القرن الرابع المذموم على لسان رسول الله ﷺ، من نَصْبِ رجل واحد، وجعل فتاواه[1] بمنزلة نصوص الشارع، بل تقدم على أقواله ويقدم[2] قوله على أقوال من بعد رسول الله ﷺ من جميع علماء أمته، والاكتفاء بتقليده عن تلقِّي الأحكام من كتاب الله، وسنة رسوله.

وهذا مع تضمُّنه للشهادة بما لا يعلم الشاهد، والقول[3] بلا علم، والإخبار عمن خالفه وإن كان[4] منه أنه غير مصيب للكتاب والسنة، ومتبوعه[5] هو المصيب أو يقول: كلاهما مصيب للكتاب والسنة، وقد تعارضت أقوالُهما فيجعل أدلة الكتاب والسنة متعارضة متناقضة، والله ورسوله يحكم بالشيء وضده في وقت واحد، ودينه تبع لآراء الرجال وليس له في نَفْس الأمر حكم معين.

فهو إما أن يسلك هذا المسلك أو يخطِّئ[6] من خالف متبوعه، ولا بد له من واحد من الأمرين، وهذا من بركة التقليد عليه.

إذا عرفت هذا، فنحن نقول: إن الله تعالى أوْجب على العباد أنْ يتَّقوه بحسب استطاعتهم، وأصل التقوى معرفة ما يُتَّقى ثم[7] العمل به.

فالواجب على كل عبد أن يبذل جهده في معرفة ما يتقيه، مما أمر[8] الله به ونهاه عنه، ثم يلتزم طاعة الله ورسوله، وما خفي عليه فهو فيه أسوة أمثاله ممن عدا الرسول.

فكل أحد سواه، قد خفي عليه بعض ما جاء به ولم يخرجه ذلك عن كونه من أهل العلم، ولم يكلفه الله ما لا يطيق من معرفة الحق واتباعه.

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «فتاويه».
(٢) في مطبوع «الإعلام»: «بل تقديمهما عليها وتقديم».
(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «على الله».
(٤) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «أعلم».
(٥) في مطبوع «الدين الخالص»: «ومتبوعي».
(٦) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «يخفى»!
(٧) من مطبوع «الإعلام»، وسقطت من الأصل.
(٨) في مطبوع «الإعلام»: «أمره».

قال أبو عمر: وليس أحد ـ بعد رسول الله ﷺ إلا وقد خفي عليه بعض أمره.

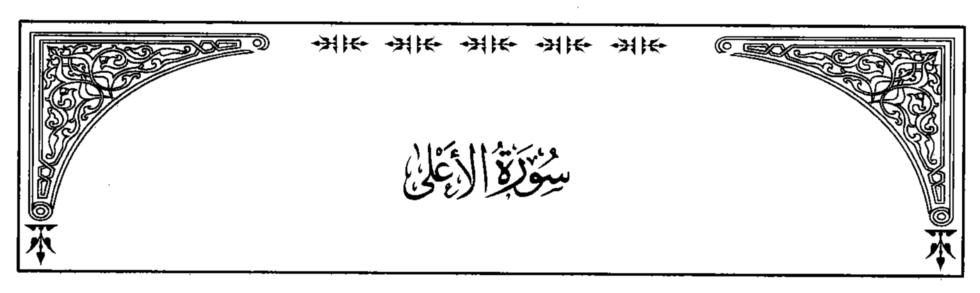
فإذا أوجب الله سبحانه على كل أحد ما استطاعه وبلغته قواه من معرفة الحق، وعذَرَه فيما خفي عليه منه، فأخطأه أو قلَّد فيه غيره كان ذلك هو مقتضى حكمته وعدله ورحمته.

بخلاف ما لو فرض على العباد تقليد من شاؤوا من العلماء، وأن يختار كل منهم رجلاً ينصبه معياراً على وحيه، ويُعرض عن أخذ الأحكام واقتباسها من مشكاة الوحي، فإن هذا ينافي حكمته، ورحمته، وإحسانه، ويؤدي إلى ضياع دينه، وهجْر كتابه، وسنة رسوله كما وقع فيه من وقع، وبالله التوفيق»[1].

---

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠)، و«إعلام الموقعين» (٤/ ١٢ ـ ١٣ ـ بتحقيقي) بتصرف.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

[الأعلى: ٩ ـ ١٣]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ أي: ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن هٰهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا تضعه عند غير أهله... كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ: ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم[(١)]، وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ أي: سيتعظ بالرسالة مَن قلبُه يخشى الله، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ أي: لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه؛ لأنه يعاقب فيها بأليم العذاب وأنواع النكال، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكنْ أناسٌ** ـ أو كما قال: ـ **تصيبهم النار بذنوبهم** ـ أو قال: ـ **بخطاياهم، فيميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر[(٢)] ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»**[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (١٢٧) عن علي بنحوه، وانظر في معناه: «فتح الباري» (١/ ٢٢٥)، «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، «الموافقات» (١/ ١٢٣ ـ ١٢٤ و٥/ ١٦٨ ـ بتحقيقي).

(٢) الضبائر جمع ضبارة وهي الحزمة من الحطب. (منه).

(٣) المراد بهذا من كان موحداً لله متبعاً لرسول الله ﷺ، ولكن مات على المعاصي والكبائر وعليه حقوق الناس لا الكفار. (منه).

ورواه مسلم[(١)]»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: أمر الله نبيه الكريم أن يذكّر عباده بأن يتلو عليهم آياته ويبيّنها لهم بأقواله وأفعاله، فمن آمن به وصدقه قولاً وعملاً واعتقاداً فهو الفائز السعيد، ومن رد قوله وعصى أمره فهو الخاسر البليد، وإذا لم نهيئ أنفسنا لتلقي كلام الله وكلام رسوله كله بالقبول والرضى والتسليم والحب والعمل واعتذرنا بتقليد الآباء والأئمة والمذاهب والطرائق والأحزاب وما أشبه ذلك، فإننا لن ننجو من عذاب الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولن نفوز برضوان الله ولطفه وتأييده ونصره، لا في العاجل ولا في الآجل.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٧٣) ما نصه:

«الوجه التاسع والستون: قولكم: إنكم في تقليدكم بمنزلة المأموم مع الإمام، والمتبوع مع التابع، والركب خلف الدليل.

جوابه: إنا ـ والله ـ حولها نُدنْدِن، ولكن الشأن في الإمام، والدليل، والمتبوع الذي فَرَض الله على الخلائق أن تأتم به، ويسير خلفه.

وأقسم سبحانه بعزَّته أن العباد لو أتوه من كل طريق، أو استفتحوا من كل باب، لم يُفتح لهم حتى يدخلوا من بابه[(٣)].

فهذا ـ لعمر الله ـ هو إمام الخلق ودليلهم وقائدهم حقًّا، ولم يجعل الله منصب الإمام بعده إلا لمن دعا إليه ودلّ عليه، وأمر الناس أن يقتدوا به، ويأتمّوا به ويسيروا خلفه وأن لا ينصبوا لنفوسهم[(٤)] متبوعاً، ولا إماماً، ولا دليلاً غيره، بل يكون العلماء مع الناس بمنزلة أئمة الصلاة مع المصلين، كل واحد يصلي طاعة لله وامتثالاً لأمره، وهم في الجماعة متعاونون متساعدون، وبمنزلة الوفد مع الدليل كلهم يتمسك بطاعة الله[(٥)] امتثالاً لأمره.

لا أن المأموم يصلي لأجل كون الإمام يصلي، بل هو يصلي كما صلّى

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٥)، ومسلم (٣٠٦، ٣٠٧).
(٢) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨).
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «خلفه».
(٤) في مطبوع «الإعلام»: «لأنفسهم».
(٥) في مطبوع «الدين الخالص»: «كلهم يحجُّ طاعة لله».

إمامه أولاً، بخلاف المقلد، فإنه إنما ذهب إلى قول متبوعه؛ لأنه قاله، لا لأن الرسول قاله.

ولو كان كذلك، لدار مع قول[1] الرسول أين كان، ولم يكن مقلداً.

فاحتجاجهم بإمام الصلاة، ودليل الحاج، من أظهر الحجج عليهم، يوضحه:

الوجه السبعون: إن الإمام قد علم أن هذه الصلاة التي فرضها الله سبحانه على عباده، وأنه وإمامه في وجوبها سواء، وأن هذا البيت هو الذي فرض الله حجَّه على كل من استطاع إليه سبيلاً، وأنه هو والدليل في هذا الفرض سواء.

فهو لم يحج تقليداً للدليل، ولم يصل تقليداً للإمام.

وقد استأجر النبي ﷺ، دليلاً يدلُّه على طريق المدينة لما هاجر الهِجْرة التي فرضها الله عليه[2].

وصلى خلف عبد الرحمٰن بن عوف مأموماً[3]، والعالم يُصلِّي خلف مثله، ومن هو دونه، بل خلف من ليس بعالم، وليس من تقليده في شيء، يوضحه:

الوجه الحادي والسبعون: إن المأموم يأتي بمثل ما يأتي به الإمام سواء، والركب[4] يأتي بمثل ما أتوا به سواء من معرفة الدليل، وتقديم الحجة وتحكيمها حيث كانت، مع من كانت، فهذا يكون متبعاً لهم.

وأما من أعرض عن الأصل الذي قامت عليه إمامتهم ويسلك غير سبيلهم ثم يدَّعي أنه مؤتم بهم، فتلك أمانيُّهم، ويقال لهم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]»[5].

---

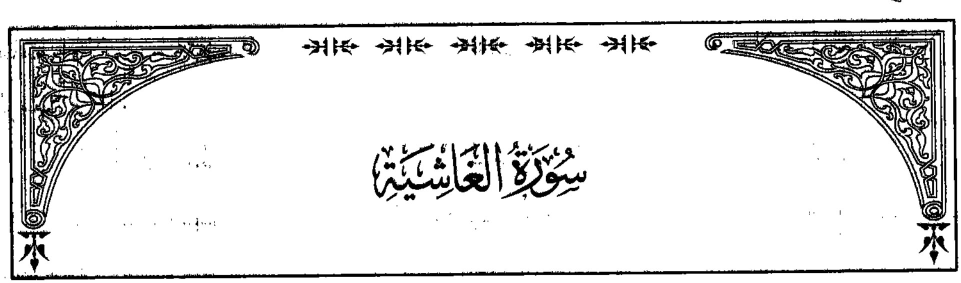
(١) من مطبوع «الإعلام»، وسقط من الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٣) في الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة، و(٢٢٦٤)، باب إذا استأجر أجيراً ليعمل له بعد ثلاثة أيام أو بعد شهر أو بعد سنة جاز، و(٣٩٠٥) في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، من حديث عائشة أم المؤمنين.

(٣) رواه مسلم (٤٢١) في الصلاة، باب تقديم الجماعة من يصلي بهم إذا تأخر الإمام ولم يخافوا مفسدة بالتقديم، من حديث المغيرة بن شعبة.

(٤) بعدها في مطبوع «الإعلام» ـ وسقط من «الدين الخالص» ـ: «يأتون بمثل ما يأتي به الدليل، ولو لم يفعلا ذلك لما كان هذا متَّبعاً فالمتبع للأئمة هو الذي».

(٥) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٤/ ١٣ ـ ١٤) بتصرف.



سُورَةُ الغَاشِيَةِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٤]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ أي: فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ولهذا قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ أي: لست تخلق الإيمان في قلوبهم، وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله** ﷻ» ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾»[1]. وهذا الحديث مخرج في «الصحيحين»[2] بدون ذكر هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾ أي: تولّى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] ولهذا قال: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾ وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي أنه مرّ على خالد بن يزيد بن معاوية فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: «سمعت من رسول الله ﷺ يقول: **«كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله»**[3].»[4].

---

(١) أخرجه أحمد(٣/ ٣٠٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٧٠)، والترمذي (٣٣٤١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ١٢٣ و١٢/ ٣٧٦)، وقال عنه شيخنا الألباني: «صحيح متواتر». قلت: دون ذكر الآية في الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٨)، والطبراني في «الأوسط» (٣١٧٣)، والحاكم (١/ ٥٥ ـ ٥٦ و٤/ ٢٤٧) وإسناده حسن وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٠٣): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير علي بن خالد الدولي وهو ثقة».

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٥١١).

فصل

قال محمد تقي الدين: هذه السورة مكية نزلت قبل أن يأمر الله رسوله بقتال المشركين من أهل جزيرة العرب حتى يسلموا فلم يكن عليه إلا البلاغ، وأخبر الله تعالى أن من أعرض عن تذكرة النبي ﷺ، وكفر بها يعذبه الله العذاب الأكبر في الدنيا والآخرة، ومن ادعى أنه لم يكفر بها ولكنه امتنع من العمل بما جاء به الرسول ﷺ، كأهل هذا الزمان الذين يحلون الربا وشرب الخمر والزنا وغير ذلك فادعاؤهم الإيمان لا ينفعهم مثقال ذرة وسيعذبهم الله العذاب الأكبر، وقد فعل سبحانه فإن عجز ثمان مائة مليون عن مقاومة ثلاثة ملايين هو من العذاب الأكبر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]، وكذلك المقلد الذي يأمره النبي ﷺ أن يصلي على هيئة مخصوصة أو يتوضأ أو يحج أو يعقد النكاح أو يؤتي الزكاة أو يبيع ويشتري وما أشبه ذلك، فيعصي أمر النبي ﷺ لأنه خالف مذهب إمامه أيضاً يعذبه الله العذاب الأكبر(١).

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٧٥) ما نصه:

«الوجه الثاني والسبعون: قولكم: إن أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا البلاد، وكان الناس حديثي عهد بالإسلام وكانوا يفتونهم، ولم يقولوا لأحد منهم: عليك أن تطلب معرفة الحق في هذه الفتوى بالدليل.

جوابه: إنهم لم يفتوهم بآرائهم، وإنما بلَّغوهم ما قاله نبيهم، وفعله، وأمر به، فكان ما أفتوهم به هو الحكم، وهو الحجة، وقالوا لهم:

هذا عهد نبينا إلينا، وهو عهدنا إليكم، فكان ما يخبرونهم به هو نفس الدليل، وهو الحكم.

فإن كلام رسول الله ﷺ هو الحكم، وهو دليل الحكم، وكذلك القرآن، وكان الناس إذ ذاك، إنما يحرصون على(٢) ما قاله نبيهم وفعله، وأمر به. وإنما يُبلِّغهم الصحابة ذلك.

فأين هذا من زمان، إنما يحرص الناس فيه على ما قاله الآخر فالآخر،

---

(١) إن عامله سبحانه بعدله. وإلا فهو ـ كسائر من يأتي بالمعاصي ـ تحت مشيئة الله تعالى بخلاف المستحل للربا وشرب الخمر والزنا.

(٢) بعدها في مطبوع «الدين الخالص»: «معرفة».

وكلّما تأخر الرجل أخذوا كلامه، وهجروا ـ أو كادوا يهجرون ـ، كلام من فوقه، حتى تجد أتباع الأئمة أشد الناس هجراً لكلامهم.

وأهل كل عصر إنما يقضون ويفتون بقول الأدنى إليهم.

وكلما بَعُد العهد، ازداد كلام المتقدم هجراً ورغبة عنه، حتى إن كتبه لا تكاد تجد فيهم[1] منها شيئاً بحسب تقدم زمانه.

ولكن أين قال أصحاب رسول الله ﷺ للتابعين: «لينصب كلٌّ منكم لنفسه رجلاً يختاره ويقلده دينه ولا يلتفت إلى غيره، ولا يتلق[2] الأحكام من الكتاب والسنة، بل من تقليد الرجال فإذا جاءكم عن الله ورسوله شيء، وعَمَّن نصَّبْتموه إماماً تقلدونه، فخذوا بقوله، ودعوا ما بلغكم عن الله ورسوله».

فوالله لو كُشف الغطاءُ لكم، وحقت الحقائق، لرأيتم نفوسكم وطريقكم مع الصحابة كما قال الأول:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ... ونزلْتُ بالبيداء أبعدَ منزلِ[3]

سارت مشرقةً وسرتُ مغرباً ... شتان بين مُشرِّقٍ ومغربِ[4]

وقال آخر[5]:

أيها المنكِح الثريّا سهيلاً ... عَمْرَكَ الله كيف يلتقيانِ

هي شاميَّةٌ إذا ما استقلّت ... وسهيل إذا استقل يماني[6]

الوجه الثالث[7] والسبعون: قولكم: إن التقليد من لوازم الشرع والقدر.

والمنكرون له مضطرون إليه ولا بدّ، كما تقدم بيانه من الأحكام.

جوابه: إنّ التقليد المنكر المذموم ليس من لوازم الشرع، وإن كان من

---

(١) في مطبوع «الإعلام»: «عندهم». (٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «يتلقى».

(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «وكما قال الثاني».

(٤) ذكره في «تاج العروس» (٢٥/٥٠١ ـ شرق) بلا نسبة، وهو في «المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية» (١/٤١٦).

(٥) في مطبوع «الإعلام»: «وكما قال الثالث».

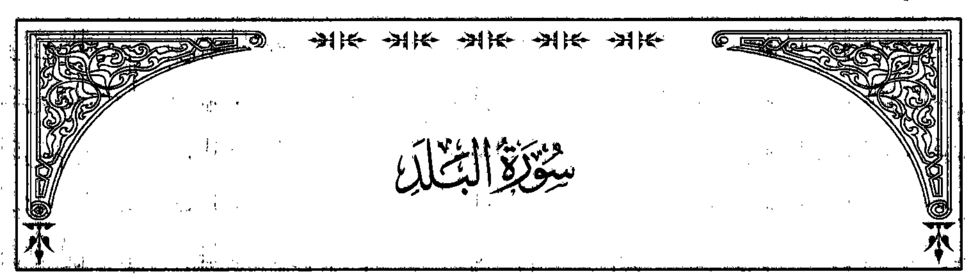
(٦) هو في «ديوان عمر بن أبي ربيعة» (ص٥٠٣) ـ القسم المنسوب إليه ـ، وعزاه له: المبرِّد في «الكامل» (٢/ ٧٨٠ ـ ط. الدالي)، وأبو الفرج في «الأغاني» (٢/٣٥٩)، والبغدادي في «الخزانة» (١/٢٣٩).

(٧) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «الثاني»!

لوازم القدر، بل بطلانه وفساده من لوازم الشرع: كما عرف بهذه الوجوه التي ذكرناها، وأضعافها، وإنما الذي من لوازم الشرع، المتابعة، وهذه المسائل التي ذكرتم إنها من لوازم الشرع، ليست تقليداً، وإنما هي متابعة وامتثال للأمر، فإن أبيتم إلا تسميتها تقليداً، فالتقليد بهذا الاعتبار حق وهو من الشرع ولا يلزم من ذلك أن يكون التقليد الذي وقع النزاع فيه من الشرع ولا من لوازمه، وإنما بطلانه من لوازمه»[1].

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٤/ ١٤ ـ ١٦ ـ بتحقيقي) بتصرف.





سورة البلد

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ [البلد: ٨ ـ ٢٠]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ أي: يبصر بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ ينطق به، فيعبِّر عما في ضميره، ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه؟ ويروى في بعض الأحاديث القدسية ما معناه: «**يا ابن آدم إنّ من نعمي عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما، وجعلت لهما غطاء فانظر بعينيك ما أحللت لك، وأطبق غطاءهما عما حرمت عليك، وخلقت لسانك وجعلت له غلافاً، فتكلم بما أمرتك وأحللت لك، وأغلقه عما حرمت عليك. وجعلت لك فرجاً وجعلت لك ستراً، فأصب بفرجك ما أحللت لك وأبعده عما حرمت عليك، يا ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي**»[1].

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ أي: الطريقين الخير والشر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩/ ق٤٦ ـ مخطوط)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١٥/ ٤٤١) لابن عساكر وقال المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٦/ ٤٧) رقم (٤٣٨٧٦): «أخرجه ابن عساكر عن مكحول مرسلاً»، **فهو ضعيف**.

﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ جبل في جهنم قاله ابن عمر[١]. قال قتادة: إنها عقبة قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله. ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾. قال ابن زيد: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ أي: فلا[٢] سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ثم بيّنها فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ الرقبة المملوك، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب ـ** أي: عضو ـ **منها، إرباً منه من النار حتى إنه ليعتق باليد اليد وبالرجل الرجل وبالفرج الفرج**»[٣].

قال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي بن الحسين لغلام له ـ أفْرَه غلمانه[٤] ـ: ادع لي مطرفاً، فلما قام بين يديه قال: «اذهب فأنت حر لوجه الله» رواه البخاري ومسلم[٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ قال ابن عباس: أي ذي مجاعة[٦] أو[٧] ﴿يَتِيمًا﴾ أي: أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: ذا قرابة من المُطعِم: كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة**»[٨]. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: فقيراً

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٢٥٣) رقم (٢٨٩٠٥)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٣٤) رقم (١٩٣٢٤) في «تفسيريهما» **بإسناد ضعيف**، فيه عطية العوفي، والصحيح أن هذا من «تفسير مقاتل بن حيان». انظر: «التخويف من النار» لابن رجب رقم (٢٠٤، ٢٠٥، ٣٩٦ ـ بتحقيقي).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أفلا».

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٢)، والبخاري (٢٥١٧)، ومسلم (١٥٠٩).

(٤) أفره غلمانه: أفضل غلمانه. (منه). (٥) قطعة من الحديث السابق.

(٦) أخرجه الفريابي ـ كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٣٦٨)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٠٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٤٩) ـ، وابن جرير في «جامع البيان» (٢٤/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦)، وابن أبي حاتم ـ كما في «الفتح» (٨/ ٧٠٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٤٩) ـ.

(٧) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٨) أخرجه النسائي (٥/ ٩٢)، والترمذي (٦٥٨)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وأحمد (٤/ ١٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٩٢)، والدارمي (١/ ٣٩٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٣٦، ١١٣٩)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٤٠٥)، وابن خزيمة (٣٢٨٥)، =

مدقعاً لاصقاً بالتراب وهو الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب ولا أحد له، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم هو - أي المتصدق مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة - مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم[1] كما جاء في الحديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[2]. وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾ أي: أصحاب الشمال ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ أي: «مطبقة عليهم فلا محيد عنها ولا خروج منها، ولا فرج إلى آخر الأبد فلا تستقر أقدامهم على قرار ولا ينظرون إلى أديم السماء أبداً، ولا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً، ولا يذوقون فيها بارد شراب أبداً»، رواه ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني»[3].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ أحد النجدين اتباع الرسول والتمسك بما جاء به والموالاة عليه والمعاداة عليه والحب فيه

= وابن حبان (٣٣٤٤)، والطبراني (٦٢٠٧ - ٦٢١٢)، والحاكم (١/ ٤٠٧)، والبيهقي (٤/ ١٧٤) من حديث سلمان بن عامر **وإسناده ضعيف**، لجهالة الرباب بنت صُلَيع، **والحديث حسن له شواهد عديدة**، أصحها حديث زينب امرأة ابن مسعود عند البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠). وفي الباب عن أبي أمامة وأبي طلحة الأنصاري. وانظر: «مجمع الزوائد» (٣/ ١١٦، ١١٧)، و«الإرواء» (٣/ ٣٨٧).

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «فهم»!

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٦)، والحميدي (٥٩١)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، والبيهقي (٩/ ٢٤١)، والخطيب (٣/ ٢٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو، **والحديث صحيح بشواهده**، منها حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٩٩٧)، وحديث جرير بن عبد الله عند البخاري أيضاً (٧٣٧٦).

(٣) أخرج أثر أبي عمران الجوني: ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣١٢) أو رقم (٢٥٧٢)، وهو في «التخويف من النار» (رقم ٢٦٤ - بتحقيقي) لابن رجب. وما مضى من «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٣٥٥ - ٣٦٣) بتصرف.

والبغض فيه. والثاني: الكفر بما جاء به الرسول أو الإيمان الكاذب الذي لا عمل معه والمتبعون لهذا النجد خاسرون كلهم وأصحاب النجد الثاني مغالطون فكيف يجتمع الإيمان بالرسول مع معصية الرسول؟ وما أحسن قول الشاعر:

تعصي الرسول[1] وأنتَ تُظهرُ حبَّهُ ... هذا محالٌ في القياسِ بديعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحِبَّ لمن يحب مطيعُ[2]

فتصور في هذا الزمان رجلاً انتمى إلى حزب سياسي يوجه إليه مكتب الحزب الدعوة بعد الدعوة فلا يحضر ولا يعتذر ولا يدفع اشتراكاً ولم يدع أحداً ليدخل في الحزب، فهل يعقل أن رئيس الحزب يقبله عضواً في حزبه؟ كلا بل يتبرأ منه الحزب كل البراءة ويعاديه أشد العداوة.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٧٧) ما نصه:

«الوجه الرابع والسبعون: إن ما كان من لوازم الشرع، فبطلان ضده من لوازم الشرع، فلو كان التقليد الذي وقع فيه النزاع من لوازم الشرع، لكان بطلان الاستدلال، واتباع الحجة في موضع التقليد من لوازم الشرع، فإن ثبوت أحد النقيضين يقتضي انتفاء الآخر، وصحة أحد الضدين توجب بطلان الآخر.

ونحرِّره دليلاً فنقول: لو كان التقليد من الدين لم يَجُز العدول عنه إلى الاجتهاد والاستدلال؛ لأنه يتضمن بطلانه، فإن قيل: كلاهما من الدِّين، وأحدهما أكمل من الآخر، فيجوزُ العدول من المفضول إلى الفاضل. قيل: إذا كان قد انسدَّ باب الاجتهاد عندكم، وقطعت طريقته[3]، وصار الفرض هو التقليد، فالعدول عنه إلى ما قد سُدَّ بابه، وقُطعت طريقه، يكون ـ عندكم ـ مصيبة[4]، وفاعله آثم.

وفي هذا من قطع طريق العلم، وإبطال حجة[5] الله وبيّناته، وخلو الأرض من قائم لله بحججه، ما يبطل هذا القول ويدحضه.

وقد ضَمِن النبي ﷺ: أنه «**لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة**»[6].

---

(١) الصواب «الإله».
(٢) سبق ذكره وعزوه.
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «وقطعتم طريقه».
(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «معصية».
(٥) في مطبوع «الدين الخالص»: «حجج».
(٦) سبق تخريجه.

وهؤلاء هم أولوا العلم والمعرفة بما بعث الله به رسوله، فإنهم على بصيرة[(١)] من دينه بخلاف الأعمى الذي قد شهد على نفسه بأنه ليس من أولي العلم والبصائر، والمقصود أن الذي هو من لوازم الشرع: المتابعة[(٢)] والاقتداء، وتقديم النصوص على آراء الرجال، وتحكيم الكتاب والسنة في كل ما تنازع فيه العلماء.

وأما الزهد في النصوص، والاستغناء عنها بآراء الرجال، وتقديمها عليها، والإنكار على مَنْ جعل كتاب الله وسنة رسوله، وأقوال الصحابة نُصْب عينيه، وعرض أقوال العلماء عليها، ولم يتخذ من دون الله، ولا رسوله وليجةً، فبطلانه من لوازم الشرع، ولا يتم الدين إلا بإنكاره وإبطاله، فهذا لون، والاتباع لونٌ، والله الموفق.

الوجه السادس والسبعون[(٣)]: قولكم: منعتم من التقليد خشية وقوع المقلد في الخطأ، بأن يكون من قلده مخطئاً في فتواه، ثم أوجبتم عليه النظر والاستدلال في طلب الحق، ولا ريب أن صوابه[(٤)] في تقليده لمن هو أعلم منه أقرب من اجتهاده هو لنفسه، كمن أراد شراءَ سلعة لا خبرة له بها، فإنه إذا قلد عالماً بتلك السلعة، خبيراً بها، أميناً ناصحاً، كان صوابه وحصول غَرَضِه أقرب من اجتهاده لنفسه.

جوابه من وجوه:

أحدها: إنّا منعنا التقليدَ طاعةً لله ورسوله، والله[(٥)] منع منه وذمَّ أهله في كتابه، وأمر بتحكيمه وتحكيم رسوله، وردّ ما تنازعت فيه الأمة إليه وإلى رسوله، وأخبر أن الحكم له وحده، ونهى أن يُتخذ من دونه أو دون رسوله وليجة، وأمر أن يُعتصم بكتابه، ونهى أن يُتخذ من دونه أولياء وأرباباً يحل من اتخذهم ما أحلّوه ويحرم ما حَرَّموه، وجعل من لا علم له بما أنزله على رسوله بمنزلة

(١) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «وبينة».
(٢) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «فالمتابعة».
(٣) سقط من الأصل (الوجه الخامس والسبعون)، انظره في «الدين الخالص» (٤/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).
(٤) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «جوابه»!
(٥) في مطبوع «الدين الخالص»: «والله ورسوله».

الأنعام، وأمر بطاعة أولي الأمر إذا كانت طاعتهم طاعة لرسوله، بأن يكونوا متبعين لأمره مُخبرين به، وأقسم بنفسه ـ سبحانه ـ أنه[١] لا نؤمن حتى نحكِّم الرسول خاصة فيما شجر بيننا، لا نحكم غيره، ثم لا نجد في أنفسنا حرجاً مما حكم به كما يجده المقلدون إذا جاء حكمه خلاف قول مَنْ قلدوه، وأن نسلِّم لحكمه تسليماً، كما يسلم المقلدون لأقوال من قلدوه، تسليماً[٢] أعظم من تسليمهم وأكمل والله المستعان، وذمَّ من حاكم إلى غير الرسول.

وهذا كما أنه ثابت في حياته، فهو ثابت بعد مماته.

فلو كان حيًّا بين أظهرنا وتحاكمنا إلى غيره، لكُنَّا من أهل الذم [والتقليد][٣]، والوعيد، فسنَّته وما جاء به من الهدى ودين الحق لم تمت، وإن فُقد بين الأمة شخصه الكريم، فلم تفقد من بيننا سنته ودعوته وهديه، والعلم والإيمان ـ بحمد الله ـ مكانهما، من ابتغاهما وجدهما.

وقد ضَمِن الله سبحانه حفظ الذكر الذي أنزله على رسوله، فلا يزال محفوظاً بحفظ الله، محميًّا بحمايته؛ لتقوم حجة الله على عباده[٤] قرناً بعد قرن. إذ كان نبيُّهم آخر الأنبياء ولا نبي بعده.

فكان حفظه لدينه وما أنزله على رسوله مُغنياً عن رسول آخر بعد خاتم الرسل، والذي أوجبه الله سبحانه وفَرَضه على الصحابة، من تلقِّي العلم والهدى من القرآن والسنة دون غيرهما، هو ـ بعينه ـ واجب على مَن بعدهم، وهو مُحكم لم يُنسخ ولا يتطرق إليه النسخ حتى ينسخ الله العالَم ويطوي الدنيا، وقد ذم الله تعالى من إذا دُعي إلى ما أنزل الله وإلى رسوله صدّ وأعرض، وحذره أن تصيبه مصيبة ـ بإعراضه عن ذلك ـ في قلبه ودينه ودنياه، وحذَّر من خالف عن أمره واتبع غيره، أن تصيبه فتنة أو يصيبه عذاب أليم، فالفتنة في قلبه، والعذاب الأليم في بدنه وروحه، وهما متلازمان، فمن فُتن في قلبه ـ بإعراضه عما جاء به ومخالفته له إلى غيره ـ أصيب بالعذاب الأليم، ولا بدّ.

وأخبر سبحانه أنه إذا قضى أمراً على لسان رسوله، لم يكن لأحد من

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «أنّا».
(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «بل تسليماً».
(٣) غير موجود في مطبوع «الدين الخالص».
(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «يقيم حجة على العباد»!

المؤمنين أن يختار من أمره غير ما قضاه، فلا خيرة بعد قضائه لمؤمن البتّة.

ونحن نسأل المقلِّدين: هل يمكن أن يخفى[1] عليه ذلك الذي[2] أنزلوه فوق منزلة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والصحابة كلهم، فليس أحد منهم إلا وقد خفي عليه بعض ما قضى الله ورسوله به.

فهذا الصِّديق أعلم الأمة به، خفي عليه ميراث الجدَّة، حتى أعلمه به محمد بن مسلمة، والمغيرة بن شعبة[3]، وخفي عليه أن[4] الشهيد لا دية له حتى أعلمه به عمر، فرجع إلى قوله»[5].

ثم ذكر صاحب «الدين الخالص» مسائل عن عمر نذكر بعضها: «فمنها: أنه خفي على (عمر) تيمم الجنب فقال: لو بقي شهراً لم يصلِّ حتى يغتسل[6].

وخفي عليه دية الأصابع، فقضى في الإبهام والتي تليها بخمس وعشرين، حتى أخبر أن في كتاب النبي إلى عمرو بن حزم[7] أن رسول الله ﷺ، قضى فيها بعشر[2]، فترك قوله ورجع إليه[8].

---

(١) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «قضاء الله ورسوله على من قلَّدتموه دينكم في كثير من المواضع أم لا؟ فإن قالوا: لا يمكن أن يخفى عليه ذلك».
(٢) بعدها في الأصل: «عشر»! (٣) سبق تخريجه.
(٤) من مطبوع «الدين الخالص»، وسقط من الأصل.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) أخرجه البخاري (٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧)، ومسلم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر.
(٧) في مطبوع «الإعلام»: «كتاب آل عمرو بن حزم».
(٨) أخرج عبد الرزاق في «مصنفه» (١٧٦٩٨) من طريق الثوري والشافعي في «الرسالة» (ص٤٢٢) رقم (١١٦٠): أخبرنا سفيان وعبد الوهاب عن يحيى عن سعيد بن المسيب أن عمر جعل في الإبهام خمس عشرة، وفي السبابة عشراً... حتى وجدنا كتاباً عند آل حزم عن رسول الله ﷺ أن الأصابع كلها سواء فأخذ به.
ورواه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٠٦) من طريق يحيى بن سعيد عن سعيد به مختصراً، ورواه ابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٨٦) من طريق البخاري: ثنا أبو النعمان، ثنا حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد به بلفظه.
لكن رواه البيهقي (٨/ ٩٣) من طريق جعفر بن عون عن يحيى بن سعيد به فقال: قضى عمر في الأصابع في الإبهام بثلاثة عشر والتي تليها باثني عشر...، وظاهر هذه الروايات أن الذي وجد الكتاب ليس عمر.
لكن وجدت رواية صريحة عند عبد الرزاق (١٧٧٠٦) عن معمر عن عبد الله بن =

وخفي عليه شأن الاستئذان حتى أخبره به أبو موسى وأبو سعيد الخدري[(١)].

وخفي عليه توريث المرأة من دية زوجها، حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان الكلابي ـ وهو أعرابي من أهل البادية ـ «إن رسول الله ﷺ، أمره أن يورِّث امرأة أَشْيَم الضبابي من دية زوجها»[(٢)].

وخفي عليه حكم إملاص[(٣)] المرأة حتى سأل عنه فوجده عند المغيرة بن شعبة[(٤)].

= عبد الرحمٰن الأنصاري عن ابن المسيب قال: قضى عمر بن الخطاب بقضاء في الأصابع ثم أُخبر بكتاب كتبه النبي ﷺ لآل حزم: في كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل، فأخذ به وترك أمره الأول.

وابن المسيب لم يدرك عمر، كان صغيراً لم يبلغ الحلم في أيامه.

وكتاب عمرو بن حزم فيه أنصبة الزكاة والديات، وسبق تخريجه.

وقوله: «في دية الأصابع عشر».

ورد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً، رواه أبو داود (٤٥٦٢)، والنسائي (٨/ ٥٧)، وابن ماجه (٢٦٥٣)، وأحمد (٢/ ٢٠٧)، **وإسناده جيد**، وفي الباب عن ابن عباس وأبي موسى الأشعري.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٦٢) في «البيوع»، باب الخروج في التجارة، و(٧٣٥٣) في «الاعتصام»، باب الحجة على من قال: إن أحكام النبي ﷺ ظاهرة، ومسلم (٢١٥٣) (٣٦) في «الأداب»، باب الاستئذان من حديث أبي موسى الأشعري.

وأخرجه مسلم (٢١٥٤) من حديث أبي موسى إلا أن الذي شهد أبو موسى وأُبي بن كعب.

وأخرجه البخاري (٦٢٤٥) في «الأدب»، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً، ومسلم (٢١٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٩/ ٣١٣)، وأبو داود (٢٩٢٧) في «الفرائض»، باب في المرأة ترث من دية زوجها، والترمذي (١٤٣٦) في «الديات»، و(٢١٩٣) في «الفرائض»، وابن ماجه (٢٦٤٢)، وأحمد (٣/ ٤٥٢)، والطبراني في «الكبير» رقم (٨١٤٠ و٨١٤٢)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤٩٦ و١٤٩٧) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب كان يقول... حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان.

قال الترمذي: هذا حديث حَسَن، وانظر: «الرسالة» (ص٤٢٦ ـ ٤٢٧).

(٣) أملصت المرأة: ألقت ولدها ميتاً. (منه).

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٠٥ ـ ٦٩٠٨) في «الديات»، باب جنين المرأة، و(٧٣١٧ و٧٣١٨) في «الاعتصام»، باب ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله، من حديث المغيرة بن شعبة، ومحمد بن مسلمة. =

وخفي عليه أمر المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجَر[(١)].

وخفي عليه سقوط طواف الوداع عن الحائض فكان يردُّهن حتى يطهرن ثم يطفن، حتى بلغه عن النبي ﷺ خلاف ذلك فرجع عن قوله[(٢)].

= ورواه مسلم (١٦٨٩) في «القسامة»، باب دية الجنين، من حديث المسور بن مخرمة.
والحديث عندهما جاء من طريق هشام بن عروة عن أبيه.
فقال في رواية البخاري: عن المغيرة ثم شهد محمد بن مسلمة.
وقال في رواية مسلم: عن المسور، وشهد المغيرة ومحمد بن مسلمة.

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٦) و(٣١٥٧) في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، وانظر: «الرسالة» (ص٤٣٠ ـ ٤٣١) للشافعي.

(٢) أخرجه ابن المنذر؛ كما في «الفتح» (٣/ ٥٨٧) بإسناد صحيح إلى نافع عن ابن عمر قال: طافت امرأة بالبيت يوم النحر ثم حاضت فأمر عمر بحبسها بمكة بعد أن ينفر الناس حتى تطهر، وتطوف بالبيت.
وروى ابن أبي شيبة ـ كما في «الفتح» (٣/ ٥٨٧) ـ من طريق القاسم بن محمد: كان الصحابة يقولون: إذا أفاضت المرأة قبل أن تحيض فقد فرغت، إلا عمر؛ فإنه كان يقول: «يكون آخر عهدها بالبيت».
وأما السنة الواردة عن النبي ﷺ في ذلك: فقد أخرج البخاري (١٧٥٧، ٤٤٠١)، ومسلم (١٢١١) عن عائشة قالت: حاضت صفية بنت حُيَيّ بعدما أفاضت، قالت عائشة: فذكرتُ حيضتها لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أحابستنا هي؟» قال: فقلت: يا رسول الله إنها قد كانت أفاضت، وطافت بالبيت، ثم حاضت بعد الإفاضة، فقال رسول الله ﷺ: «فَلْتَنْفِر».
وروى البخاري (١٧٥٥)، ومسلم (١٣٢٨) عن ابن عباس قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض.
وخفي هذا الأمر على زيد بن ثابت حتى أخبره به ابن عباس، رواه البخاري (١٧٥٨)، ومسلم (١٣٢٨).
ورجوع عمر أخرجه البيهقي في «المدخل» (٢٥)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٢٠٧، ٢٠٨) وفيه هشام بن يحيى مستور.
وروى أبو داود (٢٠٠٤) في «المناسك»، باب الحائض تخرج بعد الإفاضة، ومن طريقه البيهقي في «المدخل» (٢٧)، والترمذي (٩٤٦) في «الحج»، باب ما جاء في من حج أو اعتمر فليكن آخر عهده بالبيت، وأحمد في «المسند» (٣/ ٤١٦ ـ ٤١٧)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٤/ ١٣٨٢) رقم (٣٥٦)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٩٨) رقم (٣٣٥٤، ٣٣٥٥)، والبغوي في «معجم الصحابة» (ق١٠١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٢٣٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ٧٨٦ ـ ٧٨٧) رقم (٢٠٨٥، ٢٠٨٦)، من طريق الحارث بن عبد الله بن أوس عن عمر بنحوه مختصراً. =

وخفي عليه شأن متعة الحج وكان ينهى عنها حتى وقف على أن النبي ﷺ أمر بها فترك قوله وأمر بها[١].

وخفي عليه جواز التسمي بأسماء الأنبياء فنهى عنه، حتى أخبره به طلحة أن النبي ﷺ كنَّاه أبا محمد، فأمسك ولم يتماد[٢] على النهي[٣]، هذا وأبو موسى

= قال المنذري في «مختصر أبي داود» (٢/ ٤٣٠): إسناده **حسن**...، وفيه قال عمر: سألتني عن شيء سألت عنه رسول الله ﷺ لكيما أخالف»، وانظر: «الإحكام» (٦/ ٧٩) لابن حزم، وقارن لزاماً بـ:«فتح الباري» (٣/ ٥٨٧).

ووجدت ابنه عبد الله كان يقول به ثم رجع عنه، روى ذلك البخاري (٣٣٠) و(١٧٦١).

(١) أخرجه البخاري (١٥٥٩) في الحج، باب من أهل في زمن النبي ﷺ كإهلال النبي ﷺ و(١٧٢٤)، باب الذبح قبل الحلق، و(١٧٩٥) في «العمرة»، باب متى يحل المعتمر، و(٤٣٤٦) في المغازي، باب بعث أبي موسى، ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، ومسلم (١٢٢١) في «الحج»، باب نسخ التحلل في الإحرام، والأمر بالتمام من حديث أبي موسى الأشعري، وفيه قول عمر.

ورواه مسلم (١٢١٧)، و(١٤٠٥) (١٧) من حديث ابن عباس، وفيه نهي عمر عن المتعة.

وقد روى مسلم في «صحيحه» (١٢٢٢) سبب نهي عمر عن المتعة حيث قال: قد علمت أن النبي ﷺ فعله وأصحابه، ولكن كرهت أن يظلوا معرسين بهن في الأراك، ثم يروحون في الحج تقطر رؤُوسهم.

(٢) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «يتمادى»!

(٣) أخرج أحمد في «مسنده» (٤/ ٢١٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ١٦)، وفي «الأوسط» (١/ ١٠)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٦٧٠)، وابن سعد (٥/ ٥٣)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٥٤٤)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ١٦٦ ـ ١٦٧) (رقم ٦٣٦، ط. دار الوطن) من طريق أبي عوانة عن هلال بن أبي حميد الوَزَّان عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قال: نظر عمر إلى أبي عبد الحميد، وكان اسمه محمداً ورجلٌ يقول له: فعل الله بك يا محمد... فدعاه عمر فقال: يا ابن زيد لا أرى محمداً ﷺ يُسب بك... فأرسل إلى بني طلحة، وهم سبعة، وسيدهم وكبيرهم محمد بن طلحة ليغيِّر أسماءهم، فقال محمد: أذكرك الله يا أمير المؤمنين فوالله لمحمد ﷺ سماني محمداً، فقال: قوموا لا سبيل إلى شيء سماه رسول الله ﷺ. وأخرجه ـ مختصراً ـ ابن قانع في «معجم الصحابة» (١٣/ ٤٥٦٧) رقم (١٧٠٨)، وابن السكن وابن شاهين كما في «الإصابة» (٦/ ٧٧٧٥).

قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٤٩): «ورجال أحمد رجال الصحيح». وذكره الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٥٧٣) ساكتاً عليه، قلت: **إسناده منقطع**، فإن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق عمر.

ومحمد بن مسلمة وأبو أيوب من أشهر الصحابة ولم يمر بباله أمر هو بين يديه حتى نهى عنه.

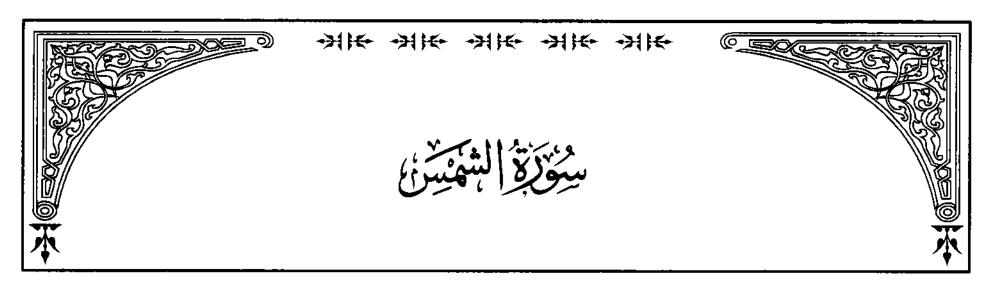
وكما خفي عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠] وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] حتى قال: والله كأني ما سمعتها قط قبل وقتي هذا[(١)]»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: ومقصود المصنف بسرد هذه المسائل، أن يقيم الحجة على المقلدين الذين يزعمون أن إمامهم وأهل مذهبهم أحاطوا علماً بجميع المسائل وعرفوا جميع الأحاديث فإذا قيل لهم: لماذا لم تعملوا بهذا الحديث؟ أجابوا بقولهم: إمامنا أعلم به ولا يمكن أن يخفى عليه وما ترك العمل به إلا لعلة، إما أن يكون منسوخاً أو ضعيفاً عنده، أو عنده حديث آخر يعارضه، ولم نطلع عليه، فإذا رأوا أن كبار الصحابة يخفى عليهم كثير من السنن ويفتون بخلافها، حتى إذا ظهر الحق لهم ممن هو دونهم في العلم تركوا أقوالهم ورجعوا إليه، وهذا هو الواجب على كل مسلم، وإن كان أعلم الناس.

(١) أخرج البخاري في «الصحيح» كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت إذا أدرج في أكفانه رقم (١٢٤٢) بسنده إلى عمر بن الخطاب، قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ـ أي: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . .﴾ [آل عمران: ٤٤]؛ فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات.
وأخرجه عن أبي سعيد الخدري **بإسناد صحيح** ابن عبد البر في «الجامع» رقم (٢٣٨٧)، وابن مردويه؛ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٨٩)، وتتمته: وكيف لا ننكر أنفسنا والله تعالى يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧].
وروى البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٢١٧) عن عروة قال: لما توفي النبي ﷺ. . . ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ فقال عمر: هذه الآية من القرآن؟. . . وقال: قال الله لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وانظر: «الدر المنثور» (٤/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨).

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٤/ ١٨ ـ ٢٤ ـ بتحقيقي).



سُورَةُ الشَّمْسِ

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٨ ـ ١٠]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، وبيّن لها الخير والشر.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ أي: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله ﷻ.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ قال ﷺ: «**أفلحت نفس زكاها الله ﷻ**»(١)، وكان رسول الله ﷺ إذا مرّ بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾، وقف ثم قال: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»(٢).»(٣).

فصل

قال محمد تقي الدين: قسم الله سبحانه الناس قسمين: قسم: مفلحون فائزون بكل ما أملوا، ناجون من كل ما خافوا سعداء في الدنيا والآخرة. وقسم:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٣٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣/ ٢١١) رقم (٤٦٠٠)، **وإسناده ضعيف جدًّا**، فيه جويبر بن سعيد، وهو متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس. وزاد نسبته السيوطي في «الدر المنثور» (١٥/ ٤٦١) لأبي الشيخ وابن مردويه. والراجح: عن ابن عباس قوله، ذكره ابن القيم في «التبيان» (١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، والنسائي (٥٤٥٨)، وأحمد (٤/ ٣٧١) من حديث زيد بن أرقم.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٥٢١) بتصرف.

خائبون خاسرون أشقياء في الدنيا والآخرة؛ فالمفلحون هم الذي زكوا أنفسهم باتباع كتاب الله وسنة رسوله إيماناً واعتقاداً وعملاً، والخائبون الخاسرون هم الذين خالفوهما أو كفروا بهما، وتقليد المذاهب واتباع الطرائق يفضيان إلى مخالفتهما لا محالة، فيمنعان صاحبهما من تزكية نفسه ويوقعانه في الخيبة والخسران.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٨٥) ما نصه:

«الوجه السابع والسبعون: أن نقول لطائفة المقلِّدين: هل تسوِّغون تقليد كل عالم من السلف والخلف، أم تقليد[(١)] بعضهم دون بعض، فإن سوَّغتم تقليد الجميع، كان تسويغكم لتقليد من انتميتم إلى مذهبه، كتسويغكم لتقليد غيره سواء.

فكيف صارت أقوال هذا العالم مذهباً لكم تُفتون وتقضون بها، وقد سوَّغتم من تقليد هذا ما سوغتم من تقليد الآخر؟

فكيف صار هذا صاحب مذهبكم دون هذا، وكيف استجزتم أن تردُّوا أقوال هذا، وتقلّدوا أقوال هذا، وكلاهما عالم يسوغ اتباعه؟

فإن كانت أقواله من الدين فكيف ساغ لكم دفع الدين؟ وإن لم تكن أقواله من الدين فكيف سوغتم تقليده؟ وهذا لا جواب لكم عنه؛ يوضحه:

الوجه الثامن والسبعون: إن من قلَّدتموه إذا رُوي عنه روايتان[(٢)]، سوغتم العمل بهما، وقلدتم مجتهداً[(٣)] له قولان، فقلتم: يسوغ لنا[(٤)] الأخذ بهذا وهذا.

وكان القولان جميعاً مذهباً لكم، فهلا جعلتم قول نظيره من المجتهدين بمنزلة قوله الآخر، وجعلتم القولين جميعاً مذهباً لكم، وربما كان قول نظيره، ومن هو أعلمُ منه، أرجح من قوله الآخر، وأقرب إلى الكتاب والسنة؟ يوضحه:

الوجه التاسع والسبعون: إنكم ـ معاشر المقلدين ـ إذا قال بعض أصحابكم ممن قلدتموه قولاً خلاف قول المتبوع، أو خرَّجه على قوله[(٥)] جعلتموه وجهاً

(١) في مطبوع «الإعلام»: «أو تقليد».
(٢) في مطبوع «الإعلام»: «قولان أو روايتان».
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «وقلتم: مجتهد».
(٤) في مطبوع «الدين الخالص»: «فيسوغ لنا».
(٥) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «قول».

وقضيتم، وأفتيتم به وألزمتم بمقتضاه، فإذا قال الإمام الذي هو نظير متبوعكم، أو فوقه، قولاً يخالفه، لم تلتفتوا إليه ولم تعدوه شيئاً.

ومعلوم أن واحداً من الأئمة، الذين هم نظراء[١] متبوعكم أجلُّ من جميع أصحابه، من أوَّلهم إلى آخرهم، فقدِّروا أسوأ التقادير أن يكون قوله بمنزلة وجه في مذهبكم.

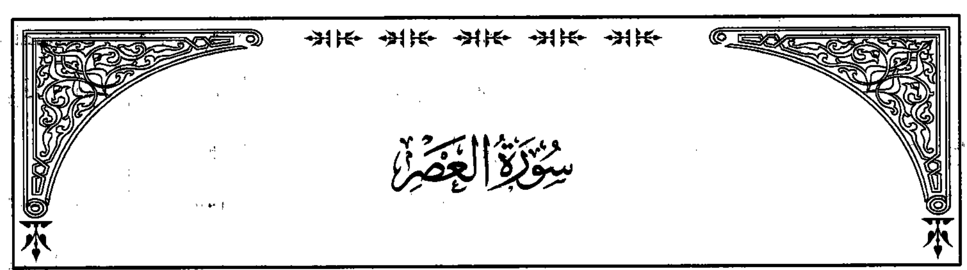
فيا لله للعجب، صار من أفتى أو حَكَم بقول واحد من مشايخ المذهب، أحق بالقبول ممن أفتى بقول الخلفاء الراشدين، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبيّ بن كعب، وأبي الدرداء، ومعاذ بن جبل؟!

وهذا من بركة التقليد عليكم!!»[٢].

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «نظير».

(٢) انظر: «الدين الخالص» (٤/٢٦٨ ـ ٢٦٩)، وبنحوه في «إعلام الموقعين» (٤/٢٩ ـ ٣٠ ـ بتحقيقي).



سورة العصر

الباب الأخير

قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣]

قال (ك): «﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾ الزمان، وقال زيد بن أسلم: صلاة العصر، والمشهور الأول، فأقسم تعالى بذلك على الإنسان[1] لفي خسارة وهلاك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان من الخسران: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بجوارحهم ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: على المصائب والأقدار وأذى من يؤذيهم[2] ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر»[3].

ذكروا أن عمرو بن العاص وَفَد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وبر[4] إنما أنت أذنان وصدر وحفر وسترك ونقر[5] ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب[6].

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «أن الإنسان».
(٢) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «يؤذيه»، وفي الأصل: «... يأمرهم... وينهاهم...».
(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٥٤٩). (٤) الوبر: دويبة كالهر. (منه).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «سائرك حفز ونَقْز».
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ق٥١٢ ـ ٥١٣)، والدينوري في «المجالسة» =

وقد رأيت أبا بكر الخرائطي أسند في كتابه المعروف بـ«مساوئ الأخلاق»[١] في الجزء الثاني منه شيئاً من هذا أو قريباً منه، والوبر: دويبة تشبه الهر أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم، فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج[٢] ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: ختمت هذا الكتاب المبارك ـ وأسأل الله أن ينفعنا به وينفع به كثيراً من خلقه ـ بسورة العصر التي قال فيها الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو لم ينزل الله تعالى على عباده إلا هذه السورة لكفتهم»[٤]. ووجه الاستدلال بها على اتباع الكتاب والسنة وترك مخالفتهما لقول أحد من الناس كائناً من كان، ظاهر مفهوم قوله تعالى في مدح عباده الصالحين: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأن الذين يقلدون المذاهب تقليدَ أَعمى دون أن يسألوهم عن دليل من الكتاب والسنة لم يتواصوا بالحق، بل تواصوا بالباطل وابتدعوا في دين الله.

قال صاحب «الدين الخالص» (٤/ ٣٨٦) ما نصه:

«الوجه الثمانون: إنكم إن رُمتم التخلص من هذه الخطة[٥] وقلتم: بل سوغوا[٦] تقليد بعضهم دون بعض، وقالت كلٌّ فرقة منكم: يسوغ أو يجب تقليد من قلَّدناه من الأئمة الذين هم مثله أو أعلم منه، كان أقل ما في ذلك معارضة قولكم بقول الفرقة الأخرى في ضرب هذه الأقوال بعضها ببعض.

ثم يقال: ما الذي جَعل متبوعَكم أولى بالتقليد من متبوع الفرقة الأخرى، بأي كتاب أم بأي سنة؟

= (٦/ ١٩٧ ـ بتحقيقي)، ومذكور في «ربيع الأبرار» (٢/ ٩٩) للزمخشري بنحوه.

(١) انظره (ص٨٤) رقم (١٧٥)، **وإسناده ضعيف**.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يرجع»!

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٤٥١).

(٤) ذكره عنه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥٢) وابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٣٨) وقبلهما النووي في «رياض الصالحين» (الباب ٢١).

(٥) كذا في مطبوع «الإعلام»، وهو الصواب، وفي الأصل تبعاً لـ«الدين الخالص»: «الخلطة»!

(٦) في مطبوع «الإعلام»: «يسوغ».

وهل تقطعت الأمة أمرها بينها زُبُراً، وصار ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ إلا بهذا السبب؟! فكل طائفة تدعو إلى متبوعها، وتنأى عن غيره، وتنهى عنه، وذلك مُفْضٍ إلى التفريق بين الأمة، وجعل دين الله تابعاً للتشهي والأغراض، وعُرضة للاضطراب والاختلاف، وهذا كله يدلُّ[1] على أن التقليد ليس من عند الله، للاختلاف الكثير الذي فيه.

ويكفي في فساد هذا المذهب: تناقض أصحابه، ومعارضة أقوالهم بعضها ببعض، ولو لم يكن فيه من الشناعة إلا إيجابهم تقليد صاحبهم، وتحريمهم تقليد الواحد من أكابر الصحابة كما صرَّحوا به في كتبهم، [لكان كافياً في الشناعة][2].

الوجه الحادي والثمانون: إن المقلِّدين حَكَموا على الله ـ قدراً وشرعاً ـ بالحكم الباطل جهاراً، المخالف لما أخبر به رسوله، فأخلوا الأرض من القائمين لله بحججه[3]، وقالوا: لم يبقَ في الأرض عالمٌ منذ الأعصار المتقدمة، فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة وأبي يوسف، وزُفَر بن الهُذيل، ومحمد بن الحسن، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وهذا قول كثير من الحنفية، وقال بكر بن العلاء القُشيري المالكي: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة، وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي، وسفيان الثوري، ووكيع بن الجرّاح، وعبد الله بن المبارك.

وقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي، واختلف المقلِّدون من أتباعه فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين إليه، ويكون له وجه يُفتي ويحكم به، ومَنْ ليس كذلك، وجعلوهم ثلاث مراتب:

١ ـ طائفة أصحاب وجوه، كابن سريج[4]، والقفَّال، وأبي حامد[5].

٢ ـ وطائفة أصحاب احتمالات لا أصحاب وجوه؛ كأبي المعالي.

٣ ـ وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات؛ كأبي حامد[6] وغيره.

---

(١) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «يدخل»!
(٢) غير موجود في مطبوع «الدين الخالص».
(٣) في مطبوع «الإعلام»: «بحجة».
(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «كابن شريح»!
(٥) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «الإسفرائيني».
(٦) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «الغزالي».

واختلفوا: متى انسد باب الاجتهاد[١]؟ على أقوال كثيرة، ما أنزل الله بها من سلطان، وعند هؤلاء: إن الأرض قد خلت من قائم لله بحججه[٢]، ولم يبق فيها من يتكلَّم بالعلم ولن يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله لأخذ الأحكام منهما[٣]، ولا يقضي ويُفتي بما فيهما[٤]، حتى يعرضه على قول مقلَّده ومتبوعه، فإن وافقه، حكم به وأفتى به، وإلا رده ولم يقبله، وهذه الأقوال[٥] ـ كما ترى ـ قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم، وإبطال حججه، والزهد في كتابه وسنة رسوله وتلقي الأحكام منهما مبلغاً[٦] [في غاية الفساد][٧] ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويُصدِّق قولَ رسوله: **«إنه لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته»**[٨]، و**«لن تزال طائفة من أمته على محض**

(١) لا يوجد باب للاجتهاد! بل له شروط، ويقبل ـ على الراجح ـ التجزّؤ، فمن توفرت فيه جاز له، والله الموفق والهادي.

(٢) في مطبوع «الإعلام»: «بحجة».

(٣) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «منها»!

(٤) كذا في مطبوع «الإعلام»، وفي الأصل: «فيها»!

(٥) في مطبوع «الدين الخالص»: «أقوال». (٦) في مطبوع «الدين الخالص»: «مبلغها».

(٧) غير موجود في مطبوع «الدين الخالص».

(٨) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٩ ـ ٨٠) ومن طريقه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٤٩ ـ ٥٠)، والشجري في «الأمالي» (١/ ٦٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ق٦٤٧ و١٤/ ق٦٠٦)، والرافعي في «التدوين» (ق٩٠/ أ)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (١/ ١١)، والمزي في «تهذيب الكمال» (ق١١٥٠ ـ نشر دار المأمون و٢٤/ ٢٢٠، ط. مؤسسة الرسالة) من طريق عاصم بن حميد الحنّاط عن أبي حمزة الثمالي عن عبد الرحمٰن بن جندب الفزاري عن كميل بن زياد النخعي، قال: أخذ علي... وذكر وصية طويلة.

قلت: أبو حمزة الثمالي اسمه ثابت بن أبي صفية، ضعيف رافضي، وعبد الرحمٰن بن جندب الفزاري مجهول ـ كما قال الحافظ في «لسان الميزان» (٣/ ٤٠٨) ـ.

والأثر ذكره ابن عبد البر في «الجامع» (١٤٩) و(٢٨٤) و(١٨٧٨) عن علي دون إسناد.

وله طرق تراها عند النّهرواني في «الجليس الصالح» (٣/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، والخطيب في «تاريخه» (٦/ ٦٧٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٤/ ق٦٠٥و٦٠٧)، والدينوري في «المجالسة» (رقم ١٨٢٤ ـ بتحقيقي).

ولذا قال المزي: «وروي من وجوه أخر عن كميل بن زياد».

وقال ابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١١٢): «وهو حديث مشهور عند أهل العلم، يستغني عن الإسناد؛ لشهرته عندهم». =

الحق الذي بعثه به»[(١)] و**«لا يزال الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها»**[(٢)]. ويكفي في فساد هذه الأقوال [أن يقال][(٣)] لأربابها فإذا لم

= وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٩/ ٤٧): «وله الأثر المشهور عن علي بن أبي طالب الذي أوّله: «القلوب أوعية؛ فخيرُها أوعاها»، وهو طويل، وقد رواه جماعة من الحفاظ الثقات، وفيه مواعظ وكلام حسن، رضي الله عن قائله».

وقال الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٥٠): «هذا الحديث من أحسن الحديث معنًى، وأشرفها لفظاً».

وقال ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٤، ط. القديمة، و١/ ٤٠٣، ط. ابن عفان): «والحديث مشهور عن علي» ـ وشرح فيه الوصية شرحاً وافياً ـ.

وقال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٢): «ففيه تنبيهات على صفات العالم المتقن، والعالِم الذي دونه، والهمج المخلط في دينه أو علمه».

والوصية بتمامها في «عيون الأخبار» (٢/ ٢٨٣، ط. دار الكتب العلمية)، و«العقد الفريد» (٢/ ٢١٢)، و«شرح نهج البلاغة» (٤/ ٣١١)، و«الاعتصام» (٣/ ٤٦٦ ـ بتحقيقي)، و«الاتباع» (ص٨٥ ـ ٨٦) لابن أبي العز الحنفي.

(١) سبق تخريجه.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود (٤٢٩١) في «الملاحم»، باب ما يذكر في قرن المئة، وابن عدي في «مقدمة الكامل» في ترجمة الشافعي (١/ ١٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٢٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٦١)، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» في (المقدمة)، في مولد الشافعي (١/ ١٢٤)، وفي «مناقب الشافعي» (١/ ١٣٧) من طريق ابن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبيه علقمة عن أبي هريرة مرفوعاً به.

وسكت عليه الحاكم والذهبي والحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٢٩٥)، **ورجال إسناده ثقات من رجال مسلم**.

أما أبو داود فقال: رواه عبد الرحمٰن بن شُريح الإسكندراني لم يجز به شراحيل.

أقول: عبد الرحمٰن بن شريح هذا ثقة فاضل؛ كما قال ابن حجر، وكذلك سعيد بن أبي أيوب الذي رفع الحديث من الثقات الأثبات، فلا تُعلّ روايته، والله أعلم.

وأفرد هذا الحديث بالتصنيف جمعٌ منهم: السيوطي، واسم جزئه «التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة» وهو مطبوع عن دار الثقة بتحقيق عبد الحميد شانوحة، ولخصه ابن طولون كما في «الفلك المشحون» (ص٩٢)، ولعلي القاري رسالة «في تأويل حديث التجديد»، ولمحمد الجرجاوي «وسيلة المجدّين في شرح حديث التجديد وتراجم المجددين» كذا في «الأعلام» (٧/ ٨١)، وطبع في الرباط سنة ١٩٢٧ و«واسطة العقد النضيد في شرح حديث التجديد» لمحمد بن على الرباطي (ت١٣٥٨هـ).

(٣) من مطبوع «الإعلام»، وسقط من الأصل.

يكن لأحد أن يختار بعض من ذكرتم، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم؟

وكيف حرَّمتم تقليد من سواه، ورجحتموه على تقليد من سواه؟ فما الذي سوَّغ لكم هذا الاختيار الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ولا إجماع ولا قياس، ولا قول صاحب، وحرمتم اختيار ما عليه الدليل من الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة؟

ويقال لكم: فإذا كان لا يجوز الاختيار بعد المائتين عندك ولا عند غيرك، فمن أين يسوغ لك ـ وأنت لم تولد إلا بعد المائتين بنحو ستين سنة ـ أن تختار قول مالك، دون من هو أفضل منه من الصحابة والتابعين، أو من هو مثله من فقهاء الأمصار، أو ممن جاء بعده؟

وموجب هذا القول أن أشهب، وابن الماجشون. ومطرف بن عبد الله، وأصبغ بن الفَرَج، وسحنون بن سعيد، وأحمد بن المعذَّل[1]، ومن في طبقتهم من الفقهاء، كان لهم أن يختاروا إلى انسلاخ ذي الحجة من سنة مائتين، فلما استهل هلال المحرم من سنة إحدى ومائتين، وغابت الشمس من تلك الليلة، حرم عليهم في الوقت بلا مهلة، ما كان مطلقاً لهم من الاختيار، ويقال للآخرين: أليس من المصائب، وعجائب الدنيا تجويزكم الاختيار والاجتهاد، والقول في دين الله بالرأي والقياس، لمن ذكرتم من أئمتكم، ثم لا تجيزون الاختيار والاجتهاد لحفاظ الإسلام، وأعلم الأمة بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة وفتاواهم، كأحمد بن حنبل، والشافعي، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وداود بن علي، ونظرائهم على سعة علمهم بالسنن أو وقوفهم[2] على الصحيح منها والسقيم وتحريهم في معرفة أقوال الصحابة والتابعين ودقة نظرهم، ولطف استخراجهم للدلائل، ومن قال منهم بالقياس فقياسه من أقرب القياس إلى الصواب وأبعده عن الفساد، وأقربه إلى النصوص، مع شدة ورعهم، وما منحهم الله من محبة المؤمنين لهم، وتعظيم المسلمين علمائهم وعامتهم لهم.

فإن احتَّج كل فريق منهم بترجيح متبوعه بوجه من وجوه الترجيح، في تقدم

---

(١) كذا في مصادر ترجمته، وفي الأصل بالدال المهملة!

(٢) في مطبوع «الدين الخالص»: «ووقوفهم».

زمان أو زهد أو ورع، أو لقاء شيوخ وأئمة، لم يلقهم من بعده أو فوقه، وأمكن غير هؤلاء كلهم أن يقولوا لهم جميع قولكم هذا، إن لم تأنفوا من التناقض، يوجب عليكم أن تتركوا قول متبوعكم لقول[1] من هو أقدم منه من الصحابة والتابعين، وأعلم وأورع وأزهد، وأكثر اتباعاً وأجل، فأين أتباع ابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، بل أتباع عمر وعلي، من أتباع الأئمة المتأخرين في الكثرة والجلالة؟!!

وهذا أبو هريرة: قال البخاري[2]: «حمل العلم عنه ثمان مائة رجل، ما بين صاحب وتابع»، وهذا زيد بن ثابت من جملة أصحاب عبد الله بن عباس، وأين في أتباع الأئمة مثل عطاء وطاوس، ومجاهد، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وجابر بن زيد؟!

وأين في أتباعهم مثل: السعيدين، والشعبي، ومسروق، وعلقمة، والأسود وشُريح؟!

وأين في أتباعهم مثل: نافع، وسالم، والقاسم، وعروة، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وأبي بكر بن عبد الرحمن؟!

فما الذي جعل الأئمة بأتباعهم أسعد من هؤلاء بأتباعهم؟!

ولكن أولئك وأتباعهم على قدر عصرهم، فعظمتهم وجلالهم[3]، منع المتأخرين من الاقتداء بهم، وقالوا بلسان قالهم وحالهم: هؤلاء كبار علينا، لسنا من رسومهم، كما صرحوا وشهدوا على أنفسهم، فإن أقدارهم تتقاصر عن تلقي العلم من القرآن والسنة.

وقالوا: لسنا أهلاً لذلك، لا لقصور الكتاب والسنة، ولكن لعجزنا ـ نحن ـ وقصورنا، فاكتفينا بمن هو أعلم بهما منا، فيقال لهم: فلم تنكرون على من[4] اقتدى بهما وحكَّمهما وتحاكم إليهما وعرض أقوال العلماء عليهما، [فما وافقهما] قبله، وما خالفهما ردّه، فهب أنكم لم تصلوا إلى هذا العنقود، فلم تنكرون على من وصل إليه وذاق حلاوته؟

(١) مكررة في الأصل!
(٢) نقلها عن البخاري ابن الملقن في «الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» (١/ ٢١٤).
(٣) بعدها في مطبوع «الإعلام»: «وكبرُهم».
(٤) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «ما»!

وكيف تحجّرون[١] الواسع من فضل الله، الذي ليس على عقول العالمين ولا اقتراحاتهم؟ وهم وإن كانوا في عصركم ونشؤوا معكم، وبينكم وبينهم نسب قريب، فالله يمن على من يشاء من عباده.

وقد أنكر سبحانه على من ردّ النبوة بأن الله صرفها عن عظماء القرى وعن رؤسائها وأعطاها لمن[٢] ليس كذلك بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقد قال النبي ﷺ: **«مثل أمتي كالمطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره»**[٣].

وقد أخبر الله سبحانه عن السابقين بأنهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]

وأخبر سبحانه أنه ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

---

(١) في مطبوع «الدين الخالص»: «تحجَّرْتم».

(٢) كذا في مطبوع «الدين الخالص»، وفي الأصل: «من»!

(٣) ورد الحديث عن جمع من الصحابة منهم:
أولاً: عمار بن ياسر، وله عنه طرق:
فقد أخرجه الطيالسي (٦٤٧) عن عمران عن قتادة عن صاحب لنا عن عمار.
ورواه البزار في «مسنده» (١٤١٢)، وابن حبان (٧٢٢٦)، والرَّامَهُرْمُزِيُّ في «الأمثال» (ص١٠٩)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٣٩٩)، والطبراني في «الكبير» ـ كما في «المجمع» (١٠/ ٦٨ـ من طريق الفضيل بن سُليمان عن موسى بن عقبة عن عبيد بن سلمان الأغر عن أبيه عن عمار.
ورجاله ثقات، غير عبيد بن سلمان الأغر، ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال أبو حاتم: لا أعلم فيه إنكاراً، وروى عنه جمع، وفضيل بن سليمان، قال ابن معين: ليس بثقة، وقال أبو زرعة: ليّن الحديث، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه، وليس بالقوي.
قال البزار: وهذا الإسناد أحسن من الأسانيد الأخرى التي تروى عن عمار.
ورواه أحمد (٤/ ٣١٩) من طريق أبي عمر عن الحسن عن عمار.
ثانياً: حديث أنس: رواه أحمد (٣/ ١٣٠ و١٤٣)، والطيالسي (٢٠٢٣)، والترمذي (٢٨٦٩)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٣٣٠ و٣٣١)، والخطيب (١١/ ١١٤)، وابن عدي (٣/ ٩١٨ و٤/ ١٦٣٨ و٧/ ٢٦٢٣)، والرامهرمزي في «الأمثال» (ص١٠٨ ـ ١٠٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٥١ و١٣٥٢)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٤٠٠)، وحسنه الترمذي. وفي الباب أيضاً عن ابن عمر، وابن عمرو.
قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٦): «وهو حديث **حسن**، له طرق يرتقي بها إلى الصحة».

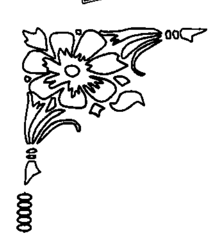
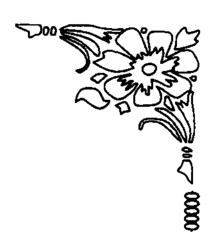
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] ثم قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة: ٣] ثم أخبر أن ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤].

وقد أطلنا الكلام في القياس والتقليد، وذكرنا من مأخذهما وحجج أصحابهما، وما لهم وعليهم، من المنقول والمعقول، ما لا يجده الناظر في كتاب من كتب القوم، من أولها إلى آخرها، ولا يظفر به في غير هذا الكتاب أبداً، وذلك بحول الله وقوته، ومعونته وفتحه، فله الحمد والمنة.

وما كان فيه من صواب، فمن الله وهو المانُّ به، وما كان فيه من خطأ، فمني ومن الشيطان، وليس الله ورسوله ودينه في شيء منه، وبالله التوفيق»(١).

---

(١) انظر: «الدين الخالص» (٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٣)، ونحوه في «إعلام الموقعين» (٤/ ٣٠ ـ ٣٥ ـ بتحقيقي) بتصرف.

خاتمة
نسأل الله حسنها

قال محمد تقي الدين: لقد منَّ الله علي وأعانني على ختم هذا (القسم) وأسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وبمحبتنا واتباعنا لحبيبه وخليله محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يعينني على (القسم الثالث) ويجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. ولما كنت أنقل كلام الأئمة كنت أمر بأشعار في الرد على المقلدين وذم طريقتهم ومدح أتباع الكتاب والسنة، فرأيت أن أؤخرها وأجعلها خاتمة لهذا القسم يستمتع بها من حبب الله له الاتباع وكره إليه التقليد وهذه هي!! وأول ما أبدأ به (القصيدة المقصورة)(١) نظمتها في مصر سنة ١٣٤١هـ:

تركتُ الطَّريقَ طريقَ الجَفَا	وأقبلتُ أتَّبعُ المُصطفى
وسنَّتَه وكتابَ الإله	وأصحابَه، أنجم الإهتدا
وأتباعَهُم أينما وُجِدُوا	سواءٌ نَأَى عصرُهم أمْ دَنَا
سواءٌ(٢) ذُوو الشَّرقِ أم غربنا	وأهلُ الخيام وأهلُ القُرَى
وَلَيْسَ يَجُوزُ بمذهبنا اتْـ	تِبَاعٌ(٣) لغيرٍ فَدَعْ مَن هَذَى
ولسنا نؤوّل لفظَ الحَدِيـ	ـثِ والذِّكْرِ إلا بما قَدْ أتَى
فَمَا هَلَكَ النَّاسُ إلا بما	تؤَوِّلَهُ زمرةُ الإعتدا
فنحنُ على مَذْهبِ السَّابِقِيـ	ـنَ مَن رضي الله عنهم عَلَا

(١) ذكرها بتمامها في «ديوانه» (ص١٥٦، ١٥٧). وقال قبلها: «قلت هذه القصيدة في أواخر صفر سنة ١٣٤١هـ حين شاهدت عبدة القبور عاكفة على قبر البدوي...». وظفرتُ بها أيضاً في كتاب «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية» (ص٤٧ ـ ٥١)، وفيه قبل سرد الأبيات: «قلت سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة وألف، وأنا مسافر بالقطار من القاهرة إلى الإسكندرية قصيدة طويلة مقصورة...».

(٢) في مطبوع «الهدية الهادية»: «سوء»!

(٣) في مطبوع «الهدية الهادية»: «اتبا»!

وَمَنْ حَادَ عن نَهْجِهِم قَد هَوَى ... سَـواءٌ دَرَى ذاك أم مـا دَرَى
فخيرُ الهُدَى هَدْيُ خيرِ الوَرَى ... وشـرُّ الأُمـورِ اتِّبـاعُ الـهَوَى
فـلا تـتصوَّفْ[1] ولا تـتكـلَّفْ ... ولا تَـلْـجَ إلا لـربِّ العُـلَا
ولا تَـدْعُ مِـن دونـه أحـدا ... فـلـيـس وَلِـيٌّ سِواه يُـرَى
أغـيـرَ الإلـه أرى لِـي ولـيًّـا ... إذاً قـد ضَلَلْتُ طـريقَ الهُدَى
أأتَّـخِـذُ الأولـيـاءَ وربِّـي ... بمُحْكَمِ ذِكْرِهِ عَنْهُمْ نَهَى
ولـو مُرسَلِينَ ولـو صَالِحِينَ ... ولـو طَائِرينَ بـأوْجِ السَّمَا
ولا يُـعْـبَـدُ اللهُ إلا بـمـا ... أَتَى في شريعتِهِ وَارْتَضَى
ومَن زَعَمَ[2] العِلْمَ غيرَ الكتابِ ... وغَيْرَ الحديثِ الصحيحِ افْتَرَى
ولا فَضْلَ في ديننا لِأرسطُو ... ولا لِابْنِ رُشْدٍ ومَنْ قد قَفَا
فـتوحيدُ رَبِّي بِمَنْزِلِهِ ... غَنِيٌّ[3] عن المنطقِ المرتأى
فـإنَّ أرسطُو وأتْبَاعَهُ ... عَدُوٌّ لِدِينِ إلهِ الوَرَى
وَإنْ هُمْ رَأَوْا[4] حِكَماً أحْكَمُوها ... أَخَذْنَا بـها في أُمورِ الدُّنَى
ومهما وَجَدْنَا الحديثَ الصحيحَ ... عَبَدْنَا بِهِ مَنْ له المُنْتَهَى
ولَـيْسَ لَـهُ مِـنْ وَسِيلَـةٍ الَّا ... عُلُومُ اصْطِلَاحٍ وَعِلْمُ اللُّغَى
فَعِلْمُ الكَلَامِ وبَعْضُ الأُصُولِ ... ظَلَامٌ يَجرَّانِ كُلَّ العَنَا
ولا نَسْتَغِيثُ بغَيْرِ الإلهِ ... ومَنْ يَسْتَغِثْ بالعِبَادِ غَوَى
ونَعْتَقِدُ اللهَ سُبْحَانَهُ ... على عَرْشِهِ ذِي التَّعَالِي اسْتَوَى
ولَسْنَا نُؤوِّلُ ذاك بقَهْرٍ ... ولا غَيْرِهِ مثل مَنْ قَدْ مَضَى
وإن البُخَارِيَّ في كُتْبِهِ ... قَدَ احْسَنَ للنَّاسِ دون امْتِرَا
عليها اعْتَكِفْ ثُمَّ منها اقْتَطِفْ ... تَجِدْ كُلَّ ما رُمْتَهُ من مُنَى
ومُسْلِمُ لا تَنْسَ تَأْلِيفَهُ ... فَنِعْمَ الكتابُ الوثيقُ العُرَى
وَإنْ خُضْتَ في غير ذَيْنِكَ[5] فاسْلُكْ ... بِعِلْمٍ غَزِيرٍ وإلَّا فَلَا
ولا تَعْتَبِرْ كلَّ كُتْبٍ عليها ... فَقَد مَزَجُوها بما يُرْتَمَى

(١) في مطبوع «الهدية الهادية»: «تصرف»! (٢) في مطبوع «الهدية الهادية»: «يزعم».
(٣) في «سبيل الرشاد»: «غنيَ»! والتصويب من «الهدية».
(٤) في «الهدية الهادية»: «أتوا».
(٥) في «سبيل الرشاد»: «دينك»! والتصويب من «الهدية».

فَجِدَّ وخُذْ زُبْدَ مَا سطَّرُوا وَدَعْ مَا تَرَاهُ مَعِيباً سُدَى
وما قد يُسَمُّونَهُ بَاطِناً فَبِاللَّام يَقْرَأُهُ مَنْ دَرَى
فإنَّ الشَرِيعَةَ قد أُكْمِلَتْ وقد بُيِّنَتْ مِثل شَمْسِ الضُّحَى
فما مَاتَ خيرُ الوَرَى أحمدٌ إلى أنْ جَلاها بغيرِ خَفَا
وما أحدٌ مِنْ أَهيلِ النِّفاقِ نَجَا فاصْبِرِ انْ نِلْتَ مِنْهُمْ أَذى
ولا تَبْنِ فِي تُرْبَةٍ قُبَّةً ومَهْمَا تَرَاهَا فَهَدْم البِنَا
فقد عَبَدُوهَا ومَا فَطِنُوا ووَافَقَهُمْ عُلَمَاءُ الشَّقَا
وقد أَلِفُوا في عِبَادَتِهَا بِدُونِ احْتِشَام بِدُونِ حَيَا
لِتَدْعُ الإلهَ بما قَدْ رَوَى الثِّقَاتُ الهُدَاةُ عَنِ المُجْتَبَى
وإنَّ البُخَارِي رَوَى في «الصَّحيح» دُعَاءً وذِكْراً بِهِ الإكْتِفَا
وحَاذِرْ مِنَ الشِّرْكِ فَهْوَ بِذَا الزْزَمَانِ بِكُلِّ النَّوَاحِي فَشَا
ولا قُطْبَ نَعْلَمُهُ غَيْر نَجْم يُرَى في السَّمَاءِ وقُطْبِ الرَّحَى
ونَحْوَهُمَا لا الَّذِي ذَكَرُواً يكُونُ مُقِيماً بِغَارِ حِرَا
يَمُدُّ الأنَامَ وَيُجْرِي الشُّؤُونَ في الكَوْنِ تَالِكَ أَدْهَى الفِرَا
فَهَلْ مِن كِتَابٍ وَهَل سُنَّةٍ أَتَتْ مِن صَحِيحِ الحديثِ بِذَا
فَخُذْ بالنُّصُوصِ ولا تَبْتَدِعْ وفي عَدَمِ النَّصِّ قِسْ مَا جَلَا
ولَيْسَ لَنَا مَذْهَبٌ لَازِمٌ سِوَى مَذْهَبُ المُصْطَفَى المُرْتَضَى
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَأَزْكَى السَّلَامُ سَلَاماً يَدُومُ بغَيْرِ انِتِهَا
وَيَشْمَلُ آلاً وَصَحْباً كِرَاماً وَمَنْ قَدْ قَفَاهُمْ بِنَهْجِ الصَّفَا

ذكر ما جاء في كتاب «الصوارم» من الأشعار التي تدل على فساد التقليد.

قال اللخمي من أئمة المالكية:

«أَيَا نَفْسُ بِالمَأْثُورِ عَنْ خَيْرِ مُرْسَلٍ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِيْنَ تَمَسَّكِي
عَسَاكِ إِذَا بِالَغْتِ فِي نَشْرِ دِينِهِ بِمَا طَابَ مِنْ نَشْرٍ لَهُ أَنْ تَمَسَّكِي[1]
وَخَافِي غَداً يَوْمَ الحِسَابِ جَهَنَّماً إِذَا لَفَحَتْ نِيرَانُهَا أَنْ تَمَسَّكِ»[2]

في هذه الأبيات جناس تام: فتمسك الأولى من التمسك، وهو الأخذ والثبات. وتمسك الثانية من المسك، أن تكون رائحتك طيبة كالمسك وقد صح

(١) في مطبوع «الصوارم»: «تمسك».

(٢) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص١٦٦).

في الحديث: «أن المؤمن إذا خرجت روحه فاحت منها رائحة كأطيب ريح مسك»[١]، فلعله يشير إلى ذلك.

وأما تمسك الثالثة فإنه من المس: أي خافي أن تصيبك وتحرقك، والإمام اللخمي أندلسي، وأهل الأندلس يغلب عليهم الأدب في نظمهم ونثرهم في أيِّ فنٍّ ألفوا وتكلموا.

وقال الشافعي رحمه الله:

كلُّ العُلومِ سوى القرآن مشغلةٌ ... إلا الحديث وإلا الفقهَ في الدِّينِ
العلمُ ما كان فيه قال حدَّثنا ... وما سوى ذاك وَسْوَاسُ الشَّياطينِ[٢]

وللحافظ أبي محمد عبد العزيز بن محمد الأنصاري رحمه الله تعالى:

لا تغفلنَّ أحاديثَ الرسولِ ولا ... تُهمِل تتبعها معنىً وألفاظا
وعد عمن تعداها وضيعها ... واجعل صحابك طلاباً وحُفاظا
ولا تفيضن في علم يخالفها ... فَهْي النجاة لراويها إذا فاضا

وللحافظ الذهبي رحمه الله تعالى:

العلمُ قال اللهُ قال رسولُه ... إنْ صحَّ والإجماعُ فاجْهَد فيه
وحذارِ من نصب الخلاف جهالةً ... بين الرسول وبين قولِ[٣] فقيهِ[٤]

وللحافظ أبي عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى:

مقالة ذي نصح وذات فوائد ... إذا من ذوي الألباب كان استماعها
عليكم بآثار النَّبيِّ فإنَّها ... من افضلِ أعمالِ الرجالِ[٥] اتّباعُها[٦]

ولشرف الدين ابن أبي الفضل رحمه الله تعالى:

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) انظر: «طبقات الشافعية» (١/ ٢٩٧)، و«المعيد في أدب المفيد» (ص١٠٤)، و«الجوهر النفيس» (٤٥) و«إعانة الطالبين» (٢/ ١٤٥)، و«ديوان الإمام الشافعي» (ص١٦٢)، وذكره الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص١٤٤) ونسبه إلى أبي زيد الفقيه إلّا أنه قال: «زندقة» بدل «مشغلة».

(٣) في مطبوع «الوافي في الوفيات»: «رأي».

(٤) انظر: «الوافي في الوفيات» (٢/ ١١٦).

(٥) في مطبوع «جامع بيان العلم»: «الرشاد».

(٦) انظر: «جامع بيان العلم» (١/ ٧٨٣).

مَنْ كان يرغبُ في النَّجاة فما لهُ ... غير اتِّباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره ... سبل الضَّلالة والغواية والرَّدَى
فاتْبَعْ كتابَ الله والسُّننَ التي ... صحَّتْ فذاك إذا اتّبعت[١] هو الهدى
ودَعِ السؤالَ بِلِمْ وكيف فإنه ... بابٌ يجرُّ ذوي البصيرة للعَمَى
الدين ما قال النَّبيُّ وصحبُه ... والتَّابعون ومَنْ مناهجهم قَفَا

ومن قصيدة شمس الدين ابن القيم رحمه الله تعالى المشهورة:

يا مَنْ يريدُ نجاتَه يومَ الحِسا ... ب مِنَ الجحيم وَمُوقَدِ النِّيرانِ
اتَّبِعْ رسول اللهِ في الأقوال ... والأفعال[٢] لا تخْرُج عن القرآنِ
وخُذِ «الصحيحين» اللَّذَين هما لعقـ ... ـد[٣] الدِّين والإيمان واسِطَتانِ
واقْرَأْهما[٤] بعد التَّجَرد مِنْ هوًى ... وتعصُّبٍ وحميةِ الشَّيطانِ
واجعلهُما حَكَماً ولا تَحْكُمْ على ... ما فيهما أصلاً بقولِ فُلانِ
وانصر مقالتَه كَنَصْرِك للذِي ... قلَّدْتَهُ من غير ما بُرْهانِ
قَدِّر رسول اللهِ عندك وحدَهُ ... والقَولُ منه إليك ذُو تِبيانِ
ماذا ترى فَرْضاً عليك مُعيَّناً ... إن كُنْتَ ذا عقلٍ وذا إيمانِ
عَرْض الذي قالوا على أقوالِهِ ... أو عكس ذاك فذانِكَ الأمْرانِ
قَدِّر مقالاتِ العِباد جميعِهِمْ ... عَدَماً وراجِع مَطْلَعَ الإيمانِ
فالربُّ ربٌّ واحدٌ وكتابُهُ ... حقٌّ وفَهْمُ الحقِّ منهُ داني[٥]
ورسولُهُ قد أوضح الحقَّ المبيـ ... ـنَ بغايةِ الإيضاحِ والتِّبيانِ
ما ثَمَّ أوضَحُ من عبارتِه فلا ... يحتاجُ سامِعُها إلى تَبيانِ
والنُّصحُ منه فوقَ كلِّ نصيحةٍ ... والعلمُ مأخوذٌ من الرحمانِ
فلأَيِّ شيءٍ يعدلُ الباغي الهدى ... عن قولِهِ لولا عمى الخِذْلان»[٦]. اهـ»[٧]

(١) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «تبعت»!
(٢) في مطبوع «الكافية الشافية»: «الأعمال».
(٣) كذا في مطبوع «الكافية الشافية»، وفي الأصل: «يعقد»!
(٤) كذا في مطبوع «الكافية الشافية»، وفي الأصل: «واقرهما»!
(٥) كذا في مطبوع «الكافية الشافية»، وفي الأصل: «دانٍ»!
(٦) انظر: «الكافية الشافية» (ص٢٥٠، ط. ابن الجوزي).
(٧) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص١٦٥ ـ ١٦٦).

وقال تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى من قصيدة له يخاطب بها ابنه الأكبر أبا بكر:

وإذا أَتَتْكَ مقالةٌ قد خالفتْ ... نصَّ الكتابِ أو الحديثِ المُسنَدِ
فاقْفُ الكتابَ ولا تَمِلْ عنه وقِفْ ... متأدِّباً مع كُلِّ حبرٍ أَوحَدِ. اهـ[1]

وكان بعض الأئمة إذا رأى أصحاب الحديث ينشد قول أبي بكر بن دريد:

أهلاً وسهلاً بالذين أحِبّهم ... وأودّهُم في الله ذِي الآلاءِ
أهلاً بقوم صالحين ذوي تُقى ... غرِّ الوُجوه وزيْن كل مَلاءِ
يسعون في طلب الحديث بعفَّةٍ ... وتوقّرٍ وسكينةٍ وحياءِ
لهم المهابةُ والجلالةُ والنُّهى ... وفضائلُ جَلَّتْ عن الإحصاءِ
ومداد ما تجري به أقلامهم ... أزكى وأطيب من دم الشهداءِ
يا طالبي عِلم النَّبي محمدٍ ... ما أنتم وسِواكم بسواءِ[2]

وللعلامة مجد الدين محمد بن أحمد بن الظهير رحمه الله تعالى:

أهل الحديث فَلُذْ بهم[3] ... أعلى الورى قدراً وأغلى
نَقَلوا لنا سُنَنَ الرسو ... ل وأحسنوا عدلاً فعدلا
جابوا لِسعيهم[4] لذا ... لك حِسبة حزناً وسهلا
وسَروا كما تسري النجو ... م فأرشدوا من كان ضَلّا
آيات فضلهم المبيـ ... ـنِ بألسُنِ الحسَّادِ تتلى. اهـ.

وللعلامة أبي محمد هبة الله بن الحسن الشيرازي رحمه الله تعالى:

عليكَ بأصحابِ الحديث فإنهم ... على منهج ما زال للدين مَعْلَما
وما النور إلا في الحديثِ وأهلِه ... إذا ما دجا الليلُ البَهيمُ وأظلما
فأعلى البرايا مَنْ إلى السنن اعتزى[5] ... وأغوى البرايا من إلى البدع انتمى
ومن يتركِ الآثارَ قد ضل[6] سعيه ... وهل يترك الآثارِ مَنْ كان مُسلِما

(١) انظر: «طبقات الشافعية» (١٠/ ١٧٨) وذكر ابن حجر في «الدرر الكامنة» (٣/ ٦٨) البيت الثاني فقط.
(٢) ذكر بعضها ابن بشكوال في «الصلة» (١/ ١٤٢)، والكتاني في «نظم المتناثر» (ص٩).
(٣) كذا في مطبوع «الصوارم»، وهو الصواب، وفي الأصل: «فعذبهم»!
(٤) كذا في مطبوع «الصوارم»، وهو الصواب، وفي الأصل: «بسعيهم»!
(٥) كذا في مطبوع «الصوارم»، وهو الصواب، وفي الأصل: «اعترى»!
(٦) في مطبوع «الصوارم»: «ضلل».

ولبعضهم:

أهل الحديث هم أهلُ النَّبي وإنْ   لم يصحبوا نفسه أنفاسَه صَحبوا.اهـ.

ولبعض علماء الآل رحمه الله تعالى:

العلمُ ميراثُ النَّبي كذا أتى   في النَّصِّ والعلماءُ هم وُرَّاثه
ما خلَّف المختارُ غيرَ حديثِهِ   فينا فذاك متاعُه وأثاثُه.اهـ.

قوله: «كذا أتى» في النص يشير إلى ما ذكره البخاري في صورة التعليق[1] وأخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والدارمي وابن حبان[2] والحاكم مصححاً والبيهقي عن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر»**[3]. اهـ. وفي «الأذكار النووية» ما نصه: «وكان سهل بن عبد الله التستري أحد أفراد زهاد[4] الأمة وعبّادها يأتي أبا

(١) كذا في مطبوع «الصوارم»، وهو الصواب، وفي الأصل: «سورة العلق»!

(٢) في الأصل: «وأن حبان»!

(٣) أخرج أبو داود في «السنن» كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣/ ٣١٧) رقم (٣٦٤١)، وابن ماجه في «السنن» «المقدمة»، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، (١/ ٨١) رقم (٢٢٣)، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٩٦)، والدارمي في «السنن (١/ ٩٨)، والطحاوي في «المشكل» (١/ ٤٢٩)، وابن حبان في «صحيحه» (رقم ٨٨ ـ «الإحسان»)، والبزار في «المسند» (رقم ١٣٦ ـ «زوائده»)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦) رقم (١٢٩)، والبيهقي في «الآداب» رقم (١١٨٨)، والخطيب في «الرحلة» (٧٧ ـ ٧٨)، وابن عبد البر في «الجامع» رقم (١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢) عن أبي الدرداء مرفوعاً: **«من سلك طريقاً يطلب فيه علماً...»**، وفيه: **«إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارً ولا درهماً، وأورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**. وفي بعض أسانيده ضعف، وبعضها حسن في الشواهد، **وللحديث شواهد يتقوى بها**. قال ابن حجر في «الفتح» (١/ ١٦٠): «قال ابن حبان عقب الحديث: في هذا الحديث بيان واضح أن العلماء الذين لهم الفضل الذي ذكرناه، هم الذين يعلمون علم النبي ﷺ دون غيره من سائر العلوم؛ ألا تراه يقول: **«العلماء ورثة الأنبياء»**؟ والأنبياء لم يورثوا إلا العلم، وعِلْمُ نبينا ﷺ: سنته، فمن تَعرَّى عن معرفتها؛ لم يكن من ورثة الأنبياء».

(٤) كذا في مطبوع «الأذكار»، وفي الأصل: «هذه»!

داود السجستاني صاحب «السنن» ويقول: أخرج لي لسانك الذي تحدَّث به عن[1] رسول الله ﷺ، لأقبِّله فيُقبِّله»[2] .اهـ. وأخرج الشيخ نصر المقدسي في كتاب «الحجة على تارك المحجة»[3] بسنده عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قيل له: هل لله في الأرض أبدال؟ قال: نعم، قيل: من هم؟ قال: إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فما أعرف أبدالاً[4] .اهـ.

وللحافظ أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الصُّوري رحمه الله تعالى:

عاب قومٌ علمَ الحديث وقالوا	هو علمٌ طلابه جُهّالُ
عدلوا عن محجة العلم لما	دَقَّ عنهم فهم العلوم ومالوا[5]
إنما العلم[6] يا أخي كتاب اللـ	ـه لا هوة به ولا إشكالُ[7]
ثم من بعده حديث رسول اللـ	ـه قاضٍ يفضي إليه المآلُ
وطريق الآثار تعرف بالنقل	وللنقل فأعلمنه[8] رجالُ
همّهم نقله ونفي[9] الذي قد	وضَعَتْه عصابةٌ ضُلّالُ
لم ينوا[10] فيه جاهدين ولم تقـ	ـطعهم[11] عن طلابه الأشغالُ[12]
وقضوا لذةَ الحياة اغتباطاً	بالذي حرروه منه وقالوا[13]

(١) في مطبوع «الأذكار»: «تحدَّث به حديث».

(٢) انظر: «مقدمة إملاء المعالم» (٨/ ١٥٣ ـ مع «معالم السنن»). «التقييد» لابن نقطة (٢٨٢)، «تهذيب الكمال» (١١/ ٣٦٦)، «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥)، «السير» (١٣/ ٢١٣) «الأذكار» (٢/ ٦٥٨، ط. الغرباء)، و«بذل المجهود» (ص٨٧ ـ ط الجيلاني) للسخاوي.

(٣) انظر: «الحجة على تارك المحجة» (١/ ١١٣ ـ مختصره).

(٤) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص٥٠) وعنه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٢٣٥) وفي إسناده علي بن إبراهيم أبو الحسن؛ قال الذهبي في «الميزان»: «رافضي جلد»، وأورده السيوطي في رسالته «الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال» المطبوعة ضمن «الحاوي للفتاوى» (٢/ ٢٥٧).

(٥) كذا في مطبوع «تاريخ دمشق»، وفي الأصل: «وقالوا»!

(٦) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «الشرع».

(٧) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «لا مرية ولا اتكال».

(٨) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «فأعلمته». (٩) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «وبقي».

(١٠) كذا في مطبوع «تاريخ دمشق»، وفي الأصل: «يلوا»!

(١١) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «يقطعهم». (١٢) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «الاشتغال».

(١٣) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «بالذي قد حووه منه ونالوا».

ورضـوه[١] مـن كـل شـيء بـديـلاً ... فـلـعـمـري لـنـعـم ذاك الـبـدالُ
ولـقـد جـاءنـا عـن الـسـيـد الـمـا ... جدِ حلف العلياء[٢] فيهم مقالُ
أحـمـد الـمـنـتـمـي إلـى حـنـبـل أكْـ ... ـرِمْ بـه فـيـه مـفـخـرٌ وجَـمَـالُ
إن أبـدال أمـة الـمـصـطـفـى أحـ ... ـمد هم[٣] حين تُذْكرُ الأبدالُ. اهـ.[٤]

وفي «النظم المتناثر من الحديث المتواتر» للكتاني ما نصه: «وفي الحديث المتواتر: «**نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**»[٥] دعا له بالنضرة وهي البهجة والحسن. قال ابن عيينة: ليس أحد من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة لهذا الحديث». اهـ[٦].

قال الحافظ المنذري في: «الترغيب والترهيب» ما نصه: «قوله: (**نضّر**): هو بتشديد الضاد المعجمة وتخفيفها حكاه الخطابي، ومعناه: الدعاء له بالنضارة، وهي: النعمة والبهجة والحُسن، فيكون تقديره: جمّله الله وزيَّنه، وقيل غير ذلك»[٧].

وقال ابن حجر الهيتمي[٨] في «شرح الأربعين النووية» ما نصه: «قوله: «**نضر الله**» يحتمل الخبر والدعاء وعلى كلٍّ؛ فيحتمل كما قال العراقي كونه في الدنيا وفي الآخرة.

وللحافظ السيوطي:

مَـنْ كـان مـن أهـل الـحـديـث فـإنـه ... ذو نـضـرة فـي وجـهـه نـورٌ سَـطَـعْ
إنَّ الـنـبـي دعـا بـنـضـرةِ وجـهِ مَـنْ ... أدّى الحديثَ كما تحمل واتَّبَعْ. اهـ»[٩]»[١٠]

وقال مؤلف هذا الكتاب محمد تقي الدين الهلالي من قصيدة مدح بها

(١) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «فرهنوه».
(٢) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «خلف العليا».
(٣) في مطبوع «تاريخ دمشق»: «أحدهم».
(٤) انظر: «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٣٧٣).
(٥) سبق تخريجه.
(٦) انظر: «نظم المتناثر» (ص٩).
(٧) انظر «الترغيب والترهيب» (١/ ١٠٣ ـ بعنايتي).
(٨) في الأصل: «الهيثمي» بثاء مثلثة! وصوابه بالتاء المثناة الفوقية.
(٩) هذا النقل ليس من «شرح الهيتمي على الأربعين» وإنما هو من «حاشية للشيخ حسن المدابغي على شرح الهيتمي» (ص٣٧) مع تصرف يسير في النقل.
(١٠) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٢٤٤ ـ ٢٤٦).



الملك محمد الخامس رحمه الله[١]:

ومَنْ بدَّل الشرعَ الكريمَ برأيهِ	وقد ردّ أحكاماً رواها الأكابرُ
وردَّ كتابَ الله والسُّنَنَ التي	عن المصطفى جاءت وفيها البصائرُ
فإياكم أن تقبلوا ترهاتِه	فما الجاهلُ الأعمى كمن هو ناظرُ
وصلِّ وسلِّم يا إله على النبي	وآله والأصحابِ ما جَنَّ كافرُ

وقلت في تخميس قصيدة العلامة أبي بكر أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنصاري المدعو بحميد القرطبي شهرة، وهو مالقي رحمه الله تعالى التي أنشدها القسطلاني في أول «شرح البخاري»[٢]، وسبب إنشائه أن الشيخ السلفي محمد حسين الفقيه تلميذ جمال الدين القاسمي ـ رحمهما الله ـ سألني أن أخمِّسها في شهر صفر سنة ١٣٤٢ حين كنت هناك مقيماً عند المفضال الشيخ محمد حسين نصيف[٣]، فجمدت القريحة حينئذٍ بسبب الاهتمام بالظعن إلى بمباي، فلما بلغت بلدة دهلي من بلاد الهند، وألقيت بها عصا التسيار، وأسفر بعد السفر صبح الاستقرار، درَّت القريحةُ بهذا التخميس عسى أن يكون سعياً مشكوراً عند الله ثم عند المؤمنين، وقد نشر هذا التخميس أستاذي العلامة الورع الزاهد الرباني عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المبارك بوري[٤] في «مقدمة شرح جامع الترمذي» الموسوم بـ«تحفة الأحوذي»[٥]، معبراً بقوله: «وخمَّسها بعض الأعلام».

(١) ذكرها جميعاً المصنف في كتابه «قرة العين في مدح المَلِكَين» (ص٤ ـ ٨). وهذه الأبيات من آخرها، أو أفاد فيه أنه قالها بعد سنة ١٩٥٧م، في قصة طويلة ذكرها. ووجدتها في ديوانه المسمى «منحة الكبير المتعالي» (ص٦٩ ـ ٧١ مرقوم على الآلة الكاتبة) ولم يذكر في هذين المصدرين البيت الأخير.

(٢) انظر «إرشاد الساري» (١ج٥ ـ ٦)، وفيه: «ولله در أبي بكر حميد القرطبي فلقد أحسن وأجاد حيث قال...» وذكرها.

(٣) المصنف كثير المدح له، وقال عنه في كتابه «الدعوة إلى الله» (١٣١): (ملك الحجاز غير المتوج) وقال عنه: «كان في تلك الأيام المظلمة سراجاً يضيء لمن ألهمه الله رشده طريق التوحيد واتباع السنة» وقال عنه: «وهو أشهر من أن يعرف» وظفرت بمراسلات متبادلة بينه وبين الهلالي، وسأنشرها إن شاء الله. ضمن ترجمتي المفردة للهلالي.

(٤) للهلالي في مقالته «أهل الحديث في الهند» المنشورة على حلقتين في مجلة «صوت الجامعة» الهندية السنة الخامسة، العدد الأول، شعبان ١٣٩٣هـ والسنة السادسة، العدد الأول شعبان ١٣٩٤هـ، ترجمة حسنة للعلامة المباركفوري رحمه الله تعالى: وأودعتها ضمن كتابي «مقالات الهلالي».

(٥) (ص١٠، ١١ ـ المقدمة).

وهذه هي القصيدة[١]، وهي من بحر البسيط:

إِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ عِلْماً جِدُّ مُلْتَمِسِ وَحِرْتَ إِذْ غُمَّ عَنْكَ الرَّطْبُ بِاليَبَسِ
فَاسْمَعْ لِنُصْحِ لَبِيبٍ أَيِّ مُحْتَرِسِ
نُورُ الحَدِيثِ مُبِينٌ فَادْنُ وَاقْتَبِسِ وَاحْدُ الرِّكَابَ لَهُ نَحْوَ الرِّضَا النَّدَسِ

* * *

وَاقْطَعْ عَلَائِقَ مِنْ تَحْصِيلِهِ مَنَعَتْ تنظر شُمُوسَ الهُدَى في الأُفْقِ قَدْ طَلَعَتْ
وَحُجبَ غَيٍّ تَرَى عَنْ قَلْبِكَ ارْتَفَعَتْ
فَاطْلُبْهُ بِالصِّينِ فَهُوَ العِلْمُ إِنْ رُفِعَتْ أَعْلَامُهُ بِرُبَاهَا يَا ابْنَ أَنْدَلُسِ

* * *

وَلَازِمِ الدَّرْسَ وَاغْنَمْ مِنْ فَوَائِدِهِ لَا تَقْنَعِ الدَّهْرَ مِنْ حَلْوَى مَوَائِدِهِ
وَاشْرَبْ فَدَيْتُكَ عَلًّا مِنْ مَوَارِدِهِ
وَلَا تُضِعْ في سِوَى تَقْيِيدِ شَارِدِهِ عُمْراً يَفُوتُكَ بَيْنَ اللَّحْظِ وَالنَّفَسِ

* * *

دَعِ الكَلامَ فَمَا فِيهِ سِوَى الخَطَلِ وَانْبِذْ[٢] مَجَالِسَهُ تُحْفَظْ مِنَ العِلَلِ
فَهُوَّ شَرُّ ابْتِدَاعٍ جاء بِالخَلَلِ
وَخَلِّ سَمْعَكَ عَنْ بَلْوَى أَخِي جَدَلِ شُغْلُ اللَّبِيبِ بِهَا ضَرْبٌ مِنَ الهَوَسِ

* * *

اللهُ يَعْلَمُ كَمْ قَدْ سِيقَ مِنْ ضَرَرٍ لِلنَّاسِ مِنْ أَجْلِهِ في البَدْوِ وَالحَضَرِ
أَقْبِحْ بِهَا بِدْعَةً تُدْنِي إِلَى الشَّرَرِ
مَا إِنْ سَمَتْ بِأَبِي بِكْرٍ وَلَا عُمَرِ وَلَا أَتَتْ عَنْ أَبِي هِرٍّ وَلَا أَنَسِ

* * *

وَكَمْ دِمَاءٍ غَدَتْ في النَّاسِ مُهْرَقَةً فَهْوَ الكِلَامُ بِكَسْرٍ سَاءَ مخرقة

(١) وهي في «ديوان الهلالي» المسمى «منحة الكبير المتعالي» (ص٩٠ ـ ٩١)، وأشار إليها في كتابه «الدعوة إلى الله» (ص١٣٧) عند ذكره زيارته للهند، وأفاد أنه أدرجها في كتاب له سماه «الهاديات»، طبع بالهند وما زلت أتطلبه منذ مدة، واتصلت ببعض تلاميذ الهلالي في الهند، ووعد خيراً، فنظرة إلى ميسرة، والله الموفق لا رب سواه.

(٢) في هامش «مقدمة التحفة» (١١): «فاحذر»، ووضع فوقها (ن) أي: في نسخة.

فَلَا تَرَى فِيهِ شَمْسَ الحَقِّ مُشْرِقَةً
إِلَّا هَوًى وَخُصُومَاتٍ مُلَفَّقَةً   لَيْسَتْ بِرَطْبٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا يَبَسِ

* * *

دَاءٌ كَمَا جَرَبٌ فِي النَّاسِ مُنْتَشِرُ   وَكُتْبُهُ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ تُسْتَطَرُ
ذَرْ بِدْعَةً عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ تُحْتَقَرُ
فَلَا يَغُرَّنْكَ[1] مِنْ أَرْبَابِهَا هَذَرُ   أجدى وجدك مِنْهَا نَغْمَةَ الجَرَسِ

* * *

نَأَوْا عَنِ الحَقِّ بِالأَوْهَامِ وَانْطَلَقُوا   فِي مَهْمَهٍ بَلْقَعٍ مَا فِيهِ مُرْتَفَقُ
[وَجَادَلُوا بِأَبَاطِيلٍ بِهَا مَرَقُوا
أَعِرْهُمُ أُذُناً صُمًّا إِذَا نَطَقُوا   وَكُنْ إِذَا سَأَلُوا تُعْزَى إِلَى خُرْسِ

* * *

وَابْعُدْ عَنِ الرَّأْيِ بُعْداً يَعْدُكَ الخَطَرُ   فَهُوَ السَّحَابُ وَلَكِنْ مَا بِهِ مَطَرُ
الرَّأْيُ أَغْصَانُ سِدْرٍ مَا بِهَا ثَمَرُ][2]
مَا العِلْمُ إِلَّا كِتَابُ اللهِ أَوْ أَثَرُ   يَجْلُو بِنُورِ سَنَاهُ كُلَّ مُلْتَبَسِ

* * *

إِنَّ الحَدِيثَ زُلَالٌ خَيْرُ مُنْبَجِسِ   لَمْ يَنْأَ عَنْهُ سِوَى ذِي الغَيِّ وَالهَوَسِ
فَاعْمَلْ بِهِ لَا تَكُنْ عَنْهُ بِمُنْحَبِسِ
نُورٌ لِمُقْتَبِسٍ خَيْرٌ لِمُلْتَمِسِ   حِمًى لِمُحْتَرِسٍ نُعْمَى لِمُبْتَئِسِ

* * *

وَإِنَّ لِلدِّينِ أَصْلَينِ اعْتَنَى بِهِمَا   خَيْرُ القُرُونِ وَجَدُّوا فِي طِلَابِهِمَا[3]
يَا وَيْلَ مَنْ قَدْ[4] جَرَى عَلَى اجْتِنَابِهِمَا

---

(١) في الأصل و«مقدمة تحفة الأحوذي»: «يغرك».
(٢) ما بين المعقوفين مكرر في «ديوانه».
(٣) كذا في «ديوانه» والأصل، وجاءت في «مقدمة تحفة الأحوذي» (١٢): «اطلابهما».
(٤) سقطت من «مقدمة تحفة الأحوذي».

فَاعْكُفْ بِبَابِهِمَا عَلَى طِلَابِهِمَا تَمْحُو العَمَى بِهِمَا عَنْ كُلِّ مُلْتَمِسِ

* * *

وَدَعْ فَرِيقاً جَرَوْا عَلَى نِقَاضِهِمَا وَلَا تَمَلَّنَّ يَوْماً مِنْ عِرَاضِهِمَا
وَسَرِّحِ الطَّرْفَ وَارْتَعْ فِي رِيَاضِهِمَا
وَرِدْ بِقَلْبِكَ عَذْباً مِنْ حِيَاضِهِمَا تَغْسِلْ بِمَاءِ الهُدَى مَا فِيهِ مِنْ دَنَسِ

* * *

لَا تَرْكَنَنَّ لِتَقْلِيدٍ بِأَيِّ زَمَنْ فَذَاكَ جَهْلٌ عَظِيمٌ فِي الصُّدُورِ كَمَنْ
إِنَّ المُقَلِّدَ بَيْتَ العَنْكَبُوتِ سَكَنْ(١)
وَاقْفُ النَّبِيَّ وَأَتْبَاعَ النَّبِيِّ تَكُنْ مِنْ هَدْيِهِمْ أَبَداً تَدْنُو إِلَى قَبَسِ

* * *

شُدَّ الرِّحَالَ إِلَيْهِمْ كَيْ تُجَالِسَهُمْ وَاحْذَرْ ـ فَدَيْتُكَ ـ يَوْماً أَنْ تُعَاكِسَهُمْ
لَا تَحْسُدَنْهُمْ وَلَكِنْ كُنْ مُنَافِسَهُمْ
وَالْزَمْ مَجَالِسَهُمْ وَاحْفَظْ مُجَالِسَهُمْ وَانْدُبْ مَدَارِسَهُمْ بِالأَرْبُعِ الدَّرْسِ

* * *

وَاطْلُبْ مَوَدَّتَهُمْ وكُنْ صَدِيقَهُمُ وَكُنْ مُجَالِسَهُمْ تَشْرَبْ رَحِيقَهُمُ
وَقِّرْهُمُ كُلَّهُمْ وَاعْرِفْ حُقُوقَهُمُ
وَاسْلُكْ طَرِيقَهُمُ وَاتْبَعْ فَرِيقَهُمُ تَكُنْ رَفِيقَهُمُ فِي حَضْرَةِ القُدُسِ

* * *

هِيَ الشَّرِيعَةُ فَانْظُرْ فِي سَمَاحَتِهَا كَفِيلَةً لِلنُّفُوسِ بِاسْتِرَاحَتِهَا
فِي حَظْرِهَا حِكْمَةٌ وَفِي إِبَاحَتِهَا
تِلْكَ السَّعَادَةُ إِنْ تَلْمَمْ بِسَاحَتِهَا فَحُطَّ رَحْلَكَ قَدْ عُوفِيتَ مِنْ تَعَسِ

ملحق:

قال محمد تقي الدين: ثم ظهر لي أن أنقل أشعاراً أخرى من جنس ما تقدمها، أنقلها من كتاب «الصوارم»، الذي هو لأعداء السنة قاصم، فمن ذلك قصيدة للعلامة الفقيه المحدث ابن أبي بكر بن احميد

(١) في «ديوانه»: «أم المقلد ببيت العنكبوت سكن».

الديماني[1] المالكي رحمه الله تعالى لما كثر الاختلاف في هذه المسألة في هذه البلاد:

«وَاعْلَمْ بِأَنَّ القَبْضَ في إِنْكَارِهِ … خَطَرٌ فَسلِّمْ وَ«المُوَطَّأ» فَانْظُرَا

وَعَلَى «الصَّحِيحَيْنِ» المَدَارُ وَفِيهِمَا … فانظرهما قد جاء وأقرا الكوثرا

وَالقُرْطبيُّ أَبُو الوليدِ مُحَمَّدٌ … بِبَيَانِهِ الأَخْبَارُ عَنْهُ بِأَظْهَرَا

وَمُقَدِّمَاتُ أَبِي الوَلِيدِ فَضِيلَةٌ … عَدَّتْهُ كَالقَاضِي عِيَاضٍ فَانْصُرَا

وكذاك حبر زناته إن لم يُرد … به الاعتمادُ لديهما فتدبرا»[2]

وقد تركت منها تسعة عشر بيتاً في معنى ما نقلته لم يعجبني نظمها؛ لأنه عديم الانسجام بعيد عن الفصاحة والبلاغة.

وسأعوّضكم أيها القراء عن ذلك بقصيدة لعالم آخر شنقيطي أيضاً، وهو العلامة المحقق محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن فتى[3] الحسني المالكي رحمه الله تعالى، وهي فصيحة نَظْمُها منسجم، وموضوع القصيدتين ومعناهما واحد:

«دَعِ الإكثارَ وَيْحَكَ والتَّمادِي[4] … بلا جَدْوَى على الخَبَرِ المُعَادي[5]

وخلِّ سبيلَ أَمْرٍ ليس يُجْدِي … إذا نادى إلى العَرْضِ المُنادِ

فَمَهْمَا رُمْتَ هذا السَّدْلَ فَاعْلَمْ … فإنَّ السَّدْلَ عَمَّ بذي البلادِ

وَمَهْمَا رُمْتَ سُنَّةَ خَيْرِ هَادٍ … فإنَّ القَبْضَ سُنَّةُ خَيْرِ هَادِ

فَفِعْلُ القَبْضِ في الفَرْضِ اقْتِدَاءً … بِخَيْرِ الخَلْقِ أَقْرَبُ للرَّشادِ

بِهِ وَرَدَ الكِتَابُ لَدَى عَلِيٍّ … وآثارٌ تَفُوحُ بِعَرْفِ حادِ

ويفعله الإمامُ وإنْ تَسَلْني … فإنَّ على أبي عُمَر اعْتِمَادي

رواه الحبرُ أشهب وابنُ وهب … وأعلامُ المدينةِ خيرُ نادي

وأصحابُ الإمام رووه كلاً … سوى ابن القاسم الحبرِ الجوادِ

---

(١) له ترجمة في «معجم المؤلفين في القطر الشنقيطي» (ص١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٥٢).

(٣) في «النصح الأوفى» (ص٢٦٣): «فتحي»!!

(٤) في مطبوع «الصوارم»: «والتمادِ»!

(٥) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «المعاد»!

وليس كلامُه نصّاً فأنّى ... يكونُ السَّدلُ أقربَ للسَّدادِ
وفيما في «الموطأ» وهو نصٌّ ... صريحٌ ما يردُّ أخَا العنادِ
وفي نصِّ «المدونة» احتجاجٌ ... لأهل القَبضِ دون السَّدلِ بادِ
وفي نصِّ «النَّوادر» وابنِ رشد ... حذامي[1] لقولٍ أعلن بالمرادِ
ويُنْمَى لابن عبدوس[2] ويُنمى ... ليوسفَ ذي العلومِ والاجتهادِ
كذا اللخمي و«الإكمال»[3] أدنى ... لدى فهم الذكي إلى مرادِ
كذا الموَّاق وابنُ الحاجِ أيضاً ... أجادا الطَّعنَ في حُجَجِ المضادِ
كذاك الجَهْبَذُ العَدَويُّ أيضاً ... بغيرِ القبضِ ليس بذي اعتدادِ
كذاك الحَبرُ الأجهوري أيضاً ... كفيلٌ بالمرادِ لكلِّ جادِ[4]
كذاك أبو علي وهو أيضاً ... بمجموعِ الأميرِ أخو اعتضادِ
كذلكم الميسِّرُ والمُحَشِّي ... أخو الفَهمِ الصَّحيحِ والانتقادِ
كذلك آخرون ذوو انتسابٍ ... لمذهبِ مالكٍ نَجمِ الرَّشادِ[5]
كذا باقي المذاهب فهي إلبٌ ... على السَّدلِ الضَّعيفِ لدى الجلادِ
كذاك الأنبياءُ عليه طرا ... مِنَ اوّلِهم إلى خيرِ العِبَادِ
كذلكم الملائكُ وابنُ رشدٍ ... إذا ما عنَّ معترض عتادي[6]
وللحَبْرِ ابنِ عَزوزٍ عليه ... من الأنقال ما يروي الصَّوادي
وما للسَّدلِ من أثرٍ ضعيفٍ ... يكافحُ إنْ ألمَّ به الأعادي
فأهلُ القبض أبهى الخلقِ نوراً ... وأقربُهم إلى مَجْرى الأيادي
فما للسَّدلِ فضلٌ بعد هذا ... عليه سِوَى الشُّذوذ والانفرادِ
به ألقى الإلٰهَ ولا أُبالي ... وإنْ سَلقوا بألسنةٍ حدادِ
وأُلغي ما سواه ولست أصغي ... لمانعِ الاقتداءِ بخيرِ هادِ

(١) كذا في مطبوع «الصورام»، وفي الأصل: «حذام».
(٢) كذا في مطبوع «الصورام»، وهو الصواب، وفي الأصل: «لابن عبد»!
(٣) كذا في مطبوع «الصورام»، وفي الأصل: «الإكمى»!
(٤) كذا في مطبوع «الصورام»، وفي الأصل: «حاد».
(٥) في مطبوع «الصوارم»: «الدءاد».
(٦) كذا في مطبوع «الصورام»، وفي الأصل: «معاد».

ومـا الـرَّحـمٰـنُ جَـلَّ لـه مـحـبٌّ إلى التَّصويبِ أقرَّ في الاجتهادِ
يـحـرِّكُ سـاكـنـي ويـشـدُّ أزري ويدفعُ ما تَلَجْلَج في فؤادي[1]
وإنْ يَنَلْ المخالفُ منك يوماً وشَدَّد في النَّكيرِ للاعتيادِ
فذا فِعْلُ النَّبيِّ فلا تَدعْهُ لإرضاءِ الصَّديقِ ولا المعادي
فقد قلَّدتَ أهلَ العلم حقّاً مع المرويِّ عن خيرِ العِبادِ
صلاةُ الله يَتْبَعُها سَلامٌ على الهادي إلى طُرُقِ الرَّشادِ»[2]

وفي رجز الشيخ محمد سفر المدني المالكي المسمى «رسالة المهدي» ما نصه:

«والوَضعُ للكفِّ على الكفِّ وَرَدْ عن النَّبيِّ الهاشميِّ فلا يُرَدْ
رواه مالكٌ وأصحابُ «السُّنَنْ» ومسلمٌ مع البخاري فاعْلَمَنْ
ومَنْ يَقُلْ هو بدعةٌ فَقَد كَذَبْ دَعْهُ ولا تَذْهَب لِمَا لَهُ ذَهَبْ
وحَيثما وُضِعَتْ تحتَ السُّره أو فوَق أو في الصَّدر ليس يُكْرَهْ[3]
لأنَّه جاءت به الروايه وأخَذَتْ به ذَوو الدِّرايه
وصَحَّح الحفاظُ فوقَ الصَّدرِ كَمَا رواه وائلُ بن حُجْرِ»[3]

وقال صاحب «الصوارم» أيضاً: وفي رجز العلامة محمد فاضل بن أحمد دليل اليعقوبي المالكي رحمه الله تعالى المسمى «مُثَبِّت الأقدام» ما نصه:

«واقبضْ على رسغِ الشِّمالِ باليمينْ مِن تَحْت صدرك فذا فعلُ الأمينْ
وكلّ مرسل كما قد أخبرا رسولُنا عنهم وعنه اشتهرا

وللشيخ مر به ربو[4] ابن الشيخ ماء العينين رحمهما الله تعالى:

لا يستوي المبطلُ والمحقُّ وفي نصوصِ القبضِ جاء الحقُّ
وزَهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلا كان زَهُوقاً فاتركِ الأباطلا»[5]

«ولمحيي السنة الشيخ سيدي ابن الشيخ سيدي محمد ابن الشيخ سيدي

---

(١) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «فؤاد»!
(٢) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٥٣ ـ ٥٥).
(٣) انظر: «الصوارم والأسنة» (٥٥).
(٤) في مطبوع «الصوارم»: «أمر بيه رب».
(٥) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٥٥).

المتوفى يوم الخميس ثالث جمادى الآخرة عام اثنين وأربعين وثلاث مائة، وألَّف عن أربع وستين سنة وثلاثة أشهر رَحِمَهُ اللهُ في إبطال هذه الدعوى:

القبضُ والرَّفعُ مما صحَّ من سُنن ... عن الرَّسولِ بلا نَسخٍ ولا وَهَنْ
فلا تكن يا صحيحَ العقلِ متَّبعاً ... آثارَ أشياء لم تُخْلَق ولم تَكُنْ»

وقال صاحب «رسالة الهدى»:

وقولُهم رفعُ اليدينِ مبطلُ ... في الانتقالِ ليس شيئاً يُقْبَلُ
وقد روى الرَّفعَ من الصَّحابه ... خمسون قال صاحب الإصَابه»[1]

«ومن قصيدة العلامة المأمون بن محمد الصوفي اليعقوبي المالكي رحمه الله تعالى:

لئن أنكروا رفعَ اليدين فَرَفْعُه ... لو انتبهَ النُّوَّامُ أثبت واردِ
عن العَشْرَةِ الأعلام من خير أمةٍ ... منَ اصحابِ خيرِ المرسلين الأماجدِ
رَمَوا بالحصى من يتركُ الرَّفع وانتحى ... إلى العكسِ قومي في صُدورِ المشَاهِدِ
وبثوه في «الأثبات» من كلّ متقنٍ ... طبيب بإرواء[2] الأحاديث ناقدِ
وواطأ في نصِّ «الموطأ» نافع ... به سالماً عن كلِّ مولىً ووالدِ
به شهدوا لابن الحويرث إذْ حَكَى ... عليهم صلاةُ المصطفى في المساجدِ
عليه صلاةُ اللهِ ما قام بالهُدى ... حليفٌ له من هديه خيرُ قائدِ
مع الآلِ والأصحابِ خيرِ كواكب ... بها يُعرف السَّاري وجوهَ المواردِ
ومَن تَبعوهم مهتدين بهديهم ... وسنّتهم لا محدثات العوائدِ
وقال البخاري ليس يثبت كفُّهم ... عن الرَّفعِ عن فردٍ من الصَّحبِ وَاحدِ
وإثباتُه لم يأتِ قط محدث ... بأثبتَ منهُ في صحاح «المساندِ»
على الكلمةِ العُليا برغم المعاندِ ... أحقَ بأن تعلى ففيها فجاهدِ
عذيري وصمي يا صمام لقولِهم ... بنبذِ الأحاديث الصِّحاحِ الأسانِدِ
فإن قيل أدرى بالأحاديث مالكٌ ... فَمَا لَهم في فضلِه مِنْ مُعَانِدِ
هو النَّجمُ نجمُ السُّنَّةِ المُهْتَدَى به ... إذا اشتبهتْ فيها وجوهُ الموارِدِ

---

(١) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٧٩).

(٢) كذا في مطبوع «الصوارم»، وفي الأصل: «بأدواء»!

ولــكـنَّـه نـادى بـنـبـذِ كـلامـه إذا خَـالـفَـتْـه سـنّـةٌ قـولَ قـاصـدِ
تـواتـر ذا بـالـنَّـقـلِ عـنـه ومثـلـهِ لـكـلِّ زعـيـمٍ بـالأزمَّـةِ قـائـدِ
كأحمدَ والنُّعمانِ والشَّافعي الرِّضى وجِلَّة مَنْ يرمى لهم بالمقاودِ
وقـالـوا إذا صَحَّ الحديثُ فإنّـه لنا المنهجُ المنحو والنَّقلُ شاهدي
ونقَّح عزُّ الدين مضمونَ قولِهم فَسَلِّمْ بالاجماعِ مِنْ كلِّ ناقدِ

ومن قصيدة المختار بن حامد الديماني الرائقة:

والرَّفعُ والقَبضُ عن خيرِ الوَرى ثَبَتا وصحبُه قَبضوا قطعاً كما رَفَعوا
ومالكٌ جاء عنه القَبْضُ مثلهم والرَّفعُ فهو لهم في دينِكم تَبَعُ»[1]

«قال أبو عمر بن عبد البر: رحم الله القائل:

لَقَد بان للنَّاسِ الهُدَى غيرَ أنهم غدوا بجلابيب الهَوى[2] قد تَجَلْببوا»[3]

«وقد نظم ذلك شيخنا محمد عال بن عبد الودود المباركي حفظه الله تعالى فقال:

مَـن ادَّعـى مـحـبـةَ الله ولـمْ يَـسِـرْ عـلـى سـنَّـةِ سيـدِ الأُمـمْ
فـذاك كـذّابٌ أخـو مَـلاهِ كـذَّب دَعـواهُ كـتـابُ اللهِ»[4]

وقال أبو بكر بن أبي داود في «قصيدته» في السنة:

ودَعْ عنك آراءَ الرِّجالِ وقولَهُمْ فقولُ رسولِ الله أزكى وأشرحُ»[5]

ونقل الفلاني في «إيقاظ الهمم»: «عن سفيان بن عيينة قال: كان ابن شبرمة يقول:

ما في القَضَاءِ شفاعةٌ لمخاصمٍ عند اللبيب ولا الفقيهِ العَالِمِ
أهون[6] علي إذا قضيتُ بسنَّةٍ أو بالكتابِ برغم أنفِ الرَّاغم
وقضيتُ فيما لم أجد أثراً به ببصائرَ معروفةٍ ومَعَالمِ»[7]

(١) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص٨٠ ـ ٨١).
(٢) في مطبوع «الجامع»: «الهدى»!!
(٣) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ١١٤١). (٤) انظر: «الصوارم والأسنة» (ص١٢٦).
(٥) انظر: «التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود الحائية» (ص١٠).
(٦) في مطبوع «إيقاظ الهمم»: «هون».
(٧) انظر: «إيقاظ همم أولي الأبصار» (ص٢٤).

وقال أبو عمر: وإلى هذا المعنى ـ والله أعلم ـ أشار مصعب بن الزبير في «قصيدته» حيث قال:

أأقعدُ بعدما رجفتْ عظامي ... وكان الموتُ أقربَ ما يليني
أجادلُ كلَّ معترضٍ خصيمٍ ... وأجعل دينَه غرضاً لديني
فأتركُ ما علمتُ لرأيِ غيري ... وليس الرأيُ كالعلم اليقيني[(١)]
وما أنا والخصومةُ وهي لبس ... تصرف في الشمال وفي[(٢)] اليمينِ
وقد سُنَّتْ لنا سنن قِوَام ... يَلُحْنَ بكلِ فجٍّ أو وجينِ
وكان الحقُّ ليس به خفاء ... أغر كغرةِ الفَلقِ المبينِ
وما عوضٌ لنا منهاج جَهْم ... بمنهاجِ ابنِ آمنة الأمينِ
فأما ما علمتُ فقد كفاني ... وأما ما جهلتُ فجنِّبُوني
فلستُ بمكفِرٍ أحداً يُصلِّي ... ولم أحرمكم أن تكفِروني
وكنَّا إخوةً نرمي جميعاً ... فنرمي كلَّ مرتابٍ ظنينِ
وما برِح التَّكلفُ أنْ رُمينا[(٣)] ... بشأنٍ واحد فوقَ[(٤)] الشؤونِ[(٥)]
فأوشك أن يخرَّ عمادُ بيتٍ ... وينقطعُ القرينُ من القرينِ»[(٦)]

وأنشد أبو عمر في المقلِّدين:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيِّدها إلَّا كعلم الأباعرِ
لعمرك لا يدري البعيرُ إذا غدا ... بأحمالِه أو راحَ ما في الغَرائرِ

وأنشد فيهم أيضاً قول عمار الكلبي:

إنَّ الرواةَ على جهلٍ بما حَمَلوا ... مثلَ الجمالِ عليها يحمل الودعُ
لا الودعُ ينفعه حمل الجمال له ... ولا الجمال بحَمل الوَدَعُ تنتفعُ

وقال الإمام محمد بن عبد السلام الخشني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) كذا في مطبوع «جامع بيان العلم»، وفي الأصل: «اليقين»!
(٢) في مطبوع «جامع بيان العلم»: «إلى». (٣) في مطبوع «جامع بيان العلم»: «رمتنا».
(٤) في مطبوع «جامع بيان العلم»: «فرَّق».
(٥) كذا في مطبوع «جامع بيان العلم»، وفي الأصل: «الشؤوني»!
(٦) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٣٦ ـ ٩٣٧)، و«تهذيب الكمال» (٢/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦).

قطعتُ بلادَ الله للعلمِ طالباً ... فحمّلتُ أسفاراً فصرتُ حمارَها
إذا ما أراد اللهُ حَتفاً بنملةٍ ... أتاح جناحين لها فأطارَها[١]

وقال ابن القيم في «النونية» رحمه الله تعالى:

وَالجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُه ... أَمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ
نَصٌّ مِنَ القُرْآنِ أَوْ مِنْ سِنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي
وَالعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا ... مِنْ رَابِعٍ، وَالحَقُّ ذُو تِبْيَانِ
عِلْمٌ بِأَوْصَافِ الإِلَهِ وَفِعْلِهِ ... وَكَذَلِكَ الأَسْمَاء لِلرَّحْمنِ
وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِينُهُ ... وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي
وَالكُلُّ فِي القُرْآنِ وَالسُّنَنِ الَّتِي ... جَاءَتْ عَنِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ
وَاللهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ ... بِسِوَاهُمَا إِلَّا مِنَ الهَذَيَانِ[٢]

وهنا أنقل ما يتعلّق بالموضوع من قصيدة لي عدد أبياتها خمسة وتسعون، وقد رأيتُ أن أذكر الغَزلَ الذي صدّرتها به؛ لأني أعلم أن بعض القراء يحبون الاطلاع عليه، وبعد ذلك أنقل ما فيه ردٌّ للتقليد أو تمسك بالسنة من حيث الفروع، أما ما يدل على العقائد فأؤخره إلى (القسم الثالث)[٣] إن شاء الله وهذه القصيدة قلتها في مكناس سنة ١٣٨١هـ، وهذا أولها:

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ١٠٣٢) بتصرف.

(٢) انظر: «الكافية الشافية» (ص٢٥٨، ط. ابن الجوزي).

(٣) سماها فيه (٦/ ٣٠٢): «الكتيبة المظفَّرة في رجم شياطين البغي والشرك والبدع المستنكرة». ونشرها في مجلة «الجامعة الإسلامية»، العدد الثامن عشر، شوال سنة ١٣٩٢هـ (ص٢٣ ـ ٢٧) وسماها (أتوعد سنات الرسول بمحوها؟)، وأوردها أيضاً بتمامها في كتابه «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» (ص٢١٤ ـ ٢١٨) وسماها فيه (القصيدة المكناسية) ولها خبر ذكرها قبل سردها، قال ﷺ: «لما أراد الله بفضله ورحمته أن يردني إليها ـ أي: إلى المدينة النبويّة ـ، ألهم صاحب السماحة العالم السلفي ناصر السنة وقامع البدعة والورع الزاهد الأواب الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رئيس الجامعة الإسلامية، أن يدعوني إلى التدريس في الجامعة الإسلامية، وعندما لقيته بمنى سنة ١٣٨٨هـ قال لي: إن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك، فقلت له: وأنا في حاجة إليها أيضاً. فقال لي: بأي طريق ندعوك إلى التدريس فيها؟ فأخبرته فدعاني دعوة رسمية بطريق وزارة الخارجية السعودية، فالسفارة السعودية بالمغرب، فوزارة التعليم العالي بالرباط، وأتيت إلى هذا البلد المبارك، وأنا أسأل الله متوسلاً إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يجعل إقامتي =

لَقَدْ طَالَ لَيْلِي وَالجَوى مَالِئٌ صَدْرِي ... وَبـرَّحَ بِـي شَـوْقٌ إلـى رَبَّـةِ الـخِـدْرِ
أُقَضِّي نَهَارِي دَائِمَ الفِكْرِ والأَسَى ... وَلَيْلِيَ تسْهَادٌ إلى مَطْلَعِ الفَجْرِ
وَأَكْتُمُ أَسْرَارِي حِذَاراً مِنَ العِدَى ... ومَهْمَا أَبُحْ فالحُبُّ أَفْقَدَنِي صَبْرِي
تَذَكَّرْتُ أيَّامَ الوِصَالِ فكَادَ مِنْ ... تَذَكُّرِهَا قَلْبِي يَطِيرُ مِنَ[1] الصَّدْرِ
فَيَا وَيْحَ قَلْبِي مَا يُلَاقِي مِنَ الهَوَى ... وَمِنْ فَرْطِ آلَامِ الصَّبَابَةِ والهَجْرِ
وعَاذِلَةٍ جاءَتْ بِلَوْمٍ كأَنَّهُ ... نُعَابُ غُرَابٍ للفُؤَادِ غَدَا يَبْرِي
ولَسْتُ بِسَالٍ لو أَطَلْتِ مَلَامَتِي ... فَكُفِّي عَنِ الإسْفَافِ والمَنْطِقِ الهُجْرِ
وكَيْفَ سلوّي بعدما شَابَ مَفْرَقِي ... وأَنْفَقْتُ في حُبِّي لَهَا زَهْرَةَ العُمْرِ
ألم تَعْلَمِي أَنَّ المَلامَ وإنْ غَدَا ... عَدِيماً من الجَدْوَى فبالحُبِّ قد يُغْرِي
وطُفْتُ بلادَ اللهِ شَرْقاً ومَغْرِباً ... على قَدَمِي طَوْراً وطَوْراً على مُهْرِ
وَأَنْضَيتُ[2] بُعِرَاناً وحَلَّقتُ في السَّمَا ... على جَائِبَاتِ الجوِّ كالنَّجم إِذْ يَسْرِي
وطَوْراً على فُلْكٍ عَظِيمٍ كأَنَّهُ ... ثَبِيرٌ يَرُوعُ الحُوتَ في لُجَّةِ البَحْرِ
حَلِيفُ اغْتِرَابٍ في ثَوَاءٍ ورِحْلَةٍ ... وإنْ كُنْتُ في أَهْلٍ كَثِيرٍ ذَوِي وَفْرِ
(وَمَا غُرْبَةُ الإِنْسَانِ من شُقَّةِ النَّوَى ... وَلكِنَّهَا)[3] في الدِّينِ والخُلْقِ والبِرِّ
إلى اللهِ أَشْكُو غُرْبَةَ الدِّينِ والهُدَى ... وَطُغْيان أَهْلِ الكُفْرِ وَالفِسْقُ وَالغَدْرِ

= فيه طبق ما يجب على كل ساكن فيه، من مراعاة حرمته، والبعد عن ارتكاب أي حدث يتنافى في قدسيته.

وهذه القصيدة المكناسية تعبر عما تقدم بالأسلوب الشعري، وقد حذفت عشرة من أبياتها إبقاء على بعض الناس، على أنني لم أصرح فيها باسم أحد لا في المحذوف ولا في المثبت وبالله التوفيق».

والقصيدة في «ديوان الهلالي» المسمى «منحة الكبير المتعالي» (ص٧٣ ـ ٧٦ مرقوم على الآلة الكاتبة) وفيه قبلها: «قلت فيمن يعارض توحيد الله واتباع سنة رسوله، ويناضل عن الشرك والتقليد».

(١) في «سبيل الرشاد»: «في»، والتصويب من «ديوانه»، ومجلة «الجامعة الإسلامية».

(٢) في «سبيل الرشاد»: «وأضيت»، والتصويب من «ديوانه»، ومجلة «الجامعة الإسلامية».

* في مجلة «الجامعة الإسلامية»: «ولكنه»!

(٣) في «ديوانه»: «درة»، وقد وضع بوخبرة تحتها خطًّا لكن دون تعليق أو تصحيح في الهامش والمثبت من «سبيل الرشاد» ومجلة «الجامعة الإسلامية».

ومنها:

وَمَنْ يَقْلِ سُنَّاتِ الرَّسُولِ فإِنَّهُ يُعَذَّبُ في الدُّنيا وفي فِتْنَةِ القَبْرِ
وَيَسْأَلُهُ فِيهِ نَكِيرٌ ومُنْكَرٌ وَمَا مِنْ جَوَابٍ عِنْدَهُ غيرَ لَا أَدْرِي
وَذِي سُنَّةُ الجَبَّارِ في كُلِّ مَنْ غَدَا يُحَارِبُ دِينَ اللهِ في السِّرِّ والجَهْرِ
أَلَمْ تَدْرِ أَنَّ اللهَ نَاصِرُ دِينِه ومُوقِعُ أَهْلِ البَغْيِ في دَارَةِ[1] الخُسْرِ
وكَمْ قَدْ سَعَى سَاعٍ لإِطْفَاءِ نُورِهِ بكَيْدٍ فَرَدَّ اللهُ كَيْدَهُ في النَّحْرِ
وَتَنْصُرُ إِشْرَاكاً وَفِسْقاً وَبِدْعَةً وَنَاصِرُ هَذِي[2] خَاسِرٌ أَبَدَ الدَّهْرِ
دَعَا المُصْطَفَى قِدْماً عَلَيهِ بِلَعْنَةٍ وَمَنْ يَلْعَنِ المُخْتَارُ فَهُوَ إلى شَرِّ
وَتَلْعَنُهُ الأَمْلَاكُ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةٍ كَذَلِكَ أَهْلُ الأرضِ في السَّهْلِ وَالوَعْرِ

ومنها:

وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَادِمُونَ لِسُنَّةٍ أَتَتْ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ذِي الفَتْحِ والنَّصْرِ
وخَادِمُ سُنَّاتِ الرَّسُولِ حَيَاتَهُ كَخَادِمِهَا مِنْ بَعْدِ مَا صَارَ في القَبْرِ
وَمَا غَابَ إِلَّا شَخْصُهُ عن عُيُونِنَا وأَنْوَارُهُ تَبْقَى إلى الحَشْرِ وَالنَّشْرِ
فَيَا مُبْغِضِي هَدْيِ النَّبِيّ أَلَا ابْشِرُوا بِخْزِيٍ على خِزْيٍ وَقَهْرٍ على قَهْرِ
سَلَكْتُمْ سَبِيلاً قد قَفَاهَا إِمَامُكُمْ أَبُو جَهْلٍ المَقْصُومُ في مُلْتَقَى بَدْرِ
وَعَاقِبَةُ المَتْبُوعِ حَتْمٌ لِتَابِعٍ كما لَزِمَ الإِحْرَاقُ لِلقَابِضِ الجَمْرِ
فَإِنْ أَنْتُمُ كَذَّبْتُمُ بِوَعِيدِهِ فَكَمْ كَذَّبت مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمُ الكُفْرِ
فَصَبَّ عَلَيهِمْ رَبُّهم سَوْطَ نِقْمَةٍ فَصَارُوا أَحَادِيثَ المُقِيمِينَ وَالسَّفْرِ
(فَيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى عَلَيهِمْ) إِلَيكَ الأَمْرُ في العُسْرِ وَاليُسْرِ
فَلَوْا سُنَّةَ المُخْتَارِ يَبْغُونَ مَحْوَهَا وَكَادُوا لَهَا فَاجْعَلْ لَهُمْ كَيْدَهُمْ يفْرِي
هُمُ اسْتَضْعَفُونَا اليَوْمَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنَا قَلِيلٌ وقَدْ يَعْلُو القَلِيلُ عَلَى الكُثْرِ
وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ[3] للهِ قَائِماً وَأَعْدَاؤُهُ لِلبَغْيِ مِنْ جَهْلِهَا تَجْرِي
وَإِدْرَاكُ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ مُحَقَّقٌ لِمَنْ يَقْتَدِي بالمُصْطَفَى مِنْ ذَوِي الحِجْرِ

(١) في «ديوانه»: «هذا».
(٢) في مجلة «الجامعة الإسلامية»: «كاد»!!
(٣) الهلالان زيادة من بوخبزة على «ديوان» الهلالي.

وَمَـنْ ظَـنَّ أنَّ اللهَ مُـخْـلِـفُ وَعْـدِهِ ... وَخَـاذِلُ أَنْـصَـارِ الـنَّـبِيِّ بِـذَا الـعَـصْـرِ
فَـذَاكَ غَـلِـيـظُ الـطَّـبْـعِ أَرْعَـنُ جَـاهِـلٌ ... عَرِيضُ القَفَا بَيْنَ الوَرَى مُظْلِمُ الفِكرِ
تَـكَـفَّـلَ بِـالـنَّـصْـرِ الـعَـلِـيُّ لِـحِـزْبِـهِ ... حَيَاتَـهُـمُ هَـذِي وفي مَوْقِفِ الـحَشْرِ
فَفِي (عَافِرٍ) قد جَاءَ ذلك وَاضِحاً ... وَلَـكِـنَّـهُ يَـخْـفَـى عـلى الـفَدْمِ والـغُـمْـرِ
سَـلَامٌ عـلـى أَنْـصَـارِ سُـنَّـةِ أَحْـمَـدٍ ... فَـهُـمْ أَوْلِـيَـاءُ اللهِ فـي كُـلِّ مَـا دَهْـرِ
إِلَيْهِمْ أَجُوبُ البَرَّ والبَحْرَ قَاصِداً ... فَرُؤْيَتُهُمْ تَشْفِي السَّقِيمَ مِنَ الضَّرِّ
هُمُ حَفِظُوا الدِّينَ الحَنِيفَ وَنَاضَلُوا ... عَنِ الحَقِّ بِالبُرْهَانِ وَالبِيضِ وَالسُّمْرِ
هُمُ خَلَفُوا المُخْتَارَ في نَشْرِ سُنَّةٍ ... بِـفِـعْـلٍ وأَقْـوَالٍ تَـلْأْلَأُ كَـالـدُّرِّ
هُمُ جَرَّدُوا التَّوْحِيدَ من كُلِّ نَزْغَةٍ ... مِنَ الشِّرْكِ والإلْحَادِ والزَّيْغِ وَالنُّكْرِ
فَلَا قُبَّةٌ تُبْنَى عَلَى قَبْرِ مَيِّتٍ ... ولَـمْ يَـعْـبُـدُوا قَـبْـراً بِـذَبْحٍ وَلَا نَـذْرِ
وَلا بِـطَـوَافٍ أو بِـتَـقْـبِـيـلِ تُـرْبَـةٍ ... فَذَلِكَ فِعْلُ المُشْرِكِينَ ذَوِي الكُفْرِ
وَلَا رَحَـلُـوا يَـوْمـاً لِـغَـيْـرِ ثَـلَاثَـةٍ ... مَسَاجِدَ خُصَّتْ بالفَضَائِلِ والأَجْرِ
وَلَـمْ يَسْتَغِيثُوا في الشَّدَائِدِ كُلِّها ... بِغَيرِ إِلَهِ النَّاسِ ذِي الخَلْقِ وَالأَمْرِ

ومنها قولي:

وَمَـنْ ظَـنَّ تَـقْـلِـيـدَ الأَئِـمَّـةِ مُـنْـجِـيـا ... فَـأَفْـتَـى بِـتَـقْـلِـيـدٍ فَـيَـا لَـهُ مِـنْ غِـرٍّ
كَـمُـنْـتَـحِـلٍ عُـذْراً لِـيُـغْـفَـرَ ذَنْـبُـهُ ... أَضَـافَ لَـهُ جُـرْمـاً تَـجَـدَّدَ بِـالـعُـذْرِ
أَلا إِنَّـمَـا الـتَّـقْـلِـيـدُ جَـهْـلٌ وَظُـلْـمَـةٌ ... وَطَالِبُهُ خُلْوٌ مِنْ العِلْمِ والخُبْرِ[1]
كَـطَـالِـبِ وِرْدٍ بَـعْـدَمَـا شُـفِـهَ الـظَّـمَـا ... جَرَى خَلْفَ آلٍ لَاحَ في مَهْمَهٍ[2] قَفْرِ
فَإِنْ قُمْتَ بالإِفْتَاءِ أو كُنْتَ قَاضِيا ... فَإِيَّاكَ والتَّقْلِيدَ فَهْوَ الَّذِي يَزْرِي
وَجَرِّدْ سُيُوفاً مِنْ بَرَاهِينَ قَدْ سَمَتْ ... عَنِ الحَدْسِ وَالتَّخْمِينِ وَالسُّخْفِ وَالهَتْرِ
وَطَـرْفَـكَ سَـرِّحْ فـي الـكِـتَـابِ فَـإِنَّـهُ ... رِيَاضٌ حَوَتْ مَا تَشْتَهِيهِ مِنَ الزَّهْرِ
وَمِـنَ بَـعْـدِهِ فَـاعْـلَـقْ بِـسُـنَّـةِ أَحْـمَـدٍ ... فَأَنْوَارُهَا تَسْمُو على الشَّمْسِ والبَدْرِ
وَلَا تَـحْـكُـمَـنْ بِـالـرَّأْيِ إِلَّا ضَـرُورَةً ... كَمَا حَلَّتِ المَيْتَاتُ أَكَلاً لِمُضْطَرِّ

---

(١) كذا في «سبيل الرشاد» و«ديوانه»، وفي مجلة «الجامعة الإسلامية»: «والخير».
(٢) في مجلة «الجامعة الإسلامية»: «مهمة»!

وَمَهْمَا بَدَا أنَّ القَضَاءَ على خَطَأ — أُقِيمَ فَبَادِرْ لِلرُّجُوعِ على الفَوْرِ
وَمَنْ يَقْضِ بِالتَّقْلِيدِ فَهْوَ على شَفَا — كَعْشَوَا غَدَتْ في كَافِرٍ حَالِكٍ تَسْرِي
وَمَنْ يُفْتِ بالتَّقْلِيدِ فَهُوَ قَدِ افْتَرَى — وفي النَّحْلِ نَصٌّ جَاءَ في غَايَةِ الزَّجْرِ
لَعَمْرُكَ ما التَّقْلِيدُ لِلجَهْلِ شَافِياً — وأمَّا نُصُوصُ الوَحْيِ فَهْيَ الَّتِي تُبْرِي
وَصَلِّ وَسَلِّمْ يَا إِلٰهِي على النَّبِي — صَلَاةً تَدُومُ الدَّهْرَ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
فَدُونَكَهَا بِكْراً عَرُوباً خَرِيدَةً — مُهَفْهَفَةً غِيدَى عَرُوساً مِنَ الشِّعْرِ
يُضِيءُ ظَلَامَ اللَّيْلِ نُورُ جَمَالِهَا — وَلَيْسَ لَهَا إلَّا القِرَاءَةُ مِنْ مَهْرِ[1]
قَصَدْتُ بِهَا نَصْراً لِسُنَّةِ أَحْمَدٍ — وَنَاصِرُهَا لَا شَكَّ يَظْفَرُ بالنَّصْرِ
وَعِدَّتُهَا تِسْعُونَ مِنْ بَعْدِ خَمْسَةٍ — وَأَخْتِمُهَا بِالحَمْدِ للهِ وَالشُّكْرِ

قال محمد تقي الدين: وهذا آخر ما يسره الله تعالى في هذا (القسم الثاني) من كتاب سبيل الرشاد نسأل الله تعالى أن ينفعنا به، متوسلين إليه بأسمائه الحسنى، وبمحبتنا واتباعنا لمحمد خليله صلوات الله وسلامه عليه، والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ منه بعد ظهر يوم السبت، الخامس عشر، من رمضان سنة ١٣٩٥هـ.

---

(١) في «سبيل الرشاد»: «مهري»!

الموضوعات والمحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

سورة الشورى

سورة الزخرف

الموضوع الصفحة

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الذاريات

سورة النجم

سورة القمر

سورة الواقعة

سورة الحديد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الدار الأثرية
عمان - الأردن - تلفاكس : ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢
خلوي : ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ / ٠٠٩٦٢ - ص.ب : ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي : ١١١٩٠
الرمز الإلكتروني : alatharya1423@yahoo.com

سبيل الرشاد

في

هدي خير العباد

تصنيف

العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي
رحمه الله تعالى
(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)
(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه
أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء الخامس

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم

سبيل الرشاد

في

هدي خير العباد

٥

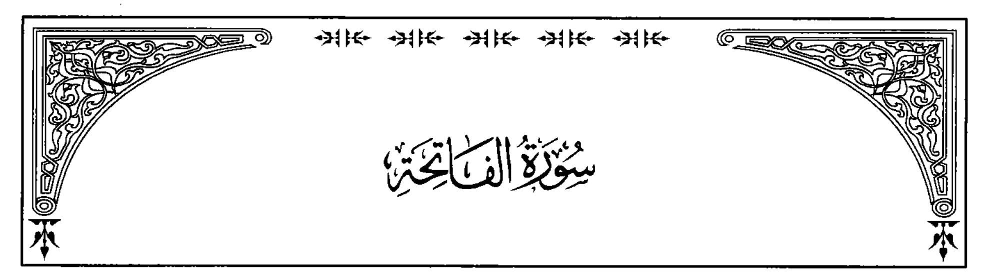
الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الدَّارُ الأَثَرِيَّة
عَمَّان - الأُردُن - تلفاكس: ٠٠٩٦٢ / ٦٥٦٥٨٠٤٥
خلوي: ٠٠٩٦٢/٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠
الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com

الحمد لله الذي وصف نفسه بصفات الكمال، وأمر خلقه أن يصفوه بها، ونزَّه نفسه عن صفات النقص، وأمر عباده أن ينزِّهوه عنها، وسمَّى نفسه بأكمل الأسماء، وأمر عباده أن يدعوه بها، وأوعد من ألحد فيها بدخول دار العذاب، أشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو، الرحمٰن الرحيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الهادي إلى الصراط المستقيم، اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

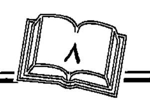
أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي الحسيني ـ غفر الله ذنبه، وستر في الدارين عيبه ـ: لم أزل منذ عهد الشباب أتمنَّى أن يوفّقني الله تعالى إلى جمع آيات التوحيد بأنواعه، وتفسيرها بأحاديث النبي الكريم، وبأقوال الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وقد وفَّقني الله تعالى لإتمام (القسم الأول) ثم (القسم الثاني)، وهأنذا أقف بباب الغني الكريم، خاشعاً ذليلاً أسأله أن يمن عليَّ بالتوفيق والعون على تأليف (القسم الثالث)، وهو: آيات الأسماء والصفات.

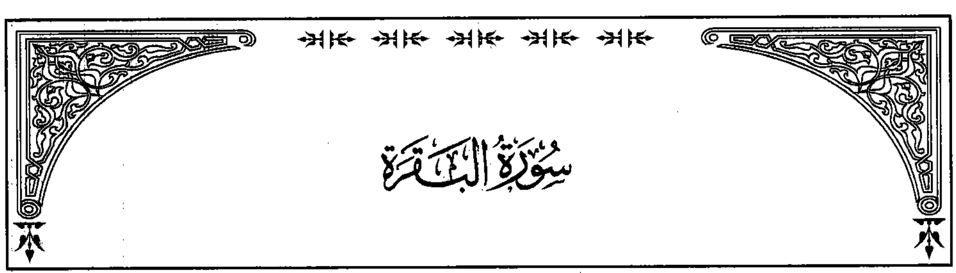




الباب الأول

في هذه السورة المباركة من أسمائه تعالى: اسم الجلالة الله، والرحمن، والرحيم، ورب العالمين، ومالك يوم الدين، وفيها من الصفات الرحمة والربوبية والملك والهداية والإنعام والغضب، وستأتي هذه الصفات كلها مفصَّلة فيما أنقله من كلام الأئمة إن شاء الله.





الباب الأول

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]

قال القاسمي: «بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى، فإنما[١] خلقهم أحياء[٢]، وهذا[٣] خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم، ويتم به معاشهم، ومعنى ﴿لَكُم﴾ لأجلكم ولانتفاعكم، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها، مما يُنتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أقوى دلالة على هذا، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال أبو العالية الرياحي: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ارتفع، نقله عنه البخاري في «صحيحه»[٤] ورواه (ج) في «تفسيره» عن الربيع بن أنس[٥] وقال البغوي: «قال ابن عباس وأكثر المفسرين[٦]: ارتفع إلى السماء»[٧]، وقال الخليل بن أحمد في ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: ارتفع،

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «فإنها».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «قادرين مرة بعد أخرى».
(٣) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «وهذه».
(٤) ذكره البخاري في «صحيحه» تعليقاً بصيغة الجزم كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء» وكذا البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣١١) لكن بصيغة التمريض، ووصله ابن جرير في «تفسيره» كما في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٤٤)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٧٥) وقال: «وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله».
(٥) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١/ ٤٥٦).
(٦) في مطبوع «تفسير البغوي»: «مفسري السلف».
(٧) انظر: «تفسير البغوي» (١/ ١٠١).

رواه أبو عمر بن عبد البر في «شرح الموطأ»[١] نقله الذهبي في كتاب «العلو»[٢]، وقد استدل بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ على أن خلق الأرض متقدم على السماء[٣]»[٤].

وقال العالم المحقق محمد صديق حسن في «فتح البيان» ما نصه:

«﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصد وأقبل على خلقها، وقيل: عمد، وقال ابن عباس: ارتفع، وقال الأزهري: صعد أمره[٥]، وكذا ذكره صاحب «المحكم»[٦] وذلك أن الله خلق الأرض أولاً ثم عمد إلى خلق السماء، وأصل ﴿ثُمَّ﴾ يقتضي تراخياً زمانياً ولا زمان هنا، فقيل: هي إشارة إلى التراخي بين رتبتي خلق الأرض والسماء، قاله القرطبي، والاستواء في اللغة: الاعتدال والانتصاب والاستقامة، وضده الاعوجاج، قاله في «الكشاف» «والرازي»[٧]. ويطلق على الارتفاع والعلو على الشيء قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣] وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية، وقد قيل: إن هذه الآية، من المشكلات وقد ذهب كثير من الأئمة إلى الإيمان بها وترك التعرض لتفسيرها وخالفهم آخرون»[٨].

قال (ك): في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ «أي: قصد إلى السماء، والاستواء ههنا مضمن[٩] معنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدي بإلى»[١٠].

وقال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: «أي: عمد إلى خلقها»[١١]، وقال معين الدين في تفسيره «جامع البيان» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: «قصد وارتفع».

وقال ابن عطية في «تفسيره»: «وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ «ثم» هنا هي لترتيب الأخبار لا لترتيب الأمر في نفسه، واستوى: قال قوم: معناه علا دون

---

(١) في «التمهيد» (٦/ ١٢٦) بنحوه.
(٢) انظر: «العلو للعلي العظيم» (٢/ ١٠٤٢).
(٣) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «خلق السماء».
(٤) انظر: «تفسير القاسمي» (٢/ ٩٠ ـ ٩١).
(٥) انظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٢٥ ـ باب لفيف السين).
(٦) (٤/ ٢٧).
(٧) انظر: «الكشاف» (١/ ٦٠)، و«تفسير الرازي» (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣).
(٨) انظر: «فتح البيان» (١/ ٨٩ ـ ٩٠).
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تضمن».
(١٠) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٣٢).
(١١) انظر: «زاد المسير» (١/ ٥٨).

تكييف ولا تحديد، هذا اختيار الطبري، والتقدير علا أمرُه وقدرته وسلطانه».

وقال ابن كيسان: معناه قصد إلى السماء، [قال القاضي أبو محمد][١] أي: بخلقه وارتفاعه[٢].

وقيل: معناه كَمُل صنعه فيها كما تقول: استوى الأمر، قال القاضي أبو محمد[٣]: «وهذا قلق»، وحكى الطبري[٤] عن قوم: أن المعنى: أقبل، وضعَّفه.

وحُكِيَ عن قوم: المستوي[٥] هو الدخان، وهذا أيضاً يأباه صف الكلام، وقيل: المعنى استولى، كما قال الشاعر:

قد استوى بِشْرٌ على العراقِ ... من غير سيفٍ ودَم مُهراقِ[٦]

وهذا إنما يجيء في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة وحلول الحوادث ويبقى استواء القدرة والسلطان»[٧].

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله: «بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى»، الأولى: هي المفهومة من قوله تعالى في الآية الحادية والعشرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١] في هذه الآية امتن الله على عباده بإيجادهم من العدم، وفي الآية التي نحن بصدد الكلام عليها امتن الله على عباده بأن خلق لهم ما في الأرض جميعاً، وهذا يدل على أن

---

(١) غير موجود في مطبوع «المحرر الوجيز».

(٢) في مطبوع «المحرر الوجيز»: «واختراعه».

(٣) بعدها في مطبوع «المحرر الوجيز»: «رحمه الله».

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (٤٥٦ ـ ٤٥٧).

(٥) في مطبوع «المحرر الوجيز»: «أن المستويَ».

(٦) هذا البيت للأخطل نسبه له الزَّبيدي في «تاج العروس» (٣٨/ ٣٣١ ـ سوو)، وذكره دون نسبة: ابن المنظور في «لسان العرب» (١٤/ ٤١٤ ـ سوا)، والجوهري في «الصحاح» (٦/ ٢٣٨٥ ـ سوا).
ونفى صحة هذا البيت، وأنه ليس من شعر العرب: شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٥/١٤٦) (١٦/٣٩٧)، فانظر كلامه فإنه مفيد.

(٧) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

الأصل في الأشياء الإباحة حتى يقوم دليل على تحريم شيء منها ويبينه الحديث:

عن سلمان رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء؟ فقال: **«الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه رحمة بكم من غير نسيان، فهو مما عفا عنه»**. رواه الترمذي وابن ماجه من رواية سيف بن هارون عن سليمان التيمي عن أبي عثمان[1].

والمسألة المهمة هنا التي عقدت هذا الباب لأجلها، هي: معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، وقد اختلف فيها المفسرون كما تقدم، فأكثر المفسرين من السلف أو كلهم فسَّروها بارتفع، وفسَّرها الحافظ (رحمه الله) بقصد وما في معناها، وقد اختلف أهل اللغة أيضاً في ذلك، والراجح عندنا هو تفسير السلف، فإن قال الجهمي: الارتفاع يقتضي التنقل من تحت إلى فوق، وتلك صفة الأجسام! ففي هذا التفسير تشبيه لله بخلقه، فالجواب: إن هذا التفكير السخيف، هو سبب ضلال نفاة الصفات؛ لقياسهم صفات الله على صفة

---

(١) أخرجه الترمذي في اللباس، باب ما جاء في لبس الفراء (٤/ ٢٢٠) رقم (١٧٢٦)، وابن ماجه في الأطعمة، باب أكل الجبن والسمن (٢/ ١١١٧) رقم (٣٣٦٧) من طريق سيف بن هارون البرجميّ عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الفارسي به.

وقال الترمذي في «جامعه»:

«وهذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وروى سفيان وغيره عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان قوله، وكأن الحديث موقوف أصح، وسألت البخاري عن هذا الحديث، فقال: ما أراه ـ أي: أظنه ـ محفوظاً، روى سفيان عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان موقوفاً، قال البخاري: وسيف بن هارون مقارب الحديث، وسيف بن محمد عن عاصم ذاهب الحديث».

ومن هذا الطريق أخرجه: الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١١٥)، والطبراني في «الكبير» (٦١٢٤)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٠) رقم (١٥٠٣)، ـ وقال: «هذا خطأ، رواه الثقات عن التيمي عن أبي عثمان عن النبي ﷺ، ليس فيه سلمان وهو الصحيح» ـ وبيبي الهرثمية في «جزئها» رقم (٨٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٢١٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٤٦)، وابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/ ١٢٦٧)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ١٧٤)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٢/ ٣٣٥)، وقال الحاكم: «هذا حديث مفسر في الباب، وسيف بن هارون لم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي في «التلخيص» فقال: «قلت: **ضعفه جماعة**»؟ يعني سيفاً هذا، ونقل العقيلي عن يحيى بن معين، أنَّه قال فيه: «ليس سيف بشيء»، ثم قال عقب روايته لهذا الحديث: «ولا يحفظ إلا عنه بهذا الإسناد».

المخلوقين، وبسبب ذلك نفوا كلام الله تعالى، وجواز رؤية العباد له بأبصارهم، ونحن نقول: إن الله تعالى يُرى بالأبصار يوم القيامة، ويتكلم بحرف وصوت، وارتفع إلى السماء، فارتفاعه ليس كارتفاع المخلوق، وكذلك استواؤه على عرشه وكلامه وعلمه وحياته وقدرته وإرادته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وسيأتي مزيد بيان في الأبواب التالية إن شاء الله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٣]

قال (ك): «وقال (ج)[(١)]: وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ـ وأعلم مع علمي غيب السمٰوات والأرض ما تظهرونه بألسنتكم، وما كنتم تخفون[(٢)] في أنفسكم، فلا يخفى عليَّ شيء سواء عندي سرائركم وعلانيتكم، والذي أظهروه بألسنتهم: قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، والذي كانوا يكتمون[(٣)]: ما كان منطوياً عليه إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته، قال: وصح ذلك، وكما[(٤)] تقول العرب: قُتِل الجيش وهُزموا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤] ذُكِر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بني تميم[(٥)] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾»[(٦)].

---

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تخفونه».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يكتمونه».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وصح ذلك كما».
(٥) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال».
(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: المراد هنا أن علم الله محيط بكل شيء ولا يشارك الله أحد في علمه، لا ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، فهو عالم الغيب والشهادة، وغيره لا يعلم إلا ما علمه الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

الباب الثالث

قوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]

قال (ﷺ): «يقول تعالى: مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأوّلين والآخرين فيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٣] وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨]»(١).

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية في «العقيدة الواسطية» ما نصه:

«وقوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾(٢) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾(٢) ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾(٢) ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]»(٣).

وقال شارح هذه العقيدة الأستاذ المحقق عبد العزيز بن محمد آل سلمان(٤)

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٧٤).

(٢) بعدها في مطبوع «العقيدة الواسطية»: «وقوله».

(٣) انظر: «العقيدة الواسطية» (ص١٨ ـ ١٩، ط. الأصالة).

(٤) هو العلامة المفسر الأصولي الفقيه الفرضي الزاهد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمٰن بن =

مدرس العقائد في المعاهد العالية بالمملكة العربية السعودية ما نصه: «في هذه الآيات إثبات صفة مجيء الله وإتيانه[1] على ما يليق بجلاله وعظمته، وهذا من أفعاله الاختيارية.

الآية الأولى:

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام، ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون، قال امرؤ القيس:

فـإنَّـكُـمـا إن تَـنْـظُـرانـيَ سـاعـةً مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْني لدى أُمِّ جُنْدَبِ[2]

فإذا كان النظر مقروناً بذكر الوجه أو معدّى بإلى لم يكن إلا بمعنى الرؤية، الـ﴿ظُلَلٍ﴾: جمع ظلة[3] وهو ما يظلك[4]، ﴿الْغَمَامِ﴾: السحاب الرقيق الأبيض، سُمِّي بذلك لأنه يغم، أي: يستر، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغ منه، يقول تعالى: هل ينتظر الكفار الساعون في الأرض فساداً، التاركون للدخول في السلم، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال الذي قد ملئ من الأهوال والشدائد والفظائع التي تقلق[5] القلوب الظالمة، وذلك أن الله تعالى يطوي السمٰوات وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس وتنزل الملائكة فتحيط بالخلائق وينزل الجبار في ظلل[6] من الغمام؛ للفصل بالقضاء بين العباد بالعدل.

= عبد المحسن السلمان، من (الأساعدة) من (الرُّوقة) من قبيلة (عُتَيبة) المشهورة، ولد في عنيزة ليلة الخامس والعشرين من رمضان عام سبعة أو تسعة وثلاثين منه، تخرج على يدي الشيخ السعدي، عمل إماماً في الرياض واستمر في الإمامة إلى سنة ١٤٠٥هـ. وفي ١٤/ ١٢/ ١٣٧٠هـ عين معلماً في المعهد العلمي بالرياض، ودرس فيه خمس سنوات، وانتهت خدمته في ١٠/ ١/ ١٤٠٤هـ. له العديد من الكتب، ومن أشهرها «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» و«الأسئلة والأجوبة الفقهية المقرونة بالأدلة الشرعية»، و«موارد الظمآن لدروس الزمان». مات رَحِمَهُ اللَّهُ من قريب، لولده عبد الحميد ترجمة مفردة عنه، منشورة بعنوان «فتح المنان بترجمة العلامة الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان»، والمذكور أخذته منها.

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «وإتيان».
(٢) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص١٢٨)، «الأغاني» (٨/ ١٨٩).
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «ظلله»، وانظر: «القاموس المحيط» (ص١٣٢٩ ـ ظلل».
(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «يُضلِّلُك».
(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «تقلقل».
(٦) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «ظل».

ففي الآية:

١ ـ دليل لمذهب السلف المثبتين للصفات والأفعال الاختيارية.

٢ ـ [إثبات الصفات](١) على ما يليق بجلاله وعظمته.

٣ ـ فيها تخويف ووعيد وتهديد لمن كفر بالله وعصاه.

٤ ـ إثبات صفة الكلام لله.

٥ ـ إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٦ ـ إثبات الألوهية لله.

٧ ـ دليل على علو الله على خلقه.

٨ ـ الرد على من أنكر صفة الإتيان أو أوَّلَها بتأويل باطل.

٩ ـ إتيان الملائكة.

١٠ ـ في الآية عبرة للمؤمن، ترغِّبه في المبادرة إلى التوبة؛ لئلا يفاجئه وعد الله وهو غافل، فإذا لم يفاجئه قيام الساعة وهلاك هذا العالم كله فاجأه قيام قيامته بموته بغتة، فإذا لم يجئه بغتة، جاءه المرض بغتة، فلا يقدر على العمل وتدارك الزلل.

الآية الثانية:

يقول تعالى: هل ينظر الذين استمروا في ظلمهم وعنادهم إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، وعند ذلك ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، أو يأتي ربك لفصل القضاء بين العباد لمجازات المحسنين والمسيئين.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب السلف أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات والأفعال الاختيارية، كالاستواء(٢) والنزول والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر تعالى بها(٣) عن نفسه أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف ولا تمثيل ولا

---

(١) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «كاستواء».

(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «بها تعالى».

تعطيل، خلافاً للمعطلة من جهمية أو معتزلة أو أشاعرة ونحوهم من نفاة الصفات، أو يتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان[١]، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي ولا عقلي.

أما النقلي؛ فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ظاهرها بل صريحها دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها لا تحتاج لدلالتها على مذهب المبتدعين[٢] الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد[٣] فيها وينقص، وهذا[٤] لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة إيمان[٥].

وأما العقلي[٦]؛ فليس في العقل ما يدل على نفي الصفات، بل دلّ العقل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال؛ فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه! قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه، ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إمّا أن تثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض، ففرِّق بين ما أثبتَّه وما نفيتَه، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً.

فإن قلت: ما أثبتُّه لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة والإثبات لما نفيته: لا يقتضي تشبيهاً.

فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيته إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا

---

(١) بعدها في مطبوع «الكواشف الجلية»: «بل حقيقة تأويلات المبتدعة القدح في بيان الله ورسوله».
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «المبتدعة».
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «وزاد».
(٤) بعدها في مطبوع «الكواشف الجلية»: «أعني مذهب المبتدعة».
(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «من إيمان».
(٦) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «وأما العقل».

نعقل من الذي أثبته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة أجابك به أهل السنة.

والحاصل: أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

وقوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ أي: الدالة على قرب [قيام الساعة][(١)] وهو طلوع الشمس من مغربها، وطلوعها من مغربها هو أحد أشراط الساعة الكبار، وأمارات الساعة ثلاثة أقسام: **قسم ظهر وانقضى**، كبعثة النبي ﷺ، ووقعة الجمل، وصفين، ونحوهما، وملك بني أمية والعباسية، ونار الحجاز التي أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى، وخروج الكذابين المدَّعين النبوة، وكثرة المال والزلزال، **وقسم متوسط** ككون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع وإماتة الصلاة وإضاعة الأمانة والتباهي بالمساجد وأكل الربا ونحو ذلك، وكرفع العلم وكثرة الجهل، وكثرة الزنا، وشرب الخمر، وقلة الرجال وكثرة النساء، وتوسيد الأمور إلى غير أهلها، ولحوق حي من الأمة بالمشركين وعبادة فئام من الأمة الأوثان وغير ذلك، **والقسم الثالث** العلامات العظام التي تعقبها الساعة وهي عشر، نظمها السفاريني بقوله:

«وما أتى بالنص[(٢)] مِنْ أشراطِ ... فَكُلُّهُ حَقٌّ بلا شِطَاطِ
منها الإمام الخاتَم الفَصيحُ ... محمدُ المَهْدِيُّ والمسيحُ
وأنَّه القاتل[(٣)] لِلدَّجَّالِ ... بباب «لُدٍّ» خَلِّ عَنْ جِدالِ
وأمرُ يأجوجَ ومأجوجَ اثبِتِ ... فإنَّهُ حَقٌّ كهَدْمِ الكعبةِ
وأنَّ منها آيةَ الدُّخَانِ ... وأنهُ يُذهَبُ بالقُرآنِ
طُلُوع شَمسِ الأُفقِ مِن دَبُورِ ... كذاتِ أجْيادٍ على المشهورِ
وآخرُ الآياتِ حشرُ النَّارِ ... كما أتى في مُحكَمِ الأخبارِ
فكلُّها صَحَّتْ بها الآثارُ[(٤)] ... وسَطَّرَتْ آثارَها الأخبارُ[(٥)]

(١) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

(٢) في مطبوع «العقيدة السفارينية»: «في النَّصِ».

(٣) في مطبوع «العقيدة السفارينية»: «يقتلُ».

(٤) في مطبوع «العقيدة السفارينية»: «الأخبارُ».

(٥) في مطبوع «العقيدة السفارينية»: «الأخيارُ»، وما سبق من «العقيدة السفارينية» (ص٧٥ ـ ٧٦).

ففي الآية [أمور][١]:

١ ـ دليل لمذهب السلف المثبتين للصفات والأفعال الاختيارية،

٢ ـ إتيان الملائكة.

٣ ـ إتيان الرب جل وعلا على ما يليق بجلاله وعظمته.

٤ ـ التخويف والوعيد والتهديد لمن كفر بالله وعصاه.

٥ ـ إثبات صفة الكلام لله.

٦ ـ إثبات الربوبية.

٧ ـ دليل على علو الله على خلقه.

٨ ـ الرد على من أنكر إتيان الرب أو أوله بتأويل باطل.

٩ ـ الحث على التوبة خوف مفاجأة القيامة العامة أو الخاصة.

١٠ ـ الحث على مراقبة الله.

١١ ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال.

١٢ ـ إن الله قسَّم ونوَّع، ففرق بين إتيان الرب وإتيان الملائكة.

الآية الثالثة:

الدك: حط المرتفع بالبسط والتسوية، ومنه اندكاك سنام البعير إذا انغرس في ظهره، وناقة دكاء[٢] إذا كانت كذلك.

قال الشاعر:

ليت الجبالَ تداعتْ عند مصرعها دكاً فلم يبق من أحجارها حَجَرُ

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: لفصل القضاء ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: جنس الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفاً بعد صفٍ.

يؤخذ من الآية [أمور][٢]:

١ ـ إثبات المجيء على ما يليق بجلاله وعظمته.

٢ ـ دليل على إتيان الملائكة.

---

(١) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

(٢) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

٣ ـ دليل على علو الله على خلقه.

٤ ـ حث على التقلل من الدنيا والعمل للآخرة.

٥ ـ إثبات الربوبية.

٦ ـ الرد على من أنكر صفة المجيء أو أولها بتأويل باطل.

٧ ـ دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٨ ـ الحث على المراقبة.

٩ ـ الحث على محاسبة النفس والاستعداد لذلك اليوم.

١٠ ـ إن ما على الأرض من جبال وقصور وأبنية يزول وتكون قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

١١ ـ دليل على هول ذلك[١] اليوم، الذي ترجف له القلوب، وتخشع له الأبصار.

١٢ ـ أن الله هو [الذي][٢] يتولى الحكم والفصل في ذلك اليوم.

١٣ ـ إن الملائكة يأتون صفوفاً.

١٤ ـ دليل على قدرة الله.

الآية الرابعة:

يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدائد والأهوال والكروب ومزعجات القلوب، فقال: واذكر يوم تشقق السماء بالغمام وتنفتح عنه، وذلك الغمام ينزل فيه فوق[٣] سمواته، وتنزل الملائكة، ويحيطون بالخلائق في مقام الحشر[٤].

ففي الآية أمور:

١ ـ إثبات مجيء الله ونزوله، ونفس الدليل من الآية على نزول الله بذاته سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته، كما هو المتبادر من النصوص، وأفعاله

---

(١) كذا في مطبوع «الكواشف الجلية»، وفي الأصل: «أنه هو ذلك».

(٢) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «من فوق».

(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «المحشر».

سبحانه قائمة به فيجب إثباتها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، قال القحطاني:

والله يومئذٍ يجيءُ لِعَرْضِنا ... مع أنّه في كلِّ وقتٍ دانِ
والأشعري يقول يأتي أمره ... ويعيب وصفَ الله بالإتيانِ[1]

ويؤخذ من الآية أمور:

١ ـ إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء على الأعمال.

٢ ـ الحث على الاستعداد لذلك اليوم.

٣ ـ دليل على نزول الملائكة.

٤ ـ الرد على من أنكر المجيء.

٥ ـ إثبات صفة الكلام لله.

٦ ـ دليل على علو الله على خلقه.

٧ ـ دليل على نزول الملائكة.

٨ ـ إن السماء تتغير عن حالتها لعظم ذلك اليوم.

أنواع الإتيان والمجيء، وبيان الرد على من أوَّل النزول والمجيء بمجيء الأمر ونحو ذلك

«الإتيان والمجيء المضاف إلى الله نوعان: مطلق ومقيد، فإذا كان مجيء رحمته وعذابه ونحو ذلك قُيِّد بذلك، كما جاء في الحديث «**حتى جاء الله بالرحمة والخير**»[2] وكقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢] والنوع الثاني: الإتيان والمجيء المطلق، فهذا لا يكون إلّا مجيئه سبحانه كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[3]» أما الرد على من أوَّل النزول والمجيء بمجيء الأمر وأنه من مجاز الحذف، «فهذا باطل من وجوه:

---

(١) انظر: «كفاية الإنسان من القصائد الغر الحسان» (ص٣٤) وستأتي القصيدة بتمامها في آخر (الجزء السادس).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ويغني عنه ما أخرجه البخاري (٣٦٢٢) من حديث أبي موسى الأشعري، وفيه ضمن حديث: «**وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق...**»، وانظر: «سنن أبي داود» (٢٨١٣) وفيه: «**وجاء الله بالسعة**».

(٣) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) بتصرف.

أحدها: إنه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام[١]، وادعاء حذف ما لا دليل عليه يرفع الوثوق من الخطاب، ويجرئ[٢] كل مبطل على ادعاء إضمار ما يصح باطله.

الثاني: إن صحة التركيب واستقامة اللفظ لا تتوقف على هذا المحذوف، بل الكلام مستقيم تام قائم المعنى بدون إضمار، فإضماره مجرد خلاف الأصل فلا يجوز.

الثالث: إنه إذا لم يكن في اللفظ دليل على تعيين قول المتكلم بلا علم، وإخبار عنه بإرادة ما لم يقم[٣] دليل على إرادته، وذلك كذب عليه.

الرابع: في السياق ما يبطل هذا التقدير، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ فعطف مجيء الملك على مجيئه سبحانه يدل على تغاير المجيئين وأن مجيئه حقيقة، كما أن مجيء الملك حقيقة، بل مجيء الرب أولى أن يكون حقيقة من مجيء الملك، وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾[٤] فقسَّم ونوّعَ، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحداً فتأمله»[٥] اهـ. من كلام ابن القيم.

قال: «وأما من قال: يأتي أمره، وتنزل رحمته وأمره، فإن أراد أنه سبحانه إذا نزل وأتى حلّتْ رحمته وأمره فهذا حق، وإن أراد أن النزول والمجيء والإتيان للرحمة والأمر ليس إلا [ذلك][٦] فهو باطل من وجوه عديدة، قد تقدمت ونزيدها وجوهاً أخر منها:

• أن يقال: أتريدون رحمته وأمره؟ صفته القائمة بذاته أم مخلوقاً منفصلاً سميتموه رحمة وأمراً؟ فإن أردتم الأول؛ فنزوله يستلزم نزول الذات ومجيئها قطعاً، وإن أردتم الثاني، كان الذي ينزل ويأتي لفصل القضاء مخلوقاً محدثاً لرب

---

(١) في مطبوع «مختصر الصواعق المرسلة»: «ولا لزوم».
(٢) في مطبوع «مختصر الصواعق المرسلة»: «ويطرق».
(٣) في مطبوع «مختصر الصواعق المرسلة»: «يقم به».
(٤) بعدها في مطبوع «مختصر الصواعق»: «ففرَّق بين إتيان الملائكة وإتيان الرب وإتيان بعض آيات ربك».
(٥) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/١٠٦ ـ ١٠٧).
(٦) غير موجود في مطبوع «مختصر الصواعق».

العالمين، وهذا معلوم البطلان قطعاً، وهو تكذيب صريح[١]؛ فإنه يصح معه أن يقال: لا ينزل إلى السماء الدنيا، و[لا][٢] يأتي لفصل القضاء، وإنما ينزل ويأتي غيره.

• ومنها: كيف يصح أن يقول ذلك المخلوق: «**لا أسأل عن عبادي غيري**» ويقول: «**من يستغفرني فاغفر له**»[٣]؟ ونزول رحمته وأمره مستلزم لنزوله سبحانه ومجيئه، وإثبات ذلك للمخلوق مستلزم للباطل الذي لا يجوز نسبته إليه سبحانه، مع رد خبره صريحاً.

• ومنها: إن نزول رحمته وأمره لا يختص بالثلث الأخير، ولا بوقتٍ دون وقت، ينزل أمره فلا تنقطع رحمته ولا أمره عن العالم العلوي والسفلي طرفة عين»[٤]. اهـ. من «مختصر الصواعق»»[٥].

قال الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي المتوفى سنة (٦٠٠هـ) في «عقيدته» في «المجموعة العلمية السعودية» (صفحة ٣٥) ما نصه:

«وتواترت الأخبار وصحت الآثار بأن الله ﷻ ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، فيجب الإيمان والتسليم له وترك الاعتراض عليه وإمراره من غير تكييف ولا تمثيل ولا تأويل ولا تنزيه ينفي حقيقة النزول، فروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا ﷻ كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر**»[٦]. وفي لفظ: «**ينزل الله ﷻ**»، ولا يصح حمله على نزول القدرة ولا الرحمة ولا نزول ملك، لما روى مسلم بإسناده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل الله ﷻ إلى سماء الدنيا حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول: أنا الملك أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يضيء الفجر**»[٧].

---

(١) في مطبوع «مختصر الصواعق»: «تكذيب صريح للخبر».
(٢) من مطبوع «مختصر الصواعق»، وسقط من الأصل.
(٣) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة.
(٤) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/٢٥٩ ـ ٢٦٠).
(٥) كذا في «الكواشف الجلية» (٨٦ ـ ٩١) مع تصرف يسير.
(٦) سبق تخريجه. (٧) سبق تخريجه.

وروى رفاعة بن عَرابة[١] الجهني عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مضى نصف الليل ـ أو ثُلُثا[٢] الليل ـ ينزل الله ﷻ إلى سماء الدنيا فيقول: لا أسْأَلُ عن عبادي أحداً غيري، من ذا الذي يستغفرني فأغفر[٣] له؟ من ذا الذي يدعوني فأستجيب[٤] له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه[٥]؟ حتى ينفجرَ الصبح**»[٦] رواه الإمام أحمد. وهذان الحديثان يقطعان تأويل كل متأول، ويدحضان حجة كل مبطل، وروى حديث النزول علي بن أبي طالب[٧]، وعبد الله بن مسعود[٨]، وجبير بن مطعم[٩] وجابر بن عبد الله[١٠]، وأبو سعيد الخدري[١١]، وعمرو بن عَبَسة[١٢]،

---

(١) في الأصل: «عروبة»! والمثبت من «المسند» وكتب التراجم.

(٢) في الأصل: «ثلث»! والمثبت من «المسند» ومصادر التخريج.

(٣) في الأصل: «أغفر»!

(٤) في الأصل: «استجيب»! والمثبت من «المسند» ومصادر التخريج.

(٥) في الأصل: «أعطيه»! والمثبت من «المسند» ومصادر التخريج.

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٤٧٥)، وابن ماجه (١٣٦٧)، والطيالسي (١٢٩١، ١٢٩٢)، والدارمي (١/ ٣٤٨)، والبزار (٣٥٤٣ ـ زوائده)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٣٢ ـ ١٣٣)، والطبراني في «الكبير» (٤٥٥٧ ـ ٤٥٦٠)، وأبو نعيم (٦/ ٢٨٦) **وإسناده صحيح**، وصححه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٢٨٤).

(٧) أخرجه أحمد (١/ ١٢٠)، والدارمي (٢/ ٩٣٢)، وأبو يعلى (٦٥٧٦)، والبزار (٤٧٧، ٤٧٨)، والطبراني في «الأوسط» (١٢٦٠)، وعثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٣٣)، والدارقطني في «كتاب النزول» (ص٩٢)، **وإسناده حسن**، وجوَّد إسناده شيخنا الألباني في «الإرواء» (٢/ ١٩٨).

(٨) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٨، ٤٠٣)، وأبو يعلى (٥٣١٩)، والدارقطني في «كتاب النزول» (ص٩٩) **وإسناده صحيح على شرط مسلم**. وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥٣): «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح»، وصححه شيخنا الألباني في «الإرواء» (٢/ ١٩٩).

(٩) أخرجه أحمد (٤/ ٨١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٣٢١) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٤٨٧) ـ، والدارمي (١/ ٣٤٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٣٣)، والبزار (٣١٥٢، ٣١٥٣ ـ زوائده)، وأبو يعلى (٧٤٠٨، ٧٤٠٩)، والطبراني (١٥٦٦)، وفي «الدعاء» (١٣٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٥١) **وإسناده صحيح على شرط مسلم**.

(١٠) أخرجه الدارقطني في «كتاب النزول» (ص٩٦).

(١١) أخرجه مسلم (٥٢٣)، وأحمد (٢/ ٣٨٣ و٣/ ٣٤).

(١٢) في مطبوع «عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي»: «عنبسة»، وفي الأصل: «عتبة»! والمثبت من مصادر التخريج.

=

وأبو الدرداء[١]، وعثمان بن أبي العاص[٢]، ومعاذ بن جبل[٣]، وأم سلمة زوج النبي ﷺ[٤] وخلق سواهم[٥] ونحن مؤمنون بذلك مصدقون من غير أن نَصِفَ له كيفية، أو نشبهه بنزول المخلوقين.

وقد قال بعض العلماء: سئل أبو حنيفة عنه ـ يعني عن النزول ـ فقال: «ينزل بلا كيف»[٦] وقال محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة: «الأحاديث التي جاءت أن الله يهبط إلى سماء الدنيا ونحو هذا من الأحاديث، إن هذه الأحاديث قد روتها الثقات، فنحن نرويها ونؤمن بها ولا نفسرها»[٧] وروينا

= أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٥)، وابن سعد (٤/ ٢١٥ ـ مختصراً) وعبد بن حميد (٢٩٧)، والدارقطني في «كتاب النزول» (ص١٤٢) من طريق سليم بن عامر عن عمرو بن عبسة، وهو **منقطع** سليم لم يسمع من عمرو، وانظر: «العلل» (٢/ ٣٥٤) لابن أبي حاتم.

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٥٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٨٦٣٥)، وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٨/ ٤٦٨) لابن أبي حاتم وابن مردويه.
وأخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٢٨)، والدارقطني في «كتاب النزول» (ص١٥١ ـ ١٥٢)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال (١٠/ ١٥٥): «وفيه زيادة بن محمد الأنصاري وهو منكر الحديث» وقال (١٠/ ٤١٢): «وفيه زيادة بن محمد وهو ضعيف»، وعزاه للطبراني في «الكبير» والبزار.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢، ٢٢٧)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٩٠)، وفي «الكبير» (٨٣٧٣، ٨٣٩١)، وفي «الدعاء» (٨٣٧، ١٤٠)، والبزار (٣١٥٥ ـ زوائده)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٠٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٣٥)، والدارقطني في «كتاب النزول» (ص١٥٠)، وهو **صحيح بشواهده** السابقة واللاحقة، وصححه شيخنا الألباني.

(٣) أخرجه ابن حبان (٨/ ١٩٣ ـ التعليقات الحسان)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٢)، والدارقطني في «كتاب النزول» (ص١٥٨) وقال شيخنا الألباني: «**صحيح بشواهده**»، وانظر: «الصحيحة» (١١٤٤).

(٤) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٥٠)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (١٣٧)، والدارقطني في «كتاب النزول» (ص١٧٤).

(٥) كما تراه في «كتاب النزول» للدارقطني (ص١٤٠ ـ ١٤١، ١٤٥ ـ ١٤٩، ١٥٣ ـ ١٥٤، ١٥٩ ـ ١٧٥)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٣٤ ـ ٤٥٣)، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦) رقم (٥٠٩، ٥١١، ٥١٣)، و«الشريعة» للآجري (ص٣١٢ ـ ٣١٣).

(٦) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٨٠)، وذكره ابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٤٥).

(٧) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٣٤) (٧٤١)، وابن =

عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: كنت أنا وأبي في المسجد[١] فسمع قاصاً يقص في حديث[٢] النزول فقال: «إذا كان ليلة النصف من شعبان ينزل الله ﷻ إلى سماء الدنيا بلا زوال ولا انتقال ولا تغير حال» فارتعد أبي ﵀ واصفر لونه ولزم يدي فأمسكته[٣] حتى سكن ثم قال: قف بنا على هذا المتخرص، فلما حاذاه قال: «يا هذا رسول الله ﷺ أغيْر على ربك[٤] منك، قل كما قال رسول الله ﷺ، وانصرف»[٥] قال حنبل: قلت لأبي عبد الله ـ يعني أحمد ـ: ينزل الله إلى سماء الدنيا، قلت: نزوله بعلمه أو ماذا؟ فقال لي: «اسكت عن هذا، مالَكَ ولهذا؟! أمض[٦] الحديث على ما روي، بلا كيف ولا حد، على ما جاءت به الآثار وبما جاء به الكتاب»[٧]. وقال إسحاق بن راهويه: قال لي الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب، هذا الحديث الذي ترويه عن رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا عَزَّ وَجَلَّ شأنه كل ليلة إلى سماء الدنيا**». كيف ينزل؟ قال: قلت: «أعز الله الأمير، لا يقال لأمر الرب ﷻ: كيف؟ إنما ينزل بلا كيف»[٨]. ومن قال: يخلو العرش عند النزول أو لا يخلو، فقد أتى بقول مبتدع ورأي مخترع»[٩].

وقد ألف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ﵀ كتاباً في «شرح حديث النزول» جواباً عن سؤال رفع إليه ومضمونه: إن رجلين اختلفا، فقال

= قدامة في «إثبات صفة العلو» (ص١١٧) (٩٨) وعنه الذهبي في «العلو» (١١٣) وفي «مختصره» (١٥٩).

(١) في مطبوع «عقيدة الحافظ عبد الغني»: «عابرين في المسجد».

(٢) في مطبوع «عقيدة الحافظ عبد الغني»: «بحديث».

(٣) في مطبوع «عقيدة الحافظ عبد الغني»: «وأمسكته».

(٤) في مطبوع «عقيدة الحافظ عبد الغني»: «ربه».

(٥) ذكره الشيخ مرعي الكرمي في «أقاويل الثقات» (ص٦٢ ـ ٦٣).

(٦) في مطبوع «عقيدة الحافظ عبد الغني»: «مضى».

(٧) ذكره اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٥٣) (٧٧٧)، وذكره ابن القيم في «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ٢٥١) عن الخلال به.

(٨) أخرجه أبو عثمان الصابوني في «عقيدة السلف» (ص٥٠ ـ ٥١)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٤٥٢) (٧٧٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٧٥)، وقوّام السنة أبو القاسم الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ١٢٤)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١٢٦) (٤٤٩)، وهو في «مختصره» (ص١٩٣) (٢٣٦).

(٩) انظر: «عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي» (ص٤٨ ـ ٥٣).

أحدهما: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير من الليل... الحديث»[١]، فأنكر ذلك الرجل الآخر، وقال: إنما تنزل رحمته وسأله: كيف ينزل؟ فقال: ينزل كما شاء بلا كيف... إلى آخر ما جرى بينهما، وسأنقل هنا شيئاً من جواب شيخ الإسلام، فإنه طويل يشتمل على مائة وست عشرة صفحة، وفيه فوائد كثيرة زائدة عن جواب السؤال، حتى صار كتاب عقيدة كاملاً، قال شيخ الإسلام:

«الحمد لله رب العالمين، أما القائل الأول الذي ذكر نص النبي ﷺ فقد أصاب فيما قال، فإن هذا القول الذي قاله، قد استفاضت به السنة عن النبي ﷺ، واتفق سلف الأمة وأئمتها وأهل العلم بالسنة والحديث على تصديق ذلك وتلقّيه بالقبول، ومن قال ما قاله الرسول ﷺ، فقوله حقٌّ وصدقٌ وإن كان لا يعرف حقيقة ما اشتمل عليه من المعاني، كمن قرأ القرآن ولم يفهم ما فيه من المعاني، فإن أصدق الكلام كلامُ الله، وخير الهدي هَديُ محمد ﷺ، والنبي ﷺ قال هذا الكلام وأمثاله علانية، وبلّغه الأمة تبليغاً عاماً، لم يخص به أحداً دون أحد، ولا كتمه عن أحد، وكان[٢] الصحابة والتابعون تذكره وتؤثره[٣] وتبلّغه وترويه في المجالس الخاصة والعامة، واشتملت «عليه كتب الإسلام التي تُقرأ في المجالس الخاصة والعامة»[٤] كـ«صحيحي البخاري ومسلم» و«موطأ مالك» و«مسند الإمام أحمد» و«سنن أبي داود» و«الترمذي» و«النسائي» وأمثال ذلك من كتب المسلمين.

لكن مَنْ فهم من هذا الحديث وأمثاله ما يجب تنزيه الله عنه، كتمثيله بصفات المخلوقين، ووصفه بالنقص المنافي لكماله الذي يستحقه، فقد أخطأ في ذلك وإن أظهر ذلك مُنع منه، وإن زعم أن الحديث يدل على ذلك ويقتضيه فقد أخطأ أيضاً في ذلك، فإن وصفه ﷺ في هذا الحديث بالنزول، هو كوصفه بسائر الصفات، كوصفه بالاستواء إلى السماء وهي دخان، ووصفه بأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، ووصفه بالإتيان والمجيء في مثل قوله[٥]: ﴿هَلْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في مطبوع «شرح حديث النزول»: «وكانت».

(٣) كذا في مطبوع «شرح حديث النزول»، وفي الأصل: «وتأثره»!

(٤) من مطبوع «شرح حديث النزول»، وسقط من الأصل.

(٥) في مطبوع «شرح حديث النزول»: «قوله تعالى».

يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] وكذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: ٤٠] وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥] وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف الله تعالى بها نفسه، التي تسميها النحاة أفعالاً متعدية، وهي غالب ما ذكر في القرآن، ويسمونها[1] لازمة لكونها لا تنصب المفعول به بل لا تتعدى إليه إلا بحرف الجر، كالاستواء إلى السماء وعلى[2] العرش والنزول إلى السماء الدنيا ونحو ذلك، فإن الله وصف نفسه بهذه الأفعال ووصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية[3] في مثل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]»[4]. اهـ. المراد نقله منه في هذا المقام.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]

قال (ك): «روى الإمام أحمد بسنده عن أبيّ بن كعب أن النبي ﷺ سأله: «**أي آية في كتاب الله أعظم؟**» قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً، ثم قال

(١) في مطبوع «شرح حديث النزول»: «أو يسمونها».
(٢) كذا في مطبوع «شرح حديث النزول»، وفي الأصل: «وعلى».
(٣) كذا في مطبوع «شرح حديث النزول»، وفي الأصل: «بالأقوال والأزمنة المتعدية».
(٤) انظر: «شرح حديث النزول» (ص٦٩ ـ ٧١).

أُبيّ: آية الكرسي، قال: «**ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين، تقدِّس الملك عند ساق العرش**»[(١)].

وروى أحمد والأربعة إلا النسائي عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ١ ـ ٢] «**إن فيهما اسم الله الأعظم**»[(٢)].

وروى النسائي في «اليوم والليلة» وابن حبان في «صحيحه» عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**»[(٣)] قال (ك): «إسناده على شرط البخاري» وروى البخاري، في كتاب فضائل القرآن من «صحيحه» في صفة إبليس بسنده عن أبي هريرة قال: وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ! قال: دعني، فإني محتاج، وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليتُ عنه، فأصبحتُ، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ أنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته، فخليتُ سبيله، قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال:

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

«ما هي»؟ قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان، حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: **«إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟»** قلت: لا، قال: **«ذاك شيطان»**[1].

«وهذه الآية مشتملة على جمل مستقلة:

فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي: الحي في نفسه، الذي لا يموت أبداً، القيِّم لغيره، وكان عمر يقرأ: القيام[2]، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم، فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أي: لا تغلبه سنة، وهي: الوسن، والنعاس، ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأنه أقوى من السِّنة»[3].

قال القنوجي في «فتح البيان» ما نصه:

«﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ يقال: فلان وسع الشيء سعة، إذا احتمله وأمكنه القيام به، وأصل الكرسي في اللغة، مأخوذ من تركب الشيء بعضه على بعض، ومنه: الكُرَّاسة لتركيب[4] بعض أوراقها على بعض، وفي العرف: ما يُجلَس عليه، والكرسي هنا الظاهر أنه الجسم الذي وردت الآثار بصفته كما سيأتي بيانات[5] ذلك، وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطؤوا في ذلك خطأً بيناً، وغلطوا غلطاً فاحشاً، وقال بعض السلف: إن الكرسي هنا عبارة عن العلم، قالوا: ومنه قيل للعلماء: كراسي، ومنه الكُرَّاسة التي يجمع فيها العلم، ورجح هذا القول ابن جرير الطبري.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق توثيق قراءته.
(٣) من «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٠ ـ ٤٣٩) بتصرف.
(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «لتركب».
(٥) في مطبوع «فتح البيان»: «بيان».

وفي «القاموس»: «الكرسي بالضم والكسر[١]: السَّريرُ والعِلمُ، والجمع كراسي»[٢] وقيل: كرسيه: قدرته التي يمسك بها السمٰوات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسياً أي ما يعمده، وقيل: إن الكرسي هو العرش، وقيل هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له، قال التفتازاني[٣]: إنه من باب إطلاق المركب الحسي المتوهم على المعنى العقلي المحقق، وقال البيضاوي: «لا كرسي في الحقيقة ولا قاعد، وهو تمثيل مجرد، وقيل: هو عبارة عن الملك والسلطان مأخوذ من كرسي العالم والملك»[٤] والحق القول الأول، ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلا مجرد خيالات[٥] وضلالات جاءت عن الفلاسفة، أقمأهم الله تعالى، والمراد بكونه وسع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أنها صارت فيه وأنه وسعها ولا يضيق[٦] عنها؛ لكونه بسيطاً واسعاً»[٧].

قال (ك): «وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظ السمٰوات والأرض وما فيهما وما بينهما[٨]، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر[٩] لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم لا إلٰه غيره ولا رب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾[١٠] ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح، والأجود فيها طريقة السلف الصالح: أمروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه»[١١].

---

(١) في مطبوع «القاموس المحيط»: «وبالكسر».
(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص٧٣٥).
(٣) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «التفتزاني»!
(٤) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ١٣٤).
(٥) بعدها في مطبوع «فتح البيان»: «تسببت عن جهالات».
(٦) في مطبوع «فتح البيان»: «ولم يضق». (٧) انظر: «فتح البيان» (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن فيهما ومن بينهما».
(٩) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «القائم».
(١٠) في الأصل: «وهو الكبير...»!! (١١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٤٤).

فصل

قال محمد تقي الدين مستعيناً بالله وحده: سبب الفضل الذي رأيناه في آية الكرسي أنها اشتملت على توحيد الله في فاتحتها، وأسمائه الحسنى الحي القيوم العلي العظيم، وصفاته بأنه الرقيب الذي لا يغفل، ويروى أن الله تعالى أراد أن يعلم عبده موسى عليه الصلاة والسلام تعليماً عملياً بأنه لا يغفل عن عباده، فأمره أن يأخذ قارورتين مملوءتين ماء، وأن يمسك كل واحدة منهما بيد، ففعل ما أمره الله تعالى به وبقي ممسكاً لهما حتى أخذه النوم، فجعل يدفع النوم ويغلبه حتى استولى عليه النوم، فسقطت القارورتان وانكسرتا وهريق ماؤهما، فعلّمه الله تعالى أن الذي يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا يستحيل عليه النوم والغفلة[1]،

---

(١) هذه القصة مشهورة جداً، يذكرها الوعاظ في مجالسهم، وسجَّلتها ـ يا للأسف ـ بعض كتب التفسير عند آية الكرسي، من مثل: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٣٤٠ ـ ٣٤١، ط. دار الكتب العلمية)، وذكرها السمعاني في «تفسيره» (١/ ٢٥٧) فقال: «وفي الأخبار أن موسى عليه السلام قال: يا رب لك نوم. . .» وساقها، وهي من نسج بني إسرائيل، وتحمل معنى لا يجوز في حق الأنبياء فضلاً عن واحد من أولي العزم من الرسل الكرام ـ عليه وعلى نبينا محمد وسائر النبيين أفضل الصلاة والسلام ـ.

والأدهى من ذلك كله أنها تذكر على لسان رسول الله ﷺ!! وقد تفطن جماعة من المحققين وثُلّة من المحررين إلى بيان عوارها، وما تحمل في طياتها من معانٍ غير جائزة، وإلى التفصيل والبيان:

أخرجها أبو يعلى في «المسند» (١٢/ ٢١) رقم (٦٦٦٩)، والدارقطني في «الأفراد» (٥/ ٢٢٤) رقم (٥٢٢٩) ـ ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٣٩) رقم (٢٢)، ومن طريقهما ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٥٧ ـ ١٥٨) ـ وابن جرير في «التفسير» (٣/ ٨ أو ٥/ ٣٩٤ رقم ٥٧٨٠، ط. شاكر)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٣٢ ـ ١٣٣) رقم (٧٩)، وابن مردويه ـ كما في «الكافي الشاف» (١/ ٣٠٠) بذيل «الكشاف» أو (٢٢ بآخره)، و«تخريج الكشاف» للزيلعي (١/ ١٥٩) وأورد إسناده ـ؛ من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل، ثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبي هريرة؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال: . . . وذكرها.

قال الدارقطني في «الأفراد» (٥/ ٢٢٤ ـ أطرافه): «غريب من حديث عكرمة عنه، تفرد به الحكم بن أبان وعنه أمية بن شبل، وعنه هشام بن يوسف الصنعاني».

وقال ابن عساكر عقبه: «تابعه ـ أي إسحاق ـ يحيى بن معين عن هشام».

قلت: متابعة ابن معين، أخرجها الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٦٨) ـ ومن طريقه ابن =

= الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ٤٠) رقم (٢٣) ـ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٣٢ ـ ١٣٣) رقم (٧٩)، وقال الخطيب: «هكذا رواه أمية بن شبل عن الحكم بن أبان موصولاً مرفوعاً، وخالفه معمر بن راشد فرواه عن الحكم عن عكرمة قوله، لم يذكر فيه النبي ﷺ ولا أبا هريرة».

وقال ابن عساكر: «ورواه معمر عن الحكم، فجعله من قول عكرمة».

قلت: أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ١١٣ رقم ٣٢١، ط. المعرفة) ـ ومن طريقه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٤٨٨) رقم (٢٥٨٤)، وابن جرير في «التفسير» (٣/ ٧ ـ ٨ أو ٥/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤ رقم ٥٧٧٩، ط. شاكر)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٥٨ ـ ١٥٩) ـ قال ـ أي عبد الرزاق ـ: أخبرنا معمر؛ قال: أخبرني الحكم بن أبان، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: «إن موسى سأل الملائكة: هل ينام ربنا ـ تبارك وتعالى ـ؟ قال: فأوحى الله إلى الملائكة، [وأمرهم] أن يؤرقوه ثلاثاً، فلا يتركوه ينام، ففعلوا [ذلك]، ثم أعطوه قارورتين، فأمسكهما، ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما».

قال: «فجعل ينعس وهما في يديه، في كل يدٍ واحدة، فجعل ينعس وينتبه، وينعس وينتبه، حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى، فكسرهما». قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله له، يقول: فكذلك السماوات والأرض في يديه، يقول: فكيف ينعس».

والقصة منكرة وإسنادها مضطرب، فتارة يرويها الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعاً، وتارة عن عكرمة من قوله لا يتعدَّاه.

والحكم بن أبان العدني أبو عيسى وثقه جماعة؛ كابن معين في «تاريخه» (٢/ ١٢٣) وغيره، ولكنه كان يخطئ أحياناً بسبب حفظه، ذكره ابن حبان في «الثقات» (٦/ ١٨٥) وقال: «ربما أخطأ»، وقال ابن المبارك: «الحكم بن أبان وحسام بن مِصَكّ وأيوب بن سويد ارْمِ بهؤلاء». كذا في «الميزان» (١/ ٥٧٠)، وفي «التقريب» (١٧٤): «صدوق عابد وله أوهام».

ورفع هذا الحديث من أوهامه، أو أوهام من هو دونه؛ فقد ذكر هذا الحديث الذهبي في «الميزان» (١/ ٢٧٦) في ترجمة أُميّة بن شبل الصنعاني، وقال: «له حديث منكر، رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعاً؛ قال: وقع في نفس موسى: هل ينام الله؟ . . . الحديث.

رواه عنه هشام بن يوسف، وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة، قوله، وهو أقرب، **ولا يسوغ أن يكون هذا وقع في نفس موسى**، وإنما روي أن بني إسرائيل سألوا موسى عن ذلك».

وأقره ابن حجر في «اللسان» (١/ ٤٦٧)، وقال في كتابه «تحفة النبلاء من قصص الأنبياء» (ص٣٤١ ـ ٣٤٢) عن إسناد ابن جرير: «غريب، والأشبه أن يكون موقوفاً من الإسرائيليات». =

= * **من ضعَّف القصة من العلماء:**

ضعّف هذه القصة جماعة من أهل العلم، منهم:

* **البيهقي**، قال بعد أن أوردها بلفظ آخر عن أبي موسى الأشعري قوله ـ وسيأتي تخريجها ـ ثم مرفوعة عن أبي هريرة، قال في «الأسماء والصفات» (١/ ١٣٤): «متن الإسناد الأول أشبه أن يكون هو المحفوظ».

* **ابن الجوزي**، قال في «العلل المتناهية» (١/ ٤١): «قلت: ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، وغالط من رفعه، والظاهر أن عكرمة رأى هذا في كتب اليهود فرواه، فما زال عكرمة يذكر عنهم أشياء».

ثم ذكر النكرة التي فيها، قال: «لا يجوز أن يخفى هذا على نبي الله ﷻ، وقد روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب «السنة» عن سعيد بن جبير قال: «إنَّ بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل ينام ربنا؟»، هذا هو الصحيح؛ فإنَّ القوم كانوا جُهَّالاً بالله ﷻ».

* **الزيلعي**، قال في «تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف» (١/ ١٥٩): «والظاهر أنَّ هذا الخبر من الإسرائيليات المنكرة، وإلا فكيف يجوِّز موسى عليه السلام النوم على الله ﷻ، وهو يقول: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾».

* **القرطبي المفسر**، قال في «تفسيره» (٣/ ٢٧٣): «ولا يصح هذا الحديث، ضعَّفه غير واحد، منهم: البيهقي».

* **ابن كثير**، قال في «تفسيره» (١/ ٤٥٦، ط. الشعب) بعد رواية عبد الرزاق في «التفسير» عن عكرمة قوله: «وهو من أخبار بني إسرائيل، وهو مما يعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله ﷻ، وأنه منزَّه عنه، وأغرب من هذا كله: الحديث رواه ابن جرير...»، وساقه عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال: «وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع، والله أعلم».

وقال في «البداية والنهاية» (١/ ٢٩٣) و«قصص الأنبياء» (ص٤٣٥، ط. دار بغداد): «هذا حديث غريب رفعه، والأشبه أن يكون موقوفاً، وأن يكون أصله إسرائيلياً».

* **الإمام الذهبي**، وسبق كلامه.

* **أبو حيان الأندلسي**، قال في تفسيره «البحر المحيط» (٢/ ٢٧٨) بعد أن أورد المرفوع: «قال بعض معاصرينا: هذا حديث وضعه الحشوية، ومستحيل إن سأل موسى ذلك عن نفسه، أو عن قومه؛ لأن المؤمن لا يشك في أن الله ينام أو لا ينام؛ فكيف الرسل؟! انتهى».

* **الفخر الرازي**، قال في تفسيره «مفاتيح الغيب» (٧/ ٨): «الدليل العقلي دل على أن النوم والسهو والغفلة محالات على الله ـ تعالى ـ، لأنَّ هذه الأشياء: إما أن تكون عبارات عن عدم العلم، أو عن أضداد العلم، وعلى التقديرين؛ فجواز طريانها يقتضي جواز زوال علم الله ـ تعالى ـ، فلو كان كذلك؛ لكانت ذاته ـ تعالى ـ بحيث يصح أن =

= يكون عالماً، ويصح أن لا يكون عالماً، فحينئذٍ يفتقر حصول صفة العلم له إلى الفاعل، والكلام فيه كما في الأول، والتسلسل محال ـ أي أن يكون بعد كل معلول معلول آخر ـ فلا بد وأن ينتهي إلى من يكون علمه صفة واجبة الثبوت ممتنعة الزوال، وإذا كان كذلك كان النوم والغفلة والسهو عليه محالاً»، ثم ذكر القصة، وعقب عليها بقوله: «واعلم أن مثل هذا لا يمكن نسبته إلى موسى عليه السلام؛ فإنَّ من جوَّز النوم على الله أو كان شاكاً في جوازه كان كافراً، فكيف يجوز نسبة هذا إلى موسى؟! بل إنْ صحت الرواية؛ فالواجب نسبة هذا السؤال إلى جهال قومه».

* **ابن عادل الحنبلي**، ذكر هذه القصة في تفسيره «اللباب» (٣١٩/٤) وقال: «واعلم أن مثل هذا لا يمكن نسبته إلى موسى...»، مثل كلام الرازي السابق، وقال قبلها: «نفى الله ـ تعالى ـ عن نفسه النوم؛ لأنه آفة، وهو منزَّه عن الآفات، ولأنه تغيُّر، ولا يجوز عليه التغيُّر».

* **أبو عبد الله محمد بن خليل السكوني الإشبيلي**، قال في كتابه «لحن العوام فيما يتعلَّق بعلم الكلام» (ص١٩٤ ـ ١٩٥) مشيراً إلى شهرة هذه القصة قديماً عند القصاص والوعاظ: «ويقول قائلهم ـ وأكثر ما يجرى هذا على ألسنة القصاص ـ: إن موسى عليه السلام قال في مناجاته: «يا رب! هل تنام؟»، فأمره الله أن يأخذ زجاجتين في يده، ثم أرسل عليه النوم فسقطتا من يديه، فتكسرت الزجاجتان، والمعنى أنه ـ تعالى ـ لو اتصف بالنوم لفسدت السماوات والأرض، ولا شك أن النوم مستحيل في حقه ـ تعالى ـ لوجوب قِدَمِه ـ تعالى ـ ووجوب قِدَم علمه وبقائه، فاستحال وجود ضده، والنوم ضد للعلم، ولاستحالة الآفات ودلائل الحدوث عليه جل جلاله أيضاً».

قال: «ولكن هذا الكلام وما شابهه ممتنع من جهة أخرى، وهي وجوب عصمة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ عن الجهل بالله ـ سبحانه ـ وبما يجب له، ويستحيل عليه ويجوز من أحكامه في خلقه، فلا يجوز هذا السؤال في حق موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هم المعلمون للخلق ما يجب لله ـ تعالى ـ وما يستحيل عليه، وما يجوز من أحكامه في خلقه، بأصح الطرق وأجلاها، والإجماع منعقد على عصمتهم من الجهل بالله جل جلاله قطعي، والنقل للإسرائيليات غير قطعي؛ فوجب التعويل على القطعي وترك ما يعارضه مما ليس بقطعي» انتهى.

* **شيخنا الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ:**

قال في «السلسلة الضعيفة» (١٢٣/٣) رقم (١٠٣٤) عن المرفوع ـ وعزاه لابن جرير وابن عساكر فقط ـ: «**منكر**»، ثم قال عن رواية عكرمة الموقوفة: «وهذا هو اللائق بمثل هذا الحديث أن يكون موقوفاً على عكرمة، وهو تلقاه من بعض أهل الكتاب، فهو من الإسرائيليات التي لا يجب علينا التصديق بها، بل هو مما يجب الجهر بتكذيبه وبيان بطلانه، كيف لا؟! وفيه أن موسى كليم الله يجهل تنزُّه الله ـ تبارك وتعالى ـ عن السهو =

= والنوم، فيتساءل في نفسه: «هل ينام الله؟!»، وهل هذا إلا كما لو قال قائل: «هل يأكل الله تبارك وتعالى؟! هل كذا . . .؟! هل كذا . . .؟! وغير ذلك مما لا يخفى بطلانه على أقل مسلم» انتهى.

وبالجملة؛ فالصنعة الحديثية تقضي على إسناد هذه القصة بالاضطراب، وعلى متنها بالنكرة؛ إذ «خلق الله للعبد النوم؛ ليعلم به كيفية الانتقال من حالٍ إلى حالٍ، وصفةَ الخروج من دار إلى دار؛ فإنه موت أصغر، وقد يقال بنظر آخر: إنه يقظة صغرى، فإن نظرنا إليه من حيث عدم الحركة والحس والتصرف بالأفعال معه، قلنا: هو موت لعدم ذلك كله به، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقد قال النبي ﷺ: «**أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك**»[(١)]، وهذا كله ممتنع في حق الله ﷻ، وجاء هذا صريحاً فيما أخرجه مسلم[(٢)] عن أبي موسى الأشعري؛ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع، منها: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**».

والنوم معروف لكل أحد، وإن اختلف تعريفه من جهة بيان سببه، قال البيضاوي وغيره من العلماء كلاماً في تعريفه وسببه ولعله مرتكز على قول الأطباء الأقدمين، ولعلماء الطب الحديث تعليل آخر للنوم لا نطيل به المقام؛ لأنه ليس هذا موضعه، ولأن تعليلات الجميع كلها ترجع إلى أن سبب النوم أمر جسماني محض، والله سبحانه منزه عن صفات الأجسام وعوارضها، وكيف يحدث ذلك للقيوم سبحانه الذي قام بنفسه بما هو عليه من كمال الغنى والعظمة وقام بجميع المخلوقات، وانظر للاستزادة: «روح المعاني» (٣/ ٨)، «المنار» لرشيد رضا (٣/ ٣٠).

لا شك أن القيومية تنافي السنة والنوم، فوجودهما مستحيل في حقه؛ لأن جميع الكائنات محتاجة إليه في بقائها بعد إيجادها وإمدادها بما تحتاج إليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في «الجواب الصحيح» (٣/ ٢٠٩):

«إن الله موصوف بصفات الكمال الثبوتية؛ كالحياة، والعلم، والقدرة، فيلزم من ثبوتها سلب صفات النقص، وهو سبحانه لا يمدح بالصفات السلبية إلَّا لتضمنها المعاني الثبوتية، فإن العدم المحض والسلب الصرف لا مدح فيه ولا كمال؛ إذ كان المعدوم يوصف بالعدم المحض، والعدم نفي محض لا كمال فيه، إنما الكمال في الوجود.

ولهذا جاء كتاب الله ـ تعالى ـ على هذا الوجه، فيصف سبحانه نفسه بالصفات الثبوتية صفات الكمال وبصفات السلب المتضمنة للثبوت؛ كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فنفي أخذ السنة والنوم يتضمن كمال حياته وقيوميته؛ إذ النوم أخو الموت، ولهذا كان =

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٦٨٠) عن أبي هريرة ضمن حديث طويل.

(٢) برقم (١٧٩)، وخرجته بتفصيل في تحقيقي لـ«أمالي المحاملي» (رقم ٥٨ ـ رواية ابن مهدي).

= أهل الجنة لا ينامون مع كمال الراحة، كما لا يموتون.
والقيوم: القائم المقيم لما سواه، فلو جعلت له سنة أو نوم لنقضت حياته وقيوميته، فلم يكن قائماً ولا قيوماً، كما ضرب الله المثل لبني إسرائيل، لما سألوا موسى: هل ينام ربك؟ فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قوارير فأخذه النوم فتكسرت»، وانظر: «التدمرية» (١٠)، و«الرد على المنطقيين» (١٩٢).

*** أصل القصة:**

إن هذا السؤال وقع لجهال بني إسرائيل لموسى، وممن اقتصر على هذا: الزمخشري في «تفسيره» (١/١٥٣)، قال في تفسير آية الكرسي: «أي: لا يأخذه نعاس ولا نوم، وهو تأكيد للقيوم؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً، ومنه حديث موسى أنه سأل الملائكة وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه ينام، ثم قال: خذ بيدك قارورتين مملوأتين وألقى الله عليه النعاس، فضرب إحداهما على الأخرى، فانكسرتا، ثم أوحى إليه: قل لهؤلاء أني أمسك السماوات والأرض بقدرتي، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا».

ولا بد هنا من التنبيه على ثلاثة أمور:

الأول: قوله: «وكان ذلك من قومه كطلب الرؤية»، وهذا من كلام الزمخشري توجيهاً، أدرجه في الخبر. قاله ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص٢٢).

الثاني: أن قوله: «كطلب الرؤية» يعني: إن طلب الرؤية هو عنده من باب المستحيل، كما استحال النوم في حقه، وهذا من عادته في نصرة مذهبه، يذكره حيث لا تكون الآية تتعرض لتلك المسألة.

الثالث: قوله: «سأل الملائكة» لم يرد هذا في خبر البتة.

وأحسن الآلوسي في «روح المعاني» (٣/٨ ـ ٩) ومن قبله السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١٥) إذ لم يوردا إلا خبر ابن عباس، وهو ما أخرج ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/٤٨٧) رقم (٢٥٨٠)، وعنه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/٤٥٢ ـ ٤٥٤) رقم (١٣٨) قال: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، ثنا أحمد بن عبد الرحمٰن الدَّشْتكي، حدثنا أبي، عن أبيه، ثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى! هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى! سألوك هل ينام ربك؟ فخذ زجاجتين بيديك، فقم الليل. ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس، فوقع لركبتيه ثم انتعش، فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا فقال: يا موسى! لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض، فهلكن كما هلكت الزجاجتان بيديك. فأنزل الله على نبيه ﷺ آية الكرسي.

وهذا هو الأشبه بهذه القصة أن تكون من سؤال بني إسرائيل لموسى، لا من سؤال موسى لربه ـ تبارك وتعالى ـ، وهذا ما ارتضاه جمع من العلماء في سابق كلامهم. =

والصفة الثانية: إن السمٰوات والأرض وما فيهما ملك له وتحت تصرفه. **الثالثة**: إن أحداً لا يتجرأ على الشفاعة عنده إلا إذا أذن له. **الرابعة**: إن علمه قد أحاط بكل شيء. **الخامسة**: إنه لا أحد من الخلق يعلم شيئاً إلا ما علمه الله تعالى. **السادسة**: إن السمٰوات والأرض بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، وهو

= مع ملاحظة أن في سنده جعفر بن أبي المغيرة، وثقه أحمد وابن حبان، لكن قال ابن منده: «ليس بالقوي في سعيد بن جبير»، وقد اضطرب فيه:

فمرة رواه عن سعيد عن ابن عباس قوله كما تقدم.

ومرة جعله من قول سعيد، أخرجه الحكيم الترمذي في «الرد على المعطلة» (ق١٠٩/أ)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦) رقم (١٠٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧٦).

ومرة جعله عن سعيد عن ابن عباس؛ أن نبي الله ﷺ قال: إنَّ بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: هل ينامُ ربك؟... وذكره بنحوه.

أخرجه ابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ١٥) ـ ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١٠/ ١١٣ ـ ١١٤) رقم (١١١).

وهذا الاضطراب يُضَعِّف القصة أيضاً، وقوله في آخرها: «لو كنت أنام...» فيه النكرة السابقة.

ووردت القصة عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قوله، أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٣٢) رقم (٧٨) قال: أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن إسحاق الصاغاني، ثنا عاصم بن علي، ثنا المسعودي، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه؛ قال: إن موسى عليه السلام قال له قومه: أينام ربنا؟ قال: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين» فأوحى الله عز وجل إلى موسى أن خذ قارورتين واملأهما ماءً. ففعل، فنعس فنام، فسقطتا من يده فانكسرتا، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إني أمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولو نمت لزالتا».

وهذا **إسناد ضعيف**، المسعودي اسمه عبد الرحمٰن بن عبد الله، اختلط، وعاصم بن علي ممن سمع منه بعد الاختلاط. قاله الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله. انظر: «الكواكب النيرات» (٢٨٧)، و«المختلطين» للعلائي (ص٧٣)، و«الشذا الفياح» (٢/ ٧٥٧).

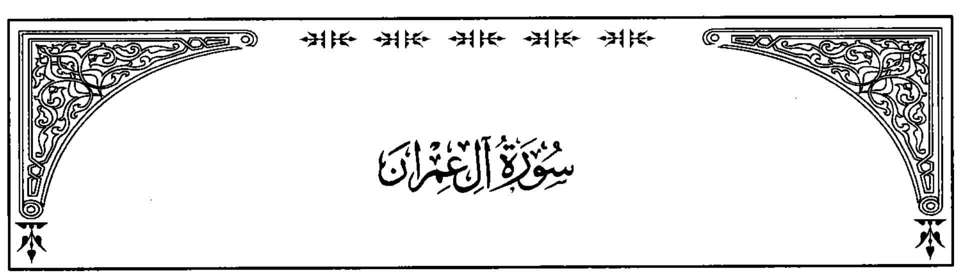
وقد اضطرب فيه أيضاً؛ فجعله مرة عن أبي بردة عن أبي موسى قوله، أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥) رقم (١١٩) من طريق عاصم بن علي، عن المسعودي، به.

وعلى أيٍّ؛ **القصة لم يثبت لها إسناد، والأشبه أن تكون من قول أبي بردة كما قال البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٣٤) أو سعيد بن جبير، ذكراه من كلام بني إسرائيل، وموسى كليم الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ منزَّه عن مثل هذا السؤال، والله الموفق للخيرات والهادي للصالحات.**

رب العرش والكرسي وخالقهما وحافظ وُجودهما. **السابعة**: إن حفظ السمٰوات والأرض لا يكرثه ولا يثقل عليه ولو مثقال ذرة أو أقل، فلذلك كانت أعظم آية في القرآن.

فصل

اختلفت الأقوال في الكرسي، ونحن نؤمن بكل ما جاء عن النبي ﷺ وعن صحابته وسائر السلف الصالح، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧]

قال (ك): «يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد[١]، ومنه آيات أُخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردّ ما اشتبه إلى الواضح منه وحكّم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد، وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه، فرُوي عن السلف عبارات كثيرة:

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه ما يؤمر به[٢] ويعمل به»، وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: المحكمات قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] والآيات بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أحدٌ من الناس».

(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وحدوده وفرائضه وما يؤمر به».

أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرِّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزِّلوه عليها لاحتمال لفظه لما[١] يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ[٢] لهم وحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو[٣] حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] وبقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرِّحة بأنه خَلْق من مخلوقات الله، وعَبْد ورسول من رسل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: تحريفه على ما يريدون[٤] وقال الإمام أحمد بسنده عن عائشة أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فقال: «**إذا رأيتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عنى الله، فاحذروهم**»[٥]. وقال الإمام أحمد بسنده إلى أبي غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ قال: هم الخوارج[٦]، وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال: «هم الخوارج»[٧].

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «كما»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «دافع»!

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهذا». (٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يريدونه».

(٥) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٤٦٦٥)، وأحمد (٦/ ٤٨) من حديث عائشة، وانظر ـ لزاماً ـ: «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٦٩ ـ بتحقيقي).

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/رقم ٨١٥٠)، والطبراني (٨٠٤٦)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» (٥٥)، والواحدي في «الوسيط» (١/ ٤٧٦)، والبيهقي (٨/ ١٨٨)، وعزاه في «الدر المنثور» (٨/ ٤٠٢) لابن مردويه والنحاس، وورد نحوه عنه في قصة مطولة خرجتها في تعليقي على «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٧٢) وله شاهد من حديث ابن أبي أوفى، خرجته مفصلاً في تعليقي على «الحنائيات» رقم (٢٢٥)، وهو بها **صحيح** إن شاء الله تعالى.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/رقم ٣٩٥٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٧٩)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص١٣٢ ـ ١٣٣)، واللالكائي في «السنة» (١/ ٧٢) =

قال (ك): «وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح، فإن أوّل بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوراج وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسّم النبي ﷺ غنائم حنين، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة، ففاجؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم ـ وهو ذو الخويصرة ـ: اعدل فإنك لم تعدل، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد خبتَ وخسرتَ، إن لم أكن أعدل فمن يعدل، أيأمنني من في السماء على أهل الأرض ولا تأمنوني؟»**. فلما قضي الرجل استأذن عمر بن الخطاب ـ وفي رواية خالد بن الوليد ـ في قتله فقال: **«دعه، فإنه يخرج من ضئضئ هذا ـ أي من جنسه ـ قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم»**[(١)]. ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب وقتلهم بالنهروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل، وآراء وأهواء ومقالات ونِحل كثيرة منتشرة[(٢)]، ثم انبعث القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله: **«وستفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»**. قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: **«من كان على ما أنا عليه وأصحابي»**[(٣)]. أخرجه الحاكم في «مستدركه» بهذه الزيادة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الآية اختلف العلماء في الوقف على اسم الجلالة: هو الصواب أم الصواب الوقف على قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾؟ وأكثر علماء السلف يقولون بالوقف على اسم الجلالة، لاعتقادهم أن معنى التأويل هنا ليس التفسير بل حقيقته وما يؤول إليه في نفس الأمر، وهذا لا يعلمه إلا الله، ككيفية استوائه ﷻ على عرشه، وكيفية إتيانه ومجيئه، فليس في طاقة البشر علم ذلك، أما معنى الاستواء وهو العلو فإنه معلوم، وكذلك النزول

= رقم (٧٤)، والآجري في «الشريعة» (ط دار الوطن)، وأبو نصر السجزي في «الإبانة» ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٩١) ـ **بسندٍ واهٍ مسلسل بالضعفاء**، فيه علي بن قدامة، لين، ومجاشع بن عمرو متّهم، وميسرة بن عبد ربه، مثله، بل أسوأ منه حالاً!

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) انظر عنهم ـ قديماً وحديثاً ـ كتابي: «العراق في أحاديث وآثار الفتن» وهو مطبوع، ولله الحمد.

(٣) سبق تخريجه.

والإتيان والمجيء معناها معروف في اللغة، وقد آمن به السلف الصالح ومن اتبعهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، قال (ﷺ): أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة»[١]. هـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: كل من يتعاطى ما يسمى بعلم الكلام؛ لا بد أن يكون من أهل الجدل، وهم الذين يتبعون ما تشابه منه، وقد حذرنا رسول الله ﷺ أن نكون منهم أو أن نغتر بأقوالهم.

قال أبو عمر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» ما نصه:

«أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع [في جميع الأمصار][٢] في طبقات العلماء، وإن العلماء[٣] أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم، وذكر بسنده إلى أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن خويز منداد المصري[٤] المالكي قال في «كتاب الإجارات» من كتابه في «الخلاف»: قال مالك: لا تجوز الإجارات[٥] في شيء من كتب الأهواء[٦] والبدع والتنجيم، وذكر كتباً ثم قال: وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم، وتفسخ الإجارة في ذلك، [قال]: وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما أشبه ذلك[٧]، وقال في «كتاب الشهادات» في تأويل قول مالك: لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء، قال: أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعرياً كان أو غير أشعري، ولا تقبل له[٨] شهادة في الإسلام أبداً، ويُهجَر ويؤدب على بدعته فإن تمادى

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧ ـ ١٧) بتصرف.
(٢) غير موجود في مطبوع «جامع بيان العلم».
(٣) في مطبوع «جامع بيان العلم»: «طبقات الفقهاء وإنما العلماء».
(٤) كذا في مطبوع «جامع بيان العلم»، وفي الأصل: «البصير»!
(٥) في مطبوع «جامع بيان العلم»: «الإجارة».
(٦) في مطبوع «جامع بيان العلم»: «أهل الأهواء».
(٧) انظر للاستزادة كتابي: «كتب حذر منها العلماء» (١/ ٢٥ ـ ٥٠).
(٨) في مطبوع «جامع بيان العلم»: «لهم».

عليها استتيب منها، قال أبو عمر: ليس في الاعتقاد [كله] في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله أو صحَّ عن رسول الله ﷺ أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد من ذلك كله، أو نحوه يسلَّم له، ولا يناظر فيه»(١).

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥]

قال محمد تقي الدين: يموِّه النصارى على الجهال من المسلمين؛ فيقولون لهم: أنتم تدعون أن عيسى لم يمت ولم يقتل وكتابكم يشهد بأنه مات ففي سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ وهذا موافق لاعتقاد النصارى، فأقول وبالله التوفيق: هذا التمويه مردود من وجوه:

الأول: إن التوفي لا يدل دائماً على الموت، قال تعالى في سورة الأنعام: الآية ٦٠. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: يستوفي مدة يقظتكم فتنامون بالليل ثم تستيقظون بالنهار، والله يعلم ما تفعلون بالنهار من خير وشر، بدليل ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى في سورة الزمر الآية ٤٢: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢] فقد أطلق الله تعالى التوفي على التي ماتت وعلى التي لم تمت، وأخبر أنه يرسلها فتستيقظ، وتعيش إلى أن ينقضي أجلها، فمعنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ مستوف مدة إقامتك في الأرض.

الدليل الثاني: هو أن التوفي إذا قدر أنه هنا بمعنى الإماتة؛ فمن المعلوم عند جميع العرب والنحاة أن الواو لمطلق الجمع لا تفيد تعقيباً ولا ترتيباً. قال تعالى في سورة الأحزاب الآية ٧: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ [الأحزاب: ٧]، الخطاب في ﴿مِنكَ﴾ لمحمد ﷺ، فمن توهم أن الواو تفيد

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٤٢ ـ ٩٤٣).

تعقيباً يلزمه أن يقول: إن الله أخذ الميثاق من محمد ﷺ قبل أن يأخذه من نوح، وكفى بقول يفضي إلى هذا إسفافاً وبطلاناً.

الدليل الثالث: قوله تعالى سورة النساء الآية ١٥٧: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] وسيأتي لهذا المقام زيادة بيان فيما سأنقله بعد إن شاء الله من كتابي «البراهين الإنجيلية»(١).

الدليل الرابع: قال البخاري في «صحيحه»: (باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام) وقال بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية**(٢) **ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها**»، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩] وروى بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**». تابعه عُقَيل والأوزاعي».اهـ(٣).

قال الحافظ في «الفتح»: «قوله: «**والذي نفسي بيده**» فيه الحلف في الخبر مبالغة في تأكيده»(٤).

قال محمد تقي الدين: هذا كلام من أنزل عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ الآية، ولو كان معنى التوفي الإماتة، فكيف ينزل في آخر الزمان؟! والله تعالى يقول حكاية عن قول المشركين: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]؟ فلو مات عيسى ﷺ قبل رفعه إلى الله تعالى ثم أحيي، ونزل إلى الأرض في آخر الزمان وحكم بشريعة محمد ﷺ مدة إقامته معهم، ثم مات ـ ولا بد من الموت؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ـ يكون قد مات ثلاث موتات: موتة قبل أن تنفخ فيه الروح، وموتة قبل رفعه، وموتة ثالثة عند انقضاء أجله، فالذين حكوا أنه مات ثلاث ساعات

---

(١) انظر منه (ص٣٩ وما بعد).

(٢) كذا في مطبوع «صحيح البخاري»، وفي الأصل: «الحرب»!!

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٨، ٣٤٤٩).

(٤) انظر: «فتح الباري» (٦/ ١٠٠).

قبل رفعه أو أكثر من ذلك ليس لهم دليل، وقد غفلوا غفلة عظيمة ووافقوا النصارى في زعمهم، ولا يختلفون معهم إلا في ادعاء الصلب والقتل.

الدليل الخامس: قال تعالى في سورة النساء الآية ١٥٩: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩] قال (ك): «قال (ج): «اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ[(١)] قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعني: قبل موت عيسى، يوجِّه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال؛ فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.

ذكر من قال ذلك: عن ابن عباس: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: «قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام [لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به][(٢)]. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعني: اليهود خاصة، وعن الحسن: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: قبل موت عيسى، والله إنه لحي الآن عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون، وقال ابن أبي حاتم بسنده إلى جويرية بن بشير قال: سمعت رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد، قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: قبل موت عيسى إن الله رفع إليه عيسى، وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر[(٣)]، وكذا قال قتادة وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وغير واحد، وهذا القول هو الحق كما سنبيّنه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان، قال (ج): وقال آخرون: يعني بذلك[(٤)] ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ بعيسى قبل موت الكتابي [ذكر من][(٥)] كان يُوجِّه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه.

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يعني بعيسى».
(٢) ما بين المعقوفتين ليس من كلام ابن عباس، وإنما هو من كلام أبي مالك (شيخ لابن جرير) كما في مطبوع «تفسير ابن كثير».
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/١١١٣).
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «معنى ذلك».
(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن جرير».

قال: (ع): «وقال آخرون: معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي» ثم قال (ع): «وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام» ولا شك أن هذا الذي قاله (ع) هو الصحيح لأنه[1] المقصود من السياق في تقرير بطلان ما ادَّعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك؛ فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشَّبَهَ وهم لا يتبيّنون ذلك، ثم إنه رفعه إليه وإنه باقٍ حيٌّ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة»[2]اهـ. ثم ذكر (ك) أحاديث كثيرة من «الصحيحين» وغيرهما في إثبات نزول عيسى لا نطيل بذكرها[3].

الدليل السادس:

قال محمد تقي الدين: وهو حجة على النصارى أنقله من كتابي «البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية ولا حظ له في الأولوهية»[4] ونصه:

خاتمة في الأدلة على أن قصة الصلب موضوعة:

الدليل الأول: إن الإنجيل يشهد بأن عيسى كان معروفاً عندهم، وكان يخطب في المسجد الأقصى الذي كانوا يسمونه بهيكل سليمان، فلا حاجة أن يستأجر اليهود من يدلهم عليه بثلاثين درهماً.

الدليل الثاني: أنهم حكموا أن التلميذ الثاني[5] عشر يهوذا

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لا»!

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤١ ـ ٣٤٥) و«تفسير ابن جرير» (٧/ ٦٦٧، ٦٧٢).

(٣) جمعها غير واحد في مصنفات مفردة، أوعبها كتاب الكشميري «التصريح بتواتر نزول المسيح»، وهو مطبوع متداول.

(٤) نشر هذا الكتاب في مجلة «الجامعة السلفية» الهندية على حلقتين: **الأولى**: المجلد (١٧) العدد (٢) بتاريخ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٩٥م، (ص ٩ ـ ١٥) **والثانية**: المجلد (١٧) العدد (٣)، جمادى الآخرة، ١٤٠٥هـ ـ مارس ١٩٨٥م (ص١١ ـ ٢٣) وطبع قبلها في مطابع الثقافة بمكة حي الزاهر ـ عام ١٩٩٣م ـ في (٤٥) صفحة والنقل الآتي منه. وانظر منه (ص١٧ ـ ١٩) بنحوه، ثم وجدته نشر في مجلة «الإحياء» المغربية، المجلد الثاني، الجزء الأول، رجب ـ ذو الحجة ١٤٠١هـ ـ ماي ـ أكتوبر ١٩٨١م (ص٩ ـ ٢٥).

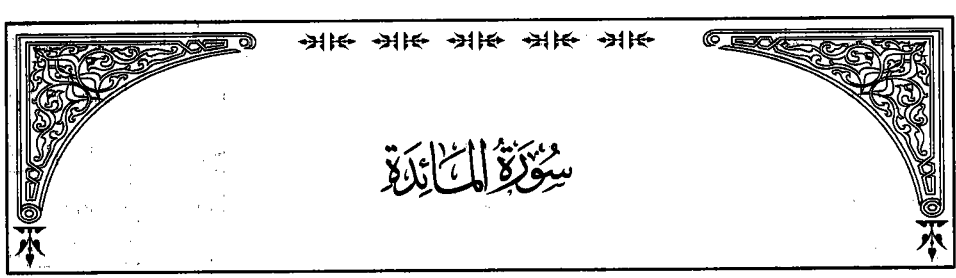
(٥) في الأصل: «الثا»!

«الأسخريوطي»[١] أخذ من اليهود ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه، فلما دلهم عليه وقضوا عليه رد لهم الدراهم، وندم وتبرأ من عملهم وخنق نفسه، كل هذا وقع في أقل من أربع وعشرين ساعة، وفيه متناقضات لا تخفى.

الدليل الثالث: وهو أعظمها بل هو وحده كافٍ في بطلان هذه القصة، وذلك أنه عندما حكم عليه اليهود بالقتل وأرادوا موافقة الحاكم «بيلاطوس» وبعثوه إليه، ففي (الفصل ـ ٢٧ـ) من «إنجيل متى» رقم (١١) أن الحاكم سأله، فقال له: هل أنت ملك اليهود؟ فقال له: أنت تقول، ولما اشتكاه رؤساء اليهود ورجال الدين عندهم بأنه كَفَر، وقال في الدين ما استوجب به القتل، سأله بيلاطوس: ألا تسمع إلى ما يقولون وما يشهدون به عليك، فأبى أن يتكلم أو ينطق ولو بكلمة واحدة، فسيؤوّل ذلك النصارى على أنه كان يريد الصلب؛ لأجل فداء الناس ومغفرة ذنوبهم، إذن فلماذا سأل الله أن يصرف عنه تلك الكأس ـ يعني القتل ـ؟ ولماذا صاح وهو على الصليب ونصه بالسريانية: إلي، إلي لا ما شبكتني؟ وآل اسم الله تعالى بالسريانية والعبرانية ومنه جبريل ولفظه بالسريانية كبرائيل «فكبرا» معناه بالسريانية رجل، وآل اسم الله وهو رجل الله الذي يرسله إلى أنبيائه، ومعنى: «إلي، لا ما شبكتني؟» أي: إلٰهي إلٰهي لماذا أخلفت وعدك لي؟ أي: بالنجاة من اليهود، وهذه كلمة كفر؛ لأن عيسى معصوم أن يتهم الله تعالى بالكذب والغدر. كيف يسكت عن بيان الحق ولو لم تكن فيه تبرئة نفسه واتباعه وتبرئة الحق وهو الفصيح اللسان الذي كان يخطب الخطب الطويلة ويملؤها تقريعاً وتوبيخاً لعلماء اليهود، لا يستطيع عاقل أن يصدق ذلك، وإذا بطلت قصة الصلب والفداء انهدم جميع ما يبني عليه النصارى عقيدتهم من الأساس».

قال محمد تقي الدين: وفي قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٧] دليل واضح على أن الله في السماء على عرشه، وسيأتي بسط القول إن شاء الله وبيان (أدلة العلو) في (سورة الأعراف).

(١) انظر تفصيل ذلك في: «معجم الحضارات السامية» (ص٩٢٧).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

[المائدة: ٥٤]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشدّ مَنَعة وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أي: بممتنع ولا صعب، وقال تعالى ههنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل، قال الحسن البصري: نزلت في أهل الردّة أيام أبي بكر، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه، رواه ابن أبي حاتم[(١)]»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: كل من قاتل قوماً مرتدين أو خارجين على إمام حق فإنه يدخل في هذا المعنى، وكل من جاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا بعد وفاة النبي ﷺ فإنه من هؤلاء القوم، والمراد هنا إثبات صفة المحبة لله

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٦٠)، وابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٥١٩)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ٤٢٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ٣١٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٦٢) وزاد السيوطي في نسبته في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٣) لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وخيثمة الأطرابُلسي، **وإسناده صحيح إلى الحسن**.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

تعالى فإنه ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢] ويحب كل من اتبع رسوله محمداً ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] فالله تعالى يحب عباده المؤمنين وكما أن علمه منزه عن مشابهة علم المخلوقين، فكذلك محبته وغضبه وسخطه ورضاه ورحمته وعجبه، كل ذلك نثبته لله تعالى، وقد نفته الجهمية جهلاً منهم، فمحبته لعباده تقتضي الإنعام عليهم، وغضبه سبحانه يقتضي عقابه، وسيأتي مزيد من بيان هذه الصفات إن شاء الله. اهـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]

قال القاسمي في «تفسيره»: «﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أخرج الطبراني وابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود ـ يقال له: شأس بن قيس ـ: إن ربك بخيل لا ينفق، فنزلت[1].

وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه: نزلت في فنحاص، رأس يهود قينقاع، وتقدم أنه قال[2]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، فضربه أبو بكر الصديق[3].

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٩٧) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧): «رواه الطبراني ورجاله ثقات»، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٤) وزاد نسبته لابن مردويه، ومدار إسناده على محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت (شيخ ابن إسحاق)، وهو مجهول، **فإسناده ضعيف**.

(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «أنه الذي قال».

(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ١٩٤) عن عكرمة قوله، **وإسناده ضعيف**، فيه سنيد، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٤) لم يعزه إلا لابن جرير.

فيكون ما أريد بالآية هنا، ما حكي عنه بقوله المذكور، والله أعلم.

ولما لم ينكر على القائل قومه ورضوا به، نُسبَتْ تلك العظيمة إلى الكل، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلاناً، وإنما القاتل واحد منهم، و(غل اليد) و(بسطها) مجاز مشهور عن البخل والجود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] قالوا: والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال، لا سيما لدفع المال ولإنفاقه، فأطلقوا اسم السبب على المسبَّب، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والبنان والكف والأنامل[١]، ويقال للبخيل: كز الأصابع، مقبوض الكف، جعد الأنامل.

وقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل أو[٢] بالفقر والمسكنة، أو بغلِّ الأيدي حقيقة، «يغلّون» أي: بشد[٣] أيديهم إلى أعناقهم[٤] أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة ﴿وَلُعِنُوا۟﴾ أي: أبعدوا عن الرحمة فلا يوفقون للتوبة ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ من الكلمة الشنيعة التي لا تصح في حق الله حقيقة ولا مجازاً ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي: بأنواع العطايا المختلفة. وتثنية[٥] «اليد» مبالغة في الردِّ ونفي البخل عنه تعالى وإثباتاً لغاية الجود، فإن غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيه بيده[٦] ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تأكيد لما قبله، منبّه على أن إنفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحِكَم، التي عليها يدور المعاش والمعاد.

وههنا مباحث:

الأول: ما زعمه الزمخشري ومن تابعه ـ من أن إثبات اليد لا يصح حقيقة له تعالى[٧] ـ فإنه نزغة كلامية اعتزالية.

قال الإمام ابن عبد البر في «شرح الموطأ»: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «فقيل للجواد: فياض الكف، مبسوط اليد، وسبط البنان، نَزِهُ الأنامل».
(٢) من مطبوع «تفسير القاسمي»، وسقطت من الأصل.
(٣) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «تشد».
(٤) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «أعناقم».
(٥) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «وثنّى». (٦) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «بيديه».
(٧) انظر: «الكشاف» (١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١).

الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك، ولا يحدّون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع، الجهمية والمعتزلة كلها، والخوارج، فكلهم ينكرونها ولا يحملون(١) شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها شَبّه(٢)، وهم عند من أقر بها(٣) نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله، وهم أئمة الجماعة»(٤).

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب «إبطال التأويل»: «لا يجوز ردُّ هذه الأخبار(٥) ولا التشاغل بتأويلها(٦)، والواجب حملها على ظاهرها، وأنها صفات الله(٧)، لا تُشبّه بسائر الموصوفين بها من الخلق، ولا يعتقد(٨) التشبيه فيها»، ثم قال: «ويدل(٩) على إبطال التأويل، أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين، حملوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفها عن ظاهرها، ولو(١٠) كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق، لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة»(١١).

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى في كتاب «الإبانة» في (باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين) وذكر الآيات في ذلك، وردَّ على المتأولين بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته، مثل قوله: «فإن سئلنا: أتقولون: لله يدان(١٢)؟ قيل: نقول ذلك، وقد دلنا عليه(١٣) قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وقوله(١٤): ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وروي عن

---

(١) في مطبوع «التمهيد»: «ولا يحمل». (٢) في مطبوع «التمهيد»: «مشبه».
(٣) في مطبوع «التمهيد»: «أثبتها» بدل «أقر بها».
(٤) انظر: «التمهيد» (٧/ ١٤٥)، ونقل المصنف منه بواسطة «تفسير القاسمي».
(٥) بعدها في مطبوع «إبطال التأويل»: «على ما ذهب إليه جماعة من المعتزلة».
(٦) بعدها في مطبوع «إبطال التأويل»: «على ما ذهب إليه الأشعرية».
(٧) في مطبوع «إبطال التأويل»: «لله تعالى».
(٨) في مطبوع «إبطال التأويل»: «نعتقد». (٩) في مطبوع «إبطال التأويل»: «دليل».
(١٠) في مطبوع «إبطال التأويل»: «فلو».
(١١) انظر: «إبطال التأويل» (١/ ٤٣، ٧١) ونقل المصنف منه بواسطة «تفسير القاسمي».
(١٢) في مطبوع «الإبانة»: «إن لله يديه». (١٣) في مطبوع «الإبانة»: «دلَّ عليه».
(١٤) في مطبوع «الإبانة»: «وقوله ﷻ».

النبي ﷺ[1] أنه قال: «**إن الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذريته**»[2]. وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس شجرة طوبى بيده**»[3]، وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب، أن يقول القائل: عملت كذا بيدي، ويعني به النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري في مفهومها في كلامها، ومعقولاً في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان[4] أن يقول القائل: فعلتُ بيدي، ويعني به: النعمة، بطل[5] أن يكون معنى قوله ﷻ: ﴿بِيَدَيَّ﴾ النعمة»[6]، وذكر كلاماً طويلاً في تقرير هذا ونحوه.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب «الإبانة» له، ونصه: [عن مسلم بن يسار الجهني، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٥)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٩٠)، وأحمد (١/ ٤٤)، وابن جرير (٩/ ١١٣)، وفي «التاريخ» (١/ ١٣٥)، وابن حبان (٦١٦٦)، والحاكم (١/ ٢٧ و٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥ و٥٤٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٢٥)، والبغوي (٧٧)، وفي «التفسير» (٢/ ٢١١، ٥٤٤) من حديث مسلم بن يسار الجهني عن عمر بن الخطاب ـ وسيأتي لفظه كاملاً عند سياق المصنف لكلام القاضي أبي بكر الباقلاني في «الإبانة» قريباً ـ **وهو ضعيف بهذا السياق**، قال شيخنا الألباني في «الضعيفة» (٧/ ٧٣) رقم (٣٠٧١): «**وفي أخذ الذرية من صلب آدم أحاديث أخرى صحيحة** أخصر من هذا وقد خرجت بعضها في «الصحيحة» (٤٨ ـ ٥٠) وليس في شيء منها مسح الظهر إلّا في حديث لأبي هريرة مخرج في «ظلال الجنة» (٢٠٤ ـ ٢٠٥) وفي كلها لم تذكر الآية الكريمة»، وانظر: «العلل» للدارقطني (٢/ ٢٢٢)، «التمهيد» (٦/ ٣ ـ ١٢).

(٢) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «فثبتت اليد وقوله ﷻ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾».

(٣) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٢٥)، والدارقطني في «الصفات» (ص٤٥) (٢٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٥٥٥) من حديث عبد الله بن الحارث بن نوفل.
وأخرجه هناد بن السري في «الزهد» (١/ ٦٦) وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ٢٩٥)، والآجري في «الشريعة» (٣/ ١١٨٣) (٧٥٧)، والذهبي في «العلو» (٢/ ٨٨٦) من كلام حكيم بن جابر مقطوعاً، وصححه شيخنا الألباني في «مختصره» مقطوعاً.
قال الذهبي في «الأربعين في صفات رب العالمين» (ص٨٠): «وصحَّ عن إسماعيل بن أبي خالد عن حكيم بن جابر»... فذكره.

(٤) في مطبوع «الإبانة»: «لا يجوز في لسان أهل البيان».

(٥) في مطبوع «الإبانة»: «فبطل».

(٦) انظر: «الإبانة عن أصول الديانة» (ص١٣١ ـ ١٣٢) بتصرف.

ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال رسول الله ﷺ **«إن الله ﷻ خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون»**.

فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله ﷻ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار]**(١). «فإن قال: فما الدليل على أن لله وجهاً ويداً؟ قيل له: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] فأثبت لنفسه وجهاً ويداً. فإن قال: فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لا تعقلون وجهاً ويداً إلا جارحة؟ قلنا: لا يجب هذا(٢) ـ إذ لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسماً ـ أن نقضي نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه». [قلنا لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]»](٣).

وقال الشيخ تقي الدين في «الرسالة المدنية»: «مذهب أهل الحديث وهم السلف من القرون الثلاثة(٤) ومن سلك سبيلهم من الخلف: إن هذه الأحاديث تُمرُّ كما جاءت ويؤمن بها وتُصدق وتصان عن تأويل يفضي إلى تعطيل، وتكييف يفضي إلى تمثيل، وقد أطلق غيرُ واحد ممن حكى إجماع السلف ـ منهم الخطابي ـ مذهب السلف أنها تجري على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها، وذلك أن الكلام في الصفات فرع عن(٥) الكلام في الذات، يحتذى حذوه(٦) ويتبع فيه مثاله، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية»(٧).اهـ.

---

(١) سبق تخريج الحديث قريباً، وما بين المعقوفتين سقط من مطبوع «تفسير القاسمي».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «كما لا يجب».
(٣) ما بين المعقوفتين سقط من مطبوع «تفسير القاسمي».
(٤) بعدها في مطبوع «الرسالة المدنية»: «المفضلة».
(٥) في مطبوع «الرسالة المدنية»: «على».
(٦) في مطبوع «الرسالة المدنية»: «يحتذى فيه حذوه».
(٧) انظر: «الرسالة المدنية» (ص٢٩ ـ ٣٠)، ونقل المصنف بواسطة «تفسير القاسمي».

ويرحم الله الإمام يحيى الصَّرْصَرِي الأنصاري[١] حيث يقول من قصيدة:

إن المقتال بالاعتزال لَخِطَّةٌ ... عمياءُ حلّ بها الغُواة المُرَّدُ
هجموا على سبل الهدى بعقولهم ... ليلاً فعاثوا في الديار وأفسدوا
صمٌّ إذا ذكر الحديث لديهم ... نفروا كأن لم يسمعوه وعربدوا[٢]
واضرب لهم مثل الحمير إذا رأتْ ... أُسْدَ العرين فهنّ منه شُرَّدُ[٣]

إلى أن قال:

يدعون من تبع[٤] الحديث مشبِّهاً ... هيهات ليس مشبِّهاً مَنْ يُسندُ
لكنه يروي الحديث كما أتى ... من غير تأويل ولا يتأوَّدُ

الثاني: روى الإمام أحمد والشيخان[٥] في معنى الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، وكان عرشه على الماء، وفي يده الأخرى الغيض ـ أو القبض ـ يرفع ويخفض**». وقال: «**يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك**»[٦].

وفي «**تفسير الجلالين**» ما نصه: «﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لكفرهم به ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فكل فرقة منهم تخالف الأخرى ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ أي: لحرب النبي ﷺ: ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: كلما أرادوه ردهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي: مفسدين بالمعاصي ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بمعنى أنه يعاقبهم»[٧]. اهـ.

---

(١) هو يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمَّر بن عبد السلام الصَّرْصَرِي، الأديب اللغوي الشاعر الزاهد، قرأ القرآن بالروايات، وسمع الحديث من الشيخ علي البعقوبي، وحفظ الفقه واللغة، ويقال: إنه كان يحفظ «صحاح الجوهري» بكماله، وكان يتوقّد ذكاءً، وكان قد رأى النبي ﷺ في منامه وبشَّره بالموت على السنة، قتل شهيداً سنة (٦٥٦هـ). انظر ترجمته في: «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» (٤/ ٢٧٨ ـ دار صادر)، و«المقصد الأرشد» (٣/ ١١٤) لابن مفلح، و«فوات الوفيات» (٤/ ٢٩٨ ـ دار صادر) وشعره فيه.

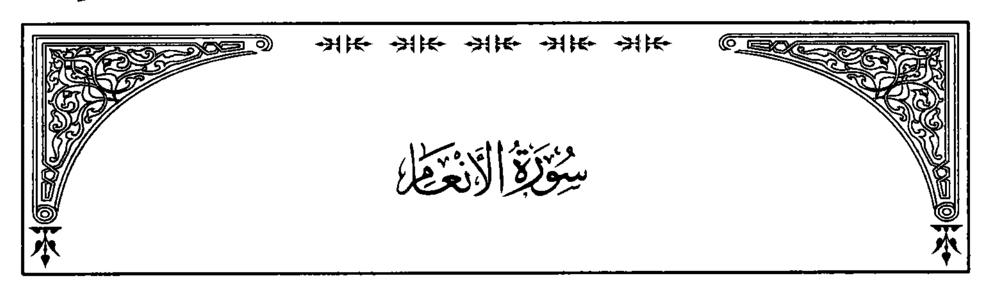
(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «وغردوا»! (٣) في الأصل: «شرّدوا»: «شُرَّدُ».

(٤) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «يدعو من اتبع».

(٥) أخرجه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣)، وأحمد (٢/ ٣١٣) إلّا أن لفظة: «يقول الله تعالى: «أنفق أنفق عليك»» غير موجودة في «صحيح البخاري».

(٦) انظر: «تفسير القاسمي» (٦/ ٢٧٢ ـ ٢٧٧).

(٧) انظر: «تفسير الجلالين» (ص١٣٩ و١٣٨) بتصرف.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨]

قال المحقق محمد صديق حسن القنوجي في تفسير هذه الآية:

«القهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، وأقهر الرجل: إذا صار مقهوراً ذليلاً.

ومن الأول قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ومن الثاني: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى: ٩] قيل: معنى ﴿فَوْقَ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان، كما تقول: السلطان فوق رعيته، أي: بالمنزلة والرفعة، وقيل: هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به سبحانه، فهو عليّ الذات، وسميُّ الصفات، وقال (ج): «معنى القاهر: المتعبد خلقه العالي عليهم، وإنما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لأنه تعالى وصف نفسه بقهره إياهم، ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مُستَعْلياً عليه»[(١)]. اهـ. أي: استعلاء يليق به، وقيل: هو القاهر مستعلياً أو غالباً، ذكره أبو البقاء[(٢)] والمهدوي، وفي القهر معنى زائد[(٣)] ليس في القدرة وهو: منع غيره عن بلوغ المراد، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأفعال عباده»[(٤)].

فصل

قال محمد تقي الدين: إن صفة العلو والفوقية ثابتة لله تعالى، فهو فوق عرشه المجيد، بائن من خلقه، والجهمية حرمهم الله تعالى من إثبات هذه الصفة؛

(١) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/ ١٨٠) بتصرف.
(٢) انظر: «الكليات» (ص٧٤٠). (٣) في مطبوع «فتح البيان»: «زائدة».
(٤) انظر: «فتح البيان» (٢/ ٣٥٥).

لفساد عقولهم، فإنهم يقيسون الله تعالى على أنفسهم، ويزعمون أن الفوقية تستلزم الجهة وأن الجهة تستلزم التحيز، وفي ذلك تشبيه الله بخلقه ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ وسيأتي من الرد عليهم في سورة الأعراف ـ إن شاء الله ـ ما يدحض باطلهم، ويفضح ترهاتهم، وبالله التوفيق.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]

قال (ك): «فيه أقوال للأئمة من السلف: **أحدها**: لا تدركه في الدنيا وإن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير طريق ثابت في «الصحاح» و«المسانيد» و«السنن» كما قال مسروق: عن عائشة أنها قالت: «من زعم أن محمداً ﷺ أبصر ربه فقد كذب» ـ وفي رواية: على الله ـ فإن الله تعالى قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾» رواه ابن أبي حاتم[1]، وثبت في «الصحيح» وغيره عن عائشة من غير وجه[2].

عن يحيى بن معين قال: سمعت إسماعيل بن عُليَّة يقول في قول الله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ قال: هذا في الدنيا، وذكر هشام بن عبد الله[3] أنه قال نحو ذلك[4].

وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من الآية، إنه لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله.

أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦٢)، وابن جرير (٩/ ٤٦٢) كلاهما في «التفسير»، والترمذي (٣٠٦٨)، وإسحاق في «مسنده» (٣/ ٨٠٣)، والدارمي في «نقض الإمام عثمان بن سعيد» (٢/ ٧٦١) وأصل الحديث في «الصحيحين» أخرجه البخاري (٣٢٣٤)، ومسلم (١٧٧) دون ذكر الآية.

(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عبيد الله».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٦٣) وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٦٣) نسبته لأبي الشيخ.

٢٢، ٢٣]، وقال تعالى في الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] قال الإمام الشافعي: فدلّ هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى[(١)] وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة[(٢)] وأنس[(٣)] وجرير[(٤)] وصهيب[(٥)] وبلال وغير واحد من الصحابة[(٦)] عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم.

وقال آخرون: الإدراك أخص من الرؤية وهو الإحاطة، قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] وفي «صحيح مسلم»: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(٧)] ولا يلزم منه عدم الثناء فكذلك هذا، وعن عكرمة أنه قيل له: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى! قال: أكلها ترى[(٨)]؟ وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في الآية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾: وهو أعظم من أن تدركه الأبصار.

وقال (ج) «بسنده إلى عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال: هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/٤٦٨)، والبيهقي في «الاعتقاد» ص١٤٤)، وذكره السبكي في «طبقات الشافعية» (٢/٨١)، والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة.
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).
(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).
(٥) أخرجه البخاري (١٨١)، وأحمد (٤/٣٣٣)، والترمذي (٣١٠٥).
(٦) حديث بلال لم أجده، ولم يذكره الدارقطني في كتابه «الرؤية»، وقال اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٩٥): «فتحصل في الباب ممن روى عن رسول الله ﷺ من الصحابة حديث الرؤية ثلاث وعشرون نفساً» وقد أخرج الآجري في «الشريعة» رواية اثني عشر صحابياً منهم رضوان الله عليهم.
(٧) أخرجه مسلم (٤٨٦).
(٨) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/٤٥٩ ـ ٤٦٠).

محيط بهم، فذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[1] وقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]»[2].

قال المحقق محمد صديق حسن القنوجي رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح البيان» عند تفسير هذه الآية ما نصه:

«﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ أي: لا تراه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ جمع بصر، وهو حاسة النظر، أي: القوة الباصرة، وقد يقال للعين من حيث إنها محلها، أي: الحاسة، وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إليه والإحاطة به، قال الزجاج: «أي لا يبلغ كنه حقيقته»[3] فالأبصار ترى الباري عز اسمه، ولا تحيط به، كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به، قال سعيد بن المسيب: «لا تحيط به الأبصار» وقال ابن عباس: «كلَّت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به».

فالمنفي هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية، فقد ثبتت الأحاديث المتواترة[4] تواتراً لا شك فيه، ولا شبهة، ولا يجهله إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيماً، والحاصل أنه لا متمسك فيه لمنكري الرؤية على الإطلاق، وأيضاً قد تقرر في علم البيان والميزان أن رفع الإيجاب الكلي سلب جزئي، فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار وهي أبصار الكفار، هذا على تسليم أن نفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية الخاصة، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأول يخلفه الجزئية؛ والتقدير: لا تدركه كل الأبصار بل بعضها وهي أبصار المؤمنين، والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرفناك من تواتر الرؤية في الآخرة واعتضادها بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾. وقد تشبث قوم من أهل البدع ـ وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة ـ بظاهر هذه الآية، ولا

---

(١) أخرجه الترمذي على إثر (٣٢٧٩)، والآجري في «التصديق بالنظر إلى الله» رقم (٦٣) وإسناده ضعيف.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٢٢ ـ ١٢٨) بتصرف.

(٣) بنحوه في «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

(٤) صرح بتواتر أحاديث الرؤية جمع، منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية في «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٣٤٨)، وفي «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٩٠ و١٦/ ٨٤)، وابن القيم في «حادي الأرواح» (٤١٦)، وابن أبي العز في «شرح العقيدة الطحاوية» (٢٠٩)، وابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٤٣٦).

يستتب ذلك مع ما[1] تقدمت الإشارة إليه، على أن مورد الآية التمدح وهو يوجب[2] ثبوت الرؤية، إذ نفي إدراك[3] ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه؛ لأن كل ما لا يرى لا يدرك، وإنما التمدح بنفي الإدراك مع تحقق الرؤية، فكانت الحجة لنا عليهم، ولو أمعنوا النظر فيها؛ لاغتنموا التفصي[4] عن عهدتها، ومن ينفي الرؤية يلزمه نفي كونه تعالى معلوماً موجوداً، والكلام في ذلك يطول جداً، وقد أطال[5] الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «حادي الأرواح» في إثبات الرؤية ورد المنكرين لها[6]، والشوكاني في «البغية في مسألة الرؤية»[7] بما لا مزيد عليه» ومضى إلى أن قال: «﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: الرفيق بعباده، يقال: لطف فلان بفلان، أي: رفق به، واللطف في العمل: الرفق فيه، واللطف من الله تعالى: التوفيق والعصمة، وألطفه بكذا: إذا أبره[8] والملاطفة المبارَّة وهكذا[9] قال الجوهري وابن فارس[10]، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ المختبر لكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء»[11].

وقال تعالى في سورة الأعراف [الآية: ١٤٣]: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال (ك): «يخبر تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لما جاء لميقات الله تعالى حصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «ذلك كما». (٢) في مطبوع «فتح البيان»: «يجب».
(٣) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «الإدراك»!
(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «التقصي».
(٥) بعدها في مطبوع «فتح البيان»: «الواحد المتكلم».
(٦) انظر: «حادي الأرواح» (ص٤٠٢ ـ وما بعد).
(٧) منها نسخة خطية في مكتبة دار العلوم ـ ندوة العلماء، بلكناو، الهند، وعنها مصورة في مكتبة الجامعة الإسلامية تحت رقم (١٤٤٣ ميكروفلم ـ توحيد)، ونقل منها الباحث د. عبد الله نومسوك في كتابه «منهج الإمام الشوكاني في العقيدة» (٢/ ٨٢٢ ـ ٨٣٢).
(٨) بعدها في مطبوع «فتح البيان»: «برَّه». (٩) في مطبوع «فتح البيان»: «هكذا».
(١٠) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٤٢٦ ـ لطف)، و«معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٢٥٠ ـ لطف).
(١١) انظر: «فتح البيان» (٢/ ٤١٧ ـ ٤١٨).

إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ وقد أشكل حرف ﴿لَن﴾ ههنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة[١]، وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝﴾ [المطففين: ١٥] وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة، وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقد تقدم ذلك في الأنعام، وفي الكتب المتقدمة! إن الله تعالى قال لموسى ﷺ: «يا موسى إنه لن يراني[٢]

---

(١) ظفرتُ بكلام محرر مطول في الرد عليهم في «التمييز» للسكوني (ولم ينشر بعد)، وانظر: «الانتصاف» (٢/ ١٥٤) لابن المنيّر، و«المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف» (١/ ٤٩٨ ـ ٥٠٠) والهامش الآتي.

(٢) دعوى المعتزلة أن «لن» تفيد تأكيد النفي وتأبيده، واستدلالهم بذلك على نفي الرؤية وإنكار وقوعها، دعوى فاسدة من وجهين:

الأول: إنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: ٨٠].

قال الشيخ جمال الدين ابن مالك رحمه الله:

ومن رأى النفي بـ«لن» مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

الثاني: إنها لو قيدت بالتأبيد، لم يدل ذلك على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟! ودليل هذا الوجه قوله تعالى عن المشركين في كرههم للموت وعدم تمنيهم له: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] لكنهم في النار يتمنونه ويدعون به، قال تعالى في بيان حالهم هذا: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فثبت بهذا أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد، وبطل بذلك استدلال المعتزلة بها على نفي الرؤية.

وقال ابن القيم رحمه الله وهو يتكلم عن الفرق بين النفي بـ«لا» والنفي بـ«لن» في كتابه «بدائع الفوائد» (١/ ٩٦ ـ ٩٧):

«... من أجل ما تقدم من قصور معنى النفي في «لن» وطوله في «لا»، يعلم الموفق قصور المعتزلة في فهم كلام الله، حيث جعلوا «لن» تدل على النفي على الدوام، واحتجوا بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وعلمت بهذا أن بدعتهم الخبيثة حالت بينهم وبين فهم كلام الله كما ينبغي، وهكذا كل صاحب بدعة تجده محجوباً عن فهم القرآن، وتأمل قوله =

أحد إلا مات، ولا يابس إلا تدهده». ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

وروى الإمام أحمد في «مسنده» بسنده عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: «**هكذا**»؛ يعني: أنه أخرج طرف الخنصر، قال أحمد: أرانا معاذ فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد(١)؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: مَن أنت يا حميد(٢) وما أنت يا حميد(٢)؟ يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ تقول(٣): ما تريد إليه؟ ورواه الترمذي وقال: «حديث حسن صحيح غريب» ورواه الحاكم في «المستدرك» وقال: «على شرط مسلم ولم يخرجاه» وصححه الخلال أيضاً(٤).

وعن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ قال: مغشياً عليه رواه (ج)(٥)»(٦).

= تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] كيف نفى فعل الإدراك بلا الدالة على طول النفي، ودوامه، فإنه لا يدرك أبداً وإن رآه المؤمنون، فأبصارهم لا تدركه تعالى عن أن يحيط به مخلوق، وكيف نفى الرؤية بلن فقال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ لأن النفي بها لا يتأبد، وقد أكذبهم الله في قولهم تأبيد النفي بلن، صريحاً بقوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فهذا تمنٍ للموت، فلو اقتضت لن دوام النفي تناقض الكلام، كيف وهي مقرونة بالتأبيد بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ . . .».

في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا يراني».

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «محمد» دون أداة الكنية، والصواب إثباتها.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يا أبا حميد».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فتقول أنت».

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٥)، والترمذي (٣٠٧٤) وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٠ ـ ٤٨٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٥٨ ـ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم (٤٨١ ـ الأعراف)، وابن جرير (١٠/ ٤٢٨)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٥٩)، وابن عدي (٢/ ٦٧٧)، والحاكم (١/ ٢٥ و٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١ و٥٧٧)، والضياء في «المختارة» (١٦٧٢ ـ ١٦٧٥) **وإسناده صحيح**.

(٥) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٠/ ٤٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٦٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٥٠٤) **وفي إسناده ضعف**، وضعفه شيخنا الألباني.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٨٢ ـ ٣٨٦) بتصرف.

وقال تعالى في سورة القيامة الآية ٢٢: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

قال (ك): «وقوله تعالى[1]: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ من النضارة أي: حسنة بهيَّة مشرقة مسرورة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري رحمه الله تعالى في «صحيحه»: «**إنكم سترون ربكم عياناً**»[2]. وقد ثبتت[3] رؤية المؤمنين لله ﷻ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها، كحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في «الصحيحين» أن أناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «**هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟**» قالوا: لا. قال: «**فإنكم ترون ربكم كذلك**»[4]. وفي «الصحيحين» عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «**إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا**»[5]. وفي أفراد مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة**». ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][6]. وفي أفراد مسلم عن جابر في حديث: «**إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك**»[7]؛ يعني: في عرصات القيامة، ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم ﷻ في العرصات، وفي روضات الجنات».

قال (ك): «ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير وبالله التوفيق»[8].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثم قال تعالى».
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٥) من حديث جرير بن عبد الله.
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثبت». (٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه. (٦) أخرجه مسلم (١٨١).
(٧) أخرجه مسلم (١٩٠).
(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/١٩٧ ـ ١٩٩) بتصرف.

فصل

قال محمد تقي الدين: إن المتناظرين في معاني آيات الكتاب العزيز يغفلون عن حقيقة لو انتبهوا لها لتركوا كثيراً من جدالهم، وهذه الحقيقة هي أن الله سبحانه لو كتب القرآن في كتاب وألقاه إلينا بلا رسول؛ لأمكن أن تختلف الفهوم فيما تدل عليه آياته حين يتوهم التعارض في آيتين مثلاً، كآية ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ وآية ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ولكن الله أنزل هذا القرآن على رجل من البشر، وأمره أن يبيّنه لنا، فقال تعالى في سورة النحل الآية ٤٤: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فجاءنا النبي ﷺ بهذا القرآن ومثله معه[1] من وحي السنة، وبقي معنا ثلاثاً وعشرين سنة، نسأله ويجيبنا، ويبيّن لنا بأقواله وأفعاله مسائل الاعتقاد ومسائل العبادة ومسائل المعاملات ومسائل الأخلاق، فإذا توهم متوهم تعارض آيتين كالآيتين المتقدم ذكرهما، ثم جاءت السنة ووضّحت لنا المعنى الذي يريده ربنا سبحانه كل التوضيح لم يبق مجال للجدال، ولكن المصيبة كل المصيبة هي أن قوماً قرؤوا القرآن ودرسوا علوم العربية وأهملوا السنة، فالتبس عليهم الأمر، وأخذوا يضربون القرآن بعضه ببعض، فمسألة الرؤية وضّحها النبي ﷺ كل التوضيح، فلم يبقَ فيها إلا الإيمان أو التكذيب، ومن زعم أنه يؤمن بالقرآن ويرفض السنة فهو كاذب زنديق، فأين في القرآن تفصيل الصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات والحدود وسائر مسائل الشريعة؟

فأكثر الخلاف سببه الجهل بالسنة، إما جهلاً تاماً، كجهل الخوارج والمعتزلة ومتأخري الأشعرية وجهلة المتصوفة، وإما أن يكون العالم من السلف مُقِلًّا في الحديث؛ لأنه لم يجمع بحذافيره إلا بعد زمانه، أو لم يرحل في طلبه، واقتصر على ما سمعه من أهل بلده، أو كان ضعيف الحفظ، ولكن هؤلاء المقلدين من أئمة أهل السنة كلهم صرحوا وأعلنوا أن الحديث إذا صح بخلاف ما أفتوا به فإنهم راجعون عنه، وقائلون بالحديث الصحيح، قال الإمام الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى الشرقي في «شرحه لنونية ابن القيم» (الجزء الثاني) (٥٦٧): «(فصل: في رؤية أهل الجنة ربهم ونظرهم إلى وجهه الكريم):

---

(١) قد ثبت ذلك في حديث صحيح، سبق تخريجه.

«ويَـرَوْنَـهُ سبحـانَـهُ مِـنْ فَـوْقِـهِـمْ رؤيـا[١] العِيانِ كما يُرَى القَمَـرانِ
هـذا تـواتـرَ عَـنْ رسـولِ اللهِ لَـمْ يُـنْـكِـرْهُ إلا فـاسِـدُ الإيمـانِ
وأتَـى بـه الـقُـرآنُ تـصـريـحـاً وَتَـعْـريـضـاً هُـمـا بسِـيَـاقِـهِ نَـوْعَـانِ
وهـيَ الـزِّيـادَةُ قَـدْ أتـت فـي يُـونُـسٍ تـفـسـيـره[٢] قَـدْ جـاءَ بـالـقُـرْآنِ
ورواهُ عـنـهُ مُـسـلِـمٌ بـ«صـحـيـحِـهِ» يَـرْوِي صُـهَـيْـبٌ ذَابِـلَا كِـتْـمَـانِ
وهُـوَ الـمـزِيـدُ كـذاكَ فَـسَّـرَهُ أبُـو بـكـر هُـوَ الـصِّـدِّيـقُ ذو الإيـقـانِ
وعـلـيـهِ أصـحـابُ الـرسـولِ وتـابِـعُـو هُـمْ بـعـدَهُـمْ تَـبِـعِـيَّـةَ الإحـسـانِ[٣]

ذكر الناظم رحمه الله تعالى في هذا الفصل رؤية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة كما يُرى القمر، وقد اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام وأنكرها أهل البدع، كالجهمية والمعتزلة والباطنية والرافضة»[٤].

وقال في (ص٥٧٨) ما نصه:

«والمنحرفون في باب رؤية الرب تبارك وتعالى نوعان: **أحدهما**: من يزعم أنه يُرى في الدنيا ويحاضر ويسامر. **والثاني**: من يزعم أنه لا يُرى في الآخرة البتة، ولا يكلم عباده، وما أخبر به الله ورسوله وأجمع عليه الصحابة والأئمة يكذب الفريقين، وبالله التوفيق:

والله لَـوْلا رؤيـةُ الـرَّحـمٰـنِ فِـي الْـجَـنَّـاتِ ما طـابَـتْ لِـذِي الـعِـرْفَـانِ
أعـلَـى الـنَّـعـيـمِ نَـعِـيـمُ رُؤيـةِ وَجْـهِـهِ وخِـطـابِـهِ فـي جَـنَّـةِ الـحَـيَـوَانِ
وأشَـدُّ شـيءٍ فـي الـعـذابِ حِـجَـابُـهُ سبـحـانَـهُ عـن سـاكِـنِـي الـنِّـيـرانِ
وإذا رآهُ الـمـؤمـنـون نَـسُـوا الـذِي هُـمْ فـيـهِ مِـمَّـا نـالَـتِ الـعَـيـنَـانِ»[٥]

وقال الإمام **الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر** المعروف بابن قيم الجوزية في (ج٣)[٦] من كتابه «حادي الأرواح» (ص٥٢) ما نصه:

---

(١) في مطبوع «الكافية الشافية»: «نَظَر».
(٢) في مطبوع «الكافية الشافية»: «تَفْسِيرَ مَن».
(٣) انظر: «الكافية الشافية» (ص٣٢١ ـ ٣٢٢).
(٤) انظر: «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد» لأحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨).
(٥) انظر: «توضيح المقاصد» (٢/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩)، و«الكافية الشافية» (ص٣٢٤ ـ ٣٢٥).
(٦) من تجزئة المخطوط، وإلا فالكتاب لم يطبع إلا في مجلد واحد.

(الباب الخامس والستون: في رؤيتهم ربهم تبارك وتعالى [بأبصارهم جهرة كما يرى القمر ليلة البدر][١] وتجلِّيه لهم ضاحكاً إليهم):

هذا الباب أشرف أبواب الكتاب، وأجلُّها قدراً، وأعلاها خطراً، وأقرُّها لعيون أهل السنة والجماعة، وأَشدُّها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمَّر إليها المشمِّرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوِّكون، والفرعونية المعطِّلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبال[٢] الشيطان متمسِّكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبَّة أصحاب رسول الله عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدوٍ لله ورسوله ودينه مسالمون، وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون، أولئك حزب[٣] الضلال وشيعة اللعين وأعداء الرسول وحزبه، وقد أخبر اللهُ سبحانه عن أعلم الخلق به في زمانه، وهو كليمه ونجيّه وصفيّه من أهل الأرض أنه سأل ربَّه تعالى النظرَ إليه، فقال له ربه تبارك وتعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: إنه لا يظن بكليم الرحمٰن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال، وهو عند فُرُوخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، فيا لله العجب[٤]! كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له، وأشد تنزيهاً له منه؟!

---

(١) غير موجود في ط. دار ابن كثير وهو في ط. ابن رجب.

(٢) في مطبوع «حادي الأرواح»: «بحبائل».

(٣) في مطبوع «حادي الأرواح»: «أحزاب».

(٤) كذا في مطبوع «حادي الأرواح»، وفي الأصل: «للعجب»!

الوجه الثاني: إن الله سبحانه وتعالى لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه؛ ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يُرِيَه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه، ولما سأل عيسى ابن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر سؤاله، ولما سأل نوحٌ ربه نجاةَ ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾ [هود: ٤٦، ٤٧].

الوجه الثالث: إنه أجابه بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل: إني لست بمرئي[1]، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمَّله، وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يُرى، ولكنَّ موسى لا تحمل[2] قواه رؤيته في هذه الدار؛ لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوَّته وصلابته لا يثبت لتجلِّيه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خُلِق من ضَعْفٍ؟

الوجه الخامس: إن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يجعل الجبل مستقراً مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلّقها بالممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية محالاً، لكان نظير[3] أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ﷻ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ وهذا من أبينِ الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يكون يتجلّى[4] للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلَّى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟ فأعلم سُبحانه وتعالى موسى أنّ الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

الوجه السابع: إن ربَّه سبحانه وتعالى قد كلَّمه منه إليه، وخاطبه وناجاه

---

(١) في مطبوع «حادي الأرواح»: «لا تراني ولا إني ليست بمرئي».
(٢) في مطبوع «حادي الأرواح»: «لا تحتمل».
(٣) في مطبوع «حادي الأرواح»: «لكان ذلك نظير».
(٤) في مطبوع «حادي الأرواح»: «جاز أن يتجلى».

وناداه، ومَنْ جاز عليه التكلّم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتمُّ إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين فأنكروا أن يكلِّم أحداً ويراه[1] أحد، ولهذا سأله موسى النظر إليه لما أسمعه كلامه وعلم نبيُّ الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه، فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه، وأما قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدلُّ على دوام النفي، ولو قُيِّدتْ بالتأبيد فكيف إذا أُطلقَتْ؟ قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] مع قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فصل

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وأجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نُسِبَ إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية، ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ [التوبة: ٧٧] فقد دلَّت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عَرَصات القيامة، بل والكفار أيضاً كما في «الصحيحين» من حديث التجلِّي[2]، وسيمرُّ بك عن قريب إن شاء الله تعالى.

«وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال لأهل السنة: **أحدها**: ـ أن لا يراه إلا المؤمنون. **والثاني**: يراه جميع أهلِ الموقف مؤمنهم وكافرهم ثم يحتجب عن الكفار فلا يرونه بعد ذلك.

الثالث: يراه المنافقون دون الكفار. والأقوال الثلاثة في مذهب «حم» وهي لأصحابه، وكذلك الأقوال الثلاثة بعينها لهم في تكليمه لهم، ولشيخنا في ذلك مصنَّف مفرد[3]، وحكى فيه الأقوالَ الثلاثة وحُججَ أصحابها، وكذا قوله ﷺ:

---

(١) في مطبوع «حادي الأرواح»: «أو يراه».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) هو شيخ الإسلام ابن تيمية ورسالته، هي «رسالة في هل رأى النبي ﷺ ربه بعيني رأسه» =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الإنشقاق: ٦] إن عاد الضمير على العمل، فهو رؤيته في الكتاب مسطوراً مثبتاً، وإن عاد على الرب، فهو لقاؤه الذي وَعَدَ به.

فصل

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦﴾ [يونس: ٢٥، ٢٦] فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم[(١)]، كذلك فسرها رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن فالصحابة من بعده، كما روى «م» في «صحيحه» بسنده إلى صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ: يا أهل الجنة! إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ويبيّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون الله، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة**»[(٢)]. وقال الحسن بن عرفة بسنده إلى أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ**﴾ **العمل في الدنيا** ﴿**ٱلْحُسْنَىٰ**﴾ **وهي: الجنة، والزيادة، وهي: النظر إلى وجه الله**»[(٣)] قال (ج) بسنده إلى كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ

= وهو مخطوط في المكتبات الوقفية بحلب في ٣ صفحات مكتوبة سنة ١٠٨٨هـ (برقم ١٥٣٢/١) ولها صورة بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وانظر: «الثبت» لعلي الشبل (ص١٠٨، ١١٣).

(١) ورد هذا اللفظ في أحاديث وآثار كثيرة جداً. انظر منها: «المجالسة» (٦/١٧٦) رقم (٢٥٢٣) وتعليقي عليه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الحسن بن عرفة في «جزئه» (٢٣) ومن طريقه الدارقطني في «الرؤية» (٥٧)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٨٥)، واللالكائي في «السنة» (٧٧٩)، والخطيب (٩/ ١٤٠)، وابن مردويه كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/١٢٧) للزيلعي، وعزاه في «الدر المنثور» (٧/٦٥٤) لأبي الشيخ وابن النجار. **وإسناده واهٍ جداً**، أخطأ فيه نوح بن أبي مريم، وهو كذاب. **والحديث صحيح؛ يغني عنه الذي قبله.**

ﱡٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖﱠ قال: **«الزيادة النظر إلى وجه الرحمٰن جلَّ جلاله»**[1] وقال (ج) بسنده إلى أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن الزيادة في كتاب الله ﷻ قوله تعالى: ﱡلِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖﱠ قال: **«الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ»**[2].

وقال أسد السنة بسنده إلى أبي تميمة الهُجَيْمي أنه سمع أبا موسى يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«يَبعْثُ الله ﷻ يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ[3]»**[4].

«وأما الصحابة»: فقال (ج): بسنده إلى أبي بكر الصديق: ﱡلِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖﱠ قال: «النظر إلى وجه الله الكريم»[5] وبهذا الإسناد عن أبي إسحاق عن مسلم بن نُذَير[6] عن حذيفة ﱡلِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖﱠ قال: «النظر

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٨٤) وابن جرير في «التفسير» (١٢/ ١٦١)، وابن مردويه - كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ١٢٦) - واللالكائي في «السنة» (٧٨١)، وابن عدي (٣/ ١١٧٣ - ١١٧٤)، **وفي إسناده مقال.**

(٢) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٢/ ١٦١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٩٤٤)، والدارقطني في «الرؤية» (١٨٣)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٣٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٠٤)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٥٦)، **وإسناده ضعيف**، وفيه انقطاع، وانظر له ما أورده الزيلعي في: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٢٥) عن ابن مردويه.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن جرير»: «وجه الرحمٰن».

(٤) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٢/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٨٤)، والدارقطني في «الرؤية» (٤٣)، ونعيم بن حماد في «زياداته على زهد ابن المبارك» (٤١٩)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٤٤٧)، واللالكائي (٧٨٢، ٧٨٥، ٧٨٦) وابن مردويه، - كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٢٥) - **وإسناده ضعيف جداً**، مداره على أبان بن أبي عياش متروك.

(٥) أخرجه هناد في «الزهد» (١٧٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٧٣، ٤٧٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١٢٠)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٥٢)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٧٠، ٤٧١)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٨٤)، وابن جرير (١٢/ ١٥٦)، والدارقطني في «الرؤية» (١٩٢ - ٢٠١)، و«العلل» (١/ ٢٨٢)، والآجري في «الشريعة» (٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٦٦)، وفي «الاعتقاد» (ص١٣٢)، واللالكائي في «السنة» (٧٨٤)، وهو **صحيح**.

(٦) كذا في مصادر التخريج، وهو الصواب، وفي الأصل: «يزيد»!.

إلى وجه ربهم»(١)، وقال بسنده إلى أبي موسى الأشعري قال: «إذا كان يوم القيامة، يبعث الله تعالى إلى أهل الجنة منادياً ينادي: هل أنجزكم الله ما وعدكم؟ فينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامة، فيقولون: نعم. فيقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ النظر إلى وجه الرحمٰن ﷻ»(٢).

وقال عبد الله بن المبارك بسنده إلى أبي موسى الأشعري أنه خطب الناس في جامع البصرة وقال: «إن الله يبعث يوم القيامة ملكاً إلى أهل الجنة، فيقول: يا أهل الجنة، هل أنجزكم الله ما وعدكم؟ فينظرون فيرون الحلي والحلل والأنهار والأزواج المطهرة، فيقولون: نعم، قد أنجزنا الله ما وعدنا. ثم يقول الملك: هل أنجزكم الله ما وعدكم؟ ثلاث مرات، فلا يفقدون شيئاً مما وعدوا، فيقولون: نعم، فيقول: قد بقي لكم شيء، إن الله ﷻ يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ألا إن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى»(٣).

وفي «تفسير أسباط بن نصر» بسنده إلى ابن مسعود: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ قال: «أما الحسنى فالجنة، وأما الزيادة فالنظر إلى وجه الله، وأما القتر فالسواد»(٤). وقال عبد الرحمٰن بن أبي ليلى وعامر ابن سعد وإسماعيل بن عبد الرحمٰن السدي والضحاك بن مزاحم وعبد الرحمٰن بن سابط

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٨١)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٥٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٢٠)، والدارقطني في «الرؤية» (٢٠٢ ـ ٢٠٦)، وابن جرير في «التفسير» (١٢/ ١٥٧)، وهناد في «الزهد» (١٧٠)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٧٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٧٣)، والآجري في «الشريعة» (٥٩١)، واللالكائي في «السنة» (٧٨٣، ٧٨٤) من طرق عن أبي إسحاق به، وهو **صحيح**، وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ٣٠٦) لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (١٦٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٢١)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص٥٢)، وابن جرير في «التفسير» (١٢/ ١٥٧)، والدارقطني في «الرؤية» (٤٤، ٤٦)، واللالكائي في «السنة» (٧٨٤، ٧٨٥)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٤٤٧) **وإسناده ضعيف**.

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد زهد ابن المبارك» (٤١٩)، وابن جرير (١٢/ ١٥٧)، والدارقطني في «الرؤية» (٤٤)، واللالكائي في «السنة» (٧٨٦) **وإسناده ضعيف جداً**، فيه أبو بكر الهذلي، متروك.

(٤) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٧٨٧، ٧٨٨) وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٦) لابن أبي حاتم.

وأبو إسحاق السبيعي وقتادة[١] وسعيد بن المسيب[٢] والحسن البصري[٣] وعكرمة مولى ابن عباس ومجاهد بن جَبْر[٤]: الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وقال غير واحد من السلف في الآية: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾: بعد النظر إليه، والأحاديث عنهم بذلك صحيحة، ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة، دلَّ على أنه أمر آخر وراء الجنة، وقدر زائد عليها، ومَنْ فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان، فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى.

فصل

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥] ووجه الاستدلال بها أنه ﷻ جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم

---

(١) أسند الآثار السابقة بهذه الترتيب: الدارقطني في «الرؤية» (٢٠٨ ـ ٢٢٤) **وأثر ابن أبي ليلى** عند ابن جرير في «التفسير» (١٢/ ١٥٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١١٩)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٥٢)، ونعيم بن حماد في «الزيادات على زهد ابن المبارك» (٧٩ ـ ٨٠)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٤٥)، وعبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٢٩٦)، واللالكائي في «السنة» (٧٩٢) **وإسناده صحيح**.
وأثر عامر بن سعد البجلي عند عبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٧٢، ١١٤٥)، وابن جرير (١٩/ ١٥٦)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٢٠)، واللالكائي (٧٩٣) **وإسناده صحيح**.
وأثر السُّدِّي، عند الدارقطني في «الرؤية» (٢١٦) وفي إسناده الحكم بن ظهير الفزاري، **متروك**.
وأثر الضحاك عند الدارقطني (٢١٩، ٢٢٠) بإسنادين متفرقين **واهيين**.
وأثر ابن سابط عند سعيد بن منصور (١٠٥٩ ـ تفسير)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٤٢٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٥)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢٩٢)، وابن جرير (١٢/ ١٦٢)، والدارقطني في «الرؤية» (٢٢١، ٢٢٢) **وأثر أبي إسحاق السبيعي**، عند ابن جرير (١٢/ ١٥٧)، والدارقطني في «الرؤية» (٢٢٣)، واللالكائي في «السنة» (٧٩٤).
وأثر قتادة عند ابن خزيمة في «التوحيد» (١٢١)، وعبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٢٩٤)، وابن جرير (١٩/ ١٦١)، والدارقطني في «الرؤية» (٢٢٤)، واللالكائي في «السنة» (٧٩٨) وهو **صحيح**.

(٢) أخرجه البيهقي في «الاعتقاد» (٧٨)، واللالكائي في «السنة» (٧٨٩).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١١٤٦)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١٢١)، وابن جرير (١٩/ ١٦٠)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٣٢)، واللالكائي (٧٩٠)، وهو **صحيح**.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٩/ ١٦٣ ـ ١٦٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٤٥) وهو في «تفسر مجاهد» (ص٣٨٠)، وعزاه في «الدر المنثور» (٣/ ٣٠٦) لابن أبي شيبة وابن المنذر.

محجوبين عن رؤيته واستماع[1] كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضاً محجوبين عنه، وقد احتجَّ بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة، فذكر الطبراني[2] وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾: فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة[3].

وقال الحاكم بسنده إلى الربيع بن سليمان قال: حضر محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾؟ فقال الشافعي: «لما حجب هؤلاء في السخط، كان في ذلك دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى». قال الربيع: فقلت: يا أبا عبد الله، وبه تقول؟ قال: نعم، وبه أدين الله، ولو لم يتيقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عَبَدَ الله ﷻ[4]. رواه الطبراني في «شرح السنة» من طريق الأصم أيضاً.

وقال أبو زرعة الرازي: سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبد الحكم: هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد[5]: وسئل الشافعي عن الرؤية فقال: يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله ﷻ.

فصل

الدليل الخامس: قوله ﷻ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥] قال الطبراني[6]: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله ﷻ، وقاله من التابعين زيد بن وهب وغيره[7].

(١) في مطبوع «حادي الأرواح»: «وسماع».
(٢) في مطبوع «حادي الأرواح»: «فذكره الطبري».
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه اللالكائي في «شرح الاعتقاد»، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٣١٤).
(٥) بعدها في مطبوع «حادي الأرواح»: «ابن عبد الله: ليس يراه إلّا المؤمنون، قال محمد:».
(٦) في مطبوع «حادي الأرواح»: «الطبري».
(٧) أما أنس؛ فقد روي عنه مرفوعاً، وسبق قريباً تخريجه، وهو حديث **واهٍ جداً**، مداره على نوح بن أبي مريم، وأما علي، فقد أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٥) =

فصل

الدليل السادس: قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [الأنعام: ١٠٣] والاستدلال بهذا أعجب، فإنه من أدلة النفاة، وقد قرّر شيخُنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: **أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله**، فمنها هذه الآية، وهي على جواز الرؤية أدلّ منها على امتناعها، فإن الله سبحانه إنما ذكرها في سياق المدح[1]، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية. وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به، وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمَّن أمراً وجودياً كتمدحه بنفي السِّنة والنوم المتضمِّن كمال القيومية، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمّن كمال ربوبيته وإلٰهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمّن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمّن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمَّن أمراً ثبوتياً[2]، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمرٍ يشترك[3] هو والمعدوم فيه، فلو كان المراد بقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أنه لا يرى بحال، لم يكن في ذلك مدح ولا كمال؛ لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يُرى ولا تُدركه الأبصار والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإذاً المعنى أنه يُرى ولا يُدرَك ويُحاط به، كما كان المعنى في قوله: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ [يونس: ٦١] أنه يعلم كل شيء.

وفي قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨] أنه كامل القدرة.

= وفي إسناده الحارث الأعور، **فإسناده ضعيف**.
أما عن زيد بن وهب، فعند ابن جرير (١٢/ ١٦٤) وعزاه في «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٩) لأبي الشيخ أيضاً.

(١) في مطبوع «حادي الأرواح»: «التمدح».

(٢) كذا في مطبوع «حادي الأرواح»، وفي الأصل: «تبرئياً»!

(٣) كذا في مطبوع «حادي الأرواح»، وفي الأصل: «يشرك»!

وفي قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] أنه كامل العدل.

وفي قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه كامل القيومية.

فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يدخل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يُدرَك بحيث يُحاط به.

فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢] فلم ينفِ موسى الرؤية ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: إنا لمرئيون، فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم بقوله ﴿كَلَّآ﴾ وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم، بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ[1] إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧]. فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يدرك، كما يُعلم ولا يُحاط به.

وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية.

قال ابن عباس: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيط به الأبصار[2].

وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار[3].

وقال عطية[4]: ينظرون إلى الله، ولا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره محيط بهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣][5] فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عياناً ولا تدركه أبصارهم، بمعنى أنه لا تحيط به، إذ كان غير جائز أن يوصف الله ﷻ بأن شيئاً يحيط به وهو بكل شيء محيط، وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه ولا يحيطون بكلامه، وهكذا يعلم الخلق ما علَّمهم ولا يحيطون بعلمه[6].

ونظير هذا: استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

---

(١) في الأصل: «أوصينا»!

(٢) أخرجه ابن جرير (٩/٤٥٩) بإسناد مسلسل بالضعفاء.

(٣) أخرجه ابن جرير (٩/٤٥٩) وعبد بن حميد وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٣/٣٧).

(٤) هو عطية العوفي.

(٥) انظر: «تفسير ابن جرير» (٩/٤٥٩ ـ ٤٦٠).

(٦) انظر: «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (١٠٥ ـ ١٠٦) للعلامة الشنقيطي.

شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله، وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مَثَلٌ فيها، وإلا فلو أُريد بها نفي الصفات، لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه، مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثل له[١]، وليس له نظير، ولا شبه، ولا مثل، أنه قد يتميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته فات أمثاله وبَعُدَ عن مشابهة أضرابه، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ من أدلِّ شيء على كثرة نعوته وصفاته، وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من أدل شيء على أنه يُرى ولا يُدْرَك. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤] من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارجاً عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه فيراهم، وينفذهم بصره، ويحيط بهم علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا. وتأمل حُسْنَ هذه المقابلة لفظاً ومعنى بين قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه[٢] وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفي عليه، فهو العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

فصل

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها، والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها، وجدتها منادية نداء صحيحاً[٣] أن الله سبحانه يُرى عياناً بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يُسمِّيه

---

(١) في مطبوع «حادي الأرواح»: «لا مثيل له».
(٢) كذا في مطبوع «حادي الأرواح»، وفي الأصل: «لطفه»!
(٣) في مطبوع «حادي الأرواح»: «صريحاً».

المحرِّفون تأويلاً، فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها، وتأويل كل نص تضمّنه القرآن والسنة كذلك، **ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأوَّل النصوص ويحرِّفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدِّين والدنيا.**

وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محلّه في هذه الآية، وتعديته بأداة «إلى» الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة، تدلُّ على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بإلى خلاف حقيقته وموضوعه، صريح في أنَّ الله ﷻ أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله؛ فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صِلاته وتعدِّيه بنفسه.

فإن عُدِّي بنفسه، فمعناه التوقف والانتظار، كقول تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] وإنْ عُدِّي بـ(في) فمعناه التفكر والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وإن عُدِّي بـ«إلى» فمعناه المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩] فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟ قال يزيد بن هارون: أنبأنا مبارك عن الحسن قال: «نَظَرَتْ إلى ربها تبارك وتعالى، فنضرت[1] بنوره»[2] فاسمع الآن أيّها السُّني تفسير النبي ﷺ وأصحابه والتابعين وأئمة الإسلام لهذه الآية:

قال ابن مردويه في «تفسيره» بسنده إلى عبد الله بن عمر[3] قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة: ٢٢] قال: **«من البهاء والحسن»** ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال: **«في وجه الله ﷻ»**[4].

---

(١) في الأصل: «فنظرت»! والمثبت من مصادر التخريج.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ٢٦١)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٩٩١)، واللالكائي في «السنة» (٨٠٠)، والدارقطني في «الرؤية» (٢١٧)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٣٣)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٥/ ١١١)، **وإسناده لا بأس به.**

(٣) كذا في مطبوع «حادي الأرواح»، ومصادر التخريج، وفي الأصل: «ابن عمرو»!

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٣، ٦٤)، وعبد بن حميد (٨١٩)، والترمذي (٢٣٣٠، ٣٥٥٣)، وأبو يعلى (٥٧١٢، ٥٧٢٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٦٠٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٤٦٤)، وابن جرير في «التفسير» (٢٣/ ٥١٠)، والدارقطني في «الرؤية» (١٧٤)، والحاكم (٢/ ٥٠٩)، وابن النحاس في «رؤية الله تبارك وتعالى» (٩)، واللالكائي في =

وقال أبو صالح عن ابن عباس ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[١] قال: «تنظر إلى ربها نظراً»[٢] ثم حكي عن ابن عباس مثله، وهذا قول كُلِّ مفسر من أهل السنة والحديث.

فصل

وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدَّالَّة على الرؤية، فمتواترة، رواها عنه أبو بكر الصديق[٣] [وأبو هريرة][٤] وأبو سعيد الخدري[٥] وجرير بن عبد الله البجلي[٦] وصهيب بن سنان الرومي[٧] وعبد الله بن مسعود الهذلي[٨] وعلي بن أبي طالب[٩] وأبو موسى الأشعري[١٠] وعدي بن حاتم الطائي[١١] وأنس بن مالك الأنصاري[١٢] وبريدة بن الحصيب[١٣]

= «السنة» (٨٤١)، والآجري في «الشريعة» (٢٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٨٧)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٤٣٢، ٤٣٣)، والبغوي (٤٣٩٥، ٤٣٩٦)، وفي «التفسير» (٤/ ٤٢٤) **وإسناده ضعيف جداً**، فيه ثوير بن أبي فاختة متروك.

(١) بعدها في مطبوع «حادي الأرواح»: «قال: تنظر إلى وجه ربها ﷻ، وقال عكرمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ قال: من النعيم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾» والسياق يدل عليها، فتأمله!

(٢) هذا التفسير مروي عن عكرمة، أسنده عنه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٥٣)، وابن جرير (٢٣/ ٥٠٧)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٨١)، والآجري في «الشريعة» (٥٨٦)، واللالكائي في «السنة» (٨٠٣) وقوله الآتي: «ثم حكي عن ابن عباس مثله» يشير إلى أن هذا القول ليس له، وانظر المأثور عن ابن عباس عند الدارقطني في «الرؤية» (٢٦٨ ـ ٢٧٠، ٢٧٢ ـ ٢٨٤)، و«السنة» للالكائي (٧٩٩) مع التعليق عليه.

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) سيأتي تخريجه وما بين المعقوفتين سقط من ط. ابن كثير من «حادي الأرواح».

(٥) سيأتي تخريجه.

(٦) سيأتي تخريجه.

(٧) سبق تخريجه.

(٨) أخرجه ابن منده في «الإيمان» (٨٤٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٢٠٣)، والطبراني (٩٧٦٣، ٩٧٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٧٦)، والبيهقي في «البعث» (٤٣٤)، والدارقطني في «الرؤية» (١٦٠ ـ ١٦٤) **وإسناده صحيح**.

(٩) سبق تخريجه.

(١٠) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(١١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥).

(١٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

(١٣) أخرجه الدارقطني في «الرؤية» (١٨٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٤٦٩)، =

وأبو رَزِين العُقيلي[١] وجابر بن عبد الله الأنصاري[٢] وأبو أمامة الباهلي[٣] وزيد بن ثابت[٤] وعمار بن ياسر[٥] وعائشة أم المؤمنين[٦] وعبد الله بن عمر، وعمارة بن رؤيبة[٧]، وسلمان الفارسي[٨]، وحذيفة بن اليمان[٩]، وعبد الله بن عباس[١٠]،

= واللالكائي (٨٥٣). وفيه عبد العزيز بن أبان الأموي متروك، **فإسناده ضعيف جداً**.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وأحمد (٤/ ١١)، وابنه عبد الله في «السنة» (ص٥٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١٧٨)، والدارقطني في «الرؤية» (١٨٦ ـ ١٩٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٥٩، ٤٦٠)، والطبراني (١٩/رقم ٤٦٥، ٤٦٦)، واللالكائي في «السنة» (٨٣٩)، والحاكم (٤/ ٥٦٠) **وإسناده ضعيف**، فيه وكيع بن عدس (أو حدس)، وللحديث شواهد هو بها **حسن**.

(٢) أخرجه مسلم (١٩١)، وأحمد (٣/ ٣٨٣، ٣٤٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٠٠)، وابن ماجه (٤٠٧٧)، وعبد الله بن أحمد (١٠٠٨)، وابن أبي عاصم (٣٩١، ٤٢٩) كلاهما في «السنة»، والدارقطني في «الرؤية» (٦٧ ـ ٦٨)، والطبراني (٧٦٤، ٦٧٤٥)، والآجري في «الشريعة» (٣٧٥) **وإسناده ضعيف**، فيه عمرو بن عبد الله الحضرمي لم يرو عنه سوى ابنه يحيى، وسقط من بعض الأسانيد، فلا تظن أنه متابع، والمقام لا يحتمل التفصيل والبسط، وانظر ـ لزاماً ـ: «النكت الظراف» (٤/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٩١)، والحاكم (١/ ٥١٦، ٥١٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٢٦)، واللالكائي (٨٤٦)، والأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (٢٢٠) **وإسناده ضعيف**، فيه أبو بكر بن أبي مريم.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٩، ٣٠)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (١٨٩)، و«الرد على المريسي» (١٦٠)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٨٦)، وأبو القاسم الأصبهاني في «الحُجَّة في بيان المحجة» (٢١٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٢٤ ـ ٤٢٦)، والدارقطني في «الرؤية» (١٧٤)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٤، ٦٢٥)، والبيهقي في «الأسماء» (٢٢٧)، والحديث **صحيح**، وصححه شيخنا الألباني.

(٦) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٠٣)، والبزار (٢٧٠٦ ـ كشف الأستار)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٩٨).

(٧) لم يورده أصحاب كتب العقائد المسندة، على الرغم من شدة تتبعي لما ورد في الباب.

(٨) لم أجده، فنظرة إلى ميسرة.

(٩) أخرجه البزار (٣٥١٨)، وابن بطة في «الإبانة» (٣/ ٣٢ ـ الرد على الجهمية)، واللالكائي (٨٥٤) **وإسناده ضعيف، وصح عنه موقوفاً**، وسبق تخريجه قريباً.

(١٠) أخرجه أحمد (١/ ٢٨١، ٢٨٥)، وأبو يعلى (٢٣٢٨)، وابن أبي شيبة في «العرش» (٤٦)، والطيالسي (٢٧٩٨ ـ المنحة)، واللالكائي (٨٤٣)، والبيهقي في «الدلائل» =

وعبد الله بن عمرو بن العاص[١] ـ وحديثه موقوف ـ وأبيّ بن كعب[٢]، وكعب بن عجرة[٣]، وفضالة بن عبيد[٤] ـ وحديثه موقوف ـ ورجل من أصحاب النبي ﷺ غير مسمى[٥]، فهاك سياق أحاديثهم من «الصحاح» و«المسانيد» و«السنن»، وتلقَّها بالقبول والتسليم وانشراح الصدر، لا بالتحريف والتبديل وضيق العَطَن، ولا تكذّب بها، فمن كذب بها لم يكن إلى وجه ربه من الناظرين، وكان عنه يوم القيامة من المحجوبين.

فصل

فأما حديث: أبي بكر الصديق، فقال الإمام أحمد بسنده إلى أبي بكر الصديق قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم، فصلى الغداة فجلس حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله ﷺ، ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى والعصر والمغرب، كل ذلك لا يتكلم حتى صلى العشاء الأخيرة، ثم قام إلى أهله، فقال الناس لأبي بكر: ألا تسأل رسول الله ﷺ ما شأنه صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط؟ قال: فسأله، فقال: «**نعم، عرض علي ما هو كائن من الدنيا والآخرة، فجمع الأولون والآخرون في صعيد واحد، فقطع الناس بذلك حتى انطلقوا إلى آدم ﷺ والعرق يكاد يلجمهم، فقالوا: يا آدم أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله ﷻ، اشفع لنا إلى ربك. قال: لقد لقيت مثل الذي لقيتم، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم إلى نوح:** ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣]. **قالا: فينطلقون إلى نوح ﷺ، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله واستجاب لك في دعائك، ولم يَدَعْ على الأرض من الكافرين دياراً،**

= (٥/ ٤٨١)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٣٠١) **وإسناده ضعيف**، فيه علي بن زيد بن جدعان.

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٨)، والدارقطني في «الرؤية» (١٨٥)، وابن بطة في «الإبانة» (٣/ ٤٤ ـ ٤٥ رقم ٣٣ ـ الرد على الجهمية» **وإسناده حسن**.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الدارقطني في «الرؤية» (٢٠٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٢٧)، واللالكائي (٨٤٧)، وعزاه في «المجمع» (١٠/ ١٧٧) للطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وقال: «ورجالهما ثقات» والأثر **صحيح بطريقيه**.

(٥) أخرجه مسلم (١٦٩).

فيقول: ليس ذلكم عندي، انطلقوا إلى إبراهيم ﷺ، فإن الله اتخذه خليلاً، فينطلقون إلى إبراهيم فيقول: ليس ذلكم عندى انطلقوا إلى موسى ﷺ؛ فإن الله ﷻ كلمه تكليماً، فيقول موسى ﷺ: ليس ذلك عندي، انطلقوا إلى عيسى ابن مريم عليه السلام؛ فإنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، فيقول عيسى: ليس ذلكم عندي، انطلقوا إلى سيد ولد آدم، انطلقوا إلى محمد ﷺ، فليشفع لكم إلى ربكم ﷻ.

فينطلقون، فيأتي جبريل ربه تبارك وتعالى، فيقول له الله ﷻ: ائذن له وبشِّره بالجنة، فينطلق به جبريل عليه السلام فيخر ساجداً قدر جمعة، ويقول الله ﷻ: ارفع رأسك، وقُل تسمع، واشفع تشفع، قال: فيرفع رأسه؛ فإذا نظر إلى وجه ربه خر ساجداً قدر جمعة أخرى، فيقول الله ﷻ: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع، قال: فيذهب ليقع ساجداً، فيخر جبريل بضبعيه، فيفتح الله عليه من الدعاء شيئاً لم يفتحه على بشر قط، فيقول: أي رب خلقتني سيد ولد آدم، ولا فخر، وأول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، حتى إنه ليرد عليَّ الحوض أكثر مما بين صنعاء وأيلة، ثم يقال: ادعوا الصِّدِّيقين فيشفعون، ثم يقال: ادعوا الأنبياء، قال: فيجيء النبيُّ ومعه العصابة، والنبي ومعه الخمسة، والستة، والنبي وليس معه أحد، ثم يقال: ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا، قال: فإذا فعلت الشهداء ذلك. قال: يقول الله ﷻ: أنا أرحم الراحمين، ادخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئاً، قال: فيدخلون الجنة. قال: ثم، يقول الله ﷻ: انظروا في أهل النار، هل تلقون من أحد عمل خيراً قط؟

قال: فيجدون في النار رجلاً فيقولون له: هل عملت خيراً قط؟ فيقول: لا، غير أني كنت أسامح الناس في البيع، فيقول الله ﷻ: اسمحوا لعبدي بسماحته إلى عبيدي، ثم يخرجون من النار رجلاً، فيقول له: هل عملت خيراً قط؟

فيقول: لا. غير أني أمرت ولدي إذا مت فأحرقوني في النار، ثم اطحنوني حتى إذا كنت مثل الكُحل، فاذهبوا بي إلى البحر، فاذْرُوني في الريح، فوالله لا يقدر عليَّ رب العالمين أبداً[1].

---

(١) هنا شيء ناقص تقديره إلا عاقبني (منه)

قال أبو عبيدة: كأنه قال ذلك على هذا التقدير مما لحقه من شدّة الحال، وتغيير العقل، وكأنه لم يقل ذلك تكذيباً للقدرة، وانظر: لهذه الفائدة «مجموع فتاوى ابن تيمية» =

فقال الله ﷻ له: لم فعلت ذلك؟ قال: من مخافتك، قال: فيقول الله ﷻ: انظر إلى ملك أعظم ملك فإن لك مثله وعشرة أمثاله.

قال: فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: وذلك الذي ضحكت منه من الضُّحى»(١).

فصل

وأما حديث: أبي هريرة وأبي سعيد، ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟**» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «**هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب**»؟ قالوا: لا. قال: «**فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله ﷻ، في صورته ـ التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا، فيتّبعونه، ويضرب الصراط بين ظهراني**

= (١١/٤٠٩ ـ ٤١١ و٣/٢٢٩). ولبقيةِ فوائد هذا الحديث ينظر كتابي «من قصص الماضين» (ص٢٤٤ ـ ٢٤٦).

(١) أخرجه أحمد (١/٤)، وأبو يعلى (٥٦، ٥٧)، والبزار (٧٦ أو ٣٤٦٥ ـ كشف الأستار)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٥١، ٨١٢)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٥٧، ٨٨)، والمروزي في «مسند أبي بكر الصديق» (١٥)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/١٥٥)، وأبو عوانة (١/١٧٥)، وابن حبان (٦٤٧٦) **وإسناده حسن**، وانظر: «العلل» للدارقطني (١/١٩٠ ـ ١٩١) وتعقبه في «لسان الميزان» (٦/٢١٦).

(فائدة) نقل ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٧٩ ـ الإحسان) عن ابن راهويه قوله في آخر الحديث: «هذا من أشرف الحديث، وقد روى هذا الحديث عدّة عن النبي ﷺ نحو هذا، منهم: حذيفة وابن مسعود وأبو هريرة، وغيرهم».

قال أبو عبيدة: وقصة الرجل الذي أوصى بنيه أن يحرِّقوه عند البخاري (٣٤٧٨)، ومسلم (٢٧٥٧) من حديث أبي سعيد، والبخاري (٣٤٧٩، ٦٤٨٠) عن حذيفة، والبخاري (٣٤٨١، ٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة، وفي الباب عن معاوية بن حيدة القشيري وسلمان وأبي بكر الصديق وأبي مسعود الأنصاري، خرجتها في كتابي «من قصص الماضين» (ص٢٣٣ ـ ٢٤٢).

جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل، ودعوى الرسل - يومئذٍ - اللهمّ سلِّم سلِّم! وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السَّعدان؟». قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ﷻ، يخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المجاز حتى ينجوا[1]، فإذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخرِجَ برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يقول: لا إله إلا الله، فيعرفونهم بأثر السجود، وتأكل النار من ابن آدم كل شيء إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عليهم ماء الحياة، فينبتون كما تنبت الحِبَّةُ في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها. فيدعو الله ما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسيت إن فعلت ذلك أن تسأل غيره، فيقول: لا أسألك غيره، فيعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب قدمني إلى باب الجنة، فيقول الله: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فيقول: أي رب، فيدعو الله حتى يقول له: فهل عسيت أن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي ربه ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة، انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الخير والسرور، فسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة. فيقول الله تبارك وتعالى له: أليس قد أعطيت عهودك، ومواثيقك أن لا تسألني غير ما أعطيت، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: أي رب لا أكون أشقى خلقك فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك الله منه، قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها، قال الله له: تمنَّ، فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكره فيقول: تمن كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله ﷻ: ذلك لك ومثله معه».

---

(١) في مطبوع «صحيح البخاري»: «ومنهم من يخردل ثم ينجو».

قال أبو سعيد: «**وعشرة أمثاله معه**».

قال عطاء بن يزيد وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة: لا يرد عليه من حديثه شيئاً حتى إذا حدث أبو هريرة: قال: «**إن الله ﷻ قال لذلك الرجل: ومثله معه**».

قال أبو سعيد: «**وعشرة أمثاله معه**» يا أبا هريرة. قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: «**ذلك لك ومثله معه**».

قال أبو سعيد أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «**ذلك لك وعشرة أمثاله**».

قال أبو هريرة: «**وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة**»(١).

وفي «الصحيحين» أيضاً عن أبي سعيد الخدري: إن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ «**نعم: هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية البدر ليس دونه سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**ما تضارون في رؤيته تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذِّن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبر أهل الكتاب**(٢)**، فتدعى اليهود فيُقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فقال: كذبتم ما اتخذ الله من صحابة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تَرِدُون، فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار. ثم تدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا؛ فاسقنا، قال: فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي**

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٢) في مطبوع «صحيح البخاري»: «غُبرَّات من أهل الكتاب».

رأوه فيها. قال: فما تنتظرون؟ لتتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم. فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً ـ مرتين، أو ثلاثاً ـ حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب.

فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟

فيقولون: نعم، فيكشف عن ساقه، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا. ثم يُضْرَبُ لهم الجسر على جهنم وتحلُّ الشفاعة».

قيل: يا رسول الله وما الجسر؟

قال: «دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وكحسكة[1] تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة في استيفاء الحق من المؤمنين لله تعالى يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلون، ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى أنصاف سوقهم[2]، إلى ركبهم فيقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا».

فيقول: ارجعوا [ارجعوا][3] فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً.

ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً قط».

---

(١) في مطبوع «صحيح البخاري»: «وحسكة مفلطحة لها شوكة عُقيفاء».

(٢) في مطبوع «صحيح البخاري»: «إلى أنصاف ساقيه».

(٣) غير موجود في مطبوع «صحيح البخاري».



وكان أبو سعيد الخدري يقول: «إن لم تصدقوني بهذا الحديث، فاقرأوا إن شئتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]. فيقول الله ﷻ: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون؛ ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون منها إلى الشمس، أصفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض**» فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية.

قال: «**فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفون**[١] **أهل الجنة.**

فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم.

فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين.

فيقول: لكم عندي أفضل من هذا فيقولون: ربنا، وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول تعالى: رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً».اهـ[٢].

فصل

وأما حديث: جرير بن عبد الله، ففي «الصحيحين» أنه قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «**إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا**» **ثم قرأ قوله**: ﴿وَسَبِّحْ[٣] بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩][٤].

رواه جماعة عنه، منهم: زيد ابن أبي أنيس وجوَّده، فقال: «**فستعاينون ربكم ﷻ كما تعاينون هذا القمر**».

وأبو شهاب الخياط، وقال: «**سترون ربكم عياناً**»، وذكر جماعة وقال:

---

(١) في مطبوع «صحيح البخاري»: «فيعرفهم».

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٢).

(٣) في الأصل: «فسبح»!!

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

وكل هؤلاء شهدوا على إسماعيل ابن أبي[1] خالد.

ومضى إلى أن قال: «فكأنك تسمع رسول الله ﷺ وهو يقوله، ويبلّغه لأمته ولا شيء أقرَّ لأعينهم منه، وشهدت الجهمية والفرعونية والرافضة والقرامطة والباطنية وفروخ الصابئة والمجوس واليونان بكفر من اعتقد ذلك، وأنه من أهل التشبيه والتجسيم وتابعهم على ذلك كل عدو للسنة وأهلها، والله تعالى ناصر كتابه، وسنة رسوله، ولو كره الكافرون»[2].

قال محمد تقي الدين: ثم ذكر ابن القيم رحمه الله عن كل واحد من الصحابة المذكورين حديثاً مماثلاً لما تقدم في المعنى، بعض هذه الأحاديث مبسوط، وبعضها مختصر، ولولا خوف السآمة من القارئ والمستمع لذكرتها كلَّها، فمن شاء استيفاءها؛ فليراجعها في المصدر المذكور.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

[الأنعام: ١٥٨]

قال (ك): «يقول تعالى متوعداً للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين آياته والصادّين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها، كما قال (خ) في تفسير هذه الآية بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها**» فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾[3]: وذكر بسنده عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها**»

(١) كلمة (أبي) من مطبوع «حادي الأرواح»، وسقطت من الأصل.
(٢) انظر: «حادي الأرواح» (ص٣٤١ ـ ٣٦٣، ط. ابن رجب) بتصرف.
(٣) أخرجه البخاري (٤٦٣٥).

وفي لفظ: «**فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل**» ثم قرأ هذه الآية[١]، هكذا روي هذا الحديث من هذين الوجهين ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة في كتبهم[٢] إلا الترمذي. اهـ»[٣].

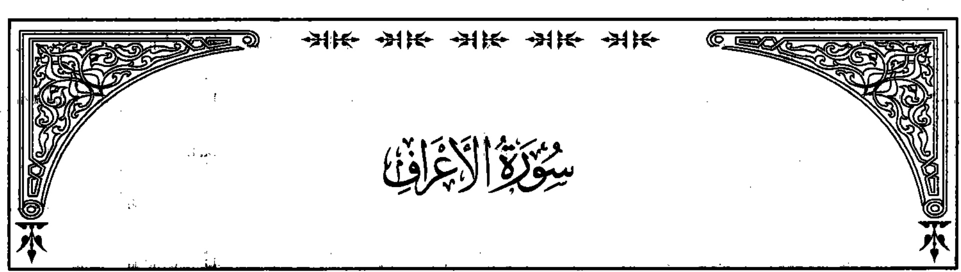
قال محمد تقي الدين: وقد تقدم الكلام في سورة البقرة على صفة الإتيان والمجيء، وما في معناهما بما يشفي ويكفي، والحمد لله رب العالمين.اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٧)، وأبو داود (٤٣١٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١١١٧٧)، وابن ماجه (٤٠٦٨).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٢٧).



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]

«قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال مجاهد وأحمد بن حنبل وابن عباس والضحاك: إنها من أيام الله التي قال فيها: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]»[١]، وقد يطلق اليوم على المدة الطويلة من الزمان، كما قال تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وكما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤] أي: يوم الجزاء وهو مدة طويلة، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الإنفطار: ١٩]، فاليوم هنا معناه الزمان!

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال (ك): «فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك[٢] في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد[٣] وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين، قديماً وحديثاً، وهو: إمرارها كما جاءت، من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم: نعيم بن

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٣١٩).
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يسلك».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أحمد بن حنبل».

حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: «من شبَّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر» وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى»[(١)].

قال محمد تقي الدين: أفتتح هذه المعركة في إثبات علو الله تعالى باسم الله الواحد الأحد، وبه أستعين على كل جهمي معطل أن يمنحنا النصر والظفر على تطهير القلوب والألسنة من عقيدة المعطلين نفاة الصفاة الذين لا يعرفون معبودهم فيجردونه من الصفات حتى يصير عدماً، وأبدأ بما تضمنه «كتاب العلو»[(٢)] للحافظ النَّقَّاد شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقي الشهير بالذهبي المولود سنة ٦٧٣ والمتوفى سنة ٧٤٨.

الآيات الدالة على علو الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؟ [وقال]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] وقال تعالى في وصف كتابه العزيز: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٤ ـ ٥] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]. إلى غير ذلك من آيات الاستواء، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا بَل

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٦/٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٢) طبع أكثر من مرة، أولها بتحقيق عبد الرحمٰن محمد عثمان باسم «العلو للعلي الغفار»: وهكذا تتمة العنوان في «مختصر» شيخنا الألباني له! واسمه الصحيح «العلو للعلي العظيم»، وطبع بهذا الاسم بتحقيق عبد الله البراك، عن دار الوطن في مجلدين.

﴿رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧] وقال تعالى في الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦، ١٧] وقال تعالى: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣، ٤] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] إلى غير ذلك من نصوص القرآن العظيم جل مُنَزِّله وتعالى قائلُه.

فإن أحببت يا عبد الله الإنصاف، فقِف مع نصوص القرآن والسنن ثم انظر ما قال الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات، وما حكوه من مذاهب السلف، فإما أن تنطق بعلم، وإما أن تسكت بحلم، ودع المراء والجدال، فـ«**إنَّ المراء في القرآن كفر**»[1]. كما نطق بذلك الحديث الصحيح، وسترى أقوال

---

(١) أخرجه الدارقطني في «العلل» (٩/ ٣١٧)، وأبو إسماعيل الهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/ ٤ رقم ١٦٠ ـ تحقيق عبد الرحمٰن الشبل) عن طاهر بن خالد، والهروي (٢/ ٥) عن موسى بن سهل الرملي، وابن عدي في الكامل» (٥/ ١٦٩٩) عن ابن أبي قرصافة، والدينوري في «المجالسة» رقم (٣٤٩٧) عن ابن ديزيل؛ أربعتهم قالوا: حدثنا آدم بن إياس، نا شيبان، عن منصور، عن سعد بن إبراهيم، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة رفعه.
وأخرجه ابن حذلم في «حديثه» رقم (٣)، وعنه تمام في «الفوائد» (٤/ ١٢٠ رقم ١٣٢١ ـ ترتيبه) عن أبي القاسم يزيد بن داود بن عبد الصمد، نا آدم بن أبي إياس، به ـ وسقط منه ذكر عمر بن أبي سلمة!! ـ.
وتابع آدم على ذكر عمر بن أبي سلمة عن أبيه فيه: حجاج، وعنه أحمد في «المسند» (٢/ ٤٩٤).
وهكذا رواه عن منصور: عمرو بن أبي قيس، أخرجه من طريقه أبو إسماعيل الهروي في «ذم الكلام وأهله» (٣/ ٥)، وأفاده الدارقطني في «العلل» (٩/ ٣١٦).
وخالف شيبان وابن أبي قيس أبو المحيّاة يحيى بن يعلى؛ فرواه عن منصور، عن سعد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، وأسقط (عمر بن أبي سلمة).
أخرجه هكذا: ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٥٢٩، ط. الهندية، و٦/ ١٤٢ رقم ٣٠١٦٩، ط. الفكر) ـ ومن طريقه الآجري في «الشريعة» (١/ ٢٠٣ رقم ١٤٨ ـ تحقيق الأخ وليد سيف) ـ، وأبو يعلى في «المسند» (١٠/ ٣٠٣) رقم (٥٨٩٧)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٨١).
وأخطأ أبو المحياة في هذا الإسقاط.
=

....

= وتوبع منصور على ذكر عمر فيه، تابعه:
* سفيان الثوري.
أخرجه أحمد في «المسند» (٢/٤٧٨) ـ ومن طريقه الخلال في «السنة» (٥/٧٨) رقم (١٦٦٣) ـ عن وكيع وعبد الرحمٰن بن مهدي، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/٧) رقم (١٦٢) عن عبد الرحمٰن بن مهدي، والبيهقي في «الشعب» (٢/٤١٦ رقم ٢٢٥٦، ط. دار الكتب العلمية) عن محمد بن يوسف وأبي أحمد الزبيري؛ جميعهم عنه، به.
* ليث بن أبي سليم.
واختلف عليه فيه؛ فرواه أبو كدينة يحيى بن المهلب عنه، وجوَّده.
وأرسله معتمر والطفاوي (محمد بن عبد الرحمٰن أبو المنذر) عن ليث، فقالا: عنه، عن سعد، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبي هريرة، وقال زهير وزائدة وجرير: عن ليث، عن سعد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة. أفاده الدارقطني في «العلل» (٩/٣١٦ ـ ٣١٧).
قلت: لعل ليثاً جوّده قبل اختلاطه، وأخرجه الهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/٦ ـ ٧) رقم (١٦١) عن زهير بن معاوية الجعفي، عن ليث، به.
وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/٢٢٣، ط. الهندية، و٢/٢٤٣ ورقم ٢٨٨١، ط. مصطفى عطا) عن أبي عاصم، عن سعيد، عن سعد بن إبراهيم، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، به.
ولم يذكر المزي في «تهذيب الكمال» (١٠/٢٤٢ ـ ٢٤٣) في ترجمة (سعد بن إبراهيم) من الرواة عنه من اسمه سعيد!! فلعل في مطبوع «المستدرك» تطبيعاً، وما أكثر ذلك فيه، والطبعة الأخرى لا يوجد فيها كبير فائدة في هذا الباب، وما زال الكتاب بأمس الحاجة إلى مقابلة وتحقيق، يسر الله له نابهاً من طلبة العلم.
وروى أبو عاصم ـ وهو: الضحاك بن مخلد ـ عن سعيد بن أبي عروبة وسعيد بن عبد العزيز التنوخي، فلعل المذكور أحدهما، ذكر ذلك المزي في تراجمهم الثلاث في «تهذيب الكمال» (٣/٣٨٢ و١٠/٥٤١ و١١/٧).
قال الدارقطني: «وكذلك قال زكريا بن أبي زائدة وسليمان التيمي عن سعد بن إبراهيم، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، وقال إبراهيم: عن أبيه، عن أبي سلمة، أو عن حميد مرسلاً عن النبي ﷺ».
قال: «والصحيح قول الثوري ومن تابعه».
قلت: أخرجه أحمد في «المسند» (٢/٢٥٨)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٥٤، ط. ابن كثير)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/٦) رقم (١٦١) عن ابن أبي زائدة، عن سعد ـ وتحرف في مطبوع «المسند» إلى (سعيد) ـ، به.
وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/٥٠٣) ـ وعنه أبو داود في «السنن» رقم (٤٦٠٣) ـ، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٧٩١)، والهروي في «ذم الكلام» (٢/٢) عن يزيد بن هارون، وأحمد في «المسند» (٢/٥٢٨)، وابن حبان في «الصحيح» (٤/٣٢٤ ـ ٣٢٥ رقم =

....

= ١٤٦٤ ـ «الإحسان»)، واللالكائي في «السنة» (١/ ١١٦) رقم (١٨٢) عن محمد بن عبيد، والبزار في «مسنده» (ق١٤٨/ أ ـ ب ـ مسند أبي هريرة، أو ٣/ ٩٠ رقم ٢٣١٣ ـ «زوائده») والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/ ١ ـ ٢) عن عيسى بن يونس، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٢٣) عن المعتمر بن سليمان، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤١٦ رقم ٢٢٥٥، ط. دار الكتب العلمية) عن حماد بن أسامة، والبزار في «مسنده» (٣/ ٩٠ رقم ٢٣١٣ ـ «زوائده») عن محمد بن بشر ـ وتحرف إلى ابن بشير؛ فليصحح ـ، وأبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (٢/ ٢٧٢) عن الأبيض بن الأغرّ و(٢/ ٢٩٢) عن عبيد الله بن شُميط بن عجلان، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢/ ٢٦٣) رقم (١٣٠٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٣٤) عن عبد الله بن شوذب، وأحمد في «المسند» (٢/ ٤٢٤) عن أبي معاوية و(٢/ ٤٧٥) عن يحيى بن سعيد، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٧٩٢)، والآجري في «الشريعة» (ص٦٧، ط. القديمة، و١/ ٢٠٣ رقم ١٤٧) عن سليمان بن بلال، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢١٢ ـ ٢١٣) عن ابن السماك وفي «أخبار أصبهان» (٢/ ١٢٣) عن جناب بن نسطاس، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥) رقم (٣٤٩٩)، والقطيعي في «جزء الألف دينار» رقم (٢١٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١٥)، والهروي في «ذم الكلام» (٢/ ١) عن كهمس بن الحسن، والهروي (٢/ ١ ـ ٢) بأسانيد عن خالد بن عبد الله، والهياج بن بسطام وهارون بن موسى النَّحوي، والذهبي في «السير» (١٠/ ٦٢٤) عن عبد الوارث بن سعيد؛ جميعهم عن محمد بن عمرو بن علقمة ـ وتحرف في «المستدرك» إلى «عن علقمة»!! فليصحح ـ عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رفعه.

قال الحاكم (١/ ٢٢٣): «حديث المعتمر عن محمد بن عمرو صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، فأما عمر بن أبي سلمة؛ فإنهما لم يحتجا به».

قلت: نعم، ولكنه حسن الحديث، قال ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٩٩) ـ وأورد له أحاديث، منها حديثنا هذا ـ: «ولعمر بن أبي سلمة غير ما ذكرت أحاديث، وهذه الأحاديث التي أمليتها عن. . . وسعد بن إبراهيم. . . عنه، كل هذه الأحاديث لا بأس بها، وعمر بن أبي سلمة متماسك الحديث لا بأس به».

وسبق أن الدارقطني صحح هذه الطريق دون سائر الطرق، وقال الهروي في «ذم الكلام» (ص٣ ـ ٤): «وهذا الحديث قد اضطرب فيه على أبي سلمة من وجوه؛ فرواه محمد بن عمرو هكذا، وليس هو بالمحفوظ، وإن كان أشهر في الناس؛ فإن الحفاظ: منصور بن المعتمر، وسفيان الثوري، وابن أبي زائدة؛ خالفوه فيه».

فليست رواية سفيان ومن تابعه «من قبيل المزيد في متّصل الأسانيد»!!

وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» رقم (٨٠٩٣) أو في «فضائل القرآن» (١١٨)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٠٠)، وأبو يعلى في «المسند» (١٠/ ٤١٠) رقم (٦٠١٦)، وعنه ابن حبان في «الصحيح» (رقم ٧٤ ـ «الإحسان»)، وابن جرير في «التفسير» (١/ ١١)، =

....

= والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٦)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/ ٧، ٨ ـ ٩) رقم (١٦٣، ١٦٥)؛ من طرق عن أبي ضمرة أنس بن عياض، عن أبي حازم سلمة بن دينار التَّمّار، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رفعه بلفظ: «**نزل القرآن على سبعة أحرف، والمراء في القرآن كفر** ـ ثلاثاً ـ **ما عرفتم منه؛ فاعلموا، وما جهلتم منه؛ فردوه إلى عالمه**».

وصحح إسناده ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٥١): «رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه».

وشك بعض رواته عن أبي ضمرة في ذكر أبي هريرة ﷺ، ورواه عمرو بن عثمان عن أبي ضمرة، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، لم يذكر فيه أبا سلمة.

أخرجه الهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/ ٨/ ١٦٤).

ولم يسمع أبو حازم من أبي هريرة شيئاً، حتى قال ابنه: «من حدَّثك أن أبي سمع من أحد من الصحابة غير سهل بن سعد؛ فقد كذب». انظر: «تهذيب الكمال» (١١/ ٢٧٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩٧).

فإسناده منقطع.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥/ ١١٧) رقم (٤٢٢٤)، و«الصغير» (١/ ٢٠٧، ٢٠٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ١٣٦)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/ ١٠) رقم (١٦٧)؛ عن محمد بن حمير، حدثنا شعيب بن أبي الأشعث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

قال الطبراني: «لم يروِ هذا الحديث عن هشام بن عروة إلا شعيب بن أبي الأشعث، تفرد به محمد بن حمير».

وقال الخطيب: «غريب من حديث عروة عن... تفرد به شعيب عن هشام عن أبيه، ولم يروه عنه غير ابن حِمْيَر».

قلت: وشعيب، قال أبو حاتم: «مجهول»، وقال الأزدي: «ليس بشيء» كذا في «اللسان» (٣/ ١٤٦) وقال ابن أبي حاتم في «علل الحديث» (٢/ ٧٤) رقم (١٧١٤) ـ وأورد هذا الطريق ـ: «قال أبي: هذا حديث مضطرب، ليس هو صحيح الإسناد، عروة عن أبي سلمة لا يكون، وشعيب مجهول».

وله عن أبي هريرة طريق أخرى.

أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٤٠١) رقم (٣٦٧٩)، و«الصغير» (٤٩٦ ـ «الروض»)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٩٢) عن محمد بن حرب، ثنا يحيى بن المتوكل، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦) عن عبد الله بن رجاء؛ كلاهما عن عنبسة بن مهران الحداد، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة، عن أبي هريرة رفعه.

قال الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن الزهري إلا عنبسة الحداد».

وقال أبو نعيم: «غريب من حديث مكحول، لم نكتبه إلا من حديث ابن حرب». =

....

= والعجب من قولة ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٣/ ٩٢٨) رقم (١٧٦٨): «روى سعيد بن المسيب وأبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«المراء في القرآن كفر»** قال: «ولا يصح فيه عن النبي ﷺ غير هذا بوجهٍ من الوجوه».
قلت: وهذا الطريق من أضعف طرقه؛ فعنبسة قال عنه أبو حاتم: «منكر الحديث»، وقال أبو داود: «ليس بشيء»، والراوي عنه محمد بن حرب النَّشائي ـ بالشين المعجمة، وليس بالمهملة كما في مطبوع «الأوسط» للطبراني؛ فليصحح ـ ضعيف؛ كما في «التقريب».
نعم؛ توبع ابن حرب، ولكن متابعته عدم!
أخرجه المبارك بن عبد الجبار في «الطيوريات» (ج١٥/ ق٢٤٧/ أ ـ «انتخاب السِّلفي») عن أبي يزيد البسطامي، نا إبراهيم الجوزجاني، نا أبو عاصم النبيل، نا عنبسة، به، ولفظه: **«أخِّر كلام في القدر لشرار هذه الأمة، ومراء في القرآن كفر»**، وخرجت هذا الحديث في تعليقي على «الكبائر» برقم (٢٤٦ ـ التحقيق الثاني).
والحديث **صحيح**، وقد أتينا على جميع طرقه عن أبي هريرة ﷺ، ولله الحمد والمنة.
وله شواهد عن عمرو بن العاص، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وأبي جُهيم.
أما حديث أبي جُهيم.
فأخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٦٩ ـ ١٧٠)، وابن جرير في «التفسير» (١/ ١٥، أو رقم ٤١، ط. شاكر)، والطحاوي في «المشكل» (٤/ ١٨٣، ط. الهندية)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٨/ ٢٨٢)، والخلال في «السنة» (٤/ ١٦٥) رقم (١٤٣٥)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٨٠١)، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢/ ١٠ ـ ١١) رقم (١٦٨) عن سليمان بن بلال، عن يزيد بن خُصَيفة، أن بسر بن سعيد أخبره، عنه، به.
وأخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٥٤، ط. دار ابن كثير)، والبخاري في «التاريخ» (٤/ ١/ ٢٦٢)، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (رقم ٧٢٥ ـ زوائده «بغية الباحث»)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤١٩) رقم (٢٢٦٥)، والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦) عن إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن مسلم بن سعيد ـ وليس عن بسر بن سعيد ـ، عنه، به.
واختلف فيه على إسماعيل؛ فقال أبو عبيد: عنه عن يزيد عن مسلم بن سعيد مولى ابن الحضرمي بن سعيد، عن أبي جُهيم الأنصاري، به.
ورواه كما سقناه عنه: علي بن حُجر، وعاصم بن علي.
ورواه خالد بن القاسم المدائني عنه عن يزيد، عن بسر بن سعيد مولى الحضرميين عنه، به.
أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (رقم ٧٢٦ ـ «بغية الباحث»).
فجزم المدائني بأن شيخ يزيد «بسر» لا «مسلم».
ويغلب على الظن أن هذا الاختلاف من يزيد بن خصيفة نفسه.
ورجح ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص١١٧ ـ ١١٨) رواية سليمان بن بلال؛ فأورد =

....

= إسناد أبي عبيد، وقال: «هكذا رواه أبو عبيد على الشك، وقد رواه أحمد على الصواب»، وساق إسناده، وقال: «وهذا **إسناد صحيح**، ولم يخرِّجوه».
وأما **حديث عمرو بن العاص**.
فأخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٤، ٢٠٥)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٥٣، ط. دار ابن كثير)، وابن عمر العدني في «مسنده» ـ كما في «إتحاف المهرة» (ق٢٣٠/ أ) ـ، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤١٩) عن يزيد بن عبد الله بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو، عن عمرو بن العاص.
قال ابن حجر في «الفتح» (٩/ ١٢٦): «إسناده حسن»، وقال ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص١١٩): «وهذا ـ أيضاً ـ حديث جيد».
قلت: هو كذلك إن حفظه ابن الهاد؛ فقد خالفه يزيد بن خصيفة ـ وهو أوثق منه ـ عن بسر بن سعيد، عن أبي جهيم؛ كما تقدم.
وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٥٢٨): حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم، عن سعد مولى عمرو بن العاص، فقال: تشاجر رجلان في آية، فارتفعا إلى رسول الله ﷺ، فقال: **«لا تماروا فيه؛ فإن المراء فيه كفر»**.
قال أبو حاتم في «العلل» (٢/ ٩٦) رقم (١٧٨٢) عقب هذا الطريق: «هذا وهم، إنما رواه يزيد بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن بسر بن سعيد، عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ».
وأما **حديث عبد الله بن عمرو**.
فأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٥٢٨) ـ ومن طريقه الآجري في «الشريعة» (ص٦٨، ط. القديمة، و١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥ رقم ١٥١، ط. وليد سيف)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٧٨٣)، والطبراني في «الكبير» ـ كما في «المجمع» (١/ ١٥٧) ـ، والهروي في «ذم الكلام وأهله» (١/ ٥٨ ـ ٥٩ رقم ٤٨ و٢/ ١١ رقم ١٦٩) عن موسى بن عبيدة، أخبرني عبد الله بن شريك، عن عبد الرحمن بن ثوبان، عنه، به.
قال الهيثمي: «فيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف جدّاً».
وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٥٦٩) رقم (٣٩٧٣) من طريق آخر عنه، **وسنده ضعيف جدّاً**، فيه فليح بن سليمان.
وأما **حديث زيد بن ثابت**.
فأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥/ ١٥٢) رقم (٤٩١٦) **بسند ضعيف**، فيه عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب، ليس بالقوي.
قال ابن حبان في «صحيحه» (٤/ ٣٢٦ ـ «الإحسان»): «إذا مارى المرء في القرآن؛ أداه ذلك ـ إن لم يعصمه الله ـ إلى أن يرتاب في الآي المتشابه منه، وإذا ارتاب في بعضه أداه ذلك إلى الجحد، فأطلق ﷺ اسم الكفر الذي هو الجحد على بداية سببه الذي هو المراء». =

الأئمة في ذلك على طبقاتهم بعد سرد الأحاديث النبوية. جمع الله قلوبنا على التقوى[١]، فإننا على أصل صحيح، وعَقْد متين، من أن الله تقدس اسمه لا مِثْل له، وأن إيماننا بما ثبت من نعوته كإيماننا بذاته المقدسة[٢] عن الأشباه من غير أن نتعقَّل الماهية، فكذلك القول في صفاته نؤمن بها ونعقل وجودها، ونعلمها في الجملة من غير أن نشبهها أو نمثلها[٣] بصفات خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالاستواء ـ كما قال مالك الإمام وجماعة ـ: معلوم والكيف مجهول[٤].

١ ـ فمن الأحاديث الواردة المتواترة[٥] في العلو: حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: كانت لي غنيمة[٦] بين أحد والجوانيَّة فيها جارية لي، فاطلعتها ذات يوم، فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة ـ وأنا رجل من بني آدم ـ فأسفتُ، فصككتُها، فأتيتُ النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له، فعظُم ذلك عليَّ، فقلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: «**ادعها**» فدعوتها، فقال لها: «**أين الله**»؟ فقالت: في السماء، قال: «**من أنا**»؟ قالت: أنت رسول الله، قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**» هذا حديث صحيح

= وقال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٢٨): «والمعنى: إنما يتمارى اثنان في آية، يجحدها أحدهما، ويدفعها ويصير فيها إلى الشك؛ فذلك هو المراء الذي هو الكفر.

وأما التنازع في أحكام القرآن ومعانيه؛ فقد تنازع أصحاب رسول الله ﷺ في كثير من ذلك، وهذا يبين لك أن المراء الذي هو الكفر هو الجحود والشك؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج: ٥٥]، والمراء والملاحاة غير جائز شيء منها، وهما مذمومان بكل لسان، ونهى السلف ﷺ عن الجدال في الله ـ جل ثناؤه ـ وفي صفاته وأسمائه»، وانظر: «شرح السنة» (١/ ٢٦١).

(١) بعدها في مطبوع «العلو»: «وجنبنا المراء والهوى».

(٢) بعدها في مطبوع «العلو»: «إذ الصفات تابعة للموصوف، فنعقل وجود الباري ونميز ذاته المقدسة».

(٣) في مطبوع «العلو»: «من غير أن نتعقّلها أو نشبهها أو نكيفها أو نمثلها».

(٤) أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (١٠٤)، وأبو عثمان الصابوني في «عقيدة السلف» رقم (٢٤، ٢٥، ٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥، ٣٠٥ ـ ٣٠٦، رقم ٨٦٦، ٦٨٧، ط. الحاشدي)، واللالكائي في «السنة» رقم (٦٦٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٥١) من طرق عنه.

وجوَّد إسناده ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٥) في مطبوع «العلو»: «المتوافرة».

(٦) في مطبوع «العلو»: «غنم».

رواه جماعة من الثقات[1] عن يحيى بن أبي كثير عن هلال بن أبي ميمونة

---

(١) وقفت على ثمانية منهم جميعهم رووه عن يحيى بن أبي كثير عن هلال عن عطاء به، هم:
الأول: حجاج الصَّوَّاف؛ كما عند ابن أبي شيبة في «الإيمان» مختصراً رقم (٨٤)، ومسلم في «صحيحه» كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة (١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢) رقم (٥٣٧ بعد ٣٣)، وكتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٤/ ١٧٤٩)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٤٤٧، ٤٤٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ٤٢٧)، وعثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٦١)، وأبي داود في «السنن» كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة (١/ ٢٤٤) رقم (٩٣٠)، وكتاب الأيمان والنذور، باب في الرقبة المؤمنة (٣/ ٢٣٠) رقم (٣٢٨٢)، وكتاب الطب، باب في الخط وزجر الطير (٤/ ١٦) رقم (٣٩٠٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٤٩٠)، والدارمي في «السنن» (١/ ٣٥٤) ـ ولم يسق لفظه ـ، وأبي عوانة في «المسند» (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، وابن خزيمة في «الصحيح» (٢/ ٣٥ ـ ٣٦) ورقم (٨٥٩)، و«التوحيد» (ص١٢٢)، وابن حبان في «الصحيح» (١/ ٣٨٣/ رقم ١٦٥ ـ مختصراً، ٦/ ١٢٤/ رقم ٢٢٤٨ ـ الإحسان)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩) الأرقام (٩٣٨، و٩٤٣ و٩٤٧)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٢١٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ٢٣٧) رقم (٧٢٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٣٦٠ ـ مختصراً)، ولفظه: «... **ومنا رجال يخطّون. قال: كان نبي من الأنبياء يخطّ، فمن وافق خطَّه؛ فذاك**».
ورواه عن يحيى وفيه اللفظ المذكور جماعة، منهم:
الثاني: الأوزاعي؛ كما عند مسلم في «الصحيح» (١/ ٣٨٣) ـ ولم يسق لفظه ـ، وأشار إليه في (٤/ ١٧٤٩)، وأبي عوانة في «المسند» (٢/ ١٤١)، والنسائي في «المجتبى» كتاب الصلاة، باب الكلام في الصلاة (٣/ ١٤ ـ ١٨)، وابن حبان في «الصحيح» (٦/ ٢٢/ رقم ٢٢٤٧ ـ الإحسان)، وابن خزيمة في «الصحيح» (٢/ ٣٥ ـ ٣٦) رقم (٨٥٩)، و«التوحيد» (ص١٢١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٣٩٨) رقم (٩٣٧ و٩٤١ و٩٤٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٤٩)، و«الأسماء والصفات» (٤٢١).
وأخرجه من طريقه مختصراً: البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (١٩٣)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٤٤٦)، والدارمي في «المسند» (١/ ٣٥٣)، والبيهقي في «القراءة خلف الإمام» (٨٤).
الثالث والرابع: حرب بن شداد وأبان بن يزيد العطار؛ كما عند الطيالسي في «المسند» رقم (١١٠٥).
ومن طريقه البيهقي مختصراً في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٥٠)، و«الأسماء والصفات» (٤٢٢)، وابن قدامة مختصراً في «إثبات صفة العلو» رقم (١٦).
وأخرجه أبو عوانة في «المسند» (٢/ ١٤١ ـ ١٤٢) بسنده إلى أبان والأوزاعي، جميعاً عن =

= يحيى به، وفيه اللفظ لمذكور.
وأخرجه مختصراً دونه عن أبان وحده به: أحمد في «المسند» (٥/٤٤٨)، وعثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٦٠)، و«الرد على بشر المريسي» (ص٩٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٤٨٩)، ومن طريقه الحافظ أبو العلاء ابن العطار في «فتيا وجوابها في ذكر الاعتقاد وذم الاختلاف» رقم (٢٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/٣٩٩) رقم (٩٣٩ و٩٤٢ و٩٤٦)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» رقم (٦٥٢)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (ص٦٣).
الخامس: هشام الدستوائي؛ كما عند الحربي في «غريب الحديث» (٢/ ٧٢٠)؛ قال: حدثنا مسدد حدثنا يحيى (هو ابن سعيد القطان) عن هشام به مختصراً، وفيه اللفظ المذكور.
السادس: حسين المعلّم؛ كما عند الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٤٠١) رقم (٩٤٤)، وفيه اللفظ المذكور.
السابع: همام بن يحيى؛ كما عند أحمد في «المسند» (٥/٤٤٨)، وفيه اللفظ المذكور.
ورواه عن يحيى، لكن بلفظ: «... **فمن وافق علْمُه علِم**».
الثامن: معمر، وعنه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤٠٣) رقم (١٩٥٠١)، وبإسناده إليه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٣٩٩) رقم (٩٤٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢/ ١٨١) رقم (٣٣٥٩).
ورواه تاسع عن يحيى وهو من أقرانه، وهو:
التاسع: أيوب السختياني، ولكن عن يحيى عن هلال عن معاوية به، ولم يذكر فيه عطاء بن يسار؛ كما عند الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣) رقم (٩٤٨) مختصراً، وليس فيه اللفظ المذكور.
وهذا حديث سمعه يحيى من هلال؛ إذ صرح بالتحديث عند أحمد وابن خزيمة؛ فانتفت شبهة تدليسه، كما صرح كل من هلال بن أبي ميمونة وعطاء بالتحديث عند ابن خزيمة.
وتابع يحيى اثنان؛ فروياه عن هلال به، هما:
الأول: فليح بن سليمان:
رواه مختصراً ولم يرد فيه السؤال المذكور، ولا جواب الجارية، ولا اللفظ الذي أورده المصنف؛ كما عند البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (٥٣٠)، وأبي داود في «السنن» كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة (١/ ٢٤٥) رقم (٩٣١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٤٤٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٤٩).
والثاني: مالك بن أنس:
وذكر فيه السؤال وجواب الجارية؛ كما في «الموطأ» (٢/ ٧٧٦ ـ ٧٧٧)، وعنه الشافعي في «الرسالة» فقرة (٢٤٢)، و«الأم» (٥/ ٢٨٠)، والنسائي في «التفسير» (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦) رقم (٤٨٥)، و«السنن الكبرى» في (السير) و(النعوت)؛ كما في «تحفة الأشراف» رقم =

= (١١٣٧٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١٢٢)، والخطيب في «الموضح» (١/ ١٩٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٣٨٧).

ولكن قال مالك في روايته في اسم الصحابي (عمر بن الحكم)؛ فتعقبه الشافعي؛ فقال في «الرسالة» (ص٧٦): «وهو معاوية بن الحكم، وكذلك رواه غير مالك، وأظن مالكاً لم يحفظ اسمه».

قلت: رواه عن مالك على الصواب يحيى بن يحيى التميمي، وعنه عثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٣٨٧)، وقال: «ورواه يحيى بن يحيى عن مالك مجوّداً».

وانظر ـ غير مأمور: «الجوهر النقي»، وشروح «الموطأ»، و«تحفة الأشراف» رقم (١١٣٧٨)، وترجمة (معاوية بن الحكم) من «تهذيب الكمال» ومختصراته؛ ففيها كلام تفصيلي بخصوص هذا الشأن.

وتابع عطاءً أبو سلمة بن عبد الرحمٰن:

وعنه الزهري، وعنه جماعة؛ كما عند مسلم في «الصحيح» كتاب السلام، باب تحريم الكهانة (٤/ ١٧٤٨ ـ ١٧٤٩) رقم (٥٣٧ بعد ١٢١)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤٠٢) رقم (١٩٥٠٠)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٤٤٣ و٥/ ٤٤٧، ٤٤٧ ـ ٤٤٨، ٤٤٩)، والطيالسي في «المسند» رقم (١١٠٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧) رقم (٩٣٣ ـ ٩٣٦).

والحديث صحيح، وقد شكك بعضهم في سؤال النبي ﷺ الجارية، وجوابها، وإقراره ﷺ لها، بقولهم تارةً أن الحديث مضطرب، وبقولهم أخرى أنها زيدت فيما بعد في «صحيح مسلم» ومن زعم الاختلاف في متنه؛ فلم يصب لأنه احتج لما ذهب إليه بروايات أحسن مراتبها الضعف على أنها عند التحقيق لا تُعدّ اختلافاً، **وإنما أراد بعض أهل البدع التعلق بهذا لإبطال دلالة هذا الحديث على اعتقاد أهل السنة من أنّ الله فوق خلقه**، وكذلك تشكيك بعض أهل الزيغ في ثبوت هذا الحديث في «صحيح مسلم» هو أوهى من بيت العنكبوت، لمن علم وَفَهِمَ وأنصف، **وشبهات أهل البدع لم تسلم منها آيات الكتاب؛ فكيف تسلم منها السنن؟!**

وفي أول الحديث: «كان نبي يخط» وهو في «صحيح مسلم» وغيره ـ كما رأيت ـ ورواته جميعاً ثقات معروفون؛ فقول ابن رشد (ت٥٢٠هـ) في رسالته «الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط» (ص٤٢ ـ بتحقيقي)، وكذا قول ابن العربي في «أحكام القرآن» (٤/ ٦٩٦) بأن جميع أحاديث الخط ضعيفة؛ ليس بجيّد، ويعوزه التحقيق العلمي، والله تعالى أعلم، ولذا قال القرطبي المفسر في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٧٩) متعقباً ابن العربي: «هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمي أخرجه مسلم».

تنبيه: أورد الرافعي في «الشرح الكبير» **هذا الحديث** عن معاوية بن الحكم، وورد في أوله: «لما رجعت من الحبشة؛ صليت مع رسول الله ﷺ...» وهو غلط محض لا وجه =

عن عطاء بن يسار عن معاوية السلمي، أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وغير واحد من الأئمة في تصانيفهم، يمرونه كما جاء، ولا يتعرضون له بتأويل ولا تحريف.

عن عطاء بن يسار قال: حدثني صاحب الجارية نفسه قال: كانت لي جارية ترعى.. الحديث، وفيه: «فمد النبي ﷺ يده إليها وأشار إليها مستفهماً: **«مَنْ في السماء»**؟ قالت: الله، قال: **«فمن أنا»**، قالت: أنت رسول الله، قال: **«أعتقها فإنها مسلمة»**[(١)]»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: ثم ذكر الحافظ الذهبي روايات عديدة لهذا الحديث، وأحاديث أخرى في معناه، تركت ذكرها حباً للاختصار.

شرح بعض كلمات هذا الحديث:

١ ـ فأَسِفْتُ: أي غَضِبْتُ. فصَكَكْتُها: أي ضربتها بيدي على وجهها. وقد جاء مصرحاً به في بعض الروايات: «فلطمتُ وجهها»[(٣)].

= له، ولم يذكر أحد (معاوية بن الحكم) في مهاجرة الحبشة؛ لا من الثقات، ولا من الضعفاء، وكأنه انتقال ذهني من حديث متقدم لابن مسعود، يورده الفقهاء قبل هذا؛ فإن فيه: «رجعت من الحبشة»، والله أعلم، أفاده ابن حجر في «التلخيص الحبير» (١/ ٢٨١).
وأخرجه ابن وهب في «جامعه» (١/ ١١٣ ـ ١١٤)؛ قال: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم أن أناساً قالوا لرسول الله ﷺ... (وذكر نحوه).
والنبي الذي كان يخطُّ هو إدريس ﷺ كما قال أبو ذر ابن الشيخ الإمام سبط ابن العجمي في «تنبيه المعلم بمبهمات صحيح مسلم» رقم (٢٥٨، ٩٣٢ ـ بتحقيقنا)، والأبّي في «إكمال الإكمال» (٢/ ٢٣٩)، وحاجي خليفة في «كشف الظنون» (١/ ٩١٢)، واقتصروا عليه، وذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٩/ ١١٨)، وشبّير العثماني في «فتح الملهم شرح صحيح مسلم» (٢/ ١٣٥)، وذكرا معه قولاً آخر، وهو (دانيال)، والأول أشهر، والله أعلم.

(١) أشار المزي في «تحفة الأشراف» (٨/ ١١٨) إلى هذا الطريق ورمز له بالحرف (ز) أي أنه من الزوائد على الكتب الستة.
وأخرجه بسنده الذهبي في «العلو» (١/ ٢٥٢) رقم (٣)، وانظر لزاماً: «العلل» للدارقطني (٧/ ٨٢).

(٢) انظر: «العلو للعلي العظيم» (١/ ٢٤٥ ـ ٢٥٤).

(٣) هذا لفظ رواية مرسل عطاء السابقة، وورد بلفظ: «فضرب الجارية على وجهها»، وذكره ابن حجر في «الإصابة» (٤/ ٥٣٥) وقال: «وذكره ابن شاهين أيضاً».

٢ ـ قوله: «وأنا رجل من بني آدم فغضبت كما يغضبون».

قال محمد تقي الدين: في هذا الحديث السؤال عن الله تعالى بأين، ومنعه الخوارج وسائر الفرق المعطلة كالمعتزلة والمتأخرين من الأشعرية، وزعموا أن من سأل عن الله بأين فهو مجسم، واختلفوا في كفره وفسقه ومعصيته، فيلزمهم نسبة ذلك إلى نبي الله الذي جاءنا بالإيمان، فقبَّح الله علماً يفضي إلى مثل هذا، وفيه **إقرار النبي عليه الصلاة والسلام** بأن الله في السماء، وأنكرته المعطِّلة، واختلفوا في كفر معتقده، فياويلهم! ماذا جنوا على أنفسهم بسبب جهلهم وعمى بصائرهم، فنعوذ بالله من الخذلان. اهـ.

«**الحديث الثاني**: حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم عرفة: «**ألا هل بلغت؟**» فقالوا: نعم ـ يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ـ ويقول: «**اللهم اشهد**» أخرجه مسلم[1]»[2].

قال محمد تقي الدين: ماذا تقول المعطلة في إشارة النبي ﷺ بأصبعه إلى السماء عند قوله: «**اللهم اشهد**» فهل كان يشير إلى العدم كما تعتقدون، فبعضكم يقول: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه. فالإشارة إليه عندكم مستحيلة، وقد أشار إليه النبي ﷺ وأشارت إليه الجارية، وأقرها على ذلك رسول الله ﷺ، والنبي وأصحابه على حقٍّ؛ فأنتم إذاً على باطل. اهـ.

«**الحديث الثالث**: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يرجع إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون**» متفق عليه[3]»[4].

قال محمد تقي الدين: نزول الملائكة من عند الله بأمره تعالى إلى الأرض ورجوعهم إلى الله، وذكرهم ما شاهدوه من صلاة المصلين، على أي شيء يدل هذا؟ هل يمكن أن يدل على أن الله في كل مكان، أو أنه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه؟ كلا! ثم كلا! وهل الفرَقُ المعطّلة تعرف الله أحسن مما يعرفه رسوله

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٠ ـ ٣٢١).
(٢) ذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٢٧٢).
(٣) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٢١١).
(٤) ذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٢٧٣).

وأصحابه والتابعون والأئمة المجتهدون وأئمة الحديث؟ كلا! والله إن المعطلين لفي ضلال مبين. فيا حسرتهم يوم القيامة ويا ندامتهم حين يجيء الله تعالى لفصل القضاء، ويعلمون أنهم كانوا كاذبين، فتعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.اهـ.

«**الحديث الرابع**: رواه الحافظ الذهبي بسنده وسرد رجاله إلى أبي رَزِين العُقَيلِي، قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: «**كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خلق العرش ثم استوى عليه**»[1] رواه الترمذي وابن ماجه، وإسناده حسن. ورواه إسحاق بن راهويه عن عبد الصمد بن عبد الوارث عن حماد وعنده: «**ثم كان العرش فارتفع على عرشه**» قال أبو عبيد: «العماء: الغمام»[2].

الحديث الخامس: عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» أخرجه (د) و(ت) وصححه»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢)، والطيالسي (١٠٩٣)، وابن أبي شيبة في «العرش» (٧)، وأحمد (٤/ ١١، ١٢)، وابنه عبد الله في «السنة» (٤٥٠)، وابن جرير في «التفسير» (١٧٩٨٠، ١٧٩٨١، ط. شاكر)، وفي «التاريخ» (١/ ٣٧ - ٣٨)، وابن أبي زمنين في «السنة» رقم (٣١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦١٢)، وابن حبان (٦١٤١)، والطبراني (١٩/رقم ٤٦٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٠١)، وأبو العلاء الهمداني في «فتيا في الاعتقاد» رقم (٢٨)، والذهبي في «العلو» رقم (١٣)، **وإسناده ضعيف**، فيه وكيع بن حُدُس مجهول الحال.

(٢) انظر: «غريب الحديث» (٢/ ٨)، ونحوه في «إبطال التأويلات» (١/ ٢٣٨)، و«العرش» رقم (٨).

(٣) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٩/ ٦٤)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، والحميدي رقم (٥٩١)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي رقم (١٩٢٤)، وابن وهب في «الجامع» (١٤٦)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٦)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٧٧٥)، وعثمان بن سعيد الدّارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٦٩)، وفي «الرد على المريسي» (ص١٠٤)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٩٣)، وفي «الشعب» (١١٠٤٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ٢٦٠)، وابن قدامة المقدسي في «إثبات صفة العلو» رقم (١٥)، وابن المستوفي في «تاريخ إربل» (١/ ٤٠٦)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٦٥٦)، ومحمد بن عمر الفهري في «ملء العيبة» (ص٢٩٠ - ٢٩١، ٣٧٤)، والقاسم بن يوسف التجيبي في «المستفاد» (ص٥٢ - ٥٣)، والذهبي في «السير» (١٧/ ٦٥٦)، و«معجم الشيوخ» (١/ ٢٣)، و«العلو» رقم (١٤)، وأبو الفتح الخرقي في =

قال محمد تقي الدين: ما المراد بقول النبي ﷺ: «**يرحمكم من في السماء؟**» هل يملك الرحمة أحد غير الله تعالى؟ كلا! إنه هو العزيز الرحيم العلي الكريم، وذلك مصداق قول الله تعالى في سورة الملك: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦، ١٧] فأنت ترى أن الآيتين والحديث يدلان دلالة واضحة على أن الله في السماء فوق العرش، والعرش أعلى المخلوقات وأعظمها، وهو غني عن العرش، والعرش فقير إليه، فيا أيها المعطلون توبوا من التعطيل، وآمنوا بما جاء في التنزيل، واتبعوا السلف واحذروا التلف، والله يهدينا وإياكم إلى صراط مستقيم. اهـ.

«**الحديث السادس**: عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن جرير سمع النبي ﷺ يقول: «**من لم يرحم من في الأرض لم يرحمه من في السماء**»[1] رواته ثقات.

= «الفوائد الملتقطة» (٢٢٢ ـ ٢٢٣)، والعراقي في «العشاريات» (١/٥٩)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٩١/٣٤).

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح» وصححه الخرقي أيضاً، وقال العراقي في «العشاريات»: «هذا حديث صحيح».

وصححه ابن ناصر الدين الدمشقي في بعض مجالسه المحفوظة في ظاهرية دمشق، لكن أوراقها مشوشة الترتيب، وقال:

«ولأبي قابوس متابع، رويناه في «مسندي أحمد بن حنبل وعبد بن حميد» من حديث أبي خداش حبان بن زيد الشّرعبي الحمصي، أحد الثّقات عن عبد الله بن عمرو بمعناه، وللحديث شاهد عن نيف وعشرين صحابياً، منهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنهم» والحديث صحيح، وانظر تخريج الحديث الآتي.

وانظر: «العلو» (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٩).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٥٠٢)، و«مكارم الأخلاق» (٤٥)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٠٧).

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٥٥): «إسناده جيّد قوي»!

قلت: الصّواب أن يقال: «رواته ثقات» كما قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لأنَّ في إسناده أبا إسحاق السَّبِيعي، وهو صدوق اختلط ومدلس، ولم يصرح بالتّحديث.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٨٧): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح» وله شاهد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أخرجه الطيالسي (٣٣٥)، والطبراني في «المعجم الصغير» رقم (٢٨١)، و«المعجم =

الحديث السابع: عن أنس أن زينب بنت جَحْش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوَّجكُنَّ أهاليكُن وزوَّجني اللهُ من فوق سبع سماوات، ولفظ عيسى[(١)] أنها قالت للنبي ﷺ: «زوجنيك الرحمن من فوق عرشه» هذا حديث صحيح أخرجه البخاري[(٢)]»[(٣)].

قال محمد تقي الدين: فإذا قال الجهمي: إن كون إرادة التزويج أو فعله وقع في السماء لا يدل على أن الله فوق سبع سموات. فجوابه: إن إرادة الله وفعله عامان في جميع الأشياء في الأرض والسماء، وإنما أرادت زينب أن الله فوق سبع سماوات وأن تزويجها كان عنده، كما فهمه أئمة الحديث واحتجوا به على أن الله في السماء، أما الجهمية فإنهم أهل حدث وليسوا من أهل الحديث. اهـ.

«**الحديث الثامن**: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً**» متفق عليه[(٤)]»[(٥)].

قال محمد تقي الدين: وهذا الحديث صريح ينزل على رؤوس المعطلين صاعقة تحرقهم ولا حيلة لهم في تحريفه. اهـ.

= الكبير» (١٠٢٧٧)، و«مكارم الأخلاق» (٤٦)، وأبو يعلى (٥٠٦٣)، والحاكم (٤/ ٢٤٨)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٢١٩)، وفي «الحلية» (٤/ ٢١٠)، والبغوي (٣٤٥١)، وعثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٧٤)، واللالكائي في «السنة» (٦٥٥)، وابن قدامة في «إثبات العلو» (٢٢) من طريق أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود به.

وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، **فإسناده منقطع**. انظر: «المجمع» (٨/ ١٨٧)، **وصوّب** الدارقطني في «العلل» (٥/ ٢٩٩)، والذهبي في «العلو» (١/ ٢٨٢) وقفه على ابن مسعود، والموقوف عند وكيع (٤٩٩)، وهناد (١٣٢٣)، وأحمد (ص١٥٩) كلهم في «الزهد»، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٨)، واللالكائي (٦٥٧) وغيرهم، **وإسناده صحيح**.

والخلاصة: **الحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده**، والله تعالى أعلم.

(١) في الأصل: «أبي عيسى» والصواب حذف (أبي) وهو ابن طهمان، الراوي عن أنس، وكذا في «العلو» للذهبي، وفيه ـ ومنه ينقل المصنف ـ بعده: «كانت تقول: «إن الله أنكحني في السماء» وفي لفظ: . .» فسقط هذا على المصنف أو المراجع!

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠).

(٣) انظر: «العلو» (١/ ٢٨١، ٢٨٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٤٤).

(٥) انظر: «العلو» (١/ ٢٨٥٠).

«**الحديث التاسع**: عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «**والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه، فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها، حتى يرضى عنها زوجها**» أخرجه (م)»[(١)][(٢)].

قال محمد تقي الدين: من الذي سخط عليها وهو في السماء؟ أتستطيعون أن تقولوا: سخط أمره؟ أو سخطت قدرته؟ فقد فضحكم الله، فاتركوا التستر بالباطل، ولا تحاولوا ستر الشمس بالغربال، أتكفرون بالذي في السماء؟ وقد آمن به الرسول ﷺ وأهل القرون المفضلة؟ ارجعوا إلى الحق، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. اهـ.

«**الحديث العاشر**: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أُلقيَ إبراهيم عليه السلام في النار قال: اللهم إنك واحد في السماء وأنا في الأرض واحد أعبدك**»[(٣)] هذا حديث حسن الإسناد. رواه جماعة عن إسحاق»[(٤)].

قال محمد تقي الدين: جميع الأنبياء والرسل يعتقدون أن الله في السماء كما رأينا في هذا الحديث، وكما حكى الله تعالى عن فرعون أنه قال لوزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] يفهم من هذا أن فرعون سأل موسى عن إلٰه الذي يدعو إليه، فأخبره أنه في السماء، فظن بجهله أن وزيره وقومه يستطيعون أن يبنوا بناء يصل إلى السماء التي فيها الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١). (٢) انظر: «العلو» (١/ ٢٨٦).

(٣) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٥)، وفي «النقض على بشر المريسي» (٩٥)، والبزار (٢٣٤٩ ـ كشف الأستار)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٩)، وابن قدامة في «إثبات العلو» (٥٦)، والخطيب (١٠/ ٣٤٦) جميعهم من طريق أبي هشام الرفاعي عن إسحاق بن سليمان الرازي ـ وهو المراد في صلب الكتاب ـ عن أبي جعفر الرازي عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة، ونقل المصنف قول الذهبي في «العلو» (١/ ٢٩٠): «هذا حديث حسن الإسناد»! وفيه أبو هشام محمد بن يزيد الرفاعي، ليس بالقوي، ولا ندري هل له متابع أم لا، ولا سيما أن ابن القيم عزاه في «تهذيب السنن» (٧/ ١١٣) إلى «مسند الحسن بن سفيان»، وعزاه في «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٤) لأبي يعلى، وهو في «الكبير» رواية ابن المقرئ، وليس في الرواية المطبوعة (رواية ابن حمدان). فالتحسين له وجه إن وقفنا على متابع لأبي هشام، وإلا فقد أصاب الذهبي كما قال نفسه في «الميزان» (٤/ ٦٨): «غريب جداً».

(٤) انظر: «العلو» (١/ ٢٩٠).

«**الحديث الحادي عشر**: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بَروْح وريحان، وربٍّ غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك؛ حتى تخرج، ثمَّ يعرج بها إلى السماء، فستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة، فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنْتَهى بها إلى السماء التي فيها الله تعالى**»[1]، وذكر الحديث رواه «**حم**» في «مسنده» والحاكم في «مستدركه» وقال: هو على شرط (**ق**)»[2].

قال محمد تقي الدين: لا جرم أن المعطل الذي لا يؤمن بهذا الحديث وما في معناه، لا تفتح له أبواب السماء لروحه ولا تصل إلى السماء السابعة، ولا يقول الله تعالى للملائكة: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، بل يكتب كتابها في سجين. اهـ.

«**الحديث الثاني عشر**: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله** ﷻ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨]»[3]» أخرجه (**ج**) في باب ما أنكرت الجهمية».

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٤ و٦/ ١٤٠)، والنسائي في «الكبرى» كتاب التفسير (٤٦٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٤٤٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١٦، ١٨)، وابن منده في «الإيمان» (١٠٦٨)، وفي «التوحيد» (٨٤٩)، والحاكم ـ كما في «إتحاف المهرة» (٩/ ٤٢٩) ـ وعنه البيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٤٤)، **وصححه** شيخنا الألباني وقال في «مختصر العلو» (ص٨٥) تعليقاً على كلام الحاكم: «وهو كما قال»، وأقره قبل الذهبي في «العلو» (١/ ٢٩٧)، و«الأربعين» رقم (٢٤)، وفي «التلخيص».

(٢) انظر: «العلو» (١/ ٢٩٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، والدارقطني في «الرؤية» (٥١)، والبزار (٢٢٥٣ ـ زوائده)، وابن عدي (٦/ ٢٠٣٩)، والعقيلي (٢/ ٢٧٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٨)، واللالكائي في «السنة» (٨٣٦)، وقوام السنة في «الحجة» (٢١٦)، **وضعفه** البوصيري في «زوائد ابن ماجه» (٦٩)، وشيخنا الألباني في تخريجه لأحاديث «شرح الطحاوية» (ص١٨٢).

(**ملاحظات**) رمز (ج) هنا يراد به (ابن ماجه) لا (ابن جرير) على ما جرى عليه المصنف في سائر كتابه، وفي الأصل: «أنكره الجهمية» وصوابه المثبت، وتتمة كلام الذهبي مهم =

«**الحديث الثالث عشر**: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يصعد إلى الله إلا طيب ـ فإنه يتقبلها بيمينه، ويُربِّيها لصاحبها حتى تكون مثل الجبل**»[١] هذا حديث صحيح أخرجه (خ)»[٢].

قال محمد تقي الدين: وماذا يقول الجهمي في هذا الحديث الذي يدل على صعود الصدقة إلى الله تعالى، فيأخذها بيمينه، أيؤمن به أم يكفر به؟ فإن آمن به فقد فاز وربح، وإن كفر به فتعساً له.اهـ.

«**الحديث الرابع عشر**: عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سُبْحاتُ وجهه كل شيء أدركه بصرهُ**»[٣]. أخرجه (م)»[٤].

قال محمد تقي الدين: إذا كان الله بزعمكم بذاته في كل مكان، أو: لا داخل العالم ولا خارجه، كما يقول بعضكم! فلماذا يرفع إليه العمل.اهـ.

«**الحديث الخامس عشر**: روى الذهبي عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: لأبي عمران بن حصين: «**كم تعبد اليوم إلهاً**»؟ فقال: ستة في الأرض، وواحد في السماء. قال: «**فأيهم تعدُّه لرغبتك ورهبتك؟**» قال: الذي في السماء، قال: «**يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين ينفعانك**» فلما أسلم قال: يا رسول الله علِّمني الكلمتين؟ قال: «**قل: اللهم ألهمني رُشدي، وأعذني من شر نفسي**»[٥]».

= ـ وحذفه المصنف ـ ونصه: «... **وإسناده ضعيف**».
قلت: نعم، إذ مدار الحديث على أبي عاصم العباداني (عبد الله بن عبيد الله) والفضل بن عيسى بن إبان الرقاشي، وهما ضعيفان.

(١) أخرجه البخاري (١٤١٠، ٧٤٣٠)، ومسلم (٦٣، ٦٤).

(٢) انظر: «العلو» (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٣، ٢٩٤) ولم يخرجه البخاري. انظر: «تحفة الأشراف» (٦/ ٢٤٠).

(٤) انظر: «العلو» (١/ ٣٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ١)، والترمذي (٣٤٨٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٥٥)، والدارمي في «الرد على بشر المريسي» (ص٢٤)، والطبراني في «الكبير» (١٨/رقم ١٨٦، ٣٩٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٩٤) **وإسناده** =

قال محمد تقي الدين: عقيدة هذا الرجل في زمان كفره أن الله في السماء، أحسن من عقيدة كثير من الذين يدّعون الإسلام. على أنه أسلم بعد ذلك، وترك عبادة الآلهة التي في الأرض ووحّد الإله الذي في السماء.

«**الحديث السادس عشر**: روى الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعاً فقال في «مسنده»: أخبرنا إبراهيم بن محمد حدثني موسى بن عُبيدة، حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك ﷺ يقول: أتى جبرائيل عليه الصلاة والسلام بمرآة بيضاء فيها نكتة سوداء إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما هذه؟**» فقال: هذه الجمعة فُضِّلت بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله تعالى فيها بخير إلا استُجيب له، وهو عندنا يوم المزيد، قال ﷺ: «**يا جبريل وما يوم المزيد؟**» قال ﷺ: إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الفردوس[(١)] وادياً أفيح، فيه كُثُب المِسك، فإذا كان يوم الجمعة[(٢)] أنزل تعالى ما شاء من ملائكته، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين[(٣)]، وحفت تلك المنابر من ذهب مكلَّلة بالياقوت والزبرجد عليها الشهداء والصديقون، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول الله ﷻ: أنا ربكم قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطِكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك. فيقول: قد رضيت عنكم ولكن عليَّ ما تمنيتم، ولدي مزيد، فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة»[(٤)]. هكذا أورده الإمام الشافعي ﷺ في كتاب

= ضعيف، فيه شبيب بن شيبة التميمي، وبه ضعفه الذهبي في «العلو» رقم (٣٢).
وقال شيخنا الألباني في «مشكاة المصابيح» (٣/ ٢٥ ـ التحقيق الثاني): «والجملة الأخيرة لها طريق آخر عند ابن حبان (٢٤٣ ـ موارد)، وأحمد (٤/ ٤٤٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٣)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٧)، والحاكم (١/ ٢٥١٠) **بسند صحيح**» وصححه النووي في «مقدمة شرح مسلم» (١/ ٢٠٠)»، وصححه أيضاً ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٨٦).
انظر: «العلو» (١/ ٣١٥).

(١) في مطبوع «العلو»: «الجنة».
(٢) في مطبوع «العلو»: «يوم القيامة».
(٣) في مطبوع «العلو»: «عليها الشهداء والصدّيقون» دون ذكر النبيين.
(٤) أخرجه الشافعي في «الأم» كتاب الجمعة، باب ما جاء في فضل الجمعة (٢/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣)، =

الجمعة من «الأم» وله طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه».

قال محمد تقي الدين: وهذا الحديث واضح قراءته شرحه، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. اهـ.

«**الحديث السابع عشر:** عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال لسعد بن معاذ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات**»[1] هذا حديث صحيح أخرجه (**ن**)».

قال محمد تقي الدين: تقدم الكلام على مثله في حديث زينب.

«**الحديث الثامن عشر:** وفي الصحيح لـ (**خ**) من حديث قتادة عن أنس عن

= وفي «المسند» (١/ ١٤٨ ـ «بدائع المغني») ومن طريقه ابن قدامة في «إثبات صفة العلو»، والذهبي في «الأربعين» (ص٣٤ ـ ٣٥)، و«العلو» رقم (٤٤).

قال الذهبي: «هذا حديث غريب رواه الشافعي في «مسنده» فيه ضعيفان: موسى، وإبراهيم بن أبي بن يحيى» وكذا قال في «العلو» وللحديث شواهد عديدة جداً، وقال الذهبي عنه في «العلو» (١/ ٣٤٧): «هذا حديث مشهور وافر الطرق» وسرد قسماً لا بأس به منها من رقم (٤٢ ـ ٥١) وقال (ص٣٦٥): «وهذه طرق **يعضد بعضها بعضاً**»، وصححه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤١٢ ـ ٤١٣) وقال عنه ابن القيم في «حادي الأرواح» (ص٣٩١): «هذا حديث كبير، عظيم الشأن، رواه أئمة السنة، وتلقّوه بالقبول» وقال في «مختصر الصواعق» (٢/ ٣٩٠) عنه: «الحديث العظيم الشأن الذي هو قرة عيون أهل الإيمان، وشجى في حلوق أهل التعطيل والبهتان»، وانظر لزاماً: «العواصم» لابن الوزير (٥/ ١٥٨)، و«رؤية الله تبارك وتعالى» لابن النحاس رقم (٨) والتعليق عليه، وقد أفرده بعض أهل العلم بالتأليف، كابن أبي داود وعلي بن الحسن بن عساكر، وسمَّى جزءه فيه «القول في جملة الأسانيد في حديث يوم المزيد».

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٢٢٣)، وعبد بن حميد (١٤٩) ـ ومن طريقه الضياء (٩٨٢) ـ، والدورقي في «مسند سعد بن أبي وقاص» (٢٠)، وابن سعد (٣/ ٣٩١)، والبزار في «مسنده» (١/ ١٠٩)، والحاكم (٢/ ١٢٤) ـ ومن طريقه البيهقي (٩/ ٦٣)، وفي «الأسماء والصفات» (٨٨٥) ـ **وإسناده حسن**، وحسنه شيخنا الألباني، وقال في «مختصر العلو» (ص٨٧): «والحديث أصله في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري مختصراً».

قال أبو عبيدة: الحديث المحفوظ من (مسند أبي سعيد) وأخطأ فيه بعضهم فجعله عن سعد. انظر التفصيل في: «العلل» (١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦) لابن أبي حاتم، و«العلل» للدارقطني (٤/ ٢٩٠، ٣٢٢)، و«التاريخ الكبير» (٤/ ٢٩١) للبخاري، و«موافقة الخبر الخبر» (٢/ ٤٣٩)، و«فتح الباري» (٧/ ٤١٢).

وانظر: «العلو» (١/ ٣٧٧).

النبي ﷺ قال: «فأستأذن على ربي في داره؛ فيُؤذن لي عليه»[١]. وأخرجه أبو أحمد العسال[٢] في كتاب «المعرفة» بإسناد قوي عن ثابت عن أنس وفيه: «فآتي باب الجنة فيفتح لي، فآتي ربي تبارك وتعالى وهو على كرسيه أو سريره، فأخرُّ له ساجداً» وذكر الحديث»[٣].

قال محمد تقي الدين: وهذا الحديث أيضاً صريح في أن الله فوق عرشه، اللهم اشهد علينا بأننا آمنا به، فيا ويل من كذب به وأنكر معناه اهـ.

«الحديث التاسع عشر: روى (خ م) بسندهما عن أنس [أن مالك][٤] بن صعصعة أن النبي ﷺ حدَّثه عن ليلة[٥] أسري به [قال]: «بينما أنا في الحَطيم - وربما قال: قال قتادة: في الحِجر - مضطجع إذ أتاني آت...» فذكر الحديث، وفيه قال: «ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض يقع خطوُه عند انقضاء[٦] طرفه، قال: فحملت عليه فانطلق بي جبرائيل حتى أتى بي السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. قال: ففتح، فلما خلصت إذا فيها آدم، قال: هذا أبوك فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة؛ قال: هذا يحيى وعيسى فسلِّم عليهما، فسلَّمت فردَّا السلام، وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صُعِدَ بي السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٠).

(٢) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم الأصبهاني في المعروف بالعسال صاحب التصانيف، ومنها «المعرفة» قال عنه الذهبي رحمه الله في «السير» (١٦/٧): «طالعت كتاب «المعرفة»، له في السُّنة يُنبئ عن حفظه وإمامته».

(٣) ما سبق من «العلو» (١/٣٨٤).

(٤) ما بين المعقوفتين من مطبوع «العلو»، وسقط من الأصل.

(٥) في الأصل: «حدثه أنه ليلة..» والمثبت من مطبوع «العلو».

(٦) في مطبوع «العلو»: «أقصى».

جاء، قال: ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد[1] أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّمتُ عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح فلما خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون فسلِّم عليه، قال: فسلَّمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد؛ قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا أنا بموسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: فلما تجاوزت بكى، فقيل: ما يبكيك؟ قال: أَبْكِي؛ لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح فلما خلصت، فإذا إبراهيم، قال: هذا إبراهيم فسلم عليه، فسلمت فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، قال: ثم رفعتُ إلى سدرة المنتهى. ثم رفع إلى البيت المعمور، قال: ثم فرضت عليَّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قال: بأربعين صلاة كل يوم؛ قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد

---

(١) في مطبوع «العلو»: «أوقد».

المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بثلاثين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك فعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً أخر؛ فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع عشرين صلاة كل يوم وإني قد خبرتُ الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فأمرت بعشر صلوات في كل يوم فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: بعشر صلوات كل يوم قال: إن أمتك لا تستطيع عشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأسلِّم، فلما نفذت نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»[(١)] متفق عليه»[(٢)].

قال محمد تقي الدين: وحديث الإسراء من أعظم الأدلة التي لا يشك فيها من يؤمن بها؛ لأنه رواه جميع أهل الحديث، ودلَّ عليه القرآن، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١ ـ ١٨] فدل ذلك على أن الله تعالى فوق عرشه، وعلمه محيط بكل شيء.اهـ.

قال الحافظ المتقن المحدث المفسر شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (٢٦٤)، والمذكور لفظ أحمد (٤/٢٠٨ ـ ٢٠٩).

(٢) انظر: «العلو» (١/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨).

بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية في غزو المعطلة والجهمية» ما نصه: «ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ [السجدة: ٤ ـ ٦] وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين، فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم؛ وأنه لم يزل وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازماً لذاته أزلاً وأبداً، غير مخلوق كما هو قول ابن سينا والنصير والطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين، لما اتفق(١) عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، والكتب، وشهدت به العقول والفطر [السليمة](٢)، وقول تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش سوى العدم، وأن الله ليس مستوياً على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكَلِمُ الطيب، ولا رُفِع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه، ولا عُرِجَ برسوله محمد ﷺ(٣)، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبرائيل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا، ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عياناً بأبصارهم من فوقهم، ولا تجوز(٤) الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق، كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع، وجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها(٥) إلى الناس، ويقول: «**اللهم اشهد**»(٦).

قال شيخ الإسلام(٧): وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «اتفقت».
(٢) غير موجود في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية».
(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «إليه».
(٤) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «يجوز»!
(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وينكبها».
(٦) أخرجه مسلم (١٢١٨) وغيره من حديث جابر بن عبد الله.
(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٢ ـ ١٣).

وكلام الصحابة[(١)] والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء بما هو نص أو ظاهر في أن الله ﷻ فوق كل شيء وأنه فوق العرش فوق السموات مستوٍ على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝﴾ [المعارج: ٣ ـ ٤]، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٤ ـ ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [يونس: ٣] فذكر التوحيد[(٢)] في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٤، ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٥٨ ـ ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ [الحديد: ٤] فذكر عموم علمه، وعموم قدرته، وعموم إحاطته، وعموم رؤيته.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝﴾ [الملك: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝﴾ [الجاثية: ٢، الأحقاف: ٢]،

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وعامة كلام الصحابة».

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «التوحيدين».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] قال: أبو الحسن الأشعري [وقد احتج بهذه الآية على الجهمية][1] «فكذَّب فرعونُ موسى عليه السلام في قوله: إن الله فوق السموات»[2]. وسيأتي إن شاء الله تعالى حكاية كلامه بحروفه، وأما الأحاديث، فمنها: قصة المعراج وهي متواترة، وتجاوز النبي ﷺ السمٰوات سماء سماء حتى انتهى إلى ربه تعالى، فقربه وأدناه، وفرض عليه الصلوات خمسين صلاة فلم يزل يتردد[3] بين موسى عليه السلام وبين ربه تبارك وتعالى، ينزل من عند ربه تعالى إلى موسى، فيسأله: كم فرض عليك؟ فيخبره، فيقول: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فيصعد إلى ربه فيسأله التخفيف[4].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما خلق الله الخلق، كتب في كتاب ـ فهو عنده فوق العرش ـ: إن رحمتي تغلب غضبي»** وفي لفظ آخر: **«كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتي تغلب غضبي»** وفي لفظ **«وهو[5] عنده على العرش»** وفي لفظ: **«وهو مكتوب عنده فوق العرش»**[6]، وهذه الألفاظ كلها في «صحيح مسلم». وفي «صحيح البخاري» عن أبي موسى الأشعري قال: قام رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: **«إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[7].

وذكر ـ البخاري ـ في (كتاب التوحيد) في «صحيحه» حديث أنس (حديث الإسراء) وقال فيه: **«ثم علا به ـ يعني: جبرائيل ـ فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاوز[8] سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو**

---

(١) ليس من كلام أبي الحسن الأشعري. (٢) انظر: «الإبانة» (ص١١٩).
(٣) من مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وسقط من الأصل.
(٤) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة، وأخرجه مسلم (١٦٢) من حديث أنس، وسبق قريباً بطوله.
(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وضع».
(٦) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).
(٧) سبق تخريجه.
(٨) كذا في الأصل، وعند البخاري: «جاء».

أدنى، فأوحى إلى عبده فيما أوحى إليه خمسين صلاة، ثم هبط حتى بلغ موسى، فاحتبسه فقال: يا محمد! ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: إنَّ أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي ﷺ إلى جبرائيل، كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبرائيل أن نعم، إن شئت، فعلا إلى الجبار تبارك وتعالى، فقال: وهو مكانه يا رب خفف عنا»[(١)]، وذكر الحديث.

وفي «الصحيحين» عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربُّهم ـ وهو أعلم ـ كيف: تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون»**[(٢)].

ولما حكم سعد بن معاذ في بني قريظة بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم، وتغنم أموالهم، قال له النبي ﷺ: **«لقد حكمتَ فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة»**[(٣)] وفي لفظ: **«من فوق سبع سموات»**[(٤)] وأصل القصة في «الصحيحين» وهذا السياق لمحمد بن إسحاق في «المغازي»[(٥)]. وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد قال: بعث علي بن أبي طالب إلى النبي ﷺ بذهيبة في أديم مقروض لم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، واللفظ المذكور لشريك، وقد انتقدت عليه ألفاظ كثيرة في حديث الإسراء، مما جعل مسلماً يورد في «صحيحه» إسناده دون لفظه، وأحسن في ذلك، وانظر استشكالات الألفاظ في هذه القطعة، مع الأجوبة عليها عند ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٥٩٩ ـ ٦٠١، ط. السلام).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٧٨ ـ ٧٩)، وفي «تاريخه» (٢/ ٥٨٨)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (ص٦٩) **وإسناده مرسل**، ورجاله ثقات، قاله ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ٤٣٨). قلت: لأن معبد بن كعب بن مالك لم يسمع ـ بل لم يدرك ـ سعد بن معاذ، وذكره الجويني في «رسالة إثبات الاستواء والفوقية» (ص٥٢ ـ ٥٣)، والذهبي في «العلو» (١/ ٣٧٦) وقال شيخنا الألباني في «الإرواء» (٥/ ٢٧٦): «وهو مع إرساله فيه عنعنة ابن إسحاق، ولكنه **لا بأس به في الشواهد**، فترقى به هذه الزيادة إلى درجة **الحسن**».

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٥٩، ط. محيي الدين)، وأورد ابن حجر «موافقة الخبر الخبر» (٢/ ٤٣٨) إسناد ابن إسحاق.

تحصل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة؛ بين عيينة بن بدر والأقرع بن حابس وزيد الخيل، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء، فبلغ النبي ﷺ فقال: **«ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء مساء وصباحاً»**(١).

وفي «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم السلمي قال: لطمت جارية لي فأخبرتُ رسول الله ﷺ، فشقَّ ذلك علي، فقلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: **«بلى، ائتني بها»** قال: فجئت بها رسول الله ﷺ، فقال لها: **«أين الله»**؟ قالت: في السماء، قال: **«فمن أنا»** قالت: أنت رسول الله، قال: **«اعتقها إنها مؤمنة»**(٢). وفي «صحيح البخاري» عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ، وتقول: «زوجكنّ أهاليكنّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات»(٣).

وفي «سنن أبي داود» من حديث جبير بن مطعم قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله نُهِكَت(٤) الأنفس وجاعت(٥) العيال، وهلكت(٦) الأموال، استسقِ ربَّك، فإنا نستشفع بالله عليه وبك على الله، فقال النبي ﷺ(٧): **«سبحان الله، سبحان الله»**(٨) فما زال(٩) يسبِّح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، فقال: **«أتدري ما الله إن شأنه أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه، إنه لفوق سمائه على عرشه، وإنه عليه لهكذا، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب»**(١٠).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه مطولاً.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في مطبوع «سنن أبي داود»: «جَهِدت».

(٥) في مطبوع «سنن أبي داود»: «وضاعت».

(٦) في مطبوع «سنن أبي داود»: «ونُهِكت».

(٧) بعدها في مطبوع «سنن أبي داود»: «(ويحك أتدري ما تقول)».

(٨) غير موجود في مطبوع «سنن أبي داود».

(٩) كذا في مطبوع «سنن أبي داود»، وفي الأصل : «زاد»!

(١٠) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٢٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» رقم (١٤٧)، وأبو عوانة (٣/ ٣٠)، والدارقطني في «الصفات» رقم (٣٨، ٣٩)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (رقم ٢٢٤ ـ سورة البقرة)، وابن منده في «التوحيد» رقم (٦١٤٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧٥، ٥٧٦)، وعثمان بن أبي شيبة في =

وفي «سنن أبي داود» أيضاً و«مسند الإمام أحمد» من حديث العباس بن عبد المطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة، وفيهم رسول الله ﷺ، فمرت سحابة فنظر إليها، وقال: **«ما تسمّون هذه؟»** قالوا: السحاب، قال: **«والمزن»** قالوا: والمزن، قال: **«والعنان»** قال: والعنان، قال: **«هل تدرون ما بُعدُ ما بين السماء والأرض؟»** قالوا: لا ندري، قال: **«إنَّ بُعدَ ما بينهما إما واحدة أو اثنتان وثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك»** حتى عدَّ سبع سموات **«ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، وفوق ظهورهم العرش، أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله ﷻ فوق ذلك»** زاد أحمد: **«وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»**(١).

= «العرش» (٥٧٥)، والطبراني في «الكبير» (١٥٤٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٥٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٤١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٨٣)، والبغوي (١/ ١٧٥)، واللالكائي في «السنة» رقم (٦٥٦) **وإسناده لين.**

ويعجبني قول الذهبي في «العلو» (١/ ٤١٣) ـ عقب إسناده له بالأرقام (٦٤ ـ ٦٦) والكلام على طرقه ـ:

«هذا حديث غريب جداً فرد، وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقال النبي ﷺ هذا أم لا؟ والله فليس كمثله شيء، وللحافظ ابن عساكر جزء مفرد فيه بعنوان «رفع التخليط عن حديث الأطيط» لم أظفر له بأثر».

وأعله المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٧/ ٩٩ ـ ١٠١) بتدليس ابن إسحاق، وقال البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣١٩): «وهذا حديث ينفرد به محمد بن إسحاق بن يسار» واستغربه ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣١٠)، وضعّفه شيخنا الألباني في «الضعيفة» (٢٦٣٩).

ومع هذا فلم يلتفت بعض أهل العلم المحققين إلى اضطرابه وتخليط رواته، فحسّنوا إسناده بناءً على تحسين ما انفرد به ابن إسحاق، فقال ابن نصر السجزي في «الرد على من أنكر الحرف والصوت» (ص١٤٥): «والطرق مقبولة محفوظة» ودافع عنه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٣٥)، و«نقض تأسيس الجهمية» (١/ ٥٦٩)، وحسنه ابن القيم في «تهذيب السنن» (٧/ ٩٤)، و«مختصر الصواعق» (٢/ ٤٠٩).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، وأبو داود (٣٨٩٢)، وابن ماجه (١٩٣)، وعثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٢)، وإبراهيم بن طهمان في «مشيخته» رقم (١٨)، وعثمان بن أبي شيبة في «العرش» (٩، ١٠)، وأبو يعلى (٦٧١٣)، وأبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» رقم (٢٨٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١٤٤، ١٤٥)، والبزار (١٣٠٩، ١٣١٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» =

وفي «سنن أبي داود» أيضاً عن فَضَالة بن عُبيد عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله يقول: **«من اشتكى منكم ـ أو: اشتكى أخ له ـ فليقل: ربنا الله الذي في السماء، تقدَّس اسمُك، أمرك في السماء والأرض كما رحمتُك في السماء اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع، فيبرأ»**[(1)].

وفي «مسند الإمام أحمد» عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية فقال: يا رسول الله، إنَّ عليَّ رقبة مؤمنة، فقال لها رسول الله ﷺ: **«أين الله؟»** فأشارت بأصبعها السبابة إلى السماء، فقال لها: **«من أنا؟»** فأشارت بأصبعها إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء؛ أي أنت رسول. فقال: **«اعتقها فإنها مؤمنة»**[(2)].

وفي «جامع الترمذي» عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: **«الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[(3)] قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وفي «جامع الترمذي» أيضاً عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً»** قال أبي: سبعة؛ ستة في الأرض، وواحد في السماء قال: **«فأيهم تعدّ لرغبتك ورهبتك»** قال:

= (٥٧٧)، والدارقطني في «المؤتلف» (٤/ ١٥٩٧)، وابن منده في «التوحيد» (٢١، ٤٦)، والحاكم (٢/ ٣٧٨، ٤١٢، ٥٠١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٨٨)، والضياء في «المختارة» (٤٦٢ ـ ٤٦٤)، والخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٥٤١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٤٠)، واللالكائي في «السنة» (٦٥٠، ٦٥١)، والهمداني في «فتيا في ذكر الاعتقاد» رقم (١٩) عن العباس، **وله طرق كثيرة واهية لا تسلم من مجهول أو متروك، ولا يتقوى الحديث بها.**

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٥٧) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (١٠٣٧، ١٠٣٨) ـ، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٠)، والحاكم (١/ ٣٤٤)، ـ وعنه البيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٨٩٢) ـ، وابن عدي (٣/ ١٠٥٤)، وقوام السنة الأصبهاني في «السنة» (٥٩، ٦٥)، واللالكائي في «السنة» (٦٤٨) **وإسناده ضعيف**، مداره على زيادة بن محمد الأنصاري قال البخاري والنسائي: «منكر الحديث» والأئمة مجمعون على تضعيفه. ولذا تعقب الذهبي الحاكم لما صحح هذا الحديث. فقال: «قلت: قال البخاري وغيره (عن زيادة): منكر الحديث» وانظر: «الميزان» (٢/ ٩٨)، و«العلو» (١/ ٣٣٩)، وضعفه شيخنا الألباني.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

الذي في السماء. قال: «**يا حصين أما إنك لو أسلمت لعلّمتك كلمتين ينفعانك**» قال: فلما أسلم حصين، قال: يا رسول الله علِّمني الكلمتين اللتين وعدتني، قال: «**قل: اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي**»(١).

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها**»(٢). وروى الشافعي في «مسنده» من حديث أنس بن مالك قال: «أتى جبرائيل بمرآة بيضاء فيها نكتة سوداء إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**ما هذه يا جبرائيل؟**» قال: هذه الجمعة فُضِّلتَ بها أنت وأمتك، فالناس لكم تبع اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله بخير إلا أُستجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. فقال النبي ﷺ «**يا جبرائيل! وما يوم المزيد؟**» فقال: إن ربك اتخذ في الجنة وادياً أفيح، فيه كثب من مسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله تبارك وتعالى ما شاء من ملائكته، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين، وحفَّ تلك المنابر بمنابر من ذهب مكلَّلة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون، ثم جاء أهل الجنة، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول الله ﷻ: أنا ربكم قد صدقتكم وعدي؛ فاسألوني أعطكم. فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم ما تمنَّيتم، ولديَّ مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة مما يعطيهم فيه ربهم من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربك ﷻ على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة»(٣) ولهذا الحديث عدة طرق جمعها أبو بكر بن أبي داود في جزء.

وفي «سنن ابن ماجه» من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة. قال: وذلك قوله تعالى:** ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨] قال: **فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم**»(٤) وفي «الصحيحين» من حديث أبي صالح عن

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فَلوَّهُ حتى تكون مثل الجبل»**(١). وفي «صحيح ابن حبان» عن أبي عثمان النَّهدي عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال: **«إن ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفْراً»**(٢).

وروى ابن وهب قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن زُهرة بن معبد عن ابن عمر أخبره أنه سمع عقبة بن عامر يقول: قال رسول الله ﷺ: **«من توضأ فأحسن وضوءه، ثم رفع نظره إلى السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له ثمانية أبواب الجنة**(٣) **يدخل من أيها شاء»**(٤). وفي حديث الشفاعة الطويل عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **«فأدخل على ربي تبارك وتعالى وهو على عرشه»**(٥). وذكر الحديث وفي بعض ألفاظ البخاري في «صحيحه»: **«فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه»**(٦). قال عبد الحق في «الجمع بين الصحيحين»: «هكذا قال: **«في داره»** في المواضع الثلاث، يريد: مواضع الشفاعات(٧) التي يسجد فيها ثم رفع رأسه». وروي عن ابن عمير الكندي(٨) عن علي أن رسول الله ﷺ حدَّث عن ربه ﷻ قال: **«وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا بيت ولا رجل**

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٢٣٩ ـ التعليقات الحسان)، وأبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٠)، وأحمد (٥/ ٤٣٨)، والطبراني (٦١٣٠، ٦١٤٨)، وفي «الدعاء» (٢٠٩٣)، والحاكم (١/ ٤٩٧، ٥٣٥)، والقضاعي (١١١٠، ١١١١)، والبيهقي (٢/ ٢١١)، وفي «الأسماء والصفات» رقم (١٥٥)، و«الدعوات الكبير» رقم (١٨٠، ١٨١)، **وجوّد** ابن حجر إسناده في «الفتح» (١١/ ١٤٣)، وصححه شيخنا الألباني.

(٣) في مطبوع «صحيح مسلم»: «أبواب الجنة الثمانية».

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٤).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (٧٤٤٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس.

(٧) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الثلاث».

(٨) كذا في الأصل، وفي «العلو» للذهبي: «عمير بن عبد الملك»، وفي «العرش» لعثمان ابن أبي شيبة: «عمير بن عبد الله»، وفي اجتماع الجيوش الإسلامية «عدي بن عميرة الكندي».

بادية كانوا على ما كرهت من معصيتي، فتحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي»[١] رواه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» وأبو أحمد العسال في كتاب «المعرفة» وصح عنه عن أبي هريرة بإسناد مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة سيارة يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلس ذكر جلسوا معهم، فإذا تفرقوا صعدوا إلى ربهم**». وأصل الحديث في صحيح مسلم ولفظه: «**فإذا تفرقوا صعدوا إلى السماء، فيسألهم الله ﷻ ـ وهو أعلم بهم ـ: من أين جئتم؟...**»[٢] الحديث.

وذكر الدارقطني في كتاب: «نزول الرب ﷻ كل ليلة إلى سماء الدنيا» من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ يقول: «**ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: ألا عبد من عبادي يدعوني فأستجيب له، ألا ظالم لنفسه يدعوني فأفكّه؛ فيكون كذلك إلى مطلع الصبح، ويعلو على كرسيه**»[٣]. وعن جابر بن سليم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن رجلاً ممن كان قبلكم لبس بردين، فتبختر فنظر الله إليه من فوق عرشه؛ فمقته، فأمر الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها**»[٤] رواه الدارمي عن سهل بن بكار

---

(١) أخرجه عثمان بن أبي شيبة في «العرش» (ص٦١)، وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٨/ ٣٩١) لأبي الشيخ وابن مردويه.
وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٥٢٩) وقال: «**وإسناده ضعيف**».
وقال ابن كثير في «التفسير» (٨/ ١١٩): «وهذا غريب، وفي إسناده من لا أعرفه».

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ١٥٩)، وأبو يعلى الفراء في «إبطال التأويلات» رقم (٢٥٤)، وأبو عثمان الصابوني في «عقيدة أصحاب الحديث» (ص٢١٣)، والآجري في «الشريعة» (٣/ ١١٤٣ ـ ١١٤٤)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٥٣٢) **وضعّفه بقوله**: «إسحاق ضعيف، لم يدرك جد أبيه»، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥٤). وقال: «ويحيى بن إسحاق لم يسمع من عبادة ولم يرو عنه غير موسى بن عقبة». **قلت**: انقلب اسمه على الهيثمي، وهو إسحاق بن يحيى بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٣٣): عن أحاديثه: «عامتها غير محفوظة». ولم أجد الحديث في مطبوع «كتاب النزول» للدارقطني!

(٤) أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في «نقض الدارمي» (١/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧) وقوام السنة في «الحجة» (٢/ ١٢٣)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» رقم (٣٦). وقال الذهبي في «العلو» (ص٣٦): «**إسناده لين**»، وانظر الهامش الآتي.

أحد شيوخ البخاري وله شاهد في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة[١].

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: **«اقبلوا البشرى يا بني تميم»** قالوا: بشرتنا فأعطنا. قال: **«اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم»** قالوا: قد بشرتنا فاْقض لنا على هذا الأمر، كيف كان الله ﷻ على العرش، وكان قبل كل شيء، وكتب في اللوح المحفوظ كل شيء يكون»، حديث صحيح أصله في البخاري[٢].

وروى الخلال في «كتاب السنة» بإسناد صحيح على شرط البخاري عن قتادة بن النعمان قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه»**[٣]. وفي قصة وفاة النبي ﷺ من حديث جابر أن النبي ﷺ قال لعلي: **«إذا أنا مت فاغسلني أنت، وابن عباس يصب الماء، وجبرائيل ثالثكما، وكفّني في ثلاثة أثواب بيض جدد، وضعوني في المسجد؛ فإن أول من يصلي عليّ الرب ﷻ من فوق عرشه»**[٤]، وقد روى في حديث خطبة علي لفاطمة أن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).
وانظر كتابي: «من قصص الماضيين» (٢٦٩ ـ ٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩١) بلفظ مغاير، واللفظ المذكور عند أحمد (٤/ ٤٣١ ـ ٤٣٢)، وأبي الشيخ في «العظمة» (٢/رقم ٢٠٧) **وإسناده صحيح**.

(٣) عزاه للخلال في كتاب «السنة»: أبو يعلى الفراء في «إبطال التأويلات» (١/ ١٨٧)، والذهبي في «العلو» (١/ ٥٢٤) قال: «رواته ثقات»! مع أنه عده في «الميزان» (٣/ ٣٦٥) من منكرات فليح بن سليمان، والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٥٦٨)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٩/رقم ١٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٧٦١)، وصححه ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص١٠٧ ـ ١٠٨)! والتحقيق أنه **ضعيف**؛ إذ مداره على فليح بن سليمان عن أبيه عن سعيد بن الحارث عن عبيد بن حنين عن قتادة به.
قال البيهقي: «فهذا حديث منكر» وذكر تضعيف العلماء لفليح، وقال: «وفيه علة أخرى، وهي أن قتادة بن النعمان مات في خلافة عمر وصلى عليه عمر، وعبيد بن حنين مات سنة خمس ومئة، وله خمس وسبعون سنة في قول الواقدي وابن بكير، فتكون رواية قتادة منقطعة»، وذكر أبو موسى المديني اضطراب محمد بن فليح وأبيه، وانظر ـ لزاماً ـ: «السلسلة الضعيفة» (٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٦٣)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٧٤ ـ ٧٩) ومن طريقه ابن قدامة في «إثبات العلو» رقم (٣٤)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٦ ـ ٣١) وقال: «رواه الطبراني وفيه =

النبي ﷺ لما استأذنها قالت: يا أبت كأنك إنما ادخرتني لفقير قريش، فقال: «**والذي بعثني بالحق نبياً ما تكلمت بهذا حتى أذن الله فيه من السماء**» فقالت: رضيت بالله وبما رضي الله لي[(١)]. وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث ابن عباس قصة الشفاعة الحديث بطوله مرفوعاً، وفيه: «**فآتي الرب ﷻ فأجده على كرسيه، أو سريره جالساً**»[(٢)].

وعن أنس بن مالك قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «**يأتوني فأمشي بين أيديهم حتي آتي باب الجنة، وللباب**[(٣)] **مصراعان من ذهب، مسيرة ما بينهما خمسمائة عام**» قال معبد: فكأني أنظر إلى أصابع أنس حين فتحها، يقول: مسيرة ما بينهما خمسمائة عام: «**فأستفتح فيؤذن لي، فأدخل على ربي فأجده قاعداً على كرسي العز، فأخرّ له ساجداً**» رواه خُشَيش بن أصرم النسائي[(٤)] (كذا) في «كتاب السنة له». وذكر عبد الرزاق عن ابن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله ﷻ ينزل إلى سماء الدنيا، وله في كل سماء كرسي، فإذا نزل إلى سماء الدنيا، جلس على كرسيه، ثم يقول: من ذا الذي يقرض غير عديم ولا ظلوم؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ من ذا الذي يتوب فأتوب عليه؟ فإذا كان**

= عبد المنعم بن إدريس وهو **كذاب وضاع**»، وانظر: «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٢٧٧ ـ ٢٨٢).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٩٣ ـ ١٩٤)، وابن شاهين في «فضائل فاطمة» (ص٤٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ١٢٥)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٣٤٣) وقال: «هذا حديث **منكر**، لعل محمد بن كثير افتراه فإنه متهم، فإن الأوزاعي ما نطق به قط، ولم أرو هذا ونحوه إلّا **للتزييف والكشف**»، وانظر: «الواهيات» (١/ ٢٢٢) لابن الجوزي.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وللجنة».

(٤) خُشَيش هذا هو ابن الأسود أبو عاصم النسائي، قال عنه المزي في «تهذيب الكمال» (٨/ ٢٥١): «خُشَيْش بن أصرم بن الأسود أبو عاصم النسائي الحافظ صاحب كتاب «الاستقامة في السنة والرد على أهل البدع والأهواء»»، وقال الذهبي في «السير» (١٢/ ٢٥١): «وكان صاحب سنة واتّباع» وقال في «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٥٥١): «الحافظ الحجة أبو عاصم النسائي مصنف «كتاب الاستقامة» يرد فيه على أهل البدع» وقال الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٣/ ١٢٣): «وله كتاب «الاستقامة في الرد على أهل الأهواء»».

عند الصبح، ارتفع فجلس على كرسيه»[(١)] رواه أبو عبد الله في «مسنده»، وروي عن سعيد مرسلاً وموصلاً، قال الشافعي رحمه الله تعالى: «مرسل سعيد عندنا حسن»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن منده في «الرد على الجهمية» (ص٨٠).

(٢) انظر: «مختصر المزني» (ص٧٨).

ومعنى قول الإمام الشافعي هذا هو أن مراسيل كبار التابعين ـ كسعيد بن المسيب ـ لها نظرة خاصة، وذلك لما لهم من منزلة في الدين ومكانة بين العلماء، حتى ظنّ البعض ـ وهو واهم بذلك ـ أن الإمام الشافعي يقبل مراسيل سعيد بن المسيب دون قيد أو شرط، والأمر ليس كذلك ومذهبه في هذا كمذهب غيره.

قال الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٥٤٦):

«ذكر بعض الفقهاء أن الشافعي جعل مرسل ابن المسيب حجة؛ لأن مراسيله كلها اعتبرت فوُجِدت متصلات من غير حديثه، وهذا القول ليس بشيء لأن في مراسيل سعيد ما لم يوجد متصلاً من وجه البتّة، والذي يقتضي مذهب الشافعي أنه جعل لسعيد مزيّة في الترجيح بمراسيله خاصة؛ لأن أكثرها وجد متصلاً من غير حديثه لا أنه جعلها أصلاً يحتج به، والله أعلم».

قلت: وقد جلّى هذه المسألة أعرف الناس بالشافعي ومذهبه وهو الإمام البيهقي، فقال كلاماً مختصراً فيه تحقيق بليغ. وهذا نص كلامه في «مناقب الشافعي» (٢/ ٣٢):

«فالشافعي رحمه الله، يقبل مراسيل كبار التابعين إذا انضم إليها ما يؤكدها، وقد ذكرنا في «كتاب المدخل» من أمثلتها بعضها، وإذا لم ينضم إليها ما يؤكدها لم يقبله سواء، كان مرسل ابن المسيَّب أو غيره».

قلت: وقد ذكر ذلك البيهقي أيضاً في «رسالته إلى الشيخ أبي محمد الجويني» فقرر أن الشافعي لم يخص مرسل ابن المسيب بالقبول، بل يقبل مرسله ومرسل غيره من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين وعطاء إذا اقترن بها ما يؤكدها.

قال (ق٧/ أ): «وإنما ترك الشافعي مراسيل من بعد كبار التابعين، كالزهري ومكحول والنخعي ومن في طبقتهم، ورجح به قول بعض أصحاب النبي ﷺ إذا اختلفوا، وترك مراسيل كبار التابعين، ما لم يقترن به ما يشده من الأسباب التي ذكرها في «الرسالة»، أو وجد من الحجج ما هو أقوى منها».

وقال (ق٧/ ب): «وعلى هذا فتخصيص مرسل ابن المسيب بالقبول دون من كان في مثل حاله من كبار التابعين على أصل الشافعي لا معنى له، والله أعلم».

الخلاصة: إن مرسل سعيد ما لم يوجد مسنداً بحال من وجه يصح، فإنه لا فرق بين مرسل سعيد وغيره من كبار التابعين عند الشافعي، وإنما رجح الشافعي وغيره بمرسل سعيد، وهو ليس بانفراده حجة عنده.

وانظر تفصيل هذه المسألة تعليقي على: «تعظيم الفتيا» لابن الجوزي (ص٦١ ـ ٦٧).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا جمع الله الخلائق حاسبهم، فيميز بين أهل الجنة وأهل النار، وهو في جنته على عرشه»**[١]. قال محمد بن عثمان الحافظ: هذا حديث صحيح، وعن جابر بن سليم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن رجلاً ممن كان قبلكم لبس بردين، فنظر الله إليه من فوق عرشه، فمقته فأمر الأرض فأخذته»**[٢] حديث صحيح. وروى عبد الله بن بكر السهمي وذكر سنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كنا جلوساً ذات يوم بفناء رسول الله ﷺ، إذ مرت بنا امرأة من بنات رسول الله ﷺ، فقال رجل من القوم: هذه ابنة رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان: ما مثل محمد في بني هاشم إلا كمثل ريحانة في وسط الزبل، فسمعته تلك المرأة، فأبلغته رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ - أحسبه قال: مغضباً - فصعد على منبره، وقال: **«ما بال أقوال تبلغني عن أقوام، إن الله خلق سبع سموات، فاختار العليا، فسكنها، وأسكن سماواته من شاء من خلقه، وخلق أرضين سبعاً، فاختار العليا، فأسكن فيها من خلقه، واختار خلقه فاختار بني آدم، فاختار العرب، فاختار مضر، فاختار قريشاً، فاختار بني هاشم، فاختارني، فلم أزل من خيار في خيار، ألا من أحب قريشاً**[٣] **فبحبي أحبهم، ومن أبغض قريشاً**[١] **فببغضي أبغضهم»**[٤].

وروى الإمام أحمد من حديث ابن أبي ذئب بسنده إلى أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى، وإذا كان الرجل السيء؛ قالوا: اخرجي أيتها النفس**

---

(١) ذكره الذهبي في «العرش» (٢/ ٩٨) وفيه يزيد الرَّقاشي وهو ضعيف.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صوابه: «العرب» كذا في الأصول.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٥٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٥٠١، ط. الصميعي)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢٩٩)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ١٣٩، ٢٢٩).

وقال عنه شيخنا الألباني في «الضعيفة» (٣٣٨): «منكر».

ثم قال: «ومما ينبغي أن يُعلم أن القطعة الأخيرة من الحديث المتضمنة فضل العرب وفضل الرسول ﷺ ثابتة في أحاديث صحيحة».

الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر»[1].

وروى الإمام أحمد في «مسنده» من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، وانتهينا إلى القبر ولم يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه، فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا، حتى ينتهوا إلى سماء الدنيا، فيستفتحون له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة، فيقول الله تعالى: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى**».

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ و٦/ ١٣٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢، ٤٢٦٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» رقم (١٨)، وابن جرير (٨/ ١٧٧)، وابن منده في «الإيمان» (١٠٦٨)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢٦١)، والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٤٠)، والآجرّي في «الشريعة» رقم (٢٩٢٣)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (ص٣٥)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» رقم (٤٢)، **وإسناده صحيح**.

قال أبو نعيم ـ فيما نقله شيخ الإسلام في «شرح حديث النزول» (ص٨٧) ـ: «هذا حديث متفق على عدالة ناقليه»، وقال ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٣٦): «صحيح، صححه جماعة من الحفاظ»، وانظر: «مصباح الزجاجة» للبوصيري (٤/ ٢٥٠).

قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان؛ فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت. فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد البصر، قال: ويأتيه رجل من أحسن الناس وجهاً، حسن الثياب، طيب الرائحة، فيقول: أبشر بالذي يسرك، فهذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك وجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي»[1]. وذكر الحديث وهو صحيح صححه جماعة من الحفاظ.

---

(١) أخرجه ابن منده في «الإيمان» (٢/ ٩٦٣) وكتاب «الروح والنفس» ـ كما في «الروح» (ص٦٥) ـ وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧ و٢٨٨ و٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٣٨٠)، وأبو داود في «السنن» كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤/ ٢٣٨) رقم (٤٧٥٣) و(٤٧٥٤)، والطيالسي في «المسند» (١/ ١٥٤ ـ مع «منحة المعبود»)، وهناد في «الزهد» (١/ ٢٠٥) رقم (٣٣٩)، والنسائي في «المجتبى» (٤/ ٧٨ ـ مختصراً)، و«السنن الكبرى» كتاب الجنائز ـ كما في «تحفة الأشراف» (٢/ ٤٦٧) ـ والآجري في «الشريعة» (ص٣٦٧ و٣٧٠)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (١٢١٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٥٦)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٣٦٥ و١٣٦٦ و١٣٦٧ و١٣٦٨ و١٣٦٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٥٨٠)، والطبري في «جامع البيان» (٨/ ١٧٦ ـ ١٧٧ ـ مختصراً) و(١٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥ و٢١٧ و٢١٨)، و«تهذيب الآثار» (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٩) رقم (٢٤٨٠ ـ ٢٤٨٥)، والمروزي في «زوائد الزهد» (٤٣٠ ـ ٤٣١)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» رقم (٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥ و٥٥)، و«المدخل إلى السنن الكبرى» رقم (٦٥٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧ و٣٩ و٤٠)، وابن ماجه «السنن» (١/ ٤٩٤ ـ مختصراً) رقم (١٥٤٨)، والرافعي في «التدوين في أخبار قزوين» (١/ ٦٢ ـ ٦٤) و(٣/ ٣٠٥ و٩ و١٤٠)، وابن أبي حاتم وعبد بن حميد ـ كما في «الدر المنثور» (٤/ ٨٣)، و«شرح الصدور» (٢٣) ـ، وأبو عوانة في «صحيحه» ـ كما في «الروح» (ص٦٠) ـ، وعلي بن معبد في «الطاعة والمعصية» ـ كما قال القرطبي في «التذكرة» (ص١٤٩ ـ ١٥٠) ـ.
وقال أيضاً:
«هو حديث صحيح، له طرق كثيرة، تهمم بتخريج طرقه علي بن معبد».
وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة في «الفتاوى» (٤/ ٢٩٠): «وهو حديث حسن ثابت».
وقال البيهقي في «إثبات عذاب القبر» (ص٣٩): «هذا حديث كبير، صحيح الإسناد». =

وقال عثمان بن سعيد الدارمي الإمام الحافظ أحد أئمة الإسلام بسنده إلى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: **«لما أسري بي مررت برائحة طيبة، فقلت: يا جبرائيل ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، كانت تمشطها فوقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله تعالى، فقالت ابنته: أبي! قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك الله، فقالت: أُخبر بذلك أبي. قالت: نعم، فأخبرته فدعا بها، فقال: من ربك هل لك رب غيري؟ قالت: ربي وربك الله الذي في السماء. فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، ثم دعا بها وبولدها فألقاهما فيها»**(١)، وساق الحديث بطوله. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«كان ملك الموت يأتي الناس عياناً؛ فأتى موسى فلطمه، فذهب بعينه، فعرج إلى ربه، فقال: بعثتني إلى موسى فلطمني، فذهب بعيني، ولولا كرامته عليك لشققت عليه، فقال: ارجع إلى عبدي فقل له: فليضع يده على ثور فله بكل شعرة توارت بيده سنة يعيشها، فأتى فبلغه ما أمره به، فقال: ما بعد ذلك، قال: الموت، قال: الآن، فشمَّه شمة قبض روحه فيها، ورد الله على ملك الموت بصره»**(٢) هذا حديث صحيح وشاهده في «الصحيحين»(٣).

= وقال ابن منده: «هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وكذلك رواه عدة عن الأعمش».
وقال ابن القيّم في «الروح» (ص٦٥): «الحديث صحيح، لا شك فيه، رواه عن البراء جماعة».
وقال الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٩): «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين» وقال أيضا: «وفي هذا الحديث فوائدُ كثيرةً لأهل السُّنَّة، وقمع للمبتدعة، ولم يخرجاه بطوله». ووافقه الذهبي في «التلخيص».
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٤٩): «رجاله رجال الصحيح».
وانظر: «إتحاف السادة المتقين» (١٠/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠ و٤٠١). وللحديث شواهد من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرها.
وقد جمع الدَّارقطني طرق هذا الحديث في جزء مفرد؛ قاله ابن القيّم في «الروح» (ص٦٩).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢)، وابن حبان (٤/ ٤٥١ ـ ٤٥٢ ـ التعليقات الحسان)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١)، والحاكم (٢/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٣) **وضعفه** شيخنا الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٣)، والحاكم (٢/ ٥٧٨)، والطبري في «التاريخ» (١/ ٤٣٤) **وصححه** شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٣٢٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة.

وقال أيضاً: بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما ألقي إبراهيم في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك»**[(١)]. وعن ابن عباس يرفعه: **«عجبت من ملكين نزلا يلتمسان عبداً في مصلاه، كان يصلي فيه فلم يجداه، فعرجا إلى الله فقالا: يا ربنا عبدك فلان كنا نكتب له من العمل، فوجدناه قد حبسته في حبالك، فقال: اكتبوا لعبدي عمله الذي كان يعمل»** رواه ابن أبي الدنيا[(٢)]، وله شاهد في البخاري[(٣)]. وفي حديث عبد الله بن أنيس الأنصاري الذي رحل إليه جابر بن عبد الله من المدينة إلى مصر حتى سمع منه، وقال له: بلغني أنك تحدث بحديث في القصاص عن رسول الله ﷺ لم أشهده وليس أحد أحفظ له منك، قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله يبعثكم يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بُهماً، ثم يجمعكم ثم ينادي وهو قائم على عرشه»**[(٤)] وذكر الحديث، احتج به أئمة أهل السنة؛ أحمد بن حنبل وغيره.

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٤٦)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٥٦)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠١ ـ ٢٠٢) وقال: «رواه البزار وفيه عاصم بن عمر بن حفص وثقه ابن حبان وقال: يخطئ ويخالف، **وضعفه الجمهور**».

(٢) أخرجه الطيالسي (٣٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ١٨٦)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٧٥) وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٠٤): «رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار ـ باختصار ـ وفيه محمد بن أبي حميد ضعيف جداً»، **وضعفه شيخنا الألباني** في «ضعيف الجامع» (٣٦٨٣).

(٣) لم أجده في البخاري وإنما وجدته عند أحمد (٢/ ١٥٩)، والحاكم (١/ ٣٤٨)، وأبي نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٤٩) ولفظه:

«ما من مسلم يصاب ببلاء في جسده إلّا أمر الله الحفظة الذين يحفظونه أن اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير على ما كان يعمل، ما دام محبوساً في وثاقي» والسياق للحاكم وقال: «**صحيح** على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي وهو كما قالا، أفاده شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١٢٣٢).

(٤) أخرجه الخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» (٣٣)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٤٢)، وذكره الذهبي في «العرش» (٨٠)، وفي «العلو» (١٢٩) وقال: «**فهذا شبه موضوع**».

وروى الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» بسنده عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: **«إن الله ليكره في السماء أن يخطأ أبو بكر في الأرض»**[١] ولا تعارض بين هذا الحديث وبين قول النبي ﷺ له في حديث الرؤيا: **«أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً»**[٢] لوجهين؛ **أحدهما**: إن الله سبحانه وتعالى يكره تخطئة غيره من آحاد الأمة[٣] لا تخطئة الرسول ﷺ له في أمر ما، فإن الحق والصواب مع رسول الله ﷺ قطعاً بخلاف غيره من الأمة، فإنه إذا أخطأ[٤] الصديق لم يتحقق أن الصواب معه، بل ما تنازع الصديق وغيره في أمر ما إلا وكان الصواب مع الصديق. **الثاني**: إن التخطئة هنا نسبة إلى الخطأ العمد الذي هو الإثم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١] لا من الخطأ الذي هو ضد العلم والتعمد، والله أعلم.

وروى أبو نعيم بسنده إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا، فيذكره الله من فوق سبع سموات، فيقول: ملائكتي إن عبدي هذا قد أشرف على حاجة من حاجات الدنيا، فإن فتحتها له فتحت له باباً إلى النار»**[٥] الحديث. وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله ما أراك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: **«ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ﷻ، فأحبُّ أن يرفع عملي وأنا صائم»**[٦]. وقال أبو بكر بن أبي شيبة بسنده إلى حسان بن ثابت أنه أنشد النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه الحارث في «مسنده» ـ كما في «المطالب العالية» (١٥/ ٦٧١) ـ وأحمد في «فضائل الصحابة» (٦٥٩)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٢٦)، وذكره الذهبي في «العلو» (١٢٣) وقال: **«الخبر غير صحيح»**.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٦)، ومسلم (٢٢٦٩) من حديث ابن عباس.

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الأمة له».

(٤) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «خطأ».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٠٥)، وابن قدامة في «إثبات العلو» (٣٣)، وذكره الذهبي في «العلو» (٨٠) وقال: **«الحديث موضوع»**.

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠١)، والنسائي (٢٣٥٧)، وعبد الرزاق (٧٩١٧)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٠٣)، والبزار (٢٦١٧)، وابن عدي (٢/ ٩١٥)، وأبو القاسم البغوي في «مسند =

شَـهِـدتُ بـإذنِ اللهِ أن مـحـمـداً ... رسولُ الذي فوق السموات مِن عَلُ
وأن أخا الأحقافِ إذ قام فيهم[(١)] ... يقول بذات[(٢)] الله فيهم ويعدِلُ
وأنَّ أبا يحيى ويحيى كلاهُما ... له عَمَلٌ من ربه[(٣)] مُتَقَبَّلُ[(٤)]

قال شيخ الإسلام، وذكر سنده إلى ابن عباس، إن اليهود أتو النبي ﷺ فسألوه عن خلق السموات والأرض... فذكر حديثاً طويلاً قالوا: ثم ماذا يا محمد، قال: «**ثم استوى على العرش**» قالوا: أصبت يا محمد لو أتممت، ثم استراح، فغضب غضباً شديداً، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[(٥)] [ق: ٣٨].

فصل

فيما حفظ عن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم من ذلك

قول أبي بكر الصديق: قال أبو بكر بن أبي شيبة بسنده عن ابن عمر قال: لما قبض رسول الله ﷺ قال أبو بكر: «أيها الناس إن كان محمد إلهكم فإن

= أسامة» (٤٨، ٤٩)، وأبو نعيم (٩/ ١٨)، وفي «معرفة الصحابة» (٧٧١)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨٢١)، والضياء (١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٥٦، ١٣٥٨) وإسناده حسن.

(١) في مطبوع «الأغاني»: «إذ يعذلونه». (٢) في مطبوع «الأغاني»: «يقوم بدين».

(٣) في مطبوع «الأغاني» و«مصنف ابن أبي شيبة» و«مسند أبي يعلى»: «له عمل في دينه».

(٤) نسبت هذه الأبيات لحسان بن ثابت رضي الله عنه.
ذكرها عنه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٤٩٧)، وأبو يعلى (٥/ ٦١)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٣٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ١٢٩)، والأصبهاني في «الأغاني» (٤/ ١٥٢) وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٣٣٤، ط. الغرب): «وقد رُويا لحسَّان» وذكرها الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٤): «رواه أبو يعلى وهو مرسل»، وضعفه شيخنا في «تعليقه على الطحاوية» (٣١٥ ـ ٣١٦).
ونسبت لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.
ذكرها عنه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٤٩٨)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٣٣٤).

(٥) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٦١) وفي «التاريخ» (١/ ٢٨)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص٢٢٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٦٢ ـ ١٣٦٣) رقم (٨٧٨)، والحاكم (٢/ ٥٤٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٦٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٧٦٥)، **وإسناده ضعيف**، فيه أبو سعد البقال، وكان يرسله مرة عن عكرمة، كما عند عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٢١٠ ـ ٢١١).

محمداً قد مات، وإن كان الله إلهكم الذي في السماء، فإن إلهكم لم يمت، ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤] حتى ختم الآية[(١)]. وقال البخاري في «تاريخه» بسنده إلى ابن عمر قال: لما قبض النبي ﷺ دخل أبو بكر فانكبَّ عليه وقبَّل جبهته، وقال: «بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، وقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله في السماء حي لا يموت»[(٢)]. وفي «صحيح البخاري» من حديث سهل بن سعد الساعدي: «إن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني عمرو بن عوف، ليصلح بينهم، فحانت الصلاة فجاء المؤذن إلى أبي بكر...» فذكر الحديث، وفيه: «إن رسول الله ﷺ أشار إلى أبي بكر، أن امكث مكانك، فرفع أبو بكر يديه، فحمد الله على ما أمره به رسول الله ﷺ ثم استأخر»[(٣)] فذكره اهـ.

قول عمر بن الخطاب: قال إسماعيل عن قيس قال: «لما قدم عمر الشام استقبله الناس، وهو على بعيره فقالوا: يا أمير المؤمنين لو ركبت برذوناً ليلقاك عظماء الناس ووجوههم، فقال عمر: «ألا أراكم ههنا، إن الأمر من ههنا، وأشار بيده إلى السماء»[(٤)]. وقال عثمان بن سعيد الدارمي بسنده إلى أبي يزيد المدني[(٥)]

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤٣)، والطبري (٢١/ ٤٦٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٠٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٦٢) ومداره على أبي سعد البقال، قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (ص٢٨٦، ط. ابن حزم): «**ضعيف** مدلس».

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥)، والبزار (١/ ١٨٢)، وابن حبان في «الثقات» (٢/ ١٣٤)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٨)، و«نقض الإمام أبي سعيد على بشر المريسي العنيد» (١/ ٥١٩)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٧٠)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٦٠٠) وقال: «هذا حديث **صحيح**»، وكذا قال في «الأربعين» (ص٩١ ـ ٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٤)، ومسلم (٤٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٤)، والخلال في «السنة» (٢/ ٣١٧)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» رقم (٧١)، والذهبي في «العلو» (١/ ٦٠٦) وقال: «إسناده كالشمس» وقال شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٠٣): «**وهو إسناد صحيح على شرط الشيخين**».

وانظر: «المجالسة» (٣/ ٣٥٦ ـ ٣٥٩ ـ بتحقيقي).

(٥) كذا في مصادر التخريج، وكتب الرجال، مثل: «تهذيب الكمال» (٣٤/ ٤٠٩)، وتحرف في الأصل إلى «المزني»!

قال: لقيت امرأة عمر بن الخطاب يقال لها: خولة بنت ثعلبة، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى لها حتى قضيت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجالاً من قريش على هذه العجوز! قال: «ويلك تدري من هذه» قال: لا، قال: «هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضرني صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها»[١].

وقال خليد بن دعلج عن قتادة قال: خرج عمر بن الخطاب من المسجد ومعه جارود العبدي، فإذا بامرأة برزة على ظهر الطريق، فسلَّم عليها عمر فردت عليه السلام، وقالت: إيهاً يا عمر! عهدتُك يا عمر وأنت تُسمى عميراً في سوق عكاظ، تزع الصبيان بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيت عمر، ولم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت، فقال الجارود: لقد اجترأتِ أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقال عمر: «دعها، أما تعرفها؟! هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله شكواها من فوق سبع سموات»[٢].

وقال ابن عبد البر: «وحدثنا[٣] من وجوه عن عمر بن الخطاب: أنه خرج ومعه الناس، فمر بعجوز فاستوقفته، فوقف لها وجعل يحدِّثها وتحدثه، فقال

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٩)، وفي «الرد على بشر المريسي» (ص٤٧، ط. القديمة)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ـ كما في «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٤٢) ـ والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٢٢)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (ص١٠٢)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٦١٠)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠)، وعزاه لابن أبي حاتم والبيهقي، **وإسناده ضعيف**.

قال ابن كثير: «هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب، وقد روي من غير هذا الوجه».

وقال الذهبي: «هذا إسناد صالح فيه انقطاع، أبو يزيد لم يلحق عمر».

(٢) أخرجه ابن شبه في «تاريخ المدينة» (٢/ ٣٩٤، ٧٧٣ ـ ٧٧٤)، وذكره ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٧٣)، وابن حجر في «الإصابة» (٧/ ٦٢٠ ـ ٦٢١) وقال: «خليد بن دعلج **ضعيف سيئ الحفظ**».

(٣) في مطبوع «الاستيعاب»: «وروينا».

رجل: يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز، قال: ويحك تدري من هذه؛ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات...»[١] الحديث.

قول عبد الله بن مسعود: قال الدارمي بسنده إلى ابن مسعود قال: «ما بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله تعالى فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه»[٢].

وروى الأعمش عن خيثمة عنه: «إن العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإجارة، حتى إذا تيسر له نظر الله إليه من فوق سبع سموات، فيقول للمَلَك: اصرفه عنه، فيصرفه عنه»[٣]. اهـ.

قول عبد الله بن عباس: ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب «السنة» من حديث سعيد[٤] بن جبير [عنه] قال: «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله، فإن بين السموات السبع إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك»[٥].

---

(١) انظر: «الاستيعاب» (ص٨٩٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٠٢، ٢٢٨)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٨١) وفي «الرد على بشر المريسي» (ص٧٣، ٩٠، ١٠٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٢، و٢/ ٨٨٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ١٣٩ و٧/ ١٣٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٦٥و ٣/ ١٠٤٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٩٠، ٢٩٢)، وابن أبي زمنين في «السنة» (٣٩)، والهمداني في «فتيا» (٧٧)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٦) وقال: «**رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح**»، قلت: **إسناده حسن**، من أجل عاصم بن بهدلة، وصححه ابن القيم في «مختصر الصواعق» (٢/ ٢١٠).

(٣) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٨٠)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٤/ ٦٦٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٣٢٣)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٦٢٤) وقال: «**أخرجه اللالكائي بإسناد قوي**».

(٤) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «سعد»!

(٥) عزاه ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٧٩) لعبد الله بن أحمد أيضاً ولم أجده في المطبوع، فلعله سقط من النسخ.
وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٤٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٢١٢)، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١/ ٣٨٨)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٨١٢) وقال عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٤٦٨): «**موقوف وإسناده جيد**».

وفي «مسند الحسن بن سفيان» و«كتاب عثمان بن سعيد الدارمي» من حديث عبد الله بن أبي مُلَيكة أنه حدثه ذكوان قال: استأذن ابن عباس على عائشة وهي تموت، فقال: «كنتِ أحبَّ نساء النبي ﷺ ولم يكن رسول الله ﷺ يحبُّ إلا طيِّباً، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات، جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيها إلا وهو يتلى فيها آناء الليل وآناء النهار؟»(١).

وذكر الطبري(٢) في «شرح السنة» من حديث سفيان عن أبي هشام، عن مجاهد قال: قيل لابن عباس: إن أناساً يكذبون بالقدر. قال: «يكذبون بالكتاب لئن أخذتُ شعر أحدهم لأنصونّه(٣) إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً فخلق الخلق فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه»(٤).

وقال إسحاق بن راهويه أخبرنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يستطع أن يقول: من فوقهم علم أن الله من فوقهم»(٥). اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٠، ٢٧٦، ٣٤٩، وأبو يعلى (٣٢١)، والطبراني (١٠٧٨٣)، وابن حبان (١٠/ ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ التعليقات الحسان)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٨٤)، و«النقض على بشر المريسي» (١/ ٥٢١)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٨٩٢) وقال عنه شيخنا الألباني: «**صحيح لغيره**»، وأصله عند البخاري (٨/ ٤٨٢ ـ «الفتح»).

(٢) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الطبري»، وهو اللالكائي صاحب «شرح أصول الاعتقاد»، وفي الأصل: «الطبراني»!!

(٣) كذا في مصادر التخريج، وهو الصواب، وفي الأصل: «أخذ... لا ينبتونه»! ومعناه: لآخذنّ بناصيته، وهي قصاص الشعر في مقدَّم الرأس.

(٤) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٤٤)، والفريابي (٧٨، ٧٩)، والبيهقي (٤٣٨) كلاهما في «القدر»، وابن جرير في «التفسير» (٢٣/ ١٤٦)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٣٩٦)، ومن طريقه ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٧٧)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٤٨٣)، **وإسناده صحيح**.

(٥) أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» ـ كما في «المطالب العالية» (١٢/ ٥٦٨)، و«إتحاف الخيرة المهرة» (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) ـ، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢/ ٣٩٦)، وابن قدامة في «العلو» (٧٨)، **وإسناده ضعيف**، فيه إبراهيم بن الحكم، وبه أعله =

قول عائشة: قال الدارمي بسنده إلى عائشة قالت: «وايم الله! إني لأخشى لو كنتُ أحبُّ قتله لقتلته ـ تعني عثمان ـ ولكن علم الله من فوق عرشه أني لم أحب قتله»[١]. اهـ.

قول زينب بنت جحش أم المؤمنين: في «الصحيحين» من حديث أنس قال: كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ، وتقول: «زوّجكنَّ أهاليكنّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات»[٢]. وفي لفظ غيرهما: كانت تقول: «زوجنيك الرحمن من فوق عرشه، كان جبرائيل السفير بذلك، وأنا ابنة عمتك». اهـ[٣].

قول أبي أمامة الباهلي: قال أبو أمامة الباهلي: «لعن الله إبليس وأخرجه من سمواته وأخزاه، قال: رب أخزيتني ولعنتني وطردتني عن سمواتك وجوارك! فوعزتك لأغوين خلقك ما دامت الأرواح في أجسادهم! فأجابه الرب تبارك وتعالى، فقال: «وعزتي وجلالي وارتفاعي على عرشي، لو أن عبدي أذنب حتى ملأ الأرض خطايا، ثم لم يبق من عمره إلا نفس واحد فندم على ذنوبه لغفرتها، وبدلت سيئاته كلها حسنات» وقد روى هذا المتن مرفوعاً[٤].

قول الصحابة كلهم: قال يحيى بن سعيد الأموي في «مغازيه» بسنده إلى عدي بن عميرة قال: «خرجت مهاجراً إلى النبي ﷺ...» فذكر قصة طويلة، وقال فيها: «فإذا هو ومن معه يسجدون على وجوههم، ويزعمون أن إلٰههم في السماء، فأسلمت وتبعتُه»[٥].

= البوصيري. وأخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٠/ ١٠١) بنحوه، وفيه حفص بن عمر العدني، **مجمع على ضعفه**.

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٨٣)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١/ ٨٧ ـ ٨٨)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٦٣٧)، **وصححه** شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٠٤)، **وإسناده صحيح**، رجاله كلهم ثقات.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠) ولم أجده في «صحيح مسلم».

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٥)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٣١)، وذكره الذهبي في «العلو» (١/ ٢٨٤).

(٤) أخرج المرفوع ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٦٧)، وأبو نعيم (٢/ ٣٨٦)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٣٥) ومن طريقه الذهبي في «الميزان» (٣/ ٦٠٠) وفيه محمد بن عبد الله بن زياد الأنصاري، كذاب، ولذا قال الذهبي في «العلو» (١/ ٤٤٨): **«وعداده في الموضوعات»**، وانظر: «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٠٥).

(٥) أخرجه ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٢١)، والذهبي في «العلو» (١/ ٣٧٣)، وعزاه =

ذكر أقوال التابعين:

قول[١] **مسروق** رَحِمَهُ اللَّهُ قال علي بن الأقمر: كان مسروق إذا حدَّث عن عائشة قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة حبيب الله ﷺ، المبرَّأة من فوق سبع سموات. اهـ[٢].

قول عكرمة: قال سلمة بن شعيب بسنده إلى عكرمة قال: بينما رجل مستلق على متنه في الجنة، فقال في نفسه لم يحرك شفتيه: لو أن الله يأذن لي لزرعت في الجنة، فلم يعلم إلا والملائكة على أبواب جنته، قابضين على أكفهم فيقولون: سلام عليك، فاستوى قاعداً، فقالوا له: يقول لك ربك: تمنيت شيئاً في نفسك قد علمه وقد بعث معنا هذا البذر، يقول لك: ابذر فألقى يميناً وشمالاً وبين يديه وخلفه، فخرج أمثال الجبال على ما كان تمنى وزاد، فقال له الرب من فوق عرشه: كل يا ابن آدم، فإن ابن آدم لا يشبع»[٣].

قول قتادة رحمه الله تعالى: قال الدارمي بسنده إلى قتادة قال: «قالت بنو إسرائيل: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض، فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك؟ قال: إذا رضيت استعملت عليكم خياركم، وإذا غضبت عليكم استعملت شراركم»[٤].

= ابن القيم في «تهذيب السنن» (٧/ ١١١) لـ«مغازي الأموي» **وإسناده مظلم**، فيه مجاهيل، ولذا قال الذهبي في «العلو» (١/ ٣٢٥): «هذا حديث غريب»، وانظر: «الإصابة» (٢/ ٤٦٣).

(١) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «قال»!

(٢) أخرجه ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٨٣) وعنه الذهبي في «السير» (٢/ ١٨١)، وذكره في «العلو» (٢/ ٨٦٨) وقال: «**إسناده صحيح**».
وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٤) ولفظه: «حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبةُ حبيب الله المبرأة في كتاب الله»، **وإسناده صحيح**.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٣٤)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٨٤)، وذكره الذهبي في «العرش» (٢/ ١٩٤)، وفي «العلو» (٢/ ٨٩٥) وقال: «**إسناده ليس بذاك**»، قلت: فيه إبراهيم بن الحكم بن أبان ضعيف، وقارنه بما في «صحيح البخاري» (٢٣٤٨، ٧٥١٩).

(٤) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٨٧)، والدينوري في «المجالسة» (٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ـ بتحقيقي) ومن طريقه ابن عربي في «المحاضرة» (١/ ٤٦٨).
وأخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص٢٧٧) ومن طريقه ابن الجوزي في «الحدائق» (٢/ ١٦). =

قول سليمان التيمي: قال ابن أبي خيثمة في «تاريخه»[(١)] بسنده إلى سليمان التيمي قال: «لو سئلت: أين الله؟ لقلت في: السماء»[(٢)].

قول كعب الأحبار: قال الليث بن سعد بسنده إلى عطاء بن يسار قال: أتى رجل كعباً وهو في نفر، فقال: يا أبا إسحاق حدثني عن الجبار، فأعظم القوم قوله، فقال كعب: «دعوا الرجل فإن كان جاهلاً تعلم، وإن كان عالماً ازداد علماً» ثم قال كعب: «أخبرك أن الله خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن، ثم جعل ما بين كل سماءين كما بين سماء الدنيا والأرض، وكثفهن مثل ذلك، ثم رفع العرش فاستوى عليه فوقه»[(٣)].

وقال نعيم بن حماد: بسنده عن كعب قال: قال الله في التوراة: «أنا فوق عبادي، وعرشي فوق جميع خلقي، وأنا على عرشي[(٤)] أدبر أمور عبادي، لا يخفى عليَّ شيء من أمر عبادي في سمائي ولا أرضي، وإليَّ مرجع خلقي فأنبئهم بما خفي عليهم من علمي، أغفر لمن شئت منهم بمغفرتي، وأعاقب من شئت بعقابي». اهـ[(٥)].

= وأخرجه النسفي في «القند» (ص٤٥١/رقم ٨٣٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ق٣٧٢)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» رقم (٣٢، ٢٧٨)، والذهبي في «السير» (٥/ ٢٨٠) ونحوه في «سراج الملوك» (٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨، ط. المصرية اللبنانية) وعلق عليه المحقق بكلام فيه عقيدة فاسدة فاحذره، وصححه الذهبي في «الأربعين» (ص٩٣) و«العلو» (٢/ ٨٩٣)، **وحسنه** شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٣١).

(١) لم أجده في القسم المطبوع منه، والنقص في أصوله الخطية.

(٢) أخرجه اللالكائي (٣/ ٤٠١) ومن طريقه ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٩١) وعلقه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٦٤)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٩١٩)، وقال شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٣٣): «وصدقة هذا هو ابن المنتصر أبو شعبة الشعباني، قال أبو زرعة: لا بأس به كما في «الجرح والتعديل» (٢/ ١/ ٤٣٤)، وسائر رجاله ثقات». قلت: **إسناده صحيح**، والحمد لله.

(٣) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٨٨)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٦٠٨) **وإسناده ضعيف**، فيه عمر مولى غفرة، ضعيف، وفي آخره نكرة ظاهرة، جعلت الذهبي يقول في «العلو» (٢/ ٨٦٥) عنه: «وذكر كلمة منكرة، لا تسوغ لنا، والإسناد نظيف، وأبو صالح ـ يريد عبد الله بن صالح كاتب الليث ـ ليّنوه، وما هو بمتَّهم»!

(٤) في الأصل: «عرش»! والتصويب من مصادر التخريج.

(٥) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٢٥) ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧)، =

قول مقاتل: ذكر البيهقي في «الأسماء والصفات» عن بكر بن معروف عن مقاتل: «بلغنا ـ والله أعلم ـ في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الأول: قبل كل شيء، والآخر: بعد كل شيء، والظاهر: فوق كل شيء، والباطن: أقرب من كل شيء، وإنما يعني القرب بعلمه وقدرته، وهو فوق عرشه، وهو بكل شيء عليم»(١).

وبهذا الإسناد عنه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يقول بعلمه وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم نجواهم ويسمع كلامهم ثم ينبئهم يوم القيامة بكل شيء وهو فوق عرشه وعلمه معهم»(٢). اهـ.

قول الضحاك: روى بكر بن معروف عن مقاتل بن حيان عنه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ قال: «هو الله على العرش وعلمه معهم»(٣).

قول التابعين جملة:

روى البيهقي بإسناد صحيح إلى الأوزاعي قال: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى جل ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت السنة به من

= وذكره الذهبي في «العلو» (٢/٨٦٣) وقال: «رواته ثقات» وقال في «الأربعين» له (ص٤٥): «صح عن كعب الأحبار قال: . . . فذكره»، وصححه ابن القيم في «مختصر الصواعق» (٢/٣٧٣) وعزاه لابن بطة، قلت: ونقله عنه أبو يعلى في «إبطال التأويلات» (١/٣١٠ ـ ٣١١).

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/٣٤٢)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/٩٤٥) وقال: «مقاتل هذا ثقة إمام معاصر للأوزاعي ما هو بابن سليمان، ذلك مبتدع ليس بثقة».
قال أبو عبيدة: انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٤/٢٣٧).

(٢) انظر التخريج الآتي.

(٣) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/٤٠٠) عن مقاتل قوله، وذكره هكذا الذهبي في «العلو» (٢/٩٤٤)، وأخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/٣٠٤)، وأبو داود في «مسائله عن الإمام أحمد» (١٦٩٨، ط. ابن تيمية)، والآجري في «الشريعة» (٣/١٠٧٨ ـ ١٠٧٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/٣٤١ ـ ٣٤٢) عن مقاتل بن حيان عن الضحاك به، وحسنه شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٣٨).

صفاته»[١] قال شيخ الإسلام: «وإنما قال الأوزاعي ذلك بعد ظهور جهم المنكِر لكون الله ﷻ فوق عرشه والنافي لصفاته؛ ليعرف الناس أن مذهب السلف كان بخلاف قوله»[٢] وقال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد»: «وعلماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل، قالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾: هو على العرش وعلمه في كل مكان وما خالفهم أحد في ذلك يحتج به»[٣].

قول الحسن: روى أبو بكر الهذيلي عن الحسن رحمه الله تعالى قال: «ليس شيء عند ربك من الخلق أقرب إليه من إسرافيل وبينه وبين ربه سبعة حجب، كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، وإسرافيل، دون هؤلاء ورأسه تحت العرش ورجلاه في تخوم السابعة»[٤]. اهـ.

قول مالك بن دينار: ذكر أبو العباس السراج بسنده إلى جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: «إنَّ الصدِّيقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة، ثم يقول: خذوا فيقرؤون، ويقول: اسمعوا إلى قوله الصادق من فوق عرشه»[٥] وكان مالك بن دينار وغيره من السلف يذكرون هذا الأثر: «ابن آدم خيري إليك نازل، وشرُّك إليَّ صاعد، أتحبَّب إليك بالنِّعم، وتتبغض إليَّ بالمعاصي، ولا يزال مَلَك كريم قد عرج إليَّ منك بعمل قبيح»[٦]. اهـ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٤)، وعنه الجورقاني في «الأباطيل والمناكير» رقم (٧٤) ومن طريقه الذهبي في «السير» (٧/ ١٢٠ ـ ١٢١)، وفي «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٨١ ـ ١٨٢)، وذكره **وصححه** ابن تيمية في «درء تعارض العقل» (٦/ ٢٦٢) وفي «الحموية» (ص٢٩٩)، وابن القيم في «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ٢١١)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٨٢) **وجوده** ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٥٠٠).

(٢) انظر: «الحموية» (٣٠٤) بتصرف يسير.

(٣) انظر: «التمهيد» (٧/ ١٣٨ ـ ١٣٩) بتصرف يسير.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٨٦)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٨٥)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٨٧٠) وقال: «**أبو بكر واهٍ**».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٥٨)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٨٦)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٩٠٥) **وصححه**.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» رقم (٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٧) وعنه ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ١٤٠)، وابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ١٩٤)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٩٠٦) وقال: «**إسنادها مظلم**». =

قول ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك بن أنس: قال يحيى بن آدم عن أبيه عن ابن عيينة قال: سئل ربيعة عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله تعالى الرسالة، وعلى الرسول ﷺ البلاغ، وعلينا التصديق». اهـ[١].

قول عبد الله بن الكَوَّاء: ذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في «تاريخه» عن هشام بن سعد قال: قدم عبد الله بن الكواء على معاوية، فقال له: أخبرني عن أهل البصرة قال: يقاتلون معاً ويدبرون شتى، قال: فأخبرني عن أهل الكوفة قال: أنظر الناس في صغيرة، وأوقعهم في كبيرة، قال: فأخبرني عن أهل المدينة قال: أحرص الناس على الفتنة وأعجزهم عنها، قال: فأخبرني عن أهل الموصل قال: قلادة وليدة فيها من كل شيء خرزة، قال: فأخبرني عن أهل مصر قال: لقمة آكل، قال: فأخبرني عن أهل الجزيرة قال: كناسة بين مدينتين، قال: فأخبرني عن أهل الشام قال: جند أمير المؤمنين لا أقول فيهم شيئاً، قال: لتقولن. قال: أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم لخالق ولا يحسبون للسماء ساكناً[٢]. اهـ.

= وانظر: «المجالسة» رقم (١٨١) وتعليقي عليه.

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠٦)، والعجلي في «تاريخ الثقات» (ص١٥٨)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (١٢١)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٩٠)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٩١١) كلهم من طرق عنه به.

وهذا الأثر **صححه** غير واحد من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية والذهبي وشيخنا الألباني.

فقال شيخ الإسلام رحمه الله في «الحموية» (ص٣٠٦): «وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة...» فذكره، ونحوه في «درء التعارض» (٦/ ٢٦٤)، و«شرح حديث النزول» (ص١٣٣).

وقال في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٦٥): «هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك».

وقال الذهبي رحمه الله في «العلو» (٢/ ٩١١) «صح عن ابن عيينة قال: سئل ربيعة...» فذكره، وصححه ابن القيم في «الصواعق» (٤/ ١٣٠٤) أيضاً.

وقال شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٣٢) عنه: «وهو صحيح»، وقد روي هذا الجواب عن الإمام مالك. وقد سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تاريخ دمشق» (١/ ٣٥٩).

قول تابعي التابعين:

ذكر قول عبد الله بن المبارك: روى الدارمي والحاكم والبيهقي وغيرهم بأصح إسناد إلى علي بن الحسن بن شقيق قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: «نعرف ربنا بأنه فوق سبع سموات، على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية». وفي لفظ آخر: «قلت: كيف نعرف ربنا؟ قال: في السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما قالت الجهمية»(١).

وقال الدارمي: بسنده إلى ابن المبارك قال: قيل له: كيف نعرف ربنا قال: «بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه»(٢).

قول الإمام عثمان بن سعيد الدارمي: قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي «ومما يحقق قول ابن المبارك قول رسول الله ﷺ للجارية: **«أين الله»** ليمتحن بذلك إيمانها، فلما قالت: «في السماء» قال: **«اعتقها فإنها مؤمنة»**(٣). والآثار في ذلك عن رسول الله ﷺ كثيرة، والحجج متظاهرة، والحمد لله على ذلك»(٤). ثم ساقها الدارمي.

وذكر ابن خزيمة: عن ابن المبارك: أنه قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن قد خفت من كثرة ما أدعو على الجهمية، قال: «لا تخف فإنهم يزعمون أن إلهك الذي في السماء ليس بشيء»(٥)، وصح عن ابن المبارك أنه قال: «إنا نستطيع أن نحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية». اهـ(٦).

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٦٧)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١١١)، وأبو عثمان الصابوني في «عقيدة السلف» (٢٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٣٦)، وذكره ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٩٩)، والذهبي في «العلو» (١/ ٣٦١).

(٢) انظر الحديث السابق.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «الرد على الجهمية» (ص٤٠).

(٥) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١١٢)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٩٥ ـ الرد على الجهمية)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٩٩١)، و«السير» (٨/ ٤٠٣).

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١١١)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٥٨٧)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٩٨٧)، وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (١٦)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٣٩٣).

قول الأوزاعي: قال أبو عبد الله الحاكم: أخبرني محمد بن علي الجوهري وذكر سنده إلى الأوزاعي أنه قال: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق العرش ونؤمن بما وردت به السنة»(١) وهذا الأثر يدخل في حكاية مذهبه ومذهب التابعين فلذلك ذكرناه في الموضعين. اهـ.

قول حماد بن زيد: قال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة بسنده إلى حماد بن زيد أنه قال: «الجهمية إنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء شيء»(٢).

قال شيخ الإسلام: «وهو(٣) الذي كانت الجهمية يحاولونه(٤) قد صرح به المتأخرون منهم، وكان ظهور السنة وكثرة الأئمة في عصر أولئك يحول بينهم وبين التصريح به، فلما بَعُد العهد وخفيت السنة وانقرضت الأئمة صرحت الجهمية النفاة بما كان سلفهم يحاولونه، ولا يتمكّنون من إظهاره»(٥). اهـ.

قول سفيان الثوري: قال معدان سألت سفيان الثوري عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ قال: «علمه»(٦).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لم أجده في مطبوع «التوحيد» له وإنما أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٤٧٥) وابنه عبد الله في «السنة» (١/ ١١٨)، والخلال في «السنة» (٥/ ٩١، ١٢٧)، وابن بطة في الإبانة (رقم ٣٢٩). وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (١٠)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (١٠٢)، والذهبي في «العلو» (٢/ ٩٧٠)، **وصححه** شيخ الإسلام ابن تيمية في «الحموية» (ص٣٣٧)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ١٨٣ ـ ١٨٤)، وشيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٤٧).

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وهذا».

(٤) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «يحاولون»!

(٥) نحوه في «نقض التأسيس» (٢/ ٨١).

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (١١١)، والآجري في «الشريعة» (٢٨٩)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٤٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٤١)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٠١)، وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (٢٩)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٩٤)، والذهبي في «العلو» (٢/ ٩٤٦)، و«السير» (٧/ ٢٧٤)، ونقل شيخنا الألباني عن الذهبي في «مختصر العلو» (ص١٣٩) قال: «وقال المؤلف ـ أي الذهبي ـ في «مختصره»: «وهذا الأثر ثابت عن معدان».

ملاحظة: سقط من مطبوع «التمهيد» ذكر معدان، والصواب إثباته.

قول وهب بن جرير: قال الأثرم بسنده إلى وهب بن جرير يقول: «إنما تريد الجهمية إنه ليس في السماء شيء»[١]، قال: وقلت لسليمان بن حرب: أي شيء كان يقول حماد بن زيد في الجهمية؟ فقال: «كان يقول إنما يريدون أنه ليس في السماء شيء»[٢]اهـ.

ذكر أقوال الأئمة الأربعة:

قول الإمام أبي حنيفة: قال البيهقي بسنده إلى نوح بن أبي مريم؛ أبي عصمة يقول: كنا عند أبي حنيفة أول ما ظهر إذ جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهماً، فدخلت الكوفة فقيل لها: إن ههنا رجلاً قد نظر في المعقول، يقال له: أبو حنيفة، فأتته فقالت: أنت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك؛ أين إلهك الذي تعبده؟ فسكت عنها ثم مكث سبعة أيام لا يجيبها ثم خرج إلينا وقد وضع كتاباً: «إن الله تبارك وتعالى في السماء دون الأرض» فقال له رجل: أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ قال: «هو كما تكتب للرجل: إني معك وأنت عنه غائب»[٣] قال البيهقي: «لقد أصاب أبو حنيفة فيما نفى عن الله تعالى وتقدس من الكون في الأرض وفيما ذكر من تأويل الآية، وتبع مطلق السمع في قوله: إن الله عز وجل في السماء»[٤].

قال شيخ الإسلام: وفي كتاب «الفقه الأكبر» المشهور عند أصحاب أبي حنيفة الذي رواه بإسناده عن أبي مطيع البلخي الحكم بن عبد الله قال: سألت أبا حنيفة عن الفقه الأكبر؟ قال: «لا تكفر أحداً بذنب ولا تنف أحداً من[٥] الإيمان وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولا تتبرأ من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا توالِ أحداً دون أحد وأن ترد أمر عثمان وعلي إلى الله تعالى». قال أبو حنيفة: «الفقه الأكبر في الدين خير من الفقه في العلم، ولأن يتفقه الرجل كيف يعبد ربه عز وجل

---

(١) ذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (٦)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (١٠١)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٣٩)، وشيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٧٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨)، والذهبي في «العلو» (٢/ ٩٣١).

(٤) انظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٣٣٨) بتصرف يسير.

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «أحداً به».

خير من أن يجمع العلم الكثير. قال أبو مطيع. قلت: فأخبرني عن فضل الفقه[١] قال: يتعلم الرجل الإيمان والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأئمة».

وذكر مسائل في الإيمان، ثم ذكر مسائل في القدر، ثم قال: فقلت: فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك ناس فيخرج عن الجماعة هل ترى ذلك؟ قال: «لا» قلت: ولم وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فريضة واجبة؟

فقال: «كذلك[٢] لكن ما يفسدون أكثر مما يصلحون من سفك الدماء واستحلال الحرام وذكر الكلام في قتال الخوارج والبغاة» إلى أن قال: قال أبو حنيفة: «ومن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؟ فقد كفر لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ وعرشه فوق سبع سموات»[٣].

قلت: فإن قال: إنه على العرش ولكنه يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر؛ لأنه أنكر أن يكون في السماء، لأنه تعالى في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل. وفي لفظ سألت أبا حنيفة عمن يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض! قال: فقد كفر لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ وعرشه فوق سبع سموات، قال: فإنه يقول: على العرش استوى ولكنه لا يدري العرش في الأرض أو في السماء، قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر. ورُوي هذا عن شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري في كتابه: «الفاروق» بإسناده[٤]. قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد[٥] رحمه الله تعالى: «ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة رحمه الله عند أصحابه أنه كفَّر الواقف الذي يقول: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؟ فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول: ليس في السماء ولا في الأرض. واحتج على كفره بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ وقال: وعرشه فوق سبع سموات وبيّن بهذا أن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ بيّن في أن الله ﷻ[٦]

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «أفضل الفقه».
(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «هو كذلك».
(٣) انظر: «الفقه الأكبر» المنسوب لأبي حنيفة (ص٤٠ ـ ٤٤).
(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/٤٦ ـ ٤٧، ٤٩) بتصرف.
(٥) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.
(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «دلّ على أن الله».

فوق السموات فوق العرش وأن الاستواء على العرش»[١].

ثم أردف ذلك بكفر من توقف في كون العرش في السماء أو في الأرض قال: لأنه أنكر أن يكون في السماء وأن الله في أعلى عليين، وأن الله يدعى من أعلى لا من أسفل واحتج بأن الله في أعلى عليين وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل، وكل من هاتين الحجتين فطرية[٢] عقلية، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله ﷻ في العلو، وعلى أنه يدعى من أعلى لا من أسفل، وكذلك أصحابه من بعده كأبي يوسف وهشام بن عبيد الله الرازي كما روى ابن أبي حاتم وشيخ الإسلام بأسانيدهما أن هشام بن عبيد الله الرازي صاحب محمد بن الحسن قاضي الري حبس رجلاً في التجهم فتاب، فجيء به إلى هشام؛ ليمتحنه، فقال: الحمد لله على التوبة، فامتحنه هشام، فقال: «أتشهد[٣] أن الله على عرشه بائن من خلقه؟» فقال: أشهد أن الله على عرشه، ولا أدري ما بائن من خلقه، فقال: «ردوه إلى الحبس فإنه لم يتب»[٤]. وسيأتي قول الطحاوي عند أقوال أهل الحديث.

قول إمام دار الهجرة مالك بن أنس: ذكر أبو عمر ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» بسنده إلى مالك بن أنس أنه قال: «الله في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو منه مكان» قال: وقيل لمالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ فقال مالك رحمه الله تعالى: «الاستواء معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سوء»[٥].

وكذلك أئمة أصحاب مالك من بعده، قال يحيى بن إبراهيم الطليطلي في كتاب «سير الفقهاء» ـ وهو كتاب جليل غزير العلم[٦] ـ بسنده إلى إبراهيم، قال:

---

(١) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «دلّ على أن الله تعالى بنفسه فوق العرش»، وانظر: «مجموع الفتاوى»، (٥/ ١٨٣)، و«درء التعارض» (٦/ ٢٦٣)، و«شرح الطحاوية» (٢/ ٣٨٧).

(٢) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «نظرية»!

(٣) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «أشهد»!

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٨ ـ ٤٩) بتصرف.

(٥) انظر: «التمهيد» (٧/ ١٣٨) وقد سبق تخريج (القسم الثاني) من هذا الأثر عن مالك وغيره.

(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «عزيز العلم»!

«كانوا يكرهون قول الرجل: يا خيبة الدهر، وكانوا يقولون: الله هو الدهر. وكانوا يكرهون قول الرجل: رغم أنفي لله، وإنما يرغم أنف الكافر، وكانوا يكرهون قول: لا والذي خاتمه على فمي، وإنما يختم على فم الكافر، وكانوا يكرهون قول الرجل: والله حيث كان أو إن الله بكل مكان، قال أصبغ: وهو مستوٍ على عرشه وبكل مكان علمه وإحاطته، وأصبغ من أجل أصحاب مالك وأفقههم». اهـ.

ذكر قول أبي عمرو الطَّلَمَنْكي: قال في «كتابه في الأصول»[(١)]: «أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله على عرشه بذاته»[(٢)] وقال في هذا الكتاب أيضاً: «أجمع أهل السنة على أنه تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز»[(٣)] ثم ساق بسنده عن مالك قوله: «الله في السماء وعلمه في كل مكان»[(٤)] ثم قال في هذا الكتاب: «وأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ونحو ذلك من القرآن بأن ذلك علمه، وأن الله فوق السمٰوات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء»[(٥)] وهذا لفظه[(٦)] في كتابه. اهـ.

قول الإمام الحافظ أبي عمر بن عبد البر إمام السنة في زمانه: قال في كتاب «التمهيد» في شرح (الحديث الثامن) لابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ينزل ربنا في كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له**»[(٧)]. هذا الحديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد لا يختلف أهل

---

(١) المسمى بـ«الوصول إلى معرفة الأصول»، قال عنه الذهبي في «السير» (١٦/ ٥٦٩): «في مجلدين، عامّته جيد» وذكر أنه رآه، وهو من مرويات ابن خير، كما في «فهرسته» (ص٢٥٩)، ويجمعه الآن بعض طلبة العلم، لنيل الماجستير.

(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٣) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٥١)، و«العلو» (٢/ ١٣١٥).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، و«شرح حديث النزول» (ص٨٥)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ١٨٩)، و«العلو» (٢/ ١٣١٥).

(٦) في الأصل: «وهذه القصة»! والمثبت من «اجتماع الجيوش» (ص١٤٢).

(٧) سبق تخريجه.

الحديث في صحته، وفيه دليل: على أن الله ﷻ في السماء على عرشه من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة، وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم: إن الله في كل مكان وليس على العرش، والدليل على صحة ما قال أهل الحق في ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، وقوله تبارك اسمه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ وهذا من العلو، وكذلك قوله: ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ و﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ و﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ والجهمي يقول: إنه أسفل، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾، وقوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ والعروج هو الصعود، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ والعروج هو الصعود، وأما قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فمعناه من على السماء يعني على العرش، وقد يكون «في» بمعنى «على» ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: على الأرض، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾، وقوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾.

وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا الباب وهذه الآيات كلها واضحات في بطلان أقوال المعتزلة. وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل استوى فلا معنى له؛ لأنه غير ظاهر في اللغة؛ ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة والله تعالى لا يغالبه أحد وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله ﷻ على الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك، ما يجب له التسليم، ولو ساغ ادعاء المجاز لكلِّ مدع ما ثبت شيء من العبادات[1]، وجل الله أن يخاطب إلا بما

---

(١) في مطبوع «التمهيد»: «العبارات».

تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة مفهوم، وهو: العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه، قال أبو عبيدة في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ قال: «علا، قال: وتقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى أي: استقر واحتج بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾. انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد»[١]. قال ابن عبد البر: «الاستواء الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله تعالى في كتابه فقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى[٢]

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد: «استولى» لأن النجم لا يستولي، وقد ذكر النضر بن شميل ـ وكان ثقة مأموناً جليلاً في علم الديانة واللغة ـ قال: حدثني الخليل ـ وحسبك بالخليل ـ، قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي ـ وكان من أعلم ما رأيت ـ فإذا هو على سطح، فسلّمنا، فردَّ علينا السلام، وقال: استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابي إلى جانبه: إنه أمركم أن ترتفعوا، فقال الخليل: هو من قول الله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ فصعدنا إليه» قال: وأما من نازع منهم بحديث يرويه عبد الله بن داود[٣] الواسطي بسنده إلى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ قال: [استولى][٤] على جميع بريته فلا يخلو منه مكان»، فالجواب: أن هذا الحديث منكر، ونقلته مجهولون وضعفاء. فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان، وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف، وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث لو عقلوا وأنصفوا؟! أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٣) و(٢/ ١٥، ٥٧ ـ ٥٨، ٩٩).

(٢) ذكره الفراهيدي في «العين» (٣/ ١٢٦ ـ صبح)، والأزهري في «التهذيب» (٤/ ٢٦٥ ـ صبح)، وابن المنظور في «لسان العرب» (٢/ ٥٠٥ ـ صبح)، والزَّبيدي في «تاج العروس» (٦/ ٥٢٥ ـ صبح)، والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٥٤) ولم يُعز لأحد.

(٣) في مطبوع «التمهيد»: «واقد». (٤) غير موجود في مطبوع «التمهيد».

كَذِبًاۚ﴾، فدل على أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: إلهي في السماء، وفرعون يظنه كاذباً.

وقال الشاعر:

فسبحان مَن لا يقدر الخلق قدره ... ومن هو فوق العرش فرد موحَّدُ
مليك على عرش السَّماء مُهيمنٌ ... لعزته تَعنو[1] الوجوه وتسجُدُ

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت، وفيه يقول في وصف الملائكة:

[وساجدهم لا يرفع الدهر رأسه ... يعظم رباً فوقه ويمجد][2]

قال: فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِۖ﴾ وبقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وزعموا أن الله سبحانه في كل مكان بنفسه وذاته تبارك وتعالى جده. قيل: لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس في الأرض دون السماء بذاته، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذا قال أهل العلم بالتفسير، وظاهر هذا التنزيل[3] يشهد أنه على العرش، فالاختلاف في ذلك ساقط[4]، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ﴾ فالإجماع والاتفاق قد بين أن المراد أنه معبود من أهل الأرض، **فتدبَّر هذا فإنه قاطع!**

ومن الحُجَّة أيضاً في أنه ﷻ على العرش فوق السموات السبع: أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم[5] أو نزلت بهم شدة رفعوا وجوههم إلى السماء، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء،

---

(١) في مطبوع «التمهيد»: «تعنو».
(٢) في مطبوع «التمهيد»:
فمن حاملٍ إحدى قوائم عرشه ... ولولا إله الخلق كلُّوا وأبلدوا
قيام على الأقدام عانون تحته ... فرائصهم من شدة الخوف ترعد
بدلاً من المذكور.
(٣) في مطبوع «التمهيد»: «فظاهر التنزيل».
(٤) في مطبوع «التمهيد»: «بيننا فقط».
(٥) في مطبوع «التمهيد»: «إذا كربهم أمر».

ويستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته اضطراري[(١)]، وقد قال النبي ﷺ للأمة التي أراد مولاها عتقها إنْ كانت مؤمنة، فاختبرها رسولُ الله ﷺ بأن قال لها: **«أين الله؟»** فأشارت إلى السماء، ثم قال لها: **«من أنا»** قالت: «أنت رسول الله» قال: **«اعتقها فإنها مؤمنة»**[(٢)] فاكتفى رسول الله ﷺ منها برفع رأسها إلى السماء، واستغنى بذلك عما سواه».

قال: «وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾؛ فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية؛ لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حملوا عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية: «هو على العرش، وعلمه في كل مكان»، وما خالفهم في ذلك أحدٌ يحتجّ بقوله. وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. قال: هو على عرشه وعلمه معهم أينما كانوا[(٢)]، قال: وبلغني عن سفيان الثوري مثله[(٢)].

قال سنيد بسنده عن ابن مسعود قال: «الله فوق العرش، وعلمه في كل مكان لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»[(٣)] ثم ساق من طريق يزيد بن هارون بسنده إلى ابن مسعود قال: «ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى الأخرى خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله فوق العرش ويعلم أعمالكم»[(٤)]»[(٥)] وذكر هذا الكلام أو قريباً منه في كتاب «الاستذكار»[(٦)]. اهـ.

قول الإمام مالك الصغير أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، قال في خطبته بـ«رسالته المشهورة»: **(باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب**

---

(١) في مطبوع «التمهيد»: «لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/٢٢٨)، والدارمي في «النقض على بشر المريسي» (١/ ٤٢٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/٦٨٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢) كلهم دون لفظة: «وعلمه في كل مكان»، وجوّد إسناده شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (١٠٣ ـ ١٠٤).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) انظر: «التمهيد» (٧/١٢٨ ـ ١٣٩).
(٦) انظر منه (٨/١٤٨ ـ ١٥١)، وينظر: «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٤٤).

أمور الديانات): «ومن[١] ذلك الإيمان بالقلب والنطقُ باللسان: أنَّ الله إلهٌ واحدٌ، لا إله غيره، ولا شبيهَ لهُ، ولا نظيرَ له، ولا وَلَدَ له[٢]، ولا صاحبة له ولا شريك له، ليس لأوَّليَّتِهِ ابتداءٌ، ولا لآخريَّته انقِضاءٌ، ولا يبلُغُ كُنْهَ صفتِهِ الواصفون، ولا يُحيط بأمرِهِ المتفكرون، يعتبِر المتفكِّرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية[٣] ذاته ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [وهو][٤] العليم[٥] الخبير المُدبِّر القدير السميع البصير العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاتِهِ[٦]، وهو بكل[٧] مكان بعلمه»[٨].

وكذلك ذكر مثل هذا في «نوادره»[٩] وغيرها من كتبه[١٠]، وذكر في كتابه المفرد في السنة[١١] تقرير العلو واستواء الرب تعالى على عرشه بذاته أتم تقرير، فقال:

«فصل

فيما اجتمعت عليه الأمة من أمور الديانة من السنن التي خلافها بدعة وضلالة

إن الله ﷻ له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، لم يزل موصوفاً بجميع

---

(١) في مطبوع «مقدمة الرسالة»: «من» دون الواو.

(٢) في مطبوع «مقدمة الرسالة» زيادة: «ولا والد له».

(٣) في مطبوع «مقدمة الرسالة»: «مائية»!

(٤) غير موجود في مطبوع «مقدمة الرسالة».

(٥) في مطبوع «مقدمة الرسالة»: «العالم».

(٦) يلحظ أن هذه اللفظة تورد في معرض الرد على النفاة، بخلاف ما يكتبونه عند التأصيل والتقرير، وهي مستخدمة قبل ابن أبي زيد، وقال الذهبي في «العلو» (٢/ ١٢٩٢) عنه بعد مدحه والثناء عليه: «وقد نقموا عليه في قوله (بذاته)، فليته تركها»، ونحوه في «السير» (١٩/ ٦٠٦ و٢٠/ ٣٣١)، وانظر في استخدامها: «فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠) وما كتبه الشيخ بكر أبو زيد من تمهيد على «رسالة ابن أبي زيد» (ص٢٢، ٢٥)، و«جلاء العينين» (ص٣٥٤) وتعليق الشيخ العلامة ابن باز على «فتح الباري» (١/ ٥٠٨)، ومقدمة شيخنا الألباني على «مختصر العلو» (١٨ ـ ١٩).

(٧) في مطبوع «مقدمة الرسالة»: «في كل».

(٨) انظر: «مقدمة الرسالة» (ص٥٦).

(٩) انظر منه ـ لزاماً ـ (١٤/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣).

(١٠) مثل «الجامع في السنن والآداب»، ينظر منه (ص١٠٧ ـ ١٠٨).

(١١) نسبه له القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (٦/ ٢١٨)، والذهبي في «السير» (١٧/ ١١)، ومحمد مخلوف في «شجرة النور الزكية» (٢٢٧).

صفاته[١]، وهو سبحانه موصوف بأن له علماً وقدرة وإرادة ومشيئة، أحاط علماً بجميع ما بدأ قبل كونه، وفطر الأشياء بإرادته، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وإن كلامه صفة من صفاته، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد، وأن الله ﷻ كلّم موسى عليه السلام بذاته وأسمعه كلامه لا كلاماً قام في غيره، وأنه يسمع ويرى ويقبض ويبسط، وأن يديه مبسوطتان: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وأن يديه غير نعمته في ذلك، وفي قوله سبحانه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، وأنه يجيء يوم القيامة بعد أن لم يكن جائياً والملك صفاً صفاً؛ لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها، فيغفر لمن يشاء، ويعذّب[٢] من يشاء، وأنه يرضى[٣] ويحب التوابين، ويسخط على من كفر به ويغضب، فلا يقوم شيء لغضبه، وأنه فوق سماواته على عرشه دون أرضه، وأنه في كل مكان بعلمه، وأن لله سبحانه كرسياً؛ كما قال ﷻ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكما جاءت به الأحاديث أن الله سبحانه يضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء، وقال مجاهد: «كانوا يقولون ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض»[٤]. وأن الله سبحانه يراه أولياؤه في المعاد بأبصارهم، ولا يضامون في رؤيته كما قال ﷻ في كتابه وعلى لسانه رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: **«وهو النظر إلى وجهه الكريم»**[٥] وأنه يكلم عباده يوم القيامة ليس بينه وبينهم واسطة ولا ترجمان، وأن الجنة والنار داران قد خلقتا، أعدت الجنة للمؤمنين، والنار

---

(١) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «قائم».

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ويعذب منهم».

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «يرضى عن الطائعين».

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ٢٤٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٣٢)، وابن أبي شيبة في «العرش» (٤٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢) وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٥٠٦): «أخرجه سعيد بن منصور في «التفسير» بسند صحيح».

(٥) سبق تخريجه.

للكافرين، الجاحدين، ولا يفنيان[١].

والإيمان بالقدر خيره وشره، وكل ذلك قد قدره ربنا سبحانه وتعالى وأحصاه علمه، وأن مقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه، تفضَّل على من أطاعه فوفقه وحبَّب الإيمان إليه، وزيَّنه في قلبه، فيسَّره له، وشرح له صدره، ونور له قلبه[٢] ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وخذل من عصاه وكفر به فأسلمه[٣]، وأضله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وكل ينتهي إلى سابق علمه، لا تخصيص[٤] لأحد عنه، وأنَّ الإيمان قول باللسان[٥] وعمل بالجوارح، يزيد[٦] بالطاعة، وينقص بالمعصية نقصاً عن حقائق الكمال[٧]، ولا قول إلا بعمل، ولا عمل ولا قول[٨] إلا بنية، ولا نية[٩] إلا بموافقة السنة، وأنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب وإن كان كبيراً، ولا يحبط الإيمان غير الشرك بالله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الإنفطار: ١٠ ـ ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [قٓ: ١٨].

وأن مَلَك الموت يقبض الأرواح كلها بإذن الله تعالى متى شاء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ٣٢] وأن الخلق ميتون بآجالهم، فأرواح أهل السعادة باقية منعَّمة[١٠] إلى يوم القيامة[١١]، وأرواح أهل

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «لا تفنيان ولا تبيدان».
(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «به قلبه».
(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فأسلمه ويسره لذلك فحجبه».
(٤) كذا في الأصل ولعل الصواب: «لا محيص» (منه) وهي كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية».
(٥) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وإخلاص بالقلب».
(٦) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ذلك».
(٧) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «لا محبط للإيمان».
(٨) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ولا قول ولا عمل» بالعكس.
(٩) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ولا قول ولا عمل ولا نية».
(١٠) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ناعمة منعمة».
(١١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «إلى يوم يبعثون».

الشقاء في سِجِّين معذبة إلى يوم القيامة[(١)]، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأن عذاب القبر حق، وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويضغطون ويسئلون[(٢)]، ويثبِّتُ الله منطق من أحب تثبيتَه، وأنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض[(٣)]، والألسنة والأيدي والأرجل التي تشهد عليهم يوم القيامة على مَن تشهد عليه منهم، وينصب[(٤)] الموازين لوزن أعمال العباد، فأفلح من ثقلت موازينه، وخاب وخسر من خفت موازينه، ويؤتون صحائفهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب[(٥)] حساباً يسيراً، ومن أوتي كتابه[(٦)] بشماله فأولئك يصلون سعيراً، وأن الصراط جسر مورود، يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أَوْبَقَتهم أعمالهم فيها يتساقطون، وأنه يخرج من النار من في قلبه شيء من الإيمان، وأن الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين، ويخرج من النار بشفاعة رسول الله ﷺ قوم من أمته بعد أن صاروا فيها حمماً، يطرحون[(٧)] في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته لا يظمأ مَنْ شرب منه، ويذاد عنه من غَيَّر وبدَّل.

والإيمان بما جاء من خبر الإسراء بالنبي ﷺ إلى السماوات على ما صحت به الروايات، وأنه ﷺ رأى من آيات ربه الكبرى، وبما ثبت من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام حكماً عدلاً، يقتل الدجال[(٨)]، وبالآيات التي بين يدى الساعة من طلوع الشمس من المغرب، وخروج الدابة، وغير ذلك مما صحت به الروايات، ونصدّق بما جاءت عن الله تعالى في كتابه،

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «يوم الدِّين».
(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ويسألون».
(٣) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ كما بدأهم يعودون حفاةً عراة غرلاً وأن الأجساد التي أطاعت أو عصت هي التي تبعث يوم القيامة؛ لتجازى والجلود التي كانت في الدنيا»، والسياق يقتضيها.
(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وتنصب».
(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «حوسب».
(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «أوتيه».
(٧) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فيطرحون».
(٨) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وقتله للدجال».

وثبت[١] عن رسول الله ﷺ من أخباره[٢]، ونوجب العمل بمحكمه[٣] ونؤمن ونقر بمشكله[٤] ومتشابهه، ونَكِلُ ما غاب[٥] من حقيقة تفسيره إلى الله تعالى، والله يعلم تأويل المتشابه من كتابه، والراسخون في العلم يقولون: آمنا به، [وكل ما غاب عنا من حقيقة تفسيره][٦] ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. وقال بعض الناس: الراسخون في العلم يعلمون مشكله ولكن الأول قول أهل المدينة، وعليه يدل الكتاب، وأن أفضل القرون قرن الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كما قال النبي ﷺ[٧]، وأن أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وما ثبت».

(٢) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «وأخباره»!

(٣) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «بحكمه»!

(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «بنص مشكله».

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ما غاب عنا».

(٦) غير موجود في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية».

(٧) قد ثبت هذا الحديث عن جمع من الصحابة منهم أبو سعيد وابن مسعود وأبو هريرة وعائشة وعمران بن حصين، فحديث أبي سعيد: رواه البخاري في «صحيحه» (٢٨٩٧) في «الجهاد»، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، و(٣٥٩٤) في «المناقب» في «علامات النبوة»، و(٣٦٤٩) في «الفضائل»، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومسلم (٢٥٣٢) في «فضائل الصحابة»، باب فضل الصحابة.

وحديث ابن مسعود: رواه البخاري (٢٦٥٢) في «الشهادات»، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، و(٣٦٥١) في «فضائل الصحابة»، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، و(٦٤٢٩) في «الرقاق»، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس عليها، و(٦٦٥٨) في «الأيمان والنذور»، باب إذا قال: أشهد بالله أو شهدت بالله، ومسلم (٢٥٣٣) في «الفضائل»، باب فضل الصحابة.

وقد ورد في «الصحيحين» بذكر: «ثم الذين يلونهم» مرتين، ولكنه عند ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/ ١٧٥) ـ ومن طريقه ابن حبان ـ (٧٢٢٧) ـ، ذكرها ثلاث مرات، وفي بعض طرق مسلم: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: . . .

وأما حديث أبي هريرة: فرواه مسلم (٢٥٣٤) في «الفضائل»، باب فضائل الصحابة بلفظ: «خير أمتي قرني الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، والله أعلم أذكر الثالث أم لا».

وأما حديث عمران بن حصين: فرواه البخاري (٢٦٥١) في «الشهادات»، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، و(٣٦٥٠) في «فضائل الصحابة»، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ و(٦٤٢٨) في «الرقاق»، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، و(٦٦٩٥) في «الأيمان والنذور»، باب فضل الصحابة. وفيه: «فلا أدري! أقال رسول الله ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثة؟!». =

عمر[1] ثم علي، وقيل: ثم عثمان وعلي، ويكف[2] عن التفضيل بينهما، روي ذلك عن مالك، وقال: ما أدركت أحداً أقتدي به يفضل أحدهما على صاحبه، فرأى الكف عنهما، ورُوي عنه القول الأول[3] ـ وهو قول أهل

= أقول: وهو في «مصنف ابن أبي شيبة» (١٢/١٧٦)، ومن طريقه ابن حبان (٧٢٢٩)، ذكر: «ثم الذين يلونهم» ثلاث مرات، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٨/رقم ٥٨٥)، من طريق ابن أبي شيبة، فذكر: «ثم الذين يلونهم» مرتين.

وأما حديث عائشة: رواه مسلم (٢٥٣٦)، ولفظه: «**القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث**».

(١) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ثم عثمان».

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ونكف».

(٣) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وعن سفيان وغيره».

وأما **القول الأول فهو تقديم عثمان على علي**، فإن الثوري قد رجع علياً على عثمان، ثم رجع عن ذلك ولعل تراجعه هو ما نقله ابن أبي زيد القيرواني عنه كما في ـ الأصل ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/٤٢٦):

«فإن سفيان الثوري، وطائفة من أهل الكوفة: رجحوا علياً على عثمان، ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره. وبعض أهل المدينة توقف في عثمان وعلي، وهي إحدى الروايتين عن مالك؛ لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على عليٍّ، كما هو مذهب سائر الأئمة: كالشافعي، وأبي حنيفة وأصحابه، وأحمد بن حنبل، وأصحابه؛ وغير هؤلاء من أئمة الإسلام.

حتى إن هؤلاء تنازعوا فيمن يقدم علياً على عثمان، هل يعدّ من أهل البدعة؟ على قولين: هما روايتان عن أحمد. وقد قال أيوب السختياني، وأحمد بن حنبل والدارقطني: من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار. وأيوب هذا إمام أهل السنة، وإمام أهل البصرة، روى عنه مالك في «الموطأ»؛ وكان لا يروي عن أهل العراق. وروى أنه سئل عن الرواية عنه: فقال: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه. وذكره أبو حنيفة فقال: لقد رأيته قعد مقعداً في مسجد رسول الله ﷺ ما ذكرته إلا اقشعر جسمي.

والحجة لهذا ما أخرجاه في «الصحيحين» وغيرهما عن ابن عمر أنه قال: «كنا نفاضل على عهد رسول الله ﷺ. كنا نقول: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان». وفي بعض الطرق: «يبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره».

وقال رحمه الله (٣/١٥٣): «**استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان**، وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلي ـ ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها هي «مسألة الخلافة»».

وقال العلامة محمد بن أحمد السفاريني في «لوائح الأنوار السَّنية» (٢/١٥) بعد أن ذكر =

الحديث[١] ـ ثم بقية العشرة، ثم أهل بدر من المهاجرين ومن[٢] الأنصار، ومن جميع الصحابة على قدر الهجرة والسابقة والفضيلة، وكل من صحبه ولو ساعة أو رآه ولو مرة، فهو بذلك أفضل من التابعين، والكفُّ عن ذكر أصحاب رسول الله ﷺ إلا بخير ما يُذكرون به، وأنهم أحق أن ننشر[٣] محاسنهم، ونلتمس لهم أفضل مخارجهم[٤]، ونظن بهم أحسن المذاهب. قال النبي ﷺ: **«لا تؤذوني في أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه»**[٥] وقال ﷺ: **«إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»**[٦]. قال أهل العلم: لا يذكرون إلا بأحسن ذكر، والسمع والطاعة لأئمة المسلمين. وكل من ولي أمر

= اتفاق علماء الأمة على تفضيل أبي بكر ثم عمر، قال: «ثم اختلفوا، فالأكثرون ومنهم الإمام: أحمد، والإمام الشافعي، وهو المشهور عن الإمام مالك رحمه الله أن الأفضل بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وجزم الكوفيون ـ ومنهم سفيان الثوري ـ بتفضيل عليّ على عثمان، وقيل بالوقف عن التفضيل بينهما، وهو رواية عن مالك، فقد حكى أبو عبد الله المازري عن «المدونة» أن مالكاً سئل: أي الناس أفضل بعد نبيهم؟ فقال: أبو بكر ثم عمر. ثم قال: أو في ذلك شك؟ فقيل له: وعلي وعثمان؟ فقال: ما أدركت أحداً ممن اقتدى به يفضل أحدهما على الآخر... نعم حكى القاضي عياض عن الإمام مالك أنه رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان. قال القرطبي: وهو الأصح إن شاء الله تعالى. وقد نقل التوقف ابن عبد البر عن جماعة من السلف منهم الإمام مالك ويحيى القطان وابن معين».

(١) قال شيخ الإسلام في «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٧٤): «وسائر أئمة السنة على تقديم عثمان، وهو مذهب جماهير أهل الحديث، **وعليه يدل النصّ والإجماع والاعتبار**. وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من تقديم جعفر أو تقديم طلحة أو نحو ذلك، فذلك في أمور مخصوصة لا تقديماً عاماً، وكذلك ما ينقل عن بعضهم في عليّ». وانظر التفصيل في: «معالم السنن» (٧/ ١٨ ـ مع «المختصر»)، و«السنة» للخلال (٤٠٤)، و«الاعتقاد» للبيهقي (٣٦٩)، و«السنة» للالكائي (٧/ ١٣٦٧)، و«مباحث المفاضلة في العقيدة» (ص٢٥٢ ـ ٢٦٤).

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ثم من».

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «أن تنشر».

(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ويلتمس لهم أفضل المخارج».

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: **«لا تسبوا أصحابي...»**.

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠٨) وغيرهما من حديث ابن مسعود **وصححه** شيخنا الألباني. انظر: «الصحيحة» (٣٤).

المسلمين عن رضى أو غلبة واشتدت وطأته من بر أو فاجر، فلا يخرج عليه، جار أو عدل، ونغزو معه العدو، ونحج معه البيت، ودفع الصدقات إليهم مجزية إذا طلبوها، ونصلي خلفهم الجمعة والعيدين؛ قاله[١] غير واحد من العلماء[٢].

وقال مالك: لا نصلي خلف المبتدع منهم إلا أن نخافه، فنصلي، واختلف في الإعادة[٣]. ولا بأس بقتال من دافعك من الخوارج واللصوص من المسلمين وأهل الذمة عن نفسك ومالك، والتسليم لنصوص الكتاب والسنة[٤] لا تعارض برأي ولا تدافع بقياس، وما تأوله منها السلف الصالح تأوّلناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوا[٥] تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا[٦]، ونتبعهم فيما بيّنوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج من جماعتهم فيما اختلفوا فيه أو في تأويله، وكل ما ذكر[٧] فهو قول أهل السنة وأئمة الناس في الفقه والحديث، على ما بيّناه، وكلُّه قول مالك، فمنه منصوص من قوله ومنه معلوم من مذهبه.

قال مالك: قال عمر بن عبد العزيز: سَنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله تعالى، واستكمال لطاعته، وقوة على دين الله تعالى، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فيما خالفها، من اهتدى بها هُدِيَ، ومن استنصر بها نُصِر، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً. قال مالك: أعجبني عزم عمر رضي الله عنه في ذلك[٨].

---

(١) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش لإسلامية»، وفي الأصل: «قال»!

(٢) نحوه في «أصول السنة» للإمام أحمد (ص٦٠ ـ ٧٣، ط. ابن تيمية).

(٣) انظر: «الإشراف» (١/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣ ـ بتحقيقي)، و«النوادر والزيادات» (١/ ٢٨٨ ـ ٢٩٠)، و«البيان والتحصيل» (١/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤).

(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «والتسليم للسنن».

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «تركوه».

(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «عن ما أمسكوا عنه».

(٧) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وكل ما قدمنا ذكره».

(٨) أخرجه الآجري في «الشريعة» (ص٤٨، ٦٥، ٣٠٦، ط. الفقي أو رقم ٩٢، ١٣٩، ٦٩٨، ط. الدميجي)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣٨٦) ـ ومن طريقه اللالكائي في «السنة» (١/ ٩٤) رقم (١٣٤) ـ، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٧٣)، =

وقال في «مختصر المدونة»[(١)]: «وأنه تعالى فوق عرشه بذاته فوق سبع سماواته، دون أرضه» رَحِمَهُ اللهُ ما كانه أصلبه في السنة وأقومه بها!

قول الإمام أبي بكر محمد بن موهب:[(٢)] المالكي شارح «رسالة ابن أبي زيد» من المشهورين بالفقة والسُنّة، قال في «شرحه للرسالة»: «ومعنى (فوق) و(علا) واحد، عند[(٣)] جميع العرب، وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله الله ﷺ تصديق[(٤)] ذلك، [وهو] قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى في وصف خوف الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ونحو ذلك كثير. وقال رسول الله ﷺ للأعجمية: «**أين الله؟**» فأشارت إلى السماء[(٥)]، ووصف النبي ﷺ أنه عرج به من الأرض إلى السماء، ثم من سماء إلى سماء إلى سدرة المنتهى، ثم إلى ما فوقها، حتى لقد قال: «**سمعت صريف**

= وابن بطة في «الإبانة» (١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) رقم (٢٣٠، ٢٣١)، وابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص٤٠)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١١٧٦) رقم (٢٣٢٦)، والمروزي في «السنة» (٣١)، والهروي في «ذم الكلام» (ص١٠٧، ١٩٩)، وابن الجوزي في «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» (٨٤)، وهو **صحيح** عنه.

قال الشاطبي في «الموافقات» (٤/ ٤٦١ ـ بتحقيقي) عقبه: «وكان مالك يعجبه كلامه جداً».

وقال القاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٢، ط. بيروت): «قال مُطَرِّف: سمعتُ مالكاً إذا ذكر عنده فلان من أهل الزيغ والأهواء، يقول: قال عمر بن عبد العزيز... و(ذكره)» قال: «وكان مالك إذا حدَّث بها ارتجَّ سروراً»، وشرحه الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ١٤٤ ـ ١٤٧ ـ بتحقيقي) شرحاً وافياً وعلَّق عليه بكلام متين، وانظر: «إعلام الموقعين» (٦/ ٢٨ ـ بتحقيقي).

(١) غير موجود في مطبوع «التهذيب في اختصار المدونة» للبراذعي القيرواني الصادر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية ـ دبي، بتحقيق: محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ، ولتنظر أصول الكتاب الخطية!! فإن ذلك من المهمات.

(٢) في الأصل: «وهب»! والتصويب من كتب التراجم، مثل «ترتيب المدارك» (٣/ ٦٧٤).

(٣) في الأصل: «بيّنت»! والمثبت من مصادر التوثيق.

(٤) في الأصل: «في كتاب الله... وتصديق» فنقلنا الواو قبل «في» ليستقيم المعنى، وهو كذلك في مصادر التوثيق، وما بين المعقوفتين الآتي منها، وسقط من الأصل.

(٥) سبق تخريجه.

الأقلام». ولما فرضت الصلاة، جعل كلما هبط من مكانه تلقاه موسى عليه السلام في بعض السموات، وأمره بسؤال التخفيف عن أمته، فرجع صاعداً مرتفعاً إلى الله تعالى يسأله حتى انتهت إلى خمس صلوات»[١] وسنذكر تمام كلامه قريباً إن شاء الله تعالى. اهـ.

قول الإمام أبي القاسم عبد الله بن خلف المقرئ الأندلسي: قال في (الجزء الأول) من كتاب «الاهتداء لأهل الحق والاقتداء» من تصنيفه من «شرح الملخص» للشيخ أبي الحسن القابسي بسنده إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له**»[٢]:

«في الحديث دليل على أنه تعالى في السماء على العرش، فوق سبع سموات[٣] كما قال أهل العلم، ودليل قولهم أيضاً من القرآن: قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ [السجدة: ٤] وقوله تعالى: ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٢ ـ ٤]، والعروج هو الصعود.

وقال مالك بن أنس: «الله ﷻ[٤] في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو من علمه مكان» يريد ـ والله أعلم ـ بقوله: «في السماء»: على السماء، كما قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]، وكما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] أي: مَنْ على السماء، يعني: على العرش، وكما قال تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: على الأرض، وقيل لمالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ

---

(١) سبق تخريجه، وما مضى في «مختصر الصواعق المرسلة» (١/١٠٥ ـ ١٠٦)، و«العلو» (٢/١٣٦٥ ـ ١٣٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «من غير مماسة ولا تكييف».

(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «إن الله ﷻ».

ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال مالك لقائله: استواؤه معقول، وكيفيته مجهولة، وسؤالك عن هذا بدعة، وأراك رجل سواء»[(١)].

قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥] أي: علا. قال: «وتقول العرب: استويت فوق الدابة وفوق البيت»[(٢)].

وكل ما قدمتُ دليلٌ واضح في إبطال قول من قال بالمجاز في الاستواء، وأن استوى بمعنى استولى؛ لأن الاستيلاء في اللغة المغالبة، وأنه لا يغالبه أحد، ومن حق الكلام أنه يحمل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ﷻ إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله تعالى على الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنع ذلك ما يوجب له التسليم، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدعٍ ما ثبت شيء من العبادات، وجل الله تعالى أن يخاطب إلا بما تفهمه العربُ من معهود مخاطباتها، مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة، وهو: العلو والارتفاع والتمكن»[(٣)].

ومن الحجة أيضاً في أن الله ﷻ على العرش فوق السمٰوات السبع: إن الموجودين[(٤)] أجمعين إذا كربهم أمر رفعوا وجوههم إلى السماء، يستغيثون الله ربهم. وقوله ﷺ للأمة التي أراد مولاها أن يعتقها: «**أين الله**»؟ فأشارت إلى السماء، ثم قال لها: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله، قال: «**اعتقها؛ فإنها مؤمنة**»[(٥)]. فاكتفى رسول الله ﷺ منها برفع رأسها إلى السماء، ودل[(٦)] على ما قدمناه أنه على العرش[(٧)]، والعرش فوق السمٰوات السبع. ودليل قولنا أيضاً: قول أمية ابن أبي الصَّلت في وصف الملائكة ما نصه:

وساجدُهم لا يرفع الدّهرَ رأسَه ... يعظم رباً فوقه ويُمجِّدُ
فسبحانَ مَنْ لا يَقْدر الخلقُ قدره ... ومَنْ هو فوق العرش فردٌ موحّدُ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: «مجاز القرآن» (٢/ ١٥)، و«التمهيد» (٧/ ١٣١).
(٣) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «في الشيء»، ومضى نحوه عن ابن عبد البر.
(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الموحدين» والمثبت له وجه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فدلّ».
(٧) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «من أنه على العرش».

مليك على عرش السماء مهيمن لعزّته تعنو الوجوهُ وتسجدُ[(١)]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦]. فدل على أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: إلهي في السماء، وفرعون يظنه كاذباً، فإنْ احتجَّ أحد علينا فيما قدمناه، وقال: لو كان كذلك لأشبه المخلوقات، لأنه[(٢)] ما أحاطت به الأمكنة واحتوته فهو مخلوق؛ فشيء لا يلزم، ولا معنى له؛ لأنه تعالى ليس كمثله شيء من خلقه، ولا يُقاس بشيء من بريته، ولا يدرك بقياس، ولا يقاس بالناس، كان قبل الأمكنة، وكذلك يكون[(٣)] بعدها، لا إله إلا هو، خالق كل شيء لا شريك له.

وقد اتفق المسلمون وكل ذي لب أنه لا يعقل كائن إلا في مكان، وما ليس في مكان فهو عدم، وقد صح في العقول وثبت بالدلائل أنه كان في الأزل لا في مكان، وليس بعدم[(٤)]، فكيف يقاس على شيء من خلقه أو يجري بينهم وبينه[(٥)] تمثيل أو تشبيه؟! تعالى[(٦)] عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[(٧)].

قول الإمام أبي عبد الله محمد بن أنيس المالكي المشهور بابن أبي زمنين:

قال في كتابه الذي صنفه في «أصول السنة»: (باب الإيمان بالعرش): ومن قول أهل السنة: «إن الله ﷻ خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلَق، ثم استوى عليه كيف شاء، كما أخبر عن نفسه في قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥][(٨)]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]». وذكر حديث

---

(١) سبق ذكرها، وتخريجها.

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «لأن».

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ويكون».

(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «بمعدوم».

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «بينه وبينهم».

(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «تعالى الله».

(٧) انظر: «التمهيد» (٧/ ١٣٤ ـ ١٣٦).

(٨) في مطبوع «أصول السنة»: «﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾».

أبي رَزِين العقيلي وقد تقدم[١]. ثم ذكر الآثار في ذلك إلى أن قال: (باب الإيمان بالحُجب). قال: «ومن أقوال أهل السنة: إن الله تعالى بائن من خلقه، محتجب عنهم بالحجب، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾» إلى أن قال: (باب الإيمان بالنزول)، قال: «ومن قول أهل السنة: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا» وذكر حديث النزول[٢]، ثم قال: «وهذا الحديث يُبيِّن أن الله تعالى على عرشه في السماء دون الأرض، وهو أيضاً بيِّن في كتاب الله تعالى وتقدس، وفي غير ما حديث عن رسول الله ﷺ قال الله ﷻ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وساق الآيات في العلو، وذكر من طريق مالك قول النبي ﷺ: «**أين الله؟**» ثم قال: «**والحديث في مثل هذا كثير**»[٣]. اهـ.

قول القاضي عبد الوهاب: إمام المالكية بالعراق، من كبار أهل السنة، صرح بأن الله ﷻ استوى على عرشه بذاته[٤] نقله شيخ الإسلام عنه، في غير موضع من كتبه[٥]، ونقله عنه القرطبي في «شرح الأسماء والصفات»[٦]. اهـ.

ذكر قول الإمام محمد بن إدريس الشافعي: قال الإمام ابن الإمام عبد الرحمٰن بن أبي حاتم الرازي بسنده إلى أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي قال: «القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الله تعالى على عرشه في سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، وإن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كيف شاء»[٧].

---

(١) (ص١٠٢)، ومضى تخريجه هناك. (٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «أصول السنة» (ص٨٨، ١٠٦، ١١٠، ١١٣، ١١٤) بتصرف يسير.

(٤) قال القاضي عبد الوهاب في «شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني» (ص١٧٨): «واعلم أن الوصف له تعالى بالاستواء اتباع للنص وتسليم للشرع وتصديق لما وصف نفسه تعالى به»، وانظر ما قدمناه في التعليق على (ص١٥٣) بخصوص لفظة (بذاته).

(٥) انظر ـ مثلاً ـ: «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

(٦) المسمى: «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» (٢/ ١٢٣).

(٧) لم أجده في «آداب الشافعي ومناقبه» وإنما ذكره ابن قدامة من طريقه عنه في «إثبات صفة العلو» (١٠٨)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٥٥)، و«الأربعين» رقم (١٥، ٥٧) وقال عنها: إن **إسنادها واهٍ**، والخبر في «اعتقاد الإمام الشافعي» رقم (٤) للهكاري، =

قال عبد الرحمٰن: «ثنا يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول ـ وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به ـ، فقال: «لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيُّه أمته، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردَّها؛ لأن القرآن نزل بها، وصح عن رسول الله القول بها فيما روى عنه العدول، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ولا يكفر بالجهل بها أحد، إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾»[١] [الشورى: ١١]. وصح عن الشافعي أنه قال: «خلافة أبي بكر الصديق حق قضاها الله في سمائه، وجمع عليها، قلوب عباده ومعلوم أن المقضي في الأرض والقضاء فعله ﷻ المتضمن لمشيئته وقدرته»[٢].

وقال في خطبة «رسالته»: «الحمد لله الذي هو كما وصف نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه»[٣]، فجعل صفاته سبحانه إنما تتلقى بالسمع.

وقال يونس بن عبد الأعلى: قال محمد بن إدريس الشافعي: «الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن فقياس عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد منه فهو سنة، والإجماع أكبر من الخبر الفرد، والحديث على ظاهره. وإذا احتمل المعاني فما أشبه منها ظاهره فهو أولاها به». قال الخطيب في «الكفاية» بسنده إلى يونس بن عبد الأعلى... فذكره[٤].

قول صاحبه إمام الشافعية في وقته أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني في «رسالته في السنة» التي رواها أبو طاهر السِّلفي عنه بإسناده، ونحن نسوقها كلها بلفظها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، عصمنا الله وإياكم بالتقوى، ووفقنا وإياكم لموافقة الهدى، أما بعد:

= و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص١٦٤).

(١) ذكره ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (١٠٩)، والذهبي في «السير» (١٠/ ٧٩ ـ ٨٠).

(٢) ذكره ابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (ص١٢٤ ـ ١٢٥).

(٣) انظر: «الرسالة» (ص٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص٢٣١)، والخطيب في «الكفاية» (٢/ ٥٦٤)، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ٣٠).

فإنك(١) سألتني أن أوضح لك من السنة أمراً تقصر(٢) نفسك على التمسك به، وتدرأ به عنك شبه الأقاويل، وزيغ محدثات الضالين، فقد(٣) شرحت لك منها منهاجاً موضحاً(٤) لم آل نفسي وإياك فيه نُصحاً، بدأتُ فيه بحمد الله ذي الرشد والتسديد: الحمد لله أحق ما بدئ به(٥) وأولى من شُكر، وعليه أثني [وهو](٦) الواحد الصمد(٧) ليس له صاحبة ولا ولد، جَلَّ عن المثل، ولا(٨) شبيه له ولا عديل، السميع البصير العليم الخبير المنيع الرفيع، عال على عرشه(٩)، وهو دان بعلمه من خلقه، أحاط علمه بالأمور وأنفذ(١٠) في خلقه سابق المقدور، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فالخلق عاملون بسابق علمه، ونافذون لما خلقهم له من خير وشر، لا يملكون لأنفسهم نفعاً من الطاعات(١١)، ولا يجدون إلى صرف المعصية عنها دفعاً، خلق الخلق بمشيئته من(١٢) غير حاجة كانت به، فخلق الملائكة جميعاً لطاعته، وجبلهم على عبادته فمنهم، ملائكة بقدرته للعرش حاملون، وطائفة منهم حول عرشه يسبحون، وآخرون بحمده يقدسون.

واصطفى منهم رسلاً إلى رسله، وبعض مدبرون لأمره، ثم خلق آدم بيده وأسكنه جنته، وقبل ذلك للأرض خلقه ونهاه عن شجرة قد نفذ قضاؤه عليه بالأكل منها(١٣)، ثم ابتلاه بما نهاه عنه منها، ثم سلَّط عليه عدوه فأغواه عليها، وجعل أكله(١٤) إلى الأرض سبباً، فما وجد إلى ترك الأكل منها(١٥) سبيلاً، ولا عنه لها مذهباً، ثم خلق للجنة من ذريته أهلاً، فهم بأعمالها بمشيئته عاملون،

(١) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «أصلحك الله».
(٢) في مطبوع «شرح السنة»: «تصبر». (٣) في مطبوع «شرح السنة»: «وقد».
(٤) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «منيراً».
(٥) في مطبوع «شرح السنة»: «أحق من ذكر».
(٦) غير موجود في مطبوع «شرح السنة». (٧) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «الذي».
(٨) في مطبوع «شرح السنة»: «فلا».
(٩) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «في مجده بذاته».
(١٠) كذا في مطبوع «شرح السنة»، وفي الأصل: «ونفذ»!
(١١) في مطبوع «شرح السنة»: «من الطاعة نفعاً».
(١٢) في مطبوع «شرح السنة»: «عن». (١٣) في مطبوع «شرح السنة»: «بأكلها».
(١٤) في مطبوع «شرح السنة»: «أكله لها». (١٥) في مطبوع «شرح السنة»: «أكلها».

وبقدرته وبإرادته ينفذون، وخلق من ذريته للنار أهلاً، فخلق لهم أعيناً لا يبصرون بها، وآذاناً لا يسمعون بها، وقلوباً لا يفقهون بها، فهم بذلك عن الهدى محجوبون، [وهم][١] بأعمال أهل النار لسابق[٢] قدره يعملون، والإيمان قول وعمل[٣]، وهما شيئان[٤] ونظامان وقرينان لا يُفرَّق[٥] بينهما؛ لا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بإيمان، والمؤمنون في إيمان متفاضلون[٦]، وبصالح الأعمال هم متزايدون، ولا يخرجون من الإيمان بالذنوب[٧]، ولا يكفرون بركوب كبيرة ولا عصيان، ولا يوجب لمحسنهم[٨] غير[٩] ما أوجب له النبي ﷺ، ولا يشهد[١٠] على مسيئهم بالنار.

والقرآن كلام الله ﷻ ومن الله[١١]، وليس بمخلوق فيبيد، [وكلمات الله][١٢] وقدرة الله ونعته[١٣] وصفاته كاملات[١٤] غير مخلوقات، دائمات أزليات[١٥] ليست بمحدثات فتبيد، ولا كان ربنا ناقصاً فيزيد، جلّت صفاته عن شبه المخلوقين[١٦]، وقصرت عنه أنظار[١٧] الواصفين، قريب بالإجابة عند السؤال، بعيد بالبعد[١٨] لا ينال عالٍ على عرشه، بائن من خلقه، موجود ليس بمعدوم ولا مفقود[١٩]، والخلق ميتون بآجالهم عند نفاد أرزاقهم وانقطاع آثارهم، ثم هم بعد الضغط[٢٠]

---

(١) غير موجود في الأصل. (٢) في مطبوع «شرح السنة»: «بسابق».

(٣) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «مع اعتقاده بالجنان، قول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان».

(٤) في مطبوع «شرح السنة»: «سيان». (٥) في مطبوع «شرح السنة»: «لا نفرق».

(٦) في مطبوع «شرح السنة»: «في الإيمان يتفاضلون».

(٧) في مطبوع «شرح السنة»: «بالذنوب من الإيمان».

(٨) في مطبوع «شرح السنة»: «ولا نوجب لمحسنهم الجنان».

(٩) في مطبوع «شرح السنة»: «بعد». (١٠) في مطبوع «شرح السنة»: «نشهد».

(١١) في مطبوع «شرح السنة»: «ومن لدنه».

(١٢) من مطبوع «شرح السنة»، وسقط من الأصل.

(١٣) كذا في مطبوع «شرح السنة»، وفي الأصل: «ونعمته»!

(١٤) كذا في مطبوع «شرح السنة»، وفي الأصل: «كلها»!

(١٥) كذا في مطبوع «شرح السنة»، وفي الأصل: «أزلية».

(١٦) في مطبوع «شرح السنة»: «صفات المخلوقين».

(١٧) في مطبوع «شرح السنة»: «ظن». (١٨) في مطبوع «شرح السنة»: «بالتعزّز».

(١٩) في مطبوع «شرح السنة»: «وليس بمعدوم ولا بمفقود».

(٢٠) في مطبوع «شرح السنة»: «الضغطة».

في القبور مسؤولون[١]، وبعد البلى منشورون، ويوم القيامة إلى ربهم محشورون، وعند[٢] العرض عليه محاسبون بحضرة الموازين، ونشر صحف الدواوين، أحصاه الله ونسوه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فالله[٣] يلي الحكم بينهم بعدله بمقدار القائلة[٤] في الدنيا، وهو أسرع الحاسبين، كما بدأه لهم من شقاوة[٥] وسعادة يومئذٍ يعودون، فريق في الجنة وفريق في السعير، وأهل الجنة يومئذٍ يتنعَّمون[٦]، وبصنوف اللذات يتلذذون، وبأفضل الكرامة[٧] يحبرون، فهم حينئذٍ إلى ربهم ينظرون، لا يمارون في النظر إليه ولا يشكون، فوجوههم بكرامته ناضرة، وأعينهم بفضله إليه ناظرة في نعيم مقيم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٨] ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]. وأهل الجحد عن ربهم يومئذ لمحجوبون[٨]، وفي النار لمسجرون[٩] ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ١٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦] إلا[١٠] من شاء الله إخراجه من الموحدين منها[١١].

والطاعة لأولي الأمر فيما كان عند الله ﷻ مرضيّاً، واجتناب ما كان[١٢] مسخطاً، وترك الخروج عند تعديهم وجورهم والتوبة إلى الله ﷻ كيما يعطف بهم على رعيّتهم، والإمساك عن تكفير أهل القبلة والبراءةِ منهم فيما أحدثوا ما لم يبتدعوا ضلالة[١٣]، فمن ابتدع منهم ضلالة[٤] كان على أهل القبلة خارجاً ومن الدّين مارقاً، ويتقرّب إلى الله بالبراءة منه ويهجر ويتجنب[١٤].

---

(١) في مطبوع «شرح السنة»: «مساءلون». (٢) في مطبوع «شرح السنة»: «ولدى».
(٣) في مطبوع «شرح السنة»: «لو كان غير الله ﷻ الحاكم بين خلقه لكنه الله».
(٤) أي من الصباح إلى نصف النهار (منه).
(٥) كذا في مطبوع «شرح السنة»، وفي الأصل: «كما بدالهم شقاوة».
(٦) في مطبوع «شرح السنة»: «في الجنة يتنعمون».
(٧) في مطبوع «شرح السنة»: «الكرامات». (٨) في مطبوع «شرح السنة»: «محجوبون».
(٩) في مطبوع «شرح السنة»: «يسجرون». (١٠) في مطبوع «شرح السنة»: «خلا».
(١١) في مطبوع «شرح السنة»: «من الموحدين إخراجهم منها».
(١٢) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «عند الله».
(١٣) في مطبوع «شرح السنة»: «ضلالاً».
(١٤) في مطبوع «شرح السنة»: «ويحتقر وتجتنب غدّته فهي أعدى من غدة الحرب».

ويقال[(١)] بفضل خليفة رسول الله ﷺ[(٢)] ثم عمر[(٣)]، فهما وزيرا رسول الله ﷺ وضجيعاه[(٤)]، ثم عثمان ثم علي[(٥)] رضي الله عنهم أجمعين، ثم الباقين من العشرة، الذين أوجب لهم رسول الله ﷺ الجنة، ويخلص لكل واحد[(٦)] منهم من المحبة بقدر الذي أوجبه له[(٧)] رسول الله ﷺ من[(٨)] التفضيل ثم[(٩)] لسائر أصحابه من بعدهم رضوان الله عنهم[(١٠)].

ويقال بفضلهم ويذكرون بمحاسن أفعالهم، ويمسك[(١١)] عن الخوض فيما شجر بينهم، وهم[(١٢)] خيار أهل الأرض بعد نبيهم، اختارهم الله ﷻ[(١٣)] وجعلهم[(١٤)] أنصاراً لدينه، فهم أئمة الدين وأعلام المسلمين[(١٥)]، ولا تترك[(١٦)] حضور صلاة الجمعة وصلاة[(١٧)] مع بر هذه الأمة وفاجرها[(١٨)] ما كان من البدعة بريّاً[(١٩)]، والجهاد مع كل إمام عدل أو جائر، والحج وإقصار الصلاة في الأسفار والتخيير[(٢٠)] فيه بين

---

(١) كذا في مطبوع «شرح السنة»، وفي الأصل: «ويقال»!

(٢) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «أبي بكر الصديق رضي الله عنه فهو أفضل الخلق وأخيرهم بعد النبي ﷺ، ونثنّي بعده بالفاروق».

(٣) في مطبوع «شرح السنة»: «وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه».

(٤) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «في قبره وجليساه في الجنة».

(٥) في مطبوع «شرح السنة»: «ونثلث بذي النورين عثمان بن عفان، ثم بذي الفضل والتقى علي بن أبي طالب».

(٦) في مطبوع «شرح السنة»: «ونخلص لكل رجل».

(٧) في مطبوع «شرح السنة»: «أوجب لهم».

(٨) في الأصل: «من يوم»! والمثبت من «شرح السنة».

(٩) سقط من الأصل، وأثبتُّه من مطبوع «شرح السنة».

(١٠) كذا في مطبوع «شرح السنة»، وفي الأصل: «من بعده»!.

(١١) في مطبوع «شرح السنة»: «ونمسك».

(١٢) في مطبوع «شرح السنة»: «فهم».

(١٣) في مطبوع «شرح السنة»: «ارتضاهم الله ﷻ لنبيه».

(١٤) في مطبوع «شرح السنة»: «وخلقهم».

(١٥) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «فرحمة الله عليهم أجمعين».

(١٦) في مطبوع «شرح السنة»: «ولا يترك».

(١٧) في مطبوع «شرح السنة»: «وصلاتها».

(١٨) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «لازم».

(١٩) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «فإن ابتدع ضلالاً فلا صلاة خلفه».

(٢٠) في مطبوع «شرح السنة»: «والاختيار».

الصيام والإفطار(١) هذه مقالات(٢) اجتمع عليه الماضون الأوّلون من أئمة الهدى، وبتوفيق الله اعتصم بها التابعون قدوة ورضاً، وجانبوا التكلف فيما كفوا، فسُدِّدوا بعون الله ووفِّقوا، لم يرغبوا عن الاتباع فيقصروا ولم يجاوزوا(٣) فيعتدوا، فنحن بالله واثقون، وعليه متوكّلون، وإليه في اتباع آثارهم راغبون»(٤). اهـ المقصود منه بلفظه.

قول إمام الشافعية في وقته أبي العباس بن سريج: قال رحمه الله تعالى: «حرام على العقول أن تمثل الله ﷻ، وعلى الأوهام أن تحدّه، وعلى الظنون أن تقع(٥) عليه، وعلى الضمائر أن تتعمق، وعلى النفوس أن تفكر، وعلى الأفكار أن تحيط، وعلى الألباب أن تصف إلا ما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وقد صح وتقرر واتضح عند جميع أهل الديانات والسنة والجماعة من السلف الماضين، والصحابة والتابعين من الأئمة المهديين(٦) الراشدين المشهورين إلى زماننا هذا، أن جميع الآي الواردة عن الله تعالى في ذاته وصفاته والأخبار الصادقة الصادرة عن رسول الله ﷺ في الله وفي صفاته التي صححها أهل النقل، وقَبِلَها النُّقاد الأثبات؛ يجب على المرء المسلم المؤمن الموفق(٧) الإيمان بكل واحد منها كما ورد، وتسليم أمره إلى الله ﷻ كما أمر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] ونظائرها مما نطق به القرآن، كالفوقية، والنفس، واليدين، والسمع، والبصر، والكلام، والعين، والنظر، والإرادة، والغضب، والمحبة، والكراهة، والعناية، والقرب، والبعد، والسخط، والاستحياء، والدنو كقاب قوسين أو أدنى، وصعود الكلام الطيب إليه، وعروج

(١) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «في الأسفار إن شاء صام وإن شاء أفطر».
(٢) بعدها في مطبوع «شرح السنة»: «وأفعال».
(٣) في مطبوع «شرح السنة»: «ولم يجاوزوه تزيدا».
(٤) انظر: «شرح السنة» للمزني (ص٧٤ ـ ٨٩).
(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «أن تقطع».
(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «المهتدين».
(٧) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الموقن».

الملائكة والروح إليه، ونزول القرآن منه، ونداثه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقوله للملائكة، وقبضه، وبسطه، وعلمه، ووحدانيته، وقدرته، ومشيئته، وصمدانيته[١]، وفردانيته، وأوليته، وآخريته، وظاهريته، وباطنيته، وحياته، وبقائه، وأزليته، وأبديته، ونوره وتجلّيه، والوجه، وخلق آدم عليه السلام بيده، ونحو قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وسماعه من غيره وغيره منه[٢]، وغير ذلك من صفاته المتعلقة به المذكورة في الكتاب المنزل[٣] على نبيه ﷺ، وجميع ما لفظ به المصطفى ﷺ من صفاته، كغرسه جنته[٤] الفردوس بيده، وشجرة طوبى بيده، وخط التوراة بيده، والضحك، والتعجب، ووضعه القدم[٥] على النار، فتقول: قط قط، وذكر الأصابع، والنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا، وليلة الجمعة، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، وكغَيْرته وفرحه بتوبة العبد، واحتجابه بالنور، وبرداء الكبرياء، وأنه ليس بأعور، وأنه يعرض عما يكره ولا ينظر إليه، وأن كلتا يديه يمين، واختيار آدم قبضة[٦] اليمنى، وحديث القبضة، وله كل يوم كذا وكذا نظرة في اللوح المحفوظ، وأنه يوم القيامة يحثو ثلاث حثيات من جهنم، فيدخلهم الجنة، ولما خلق آدم عليه الصلاة والسلام مسح ظهره بيمينه فقبض قبضة، فقال: **«هؤلاء للجنة؟ ولا أبالي أصحاب اليمين، وقبض قبضة أخرى وقال: هذهِ للنار ولا أبالي أصحاب الشمال»**[٧]. ثم ردهم في صلب آدم وحديث القبضة التي يخرج بها من النار قوماً لم يعملوا خيراً قط، عادوا حمماً، فيلقون في نهر من الجنة يقال له: نهر الحياة[٨] وحديث: **«خلق آدم على صورته»**[٩] وقوله: **«لا تقبِّحوا الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورة**

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وصمديته».
(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وسماع غيره منه».
(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «كتابه المنزلة».
(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «جنة».
(٥) في الأصل: «تقوم» والمثبت من مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية».
(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «قبضته».
(٧) سبق تخريجه.
(٨) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري.
(٩) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٦١٢، ٢٨٤١) من حديث أبي هريرة.

الرحمٰن»[١] وإثبات الكلام بالحرف والصوت وباللغات وبالكلمات وبالسور، وكلامه تعالى لجبريل، والملائكة، ولملك الأرحام، وللرحم، ولملك الموت، ولرضوان، ولمالك، ولآدم، ولموسى، ولمحمد ﷺ [وللشهداء][٢]، وللمؤمنين[٣] عند الحساب، وفي الجنة، ونزول القرآن إلى سماء الدنيا، وكون القرآن في المصاحف، وما أذن الله لشيء كإذنه لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن، وقوله: « **الله أشد أُذناً لقارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته»**[٤]. وأن الله سبحانه يحب العطاس، ويكره التثاؤب، وفرغ الله من الرزق والأجل، وحديث ذبح الموت ومباهات الله تعالى، وصعود الأقوال والأرواح إليه، وحديث معراج الرسول ﷺ ببدنه، ونفسه[٢]، ونظره إلى الجنة والنار وبلوغه العرش[٥] إلى أن لم يكن بينه وبين الله تعالى إلا حجاب العزة، وعَرْض الأنبياء[٦] عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وعرض أعمال الأمة عليه.

وغير هذا مما صح عنه ﷺ من الأخبار المتشابهة، الواردة في صفات الله سبحانه ما بلغنا وما لم يبلغنا مما صح عنه، اعتقادنا فيه وفي الآي[٧] المتشابهة في القرآن أن نقبلها ولا نردها ولا نتأولها بتأويل المخالفين ولا نحملها على تشبيه المشبِّهين، ولا نزيد عليها، ولا ننقص منها ولا نفسرها ولا نكيفها ولا نترجم عن صفاته بلغة غير العربية!! ولا نشير إليها بخواطر القلوب ولا بحركات الجوارح، بل نطلق ما أطلقه الله ﷻ، ونفسر ما فسره النبي ﷺ وأصحابه

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٨٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٣٠)، والدارقطني في «الصفات» (٤٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٦٤)، والآجري في «الشريعة» (٣/ ١١٥٢) من حديث ابن عمر **وضعفه** شيخنا الألباني بلفظه: «صورة الرحمن» وصوابه «على صورته»، وانظر: «الضعيفة» (١١٧٦).

(٢) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «وبيان نفسه»!

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وللمؤمن».

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٣٤٠)، وأحمد (٦/ ١٩ ـ ٢٠)، وابن حبان (٦٥٩)، والحاكم (١/ ٥٧١) من حديث فضالة بن عبيد، **وإسناده ضعيف**، فيه ميسرة مولى فضالة، لم يوثقه غير ابن حبان، وانظر: «الضعيفة» (٢٩٥١).

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «إلى العرش».

(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «عرض الأنبياء عليه».

(٧) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الآيات».

والتابعون والأئمة المرضيون من السلف المعروفين بالدين والأمانة، ونجمع على ما أجمعوا عليه، ونمسك عن ما أمسكوا عنه، ونسلم الخبر الظاهر، والآية الظاهرة[1] تنزيلها، لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة والمجسمة والمشبهة والكرامية والمكيفة[2]، بل نقبلها بلا تأويل، ونؤمن بها بلا تمثيل، ونقول: الإيمان بها واجب، والقول بها سنة، وابتغاء تأويلها بدعة»[3] اهـ.

قول الإمام حجة الإسلام: أبي أحمد بن الحسين الشافعي: المعروف بابن الحداد في «عقيدته»:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه سبحانه مستوٍ على عرشه، وفوق جميع خلقه، كما أخبر في كتابه وعلى ألسنة رسله، من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تأويل، وكذلك كل ما جاء من الصفات، نمرُّه كما جاء من غير مزيد عليه، ونقتدي في ذلك بعلماء السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين».

قول الإمام إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي صاحب كتاب «الترغيب والترهيب» وكتاب «الحجة في المحجة ومذهب أهل السنة» وكان إماماً للشافعية في وقته رحمه الله تعالى.

وجمع له أبو موسى المديني مناقب لجلالته.

قال في كتاب «الحجة»: «(باب في بيان استواء الله ﷻ على عرشه): قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقال في آية أخرى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[4] [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] قال أهل السنة: فوق السمٰوات لا يعلوه خَلْق من خلقه، ومن الدليل على ذلك أن الخلق يشيرون إلى السماء بأصابعهم، ويدعونه ويرفعون إليه رؤسهم وأبصارهم، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الظاهر».

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الكيفية».

(٣) بنحوه في: «العلو» (٢/ ١٢٣١)، و«مختصر العلو» (ص٢٢٦ ـ ٢٢٧)، و«السير» (١٤/ ٣٩٦).

(٤) في الأصل: الحكيم!

نَذِيرِ ﴿١٧﴾ [الملك: ١٦، ١٧] والدليل على ذلك من النصوص التي فيها نزول الرحمن»[١].

فصل[٢]

في بيان أن العرش فوق السموات، وأن الله ﷻ فوق العرش.

ثم ذكر حديث أبي هريرة الذي في البخاري: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: أن رحمتي غلبت غضبي**»[٣]. وبسط الاستدلال على ذلك بالسنة ثم قال: «قال علماء السنة: إن الله ﷻ على عرشه بائن من خلقه، وقالت المعتزلة: هو بذاته في كل مكان، وقالت الأشعرية: الاستواء عائد إلى العرش، قال: ولو كان كما قالوا؛ لكانت القراءة برفع العرش، فلما كانت بخفض العرش دل على أنه عائد إلى الله ﷻ، قال: وقال بعضهم: استوى بمعنى استولى، قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق[٤]

والاستيلاء لا يوصف به إلا من قدر على الشيء بعد العجز عنه، والله تعالى لم يزل قادراً على الأشياء، ومستولياً عليها، ألا ترى أنه لا يوصف بشر بالاستيلاء على العراق، إلا وهو عاجز عنه قبل ذلك، ثم حكى أبو القاسم عن ذي النون المصري أنه قيل له: ما أراد الله سبحانه بخلق العرش؟ قال: أراد أن لا يتيه قلوب العارفين[٥]، قال: وروي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] قال: «هو على عرشه، وعلمه في كل مكان»[٦]، ثم ساق الاحتجاج بالآثار إلى أن قال: «وزعم هؤلاء أن معنى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] أي: ملكه، وأنه لا اختصاص له بالعرش أكثر مما له بالأمكنة، وهذا إلغاء[٧] لتخصيص العرش وتشريفه.

---

(١) في مطبوع «الحجة في بيان المحجة»: «إنزال الوحي».

(٢) هو في «الحجة»، وهو تابع لما قبله.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق ذكره.

(٥) عدّه ابن تيمية من المثبتن للعقيدة السلفية، انظر: «الاستقامة» (١/ ١٨٨)، وأسند أبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٣٩٨)، وأبو نعيم عنه ما يدلل على ذلك.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) في مطبوع «الحجة في بيان المحجة»: «إلقاء»!

وقال أهل السنة: خلق الله تعالى السمٰوات، وكان عرشه مخلوقاً قبل خلق السموات والأرض، ثم استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض ما ورد به النص، وليس معناه: المماسة به، هو مستوٍ على عرشه بلا كيف كما أخبر عن نفسه».

قال: «وزعم هؤلاء أنه لا يجوز الإشارة إلى الله سبحانه بالرؤوس والأصابع إلى فوق، فإن ذلك يوجب التحديد.

وقد أجمع المسلمون أن الله هو العلي الأعلى، ونطق بذلك القرآن، فزعم هؤلاء أن ذلك بمعنى علو الغلبة لا علو الذات، وعند المسلمين أن لله ﷻ علو الغلبة والعلو من سائر وجوه العلو؛ لأن العلو صفة مدح، فنثبت أن لله تعالى علوَّ الذات وعلوَّ الصفات وعلو القهر والغلبة، وفي منعهم الإشارة إلى الله ﷻ من جهة الفوق خلاف منهم لسائر الملل؛ لأن جماهير المسلمين وسائر الملل قد وقع منهم الإجماع على الإشارة إلى الله ﷻ من جهة الفوق في الدعاء والسؤال، واتفاقهم بأجمعهم على ذلك حجة، ولم يستجز أحد الإشارة إليه من جهة الأسفل، ولا من سائر الجهات سوى جهة الفوق، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] وأخبر تعالى عن فرعون أنه قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] فكان فرعون قد فهم من موسى عليه الصلاة والسلام أنه يثبت إلهاً فوق السماء، حتى رام بصرحه أن يطَّلع إليه، واتهم موسى عليه الصلاة والسلام بالكذب في ذلك. والجهمية لا تعلم أن الله فوقها بوجود ذاته فهم أعجز فهماً من فرعون بل أضل، وقد صح عن النبي ﷺ أنه سأل الجارية التي أراد مولاها عتقها: **«أين الله»**؟ قالت: في السماء، وأشارت برأسها إلى السماء، وقال: **«من أنا»**؟ فقالت: أنت رسول الله، فقال: **«اعتقها فإنها مؤمنة»**[1]، فحكم النبي ﷺ بإيمانها حين قالت: إن الله في السماء، وحكم الجهمي بكفر من يقول ذلك»[2]. هذا كله كلام أبي القاسم رحمه الله تعالى.اهـ.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٨١ ـ ٨٣، ١٠٩ ـ ١١١، ١١٣ ـ ١١٥) بتصرف.

قول الإمام أبي عمرو عثمان بن أبي الحسن بن الحسين السَّهَرْوردي[١]
الفقيه المحدث من أئمة أصحاب الشافعي من أقران البيهقي وأبي عثمان الصابوني وطبقتهما، له «كتاب في أصول الدين» قال في أوله: «الحمد لله الذي اصطفى الإسلام على الأديان، وزيَّن أهله بزينة الإيمان، وجعل السنة عصمة أهل الهداية، ومجانبتها أمارة أهل الغواية، وأعز أهلها بالاستقامة، ووصل عزَّهم بالقيامة، وصلى الله على محمد وسلم وعلى آله أجمعين، وبعده:

فإن الله تعالى لما جعل الإسلام ركن الهدى، والسنة سبب النجاة من الردى ولم يجعل لمن ابتغى غير الإسلام ديناً هادياً، ولا من انتحل غير السنة نحلة ناجياً، جمعتُ أصول السنة الناجي أهلها، التي لا يسع الجاهل نكرها ولا العالم جهلها ومن سلك غيرها من المسالك فهو في أودية البدع هالك...» إلى أن قال: «ودعاني إلى جمع هذا المختصر في اعتقاد السنة على مذهب الشافعي وأصحاب الحديث ـ إذ هم أمراء العلم وأئمة الإسلام ـ قولُ النبي ﷺ: «**تكون البدع في آخر الزمان محنة، فإذا كان كذلك فمن كان عنده علم فلْيظهره، فإن كاتم العلم يومئذٍ ككاتم ما أنزل الله على نبيِّه محمد ﷺ**»...»[٢].

ثم ساق الكلام في الصفات إلى أن قال: «**فصل**: ومن صفاته تبارك وتعالى: فوقيته واستواؤه على عرشه بذاته كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بلا كيف، ودليله[٣] قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقوله تعالى في خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله تعالى في قصة عيسى عليه السلام: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]...» وساق آيات العلو ثم قال: «وعلماء الأمة وأعيان الأمة[٤] من السلف لم يختلفوا في أن الله سبحانه مستوٍ على عرشِهِ، وعرشُهُ فوق سبع سمواته»[٥]. ثم ذكر كلام عبد الله بن المبارك:

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الشهرزودي».
(٢) أخرجه ابن أبي عاصم (٩٩٤)، وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٣/ ٦٢٦)، وابن عساكر (٥٤/ ٨٠) وقال عنه شيخنا الألباني في «الضعيفة» (١٥٠٦): «**منكر**».
(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «بدليل».
(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الأئمة».
(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «سماوات».

«نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على عرشه بائن من خلقه»[١]. وساق قول ابن خزيمة: «من لم يقر بأن الله تعالى فوق عرشه قد استوى فوق سبع سمواته فهو كافر»[٢].اهـ. بإسناده من كتاب «معرفة علوم الحديث» ومن كتاب «تاريخ نيسابور» للحاكم.

ثم قال: «وإمامنا في الأصول والفروع أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى احتج في كتابه «المبسوط» على المخالف في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفارة وأن الرقبة الكافرة لا يصح التكفير بها[٣] بخبر معاوية بن الحكم السلمي، وأنه أراد أن يعتق الجارية السوداء عن الكفارة، وسأل النبي ﷺ ليعرف أنها مؤمنة أم لا؟ فقال لها: «**أين ربك**»؟ فأشارت إلى السماء - إذ كانت أعجمية -، فقال لها: «**من أنا**»؟ فأشارت إليه وإلى السماء، تعني: أنك رسول الله الذي في السماء، فقال: «**اعتقها فإنها مؤمنة**»[٤]، فحكم رسول الله ﷺ بإسلامها وإيمانها لما أقرت بأن ربها في السماء، وعرفت ربها بصفة العلو والفوقية»، هذا لفظه.اهـ.

قول إمام الشافعية في وقته الإمام أبي بكر محمد بن محمود بن سورة التميمي فقيه نيسابور: قال رحمه الله تعالى: «لا أصلي خلف من ينكر الصفات، ولا يقر بأن الله تعالى فوق عرشه بائن من خلقه».اهـ.

ذكر أقوال جماعة من أتباع الأئمة الأربعة ممن يقتدى بأقوالهم سوى ما تقدم:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (ص٨٤)، والجورقاني في «الأباطيل» رقم (٧٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢٧٧)، وأبو عثمان الصابوني في «عقيدة السلف» (٢٩)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (١١٢)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١٢١٤)، وفي «تاريخ الإسلام» (ص٤٢٤ وفيات ٣١١)، وفي «السير» (١٤/ ٣٧٣)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ٧٢٨)، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في «الحموية» (ص٣٤٠)، وذكره في «درء تعارض العقل والنقل» (٩/ ٢٦٤)، وابن القيم في «الصواعق» (٤/ ١٣٠٣)، وفي «اجتماع الجيوش» (١٩٤)، وفي «تهذيب السنن» (٧/ ١٠٧).

(٣) انظر: «الأم» (٦/ ٧٠٥ - ٧٠٦)، وانظر بسط المسألة في: «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب، وتعليقي عليه.

(٤) سبق تخريجه.

قال أبو بكر محمد بن موهب[1] المالكي شارح «رسالة ابن أبي زيد»: قد تقدم ذكره عند ذكر أصحاب مالك، وحكينا بعض كلامه في «شرحه» ونحن نسوقه بعبارته.

قال: «وأما قوله: «أنه فوق عرشه المجيد بذاته» فإن معنى فوق وعلا عند جميع العرب واحد، وفي كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ تصديق ذلك» ثم ساق الآيات في إثبات العلو، وحديث الجارية، إلى أن قال: «وقد تأتي «في» في لغة العرب بمعنى فوق، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] يريد فوقها، وعليه كذلك[2] قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ [طه: ٧١] يريد: عليها، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦] الآيات قال أهل التأويل العالمون بلغة العرب: يريد فوقها، وهو قول مالك مما فهمه[3] عن جماعة ممن أدرك من التابعين [مما فهموه عن الصحابة][4]، مما فهموه عن النبي ﷺ أن الله في السماء بمعنى فوقها وعليها، فلذلك قال الشيخ أبو محمد: «أنه فوق عرشه المجيد بذاته» ثم[5] بيَّن أن علوه على عرشه إنما هو بذاته؛ لأنه بائن عن جميع خلقه بلا كيف، وهو في كل مكان من الأمكنة المخلوقة بعلمه لا بذاته، إذا لا تحويه الأماكن لأنه أعظم منها، وقد كان ولا مكان ولم يحل بصفاته عما كان، إذ لا تجري عليه الأحوال، لكن علوه في استوائه على عرشه هو عندنا بخلاف ما كان قبل أن يستوي على العرش؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] و﴿ثُمَّ﴾ أبداً لا يكون إلا لاستئناف فعل يصير[6] بينه وبين ما قبله فسحة...»، إلى أن قال: «وقوله: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] عند أهل السنة على غير الاستيلاء والقهر والغلبة والملك الذي ظنته[7] المعتزلة ومن قال بقولهم أنه بمعنى الاستيلاء، وبعضهم يقول: إنه على المجاز دون الحقيقة».

---

(١) في الأصل: «وهب» وهو خطأ! والتصويب من مصادر الترجمة، مثل: «جذوة المقتبس» (٩٢ رقم ١٤٦)، و«ترتيب المدارك» (٣/ ٦٧٤ ـ ٦٧٥).

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وعليها».

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فهم».

(٤) من مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وسقط من الأصل.

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «إنه».

(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «يكون».

(٧) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ظنت».

قال: «ويبيِّن سوء تأويلهم في استوائه على عرشه على غير ما تأولوه من الاستيلاء وغيره ما قد علمه أهل العقول[١] أنه لم يزل مستولياً على جميع مخلوقاته بعد اختراعه لها، وكان العرش وغيره في ذلك سواء، فلا معنى لتأويلهم بإفراد العرش بالاستواء الذي هو في تأويلهم الفاسد استيلاء وملك وقهر وغلبة».

قال: «وكذلك بيَّن أيضاً أنه على الحقيقة بقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]؛ فلما رأى المنصفون إفراد ذكره بالاستواء على عرشه بعد خلق سمٰواته وأرضه وتخصيصه بصفة الاستواء علموا أن الاستواء هنا غير الاستيلاء ونحوه، فأقروا بصفة الاستواء على عرشه وأنه على الحقيقة لا على المجاز؛ لأنه الصادق في قيله، ووقفوا عن تكييف ذلك إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ من الأشياء، وقد تقدم قول القاضي عبد الوهاب إمام المالكية بالعراق: أن الاستواء استواء الذات على العرش، وأنه قول أبي الطيب الأشعري حكاه عنه عبد الوهاب نصاً، وأنه قول الأشعري بنفسه صرح به في بعض كتبه، وأنه قول الخطابي وغيره من الفقهاء والمحدثين ذكر ذلك كله الإمام أبو بكر الحضرمي في رسالته التي سماها بـ «الإيماء إلى مسألة الاستواء» فمن أراد الوقوف عليها فليقرأها وقد تقدم قول أبي عمر بن عبد البر وعلماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] أنه على العرش، وعلمُه في كل مكان[٢]، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله، وأهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها[٣] فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة»[٤]. اهـ.

قول شيخ الإسلام موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد المقدسي الذي

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «المعقول».
(٢) سبق بيان ذلك مفصَّلاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
(٣) بعدها في مطبوع «التمهيد»: «ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقر بها مشبه وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق».
(٤) سبق ذكره وتوثيقه قريباً.

اتفقت الطوائف على قبوله وتعظيمه وإمامته، خلا جهمي أو معطل، قال في كتاب «إثبات صفة العلو»:

«أما بعد: فإن الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء، ووصفه بذلك رسوله خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء، والأئمة من الفقهاء، وتواترت الأخبار في ذلك على وجهٍ حصل به اليقين، وجمع الله ﷻ عليه قلوب المسلمين، وجعله مغروزاً في طبائع[1] الخلق أجمعين، فنراهم[2] عند نزول الكرب يلحظون السماء بأعينهم، ويرفعون عندها[3] للدعاء أيديهم، وينتظرن مجيء الفرج من ربهم سبحانه، وينطقون بذلك بألسنتهم لا ينكر ذلك إلا مبتدع غالٍ في بدعته، أو مفتون بتقليد[4] واتباعه على ضلالته»[5].

وقال في «عقيدته»[6]: «ومن السنة قول النبي ﷺ: **«ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»**[7] وقوله ﷺ: **«لله أفرح بتوبة عبده»**[8]. وقوله ﷺ: **«يعجب ربك»**»[9]. إلى أن قال: «فهذا وما أشبهه مما صحَّ سنده وعُدِّلت رواته[10] نؤمن به ولا نردُّه ولا نجحده، ولا نعتقد فيه تشبيهه[11] بصفات المخلوقين، ولا سمات[12]

---

(١) في مطبوع «إثبات صفة العلو»: «طباع».
(٢) في مطبوع «إثبات صفة العلو»: «فتراهم».
(٣) في مطبوع «إثبات صفة العلو»: «نحوها».
(٤) كذا في مطبوع «إثبات صفة العلو»، وفي الأصل: «بتقليده»!
(٥) انظر: «إثبات صفة العلو» (ص٤١).
(٦) المسماة «لمعة الاعتقاد» وهو مطبوع أكثر من مرة، ولغير واحد من معاصرينا من العلماء شروح عليه، وبعضها منشورة.
(٧) سبق تخريجه. (٨) سبق تخريجه.
(٩) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧١)، وأبو يعلى (١٤٧٩)، والطبراني في «الكبير» (١٧/رقم ٨٥٣)، وابن عدي (٤/ ١٤٦٥ ـ ١٤٦٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٧٦) من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٧٠): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وإسناده حسن».
وحسنه شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤٣)، ورجح أبو حاتم الرازي كونه موقوفاً، على عقبة. انظر: «العلل» (٢/ ١١٦) لابنه، وأخرج الموقوف: ابن المبارك في «الزهد» (٣٤٩) وفيه رشدين بن سعد، وهو ضعيف.
(١٠) كذا في مطبوع «لمعة الاعتقاد»، وفي الأصل: «روايته»!
(١١) في مطبوع «لمعة الاعتقاد»: «ولا نشبهه». (١٢) في مطبوع «لمعة الاعتقاد»: «بسمات».

المُحَدِّثين، بل نؤمن بلفظه ونترك التعرض لمعناه، قراءته تفسيره[1] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] وقول النبي ﷺ: «**ربنا الله الذي في السماء**»[2] وقوله للجارية: «**أين الله**»؟ قالت: في السماء، قال: «**اعتقها إنها مؤمنة**»[3] رواه مالك بن أنس وغيره من الأئمة، وروى أبو داود في «سننه» أن النبي ﷺ قال: «**إن بين سماء إلى سماء مسيرة كذا وكذا**» وذكر الحديث إلى أن قال: «**وفوق ذلك العرش، والله تعالى فوق ذلك**»[4] نؤمن بذلك ونتلقاه بالقبول من غير رد له ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تأويل ولا نتعرض له بكيف، ولما سئل مالك بن أنس فقيل له: يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». ثم أمر بالرجل، فأُخْرِج»[5].اهـ.

قول إمام الشافعية في وقته ـ بل هو الشافعي الثاني ـ أبي حامد الإسفراييني، كان من كبار أئمة السنة المثبتين للصفات، قال:

«مذهبي ومذهب الشافعي وجميع علماء الأمصار: أن القرآن كلام الله، ليس بمخلوق، ومن قال: مخلوق، فهو كافر، وأن جبرائيل عليه السلام سمعه من الله ﷻ وحمله إلى محمد ﷺ، وسمعه النبي ﷺ من جبرائيل، وسمعه الصحابة من محمد ﷺ، وأن كل حرف منه كالباء والتاء كلام الله ﷻ ليس بمخلوق». ذكره في كتابه في «أصول الفقه» ذكره عنه شيخ الإسلام في «الأجوبة المصرية».

---

(١) غير موجود في مطبوع «لمعة الاعتقاد».

(٢) سبق تخريجه. (٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (١/٢٠٦ ـ ٢٠٧)، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في «العرش» (١٨)، وابن طهمان في «مشيخته» (١٨)، والترمذي (٣٣٢٠)، وأبو داود (٤٧٢٣)، وابن ماجه (١٩٣)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٢)، وأبو يعلى (٦٧١٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٠١ ـ ١٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧٧)، والحاكم (٢/ ٥٠١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٤٠) وغيرهم، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه عبد الله بن عميرة مجهول، لم يرو عنه غير سماك، أفاده مسلم في «الوحدان» (ص١٤٠) وهو لم يسمع العباس بن عبد المطلب، فهو معضل، ومنهم من رواه عن ابن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس، والأحنف لم يسمع العباس، فهو منقطع.

(٥) سبق تخريج أثر مالك، وما سبق من «لمعة الاعتقاد» (ص١٢ ـ ١٤) بتصرف.

قال شيخ الإسلام: «وكان الشيخ أبو حامد يصرح بمخالفة القاضي أبي بكر بن الطيب في مسألة القرآن»[(١)].

قال إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام السنة: «نؤمن بخبر الله سبحانه أن خالقنا مستوٍ على عرشه لا نبدل كلام الله ولا نقول غير الذي قيل لنا، كما قالت الجهمية المعطلة: إنه استولى على عرشه لا استوى، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم»[(٢)].

وقال في كتاب «التوحيد»: «باب ذكر استواء خالقنا العلي الأعلى الفعال لما يشاء على عرشه وكان فوقه وفوق[(٣)] كل شيء عالياً». ثم ساق الأدلة على ذلك من القرآن والسنة ثم قال: «باب الدليل على أن الإقرار بأن الله فوق السماء من الإيمان»[(٤)] ثم ساق حديث الجارية. اهـ.

قول إمام الشافعية في وقته سعد بن علي الزَّنْجاني.

صرح بالفوقية بالذات، فقال:

«وهو على[(٥)] عرشه بوجود ذاته». هذا لفظه وهو إمام في السنة له قصيدة فيها معروفة أوّلها:

تَمَسَّكْ بِحبلِ الله واتَّبِعِ الأثَرْ ... ودَعْ عنكَ رأياً لا يلائِمُه خَبَرْ[(٦)]

وقال في شرح هذه القصيدة: «والصواب عند أهل الحق أن الله تعالى خلق السمٰوات والأرض، وكان عرشه على الماء مخلوقاً قبل خلق السموات والأرض

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الأصفهانية» (ص٧٤).

(٢) انظر: «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٢٣٣).

(٣) كذا في مطبوع «التوحيد»، وفي الأصل: «فوق».

(٤) انظر: «التوحيد» (١/ ٢٣١، ٢٧٨).

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فوق».

(٦) ذكر هذا البيت بلفظه الذهبي في «العلو» (٢/ ١٣٤٩)، وذكر أبياتاً من القصيدة الذهبي في «السير» (١٨/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨)، وفي «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٧٨). إلّا أن مطلعها مخالف لما في «العلو».
وقال ابن الوزير اليماني في «إيثار الحق» (ص١٨٧): «ذكر الحافظ أسعد بن علي المعروف بالزنجاني أن ذلك ـ أي تعليل الأحكام الشرعية ـ مذهب أهل السنة وهو من أئمة الشافعية ذكره في شرح قصيدته الشهيرة في الحث على السنة وهي التي أولها: تمسك بحبل الله واتبع الخبر».

ثم استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض، على ما ورد به النص ونطق به القرآن، وليس معنى استوائه أنه ملكه واستولى عليه؛ لأنه كان مستولياً عليه قبل ذلك وهو أحدثه؛ لأنه مالك جميع الخلائق ومستولٍ عليها، وليس معنى الاستواء أيضاً أنه ماس العرش أو اعتمد عليه أو طابقه، فإن كل ذلك ممتنع في صفته جل ذكره، ولكنه مستوٍ بذاته على عرشه بلا كيف، كما أخبر عن نفسه، وقد أجمع المسلمون على أن الله هو العلي الأعلى، ونطق بذلك القرآن بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] وأن لله علو الغلبة والعلو الأعلى من سائر وجوه العلو؛ لأن العلو صفة مدح عند كل عاقل، فثبت بذلك أن لله علو الذات وعلو الصفات وعلو القهر والغلبة، وجماهير المسلمين وسائر الملل قد وقع منهم الإجماع على الإشارة إلى الله جل ثناؤه من جهة الفوق في الدعاء والسؤال، فاتفاقهم بأجمعهم على الإشارة إلى الله سبحانه من جهة الفوق حجة، ولم يستجز أحد الإشارة إليه من جهة الأسفل ولا من سائر الجهات سوى جهة الفوق.

وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وأخبر عن فرعون أنه قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] وكان فرعون قد فهم من موسى أنه يثبت إلهاً فوق السماء حتى رام بصرحه أن يطلع إليه، واتُّهم موسى بالكذب في ذلك، ومخالفنا ليس يعلم أن الله فوقه بوجود ذاته فهو أعجز فهماً من فرعون، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه سأل الجارية التي أراد مولاها عتقها: «**أين الله**»؟ قالت: في السماء وأشارت برأسها، وقال: «**من أنا**»؟ قالت: أنت رسول الله. فقال: «اعتقها فإنها مؤمنة»[1]، فحكم النبي ﷺ بإيمانها حين قالت: إن الله في السماء، وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤] وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥] وذكر النبي ﷺ: «**ما بين كل سماء إلى سماء وما بين السماء السابعة وبين العرش**»، ثم قال: «**الله فوق ذلك**»[2] وله أجوبة سئل عنها في السنة،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فأجاب عنها بأجوبة أئمة السنة، وصدرها بجواب إمام وقته أبي العباس بن سريج[(١)]. اهـ.

قول الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، الإمام في الفقه والتفسير والحديث والتاريخ واللغة والنحو والقرآن، قال في كتاب «صريح السنة»: «وحسب المرء أن يعلم أن ربه هو الذي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فمن تجاوز إلى غير ذلك فقد خاب وخسر»[(٢)] وقال في «تفسيره الكبير» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٥] قال: «علا وارتفع»[(٣)]، وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] عن الربيع بن أنس أنه يعني: «ارتفع»[(٤)]، وقال في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قال: «يجلسه معه على العرش»[(٥)] وقال في قوله ﷻ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] يقول: «وإني لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعي أن له رباً في السماء أرسله إلينا»[(٦)].

وقال في كتاب «التبصير في معالم الدين»: «القول فيما إدراكه بيان وعلمه خبر من الصفات[(٧)]، وذلك نحو إخباره[(٨)] أنه سميع بصير وأن له يَدَيْن بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأن له وجهاً بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأن له قدماً، لقول النبي ﷺ: «**حتى يضع**

---

(١) للزنجاني رسالة فيها أجوبة أئمة السنّة، ومصدرة بجواب العلامة ابن سريج، وهي محفوظة في الجامعة الإسلامية، رقم (١٦٩٤) ضمن مجموع (ق٣٦ ـ ٤٠/أ)، وتجد قسماً منها عند الذهبي في «الأربعين» (٩٠ رقم ٩٥)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/٨١٣)، و«العلو» (٢/١٢١٦ ـ ١٢١٨).

(٢) انظر: «صريح السنة» (ص٦٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/٤٥٧).

(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/٤٥٦).

(٥) انظر: «تفسير ابن جرير» (١٥/٤٧)، واعتمد في ذلك على أثر منكر لمجاهد، وهو يستلزم نسبة القعود على العرش لله، وهذا يستلزم نسبة الاستقرار عليه لله تعالى، وهذا مما لم يرد، فلا يجوز اعتقاده ونسبته إلى الله ﷻ، قاله شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٦)، وانظر التفصيل في: «الإمام ابن جرير الطبري ودفاعه عن عقيدة السلف» (ص٢٩٣ ـ ٢٩٧).

(٦) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٠/٣٢٧).

(٧) في مطبوع «التبصير»: «القول فيما أُدرك علمه من صفات الصانع خبراً لا استدلالاً».

(٨) بعدها في مطبوع «التبصير»: «إيّانا».

رب العزة فيها قدمه»[1]، وأنه يضحك لقوله: «لقي الله وهو يضحك إليه»[2]، وأنه يهبط إلى سماء الدنيا بخبر النبي ﷺ بذلك[3]، وأن له أصبعاً بقول النبي ﷺ: «ما قلبٌ إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن»[4]. فإنّ هذه المعاني التي وصفت[5] ونظائرها مما[6] وصف الله به نفسه ورسوله مما لا تدرك[7] حقيقة علمه بالفكر[8] والرؤية لا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهائها إليه»[9] [فيجب عليه قبولها][10]. ذكر هذا عنه أبو يعلى في كتاب: «إبطال التأويل»[11].

قال الخطيب: «كان ابن جرير[12] أحد العلماء[13] يُحكم بقوله ويرجع إلى رأيه، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان عارفاً بالقرآن[14]، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٧)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٦٦)، والبخاري في «تاريخه» (٨/ ٩٥)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٢٨، ٢٢٩)، وفي «الآحاد والمثاني» (١١٦٨، ١١٦٩، ١٢٧٧)، وأبو يعلى (٦٨٥٥)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١١٦٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١) من حديث نُعيم بن هَمّار **وإسناده حسن**، وانظر: «العلل» (٢/ ٣٠٩ ـ ٣١٠) لعبد الله بن أحمد.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٣٨)، وابن ماجه (١٩٩)، وابن جرير في «التفسير» (٦٦٥٥)، وابن حبان (٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ـ التعليقات الحسان)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٨٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢١٩)، والطبراني في «الدعاء» (١١٦٢)، وفي «مسند الشاميين» (٥٨٢)، والحاكم (١/ ٥٢٥ و٢/ ٢٨٩ و٤/ ٣٢١)، والبغوي (٨٩)، وفي «التفسير» (١/ ٣٢٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٣٤١) من حديث النواس بن سمعان، **وإسناده صحيح**.

(٥) كذا في مطبوع «التبصير» وفي الأصل: «وضعت»!

(٦) كذا في مطبوع «التبصير»، وفي الأصل: «ما»!

(٧) كذا في مطبوع «التبصير»، وفي الأصل: «يثبت»!

(٨) كذا في مطبوع «التبصير»، وفي الأصل: «بالذكر»!

(٩) انظر: «التبصير في معالم الدين» (ص١٣٢ ـ ١٣٩) بتصرف.

(١٠) غير موجود في مطبوع «التبصير» ولا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية».

(١١) انظر: «إبطال التأويلات» (١/ ٤٨ ـ ٥٠)، و«العلو» (٢/ ١٢٠٨ ـ ١٢٠٩).

(١٢) في الأصل: «كان (ج). . .».

(١٣) في مطبوع «تاريخ بغداد»: «الأئمة العلماء».

(١٤) في مطبوع «تاريخ بغداد»: «حافظاً للقرآن عارفاً بالقراءات».

وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين[١]، في الأحكام[٢] والحلال والحرام»[٣].

قال أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين، حتى يحصل له كتاب «تفسير محمد بن جرير» لم يكن كثيراً»[٤].

وقال ابن خزيمة: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من (ج)»[٥].

وقال الخطيب: «سمعت علي بن عبد الله اللغوي يحكي أن (ج) مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة»[٦]. قلت: وكان له مذهب مستقل، له أصحاب عدة[٧] أبو الفرج المعافى بن زكريا منهم، ومن أراد معرفة أقوال الصحابة والتابعين في هذا الباب، فلْيطالع ما قاله عنهم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥] وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] يتبين له أي الفريقين أولى بالله ورسوله: الجهمية المعطلة أو أهل السنة والإثبات، والله المستعان. اهـ.

قول الإمام أبي القاسم الطبري اللالكائي أحد أئمة أصحاب الشافعي في كتابه في «السنة» ـ وهو من أجل الكتب ـ: «سياق ما جاء[٨] في قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وأن الله ﷻ على عرشه في السماء». ثم ذكر قول من هذا قوله من الصحابة والتابعين والأئمة، قال: «هو قول عمر وعبد الله بن مسعود، وأحمد بن حنبل». وعدَّ جماعة يطول ذكرهم ثم ساق الآثار

(١) بعدها في مطبوع «تاريخ بغداد»: «ومن بعدهم».

(٢) في مطبوع «تاريخ بغداد»: «ومسائل». (٣) انظر: «تاريخ بغداد» (٢/ ١٦٣).

(٤) ذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ١٦٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٢/ ١٩٥)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٧١٢)، والصفدي في «الوافي في الوفيات» (٢/ ٢١٣) وغيرهم.

(٥) ذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ١٦٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٢/ ١٩٥ ـ ١٩٦)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٧/ ٢٨)، والصفدي في «الوافي في الوفيات» (٢/ ٢١٣).

(٦) انظر: «تاريخ بغداد» (٢/ ١٦٣).

(٧) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «منهم».

(٨) في مطبوع «شرح أصول الاعتقاد»: «روي».

في ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وعائشة وابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وغيرهم[١]. اهـ.

قول الإمام محيي السنة الحسين بن مسعود البغوي قال في «تفسيره» ـ الذي هو شجى في حلوق الجهمية والمعطلة ـ في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ «قال الكلبي ومقاتل: استقر، وقال أبو عبيدة صعد»، قال[٢]: «وأوّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، قال: وأمّا[٣] أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله[٤] بلا كيف يجب على الرجل أن يؤمن بذلك[٥]، ويَكِلَ العلم فيه إلى الله تعالى». ثم حكى قول مالك: «الاستواء غير مجهول»[٦]، ومراد السلف بقولهم: بلا كيف، هو نفي للتأويل[٧]، فإنه التكييف الذي يزعمه أهل التأويل، فإنهم هم الذين يثبتون كيفية تخالف الحقيقة، فيقعون في ثلاثة محاذير: نفي الحقيقة، وإثبات التكييف بالتأويل، وتعطيل الرب تعالى عن صفته التي أثبتها لنفسه. وأما أهل الإثبات فليس أحد منهم يكيف ما أثبته الله تعالى لنفسه ويقول: كيفيته كذا وكذا، حتى يكون قول السلف ـ بلا كيف ـ رداً عليه، وإنما ردوا على أهل التأويل الذي يتضمن التحريف والتعطيل تحريف اللفظ وتعطيل معناه اهـ.

فصل

في ذكر قول الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالى

قال الخلال في «كتاب السنة» بسنده إلى عبد الله بن أحمد قال: قيل لأبي: ربنا تبارك وتعالى فوق السماء السابعة على عرشه. بائن من خلقه. وقدرته وعلمه بكل مكان؟ **قال:** «نعم لا يخلو شيء من علمه»[٨].

قال الخلال: وأخبرني عبد الملك بن عبد الحميد الميموني قال: سألت

(١) انظر: «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٣٨٧ ـ ٤٠٢).
(٢) أي البغوي.
(٣) في مطبوع «تفسير البغوي»: «فأمّا».
(٤) في مطبوع «تفسير البغوي»: «لله تعالى».
(٥) في مطبوع «تفسير البغوي»: «الإيمان به».
(٦) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٩٧).
(٧) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «التأويل».
(٨) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٣/ ١٥٩ ـ الرد على الجهمية)، وذكر اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٠١ ـ ٤٠٢)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٩٦)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١١٣)، وأبو يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٤٢١).

أبا عبد الله أحمد عمن قال: إن الله تعالى ليس على العرش؟ **فقال**: كلامهم كله يدور على الكفر.

وروى الطبري الشافعي في كتاب: «السنة» له بإسناده عن حنبل قال: قيل لأبي عبد الله: معنى قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] **قال**: «علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة، وسع كرسيه السمٰوات والأرض»[(١)].

وقال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل قال: إن الله معنا وتلا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] **قال**: يأخذون بآخر الآية ويدعون أولها، هلا قرأت عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [المجادلة: ٧] بالعلم معهم، وقال في قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦][(٢)].

وقال المروزي[(٣)]: **قلت: لأبي عبد الله**: إن رجلاً قال: أقول كما قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] أقول هذا ولا أجاوزه إلى غيره، **فقال أبو عبد الله**: «هذا كلام الجهمية»، فقلت له: فكيف نقول: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] **قال**: «علمه في كل مكان وعلمه معهم»، **قال**: «أول الآية يدل على أنه علمه» **وقال** في موضع آخر: «وإن الله ﷻ على فوق السماء السابعة، يعلم ما تحت الأرض السفلى، وأنه غير مماس لشيء من خلقه، هو تبارك وتعالى بائن من خلقه، وخلقه بائنون منه»[(٤)].

وقال في كتاب: «الرد على الجهمية» الذي رواه عنه الخلال من طريق ابنه

---

(١) ذكره اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٠٢)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (٩٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١١٦).

(٢) بنحوه عند أحمد في «الرد على الجهمية» (ص٢٩٦)، وذكره ابن بطة في «الإبانة» (٣/ ١٥٩ ـ ١٦٠ ـ الرد على الجهمية)، وذكره ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١١٤)، و«الأربعين» رقم (٤٩)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٠٠ ـ ٢٠١).

(٣) في مطبوع «العلو»: «المرّوذي».

(٤) ذكره ابن بطة في «الإبانة» (٣/ ١٦٠ ـ ١٦١ ـ الرد على الجهمية)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١١٥).

عبد الله قال: «باب بيان ما أنكرت الجهمية[(١)] أن يكون الله تعالى على العرش [وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾][(٢)]، قلنا لهم: ما[(٣)] أنكرتم أن يكون الله تعالى على العرش، وقد قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فقالوا: هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش[(٤)]، وفي السموات والأرض وفي كلِّ مكان[(٥)] وتلا: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] **قال أحمد**: فقلنا: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من ذات الرب[(٦)] شيء، أجسامكم وأجوافكم والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من ذات الرب تعالى[(٧)] شيء، وقد أخبرنا الله ﷻ أنه في السماء فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦، ١٧] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]»[(٨)].

ذكر هذا الكلام كله أبو بكر الخلال في كتاب «السنة» الذي جمع فيه نصوص أحمد وكلامه، وعلى منواله جمع البيهقي في كتابه الذي سماه «جامع النصوص» من كلام الشافعي، وهما كتابان جليلان لا يستغني عنهما عالم، **وخطبة كتاب أحمد بن حنبل**: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل عليهم الصلاة والسلام بقايا من أهل العلم، يدعُون من ضل إلى الهدى، ويَصبِرُون منهم على الأذى، يُحيُون بكتاب الله الموتى، ويُبَصِّرون بنورِ الله تعالى

---

(١) انظر: «الرد على الجهمية والزنادقة» (ص٣٠٨).
(٢) بعدها في «الرد على الزنادقة والجهمية»: «الضُّلّال».
(٣) غير موجود في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية».
(٤) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «لِمَ».
(٥) بعدها في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «فهو على العرش».
(٦) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «من عِظَم الرب».
(٧) بعدها في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «لا يخلو منه مكان ولا يكون في مكان دون مكان».
(٨) انظر: «الرد على الزنادقة والجهمية» (٢٨٧ ـ ٢٩٠) بتصرف يسير، وكلام أحمد هذا ذكره ابن تيمية في «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٥٣٤) ـ وله عليه تعليق جيد مهم ـ و«درء التعارض» (٦/ ١٣٧)، و«الفتاوى» (٥/ ٣١٠)، وابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٩٨).

أهل العمى، فكَمْ من قتيل لإبليسَ قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هَدَوْهُ، فما أحسنَ أثرهُم على الناس، و[ما][1] أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تعالى تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطِلين، وتأويل الجاهلين، الذين عَقَدوا أَلْوِيَة البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله تعالى وفي الله تعالى وفي كتاب الله تعالى بغير عِلْم، يتكلَّمون بالمُتشابهِ من الكلام، ويخدعون الجهال[2] بما يشبِّهون عليهم، فنعوذُ بالله من فتن المضلين».

ثم **قال**: (باب بيان ما ضلَّتْ فيه [الجهمية][3] الزنادقة من متشابه القرآن) ثم تكلم على قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] **قال**: قالت الزنادقة: «فما بال جلودهم التي عصت قد احترقت وأبدلهم الله جلوداً غيرها، فلا نرى إلا أن الله ﷻ يعذب جلوداً بلا ذنب يقول[4]: ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فشكُّوا في القرآن وزعمُوا أنه متناقضٌ فقلنا[5]: إن قَوْل الله ﷻ: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ ليس يعني[6] جلوداً أخرى غير جلودهم، وإنما يعني بتبديلها[7] تجديدها لأن جلودَهم إذا نضجتْ جدَّدها الله».

ثم تكلم على آيات من مشكل القرآن، ثم **قال**: «وإن مما أنكرت الجهمية الضُّلّال أن الله ﷻ على العرش استوى، وقد قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]».

ثم ساق أدلة القرآن، ثم **قال**: «ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) غير موجود في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية».
(٢) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «جُهّال الناس».
(٣) غير موجود في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية».
(٤) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «لمْ تُذنِبْ حين يقول:».
(٥) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «فقلت لهم».
(٦) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «معناه».
(٧) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «وإنما معنى ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ تبديلها».

[فصلت: ٢٩]» ثم **قال**: «ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: ٣] يقول هو: إله مَن في السمٰوات وإله من في الأرض وهو على العرش، وقد أحاط عِلمُه بما دون العرش لا يخلو من علمه[(١)] مكان، ولا يكون عِلمُ الله تعالى في مكان دون مكان، وذلك[(٢)] قوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]».

قال الإمام أحمد: «ومن الاعتبار في ذلك لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير وفيه شيء[(٣)] كان نظر[(٤)] ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع ما خلق[(٥)] [وقد علم كيف هو وما هو][(٦)] من غير أن يكون في شيء مما خلق»[(٧)] **قال**: «وخَصلة أخرى: لو أن رجلاً بنى داراً بجميع مرافقها، ثُم أغلق بابها[(٨)]، كان لا يخفى عليه كم بيتاً في داره، وكم سعة كُل بيت، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار، فالله سبحانه[(٩)] قد أحاط بجميع ما خلق، وقد عَلِمَ كيف هو وما هو، [وله المثل الأعلى][(٤)] وليس هو في شيء مما خلق»[(١٠)].

قال الإمام أحمد: «ومما[(١١)] تأولت الجهمية من قول الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فقالوا: إن الله معنا وفينا، فقلنا لهم، لِمَ قطعتم الخبر من أوَّله؟ إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]؛ يعني:

---

(١) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «علم الله».
(٢) في الأصل بعدها «من»! وهو غير موجود في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية».
(٣) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «قوارير صافٍ وفيه شراب صافٍ».
(٤) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «بصر».
(٥) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «خلقه».
(٦) غير موجود في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية».
(٧) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «من خلقه».
(٨) بعدها في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «وخرج منها».
(٩) بعدها في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «وله المثل الأعلى».
(١٠) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «من غير أن يكون في شيء مما خلق».
(١١) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «بيان ما».

علمه فيهم، ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧] ففتح الخبر بعلمه وختمه بعلمه». **قال الإمام أحمد:** «وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذبٌ على الله ﷻ حين زعم أنه في كل مكان ولا يكون في مكان دون مكان، فقل له: فحين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجاً عن نفسه، فإنه يصير إلى أحد ثلاثة أقاويل[(١)]: إن زعم أن الله تعالى خلق الخلق في نفسه كفر، حين زعم أن الجن والإنس والشياطين وإبليس في نفسه، وإن قال: خلقهم خارجاً عن نفسه ثم دخل فيهم كفر أيضاً، حين زعم أنه دخل في كل مكان وَحُشٍّ وقذر[(٢)]، وإن قال: خلقهم خارجاً عن نفسه ثم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله كله أجمع وهو قول أهل السنة».

قال أحمد: «بيان ما ذكر في القرآن ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] على وجوه، قوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] يقول: في الدفع عنكما، وقال: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]؛ يعني: في الدفع عنَّا، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٩]؛ يعني: في النصرة لهم على عدوهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]؛ يعني: في النصرة لكم على عدوكم، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]؛ يعني: يقول بعلمه فيهم، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] يقول: بالعَوْنِ على فرعون.

فلما ظَهَرَت الحُجة على الجهمي بما ادّعى على الله سبحانه أنه مع خلقه قال: هو في كل شيء غير مماسّ لشيء ولا مبايناً له[(٣)]، فقلنا له: فإذا كان غير مباين للشيء أهو مماس له؟ قال: لا، قلنا: فكيف يكون في كل شيء غير مماس لشيء ولا مبايناً لشيء[(٤)]؟ فلم يُحسن الجواب، فقال: بلا كيف ليخدع الجهال بهذه الكلمة ويُمَوِّهَ عليهم، ثم قلنا لهم: إذا كان يوم القيامة أليس إنما تكون الجنة والنار والعرش والهواء؟ فقال: بلى، فقلنا: وأين يكون ربنا؟ قال: يكون

---

(١) بعدها في «الرد على الزنادقة والجهمية»: «لا بد له من واحد منها».
(٢) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «وحُشٍّ قذر رديء».
(٣) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «مباين منه».
(٤) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «مباين».

في كل شيء، كما كان حيث كانت الدنيا، قلنا: ففي مذهبكم إن ما كان من الله تعالى على العرش فهو على العرش، وما كان من الله تعالى في الجنة، فهو في الجنة وما كان من الله تعالى في النار فهو في النار، وما كان منه في الهواء، فهو في الهواء، فعند ذلك تبين للناس كذبهم على الله».

قال أحمد: «وقلنا للجهمية حين زعمتم أن الله تعالى في كل مكان، قلنا: أخبرونا عن قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] كان في الجبل بزعمكم؟ فلو كان فيه كما تزعمون لم يكن تجلى له، بل كان سبحانه على العرش، فتجلى لشيء لم يكن فيه، ورأى الجبل شيئاً لم يكن رآه قط قبل ذلك».

قال أحمد: «وقلنا للجهمية: الله نور، فقالوا: هو نور كله.

فقلنا لهم: قال الله ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] فقد أخبر جل ثناؤه أن له نوراً، وقلنا لهم: أخبرونا حين زعمتم أن الله سبحانه في كل مكان وهو نور، فَلِمَ لَمْ يضئ البيت المظلم بلا سراج؟ وما بال السراج إذا دخل البيت المظلم يضيء؟! فعند ذلك تبين للناس كذبهم على الله تعالى».

قال الإمام أحمد: «كان جهم وشيعته كذلك دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث؛ فَضَلُّوا وأضلوا بكلامهم كثيراً، وكان فيما بلغنا عن الجهم ـ عدو الله ـ أنه كان من أهل خراسان وكان صاحب خصومات وشر وكلام، وكان أكثر كلامه في الله تعالى، فلقي أُناساً من الكفار يقال لهم: السُّمَنِية فعَرَفوا الجهم فقالوا له: نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك، فكان مما كلَّموا به جهماً قالوا: ألست تزعم أن لك إلهاً؟ قال الجهم: نعم، قالوا له: فهل رأت عينك إلهك؟ قال: لا، قالوا: فهل شممت له رائحة؟ قال: لا، قالوا: فهل وجدت له حساً؟ قال: لا، قالوا: فهل وجدت له مجساً؟ قال: لا، قالوا: فما يدريك أنه إله؟ قال: فتحير الجهم ولم يدر أربعين يوماً، ثم إنه استدرك حجة من جنس حجة زنادقة النصارى ـ لعنهم الله ـ.

وذلك أن زنادقة النصارى لعنهم الله تعالى زعموا أن الروح التي في عيسى ابن مريم روح الله من ذات الله، فإذا أراد أن يحدث أمراً دخل في بعض خلقه فتكلم على لسانه فيأمر بما يشاء وينهى عما يشاء، وهو روح غائب عن الأبصار، فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، فقال للسُّمَني: تزعم أن فيك روحاً،

قال: نعم، قال: فهل رأيت روحك؟ قال: لا، قال: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا، قال: فهل وجدت له مَجَساً أو حساً؟ قال: لا، قال: فكذلك الله لا يُرى له وجه ولا يُسمَع له صوت ولا يشم له رائحة وهو غائب عن الأبصار ولا يكون في مكان دون مكان.

ووجد ثلاث آيات في القرآن من المتشابه: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] و﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فبنى أصل كلامه على هؤلاء الآيات، وتأوَّل القرآن على غير تأويله، وكذب بأحاديث النبي ﷺ، وزعم أن مَنْ وصف الله تعالى بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدث عنه النبي ﷺ كان كافراً أو كان من المُشبِّهة، فأضلَّ بشراً كثيراً، وتبعه على قوله رجال من أصحاب عمرو بن عبيد وأصحاب فلان[١]، ووضع دين الجهمية، فإذا سألهم الناس عن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]: ما تفسيره؟ يقولون: ليس كمثله شيء من الأشياء، هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش، لا يخلو منه مكان، ولا هو في مكان دون مكان، ولا يتكلَّم ولا يكلم[٢] ولا ينظرُ إليه أحد لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفة[٣]، ولا له غاية ولا منتهى ولا يُدرك بعَقْل، وهو وجه كلُّه، وهو عِلْم كلُّه، وهو سمعٌ كلُّه، وهو بصرٌ كلُّه، وهو نورٌ كلّه، وهو قدرةٌ كلُّه، لا يوصف بوصفين مختلفين، وليس بمعلوم ولا معقول، وكلّ ما خطر بقلبك أنه شيء تعرفه فهو على خلافه.

فقلنا لهم: فمن تعبدون؟ قالوا: نعبد من يدبر أمر هذا الخلق: قلنا: فالذي يُدَبِّر أمر هذا الخلق لا يعرف بصفته. قالوا: نعم، قلنا: قد عرف المسلمون أنكم لا تثبتون شيئاً، إنما تدفعون عن أنفسكم الشُّنْعَة بما تظهرون، ثم قلنا لهم: هذا الذي يدبِّر هو الذي كلم موسى، قالوا: لم يَتَكلَّم؛ ولا يتكلَّم لأن الكلام لا يكون إلا بجارحة، والجوارح منفية عن الله سبحانه وتعالى، فإذا سمع الجاهل قولهم ظن أنهم من أشد الناس تعظيماً لله سبحانه، ولم يعلم أن كلامهم إنما

---

(١) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «أبي حنيفة»!!
(٢) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «ولم يتكلَّم ولا يتكلَّم».
(٣) بعدها في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «ولا بفعل».

يؤول إلى ضلالة وكفر»[١]. قال الخلال: «كتب هذا الكتاب من خط عبد الله وكتبه عبد الله من خط أبيه، وصححه شيخ الإسلام» ومضى[٢] إلى أن قال: «فإنه امتحن بالجهمية وجميع المتقدمين من أصحابه على مثل منهاجه في ذلك، وإن كان بعض المتأخرين منهم من يدخل في نوع من البدعة التي أنكرها الإمام أحمد، ولكن الرعيل الأول من أصحابه كلهم وجميع أئمة الحديث قولهم قوله.»اهـ.

أقوال أئمة أهل الحديث
الذين رفع الله تعالى منارهم في العالمين
وجعل لهم لسان صدق في الآخرين

ذكر قول إمامهم وشيخهم الذي روى له كل محدِّث (أبو هريرة).

روى الدارمي عنه في كتاب «النقض» بإسناد جيد قال: «لما ألقي إبراهيم في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك»[٣]. اهـ.

ذكر قول إمام الشام في وقته أحد أئمة الدنيا الأربعة أبي عمرو الأوزاعي.

روى البيهقي عنه في «الصفات» أنه قال: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله ﷻ فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته»[٤] وقد تقدم حكاية ذلك عنه.

قول إمام أهل الدنيا في وقته عبد الله بن المبارك.

وقد صح عنه صحة قريبة من التواتر أنه قيل له: بماذا نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه»[٥]. ذكره البيهقي، وقبله الحاكم، وقبله الدارمي عثمان وقد تقدم. اهـ.

قول حماد بن زيد إمام وقته.

تقدم عنه قوله: «الجهمية إنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء شيء»[٦] وكان من أشد الناس على الجهمية.

---

(١) انظر: «الرد على الزنادقة والجهمية» (ص٢٨٧ ـ ٣٠١، ٣٠٧ ـ ٣١٠، ٣٢٨ ـ ٣٢٩، ١٩٦ ـ ٢١٢) بتصرف.

(٢) أي ابن القيم.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

قول يزيد بن هارون: قال عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب «السنة» بسنده إلى يزيد بن هارون قال: «من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما تقرر[(١)] في قلوب العامة فهو جهمي»[(٢)]. قال شيخ الإسلام: «والذي تقرر في قلوب العامة هو ما فطر الله تعالى عليه الخليقة من توجُّهها إلى ربها تعالى عند النوازل والشدائد والدعاء والرغبات إليه تعالى نحو العلو، لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، من غير موقف وقّفهم عليه، ولكن فطرة الله التي فطر الناس عليها، وما من مولود إلا وهو يولد على هذه الفطرة، حتى يجهمه وينقله إلى التعطيل من يقيض له». اهـ.

قول عبد الرحمن بن مهدي: وروى عنه غير واحد بإسناد صحيح أنه قال: «إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن الله كلَّم موسى، وأن يكون على العرش، أرى أن يستتابوا فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم»[(٣)].

قال علي بن المديني: «لو حُلِّفتُ، لحلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت أعلم من عبد الرحمن بن مهدي»[(٤)].

---

(١) كذا في الأصل، وفي المصادر الآتية «يَقِرُ» وضبطه الذهبي في «العلو» بقوله: «يَقِرُ: مخفف، والعامة مراده بهم جمهور الأمة وأهل العلم». وذكر كلاماً نحو كلام شيخه ابن تيمية الآتي.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١٢٣)، وأبو داود في «مسائله» (١٧٣٣)، وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (٦٣)، وابن بطة في «الإبانة» (٣/ ١٦٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٣١)، وغيرهم.

(٣) أخرجه أبو داود في «المسائل» (٢٦٢)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١١٩)، والنجاد في «الرد على من يقول: القرآن مخلوق» رقم (١)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٣١٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٥٤٦)، وأبو نعيم (٩/ ٧)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢/ ٣١٦)، وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (٧٥)، وابن البنا في «المختار في السنة» رقم (٤٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٣٨)، و«السير» (٩/ ١٩٩ ـ ٢٠٠، ٢٠٤)، و«تاريخ الإسلام» (ص٢٨٧ ـ ٢٨٨ وفيات ١٩٨)، وفي «الأربعين» رقم (١١)، وصححه ابن تيمية في «الفتاوى» (٥/ ١٨٤)، وفي «الحموية» (٢٧٤).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم في «تقدمة الجرح والتعديل» (ص٢٥٢)، والذهبي في «السير» (٩/ ١٩٨)، وابن رجب في «شرح العلل» (١/ ١٥٨)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٣٨)، وابن حجر في «التقريب» في ترجمة ابن مهدي وهو في «سنن الترمذي» (٤/ ٤٥١)، وانظر: «الإمام علي بن المديني ومنهجه في نقد الرجال» لإكرام الله إمداد الحق (ص٢٠١).

قول سعيد بن عامر الضُّبعي إمام أهل البصرة على رأس المائتين.

روى ابن أبي حاتم عنه في كتاب «السنة» أنه ذكر عنده الجهمية فقال: «هم شر قولاً من اليهود والنصارى، وقد أجمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله على العرش، وقالوا هم: ليس على العرش شيء»[1]. اهـ.

قول عباد بن العوام أحد أئمة الحديث بواسط قال: «كلمت بشراً المريسي وأصحابه فرأيت آخر كلامهم يقولون: ليس في السماء شيء، أرى والله أنه لا يناكحون ولا يوارثون»[2]. اهـ.

قول عبد الله بن مسلمة القعنبي: شيخ البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى

قال بيان[3] بن أحمد: كنا عند القعنبي فسمع رجلاً من الجهمية يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استولى، فقال القعنبي: «من لا يؤمن أن الرحمٰن على العرش استوى كما تقرر في قلوب العامة فهو جهمي»[4].

قال البخاري محمد بن إسماعيل في كتاب «خلق أفعال العباد» عن يزيد بن هارون مثله سواء[5] وقد تقدم. اهـ.

قول علي بن عاصم[6] شيخ الإمام أحمد رحمهما الله تعالى صح عنه أنه قال: «ما الذين قالوا: إن لله سبحانه ولداً، أكفر من الذين قالوا: إن الله سبحانه لم يتكلم». وقال: «احذروا من المريسي وأصحابه، فإن كلامهم الزندقة وأنا

---

(١) ذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (١٨)، وابن تيمية في «الدرء» (٦/ ٢٦١)، و«الفتاوى» (٥/ ١٨٤)، وابن القيم في «تهذيب السنن» (٧/ ١٦)، و«مختصر الصواعق» (٣٧٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٣٣).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١٢٦)، والخلال في «السنة» (٤/ ١١٣)، والخطيب في «تاريخه» (٧/ ٥٨)، وذكره ابن تيمية في «الحموية» (ص٢٧٣)، وفي «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٦١)، والذهبي في «العلو» (٢/ ٩٩٧).

(٣) كذا في الأصل، و«طبقات الحنابلة» (١/ ١١٩)، وفي بعض مصادر الخبر: «بنان»!.

(٤) ذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٦٥)، وعزاه لعبد العزيز القحيطي في «تصانيفه» وقال: «والمراد بالعامة: عامة أهل العلم».

(٥) سبق ذكره وتوثيقه.

(٦) كذا في الأصل! وصوابه «عاصم بن علي بن عاصم» وهو الواسطي، شيخ البخاري لا أحمد، قال أحمد: ما أقلّ خطأه، قد عُرض عليَّ بعضُ حديثه. انظر له: «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٤٧)، «تهذيب الكمال» (١٣/ ٥٠٩).

كلَّمْتُ أستاذهم فلم يُثبِتْ أن في السماء إلهاً»[١] حكاه عنه غير واحد ممن صنف في السنة، وقال يحيى [بن عاصم] بن علي بن عاصم: كنت عند أبي، فاستأذن عليه المريسي فقلت له: يا أبت مثل هذا يدخل عليك! فقال: وما له؟ فقلت: إنه يقول: إن القرآن مخلوق، ويزعم أن الله معه في الأرض... وكلاماً ذكرته، فما رأيته اشتد عليه ـ مثل ما اشتد عليه ـ قوله: إن القرآن مخلوق، وقوله: «إن الله معه في الأرض»[٢] ذكر هذين الأثرين عنه عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية». اهـ.

قول وهب بن جرير رحمه الله تعالى: صح عنه أنه قال: «إياكم ورأي جهم، فإنهم يحاولون أنه ليس في السماء شيء، وما هو إلا من وحي إبليس، وما هو إلا الكفر»[٣]، حكاه محمد بن عثمان الحافظ في «رسالته في السنة».

وقال البخاري رحمه الله تعالى في كتاب «خلق أفعال العباد»: وقال وهب بن جرير: «الجهمية الزنادقة إنما يريدون أنه ليس على العرش استوى»[٤]. اهـ.

قول عاصم بن علي: شيخ البخاري أحد الأئمة الحفاظ الثقات حدث عن شعبة وابن أبي ذئب والليث رحمهم الله تعالى قال الخطيب: «وجه المعتصم من يحزر مجلسه في جامع الرُّصافة، وكان عاصم يجلس على سطح الرَّحبة ويجلس الناس في الرحبة وما يليها، فعظُم الجمع مرة جداً حتى قال: أربع عشرة مرة حدثنا الليث بن سعد، والناس لا يسمعون لكثرتهم، فحزر المجلس فكان عشرين ومائة ألف رجل»[٥].

قال يحيى بن معين فيه: هو سيد المسلمين، قال عاصم: ناظر جهمياً فتبين

---

(١) ذكره الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٤٨)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٣/ ٥١٣)، وابن تيمية في «الحموية» (٢٧٧)، وفي «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٦١)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٦٩).

(٢) ذكره ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢١٧).

(٣) ذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (٦)، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (١٠١)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٣٩)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص١٣٧).

(٤) ذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (٦).

(٥) انظر: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٤٨) بتصرف وكذا «تهذيب الكمال» (١٣/ ٥١٣ ـ ٥١٤).

من كلامه أنه اعتقد أن ليس في السماء رب[1].

قال شيخ الإسلام: «كان الجهمية يدورون على ذلك[2] ولم يكونوا يصرحون به، لوفور السلف والأئمة وكثرة أهل السنة فلما بعد العهد وانقرض الأئمة صرح أتباعهم بما كان أولئك يشيرون إليه ويدورون حوله». قال: «وهكذا ظهرت البدع كلما طال الأمر وبعد العهد اشتد أمرها وتغلظت»[3] قال: «وأول بدعة ظهرت في الإسلام بدعة القدر والإرجاء، ثم بدعة التشيع إلى أن انتهى الأمر إلى الاتحاد والحلول وأمثالهما»[4].

قول الإمام عبد العزيز بن يحيى الكناني صاحب الشافعي رحمهما الله تعالى

له كتاب في «الرد الجهمية»، قال فيه: «باب قول الجهمية إن معنى استوى: استولى، من قول العرب: استوى الفاطمي[5] على مصر، يريدون استولى عليها، قال: فيقال له: هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه؟ فإذا قال: لا، قيل له: فمن زعم ذلك فهو كافر، فيقال له: يلزمك أن تقول: إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل السموات والأرض ثم استوى عليه بعد خلقهن، فيلزمك أن تقول: المدة التي كان العرش[6] قبل خلق السمٰوات والأرض ليس الله تعالى بمستولٍ عليه فيها» ثم ذكر كلاماً طويلاً في تقرير العلو والاحتجاج عليه.اهـ.

ذكر قول جرير بن عبد الحميد شيخ إسحاق بن راهويه وغيره من الأئمة

قال: «كلام الجهمية أوله عسل وآخره سم، وإنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء إلٰه»[7]. رواه ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية».اهـ.

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٤٨)، و«تهذيب الكمال» (١٣/ ٥١٣)، و«العلو» (٢/ ١٠٦٩)، وتقدم قريباً.

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «على هذا».

(٣) انظر: «العقيدة الأصفهانية» (ص٢٣٧) نحوه.

(٤) انظر: «العقيدة الأصفهانية» (٢٣٧).

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فلان».

(٦) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فيها».

(٧) ذكره ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٦٥)، وعزاه لابن أبي حاتم في «الرد على الجهمية»، وذكره أيضاً الذهبي في «العلو» (٢/ ٩٨٥)، و«الأربعين» (ص٩٤).

ذكر قول عبد الله بن الزبير الحميدي أحد شيوخ النُّبل، شيخ البخاري إمام أهل الحديث والفقه في وقته، وهو أول رجل افتتح به البخاري «صحيحه».

قال: «وما نطق به القرآن والحديث، مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومثل: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] وما أشبه هذا من القرآن والحديث لا نزيد فيه ولا نفسِّره، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة، ونقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] ومن زعم[(١)] غير هذا فهو معطل[(٢)] جهمي»[(٣)].

وليس مقصود السلف بأن من أنكر لفظ القرآن يكون جهمياً مبتدعاً، فإنه يكون كافراً زنديقاً، وإنما مقصودهم من أنكر معناه وحقيقته[(٤)].

قول نعيم بن حماد الخزاعي أحد شيوخ النبل شيخ البخاري.

قال في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]: معناه: لا يخفى عليه خافية بعلمه»[(٥)]، قال البخاري: سمعته يقول: «من شبَّه الله تعالى بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله تعالى به نفسه ولا رسوله ﷺ تشبيهاً»اهـ.[(٦)].

قول عبد الله بن أبي جعفر الرازي: قال صالح بن الضُّريس جعل عبد الله بن أبي جعفر الرازي يضرب قرابة له بالنعل على رأسه يرى رأي جهم، ويقول: «لا،

---

(١) من مطبوع «أصول السنة» وسقط من الأصل.

(٢) كذا في مطبوع «أصول السنة»، وفي الأصل: «مبطل»!

(٣) هو في «أصول السنة» للحميدي (٢/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧ ـ آخر «مسنده») و(ص٤٢، ط. دار ابن الأثير)، وابن منده في «التوحيد» (٣/ ٤٠٩)، وابن قدامة في «ذم التأويل» رقم (٣٩)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٧٠)، وفي «إثبات اليدين لله» رقم (٦٣)، وفي «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٤١٤)، وفي «الأربعين» رقم (٨٧)، وفي «تاريخ الإسلام» (ص٢١٣ وفيات ٢١٩)، وقال ابن تيمية في «الفتاوى» (٤/ ٦): «وثبت عن الحميدي...».

(٤) ذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٩٢)، وفي «السير» (١٠/ ٦١١)، وفي «الأربعين» (٤٨)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٢١).

(٥) هذا قول ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٢٠) قاله على إثر قول الحميدي السابق.

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٢/ ١٦٣)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٥٣٢)، والذهبي في «السير» (١٠/ ٦١٠) ـ **وصححه** ـ، وفي «العلو» (٢/ ١٠٩٣)، وذكره عبد الغني في «عقيدته» (ص١٥٧)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٩٦).

حتى يقول: الرحمٰن على العرش استوى بائن من خلقه»[1] ذكره عبد الرحمٰن بن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية».اهـ.

قول الحافظ أبي معمر القَطِيعي[2] رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر ابن أبي حاتم عنه أنه قال: «آخر كلام الجهمي أنه ليس في السماء إلٰه»[3].اهـ.

قول بشر بن الوليد وأبي يوسف رحمهما الله تعالى: روى ابن أبي حاتم قال: جاء بشر بن الوليد إلى أبي يوسف فقال له: تنهاني عن كلام بشر المريسي[4] وعلي الأحول وفلان يتكلمون، فقال: وما يقولون؟ قال: يقولون: إن الله في كل مكان، فبعث أبو يوسف، وقال: عليَّ بهم فانتهوا إليه، وقد قام[5] بشر فجيء بعَلِي الأحول والشيخ الآخَر، فنظر أبو يوسف إلى الشيخ وقال: لو أن فيك موضع أدب لأوجعتك، وأمر به إلى الحبس وضرب علي الأحول وطُوِّف به»[6] وقد استتاب أبو يوسف بشراً المريسي لما أنكر أن يكون الله فوق عرشه، وهي قصة مشهورة ذكرها عبد الرحمٰن ابن أبي حاتم وغيره، وأصحاب أبي حنيفة المتقدمون على هذا.

قال محمد بن الحسن: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن الرسول ﷺ في صفات الرب عَزَّ وَجَلَّ، من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسَّر شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن آمنوا[7] بما في الكتاب والسنة، ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق

---

(١) ذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٤٨)، وانظر له: «السنّة» للالكائي (٢/ ٣٠١، ٣٠٣).

(٢) كذا في مطبوع «العلو»، وهو الصواب، فهو إسماعيل بن إبراهيم بن معمر الهذلي، أبو معمر القطيعي من شيوخ البخاري ومسلم، توفي سنة ٢٣٦هـ، وكان من أئمة السنة، ترجمته في «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٦٦)، «تهذيب الكمال» (٣/ ١٩)، وفي الأصل: «القطعي»!.

(٣) ذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١١٠٥)، وفي «تاريخ الإسلام» (ص١٠٢ وفيات ٢٣٦).

(٤) في مطبوع «العلو»: «الكلام وبشْر المريسي».

(٥) في الأصل: «قال» والتصويب من المصادر.

(٦) ذكره ابن تيمية في «نقض التأسيس» (٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦)، والذهبي في «العلو» (٢/ ٩٩٩)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش» (٢٢٢).

(٧) في مطبوع «شرح أصول الاعتقاد»: «أفتوا»!

الجماعة؛ لأنه وصفه بصفة لا شيء»[١].

وقال محمد رحمه الله تعالى أيضاً في الأحاديث التي جاءت أن الله تعالى يهبط إلى سماء الدنيا ونحو هذا: «هذه الأحاديث قد رواها الثقات، فنحن نرويها ونؤمن بها ولا نفسرها»[٢] ذكر ذلك عنه أبو القاسم اللالكائي، وهذا تصريح منه بأن من قال بقول جهم فقد فارق جماعة المسلمين، وقد ذكر الطحاوي في اعتقاد أبي حنيفة وصاحبيه رحمهم الله تعالى ما يوافق هذا وأنهم أبرأ الناس من التعطيل والتجهم، وقال في عقيدته المعروفة: «وأنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه»[٣]اهـ.

قول سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: ذكر الثعلبي عنه في «تفسيره» قال ابن عيينة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ صعد. اهـ[٤].

قول خالد بن سليمان أبي معاذ البَلْخيّ أحد الأئمة رحمه الله تعالى.

روى عبد الرحمٰن بن أبي حاتم عنه بإسناده قال: كان جهم على معبر ترمذ، وكان فصيح اللسان لم يكن له علم ولا مجالسة أهل العلم، فكلَّمه السُّمنَية، فقالوا: صف لنا ربك الذي تعبده، فدخل البيت لا يخرج ثم خرج إليهم بعد أيام، فقال: هو هذا الهواء مع كل شيء، وفي كل شيء، ولا يخلو منه شيء، قال أبو معاذ: كذب عدو الله، إن الله في السماء على العرش، كما وصف نفسه»[٥].

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣)، وعنه الذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٠٨)، وفي «الأربعين في صفات رب العالمين» رقم (٨٣)، وابن قدامة في «ذم التأويل» رقم (١٣)، **وصححه** ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤ ـ ٥) وقال: «فانظر ـ رحمك الله ـ إلى هذا الإمام كيف حكى الإجماع في هذه المسألة ولا خير فيما خرج عن إجماعهم»، وذكره ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٢٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «العقيدة الطحاوية» (ص١٩).

(٤) لم أجده من كلام ابن عيينة، وإنما وجدته من كلام أبي عبيدة وقد سبق ذكره، ولم أظفر به في تفسير الثعلبي المسمى بـ«الكشف والبيان» في جميع المواطن التي ذكر فيها الاستواء على العرش عن ابن عيينة، وفيه (٤/ ٢٣٨) عن أبي عبيد! ويغني عنه قول ابن عيينة في تفسير الآية: «كل ما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه». انظر: «تفسير سفيان بن عيينة» (ص٢٤٨) لأحمد صالح محايري.

(٥) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٣٨٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٣٧) **وإسناده صحيح**.

وهذا صحيح عنه وأول من عُرِف عنه في هذه الأمة أنه نفى[١] أن يكون الله فوق[٢] سماواته على عرشه هو جهم بن صفوان، وقبله الجعد بن درهم، ولكن الجهم هو الذي دعا إلى هذه المقالة وقررها وعنه أُخِذَت، فروى ابن حاتم وعبد الله بن أحمد في كتابيهما في «السنة» عن شجاع بن أبي نصر أبي نعيم البلخي ـ وكان قد أدرك جهماً ـ قال:

كان لجهم صاحب يكرمه ويقدّمه على غيره، فإذا هو قد وقع به فصيح به وبُدِرَ به، وقيل له: لقد كان يكرمك، قال: إنه قد جاء منه ما لا يُحتَمل، بينما هو يقرأ طه والمصحف في حجره، فلما أتى على هذه الآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] فقال: لو وجدت السبيل إلى أن أحكّها من المصحف لفعلت، فاحتملت هذه، ثم إنه بينما هو يقرأ آية إذ قال: ما أظرف محمداً حين قالها، ثم بينما هو يقرأ ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ القصص والمصحف في حجره إذ مر بذكر موسى عليه الصلاة والسلام، فدفع المصحف بيديه ورجليه، وقال: أي شيء هذا ذكره هاهنا؟ فلم يتم ذكره»[٣].

فهذا شيخ النافين لعلوّ الربِّ على عرشه ومباينته من خلقه، وذكر ابن أبي حاتم عنه بإسناده عن الأصمعي قال: «قدمتْ امرأةُ جهم، فقال رجل عندها: الله على عرشه، فقالت: محدود على محدود، فقال الأصمعي: هي كافرة بهذه المقالة»[٤]. أما[٥] هذا الرجل وامرأته فما أَوْلاه بأن يصلى ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾. اهـ.

قول إسحاق بن راهويه إمام أهل المشرق، نظير أحمد رحمهما الله تعالى

قال حرب بن إسماعيل الكرماني صاحب أحمد: قلت لإسحاق بن راهويه:

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «إنكار».

(٢) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «في»!

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١٦٧)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٧٠) وعنه المزي في «تهذيب الكمال» (١٢/ ٣٨٢)، وابن بطة في «الإبانة» رقم (٣٢٢، ٣٢٣)، وذكره ابن القيم في «اجتماع الجيوش» (ص٢٢٤ ـ ٢٢٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠١٥) وقال شيخنا الألباني في «مختصر العلو» (ص١٦٣): «وهذا سند **صحيح**».

(٤) ذكره ابن تيمية في «الحموية» (ص٢٧٥ ـ ٢٧٦)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش» (ص٢٢٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٤١)، وفي «الأربعين» (١٢).

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فهذه المقالة إماماها».

قول الله ﷻ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] كيف تقول فيه؟ قال: «حيث ما كنت فهو أقرب إليك من حبل الوريد، وهو بائن من خلقه» ثم قال: «وأعلى كل شيء من ذلك وأثبته قول الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]»[١].

وقال الخلال في كتاب «السنة» بسنده إلى إسحاق بن راهويه قال الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] «إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كُلَّ شيء في[٢] أسفل الأرض السابعة، وفي قعور البحار ورؤوس الجبال وبطون الأودية وفي كل موضع، كما يعلم ما في السمٰوات السبع، وما دون العرش، أحاط بكل شيء علماً ولا يسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه، لا يعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره[٣].

وقال السراج: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: «دخلت يوماً على طاهر بن عبد الله وعنده منصور بن طلحة، فقال لي منصور: يا أبا يعقوب! تقول: إن الله ينزل كل ليلة، قلت له: ونؤمن به إذا أنت لا تؤمن أن الله في السماء، لا تحتاج أن تسألني، فقال طاهر: ألم أنهك عن هذا الشيخ»[٤].

ذكر قول حافظ الإسلام يحيى بن معين رحمه الله تعالى: روى ابن بطة عنه في «الإبانة» بإسناده قال: «إذا قال لك الجهمي: كيف ينزل؟ فقل: كيف يصعد؟»[٥]. اهـ.

---

(١) ذكره الدشتي في «إثبات الحد»، وابن بطة في «الإبانة» (٣/ ١٦١)، وابن تيمية في «نقض التأسيس» (١/ ٤٣٨)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١٢٢)، وفي «السير» (١١/ ٣٧٠)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٢٦).

(٢) من مطبوع «العلو»، وسقطت من الأصل.

(٣) ذكره ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٦٠)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش» (ص٢٢٦)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١٢٨) ـ وعلق عليه بقوله: «اسمعوا ويحكم إلى هذا الإمام كيف نقل الإجماع على هذه المسألة الشريفة» ـ، وذكره في «السير» (١١/ ٣٧٠) أيضاً.

(٤) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٧٥) **وصححه** الذهبي في «الأربعين» رقم (٥٩)، وفي «السير» (١١/ ٣٧٦)، وذكره ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٥٤)، وصححه في «شرح حديث النزول» (١٥٢)، وذكره ابن المحب في «الصفات» (١١٣)، والهروي في «ذم الكلام» (ص٢٦٢).

(٥) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٣/ ٢٠٦)، وذكره أبو يعلى في «إبطال التأويلات» (١/ ٥١)، =

قول الإمام حافظ أهل المشرق وشيخ الأئمة عثمان بن سعيد الدارمي كَلَّلهُ:

قال فيه أبو الفضل القرَّاب[(١)]: «ما رأيت مثل عثمان بن سعيد الدارمي ولا رأى عثمان مثل نفسه، أخذ الأدب عن ابن الأعرابي، والفقه عن البُوَيطي، والحديث عن يحيى بن معين وعلي ابن المديني»[(٢)]، وأثنى عليه أهل العلم، صاحب كتاب «الرد على الجهمية» و«النقض على بشر المريسي» وقال في كتابه: «النقض على بشر»: «وقد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله تعالى فوق عرشه فوق سمواته لا ينزل قبل يوم القيامة [العقوبة أحد من خلقه][(٣)] إلى الأرض، ولم يشكُّوا أنه ينزل يوم القيامة ليفصل بين عباده ويحاسبهم ويثيبهم وتشقق السمٰوات يومئذٍ لنزوله، وينزّل الملائكة تنزيلاً: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] كما قال الله به سبحانه ورسوله ﷺ، فلمّا لم يشكّ المسلمون أن الله لا ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة لشيء من أمور الدنيا، علموا يقيناً أن ما يأتي الناس من العقوبات إنما هو أمره وعذابه، فقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] إنما هو أمره وعذابه[(٤)]»[(٥)].

وقال: «علمه بهم [من فوق العرش][(٦)] محيط، وبصره فيهم نافذ، وهو بكماله فوق عرشه والسمٰوات، ومسافة[(٦)] بينهن[(٧)] وبينه وبين خلقه في الأرض فهو كذلك معهم، خامسهم وسادسهم، وإنما يعرف فضل الربوبية وعظم القدرة بأن الله من فوق عرشه، ومع بعد المسافة بينه وبين الأرض يعلم ما في الأرض»[(٧)]. وقال في موضع آخر من الكتاب: «والقرآن كلام الله، وصفة من

= وابن القيم في «اجتماع الجيوش» (٢٢٧ ـ ٢٢٨)، والذهبي في «العلو» (٢/١١٠٧)، وفي «الأربعين» (٥٨) وبنحوه عند اللالكائي (٧٦٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/١٥١)، وانظر: «الحموية» (٢٩٣ ـ ٢٩٤)، «شرح حديث النزول» (١٥٥).

(١) تحرف في الأصل إلى «الفرات»!

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/٣٦٣)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/١١٨٣) بتمامه، وفي «تذكرة الحفاظ» (٢/٦٢٢) القسم الأول منه.

(٣) من مطبوع «النقض على بشر المريسي»، وسقط من الأصل.

(٤) في مطبوع «النقض على بشر المريسي»: «يعني مكره من قبل قواعد بنيانهم».

(٥) انظر: «النقض على بشر المريسي» (١/٣٤٠ ـ ٣٤١) بتصرف يسير.

(٦) من مطبوع «النقض على بشر المريسي»، وسقط من الأصل.

(٧) انظر: «النقض على بشر المريسي» (١/٤٤٣).

صفاته، خرج منه كما شاء أن يخرج، والله بكلامه وعلمه وقدرته وسلطانه وجميع صفاته غير مخلوق وهو بكماله على عرشه»[١] وقال في موضع آخر وذكر حديث البراء بن عازب الطويل في شأن الروح وقبضها ونعيمها وعذابها وفيه: «**فيصعد بروحه حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء السابعة، وأعيدوه إلى الأرض**». وذكر الحديث[٢] ثم قال: «وفي قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] دلالة ظاهرة أن الله تعالى فوق السمٰوات؛ لأنه لو لم يكن فوق السماء لما عرج بالأرواح والأعمال إلى السماء، ولما غلقت أبواب السماء عن قوم وفتحت لآخرين»[٣].

وقال في موضع آخر: «وقد بلغنا أن حملة العرش حين حملوا العرش وفوقه الجبار جل جلاله في عزته وبهائه ضعفوا عن حمله واستكانوا وجثوا على ركبهم، حتى لقّنوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فاستقلوا به بقدرة الله وإرادته».

ثم ساق بإسناده عن معاوية بن صالح: «أول ما خلق الله حين كان عرشه على الماء حملة العرش. فقالوا: ربنا لمَ خلقتنا؟ فقال: خلقتكم لحمل عرشي، فقالوا: ربنا ومن يقوى على حمل عرشك، وعليه جلالك وعظمتك ووقارك؟ فقال لهم: إني خلقتكم لذلك، قال: فيقول ذلك مراراً، قال: فقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله»[٤].

وقال في موضع آخر: «ولكنا نقول: رب عظيم، وملك كبير، نور السمٰوات والأرض، وإلٰه السموات والأرض، على عرش عظيم مخلوق[٥] فوق السماء السابعة دون ما سواها من الأماكن، من لم يعرفه بذلك كان كافراً به وبعرشه»[٦].

وقال في موضع آخر في حديث حصين «**كم تعبد**»؟: «فلم ينكر النبي ﷺ على حصين[٧] إذ عرف أن إلٰه العالمين في السماء، كما قال[٨] النبي ﷺ،

---

(١) انظر: «النقض على بشر المريسي» (٢/ ٨٩٩).
(٢) سبق لفظه وتخريجه.
(٣) انظر: «الرد على الجهمية» (ص٥٨) بتصرف.
(٤) ذكره الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٢٢٩) تعليقاً.
(٥) في مطبوع «النقض على بشر المريسي»: «مخلوق عظيم».
(٦) انظر: «النقض على بشر المريسي» (١/ ٤٤١ ـ ٤٤٢).
(٧) في مطبوع «النقض على بشر المريسي»: «على الكافر».
(٨) في مطبوع «النقض على بشر المريسي»: «قاله»، والحديث مضى لفظه وتخريجه.

فحصين قبل إسلامه كان أعلم بالله الجليل من المريسي وأصحابه، مع ما ينتحلون من الإسلام، إذ ميز بين الإله الخالق الذي في السماء، وبين الآلهة والأصنام المخلوقة التي في الأرض» قال: «وقد اتفقت الكلمة من المسلمين والكافرين أن الله سبحانه في السماء وعرفوه[١] بذلك إلا المريسي[٢] وأصحابه، حتى الصبيان الذين لم يبلغوا الحنث»[٣].

وقال: «في قول رسول الله ﷺ للأمة: «**أين الله**»[٤]؟: تكذيب لمن يقول: هو في كل مكان، وأن الله لا يوصف بأين، بل يستحيل أن يقال: أين هو؟ والله فوق سماواته بائن من خلقه، فمن لم يعرفه بذلك لم يعرف إلٰهه الذي يعبده»[٥].

وكتاباه من أجل الكتب المصنفة في السنة وأنفعها، وينبغي لكل طالب سنة مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة أن يقرأ كتابيه، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوصي بهذين الكتابين أشد الوصية، ويعظمهما جداً، وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما.

قول قتيبة بن سعيد الإمام الحافظ، أحد أئمة الإسلام، وحفاظ الحديث، من شيوخ الأئمة الذين تجملوا[٦] بالحديث عنه:

قال أبو العباس السراج: سمعت قتيبة بن سعيد يقول: «هذا قول الأئمة في الإسلام والسنة والجماعة: نعرف ربنا سبحانه بأنه في السماء السابعة على عرشه، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال موسى بن هارون حدثنا قتيبة بن سعيد قال: «نعرف ربنا في السماء السابعة على عرشه، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]»[٧]. اهـ.

---

(١) في مطبوع «النقض على بشر المريسي»: «وحدوه».
(٢) في مطبوع «النقض على بشر المريسي»: «المريسي الضال».
(٣) انظر: «النقض على بشر المريسي» (١/ ٢٢٨).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) انظر: «الرد على الجهمية» للدارمي (ص٣٩) بتصرف.
(٦) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية» بالجيم، وفي الأصل: «تحملوا» بالحاء المهملة!
(٧) أخرجه أبو أحمد الحاكم في «شعار أصحاب الحديث» (ص٤٠)، وذكره قوام السنة في «الحجة» (٢/ ٤٧٥)، وابن تيمية في «الدرء» (٦/ ٢٦٠)، وابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٩٤)، وفي «اجتماع الجيوش» (ص٢٣١)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١٠٣) بتمامه، وفي «السير» (١١/ ٢٠) المقطع الأول منه.

قول عبد الوهاب[١] **الوراق أحد الأئمة الحفاظ أثنى عليه الأئمة**، وقيل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: من نسأل بعدك فقال: عبد الوهاب، وهو من شيوخ النبل.

قال عبد الوهاب ـ وقد روى حديث ابن عباس «ما بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك[٢]» ـ: «ومن زعم أن الله هاهنا فهو جهمي خبيث، إن الله فوق العرش، وعلمه محيط بالدنيا والآخر»[٣] صح ذلك عنه، حكاه عنه محمد بن عثمان في رسالته في «الفوقية» وقال: «ثقة حافظ» روى عنه أبو داود والترمذي والنسائي مات سنة خمسين ومائتين. اهـ.

قول خارجة بن مصعب رحمه الله تعالى:

قال عبد الله بن أحمد في كتاب «السنة» بسنده إلى خارجة بن مصعب يقول: «الجهمية كفار، أبلغ نسائهم أنهم طوالق، لا يحللن لهم، لا تعودوا مرضاهم، ولا تشهدوا جنائزهم، ثم تلا ﴿طه﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]»[٤].

قول إمامي أهل الحديث أبي زرعة وأبي حاتم رحمهما الله تعالى: قال عبد الرحمٰن بن أبي حاتم: سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه أئمة العلم في ذلك؟ فقالا: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار: حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً، فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، والقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق بجميع جهاته، والقدر خير، وشره من الله عَزَّوَجَلَّ، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر الصديق، ثم عمر بن

---

(١) كذا في مطبوع «العلو»، و«اجتماع الجيوش الإسلامية» وهو الصواب، وفي الأصل: «عبد الله»!

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢، ٢٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٦١٨، ٨٨٧)، والأصبهاني في «الترغيب والترهيب» رقم (٦٦٨)، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في «العرش» رقم (١٦) عن ابن عباس قوله، **وإسناده لا بأس به**، وعزاه ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٤٩) إلى أبي أحمد العسال في كتاب «المعرفة»، وقال ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٢٦٢): «موقوف وسنده جيد».

(٣) ذكره ابن تيمية في «نقض التأسيس» (ق٤١/أ)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ٢٠٣)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش» (٢٣٢)، و«الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١٠٥)، وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (٢٧).

الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب، وأن الله ﷻ على عرشه، بائن من خلقه، كما وصف نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وأنه سبحانه يُرىٰ في الآخرة، يراه أهل الجنة بأبصارهم ويسمعون كلامه كيف شاء كما شاء، والجنة حق والنار حق وهما مخلوقتان لا يفنيان أبداً، ومن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم كفراً ينقل عن الملة، ومن شك في كفره ممن يفهم ولا يجهله فهو كافر، ومن وقف في القرآن فهو جهمي(١)، ومن قال لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي»(٢).

قال أبو حاتم: «والقرآن كلام الله، وعلمه وأسماؤه وصفاته أمره ونهيه ليس بمخلوق بجهة من الجهات، ونقول: إن الله على عرشه بائن من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١](٣). ثم ذكر عن أبي زرعة رحمه الله تعالى أنه سئل عن تفسير قول تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] فغضب وقال: «تفسيرها كما تقرأ، هو على العرش استوى، وعلمه في كل مكان، ومن قال غير ذلك فعليه لعنة الله»(٤) وهذان الإمامان إماما أهل الدين وهما من نظراء الإمام (حم) و(خ) رحمهم الله تعالى. اهـ.

قول حرب الكرماني: صاحب أحمد وإسحاق رحمهم الله تعالى، وله مسائل جليلة عنهما.

قال يحيى بن عمار بسنده إلى حرب بن إسماعيل قال: «والماء فوق السماء السابعة، والعرش على الماء، والله على العرش»(٥).

---

(١) في مطبوع «أصل السنة»: «ومن وقف في القرآن جاهلاً عُلِّم، وبُدِّع ولم يُكفَّر».

(٢) انظر: «أصل السنة» لابن أبي حاتم (ص٩ ـ ١٤، ١٩ ـ ٢٠) بتصرف، و«شرح أصول الاعتقاد» (١/ ١٧٦ ـ ١٧٩)، و«فتيا في ذكر الاعتقاد» رقم (٣٠)، و«إثبات صفة العلو» (١١٠)، و«العلو» (٢/ ١٥٥)، و«السير» (١٣/ ٨٤).

(٣) ما بين المعقوفتين مكرر وهذا النص قد سبق في كلامه.

(٤) ذكره ابن تيمية في «الحموية» (٢٦٣)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٣٤)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١٥٣).

(٥) ذكره ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٣٤) وبنحوه في «نقض تأسيس الجهمية» (١/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠).

قلت: هذا لفظه في «مسائله»، وحكاه إجماعاً لأهل السنة من سائر أهل الأعصار. اهـ.

قول إمام أهل الحديث علي بن المديني شيخ البخاري، بل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

قال (خ): «علي ابن المديني سيد المسلمين» قيل له: ما قول الجماعة في الاعتقاد؟ قال: «يثبتون الكلام والرؤية، ويقولون: إن الله تعالى على العرش استوى، فقيل له: ما تقول في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾؟ [المجادلة: ٧]، فقال: اقرؤوا أول الآية يعني بالعلم ـ لأن أول الآية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1] [المجادلة: ٧]. قال[2] (خ) في كتاب «خلق أفعال العباد»: «وقال ابن المديني: «القرآن كلام الله غير مخلوق، من قال إنه مخلوق فهو كافر لا يُصلَّى خلفه»»[3].

قول سُنَيد بن داود شيخ البخاري رحمهما الله تعالى:

قال أبو حاتم الرازي عن موسى الطرسوسي[4] قال: قلت لسنيد بن داود: وهو على عرشه بائن من خلقه؟ قال: نعم، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾[5] [الزمر: ٧٥]؟. اهـ.

قول إمام أهل الإسلام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى:

قال في كتاب التوحيد في «صحيحه» باب قول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] قال أبو العالية: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ارتفع ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ خلقهن»[6]، وقال مجاهد: «﴿ٱسْتَوَىٰ﴾

---

(١) ذكره ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢٣٤ ـ ٢٣٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١٠٩) وبنحوه عند اللالكائي (٢/ ١٦٥).

(٢) في الأصل: «قاله» وهو خطأ، إذ القول السابق لا ذكر له في «خلق أفعال العباد» للبخاري.

(٣) انظر: «خلق أفعال العباد» (٣٢)، و«تاريخ بغداد» (١١/ ٤٧٢)، و«السير» (١١/ ٥٨).

(٤) ذكره ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٣٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٠٩١).

(٥) في الأصل الطرطوشي! وصوابه المثبت، ترجمته في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٣/ ٦١) لأبي الشيخ.

(٦) سبق تخريجه.

علا ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[(١)]» ثم ساق (خ) حديث زينب بنت جحش أنها كانت تفتخر على نساء رسول الله ﷺ فتقول: «زوجكنّ أهاليكنّ، وزوَّجني الله من فوق سبع سمٰوات»[(٢)].

ثم قال: «(باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]) ثم ذكر بعض أحاديث الفوقية، ثم قررها بترجمة أخرى، فقال: (باب قول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]) ثم ساق في ذلك أحاديث في إثبات صفة الفوقية، ثم قال: (باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]) ثم ذكر الأحاديث الدالة على إثبات الرؤية في الآخرة، ثم قال: (باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبأ: ٢٣]) قال (خ) رَحِمَهُ اللهُ: «ولم يقولوا[(٣)]: ماذا خلق ربكم»[(٤)]؟ ثم ذكر حديث أبي سعيد: **«فينادي بصوت»**[(٥)] وحديث عبد الله بن أنيس وعلّقه[(٦)]: **«فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان»**[(٧)] ومقصوده أن هذا النداء يستحيل أن يكون مخلوقاً، فإن المخلوق لا يقول: أنا

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) في مطبوع «صحيح البخاري»: «ولم يقل».
(٤) انظر: «صحيح البخاري» كتاب التوحيد، باب (٣٢) قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ . . .﴾.
(٥) أخرجه البخاري (٧٤٨٣).
(٦) هذا هو الصواب، وفي الأصل: «وعلقمة»!!
(٧) ذكره البخاري كتاب التوحيد، باب (٣٢) قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ . . .﴾ تعليقاً، ووصله أحمد (٣/ ٤٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٠)، وفي «التاريخ الكبير» (٧/ ١٦٩ ـ ١٧٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٤)، و«الآحاد والمثاني» (٢٠٣٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٥٨٨)، وفي «مسند الشاميين» (١٥٦)، والحارث بن أبي أسامة (١/ ١٨٨ ـ بغية الباحث)، والحاكم (٢/ ٤٣٧ و٤/ ٥٧٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٧٨، ٢٧٣)، والخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب العلم» (٣١، ٣٢)، و«الجامع لأخلاق الراوي» (١٧٤٨) من حديث عبد الله بن أنيس، وذكر حديثاً طويلاً، فيه القطعة المذكورة. وقال شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١/ ٣٠٢): «وإسناده حسن»، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٢٢٩): «إسناده صالح»، وانظر: «تغليق التعليق» (٥/ ٣٥٥).

الملك أنا الديان، فالمنادي بذلك هو الله ﷻ القائل: أنا الملك أنا الديان.اهـ.

قول مسلم بن الحجاج: يعرف قوله في السنة من سياق الأحاديث التي ذكرها ولم يتأولها ولم يذكر لها تراجم كما فعل (خ)، ولكن سردها بلا أبواب، ولكن تعرف التراجم من ذكره للشيء مع نظيره، فذكر في (كتاب الإيمان) كثيراً من أحاديث الصفات، كحديث الإتيان يوم القيامة، وما فيه من التجلي، وكلام الرب لعباده ورؤيتهم إياه[(١)] وذكر حديث الجارية[(٢)] وأحاديث النزول[(٣)] وذكر حديث: «**إن الله يمسك السمٰوات على أصبع، والأرضين على أصبع**»[(٤)] وحديث: «**يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده**»[(٥)] وأحاديث الرؤية[(٦)]، وحديث: «**حتى وضع الجبار فيها قدمه**»[(٧)]. وحديث: «**المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن، وكلتا يديه يمين**»[(٨)]. وحديث: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء**»[(٩)]؟ وغيرها من أحاديث الصفات، محتجّاً بها، وغير مؤول لها، ولو لم يكن معتقداً لمضمونها لفعل بها ما فعل المتأولون حين ذكرها[(١٠)].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٨٦) من حديث ابن مسعود.
(٥) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر.
(٦) سبق تخريجها.
(٧) أخرجه مسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس.
(٨) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٩) سبق تخريجه.
(١٠) كان الإمام مسلم سلفيَّ العقيدة، فقد تأثر بما كان عليه شيوخه من عقيدة صافية، من أمثال شيخه البخاري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبي زرعة الرازي، وغيرهم.
ولم تبق لنا إلا إشارات يسيرة في بطون الكتب عن عقيدة هذا الإمام، فذكر ـ مثلاً ـ أبو عثمان الصابوني النيسابوري (المتوفى سنة ٤٤٩هـ) في «عقيدة السلف أصحاب الحديث»، وذكر فيها «علامات أهل السنة»، وإحدى علاماتهم؛ حبهم لأئمة السنَّة، وعلمائها، وأنصارها، وأوليائها، ونقل عن قتيبة بن سعيد أسماء جماعة من هؤلاء العلماء، وأن حبَّهم علامة لأهل السنَّة، ثم قال (ص٦٧، ٦٩): «وأنا ألحقت بهؤلاء الذين ذكر قتيبة رحمه الله، أن من أحبَّهم، فهو صاحب سنة من أئمة أهل الحديث الذين بهم يقتدون وبهديهم يهتدون، ومن جملتهم وشيعتهم أنفسهم يُعدّون»، وذكر من بينهم الإمام (مسلم بن الحجاج)، وقد حُفِظَتْ لنا آثار يرويها مسلم في إثبات العلوّ لله ﷻ، وكذا كلام له في مسألة اللفظ، وغيرها مما ذكره المصنف رحمه الله، وانظر: «الغنية» (١/ ٢٦٤، ط. العراقية) للجيلاني، وكتابي «الإمام مسلم ومنهجه في الصحيح» (١/ ٤٧).

قول حماد بن هناد البُوشنجي الحافظ: أحد أئمة الحديث في وقته، ذكر شيخ الإسلام الأنصاري فقال: قرأت على أحمد بن منصور: أخبركم جدكم بسنده إلى حماد بن هناد البوشنجي(١)، قال: «هذا ما رأينا عليه أهل الأمصار وما دلَّت عليه مذاهبهم فيه، وإيضاح منهاج العلماء، [وطرق الخلفاء](٢)، وصفة السنة وأهلها أن الله فوق السماء السابعة على عرشه، بائن من خلقه، وعلمه وقدرته وسلطانه بكل مكان»(٣) [فقال: نعم](٢).

قول أبي عيسى الترمذي: قال في «جامعه» لما ذكر حديث أبي هريرة: «**لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله**»(٤) قال: «معناه(٥) لهبط على علم الله، قال: وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش كما وصف نفسه في كتابه»(٦). وقال في حديث أبي هريرة: «**إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه**»(٧): «قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا، قالوا: قد ثبتت(٨) الروايات في هذا، ونؤمن

---

(١) كذا في الأصل! وصوابه: «قال شيخ الإسلام الهروي أنا ابن العالي أنا جدي منصور حدثني أحمد بن الأشرف نا حماد بن هناد...» به، كذا في مصادر الخبر، وحماد هذا لم أجد له ترجمة!

(٢) غير موجود في مطبوع «العلو».

(٣) ذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١٢١٣)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٣٤٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٣٢٩٨)، والجورقاني في «الأباطيل» (١/ ٧٣ ـ ٧٤)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٠١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧٨) **وإسناده ضعيف**، قتادة مدلس لم يصرح بسماعه عن الحسن، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقال الترمذي: «غريب من هذا الوجه» وقال الجورقاني: «هذا حديث لا يرجع منه إلى صحة» وأعله ابن الجوزي في «الواهيات» (١/ ١٣ ـ ١٤)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٧)، وابن القيم في «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ٤١٥) وشيخنا الألباني ـ رحم الله تعالى الجميع ـ.

(٥) نسبه ابن القيم رحمه الله للترمذي من كلامه والصواب أنه من كلام غيره إذ إنه قال على إثر الحديث: «وفسَّر بعضُ أهل العلم هذا الحديث فقالوا: إنما هبط على علم الله...».

(٦) انظر: «الجامع» للترمذي (٣٢٩٨)، و«العلو» (٢/ ١١٩٤).

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٤)، والترمذي (٦٦٢)، والحاكم (٢/ ٣٣٣) وأصله عند البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

(٨) في مطبوع «جامع الترمذي»: «تثبت».

به ولا نؤوّله ولا نقول: كيف، هكذا روي عن مالك وابن عيينة وابن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث: أمّروها بلا كيف».

قال: «وهذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وأمّا الجهمية فأنكرت هذه الروايات، وقالوا: هذا تشبيه، وقد ذكر الله تعالى في غَيْر موضع من كتابه اليد والسمع والبصر، فتأولت الجهمية هذه الآيات وفسَّروها على غَيْر ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وإنما معنى اليد هٰهنا القوة، فقال[1] إسحاق بن راهويه: إنما يكون التشبيه إذا قال: يدٌ كيدي، ومثل يدي، أو سمع كسمعي فهذا تشبيه وأما إذا قال كما قال يد وسمع وبصر فلا يقول كيف، ولا يقول: مثل سمعي ولا كسمعي، فهذا لا يكون تشبيهاً عنده قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾»[2].

هذا كله كلامه، وقد ذكره عنه شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه «الفاروق» بإسناده وكذلك من تأمل تبويب ابن ماجه في (السنة والرد على الجهمية) في أول «كتابه» وتبويب أبي داود فيما ذكر في (الجهمية والقدرية) وسائر أئمة أهل الحديث علم مضمون قولهم، وأنهم كلهم على طريقة واحدة، وقول واحد، ولكن بعضهم بَوّب وترجم ولم يزد على الحديث غير التراجم والأبواب، وبعضهم زاد التقرير وإبطال قول المخالف، وبعضهم سرد الأحاديث ولم يترجم لها، وليس فيهم من أبطل حقائقها وحرّفها عن مواضعها، وسمَّى تحريفها تأويلاً، كما فعلته الجهمية، بل الذي بين أهل الحديث والجهمية من الحرب أعظم مما بين عسكر الكفر وعسكر الإسلام.

وابن ماجه[3] قال في أول «سننه»: (باب ما أنكرت الجهمية) ثم روى أحاديث الرؤية[4]، وحديث: «**أين كان ربنا**»[5]، وحديث جابر: «**بينما أهل الجنة**

(١) في مطبوع «جامع الترمذي»: «وقال». (٢) انظر: «جامع الترمذي» (٦٦٢).

(٣) في الأصل (د)! وهو خطأ، وصوابه المثبت، وكذا في المصادر، كـ«اجتماع الجيوش الإسلامية»، و«العلو» (١١٩٦/٢) وهو الصواب الموافق للنقل، والله الهادي.

(٤) انظر: «سنن ابن ماجه» (١٧٧ ـ ١٨١) وتقدم تخريج أحاديث الرؤية.

(٥) أخرجه أحمد (١١/٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢٤٦/١)، والترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢)، وابن حبان (٦/٩ ـ ٧ ـ التعليقات الحسان) من حديث أبي رزين العقيلي. **وإسناده ضعيف، وضعفه** شيخنا الألباني، وسبق تخريجه مفصلاً.

في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم»[١]، وحديث الأوعال الذي فيه: «والعرش فوق ذلك والله فوق العرش»[٢] وحديث: «إن الله ليضحك إلى ثلاثة»[٣]. وغيرها من الأحاديث. اهـ.

قول الحافظ أبي بكر الآجري، إمام عصره في الحديث والفقه:

قال في كتابه «الشريعة»[٤]: (باب التحذير من مذهب الحلولية): «الذي[٥] يذهب إليه أهل العلم أن الله على عرشه فوق سمٰواته، وعلمُهُ محيط بكل شيء قد أحاط بجميع ما خلق في السموات العلى، وبجميع ما خلق في سبع أرضين، تُرفع إليه أعمال العباد، فإن قال قائل: فما معنى قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]؟ قيل له: عِلمه معهم، والله ﷻ على عرشه، وعلمه محيط بهم، كذا فسَّره أهل العلم، والآية تدل[٦] أولها وآخرها على أنه العِلم وهو على عرشه، هذا قول المسلمين»[٧]. اهـ.

قول الحافظ أبي الشيخ عبيد الله بن محمد بن حيان الأصبهاني:

قال في كتاب «العظمة»: «ذكر عرش الرب تبارك وتعالى وكرسيه وعظمة[٨] خلقهما، وعلو الرب جل جلاله فوق عرشه»[٩]. ثم ساق كثيراً من أحاديث هذا الباب بإسناده.

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٠٠)، وأحمد (٣/ ٨٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٩)، وأبو يعلى (١٠٠٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٧٢)، وأحمد بن منيع ـ كما في «مصباح الزجاجة» (١/ ٨٧) وقال: «هذا إسناد فيه مقال» ـ من حديث أبي سعيد الخدري رفعه.

وإسناد ضعيف، فيه مجالد بن سعيد.

نعم، أخرجه بنحوه البزار (٥/ ٧ ـ زوائده)، ولكن فيه محمد بن أبي ليلى، وفيه كلام كثير؛ لسوء حفظه لا لِكذبه. قاله الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٥٦) وفاته الإعلال بعطية العوفي! وفيه مخالفة. فالحديث لأبي الوداك عن أبي سعيد، ومداره من رواية مجالد عن أبي الوداك.

(٤) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وهو الصواب، وفي الأصل: «الشريف»!

(٥) في مطبوع «الشريعة»: «والذي». (٦) في مطبوع «الشريعة»: «يدل».

(٧) انظر: «الشريعة» (٣/ ١٠٧٣ ـ ١٠٧٦) بتصرف.

(٨) في مطبوع «العظمة»: «وعظم». (٩) انظر: «العظمة» (٢/ ٥٤٣).

قول الحافظ زكريا بن يحيى الساجي إمام أهل البصرة:

قال أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أبو الحسن أحمد بن زكريا بن يحيى الساجي قال: قال أبي: «القول في السنة التي رأيتُ عليها أصحابنا أهل الحديث الذين لقيناهم: إن الله تعالى على عرشه في سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، . . .»(١) ثم ذكر بقية الاعتقاد، ذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في «طبقات الفقهاء» وقال: «أخذ عن الربيع والمزني، وله كتاب «اختلاف الفقهاء» وكتاب «علل الحديث» وهو شيخ أبي الحسن الأشعري في الفقه والحديث»(٢).

ذكر ما حكاه أبو نصر السِّجْزي عن أهل الحديث:

قال: «وأئمتنا كالثوري ومالك وابن عيينة وحماد بن زيد والفضيل وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله فوق العرش بذاته، وأن علمه بكل مكان»(٣).

قول الإمام أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، إمام أهل الحديث والفقه في وقته:

قال في رسالته المشهورة في «السنة»: «وإن الله فوق سماواته(٤) على عرشه [بائن من خلقه]»(٥) ثم ساق بإسناده عن ابن المبارك أنه قال: نعرف ربنا تبارك وتعالى بأنه فوق سبع سماواته على عرشه، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت

---

(١) ذكره ابن تيمية في «نقض التأسيس» (٢/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش» (٢٤٥)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٢٠٣).

(٢) قاله ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٢٩٩) عن كتاب «اختلاف الفقهاء»: «هو عندي في مجلد ضخم» وقال الذهبي في «السير» (١٤/ ١٩٧) عن كتاب «العلل»: «يدل على تبحُّره وحفظه» وما سبق عند الشيرازي في «طبقات الفقهاء» (ص١٠٤ ـ تحقيق إحسان عباس).

(٣) انظر: «الرد على من أنكر الحرف والصوت» للسجزي (ص١٢٦ ـ ١٢٧)، وذكره ابن تيمية في «درء التعارض» (٦/ ٢٥٠)، و«نقض التأسيس» (٢/ ٣٨، ٤١٦ ـ ٤١٧، ٤٤٦)، وابن القيم في «الصواعق» (٤/ ١٢٨٤)، و«مختصره» (ص٣٧٥)، والذهبي في «السير» (١/ ٦٥٦)، وفي «العلو» (٢/ ١٣٢١)، وقال: «قلت: هذا الذي نقله عنهم مشهور محفوظ، سوى كلمة (بذاته)، فإنها من كيسه، نسبها إليهم بالمعنى؛ ليفرّق بين العرش وبين ما عداه من الأمكنة». قال أبو عبيدة: انظر ما قدمناه عنها (ص١٥٣).

(٤) في مطبوع «عقيدة السلف»: «سبع سماوات».

(٥) غير موجود في مطبوع «عقيدة السلف».

الجهمية أنه ههنا في[(١)] الأرض»[(٢)]. ثم قال بسنده إلى ابن خزيمة قال: «من لم يقر بأن الله على عرشه[(٣)] فوق سبع سمواته فهو كافر بربه حلال الدم يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وألقي على بعض المزابل حتى لا يتأذى به المسلمون ولا المعاهدون بنتن رائحة جيفته، وكان ماله فيئاً، ولا يرثه أحد من المسلمين؛ إذ المسلم لا يرث الكافر ولا الكافر يرث المسلم»[(٤)]. اهـ.

قول عبد الله بن مسعود: قال (خ): في كتاب «خلق أفعال العباد» قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤] قال: «العرش على الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه»[(٥)]. اهـ.

قول مجاهد وأبي العالية: روى البيهقي من طريق شبل عن أبي نُجَيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] قال: «بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، فما زال يقرب موسى حتى صار بينه وبينه حجاب، فلما رأى مكانه، وسمع صريف القلم، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾»[(٦)]. وقال (خ) في «صحيحه»: قال أبو العالية: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: ارتفع»[(٧)]، وقال مجاهد: «﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: علا على العرش»[(٨)]، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩] قال: «هم في هذه الأمة يتراكبون كما تتراكب الحُمر والأنعام في الطرق، ولا يستحيون في الأرض، ولا يخافون الله في السماء»[(٩)] رواه ابن الهيثم بن خلف الدوري في كتاب «تحريم اللواط». اهـ.

---

(١) في مطبوع «عقيدة السلف»: «إلى». (٢) سبق تخريجه.

(٣) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف»: «قد استوى».

(٤) انظر: «عقيدة السلف» (ص٣٦، ٤٠ ـ ٤١) بتصرف يسير، وذكر الشطر الأول منه الذهبي في «العلو» (١٣١٧/٢)، وكلام ابن خزيمة تقدم مع توثيقه، وانظر ـ غير مأمور ـ: «طبقات الشافعية الكبرى» (٢٨٥/٤) حيث أورد ابن السبكي وصية للصابوني وفيها معتقده.

(٥) سبق تخريجه. (٦) سبق تخريجه.

(٧) سبق تخريجه. (٨) سبق تخريجه.

(٩) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٥٧١/١٥)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٠/ ٩٧)، وعزاه لعبد بن حميد.

قول قتادة: روى عثمان الدارمي عنه في كتاب «النقض»: «**قالت بنو** إسرائيل: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض، فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك؟ قال: إذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم، وإذا غضبت عليكم استعملت عليكم شراركم»[1].

قول سعيد بن جبير: روي عنه من طرق قال: «قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل، فقال الملك: ليرسلنَّ الله علينا السماء أو لنؤذينَّه، فقال جلساؤه: فكيف تقدر وهو في السماء؟ فقال: أقتل أولياءه، فأرسل الله عليهم السماء»[2].

قول الحسن البصري: ذكر الشيخ موفَّق الدين بن قدامة المقدسي في كتابه «إثبات صفة العلو» عنه بإسناد صحيح قال: «سمع يونس ﷺ تسبيح الحصا والحيتان فجعل يسبح، وكان يقول في دعائه: «يا سيدي! في السماء مسكنك، وفي الأرض قدرتك وعجائبك، إلٰهي في الظلمات الثلاث حبستني». فلما كان تمام الأربعين وأصابه الغم ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]»[3]. اهـ.

قول بشر بن عمر شيخ إسحاق، عن جملة ممن لقيهم من المفسرين:

قال إسحاق بن راهويه: أخبرنا بشر بن عمر قال: «سمعت غير واحد من المفسرين، يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾: ارتفع»[4]. اهـ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨٢) ومن طريقه ابن قدامة في «إثبات العلو» رقم (٦١)، وفي **إسناده محمد بن حميد الرازي ضعيف**، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٨٦٩)، و«السير» (٤/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه ابن قدامة في «العلو» (٥٩)، وفي إسناده أبو حذيفة إسحاق بن بشر بن محمد الهاشمي مولاهم، قال ابن المديني وابن أبي شيبة: كذاب، وقال الدرقطني: متروك. انظر: «الميزان» (١/ ١٨٤) ومع هذا فقد قال الذهبي في «الأربعين» (ص٩٢): «إسناده صحيح»! مع أنه قال في «العلو» (١/ ٥٥٤) على إثره: «**أبو حذيفة كذاب**» وهذا هو الصواب.

(٤) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٣٩٧)، وعزاه البوصيري في «إتحاف المهرة» رقم (٣٤٠)، وابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٢٩٩) رقم (٣٠٢٨) إلى إسحاق في «مسنده».

قول عباس القمي: وإن لم يكن من المشهورين بالتفسير، روى ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» بإسناد صحيح عنه قال: بلغني أن داود كان يقول في دعائه: «اللهم أنت ربي تعاليت فوق عرشك، وجعلت خشيتك على مَن في السموات والأرض»[1]. اهـ.

قول محمد بن إسحاق الإمام في الحديث والتفسير والمغازي:

قال: «بعث الله ملكاً من الملائكة إلى بختنصر قال: هل تعلم يا عدو الله كم بين السماء والأرض؟ قال: لا، قال: بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وغلظها مثل ذلك، وذكر الحديث، إلى أن ذكر حملة العرش قال: وفوقهم العرش عليه ملك الملوك تبارك وتعالى، أي عدو الله! فأنت تطلع إلى ذلك، ثم بعث الله عليه البعوضة؛ فقتلته»[2]. رواه أبو الشيخ في كتاب «العظمة» بإسناد جيد إلى ابن إسحاق. اهـ.

قول أبي عبد الله القرطبي المالكي: صاحب «التفسير» المشهور قال في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾: «هذه مسألة الاستواء، وللعلماء فيها كلام» وذكر قول المتكلمين الذين يقولون: إذا وجب تنزيه الباري عن الحيز فمن ضرورة ذلك تنزيهه عن الجهة، فليس بجهة فوق عندهم؛ لما يلزم من الحيز والمكان من الحركة والسكون والتغيير والحدوث، قال: «هذا قول المتكلمين»، ثم قال: «وقد كان السلف الأوّل لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والعامة[3] بإثباتها لله كما نطق كتابه وأخبرت به رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة[4]، وإنما جهلوا كيفية الاستواء،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «العرش» (٢٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ١٠٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٨٠)، وزاد نسبته لأحمد في «الزهد».
وذكره الذهبي في «العرش» (٢/ ٢١٤) **وصححه**.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣/ ١٠٥٤)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ٩٧٩) وقال: «كذا قال بخت نصّر، والمحفوظ أن صاحب القصة النمرود»، فتجويد ابن القيم إسناده في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٦٢) فيه ما فيه! لا أن تقييده بقوله: «إلى ابن إسحاق» من دقّته المعتادة رحمه الله تعالى.

(٣) في مطبوع «تفسير القرطبي»: «والكافة».

(٤) بعدها في مطبوع «تفسير القرطبي»: «وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته».

فإنه لا تعلم حقيقته كما قال مالك[١]: الاستواء معلوم ـ، يعني في اللغة ـ والكَيْف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة»[٢]. هذا لفظه. اهـ.

أقوال أئمة اللغة العربية الذين يحتج بقولهم فيها:

ذكر قول أبي عبيدة معمر بن المثنى:

ذكر البغوي عنه في «معالم التنزيل» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩٠] «قال أبو عبيدة: صعد» وحكاه عنه (ع) عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩][٣].

قول يحيى بن زياد الفراء إمام أهل الكوفة:

قال في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] «أي: صعد؛ قاله ابن عباس» قال: «فهو كقول الرجل كان قاعداً فاستوى قائماً، وكان قائماً فاستوى قاعداً»[٤] ذكره البيهقي عنه في «الأسماء والصفات» قلت: مراد الفراء اعتدال القائم والقاعد في صعوده على الأرض. اهـ.

قول أبي العباس ثعلب: روى الدارقطني عن إسحاق الكاذّي[٥] قال: سمعت أبا العباس ثعلباً يقول: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا: واستوى الوجه: اتصل، واستوى الفم: امتلأ، واستوى زيد وعمرو: تشابها في فعلهما[٦]، هذا الذي نعرف من كلام العرب»[٧]. اهـ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٢١٩) وكلامه في تفسير [الأعراف: ٥٤].

(فائدة مهمة): ذكر القرطبي في «التذكرة» (١/ ٢٣٦، ط. المنهاج) مباحثة مع بعض القضاة النافين لـ(العلو)، واحتج عليه بكلام ابن عبد البر في الاستواء، فانظره، فإنه مفيد، ويؤكد لك صحة معتقد القرطبي في الاستواء، والله الموفق.

(٣) سبق ذكره.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٥)، «الأسماء والصفات» (٢/ ٣١٠) للبيهقي.

(٥) في الأصل: «الكلابي»! وصوابه المثبت وهو إسحاق بن أحمد بن محمد أبو الحسين الكاذي، نسبة إلى (كاذة) قرية من قرى بغداد، قال الخطيب: كان ثقة. انظر: «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٩٩).

(٦) كذا في مصادر التخريج، وفي الأصل: «تشابها إلى السماء، أقبل»!

(٧) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٠٠)، وذكره الذهبي في «العلو» =

قول أبي عبد الله محمد بن الأعرابي:

قال ابن عرفة(١) في كتاب «الرد على الجهمية»: حدثنا داود بن علي قال: كنا عند ابن الأعرابي فأتاه رجل، فقال: ما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾؟ [طه: ٥] قال: «هو على عرشه كما أخبر»، فقال: يا أبا عبد الله إنما معناه: استولى، فقال: «اسكت، لا يقال: استولى على الشيء ويكون له مصادفاً(٢) إلا إذا غلب أحدهما(٣)، قيل: استولى، كما قال النابغة(٤):

إلا لِمِثْلِكَ أوْ مَن أنتَ سابِقُهُ ... سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأمَدِ»(٥)

قال محمد بن النضر: سمعت ابن الأعرابي صاحب اللغة يقول: أرادني ابن أبي داود أن أطلب له في بعض لغات العرب ومعانيها ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]؛ بمعنى: استولى، فقلت له: «والله ما يكون هذا ولا وجدته»(٦).

قول الخليل بن أحمد شيخ سيبويه: ذكر أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد» قال الخليل بن أحمد: «استوى إلى السماء: ارتفع إلى السماء»(٧). اهـ.

قول إبراهيم بن محمد بن عرفة النحوي المعروف بنفطويه: له كتاب في «الرد على الجهمية» أنكر فيه أن يكون استوى بمعنى استولى، وحكى فيه عن ابن

= (٢/ ١٢٢٧)، و«الأربعين» رقم (٥). ونحوه في «تهذيب اللغة» (١٣/ ١٢٥) للأزهري، و«لسان العرب» (١٤/ ٤١٤).

(١) كذا في الأصل! وعزاه ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٦٥) لنفطويه في «الرد على الجهمية»، وهو من طريقه في المصادر الآتية، فـ(ابن عرفة) هذا هو نفطويه، وانظر: «العلو» للذهبي (٢/ ١١٣٢، ١٢٣٩).

(٢) في مطبوع «العلو»: «حتى يكون له فيه مضاد».

(٣) في مطبوع «العلو»: «فأيهما غلب».

(٤) وهو الذبياني. انظر: «ديوانه» (ص٥٣)، و«لسان العرب» (١٥/ ٤١٣ ـ ولي)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٢٥٠ ـ ولي).

(٥) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٣٩٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٨٤)، وابن قدامة في «إثبات العلو» رقم (١٠٥)، وذكره البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣١٤)، والقرطبي في «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» (٢/ ٢٣٣)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١١٣٢)، و«الأربعين» رقم (٧).

(٦) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٣/ ١٦٧)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٣٩٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٨٣)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١١٣٠).

(٧) سبق ذكره.

الأعرابي ما قدمنا حكايته عنه، ثم قال: وسمعت داود بن علي يقول: كان المريسي يقول سبحان ربي الأسفل، وهذا جعل من قائله ورد لنص الكتاب إذ يقول الله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦][١] ورَحِمَهُ اللهُ، لقد ليَّن القول في المريسي صاحب هذا التسبيح، لقد كان جديراً بما هو أليق به من التجهم[٢].

أقوال الزهاد والصوفية أهل الاتباع وسلفهم:

قول ثابت البناني شيخ الزهاد:

قال محمد بن عثمان في «رسالته»: صح عنه أنه قال: «كان داود يطيل الصلاة ثم يركع، ثم يرفع رأسه إلى السماء، ثم يقول: إليك رفعت رأسي نظر العبيد إلى أربابها، يا ساكن السماء»[٣]. ورواه اللالكائي بإسناد صحيح عنه، ورواه الإمام «حم» أيضاً في كتاب «الزهد»، فهذا الرفع إن كان في الصلاة فهو منسوخ في شرعنا، وإن كان بعد الصلاة؛ فهو جائز كرفع اليدين في الدعاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ. اهـ.

قول الفضيل بن عياض: قال الأثرم في كتاب «السنة» بسنده إلى الفضيل بن عياض قال: «ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف؛ لأن الله وصف نفسه فأبلغ، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] فلا صفة أبلغ مما وصف الله به نفسه، وكذا النزول والضحك والمباهاة والاطلاع، كما شاء أن ينزل، وكما شاء أن يباهي، وكما شاء أن يطلع، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهم كيف وكيف، وإذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب ينزل[٤] عن مكانه، فقل أنت: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء». وقد ذكر هذا الكلام الأخير عن الفضيل (غ) في كتاب

---

(١) ذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١٢٣٩)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الجهل».

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (١/ ١٤٠)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٠٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢٧)، وابن قدامة في «إثبات العلو» رقم (٥٨)، والذهبي في «العلو» (١/ ٥٥٢) وقال: «**إسناده صالح**» وصححه الذهبي في «الأربعين» (ص٩٣)، وابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية».

(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «يزول».

«خلق الأفعال» فقال: وقال الفضيل بن عياض: «إذا قال لك الجهمي...»[١] (فذكره) **قول يحيى بن معاذ الرازي** قال: «الله تعالى على العرش، بائن من خلقه، قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ولا يشك في هذه المقالة إلا جهمي ردئ ضليل، وهالك مرتاب، [يقول][٢]: يمزج الله بخلقه، ويخلط الذات بالأقذار والأنتان»[٣].

قول عطاء السلمي:[٤] ثبت أنه كان لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله ﷻ[٥]، ومن هذا نهي النبي ﷺ المصلي عن رفع بصره إلى السماء[٦]، تأدُّباً مع الله ﷻ وإطراقاً بين يديه وإجلالاً له، كما يقف العبيد بين يدي الملوك، ولا يرفعون رؤوسهم إليهم إجلالاً لهم، وإذا ضم هذا إلى رفع الأيدي في الرغبات والرهبات، وتوجّه القلوب إلى العلو، دون اليمنة واليسرة والخلف والأمام، أفاد العلم بأن هذا فطرة الله التي فطر الناس عليها. اهـ.

قول أبي عبيدة الخواص:[٧] ذكر أبو نعيم وابن الجوزي عنه: «أنه مكث كذا وكذا سنة، لم يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله»[٨]. اهـ.

قول ذي النون المصري: روى أبو الشيخ في كتاب «العظمة» بإسناده عنه قال: «أشرقت لنوره السموات، وأنار بوجهه الظلمات، وحجب جلاله عن العيون، وناجاه على عرشه ألسنة الصدور»[٩].

---

(١) انظر: «خلق أفعال العباد» (٦١).

(٢) غير موجود في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية».

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٩).

(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «السَّليمي».

(٥) انظر: «الحلية» (٦/ ٢٢١)، وذكره أبو السعادات ابن الأثير في «المختار من مناقب الأخيار» (٣/ ٥٧٢).

(٦) انظرها في كتابي «القول المبين» (ص١١٠ ـ ١١١).

(٧) قال أبو السعادات ابن الأثير في «المختار من مناقب الأخيار» (٣/ ٣٦٣): «اشتهر بأبي عبيدة وإنما هو أبو عتبة».

(٨) وانظر: «صفة الصفوة» (٤/ ٢٧٦)، «المختار من مناقب الأخيار» (٣/ ٣٦٥) وهو ساقط من مطبوع «الحلية» (٨/ ٢٨٢)..

(٩) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١/ ٣٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٤٩)، وذكره الذهبي في «العلو» (٢/ ١١٣٩)، وفي «العرش» (٢/ ٣١٨ ـ ٣١٩)، والسيوطي في «المكنون في مناقب ذي النون» (ص١٨٧)، وانظر مدح معتقده في: «الاستقامة» (١/ ١٨٨) لابن تيمية.

قول الحارث بن أسد المحاسبي: قال: «وأما قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٦١] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٢] فهذه وغيرها مثل قوله: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] توجب أنه فوق العرش، فوق الأشياء كلها متنزِّه عن الدخول في خلقه، لا يخفى عليه منهم خافية؛ لأنه أبان في هذه الآيات أنه أراد به نفسه(١) فوق عباده، لأنه قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: ١٦]؛ يعني: فوق العرش، والعرش على السماء؛ لأن من كان فوق كل شيء على السماء في السماء، وقد قال: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة: ٢] أي: على الأرض لا يريد الدخول في جوفها». اهـ.

قول أبي جعفر الهَمذَاني(٢) الصوفي: ذكر محمد بن طاهر المقدسي محدث الصوفية في كتابه عنه أنه حضر مجلس أبي المعالي الجويني، وهو يقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه، وكلاماً من هذا المعنى، فقال: يا شيخ دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه وقال: «حيّرني الهمذاني حيّرني الهمذاني»(٣). اهـ.

قول الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني شيخ الصوفية في أواخر المائة الرابعة: قال في «رسالته»: «أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين». قال فيها: «وإن الله استوى على عرشه بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تأويل، والاستواء معقول، والكيف مجهول، وإنه ﷻ بائن

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «بنفسه».

(٢) في الأصل: «الهمداني» بدال مهملة! وذلك في جميع المواطن.

(٣) أخرجه الذهبي في «السير» (١٨/ ٤٧٧)، والسبكي في «طبقات الشافعية» (٥/ ١٩٠)، وذكره ابن تيمية في «الاستقامة» (١/ ١٦٧)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٦١)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٣٤٧)، و«السير» (١٨/ ٤٧٥ و٢٠/ ١٠٢)، و«تاريخ الإسلام» (٢٣٨ - وفيات ٥٣١).

من خلقه، والخلق بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنه الفرد البائن من الخلق، الواحد الغني عن الخلق، وأن الله سميع بصير عليم خبير يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء، فيقول: «هل من داع فأستجيب له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»[1]، ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال»[2]. اهـ.

قول الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين عبد القادر الجيلاني: قال في كتاب «تحفة المتقين وسبيل العارفين» في (باب اختلاف المذاهب في صفة الله ﷻ وفي ذكر اختلاف الناس في الوقف عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]) إلى أن قال: «والله تعالى بذاته على العرش، علمه محيط بكل مكان، والوقف عند أهل الحق على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وقد رُوِيَ ذلك عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على[3] العرش، ويعلم ما في السموات والأرض» إلى أن قال: «ووقف جماعة من منكري استواء الرب ﷻ على قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [طه: ٥] وابتدؤوا بقوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [طه: ٦] يريدون بذلك نفي الاستواء الذي وصف به نفسه، وهذا خطأ منهم لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته».

وقال في كتابه «الغنية»: «أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار، فهو أن تعرف وتتيقن أن الله واحد أحد». إلى أن قال: «وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش، محتوٍ على المُلْك، محيط علمه بالأشياء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥]، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال: إنه في السماء على العرش استوى، قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]» وساق آيات وأحاديث،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه قوّام السنة الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٣)، وذكره ابن تيمية في «الاستقامة» (١/ ١٦٨)، و«الدرء» (٦/ ٢٥٦)، وابن القيم في «الصواعق» (٤/ ١٢٨٩)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٣٠٨).

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فوق».

ثم قال: «وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش». ثم قال: «وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف» هذا نص كلامه في «الغنية»[(١)] . اهـ.

قول شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله الأنصاري: صاحب كتاب «منازل السائرين» و«الفاروق» و«ذم الكلام» وغيره، صرح في كتابه بلفظ الذات في العلو وأنه استوى بذاته على عرشه، قال: «ولم تزل أئمة السلف تصرح بذلك»[(٢)] ومن أراد معرفة صلابته[(٣)] في السنة والإثبات فليطالع كتابيه «الفاروق» و«ذم الكلام» .اهـ.

قول شيخ الصوفية والمحدثين أبي نعيم صاحب كتاب «حلية الأولياء»: قال في عقيدته: «وإن الله سميع بصير عليم خبير، يتكلم ويرضى ويسخط ويضحك ويعجب، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكاً، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء، فيقول: «هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»[(٤)] . ونزول الرب تعالى إلى سماء الدنيا بلا كيف

---

(١) انظر: «الغنية» (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، وانظر: «العلو» (٢/ ١٣٧٠).
(ملاحظة مهمة) أحسن طبعات «الغنية»، الطبعة التي عزوت إليها، وهي في ثلاثة مجلدات، ومطبوعة في العراق، وناقص منها سطور مهمة تخص ذم الرافضة، فتنبه لذلك تولى الله هداك.

(٢) انظر: «الأربعين» له (باب الدليل على أنه تعالى في السماء) (ص٥٣)، و(باب الدليل على أنه ﷻ على العرش) (ص٥٥)، ونقل كلامه في العلو جمع، منهم ابن تيمية في «نقض التأسيس» (٢/ ٥٣٠)، والذهبي في «السير» (١٨/ ٥١٤).

(٣) هدد بالقتل مرات ليقصر عن مبالغته في إثبات الصفات، وليكف عن مخالفيه من علماء الكلام، فلم يرعوِ لتهديدهم، ولا خاف من وعيدهم، قاله الذهبي في «العلو» (٢/ ١٣٥١) ولمحمد سعيد الأفغاني كتاب مطبوع بعنوان «شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي مبادؤه وآراؤه الكلامية»، وانظر: «السير» (١٨/ ٥٠٣)، وفيه عنه: «كان سيفاً مسلولاً على المتكلمين»، و«كان جذعاً في أعين المتكلمين وسيفاً مسلولاً على المخالفين، وطوداً في السنة لا تزعزعه الرياح»، و«ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٥٠) وكتابه «ذم الكلام» مطبوع، و«الفاروق» فيه أحاديث باطلة يجب بيانها وهتكها. انظر: «السير» (١٨/ ٥٠٩، ٥١٤)، و«منازل السائرين» مطبوع في التصوف وشرحه ابن القيم في «مدارج السالكين»، قال الذهبي: «فيه أشياء مطربة، وفيه أشياء مشكلة»، وقال ابن تيمية عنه: «كان في القدر على رأي الجهمية»، وراجع «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٤٢ ـ ٣٥٨).

(٤) سبق تخريجه.

ولا تشبيه ولا تأويل، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال، وسائر الصفوة العارفين على هذا». ثم قال: «وإن الله استوى بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، فالاستواء معقول والكيف مجهول، وإنه سبحانه بائن من خلقه بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنه البائن الفرد من الخلق والواحد الغني عن الخلق»، وقال أيضاً: «طريقنا طريق السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة» وساق ذكر اعتقادهم، ثم قال: «ومما اعتقدوه أن الله في سمائه دون أرضه»[1] وساق بقيته. اهـ.

أقوال أئمة الكلام من أهل الإثبات المخالفين للجهمية والمعتزلة والمعطلة:

قول الإمام أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب إمام الطائفة، كان من أعظم أهل الإثبات للصفات والفوقية وعلو الله على عرشه، منكراً لقول الجهمية، وهو أول من عُرف عنه إنكار قيام الأفعال الاختيارية بذات الرب تعالى، وأن القرآن معنى قائم بالذات، وهو أربع معانٍ، ونصر طريقته أبو العباس القلانسي، وأبو الحسن الأشعري، وخالفه في بعض الأشياء، ولكنه على طريقته في إثبات الصفات والفوقية وعلو الله على عرشه، كما سيأتي حكاية كلامه بألفاظه.

قال ابن كُلّاب في بعض كتبه: «وأخرج من الأثر والنظر من قال: إن الله سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه» حكاه عنه شيخ الإسلام في عامة كتبه[2]، وحكى عنه أبو الحسن الأشعري أنه كان يقول: «إن الله مستوٍ على عرشه كما قال: وإنه فوق كل شيء» هذا لفظ حكاية الأشعري عنه، وحكى عنه أبو بكر بن فورك فيما جمعه من مقالاته في كتاب «المجرد»: «وأخرج من النظر والخبر قول من قال: لا هو في العالم ولا خارجه، فنفاه نفياً مستوياً؛ لأنه لو قيل له: صِفْهُ بالعدم، ما قدر أن يقول أكثر من هذا، وردُّ أخبار الله نصاً، وقال في ذلك ما لا يجوز في نص ولا معقول، وزعم أن هذا هو التوحيد الخالص، والنفي الخالص عندهم هو الإثبات الخالص، وهم عند أنفسهم قياسيون».

---

(١) ذكره ابن تيمية في «الحموية» (٣٠٥ ـ ٣٠٦)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ١٩٠ ـ ١٩١)، و«درء التعارض» (٦/ ٢٥٢)، وابن القيم في «الصواعق» (٤/ ١٢٨٦)، و«تهذيب السنن» (٧/ ١١٦)، والذهبي في «العلو» (٢/ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦)، والسفاريني في «لوامع الأنوار» (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٦/ ١١٩)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ٣١٧).

قال: «وإن قالوا: هذا إفصاح منكم بخلو الأماكن منه وانفراد العرش به، قيل: إن كنتم تعنون خلو الأماكن من تدبيره وأنه غير عالم بها فلا، وإن كنتم، تريدون خلوه من استوائه عليها كما استوى على العرش فنحن لا نحتشم أن نقول: استوى الله على العرش، ونحتشم أن نقول: استوى على الأرض، واستوى على الجدار، وفي صدر البيت.

قال ابن كلاب: يقال لهم أهو فوق ما خلق؟ فإن قالوا: نعم، قيل لهم: ما تعنون بقولكم فوق ما خلق؟ فإن قالوا: بالقدرة والعزة، قيل لهم: ليس هذا سؤالنا، وإن قالوا: المسألة خطأ، قيل لهم: أفليس هو فوق؟ فإن قالوا: نعم، ليس هو فوق، قيل لهم: وليس هو تحت؟ فإن قالوا: لا فوق ولا تحت، أعدموه؛ لأن ما كان لا تحت ولا فوق عدم، وإن قالوا: هو تحت وهو فوق، قيل لهم: فيلزم أن يكون تحت وفوق» ثم بسط الكلام في استحالة نفي المباينة والمماسة عنه بالعقل، وأن ذلك يلحقه بالعدم المحض.

ثم قال: «ورسول الله ﷺ وهو صفوة الله من خلقه وخيرته من بريته أعلمهم[1] بالأين واستصوب قول القائل: إنه في السماء، وشهد[2] بالإيمان عند ذلك، وجهم بن صفوان وأصحابه لا يجيزون الأين بزعمهم ويحيلون القول به» قال: «ولو كان خطأ؛ لكان رسول الله ﷺ أحق بالإنكار له، وكان ينبغي أن يقول لها: لا تقولي ذلك فتوهمي أنه محدود، وأنه في مكان دون مكان، ولكن قولي: إنه في كل مكان؛ لأنه هو الصواب دون ما قُلْتِ، كلا؛ فلقد أجازه رسول الله ﷺ مع علمه بما فيه، وأنه من الإيمان، بل الأمر الذي يجب به الإيمان، لقائله ومن أجله شهد لها بالإيمان حين قالته، وكيف يكون الحق في خلاف ذلك، والكتاب ناطق بذلك وشاهد له؟ ولو لم يشهد لصحة مذهب الجماعة في هذا خاصة إلا ما ذكرناه من هذه الأمور، لكان فيه ما يكفي، كيف وقد غُرِس في بنية[3] الفطرة ومعارف الأميين من ذلك ما لا شيء أبين منه ولا أوكد؛ لأنك لا تسأل أحداً من الناس عربياً ولا عجمياً ولا مؤمناً ولا كافراً فتقول: أين ربك؟ إلا قال: في

---

(١) بعدها في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «جميعاً به يجني السؤال».

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وشهد له».

(٣) كذا في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي الأصل: «نيته»!

السماء إن[١] أفصح، أو أومأ بيده أو أشار بطَرْفه إن كان لا يُفصح، ولا يشير إلى غير ذلك من أرض ولا سهل ولا جبل، ولا رأينا أحداً إذا عَنَّ له دعاء إلا رافعاً يديه إلى السماء، ولا وجدنا أحداً غير الجهمية يُسأل عن ربه فيقول: في كل مكان كما يقولون، وهم يدعون أنهم أفضل الناس كلهم، فتاهت العقول، وسقطت الأخبار، واهتدى جهم وخمسون رجلاً معه! نعوذ بالله من مضلات الفتن» هذا آخر كلامه. اهـ.

قول أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، إمام الطائفة الأشعرية:

نذكر كلامه فيما وقفنا عليه من كتبه كـ «الموجز»[٢] «والإبانة» «والمقالات» وما نقله عنه أعظم الناس انتصاراً له الحافظ أبو القاسم بن عساكر في الكتاب الذي سماه «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري».

ذكر قوله في كتاب «الإبانة في أصول الديانة»:

قال أبو القاسم ابن عساكر: «إذا كان أبو الحسن[٣] مستصوب[٤] المذهب عند أهل العلم بالمعرفة والانتقاد فوافقه[٥] في أكثر ما يذهب إليه أكابر العباد، ولا يقدح في معتقده غير أهل الجهل والعناد، فلا بدّ أن نحكي عنه معتقده على وجهه بالأمانة، ونجتنب أن نزيد فيه أو ننقص منه تركاً للخيانة، لتعلم حقيقة حاله في صحة عقيدته في أصول الديانة، فاسمع ما ذكره في كتابه[٦] الذي سماه «بالإبانة»، فإنه قال: «الحمد لله [الأوحد][٧] الواحد، العزيز الماجد، المتفرد بالتوحيد، المتمجِّد بالتمجيد، الذي لا تبلغُهُ صفات العبيد، وليس له مثل[٨] ولا

---

(١) من مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وسقط من الأصل.

(٢) قال ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» (ص١٢٩) عنه:
«وذلك أنه يشتمل على اثني عشر كتاباً على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين فيها، وآخره كتاب الإمامة تكلم في إثبات إمامة الصدِّيق ﷺ وأبطل قول من قال بالنص، وأنه لا بد من إمام معصوم في كل عصر».

(٣) بعدها في مطبوع «تبيين كذب المفتري»: «ﷺ كما ذكر عنه من حسن الاعتقاد».

(٤) في مطبوع «تبيين كذب المفتري»: «مستوصب».

(٥) في مطبوع «تبيين كذب المفتري»: «يوافقه».

(٦) في مطبوع «تبيين كذب المفتري»: «في أول كتابه».

(٧) غير موجود في مطبوع «الإبانة».

(٨) في مطبوع «الإبانة»: «منازع».

نديد، وهو المبدئ المعيد[١]، جلَّ عن اتخاذ الصاحبة والأبناء[٢]، وتقدَّس عن ملامسة النساء[٣]، فليس له عزة تنال، ولا حد تضرب فيه الأمثال[٤]، لم يزل بصفاته أولاً قديراً، ولا يزال عالماً خبيراً، سبق[٥] الأشياء عِلمُه، ونفذت فيها إرادته، فلم تعزُب عنه خفيّات الأمور، ولم يغيِّره سوالفُ وصرف[٦] الدهور، ولم يلْحَقْه في خلق شيء مما خلق كَلال ولا تعب، ولا مسَّه لغوب ولا نصب، خلَق الأشياء بقدرته، ودبَّرها بمشيئته، وقهرها بجبروته، وذلّلها بعزته، فذلَّ لعظمته المتكبِّرون، واستكان لعظم[٧] ربوبيته المتعظِّمون، وانقطع دون الرسوخ في علمه الممترون[٨]، وذلت له الرقاب، وحارت في ملكوته فطر[٩] ذوي الألباب، وقامت بكلمته السمٰوات السبع، واستقرت الأرض المهاد، وثبتت الجبال الرواسي، وجرت الرياح اللواقح، وسار في جو السماء السحاب، وقامت على حدودها البحار، وهو إله قاهر[١٠] يخضع له المتعزِّزون، ويخشع له المترُفِّعون، ويَدِين طوعاً وكرهاً له العالمون، نحمدُه كما حمِدَ نفسه، وكما هو عند ربنا له أهل[١١]، ونستعينه استعانة من فوَّض إليه أمره[١٢]، وأقرَّ أنه لا ملجأ ولا منجى منه[١٣] إلا إليه، ونستغفره استغفار مُقرٍ بذنبه معترف بخطيئته، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إقراراً بوحدانيته، وإخلاصاً لربوبيته، وأنه العالِمُ بما تُبطِنهُ الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، وما تخفيه النفوس، وما تجري به البحار[١٤] وما تواري الأسرار[١٥] ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

---

(١) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «الفعّال لما يريد».
(٢) في مطبوع «الإبانة»: «الصواحب والأولاد».
(٣) في مطبوع «الإبانة»: «عن ملابسة الأجناس والأرجاس».
(٤) في مطبوع «الإبانة»: «ليست له صورة تقال، ولا حدٌّ يُضربَ له المثال».
(٥) في مطبوع «الإبانة»: «استوفى».
(٦) في مطبوع «الإبانة»: «صروف».
(٧) في مطبوع «الإبانة»: «العز».
(٨) في مطبوع «الإبانة»: «العالمون».
(٩) في مطبوع «الإبانة»: «فِطَن».
(١٠) في مطبوع «الإبانة»: «الله الواحد القهّار».
(١١) في مطبوع «الإبانة»: «وكما هو أهله ومستحقه، وكما حمد الحامدون من جميع خلقه».
(١٢) في مطبوع «الإبانة»: «أمره إليه».
(١٣) في مطبوع «الإبانة»: «لا منجا ولا ملجأ منه».
(١٤) في مطبوع «الإبانة»: «وما تجن البحار».
(١٥) في مطبوع «الإبانة»: «الأسراب».

وساق خطبته الطويلة، بيّن فيها مخالفة المعتزلة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الصحابة، إلى أن قال فيها: «ودفعوا أن يكون لله وجه مع قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأنكروا أن يكون لله يدان[١] مع قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وأنكروا أن يكون لله عينان[٢] مع قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وكقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] ونفوا ما روى عن النبي[٣] ﷺ من قوله: «**إن الله ينزل إلى السماء الدنيا**»[٤] إلخ. وأنا ذاكر ذلك [إن شاء الله تعالى][٥] باباً باباً[٦]، وبه المعونة والتأييد، ومنه التوفيق والتسديد، فإن قال[٧] قائل: قد أنكرتم قولَ المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرِّفونا قولكم الذي تقولون[٨]، وديانتكم التي بها تدينون؟ قيل له: قولنا الذي به نقول[٩] وديانتنا التي بها ندين:[١٠] التمسك بكتاب الله وسنة نبيه[١١] ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان عليه[١٢] أحمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولمن خالف قوله مخالفون[١٣]؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، عند ظهور الضلال[١٤]، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدَّم، وكبير[١٥] معظم[١٦]، وعلى جميع أئمة المسلمين».

وجملة قولنا أن[١٧] نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما

---

(١) في مطبوع «الإبانة»: «له يدان». (٢) في مطبوع «الإبانة»: «له عينان».
(٣) كذا في مطبوع «الإبانة»، وفي الأصل: «عنه النبي»!
(٤) سبق تخريجه. (٥) غير موجود في مطبوع «الإبانة».
(٦) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «وشيئاً شيئاً إن شاء الله».
(٧) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «لنا». (٨) في مطبوع «الإبانة»: «به تقولون».
(٩) في مطبوع «الإبانة»: «نقول به». (١٠) في مطبوع «الإبانة»: «ندين بها».
(١١) في مطبوع «الإبانة»: «بكتاب ربنا ﷻ وبسنة نبينا».
(١٢) في مطبوع «الإبانة»: «يقول به أبو عبد الله».
(١٣) في مطبوع «الإبانة»: «مجانبون». (١٤) في مطبوع «الإبانة»: «ودفع به الضلال».
(١٥) في مطبوع «الإبانة»: «وجليل».
(١٦) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «وكبير مفخّم».
(١٧) في مطبوع «الإبانة»: «أنّا».

رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نرد من ذلك شيئاً، وأن الله سبحانه وتعالى إله واحد أحد[(١)]، فرد صمد [لا إله غيره][(٢)] لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله[(٣)]، وأن الجنة حق والنار حق ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝﴾ [الحج: ٧] وأن الله تعالى مستو[(٤)] على عرشه كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥] وأن له وجهاً[(٥)] كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٢٧] وأن له يدين[(٥)] كما قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وكما قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وأن له عينين[(٦)] بلا كيف، كما قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وأن من زعم أن اسم[(٧)] الله غيره كان ضالاً، وأن لله عِلْماً كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١] [ونثبت لله قوة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾][(٨)] [فصلت: ١٥]، ونثبت لله السمع والبصر، ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية[(٩)]، ونقول: إن [القرآن][(٢)] كلام الله غير مخلوق، وإنه لم يخلق شيئاً، إلا وقد قال له: كن فيكون[(١٠)].

وإنه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله سبحانه، وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله، وأن

(١) في مطبوع «الإبانة»: «واحد لا إله إلّا هو».
(٢) غير موجود في مطبوع «الإبانة».
(٣) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «أرسله بالهدى ودين الحق».
(٤) في مطبوع «الإبانة»: «استوى».
(ملاحظة): جاء في «الإبانة» (ص٢١ ـ تحقيق فوقية حسين): «استوى على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده» وهذا من **العبث** في الكتب. انظر تفصيل ذلك في كتاب: «ابن تيمية وموقفه من الأشاعرة» (١/ ٣٥٤) لعبد الرحمٰن المحمود.
(٥) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «بلا كيف».
(٦) في مطبوع «الإبانة»: «عيناً». (٧) في مطبوع «الإبانة»: «أسماء».
(٨) في مطبوع «الإبانة»: ما بين المعقوفتين يكون بعد قوله: «المعتزلة والجهمية».
(٩) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «والخوارج».
(١٠) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾ [النحل: ٤٠].

لا يستغني[١] عن الله، ولا نقدر عن الخروج من علم الله، وأنه لا خالق إلا الله، وأن أعمال العباد[٢] مخلوقة لله، مقدورة [له][٣] كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون، كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] وكما قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] وكما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وكما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦] وهذا في كتاب الله كثير.

وأن الله وفّق المؤمنين لطاعته، ولطف بهم، ونظر لهم[٤] وأصلحهم وهداهم، وأضل الكافرين ولم يهدهم، ولم يلطف بهم بالإيمان، كما زعم أهل الزيغ والطغيان، ولو لطف بهم وأصلح كانوا صالحين[٥]، ولو هداهم كانوا[٦] مهتدين، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٧٨﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وأن الله يَقْدِر أن يُصلِح الكافرين، ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وأنه خذلهم وطبع على قلوبهم، وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره، وأنّا نؤمن بقضاء الله وقدره، [و][٣] خيره وشره، [و][٣] حلوه ومره، ونعلم إن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا[٧]، وأنا لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً[٨]، إلا ما شاء الله[٩]، وإنا لنلجئ أمورنا[١٠] إلى الله، ونثبت الحاجة والفقر في كل وقت إليه.

---

(١) في مطبوع «الإبانة»: «ولا نستغني». (٢) في مطبوع «الإبانة»: «العبد».
(٣) غير موجود في مطبوع «الإبانة». (٤) في مطبوع «الإبانة»: «إليهم».
(٥) في مطبوع «الإبانة»: «وأصلحهم لكانوا صالحين».
(٦) في مطبوع «الإبانة»: «لكانوا».
(٧) في مطبوع «الإبانة»: «ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وأن ما أصابنا لمن يكن ليخطئنا».
(٨) في مطبوع «الإبانة»: «وأن العباد لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً».
(٩) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «كما قال ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾».
(١٠) في مطبوع «الإبانة»: «وأنا نلجأ في أمورنا».

ونقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإن من قال بخلق القرآن كان كافراً[(١)]، ونَدِين أن الله[(٢)] يُرى بالأبصار يوم القيامة[(٣)]، كما يُرى القمر ليلة البدر، ويراه المؤمنون كما جاءت [به][(٤)] الروايات عن رسول الله ﷺ[(٥)]، ونقول إن الكافرين[(٦)] إذا رآه المؤمنون محجوبون[(٧)]، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

وأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، سأل الله عَزَّ وَجَلَّ الرؤية في الدنيا.

وأن الله تجلى للجبل فجعله دكّاً، [وخر موسى صعقاً][(٣)]، وأعلم[(٨)] بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا، ونرى[(٩)] أن لا نُكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه، كالزنا والسرقة وشرب الخمر، كما دانت بذلك الخوارج، وزعموا أنهم بذلك كافرون[(١٠)] ونقول: إن من عمل كبيرة من الكبائر[(١١)] وما أشبهها مستحلاً لها[(١٢)] كان كافراً، [إذا كان غير معتقد لتحريمها][(١٣)]، ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيماناً، وندين[(١٤)] بأن الله تعالى يقلب القلوب **«وأن القلوب بين أصبعين[(١٥)] من أصابعه»**[(١٦)]، وأنه **«يضع السموات على أصبع والأرضين على أصبع»**[(١٧)] كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ[(١٨)].

وندين بأن لا نُنْزِل أحداً من الموحدين[(١٩)] المتمسكين بالإيمان جنةً ولا

---

(١) في مطبوع «الإبانة»: «فهو كافر». (٢) في مطبوع «الإبانة»: «بأن الله تعالى».
(٣) غير موجود في مطبوع «الإبانة».
(٤) في مطبوع «الإبانة»: «يُرى في الآخرة بالأبصار».
(٥) سبق تخريجها جميعاً.
(٦) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «محجوبون عنه».
(٧) في مطبوع «الإبانة»: «رآه المؤمنون في الجنة» دون وجود لفظة محجوبون.
(٨) في مطبوع «الإبانة»: «فأعْلَمَ». (٩) في مطبوع «الإبانة»: «وندين».
(١٠) في مطبوع «الإبانة»: «وزعمت أنهم كافرون».
(١١) في مطبوع «الإبانة»: «من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة».
(١٢) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «غير معتقد لتحريمها».
(١٣) غير موجود في مطبوع «الإبانة». (١٤) في مطبوع «الإبانة»: «وندي».
(١٥) كذا في مطبوع «الإبانة»، وفي الأصل: «الأصبعين»!
(١٦) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو.
(١٧) سبق تخريجه.
(١٨) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «من غير تكييف».
(١٩) في مطبوع «الإبانة»: «أهل التوحيد».

ناراً، إلا من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبين، ونخاف عليهم أن يكونوا من أهل النار معذبين، ونقول: إن الله يخرج من النار قوماً بعد ما امتحشوا[١] بشفاعة محمد ﷺ[٢]، ونؤمن بعذاب القبر، ونقول: إن الحوض والميزان حق[٣]، والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله يوقف العباد بالموقف[٤]، ويحاسب المؤمنين، وأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ونسلم للروايات[٥] الصحيحة في ذلك عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى تنتهي[٦] الرواية إلى رسول الله ﷺ.

ونَدين بحب السلف الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونثني عليهم بما أثنى الله عليهم ونتولاهم[٧]، ونقول: إن الإمام[٨] بعد رسول الله أبو بكر[٩]، وأن الله أعزَّ به الدين، وأظهره على المرتدين، وقدَّمه المسلمون للإمامة كما قدمه رسول الله ﷺ للصلاة[١٠]، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان ـ نضر الله وجهه ـ، [وأن الذين قتلوه][١١] قتلوه ظلماً وعدواناً، ثم علي ابن أبي طالب، فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ خلافتهم خلافة النبوة، ونشهد للعشرة بالجنة[١٢]، الذين شهد لهم رسول الله ﷺ[١٣]، ونتولَّى سائر أصحاب رسول الله ﷺ[١٤]، ونكفّ عما شجر بينهم، وندين الله أن الأئمة الأربعة راشدون[١٥] مهديون فضلاء، لا يوازيهم غيرهم في الفضل[١٦].

---

(١) في مطبوع «الإبانة»: «يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا».
(٢) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «تصديقاً لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ».
(٣) في مطبوع «الإبانة»: «ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض وأن الميزان حق».
(٤) في مطبوع «الإبانة»: «في الموقف». (٥) في مطبوع «الإبانة»: «الروايات».
(٦) كذا في مطبوع «الإبانة»، وفي الأصل: «انتهى»!
(٧) في مطبوع «الإبانة»: «ونتولّاهم أجمعين».
(٨) في مطبوع «الإبانة»: «الإمام الفاضل».
(٩) في مطبوع «الإبانة»: «الصديق رضوان الله عليه».
(١٠) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله ﷺ».
(١١) من مطبوع «الإبانة»، وسقط من الأصل.
(١٢) في مطبوع «الإبانة»: «ونشهد بالجنة للعشرة».
(١٣) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «بها». (١٤) في مطبوع «الإبانة»: «النبي».
(١٥) في مطبوع «الإبانة»: «بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون».
(١٦) في مطبوع «الإبانة»: «في الفضل غيرهم».

ونصدِّق جميع الروايات التي رواها[١] أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب تعالى يقول: «**هل من سائل؟ هل من مستغفر**»؟[٢] وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافاً لما قاله أهل الزيغ والتعطيل[٣]، ونعوِّل فيما اختلفنا فيه على كتاب الله وسنة رسوله[٤] ﷺ وإجماع المسلمين، وما كان في معناه، فلا نبتدع في دين الله بدعة لم يأذن الله بها، ولا نقول على الله ما لا نعلم، ونقول: إن الله يجيء يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] وأن الله يقرُب من عباده كيف شاء، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وكما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٨، ٩].

ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد[٥]، خلف كل بر وفاجر [وغيره، وكذلك بشروط الصلوات الخمس بالجماعات][٦]، كما روي عن عبد الله بن عمر أنه كان يصلي خلف الحجاج[٧]، وأن المسح على الخفين[٨] في الحضر والسفر خلافاً لمن أنكر ذلك. ونرى الدعاء للأئمة[٩] المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم، إذا ظهر منهم ترك الاستقامة، وندين بترك[١٠] الخروج عليهم[١١] وترك القتال في الفتنة، ونقر بخروج الدجال كما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ[١٢]، ونؤمن بعذاب القبر، ومنكر ونكير ومساءلتهما للمدفونين[١٣] في قبورهم. ونصدق بحديث

---

(١) في مطبوع «الإبانة»: «ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في مطبوع «الإبانة»: «والتضليل».

(٤) في مطبوع «الإبانة»: «كتاب ربنا وسنة نبيّنا».

(٥) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «وسائر الصلوات والجماعات».

(٦) غير موجود في مطبوع «الإبانة».

(٧) أخرجه الشافعي في «مسنده» (١/ ٢٥١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٥٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٣٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ١٢١ ـ ١٢٢) من طرق عن ابن عمر، وهو **صحيح**.
وصححه شيخنا الألباني. انظر: «الإرواء» (٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٨) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «سنة».

(٩) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «لأئمة».

(١٠) في مطبوع «الإبانة»: «بإنكار».

(١١) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «بالسيف».

(١٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٠)، ومسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر.

(١٣) في مطبوع «الإبانة»: «المدفونين».

المعراج[(١)]، ونصحح كثيراً من الروايات في المنام، وأن لذلك تأثيراً.

ونرى الصدقة عن موتى المسلمين [المؤمنين][(٢)] والدعاء لهم، ونؤمن أن[(٣)] الله ينفعهم بذلك، ونصدق بأن في الدنيا سحرة[(٤)]، وأن السحر كائن موجود في الدنيا. وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة: مؤمنهم[(٥)] وفاجرهم وتوارثهم. ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان، وأن من مات أو قتل، فبأجله مات أو قتل، وأن الأرزاق من قِبَل الله ﷻ يرزقها الله عباده حلالاً وحراماً، وأن الشيطان يوسوس للإنسان، ويشككه ويخبطه[(٦)]، خلافاً لقول المعتزلة والجهمية، كما قال الله ﷻ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وكما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٤ ـ ٦].

ونقول: إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآيات يظهرها عليهم. وقولنا في أطفال المشركين أن الله يؤجج ناراً في الآخرة[(٧)] ثم يقول لهم: اقتحموها كما جاءت الرواية بذلك[(٨)]. وندين بأن الله تعالى يعلم ما العباد عاملوه[(٩)]، وإلى ما هم صائرون، وما يكون[(١٠)] وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وبطاعة الأئمة ونصيحة المسلمين. ونرى مفارقة كل داعية لبدعة[(١١)]، ومجانبة أهل

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (٦١٢) من حديث أنس.

(٢) في مطبوع «الإبانة»: «ونقر أن لذلك تفسيراً».

(٣) في مطبوع «الإبانة»: «بأن».

(٤) في مطبوع «الإبانة»: «سحراً وسحرة».

(٥) في مطبوع «الإبانة»: «برّهم».

(٦) في مطبوع «الإبانة»: «ويتخبّطه».

(٧) في مطبوع «الإبانة»: «يؤجج لهم في الآخرة ناراً».

(٨) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤)، وإسحاق بن راهويه (٤١)، والطبراني في «الكبير» (٨٤١)، وابن حبان (١٠/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ـ التعليقات الحسان)، والبزار (٢١٧٤ ـ زوائده)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١١١)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٩٠٠)، وفي «تاريخ أصبهان» (٢/ ٢٥٥)، والضياء المقدسي في «المختارة» (١٤٥٤ ـ ١٤٥٦) من حديث الأسود بن سريع، وهو حسن.

وفي الباب عن جمع من الصحابة يصح بها، كاد أن يستوعبها ابن القيم في آخر «طريق الهجرتين»، وانظر تفصيل تخريجه: «الصحيحة» (٢٤٦٨).

(٩) في مطبوع «الإبانة»: «بأنه يعلم ما العباد عاملون».

(١٠) في مطبوع «الإبانة»: «وما كان وما يكون».

(١١) في مطبوع «الإبانة»: «إلى بدعة».

الأهواء، وسنحتج لما ذكرناه من قولنا، وما بقي منه، وما[1] لم نذكره باباً باباً[2].

قلت[3]: ثم ذكر الأبواب إلى أن قال: (باب الاستواء)[4]؟ وإن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: إن الله مستو[5] على عرشه[6] كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وقال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] كذب[7] موسى في قوله: إن الله فوق السموات، وقال الله ﷻ: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦] فالسموات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات[8] وكان كل ما علا فهو سماء[9]، وليس إذا قال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ يعني جميع السمٰوات، وإنما أراد العرش الذي هو على[10] السمٰوات، [ألا ترى][11] أنه ذكر السمٰوات فقال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] ولم يُرد أنه يملأهن جميعاً[12]، ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السموات، فلولا أن الله تعالى على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش».

---

(١) في مطبوع «الإبانة»: «منه مما».
(٢) انظر: «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر (ص١٥٢ ـ ١٦٣).
(٣) أي ابن القيم.
(٤) في مطبوع «الإبانة»: «ذكر الاستواء على العرش».
(٥) في مطبوع «الإبانة»: «يستوي».
(٦) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «كما يليق به من غير طول الاستقرار».
(٧) في مطبوع «الإبانة»: «فكذب فرعون نبي الله».
(٨) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «قال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] لأنه مستوٍ على العرش الذي فوق السمٰوات».
(٩) في مطبوع «الإبانة»: «وكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السماوات».
(١٠) في مطبوع «الإبانة»: «أعلى».
(١١) من مطبوع «الإبانة»، وسقط من الأصل.
(١٢) في مطبوع «الإبانة»: «ولم يُرد يملأهن جميعاً وأنه فيهن جميعاً».

ثم قال: «ومن دعاء أهل الإسلام[(١)] إذا هم رغبوا إلى الله تعالى[(٢)] يقولون[(٣)]: يا ساكن العرش، ومن خلفهم يقولون[(٤)]: لا والذي احتجب بسبع، وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: أن معنى استوى استولى[(٥)] وملك وقهر، وأن الله في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله على عرشه، كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، فلو كان كما قالوا[(٦)] كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ [لأن الله قادر على كل شيء والأرض][(٧)]، فالله قادر عليها وعلى الحشوش[(٨)]، فلو كان[(٩)] مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء [لجاز أن يقال: إن الله][(٧)] مستو[(١٠)] على الأشياء كلها[(١١)] ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله مستو على الحشوش والأخلية[(١٢)]، فبطل أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء[(١٣)]»[(١٤)] ثم بسط الأدلة على هذه المسألة من الكتاب والسنة والعقل، ولولا خشية الإطالة لسقناها بألفاظها[(١٥)].

---

(١) في مطبوع «الإبانة»: «أهل الإسلام جميعاً».
(٢) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «في الأمر النازل بهم».
(٣) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «جميعاً».
(٤) في مطبوع «الإبانة»: «ومن حلفهم جميعاً».
(٥) في مطبوع «الإبانة»: «إن قول الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] أنه استولى».
(٦) في مطبوع «الإبانة»: «فلو كان هذا ما ذكروه».
(٧) غير موجود في مطبوع «الإبانة».
(٨) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «وعلى كل ما في العالم».
(٩) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «الله». (١٠) في مطبوع «الإبانة»: «وهو مستوٍ».
(١١) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «لكان مستوياً على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقذار لأنه قادر على الأشياء مستولٍ عليها، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها».
(١٢) بعدها في مطبوع «الإبانة»: «لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها».
(١٣) في مطبوع «الإبانة»: «ووجب أن يكون معناه استواء يختص العرش دون الأشياء كلها».
(١٤) انظر: «الإبانة» (ص٤٠ ـ ٤١، ٤٩ ـ ٦٤، ١١٩ ـ ١٢٠، ١٢٤ ـ ١٢٥، ١٢٠ ـ ١٢١) بلفظه.
(١٥) انظر كلامه أيضاً في: «المقالات» (٢٩٧) وما نقله عنه: ابن درباس في «الذب عن أبي الحسن الأشعري» (ص١١١ ـ ١١٢، ١١٧ ـ ١٢١)، والقشيري في «شكاية أهل السنة» =

وقال الأشعري في كتاب «الأمالي»: (باب القول في الأماكن): زعمت المعطلة[1] أن الله بكل مكان، على معنى الصنع والتدبير، واختلف أصحاب الصفات في ذلك، فقال أبو محمد عبد الله بن كلاب: إن الله لم يزل لا في مكان، وهو اليوم لا في مكان، وقال آخرون منهم: إنه مستوٍ على عرشه، بمعنى أنه عالٍ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] فامتدح نفسه بأنه على العرش استوى، بمعنى أنه علا عليه، وعلَّمنا أنه لم يزل عالياً رفيعاً، قبل خلق الأشياء، وقبل خلق العرش الذي هو عالٍ عليه سبحانه وبحمده».

ذكر كلامه في كتابه الكبير في إثبات الصفات: وقد ذكر ترجمة هذا الكتاب في كتابه الذي سماه «العمدة في الرؤية»[2] فقال: وألفنا كتاباً كبيراً في الصفات، تكلمنا على أصناف المعتزلة والجهمية المخالفين لنا في نفيهم علم الله تعالى وقدرته، وسائر صفاته، وعلى أبي الهذيل، ومعمر النظام، وفي فنون كثيرة من فنون الصفات في إثبات الوجه، واليدين، وفي إثبات استواء الرب سبحانه على العرش». ثم ساق مضمونه. اهـ.

قول القاضي أبي بكر الطيب الباقلاني الأشعري: قال في كتاب «التمهيد في أصول الدين» وهو من أشهر كتبه: «فإن قال قائل: فهل تقولون: إن الله في كل مكان، قيل: معاذ الله، بل هو مستوٍ على العرش كما أخبر في كتابه فقال ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦] ولو كان في كل مكان، لكان في جوف الإنسان، وفي فمه، وفي الحشوش، وفي المواضع التي يرغب عن ذكرها تعالى[3] عن ذلك.

ولو كان في كل مكان، لوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم

= (ص٩)، وابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٣٩٩)، وابن تيمية في «الحموية» (ص٤٢٩)، والذهبي في «العلو» (١٢٤٠ ـ ١٢٥٥).

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «النجارية».

(٢) لم أجد من تكلم عما يتضمنه غير ما قاله ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» (ص١٢٨): «ذكر في كتابه الذي سماه «العمد في الرؤية» أسامي أكثر كتبه» وأفاد أنه جمع فيه ما صنفه إلى سنة عشرين وثلاث مئة.

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «تعالى الله».

يكن خلقه، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان واضحاً[1]»، وأن يُرغب إليه نحو الأرض وإلى وراء ظهورنا عن أيماننا وعن شمائلنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله».

ثم قال في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]: «المراد أنه إله عند أهل السماء، وإله عند أهل الأرض، كما تقول العرب: فلان نبيل مطاع في المصرين، أي: عند أهلهما، وليس يعنون أن ذات المذكور بالحجاز والعراق موجودة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]؛ يعني: بالحفظ والنصر والتأييد، ولم يرد أن ذاته معهم تعالى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] محمول على هذا التأويل، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]؛ يعني: أنه عالم بهم وبما خفي من سرهم ونجواهم، وهذا إنما يستعمل كما ورد به القرآن، فلذلك لا يجوز أن يقاس[2] على هذا أن الله بمدينة السلام ودمشق[3]، وأنه مع الثور والحمار، وأنه مع الفساق ومع المتوجهين إلى حلوان[4] قياساً على قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [النحل: ١٢٨]، فوجب أن يكون التأويل على ما وصفناه، ولا يجوز أن يكون معنى استوائه على العرش هو استيلاؤه، كما قال الشاعر: قد استوى بشر على العراق[5]؛ لأن الاستيلاء: القدرة[6]، والله تعالى لم يزل قادراً قاهراً مقتدراً، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ [الفرقان: ٥٩] يقتضي استفتاح هذا الوصف بعد أن لم يكن قبل[7] ما قالوه».

ثم قال: «باب فإن قال قائل: ففصّلوا لي صفات ذاته من صفات أفعاله

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ولصحّ».
(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «أن يقال قياساً».
(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «إن الله بالبردين مدينة السلام ودمشق».
(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «مع الفساق والمجان ومع المصعدين إلى صلوات».
(٥) سبق تخريجه.
(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «هو القدرة والقهر».
(٧) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فبطل».

لأعرف ذلك. قيل له: صفات ذاته هي التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها، وهي: الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، والإرادة والبقاء والوجه واليدان والعينان والغضب والرضى، وصفات أفعاله[١]، هي: الخلق والرزق والعدل والإحسان والفضل[٢] والإنعام والثواب والعقاب والحشر والنشر، وكل صفة لم تكن قبل فعله لها موجودة»[٣] ثم ساق الكلام في الصفات. اهـ.

قول الحسين بن أحمد الأشعري المتكلم من متكلمي أهل الحديث صاحب «جامع الكبير» و«الصغير» في أصول الدين. قال في «جامعه الصغير»: «فإن قيل: ما الدليل على أن الله على العرش بذاته؟ قلنا: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ فإن قالوا: فإن العرب يقولون: استوى فلان على بلد كذا وكذا استولى عليه وقهر هنا[٤]، قلنا: لأصحابنا عن هذا أجوبة:

أحدها: لو كان استوى بمعنى استولى، لم يكن لتخصيصه العرش بالاستواء معنى؛ لأنه مستول على كل شيء غيره، فكان يجوز أن يقال: الرحمٰن على الجبل استوى، وهذا باطل.

الثاني: أن العرب لا تدخل ثُم إلا لمستقبل[٥] سيكون، والله تعالى لم يزل قاهراً قادراً مستولياً على الأشياء، فلم يكن بزعمهم لقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩] معنى.

الثالث: أن الاستواء بمعنى الاستيلاء لا يكون عند العرب إلا بعد أن يكون ثم مغالب يغالبه، فإذا غلبه وقهره، قيل: قد استولى عليه، فلمّا لم يكن مع الله مغالب لم يكن معنى استوائه على العرش استيلاء وغلبة[٦]، وصح أن استواءه عليه هو علوه وارتفاعه عليه بلا حد ولا كيف ولا تشبيه».

ثم ذكر الخليل بن أحمد وابن الأعرابي أن الاستواء في اللغة هو العلو والرفعة؛ لأنهم يقولون: استوت الشمس إذا تعالت، واستوى الرجل على ظهر

---

(١) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «فعله».

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «والتفضل».

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «وكل صفة كان موجوداً قبل فعله لها».

(٤) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «إذا استولى عليه وقهر؟».

(٥) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «لأمر مستقبل».

(٦) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «عليه وغلبته».

دابته، إذا علا عليها، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] أي: ارتفعت عليه، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ٤] ارتفع عن حال النقصان إلى حال الكمال، وقولهم: استوى أمر فلان أي: ارتفع وعلا عن الحال التي كان عليها من الضعف وسوء الحال، وساق الكلام. اهـ.

ذكر قول الإمام فخر الدين الرازي في آخر كتابه وهو كتاب «أقسام اللذات»[1] الذي صنفه في آخر عمره، وهو كتاب مفيد، ذكر فيه أقسام اللذات وبين أنها ثلاثة أقسام: الحسية[2]، كالأكل والشرب والنكاح واللباس، واللذة الحالية الوهمية: كلذة الرئاسة والأمر والنهي والترفع ونحوها، واللذة العقلية كلذة العلوم والمعارف، وتكلم على كل واحد من هذه الأقسام إلى أن قال: «وأما اللذة العقلية فلا سبيل إلى الوصول إليها والتعلق بها، فلهذا السبب نقول: يا ليتنا بقينا على العدم الأول، وليتنا ما شهدنا هذا العالم، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن، وفي هذا المعنى قلت:

نهاية إقدامِ العقولِ عقالُ ... وأكثرُ سعي العالمين ضلالُ
وأرواحُنا في وحشةٍ من جسومِنا ... وحاصلُ دُنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفدْ من بحثِنا طولَ عُمرنا ... سوى أنْ جَمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ ... فبادُوا جميعاً مُسْرعين وزالوا
وكم مِنْ جِبال قد عَلَتْ شرفاتِها ... رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ

واعلم أن بعد التوغل في المضايق، والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق، رأيت الأصوب الأصح[3] في هذا الباب طريقة القرآن العظيم والفرقان الكريم، وهو ترك التعمق، والاستدلال بأقسام أجسام السمٰوات والأرضين على وجود رب العالمين، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل، فاقرأ في التنزيل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ

---

(١) وهو مخطوط بالهند، ولم يذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الرازي أفاده محقق «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٦٠) هامش (٤).

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «ثلاثة: الحِسِّية»، وسقطت «الحسيّة» من الأصل.

(٣) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «الأصلح».

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] وأقرأ في الإثبات قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وعلى هذا القانون فقس»[1]. وختم الكتاب. اهـ.

قول متكلم السنة إمام الصوفية في وقته أبي العباس أحمد بن محمد المظفري المختار الرازي، صاحب كتاب «فرع الصفات في تقريع نفاة الصفات»، وهو على صغر حجمه، كتاب جليل، غزير العلم.

قال فيه بعد حكاية مذاهب الناس: «وقالت الحنابلة وأصحاب الظواهر والسلف من أهل الحديث: إن الله على العرش» ثم قال: «أما حجة المثبتين؛ فمن حيث الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والمعقول». ثم ذكر حجج القرآن والسنة، ثم حكى كلام الصحابة إلى أن قال: «ثم إن الصحابة اختلفوا في النبي ﷺ: هل رأى ربه ليلة المعراج أم لا؟ واختلافهم في الرؤية في تلك الليلة، اتفاق منهم على أن الله على العرش؛ لأن المخالفين لا يفرقون بين الأرض والسماء بالنسبة إلى ذاته، وهم فرقوا حيث اختلفوا في إحداهما دون الأخرى».

قلت: مراده أنهم إنما اختلفوا في رؤيته لربه ليلة أسري به، فجاوز السبع الطباق، ولولا أنه على العرش لكان لا فرق في الرؤية نفياً ولا إثباتاً بين تلك الليلة وغيرها، ثم قال: «وأما المعقول فمن وجوه خمسة: **أحدها**: إطباق الناس كافة، وإجماع الخلق عامة من الماضين والغابرين والمؤمنين والكافرين على رفع الأيدي إلى السماء عند السؤال والدعاء، بخلاف السجود، فإنه تواضع متعارف، بخلاف التوجه إلى الكعبة فإنه تعبد غير معقول، أما رفع الأيدي بالسؤال نحو المسؤول فأمر معقول متعارف». قال: «ومن نظر في قصص الأنبياء وأخبار الأوائل القدماء وأبناء الأمم الماضية والقرون الخالية اتضحت له هذه المعاني واستحكمت له هذه المباني» ثم أقرّ[2] العلو وساق شبه النفاة ونقضها نقض من يقلع غروسها كل القلع رحمه الله تعالى. اهـ.

---

(١) لم أقف على هذا النص في مطبوع كتب الرازي، وقد وجدت شيخ الإسلام ابن تيمية ينقل عنه من الكتاب نفسه مستشهداً به في غير موضع. انظر مثلاً: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧٢ ـ ٧٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) في مطبوع «اجتماع الجيوش الإسلامية»: «قرر».

قول ابن رشد الحفيد في علو الله تعالى: قال ابن القيم في «الجيوش الإسلامية» (ص١٣٠) ما نصه:

قال في كتابه «منهاج الأدلة»: «(القول في الجهمية): وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة في أول الأمر يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية، كأبي المعالي، ومن اقتدى بقوله، فظواهر[1] الشرع كلها تقتضي إثباتها لله تعالى[2] مثل قوله سبحانه: [﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى][3]: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة: ٥] وقوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات التي إن سُلِّط التأويل عليها عاد الشرع كله متأولاً[4]، وإن قيل فيها: إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشابهاً؛ لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منها تنزيل[5] الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السماء نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدرة المنتهى».

قال: «وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك، والشبهة التي قادت نفاة الجهة إلى نفيها هي أنهم اعتقدوا أن إثبات الجهة يوجب إثبات المكان وإثبات المكان، يوجب إثبات الجسمية».

قال: «ونحن نقول: إن هذا كله غير لازم فالجهة[6] غير المكان»[7].

قال محمد تقي الدين: ثم شرح ابن رشد ذلك بكلام طويل، لا يفهمه عامة القراء، ثم قال: «فهذا كله يظهر للعلماء الراسخين في العلم».

---

(١) في مطبوع «مناهج الأدلة»: «وظواهر».

(٢) في مطبوع «مناهج الأدلة»: «إثبات الجهة».

(٣) غير موجود في مطبوع «مناهج الأدلة». (٤) في مطبوع «مناهج الأدلة»: «مؤولاً».

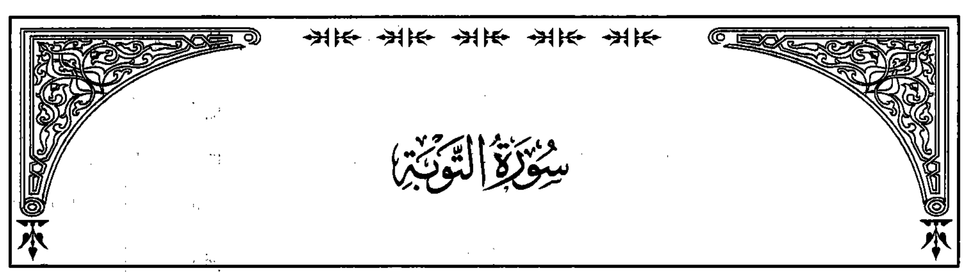
(٥) في مطبوع «مناهج الأدلة»: «تنزل». (٦) في مطبوع «مناهج الأدلة»: «فإن الجهة».

(٧) انظر: «مناهج الأدلة» (ص٨٥ ـ ٨٦)، وما سبق في هذا الباب منقول من «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٩٥ ـ ٣٢٤) بتصرف، وذكرتُ الفرق بين ما فيه وما نقله المصنف عنه في الهوامش، فاقتضى التنويه والتنبيه، والله الموفق لا رب سواه.

قال: «فقد ظهر لك من هذا، أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل، وأنه الذي جاء به الشرع، وأثنى عليه، فإن إبطال هذه القاعدة إبطال للشرائع، . . .» ثم ساق تقرير ذلك إلى آخره، فهذا كلام فيلسوف الإسلام الذي هو أَخْبَرُ بمقالات الفلاسفة والحكماء، وأكثر اطلاعاً عليها من ابن سينا، ونقلاً لمذاهب الحكماء، وكان لا يرضى بنقل ابن سينا ويخالفه نقلاً وبحثاً.

فصل

قال محمد تقي الدين: قد أطلت في هذا الباب؛ **لأنه أهم أبواب آيات الصفات،** فإن كل من اعتقد علو الله تعالى واستواءه على عرشه وبينونته من خلقه لا يرد شيئاً من الصفات، **ومن سوء الحظ أن نفي هذه الصفة الكريمة قد شاع في بلاد المسلمين منذ أزمنة متطاولة،** فعامتهم يقولون: الله في كل مكان بذاته، وخاصتهم تقول: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا في أي جهة من الجهات الست؛ **لأن المعتزلة والخوارج والمتأخرين من الأشعرية نجحوا في تضليل الناس وإبعادهم عن الإيمان بعلو الله تعالى وكونه فوق خلقه.** فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة: ٦]

قال (ك): «يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [من][1] الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، و﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، أي: القرآن تقرأه عليه، وتذكر له شيئاً من [أمر][1] الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان، حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء، ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: «إنسان يأتيك ليسمع[2] ما تقول، وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه[3] كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء»[4].

ولهذا[5] كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان مَن جاءه مسترشداً أو في رسالة،

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يسمع». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيسمع».

(٤) ذكره البخاري تعليقاً في «صحيحه» كتاب التوحيد، باب ذكر الله بالأمر وذكر العباد بالدعاء والتضرع والرسالة والإبلاغ.
ووصله ابن جرير في «التفسير» (١١/ ٣٤٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٥٥)، والفريابي كما في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٦٠).

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ومن هذا».

كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم[١]، واحداً بعد واحد، يتردّدون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدونه[١] عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم[٢]، ولهذا أيضاً لما قدم رسولُ مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال[٣]: **«أتشهد أن مسيلمة رسول الله»**؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: **«لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك»**[٤].

وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود، فقال له: «إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقُه»[٥] لا رَحِمَهُ اللهُ ولعنه.

والغرض أن مَن قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردّداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه؛ لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكّن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكَّن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله»[٦]. اهـ.

قال القاسمي في «تفسيره»:

«استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن كلام الله بحرف وصوت قديمين، وهم الحنابلة ومن وافقهم[٧] قالوا: لأن منطوق الآية يدل على أن كلام الله يسمعه الكافر والمؤمن والزنديق والصديق، والذي يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات، فدلَّ ذلك على أن كلام الله ليس إلا هذه الحروف

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يشاهده»!

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال له».

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٥١ ـ ١٥٢).

(٧) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «كالعضد».

والأصوات، والقول بأن كلام الله شيء مغاير لها باطل؛ لأن رسول الله ﷺ ما كان يشير بقوله: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ إلا لها، وقد اعترف الرازي بقوة هذا، لإلزام من خالف فيه، وقد مضى لنا في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]»[1].

وقال في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤] أي: في السور المكية ﴿وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ﴾[2] أي: لم نسمِّهم[3] لك في القرآن، وقد أحصى بعض المدققين أنبياء اليهود والنصارى ورسلهم فوجد عددهم لا يتجاوز الخمسين، وروي في عدتهم أحاديث تُكلِّم في أسانيدها، منها حديث أبي ذر: «إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر»[4]، صححه ابن حبان، وخالفه ابن الجوزي فذكره في «موضوعاته» واتهم به إبراهيم بن هشام، وقد تكلم فيه غير واحد ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾؛ يعني: خاطبه مخاطبة من غير واسطة؛ لأن تأكيد (كلَّم) بالمصدر يدل على تحقيق الكلام، وأن موسى ﷺ سمع كلام الله بلا شك؛ لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر، فلا يقال: أراد الحائط[5] إرادة، قال الفراء: «العرب تسمي كل ما يوصل إلى الإنسان كلاماً، بأي طريق وصل، لكن لا تحققه بالمصدر، وإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام»[6]، فدل قوله تعالى: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ على أن موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة، قال بعضهم: «كما أن الله تعالى خص موسى ﷺ بالتكليم وشرفه به، ولم يكن ذلك قادحاً في نبوة غيره من الأنبياء، فكذلك إنزال التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحاً في نبوة من أنزل عليه كتابه منجماً من الأنبياء»، كذا في «اللباب»[7].

---

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (٨/ ١٣٨).
(٢) غير موجود في «تفسير القاسمي».
(٣) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «نسمعهم»!
(٤) سبق تخريجه.
(٥) وهذا ردّ على من يقول: إن الله خلق كلاماً في محل فسمع موسى ذلك الكلام. (منه).
(٦) لم أجده من كلام الفراء، وإنما وجدته بنحوه في «معاني القرآن» للنحاس (٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)، وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (٣/ ٣٩٨).
(٧) انظر: «اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل الحنبلي (٧/ ١٣٦).

تنبيه: يحسن في هذا المقام **إيراد عقيدة السلف الكرام في مسألة الكلام** فإنها من أعظم مسائل الدين، وقد تحيرت فيها آراء أهل الأهواء من المتقدمين والمتأخرين، واضطربت فيها الأقوال، وكثرت بسببها الأهواء، وأثارت فتناً وجلبت محناً، وكم سجنت إماماً، وبكت أقواماً، وتشعبت فيها المذاهب، واختلفت فيها المشارب، **ولم يثبت إلا قول أهل السنة والجماعة، المقتفون**[(١)] **لأثر الرسول ﷺ وصحابته الكرام**، فنقول: قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية عليه رحمة الرحيم السلام في كتابه إلى جماعة العارف عدي بن مسافر ما نصه:

«فصل

ومن ذلك الاقتصاد في السنة واتباعها كما جاءت بلا زيادة ولا نقصان، مثل الكلام في القرآن وسائر الصفات، فإن مذهب سلف الأمة وأهل السنة: أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، هكذا قال غير واحد من السلف، روي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار ـ وكان من التابعين الأعيان ـ، قال: ما زلت أسمع الناس يقولون ذلك، القرآن الذي أنزله الله على رسوله هو هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون، ويكتبونه في مصاحفهم، وهو كلام الله لا كلام غيره، وإن تلاه العباد وبلّغوه بحركاتهم وأصواتهم، فإن الكلام لمن قاله مبتدئاً، لا لمن قاله مبلغاً مؤدياً، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وهو القرآن في المصاحف، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ٢ ـ ٣]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٧٨]، والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه، كل ذلك يدخل في القرآن وفي كلام الله، وإعراب الحروف هو من تمام الحروف، كما قال النبي ﷺ: «**من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات**»[(٢)]، وقال أبو بكر وعمر: «حفظ إعراب القرآن أحب

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «المقتفين».

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٠٧/٧) من حديث ابن مسعود، وفيه نهشل بن سعيد الورداني، متروك، ويروي عن الضحاك الموضوعات، وهذا من روايته عنه، وأخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١٦٠/٣)، وابن الأنباري في «إيضاح الوقف والابتداء» =

إلينا من حفظ بعض حروفه»(١).

ثم قال كَاللَّهُ: «والتصديق بما ثبت عن النبي ﷺ أن الله يتكلم بصوت(٢) وينادي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بصوت(٣)، إلى أمثال ذلك من الأحاديث(٤)، فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة، وقال أئمة السنة: القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، حيث تلي، وحيث كُتب، فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن: إنها مخلوقة(٥)؛ لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل، ولا يقال: غير مخلوقة؛ لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد، ولم يقل قط أحد من أئمة السلف: إن أصوات العباد بالقرآن قديمة، وبه أنكروا على من قال: «لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق» وأما من قال: إن المداد قديم - فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، فأخبر أن المداد يكتب به كلماته، وكذلك من قال: «ليس القرآن في المصحف، وإنما في المصحف مداد وورق وحكاية وعبارة». فهو مبتدع ضال، بل القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، والكلام في المصحف على الوجه الذي يعرفه الناس، له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء.

= (١/ ١٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٢٨) من حديث ابن عمر وفيه تدليس بقية، ويمكن أن يكون تلقاه عن أبي الطيب المروزي الذي صرح به عند ابن حبان وابن الأنباري، وساق له الذهبي في «الميزان» هذا الحديث من منكراته، ونقل عن ابن معين قوله فيه: «كذاب خبيث»، **وحكم عليه شيخنا الألباني بالوضع** في «الضعيفة» (٢٣٤٨) وقال: «وقد روي الحديث من طرق أخرى عن ابن مسعود وغيره بألفاظ قريبة من هذا ويزيد بعضهم على بعض **ولا يصح شيء منها، وبعضها أشد ضعفاً من بعض**»، وانظرها أيضاً (١٣٤٤ - ١٣٤٧ و٥٦٨٢ - ٦٥٨٤).

(١) أخرجه ابن الأنباري في «الإيضاح» كما في «كنز العمال» (٢/ ٣٣٦)، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (٢/ ١٧٧)، وابن شاهين كما في «لمحات الأنوار» (١/ ٣٠١) للغافقي.
ويغني عنه ما أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٥٧) بسندٍ صحيح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «لأن أقرأ آية بإعرابٍ أحبُّ إليّ من أن أقرأ كذا وكذا آية بغير إعراب».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «الحديث».

(٥) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «مخلقة»!

وكذلك من زاد على السنة، فقال: إن ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة، فهو مبتدع ضال، كمن قال: إن الله لا يتكلم بحرف ولا صوت، فإنه أيضاً مبتدع منكر للسنة، وكذلك من زاد وقال: إن المداد قديم ـ فهو ضال، كمن قال: ليس في المصاحف كلام الله، وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون: إن الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط كلام الله، فهو بمنزلة من يقول: ما تكلم الله بالقرآن ولا هو كلامه، هذا الغلو من جانب الإثبات يقابل التكذيب من جانب النفي، وكلاهما خارج عن[1] السنة والجماعة.

وكذلك إفراد الكلام في النقطة والشكلة[2] بدعة، نفياً وإثباتاً، وإنما حدثت هذه البدعة من مائة سنة أو أكثر بقليل، فإن من قال: إن المداد الذي تنقط به الحروف وتشكل به قديم، فهو ضال جاهل. ومن قال: إن إعراب حروف القرآن ليس من القرآن فهو ضال مبتدع، بل الواجب أن يقال: هذا القرآن العربي هو كلام الله، وقد دخل في ذلك حروفه وإعرابه[3]، كما دخلت معانيه، ويقال: وما بين اللوحين جميعه كلام الله، فإن كان المصحف منقوطاً مشكولاً أطلق على ما بين اللوحين جميعه إنه كلام الله، وإن كان غير منقوط ولا مشكول، كالمصاحف القديمة التي كتبها الصحابة، كان أيضاً ما بين اللوحين هو كلام الله، فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر محدث ونزاع لفظي لا حقيقة له، ولا يجوز أن يحدث في الدين ما ليس منه»[4].

وسئل رحمه الله تعالى عن رجلين تباحثا فقال أحدهما: القرآن حروف وصوت[5]، وقال الآخر: ليس ذلك من القرآن. فما الصواب في ذلك؟ فأجاب:

«الحمد لله رب العالمين، هذه المسألة يتنازع فيها كثير من الناس، ويخلطون الحق بالباطل، فالذي قال: إن القرآن حرف وصوت، إن[6] أراد بذلك

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «من».

(٢) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «والشكل».

(٣) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «بإعرابها».

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤٠١ ـ ٤٠٤).

(٥) بعدها في مطبوع «تفسير القاسمي»: «وقال الآخر: ليس هو بحرف وصوت، وقال أحدهما: النقط التي في المصحف والشكل من القرآن».

(٦) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «أي».

أن هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون[1] هو كلام الله، الذي نزل به الروح الأمين على محمد خاتم النبيين والمرسلين، وأن جبرائيل سمعه من الله، والنبي ﷺ سمعه من جبرائيل، والمسلمون سمعوه من النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] فقد أصاب في ذلك.

فإن هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها، والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع، ومن قال: إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما هو كلام جبرائيل أو غيره، عبر به عن المعنى القائم بذات الله، كما يقول ذلك ابن كلّاب والأشعري ومن وافقهما، فهو قول باطل من وجوه كثيرة، فإن هؤلاء يقولون: إنه معنى واحد قائم بالذات، وإن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد، وإنه لا يتعدد ولا يتبعض، وإنه إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وبالعبرانية كان توراة، وبالسريانية كان إنجيلاً، فيجعلون معنى آية الكرسي، وآية الدين، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، والتوراة والإنجيل وغيرهما معنى واحداً، وهذا قول فاسد بالعقل والشرع، وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبقه إليه غيره من السلف، وإن أراد قائل بالحرف والصوت، أن الأصوات المسموعة من القرآن[2]، والمداد الذي في المصاحف قديم أزلي أخطأ وابتدع، وقال ما يخالف العقل والشرع، فإن النبي ﷺ قال: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»[3].

فبيَّن أن الصوت صوت القارئ والكلام كلام الباري، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله لا كلام غيره، كما ذكر الله ذلك. وفي «السنن» عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموقف فقال: «**ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي**»[4].

وقالوا لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١، ٢]: هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال: «ليس بكلامي ولا كلام صاحبي،

---

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «يُقرأ للمسلمين».
(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «القراء».
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سيأتي تخريجه (ص٢٧٥).

ولكنه كلام الله تعالى»[١].

والناس إذا بلّغوا كلام النبي ﷺ، كقوله: «**إنما الأعمال بالنيات**»[٢] يعلمون أن الحديث الذي يسمعونه حديث النبي ﷺ تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه، والمحدِّث بلَّغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبي ﷺ، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله، إذ بلَّغته الرسل عنه، وقرأه الناس بأصواتهم، والله تكلم بالقرآن، بحروفه ومعانيه بصوت نفسه، ونادىٰ موسى بصوت نفسه، كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف، وصوت العبد ليس هو صوت الرب، ولا مثل صوته، فإن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وقد نص أئمة الإسلام أحمد ومَنْ قبله من الأئمة، على ما نطق به الكتاب والسنة: من أن الله ينادي بصوت، وأن القرآن كلامه، تكلم بحرف[٣] وصوت، ليس منه شيء كلاماً لغيره لا جبرائيل ولا غيره، وأن العباد يقولونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم، فالصوت المسموع من العبد صوت القارئ. والكلام كلام البارئ، وكثير من[٤] الخائضين في هذه المسألة لا يميز بين صوت العبد وصوت الرب، بل يجعل هذا هو هذا، فينفيهما جميعاً ويثبتهما جميعاً، فإذا نفى الحرف والصوت، نفى أن يكون القرآن العربي كلام الله، وأن يكون منادياً لعباده بصوته، وأن يكون القرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله، كما نفى أن يكون صوت العبد صفة الله، ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً، لا فرق بين القديم والحادث وهذا مصيب في هذا الفرق دون ذلك[٥] الثاني، الذي فيه نوع من الإلحاد والتعطيل؛ حيث جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق، وإذا أثبت جعل صوت الرب هو صوت العبد أو سكت عن التمييز بينهما، مع قوله: إن الحروف متعاقبة في الوجود مقترنة في الذات، قديمة أزلية الأعيان. فجعل عين صفة الرب تحل في العبد، ويتحد بصفته. فقال في نوع من الحلول

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١٤٤)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٠٧ ـ ١٠٨)، وذكره البخاري تعليقاً في «خلق أفعال العباد» (ص٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «بحروف».

(٤) سقطت من الأصل، وهي في مطبوع «تفسير القاسمي».

(٥) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «ذاك».

والاتحاد، يفضي إلى نوع من التعطيل، وقد علم أن نفي الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته، والمخلوق وصفاته خطأ وضلال لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها، بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد، ومتّفقون [على] أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ حروفه ومعانيه، وأنه ينادي عباده بصوته، ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القرآن أصوات العباد، وعلى أن مداد المصاحف ليس قديماً[1]، بل القرآن مكتوب في مصاحف المسلمين، مقروء بألسنتهم، محفوظ بقلوبهم، وهو كلام الله.

والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط؛ لأنهم كانوا عرباً لا يلحنون، ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها، فإن كتبت بلا شكل ولا نقط جاز، وإن كتبت بنقط وشكل جاز، ولم يكره، في أظهر قولي العلماء وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وحكم النَّقط والشكل حكم الحروف فإن الشكل يبيِّن إعراب القرآن، كما يبين النقط الحروف، والمداد الذي يكتب به الحروف، ويكتب به الشكل والنَّقط، مخلوق.

وكلام الله العربي الذي أنزله وكتب في المصاحف بالشكل والنقط، وبغير شكل ونقط، ليس بمخلوق، وحكم الإعراب حكم الحروف، لكن الإعراب لا يستقل بنفسه، بل هو تابع للحروف المنقوطة، والشكل والنقط لا يستقل بنفسه، بل هو تابع للحروف المرسومة، فلهذا لا يحتاج لتجريدهما وإفرادهما بالكلام، بل القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله، معانيه وحروفه وإعرابه، والله تكلم بالقرآن العربي الذي أنزله على محمد ﷺ والناس يقرؤونه بأفواههم[2] وأصواتهم، والمكتوب في مصاحف المسلمين هو كلام الله، وهو القرآن العربي الذي أنزله على نبيه؛ سواء كتب بشكل ونقط، أو بغير شكل ونقط، والمداد الذي كتب به القرآن ليس بقديم بل هو مخلوق.

والقرآن الذي كتب في المصحف بالمداد هو كلام الله منزَّل، غير مخلوق، والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين؛ لأن كلام الله مكتوب فيها،

---

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «وعلى أنه ليس بشيء من أصوات العباد ولا مداد المصاحف قديماً».

(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «بأفعالهم».

واحترام النقط والشكل، إذا كتب في المصاحف مشكلاً منقوطاً، كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين، كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين، ولهذا قال أبو بكر وعمر: «حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه»[(١)].

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه فجميعه كلام الله، فلا يقال: بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله، وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى، فإنه أخبر أنه نادى موسى في غير موضع من القرآن، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَنهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٦]، والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة، وقد قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى، فمن قال: إن موسى لم يسمع صوتاً، بل أُلهم معناه ـ لم يفرق بين موسى وغيره»[(٢)]اهـ. المقصود نقله منه.

قال الإمام عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكناني في كتاب «الحيدة» حين ناظر بشراً المريسيّ ومن معه من المبتدعة القائلين بخلق القرآن: «وناديت بأعلى صوتي مخاطباً لابني وكنت قد أقمته بحيالي عند الأسطوانة الأخرى، وقلت: يا بني ما تقول في القرآن؟ فقال: أي أبت! كلام الله منزل غير مخلوق، فلما سمع الناس مقالتي وكلامي لابني وجوابه لي هربوا على وجوههم خارجين من المسجد إلا اليسير من الناس خوفاً على أنفسهم، وذلك أنهم سمعوا ما لم يكونوا يسمعونه من قبل، وظهر لهم ما كانوا يكتمونه، فلم يستتم من ابني الجواب حتى جاء أصحاب السلطان، فاحتملوني وابني، فأوقفونا بين يدي عمرو بن مسعدة، وكان جاء[(٣)] ليصلي الجمعة، فلما نظر إلى وجهي، وكان قد سمع كلامي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (٥/ ٦٣٥ ـ ٦٤٢)، و«مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٨٢ ـ ٥٨٨).

(٣) في مطبوع «الحيدة»: «قد جاء».

ومُسَألتني لابني وجواب ابني إياي، فلم يحتج أن يسألني عن كلامي.

فقال لي: أمجنون أنت؟ قلت: لا، قال: فموسوس أنت؟ قلت: لا، قال: فمعتوه أنت؟ قلت: لا، والحمد لله وإني لصحيح العقل جيد الفهم ثابت المعرفة، قال: فمظلوم أنت؟ قلت: لا، فقال لأصحابه: مروا بهما سحباً إلى منزلي.

قال عبد العزيز: فحملنا على أيدي الرجال حتى أخرجنا من المسجد الجامع، ثم جعل الرجال يتعادون بنا سحباً شديداً وأيدينا في أيديهم يمنة ويسرة، وسائر أصحابه قُدَّامنا وخلفنا، حتى صرنا إلى منزل عمرو بن مسعدة من الجانب الغربي على تلك الحالة الغليظة، فأوقفنا على بابه، حتى دخل، فأمر بنا فأدخلنا عليه وهو جالس في صحن داره على كرسي من حديد، فلما صرنا بين يديه أقبل عليَّ فقال: من أين أنت؟ قلت: من أهل مكة، قال: ما حملك على ما صنعت بنفسك؟ قلت: طلبت القربة إلى الله ﷻ ورجاء الزلفة لديه، قال: فهلا فعلت ذلك سراً من غير نداء ولا إظهار المخالفة لأمير المؤمنين؟ ولكن أردت الشهرة والرياء والسوء ولتأخذ أموال الناس. فقلت: ما أردت إلا الوصول إلى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه لا غير ذلك؟ قال: أو تفعل ذلك؟ قلت: نعم، ولذلك قصدتُ وبلغت بنفسي ما ترى، وتغريري بنفسي، وسلوك البراري أنا وولدي رجاء تأدية حق الله فيما استودعني من العلم والفهم في كتابه، وما أخذه علي وعلى العلماء من البيان.

فقال: إن كنتَ إنما جعلتَ هذا سبباً لغيره إذا وصلت إلى أمير المؤمنين، فقد حلَّ دمك لمخالفتك أمير المؤمنين، فقلت له: إنْ تكلمتُ في شيء غير هذا وجعلتُ هذا ذريعة إلى غيره فدمي حلال لأمير المؤمنين. فوثب عمرو قائماً على رجليه، وقال: أخرجوه بين يدي[1]، فأُخرجت بين يديه، وركب من الجانب الغربي وأنا وابني بين يديه يعدى بنا على وجوهنا وأيدينا في أيدي الرجال، حتى صاروا إلى دار أمير المؤمنين من الجانب الشرقي، فدخل ونحن في الدهليز قياماً على أرجلنا فأطال عند أمير المؤمنين، ثم خرج وقعد في حجرة له، وأمر بي فأدخلت عليه، فقال: أخبرتُ أمير المؤمنين بخبرك، وما فعلتَ، وما سألتَ من

(١) في مطبوع «الحيدة»: «بين يدي إلى أمير المؤمنين».

الجمع بينك وبين مخالفيك للمناظرة بين يديه، وقد أمر ـ أطال الله بقاءه، وأعلى أمره ـ بإجابتك إلى ما سألت، وجمع المناظرين على هذه المقالة إلى مجلسه أعلاه الله في يوم الاثنين الأدنى[١]. ويحضر معهم ليناظروا بين يديه ويكون هو الحاكم بينكم.

قال عبد العزيز: فأكثرتُ حمد الله وشكره على ذلك، وأظهرت الدعاء والشكر لأمير المؤمنين، فقال[٢] عمرو: أعطنا كفيلاً بنفسك حتى تحضر معهم يوم الاثنين، وليس بنا حاجة إلى حبسك. فقلت له: أدام الله عزك أنا رجل غريب ولست أعرف في هذا البلد أحداً، ولا يعرفني من أهلها أحد، فمن أين لي من يكفلني؟ خاصة مع إظهاري مقالتي، لو كان الخلق يعرفونني حق معرفتي لتبرؤوا مني، وهربوا من قُربي وأنكروني، قال: فنوكل بك من يكون معك حتى يحضرك في ذلك اليوم وتنصرف فتصلح من شأنك، وتتفكر في أمرك، لعلك أن ترجعَ عن غيِّك، وتتوب من فعلك، فيصفح أمير المؤمنين عنك.

فقلت: ذلك إليك ـ أعزك الله ـ فافعل ما رأيتَ. فوكَّل من يكون معي في منزلي وانصرف، قال عبد العزيز: فلما صليت الغداة في يوم الاثنين في المسجد الذي على باب بيتي، إذا خليفة عمرو بن مسعدة قد جاءني، ومعه جمع كثير من الفرسان والرجال، فحملني مكرماً على دابة حتى صار بي إلى دار أمير المؤمنين، فأوقفني هناك حتى جاء عمرو بن مسعدة، فجلس في حجرته التي كان يجلس فيها، ثم أذن لي بالدخول، فدخلت، فلما صرت بين يديه أجلسني، ثم قال: أنت مقيم على ما كنت عليه أم رجعت عنه؟ قلتُ: بل مقيم على ما كنت عليه، وقد ازددتُ ـ بتوفيق الله ـ بصيرة ورُشْداً. فقال عمرو: يا أيها الرجل قد حملت نفسك على أمر عظيم، وبلغت الغاية في مكروهها، وتعرضت لما لا قِوام لك به من مخالفة أمير المؤمنين، وادَّعيتَ ما لا يثبت لك به حجة على مخالفيك، وليس إلا السيف بعد ظهور الحجة عليك، فانظر لنفسك، وبادر أمرك قبل أن تقع المناظرة، وتظهر عليك الحجة فلا ينفعك الندامة ولا يقبل لك معذرة، ولا يُقالُ لك عثرة، فقد رحمتُكَ وأشفقتُ عليكَ مما هو بكَ نازل، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين وأسأله الصفح عن رجمك، وعظيم ما كان منك إن أظهرت الرجوع

(١) في مطبوع «الحيدة»: «الآتي». (٢) في مطبوع «الحيدة»: «فقال لي».

عنه، والندم على ما كان منك، وآخذ لك الأمان منه ـ أيده الله ـ والجائزة، وإن كان بك مظلمة؛ أزلتُها عنك، وإن كان لك حاجة؛ قضيتُها لك، فإنما جلسْتُ رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إنْ أقمتَ على ما أنت عليه، ورجوت أن يخلصك الله على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك به.

فقلت: ما ندمتُ ـ أعزك الله ـ على ما كان مني، ولا رجعتُ عنه، ولا خرجتُ من بلدي، وغررت بنفسي إلا في طلب هذا اليوم، وهذا المجلس؛ رجاء أن يبلِّغني الله ما أؤمِّله من إقامة الحقِّ، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وهو حسبي، ونعم الوكيل. قال عبد العزيز رحمه الله تعالى: فقام عمرو بن مسعدة على رجليه، وقال: قد حرصتُ على خلاصك جَهدي وأنتَ حريص على سفْك دمك، وقتلِ نفسك، فقلت: معونة الله تبارك وتعالى أعظم وألطف من أن ينساني الله، أو يكلني إلى نفسي، وعدل أمير المؤمنين أوسع من أن يقصر عني، وإنما أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال عبد العزيز رحمه الله تعالى: فقام عمرو بن مسعدة فدخل بي، فأخرجت إلى الدهليز الأول، ومعي جماعة موكَّلون بي، وكان قد أمر بني هاشم أن يركبوا ووجَّه إلى القضاة والفقهاء الموافقين لهم على مذهبهم وسائر المتكلمين والمناظرين أن يحضروا، والقواد، والأولياء، فركب القوم بالسلاح؛ ليرهبوني بذلك، ويرهبوا الرعية، وأمر الناس جميعاً أن لا ينصرفوا حتى نفرغ من المجلس، فلما اجتمع الناس وتتاموا[1]، ولم يتخلف منهم أحد ممن يعرفونه بالكلام والجدل، أُذِن لي بالدخول، فلم أزل أنقل من دهليز إلى دهليز، حتى صرتُ إلى الحاجب صاحب الستر الذي على باب الصحن، فلما رآني أمر بي فأدخلت إلى حُجرته، ودخل معي.

فقال: إن كنت تحتاج إلى تجديد الوضوء، قلت: مالي إلى ذلك حاجة قال: اركع ركعتين، فركعت أربع ركعات، ودعوتُ الله ﷻ، ثم قال لي: استخر الله وقُم فادخل، وخرج معي إلى باب الصحن وشال الستر، وأخذ الرجال بيدي وعضدي وجعل أقوام أيديهم في ظهري وعلى رقبتي وجعلوا يتعادون بي،

(١) في مطبوع «الحيدة»: «وتأهبوا».

ونظر إليّ المأمون، وأنا أسمع صوتاً: خلُّوا عنه، وكثر الضجيج من الحجّاب والقواد بمثل ذلك، فخلَّوا عني، وقد كاد يتغيَّر عقلي من شدة الجزع وعظيم ما رأيت في ذلك الصحن من السلاح، وهم ملء الصحن، وكنت قليل الخبرة بدار أمير المؤمنين، ما رأيتُها قبل ذلك ولا دخلتُها، فلما صرتُ على باب الإيوان، وقفت فسمعت المأمون يقول: أدْخلوه، قرِّبوه، فلما دخلتُ من باب الإيوان وقعت عيني عليه، وقبل ذلك لم أنتبه لما كان على باب الإيوان من الحجّاب والقواد، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم قال: أُدنُ مني، فدنوتُ منه، ثم جعل يقول: أُدْنُ مني، فدنوتُ منه، ثم جعل يقول: أُدنُ وأدنو، ويكرر ذلك، وأنا أدنو خطوة خطوة، حتى صرت إلى الموضع الذي يجلس فيه المتناظرون ويسمع كلامهم، والحاجب معي يقدّمني، فلما انتهيتُ إلى الموضع، قال لي المأمون: اجلس فجلست.

قال عبد العزيز: وسمعت رجلاً من جلسائه يقول: وقد دخلت الإيوان: يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قبح وجهه، فوالله ما رأيتُ خلقاً لله أقبح وجهاً منه، فسمعتُ قوله هذا وفهمتُه، وما رأيت شخصاً على ما كنتُ فيه من الجزع والرعدة.

قال عبد العزيز: وتبيَّن لأمير المؤمنين ما أنا فيه من الجزع، وما قد نزل بي من الخوف، فجعل ينظر إليَّ وأنا ارتعد خوفاً، وانتفض، وأحبّ أن يؤنسني، ويسكن روعتي، فجعل يكثر كلام جلسائه، ويكلم عمرو بن مسعدة، ويتكلّم بأشياء كثيرة مما لا يحتاج إليها، يريد بذلك كله إيناسي، وجعل يطيل النظر إلى الإيوان، ويدير نظره فيه، فوقعت عيناه على موضع من نقش الجص قد انتفخ، فقال: يا عمرو ما ترى هذا انتفخ من هذا النقش في هذا الجص، وسيقع، فبادِرْ في قلعه وعمله، فقال عمرو: قطع الله يد صانعه، فإنه قد استحق العقوبة على عمله هذا.

قال عبد العزيز: ثم أقبل عليَّ المأمون، فقال: ما الاسم؟ فقلت: عبد العزيز قال: ابن من؟ قلت: ابن يحيى بن مسلم، قال: ابن من؟ قلت: ابن ميمون الكناني، قال: أوَ أنت من كِنانة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فتركني

هنيهة لا يكلمني[1]، [ثم أقبل عليّ][1] فقال: من أين الرجل؟ قلت: من الحجاز. قال: ومن أي الحجاز؟ قلت: من مكة، قال: ومن تعرف من أهل مكة؟ قلت: يا أمير المؤمنين قَلَّ مَنْ بها من أهلها إلا وأنا أعرف إلا رجلاً ضوى إليها، أو من جاور بها، فإني لا أعرفه، قال: تعرف فلاناً وفلاناً. حتى عدد جماعة من بني هاشم كلهم أعرفهم حقَّ المعرفة، فجعلتُ أقول: نعم. وسألني عن أولادهم وأنسابهم، فأخبرته من غير حاجة إلى شيء من ذلك، ولا تقدم من مسألتي، وإنما يريد إيناسي وبسطي للكلام وتسكين روعي[2] وجزعي، فذهب عني ما كنت فيه، وما لحقني من الجزع، وجاءت المعونة من الله ﷻ، قوّى[3] بها ظهري، واشتد بها قلبي، واجتمع بها فهمي.

قال عبد العزيز رحمه الله تعالى: فأقبل عليَّ المأمون، وقال: يا عبد العزيز إنه قد اتصل بي ما كان منك وقيامك في المسجد الجامع، وقولك: إن القرآن كلام الله . . .إلخ بحضرة الخلق وعلى رؤوس الخلائق، وما كان من مسألتك بذلك من الجمع بينك وبين مخالفيك على القول؛ لتناظرهم في حضرتي، وفي مجلسي، والاستماع منك ومنهم، وقد جمعتُ المخالفين لك؛ لتناظرهم بين يدي وأكون الحاكم بينكم، فإن تبيَّن لك الحجة عليهم، والحقّ معك اتبعناك، وإن تكن الحجة لهم عليك، والحق معهم عافيناك[4]، وإن استَقَلْتَ أَقَلْنَاك، ثم أقبل المأمون على بشر المريسي، وقال: يا بشر! قُم إلى عبد العزيز فناظره وأنصفه، قال: فوثب بشر المريسي من موضعه الذي كان فيه كالأسد يثب إلى فريسة فرحاً، فانحط عليَّ، فوضع ركبته وفخذه الأيسر على فخذي الأيمن فكاد أن يحطمه، وعمد إليَّ بقوته كلها. فقلت: مهلاً فإن أمير المؤمنين لم يأمرك بقتلي ولا بظلمي، وإنما أمرك بمناظرتي وإنصافي، فصاح به المأمون، وقال: تنحَّ عنه، وكرر ذلك عليه حتى باعده مني، قال: ثم أقبل عليَّ المأمون، وقال: يا عبد العزيز ناظره على ما تريد، واحتجَّ عليه، ويحتجَّ عليك، وتسأله ويسألك، وتناصفا في كلامكما، وتحفظا ألفاظكما، فإني مستمع عليكما فنحفظ ألفاظكما.

---

(١) من مطبوع «الحيدة»، وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «الحيدة»: «وتسكين روعتي».

(٣) في مطبوع «الحيدة»: «فقوّى».

(٤) قال المؤلف لعل الصواب عاقبناك (منه) وكذا هو في المطبوع.

فقال عبد العزيز: فقلت: السمع والطاعة لأمير المؤمنين، ولكن أريد أن أقول شيئاً فيأذن لي أمير المؤمنين فيه، قال: قل كما تريد، قلت: يا أمير المؤمنين أسألك بالله مَنْ أجمل من بلَغَك من البشر، وأحسنهم وجهاً من جميع ولد آدم؟ قال: يوسف؛ بعد أن أطرق ملياً، قلت: صدقت يا أمير المؤمنين، فوالله ما أعطى يوسف على حسن وجهه جرادتين[1]، ولقد سجن وضيِّق عليه من أجل حسن وجهه ظلماً بغير حق، بعد أن وقف على براءته[2] وإقرار امرأة العزيز أنها هي راودته عن نفسه؛ فاستعصم، فحبس بعد ذلك كله لحسن وجهه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: ٣٥]، فدل بقوله على أنه حبس بغير ذنب، لكن العلة حسن وجهه، وليغيبوه عنها وعن غيرها، رجاء تغيّر حلية وجهه؛ وليذهب بحسنه، فطال في السجن مكثه حتى عبَّر الرؤيا ووقف الملك على علمه ومعرفته وحسن عبارته، فاشتاق إليه، ورغب في صحبته فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]. وكان هذا القول من المَلِكِ بعد تعبير يوسف الرؤيا ووقوف الملك على حسن عبارته، وكما أخبر الله ﷻ في كتابه قبل أن يسمع كلامه، فلما دخل عليه وسمع كلامه، صيَّره على خزائن الأرض وفوَّضه إليه الأمور كلّها، واعتزل منها وصار كأنه من تحت يده، فكان ما بلغه يوسف كله من كلامه وعلمه لا بجماله وحسن وجهه قال الله ﷻ ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٤، ٥٥]، ولم يقل: إني حسن جميل، فوالله ما أبالي يا أمير المؤمنين لو كان وجهي أقبح مما هو عليه، فقد أعطاني الله وله الحمد من فهم كتابه والعلم بتنزيله، فقال المأمون: وأي شيء أردت بهذا القول، وما الذي دعاك إليه؟.

فقلت: إني سمعتُ بعضَ مَنْ ههنا يقول: يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قبح وجهه، فأي عيب يلحقني في صنعة ربي ﷻ؟ فتبسم المأمون حتى وضع يده على فمه، فقلت: يا أمير المؤمنين قد رأيتك تنظر هذا النقش في الحائط وتنكر انتفاخ الجص، وسمعت عمراً يعيب الصانع، ولا يعيب الجص، فقال المأمون: العيب لا على الشيء المصنوع، إنما العيب على صانعه، فقلت:

---

(١) في مطبوع «الحيدة»: «بعرتين».

(٢) بعدها في مطبوع «الحيدة»: «بالشاهد الذي أنطقه الله ﷻ بتصديقه وبيان قوله».

صدقت يا أمير المؤمنين، وقلت الحَقَّ، فهذا يعيب ربي لِمَ خلقني قبيحاً، فازداد تبسماً حتى ظهر ذلك، فقال: يا عبد العزيز ناظر صاحبك، فقد طال المجلس بغير مناظرة، قلت: يا أمير المؤمنين كلّ مناظرين على غير أصل يكون بينهما ما يرجعان إليه إذا اختلفا في شيء من الفروع فهما كالسائر على غير طريق، وهو لا يعرف المحجة فيتبعها، ولا يعرف الموضع الذي يريد فيقصده، وهو لا يدري من أين جاء فيرجع فيطلب الطريق، وهو على ضلال ولكنا نؤصل[1] بيننا أصلاً، فإذا اختلفنا في شيء من الفروع رددناه إلى الأصل، فإن وجدناه فيه، وإلا رمينا به ولم نلتفت إليه.

قال المأمون: نِعْمَ ما قلتَ، فاذكر الأصلَ الذي تريد أن يكون بينكما، قلت: يا أمير المؤمنين الأصل بيني وبينه ما أمرنا الله ﷻ، واختاره لنا، وأعلمناه وأدبّنا به في التنازع والاختلاف ولم يكلنا إلى غيره، ولا إلى أنفسنا واختيارنا؛ فنعجز، قال المأمون: وهل ذلك موجود عن الله ﷻ؟ قلت: نعم! يا أمير المؤمنين، قال: فاذكر ذلك.

قلت: قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]، فهذا تعليم من الله وتأديبه واختياره لعباده المؤمنين ما أصله المتنازعون بينهم، وقد تنازعتُ أنا وبشر يا أمير المؤمنين وبيننا كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ كما أمر الله ﷻ، فإذا اختلفنا في شيء من[2] الفروع، رددناه إلى كتاب الله ﷻ فإن وجدناه فيه، وإلا إلى سنة نبيه ﷺ فإن وجدناه فيها، وإلا ضربناه في الحائط ولم نلتفت إليه، قال المأمون: فافعلا وأصّلا بينكما هذا، واتفقا عليه وأنا الشاهد عليكما، والحافظ لما يجري بينكما.

قال عبد العزيز: قلت: يا أمير المؤمنين إنه من أَلحَدَ في كتاب الله زائداً أو جاحداً لم يناظر بالتأويل ولا بالتفسير، قال المأمون: بأي شيء تناظر؟ قلت: بنص القرآن بالتلاوة، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ حين ادعت اليهود تحريم أشياء لم تحرم عليهم: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]،

---

(١) كذا في مطبوع «الحيدة» بنون في أوله وهو الصواب، والسياق الآتي يؤكده، وفي المطبوع: «تؤصل» بثاء مثناة فوقية!

(٢) من مطبوع «الحيدة»، وسقط من الأصل.

وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [النمل: ٩٢]، فإنما أمر الله نبيه بالتلاوة، ولم يأمره بالتأويل وإنما يكون التأويل لمن آمن بالتنزيل، فأما من أَلْحَد بالتنزيل فيكف يناظر بالتأويل؟ فقال المأمون: ويخالفك بالتنزيل؟ قلت: نعم. ليخالفني أو ليدعن قوله ومذهبه وليوافقني، قال: فناظره بالتلاوة ونص التنزيل، قلت: نعم.

قال عبد العزيز: فأقبلت على بشر، فقلتُ: يا بشر ما حجَّتُك أن القرآن مخلوق؟ فانظر إلى[1] أحدِّ سهم من كنانتك فارمني به، ولا تحتج إلى معاودتي لغيره[2]؟ قال بشر: تقول يا عبد العزيز القرآن شيء أم غير شيء؟ فإنْ قلتَ: شيء فقد أقررت أنه مخلوق، إذ كانت الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل، وإن قلت: إنه ليس بشيء. فقد كفرتَ، لأنك تزعم أن حُجّةَ الله على خلقه ليس بشيء.

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: ما رأيت أعجب من هذا، أتسألني وتجيب نفسك، فإن تسألني لأجيبك فاسمع الجواب مني؛ فإني أحسن أن أجيبك، وأعبر عن نفسي، وإنْ تُرِدْ أن تخطب[3] وتتكلم، لتدهشني وتنسيني حجتي؛ فلن أزداد بتوفيق الله إياي إلا بصيرة وفهماً، وما أحسبك يا بشر إلا وقد تعلمت شيئاً أو سمعت هذه المقالة والتي قبلها أو قرأتها في كتاب، فأنت تكره أن تقطعها حتى تأتي على آخرها، فأقبل عليه المأمون، وقال: صدق عبد العزيز اسمع منه جواب ما سألتَه، ثم رُدَّ عليه بعد ذلك ما شئت، ثم قال لي: تكلَّم فأجبه يا عبد العزيز لما سألك.

فقلت لبشر: سألت عن القرآن: هو شيء أم غير شيء؟ فإن كنت تريد أنه شيء إثباتاً للوجود ونفياً للعدم؛ فنعم، هو شيء، وإن كنت تريد أن الشيء اسم له وأنه كالأشياء فلا، فقال بشر: ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا أسمعه، ولا بد من جواب يعقل ويفهم أنه شيء أم غير شيء.

(١) من مطبوع «الحيدة»، وسقط من الأصل.
(٢) في مطبوع «الحيدة»: «بغيره».
(٣) في مطبوع «الحيدة»: «وإن كنت إنما تريد أن تخطئني».

قال: فقلت لبشر: صدقتَ إنك لا تفهم ولا تعقل ولا تسمع ما أقول، ولقد وصفتَ نفسك بأقبح الصفات، واخترَت لها أذم الاختيارات، ولقد ذم الله ﷻ قوماً في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ قالوا مثل مقالتك، وكانوا بمثل ما وصفت به نفسك، قال الله ﷻ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣] وقال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠] وقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٦ ـ ١٨]، ومثل هذا في القرآن كثير، ولقد مدح الله قوماً في كتابه بحسن الاستماع وأثنى عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ﴾ الآية [الزمر: ١٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ﴾ [المائدة: ٨٣] الآية، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فما اخترتَ لنفسك ما اختاره الرسول، ولا ما اختاره المؤمنون، ولا ما اختاره أهل الكتاب، قال المأمون: دع عنك هذا يا عبد العزيز، وارجع إلى ما كنتَ فيه، وبيِّن ما قلتَه واشرحه من ذكر (الشيء).

فقلت: يا أمير المؤمنين! إن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه، إذ كان كلامه من ذاته ومن صفاته فلم يتسم بالشيء، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه، ولكنه دل على نفسه أنه شيء، وأنه أكبر الأشياء إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، وتكذيباً للزنادقة، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته وأنكر ربوبيته من سائر الأمم، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩] فدلّ على نفسه أنه شيء لا كالأشياء، وأنزل في ذلك خبراً خاصاً مفرداً؛ لعلمه السابق أن جهماً وبشراً ومن قال بقولهما سيلحدون في أسمائه وصفاته، ويشبِّهون على خلقه، ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة، فقال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر؛ تكذيباً لمن ألحد في كتابه، وافترى عليه وشبَّهه بخلقه، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠] ثم عدَّد أسماءه في كتابه، ولم يتسم بالشيء، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه، قال النبي ﷺ: «**إن الله تسعة**

وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»[1]. ثم عددها فلم نجده جعل الشيء اسماً، فقلت كما قال الله وتأدّبتُ كما أدبَّني الله، متَّبعاً غيرَ مبتدع. ثم ذكر جل ذكره كلامه كما ذكر نفسه ودلّه عليه مثل ما دل على نفسه، ليعلم الخلق أنه من ذاته، وأنه صفة من صفاته فقال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١] فذمَّ الله من نفى أن يكون كلامه الذي أنزله على رسوله شيئاً، وذلك أن رجلاً من المسلمين ناظر رجلاً من اليهود بالمدينة، فجعل المسلم يحتجُّ على اليهودي من التوراة بما علم من صفة النبي ﷺ وذكر نبوته من التوراة، فضحك اليهودي وباهت فقال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ فأنزل الله[2] ﷻ تكذيبه وذم قوله، وأعظم فريته حين جحد أن يكون كلام الله شيئاً ليس كالأشياء، كما دل على نفسه أنه شيء وليس كالأشياء، وقال في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فدل بهذا الخبر أيضاً على أن الوحي شيء بالمعنى، وذم من جحد أن يكون كلامه شيئاً، فلما أظهر اسم كلامه لم يظهره باسم الشيء، فيلحد الملحدون في ذلك ويدخلونه في جملة الأشياء، ولكنه أظهره باسم الكتاب والنور والهدى، فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾ فأظهره بأنه الكتاب والنور والهدى ولم يقل: (قل من أنزل الشيء الذي جاء به موسى) ويجعل اسماً لكلامه، فكانت أسماء ظاهرة يعرف بها[3]، كما سمى نفسه بأسماء ظاهرة يعرف بها فسمى كلامه: نوراً وهدًى وشفاءً ورحمةً وحقاً وقرآناً وفرقاناً، لعلمه السابق في جهم وبشر ومن يقول بقولهما أنهم سيلحدون في كلامه، ويدخلونه في الأشياء المخلوقة.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين قد أقرَّ عبد العزيز أن القرآن شيء، وادعى أنه ليس كالأشياء، وقلتُ أنا: إنه كالأشياء، فليأت بنص التنزيل كما أخذ على نفسه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرج سبب النزول بنحوه عن ابن عباس: ابن جرير (٧/ ١٧٧)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٤١ رقم ٧٥٩١) **بسندٍ حسن**، ونسبه في «الدر» (٣/ ٣١٣) لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٣) في مطبوع «الحيدة»: «وكذلك سمى كلامه بأسماء ظاهرة يعرف بها».

أنه ليس كالأشياء، وإلّا فقد بطل ما ادعاه؛ وصح قولي أنه مخلوق إذ كنا جميعاً قد اجتمعنا على أنه شيء وقال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] بنص التنزيل.

فقال المأمون: هذا يلزمك يا عبد العزيز لما أخذت على نفسك، وجعل محمد بن الجهم وغيره يضجون، ويقولون: ظهر أمر الله وهم كارهون، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وطمعوا في قتلي، وجثا بشر[1] على ركبتيه، وجعل يقول: أقرَّ والله يا أمير المؤمنين بخلق القرآن، وأمسكتُ فلم أتكلم، حتى قال لي أمير المؤمنين: ما لك لا تتكلم يا عبد العزيز؟.

فقلت: يا أمير المؤمنين قد تكلم بشر، وطالبني بنص التنزيل على ما قلت، وهو المناظر لي فضجيج هؤلاء إيش هو؟ وأنا لم أنقطع ولم أعجز عن الجواب وإقامة الحجة بنص التنزيل على بشر كما طالبني، ولست أتكلم وفي المجلس أحد يتكلم غير بشر إلا أن ينقطع بشر عن الحجة فيعتزل ويتكلم غيره، فصاح المأمون لمحمد بن الجهم وغيره: أمسكوا[2]، وأقبل عليَّ وقال: تكلم يا عبد العزيز واحتجَّ لنفسك فليس يعارضك غير بشر، قال: قلت: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦] وقال سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]، فدل ﷻ بهذه الأخبار، وأشباه لها في القرآن كثيرة، على أن كلامه ليس كالأشياء وأنه يكوِّن الأشياء[3]، ثم أنزل الله ﷻ خبراً مفرداً ذكر فيه خلق الأشياء كلها فلم يدع منها شيئاً إلا ذكره وأدخله في خلقه وأخرج كلامه وأمره من جملة الخلق وفصَلَهُ منها، ليدل على أن كلامه غير الأشياء المخلوقة وخارج عنها، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، فجمع في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ جميع ما خلق، فلم يدع منه شيئاً، ثم قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾؛ يعني: والأمر الذي كان به الخلق خلقاً،

---

(١) من مطبوع «الحيدة»، وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «الحيدة»: «فأمسكوا».

(٣) في مطبوع «الحيدة»: «وأنه إنما تكون الأشياء بقوله وأمره».

ففرَّق[(١)] بين خلقه وأمره فجعل الخلق خلقاً، والأمر أمراً، وجعل هذا غير هذا، وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠] وقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]؛ يعني: من قبل الخلق ومن بعد الخلق، ثم جمع الأشياء المخلوقة في آيات كثيرة في كتابه، فأخبر عن خلقها وأنه خلقها بقوله وكلامه، وأن كلامه وقوله غيرها وخارج عنها، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ١ ـ ٣]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨].

فقال المأمون: يجزيك هذا أو بعضه يا عبد العزيز. [فقلت: يا أمير المؤمنين، قد أخبرنا الله ﷻ عن خلق السماوات والأرض][(٢)] وما بينهما فلم يدع شيئاً من الخلق إلا ذكره، فأخبر عن خلقه أنه ما خلقه إلا بالحق، وأن الحق قوله وكلامه الذي به خُلِق الخلق كله، وأنه غير الخلق، وأنه خارج عن الخلق وغير داخل في الخلق، وهذا نص التنزيل على أن كلام الله غير الأشياء المخلوقة وليس هو كالأشياء، وبه تكون الأشياء[(٣)]. قال بشر: يا أمير المؤمنين قد ادعى أن الأشياء لا تكون إلا بقوله، ثم جاء بأشياء متباينات متفرقات، وزعم أن الله يخلق بها الأشياء، فأكذب نفسه ونقض قوله، ورجع عما ادعاه من حيث لا يدري، وأمير المؤمنين شاهد عليه وهو الحاكم بيننا، فأقبل المأمون عليَّ، فقال: يا عبد العزيز! قد قال بشر كلاماً قد قلتَه، ويحتاج أن تصحح قولك ولا ينقض بعضه بعضاً، وجعل بشر يصيح: لو تركتَه يتكلم؛ لجاء بألف شيء مما خلق الله به الأشياء.

فقلت: يا أمير المؤمنين قد ذهبت بالحجج، ورضي بشر وأصحابه

---

(١) كذا في مطبوع «الحيدة»، وفي الأصل: «فرقا»!
(٢) سقط من الأصل، وأثبته من مطبوع «الحيدة» والسياق يدل عليه.
(٣) في مطبوع «الحيدة»: «وإنما به تكون الأشياء».

بالضجيج، والترويج بالباطل، وقطع المجلس وطلب الخلاص ولا خلاص من الله حتى يظهر دينه، ويقمع الباطل بالحق فيزهقه، فصاح المأمون ببشر[١]: أقبل على صاحبك، واسمع منه، ودَعْ هذا الضجيج، وكان المأمون قد قعد مِنّا مقعد الحاكم من الخصوم، ثم أقبل المأمون وقال: تكلم يا عبد العزيز.

فقلت: يا بشر زعمتَ أني قد جئتُ بأشياء متباينات متفرقات، وادعيتَ أن الله خلق بها الأشياء، وما قلتُ إلا ما قال الله ﷻ، ولا أقول إلا[٢] أن الله خلق الأشياء [بكلامه][٣] قال بشر: يا أمير المؤمنين قد قال: إن الله خلق الأشياء بقوله وكلامه وأمره وبالحق وهذه أربعة أشياء، قال المأمون: بل قلت[٤] هذا يا عبد العزيز! فقلت: صدق أمير المؤمنين، قد قلتُ هذا، وهذه أربعة أشياء لشيء واحد؛ لأن كلام الله هو قوله، وقول الله هو كلامه، وأمر الله هو كلامه، وكلام الله هو أمره، وكلام الله هو الحق، والحق هو كلام الله، فهذه أسماء لكلام الله، وقد قدمت ذكر هذا فقلت: إن الله سمى كلامه: نوراً وهدًى وشفاءً ورحمةً وقرآناً وفرقاناً وبرهاناً، وسماه الحق، وهذه أشياء شتى لشيء واحد، وهو كلام الله كما سمى نفسه بأسماء كثيرة وهو واحد صمد فرد، وإنما ينكر بشر هذا ويستعظمه لقلة معرفته بلغة العرب.

قال بشر: قد أصّل بيني وبينه كتاب الله، وزعم أنه لا يقبل إلا بنص التنزيل فأين نص التنزيل، أن كلام الله هو قوله، وهو أمره، وأن كلامه هو الحق؟ فقال المأمون: هذا يلزمك يا عبد العزيز لما عقدت على نفسك من الشرط! فقلت: نعم يا أمير المؤمنين! وعليَّ أن آتي بنص التنزيل على ما قلت، قال: فهاته.

قلت: قال الله ﷻ وقد ذكر كلامه في القرآن ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وإنما يسمعه من قارئه وإنما عَنَى القرآن، لا خلاف بين أهل العلم واللغة في ذلك وقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن

(١) في مطبوع «الحيدة»: «يا بشر».
(٢) سقطت من الأصل، وأثبتها من مطبوع «الحيدة».
(٣) كذا في مطبوع «الحيدة»، وفي الأصل بدل ما بين المعقوفتين: «بقوله وكلامه وأمره وهذه أربعة أشياء، ولا أنه خلقها إلا بكلامه»! وهذا مكرر سيأتي في غير هذا المحل.
(٤) في مطبوع «الحيدة»: «بلى قد قلت».

تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥] وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] فقد أخبر عن القرآن أنه الحق، وقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام: ٦٦] فأخبر عن القرآن أنه الحق، وقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤] فأخبر عن القرآن أنه الحق، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣] وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] وقال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ [القصص: ٥٣] فأخبر أنه الحق، فهذه أخبار الله كلها أن القرآن هو الحق، ثم ذكر ﷻ قوله فسماه الحق فأخبر أن الحق قوله: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ [ص: ٨٤] فأخبر أنه الحق وأن الحق قوله، وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣] فهذه أخبار الله أنه الحق وأن الحق قوله، ثم ذكر أن كلامه الحق وأن الحق كلامه، فقال: ﴿و كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: ٣٣] وقال: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨٢] وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] فهذه أخبار الله أن الحق كلامه، وأخبر أن أمره هو القرآن وهو كلامه فقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [الدخان: ١ ـ ٥]؛ يعني: القرآن وقال: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥]؛ يعني: القرآن، فهذه أخبار الله أن القرآن أمره وكلامه، وأن أمره هو القرآن، وهذا تعليم الله لخلقه وتأديبه لهم، فقلت كما قال الله: إن القرآن كلام الله وأنه من أمر الله وأنه الحق، وأن هذه أسماء لشيء واحد، وهو الكلام الذي به خُلِقَتْ الأشياء، وهو غير الأشياء وخارج عن الأشياء، وليس هو كالأشياء، فهذا بنص التنزيل لا بتأويل ولا بتفسير.

فقال المأمون: أحسنت يا عبد العزيز!

فقال بشر: يا أمير المؤمنين هذا يحب أن يخطب بما لا أسمعه ولا أعقله ولا ألتفت إليه، وما أتى بحجة ولا أقبل من هذا شيئاً.

قال: قلت: يا أمير المؤمنين، من لا يعقل عن الله ما يخاطب به نبيه وما علّمه لعباده في كتابه، يدّعي العلم ويحتج للمقالات والمذاهب ويدعو الناس للبدع والضلال!!

قال بشر: أنا وأنت في هذه سواء، تنتزع آيات من القرآن لا تعلم تفسيرها، ولا تأويلها وأنا أردُّ ذلك وأدفعه، حتى تأتي بما أفهمه وأعقله.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين فذاك كلام بشر وتسويته فيما بيني وبينه، ولقد فرق الله فيما بيني وبينه، وأخبر الله أنّا على غير السواء، وأكْذَبَهُ في دعواه، فقال المأمون: وأين ذلك من كتاب الله ﷻ، قلت: قال الله ﷻ: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]. فأنا ـ والله ـ يا أمير المؤمنين أعلم أن الذي أنزل عليه هو الحق وأؤمن به، وبشر قد شهد على نفسه أنه لا يعلمه ولا يفهمه ولا يعقله ولا يقبله، وأنه مما لا يقوم لي به عليه حُجّة[1] فلم يقل كما قال الله ﷻ، ولا كما قال نبيه ﷺ، ولا كما قال موسى عليه السلام، ولا كما قالت الملائكة، ولا كما قال المؤمنون، ولا كما قال أهل الكتاب، ولقد أخبر الله عن جهله وأزال عنه التذكرة[2]، وأخرجه عن جملة أولي الألباب، لكنَّ أمير المؤمنين لمّا خصه الله به من الفضل والسؤدد، وشرَّفَه به من الحلم والفضل، ورزقه من الفهم والمعرفة، قد[3] عقل عن الله قوله، وعرف ما عنى به فقبله، واستحسنه ممن انتزع به بين يديه.

فقال بشر: قد أقرَّ بين يديك أن القرآن شيء، فليكن عنده كيف شاء، فقد اتفقنا جميعاً أنه شيء، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فهذه لفظة لم تدع شيئاً إلا أدخلته في الخلق، ولا يخرج عنها شيء ينسب إلى الشيء؛ لأنها لفظة قد استوعبت الأشياء كلها، وأتت عليها مما ذكرها الله ﷻ ومما لم يذكرها، فصار القرآن مخلوقاً بنص التنزيل لا بتأويل ولا بتفسير.

قال عبد العزيز: فقلت: يا أمير المؤمنين عليَّ أن أكسر قوله وأكذبه فيما قال بنص التنزيل حتى يرجع عن قوله، أو يقف أمير المؤمنين على كسر قوله وبطلان دعواه.

---

(١) سقطت من الأصل، وأثبتها من مطبوع «الحيدة».
(٢) كذا في مطبوع «الحيدة»، وفي الأصل: «المذكرة»!
(٣) غير موجود في مطبوع «الحيدة».

فقال المأمون: قل ما عندك.

قلت: قال الله في قصة عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] فهل أبقت الريح يا بشر شيئاً لم تدمره؟ قال: لا، قد دمرت كل شيء كما أخبر الله عنها فلم يبق شيء إلا وقد دخل تحت هذه اللفظة.

فقلت: قد أكذب الله ﷻ من قال هذا بقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] فأخبر أن مساكنهم كانت باقية بعد تدميرهم ومساكنهم أشياء كثيرة وقد قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤٢] وقد قال في قصة بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] فهل بقي يا بشر شيء لم تؤته بلقيس؟ قال: أنا أقول أن هذه اللفظة تجمع الأشياء كلها.

فقلت: قد أكذب الله ﷻ من قال هذا؛ لأن ملك سليمان كمثل ملك بلقيس مائة ألف مرة ولم تؤته».

ومضى عبد العزيز الكناني في مناظرته مع بشر إلى أن قال له: «فقلت: يا بشر قال الله ﷻ: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١] ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] فقد أخبرنا الله ﷻ في مواضع كثيرة من كتابه أن له نفساً فتقر يا بشر أن لله نفساً كما أخبر عنها، قال: نعم.

فقلت: يا أمير المؤمنين اشهد عليه أنه أقرَّ أن لله نفساً، قال: نعم.

قد سمعت قوله وشهدت عليه، فقلت: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فتقول يا بشر: إن نفس الله ﷻ داخلة في هذه النفوس التي تذوق الموت، فصاح المأمون بأعلى صوته ـ وكان جهوريَّ الصَّوت ـ: معاذ الله معاذ الله.

قال عبد العزيز: فرفعت صوتي إذاً وقلت: معاذ الله أن يكون كلام الله داخلاً في الأشياء المخلوقة، كما أن نفسه ليست بداخلة في الأشياء الميتة»[(١)].

قال محمد تقي الدين: وأكتفي بهذا القدر من كلام الإمام الكناني ومن أراد استقصاءه فليرجع إلى كتاب «الحيدة»[(٢)].

---

(١) انظر: «الحيدة» (ص٢٣ ـ ٤٣، ٥٣) بتصرف.

(٢) قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٦٣٩) في ترجمة الكناني: «لم يصح إسناد كتاب «الحيدة» =

....

= إليه، فكأنه وُضع عليه، والله أعلم». وذكر فيه أيضاً (٣/ ٥١٧) في ترجمة (محمد بن الحسن بن الأزهر الدَّعَّاء) أنه «هو الذي انفرد برواية كتاب «الحيدة» وهو متّهم، قال الذهبي: «ويغلب على ظني أنه هو الذي وضع كتاب «الحيدة»، إني لأستبعد وقوعه جداً.
ووجَّه ابن حجر في «لسان الميزان» (٧/ ٧٢ ـ ط. الشيخ أبي غدة) استبعاد الذهبي هذا، فقال: «ووجه استبعاد المصنف كتاب «الحَيْدة» أنه يشتمل على مناظراتٍ أقيمت فيها الحُجَّة لتصحيح مذهب أهل السنّة عند المأمون، وأعجبه قولُ صاحبها، فلو كان الأمرُ كذلك ما كان المأمون يرجع إلى مذهب الجَهْمية، ويَحمِل الناس عليه، ويعاقب على تركه، ويهدِّد بالقتل وغيره، كما هو معروفٌ في أخباره، وفي كُتُب المحنة». انتهى.
وجاء في حاشية بعض النسخ الخطية تعليق بخط مستحيي زادة، ونصه: وكلام الخطيب في «تاريخه الكبير» (١٠/ ٤٤٩) صريح في أن كتاب «الحيدة» تأليف لعبد العزيز المكي الذي ناظر عند الخليفة المأمون مع بشر المريسي القائل بخلق القرآن، ولم يكن للذهبي برهانٌ لكون الكتاب وضعه ابن أزهر سوى استبعاده ذلك.
ثم قول صاحب «اللسان»: «ووجه استبعاد المصنف. . .» إلخ ليس بوجيه، بناءً على أنه كان دأبُ المأمون وعادتُه قديماً أنه يناظر عنده أصحاب المذاهب المختلفة، وهو يستمع معهم ولا ينكر شيئاً منهم إنكاراً يؤدي إلى طردٍ وزجرٍ وترتيبِ جزاءٍ لمن خالف رأيه، إلى أن استقر ورسخ في قلبه القولُ بخلق القرآن بعد مناظرات طويلة، ومباحثات عظيمة مع الموافق والمخالف.
وبعد هذا الرسوخ أنكر إنكاراً عظيماً لمن خالفه، بل رتّب عليه الجزاء بالنفي والقتل، والمناظرة المذكورة في كتاب «الحيدة» كانت قبل رسوخ المأمون في القول بخلق القرآن، وقبل استقرار ذلك في قلبه، وجميع ما ذكرنا ظاهر من كتاب «الحيدة» لمن له قلب سليم». انتهى التعليق.
ثم علّق الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة بقوله:
«قلت: وقول هذا المعلِّق: «ولم يكن للذهبي برهانٌ. . .» ليس بوجيه؛ لأن بُرهان الذهبي ظاهر من كلامه، وهو أن الدَّعَّاء هذا انفرد برواية هذا الكتاب عن مصنفه، وهو متَّهم بالكذب والوضع، فيحتمل أنه وضعه على عبد العزيز ونسبه إليه؛ لأن الذهبي يستبعد وقوع المناظرة عند المأمون، وبيَّن ابن حجر وجه استبعاد الذهبي».
قال أبو عبيدة: الذي أُراه ـ والله أعلم ـ أن قول الشيخ عبد الفتاح ـ عليه الرحمة ـ ليس بوجيه؛ لأن (الدَّعَّاء) لم ينفرد برواية كتاب «الحَيْدَة»، ولابن بطة في «الإبانة» الكبرى إسناد آخر للكناني في هذه المناظرة، وهي تكاد تتطابق مع جلّ ما في هذا الكتاب، فلم يبقَ إلا الاسم، فالخطب هيِّن، ولا يغررك تهويل ابن السبكي في «طبقاته» (١/ ٢٦٥) لما قال عنه: «فيه أمور مستشنعة»! فالذي دعاه لهذا أشعريته، عفى الله عنه، ولعلّ أبا غدة تابعه لهذا الملحظ، وقد ناقش ـ قديماً ـ محققه د. جميل صليبا في نشرته التي صدرت في دمشق سنة ١٩٦٤م ابن السبكي، وأبرز الشيخ العلّامة علي بن محمد الفقيهي =

قول أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني: قال رَحِمَهُ اللهُ: «ويشهد أصحاب الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه[١] ووحيه وتنزيله غير مخلوق، ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم، والقرآن الذي هو كلام الله ووحيه هو الذي ينزل به جبريل على الرسول ﷺ قرآناً عربياً، لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً كما قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥] وهو الذي بلَّغه الرسولُ أمَّته كما أُمر به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] فكان الذي بلغهم بأمر الله تعالى[٢] كلامه ﷻ وفيه قال ﷺ: «**أتمنعونني أنْ أبلِّغ كلام ربي؟**»[٣] وهو الذي تحفظه الصدور، وتتلوه الألسنة، ويُكتَب في المصاحف كيف ما تصرف بقراءة قارئ، ولفظ لافظ، وحفظ حافظ، وحيث تُليَ وفي أيِّ موضع قُرئَ وكتبَ في مصاحف أهل الإسلام وألواح صبيانهم وغيرها، كلُّه كلامُ الله جل جلاله[٤] غير مخلوق، فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم.

سمعت[٥] الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقول: سمعت[٦] أبا الوليد حسان بن محمد يقول: سمعت الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، فمن قال: إن القرآن مخلوق، فهو كافر بالله العظيم، لا تُقبل شهادته، ولا يُعاد إن مَرِض، ولا يصلَّى عليه إن مات، ولا يُدفَن في مقابر المسلمين، ويستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، فأما اللفظ بالقرآن فإنَّ الشيخ أبا بكر الإسماعيلي الجرجاني ذكر في رسالته التي صنفها

= ـ حفظه الله ـ في مقدمته لـ«الحيدة» إسناد ابن بطة، ورد كلام الذهبي وتابعهِ ابنِ السبكي، وتوجيه ابنِ حجر، وعليه فإن كلام زادة السابق وجيه ومتين، والكتاب ثابت النسبة، والله أعلم.

(١) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «وخطابه».

(٢) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «فكان الذي بلغه تعالى».

(٣) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٨٦)، والترمذي (٢٩٢٥)، وأبو داود (٤٧٣٤)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٨٥)، وغيرهم **وصححه** شيخنا الألباني.

(٤) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «وهو القرآن بعينه الذي نقول أنه».

(٥) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «شيخنا».

(٦) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «الإمام».

لأهل جيلان[١] إن من زعم أن لفظه بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فقد قال: بخلق القرآن، وذكر ابن مهدي الطبري في كتابه «الاعتقاد» الذي صنَّفه لأهل هذه البلاد أنّ مذهب أهل السنة والجماعة القول بأن القرآن كلام الله سبحانه ووحيه وتنزيله وأمره ونهيه غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافرٌ بالله العظيم، وأن القرآن في صدورنا محفوظٌ، وبألسنتنا مقروء، وفي مصاحفنا مكتوب، وهو الكلام الذي تكلم الله ﷻ به، ومَن قال: إن القرآن بلفظي مخلوق أو لفظي به مخلوق؛ فهو جاهل ضالٌّ كافر بالله العظيم.

وإنما ذكرتُ هذا الفصل بعينه من كتاب ابن مهدي؛ لاستحساني ذلك منه، فإنه اتَّبعَ السلف أصحاب الحديث فيما ذكر[٢] مع تبحره في علم الكلام وتصانيفه الكثيرة فيه وتقدمه وتبريزه[٣] عن أهله. اهـ.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: قرأتُ بخط أبي عمرو المستملي سمعت أبا عثمان سعيد بن إشكاب[٤] يقول: سألت إسحاق بن إبراهيم[٥] عن اللفظ بالقرآن؟ فقال: «لا ينبغي أن يناظر في هذا، القرآن كلام الله غير مخلوق»، وذكر (ع) الطبري في كتابه «الاعتقاد» الذي صنفه[٦] قال: أما القول في ألفاظ العباد بالقرآن[٧] فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي ولا تابعي، إلا عمّن في قوله الغنى والشفا[٨]، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم قوله مقام الأئمة[٩] أبو عبد الله أحمد بن حنبل.

فإن أبا إسماعيل الترمذي حدّثني قال: سمعت أبا عبد الله (حم) يقول: اللفظية جهمية، قال الله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ممن

---

(١) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «قال فيها».
(٢) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «ذكره».
(٣) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «وتبرزه».
(٤) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «سعيد بن أشكاب الساش»، وفي الأصل: «الشكاب»!
(٥) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «بنيسابور».
(٦) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «في هذه المسألة».
(٧) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «في القرآن».
(٨) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «الشفاء».
(٩) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «الأولى».

يسمع؟. قال[1]: ثم سمعت جماعة من أصحابنا ـ لا أحفظ أسماءهم ـ يذكرون عنه أنه كان يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع»[2] قال محمد بن جرير: ولا قولَ في ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله، إذ لم يكن لنا فيه إمامٌ نأتَّمُ به سواه، وفيه الكفاية والمقنَعُ، وهو الإمام المتبع رحمة الله عليه.

هذه ألفاظ محمد بن جرير التي نقلتها نفسها ههنا[3] من كتاب «الاعتقاد» الذي صنفه.

قلت: وهو ـ أعني محمد بن جرير ـ قد نفى عن نفسه بهذا الفصل الذي ذكره في كتابه كل ما نُسب إليه وقُذِف به من عُدولٍ عن السنة[4] أو ميل إلى شيء من البدعة، والذي حكاه عن (حم) أن اللفظية جهمية فصحيح عنه، وإنما قال ذلك لأن جهماً وأصحابه صرَّحوا بخَلْق القرآن، والذين قالوا باللفظ تدرَّجوا به إلى القول بخلق القرآن، وخافوا أهل السنة في ذلك الزمان من التصريح بخلق القرآن[5]، فذكروا هذا اللفظ وأرادوا به أن القرآن بلفظنا مخلوق، فلذلك سمّاهم أحمد جهمية.

وحُكي عنه أيضاً أنه قال: «اللفظية شر من الجهمية» وأما ما حكاه (ج) عن (حم) أن من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، فإنما أراد[6] أن السلف من أهل السنة لم يتكلموا في باب اللفظ[7]، من أهل التعمق وذوي الحمق الذين أتوا بالمحدثات، وبحثوا عما نُهوا عنه من الضلالات، وذميم المقالات، وخاضوا فيما لم يَخُضْ فيه السلف من علماء الإسلام، فقال: (حم) هذا القول

---

(١) أي ابن جرير.
(٢) روى عبد الله بن أحمد في «السنة» (١/ ١٦٥) عن أبيه الشطر الأول.
(٣) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «إلى ما هاهنا».
(٤) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «سبيل السنة».
(٥) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «فأدرجوه في هذا القول ذي اللبس؛ لئلا يُعدُّوا في زمرة جهم، الذين هم شياطين الإنس، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً».
(٦) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «أراد به».
(٧) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «ولم يحوجهم الحال إليه وإنما حدث الكلام في اللفظ».

في نفسه بدعة[١]، ومن حق المتدين أن يدعه ولا يتفوّه به، ولا بمثله من البدع المبتدعة، ويقتصر على ما قاله السلف من الأئمة المتبعة، أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يزيد عليه إلا تكفير من يقول بخلقه[٢].

أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ[٣]: ثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الخارجي بمرو، ثنا يحيى بن ساسويه[٤] عن أبيه عبد الكريم السندي[٥] قال: قال وهب بن زمعة: أخبرني الباساني قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: «من كفر بحرف من القرآن فقد كفر[٦] بالقرآن، ومن قال: لا أؤمن بهذا الكلام فقد كفر»[٧].

قال شارح «الواسطية» الأستاذ المحقق عبد العزيز بن محمد آل سلمان في تأليفه المسمى بـ«الكواشف الجلية في شرح العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ما نصه:

فصل
في الإيمان بالقرآن

«ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزَّل، غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله علي محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدأ لا من قاله مبلغاً مؤدياً، وهو كلام الله حروفه ومعانيه ليس كلام الله الحروف دون

---

(١) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «وكُلُّ بدعة مبتدعة».
(٢) انظر تفصيل رأي ابن جرير في هذه المسألة في: «الإمام ابن جرير الطبري ودفاعه عن عقيدة السلف» (ص٣٩٥ ـ ٤١٠ ـ مرقوم على الآلة الكاتبة).
(٣) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «التاريخ» الذي جمعه لنيسابور وعلمائها عند ذكر إمام المسلمين عبد الله بن المبارك رضي الله عنه قال».
(٤) كذا في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»، وفي الأصل: «سالوكة»!
(٥) في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «اليشكري».
(٦) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «يعني».
(٧) انظر: «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (ص٣٠ ـ ٣٥).

المعاني ولا المعاني دون الحروف»، وجه دخول هذا الفصل في الإيمان بالله أن الإيمان بالله هو التصديق الجازم بجميع ما أخبر الله به ورسوله[1] وقد أخبر الله ورسوله أنه كلامه [وتوعد من قال: إنه قول البشر][2]؛ ولأن الإيمان بكلام الله على هذا الوصف الذي ذكره المصنف وأنه من الإيمان بالله؛ لأنه وصفه والكلام صفة للمتكلم.

فإنه تعالى موصوف بأنه متكلم، إذا شاء بما شاء، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم، وكلامه تعالى لا ينفد قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

وقال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلماً أو أن يكون القرآن كلامه فقد أنكر رسالة محمد ﷺ، بل ورسالة جميع الرسل التي حقيقتها تبليغ كلام المرسل وهو الله ﷻ.

فإذا لم يكن ثم[3] كلام فماذا يبلِّغ الرسول؟ وكيف يعقل كونه رسولاً؟ ونوع الكلام أزلي أبدي، ومفرداته لا تزال تقع شيئاً فشيئاً بحسب حكمة الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال (ك) على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيتين: «يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنّتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم[4]: هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله [جملة واحدة][5]، كالتوراة والإنجيل والزبور

(١) من مطبوع «الكواشف الجلية» وسقطت من الأصل، وفي الأصل فقط بعد ورسوله: «إلخ» ولا معنى لها، إلا أن تكون هكذا في أصول الشيخ، ليتممها من أراد تنضيد الكتاب.
(٢) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».
(٣) من مطبوع «الكواشف الجلية»، وسقطت من الأصل.
(٤) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي:».
(٥) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

وغيرها من الكتب الإلهية؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك، بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج من الأحكام»[١].

وقوله: «مُنزَّل غير مخلوق» هذا قول أهل السنة والجماعة، خلافاً لقول الجهمية والمعتزلة وغيرهم، ممن يقول: كلام الله مخلوق!!.

فالجهمية يقولون: إن الله لا يتكلم، بل خلق كلاماً في غيره وجعل غيره يعبر عنه، وما جاء من الأدلة على صفة الكلام، قالوا: مجاز.

والمعتزلة قالوا: إن الله متكلم حقيقة لكن معنى ذلك أنه خالق للكلام في غيره، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء، وقول الطائفتين باطل، مخالف لقول السلف والأئمة، ومخالف للأدلة العقلية والسمعية».

قال الشيخ: «ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم، ما دل عليه الكتاب والسنة.

وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود. فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ليس مخلوقاً منفصلاً عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، لم يقل أحد منهم إن القرآن والتوراة والإنجيل لازمة لذاته أزلاً وأبداً، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته، وقالوا: إن نفس ندائه لموسى، أو نفس الكلمة المعنيّة قديمة أزلية، بل قالوا: لم يزل الله متكلماً إذا شاء وكلمات الله لا نهاية لها، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرانية، قال: ولما ظهر من قال: إنه مخلوق، قالوا: رداً[٢] لكلامه أنه غير مخلوق، وأول من عُرِف أنه قال: قديم، هو عبد الله بن سعيد بن كلاب.اهـ.

[قال الشاعر:

اسْتَغْفِرِ اللهَ واترك ما حكى لهم   أبو الهذيل وما قال ابنُ كلابِ][٣]

فالقرآن كلام الله حيث تصرف، سواء كان محفوظاً في الصدر أو متلواً، وأما كتابة العباد وأصواتهم والورق الذي كتب عليه القرآن والمداد الذي كتب به،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣٠٤).   (٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «أراد».

(٣) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

فهذه كلها مخلوقة، وأما الذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه فإنه كلامه غير مخلوق؛ فإن جميع ما يعود إلى العباد وأوصافهم مخلوق، وأما الذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه[١] فإنه كلامه غير مخلوق، وقول السلف منه بدأ وإليه يعود، أي: ظهر وخرج منه، فهو المتكلم به لا غيره.

وقال الشيخ في المناظرة: ولما جاءت مسألة القرآن ومن الإيمان به، الإيمان بأن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

نازع بعضهم في كونه منه بدأ وإليه يعود، وطلبوا تفسير ذلك، فقلت: أما هذا القول فهو المأثور عن السلف مثل ما نقله عمرو بن دينار قال: أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق. إلا القرآن فإنه كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأما معناه: فإن قولهم: منه بدأ، أي: هو المتكلم به، وهو الذي أنزله من لدنه وإليه يرجع في آخر الزمان بأن يسرى به ويرفع فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف، ورفع القرآن من أشراط الساعة، ورد ذلك في عدة آثار.

وقوله: «فإن الله تكلم به حقيقة» والآيات والأحاديث في إثبات صفة الكلام وأن الله تكلم حقيقة كثير، وكذلك الآيات والأحاديث الدالة على أن الله تكلم بالقرآن كثيرة، وكلها دالة على أنه سبحانه تكلم حقيقة لا مجازاً»[٢].

وقال في ص٢٢٠:

إثبات صفة الكلام لله

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٤]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص: ٦٥]، ﴿وَإِنْ

---

(١) من مطبوع «الكواشف الجلية»، وسقط من الأصل.

(٢) انظر: «الكواشف الجلية» (ص١٩٨ ـ ٢٠٠) بتصرف.

أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل: ١٠١]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢] ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

في هذه الآيات الكريمة إثبات صفة الكلام لله حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، وحقيقة الإيمان بصفة الكلام لله أنه الاعتقاد الجازم بأن الله متكلم بكلام قديم النوع، حادث الآحاد، وأنه لم يزل يتكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء، وأنه يتكلم بحرف وصوت بكلام يسمعه من شاء من خلقه سمعه منه موسى، والأبوان[1] بلا واسطة، ومن أذن له من ملائكته ورسله، وأنه يكلم المؤمنين ويكلمونه في الآخرة، هذا مذهب أهل السنة والجماعة.

وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف على أنه سبحانه يتكلم بمشيئته، كما دل على أن كلامه صفة قائمة بذاته، وهو صفة ذات وفعل، وقد دلت النصوص على أن القرآن العزيز الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات عين كلام الله حقاً، لا تأليف ملك ولا بشر، وأنه سبحانه الذي قال بنفسه: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ [الأعراف: ١]، و﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ [الشورى: ١، ٢]، و﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ [مريم: ١].

الآيتان: الأولى والثانية: ﴿مَنْ﴾: لفظة استفهام، ومعناه: لا أحد أصدق من الله في حديثه ولا أحد أصدق من الله قولاً ولا خبراً. وهذا إخبار منه تعالى

---

(١) يريد: آدم وحواء، وسيأتي مصرَّحاً به قريباً.

بأن حديثه وإخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل هي أعلاها، فكل ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل، لمناقضة الخبر الصادق.

ففي الآيتين:

١ ـ إثبات صفة الكلام.

٢ ـ إنها صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته.

٣ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي.

٤ ـ إثبات الألوهية.

٥ ـ إنه لا أحد أصدق من الله قولاً ولا خبراً.

الآية الثالثة:

هذا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿يَٰعِيسَى . . .﴾ [المائدة: ١١٦].

وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى ابن مريم عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الظالمين.

ففي الآية:

١ ـ إثبات القول لله سبحانه، وأنه يقول متى شاء إذا شاء، وأن الكلام والقول المضاف إلى الله سبحانه قديم النوع، حادث الآحاد، وفيه دليل على أنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت كما يليق بجلاله.

٢ ـ الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي؛ إذ المعنى المجرد لا يسمع.

الآية الرابعة:

قد تطلق الكلمة على الجملة والطائفة من القول في غرض واحد، فإذا كتب أحد أو خطب في موضوع ما، قيل: كتب أو قال كلمة، وكانوا يسمون القصيدة كلمة، وقالوا: كلمة التوحيد يعنون «لا إله إلا الله»، وقال ﷺ: «**أصدق كلمة**

قالها الشاعر كلمة لبيد ...»[1] يريد قوله «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

والمعنى:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ فيما قال ﴿وَعَدْلًا﴾ فيما حكم، فهو صدق في الأخبار، وعدل في الطلب، فكل ما أخبر به فهو حق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة كما قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والمراد بـ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: أمره ونهيه ووعده ووعيده فما وعد به رسوله من النصر، وما أوعد به المستهزئين من الخذلان والهلاك تمّ[2]، كما تم في الرسل وأعدائهم من قبل كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣] فتمامها صدقاً هو حصولها على الوجه الذي أخبر به، وتمامها عدلاً بأعتبار أنها جزاء للكافرين المعاندين للحق بما يستحقون، وللمؤمنين بما يستحقون أيضاً، وقد يزادون على ذلك فضلاً من الله ورحمة وقوله: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قال ابن عباس: «لا راد لقضائه ولا مغير لحكمه ولا خلف لوعده»[3].

والخلاصة:

أنه لا يستطيع أحد من الخلق أن يبدّل[4] كلمات الله بكلمات أخرى تخالفها أو تمنع صدقها، ولا يستطيع أن يصرفها عما أراده الله بها قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وكلمات الله نوعان: النوع الأول: **كونية قدرية** وهي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «**أعوذ بكلمات الله التامة، التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر**»[5]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة.
(٢) من مطبوع «الكواشف الجلية»، وسقط من الأصل.
(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (١/ ٢٨١). (٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «يزيل».
(٥) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ١/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩)، وابن أبي شيبة (٨/ ٦١ ـ ٢ =

[قال ابن القيم:

والله ربِّي لم يزل متكلِّماً وكلامُه المسموعُ بالآذانِ
صدقاً وعدلاً أُحكمتْ كلماتُه طَلباً وإخباراً بلا نُقصانِ
ورسولُه قد عاذ بالكلمات من لَدغ ومن عينٍ ومن شيطانِ
أيُعَاذُ بالمخلوق حاشاه مِنْ الْـ إشْرَاكِ وهو مُعلِّم الإيمانِ
بل عاذ بالكلمات وهي صفاتُه سبحانَه ليستْ من الأكوانِ][(١)]

النوع الثاني: الكلمات الدينية، وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي أمره ونهيه، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال العباد العليم بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كلَّ عامل بعمله، وتقدم الكلام على اسمه تعالى (السميع) واسمه (العليم).

ففي الآية أمور:

١ ـ إثبات الربوبية.

٢ ـ إثبات صفة الكلام لله.

٣ ـ إنه ليس لكلمات الله مبدِّل ولا معقِّب في الدنيا ولا في الآخرة.

٤ ـ أنه لا أحد أصدق ولا أعدل من الله ﷻ.

٥ ـ إثبات صفة السمع.

٦ ـ إثبات صفة البصر.

٧ ـ الحث على مراقبة الله.

= و١٠/٣٦٤ ـ ٣٦٥)، وأحمد (٢/٤١٩ و٣/٤١٩)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/٦٩٦ ـ ٦٩٧)، وأبو يعلى (٦٨٤٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٣٧)، وأبو نعيم في «الدلائل» (١٣٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/٩٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/١١٤) من حديث عبد الرحمٰن بن خَنْبَش، وأخرجه الطبراني في «الكبير (٤/١١٤)، وفي «الأوسط» (٥/٣١٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤/١٧٥) من حديث خالد بن الوليد، وأخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسندٍ فيه لين، قاله ابن حجر في «بذل الماعون» (١٦٥).

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٣٦٢) عن مكحول مرسلاً، **وصححه** شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٢٧٣٨، ٢٩٩٥)، وانظر كتابي: «فتح المنان» (١/١٨٤، ٣٧٤ ـ ٣٧٦).

(١) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية»، والأبيات في «الكافية الشافية» (٧٢ ـ ط ابن الجوزي).

٨ ـ حفظ كلمات الله وأحكامها.

٩ ـ إنه لا أحسن من كلمات الله ولا أبلغ ولا أصدق منها[١].

١٠ ـ الحث على العدل.

١١ ـ النهي عن الكذب.

١٢ ـ النهي عن الجور.

١٣ ـ إن أحكام الله نافذة على كل الخلق.

١٤ ـ إن الله لا يخلف الميعاد.

١٥ ـ التسلية للنبي ﷺ.

١٦ ـ الوعيد لمن خالف الرسول.

١٧ ـ الرد على من أنكر صفة الكلام.

١٨ ـ الرد على من قال: إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو غيرهما.

١٩ ـ في الآية معجزة؛ لأن الله أخبر أنه لا مبدل لكلماته، ووقع كما أخبر.

٢٠ ـ إثبات قدرة الله.

٢١ ـ الرد على من أنكر صفة العلم، كالجهمية والقدرية.

٢٢ ـ الرد على من أنكر صفة السمع، كالجهمية ونحوهم.

الآية الخامسة والسادسة، والسابعة:

خصص الله موسى عليه السلام بهذه الصفة تشريفاً له، ولذا يقال له: الكليم، وهذا دليل على أن التكليم الذي حصل له عليه السلام أخص من مطلق الوحي، ثم أكده بالمصدر الحقيقي؛ رفعاً لما توهمه المعطلة من أنه إلهام أو إشارة أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم، فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة، ورفع توهم المجاز.

ففي الآية أمور:

١ ـ إثبات صفة الكلام.

٢ ـ إثبات الألوهية.

---

(١) بعدها في مطبوع «الكواشف الجلية»: «الحث على الصدق».

٣ ـ إثبات الربوبية.

٤ ـ تخصيص موسى بهذه الصفة تشريفاً له.

٥ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي.

٦ ـ دليل على أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء متى شاء كيف شاء.

٧ ـ دليل على أن نوع الكلام قديم، فكلام الله سبحانه قديم النوع، حادث الآحاد، وهو **نوعان**: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وكقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، وهذا **النوع** يقال له: **الكوني القدري**.

والنوع الثاني: **الديني الشرعي**، وذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]، وكقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] والشرعي هو الذي منه الكتب المنزلة على رسله، وكلامه سبحانه نوعان: بلا واسطة، وذلك كلام الله لموسى، وككلامه للأبوين آدم وحواء وكلامه[1] لجبريل؟

والنوع الثاني: ما كان بواسطة: إما بالوحي للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولاً، يكلمهم من أمره بما يشاء قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

الآية الثامنة:

النداء: الصوت الرفيع، والنجاء: الصوت الخفي، والطور: اسم جبل بين مصر ومدين، الأيمن: من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن أي الأبرك من اليُمْن والبركة، وفي «تفسير القرطبي»: «وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر» قاله القرطبي[2] وغيره.

فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال وقوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] أي: مناجياً[3].

---

(١) قال مؤلف هذا الكتاب محمد تقي الدين: ويضاف إلى ذلك كلامه مع نبينا محمد ﷺ في فرض الصلوات ليلة الإسراء. (منه).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» عند (سورة مريم: ٥٢) (١١/ ١١٤).

(٣) في الأصل: «منا نجيا»!

ففي الآية:

إثبات صفة الكلام لله، وأنه يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله، إذ لا يعقل النداء إلا ما كان حرفاً وصوتاً، وقد استفاضت الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين من أئمة السنة بذلك.

قال ابن القيم:

وَاللهُ قَدْ نَادى الكَلِيمَ وقَبْلَهُ ... سَمِعَ النِّدَا في الجَنَّةِ الأَبَوَانِ
وأتى النِّدا في تَسْعِ آياتٍ لَهُ ... وَصْفاً فراجِعْها مِنَ القُرْآنِ
أيصِحُّ في عَقْلٍ وفي نَقْلٍ نِدَا ... ءٌ ليس مَسْمُوعاً لنَا بأذانِ[1]
أَمْ أجمَعَ العُلَماءُ والعُقَلاءُ مِنْ ... أهلِ اللسان وأهلِ كُلِّ لسانِ
أَنَّ النِّدا[2] الصَّوْتُ الرَّفِيعُ وضِدُّهُ ... فَهُوَ النِّجَاءُ كِلاهُما صَوْتانِ[3]

وفي الآية أمور:

١ ـ إثبات النداء.

٢ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي، إذ المعنى المجرد لا يسمع.

٣ ـ تخصيص موسى بهذه الصفة تشريفاً له.

الآية التاسعة:

أي: اذكر حالة موسى الفاضلة، وقت نداء الله حين كلَّمه ونبَّأه وأرسله فقال: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]؛ يعني: الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية والكفر، والتكبر في الأرض، والعلو على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وساموهم سوء العذاب.

ففي الآية أمور:

١ ـ إثبات صفة الكلام لله.

٢ ـ إثبات الربوبية.

٣ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي.

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «كأذانِ».
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «النِّدا».
(٣) انظر: «الكافية الشافية» (ص٧٩، ط. ابن الجوزي).

٤ ـ إنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت؛ إذ لا يعقل النداء إلا ما كان حرفاً وصوتاً.
٥ ـ الرد على من قال: إن القرآن كلام محمد ﷺ أو غيره.

الآية العاشرة:

قال الله تعالى معاتباً وموبِّخاً لآدم وحواء على ترك التحفظ والحيطة والتدبر في العواقب ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] أي: ظاهر العداوة لكما، فإن أطعتماه أخرجكما من الجنة.

ففي الآية أمور:
١ ـ إثبات صفة الكلام وأنه بحرف وصوت.
٢ ـ إثبات الربوبية.
٣ ـ الأمر بالتحفظ والحيطة والتدبر في الأمور.

الآية الحادية عشرة:

قال (ﷺ) على هذه الآية: «النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسأل العبد في قبره: «**من ربك؟ ومن نبيك؟ وما هو دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري**»(١)، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت؛ لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى»(٢). اهـ.

أفادت هذه الآية: أموراً:
١ ـ إثبات صفة الكلام لله.
٢ ـ إنه يتكلم بحرف وصوت يليق بجلاله.
٣ ـ إثبات البعث والرسالة والحشر والجزاء على الأعمال.
٤ ـ إثبات النداء.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» عند (سورة القصص: ٦٥) (١٠/٤٧٨).

٥ ـ إثبات القول.

٦ ـ الرد على من زعم أن كلام الله المعنى النفسي، إذ المعنى المجرد لا يسمع.

قال بعض العلماء: من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي، زعم أن الله لم يرسل رسولاً، ولم ينزل كتاباً، وقال آخر: من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي فقد زعم أن الله أخرس، وقال ابن حجر في «شرح (خ)»: «ومن نفى الصوت فقد زعم أن الله لم يُسمِع أحداً من ملائكته ولا رسله كلاماً، بل ألهمهم إياه إلهاماً»[١].

وقال ابن القيم: «ولفظ النداء الإلٰهي قد تكرر في الكتاب والسنة تكراراً مطرداً، متنوِّعاً تنوعاً يمتنع حمله على المجاز، فأخبر تعالى أنه نادى الأبوين في الجنة، ونادى كليمه، وأنه ينادي عباده يوم القيامة، وقد ذَكَر الله النداء في تسعة مواضع من القرآن، أخبر فيها عن ندائه بنفسه، ولا حاجة إلى أن يقيد النداء بالصوت، فإنه بمعناه وحقيقته باتفاق أهل اللغة، فإذا انتفى الصوت انتفى النداء قطعاً كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا** ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣][٢]. وروى (د) عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تكلم الله بالوحي [سمع أهل السماء للسماوات][٣] صلصلة كجرِّ السلسلة على الصَّفا[٤]، فيُصْعَقون ولا يزالون حتى يأتيهم جبرائيل، فإذا جاءهم جبرائيل فُزِّع عن قلوبهم، [قال][٥]: فيقولون: يا جبرائيل[٦]: ماذا قال ربك؟ قال: الحق، فينادون: الحق الحق**»[٧] وإسناده ثقات، وقد فسر الصحابة الآية بما يوافق هذا الحديث الصحيح،

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٥٦٧) بتصرف.
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٨١) من حديث أبي هريرة.
(٣) بدل ما بين المعقوفتين في الأصل: «سمعت السماوات»! والمثبت من «سنن أبي داود».
(٤) كذا في «سنن أبي داود»، وفي الأصل: «الصفوان»!
(٥) سقط من الأصل.
(٦) في الأصل: «الجبرائيل»، والمثبت من «سنن أبي داود».
(٧) أخرجه أبو داود (٤٧٣٨)، وابن حبان (١/ ١٦٧ ـ التعليقات الحسان)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٥٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٥١٠) من حديث ابن مسعود مرفوعاً.

=

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو يعلى الموصلي عن عبد الله بن أنيس قال: «**فينادي بصوت يسمعه مَنْ بَعُد كما يسمعه من قَرُب: أنا الملك أنا الديان**»[(١)] وفي «تفسير شيبان» عن قتادة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٨] قال: «صوت رب العالمين»، ذكره ابن خزيمة[(٢)]، والأحاديث والآثار عن السلف كثيرة في ذلك جداً، وتقدم حديث أبي سعيد في «الصحيح» الذي بلّغناه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وسائر الأمة تلقته بالقبول وتقييده بالصوت إيضاحاً وتأكيداً كما قيَّد التَّكلُّم بالمصدر، في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل أن الله قد أحب فلاناً فأحبه...**»[(٣)] الحديث، والذي تعقله الأمم من النداء إنما هو الصوت المسموع، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾ [ق: ٤١].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤] وهذا النداء هو رفع أصواتهم الذي نهى الله عنه المؤمنين، وأثنى عليهم بِغَضِّها في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الحجرات: ٣]، وكل ما في القرآن العظيم من ذكر كلامه وتكليمه وأمره ونهيه دالٌّ على أنه تكلم حقيقة لا مجازاً، وكذا نصوص الوحي الخاص كقوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقد نوَّع الله هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعاً يستحيل معه نفي حقائقها،

= وأخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٥١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧)، وذكره البخاري في «صحيحه» كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ...﴾ تعليقاً بصيغة الجزم عن ابن مسعود موقوفاً.

قال شيخنا **الألباني** في «الصحيحة» (١٢٩٣): «قلت: **والموقوف وإن كان أصح من المرفوع، ولذلك علقه البخاري في «صحيحه»، فإنه لا يعل المرفوع؛ لأنه لا يقال: من قِبَل الرأي كما هو ظاهر**، لا سيما وله شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعاً نحوه».

(١) سبق تخريجه.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وإنما الذي وجدته عن قتادة في هذه الآية هو قوله: «نور الله بورك».

أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ٧٩)، وذكره ابن جرير في «التفسير» (١٨/ ١١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧).

بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة الكلام والعلو والفعل والقدرة، بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالى، وإذا انتفت منه حقيقة الكلام، انتفت حقيقة الرسالة والنبوة، والرب تبارك وتعالى يخلق بكلامه وقوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] فإذا انتفت حقيقة الكلام (انتفى) الخلق، وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تكلم عابديها[(١)]، ولا ترجع إليهم قولاً، والجهمية وصفوا الرب تبارك وتعالى بصفة هذه الآلهة، وقد ضرب الله تعالى لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر، يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار الأرض كلها أقلام؛ فيفنى المداد والأقلام ولا تنفد كلماته.

أفهذه صفة من لا يتكلم ولا يقوم به كلام؟ فإذا كان كلامه وتكليمه وخطابه ونداؤه وقوله وأمره ونهيه ووصيته وعهده وإذنه وحكمه وإخباره وشهادته كل ذلك مجاز لا حقيقة له، بطلت الحقائق كلها، فإن الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينية، ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون، فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله، وقال في «النونية»:

وَاللهُ عَـزَّ وجَـلَّ مُـوْصٍ آمِـرٌ ... نـاهٍ مُـنَـبٌّ مُـرسِـلٌ لِـبَـيـانِ
ومُـخـاطِـبٌ ومُـحـاسِـبٌ ومُـنـبِّـئٌ ... ومُـحـدِّثٌ ومُـخـبِّـرٌ بـالـشَّـانِ
ومُـكَـلِّـم مـتَـكَـلِّـم بـل قـائِـلٌ ... ومُـحـذِّرٌ ومُـبـشِّـرٌ بـأَمـانِ
هـادٍ يـقـولُ الـحـقَّ يُـرشِـدُ خَـلْـقَـهُ ... بـكـلامِـهِ لـلـحـقِّ والإيـمـانِ
فإذا انتفتْ صِفـةُ الكلامِ فكلُّ هَـ ... ـذَا مُـنْـتَـفٍ مُـتَـحـقِّـقُ الـبُـطـلانِ
وإذا انـتَـفَـتْ صِـفَـةُ الـكـلامِ كـذلِـكَ ... الإرسـالُ[(٢)] مـنـفِـيٌّ بـلا فُـرقَـانِ
فـرسـالـةُ الـمـبـعـوثِ تـبـلـيـغٌ كَـلا ... مَ الـمُـرسِـلِ الـدَّاعِـي بـلا نُـقـصانِ[(٣)]

ومما يؤخذ من الآية المتقدمة:

الرد على من زعم أن كلام الله هو معنى قائم بذاته، لا يتجزأ ولا يتبعَّض، فإن الأمر لو كان كما زعموا؛ لكان موسى[(٤)] سمع جميع كلام الله، والرد على

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «لا تُكلِّم ولا تُكلِّم عابديها».
(٢) في مطبوع «الكافية الشافية»: «كذلك الْ إرسال» بالزحف.
(٣) انظر: «الكافية الشافية» (ص٨٠، ط. ابن الجوزي).
(٤) من مطبوع «الكواشف الجلية»، وسقطت من الأصل.

من زعم أن كلام الله مخلوق [وأنه من صفاته][(١)] فإنّ صفاته داخلة في مسمى اسمه، فليس الله اسماً لذات: لا سمع ولا بصر ولا حياة ولا كلام لها، فكلامه وحياته وقدرته داخلة في مسمى اسمه، فهو سبحانه بصفاته الخالق، وما سواه المخلوق.

الآية الثانية عشرة:

﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾: طلب جوارك، أي: حمايتك وأمانك، ﴿فَأَجِرْهُ﴾: أي: فأمِّنه، و﴿مَأْمَنَهُۥ﴾: أي: مسكنه الذي يأمن فيه، وهو دار قومه.

المعنى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾، أي: كن جاراً له، مؤمِّناً[(٢)] له[(٢)] محامياً ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبره حق تدبره ويقف على حقيقة ما تدعو إليه.

ويُستَنْبط من الآية:

دليل على أنه إذا استأمن مشرك ليسمع القرآن وجب تأمينه، ليعلم دين الله وتنشر الدعوة، وإثبات الألوهية، وأن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدأ، لا من قال مبلغاً مؤدياً، وأن الآية حجة صريحة لمذهب السلف أن القرآن منزل غير مخلوق؛ لأن الله تعالى هو المتكلم به، وإنما أضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها.

ودليل على بطلان مذهب المعتزلة، ومن أخذ بقولهم الباطل أن القرآن مخلوق، مستدلين على بدعتهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فيدخل في عموم ﴿كُلٌّ﴾ فيكون مخلوقاً، وهذا من أعجب العجب! فإن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها فأخرجوها من عموم ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] ففرَّق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، إلى ما لا نهاية

---

(١) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

(٢) من مطبوع «الكواشف الجلية»، وسقطت من الأصل.

له، فيلزم التسلسل وهو باطل، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرها، وذلك صريح الكفر، وكيف يصح أن يكون متكلِّماً بكلام يقوم بغيره؟! ولو صح ذلك؛ للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه، وكذلك أيضاً ما خلقه في الحيوان، بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه في غيره زوراً كان أو كذباً أو كفراً وهذياناً، تعالى الله عن ذلك، وقد طرد هذا الاتحادية، فقال ابن عربي:

وكلُّ كلامٍ في الوجودِ كلامُه   سَواءٌ علينا نثرُهُ ونظامُه[١]

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره؛ لصحَّ أن يقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصير؛ لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصير[٢] بغيره، ولصح أن يوصف الله بالصفات التي خلقها في غيره، من الألوان، والروائح، والطعوم، والطول، والقصر، ونحو ذلك.

قال ابن القيم: «احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] ونحو ذلك من الآيات فأجاب الأكثرون: إنه عام مخصوص، يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه.

قال ابن عقيل في «الإرشاد»: «ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الأخبار ولا يصلح لتناوله، قال: لأنه به حصل عقد الإعلام بكونه خالقاً لكل شيء، وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلاً تحت الخبر.

قالوا[٣]: ولو أن شخصاً قال: لا أتكلم اليوم كلاماً إلا كان كذباً، لم يدخل إخباره بذلك تحت ما أخبر به»، قلت: ثم تدبرت هذا فوجدته مذكوراً في قوله تعالى في قصة مريم ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] وإنما أُمِرَتْ بذلك لئلا تُسأل عن ولدها.

فقولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ به حصل إخبار بأنها لا تكلِّم الإنس، ولم يكن ما أخبرت به داخلاً تحت الخبر، وإلا كان قولها مخالفاً لنذرها»[٤] .اهـ.

---

(١) عزاه له ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كثير من كتبه. انظر مثلاً: «منهاج السنة» (٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣) و(٥/ ٤٢٦)، وفي «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٢٥٢).

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «البصر».

(٣) في مطبوع «بدائع الفوائد»: «قال».

(٤) انظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ٢١٨).



وأما استدلالهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] فما أفسده من استدلال فإن (جعل) إذا كانت بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١][1] وكذلك قوله: ﴿جَعَلْنَهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، على أن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى[2] وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠] والنداء هو الكلامُ مِن بُعْد، ما سمع[3] موسى النداء من حافة الوادي.

ثم قال: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] أي: إن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، و(من) لابتداء الغاية، ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله لكان قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] صدقاً، إذ كل من الكلامَيْن عندهم مخلوق قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين ـ على أصولهم الفاسدة ـ: إن ذلك كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون، فحرَّفوا وبدَّلوا واعتقدوا خالقاً غير الله». اهـ «من شرح الطحاوية»[4].

أما قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فالمعنى: إنه خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها الروح، فعيسى ناشئ عن الكلمة وليس هو نفس الكلمة، وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ يعني: إنه كائن منه تعالى، أي: هو موجده وخالقه، فهو روح من الأرواح التي خلقها الله.

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أي: مخلوق بأمره.

---

(١) نحوه في «شفاء العليل» (١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

(٢) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «فسمعه موسى منها».

(٣) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «فسمع».

(٤) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٨٦ ـ ١٨٧) بتصرف.

الآية الثالثة عشرة:

الفريق الجماعة من الناس، ولا واحد له من لفظه، ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: يغيرون وتقدم معنى التحريف وبيان أقسامه وضابط كل قسم وأمثلته، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: عرفوه وفهموه وضبطوه، أعني: كلام الله التوراة.

والمعنى لهذه الآية الكريمة:

أنسيتم أفعالهم وأعمالهم، فتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء اليهود، وقد كان جماعة منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه، أي: يتأولونه على غير تأويله من بعد ما عقلوه، أي: فهموه على الجلية، ومع هذا فهم يخالفونه على بصيرة، وهم يعلمون أنهم مخطؤون فيما ذهبوا إليه من تحريف.

ويستنبط من الآية:

إثبات صفة الكلام، وإثبات الألوهية، والذم لمن يحرف كلام الله، وإن التحريف من صفات اليهود، وقطع لأطماع المؤمنين من إيمان هؤلاء. وفيها دليل على تعمدهم وسوء قصدهم، وإبطال لما عساه أن يتعذر لهم من سوء الفهم، وفي الآية دليل على تعمق الفسق والعصيان في اليهود، والرد على من زعم أن الله لا يتكلم، والرد على من قال: إن القرآن مخلوق، وأن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغاً مؤدياً، والرد على من قال: إنَّ القرآن كلام محمد.

الآية الرابعة عشرة:

المعنى: يريدون أن يبدلوا كلام الله، أي: وعد الله لأهل الحديبية، وذلك أن الله وعدهم أن يعوضهم من غنيمة مكة غنيمة خيبر وفتحها، وأن يكون ذلك مختصاً بهم دون غيرهم. وأراد المخلفون أن يشاركوهم في ذلك.

ثم قال: قل يا محمد لهم: لن تتبعونا؛ أي إلى خيبر، وهذا خبر بمعنى النهي، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥] أي: من قبل عودتنا إليكم، أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب.

ويفهم من الآية:

إثبات صفة الكلام لله، وإثبات القول لله سبحانه، وإثبات الألوهية لله سبحانه وحده، وأن الكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدئاً، والرد على من قال:

إن الله لا يتكلم، والرد على من قال: إن القرآن كلام محمد ﷺ، أو كلام ملك أو بشر.

وفيها دليل على بطلان قول المعتزلة ومن أخذ بقولهم أن القول مخلوق.

الآية الخامسة عشرة:

﴿ٱتْلُ﴾: اتبع، ﴿مَآ أُوحِىَ﴾: أي: اتبع ما أوحي إليك.

الوحي لغة: الإعلام بخفاء، وفي الاصطلاح: إعلام الله أنبياءه بالشيء، إما بكتاب أو رسالة أو ملك أو منام أو إلهام، ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: أي القرآن، ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: أي لا مُغيِّر ولا محرِّف ولا مزيل لها، ﴿مُلْتَحَدًا﴾: ملتجأ يلتجئ إليه.

المعنى:

يقول تعالى لرسوله ﷺ: واتل الكتاب الذي أوحي إليك، والزم العمل به، واتبع ما فيه من أمر ونهي، فإنه الكتاب الجليل المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل، فإن أنت لم تتبع القرآن وتتله، وتعمل بأحكامه، لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه.

ويستنبط من الآية:

تعظيم القرآن، والحث على الإقبال على القرآن وتدبره وتفهمه والعمل به، وإثبات الربوبية لله، وأن القرآن لا يستطيع أحد أن يغير ما فيه، وأن الكتاب هو القرآن خلافاً للكُلَّابية، فإنه سبحانه سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتاباً وكلاماً، والرد على من قال: إن القرآن كلام محمد أو ملك أو بشر أو غير ذلك، والحث على الالتجاء إلى الله في كل الأمور؛ لأنه الملجأ وحده، وإثبات قدرة الله، وأنها محيطة بجميع خلقه، فلا يقدر على الهرب من أمرٍ أراده به.

الآية السادسة عشرة:

يقول تعالى مخباراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل ـ وهم حملة التوراة والإنجيل ـ أكثر الذي هم فيه يختلفون، كاختلافهم في عيسى، وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بقول الوسط الحق العدل، أنه عبد من عباد الله، ونبي من أنبيائه ورسله الكرام.

يفهم من الآية:

دليل عظمة هذا الكتاب وهيمنته على الكتب السابقة، وتوضيحه لما وقع فيها من اشتباه واختلاف، وأنه جاء حكماً على بني إسرائيل، فيما اختلفوا فيه، فأبان لهم الحقَّ، والرد على من قال: إن كلام الله هو المعنى النفسي.

ووجوب الرجوع إلى القرآن واتباعه، وأن الاختلاف متقدِّم في الأمم، وإثبات صفة الكلام لله، والرد على من أنكر صفة الكلام أو أوَّلها بتأويل باطل.

الآية السابعة عشرة:

يقول جلَّ شأنه مخبراً عن عظمة هذا الكتاب ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ أي: القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني على محمد ﷺ ﴿مُبَارَكٌ﴾: أي: كثير الخير والمنافع، دائم البركة، يبشر بالثواب والمغفرة والرحمة ويزجر عن الأفعال القبيحة والمعصية.

ففي هذه الآية: دليل على إثبات صفة الكلام، والحث على تدبر القرآن والاعتناء بما فيه من أحكام وإرشادات، ولُطْف الله بخلقه حيث أنزل إليهم هذا الكتاب العظيم، وإثبات قدرة الله، والرد على الجهمية القائلين أن القرآن مخلوق، ودليل لقول أهل السنة أن القرآن منزل غير مخلوق، ودليل علو الله على خلقه، وفيه رد على من قال: إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو بشر أو غير ذلك، ورد على من قال: إن القرآن مخلوق كالمعتزلة ومن أخذ بقولهم، وأن القرآن كثير الخير دائم المنفعة والبركة، وفيه رد على من قال: إن كلام الله المعنى النفسي.

الآية الثامنة عشرة:

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن، ومبيِّناً علو شأنه وقدره، وأنه حقيقٌ بأن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] أي: من شأنه، وعظمته، وجودة ألفاظه، وقوة معانيه وبلاغته، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال؛ لرأيته مع كونه في غاية الصلابة وضخامة الجرم وشدة القشوة خاشعاً متصدعاً؛ أي: منقاداً متذللاً، متشققاً من خوف الله.

ويستنبط من الآية:

علو شأن القرآن وقوة تأثيره لما فيه من المواعظ والزواجر، وتوبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه حين قراءته للقرآن، وتدبر ما فيه من القوارع التي تَذِل لها الجبال الراسيات، وفيه دليل على مذهب السلف من أن القرآن منزَّل غير مخلوق، ودليل على علو الله على خلقه، والرد على من قال: إن القرآن مخلوق، كالمعتزلة ونحوهم، وأنه سبحانه خلق في الجمادات إدراكاً بحيث تخشع، وهذا حقيقة كما دلت على ذلك الأدلة، ولا يعلم كيفية ذلك إلا الله.

والحث على الخوف من الله، والخشوع عند سماعه لكلام الله، وفيها رد على من قال: إن كلام الله المعنى النفسي، والرد على من قال: إنه كلام جبريل أو بشر أو غير ذلك وإثبات الألوهية.

الآية الأخيرة:

قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾ آية [النحل: ١٠١] إلخ.. التبديل: رفع الشيء ووضع غيره مكانه. وتبديل الآية نسخها بأخرى، ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريل؛ لأنه ينزل بما يطهر القلوب. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالصدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ﴾: أي ليزيدهم يقيناً وإيماناً، البشر والبشارة هو أول خبر سار بشر به إنسان؛ سمِّي بذلك لبدو بشرته، والمراد جبر الرومي غلام ابن الحضرمي، كان قد قرأ التوراة والإنجيل، وكان النبي ﷺ يجلس عنده إذا آذاه أهل مكة.

والإلحاد: الميل، أي: يميلون ويشيرون، ﴿لِسَانُ﴾: أي: لغته وكلامه، وأطلق اللسان على القرآن؛ لأن العرب تطلق اللسان وتريد به الكلام، فتؤنّثها وتذكّرها.

ومنه قول الشاعر:

لِسانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا وحِنْتَ وما حَسِبْتُكَ أَنْ تَحِينا[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٨٤] أي: ثناءً باقياً.

﴿أَعْجَمِيٌّ﴾: العجمية في لسان العرب الإخفاء وضد البيان، فالأعجمي المراد به: الذي لا يفصح وإن كان ينزل البادية.

---

(١) ذكره ابن هشام في «مغني اللبيب» (١/ ١٨٢) ولم ينسبه لأحد.

المعنى:

هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبه كفرية ودفعها. أي: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية آخرى، والله أعلم بالذي هو أصلح فيما ينزل، قال المشركون لرسوله: إنما أنت متقوّل على الله، تأمر بشيء ثم تنهى عنه، وأكثرهم لا يعلمون ما في التبديل من حِكَم بالغة، ثم قال تعالى مبيناً لهؤلاء المعترضين على حِكْمة النسخ، الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وأن الرسول افتراه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] الآية، أي: قل لهم يا محمد: قد[1] جاء جبريل بما أتلوه عليهم من عند ربي، على مقتضى حكمته البالغة، من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة، وبراهين ساطعة، على وحدانية خالق الكون، وباهر قدرته، وواسع علمه، وجعله هادياً ببشارة المسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا﴾ [النحل: ١٠٣] يعلم محمداً القرآن ﴿بَشَرٌ﴾ من بني آدم غير ملك، ثم أجاب سبحانه عن قولهم هذا، فردَّ عليهم وكذبهم في قيلهم فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] أي: إن لسان الذي تميلون وتشيرون إليه بأنه يعلِّم محمداً أعجمي؛ أي: لا يتكلَّم بالعربية، والقرآن كلام عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون الذي يقوله أعجمياً؟ فهذا القول لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل، وفي التشبت[2] بمثل هذه المطاعن الركيكة والخرافات الساذجة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز:

فَدَعْهُم يزعمون الصُّبحَ ليلاً[3] أَيَعْمىٰ العالَمُونَ عنِ الضِّياءِ[4]

ويستنبط من الآية الكريمة:

إثبات النسخ، وأنه لحكمة ومصلحة، وإثبات صفة العلم لله تعالى، وإثبات الألوهية، وإثبات علو الله على خلقه، ودليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن منزل غير مخلوق، والرد على من زعم أنه مخلوق، والرد على من قال:

---

(١) كذا في مطبوع «الكواشف الجلية»، وفي الأصل: «قل»!
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «التشبُّث».
(٣) في مطبوع «شرح ديوان المتنبي»: «وَهَبْني قلتُ هذا الصبحُ ليلٌ».
(٤) هذا البيت للمتنبي. انظر: «شرح ديوان المتنبي» للبرقوقي (١/ ١٣٨).

إنه كلام ملك أو بشر أو غير ذلك، والرد على من قال إنه خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة، كما هو قول الجهمية، والرد على من قال: إنه فاض على النبي ﷺ: كما يقول طوائف من الفلاسفة، وأن السفير بين الله ورسوله محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام.

والرد على من قال: إن كلام الله هو المعنى النفسي، فإن جبريل سمعه من الله، والمعنى المجرَّد لا يُسمع، والدليل على أن القرآن نزل باللغة العربية وتكلَّم الله بالقرآن بها، والتوبيخ للمعترضين، والإيمان إلى أن التبديل لم يكن للهوى بل للحكمة التي اقتضت ذلك، وإبطال شبه المعترضين، وإثبات صفة الربوبية، وأن القرآن نزل بالصدق والعدل، وأن القرآن نافع للخلق كل النفع في دينهم ودنياهم، فبه تثبت العقائد وتطمئن القلوب.

وأن فيه الهداية من الزيغ والضلالات، ففيه ما يهذب النفوس، ويكبح جماح الطغيان، ويردّ الظالم عن ظلمه، ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض.

وأن فيه بشارة للمسلمين؛ بما سيلقونه من الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار.

وأن قدح الجاهل لا عبرة به؛ لأن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وقدح هؤلاء عن جهل وعناد، وهذه عادة الغبي إذا سمع شيئاً لم يفهمه ولم يعلمه قدح فيه فإذا عاب إنسان قولاً صحيحاً؛ فذلك لأنه لم يفهمه؛ وإنما أتى من قِبَلَ قريحته، وهذا معنى رائع بديع قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الإحقاف: ١١] وقال المتنبي أخذاً من هذه الآية:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفتُه من الفهم السَّقيم
ولكن تأخذ الأذهانُ[١] منه ... على قَدَرِ القَريحَةِ والعُلُومِ[٢]

أخذه الآخر، فقال:

والنجمُ تستَصْغِر الأبصارُ صُورته ... والذَّنْبُ للطَّرفِ لا للنَّجم في الصِّغَرِ[٣]

وقال الآخر:

---

(١) في «ديوان المتنبي»: «الآذان».
(٢) البيتان ضمن قصيدة في «ديوان أبي الطيب» (ص٢٣٩ ـ مع «العَرف الطيب»).
(٣) البيت لأبي العلاء المعرِّي، كما في «دمية القصر» (١/ ٢٠٦).

كم من كلامٍ قد تضمَّن حكمةً ... نال الكسادَ بسوقِ مَنْ لا يَفْهَمِ

ومما يؤخذ من الآية الكريمة:

أن القرآن نزل بالتدريج كما تُشْعِر به صيغة (التفعيل) في الموضعين، والتنويه بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام المنزَّه عن الخيانة والكذب، والرد على من أنكر صفة العلم، أو أوّلها بتأويل باطل والرد على القدرية النافين لعلم الله، والتهديد والمأخذ من قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ . . .﴾ إلخ.

مسألة الكلام

افترق الناس في مسألة الكلام على عدة أقوال:

أحدها: مذهب الجهمية والمعتزلة: أن القرآن مخلوق.

الثاني: الكُلّابية وأتباعهم من الأشاعرة: أن القرآن نوعان ألفاظ ومعاني، فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمة قائمة بالنفس، وهي معنى واحد لا تَبَعُّضَ فيها ولا تعدد، إن عُبِّر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عُبِّر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عُبِّر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، وإنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته.

الثالث: الكرامية: إنه متعلق بالمشيئة والقدرة، قائم بذات الرب، وهو حروف وأصوات مسموعة، وهو حادث بعد أن لم يكن، وأخطؤوا في قولهم: إن له ابتداء في ذاته.

الرابع: الماتريدية: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذات الله، هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور.

الخامس: مذهب الاتحادية: إن كلَّ كلام لله: نظمه، ونثره، حقه، وباطله، وسحره، وكفره، والسب، والشتم، والهجر، والفحش، وأضداده، كله عين كلام الله تعالى القائم بذاته، قال ابن القيم حاكياً كلام الاتحادية:

وأَتَتْ طَوائِفُ الاتِّحادِ بِملّةٍ[1] ... طَمَّتْ على ما قال كلُّ لِسانِ
قالوا كَلامُ اللهِ كلُّ كلامِ هـ ... ـذا الخَلْقِ مِنْ جِنٍّ ومِن إنسانِ
نظماً ونَثْراً زُورُهُ وصحيحُهُ ... صِدْقاً وكِذْباً واضِحَ البطلانِ

---

(١) كذا في مطبوع «الكافية الشافية»، وفي الأصل: «حملة»!

فالسبُّ والشَّتْمُ القبيحُ وقذْفُهُم ... للمحصناتِ وكلُّ نوعِ أَغَاني[١]
والنَّوْحُ والتغريم[٢] والسِّحْر المبـ ... ـينُ وسائِرُ [البهتان و][٣] الهَذَيَانِ
هو عينُ قولِ الله جل جلالُهُ ... وكلامُهُ حقاً بلا نُكرانِ
إذ أصلُهُمْ أن الإلٰه حقيقةً ... عينُ الوجودِ وعينُ ذِي الأكوانِ[٤]

السادس: مذهب السالمية: إنه صفة قائمة بذات الله، لازمة له كلزوم الحياة، ولا يتعلَّق بالمشيئة والقدرة، ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات لا يسبق بعضها بعضاً، بل مقترنة: الباء[٥] مع السين مع الميم في آنٍ واحد لم تكن معدومة في وقت من الأوقات، ولا تعدم، بل هي لم تزل قائمة بذات الله.

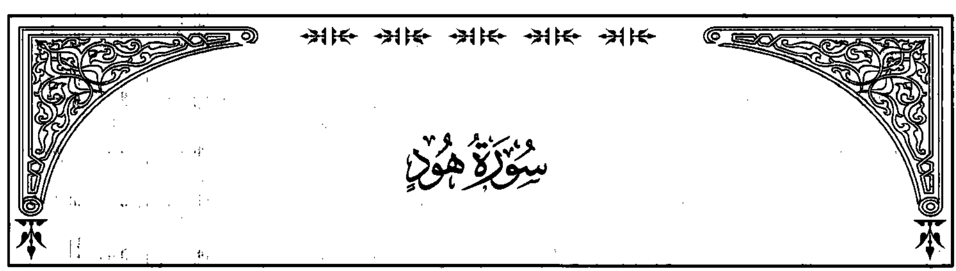
السابع: مذهب الصابئة والمتفلسفة: إن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني، إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره.

الثامن: إنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء. وهو يتكلم بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعيَّن قديماً، وهو المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

قال ابن القيم[٦]:

وإذا أَرَدْتَ مجامِعَ الطُّرُقِ التي ... فيها افتِرَاقُ الناسِ في القُرآنِ
فمدارها أصلانِ قامَ عليهما ... هذا الخِلافُ هما لَهُ رُكنانِ
هل[٧] قوله بمشيئةٍ أم لا وَهَلْ ... في ذاتِه أم خارجٌ هذان
أصل[٨] اختلافِ جميع أهلِ الأرض ... في القُرآنِ[٩] فاطلُبْ مقتضى البُرهانِ[١٠]

(١) كذا في مطبوع «الكافية الشافية»، وفي الأصل: «أغان».
(٢) كذا في مطبوع «الكافية الشافية»، وفي الأصل: «التغريد».
(٣) سقط من الأصل، وأثبته من «الكافية الشافية».
(٤) انظر: «الكافية الشافية» (ص٨٧).
(٥) كذا في مطبوع «الكواشف الجلية»: «الباء» بباء موحدة، وفي الأصل بالياء آخر الحروف.
(٦) في مطبوع «الكافية الشافية»: «هو».
(٧) في مطبوع «الكافية الشافية»: «أصلاً».
(٨) في مطبوع «الكافية الشافية»: «أهل الأرض في القرآن» بالزحف.
(٩) في «الكافية الشافية» (ص٧٤ ـ ٧٥).
(١٠) من «الكواشف الجلية» (١٣٧ ـ ١٥٢) بتصرف.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦]

قال (ك): «أخبر تعالى أنه متكفِّل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها وبريِّها، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها، أي: يعلم أين منتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وَكْرِها، وهو مستودعها.

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي[١]: حيث تأوي ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيث تموت، وعن مجاهد ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب، كالتي في «الأنعام».

وكذا روي عن ابن عباس والضحاك وجماعة.

وذكر ابن أبي حاتم[٢] أقوال المفسرين هٰهنا كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله، مبين عن جميع ذلك.

كقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الإنعام: ٣٨].

وقوله: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]»[٣].

وفي «الكواشف الجلية»:

«وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا

---

(١) غير موجود في مطبوع «تفسير ابن كثير».

(٢) في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٤). (٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١٤).

يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤] الآية. وقوله: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ١١] وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢] في هذه الآية دليل على إثبات صفة العلم، وهي الصفات الذاتية، وعلمه سبحانه شامل لكل شيء، ومحيط به؛ فيعلم ما كان، وما يكن لو كان كيف يكون.

قال ابن القيم:

وَهُوَ العليمُ أحاطَ عِلْماً بالذي ... في الكون مِنْ سِرٍّ وَمِن إعلانِ

وبكلِّ شيءٍ عِلْمُهُ سبحانَه ... فهُوَ المحِيطُ ولِيس ذا نِسْيانِ

وكذاكَ يعلمُ ما يَكُونُ غداً ومَا ... قَدْ كان والمَوْجُودَ فِي ذَا الآنِ[١]

في الآية الأولى: إثبات علم الله، فهو سبحانه يعلم ما يدخل في الأرض من المياه والكنوز والأموات والبذور والوحوش وبني آدم في الكهوف وغير ذلك، ويعلم ما ينزل من السماء، [ويعلم ما يخرج منها][٢] من نبات ومعادن ومياه وأموات وأبخرة وغير ذلك، ويعلم ما ينزل من السماء من ملائكة وأمطار ومصائب وحر وبرد وغير ذلك، وما يعرج فيها من حفظة وأعمال، وقد أنكر غلاة القدرية علم الله القديم، وأنه يعلم الأشياء قبل وقوعها، وقد اشتد إنكار السلف عليهم، وقالوا: ناظروهم بالعلم فإن أقروا به: خصموا، وإن جحدوه؛ كفروا، وقال الإمام (**حم**) في «ردّه على الجهمية والزنادقة»:

«فإن قال الجهمي: ليس له علم؛ كفر. وإن قال لله: علم مُحْدَثٌ؛ كفر؛ حيث زعم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم؛ حتى أحْدَثَ له عِلْماً؛ فَعَلِم!

فإن قال: لله عِلمٌ وليس مخلوقاً ولا محدثاً، رجع عن قوله كلِّه، وقال بقول أهل السنة»[٣].

---

(١) انظر: «الكافية الشافية» (ص٢٠٧).

(٢) من مطبوع «الكواشف الجلية»، وسقط من الأصل، والسياق يقتضيه.

(٣) انظر: «الرد على الزنادقة والجهمية» (ص٣٠٦).

والدليل العقلي على علمه تعالى: إنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل؛ ولأن إيجاده الأشياء بإرادة، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان إيجاده مستلزماً للعلم.

ولأن المخلوقات فيها من الأحكام والإتقان ما يسلتزم علم الفاعل لها؛ لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم، ولأن من المخلوقات ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً.

وهذا له طريقان:

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوقات، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم أنا لو فرضنا شيئين، أحدهما عالم كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالماً؛ لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

الثاني: أن يقال: كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه، [وهو][1] من الممتنع أن يكون فاعل الكمال[2] ومبدعه عارياً منه، بل هو أحق به، والله تعالى له المثل الأعلى، ولا يستوي هو والمخلوق في قياس تمثيلي، ولا في قياس شمولي، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال، فالخالق أولى به وأحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما، فَتَنَزُّه الخالق عنه أولى.

قال ابن القيم:

وكَمالُ مَنْ أَعطى الكمالَ بنَفْسِهِ ... أَوْلَى وأجدر عند ذي العرفانِ[3]

أَيكونُ قَدْ أَعْطى الكَمَالَ ما لَهُ ... ذَاكَ الكمالُ أذاكَ ذُو إِمَكانِ

أَيكُونُ إنسانٌ سميعاً مُبْصِراً ... مُتَكَلِّماً بمشيئةٍ وبيانِ

ولَهُ الحياةُ وقُدْرَةٌ وإرادَةٌ ... والعِلمُ بالكُلِّي والأعيانِ

واللهُ قَدْ أعطاهُ ذاك ولَيْسَ هذا ... وَصْفَهُ[4] فاعجَبْ مِنَ البُهتَانِ[5]

---

(١) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

(٢) كذا في مطبوع «الكواشف الجلية»، وفي الأصل: «الكامل»!

(٣) في مطبوع «الكافية الشافية»: «أوْلى وأقدَمُ وَهْوَ أعظَمُ شانِ».

(٤) في مطبوع «الكافية الشافية»: «هذا وصفه» بالزحف.

(٥) انظر: «الكافية الشافية» (ص٧٢).

ما يؤخذ من الآية الكريمة:

إثبات صفة العلم، والرد على القدرية، والرد على المعتزلة حيث قالوا: عليم بلا علم، وإحاطة علمه بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، والرد على الجهمية والقدرية المنكرين لصفة العلم، والرد على من زعم أن الله يعلم الكليات دون الجزئيات، ودليل على علو الله على خلقه، وإثبات صفة الكلام لله، ودليل على عظمته ودليل على قدرة الله، والحث على مراقبة الله في السر والعلانية، ودليل على المعية العامة، وإثبات صفة البصر، ودليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وإثبات الألوهية لله، ودليل على سعة علم الله، وإثبات صفة الحياة.

الآية الثانية:

هذه الآية من أعظم الآيات تفصيلاً لعلم الله المحيط.

والمعنى: إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب، أو المفاتيح التي يتوصل بها إليه، فهو الذي يحيط بها علماً، وسواه جاهل لا يعلم منها شيئاً، إلا ما علَّمه[1]. فقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولى.

قال المناوي: «فمن ادعى علم شيء منها كفر، وخص عِلْم ما في البر والبحر بالذِّكْر لأنهما من أعظم مخلوقات الله، ولكونهما[2] أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيها».

والخلاصة: أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة، والأحوال الظاهرة والباطنة، والرطبة واليابسة.

روى (خ) عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]»[3].

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «ما أعلمه الله».

(٢) كذا في مطبوع «الكواشف الجلية»، وفي الأصل: «ولكنها».

(٣) سبق تخريجه.

يؤخذ من الآية:

إثبات صفة العلم، والرد[1] على المعتزلة، وإثبات اللوح المحفوظ، ودليل على عظمة الله وسعته في أوصافه، وأن اللوح المحفوظ محيط بالأشياء كلها، والرد على من أنكر صفة العلم من جهمية ومعتزلة، والرد[1] على القدرية الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، وإثبات صفة الكلام لله، والمأخذ من أن الله هو الذي تكلم به، وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الآية.

وأن الله يعلم المنظور والمحجوب والمعلوم، وجميع ما في الزمان والمكان على السواء، فلا يخفى عليه شيء جَلَّ وعلا.

والحث على خوف الله، والرد على من زعم أن النبي ﷺ يعلم الغيب، [والرد على القدرية الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، وإثبات اللوح المحفوظ، وأن اللوح المحفوظ محيط بالأشياء كلها، ودليل على علو الله على خلقه، والمأخذ من قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ التعميم الشامل للموت والحياة، والذبول والإزهار، وإن حركات البذور والنماء المنشقة من الغور إلى السطح، ومن كمون إلى اندفاع، يعلمها الله][2].

وفيها ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمَّالين ونحوهم، المدَّعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم.

وتنبيه المكلَّفين إلى عدم إهمال أحوالهم، المشتملة على الثواب والعقاب، وذكر البر؛ لأن الإنسان قد شاهد أحواله وكثرة ما فيه.

والحث على المراقبة في السر والعلانية، وإثبات قدرة الله، وأنه لا يعجزه شيء، وذكر البحر وكثرة ما فيه؛ لأن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر، وطولها وعرضها أعظم، وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب.

ودليل على أن الله يعلم الكليات والجزئيات، فلا تخفى عليه خافية، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: ٢٣] ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١) كذا في مطبوع «الكواشف الجلية»، وفي الأصل: «رد»!

(٢) ما بين المعقوفتين تقدم فحواه ومعناه في الفقرة قبل السابقة!

وأخبر سبحانه عن أشياء لم تكن وستكون، كإخباره عن محاجة أهل النار، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: ٤٧] الآيات الثلاث، وقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤] الآيات السبع، إلى غير ذلك من الآيات، وأنه يفهم من الآية أن معلومات ما في البر وما في البحر حقير في جنب ما دخل في عموم ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

الآية الثالثة:

[المعنى «لا يكون حملٌ ولا وضعٌ إلا والله عالم به سبحانه؛ يعلم في أي يوم تحمل، وفي أي يوم تضع، فلم يخرج عن علمه وتدبيره، ويعلم هل هو ذكر أو أنثى؟

ففي الآية:

إثبات صفة العلم، وإنفراده سبحانه بعلم ما في الأرحام وعلم مدته فيها، والرد على من أنكر صفة العلم، أو أولها بتأويل باطل، وإثبات صفة الكلام لله][1].

الآية الرابعة:

اللام متعلقة بخلق أو بتنزل، أو بمقدَّر، أي: فعل ذلك لتعلموا أنه بالغ القدرة لا يعجزه شيء، فهذا عام يتناول أفعال العباد من الطاعات وكل شيء، ومن كمال قدرته تعالى أنه إذا شاء فعل من غير ممانع ولا معارض، فجميع الأشياء منقادة لقدرته، تابعة لمشيئته، ولا يخرج عن علمه شيء منها، كائناً ما كان، وانتصاب عِلْماً على المصدرية أو صفة لمصدر محذوف.

ففي الآية:

إثبات صفة العلم، وإثبات قدرة الله، وإثبات الألوهية، وعموم قدرته تعالى، وسعة علمه سبحانه، وإرشاد الخلق إلى التفكر والعلم النافع، والخوف[2] من الله القادر على كل شيء، والحث على مراقبة الله سراً وعلانية، والرد على

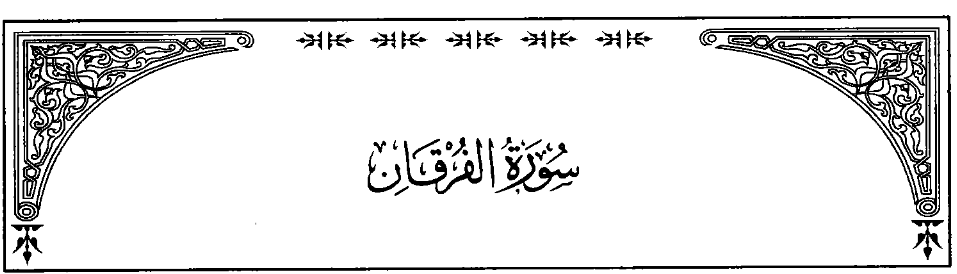
(١) من مطبوع «الكواشف الجلية»، وسقط من الأصل.
(٢) كذا من مطبوع «الكواشف الجلية» وتحرفت في الأصل إلى «والحقوق»!

الجهمية والمعتزلة المنكرين لعلمه المحيط بكل شيء، والرد على القدرية القائلين: إن أفعال العباد غير داخلة في قدرة الله، وإثبات صفة الكلام لله؛ لأن الله هو الذي تكلم بالآية.

وفي أول الآية ما يدل على صفة الخلق، وفيه ما يدل على علو الله على خلقه، وحلم الله على الكافر والعاصي، وأن العباد لا يقدرون الله حق قدره، وإلا لما عصوه، وهو قادر على إهلاكهم في لحظة»[1].

---

(١) انظر: «الكواشف الجلية» (ص٥٤ ـ ٥٧) بتصرف.



الباب الأول

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨]

قال (ك): «أي: في أمورك كلِّها كن متوكّلاً على الله، الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣] الدائم الباقي السرمديّ الأبدي الحي القيوم رب كل شيء ومليكه، اجعله ذُخْرك وملجأك، وهو الذي يُتوكل عليه ويُفزَع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى شهر بن حوشب قال: لقي سلمان النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة، فسجد له فقال: **«لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت»**[١]، وهذا مرسل حسن.

وقوله تعالى؛ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾ أي: اقرِنْ بين حمده وتسبيحه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: **«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك»**[٢] أي: أخلص له العبادة والتوكل كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩] وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾ [الملك: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: لعلمه[٣] التام الذي لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة»[٤].

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.
(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بعلمه».
(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/٣١٦ ـ ٣١٧).

وقال المحقق محمد حسن القنوجي في «فتح البيان»:

«﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في استكفاء شرورهم والاستغناء عن أجورهم ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه، وخص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي الدائم هو الذي يوثق به في المصالح والمنافع ودفع المضار، ولا حياة على الدوام إلا لله[1] سبحانه، دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع[2] من يتوكل عليهم، وقرأها بعض الصالحين فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق.

والتوكل: اعتماد العبد على الله في كل الأمور.

والأسباب وسائط، أمر بها من غير اعتماد عليها.

﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: نزهه عن صفات النقصان مقترناً ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ وقيل معنى سبح: صَلِّ، والصلاة تسمى تسبيحاً، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: حسبك، وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك: كفى بالله رباً، والخبير المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شيء.

فلا لوم عليك إن آمنوا أو كفروا.

وقيل: معناه أنه لا يحتاج معه إلى غيره؛ لأنه خبير عالم قدير على مكافأتهم، وفيه وعيد شديد. كأنه قال: إذا أقدمتم على مخالفة أمره، كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة»[3] .اهـ.

وقال تعالى في سورة المؤمن رقم ٦٥: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

قال (ك): «أي هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ﴾ أي: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾»[4].

«روى الإمام (حم) و(م) و(د) و(ن) بسندهم عن عبد الله بن الزبير أنه كان

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «إلّا الله»!!

(٢) في مطبوع «فتح البيان»: «إذا ما تواضع»!

(٣) انظر: «فتح البيان» (٥/ ٣٨).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٠٧).

يقول في دبر كل صلاة حين يسلِّم: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**».

قال: **وكان رسول الله ﷺ يهلِّل بهن دبر كل صلاة**. اهـ[(١)]»[(٢)].

وتقدم قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ مع تفسيرها، وفي «الكواشف الجلية» للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان:

«وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ التوكل: اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله وفعل الأسباب، أي: وتوكل على الرب الدائم الباقي، رب كل شيء ومليكه، واجعله ملجأ وذخراً لك، وفوِّض أمرك إليه، واستسلم له، واصبر على ما نابك فيه؛ فإنه كافيك وناصرك ومبلِّغك ما تريد.

قال ابن القيم: «أجمع القوم: على أن التوكل لا ينافي الأسباب[(٣)]، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة[(٤)]، وتوكل فاسد.

وقال سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

فالتوكل: حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركنّ سنته»[(٥)].

والتوكل: ينقسم إلى قسمين:

الأول: التوكل على الله: فهو من أشرف أعمال القلوب وأجلها.

الثاني: التوكل على غيره سبحانه، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: التوكل على غير الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٤)، وأحمد (٤/٤)، وأبو داود (١٥٠٦)، والنسائي (١٣٣٩) من حديث عبد الله بن الزبير.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٣) في مطبوع «مدارج السالكين»: «القيام بالأسباب».

(٤) كذا في مطبوع «مدارج السالكين»، وفي الأصل: «باطل».

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧، ط. طيبة أو ٢/ ١١٦، ط. الفقي).

كالتوكل على الأموات والطواغيت في جلب رزق أو دفع ضر أو نصر أو نحو ذلك، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله عليه من رزق أو دفع ضر ونحو ذلك. فهذا النوع شرك أصغر.

الثالث: توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه.

فهذه الوكالة الجائزة، لكن ليس له أن يعتمد عليه بل يتوكل على الله في تيسير أمره، وذلك من جملة الأسباب الجائزة».

وقال الشيخ: «إعراض القلب عن الطلب من الله(١) والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه مُعْتَمِداً إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمماليكه(٢) ومَلِكِه وشيخه ومخدومه، وغيرهم ممن هو قد مات، أو يموت».

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾»، وقال: «القلب لا يصلح ولا يسرّ ولا يلتذّ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحُبِّه والإنابة إليه، ولو حصل كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث(٣) هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل(٤) إلا بإعانة الله له، ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]» فهو مفتقر إليه من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود، ومن حيث هو(٥) المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه ولا رب له سواه، ولا تتم عبوديته إلا بهذين»(٦). اهـ.

---

(١) في مطبوع «مجموع الفتاوى»: «عن الطلب من غير الله».

(٢) في مطبوع «مجموع الفتاوى»: «كمالكه».

(٣) في مطبوع «مجموع الفتاوى»: «ومن حيث».

(٤) في مطبوع «مجموع الفتاوى»: «لا يحصل له».

(٥) في مطبوع «مجموع الفتاوى»: «هو المسؤول».

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٥، ١٩٤ ـ ١٩٥).

ما يؤخذ من الآية الكريمة:

إثبات صفة الحياة، وهي من الصفات الذاتية، فحياته سبحانه أكمل حياة وأتمها، ويستلزم ثبوتها ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، وخصص صفة الحياة إشارة إلى أن الحي هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم.

والأمر بالتوكل على الله، والرد على من أنكر صفة الحياة أو أوَّلها بتأويل باطل، وإثبات البقاء لله، فهو الآخر ليس بعده شيء، وإثبات صفة الكلام، وأن القرآن كلام الله لا كلام محمد ولا جبريل ولا غيرهما. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الحكيم مأخوذ من الحكمة، وله معنيان:

أحدهما: بمعنى القاضي العدل، الحاكم بين خلقه بأمره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري، وله الحكم في الدنيا والآخرة.

والمعنى الثاني: أنه المُحْكِم للأمر؛ كي لا يتطرق إليه الفساد.

قال ابن القيم: «الحكمة حكمتان: علمية وعملية، فالعلمية الإطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خَلْقاً وأمراً، وقَدَراً وشرعاً.

والعملية: وضع الشيء في موضعه»[1]. اهـ.

وحكمته سبحانه صفة قائمة به، كسائر صفَاته من سمعه وبصره، ونحو ذلك، وهي تنقسم إلى قسمين: **أحدهما في خَلْقِه**، وهو نوعان:

الأول: إحكام هذا الخَلْق وإيجاده في غاية الإحكام والإتقان.

الثاني: صدوره لأجل غاية محمودة مطلوبة له سبحانه، التي أمر لأجلها وخلق لأجلها.

الثانية: الحكمة في شَرْعه، وتنقسم إلى قسمين:

الأول: كونها في غاية الإحسان والإتقان.

الثاني: كونها صدرت لغاية مطلوبة وحكمة عظيمة يستحق عليها الحمد.

وأما الخبير، فهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٥٠، ط. طيبة أو ٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩، ط. الفقي).

على وجه الدقة، فالعلم عندما يضاف إلى الخفايا الباطنية يسمى خبرة، ويسمى صاحبها خبيراً.

والله سبحانه لا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة فما فوقها وما دونها ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا وعنده من ذلك خبرة.

ففي الآية:

إثبات صفة الحكمة، وإثبات صفة الخبرة، والحث على مقام المراقبة، والرد على من قال: إنه يعلم الكليات دون الجزئيات، والرد على القدرية»(١) [نفاة العلم، والرد على الجهمية، وإثبات صفة الكلام، وإثبات الحياة، وإحاطة علم الله بكل شيء](٢). اهـ.

وقال صاحب «الكواشف» (ص٧٣):

«وقوله(٣): «وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

ولهذا من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح»(٤).

أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آية في كتاب الله؛ وذلك لاشتمالها على أجل المعارف وأوسع الصفات.

فأخبر أنه المتوحِّد في الألوهية، المستحق لإخلاص العبودية، وأنه الحي الكامل كامل الحياة.

وذلك يقتضي كمال عزته، وقدرته، وسعة علمه، وشمول حكمته، وعموم

---

(١) انظر: «الكواشف الجلية» (ص٥٢ ـ ٥٤) بتصرف.

(٢) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».

(٣) أي: ابن تيمية (شيخ الإسلام).

(٤) سبق تخريجه، وانظر: «العقيدة الواسطية» (ص٩ ـ ١٠).

رحمته، وغير ذلك من صفات الكمال الذاتية، وأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بالموجودات كلها، فخلقها وأحكمها ورزقها ودبرها وأمَدَّها بكل ما تحتاج إليه، وهذا الاسم يتضمن جميع الصفات الفعلية[١]، ولهذا ورد أن الحي القيوم هو الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى[٢]، بدلالة الحي على الصفات الذاتية، والقيوم على الصفات الفعلية والصفات كلها ترجع إليهما.

ومن كمال قيوميته أنه لا تأخذه سِنة ولا نوم، والسِّنَة: النعاس. وهو الذي يتقدم النوم من الفتور وانطباق العينين ويكون في الرأس، فإذا وصل إلى القلب صار نوماً، والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب، تمنعه معرفة الأشياء، فلا يحس ولا يشعر بها.

ثم ذكر عموم ملكه للعالم العلوي والسفلي، ومن تمام ملكه أن الشفاعة كلَّها له، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ففيها ذكر الشفاعة التي يجب إثباتها وهي التي تقع بإذنه لمن ارتضى.

والشفاعة المنفية التي يعتقدها المشركون وهي ما كانت تطلب من غير الله أو بغير إذنه، فمن كمال عظمته سبحانه أن لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه.

ولا يأذن إلا لمن ارتضى قوله وعمله، وبيَّن أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

ثم ذكر سعة علمه وإحاطته، وأنه لا تخفى عليه خافية من الأمور ولا بينة، وأما الخلق فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جداً في علوم الباري ومعلوماته كما قال أعلم الخلق، وهم الرسل والملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وكما قال الخضر: «يا موسى ما نَقْصُ عِلمي وعلمِك من علم الله، إلا كنقرة هذا العصفور في البحر»[٣].

---

(١) كذا مطبوع «الكواشف الجلية»، وفي الأصل: «العلمية»!.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أُبي بن كعب.

ثم أخبر سبحانه عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه الذي هو موضع القدمين لله وسع السموات والأرض وما فيهما، وأنه حفظهما وأسكنهما عن الزوال والتزلزل، وجعلهما على نظام بديع جامع للأحكام والمنافع المتعددة التي لا تحصى.

والصحيح أن الكرسي غير العرش، وأنه في العرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، ومع ذلك فلا يؤوده حفظهما، أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظهما، أي: حفظ العالم العلوي والسفلي؛ وذلك لكمال قدرته وقوته.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ختم سبحانه هذه الآية بهذين الاسمين الجليلين، فهو سبحانه الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: عليٌّ[١] الذات بكونه فوق جميع الخلق على العرش استوى، وعلو القَدْر، إذ إن له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها، العظيم الذي له جميع أوصاف العظمة والكبرياء وله العظمة والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وملائكته وأصفيائه، فلا أعظم منه ولا أكبر.

قال الشيخ: يجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر، كما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة، ولا نسبة لها في عظمة الباري بوجه من الوجوه، وهي في قبضته أصغر من الخردلة في كف الإنسان، والخليقة مفطورة على أنها تقصد ربها في جهة العلو لا تلتفت عن ذلك يمنة ولا يسرة، وجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة، بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين من المتفلسفة وغيرهم، فإنهم غَيَّروا الفطرة في العلم والإرادة جميعاً. اهـ.

فحقيق بآية احتوت على هذه المعاني الجليلة أن تكون أعظم آيات القرآن، وأن يكون لها من المنع وحفظ قارئها من الشرور والشياطين ما ليس لغيرها»[٢].

فصل

قال محمد تقي الدين: كل ما يفعله العبد تقرباً إلى الله تعالى، إذا فعله لغيره كان مشركاً، قد اتخذ مع الله إلهاً آخر، ومن ذلك: الدعاء والاستغاثة

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «علو».

(٢) انظر: «الكواشف الجلية» (ص٤٨ ـ ٥٠) بتصرف.

والذبح والنذر والقيام والركوع والسجود والخشوع، ولذلك نهى النبي ﷺ سلمان الفارسي أن يسجد له، أو لغيره من المخلوقين، وأخبره أن السجود لا يكون إلا للحي الذي لا يموت[١].

ولم يَصِرْ سلمان مشركاً بذلك السجود؛ لأنه لم يكن يعلم أن السجود خاص بالله تعالى ولا سيما وهو فارسي، والفرس يسجدون لملوكهم تعظيماً لهم، وهو يعظم النبي ﷺ أكثر من أي ملك من الملوك.

قال (ك) عند قوله تعالى في سورة يوسف رقم «١٠٠»: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الآية «قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني: السرير، أي: أجلسهما معه على سريره ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه من قبل ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآية وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم: إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَرُمَ هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب[٢] الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لعظمائهم[٣]، فلما رجع، سجد لرسوله ﷺ فقال: **«ما هذا يا معاذ؟»** فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: **«لو لكنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها؛ لعظم حقه عليها»**[٤].

وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: **«لا تسجد لي يا سلمان،**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) كذا مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «بجانب».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لأسقافتهم».

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨١)، وابن ماجه (١٨٥٣)، وابن حبان (٦/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ـ التعليقات الحسان)، والبيهقي (٧/ ٢٩٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى واضطرب القاسم بن عوف ـ أحد رواته ـ في صحابي هذا الحديث. انظر: «العلل» (٦/ ٣٩) للدارقطني، و«العلل» (٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣) لابن أبي حاتم. وللحديث **شواهد عديدة، يصح بها إن شاء الله تعالى**، تكلمت عليها مفصلاً في غير هذا الموضع، والله الموفق.

واسجد للحي الذي لا يموت»[١].

والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم ولهذا خروا له سجداً»[٢]. اهـ.

الإيمان بصفتي السمع والبصر لله تعالى

قال الله تعالى في سورة آل عمران رقم (١٨١): ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

وقال تعالى في سورة النساء رقم (٥٨): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

وقال تعالى في سورة طه رقم ٧: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة طه أيضاً رقم ٤٦: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

وقال تعالى في سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾.

وقال تعالى في سورة العلق: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

قال صاحب «الكواشف الجلية»: ص٨٩:

«﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] من صفات الله تعالى الذاتية السمع والبصر، والسميع والبصير اسمان من أسمائه تعالى، وهو تعالى له سمع يسمع به، وبصر يبصر به حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، ومعنى اسمه (السميع) أي: الذي لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، فيسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصَّمَّاء، في الليلة الظلماء، فأحاط سمعه بجميع المسموعات: سرها وعلانيتها، وقريبها وبعيدها، فلا تختلط عليه الأصوات على اختلاف اللغات، وعلى تفنن الحاجات، وكأنها لديه صوت واحد.

وسمعه تعالى نوعان: **أحدهما:** سمعه جميع الأصوات كما تقدم. **والثاني:** سمع إجابة منه للسائلين والداعين والعابدين، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٧٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

وَهُوَ السميعُ يَرى ويَسمَعُ كُلَّ ما ... في الكَونِ مِنْ سِرٍّ ومِنْ إعلانِ
ولكلِّ صوتٍ منهُ سَمْعٌ حاضِرٌ ... فالسِّرُ والإعلانُ مُستويانِ
والسمعُ منه واسِعُ الأصواتِ لا ... يَخفَى عليهِ بَعِيدُها والداني(٢)

وأما معنى اسمه تعالى (البصير) أي: الذي أحاط بصره بجميع المبصرات فهو سبحانه يشاهدها، ويرى كل شيء وإن خفي، قريباً أو بعيداً فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار فيرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.

أي: فعليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه، فإنه السميع لجميع الأصوات، البصير بجميع المبصرات، فإذا حكَمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم، وإن أديتم الأمانة فهو بصير بذلك.

ففي الآية:

الأمر بحفظ الأمانة والأمر بأدائها، ووعد عظيم للمطيع، ووعيد شديد للعاصي، والاهتمام بحكم القضاة والولاة؛ لأنه فوَّض النظر في مصالح العباد لهم، والأمر بالعدل وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض القليل والكثير على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والعدو والصديق، ووجوب العدل على الحُكّام والولاة، حتى تصل الحقوق إلى أربابها كاملة غير منقوصة. ومَدْحٌ من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين، ودفع مضارهما، وإثبات السمع، وإثبات الألوهية، وإثبات البصر، وأن أداء الأمانة يشمل أساس الاعتقاد، وأنه يشمل أساس العبادة، وأنه يشمل أساس التعامل بين الناس وأساس العلاقات كلها بين الناس، وأوّل أمانة تُرَدُ إلى أهلها أمانة الإيمان، وإثبات صفة الكلام، وأن صفة السمع غير صفة البصر، إذ العطف يقتضي المغايرة، ووجوب أداء الأمانة إلى البر والفاجر، وإثبات البعث، وإثبات الجزاء على الأعمال، وفيها ردّ على المعطلة. والتنبيه على مقام الإحسان، والحث على ما هو سبب التآلف، والنهي عن الظلم.

---

(١) انظر: «الكافية الشافية» (ص٢٠٧).

(٢) كذا في مطبوع «الكافية الشافية»، وفي الأصل: «والدَّان».

والرد على المعتزلة القائلين سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ودليل على إثبات صفة الكلام لله، ولطف الله بخلقه حيث أرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في أمر دينهم. والخوف من الله، والمأخذ من قوله: ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ والرد على من أنكر صفة الكلام، أو قال: إن كلام الله الكلام النفسي»[1]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: ومن الأدلة على سمع الله وبصره سبحانه وتعالى: قوله سبحانه في سورة مريم حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في سورة مريم رقم ٤٢: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

فنفى إبراهيم عن آلهة آزر ثلاث صفات: السمع والبصر والقدرة على النفع، ومن انتفت عنه هذه الصفات لا يستحق أن يعبد؛ لصممه وعماه وعجزه، وقال تعالى في سورة الأنبياء حكاية عنه أيضاً في محاجته لقومه رقم ٥٢: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٤].

فنفى عنهم السمع والقدرة على النفع والضر، وذلك يقتضي أنهم مخلوقون، مربوبون، والله سبحانه هو السميع البصير النافع الضار المعطي المانع المحيي المميت، له الملك، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون.

قدرة الله تعالى

قال الله تعالى في آخر سورة البقرة: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال (ك): «يخبر تعالى أنه له ملك السموات والأرض، وما فيهن، وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه، وما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا

---

(١) انظر: «الكواشف الجلية» (ص٥٨ ـ ٥٩) بتصرف.

﴿فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران: ٢٩] وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

قال الإمام (حم) و (م) بسنديهما عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤]. اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها.

فقال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا:** ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾».

فلما أقرَّ بها القوم، وذلَّتْ بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . . .﴾(١) [البقرة: ١٨٦] إلى آخره»(٢).

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

قال (ك): «يخبر تعالى أنه يسبح له ﴿مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥١٣ ـ ٥١٤).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد خضع له كل شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾، وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرباض بن سارية أنها أفضل من ألف آية[(١)].

وقال (د): «بسنده إلى أبي زُمَيل قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال: وضحك قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤] الآية.

قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾[(٢)] [الحديد: ٣].

وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو بضعة عشر قولاً، وقال (غ) قال يحيى: «الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً»[(٣)].

---

(١) أخرج أحمد (٤/١٢٨)، والترمذي (٢٩٢١، ٣٤٠٦)، وأبو داود (٥٠٥٧)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٤٩، ١٠٥٥٠) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٧١٣، ٧١٤) ـ والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/٣٤٧)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٣٣٥)، والطبراني في «الكبير» (١٨/رقم ٦٢٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢٥٠٣، ٢٥٠٤) عن العرباض أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبِّحات قبل أن يرْقُدَ، وقال: **«إنّ فيهنّ آيةً أفضلُ من ألف آية» وإسناده ضعيف**، فيه عبد الله بن أبي بلال مجهول، لم يرو عنه غير خالد بن معدان، وبقية مدلس، نعم، صرح بالتحديث عند أحمد وغيره ولكنه كان يسوّي فلا بد من التصريح بالتحديث في جميع طبقات الإسناد.

وروي من مرسل ابن معدان بإسناد صحيح، وهو المحفوظ، كما عند الدارمي (٣٤٢٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٥١).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١١٠)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٦٦٤ ـ بعنايتي)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١٤/ ٢٦٢)، ولم يعزياه إلّا لأبي داود، **وحسنه شيخنا الألباني**.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٣٢).

وقال شيخنا الحافظ المزي: يحيى هذا هو ابن زياد الفراء، له كتاب سماه «معاني القرآن».

وقد ورد في ذلك أحاديث، فمن ذلك: ما رواه (حم) ومسلم[(١)] بسنديهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «**اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، خالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن ليس دونك شيء، اقض عنا الدين، واغننا من الفقر**»[(٢)].

فصل

قال محمد تقي الدين: في هذا الباب فوائد:

الأول: الدليل على أن قدرة الله لا حد لها، فهو على كل ما يشاؤه قدير، وكل من سواه عاجز عن كل شيء.

الثانية: إنه يملك كل شيء، فهو المالك وما سواه مملوك، وهو الغني وكل ما سواه فقير إليه.

الثالثة: شمول علمه تعالى لكل شيء.

الرابعة: قوة إيمان الصحابة وخوفهم عند نزول هذه الآية.

الخامسة: إن الله تعالى أمن خوفهم بعدما تأدبوا بأدب رسوله الكريم، وقالوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ والأدعية التي بعدها، فاستجاب لهم وأعطاهم ما سألوه.

السادسة: نفهم من حديث ابن عباس أن الله سبحانه رحيم بعباده لا يؤاخذهم على ما توسوس به نفوسهم، إلا إذا تكلّموا أو عملوا به.

السابعة: دواء الوسوسة أن يقول من حصل له شيء منها: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٤٠١ ـ ٤٠٣) بتصرف يسير.

الثامنة: الدعاء العظيم الذي كان يدعو به النبي ﷺ عند النوم وينبغي لنا جميعاً أن ندعو به.

ودلائل القدرة في الكتاب والسنة لا تعد ولا تحصى.

صفة الغنى

من صفات الله تعالى التي اتفقت عليها الرسل وجميع العقلاء المؤمنين بالله أن الله غني عن خلقه، غنى تاماً مطلقاً، وأن جميع خلقه محتاجون إليه في إيجادهم من العدم، وحفظ وجودهم، وإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه، قال تعالى في سورة الزمر:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزمر: ٦، ٧].

قال (ك): «يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء، وأنه[1] مالك الملك المتصرف فيه، يقلِّب ليله ونهاره ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: سخرهما يجريان متعاقبين لا يقران[2]، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تبارك وتعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ هذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم.

وقوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى ثم تنقضي[3] يوم القيامة: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفّار لمن عصاه، ثم تاب وأناب إليه.

وقوله جلت عظمته: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم عليه الصلاة والسلام، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وبأنه»!

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «لا يفترقان»!!

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ينقضي».

ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في «سورة الأنعام»: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

وقوله ﷻ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي: قدَّركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعَظْماً وعَصَباً وعروقاً وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ يعني: في ظلمة الرحم وظلمة المشيمَة التي هي كالغشاء[1] للوقاية على الولد، وظلمة البطن.

كذا قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

وقوله جل جلاله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذهَبُ بعقولكم؟».

وقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ الآية، قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وفي صحيح (م): «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه.

﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه لكم ويزدكم من فضله.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كلٌّ مطالب بأمر نفسه.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كالغشاوة».

(٢) سبق تخريجه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية».اهـ[1].

وقال تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ يعني: إبراهيم والذين معه، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

قال (ك): «هذا تأكيد لما تقدم، ومستثنى منه ما تقدم أيضاً؛ لأن هذه الأسوة المثبتة[2] هٰهنا هي الأولى بعينها.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تهييج إلى ذلك، لكل مؤمن بالله والمعاد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: عما أمر الله به: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الغني الذي قد كمل في غناه وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، والحميد: المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره ولا رب سواه»[3].اهـ.

وقال تعالى في سورة التغابن: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: ٥ ـ ٦].

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: خبرهم وما كان من أمرهم: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وما حل بهم[4] في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدار الآخرة مضاف إلى هذه الدُّنيوية، ثم[5] علل

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/١١٣ ـ ١١٥) بتصرف.
(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «المستثناة».
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥١٤ ـ ٥١٥).
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو ما حل بهم».
(٥) من مطبوع «تفسير ابن كثير»، وسقطت من الأصل!

ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي[1] بشر مثلهم، ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ أي: كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي: عنهم: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾»[2].اهـ.

والأدلة على غناه تعالى كثيرة من الكتاب والسنة، وشهادة العقول، منها: قوله تعالى في سورة فاطر:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]اهـ.

الأولية بلا بداية، والآخرية بلا نهاية

تقدم تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ وكل موجود سوى الله تعالى لوجوده بداية وله نهاية بالفعل أو بالإمكان.

قال تعالى في آخر سورة القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا إياه.

وقد ثبت في «الصحيحين» من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»[3].

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[4]، وحكاه

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «يد».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/١٨). (٣) سبق تخريجه.

(٤) أي: إلا ما أريد به وجهه (منه) وهو سقط من الأصل واستدركه المصنف من «صحيح البخاري». كتاب التفسير سورة القصص، قبل رقم (٤٧٧٢). وفيه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلا ملكه، ويقال: إلا ما أريد به وجه الله.

البخاري في «صحيحه»[(١)] كالمقرِّر له.

قال (ج): ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

أستغفِرُ اللهَ ذَنْباً لستُ مُحصِيَهُ ... ربَّ العبادِ إليه الوجهُ والعَمَلُ[(٢)]

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول والآخر، الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في كتاب «التفكر والاعتبار» بسنده إلى ابن عمر أنه: كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين، فيقول: أين أهلُكِ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[(٣)] وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الملك والتصرف، ولا معقِّب لحكمه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم، فيجزيكم بأعمالكم، إن كان خيراً فخير، وإن شراً فشر»[(٤)].

قال محمد تقي الدين: ولم أذكر القِدَم في صفات الله تعالى، ولم أصفه بالقديم؛ لأن هاتين الكلمتين مبتدعتان من عبارات أهل الكلام والمتفلسفين، وصفات الله تعالى غنية عن عباراتهم بألفاظ الكتاب والسنة، فقولنا في حقه سبحانه: هو الأول بلا بداية، الآخر بلا نهاية، يغنينا عن عباراتهم؛ لأن القدم يتصف به المخلوق الذي وجد منذ زمان بعيد، ونحن لا نصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ.

---

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ١٧٠)، (٦/ ١١)، (١٨/ ٣٥٤)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٧٤)، وابن أبي الدنيا في «التفكر» كما في «الدر المنثور» (١١/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦).

(ملاحظة) هذا الأثر غير موجود في مطبوع «الاعتبار وأعقاب السرور والأحزان» لابن أبي الدنيا.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤٩١ ـ ٤٩٢) بتصرف.

الواحدية والأحدية

يعتقد أهل السنّة والجماعة أن الله سبحانه هو الواحد الأحد في ذاته وصفاته وأفعاله قال تعالى في سورة البقرة رقم ١٦٣: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

وقال تعالى في سورة طه (رقم ٩٨): ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

وقال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

قال (ك) في تفسير آية البقرة: «يخبر تعالى عن تفرُّده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الفرد الصمد، الذي لا إله إلّا هو، الرحمٰن الرحيم، وقد تقدَّم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة.

وفي الحديث(١) عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال: **اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ [آل عمران: ١، ٢]»(٢).

وقال (ك) في تفسير آية طه: «﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨]: «يقول لهم موسى ﷺ: ليس هذا إلٰهكم، ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبد له(٣)، وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ نُصِبَ على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٣٨ ـ ١٣٩).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إليه».

[هود: ٦] والآيات في هذا كثيرة جداً»[1]. اهـ.

وقال (ك) في تفسير سورة الإخلاص:

«روى أحمد و(ت) و(ع) عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد! انسب لنا ربك، فأنزل[2] الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ زاد (ت) و(ع) **«الصمد الذي لم يلد ولم يولد»** لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وأن الله ﷻ لا يموت ولا يورث ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ولم يكن له شبيه، ولا عدل و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾».

وروى الإمام (أحم) و(ن) عن حميد بن عبد الرحمٰن أن رسول الله ﷺ قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن»[3]، وفي حديث آخر: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٤٥)، والترمذي (٣٣٦٤)، وابن جرير في «التفسير» (٢٤/ ٧٣٤)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٩٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٦٣)، والعقيلي (٤/ ١٤١)، وابن عدي (٦/ ٢٢٣١) كلاهما في «الضعفاء»، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٣٠٩)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٨)، وأبو القاسم البغوي في «معجم الصحابة» (١/ ١١ ـ ١٢ رقم ٨)، والهيثم بن كليب في «مسنده» (١٤٩٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٨٨)، والحاكم (٢/ ٥٤٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٠٠)، و«الأسماء والصفات» رقم (٥٠، ٦٠٧)، و«الاعتقاد» (ص٤٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣/ ٢٨١) من حديث أبيّ بن كعب، **وإسناده ضعيف**، فيه أبو جعفر الرازي عيسى بن ماهان، **والحديث حسن بشواهده**، وحسنه شيخنا الألباني دون الزيادة، وقد ضعفها في تعليقه على «السنة» لابن أبي عاصم، وهي عند الحاكم (٢/ ٥٤٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٥٠) أيضاً.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٠٤)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٣١)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٤٢)، والدارمي (٣٤٣٦)، والطحاوي في «المشكل» (١٢٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٥/رقم ١٨٢)، وفي «الأوسط» (٨٥٥٧)، والخلال في «جزئه في فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾» رقم (٨)، والفاكهي في «حديثه» رقم (٢٥٤)، وأبو الفضل الرازي في «فضائل القرآن» (١٠٧)، والبيهقي في «الشعب» (٢٥٤٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣) من طرق عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمٰن عن أمه رفعته.

فالحديث موصول، ولكن رواه مالك (١/ ٢٠٩)، والفريابي في «فضائل القرآن» (٣٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٣٣) عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمٰن رفعه، وهو مرسل، قال الدارقطني في «العلل» (٥/ ق٢١٠): «وقول مالك أشبه»، **والحديث صحيح بشواهده**، =

﴿أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن لمن صلّى بها»[1].

وقال عكرمة: «لما قالت اليهود: نحن نعبد عزيراً ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»[2] يعني: الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ﷻ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كَمُل في عظمته، والحليم الذي قد كَمُل في حلمه، والعليم الذي قد كَمُل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، قال مجاهد: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ يعني: لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ

= وانظر الطريق الآتية، وأصله في البخاري (٦٦٤٣) من حديث أبي سعيد، ومسلم (٨١١) من حديث أبي الدرداء.

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٥٣٢) ـ وهو في «عمل اليوم والليلة» (٦٩٦) ـ من طريق ابن إسحاق عن الحارث بن فضيل الأنصاري عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمٰن أنّ نفراً من أصحاب النبي ﷺ حدثوه أنهم سمعوا رسول الله ﷺ، وذكره بهذا اللفظ.
وخالف الحارث من هو أوثق منه، وأكثر منه عدداً. انظر التخريج السابق.

(٢) **ذكر اليهود والنصارى في سبب النزول منكر**، وقد جاء من طرق عن جمع، منها ما هو موصول، وما هو مرسل، فالموصول عن عكرمة عن ابن عباس، عند ابن عدي (٤/ ١٥٦٦)، والهروي في «ذم الكلام» رقم ٦٥٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٦٠٥) وفيه عبد الله بن عيسى بن خالد الخراز أبو خلف، ضعيف.
والمرسل عند ابن جرير، والمحفوظ ما ورد سابقاً أن الذين جاؤوا هم المشركون، ويؤكّده أنّ السورة مكية.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ﴾ [الأنعام: ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له مِن خَلْقِه نظير يساميه أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدَّس وتنزّه قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الصافات: ١٥٨ ـ ١٥٩].

وفي صحيح (خ) «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»(١).

قال (خ) بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي؛ فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد»(٢) .اهـ(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى.
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٧٤) من حديث أبي هريرة.
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٥٠٠، ٥٠٦، ٥١٢ ـ ٥١٥) بتصرف.

الموضوعات والمحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

سورة الأعراف

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

سورة التوبة

الموضوع | الصفحة

سورة هود

سورة الفرقان

سبيل الرشاد
في
هدي خير العباد

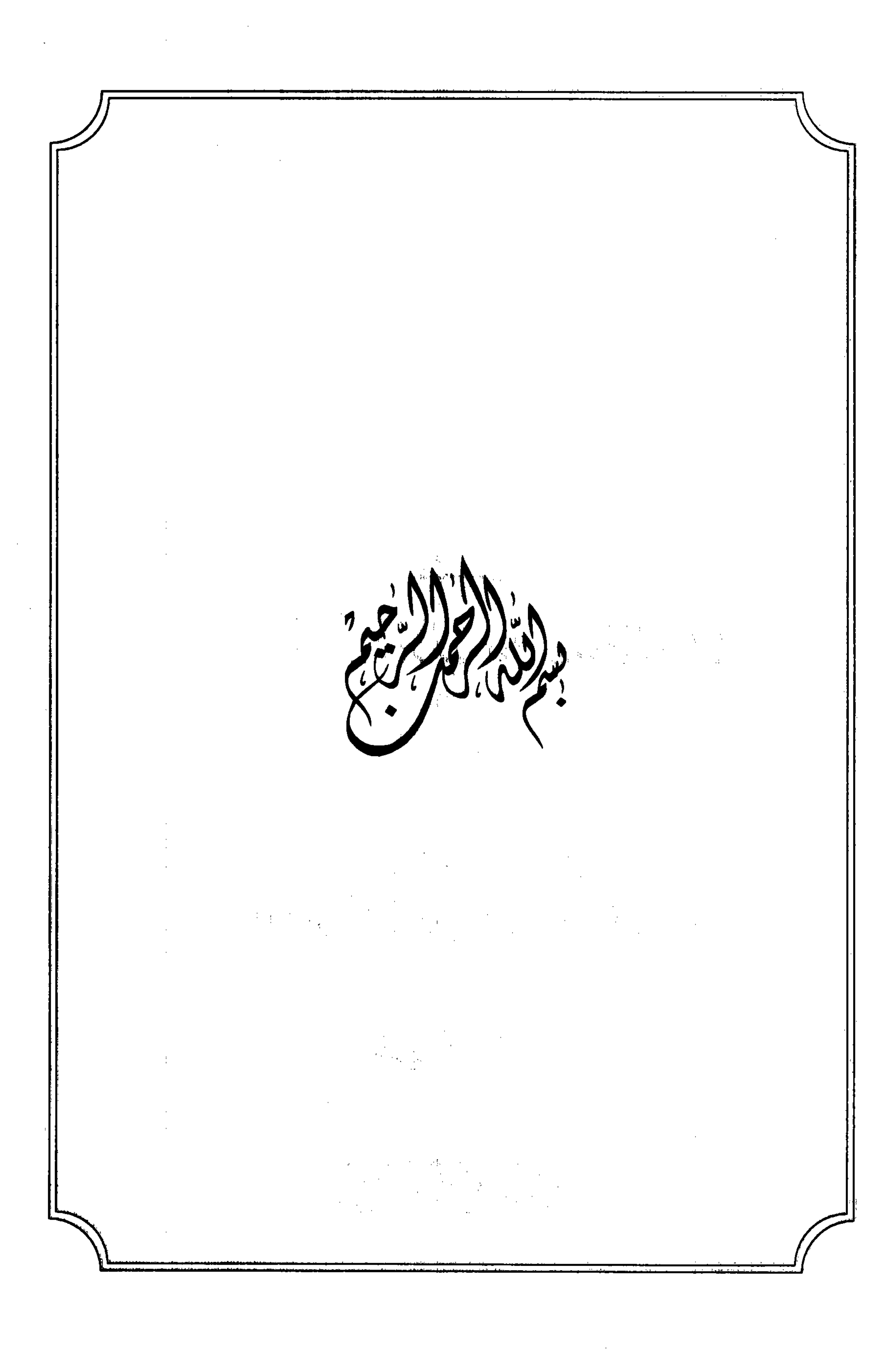
تصنيف

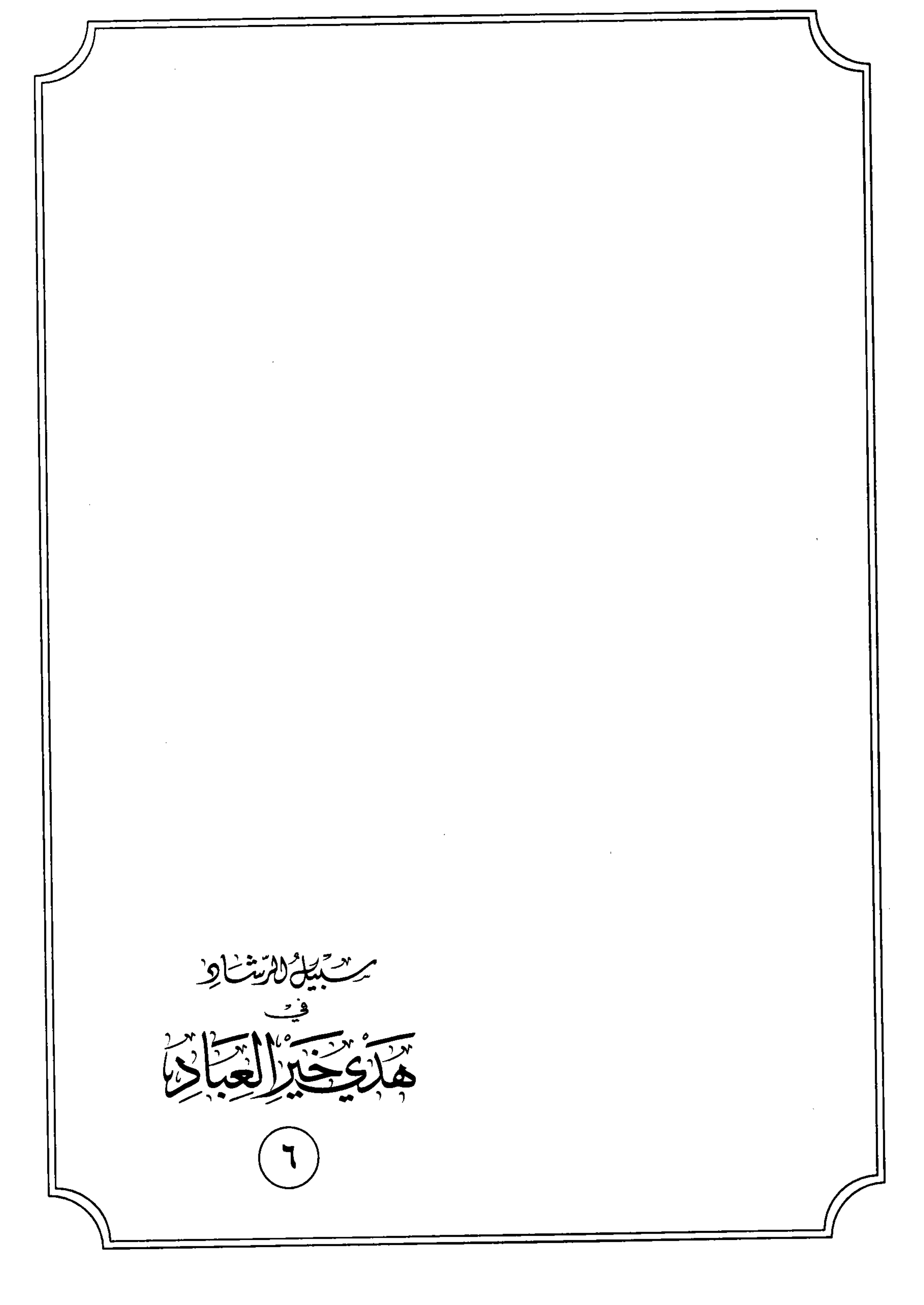
العلامة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي
رحمه الله تعالى
(١٣١١ - ١٤٠٧ هـ)
(١٨٩٣ - ١٩٨٧ م)

قرأه وعلق عليه وقدم له وخرج أحاديثه
أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الجزء السادس

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم


سبيل الرشاد
في
هدي خير العباد
٦

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



عمان - الأردن - تلفاكس: ٦٥٦٥٨٠٤٥ / ٠٠٩٦٢

خلوي: ٠٠٩٦٢/٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠

الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نفي التشبيه والتمثيل والتأويل والتعطيل عن صفات الله تعالى

اعلم أن المنتسبين إلى الإسلام على ثلاثة أقسام؛ قسم نفوا بعض صفات الله تعالى أو كلها، فالمتفلسفون نفوا الصفات كلها إلا الوجود، وزعموا أنهم بذلك نزهوا الله تعالى عن مشابهة مخلوقاته. والجهمية ومن سلك طريقهم حكّموا عقولهم الفاسدة في صفات الله تعالى فأثبتوا بعض الصفات ونفوا بعضها، وزعموا أن ما نفوا منها فيه تشبيه وتمثيل، كصفة العلو والاستواء التي تقدم بيانها، وصفة الكلام الذي هو عربي أو عبراني أو سرياني أو غير ذلك بحروف وأصوات، وتقديم وتأخير.

وقد تقدم الكلام فيه مستوفى، ورؤية المؤمنين ربهم بأبصارهم يوم القيامة يتجلى لهم ضاحكاً ويتنعمون برؤيته ويخاطبهم ويخاطبونه، وقد تقدم ذلك بغاية التحقيق، وينفون كذلك نزول الله إلى السماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء، ومحبته لعباده المؤمنين ورضاه عنهم وبغضه للكافرين وغضبه عليهم وفرحه بتوبة عبده المؤمن وعجبه وضحكه.. إلى غير ذلك مما يزعمون أن فيه تشبيهاً، وسبب ضلالهم أنهم لم يفهموا من الفوقية والنزول والقرب والمحبة والبغض والرضى والسخط والفرح والضحك إلا ما يتصف به المخلوق من ذلك، ولو أنهم اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله وأهل القرون المفضلة لعلموا أن ذات الله لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات، وهم يعترفون أن لله علماً وقدرة وإرادة، وللمخلوقين علم وقدرة وإرادة، ولكن شتان ما بين علم الله وعلم المخلوق، وشتان ما بين قدرة الله وقدرة المخلوق، وشتان ما بين إرادة الله وإرادة المخلوق، وشتان ما بين حياة الله وحياة المخلوق.

فكذلك نقول: لله كلام وعلو ونزول ومجيء ورضى ومحبة وسخط وغضب لا تشبه صفات المخلوقين، فهؤلاء متناقضون فيما يثبتون وفيما ينفون، أو يحرفون فيقولون: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: استولى، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾: جاء أمره، ويؤولون الرضى والمحبة والضحك والفرح بالثواب والكراهية والبغض والغضب والسخط بالعقاب وهم محجوجون؛ لأنه يرد عليهم فيما أثبتوه ما أوردوه على غيرهم فيما نفوه، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، نسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه.

إرادة الله ومشيئته

١ ـ قال تعالى في سورة الدهر: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٣٠، ٣١].

٢ ـ وقال تعالى في سورة التكوير: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

٣ ـ وقال تعالى في آخر سورة يس: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٢، ٨٣].

٤ ـ وقال تعالى في آخر سورة يونس: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

٥ ـ وقال تعالى في سورة البروج: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٢ ـ ١٦].

٦ ـ وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٧ ـ وقال تعالى في سورة الكهف الآية [٣٥]: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا

وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ٣٥ ـ ٤٣].

قال (ك) في تفسير الآية الأولى: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية، فييسرها له ويقيض له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ أي: يهدي من يشاء فمن يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له». اهـ[١].

وقال (ك) في تفسير الآية الثانية:

«أي ليست المشيئة موكولةً إليكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين»[٢].

قال سفيان الثوري عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى: لما نزلت هذه الآية. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى[٣]: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾»[٤].

وقال (ك) في تفسير الآية الثالثة: «أي: إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد[٥]:

إِذَا مَـــا أَرَادَ اللهُ أمْــراً فَــإِنَّــمَــا يَــقُــولُ لَــهُ كُــنْ قَــولَــة فَــيَــكُــونُ

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٢١٧ ـ ٢١٨): «وَيُضل مَن يشاء».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لمشيئة الله ﷻ رَبِّ العالمين» (١٤/ ٢٧٢).
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فأنزل تعالى» (١٤/ ٢٧٢).
(٤) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٩٨) من طريق سعيد بن عبد العزيز به، وهو معضل.
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير» (١١/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧): «بدون ـ وتأكيد».

وقال الإمام (**حم**)[١]: بسنده عن أبي ذر قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقول: يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام وعذابي كلام إذا أردت شيئاً فإنما أقول له: كن، فيكون**».

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٣] أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله وله الخلق والأمر وإليه يرجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وكقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام والملكوت هو عالم الأرواح، والصحيح الأول[٢]، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

قال (**حم**): بسنده عن حذيفة قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال[٣] في سبع ركعات، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**سمع الله لمن حمده**» ثم قال: «**الحمد لله ذي الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة**»، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي»[٤]. اهـ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٤) **بسند ضعيف**، فيه ليث بن أبي سُليم وشهر بن حوشب ضعيفان، وليث توبع.
وأخرجه أبو عوانة في البر والصلة ـ كما في «إتحاف المهرة» (١٤/ ١٦٤) ـ، وهناد في «الزهد» (٩٠٥)، والترمذي (٢٤٩٥)، والبزار في «مسنده» (٤٠٥١)، وابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٣٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٨١١) من طرق عن شهر بن حوشب عن أبي ذر، ولأول الحديث شواهد هو بها **صحيح**.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والأول هو الصحيح».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الطُّوَل».

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٨) **وإسناده ضعيف** لجهالة ابن عم حُذيفة، وقد عُرِّف في طريق أخرى أخرجها الإمام أحمد (٥/ ٣٨٢) **بسند صحيح**، وهي من طريق صلة بن زُفر عن حُذيفة.

=

وقال (ﷺ) في تفسير الآية الرابعة:

«فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، روى[١] ابن عساكر وذكر سنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم**»[٢][٣]. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه»[٤].

وقال (ﷺ) في تفسير الآية الخامسة:

«أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم القوى[٥]، فإنه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر أو هو أقرب، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ أي: من

= وأخرجه من طريق صلة بألفاظ مطولاً ومختصراً: مسلم (١/ ٢٤٨)، وأبو داود (٨٧١)، والترمذي (٢٦٢، ٢٦٣)، والنسائي (٢/ ١٧٦ ـ ١٧٧، ١٧٧، ٢٢٤)، وابن ماجه (٢٦٠٤، ٢٦٠٥)، وغيرهم.
وله طرق عن حذيفة، ولا داعي للإطالة في ذكرها.

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الحافظ ابن عساكر».

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٨/ ٣٢٨ ـ مخطوط، **وإسناده ضعيف** وفيه انقطاع.
وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٣٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ١١٢١) من طريق عبد الله بن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**اطلبوا الخير...**»، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ٧٢٠) وفي كتاب الدعاء (٢٦)، وعنه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٦٢)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٧٠١)، والبيهقي في «الشعب» (١١٢٢)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٣٣٩) وعلقه ابن عساكر، كلهم من طريق عمرو بن الربيع بن طارق عن يحيى بن أيوب به، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٥٠) من طريق سعيد بن أبي مريم أخبرني يحيى بن أيوب به، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٣٤) وقال: «رواه الطبراني وإسناده رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى... وهو ثقة»، وثقه ابن حبان في «الثقات» (٧/ ١٣٤).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقوله».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨) بتصرف.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قوي».

قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق[١] ويعيده كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ أي: يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان، والودود قال ابن عباس وغيره: هو الحبيب، ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش العظيم[٢] العالي على جميع الخلائق، و﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ فيه قراءتان الرفع على أنه صفة للرب ﷻ، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ أي: مهما أراد فعله لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله: كما روينا عن أبي بكر الصديق أنه قيل له: وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال لي: (إني فعال لما أريد)»[٣] .اهـ.

وقال (ك) في تفسير الآية السادسة:

«في البخاري ومسلم[٤] بسندهما عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾**».

وروى الإمام (حم)[٥]، والأربعة إلا الترمذي:

عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن[٦] على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ثم». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المعظم».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨).

(٤) انظر: «صحيح البخاري» كتاب «التفسير»، باب ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ (٤٦٩٩)، ومسلم كتاب «الجنة وصفةُ نعيمها وأهلها»، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٧٣) (٢٨٧١).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧) **بإسناد صحيح** وسيأتي تخريجه قريباً مطولاً.

(٦) في المطبوع: «وكأن».

يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت[1] حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض[2]، فيصعدون بها فلا يمرون بها ـ يعني على ملأ من الملائكة ـ إلا قالوا: ما هذه[3] الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.

فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة.

قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد البصر[4]، و[5]يأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير[6]، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، فيجلس[7] عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب.

---

(١) في المطبوع زيادة «عليه السلام».
(٢) في المطبوع «قال».
(٣) في المطبوع «هذا».
(٤) في المطبوع «بصره».
(٥) في المطبوع «قال».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يجيءُ بالخير».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «حتى يجلس».

قال: فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج[1] منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه[2] الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان[3] يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾.

«فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً» ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري.

فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم. فيقول: هاه هاه لا أدري.

فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف[4] أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»[5].اهـ.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وتخرجُ منها».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ما هذا الروح الخبيثة».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كانوا يُسمونه».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فيه أضلاعه».

(٥) أخرجه أبو داود (٣٢١٢) و(٤٧٥٣)، وأخرجه مختصراً النسائي في «المجتبى» (٤/ ٧٨)، وابن ماجه (١٥٤٩)، وهو عند الترمذي (٣١٢٠) مختصراً جداً، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣١٠، ٣٧٤، ٣٨٠ ـ ٣٨٢ و١٠/ ١٩٤)، وهناد (٣٣٩)، والطيالسي (٧٥٣)، وأبو عثمان الدارمي في «الرد على الجهمية» ص(٢٩)، وابن جرير في «تهذيب الآثار» (٧١٨ ـ ٧٢٣)، و«التفسير» (٢٠٧٨٧)، وأبو عوانة ـ كما في «إتحاف المهرة» (٢/ ٤٥٩) ـ وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١١٩)، وابن منده في «الإيمان» (١٠٩٤) ـ، والحاكم (١/ ٣٧ ـ =

وقال الإمام (حم) بسنده إلى جابر بن عبد الله عن فتاني القبر: إن[١] النبي ﷺ قال: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاء ملك شديد الانتهار فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول[٢]: إنه رسول الله ﷺ، وعبده فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار قد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة فيراهما كليهما.**

فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي فيقال له: اسكن.

وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أصحابه[٣] فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري أقول كما يقول الناس، فيقال له: لا دريت هذا مقعدك الذي كان لك في[٤] الجنة[٥] أبدلت مكانه مقعدك من النار»، قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «**يبعث كل عبد في القبر على ما مات عليه[٦] المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه**»[٧]. إسناده صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»[٨].اهـ.

قال القاسمي في «تفسيره»:

«﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثَبَّت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء في غير

= ٣٨)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٢٠ ـ ٢١، ٤٤)، وفي «الشعب» (٣٩٥) وغيرهم من طرق عن الأعمش عن منهال بن عمرو عن زاذان عن البراء به، **وإسناده صحيح**، وصححه جماعة، منهم البيهقي في «الشعب» قال عنه: «هذا حديث صحيح الإسناد».

وقال ابن منده: «هذا إسناد متصل مشهور، رواه جماعة عن البراء، وكذلك رواه عدّة عن الأعمش» في جماعة آخرين صححوه، وبيّنتُ ذلك في تعليقي على «بشرى الكئيب» رقم (٣٤)، و«التذكرة» للقرطبي، يسر الله إتمامه ونشره بخير وعافية.

انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٩٩ ـ ٢٠١).

(١) في المطبوع: «فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ».

(٢) في المطبوع: «فيقول المؤمن: أقولُ».

(٣) في المطبوع: «أهله».

(٤) في المطبوع: «من».

(٥) في المطبوع: «قد».

(٦) سقطت «عليه» من المطبوع.

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٦)، وعبد الرزاق (٦٧٤٤، ٦٧٤٦)، والطبراني في «الأوسط» (٩٠٧٢). والحديث صحيح.

(٨) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

موضعه، أو لظلمهم أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة»[١]. اهـ.

وقال (ك) في تفسير الآية السابعة:

«وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى[٢] ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ[٣] عند ربي ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ أي: في الدار الآخرة تألى على الله ﷻ.

وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان».

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿طَلَبًا﴾.

قال (ك): «يقول تعالى: مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين، وهو آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ الآية، أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته[٤] عليكم ظاهرة جلية كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم إنه كان معدوماً، ثم وجد وليس وجوده من

---

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (١٠/ ٢٩).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير» زيادة بعدها: «ولا تفرغ».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لأني مُحْظىً عند ربي».

(٤) قال محمد تقي الدين: قوله: «ودلالته عليكم»، فيه نظر والصواب أن يقال: ودلالته لكم، والله أعلم. (منه).

نفسه ولا مستنداً لشيء[١] من المخلوقات؛ لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء، ولهذا قال المؤمن[٢]: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ هذا[٣] تحضيض وحث على ذلك ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت[٤] الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه[٥] غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية[٦].

وقد ثبت في «الصحيحين»[٧] عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**».

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

قال ابن عباس والضحاك[٨] ومالك عن الزهري: عذاباً من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زروعها[٩] وأشجارها ولهذا قال:

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى شيء».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «المؤمن».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهٰذا».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فحَمِدَ اللهَ».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لم يُعط». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الكريمة».
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقد ثبت في الصحيح».
والحديث: أخرجه البخاريُّ كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٠٥) وكتاب الجهاد، باب ما يُكره من رفع الصوت في التكبير (٢٩٩٢) وفي الدعوات، باب الدعاء إذا علا (٦٤٠٩) وكتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله (٦٦١٠) وكتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (٧٣٨٦).
وأخرجه الإمام مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤).
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير» زيادة: «وقتادة». (٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «زرعها».

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي: بلقعاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم.

وقال ابن عباس: كالجُرُز الذي لا ينبت شيئاً.

وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ والغور مصدر بمعنى: غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر[١]:

تظل جياده نوحاً عليه مقلدة أعنتها صفونا

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿عُقْبًا﴾».

قال (ك): «يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بأمواله أو بثماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله ﷻ ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ قال[٢] قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأمور التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ أي: عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾.

اختلف القراء ههنا فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلا منقذ له منه ويبتدئ بقوله: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، ومنهم[٣] من يقف على ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾، ثم اختلفوا في قراءة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ فمنهم من فتح الواو[٤]

---

(١) قاله عمرو بن كلثوم ذكر ذلك القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٥٤ ـ ١٢/ ٥٩، ١٥/ ١٧٠)، والشوكاني في «فتح القدير» (٣/ ٦٤٩) و(٤/ ٦١٢)، وقد ذكره الطبريُّ في تفسيره (٨/ ٢٢٦) بدون نسبة، وجاء منسوباً لعمرو بن كلثوم في «تاج العروس» للزبيدي تحت مادة «عكف» مع تغيير في صَدر البيت.

وقد جاء في طبعة أولاد الشيخ «صفوفاً»، وهو تحريف، والصحيح المُثبت.

(٢) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وقال»!

(٣) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «ومنه»! وانظر: «البحر المحيط» (٦/ ١٣١).

(٤) هذه قراءة ابن كثير وابن عامر ونافع وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ورواية حفص. انظر: «البحر المحيط» (٦/ ١٣٠)، «حجة القراءات» (٤١٨)، «الكشف» (٢/ ٦٢)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (١/ ٣٩٦)، «الدر المصون» (٤/ ٤٦٠).

من[١] ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ فيكون المعنى هنالك الموالاة لله، أي: هنالك كل أحد[٢] مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

ومنهم من كسر الواو من الولاية[٣] أي: هنالك الحكم لله[٤]، ثم منهم من رفع «الحق» على أنه نَعتٌ للولاية، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦].

ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله ﷻ كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ الآية [الأنعام: ٦٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله ﷻ ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير»[٥]. اهـ.

وقال صاحب «الكواشف» ص٩١:

«وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الكهف: ٣٩]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون قوله: «من الولاية».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «من مؤمن».

(٣) هذه قراءة حمزة والكسائي وخلف والأعمش وابن وثاب وشيبة وابن غزوان وطلحة وابن سعدان وابن عيسى الأصبهاني، واختارها ابن جرير، وهي بمعنى: السلطان والملك. وأنكر هذا أبو عمرو والأصمعي. انظر: «فتح الباري» (٨/ ٣٠٩)، «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٨٩)، «روح المعاني» (١٥/ ٢٨٤)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (٥/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لله الحق».

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٣٧ ـ ١٤١).

في هذه الآيات وما ماثلها إثبات لمشيئة الله التامة وإرادته الكونية القدرية والدينية الشرعية، وقد أجمع العلماء من المسلمين وسلف الأمة وأئمتها وأهل السنة قاطبة على إثبات مشيئة الله وإرادته[(١)].

---

(١) لكن هنالك فروق بين الإرادة الكونية القدرية والدينية الشرعية، يمكن إجمالها فيما يأتي:
أولاً: الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها، أما الشرعية فلا بد أن يحبها ويرضاها؛ فالكونية مرادفة للمشيئة، والشرعية مرادفة للمحبة.
ثانياً: الإرادة الكونية مقصودة لغيرها كخلق إبليس مثلاً، وسائر الشرور؛ لتحصل بسببها محابّ كثير، كالتوبة، والمجاهدة، والاستغفار.
أما الشرعية فمقصودة لذاتها؛ فالله أراد الطاعة وأحبها، وشرعها، ورضيها لذاتها.
ثالثاً: الإرادة الكونية لا بد من وقوعها؛ فالله إذا أراد شيئاً وقع ولا بد، كإحياء أحدٍ أو إماتته، أو غير ذلك، أما الشرعية كالإسلام ـ مثلاً ـ، فلا يلزم وقوعها، فقد تقع وقد لا تقع، ولو كان لا بد من وقوعها لأصبح الناس كلهم مسلمين.
رابعاً: الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقه، أما الشرعية فمتعلقة بألوهيته وشرعه.
خامساً: الإرادتان تجتمعان في حق المطيع، فالذي أدّى الصلاة ـ مثلاً ـ جمع بينهما؛ وذلك لأن الصلاة محبوبة لله، وقد أمر بها ورضيها، وأحبها، فهي شرعية من هذا الوجه، وكونها وقعت دلّ على أن الله أرادها كوناً فهي كونية من هذا الوجه، فمن هنا اجتمعت الإرادتان في حق المطيع. وتنفرد الكونية في مثل: كفر الكافر، ومعصية العاصي، فكونها وقعت فهذا يدلّ على أن الله شاءها؛ لأنه لا يقع شيءٌ إلا بمشيئته، وكونها غير محبوبة، ولا مرضية لله دليل على أنها كونية لا شرعية، وتنفرد الشرعية في مثل: إيمان الكافر، وطاعة العاصي، فكونها محبوبة لله فهي شرعية، وكونها لم تقع ـ مع أمر الله بها ومحبته لها ورضاه ـ هذا دليل على أنها ـ أيضاً ـ شرعية فقط؛ إذ هي مرادة محبوبة لم تقع.
سادساً: الإرادة الكونية أعمّ من جهة تعلّقها بما لا يحبه الله ولا يرضاه؛ من الكفر والمعاصي، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل: إيمان الكافر، وطاعة الفاسق، والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به، واقعاً كان أو غير واقع، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به. هذه فوارق بين الإرادتين، فمن عرف الفرق بينهما سلم من شُبهات كثيرة، زلّت بها أقدام، وضلّت بها أفهام؛ فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيراً، ومن نظر إلى الشرع دون القدر أو العكس كان أعور. انظر: «منهاج السنة النبوية» (٣/ ١٨٠ ـ ١٨٣، ٥/ ٣٦٠ و٤١٣ و٤١٤، ٧/ ٧٢، ٧٣)، وانظر: «شفاء العليل» (ص٥٥٧)، و«تنبيه ذوي الألباب السليمة عن الوقوع في الألفاظ المبتدعة الوخيمة» للشيخ سليمان بن سحمان (ص٦١ ـ ٦٢)، و«تعليق الشيخ ابن باز على الواسطية» (ص٤١)، و«شرح الواسطية» للهراس (ص١٠٠)، و«شرح الواسطية» للشيخ صالح الفوزان (ص٤٢ ـ ٤٣)، و«القضاء والقدر» للأشقر =

الآية الأولى:

أي: وهلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد، وقلت: الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله، ليكون ذلك منك اعترافاً بالعجز وبأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء الله أبقاها وإن شاء أفناها، وأن ما تيسر لك[١] من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوتك[٢] وقدرتك. اهـ.

الآية الثانية:

فيها أولاً إخبار عما وقع بين أتباع الرسول ومن[٣] بعدهم من التنازع والتعادي وأن ذلك إنما يكون بمشيئة الله ﷻ، ولو شاء الله عدم الاقتتال لم يقتتلوا إذ لا يجري في ملكه إلا ما شاء سبحانه.

الآية الثالثة:

وهي قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الإرادة المذكورة فيها دينية شرعية، أي أبيحت لكم بهيمة الأنعام أي: الإبل والبقر والغنم، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما يتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال، وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، قال بعضهم: هذا منصوب على الحال والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي كالظباء[٤] والبقر والحمر الوحشية، فاستثنى من الإنسي[٥] ما تقدم واستثنى من الوحشي الصيد حال الإحرام.

وقيل المراد: أحللنا الأنعام إلا ما استثني منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام لقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ الآية [البقرة: ١٧٣].

= (ص١٠٦)، و«التعليقات على لمعة الاعتقاد» للشيخ عبد الله بن جبرين (ص٦٠ ـ ٦١)، و«الإيمان بالقضاء والقدر» (٩٨ ـ ٩٩).

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «له».

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «لا بقوته وقدرته».

(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «من بعد».

(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «كالضباء».

(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «الوحشي»، والصحيح المُثبت.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يحكم ما يريد من التحليل والتحريم لا اعتراض عليه في الحكم فله الحكم سبحانه، وهو الحكيم لا حاكم غيره، فكل حكم سوى حكمه فهو باطل مردود، وكل حاكم بغير حكمه وحكم رسوله، فهو طاغوت كافر بالله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وهذا عام شامل فما من قضية إلا والله فيها حكم، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال ﷺ: «**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»[١].

وقال فيما صح عنه: «**ما بعث الله**[٢] **من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم**»[٣].

وقال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً»[٤].

ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واعتاض عنها بالقوانين الوضعية[٥] أنه كافر كفراً ناقلاً عن الملة الإسلامية، (وكذا من استهزأ بالقرآن، أو طلب تناقضه، أو ادعى أنه مختلف، أو مختلق مقدور على مثله، أو إسقاط لحرمته، أو استخف به، أو جحد شيئاً منه، أو كذب به أو بشيء منه، أو أثبت شيئاً نفاه القرآن، أو نفى ما أثبته القرآن، فقد كفر قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦) **بإسناد حسن**، وهو قطعة من حديث العرباض بن سارية، وهو **صحيح** بطرقه وشواهده، وتقدم تخريجه مفصلاً في التعليق على (٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) في مطبوع «الكواشف»: «ما بُعِث من نبي».

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٤) أخرجه الطيالسي (٤٧٩)، وأحمد (٥/ ١٥٣ ـ ١٥٤ و١٦٢)، والبزار (١٤٧)، والطبراني (١٦٤٧)، وانظر: «العلل» للدارقطني (٦/ ٢٩٠) وتعليقي على «الإعلام» (٥/ ١٣٨).

(٥) مستحلاً ذلك صراحة، أو بالقرائن الظاهرة المعتبرة شرعاً.

وقال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفاً متفقاً عليه أنه كافر، وقال علي: من كفر بحرف منه فقد كفر به كله)(١)، وكذا(٢) من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى، أو زعم أن هدى غير محمد أفضل من هديه ﷺ أو أحسن، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور إلا الخروج عن الشريعة، وأنها كافية(٣) في الزمان الأول فقط، وأما في هذه الأزمنة فالشريعة لا تساير الزمن ولا بد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن، فلا شك أن هذا الاعتقاد إذا صدر من إنسان فإنه قد استهان بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وتنقصها، ولا شك في كفره وخروجه من(٤) الدين الإسلامي بالكلية.

وكذلك من زعم أنه محتاج للشريعة في علم الظاهر(٥) دون علم الباطن(٦)، أو في علم الباطن فقط أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة أو أن الإنسان حر(٧) التدين وفي أي دين شاء من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك، أو أن هذه الشرائع غير منسوخة بدين محمد، أو استهان بدين الإسلام، أو تنقصه أو هزل به أو بشيء من شرائعه أو بمن جاء به وكذلك ألحق بعض العلماء الاستهانة بحملته لأجل حمله فهذه الأمور كلها كفر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وقال ابن القيم:

والله ما خوفي الذنوب فإنها ... لعلى سبيل(٨) العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب من ... تحكيم هذا الوحي والقرآن
ورضًى بآراء الرجال وخرصها ... لا كان ذاك بمنَّةِ المنان

---

(١) ما بين الهلالين غير موجود في «الكواشف الجلية».
(٢) في مطبوع «الكواشف الحلية»: «وكذلك».
(٣) في مطبوع «الكواشف»: «وأنها كانت كافية».
(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «عن».
(٥) في مطبوع «الكواشف»: «في الظاهر دون علم».
(٦) في مطبوع «الكواشف»: «الباطل»، والمثبت هو الصحيح.
(٧) في مطبوع «الكواشف»: «حر في التدين».
(٨) في مطبوع «نونية ابن القيم»: «طريق».

فبأي[(١)] وجه آت ربي غدا[(٢)] إذا ... أعرضت عن ذا الوحي طول زمان
وعزلته عما أريد لأجله ... عزلاً حقيقياً بلا كتمان[(٣)]

الآية الرابعة:

«يقول تعالى: فمن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الإسلام ـ الذي هو دين الفطرة والهادي إلى طريق الرشاد وجد لذلك في نفسه انشراحاً واتساعاً بما يشعر به قلبه من السرور، فلا يجد مانعاً من النظر الصحيح فيما ألقي إليه فيتأمله، وتظهر له عجائبه، وتتضح له دلائله فتوجه[(٤)] إليه إرادته، ويدعو له قلبه، بما يرى من ساطع النور الذي يستضيء به لبه وباهر البرهان الذي يتملك نفسه.

ولما سئل ﷺ عن هذه الآية قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟

قال: «**نور يقذف فيه فينشرح[(٥)] له وينفسح**» قالوا: فهل لذلك من إمارة يعرف بها؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت**»[(٦)].

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ...﴾» إلخ. أي: من فسدت فطرته بالشرك

---

(١) في مطبوع «نونية ابن القيم»: «فبأيّ وجه ألتقي إلي أنا...».
(٢) قال محمد تقي الدين: هذا البيت مختل الوزن ومعناه واضح (منه).
(٣) انظر: «نونية ابن القيم» (٣٣٣، ط. دار ابن الجوزي).
(٤) في مطبوع «الكواشف»: «فتتوجه».
(٥) في مطبوع «الكواشف»: «فيشرح له وينفسخ».
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٢١)، وعبد الرزاق (١/ ٢١٧) في «مصنيفهما»، وابن أبي حاتم (٤/رقم ٧٨٧٣)، وابن جرير (٩/ ٥٤١ ـ ٥٤٢)، وسعيد بن منصور (٩١٨) جميعهم في «التفسير»، ووكيع (١٥)، وابن المبارك في (٣١٥) كلاهما في «الزهد»، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٢٨٥ ـ السلفية)، وأبو الشيخ في «تاريخ أصبهان» (٨٧)، وأبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (١/ ٣٠٥ و٢/ ١٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٢٥، ٣٢٦)، والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤) ـ عن أبي جعفر عبد الله بن المسور به، وعبد الله بن مسور متروك، **فإسناد ضعيف جداً** ووهم بعضهم فحرفه إلى عبد الله بن مسعود، وانظر لزاماً: «العلل» للدارقطني (٥/ ١٨٨ ـ ١٩٠)، و«شرح علل الترمذي» (٢/ ٧٧٢ ـ ٧٧٤)، و«العلل المتناهية» (٢/ ٨٠٣) رقم (١٣٤٢)، و«ذكر الموت» لابن أبي الدنيا رقم (١١٦، ١٤٢م)، وورد من مرسل الحسن عند ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» (رقم ١٤٣ ـ بتحقيقي).

وتدنست نفسه بالآثام والذنوب؛ يجد في صدره ضيقاً أيما ضيق، إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد، والنظر في الآفاق والأنفس، لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد، والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الأكثر من الناس، وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته للداعي إلى دين الإسلام والتمسك به ثقيلة ويشعر بالعجز عن احتمالها، ويكون مثل من صعد في الطبقات العليا في جو السماء إذ يشعر بضيق شديد في النفس، وكلما صعد في الجو أكثر شعر بتخلخل[١] الهواء ولم يستطع البقاء، فإن هو قد بقي فيها مات.

وقيل: كأنه من ضيقه وشدته يصعد في السماء، أي يتكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة فيه.

والخلاصة:

إن هذا مثل ضربه الله لقلب الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه بقوله، فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه؛ مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته الوصول إليه.

قال شيخ الإسلام: جعل الله القلوب ثلاثة أقسام: قاسية، وذات مرض، ومؤمنة[٢]، وذلك أنها إما أن تكون يابسة جامدة لا تلين للحق اعترافاً وإذعاناً، أو لا تكون يابسة جامدة؛ فالأول هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجر لا ينطبع ولا يكتب فيه الإيمان ولا يرتسم فيه العلم؛ لأن ذلك يستدعي محلاً ليناً قابلاً، والثاني لا يخلو إما أن يكون ثابتاً فيه لا يتزلزل[٣] عنه لقوته مع لينه، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال، فالثاني هو الذي فيه المرض والأول هو القوي اللين.

والعلم يدخل قلب كل موفق ... من غير بواب ولا استئذان
ويردّه المحروم من خذلانه ... لا تشقنا اللهم بالخذلان[٤]»[٥]

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «يتخلخل» بالياء والصحيح المثبت.
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «مؤمنةٌ مخبتة».
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «لا يزول عنه».
(٤) انظر: «القصيدة النونية» لابن القيم (ص٢٠٢).
(٥) انظر: «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» (٥٩ ـ ٦٢).




إثبات صفة المحبة لله ﷻ

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]

قال (ك): «الآية[١] الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب[٢] في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله[٣]، كما ثبت في «الصحيحين»[٤] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٥].

ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تحِبَّ إنما الشأن أن تُحَبَّ.

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: باتِّباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذه[٦] من بركة سفارته». اهـ.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذه الآية».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير» زيادة: «في دعواه».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» زيادة: «وأحواله».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الصحيح».

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الإمام مسلم كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

وهو في «صحيح البخاري» (٢٦٩٧) بلفظ: «**مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هذا».

فصل

قال محمد تقي الدين: تقدم ذكر هذه الآية في (القسم الثاني) في (آيات توحيد الاتباع) بتفصيل، والمراد هنا إثبات صفة المحبة لله ﷻ فإنه أثبتها لنفسه في كتابه وأثبتها له رسوله ﷺ وأصحابه كلهم والتابعون والأئمة المجتهدون وأئمة الحديث، فمن نفاها أو تأولها بأن الله يثيبهم فهو مبتدع من الخلوف الذين حذرنا منهم رسول الله ﷺ وأمرنا بجهادهم، فقال عليه الصلاة والسلام:

«فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1].

وزعمهم[2] أن في إثبات هذه الصفة وأمثالها تشبيهاً لله بخلقه؛ لأن المحبة ميل القلب إلى لقاء المحبوب والتشوق لوصاله، فقلنا لهم: هذه محبتكم أنتم ومن جهلكم شبهتم محبة الله بمحبتكم، فشبهوا أيضاً علمه بعلمكم، وقدرته بقدرتكم، وإرادته بإرادتكم، وحياته بحياتكم، وسمعه وبصره بسمعكم وبصركم، وانفوا عنه الصفات كلها كما فعل أشياخكم الفلاسفة، وذلكم لازم لكم.

أما نحن فنثبت لله تعالى كل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسول الله ﷺ مع نفي تشبيه صفاته تعالى بصفات المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبه ذواتهم.

فانظروا عقيدة السلف ما أسهلها! وما أحسنها! فنورُها مُشْرِق، وعقيدة الخَلْف ـ بسكون اللام ـ مظلمة منتنة الرائحة، فالحمد لله الذي عافانا منها!

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان رقم (٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) قال أبو القاسم الأصبهاني في معرض حديثه عن آيات وأحاديث الصفات: «فَإِنَّ مذهبنا فيه ومذهب السلف إثباته وإجراؤه على ظاهره، ونفيُ الكيفية والتشبيه، وقد نفى قومٌ فأبطلوا ما أثبته الله تعالى وتأوّلها قومٌ على خِلافِ الظاهر، فخرجوا من ذلك إلى ضرب من التعطيل والتشبيه». من «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٧٧)، وانظر كتابي: «الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمات» (ص٧٢).

قال (ك): «أي: من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: المتنزهين عن الأقذار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو في غير المأتى». اهـ[(١)].

قال محمد تقي الدين: ثبتت محبة الله تعالى للتوابين وللمتطهرين وتأويل الحب هنا: بالثواب تكذيب[(٢)]. وادعاء المجاز باطل لأنه لا توجد قرينة تدل عليه، وقد تكرر وروده في النصوص، فتوبوا إلى ربكم يا أيها النفاة المعطلون، وآمنوا بالله مثلما آمن به رسوله والصحابة والتابعون بلا تأويل[(٣)] ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٠٥).

(٢) قال المازري في «المعلم» (١/ ٣٠٨): «الباري لا يُوصَفُ بالمحبَّةِ المعهودةِ فينا؛ لأنه يتقدَّسُ عن أن يميلَ أو يُمالُ إليه، وليس بذي جنس أو طبعٍ، فيتصف بالشوق الذي تقتضيه الجنسيَّة، والطبيعة البشرية، وإنما معنى محبته سبحانه للخلق: إرادته لثوابهم وتنعيمهم على رأي بعض أهل العلم، وعلى رأي بعضهم أن المحبَّة راجعةٌ إلى نفس الإثابة والتنعيم لا للإرادة»، وهذا **يخالف عقيدة السلف**، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٥٤): «إن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أثبتَ محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، وقال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: «**ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: مَن كان اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما...**» وقد أجمع سلفُ الأمَّةِ وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصلُ دين الخليل إمام الحنفاء ﷺ».
وقال الطوفيُّ: «وأول مَن أنكر المحبَّة في الإسلام الجعد بن درهم» من «أقاويل الثقات» (ص٧٧)، وانظر في تفصيل الرد على المنكرين كتابي: «الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمات» (ص١٤٣ ـ ١٤٥).

(٣) وددت لو أن المصنف استخدم لفظ (التحريف) خير من لفظ (التأويل) فقد قال شيخ الإسلام في «المناظرة في الواسطية» (٣/ ١٦٥ ـ ١٦٦ ـ مع «مجموع الفتاوى»): «إني عدلت من لفظ التأويل إلى لفظ التحريف؛ لأن التحريف اسم جاء القرآن بذمه، وأنا تحريتُ في هذه العقيدة اتباع الكتاب والسنة، فنفيتُ ما ذمّه الله من التحريف، ولم أذكر فيها لفظ التأويل بنفي ولا إثبات؛ لأنه لفظ له عدة معانٍ كما بيّنتُه في موضعه من القواعد.
فإن معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير معنى لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من =

وقال تعالى في سورة المائدة في صفة المؤمنين الصادقين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]

قال: (ك): «يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة: إنه من تولى عن نصرة دينه وإقامته شريعته؛ فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة، وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أي: بممتنع ولا صعب، وقال تعالى هٰهنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه صفة[1] المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩]، وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتّال، فهو ضحوك لأوليائه قتّال لإعدائه، وقوله ﷻ: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي: لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يردهم عن ذلك راد ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل»[2].اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: قد ذكرت تفسير هذه الآية مطولاً في (القسم الأول) من «سبيل الرشاد»، والمراد هنا إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين المجاهدين في سبيله كما قال تعالى في سورة الصف [٤]:

= أهل الأصول والفقه، وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف؛ لأن من المعاني التي قد تسمى تأويلاً ما هو صحيح منقول عن بعض السلف فلم أنفِ ما تقوم الحجة على صحته، فإذا قامت الحجة على صحته وهو منقول عن السلف فليس من التحريف».

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «صفات».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٢٥٨ ـ ٢٦١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾. اهـ.

قال صاحب «الكواشف» (ص٩٩) ما نصه:

صفة المودة والمحبة

وقوله: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤﴾.

في هذه الآيات الكريمات دليل على إثبات صفة المحبة لله، وهي من الصفات الفعلية، وقد دل عليها الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، محبة تليق بجلاله كما يقال ذلك في سائر الصفات، والحب اشتقاقه في الأصل من الملازمة والثبوت من قولهم: أحب البعير فهو محب إذا برك[(١)]، فالمحب ملازم لذكر محبوبه ثابت القلب على حبه مقيم عليه، ولا[(٢)] يروم عنه انتقالاً ولا يبغي عنه تحولاً ولا زوالاً، قد اتخذ له في سويداء قلبه وطناً وجعله له سكناً، والحب بالضم والكسر، والضم أولى.

ومن السنّة ما يدل على صفة المحبة ما ورد عن عبد الله بن مسعود يرفعه قال: «**ثلاثة يحبهم الله: رجل قام من الليل يتلو كتاب الله...**» الحديث[(٣)] رواه (ت)، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله؛ فأما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم لقرابته بينه وبينهم، فتخلف رجل من أعيانهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه،...**»[(٤)] الحديث رواه (ت)و(ن).

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «فلم يثر».

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «لا».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٦٧)، والطبراني في «الكبير» (١٠٤٨٦)، **وإسناده ضعيف**، وأخطأ فيه أبو بكر بن عياش، فجعله من مسند (ابن مسعود) والصواب أنه من حديث (أبي ذر)، وهو الحديث الآتي، وانظر للتفصيل: «علل الدارقطني» (٦/ ٢٤٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٦٨)، والنسائي (٣/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨ و٥/ ٨٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٩)، وأحمد (٥/ ١٥٣)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (١٢٩)، وابن خزيمة =

قال الشيخ[١]: «فأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله يحب ويرضى كما دل على ذلك الكتاب والسنة. ويقولون: إن المحبة والرضى أخص من الإرادة، فيقولون إن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه وإن كان داخلاً في مراده كما دخلت سائر المخلوقات.اهـ.

الآية الأولى:

فسره ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢]، وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إما أن يكون بإيصال النفع الديني والدنيوي، ويدخل فيه[٣] إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه البر والخيرات والعبادات، وإما أن يكون بدفع الضرر عنهم حسب استطاعة أو بهما جميعاً».اهـ.

الآية الثانية:

القسط: العدل في المعاملات والأحكام مع كل أحد، قريب أو بعيد، عدو أو صديق والعدل في حقوق الله أن تصرف نعمه في طاعته ولا يستعان بها ولا بشيء منها على معصية الله تعالى؛ أي: اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون، إن الله يحب العادلين في أهليهم وما ولوا، وفي جميع أعمالهم، وفي حكمهم بين الناس، وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أداء حقوقهم.

عن عبد الله بن عمرو[٤] عن النبي ﷺ قال: «**المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وُلوا**»[٥].

= (٢٤٥٦)، وابن حبان (٣٣٥٠، ٤٧٧١)، والحاكم (١/٤١٦ ـ ٤١٧ و٢/١١٣) وغيرهم، والحديث **صحيح**.

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «رحمه الله».

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (١) من حديث عمر، وهو قطعة من حديث جبريل الطويل.

(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «في ذلك».

(٤) في الأصل: «ابن عمر» بضم العين! والصواب فتحها، كما في مصادر التخريج.

(٥) أخرجه مسلم (١٨٢٧)، وخرجته بتفصيل في تعليقي على «فضيلة العادلين» رقم (٢٠) =

قال الشيخ[١]: «العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلم محرم مطلقاً لا يباح قط بحال، والعدل محبوب باتفاق أهل الأرض، مركوز حبه في القلوب[٢] وتحمده، وهو من المعروف الذي تعرفه القلوب، والظلم من المنكر الذي تنكره القلوب فتبغضه وتذمه، والشرع الذي يجب على حكّام المسلمين الحكم به عدل كله ليس في الشرع ظلم أصلاً، بل حكم الله أحسن الأحكام، والشرع هو ما أنزل الله فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل، لكن العدل قد يتنوع بتنوّع الشرائع والمناهج». اهـ.

وقال: «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه اشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق[٣]، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة». اهـ.

وقال: «ومعلوم أن الناس تحت أمر الله ورسوله، فليس لأحد أن يضر نفسه وماله ضرراً نهاه الله عنه، ومن دفع ذلك الضرر عنه بما هو أخف منه فقد أحسن إلى نفسه، وفي فطر الناس جميعهم أن من لم يقابل الإحسان بالإحسان فهو معتدٍ، وما عدّه المسلمون ظلماً فهو ظلم». اهـ.

الآية الثالثة:

«التواب كثير التوبة الذي كلما أذنب تاب ورجع عن المعصية. والطهارة[٤]: النظافة والنزاهة عن الأقذار، والطهارة تنقسم إلى قسمين: **الأولى**: حسية، وتكون عن الأحداث والأنجاس. **والثانية**: معنوية، وتكون عن الذنوب والآثام والمعاصي.

= لأبي نعيم، وانظر بهامشه «تخريج السخاوي» عليه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «رحمه الله».

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «تحبه القلوب».

(٣) هكذا في الأصل، وفي معناه خفاء. (منه).

(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «الطهارة» بدون «و».

والمعنى: إن الله يحب الذين يرجعون إليه تائبين غير مصرين على شيء[١] من أفعالهم، ويحب كلَّ من نزَّه نفسه عن الأقذار وابتعد عن ارتكاب المحرمات، وللتوبة ثلاثة شروط؛ إذا كانت لا تتعلق بحق آدمي: **الأول**: الإقلاع عن المعصية. **والثاني**: الندم على فعلها. **والثالث**: العزم على أن لا يعود إلى المعصية أبداً. فإن فَقَدَ أحد هذه الشروط[٢] لم تصح توبته، وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة، الثلاثة المذكورة[٣]. **والرابع**: أن يبرأ من حق صاحبه[٤] فإن كانت مالاً أو نحوه رده، وإن كانت حد قذف أو نحوه، مكّنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها إن كان عاقلاً حليماً يغلب على الظن أنه إذا جاء معتذراً متنصلاً من ذنبه تائباً نادماً عفا عنه وسامحه، وإلا فيستغفر له لحديث[٥]: «**إن**[٦] **كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول: اللهم اغفر لنا وله**»[٧]. وقد حث الله على التوبة وبيّن ما للتائبين في آيات القرآن الكريم، وقد

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «سيء».

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «أحد الشروط».

(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «المذكور».

(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «صاحبها».

(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «الحديث».

(٦) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «أن فيه كفارة».

(٧) ورد في الباب عن جمع، مثل: أبي سعيد الخدري، أخرجه هناد (١١٧٨) ـ ومن طريقه أبو الشيخ في «التوبيخ والتنبيه» رقم (١٧١) ـ، وابن أبي الدنيا في «الصمت» رقم (١٦٣)، وفي «الغيبة والنميمة» رقم (٢٥)، والدينوري في «المجالسة» (رقم ٣٥٤١ ـ بتحقيقي)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١٦٨)، والطبراني في «الأوسط» (٧/ ٣٠٦) رقم (٦٥٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٣٠٦) رقم (٦٧٤١)، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه عباد بن كثير.

قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٩١ ـ ٩٢): «فيه عباد بن كثير الثقفي، وهو متروك»، وقال ابن أبي حاتم في «العلل» رقم (١٨٥٤): «قلت لأبي: هذا الحديث منكر؟ قال: كما يكون، أسأل الله العافية، يجيء عباد بن كثير البصري بمثل هذا؟!».

وعزاه العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٤١) لابن مردويه في «التفسير»، وكذلك السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٩٧)، وعزاه للبيهقي أيضاً وهو في «شعبه» كما قدَّمناه.

وفي الباب عن أنس، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٩١) ـ وهو في «ذم الغيبة والنميمة» (١٥٣) ـ ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١١٨) ـ، والدينوري في «المجالسة» (رقم ٣٥٤٢ ـ بتحقيقي) ـ ومن طريقه ابن عربي في «محاضرة الأبرار» =

نظم أركان التوبة الشيخ عثمان بن قائد الحنبلي(١) في ثلاثة أبيات وسماها (شروطاً)، فقال:

شروط توبتهم إنْ شئتَ عِدَّتها ... ثلاثة عرفت فاحفظ على مهلِ

إقلاعه ندم، وعزمه أبدا ... أن لا يعود لما منه جرى وقلِ

إن كان توبته من ظلم صاحبه ... لا بد من رد(٢) حقه على عجلِ

الآية الرابعة:

الاستقامة: ضد الاعوجاج، ومعناها لغةً: الاستواء في جهة الانتصاب، وأما اصطلاحاً، فهي: اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم.

= (٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤) ـ، وأبو الشيخ في «التوبيخ» (٢١١)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٢١٢)، والحارث بن أبي أسامة (١٠٨٧ ـ بغية الباحث)، والبيهقي في «الشعب» (٦٣٦٨ ـ الهندية)، وضعّفه، وفيه عنبسة بن عبد الرحمٰن القرشي **كذاب**.
وأخرجه الخطيب (٣٠٣/٧) من طريق آخر عن أنس، وفيه دينار بن عبد الله **كذاب**.
وأخرجه الخرائطي في «المساوئ» (٢١٤)، والحاكم في «الكنى» (ق١٦١/ب)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٥٠٧) من طريق آخر عن أنس، **بسندٍ تالف**، قاله السخاوي في «الفتاوى الحديثية» (١/ ١٦٠).
ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١١٨) أيضاً من حديث سهل بن سعد وجابر بن عبد الله، وقال: «هذه الأحاديث ليس فيها شيء يصح»، وتعقّب في حكمه عليه بالوضع! انظر التفصيل في: «المقاصد الحسنة» (ص٣١٧ ـ ٣١٨)، و«اللآلئ» (٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)، و«تنزيه الشريعة» (٢/ ٢٩٩)، و«التعقبات على الموضوعات» رقم (٢٠٠) وتعليقي عليه، و«السلسلة الضعيفة» (١٥١٨، ١٥٢٠).

(١) هو عثمانُ بن أحمدَ بن سَعِيد بن عُثمان بن قائدٍ ـ بالقافِ ـ النَّجدِيُّ مَوْلِداً الدِّمَشقِيُّ رحْلةً القاهِرِيُّ مَسْكناً ومَدْفَناً، ولد في بَلَدِ العيينة مِن قُرى نجد ونشأ بها وطلب العلم فيها على يَدِ العلامة الشيخ عَبد الله بن محمد بن ذَهْلان، ثم ارتحل إلى دمشق وأخذ عن علمائها، ثم بعد ذلك إلى مصر واشتهر في مِصرَ ونواحيها وَقُصِدَ بالأسئلة والاستفتاء سنين، وله كتب منها: «حاشية نفيسة على المنتهى»، و«هداية الرَّاغب شرح عمدة الطالب»، و«اختصر دُرَّةَ الغوّاص» مع تعقبات يسيرة، و«شرح البسملة»، و«رسالة في الرَّضاع»، و«فجأةُ الخَلَفِ في اعتقاد السلف» وغيرُ ذلك. توفي بمصر مساء يوم الاثنين رابع عشر جمادى الأولى سنة ١٠٩٧. ترجمته في «السُّحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» تأليف محمد بن عبد الله بن حميد النجدي ثم المكي (٢/ ٦٩٧ ـ ٦٩٩)، وبعدها في «الكواشف الجلية»: «رحمه الله».

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «رده الحق».

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين فاستقيموا لهم... إلخ، وقد فعل ﷺ ذلك والمسلمون، واستمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم، وهم: بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقاتلوهم(١) في الحرب أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ التقوى: التحرز بطاعة الله عن معصية الله، فهي كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات، وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال الشاعر(٢):

خَلِّ الذُّنوبَ صغيرها ... وكبيرها فهو التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرةً ... إنَّ الجبال من الحصى. اهـ

الآية الخامسة:

الحب والمحبة، ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، قال: وقد(٣) أحبه فهو محب وحبه - يحبه بالكسر - فهو محبوب، قال الأزهري: محبة العبد لله ولرسوله: طاعته لأمرهما واتباعه لهما، ومحبة الله للعبد: محبة تليق بجلاله وعظمته أثرها رحمته وإحسانه وإعطاؤه، والمعنى: قل يا محمد: إن كنتم تحبون الله حقيقة فاتبعوني فإن ما جئت به من عنده مبين لصفاته وأمره ونهيه، والمحب الصادق حريص على معرفة المحبوب ومعرفة أمره ونهيه، ليتقرب إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه، فإن اتبعتموني يحببكم الله... إلى، وهذه حجة على من يدعي محبة الله في كل زمان ومكان وأعماله تكذب ما يقول، إذ كيف يجتمع حب مع الجهل بالمحبوب وعدم العناية بأوامره ونواهيه، فهو كما قال الوراق(٤):

---

(١) في طبعة «الكواشف الجلية»: «فقتلوهم معهم».
(٢) هو ابن المعتز، والأبيات في «تفسير ابن كثير» (١/ ٦٥)، «تفسير القرطبي» (١/ ٢٠٣)، «روح المعاني» (١/ ١٠٨)، «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٦٠)، «التذكرة» (١/ ٢٩٨) لابن حمدون.
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية» بدون: «وقد».
(٤) الأبيات منسوبة لمحمود الوراق في: «التحرير والتنوير» (١/ ١٠٥)، «جامع العلوم =

تعصي الإلٰه وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

ما يؤخذ من الآية:

١ ـ إثبات الألوهية. ٢ ـ إثبات صفة الكلام. ٣ ـ إثبات صفة المحبة لله. ٤ ـ الرد على الجهمية والمعتزلة. ٥ ـ الحث على محبة الله بالسعي في أسبابها. ٦ ـ الرد على من قال: إن القرآن كلام جبريل أو كلام محمد ﷺ. ٧ ـ إثبات صفة المغفرة، ومن أسمائه تعالى الغفور والغفار، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ الآية. قال ابن القيم[1] رحمه الله:

وَهُو الْغَفُورُ فَلَوْ أُتِيَ بِقُرَابِهَا ... مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ بَل مِنَ الْعِصْيَانِ
لاقاه بالغفرانِ مِلْءَ قُرَابِهَا ... سبحانَهُ هُوَ وَاسِعُ الْغُفْرَانِ

فهو سبحانه الذي أظهر الجميل وستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾، وفي الحديث: «**إن الله يقول: يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتُك بقرابها مغفرة**»[2].

ومما يؤخذ من الآية أيضاً:

٨ ـ الحث على اتباع الرسول ﷺ. ٩ ـ إن هذه الآية هي الميزان الذي يعرف[3] به من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامة محبة الله اتباع الرسول ﷺ.

قال الشيخ رحمه الله: وكلما كان الرجل أتبع لمحمد ﷺ كان أعظم توحيداً لله

= والحكم» (١/ ١٨٩)، وقد نسبها للشافعي القاضي عياض في «الشفا» (٢/ ٩).

(١) انظر: «نونية ابن القيم» (ص٢٤٦).

(٢) الحديث **حسن بمجموع طرقه**، **وحسنه** النووي في «رياض الصالحين» (١٨٧٨) وقال ابن رجب في «جامع العلوم» (٢/ ٣٩٤): «وإسناده لا بأس به»، **وحسنه** شيخنا الألباني في «الصحيحة» (١٢٧، ١٢٨).
وفي الباب عن أنس عند الترمذي (٣٥٤٠) وعن أبي ذر عند أحمد (٢/ ١٥٤، ١٥٧، ١٦٧، ١٧٢)، والدارمي (٢/ ٣٢٢)، وابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٣٢)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤١، ١٠٤٢).

(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «التي يُعرف بها».

وإخلاصاً له في الدين، وإذا بَعُد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك، فإذا كثر بُعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول». اهـ.

قال محمد تقي الدين: لم أنقل تفسيره لآية المائدة لأنه تقدم.

ثم قال:

«**تنبيه**: أنكرت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم محبةَ الله، وقالوا: المحبة لا تكون إلا بين متناسبين؛ وبهذه الشبهة الفاسدة ردوا صفة من صفات الله الثابتة له.

قال الإمام أحمد: لا نُزِيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين، والمناسبة لفظ مجمل، فإنه قد يراد بها التوالد[١] والقرابة، فيقال: هذا نسيب فلان ويناسبه إذا كان بينهم قرابة مستندة للولادة[٢] والآدمية، والله ﷻ منزَّه عن ذلك، ويراد بها المماثلة، فيقال: هذا يناسب هذا: أي: يماثله والله ﷻ أحد، صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أو[٣] يراد بها الموافقة في معنى من المعانى وضدها المخالفة، والمناسبة بهذا الاعتبار ثابتة فإن أولياء الله تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه وفيما يحبه فيحبونه وفيما نهى عنه فيتركونه وفيما يعطيه فيصيبونه، والله وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال[٤]، نظيف يحب النظافة، محسن يحب المحسنين، مقسط يحب المقسطين، إلى غير ذلك من المعاني، فإذا أريد بالمناسبة هذا وأمثاله فهذه المناسبة حق، وهي من صفات الكمال[٥]، فإن من يحب صفات الكمال أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال أو لا يحب صفات الكمال، وإذا قدر موجودان أحدهما يحب العلم والصدق والعدل والإحسان ونحو ذلك، والآخر لا فرق عنده بين هذه الأمور وبين الجهل والكذب والظلم ونحو ذلك لا يحب هذا، ولا يبغض هذا كان الذي يحب تلك الأمور أكمل من هذا»[٦]. اهـ.

من «مجموعة الرسائل» لشيخ الإسلام.

---

(١) في مطبوع «مجموع الفتاوى»: «التولد».

(٢) في مطبوع «مجموع الفتاوى»: «إلى الولادة».

(٣) في مطبوع «مجموع الفتاوى»: «و».

(٤) في مطبوع «مجموع الفتاوى» زيادة: «عليم يحبُ العلم».

(٥) في مطبوع «مجموع الفتاوى» زيادة: «كما تقدمت الإشارَةُ إليه».

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ١١٤ ـ ١١٥) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

الآية الثامنة:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ فالغفور من أبنية المبالغة، أي كثير المغفرة، وأصل الغفر: الستر، ومنه المغفر، فهو ﷻ يغفر لمن تاب إليه؛ أي يستر ذنوبه ويتجاوز عن خطاياه.

قال ابن رجب: «المغفرة: محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، ومنه: المغفر؛ لما يقي الرأس من الأذى، لا كما ظنه بعضهم الستر، فالعمامة لا تسمى مغفراً مع سترها، فلا بد في لفظ المغفر من الوقاية»[(١)]. اهـ.

وقوله: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ من الود، وهو خالص الحب وألطفه وأرقه وهو من الحب بمنزلة الرأفة والرحمة، قال الجوهري: «ودِدْتُ الرجل أوَدُّه وُدّاً إذا أحببتَه، والوُدُّ المَوَدّة والودود المحب»[(٢)]، والودود من صفاته[(٣)] تعالى، أصله: من المودة واختلف فيه على قولين؛ فقيل: هو ودود بمعنى وادٌّ، كضروب بمعنى ضارب، وقتول بمعنى قاتل، ونؤوم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أنّ فعولاً في صفات الله فاعل كغفور بمعنى غافر، وشكور بمعنى شاكر، وصبور بمعنى صابر، وقيل: بل هو بمعنى مودود، وهو: الحبيب، وبذلك فسره (خ) في «صحيحه»، فقال: «الودود: الحبيب»[(٤)]، والأول أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج: ١٤]، وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وفيه[(٥)] سر لطيف، وهو أنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فالتائب حبيب الله فالود أصفى الحب وألطفه. اهـ. من كلام ابن القيم[(٦)].

وقال رحمه الله:

وَهُوَ الودُودُ يحبُّهُم وَيُحبُّهُ ... أحبابُهُ والفَضْلُ للمَنَّانِ
وهُوَ الذي جَعَل المَحبةَ فِي قُلُو ... بِهِمُ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِ

---

(١) اختيار الملأ الأعلى (ص٤٨) وعنه في «تفسير ابن رجب» (٢/٢٠٦).
(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (٢/٥٤٩) مادة (وَدَّ).
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «صفات أصله» والصحيح المثبت.
(٤) «صحيح البخاري» كتاب التفسير، باب تفسير سورة البروج، باب رقم (٤٢٤).
(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «وفي».
(٦) في كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (ص٥٥، ط. ابن رجب).

هَـذَا هُـوَ الإِحْـسَـانُ حَـقَّـاً لَا مُـعَـا ... وَضَـةً وَلَا لِـتَـوَقُّـعِ الـشُّـكْـرَانِ(١)

والخلاصة:

إنه سبحانه المحب لأهل طاعته من أنبيائه ورسله وملائكته وأوليائه وعباده المؤمنين المحسنين وهو سبحانه محبوبهم ولا تعادل محبة الله عند أصفيائه محبة أخرى، وهذا هو الواجب ويتعين أن تكون المحاب تبعاً لها؛ لأن محبة الله هي روح الأعمال وجميع الأعمال وجميع العبودية الظاهرة والباطنة تبع لها، ومحبة العبد لربه فضل من ربه وإحسان ليست بحول العبد وقوته، فهو الذي أحب عبده فوفقه وجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه جازاه بحب آخر.

قال ابن القيم:(٢)

وحياة قلب المرء(٣) في شيئين من ... يـرزقـهـمـا يـحـيـى مـدى الأزمـانِ
في هـذه الـدنـيـا وفـي الأُخـرى يـكـو ... ن الـحـي ذا الـرضـوان والإحـسـانِ
ذكـر الإلٰـه وحـبـه مـن غـيـر إشـ ... ـراك بـه وهـمـا فـمـمـتـنـعـانِ
من صاحب التعطيل حقاً كامتنا ... ع الطائر المقصوص من طيرانِ
أيـحـبـه مـن كـان يـنـكـر وصـفـه ... وعـلـوه وكـلامـه بـقـرانِ
لا والذي حقًّا على العرشِ استوى ... مُـتَـكـلِّـمـاً بـالـوحـي والـفـرقـانِ(٤)

ثم قال صاحب «الكواشف»:

أقسام المحبة:

«أقسام المحبة خمسة: **الأول**: محبة الله، ولا تكفي وحدها للنجاة من النار والفوز بالجنة، فإن المشركين يحبون الله، **والثاني**: محبة ما يحب(٥) الله وهذه المحبة هي التي تدخل في الإسلام وتخرج من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة، **الثالث**: محبة في الله ولله؛ وهي فرض، كمحبة أوليائه وبغض أعدائه وهي من مكملات محبة الله ومن لوازمها، فالمحبة التامة مستلزمة

---

(١) انظر: «نونية ابن القيم» (٢٤٥).
(٢) في «نونيته» (٢٩٧)، وفيها: «قلب العبد» بدل «قلب المرء».
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «قلب في».
(٤) «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» (٦٤ ـ ٧٢) بتصرف يسير.
(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «يحبه الله».

لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ويحب أولياءه»[١].

قال الشيخ[٢] رحمه الله على قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢]: «فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينفي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله.

فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه؛ كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب.

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ [المائدة: ٨٠].

فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب.

ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي ﷺ وما أنزل إليه.

ومثله قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: ٥١]، فإنه أخبر في تلك الآية[٣] أن متوليهم لا يكون مؤمناً، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم، فالقرآن يصدق بعضه بعضاً»[٤]. اهـ.

قال ابن القيم[٥]:

أتحبُّ أعداءَ الحبيبِ وتَدَّعي	حُبّاً لهُ ما ذاكَ في إمْكَانِ
وكذا تُعادي جَاهِداً أحبابَهُ	أينَ المحبَّةُ يا أخَا الشَّيْطَانِ
ليسَ العِبادَةُ غيرَ تَوْحيدِ المَحَـ	ـبَّةِ مَعْ خُضوعِ القَلْبِ والأرْكَانِ

(١) انظر: «الكواشف الجلية» (ص١١٢). (٢) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) في مطبوع كتاب «الإيمان» لشيخ الإسلام: «الآيات».

(٤) انظر: «الإيمان» (١٧ ـ ١٨).

(٥) في «الكافية الشافية» (٢٥٨)، والنقل ما زال من «الكواشف الجلية».

والحُبُّ نَفْسُ وِفاقِهِ فِيما يُحِـ ـبُّ وَبُغْضُ ما لَا يَرْتَضِي بِجَنانِ

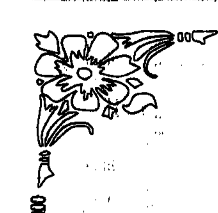
الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال، فهذه لا تصلح إلا لله، ومتى أحب العبد بها غير الله أشرك[(١)] الشرك الأكبر.

الخامس: المحبة الطبعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة المال والولد ونحو ذلك، فهذه لا تذم إلا إذا شغلت[(٢)] وألهت عن طاعة الله.

قال الشيخ: حب[(٣)] الإنسان للأمور الدنيوية لا يلام العبد عليه ولا يعاقب إلا [إذا][(٤)] دعا إلى معصية الله، أو تضمن ترك واجب. وجامع[(٥)] المال إذا قام فيه بالواجبات ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه، لكن إخراج الفضل والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم وأفرغ للقلب، وأجمع للهمِّ، وأنفع للدنيا والآخرة»[(٦)] .اهـ.

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «فقد أشرك».
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «أشغلت».
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «محبةُ».
(٤) غير موجود في مطبوع «الكواشف الجلية».
(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «وجميع».
(٦) انظر: «الكواشف الجلية» (١١٢ ـ ١١٣).




إثبات صفة الرحمة لله تعالى

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة: ١] في ابتداء كل سورة إلا سورة التوبة.

وقال تعالى في آخر سورة البقرة معلّماً عباده كيف يدعونه: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى في سورة البقرة أيضاً: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ⑯③﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③﴾ [الفاتحة: ٢، ٣].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦].

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ②①⑧﴾ الآية [البقرة: ٢١٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ②③﴾ الآية [العنكبوت: ٢٣].

إلى غير ذلك من الآيات التي هي برهان قاطع على أن الله تعالى موصوف بالرحمة.

معنى صفتي الرحمٰن الرحيم: قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢١٠): «في أسماء الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وهما اسمان مشتقان من الرحمة، مثل: ندمان ونديم، وهما من أبنية المبالغة، ورحمان أبلغ من رحيم، والرحمٰن خاص لله لا يسمى به غيره، ولا يوصف، والرحيم يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رحمٰن.

وفيه: «ثلاث ينتفع[١] بهن العبد في الدنيا، ويدرك بهن في الآخرة ما هو أعظم من ذلك: الرُّحم، والحياء، وعي اللسان» الرحم بالضم: الرحمة، يقال: رحم رحماً: ويريد بالنقصان ما يناله المرء بقسوة القلب، ووقاحة الوجه، وبسطة اللسان التي هي أضداد تلك الخصال من الزيادة في الدنيا»[٢].

تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

قال (ك): «أي: فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة و﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾: أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر.

ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره»[٣]. اهـ.

وقال القاسمي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية: «يخبر تعالى بخطابه كافة الناس عن تفرده بالإلهيته، وأنه لا شريك له ولا عديل.

قال الراغب: يجوز أن يكون قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ خطاباً عاماً، والمعنى، الذي تعبدونه إلٰه واحد[٤]، تنبيهاً أنكم لستم كالكفار، الذين يعبدون أصناماً آلهة والشيطان والهوى وغير ذلك.

إن قيل: ما فائدة الجمع بين ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وبين ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وأحدهما يبنى على الآخر؟

قيل: لما بيّن بقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أنه المقصود بالعبادة أو المستحق لها ـ وكان يجوز أن يتوهم أن يوجد إلٰه غيره ولكن لا يعبد ولا يستحق العبادة أكده بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحق لهذا المعنى أن يكون مؤكداً وتكرر عليه الألفاظ، إذ هو مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه. اهـ.

وقال الرازي: إنما خص ﷻ هذا الموضع بذكر هاتين الصفتين؛ لأن ذكر

---

(١) في مطبوع «النهاية»: «ينقصُ»، وهو الصحيح.
(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٢١٠).
(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٢٨).
(٤) وهنا زيادة سقطت من الأصل وهي مثبتة في المطبوع من «تفسير القاسمي»: «أي المستحقُّ منكم العبادة هو إلٰهٌ واحدٌ لا أكثر، ويجوز أن يكون خطاباً للمؤمنين».

الإلٰهية الفردانية يفيد القهر والعلو، فعقبهما بذكر هذه المبالغة في[(١)] الرحمة ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلٰهية وعزة الفردانية، وإشعاراً بأن رحمته سبقت غضبه وأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان»[(٢)].اهـ.

قال محمد تقي الدين: تقدم معنى الرحمٰن الرحيم.

وقال صاحب «لسان العرب»: «الرحمة: الرقة والتعطف، والمرحمة مثله. وقد رحمته، وترحمت عليه، وتراحم القوم، رحم بعضهم بعضاً، والرحمة: المغفرة، وقوله تعالى في وصف القرآن: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢] أي: فصلناه هادياً وذا رحمة، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾: أي: هو رحمة لأنه كان سبب إيمانهم، رَحِمَهُ رُحْماً ورُحُماً ورَحْمةً ورَحَمَةً؛ حكى الأخيرة سيبويه، ومرحمة.

وقال الله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً برحمة الضعيف والتعطف عليه؛ وتَرَحَّمْتُ عليه؛ أي: قلت: رحمة الله عليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فإنما ذكر على النسب وكأنه اكتفى بذكر الرحمة عن الهاء، وقيل: إنما ذلك لأنه تأنيث غير حقيقي، والاسم الرحمٰن[(٣)]. قال الأزهري[(٤)]: التاء في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ﴾[(٥)] أصلها هاء وإنْ كُتِبتْ تاء، الأزهري: قال عكرمة في قوله: ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨]. أي: رزق ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا [الْإِنسَانَ مِنَّا][(٦)] رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ [هود: ٩] أي: رزقاً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي: عطفاً[(٧)]، ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ﴾ [يونس: ٢١] أي: حيا وخصبا بعد مجاعة، وأراد بـ﴿النَّاسِ﴾ الكافرين، والرحموت: من الرحمة، وفي المثل: رهبوت خير من رحموت، أي: لأن ترهب خير من أن ترحم، لم يستعمل على هذه الصيغة إلا مزدوجاً[(٨)].

---

(١) من مطبوع «تفسير القاسمي» و«تفسير الرازي»، وسقطت من الأصل.
(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (٣/ ١٤)، و«تفسير الرازي» (٤/ ١٦٠).
(٣) في مطبوع «لسان العرب»: «والاسم الرُّحمن».
(٤) في «تهذيب اللغة» (٥/ ٥١).
(٥) في مطبوع «لسان العرب»: «رحمتَ» بالتاء المبسوطة.
(٦) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل.
(٧) في مطبوع «لسان العرب»: «وصنعاً».
(٨) في مطبوع «لسان العرب»: «مُزوَّجاً».

وتَرَحَّم عليه: دعا له بالرحمة، واسترحمه: سأله الرحمة، ورجل مرحوم ومُرَحّمٌ شُدِّدَ للمبالغة، (والتوكيد فلأنه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر، وهذا تغال بالعرض، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، معناه يختص بنبوته من يشاء ممن أخبر ﷻ أنه مصطفى مختار)[١].

والله الرحمٰن الرحيم: بنيت الصفة الأولى على فعلان لأن معناه الكثرة، وذلك لأن رحمته وسعت كل شيء وهو أرحم الراحمين، فأما الرحيم فإنما ذكر بعد الرحمٰن؛ لأن الرحمٰن مقصور على الله ﷻ والرحيم قد يكون لغيره.

قال الفارسي: إنما قيل: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فجيء بالرحيم، بعد استغراق الرحمٰن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، كما قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ٢] فخص بعد أن عم»[٢]. اهـ.

قال القاسمي في «تفسيره» عند هذه الآية: «وقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان والجنة، كما قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الشورى: ٨]، ولعلها هي المراد هنا، بدليل مقابلتها بـ «العذاب»[٣] قيل: كما قابل الآية التي ذكرها بقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١] والله أعلم. ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: هذه الرحمة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: الكفر والشرك والفواحش: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يعطون زكاة أموالهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: بكتابنا ورسولنا يصدقون»[٤]. اهـ.

وقال القاسمي أيضاً في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ الآية [البقرة: ٢١٨]: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بحرمة الشهر في نفسه وجواز قتال المخرجين أهل المسجد الحرام منه، ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ تركوا مكة وعشائرها[٥] إذ خرجوا من المسجد الحرام ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولو في الشهر الحرام للدفع

(١) ما بين الهلالين سقط من مطبوع «لسان العرب».
(٢) انتهى النقل من «لسان العرب» (١٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١) بتصرف.
(٣) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «قبل».
(٤) انظر: «تفسير القاسمي» (٧/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).
(٥) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «وعشائرهم».

عن أنفسهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وإن باشروا القتال في الشهر الحرام ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: جنته على إيمانهم وهجرتهم وجهادهم، وإنما ثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو؛ للإيذان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر، وإنما هو على طريق التفضل منه سبحانه[1] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لهتكهم حرمة الشهر ﴿رَّحِيمٌ﴾ بما تجاوز عن قتالهم، مع قيام دليل الحرمة فلم يعاقبهم»[2]. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ الآية [العنكبوت: ٢٣].

قال (ك): «أي جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ أي: لا نصيب لهم فيها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع[3] شديد في الدارين»[4]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: الرحمة صفة وصف الله بها نفسه، ولفظها مشترك له في كل مقام معنى، والمعنى الذي وصف الله به نفسه خاص بالله تعالى لا يشترك معه أحد فيه، والذين نفوها عن الله تعالى رأوها مفسرة بالرقة والتعطف في حق المخلوق، فشبهوا صفة الخالق بصفة المخلوق ونفوها عن الله تعالى وأوّلوها بالمغفرة والإثابة، وإنما أتوا من قبل جهلهم وتشبيههم، ولو أثبتوها مع التنزيه عن مشابهة المخلوقين كما أثبتوا العلم والقدرة؛ لكان خيراً لهم.

وقال صاحب «الكواشف» (ص١١٢): «صفة الرحمة والمغفرة. وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة: ١]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[5]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، في هذه الآيات[6] إثبات صفة الرحمة والمغفرة.

الآية الأولى:

الباء في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ للاستعانة، وهي متعلقة بمحذوف، والتقدير

---

(١) في مطبوع «تفسير القاسمي» زيادة: «لا لأنَّ في فوزهم اشتباهاً».

(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (٣/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «موجعٌ في الدنيا والآخرة».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٥٠٢).

(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «الآية».

(٦) في مطبوع «الكواشف الجلية» بزيادة: «﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾».

أبتدئ، والاسم مشتق من السمو و[١]العلو أو من السمة، وهي العلامة، ولفظ الجلالة مشتق من أله، ومعنى كونه مشتقاً أنه دال على صفة هي ألوهية كسائر الأسماء الحسنى، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال ابن عباس: الرحمٰن الرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر؛ أي: أوسع رحمة.اهـ.

وهما من أبنية المبالغة، والرحمٰن أبلغ من الرحيم؛ لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، والرحمٰن خاص بالله سبحانه لا يسمى به غيره ولا يوصف، بخلاف الرحيم فيوصف به غيره، فيقال: رجل رحيم، وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمٰن[٢] الرحيم: الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة، وخاصة عامة.

قال ابن القيم: «وأسماء[٣] الرب تعالى هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي[٤] بين العلمية والوصفية، فالرحمٰن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هي[٥] صفة جرى تابعاً على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورد[٦] الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى؛ حسن مجيئه مفرداً غير تابع، كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمٰن كاسم الله، فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجئ قط تابعاً[٧] بل متبوعاً، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة، فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمٰن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً.

وأما الجمع بين الرحمٰن والرحيم ففيه معنى، وهو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمٰن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمٰن صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «وهو».
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية» بإثبات: «و».
(٣) في مطبوع «بدائع الفوائد» بدون: «و».
(٤) بعدها في مطبوع «بدائع الفوائد»: «فيها». (٥) بعدها في مطبوع «بدائع الفوائد»: «هو».
(٦) في مطبوع «بدائع الفوائد»: «ورود». (٧) في مطبوع «بدائع الفوائد»: «لغيره».

﴿رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجئ قط (رحمٰن بهم) فعلم أن رحمٰن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، **وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب**، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم[١] تنجل لك صورتها»[٢].

وقال ابن القيم:

«تضمنت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ﴾[٣] إثبات النبوات من جهات عديدة:

الأولى: من[٤] اسم «الله» وهو المألوه المعبود، ولا سبيل إلى معرفة عبوديته[٥] إلا من طريق رسله.

الثانية: من اسمه «الرحمٰن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية السعادة[٦]، فمن أعطى هذا الاسم[٧] حقه عرف أنه متضمن إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب، فاقتضاؤه الرحمة لما يحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائه ما يحصل به حياة الأبدان والأشباح[٨]»[٩].اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: قوله: إن اسم الجلالة «الله» مأخوذ من (اله) بزيادة الألف واللام وحذف الهمزة، وهو فعال بمعنى مفعول؛ أي: مألوه؛ لأن أله يأله بمعنى عبد يعبد، وهذا مذهب سيبويه وعندي فيه نظر؛ لأن هذا هو اسم الباري سبحانه في جميع اللغات السامية، كالعبرانية فهو فيها الوهيم والسريانية فهو فيها أولاها، والآشورية فهو فيها ألاهو، فهو مرتجل والله أعلم.اهـ.

---

(١) في مطبوع «بدائع الفوائد»: «لم ينجل».
(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤، ط. دار الكتاب العربي).
(٣) في مطبوع «مدارج السالكين» بدون: «بسم الله الرحمٰن الرحيم».
(٤) قبلها في «مدارج السالكين»: «أخذها». (٥) في مطبوع «مدارج السالكين»: «عبادته».
(٦) في مطبوع «مدارج السالكين»: «كمالهم».
(٧) في مطبوع «مدارج السالكين»: «اسم الرحمٰن».
(٨) انظر: «مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» (١/ ٧ ـ ٨، ط. دار الكتاب العربي ـ تحقيق محمد حامد الفقي).
(٩) انظر: «الكواشف الجلية» (٧٢ ـ ٧٤).

الآية الثانية:

أي: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فما من مسلم ولا كافر إلا وهو يتقلب في نعمته.اهـ.

الآية الثالثة:

يخبر تعالى أنه بالمؤمنين رحيم.

أما في الدنيا؛ فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصّرهم الطريقَ الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر والبدع وأتباعهم من الطغام. وأما رحمته في الآخرة التي قال فيها[1]: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، فإنه أمّنهم من الفزع الأكبر، وأمر الملائكة يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣].

الآية الرابعة:

يخبر تعالى أن رحمته عمَّتْ كلَّ شيء في العالم العلوي والسفلي: البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا يخلو مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمته وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخالصة[2] ليست لكل أحد، ولهذا قال[3] فيها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي[4]: الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة.

الآية الخامسة:

في الآية احتجاج، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين مقرراً لهم[5] وملزماً

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «عنها».
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية» بدون: «الخالصة».
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «عنها».
(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية» بدون: «أي».
(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية» بدون: «لهم».

لهم بالتوحيد؟ فإن أجابوك وإلا فقل: إن الله هو الخالق لهذا الكون المالك المتصرف فيه، وقوله: ﴿كُتِبَ...﴾ إلخ هذا استعطاف منه تعالى للمتولين عن الإقبال عليه، وإخبار منه بأنه رحيم بالعباد، قادر على أن يعاجلهم بالعقاب، ولكنه كتب على نفسه الرحمة ووعد بها فضلاً منه وإحساناً ولم يوجبها عليه أحد.

والكتابة تكون شرعية وتكون كونية[1]، فالكتابة الشرعية الأمرية كقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

والكونية القدرية كقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٤].

والكتابة في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] كونية قدرية فقد كتب على نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً من غير أن يوجبها عليه أحد كما قيل[2]:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعى لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا فبفضله وهو الكريم الواسعُ

«وإذا كان معقولاً من الإنسان أن يوجب على نفسه ويحرم، ويأمرها وينهاها، مع كونه تحت أمر غيره ونهيه، فالآمر الناهي الذي ليس فوقه آمر ولا ناهٍ كيف يمتنع في حقه أن يحرم على نفسه ويكتب على نفسه، وكتابته على نفسه سبحانه تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له[3] إرادة أن لا يفعله فإن محبته للفعل تقتضي وقوعه منه وكراهته لأن يفعله، (فإن محبته للفعل تقتضي وقوعه منه، وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه، وهذا غير ما يحبه سبحانه من أفعال عباده ويكرهه، فإن محبته ذلك منهم تستلزم وقوعه، وكراهته منهم لا تمنع وقوعه)[4]،

---

(١) سبق أن ذكرنا في التعليق على (٦/١٨) الفرق بينهما.
(٢) انظر: «شرح نونية ابن القيم» (ص٢٤٥).
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية» بزيادة جملة وهي: «ورضاه به وتحريمه على نفسه يستلزم بُغضَه لما حرمه وكراهته له و...».
(٤) ما بين الهلالين ليس في «الكواشف الجلية».

فرق بين فعله هو سبحانه وبين فعل عباده الذي يقع مع كراهته وبغضه له، ويتخلف مع محبته له ورضاه به، بخلاف فعله هو سبحانه، فهذا نوع وذلك نوع، فتدبر هذا الموضع»(١).

وقال: «واعلم أن الناس في هذا المقام ثلاث طوائف:

فطائفة منعت أن يجب عليه شيء أو يحرم عليه شيء بإيجابه وتحريمه، وهم كثير من مثبتي القدر، الذين ردوا أقوال القدرية النفاة وقابلوهم أعظم مقابلة، نفوا لأجلها الحِكَمَ والأسبابَ والتعليل، وأن يكون العبد فاعلاً أو مختاراً.

الطائفة الثانية: بأزاء هؤلاء أوجبوا على الرب وحرموا أشياء بعقولهم جعلوها شريعة له، يجب عليه مراعاتها من غير أن يوجبها هو على نفسه ولا حرمها، وأوجبوا عليه من جنس ما يجب على العباد، وحرموا عليه من جنس ما يحرم عليهم، ولذلك كانوا مشبهة في الأفعال، والمعتزلة منهم جمعوا بين الباطلين؛ تعطيل صفاته، وجحد نعوت كماله، والتشبيه له بخلقه فيما أوجبوه عليه وحرموه، فشبهوا في أفعاله وعطلوا في صفات(٢) كماله، فجحدوا بعض ما وصف به نفسه من صفات الكمال وسموه توحيداً وشبهوه بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلاً، وقالوا: نحن أهل العدل والتوحيد، فعدلهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة التي لا يخرج شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها، وتوحيدهم إلحاد في أسمائه الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلاً(٣)، وعدلهم شركاً، والمقصود أن هذه الطائفة مشبِّهة في الأفعال، معطِّلة في الصفات.

وهدى الله الأمة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فلم يقيسوه بخلقه، ولم يشبهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله، ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك، ولم يوجبوا عليه شيئاً ولم يحرموا عليه شيئاً، بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه، وشهدت قلوبهم ما في ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحكم والغايات المحمودة التي يستحق عليها كمال الحمد والثناء، فإن العباد لا يحصون ثناء عليه(٤) بل هو كما أثنى على نفسه.

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/١٦٣ ـ ١٦٤). (٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «صفاته».
(٣) في الأصل: «تعليلاً»! والمثبت من «الكواشف الجلية».
(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية» بعدها: «أبداً».

وهذا بيّن ـ بحمد الله ـ عند أهل العلم والإيمان، مستقر في فطرهم، ثابت في قلوبهم، يشهدون انحراف المنحرفين في الطرفين، وهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل هم إلى الله ورسوله متحيزون وإلى محض سنته منتسبون، يدينون دين الحق أين توجهت ركائبه، ويستقرون معه حيث استقرت مضاربه». اهـ من كلام ابن القيم(١)، ثم نقل عن شيخ الإسلام(٢) كلاماً حسناً أثبته هنا:

«زعم الجهمية والمعتزلة أن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم، وهذا الزعم باطل من وجوه؛ أما **أولاً**؛ فلأن الضعف والخور مذموم من الآدميين والرحمة ممدوحة، قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، وقد نهى الله عباده عن الوهن والحزن، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩] وندبهم إلى الرحمة، وقال النبي ﷺ: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»(٣)، وقال: «**من لا يَرْحم لا يُرْحَم**»(٤)، وقال: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن**»(٥)، وقال: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٦)، ومحال أن يقول: لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي،

---

(١) في «بدائع الفوائد» (٢/ ١٦٤). (٢) في «مجموع الفتاوى» (٦/ ١١٧).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٧٤)، والترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤٢)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٧)، وأحمد (٢/ ٣٠١)، والطيالسي (٢٥٢٩)، وأبو يعلى (٦٦٥٢)، وابن حبان (٤٦٢)، والحاكم (٤/ ٢٤٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٧٢)، والخطيب (٧/ ١٨٣)، والبيهقي (٨/ ١٦١)، والبغوي (٣٤٥٠) من حديث أبي هريرة، **وإسناده حسن**.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٧)، ومسلم كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، والحميدي (٥٩١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٩/ ٦٤)، وعثمان الدارمي في «الرد على الجهمية» (٦٩)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٧٧٥)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٢٣)، وابن أبي الدنيا في «العيال» (١/ ٤٢٦)، والخطيب (٣/ ٢٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، **وحسنه** ابن حجر في كتاب «الإمتاع» (ص٦٣)، وذكر تصحيح الترمذي، وعلق عليه بقوله: «وكأنه صححه باعتبار المتابعات والشواهد» قال أبو عبيدة: هو كذلك، وأحسنها الحديث السابق.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٦)، وأحمد (٢/ ١٦٠)، والحميدي (٥٩١)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، والبيهقي (٩/ ٢٤١)، والخطيب (٣/ ٢٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو، وهو **صحيح بشواهده**، ومضى بعضها، وغيرها =

ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور كما في رحمة الناس ونحو ذلك ظن الغالط أنها كذلك مطلقاً.

وأيضاً فلو قدر أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك، لم يجب أن تكون في حق الله تعالى مستلزمة لذلك، كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه الله عنه.

وأيضاً فنحن نعلم بالاضطرار أنّا إذا فرضنا موجودَيْن: أحدهما يرحم غيره فيجلب له المنفعة ويدفع عنه المضرة، والآخر قد استوى عنده ما يقتضي[1] جلب منفعة أو دفع مضرة؛ كان الأول أكمل»[2]. اهـ.

تفسير آية يوسف:

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يوسف: ٦٤] قرأ: بعضهم «حافظاً»[3]، ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي وسيرحم كِبَري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده عليَّ، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين»[4]. اهـ.

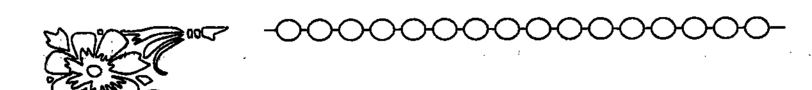
= كثير، ولابن طولون جزء مطبوع بعنوان «الأربعين في فضل الرحمة والراحمين»، تنظر فيه، والله الموفق لا رب سواه.

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «هذا وهذا وليس عنده ما يقتضي...».

(٢) انظر: «الكواشف الجلية» (٧٣ ـ ٧٧).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن محيصن ـ بخلاف عنه ـ والشنبوذي وحماد وخلف وابن مسعود بهذا. (حافظاً) اسم فاعل من (حفظ) وهو منصوب على الحال.
وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم من رواية أبي بكر ويعقوب وأبو جعفر ﴿خير حِفْظاً﴾ بدون ألف، وهو منصوب على التمييز، وهو مصدر دال على الفعل.
انظر القراءات مع توجيهها في: «التيسير» (١٢٩)، «السبعة» (٣٥٠)، «النشر» (٢/ ٢٩٦)، «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٣)، «إعراب القراءات السبع وعللها» (١/ ٣١٤)، «البحر المحيط» (٥/ ٣٢٢)، «روح المعاني» (١٣/ ١١).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٥).





صفة الرضا والغضب والكراهية والسخط

قال الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه العزيز: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البينة: ٨]، فمن ذلك قوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ الآية [١١٩].

وقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ الآية [١٠٠].

وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ الآية [١٨].

وقال تعالى في سورة المجادلة في آخرها: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الآية [٢٢] تقدم تفسير هذه الآية في (القسم الأول) من «سبيل الرشاد».

قال صاحب «لسان العرب»: «الرضا: مقصور ضد السخط، وفي حديث الدعاء: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[(١)]، وفي رواية[(٢)]: بدأ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٤٨٦) من حديث عائشة.

(٢) أخرجها النسائي (٨/ ٢٨٣) وفي «الكبرى» (٧٩٧٥، ١٠٧٢٧)، وعبد الرزاق (٢٨٨٣)، وأبو يعلى (٤٥٦٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٢٨٣)، والدارقطني (١/ ١٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨٣٧).

بالمعافاة ثم بالرضا، قال ابن الأثير[١]: «إنما ابتدأ بالمعافاة من العقوبة؛ لأنها من صفات الأفعال كالإماتة والإحياء، والرِّضا والسَّخَط من صفات الذات[٢]، وصفات الأفعال أدنى رُتبةً من صفات الذات، فبدأ بالأدنى مترقِّياً إلى الأعلى، ثم لما ازداد يقيناً وارتقاء ترك الصفات وقصر نظره على الذات، فقال: **«أعوذ بك منك»** ثم لما ازداد قُرباً استحيا معه من الاستعاذة على بساط القُرب، فالتجأ إلى الثناء فقال: **«لا أحصي ثناء عليك»**، ثم علم أن ذلك قُصور، فقال: **«أنت كما أثنيت على نفسك»**»»[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: لقد أحسن صاحب «اللسان» حين أخبر أن الرضا صفة ذات الله تعالى، والجهمية وغلاة المتصوفة ينفون صفتي الرضا والسخط عن الله تعالى، ويؤولون الرضا بالثواب والسخط بالعقاب، وهم كاذبون لأن الله وصف نفسه بالرضا كما تقدم، ووصف نفسه بالسخط في قوله في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ الآية [٧٨ ـ ٨٠].

ففي قوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ إثبات صفة السخط لله تعالى على بعض عباده، ولا يجوز تأويله بالعقاب؛ لأنه عطف عليه قوله: ﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ ولا يجوز في الكلام الفصيح أن يقال: عاقبهم وعاقبهم أو عذبهم وعذبهم؛ لأن العطف في الغالب يقتضي المغايرة، والنادر لا حكم له.

قال تعالى في سورة القتال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾﴾ الآية [٢٨].

ولا يجوز تأويله بأنهم أوجبوا عليه عقابهم، والله تعالى يعبر عن الثواب إذا أراده بحروفه.

---

(١) في «النهاية» (٢/ ٢٣٢).

(٢) كذا في «النهاية» وهو الصواب، وفي الأصل: «القلب»!

(٣) انظر: «لسان العرب» (٣٢٣، مادة «رَضِيَ»).

وقال تعالى في المؤمنين من أهل الكتاب الذين كانوا نصارى فسمعوا ما أُنزل إلى الرسول ففاضت أعينهم من الدمع فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٤ ـ ٨٥].

ويعبر عن العذاب بحروفه إذا أراده، كما قال تعالى في سورة المائدة: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآية [١١٥] ومثل ذلك كثير في القرآن.

وأثبت الله سبحانه صفة الغضب لنفسه، فمن ذلك: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ الآية [٩٣].

ولا يجوز أن يؤول غضب هنا بمعنى عذاب؛ لأنه مخلٌّ بالفصاحة والبلاغة، قال صاحب «الكواشف» (ص١٢٢):

«قال الشيخ رحمه الله (يعني شيخ الإسلام): «وقد ثبت بالسمع اتصاف الباري بالأفعال الاختيارية به، كالاستواء على العرش والقبض والبسط والنزول والخلق والرزق، المتعلقة بنفسه والمتعدية إلى الخلق، والفعل المتعدي واللازم لا بد أن يقوم بالفاعل، ويمتنع عقلاً وشرعاً أن يقوم بالفاعل، ويمتنع عقلاً وشرعاً أن يقوم بغيره في الحالين، وهذه الأفعال الاختيارية تبع لقدرته ومشيئته فما شاء قاله وتكلم به، وما شاء فعله في الحال والماضي والمستقبل، هذا أصل متفق عليه بين السلف وعليه دل الكتاب والسنة».

قال ابن القيم في النونية[1]:

أو ما علمت بأنه سبحانه ... حقاً يُكلِّمُ حِزْبَهُ بِجِنَانِ
فيقول جَلَّ جلالُهُ هَلْ أنتُم ... رَاضُونَ قَالُوا نَحْنُ ذُو[2] رِضْوَانِ
أم كَيفَ لَا نَرْضَى وَقَدْ أعْطيتنا ... ما لَم نَنَلْهُ قَطّ مِنْ إنْسَانِ
هل ثَمَّ شَيءٌ غَيرُ ذَا فيكونُ أفضـ ... ـلَ مِنْهُ نَسْأَلُهُ مِنَ المَنَّانِ

(١) انظر: «نونية ابن القيم» (٣٨٨).
(٢) قال المؤلف: صوابه ذوو رضوان، لكنه يختل الوزن.

فيقول أفضلُ منهُ رِضْوَانِي فَلَا يَغْشَاكُمُ سَخَطٌ مِنَ الرَّحْمَنِ»

وقال صاحب «الكواشف» نقلاً عن ابن القيم[١] (ص١٢٣):

«الرضا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الرضا بالله، والرضا عن الله، والرضا بقضاء الله: فالرضا بالله فرض، والرضا عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرفها فلم يطالب به العموم؛ لعجزهم عنه ومشقته عليهم، وأوجبه بعضهم، وأما الرضا بكل مقضي فلا يجب، بل المقضي ينقسم إلى ما يجب الرضا به وهو[٢] الديني، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥]، ومقضي كوني قدري، فإن كان فقراً أو مرضاً ونحو ذلك استحب الرضا به ولم يجب، وأوجبه بعضهم، وإن كان كفراً أو معصية حرم الرضا به، فإن الرضا به مخالفة لربه[٣] سبحانه لا يرضى بذلك ولا يحبه قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ الآية [الزمر: ٧]، وأما القضاء الذي هو صفة الله وفعله فالرضا به واجب»[٤]. اهـ.

وقال أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمٰن الصابوني: في «عقيدته» ما نصه:

«وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعزة والعظمة والإرادة والمشيئة والقول والكلام والرضا والسخط والحياة واليقظة والفرح والضحك وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين[٥]، ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى وقاله رسوله ﷺ من غير زيادة عليه، ولا إضافة إليه، ولا تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه[٦] عليه بتأويل مُنْكَر ويُجرونه على الظاهر ويكلون علمه إلى الله تعالى»[٧].

وفي «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٦٢) ما نصه:

---

(١) كلامه في «مدارج السالكين» (٢/ ٤٦٨ ـ ٤٧٩).

(٢) بعدها في مطبوع «الكواشف»: «المقضي».

(٣) بعدها في مطبوع «الكواشف»: «فإنه». (٤) انظر: «الكواشف الجلية» (٨٠).

(٥) بعدها في مطبوع «عقيدة السلف أصحاب الحديث»: «بل».

(٦) قوله: «وتضعه عليه» خطأ وهو هكذا في الأصل، والله أعلم بالصواب. (منه).

(٧) انظر: «عقيدة السلف أصحاب الحديث» لشيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني (ص٢٨).

«ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات.

قال: ولا يقال: إن الرضا إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام، فإن هذا نفي للصفة، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وإن كان لا يريده ولا يشاؤه وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده، فقد يحب[1] ويرضى ما لا يريده ويكره ويسخط ويغضب لما أراده، ويقال لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الإحسان: لِمَ تأولت ذلك؟ فلا بد أن يقول: لأن[2] الغضب غليان دم القلب، والرضى الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى، فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ويقال أيضاً: وكذلك الإرادة والمشيئة فينا هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه يزداد بوجوده وينقص بعدمه، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء؛ فإن جاز هذا جاز هذا وإن امتنع هذا امتنع ذاك، فإن قالوا: الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منهما حقيقة، قيل له: فقل: إن الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد وإن كان كل منهما حقيقة، فإذا كان كل ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب تركه؛ لأنك تسلم من التناقض وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليه عقله إذا العقول مختلفة فكلٌ يقول: إن عقله دل على خلاف ما يقوله الآخر.

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى؛ لامتناع ذلك في المخلوق، فإنه لا بد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود، فإن وجود العبد كما يليق به ووجود الباري كما يليق به.

---

(١) بعدها في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «عندهم».

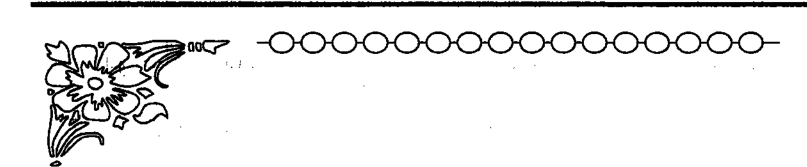
(٢) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «إن».

فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم، وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته مثل: الحي والعليم والقدير، أو سمى به بعض صفاته كالغضب والرضا، وسمى به بعض صفات عباده، فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى وأنه حق ثابت موجود، ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركاً، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركاً، إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد إلا في الأذهان، ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مختصّاً، فيثبت في كل منهما كما يليق به، بل لو قيل: غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب أن يكون مماثلاً لكيفية الآدميين؛ لأن الملائكة ليسوا من ذوي الأخلاط الأربعة حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه فغضب الله أولى.

وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك، وقال: إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه متصفاً بشيء من ذلك! وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا: لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً، بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية، فلا يرضى في وقت دون وقت ولا يغضب في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: «**إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله**»[1]». اهـ.

---

(١) قطعة من حديث طويل، أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ (٣٣٤٠)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وما سبق من «شرح العقيدة الطحاوية» (٥٢٤ ـ ٥٢٧)، و«الكواشف الجلية» (٨٥ ـ ٨٦).





إثبات صفة الفرح والضحك والعَجَب

قال شيخ الإسلام في «العقيدة الواسطية»: «وقوله ﷺ: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته**»(١) الحديث متفق عليه.

وقوله: «**عجب ربُّنا من قنوط عباده وقُرْبِ خيره**(٢) **ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**»(٣) حديث حسن.

قال صاحب «الكواشف» في شرحه:

«في الأحاديث المذكورة إثبات صفة الفرح، والضحك، والعجب وهي من صفات الأفعال الاختيارية.

الحديث الأول: المفردات:

الفرح لغة: السرور، التوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة، الراحلة من الإبل: ما كان صالحاً لأن يرحل(٤).

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الدعوات، باب التوبة (٦٣٠٨)، ومسلم كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) كذا في الأصل، وفي كثير من كتب التوحيد المطبوعة!.
وفي أصل «الكواشف الجلية»: «غِيَره»، ولعله الصواب، وهو بمعنى تغير الحال، فحينئذٍ ضَميره لجنس العبد، والمراد تغيّر حاله من القوة إلى الضعف، ومن الحياة إلى الموت، ويحتمل أن يكون المعنى: تغيير الحال وتحويله، وحينئذٍ الضمير لله، والمعنى: أنه تعالى يعجب من أن العبد يصير آيساً من الخير بأدنى شر وقع عليه مع قرب تغيره تعالى الحال من شر إلى خير، ومن مرض إلى عافية، وهكذا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (٤/ ١١، ١٢)، والطيالسي (١٠٩٢)، وابن أبي عاصم (٥٥٤)، وعبد الله بن أحمد (٢٦٤) كلاهما في «السنة»، والطبراني (١٩/ رقم ٤٦٩)، والدارقطني في «الصفات» (٣٠)، والآجري في «الشريعة» (ص٢٧٩ ـ ٢٨٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٧٣) من حديث أبي رَزين، **وإسناده ضعيف**، فيه وكيع بن حدس مجهول، وقال عنه ابن حجر: «مقبول» أي: إذا توبع، وإلا فليِّن.

(٤) في مطبوع «الكواشف»: «اللام لام الابتداء».

هذا حديث جليل، فيه بشارة عظيمة ترتاح لها قلوب التائبين، المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في توبتهم، الخالعين ثياب الإصرار على المعاصي البعيدين عن سوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده الطالبين لعفوه الملتجئين إليه في مغفرة ذنوبهم وحصول مطالبهم[١].

روى هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم: أبو هريرة[٢]، والبراء بن عازب[٣]، والنعمان بن بشير[٤]، وأنس[٥]، ولفظ حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»** متفق عليه[٦]، ولمسلم[٧]: **«لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فَلَاةٍ فانفلتت منه، وعليها طعامُه وشرابُه فأيسَ منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد[٨] أيس من راحلته فبينا[٩] هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»**. فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له، فهذا الكشف والبيان والإيضاح لا مزيد عليه في[١٠] ثبوت هذه الصفة ونفي الإجمال والاحتمال، وفرحه تعالى بتوبة عبده؛ لأن رحمته سبقت غضبه، وكل ما

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «مطلوبهم».

(٢) أخرجه مطولاً النسائي في «الكبرى» ـ كما في «تحفة الأشراف» (١١/ ٢٤) ـ ووقع فيه اضطراب شديد. انظره في: «العلل» (٧/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠) للدارقطني، وأسنده بنحوه الدارقطني (٧/ ٢٧٠)، وابن عساكر في «التوبة» رقم (٥)، والحطاب في «مشيخته» (ص١١٥) رقم (٤)، والديلمي (٦٠٧)، **وإسناده ضعيف**، ويشهد له حديث ابن مسعود المتقدم تخريجه قريباً، وأخرجه مسلم (٢٦٧٥) مختصراً ضمن حديث، وهو المحفوظ.

(٣) أخرجه مسلم كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٦) من حديث البراء بن عازب.

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٤٥) من حديث النعمان بن بشير.

(٥) سيأتي لفظه.

(٦) أخرجه البخاري كتاب الدعوات، باب التوبة (٦٣٠٩) ـ وهذا لفظه ـ، ومسلم كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٧) من حديث أنس.

(٧) برقم (٢٧٤٧) (٧).

(٨) كذا في «صحيح مسلم»، وفي الأصل: «وقد»!

(٩) كذا في «صحيح مسلم»، وفي الأصل: «فبينما».

(١٠) سقطت (في) من مطبوع: «الكواشف الجلية».

كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب فإنه سبحانه رحيم ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك، ليس كذلك غضبه فإنه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضبان دائماً غضباً لا يتصور انفكاكه، ورحمته وسعت كل شيء وغضبه لم يسع كل شيء، وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب، ووسع كل شيء رحمة وعلماً ولم يسع كل شيء غضباً وانتقاماً». اهـ.

الحديث الثاني: في هذا الحديث الجليل يخبرنا ﷺ عن كرمه[١] وجوده وأنه متنوع، فهذان الرجلان اللذان قتل أحدهما الآخر، جعل الله لكل منهما[٢] سبباً أوصله الجنة[٣]، فالأول قاتل في سبيل الله فأكرمه الله على يد الرجل الآخر الذي لم يسلم بعد بالشهادة التي هي أعلى المراتب بعد مرتبة الصدِّيقين، وأما الآخر فإن الله جعل باب التوبة مفتوحاً لكل من أراد التوبة بالإسلام[٤]، فلما تاب محا الله عنه الكفر وأثره[٥] ثم مَنَّ عليه بالشهادة؛ فدخل الجنة كأخيه الذي قتله.

الحديث الثالث: العجب: لغة استحسان الشيء، القنوط: شدة اليأس وقرب خيره؛ أي تغييره الحال من شدة إلى رخاء، أزلين: الأَزَلَ؛ بمعنى الشدة والضيق.

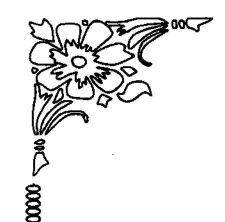
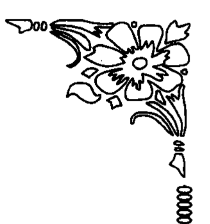
المعنى: يخبرنا ﷺ أن الله ـ جل وعلا ـ يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر ويأسهم من نزوله، وقد اقترب وقت الفرج ورحمته لعباده بإنزال الغيث عليهم وتغييره لحالهم وهم لا يشعرون.

قال الشيخ: «والسبب في أن فرج الله يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق هو تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ومن كمال نعمة الله على عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد، وقال ابن عدوان:

ويعجب ربي من قنوط عباده ... فألق لما بينت سمعك واهتدِ
وفي رقية المرضى مقال[٦] نبينا ... ألا ارق به مرضاك ياذا التسددِ
رواه أبو داود ياذا وغيره ... ألا احفظ هداك الله سنة أحمدِ»[٧]

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «كرم الله»، والحديث لم يسبق ذكره عند المصنف.
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «منها». (٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «إلى الجنة».
(٤) بعدها في مطبوع «الكواشف الجلية»: «فما دونه».
(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «آثاره». (٦) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «فقال».
(٧) انظر: «الكواشف الجلية» (١٧١ ـ ١٧٣).

صفة الرجل والقدم

قال تعالى في سورة «ق»: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠].

قال (ك): «يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها[1] أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو ﷻ يأمر[2] بمن يأمر به إليها ويلقى وهي تقول: هل من مزيد؟ أي: هل بقي شيء تزيدني؟ هذا الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث:

١ ـ قال البخاري عند تفسير هذه الآية بسنده: عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**يلقى في النار وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط**»[3].

٢ ـ وقال (**أحم**) بسنده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها، فينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر، فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة؟**»[4].

٣ ـ وقال (**خ**) بسنده: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تحاجت الجنة والنار، فقالت: النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبِّرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله ﷻ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي،**

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أنه وعدها».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فهو سبحانه يأمر».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ حديث (٨٤٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢٣٤)، وعلقه البخاري (٧٣٨٤) ووصله مسلم (٢٨٤٨) (٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٦/ ١٧١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٣١)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٢٥)، والخطيب في «تاريخه» (٥/ ١٢٧).

ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فيها فتقول: قط قط(١)**، فهنالك تمتلئ وينزوي**(٢) **بعضها إلى بعض ولا يظلم الله ﷻ**(٣) **من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقاً آخر؟»**(٤).

٤ ـ روى مسلم في «صحيحه» بسنده: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«احتجَّت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فِيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى بينهما فقال للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء عن عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها؟»**(٥).

٥ ـ وقال (**أحمد**) بسنده: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: **«افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف، وقالت الجنة: أي رب يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين، فيقول الله**(٦) **تبارك وتعالى للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها فيلقى في النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل مزيد؟ حتى يأتيها ﷻ فيضع قدمه عليها فتنزوي**(٧) **وتقول: قدني قدني، وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله تعالى**(٨) **أن يبقى فينشئ الله ﷻ**(٩) **لها خلقاً مما يشاء»**(١٠).

٦ ـ قال الحافظ أبو يعلى في «مسنده» بسنده عن أُبيّ بن كعب، قال: إن

---

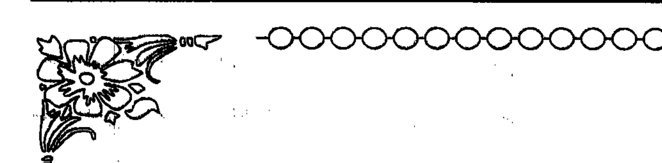
(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قط». (٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وَيُزوى».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «ﷻ».
(٤) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (٤٨٥٠).
(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضُّعفاء، حديث (٢٨٤٧).
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ﷻ». (٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فُتزوى».
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «تعالى».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «سبحانه وتعالى».
(١٠) أخرجه أحمد (٣/١٣)، وعبد بن حميد (٩٠٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٩٣، ٩٤ ـ ٩٥، ٩٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٤٥٤)، وابن حبان (٧٤٥٤) وغيرهم، وهو حديث صحيح.

رسول الله ﷺ قال: «**يُعرِّفني الله**[١] **تعالى نفسه يوم القيامة، فأسجد سجدة يرضى بها عني ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني، ثم يؤذن لي في الكلام، ثم تمر أمتي على الصراط مضروب بين ظهراني جهنم، فيمرون أسرع من الطرف والسهم وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبو وهي الأعمال، وجهنم تسأل المزيد حتى يضع فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط، وأنا على الحوض**»، قيل: وما الحوض يا رسول الله؟ قال ﷺ[٢]: «**والذي نفسي بيده إن شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من ريح**[٣] **المسك وآنيته أكثر من عدد النجوم لا يشرب منه إنسان فيظمأ ولا يصرف فيروى أبداً**»[٤].

قال محمد تقي الدين: هذا الحديث وأمثاله تلقاه السلف الصالح بالقبول ولم يؤولوه ولم يحرفوه، فيقولون: إن لله قدماً مع نفي التشبيه بالمخلوقين، ورجلاً مع نفي التشبيه بالمخلوقين، وقد تقدم الكلام في اليدين والوجه، وجل الله أن يشبه شيئاً من خلقه، أو يشبهه شيء من خلقه، ولو كان ما ذكر في هذه الأحاديث غامضاً يحتاج إلى بيان لبينه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون والأئمة المجتهدون وأئمة الحديث، ونحن بهم مقتدون وعلى آثارهم بفضل الله مهتدون. اهـ.

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ﷻ».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «ﷺ».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «ريح».
(٤) أخرجه أبو يعلى في «المسند الكبير» ـ كما في «المطالب العالية» (١٥/ ٥٦١) رقم (٤٥٦٤) ـ وابن أبي عاصم في «السنة» (٧١٧، ٧٩٠) مختصراً، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه عبد الغفار بن القاسم أبو مريم، متروك. ويشهد لبعض معانيه الأحاديث المتقدمة، وانظر كلام المعلق على: «المطالب» (١٥/ ٥٦٢ ـ ٥٦٤)، وخلص إلى أن الحديث ضعيف جداً، لا يتقوى بالشواهد ومعناه صحيح، إلا قوله: «ولا يصرف فيروى أبداً» قال: «لم أجد له شاهداً صحيحاً، فيبقى على ضعفه»!!
وما سبق مطولاً في «تفسير ابن كثير» (١٣/ ١٩٣ ـ ١٩٦).





الكلام في الإسلام والإيمان والإحسان

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ الآية [آل عمران: ١٩، ٢٠]

قال (ك): «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ إخباراً منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذي سدَّ جميعَ الطرق إليه، إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثه محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] الآية وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل(١) عنده في الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت(٢) الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم فقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بغض بعضهم البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: من جحد ما أنزل الله في كتابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه.

---

(١) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «منه».
(٢) بعدها في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «عليهم».

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي: جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي: فقد أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ أي: على ديني يقول كمقالتي كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ الآية [يوسف: ١٠٨]. ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقة دينه[(١)] والدخول في شرعه وما بعثه الله به إلى الكتابيين من المليين[(٢)] والأميين من المشركين فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة[(٣)]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة وهو الذي ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وما ذلك إلا لحكمته ورحمته، وهذا الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

وفي (ق م)[(٤)] وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم: عربهم وعجمهم، كتابيّهم وأميّهم، امتثالاً لأمر الله له بذلك.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني ومات، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار**» رواه (م)[(٥)].

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «طريقته ودينه».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الكتابيين مِنَ الملتين».
(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «الحجة البالغة».
(٤) انظر: «صحيح البخاري» كتاب العلم، باب ما يُذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان حديث (٦٥)، و«صحيح مسلم» كتاب الجهاد والسير، حديث (١٧٧٣/ ٧٤).
(٥) أخرجه مسلم كتاب الإيمان (٢٤٠).

وقال ﷺ: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»[١]، وقال: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[٢].

وقال (**أحم**) بسنده: عن أنس: «إن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءَهُ ويناوله نعليه، فمرض؛ فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي ﷺ: «**يا فلان قل: لا إله إلا الله**» فنظر إلى أبيه فسكت أبوه، فأعاد عليه ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه: أطع أبا القاسم. فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أخرجه**[٣] **بي من النار**»[٤]. رواه (**خ**) في «الصحيح» إلى غير ذلك من الآيات والآحاديث»[٥].اهـ.

وعن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**» قال: صدقت؛ فعجبنا له، يسأله ويصدقه قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «**أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**». ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال لي: «**يا عمر أتدري من السائل؟**» قلت: الله ورسوله أعلم قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم**

---

(١) قطعة من حديث أخرجه بهذا اللفظ مسلم كتاب المساجد، باب منه (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله، وهو عند البخاري باللفظ الآتي.

(٢) قطعة من حديث أخرجه بهذا اللفظ البخاري كتاب الطهارة، باب التيمم (٣٣٥)، وباب قول النبي ﷺ: «**جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**» (٤٣٨) من حديث جابر بن عبد الله.

(٣) قال المصنف: (أخرجه) إن صحت هذه اللفظة فمعناها حفظه (منه).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٧٥) وهو عند البخاريِّ كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يُصلَّى عليه؟ حديث (١٣٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٦ ـ ٣٩).

دينكم». رواه (م)[(١)].

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» في شرح هذا الحديث ما نصه:

«فأما الإسلام، فقد فسره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القولِ والعملِ، وأول ذلك: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو عمل اللسان، ثم إقامة[(٢)] الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من[(٣)] استطاع إليه سبيلاً، وهي منقسمة إلى عمل بدني: كالصلاة والصوم، وإلى عمل مالي: وهو إيتاء الزكاة، وإلى ما هو مركبٌ منهما: كالحجِّ بالنسبة إلى البعيد عن مكة.

وفي رواية ابن حبان[(٤)] أضاف إلى ذلك: الاعتمارَ والغُسلَ من الجنابة وإتمام الوضوء، وفي هذا تنبيهٌ على أن جميع الواجبات الظاهرة داخلة في مسمى الإسلام.

ثم قال: من أقر بالشهادتين صار مسلماً حكماً، فإذا دخل في الإسلام بذلك ألزم القيام ببقية خصال الإسلام، ومن ترك الشهادتين خرج من الإسلام»[(٥)].

قال محمد تقي الدين: وللشهادتين شروط لا تنفعان إلا بها:

الأول: معرفة معناهما، **الثاني**: اعتقاد صحة هذا المعنى، **الثالث**: العمل بمقتضاهما فمن دعا غير الله أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كإنزال المطر وشفاء المريض وإعادة عقل المجنون بلا علاج وتنوير القلب وشرح الصدر وهداية القلوب وما أشبه ذلك، فهو كافر لا ينفعه النطق بلا إله إلا الله؛

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيانُ الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه (٨).

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «إقام».

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «لمن».

(٤) في «صحيحه» (١٧٣ ـ التعليقات الحسان)، وأخرجها أيضاً: ابن خزيمة (١/٣ ـ ٤)، وأبو نعيم في «المستخرج» (١/١٠٢)، وابن منده في «الإيمان» (١/١٤٦ ـ ١٤٧، ١٤٩) من طريق سليمان التيمي عن يحيي بن يعمر عن ابن عمر عن عمر وهذه الرواية عند مسلم (١/٣٠) ولكنه لم يسق لفظها، وهذا مسلك من مسالك التعليل الخفية عنده!
قال ابن حبان عقبه: «تفرد سليمان التيمي بقوله: «تعتمر وتغتسل وتتم الوضوء»».

(٥) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/٩٨).

لأنه إما أن يكون جاهلاً بمعناها أو جاحداً له، وكلاهما كفر، ومن خالف رسول الله ﷺ على عمد فيما جاء به من أمور الدين، فهو جاهل بمعنى محمد رسول الله ﷺ أو جاحد لهذه الشهادة.

ثم قال: «ومما يدل على أن جميع الأعمال الظاهرة تدخل في مسمى الإسلام قوله ﷺ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[(١)]». اهـ.

قال محمد تقي الدين: وبهذا يظهر أن الإسلام ليس متحصراً في الأمور الخمسة المذكورة في حديث جبريل، وإنما اقتصر النبي ﷺ عليها؛ لأن أكثر الناس يستطيعونها ولأن النيابة لا تجزئ فيها، فلا يفعلها أحد عن أحد في الجملة بخلاف غيرها كقضاء الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله إذا لم يكن فرض عين، وإقامة العدل بين الناس، وأيضاً فإن تلك الخمسة لا تصح إلا بالنية وغيرها يصح ولو بلا نية كقضاء الدين مثلاً، وإلا فكل ما أخبرنا النبي ﷺ أنه فرض لا يتم الإسلام إلا به. اهـ.

ثم قال ابن رجب:

«وفي «الصحيحين»[(٢)] عن عبد الله بن عمرو[(٣)] أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: **«أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف»**[(٤)]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: فهاتان الفريضتان من خير فرائض الإسلام، وهما إطعام الطعام وقراءة السلام، ولم تذكرا في حديث جبريل. اهـ.

ثم قال ابن رجب:

«وفي «صحيح الحاكم» عن أبي هريرة قال: **«إنّ للإسلام صوىً**[(٥)] **ومناراً**

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٩٩)، والحديث أخرجه البخاري (١٠، ٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو، وأخرجه البخاري (١١)، ومسلم (٤٢) من حديث أبي موسى، ومسلم (٤١) من حديث جابر.

(٢) أخرجه البخاري (١٢، ٢٨، ٦٢٣٦)، ومسلم (١٠١٣).

(٣) الأصل: «ابن عمر» بضم العين، وصوابه فتحها، كما في «جامع العلوم والحكم»، ومصادر التخريج.

(٤) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٩٩).

(٥) في الأصل: «ضوء»! وهو تحريف. والصُّوى: أعلام من حجارة منصوبة في الفيافي المجهولة، فيستدل بتلك الأعلام على طرقها، واحدتها (صُوَّة)، قاله أبو عبيد.

كمنار الطريق، من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسليمك على بني آدم إذا لقيتهم، وتسليمك على أهل بيتك إذا دخلت عليهم، فمن انتقض منهن شيئاً فهو سهم من الإسلام تركه[(١)]، ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره»[(٢)].

وخرج[(٣)] ابن مردويه من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: **«للإسلام ضياء ونور[(٤)] وعلامات كمنار الطريق، فرأسها وجماعُها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإتمام[(٥)] الوضوء والحكم بكتاب الله وسنة نبيه وطاعة ولاة الأمر وتسليمكم على أنفسكم وتسليمكم على أهليكم إذا دخلتم بيوتكم، وتسليمكم على بني آدم إذا لقيتموهم»[(٦)]**، وفي إسناده ضعف، ولعله موقوف»[(٧)]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: ولا يضر ضعفه لأنه سيق لتقوية ما قبله.

ثم قال ابن رجب:

«وصح عن حذيفة أنه قال: «الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، ولعل السهم[(٨)] الثامن

---

(١) كذا الصواب، وفي الأصل: «فهو متهم من الإسلام بتركه»، وهذا تحريف قبيح!

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٢١) ـ وإطلاق «الصحيح» عليه تساهل غير مرضي ولا سيما من أمثال العلامة ابن رجب ـ.
وأخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٤/ ١٨٣)، و«الإيمان» رقم (٣) ـ ومن طريقه ابن بشران في «الأمالي» (٥٢٧)، وعبد الغني المقدسي في «الأمر بالمعروف» رقم (٩) ـ، والطبراني في «مسند الشاميين» (٤٢٩)، وابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٤٠٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٦٠)، والشجري في «أماليه» (١/ ٣٨)، وابن شاهين في «الترغيب» (٤٨٧)، وأبو نعيم (٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨) **والحديث صحيح بشواهده**، وانظر: «الصحيحة» (٣٣٣).

(٣) في الأصل: و«خرجه».

(٤) في «جامع العلوم والحكم» بدون: «ونور».

(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وتمامُ».

(٦) عزاه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٣٨) للطبراني في «الكبير» **بسند لا بأس به في الشواهد**، أفاده شيخنا الألباني في «الصحيحة» (٣٣٣).

(٧) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٩٩ ـ ١٠٠).

(٨) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وحجُّ البيتِ سهمٌ»! ولعل سبب وجود كلمة (لعل) إملاء المصنف الأثر من حفظه، والله أعلم.

الحج، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وخاب من لا سهم له»، وخرجه البزار[(١)] مرفوعاً والموقوف أصح[(٢)]، ورواه أبو يعلى[(٣)] عن علي مرفوعاً، والموقوف على حذيفة أصح؛ قاله الدارقطني وغيره»[(٤)].اهـ.

قال محمد تقي الدين: وهو في حكم المرفوع؛ لأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي.

ثم قال ابن رجب:

«وقوله: يعني «الإسلام سهم»، أي: الشهادتان؛ لأنهما علم الإسلام وبهما يصير الإنسان مسلماً. وكذلك ترك المحرمات داخل في مسمى الإسلام أيضاً، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[(٥)]، وسيأتي في موضعه إن شاء الله .

ويدل على هذا أيضاً ما أخرج (**حم**) و(**ت**) و(**ن**) من حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال: «**ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أحد**[(٦)] **أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك! لا تفتحه فإنك**[(٧)] **إن فتحته تلجه. والصراطُ: الإسلام، والسوران: حدود الله ﷻ، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق**[(٨)] **الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم**»[(٩)]، زاد (ت): ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ

(١) في «البحر الزخار» برقم (٣٣٦)، وأخرجه أيضاً برقم (٣٣٧).
(٢) أخرجه الطيالسي (٤١٣) موقوفاً.
(٣) في «مسنده» برقم (٥٢٣)، وأخرجه من حديث علي أيضاً الطبراني في «الصغير» (٢/ ٤٠ ـ ٤١)، و«الأوسط» (٦٤٥٠) **وسنده حسن**، قاله الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٨٠).
(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠١ ـ ١٠٢).
(٥) سيأتي تخريجه.
(٦) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «أحدٌ».
(٧) سقطت من مطبوع «جامع العلوم والحكم».
(٨) في الأصل: «جوف»! والصواب المثبت.
(٩) وهم المصنف في جعل الحديث من مسند (العرباض) وإنما هو من حديث (النواس بن سمعان) كما في مصادر التخريج المذكورة وغيرها، وهذا تخريج موجز له: أخرجه أحمد =

ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]، ففي هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ أن الإسلام هو الصراط المستقيم الذي أمر الله[١] بالاستقامة عليه، ونهى عن مجاوزة حدوده وأن من ارتكب شيئاً من المحرمات فقد تعدى حدوده.

وأما الإيمان؛ فقد فسره النبي ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[٢]، وقد ذكر الله في كتابه الإيمان بهذه الأمور[٣] الخمسة في مواضع كقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ٣].

والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتاب والبعث والقدر وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به، وغير ذلك[٤] من صفات الله[٥] وصفات اليوم الآخر، كالصراط والميزان والجنة والنار، وقد أُدخِلَ

= في «المسند» (٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣ و١٨٣)، والترمذي في «السنن» كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الله لعباده (٥/ ١٤٤/ ٢٨٥٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٣٣)، والطبري في «جامع البيان» (١٨٦ و١٨٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢١٤١ و٢١٤٢ و٢١٤٣)، والرامهرمزي في «الأمثال» رقم (٣)، وأبو الشيخ في «الأمثال» رقم (٢٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٨، ١٩)، وابن نصر في «السنة» (٥)، والآجري في «الشريعة» (١١) من طريقين عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان به.

قال الترمذي: هذا حديث غريب، وفي «تحفة الأشراف» (٩/ ٦١): حسن غريب، وهو اللائق؛ لأن رواته ثقات.

وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في «تفسيره»: «وهذا **إسناد حسن صحيح**»، وقال ابن القيم في «الإعلام» (٢/ ٤٠٨ ـ بتحقيقي) عند هذا الحديث: «**فليتأمل العارف قدر هذا المثل، وليتدبره حق تدبره، ويزن به نفسه، وينظر أين هو منه، وبالله التوفيق**».

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «تعالى».

(٢) أخرجه مسلم في أول «صحيحه» (الحديث الأول) منه عن عمر بن الخطاب.

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «الأصول».

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «وغير ذلك».

(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «تعالى».

في الإيمان: الإيمان[١] بالقدر خيره وشره، ولأجل هذه الكلمة روى ابن عمر هذا الحديث محتجاً به على من أنكر القدر وزعم أن الأمر أُنُف، يعني: إنه مستأنف لم يسبق به سابق قدر من الله ﷻ، وقد غلظ عبد الله بن عمر عليهم وتبرأ منهم، وأخبر أنه لا تقبل منهم أعمالهم بدون الإيمان بالقدر.

والإيمان بالقدر على درجتين:

أحدهما: الإيمان بالله[٢] تعالى سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم[٣] من أهل النار، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

والدرجة الثانية: أن الله خلق أفعال العباد[٤] كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وشاءها منهم.

فهذه الدرجة يثبتها أهل السنة والجماعة وتنكرها القدرية، والدرجة الأولى أثبتها كثير من القدرية ونفاها غلاتهم، كمعبد الجهني الذي سئل ابن عمر عن مقالته[٥] وكعمرو بن عبيد[٦] وغيره.

وقد قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خُصِمُوا، وإن جحدوا[٧] فقد كفروا، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد وأن الله تعالى[٨] قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد كتب ذلك عنده في كتاب حفيظ، فقد كذَّب بالقرآن فيكفر بذلك، وإن أقروا بذلك وأنكروا

---

(١) كذا في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، وفي الأصل: «وقد أُدخل في هذه الآيات الإيمان...».

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «بأن الله».

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «ومن هو منهم».

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «تعالى خلق أفعال عباده».

(٥) ثبت ذلك عنه في (الحديث الأول) في «صحيح مسلم».

(٦) للدارقطني جزء مفرد فيه، وبيان ضلاله، وفرغت منه قديماً، يسر الله نشره.

(٧) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «جحدوه».

(٨) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «تعالى».

أن الله خلق أفعال العباد[١] وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية فقد خصموا؛ لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه.

وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور بين العلماء، وأما من أنكر العلم القديم، فنص الشافعي وأحمد على تكفيره، وكذلك غيرهما من أئمة الإسلام.

فإن قيل: فقد فرق النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإسلام والإيمان، وجعل الأعمال كلها من الإسلام لا من الإيمان، والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان: قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان.

وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم، **وأنكر السلف على من أخرج الأعمال من[٢] الإيمان إنكاراً شديداً.**

وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثاً: سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختياني والنخعي[٣] والزهري[٤] ويحيى بن أبي[٥] كثير وغيرهم، وقال الثوري: هو رأي محدث أدركنا الناس على غيره، وقال الأوزاعي: وكان مَن مضى مِن[٦] السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار:

أما بعد: فإن للإيمان[٧] فرائض وشرائع[٨]، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. ذكره (خ)[٩] في «صحيحه».

وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «عباده».
(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «عن الإيمان».
(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «إبراهيم النخعي».
(٤) بعدها في الأصل: «وإبراهيم»! ولا وجود له في مطبوع «جامع العلوم والحكم» لأنه النخعي المتقدم.
(٥) سقطت كلمة «أبي» من الأصل.
(٦) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ممن سلفَ».
(٧) كذا في «جامع العلوم والحكم»، وفي الأصل: «الإيمان».
(٨) بعدها في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وحدوداً وسنناً».
(٩) تعليقاً في كتاب «الإيمان»، باب قول النبي ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس**» ووصله ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٤٩) وغيره.

إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ الآية [الأنفال: ٢].

وفي (ق)[1] عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال لوفد عبد القيس: «**آمركم بأربع: الإيمان بالله وحده**[2]**، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً**[3] **رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغانم**[4] **الخمس**».

وفي (ق)[5] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: قال «**الإيمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها أماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» (ولفظه لمسلم).

وفي «الصحيحين»[6]: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**». فلولا أنَّ ترك هذه الكبائرَ من مُسَمَّى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيء منها؛ لأن الاسم لا ينتفي إلّا بانتفاء بعض أركان المسمى أو واجباته. وأما وجه الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان وتفريق النبي ﷺ بينهما وإدخاله الأعمالَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب مواقيت الصلاة، باب ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ (٥٢٣)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين، والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه مَن لم يبلغه (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «وحده».

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «وأن محمداً رسول الله».

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «المغنم».

(٥) أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (٩)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان عدد شُعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥) من حديث أبي هريرة.

(٦) أخرجه البخاريُّ كتاب المظالم والغصب، باب النُهبَى بغير إذنِ صَاحبه (٢٤٧٥)، وكتاب الأشربة، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥٥٧٨)، وكتاب الحدود وما يُحذَّرُ من الحدود، باب لا يُشربُ الخمر (٦٧٧٢)، وكتاب المحاربين مِن أهل الكفر والرِّدة، باب إثم الزُّناة (٦٨١٠)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله (٥٧) من حديث أبي هريرة.

في مُسمَّى الإسلامِ دون [مُسمَّى][(١)] الإيمان، فإنَّه يتضح بتقرير أصل، وهو أن من الأسماء ما يكونَ شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قُرِنَ ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض [تلك][(٢)] المسميات والاسم المقرون به دال على باقيها، وهذا كاسم الفقير والمسكين، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل ما هو[(٣)] محتاج؛ فإذا قرن أحدهما بالآخر دلَّ أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات والآخر على باقيها. فهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أفرِدَ أحدهما دخل فيه الآخر، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده، فإذا قرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده، ودل الآخر على الباقي.

وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة، قال أبو بكر الإسماعيلي[(٤)] في «رسالته إلى أهل الجبل»: «قال كثير من أهل السنة والجماعة: إنَّ الإيمان قول وعمل، والإسلام فعل ما فَرَضَ الله على الإنسان أن يفعل إذا ذكر كلُّ اسم على حدته[(٥)] مضموماً إلى الآخر، فقيل: المؤمنون والمسلمون جميعاً مفردين[(٦)] أريد بإحدهما معنى لم[(٧)] يرد به الآخر، وإذا ذُكِرَ أحد الاسمين شَمِلَ الكُلَّ وعَمَّهُم»[(٨)]. وقد ذكر هذا المعنى أيضاً الخطابي في كتابه «معالم السنن»[(٩)] وتبعه عليه جماعة من العلماء من بعده.

ويدل على صحة ذلك أن النبي ﷺ فسر الإيمان عند ذكره مفرداً في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الإسلام المقرون بالإيمان في حديث جبريل.

وفَسَّر في حديث آخر الإسلام بما فسر به الإيمان»[(١٠)]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: وبيان ذلك كما قال المحققون أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

---

(١) و(٢) أثبتها من مطبوع «جامع العلوم والحكم»، وسقطت من الأصل.
(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «كل مَنْ».
(٤) في الأصل: «الإسماعلي»! والمثبت هو الصواب.
(٥) كذا في مطبوع «جامع العلوم والحكم». و«اعتقاد الإسماعيلي» (ص٦٦) وفي الأصل: «حدة»!
(٦) و(٧) سقطت من الأصل، وأثبتها من مطبوع «جامع العلوم والحكم» و«اعتقاد الإسماعيلي».
(٨) انظر: «اعتقاد أئمة الحديث» للإسماعيلي (ص٦٧).
(٩) انظر: «معالم السنن» للخطابي (٤/ ٣١٥، ط. المكتبة العلمية).
(١٠) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠١ ـ ١٠٦).

يعني: إذا ذكر الإسلام والإيمان في موضع واحد افترقا في الدلالة، فيدل الإسلام على الأعمال الظاهرة ويدل الإيمان على ما ذكر في حديث جبريل، وهو التصديق، وأما إذا ذكر كل واحد منهما وحده فإنهما يجتمعان.

فالإسلام الصحيح يدل على الأعمال الظاهرة وتصديق القلب، والإيمان كذلك يدل عليهما. وهذا ملخص ما تقدم.

ثم قال ابن رجب: «وفي «المسند» للإمام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**الإسلامُ علانية والإيمان في القلب**»[1]. وهذا لأنَّ الأعمال تظهر علانية والتصديق في القلب لا يظهر.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه إذا صلَّى على الميت: «**اللهمَّ من أحييته منَّا فأحيه على الإسلام، ومن توفَّيته مِنَّا فتوفَّه على الإيمان**»[2]؛ لأن العمل[3] بالجوارح وإنما يُتمكَّنُ منه في الحياة فأما عند الموت فلا يبقى غير التصديق بالقلب، ومن هنا قال المحققون من العلماء: كل مؤمن مسلم، فإن من حقق الإيمان ورسخ في قلبه قام بأعمال الإسلام كما قال ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مُضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب**»[4]. فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام، وليس كل مسلم مؤمناً؛ فإنه قد يكون الإيمانُ ضعيفاً فلا يتحقق القلب به تحققاً تاماً مع عمل جوارحِه بأعمال الإسلام، فيكون مسلماً وليس بمؤمن الإيمانَ التامَّ كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ الآية

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥)، وأبو يعلى (٢٩٢٣)، والبزار (٢٠ ـ زوائده) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٦)، والعقيلي (٣/ ٢٥٠)، وابن عدي (٥/ ١٨٥٠)، وابن حبان (٢/ ١١١) جميعهم في «الضعفاء»، والخطيب في «الموضح» (٢/ ٢٤٩)، ومدار إسناده على علي بن مسعدة، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨)، وأبو داود (٣٢٠١)، والترمذي (١٠٢٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٧٩، ١٠٨١)، وابن ماجه (١٤٩٨)، وأبو يعلى (٦٠٠٩، ٦٠١٠)، وابن حبان (٣٠٧٠)، والطبراني في «الدعاء» (١١٧٤ ـ ١١٧٧)، والطحاوي في «المشكل» (٩٧١)، والحاكم (١/ ٣٥٨)، والبيهقي (٤/ ٤١)، **والحديث صحيح بطرقه وشواهده**.

(٣) كذا في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، وفي الأصل: «الأعمال»!

(٤) أخرجه البخاري (٥٢، ٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير، والمذكور قطعة منه.

[الحجرات: ١٤]، فلم[1] يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين وهو قول ابن عباس وغيره، بل كان إيمانهم ضعيفاً ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ الآية [الحجرات: ١٤]، يعني لا ينقُصُكم من أجورها، فدل على أن معهم من الإيمان ما يقبل[2] به أعمالهم.

وكذلك قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له: لم لا تعط فلاناً وهو مؤمن، فقال النبي ﷺ: **«أو مسلم»**[3] يشير إلى أنه لم يتحقق[4] مقام الإيمان، فإنما[5] هو في مقام الإسلام الظاهر.

ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن، لزم منه ضعف أعمال الجوارح الظاهرة أيضاً، لكن اسم الإيمان ينفى عن من ترك شيئاً من واجباته، كما في قوله ﷺ[6]: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**[7]». اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: وافق الحافظَ ابنَ رجب الحافظُ ابنُ القيم في أن أولئك المذكورين في آخر سورة الحجرات وهم الأعراب كان عندهم شيء من الإيمان[8]، وهذا أحد القولين لأهل السنة، والقول الثاني: أنهم كانوا منافقين لا حظ لهم في

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ولم».
(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «تُقبل».
(٣) أخرجه البخاري (٢٧، ١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠) من حديث سعد بن أبي وقاص.
(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «يُحقِّق».
(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وإنما».
(٦) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «ﷺ».
(٧) أخرجه البخاري (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وما سبق مأخوذ من «جامع العلوم والحكم» (١/١٠٨ ـ ١١١).
(٨) قرر ذلك في «مدارج السالكين» (٣/٩١) وفصّله من وجوه في «بدائع الفوائد» (٤/١٧)، وهذا نص كلامه رحمه الله تعالى فيه على تفسير الآية:
«نفياً للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه **منها**:
أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.
ومنها: أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم، وجفاء لا نفاقاً وكفراً.
ومنها: أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم، =

الإيمان، وهو الذي رجحه (خ)[1]، وإليه أميل؛ لأن الله تعالى نفى عنهم الإيمان بقوله، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فلا يجوز أن يقال: بل دخل الإيمان في قلوبهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ. . .﴾ إلخ [الحجرات: ١٤]، فليس فيه دليل على أنهم كانوا مؤمنين؛ لأن طاعة الله ورسوله لا تقبل إلا بعد دخول الإيمان في القلوب، وهو مطابقة اللسان للقلب، وهؤلاء لم تكن قلوبهم مطابقة لألسنتهم وحديث سعد يؤيد هذا الترجيح، فإنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله ما لك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً، فقال له النبي ﷺ: «**أو مسلماً**»، فأعاد عليه هذا القول ثلاث مرات، فأجابه فيهن بالجواب نفسه ثم قال له: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه**»[2]، الحديث.

فقول النبي ﷺ: «**أو مسلماً**»، معناه والله أعلم: لعل هذا الرجل الذي حلفت أنه مؤمن ليس كما ظننت وإنما هو مسلم، فظهر بذلك أن من لم يدخل الإيمان في قلبه مسلم فيما يرى الناس وليس بمؤمن، والله أعلم». اهـ.

ثم قال ابن رجب:

«وقد اختلف أهل السنة: هل يسمَّى مؤمناً ناقص الإيمان أو يقال: ليس بمؤمن لكنه مسلم؟ على قولين: وهما روايتان عن أحمد[3] وأما اسم الإسلام فلا

= ولو كانوا منافقين لنفي عنهم الإسلام كما نفي الإيمان.

ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤]. أي: لا ينقصكم والمنافق لا طاعة له.

ومنها: أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ [الحجرات: ١٧]. فأثبت لهم إسلاماً، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً؛ لقال لم تسلموا بل أنتم كاذبون كما كذبهم في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]؛ لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها: أنه قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ ولو كانوا منافقين لما من عليهم.

ومنها أنه قال: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ ولا ينافي هذا قوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ فإنه نفي الإيمان المطلق ومن عليهم بهدايتهم إلى الإسلام هو متضمن لمطلق الإيمان».

(١) كذا في الأصل بخاء! وصوابه جيم، إذ المذكور هو الذي قرره ابن جرير في «تفسيره» (٢١/٢٨٨)، ولا يوجد في «صحيح البخاري» ما يدل على مذهبه عند الآية المذكورة في (كتاب التفسير)، ووجدته رأياً للزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (١/٢٠٨).

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) انظر: «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» (١/١١٠).

ينتفي بانتفاء بعض واجباته أو انتهاك بعض محرماته، وإنما ينفى بالإتيان بما ينافيه بالكلية، ولا يعرف في شيء من السنة الصحيحة نفي الإسلام عن من ترك شيئاً من واجباته كما ينفي الإيمان عن من ترك شيئاً من واجباته، وإن كان قد ورد إطلاق الكفر على فعل بعض المحرمات وإطلاق النفاق أيضاً، وقد اختلف العلماء: هل يسمَّى مرتكب الكبائر كافراً كفراً أصغر[١] أو منافقاً النفاق الأصغر، ولا أعلم أن أحداً منهم أجاز إطلاق نفي اسم الإسلام عنه إلا أنه روى عن ابن مسعود أنه قال: «ما تارك الزكاة بمسلم»[٢]. ويحتمل أنه كان يراه كافراً بذلك خارجاً عن[٣] الإسلام.

وكذلك روي عن عمر فيمن تمكَّن من الحج ولم يحج، أنهم ليسوا بمسلمين[٤]، والظاهر أنه كان يعتقد كفرهم، ولهذا أراد أن يضرب عليهم الجزية بقوله: لم يدخلوا في الإسلام بعد[٥]، فهم مستمرون على كتابيتهم، وإذا تبين أن اسم الإسلام لا ينتفي إلا بوجود ما ينافيه ويخرج عن الملة بالكلية، فاسم الإسلام إذا أطلق أو اقترن به المدح دخل فيه الإيمان كله من التصديق وغيره.

---

(١) كذا في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، وفي الأصل: «صغيراً»!

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ١١٤) **بسند ضعيف** عن ابن مسعود قال: «ما مانع الزكاة بمسلم».

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «من».

(٤) أخرج أبو بكر الإسماعيلي ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٨)، و«مسند الفاروق» (١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) ـ، وابن أبي شيبة ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٧٥) ـ عن عمر قال: «من أطاق الحج ولم يحجَّ، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً».
قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) ـ وعزاه فيه للأوزاعي ـ: «**هذا إسناد صحيح**» وصححه في «التفسير» أيضاً.

(٥) أخرج سعيد بن منصور في «السنن»، وابن أبي شيبة ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ١٠٠) عن عمر قال: «لقد هممتُ أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار، فينظروا إلى كل من كان عنده جدة ولم يحجّ، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين»، **وصححه** السيوطي، وأورد ابن كثير إسناد سعيد في «التفسير» (٣/ ١٢٨) وهو من طريق الحسن عن عمر، وهو منقطع، وأورده في «مسند الفاروق» (١/ ٢٩٣) من طريق قتادة قال: ذُكر لنا عن عمر. . . وسرده. وقال: «ورواه سعيد في «سننه»، وهذا منقطع بين قتادة وعمر»، وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «يقول» بدل «بقوله».

وأخرج[١] (ن)[٢] من حديث عقبة[٣] بن مالك أن النبي ﷺ بعث سرية فأغارت[٤] على قوم، فقال رجل منهم: إنِّي مسلم فقتله رجل من السرية، فنُمي الحديثُ إلى رسول الله ﷺ فقال فيه قولاً شديداً، فقال الرجلُ: إنما قالها تعوذاً من القتل، فقال النبي ﷺ: **«إن الله أبى عَليَّ أن أقتل مؤمناً»** ثلاث مرات. فلولا أن الإسلام المطلق يدخل فيه الإيمان والتصديق بالأصول الخمسة لم يصر من قالَ: أنا مسلم، مؤمناً بمجرد هذا القول، وقد أخبر الله تعالى عن ملكة سبأ أنها دخلت في الإسلام بهذه الكلمة وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وأخبر عن يوسف ﷺ أنه دعا بأن يموت[٥] على الإسلام[٦] وهذا كله يدل على أن الإسلام المطلق يدخل فيه ما يدخل في الإيمان من التصديق.

وفي «سنن ابن ماجه»[٧] عن عَديٍّ بن حاتم قال: قال[٨] رسول الله ﷺ: **«يا عديُّ، أسلم تسلم»** قلت: وما الإسلام؟ قال: **«أن[٩] تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتؤمن بالأقادر كلها خيرها وشرها[١٠] وحلوها ومرها»**.

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «خَرَّج».

(٢) في السِّيَر من «السنن الكبرى» ـ كما في «التحفة» (٧/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣) ـ ورواه أيضاً أحمد (٤/ ١١٠ و٥/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٤٥)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ٢٧٤، ٢٧٥)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ رقم ٩٨٠ و٩٨١)، وأبو يَعْلى (٦٨٢٩)، والحاكم (١/ ١٩)، والبيهقي (٨/ ٢٢)، **وإسناده صحيح**، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٧)، وقال: «رجاله كلهم ثقات».

(٣) في الأصل: «عبيد» والصواب المثبت، وهو كذلك في «جامع العلوم والحكم» ومصادر التخريج.

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «فغارت».

(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «دعا بالموت».

(٦) وذلك في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(٧) برقم (٨٧). وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٣٥)، والطبراني (١٧/ رقم ١٨٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٦٨ ـ ٦٩)، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه عبد الأعلى بن أبي المساور متروك ولقوله: «أسلم تسلم» طريق أخرى حسنه أخرجها أحمد (٤/ ٢٥٧)، والحاكم (٤/ ٥١٨ ـ ٥١٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٥٤٣) وأصله عند البخاري (٣٥٩٥).

(٨) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «قال لي».

(٩) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «أن».

(١٠) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «و».

فهذا نص في أن الإيمان بالقدر من الإسلام، ثُمَّ أن[1] الشهادتين من خصال الإسلام بغير نزاع، والحق أن التصديق القائم بالقلوب يتفاضل[2]، وهذا هو الصحيح، وهو أصح الروايتين عن أبي عبد الله أحمد[3] بن حنبل، فإن إيمانَ الصِّدِّيقين الذين يتجلى الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك والارتياب[4]، ليس كإيمان غيرهم فلا يبلغ[5] هذه الدرجة من[6] لو شكك لدخله الشك، ولهذا جعل النبي ﷺ مرتبة الإحسان أن يعبد العبد ربه كأنه يراه وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين، ومن هنا جاء في الحديث[7]: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره»[8].

وسئل ابن عمر: هل كانت الصحابة يضحكون؟ فقال: «نعم، وإن الإيمان[9] في قلوبهم أمثال الجبال»[10]. فأين هذا ممن لا إيمان في قلبه ما يزن ذرة ولا شعيرة[11] كالذين يخرجون من أهل التوحيد من النار»[12].

فصل

ثم قال ابن رجب:

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «والحقُّ».

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «لمتفاضل».

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «عن أحمد».

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ولا الارتياب».

(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ممن لم يبلغ».

(٦) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «بحيث».

(٧) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «قال بعضهم».

(٨) ليس هذا بحديث، وإنما هو من قول أبي بكر بن عياش، ولذا فقد أحسن ابن رجب لما عزاه لبعضهم خلافاً للمصنف الذي جعله حديثاً!
انظر للتفصيل: «السلسلة الضعيفة» (٩٦٢) لشيخنا الألباني.

(٩) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «والإيمان» دون «إن».

(١٠) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٦٧١، ٢٠٩٧٦) ولفظه: «أعظم من الجبال»، وانظر: «عمدة القاري» للعيني (٢٢/ ١٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ١٩٧).

(١١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «فأين هذا ممن الإيمانُ في قلبه يزنُ ذرَّةً أو شعيرةً»، والفرق بين العبارتين كبير، فتأمل!

(١٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ١١١ ـ ١١٤).

«قد تقدم أن الأعمال تدخل في مسمى الإسلام، ومسمى الإيمان أيضاً، وذكرنا ما يدخل في ذلك من أعمال الجوارح الظاهرة، ويدخل في مسماها أيضاً أعمال الجوارح الباطنة، فيدخل في أعمال الإسلام إخلاص الدين لله تعالى[١]، والنصح له ولعباده وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد وتوابع ذلك من أنواع الأذى، ويدخل في مسمى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه وزيادة الإيمان بذلك وتحقيق التوكل على الله ﷻ[٢]، وخوف الله سراً وعلانية، والرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، واختيار تلف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر، واستشعار قرب الله من العبد ودوام استحضاره، وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما، والحب[٣] في الله والبغض في الله، والعطاء له والمنع له، وأن يكون جميع الحركات والسكنات له، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية والاستبشار بعمل الحسنات والفرح بها، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم، وكثرة الحياء وحسن الخلق ومحبة ما يحبه لنفسه لإخوانه المؤمنين، ومواساة المؤمنين خصوصاً الجيران، ومعاضدة المؤمنين ومناصرتهم، والحزن بما يحزنهم.

ولنذكر بعض النصوص الواردة بذلك، فأما ما ورد في دخوله في اسم الإسلام ففي «مسند (ح)» و(ن) عن معاوية بن حيدة قال: قلت: يا رسول الله بالذي بعثك بالحق ما الذي بعثك الله به[٤]؟ قال: «**الإسلام**» قلت: وما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك لله تعالى[٥] وأن توجّه وجهك إلى الله[٦] وأن تصلي[٧] الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة**» وفي رواية[٨]: قلت: وما آية الإسلام؟[٩] فقال:

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «تعالى».

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «ﷻ».

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «والمحبةُ».

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «الذي بعثك به».

(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «تعالى».

(٦) كذا في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، ومصادر التخريج، وفي الأصل: «وجهك لله».

(٧) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وتصلي» بدون «أن».

(٨) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «له».

(٩) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «قال».

«أن تقول: أسلمت وجهي لله وتخلّيت[١] وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وكل[٢] المسلم على المسلم حرام»[٣].

وفي «السنن» عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته بالخَيفِ من مِنى: **«ثلاث لا يُغِلُّ عليهنّ قلبُ مسلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم»**[٤]، فأخبر أن هذه الثلاث الخصال تنفي الغل عن قلب المسلم. وفي «الصحيحين»[٥] عن أبي موسى

---

(١) هكذا في الأصل وفيه نظر (منه) قال أبو عبيدة: لا نظر فيها، فـ«تخلَّيتُ» من (التخلِّي). أراد التبعُّد من الشرك وعقد القلب على الإيمان، أي: تركت جميع ما يعبد من دون الله، وحدت عن الميل إليه فارغاً.

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وكلُّ مسلم على مسلم حرام».

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣ و٤ و٥)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٤٠١)، وأبو داود (٢١٤٢)، والنسائي (٥/ ٤ و٨٢ ـ ٨٣) وفي «الكبرى» (١١٤٦٩)، وابن ماجه (٢٣٤، ٢٥٣٦)، وعبد الرزاق (٢٠١١٥)، وابن أبي شيبة (١٤/ ١٤٢)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٤٠١ ـ ٤٠٤)، وابن عدي (٢/ ٥٠٠)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٩٦٩ ـ ٩٧٣، ١٠٣٤ ـ ١٠٣٦)، وفي «الأوسط» (٦٣٩٨)، وابن حبان (١٦٠)، والبيهقي (٧/ ٣٠٥)، **وإسناده حسن**.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٣١، ٣٠٥٦)، وأحمد (١/ ٨، ٨٢)، والدارمي (١/ ٧٤، ٧٥)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢/ ١٠ ـ ١١)، والطحاوي في «المشكل» (١٦٠١، ١٦٠٢)، والطبراني (١٥٤١، ١٥٤٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٤ ـ ٥)، والحاكم (١/ ٨٧)، وأبو يوسف في «الخراج» (٩ ـ ١٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٢١)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٦٠٤)، **وإسناده ضعيف**. ولم يخرجه من أصحاب «السنن» إلا ابن ماجه، فإطلاق ابن رجب ومتابعة المصنف في العزو لها جميعاً قصور لا يخفى، ونفيه عنها جميعاً كما قال المعلقان على «جامع العلوم والحكم» خطأ، ونص عبارتيهما: «قول المصنف» وفي «السنن» يوهم أنه في «السنن الأربعة» أو أحدها، وليس هو في شيء منها»!

ويغني عنه، ما أخرجه أبو داود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٠، ٤١٠٥)، وأحمد (٥/ ١٨٣)، وفي «الزهد» (ص٣٣)، والدارمي (٢٢٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٩٤)، وفي «الزهد» (١٦٣)، والطحاوي في «المشكل» (١٦٠٠)، وابن حبان (٦٧، ٦٨)، والطبراني (٤٨٩٠، ٤٨٩١)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٣٦، ١٧٣٧) من حديث زيد بن ثابت، **وإسناده صحيح**.

(٥) أخرجه البخاريُّ كتاب الإيمان، باب أيُّ الإسلام أفضل؟ (١١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأيُّ أموره أفضل؟ (٤٢) من حديث أبي موسى الأشعري.

عن النبي ﷺ أنه سئل: أي المسلمين أفضل؟ قال: **«من سلم المسلمون من لسانه ويده»**، وفي «صحيح مسلم»(١): عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«المسلم أخو المسلم فلا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه»**.

وأما ما ورد في دخوله في اسم الإيمان فمثل قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الحديد: ١٦]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وفي «صحيح مسلم»(٢): عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال: **«ذاق طعمَ الإيمان: من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»**، والرضا بربوبية الله يتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له، والرضا(٣) بتدبيره للعبد واختياره له، والرضا بالإسلام ديناً يتضمن اختياره على سائر الأديان، والرضا بمحمد رسولاً؛ يتضمن(٤) الرضا بجميع ما جاء به من عند الله وقبول ذلك بالتسليم والانشراح، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥]، وفي «الصحيحين»(٥): عن أنس عن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظُلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ رسولاً فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي والكبائر (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب.

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وبالرضا».

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «يقتضي».

(٥) أخرجه البخاريُّ كتاب الإيمان، باب حَلاوة الإيمان (١٦)، وباب مَن كره أن يعودَ في الكفر كما يكره أن يلقى في النَّار من الإيمان (٢١)، وكتاب الأدب، باب الحبُّ في الله (٦٠٤١)، وكتاب الإكراه، باب من اختار الضَّرب والقتلَ والهوانَ على الكُفر (٦٩٤١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان خِصال من اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان (٤٣) من حديث أنس.

وانظر لسائر الروايات الآتية عند المصنف: «مسند أحمد» (٣/١٠٣، ١١٣، ١٧٢)، و«جامع الترمذي» (٢٦٢٤)، و«المجتبى» للنسائي (٨/ ٩٤، ٩٦، ٩٧)، و«سنن ابن ماجه» (٤٠٣٣).

قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**». وفي رواية: «**وجد بهن حلاوة**[١] **الإيمان**»، وفي بعض الروايات: «**طعم الإيمان وحلاوته**». وفي «الصحيحين»[٢]: عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»، وفي رواية: «**من أهله وماله والناس أجمعين**».

وفي «مسند» (**حم**)[٣] عن أبي رَزين العُقيلي قال: قلت: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وأن تحترق في النار أحَبُّ إليك من أن تشرك بالله شيئاً، وأن تحب غير ذي نسب لا تحبه إلا لله، فإذا كنت كذلك فقد دخل حُبُّ الإيمان في قلبك، كما دخل حبُّ الماءِ للظمآن في اليوم القائظ**» قلت: يا رسول الله، كيف لي بأن أعلم أني مؤمن؟ قال: «**ما من أمتي** ـ أو قال: **هذه الأمة ـ عبد يعمل حسنة فيعلم أنها حسنة وأن الله**[٤] **جازيه بها خيراً، ولا يعمل سيئة فيعلم أنها سيئة ويستغفر الله منها ويعلم أنه لا يغفرها**[٥] **إلا الله إلا وهو مؤمن**».

وفي «المسند»[٦] وغيره عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: «**من سرته حسناته، وساءته سيئاته؛ فهو مؤمن**».

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «طعم».

(٢) أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد رقم (٤٤) من حديث أنس.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١١ ـ ١٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٥٤): «فيه سليمان بن موسى، وقد وثقه ابن معين وأبو حاتم وضعفه آخرون».
قلت: سليمان بن موسى هو الأشدق، لم يدرك أحداً من الصحابة، نقله الترمذي في «العلل» (١/ ٣١٣) عن البخاري، ففات الهيثمي إعلاله بالأعلى وهو **الانقطاع**.

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ﷻ».

(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «لا يغفر إلا هو».

(٦) أخرجه أحمد (١/ ١٨ و٢٦)، والترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٢٢٥)، وابن المبارك في «مسنده» (٢٤١) ـ ومن طريقه الطحاوي (٤/ ١٥٠)، وابن حبان (٧٢٥٤)، والحاكم (١/ ١١٣)، والبيهقي (٧/ ٩١) ـ، وأبو عبيد في «الخطب والمواعظ» (١٣٣)، =

وفي «مسند بقي بن مخلد»[(١)] عن رجل سمع رسول الله ﷺ قال: «**صريح الإيمان إذا أسأت أو ظلمت عبدك أو أمتك أو واحداً من الناس صمت أو تصدَّقت، وإذا أحسنت استبشرت**»، وفي «المسند»[(٢)] للإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في**[(٣)] **سبيل الله، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله ﷻ**».

وفيه أيضاً عن عمرو بن عَبَسة[(٤)] قال: قلت: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «**طيب الكلام، وإطعام الطعام**» فقلت: ما الإيمان؟ قال: «**الصبر والسماحة**»، قلت: أيّ الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، قلت: أيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «**خلق حسن**»[(٥)].

وقد فسر الحسن البصري الصبر والسماحة، فقال: هو الصبر عن محارم الله والسماحة بأداء فرائض الله[(٦)].

وفي (ت)[(٧)] وغيره عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**أكملُ المؤمنين إيماناً**

= وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٨، ٨٩٧)، والبزار (٦٦٦)، **وإسناده صحيح**.

(١) هذا المسند على جلالته يُعَدُّ في جملة ما فُقِد من تراثنا العظيم، وانظر لزاماً كلامي عليه في كتابنا: «معجم المصنفات الواردة في «فتح الباري»» رقم (١١٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٨) **وإسناده ضعيف**، فيه رشدين بن سعد وهو ضعيف، ودرَّاج أبو السَّمح ضعيفٌ في روايته عن أبي الهيثم، وانظر: «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢، ٦٣).

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «في سبيل الله».

(٤) في الأصل: «عنبسة»! والمثبت من مصادر التخريج.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٥)، وعبد بن حميد (٣٠٠)، وابن ماجه (٢٧٩٤)، وفيه شهر بن حوشب ضعيف، وهو لم يسمع عمرو بن عبسة، **فإسناده ضعيف ومنقطع**.

(٦) أخرجه عن الحسن: الدينوري في «المجالسة» (١١٥٥، ٣٤٢٤ ـ بتحقيقي)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٦)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٦/ ١٢١)، وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ﷻ».

(٧) برقم (٢٦١٢) من طريق أبي قِلابة عن عائشة، وقال الترمذي: «ولا نعرفُ لأبي قِلابة سماعاً عن عائشة»، ورواه أيضاً أحمد (٦/ ٤٧ و٩٩)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٥٤)، والحاكم (١/ ٥٣)، وصححه، وردّه الذهبي بقوله: «فيه انقطاع».
والحديث **صحيح بشواهده**، فقد ورد من حديث أبي هريرة، كما قال المصنف، وأخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥١٥ و١١/ ٢٧)، وأبو داود (٢٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢)، وابن حبان (٤١٧٦)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٢٩١، =

أحسنهم خلقاً»، وخرجه أبو داود وغيره من حديث أبي هريرة، وخرج البزار في «مسنده» من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري[(١)] عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثٌ مَنْ فعلهُنَّ فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمانِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ وحدهَ بأنه لا إله إلا هو**[(٢)]، **وأعطى زكاةَ ماله طيبةً بها نفسُه في كل عام...**» فذكر[(٣)] الحديث، وفي آخره: فقال رجل: فما[(٤)] تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟ قال: «**أن يعلم أنَّ الله معه حيث ما كان**»[(٥)].

وخرج أبو داود أول الحديث دون آخره.

وخرج الطبراني[(٦)] من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «**إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثُ ما**[(٧)] **كنت**»[(٨)].

وفي (ق)[(٩)] عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «**الحياء شعبة**[(١٠)] **من**

= ١٢٤٤)، والحاكم (١/ ٣)، والبغوي (٢٣٤١، ٣٤٩٥)، والبيهقي في «الشعب» (٢٧، ٧٩٨١، ٧٩٨٢)، وأبو نعيم (٩/ ٢٤٨)، **وإسناده حسن**.

وفي الباب عن أبي سعيد وعمرو بن عبسة ـ وتقدم حديثه ـ وأنس.

(١) في الأصل: «العامري»! والصواب المثبت، كما في مصادر التخريج وكتب الرجال.

(٢) وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «إلا الله».

(٣) وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وذكر».

(٤) وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وما».

وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم»: بدون «ما».

(٥) أخرجه البخاريُّ في «التاريخ الكبير» (٥/ ٣١ ـ ٣٢)، وابن سعد (٧/ ٤٢١)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٤٠٨)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٨/ ٣١٥٠) رقم (٩٧٣) أيضاً، والطبراني في «الصغير» (٥٥٥)، وروى أوله أبو داود (١٥٨٢) ورجاله ثقات، والحديث **حسن لغيره**.

(٦) في الأصل: «الخطابي» والمثبت من «جامع العلوم والحكم» ومصادر التخريج، وهو الصحيح.

(٧) وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «ما».

(٨) في «الكبير»، و«الأوسط» رقم (٨٧٩٦)، وقال: «وقد تفرد به عثمان بن كثير» وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٠): «ولم أرَ مَن ذكره بثقةٍ ولا جَرح».

(٩) أخرجه البخاريُّ كتاب الإيمان، باب الحياءُ مِنَ الإيمان (٢٤)، وكتاب الأدب، باب الحياء (٦١١٨)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان عدد شُعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٦ و٣٧) من حديث عبد الله بن عمر.

(١٠) سقطت من مطبوع «جامع العلوم والحكم».

الإيمان» وخرج (حم، ع) من حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال: «**[إنما المؤمن كالجمل الأنف، حيثما قيد انقاد]**[١] ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]»[٢].

وفي (ق) عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «**مثلُ المؤمنينَ في توادِّهم**[٣] **وتراحمهم كمثل**[٤] **الجسد الواحد**[٥] **إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[٦].

وفي رواية لـ (م)[٧]: «**المؤمنون كرجل واحد**»، وفي رواية[٨] أيضاً: «**المسلمون كرجل واحد، إذا**[٩] **اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله**»[١٠].

وفي (ق) عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»[١١]، وشبك بين أصابعه.

---

(١) سقطت من الأصل، وأثبتها من «جامع العلوم والحكم» والمصنف ينقل منه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٢٦) ـ ومن طريقه الحاكم (١/٩٦) ـ، وابن ماجه (٤٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (ص٤٨٢)، **وقد أنكر طائفةٌ من الحفاظ هذه الزيادة**، أي: «**إنما المؤمن كالجملِ الأنِف، حيثما قِيدَ، انقاد**» في آخر الحديث، وقالوا: هي مدرجة فيه وليست منه.

قاله أحمد بن صالح المصري وغيره وقد خَرَّجه الحاكم، وقال في حديثه: «وكان أسد بن وداعة يزيد في هذا الحديث: «**فإن المؤمن كالجمل الأنِف، حيثما قِيدَ انقاد**».

ووردت من مرسل مكحول عند البيهقي في «الشعب» (٨١٢٨) وعن ابن عمر **بإسناد ضعيف**، عند العقيلي (٨٤٢)، والبيهقي في «الشعب» (٨١٢٩)، قال البيهقي: «**الأول مع إرساله أصح**».

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وتعاطفهم».

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «مثلُ».

(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «الواحد».

(٦) أخرجه البخاري كتاب الأدب، بابُ رحمةِ النَّاسِ والبهائم (٦٠١١)، ومسلم كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير.

(٧) برقم (٢٥٨٦) بإسنادٍ آخر.

(٨) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «له».

(٩) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «إن».

(١٠) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) بإسناد آخر.

(١١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة، باب الصلاة في مسجد السوق رقم (٤٨١)، ومسلم كتاب =

وفي «مسند (حم)» عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»**[١]، وفي «سنن أبي داود»[٢] عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن مرآة المؤمن، المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته، ويحوطه من ورائه»**[٣].

وفي «الصحيحين» عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[٤].

وفي «صحيح (خ)» عن أبي شريحٍ الكعبيِّ عن النبي ﷺ قال: **«والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن»** قالوا: مَن ذلك يا رسول الله؟ قال: **«من لا يأمن جاره بوائقه»**[٥].

وخرج الحاكم من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: **«ليس المؤمنُ الذين يشبَعُ وجارُه جائعٌ»**[٦].

وخَرَّج الإمام أحمد والترمذيُّ من حديث سهل بن معاذ الجهني[٧] عن النبي ﷺ قال: **«من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله فذلك[٨] المؤمن»**[٩].

= البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٠)، وابن المبارك في «الزهد» (٦٩٣)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٣)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٥٧٤٣)، و«الأوسط» (٤٦٩٣)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٦)، والحديث **صحيح لغيره**.

(٢) وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم» زيادة: «عن أبي هريرة».

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٨، ٢٣٩)، والقضاعي (١٢٥)، **وحسنه العراقي** في «تخريج أحاديث الأحياء» (٢/ ١٨٢).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه (١٣)، ومسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خِصال الإيمان أن يُحبَّ لأخيه المسلم ما يُحبُّ لنفسه من الخير (٤٥) من حديث أنس بزيادة: (أو قال: لجاره...).

(٥) أخرجه البخاريُّ كتاب الأدب، بابُ إثمِ مَن لا يأمنُ جارهُ بوائقَهُ (٦٠١٦) من حديث أبي شُريح رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٦٧)، **وصححه** ووافقه الذهبيُّ.

(٧) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» زيادة: «عن أبيه»، والصحيح إثباتها.

(٨) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «فذلك المؤمن».

(٩) رواه أحمد (٣/ ٤٤٠)، والترمذي، (٢٥٢١)، وأبو يعلى (١٤٨٥، ١٥٠٠)، والحاكم =

وروى[١] (حم): «وأنكح لله فقد استكمل إيمانه»[٢]، وفي رواية للإمام (حم) أنه سئل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان؟ فقال: «**أن تُحبَّ لله وتبغض لله وتعمل لسانك في ذكر الله**» فقال: وماذا يا رسول الله؟ قال: «**وأن**[٣] **تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك**»، وفي رواية له: «**وأن تقول خيراً أو تصمت**»[٤]، وفي هذا الحديث: أن كثرة ذكر الله من أفضل الإيمان.

وخرج أيضاً من حديث عمرو بن الجموح أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يستحق العبد صريح الإيمان**[٥] **حتى يُحِبَّ لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية**[٦] **من الله تعالى**»[٧]. وخرج أيضاً من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: «**إن أوثقَ عُرى الإيمانِ أن تحب في الله وتبغض في الله**»[٨]. وقال ابن عباس: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإنْ كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة

= (٢/ ١٦٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٥)، **وإسناده حسن**.

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «زاد».

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وسبق تخريجه قريباً.

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «و».

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٧) **بإسناد ضعيف**، لضعف رشدين بن سعد وزبان بن فائد، وهو من مسند (معاذ بن جبل)! وهذا خطأ، وصوابه أنه من حديث (معاذ بن أنس الجهني)، وهو بالسند نفسه من (مسنده) عند الطبراني (٢٠/ رقم ٤٢٦)، وسبق تخريجه، **والحديث صحيح لغيره**.

(٥) كذا في الأصل تبعاً لـ«جامع العلوم والحكم»! وفي مطبوع «المسند»: «لا يحقُّ العبدُ حقّ صريح الإيمان».

(٦) كذا في الأصل تبعاً لـ«جامع العلوم والحكم»! وفي مطبوع «المسند»: «الولاء».

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٩): «وفيه رشدين بن سعد، وهو منقطع، **ضعيف**».
قلت: نعم أبو منصور مولى الأنصار لم يلق عمرو بن الجموح، نقله ابن حجر في «التعجيل» عن البخاري.
وفي إسناده علة ثالثة أهملها الهيثمي، وهي ضعف عبد الله بن الوليد وهو التُّجيبي.

(٨) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤١ و١٣/ ٢٢٩)، وفي «الإيمان» (١١٠)، والطيالسي (٧٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٤)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٧/ ٤٣١) ومداره على ليث بن أبي سُليم وهو ضعيف، والحديث **حسن بشواهده**.

الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[١]. خرجه (ع) ومحمد بن نصر المروزي.

فصل

وأما الإحسان؛ فقد جاء ذكره في القرآن في مواضع، تارة مقروناً بالإيمان، وتارة مقروناً بالإسلام، وتارة مقروناً بالتقوى أو بالعمل الصالح[٢].

فالمقرون بالإيمان كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠]، والمقرون بالإسلام كقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ الآية [لقمان: ٢٢].

والمقرون بالتقوى كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد ثبت في «صحيح (م)»[٣] تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى[٤] في الجنة، وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان؛ لأنَّ الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلى وجه الله عياناً في الآخرة.

وعكس هذا ما أخبر الله تعالى به عن جزاء الله الكفار في الآخرة ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، وجعل ذلك جزاء لحالهم في الدنيا وهو تراكم الران على قلوبهم؛ حتى حجبت عن معرفته ومراقبته في الدنيا، فكان جزاؤهم على ذلك أن حُجِبوا عن رؤيته في الآخرة.

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٩٦)، والطبراني (١١٥٣٧)، والبغوي (٣٤٦٨)، والحديث حسن.

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «الصالح».

(٣) برقم (١٨١) وفي مطبوع «جامع العلوم والحكم»: بعدها «عن النبي ﷺ».

(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ﷻ».

وقوله[١] ﷺ في تفسير الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه» يشير إلى أن العبد يعبد الله تعالى[٢] على هذه الصفة، وهو استحضار قربه وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، كما جاء في رواية أبي هريرة: «أن تخشى الله كأنك تراه» ويوجب أيضاً النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها، وقد وصَّى النبي ﷺ جماعة من الصحابة[٣] بهذه الوصية، كما روى إبراهيم الهَجَري[٤] عن أبي الأحوص عن أبي ذر قال: وصاني[٥] خليلي ﷺ أن أخشى الله كأني أراه؛ فإن لم أكن أراه فإنه يراني[٦].

ورُوي عن ابن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «اعبد الله كأنك تراه» وخرجه النسائي[٧] ويروى من حديث زيد بن أرقم مرفوعاً وموقوفاً: «كن كأنك ترى الله فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٨].

وخرج الطبراني[٩] من حديث أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله حدثني بحديث واجعله موجزاً، فقال: «صل صلاة مودع فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك»، وفي حديث حارثة المشهور ـ وقد روي من وجوه مرسلة، وروي متصلاً والمرسل أصحّ ـ أن النبي ﷺ قال[١٠]: «يا حارثة كيف أصبحت؟» قال: أصبحت

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «فقوله».
(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «تعالى».
(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «أصحابه».
(٤) في الأصل: «الآجري»! والمثبت من مطبوع «جامع العلوم والحكم» وكتب الرجال.
(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «أوصاني».
(٦) أخرجه أبو نعيم في «أربعي الصوفية» رقم (١٢) من طريق عمرو بن مُجمع عن أبي الأحوص به، وإسناده ضعيف جداً، فيه إبراهيم الهجري، والأسوأ منه حالاً عمرو بن مجمع، قال عنه ابن عدي (٥/ ١٧٨٢): «عامة ما يرويه لا يتابع عليه إما إسناداً وإما متناً».
(٧) في الرقاق من «الكبرى» كما في «التحفة» (٥/ ٤٨١)، وأخرجه أيضاً أبو نُعيم في «الحلية» (٦/ ١١٥) وإسناده صحيح.
(٨) أخرجه أبو نعيم في «أربعي الصوفية» رقم (١٤)، وفي «الحلية» (٨/ ٢٠٢)، وانظر: «أسد الغابة» (٢/ ٤٠١) لاحتمال التحريف فيه.
(٩) في «الأوسط» (٤٤٢٧)، وهو من حديث ابن عمر لا من حديث أنس، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٢٩): «وفيه من لم أعرفهم»، فإسناده مظلم، ولكن الحديث حسن بشواهده. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٠١، ١٩١٤).
(١٠) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» زيادة: «له».

مؤمناً حقاً، قال: «**انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة**»، قال: يا رسول الله! عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها، قال: «**أبصرتَ فالزم، عبدٌ نَوَّرَ الله الإيمان في قلبه**»[1]. اهـ.

وروي[2] من حديث أبي أمامة أن النبي ﷺ وصَّى رجلاً فقال له: «**استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك لا يفارقانك**»[3].

ويروى من وجه آخر مرسلاً: «**استحي من ربك**»[4].

ويروى عن معاذ أن النبي ﷺ وصَّاه لما بعثه إلى اليمن فقال: «**استحي من الله كما تستحي من رجل ذي هيبة**[5] **من أهلك**»[6].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣١٤)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (١١٥)، والبزار (٣٢)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٦٧)، والسلمي في «أربعينه» رقم (١٠)، والبيهقي في «شُعب الإيمان» (١٠٥٩١)، و«الزهد» (٩٧١)، وأبو نعيم في «أربعي الصوفية» رقم (٤٤)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٧)، وقال: «فيه ابن لهيعة، وفيه مَن يحتاج إلى الكشف عنه»، وقال السخاوي في «تخريج الأربعين السلمية» (ص٦٩): «**هذا الحديث لا يثبت موصولاً**»، وانظر في تقرير ضعفه: «الإصابة» (١/ ٥٩٨).

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ويروى».

(٣) أخرجه ابن عدي (٢/ ٥٦٠) و(٤/ ١٤١٠) من حديث أبي أمامة، **وإسناده ضعيف**، وانظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ١٤٨).

ويغني عنه: ما أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٤٦)، وأبو عروبة في «الطبقات» (ص٥٩ ـ المنتخب)، والسلمي في «آداب الصحبة» رقم (٢٥)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» رقم (٩١)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» رقم (٢٧٨/ ٢١٦)، والطبراني (٥٥٣٩) من طريق أبي الخير مرثد أنه سمع سعيد بن يزيد الأنصاري أن رجلاً قال: يا رسول الله: أوصني. قال: «**أوصيك أن تستحي من الله ﷻ كما تستحي رجلاً من صالحي قومك**» **وجوّد** شيخنا الألباني سنده في «الصحيحة» (٧٤١)، وعزاه ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ١٠٣) للحسن بن سفيان وأبي خيثمة، وزاد ابن الأثير في «أسد لغابة» (٢/ ٤٠١) عزوه لابن منده وأبي نعيم ـ وهو في «معرفة الصحابة» له (٣/ ١٣٠٠) رقم (٣٢٦١) ـ، وحقق ابن الأثير عدم صحة صحبة سعيد بن يزيد.

(٤) مضى في الذي قبله، ولا وجود في مطبوع «جامع العلوم والحكم» لقوله: «**استحي من ربك**».

(٥) في الأصل: «هبة»!

(٦) أخرجه البزار (١٩٧٢ ـ زوائده)، ومحمد بن نصر المروزي في «الصلاة» (٨٢٥)، **وإسناده ضعيف**، فيه ابن لهيعة. انظر: «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٣).

ووصى أبو الدرداء رجلاً فقال: «اعبد الله كأنك تراه»[١]، وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطَّوافِ فلم يجبه، ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال: «كنا في الطواف نتخايلُ الله بين أعيننا» خرجه أبو نعيم[٢] وغيره.

قوله ﷺ: **«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**، قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أُمِرَ بمراقبة الله تعالى[٣] في العبادة واستحضار قربه من عبده حتى كأن العبد يراه، فإنه قد يشق ذلك عليه فليستعن[٤] على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا تحقق[٥] هذا المقام؛ سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو: دوام التحقيق[٦] بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه. وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله تعالى[٧]، كأنه يراه فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه فليستحي من نظره إليه، كما قال بعض العارفين: «اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك»، وقال بعضهم: «خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي من الله[٨] على قدر قربه منك»، وقال[٩] بعض العارفين من السلف: «من عمل لله على المشاهدة فهو عارف ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص»، فالإشارة[١٠] إلى المقامين اللذين تقدم ذكرهما:

أحدهما: مقام الإخلاص، وهو: أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله[١١] تعالى؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل.

(١) أخرجه أبو نعيم (١/ ٢١٢).
(٢) في «الحلية» (١/ ٣٠٩).
(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «تعالى».
(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «فيستعينُ».
(٥) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «حقَّق».
(٦) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «التحديق»، وهو الصحيح.
(٧) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «تعالى».
(٨) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «منه».
(٩) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «وقالت بعض العارفات».
(١٠) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «فأشارت».
(١١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «تعالى».

والثاني: مقام المشاهدة، وهو: أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى[(١)] بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان، وهذا هو حقيقة مقام الإحسان المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام ويتفاوت أهل هذه المقامات[(٢)] فيه بحسب قوة نفوذ البصائر، وقد فسر طائفة من العلماء المثل الأعلى المذكور في قوله تعالى[(٣)]: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] بهذا المعنى، ومثله[(٤)] قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]، والمراد: مثل نوره في قلب المؤمن، كذا قاله أُبي بن كعب وغيره من السلف[(٥)].

وقد سبق حديث: «**أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت**»[(٦)].
وحديث: ما تزكية المرء نفسه؟ قال: «**أن يعلم أن الله معه حيث كان**»[(٧)].

وخرج الطبراني[(٨)] من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة في ظل الله تعالى يوم القيامة[(٩)] يوم لا ظل إلّا ظلُّه: رجل حيث توجه علم أن الله معه**» وذكر الحديث[(١٠)].

وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع متعددة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة:

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «تعالى».
(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «المقام».
(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «عز وجل».
(٤) كذا في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، وفي الأصل: «ومثل».
(٥) انظر: «الدر المنثور» (٦/ ١٩٧).
(٦) مضى تخريجه.
(٧) مضى تخريجه.
(٨) أخرجه الطبراني (٧٩٣٥)، والديلمي (٢٥٢٩)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٧٩): «وفيه بشر بن نمير وهو متروك»، وكذا قال عنه الدارقطني في «الضعفاء والمتروكين» رقم (١٢٥) وقال أحمد والبخاري: «منكر الحديث». انظر: «علل أحمد» (١/ ٢٠٥)، و«التاريخ الكبير» (٢/ ١/ ٨٤)، **فإسناده ضعيف جداً**، وقال السيوطي في «تمهيد الفرش» (ص٨٩ ـ بتحقيقي): «هذا حديث غريب» قال: «وبشر متروك»، قال: «والخصلة الأولى منه ـ وهي موطن الشاهد ـ وقعت مقترنة بغالب خصال الظلال السبعة في الأثر».
(٩) في مطبوع «جامع العلوم والحكم» بدون: «يوم القيامة».
(١٠) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ١١٦ ـ ١٣٢).

١٨٦]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ الآية [المجادلة: ٧]؛ وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]، وقد وردت الأحاديث الصحيحة بالندب[١] إلى استحضار هذا القرب في حال العبادات، كقوله ﷺ: **«إن أحدكم إذا قام يصلي فإنما يُناجي ربَّه، أو: ربه بينه وبين القبلة»**[٢]. وقوله: **«إن الله قِبَلَ وجهه إذا صلى»**[٣]، وقوله: **«إن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»**[٤]، وقوله للذين رفعوا أصواتهم بالذكر: **«إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً»**[٥].

وفي رواية: **«وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**[٦]، وفي رواية: **«هو أقرب إلى أحدكم من حبل الوريد»**[٧]، وقوله: **«يقول الله ﷻ: أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه»**[٨].

وقوله: **«يقول الله ﷻ: أنا مع ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني»**[٩]، فإن

---

(١) في الأصل: «الندب» والتصويب من مطبوع «جامع العلوم والحكم».

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصلاة، باب حكّ البزاق باليد من المسجد (٤٠٥)، ومسلم كتاب المساجد، باب النهي عن البصاق في المسجد (٥٥١) من حديث أنس.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الصلاة، باب حكّ البزاق باليد من المسجد (٤٠٦)، ومسلم كتاب المسجد، باب النهي عن البصاق في المسجد (٥٤٧) من حديث ابن عمر.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٢٨٦٣) من حديث الحارث الأشعري.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ البخاري كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٢٩٩٢)، وكتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٤٢٠٥)، وكتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة (٦٣٨٤)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري، وخرجته بتفصيل في تعليقي على «المجالسة» (٢٣٦٨).

(٦) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٤/ ٤٠٢)، ومسلم (٢٧٠٤) (٤٦).

(٧) في رواية لأحمد (٤/ ٤١٩): «إن الذي تنادون دون رؤوس رواحلكم»، وهي رواية البيهقي في «الشعب» (٦٦٢)، و«الأسماء والصفات» (٩٢٨).

(٨) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٤٣٦)، وابن ماجه (٣٧٩٢)، وابن حبان (٨١٥)، والحاكم (١/ ٤٩٦) من حديث أبي هريرة، وهو صحيح.

(٩) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «ذكرني».

ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[(١)].

ومن فهم شيئاً[(٢)] من هذه النصوص تشبيهاً أو حلولاً أو اتحاداً؛ فإنما أُتي من جهله وسوء فهمه عن الله ﷻ وعن رسوله[(٣)]، والله رسوله بريئان من ذلك كله، فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

قال محمد تقي الدين: ثم تكلم الحافظ ابن رجب فيما يجده أهل المشاهدة والمراقبة الذين بوأهم الله درجة الإحسان في عبادة ربهم ومناجاته وحبه والتبتل إليه من لذة الأنس به ما لا يستطيع اللسان ولا القلم أن يبينه حق التبيين ولو أطال القول فيه، وإنما يدرك بالذوق لا حرمنا الله من ذلك؛ وحاصله أن من استأنس بالله استوحش من غيره، ومن لم يستأنس بالله، لم يزل في وحشة دائمة ولو سيقت له الدنيا بحذافيرها.

والأَمارات ـ بفتح الهمزة ـ العلامات، ووقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله ولكن له علامات تسمى: العلامات الصغرى وعلامات أخرى تسمى العلامات الكبرى، والمراد بالأمارات هنا العلامات الصغرى، ومعنى: «**أن تلد الأمة ربتها**». وفي رواية أبي هريرة[(٤)]: «**ربها**» مختلف فيه فقال أكثر الشراح: معناه أن يكثر السبي والتسري بالسبايا، فتلد المرأة لسيدها أولاداً يكونون سادتها تبعاً لأبيهم، وهذا الشرح لا يعجبني وليس بصحيح لأنه كان واقعاً في زمان النبي ﷺ وفي زمان الصحابة والمفهوم من الحديث أنه يكون في آخر الزمان، ويرده أيضاً أن الأم كيفما كانت فهي في الإسلام سيدة لأولادها، قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]. فيجب على كل ولد أن يتخذ أمه سيدة له، وإن كانت قبل ذلك أمة مملوكة ولا يمكن أن تكون له عليها سيادة أبداً، والذي

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «من شيء».

(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «عن الله ورسوله».

(٤) يريد حديث جبريل الطويل، فقد رواه جمع من الصحابة، منهم: أبو هريرة، أخرج روايته البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩) وغيرهما، وهو المعني في كل ما يأتي من قول المصنف: «في حديث أبي هريرة»، فليكن ذلك على بالك.

أختاره: أن معنى ذلك: أن يكثر العقوق في آخر الزمان، حين يضعف تمسك الناس بالإسلام، ويعم الجهل والفسق ويكثر عقوق الأولاد لآبائهم وأمهاتهم، حتى أن الأم تضطر أن تعامل أولادها حين يكبرون ويستغنون عنها وتفتقر هي لهم معاملة الأمة لسادتها، وذلك مشاهد في هذا الزمان، فإن المحافظين على التمسك بالدين يكرمون آباءهم وأمهاتهم ويعظمونهم، وضعفاء الدين والمعرضون يحتقرون آباءهم وأمهاتهم، خصوصاً إذا كانوا شيوعيين لا يرون لوالديهم عليهم فضلاً، **هذا هو الذي تحقق عندي**، وبحثت في «فتح الباري شرح البخاري» للحافظ ابن حجر، فوجدت رأيه يطابق رأيي تماماً، فإنه قال بعدما ذكر ثلاثة آراء في شرح اللفظين المذكورين وطعن فيها ما نصه:

«الرابع: أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام، فأطلق عليه ربها مجازاً لذلك، أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة، وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه. ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة، ومحصله الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور، بحيث يصير المربى مربياً والسافل عالياً، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى: «**أن تصير الحفاة ملوك الأرض**»[1]. اهـ.

ثم قال ابن رجب: «والعلامة الثانية: «**أن ترى الحفاة العراة العالة**» والمراد بالعالة الفقراء كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٨]، وقوله: «**رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**» هكذا في حديث عمر، والمراد أن أسافل الناس يصيرون رؤساءهم وتكثر أموالهم حتى يتباهون[2] بطول البنيان وزخرفته وإتقانه.

وفي حديث أبي هريرة ذكر ثلاث علامات، منها: أن تكون الحفاة العراة رؤساء[3] الناس، ومنها: أن يتطاول رعاة[4] البهم في البنيان، وروى هذا الحديث عبد الله بن عطاء عن عبد الله بن بريدة فقال فيه: «وأن ترى الصم البكم

---

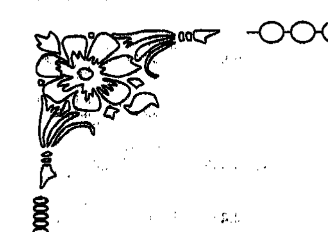
(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١/ ١٦٣).
(٢) كذا في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، وفي الأصل: «يتباهوا»!
(٣) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «رؤوس».
(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «رعاءُ».

العُمي الحفاة رعاء الشاة[١] يتطاولون في البنيان ملوك الناس، قال: فقام[٢] رجل فانطلق فقلنا: يا رسول الله من هؤلاء الذين نعت؟ قال: **«هم العُريب»**[٣]، وكذا روى هذا[٤] الحديث هذه اللفظة الأخيرة علي بن زيد عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر[٥]، وأما اللفظ الأول فهو في «الصحيحين»[٦] من حديث أبي هريرة بمعناه[٧] وقوله: **«الصم[٨] العمي»** إشارة إلى جهلهم وعدم علمهم وفهمهم، وفي هذا المعنى أحاديث متعددة.

فخرج (**حم**) و(**ت**) من حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع»**[٩]، «المراد باللكع اللئيم»[١٠]. وخرج (**حم**) والطبراني من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: **«بين يدي الساعة سنون خدّاعة**[١١]**، يتهم فيها الأمين، ويؤتمن فيها المتهم، وينطق فيها الرويبضة»** قالوا: وما الرويبضة؟ قال: **«السفيه ينطق في أمر العامة»** وفي رواية: **«الفاسق يتكلم في أمر العامة»**[١٢].

---

(١) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «الشاء».
(٢) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «الرجُلُ».
(٣) أخرجه من طريق عبد الله بن عطاء عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر به: المروزي في «الصلاة» (٣٦٧) ـ وعنده: «العرب» بدل «العُريْب» ـ، والطرسوسي في «مسند عبد الله بن عمر» (ص٢٢ ـ ٢٣).
(٤) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: بدون «هٰذا الحديث».
(٥) أخرجه من طريق علي بن زيد ـ وهو ابن جدعان، ضعيف ـ به: أحمد (٢/ ١٠٧)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٧١)، والآجري في «الشريعة» (١٠٩).
(٦) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «الصحيح»، وسبق تخريج حديث أبي هريرة.
(٧) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «بمعناها».
(٨) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»: «الصم البكم العمي».
(٩) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٩)، والترمذي (٢٢٠٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٩٢)، والبغوي (٤١٥٤) من حديث حذيفة، وهو حديث **حسن بشواهده**.
(١٠) في مطبوع «جامع العلوم والحكم»، سقطت الزيادة التي تفسر اللكع في الحديث وهي: «المراد باللكع اللئيم».
(١١) في الأصل: «ستون خدعة»، وهو تحريف، وصوابه المثبت!
(١٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٨٢)، وأبو يعلى (٣٧١٥)، والبزار (٣٣٧٣ ـ زوائده)، والطحاوي في «المشكل» (٤٦٥، ٤٦٦) وهو **حسن**، وحسنه ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٨٤).




مباحث في الإيمان

المبحث الأول: ما هو الإيمان؟

قال شارح «الطحاوية»[١]: «اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافاً كثيراً، فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه، وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله، وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين، إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكر[٢] الطحاوي[٣]: أنه الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان ومنهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصل[٤]، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي[٥] ويروى عن أبي حنيفة[٦]». اهـ.

---

(١) (ص٣٧٣).

(٢) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «ذكره».

(٣) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «رحمه الله».

(٤) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «بأصلي».

(٥) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «رحمه الله».

(٦) قال الكشميري في «فيض الباري» (١/ ٥٣ ـ ٥٤):

«الإيمان عند السَّلف عبارة عن ثلاثة أشياء: اعتقاد وقول وعمل. وقد مر الكلامُ ـ يعني في كتابه ـ على الأوَّلين، أي: التصديق والإقرار، بقي العمل: هل هو جزء للإيمان أم لا؟.

فالمذاهبُ فيه أربعة، قال الخوارج والمعتزلة: إنَّ الأعمال أجزاء للإيمان، فالتارك للعمل خارج عن الإيمان عندهما، ثم اختلفوا: فالخوارج أخرجوه عن الإيمان، وأدخلوه في الكفر، والمعتزلة لم يُدخلوه في الكفر، بل قالوا: بالمنزلة بين المنزلتين.

والثالث: مذهب المرجئة، فقالوا: لا حاجة إلى العمل، ومدار النجاة هو التصديق فقط، فصار الأولون والمرجئة على طرفي نقيض.

والرابع: مذهبُ أهل السنَّة والجماعة، وهم بينَ بينَ، فقالوا: إنَّ الأعمال أيضاً لا بُدّ منها، لكن تاركها مُفسَّقٌ، لا مُكفَّر، فلم يُشَدِّدوا فيها كالخوارج والمعتزلة، ولم يُهَوِّنوا أمرها كالمرجئة.

المبحث الثاني: في زيادة الإيمان ونقصانه

قال شارح «الطحاوية» (ص٣٨٤): «والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً، ومنها: قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ الآية [٢]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٧]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها: إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به؟ فهل في قول الناس: ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] زيادة مشروع؟ وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين؛ زيادة مشروع؟ وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقيناً.

ويؤيد ذلك قوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران:

= ثم هؤلاء ـ أي أهل السنّة والجماعة ـ افترقوا فرقتين، فأكثر المحدثين إلى أن الإيمان مركب من الأعمال، وإمامنا الأعظم ـ رحمه الله تعالى ـ وأكثرُ الفقهاء والمتكلمين إلى أن الأعمال غيرُ داخلة في الإيمان، مع اتفاقهم جميعاً على أن فاقد التصديق كافر، وفاقد العمل فاسق، فلم يبق الخلاف إلّا في التعبير، فإنّ السلف وإن جعلوا الأعمال أجزاء، لكن لا بحيث ينعدِمُ الكلُّ بانعدامها، بل يبقى الإيمان معَ انتفائها.

وإمامنا أبو حنيفة وإن لم يجعل الأعمال جزءاً، لكنه اهتم بها، وحرَّض عليها، وجعلها أسباباً ساريةً في نماء الإيمان، فلم يهدرها هدرَ المرجئة، إلّا أنّ تعبير المحدثين القائلين بجزئية الأعمال، لمّا كان أبعد من المرجئة المنكرين جزئية الأعمال، بخلاف تعبير إمامنا الأعظم ـ رحمه الله تعالى ـ فإنه كان أقرب إليهم من حيث نفي جزئية الأعمال: رُمي الحنفية بالإرجاء، وهذا كما ترى جورٌ علينا، فالله المستعان.

ولو كان الاشتراك مع المرجئة بوجهٍ من الوجوه التعبيرية كافياً لنسبة الإرجاء إلينا، لزم نسبةُ الاعتزال إليهم، أي: إلى المحدثين، فإنهم، أي المعتزلة، قائلون بجزئية الأعمال أيضاً كالمحدثين، ولكن حاشاهم من الاعتزال، **وعفا الله عمّن تعصّب ونسب إلينا الإرجاء، فإنَّ الدين كلَّه نصح، لا مراماةٌ ومنابزة بالألقاب!** ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم» انتهى. قال أبو عبيدة: لذا لا بد في مسألة (الأعمال هل هي شرط صحة أم كمال؟) من التفصيل، ورحم الله ابن تيمية القائل في «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٦٤) في غير هذا المقام: «فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل». وفي مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية» زيادة: «رضي الله عنه».

١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» عند هذه الآية بسنده عن أبي هريرة قال: «جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: «**لا، الإيمان مكمل في القلب، زيادته كفر، ونقصانه شرك**»(١).

فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير(٢) عن هذا الحديث؟ فأجاب: بأن الإسناد من أبي الليث إلى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التاريخ المشهور، وأما أبو مطيع، فهو: الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي(٣)، ضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وعمرو(٤) بن علي الفلّاس، والبخاري، وأبو داود، والنسائي، وأبو حاتم الرازي، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي، والعقيلي، وابن عدي، والدارقطني، وغيرهم، وأما أبو المهزم ـ الراوي عن أبي هريرة، وقد تصحَّف على الكتّاب ـ واسمه: يزيد بن سفيان(٥)، فقد ضعفه أيضاً غير واحد، وتركه شعبة بن الحجاج، وقال النسائي: متروك، وقد اتهمه شعبة بالوضع، حيث قال: لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً.

وقد وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين(٦)، وقال ﷺ: «**لا يؤمن**

(١) أخرجه أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٨٣، ط. دار الكتب العلمية)، وخرجته مفصلاً مبيّناً **وضعه رفعاً** في تعليقي على «التعقبات على الموضوعات» رقم (٣٦)، وانظر: «حديث السراج» رقم (٨٢٠).

(٢) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «رَحِمَهُ اللهُ».

(٣) انظر لضعفه: «الميزان» (٢/ ٣٣٩)، «الجرح والتعديل» (٣/ ١٢١)، «المجروحين» (١/ ٢٥٠)، «الضعفاء والمتروكين» (١/ ٢٢٧)، «المغني» (١/ ١٨٣).

(٤) في الأصل: «عمر»! والصواب المثبت.

(٥) انظر ترجمته وبيان ضعفه في: «التاريخ الكبير» (٨/ ٣٣٩)، «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٦٩)، «التهذيب» (٢/ ٣٦٥)، «الميزان» (٤/ ٢٤٤).

(٦) يشير إلى قوله ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن**» أخرجه البخاري (٣٠٤، ١٤٦٢، ١٩٥١، ٢٦٥٨)، ومسلم (٧٩، ٨٠) من حديث أبي سعيد.

أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(١)، والمراد نفي الكمال، ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان(٢)، وحديث الشفاعة(٣)، وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى ذرة من إيمان، فكيف يقال بعد هذا: إن إيمان أهل السموات والأرض سواء؟ وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان.

وكلام الصحابة(٤) في هذا المعنى كثير أيضاً، منه: قول أبي الدرداء(٥): «من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص؟»(٦).

وكان عمر(٧) يقول لأصحابه: «هلموا نزدد إيماناً، فيذكرون الله تعالى ﷻ»(٨)، وكان ابن مسعود(٩) يقول في دعائه: «اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً»(١٠).

وكان معاذ بن جبل(١١) يقول لرجل: «اجلس بنا نؤمن ساعة»(١٢).

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) مضى تخريجه، وهو في «الصحيحين».

(٣) مضى تخريجه وهو في «الصحيحين»، وللذهبي جزء مفرد مطبوع في أحاديث الشفاعة.

(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنهم».

(٥) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».

(٦) أخرجه أحمد في «الإيمان»، (ق١٠٨/أ) وابن بطة في «الإبانة» (١١٢٦)، وابن ماجه (٧٥)، واللالكائي في «السنة» (١٧٠٩) مختصراً، واللفظ المذكور عند أحمد (ق١٠٨)، ومن طريقه اللالكائي في «السنة» (١٧١١) وابن بطة في «الإبانة الكبرى (رقم ١١٤٠) وفي **إسناده مبهم**.

(٧) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».

(٨) أخرجه أحمد في «الإيمان» (ق١٠٨/أ) وابن أبي شيبة في «الإيمان» (ص٣٦)، وابن بطة في «الإبانة» (١١٣٤)، والبيهقي في «الشعب»، (٣٧) واللالكائي في «السنة» (١٧٠٠)، **وإسناده منقطع**، ذر بن عبد الله المرحبي لم يسمع عمر.

(٩) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».

(١٠) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (٧٩٧)، وأبوه الإمام أحمد في «الإيمان (ق١٠٨/ أ)، وابن بطة في «الإبانة» (١١٣٢)، والآجري في «الشريعة» (رقم ٢١٨)، **وصححه** ابن حجر في «فتح الباري» (٤٨/١).

(١١) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».

(١٢) علقه البخاري في «صحيحه»: كتاب الإيمان: الباب الأول، ووصله ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦٤/٦ و١٢٦/٧)، وأحمد في «الإيمان» (ق١٠٨/أ)، وابنه عبد الله في =

ومثله عن عبد الله بن رواحة[١].

وصح عن عمار بن ياسر[٢] أنه قال: «ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: إنصافٌ من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم». ذكره (خ) في «صحيحه»[٣] وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق»[٤].اهـ.

المبحث الثالث: في بيان أن الإيمان لا يثبت إلا بالعمل مع التصديق

قال شارح «الطحاوية»: صفحة (٤٠٨) «والكتاب والسنة مملوآن بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بيّن معناه الكتاب والسنة.

فمن الكتاب، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾

= «السنة» (٧٩٦)، وابن بطة في «الإبانة» (١١٣٥)، واللالكائي في «السنة» (١٧٠٦، ١٧٠٧)، **وصححه** ابن حجر في «الفتح»: (١/ ٦٠)، وشيخنا الألباني في تعليقه على «الإيمان» لابن أبي شيبة (١٧٢)، و«الإيمان» لأبي عبيد (رقم٢٠)، وعزاه العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٥١)، لابن الجوزي في «صفوة الصفوة».

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (رقم١١٦)، وأحمد في «الإيمان» (ق١١٨/ أ)، واللالكائي في «السنة» (١٧٠٨)، **وحسن** إسنادهُ العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٥١)، وبعده في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رضي الله عنه».

(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».

(٣) أورده البخاريُّ في كتاب الإيمان معلقاً مجزوماً موقوفاً على عمار رضي الله عنه، باب إفشاء السَّلَامِ من الإسلام، ووصله موقوفاً **بإسناد صحيح**: أحمد في «الإيمان» (ق١٠٩)، ووكيع في «الزهد» (٢٤١)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٨)، وفي «الإيمان» (٣١)، وابن جرير في «تهذيب الآثار» (١٩٤ ـ ١٩٦ ـ عمر)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٧٥)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٢٨)، واللالكائي في «السنة» (١٧١٣)، وابن حجر في «التغليق» (٢/ ٣٦) ـ وصححه ـ، و«مجالس الأذكار» رقم (٦٣٦).

وروي مرفوعاً، ولم يثبت. انظر: «مصنف عبد الرزاق» (١٠/ ٣٨٦)، و«معجم ابن الأعرابي» (١٤٢)، و«مسند البزار» (١/ ٢٥ ـ زوائده)، و«السنة» للالكائي (١٦٩٨)، و«علل ابن أبي حاتم» (٢/ ١٤٥)، و«فتح الباري» (١/ ٨٣)، ولابن ناصر الدين «جزء» من «أماليه» مفرد في هذا الأثر، وهو مطبوع بعنوان «الإتحاف بحديث فضل الإنصاف».

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (٣٨٤ ـ ٣٨٧) بتصرف.

[الحجرات: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فنفيُ الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب، الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب»[(١)]. اهـ.

فصل

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «كتاب الإيمان» (ص١٧٠) ما نصه:

«فلفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر، وبلفظ التقوى، وبلفظ الدين كما تقدم، فإن النبي ﷺ بيَّن أن «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[(٢)]. فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان، وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ التقوى، وكذلك الدين أو دين الإسلام، وكذلك روي أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل[(٣)] الله هذه الآية: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقد فسر[(٤)] بالإيمان، وفسر بالتقوى، وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله، والجميع حق.

وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه فسر البر بالإيمان:

قال محمد بن نصر بسنده عن القاسم قال: جاء رجل إلى أبي ذر، فسأله عن الإيمان، فقرأ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ . . .﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى آخر الآية، فقال الرجل: ليس عن البر سألتك، فقال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه، فقرأ عليه الذي قرأتُ عليك، فقال له الذي قلتَ لي؟! فلما أبى أن يرضى، قال له: «**إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها**»[(٥)].

---

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٠٨ ـ ٤٠٩). (٢) مضى تخريجه.

(٣) ثبت ذلك في «صحيح البخاري» (١٨٠٣، ٤٥١٢) وغيره عن البراء، وانظر: «الموافقات» (١/ ٤٤ ـ ٤٥) وتعليقي عليه.

(٤) في مطبوع «كتاب الإيمان» زيادة: «البرُّ».

(٥) أخرجه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٤٠٨)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٣٠١).

=

ثم قال شيخ الإسلام (ص١٧٨): «والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل، فيمتنع أن يكون الإنسان محباً لله ورسوله، مريداً لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته، دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه.

ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه، حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي الله ورسوله، ويعادي أولياء الله، ويوالي أعداء الله، ويقتل الأنبياء، ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة، قالوا: وهذه كلها معاصٍ لا تنافي الإيمان الذي في قلبه، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن، قالوا: وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار؛ لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر، ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود، وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به، وبخلاف ما شهد به الشهود.

فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذَّب في الآخرة، قالوا: فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه، فالكفر عندهم شيء واحد، وهو الجهل، والإيمان شيء واحد وهو العلم، أو تكذيب القلب وتصديقه، فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو؟

وهذا قول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان، فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة، وقد كفّر السلفُ ـ كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم ـ من يقول بهذا القول، وقالوا: إبليس كافر بنص القرآن، وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم، لا لكونه كذب خبراً، وكذلك فرعون وقومه.

= **وإسناده ضعيف**، القاسم لم يسمع من أبي ذر، والراوي عنه المسعودي واختلط قبل موته.
وعزاه في «الدر المنثور» (١/ ٤١١) لإسحاق بن راهويه في «مسنده» ـ و(مسند أبي ذر) مفقود من القطعة المتبقية منه، ونشر جلها ـ، وابن مردويه ولبعضه شاهد. انظر (ص٧٢ هامش ٦)، وانظر: «كتاب الإيمان» (١٤٣ ـ ١٤٤) بتصرف.

قال تعالى فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل: ١٤].

وقال موسى ﷺ لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢].

فموسى وهو الصادق المصدوق يقول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾.

فدل على أن فرعون كان عالماً بأن الله أنزل الآيات، وهو من أكبر خلق الله عناداً وبغياً؛ لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وكذلك من المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فهؤلاء غلطوا في أصلين:

أحدهما: [ظنهم][(١)] أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، فليس[(٢)] معه عمل، وحال وحركة وإرادة ومحبة، وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقاً، فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالاً ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله، فهو من الإيمان الواجب وفيها ما أحبه ولم يفرضه، فهو من الإيمان المستحب، فالأول لا بدّ لكل مؤمن منه؛ ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين، ومن فعله وفعل الثاني كان من المقربين السابقين، وذلك مثل حب الله ورسوله، بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بل أن

---

(١) من مطبوع «كتاب الإيمان»، وسقط من الأصل.

(٢) في مطبوع «كتاب الإيمان»: «ليس».

يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله، ومثله[(١)]: خشية الله وحده دون خشية المخلوقين، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين، والإنابة إليه مع خشيته كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢، ٣٣]. ومثله الحب في الله والبغض في الله والموالاة لله والمعادات لله.

والثاني: ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق.

وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة وجماهير النظار، فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك؛ لحسده إياه، أو لطلب علوّه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه، ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه.

وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم العلو والرئاسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض، كأموال ورئاسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم، فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق.

ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح[(٢)] في صدق الرسل، وإنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم، كقولهم لنوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

ومعلوم أن اتباع الأرذلين له لا يقدح في صدقه، لكن كرهوا مشاركة أولئك كما طلب المشركون من النبي ﷺ إبعاد الضعفاء، كسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وبلال... ونحوهم.

وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل صفة، فأنزل الله تبارك

---

(١) في مطبوع «كتاب الإيمان»: «مثل».
(٢) في الأصل: «تقدم» والتصويب من كتاب «الإيمان».

وتعالى[(١)]: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

ومثل قول فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقول فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩].

ومثل قول مشركي العرب: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ﴾ [القصص: ٥٧] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ ومثل قول قوم شعيب له: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ﴾ [هود: ٨٧]. ومثل قول عامة المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهذه الأمور وأمثالها ليست حججاً تقدح في صدق الرسل، بل تبيّن أنها تخالف إرادتهم وأهواءهم وعاداتهم[(٢)]، فلذلك لم يتبعوهم، وهؤلاء كلهم كفار، بل أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ﷺ ويحبون علو كلمته، وليس عندهم حسد له، وكانوا يعلمون صدقه، ولكن كانوا يعلمون أن في متابعته فراق دين آبائهم وذم قريش لهم، فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم، فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به بل لهوى النفس، فكيف يقال: إن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله؟»[(٣)]. اهـ.

قال شارح «الطحاوية» في تلخيص أقوال الناس في الإيمان ما نصه (ص٣١٢):

«وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان: إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم[(٤)]، كما

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣) (٤٥، ٤٦) وغيره، كما بيّنته مفصلاً في تحقيقي لـ«رجحان الكفة» (ص٢٠٩) للسخاوي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
(٢) كذا في مطبوع «كتاب الإيمان»، وفي الأصل: «وعادتهم».
(٣) انظر: «كتاب الإيمان» (١٥٠ ـ ١٥٤).
(٤) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية» زيادة: «رحمهم الله».

تقدم، أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه[1] أو باللسان وحده، كما تقدم ذكره عن الكرامية، أو بالقلب وحده، وهو إما المعرفة، كما قاله الجهم، أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي[2]، وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري[3]، فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءاً من الإيمان،

---

(١) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية» زيادة: «رحمه الله».

(٢) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «رحمهم الله».

(٣) كذا قال شارح «الطحاوية»! وتعقبه شيخنا الألباني في تعليقه على «الطحاوية» (ص٦٢ ـ ٦٣ ـ فقرة ٦٢)، فقال: «ليس الخلاف بين المذهبين اختلافاً صورياً كما ذهب إليه الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ، بحجة أنهم جميعاً اتفقوا على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان، وأنه في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. فإن هذا الاتفاق وإن كان صحيحاً، فإن الحنفية لو كانوا غير مخالفين للجماهير مخالفة حقيقة في إنكارهم أن العمل من الإيمان، لاتفقوا معهم على أن الإيمان يزيد وينقص وأن زيادته بالطاعة، ونقصه بالمعصية، مع تضافر أدلة الكتاب والسنة والآثار السلفية على ذلك، وقد ذكر الشارح طائفة طيبة منها (ص٣٨٤ ـ ٣٨٧) [٣٤٢ ـ ٣٤٤]، ولكن الحنفية أصروا على القول بخلاف تلك الأدلة الصريحة في الزيادة والنقصان، وتكلفوا في تأويلها تكلفاً ظاهراً، بل باطلاً، ذكر الشارح (ص٣٨٥) [٣٤٢] نموذجاً منها، بل حكى عن أبي المعين النسفي أنه طعن في صحة حديث «**الإيمان بضع وسبعون شعبة..**» مع احتجاج كل أئمة الحديث به، ومنهم البخاري ومسلم في «صحيحيهما»! وهو مخرج في «الصحيحة» (١٧٦٩)، وما ذلك إلا لأنه صريح في مخالفة مذهبهم!
ثم كيف يصح أن يكون الخلاف المذكور صورياً، وهم يجيزون لأفجر واحد منهم أن يقول: إيماني كإيمان أبي بكر الصديق! بل كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبريل وميكائيل عليهم الصلاة والسلام! كيف وهو بناءً على مذهبهم هذا لا يجيزون لأحدهم ـ مهما كان فاسقاً فاجراً ـ أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، بل يقول: أنا مؤمن حقاً! والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وبناءً على ذلك كله اشتطوا في تعصبهم، فذكروا أن من استثنى في إيمانه فقد كفر! وفرعوا عليه أنه لا يجوز للحنفي أن يتزوج بالمرأة الشافعية! وتسامح بعضهم ـ زعموا ـ فأجاز ذلك دون العكس، وعلل ذلك بقوله: تنزيلاً لها منزلة أهل الكتاب! وأعرف شخصاً من شيوخ الحنفية خطب ابنته رجل من شيوخ الشافعية، فأبى قائلاً: ... لولا أنك شافعي! فهل بعد هذا مجال للشك في أن الخلاف حقيقي؟ ومن شاء التوسع في هذه المسألة فليرجع إلى كتاب شيخ =

مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ـ نزاع لفظي، لا يترتب عليه فساد اعتقاد، والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى»[1].اهـ.

وقال قبل ذلك في تفصيل قول الكرامية:

«وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به، وقولهم ظاهر الفساد»[2].اهـ.

قال محمد تقي الدين: وكذلك قول أبي منصور الماتريدي: إن الإيمان هو التصديق وحده، وهو رواية عن أبي حنيفة كما في «شرح الطحاوية»، فيكون لأبي حنيفة قولان:

أولهما: أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب[3].

والثاني: مثل قول الماتريدي.

والثالث: ما رجع إليه، وهو موافق لسائر أئمة أهل السنة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.

قال شارح «الطحاوية» ـ وهو حنفي[4] غير متعصب ـ (ص٣٣٣):

«وقد حكى الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن زيد، وأن حماد بن زيد لما روى له حديث: «**أي الإسلام أفضل...**» إلى آخره، قال له: ألا تراه يقول: أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان[5]، فسكت أبو حنيفة، قال[6] بعض أصحابه: ألا تجيبه يا أبا

= الإسلام ابن تيمية: «الإيمان» فإنه خير ما ألف في هذا الموضوع» انتهى كلامه.

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٧٤). (٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٧٣).

(٣) هذا هو المشهور عن أبي حنيفة رحمه الله، وهو المذكور في «الفقه الأكبر» (ص٣٠٤)، وكتابه «الوصية» (ص٢ ـ مع «شرحها»)، و«رسالته إلى عثمان البتي» (ص٣٥) ونقله عنه جمع، انظر ـ مثلاً ـ: «الفصل» (٢/ ١١١)، «التمهيد» (٩/ ٢٣٨)، وانظر المسألة مفصلة مدللة في كتاب صديقنا الدكتور محمد الخميِّس: «أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة» (ص٣٥٤ ـ ٣٨٨).

(٤) وهو ابن أبي العز الحنفي، ونشر حديثاً كتاب «منهج الإمام ابن أبي العز الحنفي وآراؤه في العقيدة من خلال شرحه للطحاوية» عن دار ابن الجوزي.

(٥) سبق في هذا المعنى أحاديث كثيرة. انظر (ص٨٦)، وهناك تخريجها.

(٦) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «فقال».

حنيفة؟ قال: بم أجيبه وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ».

ثم قال شارح: «الطحاوية»: «مسألة الاستثناء في الإيمان، وهو أن يقول ـ أي الرجل ـ: أنا مؤمن إن شاء الله، والناس فيه على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط، منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار وهذا أصح الأقوال.

الأول: أما من يوجبه فلهم مأخذان: **أحدهما: أن** الإيمان هو ما مات الإنسان عليه، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمناً أو **كافراً** باعتبار الوفاة[1] وما سبق في علم الله أنه يكون عليه، وما قبل **ذلك لا عبرة به**.

قالوا: والإيمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافراً ليس بإيمان، كالصلاة التي أفسدها صاحبها قبل الكمال، والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وهذا مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم.

وعند هؤلاء أن الله يحب في الأزل من كان كافراً إذا علم منه أنه يموت مؤمناً، فالصحابة ما زالوا محبوبين قبل إسلامهم، وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد، وليس هذا قول السلف ولا كان يقول بهذا من يستثني من السلف في إيمانه، وهو فاسد، فإن الله تعالى قال: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]. فأخبر أنهم يحبهم إن اتبعوا الرسول، فاتباع الرسول شرط المحبة، والمشروط لا يتأخر[2] عن الشرط، وغير ذلك من الأدلة.

ثم صار إلى هذا القول طائفة غلوا فيه، حتى صار الرجل منهم يستثني في الأعمال الصالحة، يقول: صليت إن شاء الله! ونحو ذلك، يعني القبول.

ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء فيقول أحدهم: هذا ثوب إن شاء الله! هذا حبل إن شاء الله، فإذا قيل لهم: هذا لا شك فيه. يقولون: نعم، لكن إذا شاء الله أن يغيّره غيّره.

المأخذ الثاني: أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله، وترك ما نهاه عنه كله، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن، بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه

---

(١) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «الموافاة».

(٢) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «والمشروط يتأخر»!

أنه من الأبرار المتقين القائمين بجميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله المقربين، وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة، لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون، وإن جوزوا ترك الاستثناء، بمعنى آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال ﷺ حين وقف على المقابر: «**وأنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[١]. وقال أيضا: «**إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله**»[٢]. ونظائر هذا.

• وأما من يحرمه، فكل من جعل الإيمان شيئاً واحداً، فيقول: أنا أعلم أني مؤمن، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، فقولي: أنا مؤمن، كقولي: أنا مسلم، فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه، وسموا الذين يستثنون في إيمانهم (الشّكّاكة)، وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] بأنه يعود إلى الأمن والخوف، فأما الدخول فلا شك فيه. وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضكم؛ لأنه علم أن بعضكم يموت، وفي كلا الجوابين نظر، فإنهم وقعوا فيما فروا منه، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين، مع علمه بذلك، فلا شك في الدخول، ولا في الأمن، ولا في دخول الجميع أو البعض، فإن الله قد علم من يدخل فلا شك فيه أيضاً.

فكان قول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هنا تحقيقاً للدخول، كما يقول الرجل فيما عزم على شيء أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك في إرادته وعزمه، ولكن إنما لا يحنث الحالف في مثل هذه اليمين لأنه يجزم بحصول مراده.

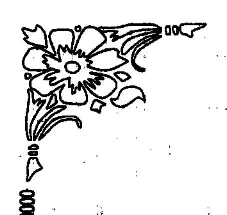
وأجيب بجواب آخر لا بأس به، وهو: أنه قال ذلك تعليماً لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مستقبل، وفي كون هذا المعنى مراداً من النص نظر، فإنه ما سيق الكلام إلا أن يكون مراداً من إشارة النص»[٣]. اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٤) من حديث عائشة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٩٥ ـ ٣٩٧).




بقية أركان الإيمان

قال شارح «الطحاوية»: «قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فجعل الله ﷻ الإيمانَ هو الإيمان بهذه الجملة[(١)]، بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(٢)].

فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل.

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع، فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكاراً الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر، فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ماهية له ولا حقيقة، فلا يعلم الجزئيات بأعيانها، وكل موجود في الخارج فهو جزئي، ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته، وإنما العالم[(٣)] عندهم لازم له أزلاً وأبداً، وإن سموه مفعولاً له فمصانعة ومصالحة للمسلمين في اللفظ.

---

(١) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «وسمى مَن آمن بهذه الجملة مؤمنين كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة» وقد سقطت من مطبوع «سبيل الرشاد».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كذا في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»، وفي الأصل: «العلم».

وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه، وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته!

فهذا إيمانهم بالله، وأما كتبه عندهم، فإنهم لا يصفونه بالكلام فلا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر، متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص: قوة الإدراك وسرعته؛ لينال من العلم أعظم ما[١] يناله غيره، وقوة النفس؛ ليؤثر بها في هيولي العالم، يقلب صورة إلى صورة! وقوة التخييل[٢]؛ ليخيل بها القوى العقلية في أشكال محسوسة، وهي الملائكة عندهم وليس في الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان، وأما اليوم الآخر فهم أشد الناس تكذيباً وإنكاراً له في الأعيان.

وعندهم أن هذا العالم لا يخرب[٣]، ولا تنشق السموات ولا تنفطر، ولا تنكدر النجوم ولا تكور الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار، كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها في الخارج، كما يفهمها[٤] أتباع الرسل، فهذا إيمان هذه الطائفة الذليلة الحقيرة ﴿بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء: ١٣٦] وهذه هي أصول الدين الخمسة.

ثم قال شارح «الطحاوية»: «وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول، وأصل الدين: الإيمان بما جاء به الرسول، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة ـ لما تضمنتا هذا الأصل ـ: لهما شأن عظيم ليس لغيرهما، ففي «الصحيحين»[٥] عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: **«من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»**.

---

(١) كذا في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»، وفي الأصل: «مما».
(٢) كذا في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»، وفي الأصل: «التخيل».
(٣) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «لا يحرب»، والصحيح المثبت.
(٤) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية»: «يفهمُ».
(٥) أخرجه البخاري كتاب المغازي، باب منه (٤٠٠٨)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين مِن آخر البقرة (٨٠٧) من حديث أبي مسعود البدري.

وفي «صحيح (م)»[(١)] عن ابن عباس قال: «بينما جبرائيل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلَّم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك:

فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته».

وقال أبو طالب المكي: أركان الإيمان سبعة ـ يعني هذه الخمسة ـ والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار، وهذا حق، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية، وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة.

وأما الملائكة، فهم الموكَّلون بالسمٰوات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ الآية [٥] من سورة النازعات، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ الآية [٤] من سورة الذاريات، وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل. وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم، وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكَّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله.

ومنهم: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ [المرسلات: ١ ـ ٥]، ومنهم: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾ [النازعات: ١ ـ ٤]، ومنهم: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ من سورة [الصافات: ١ ـ ٣]، ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفِرقَ والطوائف والجماعات، التي مفردها، «فرقة» و«طائفة» و«جماعة» ومنهم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

---

(١) أخرجه مسلم كتابُ صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحثُّ على قراءة الآيتين مِن آخر البقرة (٨٠٦) من حديث ابن عباس.

وملائكة قد وكِّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السمٰوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله، ولفظ «الملك» يشعر بأنه رسول منفِّذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله للواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الآية [٢٧] من سورة الأنبياء، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآية [٢٥٥] من سورة البقرة، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ الآية [٢٨] من سورة الأنبياء، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ الآية [٥٠] من سورة النحل.

فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر[١] من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطَّت السمٰوات بهم، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه[٢]، والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له، ومراتبهم من الدنو وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص.

قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية [٢٨٥] من سورة

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «الأمر».

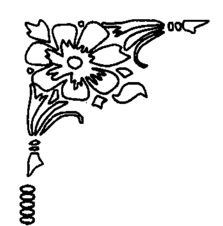
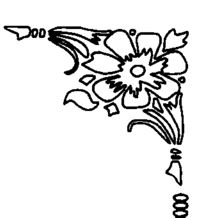
(٢) في مطبوع «شرح العقيدة الطحاوية» زيادة: «آخر ما عليهم».

البقرة، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ الآية [١٨] من سورة آل عمران، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية [٤٣] من سورة الأحزاب، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية [٧] من سورة [غافر]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الآية [٧٥] من سورة الزمر، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الآية [٢٦] من سورة الأنبياء، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ الآية [٢٠٦] من سورة الأعراف، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ الآية [٣٨] من سورة فصلت، ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ الآية [١١] من سورة الإنفطار، ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ الآية [١٦] من سورة عبس، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ الآية [٢١] من سورة المطففين، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الآية [٨] من سورة الصافات، وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم.

فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان»[١].

---

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (٣٣٢ ـ ٣٣٧).

الإيمان بالكرام الكاتبين

قال شارح «الطحاوية» (ص٤٣٨):

«وقوله[(١)]: «ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين».

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ الانفطار الآيات [١٠ إلى ١٢]

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ الآية [١٧ ـ ١٨] من سورة «ق»، وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية [١١] من سورة الرعد، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ الآية [٨٠] من سورة الزخرف، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ الآية [٢١] من سورة يونس، وفي «الصحيحين»[(٢)] عن النبي ﷺ أنه قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم، فيسألهم ـ والله أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلُّون، وفارقناهم وهم يصلون**»[(٣)]، وفي الحديث الآخر: «**إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم، وأكرموهم**»[(٤)]. جاء في

---

(١) المراد: قول صاحب العقيدة «الطحاوية»، وهكذا ما سيأتي لاحقاً.

(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «الصحيح».

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب مواقيت الصلاة، بابُ فضل صلاةِ العصر (٥٥٥)، ومسلم كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر (٦٣٢) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البزار في «مسنده» (٣١٧ ـ زوائده)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨٢) ـ، والسراج في «حديثه» رقم (٨٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ١٤٦) من حديث ابن عباس، ومداره على حفص بن سليمان المكتب، وهو متروك، **فإسناده ضعيف جداً**.

انظر تفصيل ذلك: «السلسلة الضعيفة» (٢٢٤٣)، و«الإرواء» (١/ ١٠٢) (٦٤).

التفسير: «اثنان عن اليمين وعن الشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه، وواحد[(١)] من أمامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، حافظان وكاتبان»، وقال عكرمة عن ابن عباس[(٢)]، ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [١١] من سورة الرعد قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلَّوا عنه»[(٣)].

الإيمان بملك الموت

قال شارح «الطحاوية» (ص٤٤٠): «قوله: «[ونؤمن] بملكِ الموت، الموكَّل بقبض أرواح العالمين».

(ش) قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪﴾ الآية [١١] من سورة السجدة، ولا تعارض بين[(٤)] هذه الآية، وقوله[(٥)]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [٦١] من سورة الأنعام، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ الآية [٤٢] من سورة الزمر؛ لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده، كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره، وحكمه وأمره، فصحَّتْ إضافة التوفِّي إلى كلٍّ بحسبه»[(٦)]. اهـ.

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه

قال شارح «الطحاوية» (ص٤٤٧): قوله: «وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية» بدون: «من».
(٢) أخرج أثر ابن عباس: عبد الرزاق (١/ ٣٣٢)، وابن أبي حاتم (٧/رقم ١٢١٩٦)، وابن جرير (١٣/ ٤٥٨) في «تفاسيرهم» من طريق إسرائيل عن سماك عن عكرمة به. ورواية سماك عن عكرمة مضطربة، وعزاه في «الدر المنثور» (٤/ ٤٧) إلى الفريابي وابن المنذر.
(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٣٨ ـ ٤٣٩).
(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية» بدون: «بين».
(٥) في مطبوع «شرح الطحاوية» بدون: «و».
(٦) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٤٠ ـ ٤٤١).

رسول الله ﷺ وعن الصحابة[(١)]، والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران».

(ش) قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ الآيتان [٤٥ ـ ٤٦] من سورة غافر، وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الآيات [٤٥ ـ ٤٧] من سورة الطور[(٢)]، وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يُرادَ به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذَّب في الدنيا، أو المراد أعم من ذلك.

وعن البراء بن عازب[(٣)] قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له، فقال: «**أعوذ بالله من عذاب القبر**». ثلاث مرات، ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزلت عليه**[(٤)] **الملائكة كأن على وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: يا أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان**». قال: «**فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السِّقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها، يعني: على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فيفتح له؛ فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله، فيقول الله** ﷻ: **اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض،**

---

(١) بعدها في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رضي الله عنهم».
(٢) في الأصل: (٤٥ ـ ٤٦ ـ الذاريات)!
(٣) بعدها في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رضي الله عنه».
(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «إليه».

فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى ـ فقال قتادة: فتعاد روحه في جسده ـ فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولون له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولون له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي؛ فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد البصر[1]، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: يا رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتتفرق في جسده فينتزعها كما يُنزع السَّفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له»[2]، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ الآية [٤٠] من سورة الأعراف.

«فيقول الله ﷻ: «اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً» ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ الآية [٣١] من سورة الحج، «فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولون له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء:

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «بصره».

(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية» بزيادة: «فلا يُفتح له».

أن كذب، فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر الذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»[(١)]. رواه الإمام أحمد وأبو داود، وروى النسائي وابن ماجه أوله، ورواه الحاكم وأبو عوانة الإسفرايني في «صحيحيهما» وابن حبان.اهـ.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ مر بقبرين، فقال: **«إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»**، فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال: **«لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»**.اهـ. رواه (ق)[(٢)].

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا. فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلُّق، متغايرة الأحكام: **أحدها**: تعلقها به في بطن الأم جنيناً. **الثاني**: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض. **الثالث**: تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه. **الرابع**: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه، فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة. **الخامس**: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل [أنواع][(٣)] تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً»[(٤)].

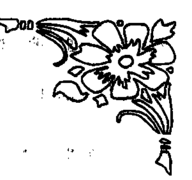
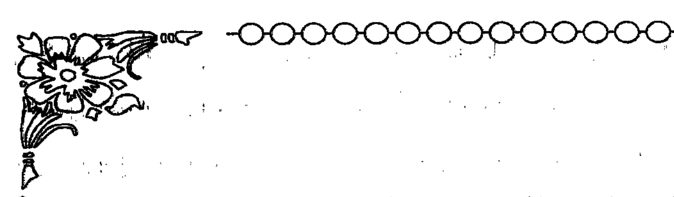
---

(١) سبق تخريجه مطولاً.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجنائز، باب الجريد على القبر (١٣٦١)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢) من حديث ابن عباس.

(٣) من مطبوع «شرح الطحاوية»، وسقط من الأصل.

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٤٧ ـ ٤٥١) بتصرف.

الإيمان بالكتب المنزلة

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٨]

قال (ك): «أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرّقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ الآية [النساء: ١٥٠، ١٥١] ـ وقال (خ) بسنده عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية[(١)]، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»، «﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ الآية»[(٢)] وقد روى (م، د، ن)[(٣)]، بسندهم عن ابن عباس قال: كان

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير» زيادة: «لأهل الإسلام».

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير سورة البقرة، باب ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما وبيان ما يُستحب أن يُقرأ فيهما (٧٢٧)، وأبو داود في الصلاة، باب تخفيفها ـ يعني ركعتي الفجر ـ (١٢٥٩)، والنسائي في الافتتاح (٢/ ١٥٥) من حديث ابن عباس.

رسول الله ﷺ: أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية والأخرى: بـ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط، بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط، وقال: وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل، وقال الزمخشري في «الكشاف»[(١)]: «الأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثنى عشر»، وقد نقله الرازي[(٢)] عنه وقرره ولم يعارضه، وقال (خ)[(٣)]: «الأسباط قبائل بني[(٤)] إسرائيل». وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ الآية [المائدة: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] قال القرطبي[(٥)]: وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة، وقيل: أصله من السَّبَط ـ بالتحريك ـ وهو: الشجر، أي: في الكثرة بمنزلة الشجرة الواحدة سَبَطَة، قال[(٦)] الزجاج: ويبين لك هذا وذكر سنده عن ابن عباس قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: إدريس[(٧)] ونوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، قال القرطبي: والسبط: الجماعة والقبيلة والراجعون[(٨)] إلى أصل واحد، وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا[(٩)] ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله، وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيهما، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن معقل[(١٠)] بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: **«آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل**

---

(١) انظره (١/ ١٩٥). (٢) انظر: «تفسيره» (٤/ ٧٥).
(٣) انظر «صحيح البخاري» كتاب التفسير، باب سورة الأعراف.
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «في بني». (٥) انظر: «تفسير القرطبي» (٢/ ١٤١).
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال».
(٧) لا ذكر له في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«تفسير القرطبي»، وفيهما بدل منه «ولوط»، وأورد القرطبي إسناد الأثر، وهو من طريق سماك عن عكرمة، وروايته مضطربة.
(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«تفسير القرطبي» بدون: «و».
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يؤمنوا به».
(١٠) في الأصل: «معقد»!

وليسعكم القرآن»[١].

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ يعني: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٢] قال: ابن أبي حاتم عن نافع بن أبي نعيم قال: أرسل إليَّ بعض الخلفاء مصحف عثمان ليصلحه قال زياد: قلت[٣] له: إن الناس ليقولون أن مصحفه كان في حجره[٤] حين قتل فوقع الدم على: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية وقد قَدُم[٥]. وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله، وكذا روي عن مجاهد وأبي العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفي والربيع بن أنس والسدي[٦]، وانتصاب ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ إما على الإغراء كقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أي: الزموا ذلك عليكموه، وقال بعضهم: بدلاً من قوله: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ كقوله: وعد الله، وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه[٧] من رواية أشعث بن إسحاق عن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٤٠٠) رقم (١٣١٢)، **وإسناده ضعيف**، فيه عبيد الله بن أبي حميد متفقٌ على ضعفه وَيروي عن أبي المليح عجائب. انظر: «الميزان» (٣/ ٥)، و«التهذيب» (٧/ ٩).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فقلت».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير» و«تفسير ابن أبي حاتم»، وفي الأصل: «حجرته»!

(٥) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) رقم (١٣١٢)، والمثبت من «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «وقد تقدم»!!

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «والسدي نحو ذلك»، وانظر تخريج هذه الآثار في: «تفسير ابن جرير» (١/ ٥٧٠، ٥٧١)، و«المجالسة» للدينوري (١٤٦٤، ١٤٦٥) عن قتادة وابن كثير ـ بتحقيقي)، و«العجاب» لابن حجر (١/ ٣٨٣)، و«الدر المنثور» (١/ ٣٤٠)، ولعلي القاري رسالة مفردة فرغت من تحقيقها قديماً بعنوان «صنعة الله في صبغة الله».

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم «تفسيره» (١٣٢٣) (١/ ٤٠٣) ومن طريقه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (١٣٨) (٢/ ٤٥٢).

وعزاه ابن حجر في «العجاب» (١/ ٣٨٤) لابن مردويه، وهو عند الضياء في «المختارة» =

سعيد بن جبير عن ابن عباس أن نبي الله موسى ﷺ قال: إن بني إسرائيل قالوا: يا رسول الله هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه: يا موسى سألوك: هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم. أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغي، وأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف. وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم»[1].اهـ.

قال صاحب «الكواشف» (ص٣٧):

«الإيمان بكتب الله هو التصديق الجازم بأن لله كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله، وهي من كلامه حقيقة، وأنها نور وهدى، وأن ما تضمنته حق وصدق، ولا يعلم عددها إلا الله، وأنه يجب الإيمان بها جملة إلا ما سمى منها، وهي: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وموسى.

قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣، ٤] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وقال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

فيجب الإيمان بها على التفصيل والبقية إجمالاً، ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله الإيمان بأن الله تكلم به حقيقة كما تكلم بالكتب المنزلة على أنبيائه ورسله، وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل والتحريف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

ومنزلة القرآن من الكتب المتقدمة كما ذكر الله فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ

= (١٠/ ١١٠ ـ ١١١) رقم (١٠٧)، **وإسناده حسن**، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٣٨).

(ملاحظة) في مصادر التخريج بين (أشعث) و(ابن جبير): «جعفر بن أبي المغيرة» وسقط من «تفسير ابن كثير» ولذا لم يرد له ذكر عندنا.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٠٣ ـ ١٠٥).



﴿ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧] وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

قال المفسرون: مهيمناً مؤتمناً وشاهداً على ما قبله من الكتب ومصدقاً لها، يعني: يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتغيير وتبديل، فما شهد له بالصدق فهو المقبول وما شهد له بالرد فهو المردود، وله يخضع كل متمسك بالكتب المتقدمة ممن لم ينقلب على عقبيه، قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥١ ـ ٥٣]، ويجب على كل أحد اتباعه ظاهراً وباطناً والتمسك به والقيام بحقه، قال الله تعالى[1]: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى[2]: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وأوصى النبي ﷺ بكتاب الله فقال: «**خذوا بكتاب الله وتمسكوا به**»[3] وفي حديث علي مرفوعاً: «**إنها ستكون فتن**» قلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله**»[4] وذكر الحديث، ومعنى التمسك به والقيام بحقه: حفظه، وتلاوته، والقيام به آناء الليل والنهار، وتدبر آياته، وإحلال حلاله[5]، وتحريم حرامه، والانقياد لأوامره، والانزجار بزواجره، والاعتبار بأمثاله، والاتعاظ بقصصه، والعمل بمحكمه، والإيمان بمتشابهه، والوقوف عند حدوده، والذب عنه؛ لتحريف الغالين وانتحال المبطلين، والنصيحة له بكل معانيها، والدعوة إليه على بصيرة.

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية» بدون: «تعالى».

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية» بدون: «تعالى».

(٣) أخرجه الدارمي (٣٣٥٩)، وأحمد (٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي رضي الله عنه (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم.

(٤) أخرجه الدارمي (٣٣٧٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٢) برقم (١٠٠٥٦)، والترمذي في «ثواب القرآن» (٢٩٠٨)، باب ما جاء في فضل القرآن، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٣٥، ١٩٣٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١١٨١)، وهو **صحيح عنه موقوفاً**. انظر تعليقي على: «الموافقات» (٤/ ١٨٥ ـ ١٨٦) للشاطبي.

(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية» بدون: «حلاله».

وفي «جواب أهل العلم والإيمان»[(١)]:

«السلف متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب، وهو أعلى منها درجة، فإنه قرر ما فيها من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً وبين الأدلة والبراهين على ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين، وبيّن عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها، وبيّن ما حُرّف منها وبُدِّل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، وبيَّن أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت[(٢)] به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن، فصارت له الهيمنة على ما قبله من الكتب من وجوه متعددة[(٣)]، فهو شاهد بصدقها، وشاهد بكذب ما حرّف منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات، وكذلك معنى الشهادة والحكم يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم، وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ[(٤)]، ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله.

ففيه دعوة الرسول وهداية[(٥)] الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته، وفيه ما جاء به الرسول، وفيه أيضاً من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول، ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن.

ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون من أصناف العلماء في أصناف العلوم والفنون لم يجد عندهم إلا بعض ما جاء به القرآن، ولهذا لم[(٦)] تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر ولا كتاب آخر، فضلاً عن أن تحتاج شيئاً لا يستقل بنفسه عن[(٧)] غيره سواء كان من علوم النقل أو علوم العقل، ولله الحمد».

---

(١) انظر: «جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمٰن من أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن» (ص٦٥ ـ ٦٦) بتصرف واختصار.

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «جاء». (٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «متعدد».

(٤) بعدها في «جواب أهل العلم والإيمان»: «وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة، بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل، بخلاف القرآن...».

(٥) تحرفت في مطبوع «جواب العلم»: «وهو آية»!

(٦) في مطبوع «الكواشف الجلية» بدون: «لم».

(٧) في مطبوع «الكواشف الجلية» و«جواب أهل العلم» بدون: «عن».

وقال: «ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل أو الحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإن القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور وبياناً للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن، قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفوا ما جاء به الرسول، أما أن لا يعرفوا اللفظ[1] ولا يعرفوا معناه فحينئذٍ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن هنا[2] يقع الشرك وتفريق الدين شيعاً كالفتن التي تحدث بالسيف، فالفتن القولية والفعلية من الجاهلية؛ بسبب خفاء النور عنهم، فإذا انقطع عنهم[3] نور النبوة وقعوا في ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم»[4].

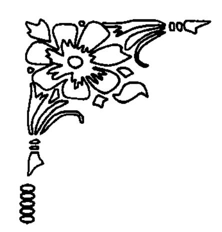
---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية» زيادة وهي: «وإما أن يعرفوا اللفظ»، وقد سقطت من المطبوع.

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «هٰهنا».

(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «عن الناس».

(٤) انظر: «الكواشف الجلية» (٢٧ ـ ٢٩).




الإيمان بالأنبياء والرسل

قال تعالى في سورة الحج الآية [٥٢]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

قال القاسمي: «﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: بما يصد عنها، ويصرف المدعوين عن إجابتها ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يبطله ويمحقه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يثبتها ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم الإلقاآت الشيطانية، وطريق نسخها من وجه وجيه ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم آياته بحكمته»[١]. اهـ.

قال شارح «الطحاوية» (ص١٠٥) ما نصه:

«وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء، أن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول، ومن[٢] لم يأمره أن يبلغ غيره، فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص من النبي[٣]، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً»[٤]. اهـ.

وقال صاحب «الكواشف» (ص٤٠) ما نصه:

«الإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بأن لله رسلاً أرسلهم لإرشاد الخلق

---

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (١٢/٣٧). (٢) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «وإن».

(٣) هذا التفريق غير مرضيّ، والمحققون من العلماء على خلافه، وثبت في «صحيح مسلم» (١٨٤٤) بسنده إلى عبد الله بن عمرو رفعه إلى النبي ﷺ قال: «**إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمُه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم...**».
فدل هذا الحديث بمنطوقه أن الواجب على النبي الدلالة والتبليغ، وأحسن الفروق ـ عند المحققين ـ أن النبي بعث للدعوة إلى شريعة رسول قبله؛ ولذا كان علماء هذه الأمة بمثابة أنبياء بني إسرائيل.

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (١٦٧).

في معاشهم ومعادهم، اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لا يهمل خلقه، بل أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، فيجب الإيمان بمن سمى الله منهم في كتابه على التفصيل، والإيمان جملة بأن لله رسلاً غيرهم وأنبياء لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يعلم أسماءهم إلا هو جلّ وعلا.

قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] وعدد المذكورين في القرآن خمسة وعشرون، وهم:

آدم - ونوح - وإدريس - وصالح - وإبراهيم - وهود - ولوط - ويونس - وإسماعيل - وإسحاق - ويعقوب - ويوسف - وأيوب - وشعيب - وموسى - وهارون - واليسع - وذو الكفل - وداود - وزكريا - وسليمان - وإلياس - ويحيى - وعيسى - ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

وموضوع الرسالة التبشير والإنذار[1] قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

والحكمة في ذلك دعوة أممهم إلى عبادة الله وحده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

وأفضل المرسلين أولو العزم وهم المذكورون في سورة الشورى، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ الآية [الشورى: ١٣] وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وأفضل أولياء الله أنبياؤه[2]، وأفضل أنبيائه المرسلون، وأفضل المرسلين أولو العزم، وأفضل أولي العزم محمد ﷺ خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا[3] وصاحب لواء الحمد، والحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة الذي بعثه الله بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خَلْقاً وأولهم بعثاً، ومن حين

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «والتنذير».
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «هم أنبياؤه».
(٣) بعده في مطبوع «الكواشف الجلية»: «وخطيبهم إذا وفدوا، صاحبُ المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون».

بعثه الله جعله الفاروق بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون ولياً[(١)] إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه ظاهراً وباطناً، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو[(٢)] لا يتبعه فليس من أوليائه، بل من خالفه كان من أعدائه وأولياء الشيطان.

الواجب علينا للرسل[(٣)]، والأشياء التي تجوز عليهم، والأدلة على صدقهم، وما أيديهم الله به: يجب علينا تصديقهم وأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمروا به، وبيّنوه بياناً واضحاً شافياً كافياً، لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه.

قال تعالى[(٤)]: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ويجب علينا الإيمان بأنهم معصومون من الكبائر، وأما الصغائر فقد تقع منهم، والكتاب والسنة يدلان على ذلك، ولكن لا يقرون عليها بل يوفَّقون للتوبة منها»[(٥)].

فصل

قال محمد تقي الدين الهلالي: عندي عشرة من التفاسير، وقد اختلفت أقوال المفسرين فبعضهم برأ الأنبياء من الذنوب وتأول ما ورد فيهم من نسبة الذنب إليهم من القرآن، وبعضهم يفهم منه نسبة الذنب إليهم من القرآن، وبعضهم يفهم منه نسبة الذنب إليهم وقد أعجبني كلام (ك) وها أنذا أنقله هنا.

قال (ك) في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ في قصة داود وأوريا المنقولة من التوراة ما نصه:

«قد ذكر المفسرون هٰهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «ولياً لله».
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «لم».
(٣) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «نحو الرسل».
(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «قال الله تعالى».
(٥) انظر: «الكواشف الجلية» (٢٩ ـ ٣٠).

عن المعصوم حديث يجب اتباعه[1]، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا

---

(١) أشار المصنف رحمه الله لقِصّةِ داود عليه السلام، وهي قِصّة مشهورةٌ جدّاً في كتب التفسير وغيرها، وحاصلها: أنَّ داود عليه السلام عشق امرأةً لرجلٍ اسمه أوريا بن حنين، فاحتال بالوجوه الكثيرةِ للحصول عليها، حتى بلغ به الحال أن قتل زوجها، فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعةٍ شبيهةٍ بواقعته، فعرف مرادهما، فاعترف بذنبه، ثمّ اشتغل بعد ذلك بالتوبة.

ويروى هذا التفسير مرفوعاً للنبيِّ ﷺ، رواه أبو بكر بن أبي شيبة في «مصنّفه» (٦/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ رقم ٣١٨٨٥ ـ علميّة) من حديث علي بن زيد، عن الحسن، عن الأحنف بن قيسٍ مرفوعاً، وهذا لا يصحُّ من جهة علي بن زيدٍ وهو ابن جدعان، ضعيفٌ، ثمّ هو منكر.

وأخرجه ابن قدامة في «التوابين» (ص٣١) من طريق يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة مرفوعاً، وهو منقطعٌ، فيحيى لم يسمع من أبي هريرة، ولذلك ضعّفه ابن الجوزي في «زاد المسير»، وابن كثير، وغيرهما.

وأخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٣٨)، وابن جرير (٢٣/ ١٥٠ ـ ١٥١)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ـ كما في «تفسير القرطبي» (١٥/ ١٦٧)، و«الدر المنثور» (٥/ ٣٠٠) ـ من حديث أنسٍ رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه يزيد الرقاشي وابن لهيعة، وقد ضعّفه ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٣٤)، والسيوطي في «الإكليل» (ص٢٢١)، وشيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٣١٣).

ويروى الخبر عن ابن عباس رضي الله عنه، وغيره من السّلف موقوفاً؛ أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، وابن أبي شيبة في «مصنّفه» (٧/ ٩٠ ـ ٩١) رقم (٣٤٢٣٧) ـ ومن طريقه الجصّاص في «أحكام القرآن» (٥/ ٢٥٤) ـ، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧)، والطبريُّ في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٠ ـ ٥٧٥) رقم (٢٩٨٥٢، ٢٩٨٥٣، ٢٩٨٥٥، ٢٩٨٥٧)، والتاريخ (١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ١٨ ـ ١٩) رقم (١٩، ٢٠، ٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣٨ ـ ٣٢٣٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٨/ ١٢٨ «مختصره») ـ وهو في «الجزء المفقود من ترجمة داود عليه السلام، انظر منه (١٧/ ١٠٩، ط. الفكر) ـ وابن المنذر، وعبد بن حميد، وهنّاد بن السَّرِّي كما في «الدرّ المنثور» (٥/ ٥٦٤ ـ ٥٦٧).

وهو خبرٌ مشهورٌ جدّاً ذكره جمعٌ كثيرٌ من المفسرين مثل: الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٤٨)، والسمرقندي في «بحر العلوم» (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، والبغويُّ (٤/ ٥٤ ـ ٥٥)، وابن الجوزي (٧/ ١١٥ ـ ١١٦)، والجصّاص (٥/ ٢٥٥)، وأبو حيّان (٧/ ٣٩٣)، والقرطبي (١١/ ٢٠٣)، والرّازي (١٣/ ١٩٠ ـ ١٩١)، والزمخشري (٤/ ٨٣ ـ ٨٤)، وابن حبيب العامري في «أحكام النظر» (ص٣٠ ـ ٣١ ـ بتحقيقي)، وغيرهم كثير كثير.

وذكر هذه القصّة: ابن قدامة في «التوابين» (ص٣٢ ـ ٣٣)، وابن الملقن في «قصص الأنبياء» (ص٢١٩ ـ ٢٢٠)، وابن النّحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٩٧ ـ ٩٩)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٨٥ ـ ٨٦)، وغيرهم، وبعضهم يزيدُ بأنّه نكحها وأنجب منها =

....

= سليمان عليه السلام، كما في «أنوار التنزيل» (٢/ ٣١٠) للبيضاوي، و«محاضرة الأبرار» (١/ ١٣٤) لابن عربي، و«حاشية الصاوي على الجلالين» (٥/ ١٤٢ ـ ١٤٣).
وقد تلقّى أهل العلم هذا الخبر بالردِّ والتّكذيب، **لعدم صحّته** أولاً، ولمنافاته لعصمة الرُّسل وجناب النبوّة، ومن المعلوم عقلاً وشرعاً أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون عن مثل هذه الذنوب المقترنةِ بفساد الخلق المنطوي على الخِسَّة وأنواع الدناءة من الحسد، وغيره من الآفات الذميمة، ولو جوّزناه على الأنبياء، لبطلت الشرائع، ولفسدت الأديان، ولهذا أحسن الحافظ ابن كثير لما أعرض عن ذكرها في «تاريخه» (٢/ ١١)، و«تفسيره» (٤/ ٣٤) بل قال ـ ونقله عنه المصنف ـ: «ذكر المفسرون هٰهنا قصّةً أكثرها من الإسرائيليّات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديثٌ يجب اتباعه».
وقال السيوطيُّ في «الإكليل» (ص٢٢٠ ـ ٢٢١): «قال تقي الدين السُّبكي في كتابه «القول المحمود في تنْزيه داود» ـ ومن خطِّه نقلتُ ـ: تكلّم النّاس في قصّةِ داود وأكثروا وذلك مشهورٌ جدّاً، وذكروا أموراً منها ما هو منكرٌ عند العلماء، ومنها ما ارتضاه بعضهم وهو عندي منكر». قلت: وكتاب السبكي مطبوع.
وقال ابن حزم رحمه الله في «الفِصل» (٤/ ٣٩، ط. دار الجيل): «ومن قال: إنّهم كانوا ملائكةً معرِّضين بأمر النِّساء فقد كذب على الله عز وجل، وقوَّلهُ ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذب على الله عز وجل، وأقرَّ على نفسه الخبيثة أنّه كذّب الملائكة... ثمّ كلّ ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجرّدة، وتالله إنّ كلّ امرئٍ مِنّا ليصون نفسه، وجاره المستور أن يَتَعشَّق امرأة جاره، ثمّ يُعرِّض زوجها للقتلِ عمداً ليتزوَّجها، وعن أن يترك صلاته لطائرٍ يراه، هذه أفعال السُّفهاء، المتهوكين، الفُسَّاق، المتمردين، لا فعل أهل البرِّ والتّقوى، فكيف برسولِ الله داود عليه السلام».
وقال البيضاويّ في «أنوار التنْزيل» (٢/ ٣١٠): «وما قيل: إنّه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً، وأمر أن يقدّم حتى قُتل، فتزوّجها، هزءٌ وافتراءٌ، ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: «من حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القُصاص، جلدته مِئةً وستينَ جَلْدَةً».
وفي «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٩٩) لابن عطيّة: «في كتب بني إسرائيل في هذه القِصّة صورٌ لا تليق، وقد حدّث بها قُصّاصٌ في صدر هذه الأُمّة، فقال علي رضي الله عنه: من حدّث بما قاله هؤلاء القصّاص جلدته حَدَّين؛ لما ارتكبه من حرمةٍ في حقٍّ من رفعه الله عز وجل».
وكذلك انتصر لردّها الرّازيُّ في كتاب «مفاتيح الغيب» (١٣/ ١٩٠ ـ ١٩٣) وسرد جملةً من البراهين القاطعة، فانظره ـ غير مأمور ـ فهو غايةٌ في النّفاسة، ولولا الإطالة لأوردناه كاملاً، وممّن أحسن في ردِّ هذه الفرية: أبو حيان في «البحر» (٧/ ٣٩٤)، والزمخشري في «الكشّاف» (٤/ ٨٢ ـ ٨٤)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ١١٦ ـ ١١٧) ومن قوله رحمه الله: «فأمّا ما روي أنّه نظر إلى المرأة فهَوِيَها وقَدَّم زوْجها للقتل، فإنّه وجْهٌ لا يجوزُ على الأنبياء؛ لأنّ الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها».
وفي «الشِّفا» (٢/ ١٠٢ ـ علميّة) للقاضي عياض: «وأما قصّة داود عليه السلام، فلا يجب =

= أن يُلْتَفت إلى ما سطَّره فيها الأخباريون عن أهل الكتاب الذين بدّلوا، وغيَّروا، ونقله بعض المفسّرين، ولم ينصّ الله على شيءٍ من ذلك، ولا وَرَدَ في حديث صحيح»، وقارن كلامه بما في «السيرة النبويّة في مفهوم القاضي عياض» (ص٥٣٥ ـ ٥٤٣) لأحمد جمال العمري.

ثمّ نقل عن الدّاوديّ رَحِمَهُ اللهُ أنّه قال: «ليس في قصّة داود وأوريا خبرٌ يثبُتُ».

وانظر: «اللُّباب» (٣/ ٢٣) للخازن، و«محاسن التأويل» (٦/ ٩١ ـ ٩٤) للقاسمي، و«التحرير والتنوير» (٢٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧) لابن عاشور، و«الجواب الكافي» (ص٣٦٠) لابن القيّم، و«مدارك التنْزيل» (٤/ ٥٨ ـ ٥٩) للنسفي، و«نظم الدرر» (١٦/ ٣٦١ ـ ٣٦٢) للبقاعي، و«إرشاد العقل السليم» (٧/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) لأبي السعود، ومن كلامه رَحِمَهُ اللهُ: «وأمّا ما يذكر عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ . . . فإفْكٌ مبتَدَع، ومكروهٌ ومكرٌ مخترع، بئسما مكروه تمجُّه الأسماع، وتنفر عنه الطباع، ويلٌ لمن ابتدعه، وأشاعه، وتبّاً لمن اخترعه، وأذاعه».

وفي «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٩) لابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «ومن تشاغل في وعظه بذكر قَصَص الأولين، فليعلم أنّ أكثر ما يُحكى في ذلك لا يثبت، كما ينقلون أنّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حلّ تَكّته، وأنّه رأى يعقوبَ عاضّاً على يديه، وأنَّ داود جهّز أوريا حتى قُتِل، فمثل هذا يَضُرُّ سماعه».

وقال شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «السلسلة الضعيفة» رقم (٣١٣): «وقصة افتتان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بنظره إلى امرأة الجندي (أوريا) مشهورة مبثوثة في كتب قصص الأنبياء، وبعض كتب التفسير، ولا يشك مسلم عاقل في بطلانها؛ لما فيها من نسبة ما لا يليق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ مثل: محاولته تعريض زوجها للقتل، ليتزوَّجها من بعده! وقد رُوِيَتْ هذه القصة مختصرةً عن النبي ﷺ فوجب ذكرها والتحذير منها». وقال أيضاً:

«قلت: والظاهر أنها من الإسرائيليات التي نقلها أهل الكتاب الذين لا يعتقدون العصمة في الأنبياء أخطأ يزيد ـ بعض رواة حديث أنس ـ فرفعها إلى النبي ﷺ».

وفي هذا الحشد من كلام الأئمة من الحفّاظ، والمفسرين، وغيرهم ما يكفي لردّ هذه الفريّة والحمد لله، وللأخ أبي أنس السيّد بن عبد المقصود رسالةٌ مفردة مطبوعةٌ بعنوان: «سوط الملك المعبود، على من اتّهم نبيّ الله داود» كما أشار لها في تعليقه على «مدارك التنْزيل» (٤/ ٥٩)، وطبع في مصر سنة ١٩٩٣م كتاب «تحرير المقال في براءة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ» لعبد الحميد شحاته، ومن محفوظات الظاهرية: «الظل الممدود في الذبّ عن نبي الله داود» للبعلي، وانظر في ردِّها والتنبيه على وضعها ـ غير ما تقدّم ـ: «فيض الباري على صحيح البخاري» (٤/ ٣٨ ـ ٣٩)، و«الإسرائيليات والموضوعات» (٣٦٩) للشيخ محمد أبو شهبة، و«الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير» (٢١٤) لرمزي نعناعة، و«دراسات تاريخية من القرآن الكريم» (٣/ ٤٣ ـ وما بعدها) لمحمد بيومي مهران، ومقدّمة «العظمة» لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ١٤٣ ـ ١٤٤)، وكتابي «من قصص الماضين» (ص٤٢٥ ـ ٤٢٩).

يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأَوْلى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يردَّ علمها إلى الله ﷻ، فإن القرآن حق وما تضمنه(١) حق أيضاً»(٢).

قال محمد تقي الدين: وأنا أرجح مذهب القائلين بالتأويل وأعتقد عصمة الأنبياء كلهم من الذنوب الصغائر والكبائر، وتسمية بعض أعمالهم ذنوباً هي من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين) والأدلة على ذلك كثيرة نذكر قليلاً منها، فمن ذلك: حكم النبي ﷺ لبني أبيرق بالبراءة(٣) اجتهاداً منه لما لم يقم دليل على أنهم سرقوا، فعاتبه الله على ذلك وأمره بالاستغفار. انظر بسط هذه القصة في (القسم الثاني) من «سبيل الرشاد» في (الباب الرابع) من (سورة النساء).

وكذلك قصة أسارى بدر، وقد ذكرها الله تعالى في آخر سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] فقد عاتب الله نبيه ﷺ على أخذ الفدية من أسارى بدر وقال له: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ [الأنفال: ٦٨] مع أن النبي ﷺ استشار أصحابه كما أمره الله تعالى بقوله في سورة آل عمران ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وذلك فيما لم يأمره فيه بشيء، فأشار أكثرهم بأخذ الفدية من الأسارى وإطلاق سراحهم وهذا ليس فيه أي ذنب، وكذلك قوله تعالى في سورة التوبة الآية ٤٣: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ فقد أمره الله تعالى بالعفو في غير ما آية، قال تعالى في سورة البقرة الآية ١٠٩: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩﴾.

وقال تعالى في سورة المائدة الآية ١٣: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وآية التوبة نزلت في المنافقين، لما عزم النبي ﷺ على الخروج لغزوة تبوك دعا الناس كلهم لذلك، فاعتذر له المنافقون بأعذار كاذبة، فقبل ظواهرهم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «تضمن فهو».

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٨١ ـ ٨٢).

(٣) مضى تخريجه.

واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وهذا ليس بذنب، ويقاس على هذا ما أشبهه، وعندي دليل نظري هو حجة قاطعة، وذلك أن الرسول لو جاز عليه ارتكاب الذنوب وقد أمرنا الله باتباعه اتباعاً مطلقاً، فإذا عمل ذنباً كنا مأمورين باتباعه فيه، ومنهيين عنه، فيقع التناقض، وهو الأمر بالشيء والنهي عنه في وقت واحد، فكأن الله يقول: اتبعوه ولا تتبعوه، فطريق السلامة هو تبرئة الأنبياء من الذنوب صغيرها وكبيرها، والله أعلم.اهـ.

وقال صاحب «الكواشف»: «ويجب احترامهم وأن لا يفرق بينهم، ويجب الاهتداء بهديهم والائتمار بأمرهم، والكف عما نهوا عنه، ويجب الاعتقاد أنهم أكمل الخلق علماً وعملاً وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقاً، وأن الله خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد وبرَّأهم من كل خلق رذيل، ويجب محبتهم وتعظيمهم، ويحرم الغلو فيهم ورفعهم فوق منزلتهم، ويجوز في حقهم شرعاً وعقلاً النوم والنكاح والأكل والشرب والجلوس والمشي والضحك وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي(١) إلى نقص في مراتبهم العلية، فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام، وتمتد إليهم أيدي الظلمة وينالهم الأذى(٢)، وقد يقتل الأنبياء كما أخبر الله بذلك في كتابه بقوله سبحانه: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢] ومن الأدلة على ما ذكرنا أولاً من أنه يجوز في حقهم أشياء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال عز من قائل: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وقال ﷺ: «**لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء**»(٣). وكان ﷺ يمرض ويتألم ويشتكي، وكان يصيبه الحر والبرد، والجوع والعطش، والغضب والضجر والتعب ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه.

وأما الأدلة على صدق الرسل فكثيرة(٤)، أعظمها شهادة الله لهم بأنهم

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «يؤدي».

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «الاضطهاد».

(٣) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١) من حديث أنس.

(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «فكثير».

صادقون، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

وقال عز شأنه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] وقال عز من قائل في[1] إسماعيل عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] وقال في[2] إبراهيم: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] إلى غير ذلك من الأدلة»[3]. اهـ.

البحث في المعجزات

قال شارح «الطحاوية»:

«ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ وما أحسن ما قاله[4] حسان[5]:

لو لم تَكُن فيه آياتٌ مُبَيَّنَةٌ ... كانت بديهتُهُ تأتيك بالخَبَرِ

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإن الرسول لا بدّ أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بدّ أن يفعل أموراً؛ يبيّن بها صدقه، والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه، وما يفعله ما يتبين[6] به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمراً: أحدهما صادق والآخر كاذب ـ لا بدّ أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، إذ الصدق مستلزم للبر، والكذب مستلزم للفجور، كما في «الصحيحين»[7] عن النبي ﷺ أنه

---

(١) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «عن». (٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «عن».

(٣) انظر: «الكواشف الجلية» (٣٠).

(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «ما قال حسان رضي الله عنه».

(٥) البيت في «عيون الأخبار» (١/ ٣٢٦)، و«محاضرة الأبرار» (٢/ ٢٤٠)، و«ربيع الأبرار» (٤/ ١٥٦)، و«المجالسة» (٧٥٨/ م، ٣٢٣٤)، وفي بعضها: «تنبئك» بدل «تأتيك».

(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «يبين».

(٧) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] (٢٠٩٤) ومسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب =

قال: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّاباً**». ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٦] من سورة الشعراء فالكهان ونحوهم، وإن كانوا أحياناً يخبرون بشيء من المغيبات، ويكون صدقاً فمعهم من الكذب والفجور ما يبيِّن أن الذي يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء، ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صَيَّاد: «**قد خبأت لك خبأ**»، فقال: هو الدخ. قال له النبي ﷺ: «**اخسأ فلن تَعْدُوَ قَدْرَك**»[١]. يعني: إنما أنت كاهن، وقد قال للنبي ﷺ: «يأتيني صادق وكاذب» وقال: «أرى عرشاً على الماء»[٢]. وذلك هو عرش الشيطان.

وبيَّن أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي: الذي يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضراً له في العاقبة.

فمن عرف الرسول وصِدْقَه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله، علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن»[٣]. اهـ.

ثم قال صاحب «الكواشف» (ص٤٢):

«فهم أصدق الخلق على الإطلاق، عليهم أفضل الصلاة والسلام، وأيدهم بالدلائل الدالة على صدقهم في دعواهم الرسالة، فمن أعلام نبوته ﷺ القرآن العظيم الذي أعجز الورى كلهم، ومثل انشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب ومعراجه إلى السماء، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وكفاية الله أعداءه وعصمته من الناس، وإجابة دعائه، وإعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة، وتأثيره في تكثير الطعام والشراب».

قال الشيخ: ومثل أخبار أهل الكتاب قبله، وبشارة الأنبياء به، ومثل أخبار

= قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(١) أخرجه مسلم كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر.
(٢) أخرجه مسلم كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد (٢٩٢٥) من حديث أبي سعيد.
(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (١٥٨ ـ ١٦٠).

الكهان والهواتف به، ومثل قصة الفيل التي جعلها الله آية في عام مولده من العجائب الدالة على نبوته، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التي ترجم بها الشياطين، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه، ومثل إخباره بالغيوب التي لا يعلمها أحد إلا بتعليم الله من غير أن يعلمه إياها بشرٌ(١).اهـ.

وكما أيد الله موسى بالآيات البينات قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وكما أيد الله سائر رسله، مع انضمام ذلك إلى أحوالهم الجليلة، وأخلاقهم الفاضلة الجميلة، من سلامة الفطرة والعفاف، والكرم(٢) والشجاعة، والعدل والنصح(٣).

الواسطة بين الله وبين خلقه

قال محمد تقي الدين: رأيت كلام العلماء المتقدمين كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فيه صعوبة على فهم عامة القراء، فأردت أن أبينه لهم بعبارة سهلة:

اتخاذ الوسائط بين الله وبين عباده على نوعين: الأول حق، والثاني باطل، **فالأول** الذي هو حق: يجب على كل مسلم أن يعتقد أن كل ما يأمر الله به عباده أو ينهاهم عنه أو يخبرهم به لا يمكن أن يُعرَف إلا من طريق الرسل، وذلك كالأحكام الخمسة: الواجبات، والمستحبات، والحلال، والحرام، والمباح، وأخبار الأمم السابقة، وأمور الآخرة كسؤال القبر والحساب والميزان والحوض والصراط ودخول الجنة ونعيمها ودخول النار وعذابها، والملائكة، فكل من أخبر بشيء من ذلك من غير طريق الكتاب والسنة يجب علينا أن نكذبه كالمتصوفة الذين يقولون: قال الله كذا وكذا، وقلت له كذا وكذا، ورأيت النبي ﷺ يقظة وأخبرني بكذا وكذا أو غيره من الأنبياء أو يقول: إذا قال لك المحدث: حدثني أبي عن جدي فقل له: حدثني قلبي عن ربي، فهذا كذب وضلال، مَنْ صدّقه فقد كذّب الله ورسوله، وإذا عرفت أيها القارئ هذه القاعدة فإنك تسلم من الوقوع في شباك الدجاجلة الذين يسلبون الدين والعقل والعرض والمال بمثل هذه الحيل.

---

(١) الظاهر أن من قوله: «قال الشيخ...» إلى هنا، من إملاءات العلامة الهلالي ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «الكرام»، والمثبت هو الصحيح.

(٣) انظر: «الكواشف الجلية» (٣٠ ـ ٣١).

والنوع الثاني: اتخاذ وسائط بين الناس وبين الله في جلب الخير، كنزول المطر وشفاء المرض وتنوير القلوب وإصلاحها وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ودفع الضرر، فاتخاذ الوسائط بهذا المعنى شرك وكفر بالله، ومن ذلك: الاستغاثة عند الشدائد بالأنبياء والملائكة والصالحين ودعاؤهم والذبح والنذر لهم والحلف بأسمائهم والتوكل عليهم في جلب الخير ودفع الشر والاستمداد من أرواحهم والخوف والرجاء منهم، وأعظم من ذلك اعتقاد أنهم يتصرفون في العالم، وقد تقدم ذلك مبسوطاً في (القسم الأول) من هذا الكتاب، وكل ما أخبر به الأنبياء والرسل عموماً وخصوصاً، أفضلهم وسيدهم محمداً رسول الله ﷺ، إذا ثبت بالكتاب أو بالسنة أو بأحدهما فهو حق يقبله العقل الصحيح ويفهمه ولا يتنافى معه أبداً، ومن شك فيه فهو فاسد العقل أو كذاب جاحد مكابر.

عدد الأنبياء والرسل والكتب المنزلة

ذكر الحافظ (ك)[1] في تفسير الآية ١٦٤ من سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ الآية أحاديث كثيرة متناقضة، فأكثر ما ذكر في عددهم أن الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر. وفي حديث: وخمسة عشر، وفي حديث أن الرسل ثمانية آلاف وفي حديث آخر أنهم ألف. وأطول هذه الأحاديث حديث أبي ذر رواه أحمد[2] وغيره، والمختار التوقف في عددهم لما تقدم، وللآية المذكورة وآية

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، وابن سعد (١/ ٣٢)، والنسائي (٨/ ٢٧٥)، والبزار (١٠٦٠ ـ زوائد)، والطبراني (١٦٥١)، وفي «الأوسط» (٤٧١٨)، وابن حبان (٣٦١)، وفي «المجروحين» (٣/ ١٢٩)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٩٩)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، وأبو نعيم (١/ ١٦٨)، والبيهقي (٩/ ٤) من **طرق فيها مقال** عن أبي ذر ولفظ أحمد: «قال أبو ذر: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: «**ثلاث مئة وبضعة عشر، جماً غفيراً**» وقال مرة: «**خمسة عشرة**».

وفي بعض الروايات زيادة: «قال: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «**مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً**»»، وهذا لفظ الآجري.

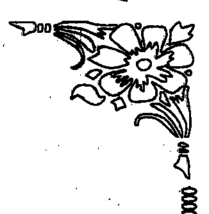
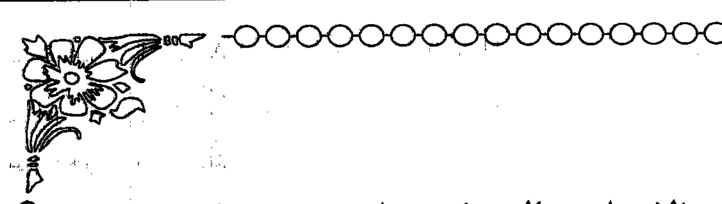
وإسناد أحمد **ضعيف جداً**، وانظر: «الضعيفة» (٤/ ٣٨٣) وأما قوله: وفي حديث: «**أن الرسل ثمانية آلاف...**».

فقد أخرج أبو يعلى (٤٠٩٢، ٤١٣٢)، والحاكم (٢/ ٥٩٧، ٥٩٨)، والطبراني في =

سورة غافر الآية ٧٨: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ومن الآيتين نعلم يقيناً أن الله تعالى لم يقص على النبي ﷺ جميع الرسل، فكيف يمكن أن يبين عددهم وهو لا يعلم إلا بعضهم؟ وكذلك الكتب السماوية جاء في أحد تلك الأحاديث أن عددها مائة وأربعة[1] ثم ذكر تفصيلها، ونحن نكل علم عددها وتفصيلها إلى الله تعالى ونؤمن بجميع ما أنزله الله من الكتب إجمالاً وما ذكره الله لنا بالتفصيل أربعة: التوراة لموسى، والإنجيل لعيسى، والزبور لداود، والقرآن لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

= «الأوسط» (٧٧٤)، وأبو نعيم (٣/ ٥٣)، وابن كثير في «التفسير» (٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) من حديث أنس رفعه: **«بعث الله ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف إلى بني إسرائيل، وأربعة آلاف إلى سائر الناس»**.
وإسناده ضعيف جداً، فيه يزيد الرقاشي وغيره من الضعفاء، وانظر ـ لضعفه ـ: «المجمع» (٨/ ٢١٣)، «المطالب العالية» (٣/ ٢٧٠) رقم (٣٤٥٥).
وأما قوله وفي حديث آخر: **«إنهم ألف»** فيدل عليه ما أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٦٤٦)، وابن سعد (١/ ١٥١)، والبزار (٣٣٨٠ ـ زوائده)، وأبو نعيم (٤/ ٣٣٤، ٣٣٥) من طريق مجالد عن الشعبي عن أبي سعيد الخدري رفعه: **«إني لخاتم ألف نبي أو أكثر»، وإسناده ضعيف**، فيه مجالد بن سعيد، واستغربه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ١٨٣).

(١) ورد ذلك في حديث أبي ذر السابق ذكره.

الإيمان بالبعث وما بعده

قال الله تعالى في سورة التغابن الآيات (٧ إلى ١٠): ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾ [التغابن: ٧ ـ ١٠]

قال (ك): «يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي: لتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أي: بعثكم ومجازاتكم.

وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ﷻ على وقوع المعاد ووجوده.

فالأولى: في سورة يونس: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥٣﴾ [يونس: ٥٣].

والثانية: في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ الآية [سبأ: ٣].

والثالثة: هي هذه الآية ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾؛ يعني: القرآن ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون

والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وقوله تعالى[(١)]: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ قال ابن عباس: هو[(٢)] من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار، وكذا قال قتادة ومجاهد[(٣)]، وقال مقاتل بن حيان[(٤)]: لا غُبنَ أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ويُذْهَبُ بأولئك إلى النار، قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ [التغابن: ٩، ١٠] وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة»[(٥)]. اهـ.

قال شارح «الطحاوية» ص٤٥٦:

«وقوله: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب والصراط والميزان».

قال (ش): الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله سبحانه عنه[(٦)] في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، ورد على منكريه في غالب سور القرآن.

وذلك: أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالله، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإن منكريه كثيرون، ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفى؛ بيّن تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «تعالى».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «هو اسم من».
(٣) أخرجه عن قتادة: عبد بن حميد، كما في «الدر المنثور» (١٤/ ٥١٥).
وأما عن مجاهد، فأخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٠٩)، وابن جرير (٢٣/ ١٠)، والفريابي ـ كما في «فتح الباري» (٨/ ٦٥٢، ٦٥٣) ـ وعبد بن حميد ـ كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٣٤٣) ـ.
(٤) انظر: «تفسيره» (٤/ ٣٥٢).
(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ١٩ ـ ٢٠).
(٦) كذا في مطبوع «شرح الطحاوية»، وفي الأصل: «به»!

أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ، وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري.

والقرآن بيّن معاد النفس بعد الموت، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع، وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى، وينكرون معاد الأبدان، ويقول من يقول منهم: إنه لم يخبر به إلا محمد ﷺ على طريق التخييل، وهذا كذب فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم، فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥] ولما قال إبليس اللعين: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: ٧٩ ـ ٨١] وأما نوح عليه السلام فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧، ١٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢]، إلى آخر القصة، وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١][1]، وأما موسى عليه السلام فقال الله تعالى لما ناجاه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٥، ١٦] بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإنما آمن بموسى، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] إلى قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩] إلى قوله: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]»[2]. اهـ.

فصل

قال محمد تقي الدين: احتجاج شارح «الطحاوية» على الفلاسفة الذين لا يصدقون الرسول ﷺ بآيات القرآن على أن الرسل السابقين جاؤوا بعقيدة البعث

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]»، وهي ساقطة من مطبوع كتابنا «سبيل الرشاد».

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٥٦ ـ ٤٥٨).

مفصلة كما جاء بها محمد ﷺ فيه نظر، وقد نظرت في الكتب السابقة فلم أجد في التوراة ذكر يوم القيامة والجزاء الأخروي.

أما الأناجيل فالبعث موجود فيها، ولكن علماء النصارى ينكرون بعث الأجساد والتمتع بالأكل والشرب والجماع في الجنة، ويزعمون أن المؤمنين يشتغلون بالغناء والمعازف ويسبحون الله، وكان الأستاذ (باول كالي)[1] مدير القسم الشرقي في جامعة (بن) بالبلاد الجرمانية يهيء لنا رحلة في كل أسبوع أو أسبوعين للترويح على النفس والاستجمام، وكان هو يقوم بنفقات السفر ما عدا الأكل والشرب، وكل واحد ينفق على نفسه، وكانت هذه الرحلة تشتمل على رجال ونساء من أهل العلم والأدب، فهجم عليَّ أحدهم يوماً، وقال مستهزئاً: كيف تدعون أن في الجنة أكلاً وشرباً واستمتاعاً بالنساء فقلت له: هل يحشر الناس يوم القيامة ذكوراً فقط، أو أناثاً فقط، أو خنائى، أم يحشرون ذكوراً وإناثاً، كما كانوا في الدنيا؟؟ فقال: بل يحشرون ذكوراً وإناثاً، فقلت: فما معنى كونهم ذكوراً وإناثاً إن لم يكن استمتاع أحد الجنسين بالآخر؟ وما الحكمة في جعلهم ذكوراً وإناثاً؟ ولماذا لم يجعلهم الله كالملائكة لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة؟ فضحك عليه الحاضرون ولم يستطع جواباً، وقلت له: استمتاعكم أنتم في الجنة هو أن يعطى كل واحد عوداً يلهو به، وهذا أمر ممل فإن الإنسان لا يتنعم بالضرب على العود إلى الأبد بدون انقطاع، فجنتنا أحسن من جنتكم! فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فاستحسنوا كلهم هذا الكلام، وبهت هذا الطاعن وبطل طعنه، وكان ذلك في سنة ١٩٣٧ بتأريخ النصارى في جبال غربي البلاد الجرمانية راين لند؛ أي بلاد راين، وهو نهر مشهور.اهـ.

رجوع إلى البحث في المعاد

قال شارح «الطحاوية» (ص٤٠١):

«والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة، لهم في المعاد خبط واضطراب وهم فيه على قولين:

(١) كان صديقاً للهلالي، وترجم معه كتابين عربيين. انظر ما تقدم في ترجمة المصنف، وللهلالي ترجمة له نشرها في أول ترجمته لكتابه «مدنية المسلمين في أسبانيا» (ص١٩ ـ ٢٥، ط. مكتبة الثقافة، المغرب).

منهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد.

ومنهم من يقول: تفرَّق الأجزاء ثم تُجمع.

فأورد عليهم الإنسان الذي يأكله حيوان، وذلك الحيوان أكله إنسان، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا، لم تعد من هذا، وأورد عليهم: إن الإنسان يتحلل دائماً، فماذا الذي يعاد؟ أهو[1] الذي كان وقت الموت؟ فإن قيل بذلك، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة، وهو خلاف ما جاءت به النصوص، وإن كان غير ذلك، فليس بعض الأبدان بأولى من بعض، فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني، والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل، ليس فيه شيء باق فصار ما ذكروه في المعاد مما قوَّى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان.

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال، فتستحيل تراباً ثم ينشئها الله نشأة أخرى، كما استحال في النشأة الأولى، فإنه كان نطفة، ثم صار علقة، ثم صار مضغة، ثم صار عظاماً ولحماً، ثم أنشأه خلقاً سوياً، كذلك الإعادة، يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عَجْبَ الذنب كما ثبت في «الصحيح»[2] عن النبي ﷺ، أنه قال: «**كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ابن آدم ومنه يركب**». وفي حديث آخر: «**إن السماء تمطر مطراً كمنيِّ الرجال، ينبتون في القبور كما ينبت النبات**»[3].

ومضى إلى أن قال: «ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخاً، علم أن هذا هو ذاك، مع أنه دائماً في تحلل واستحالة، وكذلك سائر الحيوانات والنبات فمن رأى شجرة وهي صغيرة، ثم رآها كبيرة، قال: هذه تلك، وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة، حتى يقال: إن

---

(١) كذا في مطبوع «شرح الطحاوية»، وفي الأصل: «هو».

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ (٤٩٣٥)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب «ما بين النفختين» (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٥١١)، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١٦٥٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/رقم ٩٧٦١)، والحاكم (٤/ ٥٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٣١٤ و٤٦٣)، وضعّفه شيخنا في تعليقه على الطحاوية» (٤٦٣).

الصفات هي المغيرة، لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة آدم».

ثم قال في النشأة الأخرى: «وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات، وهذه النشأة فانية معرضة للآفات»(١). اهـ.

جزاء الأعمال

قال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وقال تعالى في سورة النور: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ الآية [٢٥] وقال تعالى في سورة غافر الآية [١٧]: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٧﴾، وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ الآية [٢٥].

قال المصنف في كتابه «فتح الرحمن في تفسير أم القرآن»(٢) ما نصه: «﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قرئ في السبع بألف بعد الميم وبدونها(٣).

فالأول: من المِلك بكسر الميم كما قال تعالى في سورة الانفطار: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [١٩].

والثاني: من المُلك بضم الميم وكلاهما ثابت لله تعالى، قال البيضاوي(٤): «أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراء له مجرى المفعول به على الاتساع، كقولهم: (يا سارق الليلة أهل الدار) ومعناه: ملك الأمور [يوم] الدين، أو له [الملك] في هذا اليوم على وجه الاستمرار».

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٦٣ ـ ٤٦٤).

(٢) هو كتابٌ للمصنف ذكره بهذا الاسم في كتابه «ذيل الصراط المستقيم» (٧)، وقال في كتابه «الحسام الماحق» (١٣): «قلت في كتابي «المنح السانحة في تفسير سورة الفاتحة» ما نصه: ...»، وأورد نصاً طويلاً في نحو أربع صفحات وزيادة، ويحتمل أن يكون العنوانان لكتاب واحد ولا أعلم شيئاً عن كتابه هذا، وجلُّ كتب المصنف نشرها على حلقاتٍ في مجلات نُشِرت في أوقاتٍ مختلفة وَبلدان شتى، وأنا أجهدُ على جمعها جميعاً وَحصلتُ منها على قسمٍ لا بأسَ به (نحو خمس مئة مقالة) وهو قيد التنضيد الآن، والله الموفق.

(٣) انظر: «البحر المحيط» (١/ ٢٠)، «النشر» (١/ ٤٧)، «الإبانة» (١٣٧).

(٤) في «تفسيره» (١/ ٨) وما بين المعقوفتين منه، وصوبت بعض ما في الأصل منه أيضاً.

قال محمد تقي الدين: والإضافة هنا بمعنى (في) كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] والدين الجزاء، قال تعالى في سورة النور: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [٢٥] قال الحماسي:

فلما صرح الشر فأمسى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وفي الحديث **«كما تدين تدان»**[1] أخرجه ابن عدي في «الكامل» عن ابن عمر مرفوعاً.

وفي «فتح البيان»: «واليوم في العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان، وفي الشرع ما بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس، والمراد هنا مطلق الوقت»[2]. اهـ. وإنما أضيف ملكه سبحانه ليوم القيامة، مع أنه يملك الدنيا والآخرة، وهو المتصرف فيهما وحده، لأن في الدنيا مالكين ومملوكاً على سبيل الحدوث والنقصان.

وهم مملوكون لله، أما في ذلك اليوم فلا تملك نفس شيئاً أصلاً؛ لقوله تعالى في سورة لقمان: **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾** الآية [٣٣].

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٦٨)، والديلمي (٢٢٠٣)، وفي إسناده محمد بن عبد الملك المدني، قال ابن عدي: «كل أحاديثه مما لا يتابعه الثقات عليه، وهو **ضعيف جداً**».
وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (٢١٠) من **مرسل** أبي قلابة، وأوله: «**البر لا يبلى، والإثم لا ينسى...**».
وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٤٢)، والمروزي في «زوائد زهد ابن المبارك» (١١٥٥) عن أبي الدرداء قوله، **وإسناده منقطع**.
وأخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم والعمل» رقم (١٦٤) بسنده إلى مالك بن دينار قال: «مكتوب في التوراة: كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد».
وإسناده ضعيف، فيه الحكم بن سنان، وسويد بن سعيد، وهما ضعيفان، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (١٥٧٦، ٤١٢٤، ٤٥١٠).

(٢) انظر: «فتح البيان في مقاصد القرآن» للقنوجي (١/ ٣٨، ط. دار الكتب العلمية)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٧٠ ـ ٤٧١) قاعدة مهمة في معنى (اليوم) و(النهار) في كلام الشارع، فانظره فإنه نفيس.

قال المحقق القنوجي في «فتح البيان» في تفسير آية آل عمران [٢٥]: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

«هو رد عليهم وإبطال لما غرهم من الأكاذيب باستعظام ما سيقع لهم وتهويل لما يحيق بهم من الأهوال؛ أي فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم الجزاء الذي لا يرتاب مرتاب في وقوعه فإنهم يقعون لا محالة فيه ويعجزون عن دفعه بالحيل والأكاذيب»[١].

وقال (ج): «المعنى لما يحدث في يوم ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما كسبت من خير وشر على حذف المضاف، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة سيئة ولا نقص حسنة من أعمالهم، والمراد: كل الناس المدلول عليهم بكل نفس»[٢].

وقال (ك) في تفسير آية سورة النور [٢٥]: «وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ قال ابن عباس: ﴿دِينَهُمُ﴾؛ أي: حسابهم» وكل ما في القرآن دينهم أي: حسابهم، وكذا قال غير واحد، ثم إن قراءة الجمهور بنصب ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع[٣] على أنه نعت لاسم الجلالة، وقرأها بعض السلف في مصحف أُبي بن كعب[٤]: «يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ الحقُّ دِينَهُمُ»، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: وعده ووعيده، وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه»[٥]. اهـ.

قال (ك) في تفسير آية سورة غافر: «وقوله جلت عظمته: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ

---

(١) انظر: «فتح البيان» (١/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).

(٢) ليس المذكور كلام ابن جرير الطبري المرموز إليه بـ(ج)! بل هو كلام الشوكاني رحمه الله بتصرف. انظر: «فتح القدير» (١/ ٥٤٦، ط. دار الوفاء).

(٣) وقرأ بها هكذا غير مجاهد: ابن عباس وأبو روق وأبو حيوة وأبو الجوزاء وحميد بن قيس والأعمش. انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٤٤١)، «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٢٠)، «الكشاف» (٢/ ٣٨٠)، «معاني القرآن» للزجاج (٨/ ٣٧)، «إعراب النحاس» (٢/ ٤٣٦)، «الدر المصون» (٥/ ٢١٥).

(٤) وهكذا قرأ ابن مسعود، وكذا رآها جرير بن حازم في مصحف أبيّ، وذكر ابن خالويه أنها قراءة النبي ﷺ، وذكرها ابن عطية رواية عنه. انظر: «إعراب النحاس» (٢/ ٤٣٧)، «مختصر ابن خالويه» (١٠١)، «المحرر الوجيز» (١٠/ ٤٧٤)، «تفسير القرطبي» (١٢/ ٢١٠).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٢٠٢).

نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧]؛ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة»[١]. اهـ.

العرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب

قال تعالى في سورة الانشقاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٦ ـ ٩] إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٥]، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٨، ٤٩]

قال (ك): «وقوله تعالى[٢]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: إنك[٣] ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، ويشهد لذلك ما رواه أبو داود الطيالسي[٤] بسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال جبريل: يا محمد! عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»**. ومن الناس من يعيد الضمير

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢/ ١٨٠).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «تعالى».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «إنك».

(٤) أخرجه الطيالسي (١٨٦٢، ط. هجر)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٤٠)، وأبو الشيخ في «طبقات أصبهان» (٢/ ٢٦٢) من طريق الحسن بن أبي جعفر عن أبي الزبير عن جابر، **وإسناده ضعيف**، فيه عنعنة أبي الزبير، وضعف الحسن بن أبي جعفر.
وله **شاهد** من حديث سهل بن سعد، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٨)، والحاكم (٤/ ٣٢٥)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٤٣٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٤١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٠٩، ١١٠)، والحديث في «السلسلة الصحيحة» (٨٣١).

على قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ أي: فملاق ربك، ومعناه: فيجازيك بعملك، ويكافئك على سعيك، وعلى هذا فكلا القولين متلازم، قال العوفي عن ابن عباس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ يقول: تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً، ثم قال تعالى[(١)]: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾ أي: سهلاً بلا تعسير، أي: لا يحقق[(٢)] عليه جميع دقائق أعماله، فإن من حوسب كذلك هلك[(٣)] لا محالة، وروى (أحم، و، ت، ن، ج): عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من نوقش الحساب عُذب**» قالت: فقلت: أفليس[(٤)] قال الله تعالى[(٥)]: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؟ قال: «**ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عُذب**»[(٦)].

وروى الإمام أحمد[(٧)] بسنده عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «**اللهم حاسبني حساباً يسيراً**» فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: «**أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحساب يا عائشة يومئذٍ هلك**»[(٨)] صحيح على شرط مسلم.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ أي: ويرجع إلى أهله في الجنة، قاله قتادة والضحاك: ﴿مَسْرُورًا﴾ أي: فرحاً[(٩)] مغتبطاً بما أعطاه الله ﷻ. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ أي: بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ أي: خساراً وهلاكاً ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ أي: فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «تعالى».
(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا تحقق». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يهلكُ».
(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أليس».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «تعالى».
(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٤٧)، والبخاري (٤٩٣٩، ٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦)، والترمذي (٢٤٢٦، ٣٣٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٥٩) ـ وهو في «التفسير» (٩٧٩) ـ، وابن جرير (٣٠/ ١١٦) وغيرهم.
(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «قال الإمامُ أحمد: ...».
(٨) أخرجه أحمد (٦/ ٤٨)، والطبراني في «الأوسط» (٣٦٦٢)، وابن خزيمة (٨٤٩)، وابن حبان (٧٣٧٢)، والطبري (٣٠/ ١١٥)، والحاكم (١/ ٥٧، ٢٥٥ و٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠، ٥٧٩ ـ ٥٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢٧٠)، والحديث **صحيح**.
(٩) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «فرحان».

أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته. قاله[١] ابن عباس وقتادة وغيرهما، والحور: هو الرجوع، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾؛ يعني: بل سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه كان[٢] بصيراً، أي: عليماً خبيراً[٣].

فصل

قال محمد تقي الدين: سؤال النبي ﷺ ربه ﷻ: «**أن يحاسبه حساباً يسيراً**» تعبد وتذلل لله تعالى؛ لأن العبودية أشرف المقامات ولذلك يسمي الله سبحانه نبيه وحبيبه وخليله محمداً ﷺ عندما يذكره في أشرف المقامات «عبداً» كما قال تعالى في سورة البقرة الآية [٢٣]: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وقال تعالى في أول سورة الإسـراء [١]: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾، وقال تعالى في سورة النجم [١٠]: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾، وقال تعالى في سورة الجن [١٩]: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾، وقال النبي ﷺ في دعائه: «**اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك...**»[٤]

---

(١) كذا في مطبوع «تفسير ابن كثير»، وفي الأصل: «قال».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «كان به».

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٢٩٢ ـ ٢٩٥).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١ و٤٥٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧) في «مسنديهما»، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩) من طريق فضيل بن مرزوق، أخبرنا أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه عن ابن مسعود به.
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، إنْ سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، فإنه مختلف في سماعه من أبيه».
قلت: سماعه من أبيه أثبته غير واحد من الأئمة، منهم سفيان الثوري وابن معين والبخاري وأبو حاتم.
وقد وقع خلاف في أبي سلمة هذا، حقق أمره شيخنا محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩) فراجعه فإنه هام.
ورواه البزار (٣١٢٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٢) من طريق =

الحديث. وفي ذلك الدعاء أيضاً تعليم لأمته، وإلا فهو مقطوع له بأعلى درجات الجنة، لقوله تعالى في سورة الإسراء الآية [٧٩]: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾، و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة، روى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة**»[(١)]. فقد ثبت بالآية والحديث أن المقام المحمود أعلى الدرجات، وقد وعد الله خير خلقه محمداً ﷺ ذلك المقام. والله لا يخلف الميعاد، ومع ذلك سأل الله تعالى أن يجعل حسابه يسيراً تعبداً وشرع ذلك لأمته دعاءً، والتجانيون لا يمكنهم أن يسألوا الله تعالى أن يحاسبهم حساباً يسيراً، لأنهم زعموا أن النبي ﷺ ضمن لشيخهم أنهم لا يحاسبون أصلاً لا حساباً يسيراً ولا حساباً عسيراً، بل يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، هم وأولادهم وأزواجهم ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، وبلغوا من المعاصي ما بلغوا. انظر كتابي: «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية»[(٢)].

قال (ك): «قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ يحتمل أنهم يقومون بين يدي الله تعالى صفاً أو صفوفاً[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال سبحانه[(٤)]: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن، وقوله تعالى[(٥)]: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير[(٦)] والصغير والكبير ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلنا

= عبد الرحمٰن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمٰن عن ابن مسعود.
وفي عبد الرحمٰن بن إسحاق وهو الواسطي، وهو ضعيف ثم هو منقطع.

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الصلاة، باب الدعاء عندَ النِّداء (٦١٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر منه (ص٨٣٠ وما بعد).

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً».

(٤) في مطبوع «تفسير ابن كثير» زيادة: «مخاطباً لهم».

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «تعالى».

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير» زيادة: «والفتيل والقطمير».

على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا أحصاه وضبطه وحفظه[1]، وروى الطبراني بإسناده إلى سعد بن جنادة: قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء. فقال النبي ﷺ: **«اجمعوا: من وجد عوداً فليأتِ به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به»**. قال[2]: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً، فقال النبي ﷺ: **«أترون هذا؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فَلْيَتَّقِ اللهَ رجل، ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة[3]»**[4].

وقوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي: من خير[5] وشر، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١٣] وقوله تعالى[6]: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً[7] ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو[8] ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، وعن شعبة عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة»**[9][10].

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ولا كبيراً ولا عملاً وإن صَغُرَ إلا أحصاها، أي: ضبطها وحفظها».

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «قال». (٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «محصاةٌ عليه».

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٤٨٥)، وهو **ضعيف**.

(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أو». (٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «تعالى».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «جميعها». (٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير» بدون: «يعفو».

(٩) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٧٢)، ويحيى بن معين في «التاريخ» (٤/رقم ٤٢٤٦)، والبزار في «مسنده» (٢/رقم ٣٨٧)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٢٨٥)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٤٩)، والدارقطني في «العلل» (٣/ ٦٤).

والحديث صحيح، وأخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لتؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشّاة القرناء»**.

(ملاحظة): قول المصنف: «وعن شعبة عن عثمان»، ليس بدقيق! فالحديث من طريق شعبة عن العَوّام بن مزاحم من بني قيس بن ثعلبة عن أبي عثمان النهدي عن عثمان رفعه، قال ابن عدي بعد إيراده الحديث: «قال لنا ابنُ صاعد: وليس هذا من حديث عثمان عن النبي ﷺ، إنما رواه أبو عثمان عن سلمان من قوله».

(١٠) انظر: «تفسير ابن كثير» (٩/ ١٥٠ ـ ١٥٢) بتصرف.

صفة حوض النبي ﷺ

قال شارح «الطحاوية» ما نصه: «الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، تغمده الله برحمته، في آخر تاريخه الكبير، المسمى بـ «البداية والنهاية»[(١)]، فمنها: ما رواه البخاري عن أنس بن مالك[(٢)] أن رسول الله ﷺ قال: **«إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»**[(٣)]. وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: **«ليردن عَليَّ ناس من أصحابي، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»** رواه مسلم[(٤)]، وروى الإمام أحمد[(٥)] عن أنس بن مالك قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً، إما قال لهم، وَإما قالوا له: لِمَ ضحكتَ؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إنه أنزلت عَليَّ آنفاً سورة»**، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] حتى ختمها، ثم قال لهم: **«هل تدرون ما الكوثر؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هو نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته**

---

(١) انظر: «نهاية البداية والنهاية» ـ وهو «الفتن والملاحم» (٢/ ٥ ـ ٣، ط. إسماعيل الأنصاري) ـ، وقد نص على تواتر أحاديث الحوض جماعة من العلماء منهم: ابن عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٣٠٩)، والقاضي عياض في «إكمال المعلم» (٧/ ٢٦٠)، والنووي في «شرح صحيح مسلم» (١٥/ ٥٣). وقال ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٩٥): «وبلغني أن بعض المتأخرين أوصلها إلى رواية ثمانين من الصحابة»، وذكرها السيوطي في «قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة» (٢٩٧ ـ ٣٠٠)، والكتاني في «نظم المتناثر» (ص١٥٢)، ولبقي بن مخلد جزء مطبوع بعنوان «ما روي في الحوض والكوثر» ولابن بشكوال «الذيل على جزء بقي بن مخلد في الحوض والكوثر» مطبوع مع جزء بقي، ولمحققه مستدرك عليهما، وللبيهقي في «البعث والنشور» عناية قوية لأحاديث الحوض، وانظر: «السنة» لابن أبي عاصم (٢/ ٣٦٠).

(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «رضي الله عنه».

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٥٨٠)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٣٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٣٠٤) من حديث أنس بن مالك.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٢)، وهو في «صحيح مسلم» كما سيأتي.

عدد الكواكب، يُختلج العبد منهم، فأقول: يا رب، إنه من أمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»، ورواه مسلم[١] ولفظه: «**هو نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة**»، والباقي مثله، ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض في العرصات[٢] قبل الصراط؛ لأنه يختلج عنه، يمنع[٣] منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط.

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أنا فرطكم على الحوض**»[٤]، والفَرَط: الذي يسبق إلى الماء. وروى البخاري[٥] عن سهل بن سعد الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني فرطكم على الحوض، من مر عَلَيَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن عَلَيَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم**» قال أبو حازم: «فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم. فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري، سمعته وهو يزيد: «**فأقول: إنهم من أمتي، فيقال**[٦]: **إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي**» سُحقاً: أي بُعداً[٧]، والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: إنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك[٨]، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر[٩]،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب حجةُ من قال: البسملة آية مِن أول كل سورة، سوى براءة، برقم (٤٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «والحوضُ في العرصات».
(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «ويمنع».
(٤) أخرجه البخاريّ في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٥٨٩)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٨٩) من حديث جُندب بن جُنادة.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٥٨٣) من حديث سهل بن سعد.
(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «فقال».
(٧) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٦٥٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٨) ورد ذلك في حديث ثوبان، وخرجته مطولاً في «المجالسة» (٢٠٣٣) وتعليقي على «الأقوال القويمة» للبقاعي.
(٩) ثبت ذلك في حديث عبد الله بن عمرو، أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

وفي بعض الأحاديث: «إنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع، وإنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر»[١]، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء، وقد ورد في أحاديث[٢] أن لكل نبي حوضاً، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً»»[٣].

المرور على الصراط

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

قال صاحب «تيسير العلي القدير في اختصار ابن كثير» ما نَصُّه: «روى الإمام أحمد[٤] عن أبي سُمَيَّة قال: «اختلفنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورود، فقال: يردونها جميعاً»، وقال سليمان مرة[٥]: «يدخلونها جميعاً ـ وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه ـ وقال: صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن**

(١) ورد في حديث أسامة بن زيد في الحوض: «وعرصته ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ»، أخرجه أبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» (رقم ٢٥٢ ـ بمراجعتي)، والطبراني في «الكبير» (٣/ ١٦٦)، وبقي بن مخلد في «جزء ما روي في الحوض والكوثر» رقم (٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٣٤)، والطبراني (٦٨٨١)، وفي «مسند الشاميين» (٢٦٤٧)، وأبو القاسم التيمي في «الحجة» (٢٩٣) عن سعيد بن بشير عن قتادة الحسن عن سمرة رفعه، والحديث **صحيح بشواهده**. انظر: «الصحيحة» (١٥٨٩) وقال ابن كثير في «النهاية» بعد كلام: «وقد أنهى شيخنا الحافظ المزي بصحة هذا الحديث بهذه الطرق».

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (٢٥٠ ـ ٢٥٢).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩)، وعبد بن حميد (١١٠٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» ـ بواسطة «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٣٨٥) وسقط من مطبوع «التاريخ» ـ، والحاكم (٤/ ٥٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (٣٧٠)، **وإسناده ضعيف**، لجهالة أبي سمية، وسقط من إسناد الحاكم (جابر)، وهو مثبت فيه كما في «إتحاف المهرة» (٣/ ٢٢٦)، والحديث عنده من طريق آخر فيه (مُسَّة) ـ وتحرف في مطبوع «المستدرك» إلى «منية» ـ وهي مجهولة، لم يرو عنها غير كثير بن زياد.

(٥) في الأصل: «سليمان بن مرة»! وهو خطأ، والصواب حذف (ابن)، وسليمان هذا هو شيخ الإمام أحمد في الحديث، وهو سليمان بن حرب.

برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً».

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: «**يرد الناس كلهم [ثم]**(١) **يصدرون عنها بأعمالهم**»(٢)، ورواه الترمذي. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم**»(٤)، وقال السدي عن مرة عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، قال: قسماً واجباً، وقال مجاهد: حتماً، قال: قضاء، وكذا قال ابن جريج(٥).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [مريم: ٧٢] أي: إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي [بحسبهم](٦)، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارة(٧) وجوههم وهو مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه

---

(١) من «مسند أحمد»، و«تيسير العلي القدير»، وسقطت من الأصل.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٣ ـ ٤٣٥)، والترمذيُّ في كتاب التفسير، باب من سورة مريم حديث (٣١٦٠)، والطبري (١٦/ ١١٠، ١١١) موقوفاً ومرفوعاً، وقال الدارقطني في «العلل» (٥/ ٢٧٣): «يحتمل أن يكون مرفوعاً»، وإسناد المرفوع **حسن**.

(٣) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «رضي الله عنه».

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ حديث (٦٦٥٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل مَن يموت له ولد فيحتسبه حديث (٢٦٣٢) من حديث أبي هريرة.

(٥) انظر: «الدر المنثور» (١٠/ ١٢٣)، و«تالي تلخيص المتشابه» (١٤٤)، و«التخويف من النار» لابن رجب وتعليقي عليهما.

(٦) من مطبوع «تيسير العلي القدير»، وسقط من الأصل.

(٧) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «دارات».

حتى أنهم يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان[١]، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة[٢] عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢]»[٣].

قال شارح «الطحاوية»: «وقوله: والصراط، أي: ونؤمن بالصراط، وهو جسر على جهنم، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة[٤]: إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناسُ يوم تبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات؟ فقال: **«هم في الظلمة دون الجسر»**[٥]، وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم. وروى البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: **«يجمع الله الناس يوم القيامة»** إلى أن قال: **«فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدم قدمه وإذا طفئ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف، دَحْضٌ، مَزِلة فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يَرمُلُ رَمْلاً فيمُرّونَ على**

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير» بعدها: «ثم يخرج الله من النار مَن قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله، ولم يعمل خيراً قط».

(٢) انظرها في كتاب «إثبات الشفاعة» للإمام الذهبي (ص٢٢ وما بعدها)، وللشيخ مقبل الوادعي رحمه الله «الشفاعة»، وللدكتور ناصر الجديع «الشفاعة عند أهل السنة والرد على المخالفين فيها»، وللشيخ سعود الشريم «المراجعات حول إنكار مصطفى محمود لأحاديث الشفاعات»، وللشيخ أبي الوفاء محمد درويش «قل لله الشفاعة جميعاً» وجميعها مطبوعة، وفي الباب كثير غيرها.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ١١٨ ـ ١١٩).

(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «رضي الله عنها».

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الحيض، باب بيان صفة منيّ الرجل والمرأة وأن الولد مخلوقٌ من مائهما (٣١٥) من حديث ثوبان مولى النبي ﷺ، ولم يرد فيه ذكر لعائشة.

قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخرُّ يدٌ، وتعلقُ يدٌ، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، ثم يخلصون[١] فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نَجَّانا منكِ بعد أن أرناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد»[٢]، الحديث واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ الآية من سورة مريم: ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط[٣]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ الآية [٧٢] من سورة مريم، وفي «الصحيح»[٤] أنه ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة**» قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ الآية [٧١] من سورة مريم، فقال: «**ألم تسمعيه قال:** ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾» الآية [٧٢] من سورة مريم.

أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨]، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ [هود: ٦٦]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤]، ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة؛ لأصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً، فقد بيّن ﷺ في حديث جابر المذكور: أن الورود هو الورود على الصراط. وروى الحافظ أبو نصر الوائلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**عَلِّم الناس سُنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخُل**

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «فيخلصون».

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧ و٤/ ٥٩٠، ٥٩٢)، والطبراني (٩٧٦٣)، والبيهقي في «البعث والنشور»، والحديث **صحيح**، وله شواهد في «الصحيحين» وغيرهما. انظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٠ ـ ٣٤٣)، «الدر المنثور» (٤/ ٢٨٠ ـ ٢٨٢).

(٣) انظر: «أضواء البيان» (٤/ ٣٤٩).

(٤) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر.

الجنة؛ فلا تُحْدِثَنَّ في دين الله حدثاً برأيك»[(١)](٢).

فصل

قال محمد تقي الدين: لو كان أهل الرأي يعقلون لكان لهم في هذا الحديث ردع وزجر عن اتباع الرأي ومخالفة السنة في الفروع والأصول. فأي عاقل يقبل على عقيدة أو عمل أو ترك سنة يكون له سبباً في أن يوقف على الصراط، ولو لم يسقط في النار؟! فسبحان من طبع على قلوبهم، وأعمى أبصارهم، لكن ابن الجوزي قال في هذا الحديث: «إنه موضوع»(٣)، لكن معناه صحيح.

الإيمان بالميزان

قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]

قال صاحب «تيسير» العلي القدير في اختصار ابن كثير» ما نصُّه: «وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾: أي: نضع الموازين العدل ليوم القيامة، والميزان واحد إنما جمع لتعدد الأعمال الموزونة فيه، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ(٤) وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) عزاه القرطبي في «التذكرة» (ص٣٣٦ ـ ٣٣٧) إلى أبي وائل في «الإبانة»، وأورد إسناده وفيه أبو همام محمد بن مجيب القرشي، قال ابن معين: كذاب، وقال أبو حاتم: ذاهب الحديث. وأخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٨٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٦٤) وفي إسناده محمد بن عبد الرحيم بن شبيب مجهول، **فالحديث واهٍ بمرة**، ومن أراد تفصيل ذلك فليراجع «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» لشيخنا الألباني برقم (٢٦٥)، و«زوائد تاريخ بغداد» (٤/ ٦٢٧).

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٦٩ ـ ٤٧٢).

(٣) انظر: «الموضوعات» (١/ ٢٦٤).

(٤) في الأصل: «ولا يظلم مثقال...»!



«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[١]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ﷻ يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، قال: أفلك عذر أو حسنة قال: فَبُهِتَ الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقته**[٢] **فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيء مع ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»**[٣]، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد، وقال الترمذي: حسن غريب»[٤].

قال محمد تقي الدين: وقد ذكر الله تعالى وزن أعمال العباد في مواضع كثيرة من كتابه العزيز كما في سورة الأعراف وسورة المؤمنين وسورة القارعة، وثبتت عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في وزن الأعمال، ومن استبعد وزن الأعمال من سفهاء المتفلسفة، وقال: إنها معانٍ، والمعاني لا توصف بالخفة والثقل ولا توضع في الميزان، فهو من الجهال الواقعين في أسر العادات والمألوفات الذين يقيسون عالم الغيب على عالم الشهادة، وأمور الآخرة على أمور الدنيا، وهؤلاء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٦٤٠٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بطاقة».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٧١)، وابن حبان (٢٢٥)، والحاكم (١/ ٩، ٥٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٣)، **وإسناده جيد.**

وقول المصنف الآتي: «ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد» **يفهم** أنه غير طريق أحمد، وليس كذلك، فقد أخرجه المذكورون جميعاً وغيرهم من طريق الليث بن سعد حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمٰن الحُبُلي ـ وسقطت كلمة (أبي) من «الزهد»! ـ قال: سمعت عبد الله بن عمرو به.

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ١٧٠ ـ ١٧١).

سفهاء لا يعقلون، فإن استحالة المأكولات والمشروبات المختلفة الأنواع في معدة الإنسان إلى لحم ودم وعصب وعظام وتعويضها ما فقده الجسم من ذلك لهو أعجب بكثير من وزن الأعمال. انظر: «شرح الطحاوية»»[١].

الإيمان بالجنة والنار وفيه مباحث

*** المبحث الأول: في إثبات أنهما موجودتان الآن، والرد على من خالف في ذلك.**

قال الحافظ ابن القيم في «حادي الأرواح» ما نصه: (الباب الأول: في بيان وجود الجنة الآن):

«لم يزل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة وفقهاء الإسلام وأهل التصوف[٢] وبما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، فإنهم دعوا الأمم إليها، وأخبروا بها إلى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن (تكونا الآن مخلوقتين)[٣]، وقالت: بل الله ينشئهما يوم القيامة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة فيما يفعله الله، وأنه ينبغي له أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعالهم[٤] فهم مشبَّهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات. وقالوا: خَلْقُ الجنة قبل الجزاء عبث؛ فإنها تصير معطلة مدداً متطاولة ليس فيها سكانها، قالوا[٥]: ومن المعلوم أن ملكاً لو اتخذ

---

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٧٣ ـ ٤٧٥)، وقد أفرد جمع (الميزان) بالتصنيف، جمعوا فيها الآيات والأحاديث والآثار، منهم: ابن ناصر الدين (ت٨٤٢هـ) في «منهاج السلامة في ميزان يوم القيامة»، والسخاوي (ت٩٠٢) في «تحرير المقال والبيان في الكلام على الميزان»، وابن كمال باشا (ت٩٤٠) في «الميزان في الحشر»، ومرعي الكرمي (ت١٠٣٣هـ) في «تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان» وكلها مطبوعة، وحققت الأخير منها، والحمد لله.

(٢) في مطبوع «حادي الأرواح» زيادة: «والزهد على اعتقاد ذلك، وإثباته مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة، وما».

(٣) في مطبوع «حادي الأرواح»: «أن تكون مخلوقة الآن».

(٤) كذا في مطبوع «حادي الأرواح»، وفي الأصل: «أفعال الله».

(٥) في مطبوع «حادي الأرواح»: «وقالوا».

داراً وأعد فيها ألوان الأطعمة والآلات والمصالح وعَطَّلها من النَّاسِ، ولم يمكنهم من دخولها قروناً متطاولة لم يكن ما فعله واقعاً على وجه الحكمة، ووجد العقلاءُ سبيلاً إلى الاعتراض عليه، فحجروا على الرب تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة، وشبهوا أفعاله بأفعالهم، وردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب أو حرفوها عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالفهم فيها، والتزموا لها[١] لوازم أضحكوا عليهم فيها العقلاء، ولهذا يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان، ويذكر من صَنَّف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون فيها»[٢].

ثم نقل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كتابه: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» ـ وقد طبع[٣] هذا الكتاب أكثر من مرة، نقل كلاماً كثيراً في الصفات مطابقاً لعقيدة الصحابة والتابعين ومبطلاً لعقيدة الأشعرية المتأخرين، نفاة الصفات المعطلين ولم أنقل كلامه اكتفاء بما نقلته فيما مضى من هذا الكتاب بواسطة الحافظ ابن القيم من كتاب «الإبانة» لأبي الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واقتصرت من ذلك على ما يأتي «ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان».

ثم عقد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (سبعة أبواب) في (الخصومات بين الطوائف في جنة الخلد هل هي التي كان فيها آدم وحواء؟ أم هي جنة أخرى؟) وهذا الكتاب كتاب وعظ لا تناسبه الخصومات، لأنه يقرأ على العامة وطلبة العلم جميعاً، والخصومات تفسد الوعظ وتشوش الأفكار.

* **المبحث الثاني: في رد شبهة من احتج بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾** [القصص: ٨٨].

قال الذين قلّ نصيبهم من فهم الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح: لو كانت الجنة والنار موجودتين الآن؛ لفنيتا عندما يفنى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [٨٨] آخر سورة القصص ـ وقد أجاب الإمام ابن

---

(١) في مطبوع «حادي الأرواح»: «فيها».

(٢) انظر: «حادي الأرواح» (٣٨ و٣٩، ط. دار ابن كثير).

(٣) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، وقبلها بتصحيح هلموت ريتر، وانظر منه (١/ ٢٢٩، ط. محمد محيي الدين عبد الحميد) فيما يخص أن الجنة والنار مخلوقتان.

القيم رَحِمَهُ اللهُ عن ذلك بما نصه: «وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فإنما أوتيتم من عدم فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما، فلا أنتم وفّقتم لفهم معناها ولا إخوانكم، وإنما وفّق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام، ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية: قال البخاري في «صحيحه»: «يقال: كل شيء هالك إلا وجهه: إلا ملكه، ويقال: إلا ما أُريد به وجهه»[1]، وقال الإمام أحمد[2] في رواية ابنه عبد الله: فأما السماء والأرض فقد زالتا؛ لأن أهلهما صاروا إلى الجنة أو إلى النار، وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب؛ لأنه سقف الجنة والله ﷻ عليه فلا يهلك ولا يبيد، وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فذلك أن الله ﷻ أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمٰن: ٢٦] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى[3] عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ[4] هَالِكٌ﴾ يعني: ميت ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت»[5].

ثم قال عن الإمام أحمد ـ وهو قول أهل السنة جميعاً ـ: «وقد خُلِقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها، خلقهما الله ﷻ وخلق الخلق لهما ولا تفنيان[6] ولا يفنى ما فيهما أبداً. فإن احتج مبتدع أو زنديق بقولِ الله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وبنحو هذا من متشابه القرآن، قيل له: كل

---

(١) في «صحيح البخاري» كتاب التفسير، باب سورة القصص قبل رقم (٤٧٧٢) وفيه: «وجه الله».

(٢) المذكور بحروفه في كتابه «الرد على الزنادقة والجهمية» (ص٣٢٧ ـ ٣٢٨، ط. غراس).

(٣) في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «فأنزل الله مخبراً».

(٤) بعدها في مطبوع «الرد على الزنادقة والجهمية»: «يعني من الحيوان».

(٥) انتهى كلام الإمام أحمد، وما سبق من كلام ابن القيم في كتاب «حادي الأرواح» (٧٨ ـ ٧٩)، وللإمام أحمد في «رسالة الإصطخري» كلام بنحوه، أورده ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٨، ط. القديمة و١/ ٦٠، ط. العثيمين) وبنحوه في «السنة» (ص٤٧ ـ ضمن «شذرات البلاتين»)، وانظر: «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة» (٢/ ٢٢٥).

(٦) في مطبوع «حادي الأرواح»: «ولا يفنيان».

شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا والحور العين لا يَمُتْنَ عند قيام الساعة ولا عند النفخة ولا يمتن[1] أبداً؛ لأن الله ﷻ خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل»[2].

* **المبحث الثالث: في ذكر شيء من الأدلة التي تثبت عقيدة أهل السنة.**

«**البرهان الأول:** حديث البراء بن عازب الطويل المتقدم، وفيه «**فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوهُ من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها**» وذكر الحديث[3].

الثاني: قال ابن القيم: «وقد دل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥] وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ورأى عندها جنة[4] المأوى كما في «الصحيحين» من حديث أنس[5] في قصة الإسراء وفي آخره: «**ثم انطلق بي جبريلُ، حتى انتهى[6] إلى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ قاله: ثم دخلتُ الجنة، فإذا فيها جنابذُ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك**»[7]»[8].

قال ابن الأثير في «النهاية» ما نصه: «في صفة الجنة «**فيها جنابذ من لؤلؤ**» الجنابذ جمع جنبذة وهي القبة»»[9].

الثالث: ثم قال ابن القيم: وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي،**

---

(١) في مطبوع «حادي الأرواح» بدون: «يمتن».
(٢) انظر: «حادي الأرواح» (٧٩ ـ ٨٠). (٣) سبق تخريجه.
(٤) في مطبوع «حادي الأرواح»: «الجنة».
(٥) في مطبوع «حادي الأرواح»: «أنس بن مالك».
(٦) في مطبوع «حادي الأرواح»: «أتى».
(٧) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام برقم (٣٣٤٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات برقم (١٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٨) انظر: «حادي الأرواح» (٤٣ ـ ٤٤).
(٩) «النهاية» لابن الأثير (١/ ٣٠٥) حرف الجيم: (باب الجيم مع النون).

إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى[١] يوم القيامة»[٢].

الرابع: وفي «صحيح مسلم» عن عائشة قالت: خَسَفَتِ الشمسُ في حياة رسول الله ﷺ. . .، فذكر الحديث إلى أن قالت: ثم قام فخطب الناس، فأثنى على الله بما هو أهلُه، ثم قال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة**» وقال رسول الله ﷺ: «**رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به**[٣]، **حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة، حين رأيتموني تقدمت**[٤]، **ولقد رأيت جهنم يَحْطِمُ بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت**»[٥].

الخامس: وفي «صحيح البخاري» عن أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ في صلاة الخسوف[٦] قال: «**قد دَنَتْ مني الجنة؛ حتى ولو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها، ودنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم؟ فإذا امرأة** ـ حَسِبتُ أنه قال: **تخدشها هرَّةٌ ـ قلتُ: ما شأن هذا؟ قالوا: حَبَسَتْها حتى ماتت جُوعاً لا أطْعَمْتها ولا أرسلتها تأكل**[٧] **من خشاش الأرض**»[٨]»[٩].

الاختلاف في فناء النار بين أهل السنة:

ذكر شارح «الطحاوية» رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة ثمانية أقوال: ستة منها خارجة عن عقيدة أهل السنة، فلم أشأ أن أطيل بذكرها، والسابع والثامن كل واحد منهما أخذ به جماعة من أهل السنة، وهذا نص كلامه:

---

(١) في مطبوع «حادي الأرواح» بدون: «تعالى».
(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز، باب الميت يُعرضُ عليه مقعده بالغداةِ والعَشي (١٣٧٩)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه برقم (٢٨٦٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٣) في مطبوع «حادي الأرواح» بدون: «به».
(٤) في مطبوع «حادي الأرواح»: «أُقَدِّمُ».
(٥) أخرجه مسلم (٩٠١) في الكسوف، باب صلاة الكسوف إذا خسفت الشمس.
(٦) في مطبوع «حادي الأرواح»: «الكسوف».
(٧) في مطبوع «حادي الأرواح»: «تأكل» بدون الزيادة الباقية.
(٨) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير (٧٤٥).
(٩) انظر: «حادي الأرواح» (٤٤ ـ ٤٧).

«**السابع**: إن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئاً، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه. **الثامن**: إن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ (يعني الطحاوي) رَحِمَهُ اللَّهُ، وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان.

هذان[1] القولان لأهل السنة ينظر في أدلتهما ـ فمن أدلة القول الأول منهما، قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الآية [١٢٨] من سورة الأنعام. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ الآية [١٠٦، ١٠٧] من سورة هود. ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ الآية [١٠٨] من سورة هود. وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ الآية [٢٣] من سورة النبأ. وهذا القول ـ أعني القول بفناء النار دون الجنة ـ منقول عن عمر، وابن مسعود وأبي هريرة، أبي سعيد، وغيرهم. وقد روى عبد بن حميد في «تفسيره» المشهور، بسنده إلى عمر[2]، أنه قال: «ولو[3] لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج[4]، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه»[5] ذكر ذلك في تفسير قوله

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «وهذان». (٢) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية» من غير: «و».

(٤) هو رمل كثير جداً مسيرة أربع ليال، بين قيد والقريات.

(٥) **أثر عمر لا يصح**، لأن إسناد عبد بن حميد: «عن الحسن عن عمر»، وهذا منقطع، قال العلامة الصنعاني في رسالته: «رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» (ص٦٥) عقب أثر عمر: «وأقول فيه شيئان: **الأول**: من حيث الرواية، فإنه منقطع...» وطول في ذلك، ثم قال: «**والثاني**: من حيث الدراية؛ فإنه لو ثبت صحته عن عمر لم يدل على المدَّعى، فإن أصل المدَّعى هو: فناء النار، وأن لها مدة تنتهي إليها، وليس في أثر عمر هذا إلا أنه يخرج أهل النار من النار، والخروج لا يكون إلا وهي باقية» وحكم شيخنا الألباني بانقطاعه، وبضعف جميع الآثار المومئ إليها عند المصنف (عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد)، انظر تخريجها مع بيان ضعفها في: «الاستنفار لمحق القول بفناء النار وتبرئة الصحابة الأبرار والسلف الأطهار من افتراء صاحب الإنكار» لسليمان البهيجي (ص٤٥ ـ ٥٠، ١٠٧ ـ ١١٩)، وما سبق عند المصنف من «حادي الأرواح» (٤٩١).

وانظر في نصرة عدم القول بالفناء وتبرئة ابن تيمية وابن القيم منه: «حادي الأرواح» =

تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ۝٢٣﴾ الآية [٢٣] من سورة النبأ. قالوا: والنار موجَب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد قال ﷺ: «**لما قضى الله الخلق، كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش: أن رحمتي سبقت غضبي**»(١)، وفي رواية: «**تغلب غضبي**»(٢). رواه البخاريُّ في «صحيحه» من حديث أبي هريرة، قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه كان ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ الآية [١٥] من سورة الأنعام. و﴿أَلِيمٌ﴾ الآية [٢٦] من سورة هود. و﴿عَقِيمٍ﴾ الآية [٥٥] من سورة الحج، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ الآية [٧] من سورة غافر. فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته، وقد ثبت في «الصحيح» تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب، بحسب جرائمهم وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لا نهاية له، وأما أنه يخلق خلقاً ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيماً سرمداً، فمن مقتضى الحكمة، والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام ـ كله حق مُسلَّم، لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، ففرق بين من يخرج من الحبس، وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

= (ص٢٦٠، ط. الثانية)، «النونية» (١/ ٨٢ و٢/ ٣٣٨ ـ مع «شرح ابن عيسى»)، «الوابل الصيب» (ص٢٤ ـ الأرناؤوط)، «جلاء العينين» (ص٤٢٠ ـ ٤٢٤)، «محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٠٣ ـ ٢٥٠٤) للقاسمي، «شرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية»، «توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين» (ص٦٢) ومقدمة المحقق، فهي (مهمة)، و«تنبيه الأخيار على عدم فناء النار» لسليمان العلوان.

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ رقم (٣١٩٤)، ومسلم كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه رقم (٢٧٥١) (١٥) من حديث أبي هريرة.
وهو في «صحيح البخاري» (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤).

(٢) هي في «صحيح البخاري» رقم (٧٤٠٤)، و «صحيح مسلم» (٢٧٥١) (١٤).

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها: قوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ الآية [٤٠] من سورة المائدة ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ الآية [٤٣] من سورة الزخرف، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ الآية [٣٠] من سورة النبأ. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[1] الآية [٨] من سورة البينة، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ الآية [٤٨] من سورة الحجر. ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ الآية [١٦٧] من سورة البقرة. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ الآية [٣٦] من سورة فاطر. ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ الآية [٦٥] من سورة الفرقان. أي: مقيماً لازماً، وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله. وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار من قال: لا إله إلا الله. وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكمٌ مختصٌ بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان، وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما»[2].

قال محمد تقي الدين: لم يصرح شارح «الطحاوية» بترجيح لأحد القولين على الآخر، لكني أفهم من كلامه أنه يميل إلى ترجيح جانب الرحمة على جانب الغضب، وهذا هو الذي يفهم من الحديث الصحيح والظن بالله جميل أنه لا يعاقب على ذنب محدود عقاباً غير محدود، على أن الأدلة التي ذكرها للقائلين بالقول السابع قوية[3]، ومنها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

---

(١) كذا في الأصل، والآية رقم (٨) من (البينة) في ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والآية رقم (٦) منها في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولا يوجد فيها (أبداً)، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾.

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٨٣ ـ ٤٨٦).

(٣) القول الحق في المسألة (الثامن) وهو القول بأن النار لا تفنى أبداً، وحكى غير واحد من العلماء المعتبرين الإجماع عليه، وهذا ما حكاه ابن تيمية في أكثر من كتاب من كتبه، مثل: «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٣٥٨)، و«مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٨٠)، وإليك ـ أخي القارئ ـ طائفة من كلام العلماء في حكاية الإجماع:

قال ابن حزم في «الملل والنحل» (٤/ ٨٣): «اتفقت فرق الأمة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها، إلا جهم بن صفوان».

وقال ـ أيضاً ـ في «مراتب الإجماع» (ص٧٣) ـ وأقره عليه ابن تيمية ـ: «والنار حق، وأنها دار عذاب، لا تفنى ولا يفنى أهلها بلا نهاية». =

الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره كل ذلك من الله تعالى

قال الإمام محمد صديق حسن القنوجي في «فتح البيان» عند قوله تعالى في سورة القمر [٤٩] ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ ما نصه:

«أي: كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه متلبساً بقدر قَدَّره وقضاءٍ قَضَاهُ سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، والقدر التقدير، والعامة على نصب كل بالاشتغال، وقرئ بالرفع، وقد رجح الناس النصب، بل أوجبه

= **وقال عبد القاهر البغدادي** في «الفرق بين الفرق» (ص٣٤٨): «الفصل الثالث في بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنة، ثم ذكر أموراً، وقال: الركن الثاني عشر، وفيه: «وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها، ودوام عذاب النار على المشركين والمنافقين، وقالوا: إن الخلود في النار لا يكون إلا للكفرة».

قال أبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين» (ص١٤٩): «وقال المسلمون كلهم إلا جهماً: إن الله يخلِّد أهل الجنة، ويخلِّد الكفار في النار».

قال ابن أبي زيد القيرواني في «الجامع» (ص١١٠): «فمما أجمعت عليه الأمة من أمور الديانة، ومن السنن التي خلافها بدعة وضلالة، ثم ذكر جملة من العقائد، وقال: وإن الجنة والنار قد خلقتا، أعدت الجنة للمتقين، والنار للكافرين، لا تفنيان ولا تبيدان».

وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٤٦): «والإجماع على التخليد الأبدي في الكفار».

وقال ابن قاسم في «حاشية الدرة المضية» (ص٩٧): «وأجمع أهل السنة والجماعة على أن عذاب الكفار لا ينقطع، كما أن نعيم الجنة لا ينقطع؛ لما دل على ذلك من الكتاب والسنة».

وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٤٢٩): «مَنْ زعم أنهم يخرجون منها، وأنها تبقى خالية أو تفنى، فهو خارج عن مقتضى ما جاء به الرسول ﷺ وأجمع عليه أهل السنة».

وقال القرطبي في «التذكرة» (٢/ ٢٠٥): «وأجمع أهل السنة على أن أهل النار مخلدون فيها غير خارجين منها...».

وقال الآلوسي في «جلاء العينين» (ص٤٢٤): «وأنت تعلم أن خلود الكفار مما أجمع عليه المسلمون، ولا عبرة بالمخالف، والقواطع أكثر من أن تحصى، ولا يقاوم واحدٌ منها كثيراً من هذه الأخبار».

وقال السفاريني في «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٢٣٤) بعدما ساق الآيات والأحاديث الدالة على بقائها: «فثبت بما ذكرنا من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الدارين خلوداً مؤبداً، كل بما هو فيه من نعيم وعذاب أليم، وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة، فأجمعوا أن عذاب الكفار لا ينقطع، كما أن نعيم أهل الجنة لا ينقطع، ودليل ذلك الكتاب والسنة».

بعضهم» قال: «لأن الرفع يوهم ما لا يجوز على قواعد أهل السنة، قال[١] أبو البقاء: وإنما كان النصب أولى لدلالته على عموم الخلق، والرفع لا يدل على عمومه، بل يفيد أن كل شيء مخلوق فهو بقدر[٢] ﴿فَخَلَقْنَا﴾[٣] تأكيد وتفسير لخلقنا المضمر الناصب لكل شيء، فهذا اللفظ[٤] عام يعم جميع المخلوقات، وللسمين هنا كلام مبسوط[٥] لا نطيل بذكره. وأخرج[٦] مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل شيء بقدر حتى العجز والكيس**»[٧] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة**» أخرجه مسلم[٨]. وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر**»[٩]. أخرجه الترمذي واستغربه. وفي الباب أحاديث بين صحيح منها وضعيف. قال الخطابي[١٠]: «وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله العبد وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أكساب العباد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها، والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر، يقال: قدَرتُ الشي وقدَّرته ـ بالتخفيف والتثقيل ـ بمعنى واحد، والقضاء في هذا معناه

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «وقال».

(٢) بعده في مطبوع «فتح البيان»: «وإنما دل نصب كل على العموم؛ لأن التقدير: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾».

(٣) في مطبوع «فتح البيان»: «فخلقناه».

(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «لفظ».

(٥) في تفسيره «الدر المصون» (١٠/١٤٦ ـ ١٤٩).

(٦) في مطبوع «فتح البيان» من غير: «و».

(٧) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب كل شيءٍ بقدر (٢٦٥٥).

(٨) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣).

(٩) تتمته: «**خيره وشره حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه**». أخرجه الترمذي (٢١٤٤)، وابن عدي (٤/١٥٠٤) **بإسناد ضعيف جداً**، فيه عبد الله بن ميمون، وهو متروك الحديث، ولكن للحديث شواهد يصح بها، وانظر: «القدر» للفريابي رقم (٢٠٢ ـ ٢٠٤)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٤٣٩).

(١٠) في «معالم السنن» (٤/٣٢٢ ـ ٣٢٣) بتصرف يسير، وانظر في تقرير هذا المعنى: «الرياض الناضرة» للسعدي (١٢٥ ـ ١٢٦)، «الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة» (ص١١٨ ـ ١٢٤) للدوسري.

الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي: خلقهن»، قال النووي[١]: «إن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: إن الله تعالى قدر الأشياء في القِدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه على[٢] صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها الله. وأنكرت القدرية هذا، وزعمت أنه سبحانه لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها، وأنها مستأنفة العلم ـ أي إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها ـ وكذبوا على الله ﷻ [وجلّ][٣] عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً» انتهى. وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل العقد والحل من السلف والخلف على إثبات قدر الله ﷻ، وقد قرر ذلك أئمة السنة أحسن تقرير بدلائله القطعيّة السمعية والعقلية، ليس هذا موضع بسطه، والله أعلم»[٤].

قال القاسمي في تفسير آيتي النساء: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩] ما نصُّه: «ولما حكى تعالى عن المنافقين كونهم متثاقلين عن الجهاد خائفين من الموت، غير راغبين في سعادة الآخرة، أتبع ذلك بخلة لهم أشنع[٥]، بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ كخصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحوها ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: من قبله لما علم فينا الخير ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ كقحط وجدب، وغلاء السعر، ونقص في الزروع والثمار، وموت أولاد ونتاج، ونحو ذلك: ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ يعنون: من شؤمك، كما قال تعالى في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] وفي قوم صالح ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

قال أبو السعود[٦]: «فأمر النبي ﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم إلى

---

(١) في «شرح صحيح مسلم» (١/٢١٧). (٢) في «شرح النووي»: «وعلى».
(٣) سقطت من الأصل، وأثبتها من «شرح صحيح مسلم».
(٤) انظر: «فتح البيان» (٦/٤٨٩ ـ ٤٩٠).
(٥) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «شفع».
(٦) في تفسيره المسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (٢/٢٠٥).

الحق ويلقمهم الحجر[١] ببيان إسناد الكل إليه تعالى على الإجمال. إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله ﷻ حيث قيل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى، خلقاً وإيجاداً، من غير أن يكون لي مدخل في وقوع شيء منهما[٢] بوجه من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً. ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلي بها عقوبة، كما سيأتي بيانه، فهذا الجواب المجمل في معنى ما قيل، رداً على أسلافهم من قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] أي: إنما سبب خيرهم وشرهم، أو سبب إصابة السيئة التي هي ذنوبهم، عند الله تعالى لا عند غيره حتى يسندوها إليه ويطيروا به»[٣]، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ يعني: المنافقين ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: قولاً، والجملة اعتراضية مسوقة لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم، والتعجب من كمال غباوتهم، إذ لو فقهوا شيئاً لعلموا مما يوعظون به، أن الله هو القابض الباسط، وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والإحسان والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: نعمة ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فمن نعمته وتفضله ابتداء ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ أي: بلية ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: من شؤمها بسبب اقترافها المعاصي الموجبة لها، وإن كانت من حيث الإيجاد منتسبة إليه تعالى، نازلة من عنده عقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠] روى ابن عساكر عن البراء[٤] عن النبي ﷺ قال: «**ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود، إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر**»[٥].

---

(١) كذا في «تفسير أبي السعود»، و«تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «الحجّة»!

(٢) في الأصل: «منها»، والتصويب من «تفسير أبي السعود».

(٣) هنا انتهى نقل القاسمي من «تفسير أبي السعود».

(٤) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «رضي الله عنه».

(٥) أخرجه ابن عساكر (٢٤/ ١٩٠) من طريق محمد بن الفضل عن الصلت بن بهرام عن شقيق عن (وفي الأصل: بن!! فليصحح) البراء، وهذا إسناد واهٍ بمرة، آفته محمد بن الفضل وهو ابن عطية، وهو كذاب.

وله شاهد لا يفرح به، أخرجه هناد (٤٣١) من مرسل الحسن، وفيه الراوي عنه إسماعيل بن مسلم المكي ضعيف. انظر: «السلسلة الضعيفة» (١٧٩٦).

وروى الترمذي[١] عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**لا يصيب عبداً نكبة**[٢] **فما فوقها أو دونها، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**»، قال: وقرأ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

لطيفة: الخطاب في (أصابك) عام لكل من يقف عليه لا للنبي ﷺ كقوله[٣]:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً. وجوّز أن يكون الخطاب له ﷺ كما قبله وما بعده، لكن لا لبيان حاله ﷺ بل لبيان حال الكفر بطريق التصوير، ولعل ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل من استحقاق الخطاب، لا سيما بمثل هذه الحكمة الأنيقة، قرره أبو السعود[٤]، قال بعض المفسرين: وثمرة الآية رَدُّ التطير والتشاؤم.

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ بيان لجلالة منصبه ﷺ ومكانته عند الله ﷻ بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه عليه الصلاة والسلام، بناءاً على جهلهم بشأنه الجليل، وتعريف (الناس) للاستغراق، أفاده أبو السعود[٤]. أي: فمن أين يتصور لك الشؤم وقد أرسلت داعياً العمومَ إلى الخيرات، فأنت منشأ كل خير ورحمة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: على رسالتك وصدقك، بإظهار المعجزات على يديك، أي: وإذ[٥] ثبتت رسالتك، فاليمن في طاعتك، والشؤم في مخالفتك»[٦].

فصل

قال محمد تقي الدين: قال العلماء: لما كان الجزاء من جنس العمل؛ كان لكل حسنة جزاءان، ولكل سيئة جزاءان، فمن تصدق بصدقة وقبلها الله منه جزاه الله عليها حسنتين:

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٥٢)، وعبد بن حميد ـ كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٥٥) ـ وهو **ضعيف**، فيه مجهول، وانظر: «تحفة الأشراف» (٦/ ٤٤٧).

(٢) في الأصل: «نكثة»! والمثبت من «جامع الترمذي».

(٣) القائل المتنبي. انظر: «شرح ديوان المتنبي» لعبد الرحمٰن البرقوقي (٢/ ٢١، ط. دار الكتاب العربي).

(٤) في «تفسيره» (٢/ ١٤٦١).

(٥) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «وإذا».

(٦) انظر: «تفسير القاسمي» (٥/ ٣١٦ ـ ٣١٨).

الأولى: أنها تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، كما جاء في الحديث: «**ويكتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**»[١]. **والحسنة الثانية**: وهي الجزاء الثاني أن الله يوفقه بسببها إلى عمل حسنة أخرى، وهكذا دواليك. وكذلك السيئة يجزي عليها سيئتين: **الأولى**: إن الله يكتبها عليه سيئة. **والثانية**: إنها تجرُّه إلى سيئة أخرى، وهكذا دواليك؛ لخصت هذا من «شرح الطحاوية».

تنزيه الله تعالى عن الظلم

نزَّه الله تعالى نفسه عن الظلم في آيات كثيرة، قال تعالى في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ وقال تعالى في سورة غافر: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ الآية [١٧]. وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الآية [٤٩]. وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ الآية [٢٨١].

قال صاحب «التيسير»: «يخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه: «**فيقول الله** ﷻ: **ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار**» وفي لفظ، «**أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً**» ثم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب من همَّ بحسنة أو بسيئة (٦٤٩١)، ومسلم كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة (١٣١) من حديث ابن عباس، وهو قطعة من حديث إلهي.

يقول أبو سعيد: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾»[(١)] [النساء: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: قلت: «يا أبا هريرة سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة**» فقال أبو هريرة: والله بل سمعت نبي الله ﷺ يقول: «**إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[(٢)]»[(٣)].

«﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أي: أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم من إهلاكهم[(٤)] ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: غير تخسير، وذلك أنها سبب هلاكهم ودمارهم وخسران الدنيا والآخرة. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢] «يقول تعالى: كما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا، وكذلك نفعل بأشباههم ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري[(٥)] قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الآية»»[(٦)].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

---

(١) أخرجه البخاريّ كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (٧٤٣٩)، ومسلم كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٦، ٥٢١ ـ ٥٢٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٠٠٣٠)، والطبري (٥/ ٩١) في «تفسيريهما»، **وإسناده ضعيف**، فيه علي بن زيد بن جدعان، وقال ابن كثير في «تفسيره» عقبه: «هذا حديث غريب، وعلي بن زيد بن جدعان عنده مناكير».

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (١/ ٣٨٩).

(٤) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بإهلاكهم».

(٥) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «رضي الله عنه».

(٦) أخرجه البخاريُّ كتاب التفسير، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (٤٦٨٦)، ومسلم كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وما سبق من «تيسير العلي القدير» (٢/ ٤٦١ ـ ٤٦٢).

ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ [غافر: ١٧] يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ كما ثبت في «الصحيح» عن أبي ذر[(١)] عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ أنه قال: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا** - إلى أن قال: - **يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»**[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال جلّ وعلا: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]»[(٣)].

«وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الكهف: ٤٩] أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والصغير والكبير ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً إلا أحصاه وضبطه، وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال: «لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء»، فقال النبي ﷺ: **«اجمعوا، من وجد عوداً فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به»** قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً، فقال النبي ﷺ: **«أترون هذا؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة عليه»**[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي: من خير أو شر كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير» زيادة: «ﷺ».

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٤٦١ - ٤٦٢).

(٤) سبق تخريجه.

ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم.

عن[١] شعبة عن عثمان بن عفان[٢] أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة**»[٣]»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ﴾ الآية.

«ثم قال تعالى يعظ عباده، ويذكرهم زوال الدنيا، وإتيان الآخرة والرجوع إليه ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين، لليلتين خلتا من ربيع الأول، رواه ابن أبي حاتم، وقد رواه ابن مردويه عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[٥] قال ابن جريج يقولون: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدئ يوم السبت ومات يوم الاثنين ـ رواه ابن جرير»[٦]»[٧].

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «وعن».

(٢) في مطبوع «تيسير العلي القدير» زيادة: «رضي الله عنه».

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٧٢) و(٢/ ٢٣٥ و٣٢٣) وسبق تخريج الحديث في التعليق على (ص١٥٦)، وبيان أن هنالك وسائط بين شعبة وعثمان، وأن الحديث **صحيح** بلفظ آخر نحوه.

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٧٨ ـ ٧٩).

(٥) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٩١) ـ وهو في «التفسير» (٧٧، ٧٨) ـ، والطبري في (٥/ ٦٧)، والطبراني (١٢٠٤٠)، وابن النحاس في «معاني القرآن» (١/ ٣١٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٣٧)، **وإسناده صحيح**.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري (٥/ ٦٨)، والواحدي في «الوسيط» (١/ ٣٩٩)، و«أسباب النزول» (ص١٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٣٧)، **وإسناده ضعيف**.

وورد عند البيهقي: «نزلت وبينها وبين موت رسول الله ﷺ واحد وثمانون يوماً».

وثبت في «صحيح البخاري» (٤٥٤٤) عن ابن عباس: «آخر آية نزلت آية الربا»، والمراد ختام الآيات المنزلة في الربا، وانظر لمزيد بسط في التوفيق: «فتح الباري» (٨/ ٢٠٥)، و«البرهان» للزركشي (١/ ٢١٠).

(٧) انظر: «تيسير العلي القدير» (١/ ٢٤٠).

قال شارح «الطحاوية» رحمه الله: «الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد، يقتضي قولاً وسطاً بين قول[1] القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقبيحاً يكون منه ظلماً وقبيحاً، كما تقول القدرية والمعتزلة ونحوهم، فإن ذلك تمثيل لله بخلقه وقياس له عليهم، وهو[2] الرب الغني القادر، وهم العباد الفقراء المقهورون؟ وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم، بل كان ما كان ممكناً فهو منه ـ لو فعله ـ عدل، إذ الظلم [لا يكون][3] إلا من مأمور من غيره منهي، والله ليس كذلك ـ فإن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ الآية [٢٩] من سورة «ق»، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ الآية [٧٦] من سورة الزخرف؟ يدل على نقيض هذا القول.

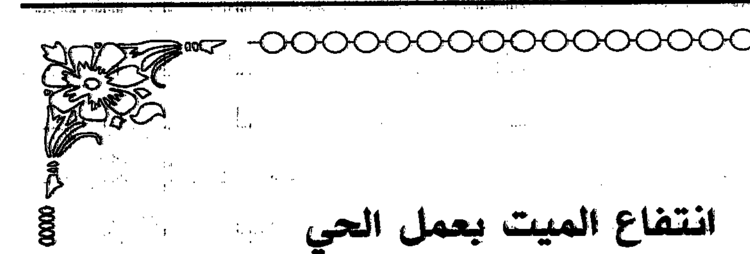
وأيضاً فإن قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ الآية [١١٢] من سورة طه. قد فسره السلف، بأن الظلم: أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الآية [١٥] من سورة الإسراء.

وأيضاً: فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ علم أنه ممكن مقدور عليه. وكذا قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ الآية [٢٨] سورة ق، إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لم يعن بها نفي ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفى ما هو مقدور عليه ممكن، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم. فعلى قول هؤلاء ليس الله منزّهاً عن شيء من الأفعال أصلاً، ولا مقدساً عن أن يفعله، بل كل ممكن فإنه لا ينزه عن فعله، بل فعله حسن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له، والقرآن يدل على نقيض هذا القول، في مواضع نزَّه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له، فعلم أنه منزَّه

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «قولي».
(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية» من غير: «و».
(٣) من مطبوع «شرح الطحاوية»، وسقط من الأصل.

مقدَّس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم. وذلك كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ الآية [١١٥] من سورة المؤمنون ـ فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثاً، وأنكر على من حسب ذلك، وهذا فعل ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الآية [٣٥] من سورة القلم. وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ الآية [٢٨] من سورة ص، إنكار منه على من جوَّز أن يسوي الله بين هذا وهذا. وكذا قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ الآية [٢١] من سورة الجاثية. إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيئ قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه»[(١)].

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٠٧ ـ ٥٠٩).



انتفاع الميت بعمل الحي

قال محمد تقي الدين: عفا الله عنه ووفقه للصواب:

رب وفِّقني فلا أعدل عن سَنَنَ الماضين في خير سَننِ

ترددت في إثبات هذه المسألة في هذا الكتاب؛ لأنها ليست من الأسماء والصفات، وقد أثبتها الإمام الطحاوي في «عقيدته» وأهل هذا الزمان في أشد الحاجة إلى معرفة الحق في هذه المسألة. قال الله تعالى في سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠] وقال تعالى في آخر سورة نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨]، وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ الآية [٢٤]. وقال تعالى في سورة القتال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ الآية [١٩].

تفسير آية الحشر [١٠]: قال صاحب «التيسير»: «قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠] هؤلاء القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء. وهم المهاجرون ثم الأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، كما قال في آية براءة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي: بغضاً وحسداً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وما أحسن ما استنبط

الإمام مالك[١] رحمه الله من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

قال ابن جرير عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ ـ حتى بلغ ـ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ الآية، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ حتى بلغ ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾، ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

---

(١) احتج مرة بقوله تعالى عن الصحابة: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فقال: «فمن عابهم فهو كافر، ولا حق لكافر في الفيء».
ذكره القاضي عياض في «الشفاء» (٢/ ٢٦٨)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ٤٦ ـ ٤٧)، وعنه الشاطبي في «الاعتصام» (٣/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧)، وأخرجه بسنده إلى مالك: أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٧)، والضياء المقدسي في «النهي عن سبّ الأصحاب» رقم (٣٣)، والخلال في «السنة» رقم (٧٦٠)، والجوهري في «مسند الموطأ» رقم (٨٤)، ورشيد العطار في «مجرد أسماء الرواة عن مالك» رقم (١١١٥).
وذكر نحوهما عن مالك القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٦)، وقال: «قلت: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله».
وانظر: «شرح السنة» (١/ ٢٢٩)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٥)، و«روح المعاني» (٩/ ١٢٨)، و«لباب التأويل» (٦/ ٢١٥)، و«الأمر بالاتباع» (ص٧٦ ـ بتحقيقي)، واحتج مرة أخرى بما أورده المصنف.
ذكر ذلك عن مالك: الحميدي في «أصول السنة» (ص٣٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٢٩)، والقاضي عياض في «الشفاء» (٢/ ٢٦٨)، والقرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧ و١٨/ ٣٢)، وابن تيمية في «منهاج السنة» (٢/ ١٩)، و«الصارم المسلول» (ص٥٧٤)، والشاطبي في «الموافقات» (٤/ ١٩٤)، و«الاعتصام» (٣/ ٤٥٧)، والسيوطي في «الأمر بالاتباع» (ص٧٦ ـ بتحقيقي)، وابن حجر الهيتمي في «الصواعق المحرقة» (٢٥٢).
وأخرجه عنه مسنداً: ابن أبي زمنين في «أصول السنة» رقم (١٩٠)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٧/رقم ٢٤٠٠)، والجوهري في «مسند الموطأ» (ص١١٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٧)، وابن عبد البر في «الانتقاء» (٣٥)، والضياء المقدسي في «النّهي عن سبِّ الأصحاب» (رقم ٣٢)، والخطيب كما قال القرطبي في «التفسير» (١٦/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧)، وهو **صحيح** عنه.

يحبون﴾، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرد[١] حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه»[٢]..

قال محمد تقي الدين: «إن المراد هنا دعاء الأحياء للأموات مشروع وينفعهم الله به إذا ماتوا موحدين، وقد أجمع على ذلك أهل السنة.

تفسير آية نوح: «ثم قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ أي: لكل من دخل بيته مؤمناً. روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»**[٣]، ورواه أبو داود والترمذي، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ هذا دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، أما الظالمون فلا تزدهم إلا خساراً في الدنيا والآخرة»[٤].

تفسير آية الإسراء: «﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي: ارحمهما في كبرهما وعند وفاتهما. قال ابن عباس: ثم أنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾»[٥].

قال محمد تقي الدين: وفيه أيضاً دليل على مشروعية الدعاء ونفعه للوالدين في حال حياتهما وبعد مماتهما.

قال الإمام محمد صديق حسن القنوجي في تفسير آية القتال ما نصه:

---

(١) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بسرو».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٦٦)، وعبد الرزاق (٢/ ٢٨٣)، وابن جرير (٢٢/ ٥١٦) في «تفسيريهما»، وأبو عبيد (٤١)، وابن زنجويه (٨٤، ٧٦٢) كلاهما في «الأموال» (٦/ ٣٥٢)، وعزاه في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٣) إلى عبد بن حميد وأبي داود في «ناسخه»، وابن المنذر وابن مردويه، **وله طرق تؤكد أن له أصلاً**، وانظر: «مسند الفاروق» (٢/ ٦١٣) لابن كثير. وما سبق من «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨)، وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، والطيالسي (٢٢١٣)، والدارمي (٢/ ١٠٣)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٦٤)، وأبو يعلى (١٣١٥)، وابن حبان (٥٥٤، ٥٥٥، ٥٦٠)، والحاكم (٤/ ١٢٨)، والخطابي في «العزلة» (ص١٤٢)، والبغوي (٣٤٨٤)، والبيهقي في «الشعب» (٩٣٨٣)، **وإسناد أحد الطريقين حسن**.

(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٤٣١). (٥) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٢١).

«﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: إذا علمت أن مدار الخير هو[١] التوحيد والطاعة، ومدار الشر هو الشرك والعمل بمعاصي الله، فاعلم أنه لا إله غيره ولا رب سواه، والمعنى: اثبت على ذلك، واستمر عليه، ودمُ على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية؛ فإنه النافع يوم القيامة؛ لأنه ﷺ قد كان عالماً بأنه لا إله إلا الله قبل هذا. ويدل عليه قوله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**» رواه مسلم[٢].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: استغفر الله أن يقع منك ذنب أو استغفر الله ليعصمك أو استغفره مما ربما يصدر[٣] من ترك الأولى. قال القاضي عياض: إن المراد به الفترات والغفلات عن[٤] الذكر الذي كان شأنه ﷺ الدوام عليه، فإذا فتر وغفل عدَّ ذلك ذنباً واستغفر منه»[٥].

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ «فإن المراد به استغفاره لذنوب أمته بالدعاء لهم بالمغفرة عما فرط من ذنوبهم، وهذا إكرام من الله ﷻ لهذه الأمة، حيث أمر نبيه ﷺ أن يستغفر لذنوبهم، وهو الشفيع المجاب فيهم، إن شاء الله تعالى. عن ابن عمرو[٦] عن النبي ﷺ قال: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الاستغفار**» ثم قرأ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الآية»[٧] رواه الطبراني.

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «هم».

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٢٦) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٣) في مطبوع «فتح البيان» بزيادة: «منك». (٤) في مطبوع «فتح البيان»: «من».

(٥) انظر: «فتح البيان» (٦/ ٣٢٨).

(٦) في الأصل: «ابن عمر» وكذا في «المجمع» (١٠/ ٨٤)! والصواب المثبت، كما في مصادر التخريج، و«فتح البيان» (٦/ ٣٢٨).

(٧) أخرجه الطبراني (١٢٩ ـ قطعة من الجزء (١٣)) **بإسناد ضعيف جداً**، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٨٤): «فيه الإفريقي وغيره من الضعفاء» قلت: فيه داود بن المحبر متروك، وسعيد بن راشد مجهول.

وأوله: «**ما من الذكر أفضل**...»، واللفظ الذي عند المصنف نقله من «فتح البيان» (٦/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩)، وعزاه ـ تبعاً لـ«فتح القدير»، و«الدر المنثور» ـ لابن مردويه والديلمي أيضاً.

ويغني عنه: ما أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣١)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وابن حبان (٢٣٢٩)، والطبراني في «الدعاء» (١٤٨٣)، والخرائطي =

وعن أبي هريرة في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**»[١] رواه عبد الرزاق والترمذي وصححه، وأصله في البخاري. وفي رواية: «**أكثر من سبعين**»[٢].

وعن عبد الله بن سَرْجَس قال: «**أتيت النبي ﷺ فأكلت معه من طعام، فقلت**: غفر الله لك يا رسول الله! قال: **ولك**، فقيل: أستغفر لك يا رسول الله؟! قال: **نعم وقرأ**: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾»[٣] أخرجه مسلم وأحمد والترمذي.

وروى مسلم عن الأغَرِّ المزَنيّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[٤] وللعلماء في هذا الغين كلام طويل لا يسعه هذا الموضع، قال ابن الأثير في «النهاية»[٥]: «**الغين**: الغيم. وغينت السماء تغان: إذا أطبق عليها الغيم. وقيل: الغين: شجر ملتف.

أراد: ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر؛ لأن قلبه أبداً كان مشغولاً بالله تعالى، فإن عرض له وقتاً ما عارض بشري يشغله من أمور الملة ومصالحها عدَّ ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع إلى الاستغفار»، انتهى.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا في أعمالكم ومعايشكم ومتاجركم ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في الدار الآخرة، قاله ابن عباس»[٦].

= في «فضيلة الشكر» (٧)، والحاكم (١/ ٤٩٨)، والبغوي (٥/ ٤٩)، وفي «التفسير» (٤/ ١٥٥)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١١٧)، وابن عبد البر (٩/ ٤٢ ـ ٤٣) من حديث جابر رفعه: «**أفضل الذكر** (وفي رواية: **الكلام**) **لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء** (وفي رواية: **الشكر**) **الحمد لله**»، **وإسناده حسن**، وانظر: «الصحيحة» (١٤٩٧).

(١) هي رواية البخاري (٦٣٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٥٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٣١ ـ ٤٣٨)، وأحمد (٢/ ٢٨٢، ٣٤١)، والطبراني في «الدعاء» (١٨٢٠ ـ ١٨٣٨)، وابن حبان (٩٢٥)، والبيهقي في «الشعب» (٦٣٨ و٦٣٩)، والبغوي (١٢٨٥)، وأبو نعيم (٢/ ١٨٨)، وأصله عند البخاري (٦٣٠٧).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٨٢)، ومسلم (٢٣٤٦)، والترمذي في «الشمائل» (٢٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٩٦)، وهو في «عمل اليوم والليلة» (٤٢٢) منه وغيرهم.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني ﷺ.

(٥) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٤٠٣) باب الغين مع الباء، مادة «غين».

(٦) انظر: «فتح البيان» (٦/ ٣٢٩).

قال محمد تقي الدين: وهذا أيضاً يدل بوضوح على أن **الدعاء للميت مشروع** ونافع له. وعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية**» رواه مسلم[1] وقد أجمع المسلمون على الصلاة على الجنازة، وفيها الدعاء للميت ولغيره من الأحياء والأموات. وأما **انتفاع الميت بالصدقة** فعن عائشة أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «إن أمي افتلتت نفسها وأراها لو تكلمت تصدقت، فهل لها من أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «**نعم**»»[2] متفق عليه، وكذلك **ينتفع الميت بالحج عنه** إذا وقع من قريب له. فقد روى الجماعة ـ واللفظ للبخاري ـ عن ابن عباس: «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج، حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «**نعم حجِّي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء**»[3]، وعن ابن عباس: «إن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة قال: «**من شبرمة**»؟ قال: أخ لي أو قريب لي قال: «**حججت عن نفسك**» قال: لا، قال: «**حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة**»[4] وأما **حج البعيد بأجرة** أو بغيرها فلم يرد فيه شيء عن النبي ﷺ فيما نعلم، ولذلك نعتبره غير جائز، ولا يجوز لأحد أن يثبته بالقياس؛ لأن القياس لا يدخل في العبادات؛ لأنها توقيفية محدودة وقد بلغها النبي ﷺ، فلا يجوز لنا أن نزيد فيها شيئاً.

أما **الصوم عن الميت**، فقد وردت فيه أحاديث، أذكر بعضها هنا؛ **الأول**:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب ما يُقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها برقم (٩٧٥) من حديث بريدة.

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الوصايا، باب ما يُستحبُّ لمن يُتوفَّى فجأة أن يتصدقوا عنه وقضاءِ النذور عن الميِّت (٢٧٦٠)، ومسلم كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه (١٠٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الحج، باب الحج والنذور عن الميتِ والرجُلُ يَحُجُّ عن المرأة (١٨٥٢) من حديث المرأة الجهنية. وبنحوه عند مسلم كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت (١١٤٧).

(٤) أخرجه أبو داود (١٨١١)، وابن ماجه (٢٩٠٣)، وابن الجارود (٤٩٩)، وابن حبان (٩٦٢)، والدارقطني (٢٧٦)، والبيهقي (٤/ ٣٣٦)، والطبراني في «المعجم الكبير»، والضياء في «المختارة»، والحديث **صحيح**.

قال أبو داود بسنده إلى عائشة أن النبي ﷺ قال: «**من مات وعليه صيام صام عنه وليه**»[١]، قال أبو داود: هذا في النذر وهو قول أحمد بن حنبل. **والثاني**: عن ابن عباس قال: «إذا مرض الرجل في رمضان ثم مات ولم يصح، ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عليه قضاء، وإن نذر نذراً قضى عنه وليه»[٢] رواه أبو داود. **الثالث**: في «الصحيحين» عن ابن عباس: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم نذر، أفأصوم عنها؟ فقال: «**أرأيت لو كان على أمك دين قضيته أكان يؤدي ذلك عنها؟**» قالت: نعم، قال: «**فصومي عن أمك**»[٣] هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري نحوه، وفي «الصحيحين» عنه أيضاً: «أن امرأة جاءت فقالت: يا رسول الله إن أختي ماتت وعليها صيام شهرين متتابعين»[٤]. وذكر الحديث بنحوه.

قال محمد تقي الدين: نفهم من هذه الأحاديث: إن الميت إذا مات وعليه صيام نذر، صامه عنه وليه، وإن كان عليه صيام رمضان، فقد قال ابن عباس: «يطعم عنه»، ولم يرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فلا حجة فيه، وكذلك لو مات الميت وعليه دين، فأسقطه عنه صاحب الدين، أو قضاه عنه شخص آخر، أو كانت لأحد عليه مظلمة، فعفا عنه المظلوم، نفعه ذلك.

الأمور المبتدعة التي لا تنفع الميت

أولها: ما يسمى عند المغاربة بعشاء القبر، عن عبد الله بن جعفر قال: لما جاء نعي جعفر حين قتل، قال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد أتاهم ما يشغلهم**»[٥] أخرجه الخمسة إلا النسائي.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٣١١)، وأخرجه مسلم كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت (١١٤٧) من حديث عائشة باللفظ المذكور.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٤٠١)، والبيهقي (٤/ ٢٥٥) **وإسناده صحيح غاية**، وانظر: «صحيح سنن أبي داود» (٧/ ١٦٣ ـ ١٦٤) لشيخنا الألباني.

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الصيام، باب مَن مات وعليه صوم (١٩٥٣)، ومسلم في كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت (١١٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاريُّ في كتاب الصيام، باب مَن مات وعليه صَوم (١٩٥٣).

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٣١٣٢)، وابن ماجه (١٦١٠)، والترمذي (٩٩٨)، وأحمد (١/ ٢٠٥)، وعبد الرزاق (٦٦٦٥)، والحميدي (٥٣٧)، والشافعي (١/ ٢١٦)، وأبو يعلى =

قال الشيخ أحمد في «حاشيته على بلوغ المرام»(١) ما نصه: «قوله: «**اصنعوا لآل جعفر طعاماً**...» إلخ الحديث حسنه الترمذي وصححه ابن السكن، وأخرجه أيضاً أحمد وابن ماجه والطبراني من حديث أسماء بنت عُمَيس(٢) وهي والدة عبد الله.

وفي الحديث مشروعية القيام بمؤونة أهل الميت مما يحتاجون إليه من الطعام؛ لاشتغالهم عن أنفسهم بما دهمهم من المصيبة. قال الترمذي: «وقد كان بعض أهل العلم يستحب أن يوجه إلى أهل الميت بشيء لشغلهم بالمصيبة، وهو قول الشافعي» وأما اجتماع الناس عند أهل الميت وأكل الطعام عندهم، فهو من مراسم الجاهلية، ويعد ذلك بعد الإسلام من أنواع النياحة المنهي عنها؛ لما في ذلك من مخالفة للسنة؛ لأنهم مأمورون بأن يضعوا لأهل الميت طعاماً، فخالفوا ذلك وكلَّفوهم صنعة الطعام لغيرهم؛ أخرج أحمد وابن ماجه عن جرير بن عبد الله البجلي بسند صحيح قال: «كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة؟»(٣).

وجرير بن عبد الله بن جابر البجلي صحابي مشهور، فقوله: «كنا نعد» في حكم الحديث المرفوع، فيا عجباً للعلماء الذي لا ينهون الناس عما شاع في هذا الزمان من الاجتماع عند أهل الميت وأكل الطعام عندهم»!

ثانيها: قراءة القرآن وإهداء ثوابها للأموات بأجرة أو بغير أجرة، قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩].

= (٦٨٠١)، والحاكم (١/ ٣٧٢)، والبيهقي (٤/ ٦١)، والبغوي (١٥٥٢)، **وإسناده حسن**.

(١) حاشية على بلوغ المرام، أحمد حسن الدهولي (طبع بيروت سنة ١٣٩٤هـ). انظر: «دليل مؤلفات الحديث الشريف» (٤٠٦) «جامع الشروح والحواشي» لعبد الله محمد الحبشي (١/ ٤٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٠)، وابن ماجه (١٦١١)، والواقدي في «المغازي» (٢/ ٧٦٦)، وعبد الرزاق (٦٦٦٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/رقم ٣٨٠، ٣٨١)، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٣٧٠)، وفي إسناد أحمد أم عيسى الجزار قال ابن حجر: «لا يعرف حالها» وفيه أيضاً أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب، لم يرو عنها سوى ابنها.
والحديث صحيح، بشاهده السابق من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٤)، وابن ماجه (١٦١٢)، **والأثر صحيح**، وفي إسناد أحمد شيخه نصر بن باب ضعيف، إلا أنه متابع.

قال صاحب «التيسير في اختصار ابن كثير» ما نصه: «وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي: كما لا يُحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي ـ عليه رحمة الله ومن اتبعه ـ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة[1]، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فمجمع[2] على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما، وأما الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به**»[3] فهذه الثلاثة في الحقيقة، هي من: سعيه وكدّه وعمله، كما جاء في الحديث: «**إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه**»[4]، والصدقة[5] كالوقف ونحوه وهي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الآية [يس: ١٢]، والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في «الصحيح»: «**ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»[6]»[7].

---

(١) في مطبوع «التيسير»: «رضي الله عنهم». (٢) في مطبوع «التيسير»: «فذاك مجمع».

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسانَ من الثواب بعد وفاته حديث (١٦٣١) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥٢٨ و٣٥٢٩)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٧/ ٢٤١)، وفي «الكبرى» (٦٠٤٥، ٦٠٤٦)، وابن ماجه (٢٢٩٠)، وأحمد (٦/ ٤٢)، وإسحاق بن راهويه (١٥٠٧، ١٥٦١) في «مسنديهما»، وابن أبي شيبة (٧/ ١٥٧ و١٤/ ١٩٦)، وابن حبان (٤٢٦١)، والطبراني في «الأوسط» (٤٤٨٣)، والبغوي (٢٣٩٨)، والبيهقي (٧/ ٤٨٠) من حديث عائشة، وهو **حسن**، وانظر: «الإرواء» (١٦٢٦).

(٥) في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «والصدقة الجارية».

(٦) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب من سنَّ سنةً حسنةً أو سيئةً (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٢٦٤).

قال محمد تقي الدين: لقد صدق الحافظ ابن كثير وصدق الإمام الشافعي وبر في إبطال بدعة إهداء ثواب القرآن إلى الأموات، فإن الإنسان لا يهدي إلا ما يملك، وثوابه القرآن لا يملكه الإنسان؛ لأنه لا يعلم أتقبل منه أم لم يتقبل، هذا إذا قرأه لله، وأما إذا قرأه بأجرة فلا ثواب له قطعاً. قال البخاري: «باب إثم من راءىٰ بقراءة القرآن، أو تأكّل به، أو فَخَر به»، ثم روى بسنده إلى علي بن أبي طالب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة**»[١] ثم روى من طريق[٢] مالك عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية...**»[٣]، الحديث.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: «معنى «**تأكّل**»: طلب الأكل بقراءة[٤] القرآن، قوله: «**سفهاء الأحلام**» أي: العقول، وقوله: «**لا يجاوز حناجرهم**» معناه: أن الإيمان لم يرسخ في قلوبهم؛ لأن ما وقف عند الحلقوم فلم يتجاوزه لا يصل إلى القلب»، ثم قال: «ومناسبة هذين الحديثين للترجمة أن القراءة إذا كانت لغير الله فهي للرياء أو للتأكّل به ونحو ذلك»[٥].

ثم قال الحافظ: «روى[٦] أبو عبيد «في فضائل القرآن» من وجه آخر عن أبي سعيد وصحح الحاكم رفعه: «**تعلموا القرآن واسألوا الله به، قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرؤه لله**»[٧]».

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب، باب علاماتِ النبوةِ في الإسلام (٣٦١١) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: «بطريق»!!

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل القرآن، باب مَن راءىٰ بقراءة القرآن أو تأكّل به أو فَخَرَ به (٥٠٥٨).

(٤) في مطبوع «فتح الباري» من غير: «بقراءة القرآن».

(٥) انظر: «فتح الباري» (٩/ ١٢٥ ـ ١٢٦). (٦) في مطبوع «فتح الباري»: «وقد أخرج».

(٧) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (٢/ ٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» برقم =

ثم قال: «وأخرج أحمد وأبو يعلى من حديث عبد الرحمن بن شبل رفعه: **«اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا**[(١)] **عنه ولا تأكلوا به»**[(٢)] الحديث وسنده قوي»[(٣)].

وقال في «الجامع الصغير»: ««**اقرؤوا القرآن وابتغوا به الله، من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القِدْح، يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه**»[(٤)] رواه أحمد وأبو داود عن جابر»[(٥)]، انتهى.

«ومعنى «**يتعجلونه**»: أي: يطلبون به أجراً دنيوياً، كالمال والجاه، فيكون حجة عليهم، ويكون شاهداً عليهم وسائقاً لهم إلى النار يوم القيامة؛ نسأل الله العافية. ومن الأدلة على أن قراءة القرآن وإهداء ثوابها إلى الأموات بدعة باطلة محدثة: ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس عن النبي ﷺ: أنه مرّ بقبرين يعذَّبان [فقال: «إنهما ليُعَذَّبان][(٦)]، **وما يعذبان في كبير بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله**» فدعا بجريدة خضراء، فشقها شقين، وجعل أحدهما على أحد القبرين، وجعل الشق الثاني على القبر الثاني وقال: «**لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**»[(٧)]. اهـ.

= (٢٣٨٩) (١٩٨/٤، ط. مكتبة الرشد)، وفي إسناده ابن لهيعة، وعند أحمد (٣٧/٣) ضمن حديث في آخره: «**وإن من شر الناس رجلاً فاجراً جريئاً يقرأ كتاب الله، ولا يرعوي إلى شيء منه**» وهو من (مسند أبي سعيد)، وفي إسناده أبو الخطاب المصري، مجهول، والحديث **حسن بشواهده** الآتية.

(١) في مطبوع «فتح الباري»: «تحفوا».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٢٨/٣)، وأبو عبيد في «الفضائل»، وأبو يعلى (١٥١٨)، والبزار (٢٣٢٠ ـ زوائده) في «مسانيدهم»، والطبراني في «الأوسط» (٢٥٩٥)، والطحاوي (٣/ ١٨)، والبيهقي (١٧/٢) وفي «الشعب» (٢٦٢٤)، **والإسناد قوي**، كما قال ابن حجر، والحديث **صحيح**.

(٣) انظر: «فتح الباري» (٩/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٨٣٠)، وأحمد (٣/ ٣٥٧، ٣٩٧)، وأبو يعلى (٢١٩٧) في «مسنديهما»، وعبد الرزاق (٦٠٣٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٨٠) في «مصنفيهما»، والبيهقي في «الشعب» (٢٦٤١ ـ ٢٦٤٣)، والبغوي (٦٠٩) من حديث جابر بن عبد الله، وهو **صحيح**.

(٥) انظر: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٢/ ٨٥) برقم (١٣٤١).

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وأثبتُّه من مصادر التخريج.

(٧) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز، باب الجريد على القبر برقم (١٣٦١)، ومسلم، كتاب =

قال محمد تقي الدين: ولو كانت قراءة القرآن للأموات مشروعة ونافعة؛ لقرأ النبي ﷺ شيئاً من القرآن وجعل ثوابه لهما ولاقتدى به أصحابه، ففعلوا مثل ذلك، وقد كان النبي ﷺ يزور القبور كثيراً ولم يقرأ على أهلها شيئاً من القرآن، مع أن قراءته لا حد لثوابها، بل كان يدعو لهم ويعلم أصحابه إذا رأوا القبور ذلك الدعاء، كما يعلمهم السورة من القرآن، وقد تقدم لفظه.

ومن الأدلة على أن قراءة القرآن وجعل ثوابها للأموات غير مشروعة: حديث أبي هريرة المتقدم: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له**»[1] الحديث، ولم يقل: يقرأ عليه القرآن، أو يدعوا المتأكلين بالقرآن، ويعطيهم أجرة ليقرؤوا ختمة من القرآن، ويجعلوا ثوابها لوالده، كما يفعل أهل هذا الزمان الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

بدعة عجيبة أخرى (الفدية)

من عجائب ما يقع في المغرب وينسب إلى الإسلام ـ وهو بريء منه ـ شيء يسمونه (الفدية) ـ وهو شائع عند الجهلة ـ يدعو أولياء الميت جماعة من البطالين المحتالين ليعملوا لهم «فدية» للميت، تنقذه من العذاب، وتجعله من أهل الجنة، فإذا كان قبره حفرة من حفر النار ينقلب في الحين روضة من رياض الجنة، وذلك أن أولئك البطالين يذكرون (لا إله إلا الله) سبعين ألف مرة، يتقاسمون العدد فيما بينهم، كل واحد بضعة آلاف، فيطعمهم ذلك المسكين، ويعطي كل واحد منهم شيئاً من الدراهم يأكلها سحتاً، قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ الآية [البقرة: ٢٥٤].

قال صاحب «التيسير» ما نصه: «يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، ليدّخروا الثواب عنده ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي: لا يشتري نفسه ولو دُفِعَ ملء الأرض ذهباً ولا تنفعه

= الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) سبق تخريجه.

الصحبة ولا القرابة، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ولا ظالم أظلم ممن لقي الله كافراً»[١].

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم: ٣١].

قال صاحب «التيسير» ما نصه: «يأمر الله عباده بطاعته، والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة مع عبادة الله وحده لا شريك له[٢]، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامة الصلاة هو المحافظة عليها وقتاً وحدوداً وركوعاً وسجوداً وخشوعاً، والإنفاق خفية وجهراً وذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي: ولا يقبل من أحد فدية بأن (تفدى نفسه بمال)[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي: ليس هناك مخالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة، بل هناك العدل والقسط، والمراد أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية ولا صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾»[٤].

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ الآية [١٥].

قال صاحب «التيسير»: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قُبل منه، وقوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي مصيركم، وقوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾»[٥].

قال محمد تقي الدين: والآيات في هذا المعنى كثيرة، فمن ثبته الله بالقول الثابت ورزقه حسن الخاتمة، فإنه يوفّقه عند سؤال القبر إلى الجواب الصحيح،

---

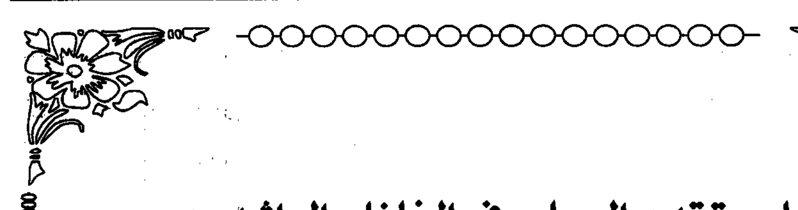
(١) انظر: «تيسير العلي القدير» (١/ ٢١٦).
(٢) في مطبوع «تيسير العلي القدير» من غير: «له»!
(٣) بدلها في مطبوع «تيسير العلي القدير»: «بأن تباع نفسه».
(٤) انظر: «تيسير العلي القدير» (٢/ ٥٤٤). (٥) انظر: «تيسير العلي القدير» (٤/ ٣٠٩).

ويفسح له في قبره، ويكون قبره روضة من رياض الجنة، وذلك هو السعيد، فلا يرى إلا ما يسرُّه في البرزخ، ثم يبعثه الله ويحاسبه حساباً يسيراً، أو يكون من الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، كما جاء في الحديث الصحيح[(١)]، وإن أضله الله كما يضل الظالمين، وختم له بسوء جزاء وفاقاً، لم يوفق إلى إجابة سؤال الملكين فحقّت عليه كلمة العذاب، فلو اجتمع جميع أهل الأرض وذكروا لا إله إلا الله سنين عديدة لم يستطيعوا أن يخفّفوا عنه شيئاً من العذاب وإن قل، فهذه الفدية[(٢)] التي يعملها جهال المغاربة من البدع والضلالات ولا تجلب على فاعلها إلا مقت الله وغضبه، وأما الميت فإن كان موحداً لله متبعاً لسنة رسول الله ﷺ وفعلها أولياؤه لم تضره، وإن كان موافقاً لأهلها موصياً لهم بها؛ زاده الله بها عذاباً.

---

(١) يريد حديث البراء الطويل، المتقدم (ص١٢١).

(٢) ونحوها صلاة يدعو لها الجهال تجبر ـ على ذمة واضعها قاتله الله ـ ذنوب ترك الصلاة مئتي سنة، وكشفتُ عن باطلها في آخر كتابي «القول المبين في أخطاء المصلين» (ص٤٥١ ـ ٤٥٣)، فلتنظر؛ لتحذر، لفعل بعض المشارقة لها، ولا قوة إلا بالله!



ما يعتقده المسلم في الخلفاء الراشدين وسائر أصحاب رسول الله أجمعين

قال شارح «الطحاوية»: «قوله: «ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق[1] تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة».

اختلف أهل السنة في خلافة الصديق[2]، هل كانت بالنص، أو بالاختيار؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة، ومنهم من قال: بالنص الجلي، وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار؟

والدليل على إثباتها بالنص أخبار، من ذلك: ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم، قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت، قال: «**إن لم تجديني فأتي أبا بكر**»[3]. والثاني: حديث[4] حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»[5]. رواه أهل «السنن».

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».

(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب منه (٣٦٥٩)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٦) من حديث جبير بن مُطعِم.

(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «وحديث».

(٥) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٩/ ٥٠ ـ الكنى)، والترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، والحميدي (٢٤٩)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١١ و١٤/ ٥٦٩)، وأحمد (٥/ ٢٩٩، ٣٨٢، ٣٨٥، ٤٠٢)، و«فضائل الصحابة» (٤٧٨، ٤٧٩)، وابنه عبد الله في «السنة» (١٣٦٧ ـ ١٣٦٩)، و«الزوائد على الفضائل» (٤٧٨، ٤٧٩)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٨٣ ـ ٨٥)، وابن سعد (٢/ ٣٣٤)، والفسوي (١/ ٤٨٠)، والخلال في «السنة» (٣٣٦)، والبزار (٢٨٢٧ ـ ٢٨٢٩)، وجمع من حديث حذيفة.
=

وفي «الصحيحين» عن عائشة وعن أبيها، قالت: دخل عَليَّ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدئ فيه، فقال: «**ادعي لي أباك وأخاك**» حتى أكتب لأبي بكر كتاباً، ثم قال: «**يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر**»[١]. وفي رواية[٢]: «**فلا يطمع في هذا الأمر طامع**». وفي رواية قال[٣]: «**ادعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر، لأكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه**»، ثم قال: «**معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر**»»[٤].

قال محمد تقي الدين: وهذا نص صريح يدلنا على أن النبي ﷺ ما ترك الكتابة لأبي بكر الصديق أن يكون الخليفة بعده إلا لأن الله أعلمه أن هذا هو الذي سيكون فلم يحتج إلى كتابة. وكذلك وقع، **فالعجب من الشيعة كيف عموا عن هذه الحقيقة**، ومن يضلل الله فما له من هاد.

ثم قال شارح: «الطحاوية»: «وأحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة، وهو يقول: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»[٥]، وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة، فصلى بهم مدة مرض النبي ﷺ. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم رأيتني على قليب، عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف،**

= قال الخليلي في «الإرشاد» (١/ ٣٧٨): «صحيح معلول» أي: بعلَّة غير قادحة.
وقال العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤/ ٩٥) بعد كلام: «يروى عن حذيفة عن النبي ﷺ بإسناد جيد ثابت» **وحسنه** الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٢/ ٢٥٧).
وتكلمت عليه بتطويل وإسهاب في تعليقي على «المجالسة» (٨/ ٢٥٨ ـ ٢٦٣) رقم (٣٥٢٨)، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) أخرجه البخاري كتاب المرض، باب قول المريض: «إني وجع» (٥٦٦٦)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه برقم (٢٣٨٧) من حديث عائشة.

(٢) هذه رواية لأحمد (٦/ ١٠٦)، **وإسنادها ضعيف**، فيه نوفل بن إسماعيل، وهو ضعيف.

(٣) هذه رواية لأحمد (٦/ ١٤٤)، وابن سعد (٣/ ١٨٠)، **وإسنادها صحيح**، ونحوها لمسلم (٢٣٨٧).

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٣٣ ـ ٥٣٤).

(٥) أخرجه البخاريُّ في كتاب الأذان، باب حَدِّ المريضِ أن يشهد الجماعة (٦٦٤)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر برقم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والله يغفر له، ثم استحالت غَرْباً، فأخذها ابن الخطاب، فلم أرَ عبقرياً من الناس يَفري فَرِيَّه، حتى ضرب الناس بعطن»[(١)]. وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال على منبره: **«لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سُدَّت، إلا خوخة أبي بكر»**[(٢)][(٣)].

فصل في بيان معنى ما تقدم من الأحاديث

الأول: حديث المرأة التي جاءت إلى النبي ﷺ فأكرمها وأعطاها شيئاً من المال، وأمرها أن ترجع إليه ليعطيها مرة أخرى، فقالت له: ماذا أصنع إن جئت فلم أجدك، قال: «ائتي أبا بكر؛ تجدي عنده مثل ما وجدت عندي»، وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان يعلم بإعلام الله له أن أبا بكر هو الخليفة من بعده، وهذا واضح لمن كان له قلب صافٍ خالٍ من سموم البدعة.

الحديث الثاني: أمر النبي ﷺ جميع المسلمين أن يقتدوا باللذين من بعده أبي بكر وعمر، يعني اقتداءً خاصاً، وذلك يدل على خلافتهما وفضلهما على غيرهما، وإلا فالاقتداء العام لا يختص بهما، قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ الآية [١٠٠].

وفي الحديث الرابع[(٤)] أيضاً: دليل واضح على خلافة أبي بكر الصديق؛ لأن النبي ﷺ قال لعائشة ومن معها: **«مروا أبا بكر فليصل بالناس»**، فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لا يسمع الناس، وأشارت على النبي ﷺ أن يأمر بذلك عمر، فغضب، وقال: **«إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»**. وقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ من هذا الأمر أنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ، وقالوا: جعله النبي ﷺ إماماً لنا في ديننا، فكيف لا نجعله إماماً في دنيانا.

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب منه (٣٦٦٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب مِن فضائل عمر ﷺ (٢٣٩٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٣٤).

(٤) كذا! لم يذكر (الثالث).

والحديث الخامس: حديث الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ.

شرح معاني المفردات: قوله: (قليب)، قال الكرماني: قال الخطابي: «أي بئر تحفر فينقلب ترابها قبل أن تطوى»[١].

قال محمد تقي الدين: ومعنى «تطوى» تبنى جوانبها بالحجارة، فإذا حفرت البئر حتى ظهر ماؤها ولم تبن جوانبها بالحجارة ولا بغيرها فهي قليب.

قال في النهاية: «الغرْب ـ بسكون الراء ـ الدلو العظيمة التي تتخذ من جلد ثَوْرٍ»[٢]. قال الكرماني: «العبقري: كل شيء يبلغ النهاية»[٣]، وقال في «النهاية»: «عبقري القوم سيدُهُم وكبيرُهُم وقويُّهم، والأصلُ في العبقري، فيما قيل: إن عبقَر قرية يسكنها الجن فيما يزعمون، فكلما رأوا شيئاً فائقاً غريباً مما يصعب عمله ويَدِقُّ، أو شيئاً عظيماً في نفسه، نسبوه إليها فقالوا: عبقري، ثم اتُّسع حتى سُمِّيَ به السَّيدُ الكبيرُ»[٤].

قال محمد تقي الدين: ومعنى «يفري فرية» أي: يقطع قطعه قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ... ـض القوم يخلق ثم لا يفري

والخلق هنا، معناه: التقدير يصف الشاعر ممدوحه بقوة العزم وإنجاز الوعد، والعطن: مناخ الإبل والذنوب: الدلو المملوءة ماء، قال الكرماني في معنى الحديث: «وهذا مثل ضربه في ولاية أبي بكر وعمر بعد رسول الله ﷺ و(الذنوبان) إنما هما سنتان، وليهما أبو بكر و(ضعف نزعه): إنما هو إشغاله[٥] بقتال أهل الردة، ولم يتفرغ لفتح[٦] الأمصار وجباية الأموال»[٧]، وأما عمر فطال زمانه وكثرت فتوحات الممالك وحسنت أحوال المسلمين فيه».

---

(١) انظر: «أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري» (٣/ ١٦٢٦)، و«شرح الكرماني على صحيح البخاري» (٢٤/ ١٢٣).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٣٤٩) باب الغين مع الراء تحت مادة «غرب».

(٣) ذكرها الخطابي في «أعلام الحديث» (٣/ ١٦٢٦) وعند الكرماني في «شرح البخاري» (٢٤/ ١٢٢): «العبقري: الكامل الحاذق في عمله».

(٤) انظر: «النهاية» (٣/ ١٧٣) باب العين مع الباء تحت مادة «عبقر».

(٥) في مطبوع «أعلام الحديث»: «اشتغاله».

(٦) في مطبوع «أعلام الحديث»: «فلم يتفرغ لافتتاح».

(٧) انظر: «أعلام الحديث» (٣/ ١٦٢٦ ـ ١٦٢٧، ط. جامعة أم القرى) وعنه الكرماني في «شرح صحيح البخاري» (٢٤/ ١٢٣).

قال محمد تقي الدين: وكون أبي بكر الصديق لم يعش إلا سنتين بعد النبي ﷺ وشغله بقتال أهل الردة عن الفتوحات ليس نقصاً في حقه، فإن فتنة الردة كانت خطراً عظيماً على الإسلام، فإطفاء نارها منقبة عظيمة لأبي بكر الصديق، وهو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ بالأدلة القاطعة، واتفاق أهل السنة يدلك على ذلك.

الحديث السادس: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[١] الحديث. ولما سئل النبي ﷺ من أحب الناس إليك؟ قال: **«عائشة»** قيل: من الرجال؟ قال: **«أبوها»**[٢]. وفضائله كثيرة رضوان الله عليه، قال أبو عمر بن عبد البر: «ومكث أبو بكر في خلافته سنتين وثلاثة أشهر إلا خمس ليال[٣]، وقيل غير ذلك. انتهى من (المجلد الثاني) من «الاستيعاب»، صفحة (٢٤٧)».

قال شارح «الطحاوية» رحمه الله: «قوله: «ثم لعمر بن الخطاب»[٤] أي: ونثبت الخلافة بعد أبي بكر[٥] لعمر[٦]، وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، واتفاق الأمة بعده عليه، وفضائله[٧] أشهر من أن تنكر، وأكثر من أن تذكر، فقد روى عن محمد ابن الحنفية أنه قال: قلت لأبي: يا أبت، من خير الناس بعد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٨٦)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٦٣٧)، والطحاوي في «المشكل» (٥٣٠٤)، وابن حبان (٤٥٤٠، ٧١٠٦)، والحاكم (٤/ ١٢)، والحديث **صحيح**.

(٣) وقيل: سنتين وثلاثة عشر وعشر ليال، كما في «أنساب الأشراف» (٧٥ ـ «أخبار الشيخين») أو اثنين وعشرين يوماً، كما في «تاريخ مولد العلماء» لابن زبر (ص٣٧)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٤٢٠) وقيل غير ذلك، كما تراه في «الآحاد والمثاني» (رقم ٣٣، ٣٤، بعد ٣٦، ٤٩)، «تاريخ الخلفاء» (٢٢) لابن ماجه، «معرفة الصحابة» (١/ ١٧٢، ١٧٤ ـ ١٧٥) رقم (٦٧، ١٠١)، «المعجم الكبير» (١/ ٦١) رقم (٤١)، «أسماء الخلفاء والولاة وذكر مُدَدهم» (ص٣٥٣) مع «جامع السيرة» لابن حزم.

(٤) بعدها في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رضي الله عنه».

(٥) بعدها في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رضي الله عنه».

(٦) بعدها في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رضي الله عنه».

(٧) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «وفضائله رضي الله عنه».

رسول الله ﷺ؟ فقال: يا بني، أَوَ ما تعرف؟ فقلت: لا، قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول: ثم عثمان، فقلت: ثم أنت؟ فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين[1]. وتقدم قوله ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي، أبي بكر وعمر**»[2]. وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس[3] قال: وضع عمر على سريره، فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه، قبل أن يُرفع[4]، فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه، فإذا هو عَلي، فترحم على عمر، وقال: «ما خلفت أحداً أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وإيم الله، إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنت كثيراً ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: «**جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر**»، فإن كنت لأرجو، أو لأظنُّ أن يجعلك الله معهما»[5].

وتقدم حديث أبي هريرة[6] في رؤيا رسول الله ﷺ، ونزعه من القليب ثم نزع أبي بكر، ثم استحالت الدلو غَرباً: «**فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر، حتى ضرب بعطن**». وفي «الصحيحين»، من حديث سعد بن أبي وقاص: قال: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نساء من

---

(١) بنحوه من هذا الطريق عند البخاري (٣٦٧)، وأبي داود (٤٦٢٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢٠٤، ١٢٠٦)، والآجري في «الشريعة» رقم (١٨٦٦ ـ ١٨٦٩) وغيرهم، وللأثر طرق أخرى كثيرة، فصلت فيه في تعليقي على «المجالسة» (١/ ٤٦٢ ـ ٤٦٨)، وعلى (الكبيرة السابعة والخمسين) من تعليقي على «الكبائر» (النشرة الثانية) وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (ص٢٦٤) عن هذا الأثر: «هذا متواتر عن علي رضي الله عنه، فقبَّح الله الرافضة، وقال شيخنا ابن تيمية [في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٠٧)]: وقد روي عن علي من نحو من ثمانين وجهاً وأكثر أنه قال على منبر الكوفة...» وذكره.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) بعدها في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «رضي الله عنه».

(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «وأنا فيهم».

(٥) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه (٢٣٨٩) من حديث ابن عباس. ونحوه عند البخاري أيضاً كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٨٥).
وخرجته بتفصيل في تعليقي على «جلاء الأفهام» (ص٦٥٣ ـ ٦٥٥) لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رضي الله عنه»، وسبق تخريجه قريباً.

قريش، يكلّمنه، عالية أصواتهن... الحديث، وفيه... فقال رسول الله ﷺ: **«إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك»**[١]. وفي «الصحيحين» أيضاً، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: **«قد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم»**[٢]. قال ابن وهب: تفسير **«محدَّثون»**: ملهمون»[٣].

مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«قال البخاري بسنده عن عمرو بن ميمون قال: «رأيت عمر بن الخطاب[٤] قبل أن يصاب بأيام بالمدينة ووقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف قال[٥]: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا حمّلتما[٦] الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حملناها أمراً هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل.

قال: انظرا أن تكونا حمَّلْتُما الأرضَ ما لا تَطيق؟ قال: لا، فقال عمر: لئن سلمني الله لأَدَعنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً. قال: فما أتت عليه إلا رابعة[٧] حتى أصيب، قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب ـ وكان إذا مرَّ بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم[٨] خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل، وذلك في الركعة الأولى حتى تجتمع[٩] الناس، فما هو إلا أن كبَّر، فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلبُ، حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا[١٠] شمالاً إلا

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده برقم (٣٢٩٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه برقم (٢٣٩٦) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) أخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٨٩)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، باب من فضائل عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ (٢٣٩٨) من حديث عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ.

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٣٩ ـ ٥٤٠). (٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رضي الله عنه».

(٥) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «فقال».

(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «قد حملتما».

(٧) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «أربعة». (٨) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «فيهنَّ».

(٩) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «يجتمع».

(١٠) في مطبوع «شرح الطحاوية» من غير: «لا».

طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله(١). فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس، انظر من قتلني.

فجال ساعة، ثم جاء فقال: «غلام المغيرة» قال: الصنع؟ قال: نعم، قاتله(٢) الله، لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي(٣) بيد(٤) رجل يدعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثُرَ العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقاً.

فقال: إن شئت فعلت ـ أي: إن شئت قتلناهم؟(٥) ـ قال: كذبت، بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا إلى(٦) قبلتكم، وحجوا حجكم؟ فاحتُمِلَ إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذٍ، فقائل يقول: لا بأس(٧)، وقائل يقول: أخافُ عليه.

فأُتيَ بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أُتِيَ بلبن فشربه فخرج من جرحه(٨)، فعلِموا(٩) أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا(١٠) يُثنون عليه وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقَدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليتَ فعدلتَ، ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كَفَافٌ لا عليَّ ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرضَ، قال: رُدّوا عَليَّ الغلام؟ قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك وأتقى

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «سبحان الله سبحان الله».
(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «قال: قاتله».
(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «منيتي». (٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «على يد».
(٥) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «قتلنا».
(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية» من غير: «إلى».
(٧) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «لا بأس عليه».
(٨) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «جوفه». (٩) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «فعرفوا».
(١٠) في مطبوع «شرح الطحاوية» من غير: «فجعلوا».

لربك، يا عبد الله بن عمر، انظر ما عليَّ مِن الدين؟ ـ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفَى له مال آل عمر فَأَدِّه من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فَسلْ في قريش، ولا تعد[١] إلى غيرهم، فأد عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ـ وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

فَسلَّم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدةً تَبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه. فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه[٢] به اليوم على نفسي، فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال[٣]: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أَذِنَت، قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهم إليَّ من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلِّم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فَإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني[٤] إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها[٥] فلما رأيناها قمنا، فولَجَت عليه، فبكت عنده ساعة، واستذن[٦] الرجال، فولجت داخلاً[٧] فسمعنا بكاءها من الداخل.

فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو[٨] الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء ـ كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمرة[٩] سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمِّر، فَإني لم أعزله عن[١٠] عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم ويحفظ

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «تعدهم».
(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «ولأوثرنَّ». (٣) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «قال».
(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «فردوني».
(٥) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «يسترنها»، والمثبت في «صحيح البخاري» أيضاً.
(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «واستأذن».
(٧) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «داخلاً لهم».
(٨) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «أي». (٩) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «الإمارةُ».
(١٠) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «من».

لهم حرمتهم وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، وأن[١] يتجاوز عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم ردء الإسلام، وجباة المال وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، أن يأخذ من حواشي أموالهم، ويرد[٢] على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ[٣]، أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتَل من ورائهم، ولا يكلَّفوا إلا طاقتهم، فلما قُبِضَ خرجنا به فانطلقنا نَمْشِي، فسلم عبد الله بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطاب قالت: أدخلوه، فأُدخل، فوُضع هنالك مع صاحبيه»[٤].

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

قال شارح «الطحاوية»: «لما دفن عمر اجتمع أهل الشورى، وهم ستة نص عليهم عمر رضي الله عنه، فقال: «ما أَجدُ أَحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر؛ أي الرهط، الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ؛ فسمى: علياً، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء»[٥].

«فلما فُرِغَ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه؟ والله عليه والإسلام؟ لينظرنَّ أفضلهم في نفسه، فأسكِتَ الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليَّ؟ والله عليَّ أن لا آلو عن أفضلكما[٦]؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما، فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقَدَمُ في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك، لئن أمَّرتك

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية» من غير: «أن».
(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «وأن تُردَّ».
(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية» من غير: «ﷺ».
(٤) أخرجه البخاري كتاب المناقب، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧٠٠)، وانظر: «شرح الطحاوية» (٥٤٠ ـ ٥٤٣).
(٥) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٤٣).
(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «أفضلكم».

لتعدلن؟ ولئن أمرت عثمان لتسمعنَّ ولتطيعنَّ؟ ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق، قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له عَليٌّ، وولج أهل الدار، فبايعوه»[١].

«ومن **فضائل عثمان** ﷺ الخاصة: كونه ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه[٢]، وفي «صحيح مسلم» عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيته وكاشفاً[٣] عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدَّث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدَّث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه، فدخل فتحدَّث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال: **«ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟!»**[٤]، وفي «صحيح البخاري»: لما كان يوم بيعة الرضوان وأن عثمان[٥] كان قد بعثه النبي ﷺ إلى مكة، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى **«هذه يد عثمان»**، فضرب بها على يده فقال: **«هذه لعثمان»**[٦]»[٧].

خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال شارح «الطحاوية»: «قوله: «ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه» أي: نثبت[٨] الخلافة بعد عثمان لعلي[٩]، لما قتل عثمان وبايع الناس علياً صار إماماً حقاً واجب

---

(١) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٤٣).
(٢) انظر: «المجالسة» (٢٤٠) وتعليقي عليه.
(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية» من غير: «و».
(٤) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه برقم (٢٤٠١) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «رضي الله عنه».
(٦) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عثمان بن عفَّان أبي عمرو القُرشي رضي الله عنه برقم (٣٦٩٨) من حديث عبد الله بن عمر.
وأطرافه بالأرقام (٣١٣٠، ٣٧٠٤، ٤٠٦٦، ٤٥١٣، ٤٥١٤، ٤٦٥٠، ٤٦٥١، ٧٠٩٥).
(٧) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٤٤ ـ ٥٤٥).
(٨) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «ونثبتُ».
(٩) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنهما».

الطاعة، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة، كما دل عليه حديث سفينة[١]، أنه قال: قال رسول ﷺ: **«خلافة النبوة، ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله ملكه من يشاء»**[٢].

كانت[٣] خلافة أبي بكر الصديق: سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر: عشر سنين ونصفاً[٤]، وخلافة عثمان: اثنتي عشرة سنة[٥]، وخلافة عَلي: أربع سنين وتسعة أشهر[٦]، وخلافة الحسن: ستة أشهر.

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب[٧] بعد عثمان[٨] بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع أهل الشام، والحق مع علي رضي الله عنه.

من[٩] فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[١٠] ما في «الصحيحين» عن سعد بن أبي وقاص[١١] قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: **«أنت مني بمنزلة هارون من**

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «سفينة المقدَّم ذكرهُ».
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٤٦ و٤٦٤٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٥٥)، وأحمد (٥/ ٢٢٠ و٢٢١)، وفي «فضائل الصحابة» (٧٨٩، ١٠٢٧)، وابنه عبد الله في «زياداته على الفضائل» (٧٩٠)، وفي «السنة» (١٤٠٢ ـ ١٤٠٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٨١ ـ ١١٨٥)، وفي «الآحاد والمثاني» (١١٣، ١٣٩، ١٤٠)، والبزار (٣٨٢٧، ٣٨٢٨، ٣٨٢٩)، والطحاوي في «المشكل» (٣٣٤٩)، وابن حبان (٦٩٤٣، ٦٦٥٧)، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» (٣٤٤٦)، والطبراني (١٣، ١٣٦، ٦٤٤٤)، والحاكم (٣/ ١٤٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٤١، ٣٤٢)، **وإسناده حسن**.
(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «وكانت».
(٤) وخمس ليال. انظر: «تاريخ خليفة» (١٥٣)، «طبقات خليفة» (٢٢)، «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (١/ ١٨١)، «تاريخ المدينة» (٢/ ٦٦٥ وما بعد)، «تاريخ ابن ماجه» (ص٢٢ ـ ٢٣)، «معرفة الصحابة» (١/ ١٩٢)، «المعجم الكبير» (١/ ٢٢)، «تاريخ دمشق» (٢٣٥، ٣٨٦ ـ ٣٨٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠٩)، «أسماء الخلفاء والولاة وذكر مُدَدهم» (ص٣٥٣).
(٥) إلا اثنتي عشرة ليلة. انظر: «تاريخ خليفة» (١٧٧)، «تاريخ الخلفاء» (٢٣) لابن ماجه، «عيون المعارف» (ص٣٠٣)، «أسماء الخلفاء والولاة وذكر مُدَدْهم» (ص٣٥٤).
(٦) انظر: «الآحاد والمثاني» (١٦٥)، «معرفة الصحابة» (١/ ٢٩١)، «أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم» (ص٣٥٥)، «تلقيح فهوم أهل الأثر» (ص٨٤).
(٧) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».
(٨) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».
(٩) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «ومن».
(١٠) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».
(١١) في مطبوع «شرح الطحاوية» بعده: «رضي الله عنه».

موسى، **إلا أنه لا نبي بعدي**»[١]، وقال ﷺ يوم خيبر: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»، قال: فتطاولنا لها، فقال: «**ادعوا لي علياً**»، فأتي به أرمد، فبصق في عينيه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه»[٢]. ولما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «**اللهم هؤلاء أهلي**»[٣]»[٤].

«**قوله**[٥]: «**هم**[٦] **الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون**»:

تقدم الحديث الثابت في «السنن» وصححه الترمذي، عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها[٧] القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»[٨]، وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين في الفضل، كترتيبهم في الخلافة»[٩].

فضل العشرة المبشرين بالجنة

قال شارح «الطحاوية» ما نصُّهُ: «قوله: «وإنَّ العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ[١٠]، وقوله الحق وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي،

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٠٦)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص الليثي.

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٠٢)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٧) من حديث سلمة بن الأكوع.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص الليثي.

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٤٥ ـ ٥٤٧). (٥) هذا قول صاحب «الطحاوية» رحمه الله.

(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «وهم».

(٧) من مطبوع «شرح الطحاوية»، وسقطت من الأصل.

(٨) مضى تخريجه مطولاً، والحديث صحيح. (٩) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٤٨).

(١٠) بعدها في مطبوع «شرح الطحاوية»: «وبشرهم بالجنة، نشهدُ لهم بالجنة، على ما شهد =



وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح؛ وهو أمين هذه الأمة، رضي الله عنهم أجمعين».

تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة، ومن فضائل الستة الباقين من العشرة، ما رواه مسلم، عن عائشة ﵂: أَرِقَ رسول الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فقال: **«ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»**، قالت: وسمعنا صوت السلاح، فقال النبي ﷺ: **«من هذا»**؟ فقال: «سعد بن أبي وقاص، يا رسول الله جئت أحرسك»(١). وفي لفظ آخر: «وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام». وفي «الصحيحين» «أن رسول الله ﷺ جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يوم أُحد، فقال: **«ارم، فداك أبي وأمي»**(٢)، وفي «صحيح مسلم» عن قيس بن أبي حازم، قال: «رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ يوم أُحد قد شلت»(٣)»(٤).

قال في «الكواشف الجلية» ما نَصُّهُ: «أهل السنة والجماعة يشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ كالعشرة، وهم:

١ ـ أبو بكر، ٢ ـ وعمر، ٣ ـ وعثمان، ٤ ـ وعلي، ٥ ـ وعبد الرحمن بن عوف، ٦ ـ والزبير بن العوام، ٧ ـ وسعد بن أبي وقاص، ٨ ـ وسعيد بن زيد، ٩ ـ وأبو عبيدة بن الجراح، ١٠ ـ وطلحة بن عبيد الله، وقد صحت الأحاديث بالشهادة لهم بالجنة.

١١ ـ والحسن، ١٢ ـ والحسين؛ لما في حديث أبي سعيد الخدري(٥) أن

= لهم رسول الله ﷺ»، وهي ساقطة من مطبوع «سبيل الرشاد».

(١) الحديثُ أخرجه البخاريُّ في كتاب التمني، بابُ قوله ﷺ: **«لَيْتَ كَذَا وَكَذَا»** برقم (٧٢٣١)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﵁ رقم (٢٤١٠) من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ...﴾ الآية [آل عمران: ١٢٢] برقم (٤٠٥٩)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص برقم (٢٤١١) من حديث علي ﵁.

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكرِ طلحة بنِ عبيد الله برقم (٣٧٢٤) عن قيس بن أبي حازم، ولم يخرجه مسلم.

(٤) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٤٩).

(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «﵁».

النبي ﷺ قال: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**»[1].

١٣ ـ وثابت بن قيس بن شمَّاس؛ لقوله ﷺ: «**إنه من أهل الجنة**»[2].

١٤ ـ وعبد الله بن سلام؛ لما روى البخاري في «صحيحه» عن سعد بن أبي وقاص قال: «ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: «**إنه من أهل الجنة**» إلا لعبد الله بن سلام»[3].

١٥ ـ والرجل الذي قال فيه[4] النبي ﷺ: «**يطلع الآن رجل من أهل الجنة**» ففي حديث أخرجه الترمذي والنسائي عن أنس[5] أن النبي ﷺ قال في أيام ثلاثة: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»[6]، فطلع فيها رجل من الأنصار، فبات

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٧٦٨)، وابن ماجه (١١٨)، والنسائي في «الكبرى» (٨١٦٩، ٨٥٢٥ ـ ٨٥٢٨)، وأحمد (٣/٣)، والفسوي (٢/ ٦٤٤)، والطحاوي في «المشكل» (١٩٦٧)، وابن حبان (٦٩٥٩)، والحاكم (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٧)، **وإسناده صحيح**.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩) بسنده إلى أنس في قصة طويلة عند نزول آية رقم (٢) (الحجرات)، وفيها قول النبي ﷺ عن ثابت بن قيس: «**بل هو من أهل الجنة**»، وانظر: «المعجم الكبير» للطبراني (١٣١٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مناقِب عبدِ اللهِ بن سلام رضي الله عنه برقم (٣٨١٢)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن سلام (٢٤٨٣) من حديث سعد بن أبي وقاص الليثي.

(٤) في مطبوع «الكواشف الجلية» من غير: «فيه».

(٥) في مطبوع «الكواشف الجلية» زيادة: «رضي الله عنه».

(٦) أخرج هذه القصة: عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) رقم (٢٠٥٥٩) ـ ومن طريقه أحمد في «المسند» (٣/ ١٦٦) ـ، ومن طريق أحمد الضياء في «المختارة» (٧/ ١٨٦ ـ ١٨٨) رقم (٢٦١٩)، وعبد بن حميد في «المسند» (رقم ١١٥٩ ـ «المنتخب»)، والبزار في «المسند» (٢/ ٤٠٩) (رقم ١٩٨١ ـ زوائده «كشف الأستار»)، والطبراني في مكارم الأخلاق» رقم (٧٢)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» رقم (٧٦٤)، والتيمي في «الترغيب والترهيب» (١/ ٤٦٦) رقم (١١٠٨)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١٢١)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ١١٢) رقم (٣٥٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٦٤) رقم (٦٦٠٥)؛ قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري؛ قال: أخبرني أنس بن مالك باللفظ المذكور.

كذا عند جميعهم؛ إلا ابن عبد البر قال: «عن أنس»، ولم يقل: «أخبرني أنس».

ورواه عبد الله بن المبارك في «الزهد» رقم (٦٩٤)، و«المسند» رقم (١) عن معمر، وقال: «عن الزهري عن أنس» بمثله.

=

. . . .

= وأخرجه من طريق ابن المبارك مثله: النسائي في «السنن الكبرى» كتاب «عمل اليوم والليلة» رقم (٨٦٩)، باب ما يقول إذا انتبه من منامه (٦/ ٢١٥) رقم (١٠٦٩٩/ ١١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٧٥٤).

وعلقه عن ابن المبارك البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٦٤).

وأخرجه التيمي في «الترغيب» (١/ ٤٦٦ رقم ١١٠٨ و٢/ ٩١٥ رقم ٢٢٤٧، ط. زغلول، أو ٢/ ٥٢ ـ ٥٣ رقم ١٣٥ و٣/ ١٥١ ـ ١٥٢ رقم ٢٢٧٤، ط. أيمن شعبان) من طريق ابن المبارك، وعنده ـ في الموضعين ـ: «أخبرني أنس»!

وعزاه في «إتحاف السادة المتقين» (٨/ ٥١) إلى ابن أبي الدنيا في «ذم الحسد»، وعزاه في «الدر المنثور» (٨/ ١١٤) إلى الحكيم الترمذي.

وظاهر هذين الإسنادَيْن الصحة!! ولذا صححه المعلق على «مسند أحمد» (٢٠/ ١٢٥، ط. مؤسسة الرسالة)! وغيره!

قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٧٨): «رواه أحمد والبزار بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي البزار».

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٩٦، ط. الشعب [الحشر: ١٠]) بعد أن ساق إسناده عبد الرزاق ولفظه: «ورواه النسائي في «اليوم والليلة» عن سُويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر به، وهذا إسناد صحيح على شرط «الصحيحين»! لكن رواه عقيل وغيره عن الزهري عن رجل عن أنس؛ فالله أعلم».

قال أبو عبيدة: هذا الحديث تفرد به الزهري.

قال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٣٦٥/ ٢٦١١): «سألت أبي عن حديث رواه الزهري عمن لا يتهم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فطلع سعد**»، قال: «فقال أبي: قد تفرد الزهري بروايته هذا الحديث».

قال أبو عبيدة: **كان الزهري يدلِّس هذه القصة**، والأدلة على ذلك:

أولاً: الثابت عنه من طريق ابن المبارك عن معمر قوله: «عن أنس»، ومن نقل عنه قوله: «أخبرني أنس» فقد أخطأ، ولم يحصل هذا إلا في رواية التيمي، وقد أسنده في الموطن الأول من طريق عبد الرزاق ثم أحال على طريق ابن المبارك، فذكر ما عند عبد الرزاق، ولكنه في الموطن الثاني اقتصر على طريق ابن المبارك، وقال: «أخبرني أنس»، وهذا خطأ!.

ولم ينقل عن الزهري (حدثني أنس) غير عبد الرزاق، وهو ثقة حافظ، تكلم فيه من أجل روايته أحاديث في فضائل أهل البيت مع نسبته للتشيع، وقد اختلط في آخر عمره، وعده بعض الحفاظ من أثبت أصحاب معمر، والأدلة تقتضي وهمه في قوله هنا عن الزهري: «أخبرني أنس».

ثانياً: قال الدارقطني في كتابه «العلل» (٤/ ق٢٥/ ب) عن هذا الحديث: «اختلف فيه على الزهري: =

= فرواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري؛ قال: حدثني أنس.
وقال ابن المبارك: عن معمر عن الزهري عن أنس.
وكذلك قال إبراهيم بن زياد: عن الزهري عن أنس».
قال الدارقطني: «وهذا الحديث لم يسمعه الزهري من أنس»، ودلل على ذلك بقوله:
ثالثاً: «ورواه شعيب بن أبي حمزة وعقيل عن الزهري؛ قال: حدثني من لا أتَّهم عن أنس».
قال الدارقطني في «العلل» (٤/ ق٢٥/ ب): «وهو الصواب».
رابعاً: وهذا ما رجحه حمزة بن محمد الكناني الحافظ، قال فيما نقل عنه المزي في «تحفة الأشراف» (١/ ٣٩٥): «لم يسمعه الزهريّ من أنس، رواه عن رجل عن أنس، كذلك رواه عقيل وإسحاق بن راشد وغيره واحد عن الزهري»، قال الكناني: «وهو الصواب».
خامساً: ورجّح هذا أيضاً ابن حجر، قال في «النكت الظراف» (١/ ٣٩٥) بعد كلام حمزة الكناني، ما نصه: «قلت: وذكر البيهقي في «الشعب» أن شعيباً رواه عن الزهري: حدثني من لا أتَّهم عن أنس. ورواه معمر عن الزهري: أخبرني أنس. كذلك أخرجه أحمد عنه: ورويناه في «مكارم الأخلاق»، وفي عدة أمكنة عن عبد الرزاق»، قال: «وقد ظهر أنه معلول».
سادساً: قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٨٦٢): «رواه أحمد بسندٍ صحيح على شرط الشيخين، ورواه البزار، وسُمِّي الرجل في رواية له سعد، فيها ابن لهيعة» انتهى.
ثم تبيَّن له أن هذا غير صحيح، فقال الزَّبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٨/ ٥١) ما نصه: «قلت: وجدتُ بخط الحافظ في هامش «المغني» ـ وهو تخريج أحاديث الإحياء، وتتمة اسمه: «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للعراقي ـ عند قوله: «صحيح على شرط الشيخين» ما لفظه: «له علَّة؛ فإنَّ الزهري لم يسمعه عن أنس فيما يقال»».
سابعاً: قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ـ بعنايتي): «رواه أحمد بإسنادٍ على شرط البخاري ومسلم والنسائي، ورواته احتجّا بهم أيضاً إلا شيخه سويد بن نصر، وهو ثقة»، والعجب من بعض المعلقين عليه بقوله: «حسن»! فظاهر إسناده الصحة، وقد تعقب الناجيُ في «عجالة الإملاء المتيسرة» (ق٩٩/أ ـ المحمودية) المنذري بقوله: «قلت: النسائي إنما رواه في «اليوم والليلة» لا في «السنن» على العادة المتكررة في هذا الكتاب، لكن اكتفيت بذكر ذلك في نسختي لكثرته»، ثم ذكر كلام الحافظ حمزة الكناني والمزي وقال: «وهذه العلة التي فيه لم ينتبه لها المصنف».
فهؤلاء الأئمة (الدارقطني، وحمزة الكناني، والبيهقي، والعراقي، وابن حجر، والناجي) رجحوا رواية (الزهري عن مجهول عن أنس)، قال الزهري عن المجهول: «عمن لا =

. . . .

= أتَّهم»، والتوثيق هكذا على الإبهام لا يعتدّ به، ولا بد من تسميته ومعرفة كلام أئمة الجرح والتعديل فيه.
ثامناً: الصنعة الحديثية تقضي بوجود الواسطة المبهمة بين (الزهري) و(أنس)؛ فقد رواه عنه جمع من الثقات هكذا مخالفين (معمراً)، وهم:
أولاً: عقيل بن خالد، (ثقة ثبت، من أثبات أصحاب الزهري).
أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠/ ٣٢٦) من طريق ابن وهب، أخبرني حيوة، أخبرني عقيل، عن ابن شهاب، حدثني من لا أتهم عن أنس؛ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»**، فاطلع سعد بن أبي وقاص... وساقه بطوله، وعلقه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٢٦٥)، والذهبي في «السير» (١/ ١٠٩)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٩٥).
وخالف حيوةَ ابنُ لهيعة؛ فرواه عن عقيل أنه سمع الزهري يخبر عن أنس بن مالك... فذكره.
وحيوة ثقة، وقوله: «عن ابن شهاب، حدثني من لا أتهم عن أنس» أصح من رواية ابن لهيعة هذه، التي أخرجها البزار في «مسنده» (٢/ ٤٠٩) رقم (١٩٨١).
ثانياً: شعيب بن أبي حمزة (ثقة ثبت، من أثبات أصحاب الزهري).
أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٦٥) رقم (٦٦٠٦) من طريق أبي اليمان، أخبرني شعيب، عن الزهري؛ قال: حدثني من لا أتهم عن أنس بن مالك؛ أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ... فذكره الحديث بنحوه؛ غير أنه قال: فإذا توضأ أسبغ الوضوء، وأتم الصلاة، ثم أصبح مفطراً. قال عبد الله بن عمرو: فرمقتُه ثلاثة أيام وثلاث ليال، لا يزيد على ذلك، غير أني لا أسمعه يقول إلا خيراً... وذكر الحديث، وقال في آخره: ما هي إلا ما رأيت؛ غير أني لا أجد في نفسي سوءاً لأحد من المسلمين، ولا أقوله ولا أحسده خيراً أعطاه الله إياه. قال: فقلت: هؤلاء بلغن بك، وهي لا أطيق.
(تنبيه): أشار البيهقي إلى صحة هذه الرواية، فقد قال بعد أن أسنده من طريق عبد الرزاق التي فيها: «عن الزهري قال: أخبرني أنس»، وقال: «هكذا قال عبد الرزاق...» ثم قال:
«ورواه ابن المبارك عن معمر؛ قال: فقال: «عن الزهري عن أنس»»، ثم قال: «ورواه شعيب بن أبي حمزة عن الزهري»، وساق روايته، وقال: «وكذلك رواه عقيل بن خالد عن الزهري في الإسناد»؛ فأشار بهذا إلى مخالفة شعيب وعقيل لمعمر، ولذا ساقه كلامه ابن حجر في «النكت الظراف» (١/ ٣٩٥) في معرض ترجيحه أن القصة معلولة.
ثالثاً: معاوية بن يحيى الصّدفي، (ضعيف في رواية غير الشاميين عنه، وهو مستقيم في رواية الشاميين، وهذه منها).
أخرجه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» رقم (٧٦٥) من طريق الهقل بن زياد، عن الصدفي، حدثني الزهري، حدثني من لا أتهم عن أنس، بمثل حديث معمر. =

معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاث ليال؛ مستكشفاً حاله، فلم ير له كثير عمل، فأخبره الخبر فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلّاً لأحد من المسلمين، ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق.

١٦ ـ وعكاشة بن محصن؛ لما ذكر السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم..**»[(١)]، الحديث.

١٧ ـ والمرأة التي قالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله تعالى لي، فقال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك**»، فقالت: أصبر، ثم قالت[(٢)]: «إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها»[(٣)(٤)].

قال محمد تقي الدين: وبالجملة كل من شهد له رسول الله ﷺ أنه في الجنة نعتقد أنه من أهل الجنة، إذا روي بسند صحيح، وتخالف في ذلك الرافضة والخوارج كل المخالفة، ونعتقد أن كل من شهد غزوة بدر مع النبي ﷺ فهو في

= والهقل بن زياد شامي.
رابعاً: إسحاق بن راشد.
لم أظفر بروايته، وإنما ذكره الحافظ حمزة الكناني؛ كما في «تحفة الأشراف» (١/ ٣٩٥).
فهؤلاء الأربعة رووه عن الزهري؛ قال: «حدثني من لا أتهم عن أنس».
فهذه هي الرواية المحفوظة عنه، أما قول ابن المبارك عن معمر عن «الزهري عن أنس»؛ فقد دلسها الزهري! **ومعذرة أخي القارئ على هذه الإطالة، ولكني رأيت نفسي مضطراً إليها من باب التفصيل في ذكر علة هذه القصة التي انتشرت على ألسنة الوعاظ والخطباء فأحببت التدليل والتفصيل والتأصيل في ضعفها، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.**

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب برقم (٢٢٠) من حديث ابن عباس.
(٢) في مطبوع «الكواشف الجلية»: «فقالت».
(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب المرض، بابُ فضل مَن يُصْرَعُ مِنَ الرِّيح (٥٦٥٢)، ومسلم في كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يُصيبه من مرض أو حُزن برقم (٢٥٧٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) انظر: «الكواشف الجلية» (٢٦٦ ـ ٢٦٧).

الجنة، لحديث حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى المشركين في مكة يخبرهم بأن النبي ﷺ متوجِّه إلى غزوهم، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[(١)]. وهذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه.

وصح عن النبي ﷺ من حديث جابر أنه قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»[(٢)]، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة، ومصداق ذلك في كتاب الله ﷻ قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

ومن عقيدة أهل السنة أنهم لا يشهدون لأحد من المسلمين بالجنة ولا بالنار إلا من شهد له الرسول ﷺ.

قال شارح «الطحاوية»: «قوله: «ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً» يريد إنا لا نقول في[(٣)] أحد معين من أهل القبلة: إنه من أهل الجنة أو من أهل النار، إلا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة كالعشرة ﷺ، وإن كنا نقول: إنه لا بدّ أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكننا نقف في الشخص المعين[(٤)]، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم؛ لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٥٥)، وأبو داود (٤٦٥٤)، والدارمي (٢٧٦١)، والحاكم (٤/ ٧٧ ـ ٨٨) من حديث أبي هريرة، والمصنف يريد حديث علي، أخرجه البخاري (٣٠٠٧، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٠٨)، وأحمد (٣/ ٣٥٠)، وابن حبان (٤٨٠٢) من حديث جابر، **وإسناده صحيح**.

(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «عن».

(٤) من لطائف ما يذكر هنا أن لعبد الغني المقدسي (ت٦٠٠هـ)، «فتوى بأنه لا يجوز القطع بالجنة للأئمة الأربعة»، منها نسخة بخطه في الظاهرية، مجموع ٧٨ (ق١٨٤ ـ ١٨٦). انظر: «منتخب فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية» (ص٤٧٧ ـ بعنايتي) لشيخنا الألباني.

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء، وهذا ينقل عن محمد ابن الحنفية، والأوزاعي.

والثاني: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث.

والثالث: أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون، كما في «الصحيحين» أنه مرّ بجنازة، فأثنوا عليها بخير، فقال النبي ﷺ: «**وجبت**» ومرّ بجنازة[١] أخرى، فأثنى عليها بشر، فقال: «**وجبت**». وفي رواية[٢]: «**وجبت**» ثلاث مرات، فقال عمر: يا رسول الله، ما وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أثنيتم عليه خيراً، وجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً، وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**»[٣]. وقال ﷺ: «**توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار**» قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «**بالثناء الحسن والثناء السيء**»[٤]. فأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار»[٥].

قال محمد تقي الدين: والراجح هو الذي أسلفت ذكره، وهو أننا لا نشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ، ومن الأدلة على ذلك: ما رواه أحمد والبخاري: «عن أم العلاء قالت: «فاشتكى عثمان بن مظعون عندنا، فمرَّضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك: لقد

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «ومر بأخرى».

(٢) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «رواية كرر».

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الجنائز، باب ثناءِ النَّاسِ عَلَى الميت برقم (١٣٦٧)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب فيمن يُثنى عليه خيرٌ أو شر من الموتى (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢١)، وأحمد (٣/٤١٦، ٦/٤٦٦)، وابن أبي شيبة (١٤/٥١٠)، وعبد بن حميد (٤٤٢)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٦٠١، ١٦٠٢)، والطحاوي في «المشكل» (٣٣٠٦، ٣٣٠٧)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٩٠٨)، وابن حبان (٧٣٨٤)، والطبراني (٢٠/رقم ٣٨٢، ٣٨٣)، والحاكم (١/١٢٠ و٤/٤٣٦)، والبيهقي (١٠/١٢٣) من حديث أبي زهير الثقفي، وهو **صحيح**.

(٥) انظر: «شرح الطحاوية» (٤٢٦ ـ ٤٢٧).

أكرمك الله ﷻ، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريك أن الله تعالى أكرمه؟**» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «**أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي**». قالت: فقلتُ: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك عمله**»(١) انفرد به البخاري دون مسلم. وفي لفظ له(٢): «**وما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به**» وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، ثم ذكر جماعة من أخبر النبي ﷺ بدخولهم الجنة. انتهى من «تفسير ابن كثير»(٣) في سورة الأحقاف [٧]».

فصل

«وقد ظهر في آخر الزمان من يضمن دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب لكل من أحبه أو أطعمه أو سقاه أو قضا له حاجة، كما يزعم التجانيون فيما نسبوه إلى شيخهم أحمد بن محمد التجاني(٤) (المتوفى سنة ١٢٣٠) المدفون في مدينة فاس بالمغرب الأقصى، والطريقة التجانية من طرق المتصوفة المشهورة في هذا الزمان(٥)، وأتباعها يعدون بالملايين، وأكثرهم في إفريقية السوداء، ويوجدون في مصر والشام والحجاز وبلاد الأتراك، وقد ألفت كتاباً سمَّيته «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية» قام بطبعه ونشره صاحب(٦) السماحة الوزير المفوض للإفتاء العام والبحوث العلمية والدعوة والإرشاد في الوقت الحاضر، وكان قبل ذلك رئيساً للجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ألا وهو الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، وهو من بقية السلف الصالح في هذا الزمان علماً

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت، إذا أُدرج في كفنه (١٢٤٣)، وأطرافه بالأرقام (٢٦٨٧، ٣٩٢٩، ٧٠٠٣، ٧٠٠٤، ٧٠١٨).

(٢) في «صحيح البخاري» رقم (١٢٤٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٩ ـ ١٠).

(٤) انظر ترجمته في: «الأعلام» للزركلي (١/ ٢٤٥).

(٥) رد عليهم جمع، مثل: الشيخ عبد الرحمٰن بن يوسف الإفريقي في «الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية» وعلي بن محمد الدخيل الله في كتابه «التيجانية دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنّة» وهاشم رجب في «القنديل لكشف ما في كتب التيجانية من الزيغ والأباطيل» وكلها مطبوعة، وظفرتُ بردود نفيسة عليهم في مجلة «الشهاب» الجزائرية، فلتنظر، والله الموفق، لا ربّ سواه.

(٦) في الأصل: «صاحبه»!

وعملاً وورعاً[(١)]، أمتع الله المسلمين بطول بقائه ودوام ارتقائه، وقد رأيت أن أنقل شيئاً من الكتاب المذكور فقد جاء في صفحة (٨١) منه ما نصُّه:

الفصل الثاني: في فضل المتعلقين بالشيخ أحمد التجاني

اعلموا أن التجانيين رووا عن شيخهم فضائل تحصل للمتعلقين به مصادمة للكتاب والسنة وإجماع الأمة، وزعموا أن الشيخ التجاني كتب تلك الفضائل بيده، وسلّمها إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يقرأها ويضمنها له، فقرأها وضمنها له، وقع ذلك يقظة لا مناماً. انظر (صفحة ٤٤) من (الجزء الثاني) من «الرماح»، وهذه الفضائل زعموا أن الله يعطيهم إياها بسبب تعلقهم بشيخهم، وسأسرد هنا هذه الفضائل، وعددها تسع وثلاثون، أربع عشرة فضيلة تحصل لكل من اعتقد فيه الخير ولم يعترض على طريقه، وكان محباً له ولأصحابه ولكل من أطعمه أو سقاه أو قضى له حاجة إذا استمر على محبته حتى الموت، وأن يأخذ ورده ولم يصر من أصحاب طريقته، وسائر الفضائل وهي خمسة وعشرون خاصة بمن أخذ الطريقة والتزم شروطها:

الفضيلة الأولى: أن النبي ﷺ ضمن لهم أن يموتوا على الإيمان والإسلام.

الفضيلة الثانية: أن يخفف الله عنهم سكرات الموت.

الفضيلة الثالثة: لا يرون في قبورهم إلا ما يسرُّهم.

الفضيلة[(٢)] **الرابعة**: أن يؤمنهم الله تعالى من جميع أنواع عذابه وتخويفه وجميع الشرور، من الموت إلى المستقر في الجنة.

الخامسة: أن يغفر الله لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر.

السادسة: أن يؤدي الله تعالى عنهم جميع تبعاتهم ومظالمهم من خزائن فضله ﷻ لا من حسناتهم.

---

(١) مَدْحُ الهلالي للشيخ العلامة ابن باز ـ رحمهما الله تعالى ـ كثير، ومما ظفرت به بخط الهلالي على طرة كتابه: «الطريق إلى الله» إهداءاً لابن باز، وعليه ما صورته «هدية من المؤلف إلى الإمام المصلح الداعي إلى صراط الله على بصيرة سماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز مع أطيب التحيات»، وله فيه وفي ذويه مدح في شعر مشهور متداول.

(٢) في مطبوع «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية» بدون: «الفضيلة».

السابعة: أن لا يحاسبهم الله تعالى ولا يناقشهم ولا يسألهم عن القليل والكثير يوم القيامة.

الثامنة: أن يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم القيامة.

التاسعة: أن يجيزهم الله تعالى على الصراط أسرع من طرفة عين على كواهل الملائكة.

العاشرة: أن يسقيهم الله تعالى من حوضه ﷺ يوم القيامة.

الحادية عشرة: أن يدخلهم الله تعالى إلى الجنة بغير حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى.

الثانية عشرة: أن يجعلهم الله تعالى مستقرين في الجنة في عليين من جنة الفردوس وجنة عدن.

الثالثة عشرة: أن النبي ﷺ يحب كل من كان محباً له.

الرابعة عشرة: أن محبه لا يموت حتى يكون ولياً، قال ـ أي: «أحمد التجاني ـ قد أخبرني سيد الوجود ﷺ أن كل من أحبني فهو حبيب للنبي ﷺ، ولا يموت حتى يكون ولياً قطعاً، وقال لي سيد الوجود ﷺ: أنت من الآمنين ومن أحبك من الآمنين، وأنت حبيبي ومن[1] أحبك حبيبي، وكل من أخذ وردك فهو محرر من النار، وقال: أبشروا إن كل من كان في محبتنا إلى أن مات عليها يبعث من الآمنين على أي حالة كان، ما لم يلبس حلة الأمان من مكر الله، وقال: وأما من كان محباً ولم يأخذ الورد، فلا يخرج من الدنيا حتى يكون من الأولياء»[2].

ثم قلت في الرد على هذه الأباطيل في صفحة (٨٦) ما نصه:

«**قال محمد تقي الدين**: لم يستوف صاحب «الرماح» الفضائل التي وعد بذكرها بل اقتصر على ذكر ثلاث وثلاثين، وفي ما ذكره من الطوام والضلالات ما لا يبقي شكاً في أن هذه الطريق على الحال الراهنة يستحيل أن تجتمع في قلب شخص واحد مع ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحنيف، المبني على الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وسنعقّب عليها بالنقد والنقض حتى يتضح بطلانها وتنجلي ظلمتها، بحول الله وقوته وحسن توفيقه.

اعلم ـ أيها القارئ الموفق لمعرفة الحق واتباعه مع من كان، وحيث كان ـ

---

(١) في مطبوع «الهدية الهادية» بدون: «و». (٢) انظر: «الهدية الهادية» (٨١ ـ ٨٣).

أن ما ذكره صاحب «الرماح» من الفضائل؛ بزعمه له ولإخوانه في الطريقة، ولشيخهم بزعمهم، مردود من وجوه: بعضها إجمالي، وبعضها تفصيلي، ولنبدأ بالإجمالي، فنقول:

كل ما نسبوه إلى النبي ﷺ من الأخبار هو من شر أقسام الموضوع المفترى، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، فإن الأمة بعلمائها وأئمتها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى أن تقوم الساعة، أجمعت الأمة على أنه لا طريق لتلقّي خبر من الأخبار عن النبي ﷺ إلا بالسماع والمشاهدة في حياته الدنيوية، أو بواسطة الثقات[1] الأثبات بالسند المتصل، وما ذكروه من الأخبار ليس له سند أصلاً، وما زعموه من السماع كذب بإجماع الأئمة، ومن خرق إجماعهم ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم، وكان مشاقاً للرسول ﷺ ومتبعاً غير سبيل المؤمنين، ومن ذلك أن تلك الأخبار مناقضة لكتاب الله وللأخبار الصحيحة المروية بأسانيد كالشمس، معلومة التواتر أو الصحة العالية، إذا قرأت ما تقدم من الرد تبين لك خلاله فساد تلك الأخبار وبطلانها واضمحلالها»[2]. اهـ.

ومن شاء أن يطلع على الرد التفصيلي يجده في كتابي «الهدية الهادية»[3].

التحذير من اتباع جهلة المتصوفة فيما أحدثوه من البدع

قال شارح «الطحاوية» صفحة (٥٥٦): «وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برئاسته واجتهاده في العبادة، وتصفية نفسه، إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم، ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء، ومنهم من يقول: إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء أو[4] يدّعي لنفسه أنه[5] خاتم الأولياء، ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه، ليس له صانع مباين له، ولكن هذا يقول: هو الله! وفرعون أظهر الإنكار بالكلية[6]، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو

---

(١) في الأصل: «الثقافة»! والتصويب من «الهدية الهادية».
(٢) انظره (ص٨٧ ـ ١٠١). (٣) انظر: «الهدية الهادية» (٨٦ ـ ٨٧).
(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «و».
(٥) سقط من الأصل، والمثبت من مطبوع «شرح الطحاوية».
(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «بالكلية لكن كان فرعون في الباطن أعرف بالله منهم؛ فإنه كان مثبتاً للصانع».

الوجود الخالق، كابن عربي وأمثاله!! وهو لما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره قال: النبوة ختمت، لكن الولاية لم تُختم!

وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأن الأنبياء مستفيدون منها كما قال:

مقام النبوة في برزخ   فويق الرسول ودون الولي!!

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى في سورة يونس الآية [٦٢ ـ ٦٣]: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة، كما تقدم التنبيه[1] على ذلك، وقال ابن عربي أيضاً في «فصوصه»: «ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة[2]، فكان هو ﷺ موضع اللبنة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله النبي ﷺ، ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين، ويرى نفسه تنطبع في موضع اللبنتين، فيكمل الحائط، والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين، أن[3] الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب، واللبنة الفضية[4] هي ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو أخذ عن الله في الشرع ما هو في الصورة الظاهرة متبع فيه؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلا بد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك الذي يوحى إليه إلى الرسول ﷺ» قال: «فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع»[5].

قال محمد تقي الدين: «فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب،

---

(١) كذا في مطبوع «شرح الطحاوية»، وفي الأصل: «تنبيه».

(٢) يشير إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٧) بسنده إلى جابر بن عبد الله، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ دَاراً فَأَتَمَّهَا وأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ؛ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ!**». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ؛ جِئْتُ فَخَتَمْتُ الأَنْبِيَاءَ**».

(٣) سقط من الأصل.

(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «الفضة».

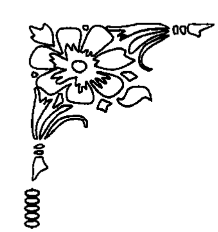
(٥) انظر: «فصوص الحكم» (ص٦٣).

وللرسل المثل بلبنة فضة، فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسل؟ تلك أمانيهم ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ الآية [٥٦] من سورة غافر. وكيف يخفى كفر من هذا كلامه؟ وله من الكلام أمثال هذا، وفيه ما يخفى منه الكفر، ومنه ما يظهر، فلهذا يحتاج إلى نقد جيد، ليظهر زيفه، فإن من الزغل ما يظهر لكل ناقد، ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير، وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة، اتحادية في الدَّرْكِ الأسفل من النار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين، لإظهارهم الإسلام، كما كان يظهره المنافقون في حياة النبي ﷺ ويبطنون الكفر، وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم، فلو أنه ظهر من أحد منهم ما يبطنه من الكفر، لأجرى عليه حكم المرتد، ولكن في قبول توبته خلاف[1]، والصحيح عدم قبولها»[2].

---

(١) لا تقبل توبته عند مالك، وهو مذهب الليث، وهو المنصور من الروايتين عن أبي حنيفة، وهو إحدى الروايات عن أحمد، نصرها كثير من أصحابه بل هي أنصّ الروايات عنه، قاله ابن القيم في «الإعلام» (٣/ ١٤٤). وانظر بسط المسألة في: «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب (٤/ ١٧٢ ـ ١٧٣) رقم (١٥٢٦) وتعليقي عليه، و«الصارم المسلول» (ص٣٤٠ وما بعد)، و«الحدود والتعزيرات عند ابن القيم» (ص٤٤٤ ـ ٤٥٤).

(٢) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٥٦ ـ ٥٥٨).




الإيمان بأشراط الساعة

قال شارح «الطحاوية» قوله: «(ونؤمن بأشراط الساعة: من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض [من] موضعها).

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قُبَّة من أدَم، فقال: «**اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص**(١) **الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً**»(٢) وروي: «**راية**» بالراء(٣)، وهما بمعنى، رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه والطبراني.

وعن حذيفة بن أسِيد، قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «**ما تذاكرون؟**» قالوا: نذكُرُ الساعة، فقال: «**إنها لن تقوم حتى تروا**(٤) **قبلها عشر آيات...**» فذكر: «**الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف**: خسف بالمشرق، **وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**»(٥) رواه مسلم، وفي «الصحيحين» - واللفظ للبخاري - عن

---

(١) الموت المفاجئ يصيب الغنم فيقتلها جميعاً. (منه).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة، باب ما يُحذَرُ من الغَدر برقم (٣١٧٦)، وأبو داود (٥٠٠٠) مختصراً، وابن ماجه (٤٠٤٢)، والطبراني (١٨/رقم ٤٠) وغيرهم من حديث عوف بن مالك.

(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «بالراءِ والغين».

(٤) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «ترون».

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة =

ابن عمر[(١)] قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ، فقال: «**إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور** ـ وأشار بيده إلى عينه ـ **وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية**»[(٢)]. وعن أنس بن مالك[(٣)] قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي إلا وأنذر قومه الأعور الدجال، ألا إن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر)**»[(٤)]، فسره في رواية: «أي كافر»، وروى البخاري وغيره، عن أبي هريرة[(٥)] قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها**». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾»[(٦)] الآية [١٥٩] من سورة النساء، وأحاديث الدجال، وعيسى ابن مريم عليه السلام، ينزل من السماء ويقتله، ويخرج[(٧)] يأجوج ومأجوج في أيامه بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم ـ ويضيق هذا المختصر عن بسطها.

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب، فقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ

= (٢٩٠١) من حديث حُذيفة بن أسيد الغِفاري.

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «رضي الله عنهما».

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ (٧٤٠٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب ذِكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٦٩) من حديث عبد الله بن عمر.

(٣) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «رضي الله عنه».

(٤) أخرجه البخاريُّ في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ (٧٤٠٨)، ومسلم كتاب الفتن، باب ذكر الدجال وصفته وجامعه (٢٩٣٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة: «رضي الله عنه».

(٦) أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (٣٤٤٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) كذا في مطبوع «شرح الطحاوية»، وفي الأصل: «يخرج» دون واو في أوله.



بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ الآية [١٥٨] من سورة الأنعام، وروى البخاري عند تفسير الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا**[١] **عليها، فذلك حين** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»[٢]. وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو، قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول**[٣] **الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً**»[٤]. أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك أمور مألوفة؛ لأنهم بشر، مشاهدة مثلهم مألوفة، وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف، ثم مخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية؛ كما أن طلوع الشمس[٥] على خلاف عادتها المألوفة ـ أول الآيات السماوية، وقد أفرد الناس في أحاديث أشراط الساعة مصنفات مشهورة يضيق عن[٦] بسطها هذا المختصر»[٧].اهـ.

---

(١) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «آمنَ».

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير، باب ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ (٤٦٣٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

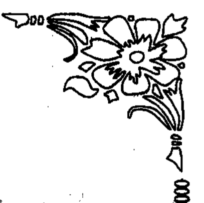
(٣) من مطبوع «شرح الطحاوية» ومصادر التخريج، وسقطت من الأصل.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه... برقم (٢٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وانظر: «المجالسة» (٢١٥٦ ـ بتحقيقي).

(٥) في مطبوع «شرح الطحاوية» زيادة بعدها: «من مغربها».

(٦) في مطبوع «شرح الطحاوية»: «على».

(٧) انظر: «شرح الطحاوية» (٥٦٤ ـ ٥٦٦)، وانظر في (المصنفات في أشراط الساعة): «معجم الموضوعات المطروقة» (٢/ ٩١٤ ـ ٩١٥ و١٠٢١ ـ ١٠٢٢).

فصل في ذكر أزواج النبي ﷺ

اعلم أن أهل السنة يحبون أزواج النبي ﷺ وأهل بيته ويكرمونهم، ولا يذكرونهم إلا بأحسن الذكر، بدون إفراط ولا تفريط، قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ الآية [٦].

قال الميسِّر «لاختصار ابن كثير» ما نصُّه: «عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما[1] **من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم:** ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، وإن ترك دَيناً أو ضياعاً، فليأتني فأنا مولاه»[2]. تفرد به البخاري.

وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهم بالإجماع»[3].

قال تعالى في سورة الأحزاب [٢٨ ـ ٣٤]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى

---

(١) كذا في مطبوع «تيسير العلي القدير»، وفي الأصل: «وما»!

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير، باب (٤٧٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تيسير العلي القدير» (٣/ ٤٧٧).

﴿يُوْتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قال: المحقق محمد صديق حسن في «تفسيره»: «قال الواحدي[١]: «قال المفسرون: إن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئاً من عرض الدنيا وطلبن منه الزيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهن شهراً، وأنزل الله آية التخيير هذه[٢]، وكنَّ يومئذ تسعاً: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم حبيبة، وسودة، وهؤلاء من نساء قريش، وصفية الخيبرية، وميمونة الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة».

﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: سعتها ونضارتها ورفاهيتها وكثرة الأموال والتنعم فيها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي: أقبلن إليَّ بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أعطكن المتعة ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ أي أطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ المراد به هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة، ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: تردن رسوله، وذكر الله للإيذان بجلالة محمد ﷺ عنده تعالى ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: الجنة ونعيمها ﴿فَإِنَّ[٣] ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ أي: اللاتي عملن عملاً صالحاً ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يمكن وصفه، ولا يقدر[٤] قدره، وذلك بسبب إحسانهن وبمقابلة صالح عملهن.

وقد خيرهنَّ رسول الله ﷺ بإذن الله في البقاء على الزوجية أو الطلاق، وفي «الصحيحين» عن عائشة قالت: «خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدّه طلاقاً»[٥]. وقد أخرج مسلم عن جابر قال: «أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر، فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمنَّ النبي ﷺ؛ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله! لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفاً فوجأت في عنقها؟

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٣٦٧).

(٢) انظر ما ورد في ذلك عند البخاري كتاب التفسير، باب ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ...﴾ (٤٧٨٥)، وباب ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ...﴾ (٤٧٨٦)، ومسلم كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بنيّة (١٤٧٥).

(٣) في الأصل: «كان»!

(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «يقادر».

(٥) أخرجه البخاريُّ في كتاب الطلاق، باب مَن خيَّر نساءَه (٥٢٦٢)، ومسلم في كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بنيّة (١٤٧٧) من حديث عائشة ﵂.

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: **«هن حولي يسألنني[1] النفقة»** فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟! فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده»[2]، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، قالت: فبدأ بي، فقال: **«إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك»** وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، فقال: **«إن الله قال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾» إلى تمام الآية. فقلت: أفي[3] هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، وفعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت»[4]. ثم لما اختار نساء رسول الله ﷺ إياه، أنزل فيهن هذه الآيات تكرمة لهن وتعظيماً لحقهن؛ فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ﴾، (مِنْ) بيانية لأنهن كلهن محصنات ﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾ أي: معصية ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: ظاهرة القبح، واضحة الفحش، وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهنّ وطهرهنّ، فهو كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي: يعذبهن الله مثلي عذاب غيرهن من النساء إذا أتين بمثل تلك الفاحشة، وذلك لشرفهن وعلو درجتهن وارتفاع منزلتهن، ولأن ما قبح من سائر النساء كان منهن أقبح، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل؛ لأن المعصية منه أقبح، ولذا فضل حد الأحرار على العبيد، وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع أن تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات، والمراد

---

(١) في الأصل: «يسألني».
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حَرَّم امرأته ولم ينوِ الطلاق (١٤٧٨) من حديث جابر بن عبد الله.
(٣) في مطبوع «فتح البيان»: «ففي أي».
(٤) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير، باب ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . . .﴾ (٤٧٨٥)، وباب ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ . . .﴾ (٤٧٨٦)، ومسلم في كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بنية برقم (١٤٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بالعذاب هنا الحد[١]، وقال مقاتل: هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة، كما أن إيتاء الأجر مرتين في الآخرة، وهذا حسن؛ لأن نساء النبي ﷺ لم يأتين بفاحشة توجب حد، وقد قال ابن عباس: «ما بغت امرأة نبي قط؛ وإنما خانتا في الإيمان والطاعة»[٢][٣].

قال محمد تقي الدين: قول ابن عباس: «ما بغت امرأة نبي قط» أي ما زنت، وخيانة امرأة نوح وامرأة لوط المذكورتين في سورة التحريم ليس معناها الزنى، وإنما هي عدم الإيمان وعدم طاعة زوجيهما نوح ولوط عليهما السلام.

«﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تضعيف العذاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً لا يتعاظمه ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ والقنوت الطاعة؛ أي: يطع، ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ يعني أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلي ما يستحقه غيرهن من النساء إذا فعلن تلك الطاعة، وفي هذا دليل قوي على أن معنى ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثاً؛ لأن المراد إظهار شرفهن ومرتبتهن في الطاعة والمعصية، لكون حسنتهن كحسنتين وسيئتهن كسيئتين، ولو كانت كثلاث سيآت لم يناسب ذلك كون حسنتهن[٤]، فإن الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرين. قيل: الحسنة بعشرين حسنة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن، وفيه إشارة إلى أنهن أشرف نساء العالمين.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال الزجاج: «لم يقل: كواحدة من النساء؛ لأن (أحد) لفظ[٥] عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة»[٦]. وقد يقال على ما ليس بآدمي، كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة ولا بعير، والمعنى: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف، قال ابن عباس: «يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم عليّ وثوابكن أعظم لدي» ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ الله

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «والعذاب بمعنى الحد».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٤٣٠ و٢٣/ ١١٢)، وابن عساكر (٥٠/ ٣١٨) وما سبق من «فتح البيان» (٥/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢) بتصرف.

(٣) انظر: «فتح البيان» (٥/ ٣٥٩ ـ ٣٦٢).

(٤) كذا في الأصل، ولعل بعدها «حسنتين».

(٥) في مطبوع «معاني القرآن وإعرابه»: «نفي»؛ وهو الصواب.

(٦) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٢٢٤).

فأطعنه، فإن الأكرم عند الله هو الأتقى، فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهن إنما تكون بملازمتهن للتقوى؛ لا لمجرد اتصالهن بالنبي ﷺ. وقد وقعت منهن ـ ولله الحمد ـ التقوى البينة والإيمان الخالص والمشي على طريقة رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن اتقيتن فلستن كأحد من النساء، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ والمعنى: لا تَلِنّ القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء، ولا ترققن الكلام. قال ابن عباس يقول: «لا ترضخن بالقول ولا تخضعن بالكلام»، وعنه قال: «مقارنة الرجال بالقول فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة وهي قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: فجور وشهوة أو شك وريبة أو نفاق». والمعنى: لا تقلن قولاً يجد المنافق والفاجر به سبيلاً إلى الطمع فيكن، والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقال إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع فيهن ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عند الناس؛ أي: حسناً مع كونه خشناً بعيداً من الريبة على سنن الشرع لا ينكر منه سامعه شيئاً، ولا يطمع فيكن أهل الفسق والفجور بسببه، أو قولاً يوجبه الإسلام والدين عند الحاجة إليه ببيان من غير خضوع ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن»[1].

قال محمد تقي الدين: وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ لما حج بأزواجه قال لهن: «**هذه وأحلاس البيوت**»[2]. ولذلك التزمت بعض أزواج النبي ﷺ ـ وهي

---

(١) ما مضى من «فتح البيان» (٥/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣) بتصرف واختصار.

(٢) أخرجه الطيالسي (١٦٤٧، ٢٣١٢)، وأحمد (٢/ ٤٤٦)، وأبو يعلى (٧١٥٤، ٧١٥٨)، والبزار (١٠٧٧، ١٠٧٨ ـ زوائده) في «مسانيدهم»، وابن سعد (٨/ ٥٥)، والطحاوي في «المشكل» (٥٦٠٣) **بإسناد حسن** من حديث أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ لما حجّ بنسائه، قال: «**إنما هي هذه الحجَّة، ثم الْزَمْنَ ظُهورَ الحُصُر**».
وبنحوه من حديث أبي واقد الليثي، عند أحمد (٥/ ٢١٨، ٢١٩)، وأبي داود (١٧٢٢)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٩٠٣)، وأبي يعلى (١٤٤٤)، والطحاوي في «المشكل» (٥٦٠٤)، وابن قانع (١/ ١٧٣)، والطبراني (٣٣١٨)، والبيهقي (٤/ ٣٢٧ و٥/ ٢٢٠٨)، والخطيب (٧/ ١١٠، **وإسناده حسن** في المتابعات والشواهد.
وبنحوه عند أحمد (٦/ ٣٢٤)، والحارث بن أبي أسامة (٣٥٨ ـ زوائده)، وأبي يعلى (٧١٥٨) في «مسانيدهم»، وابن سعد (٨/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، والطبراني (٢٤/رقم ٨٩) وفيه زيادة: «فكلهن يَحْجُجْنَ إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة، وكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من النبي ﷺ»، **وإسناده حسن**.
وفي الباب عن أم سلمة عند أبي يعلى (٦٨٨٥)، والطبراني (٢٣/رقم ٧٠٦)، وعن =

سودة ـ أن لا تخرج من حجرتها حتى تموت، وكذلك فعلت. ثم نعود إلى كلام القنوجي قال: «﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التبرج أن تبدي المرأة زينتها[1] ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة[2] الرجل.

والجاهلية الأولى، هي: ما قبل الإسلام، إذا كانت المرأة تكشف محاسنها وتتزين للناس، والجاهلية الأخرى: قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان»[3].

قال محمد تقي الدين: وقد بلغ السيل الزُّبى، واتسع الخرق على الراقع في هذا الزمان، ومحيت الغيرة والشرف من قلوب الرجال، وأصبح أكثرهم ديوثين، وفي الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة ديوث»**[4]. اهـ. وهو جدير بذلك، فإذا ذهب الدين والعرض فلا خير في الحياة. اهـ.

«﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الواجبة ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فيما أمر وفيما نهى، وخص الصلاة والزكاة ثم عمم فأمرهن بالطاعة ولرسوله في كل ما هو شرع؛ لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية، ولأن من واظب عليهما جرّتاه إلى ما وراءهما ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنما أوصاكن الله بما أوصاكن من التقوى، وأن لا تخضعن بالقول، ومن قول المعروف، والسكون في البيوت، وعدم التبرج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ والمراد بالرجس الإثم والذنب المدنسان للأعراض، الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به وفعل ما نهى عنه، فيدخل في ذلك كل ما ليس فيه رضا الله ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصبه على النداء أو المدح ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الأرجاس والأدناس

= ابن عمر عند ابن حبان (٣٧٠٦)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢٦).

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «من زينتها».

(٢) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «تستدعي بشهوة»!

(٣) انظر: «فتح البيان» (٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) بتصرف.

(٤) أخرجه الطيالسي (٦٤١)، وعبد الرزاق (٢٠٤٣٧) من حديث عمار، **وإسناده ضعيف**. والحديث **صحيح بشواهده**، منها: ما أخرجه النسائي (٥/ ٨٠ ـ ٨١)، وأحمد (٢/ ١٣٤)، والبزار (١٨٧٦)، وأبو يعلى (٥٥٥٦) في «مسانيدهم»، وابن خزيمة في «التوحيد» (٥٧٥، ٥٧٨)، والحاكم (١/ ٧٢ و٤/ ٢٤٦)، والطبراني (١٣١٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٩٩، ٧٨٠٣، ٧٨٧٧)، والضياء (١٩٨) عن ابن عمر (وعند الضياء زيادة: عن عمر رفعه: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق ... والدّيوث ورَجُلة النساء»**)، **وإسناده صحيح**، وصححه الذهبي في «الكبائر» (ص٢٥١ ـ بتحقيقي/ التحقيق الثاني)، وجوده المنذري في «الترغيب» (٢/ ٨١٢ ـ بعنايتي).

﴿تَطْهِيرًا﴾ كاملاً، وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ وزجر لفاعلها شديد. وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية، فقال ابن عباس وجماعة(١) من التابعين: إن أهل البيت المذكورين في الآية هن(٢) زوجات النبي ﷺ خاصة، قالوا: والمراد بالبيت بيت النبي ﷺ ومساكن زوجاته لقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وأيضاً السياق في الزوجات من قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

وقال(٣) أبو سعيد الخدري وجماعة من التابعين(٤): أن أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة، ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث وهو قوله: ﴿عَنكُمُ﴾ و﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، ولو كان للنساء خاصة لقال: (عنكن) و(ليطهركن)، وأجاب الأولون عن هذا بأن التذكير باعتبار لفظ الأهل، كما قال سبحانه: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته أو زوجاته، فيقول: هم بخير. ولنذكر ههنا ما تمسك به كل فريق.

أما الأولون؛ فتمسكوا بالسياق، فإنه في الزوجات كما ذكرنا، وبما أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: «نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة»(٥) وقال عكرمة: «من شاء باهلته، إنها نزلت في أزواج

---

(١) في مطبوع «فتح البيان»: «وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير».
(٢) في مطبوع «فتح البيان»: «هم».
(٣) في مطبوع «فتح البيان»: «وقاله أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة».
(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «وروي عن الكلبي أن أهل...».
وروي عن أبي سعيد مرفوعاً أنه قال: «**نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ** (أي رسول الله ﷺ) **وفي علي وحسن وحسين وفاطمة**».
أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٥)، وابن أبي حاتم والطبراني ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٤) ـ والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٣٩)، و«الوسيط» (٣/ ٤٧٠)، وهو عند ابن أبي حاتم موقوفاً ومرفوعاً، **وإسناده ضعيف، مداره على عطية العوفي**.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٥٣) ـ، وابن عساكر (٧٣/ ١١١)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠)، و«أسباب النزول» (ص٢٣٩)، وابن مردويه ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٣) ـ من طريقين عن ابن عباس، إحداهما حسنة.

النبي ﷺ»[(١)]، وروي هذا عنه بطرق.

وأما ما تمسك به الآخرون؛ فأخرج الترمذي وصححه[(٢)] عن أم سلمة قالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ الآية، وفي البيت: فاطمة وعلي والحسن والحسين، فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: **«هؤلاء أهل بيتي؛ فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً»**[(٣)]. وأخرج ابن جرير وجماعة[(٤)] من المحدثين والمفسرين عن أم سلمة أيضاً: «أن النبي ﷺ كان في بيتها على منامة له، عليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فقال رسول الله ﷺ: **«ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً»** فدعتهم[(٥)]، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فأخذ النبي ﷺ بفضلة كسائه، فغشَّاهم إياها، ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى السماء، ثم قال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»** قالها ثلاث مرات. قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي في الستر، فقلت: يا رسول الله وأنا معكم، فقال: **«إنك إلى خير»**[(٦)]. وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وغيرهم[(٧)] عن عائشة قالت:

---

(١) قولة عكرمة هذه، عند ابن أبي حاتم على إثر أثر ابن عباس السابق، أفاده ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ١٥٣)، وأسنده بنحوه عن عكرمة: ابن جرير (٢٢/ ٧، ٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٤٠)، و«الوسيط» (٣/ ٤٧٠)، وخرجته في جزء مفرد لي عن (المباهلة)، يسر الله إتمامه ونشره.

(٢) في مطبوع «فتح البيان»: «فأخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في «سننه» من طرق».

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٣٧٨٧)، وأحمد (٦/ ٢٩٢، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٢٣)، وابن راهويه (١٨٧٤)، وأبو يعلى (٦٨٨٨، ٦٩١٢) في «مسانيدهم»، وابن أبي شيبة (١٢/ ٧٣)، وابن جرير (١٩/ ١٠٥، ط. هجر)، وابن عدي (٥/ ١٩١٧)، والطبراني (٢٦٦٢، ٢٦٦٤، ٢٦٦٦، ٢٦٦٨ و٢٣/رقم ٦١٢، ٦٢٧، ٧٥٩، ٧٦٩ ـ ٧٧٣، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨٣، ٩٣٩)، والدولابي (٢/ ١٢٢)، والحاكم (٢/ ٤١٦)، والبيهقي (٢/ ١٥٠)، من طرق، هو بها **حسن** إن شاء الله تعالى.

(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه».

(٥) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «فدعوتهم»!.

(٦) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (١٩/ ١٠٥) بهذا اللفظ، وسبق تخريجه.

(٧) في مطبوع «فتح البيان»: «وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم».

«خرج النبي ﷺ غداة وعليه مِرطٌ مرحّلٌ من شعر أسود، فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ الآية»[١].

وأخرج مسلم عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال: «**أذكّركم الله في أهل بيتي**» فقيل لزيد: ومن أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده، آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس»[٢].

ثم قال[٣]: «وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين. أما الزوجات؛ فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قدمنا ولكونهن الساكنات في بيوته ﷺ النازلات في منازله، ويعضد ذلك: ما تقدم عن ابن عباس وغيره. وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين، فللّحديث[٤] الذي تقدم ذكره»[٥].

قال محمد تقي الدين: وهذا القول هو الصحيح، وهو واضح لا شك فيه، أما أزواج النبي ﷺ فالقرآن يدل عليهن دلالة لا تقبل الشك. وأما فاطمة، فهي بنت النبي ﷺ وسيدة نساء العالمين، وقد قال فيها النبي ﷺ: «**إن فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها**»، وفي لفظ: «**يسوؤني ما ساءها**»[٦]، وأما الحسن والحسين فقد سماهما النبي ﷺ ابنيه[٧]، وأبناء الإنسان من أهل بيته، وأما

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ (٢٤٢٤)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٧٢)، وأحمد (٦/ ١٦٢)، وأبو داود (٤٠٣٢)، والترمذي (٢٨١٣)، وفي «الشمائل» (٦٧)، والحاكم (٤/ ١٨٨)، والبيهقي (٢/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم.

(٣) أي: صديق حسن خان ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٤) في مطبوع «فتح البيان»: «فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب».

(٥) انظر: «فتح البيان» (٥/ ٣٦٥ ـ ٣٦٨).

(٦) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر أصهار النبي ﷺ، منهم أبو العاص بن الربيع (٣٧٢٩)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة.

(٧) ورد ذلك في حديث أخرجه الترمذيُّ برقم (٣٧٦٩) وغيره، وهو قوله ﷺ: «**هٰذان ابناي...**»، والحديث مضى تخريجه.

عليٌ؛ فقد نشأ في بيت النبي ﷺ واختاره بعلاً لابنته، وقال له: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى**»[١] كما تقدم في ذكر الخلفاء الراشدين، ولما خرج النبي ﷺ لمباهلة وفد نجران بعد ما أمره الله تعالى بقوله: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أخذ معه فاطمة وعلياً والحسن والحسين، وقد تقدم ذكر ذلك في (القسم الأول) من هذا (الكتاب)، وهؤلاء الأربعة أخص من غيرهم، ويليهم المذكورون في حديث زيد بن أرقم، الذين حرمت عليهم الصدقة، فمن كان يحب النبي ﷺ فلا بدّ أن يحب آل بيته، الذين توفى وهو عنهم راضٍ، ومن اتبعهم من ذرياتهم يلحقه الله تعالى بهم، أما من أشرك بالله أو ابتدع في دين الله؛ فليس من أولياء الله ولا من أولياء رسوله، فقد أخرج البخاري من حديث عمرو بن العاص: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن آل أبي فلان** ـ يعني أبا طالب ـ **ليسوا لي بأولياء، إنما ولي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلالها**»[٢]، انظر (الباب الأخير) من (سورة الشعراء) من (القسم الأول) من هذا (الكتاب).

وأما الذين يعتمدون على الانتساب المجرد، فقد ضلوا ضلالاً بعيداً، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

فصل في ذكر أزواج النبي ﷺ بالتفصيل وذكر بعض فضلهن رضي الله عنهن

وسأنقل ذلك من كتاب «كشف الغمة عن جميع الأمة»؛ لأني وجدته أحسن ترتيباً وأسهل على القراء من «سيرة ابن هشام» وغيرها، ممن جمع تراجم الأزواج الطاهرات.

ولا ينقصه إلا عدم عزو الأحاديث وذلك لا يضر[٣]؛ لأن أكثر ما ذكر هنا مرويٌّ في كتب الحديث المعتبرة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لا سيما أنا قد عملنا ـ ولله الحمد ـ على تخريجها.

الأولى: خديجة بنت خويلد[١] رضي الله عنها:

«قال أنس[٢]: «كان رسول الله ﷺ: يذكر خديجة كثيراً بعد موتها ويستغفر لها، ويقول: «**كانت وكانت**»، وكان يكرم صدائقها بعد موتها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، وربما دخلت عليه العجائز اللاتي كن يدخلن على خديجة؛ فيكرمهن[٣].

قال ابن عباس[٤]: «وكانت قد تزوجت قبل رسول الله ﷺ زوجين، ولم يتزوج رسول الله ﷺ عليها حتى ماتت (لثلاث سنين قبل الهجرة)[٥]، وأرسل الله ﷻ لها السلام مع جبريل عليه السلام»[٦].

وكانت عائشة[٧] تقول: ما غِرْتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان رسول الله ﷺ يكثر ذكرها، فأدركتني الغيرة يوماً، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً وقد أخلف الله لك خيراً منها؟ فغضب حتى اهتز مقدم رأسه من الغضب، ثم قال: «**والله ما أخلفَ اللهُ لي خيراً منها، لقد آمنت بي إذ كفر[٨] بي الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذْ حرمني الناس** رضي الله عنها»[٩].

---

(١) انظر ترجمتها في: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (٤/ ٣٧٩/ ٣٣٤٧)، و«الإصابة» (١١٠٨٦)، وأسد الغابة (٦٨٧٥، ط. دار المعرفة).

(٢) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنه».

(٣) أخرجه يونس بن بكير في «زياداته على السيرة» (ص٣٤٣ ـ ٣٤٤)، وأحمد (٦/ ٥٨، ٢٠٢، ٢٧٩)، وفي «الفضائل» (١٥٨٩)، والدولابي في «الذرية الطاهرة» حديث (٣٩، ٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٥١)، **وإسناده صحيح**، وانظر الحديث الآتي.

(٤) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنه».

(٥) (لثلاث سنين قبل الهجرة) غير موجودة في مطبوع «كشف الغمة».

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٧/ ٤٩٢) برقم (١٤٠٠٣).

(٧) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنها». (٨) في مطبوع «كشف الغمة»: «كفرني».

(٩) أخرجه البخاريُّ في كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨١٦)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٣٥) من حديث عائشة رضي الله عنها. وللبخاري برقم (٣٨١٨) من حديث عائشة، وفيه نحو ما في حديث أنس السابق، وفيه: «كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا =

والثانية: عائشة الصديقة بنت الصديق[(١)] رضي الله عنهما:

قال ابن عباس[(٢)]: كان رسول الله ﷺ يقول لما توفيت خديجة: «**نزل جبريل بصورة عائشة[(٣)] في سرقة[(٤)] حرير خضراء، فقال: يا محمد؛ هذه زوجتك في الدنيا والآخرة، عوضاً عن خديجة بنت خويلد**»[(٥)] **وقالت عائشة**[(٦)]: قال لي رسول الله ﷺ: «**إنْ جبريل يقرئك السلام**» فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته[(٧)].

وقالت عائشة[(٨)]: «وكان أزواج النبي ﷺ[(٩)] يرسلن فاطمة إليه كثيراً، ويقُلْن لها: قولي لأبيك إن أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة وأنا ساكتة، فتأتي فاطمة إليه، فيقول لها رسول الله ﷺ: «**أي بنيتي[(١٠)] ألست تحبين ما أحب؟**» فتقول: بلى، قال: «**فأحبي هذه**»، فترجع فاطمة فتخبرهن بما قال لها رسول الله ﷺ، فيقُلْن لها: ما أغنيتِ عنا من شيء، فارجعي إليه ثانياً، فلما أكثرن على فاطمة، قالت: لا أكلمه فيها أبداً؛ فسكتن»[(١١)].

= امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**»، وما سبق من «كشف الغمة» (١٠٧ ـ ١٠٨).

(١) انظر ترجمتها في: «طبقات ابن سعد» (٨/ ٥٨ ـ ٨١)، و«المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٦٨)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٣٥)، و«أزواج النبي ﷺ» لأبي عبيدة (٢٦) و«المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ» (٣٩)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤١)، و«نسب قريش» (٢٧٦)، و«السمط الثمين» (٣٣).

(٢) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنهما». (٣) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنها».

(٤) سَرَقَة على وزن خشبة. (منه).

(٥) أخرجه الترمذيُّ برقم (٣٨٨٠) وأصله عند مسلم (٢٤٣٨) من حديث عائشة نفسها.

(٦) في مطبوع «كشف الغمة»: «وكانت رضي الله عنها تقول».

(٧) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم (٣٧٦٨)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ (٢٤٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٨) في مطبوع «كشف الغمة»: «قالت رضي الله عنها». (٩) في مطبوع «كشف الغمة»: «أزواجه ﷺ».

(١٠) في مطبوع «كشف الغمة»: «بنية».

(١١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ برقم (٢٤٤٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرج البخاريُّ بعضه في كتاب الهبة، باب مَن أهدى إلى صاحبه وتحرَّى بعض نسائه دون بعض برقم (٢٥٨١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقالت عائشة رضي الله عنها[(١)]: «وكان الناس يتحرون بهداياهم إلى رسول الله ﷺ يوم نوبتي، فغارت أم سلمة وصواحبها، وقلن: نكلِّم رسول الله ﷺ في ذلك يكلم الناس، ويقول: ألا من أراد أن يهدي هدية إلى رسول الله ﷺ فليهدها إليه حيث كان من بيوت نسائه، فكلّمته أم سلمة، فسكت (رسول الله)[(٢)] ﷺ، فأعادت عليه القول مرة أخرى، فقال: **«لا تؤذيني في عائشة»** فقالت: يا رسول الله أتوب إلى الله»[(٣)].

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يقول لي[(٤)]: **«إني لأعلم إذا كنت عني راضية؛ فإنك تقولين إذا كنت راضية: لا وربِّ محمد! وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم»**. فأقول له: نعم يا رسول الله! ما أهجر إلا اسمك فقط[(٥)].

وقالت عائشة: «كان[(٦)] رسول الله ﷺ يسابقني؛ فأسبقه، فلما لحقني اللحم كان يسبقني»[(٧)].

وقال أنس[(٨)]: «لما[(٩)] قربت وفاة عائشة رضي الله عنها، قيل لها: ندفنك مع رسول الله ﷺ، فقالت: إنِّي أحدثت بعده أموراً»[(١٠)]. فلما توفيت سنة ثمان

---

(١) في مطبوع «كشف الغمة»: «قالت رضي الله عنها».
(٢) في مطبوع «كشف الغمة» من غير: «رسول الله».
(٣) أخرج البخاريُّ بعضاً منه في كتاب الهبة، باب قَبولِ الهدية (٢٥٧٤)، وأخرجه كاملاً في الكتاب نفسه، باب مَن أهدى إلى صاحبه وتحرّى بعض نسائه دون بعض (٢٥٨١) وأخرج مسلم بعضاً منه في كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة (٢٤٤٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) في مطبوع «كشف الغمة»: «وكانت تقول: قال لي رسول الله ﷺ».
(٥) أخرجه البخاريُّ في كتاب النكاح، باب غَيرةِ النساءِ ووجدهنَّ (٥٢٢٨)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٣٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٦) في مطبوع «كشف الغمة»: «قالت وكان...».
(٧) أخرجه الحميدي في «مسنده» (٢٦١)، وابن أبي شيبة (١٢/٥٠٨ ـ ٥٠٩)، وأحمد (٦/٣٩، ١٢٩، ١٨٢، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٨٠)، والطيالسي (١٤٦٢)، وأبو داود برقم (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، وأبو القاسم البغوي في «الجعديات» (٣٤٥٤)، والطحاوي في «المشكل» (٤/٣٦٠ ـ الهندية)، وابن حبان (١٣١٠ ـ موارد)، والبيهقي (١٠/١٧ ـ ١٨)، **وإسناده صحيح**. انظر: «الفروسية» (ص٨٥ ـ بتحقيقي)، «الصحيحة» (١٣١)، «الإرواء» (٥/٣٢٧).
(٨) في مطبوع «كشف الغمة»: «قال أنس رضي الله عنه».
(٩) في مطبوع «كشف الغمة»: «ولما».
(١٠) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/٥، ط. دار الكتب العلميَّة)، وبنحوه عند ابن أبي =

وخمسين؛ دفنت بالبقيع، وصلى عليها أبو هريرة، وكان خليفة لمروان بالمدينة، وكان عمرها ستاً وستين سنة رضي الله عنها»[١].

الثالثة: حفصة بنت عمر بن الخطاب[٢] رضي الله عنهما:

«قال عمر[٣]: «لما تأيّمت ابنتي حفصة من زوجها خنيس بن حذافة السهمي، عرضتُها على عثمان. فقال: سأنظر في ذلك، فلبثتُ ليالي؛ فلقيني. فقال: ما أريد أن أتزوَّج يومي هذا، قال عمر[٤]: فلقيت أبا بكر فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فلم يرجع إليَّ شيئاً، فكنت أوجد عليه من عثمان، فلبثتُ ليالي فخطبها إليَّ رسولُ الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وَجَدْتَ عليَّ حين عرضتَ عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً (حين عرضتها علي)[٥]؛ لأني[٦] سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، ولم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لنكحتها»[٧].

وكان ابن عمر يقول: «لما عرض عمر حفصة على عثمان، يوم ماتت بنت رسول الله ﷺ، قال له عثمان: حتى تستأمر لي رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاه فقال له رسول الله ﷺ: **«ألا أدلك على صهر هو خير لك من عثمان، وأدل عثمان على صهر هو خير له منك؟»** فقال: نعم، فقال: **«زوِّجني حفصة، وأزوِّج عثمان ابنتي»** فقال: نعم، ففعل رسول الله ﷺ[٨]. ولما بلغ عمر[٩] أن رسول الله ﷺ

= شيبة (٧/ ٥٣٦)، وابن سعد (٨/ ٧٤) كلاهما من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: قالت عائشة به، **وظاهر إسناده الصحة**.

(١) انظر: «كشف الغمة» (١٠٨ ـ ١١١).

(٢) انظر ترجمتها في: «طبقات خليفة» (٣٣٤)، و«طبقات ابن سعد» (٨/ ٨١)، و«نسب قريش» (٢٤٨)، و«المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ» (٤٥)، و«تسمية أزواج النبي ﷺ» لأبي عبيدة (٢٩)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤١)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٢٧)، و«السمط الثمين» (٩٥).

(٣) بعدها في مطبوع «كشف الغمة»: «رضي الله عنه».

(٤) بعدها في مطبوع «كشف الغمة»: «رضي الله عنه». (٥) غير موجود في مطبوع «كشف الغمة».

(٦) في مطبوع «كشف الغمة»: «إني».

(٧) أخرجه البخاريُّ في كتاب المغازي، باب (٤٠٠٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٣)، **وإسناده واهٍ بمرة**، فيه داود بن المحبَّر، ذاهب الحديث.

(٩) بعده في مطبوع «كشف الغمة»: «رضي الله عنه».

طلق حفصة حثا على رأسه التراب، وقال: ما يعبأُ الله بعمر وابنته بعد اليوم فنزل جبريل عليه السلام من الغد على رسول الله ﷺ وقال: «إن الله تعالى يأمرك أن تراجع حفصة بنت عمر، رحمةً لعمر؛ فإنها صوامة[1]، وإنها زوجتك في الجنة فراجعها[2]»[3].

ولدت حفصة[4] رضي الله عنها، وقريش تبني البيت قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين، وتوفيت سنة خمس وأربعين في أيام معاوية، وهي ابنة ستين سنة»[5].

الرابعة: ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية [6] رضي الله عنها:

«تزوجها رسول الله ﷺ في سنة سبع من الهجرة، كان اسمها بَرّة فسمَّاها النبي ﷺ ميمونة[7]، توفيت سنة إحدى وخمسين بوادي سَرف - وهو بينه وبين مكة عشرة أميال وصلى عليها ابن عباس ودخل قبرها[8] وبنو أخواتها رضي الله عنها»[9].

---

(١) في مطبوع «كشف الغمة»: «لصوامةٌ قوامةٌ».
(٢) في مطبوع «كشف الغمة»: «فراجعها ﷺ».
(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٠٥٢)، والبزار (٢٦٦٨ - زوائده)، والطبراني (٢٣/رقم ٣٠٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/رقم ٧٤٠٢) من طريق الحسن بن أبي جعفر عن عاصم عن زر عن عمار بنحوه، **وإسناده ضعيف**، فيه الحسن بن أبي جعفر، واضطرب فيه، فكان يرويه أيضاً عن ثابت عن أنس، كما عند الحاكم (٤/ ١٧، ط. العلمية)، وتطليق النبي ﷺ لحفصة ومراجعته لها، **صحيح ثابت**.
(٤) في مطبوع «كشف الغمة» بدون قوله: «حفصة».
(٥) انظر: «كشف الغمة» (١١١ - ١١٢).
(٦) انظر ترجمتها في: «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٣٢)، و«طبقات خليفة» (٣٣٨)، و«تاريخ خليفة» (٨٦ و٢١٨)، و«المعارف» (١٣٧ و٣٤٤)، و«المنتخب في كتاب أزواج النبي ﷺ» (٤٦)، و«تسمية أزواج النبي ﷺ» (٣٥)، و«السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» (١٣١)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٣٨).
(٧) أخرج البخاري، كتاب الأدب، باب تحويل الاسم إلى اسم أحسن منه (٦١٩٢)، ومسلم كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن (٢١٤١) عن أبي هريرة أن زينب كان اسمها برَّة، فقيل: تُزكي نفسها، فسماها رسول الله ﷺ زينب.
هذا هو الصحيح أن النبي ﷺ غيَّر اسم (برة) إلى (زينب) وليست بميمونة، كما في «كشف الغمة» وأقره المصنف عليه!!
(٨) في مطبوع «كشف الغمة»: «قبرها هو وبنو...».
(٩) انظر: «كشف الغمة» (١١٢).

الخامسة: أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية[(١)] رضي الله عنها:

قال الحافظ في «الإصابة»: «كانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد، فمات عنها فتزوجها النبي ﷺ في جمادى الآخرة سنة أربع، كانت ممن أسلم قديماً هي وزوجها وهاجرا إلى الحبشة»[(٢)].

قال صاحب «كشف الغمة»: «قالت أم سلمة: ولما خطبني رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله إني امرأة كبيرة ذات عيال! فقال: **«أما الذي ذكرت من السن؛ فقد أصابني الذي أصابك، وأما عيالك؛ فإنهم عيالي»** فقلت: سلمت نفسي إلى رسول الله ﷺ، فتزوجني من ابني، فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ جرتين أصنع فيهما حاجتي، ورحى ووسادة من أدم حشوها ليف، ثم قال رسول الله ﷺ: **«إني آتيكم الليلة إن شاء الله تعالى»** قالت: فقمت فأخرجت حبات من شعير كان عندي في جرة[(٣)]، وأخرجت شحماً فعصدته له، قالت: ثم جاء رسول الله ﷺ فبات عندي إلى الصبح، ثم فعل ذلك ثلاثة أيام»[(٤)].

قالت عائشة[(٥)]: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر، ودار على نسائه، يبدأ بأم سلمة؛ لأنها أكبرهن سناً، وكان يختم بي[(٦)].

---

(١) انظر ترجمتها في: «طبقات ابن سعد» (٨/ ٨٦)، و«طبقات خليفة» (٣٣٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٠٠)، و«المنتخب مِن كتاب أزواج النبي ﷺ» (٥٠)، و«تسمية أزواج النبي ﷺ» لأبي عبيدة (٢٧)، و«السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» (٩٩)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤٢)، و«الإصابة» (٤/ ٤٢٣)، و«مَن وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة» لابن حَيَّويه (ت٣٦٦هـ) (٧٩) وتعليقنا عليه.

(٢) انظر: «الإصابة» (٤/ ٤٢٣).

(٣) في مطبوع «كشف الغمة»: «في جر».

(٤) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٤٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٩٢٦)، وأحمد (٦/ ٣٠٧)، وعبد الرزاق (١٠٦٤٤)، والشافعي (٢/ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ترتيب السندي)، وابن سعد (٨/ ٩٠، ٩٣ ـ ٩٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٠٨٢)، والطحاوي (٣/ ٢٩)، وابن حبان (٤٠٦٥)، والطبراني (٢٣/رقم ٤٩٩، ٥٨٥، ٥٨٦)، والبيهقي (٧/ ٣٠١)، وفي «الدلائل» (٣/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤)، وأبو نعيم في «المعرفة» (٦/ رقم٧٤١٣ ـ ٧٤١٥)، وابن عبد البر (١٧/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)، وهو **صحيح**، وانظر: «الصحيحة» (٢٩٣).

(٥) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنها».

(٦) أخرجه مسلم كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث (١٤٧٤) (٢١) عن عائشة: «... كان إذا صلى العصر دار على نسائه، فيدنو منهن».
وبنحوه عند البخاري (٢٦٨، ٢٨٤، ٥٠٦٨، ٥٢١٥)، ومسلم (٣٠٩)، من حديث أنس.

وكان رسول الله[١] ﷺ كثيراً ما يَعِد نساءه بالشيء يطلب رضاهنّ، ولما تزوج أم سلمة قال لها: «**يا أم سلمة إني قد أهديت إلى النجاشي حُلة، وأواقي مسك، وإني لا أراه إلا قد مات وما أرى الهدية إلا ستردُّ إليَّ، فإن ردت إليَّ فهي لك**» قالت أم سلمة: فكان الأمر كما قال، فأعطى كل امرأة من نسائه أوقية أوقية، وأعطاني بقية المسك والحُلَّة[٢].

قال المسور بن مخرمة: وكان رسول الله ﷺ يشاور أم سلمة في بعض أموره، وهي التي (أشارت إليه)[٣] عام الحديبية بنحر البدن والحلق حين استشار الصحابة وسكتوا، وقالت: يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك؛ فيحلق رأسك، ففعل وقال لأصحابه: «**قوموا فانحروا، ثم احلقوا**» رضي الله عنها»[٤].

قال محمد تقي الدين: هذه الرواية مخالفة لما في «الصحيح» وهو أن النبي ﷺ لما منعه المشركون من دخول مكة عام الحديبية، واتفق معهم على أنه يرجع في تلك السنة ويعود من قابل؛ صار محصراً، فأمر الناس أن ينحروا بُدنهم ويحلقوا رؤوسهم، فلم يفعلوا ما أمرهم، فدخل على أم سلمة، فقال لها: «**هلك الناس**» وأخبرها أنه أمرهم فلم يمتثلوا، فأشارت عليه أن ينحر بدنه دون أن يكلم أحداً ويدعو الحلاق يحلق رأسه، ففعل النبي ﷺ ما أشارت عليه به، وقاموا كلهم فنحروا وحلقوا[٥]، وهذا من فضائلها، ورجاحة عقلها.

---

(١) في مطبوع «كشف الغمة» بدون قوله: «رسول الله».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٤٨٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٤٥٩)، وابن سعد (٨/ ٩٥٠)، وأحمد (٦/ ٤٠٤)، والطبراني (٢٥/رقم٢٠٥، ٢٠٦، ٨٢٦)، والطحاوي في «المشكل» (٣٤٧، ٣٤٨)، وابن حبان (٥١١٤)، والحاكم (٢/ ١١٨)، والبيهقي (٦/ ٢٦ ـ ٢٧)، وفي «المعرفة» (٨/ ٢٠٠)، **وإسناده ضعيف**، فيه مسلم بن خالد، ووالدة موسى بن عقبة لم أقف لها على ترجمة.

(٣) في مطبوع «كشف الغمة»: «أشار إليها في عام».

(٤) «كشف الغمة» (١١٢)، وسيأتي تنبيه المصنف على اللفظ المحفوظ في دواوين السنة في حديث المسْوَر، وهو عند البخاري كما سيأتي قريباً، والله الموفّق، لا ربَّ سواه.

(٥) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

قال الحافظ[١]: «قال ابن حبان[٢]: ماتت في آخر سنة إحدى وستين بعدما جاءها نعي الحسين بن علي».

السادسة: أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب القرشية[٣]:

قال صاحب «كشف الغمة»: «وقالت (أم حبيبة)[٤] ﵄: «كنت تحت عبيد الله بن جحش، فهاجر بي إلى الحبشة الهجرة الثانية، فارتد عن الإسلام وتنصر ومات هناك»[٥]، فبقيتُ على ديني إلى أن أرسل رسول الله ﷺ كتابه يخطبني من النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري، وكنت قد رأيت تلك الليلة يقال لي: يا أم المؤمنين! ففرحت بذلك المنام، فأولت[٦] الرؤيا أن رسول الله ﷺ يتزوجني فما هو إلا أن انقضت عِدَّتي، وإذا رسول النجاشي على بابي يستأذن ففتحت، فإذا هي جارية النجاشي، فقالت: يقول لك الملك: إن رسول الله ﷺ كتب إليَّ يخطبك مني، فأعطيتها سوارين من فضة وخلخالين وخواتيم كانت في يدي ورجلي سروراً بما بشَّرتني، فلما كان العشى أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين، فحضروا وأرسل يقول لي: «**وكِّلي من يزوِّجك فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن أبي العاص[٧] فوكلته فزوجني**».

وفي رواية: عن أم حبيبة ﵄ قالت: «لما بعث النبي ﷺ كتابه إلى النجاشي[٨] أن يزوَّجني له، جاءني النجاشي حتى وقف على باب داري واستأذن،

---

(١) في «الإصابة» (٤/ ٤٢٤).

(٢) في «الثقات» (٢/ ١٣٩): «ماتت أم سلمة سنة تسع وخمسين».

(٣) انظر ترجمتها في: «طبقات ابن سعد» (٨/ ٩٦)، و«طبقات خليفة» (٣٣٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢١٨)، و«تاريخ خليفة» (٧٩ و٨٦)، و«المعارف» (١٣٦ و٣٤٤)، و«المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣١٨)، و«المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ (٥٩)، و«تسميةُ أزواج النبي ﷺ» (٣٣)، و«السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» (١١١)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤٤ ـ ٤٥).

(٤) في مطبوع «كشف الغمة» بدون: «أم حبيبة».

(٥) انظر: «المستدرك» (٤/ ٢٠)، «طبقات ابن سعد» (٨/ ٩٧)، «الاستيعاب» (٤/ ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥، ١٩٢٩)، «سيرة ابن هشام» (١/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

(٦) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «تلك الرؤية».

(٧) انظر الخلاف في هذا: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٢١٦).

(٨) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «﵁».

فأذنت له[١]، فأخبرني بذلك فقلت له: بشرك الله بخير، فقالت لي أبرهةُ ـ جاريةُ النجاشي التي كانت تقوم على طيبه ودهنه ـ يقول لك الملك: «**وكِّلي مَنْ يزوجك**»، فوكلت فقام النجاشي فخطب، فقال: الحمد لله، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار. أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسله، أرسله بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبت إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقتها بأربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم، ثم خطب الوكيل، وقال: قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ[٢]، وقبض الدنانير، فلما وصل إليَّ المال، أرسلتُ إلى جارية أبرهة[٣] التي كانت بشَّرتني بكتاب رسول الله ﷺ فقلت لها: إنِّي كنت أعطيتك[٤]، يومئذ ما أعطيتُك، ولا مال لي، فهذه خمسون مثقالاً فخذيها فأبت، وأخرجت لي حقاً فيه كلما كنت أعطيتها وردته عليَّ، وقالت: عزم عليَّ الملك أن لا آخذ منك شيئاً، وقد تبعتُ دين محمد، وأسلمت لله رب العالمين، قالت أم حبيبة[٥]: ولما قبض خالد المال أراد القوم أن يقوموا. فقال النجاشي: اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا، ثم تفرقوا، ثم أمر النجاشي[٦] نساءه أن يبعثن إليَّ بكل ما عندهن[٧] من أنواع العطر، فأرسلن إليَّ الورس والعود والعنبر والزَّباد[٨] مع جارية النجاشي فأعطتني ذلك، ثم بكت وقالت: أقرئي رسول الله ﷺ مني السلام إذا قدمت عليه، وما زالت تتردد إليَّ بأنواع الهدايا، وتقول: لا تنسي حاجتي، قالت أم حبيبة[٩]: فلما[١٠] قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف

---

(١) في مطبوع «كشف الغمة»: «واستأذنت له»!
(٢) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ».
(٣) في مطبوع «كشف الغمة»: «إلى أبرهة التي».
(٤) في مطبوع «كشف الغمة»: «إني أعطيتك».
(٥) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنها». (٦) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنه».
(٧) في مطبوع «كشف الغمة»: «عندهم».
(٨) الزَّباد ـ بفتح أوله ـ: نوع من الطيب. (منه).
(٩) في مطبوع «كشف الغمة» زيادة: «رضي الله عنها».
(١٠) في مطبوع «كشف الغمة»: «ولما».

كانت الخطبة، فتبسم رسول الله ﷺ وأقرأته سلام الجارية، فقال: **«وعليها السلام ورحمة الله وبركاته»**[١].

قال أنس[٢]: وكانت أم حبيبة[٣] تقول: «سَألت رسول الله ﷺ عن المرأة يكون لها زوجان، ثم تموت فتدخل الجنة هي وزوجاها، لأيهما تكون للأول أو للآخر؟ فقال: **«تخير أحسنهما خلقاً كان معها في الدنيا، يكون زوجها في الجنة»**[٤].

قال عبد الله بن مسعود[٥]: «وكانت أم حبيبة[٦] كلما يدخل عليها أبو سفيان بن حرب ـ أبوها ـ تطوي فراش رسول الله ﷺ دونه، فإذا سألها عنه تقول له: أنت امرؤ نجس مشرك»[٧] وذلك قبل إسلامه، وقد أسلم يوم فتح مكة رضي الله عنه.

وكانت عائشة[٨] تقول: «لما قربت وفاة أم حبيبة دعتني، فقالت: قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من[٩] ذلك، فقلت: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز عنك، فقالت: سرَّيتني[١٠] سرك الله، ثم أرسلت إلى أم

---

(١) أخرجه مختصراً: الزبير بن بكار في «المنتخب من كتاب أَزواج النبي ﷺ» (ص٥٠ و٥١ ـ ط الرسالة)، وابن سعد (٨/ ٩٧) والحاكم (٤/ ٢٠، ٢١) ووقع نحوه لسودة. انظر: «طبقات بن سعد (٨/ ٥٦، ٥٧) وكتابي «المقدمات الممهدات السلفيات في تفسير الرؤى والمنامات» (ص٣٩٠، ٣٩١)، ففيه التفصيل، والحمد لله وحده.

(٢) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «رضي الله عنه». (٣) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «رضي الله عنها».

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ رقم ٤١١)، والبزار (١٩٨٠ ـ زوائده)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٤٥)، وابن عساكر (٥/ ٣٧١) من حديث أم حبيبة، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه عبيد بن إسحاق العطار متروك. انظر: «المجمع» (٨/ ٢٤)، وله شاهد من حديث أم سلمة، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣١٤١)، وفي «الكبير» (٢٣/ رقم ٨٧٠)، وابن جرير في «التفسير» (٢٣/ ٥٧)، وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعّفه أبو حاتم وابن عدي. انظر: «المجمع» (٧/ ١١٩).

(٥) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «رضي الله عنه». (٦) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «رضي الله عنها».

(٧) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٩٩ ـ ١٠٠) ـ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٩/ ١٥٠)، والذهبي في «السير» (٣/ ٣٥٣، ط. الفكر) من طريق الواقدي، وانظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ١٥٤، ط. دار الكتب العلمية)، «ثقات ابن حبان» (٢/ ٣٨)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٣٠٦).

(٨) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها «رضي الله عنها». (٩) سقطت من الأصل.

(١٠) كذا في «كشف الغمة»، وفي الأصل: «سررتني»!

سلمة، فقالت لها مثل ذلك»[(١)]، رضي الله عنهن أجمعين، توفيت سنة أربع وأربعين في أيام معاوية، رضوان الله عليها»[(٢)].

السابعة: جويرية بنت الحارث المصطلقية[(٣)] ﵂:

توفيت سنة ست وخمسين من الهجرة، وهي بنت خمس وستين سنة[(٤)]، قالت عائشة[(٥)]: «لما أصاب رسول الله ﷺ نساء بني المصطلق وقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها على تسع أواق، وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فبينا رسول الله ﷺ عندي إذ دخلت عليه جويرية تسأله في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتُ دخولها على النبي ﷺ، وعلمتُ أنه سيرى منها مثل الذي رأيت؛ فكلَّمته، فقال رسول الله ﷺ: **«أو نفعل بك خيراً من ذلك»** قالت: وما هو؟ قال: **«أؤدِّي عنك كتابتك؛ وأتزوَّجك»** قالت: نعم يا رسول الله، قال: **«قد فعلت»** ثم خرج الخبر إلى الناس، فقالوا: أصهار رسول الله ﷺ! فأعتقوا يا ناس ما في أيديكم من نساء بني المصطلق، فبلغ عتقهم مائة أهل بيت بتزويجه إياها، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها»[(٦)].

---

(١) أخرجه الحاكم في «**المستدرك**» (٤/ ٢٤)، وابن سعد (٨/ ١٠٠) ـ ومن طريقه ابن عساكر (٦٩/ ١٥١ ـ ١٥٢) ـ **وإسناده فيه لين**.

(٢) انظر: «كشف الغمة» (١١٢ ـ ١١٤).

(٣) انظر ترجمتها في: «طبقات ابن سعد» (٨/ ١١٦)، و«طبقات خليفة» (٣٤٢)، و«المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣٢٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٦١)، و«المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ» (٥٣)، و«تسمية أزواج النبي ﷺ» (٣٢)، «والسمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» (١٣٥)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤٣).

(٤) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «﵂».

(٥) في مطبوع «كشف الغمة» بعدها: «﵂».

(٦) أخرجه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص٢٦٣) ـ وهو في «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) ـ، وابن راهويه (٧٢٥)، والواقدي في «المغازي» (١/ ٤١١)، وابن سعد (٨/ ١١٦)، وأحمد (٦/ ٢٧٧)، وأبو داود (٣٩٣١)، وابن الجارود (٧٠٥)، وأبو يعلى (٤٩٦٣)، وابن جرير في «التاريخ» (٢/ ٦١٠)، والطحاوي (٣/ ٢١)، وفي «المشكل» (٤٧٤٨)، وابن حبان (٤٠٥٤، ٤٠٥٥)، والطبراني (٢٤/رقم ١٥٩)، والحاكم (٤/ ٢٦ ـ ٢٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٤٩ ـ ٥٠)، وأبو نعيم في «المعرفة» (٦/رقم ٧٤٣٩)، **وإسناده حسن**، وما سبق من «كشف الغمة» (١١٤).

الثامنة: سودة بنت زمعة القرشية العامرية[١] رضي الله عنها:

قالت عائشة[٢]: «لما أسنَّت سودة هَمَّ رسول الله ﷺ بطلاقها، فقالت: يا رسول! سألتُكَ الله لا تطلّقني، وأنت في حلٍّ من شأني، وإنما أريد أن أحشر في أزواجك، وإني قد وهبت يومي لعائشة، وإني لا أريد ما تريد النساء، فأمسكها رسول الله ﷺ حتى توفي عنها مع سائر من توفي عنهن من أزواجه»[٣].

قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة»: «توفيت في آخر زمان عمرَ، وقيل: سنة أربع وخمسين، ورجحه الواقدي»[٤].

التاسعة: زينب بنت جحش الأسدية[٥] رضي الله عنها ابنة عمة النبي ﷺ:

هذه ترجمتها أنقلها من «الإصابة» للحافظ ابن حجر:

«زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، نسبها في ترجمة أخيها عبد الله، وأمها أمية عمة النبي ﷺ تزوجها النبي ﷺ، سنة ثلاث، وقيل: خمس[٦]، ونزلت بسببها آية الحجاب[٧]، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة

---

(١) انظر ترجمتها في: «طبقات ابن سعد» (٨/ ٥٢ ـ ٥٨)، و«طبقات خليفة» (٣٣٥)، و«أزواج النبي ﷺ» (٢٥)، و«السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» (١١٧)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤٠).

(٢) بعدها في مطبوع «كشف الغمة»: «رضي الله عنها».

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٧٦)، والبخاري كتاب الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها وعتقها (٢٥٩٣)، وكتاب النكاح، باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرَّتها (٥٢١٢)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرَّتها (١٤٦٣) وغيرهم، وما سبق من «كشف الغمة» (١١٤).

(٤) انظر: «الإصابة» (٤/ ٣٣٩).

(٥) انظر ترجمتها في: «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٠١ و١١٥)، و«طبقات خليفة» (٣٣٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢١١)، و«المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ» (٥٧)، و«تسمية أزواج النبي ﷺ» (٣١)، و«السمط الثمين» (١٢٢)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤٣ ـ ٤٤).

(٦) في مطبوع «الإصابة»: «سنة خمس».

(٧) في قصة تراها في «صحيح البخاري» كتاب التفسير، باب قوله ﷺ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ...﴾ (٤٧٩٣)، و«صحيح مسلم» كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب (١٤٢٨).

وفيها نزلت[(١)] ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وكان زيد يدعى ابن محمد فلما نزلت ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، وتزوج النبي ﷺ امرأته بعدما[(٢)] انتفى ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه: من أن الذي يتبنى غيره يصير ابنه، بحيث يتوارثان إلى غير ذلك، وقد وصفت عائشة زينب بالوصف الجميل في قصة الإفك، وأن الله عصمها بالورع، قالت: «وهي التي تُسَامِيني من أزواج النبي ﷺ»[(٣)]، وكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بأنها بنت عمته، وبأن الله زوَّجها له، وهن زوجهن أولياؤهن.

وفي خبر تزويجها عند ابن سعد من[(٤)] طريق الواقدي بسند مرسل: «فبينا رسول الله ﷺ يتحدث عند عائشة إذ أخذته غشية، فسرِّي عنه وهو يتبسم، ويقول: «**من يذهب إلى زينب يبشّرها؟**» وتلا: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية، قالت عائشة: فأخذني ما قَرُب وما بَعُد؛ لما يبلغنا من جمالها، وأخرى هي أعظم وأشرف ما صنع لها، زوجها الله من السماء، وقلت: هي تفخر علينا بهذا[(٥)]. وبسند ضعيف عن ابن عباس لما أخبرت زينب بتزويج رسول الله ﷺ لها سجدت[(٦)].

ومن طريق عبد الواحد بن أبي عون قالت زينب: يا رسول الله! إني والله ما أنا كإحدى نسائك، ليست امرأة من نسائك إلا زوجها أبوها أو أخوها أو أهلها غيري زوَّجنيك الله من السماء[(٧)].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ (٤٧٨٧).
(٢) في مطبوع «الإصابة»: «بعده».
(٣) قطعة من آخر حديث الإفك الطويل، أخرجه البخاري كتاب المغازي، باب حديث الإفك (٤١٤١)، ومسلم كتاب التوبة، باب في حديث الإفك (٢٧٧٠).
(٤) في الأصل: «بن» وهو خطأ، والتصويب من «الإصابة».
(٥) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٠٢)، **وفي إسناده الواقدي وهو متروك**، وثبت ما ورد في آخره، كما سيأتي قريباً.
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٣٠ و٦/ ٤٥٣)، وابن سعد (٨/ ١٠٢)، وفي إسناده محمد بن السائب الكلبي، وهو متّهم بالكذب.
(٧) أخرج البخاري في كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (٧٤٢٠) من حديث أنس، وفيه: «فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوَّجكنّ أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات».
واللفظ المذكور لابن سعد (٨/ ١٠٢) قال: أخبرنا محمد بن عمر ـ وهو الواقدي ـ =

ومن حديث أم سلمة بسند موصول فيه الواقدي: إنها ذكرت زينب فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين عائشة، فذكرت نحو هذا، قالت أم سلمة: وكانت لرسول الله ﷺ معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة صوامة قوامة صناعاً، تصدق بذلك كله على المساكين[(١)].

وذكر أبو عمر[(٢)] كان اسمها برة، فلما دخلت على رسول الله ﷺ سماها زينب[(٣)]، قال الواقدي: ماتت سنة عشرين، وأخرج الطبراني من طريق الشعبي أن عبد الرحمٰن بن أبزى أخبره: أنه صلى مع عمر على زينب بنت جحش، وكانت أول نساء النبي ﷺ ماتت بعده[(٤)]، وفي «الصحيحين» ـ واللفظ لمسلم ـ من طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً»**، قال: فكنَّ يتطاولن أيتهن أطول يداً، قالت: وكانت أطولنا يداً زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتَصَدَّق[(٥)].

ومن طريق يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة نحو المرفوع، قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش، وكانت امرأة قصيرة ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذٍ أن النبي ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة، وكانت زينب امرأة صناع اليدين، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق به في سبيل الله[(٦)].

= حدثني عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون قال: قالت زينب... وذكره.
وله ألفاظ سبقت في تقرير المصنف لعلو الله على خلقه ﷻ.

(١) مضى تخريجه، وانظر: «المستدرك» (٤/ ٢٥)، «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٠٦)، «الحلية» (٢/ ٥٢)، «إثبات العلو» لابن قدامة» (٣١).

(٢) في «الاستيعاب» (ص٩٠٦ ـ ط. دار الأعلام).

(٣) ثبت ذلك عند البخاري (٦١٩٢)، ومسلم (٢١٤١).

(٤) أخرجه الطبراني (٢٤/ ٥٠)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٠٨٥) وغيرهما من غير الطريق المذكور، وعزوه للطبراني من طريق الشعبي به خطأ، وهو عند ابن سعد (٨/ ١١٠، ١١١) من هذا الطريق.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الزكاة، باب منه (١٤٢٠)، ومسلم ـ واللفظ له ـ كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل زينب أم المؤمنين ﵂ (٢٤٥٢) من حديث عائشة.

(٦) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٥)، والطبراني (٢٤/رقم ١٣٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٠٨٦)، وابن سعد (٨/ ١٠٨)، وأبو نعيم في «المعرفة» (٦/رقم ٧٤٢١) من طريق يحيى بن سعيد به، **وإسناده صحيح على شرط مسلم**، وأصله في «الصحيحين» كما =

وروينا في «القطعيات»[(١)] من طريق شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد عن ميمونة بنت الحارث قالت: «كان رسول الله ﷺ يقسم مما[(٢)] أفاء الله عليه في رهط من المهاجرين، فتكلمت زينب بنت جحش، فانتهرها عمر، فقال رسول الله ﷺ: «**خلِّ عنها يا عمر؛ فإنها أواهة**»[(٣)]، وأخرج ابن سعد بسند فيه الواقدي عن القاسم بن محمد قال: قالت زينب حين حضرتها الوفاة: «إني قد أعددت كفني، وإن عمر سيبعث إليَّ بكفن، فتصدَّقوا بأحدهما، وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوي[(٤)] فافعلوا»[(٥)]، ومن وجه آخر عن عمرة قالت: «بعث عمر بخمسة أثواب، يتخيّرها[(٦)]. ثوباً ثوباً من الحراني، فكفنت منها وتصدقت عنها أختها حمنة بكفنها الذي كانت أعدته، قالت عمرة: فسمعت عائشة تقول: لقد

= تقدم، وأخرجه ابن حبان (٣٣١٤، ٦٦٦٥)، وانظر: «إتحاف المهرة» (١٧/ ٧٦٩، ٧١٩).

(١) كذا في الأصل بناءً على ما في «كشف الغمة»! وهو خطأ، صوابه «القطيعيات» نسبة لأحمد بن جعفر القطيعي (ت٣٦٨هـ)، واسم كتابه «الفوائد المنتقاة والأفراد الغرائب الحسان» المعروف بـ«جزء الألف دينار»، وطبع عن القسم المحفوظ من الظاهرية عن دار النفائس بالكويت بتحقيق أخينا البحاثة بدر البدر ـ حفظه الله ورعاه ـ والمثبت على طُرَّةِ المطبوع ما نصه:
«جزء الألف دينار وهو (الخامس)! من الفوائد المنتقاة والأفراد الغرائب الحسان» بينما المثبت على مصورة المخطوط المرفق به (ص١٥):
«وهو الأول» بدل «وهو الخامس»، ووجدته معدلاً بخط محققه في نسخة من المطبوع أهداها لشيخنا الألباني على الجادّة، وعليها بعض الاستدراكات الحسنة بخطه.
والحديث المذكور هنا، ليس في هذا القسم، وإنما في المفقود، ولا قوة إلا بالله.

(٢) في الأصل: «ما»! والمثبت في «الإصابة».

(٣) أخرجه بنحوه الطبراني (٢٤/رقم ١٠٨) **بسندٍ ضعيف** عن راشد بن سعد قال: دخل النبي ﷺ منزله ومعه عمر بن الخطاب، فإذا هو بزينب بنت جحش تصلي، وهي في صلاتها تدعو، فقال النبي ﷺ: «**إنها لأوّاهة**»، فإسناده منقطع، وفيه يحيى بن عبد الله البابلتي وهو ضعيف، وانظر: «المجمع» (٩/ ٢٤٨).
وفي إسناد «القطيعيات»: شهر بن حوشب، وهو **ضعيف**، وظفرت به من طريق شهر عند أبي نعيم في «المعرفة» (٦/ رقم ٧٤٢٤).

(٤) الحقو: الإزار. (منه).

(٥) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٠٩)، **وإسناده ضعيف جداً**.

(٦) كذا مطبوع «طبقات ابن سعد»: «يتخيّرها»، وهو الصواب، وفي الأصل: «بخرها».

ذهبت حميدة متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل[(١)].

وأخرج بسند فيه الواقدي عن محمد بن كعب: «كان عطاء زينب بنت جحش اثني عشر ألفاً، لم تأخذه إلا عاماً واحداً، فجعلت تقول: اللهم لا يدركني هذا المال من قابل فإنه فتنة، ثم قسمته في أهل رحمها، وفي أهل الحاجة، فبلغ عمر، فقال: هذه امرأة يراد بها خير، فوقف عليها وأرسل بالسلام، وقال: بلغني ما فرَّقتِ، فأرسل بألف درهم تستبقيها، فسلكت به ذلك المسلك»[(٢)].

قال الواقدي: تزوجها النبي ﷺ، وهي بنت خمس وثلاثين سنة، وماتت سنة عشرين، وهي بنت خمسين، ونقل عن عمر بن عثمان الحجبي أنها عاشت ثلاثاً وخمسين»[(٣)].

العاشرة: صفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية[(٤)] رضي الله عنها:

كانت تحت سلام بن مِشْكَم، ثم خلَّف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل كنانة يوم خيبر، فصارت صفية مع السبي، فأخذها دحية، ثم استعادها النبي ﷺ، فأعتقها وتزوجها[(٥)].

قال محمد تقي الدين: تفصيل ذلك ـ كما في الأحاديث الصحيحة ـ أن دحية الكلبي ـ وهو تاجر مشهور ـ جاء إلى النبي ﷺ بعدما نصره الله على يهود خيبر، وفتحها عنوة ـ أي: بالسيف لا بالصُّلح ـ جاءه دحية الكلبي، فقال: يا رسول الله أعطني جارية، فقال: اذهب إلى السبي وخذ جارية، فذهب واختار

---

(١) انظر: «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٠٩، ١١٠)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ رقم ٧٤٢٥).

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ١١٠)، وفيه الواقدي.

(٣) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٣١٣ ـ ٣١٤).

(٤) انظر ترجمتها في: «طبقات ابن سعد» (٨/ ١٢٠)، و«تاريخ خليفة» (٨٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٣١)، و«السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين» (١٣٨)، و«المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ» (٥٨)، و«تسمية أزواج النبي ﷺ» (٣٥)، و«الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين» (٤٥).

(٥) انظر: «الآحاد والمثاني» (٣١١٠)، و«المعجم الكبير» (٢٤/ رقم ١٧٣)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٧٤٤٣، ٧٤٤٤).

صفية، فجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إنها زوجة أميرهم ولا تصلح إلا لك ـ ومقصوده: أن النبي ﷺ سيكرمها، وأن ذلك التاجر ربما باعها، فلا تزال تتنقل من يد إلى يد وفي ذلك إهانة لها، ونزول من أشرف المنازل إلى أخسها وأحقرها؛ وفي الخبر: «ارحموا عزيز قوم ذل»(١) ـ فقال لدحية: «**دعها، وخذ غيرها**»، فبعث إليها بلالاً، فجاء بها ومعها ابنة عم لها، ومر بهما على قتلى يهود، فلطمت ابنة عمها وجهها وحثت التراب على رأسها ووجهها.

أما صفية، فكانت عاقلة رزينة، فلم تفعل شيئاً من ذلك، فوصلتا إلى النبي ﷺ وابنة عمها لا تزال تلطم وتصيح فقال لبلال: «**ماذا صنعت أنزعت الرحمة من قلبك؟**» وقال النبي ﷺ لمن عنده: «**أبعدوا عني هذه الشيطانة**»(٢)؛ يعني: ابنة عمها. كانت صفية رأت فيما يرى النائم أن القمر نزل من السماء فوقع في حجرها، فقصت الرؤيا على زوجها، فلطمها لطمة شديد ظهر أثرها في خدها، وفي عينها، وقال لها: أتتمنين مَلِكَ الحجاز ـ يعني: محمداً ﷺ ـ فلما رآها النبي ﷺ سألها عن ذلك الأثر، فأخبرته ولم يخرج النبي ﷺ من خيبر حتى طهرت صفية، ولما أراد النبي ﷺ أن يركب راحلته وضع ركبته على الراحلة، وأمر صفية أن تطأ على فخذه لتركب خلفه، فلم تشأ أن تضع قدمها على فخذ النبي إجلالاً وتعظيماً له، فوضعت ركبتها على فخذه وركبت، وقال بعض الصحابة لبعض: ما تظنون أن يفعل بها النبي ﷺ، أيتخذها سُرِّيَّة أم يتزوج بها؟ فتكون من أمهات المؤمنين، فقال بعضهم: إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي سرية، فلما ركب النبي ﷺ وهي خلفه ألقى عليها ثوبه؛ فظهر أنها من أمهات المؤمنين(٣).

---

(١) أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١١٨)، وقال العراقي في «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» (٥/ ٢٠٩٩/ ٣٣٠٩): «رواه ابن حبان في «الضعفاء» من رواية عيسى بن طهمان عن أنس. وعيسى ضعيف. ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال: «عالم يتلاعبُ به الصبيان»، وفيه أبو البختري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين»، وانظر: «كنز العمال» (١٥/ رقم ٤٣٢٩٩)، و«كشف الخفاء» (١/ ١٢٤)، و«الفوائد المجموعة» (٢٧٨)، وأخرجه البيهقي في «المدخل» رقم (٦٩٩) من كلام الفضيل بن عياض، وهو أشبه.

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٤/ ١٩٧، ط. مكتبة المعارف)، «وتاريخ الطبري» (٢/ ٣٧، ط. دار الكتب العلمية).

(٣) قصة زواج النبي ﷺ من صفية مطولة عند: مسلم في «صحيحه» كتاب النكاح، باب =

قال الحافظ في «الإصابة»: «فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يُعرِّس بها، فأبتْ عليه، فوجَدَ في نفسه؛ فلما كان بالصهباء وهي على بريد من خيبر نزل بها هناك، فمشطتها أم سُلَيم وعطّرتها، قالت أم سنان الأسلمية: وكانت من أضوء ما يكون من النساء، فدخل على أهله، فلما أصبح سألنها عما قال لها، فقالت: قال لي: **«ما حملك على الامتناع من النزول أولاً؟»** فقلت: خشيتُ عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده محبة[(١)].

وعن عائشة: إن رسول الله ﷺ كان في سفر، فاعتلَّ بعير لصفية، وفي إبل زينب بنت جحش فضل، فقال لها: **«إن بعيراً لصفية اعتل، فلو أعطيتها بعيراً»** فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية، فتركها رسول الله ﷺ ذا الحجة والمحرم شهرين أو ثلاثة لا يأتيها، قالت زينب: حتى يئست منه»[(٢)]. اهـ.

قال محمد تقي الدين: وهذا العقاب الذي عاقب به النبي ﷺ زوجته وابنة عمته زينب، هو من عدله ومكارم أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

وفي «الصحيح»: إن بعض أزواج النبي ﷺ قلن لصفية: ما أنت إلا يهودية، فأخبرت النبي ﷺ فقال لها: **«هلا قُلتِ لهنَّ: أبي هارون، وعمي موسى، وزوجي**

= فضيلة إعتاقه أَمَته ثم يتزوجها (١٣٦٥)، وأما قصة رؤيتها أن القمر نزل فوقع في حجرها ولطم زوجها لها، فقد أخرجها ابن سعد (٨/ ١٢٠ ـ ١٢١)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣١١٢، ٣١١٣)، وابن راهويه (٢٠٨٦)، والطبراني (٢٤/رقم ١٧٦، ١٧٧)، وأبو نعيم في «المعرفة» (٦/رقم ٧٤٤٥، ٧٤٤٦) وقال عنها الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٥١): «رجاله رجال الصحيح»، وانظر: «المطالب العالية» (٣/ ٤١)، وكتابي «المقدمات الممهدات السلفيات» (١٩٩ ـ ٢٠٠).

وأما قصة ابنة عمها ولطمها وجهها، وفيها قوله ﷺ: **«أبعدوا عني هذه الشيطانة»**، فنقلها ابن حجر في «الإصابة» (٧/ ٧٣٩) عن ابن إسحاق ـ من «زيادات يونس بن بكير» ـ قال: حدثني والدي إسحاق بالخبر جميعه، وهو **معضل**، ولم أقف عليه موصولاً.

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٢١ ـ ١٢٢) من طريق الواقدي، وهو متروك، وانظر: «الإصابة» (٧/ ٧٣٩، ط. الجيل).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٣١ و٢٦١)، وابن راهويه (١٤٠٩)، وابن ماجه (١٩٧٣)، وابن سعد (٨/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، والطبراني (٢٤/رقم ١٨٧)، وفي «الأوسط» (٢٦٢٩) ـ وبعضهم اختصره ـ وفي إسناده شُمَيْة، وسماها حماد بن سلمة مرة (سمية) وهي مجهولة، **فإسناده ضعيف**، وانظر: «النكت الظراف» (١٢/ ٣٩٣) لابن حجر، وما سبق في «الإصابة» (٧/ ٧٣٨ ـ ٧٤٠، ط. الجيل).

محمد»[(١)]، فلقّنها النبي ﷺ حجة دامغة؛ لأنها تفتخر بنبيين لا يشاركها فيها أحد من أزواج النبي ﷺ، وهي تشاركهن فيه، فشتان ما بينها وبينهن.

وعن عطاء بن يسار قال: «لما قدمت صفية من خيبر، أنزلت في بيت لحارثة بن النعمان فسمع [بها][(٢)] نساء الأنصار [وبجمالها][(٢)]، فجئن ينظرن إلى جمالها، وجاءت عائشة متنقبة [حتى دخلت عليها فعرفها][(٢)]، فلما خرجت خرج النبي ﷺ إثرها، فقال: «**كيف رأيتها يا عائشة؟**» قالت: رأيت يهودية! فقال: «**لا تقولي ذلك؛ فإنها أسلمت، وحَسُن إسلامها**»[(٣)].

وقال أبو عمر بن عبد البر: «كانت صفية عاقلة حليمة فاضلة، روينا أن جارية لها أتت عمر، فقالت: إن صفية تحبُّ السبت، وتَصِلُ اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت، فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود؛ فإن لي فيهم رَحِماً، فأنا أصلها. ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشَّيطان. قالت: اذهبي فأنت حرة»[(٤)].

وأخرج ابن سعد بسند حسن عن زيد بن أسلم قال: «اجتمع نساء النبي ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، واجتمع إليه نساؤه، فقالت صفية بنت حيي: إني والله يا نبي الله! لوددت أن الذي بك بي، فغمزن أزواجه ببصرهن، فقال: «**مضمضن**»

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الترمذي (٣٨٩٢)، والحاكم (٤/ ٢٩)، والطبراني (٢٤/رقم ١٩٦) من حديث صفية، وفي إسناده هاشم بن سعيد الكوفي، ضعيف، ولذا قال الترمذي عقبه: «وهذا غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، **وليس إسناده بذلك القوي**»، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٩٦٣).

وقول المصنف: «في «الصحيح»...» فيه تجوّز؛ نعم، ثبت الحديث بلفظ: «**إنّك ابنةُ نبيٍّ، وإنَّ عمَّكِ لنبيٌّ، وإنك لتحت نبيٍّ، ... تفخر عليك**» وقال لحفصة القائلة لها: «ابنةُ يهودي» ـ وليس «ما أنتِ إلا يهودية»! ـ: «**اتّقي الله يا حفصة**»، أخرجه عبد الرزاق (٢٠٩٢١) وعبد بن حميد (١٢٤٨)، وأحمد (٣/ ١٣٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٩١٩)، والترمذي (٣٨٩٤)، وأبو يعلى (٣٤٣٧)، وابن حبان (٧٢١١)، والطبراني (٢٤/رقم ١٨٦)، وأبو نعيم (٢/ ٥٥)، والضياء في «المختارة» (١٧٩٣ ـ ١٧٩٧) من حديث أنس، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، **وإسناده صحيح على شرط الشيخين**.

(٢) سقطت من الأصل، وأثبتها من مصدر التخريج.

(٣) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٢٦)، **وإسناده ضعيف جداً**، فيه الواقدي، وهو متروك، وشيخه أسامة بن زيد بن أسلم العدوي، ضعيف من قبل حفظه، وهو من مرسل عطاء.

(٤) ما سبق من «الاستيعاب» (٤/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧) رقم (٣٤٣٩) وعنه في «الإصابة» (٧/ ٧٤١، ط. الجيل).

فقلن: من أي شيء؟ فقال: **«من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»**(١).

اختلف في سنة وفاتها، والراجح أنها توفيت سنة اثنتين وخمسين، كان عمرها تقريباً اثنتين وستين سنة.

ملحق في فضائل صفية: ذكر الحافظ في «الإصابة» في ترجمة أم سنان الأسلمية أن ابن سعد روى عنها قالت: «كنت فيمن حضر عرس صفية فمشطناها وعطرناها وكانت من أضوء ما يكون من النساء فأعرس بها رسول الله ﷺ فسألناها فذكرت أن سُرَّ بها، ولم ينم تلك الليلة، لم يزل يتحدث معها، وأصبح فأولم عليها»(٢).

الحادية عشرة: زينب بنت خزيمة الهلالية(٣) رضي الله عنها:

قال الحافظ في «الإصابة»: «أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، وكانت يقال لها: أم المساكين، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم، وكانت تحت عبد الله بن جحش فاستشهد بأُحد فتزوجها النبي ﷺ، وكان دخوله بها بعد دخوله على حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة، وماتت(٤).

قال ابن الأثير: «ذكر ذلك ابن منده في ترجمتها حديث: **«أولكن لحاقاً بي أطولكن يداً»**(٥) الحديث، وقد تقدم في ترجمة (زينب بنت جحش) وهو بها أليق؛ لأن المراد بلحوقهن به: موتهن بعده، وهذه ماتت في حياته»(٦).اهـ.

قال محمد تقي الدين: فجملة النساء اللاتي تزوج بهن النبي ﷺ ودخل بهن وصرن أمهات المؤمنين إحدى عشرة امرأة، اثنتان ماتتا قبله ـ وهما: خديجة وزينب بنت خزيمة ـ وتسع عشن بعده صلاة الله وسلامه عليه.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٢/ ٢١٣) و(٨/ ١٢٨)، **وحسن** إسناده ابن حجر في «الإصابة» (٧/ ٧٤١، ط. الجيل)، **وهو من مرسل** زيد بن أسلم.

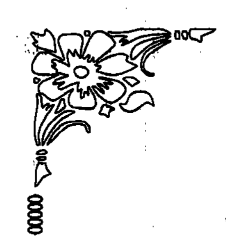
(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٢٢) **بسندٍ ضعيف**، وانظر: «الإصابة» (٤/ ٤٦٣).

(٣) انظر ترجمتها في: «الإصابة» (٤/ ٣١٥ ـ ٣١٦، أو ٨/ ٦٧٢، ط. الجيل)، «طبقات ابن سعد» (٨/ ١١٥)، «الآحاد والمثاني» (٥/ ٤٣١)، «أسد الغابة» (٧/ ١٢٩)، «السير» (٢/ ٢١٨).

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣٠٩٥)، والطبراني (٢٤/ رقم ١٤٨)، والحاكم (٤/ ٣٣) عن الزهري، ورجاله ثقات، وبنحوه عند الحاكم عن قتادة.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «أسد الغابة» (٧/ ١٢٩)، «الإصابة» (٤/ ٣١٥).



أسماء الله الحسنى

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الآية [١٨٠] من سورة الأعراف: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»**[١]، أخرجاه في «الصحيحين» ورواه البخاري وأخرجه الترمذي عن شعيب.. فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: **«يحب الوتر»**: **«هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمٰن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت**[٢]**، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك، الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»**، ثم قال الترمذي: «هذا حديث غريب، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث»[٣]. ورواه ابن حبان في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحدة (٦٤١٠)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل مَن أحصاها برقم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة، والترمذيُّ برقم (٣٥٠٨).

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «المقيت، الحسيب، الجليل».

(٣) سبق كلامه، وبيان أن الأسماء المذكورة مدرجة في الحديث. انظر لزاماً تعليقنا على (٣٩/٢ ـ ٤٥)، فهناك التفصيل.

«صحيحه»[١] من طريق صفوان به.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير[٢] منحصرة في تسعة وتسعين[٣]، بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك وابن أَمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أوْ أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجِلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً**»، فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «**بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها**»[٤].

فصل في شرح هذا الأسماء المباركة

قال المحقق أحد أئمة المحدثين في هذا العصر الأخير محمد صديق حسن القنوجي في أول تفسيره المسمى «فتح البيان» في شرح اسم الجلالة وبيان معناه:

١ ـ الله: «علم عربي مرتجل جامد عند الأكثر، خاص لذات الواجب الوجود، تفرد به الباري سبحانه، لم يطلق على غيره، ولا يشركه فيه أحد»[٥].

قال محمد تقي الدين: وهذا هو الصحيح خلافاً لمن قال: إنه مشتق؛ لأنه اسم الله سبحانه مع اختلاف قليل في اللفظ في جميع أخوات اللغة العربية، كالعبرانية والسريانية والآشورية وغيرهن.

٢، ٣ ـ الرحمٰن: «من الصفات[٦] لم يستعمل لغير الله[٧] ﷻ، قال[٨]

---

(١) برقم (٨٠٨ ـ «الإحسان») ولأبي نعيم جزء مفرد في طرقه، وهو مطبوع ـ ولله الحمد ـ بتحقيقي، وجهدتُ في تخريجه وحصر طرقه، ولابن حجر مجلس مفرد في تخريج الحديث المفصل، وتتبع الأسماء الواردة فيه، على وجه حسن، وهو منشور بتحقيقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٢) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «ليست».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «التسعة والتسعين».

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، وسبق تخريجه مفصلاً، وما سبق من «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٦٠ ـ ٤٦٤).

(٥) انظر: «فتح البيان» (١/ ٣٣).

(٦) في مطبوع «فتح البيان»: «الصفات الغالبة».

(٧) في مطبوع «فتح البيان»: «في غير الله». (٨) في مطبوع «فتح البيان»: «وقال».

أبو علي الفارسي: الرحمٰن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله تعالى، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إنما هو في جهة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وعن ابن عباس قال: هما اسمان، أحدهما أرق من الآخر. وقيل: معناهما ذو الرحمة جمع بينهما للتأكيد، وقيل غير ذلك، والأول أولى، وفي الرحمٰن من المبالغة ما ليس في الرحيم»[١].

قال ابن الأثير في «النهاية»: «في أسماء الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وهما اسمان مشتقان من الرحمة، مثل: ندمان ونديم، وهما من أبنية المبالغة، ورحمان أبلغ من رحيم، والرحمٰن خاص لله لا يسمى به غيره ولا يوصف، والرحيم يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رحمٰن»[٢].

٤ ـ مالك: ثم قال القنوجي: «قد اختلف العلماء أيهما أبلغ[٣] «ملك» أو «مالك»، والقراءتان مرويتان عن النبي ﷺ[٤] وأبي بكر وعمر، وذكرهما الترمذي، فذهب إلى الأول: أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشري، وإلى الثاني: أبو حاتم والقاضي أبو بكر ابن العربي، والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له، بالبيع والهبة والعتق ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فأحدهما أقوى من الآخر في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله»[٥].

٥ ـ القدوس: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «القدوس» هو الطاهر المنزه عن العيوب، وفعُّول[٦]، من أبنية المبالغة، وقد تفتح القاف، وليس بالكثير، ولم يجئ منه إلا قَدُّوس، وسَبُّوح، وذَرُّوح»[٧].

٦ ـ السلام: قال: «في أسماء الله تعالى «السلامُ» قيل: مَعناهُ سلامتُه مما

---

(١) انظر: «فتح البيان» (١/ ٣٣ ـ ٣٤).

(٢) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢١٠) باب الراء مع الحاء تحت مادة «رحم».

(٣) في مطبوع «فتح البيان»: «أيما أبلغ». (٤) في مطبوع «فتح البيان»: «وآله وسلم».

(٥) انظر: «فتح البيان» (١/ ٣٧).

(٦) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «نقول»!!

(٧) انظر: «النهاية» (٤/ ٢٣) باب القاف مع الدال تحت مادة «قدس».

يلحق الخلَق من العَيب والفَناء، والسلام في الأصل السلامَةُ، يقال: سَلِمَ يسلَم سلامَة وسلاماً. ومنه قيل للجنة: (دار السلام)؛ لأنهاء دارُ السلامة من الآفات»(١).

٧ ـ **[المؤمن]**، قال: «في أسماء الله تعالى **(المؤمن)** هو الذي يصدُق عبادَه وعده، فهو من الإيمان بمعنى(٢) التصديق، أو يؤمِّنهم في القيامة من عذابه، فهو من الأمان والأمن ضِدُّ الخوف»(٣).

قال محمد تقي الدين: الثاني هو الصحيح؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ ولقول النبي ﷺ: «**اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»(٤).

٨ ـ **المهيمن**: قال ابن كثير في آخر «سورة الحشر»: «﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: هو(٥) الشاهد على خلقه: بمعنى(٦) رقيب عليهم»(٧)اهـ.

٩ ـ **العزيز**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: هو الغالب القوي الذي لا يغلب، والعزة في الأصل: القوةُ والشدةُ والغلبةُ، تقول: عَزَّ يَعِزُّ بالكسر إذا(٨) صار عزيزاً، وعزَّ يَعزُّ بالفتح إذا اشتدَّ»(٩).

١٠ ـ **الجبار**: قال: «في أسماء الله تعالى: «الجَبَّار» ومعناه الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونهي، يقال: جَبَر الخَلْقَ وأجبرهم، وأجبر أكثرُ، وقيل: هو العالي فوق خلقه، وفَعَّال من أبنيةِ المبالغة، منه قولهم: نخلة جَبَّارة، وهي العظيمة التي تَفُوت يدَ المتناوِل، ومنه حديث أبي هريرة: «يا أَمَةَ

---

(١) انظر: «النهاية» (٢/ ٣٩٢) باب السين مع اللام تحت مادة «سلم».
(٢) في مطبوع «النهاية» بدون: «بمعنى».
(٣) انظر: «النهاية» (١/ ٦٩) تحت مادة «أمن».
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣)، والبزار (٣١١٩ ـ زوائده)، وابن جرير (٢١/ ١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري، وللحديث شواهد هو بها **صحيح**، وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس وخباب الخزاعي، وقد صححه شيخنا في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠١٨)، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٩، ١٨٠).
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «أي الشاهدُ».
(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «بمعنى هو رقيب».
(٧) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٠٣).
(٨) كذا في مطبوع «النهاية»، وفي الأصل: «ذا»!
(٩) انظر: «النهاية» (٣/ ٢٨) تحت مادة «عزز».

الجبَّار»[(١)]»[(٢)].

١١ ـ المتكبر: قال ابن كثير في آخر «سورة الحشر» ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾: «أي: الذي لا يليق الجبروت إلا لجلاله[(٣)]، ولا التكبر إلا لعظمته، كما تقدم في «الصحيح»: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبته**»[(٤)]، الجبار: المصلح أمور خلقه المتصرِّف فيهم بما فيه صلاحهم؛ والمتكبر يعني: عن كل سوء»[(٥)].

١٢، ١٣، ١٤ ـ قال ابن كثير: «﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، الخلق: التقدير. والبرء[(٦)][(٧)] هوَ تنفيذ وإبرازُ ما قدره وقرره إلى[(٨)] عالم الوجود، والمصور: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها ويختارها، كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الإنفطار: ٨]»[(٩)].

١٥ ـ الغفار: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: (الغفار والغفور) وهما من أبنية المبالغة، ومعناهما الساتر لذنوب عباده وعيوبهم، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم، وأصل الغَفْر: التغطية. يقال: غَفَر الله لك غَفْراً وَغُفْرَاناً ومغفرَةً. المَغْفِرَة: إلباسُ الله العفو للمذنبين»[(١٠)].

١٦ ـ القهار: قال: «في أسماء الله تعالى: ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ هو الغالب جميع الخلائق. يقال: قَهَره يَقْهَره قَهْراً فهو قَاهِر، وَقَهَّار للمبالَغَة، وقهرت[(١١)] الرجل: إذا وجدته مقهوراً، أو صار أمْره إلى القَهر، وقد تكرر في الحديث»[(١٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦)، والحميدي (٩٧١) وعبد بن حميد (١٤٦١)، وأبو يعلى (٦٣٨٥، ٦٤٧٩) في «مسانيدهم»، وابن ماجه (٤٠٠٢)، والبيهقي (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤) في «سننهما»، وابن خزيمة (١٦٨٢)، وهو **حسن** إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٢٣٥) تحت مادة «جَبَر».

(٣) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «لا تليقُ الجبريةُ إلا له».

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٠٣).

(٦) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «البراء».

(٧) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وهو».

(٨) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «إلى الوجود».

(٩) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٣/ ٥٠٣) بتصرف.

(١٠) انظر: «النهاية» (٣/ ٣٧٣) تحت مادة «غفر».

(١١) في مطبوع «النهاية»: «أقهرت».

(١٢) انظر: «النهاية» (٤/ ١٢٩) تحت مادة «قهر».

١٧ ـ الوهاب: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ الهِبَة: العَطِيَّةُ الخاليةُ عَنِ الأعواض[١] والأغراض، فإذا كَثُرت سُمِّيَ صاحبها وَهَّاباً، وهو من أبنية المُبالغة»[٢].

قال محمد تقي الدين: الوهاب الكثير العطاء لخلقه، وهو غني عنهم لا يحتاج إلى عوض ولا مكافأة، وغيره لا يعطى عطاء إلا وهو يريد مكافأة، إما من الله أو من الناس، وعلى هذا لا يستحق أن يسمى في الحقيقة بهذا الاسم إلا الله تعالى.

١٨ ـ الرزاق: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ وهو الذي خلق الأرزَاق وأعْطَى الخلائِق أرزاقها وأوصلها إليهم. وفَعَّال من أبنية المبالغة، والأرزاق نَوْعَان: ظَاهِرَةٌ للأبْدان كالأقْوات؛ وباطِنَةٌ للقُلوبِ والنُّفوس كالمعارف والعُلُوم»[٣].

قال محمد تقي الدين: وأهم هذا النوع الهدى والتوفيق إلى العمل الصالح المقبول، فإن الإنسانَ أحوج إلى هداية الله في كل لحظة من لحظات حياته منه إلى الطعام والشرب.

١٩ ـ الفتاح: «في أسماء الله تعالى ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ هو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، وقيل: معناه الحاكم بينهم، يقال: فتح الحاكم بين الخصمين إذا فصل بينهما، والفاتح: الحاكِمُ، والفتَّاح: من أبنية المبالغة»[٤].

قال محمد تقي الدين: والدليل على ذلك في معنى الرحمة قوله تعالى في أول «سورة فاطر»: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢]، وفي معنى الحكم قوله تعالى في «سورة الأعراف [٨٩]: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

٢٠ ـ العليم: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ هو العالم المحيط علمه بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها، وفعيل من أبنية المبالغة»[٥].

---

(١) كذا في مطبوع «النهاية»، وفي الأصل: «الأعراض».
(٢) انظر: «النهاية» (٥/ ٢٣١) تحت مادة «وهب».
(٣) انظر: «النهاية» (٢/ ٢١٩) تحت مادة «رزق».
(٤) انظر: «النهاية» (٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧) تحت مادة «فتح».
(٥) انظر: «النهاية» (٣/ ٢٩٢) تحت مادة «علم».

قال تعالى في «سورة الطلاق»: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

٢١ ـ القابض: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «القابض»، هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته، ويقبض الأرواح عند الممات، ومنه الحديث: «**يقبض الله الأرض ويقبض السماء**»[١] أي: يجمعها، وَقُبِض المريض إذا تُوُفِّيَ، وإذا أشرف على الموت»[٢].

٢٢ ـ الباسط: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الباسط» هو الذي يَبْسُطِ الرزق لعباده ويُوسّعه عليهم بجوُده ورحمته، ويَبْسُط الأرواحَ في الأجساد عند الحياة»[٣]، قال تعالى في «سورة البقرة» [٢٤٥]: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٢٣ ـ الخافض: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الخافض» هو الذي يخفض الجبارين والفراعنة، أي: يضعهم ويهينهم، ويخفض كل شيء يريد خفضه، والخفض ضد الرفع، ومنه الحديث: «**إن الله يخفض القسط ويرفعه**»[٤]، **القسط: العدل ينزله إلى الأرض مرة، ويرفعه أخرى**»[٥].

٢٤ ـ الرافع: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الرافع» هو الذي يرفع المؤمنين بالإسعاد، وأولياءَه بالتقْريب وهو ضد الخفض»[٦].

قال محمد تقي الدين: قال تعالى في «سورة البقرة» [٢٥٣] في شأن الرسل: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ وقال تعالى في «سورة يوسف» [٧٦]: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (٤٨١٢)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر: «النهاية» (٤/ ٦) تحت مادة «قبض».

(٣) انظر: «النهاية» (١/ ١٢٧) تحت مادة «بسط».

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**إن الله لا ينام**» وفي قوله: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» برقم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٥) انظر: «النهاية» (٢/ ٥٣) تحت مادة «خفض».

(٦) انظر: «النهاية» (٢/ ٢٤٣) تحت مادة «رفع».

٢٥ ـ المعز: قال ابن الأثير: «من أسماء الله تعالى «الْمُعِزّ» وَهُوَ الذي يَهَبُ العزَّ لِمَن يَشاءُ مِنْ عباده»[١].

قال محمد تقي الدين: وقال تعالى في «سورة فاطر» [١٠]: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾، قال تعالى في «سورة آل عمران» [٢٦]: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

٢٦ ـ المذل: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «المذل» هو الذي يُلْحِقُ الذُّلَّ بمن يشاء من عِبادِه، ويَنْفِي عنه أنواع العِزِّ جميعها»[٢].

قال محمد تقي الدين: قال الله تعالى في «سورة المنافقين»: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقين: ٨]، وقد صدق الله وعده وأعز المؤمنين في كل زمان ومكان، وأذل المعرضين عن الإسلام الذين أعز الله أسلافهم به وأذلهم بالأعراض عنه، وذلك **مشاهد في هذا الزمان لا يخفي على أحد**.

٢٧ ـ السميع: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «السميع»، وهو الذي لا يَعْزُب عن إدراكه مسموع وَإن خفي، فَهُوَ يَسْمَعُ[٣]، وفعيل من أبنية المبالغة.

وفي دعاء الصلاة: «سمع الله لمن حمده» أي: أجابَ من حَمِدَه وتقبله يقال: «اسمع دعائي» أي: أجب؛ لأن غرض السائل الإجابةُ والقبولُ»[٤].

٢٨ ـ البصير: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «البصير»، هو الذي يشاهد الأشياء كلَّها ظاهرها وخافيها[٥]، والبصر في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها نعوت[٦] المبْصَرَات»[٧].

٢٩ ـ الحكم: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «الحَكَم والحكيم»

---

(١) انظر: «النهاية» (٣/ ٢٢٨) تحت مادة «عزز».
(٢) انظر: «النهاية» (٢/ ١٦٦) تحت مادة «ذلل».
(٣) في مطبوع «النهاية»: «بغير جارحةٍ».
(٤) انظر: «النهاية» (٢/ ٤٠٠) تحت مادة «سمع».
(٥) في مطبوع «النهاية»: «وخافيها بغير جارحة».
(٦) في مطبوع «النهاية»: «كمال نعوت».
(٧) انظر: «النهاية» (١/ ١٣١) تحت مادة «بصر».

هما بمعنى الحاكم وهو القاضي، (والحكيم: فعيل، بمعنى: الحاكم، وهو القاضي)[١]، والحكيم فعيل بمعنى فاعل، أو هو الذي يُحْكِمُ الأشياء ويتقنها، فهو فَعِيلٌ بمعنى، مُفْعِل، وقيل: الحكيمُ: ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال: لمن يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويتقنها: حكيم، ومنه حديث صفة القرآن: «وهو الذكر الحكيم»[٢] أي: الحاكم لكم وعليكم، أو هو المُحْكَمُ الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، فعِيلُ بمعنى مُفْعَل، أُحْكِمَ فَهُوَ مُحْكَمُ، ومنه حديث ابن عباس: «قرأتُ المحْكَمَ على عهد رسول الله ﷺ»، يريد: المفَصَّلَ من القرآن؛ لأنه لم يُنْسخَ منه شيء، وقيل: هو ما لم يكن مُتشابهاً؛ لأنه أُحْكِمَ بَيَانُه بنفسه ولم يَفْتَقِر إلى غيره»[٣].

٣٠ ـ **العدل**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «العَدْل»، هو الذي لا يميل به الهَوَى فيجور في الحُكْم، وهو في الأصل مصدرٌ سُمِّي به فوُضِع مَوْضِعَ العَادِل، وهو أبلغ منه؛ لأنه جُعِلَ المُسمَّى نفسه عدلاً»[٤].

٣١ ـ **اللطيف**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «اللطيف» هو الذي اجتمع له الرفق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح وَإيصَالها إلى مَن قدّرها له مِنْ خَلْقه، يُقالُ: لَطَف به وله، بالفتح، يَلْطُف لُطْفاً إذا رَفَق به، فأمَّا لَطُفَ بالفتح[٥] يلطُفُ، فمعناه: صَغُرَ وَدَقَّ»[٦].

٣٢ ـ **الخبير**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «الخبير» هو العالم بما كان وبما يكون، خَبَرت الأمر أخبُره: إذا عرَفته على حقيقته»[٧].

٣٣ ـ **الحليم**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «الحَليمُ» هو الذي

---

(١) هذه الجملة غيرُ موجودة في مطبوع «النهاية».

(٢) أخرجه الترمذيُّ برقم (٢٩٠٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥)، وأحمد (١/ ٩١)، والدارمي (٣٣٣٤، ٣٣٣٥)، والبزار (٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦)، وأبو يعلى (٣٦٧)، والبيهقي في «شُعب الإيمان» (٢/ ٣٢٥)، **وإسناده ضعيف مرفوعاً، وقد صح عن عليٍّ قوله**، كما سبق بيانه في التعليق على (٣/ ٩٩).

(٣) انظر: «النهاية» (١/ ٤١٨ ـ ٤١٩) تحت مادة «حكم».

(٤) انظر: «النهاية» (٣/ ١٩٠) تحت مادة «عدل».

(٥) في مطبوع «النهاية»: «بالضم».

(٦) انظر: «النهاية» (٤/ ٢٥١) تحت مادة «لطف».

(٧) انظر: «النهاية» (٢/ ٦) تحت مادة «خبر».

لا يَسْتَخِفَّه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقداراً فهو منتهٍ إليه»(١).

٣٤ ـ العظيم: قال القنوجي: ««العظيم»: الكبير الشأن، الجليل القدر، رفيع الذكر، مطاع الأمر».

٣٥ ـ الغفور: بمعنى الغفار، وقد تقدم شرحه.

٣٦ ـ الشكور: قال القنوجي في قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]: «يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة»(٢).

قال محمد تقي الدين: شكر المخلوق أن يكافئه على نعمته عليه بإحسان من قول وعمل بالجوارح وبالقلب، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المُحَجَّبا(٣)

أما شكر الله عبيده، فهو تفضله عليهم بالثواب على طاعتهم، وهو غني عن طاعتهم.

٣٧ ـ العلي: قال ابن الأثير في النهاية: «في أسماء الله تعالى «العَليُّ المُتعالي» فالعَليُّ: الذي ليس فوقه شيء في المرتبة والحكم، فَعِيل بمعنى فَاعل، من علا يعلو، المتعالي(٤): الذي جَلَّ عن إفك المفترَين وعَلا شأنه. وقيل: جَلَّ عن كل وصف وثناء، وهو متفاعل من العلو، وقد يكون بمعنى العالي»(٥).

قال محمد تقي الدين: وقد تقدم في (صدر هذا القسم) من «سبيل الرشاد» من أدلة علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه الذي هو فوق المخلوقات كلها ما يشفي صدور أهل الحق، ويشوي قلوب المعطلة، كابن عطية الذي يزعم أنه مفسر، وهو مكسِّر جهمي ضال!!.

٣٨ ـ الكبير: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «المُتَكبّر والكبير» أي:

---

(١) انظر: «النهاية» (١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) تحت مادة «حلم».

(٢) انظر: «فتح البيان» (٧/ ١١٤).

(٣) ذُكِر دون نسبة في «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٣٧٨)، و«طريق الهجرتين» (١/ ٥٠٨)، و«شرح الحكم العطائية» (١/ ٦٥)، و«البداية والنهاية» (١/ ١١٨) و(٧/ ١٦٩).

(٤) في مطبوع «النهاية»: «والمتعالي».

(٥) انظر: «النهاية» (٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤) تحت مادة «علا».

العظيم ذو الكبرياء، وقيل: المُتَعالي عن صفات الخلق»[١].

٣٩ ـ الحفيظ: قال القنوجي في تفسير قوله تعالى في سورة هود: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]: «أي[٢]: رقيب مهيمن عليه، يحفظه من كل شيء»[٣].

٤٠ ـ المقيت: قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]: «مقتدراً، من أقات على الشيء: إذا قدر عليه، قال الشاعر[٤]:

وَذِي ضُغْنٍ كَفَفْتُ الضُّغْنَ عَنْهُ ... وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتا[٥]

أو شهيداً حافظاً، واشتقاقه من (القوت) فإنه يقوي البدن ويحفظه»[٦].

٤١ ـ الحسيب: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الحَسِيب» هو الكافي، فعِيل بمعنى مُفْعِل، من أحْسَبَني الشيءُ: إذا كَفَاني، وأحْسَبْتُهُ وَحَسَّبْتُه بالتّشْديد: أعطَيْتَه ما يُرْضِيه، حتى يقولَ: حَسْبي»[٧].

٤٢ ـ الجليل: قال ابن الأثير: «ومن أسماء الله تعالى «الجَليل»، وهو الموصوف بِنُعُوتِ الجَلال، والحَاوِي جَمِيعَها، هو الجليلُ المُطلَق، وَهُو راجع إلى كمال الصِّفات، كما أَنَّ الكبيرَ رَاجعٌ إلى كمال الذات والصفات[٨]»[٩].

٤٣ ـ الكريم: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الكريم» هو الجواد المُعْطي الذي لا ينفُد[١٠] عطاؤه، وهو الكريم المُطلَق، والكريم الجامع لأنواع الخير والشَّرَف والفضائل»[١١].

---

(١) انظر: «النهاية» (٤/ ١٣٩) تحت مادة «كبر».
(٢) كذا في مطبوع «فتح البيان»، وفي الأصل: «إلى»!
(٣) انظر: «فتح البيان» (٣/ ٣٢٩).
(٤) كلمة (الشاعر) ساقطة من مطبوع «تفسير البيضاوي».
(٥) قاله أُحَيحَة بن الجلّاح (ت١٢٩ق.هـ)، وعُزي إلى أبي قيس بن رِفاعة. انظر: «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٢٨٩)، وهو في «إصلاح المنطق» لابن السكيت، ولم ينسبه.
(٦) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٢٨٨، ط. دار الكتب العلمية).
(٧) انظر: «النهاية» (١/ ٣٨١) تحت مادة «حَسِبَ».
(٨) في مطبوع «النهاية»: «كمال الذات».
(٩) انظر: «النهاية» (١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) تحت مادة «جَلل».
(١٠) كذا في مطبوع «النهاية»، بالدال المهملة في آخره، وفي الأصل بالذال المعجمة!
(١١) انظر: «النهاية» (٤/ ١٦٦) تحت مادة «كرم».

٤٤ ـ الرقيب: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الرقيب»، وهو الحافظُ الذي لا يَغِيب عنه شيءٌ، فعيلٌ بمعنى فاعل»[١].

٤٥ ـ المجيب: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «المُجيب»، وهو الذي يُقابل الدعاءَ والسؤالَ بالقَبول والعَطاء، وهو اسم فاعلٍ مِن أجابَ يُجيب»[٢].

٤٦ ـ الواسع: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الواسع»، هو الذي وَسِعَ غِنَاه كُلَّ فَقير، وَرَحمَتُه كُلَّ شَيءٍ»[٣].

٤٧ ـ الحكيم: تقدم معناه في شرح (الحَكَم).

٤٨ ـ الودود: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الودود»، وهو[٤] فَعُول بمعنى مفعول، من الوُدِّ: المحبَّة، يقال: وَدِدْتُ الرجلَ أَوَدُّه وُدّاً، إذا أحببته، فالله تعالى مَودودٌ، أي: مَحْبوب في قلوب أوليائه، أو هو فَعُول بمعنى فاعل، أي: إنه يحبُّ عباده الصالحين، بمعنى أنه يَرْضَى عنهم»[٥].

قال محمد تقي الدين: كنت أظن أن ابن الأثير سلفي العقيدة بريء من التعطيل والتجهم؛ لأني رأيت المتأخرين من المشتغلين ينقلون من كتابه «شرح غريب الحديث»، **ولما رأيتُ شرحه لأسماء الله الحسنى وجدته من شرار الجهمية المعطلة**، فانظر كيف أنكر محبة الله تعالى لخلقه وفسرها بالرضا[٦]، وغلاة الجهمية ينكرون أيضاً صفة الرضا والسخط، قاتلهم الله ونحن نثبت لله تعالى كلّ ما أثبته لنفسه من الصفات والأسماء بدون تشبيه، بل كما يليق بجلاله سبحانه، لا إله إلا هو.

٤٩ ـ المجيد: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «المجيدُ والماجد» المَجْد في كلام العرب: الشَّرفُ الواسع، ورجُلٌ ماجِد: مِفْضَال كثير الخير شريف، والمجيد، فعيل منه للمبالغة»[٧].

---

(١) انظر: «النهاية» (٢/ ٢٤٨) تحت مادة «رقب».

(٢) في الأصل: «مجيب»! والمثبت من «النهاية» (١/ ٣١٠) تحت مادة «جوبَ».

(٣) انظر: «النهاية» (٥/ ١٨٤) تحت مادة «وسع».

(٤) في مطبوع «النهاية»: «هو».

(٥) انظر: «النهاية» (٥/ ١٦٥) تحت مادة «ودد».

(٦) انظر ـ لزاما ـ كتابي: «الردود والتعقبات» (ص١٤٣) في رد تأويل صفة المحبة.

(٧) انظر: «النهاية» (٤/ ٢٩٨) تحت مادة «مجد».

٥٠ ـ الباعث: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الباعث»، هو الذي يبعث الخلق، أي: يُحْيِيهم بعد الموت يوم القيامة»[١].

٥١ ـ الشهيد: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الشهيد» هو الذي لا يغيب عنه شيء، والشاهد: الحاضر، وفعيل من أبنية المبالغة في فاعل، فإذا اعْتُبر العلم مطلقاً فهو العليم، وإذا أضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرةِ فهو الشَّهيدُ»[٢].

قال محمد تقي الدين: وقد أسندت الشهادة إلى الله تعالى في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

٥٢ ـ الحق: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الحقُّ» هو الموجود حقيقة المُتَحقق وجُودُه وإلاهيته، والحقُّ: ضد الباطل»[٣].

٥٣ ـ الوكيل: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الوكيل» هو القَيِّم الكفيل بأرزاق العباد، وحقيقتُه أَنَّه يَسْتَقِلُّ بأمر المَوْكُول إليه»[٤].

٥٤ ـ القوي: قال محمد تقي الدين: معناه واضح، قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، وكل قوي سوى الله فإن الله هو الذي وهبه تلك القوة، وهو في الحقيقة ضعيف، قال الله تعالى في سورة الكهف [٣٩]: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، وقوة الله تعالى من ذاته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

٥٥ ـ المتين: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «المتينُ» هو القويُّ الشديد، الذي لا يَلْحَقُه في أفعاله مَشَقَّة، ولا كُلْفَة ولا تَعَب، والمتانة: الشدَّة والقوَّة، فهو من حيث إنه بالِغُ القُدرةِ تامُّها قَوِيٌّ، ومن حيث إنه شديدُ القوَّة مَتين»[٥].

٥٦ ـ الولي: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الوَلِيّ» هو النَّاصر، وقيل: المُتَولّي لأمور العَالَم والخلائِق القائمُ بها.

(١) انظر: «النهاية» (١/ ١٣٨) تحت مادة «بعث».
(٢) انظر: «النهاية» (٢/ ٥١٣) تحت مادة «شهد».
(٣) انظر: «النهاية» (١/ ٤١٣) تحت مادة «حقق».
(٤) انظر: «النهاية» (٥/ ٢٢١) تحت مادة «وكل».
(٥) انظر: «النهاية» (٤/ ٢٩٣) تحت مادة «متن».

ومن أسمائه ﷻ: «الوالي» وهو مالك الأشياء جميعها، المتصرفُ فيها. وكأن الولايةَ تُشْعِرُ بالتَّدبير والقُدرة والفِعْل، وما لم يَجْتَمِع ذلك فيها لم يطلق[1] عليه اسمُ الوالي»[2].

٥٧ ـ الحميد: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «الحميد» أي: المحمودُ عَلى كل حال، فَعيل بمعنى مفعول، والحمد والشكر مُتَقاربان، والحمد أَعمُّهما؛ لأنك تحمَدُ الإنسان على صِفاته الذَّاتية وعلى عطائه، ولا تَشْكَره على صفاته»[3].

٥٨ ـ المحصي: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «المحصي» هو الذي أحصى كل شيء بعلمه وأحاط به، فلا يفُوتُه دقيق منها ولا جليل. والإحصاء: العدُّ والحفظ»[4].

٥٩ ـ المبدئ: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «المبدئ»، هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداء من غير سابق مثال»[5].

٦٠ ـ المعيد: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «المُعِيد» هو الذي يعيد الخلقَ بعد الحياة إلى الممات في الدُّنيا، وبعد الممات إلى الحياة يومَ القيامة»[6].

٦١ ـ المحيي: قال محمد تقي الدين: المحيي، هو: الذي يهب الحياة لكل حي.

قال الله تعالى في سورة الحج [٦٦]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ۝٦٦﴾، قال البيضاوي في تفسيرها: «﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصر نطفاً[7] ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ إذا جاء أجلكم ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ في الآخرة ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ لجحودٌ لنعم الله مع ظهورها»[8].

٦٢ ـ المميت: يفهم معناه من شرح الذي قبله، والذي بيده الإماتة، قال تعالى في سورة المؤمن: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ [غافر: ٦٨].

---

(١) في مطبوع «النهاية»: «لم ينطلق». (٢) انظر: «النهاية» (٥/ ٢٢٧) تحت مادة «ولا».
(٣) انظر: «النهاية» (١/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧) تحت مادة «حمد».
(٤) انظر: «النهاية» (١/ ٣٩٧) تحت مادة «حصا».
(٥) انظر: «النهاية» (١/ ١٠٣) تحت مادة «بدا».
(٦) انظر: «النهاية» (٣/ ٣١٦) تحت مادة «عود».
(٧) في مطبوع «تفسير البيضاوي»: «عناصر ونُطفاً».
(٨) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٩٥، ط. دار الكتب العلمية).

٦٣ ـ **الحي**: قال القاسمي: «الحي» أي: الباقي الذي[١] لا سبيل عليه للفناء.

٦٤ ـ **القيوم**: الدائم القيام بتدبير الخلق»[٢].

٦٥ ـ **الواجد**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الوَاجد»، هو الغَنِيُّ الذي لا يفتقر، وقد وَجَدَ يَجِدُ جِدَةً، أي: استغنى غنًى لا فقرَ بَعْده»[٣].

٦٦ ـ **الماجد**: تقدم معناه في شرح (المجيد).

٦٧، ٦٨ ـ **الواحد، الأحد**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الواحد» هو الفَرْد الذي لم يَزَل وَحْدَه، ولم يكن معه آخَرُ، قال الأزهريُّ: الفرق بين الواحد والأحد، أن الأحَدَ بُنِيَ لِنَفْي ما يُذْكَر مَعه من العَدَد، تقول: ما جاءني أحدٌ، والواحدُ: اسمٌ بُنِيَ لِمُفْتَتَح العدَد، تقول: جاءني واحدٌ من الناس، ولا تقول: جاءني أَحدٌ، فالواحد منفردٌ بالذاتِ، في عدم المِثل والنَّظير، والأَحَدُ مُنْفَرِدٌ بالمعنى.

وقيل: الواحد: هو الذي لا يتجزأ ولا يُثنَّى، ولا يقبل الانقسام، ولا نظير له ولا مثل، ولا يَجْمَعُ هذين الوصفين إلا اللهُ تعالى»[٤].

٦٩ ـ **الفرد**: **قال محمد تقي الدين**: «الفرد» هو الذي تفرد بصفات الكمال لا يشاركه فيها أحد، وهو بمعنى الواحد والأحد[٥].

٧٠ ـ **الصمد**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الصَّمد» هو السيِّد الذي انتهى إليه السُّؤدَد، وقيل: هو الدائمُ الباقي[٦]، وقيل: الذي يُصْمَدُ في الحوائج إليه؛ أي يُقصد»[٧].

٧١، ٧٢ ـ **القادر، والمقتدر، والقدير**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «القادِر، والمقتدِر والقَدِير» فالقادر اسم فاعل، مِنْ قَدَرَ يَقْدِرُ، والقَدِير:

---

(١) من مطبوع «تفسير القاسمي»، وسقط من الأصل.

(٢) انظر: «تفسير القاسمي» (٣/ ٣١٨) وفيه بعد كلمة (الخلق): «وحفظه».

(٣) انظر: «النهاية» (٥/ ١٥٥) تحت مادة «وجد».

(٤) انظر: «النهاية» (٥/ ١٥٩) تحت مادة «وحد».

(٥) لم يثبت، ولم يرد إلا في السياق المدرج، وعند البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١١٦ ـ ١١٧): «أشهد أنك فرد أحد صمد» **وإسناده ضعيف**.

(٦) في مطبوع «النهاية»: «الباقي، وقيل: هو الذي لا جوف له، وقيل: الذي يُصمد...».

(٧) انظر: «النهاية» (٣/ ٥٢) تحت مادة «صمد».

فَعيل منه، وهو للمبالغة والمقْتدر: مُفْتَعِل من اقْتَدَر، وَهُوَ أَبْلَغ»(١).

قال محمد تقي الدين: هذه الأسماء الثلاثة تدل على ما ذكره ابن الأثير، وتدل على أن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، وقدرته من ذاته وقدرة غيره منه سبحانه.

٧٣ ـ المقدم: قال ابن الأثير: ««المُقَدِّم» هو الذي يُقَدِّمُ الأشياءَ ويَضَعها في مواضِعها، فمن استحقَّ التقديمَ قَدَّمه»(٢).

٧٤ ـ المؤخر: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «الآخر والمؤخر» فالآخر هو الباقي بعد فناء خلقه كله ناطِقه وصامِتِه، والمؤخِّرُ هو الذي يُؤَخِّرُ الأشياءَ فيضَعُها في مَوَاضعها، وهو ضد المقدِّم»(٣).

٧٥ ـ الأول: قال القاسمي في تفسير أول سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾: «أي: السابق على كل موجود، من حيث إنه موجده(٤) ومحدثه»(٥).

٧٦ ـ الآخر: قال القاسمي: ««الآخر» أي: الباقي بعد فناء كل شيء».

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «**اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، خالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأولُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس(٦) دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر**»(٧). رواه مسلم»(٨).

٧٧ ـ الظاهر: قال القاسمي في «تفسيره»: ««والظاهر» أي: وجوده بالأدلة

---

(١) انظر: «النهاية» (٤/ ٢٢) تحت مادة «قدر».

(٢) انظر: «النهاية» (٤/ ٢٥) تحت مادة «قدم».

(٣) انظر: «النهاية» (١/ ٢٩) تحت مادة «أخر».

(٤) كذا في مطبوع «تفسير القاسمي»، وفي الأصل: «موجودة».

(٥) انظر: «تفسير القاسمي» (١٦/ ٣١).

(٦) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «ليس».

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٨١ و٥٣٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع برقم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) انظر: «تفسير القاسمي» (١٦/ ٣١ ـ ٣٢).

الدالة عليه، وقال ابن جرير: أي: الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوقَ كل شيء فلا شيء أعلى منه»[١].

٧٨ ـ **الباطن**: قال القاسمي في «تفسيره»: ««والباطن» أي: باحتجابه بذاته وماهيته، أو العالم بباطن كل شيء، قال ابن جرير: أي: الباطن جميعَ الأشياء، فلا شيء أقرب[٢] منه، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]»[٣].

٧٩ ـ **الوالي**: تقدم معناه في شرح (الولي).

٨٠ ـ **المتعالي**: تقدم معناه في شرح (العليّ).

٨١ ـ **البر**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «البَرُّ» هو العَطوف على عباده بِبرّه ولُطفه. والبَرُّ والبارُّ بمعنى، وإنما جاء في أسماء الله تعالى البَرُّ دُونَ البار والبِرُّ بالكسر: الإحسان»[٤].

٨٢ ـ **التواب**: الذي يقبل توبة كل تائب مخلص، وهو من أبنية المبالغة، أي: كثير التوبة على من تاب. وقال تعالى في أول سورة المؤمن: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] وهذا المعنى في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣].

٨٣ ـ **المنتقم**: الذي يعاقب عباده بذنوبهم، حسب مشيئته وإرادته سبحانه.

٨٤ ـ **العفو**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «العفُوُّ» هو فَعُول، من العَفْو، وهو التَّجاوزُ عن الذَّنب وتركُ العقَابِ عليه، وهو من أبنية المبالغة»[٥].

٨٥ ـ **الرؤوف**: الرحيم، وقيل: الرأفة أبلغ من الرحمة.

٨٦ ـ **مالك الملك**: تقدم معناه في شرح (الملك).

٨٧ ـ **ذو الجلال والإكرام**: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «ذو

---

(١) انظر: «تفسير القاسمي» (١٦/ ٣٢).

(٢) في مطبوع «تفسير القاسمي»: «أقرب إلى الشيء منه».

(٣) انظر: «تفسير القاسمي» (١٦/ ٣٢).

(٤) انظر: «النهاية» (١/ ١١٦) تحت مادة «برر»، وورد (البار) في إدراج الوليد ضمن سرده الأسماء، وهو عند أبي نعيم في «جزئه» (رقم ١٨ ـ بتحقيقي)، واستدل ابن منده عليه بما عند البخاري (٢٧٠٣): «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه»، ثم وجدته منصوصاً عليه عند ابن ماجه أيضاً (٣٩٠٧) وليس إسناده بذاك.

(٥) انظر: «النهاية» (٣/ ٢٦٥) تحت مادة «عفا».

الجلال والإكرام» الجلال: العظمة، ومنه الحديث: «**ألظوا بياذا الجلال والإكرام**»[(١)]»[(٢)]. اهـ.

ومعنى «**ألظوا**» أي: لازموا وداوموا على قول: «يا ذا الجلال والإكرام» في دعائكم وابتهالكم إلى الله تعالى.

٨٨ ـ المقسط: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «المُقْسط» هو العادل، يقال: أَقْسَط يُقسِط فهو مُقْسِط، إذا عَدَلَ، وَقَسَط ويَقسِط[(٣)] فهو قاسط إذا جارَ»[(٤)].

٨٩ ـ الجامع: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الجامع» هو الذي يَجْمَعُ الخلائق ليَوم الحساب، وقيل: هو المؤلّف بين المتماثِلاتِ، والمَتَباينات، والمتضادَّات في الوُجُود»[(٥)].

قال محمد تقي الدين: والراجح الأول؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ [آل عمران: ٩].

٩٠، ٩١ ـ الغني، المغني: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الغَنِيُّ» هو الذي لا يَحْتاج إلى أحد في شيء، وكُلُّ أحد يحتاج إليه، وهذا هو الغِنى المُطْلَق، ولا يشارِكُ اللهَ تعالى فيه غيره، ومن أسمائه «المُغْني» وهو الذي يُغْني مَنْ يشاء من عِبادِه»[(٦)].

٩٢ ـ المانع: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى: «المانع» هو الذي يمنع عن أهل طاعته، ويحُوطُهُم وينصُرُهُم، وقيل: يمنع مَنْ يُريدُ من خَلقِه ما يُرِيدُ، ويُعطيه ما يُريدُ، وفيه: «اللهم من مَنَعْتَ ممنُوعٌ» أي مَن حَرَمْتَهُ فهو

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢٨٠)، والترمذي (٣٥٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧١٦، ١١٥٦٣)، والطبراني (٤٥٩٤)، وفي «الدعاء» (٩٢)، والحاكم (١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٩٦)، وغيرهم من حديث ربيعة بن عامر، وهو **صحيح**.

(٢) انظر: «النهاية» (١/ ٢٨٧) تحت مادة «جلل».

(٣) في مطبوع «النهاية» من غير: «و».

(٤) انظر: «النهاية» (٤/ ٦٠) تحت مادة «قسط».

(٥) انظر: «النهاية» (١/ ٢٩٥) تحت مادة «جمع».

(٦) انظر: «النهاية» (٣/ ٣٩٠) تحت مادة «غنا».

مَحْرُوم، لا يُعطيه أحدٌ غيرُك»[١].

٩٣ ـ الضار: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الضَّارُّ» هو الذي يَضُر من يشاء من خلقه، حيثُ هو خالِقُ الأشياءَ كلها خَيرِها وشَرِّها وَنْفعها وَضَرِّها»[٢].

٩٤ ـ النافع: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «النافع» هو الذي يُوصِّل النفع إلى مَن يشاء مِنْ خَلْقِه، حيثُ هو خالقُ النَّفْع والضَّر، والخير والشَّر»[٣].

٩٥ ـ النور: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «النُّور» هو الذي يبصر بنوره ذو العَماية ويَرْشُد بهُداهُ ذُوْ الغَوَاية، وقيل: هو الظاهر الذي به كلُّ ظُهورٍ. فالظاهر في نفسِه المُظْهِرُ لغيره يُسَمَّى نُوراً»[٤].

٩٦ ـ الهادي: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الهَادِي» هو الذي بَصَّرَ عِبَادَه وَعَرَّفَهُم طريقَ معرفته حتى أقروا بربوبيته، وهدى كل مخلوق إلى ما لا بُدَّ له منه في بَقائِه وَدَوَامِ وجودِه»[٥].

٩٧ ـ البديع: «هو الخالق المخترع لا عن مِثال سَابق، فَعِيلٌ بمعنى مُفْعِل، يقال: أبدَع فَهُوَ مُبْدِع»[٦]. اهـ من «النهاية».

٩٨ ـ الباقي: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «البَاقي» هو الذي لا ينتهي تقدير وُجوده في الاستقبال إلى آخر يَنْتَهي إليه، ويُعبَّر عنه بأنه أبديُّ الوُجود»[٧].

قال محمد تقي الدين: ويفسر معناه قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

٩٩ ـ الوارث: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الوارِث» هو الذي

---

(١) انظر: «النهاية» (٤/ ٣٦٥) تحت مادة «منع».
(٢) انظر: «النهاية» (٣/ ٨١) تحت مادة «ضرر».
(٣) انظر: «النهاية» (٥/ ٩٨) تحت مادة «نفع».
(٤) انظر: «النهاية» (٥/ ١٢٤) تحت مادة «نور»، والثابت في النصوص (نور السماوات والأرض) وهو من الأسماء المضافة، انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٨٥).
(٥) انظر: «النهاية» (٥/ ٢٥٣) تحت مادة «هدا».
(٦) انظر: «النهاية» (١/ ١٠٦) تحت مادة «بدع».
(٧) انظر: «النهاية» (١/ ١٤٧) تحت مادة «بقيَ».

يرث الخلائق، ويبقى بعد فنائهم»[١].

١٠٠ ـ الرشيد: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الرشيدُ» هو الذي أرشد الخلق إلى مصالحهم: أَي هداهم ودَلَّهم عليها، فَعِيل بمعنى مُفْعِل، وقيل: هو الذي تنساق[٢] تدبيراته إلى غاياتها على سنن السَّداد، من غير إشارة مُشِير ولا تَسْديد مُسَدِّد»[٣].

١٠١ ـ الصبور: قال ابن الأثير: «في أسماء الله تعالى «الصَّبُور» هو الذي لا يُعاجل العُصَاة بالانتِقام، وَهُوَ من أبنية المبالغة، ومعناه قريب من معنى الحَلِيم، والفرق بينهما أَنَّ المُذْنب لا يَأْمَنُ العُقُوبة في صفة الصبور، كما يأمَنُها في صِفَة الحَلِيم»[٤].

١٠٢ ـ المغيث: هو الذي يغيث من استغاث به من عباده ويفرج كربه ويجعل له مخرجاً من كل ضيق وكل شدة، كما أغاث خير خلقه محمداً ﷺ لما استغاث به في غزوة بدر، والاستغاثة من أفضل العبادات فمن استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد كفر، قال تعالى في سورة النمل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

انظر تفسير هذه الآية مبسوطاً في (الباب الثالث) من (سورة النمل) من (القسم الأول) من هذا الكتاب.

١٠٣ ـ القريب: القريب من عباده بعلمه ولطفه، والله تعالى يقرب من عباده كيف يشاء بلا تشبيه ولا تمثيل، وليس المراد قرب المسافة؛ لأن الله تعالى لا يحل في خلقه ولا يحل فيه شيء من خلقه، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال (ك): في تفسير هذه الآية: «روى[٥] أحمد والشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا نعلو

---

(١) انظر: «النهاية» (٥/ ١٧٢) تحت مادة «ورث».
(٢) كذا في مطبوع «النهاية»، وفي الأصل: «تتناسق»!
(٣) انظر: «النهاية» (٢/ ٢٢٥) تحت مادة «رشد».
(٤) انظر: «النهاية» (٣/ ٧) تحت مادة «صبر».
(٥) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «وقال الإمام أحمد: . . . عن أبي موسى».

شرفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا فقال: «**يا أيها الناس! ارْبَعُوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنَّما تدعون سميعاً بصيراً، إنَّ الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنُقِ رَاحِلَتِه**[١] **ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**»»[٢].

قال محمد تقي الدين: الأسماء التسعة والتسعون التي قصدها النبي ﷺ لا نعلم أعيانها بيقين، وقد ذكر الترمذي بدل تسعة وتسعين مائة وواحداً[٣]، وزاد بعض من نظم أسماء الله الحسنى شعراً اسمين آخرين وهما (المغيث والقريب) فزدتهما أنا فبلغت الأسماء مائة وثلاثة، وقد تقدم أن أسماء الله ليست محصورة في التسعة والتسعين ولا في المائة والثلاثة، وإنما جمعتها وشرحتها ليتوسل بها إخواننا الموحدون إلى الله الكريم امتثالاً لأمره، وطمعاً في رحمته، فإن المبتدعين يتوسلون إلى الله تعالى بذوات المخلوقين، والمؤمنون المتبعون لكتاب ربهم وسنة نبيهم إنما يتوسلون إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته وبأعمالهم الصالحة، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبيك»[٤]، فدعوا ودعا العباس عم النبي ﷺ فسقاهم الله تعالى، فالتوسل إنما كان بدعاء النبي ﷺ فلما انتقل إلى دار البقاء توسل عمر إلى الله تعالى بدعاء العباس، وهذا ثابت في «صحيح البخاري»؛ أعني: حديث عمر

---

(١) في مطبوع «تفسير ابن كثير»: «راحلته يا عبد الله بن قيس ألا».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤٠٢)، والبخاريُّ في كتاب الجهاد، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، حديث (٢٩٩٢)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وما سبق من «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٧).

(٣) الراجح أن سرد الأسماء من إدراج الوليد بن مسلم، ولذا وقع الخلاف فيها، فهي مستنبطة لا منصوصة، وقد قدمت ما يدل على ذلك من الصنعة الحديثية، مع تنصيص فحول المحدثين على الإدراج، والرد على من خالف. انظر تعليقي على (٢/ ٣٩ ـ ٤٥).
وللعلماء ـ قديماً وحديثاً ـ جهودٌ في جمعها وشرحها، يصعب حصرها واستقصاؤها في هذا المقام، وعرف بمنهج جماعة منهم: الأستاذ عبد الله الغصن في كتابه المطبوع «أسماء الله الحسنى»، ولأخينا الشيخ محمد بن حمد الحمود «النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» وهو مطبوع بالكويت في مجلدين.

(٤) أخرجه البخاريُّ في كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا برقم (١٠١٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

وتوسله بالعباس رضي الله عنهما، وأما حديث الأعمى(١) الذي يموّه به المبتدعون فلا حجة لهم فيه، لأن الأعمى سأل النبي ﷺ الشفاعة والدعاء في حال حياته، وهذا لا نزاع فيه على فرض صحة الحديث، وفيه مقال، وقد قتل هذه المسألة بحثاً وتحقيقاً شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية في كتابه المسمى «التوسل والوسيلة»، ودليل التوسل بالأعمال حديث النفر الثلاثة الذين دخلوا في الغار فانطبقت عليهم الصخرة، فدعا الله كل واحد منهم بصالح عمله، ففرج الله عنهم، وهذا الحديث مشهور في «صحيح البخاري»(٢).

وهؤلاء المبتدعون ـ وأكثرهم مشركون ـ يتسترون بحديث الأعمى لِعُمْيِ بصائرهم، وإلا فباب التوسل إلى الله مفتوح، فمحبة النبي ﷺ واتباعه والعمل بسنته ونصر شريعته من أعظم الوسائل إلى الله تعالى، فبدل أن يقول المشرك أو المبتدع: اللهم إني أتوسل إليك بأنبيائك أو أوليائك، يتوب إلى الله تعالى من الشرك والبدعة، ويوحِّد الله ويتبع سنة نبيه ﷺ، ويقول بصدق: اللهم إني أتوسل إليك بتوحيدي لك واتباعي لسنة نبيك، فيكون على الصراط المستقيم ويخرج من الظلمات إلى النور ولا ينكر ذلك عليه أحد.

والله يهدينا جميعاً إلى صراطه المستقيم، ويبعدنا عن طريق أصحاب الجحيم.

---

(١) وهو مما أخرجه أحمد (٤/ ١٣٨) وغيره **بسند صحيح** عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريرَ البصر أتى النبيَّ ﷺ فقال: ادع الله أن يُعافيني. قال: «**إن شئتَ دعوتُ لك وإن شئت أخَّرتُ ذاك، فهو خير**»، (وفي رواية: «**وإن شئت صبرتَ فهو خيرٌ لك**»)، فقال: ادعهُ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهتُ بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم فشفّعه فِيَّ** «**وشفعني فيه**»» قال: ففعل الرجل، فبرئ».
وقد أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢٠٩)، والترمذي (٣٥٧٨)، والنسائيُّ في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٩)، وابن ماجه (١٣٨٥)، وابن خزيمة (١٢١٩)، وعبد بن حميد (٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٨٣١١)، والحاكم (١/ ٣١٣)، وللاستزادة انظر تخريجنا: لـ«الحنائيات» رقم (٩٣) فقد فصّلت الكلام عليه، وانظر في توجيهه كلام شيخنا الألباني في: «التوسل أنواعه وأحكامه» (٧٦ ـ ٨٥، ط. مكتبة المعارف).

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيراً فتركَ أجْرَهُ، فَعملَ فيهِ المُستأجرُ فزاد أوْ مَن عَملَ في مالِ غيره فاستفضلَ برقم (٢٢٧٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقد خرجت طرقه وبيان مخارجه في تعليقي على «فنون العجائب» للنقاش رقم (٣٥ ـ ٤٨)، وهو مطبوع ضمن «مجموعة أجزاء حديثية»، فانظره إن أردت الاستزادة.

قال محمد تقي الدين: وقفت على أسماء الله الحسنى منظومة شعراً في قصيدتين كل منهما اشتملت عليها، **إحداهما**: تنسب إلى الدمياطي ولا أدري من هذا الدمياطي، وفي أسماء حفاظ الحديث رجل يسمى الدمياطي نسبة إلى مدينة مشهورة في مصر، ولا أدري هل هو الذي نظم هذه القصيدة، فإن قوله في أولها؛ أي في البيت الثالث منها:

وبـعـد روينـا أن لله تـسـعـة ... وتسعين اسماً فضلُها قد تَحَصَّلا

يدل على أنه هو الحافظ الدمياطي[1]، ولهذه القصيدة مزية على القصيدة الثانية التي سأذكرها، وهي أن ناظمها جعل كل شطر يتضمن اسماً واحداً من أسماء الله الحسنى مثال ذلك قوله في ذكر الاسم الأول «الله» والثاني «الرحمن»:

مِنَ اللّهِ أرْجُو أمنَ قَلْبٍ تَوجّلا ... فبالأمن يَا رَحمنُ لا تُبْقِ موجَّلا

غير أن هذه القصيدة ليس فيها انسجام ولا بلاغة؛ فلذلك تركت نقلها.
والقصيدة الثانية: للعلامة أحمد بن عبد العزيز الهلالي السَّجلماسي[2] رحمه الله، وقد

---

(١) الدمياطي الإمام العلامة الحافظ الحجة الفقيه النَّسابة شيخ المحدثين شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف التُّوني الشافعي، ولد سنة ثلاث عشرة وستمائة، وتفقه، وبرع وطلب الحديث، فرحل وجمع فأوعى، وتخرّج بالمنذري وألّف، قال المزني: ما رأيت في الحديث أحفظَ منه، وكان واسع الفقه رأساً في النَّسب، جيّد العربية، غزير اللغة، مات فجأة سنة خمسٍ وسبعمائة. انظر: «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» للحافظ جلال الدين السيوطي (١/٣٠٨، ط. دار الفكر).
وظفرتُ بالقصيدة مطبوعة مع شرح لها باللغة التركية سنة ١٢٥٨هـ، واسمه «فرائد اللآلي في بيان أسماء المتعالي» لإبراهيم نور الدين القادري ابن محمد صالح القسطموني، وفي أوله (ص٣): «لله در الناظم، وهو الشيخ الولي الصالح، والمولى الناصح نور الدين الشهير بدمياطي» وقرّظه جمع ـ كما في أوله ـ ونسبه واحد منهم ـ وهو محمد عارف الحلمي ـ إلى محمد نور الدين الدمياطي، فالظاهر أنه غير الذي ترجمناه، والله أعلم.

(٢) هو العالم العلّامة المحقق المشارك والصَّالح الناصح أحمد بن عبد العزيز الهلالي نزيل مدغرة سجلماسَّة ودفينها كان ـ رحمه الله ـ إماماً في تحصيل العلوم وتحقيقها من نحو وبيان ومنطق ولغةٍ وفقه وحديث وتفسير وهندسة وأدب وتاريخ ونسب. قرأ بسجلماسَّة على العلّامة أحمد الحبيب وبفاس على الشيخ أحمد بن مُبارك وأبي عبد الله ابن الرخَا وأبي عبد الله الجندوز، وكان يحضر مجلس الشيخ السَّرغيني في التفسير، وكان رحمه الله كثير العبادة مقتصراً على ما يعني، فلا تراه إلا مُطالعاً أو مدرساً أو ذاكراً، وغالب أحواله المطالعة أو التقييد، ولا نظير له في علماء زمانه زهداً وورعاً وديناً ومروءةً ومحبة في أهل البيت والصالحين، والعلماء وطلبة العلم والضعفاء والمساكين، حريصاً على نوائب =

عزمت على نقلها؛ تسهيلاً لحفظ أسماء الله الحسنى، وهذا نصها:

«إِذَا نَابَنِي خَطْبٌ وَضَاقَ بِهِ صَدْرِي ... تَلَافَاهُ لُطْفُ اللّهِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي

وَلَا سِيَّمَا إِنْ جِئْتُهُ مُتَوَسِّلاً ... بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَى المُعَظَّمَةِ القَدْرِ

فَيَلَّلهُ[1] يَا رَحْمَنُ إِنِّي لَذُو فَقْرٍ ... وَأَنْتَ رَحِيمٌ مَالِكُ الخَلْقِ وَالأَمْرِ

بِقُدْسِكَ قُدُّوسٌ سَلَامٌ وَمُؤْمِنٌ ... مُهَيْمِنُ قَدْ سَنَى لَدَى السِّرِّ والجَهْرِ

عَزِيزٌ وَجَبَّارٌ وَيَا مُتَكَبِّرٌ ... وَيَا خَالِقُ الخَلْقِ اكْفِنِي أَزْمَةَ الدَّهْرِ

وَيَا بَارِئُ مَا لِي سِوَاكَ مُصَوِّرٌ ... وَغَفَّارُ يَا قَهَّارُ جَبْراً لِذِي كَسْرِ

وَهَبْ لِيَ يَا وَهَّابُ رَزَّاقُ مَطْلَبِي ... وَفَتَّاحُ أَشْرِقْ يَا عَلِيمُ دُجَى فِكْرِي

وَيَا قَابِضٌ يَا بَاسِطٌ خَافِضُ العِدَا ... وَيَا رَافِعُ ارْفَعْ بِاتِّبَاعِ الهُدَى ذِكْرِي

مُعِزٌّ مُذِلٌّ يَا سَمِيعُ بَصِيرُ جُدْ ... عَلَى مَا تَرَى مِنْ فَادِحِ العَيْبِ بِالسِّتْرِ

= الخير وإهمال الفتن، وبعداً عن الرِّياسة والجَاه والفضول، وقد رحل رحمه الله إلى الحجاز بقصد الحجِّ مرَّتين وإلى مصر ولقي مشايخ مصر والحرمين، وقد ألف رحمه الله كتباً عديدةً ومقيدات مفيدة، منها: «شرح خطبة القاموس»، و«المراهم في الدراهم» وشرحه لمنظومة عبد السلام بن الطيِّب القادري الحسني في المنطق سماه «الزواهر الأفقية على الجواهر المنطقية»، وشرع في «شرح مختصر خليل» فلم يكمله لوفاته، و«شرح الرجز المحتوي على مسائل مختصر السنوسي» لعبد السلام القادري، و«الياقوتة الفريدة في نظم لُبِّ واجب العقيدة»، وشرح على «إضاءة الأدموس في معرفة اصطلاح القاموس».

توفي رحمه الله بسجلماسة وَدُفِنَ بها يوم الثلاثاء واحد وعشرين من ربيع الأول عام خمسة وسبعين ـ بموحدة ـ ومائة وألف، وأفرده بترجمة مستقلة الفقيه رشيد المصلواتي الروداني، واسمها: «إتحاف المعاصر والتالي بجمع ترجمة الشيخ الهلالي» عام (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

انظر ترجمته في: «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني» (٤/ ١٤٣ ـ ١٥٢)، و«شجرة النور» (٣٥٥)، و«معلمة الفقه المالكي» (١٠٨)، و«إتحاف المُطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع» (١/ ١٥).

(١) لا يدخل في السَّعة حرف النداء على ما فيه (أل) إلا في صور، منها: اسم الجلالة، تقول: يا الله، بإثبات الألفين، و«يلّله» بحذفهما، و«يالله» بحذف الثانية فقط. والأكثر أن يحذف حرف النداء، وتُعوَّض عنه الميم المشدَّدة، فتقول: «اللّهمَّ»، وقد تُجمعُ بينهما في الضرورة النادرة، تقول أبي خِراش الهُذَلي.

إِنِّي إذا مَا حَدَثٌ أَلَمَّا ... دَعَوْتُ يَا اللّهمَّ يَا اللّهُمَّا

أفاده الأستاذ عبد الغني الدقر في كتابه «معجم القواعد العربية في النحو والصرف»، (ص٥١٦، ط. الثانية).

وَيَا حَكَمٌ عَدْلٌ لَطِيفُ خَبِيرُ مَا   لَنَا وَزَرٌ إِلَّاكَ فِي الضِّيقِ وَالعُسْرِ

حَلِيمٌ عَظِيمٌ يَا غَفُورُ شَكُورُ لَنْ   يَخِيبَ امْرُؤٌ يَرْجُوكَ لِلحِلْمِ وَالغَفْرِ

عَلِيٌّ كَبِيرٌ يَا حَفِيظُ مُقِيتُ هَبْ   لَنَا حِفْظَكَ الأَحْمَى لَدَى الحَادِثِ الوَعْرِ

حَسِيبٌ جَلِيلٌ يَا كَرِيمُ رَقِيبُ مَنْ   سِوَاكَ نُرَجِّيهِ لِخَلَّةِ ذِي فَقْرِ

مُجِيبٌ أَجِبْ يَا وَاسِعٌ يَا حَكِيمُ يَا   وَدُودُ دَعَا دَاعٍ لِفَضْلِكَ مُضْطَرٌّ

مُجِيدٌ فَجُدْ يَا بَاعِثٌ يَا شَهِيدُ بِالْـ   لَذِي نَرْتَجِي يَا حَقُّ مِنْ جُودِكَ الغَمْرِ

وَكِيلٌ قَوِيٌّ يَا مَتِينُ وَلِيُّ كُنْ   وَلِيًّا لِعَبْدٍ مِنْ خَطَايَاهُ فِي أَسْرِ

حَمِيدٌ وَمُحْصِي مُبْدِئٌ وَمُعِيدُ لَمْ   يَزَلْ مِنْكَ جُودٌ يَنْتَحِينَا بِلَا حَصْرِ

وَمُحْيِي مُمِيتٌ حَيُّ قَيُّومُ وَاجِدٌ   وَيَا مَاجِدٌ لَا تُولِنِي الخِزْيَ فِي النَّشْرِ

وَيَا أَحَدٌ نَرْجُوكَ يَا صَمَدٌ إِذَا   تَضِيقُ بِنَا يَا قَادِرٌ فُسْحَةُ العُمْرِ

وَمُقْتَدِر ارْفَعْ يَا مُقَدِّمُ رُتْبَتِي   مُؤَخِّرُ أَخِّرْ كُلَّ مَنْ يَبْتَغِي ضُرِّي

وَيَا أَوَّلٌ يَا آخِرٌ ظَاهِرٌ وَبَا   طِنٌ وال اجذِبْنِي إلى حَضْرَةِ الطُّهْرِ

وَيَا مُتَعَال بَرُّ تَوَّابُ جُدْ وَتُبْ   وَمُنْتَقِمٌ حُلْ بَيْنَنَا وَذَوِي الشَّرِّ

عَفُوٌّ رَؤُوفٌ مَالِكُ المُلْكِ أَنْتَ ذُو الْـ   جَلَالِ وَالاِكْرَام اعْفُ عَنْ كُلِّ مَا وِزْرِ

وَمُقْسِطُ جَامِعٌ غَنِيٌّ فَأَغْنِنَا   غِنَى القَلْبِ يَا مُغْنِي لِنَغْنَى عَنِ الوَفْرِ

وَيَا مَانِعٌ يَا ضَرُّ يَا نَافِعُ اهْدِنَا   بِنُورِكَ يَا نُورٌ وَهَادٍ إِلَى اليُسْرِ

بَدِيعٌ وَبَاقٍ وَارِثٌ يَا رَشِيدُ يَا   صَبُورُ أَتِحْ لِي الرُّشْدَ لِلشُّكْرِ وَالصَّبْرِ

بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى دَعَوْنَاكَ نَبْتَغِي   رِضَاكَ وَلُطْفاً فِي الحَيَاةِ وَفِي القَبْرِ

وَفِي النَّشْرِ ثُمَّ الحَشْرِ وَالمَوْقِفِ الَّذِي   تُحَاسِبُ فِيهِ الخَلْقَ يَا وَاسِعَ البِرِّ

وَفِي حَالِ أَخْذِ الصُّحْفِ وَالوَزْنِ بَعْدَهَا   كَذَلِكَ فِي حَالِ المُرُورِ عَلَى الجِسْرِ

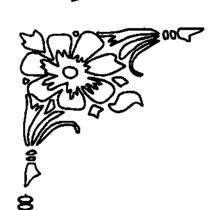
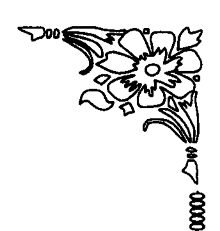
وَعَافِيَةً دِينًا وَدُنْيَا وَرَحْمَةً   بِفَضْلِكَ فِي الدَّارَيْنِ يَا وَاسِعَ البِرِّ

وَخَتْماً بِحُسْنَى مَعْ جِوَارِ نَبِيِّنَا   مُحَمَّدٍ المَحْمُودِ فِي مَوْقِفِ الحَشْرِ

عَلَيْهِ صَلَاةُ اللهِ ثُمَّ سَلَامُهُ   بِلَا مُنْتَهَى وَالآلِ مَعْ صَحْبِهِ الغُرِّ

وَلِلنَّاظِمِ اغْفِرْ يَا إِلَهِي وَأَهْلِهِ   وَأَحْبَابِهِ وَاسْتُرْهُمُ دَائِمَ السِّتْرِ

وَقَارِئِهَا وَالمُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ   وَلِلَّهِ رَبِّي دَائِمُ الحَمْدِ وَالشُّكْرِ»

جيوش الشعر

قال محمد تقي الدين: بدأت هذا القسم «بالجيوش الإسلامية» للإمام الحافظ ابن القيم هي نثر وأختمه بجيوش الشعر لأئمة مختلفين في أوطانهم وأزمانهم متفقين على العقيدة الحنيفية.

وأنقل هذه القصائد من «المجموعة المفيدة»، التي جمعها العالم السلفي الشاعر الأديب علي بن سليمان القصيمي المتوفى بالدورة في جنوب العراق في نحو سنة ١٣٤١، ولما وصلت أنا إلى الدورة في نحو سنة ١٣٤٣ وهبني ابنه الشيخ حسين بن علي وسائر الورثة خزانة كتب والدهم، ولا يزال عندي أكثرها وبعضها تلف بكثرة التنقل الذي أنا مبتلى به طول عمري ـ منذ الصبا إلى أقصى الشيخوخة ـ، فرحم الله الشيخ عليًّا رحمة واسعة وبارك في أبنائه وأحفاده، وجزى الله من طبع هذه «المجموعة» ومن بعثها إليَّ، وهو الصديق الصادق الشيخ عبد الله الغنيمان، بارك الله في حياته.

القصيدة الأولى

أثبتها مختصرة؛ لأني رأيت أن أحذف منها ما يتعلق بفروع المالكية، وهي للإمام عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي:

يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالفُرْقَانِ ... بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ القُرْآنِ

اشْرَحْ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الهُدَى ... وَاعْصِمْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ

وَاحْطُطْ بِهِ وِزْرِي، وَأَخْلِصْ نِيَّتِي ... وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَصْلِحْ شَانِي[1]

يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي وَأَقْضِ مَآرِبِي ... وَأَجِرْ بِهِ جَسَدِي مِنَ النِّيرَانِ

وَاكْشِفْ بِهِ ضُرِّي، وَحَقِّقْ تَوْبَتِي ... أَرْبِحْ[2] بِهِ بَيْعِي بِلَا خُسْرَانِ

(١) هنا يوجد تقديم وتأخير ففي مطبوع «كفاية الإنسان من القصائد الغرر الحسان» تقديم البيت الآتي على هذا البيت.

(٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «وأربح».

طَهِّرْ بِهِ قَلْبِي، وَصَفِّ سَرِيرَتِي ... أَجْمِلْ بِهِ ذِكْرِي، وَأَعْلِ مَكَانِي
وَاقْطَعْ بِهِ طَمَعِي، وَشَرِّفْ هِمَّتِي ... كَثِّرْ بِهِ وَرَعِي وَأَحْيِ جَنَانِي
أَسْهِرْ بِهِ لَيْلِي، وَأَظْمِ جَوَارِحِي ... أَسْبِلْ بِفَيْضِ دُمُوعِهَا أَجْفَانِي
أُمْزُجْهُ يَا رَبِّي بِلَحْمِي مَعْ دَمِي ... وَاغْسِلْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الأَضْغَانِ
أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي، وَخَلَقْتَنِي ... وَهَدَيْتَنِي لِشَرَائِعِ الإِيمَانِ
أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي، وَرَحِمْتَنِي ... وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِيَ القُرْآنِ
أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي، وَسَقَيْتَنِي ... مِنْ غَيْرِ كَسْبِ يَدٍ وَلَا دُكَّانِ
وَجَبَرْتَنِي، وَسَتَرْتَنِي، وَنَصَرْتَنِي ... وَغَمَرْتَنِي بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ
أَنْتَ الَّذِي آوَيْتَنِي، وَحَبَوْتَنِي ... وَهَدَيْتَنِي مِنْ حِيرَةِ الخِذْلَانِ
وَزَرَعْتَ لِي بَيْنَ القُلُوبِ مَوَدَّةً ... وَعَطَفْتَ[1] مِنْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ
وَنَشَرْتَ لِي فِي العَالَمِينَ مَحَاسِناً ... وَسَتَرْتَ عَنْ أَبْصَارِهِمْ عِصْيَانِي
وَجَعَلْتَ ذِكْرِيَ فِي البَرِيَّةِ شَائِعاً ... حَتَّى جَعَلْتَ جَمِيعَهُمْ إِخْوَانِي

ومضى في الدعاء إلى أن قال في القرآن:

وَلَأَتْلُونَّ حُرُوفَ وَحْيِكَ فِي الدُّجَى ... وَلَأَحْرِقَنَّ بِنُورِهِ شَيْطَانِي
أَنْتَ الَّذِي، يَا رَبِّ، قُلْتَ حُرُوفَهُ ... وَوَصَفْتَهُ بِالوَعْظِ وَالتِّبْيَانِ
وَنَظَمْتَهُ بِبَلَاغَةٍ أَزَلِيَّةٍ ... تَكْيِيفُهَا يَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ
وَكَتَبْتَ فِي اللَّوْحِ الحَفِيظِ حُرُوفَهُ ... مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الخَلْقِ فِي أَزْمَانِ
فَاللهُ رَبِّي، لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّماً ... حَقًّا إِذَا مَا شَاءَ ذُو إِحْسَانِ
نَادَى بِصَوْتٍ حِينَ كَلَّمَ عَبْدَهُ ... مُوسَى، فَأَسْمَعَهُ بِلَا كِتْمَانِ
وَكَذَا يُنَادِي فِي القِيَامَةِ رَبُّنَا ... جَهْراً، فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلَانِ
أَنْ يَا عِبَادِي، أَنْصِتُوا لِي، وَاسْمَعُوا ... قَوْلَ الإِلَهِ المَالِكِ الدَّيَّانِ
هَذَا حَدِيثُ نَبِيِّنَا عَنْ رَبِّهِ ... صِدْقاً بِلَا كَذِبٍ وَلَا بُهْتَانِ
لَسْنَا نُشَبِّهُ صَوْتَهُ بِكَلَامِنَا ... إِذْ لَيْسَ يُدْرَكُ وَصْفُهُ بِعِيَانِ
لَا تَحْصُرُ الأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ ... أَبَداً، وَلَا يَحْوِيهِ قُطْرُ مَكَانِ

---

(١) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «والعطف».

وَهُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ ... مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلَا نِسْيَانِ[1]
سُبْحَانَهُ مَلِكاً عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ... وَحَوَى جَمِيعَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ
وَكَلَامُهُ الْقُرْآنُ أُنْزِلَ آيَةً ... وَحْياً عَلَى الْمَبْعُوثِ مِنْ عَدْنَانِ
صلَّى عَلَيهِ اللّهُ خَيْرَ صَلَاتِهِ ... مَا لَاحَ فِي فَلَكَيْهِمَا الْقَمَرَانِ
هُوَ جَاءَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ الَّذِي ... لَا تَعْتَرِيهِ نَوَائِبُ الْحَدَثَانِ
تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَحْيُهُ ... بِشَهَادَةِ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
وَكَلَامُ رَبِّي لَا يَجِيءُ بِمِثْلِهِ ... أَحَدٌ، وَلَوْ جُمِعَتْ لَهُ الثَّقَلَانِ
وَهُوَ الْمَصُونُ مِنَ الأَبَاطِلِ كُلِّهَا ... وَمِنَ الزِّيَادَةِ فِيهِ وَالنُّقْصَانِ
مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنْ يُبَارِيَ نَظْمَهُ ... وَيَرَاهُ مِثْلَ الشِّعْرِ وَالْهَذَيَانِ
فَلْيَأْتِ مِنْهُ بِسُورَةٍ أَوْ آيَةٍ ... فَإِذَا رَأَى النَّظْمَينِ يَشْتَبِهَانِ
فَلْيَنْفَرِدْ بِاسْمِ الأُلُوهَةِ وَلْيَكُنْ ... رَبَّ الْبَرِيَّة، وَلْيَقُلْ سُبْحَانِي
فَإِذَا تَنَاقَضَ نَظْمُهُ فَلْيَلْبَسَنْ ... ثَوْبَ النَّقِيصَةِ صَاغِراً بِهَوَانِ
أَوْ فَلْيُقِرَّ بِأَنَّهُ تَنْزِيلُ مَنْ ... سَمَّاهُ فِي نَصِّ الْكِتَابِ مَثَانِي
لَا رَيْبَ فِيهِ بِأَنَّهُ تَنْزِيلُهُ ... وَبِدَايَةُ التَّنْزِيلِ فِي رَمَضَانِ
اللّهُ فَصَّلَهُ، وَأَحْكَمَ آيَهُ ... وَتَلَاهُ تَنْزِيلاً بِلَا أَلْحَانِ
هُوَ قَوْلُهُ، وَكَلَامُهُ وَخِطَابُهُ ... بِفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ وَبَيَانِ
هُوَ حُكْمُهُ، هُوَ عِلْمُهُ، هُوَ نُورُهُ ... وَصِرَاطُهُ الْهَادِي إِلَى الرِّضْوَانِ
جَمَعَ الْعُلُومَ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا ... فَبِهِ يَصُولُ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي
قِصَصاً عَلَى خَيرِ الْبَرِيَّةِ قَصَّهُ ... رَبِّي فَأَحْسَنَ أَيَّمَا إِحْسَانِ
كَلِمَاتُهُ مَنْظُومَةٌ وَحُرُوفُهُ ... بِتَمَامِ أَلْفَاظٍ وَحُسْنِ مَعَانِ
وَأَبَانَ فِيهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ... وَنَهَى عَنِ الآثَامِ وَالْعِصْيَانِ
مَنْ قَالَ: إِنَّ اللّهَ خَالِقُ قَوْلِهِ ... فَقَدِ اسْتَحَلَّ عِبَادَةَ الأَوْثَانِ
مَنْ قَالَ فِيهِ: عِبَارَةٌ وَحِكَايَةٌ ... فَغَدَا يُجَرَّعُ مِنْ حَمِيمٍ آنِ

(١) بعده في مطبوع «كفاية الإنسان»، بيت ساقط من الأصل، وهو:
«مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهُ؟! ... وَهُوَ الْقَدِيمُ مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ»

مَنْ قَالَ: إِنَّ حُرُوفَهُ مَخْلُوقَةٌ … فَالْعَنْهُ ثُمَّ اهْجُرْهُ كُلَّ أَوَانِ
لَا تَلْقَ مُبْتَدِعاً وَلَا مُتَزَنْدِقاً … إِلَّا بِعَبْسَةِ مَالِكِ الْغَضْبَانِ
وَالْوَقْفُ فِي الْقُرْآنِ خُبْثٌ بَاطِلٌ … وَخِدَاعُ كُلِّ مُذَبْذَبٍ حَيْرَانِ
قُلْ: غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَلَامُ إِلٰهِنَا … وَاعْجَلْ، وَلَا تَكُ فِي الإِجَابَةِ وَانِي
أَهْلُ الشَّرِيعَةِ أَيْقَنُوا بِنُزُولِهِ … وَالْقَائِلُونَ بِخَلْقِهِ شَكْلَانِ
وَتَجَنَّبِ اللَّفْظَيْنِ، إِنَّ كِلَيْهِمَا … وَمَقَال جَهْمٍ عِنْدَنَا سِيَّانِ
يَا أَيُّهَا السُّنِّيُّ، خُذْ بِوَصِيَّتِي … وَاخْصُصْ بِذَلِكَ جُمْلَةَ الإِخْوَانِ
وَاقْبَلْ وَصِيَّةَ مُشْفِقٍ مُتَوَدِّدٍ … وَاسْمَعْ بِفَهْمٍ حَاضِرٍ يَقْظَانِ
كُنْ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا مُتَوَسِّطاً … عَدْلاً بِلَا نَقْصٍ وَلَا رُجْحَانَ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ اللّٰهَ رَبٌّ وَاحِدٌ … مُتَنَزِّهٌ عَنْ ثَالِثٍ أَوْ ثَانِ
الأَوَّلُ الْمُبْدِي بِغَيْرِ بِدَايَةٍ … وَالآخِرُ الْمُفْنِي وَلَيْسَ بِفَانِي
وَكَلَامُهُ صِفَةٌ لَهُ وَجَلَالَةٌ … مِنْهُ بِلَا أَمَدٍ وَلَا حَدَثَانِ

ثم مضى إلى أن قال:

وَاللّٰهُ يَوْمَئِذٍ يَجِيءُ لِعَرْضِنَا … مَعَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ دَانِ
وَالأَشْعَرِيُّ[(١)] يَقُولُ: يَأْتِي أَمْرُهُ … يَأْتِي بِغَيْرِ تَنَقُّلٍ وَتَدَانِ
وَعَلَيْهِ عَرْضُ الْخَلْقِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ … لِلْحُكْمِ كَي يَتَنَاصَفَ الْخَصْمَانِ
وَاللّٰهُ يَوْمَئِذٍ نَرَاهُ كَمَا نَرَى … قَمَراً بَدَا لِلسِّتِّ بَعْدَ ثَمَانِ

ومضى إلى أن قال:

قُلْ لِلطَّبِيبِ الفَيْلَسُوفِ بِزَعْمِهِ … إِنَّ الطَّبِيعَةَ عِلْمُهَا بُرْهَانِي
أَيْنَ الطَّبِيعَةُ عِنْدَ كَوْنِكَ نُطْفَةً … فِي البَطْنِ إِذْ[(٢)] مَشَجَتْ بِهِ الْمَاآنِ
أَيْنَ الطَّبِيعَةُ حِينَ عُدْتَ عَلِيقَةً … فِي أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ ثَوَانِ
أَيْنَ الطَّبِيعَةُ عِنْدَ كَوْنِكَ مُضْغَةً … فِي أَرْبَعِينَ وَقَدْ مَضَى الْعَدَدَانِ

---

(١) قال محمد تقي الدين: المراد بالأشعري هنا من ينتسب زوراً وبهتاناً إلى أبي الحسن الأشعري رحمه الله من المتأخرين. (منه).

(٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «إذا».

أَتَرَى الطَّبِيعَةَ صَوَّرَتْكَ مُصَوَّراً ... بِمَسَامِعٍ وَنَوَاظِرٍ وَبَنَانِ
أَتَرَى الطَّبِيعَةَ أَخْرَجَتْكَ مُنَكَّساً ... مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ وَاهِيَ الأَرْكَانِ
أَمْ فَجَّرَتْ لَكَ مِنْ لِبَانٍ[1] ثُدِيِّهَا ... فَرَضَعْتَهَا حَتَّى مَضَى الحَوْلَانِ
أَمْ صَيَّرَتْ فِي وَالِدَيْكَ مَحَبَّةً ... فَهُمَا بِمَا يُرْضِيكَ مُغْتَبِطَانِ
يَا فَيْلَسُوفُ لَقَدْ شُغِلْتَ عَنِ الهُدَى ... بِالمَنْطِقِ الرُّومِيِّ وَاليُونَانِي

ومضى إلى أن قال:

لَا تَلْتَمِسْ عِلْمَ الكَلَامِ فَإِنَّهُ ... يَدْعُو إِلَى التَّعْطِيلِ وَالهَيَمَانِ
لَا يَصْحَبُ البِدْعِيُّ إِلَّا مِثْلَهُ ... تَحْتَ الدُّخَانِ تَأَجُّجُ النِّيرَانِ
عِلْمُ الكَلَامِ، وَعِلْمُ شَرْعِ مُحَمَّدٍ ... يَتَغَايَرَانِ، وَلَيْسَ يَشْتَبِهَانِ
أَخَذُوا الكَلَامَ عَنِ الفَلَاسِفَةِ الأُلَى[2] ... جَحَدُوا الشَّرَائِعَ، غِرَّةً وَأَمَانِي
حَمَلُوا الأُمُورَ عَلَى قِيَاسِ عُقُولِهِمْ ... فَتَبَلَّدُوا كَتَبَلُّدِ الحَيْرَانِ
مُرْجِيُّهُمْ[3] يَزْرِي عَلَى قَدَرِيِّهِمْ ... وَالفِرْقَتَانِ لَدَيَّ كَافِرَتَانِ

ومضى في ذم المتكلمين إلى أن قال:

دَعْ أَشْعَرِيَّهُمُ وَمُعْتَزِلِيَّهُمْ ... يَتَنَاقَرُونَ تَنَاقُرَ الغِرْبَانِ
كُلٌّ يَقِيسُ بِعَقْلِهِ سُبُلَ الهُدَى ... وَيَتِيهُ تَيْهَ الوَالِهِ الهَيْمَانِ
فَاللَّهُ يَجْزِيهِمْ بِمَا هُمْ أَهْلُهُ ... وَلَهُ الثَّنَا، عَنْ قَوْلِهِمْ بَرَّانِي

ومضى إلى أن قال:

أَمْرِرْ أَحَادِيثَ الصِّفَاتِ كَمَا أَتَتْ ... مِنْ غَيْرِ تَفْسِيرٍ وَلَا هَذَيَانِ
هُوَ مَذْهَبُ الزُّهْرِي وَوَافَقَ مَالِكٌ ... وَكِلَاهُمَا فِي شَرْعِنَا عَلَمَانِ
لِلَّهِ وَجْهٌ لَا يُحَدُّ بِصُورَةٍ ... وَلِرَبِّنَا عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ
وَلَهُ يَدَانِ كَمَا يَقُولُ إِلٰهُنَا ... وَيَمِينُهُ جَلَّتْ عَنِ الأَيْمَانِ
كِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ وَصْفُهَا ... فَهُمَا عَلَى الثَّقَلَيْنِ مُنْفِقَتَانِ
كُرْسِيُّهُ وَسِعَ السَّمٰوَاتِ العُلَى ... وَالأَرْضَ وَهْوَ يَعُمُّهُ القَدَمَانِ

(١) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «باللَّبَانِ». (٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «الأولى».
(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «مرجيئهم يُذْرى».

وَاللّٰهُ يَضْحَكُ لَا كَضَحْكِ عَبِيدِهِ ... وَالكَيْفُ مُمْتَنِعٌ عَلَى الرَّحْمانِ
وَاللّٰهُ يَنْزِلُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ ... لِسَمَائِهِ الدُّنْيَا بِلَا كِتْمَانِ
فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبُهُ ... فَأَنَا القَرِيبُ أُجِيبُ مَنْ نَادَانِي
حَاشَا الإِلَهَ بِأَنْ تُكَيَّفَ ذَاتُهُ ... فَالكَيْفُ وَالتَّمْثِيلُ مُنْتَفِيَانِ
وَالأَصْلُ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ ... شَيْءٌ، تَعَالَى الرَّبُّ ذُو الإِحْسَانِ
وَحَدِيثُهُ القُرْآنُ وَهْوَ كَلَامُهُ ... صَوْتٌ وَحَرْفٌ لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ
لَسْنَا نُشَبِّهُ رَبَّنَا بِعِبَادِهِ ... رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ يَشْتَبِهَانِ
فَالصَّوْتُ لَيْسَ بِمُوجِبٍ تَجْسِيمَهُ ... إِذْ كَانَتِ الصِّفَتَانِ تَخْتَلِفَانِ

ثم قال:

إِنِّي أَقُولُ فَأَنْصِتُوا لِمَقَالَتِي ... يَا مَعْشَرَ الخُلَطَاءِ وَالإِخْوَانِ
إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي المَصَاحِفُ مُثْبَتٌ ... بِأَنَامِلِ الأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ
هُوَ قَوْلُ رَبِّي آيُهُ وحُرُوفُهُ ... وَمِدَادُنَا وَالرَّقُّ مَخْلُوقَانِ
مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ ضِدَّ مَقَالَتِي ... فَالْعَنْهُ كُلَّ إِقَامَةٍ وَأَذَانِ
هُوَ فِي المَصَاحِفِ وَالصُّدُورِ حَقِيقَةً ... أَيْقِنْ بِذَلِكَ أَيَّمَا إِيقَانِ

ومضى إلى أن قال:

تَعِسَ العَمِيُّ أَبُو العَلَاءِ فَإِنَّهُ ... قَدْ كَانَ مَجْمُوعاً لَهُ العَمَيَانِ
وَلَقَدْ نَظَمْتُ قَصِيدَتَينِ بِهَجْوِهِ ... أَبْيَاتُ كُلِّ قَصِيدَةٍ مِئَتَانِ
وَالآنَ أَهْجُو الأَشْعَرِيَّ وَحِزْبَهُ ... وَأُذِيعُ مَا كَتَمُوا مِنَ البُهْتَانِ
يَا مَعْشَرَ المُتَكَلِّمِينَ عَدَوْتُمُ[1] ... عُدْوَانَ أَهْلِ السَّبْتِ وَالحِيتَانِ
كَفَّرْتُمُ أَهْلَ الشَّرِيعَةِ وَالهُدَى ... وَطَعَنْتُمُ بِالبَغْيِ وَالعُدْوَانِ
فَلَأَنْصُرَنَّ الحَقَّ حَتَّى أَنَّنِي ... أَسْطُو عَلَى سَادَاتِكُمْ بِطِعَانِي
اللّٰهُ صَيَّرَنِي عَصَا مُوسَى لَكُمْ ... حَتَّى تَلَقَّفَ إِفْكَكُمْ ثُعْبَانِي
بِأَدِلَّةِ القُرْآنِ أُبْطِلُ سِحْرَكُمْ ... وَبِهِ أُزَلْزِلُ كُلَّ مَنْ لَاقَانِي

---

(١) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «غدَوْتُمْ».

هُوَ مَلْجَئِي[١] هُوَ مدْرَئِي هُوَ مَنْجَيي[٢] ... مِنْ كَيْدِ كُلِّ مُنَافِقٍ خَوَّانِ
إِنْ حَلَّ مَذْهَبُكُمْ بِأَرْضٍ أَجْدَبَتْ ... أَوْ أَصْبَحَتْ قَفْراً بِلَا عُمْرَانِ
وَاللَّهُ صَيَّرَنِي عَلَيْكُمْ نِقْمَةً ... وَلِهَتْكِ سِتْرِ جَمِيعِكُمْ أَبْقَانِي
أَنَا فِي حُلُوقِ جَمِيعِكُمْ عُودُ الشَّجَا ... أَعْيَا أَطِبَّتَكُمْ غُمُوضُ مَكَانِي
أَنَا حَيَّةُ الوَادِي، أَنَا[٣] أَسَدُ الشَّرَى ... أَنَا مُرْهَفٌ مَاضِي الغِرَارِ يَمَانِي

ومضى إلى أن قال يخاطبهم:

آثَرْتُمُ الدُّنْيَا عَلَى أَدْيَانِكُمْ ... لَا خَيْرَ فِي دُنْيَا بِلَا أَدْيَانِ
وَفَتَحْتُمُ أَفْوَاهَكُمْ وَبُطُونَكُمْ ... فَبَلَعْتُمُ الدُّنْيَا بِغَيْرِ تَوَانِ
كَذَّبْتُمُ أَقْوَالَكُمْ بِفِعَالِكُمْ ... وَحَمَلْتُمُ الدُّنْيَا عَلَى الأَدْيَان
قُرَّاؤُكُمْ قَدْ أَشْبَهُوا فُقَهَاءَكُمْ ... فِئَتَانِ لِلرَّحْمٰنِ عَاصِيَتَانِ
يَتَكَالَبَانِ عَلَى الحَرَامِ وَأَهْلِهِ ... فِعْلَ الكِلَابِ بِجِيفَةِ اللُّحْمَانِ
يَا أَشْعَرِيَّةُ هَلْ شَعَرْتُمْ أَنَّنِي ... رَمَدُ العُيُونِ وَحِكَّةُ الأَجْفَانِ
أَنَا فِي كُبُودِ الأَشْعَرِيَّةِ قُرْحَةٌ ... أَرْبُو فَأَقْتُلُ كُلَّ مَنْ يَشْنَانِي
وَلَقَدْ بَرَزْتُ إِلَى كِبَارِ شُيُوخِكُمْ ... فَصَرَعْتُ[٤] مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ نَاوَانِي
وَقَلَبْتُ أَرْضَ حِجَاجِهِمْ وَنَثَرْتُهَا[٥] ... فَوَجَدْتُهَا قَوْلاً بِلَا بُرْهَانِ
وَاللَّهُ أَيَّدَنِي وَثَبَّتَ حُجَّتِي ... وَاللَّهُ مِنْ شُبُهَاتِهِمْ نَجَّانِي
وَالحَمْدُ لِلَّهِ المُهَيْمِنِ دَائِماً ... حَمْداً يُلَقِّحُ فِطْنَتِي وَجَنَانِي
أَحَسِبْتُمُ يَا أَشْعَرِيَّةُ أَنَّنِي ... مِمَّنْ يُقَعْقَعُ خَلْفَهُ بِشِنَانِي
أَفَتُسْتَرُ الشَّمْسُ المُضِيئَةُ بِالسُّهَا ... أَمْ هَلْ يُقَاسُ البَحْرُ بِالخُلْجَانِ
عُمْرِي لَقَدْ فَتَّشْتُكُمْ فَوَجَدْتُكُمْ ... حُمُراً بِلَا عُنُنٍ وَلَا أَرْسَانِ
أَحْضَرْتُكُمْ وَحَشَرْتُكُمْ وَقَصَدْتُكُمْ ... وَكَسَرْتُكُمْ كَسْراً بِلَا جُبْرَانِ
أَزَعَمْتُمُ أَنَّ القُرَانَ عِبَارَةٌ ... فَهُمَا كَمَا تَحْكُونَ قُرْآنَانِ

---

(١) في الأصل: «ملتجأي»!!
(٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «منجني».
(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «كذا».
(٤) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «فصرفتُ».
(٥) كذا في مطبوع «كفاية الإنسان»، وهو الصحيح، وفي الأصل: «ونشرتها»!

إِيـمَـانُ جِـبْـرِيـلٍ وَإِيـمَـانُ الَّـذِي ... رَكِـبَ الـمَـعَـاصِـي عِـنْـدَكُـمْ سِـيَّـانِ
هَـذَا[1] الـجُـوَيْـهِـرُ وَالـعُـرَيْـضُ بِـزَعْـمِـكُـمْ ... أَهُـمَـا لِـمَـعْـرِفَـةِ الـهُـدَى أَصْـلَانِ
مَـنْ عَـاشَ فِـي الـدُّنْـيَـا وَلَـمْ يَـعْـرِفْـهُـمَـا ... وَأَقَـرَّ بِـالإِسْـلَامِ وَالـفُـرْقَـانِ
أَفَـمُـسْـلِـمٌ هُـوَ عِـنْـدَكُـمْ أَمْ كَـافِـرٌ ... أَمْ عَـاقِـلٌ، أَمْ جَـاهِـلٌ، أَمْ وَانِـي
عَـطَّـلْـتُـمُ الـسَّـبْـعَ الـسَّـمٰـوَاتِ الـعُـلَـى ... وَالـعَـرْشَ أَخْـلَـيْـتُـمْ مِـنَ الـرَّحْـمٰـنِ

ومضى إلى أن قال:

أَشَـعَـرْتُـمُ يَـا أَشْـعَـرِيَّـةُ أَنَّـنِـي ... طُـوفَـانُ بَـحْـرٍ، أَيَّـمَـا طُـوفَـانِ!؟
أَنَـا هَـمُّـكُـمْ أَنَـا غَـمُّـكُـمْ أَنَـا سُـقْـمُـكُـم ... أَنَـا سَـمُّـكُـمْ فِـي الـسِّـرِّ وَالإِعْـلَانِ
أَذْهَـبْـتُـمُ نُـورَ الـقُـرْآنِ وَحُـسْـنَـهُ ... مِـنْ كُـلِّ قَـلْـبٍ وَالِـهٍ لَـهْـفَـانِ

ومضى إلى أن قال:

يَـا أَشْـعَـرِيَّـةُ يَـا أَسَـافِـلَـه الـوَرَى ... يَـا عُـمْـيُ يَـا صُـمٌّ بِـلَا آذَانِ
إِنِّـي لَأُبْـغِـضُـكُـمْ[2] وَأُبْـغِـضُ حِـزْبَـكُـمْ ... بُـغْـضـاً أَقَـلُّ قَـلِـيـلِـهِ أَضْـغَـانِـي[3]
لَـوْ كُـنْـتُ أَعْـمَـى الـمُـقْـلَـتَـيـنِ لَـسَـرَّنِـي ... كَـيْـلَا يَـرَى إِنْـسَـانَـكُـمْ إِنْـسَـانِـي

ومضى إلى أن قال:

أَنَـا تَـمْـرَةُ[4] الأَحْـبَـابِ حَـنْـظَـلَـةُ الـعِـدَى ... أَنَـا غَـصَّـةٌ فِـي حَـلْـقِ مَـنْ عَـادَانِـي
وَأَنَـا الـمُـحِـبُّ لِأَهْـلِ سُـنَّـةِ أَحْـمَـدٍ ... فَأَنَـا[5] الأَدِيـبُ الـشَّـاعِـرُ الـقَـحْـطَـانِـي

ومضى إلى أن قال:

يَـا أَشْـعَـرِيَّـةُ، يَـا جَـمِـيـعُ مَـنِ ادَّعَـى ... بِـدَعـاً وَأَهْـوَاءً بِـلَا بُـرْهَـانِ
جَـاءَتْـكُـمُ سُـنِّـيَّـةٌ مَـأْمُـونَـةً ... مِـنْ شَـاعِـرٍ ذَرِبِ الـلِّـسَـانِ مُـعَـانِ

ومضى إلى أن قال:

هِـيَ لِـلـرَّوَافِـضِ[6] دِرَّةٌ عُـمَـرِيَّـةٌ ... تَـرَكَـتْ رُؤُسَـهُـمْ بِـلَا آذَانِ

---

(١) كذا في مطبوع «كفاية الإنسان»، وهو الصحيح معنىً ووزناً، وفي الأصل: «أهذا»!.
(٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «لأبغضنكم».
(٣) كذا في مطبوع «كفاية الإنسان»، وفي الأصل: «أضناني»!.
(٤) كذا في مطبوع «كفاية الإنسان»، وفي الأصل: «ثمرة»!
(٥) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «وأنا». (٦) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «للجهالة».

هِيَ لِلمُنَجِّمِ وَالطَّبِيبِ مَنِيَّةٌ ... فَكِلاهُمَا مُلْقَانِ مُخْتَلِفَانِ
هِيَ فِي رُؤُوسِ المَارِقِينَ شَقِيقَةٌ ... ضُرِبَتْ لِفَرْطِ صُدَاعِهَا الصُّدْغَانِ
هِيَ فِي قُلُوبِ الأَشْعَرِيَّةِ كُلِّهِمْ ... صَابٌ، وَفِي الأَجْسَادِ كَالسَّعْدَانِ
لَكِنْ لِأَهْلِ الحَقِّ شَهْدٌ صَافِياً ... أَوْ تَمْرَ يَثْرِبَ ذَلِكَ الصَّيحَانِي
وَأَنَا الَّذِي حَبَّرْتُهَا وَجَعَلْتُهَا ... مَنْظُومَةً كَقَلائِدِ المُرْجَانِ
وَنَصَرْتُ أَهْلَ الحَقِّ مَبْلَغَ طَاقَتِي ... وَصَفَعْتُ[1] كُلَّ مُخَالِفٍ صَفْعَانِ[2]
أَبْيَاتُهَا مِثْلُ الحَدَائِقِ تُجْتَنَى ... سَمْعاً وَلَيْسَ يَمَلُّهُنَّ الجَانِي

ومضى إلى أن قال في الختام:

صَلَّى الإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... مَا نَاحَ قُمْرِيٌّ عَلَى الأَغْصَانِ
وَعَلَى جَمِيعِ بَنَاتِهِ وَنِسَائِهِ ... وَعَلَى جَمِيعِ الصَّحْبِ وَالإِخْوَانِ
بِاللّهِ قُولُوا كُلَّمَا أَنْشَدْتُمُ ... رَحِمَ الإِلٰهُ صَدَاكَ يَا قَحْطَانِي[3]

قال محمد تقي الدين: قد علمت أيها القارئ فيما تقدم أن أبا الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللهُ كان على عقيدة السلف الصالح، وقد أنكر عليه بعض الأئمة المحققين مسألة واحدة أو مسألتين[4]، والكمال لله، وقد صرح ـ رحمة الله عليه ـ

(١) في الأصل: «وصفت»!
(٢) كذا في «كفاية الإنسان»، وفي الأصل" «ضعفان»!
(٣) انظر: «كفاية الإنسان» (٢٥ ـ ٧٠، ط. دار ابن القيم).
(٤) الأمر ليس كذلك! نعم، تراجع أبو الحسن عن اعتزاليَّاته، وصرح برجوعه إلى مذهب الإمام أحمد في «الإبانة»، ولكن بقيت رواسب عنده، ولم ينقطع بعد توبته من الاعتزال للأثر والنظر في الأدلة النقلية، فاكتفى بنصرة المسائل المشهورة عند أهل السنّة، وخبرته بها مجملة بخلاف خبرته بعلم الكلام فهي مفصَّلة. والحق أن عنده شوباً من الحق ومذهب أهله، وشوباً من فساد الاعتقاد، وفصَّل ذلك ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، ومما قال مؤصِّلاً، جامعاً بين الحق والعدل:
«والأشعري» ابتلى بطائفتين: طائفة تبغضه، وطائفة تحبه، كل منهما يكذب عليه ويقول: إنما صنف هذه الكتب تقية، وإظهاراً لموافقة أهل الحديث والسنّة، من الحنبلية وغيرهم. وهذا كذب على الرجل، فإنه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التي أظهرها، ولا نقل أحد من خواص أصحابه، ولا غيرهم عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة في مصنفاته؛ فدعوى المدعي أنه كان يبطن خلاف ما يظهر دعوى مردودة شرعاً وعقلاً؛ بل من تدبّر كلامه في هذا الباب ـ في مواضع ـ تبيّن له قطعاً أنه كان ينصر ما أظهره؛ ولكن =

أنه كان على عقيدة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ وكتبه ناطقة بما ذكرت، وهي: «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» و«الإبانة عن أصول الديانة»، وقد قرأت هذين الكتابين، وكتابه «الموجز» ذكره ابن القيم في كتابه «الجيوش الإسلامية»، ولم أطّلع عليه، وكذلك قدماء أصحابه، أما أشعرية هذا الزمان، فهم الذين ينطبق عليهم ويصدق عليهم هجو القحطاني.

قال الشيخ علي بن سليمان القصيمي الذي تقدم ذكره في تقريظ القصيدة القحطانية وأجاد:

يَا مَنْ يَرُومُ نَجَاتَهُ يَوْمَ الجَزَا ... وَالفَوْزَ بِالجَنَّاتِ وَالرِّضْوَانِ

اسْمَعْ وَصِيَّةَ نَاصِحٍ يَهْدِي إِلَى ... دِينِ الإِلَهِ وَسُنَّةِ العَدْنَانِ

قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ الشَّرِيعَةِ وَارْتَوَتْ ... مِنْهَا رِيَاضُ الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

= الذين يحبونه ويخالفونه في إثبات الصفات الخبرية يقصدون نفي ذلك عنه، لئلا يقال: إنهم خالفوه، مع كون ما ذهبوا إليه من السنّة، قد اقتدوا فيه بحجّته التي على ذكرها يعولون، وعليها يعتمدون.

و«الفريق الآخر»: دفعوا عنه لكونهم رأوا المنتسبين إليه لا يظهرون إلا خلاف هذا القول، ولكونهم اتهموه بالتقية، وليس كذلك، بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنّة، التي خالفهم فيها المعتزلة؛ كمسألة «الرؤية» و«الكلام» وإثبات «الصفات» ونحو ذلك؛ لكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، وخبرته بالسنّة خبرة مجملة؛ فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنّة، واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك الأصول، وبين الانتصار للسنّة، كما فعل في مسألة الرؤية والكلام، والصفات الخبرية وغير ذلك.

والمخالفون له من أهل السنّة والحديث، ومن المعتزلة والفلاسفة يقولون: إنه متناقض، وإن ما وافق فيه المعتزلة يناقض ما وافق فيه أهل السنّة، كما أن المعتزلة يتناقضون فيما نصروا فيه دين الإسلام، فإنهم بنوا كثيراً من الحجج على أصول تناقض كثيراً من دين الإسلام؛ بل جمهور المخالفين للأشعري من المثبتة والنفاة يقولون: إنما قاله في مسألة الرؤية، والكلام: معلوم الفساد بضرورة العقل.

ولهذا يقول أتباعه: إنه لم يوافقنا أحد من الطوائف على قولنا في «مسألة الرؤية، والكلام»؛ **فلما كان في كلامه شوب من هذا وشوب من هذا: صار يقول من يقول إن فيه نوعاً من التجهم**. وأما من قال: إن قوله قول جهم فقد قال الباطل. ومن قال: **إنه ليس فيه شيء من قول جهم فقد قال الباطل**، والله يحب الكلام بعلم وعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وتنزيل الناس منازلهم». انتهى.

قال أبو عبيدة: وهذا هو التحقيق المنيف، والقول العدل الشريف، في هذه الشخصية التي كثر فيها الجدال، وزلت فيها أقدام، وضلت أفهام، والله الموفق لا ربّ سواه.

وَتَفَجَّرَتْ مِنْهَا يَنَابِيعُ الهُدَى ... فَجَلَتْ صَدَا التَّعْطِيلِ وَالبُهْتَانِ
وَبَدَا لَنَا مِنْهَا صَبَاحٌ مُسْفِرٌ ... لَكِنْ يَرَاهُ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ
فَاتبعْ مَسَالِكَهَا وَسِرْ في ضَوْئِهَا ... وَاحْذَرْ سُلُوكَ مَنَاهِجِ الشَّيْطَانِ
نَظَمَتْ لآلِئَهَا قَرِيحَةُ جِهْبِذٍ ... حَازَ الفَخَارَ بِحَلْبَةِ الفُرْسَانِ
وَسَمَا عَلَى أَقْرَانِهِ بِفَخَارِهِ ... فَلَكَ العُلَى وَالفَخْرُ يَا قَحْطَانِي
فَلَقَدْ حَمَيْتَ حِمَى الشَّرِيعَةِ بَعْدَمَا ... مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ الخَبِيثِ الجَانِي
وَضَرَبْتَ هَامَ المُعْتَدِي بِمُهَنَّدٍ ... عَضْبٍ، صَقِيلِ الشَّفْرَتَينِ يَمَانِي
فَتَرَكْتَهُ مُتَجَنْدِلاً في ضَحْضَحٍ ... وَالحَقُّ يُزْهِقُ كُلَّ ذِي بُطْلَانِ
وَلَقَدْ حَرَصْتَ عَلَى الوَرَى وَهَدَيْتَهُمْ ... لِمَنَاهِجِ الإِيمَانِ وَالعِرْفَانِ
فَجَزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... وَحَبَاكَ في الفِرْدَوْسِ بِالوِلْدَانِ
وَصَلَاةُ رَبِّي وَالسَّلَامُ مُضَاعَفٌ ... لِمُحَمَّدٍ وَالآلِ كُلَّ زَمَانِ

الشهب المرمية على المعطلة والجهمية

(للشيخ الفاضل أحمد بن مشرف)

نَفَيْتُمْ صِفَاتِ اللّهِ فَاللّهُ أَكْمَلُ ... فَسُبْحَانَهُ عَمَّا يَقُولُ المُعَطِّلُ
زَعَمْتُمْ بِأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِمُسْتَوٍ ... عَلَى عَرْشِهِ وَالاِسْتِوَا لَيْسَ يُجْهَلُ
فَقَدْ جَاءَ في الأَخْبَارِ في غَيْرِ مَوْضِعٍ ... بِلَفْظِ اسْتَوَى لَا غَيْرَ يَا مُتَأَوِّلُ
وَقَدْ جَاءَ في إِثْبَاتِهِ عَنْ نَبِيِّنَا ... مِنَ الخَبَرِ المَأْثُورِ مَا لَيْسَ يُشْكَلُ
فَصَرَّحَ أَنَّ اللّهَ جَلَّ جَلَالُهُ ... عَلَى عَرْشِهِ مِنْهُ المَلَائِكُ[1] تَنْزِلُ
يَخَافُونَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَعُرُوجُهُمْ ... إِلَيْهِ وَهَذَا فِي الكِتَابِ مُفَصَّلُ
وَتُعْرَجُ حَقًّا رُوحُ مَنْ مَاتَ مُؤْمِناً ... إِلَيهِ فَتَحْظَى بِالمُنَى ثُمَّ تُرْسَلُ
وَبِالمُصْطَفَى أُسْرِي إِلى اللّهِ فَارْتَقَى ... عَلَى هَذِهِ السَّبْعِ السَّمٰوَاتِ في العُلُو

(١) في الأصل: «الملائكة»، ولا يستقيم وزن البيت بها، وبالتغيير الذي زبرناه استقام البيت، والله الموفق، وهكذا رأيته في «قصائد مختارة في العقيدة» (ص٩٨)، وأورد القصيدة بتمامها، ولابن مشرف (ت١٢٨٥هـ) في الإحساء، ديوان مطبوع، وترجمته في «تحفة المستفيد» (٤٠١).

وَمِنْهُ دَنَا الجَبَّارُ حَقًّا فَكَانَ قَا ... بَ قَوْسَينِ أَوْ أَدْنَى كَمَا هُوَ مُنْزَلُ
وَفِي ذَا حَدِيثٌ في صَحِيحِ مُحَمَّدٍ ... صَحِيحٌ صَرِيحٌ ظَاهِرٌ لَا يُؤَوَّلُ
وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمٍ ... إِلَيْهِ، وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا سَوْفَ يَنْزِلُ
فَيَكْسِرُ صُلْبَانَ النَّصَارَى بِكَفِّهِ ... وَمَا دَامَ حَيًّا لِلخَنَازِيرِ يَقْتُلُ
وَلَيْسَ لَهُ شَرْعٌ سِوَى شَرْعِ أَحْمَدٍ ... فَيَقْضِي بِهِ بَيْنَ الأَنَامِ وَيَعْدِلُ
وَزَيْنَبُ زَوْجُ المُصْطَفَى افْتَخَرَتْ عَلَى ... بَقِيَّةِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ بِلَا غُلُو
فَقَالَتْ تَوَلَّى اللَّهُ عَقْدِي بِنَفْسِهِ ... فَزَوَّجَنِي مِنْ فَوْقِ سَبْعٍ مِنَ العُلُو
وَأَنَّ سَفِيرِي رُوحُهُ وَكَفَى بِذَا ... لِزَيْنَبَ فَخْراً شَامِخاً، فَهُوَ أَطْوَلُ
وَلَمَّا قَضَى سَعْدُ الرِّضَى في قُرَيْظَةٍ ... بِأَنْ يُسْتَرَقُّوا وَالرِّجَالُ تُقَتَّلُ
وَأَمْضَى رَسُولُ اللَّهِ في القَوْمِ حُكْمَهُ ... لَقَدْ قَالَ مَا مَعْنَاهُ إِذْ يُتَأَمَّلُ
أَلَا إِنَّ سَعْداً قَدْ قَضَى فِيهِمْ بِمَا ... قَضَى اللَّهُ مِنْ فَوْقِ السَّمٰوَاتِ فَافْعَلُوا
وَقَدْ صَحَّ أَنَّ اللَّهَ في كُلِّ لَيْلَةٍ ... إِذَا مَا بَقِي ثُلْثٌ مِنَ اللَّيْلِ يَنْزِلُ
إِلَى ذِي السَّمَا الدُّنْيا يُنَادِي عِبَادَهُ ... إِلَى أَنْ يَكُونَ الفَجْرُ في الأُفْقِ يَشْعَلُ
يُنَادِيهِمُ: هَلْ تَائِبٌ مِنْ ذُنُوبِهِ ... فَإِنِّي لَغَفَّارٌ لَهَا مُتَقَبِّلُ
وَهَلْ مِنْكُمُ دَاعٍ وَهَلْ سَائِلٌ لَنَا ... فَإِنِّي أُجِيبُ السَّائِلِينَ وَأَجْزُلُ
وَقَدْ فَطَرَ اللَّهُ العَظِيمُ عِبَادَهُ ... عَلَى أَنَّهُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَلَهُ[1] سَلُوا
لِهَذَا تَرَاهُمْ يَرْفَعُونَ أَكُفَّهُمْ ... إِذَا اجْتَهَدُوا عِنْدَ الدُّعَاءِ إِلَى العُلُو
أَقَرُّوا بِهَذَا الاعْتِقَادِ جِبِلَّةً ... وَدَانُوا بِهِ مَا لَمْ يَصُدُّوا وَيَخْذُلُوا
عَلَى ذَا مَضَى الهَادِي النَّبِيُّ وَصَحْبُهُ ... وَأَتْبَاعُهُمْ خَيْرُ القُرُونِ وَأَفْضَلُ
فَأَخْلَفَ[2] قَوْمٌ آخَرُونَ فَحَرَّفُوا ... نُصُوصَ كِتَابِ اللَّهِ جَهْلاً وَأَوَّلُوا
فَجَاؤُوا بِقَوْلٍ سَيِّئٍ سِرُّهُ وَمَا ... بَدَا بِهِ يَزْهُو بِاللَّآلِي[3] مُكَلَّلُ
هُمُ عَطَّلُوا وَصْفَ الإِلَهِ وَأَظْهَرُوا ... بِذَلِكَ تَنْزِيهاً لَهُ وَهْوَ أَكْمَلُ

---

(١) في الأصل: «فلهم»!! وكذا في «قصائد مختارة»!

(٢) كذا في مطبوع «كفاية الإنسان» و«قصائد مختارة»، وفي الأصل: : «فأخلق»!

(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «منه بزهو اللآلي».

وَمَنْ نَزَّهَ البَارِي بِنَفْيِ صِفَاتِهِ ... فَمَا هُوَ إِلَّا جَاحِدٌ وَمُعَطِّلُ
فَيَا أَيُّهَا النَّافِي لِأَوْصَافِ رَبِّهِ ... لَقَدْ فَاتَكَ النَّهْجُ الَّذِي هُوَ أَمْثَلُ
تَحِيدُ عَنِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ وَنَصِّهِ ... وتزْورّ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَتَعْدِلُ
وَتَنْفِي صِفَاتِ اللّهِ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ... بِنَصٍّ مِنَ الوَحْيَيْنِ مَا فِيهِ مُجْمَلُ
إِذَا جَاءَ نَصٌّ مُحْكَمٌ في صِفَاتِهِ ... جَحَدْتَ لَهُ أَوْ قُلْتَ: هَذَا مُؤَوَّلُ
أَلَا تَقْتَفِي آثَارَ صَحْبِ مُحَمَّدٍ ... فَمِنْهَاجُهُمْ أَهْدَى وَأَنْجَى وَأَفْضَلُ
فَمَا مَذْهَبُ الأَخْلَافِ أَعْلَمُ بِالهُدَى ... مِنَ القَوْمِ لَوْ أَنْصَفْتَ أَوْ كُنْتَ تَعْدِلُ
وَلَكِنَّهُ مِنْ بَعْضِ مَا أَحْدَثَ الوَرَى ... وَمَنْ يَبْتَدِعْ في الدِّينِ فَهْوَ مُضَلّلُ

فصل

في اعتقاد السلف الصالح[(١)]

وَلَكِنَّنَا وَالحَمْدُ للّهِ لَمْ نَزَلْ ... عَلَى قَوْلِ أَصْحَابِ الرَّسُولِ نُعَوِّلُ
نُقِرُّ بِأَنَّ اللّهَ فَوْقَ عِبَادِهِ ... عَلَى عَرْشِهِ، لَكِنَّمَا الكَيْفُ يُجْهَلُ[(٢)]
وَكُلُّ مَكَانٍ فَهْوَ فِيهِ بِعِلْمِهِ ... شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ الوَرَى لَيْسَ يَغْفَلُ
وَمَا أَثْبَتَ البَارِي تَعَالَى لِنَفْسِهِ ... مِنَ الوَصْفِ أَوْ أَبْدَاهُ[(٣)] مَنْ هُوَ مُرْسَلُ
فَنُثْبِتُهُ للّهِ جَلَّ جَلَالُهُ ... كَمَا جَاءَ لَا نَنْفِي وَلَا نَتَأَوَّلُ
هُوَ الوَاحِدُ الحَيُّ العَظِيمُ[(٤)] لَهُ البَقَا ... مَلِيكٌ، يُوَلِّي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْزِلُ
سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، قَادِرٌ، مُتَكَلِّمٌ ... عَلِيمٌ مُرِيدٌ، آخِرٌ، وَهْوَ أَوَّلُ
تَنَزَّهَ عَنْ نِدٍّ وَوُلْدٍ، وَوَالِدٍ ... وَصَاحِبَةٍ، فَاللَّهُ أَعْلَى وَأَكْمَلُ
وَلَيْسَ كَمِثْلِ اللّهِ شَيْءٌ وَمَا لَهُ ... شَبِيهٌ، وَلَا نِدٌّ، بِرَبِّكَ يُعْدَلُ
وَإِنَّ كِتَابَ اللّهِ مِنْ كَلِمَاتِهِ ... وَمِنْ وَصْفِهِ الأَعْلَى حَكِيمٌ مُنَزَّلُ
فَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَلَا وَصْفِ حَادِثٍ ... فَيَفْنَى[(٥)]، وَلَكِنْ مُحْكَمٌ لَا يُبَدَّلُ

---

(١) بعدها في مطبوع «كفاية الإنسان»: «ﷺ».
(٢) في «كفاية الإنسان»: «مجهلُ»، وفي «قصائد مختارة» بنون أوله.
(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان» و«قصائد مختارة»: «إبداءِ».
(٤) في «كفاية الإنسان» و«قصائد مختارة»: «القديمُ».
(٥) في الأصل: «فينفي»، وفي مطبوع «كفاية الإنسان»: «فيفتى»، وكلاهما خطأ: والصواب المثبت، وكذا هي في «قصائد مختارة» (١٠٠).

هُوَ الذِّكْرُ مَتْلُوٌّ بِأَلْسِنَةِ الوَرَى   وَفِي الصَّدْرِ مَحْفُوظٌ وفي الصُّحفِ مُسْجَلُ[١]

فَأَلْفَاظُهُ لَيْسَتْ بِمَخْلُوقَةٍ وَلَا   مَعَانِيهِ، فَاتْرُكْ قَوْلَ مَنْ هُوَ مُبْطِلُ

وَقَدْ أَسْمَعَ الرَّحْمٰنُ مُوسَى كَلَامَهُ[٢]   عَلَى طُورِ سِينَا، وَالإِلَهُ يُفَضِّلُ[٣]

وَلِلطُّورِ مَوْلَانَا تَجَلَّى بِنُورِهِ   فَصَارَ لِخَوْفِ اللّٰهِ دَكًّا يُزَلْزِلُ

وَإِنَّ عَلَيْنَا حَافِظِينَ مَلَائِكًا   كِراماً بِسُكَّانِ البَسِيطَةِ وُكِّلُوا

فَيُحْصُونَ أَقْوَالَ ابْنِ آدَمَ كُلَّهَا   وَأَفْعَالَهُ طرًّا، فَلَا شَيْءَ يُهْمَلُ

وَلَا حَيَّ غَيْرَ اللّٰهِ يَبْقَى وَكُلُّ مَنْ   سِوَاهُ لَهُ حَوْضُ المَنِيَّةِ مَنْهَلُ

وَإِنَّ نُفُوسَ العَالَمِينَ بِقَبْضِهَا   رَسُولٌ مِنَ اللّٰهِ العَظِيمِ مُوَكَّلُ

وَلَا نَفْسَ تَفْنَى قَبْلَ إِكْمَالِ رِزْقِهَا   وَلَكِنْ إِذَا تَمَّ[٤] الكِتَابُ المُؤَجَّلُ

وَسِيَّان مِنْهُمْ مَنْ وُدِي[٥] حَتْفَ أَنْفِهِ   وَمَنْ بِالظبا[٦] والسَّمْهَرِيَّةِ يُقْتَلُ

وَإِنَّ سُؤَالَ الفَاتِنَيْنِ مُحَقَّقٌ   لِكُلِّ صَرِيعٍ فِي الثَّرَى حِينَ يُجْهَلُ

يَقُولَانِ مَاذَا كُنْتَ تَعْبُدُ؟ مَا الَّذِي   تَدِينُ؟ وَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مُرْسَلُ

فَيَا رَبِّ ثَبِّتْنَا عَلَى الحَقِّ وَاهْدِنَا   إِلَيْهِ، وَأَنْطِقْنَا بِهِ حِينَ نُسْأَلُ

وَإِنَّ عَذَابَ القَبْرِ حَقٌّ، وَرُوحُ مَنْ   ورى[٧] فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ سَتُجْعَلُ

فَأَرْوَاحُ أَصْحَابِ السَّعَادَةِ نُعِّمَتْ   بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَمَا هُوَ أَفْضَلُ

وَتَسْرَحُ فِي الجَنَّاتِ تَجْنِي ثِمَارَهَا   وَتَشْرَبُ مِنْ تِلْكَ المِيَاهِ، وَتَأْكُلُ

وَلَكِنْ شَهِيدُ الحَرْبِ حَيٌّ مُنَعَّمٌ   فَتَنْعِيمُهُ لِلرُّوحِ وَالجِسْمِ يَحْصُلُ

وَأَرْوَاحُ أَصْحَابِ الشَّقَاءِ مُهَانَةٌ   مُعَذَّبَةٌ لِلْحَشْرِ وَاللّٰهُ يَعْدِلُ

وَإِنَّ مَعَادَ الرُّوحِ وَالجِسْمِ وَاقِعٌ   فَيَنْهَضُ مَنْ قَدْ مَاتَ حَيًّا يُهَرْوِلُ

وَصِيحَ بِكُلِّ العَالَمِينَ فَأُحْضِرُوا   وَقِيلَ قِفُوهُمْ لِلْحِسَابِ لِيُسْأَلُوا

---

(١) في مطبوع «كفاية الإنسان» و«قصائد مختارة»: «في الصحف يُسجّلُ».

(٢) في الأصل: «وقد أسمع موسى الرحمٰنُ كلامَه..»، وقد أخَّرنا لفظة (موسى) على لفظة (الرحمٰن) لوزن البيت، وهي كذلك في «قصائد مختارة» (١٠١).

(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «يفصلُ».

(٤) في الأصل: «تمت»!

(٥) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «أودى».

(٦) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «بالظبي».

(٧) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «أودى».

فَـذَلِـكَ يَـوْمٌ لَا تُـحَـدُّ كُـرُوبُـهُ بِـوَصْـفٍ فَـإِنَّ الأَمْـرَ أَدْهَـى وَأَهْـوَلُ
يُحَاسَبُ فِيهِ الـمَرْءُ عَنْ كُلِّ سَعْيِهِ وَكُـلٌّ يُـجَازَى بِـالَّـذِي كَـانَ يَـعْـمَـلُ
وَتُـوزَنُ أَعْـمَـالُ الـعِـبَـادِ جَـمِـيـعُـهَـا وَقَـدْ فَـازَ مَـنْ مِـيزَانُ تَـقْـوَاهُ يَـثْـقُـلُ
وَفِي الحَسَنَاتِ الأَجْرُ يُلْفَى[1] مُضَاعَفاً وَبِـالْـمِـثْـلِ تُـجْـزَى الـسَّـيِّـئَـاتُ وَتُـعْـدَلُ
وَلَا يُدْرِكُ الغُفْرَانَ مَنْ مَاتَ مُشْرِكاً وَأَعْـمَـالُـهُ مَـرْدُودَةٌ لَـيْـسَ تُـقْـبَـلُ
وَيَغْفِرُ غَيْرَ الشِّرْكِ رَبِّي لِمَنْ يَشَا وَحُسْنُ الرَّجَا وَالظَّنُّ بِاللَّهِ[2] أَجْمَلُ
وَإِنَّ جِنَانَ الـخُـلْـدِ تَـبْـقَى وَمَنْ بِـهَا مُقِيماً عَلَى طُولِ المَدَى لَيْسَ يَرْحَلُ
أُعِـدَّتْ لِـمَـنْ يَـخْـشَى الإِلَـٰهَ وَيَـتَّـقِي وَمَاتَ عَلَى التَّوحِيدِ فَهُوَ مُهَلِّلُ[3]
وَيَـنْـظُـرُ مَـنْ فِـيـهَـا إِلَـى وَجْـهِ رَبِّـهِ بِذَا نَطَقَ الـوَحْيُ الـمُـبِـينُ الـمُـنَـزَّلُ
وَإِنَّ عَـذَابَ الـنَّـارِ حَـقٌّ وَإِنَّـهَـا أُعِدَّتْ لِأَهْلِ الكُفْرِ مَثْوىً وَمَنْزِلُ
يُقِيمُونَ فِيهَا خَالِدِينَ عَلَى المَدَى إِذَا نَـضِـجَـتْ تِـلْـكَ الـجُـلُـودُ تُـبَـدَّلُ
وَلَـمْ يَـبْـقَ بِـالإِجْـمَـاعِ فِـيـهَـا مُـوَحِّـدٌ وَلَـوْ كَـانَ ذَا ظُـلْـمٍ يَـصُـولُ وَيَـقْـتُـلُ
وَإِنَّ لِـخَـيْـرِ الأَنْـبِـيَـاءِ شَـفَـاعَـةً لَدَى اللَّهِ فِي فَصْلِ القَضَاءِ فَيَفْصِلُ
وَيَـشْـفَـعُ لِـلـعَـاصِـينَ مِـنْ أَهْلِ دِينِهِ فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ نَارِهِ، وَهْيَ تُشْعَلُ
فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الحَيَاةِ فَيَنْبُتُوا كَمَا فِي حَمِيلِ السَّيْلِ يَنْبُتُ سُنْبُلُ
وَإِنَّ لَـهُ حَـوْضـاً هَـنِـيـئـاً شَـرَابُـهُ مِنَ الشَّهْدِ أَحْلَى فَهْوَ أَبْيَضُ سَلْسَلُ
يُـقَـدَّرُ شَـهْـراً فِـي الـمَـسَـافَـةِ عَـرْضُـهُ كَأَيْلَةَ مِنْ صَنْعَا وَفِي الطُّولِ أَطْوَلُ
وَكِـيـزَانُـهُ مِـثْـلُ الـنُّـجُـومِ كَـثِـيـرَةٌ وَوَارِدُهُ حَـقّـاً[4] أَغَـرُّ مُـحَـجَّـلُ
مِنَ الأُمَّـةِ الـمُـسْـتَـمْـسِـكِـينَ بِـدِيـنِـهِ وَعَـنْـهُ يُـنَـحَّـى مُـحْـدِثٌ ومُـبَـدِّلُ
فَيَا رَبِّ، هَبْ لِي شَرْبَةً مِنْ زُلَالِهِ بِفَضْلِكَ، يَا مَنْ لِمَنْ يَزِلُّ يَتَفَضَّلُ

فصل

في الإيمان بالقضاء والقدر[5] وما يتعلق بذلك

وَبِـالـقَـدَرِ الإِيـمَـانُ حَـتْـمٌ وَبِـالـقَـضَـا فَمَا عَنْهُمَا لِلمَرْءِ فِي الدِّينِ مَعْدِلُ

---

(١) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «يُلقى». (٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «في الله».
(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «مهلهلُ». (٤) بعده في مطبوع «كفاية الإنسان»: «كل».
(٥) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «في الإيمان والقدر»!

قَضَى رَبُّنَا الأَشْيَاءَ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهَا ... وَكُلٌّ لَدَيْهِ فِي الكِتَابِ مُسَجَّلُ

فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَكُلُّهُ ... مِنَ اللَّهِ وَالرَّحْمٰنُ مَا شَاءَ يَفْعَلُ

فَبِالفَضْلِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنَ الوَرَى ... وَبِالعَدْلِ يُرْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَخْذُلُ

وَمَا العَبْدُ مَجْبُوراً وَلَيْسَ مُخَيَّراً ... وَلَكِنْ لَهُ كَسْبٌ وَمَا الأَمْرُ مُشْكِلُ

وَإِنَّ خِتَامَ المُرْسَلِينَ مُحَمَّداً ... إِلَى الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ مُرْسَلُ

بِأَفْضَلِ دِينٍ لِلشَّرَائِعِ نَاسِخٍ ... وَلَا يَعْتَرِيهِ النَّسْخُ مَا دَامَ يُبْذَلُ(١)

فَمَا بَعْدَهُ وَحْيٌ مِنَ اللّهِ نَازِلٌ ... عَلَى بَشَرٍ، وَالمُدَّعِي مُتَقَوِّلُ

وَنَعْتَقِدُ(٢) الإِيمَانُ قَوْلٌ وَنِيَّةٌ ... وَفِعْلٌ إِذَا مَا وَافَقَ الشَّرْعَ يُقْبَلُ

وَيَنْقُصُ أَحْيَاناً بِنُقْصَانِ طَاعَةٍ ... وَيَزْدَادُ إِنْ زَادَتْ فَيَنْمُو وَيَكْمُلُ

وَدُونَكَ مِنْ نَظْمِ القَرِيضِ قَصِيدَةً ... وَجِيزَةَ أَلْفَاظٍ جَنَاهَا مُذَلَّلُ

بَدِيعَةَ حُسْنٍ يُشْبِهُ الدُّرَّ نَظْمُهَا ... وَلَكِنَّهُ أَحْلَى وَأَغْلَى وَأَجْمَلُ

عَقِيدَةُ أَهْلِ الحَقِّ وَالسَّلَفِ الألى(٣) ... عَلَيهِمْ لِمَنْ رَامَ النَّجَاةَ المُعَوَّلُ

فَدُونَكَهَا تَحْوِي فَوَائِدَ جَمَّةً ... مِنَ العِلْمِ قَدْ لَا يَحْتَوِيهَا المُطَوَّلُ

فَيَا رَبِّ عَفْواً مِنْكَ عَمَّا اجْتَرَحْتُهُ ... مِنَ الذَّنْبِ عَنْ عِلْمٍ وَمَا كُنْتُ أَجْهَلُ

فَإِنِّي عَلَى نَفْسِي مُسِيءٌ وَمُسْرِفٌ ... وَظَهْرِي بِأَوْزَارِ الخَطِيئَاتِ مُثْقَلُ

فَهَبْ لِي ذنوبي وَاعْفُ عَنْهَا تَفَضُّلاً ... عَلَيَّ فَمِنْ شَأْنِ الكَرِيمِ التَّفَضُّلُ

وَأَحْسَنُ مَا يَزْهُو بِهِ الخَتْمِ حَمْدُ مَنْ ... بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَى لَهُ نَتَوَسَّلُ

وَأَزْكَى صَلَاة وَالسَّلَام عَلَى الَّذِي ... بِهِ تَمَّ عَقْدُ الأَنْبِيَاءِ وَكُمِّلُوا

مُحَمَّدٍ المُخْتَارِ مَا هَلَّ(٤) عَارِضٌ ... عَلَى بَلَدٍ قَفْرٍ وَمَا اخْضَرَّ مُمْحِلُ

كَذَا الآل وَالأَصْحَاب مَا قَالَ قَائِلٌ ... نَفَيْتُمْ صِفَاتِ اللّهِ فَاللَّهُ أَكْمَلُ(٥)

---

(١) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «يذبلُ».

(٢) بدلها في مطبوع «كفاية الإنسان»: «وإنا نرى».

(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «الأولى».

(٤) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «ما انهلَّ».

(٥) انظر: «كفاية الإنسان» (٢٩٣ ـ ٢٩٩) و«قصائد مختارة في العقيدة» (٩٨ ـ ١٠٤).

القصيدة البائية في الحث على مكارم الأخلاق

للإمام محمد بن إسماعي الصنعاني

أَمَا آنَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ مَتَابُ ... وَهَلْ لَكَ مِنْ بَعْدِ البِعَادِ إِيَابُ
تَقَضَّتْ بِكَ الأَعْمَارُ في غَيْرِ طَاعَةٍ ... فَكُلُّ بِنَاءٍ قَدْ بَنَيْتَ خَرَابُ(١)
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلّهِ فِعْلُكَ خَالِصاً ... سِوَى عَمَلٍ تَرْضَاهُ وَهْوَ سَرَابُ
فَلِلْعَمَلِ الإِخْلَاصُ شَرْطٌ إِذَا أَتَى ... وَقَدْ وَافَقَتْهُ سُنَّةٌ وَكِتَابُ
وَقَدْ صِينَ عَنْ كُلِّ ابْتِدَاعٍ وَكَيْفَ ذَا ... وَقَدْ طَبَّقَ الآفَاقَ مِنْهُ عُبَابُ
طَغَى المَاءُ مِنْ مَجْرَى ابْتِدَاعٍ عَلَى الوَرَى ... وَلَمْ(٢) يَنْجُ مِنْهُ مَرْكَبٌ وَرِكَابُ
وَطُوفَانُ نُوحٍ كَانَ في الفُلْكِ أَهْلُهُ ... فَنَجَّاهُمُ وَالغَارِقُونَ تَبَابُ
وَأَنَّى(٣) لَنَا فُلْكٌ يُنَجِّي وَلَيْتَهُ ... يَطِيرُ بِنَا عَمَّا نَرَاهُ غُرَابُ
وَأَيْنَ إِلَى أَيْنَ المَطَارُ وَكُلُّ مَا ... عَلَى ظَهْرِهَا يَأْتِيكَ مِنْهُ عُجَابُ
نُسَائِلُ مَنْ دَارَ الأَرَاضِي سِيَاحَةً ... عَسَى بَلْدَة فِيهَا هُدًى وَصَوَابُ
فَيُخْبِرُ كُلٌّ عَنْ قَبَائِحِ مَا يَرَى(٤) ... وَلَيْسَ لِأَهْلِيهَا يَكُونُ مَتَابُ
لِأَنَّهُمُ عَدُّوا قَبَائِحَ فِعْلِهِمْ ... مَحَاسِنَ يُرْجى عِنْدَهُنَّ ثَوَابُ
كَقَوْمٍ عُرَاةٍ في ذُرَى مِصْرَ مَا تَرَى ... عَلَى عَوْرَةٍ مِنْهُمْ هُنَاكَ ثِيَابُ
(يَدُورُنَ فِيهَا كَاشِفِينَ لِعَوْرَةٍ ... تَوَاتَرَ هَذَا لَا يُقَالُ كِذَابُ
يَعُدُّونَهُمْ فِي مِصْرِهِمْ فُضَلَاءَهُمْ ... دُعَاؤُهُمُ فِيمَا يَرَوْنَ مُجَابُ
وَفِيهَا وَفِيهَا كُلُّ مَا لَا يَعُدُّهُ ... لِسَانٌ وَلَا يَدْنُو إِلَيهِ خِطَابُ
وَفِي كُلِّ مِصْرٍ مِثْلُ مِصْرَ وَإِنَّمَا ... لِكُلٍّ مُسَمَّى، وَالجَمِيعُ ذِئَابُ
تَرَى الدِّينَ مِثْلَ الشَّاةِ قَدْ وَثَبَتْ لَهَا ... ذِئَابٌ وَمَا عَنْهَا لَهُنَّ ذَهَابُ

---

(١) في مطبوع «كفاية الإنسان»:
«تقضت بك الأعمار... ... سوى عمل ترضاه وهو سرابُ
إذا لم يكن ... ... فكل بناء قد بنيتَ خرابُ»
(٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «فلم».
(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «فأنى».
(٤) ي مطبوع «كفاية الإنسان»: «ما أرى».

لَقَدْ مَزَّقَتْهُ بَعْدُ كُلَّ مُمَزَّقٍ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ جُثَّةٌ وَإِهَابُ)[1]
وَلَيْسَ اغْتِرَابُ الدِّينَ إِلَّا كَمَا تَرَى ... فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الاغْتِرَابِ إِيَابُ
فَيَا غُرْبَةً هَلْ نَرْتَجِي[2] مِنْكِ أَوْبَةً ... فَيُجْبَرَ مِنْ هَذِي العِبَادِ مُصَابُ
فَلَمْ يَبْقَ لِلرَّاجِي سَلَامَةَ دِينِهِ ... سِوَى عُزْلَةٍ فِيهَا الجَلِيسُ كِتَابُ
كِتَابٌ حَوَى كُلَّ العُلُومِ وَكُلَّ مَا ... حَوَاهُ مِنَ العِلْمِ الشَّرِيفِ صَوَابُ
فَإِنْ رُمْتَ تَارِيخاً رَأَيْتَ عَجَائِباً ... تَرَى آدَماً إِذْ[3] كَانَ وَهْوَ تُرَابُ
فَتَنْظُرُ[4] هَابِيلاً قَتِيلَ شَقِيقِهِ ... يُوَارِيهِ لَمَّا أَنْ أَرَاهُ غُرَابُ
وَتَنْظُرَ نُوحاً وَهْوَ فِي الفُلْكِ إِذْ طَغَى ... عَلَى الأَرْضِ مَاءٌ لِلسَّحَابِ[5] عُبَابُ
وَإِنْ شِئْتَ كُلَّ الأَنْبِيَاءِ وَقَوْمَهُمْ ... وَمَا قَالَ كُلٌّ مِنْهُمُ وَأَجَابُوا
تَرَى كُلَّ مَنْ[6] تَهْوَى مِنَ القَوْمِ مُؤْمِناً ... وَأَكْثَرُهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُ وَخَابُوا
وَجَنَّاتُ عَدْنٍ حُورُهَا وَنَعِيمُهَا ... وَنَارٌ بِهَا لِلْمُسْرِفِينَ عَذَابُ
فَتِلْكَ لِأَصْحَابِ التُّقَى ثُمَّ هَذِهِ[7] ... لِكُلِّ شَقِيٍّ قَدْ حَوَاهُ عِقَابُ
وَإِنْ تُرِدِ الوَعْظَ الَّذِي إِنْ عَقَلْتَهُ ... فَإِنَّ دُمُوعَ العَيْنِ عَنْهُ جَوَابُ
تَجِدْهُ وَمَا تَهْوَاهُ مِنْ كُلِّ مَشْرَبٍ ... فَلِلرُّوحِ مِنْهُ مَطْعَمٌ وَشَرَابُ
وَإِنْ رُمْتَ إِبْرَازَ الأَدِلَّةِ فِي الَّذِي ... تُرِيدُ فَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ تُجَابُ[8]
تَدُلُّ عَلَى التَّوْحِيدِ فِيهِ قَوَاطِعٌ ... بِهَا قُطِعَتْ لِلْمُلْحِدِينَ رِقَابُ
وَفِيهِ الدَّوَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ فَثِقْ بِهِ ... فَوَاللهِ مَا عَنْهُ يَنُوبُ كِتَابُ
وَمَا مَطْلَبٌ إِلَّا وَفِيهِ دَلِيلُهُ ... وَلَيْسَ عَلَيْهِ لِلذَّكِيِّ حِجَابُ

(١) ما بين الهلالين غير موجود في مطبوع «كفاية الإنسان».
(٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «يُرتجى».
(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «مُذ».
(٤) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «ولاقيتَ».
(٥) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «من ماء السَّحاب».
(٦) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «ما».
(٧) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «فتلك لأرباب التقاء وهٰذه».
(٨) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «مُجابُ».

وَفِي رُقْيَةِ الصَّحْبِ اللَّدِيغَ قَضِيَّةٌ ... وَقَرَّرَهَا الـمُخْتَارُ حِينَ أَصَابُوا[١]
وَلَكِنَّ سُكَّانَ البَسِيطَةِ أَصْبَحُوا ... كَأَنَّهُمُ عَمَّا حَوَاهُ غِضَابُ
فَلَا يَطْلُبُونَ الحَقَّ مِنْهُ وَإِنَّمَا ... يَقُولُونَ مَنْ يَتْلُوهُ فَهْوَ مُثَابُ
فَإِنْ جَاءَهُمْ فِيهِ الدَّلِيلُ[٢] مُوَافِقاً ... لِمَا كَانَ لِلآبَا[٣] إِلَيهِ ذَهَابُ
رَضُوهُ وَإِلَّا قِيلَ هَذَا مُؤَوَّلٌ ... وَيُرْكَبُ لِلتَّأْوِيلِ[٤] فِه صِعَابُ
تَرَاهُ أَسِيراً كُلُّ حَبْرٍ يَقُودُهُ ... إِلَى مَذْهَبٍ قَدْ قَرَّرَتْهُ صِحَابُ
أَتُعْرِضُ يَا ذا عَنْ رِيَاضٍ أَرِيضَةٍ ... وَتَعْتَاضُ جَهْلاً بِالرِّيَاضِ هِضَابُ
يُرِيكَ عَلَى مَرِّ الجَدِيدَينِ جِدَّةً ... فَأَلْفَاظُهُ مَهْمَا تَلَوْتَ عِذَابُ
وَآيَاتُهُ فِي كُلِّ حِينٍ طَرِيَّةٌ ... وَتَبْلُغُ أَقْصَى العُمْرَ وَهْيَ كِعَابُ
فَفِيهِ هُدًى لِلعَالَمِينَ وَرَحْمَةٌ ... وَفِيهِ عُلُومٌ جَمَّةٌ وَثَوَابُ
فَكُلُّ كَلَامٍ غَيْرِهِ القِشْرُ لَا سِوَى ... وَذَا كُلُّهُ عِنْدَ اللَّبِيبِ لُبَابُ
دَعُوا كُلَّ قَوْلٍ غَيْرِهِ وَسِوَى الَّذِي ... أَتَى عَنْ رَسُولِ اللهِ فَهْوَ صَوَابُ
وَعَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ وَاصْبِرُوا ... عَلَيهِ وَلَوْ لَمْ يَبْقَ فِي الفَمِ نَابُ
تَروا[٥] كُلَّ مَا تَرْجُونَ مِنْ كُلِّ مَطْلَبٍ ... إِذَا كَانَ فِيكُمْ هِمَّةٌ وَطِلَابُ
أَطِيلُوا عَلَى السَّبْعِ الطِّوَالِ وُقُوفَكُمْ ... تَدُرُّ عَلَيْكُمْ بِالعُلُومِ سَحَابُ
وَكَمْ[٦] مِنْ أُلُوفٍ[٧] بالمئين فكُنْ بِهَا ... أَلُوفاً تَجِدْ مَا ضَاقَ عَنْهُ حِسَابُ
وَفِي طَيِّ أَثْنَاءِ المَثَانِي نَفَائِسٌ ... يَطِيبُ بِهَا[٨] نَشْرٌ وَيُفْتَحُ بَابُ
وَكَمْ مِنْ فُصُولٍ في المُفَصَّلِ قَدْ حَوَتْ ... أُصُولاً إِلَيهَا لِلذَّكِيِّ إِيَابُ[٩]
وَمَا كَانَ في عَصْرِ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ ... سِوَاهُ لِهَدْيِ العَالَمِينَ[١٠] كِتَابُ
تَلَا «فُصِّلَتْ» لَمَّا أَتَاهُ مُجَادِلٌ ... فَأَبْلَسَ حَتَّى لَا يَكُونَ جَوَابُ

---

(١) هذا البيت غير موجود في مطبوع «كفاية الإنسان».
(٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «جاءهُمُ الدَّليلُ».
(٣) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «للآباء».
(٤) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «في التأويل».
(٥) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «تنالون». (٦) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «فكم».
(٧) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «في المئين». (٨) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «لها».
(٩) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «مآبُ». (١٠) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «للعالمين».

أَقَــرَّ بِــأَنَّ الــقَــوْلَ فِــيــهِ طَــلَاوَةٌ ... وَيَعْـلُـو وَلَا يَـعْـلُـو عَـلَيْـهِ خِـطَـابُ

وَأَدْبَـرَ عَـنْـهُ هَـائِـمـاً فِـي ضَـلَالَـةٍ ... يُـرِيـدُ حَـراداً[1] فـي الأَنَـامِ يُـعَـابُ

وَقَالَ وَصِيُّ المُصْطَفَى لَيْسَ عِنْدَنَا ... سِـــوَاهُ وَإِلَّا مَـــا حَـــوَاهُ قِـــرَابُ

وَإِلَّا الَّـذِي أَعْـطَـاهُ فَـهْـمـاً إِلَـهُـهُ ... بِـآيَـاتِـهِ فَـاسْـأَلْ عَـسَـاكَ تُـجَـابُ

فَمَا الفَهْمُ إِلَّا مِنْ عَطَايَاهُ لَا سِوَى ... بَلِ الخَيْرُ كُلُّ الخَيْرِ مِنْهُ[2] يُصَابُ

سُلَيْمَانُ قَدْ أَعْطَاهُ فَهْماً فَنَادِهِ ... يُجِبْكَ سَرِيعاً مَا عَلَيْهِ حِجَابُ

وَسَلْ مِنْهُ تَوْفِيقاً وَلُطْفاً وَرَحْمَةً ... فَتِلْكَ إِلَى حُسْنِ الخِتَامِ مَآبُ[3]

قال محمد تقي الدين: ونختم هذه الجيوش الشعرية بقصيدتي التي سميتها **«الكتيبة المظفرة في رجم شياطين البغي والشرك والبدع المستنكرة»**[4]. وقد صدرتها بالغزل، اقتداء بشعراء العرب، وخصوصاً الصحابة كحسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما، وهذه هي القصيدة:

لَقَدْ طَالَ لَيْلِي وَالجَوَى مَالِئٌ صَدْرِي ... وَبَـرَّحَ بِـي شَـوْقٌ إِلـى رَبَّـةِ الـخِـدْرِ

أُقَضِّي نَهَارِي دَائِمَ الفِكْرِ والأَسَى ... وَلَيْلِيَ تَسْهَادٌ إِلى مَطْلَعِ الفَجْرِ

وَأَكْتُمُ أَسْرَارِي حِذَاراً مِنَ العِدَا ... ومَهْمَا أَبُحْ فالحُبُّ أَفْقَدَنِي صَبْرِي

تَـذَكَّـرْتُ أَيَّـامَ الـوِصَـالِ فـكَـادَ مِـنْ ... تَـذَكُّـرِهَـا قَـلْـبِـي يَـطِـيـرُ مِـنَ الـصَّـدْرِ

فَيَا وَيْحَ قَلْبِي مَا يُلَاقِي مِنَ الهَوَى ... وَمِـنْ فَـرْطِ آلَامِ الـصَّـبَـابَـةِ والـهَـجْـرِ

وعَــاذِلَــةٍ جــاءَتْ بِــلَــوْمٍ كــأَنَّــهُ ... نُـعَـابُ غُـرَابٍ لـلـفُـؤَادِ غَـدَا يَـبْـرِي

ولَـسْـتُ بِـسَـالٍ لـو أَطَـلْـتِ مَـلَامَـتِـي ... فَكُفِّي عَنِ الإِسْفَافِ والمَنْطِقِ الهُجْرِ

وكَيْفَ سلوِّي بَعْدَمَا شَابَ مَفْرِقِي ... وأَنْفَقْتُ في حُبِّي لَهَا زَهْرَةَ العُمْرِ

أَلَـمْ تَـعْـلَـمِـي أَنَّ الـمـلامَ وَإِنْ غَـدَا ... عَدِيماً مِنَ الجَدْوَى فَبالحُبِّ قَدْ يُغْرِي

وَطُـفْـتُ بَـلَادَ اللهِ شَـرْقـاً وَمَـغْـرِبـاً ... عَلَى قَدَمِي طَوْراً وطَوْراً على مُهْرِ

---

(١) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «يُدبِّرُ ماذا». (٢) في مطبوع «كفاية الإنسان»: «يُضابُ».

(٣) انظر: «كفاية الإنسان» (١٣١ ـ ١٣٣).

(٤) نشر المصنف هذه القصيدة في «مجلة الجامعة الإسلامية» (١٨ شوال/ ١٣٩٢هـ (ص٢٣ ـ ٢٧)، وأوردها بتمامها في كتابه «الدعوة إلى الله» (٢١٤ ـ ٢١٨)، وفي ديوانه المُسمَّى «منحة الكبير المتعالي» (٧٣ ـ ٧٦) ومضى قِسمٌ منها في (٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٨).

وَأَنْضَيتُ بُعْرَاناً وحَلَّقتُ في السَّمَا ... على جَائِبَاتِ الجوِّ كالنَّجْمِ إِذْ يَسْرِي

وطَوْراً على فُلْكٍ عَظِيمٍ كأَنَّهُ ... ثَبِيرٌ يَرُوعُ الحُوتَ في لُجَّةِ البَحْرِ

حَلِيفُ اغْتِرَابٍ في ثَوَاءٍ ورِحْلَةٍ[1] ... وإِنْ كُنْتُ[2] في أَهْلٍ كَثِيرٍ ذَوِي وَفْرِ

(وَمَا غُرْبَةُ الإِنْسَانِ من شُقَّةِ النَّوَى ... وَلكِنَّهَا)[3] في الدِّينِ والخُلْقِ والبِرِّ

إلى اللهِ أَشْكُو غُرْبَةَ الدِّينِ والهُدَى ... وَطُغْيانَ أَهْلِ الكُفْرِ وَالفِسْقِ وَالغَدْرِ

وَأَرْعَنَ غَمْرٍ جَاءَ يُرْعِدُ مُبْرِقاً ... يُحَرِّقَ أَنْيَاباً مِنَ الغَيْظِ وَالكِبْرِ

فَقُلْتُ لَهُ شُؤْشُؤْ لَكَ الوَيْلُ إِنَّمَا ... وَعِيدُكَ تَطْنَانُ الذُّبَابِ عَلَى النَّهْرِ

وَلَيْسَ يَضِيرُ النَّهْرَ صَوْتُ ذُبَابَةٍ ... وَمَهْمَا دَنَتْ تَرْدِي وَتَهْوِي إِلَى القَعْرِ

أَتُوعِدُ سُنَّاتِ الرَّسُولِ بِمَحْوِهَا ... تَعَرَّضْتَ لِلتَّدْمِيرِ وَيْلَكَ وَالثَّبْرِ

وَمَنْ يَقْلِ سُنَّاتِ الرَّسُولِ فَإِنَّهُ ... يُعَذَّبُ فِي الدُّنْيَا وَفِي فِتْنَةِ القَبْرِ

وَيَسْأَلُهُ فِيهِ نَكِيرٌ وَمنْكَرٌ ... وَمَا مِنْ جَوَابٍ عِنْدَهُ غَيْر لَا أَدْرِي

وَذِي سُنَّةُ الجَبَّارِ في كُلِّ مَنْ غَدَا ... يُحَارِبُ دِينَ اللهِ في السِّرِّ وَالجَهْرِ

أَلَمْ تَدْرِ أَنَّ اللهَ نَاصِرُ دِينِه ... وَمُوقِعُ أَهْلِ البَغْيِ في دَارَةِ[4] الخُسْرِ

وَكَمْ قَدْ سَعَى سَاعٍ لإِطْفَاءِ نُورِهِ ... بِكَيْدٍ فَرَدَّ اللهُ كَيْدَهُ في النَّحْرِ

وتَنْصُرُ إِشْرَاكاً وَفِسْقاً وبِدْعَةً ... ونَاصِرُ هَذِي خَاسِرٌ أَبَدَ الدَّهْرِ

دَعَا المُصْطَفَى قِدْماً عَلَيْهِ بِلَعْنَةٍ ... وَمَنْ يَلْعَنِ المُخْتَارُ فهو إلىٰ شَرِ

وَتَلْعَنُهُ الأَمْلَاكُ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةٍ ... كَذَلِكَ أَهْلُ الأَرْضِ في السَّهْلِ وَالوَعْرِ

تُحَدِّدُ لِلْوَعَّاظِ مَا يَدْرُسُونَهُ ... وَأَنْتَ يَمِينَ اللهِ أَجْهَلُ مِنْ حُمْرِ

(لَقَدْ هَزَلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا ... كُلَاهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ ذِي عُسْرِ)

تَدُسُّ جَوَاسِيساً لِئَاماً بِوَعْظِهِمْ ... لِتَلْفِيقِ أَخْبَارٍ مِنَ المَيْنِ وَالمَكْرِ

لَقَدْ فُقْتَ الاسْتِعْمَارَ في اللُّؤْمِ وَالخَنَا ... وَفِي الكَيْدِ وَالبُهْتَانِ وَالخَتْلِ وَالخَتْرِ

---

(١) في «ديوانه»: «ثواءٍ ورحلة».

(٢) سقطت من «ديوانه»، وزادها بوخبزة عليه.

(٣) في مجلة «الجامعة الإسلامية»: «ولكنه»!!

(٤) في «ديوان الهلالي»: «درة»، وقد وضع تحتها بوخبزة خطًا لكن دون تعليق أو تصحيح في الهامش، والتصحيح من مجلة «الجامعة الإسلامية»، وهي على الجادة في الأصل.

تُحَارِبُ مَنْ يَدْعُو لِسُنَّةِ أَحْمَدٍ ... وَتِلْكَ لَعَمْرُ اللهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

فَيَا نَاطِحَ الطَّوْدِ المَتِينِ بِهَامَةٍ ... مُدَوَّرَةٍ جَوْفَا حَذَارِ مِنَ الكَسْرِ

وَلَيْسَ يَحِيقُ المَكْرُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... وَحَافِرُ بِئْرِ الغَدْرِ يَسْقُطُ فِي البِئْرِ

وَكَمْ حَافِرٍ لَحْداً لِيَدْفِنَ غَيْرَهُ ... عَلَى نَفْسِهِ قَدْ جَرَّ فِي ذَلِكَ الحَفْرِ

وَكَمْ مُشْرِكٍ طَاغٍ تَرَدَّى بِشِرْكِهِ ... وَسَادِنِ قَبْرٍ بَاءَ بِالخِزْيِ وَالخُسْرِ

وَكَمْ رَائِشٍ سَهْماً لِيَصْطَادَ غَيْرَهُ ... أُصِيبَ بِذَاكَ السَّهْمِ فِي ثُغْرَةِ النَّحْرِ

وَهَلْ أَنْتَ يَا مَغْرُورُ إِلَّا مُعَبَّدٌ ... حَقِيرٌ كَفَأْرٍ صَالَ فِي غَيْبَةِ الهِرِّ

وَقُبَّرَةٍ أَضْحَى لَهَا الجَوُّ خَالِياً ... مِنَ النَّسْرِ وَالعُقْبَانِ[1] وَالبَازِ[2] وَالصَّقْرِ

فَلَا تَفْرَحِي[3] يَوْماً سَيَأْتِيكِ صَائِدٌ ... وَيَسْقِيكِ كَأْسَ الحَتْفِ كَالصَّابِ وَالصَّبْرِ

(فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ ... وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي) زِدْتَ وِزْراً عَلَى وِزْرِ

(وَإِنَّكَ لَمْ[4] يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ... ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ) كَالسَّاقِطِ القَدْرِ

(فَيَا عَجَباً حَتَّى كُلَيْبٌ تَسُبُّنِي ... كَأَنَّ أَبَاهَا) مِنْ لُؤَيٍّ وَمِنْ فِهْرِ

أَتَغْتَرُّ بِالإِمْهَالِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... عَدِمْتُكَ إِهْمَالٌ وَذَا دَيْدَنُ الغُمْرِ

وَمَا نَحْنُ إِلَّا خَادِمُونَ لِسُنَّةٍ ... أَتَتْ عَنْ نَبِيِّ اللهِ ذِي الفَتْحِ وَالنَّصْرِ

أَخَادِمُ سُنَّاتِ الرَّسُولِ حَيَاتَهُ ... كَخَادِمِهَا مِنْ بَعْدِ مَا صَارَ فِي القَبْرِ

وَمَا غَابَ إِلَّا شَخْصُهُ عَنْ عُيُونِنَا ... وَأَنْوَارُهُ تَبْقَى إِلَى الحَشْرِ وَالنَّشْرِ

فَيَا مُبْغِضِي هَدْيِ النَّبِيِّ أَلَا ابْشِرُوا ... بِخِزْيٍ عَلَى خِزْيٍ وَقَهْرٍ عَلَى قَهْرِ

سَلَكْتُمْ سَبِيلاً قَدْ قَفَاهَا إِمَامُكُمْ ... أَبُو جَهْلٍ المَقْصُومُ فِي مُلْتَقَى بَدْرِ

وَعَاقِبَةُ المَتْبُوعِ حَتْمٌ لِتَابِعٍ ... كَمَا لَزِمَ الإِحْرَاقُ لِلقَابِضِ الجَمْرِ

فَإِنْ أَنْتُمُ كَذَّبْتُمُ بِوَعِيدِهِ ... فَكَمْ كَذَّبَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمُ الكُفْرِ

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ سَوْطَ نِقْمَةٍ ... فَصَارُوا أَحَادِيثَ المُقِيمِينَ وَالسَّفْرِ

(فَيَا رَبِّ هَلْ إِلَّا بِكَ النَّصْرُ يُرْتَجَى ... عَلَيْهِمْ) إِلَيْكَ الأَمْرُ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ

فَلَوْا سُنَّةَ المُخْتَارِ يَبْغُونَ مَحْوَهَا ... وَكَادُوا لَهَا فَاجْعَلْ لَهُمْ كَيْدَهُمْ يَفْرِي

(١) في «ديوان الهلالي»: «والثعبان».

(٢) في جميع الأصول: «والبازي»!

(٣) في «ديوان الهلالي»: «تفرحن».

(٤) في «ديوان الهلالي»: «وإن أنت لم».

هُمُ اسْتَضْعَفُونَا اليَوْمَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنَا قَلِيلٌ وَقَدْ يَعْلُو القَلِيلُ عَلَى الكُثْرِ
وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ للهِ قَائِماً وَأَعْدَاؤُهُ لِلْبَغْيِ مِنْ جَهْلِهَا تَجْرِي
وَإِدْرَاكُ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ مُحَقَّقٌ لِمَنْ يَقْتَدِي بِالمُصْطَفَى مِنْ ذَوِي الحِجْرِ
وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ اللهَ مُخْلِفُ وَعْدِه وَخَاذِلُ أَنْصَارِ النَّبِيِّ بِذَا العَصْرِ
فَذَاكَ غَلِيظُ الطَّبْعِ أَرْعَنُ جَاهِلٌ عَرِيضُ القَفَا بَيْنَ الوَرَى مُظْلِمُ الفِكْرِ
تَكَفَّلَ بِالنَّصْرِ العَلِيُّ لِحِزْبِهِ حَيَاتَهُمُ هَذِي وَفِي مَوْقِفِ الحَشْرِ
فَفِي (غَافِرٍ) قَدْ جَاءَ ذَلِكَ وَاضِحاً وَلَكِنَّهُ يَخْفَى عَلَى الفَدْمِ وَالغُمْرِ
سَلَامٌ عَلَى أَنْصَارِ سُنَّةِ أَحْمَدٍ فَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ فِي كُلِّ مَا دَهْرِ
إِلَيْهِمْ أَجُوبُ البَرَّ وَالبَحْرَ قَاصِداً فَرُؤْيَتُهُمْ تَشْفِي السَّقِيمَ مِنَ الضُّرِّ
هُمُ حَفِظُوا الدِّينَ الحَنِيفَ وَنَاضَلُوا عَنِ الحَقِّ بِالبُرْهَانِ وَالبِيضِ وَالسُّمْرِ
هُمُ خَلَفُوا المُخْتَارَ في نَشْرِ سُنَّةٍ بِفِعْلٍ وَأَقْوالٍ تَلَألَأُ كَالدُّرِّ
هُمُ جَرَّدُوا التَّوْحِيدَ مِنْ كُلِّ نَزْعَةٍ[1] مِنَ الشِّرْكِ وَالإِلْحَادِ وَالزَّيْغِ وَالنُّكْرِ
فَلَا قُبَّةٌ تُبْنَى عَلَى قَبْرِ مَيِّتٍ وَلَمْ يَعْبُدُوا مَيْتاً[2] بِذَبْحٍ وَلَا نَذْرِ
وَلَا بِطَوَافٍ أَوْ بِتَقْبِيلِ تُرْبَةٍ فَذَلِكَ فِعْلُ المُشْرِكِينَ ذَوِي الكُفْرِ
وَلَا رَحَلُوا يَوماً لِغَيْرِ ثَلَاثَةٍ مَسَاجِدَ خُصَّتْ بِالفَضَائِلِ وَالأَجْرِ
وَلَمْ يَسْتَغِيثُوا فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا بِغَيرِ إِلَّهِ النَّاسِ ذِي الخَلْقِ وَالأَمْرِ[3]
وَلَمْ يَصِفُوا الرَّحْمَنَ إِلَّا بِمَا أَتَى بِنَصِّ كِتَابِ اللهِ وَالسُّنَنِ الزُّهْرِ
يُقِرُّونَ آيَاتِ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا كَمَا فَعَلَ المُخْتَارُ مَعْ صَحْبِهِ الغُرِّ
فَلَوْ كَانَ فِي التَّأْوِيلِ خَيْرٌ لَبَادَرُوا لَهُ فَهُمُ الفُرْسَانُ في النَّظْمِ وَالنَّثْرِ
(أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا مَا) اجْتَمَعْنَا في المَجَالِسِ لِلْفَخْرِ
وَقَدْ أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ قَبْلُ دِينَهُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ زَيْدٍ لِزَيْدٍ وَلَا عَمْرِو
بِمَائِدَةٍ قَدْ[4] جَاءَ بِالنَّصِّ خَتْمُهُ وَإِتْمَامُ إِنْعَامٍ يَجِلُّ عَنِ الحَصْرِ

---

(١) في «ديوان الهلالي»: «نزغة».
(٢) في «ديوان الهلالي»: «قبراً».
(٣) كذا في «ديوان الهلالي»، وفي الأصل: «والأمري»!.
(٤) في «ديوان الهلالي»: «لقد».

وَكَمْ زَائِدٍ فِي الدِّينِ أَصْبَحَ نَاقِصاً ... يُبَدِّلُ دِينَ اللهِ بِالْحَدْسِ وَالحَزْرِ

وَمَنْ ظَنَّ تَقْلِيدَ الأَئِمَّةِ مُنْجِياً ... فَأَفْتَى بِتَقْلِيدٍ فَيَا لَهُ مِنْ غِرِّ

كَمُنْتَحِلٍ عُذْراً لِيُغْفَرَ ذَنْبُهُ ... أَضَافَ لَهُ جُرْماً تَجَدَّدَ بِالعُذْرِ

أَلَا إِنَّمَا التَّقْلِيدُ جَهْلٌ وَظُلْمَةٌ ... وَطَالِبُهُ خُلْوٌ مِنَ العِلْمِ وَالخُبْرِ[1]

كَطَالِبِ وِرْدٍ بَعْدَمَا شَفَّهُ الظَّمَا ... جَرَى خَلْفَ آلٍ لَاحَ فِي مَهْمَهٍ قَفْرِ

فَإِنْ قُمْتَ بِالإِفْتَاءِ أَوْ كُنتَ قَاضِياً ... فَإِيَّاكَ وَالتَّقْلِيدَ فَهُوَ الَّذِي يَزْرِي

وَجَرِّدْ سُيُوفاً مِنْ بَرَاهِينَ قَدْ سَمَتْ ... عَنِ الحَدْسِ وَالتَّخْمِينِ وَالسُّخْفِ وَالهَتْرِ

وَطَرْفَكَ سَرِّحْ فِي الكِتَابِ[2] فَإِنَّهُ ... رِيَاضٌ حَوَتْ مَا تَشْتَهِيهِ مِنَ الزَّهْرِ

وَمِنْ بَعْدِهِ فَاعْلَقْ بِسُنَّةِ أَحْمَدٍ ... فَأَنْوَارُهَا[3] تَسْمُو عَلَى الشَّمْسِ وَالبَدْرِ

وَلَا تَحْكُمَنْ بِالرَّأْيِ إِلَّا ضَرُورَةً ... كَمَا حَلَّتِ المَيْتَاتُ أَكْلاً لِمُضْطَرِّ

وَمَهْمَا بَدَا أَنَّ القَضَاءَ عَلَى خَطَا ... أُقِيمَ فَبَادِرْ لِلرُّجُوعِ عَلَى الفَوْرِ

وَمَنْ يَقْضِ بِالتَّقْلِيدِ فَهُوَ عَلَى شَفَا ... كَعَشْوَا[4] غَدَتْ فِي كَافِرٍ حَالِكٍ تَسْرِي

وَمَنْ يُفْتِ بِالتَّقْلِيدِ فَهُوَ قَدِ افْتَرَى ... وَفِي النَّحْلِ نَصٌّ جَاءَ فِي غَايَةِ الزَّجْرِ

لَعَمْرُكَ مَا التَّقْلِيدُ لِلجَهْلِ شَافِياً ... وَأَمَّا نُصُوصُ الوَحْيِ فَهْيَ الَّتِي تُبْرِي

وَصَلِّ وَسَلِّمْ يَا إِلَٰهِي[5] عَلَى النَّبِي ... صَلَاةً تَدُومُ الدَّهْرَ طَيِّبَةَ النَّشْرِ

فَدُونَكَهَا بِكْراً عَرُوباً خَرِيدَةً ... مُهَفْهَفَةً غَيْدَا عَرُوساً مِنَ الشِّعْرِ

يُضِيءُ ظَلَامَ اللَّيْلِ نُورُ جَمَالِهَا ... وَلَيْسَ لَهَا[6] إِلَّا القِرَاءَةُ مِنْ مَهْرِ

قَصَدْتُ بِهَا نَصْراً لِسُنَّةِ أَحْمَدٍ ... وَنَاصِرُهَا لَا شَكَّ يَظْفَرُ بِالنَّصْرِ

وَعِدَّتُهَا تِسْعُونَ مِنْ بَعْدِ خَمْسَةٍ ... وَأَخْتِمُهَا بِالحَمْدِ للهِ وَالشُّكْرِ

قال محمد تقي الدين: تم بحمد الله وحسن عونه (القسم الثالث) ـ وهو

---

(١) كذا في الأصل: و«ديوانه»، وفي «مجلة الجامعة الإسلامية»: «والخير».
(٢) في «مجلة الجامعة الإسلامية»: «بالكتاب».
(٣) في «مجلة الجامعة الإسلامية»: «فأنواره».
(٤) في «مجلة الجامعة الإسلامية»: «كهشوا»! (٥) في «مجلة الجامعة الإسلامية»: «إله».
(٦) سقطت من «ديوانه» فقط، وزادها بوخبزة.

الأخير ـ من كتاب «سبيل الرشاد»، وهذه نعمة عظيمة، كنتُ أتمناها على الله تعالى منذ عشرات السنين، وكان الفراغ منه يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلون من شهر محرم الحرام سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف من هجرة النبي الأكرم.

اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم، وبمحبَّتي واتِّباعي لنبيِّك الكريم، وإن كنت مقصراً أن تعينني على ما بقي، وهو وضع فهرست وافٍ للقسم الثاني، وأن تنفعني به في الدنيا والآخرة، وتنفع به خلقاً كثيراً.

وكان الكاتب لختام هذا الجزء رضا الله بن محمد إدريس المباركفوري، رزقه الله العلم النافع والعمل الصالح، وجعله من الأئمة الداعين إلى الله على بصيرة، وهداه وهدى على يديه خلقاً كثيراً، وقرأ عليَّ هذا الكتاب وتولى تصحيحه حسب ما أمرته ابني البرُّ خَتَني عبد الغني بوزكري وفقه الله لخدمة الإسلام والمسلمين، وأطال بقاءه، وختم له بالسعادة والغفران، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[1].

---

(١) فرغت منه قبل صلاة الجمعة من السابع من رجب سنة ١٤٢٦هـ الموافق ١٢ أغسطس من سنة ٢٠٠٥، وعملت على تخريج آياته وأحاديثه من رأس القلم، ووثقت نصوصه وقابلتها على ما فيه حرفاً بحرف، وعلقت على ما رأيته مهماً وضرورياً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.
ثم قرأتُه بعد تنضيده، وزدتُّ عليه، وفرغتُ من ذلك في السابع من صفر، وذلك بعد مقابلة بعض إخواني لأصوله على المصفوف، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.
ونظرتُ فيه مرة أخرى، وفرغت منه بعد صلاة ظهر يوم الأربعاء من عشري شعبان سنة ٢٠٠٦هـ، وأرجو الله تعالى أن يجعل ذلك في صحيفة الأعمال، وأن ينفع به في الحياة وبعد الممات، آمين آمين.

الموضوعات والمحتويات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

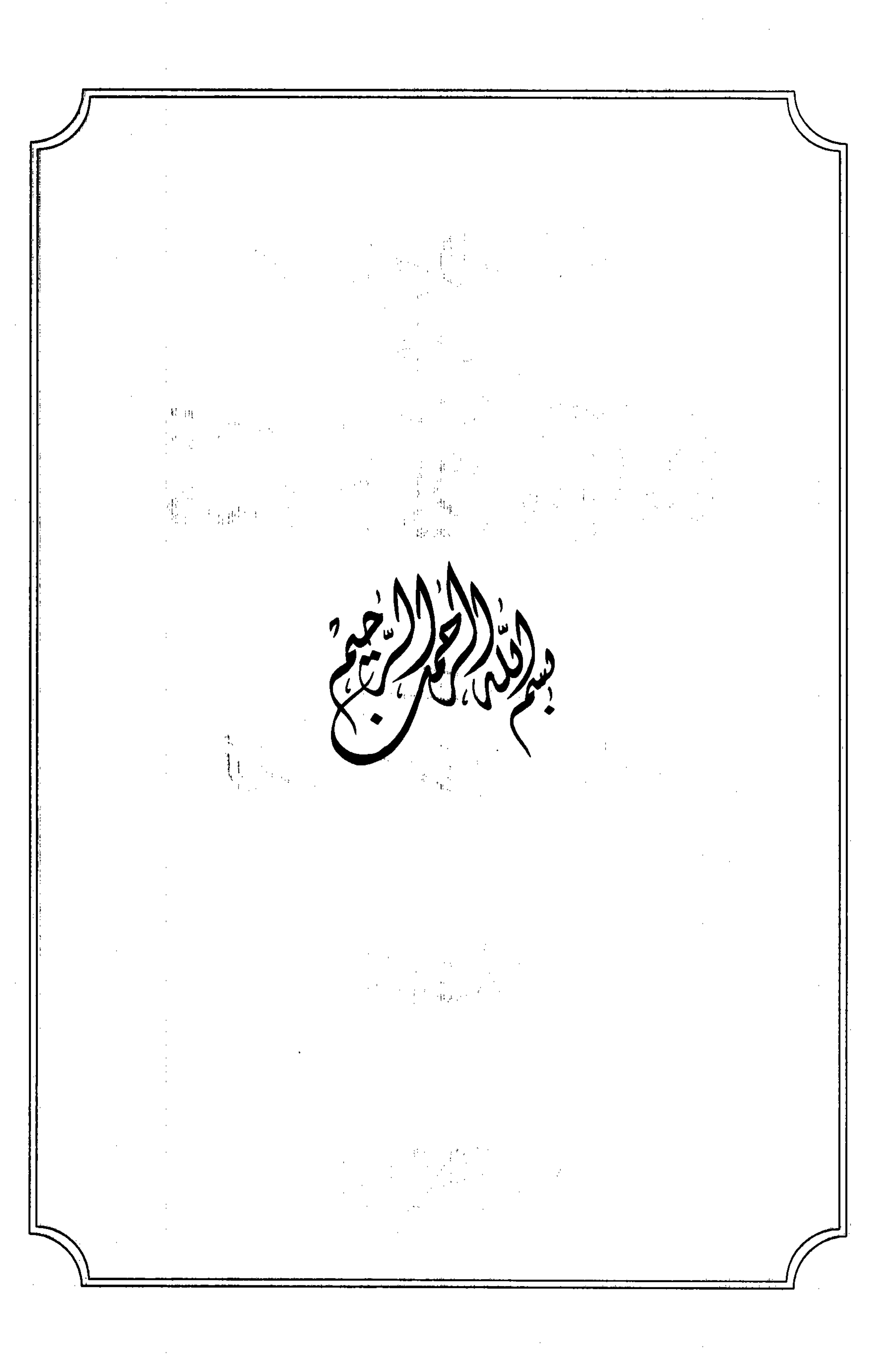
سُبُلُ الرَّشَادِ فِي هَدْيِ خَيْرِ العِبَادِ

صنعه

أبو عُبيدة مشهور بن حسن آل سلمان

الفهارس

الدار الأثرية


بسم الله الرحمن الرحيم

سبيل الرشاد

في

هدي خير العباد

الفهارس

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الدار الأثرية
عمان - الأردن - تلفاكس : ٠٠٩٦٢ / ٦٥٦٥٨٠٤٥
خلوي : ٠٠٩٦٢/٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب : ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي : ١١١٩٠
الرمز الإلكتروني : alatharya1423@yahoo.com

فهرس الأحاديث والآثار(١)

(١) ما أمامه (ث) فهو أثر، وما أمامه (هـ) فهو في الهامش.

الحديث والأثر	الراوي	الجزء والصفحة
﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً من السماء (ث)	الزهري	٢/ ١٨، ٦/ ١٥
﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً من السماء (ث)	الضحّاك	٢/ ١٨، ٦/ ١٥
﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً من السماء (ث)	ابن عباس	٢/ ١٨، ٦/ ١٥
﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً من السماء (ث)	قتادة	٢/ ١٨
﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا. . .(ث)	ابن عباس	٢/ ٦٦
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	عبد الرحمن بن أبي ليلى	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	عامر بن سعد	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	الضحّاك بن مزاحم	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	إسماعيل بن عبد الرحمن السدي	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	أبو إسحاق السبيعي	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	عبد الرحمن بن سابط	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	الحسن البصري	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	سعيد بن المسيّب	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	قتادة	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	عكرمة مولى ابن عباس	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	مجاهد	٥/ ٧١
الحسنى الجنة، والزيادة النظر. . .(ث)	أبيّ بن كعب	٥/ ٦٩
الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة	أبو سعيد الخدري	٦/ ٢١٢
حفظ إعراب القرآن أحب. . .(ث)	أبو بكر الصديق	٥/ ٢٥٢
حفظ إعراب القرآن أحب. . .(ث)	عمر بن الخطاب	٥/ ٢٥٢
حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ حروفه (ث)	أبو بكر وعمر	٥/ ٢٥٧
﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي يجاهدوا في سبيله حق جهاده (ث)	ابن عباس	١/ ٢٧٥
حق على من اتبع الرسول ﷺ أن يدعوا. . .(ث)	الربيع بن أنس	١/ ٣٢٤
حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً (ث)	الضحاك	١/ ٢٦٨
حكاية أبي حنيفة مع حماد بن زيد (ث)	-	٦/ ١١١
الحكمة ضالة المؤمن يأخذها. . .	ابن عباس	٣/ ٢٣٩
الحكمة ضالة المؤمن يأخذها. . .	أبو هريرة	٣/ ٢٣٩
الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله. . .	سلمان	٣/ ١٨٦، ٢٧٠، ٥/ ١١
الحمد لله الذي أخرجه بي من النار	أنس	٦/ ٦٦


٥٢

الحديث والأثر	الراوي	الجزء والصفحة
لا تيأسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما . . .	حبّة وسواء ابنا خالد	٢/ ١٦٨
﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة (ث)	السدي	٢/ ٢٤٠
لا جمعة ولا تشريق ولا فطر . . .	-	٣/ ٦٨(هـ)
﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خصومة (ث)	مجاهد	٤/ ٨٠
لا حظ لمن ترك الصلاة في الإسلام (ث)	عمر	١/ ٣٤١
لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا الرأي. . (ث)	مكحول	٣/ ٦٥
﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: اقتصصت منك وشتمتك وسببتك (ث)	ابن عباس	٢/ ٣٠
﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: اقتصصت منك وشتمتك وسببتك (ث)	السدي	٢/ ٣٠
لأستغفرن لك ما لم أنه عنك	-	١/ ٢٤٦
﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه. . (ث)	ابن عباس	١/ ٤٣٠
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	عبادة بن الصامت	١/ ١٢٧
لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف	-	٣/ ٢٩٢
لا طاعة في معصية الله	عمران بن الحصين	٣/ ٤٩(هـ)
لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق	عمران بن الحصين	٢/ ١٥٢، ٢/ ١٥٢(هـ)، ٣/ ٤٩
لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق	الحسن (مرسلاً)	٣/ ٤٩(هـ)
لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله	سلمة بن الأكوع	٦/ ٢١٠
لأعلمنك أعظم سورة في القرآن. . .	أبو سعيد بن المعلى	٣/ ١٥١
لامانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت. . .	المغيرة بن شعبة	١/ ٣٢٤
﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا راد لقضاءه ولا مغيّر (ث)	ابن عباس	٥/ ٢٨٤
لأن أقرأ آية بإعراب أحب. . .	-	٥/ ٢٥٢(هـ)
لا نكاح إلا بولي	عائشة	٣/ ١٩٢
لا نورث ما تركنا صدقة	أبو بكر الصديق	٤/ ١٧٩
لا والله ما يلقي الحبيب حبيبه في النار. . .	أنس	١/ ٢٩٦
لا يا بنت الصديق	عائشة	٢/ ٩٥
لا يأتي عليكم عام إلا وهو شر من. . . (ث)	ابن مسعود	٣/ ٥٧
لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك	-	٣/ ٣٤٠

الحديث والأثر	الراوي	الجزء والصفحة
﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ مع محمد ﷺ وأصحابه (ث)	ابن مسعود	١/ ٥٠٠
﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ مع أبي بكر وعمر وأصحابهما (ث)	الضحّاك	١/ ٥٠٠
﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ . . .﴾ هي الميتة (ث)	ابن عباس	١/ ٣٦٣
﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ . . .﴾ ينهى عن ذبائح . . . (ث)	عطاء	١/ ٣٦٣
﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ . . .﴾ لا تجاوزهم إلى غيرهم (ث)	ابن عباس	٢/ ١٤
﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ . . .﴾ أي تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعبكم	ابن عباس	١/ ٣٩٧
﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ . . .﴾ كانوا . . . (ث)	السدي	١/ ٣٩٧
﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ لا تمنن بعملك على ربك تستكثره (ث)	الحسن البصري	٢/ ٣٦٣
﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ لا تعط العطية تلتمس أكثر منها (ث)	ابن عباس	٢/ ٣٦٣
﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ استثنى من ذلك نساء أهل الكتاب (ث)	ابن عباس	١/ ٢١٧
ولا راد لما قضيت	المغيرة بن شعبة	٢/ ٤١٣
﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ نزلت في عبد الله بن رواحة (ث)	السدي	١/ ٢١٨
﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ لا يصحبون من الله بخير (ث)	قتادة	٢/ ٦٠
﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا . . .﴾ أي يسجد بعضنا لبعض (ث)	عكرمة	١/ ٢٥٨
﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا . . .﴾ يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله . . . (ث)	ابن جريج	١/ ٢٥٨
ولا يحقرن أحدكم نفسه . . .	أبو سعيد الخدري	٢/ ١٨١
﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فداء (ث)	أبو العالية	١/ ١٥٦
﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يعني نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة (ث)	قتادة	٢/ ١٩٥
﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ بدل والبدل الفدية (ث)	ابن عباس	١/ ١٥٥
الولد للفراش وللعاهر الحجر	عائشة	٣/ ١٣١
ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد . . . (ث)	عائشة	٤/ ٢١٦
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ (ث)	ابن عباس	٤/ ١٦٢

الفوائد والمباحث العلمية(١)

الفائدة	الجزء والصفحة

الأديان والفرق

(١) ما بعده (م) إشارة إلى مقدمتي على الكتاب، وما على أثره (هـ) ففي الهامش.

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ ملة إبراهيم هي الحنيفية التي أمر الله نبيه محمداً ﷺ باتباعها	٢/ ١٥٤
ـ الناس قسمان: منتفع بدينه، وغير منتفع بدينه	٣/ ٣٣٣
ـ المنتفع بالدين: عالم عابد، وعالم معلم	٣/ ٣٣٤
ـ النهي عن موالاة اليهود والنصارى	١/ ٢٩٨
ـ من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى فهو من المنافقين	٣/ ٣٠٦
ـ من صفات المنافقين: إذا كان لهم الحق أتوا، وإذا كان عليهم أعرضوا	٣/ ٢٨٣
ـ أهل الردة في زمن أبي بكر على ثلاثة أقسام	٢/ ٢٩٦(هـ)
ـ حكم سبي أولاد المرتدين	٢/ ٢٩٦
ـ قصة أهل الردة الذين قاتلهم أبو بكر	٢/ ٢٩٦
ـ لم يرتد أحد من الصحابة بعد النبي ﷺ إلا قومٌ من جفاة العرب	٣/ ٣٣٠
ـ تعلق المشركين والمقلدين بـ(صوابه خطأ وخطؤه كفر)	٢/ ٥٦
ـ تفرق الكفار عن النبي ﷺ فرقاً مع أنهم كانوا في زمانه وشاهدوا معجزاته	٤/ ٢١٢
ـ خطورة ما يسمى الآن بـ(تقريب الأديان)	١/ ٢٩٢(هـ)
ـ فتوى هيئة كبار العلماء في مسألة (تقريب الأديان)	١/ ٢٩٢(هـ)
ـ جاهلية زماننا أعظم من الجاهلية الأولى	١/ ٦١٠
ـ العرب في الجاهلية كانوا متمسكين بملة إبراهيم على تحريف وتبديل فيها	٤/ ١٨٥
ـ العرب قديماً على ثلاثة أقسام: قسم شرقي، وقسم غربي، وقسم وسط	٤/ ١٩٠

أهل الكتاب اليهود والنصارى

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ اختلاف أهل الكتاب في كتابهم	٥/ ٢٩٧
ـ اختلاف اليهود والنصارى في عيسى وتوسط الإسلام واعتداله	٣/ ٣١٧
ـ ادعاء اليهود والنصارى أنهم على الهدى وغيرهم على الباطل باقٍ إلى الآن	١/ ٢٠١(هـ)
ـ أهل الكتاب يجيزون على الأنبياء الكبائر والكفر	١/ ٤٤١
ـ بشارات التوراة والإنجيل بنبوة محمد ﷺ	٣/ ٣٣
ـ ﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ هم اليهود	٢/ ٢٠، ٢٢
ـ دعوة اليهود والنصارى إلى دينيهما	١/ ٢٠٣(هـ)
ـ كيف جاء قول اليهود والنصارى: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾	١/ ٢٩٦، ٢٩٧
ـ مؤمنو أهل الكتاب يؤتون أجرهم مرتين	٤/ ١٧٣
ـ اليهود والنصارى بدلوا دين الله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾	٤/ ١٧١
ـ إثبات اليهود علو الله واستوائه على عرشه	٥/ ١٣٢

أهل السنة والجماعة والطائفة المنصورة

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ مذهب أهل السنة أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء	٥/ ٣٠٣
ـ مذهب أهل السنة في أصول الدين	٥/ ٢٠٩
ـ مذهب أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم بصوت وحرف	٥/ ٢٨٢
ـ من علامات أهل السنة	٥/ ٢١٣(هـ)
ـ منهج أهل السنة إثبات الصفات والأفعال الاختيارية	٥/ ١٥، ١٨، ٢٧
ـ تقسيم مايابا الجكني الوهابية ثلاثة أقسام!! والرد عليه	٥٦(م)
ـ كلام عن الوهابية	٢/ ٣٤

الخوارج

ـ إحباط الطاعات بالكبائر عند الخوارج	٤/ ١٢٩
ـ إنكارهم للشفاعة في أهل الكبائر	١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤
ـ أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج	٥/ ٤١
ـ تسلسل فتن الخوارج ثم المعتزلة ثم الجهمية	٥/ ٤١
ـ تشعب الخوارج إلى شعب ونحل	٥/ ٤١
ـ الحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه	٢/ ٢٠
ـ الحرورية هم الفاسقون	٢/ ٢٠
ـ الخوارج في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه	٥/ ٤٠
ـ ردوا بعض الصفات وأثبتوا بعضها	٣/ ١٥٦
ـ سبب ظهور فتنة الخوارج	٥/ ٤١
ـ من أعمال الخوارج	٥/ ٤١
ـ يقولون: الأعمال أجزاء الإيمان، فمن ترك العمل خرج من الإيمان وهو كافر	٦/ ١٠٠(هـ)
ـ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ هم الخوارج	٥/ ٤٠

المرجئة

ـ العمل عندهم غير داخل في الإيمان	١/ ٥٤٨(هـ)
ـ لا حاجة عندهم إلى العمل مع الإيمان، ومدار النجاة التصديق فقط	٦/ ١٠٠(هـ)

القدرية

ـ إنكارهم علم الله القديم	٥/ ٣٠٥
ـ تكفيرهم بإنكار علم الله القديم	٦/ ١٧٥
ـ مناظرة القدرية بالعلم، فإن أقروا خصموا	٦/ ٧٢
ـ نزاع في تكفير القدرية القائلين بخلق أفعال العباد، وإرادتها إرادة كونية	٦/ ٧٣

الفائدة | الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة

المعتزلة

الفائدة	الجزء والصفحة

الأشاعرة

الماتريدية

توحيد وإيمان وكفر وشرك

التوحيد: ثماره، أهميته، أنواعه، مجمله، ضرورته

الفائدة | الجزء والصفحة

توحيد الألوهية

ولاء وبراء

توحيد الربوبية

توحيد الأسماء

الفائدة	الجزء والصفحة

توحيد الصفات

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ الإتيان والمجيء نوعان: مطلق ومقيد	٥/ ٢٠
ـ المحيي المميت	٢/ ٢٧٨
ـ إثبات صفة النزول وتواتر الأخبار في ذلك	٥/ ٢٢
ـ أبو حنيفة ومحمد بن الحسن يثبتان النزول	٥/ ٢٤
ـ إمرار أحاديث النزول بلا كيف	٥/ ٢٤، ٢٥
ـ آثار عن الصحابة والتابعين فيها إثبات علو الله	٥/ ١٣٢
ـ آيات دالة على علو الله تعالى	٥/ ٨٩
ـ آيات فيها إثبات صفة العلو	٥/ ١١٤
ـ إثبات أبي حنيفة علو الله	٥/ ١٤٥
ـ إثبات أن الله في السماء فوق العرش	٥/ ١٠٣
ـ إثبات الصحابة والتابعين وسائر الأئمة علو الله	٥/ ١١٤
ـ إثبات صفة العلو	٥/ ٤٧، ٥٥، ٨٩، ٩٦، ١١٣
ـ إثبات موسى علو الله	٥/ ١٧٦
ـ إثبات اليهود علو الله واستوائه على عرشه	٥/ ١٣٢
ـ أجمع أهل الأديان من المسلمين على أن الله على العرش	٥/ ١٤٨، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٤٥
ـ إجماع المسلمين على أن الله هو العلي الأعلى	٥/ ١٨٤
ـ أحاديث العلو متواترة	٥/ ٩٦
ـ أدلة على علو الله فوق عرشه	٥/ ١٤٩
ـ الاستواء معقول ـ ومعلوم ـ والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة	٥/ ٩٦، ١٦٣
ـ اعتقاد موسى عليه السلام علو الله	٥/ ١٦٤
ـ إقرار الكافر حصين والد عمران أن الله في السماء	٥/ ١٠٨، ٢٠٧
ـ أقوال أئمة الحديث في الصفات والعلو	٥/ ١٩٦
ـ أقوال أئمة اللغة العربية الذين يحتج بقولهم في العلو والصفات	٥/ ٢٢١
ـ أقوال الزهاد والصوفية أهل الاتباع وسلفهم في العلو والصفات	٥/ ٢٢٣
ـ أقوال للتابعين في إثبات علو الله	٥/ ١٤٠
ـ أقوال لتابعي التابعين في إثبات علو الله	٥/ ١٤٣
ـ إنكار الجهمية أن الله على العرش استوى	٥/ ١٩١
ـ إنكار الجهمية كون الله على العرش	٥/ ١٩٠
ـ أول من عرف عنه في هذه الأمة أنه نفى أن يكون الله فوق سماواته هو الجهم وقبله الجعد	٥/ ٢٠٤
ـ بعض أدلة على علو الله	٥/ ١٦١، ١٦٢

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ منع المعطلة للسؤال عن الله بـ(أين) في حديث الجارية	٥/ ١٠٢
ـ نسبة الاستقرار على العرش لا يجوز اعتقاده ولا نسبته إلى الله	٥/ ١٨٥(هـ)
ـ نفي المعتزلة والأشاعرة لصفة العلو لله	٥/ ٢٤٦
ـ نقل من كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية» في إثبات العلو لله	٥/ ١١٣
ـ نقموا على ابن أبي زيد قوله (بذاته) في (مستوٍ على عرشه)	٥/ ١٥٣
ـ السماوات والأرض بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة	٥/ ٣٧
ـ العرش فوق السماوات والله فوق العرش	٥/ ١٧٥
ـ الكرسي	٥/ ٢٩، ٣٠
ـ الكرسي على العرش	٥/ ٣١٨
ـ نفي المعتزلة الكرسي	٥/ ٢٩
ـ بيان ما ذكر في القرآن من معية الله	٥/ ١٩٣
ـ ذكر معية الله	٥/ ٢٤٢
ـ قول المريسي بأن الله معه في الأرض	٥/ ٢٠٦
ـ اتفاق الأشاعرة والمعتزلة واختلافهم في كلام الله	٢/ ٥٢
ـ اتفاق السلف على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد	٥/ ٢٥٦
ـ إثبات صفة الكلام لله	٥/ ٢٨١، ٢٩٦، ٣٢٢
ـ إجماع السلف على أن الله نادى موسى بصوت نفسه	٥/ ٢٥٥
ـ تكليم الله لموسى	٥/ ٢٥٥، ٢٥٧
ـ تنويع في إطلاق صفة الكلام في القرآن	٥/ ٢٩٢
ـ الجهمية يقولون: إن الله لا يتكلم؛ بل خلق كلاماً في غيره وجعل غيره يعبر عنه	٥/ ٢٨٠
ـ الرد على من زعم أن كلام الله هو المعنى النفسي	٥/ ٢٩٠
ـ رد على من يقول: إن الله خلق كلاماً في محل فسمع موسى ذلك الكلام	٥/ ٢٥٠
ـ سماع آدم وحواء كلام الله بغير واسطة	٥/ ٢٨٢
ـ سماع موسى كلام الله بغير واسطة	٥/ ٢٨٢
ـ ضلال الأشاعرة الذين يزعمون أن كلام الله معنى قائم بذاته	١/ ٤٢٥
ـ ضلال المعتزلة الذين يقولون: إن كلام الله مخلوق	١/ ٤٢٥
ـ عقيدة السلف في مسألة الكلام	٥/ ٢٥١، ٢٥٥
ـ كلام الله بحرف وصوت قديمين	٥/ ٢٤٩
ـ كلام الله قديم النوع حادث الآحاد	٥/ ٢٨٧
ـ كلام الله لآدم وحواء	٥/ ٢٨٧

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ كلام الله لجبريل بلا واسطة	٥/ ٢٨٧
ـ كلام الله لمحمد ليلة الإسراء بلا واسطة	٥/ ٢٨٧(هـ)
ـ كلام الله لموسى بلا واسطة	٥/ ٢٨٧
ـ كلام الله نوعان: بغير واسطة، وبواسطة	٥/ ٢٨٧
ـ كلام لابن تيمية في بيان عقيدة السلف في كلام الله والقرآن	٥/ ٢٥١، ٢٥٢
ـ كلام لابن حجر في الرد على من زعم أن كلام الله نفسي من «الفتح»	٥/ ٢٩٠
ـ كلمات الله نوعان: كونية قدرية، وكلمات دينية	٥/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ٢٨٧
ـ مذهب الاتحادية أن كل كلام في الوجود هو كلام الله	٥/ ٣٠٢
ـ مذهب أهل السنة أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء	٥/ ٣٠٣
ـ مذهب أهل السنة أن الله يتكلم بصوت وحرف	٥/ ٢٨٢
ـ مذهب السالمية أن كلام الله صفة قائمة بذات الله	٥/ ٣٠٣
ـ مذهب الصابئة والمتفلسفة أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس بصوت يسمع	٥/ ٣٠٣
ـ مذهب الماتريدية أن كلام الله معنىً قائم بذاته	٥/ ٣٠٢
ـ مسألة كلام الله وافتراق الناس فيه	٥/ ٣٠٢
ـ المعتزلة قالوا: إن الله متكلم حقيقة؛ لكن معنى ذلك أنه خالق للكلام في غيره	٥/ ٢٨٠
ـ نداء الله آدم وحواء معاتباً موبخاً	٥/ ٢٨٩
ـ نفي الجهمية تكليم الله موسى	٥/ ١٩٧
ـ نقل لابن القيم في الرد على من زعم أن كلام الله نفسي	٥/ ٢٩٠
ـ نقل من كتاب «الاعتقاد» لابن مهدي في كلام الله والقرآن	٥/ ٢٧٦
ـ نقل من كتاب «الكواشف الجلية» في إثبات صفة الكلام لله	٥/ ٢٨١
ـ الإجماع على أن الأصوات المسموعة من القرآن هي أصوات العباد	٥/ ٢٥٦
ـ احتجاج المعتزلة على مخلوقية القرآن	٥/ ٢٩٤
ـ أول من عرف أنه قال: إن القرآن قديم هو ابن كلاب	٥/ ٢٨٠
ـ جهم وأصحابه صرحوا بأن القرآن مخلوق	٥/ ٢٧٧
ـ القرآن عند الأشاعرة	٢/ ٥٢
ـ القرآن عند المعتزلة	٢/ ٥٢
ـ القرآن كلام الله	١/ ٤٥٨
ـ القرآن كلام الله غير مخلوق	٥/ ٢٥١، ٢٥٢، ٢٧٥
ـ قول: القرآن بلفظي مخلوق	٥/ ٢٧٦
ـ قول المريسي بخلق القرآن	٥/ ١٩٩

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالكتب

الإيمان بالرسل

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة
- عيسى لم يجئ بنسخ شريعة موسى كلها	٢/ ٢٧٥
- غلو النصارى في عيسى لا يقبله أي عقل سليم	١/ ٢٩٣(هـ)
- القرآن فيه قول وسط في عيسى	٣/ ٣١٧
- لماذا سمي عيسى كلمة الله وروح منه	١/ ٢٩٤
- نزول عيسى في آخر الزمان	٥/ ٤٤
- نقول من الأناجيل تثبت أن عيسى عبد الله ورسوله وليس إلهاً ولا ابن الله	١/ ٣١٠
- آيات دالة على عموم بعثة النبي ﷺ	٤/ ١٨٥، ١٨٦
- إنذار رسول الله لا يكون إلا بالوحي وهو القرآن والسنة	٣/ ٢٧٨
- بشارات التوراة والإنجيل بنبوة محمد ﷺ	٤/ ٦
- تبرئة النبي ﷺ مما اتهمه به المشركون من الشعر والكهانة	٤/ ٢١٠
- تنبأ النبي بـ﴿اقْرَأْ﴾ وأرسل بـ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ①﴾	٢/ ٣٦٤
- التوحيد مشتمل على الإيمان بالرسول ﷺ	٣/ ٣٠٤
- رؤية النبي جبريل على خلقته	٤/ ٢٣٦
- شفاعة النبي ﷺ في خروج الموحدين من النار	٢/ ٢٨٤
- شفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب	٢/ ١١٦
- شهادة أن محمداً رسول الله لها شروط	٢/ ٣١٥
- صفة رسول الله ﷺ في التوراة	٣/ ١٣٨، ٤/ ٥
- صور الوحي عند مجيئه إلى النبي ﷺ	٤/ ٢١٦
- العلم النافع هو الذي جاء به الرسول ﷺ	٤/ ٢٢٩
- عموم نبوة النبي ﷺ للناس كافة	٦/ ٦٥ ـ ٦٦
- كتب فيها بشارة بنبينا محمد ﷺ	٣/ ١٤٥، ١٤٥(هـ)
- كثرة تفنن الكفار في ضروب الأذى وشدة التعنت وقوة الشكيمة للرسول ﷺ	٣/ ٢٦٣
- كفاية الله النبي ﷺ المستهزئين في حياته وبعد وفاته	١/ ٥٨٦
- للنبي ﷺ منصب الرسالة والتبليغ عن الله والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه	٣/ ٣٠٥
- محاولة الكفار فتنة الرسول ﷺ لولا أن ثبته الله	٣/ ٢٦٣
- محبة النبي ﷺ أكثر من محبة النفس والمال والولد شرط في الإيمان	٣/ ٣٤٠
- معنى شهادة أن محمداً رسول الله	٣/ ٣٠٤
- المقام المحمود للنبي ﷺ	٦/ ١٥٥
- من معجزات النبي ﷺ	٦/ ١٤٠
- النبي ﷺ فرط الأمة على الحوض	٣/ ٣٢٩

الشفاعة

الفائدة | **الجزء والصفحة**

رؤية الله يوم القيامة

الفائدة	الجزء والصفحة

مسائل في الشرك والكفر

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ إزالة عمر لكل معلم يوصل إلى الشرك	١/ ٤١٤
ـ الاستقسام بالأزلام موجود عند الشعوب الجاهلة	٣/ ١١١
ـ أسماء معبودات في مصر والمغرب	٣/ ١١٠
ـ إفتاء جماعة من الشافعية بهدم ما في العراق من أضرحة	٢/ ٣٩٢
ـ أفكار المشركين وأقوالهم متشابهة في كل زمان ومكان	١/ ٥٤٢
ـ انتشار الاستقسام بالأزلام بين الناس باسم (قرعة الأنبياء)	٤٨م
ـ أنواع وأشكال للأوثان	٣/ ١٦٩
ـ أهل النرويج يعبدون القمر	٢/ ١٢٤
ـ بعض هذه الأمة سيعبد الأوثان	٢/ ٣٨٠
ـ تحذير النبي من الغلو بقبور الصالحين	٢/ ٣٧٧
ـ التحقيق في مسألة توسل الأعمى برد بصره في «التوسل والوسيلة» لابن تيمية	٦/ ٢٧٩
ـ تحقيق القول في أن الأعراب الذين ذكروا في الآية ليسوا منافقين	٦/ ٧٧(هـ)
ـ تعمية قبر دانيال سدّاً لذريعة الشرك	١/ ٤١٥
ـ التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح	٢/ ٣٧٨
ـ توجيه حديث الأعمى المتوسل لرد بصره في «التوسل» للألباني	٦/ ٢٧٩(هـ)
ـ التوسل إلى الله بالأسماء الحسنى	٦/ ٢٧٨
ـ التوسل بالأشخاص والإقسام بهم على الله	٢/ ٣١٩
ـ عقيدة التوسل المشروع والتوسل الممنوع	٢/ ٣١٩
ـ توسل مشروع	٦/ ٢٧٨
ـ توسل ممنوع	٦/ ٢٧٩
ـ جواب المشركين لإبراهيم وجواب المشركين لمحمد	٢/ ١١٨
ـ حجة قوم إبراهيم هي حجة المشركين في كل زمان	٢/ ٦٧
ـ حجة المشركين في كل زمان ومكان	٢/ ٩١
ـ حفظ الله قبر النبي بعد الصحابة من نظر ناظر أو يد لامس	٣/ ٤٥
ـ حكاية الأعرابي الذي جاء يطلب المغفرة من الله عند قبر النبي	٣/ ٤٤
ـ حكم الحلف بغير الله شرك	١/ ٥٥٩، ٥٥٩(هـ)، ٢/ ٣١٠
ـ الخوف قسمان: طبعي وخوف هو شرك	١/ ٤٦٨
ـ الذبح عند النصب من الشرك	٣/ ١٠٤
ـ ذكر ابن تيمية أن بعض أهل زمانه جوّز الاستغاثة بالرسول	٢/ ٣٨١
ـ الرقى التي من الشرك	٢/ ٣٣٥(هـ)

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ الرقى والتمائم والتولة من الشرك	٥٦١/١
ـ الرياء من الشرك	٥٦٣/١
ـ السحر من أنواع الشرك لا يأتي بدونه	١٧١/١
ـ الشافعية والأحناف يمنعون البناء على القبر	٣٩٤/٢
ـ شبه بين المشركين المتأخرين وبين المتقدمين	٣٣/٢، ٢٠٨
ـ الشرك بقبر الصالح أقرب إلى النفوس من الشرك بالحجر	٣٨٤/٢
ـ شرك المشركين في هذا الزمان أشد وأغلظ منه في الزمان الأول	٣٢٨/١، ٥٩٨، ١١٨/٢، ٢٢٣
ـ صور من الشرك الأصغر	٥٥٩/١ ـ ٥٦٣
ـ صور من الشرك الخفي	١٤٦/١
ـ الطواغيت كثيرة	٢٢٨/١
ـ الظلم نوعان: أكبر وأصغر	٢٣٢/١
ـ عُبّاد الأصنام جمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ	٢٦٦/٢
ـ عبّاد الأوثان يعبدونها تشريفاً وتكريماً لمن نسبت إليهم	٢٣٢/٢
ـ الفرق بين الصنم والوثن	٤١٢/١(هـ)
ـ عبادة مشركي العرب للجن	٣٥٩/١
ـ غلو بعض المسلمين في النبي ﷺ	٢٩٣/١
ـ الغلو في الأنبياء والصالحين يفضي إلى الكفر	٤٢٥/١
ـ الغلو في قبور الصالحين ومجالسهم وآثارهم يصيرها أوثاناً	٣٥٠/٢
ـ الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً	٣٨٦/١، ٤١١، ٣٧٩/٢
ـ الغلو في قبور الصالحين يصيرهم أوثاناً تعبد من دون الله	٣٩٦/٢
ـ في هذا الزمان المشركون يعبدون الأنبياء	٥١٢/١
ـ قصة أصل عبادة الأصنام	٤١٨/١، ٣٧٧/٢
ـ قصة توسل عمر بالعباس	٢٧٨/٦
ـ قصة شجرة ذات أنواط	٤٠٧/١
ـ قصة عبادة بني إسرائيل العجل	٤٢٢/١
ـ قصة عبادة صخرة تسمى سيدي ميمون	٣١٨/١
ـ قصة عمر في وجد قبر دانيال	٣٩٨/٢
ـ قصة في عبادة البهائم	٣١٧/١
ـ قصة معاذ بن عمرو ومعاذ بن جبل في إهانة الأصنام ليلاً	٤٤٢/١
ـ قوم من المشركين يجعلون للدجاجلة خراجاً سنويّاً	٦٠/٢

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ كبار الصحابة يخافون على أنفسهم من النفاق	٢/ ١٤٨
ـ الكفار في هذا الزمان أنواع	٢/ ٢٨٨
ـ الكفار يعبدون الله ولكن لا يوحدونه	١/ ١٤٧
ـ كل معبود عبد من دون الله فإنه يتبرأ من عابديه يوم القيامة	١/ ٢١٢
ـ كل من أشرك بالله يأتي يوم القيامة مفلساً يائساً	١/ ٢٣٢
ـ كل من دعاه الإنسان لجلب نفع أو دفع ضر فقد عبده واتخذه شريكاً مع الله	٢/ ١٩٦
ـ كل من صرف عبادته لمخلوق فقد اتخذه ندّاً	٢/ ٢٥٢
ـ كل من عبد غير الله فقد عبد الشيطان	٢/ ٣٣، ٢٠٠
ـ كلمة في كتاب «تاريخ حركة الإصلاح» عن مشركي اليوم ومشركي العرب قديماً	٢/ ٦٧(هـ)
ـ كيفية ابتداء عبادة الأصنام	١/ ٣٨٥
ـ لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس سنة ١٩١٢م استغاث أهلها بإدريس	١/ ٤٧٠، ٢/ ٢٠٢
ـ ما يسمى في هذا الزمان بـ(قرعة الأنبياء)	٣/ ١١١
ـ مثال على الشرك الجلي في هذه الأمة	١/ ٤٤٠(هـ)
ـ مثال على الشرك الخفي في هذه الأمة	١/ ٤٤٠(هـ)
ـ المحبة الشركية	٦/ ٣٩
ـ مشركو العرب يوحدون في الشدة ويشركون في الرخاء	١/ ٥٩٨
ـ المشركون كانوا يعبدون ثلاثة أنواع من الشركاء	٢/ ٢٤٦
ـ المشركون ما كانوا يعبدون الأصنام وحدها	٢/ ٢٤٦
ـ المشركون يعبدون أشياء كثيرة، ولا تقتصر عبادتهم على الأصنام	١/ ٥٢٣
ـ المعبودون غير الأبرار قسمان	٢/ ١٤٦
ـ المعبودون من دون الله إما أبرار وإما فجار	١/ ٦٠٩
ـ المعبودون من دون الله قسمان	٢/ ١٤٦
ـ مفاسد الشرك	١/ ٣٧٠
ـ مقارنة بين عباد الأضرحة والقبور وبين عباد العجل	٢/ ٥١
ـ من صور التحاكم إلى الطاغوت	٢/ ٢٣٩، ٣/ ٤٣
ـ من عبد غير الله فقد بدل نعمة الله كفراً	١/ ٢٠٧
ـ من يقول: لا إله إلا الله قد يقع منه الشرك	١/ ٢٠٠
ـ منع بناء المسجد على القبر وأقوال مذهب مالك	١/ ٤١٤
ـ منع العبادات الشركية والبدع من المسجد الحرام	١/ ٤٦٤
ـ نجاسة المشركين معنوية لا مادية	١/ ٤٧٥

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ نصوص ذم التمائم والتولة	٢/ ٣٣٤
ـ نظم البوصيري فيه غلو	٢/ ٣٨٢
ـ نهى رسول الله ﷺ سلمان أن يسجد له	٥/ ٣١٩
ـ نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ	٢/ ٣٩٧
ـ النهي عن الغلو والإطراء	١/ ٢٨٨
ـ هدم قبة حمزة والقباب التي في البقيع	٢/ ٦٨
ـ يدخل في الذبح على النصب الذبح على قبة أو شجرة أو حجر أو للجنية عائشة أو غير ذلك	٣/ ١١٠
ـ الإجماع على كفر ادعاء أن النبي ﷺ يعلم كل ما يعلمه الله	١/ ٢٣٥
ـ أجمع أهل السنة على أن من اعتقد أن أحداً من المخلوقين يعلم الغيب فقد كفر	٢/ ٢٥٩
ـ ادعاء الحلاج وابن العربي وابن سبعين وابن الفارض الإلهية	٣/ ١٧٠، ١٧٠(هـ)
ـ الاستغاثة لا تكون إلا بالله وإذا كانت بغيره فهي كفر	١/ ٤٤٦
ـ أشياء تتعلق بالقرآن تركها أو فعلها كفر	٦/ ٢٠
ـ أعظم عقوبة للكفار حجبهم عن رؤية ربهم وسماع كلامه	٥/ ٧٢
ـ أهل الردة بعد النبي وموقفهم من الزكاة	٢/ ٢٥٠
ـ تكفير من أنكر علم الله القديم من القدرية	٦/ ٧٣
ـ جعل صفات الله لغيره كفر	٢/ ٣٠٧
ـ الكفار والمنافقون في الحقيقة قسم واحد	٤/ ٢٠
ـ كفر إبليس وفرعون وسببه الامتناع من العمل لا عدم التصديق	٦/ ١٠٦
ـ ضلال الأشاعرة القائلين بأن القرآن صفة نفسية	١/ ٤٦٢
ـ كفر من زعم أن القرآن مخلوق من المعتزلة والخوارج	١/ ٤٦٢
ـ كل من اتبع هواه في الشرك أو تغيير حكم شرعي أو رد ما جاء به الرسول فهو كافر	٢/ ٢٨٦
ـ المرتدون بعد النبي ﷺ كانوا من جفاة العرب من أصحاب مسيلمة والأسود	٣/ ٣٣٠
ـ من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر	٥/ ٨٩
ـ من عاب الصحابة فهو كافر	٦/ ١٨٥
ـ من قال: إن القرآن مخلوق فهو كافر	٥/ ٢٧٥
ـ من قال بقول جهم فقد فارق جماعة المسلمين	٥/ ٢٠٣
ـ نقل من «أشعة اللمعات» على أنه لم يرتد أحد من الصحابة	٣/ ٣٣٠

الفائدة | **الجزء والصفحة**

مواعظ وحكم وأمثال

قصص وأخبار وحكايات[1]

(١) منها الثابت ومنها الضعيف، ومنها الموضوع، وتشمل ما حصل مع المصنف، وما نقله من المصادر أو مشافهة.

الفائدة — الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة | الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ قصة عبادة المياه	١٥١م
ـ قصة عبد الله بن الزبعري وجداله النبي ﷺ في المعبودات من دون الله	٢/ ٧٤
ـ قصة عبد الله بن سلام مع رأس الجالوت	١/ ١٦١
ـ قصة عبد الله بن صوريا اليهودي مع رسول الله ﷺ	١/ ٢٠١
ـ قصة عبد الله بن عمرو مع رجل من أهل الجنة	٦/ ٢١٦
ـ قصة عبد الرحمٰن بن أبي بكر مع أبيه في معركة أحد	٢/ ١٥٢
ـ قصة عتق مطرف غلام علي بن الحسين	٤/ ٢٥٣
ـ قصة العثور على قبر دانيال	١/ ٤١٥
ـ قصة عجل السيد	١/ ٣١٥
ـ قصة علي في تصدقه وهو راكع	١/ ٣٠٢
ـ قصة عمر مع حذيفة في خوفه على نفسه من النفاق	٢/ ١٤٨
ـ قصة عمر مع زيد بن ثابت في إفتائه برأيه في الغسل من الجنابة	٣/ ٥٧
ـ قصة عمر في وجد قبر دانيال	٢/ ٣٩٨
ـ قصة عمر مع كتابة كتاب صلح الحديبية	٣/ ٥٦
ـ قصة عبادة النبي ﷺ رجلاً دعى على نفسه بتعجيل العقوبة	٣/ ١٤٣
ـ قصة غزوة تبوك	١/ ٤٩٣، ٤٩٤
ـ قصة فتح مكة ونقض الكفار لعقد الصلح	١/ ٤٦٠
ـ قصة في عبادة البهائم	١/ ٣١٧
ـ قصة الفيل	٦/ ١٤١
ـ قصة قاضي فقيه ابنته مريضة مع مشعوذ	٢/ ٣٥٥
ـ قصة قاضي فقيه يأخذ معه أعمى إلى الحمام يناوله الماء ويغسله حتى لا يرى عورته	٢/ ٣٥٥
ـ قصة قتال مانعي الزكاة	١/ ٤٥٥
ـ قصة قتل أسامة الرجل بعد أن قال: لا إله إلا الله	١/ ٤٤٩
ـ قصة قدوم عمر على الشام لفتح بيت المقدس	٥/ ١٣٣
ـ قصة قدوم مسيلمة على رسول الله ﷺ	١/ ٤٥٩
ـ قصة قدوم وفد بني تميم واختلاف أبي بكر وعمر في تعيين الأمير عليهم	٤/ ١٤٣
ـ قصة القراء السبعين الذين بعثهم الرسول مع المشركين الذين ادعوا الإسلام	١/ ٤٣٠
ـ قصة قسم النبي الذهيبة بين أربعة نفر	٥/ ١١٦
ـ قصة قوم عاد	٢/ ٢٩٠
ـ قصة كاتب نصراني لأبي موسى الأشعري مع عمر	١/ ٢٩٨

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ نماذج من حكايات الصوفية	١/ ٥٤٤(هـ)
ـ هدم قبة حمزة والقباب التي في البقيع	٢/ ٦٨
ـ وجود أهل بادية يسكنون في الخيام في شمال النرويج	٢/ ١٢٤

أصول فقه وقواعد أصولية وعلل وأسباب وناسخ ومنسوخ

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ اجتناب البدعة أحق من فعل المستحب	٢/ ٤٩(هـ)
ـ الاجتهاد	٤/ ٧
ـ الاجتهاد في العصور المتأخرة أيسر منه في المتقدمة	٤/ ٢٤٢
ـ الاجتهاد لا ينقطع مع وجود الطائفة المنصورة	٢/ ٤٢٠
ـ الاستنباط من كلام المجتهد	٢/ ٤٨(هـ)
ـ الأصل: قرآن وسنة وإجماع وقياس	٣/ ٣٣٧، ٥/ ١٦٦، ٢٣٧
ـ أقل الناس اختلافاً أهل السنة والحديث	٤/ ١٩٣
ـ إنكار الصحابة (عظماء الأمة) الرأي	٣/ ٥٥
ـ إنكار النبي ﷺ على من أفتى بغير سنة	٤/ ٢٠٧
ـ بعث على رأس كل قرن من يجدد للأمة دينها	٤/ ٢٦٩
ـ تحذير الصحابة من عالم السوء	٤/ ٧٠
ـ تحذير مالك من الفتيا من غير نص	٤/ ٢٤١
ـ تحرير ابن القيم الدقيق لموضوع القياس في «إعلام الموقعين»	١/ ٣٨٥
ـ تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي المتضمن لمخالفة النصوص	٣/ ٤٨
ـ ﴿تُدَمِّرُ﴾ من العام الذي يراد به الخصوص	٢/ ٢٩٢
ـ الحسن والقبح المتعلق بالشرع	٢/ ٢٨١(هـ)
ـ تفصيل في مسألة (التحسين والتقبيح)	٢/ ٢٨٤(هـ)
ـ التقصير في الاجتهاد يؤدي إلى الهلاك	٣/ ٥٠
ـ تقييد العتق بالرقبة المؤمنة في الكفارة	٥/ ١٧٨
ـ حقيقة المكروه	١/ ٤٦٧
ـ ذم وإنكار جمع من الصحابة والتابعين القول بالرأي ومخالفة النص	٣/ ٥٥ ـ ٧١
ـ الرأي المحمود على أنواع	٣/ ٧١
ـ عبارة (سد باب الاجتهاد) والتعليق عليها	٤/ ٢٦٩
ـ العمل الذي طريقه الاجتهاد والاستدلال هو معترك النزاع	٣/ ٢٤٧

الفائدة	الجزء والصفحة

قواعد أصولية

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ الإجماع على إبطال التقليد في العقائد	٣/ ٢٥(هـ)
ـ الإجماع على إثبات الصفات على الحقيقة لا على المجاز	٥/ ٥١
ـ الإجماع على إثبات صفة المحبة لله	٦/ ٢٦(هـ)، ٢٨
ـ الإجماع على إثبات قدر الله	٦/ ١٧٥
ـ الإجماع على إجراء أحاديث الصفات على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها	٥/ ٥٣
ـ الإجماع على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة	٥/ ٥٠
ـ الإجماع على أن الأصوات المسموعة من القرآن هي أصوات العباد	٥/ ٢٥٦
ـ الإجماع على أن أهل الكلام أهل زيغ وضلال	٥/ ٤٢
ـ الإجماع على أن الإيمان قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب	٢/ ٣٧١
ـ الإجماع على أن الإيمان قول وعمل ونية	٦/ ٧٣
ـ الإجماع على أن التقليد ليس بعلم	٣/ ١٦٠
ـ الإجماع على أن دعاء الأحياء للأموات مشروع وينفعهم الله به إذا كانوا موحدين	٦/ ١٨٦
ـ الإجماع على أن طائفة من الموحدين يدخلون النار ثم يخرجون منها بشفاعة النبي ﷺ	٤/ ٢٠
ـ الإجماع على أن المسلم يتزوج النصرانية، والنصراني لا يتزوج المسلمة	١/ ٢١٨
ـ الإجماع على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم	٣/ ١٢، ٢٦(هـ)
ـ الإجماع على أن من استبانت له سنة لم يكن له أن يدعها لقول أحد	٣/ ١٢، ٢٦(هـ)
ـ الإجماع على أن من بلغه نص من القرآن والسنة وعلم ذلك عليه اتباعه	٣/ ٢٩٥
ـ الإجماع على أن من جحد من القرآن شيئاً فهو كافر	٦/ ٢١
ـ الإجماع على أن النبوة في الرجال دون النساء	١/ ٣٠٩
ـ الإجماع على أنه لا طريق لمعرفة أحكام الله إلا عن طريق الرسل	١/ ٢٤(هـ)
ـ الإجماع على الإيمان بآيات وأحاديث الصفات من غير تحريف	٥/ ٢٠٢
ـ الإجماع على تحريم الإفتاء والقضاء بالتقليد	٤/ ٦١
ـ الإجماع على تحريم الرد في التنازع إلى غير الكتاب والسنة	٤/ ٣٠
ـ الإجماع على التخليد الأبدي في النار في حق الكفار	٦/ ١٧٣(هـ)
ـ الإجماع على جواز نكاح الكتابية	١/ ٢١٧
ـ الإجماع على السجدات المتفق عليها	٢/ ١٠٨(هـ)
ـ الإجماع على عدم جواز تقليد الأموات	٤/ ٦٤
ـ الإجماع على عدم فناء النار	٦/ ١٧٢(هـ)
ـ الإجماع على كفر ادعاء أن النبي ﷺ يعلم كل ما يعلمه الله	١/ ٢٣٥، ٢/ ٢٥٩
ـ إجماع العلماء على إثبات مشيئة الله وإرادته	٦/ ١٨

الفائدة | الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة
- رد ابن القيم على المقلدين في «إعلام الموقعين»	٣/ ١٨٥
- رد على القول بالتقليد استناداً إلى قول عمر: «إني لأستحيي أن أخالف أبا بكر»	٤/ ١٤٦
- رد قول الرسول سبب لزيغ القلب	٣/ ٢٩٨
- شعر لابن عبد البر في ذم التقليد	١/ ٣٨٤
- شعر منسوب لعلي بن أبي طالب في ذم التقليد	٤/ ٧٧
- الصحابة ينهون عن التقليد	٤/ ٤٩
- صور وأمثلة من مخالفة المقلدين للسنة اتباعاً لمذهبهم	٤/ ٩
- طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً من القرآن	٣/ ٢٩٤
- الطاعة المطلقة في الإسلام لا تكون إلا لله ولرسوله ﷺ	٣/ ٤٢
- طاعة النبي واجبة استقلالاً سواء كان الأمر والنهي في القرآن أم لا	٤/ ١٧١
- عاب الله على الكفار وإعراضهم عن النبي ﷺ وتفرقهم فرقاً	٤/ ٢١٤
- عبادة الأحبار هي العلم والفقه	٣/ ٢٩٩
- عبارة مهمة في «الموافقات» في ذم التعصب لمذهب دون آخر	٤/ ٣٥(هـ)
- عاقب الله قريشاً بالجدب والقحط والقتل والهزيمة يوم بدر ويوم الفتح بسبب عدم اتباع النبي ﷺ	٤/ ١٠٩
- فرق بين الأنبياء والأولياء	٤/ ٧٤
- فرق بين التقليد والاتباع	٣/ ٣٧
- فرق بين التقليد والاتباع وبين قبول خبر المخبر	٤/ ٢٢٢
- فطر الله عباده على طلب الدليل والحجة	٤/ ٢٣٨
- كلام في «تلبيس إبليس» في ذم التقليد	٤/ ١٦
- في القرآن زجر شديد عن التقليد	٤/ ٩
- «القول المفيد» للشوكاني في ذم التقليد	٤/ ١٦
- قول لمعاذ في الحث على التمسك بالسنة واتباعها	٤/ ١٦٤
- الكبر والحسد واتباع الهوى منع المقلدين والطرقيين من اتباع الحق	٤/ ٢١٠
- كتب فيها رد التقليد والتمذهب والتعصب	٣/ ١٢٩
- كتب ومؤلفات في إبطال التقليد	٤/ ١٣
- كل عمل خالف السنة إنما تقرر عن طريق الاجتهاد لا عن طريق النقل	٣/ ٢٥٢
- كل من أعرض عن الكتاب والسنة يعيش في ضنك وضيق	٣/ ١٥
- كلام أئمة المذاهب في ذم الرأي والتقليد وفي اتباع القرآن والسنة	٣/ ٢٩٧
- كلام للفُلّاني في ذم التقليد ووجوب اتباع السنة	٣/ ١٣٠، ١٣١، ١٣٤

الفائدة | الجزء والصفحة

علل وأسباب وحكم

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ لم يستطع وفد نجران مباهلة النبي ﷺ	١/ ٢٦٠
ـ لم ينقل أن النبي ﷺ عاقب بني الأبيرق حيث إنهم سرقوا واتهموا بريئاً	٣/ ٩٨(هـ)
ـ مشروعية الجهاد	٢/ ٨٣
ـ من حلف باللات فليقل: لا إله إلا الله	٢/ ٣٠٩
ـ من قال تعال أقامرك فليتصدق	٢/ ٣٠٩
ـ منع اتخاذ السرج على القبور	١/ ٤٢١
ـ منع زيارة النساء المقابر	١/ ٤١٩
ـ منع عمر لحذيفة وطلحة من التزوج من اليهودية والنصرانية	١/ ٢٢٠، ٢٢٠(هـ)
ـ منع المعطلة السؤال عن الله بـ(أين) في حديث الجارية	٥/ ١٠٩
ـ النبي ﷺ كان يستغفر كثيراً	٣/ ٩٤
ـ نزول القرآن منجماً على ثلاث وعشرين سنة	٥/ ٢٨٠
ـ نسبة الإنفاق والبخل إلى اليد	٥/ ٥٠
ـ نهى رسول الله ﷺ سلمان أن يسجد له	٥/ ٣١٩
ـ نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ	٢/ ٣٩٧
ـ نهي الشرع اتخاذ المساجد عند القبور	٢/ ٣٨٤
ـ النهي عن اتخاذ المساجد قبور	١/ ٤٨٠
ـ النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة	٢/ ٤٠٧
ـ النهي عن الصلاة في المقبرة	٢/ ٣٨٥، ٣٩١، ٣٩٥
ـ النهي عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها	٢/ ٣٨٥
ـ النهي عن طاعة الغافلين المضيعين لأمر الله	٢/ ١٥
ـ هجر القرآن سبب في شقاوة الأمة في الدارين	٢/ ١٥
ـ لا يحصل الآن انتفاع من القرآن كما كان يحصل في الزمن الأول	٣/ ٣١٨

ناسخ ومنسوخ

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ دليل على إثبات النسخ	٥/ ٣٠٠
ـ النسخ عند السلف	١/ ٢٧٦(هـ)
ـ آية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ منسوخة بآية القتال	١/ ٢٢٧
ـ «أنت ومالك لأبيك» منسوخ بـ«كل أحد أحق بماله...»!!	٣/ ١٩٦(هـ)
ـ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ...﴾ نسخت كل عهد	١/ ٤٥٦
ـ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ ...﴾ نسخت الفداء	١/ ٤٥٦(هـ)

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ . . .﴾ ناسخة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ . . .﴾	١/ ٤٥٦(هـ)
ـ ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ . . .﴾ منسوخ بـ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾	٥/ ٣٢٣
ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ . . .﴾	١/ ٢٧٥

الفقه

الطهارة والصلاة والمساجد

الفائدة **الجزء والصفحة**

الجنائز

الفائدة	الجزء والصفحة

معاملات مختلفة من بيوع وإجارات وغير ذلك

الفرائض

العتق

الفائدة	الجزء والصفحة

قضاء وحدود وعقوبات

الفائدة	الجزء والصفحة

الجهاد والمغازي والسير

الفائدة	الجزء والصفحة

حكومات

طب

الفائدة | الجزء والصفحة

الحديث وعلومه وأصول التخريج

الفائدة | الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة | الجزء والصفحة

سنن ومبتدعات وخرافات

فضائل ومناقب

فضائل إبراهيم عليه السلام:

الفائدة	الجزء والصفحة

مناقب العلماء:

أخلاق وآداب وبر وصلة

ذكر ودعاء واستغفار

كلمات ووصايا وخطب

حوارات ومناظرات

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ تحقيق كتاب «أدلة معتقد أبي حنيفة في والدي الرسول» لعلي القاري، وهو مطبوع	٥٩(م)(هـ) ٤٨٩
ـ تحقيق كتاب «الإنجاد» لابن المناصف، وهو مطبوع	٢/ ١٥٨(هـ)، ٣/ ٧٣(هـ)
ـ تحقيق كتابي «الرخصة العميمة في قسمة الغنيمة» لابن الفركاح، و«وجوب قسمة الغنيمة» للنووي	٤/ ١٤٨(هـ)
ـ التعليق على «فضيلة العادلين» لأبي نعيم، وبهامشه «تخريج السخاوي» عليه وهو مطبوع	١/ ٢١٦(هـ)، ٦/ ٣٠(هـ)
ـ تأليف شرح على متن «الورقات» اسمه «التحقيقات والتنقيحات السلفيات»	١/ ٥٦٧(هـ)، ٤/ ٣٧(هـ)
ـ تعليقات وحواشٍ من رأس القلم على رسالة في تفسير ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ لعلي القاري	١/ ٢٠٥(هـ)
ـ تفصيل في قصة امتحان النبي ﷺ بخبر أهل الكهف في «ذو القرنين وسد الصين»	٢/ ٩(هـ)
ـ تنقيح وتحقيق بعض الحكايات والقصص في «قصص لا تثبت»	٣٣٢(هـ)، ١/ ٣٠٢(هـ)، ٢/ ١٢(هـ)، ١١٩(هـ)
ـ جزء «طرق حديث أرحم أمتي بأمتي أبو بكر» وهو مطبوع	١/ ٢٥٧(هـ)
ـ جزء مفرد: «القول الجلي في صفة صلاة النبي ﷺ الواردة في حديث وائل بن حجر» قيد التأليف	٣/ ٢٠٥(هـ)، ٢٥٣(هـ)
ـ جمع أشعار للمصنف (الهلالي) في ديوان مفرد، وتحصيل ديوان شعر للمؤلف	٣/ ٩٨(هـ)
ـ جمع علمي موثق لشعر علي بن أبي طالب وهو قيد الإنشاء والتأليف	٣/ ٣١٠(هـ)
ـ جمع كثير من مقالات الهلالي في سائر ضروب وألوان العلوم، وتبويبها والعمل على تنضيدها مع ترجمة ما كتبه بغير العربية، وستصدر قريباً في مجموعة	٢٧(م)(هـ)، ٣/ ٢٢(هـ)، ٤/ ١٦٧(هـ)، ٦/ ١٤٩(هـ)
ـ الحرص على الحصول على كتاب «الهاديات» للمؤلف	٤/ ٢٨٥(هـ)
ـ حرصه واجتهاده في تحصيل «حواشٍ على إنجيل متى» للمؤلف	١/ ٣١١(هـ)
ـ دفع «الحنائيات» إلى النشر منذ مدة طويلة	٣/ ٢٣٤(هـ)
ـ «الردود والتعقبات على شرح النووي على صحيح مسلم» وهو مطبوع	٦/ ٢٥(هـ)
ـ صدور الطبعة الثانية من التعليق على «الكبائر» للذهبي	٥/ ٩٤(هـ)، ٦/ ٢٠٣(هـ)
ـ طبع «الموافقات» في ستة مجلدات، وجمع هوامش العلماء والمحققين عليه وحاز قبول ورضى النبهاء والمنصفين من العلماء	٢١(م)(هـ)، ٤/ ٣٥(هـ)

أشعار وقصائد

الفائدة	الجزء والصفحة
- شعر في ذم التّمشيخ	٤/ ١٩١
- شعر في صفة الوجه	٥/ ٣٣٠
- شعر في مستفتي ومفتي مقلدين	٣/ ٢٤٧
- شعر في معنى استوى	٥/ ١٠
- شعر في معنى المقيت	٦/ ٢٦٨
- شعر في معنى يفري	٦/ ٢٠١
- شعر فيه إثبات العلو لله	٥/ ١٥١، ١٥١(هـ)، ١٨٣
- شعر فيه أن أمر الله للشيء لا يتكرر حتى يكون	٦/ ٧
- شعر فيه أن محبة الله تقتضي اتباع النبي ﷺ	٦/ ٣٤
- شعر فيه أن مرتبة الولي فوق مرتبة النبي عند الصوفية!	٦/ ٢٢٣
- شعر فيه تحريف معنى استوى	٥/ ١٧٥
- شعر فيه تذكير وتأنيث اللسان	٥/ ٢٩٩
- شعر فيه جمع بين (يا) والاسم المعرف بـ(ال)	٦/ ٢٨١(هـ)
- شعر فيه حث على التقوى	٦/ ٣٣
- شعر فيه حث على خشية الله في الخلوة	٣/ ٣٢٠
- شعر فيه ذكر القلب القاسي والسليم	٦/ ٢٣
- شعر فيه ذم التقليد لمنصور الفقيه	٣/ ١٦٦
- شعر فيه ذم التقليد بالظاهر	٣/ ١٩
- شعر فيه شروط التوبة	٥/ ٣٢
- شعر فيه عجز الكفار	٥/ ٣٠٠
- شعر فيه كتابة الله القدرية والشرعية	٦/ ٤٨
- شعر فيه مدح المحبة لله في قلب العبد	٦/ ٣٧
- شعر فيه معنى غور	٦/ ١٦
- شعر لابن عبد البر في ذم التقليد	٢/ ٤٧، ٣/ ١٧٥، ١٧٦، ٤/ ٦٢
- شعر لابن عدوان في عجب الله من قنوط العباد	٦/ ٦٠
- شعر لابن عربي في الاتحاد	٥/ ٢٩٤
- شعر لابن القيم حاكياً فيه كلام الاتحادية في مسألة كلام الله	٥/ ٣٠٢
- شعر لابن القيم في إثبات صفة العلم لله	٥/ ٣٠٥
- شعر لابن القيم في إثبات صفتي السمع والبصر	٥/ ٣٢١
- شعر لابن القيم في تنزيه الله عن كل نقص	٥/ ٣٠٦

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ شعر لابن القيم في كلام الله	٥/ ٢٨٥، ٢٨٨
ـ شعر لابن القيم في (النونية) في إثبات الصفات وعدم تأويلها	٦/ ٥٤
ـ شعر لابن القيم في الولاء والبراء	٦/ ٣٨
ـ شعر لابن القيم فيه أصناف الناس في كلام الله	٥/ ٣٠٣
ـ شعر لابن القيم فيه أن الله غفور	٦/ ٣٤
ـ شعر لابن القيم فيه أن الله هو الودود	٦/ ٣٦
ـ شعر لابن القيم فيه بعض نواقض الإسلام	٦/ ٢١
ـ شعر لأحمد بن حنبل فيه حث على الاتباع	٣/ ٧١
ـ شعر لأعرابي فيه توسل بالنبي ﷺ	٣/ ٤٥
ـ شعر لأُميَّة بن أبي الصَّلت في وصف الملائكة	٥/ ١٦٣
ـ شعر لبعض أهل العلم فيه حث على الاتباع	٣/ ٧١
ـ شعر لبعض الناصحين في ذم الإمعة	٣/ ٣١٠
ـ شعر لحسان بن ثابت	٥/ ١٣٢
ـ شعر لحسان بن ثابت في المعجزات	٦/ ١٣٩
ـ شعر لصالح بن عبد القدوس في أن المفتي ينبغي أن يكون له أصل يبني عليه	٣/ ٢٣٩
ـ شعر لعلي بن أبي طالب في ذم الإمعة	٣/ ٣١٠
ـ شعر لعلي بن أبي طالب في ذم التقليد	٤/ ٧٧
ـ شعر للأخطل في معنى استوى ليس من شعر العرب	٥/ ١٠
ـ شعر للبحتري في ذم التقليد	٣/ ٣٧
ـ شعر للحماسي في أن الدين هو الجزاء	٦/ ١٥٠
ـ شعر للرازي في اللذة العقلية	٥/ ٢٤٤
ـ شعر للشافعي في ذم الإمعة	٣/ ٣١٠(هـ)
ـ شعر للصَّرْصَري في ذم التأويل	٥/ ٥٤
ـ شعر للصنعاني في اتباع الدليل	٣/ ٢٩٤
ـ شعر للقحطاني في إثبات صفة المجيء	٥/ ٢٠
ـ شعر للمتنبي في جاهل يقدح في الحق	٥/ ٣٠١
ـ شعر للنابغة في معنى استولى	٥/ ٢٢٢
ـ شعر المنذر بن سعيد في ذم التقليد	٣/ ١٦٥
ـ شعر من «نونية ابن القيم» في إثبات رؤية الله	٥/ ٦٣
ـ شعر من «نونية ابن القيم» في إثبات صفة الكلام	٥/ ٢٩٢

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ شعر نظم فيه الأسماء الحسنى	٦/ ٢٨٠
ـ شعر نظم فيه أشراط الساعة	٥/ ١٧
ـ عدة قصائد فيها عقيدة أهل السنة عامة، وهي ما يسمى بـ(جيوش الشعر)	٦/ ٢٨٣
ـ قصيدة أحمد الهلالي في سرد الأسماء الحسنى	٢/ ٣١٨، ٦/ ٢٨١
ـ القصيدة الدالية للصنعاني أرسل بها إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب	٣/ ٨
ـ القصيدة الدالية للصنعاني يقصد فيها ابن عربي	٣/ ١٧٢
ـ قصيدة للسجلماسي	٦١(م)
ـ من شعر ابن عربي فيه كفر	٣/ ١٧٢
ـ منظومة للفلاني في ذم التقليد	٤/ ٩
ـ نظم للبوصيري فيه شرك	٢/ ٣٨٢

تعريف بكتب

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ «الاستغاثة في الرد على البكري» لابن تيمية	٢/ ٤٠٧(هـ)
ـ «الأصول» للطَّلَمَنْكي	٥/ ١٤٨(هـ)
ـ «أقسام اللذات» للرازي	٥/ ٣٤٤(هـ)
ـ الإنجاد لابن المناصف	٣/ ٧٣(هـ)
ـ «البراهين الإنجيلية»، للمؤلف	٥/ ٤٦(هـ)
ـ «البغية في مسألة الرؤية» للشوكاني	٥/ ٥٩(هـ)
ـ ترجمة كتاب «مدنيّة المغاربة في أسبانيا»	٤/ ١٦٧(هـ)
ـ تعريف بأحاديث الموطأ (أنواعها، عدتها، زياداتها)	٣/ ١٧٧(هـ)
ـ تعريف بكتب ومؤلفات في إبطال التقليد	٤/ ١٣(هـ)
ـ «جزء الجويباري» للبيهقي	٤/ ٦(هـ)
ـ دراسة مفصلة عن «طبقات الشعراني»	١/ ٢٦٢
ـ «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» «للهلالي»	١/ ٥٨٦(هـ)
ـ «رسالة في هل رأى النبي ﷺ ربه بعيني رأسه»، لابن تيمية	٥/ ٦٧(هـ)
ـ «رسالة فيها أجوبة أئمة السنة» للزنجاني	٥/ ١٨٥(هـ)
ـ «الرماح» لعمر بن سعيد الفوتي	٣/ ٣٤(هـ)
ـ «شرح الأُبيّ لصحيح مسلم»	٤/ ٢٤٢(هـ)
ـ «شرح الأسماء والصفات» للقرطبي	٥/ ١٦٥(هـ)
ـ «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق» ليوسف النبهاني	١/ ٣٣٢(هـ)

تقييم وتقويم ونقد كتب

تعقبات وردود واستدراكات

الفائدة | الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة | الجزء والصفحة

تطبيعات وتصويبات

القرآن وعلومه

---

(١) وهي كثيرة جداً، والمذكور نماذج منها، وصوّبت أشياء لم أنبه عليها، فاقتضى التنويه والتنبيه.

أسباب نزول

ما لم أظفر به

مفاضلات

الفائدة	الجزء والصفحة

بدء الخلق

غريب ومفاهيم ومصطلحات

الفائدة	الجزء والصفحة
- استوى	٥/ ٩، ١٠، ١١، ١٦٣، ١٨٥، ٢٢١
- ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾	٥/ ٢٢١، ٢٢٢
- الاستواء	٥/ ٩، ١٠، ١١، ٤١، ١٥٠، ١٦٣، ٢٤٣
- استوقدوا في هذه الليلة	٣/ ٩٥
- استولى	٥/ ٢٢٢
- الاستيلاء	٥/ ١٤٩، ١٦٣، ٢٤٢
- الأسف	١/ ٤٢٣
- أسفت	٥/ ١٠٠
- الإسلام	٣/ ٣٢١
- إسلام الوجه	٢/ ١٧٤
- الإسلام الموجه إلى الله	١/ ١٨٨
- أسلم	٢/ ٢٤٥
- الاسم	٦/ ٤٥
- الأسوة	٣/ ٣٤٣
- أسوة حسنة	٣/ ٣٤٤
- الأسير	٢/ ٣٦٦
- الإصلام	٦/ ٦٧
- أضموا	٣/ ٩٥
- الأغوات	٦٢(م)، ٢/ ٦٧
- أفره غلمانه	٤/ ٢٥٣
- أفناد	٤/ ٢٣٥(هـ)
- الأفول	١/ ٣٤٣
- أقفلهم من الغزوة	١/ ٥٠١
- ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾	٢/ ٥٠(هـ)
- الإل	١/ ٤٦٠، ٤٦١
- ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾	٣/ ٢٠(هـ)
- الإلحاد	٥/ ٢٩٩
- الله	٦/ ٤٥، ٤٦
- إله	٤٥(م)، ٢/ ٣٠٦
- أمارات	٦/ ٩٧

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ الجاهلية الأولى	٦/ ٢٣٣
ـ الجبت	١/ ١٧٧، ٢٢٨
ـ الجبت والطاغوت	١/ ١٧٣
ـ الجذر	٢/ ١٨٢(هـ)
ـ جلبة	٣/ ٩٣
ـ الجلية	١/ ٤٨٢
ـ الجناب	٢/ ٤٠١
ـ الجنابذ	٦/ ١٦٨
ـ جوارح الصيد	٣/ ١١٠
ـ الحاجة	٣/ ٩٥
ـ الحام	١/ ٣١٣
ـ الحب والمحبة	٦/ ٣٣
ـ حتى	٢/ ٤١٣
ـ حد العلم	٣/ ٣٧، ١١٥
ـ الحرب المجلية	٤/ ١٥١(هـ)
ـ الحسنى	٥/ ٦٨، ٧٠، ٧١
ـ الحسنة	٣/ ١٤٢
ـ الحش	٣/ ٦٣(هـ)
ـ الحصب	٢/ ٧٤
ـ حفيّاً	٢/ ٣١
ـ الحقو	٦/ ٢٥٢
ـ حقيقة الأولياء	١/ ٥٢١
ـ حقيقة التوفي	١/ ٣٢٠
ـ الحكمة	٤/ ١٨٧، ٥/ ٣١٥
ـ الحمرة	١/ ٥٦٥
ـ الحميد	٥/ ٣٢٨
ـ حنيف	١/ ٢٠٢، ٣٤٤، ٦٠٥
ـ الحور	٦/ ١٥٤
ـ المحي	٢/ ٤١٦
ـ الحيا	٣/ ٣١٣(هـ)

الفائدة	الجزء والصفحة
- خاتم	٢/ ٤١٨
- «خاتم النبيين»	٢/ ٤١٨
- الخبير	٥/ ٣١٥
- الختار	٢/ ١٧٦
- خراب العراق	٣/ ١٧٦
- الخراج بالضمان	٣/ ١٣٣(هـ)
- خرجت من بعض مالي	٣/ ٩٦
- الخرص	٣/ ١٢٦
- خرقوا	١/ ٣٥٨
- الخضراء	٢/ ١٠١
- الخلق	٢/ ١٦٦
- ﴿خلق الأولين﴾	٢/ ١٦٢
- الخليل	٢/ ٣٨٨
- خميصة	٢/ ٣٨٦
- خير	٣/ ٩٣
- دُجُنّ	٣/ ٣١٣(هـ)
- درست	٣/ ٩٣
- الدرمك	٣/ ٩١
- الدك	٥/ ١٨
- الدين	١/ ٢٨٧، ٦/ ١٥٠
- الذمة	١/ ٤٦٠، ٤٦١
- الذنوبان	٦/ ٢٠١
- ذو الخلصة	٢/ ٤١٧
- ذو طوى	٣/ ٧٩(هـ)
- ذوي أسنان وشرف	١/ ٥٨٧
- ذيخ متلطخ	٢/ ١١٥
- الرب	١/ ٢٦١
- الرباني	١/ ٢٦٨
- الربي	١/ ٥٢٦
- الرِّبِّي في العبرانية	١/ ٥٢٦

الفائدة	الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة

فوائد لغوية ونحوية

الفائدة	الجزء والصفحة

كتب ومقالات ونقولات ونداءات وكلمات للمؤلف

الفائدة	الجزء والصفحة
ـ «الكواكب الدرية» نشر في مجلة «الجامعة الإسلامية» على خمس حلقات بعنوان (حكم الإسلام في العزل والعدوى)	٢/ ٣٣٠(هـ)
ـ لم يضع الهلالي في الكتاب توحيد الربوبية	١/ ١٣١
ـ مظان مؤلفات الهلالي	٩(م)(هـ)
ـ «نصيحتي إلى صديقي العزيز»، لا يُعلَم أنشر أم لا؟	٢/ ٧٧(هـ)
ـ «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية»	٢/ ٣٤
ـ أربع وعشرون مقالة في «دعوة الحق» بعنوان (دواء الشاكين) فيه آيات كونية تدل على أن الله حق	٢/ ١٢٥(هـ)
ـ ثلاث مقالات بعنوان (كيف خرجت من الطريقة التيجانية) في صحيفة «الحرية» فيها ذكر قصة توبة الهلالي	٣٠(م)، ٩٣(م)(هـ)
ـ عدة مقالات في ذم الطرق والحزبية تحت (في سبيل الإصلاح)	٥٣(م)(هـ)
ـ مقال فيه قصة عبادة حمارة للهلالي	١/ ٣١٨(هـ)
ـ مقالة بعنوان (سبيل الله وسبل الشيطان، لا طرق في الإسلام) في مجلة «الشهاب»	٢/ ٢٥(هـ)، ٣/ ١١٢(هـ)
ـ مقالة بعنوان (الشمس في نصف الليل) في مجلتي «الجامعة الإسلامية» و«دعوة الحق» ذكر فيها رحلته إلى النرويج	٢/ ١٢٤(هـ)
ـ مقالة بعنوان (صوابه خطأ وخطؤه كفر) في مجلة «لسان الدين»	٢/ ٥٦(هـ)
ـ مقالة بعنوان (صور من حياتنا الاجتماعية) في صحيفة «العلم»	٥١(م)
ـ مقالة بعنوان (الطرائق في الحجاز داء، علاج الطرائق) في مجلة «الشهاب»	٢/ ٢٤(هـ)، ٣/ ١١٢(هـ)
ـ مقالة بعنوان (لمحة من ترجمة الأستاذ أبي السمح إمام الحرم المكي) في مجلة «لسان الدين»	٢/ ٣٤(هـ)
ـ مقالة بعنوان (معنى الطرقي في المعرف) في مجلة «الشهاب»	٢/ ٢٤(هـ)، ٣/ ١١٢(هـ)
ـ مقالة بعنوان (منقبة المجاهد الأكبر محمد الخامس)	٣/ ١٨(هـ)
ـ نقل من «الهدية الهادية» حول التعريف بالطائفة التيجانية	٦/ ٢٢٠
ـ كلمة إلى السياسيين ودعاة العروبة والاشتراكية	٣/ ٢٨٨
ـ نداء إلى المسلمين في ترك التحزب والتقليد	٤/ ١٧٧
ـ نداء إلى المقلدين	٤/ ١٩١

الفائدة | الجزء والصفحة

أشعار وقصائد للهلالي

مناظرات الهلالي

ترجمات الهلالي

الفائدة	الجزء والصفحة

ردود الهلالي وتعقباته

الفائدة | الجزء والصفحة

تعريف بكتب

تقييم وتقويم ونقد ومدح وكلام في كتب

الفائدة | الجزء والصفحة

عمله في الحديث

من تكلم فيهم بمدح أو قدح

الفائدة | الجزء والصفحة

الفائدة	الجزء والصفحة
- محمد بن العربي العلوي	٢/ ١١٨، ٣/ ١٧٥، ٤/ ١٢٧
- محمد بن أبي مدين	٢٠(م)، ٣/ ١٨، ٤/ ١٢، ١٥
- محمد الضمياطي	٦/ ٢٨٠
- محمد صديق القنوجي	٣/ ٣٢٢، ٣٢٤
- محمد بن عبد الله بن كلاب	٥/ ٢٢٨
- محمد بن فاضل اليعقوبي	٤/ ٢٩٠
- محمد القلاني	٢/ ٣٦٧
- محمد نسيب الرفاعي	١٧(م)(هـ)، ١/ ١٠٠، ١٢٠(هـ)
- المزني	٥/ ١٦٦
- مصطفى الودغيري	٢/ ٢٤٩(هـ)، ٢٩٠
- معمر الأصبهاني	٥/ ٢٢٥
- منذر بن سعيد	٣/ ١٧٦
- يحيى بن معين	٥/ ٢٠٥
- أبو إسماعيل الأنصاري	٥/ ٢١٥، ٢٢٧
- أبو بكر الآجري	٥/ ٢١٦
- أبو حاتم الرازي	٥/ ٢١٠
- أبو حامد الإسفراييني	٥/ ١٨٢
- أبو الحسن الأشعري	٦/ ١٦٦
- أبو زرعة الرازي	٥/ ٢١٠
- أبو عثمان الصابوني	٥/ ٢١٧
- أبو القاسم الطبري	٥/ ١٨٧
- أبو نعيم الأصبهاني	٥/ ٢٢٧
- ابن الأثير	٦/ ٢٦٩
- ابن باز	١/ ٢٦٩(هـ)، ٦/ ٢١٩، ٢٢٠(هـ)
- ابن تيمية	٣/ ١٧٥
- ابن جرير الطبري	٥/ ١٨٥، ١٨٧
- ابن الحداد	٥/ ١٧٤
- ابن سريج	٥/ ١٧١
- ابن عبد البر	٣/ ١٧٥
- ابن عربي	٤/ ٢٢١

محتويات الفوائد والمباحث العلمية

الفائدة	الصفحة

الفائدة	الصفحة

الفائدة	الصفحة